الهلال

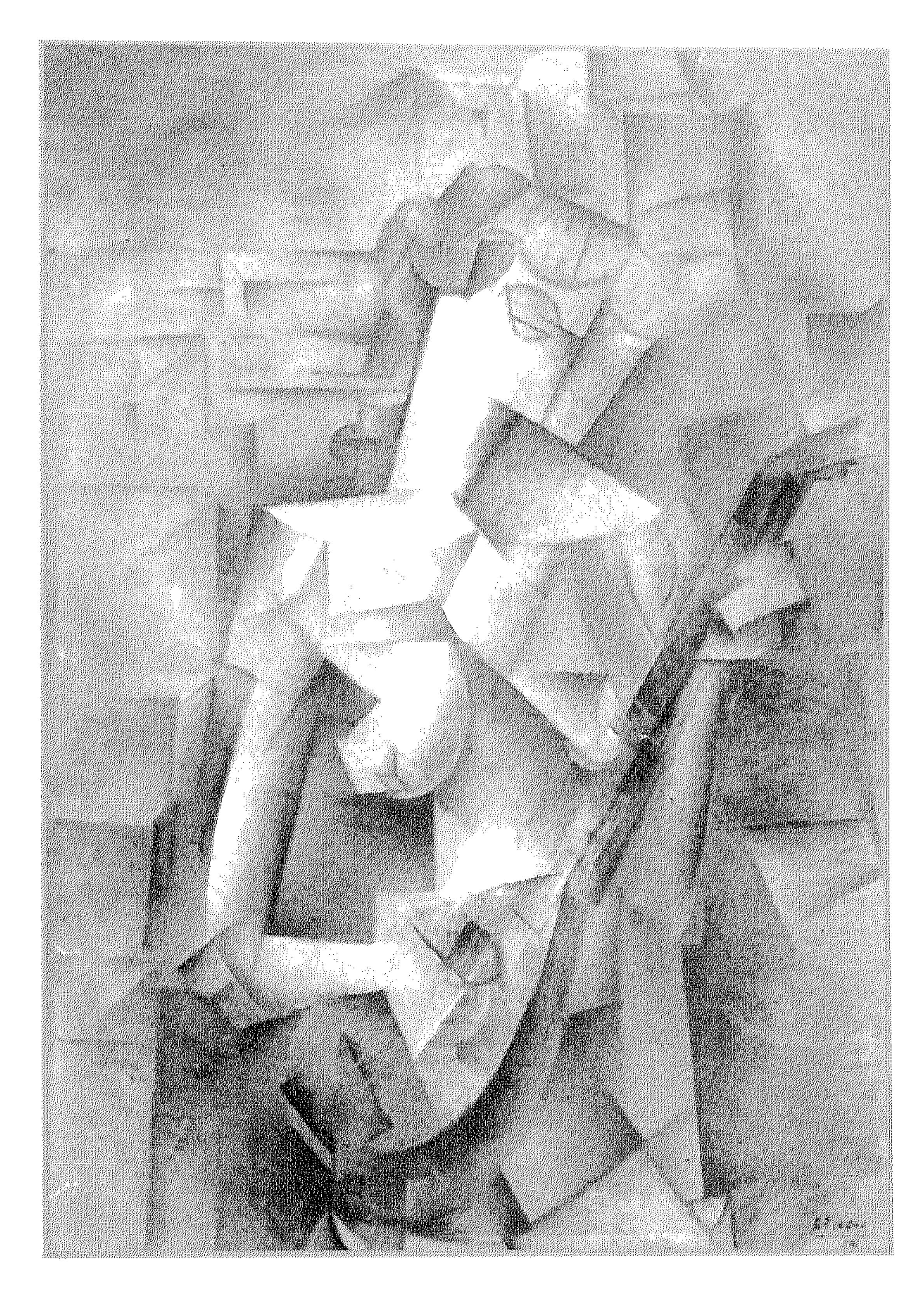
يوليو ٢٠٠٣ الثمن ٤ جنيهات

المشير الجمسي .. وداعاً

ظلال أمريكية على ثورة يوليو

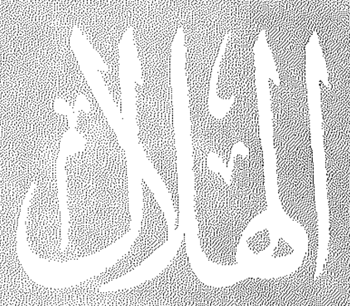
مراجعة الذات

(جزء خاص)



عازفة الجيتار
للفنان العالمى بابلو بيكاسو
(المتحف القومى بباريس)

لوحة وفنان



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الحادي عشر بعد المائة جماد أول ١٤٢٤ هـ - يوليو ٢٠٠٣م

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت: ٣٦٢٥٤٨٦ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

محمد أبو طالب — المستشار الفني

عاطف مصطفى — مدير التحرير

محمود الشيخ — المدير الفني

ثمن النسخة

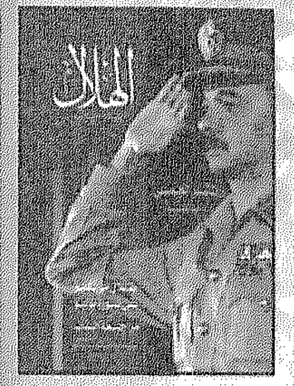
سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - أمريكا ٨ دولارات

الفهرس

٨ -التاريخ وإرادة البشر...... **د. مصطفى سويف**
١٦ - لماذا شاع الغباء بين البشر؟... **جميل مطر**
٢٤ - أخى فى العروبة «قصيدة»......................
.... **محمد إبراهيم أبو سنة**
٢٨ - المشير الجمسى « وداعا » :.....................
عندما دمعت عينا البطل....... **مصطفى نبيل**

مراجعة الذات (جزء خاص)

٤٠ - آن الأوان للنزول من السندرة ....
.... **د . صلاح قنصوة**
٤٨ - الأمريكيون ونظامنا التعليمى ....
.... **د . جلال أمين**
٥٦ - إشكالية الهوية الثقافية ....
.... **د. مراد وهبة**
٦١ - أما لليأس العربى من نهاية؟..............
.... **د . أحمد أبو زيد**
٦٦ -**ماذا بعد العراق ؟**: إيران.. هل جاء دورها؟
.... **د. رءوف عباس**
٧٢ - مابعد خريطة الجينوم.. **د. أحمد مستجير**
٧٨ - المعهد المصرى فى مدريد لم ينشئه طه حسين !
.... **د . الطاهر أحمد مكى**
٨٦ - أسرار حافظ نجيب... **أحمد حسين الطماوى**
٩٤ - شاعر كبير يتعذب بين فاتنتين ....
.... **د. محمد رجب البيومى**
١٠٨ - فى الشعر الحلمنتيشى ....
.... **د . مصطفى رجب**



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الإشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٣٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

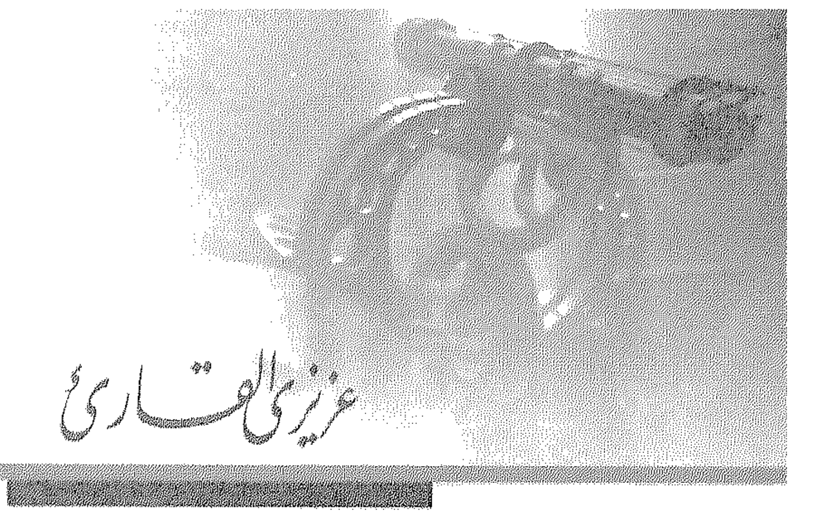
● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

١٢٢ - رواية غير تقليدية لرضوى عاشور ....
.... د . محمد أبو الغار
١٢٨ - الكاتب الجزائرى محمد ديب... إبراهيم فتحى
١٣٦- الفنانة مارجوفيون: أوربية الأبوين مصرية الهوى
.... د . ماهر شفيق فريد
١٤٦ - تحية حليم والمدرسة المصرية فى الفن التشكيلى
.... د . صبرى منصور
١٥٤ - نصف «قصة قصيرة» نبيل صلاح الدين
١٦٢ - الموسيقى العراقية ....نصير شمة
١٦٦ - المتفرجة «مربط الفرس»............مرفت رجب
١٧٠ - ذكريات مع مكتبة ومجلات السينما .....
.... مصطفى درويش
١٧٦ - الثقافة الجماهيرية في دورة جديدة.
........................أمانى عبدالحميد
١٨٢- رحيق الكتب ....
١٨٦ - عائلات ثقافية (والدى أمين الخولى) ......
.... د . سمحة أمين الخولى
١٩٣ - عن بعض العروض المسرحية هذا الموسم ....
.... مهدى الحسينى
٢٠٠ - أين نحن من ثورة يوليو؟ ....
.... عبدالرحمن شاكر
٢٠٦ - ظلال أمريكية على ثورة يوليو ....
.... عبدالقادر ياسين

الأبواب الثابتة

- عزيزى القارئ ...٦
- أقوال معاصرة . ٢٧
- من ذخائر الكتب العربية (ديوان المتنبى) : د . عبداللطيف عبدالحليم ١٠٢
- شخصية العدد الفنانة سميحة بقلم صافى ناز كاظم ١١٦
- لغويات ١٧٥
- التكوين أحمد حمروش . ٢١٠
- أنت والهلال عاطف مصطفى. ٢١٨
- الكلمة الأخيرة د. حامد عمار ٢٢٦



أيها المثقفون العرب.. ماذا أنتم فاعلون؟

تشهد القاهرة اليوم ولمدة ثلاثة أيام أعمال المؤتمر القومى للمثقفين العرب للحوار حول مبادئ خطاب ثقافى جديد والذى يشارك فيه نخبة من مثقفى مصر والبلاد العربية، ليكون ترجمة حقيقية لتفعيل العمل الثقافى العربى فى مواجهة ما يحدث على الساحة العالمية والاقليمية من تطورات وأحداث، تأخرنا كثيرا عن مواكبتها، والتعرف على جوانبها إبتداء من الكلام الكثير الذى يقال حول العولمة وآثارها علينا، وهذا التطور الكبير الذى شهدناه بعد أحداث سبتمبر عام ٢٠٠١ وما استتبعه من إجراءات كان لها تأثيرها المباشر على المنطقة العربية بشكل خاص، وعلى المسلمين بشكل عام، والذين وجه إليهم اتهام صريح بأنهم وراء ما يحدث من إرهاب يقلق الغرب ويغضبه منا، وكان لذلك تأثيره السلبى علينا، فتحركت الجيوش الأمريكية أو ما يسمى بقوات التحالف، فى البداية صوب أفغانستان ثم ارتدت إلى المنطقة العربية حيث دخلت العراق لتدمر حضارة يعتز بها العرب والمسلمون. وبدأ القتل والخراب فى أرض فلسطين لتأديب ما يسمى بالإرهابيين الذين يدافعون عن الأرض والعرض ويدافعون عما تبقى من بلادهم التى تغتصب ويقتل أبناؤهم بجميع أنواع أسلحة الدمار الشامل، والعالم الغربى الذى تشدق بكلمات حرية الشعوب واحترام المواثيق التى أطلقتها الأمم المتحدة غزا العراق ومزقه وضيع حضارة من أعرق الحضارات الانسانية.

واليوم يجتمع مفكرو العرب يستضيفهم المجلس الأعلى للثقافة على أرض مصر يتحاورون ويتناقشون فى محاولة نرجو أن تكون جادة، للوصول إلى استراتيجية للعمل المستقبلى، وصياغة مبادئ خطاب ثقافى جديد من خلال خطة عمل تستمر لمدة ثلاثة أيام تتضمن ست جلسات نقاشية وموائد مستديرة، تناقش منظورا جديدا للثقافة القومية فى عصر مجتمع المعرفة، وموضع الثقافة العربية على الخارطة الثقافية الكونية فى العصر الجديد وعلاقتها بعالم البحر المتوسط وثقافات آسيا وأفريقيا وأزمة النظام الإقليمى العربى فى الأزمة الراهنة للنظام العالمى، ومحاولة التوصل إلى مشروع

للإصلاح الثقافى فى إطار الاصلاح السياسى للمجتمعات العربية مع التركيز على قضايا حرية الإبداع والتعبير وتأكيد حقوق الإنسان العربى، بالإضافة إلى تناول كيفية تطوير السياسات الثقافية بما يؤدى إلى تغيير البرامج الإعلامية والتعليمية وضرورة وضع أسس لتجديد الخطاب الدينى وتحريره من التطرف.

وبنظرة جادة لبرنامج هذا المؤتمر الذى يناقش واقعنا الثقافى فى ظل الظروف بالغة الحساسية التى نعيشها فهل يمكن أن نناقش أوضاع الثقافة العربية الحالية والمستقبلية أو مثل هذه المحاور فى أيام قليلة وهى من الخطورة بمكان ثم ينتهى المؤتمر بتوصيات ويتصافح المجتمعون ونقول لقد دقت ساعة العمل؟!

يا سادة إن كل محور من هذه المحاور المطروحة فى المؤتمر يحتاج إلى عدة مؤتمرات وندوات لكى نخرج بخطة عمل شاملة على المستوى العربى، ويحتاج إلى آليات للتنفيذ والمتابعة لنكون قد حققنا شيئا مفيدا لأمتنا العربية.

فالخطاب الثقافى هو انعكاس للواقع الذى نحياه الآن ولكى يتم تغيير هذا الخطاب فإن ذلك يقتضى تغيير الواقع الراهن.

إن لدينا مهمة أساسية فى هذا المؤتمر وهى مناقشة أزمة النظام الإقليمى العربى فى ظل الأزمة الراهنة ومحاولة التوصل إلى مشروع للاصلاح الثقافى وضرورة وضع أسس رئيسية لتجديد الخطاب الدينى، ولو اكتفينا بذلك فى هذا المؤتمر وتوصلنا إلى شئ مفيد، خاصة وكل مثقف مشارك يعلم تماما المأزق الذى تعيشه الأمة العربية والإسلامية فيكون ذلك انتصارا ما بعده انتصار.

إن رهاننا ينتظركم يا مثقفى الأمة لكى تفعلوا شيئا، فالعدو يعيش بينكم وداخل بيتكم هذه المرة فبالله عليكم ماذا أنتم فاعلون؟!

هل تلتقون فى شوق وعناق ثم ينفض السامر ويبقى هذا المؤتمر كغيره؟

إننا نريد عملا جادا، وخططا تعيد للثقافة دورها فى إيقاظ الأمة، فكفى مثقفينا نوما وأكبر عاصمة ثقافية تحتل وجارتها تهدد، وأبناء فلسطين يقتلون والكل يتفرج والعجز يملؤه والمسلمون يطاردون فى بلاد أوروبا والتى يقال عنها بلاد الحرية! ■

المحرر

التاريخ وإرادة البشر

بقلم
د. مصطفى سويف

يعنينا من التاريخ عادة مواكب الأحداث فى تدفقها متلاحقة ومتداخلة، ونحن إذ نعاين هذا التدفق يهمنا فى المقام الأول أن نواكب إيقاعه حتى لايفلت من قبضة عقلنا الدارس، وأن نتناول دفقاته بالتحليل إلي سلاسل أو حزم متشابكة من الوقائع جاهدين أن ندرك ماتنبىء عنه من دلالات وماترهص به من مؤشرات . وهذا مايعتبره الكثيرون التوجه الموضوعى كما ينبغى أن يتوافر لدى كل من تصدى لدراسة التاريخ، وهو المدخل الطبيعى فى الوقت نفسه لكل من زاد طموحه فتطلع إلى أن يحقق لنفسه أقداراً متنامية من الوعى بالتاريخ.

غير أن حشد الجهد على هذا النحو لدراسة واقع الأحداث التاريخية لم يكن ليثنينى عن بذل نوع آخر (إضافى) من الجهد، هو جهد النظر فى نقطة التماس بين الذات الدارسة والواقع التاريخى المدروس.

وقد جاء هذا البذل الإضافى نتيجة منطقية لتحديد طبيعة الدراسة التاريخية كما أقدمت عليها منذ خطوت الخطوة الأولى فى هذا السبيل، إذ أوضحت أن موضوعى فى هذه الدراسة هو التاريخ كُما عايشته، لا كما توالت أحداثه فحسب، أى أننى اتجهت منذ الخطوة الأولى إلى دراسة الوقائع فى مبناها ومعناها، لا فى مبناها فحسب. وقد كرست المقال الراهن لهذا الموضوع، موضوع نقطة (أو منطقة) التماس بين الذات الدارسة (الأنا) والموضوع (وقائع التاريخ)، للإجابة عن سؤال : ماذا يحدث فى منطقة الحدود هذه؟

محاور التفاعل الرئيسية

لم تكن الذات متلقية فحسب، ولكنها كانت متلقية/فاعلة.

وقد انتظمت فاعليتها إزاء دفقات

التاريخ ثلاثة محاور رئيسية، هى : توظيف الوعى، وتوظيف العمل، وتوظيف الهوية. وفى مقابل ذلك كان هناك محور واحد انتظم الوجه الذى ظهر به أفق الوقائع التاريخية فى مواجهة الذات ، وكان هذا المحور هو اللامبالاة العدوانية أحياناً والخاملة أحياناً أخرى.

جدير بالذكر أن المحاور الثلاثة التى تنتظم فاعلية الذات يقع التداخل فيما بينها من حين لآخر، وفى هذا الصدد كنت ألاحظ من حين لآخر أن عناصر الوعى تغلف العمل، وكنت ألاحظ أيضاً أن بعض عناصر العمل تفعل فعلها فى تعديل الوعى. وكذلك الحال فيما يتصل بالعلاقة بين الوعى والهوية، وبين الهوية والعمل، كل التباديل والتوافيق كانت واردة، لكن هذه التداخلات لم تكن لتنفى عن المحاور الثلاثة شخصية كل منها. وجدير بالذكر أيضاً أن الوجه الذى ظهر به مشهد الوقائع التاريخية أمامى جاء محمَّلاً بحقيقة كونى مواطناً ينتمى إلى دولة من دول العالم الثالث، وهو مازاد من نسبة عناصر العدوانية التى كنت أراها تبرز من حين لآخر فوق أرضية اللامبالاة الغالبة على هذا الوجه.

علاقتنا بالتاريخ

وقبل أن أنتقل بالقارىء إلى تفصيل القول فى هذه المحاور والكيفية التى انتظمت بها فاعلية الذات أرى أنه لابد من الإشارة إلى حقيقة الإطار العام الذى ينتظم هذا الحديث جملة وتفصيلا؛ أعنى بهذا الإطار حقيقة علاقتنا بالتاريخ، فنحن (أفراد البشر) نختلف فى الشكل الذى تنتظم به هذه العلاقة معنا، والاختلافات فيما بيننا فى هذا الصدد لانهاية لها، ولكنها فى مجموعها تمثل مواقع متفاوتة على تدريج متصل يمتد بين قطبين ، أحدهما السلبية التامة، والآخر الإيجابية أو الفاعلية القصوى، بعضنا (وهؤلاء قلة) يعيشون التاريخ بأسلوب يصدق عليه وصف الشاعر العربى القديم:

«كجلمود صخر حطه السيل من علٍ».والبعض الآخر (وهؤلاء قلة أيضاً) يحاولون بشتى الطرق أن يغيروا سيرة التدحرج بقدر كبير، وبين البعضين نجد غالبية الناس يتدحرجون مع أحداث التاريخ بنسب متفاوتة من السلبية والفاعلية معاً. وقد حاولت على امتداد عمرى الواعى أن أقلل ما أمكن من نصيب السلبية فى حركتى وأن أزيد فى

• حتمية التاريخ مشروطة بشروط من صنع البشر

الوقت نفسه من حظ الفاعلية فى مجمل الأدوار التى كنت أقوم بها. وهذا ما أضفى شيئاً من الخصوصية على نقطة التماس التى لا أفتأ أشير إليها.

رسائل دفقات التاريخ إلى الذات

عندما نكتب عن تاريخ عايشناه يختلف الأمر كثيراً عنه حينما نكتب عن تاريخ ترامت إلينا أنباؤه؛ ذلك أن معايشة التاريخ تصحبها معاينة لتوالد وقائعه، فنحن نعيش مع هذا التوالد لحظة بلحظة، ومن ثم يستقر فى وجداننا معنى محدد لما يسمى بحتمية التاريخ، فهى حتمية مشروطة بشروط من صنع البشر، وليس حتمية خارجة عن إرادتهم مثل حتمية الظواهر الفلكية. خذ مثلاً أحداث حرب العراق، فقد عايشنا لحظات توالد هذه الأحداث جميعا؛ قبيل وقوعها كان هناك صراع إرادات بشرية، اشتركت فيه إرادات ملايين من المواطنين من دول وكيانات مختلفة (الملايين التى خرجت فى تظاهرات ضد الحرب فى جميع أنحاء العالم)، واستمر هذا الوضع (كل يعجم عود الآخر فى صراع غير محسوم) حتى مساء ٢٠ مارس سنة ٢٠٠٣، وفى ذلك المساء بدأت الحرب فعلاً، وشهد العالم كله لحظة الميلاد، صدر قرار بإشعال الحرب، وبدأت دفقات تاريخ حرب العراق تتوالد دفقة بعد دفقة على مشهد منا جميعاً.

أمام هذا المشهد كان لزاماً أن تستقر فى وجدان المشاهد معان متعددة منها أن دفقات التاريخ هى نفسها تحركات السياسة (القرارات وملحقاتها) إذ تنتقل من الحاضر إلى الماضى، ومنها أن وقائع التاريخ تشف فى لحظات توالدها عن عناصر الإرادة البشرية، ومنها كذلك أنها فى لحظة الميلاد لا تولد كمجرد أحداث تقع فى مكان بعينه وزمان بعينه، ولكنها بالإضافة إلى ذلك تأتى محملة بأنواع وأقدار لاحصر لها من الدلالات والشحنات الوجدانية. وثمة معان أخرى كثيرة تستقر فى وجدان المشاهد، ولكن المقام لايسمح بحصرها.

شفرة الرصد فى الذات

تنفذ صور أحداث التاريخ إلينا ويجرى تشفيرها على هيئة تكوينات ذات أبعاد متعددة؛ أحد هذه الأبعاد أنها وحدات معرفية (صيغت فى ألفاظ وصور)، وهذه تختزن فى الجزء من ذاكرتنا الموكل بهذا النوع من الواردات، وبُعد آخر هو المعانى والتداعيات بالشكل الذى تحدثت عنه منذ قليل (مسألة السياسة/التاريخ، ومسألة دور الإرادة البشرية فى الأحداث التاريخية ..الخ)، ثم



هناك بُعد ثالث يمكن أن نسميه بالدلالات أو الأصداء الأكثر اختلاطاً بذاتيتنا؛ وفى هذا الصدد نذكر ثلاث فئات من الأصداء: الفئة الأولى تضم كل مايتعلق بشدة الرنين الانفعالى، وتضم الثانية كل مانعانيه فى نفوسنا (فى هذه اللحظات) من تغير فى الأوزان النسبية لاهتماماتنا وهمومنا، وتحتوى الفئة الثالثة على أقدار من الاستثارة لمشاعر الإحباط أو المساندة. هكذا يجرى تشفير دفقات التاريخ داخل ذواتنا.

أما كيف جرى التشفير فى حالتى فعلى امتداد المسيرة فى ربوع القرن العشرين (منذ أواخر العشرينيات وحتى ختام التسعينيات) تنامت فطنة الذات إلى أن تعاملاتها مع السياقات التاريخية المتوالية تمضى سلسة لينة أحياناً وعسيرة شديدة المراس أحياناً أخرى، كما فطنت إلى أن مواطن السلاسة واليسر كانت مع مرور الزمن، تتضاءل كما وكيفا بينما كانت مواطن العسر تتزايد بدرجات متسارعة، ثم فطنت فى خواتيم المسيرة إلى أن كفة الصعوبات فاقت كثيراً كفة السلاسات. كان هذا صحيحاً بالنسبة للتفاعل مع السياق الوطنى، وكان صحيحاً أيضاً فيما يخص السياق العالمى. وكانت المحصلة النهائية لهذه الحقائق جميعاً أن غلبت صفة الصراع (بانماط ودرجات مختلفة) على

• جوهر المقاومة بعيدة المدى هو إحكام العلاقة بين العمل والهوية

تفاعلات الذات مع السياقات التاريخية المتوالية. وكان لابد والحال كذلك أن تؤسس نقطة التماس بين الذات والسياقات التاريخية على الصراع أكثر مما تؤسس على أى شكل آخر من أشكال العلاقات (كالوفاق، والتوازى ...الخ).

إدارة الصراع

كيف أدرت هذا الصراع؟ هذا ما أكرّس له البقية الباقية من المقال الراهن . لا أذكر أننى واجهت لحظة بعينها قررت فيها بوعى كامل أن يكون الصراع استراتيجية أساسية فى حياتى . ولكن ماحدث فعلاً أننى وجدتنى منغمساً فى سلسلة من المعارك تسلمنى كل واحدة إلى التى تليها، وبعملية استقراء لمضامين هذه المعارك استنتجت أن الصراع هو الغالب والذى سوف يغلب على لقاءاتى مع السياقات المختلفة. ووجدتنى بعد ذلك أقبل هذه الحقيقة بغض النظر عن صيغ النسبة والتناسب بين إسهاماتى وإسهامات السياقات فى نشوب الصراعات المختلفة. ثم وجدتنى بعد ذلك

أرفع حقيقة الصراع إلى مرتبة الموضوع الذى أتناوله بقدر كبير من التفكير والوعى المكثف، وأتجه به إلى هدف واضح هو تحديد الأسلوب الأمثل لإدارته بالكفاءة المناسبة، (بتقليل المغارم وزيادة المغانم بالنسبة للذات). وجدير بالذكر هنا أن هذا القبول للصراع كخط أساسى للحياة تحقق منذ وقت مبكر فى حياتى، وأن عملية القبول نفسها أنقذتنى من التورط فى أخطاء جسيمة، ربما لو كنت تورطت فيها لأصابتنى بأضرار فى صميم عملى، بل وفى تشكيل هويتى (كما ارتضيتها كواقع وكمشروع آخذ فى التحقق).

أساليب إدارة الصراع

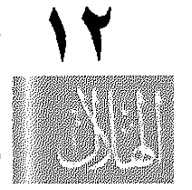
تخلقت عندى على مر الأعوام عدة طرق فى هذا الشأن جرت عليها كثير من عمليات المراجعة والتنقيح والتعديل، وشيئاً فشيئاً صارت هذه الطرق تكوّن فى مجموعها عدتى الرئيسية فى إدارة الصراع، وعندما أنظر الآن فى قائمة مكونات هذه العدة أجد فى مقدمتها مكونين رئيسيين، أحدهما يمكن أن نسميه تفعيل قواعد المقاومة طويلة الأجل أو بعيدة المدى، والمكوّن الآخر هو دعم عناصر المناعة النفسية، وتحت هذين المكونين كانت تندرج عمليات وآليات أضيق نطاقا فى مجال توظيفها، ولكن هذا لايعنى أنها كانت ضئيلة الوزن فى توجيه الصراع أو حسم نتيجته، كل مافى الأمر أن هذه العمليات والآليات كانت لها بدائل يمكن اللجوء إليها إذا اقتضى الأمر، أما المكونان الرئيسيان فلم يكن لهما بدائل، هكذا جاءت الخبرة فى مسيرتى وفى البقية الباقيةمن مقالى هذا سوف أركز الحديث على موضوع المقاومة بعيدة المدى، أما موضوع دعم عناصر المناعة النفسية فأرجو أن أفرد له مقالاً آخر بإذن الله .

تفعيل قواعد المقاومة بعيدة المدى

يحضرنى دائماً بشأن هذا الموضوع قول أبى العلاء المعرى:

أحسن بالواجد من وجده
صبر يعيد النار فى زنده
ومن أبى فى الرزء إلا الأسى
كان بكاه منتهى جهده

جوهر المقاومة بعيدة المدى هو إحكام العلاقة بين العمل والهوية بحيث يصبح العمل داعماً للهوية، وتصبح الهوية هى السند المباشر للعمل، وقد تمنيت فى إحدى مقالاتى التى نشرتها فى هذه المجلة الغراء أن تهتدى أعداد متزايدة من مواطنى (المصريين والعرب جميعاً) إلى هذه الصيغة يوماً من الأيام، وأن يتقنوا المهارات اللازمة لتحقيقها (نوفمبر سنة



٢٠٠٢) حتى يمكننا تجميع الجهود والعمل على تراكم نتائجها الوقوف بأوطاننا فى وجه شرور مستطيرة تنطوى عليها سياقاتنا الداخلية والخارجية على حد سواء.

أما كيف جرى تفعيل هذه الصيغة فقد وجدتنى كلما اشتدت وطأة إحدى أزمات الصراع بينى وبين السياقات المحيطة (كما أقرأها) أزداد إمعاناً فى الإقبال على العمل الذى ارتضيته لنفسى وارتضيت التوحيد بينه وبين ذاتى . ربما يذكر القراء فى هذا الصدد الثلث أو الأثلاث الأخيرة فى كثير من مقالات المسيرة ، حيث كنت أترك الحديث عن أحداث العالم وأحداث مصر واتجه إلى الكلام عن مواقف الذات إزاء هذه الأحداث : كيف توجهت وكيف استجابت.

وعلى سبيل التذكرة أورد بعض الأمثلة . ففى سياق حديثى بعنوان «عقد الستينيات فى العالم: عقد الكوارث» (المنشور فى فبراير سنة ٢٠٠١)، وفى مواجهة هذه الكوارث العالمية كما عايشتها، قلت ما يأتى: «لم أغفل لحظة عن ذكر قرارى الذى اتخذته مبكراً، وهو أن أكرس حياتى للاشتغال بالبحث العلمى... (كنت) أعايش الأحداث السياسية وأنفعل لها بصورة ما، ولكنى أحتفظ بمسافة محسوبة تفصلنى عنها لأنصرف بمعظم طاقتى إلى حياة البحث والدراسة فأتعلم ، وأنشر ، وأعلم ... كنت فى ذلك الوقت مشدود العقل والهمة إلى عملين من أعمالى البحثية، أحدهما ميدانى أجريه على أنواع معينة من الأمراض النفسية ... (لكى) ألقى الضوء على مشكلة لها وزن كبير فى عالم التخصص ، هى مشكلة العلاقة بين المرض النفسى والإطار الحضارى للمريض، وآمل فى الدراسة الثانية أن ألقى الضوء على بعض إسهامات الفكر العربى الإسلامى القديم فى التاريخ المبكر (لإرهاصات) علم النفس الاجتماعى».

وبعض الأعمال نقوم بها استجابة لمطالب الغير وبعضها نقوم بها لضرورات حياتية لا نستطيع أن نتجاهلها

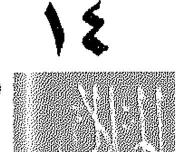
وفى سياق حديث آخر بعنوان «وكان العام ١٩٧٤» (ديسمبر ٢٠٠١) قلت مايأتى : «منذ وعيت الارتباط بالتخصص كان ذلك على خلفية الارتباط بالهم العام» . وفى سياق حديث ثالث بعنوان «انتفاضة الحرامية بين الاختمار والانفجار» (مارس سنة ٢٠٠٢) قلت مايأتى : «سيطرت على مخيلتى فى تلك الأيام ، أيام ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧ صورة بين الحلم والكابوس، رأيتنى من خلالها

أسبح طوال الوقت فى بحر ثائر، وينصرف معظم جهدى إلى محاولة أن أبقى رأسي فوق سطح الماء، لا أريد أن أغرق، وأحاول فى الوقت نفسه أن أواصل الوعى بالذات وهى تباشر البحث العلمى من ناحية ، وتعليم الطلاب من ناحية أخرى. كنت أحاول مخلصاً أن أحيى حياة البحث العلمى، تلقيا وإبداعاً، ولم أكن مستعداً فى سبيل ذلك لأن أغفل عما يدور حولى فى مصر وفى العالم».

وفى سياق حديث رابع بعنوان «العراق بين الأمس واليوم» (نوفمبر ٢٠٠٢) قلت مايأتى :

«وقد تنبهت إلى عمليات ترسب أزمة العراق مع الولايات المتحدة منذ بدأت نذرها المبكرة فى سنة ١٩٩٠ ... وكنت أشعر أننا مقبلون على زلزال اجتماعى عنيف. وأسوأ ماتصيبنا به هذه الزلازل وأمثالها أنها (على غير وعى بنا) تغير الأوزان النسبية لاهتماماتنا وتوجهاتنا . وقد تعلمت على امتداد عمر الوعى والنضوج كيف أروض آثار هذه الزلازل فى نفسى حفاظاً على صيغة التوازن الأمثل بين الأنا والنحن، وكان من أهم معالم الطريق أمامى فى هذا الشأن تفعيل قواعد المقاومة طويلة المدى. فى فترة الحرب نفسها (حرب العراق سنة ١٩٩١) اشتد حرصى على أداء واجباتى العلمية، والبحثية منها بوجه خاص ، وازداد وعيى بأننى بذلك أقيم استرتيجياتى بكل مكوناتها فى مواجهة استراتيجيات قهر الإرادة (فى العراق وفى المنطقة العربية كلها) وتدمير إمكانات الرقى ، بل وإمكانات الحياة»..

فى هذه الأمثلة وغيرها يتضح معنى المقاومة بعيدة المدى، حيث يزداد لجوء الذات إلى تنشيط العمل وثيق الصلة بالهوية . جدير بالذكر فى هذا الصدد أن هذه البطاقة اللفظية ، أعنى بطاقة «المقاومة بعيدة المدى» يصدق عليها وصف بعض الشعر بأنه السهل الممتنع ، فهى تبدو بسيطة ميسورة لمن آراد حينما يريد ، ولكن هذا غير صحيح ، لانها ، لكى تكون مؤثرة فعلا، تحتاج إلى كثير من البصيرة المبكرة والإعداد المسبق ، والتدريب المتواصل ... الخ، وذلك حتى تصير طبيعة ثانية للشخص . تحتاج إلى أن يكون الشخص على بينة من أنه يقوم بأعمال متعددة ومتباينة فى حياته، وأن بعض هذه الأعمال أقرب إلى نفسه من أعمال أخرى؛ بعض الأعمال نقوم بها استجابة لمطالب الغير، ولا بأس بذلك وبعض الأعمال نقوم بها لضرورات حياتية لانستطيع أن نتجاهلها، ولا بأس بذلك أيضاً ولكن هناك بعض الأعمال نؤديها لأنه يطيب لنا أن نؤديها، ولأننا لانستطيع



ان نتصور أنفسنا بدون أدائها، فهى جزء لايتجزأ من هويتنا . هذا النوع الأخير من الأعمال هو المقصود فى صيغة «المقاومة بعيدة المدى» والتبصر المبكر بمحوريته بالنسبة لنا شرط مبكر فى تفعيل الصيغة، لأن هذا التبصير يدفع إلى التمسك به وزيادة دعمه بزيادة مزاولته، كما يدفع إلى مزيد من الإعداد له بالحرص على توفير الشروط اللازمة لإتقانه . ثم بعد هذا وذاك لابد من قدر معقول من الوعى بالرابطة التى تربط بين هذا العمل وهويتنا، لأن هذه الرابطة المغلفة بأعلى درجات الوعى هى ركيزة الدعم المتبادل بين هذا العمل والهوية.

جدير بالذكر أن هذه الصيغة (صيغة المقاومة بعيدة المدى) لاتزكى نوعا بعينه من الاعمال دون غيره ، ولكنها تزكى أى عمل يعتبره صاحبه وثيق الصلة بصميم ذاته ، وجزءا لايتجزأ من هويته . وجدير بالذكر أيضاً أن هذه الصيغة نفسها لاتغنى عن الحاجة أحياناً إلى العمل المباشر ضد أعمال قهر الإرادة، لكن جذوة العمل المباشر تخبو من حين لآخر، أما صيغة المقاومة بعيدة المدى فهى الكفيلة باستمرار إرادة البناء والتقدم، وهى معين لاينضب لتفعيل هذه الإرادة فى مواجهة إرادة الهدم والبناء. ■



لماذا شاع الغباء بين البشر؟!

- الغبى هو الذى يسبب ضرراً لنفسه أو لغيره بدون الحصول على مميزات تعادل هذا الضرر
- الإنسان دائما يقلل من عدد الأغبياء المحيطين به
- بنو البشر يندرجون تحت أربعة عناوين رئيسية: العاجزون والأذكياء واللصوص والأغبياء

بقلم
جميل مطر

لاحظت فى الآونة الأخيرة، كثرة ما صار يعصى على فهمى. لم يعد التبادل سهلاً بين ما أقول وما يقوله الآخرون. تعقدت هذه العلاقة. أصبح معظم ما أقرأ وأسمع صعباً ومعقداً وغير متناسق، حتى استحالت، أو كادت تستحيل ممارسة حق الرد أو التعقيب. صارت المتابعة فى حد ذاتها عبئاً. وسألت نفسى هل زاد نصيبى من الغباء عن الحد المقرر أو الذى تعودت عليه، أم أن الغباء ازداد بصفة عامة، بحيث أصبح كثير من الناس بطيئين فى فهم ما أعنى. وأنا من ناحيتى بطىء فى فهم ما يقصدون، وكلنا نتباطأ عن دافع أو عن عمد، فى الفهم والتعبير والاقتناع والتصديق؟



ثم فكرت أننى خلال فترة قصيرة من الزمن عاصرت عدداً هائلاً من الأخطاء ارتكبها المسئولون عن صنع السياسات الخارجية

أبراهام لنكولن

> **الأفضل أن تسكت ويظن الناس أنك غبى، عن أن تتكلم فيزول الشك**
>
> **أبراهام لنكولن**

وتنفيذها فى دول شتى، ناهيك عن الأخطاء فى السياسات الداخلية وفى التنمية الاقتصادية والاجتماعية وفى التعليم وشئون أخرى. بل أننى كدت أكون واثقاً من أن الأخطاء التى ارتكبها السياسيون فى الدول العظمى والمتقدمة فى تطويع التكنولوجيا وفى إنتاج السلاح وفى الاقتصاد أكثر كثيراً من الأخطاء التى ارتكبها صانعو السياسة ومنفذوها فى الدول الأقل تقدما . خلعت عباءة الغرور . لم أحاول تقييم السياسات التى صاغها هؤلاء السياسيين بقدر ما اعتمدت على تقييم هؤلاء السياسيين أنفسهم لعملهم وعمل زملائهم، أو بقدر الصدامات التى وقعت بين الدول التى يصرف أمورها هؤلاء السياسيون أو بقدر ما يمر به العالم، ونحن جزء منه، من كوارث وحروب وجوع وفقر وأوبئة وظلم بسبب سياسات يصنعها هؤلاء السياسيون.

قيل إن الغباء فى ازدياد. والدليل أنه حين تتعدد البدائل يزداد عدد الناس الذين يقدمون على اختيار وتنفيذ أسوأ هذه البدائل. ونحن بالتأكيد نعيش عصر البدائل المتعددة. هناك أفراد بطبيعتهم تجذبهم الخيارات السيئة. وهناك أفراد صاروا فى الواقع أقل ذكاء من الآلات الحديثة التى يستخدمونها . ويبدو أنه كلما تقدمت التكنولوجيا ازدادت الهوة فى الذكاء بين المنتج من التكنولوجيا المتقدمة وبين الإنسان المستخدم لهذا المنتج. هل حقاً الغباء فى ازدياد، أم أن الغباء ركن من أركان الطبيعة الإنسانية لا يزيد ولا يقل، أى أنه طبيعة ثانية لبنى البشر؟. ثم اكتشفت أن موضوع الغباء مثار على أوسع نطاق وليس كما كنت أتصوره ظاهرة طارئة، لا تحظى بالاهتمام. فبالبحث علمت أن هناك ٩٦٩ ألف مدخلاً فى الشبكة الإليكترونية لموضوع الغباء. وكان أول ما وقعت عليه عينى هو عرض لكتاب موسوعى جديد بعنوان «موسوعة الغباء ». ويركز مؤلفها فان بوكسل فى هذه الموسوعة على الجوانب المرحة والأدبية فى موضوع الغباء، حيث تتضمن موسوعته مجموعة مختارة من القصص والروايات والملاحظات استندت إلى الخرافات والرسوم المتحركة والنكات ومؤلفات الخيال العلمى.

ويقول عارض الكتاب أن أفضل تعريف للغباء يعود فى الحقيقة إلى أستاذ الاقتصاد فى جامعة بيركلى كارلو تشيبوللا. جاء هذا التعريف فى مقال

كـتـبـه فى عـام ١٩٨٨ تحت عنوان «القوانين الأساسية للغباء البشرى». يقول التعريف إن «الشخص الغبى هو الذى يسبب ضرراً لنفسه أو لغيره بدون الحصول على مميزات تعادل هذا الضرر»، ولكنه يضيف أربعة قوانين أساسية تنظم وتقنن الغباء.

أولها أننا عادة نميل إلى التقليل من عدد الأغبياء. هذا على الرغم من أن كاتباً شهيراً كتب فى عام ١٩٣٤ كتاباً تحت عنوان «مقدمة قصيرة لتاريخ الغباء الإنسانى» قدر فيه عدد الأغبياء بنسبة ٨٠٪ من سكان الأرض.

القانون الثاني هو أن الغباء لا يوجد ملتصقا أو مرتبطاً بالضرورة بسمات أو علامات أخرى فى الشخصية. أى أن الغباء سمة لاترتبط دائماً وحتماً بأى سمة أخرى فى الإنسان.

ثالث القوانين هو أن نسبة ٢٠٪ من الذين لا ينسب إليهم الغباء، يميلون بغباء، إلى التقليل من شأن الخطر الذى تمثله الأغلبية الغبية.

القانون الرابع يقول إن الشخص الغبى خطر. وسنعود إلى هذه القوانين تفصيلاً فى محاولة أخرى لفهم حقيقة هذه الظاهرة وأبعادها.

يستطرد عارض الكتاب فيقول إن الإلمام بالغباء أو العلم به هو فى الواقع علامات من علامات الحياة الذكية لأنها تدل على حب البقاء. لا يعرف الكثيرون إن أحد الكتب الأوسع انتشاراً فى السنوات الأخيرة من العصور الوسطى كان كتاب سباستيان برانت الذى ترجم إلى الإنجليزية تحت عنوان «سفينة أغبياء هذا العالم» ونشر فى عام ١٥٠٩.

ويبدو أن رحلة كريستوفر كولومبس هى التى أوحت إلى سباستيان برانت بموضوع هذا الكتاب. هذه الرحلة التى توصف أحيانا بأنها أخطر مغامرة غبية فى التاريخ، وبخاصة بعد أن أصبح جليا حجم معاناتنا ومعاناة غيرنا فى هذا العالم جاء نتيجة هذه الرحلة. وكان الرمز فى هذا الكتاب يشير إلى الدافع الذى حدا بمجموعة من سيئى الحظ ليتكدسوا فى قارب يبحر نحو هدف غير معلوم. ويؤكد سباستيان أنه لم يجمع بين ركاب هذه السفينة غير الغباء والضعف.

ويشير إلى ما كتبه امبروز بيرس بعنوان «بعض سلبيات العبقرية». جاء فيه أنه من الصعب فى الغالب فهم ما يقوله أو يكتبه بعض العباقرة. إن العبقرية والجنون قريبان إلى بعضهما. وقريبان أيضا الغباء والذكاء الشديد. فلا هذا ولا ذاك يمكن فهم أصحابه بسهولة. وينهى العارض للموسوعة عرضه بأن فيلسوف الوضعية وتجنشتاين كان يقول إن «التقدم الإنسانى يعتمد على الممارسة المستمرة للغباء. دعنا إذاً نسعد بفكرة أن التقدم مضمون».

★★★

نعود إلى مقال كارلو تشيبوللا عن القوانين الأساسية للغباء الإنسانى، وأولها أن الإنسان دائماً وحتمياً يقلل من عدد الأغبياء المحيطين به. ويبدو للوهلة الأولى أن هذا القانون تافه غامض وإلى حد كبير ظالم، ولكن التدقيق عن قرب

ربما كشف عن أنه واقعي. يقول إن الإنسان كثيراً ما يفاجأ بحقيقتين . أولهما أن الناس الذين سبق أن ما حكم عليهم بأنهم عقلاء وأذكياء تبين أنهم أغبياء إلى حدود قصوى . ثانيتهما أنه يوما بعد يوم يتعرض الإنسان إلى تحرشات من جانب أفراد أغبياء يظهرون فجأة وبدون سابق إنذار في أماكن غير متوقعة وفي أوقات شاذة.

ومن القانون الثاني نفهم أن الاتجاهات الثقافية السائدة في الغرب تميل إلى المساواة. إذ يعتقدون في الغرب أن الناس ولدوا متساوين ثم اختلفوا بعد ذلك. ويعتقد تشيبوللا على العكس أن الناس غير متساوين وأن بعضهم غبي والبعض الآخر ليس كذلك، وأن الاختلاف هنا تحدده الطبيعة وليس القوى أو العوامل الثقافية. فالإنسان قد يكون غبياً بالشكل نفسه الذي تجد فيه إنساناً آخرشعره أحمر. الإنسان الغبي يولد غبياً والغباء ميزة لكل الجماعات البشرية. وتتوزع علة هذه الجماعات البشرية بعدالة وبنسب ثابتة. هذه الحقيقة يعبر عنها القانون الثاني الذي يؤكد أن احتمال أن يكون الإنسان غبياً لايعتمد على توفر أي سمة أخرى في شخصيته.

يقول تشيبوللا إنه توصل من خلال دراساته إلى نفي الافتراض القائل بأن التميز والفقر والنقص في التعليم كلها عوامل مسئولة عن الغباء. وعندما طبقت المعايير نفسها على طبقات اجتماعية وسطى أو غنية تأكدت القاعدة وهي أن نسبة الأغبياء إلى المجموع الكلي هي نفسها نسبة ثابتة. ويقول إنه سواء كانت

«قد يكون للعبقرية حدودها ولكن الغباء ليس هكذا معاق»

إيلبرت هابارد

العينة من الطلبة أو الأساتذة وسواء كان مسرح العينة جامعة أو كلية صغيرة، مؤسسة مشهورة أو مؤسسة غير معروفة، كانت النسبة دائما ثابتة. بل أنه يحاول أن يؤكد أنه عندما بحث حالة حاملي جوائز نوبل وجد أن نسبة الأغبياء بينهم هي النسبة العامة نفسها في المجتمع الأوسع. ويعتقد تشيبوللا أن حركة تحرير المرأة ستؤيد هذا القانون الثاني لأنه يبين أن نسبة الأغبياء الموجودة في الرجال هي النسبة نفسها الموجودة بين النساء، وسوف ترتاح شعوب العالم الثالث عند الاقتناع بهذا القانون لأنه الدليل على أن الذين حققوا نسبة عالية من النمو في هذا العالم لم يغيروا في نسبة الأغبياء في هذا التجمع ، وبالتالي لم يتحقق النمو كما يدعون.

يبني القانون الأساسي الثالث للغباء على فكرة أن بني البشر يندرجون تحت أربعة عناوين رئيسية: العاجزون والأذكياء واللصوص والأغبياء. يقول القانون إن الشخص الغبي هو الشخص الذي يتسبب في خسائر لشخص آخر أو لمجموعة من الأشخاص بينما هو نفسه لا يحقق أي مكسب، بل قد يحقق خسائر

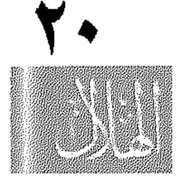
لنفسه كذلك. ويتوقع تشيبوللا أن كثيرين من العقلاء لن يرتاحوا لهذا القانون، ولكن دعنا نفكر بأسلوب يختلف عنه، فقد يحدث أحيانا أن يقوم شخص بإجراء أو نشاط معين يحقق من ورائه استفادة لنفسه وخسارة لنا. هذا الشخص لص، أو قاطع طريق، ونعرف حالات قام فيها شخص بإجراء أو عمل معين تسبب فى خسارة له ومكسب لنا.

عندئذ نجد أنفسنا أمام شخص عاجز. ونتذكر حالات قام فيها شخص بإجراء كانت نتيجته أن الطرفين حققا مكسباً . هذا الشخص كان ذكياً.

هذه الحالات تحدث . ولكن بالتفكير والتأمل سنعترف أن هذه الحالات ليست هى التى نقابلها كثيراً فى حياتنا. إن معظم الحالات التى نواجهها هى حالات نخسر فيها أموالاً أو وقتاً أو طاقة أو شهية أو سعادة أو صحة جيدة بسبب أعمال غيرمتوقعة قام بها مخلوق آخر لا يكسب شيئاً من التسبب فى أن يخلق لنا حرجاً أو صعوبات أو ضرراً. لا أحد يعرف أو يفهم أو ربما يشرح لماذا هذا المخلوق يفعل ما فعله. فى الواقع لايوجد تفسير. سوى أن هذا الشخص الذى نتحدث عنه إنسان غبى.

الغباء المطلق

ويضيف تشيبوللا أن معظم الناس لاتتصرف بشكل ثابت. ففى بعض الظروف يمكن لشخص ما أن يتصرف بذكاء وفى ظروف أخرى يتصرف بعجز أو كشخص ناقص الإرادة. الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة يقدمه الأفراد الأغبياء الذين عادة ما يكونوا أكثراستعداداً لأن لايغيروا شيئاً من أساليبهم فى جميع ميادين الحياة. اللص الممتاز هو الذى يتسبب فى خسائر للآخرين تساوى المكاسب التى حصل عليها . إن الشخص الذى يسرق منك ١٠٠ جنيه دون أن يتسبب فى ضرر أكبر أو خسارة إضافية هو لص كامل. أنت تخسر ١٠٠ جنيه وهو يكسب ١٠٠ جنيه. هناك لصوص يحصلون من نشاطاتهم على أرباح أكبر من الخسائر التى سيتعرضون لها. هؤلاء يجب أن نعترف أن لديهم طاقة إضافية من الذكاء يقتربون بها من مواصفات الشخص الذكى. هناك أيضاً اللصوص الذين يحصلون بأعمالهم على مكاسب أقل من الخسائر التى يتسببون فيها لأناس آخرين. إذا قتلك شخص ليحصل منك على ٥٠ جنيه، أو إذا قتلك ليقضى إجازة مع زوجته على الساحل، أو ليقضى وقتاً طيباً مع صديقته، فإننا متأكدون أنه ليس سارقا كاملاً أو متميزاً حتى مع استخدام معاييره التى يقيس بها مكاسبه. هذا الشخص يظل أقرب مايكون إلى الغباء المطلق. إن جنرالات الجيوش الذين يتسببون فى خراب كبير وضحايا عديدين من أجل الحصول على ترقية أو نيشان يصنفون في الخانة نفسها، لذلك نقول ونكرر أن الفرق شاسع بين اللصوص والأغبياء. فبينما يتنافس اللصوص فى مساحة واسعة، يتركز الأغبياء على خط واحد. الأغبياء هم هؤلاء الناس الذين يصرون على إلحاق الضرر والخسائر



بأناس آخـــرين دون أن يحـصلوا على أى مكسب من وراء ذلك سـواء كـان هذا المكسب إيجـابيـاً أو سلبياً. ولا يجب أن ننسى أمـر الأشـخـاص ذوى الغباء الخارق للعادة، هؤلاء الذين بتصرفاتهم يتسببون فى ضررللناس الآخرين، وبالإضافة لذلك يتسببون فى ضرر لأنفسهم.

أينشـتـاين

> «الأفكار العظيمة تواجهها دائما معارضة عنيفة من العقول الضعيفة»
> ألبرت أينشتاين

ويكتب تشيبوللا عن قوة الغباء فيقول إنه ليس من الصـعب فـهم كـيف أن المؤسسات الاجتماعية والسياسية تشجع القوة المتسببة فى الضرر عند الشخص الغبى. ومازلنا لا نعرف بالدقة ماهو هذا الذى يجعل الإنسان الغبى خطراً على الآخرين. بمعنى آخر ماهى العوامل التى تشكل القوة عند الأغبياء أو ما يسمى بقوة الغباء. الأغبياء خطرون ومضرون ومؤذيون لأن العاقلين يجدون صعوبة فى فهم تصرفاتهم غير المألوفة. إن الشخص الذكى قد يفهم منطق اللص، فأعمال اللص تتبع عقلانية سيئة ولكن مازالت عقلانية . يريد اللص إضافة مزيد لحسابه أو لما يحصل عليه ولكن بما أنه غير ذكى الذكاء الكافى ليخترع وسائل للحصول على هذه الإضافة بدون أن يمنحك إضافة مقابلة فإنه سوف يحقق إضافته بأن يتسبب فى نقص فى حسابك. وهذا سيىء ولكنه مفهوم ومعقول، وخاصة إذا كنت من العقلانية بحيث تستطيع أن تتنبأ به. ويمكنك أن تتوقع ماسيفعله اللص، وتتوقع مناوراته وطموحاته القبيحة ويمكنك بالتالى أن تعد دفاعاتك المناسبة.

★★★

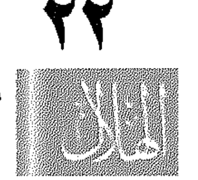
ولكن مع الشخص الغبى كل هذه الأمور تبدو مستحيلة وفقاً للقانون الثالث للغباء. فالشخص الغبى سيطاردك بغير ما سبب وبغير مصلحة وبدون خطة أو مشروع وفى كل الأوقات والأماكن غير المتوقعة. لن تجد وسيلة رشيدة للاستدلال عن أين وكيف ولماذا يهاجمك هذا الإنسان الغبى. وفى كل الأحوال فإنك عندما تواجه إنساناً غبياً فأنت فى الحقيقة تكون تحت رحمته. إن تصرفات الإنسان الغبى لا تتسق ولا تتناسب مع قواعد الرشادة. وبالتالى يصاب الإنسان عادة بالدهشة لكل هجوم يشنه إنسان آخرغبى من ناحية أخرى، حتى وإن كان قد ألم بهذا الهجوم، فإن الإنسان محل الهجوم لا يمكنه أن يرتب دفاعاً عقلانياً مناسباً، لأن الهجوم فى حد ذاته يفتقد إلى أى هيكل عقلانى. يتصرف الإنسان الغبى تصرفات تدخل فى دائرة اللاعقلانية بحيث لاتضخم فقط من إشكالية الدفاع ولكنها أيضاً تجعل الهجوم المضاد صعباً للغاية. ومثال ذلك محاولة إصابة هدف قادر على الحركة السريعة غير المتصورة وغير المحتملة.

ويدلل تشيبوللا على كلامه بما كتبه ديكنز وشيللر. كتب ديكنز يقول «إنه مع غباء وهضم جيد يتمكن الإنسان من التغلب على أى قوة معادية». وكتب شيللر يقول «حرب دون جدوى تلك التى تشنها الآلهة على الغباء».

احتقار الذات

ثم يتنتقل تشيبوللا للقانون الرابع فيقول إن الناس العاجزين لا يستطيعون عادة معروفة إلى أى حد يعد الأغبياء خطيرين، وهذا فى حد ذاته لايدعو إلى الاستغراب. الفشل هنا هو تعبير آخر عن عجزهم. ويقول إن الأمر الغريب حقاً هو أن الأذكياء واللصوص على حد سواء يفشلون فى الغالب فى معرفة قوة التخريب أو قوة الأذى الموجودة داخل الغباء أو المغروسة فيه. ومن الصعوبة بمكان فهم تصرفات الأذكياء واللصوص الذين إذا ووجهوا بالأغبياء وأصابهم أذى منهم ينغمسون فى مشاعر احتقار الذات بدلاً من صنع دفاعات لمنع تكرار هجوم الأغبياء. ويميل بعض الناس إلى أن الرجل الغبى قد يؤذى نفسه فقط لأنه فى واقع الأمر ربما لا ينوى ولايدرك أنه يؤذى الآخرين، ولكن هنا يأتى الخلط بين الغباء والعجز. ففى حالة من الحالات يلجأ فرد إلى الارتباط بفرد آخرغبى لاستعماله فى تنفيذ مشروع من مشروعاته أو بعض خططه. حالة مثل هذه قد تؤدى إلى آثار مدمرة لسببين على الأقل: أولهما أنها تصور علاقة مبنية على عدم فهم لطبيعة الغباء، ثانياً أنها تمنح الشخص الغبى إطاراً أوسع لاستثمار مواهبه وتجديدها. قد يظن البعض أنه يمكنه التفوق على الأغبياء، ويحدث هذا أحياناً، ولكن إلى حد. ومع ذلك فإنه بسبب السلوك غير الثابت للفرد الغبى لايمكن لإنسان آخر أن يتوقع أعماله وردود فعله. ولن يمضى وقت طويل حتى يجد نفسه قد أصابه على يد شريكه الغبى. لذلك ينص القانون الرابع على أن الناس غير الأغبياء يقللون دائما من قوة التدمير الموجودة عند الأشخاص الأغبياء، وبوجه خاص فإن الناس غير الأغبياء ينسون دائما فى كل الأوقات والأماكن وفى كل الظروف أن التعامل مع أناس أغبياء أو الارتباط بهم ينتهى دائما بأفدح الأخطاء. وعلى مر التاريخ فشل الكثيرون من الأفراد والمجتمعات فى أخذ هذا القانون فى اعتبارهم، وكانت نتيجة هذا الفشل خسائر وكوارث لا يمكن حصرها لحقت بالإنسانية.

أما القانون الأساسى الخامس فينطلق من ضرورة الاهتمام بالمجتمع وليس فقط الفرد عند التعامل مع قضية الأغبياء. يقول القانون الخامس إن الإنسان الغبى هو أخطر أنواع البشر على الإطلاق، ويتبع هذا القانون القاعدة التى تقول إن الإنسان الغبى أخطر من اللص على المجتمع. وينتهى تشيبوللا فى هذه المناقشة إلى أن السارق المثالى هو الذى يقوم بعمل يضيف إلى حسابه ما يعادل تماماً ما فقده طرف آخر. أما المجتمع ككل فإنه لن يكون أسوأ حالاً أو أفضل حالاً فى هذه الحالة. وحتى إذا كان كل أعضاء المجتمع لصوصاً كاملين



فإن أقصى ما يمكن أن يواجهه المجتمع هو أن يرقد لوقت من الأوقات ولكن لن تصيبه كارثة. ما يحدث عادة هو أن جماعة من الجماعات تستطيع خلال فترة أن تنقل نقلات هائلة من الثروات والرخاء لمصلحتها نتيجة أعمال السرقة التى تقوم بها. وفى مرحلة أخرى تقوم جماعة أخرى بنقلات هائلة لحسابها وعلى حساب الطرف الأول الذى سبقها فى هذا العمل. النتيجة النهائية وضع استقرار مثالى. يحدث العكس تماماً لو حل الأغبياء محل اللصوص فى هذا المجتمع.

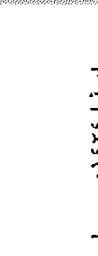
نسبة مزعجة

ففى حالة حلول الأغبياء محل اللصوص ستختلف القصة اختلافاً كبيراً. إذ يتسبب الأغبياء فى خسائر فادحة للأطراف الأخرى بدون تحقيق أى قدر من المكاسب لهم. وبناء على ذلك تتدهور حالة المجتمع ويزداد فقراً. وطبقاً للقانون الثانى لا تتغير نسبة الأغبياء مع الزمن أو الجنس أو الطبقة أو أى متغير تاريخى أو ثقافى. ومن الخطأ العميق أن نصدق أن نسبة الأغبياء فى مجتمع متخلف أكثرمن نسبتهم فى مجتمع متقدم. كلا المجتمعين يحوى النسبة نفسها من الأغبياء. الفرق بين المجتمعين هو أن الأغبياء فى المجتمع المتخلف يسمح لهم الأعضاء الآخرون فى المجتمع بأن يمارسوا نشاطاً أكبر وأن يعملوا أكثر. ثانيا أن هناك تغيراً دائماً فى تركيبة الجزء غير الغبى فى المجتمع. والتاريخ يؤكد هذه الظواهر فسواء كنا نناقش حالة فى العصور القديمة أو الوسطى أو الحديثة فإن المرء ينبهر بحقيقة

> «الإبداع هو التوقف المفاجىء عن الغباء»
> ايدوين لاند

أن المجتمع الصاعد لديه النسبة من الأغبياء التى لا يستطيع تفاديها ولديه أيضاً النسبة نفسها من الأذكياء. هؤلاء الأذكياء يستطيعون أن يحافظوا على نسبة الأغبياء عند حد معين أو عند نشاط معين وينتجون مكاسب أكثر لأنفسهم ولغيرهم من أعضاء المجتمع بحيث يتقدم المجتمع. وفى المجتمعات الصاعدة تظل نسبة الأغبياء مساوية للنسبة المتعارف عليها فى كل المجتمعات، ولكن بين بقية السكان يلاحظ المرء أنه داخل الطبقة السياسية توجد نسبة مزعجة من أنشطة اللصوص مختلطة بأنشطة الأغبياء، وكذلك بين هؤلاء يستمر تزايد عدد الأفراد العاجزين.

هذا التغيير فى تكوين الجزء غير الغبى من السكان يقوى بالضرورة القوية التدميرية لهذه النسبة الثابتة من الأغبياء التى تجعل التخلف أمراً قطعياً ومؤكداً، وإلى الجحيم يذهب المجتمع، وإلى الجحيم قد يذهب العالم إذا هيمن على مقاليد الدول الكبرى سياسيون أغبياء. ■



أخى فى العروبة

شعـــر
محمد ابراهيم ابو سنه

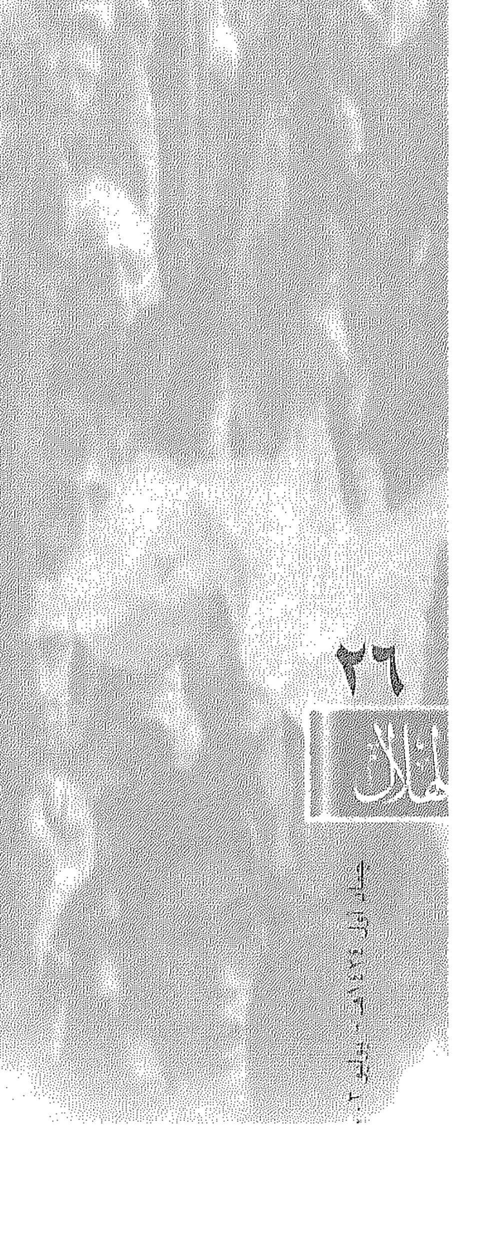
تعقَّل ..
«أخى فى العروبة»
لاتعترضهم ..
.. ودعهم يمرون فوق عظام أخيك ..
وجثة أمك ..
فوق التراب الذى ..
لم يضن .. وناح لرؤيتهم ..
إنهم أصدقاؤك ..
لابأس إن هدّموا ..
بعض دارك .. لابد من تضحيات
لتنعم بالجنة القادمة
.....
لماذا غضبت ...
وهم يتركونك حرا
لتنهب. ما خلفته العصور . وتضرم
نار السعادة فى كل ماقد بناه ..
الأوائل ..
تسخر من جهل آبائك الأقدمين ..
وتطعن إخوتك .. العابرين
تدوس على جبهة
العاصمة
....
تلطف..!!
ودعهم يجيئون فى الريح ..
هذا النسيم الذى يحملون .. يطهر
ماقد تراكم من شعر قيس
وبشار والمتنبى
وبعض مجون
ابن هانىء «إن المجون الحقيقى..
يأتى من الغرب»
هذا نسيم التحضر
سوف يبدد كل ..

الخرافات والحذلقات التى ..
سطرتها أكف شيوخ
قضوا قبل أن يكتبوا كلمة
بجهاز الطباعة ..
أو يبصروا بالعيون النذير الذى
أطلقته من الساحل الأطلسى
لكم قبضة الشعلة الحازمة
....
ولاتنزعج يا أخى ..
إن رأيت عيون المارينز
تلصص .. تبصر ماقد
فعلت بغرفة نومك
هم أبصروك كثيرا
ومن قبل خلف السحاب بأقمارهم
تغاض
ودعهم يغوصون
فى الماء والرمل ..
لاتخش أن يأخذوا
النفط منك.!!
لماذا ؟؟
وهم فى الولايات ..
يمتلكون بحارا من النفط ؟؟
هم يحرصون على أن تزيد
ادخاراتك العربية ..
كل مصارفهم فى انتظارك
لكن حذار
التظاهر بالفهم
حتى إذا ما فهمت
تعاجلك الضربة القاصمة
......
تحضر ودعهم يعيدون صنعك
يا أيها البربرى»

ولست غبيا لترفض
تلك هى الفرصة الآن
جاءت إليك .. وحتى ديارك
لاتقس. هم رحماء بأمرك
هم أوصياء عليك
إلى أن تشب
عن الطوق ..
تدعو لهم فى المساجد
كى يمنحوك الرضا
والبقاء بأرضك
ترفض كل الذى عرفت
وكل الذى قد ألفت
وكل الذى ترتجيه نوال العطايا السخية
إن يسمحوا تتقى بالركوع
بكل الخضوع ..
التعرض للغضبة العارمة

....

تعقل ..
ودعهم يقيمون
قبرك تحت النخيل
الحزين
ولاتنتفض فى وجوه الذين
لأجلك جاءوا
هم الأصدقاء
هم الرحماء
فهيا تمدد
ومت فى هدوء
فإن عشت
عش «يا أخى فى العروبة»
كالغنم السائمة
لتنعم بالرحمة الدائمة



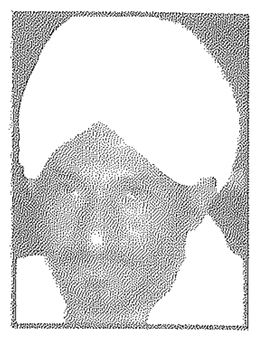
أقوال معاصرة

● «ما علمته التربية العربية المعاصرة ومناهجها كان اقصاء المختلف»

محمد صالح الغامدي
الأستاذ في جامعة الملك عبدالعزيز بجدة

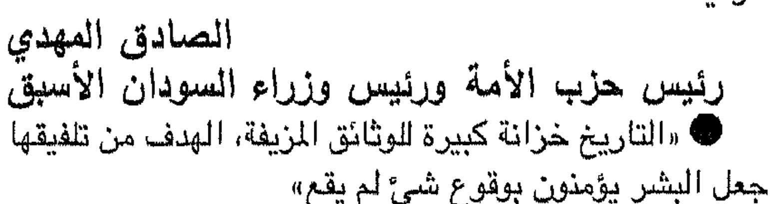
● «الأمريكيون هم من القوة بحيث يمكنني أن أغيظهم وأن أغيظهم فقط لأننى لا أستطيع أن ألحق شرا بأمريكا»

المخرج الدنمركي لارس فون ترير
صاحب فيلم مدينة الكلاب المعادي لطريقة الحياة الأمريكية



الصادق المهدى

● «مصلحة مصر والسودان أن تكون السودان موحدة وحدة طوعية»



الصادق المهدي
رئيس حزب الأمة ورئيس وزراء السودان الأسبق

● «التاريخ خزانة كبيرة للوثائق المزيفة، الهدف من تلفيقها جعل البشر يؤمنون بوقوع شئ لم يقع»

الأديب الايطالي امبرتو ايكو



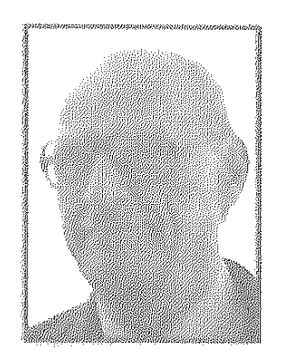
أدونيس

● «فى زيارتى الأخيرة للبنان، لم أكد أسمع أحدا يتكلم حقا، إلا الجرس والمئذنة»

الشاعر السوري أدونيس

● «تزوير الانتخابات فى ظنى أهون من الدخول إلى قصر الرئاسة على دبابة تطلق نيرانها فى وجه الجميع»

عبدالرحمن الراشد
رئيس تحرير جريدة الشرق الأوسط



أرثر ميللر

● «أى عمل يسلى الناس يجعلهم يضحكون أو يبكون، يصدمهم أو يجعلهم ينسون أنهم يشاهدون مسرحية، يعتبر عملا جيدا»

الأديب الأمريكي ارثر ميللر

● «النظام الدولى بات أقرب إلى التبلور، بحسب المفهوم الأمريكى لتراتب القوى والمكانة»

الكاتب الفلسطيني محمد خالد الأزعر

● «تجربة العراق أكدت أننا أمة لا تقرأ، وإذا قرأنا لا نستوعب»

د. مصطفي عثمان اسماعيل
وزير الخارجية السوداني

المشير الجمسى

وداعاً

عندما دمعت عينا البطل!

بقلم

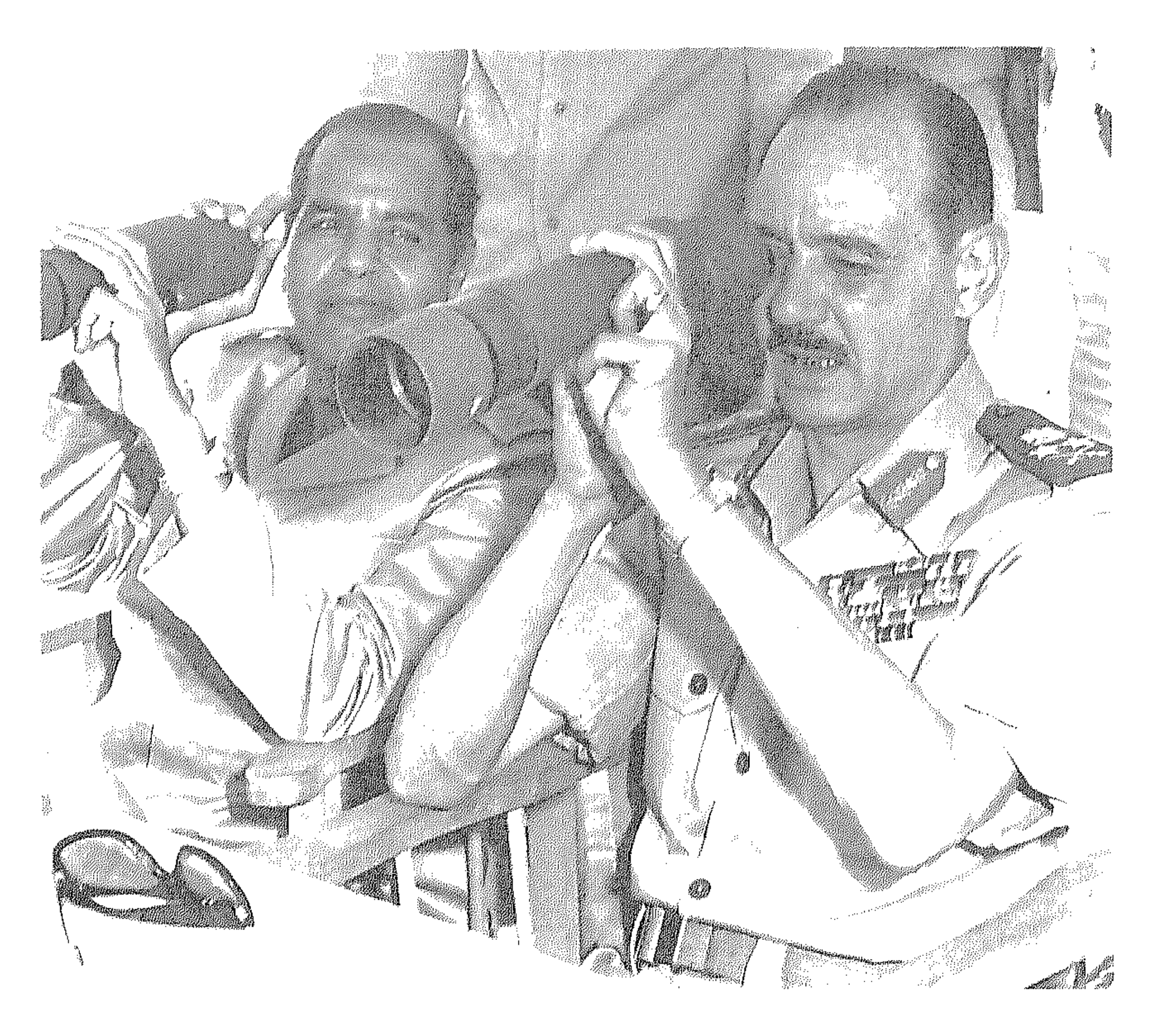
مصطفى نبيل



كان من أمانى أن ألتقى به وجها لوجه ..

وعندما ذهبت إليه لكى أطلب مساهمته بالكتابة فى ذكرى أكتوبر عام ١٩٨٦ ، باعتباره أحد قادتها المرموقين ، والذى لعب دورا مميزا فى الحرب .

وبعد إلحاح ، اقتنع بكتابة مقال عن «مفاجآت العبور فى حرب أكتوبر» والذى نشر فى هلال أكتوبر ١٩٨٦ وأظن أن كتابة هذا المقال ، كانت بداية كتابة مذكراته التى صدرت عام ١٩٩٠ ، وهى المذكرات التى وضع فيها رحيق تجربته وعصارة خبرته خلال أربعين عاما من العمل فى القوات المسلحة



عبد الغنى الجمسى .. خرج من رحم الريف المصرى
ليخوض جميع الحروب العربية - الإسرائيلية

وسجل اسم محمد عبدالغنى الجمسى كأحد أبرز العسكريين فى التاريخ المعاصر.

وتعددت بيننا اللقاءات، ونقلت له مدى حب وتقدير المواطنين لما قام به، ومكانته الرفيعة لديهم، بعد أن حقق مع كوكبة من الرجال أعظم الانتصارات.

ووجدت لديه شعورا بالضيق بعد أن انفض من حوله البعض بعد تركه منصبه كوزير للحربية وقائد عام للقوات المسلحة منذ ٣ أكتوبر ١٩٧٥، وما كان يشكو منه، ذلك التوقيت الذى خرج فيه، وأخذ يتساءل .. ألم يكن الأنسب أن ينتظر عليه الرئيس الراحل أنور السادات، حتى يحتفل بذكرى ٦ أكتوبر وسط رجال؟!.

بعد أن ظلت تجربة حرب أكتوبر محفورة فى أعماق وجدانه، فهى الحرب التى خرجت منها مصر كالعنقاء، تجدد

حياتها، والتى قامت فى فترة زمنية محددة لم تتجاوز تسعة عشر يوما، ولكنها تسعة عشر يوما غيرت العالم، وتجاوزت آثارها المكان والزمان، وبرز خلالها عناد واستماتة شعب لاستعادة أرضه، وأمة تبينت طريق النصر..

وبقيت ذكرى هذه الحرب تلهب خيال الأمة وتحرك وجدانها.

خرج عبدالغنى الجمسى من رحم الريف المصرى من البتانون منوفية، وهو مثل مئات غيره دخل مدرسة المساعى المشكورة فى شبين الكوم، .. «بدأت حياتى العسكرية وعمرى سبعة عشر عاما وواحد وعشرون يوما ..» حين التحق بالكلية الحربية..

ومنذ ارتداء الزى العسكرى وهو يشارك فى كل الحروب العربية الإسرائيلية باستثناء حرب فلسطين ١٩٤٨، التى كان خلالها فى بعثة عسكرية خارج البلاد، وخلال حرب أكتوبر كان رئيسا لهيئة عمليات القوات المسلحة، وهو منصب مهم تجتمع فيه كل الخيوط..

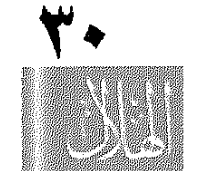
يقول عنه كيسنجر «إن العسكريين الإسرائيليين يقدرون تماما كفاءة الجمسى، واعترفت إسرائيل بأنها تخشاه أكثر مما تخشى القادة الآخرين».

ويقول عنه الإسرائيليون «إنه النحيف المتجهم» ويقول وايزمان .. «إنه رجل مثقف، وموهوب ومنطو على نفسه، وهو مصرى يعتز بمصريته كثيرا».

وقرر الرجل تسجيل رأيه فى مذكراته حتى ينير الطريق للجيل الجديد، ويرد خلالها عن الذين يشككون فى جدوى حرب الاستنزاف، التى كانت ضرورية، وأدت إلى آثار بعيدة المدى، فى أسلوب الإعداد والتخطيط للحرب، وتأثيرها أيضا على الأداء الكفء للقوات المسلحة، فكانت التمهيد العملى الذى جعل قرار حرب أكتوبر ممكنا.

ويجمع المحللون العسكريون على أهمية الدور الذى قام به خلال الحرب وخلال الإعداد لها، ويقول المحلل العسكرى البريطانى إدجار أو بالانس إن الجمسى .. «ظل خلال الحرب باردا ومتزنا».

ويكتب هذه المذكرات بعد أن مزج قلمه بالروح الوطنية العالية.. «كنت يوم ٦ أكتوبر ٧٣ فى مركز عمليات القوات المسلحة، أرتدى زى الميدان عندما بدأت الحرب، .. وهذه الحرب هى امتداد لحروب سابقة وبعد خمس سنوات فى أكتوبر ١٩٧٨، انتهت خدمتى وانتهى عملى»





اجتماع يضم الرئيس الراحل أنور السادات ، عبد الغني الجمسي، إسماعيل فهمي ، أحمد إسماعيل وممدوح سالم - ١٩٧٤

وسجل مشاهداته بين البداية والنهاية.

نوتة الجمسي!

نقلب هذه المذكرات ونتوقف عند بعض ماجاء فيها .. يقدم الجمسي هذه المشاهد كرمز وواحد ضمن كوكبة من القيادات العسكرية، وجيل من العسكريين نادرا مايجتمع مثله، خاض كل منهم ثلاث حروب، ويتمتع كل منهم بخبرة نظرية وعملية وكل منهم جمع المعارف العسكرية من الشرق والغرب، درس في الأكاديميات العسكرية في الشرق والغرب، وعاش كل منهم في آتون الصراع العربي الإسرائيلي وخبر آبعاده، إنه جيل لا يعوض.»

«و معظم الرجال الذين اشتركوا في حرب يونيو هم أنفسهم الذين خاضوا حرب آكتوبر، بفاصل زمنى لايتجاوز ست سنوات، وهي فترة قصيرة، لايمكن أن يقال إنه جيل مختلف رغم الأداء المختلف، وكان الموقف العسكرى الاستراتيجي في أكتوبر آشد وأصعب .. فانتصرت اسرائيل في حرب يونيو من حدود اعتبرتها غير آمنة، وانتصرنا في حرب أكتوبر من حدود اعتبرتها آمنة..»

ومايثير الدهشة حقا، أنه رغم أن حرب أكتوبر هي معكوس حرب يونيو، فمازال الكثير من الكتابات تذكر هزيمة يونيو وتنسى أو تتناسى نصر أكتوبر. وكان الزمن توقف عندها!!

ولعل ما سجله الجمسي في كشكوله

أو «النوتة» التى كان يحملها فى جيبيه لاتفارقه دليل على استخدام محصلة العلوم المختلفة فى الحرب، وهى تنطوى على آلاف التفاصيل لسيمفونية الاقتحام والعبور، وتتناول على نحو عملى مغالبة المصاعب المحتملة، مستخدمة جماع العلوم والحلول المبتكرة، لم تترك شاردة أو واردة إلا ذكرتها منذ الطلعة الجوية الأولى حتى الوصول إلى المضايق. وتم التخطيط لحرب أكتوبر بأسلوب علمى دقيق ، بحث العقبات ووضع الحلول لها، وأصبحت الحلول العلمية بديلا عن الذرائع التى تؤدى للتقاعس.

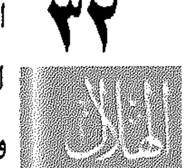
وهذه هى بعض نماذج مما ورد فى «النوتة» ومما ذكره فى مذكراته .. «سجلت المواصفات الفنية لقناة السويس من حيث المد والجزر وسرعة التيار واتجاهه وساعات الإظلام وساعات ضوء القمر والأحوال الجوية، وحالة البحرين الأبيض والأحمر، التى تحقق أفضل استخدام لقواتنا للقيام بالهجوم بنجاح وتحقق أسوأ الظروف للعدو، وأسلوب اختيار أفضل التوقيتات التى تناسب تنفيذ الهجوم على الجبهتين المصرية والسورية فى وقت واحد.

درسنا كل شهور السنة لاختيار أفضل الشهور لاقتحام القناة على ضوء حالة المد والجزر وسرعة التيار واتجاهه، وجدنا أن فرق المنسوب بين أعلى مد وأدنى جزر هو ٨٠ سنتيمترا فى القطاع الشمالى للقناة (الاسماعيلية - بورسعيد)، بينما فرق المنسوب فى القطاع الجنوبى (الإسماعيلية - السويس) هو متران، كما أن سرعة التيار فى القطاع الشمالى هى ١٨ مترا فى الدقيقة، بينما سرعته فى القطاع الجنوبى هى ٩٠ مترا فى الدقيقة. أما اتجاه التيار فإنه يتغير دوريا كل ٦ ساعات من الشمال للجنوب وبالعكس.

وكان مطلوبا معرفة هذه الظواهر الطبيعية لتحديد تأثيرها على وسائل العبور بالقوارب، وعلى إنشاء وتشغيل المعديات والكبارى وعلى أفضل التوقيتات لشن الحرب.

وانتقلنا فى الدراسة لتحديد طول الليل يوميا لاختيار ليل طويل يكون النصف الأول منه فى ضوء القمر والنصف الثانى فى حالة إظلام، حتى يسهل تركيب وإنشاء الكبارى فى ضوء القمر ويتم عبور القوات والمعدات فى الظلام.

وأحد طرق استدعاء الاحتياطى فى إسرائيل يكون بوسائل غير علنية بإذاعة كلمات أو جمل رمزية عن طريق الإذاعة والتليفزيون، وتبين أن يوم كيبور وهو يوم سبت هو اليوم الوحيد الذى تتوقف فيه





فى جبهات القتال كانت جولات الجمسى ترفع الروح القتالية لدى الجنود

الإذاعة والتليفزيون..

وبالتالى كان تحديد يوم الهجوم وساعته عملا علميا على مستوى رفيع.

فكم سيرتفع الأداء فى المجالات المختلفة، إذا استخدم ذات الأسلوب فى اتخاذ القرارات، وبحث البدائل؟!..

ويستعرض السلبيات التى إذا درسناها عرفنا الدروس المستفادة.

● لم تكن هناك يوما على الجانب العربى منذ عام ١٩٤٨ خطط عربية مشتركة أو أية خطط للتعاون العسكرى بين الدول العربية.

● عدم التنسيق المسبق بين القيادة العسكرية والقيادة السياسية، وعدم التنسيق بين القيادة السياسية ومسار المعركة على الأرض.

● ضرورة وضع استراتيجية عليا للدولة، حتى تؤدى هذه الاستراتيجية العليا إلى تحقيق الأهداف القومية خلال فترة زمنية محددة.

الوقائع وتحليلها!

لا تأتى أهمية مذكرات الجمسى من

قيمة كاتبها فحسب، بل بما تميزت به من عقلانية، وبعد عن الذاتية، فأكثر ماكتب عن حرب أكتوبر - رغم قلته - كان عاطفيا حماسيا، أو يعطى مساحة كبيرة للقضايا الخلافية، التى كان الكاتب طرفا فيها، أما كاتبنا فيشرح العديد من المواقف، ويعطى كل صاحب حق حقه، ويفرق بين الوقائع وتحليلها، ويتحفظ فى إطلاق الأحكام.

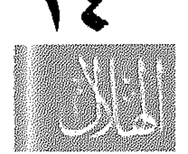
فمثلا يروى هجوم الفريق صادق على السوفييت فى معسكرات الجيش، ويتحفظ فى إبداء رأيه فى ذلك، ويحكى قصة تنحية الرئيس جمال عبدالناصر لرئيس أركانه أحمد إسماعيل بسبب حادثة الهجوم على رادار الزعفرانة، ولايقول رأيه فى هذا القرار، فهو شحيح فى إبداء الرأى عن هذه الشخصيات التى تعامل معها ..

ورغم هذا التحفظ، فهو يشيد بكل من عبدالمنعم رياض رئيس الأركان الذى سقط شهيدا وسط جنوده على جبهة القناة، وإبراهيم الرفاعى الذى استشهد وهو يقاتل القوات الإسرائيلية فى الدفرسوار.

.. «كان اختيار الفريق أول محمد فوزى والفريق عبدالمنعم رياض اختيارا موفقا، فقد كان الأول شديدا فى الانضباط العسكرى الذى يصل إلى حد القسوة، وهو ماكنا نحتاجه، أما عبدالمنعم رياض فقد كان ذا علم عسكرى غزير، وله نظرة استراتيجية واسعة.. ويعتبر دور عبدالمنعم رياض حيويا.. وعند استشهاده يوم ٢٩ مارس ٦٩ كانت خسارة القوات المسلحة بل ومصر كلها فادحة، فقد فقدنا قائدا عسكريا متميزا كنا فى أشد الحاجة إليه، تعبيرا عن الروح العسكرية المصرية، التى تتطلب من كل قائد أن يقدم القدوة والمثل حتى الاستشهاد بين جنوده.

أما العقيد إبراهيم الرفاعى البطل فأسطورة العسكرية المصرية، فيقول .. إنه من رجال الصاعقة الذين يوصفون بالشجاعة النادرة، وإعطاء القدوة والمثل لمرءوسيه أثناء تنفيذ العمليات الفدائية الكثيرة التى قاموا بها، لقد كانت المجموعة التى تعمل مع إبراهيم الرفاعى من المقاتلين الأشداء، وعلى درجة عالية من الكفاءة القتالية، والروح المعنوية العالية، وإذا كلفت مجموعته بعمل ما، فلا بد من تنفيذه، مهما كانت المخاطر والصعاب.

لقد قامت هذه المجموعة بالكثير من العمليات ذات الطابع الخاص التى تتسم بالتضحية خلال مرحلتى الدفاع النشط والاستنزاف. ومنها عملية ميناء إيلات، وهو امتداد لجهود المجموعة ٣٩ التى يقودها..



وشاء القدر أن تتصدى هذه المجموعة للقوات الإسرائيلية فى إحدى عملياتها الفدائية خلال حرب أكتوبر، وأن يستشهد العقيد إبراهيم الرفاعى.

السياسة والعسكرية!

ورأيه أن السياسة تؤثر سلبا على تفرغ العسكرى لعمله وقد تفسده، ويستشهد الجمسى بقول وزير الدفاع أحمد إسماعيل .. «السياسة عندما تدخل الجيوش تفسدها..» ويرد الجمسى .. «إننا فى القوات المسلحة يجب أن نحترف عملنا العسكرى فقط..».

هذا فى الوقت الذى تجده غارقا فى السياسة إلى أذنيه.. وتتناثر آراؤه السياسية فى مذكراته . هل لأنه انتقل من كونه عسكريا إلى المفاوض وإلى منصب الوزير، أى إلى منصب سياسى؟!

هكذا تكلم الجمسى!

ويبدو أن التداخل بين ماهو عسكرى وماهو سياسى أمر لامفر منه، فيسجل الجمسى رأيه واضحا فى تلك البرقية التى أرسلها حافظ إسماعيل مستشار الأمن القومى إلى هنرى كيسنجر مستشار الأمن القومى الأمريكى، والتى أبلغه ثانى أيام الحرب يوم السابع من أكتوبر .. «أن مصر لا تعتزم تعميق الاشتباكات أو توسيع المواجهة» ويرى أن هذه البرقية أفصحت عن نوايا مصر، وأبلغت هذه النوايا للولايات المتحدة التى أبلغتها بدورها لإسرائيل، ويرى أن العمل السياسى لم يكن لصالح العمل العسكرى. وأن هذه البرقية التى أرسلت عن طريق الخط الساخن، تفسر «الوقفة التعبوية» التى طالت بعد الإنجاز السريع للعبور، وعدم الوصول إلى الممرات كما كان مقررا فى الخطة الرئيسية.

«... فليس هناك مايدعو لأن نعطى أمريكا وبالتالى إسرائيل الاطمئنان على مصالحها، فى وقت تقف فيه ضد مصر وسوريا، إلى جانب إسرائيل. ولم نكن نعلم طوال مدة الحرب، وحتى بعدها

السادات ، الجمسى ، مبارك في الاحتفال بذكرى حرب أكتوبر

بفترة طويلة، أن أحد القادة الأمريكيين وصل من أمريكا إلى إسرائيل فجر يوم ٨ أكتوبر، للاشتراك فى التخطيط والعمل على إنقاذ الموقف العسكرى الإسرائيلى المتدهور، ويعترف اليعازر رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلى.. كانت الساعة تقترب من الثالثة صباحا. عند وصول مسئول الشرق الأوسط فى البنتاجون على طائرة عسكرية، ويحمل معه الصور الخاصة بالمعارك، ومواقع القوات كما التقطها القمر الصناعى الأمريكى .. وكان رأيه الذى عملت به إسرائيل .. أن الحل هو عزل إحدى الجبهتين السورية والمصرية عن الأخرى، وتوجيه ضربة مكثفة على إحدى الجبهتين، حتى يستقيم لاسرائيل القتال على جبهة واحدة.. وأوصى بعمل اختراق لضرب رؤوس الكبارى بعد توجيه ضربة قوية لسلاح المدرعات وأرتال الدبابات المصرية على الضفة الشرقية للقناة لشل فعاليتها، ومحاولة جذب القوات الجوية لمعارك بعيدة عن أرض المعركة، مما يشل عمل صواريخ «سام ٦».

وبعدها بدأ تدفق السلاح على



إسـرائيل من مطار العريش، وفى مـقدمـة هذه الأسلحة صواريخ «سيدوندر».

● وفى تمام السـاعـة الثـامنة عـشـرة والدقيقة العاشرة من يوم الثلاثاء ٩ أكتوبر أبلغ كيسنجر السفير الأمريكي دينتز قرار الرئيس الأمريكي نيكسون .. إرسال جميع قطع الغـيـار والمعـدات المطلوبة، وكل التجهيزات والمعدات الإلكترونية عدا قنابل الليزر، وتعويض إسرائيل عن كل ماتفقده!

وأخذت الإمدادات العسكرية الأمريكية تصل مطار العريش يوم ١٠ أكتوبر.

ويمضى المشير عبدالغنى الجـمسى قائلا ..

«وبالفعل اتخذ الرئيس نيكسون قرارا يوم ١٣ أكتوبر باقامة جسر جوى أمريكى تسـتـخـدم فـيـه طائرات النقل العـسكرية الأمريكية لنقل احتياجات إسـرائيل رأسـا من المستودعات ..

هذا والقـوات المصـرية مـازالت فى «الوقـفـة التـعـبـوية» ولم يكن التـخـطيط العـسكرى قـاصـرا أبدا على تدمـيـر خط بارليف كـهدف نهـائى، بل كـان التـخطيط يهـدف إلى تحـقـيق هدف اسـتـراتيـجي عـسكرى، وهو الوصـول إلى خط المضـايق»

ويأتى صوته صادقا :

«لقـد كـان القـائد العـام الفـريق أول أحـمـد إسمـاعـيل حـذرا أكثر مما يجب، وأبطأ مما يجب، مما دعـاه إلى اسـتـمـرار «الوقـفـة التـعـبـوية» من ١٠ إلى ١٣ أكـتـوبر، وأتاحت هذه الفـتـرة لأمـريكا إمـداد إسـرائيل بالأسلحـة، كـمـا قـامت بعمل استطلاع جوى لجبهة سيناء وعمق الدولة وفى يوم ١٣ اكـتـشـفت أن الفـرقـة ٢١ مـدرعـة انتـقلت من غـرب القناة إلى شرقها..

وعلق قائلا .. «إن الإدارة السياسية للحــرب، لابد أن تنطلق من العـــمـل العسكرى الذى يتحقق فى ميدان القتال وليس العكس!».

آخر الحروب!

ويتـسـاءل .. هل تصـرفات إسـرائيل منذ حـرب أكـتـوبر، توحى بأنهـا تسـعى للسـلام.؟ أم أنهـا تسـعى لفرض الأمـر الواقع على العـرب..؟! .. لقد قـال ديان، «إن يونيـو ١٩٦٧ هى الحـرب التى انهت كل الحروب»!

ونادى الرئيس الراحل السـادات .. أن .. «تكون حـرب أكـتـوبر هى آخـر الحـروب..»، و«لكن الحـقـيـقـة الواضـحـة للعـيـان، أن الحـرب الرابعـة فـرضت حـتـمـيـتـهـا فى أكـتـوبر ٧٣، وسـتـفـرض الحرب الخامسـة حـتـمـيتـهـا إذا لم يكن هناك مفر منها».

صـحيح أن الحرب والسـلام يتحـققان بإرادة مشـتـركة وبتعاون أطراف النزاع، ويطرح الجمسى السؤال من جديد.. هل حـرب أكـتـوبر آخـر الحـروب..؟ ويجيب.. .

الحقيقة المؤكدة .. «أن حرب أكتوبر ليست آخر الحروب .. لذلك لم يكن غريبا بعد توقيع الاتفاقية المصرية الإسرائيلية أن يستدعينى السادات يوم الثلاثاء ٣ أكتوبر ٧٨ فى القناطر ويبلغنى أن «مرحلة جديدة» قد بدأت لذلك قررت إجراء تغيير شامل فى مؤسسات الدولة وأجهزتها، وتعيين قيادة عسكرية جديدة، وتغيير اسم الوزارة من «وزارة الحربية»، إلى «وزارة الدفاع».

«وهكذا لم تكد الحرب تنتهى حتى انتهت خدمتى».!

كامب دافيد!.

وكان قد طالب – قبيل سفر الوفد المصرى إلى كامب دافيد – بانضمام أحد القادة العسكريين إلى الوفد المصرى، ولم يوافق الرئيس السادات على هذا الاقتراح، وعادت لنا سيناء بقيود شديدة، كى تضع اسرائيل فى الموقف العسكرى الاستراتيجى الأقوى!.

ورغم إبداء رأيه بوضوح فى خطورة الدور الأمريكى، ومعارضته للاتفاقية المصرية الإسرائيلية، ورغم إعلان السادات أن الجمسى باق إلى نهاية العمر ..وأعلن .. «ستكون هذه هى وصيتى، ألا يترك الجمسى القوات المسلحة أبدا» وصدر بذلك قانون لم ينفذ!

إلا أنه ساير وشارك فى كل مالم يوافق عليه!. وهو هنا يشترك فى هذه الظاهرة مع عدد آخر من الشخصيات المصرية التى لعبت أدوارا سياسية مهمة .. والتى لم يعرف عنها دفاعها عن وجهة نظرها، ولا حتى عدم المشاركة فى عمل لاتوافق عليه، وخاصة عندما يكون الخلاف حول قضايا جوهرية.

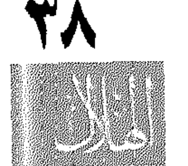
كذلك فعل – مثلا ، حافظ إسماعيل وصاحب كتاب «أمن مصر القومى» الذى نلمس فيه هذه المواقف.

ولعل ذلك يعود إلى المناخ السياسى السائد، أو إلى أصولهم العسكرية التى تفرض عليهم «نفذ ثم ناقش»، الذى يفسر .. لماذا يغير العديد من أصحاب المناصب آراءهم بعد تركهم مناصبهم..

يقول الجمسى .. إنه اعترض على الاشتراك فى مفاوضات الكيلو ١٠١ .. «بعد أن أمضيت حياتى العسكرية كلها فى حرب ضد إسرائيل فضلا عن أن حرب أكتوبر لم تكن قد انتهت بعد، برغم توقف القتال مؤقتا، وليس هناك مايدعو لبحث أى موضوع عسكرى معهم، واعتذرت للقائد العام راجيا تعيين آخر يقوم بهذه المهمة .. ورفض الفريق أحمد إسماعيل رأيى وطلب تنفيذ المهمة فأذعنت!

عندما دمعت عيناه!

ويذكر أنه عندما دعى لحضور اجتماع المفاوضات بين الوفدين المصرى



والأمريكى فى أسوان، والذى حضره حينذاك إسماعيل فهمى وزير الخارجية لإجراء المفاوضات للوصول إلى اتفاقية فض الاشتباك والفصل بين القوات.

كانت المفاجأة عندما ذكر كيسنجر خلال الاجتماع أن الرئيس السادات وافق على تخفيض حجم القوات المصرية على الضفة الشرقية للقناة لتصل إلى سبعة آلاف رجل وثلاثين دبابة وشعرت بفداحة هذا التخفيض الذى سيحدث لقواتنا، بعد أن كان لنا قوات جيشين يصل عدد أفرادهما إلى أكثر من عشرة أمثال العدد المقترح!

وأبديت رفضى هذا التخفيض، وقلت بحدة: «إنك تعطى إسرائيل كل مايضمن تأمين قواتها.. وتحرمنا من كل مايضمن تأمين قواتنا .. ولا أوافق على ذلك كرئيس أركان حرب القوات المسلحة ولايمكننى أن أجد المبرر له، وفى انفعال غادرت غرفة الاجتماعات بعد أن اغرورقت عيناى بالدموع.

ويضيف .. «وكان هذا من أصعب المواقف التى تعرضت لها».

كان ذلك أصعب وأسوأ من أيام القتال، يقول «كنت أدرك الجهد والتضحيات التى تحملتها القوات المصرية فى القتال، وعدم وجود مبرر لتقديم هذا التنازل الكبير سياسيا أو عسكريا...»

واستدعانى الرئيس فى اليوم التالى .. وقال إنه علم بغضبى، وعدم موافقتى..ولكن الإتفاق الذى تم مع كيسنجر يجب الالتزام به.

ووقع المشير الجمسى الاتفاق مع رئيس الأركان الإسرائيلى!

★★★

اختفى أحد عمالقة حرب أكتوبر.

والمشير الجمسى بشخصيته ودوره وتاريخه يستحق أعظم تكريم، واقترح أن ينشر د.سمير سرحان «مذكرات الجمسى» فى مشروع القراءة للجميع، وهو مدرسة فى الوطنية، وضع فيه رحيق تجاربه، ولمس العديد من عناصر الهزيمة والكثير من عوامل النصر، وهو - بحق - أهم الكتب التى صدرت خلال ربع القرن الأخير..

كما اقترح أيضا على محافظ بورسعيد أن يوضع تمثال المشير الجمسى فى مدخل قناة السويس، فله فضل المساهمة فى العبور والتحرير وعودة الملاحة الدولية إلى قناة السويس.

تحية إلى روح الفارس الشجاع، الذى رحل ولم يطلب لنفسه شيئا، تاركا وراءه نموذجا حيا للعطاء للوطن، الذى كان واحدا من أبطاله المعدودين فى العالم أجمع. ■

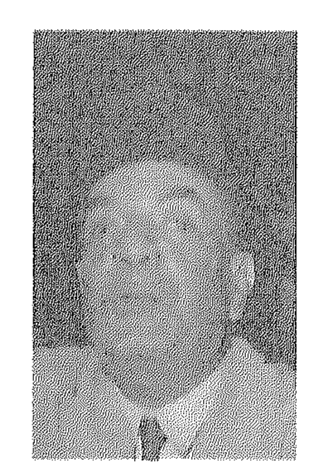


آن الأوان للنزول من السندرة إلى المطبخ

بقلم
د. صلاح قنصوه

كلما اتسعت المسافة بين النظام الحاكم ومعارضيه فى بلد ما، تقلصت بطبيعة الحال حدود التسامح والحرية. وكلما أدرك النظام أنه لا يحظى بالموافقة عليه والرضا به لدى معظم المواطنين، وتيقن من افتقاده للاستقرار؛ انكمشت مساحة الديمقراطية والحوار الذى يرحب بالتعددية والمشاركة فى اتخاذ القرار. فعندئذ تقوم السلطة «بطمس» هذه المسافة أو الخلاف بين النظام والجماهير بحيث لا يبدو سوى الاجماع والاتفاق بينهما فى كتلة متجانسة واحدة. ومن ثم يصبح المعارضون حالات إجرامية، وليس مواقف سياسية، يتعامل معها القانون الجنائى ومن قبله أجهزة الأمن والمخابرات. أو يعزلون فى معتقلات تقوم بدور الحجر الصحى الذى يحول دون عدوى الآخرين، وبدور الأمثولة والعبرة لغيرهم من المواطنين.

والإجراء الأخير ليس أمرا جديدا للنظم الاستبدادية، ولكن الجديد هو عملية «الطمس» التى استحدثها ممهداً لهزيمة ٦٧. فقد أقام النظام سُتاراً كثيفاً من الشعارات شديدة الطموح مثل الحرية، والاشتراكية والوحدة العربية، وشكل من هذا الستار نسيجاً لواقع وهمى بديل للواقع الفعلى الذى انصرفت



حافظ عفيفى



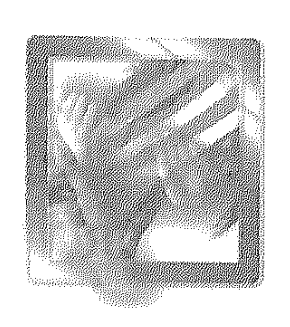
طلعت حرب باشا

الجماهير عن التعامل معه قانعة مزهوة بذلك الخيال الذى تجسد فى الإعلام والفنون، والأغانى، والأناشيد، والمقررات القومية والبيانات التاريخية.

وعندما استيقظ المفكرون والمثقفون على انهيار الآمال وانقشاع الأوهام، كانت ردود أفعالهم ملائمة لقدراتهم وعاداتهم المألوفة التى لم تجرب من قبل ممارسة الفعل السياسى أو تقدير الواقع الموضوعى. فجاءت استجاباتهم على صعيد نوع زائف من المثالية العقلية. فأقبلوا جميعا على نقد الفكر أو العقل العربى، وزاوجوا بين ما يسمى بالأصالة والمعاصرة، ونشطوا إلى «تجديد الفكر العربى»، والدعوة إلى الأخذ بأساليب العلم ووسائل التكنولوجيا لصياغة الدولة العصرية، أو العودة إلى القيم الروحية الدينية الأصيلة.

ولا ينبغى أن نلقى اللوم على هؤلاء المفكرين والمثقفين ، لأنهم ، بالرغم منهم، ألفوا التعامل مع واقع وهمى بديل نسجته السلطة ليكون ستاراً يحجب أو «يطمس» المسافة بين الحاكم وسائر المواطنين.

ومن ثم استعان المثقفون بتقنيات نفسية وعقلية معينة عندما تبين لهم الإخفاق فى تحقيق المواطنة الفعلية والحفاظ عليها، أو على الأقل تحديدها وتعريفها. فحولوا يأسهم واستسلامهم إلى موقف يتقنع ويتنكر تحت تسميات ذات جرس آسر لعلها توحى بمقاومة أو جسارة دون أن تحمل مضمونا حقيقيا للمقاومة أو الجسارة. فلم يعد المفكر يبحث فى نطاق الوضع الممكن أو الواقع وما يتطلبه الالتزام إزاءه، بل عمد إلى تحويل فشله وتصعيده إلى سماوات الشعارات التى لا تكلف صاحبها شيئا بقدر ما تفيد فى صرف الانتباه عن المسئولية المباشرة، فيخرج المفكر من ساحة المعركة أو ميدان السياسة آمنا موفوراً، وقد أفلح فى إطلاق سحب الدخان الكلامية لتأمين الفرار.



ورغم التنوعات الهائلة العدد فى طرح المأزق لدى أصحاب «المثالية الزائفة»، إلا أنهم يشتركون جميعا، مع تفاوت فى درجة العمق أو السطحية، وتفضيل أجهزة اصطلاحية معينة، يشتركون فى اختزالهم الطريق الطويل بين الوسائط والمجالات المحددة من جهة، وبين الأهداف المعلنة من جهة أخرى: فهم يقفزون مباشرة إلى المثل والأهداف العليا. وعلينا أن نسلم معاً بأن الخلاف الحقيقى لا ينبغى أن يكون دائراً حول هذه المثل والقيم العليا، بل ينبغى أن يبدأ الخلاف عند التحديد النوعى للمشكلات القائمة، والخطوات المؤدية إلى حلها تحقيقاً لهذه المثل والأهداف فى نطاق أوضاع وشروط معينة. فهنالك يمكن أن تتعدد الاجتهادات والبرامج، بينما ما يواجهنا من هذه المثاليات الزائفة، فى معظم الأحيان، هو التفكير القائم على الدخول فى «دور منطقى» تتحول فيه أو تنتقل النتيجة (أى المطالب والأهداف) إلى المقدمة (أى الشروط والوسائل التى تحققها).

المثالية الزائفة

ومهما يكن من أمر المثالية الزائفة، فإنها يمكن أن تصنف إلى أنماط رئيسية ثلاثة، وهى التى جاءت استجابة لهزيمة يونيو. فمنها ما يمكن تسميته بالنقد المتعالى، ومنها ما يطلق عليه المشروعات الحضارية النهضوية، ومنها نزعات التنادى بالعودة إلى جادة القيم الدينية الأصيلة. فأما طوائف النقد المتعالى فتطل جميعا من مرصد بعيد للنظر فى وقائع المأزق لتختزلها إلى بعد واحد ييسر لها عمليات التحليل والتفسير، ومن ثم العلاج.

فهناك من ينطلق من افتراض وجود «عقل عربى» ويمضى متحمسا فى تعقب مراحل تكونه وبيان عناصر تركيبه.

ولا يمكن أن نتوقع من هذا الافتراض أن يؤدى إلى نتائج متماثلة فى كل زمان، لأن هذا العقل المزعوم أقرب ما يكون كياناً ميتافيزيقيا تتباين من حوله شتى التصورات. ولا أحسب أن هذا الافتراض شيء مفيد لأنه أمر تعسفى مفروض على وقائع التاريخ وأحداثه، وليس هناك بنية عقلية مستمرة للأمة، أو منهج واحد ثابت للتفكير. وأقصى ما يمكن أن نفترض وجوده هو صبغة سائدة للثقافة ما تلبث أن تتغير من عصر إلى عصر عبر المراحل المختلفة للممارسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وربما أفضى ذلك الزعم بوجود عقل عربى إلى التسليم بكل الآراء العنصرية السيئة السمعة.

ومن ألوان النقد المتعالى التناول

المسطح المشكلات وردها إلى عامل وحيد يختار من بين عوامل متعددة ، ويجرى تكريسه تفسيراً لكل صور الانحراف أو الاخفاق مثل القول بغياب الفكر العلمى، أو الضمير الخلقى، أو التسلح بالتكنولوجيا. وهو نقد لا يبذل أى جهد فى التحليل الشامل للسياق الاجتماعى والاقتصادى والسياسى، فيكفيه الوعظ والتقريع.

وقد ينضم إلى هذا النوع اليسير من النقد تفسير كل تغير أو انحراف بكونه ظاهرة عالمية جريا على نمط تفسير التدهور الاقتصادى بالمتغيرات الدولية.

ولا بأس أحياناً بهذا التفسير، ولكن بشرط ألا يعنى أن ما يحدث لدينا هو نتيجة لحدوثه فى الخارج. فالأصح هو أن ما يحدث فى الخارج إنما هو نتيجة لمتغيرات معينة إذا ما نشأت لدينا فلابد أن يقع ما يماثل نتائجها فى الخارج، فالمتغيرات المتماثلة تحدث نتائج متماثلة إذا ما تشابه السياق الذى تعمل فيه. وليست المسألة زحفاً خارجياً وقدراً عالميا لا مرد له.

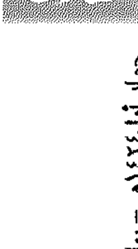
أما المشروعات الحضارية والنهضوية، فهى تنطلق جميعا من شعور عميق بالإحباط القومى الذى نشأ عن الوعى بالهزيمة والعجز عن إعادة البناء. وكان لابد لهذا الشعور أن يشق قنوات متعددة من النقد الذاتى تصب جميعا فى هدف مشترك هو استعادة ما يسمى «بالهوية» عن طريق إعادة رسم حدودها وتقييم معالمها. وتتراوح المشروعات الحضارية والنهضوية فى هذا الصدد، بين قطبين على متصل واحد، هما ما يسمى «بالتحديث» من جهة ، والإلحاح على ما يسمى «بالخصوصية» من جهة أخرى.

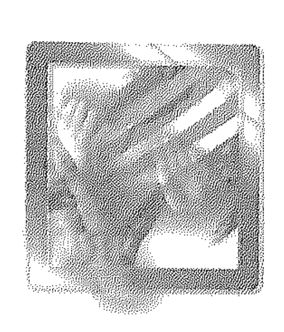
والمتصل الواحد الذى يجمع تلك المشروعات هو ما يسمى فى علم النفس الاجتماعى «بتغيير الاتجاهات» إزاء مجالات الواقع المتعددة. فهى تعنى جميعا بالجوانب النفسية والعقلية، وتلح على إبراز أهمية الأفكار والمثل العليا، ولا شأن لها بالبنية أو القاعدة الموضوعية التى تؤلف الأساس الاقتصادى الاجتماعى للأمة. ولا توظف المعطيات التاريخية إلا بوصفها واجهات متحفية ينتقى منها المفكر ما يؤكد به تلك السمات النفسية والعقلية التى تتخذ معياراً لرسم ملامح الهوية المنّوه عنها عند كل مشروع من تلك المشروعات.

فهى تتفق إذن فى تأمين المسافة البعيدة والانفصال عن أية شبهة فى الدعوة إلى تغيير جذرى فى بنية المجتمع . فهذه فى نظرهم مسألة مبتذلة لا ينبغى التورط فى تناولها، وحسبها نقل تبعات المعركة أو هموم البناء إلى مجال الفكر والسلوك الفردى فى أغلب الأحيان.

مفهوم الهوية

ولا ريب أن مفهوم النهضة أو





الحضارة أو الهوية سواء أهاب بالتحديث الليبرالى، أو أشاد بالجوانب المنتقاة من عصر ذهبى قديم، أو موهوم ، هو مفهوم آمن لا يعرض صاحبه للمساءلة من جهات الضبط والتحقيق. بل إنه يخلع على أصحابه رداء المهابة والتوقير. فهو لا يواجه المشكلات الفعلية التى يعانيها المواطنون بأن ينازلها فى مجالها وحقلها الأصلى فى الاقتصاد والسياسة، بل يلوذ أصحابه بالمجال العقلى والنفسى الذى يتخذون منه التعريفات المستعارة (وليس الواقعية الفعلية) للمشكلات بحيث تظل أيديهم نظيفة ناعمة، ونائية عن المواجهة المباشرة للواقع. وعلى هذا الوجه تقوم شعارات النهضة والهوية والحضارة بوظيفة المخابىء أو الأقنعة التى تذود عنهم غبار المعارك الحقيقية فى الساحة الموضوعية المادية بأوضاعها ومشاكلها وتبعاتها.

ويعبر هذا النوع من «الوعى المستعار» عن الوضع الواقعى للانكسار أو الركود أو العجز عن إعادة إنتاج الذات المادية للأمة، ففى غيبة الإنتاج الحقيقى يتقهقر الوعى ليصبح مستهلكاً لصيغ جاهزة من المعلبات الثقافية.

فالمواطن لم يعد يملك ماضيه لأنه قد فر من يديه إلى غير رجعة. كما لا يملك حاضره لأن الحاضر يملكه الأقوياء خارج الحدود. ومن هنا عليه إما أن «يستهلك» ما هو جاهز فى الماضى، أى التراث، وهو ما لم ننتجه بأنفسنا بل أنتجه الأسلاف، وإما أن «نستهلك» ما يفد عليه من الخارج، وهو جاهز لم يصنعه بنفسه.

وفى الحالين، ينأى أصحاب المشروعات الحضارية والنهضوية عن مخاطرة الإنتاج مؤثرين السلامة والعافية باستهلاك ما أنتجه الغير، السلف أو الغرب، مستخدمين فى ذلك تسميات مثيرة جذابة.

النظريات الفاسدة

ولئن كنا لا ننحى باللائمة كثيراً على كتّاب ما بعد ٦٧ لأنهم كانوا يكتبون فى ظل سلطة غاشمة، وتلويح بأن لا صوت يعلو على صوت المعركة، فإننا لا نجد ما نعذر به كتّاب اليوم فى استجاباتهم لدواعى الخذلان والاحباط سواء فى دوائر السياسة أو الاقتصاد.

فثمة مندوحة للمراجعة ووضع البرامج بدلاً من أن نكون دمى تحركها مصطلحات الكتّاب الاستراتيجيين الأمريكيين.

فنحن اليوم نصنع على أفضل وجه ما يتطلبونه منا لتبرير نظرياتهم . وبدلاً من كوننا ضحايا نجعل من أنفسنا جناة، أو نتيح لهم الذرائع لبيان صحة تحليلاتهم وتفسيراتهم المخاتلة ، واستحقاقنا للعقاب.

ويبدو أننا استمرأنا أن نخوض المعارك البديلة وقنعنا بأسلحة الألفاظ والمصطلحات التى عادة ما تكون أسلحة فاسدة ترتد إلى صدورنا وليس إلى أفواهنا وألسنتنا التى تشدقنا بواسطتها.

فأما نظرية صدام الحضارات، وهى نظرية فاسدة علمياً، فنسعى إلى تحقيقها بتقسيم العالم إلى مؤمنين وكفرة يقبع كل منهم فى فسطاطليناصب العداء للآخر.

ونتحدث عن أمة إسلامية بالمعنى السياسى ، بينما المعنى الأصلى الصحيح جماعة المؤمنين بالإسلام سواء فى أندونيسيا أو أمريكا أو فرنسا، فلكل وطنه ونظام حكمه وجيشه وإلا كان المسلم الأمريكى جاسوسا لبلده.

ونكثر الحديث عن المسيحية الصهيونية فى أمريكا ونجعلها برنامج الإدارة الأمريكية واستراتيجيتها، ثم نقارن بين الإسلام ، وهو الدين السماوى والدعوة الإنسانية الشاملة، بينه وبين الغرب.

لقد حاول الأمريكيون تصنيع عدو جديد، فسارعنا إلى تقديمه لهم جاهزا بأكثر مما يطلبون منا .

أما المصطلح الذى شاع وغلب على كل الكتابات والندوات والإذاعات مرئية ومسموعة، فهو «الآخر».

ولا أدرى كيف تسرب ذلك المفهوم من فلسفة سارتر الوجودية ليتربع على عرش التحليلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والفلسفية، بل والفنية كما حدث فى السينما عندنا.. بيد أنى أعتقد أن انسلاخه من الفكر الوجودى الذى يتحدث عن الأفراد وانتقاله إلى هذه المجالات شديدة الاتساع، أعتقد أنه أمر يؤدى إلى التخليط والتشويش حيث لا يميز شيئا عن آخر ولا يمكن أن يكون أداة تحليل أو تفسير. وأعتقد أنه، إذا ما أتيح لى أن أستعير عبارة «ماركس»، أفيون المثقفين العرب. فهم أولاً يتعاطونه وهم قعود على المصاطب الأنيقة للندوات والمؤتمرات حيث الامتناع عن الفكر والعمل المثمر، والاستنامة إلى راحة التخدير وطمأنينة الدماغ، فكل شىء قد تم تصنيفه. ولا يعنى هذا التعاطى السكون والصمت ، بل على النقيض من ذلك ، تؤدى «قعدة التعاطى» إلى الصخب والشغب، فهذا هو ما يحدث اليوم على الساحة الفكرية . فمهمة المثقفين الآن هى إحداث الشغب بين الألفاظ والمصطلحات مثل: إسلام - غرب، إسلامى - علمانى ، عربى مسلم - مسيحى صهيونى، منبطح انهزامى - مقاوم استشهادى... إلخ .

ولنأخذ مثالاً واحداً مما ينثال علينا من صفة «الآخر» . وقبل ذلك علينا أن نذكر بأن استخدام وصف الآخر وإطلاقه على مجموعة كبيرة من أية مفردات كانت إنما يفترض ابتداءً أن هذه المجموعة - الآخر متجانسة فيما بينها ولا يوجد أى اختلاف بين مكوناتها فكلها متشابهة



متماثلة وتعامل فى مجموعها كفرد واحد.

ولنمض إلى «الآخر» الذى هو الغرب عند معظم من يستخدمون المصطلح. هل هو شىء واحد؟ هل هو فريق متحد واحد؟ هل مصالحه واحدة؟ هل تتماثل مكوناته؟ هل هو حزب واحد؟ فكر واحد؟ دين واحد؟ طائفة واحدة؟.

بالطبع لا، فالحربان العالميتان كانتا بين بعض مكوناته.

وإذا ما تأملنا مسألة العراق، أين احتشدت أكثر الجماهير ضد حرب العراق؟ أليس فى الغرب؟ أين تظاهر الشباب ضد العولة وسقط من بينهم قتلى؟ هل اتفق الغرب معاً فى مجلس الأمن عند مناقشة غزو العراق؟ أين نشأت الماركسية؟ وثمة أسئلة كثيرة لا يتسع المقام لبيانها.

فكرة «الآخر»

إن صمويل هنتنجتون هو أبرز القائلين مثلنا بفكرة الآخر حيث مقولته الشهيرة ، الغرب والباقى (أى الآخر) West and the rest ، وكل ما ذكره تمييزا للغرب إنما يعود كله دون استثناء إلى صعود الرأسمالية وما أدت إليه من ديمقراطية وتطور للعلم والتكنولوجيا ومن ثم غزو العالم لفتح الأسواق والاستيلاء على المواد الخام والأيدى العاملة الرخيصة، وقبل ذلك نشأة الأوطان الحديثة أى الدول القومية والمنافسة بينها.

إن السر فى تقدم الغرب وتخلفنا هو الشروط المواتية لنشأة الرأسمالية وصعود البورجوازية التى كنا فى الشرق أحد روافدها. ولكننا عندما أوشكنا أن نصنع مثله حالت دوننا عوامل موضوعية كثيرة.

كلمة السر

ففى مصر ، على سبيل المثال، كما يقول د. رءوف عباس بدأت تبرز «طبقة وسطى» (أى بورجوازية) لازدهار نشاط رأس المال التجارى فى القرون ١٦، ١٧، ١٨، وإعادة بناء شبكة التجارة الدولية التى تربط بين عالم المحيط الهندى بعالم البحر المتوسط عبر البحر الأحمر ومصر، كما أخذ رأس المال التجارى يلعب دورا بارزا فى تجرفة الزراعة والاستثمار فى الصناعة، وتطوير العمل المنزلى، وظهور درجة من درجات تقسيم العمل. وفى إطار هذه التطورات ازدهرت صناعة السكر فى مصر تلبية للطلب الأوربى لها وكذلك المنسوجات المصرية فى أسواق فرنسا وهولندا وإسبانيا . ويستطرد د. رءوف قائلاً إن فى منتصف القرن الثامن عشر انقطعت مسيرة التطور لأسباب داخلية وخارجية منها سطوة المماليك فى مصر الذين كانوا يتطلعون إلى دعم سلطتهم عسكريا لتحقيق قدر من الاستقلال عن الدولة العثمانية، أو ضمان بقاء السلطة فى أيديهم على الأقل ، ولهذا أثقلوا التجارة والصناعة بالمكوس والضرائب ، وشجعوا التجار الأوربيين على غزو السوق

المحلية ومنافسة الإنتاج المحلى.. وذلك نظير ما يدفعونه لهم.

وتحت عنوان «طلعت حرب كلمة السر لحل الكثير من المشاكل المعاصرة» كتب الأستاذ مصطفى نبيل ، طالب الاقتصادى الكبير فى وقت مبكر من القرن العشرين بأداة فاعلة من أجل تراكم رأس المال الوطنى وتوظيفه من خلال بنك وطنى يلبى الاحتياجات الاقتصادية بعد أن زاحمت البضائع المستوردة المنتجات المحلية. كما طالب بعدم قصر إنفاق المدخرات المصرية على شراء الأرض الزراعية والعقارات. ونادى بالتصنيع وعدم الاعتماد على المحصول الواحد وهو القطن. وهو يدرك أن الاستقلال السياسى لابد أن يصاحبه الاستقلال الاقتصادى.

ولقد استطاع طلعت حرب كطليعة للرأسمالية الوطنية فى ظل احتلال أجنبى وملكية فاسدة أن يقيم مشروعات احتضنت كل مجالات الإبداع المصرى ، ومنها السينما والمسرح.

ولم يكن من الممكن للاحتلال البريطانى أن يتيح للرأسمالية المصرية فرصة الازدهار والمنافسة، فنحى طلعت حرب عام ١٩٤١ عن إدارته لبنك مصر وأحل مكانه صديق الإنجليز الوفى حافظ عفيفى والذى أصبح رئيساً للديوان الملكى. وهذه دلالة رمزية واضحة على أن العدو الحقيقى للاستعمار والملك هو الرأسمالية الوطنية.

وجاءت حركة الجيش لتمارس تجاربها المتضاربة حتى بلغت أخيراً مرحلة رأسمالية الدولة بمفاسدها المعروفة فقضت على التطور الطبيعى للرأسمالية الوطنية. وعندما أتى السادات وارتبط بالمصالح الأمريكية قضى على آخر أمل للرأسمالية الوطنية التى أحل مكانها شركات التوكيلات والعمولات فيما يسمى بالانفتاح الذى أدى تلقائيا إلى ظهور فئة جديدة من رجال الأعمال المتخصصين فى استنزاف أموال البنوك والهروب بها خارج مصر.

ما الحل أو ما العمل إذن؟

ينبغى أن نقلل من استهلاك الطاقة الكهربائية فى الصريخ فى الميكروفونات ، وإسالة أنهار المداد فى إعداد الخطابات والبيانات التى يمكن ايجازها فى العبارة الشعبية الطريفة: «شيلوه من فوقى لأموته» (ارفعوه من فوقى لكى أقتله) والمقصود هو الآخر اللعين الذى هو الغرب.

وبدلاً من ذلك علينا أن ندرس لماذا سبقنا ، واستعمرنا. والإجابة هى أنه استطاع أن يقيم رأسماليته الوطنية، التى أدت إلى أن ينشىء كل إقليم من أقاليمه دولته القومية ، أى وطنه الذى يستوعب أمته. وأن يطور علمه وتكنولوجيته، وأن يرفع من قيمة العصامية أو الفردية ، ويسمح بالتعددية ، وتداول السلطة . ومن ثم تزدهر جميع الآراء ومنها نقد الرأسمالية نفسها. ■

مراجعة الذات

جزء خاص



الأمريكيون ونظامنا التعليمى

بقلم
د. جلال أمين

لم تمض أكثر من أيام معدودة على احتلال الأمريكيين للعراق، حتى أعلن مسئولون فى الإدارة الأمريكية عزمهم على تغيير مناهج التعليم فى العراق، ومراجعة الكتب المقررة على الطلاب، كتابا كتابا، لحذف منها مالا يجوز ووضع أشياء أخرى محلها بل وقيل إن الولايات المتحدة ستقوم بنفسها بإعداد وطبع بعض الكتب وتوزيعها على التلاميذ العراقيين، هدية منها إليهم.

وقد قال الأمريكيون فى تبرير ذلك أشياء كثيرة غريبة تتلخص فى الآتى: قالوا أولا إنهم يريدون تخليص الكتب المدرسية فى العراق من أى شئ ينطوى على تقديس أو تمجيد الرؤساء كصدام حسين مثلا. وقالوا أيضا إن نظام التعليم فى البلاد العربية كلها، وليس فى العراق وحده، نظام لا يتفق مع نظريات التعليم والتربية الحديثة، إذ يقوم على الحفظ وترديد كلام القدماء دون فهم أو مراعاة لمتطلبات العصر، ومن ثم فهو يخلق عقليات متبلدة عاجزة عن الابتكار،

فى أهون الأحوال ، أو عقليات متعصبة بل وإرهابية فى بعض الأحوال ، مما يهدد أمن وسلام الجميع . وقيلت أيضا أشياء أخرى غريبة منها أن تغيير نظام التعليم يمكن أن يغرس فى التلاميذ حب الديمقراطية ويعلمهم التمسك بها ، فإذا بالعالم العربى شيئا فشيئا، نتيجة لتغيير نظام التعليم ، قد تحول من عالم تسوده الديكتاتورية ونظام الحزب الواحد، إلى عالم تسوده التعددية السياسية وتتداول فيه السلطة ويسوده التسامح مع الرأى المخالف أو مع «الآخر» بصفة عامة .

لم يكن غريبا أن ينهض فى بلادنا من الكتاب والمعلقين من يقول بأن هذه الأهداف الأمريكية من إصلاح نظام التعليم فى العراق والبلاد العربية الأخرى هى نفسها أهداف المصلحين العرب. ولا يهم فى الحقيقة ما إذا كانت الدعوة إلى الإصلاح تأتى من هنا أو هناك، طالما أن الهدف واحد . كان هناك بعض المحتجين الذين رفعوا شعار «بيدى لا بيد عمرو!» قاصدين بهذا أنه إذا فرض أن كان التغيير ضروريا فدعنا نقوم به نحن لا غيرنا، فهذا شأننا ولا يجب أن يكون شأن أحد سوانا .

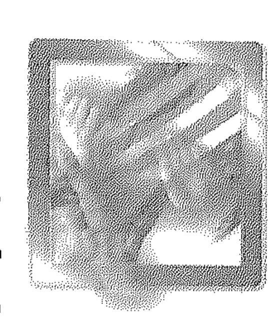
هل هو إصلاح ؟!

والحقيقة أنى منذ أن سمعت أقوال الأمريكيين عن إصلاح التعليم فى البلاد العربية وأنا أتميز غيظا وانتفض غضبا . ليس بالضبط إيمانا منى بأن المفروض أن يكون الإصلاح «بيدى لا بيد عمرو» ، ولكن لأسباب أخرى كثيرة، أهم وأخطر .

نعم إن إصلاح التعليم هو طبعا شأن داخلى، ولكن الأخطر من هذا أن التغيرات المزمع تنفيذها لا علاقة لها بالإصلاح أصلا ، بل هى فى حقيقتها أقرب إلى الإفساد منها إلى الإصلاح . وهو بالطبع ما يجب أن نتوقعه وألا نتوقع شيئا غيره ، والزعم بغير ذلك هو خداع كريه كان المفروض أن يكون واضحا كالشمس.

فأولا ليس هناك عاقل يمكن أن يصدق الزعم بأن من بين الأهداف التى تهم الإدارة الأمريكية ، إزالة الإشارات التى تنطوى على تقديس حاكم بعينه أو المبالغة فى تمجيده. فالعالم الثالث ملئ، منذ ما يقرب من نصف قرن، بالأمثلة على نظم وحكومات موالية للولايات المتحدة وتتمتع برضاها ومباركتها ، وغارقة حتى قمة رأسها فى مختلف أساليب تقديس الحاكم والمبالغة فى تمجيده، دون أن يبدر من الولايات المتحدة أى بادرة لإصلاح هذا الخلل أو تنبه إلى ضرورة التخلى عنه .

أما إذا كان الأمر يتعلق بحالة صدام حسين بالذات وحزب البعث العراقى ، وما يحيط بهما وبمبادئهما فى الكتب المدرسية من تمجيد ، فالمهمة أبسط بكثير مما يتصورون ، ويمكن أن يتم إنجازها فى يوم وليلة دون نفقات تذكر، ودون أن تكلف الإدارة الأمريكية عناء ونفقات طباعة كتب جديدة تقدمها للعراقيين كهدية. إذ يمكن للأمريكيين والاسرائيليين



أن يعتمدوا فى هذا على أى نظام جديد يحل محل نظام صدام حسين وأن يتركوا مهمة إزالة كل إشارة إلى صدام وحزب البعث للعراقيين أنفسهم إذا ترك للعراقيين حكم العراق بدلا من الأمريكيين والانجليز.

لا يمكن إذن أن يكون هذا من بين الأهداف الحقيقية لتعديل مناهج التعليم العراقية . أما إصلاح مناهج التعليم باستبعاد طريقة الحفظ وترديد كلام السلف دون فهم ، وإحلال منهج نقدى تحليلى محله يعود الطالب العراقى على التفكير المستقل ويشجع على الابتكار والإبداع ، فقد بدا أيضا فى نظرى هدفا مشكوكا جدا فيه وتعجبت من قبول كثيرين من المعلقين له وتصديقه . إذ وجدت من الصعب أن أقبل فكرة أن الإدارة الأمريكية ، ومعها الاسرائيليون ، يجدون من مصلحتهم تشجيع الابتكار والابداع العراقى ويحبون أن يروا العراقى أو العربى عموما ، وقد أصبح يفكر تفكيرا حرا مستقلا ويتخذ موقفا نقديا مما يقرأ ويسمع . والأقرب إلى التصديق أن من مصلحة الإدارة الأمريكية والاسرائيلية أن يكون العراقيون والعرب عموما أقرب إلى التخلف منهم إلى التقدم وأن تظل نظمهم التعليمية أبعد عن تشجيع روح النقد والابتكار .

أما الزعم بأن طريقتنا فى التعليم تشجع على التعصب وتخلق من التلميذ شخصا سهل القياد وتجعله فريسة سهلة للحركات الدينية المتطرفة ، مما يجعل هذه المنطقة معمل تفريخ للإرهاب، فإنه يثير فى الذهن كثيرا من المشكلات المنطقية . فبفرض أن هناك نظاما للتعليم يجعل الشخص أكثر انقيادا للغير من نظام آخر ، فلماذا يفضل الأمريكيون والاسرائيليون أن يكون العرب أقل استعدادا للانقياد للغير والخضوع لمشيئته مادام لهم ، أى للأمريكيين والاسرائيليين ، مصلحة أكيدة فى أن يجعلوا العرب منقادين لهم وخاضعين لمشيئتهم ؟ المهم فى نظر الأمريكيين والاسرائيليين ، فيما يبدو لى ، ليس هو الانقياد أم عدمه، ولكن موضوع الانقياد ووجهته . فإذا استطاعوا أن يضعوا نظاما للتعليم يجعل العرب أكثر استعدادا للانقياد للسياسة والإرادة الأمريكية وأكثر قبولا للتصالح مع اسرائيل ، ونسيان محنة الفلسطينيين ، والسكوت على طريقة إسرائيل فى إرهابهم ، فلابد أنهم سوف يفضلون هذا النظام من نظم التعليم على نظام آخر يجعل العرب أكثر استقلالا فى الرأى وأكثر حرية فى الفكر وأكثر ممارسة لملكة النقد .

فلسفة التعليم الأمريكى

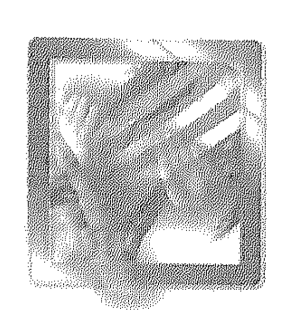
والملاحظ على أى حال، أن الأمريكيين فى داخل بلادهم، قد أرسوا عبر تاريخهم



القصير نسبيا، أسس نظام للتعليم لا يشجع أولادهم وبناتهم على النقد والتفكير المستقل. صحيح أنهم طوال تاريخهم كانوا يزعمون بغير ذلك ، ولكن هذا لا يغير من الحقيقة شيئا، وهى أن الشعب الأمريكى من أكثر شعوب العالم انقيادا لما تقوله له السلطة، ومن أقلها صبرا على من يخرج على الرأى السائد والمألوف . صحيح أن التليفزيون قد يكون مسئولا عن إضعاف الروح النقدية لدى الشعب الأمريكى أكثر من المدرسة. ولكن الحقيقة أن المدرسة الأمريكية تساهم مبكرا فى خلق هذا الاستعداد النفسى لقبول الرأى الشائع دون مناقشة، والتسليم بما تقوله السلطة دون تردد، بل والنظر نظرة الشك والريبة إلى كل معارض حقيقى أو متمرد على الرأى السائد والمألوف، وأن الحرية التى يزهو بها نظام التعليم الأمريكى هى فى أغلب الأحوال حرية فى أمور قليلة الأهمية، وتتعلق فى الأغلب بحق الاختيار بين بدائل لايوجد بينها فوارق مهمة، مثلما هو الحال فى الانتخابات السياسية حيث يظن الناخب أنه يتمتع بحرية واسعة بينما هو يختار فى الحقيقة بين حزبين ليس ثمة أى فارق مهم بينهما .

وعلى أى حال فلنفرض جدلا أن نظام التعليم الأمريكى يشجع بالفعل على تنمية ملكة النقد والاستقلال فى الرأى، ولكن يأتى التليفزيون وسائر وسائل الاعلام لتعمل فى الاتجاه المضاد تماما، فما وجه الحماس لإدخال نظام التعليم الأمريكى فى بلد كالعراق أو غيره، مادام أنه سيدخل مصحوبا بالتليفزيون الأمريكى وسائر ملامح نظام الإعلام الأمريكى؟ بل إن التليفزيون قد دخل بالفعل المدرسة الأمريكية، والمدرسة الأمريكية لا تطلب من تلاميذها أن يكفوا عن تعريض أنفسهم للتليفزيون ساعات طويلة كل يوم ، ولا تتوقع منهم غير ذلك، بل تحاول المدرسة الأمريكية (ولا شك أن هذا أيضا سيجرى تطبيقه فى العراق وغيره إذا قدر للأمريكيين تنفيذ مايريدون) تشجيع التلاميذ على التأقلم والتكيف مع مختلف مظاهر الحياة فى خارج المدرسة ومن أهمها بالطبع البرامج التليفزيونية .

هناك أمر آخر لا يقل عن كل ذلك أهمية ، وهو أن الفلسفة الأمريكية فى التعليم ، كما فى غيره، تفترض أن الديكتاتورية والتسلط والإرغام وتقليص الحريات لا تأتى كلها إلا من مصدر واحد هو الدولة، ومن ثم تفترض أن الحرية والاستقلال فى الرأى لابد أن يزيدا مع كل تقلص فى دور الدولة . وهذا الموقف يغض البصر تماما عن مصدر آخر لا يقل خطره فى العصر الحديث عن خطر سلطان الدولة فى التضييق من حريات الناس، إن لم يزد ، وهو سلطان الشركات التجارية. الفرق الحقيقى بين خطر الدولة وخطر الشركات التجارية فى تقييد حريات الناس وافقادهم استقلالهم فى الرأى، لا يتعلق بقوة الأثر بل بطريقة إحداثه، فالدولة لديها السجون وليس



للشركات التجارية مثلها. والارغام الذى يأتى من جانب الدولة غليظ وظاهر ومباشر، بينما الإرغام الذى يأتى من الشركات التجارية ناعم ومستتر وملتو. ولكن من الصعب أن نقول أيهما أسوأ من الآخر .كلاهما، تسلط الدولة وتسلط الشركات التجارية، يحول الناس إلى قطيع مطيع ومسالم، ولكن الخطر من ذلك قد يكون أكبر عندما تأتى الطاعة والمسالمة مقترنتين بالرضا الناتج عن تطويع المخ، مما إذا اقترنتا بالسخط الناتج عن استخدام العنف. فإذا جاء نظام التعليم الأمريكى ليفتح الأبواب على مصاريعها (كما لابد أن يفعل إذا دخل معه النمط الأمريكى للحياة) أمام نفوذ الشركات العملاقة التى تبيع مختلف السلع والخدمات، بما فى ذلك الخدمات الثقافية والاعلانية، فللمرء أن يتصور أثر ذلك على تشجيع أو تعطيل حرية الاختيار أو الاستقلال فى الرأى .

أخطار النمط الجديد

فإذا كان هذا النمط الجديد من التعليم والحياة المطلوب إدخاله فى بلد عربى ينتمى إلى ثقافة مغايرة، ويتبنى فى الأصل قيما مختلفة فى الحياة والعلاقات الاجتماعية، وكان المطلوب من تطبيق هذا النمط الجديد من التعليم إحلال هذه الثقافة المغايرة والقيم المختلفة، بزعم تفوقها «وتخلف» الثقافة المطلوب عزلها وإزاحتها ، فللمرء أيضا أن يتصور الخسارة المضاعفة التى ستصيب حرية الاختيار والاستقلال فى الرأى .

أضف إلى كل ذلك ماقد يترتب على هذا التغيير المخطط لنظام التعليم من زيادة فى جرعة تعليم اللغة الأجنبية، عن الحد اللازم ، وتقليل جرعة تعليم اللغة القومية، خاصة إذا كانت هذه الزيادة من ناحية والتقليل من ناحية أخرى نتيجة لمجرد تسلط أمة على أمة، دون أى مبرر مقبول يستند إلى توسيع المعارف وتعميق الفهم ، أو كانت نتيجة شعور بالدونية واحتقار النفس دون أى مبرر لهذا الشعور وهذا الاحتقار. إذا حدث ذلك فإن الخسارة والضرر يتضاعفان عدة مرات ، وتصاب الأمة ليس فقط فى عقلها وثقافتها بل وأيضا فى كبريائها واحترامها لنفسها

بل والأرجح أن يترتب على هذا التدهور فى حال اللغة العربية والتهاون فى تعليمها ضعف حتى فى الملكة الابداعية والقدرة على الابتكار. إذ أدرك علماء التربية منذ وقت طويل العلاقة بين قدرة المرء على الابداع والابتكار وبين ميله للتفكير والتعبير عن نفسه بلغته القومية أو بلغة أجنبية . قد لا تكون هذه العلاقة قوية فى ميدان العلوم الطبيعية والتكنولوجيا، ولكنها تكاد أن تكون مؤكدة فى غير ذلك من ميادين الفكر والإبداع ، كما فى العلوم الاجتماعية والدراسات الانسانية

والفلسفة والآداب. وقد وقع في يدى منذ وقت قريب تقرير قام بترجمته الدكتور عبدالرشيد صادق محمودى ونشر فى جريدة أخبار الأدب (١٥ سبتمبر ٢٠٠٢) وكاتب التقرير هو المستشرق الفرنسى لويس ماسينيون الذى كان أستاذا لطه حسين فى الجامعة المصرية (جامعة القاهرة) وكتبه فى ١٩١٣ أى منذ تسعين عاما عن حركة الأفكار الفلسفة وتدريس الفلسفة فى البلاد العربية . فإذا به يصف فى إحدى فقرات هذا التقرير حالة الطلاب المصريين الذين تلقوا تعليما حديثا ، بالعبارات الآتية :

« هؤلاء الطلاب تخرجوا فى المدارس الحكومية واطلعوا على معظم الأفكار العصرية ولكنهم لم يتعلموا مناهجنا إلا على نحو سطحي، والأسوأ من ذلك أنهم قد تلقوا هذا الإعداد الفكرى بلغة أجنبية، هى الانجليزية، دون أن تتاح لهم أى فرصة لتنمية معرفتهم بالعربية عن طريق التفكير بلغتهم الأصلية. ومن ثم فهم عاجزون تماما عن التفكير على نحو أصيل، إذ يبدو من المستحيل تقريبا (كقاعدة عامة) ابتكار أى شئ بلغة مستعارة وبأداة مصطنعة، وذلك أن الأداة لن تسمح أبدا للطاقات الكامنة فى أعماق الشخصية بأن تؤدى دورها بنفس المرونة التى تتوافر للغة الأصلية» .

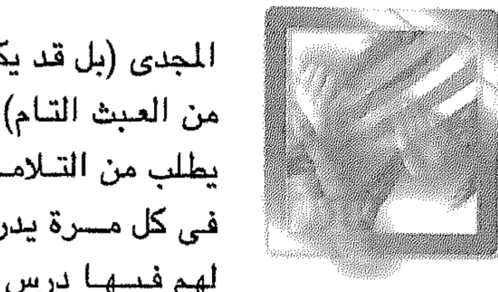
الحفظ أم الفهم ؟

دعنا الآن نتأمل بروية أكبر، هذا التحقير المستمر لطريقة الحفظ عن ظهر قلب ، كبديل للتحليل والفهم ، وهو البديل الذى يزعم أن النمط الأمريكى فى التعليم يقوم عليه ويشجعه .

فلنتفق أولا على أنه لا وجه للدفاع عن نظام للتعليم يقوم على ترديد المعلومات بغير فهم ، ويطلب من التلميذ أن يحفظ عن ظهر قلب المعلومة أو القانون العلمى بصرف النظر عما إذا كان يفهم أو لا يفهم مغزى المعلومة أو أساس القانون العلمى وسببه، ويقيم التلاميذ على أساس قدرتهم على الحفظ وقوة ذاكرتهم بدلا من القدرة على التحليل والفهم . والضرر من هذا النوع من التعليم واضح ولا يحتاج إلى بيان ، فهو فضلا عما يقترن به عادة من عذاب للتلميذ، وفقدان متعة التعلم، لابد أن يقلل من فرص الابتكار والإضافة إلى العلم ، حيث لا ابتكار ولا إضافة إلى العلم دون فهم .

كل هذا صحيح ، ولكن من الصحيح أيضا أنه ليس لكل معلومة من المعلومات ولا لكل عنصر من عناصر المعرفة سبب ينبغى دائما الإحاطة به . بعبارة أخرى، لابد من الاعتراف بأن هناك أنواعا من المعلومات ، وبعض عناصر المعرفة المطلوبة، لا يجدى معها دائما محاولة معرفة سببها ، ومن ثم قد لا يكون من المجدى أن يطلب من التلاميذ استقصاء أو معرفة هذا السبب .

فلنضرب بعض الأمثلة على ذلك. إن أسماء المدن أو الدول أو المناطق لابد بالطبع أن يكون لها أسباب، ترجع إلى ظروف أو أحداث تاريخية، ولكن من غير



المجدى (بل قد يكون من العبث التام) أن يطلب من التلاميذ فى كل مرة يدرس لهم فيها درس فى الجغرافيات أن يعرفوا أو يستقصوا السبب الذى سميت من أجله هذه المدينة أو هذا النهر بهذا الاسم دون غيره . يمكننا أن نقول مثل هذا على كثير من المعلومات الجغرافية والتاريخية . فمن المفيد مثلا أن يعرف التلميذ أن الملك الفرنسى الذى قامت فى عهده الثورة الفرنسية كان اسمه لويس السادس عشر وليس الخامس عشر أو الرابع عشر ، ولكن من العبث الإصرار على الخوض فى تفاصيل التطور التاريخى الذى أدى فى النهاية إلى أن يكون لويس الثورة الفرنسية هو السادس عشر فى الترتيب وليس أقل أو أكثر من ذلك .

إن مثل هذا يمكن أيضا قوله فى بعض الحقائق الرياضية . نعم ، هناك «سبب » بالطبع ، بمعنى من المعانى ، لكون حاصل ضرب ٥×٦ ثلاثين وليس أكثر أو أقل من ذلك . ولكن من العبث أيضا انفاق وقت على البحث عن هذا السبب ، والتلميذ الذى يتوقف فى كل خطوة من خطوات جدول الضرب بحثا عن «سبب» كل خطوة لن يحصل الكثير من العلم .

كذلك فيما يتعلق بقواعد النحو لأى لغة من اللغات . ليس من المفيد، فيما أظن ، إنفاق وقت على محاولة «فهم» لماذا كان المفعول به منصوبا فى اللغة العربية والفاعل مرفوعا بدلا من العكس . نعم ، لابد أن هذا أيضا له سبب، ولكن ليس من المفيد (لمعظم متعلمى اللغة على الأقل) معرفة هذا السبب .

إنى لا أنوى بالطبع محاولة استقصاء مايجب «حفظه» وما يستحسن «فهمه» ، ولكنى أريد فقط أن أزعم أن هناك من عناصر المعرفة اللازمة ، ماقد لا يفيد انفاق الوقت على «فهمه» ومن المفيد مع هذا «حفظه» .

هناك بعض الأمثلة الأخرى على بعض عناصر المعرفة التى لابد بالطبع من الإصرار على فهمها ولكن قد يكون من المفيد جدا، بالاضافة إلى ذلك، حفظها عن ظهر قلب. من أوضح الأمثلة على هذا أن يحفظ المسلم أجزاء من القرآن الكريم، والمسيحى أجزاء من الإنجيل. الفهم والاستيعاب مطلوبان فى كلا الحالين بالطبع، ولكن بعض الحفظ أيضا مطلوب ومفيد .

أضف إلى ذلك أيضا حفظ بعض النماذج الرفيعة من الأدب والشعر حيث لابد هنا طبعا من الفهم والاستيعاب، ولكن كم أفاد الحفظ هنا فى صقل لغة من يقوم بالحفظ وتعميق إحساسه بجمال هذه اللغة. لقد ظلت أجيال متتالية من الانجليز تحفظ أجزاء من شكسبير عن ظهر قلب، وكذلك فعلت أجيال متتالية من الفرنسيين مع راسين، ومن الألمان مع جوته... الخ

وكم أفادت أجيال من المتعلمين المصريين والعرب من حفظ القرآن الكريم وشعر المعلقات وغيرها من عيون الشعر والنثر العربي، في الارتفاع بمستوى التعبير والفصاحة، والتمكن من الحصول على الكلمة المناسبة بالضبط للمعنى المقصود. فضلا عما تتضمنه درجة معقولة من الحفظ من تمرين مفيد للنفس على ممارسة فضيلة الصبر والانضباط لا تختلف كثيرا عما يستهدف تدريب الجنود على القيام ببعض الأعمال الشاقة، التي قد لا تكون ذات فائدة في حد ذاتها إلا تحقيق هذا الانضباط نفسه . إنى لا أقول هذا مدفوعا بالرغبة في الدفاع عن نظام قديم في التعليم بالحق أو بالباطل، ولكن فقط لألفت النظر إلى عدة أمور مهمة كثيرا ما تغيب عن البال تحت وطأة الاستخفاف بكل ما هو قديم وتقديس كل ما هو جديد . من هذه الأمور أن الحفظ عن ظهر قلب ليس مستهجنا ومرفوضا في جميع الأحوال، وهناك من المهتمين بأمر التعليم في الولايات المتحدة والغرب عموما من يشكون من قلة حصيلة التلاميذ وتدهورها بسبب المبالغة في ترك الحرية للتلاميذ في تحديد ما يتعلمونه ومالا يتعلمونه ، ما يحصلونه من معلومات وما يتركونه .

وقد شكا بعض التربويين من أن السماح للطفل الصغير بأن يسأل باستمرار عن سبب أو تبرير لما يطلبه منه أبوه أو أمه (وكذلك معلمه)، كثيرا ما يبلغ درجة الشطط. وهناك من التربويين الأمريكيين أيضا من يمتدح في نظام التعليم الياباني أوالألماني وجود درجة أكبر من الصرامة والانضباط والاصرار على تحصيل التلميذ حدا أدنى من المعلومات بالمقارنة بما يطالب به عادة التلميذ الأمريكي .

بل إنى أذهب إلى حد القول بأن الميل المتزايد لانتشار العنف في المجتمع الأمريكي، بل وداخل المدرسة الأمريكية نفسها، قد لا يكون منبت الصلة بنظام في التعليم تسيطر عليه روح التدليل الزائد للتلاميذ والمبالغة في التساهل معهم، بزعم تنمية الشخصية واحترام الميول الفردية وتشجيع التفرد والتميز، وهو نظام مساعد على خلق مجتمع من أكثر مجتمعات العالم نفورا من أى خروج عن المألوف، اللهم إلا فيما يتعلق بإنتاج السلع وتسويقها .

من الحماقة القصوى إذن أن نظن أن أحدا قد توصل بعد إلى النظام المثالي في التعليم والتربية ، أو أن المجتمع الأمريكي بالذات لديه ما يعلمه لبقية البشر في هذا الصدد أكثر من غيره . وإذا كان التواضع فضيلة مطلوبة ومحببة ، فهو أكثر ما يكون وجوبا عندما يصل الأمر إلى حد محاولة تشكيل عقول الناس وتغيير طريقتهم في التفكير . ■



مراجعة الذات

جزء خاص



إشكالية الهوية الثقافية

بقلم
د. مراد وهبة

عنوان هذا المقال يلزم منه تحديد معنى ثلاثة مفاهيم: الإشكالية والهوية والثقافة، ثم بيان العلاقة بينها.

الإشكالية هى خاصية لحكم يمكن أن يكون صادقا ولكن صاحبه غير واثق من هذا الصدق. وصياغة مثل هذا النوع من الأحكام إما أن تكون على هيئة قضية شرطية متصلة أو قضية شرطية منفصلة. مثال للشرطية المنفصلة: إذا كان ثمة عناية إلهية فثمة عقاب للشرير. ومثال للشرطية المنفصلة: إما أن يكون العالم وليد الصدفة وإما أن يكون بسبب علة خارجية، وإما أن يكون بفعل علة محايثة. وفى هذا المثال ليس ثمة إثبات لأى من هذه القضايا الثلاث، وإنما احتمال لإثباتها. ولهذا فالرأى الشائع أنها إثبات قضية من غير حجج كافية، ومن ثم ينطوى الإثبات على التشكك. ومعنى ذلك أن الاشكالية تنطوى على تناقض



والسؤال إذن:

ماهى إشكالية الهوية الثقافية؟

أو فى صياغة أخرى:

ماهو التناقض الكامن فى الهوية الثقافية؟

للجواب عن هذا السؤال - سواء فى صياغته الأولى أو الثانية - يلزم تحديد معنى الهوية الثقافية.

السؤال إذن:

ما الهوية؟

تساءل أرسطو (٣٣٤ - ٣٢٢) فى كتابه المعنون «أورجانون» أى «آلة»: كيف نفكر؟ وكان جوابه أننا نفكر استنادا إلى ثلاثة قوانين. ويأتى قانون الهوية فى مقدمة هذه القوانين. ولفظ الهوية ينطق بضم الهاء لأن فتحها يعنى البئر البعيدة القعر. وهو لفظ مشتق من «الـ هوهو» أى بقاء الشىء ثابتا كما هو رغم مايحدث له من تغيرات عرضية وبذلك قضى أرسطو على أصحاب التغير.

وفى العصر الوسيط انحصر مصطلح الهوية فى الأبحاث اللاهوتية الخاصة بهوية الله. وفى العصر الحديث تناول الفيلسوف الاسكتلندى ديفيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦) قضية هوية الإنسان فارتأى أنها مشكوك فيها، إذ هى علاقة متخيلة بين جملة إحساسات وإدراكات لا رابط بينها، والذاكرة هى التى تنتج الهوية. ثم اتجه علماء النفس من أمثال فرويد واريكسون وفروم إلى دراسة الهوية الشخصية والاجتماعية، وفى عام ١٩٧٥ دعيت إلى مؤتمر فلسفى فى لاهور بباكستان يتناول «أزمة الهوية» . وفى عام ١٩٨٢ دعيت إلى مؤتمر فلسفى فى دوسلدورف بألمانيا موضوعه «الهوية الافريقية». وفى عام ١٩٨٣ عقدت مؤتمرا فى القاهرة تحت عنوان «الهوية الثقافية فى الزمان»، وكان مبررى فى اختيار هذا العنوان هو أن الهوية مغروزة فى الثقافة.

والسؤال إذن:

ما الثقافة؟

ثمة مائتا تعريف للثقافة، ولكن التعريف الشائع هو تعريف ادوارد تيلر فى مفتتح الجزء الأول من كتابه «جذور الثقافة» والمعنون «الثقافة البدائية» (١٨٧١).

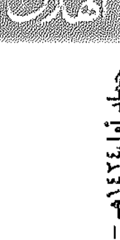
إنه يعرّف الثقافة بأنها «الكل المركب الذي يتضمن المعرفة والإيمان والفن والقانون والأخلاق والعرف وجميع القدرات الأخرى للإنسان من حيث هو عضو فى مجتمع».

والسؤال إذن:

ماهو هذا الكل المركب؟

هل هو استاتيكى أم ديناميكى؟

إذا كان استاتيكيا فليس فى الإمكان تفسير تطور الثقافات وتباينها. إذن هذا الكل المركب ديناميكى. وإذا كان ذلك كذلك فنحن فى حاجة إلى البحث عن سبب هذه الديناميكية. وفى تقديرى أن هذا السبب هو الأيديولوجيا. وفى رأيى أن الايديولوجيا رؤية مستقبلية من إبداع الإنسان وعندما تتموضع الايديولوجية تتحول إلى ثقافة. ولهذا فثمة علاقة عضوية بين الإبداع والايديولوجيا





والثقافة.

الابداع مرتبط بالمستقبل وليس بالحاضر أو الماضى، ومعنى ذلك أن الإبداع يستدعى وضعا قادما pro quo لكى يتجاوز به وضعا قائما stotusquo ولهذا فالابداع تصور غاية، ولكن هذه الغاية ليست علة لأنها إذا كانت علة فمعلولها لن يكون جديدا من حيث أن المعلول متضمن فى العلة، الإبداع إذن مجاوزة، والمجاوزة معطاة على هيئة رؤية مطروحة فى المستقبل. وهذه العلاقة العضوية بين الإبداع والمستقبل لم تكن متصورة عند فلاسفة التنوير .صحيح أنهم ناضلوا من أجل مستقبل أفضل، ولكنهم نظروا إلى هذا المستقبل على أنه لازمانى وأبدى، ومن ثم فإنه يتحول، عند تجسيده، إلى ثقافة أبدية فيمتنع تطويرها، ومن ثم يتم إحالتها إلى معتقد، أى إلى مطلق.

ومن أجل منع الثقافة من أن تتمطلق علينا تجاوزها إلى رؤية مستقبلية، أى إلى ايديولوجيا . ومن غير هذه المجاوزة المتواصلة نقع فى براثن الدوجماطيقية . والدوجماطيقية تعنى توهم امتلاك الحقيقة المطلقة.

الهوية الثقافية إذن - فى إطار الايديولوجيا والإبداع - ليست ثابتة على نحو ما ارتأى أرسطو، وإنما هى متطورة، والتطور ينطوى على التناقض وإلا لما كان ثمة تطور .. ومعنى ذلك أن الهوية الثقافية، أيا كانت ، تحمل فى طياتها نقيضتها وهى الهويات الأخرى. وقد فطنت القمة الأوروبية التى انعقدت فى كوبنهاجن فى ١٤ ديسمبر ١٩٧٣ إلى مغزى التناقض الكامن فى الهوية، إذ قرر الوزراء التسعة فى تلك القمة أن الهوية الأوروبية ستتطور ديناميكيا حسب مقتضيات بناء أوروبا الموحدة. وتقترح الدول التسع، فى علاقتها الخارجية، تحديد هويتها بالنسبة إلى هوية الدول الأخرى، وهم يعتقدون أنهم بذلك يقوون تماسكهم، ويسهمون فى تشكيل سياسة خارجية أوروبية أصيلة».

أما الهوية الثقافية - عند المثقفين العرب المنتمين إلى الأصولية الدينية - فإنها ترفض التطور وذلك للأسباب الآتية:

إن العقل العربي، بحكم معاناته من الاستعمار، رافض للتعامل مع الأجنبى، ثم هو بحكم أنه كان قديما من صناع الحضارة فلديه اكتفاء ذاتى. وإذا وقع الاكتفاء الذاتى فى أزمة فإن العقل العربى لامانع لديه من طلب قروض من الدول المانحة، بل لا مانع لديه من اتهام هذه الدول بسوء الطوية إذا امتنعت عن الاستجابة. ثم إن العقل العربى لايريد لتراثنا أن يتلوث بأى عنصر أجنبى، وقد ورثنا هذه الحساسية ازاء هذا اللون من التلوث من أبى حامد الغزالى فى القرن التاسع، إذ كفّر الفلاسفة المسلمين، ومصدر كفرهم، فى رأيه، انحيازهم إلى

فلاسفة اليونان من أمثال طاليس وسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطو.

ثم إن الهوية الثقافية - عند هؤلاء المثقفين العرب - مليئة بالمحرمات الثقافية التى ينبغى المحافظة عليها، وهم بالفعل قد حافظوا عليها فاتهموا من يخرج عنها بالكفر والزندقة كحد أدنى وقتله كحد أقصى. وكان من ضحايا الحد الأدنى الشيخ على عبدالرازق بسبب كتابه المعنون «الإسلام وأصول الحكم»(١٩٢٥) وطه حسين بسبب كتابه «فى الشعر الجاهلى» ١٩٢٦ ومحاولة قتل نجيب محفوظ بسبب روايته «أولاد حارتنا» (١٩٥٩) وتكفير نصر حامد أبوزيد والتفريق بينه وبين زوجته.

وكان من ضحايا الحد الأقصى قتل فرج فوده؛ إذ أسس حزبا أسماه حزب المستقبل، وقد أسماه هكذا لمواجهة حزب الماضى الذى رفض الابداع بحكم رفضه لإعمال العقل .. وكان فرج فوده يجوب الشوارع ويتحدث إلى الجماهير ويحاورهم من أجل بث الاستنارة فى عقولهم فكان أن صدر حكم سرى بقتله وتم تنفيذه علانية.

ومع بزوغ ظاهرة «الكوكبية» تنافس المثقفون العرب فى نقدها إلى حد الرفض خوفا من تلويثها للهوية الثقافية

والسؤال إذن:

لماذا الخوف من «الكوكبية»؟

ونجيب بسؤال:

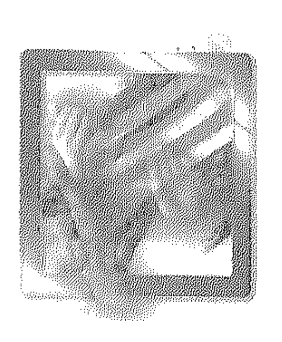
ما الكوكبية؟

الكوكبية، فى رأيى، تأتى فى المرتبة الثانية من مراتب ما أسميه «رباعية المستقبل». كان الإنسان يبحث فى الكون وهو مقيم على كوكب الأرض مثل نيوتن وأينشتين، أما الآن فالإنسان يبحث فى الكون من خلال الكون ذاته بفضل سباحة الإنسان فى الكون. والكوكبية لازمة من لزوم الكونية، أى رؤية كوكب الأرض من خلال الكون فيبدو وحدة بلا تقسيمات. ويلزم من الكوكبية الاعتماد المتبادل بين الأمم والشعوب، وحيث إن كلا من الكونية والكوكبية والاعتماد المتبادل ينطوى على تناقض فهذا التناقض ليس فى الإمكان رفعه إلا بالإبداع. تفصيل ذلك:

التناقض فى الكونية يكمن فى أن الإنسان - وهو جزء من كل - قادر على رؤية الكل وهو الكون، أى أن الجزء يدرك الكل فكيف نرفع هذا التناقض؟.

والتناقض فى الكوكبية يكمن فى أنها مضادة للأصوليات الدينية التى تزعم امتلاك الحقيقة المطلقة، ومضادة بسبب ذلك للهويات الثقافية المنغلقة على ذاتها والتى تعتقد أى منها أنها الهوية الوحيدة الصالحة للحياة. ولهذا فعلى الهويات الأخرى أن تخضع لها وإلا فالصراع أمر محتوم فكيف نرفع هذا التناقض؟

لدينا هنا سؤال واحد يتكرر ثلاث مرات، وهو كيفية رفع التناقض. وهذا الرفع ليس فى الإمكان تحقيقه إلا بتوليد فكرة جديدة، أى فكرة مبدعة. ومن هنا جاء تعريفى للإبداع بأنه «قدرة العقل على تكوين علاقات جديدة من أجل تغيير الواقع». واللافت للنظر فى تعريفى هذا



أنه ينطوى على عنصرين: «الجدة والتغيير» وهما متضايفان، أى لايمكن فهم أحدهما من غير الآخر، لأن الجدة دون تغيير الواقع تدخل المبدع فى مجال الأمراض النفسية والعقلية لاحساسه بأنه عاجز عن التغيير فيصاب بالإحباط الذي يفضى مع تكراره إلى تدمير ذاته.

الإبداع إذن هو البعد الرابع فى رباعية المستقبل، بل هو البعد المتكرر فى التناقضات الكامنة فى الأبعاد الثلاثة إن شئنا الدقة. والإبداع، فى بلادى، مرفوض، وذلك بسبب أننا محاصرون بملاك الحقيقة المطلقة الذين يروجون للمحرمات الثقافية. وإذا كانت الكوكبية على علاقة عضوية بالإبداع، وإذا كان الإبداع مرفوضا فالكوكبية بالتالى مرفوضة، ومن ثم فإن عدم رفضها يثير الخوف من تطور الهوية الثقافية. ومن هنا يقال إن تطور هذه الهوية يفقدها هويتها. إذن يلزم محاربة الكوكبية. وقد تولت الغالبية العظمى من المثقفين إشعال هذه الحرب فى وسائل الإعلام المكتوبة والمقروءة والمسموعة.

هذا بالإضافة إلى خداع بصرى أصيبت به هذه الغالبية العظمى من توهم أن أمريكا، بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، قد أصبحت هى القطب الأوحد. وهذا الوهم ناشىء من الجهل بالسمة الأساسية للكوكبية وهى أنها أساس الاعتماد المتبادل بين الأمم والشعوب. وحيث الاعتماد المتبادل حيث لاقطبية. ولا أدل على ذلك مما حدث فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١، فقد بزغ الإرهاب كوكبيا فلزم القضاء عليه كوكبيا فنشأ مايسمى بالتحالف الدولى، أو بالأدق التحالف الكوكبى ضد الإرهاب، وبالتالى أصبح كوكب الأرض نفسه مهددا إذا تحكم فيه الإرهاب الكوكبى.

وهذا الوهم ناشىء أيضا من تصور زائف لعلاقة عضوية بين الكوكبية وأمريكا .. والصحيح هو أن الكوكبية أعلى مراحل الثورة العلمية والتكنولوجية، إذ هى إفراز حيوى من التنوير وشعاره «لا سلطان على العقل إلا العقل نفسه».

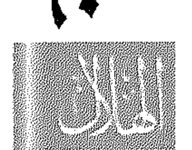
وإذا كان التنوير قد برغ فى القرن الثامن عشر فإن أمريكا فى ذلك الزمان لم تكن فى المقدمة.

والسؤال إذن:

هل فى إمكان هذه الغالبية العظمى من المثقفين العرب التحرر من وهم ثبات الهوية الثقافية؟

وفى صياغة أخرى :

هل فى إمكان هذه الغالبية العظمى من المثقفين العرب التحرر من وهم ثبات الهوية الثقافية؟

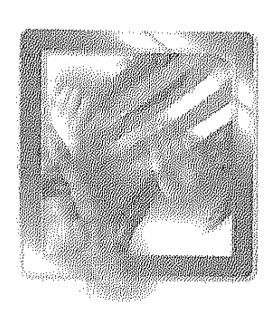




أما لليأس العربى من نهاية؟!

بقلم
د. أحمد أبو زيد

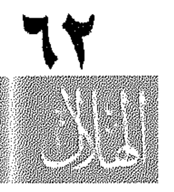
حين تفجرت المظاهرات والمسيرات فى أكثر من ستمائة مدينة فى مختلف قارات العالم احتجاجا على قرار الولايات المتحدة شن الحرب على العراق بحجة امتلاكه لأسلحة الدمار الشامل ورفضت إعطاء مزيد من الوقت لفرق التفتيش للتأكد من وجود هذه الأسلحة أو إتاحة الفرصة لإيجاد حل سلمى للأزمة لم يكن ذلك تعبيرا عن التعاطف مع صدام حسين أو نظامه الديكتاتورى المتسلط وإنما كان احتجاجا على انفراد أمريكا باتخاذ قرار الحرب دون تفويض دولى من هيئة الأمم مما يعنى الاستهانة بالقانون الدولى وبالرأى العام العالمى اعتمادا على انفراد أمريكا بأعظم قوة عسكرية تستند إلى التفوق التكنولوجى والعلمى والاقتصادى على بقية دول العالم وقد شاركت الشعوب العربية فى التعبير عن تلك المشاعر الغاضبة وإن كانت هذه المشاركة أضعف بكثير مما شهدت مجتمعات أخرى أكثر إدراكا لخطورة الخطوات التى أقدمت عليها أمريكا.



كما وقفت النظم الحاكمة فى العالم العربى موقفا أقرب إلى السلبية ربما لاعتبارات سياسية تغيب عن إدراك وتقدير الإنسان العادى وإن كان من الصعب التفرقة بشكل قاطع فى مثل هذه الأوضاع والأزمات بين الشعب والحكومة لأن أزمة العراق وتداعياتها وتوحش السياسة الأمريكية ورغبتها فى التسلط والهيمنة على العالم بأسره وليس فقط على المنطقة العربية تدعو كلها إلى ضرورة اليقظة والتكاتف للخروج من الوضع المأساوى الحالى الذى قد يدعو إلى اليأس. فالشعور العام السائد فى الوقت الحالى لدى جموع الشعوب العربية – وهو أمر لا يخفى بغير شك على المسئولين السياسيين وأصحاب القرار السياسى – هو أن ما حدث للعراق مجرد خطوة أولى سوف تتلوها خطوات أخرى لتغيير نظم الحكم – ولو جزئيا – فى دول عربية وإسلامية أخرى بينما تبدو هذه الدول عاجزة عن التصدى للقوة الأمريكية الطاغية فى كل المجالات فى الوقت الذى يعانى فيه العالم العربى من كثير من المشكلات السياسية والاقتصادية والثقافية مما يجعله أقرب إلى الإذعان والاستسلام لما قد يعتبره الكثيرون أمراً واقعاً لا سبيل إلى تغييره، وهذا القبول للأمر الواقع هو أعلى مراتب اليأس والقنوط والإحباط.

يحضرنى هنا بهذه المناسبة حادث تاريخى يكشف وإن يكن على مستوى مختلف عن ما يفعله الشعور باليأس بالأفراد والشعوب حين تواجههم قوة طاغية يصعب التصدى لها والصمود فى وجهها. الحادث أو الواقعة حدثت للفيلسوف الفرنسى دنيس ديدرو فى القرن الثامن عشر أثناء إصداره هو ومجموعة من الفلاسفة والمفكرين الفرنسيين العظام من أمثال دالمبير الأنسيكلوبيديا الكبرى فى الفترة بين عامى ١٧٤٥ و١٧٧٢، وقد اعتبرت هذه الموسوعة الشهيرة أهم وأكبر عمل ثقافى فى تاريخ فرنسا حتى ذلك الحين. فقد اكتشف فى آخر الأمر أن الناشر كان يخدعه ويتولى تغيير بعض العبارات والآراء التى كتبها هو وزملاؤه، وبطبيعة الحال لم يرض ديدرو عن ذلك ولكنه لم يرض لنفسه فى الوقت ذاته أن يذيع الخبر فيصطدم بالناشر الذى قد يتوقف عن تمويل العمل وإصداره، فاكتفى بأن يكتب إليه يخطره باكتشافه الغش والخداع والتزوير وينهى خطابه بأنه لابد له من التسليم بالواقع وأن يحمل ذلك السر معه إلى القبر. وقد يكون فى ذلك قمة التعالى أو الترفع، ولكنه ترفع العاجز الذى يدفعه عجزه إلى اليأس من إمكان الإصلاح وإلى التسليم بالتالى بما حدث وقبول الأمر الواقع. وقد يكون هذا هو حال العالم العربى الآن إزاء الولايات المتحدة، وقد كان ديدرو حكيما فى فهمه لطبيعة العلاقة بين القوى والضعيف، وقد عبر عن ذلك فى أحد أعماله فى عبارة شهيرة تقول إن تاريخ الحضارة هو تاريخ الدم، فصفحاته مليئة بدماء الطغاة ودماء المقهورين على السواء.

ولا يكاد موقف العالم العربى من القوة القاهرة التى تتركز فى أيدى الولايات المتحدة وعجزه عن التصدى بفاعلية للمشكلات الكثيرة التى تواجهه فى الداخل وللهيمنة الأمريكية التى تريد فرض آرائها وتفكيرها بمختلف الوسائل يختلف كثيرا عن حال ديدرو الإنسان الفرد المثقف



العاجز بسبب ثقافته فى نظرته إلى الحضارة الإنسانية وفى خضوعه لتسلط الناشر المتحكم بقوة ما يمكله من مال يستطيع أن يحجبه إذا شاء فينهار المشروع الثقافى الضخم الذى كانت تتعلق به حياة وآمال الإنسكلوبيديين.

موقف أمريكا للآخرين

وموقف أمريكا من العالم العربى والإسلامى هو امتداد لنظرتها العامة إلى العالم ككل، وهى نظرة نابعة من الشعور الطاغى بالانفراد بالقوة وما تستلزمه القوة الفيزيقية من فرض الإرادة على الآخرين الذين ينبغى عليهم الانصياع والإذعان. وهنا يستوى العالم العربى مع العالم الغربى. فلم تعد أمريكا تعامل دول أوربا (القديمة) - كما يصفها وزير الدفاع الأمريكى - معاملة الأحلاف الأنداد وبخاصة بعد موقف هذه الدول المعارض لغزو العراق، وقد عبر عن هذا الموقف الاستعلائى من أوربا كاتب ومفكر سياسى أمريكى هو روبرت كاجان فى مقال شهير نشره فى عدد يونيو - يوليو ٢٠٠٢ من مجلة السياسات العامة بعنوان (القوة والضعف) وقد أشرت إلى هذا المقال منذ بعض الوقت فى غير هذا المكان. والذى يهمنا هنا من هذا المقال هو ما يذهب إليه المؤلف - وهو على صلة وثيقة بالبيت الأبيض. من أنه فى الوقت الذى تشعر فيه أمريكا القوية بضرورة التدخل العسكرى حين يلزم الأمر لتغيير الأوضاع التى لا تتلاءم مع مصلحتها الخاصة ومع مصالح العالم بشكل عام تعمل أوربا - لضعفها العسكرى، على الالتفاف حول هذا الاتجاه بدعوى الرغبة فى تحقيق التعاون الدولى وهو اتجاه ناجم فى حقيقة الأمر من الشعور بالضعف الذى يدفع إلى المساومة والمسالمة أكثر مما هو ناجم عن التمسك بالقيم الإنسانية وبالقوانين الدولية. ويذهب كاجان إلى أبعد من ذلك حين يقرر أن موقف فرنسا وألمانيا - كمثالين لأوربا القديمة - كان دائما وخلال كل مراحل التاريخ موقف الدول الضعيفة بل وكان ذلك هو موقف أمريكا نفسها خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أمام قوة النظام الأوربى الطاغى فى ذلك الحين. وقد لقى مقال كاجان قبولا حسنا من القارىء الأمريكى دفعه إلى أن يتوسع فى المقال وينشره فى شكل كتاب قصير يحمل عنوانا له مغزاه هو (عن الجنّة والقوة: أمريكا وأوربا والنظام العالمى الجديد) احتفظ فيه بنفس الاتجاه العام والآراء التى يحملها المقال.

إذا كانت هذه هى نظرة أمريكا إلى الدول الأوربية التى انحدر السكان البيض فى أمريكا من شعوبها والتى ترتبط بها بروابط قوية من التراث والتاريخ والثقافة والمصالح السياسية والاقتصادية فإن لنا أن نتصور نوع النظرة المتعالية التى تنظر بها إلى العالم العربى والإسلامى وإلى الثقافة العربية الإسلامية التى تختلف اختلافا جذريا عن الثقافة الأمريكية المعاصرة بل وتقف منها موقف المعارضة الصريحة، وذلك فضلا عن الدور الذى يقوم به اليهود فى أمريكا لتشويه صورة العرب والمسلمين دون أن تلقى هذه الدعايات المغرضة مقاومة جادة وفعالة ومؤثرة سواء من العرب المتأمركين أو من الدول العربية ذاتها لتوضيح الأمور من موقف قوة واعتزاز بالعروبة والإسلام وليس من موقف الدفاع السلبى المتخاذل.

وقد يكون لأمريكا بعض العذر فى هذا الموقف المتعالى من العرب والمسلمين بسبب الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية



والسياسية والعسكرية المتردية في العالم العربي الإسلامي الذي جعل من نفسه ميدانا للصراعات والفتن العرقية والدينية والقبلية وأصبح سوقا لتصريف السلاح الأمريكي إلى جانب ما يعانيه من تفاقم مشكلات البطالة والجريمة وتلوث البيئة وتدهور الأحوال الاقتصادية وازدياد الفقر بوجه عام وتراجع وهبوط مستويات الكفاءة في العمل وفي المنظمات، والمؤسسات الحكومية. وتدهور السلوك العام والعلاقات بين الناس وضعف الشعور بالانتماء وغير ذلك من المشاكل المعقدة التي تثير القلق في النفوس وتدعو إلى اليأس خصوصا حين يقارن المرء ما هو قائم الآن بما كانت عليه الحال في الماضي الذي يتصور - صواباً أو خطأ - أنه كان جميلا وزاهيا وخاليا من المتاعب والنقائص. ويزيد من هذا الشعور القاتل محاولات فرض العولمة التي تتزعم أمريكا الدعوة إليها والتي تخفي وراءها رغبة الغرب وأمريكا بالذات في الهيمنة على أقدار ومقدرات بقية دول العالم وإعادة تشكيل ثقافات وقيم المجتمعات المستضعفة ومن بينها المجتمعات العربية والإسلامية بحيث أصبح التساؤل الذي يدور في الأذهان هو عما إذا كانت هذه هي بداية النهاية للثقافة الإنسانية لصالح دولة وحيدة تنفرد بالتفوق التكنولوجي الذي يكفل لها إخضاع أو استعباد الآخرين وهل ستقف مجتمعات العالم ساكتة وساكنة ومكتوفة الأيدي أمام هذه الهيمنة أم أن لها من المقومات ما يدفعها إلى التحدي والتمرد الصادرين عن اليأس الذي يمسك بخناق الكثيرين ويكاد يصبح فلسفة عامة للحياة ترتكز على مبادئ التسليم بالأمر الواقع وقبوله والرضوخ له وحمله معها حتى القبر حسب ما قال ديدرو.

وليس من شك في أن مثل هذه التساؤلات تغزو بعنف عقل الإنسان العربي وتطارده طيلة الوقت خاصة وأن للعرب من تاريخهم وتراثهم وثقافتهم وعقائدهم الدينية ما يساعدهم على الوقوف صامدين أمام الهجمة الشرسة التي يتعرضون لها بشكل سافر أو مستتر وتحت الدعاوى الكثيرة البراقة التي تخفي وراءها النوايا الحقيقية عن فرض الإرادة الغربية التي تتعارض مع كل مقومات الحياة التقليدية المتوارثة وتهدف إلى محو وإزالة الهوية الثقافية والاجتماعية باسم الاندماج في المجتمع العالمي أو (الكوكبي) حسب بعض المسميات.

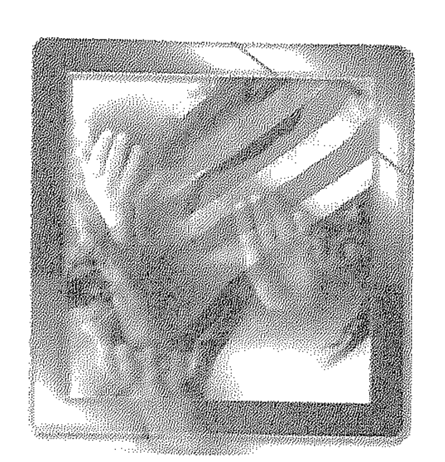
لماذا التمسك بالعولمة؟

ومن الطريف أن نجد مفكرا فرنسيا معاصرا، وهو جان بودريار - يتساءل مستنكرا في مقال نشره في الملحق الدبلوماسي لجريدة لوند الفرنسية بتاريخ ١٤ نوفمبر ٢٠٠٢ عما إذا كانت العولمة أمراً محتوما لا مفر منه وعن الذي يغري الناس بالتمسك بهذه (الفكرة المجردة) - إشارة إلى العولمة - وعن القوة التي تقف وراء هذه الفكرة وتدفع بها لكي تكون أمراً واقعا ملموسا يصعب الخروج عليه ويتقبله الكثيرون بدون تحفظ لدرجة أن التشكك فيه يعتبر نوعا من المروق الذي لا يرضى عنه أصحاب تلك الفكرة المجردة الذين يؤلفون القوة الوحيدة المسيطرة على عالم اليوم. وهذا السؤال الذي يطرحه بودريار خليق بالعرب أن يتعمقوا في تأمله ومحاولة الإجابة عليه من واقع حياتهم المتردي عسى أن يخرجوا بموقف إيجابي يحقق لهم

مكانا محترما بين دول العالم الأكثر تقدما وينتشل الناس من وهدة اليأس التى تحيط بهم والاحتفاظ بالهوية العربية الإسلامية المتميزة التى يراد القضاء عليها بشتى الطرق والوسائل بما فى ذلك الاعتداء المسلح والحروب التى تهدف إلى فرض السيطرة وسلب الحرية وغرس اليأس فى النفوس. وإذا كان العنف أسلوبا للتعبير أحيانا عن اليأس فإن العولمة تواجه ذلك بعنف مماثل أو أشد ضراوة حتى تضمن القضاء على أى محاولة للخروج عن طاقة القوة العظمى الوحيدة فى عالم اليوم. فهى تواجه إذن العنف بالعنف للقضاء على العنف الناجم عن اليأس الذى أفرزته هيمنة العولمة.. والخطورة هنا هى أن يصبح العنف أسلوبا مقبولا للتعامل وأمرا مرغوبا فيه فى ذاته ولذاته. وعلى أى حال فإن العولمة باعتبارها شكلا من أشكال الأيديولوجيا ترفض - كما هو شأن كل الأيديولوجيات - أى اتجاه معارض لها. وهذا واضح من موقف الغرب من الإسلام بحيث يعتبره هو عدوه الأول، لأن الإسلام كثقافة وأسلوب للحياة ومنظومة من القيم هو الذى يبدى أشد أنواع المعارضة والمقاومة للقيم الغربية التى يراد فرضها من خلال العولمة.

ونعود إلى جان بودريار الذى يرى أن الكراهية التى يحملها العالم اللاغربى نحو الغرب ليست ببساطة مجرد كراهية شعوب أخذ الغرب منها كل شىء ولم يعطها شيئا، وإنما هى بالأحرى كراهية شعوب يقدم لها الغرب الآن أشياء كثيرة جدا مثل العلم والتكنولوجيا والديمقراطية دون أن تستطيع هى أن تعطيه شيئا فى المقابل لأنها لا تملك ما تقدمه مما يولد عندها شعورا بالعجز، وذلك فى الوقت الذى ينظر الغرب إليها فى غير اكتراث أو احترام بل ويعاملها معاملة مهينة تكشف عن الشعور بالاستعلاء. فهى إذن كراهية صادرة عن الشعور بالمهانة مع عدم القدرة على مواكبة الآخرين وتحقيق تقدم مماثل فى مختلف مجالات الحياة، بل واليأس من إمكان اللحاق بهم. وهذا فى نظره هو التفسير الصحيح لأحداث ١١ سبتمبر حيث عبر الشعور بالمهانة وتملك اليأس من العقول والنفوس بمحاولة أكبر قدر ممكن من الإهانة بالقوة العظمى المسيطرة على العالم. وليس المهم فى هذا الهجوم الخسارة المادية الفادحة التى نجمت عنه وإنما المهم هو توليد الشعور بالمهانة لدى الأمريكيين، وهى إهانة لا يمكن ردها بالمثل لأن الإرهاب ليس له وطن كما أن الجماعات التى قامت بذلك الهجوم لا تؤلف دولة محددة يمكن إذلالها وإهانتها. فالهزيمة التى لحقت بأمريكا هزيمة رمزية ومعنوية فى رأى بودريار، أما الهزيمة التى قد يمكن إلحاقها بمنفذى الهجوم المهين فهى هزيمة فيزيقية بحتة يمكن تحقيقها بفضل التفوق فى القدرات الفيزيقية، وأن أى حرب قد تشنها أمريكا على تلك الجماعات فلن تكون سوى مجرد رد فعل أو استجابة للاعتداء الفيزيقى الذى تعرضت له وليست رد فعل على التحدى، وهو رد فعل لا يتناسب أو يتكافأ مع الإهانة التى تعرضت لها. فهذه إهانة لا يمكن ردها بالقنابل والصواريخ.

وهذه أيضاً آراء وأفكار خليقة بأن تجد ما تستحقه من اهتمام وتفكير وتأمل الإنسان العربى لكى يستخلص منه بعض المؤشرات التى يمكن أن توجه سلوكه ونظرته إلى نفسه وإلى العالم من حوله وترسم له الخطوات التى ينبغى أن يتخذها فى تعامله مع القوى المعادية وأن يستمد بالاضافة إلى ذلك من تاريخه وتراثه وقيمه مبادىء يرتكز عليها فى هذه المواجهة حتى يحقق لنفسه ولمجتمعه حياة كريمة يعترف فيها الجميع بحقوق بعضهم بعضا. ■



ماذا بعد العراق

إيران .. هل جاء دورها؟

بقلم
د. رءوف عباس

جاء الاحتلال الأمريكى للعراق فى إطار المشروع الامبراطورى الأمريكى للسيطرة على عالم لم يعد فيه منافس تخشى أمريكا بأسه ، وتأتى السيطرة على مناطق انتاج البترول ومواطن احتياطياته الضخمة لتشكل حجر الزاوية فى المشروع الامبراطورى الأمريكى . ما كاد الاتحاد السوفييتى يتداعى ، حتى هرعت الاحتكارات الأمريكية للحصول على امتيازات النفط فى جمهوريات منطقة بحر قزوين التى خرجت لتوها من الحظيرة السوفيتية ، واستغلت كل الثغرات ، ونقاط الضعف ، والفساد ، لتدعم مصالحها هناك . كما استثمرت حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ لتنفذ جانبا من خطة الهيمنة على مصادر البترول بغزو أفغانستان لفتح الطريق أمام مشروع خط الأنابيب الذى يصل منطقة بحر قزوين ببحر العرب عبر أفغانستان وباكستان . وأخيرا جاء احتلال العراق ليضع مصادر بترول الخليج والعراق تحت السيطرة الأمريكية ، ولم يبق سوى إيران التى بدت محاصرة بين فكى الحوت الأمريكى الذى يكاد يطبق عليها من الشرق (أفغانستان) والغرب (العراق) .



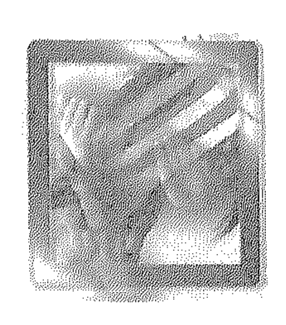
ولا شك أن إيران تحتل موقعا بارزا فى الاستراتيجية الأمريكية فى الشرق الأوسط بشقيها البترولى والسياسى فقد لعبت المخابرات المركزية الأمريكية الدور الرئيسى فى إجهاض الحركة التحررية التى قادها الدكتور محمد مصدق للتخلص من السيطرة الأجنبية وتأميم شركة النفط البريطانية ، وتذرعت فى ذلك الحين بازدياد نشاط الحزب الشيوعى الإيرانى وعجز الحكومة القائمة عن ردعه . واستطاع عملاء المخابرات الأمريكية تحريك مظاهرات فى وسط طهران فى ١٩ أغسطس ١٩٥٣ تطالب بتخليص البلاد من الشيوعية . وفى مساء نفس اليوم قام الجنرال فضل الله زاهدى بانقلاب عسكرى لصالح الشاه ، أطاح بمصدق ورجاله ، وعاد الشاه من منفاه ، ليصبح بمثابة كلب الحراسة للمصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط ، وليجرى بعض الإصلاحات الشكلية (استجابة لنصيحة الولايات المتحدة) فيما عرف بالثورة البيضاء ، وتغاضت أمريكا عن الحكم الاستبدادى الذى مارسه الشاه ، وإهدار حقوق الإنسان على يد البوليس السياسى الإيرانى (سافاك) .

الشيطان الأكبر

وعندما سقط الشاه عام ١٩٧٩ على يد الثورة الإسلامية بزعامة الخمينى ، تركت الولايات المتحدة الباب (موارباً) حفاظا على مصالحها الاستراتيجية ، فتنكرت للشاه ، وضنت عليه بالعلاج والإقامة فى أراضيها ، وتركت صديقها الجديد أنور السادات ليقوم بهذا الدور نيابة عنها .

ولكن أبواب إيران أوصدت فى وجه أمريكا التى اعتبرها الثوار الإيرانيون «الشيطان الأكبر» ، واستولى الحرس الثورى على السفارة الأمريكية فى طهران ، وأخذ العاملين فيها كرهائن لمدة تزيد على العام ، كما توقف التعاون التجارى تماما مع الشركات الأمريكية .

وأمام هذه التطورات اتبعت أمريكا سياسية «الاحتواء المزدوج» التى صاغها الدبلوماسى الصهيونى الأمريكى العتيد

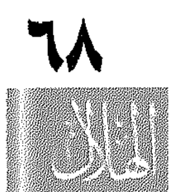


«مـــــارتن إنديك» وتقـضـى باحـتـواء إيران والعراق لصالح إسـرائيل والمصـالح البتروليـة الأمـريكية فى السـعودية والخليج . وفى ضـوء تلك السياسة ، شجعت صدان وساعدته على شن الحرب على إيران ، ولعبت أمـريكا دوراً مزدوجا بتقديم المعلومات العسكرية لكل طرف عن خـصـمـه من وراء ظهـر الطرف الآخـر ، كـمـا قـامت بتـزويد الطرفين بالسـلاح : فـزودت صـدام بالأسلحـة الكيـمـاوية ، وزودت إيران بالسلاح وقطع الغيار للمعدات العسكرية من خـلال إسـرائيل (وهـو مـا عـرف بفضيحة إيران - جيت) ، رغم ادراجها لإيران فى عـداد «الدول الارهـابيـة» وفرضـهـا عقوبات اقـتـصـادية عليها - وخـاصـة فـيـمـا بين ١٩٨٤ ، ١٩٨٧ - وقيامها بأعمال عدوانية ضد إيران مثل إغراق بعض الزوارق البحرية فى الخليج وضـرب منصـات اسـتـخـراج البـتـرول البحرية ، واسقاط طائرة ركاب إيرانية «مصادفة» وقتل جميع ركابها (٢٩٠ راكبا) .

الاحتواء الكامل للعراق

وبعـدمـا أنهكت الحـرب الإيرانيـة - العراقية البلدين ، وكلفتهما ما يزيد على المليون نسـمـة من الخسـائر البـشرية ، واسـتنزفت اقـتـصـادهـمـا ، جـاء دور الاحتـواء الكامل للعراق فى حـرب الخليج الأولى عـام ١٩٩١ مع الابقـاء على النظام البـعـثى وصـدام فى السلطة كـشـبـح اسـتـخـدام لتـخـويف دول الخليج وتدعـيم الوجـود الأمـريكى العسكرى فى الخليج ، حـتـى إذا تم ذلك ، أصـبح وجـود صـدام ونظامـه لا نفع فيـه للمصـالح الأمـريكية ، ومن ثم جـاء احـتـلال العـراق ضـرورة استراتيجية لإحكام السيطرة على مصادر البترول فى الخليج إضافة إلى بترول وسط آسـيـا (بحـر قـزوين) ، وبذلك تفـرض الولايات المتحدة ما تشاء من شروط على دول الاتحاد الأوروبى ، واليابان ، والصين ، كما تفرض ما تشاء من قواعد التجارة الدولية بما يكفل لها إحكام قبضتها على العالم باعتبارها القوة الأعظم التى تقصر دونها قامات غيرها من الدول .

ولكن تبقى إيران جزيرة منعزلة وسط منطقة الهيمنة الأمريكية الممتدة من وسط آسـيا إلى الشـرق الأوسط ، ويرى اليمين الجديد الذى يوجه السـياسة الأمـريكية ، ويتـحكم فى مـراكـز صناعـة القرار منذ إدارة ريجـان وبوش الأب ، وحـتـى أيام كلينتون ، يرى فى النظام الإيرانى الحالى حـجـر عـثـرة فى طريق بناء الامبـراطورة الأمـريكيـة ، والمشـروع الأمـريكى - الصـهـيونى الجديد بالتعاون مع «اللجنة الأمـريكية الإسـرائيلية للشئون العامـة» (AIPAC) ، وحكومة الليكود فى الكيان



الصهيوني . ومن ثم أصبح التخلص من النظام الإيراني «ضرورة حيوية» لتحقيق الأهداف الصهيو - أمريكية .

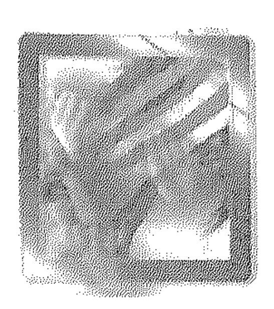
من أركان محور الشر!

وليس التخلص من النظام الإيراني وليد الساعة ، ولكن الإشارات التي أطلقتها أمريكا بهذا الصدد منذ وقوع الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩ تفوق الحصر ، ولكن إيقاعها ازداد مع انفراد اليمين الجديد بالسلطة في إدارة بوش الابن الذي راح يردد وصف إيران بالدولة الإرهابية ، وعدها من أركان «محور الشر» الذي ضم العراق وإيران وكوريا الشمالية ، وزاد من تصعيد العداء ضد إيران الوجود الأمريكي في العراق ، فقد أخطأ صناع السياسة الأمريكية التقدير لوزن الشيعة في العراق ، الذين يمثلون أغلبية السكان ، إذ كانوا يراهنون على أن ما عاناه الشيعة من مظالم تحت حكم صدام كفيل بأن يجعلهم يهرعون إلى الترحيب بقوات «التحرير» الانجلو - أمريكية ، وخاصة أن زمرة المعارضة العراقية التي تعاونت مع أمريكا جاءت غالبيتها من الشيعة ، ولعلهم أدخلوا في روع سادتهم الجدد أن الشيعة سيحمدون لأمريكا صنعها . ولكن الواقع جاء مناقضا لذلك : فقد اتحد الشيعة مع السنة للمطالبة بعراق مستقل يحكمه العراقيون وأعلن آية الله خامنئي - مرشد الثورة الإيرانية - صراحة وباللغة العربية في اجتماع عام أن إيران التي وقفت على الحياد عند ضرب النظام البعثي سوف تقف إلى جانب شعب العراق للتخلص من الاحتلال ، وإقامة حكومة عراقية يختارها العراقيون أنفسهم .

ومع تكرار حوادث المقاومة التي كلفت القوات الأمريكية ثلاثين قتيلا في شهر واحد ، والمسيرات المليونية التي نظمها الشيعة في مناطق «العتبات المقدسة» وفي بغداد (بالتعاون مع السنة ، تزايدت احتمالات اتجاه اليمين الجديد الصهيو - أمريكي إلى السعي للتخلص من النظام الإيراني ، وجعله الهدف العاجل الذي يلي احتلال العراق .

قرع طبول الحرب

ويتضح ذلك من ارتفاع أصوات طبول الحرب التي تقرع في واشنطن ولندن على السواء ، فركزت الصحف المعبرة عن دوائر السلطة هجومها على إيران بصورة متواترة ، فهي «أخطر مركز للارهاب الدولي» ، تأوي العناصر النشطة من تنظيم «القاعدة» وتقلق راحة «واحة الديمقراطية» في الشرق الأوسط «إسرائيل» برعايتها للإهارب الموجه ضد إسرائيل (حزب الله في جنوب لبنان وفصائل المقاومة الفلسطينية) . وتواترت التصريحات على لسان الرئيس الأمريكي وأركان إدارته حول امتلاك إيران لأسلحة الدمار الشامل (الأسلحة الكيماوية) ،



وتطلعها إلى إنتاج السلاح النووى من خلال بناء مفاعل نووى فى بوشهر ، رغم أن هذا المفاعل بنى عام ١٩٧٠ فى عهد الشاه ، ولم تر فيه الولايات المتحدة - عندئذ - خطرا محتملا ، فإذا سعت إيران اليوم لتجديده وتحديثه وتوسيعه أصبح ذلك خطرا يهدد أمن العالم ، على حين يمثل امتلاك إسرائيل لكل أسلحة الدمار الشامل خيرا للبشرية جمعاء!!

وبدأت تعلو عبر وسائل الإعلام الأمريكية والبريطانية المقروءة والمرئية والمسموعة ، أصوات «المعارضة الإيرانية» التى تطالب بتغيير النظام الإيرانى ، وإقامة نظام «علمانى ديمقراطى ليبرالى» بديل . وتوثقت الروابط بين تلك المعارضة ودوائر صنع القرار فى الإدارة الأمريكية . وعاملت الإدارة الأمريكية قوات «مجاهدى خلق» المتمركزة فى العراق معاملة خاصة، فأبقت لها قواعدها وسلاحها الثقيل فى إطار اتفاق خاص ابرم بين قيادة مجاهدى خلق والإدارة العسكرية الأمريكية فى العراق ، مما يكشف عن احتمال اسناد دور إلى هذه القوات عندما تحين ساعة الصفر لإسقاط النظام الإيرانى ، وتعالت أصوات «الإصلاحيين» فى طهران تطالب النظام بإدخال إصلاحات دستورية دعما للمواجهة المحتملة مع أمريكا تحقيقا لتلاحم صفوف الشعب وراء النظام .

وتلقى رموز السلطة فى طهران هذه الإشارات مدركين خطرها ودلالاتها ، فراح أحدهم يحذر فى خطاب رسمى من تقديم التنازلات والاستجابة لما تطلبه امريكا من «اصلاحات» لأن طريق التنازل لا نهاية له ، ولا يكفل لإيران النجاة من العدوان . وأعلن مرشد الثورة نفسه أن العدوان الأمريكى على إيران لن يحقق نصرا ، ولكنه سيلقن أمريكا درسا لن تنساه .

وتدرك إيران أنها تقف وحدها فى مواجهة العدوان الأمريكى المرتقب ، فقد جاءت نتائج مؤتمر وزراء خارجية المنظمة الإسلامية مخيبة لآمال القيادة الإيرانية ، فلم تنجح فى إقناع «أخوة الإسلام» بالإشارة إلى الاحتلال الأمريكى للعراق بوصفه عدوانا على شعب العراق ، أو إدانة السياسات الأمريكية التسلطية ، فجاء البيان الختامى سلبيا مائعا دون مستوى التحديات التى يواجهها العالم الإسلامى ، ويزداد الاحساس بها فى إيران .

وريش عرش الطاووس !

وفى نفس الوقت ، راحت بعض الأقلام الأمريكية تتحدث عن البديل المحتمل للنظام الإيرانى بعد «تحرير» إيران من حكم آيات الله ، وعن الحكومة

العلمانية «الليبرالية» التى تخلف نظام الحكم الحالى الثيوقراطى ، وكما سبق العدوان على العراق الحديث عن عودة الملكية إلى العراق باعتبارها الضمان الأمثل لقيام حكم ديمقراطى ليبرالى ، هناك كتابات أمريكية تشير إلى ابن الشاه السابق ، وتتحدث عن وريث عرش «الطاووس» وعودته التى تكفل نجاح «التحول الديمقراطى» فى إيران «المحررة»

فهل تنجح الولايات المتحدة الأمريكية فى السيطرة على إيران بعد تصفية النظام الثورى الإسلامى ؟

إن إقدام أمريكا على التعامل مع النظام الإيرانى على طريقة ما فعلته فى العراق أمر وارد ، إذا وضعنا فى اعتبارنا حجم القوات الأمريكية المحتشدة فى الخليج ، وما قيل عن احتمال دعمها بالمزيد من القوات ، إلى جانب التصعيد المتواصل للحرب النفسية ضد إيران . ولكن أمريكا لا تستطيع أن تقدم على مثل هذه الخطوة إلا إذا ضمنت استقرار الأمور فى العراق استقرارا تاما ، وهو مازالت تعجز عن تحقيقه لعوامل لم تدخلها فى الحسبان : فقد راهنت على قيام حرب أهلية طائفية ، وسمحت بتجارة السلاح فى الشوارع تحت سمعها وبصرها ، ظنا منها أن هذا السلاح سيوجه بأيدى العراقيين إلى صدور مواطنيهم ، فإذا به يستخدم ضدهم فى حركة مقاومة مرشحة للتصاعد . هذا فضلا عن حركة الاحتجاج الشعبى المستمرة ، والعجز عن حل معضلة إقامة حكومة مدنية عراقية ، وشواهد عدم الارتياح للسياسة الأمريكية التى تبديها بعض رموز « المعارضة» العراقية التى تعاونت مع أمريكا لاسقاط نظام صدام .

لذلك نرى أن العدوان على إيران صعب التحقيق على ضوء معطيات الموقف الراهن ، ولعل الولايات المتحدة تبحث عن سبيل آخر لإسقاط النظام من الداخل بتشجيع عناصر المعارضة الإيرانية على إقامة حالة من الفوضى من داخل حركة المطالبة بالإصلاح يستغلها أحد الجنرالات للقيام بانقلاب على طريقة فضل الله زاهدى لحساب أمريكا .

ولا يبقى أمام إيران من سبيل للإفلات من الفخ الأمريكى سوى العمل على دعم الجبهة الداخلية دعما حقيقيا ، والاستجابة لمطالب دعاة الإصلاح من داخل النظام ، مع التركيز على التخلص من العزلة التى تحاول أمريكا أن تدفعها إليها بفتح قنوات التعاون على المستويين الاقليمى والدولى مع الدول التى تعارض الهيمنة الأمريكية ، وأن تظل - فى نفس الوقت - تتحسب للعدوان بخطة رصينة للمقاومة تستوعب دروس ما حدث فى العراق . ■

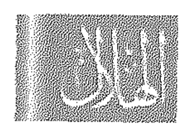
ما بعد خريطة الجينوم

خريطة هاب ماب

بقلم
د. أحمد مستجير

بدأ مشروع الجينوم البشرى رسميا فى أول أكتوبر ١٩٩٠ . والجينوم البشرى هو مجمل المادة الوراثية (المسماة الدنا DNA) التى يحملها الحيوان المنوي أو البويضة. والموجودة بنواة كل خلية من خلايا أجسادنا. يوجد الجينوم فى صورة خيط طويل مقسم إلى ثلاثة وعشرين جزءاً (منفصلا) يسمى كل منها كروموزوماً. يتألف خيط الدنا هذا من تتابع من «نوتيدات» أو «قواعد» أو «حروف»، يشكل سلسلة يبلغ طولها نحو ثلاثة آلاف مليون «حرف». وأبجدية الدنا في الإنسان (وفى كل الكائنات الحية) تتألف من أربعة حروف (هى: أ، ث، س، ج). تتفاوت الكروموزومات فى الطول (الذى يقاس بعدد الحروف)، فأطولها هو الكروموزوم رقم ١ (٢٤٥,٢ مليون قاعدة) وأقصرها هو الكروموزوم ٢١ (٤٦,٩٨ مليون حرفاً).





والجينات هى الأساس المادى للصفات البشرية، وهى مقاطع من الكروموزومات تختلف أطوالها من بضع مئات من النوتيدات أى الحروف، إلى ما قد يربو على المليونين. ولكل جين موقع محدد على كروموزوم بذاته، وتقول النتائج الأخيرة لمشروع الجينوم إن جينومنا يحمل نحو ٣٠ - ٣٥ ألف جين، وكان يُظن أنه يحمل مائة ألف. تؤلف الجينات نحو ٥٪ فقط من مجمل الجينوم، أما الباقى (٩٥٪) فيقال له «سقط الدنا» ، ولا تُعرف له حتى الآن وظيفة واضحة.

يحمل جنس البشر ما قد يصل إلى سبعة آلاف مرض وراثى، ويوجد بكل منا فى المتوسط عدد من الجينات المرضة يصل إلى أربعة أو ستة جينات. و لقد كان تعقب الجينات المرضية فى الحق هو أهم أسباب البدء فى مشروع الجينوم البشرى. كانت أولى مهام هذا المشروع هى سلسلة النوتيدات جميعاً، أى معرفة ترتيبها على طول

الكروموزومات. ولقد تمت السلسلة وأعلنت فى ١٤ أبريل ٢٠٠٣ قبل الموعد المحدد (آخر سبتمبر ٢٠٠٥) بأكثر من سنتين (وكانت المسودة الأولى لهذه الخريطة قد أذيعت فى ٢٦ يونيو ٢٠٠٠). تم حتى الآن تحديد مواقع الآلاف من الجينات، ومعرفة تتابعاتها من النوتيدات، ولا يزال العمل يجرى للعثور على بقية الجينات ، وتشريحها جزيئياً.

أمراض الجين الواحد

يمكننا أن نقسم أمراض الإنسان الوراثية إلى فئتين: أمراض الجين الواحد (وتسمى أيضاً الأمراض المندلية)، والأمراض متعددة الجينات. وأمراض الجين الواحد هى تلك التى يكون فيها جين بذاته هو المسئول مسئولية مباشرة عن المرض، ومن الممكن أن يحدد موقعه بالضبط على كروموزوم معين، ثم يُسلسل (أى يحدد تتابع نوتيداته)، ثم يقارن بالجين «الطبيعى» لمعرفة الاختلاف فى التتابع الذى ينعكس فى اختلاف البروتين الذى يشفر له الجين، فينتج بروتينا معيبا يسبب المرض. ولقد يكون مثل هذا الاختلاف فى نوتيدة واحدة لا أكثر من بين النوتيدات التى تشكل الجين، فيما يسمى «بالطفرة النقطية». فمرض أنيميا الخلايا المنجلية مثلا يحدث بسبب تغير النوتيدة رقم ١٧ من نوتيدات الجين الطبيعى المشفرة (وعددها ٤٣٥) والموجود على الكروموزوم ١١، إذ تتحول هذه النوتيدة من أ إلى ث، فتنتج بروتينا معيباً. ثمة طفرة شهيرة هى طفرة بالجين المسئول عن مرض هنتنجتون الموجود بطرف الكروموزوم الرابع، وتحدث بإضافات متكررة بوسط الجين من ثلاثية معينة من النوتيدات (هى الثلاثية «س أ ج»). والغريب فى الأمر أن عدد هذه الثلاثيات المضافة (والتى تسمى بالتهتهة الوراثية) يحدد العمر الذى ستبدأ فيه أعرض هذا المرض العصبى الخطير القابل فى الظهور على المريض. فإذا كان الجين يحمل ٤٠ مكررة، بدأت الأعراض فى الظهور عند عمر ٥٩ سنة، أما إذا كان عدد المكررات ٤١ فتبدأ فى عمر ٥٤ سنة، فإذا ما كان ٥٠ مكررة ظهرت الأعراض مبكراً جداً فى عمر السابعة والعشرين.

هناك فرق واضح بين أمراض الجين الواحد والأمراض متعددة الجينات

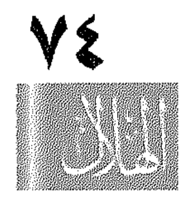
ولقد أمكن بالفعل التعرف على الكثير من مثل هذه الجينات المرضية، ومنها بجانب الجينين السابقين جين التليف الكيسى، وجين مرض تاى ساكس، وجين مرض ليش نيهان.

الأمراض متعددة الجينات

لكن معظم الأمراض الشائعة لا تخضع لفكرة «جين واحد للمرض الواحد» هذه، فعدد الجينات الذى يؤثر فيها كبير قد يصل إلى العشرات أو ربما المئات، ثم إن البيئة تؤثر فيها أيضاً - كثيراً أو قليلاً. من بين هذه الأمراض هناك السرطانات ومرض السكر، ومرض القلب، وارتفاع ضغط الدم، والربو، والشيزوفرانيا والسمنة وإدمان الكحوليات. والإسهام الوراثى فى هذه الأمراض المعقدة والشائعة ليس واضحا ومن العسير تحديده، ومن الصعب أن يكشف بالطرق التى تصلح لأمراض الجين الواحد. وهناك أيضا تباينات أخرى مثل هذه، صعبة التحديد ، فى قابلية الأفراد للإصابة بالأمراض، وفى استجابتهم للأدوية - ولنذكر أن الاستجابة الخاطئة للأدوية تتسبب فى وفاة أكثر من مائة ألف شخص كل عام بالولايات المتحدة وحدها . تحتاج هذه جميعاً إلى معالجة خاصة لكشف الأساس الوراثى لها . ولقد أوحى إتمام الخريطة الكاملة للجينوم البشرى بالبدء فى رسم خريطة «هاب ماب» (HAP MAP) التى ستمكن الباحثين من الفحص الدقيق والشامل للجينوم على اتساعه بحثاً عن مواقع الجينات المرضية والتباينات الوراثية، التى نستطيع بها التنبؤ بخطر الإصابة أو قابلية الإصابة بهذه الأمراض الوراثية المعقدة، أو مدى استجابة الفرد للعقاقير.

السنايبس

يتطابق تتابع دنا أى فردين منا فى ٩٩,٩٪ من النوتيدات، نعنى أننا إذا قارنا النوتيدات (الحروف) على كروموزومات أى شخصين فسنجد اختلافاً فى نوتيدة كل ١٠٠٠ موقع (وتماثلاً فى ٩٩٩) ، فتكون هذه النوتيدة مثلا (أ) فى فرد وتكون (ج) فى الآخر. ولما كان الجينوم يحتوى على نحو ثلاثة آلاف مليون نوتيدة، فإننا نتوقع أن يختلف كل شخصين فى ثلاثة ملايين موقع. ستكون هذه إذن هى أيضا قدر الاختلافات التى نتوقعها بين فردى أزواج الكروموزومات التى يحملها أى شخص منا، فهما يمثلان جينومين، واحد من الأب والآخر من الأم. فإذا كانت المقارنة بين أعداد أكبر من الناس، لا بين فردين فقط، فسنجد اختلافات فى نوتيدات أخرى إضافية، وقد يزداد هنا عدد الصور عن اثنتين بالنسبة لكل نوتيدة [فتكون مثلا (أ) أو (ج) أو (س)]. وعدد المواقع بالدنا التى يتباين فيها الأفراد غير معروف، وربما تراوح ما بين ١٠ ملايين و٣٠ مليون موقع (أى نوتيدة)، أى واحدة بين كل ٣٠٠ أو ١٠٠ نوتيدة. يسمى موقع النوتيدة الذى يختلف فيه الأفراد باسم «السنبسة» (أى تعدد صور



النوتيدة المفردة SNP) . من بين كل هذه السنابس ربما كانت هناك أربعة ملايين سنبسة شائعة.

خريطة هاب ماب

كان مارك دالي، عالم الإحصاء الوراثي ، مستغرقاً في معمله يتأمل بيانات وراثية فجة، عندما لاحظ أمراً غريباً. كان يفحص منطقة من الكروموزوم البشرى الخامس، منطقة يعتقد زملاؤه أنها تحمل جيناً يسبب مرض كرون Crohn's disease وهذا مرض وراثى خطير يصيب الجهاز الهضمي، كان ثمة تتابع للنوتيدات يكاد يكون متطابقاً فى كل العينات التى فحصها، رغم أن كل عينة قد جاءت من شخص مختلف. اكتشف دالى وجود بقع كل ألف نوتيدة أو نحو ذلك ، يختلف فيها حرف واحد من شخص لآخر. ثم جاءت المفاجأة : الكثير من تباينات هذه الأحرف المفردة تحدث على ما يبدو سويا، كما لو كانت مرتبطة عبر مسافات طويلة من الدنا، نعني أنه كلما نظر إلى مقطع معين من الدنا ووجد به (مثلا) حرف أ فسيجد حرف ج (مثلا) بعد نحو ١٠٠٠ حرف، ثم حرف س (مثلا) في موقع ثالث بعد ذلك بألف حرف، وهكذا. وبعد بضع عشرات الآلاف من الحروف يبدأ نموذج آخر.

يبدو أن المقاطع الطويلة من هذه الحروف المرتبطة، تقسم الكروموزوم إلى حزم محددة بدقة تتباين أطوالها ما بين عشرة آلاف وخمسين ألف حرف. ثم كان هناك ما هو أكثر إثارة للدهشة ، ذلك أن دالى قد وجد فيمن يدرسهم من الأفراد خمس أو ست صيغ لا أكثر من هذه الحروف المتباعدة المرتبطة ، وذلك بالنسبة لأى مقطع معين من الكروموزوم . يبدو أن ثمة فى الأفق تغيراً جذرياً على وشك الظهور بشأن نظرتنا إلى التباين الوراثى فى دراسات الأمراض. لقد كان دالى يكتشف فى الحق بنية تحتية للجينوم البشرى: الجينوم مقسم إلى عدد كبير من «حزم السنابس» التى يسهل التعرف عليها. كان الرجل يتأمل مشارف المشروع البيولوجي الجديد الكبير – مشروع رسم خريطة الهاب ماب، خريطة حزم السنابس، الخريطة التى تعرفنا بحدود هذه الحزم، والصيغ المختلفة من السنابس بكل حزمة بالعشائر المختلفة عبر العالم.

رسم خريطة هاب ماب ستمكننا من الفحص الدقيق والشامل للجينوم البشرى

وفى أكتوبر ٢٠٠٢ ، بعد عام من كشف دالى، قام عدد من كبار الوراثيين العالميين بوضع «المشروع الدولى لخريطة هاب ماب» – وهذا مشروع سيتكلف مائة مليون دولار ويستمر ثلاث سنوات ينجز فيها الخريطة، وسيبدأ ببضع مئات من عينات دم مأخوذة من نيجيريا واليابان والصين والولايات المتحدة . كان هذا المشروع هو النتيجة الطبيعية للانتهاء من سلسلة الجينوم البشرى . أصبح المطلوب الآن هو

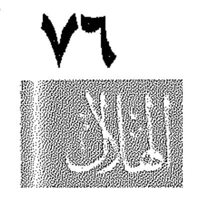
التعرف على المناطق من الجينوم التى تتباين، وستكون فهرسة التباينات المثبطة لأى مرض، أو المشجعة له، قيمتها الهائلة. وكلما اتسع مجال العشائر المشتركة ازدادت الفائدة.

البعض من صور هذه السنابس يسهم إسهاما فعلياً فى خطر الإصابة بالمرض، نعنى أن احتمال إصابة من يحملها بالمرض أكبر من احتمال إصابة من لا يحملونها. لكن معظم السنابس ليست من هذا الفصيل، وإنما يمكن أن تستخدم كواسمات نستطيع بها كشف الخطر منها. ولكى نعثر على المناطق التى تحمل جينات هذه الأمراض، فإننا نقارن بين تكرار صور السنابس هذه في المرضى وفى الأصحاء. فإذا ما وجدنا أن تكرار البعض منها أكثر فى المرضى منه فى الأصحاء قلنا إنها ترتبط بالمرض. ومثل هذه الارتباطات تشير إلى احتمال وجود جينات بالمنطقة تسهم فى المرض.

المعروف أن تكلفة كشف السنابس مرتفعة جداً فى الوقت الحالى، وليس من المعقول أن نفحص منها الملايين عبر الجينوم بأكمله بحثاً عن العدد المرتبط بالمرض. أما إذا كان بالمنطقة عدد محدد فقط من الحزم أو المجاورات، فسيكفى التعرف على قلة من السنابس لتحديد هوية كل حزمة تحملها هذه المنطقة، نعنى أنه يكفى أن يحدد الباحث الحرف الواشى فى كل حزمة ليعرف بقية الحروف دون فحص، وبدلاً من آن يقوم برصد السنابس العشرة ملايين التى تميز جينوم الفرد، يكفيه أن يحدد فقط نحو ٥٠٠ ألف منها.

ستقدم خريطة الهاب ماب دعماً كبيراً للطب ولصحة الإنسان. هناك عقاقير عديدة تركت على الرف لأنها تسبب آثاراً جانبية خطيرة على نسبة صغيرة - إن تكن جوهرية - من الناس، وهناك عقاقير لا تفيد إلا نسبة محدودة فقط من المرضى. إن اكتشاف اختبارات يمكن بها تحديد استجابة المريض، قد يفتح الأسواق أمام الكثير من هذه العقاقير المهملة، مما قد يدر البلايين على شركات الأدوية. من هنا تنهمك الكثير من كبريات شركات الأدوية فى بحوث تهدف إلى التنقيب عن صور وراثية بالجينوم تفيد فى «تفصيل» علاجات أفضل للأفراد - وستسهل خريطة هاب ماب كثيراً من أعمالها. ثمة شركة انتهت مؤخراً من دراسة على المئات من الناس لتحديد واسمات وراثية يمكن التنبؤ بدرجة استجابة الأفراد لعقاقير تخفيض الكولسترول.

تختلف العشائر البشرية فى تكرار الأفراد حاملى الحزم المختلفة من السنابس، لكن ٨٥٪ من هذه الحزم المتباينة موجودة داخل كل العشائر ، أما الـ ١٥٪ الباقية فتختلف بين العشائر . وتقول النظرية الحالية إن الصور الشائعة من الحزم التى تسهم



فى مرض ما بمجموعة بشرية، تسهم أيضاً فى نفس المرض بالمجاميع الأخرى، وإن اختلف قدر الإسهام.

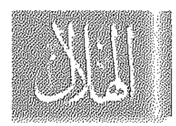
العرقية تطل برأسها

لكن خريطة هاب ماب تحمل فى طياتها مخاطر كامنة فى زماننا هذا الذى تصاعدت فيه قضية العرقية حتى فى الممارسات الطبية، كثيراً ما يقوم الأطباء باتخاذ قراراتهم الروتينية بناء على افتراض بوجود فروق وراثية بين أفراد السلالات البشرية المختلفة. هناك اختلافات معروفة فى معدلات أمراض معينة بين السلالات البشرية، فمعدل الإصابة بالتليف الكيسى أعلى بين القواقازيين عنه بين الآسيويين أو السود، كما أن الأمريكان الأفارقة يتميزون بمعدلات مرتفعة من مرض ضغط الدم والسكر. يصل إلى الصيدليات الآن أول «عقار عرقى» لعلاج القلب موجه خصيصا للأمريكان الأفارقة . وستؤكد خريطة هاب ماب وجود فروق وراثية بين شعوب المناطق الجغرافية المختلفة بالعالم، الأمر الذى يثير القلق بين علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا والأخلاقيات البيولوجية من أن تعمم هذه التباينات على صفات أخرى جوهرية، ليهيكل البشر فى صورة فئات عرقية تختلف اختلافاً إنسانياً جذريا.

نُشر مؤخراً بحث صنف فيه البشر إلى سلالات جغرافية خمسة: أوروبية، أفريقية ، شرق آسيوية، أو شيانية، وأمريكية، وهاجم فيه المؤلفون فكرة رفض التصنيف الوراثى للسلالات وأهميته، وانتهوا إلى ضرورة تفحص الفروق فى الاستجابة للعقاقير وفى مخاطر المرض فى الفئات الخمس كل على حدة، وإلا فإن البحث الوراثى سينحو إلى إهمال قضايا تهم جماعات الأقليات. فى الوقت نفسه ، هناك بحث آخر أجرى على الشتات الأفريقى يفحص الإصابة بارتفاع ضغط الدم بين السود الأفارقة فى مواطنهم المختلفة، اتضح منه أن نسبة المصابين بالمرض تبلغ ٧٪ فى الريف الأفريقى ، و١٤٪ فى المدن الأفريقية، و٣٤٪ بين الأمريكان الأفارقة، الأمر الذى يشير بجلاء إلى أهمية البيئة فى هذه القضية. لكن الأمر يتطلب فحص حزم السنابس فى هذه المجتمعات الثلاثة.

بالرغم من أهمية خريطة هاب ماب فإنها تحمل فى نفس الوقت مخاطر كامنة للإنسان

القضية كما نرى شائكة . الفحص المدقق سيؤكد بالطبع وجود فروق وراثية بين المجتمعات، قد تؤدى إلى تفسيرات عرقية خطيرة غاية فى الخطورة. فإذا نحن لم نقم بهذا التفحص الوراثى الدقيق خوفاً من أن يُستخدم ما سيظهر من تباين كدليل «علمى» على صحة مبدأ «العرقية»، حجبنا عن العشائر المستضعفة إمكانيات الاستفادة من التقدم العلمى، وحرمناهم من ثماره !



للتاريخ

المعهد المصرى فى مدريد لم ينشئه طه حسين!

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

«الحق أحب إلىّ من أستاذى أفلاطون» أرسطو

فى سلسلة «إقرأ» الشعبية، كتيب صغير بعنوان: «فى بيت حسين مؤنس»، لابنته الدكتورة منى، ألقت فيه ضوءا كاشفا على جانب من حياة والدها، فى أسلوب عذب رشيق جذاب، وكذلك كان والدها حين يكتب، ومن شابه أباه فما ظلم. وشهادة أى ابنة فى أبيها ينبغى أن تؤخذ دائما، عند أى مؤرخ موضوعى بحذر شديد، فكل فتاة بأبيها معجبة، لكنها مع ذلك أسدت إلى الحقيقة والتاريخ خدمة جليلة، حين تصرح أو تلمح أو تتوارب أو تصمت، لأن ماذكرته يصعب الوصول إليه على غيرها .



وفى ضوء ما قالت يستطيع الباحث أن يفسر ويعلل الكثير مما قرأ أو عرف أو سمع عن حسين مؤنس الأديب، وكان رحمه الله صاحب أسلوب طلى شائق، قبل أن يكون مؤرخا صاحب منهج وموقف!.. فقد حدثتنا عن «حسين مؤنس الزوج والأب والصديق والإنسان، وهو الوجه الذى لا يعرفه إلا المقربون منه».

ولست بصدد ما قالته الدكتورة منى عن هذا الجانب من حياة والدها، مصوبا أو مؤكدا، فأهل مكة أدرى بشعابها، ولكنى بصدد قضية واحدة عامة الآن، اختلط فيها الأمر على الكاتبة تماما، وهى

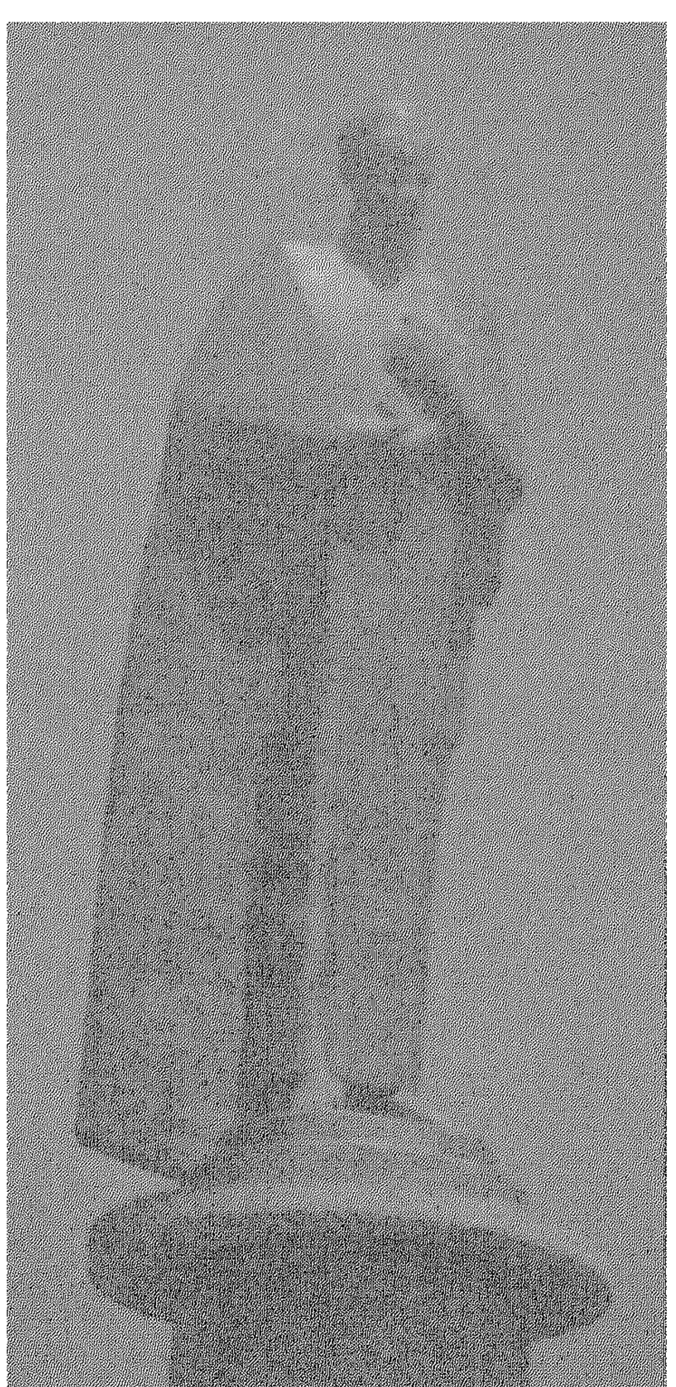
قضية إنشاء معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد، الفكرة والإنشاء على السواء :

من صاحب المشروع ؟

تقول الدكتورة منى فى كتابها (ص ٨٦) مانصه حرفيا.

«وأحب أن أذكر هنا شيئا يخفى على الكثيرين اليوم عندما يذكرون المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد، وهو أن أبى كان صاحب فكرة إنشاء معهد مصرى فى مدريد يقوم بدراسة اللقاء بين حضارتى الشرق والغرب، إذ كان قد تقدم بمشروع مكتوب بهذه الفكرة فى الأربعينات للدكتور طه حسين الذى كان يعمل فى هذا الوقت وزيرا للمعارف ، وقرأ د . طه حسين المشروع المقترح، ولأنه كان ذا بصيرة وأفق ذهنى واسع وافق مبدئيا على المشروع ، واستمر أبى وراء مشروعه هذا حتى أوجدت له الوزارة الميزانية المطلوبة، ثم بعد سنوات تحقق مشروع المعهد، وأصبح له مكان ووجود، وكل ما أريد توضيحه هنا أنه لولا تفكير أبى فى مثل هذا المشروع، ولولا تتبعه له، لبقى بغير إنجاز .

إن فضل د . طه حسين فى هذا كله أنه تحمس للفكرة وأيدها «وحدث بعد إنشاء المعهد فى عام ١٩٥٠ لم يعين أبى أول مدير له، بل عينت الوزارة الدكتور



تمثال طه حسين للفنان حسن كامل تم ازاحة الستار عنه في أواخر يونيو الماضى بميدان الجلاء بالجيزة

عبدالهادى أبو ريدة - أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة - رحمه الله، وكان معه الدكتور عبدالعزيز الأهوانى - أستاذ الأدب العربى بجامعة القاهرة - رحمه الله، وكيلا للمعهد » .

وهذا كله خلط، ينقض بعضه بعضا، ويحتاج إلى إعادة تحرير وفضل بيان .

جماعة المنتفعين بطه حسين

أحسب أن الدكتورة منى كانت ضحية إعلام كاذب صنعه النفاق والجهل، وجماعة المنتفعين بطه حسين ، وتجلى ذلك واضحا فيما حدث من أعوام ثلاثة، حين بدأ المعهد يدعو أفواجا من المصريين إلى مدريد، احتفالا بمرور خمسين عاما على إنشائه، وجعل من ذلك مناسبة للحديث عن منشئه (المزعوم) طه حسين أديبا ومفكرا وليس فيهم على جملتهم (منهم من صحب زوجه وبعض أبنائه) من يحسن الحديث بالاسبانية، وليس فى إسبانيا من يعرف العربية، ولست أدرى لمن كانوا يحاضرون ، وبأى لغة كانوا يتحدثون ، وفى المعهد كانت القاعة الكبرى تحمل اسم طه حسين تكريما له، ولأن الأمر كان مجرد «زفة» تدفع نفقاتها وزارة التعليم العالى بالعملة الصعبة فإن أحدا من الذاهبين ، على كثرتهم، لم يحاول أن يتعرف على تاريخ المعهد، وأن يكتب عنه شيئا، ولو من باب الفضول .

وأول ما يجب تصويبه فى كلام الدكتورة منى أن طه حسين لم يكن وزيرا فى الأربعينيات ، وأن أول مرة تولى فيها الوزارة بعد مدافعة شديدة من القصر الملكى، كان فى وزارة الوفد الأخيرة التى تألفت فى يناير ١٩٥٠ .

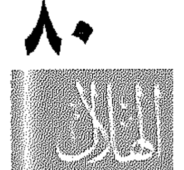
مقالات فى الهلال

نعم، كان طه حسين مستشارا فى وزارة المعارف فى عهد وزيرها أحمد نجيب الهلالى، فى وزارة الوفد التى تألفت فى ٤ فبراير ١٩٤٢، ومع سقوط الوزارة فى ٩ أكتوبر ١٩٤٥ انقطعت صلة طه حسين بوزارة المعارف تماما، لأن الوزير الذى خلف أحمد نجيب الهلالى عليها، وهو د . عبدالرزاق السنهورى كان خصما فكريا لدودا لطه حسين ، ولم تكن خصومة صامتة، فقد نقلها طه إلى المجلات الأدبية، حين كتب عدة مقالات فى مجلة الهلال إذ ذاك، فى شكل صور أدبية رمزية لمن اختصمهم، تناول فى بعضها السنهورى شكلا وخلقة بالسخرية الحادة الجارحة، على طريقة الجاحظ فى رسالته الشهيرة «التربيع والتدوير» ، وكان لها، نوعا أدبيا غير مألوف، صدى غير بعيد .

ونعرف أن طه حسين قبل أن يتولى الوزارة، كان مفكرا قلقا ومقلقا، كتب فى كل القضايا السياسية والاجتماعية والثقافية والأدبية التى تهم الوطن ، وكان فى كثير منها سباقا ومبدعا ولكنه لم يعرض ولا مرة واحدة لتمثيل مصر ثقافيا فى العالم الغربى .

أما كيف نشأت الفكرة فقصتها على النحو التالى :

غداة انتهاء الحرب العالمية الثانية عام



١٩٤٥ برز على سطح الحياة السياسية العربية أمران مهمان: قيام الجامعة العربية، واندلاع ثورة الجزائر الأولى، وقامت فرنسا بكبح جماحها فى قسوة، واتخذت اجراءات عنيفة لفصل المغرب العربى كله عن المشرق العربى، وبدأت فى فرنسته تماما، لغة وثقافة وعادات، فمنعت دراسة اللغة العربية، وحالت دون دخول الصحف العربية المشرقة، وخروج الشباب الجزائرى للدراسة فى مصر، فى الأزهر خاصة، وكان أمين الجامعة العربية، الوطنى المناضل، عبدالرحمن عزام يتلقى هذه الأخبار مهموما ، ويفكر جادا فى وقفها، أو على الأقل التقليل من خطورتها .

حاول بالمساعى الدبلوماسية أن يوفد بعثة من المدرسين المصريين لتدريس اللغة العربية فى الجزائر فراوغت فرنسا، كما رفضت بشدة فكرة إنشاء مركز ثقافى مصرى فى الرباط عاصمة المغرب، ولم تتزحزح فى موقفها من منع الصحف والمجلات والكتب المشرقية، خاصة المصرية منها .

موقف مشرف للعرب

فى هذا الوقت كانت إسبانيا معزولة دوليا، لأنها فيما رأى الحلفاء المنتصرون، اتخذت جانب المحور، فقررت كل دول أوربا وأمريكا اللاتينية سحب سفراءها من مدريد، وكانت الدول العربية التى لها سفارات فى العاصمة الإسبانية، الوحيدة التى امتنعت عن تنفيذ هذا القرار،

لم يكن طه حسين ولا حسين مؤنس من أصحاب فكرة إنشاء المعهد

وعندما تقدمت إسبانيا للانضمام إلى هيئة الأمم المتحدة صوتت كل الدول العربية إلى جانب دخولها، فى الوقت الذى عارضت فيه الدول الشيوعية، وبعض دول أوربا الغربية، وكانت إسرائيل أشرس المعارضين فى دخول إسبانيا. وفتح هذا المناخ أمام عبدالرحمن عزام الباب ليحاول مع إسبانيا فى السماح بفتح معهد ثقافى مصرى فى طنجة، وكانت هذه تدار دوليا، ولكنها بعد انتهاء الحرب أصبحت عمليا تحت النفوذ الإسبانى، ولم تقبل إسبانيا هذا العرض، واعتذرت بأنها لا تملك الموافقة وحدها على هذا الأمر، وأنها سوف تلقى معارضة شرسة من فرنسا، وربما أيضا لأنها خشيت على نفسها، فقد كانت تحتل شمال المغرب حيث تقع طنجة ، ولكنها ألمحت إلى أنها ترحب بمركز ثقافى مصرى يكون مقره مدريد .

مذكرة إنشاء المعهد

واهتبل عبدالرحمن عزام الفرصة، وشئ خير من لا شئ، وعلى رأس وزارة المعارف محمد حسن العشماوى (تولى الوزارة للمرة الثانية فى وزارة حسين سرى التى تألفت عام ١٩٤٩)، وتربط بين الاثنين صداقة وطيدة، إذ كانا زميلين

عاملين فى «رابطة الإصلاح الاجتماعى» التى يرأسها العشماوى، وتمارس نشاطا ملحوظا فى مجال الخدمات الاجتماعية، وتصدر مجلة شهرية تحمل اسمها، وتبشر بأفكارها.

واقتنع العشماوى بالفكرة، وأعد مذكرة باسمه إلى مجلس الوزراء، للموافقة على إنشاء المعهد، ونصها:

وزارة المعارف العمومية

مكتب الوزير

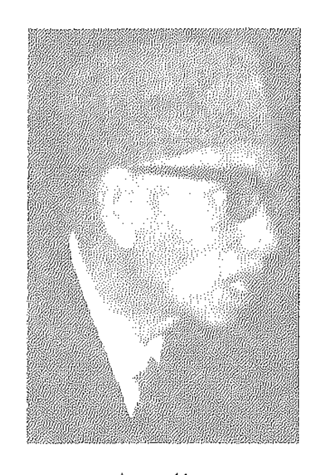
مذكرة لمجلس الوزراء

باقتراح إنشاء معهد فاروق الأول للدراسات الإسلامية بإسبانيا

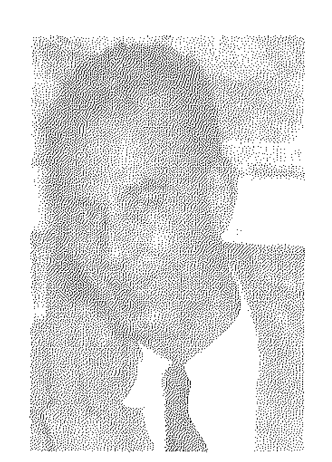
إن المكانة التى وصلت إليها مصر فى هذا العصر الحديث، لا سيما بعد أن ظفرت باستقلالها السياسى، التى تفرض عليها أن تمثل فى الخارج تمثيلا ثقافيا يدعم مركزها فى الثقافة العالمية، يضاف إلى ذلك أن بلادا أصغر من مصر، وأقل منها ثروة قد حرصت على هذا التمثيل الثقافى، وأنشأت معاهد فى كثير من عواصم الشرق والغرب، وقد أخذت مصر أهبتها منذ سنة ١٩٤٣م للمضى فى هذا السبيل، وتمثيل شخصيتها فى العواصم الكبرى، فأنشأت المعهد المصرى بلندن، ثم أنشأت المعهد المصرى بواشنطن، لإطلاع المصريين على ما ينبغى أن يعرفوا من الأمور العلمية والفنية والإدارية فى البلدين، وإطلاع الأجانب على ما ينبغى أن يعرف من شئون النهضة المصرية، ونشاط المصريين فى فروع الحياة العقلية على اختلافها، ثم توثيق العلاقات الثقافية بين مصر وتلك البلاد.

واليوم وقد أثبت المعهدان الناشئان ما كان معقودا بهما من آمال فى هذا الشأن لابد من إعداد العدة للاستمرار فى هذا النحو من أنحاء التعاون الثقافى العالمى، وإن بين مصر وإسبانيا من أسباب التقارب الثقافى والعلمى وووشائج التاريخ ما يلفت النظر إلى ضرورة إنشاء معهد إسلامى عربى فى إسبانيا، لا شك أنه سيكون عظيم الخطر، بعيد الأثر فى الثقافة العربية ودراسة التاريخ العربى، فقد ازدهرت اللغة العربية فى إسبانيا قرونا طوالا، وتركت فيها آثارا خالدة، ومن حق هذه الآثار أن تدرس على أحسن وجه وأدقه، وهذه الآثار مختلفة متنوعة، منها ما يتصل بالأدب والفلسفة وعلوم اللغة العربية والدين ..

وفى إسبانيا مخطوطات عربية قديمة قيمة، من حقها أن تنسخ لتستقر نسخ منها فى مكاتبنا المصرية، يرجع إليها الباحثون فى غير مشقة ولا نفقة، ومن حق بعضها أن ينشر ليتمتع به الباحثون فى الشرق والمغرب، ويستمتع به المثقفون جميعا، ومادام الأدب العربى يدرس فى معاهدنا فى إسبانيا والمغرب، ومادام فى مصر معهد للآثار الإسلامية ومتحف للآثار العربية، فمن الحق علينا أن يكون علمنا بالآثار الإسلامية فى إسبانيا



محمد العشماوى



عبد الرحمن عزام

والمغرب دقيقا عميقا ، وليس مما يلائم الكرامة المصرية، ولا الكرامة العربية الإسلامية أن يستأثر المستشرقون بكل هذه العلوم وأن يكون اطلاعنا عليها سطحيا يسيرا لا دقة فيه ولا عمق ، وقد أخذ المصريون يستأنفون حياة فتية خصبة ، وأنشئت فى مصر مدرسة خاصة للفنون الجميلة ، وإسبانيا موطن من مواطن الفنون يرتادها الفنانون المتخصصون من جميع أقطار الأرض ليدرسوا ما فيها ن روائع العمارة والنحت والتصوير . ولفرنسا معهد خاص للفنون فى مدريد ولها معهد أآخر ثقافى ، وما ينبغى من الآن أن تستأثر الدول الأوربية بإنشاء المعاهد الثقافية فى إسبانيا ونحن أحق الناس بالثقافة الإسلامية ، قديمها وحديثها، وليس يعرف بلد إسلامى نظمت فيه العلاقات الثقافية مع إسبانيا الإسلامية لمصر، فقد كانت الإسكندرية فى القرون الوسطى مدينة يحبها العلماء الأندلسيون ، يهاجرون إليها ويستقرون فيها ، ومازال الأزهر الشريف إلى الآن يعيش على آثار العلماء الأندلسيين فى النحو والقراءات ، فإنشاء هذا المعهد إحياء للتقاليد المصرية الإسلامية القديمة ، هذا إلى أن مصر توجه منذ قريب عناية خاصة إلى دراسة حوض البحر الأبيض المتوسط ، وخاصة ما يتصل منها بالحضارة الإسلامية .

على أن حكومة إسبانيا لا تزال تظهر رغبتها المؤكدة فى توثيق علاقاتها بالبلاد الإسلامية وقد أنشئ فى برشلونة معهد خاص بدراسات البحر الأبيض والعالم العربى .

وإن عصر الفاروق لجدير بأن ينشأ فيه معهد مصرى عربى إسلامى تنظم فيه العلاقات الثقافية بين إسبانيا وبين الجامعة الناشئة التى تحمل اسم الفاروق أعز الله ملكه .

من أجل ذلك نتشرف برفع الأمر إلى مجلس الوزراء رجاء الموافقة على إنشاءمعهد مصرى إسلامى فى إسبانيا باسم: « معهد فاروق الأول للدراسات الإسلامية بإسبانيا والإذن فى اتخاذ

الاجراءات اللازمة لتنفيذ هذا المشروع »
وزير المعارف
محمد العشماوى
(إمضاء)

● ● ●

إلى وزارة المعارف العمومية
وافق مجلس الوزراء بجلسته المنعقدة فى ٤ يناير ١٩٥٠ على ما جاء فى هذه المذكرة وقد ألغت وزارة الخارجية هذا القرار .
رئيس مجلس الوزراء
حسين سرى
(إمضاء)

قطعت جهيزة قول كل خطيب، ولا اجتهاد مع النص كما يقول علماء الأصول !

● ● ●

أنشأ محمد حسن العشماوى المعهد، وبعد إقراره بقليل سقطت وزارة حسين سرى فى يناير ١٩٥٠، لتخلفها وزارة الوفد ، وفيها تولى طه حسين وزارة المعارف العمومية، وفى تلك الأيام من تاريخ العالم كانت الحرب الباردة على أشدها بين الولايات المتحدة وحلفائها من جانب، والمعسكر الشيوعى من جانب ، وكل طرف يسعى فى ضم بقية الدول إليه، وبدأ جون فوستر دلاس وزير خارجية الولايات المتحدة يطوف منطقة الشرق الأوسط ، يبشر بمشروع «ملء الفراغ» الذى دعا إليه الجنرال أيزنهاور ، بعد انحسار نفوذ الاستعمار البريطانى والفرنسى فى المنطقة ، **ورفض الوطنى العظيم الدكتور محمد صلاح الدين، وزير خارجية مصر، مدعوما من النحاس باشا رئيس الوزراء،** فى لغة حاسمة قاطعة هذه المشاركة: «إن مصر لن تشارك فى أى معاهدة دفاع مشترك قبل أن تجلو عنها القوات البريطانية الرابضة على أرضها، وبعد رحيلها سوف يكون لكل حدث حديث » .

فى ذلك الوقت كان الفاتيكان يدعم الولايات المتحدة بقوة فى حصار مايدعوانه بالمد الشيوعى ، وكان نفوذ الفاتيكان أقوى مايكون سياسيا فى إسبانيا لأن مرتين أرتاخو رجل الكنيسة القوى ، ورئيس مجلس إدارة صحيفة «يا» اليومية الكاثوليكية كان وزير الخارجية فى حكومات الجنرال فرانكو المتتابعة ، وأخذ على عاتقه تطويع العالم العربى بحكم الصداقة التى تربط بينه وبين إسبانيا .

وتمهيدا للأمر وبإشارة من المستشرق الإسبانى الكبير إميليو غرسية غومث أستاذ اللغة العربية فى الجامعة المركزية فى مدريد، ومستشار وزارة الخارجية فى الشئون العربية، تقرر دعوة الدكتور طه حسين وزير المعارف لزيارة إسبانيا رسميا، ووصلها فى أوائل نوفمبر عام ١٩٥٠، وأعدت له الحكومة الإسبانية استقبالا حافلا يتمثل فى :

● أن تمنحه الجامعة المركزية درجة الدكتوراه الفخرية .

● ترجمة كتابه الأيام إلى اللغة الإسبانية، وكانت هذه أول ترجمة لشئ من مؤلفاته ، وقام بها غرسية غومث ، ونشرت فى مدينة بلنسية، فى طبعة فاخرة أنيقة، وطبع خمس مئة نسخة فحسب، قدمت له نسخة منها فى حفل كبير، واقتصر توزيعها على الهدايا، ولم تعرض للبيع فى أى مكتبة، ولم يشعر بها القارئ، ولم تطبع بعد ذلك ثانية، حتى يومنا هذا، وربما كانت الكتاب الوحيد لغرسية غومث الذى طبع مرة واحدة، وأملك نسخة من هذه الترجمة توصلت إليها بعد جهد كبير .

● أن يقوم بافتتاح المعهد رسميا ، وتم ذلك فى حفل رسمى أقيم فى ١١ نوفمبر ١٩٥٠ .

ثم أقيلت حكومة الوفد إثر حريق القاهرة فى ٢٨ فبراير ١٩٥٢، وبعدها بشهور قامت الثورة، وسقط النظام الملكى، وكان النظام الجديد أشد شراسة فى مقاومة الأحلاف المشبوهة، ومع ذلك ظلت إسبانيا تعمل لحساب الفاتيكان ولحساب الولايات المتحدة، ومدفوعة بكراهيتها الشديدة للشيوعية، ولكنها لم تحقق من وراء ذلك شيئا، ولكن مصر والعالم العربى ربح من وراء تقوية العلاقات مع إسبانيا الشئ الكثير، فى موقفها من عدم الاعتراف باسرائيل طوال حياة نحو فرانكو، وجانب كبير من الأسلحة التى كانت تهرب إلى الجزائر أثناء الثورة، عن طريق المغرب أو ليبيا أو

يجب تكريم اسم صاحب مشروع المعهد الحقيقى حتى لا تتوه الحقيقة بين أصحاب الهوى والغرض

مباشرة كانت تشحن فى أغلبها من ميناء قرطاجنة الإسبانى على ساحل البحر الأبيض، وكانت الحكومة الإسبانية تغض الطرف عن كل ما يجرى على أرضها .

● ● ●

أرأيت ظلما أبلغ من هذا الظلم؟ محمد حسن العشماوى أنشأ المعهد المصرى ، وذهب طه حسين وحده بالمجد كله دون أن يكون له دور أساسى فى الإنشاء !

وتبقى كلمة أخيرة

مر على إنشاء المعهد أكثر من نصف قرن من الزمان ، تغيرت فيه أشياء كثيرة، فى وسائل الإعلام والاتصال والخطاب، وتعددت وتنوعت فى مصر الخارج، ومنطقى إذن أن أتمنى على وزارة التعليم العالى أن تدرس أمر هذا المعهد ، وأن تكل إلى لجنة علمية فنية محايدة تقوم بعمل «دراسة جدوى» له، هل لملايين الدولارات التى انفقت عليه عائد يساويها؟ وكل ما أرجوه أن يعصم الله اللجنة من الهوى والغرض لصالح هذا الوطن المنهك اقتصاديا إلى حد بعيد!. ■



أسرار حافظ نجيب
الصحفى والشاعر والأديب
(١٨٧٩ - ١٩٤٦)

بقلم
أحمد حسين الطماوى

للسقوط الأخلاقى أثره الظاهر فى المكانة الاجتماعية للكاتب، فإننا لا نكن احتراما لأديب محتال وإن ابتنى قصوراً للثقافة، ولا نطرب له وإن شدا فى دوحة الأدب، ذلك أن سلوكه الشائن أظهر فى عيون الناس من كتاباته ، ومن ثم إذا ذكر اسمه ابتسمنا ساخرين، وإذا أطلعنا شخص على أدبه، استخففنا به متندرين، وقد كان حافظ نجيب وافر الملكات، متنوع المواهب ، منسرح النظرة فى الحياة، له أفكار واضحة متزنة، وأشعار تتجلى فيها شخصيته وقصص يحلل فيها النفوس والعواطف، وموضوعات اجتماعية يتعامل فيها مع الحقائق، وكل ذلك لم يرض الناس عنه، ولم ينسهم انحرافاته، ونتج من هذا تضارب الأقوال فيه، والتهوين من شأنه، وتبديد آثاره، والتناول العابر لما بقى منها ، ولو كانت آثاره لرجل آخر محمود السيرة لاحتل بيننا مكانة عالية.. وتناولته دراسات جادة.

وإذا كنا قد عرضنا لحافظ نجيب الفيلسوف المحتال، فى مقال نشرته «الهلال» (اغسطس ١٩٩٤) فإننا اليوم نستكمل مسيرته الأدبية والصحفية، بعيداً عن كتاب «اعترافات حافظ نجيب» الذى توفر عليه من كتبوا عنه، وقلما تجاوزوه

الشاعر

بدأ حافظ نجيب حياته الأدبية بالكتابة للمسرح بعد فشله فى التجسس لصالح فرنسا وعودته إلى مصر.

وفى نحو ١٩٠٥ اتهم بالاحتيال وألقى القبض عليه، وزج به فى سجن الحضرة، ومن السجن أرسل بقصائد شعرية وبقصة طويلة إلى جورج طنوس، وقد نشر هذا الشعر أو قدر منه فى مجلات وكتب وعلق خليل مطران فى المجلة المصرية (فبراير ١٩٠٩) على قصيدة من قصائد حافظ، وجاء كلامه تحت عنوان:

«مجرم شاعر» قال: «تناقلت بعض الجرائد قصيدة لناظمها حافظ نجيب وهو اسم فنى عرفه سكان القطر بغرائب حيله، ونوادر الوقائع التى سجن بسببها، قالها وهو معتقل فى الحضرة منذ سنتين وهذه مختارات منها:

«تجرد رأسى يا زمان من الفكر
وأصبحت محموما أبيت على الجمر
كذلك مات الحب فى القلب يائسا
وزال به ما كان يحرق فى الصدر

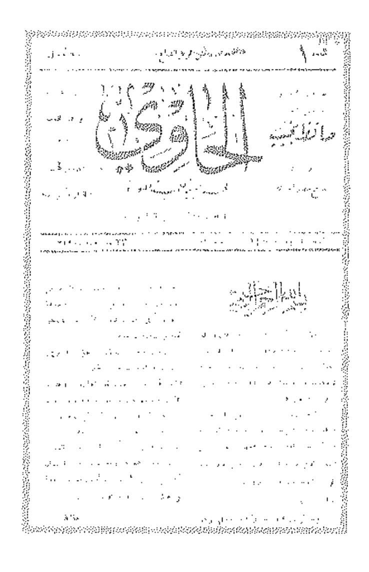
ومنها:

وأصرف وقتى بين هند وزينب
أعاقرها راحا إلى مطلع الفجر
وتسلب مالى ذات خد محمر
وأصبح محروق الفؤاد من الخمر

ومنها:

فياليت من يهوى يرى اليوم حالتى
لينظر ما تأتى النساء من الغدر
فما باعنى للسجن إلا مليحة
علقت بها يا قوم من أول الأمر

«ومن تصفح هذه الأبيات المرسلة مع السليقة على ما فيها من ركاكة وضعف

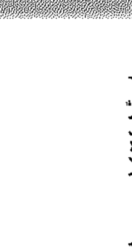


مقالات « الحاوى » اتسمت بالهدوء والاعتدال ، تحاذر من السلطة، وتنأى عن السياسة

تركيب من استشف خلالها فطرة لو عولجت وتدوركت لصلحت للشعر والأدب، ولا يسوء بعض أدعيائنا ممن يتصدون بمقال لكل مقام أنه لو كان للمنشآت قانون عقوبات لدخلوا السجن تأديبا.

ولم يجدوا بينهم حافظا نجيبا..

وليس لى أن اعقب على كلام الخليل، وهو من هو فى الشعر والنثر والنقد، ولكن أريد أن أوضح نقطة مهمة وهى أن شعر حافظ نجيب هذا وغيره يعد من شعر الشخصية، وقد كان الأستاذ العقاد يعيب على شعر شوقى، أو الغالبية العظمى منه، خلوه من شعر الشخصية، وكان يقول: «الشاعر الذى لا تعرفه من شعره لا يستحق أن يعرف.. وشعر الشخصية هو الشعر الذى يعبر فيه الشاعر عن أحاسيسه، ويستظهر فيه أعماقه.. ويستمده من حياته ، ومن هنا يكون مطبوعا وليس متكلفاً، وشعر حافظ كان ينقل فيه أحاسيسه ويضمنه معالم نفسه، ويعبر فيه عن تجاربه وواقعاته،



ومنها قضاؤه الليل حتى الفجر مع راقصات في الازبكية وغيرها مثل شفيقة القبطية وحميدة وغيرهما ويقابل هذا في شعره السالف قوله: «وأصرف وقتي بين هند وزينب.. ومنها تجربته الكبرى مع الأميرة الروسية فيزنسكي التي عشقته، وأعدته لنفسها، ودفعتها الغيرة عليه من الراقصات اللاتي ينادمهن حتى الفجر إلى التحريض عليه وسجنه، فكرهها وقال في الأبيات السالفة: «مات الحب في القلب يائسا».. ثم قال:

«فما باعني للسجن إلا مليحة..

ويقول في قصيدة أخرى يربط فيها بين السجن والحب نشرتها مجلة «الأقلام» (ديسمبر ١٩٠٦):

ولولا الهوى ما بت في القيد مثقلا
ولا بت في وادي الهموم كما ترى
ولا تعجبوا إن بات لي السجن منزلاً
فقد ينزل الإبريز في منجم الثرى

ويعرب عن ضيق نفسه وتبرمه بالحياة في قصيدة أرسلها إلى جورج طنوس من سجن الحضرة ونشرت في كتاب «نابغة المحتالين» فيقول:

يا صاح قد غدر الزمان ومن هوى
أحرى به سم بكأس مفعم
خير من السجن الطويل وضيقه
فالسم أطيب من شراب العلقم
ولقد سئمت من الحياة وذلها
وغدا الممات أحب من لثم الفم

هكذا كان يعبر في شعره عن الحب والسجن، ويعرب عن رغبته في فض علاقته بالحياة، وقد يكون في صياغة شعر حافظ قليل من الفن، ولكن فيه كثير من الصدق، ولعل هذا ما قصد إليه خليل مطران عندما ذهب إلى أن شعر حافظ فيه ركاكة وفطرة، وقد كان العقاد يعرف الشعر بقوله:

«التعبير الجميل عن الشعور الصادق»

وإذا كان شعر حافظ خلا من التعبير الجميل، فقد تمثل فيه الشعور الصادق، وعلى أية حال فإن مطران فضله على غيره وذلك عندما أخرج حافظ نجيب من بين الأدباء الذين يدعون الأدب.

فترة غامضة

سجل حافظ نجيب ترجمته الذاتية منذ مولده حتى يناير ١٩٠٩ في كتاب «اعترافات حافظ نجيب» فأضاء تلك الفترة.. وكشف عن العناصر التي كونته، والأفكار التي غلبت عليه، وكان في نيته أن يكمل ترجمته الذاتية، ولكن المنية وافته عام ١٩٤٦، ومن هنا صارت الفترة من يناير ١٩٠٩ إلى تاريخ وفاته يكتنفها الغموض الشديد، وبالرغم من البحث الدوب فإن المعلومات فيها شحيحة، والهوات فيها واسعة، ومع ذلك نذكر ما وقفنا عليه ، فقد أصدر جورج طنوس عنه كتابين أولهما كان في صيف ١٩٠٩ وعنوانه «نابغة المحتالين أو حافظ نجيب» ويشتمل على نوادره في الاحتيال وعدد من القصائد وقصة واقعية، وقد تناولته مجلة «المحيط» (أكتوبر ١٩٠٩) وقالت: إنه «كتاب جمع كثيرا من الحوادث الواقعية التي أتاها هذا النابغة في النصب والاحتيال فجاء كرواية تلذ مطالعتها لأن وقائعها لا تقل في الغرابة

عن وقائع الروايات الخيالية.. أما الكتاب الثانى فهو الراهب المسلم صدر عام ١٩١٠.

وفى سنة ١٩١٢ طبعت دار المعارف كتابين لوسيلة محمد الأول عنوانه «روح الاعتدال» مترجم عن شارل وانير، والثانى «غاية الإنسان» مترجم عن جان فينوت، ووسيلة محمد هى زوج حافظ نجيب ولا صلة لها بالكتابين، وقد قال حافظ مرة إنه ألفهما، ومرة آخرى أنه ترجمهما، وفى آخر عام ١٩١٢ قبض عليه وقدم للمحاكمة عام ١٩١٣ وحكم عليه بالسجن، وفى عام ١٩١٥ طبعت له دار المعارف كتاب «الناشئة» ويدخل فى إطار العلوم الاجتماعية، وفى عام ١٩١٦ تفيدنا جريدة المحروسة أن الشرطة كانت تبحث عنه وتصدر نشرات بأوصافه ليتسنى لها القبض عليه، وهذا يعنى انه ربما هرب من سجن طرة، أو أنه أمضى فترة العقوبة ثم ارتكب جرائم جديدة، ولم يتيسر لى ان أعرف شيئا عن حياته فى الفترة من ١٩١٦ إلى ١٩٢٠.

والظاهر لى أنه قضاها أو قضى معظمها فى السجن، وأنهى جميع العقوبات وصار حرا، ودليلنا أنه ظهر فى المجتمع جهاراً بعد سنة ١٩٢٠، وأصدر المجلات ومثل المسرحيات وأهم من كل ذلك إصداره القصص والروايات المترجمة والمؤلفة.

القاص

ومن رواياته المترجمة : أصبع الشيطان ١٩٢١ حذاء الميت ١٩٢١ زواج جونسون ١٩٢١، قاضى التحقيق ١٩٢١ عفريت بيكار ١٩٢١، قاتل الليدى بلتهام ١٩٢٢، القطار المفقود؟ وفاء هيلين؟

ثورة العواطف

رواية غرامية أدبية حماسية

بقلم

حافظ نجيب

جميع الحقوق محفوظة للكاتب

رواية من مؤلفات حافظ نجيب - ١٩٢٦

وجميعها من روايات جونسون وتقع فى سبعة مجلدات وعددها ٢٢ جزءا، عدا ثمانى روايات ملتون اضافة الى الغرفة الصفراء، الشيخ المخيف ١٩٢٥، سر الجريمة (فهارس دار الكتب ومجلة الحاوى ١٩٢٦/١/١٩ ومما يجدر ذكره أن هذه الروايات كانت الغذاء الثقافى الأول لنجيب محفوظ الذى يقول: سنكلير وميلتون توب وغيرها من الروايات التى كان يترجمها حافظ نجيب بتصرف.. هذه الروايات هى كل قراءاتي الأولى.. (كتاب نجيب محفوظ - صداقة جيلين لمحمد جبريل ص ١٥، ١٦).

أما الروايات والقصص المؤلفة فنذكر منها: موت حافظ نجيب ١٩٢١، ثورة العواطف ١٩٢٦، الحب والحيلة ١٩٣٧ ويذكر حافظ نجيب فى الحاوى أن له عشر روايات اسمها «روايات حافظ نجيب» ويبدو أنه أضاف إليها، فإن صلاح عيسى يذكر أن فى مكتبته واحدة منها بعنوان «كنوز السلطان عبدالحميد صدرت عام ١٩٣٧ (القاهرة

١٢/١١/٢٠٠٢).

وقد سارت قصص حافظ نجيب في خطين: الأول هو الخط البوليسى الذى يساير حياته فعمله بالتجسس ثم مغامراته مع الشرطة، وإجادة الإخفاء والتمويه والتنكر جعلته يميل إلى ترجمة وتأليف القصص البوليسية، والثاني هو الخط الغرامى، وهذا ليس بعيدا عنه فقد عرف منذ الصبا الألفة والحب وفى اعترافاته مادة وفيرة في هذا الجانب، هذا إلى جانب ثقافته في هذين المجالين فقد كان يهيم بقراءة الروايات، وكان يرى أن الأحداث الخيالية تشغل باله عن الهموم ولأنه تنقل فى بعض دول أوروبا فإن عددا من قصصه المبتدعة تجد فيها البيئتين المصرية والأوروبية.

وأول رواية كتبها تلك التى نشرها جورج طنوس فى كتابه «نابغة المحتالين» وتقع فى نحو مائة صفحة، وبطلها عزيز تقسو الحياة عليه، فيسخط عليها، ويستخف بالقيم، ويتملكه الحقد والحنق على الناس.

ويضمر الانتقام من الدنيا فيؤذى البشر وهى فكرة شريرة، وكان عليه أن يستعلى على الحياة ويزهد فيها، أو يتعامل مع معطياتها ويحاول توجيهها إلى صالحه، ولكن آثر أن يحيا حياة بوهيمية شيطانية.

ولعل حافظا كان يعبر عن نفسه، ويبرر سلوكه الشائن وهو نزيل سجن الحضرة عام ١٩٠٦.

وقصته «ثورة العواطف» ١٩٢٦ يعالج فيها غرام أديب أرمل فى الأربعين بفتاة دون العشرين (ثريا) ابنة صديقه وجاره، ولكن «ثريا» كانت تحب شابا يناسبها، وترفض الزواج من الأديب، وتقترن بالشاب الذى يسىء إليها ويبدد ثروتها فتندم على عدم الزواج من الأديب، أما ابراهيم فيموت كمدا، وتنتحر ثريا حزنا عليه.. وهذه القصة تذكرنا بعشق جوته وهو فى السبعين من عمره لأولريكه وهى دون العشرين ورفضها الزواج منه، وبعشق العقاد وهو فوق الخمسين لفتاة شابة ألهمته ديوان شعر «أعاصير مغرب» وبعد أن امضت معه وقتا هجرته. ونسيت اسم حكيم قال ما معناه: إن الشاب عند المرأة أفضل من جميع حكماء العالم. وهذا صحيح لأن الأنثى فى الصبا لا تطلب السلام مع كهل، ولا تنشد الهدوء مع شيخ وإنما تتيقظ نفسها مع شاب يميل إلى المغامرة والمجازفة ويثب بها وثبا إلى حيث تكون سعادتها.

إعلان فى الحاوى عن فرقة حافظ نجيب ومسرحية «بم بم»

صور حافظ عاطفة الأديب الرقيقة، وانفعالاته القوية، وحنانه وحياءه عندما يحب، وعند المؤلف أن الأديب أكثر رقة من الموسيقى والمصور «المصور تغريه المناظر والأجسام والأوضاع، أما الكاتب فتكفيه التخيلات. والأمانى والأحلام.. والموسيقى لا يتنبه شعوره إلا

بالنغمات والأوزان...

والقصة رقيقة العبارة ، جميلة العرض، مهذبة الألفاظ، ومن تقنياتها أن المؤلف جعل المشاهد والحوادث مناسبة إلى حد كبير لشخصياتها.

العالمين والحاوى

لا ريب فى أن حافظ نجيب حقق شهرة واسعة من كثرة ما كتب عنه فى الجرائد، ومما زاد فى شهرته تلك الروايات الكثيرة التى ترجمها وألفها فى عامى ١٩٢١، ١٩٢٢، وربما كان ذلك دافعا له للاشتغال بالصحافة، فأصدر مجلة «العالمين» اسبوعية ادبية علمية مصورة فى ١٩٢٢/٥/٨.

وقد خلت ترويسة المجلة من اسم حافظ نجيب، ولكن فى فهرس الدوريات التى تقتنيها دار الكتب، تجد المجلة منسوبة إلى عبدالقوى الحلبى وحافظ نجيب، وبالرغم من أن المجلة واصلت الصدور حتى ربيع ١٩٢٤، فلم أشهد منها إلا الاعداد التى صدرت من مايو إلى أكتوبر ١٩٢٢ وهى الاعداد الموجودة فى مجلد واحد بدار الكتب.

فى العدد السابع من «العالمين» (١٩٢٢/١٠/١٢) أظهر صاحباها غرضهما من مجلتهما وهو تناول شخصية مصر وابراز دورها فى الحياة العصرية من خلال عطائها، وعلاج عللها، وأظهر ان صحيفتهما ستكون معرض صور مصرية، ومرآة تتراءى فيها نفسية هذه الأمة، وتنعكس عنها أخلاقها وتطورها ونظرها إلى الحياة، وإسهامها فى حركة التقدم الإنسانى لذلك فقد وجهت انتقادات شديدة لبعض المسرحيات الهابطة، ونددت بالفودفيل القذر، وبروح التبذل والسوقية فى المسرح، كما انتقدت طلبة البعثات العلمية المصرية إلى أوروبا والذين عادوا بالألقاب الكبيرة ولم يحدثوا انقلابا فى المواد العلمية لدينا أو غيروا وجهة الأدب عندنا أو أثاروا نهضة اجتماعية.. وقد حفلت المجلة بمادة أدبية شعرية وزجلية، وقصصية، ونشرت محاضرة مهمة لطنطاوى جوهرى اثبت فيها سبق المسلمين للأدروبيين فى المخترعات العلمية مثل الجاذبية ورقاص الساعة، وغيرهما، وكان من كتابها يونس القاضى ومحمد السباعى وعباس حافظ وقد توقفت «العالمين» نتيجة دسيسة، فقد رأينا حافظ يكتب فى أول عدد من مجلة «الحاوى» انقطعنا عن الكتابة مكرهين، ولم نشعر بغير الوحشة لانقطاعنا عن الاتصال بقرائنا.. اكرهنا بوسائل غير شريفة على وقف ظهور مجلة العالمين.

٣٤-٣٥-٣٦-٣٧ مارس

اعلان فى «الحاوى» عن مسرحية «الهوسة»

وأصدر حافظ نجيب فى ١٤ من يوليه ١٩٢٥ مجلة «الحاوى» وهى أدبية علمية مصورة.. والحاوى هو الشخص الذى يخرج من جرابه أشياء كثيرة متنوعة، وكانت المجلة أو حافظ كذلك، ففى أول غلاف لها نجد رسما لرجل، هو الحاوى يخرج من جرابه أشياء مثل: أبحاث اجتماعية ، فكاهات العاب رياضية ، ألعاب بيتية، فوائد منزلية، قصة الأسبوع، رواية مسلسلة، أسئلة وأجوبة، المسرح، النقد، اكتشافات حديثة،

الأدب المختار، وهي ابواب الحاوى، وقد قدمت المجلة قصصا مترجمة عن ٧ وموليير وغيرهما، ومولفة مثل «زهرة هانم.».

وانتقدت منيرة المهدية ومسرحيات كانت تمثل، وقدمت نماذج مختاره من البلاغة العربية العالية، وكان من كتابها محمد عبدالمجيد حلمى صاحب مجلة المسرح، وكامل كيلانى، وسيد ابراهيم (الخطاط) ومحمد أمين حسونة وغيرهم وقد لاقت المجلة تشجيعا وترحيبا من القراء فقال أحدهم فيها:

أهلا وسهلا بالحاوى
يابو الجراب محشى فتاوى
تشرح وتمزح وتداوى
يابو نجيب يحيا الحاوى
يا رفاعى مدد
فى كل عدد
وتهيص يا ولد
وتعيش فى رغد

ومن مواد هذه المجلة ما يكشف عن البون الشاسع بين حياة صاحبها وكتاباته.. فإذا كان قد اشتهر بالاحتيال فإنه فى قصة «جنى على نفسه» هاجم فيها الدجالين، والمحتالين وإذا كنا نعرف من اعترافاته أن من أسباب شقائه عشقه للنساء الأوروبيات السافرات مثل فيزنسكى . فإنه فى «الحاوى» ينتصر للحجاب،، وينتقد منيرة ثابت التى تحض على السفور ، يقول: «إذا كانت المرأة وهى محجبة على هذا الحال من الخلاعة، فكيف تكون إذا هدمت الحجاب، ومزقت النقاب وانفتح لها الباب.. وحافظ الذى كان يتنقل بين الراقصات ويستغرق فى الملذات وينفق الأموال إرضاء لمزاجه، يحارب فى الحاوى، الاسراف فى المطالب ويقول «لو قارن كل فرد بمن هو دونه فى الغنى والجاه ونظر إليه كيف يرضى وييسر بالضروريات إن حصل عليها لاستطاع أن يردع النفس عن غيها، وقوى على كبح جماحها وأرضاها بما يرضى القنوع الراضى.

الحاوى تهاجم الملك

ومقالات الحاوى الصحفية والأدبية، يسيطر عليها العقل، وتتسم بالهدوء والاعتدال ، وتناقش موضوعات أدبية وفنية، وتحاذر من السلطة، وتنأى عن السياسة، واستثنى من ذلك مقالا خاطبت به الملك فؤاد، باطنه الشدة، وظاهره اللين عنوانه «تحية وضراعة» جاء فيه: «شعبك يا صاحب الجلالة فى ضائقة ، يضرع اليك.. من ضيق ومن قهر، يستغيث لا عن عجز ولا عن مكر، ففي القرن العشرين فى عصر المدنية والنور يربط شعب على الخسف ويراض على الضيم، ويساق كالماشية أو يطرح فى الشاوية.

يا صاحب الجلالة.. انتزعت من الشعب إرادته، وسلخت منه حريته، واحيط به بالحديد، وفى كل يوم إرهاق جديد.. سلاح شعبك يا مولاى الحق واللسان، وسلاح مرهقيه القوة والحديد، ولولا وداعة الشعب وحكمته، ولولا لطف الله ورحمته لما صمدت القوة ولا استعصى الحديد».

وتحذر الملك من الثورة وتقول:



« طبيعة الشعب فى كل زمان ومكان كطبيعة الحليم الوديع يصبر فى استكانه، ويحتمل الضيم والإهانة إلى حين، فإذا أحرجته المصائب، وإذا نفدت قوة الاحتمال، فهو البحر فى هياجه، والعاصفة فى ثورتها، وشدة الألم تسوق إلى الجنون ».

« ياصاحب الجلالة الشعب فى كل مكان عاطفة لا عقل، ومن المستحيل أن تبيد أمة ليحيى فرد، الجميع يامولاى من شعبك ، والكل يضرعون إلى جلالتك بضراعة ليست ظلما وليست حماقة يطلبون الحرية.. والمساواة .. يطلبون العدل والعدل اساس الملك .. المحرر »

جاء هذا الخطاب فى افتتاحية آخر عدد من اعداد «الحاوى» بدار الكتب فى تاريخ ١٦ / ٨ / ١٩٢٩ ولا أدرى هل احتجبت «الحاوى» بعد هذا التاريخ بسبب هذا الخطاب أو لأسباب أخرى لا أدريها .

وتتمة لسيرته الأدبية نذكر أن من مؤلفاته «مناهج الحياة» ١٩٢٢« ودعائم الأخلاق» «الغرور» وهى موضوعات اجتماعية ونفسية، أما فى مجال التراجم فلابد من ذكر «اعترفات حافظ نجيب» ١٩٤٦ وهى ترجمة ذاتية اتبع فيها منهج السيرة، أو طريقة التسلسل الزمنى وكتبها بطريقة قصصية فجاءت مشوقة، وضمنها اعترافات خطيرة منها ضعف إيمانه وارتكابه الخطيئة الجنسية والاحتيال على الناس وغير ذلك مما يجعلها كاعترافات الأوروبيين، وكان حافظ ملما بالتاريخ، عارفا بالاديان، فكان واعظا مسيحيا فى دير المحرق وواعظا اسلاميا فى سجن طرة، ففى عام ١٩١٣ القى الواعظ الشيخ

إعلان فى مجلة الحاوى عن رواية «روفائيل» لـ «لامرتين » التي ترجمها حافظ نجيب

على الجربى موعظة على المسجونين «فلما انتهى من وعظه وإرشاده، انبرى أحد المسجونين وأخذ يعظ ويرشد بلسان زلق وفصاحة رائقة، وعظات حكيمة ودام يتدفق فى عظاته ساعتين والمسجونون مصغون والاستاذ الجربى يعجب بنصائحه وأقواله وتساءل عن هذا المرشد فإذا هو حافظ نجيب المشهور بشعره، والمشهور بنسكه والمشهور بتأليفه والمشهور فوق ذلك كله بنصبه واحتياله ».

أما عن حياته بعد إغلاق «الحاوى» فالمعلومات عنها قليلة وتفيدنا مؤلفاته بأنه أصدر روايتين عام ١٩٣٧ وذكر يوسف الشريف فى مجلة «الدبلوماسى» ديسمبر ١٩٩٩ أنه كان يقطن فى المنيل فى أواخر حياته وأنه كان يحضر ندوة يعقدها أبوه، وأنه كان يشاهده وهو يسير فى أبهة واضعا قبعة على رأسه كأنه لورد أو بارون . ■

من أزمات القلوب...

شاعر كبير

يتعذب بين فاتنتين

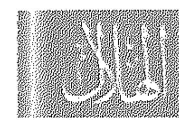
بقلم
د. محمد رجب البيومى

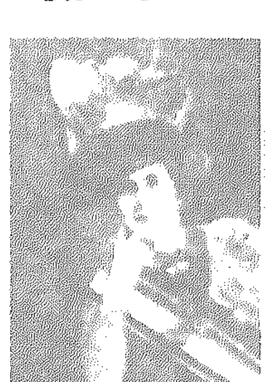
يقول حافظ إبراهيم فى رثاء الشاعر الكبير إسماعيل صبرى:

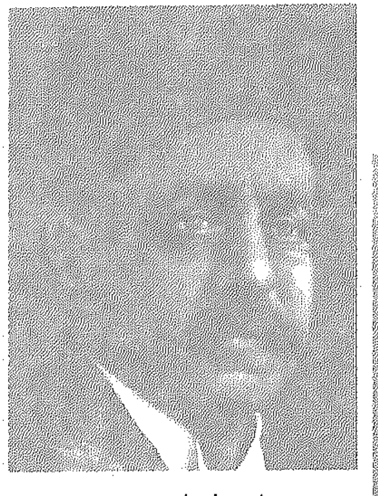
وكم لك شكوى هوى أو أسى ... لها نفثات تذيب الحجر
هتفت بها مرة فى الهجير ... فكاد يدب إليك الشجر
وكم كنت تشعل فحم الدجى ... بأنفاس صب طويل السهر
فياويح قلبك ماذا ألح ... عليه من الداء حتى انفطر
أيجعله تحت الدجى وحده ... لذكرى أليف سلا أو هجر

وهذا وصف حقيقى لقلب الشاعر إسماعيل صبرى لم يتزيد فيه حافظ، ولو شاء لأطال ولما يعرف من لوعة لصديقه وأستاذه . فى جحيم شوق مستعر، حاول أن يتقيه بشتى الوسائل المانعة، فكان أقوى من شدة الغرم، وقوة الحسم، وإذا كان حافظ قد كشف هذا الغرام بصراحته الواضحة فإن شوقى رحمه الله، وهو الذى يعلم من أمر صبرى ما يعلمه حافظ قد آثر التلميح فاستنبط القارئون من حديثه ما أغناه عن التصريح، فقد تحدث فى رثاء صبرى عن مال الحسان الفاتنات بعد الممات وقد زال رواؤهن، وغاض جمالهن - ومنهن شبيهات فى الحسن بمن كن سبب بلواه، ومهبط نجواه - فأصبحن فى التراب سليبات النضرة، شائهات الرونق ! يقول شوقى :

فترى العيون القاتلات بنظرة ... منهوبة الأجفان والأسياف
وأزيل من حسن الوجوه وعزها ... ما كان يعبد من وراء سجاف
من كل لماح النعيم تقلبت ... ديباجتاه على بلي وجفاف




الكسندرة الخورى


اسماعيل صبرى


مـــى زيـــادة

وأنا ما قرأت هذه الأبيات وما بعدها فى القصيدة إلا تذكرت جمالا رائعا هزنى هزا ورجنى رجا، ثم زرته فى سرير المستشفى بعد حين ، قعدت بحسرة لما شهدت ، وهو لا يزال يشم رائحة الحياة، فكيف به بعد الممات !

لا أتحدث عن حياة الشاعر الذى بلغ من المجد الدنيوى ماكفاه، فقد تولى أكبر المناصب الإدارية والقضائية، ونال رتبة الباشوية، وطلب إحالته للمعاش وكيلا للحقانية . حين كانت وكالة الوزارة يومئذ واحدة لا تتعدد فى الوزارة الواحدة، ولو لم يطلب الإعفاء لنال ما بعدها ، إذ كان لا يزال له مديد من السنوات! وتسألنى عن السبب الباعث للاعتزال فتجده فى كرامة النفس، فقد كان فى عهد كرومر الطاغية يأبى أن يزوره فى حشد الموظفين فى المناسبات الداعية، ويجاهر بوطنيته الصارخة فيما ينظم من رثاء الزعماء ، وقد سار فى جنازة محمود سامى البارودى مع ثلاثة من الأفذاذ هم محمد عبده والشيخ على يوسف وخليل مطران ، وخاف الوزراء والمستوزرون أن يشاركوا فى توديع أحد زعماء الثورة العرابية، فيغضب عليهم القصر والمحتل!وقد قال الاستاذ خليل مطران فى ذلك (وخير لثلة - البارودى - أن يعتاض بالشيخ محمد عبده عالما، واسماعيل صبرى شاعرا، والشيخ على يوسف كاتبا، من وزراء لم يعرفوا الوزارة مرة كما عرفها ، ومحافظين ومديرين لم يألفوا الأحكام شريعة كما ألفها» .

أجل لا أتحدث عن حياة الرجل الرسمية ، ولكنى أتحدث عن هم خامره ، فقد وصفوه، وعاق هناءته وما كان يستطيع له دفعا ، وقد زاد من حدته فى نفسه . وسطوته على قلبه ماتحلى به من شدة الحياء وموفور الكرامة ، فكان حياؤه يمنعه أن يأنس بمن يود أنس الحبيب بالحبيب ، لا أنس الجليس بالجليس ولكنه يدفعه من ناحية

ثانية إلى معاناة نفسية . قد تورطه إذا اشتد تأثيرها . وغلى بركانها فى أن يذل فى الإفصاح عن رغبة حامية ، وهو شاعر ولابد لابن الأيك أن يترنم .

عبث ضائع !

كان إسماعيل صبرى يقول الشعر التقليدى فى مديح صاحب القصر، وهو طالب بمدرسة الإدارة لأن مجلة « روضة المدارس» كانت تشجع هذا الضرب من المديح ، وتعده بابا أصيلا من أبواب الأدب بالمجلة وقد نشر منه فى ديوانه الذى صدر بعد وفاته بخمسة عشر عاما ما لو كان حيا لأنكر نشره ، إذ أنه عبث ضائع لا يتصل بفنه البارع الذى نظمه بعد عودته من فرنسا ، فقد قرأ هناك من الشعر الرومانسى المحرق ماغير نظرته إلى ما قال من قبل ، ثم ظهر صداه فى مقطوعاته الغزلية التى سنشير إلى القليل منها ، ولو خير وشأنه بعد العودة ما نظم فى غير الغزل . ولكنه اضطر إلى مجاملات فى التهنئة ، وبعض قصائد الرثاء لا كلها ، فقال ما قال غير مبرز سابق ، وإن عرف له مكانه الشعرى بما قال، حيث لم ينخفض مستواه عن مستوى ما قيل فى هذه الأغراض أو بقيت مقطوعاته الوجدانية التى كان يقولها لنفسه ، وما بقى منها قليل . إذ لم يكن ليرغب أن يكشف خوالجه الدفينة للقراء ، ولكنه إذا استراح بها إلى التنفيس عن مشبوبها الساخن عدا عليها من بعد تمزيقا وتقطيعا أقول ذلك اعتمادا على قول خليل مطران الذى لازمه وفاء وحبا، وخبره خبرة الناقد الدقيق له ولما كان لا ينظم للشهرة بل لمجاراة نفسه على ما تدعوه إليه ، فالغالب فى أمره أنه يقول الشعر متمشيا ، وربما قاله فى حضرة صديق ، وهو مائل عنه بعنقه ، وله بين حين وحين أنة بمثل ما تنطق لفظة (إيه) مستطيلة فينظم المعنى الذى يعرض له فى بيتين عادة إلى أربعة إلى ستة . وقلما يزيد على هذا العدد إلاْ حيث يقصد قصيدة وهو نادر ، حتى إذا استقام ما يريده ذوقه من رقة اللفظ . وفصاحة الأسلوب أهمله ثم نسيه وهكذا يجيش فى صدره الشعر ، فيرسل ببيتيه إطلاق زوجى طائر، فيذهبان فى الفضاء ضاربين بأجنحة ملتمعة ، شاديين على توقيع العروض إلى أن يتواريا وينقطع نغمهما فى عالم النسيان ، وذلك هو الشعر للشعر !» .

ترنيمة الشادى

أقول تعليقا على هذا الوضع الذى يتنكر فيه الشاعر لما أبدع من الشعر مفضلا أن يذهب الفضاء بترنيمه الشادى إلى غير عودة ، إن الحياء المفرط ، والاعتزاز الزائد بمعنى الرجولة هو الذى يوقعه إلى إهمال ما تردد على لسانه من خفقات قلبه . فالشاعر يحس تباريح شوقه فلا يجد مناصا من التعبير عنها تنفيسا لبخاريئز بين

ضلوعه . ثم هو يعرف جيدا أن الغادة الفاتنة التى أوحت له بما قال ستعلم من شأنه ما يتنزه عن البوح به ، وهو حريص على أن يظل فى أوجه الخلقى . ومركزه الاجتماعى ، وليس بعيب عليه أن يهتف بما يجد كما هتف من قبله الملوك والأمراء من أمثال امرئ القيس والمعتمد بن عباد وسيف الدولة وأبى فراس الحمدانى وأسامة بن منقذ ومحمود سامى البارودى ! ولكنه كان أحيي منهم جميعا . والرجل لم يخلق أحاسيسه كما شاء فيخضعها إلى ما يريد ! لذلك ضحي بترانيمه الصادقة ، وإبداعه الصادق، وهو أسير مثله الرفيع! ولعله عاني من ضياع هذه الفوائد أقسى مما عاناه من وجد الكظيم .

شاعر وملهمتان

وسأتحدث عن أديبتين رقيقتين ملأتا قلبه فى وقتين مختلفين لا فى وقت واحد، وكأن الأدب كان شرطا أساسيا من شروط الجمال لدى الشاعر ، إذ أنه رأى دون شك من هى أجمل منهما تكوينا ورشاقة ولم يرو عنه أنه شغل بها ، إنما كان شغله الشاغل ، هو الجمال المثقف . الذى يبلغ بروعة الفكرة ولطف التعبير ، ورقة الإحساس ما يبلغه بإشراق الوجه ، وبسمة الثغر. ورشاقة القوام! والعبء فى ذلك مضاعف تماما على قلب الشاعر وثقيل على إحساسه، لأنه مضطر أن يحوز قلب هذه الجميلة الساحرة برونقها وأدبها معا ، وكأن ما بينه وبينهما من فارق السن البعيدة عبئا ثالثا ووجه به ذات مرة فكاد يصعق!

الأميرة الشاعرة

أما الفتاة الأولى فهى الأميرة الكسندرة الخورى . وكانت ذات دوى فى المحافل الأوروبية حيث حضرت اجتماعات المرأة فى شتى الحواضر الأوروبية ممثلة لفتيات الأمة العربية فسحرت الناس هناك بما قالت وفعلت واقترحت ونالت الأوسمة اللامعة من كبار الملوك والرؤساء . وخلعت عليها إحدى الأميرات الإيطاليات لقبها ، فأصبحت أميرة كما يجيز القانون هناك : وأى مجد أبعد من هذا لفتاة شرقية نشأت فى الشام . وتعلمت في مدارس الراهبات والأمريكان ببيروت وأتمت تعليمها فى الاسكندرية حتى أتقنت عدة لغات حية مع العربية منها الفرنسية والإيطالية . وانتشرت مقالاتها السيارة فى المؤيد والأهرام ثم تزوجت ثريا إيطاليا هو (ميلتادى أفرنيوه) فحملت اسمه وجنسيته . ووضع ماله تحت قدمها ، فكان عونا لها على أن تصدر مجلة شهرية تسمى (أنيس الجليس) وجريدة يومية تسمى الإقدام . ولئن قطعت الأولى خمسة أعوام كانت أثناءها ذات رنين مدوٍ بين القراء فقد أفل نجم الثانية سريعا ، وكان اسماعيل

صبرى محافظا للاسكندرية حين عين بها فى أول مارس سنة ١٨٩٦، فسمع الكثير عن أنبائها الثقافية والاجتماعية ، واشتاق إلى رؤيتها ، ولكنه كظم مشاعره .

حتى تتاح رؤيتها فى اجتماع رسمى، لم يدع له ، وظل يترقب حتى فاجأت الكسندرة الشعب الاسكندرى بإصدار مجلة «أنيس الجليس» ، وهى مجلة تعبق بأريج الأدب شعرا ونثرا وقصة ، ويكتب بها نوابغ الشباب ، ولصاحبتها مقالها الأسبوعى، وتعليقاتها الذكية ، كما لها ندوتها الأدبية التى تنعقد أسبوعيا بإدارة المجلة ؟! إن المناسبة الأدبية تتيح للمحافظ الشاعر الأديب أن يزور ندوتها مشجعا ، وقد قوبل بما يليق ، من الاحتفاء! ولم يطق أن يكتم ما ملأ قلبه من الحنين نحوها ، بل من الهيام بها ، ولكن كيف يكون ذلك منه وهو لا يتأكد من حسن وقعه ، لقد نشر فى «أنيس الجليس» عدة أبيات جعل نصيب الثقافة والجدال لديها أكبر من وصف الجمال ، ليكون تقديره إياها مرتكزا على سموها العقلى، فلا يؤاخذ بنقد ، هكذا ظن ، وهكذا قال :

إن للفضل رونقا وجمالا ... بهرا الحاضرين فى ناديك
قد تفردت فى الأنام برأى ... غض من صوت معشر جادلوك
وتحليت بينهم بخلال ... لم تكذب سيما الإمارة فيك

وكثر تردداه على الندوة فى أوقاتها المعلومة وقد لاع فؤاده أن يرى الشباب من الأدباء يحظون منها بما لم يحظ به الاصطفاء ! ومع حزمه الصارم ، وعزمه الراسخ لم يستطع أن يكتم مشاعره ، فقال قصيدة (لواء الحسن) أثناء مقامه بالاسكندرية ، وما يعنى باللواء غيرها أقول ذلك بناء على أن الطالب الأزهرى على الجارم قد شطرها إذ ذاك ونشر تشطيره فى ديوانه الأخير مؤرخا فى عام سنة ١٩٠١، وصبرى مشغول حينئذ بصبابته نحوها ، ولم تكن الآنسة (مى) قد سطعت فى حياته بعد، والشاعر فى هذه القصيدة قدوصف محاسن الأميرة وصفا بارعا ثم اتجه إلى مقصوده الذى أحس بناره المتوهجة فى صدره ، وهو عدم العدل بين الزوار من عشاقها ، إذ تخص بالمودة فريقا دون فريق ، نلحظ ذلك واضحا فى قوله :

يا لواء الحسن أحزاب الهوى ... أيقظوا الفتنة فى ظل اللواء
إن هذا الحسن كالماء الذى ... فيه للأنفس رى وشفاء
لا تزودى بعضنا عن ورده ... دون بعض واعدلى بين الظماء
وتجلى واجعلى قوم الهوى ... تحت عرش الشمس فى الحكم سواء
واسفرى ، تلك حلى ما خلقت ... لتوارى بلثام أو خباء !
لا تخافى شططا من أنفس ... تعثر الصبوة فيها بالحياء



راضت النخـــوة من أخـــلاقنا وارتضى آدابنا صـــدق الولاء

فلو امـتـدت أمـانينا إلى ملك مـا كـدرت ذاك الصـفـاء !

والبيتان الأخيران كانا لدى الشاعر بينه وبين نفسه شفيعيه فى هذا الكشف السافر عن عواطفه المشبوبة ! بعد أن أعلن أسفه لحرمانه من العدل المنشود ! وقد قال قائل من كبار الأدباء إنه نظم القصيدة لتكون مثالا للغزل الجديد فى اللغة العربية ، حين طلب من شعره مثال يترجم إلى الفرنسية ! وهذا كله لا يخفى بواعثها الدفينة ، وتجربتها الملتهبة التى أشرنا إليها من قبل ، ولم يستطع الشوق المحموم فى أحشائه أن يصبر على كتمان عواطفه دون صراحة كاشفة فقد اعترف للأميرة بخالصة نفسه ، حين عرضت عليه ديوانها الشعرى كى يبدى رأيه فى إبداعها الفنى ، فكتب بخطه على غلاف الديوان .

أهـاجـــــرتى أطـفـئ لـواعـج لاتـنـتـــــــهـى

مـــضت فى هـواك السنون ومـــا نلت مـــا أشـــتـــهى

إذا قـــيل مـــات الأديب بـفـــاتـنـة ، أنـــت هـــى

وقد صدمته الأميرة صدمة عنيفة ، حين أرسلت له هذين البيتين :

زمــــانك قـــبلى انتـــهى وهـل يـرجـع المنتـــهى

فـحـســـبى أن أزدهـــى وحـــسـبك أن تشـتـــهي

ومثل صبرى فى تعاليه الأبى، وكظمه الأليم لابد منصرف عن هوى جوبه برفضه ، فطوى جراحه وانصرف عن الأميرة! حتى فاجأه الهوى الثانى، حين رأى وجه الآنسة (مى) !

مى .. يوم الثلاثاء

لم يكن للآنسة «مى» ذكر أدبى قبل أن تقف فى حفلة تكريم مطران سنة ١٩١٣ لتلقى كلمة جبران خليل جبران ، ثم تتبعها بكلمة من وحى خاطرها ، كانت موضع دهشة للسامعين إلقاء وتعبيرا ومشهدا جذابا ، لفتاة أديبة نادرة المثال ، وقد ذكر الدكتور طه حسين فى الجزء الثالث من الأيام أنه حضر الحفل فلم يرقه شئ مما سمع عن الشعر والنثر إلا ماقالت «مى» ، يقول الدكتور طه :

« إنه سمع صوتا واحدا اضطرب لم اضطرابا شديدا ، وأرق ليلته تلك ، كان الصوت نحيلا ضئيلا ، وكان عذبا رائعا ، وكان لو يبلغ السمع حتى ينفذ منه فى خفة إلى القلب، فيفعل ، الأفاعيل ، ولم يفهم الفتى من حديث ذلك الصوت العذب شيئا ، شغله الصوت عما كان يحمل من الحديث ، كان صوت الآنسة «مي» التى كانت تتحدث

إلى جمهور من الناس للمرة الأولى » .

لقد كان بين الحاضرين اسماعيل صبرى شيخ الشعراء ، وصديق المحتفل به ، فبهره ما سمع من الآنسة ، وإذا كان الشاب طه قد تأثر هذا التأثر ، فقل ما شئت فى شيخ شاعر فنان ، هاجته ذكرى الأميرة الاسكندرانية إذ رآها ممثلة فى أديبة بارعة الحسن ، رائعة الصوت ، قوية الاحساس ، دافقه الخواطر الشعرية ذات اللون الأنثوى الرقيق ، لقد شغل الشاعر بمن رآى ، ورجع من الحفلة كما رجع طه يلتمس الطريق إلى لقائها ، وإذا التمسه طه عن طريق أحمد لطفى السيد، فقد التمسه الشاعر عن طريق الأستاذ إلياس زيادة صاحب مجلة «المحروسة» ووالد «مى» لقد سارع الشاعر فجالسها مقدرا ما أظهرته من البراعة الفائقة فى حفل مطران وقد مست الرقيق من أوتار فؤاده فضبط انفعاله قدر ما استطاع ، وكانت الآنسة قد تهيأت لإقامة ناد أدبى يجمع الصفوة من أعلام الفكر فى منزلها يوم الثلاثاء، ويؤمه العلية من ذوى الفكر شبانا وشيبا وإذا كان الجمهرة من الشباب، فقد كان من الشيوخ يعقوب صروف ، وشبلى شميل، وإدريس راغب! ومتى كان الأمر كذلك ، فليكن منهم إسماعيل صبرى ! لقد عد ذلك الاجتماع الأسبوعى بسمة تأتلق بالضوء فى وجه الحياة العابس إذ حرص عليه حرصه على نور عينه ، وكان بالاسكندرية فى أحد أيام الاثنين ، فخاف أن يفوته مجلس الثلاثاء وشغله هذا الشاغل فصاح .

روحى على دور بعض الحى هائمة   كظامئ الطير تواقا إلى الماء
إن لم أمتع بمى ناظرى غدا   أنكرت صبحك يايوم الثلاثاء !

وكأنى بالموقف السالف قد تجدد من جديد ، موقف الصراع بين الصبا الغض والكهولة المودعة، وهو موقف طالما عصف بالشاعر عصف الريح بالرمال، وكان ذكر الشباب أول ما يخطر له فى مأساته ، ولا يذكره إلا ذكر آنسة ساحرة هيفاء مرهفة القوام ، تثب إلى رؤيتها القلوب فتطفر من الضلوع لتطل مع العيون من الأجفان ، تلك التى عناها اسماعيل صبرى حين قال :



تمسى تذكرنا الشباب وعهده   حسناء مرهفة القوام فتذكر
تثب القلوب من الصدور إذا بدت   وتطل من حدق العيون وتنظر
وتبيت تكفر بالنحور قلائد   فإذا بدت من نحرها تستغفر

وأفجع ما كان يعتصر قلب الشيخ العاشق، أنه يعلم يأسه من ثمرة هذا الحب، وأن الآنسة تجامله لمركزه الأدبى الاجتماعى فحسب ، وكان عليه أن يفهم ذلك قبل أن يسمح لعاطفته أن تشتعل فتصير نيرانا تلفح ! وآه من لوعة الذكرى حين يتصل

الحاضر الماثل بالماضى القريب ، فتثور الأشجان ، ويعز السلوان ، كل ذلك نجده فيما خاطب به الشاعر نفسه إذ قال :

أقصر فؤادى فما الذكرى بنافعة   ولا بشافعة فى رد ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمنا   حمل الصبابة فاخفق وحدك الآنا
ماكان ضرك إذ علقت شمس ضحي   لو ادركت ضحايا العشق أحيانا
هلا أخذت لهذا اليوم أهبته   من قبل أن تصبح الأشواق نيرانا

ومع هذا اليأس القاتل كان مع علته الجسمية، وذبحته الصدرية ، لا يترك موعد «مى» يوم الثلاثاء وكيف ترك موعدها وهى كما قال :

ريحانة أنت فى صحراء مجدبة   من الخمائل حيانا بها الله
زينى الندى وسيلى فى جوانبه   لطفا يعم رعايا اللطف رياه!

أو كما ناجاها بقوله :

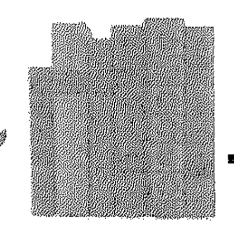
هل النعيم سوى يوم أراك به   أو ساعة بت أقضيها بناديك
وهل يعد على العمر واهبه   إن لم يجمله نظم الدر من فيك

وديوان الشاعر حافل بهذه الجذوات ، وما لم يسجله من خواطره أكثر مما سجله ، لأنه كان يستحيى من الإفصاح عن خوالج قد تخدش ما يرعاه من الوقار ، فذهب ما قاله ، كما يذهب الطائر ضاربا بجناحيه فى الفضاء دون أن يعلم أحد كيف طار ؟ وأين استقر ؟ كما قال مطران، وقد مات اسماعيل صبرى، فرعت «مى» ذكراه ، وكتبت عنه فصلا بديعا من صحف النقد الأدبى سجله كتابها (الصحائف) وكانت ناقدة نافذة النظر حين وضعته موضعه الأدبى الصادق فقالت عنه :

« ينبوع صغير ، بلورى المياه ، عذبها ، ينبوع يرشح بالبيتين والثلاثة، وينتظم مرة أخرى تسلسله المكور اللماع اللون ، على أنه غير فياض لا يدهش بروعته ، ولا يرهب بجلاله ، ولكن يجذب بحسنه المأنوس، ويرضى ببساطته وجلائه ، ويدخل الطرب على النفس الطروب ، برقة عواطفه ، وسلامة ألفاظه ، وهل ألطف من الينبوع الصغير ، فى تدفقه الموزون بلا تهور ، وهل أقرب منه إلى دار ولا الظماءٰ !

آنستى العزيزة ! لماذا لم تكتبى عنه فى حياته بعض هذه الخواطر ، فتردى الروح إلى جسم خائر متهالك ، أتكونين كتلك التى قال عنها القائل !

أتت وحياض الموت بينى وبينها   وجادت بوصل حين لا ينفع الوصل!



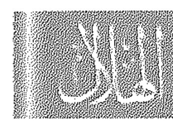


بقلم
د. عبد اللطيف عبد الحليم

فى الخامسة أو نحوها كان مجلس عزاء يضم جمهرة من قراء القرآن الكريم ، يتذاكرون الفائدة المالية التى تدرها عليهم المصائب ، فإذا بأحدهم ينشد «مصائب قوم عند قوم فوائد» بضم الدال فحفرت فى نفس الصبى ، يومئذ ، كما استمع فى هاته السن بعض العوام ينشد متمثلا :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وان انت اكرمت اللئيم تمردا

ينطق الكلمة الأخيرة «تنمردا» وإن فى بداية الشطر الثانى «وإذا» مع كسر الوزن .



ثم أتيح له فيما بعد أن يقرأ هذا الكلام فى ديوان المتنبى فأدرك إلى أى مدى كان الرجل مجدودا سائرا على ألسنة الناس وقد «أصبح الدهر منشدا» كما قال فى قصيدة أخرى، وذكرته هذه السيرورة بما ذكره الرواة - باختصار - عن شانىء للمتنبى أقسم ألا يقيم فى بلد يذكر فيه الشاعر أو شعره، فارتحل لطيته وكلما حل ببلد سأل أهله هل يعرفون الشاعر فيجيبونه بالإيجاب، فيرحل حتى وصل إلى محلة سأل أهلها عن الشاعر فلم يذكره أحد، فحمد الله وألب بالمكان حتى كان يوم الجمعة فصعد الخطيب المنبر وبعد حمد الله والثناء عليه قال:

أساميا لم تزده معرفة

وانما لذه ذكرناها

وهو بيت ذائع من قصيدة ذائعة للمتنبى، فإذا بالشانىء يعود إلى بلده من جديد قائلا: هذا الرجل كالقدر لايقاوم!!

الحسد

هذه السيرورة فسرها المازنى فى دراسته المسهبة عنه فى «حصاد الهشيم» «بقوة» الشاعر، ورجعها العقاد إلى «الحسد» مظهر كل فضيلة، وكان المتنبى شديد الشعور بهذه الخلة حتى سمى ابنه «محسدا» وحتى إن الأيام يحسد بعضها بعضا «وحتى يكون اليوم لليوم سيدا».

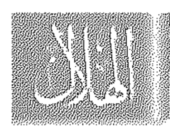
والحق أن أبا الطيب رزق من القوة كفلا عظيما، ورزق من حسد الحاسدين كفلين من العذاب الذى تلذه النفس القوية، لأن غير المحسود كائن لا يستأهل الحياة حيث إنه عاطل من المواهب التى يحسد الناس من أجلها، خامل من معانى الرجولة أو الإنسانية، خلو من الأخلاق العليا التى تثير الغيظ، وتشعل النار فى العرفج، وقد أحسن ابن رشيق حين وصفه «ثم جاء المتنبى فملأ الدنيا وشغل الناس»، وهى كلمة نافذة تصدق على جبابرة المواهب وأفذاذ العقول.

وقد أحس المتنبى بهذا المعنى فقال:

أنام ملء جفونى عن شواردها

ويسهر الخلق جراها ويختصم

وما كان الرجل إلا نافذ النظر إلى ما وراء سجف الغيب، فلم يصف زمنه فحسب، وإنما امتد حتى يومنا هذا، دون ان يغالط أو يغالى فى تعبير شعرى كعادته وعادة نظرائه حين يفخرون.

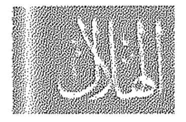


جاء المتنبى إلى الدنيا فى مستهل القرن الرابع، وكان أوان النضج والقطاف فى كل ما زرعته الحضارة العربية الإسلامية ثقافة وسياسة ومذاهب ونحلا، وطوائف وشيعا، وقد اعتورها ما يعتور الحضارات وأهلها من شيوع المطامع والشغب ، والدسائس والمؤامرات، وكانت الكوفة خاصة مباءة الشاغبين، فالتقطت باصرته وبصيرته صورة هذه الحياة وعاشها، واكتوى بنارها، ونضجت فى شعره حكمة منخولة بحكم نحيزته المتأملة، وكأنه لم يلتقط الصورة حسب بل خلقها، ولذا لا ينظر إلى هذه الحكم كأنها خلاصة دراسة وتأمل ، وافادة من قراءاته . ربما تفيده الدراسة والقراءة، ولكنها لا تخلق منه الشاعر الحكيم لولا أنه مهيأ لها سليقه، وكائن من شعراء حكماء قرأوا ما قرأ، ولم يكن لحكمهم مثل ما رزقته حكمة المتنبى ، حيث تعمل البداهة وفحوله الشاعر عملهما فى كل ما خطته يراعته.

شاعر مازوم

المتنبى رجل مأزوم، وكل الشعراء عادة أصحاب أزمات، لكنها هينات لينات فى طبائع الشعراء الذين يخف محمل الدنيا عليهم ، بيد أن صاحبنا ورث هذه الأزمات ، واكتسبها، فغدت أزمته الفذة، كانت جدته قد أسرت إليه بحقيقة نسبه العلوى. واحتمل الرجل هذا السر. تعلى به مراجله فى امة تقيم للأنساب كل وزن، وتحيفته وضاعة هو براء منها. وكشف هذا السر او وقع عليه الاستاذ محمود شاكر فى كتابة الرائد عنه، كما تحمل الشاعر نبزة بالنبوة وافسح لها من كلامة ما يرشح هذا المغمز لواصب ودافع عنه ابو العلاء لغويا بأنها من «النبوة» اى الارتفاع ومرض الاستاذ العقاد فى الرواية وان كان يرى ان الذى غمزه بها انما هو من جبابرة الشياطين وذلك فى دراساته عن المتنبى فى مطالعات فى الكتب والحياة وهى دراسات غير مسبوقة خاصة فى مقارناته بين المتنبى وفلسفة القوة لدى نيتشه، والبقاء للأقوى لدى داروين ، واطلع عليها دون اميليو غرثيه غومث عميد المستشرقين الاسبان فى دراسته الجيدة والبليغة عن الشاعر الذى نعته بأنه شاعر العرب الاكبر وان كان لم يشر الى افادته .

ترجم هذه الدراسة فى امانة وبلاغة د. الطاهر مكى.



نوادر وحكايات

وهذه النبوة التى قرف بها المتنبى لعلها نسيت واسدل الستار على بواعثها، ونحن لا نؤمن بها ولا نعتقد ان الشاعر ارتضاها، برغم الحكايات التى تشاكه الأساطير وتنسب اليه بعض المعجزات فهذا من الملح الذى يشوب النوادر والحكايات، ولم يكن الشاعر ممن تجوز عليه الغفلة، أو استغفال الآخرين فيصدق فى نفسه هذه المثلبة، وثمة شاعر حاول ان يعلل هذه التهمة فقال عنه:

هو فى شعره نبى ولكن

ظهرت معجزاته فى المعانى

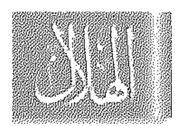
صحيح ان شاعرنا بعيد المطامح، شديد الاعتداد بذاته، لكننا نحسب للتعبير الشعرى حسابه فلا نأخذه كحقائق الرياضيات. ولذا فكل تعبيراته فى هذا المقام تحسب للمبالغة الشعرية حسابها دون ان تفتئت على حق الشاعر فى كبريائه الباذخة التى ترى أنها فوق كل محل يرتقى، وكل عظيم يتقى، ويجوز الفخر فى الشعر حين لا يجاز فى النثر كما يؤكد القدامى.

فى شاعرنا كثير من طموحات دون كيخوتى دى لامنشا، وكثير من أحزان هاملت الأزلية لكن يغلب تعقله سذاجات فارس لامنشا، وتغلب ارادته احزان هاملت وتردداته، انه نسيج وحده - حين قيلت هذه العبارة اول مرة - قبل ان تلوكها السنة الابتذال.

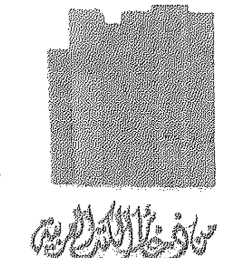
خلق للملك والسياسة

كان المتنبى مجدودا، ذائع الصيت، تزدلف اليه تيجان الأمراء فى زمنه، وينشدهم الشاعر مدائحه جالسا مثلهم، او يجلسه الامير مكانه. ولكن ذلك لم يرض مطامحه، فخيل اليه انه خلق للملك والسياسة واصطنع اليها الذرائع غير المزرية بالطبع، ولم يكن الرجل الا واهما لأنه من رجال النظر والفن، ولو كان الزمن اسعده بهذه الولايات لخسرت الانسانية - لا العربية حسب - فقد مسح الزمان بذيوله على كثير من هذه الأسماء ويبقى مذخورا مصونا كل ما خطه قلم المتنبى، وما هذا بالشىء الهين او اليسير .

لقد غدا شعره فى سمع الدهر ووجدانه ، وحل فيه ارفع محل حتى فى حياة صاحبه، وحتى تغيب العربية من الدنيا ولن تغيب الا بغياب الحياة، جمع المتنبى ديوانه فى حياته، وارخ لكثير من قصائدة، وارخ ابو فهر للديوان كاملا. وقامت حوله معارك فى حياته وخاصة مع النحاة والشانئين عليه، واصطفى الشاعر صديقه ابن جنى بشرح ديوانه وغوامضه وكان يحيل سائليه عليه، وكان ابن جنى - وهو ممتع بإحدى عينيه - كفاء هذه الرسالة فشرحه لم يقف عند اللغة والنحو، بل كان يطبيه ان يجرب نظر الاديب البلاغى، وان كان بعض معاصريه يقرفه بانه تبلد حماره حين يمد عينه خارج اللغة والنحو، وما نظنها الا المعاصرة!!



وقد تعددت شروح الديوان قديما وحديثا، كا تعددت الدراسات عنه وعن الشاعر، لدرجة يمكن ان نطلق عليها اللفظ المعاصر فى الجامعات الاوربية «كرسى شعر المتنبى» وليس من هدف هذه الكلمة ان تحصر هذه الدراسات او الشروح ، وحسبها ان تشير الى بعض منها. واعتمادنا فى ذلك على تحقيق د. عبدالمجيد دياب لمعجز احمد، وبعض هذه الكتب مع المتنبى، وبعضها شديد التشنيع عليه، وطرف منها يلتزم «الوساطة» وكما هو حال القاضى على بن عبدالعزيز الجرجانى الذى صبغت مهنته قاضيا طريقة حكمة فألف الوساطة بين المتنبى وخصومة وقد سبق ان ذكرنا ابن جنى. وله شرحان، وللمعرى شرحان، والواحدى، وابن فورجة، والتبريزى، والسمعانى، والاعلم السنتمرى. والافليلى، والانبارى، وابن وكيع، والعكبرى، والدانى، والخوارزمى،



والعروضى، والربعى، وابن القطاع الصقلى وابن سيدة والحاتمى، والجزرى، والعميدى وغيرهم، كما شرحه حديثا البستانى، والبرقوقى، وان كان الاخير افاد من شروح قديمة تنخل منها ما تنخل ، وذاع هذا الشرح وطبع مرات متعددات.

أفضل الكتب عن الشاعر

ولا تكاد تخلو دراسة عن شعراء العربية من اسم المتنبى او الاستشهاد بشعره، وربما كان الكتاب الامام كتاب شاكر عن الشاعر، فهما واستيعابا، وتذوقا للشعر، اما كتاب طه حسين عنه «مع المتنبى» فليس افضل كتب طه حسين، وفيه نظر كثير من فهم الدكتور للشعر وصاحبه، وربما كان الرجل ينظر الى كتاب بلاشير، وهو مثل غيره من المستشرقين بياشرون العربية وخاصة شعرها بلسان أعجمى ، ونفوس اشد عجمة احيانا، حيث لا يبلغ غور الشعر العربى الا اصحاب اللسان والافذاذ منهم خاصة، وقد اعترف غومث الاسبانى بشجاعة بهذه الحقيقة رغم نفاذه فى فهم المتنبى، فقال ان المتنبى خلق عالما ربما يعسر علينا نحن الاوربيين النفاذ اليه. وهى كلمة حق بريئة لان المتنبى محير فى ذرع القلة ان تغوص معه، وان كانت له الآيات البينات فى حكمه السائرة ، لكننا نأخذ منها بقدر حظنا من الفهم والفطنة، كما ان المتنبى، فيما نعتقد كان يصوغ الفكر الشاعرة فى قالب كان ينتظر هذه الفكرة، فهى تخرج وعليها ميسمه غير مموهة، حيث هى موشوجة بلحمة ودمه واعصابه، وان كانت فيها اثارة من كلام سابق.

ومن الدراسات المتعمقة عن المتنبى وشعره ما كتبه العقاد منجما، عن فلسفة الشاعر وعن صنعته ومقارنته بالمفكرين العالميين، سابقا بهذه المقارنة المدرسة الامريكية ورائدها رينيه ويلك بعقود من الزمن، وكان الغالب على المقارنات المدرسة الفرنسية التى تحتم التأثير والتأثر ومسالكه، وكذلك موازناته بين المتنبى وأبى تمام حيث ارتأى ان للأول عالما، وللثانى إجادات، واسهم المازنى بدراسات جيدة عن المتنبى وفلسفته، وشعره فى حصاد الهشيم، ولعل مثل هذه الدراسات كانت تؤكد فى نظر اصحابها ومعاصريهم، ان التجديد الذين يدعون اليه له سند ركين من التراث الذى يمثل سلامة الشعر وسلامة الطبع، ويرون ايضا انهم يكتشفون مناطق غير مأهولة فى النظر النقدى كما هو الحال فى دراساتهم لابن الرومى وابى العلاء، والمتنبى وغيرهم، وليس من هدف هذه الكلمة استقصاء الدراسات عن المتنبى . فهى تحتاج إلى ببليوجرافيا يحرز بها صاحبها درجة جامعية.

المتنبي في مصر

ولديوان المتنبى بابة رحبة فى الأندلس ، لا تقل عن اهتمام المشارقة به، وربما كانوا هنالك وراء البحر يريدون ان يقولوا بلسان الحال أو المقال إن شئت – نحن وإن شطت بنا الديار فإن لنا رحما ماسة بالمشرق، وربما فقنا المشارقة فيه، ولعل اقامة المتنبى فى مصر مهدت له ان يلتقى بطلبة العلم وشيوخة من أهل الأندلس ،

حيث كان للمتنبى ما يمكن تسميته «صالون» وكانت الرحلة دائبة فقد تلمذ له وسمع منه ابو بكر الطائى، وابراهيم المغربى، وزكريا بن الأشج وهو الذى حمل معه ديوان المتنبى الى الأندلس ، وأثر هذا الرجل فى تلاميذه النابهين مثل منذر بن سعيد البلوطى ، وابن الفرضى، وكلاهما علم فى بابه، وقد شرح ابن الأشج ديوان المتنبى. وان كان لم يصلنا شرحه، لكنه - بلا ريب - تناثر فى مؤلفات الأندلسيين فيما بعد، وقد رأينا اكثر من واحد يلقب بالمتنبى من شعراء الأندلسيين ، وربما كان ابن دراج القسطلى اهم شاعر تأثر بالمتنبى فى معارضات الأندلس له وهى كثيرة - من اشهرها الرائية «باد هواك صبرت ام لم تصبر» وقد عارضها شوقى حديثا فى قصيدته عن الأزهر، وشتان بين الشعراء الثلاثة فى كل شىء، فالمتنبى لا يلحق شأوه ولا غباره، وماذاك الا للنفحة، أو الفحولة البادية فى كلام صاحبنا شاعر الكوفة العظيم.

فى كتاب أدب ونقد لكاتب هذه السطور موازنة بين المتنبى وابن دراج.

لا ينبغى ان تؤخذ الدواوين القديمة والمعاصرة بموضوعات القصائد او بالاحرى بعناوينها، لأن قصيدة المدح او الرثاء او ما يسمى بشعر المناسبات انما هى من صميم الشعر الصادق وخاصة من مثل المتنبى، فضلا عن ان فى تضاعيف القصيدة تصويرا لصاحبها وتدسسا خفيا لمكامن هذه الشخصية، وهكذا كان شعر المتنبى انه اهابه وتجاليده، ومعارف وجدانه.

شعر أقرب الى الجلال

وصياغة المتنبى صياغة نادرة، وصفه الناس بأنه هجام على المعانى، وهذا صحيح، لكنه لا يهجم، الا وقد غدا شاكى السلاح لمنازلة عنيفة، تؤدى فرائض الفكرة وفرائض الفن، وكان له من متانة طبعه ما يبنى بها جواسق وحصونا، لا يتسلل اليها وهىٌ الا كما يتسلل الى اى كائن تجرى عليه اعراض النقصان الذى هو خصيصة بشرية، لكن سلمت له جواسقه وحصونه مهيبة جليلة، حيث كان شعره اقرب الى الجلال منه الى الجمال، وان كان لم يتحيف حق الجمال لانه الجمال العاطل الحالى بالقوة والصدق . حيث كان كلام بعض نظرائه يعرف «مضع الكلام وصبغ الحواجيب».

ويشى ديوان المتنبى بله يصرح بدمامة الامارات الموكوسة التى شهدها وغدا شاهد صدق عليها. وشد الرجل حيازيم راحلته باحثا عن امير ماجد فى زمن افلت فيه شمس المجادة، وحفل بكل عبد فى مسلاخ حر، وارتأى فى سيف الدولة قرينا له فى مجادنه وفى فروسيته، وفى ذياده لعلوج الروم، يصرخ فيه الدم العربى، وكان حزن الشاعر جليلا بقدر احزان، امته، وهوان امرائها ، وكأنه يشاطرنا حزننا من وراء الغيب!! ■



في الشعر

الحلمنتيشي

المعارك الفكاهية التى أشعلها محمد الأسمر

بقلم

د. مصطفى رجب *

الشاعر محمد الأسمر (١٩٠٠ - ١٩٥٦م) واحد من الشعراء الكبار الأفذاذ الذين ظلمتهم شهرة غيرهم فقد كان هو وأقرانه محمود غنيم وعلى الجندى والعوضى الوكيل ومحمد عبدالغنى حسن وطاهر أبو فاشا ومحمد مصطفى حمام وعبدالحميد الديب ومحمد مصطفى الماحى من الجيل الذى أبدع أيما إبداع ولكن الساحة فى الثلث الأول من هذا القرن لم تتسع إلا لشوقى وحافظ ومطران ، وفى الثلث الثانى من هذا القرن هاجت البشرية وماجت فى حرب عالمية وتقلبات سياسية أثرت فى الذوق العام والثقافة العامة فتدهورت مكانة الأدب والفن لحساب السياسة ، والتيارات الفكرية الجديدة .

وكان ما يجمع بين هؤلاء الشعراء الذين

* كلية التربية سوهاج

ذكرنا أسماءهم هو حبهم جميعا للمرح والدعابة وارتباط بعضهم ببعض فى صداقات خالدة بقيت ظلالها واضحة فى آثارهم الشعرية ، والشاعر الأسمر ولد فى دمياط فى ٦ نوفمبر ١٩٠٠م وتعلم بمدارسها ، ثم انتقل إلى القاهرة وتعلم فى مدرسة القضاء الشرعى ثم فى الأزهر ، وعين بعد تخرجه موظفا فى مكتبة الأزهر حتى أصبح أمينا عاما لها . وله عدة كتب ضمت مقالاته الاجتماعية وديوانين شعريين كبيرين احتويا على أشعاره .

ولم يكن الشاعر الأسمر أسمر اللون ولكنه لقب بهذه التسمية لأسباب عائلية ، إذ يبدو أن هذا هو لقب عائلته . أما هو فقد كان وسيما أبيض اللون وكان حريصا على ارتداء الزى الأزهرى حتى آخر لحظة فى حياته .

ومن أشهر فكاهات الشاعر محمد الأسمر ما نشرته جريدة الأهرام تحت عنوان «ثلاثة جنيهات دعابة شعرية» وقصتها أن الشاعر محمد الأسمر أودع عند صديقه اليوزباشى «النقيب» عبدالحميد فهمى مرسى مبلغا قدره ثلاثة جنيهات بصفة الأمانة واحتفظ بها الرجل فى مكتبه وكان يعمل إذ ذاك أركان حرب وزارة الدفاع المصرية . واستبد القلق بشاعرنا محمد الأسمر وكتب إلى صديقه يحثه على بذل الجهد فى المحافظة على جنيهاته الثلاثة فيقول :

(أعبدَ الحميد) وأنتَ امرؤٌ عرفتك من عنصر طيب
لنا عندكم مهجةٌ أودعت لشهر الصيام على الأغلب
ولو أستطيع لأودعتها إلى رمضان على كوكب!

فلا تغف عينك عن حفظها ولا تنأَ عنها ولا تلعب

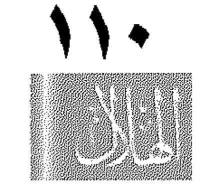
وينبه شاعرنا صديقه إلى أنه يخشى على نقوده الغالية من أن تمتد إليها يد اللصوص المغامرين الذين يتفننون ويتحايلون ويبتكرون طرقا مختلفة فى سرقاتهم ، ولولا ثقة شاعرنا لما يتكدس فى مكتب صديقه الضابط أركان حرب وزارة الدفاع من أسلحة لما استطاع أن يترك له مهمة حفظ جنيهاته الثلاثة:

فإنى أخاف عليها النسيم وأخشى امتداد يد الأجنبى
ولولا السيوف ولولا الحراب لديك لما ساغ لى مشربى!
معلقة ترهب السارقين وتبعث بالمنظر المرعب
ومهما يكن فحذار اللصوص حذار حذار ولا تغضب
فإن لهم حيلا كلما تذكرتها دارت الأرض بى !

وبعد هذه الصورة الطريفة التى صور فيها الشاعر نفسه حائرا خائفا تدور به الأرض كلماتفكر فى الحيل التى يمكن أن يلجأ إليها اللصوص، نجده يلح على صديقه فى حفظ وديعته وأن يجعل الشك رائده مع كل ضيوفه :

وراقب ضيوفك ياصاحبى وحتى ذوى النسب الأقرب
وراقب يديك ولا تعتب وراقب يدى ولا تعجب
وحاذر من «السيد المرغنى» وإن كان فخر بنى يعرب
أبيت وجسمى فى منزلى وروحى وعقلى فى المكتب
ووالله لا الحرص من شيمتى ولا جمعى المال من مذهبى
ولكنه مرض طارئ يزول وعدوى الغني المتعب
ثلاث من الورق العبقرى لديكم، وكيلى عليها النبى!
إذا علمت أننى ربها بحثن ولا شك عن مهرب !

وقد علق على هذه القصيدة الشاعران الأستاذ (عبدالحميد فهمى



مرسى) والأستاذ (على الجندى) فمما قال الأستاذ عبدالحميد :

تروح وتغدو إلى مكتبى كأنك تسعى لقبر النبى !

تحج إليها لكى تطمئن على ما لجيبك من مأرب

ولست أخاف عليها سواك إذا ما تسللت كالأرنب

فلا تجزعن، ولا تهلعن ونم مطمئنا ، ولا تتعب

محمود غنيم

ومما قاله الأستاذ على الجندى :

ثلاث من (البنكنوت)النفيس تنفس عن تعب المتعب

أفى الحق أن يقتنى شاعر ذخائر فى عامنا الأجدب ؟

ألم يكفه أنه بيننا يحل محل (أبى الطيب) ؟

فيا أسمر العين ماذا دهاك وما ذلك الطمع الأشعبى ؟

أتسمن والضر قد شفنى وتمزح والجوع قد جد بى ؟

وتختال فى ثوبك الأزهرى وثوبى بال على منكبى ؟

أعنى فإنى أخوك الذى يفديك بالنفس والمنصب

ومن المعارك الفكاهية الكثيرة التى كان الأسمر يشعلها معركة خروف العيد وقصتها أن شاعرنا الأسمر كان قد طلب من صديقه القائمقام (العقيد) الشاعر عبدالحميد فهمى مرسى أن يعيره خروفا فى عيد من أعياد الأضحى التى جاءت خلال الحرب العالمية الثانية مع اشتداد الغلاء وارتفاع الأسعار، فبعث الأسمر إلى صديقه يقول :

عبدالحميد وأنت معوان إذا هز الخدين حبال ود خدينه

إن كان ذو القرنين عندك حاضرا فابعث به لنرى ضياء جبينه

ولكى يجاوب - لو يمأمئ مثله فى بيت جارى - مأمآت قرينه

وليعلم الجيران أجمع أننى إن جاء عيد لم أضق بشؤونه

ولكى يراه من أساء ظنونه بدراهمي، فأنال حسن **ظنونه**

وليطمئن الدائنون ويعلموا أنى امرؤ يقضى جميع ديونه

ويؤكد شاعرنا لصديقه أنه لن يمس هذا الخروف المستعار بسوء، بل سيسهر على تأمين سلامته من الذبح أو العدوان، فكل ما يبغى هو أن يتباهى به - كما قال سابقا - أمام جيرانه، ودائنيه وأولئك الذين يسيئون الظن بقدراته المالية :

وأنا الأمين عليه وهو بمنزلى من كل جزار ، ومن سكينه
يمسى ويصبح وهو عندى آمن من (فلفل) الطاهى ومن (كمونه)
فابعث به (عبدالحميد) فإنه شيئ يرد إليكم فى حينه
لسنا نميل إلى نعاجك بل إلى كبش لك التفويض فى تعيينه !!

ثم حدث بعد ذلك أن اتصل القائمقام عبدالحميد فهمى بقريبه الأديب الكبير الأستاذ عبدالعزيز سلطان وكان بينه وبين الشاعر الأسمر صداقة ومودة ، فبعث بأربعة خراف ، وأرسلها من محافظة المنيا بالصعيد إلى قريبه القائمقام عبدالحميد فهمى بحيث يعطى خروفا لكل من الأسمر وعبدالحميد ، ويعطى خروفا لكل من الشاعرين على الجندى ومحمد عبدالغنى حسن وكانا قد طلباهما ووصلت هذه الخراف من المنيا متعبة قد نال منها طول الطريق وهدها السفر فظهر عليها الإعياء ولم تعد صالحة للتضحية بها فكتب الأسمر يسخر منها ويقول :

ويح عبدالعزيز أرسل هرا ت إلينا، وقال عنها خراف
لم تمأمئ بل نونوت فضحكنا ثم قلنا ماذلك الإسراف ؟!
أهدايا، أم تلك بعض الرزايا ؟ رب سلم ونج مما نخاف
أربع أقبلت . فقلت خراف ما تراه العيون ، أم أطياف؟

ثم يذكر مصيبته فى الخروف الذى خصص له. فهو خروف ضئيل تكاد العين لا تراه من فرط ضعفه فبينه وبين ما يعرفه الناس عن

خراف الأرياف فارق كبير :

كان منها لنا خروفٌ عجيبٌ هو من فرط ضعفه شفاف

لاح كالوهم بل هو الوهم يمشي لا خروفٌ جاءت به الأريافُ

هو بين الكباش كبشٌ صناعىٌّ وزيفٌ أدقه الزيـــاف

أثرىٌّ من عهد يوسف موميا خلقته لنا السنون العجاف

ليس فيه من الخراف التى نعرفُ إلا القرون والأظلاف

عبد الحميد الديب

كم تمنى أطفالنا أن يروه ورأوه، فأنكروه وخافوا

أبصرته القدور عندى فمالت ضاحكات وفرت الأضياف !

خذه عبدالحميد خذه ، وحسبى هبه حكما أما له استئناف ؟

أما الأستاذ محمد عبدالغنى حسن الذى كان معروفا بمجاملاته وخلقه الرفيع فلم يشأ أن يذهب مذهب الأسمر فى السخرية ، بل مدح خروفه قائلا :

وصل الخروف وقد حسبتك مازحا فإذاك قد بالغت فى تسمينه

الله زينه بكل جميلة وجميل صنعك زاد فى تزيينه

ومما أبدع فيه الأستاذ محمد الأسمر تلك القصيدة التى جعل عنوانها (قربا مربط النعامة منى) وهو شطر بيت شهير قاله المهلهل بن ربيعة أثناء حرب البسوس الشهيرة وكرره فى قصيدته ، وقصة هذه القصيدة أن السيد الشريف مرغنى الإدريسى شيخ السادة الأدارسة بالمغرب العربى - وهو سودانى الجنسية شريف النسب - كان قد بعث إلى الشاعر الأسمر هدية من الديوك الرومية ، والتمر ، وقصب السكر، وحوت كبير ، وأرسل هذه الهدية عن طريق صديقهما المشترك الشاعر القائمقام عبدالحميد فهمى مرسى ، فاستأثر عبدالحميد بالحوت وأرسل الباقى إلى الأسمر وبعد أيام مرض السيد المرغنى وكان الأسمر قد عرف بقصة استيلاء عبدالحميد على الحوت

فكتب إلى السيد المرغنى يواسيه ويذكر ما صنعه عبدالحميد فيقول :

يا سليل النبى عــوفـــيت مما   بت تشكوه من أذاة الليـــالى

قال أشكو الأمــلاح قلت عجيب   كيف يشكو الأملاح حلو الخصال؟

الصديق الكريم ، والعسل الصافى   شهى الوداد ، عــذب الخـــلال

والذى أرسل الديوك فـقلنا   أديوك أم تلك بعض الجــمـــال ؟

والذى أرسل العجيب من التمر   نـــواه يبـــاع بالمثقـــــال

ولطيف الأعواد من قصب هش   رمـــــاح وافت بخمــر حلال

وهكذا يذكر الأسمر هدايا صاحبه المتعددة فتجيش نفسه بذكرى تلك الخراف الضعيفة التى أهداها لهم صديقهم عبدالعزيز سلطان وكانت غاية في الضعف، والهزال فكأنها النمال، ثم يذكر لصديقه المرغنى كيف استولى صديقهما عبدالحميد فهمى على الحوت :

لا كعبد العزيز وهو صديق   حين أهدى الخراف مثل النمال

أو كعبد الحميد حين أتى الحوت إلينا فسفـــــه لم يـــبال

سفه سفة فجاء عليه   وهو فرق العشرين فى الأرطال

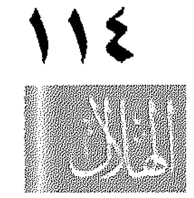
هل رأيتم ، أو هل سمعتم بمزح   مثل هذا فى سابق الأجيال؟

ليت شعرى وإن كان ذلك مزحا   من صديق فكيف حد القتال؟

(قربا مربط النعامة منى)   إن خطف الصديق للحوت غال

(قربا مربط النعامة منى)   سف عبدالحميد رزق العيال

وحدث أن كان الأديب الدكتور سيد نوفل – الذى أصبح فيما بعد أمينا عاما مساعدا بجامعة الدول العربية – يعمل سكرتيرا للدكتور محمد حسنين هيكل باشا وزير المعارف ، فطلب الشاعر محمد الأسمر منه أن يتوسط الوزير لكى يعاون تلميذا فقيرا فى الحصول على منحة ليتعلم مجانا – وكانت المجانية آنذاك بالاستثناء – ويبدو أن السيد نوفل قد تباطأ فى تلبية رغبة الشاعر الأسمر ، فبعث إليه موبخا وهو



يستخدم بعض الألفاظ العامية للدعابة على عادة القدماء فقال :

يا سـيد ياجعرو هـل أنت حقل سكـرو ؟
إن كـان ذلك حقـا فـاصنع صـنيعا يسر
يا نوفـلانى قل لـى وأنت شيـخ شخـر
خلـف الوعـود حلال فى الشرع أم هو نكـر ؟
يا دلـدلا قـد تـدلى عـلام لا تـستقـر ؟
تهـز فى غيـر شـئ كـأنما أنـت زر
فلسـت تنفع يومـا ولست يومـا تضـر
محـرنجـم مزبـئر مهاضـم ليـس غير !
لولا الـوزير ولـولا أنـى بصحبـى بـر
سمـعت زأر قواف تـبيت منـها تهـر
فمل إلى الصـدق وافعل خيـرا فذلك خـير

وهكذا لا تنتهى دعابات الشاعر محمد الأسمر التى تفيض بها دواوينه، والتى تنم عن شخصية مرحة تتعاطى الفكاهة والدعابة طبعا لا تكلفا فتأتى معانيه مليئة بالروح الجذابة والظل الخفيف ، فى إطار من ألفاظ عربية رصينة غير مبتذلة، وهو فى الوقت نفسه يبتعد عن الإسفاف والتدنى اللذين كثيرا ما ينزلق إليهما من يتفاكهون تكلفا وطباعهم تأبى عليهم أن يكونوا خفاف الظل . ■



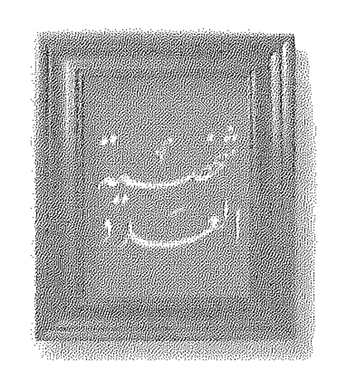
اقـوال

- **مت بداء الصمت خير لك من داء الكـلام**
- **إنمـا السالم من ألجم فـهـو بلجـام**

أبو نواس

- **أركان السعادة الثلاثة هى : أن تجد شيئا تعمله ، وشيئا تحبه ، وأملا تـرجو تحقيـقه إذ تسـعى إليه**

قاسم أمين




سميحة

ملكة فن لوحة الغلاف

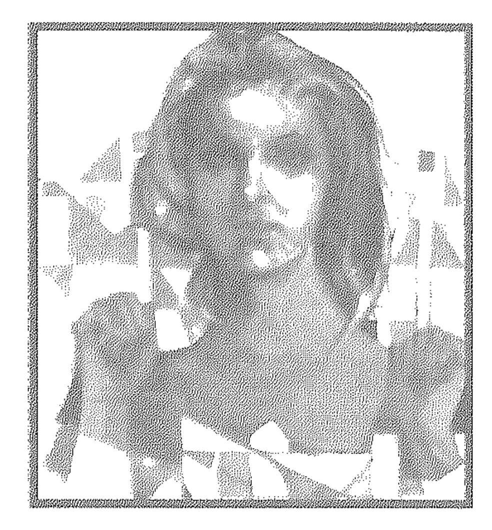
بقلم
صافى ناز كاظم

كلما فتحت عددا من أعداد الهلال ووجدت رسمها وإلى جواره: «بريشة سميحة حسنين» ، أفرح وأدعو الله أن يبارك أناملها التى ماتزال تمسك بريشتها على مدى ٥٧ عاما لتعطى أغلفة روايات الهلال، وكتاب الهلال، أزهى الألوان وأجمل الخطوط . إنها عندى معرفة بـ «سميحة» فقط. متيمة مغرمة برسوماتها منذ وعيت التذوق وحب الفن. لم تبهت أبدا فى ذاكرتى صورة تلك الطفلة الجميلة باكية العينين التى رسمتها «سميحة» وشغلت صفحة كاملة من صفحات قصة مترجمة بعنوان «اليتيمة» نشرتها مجلة الهلال بين عامى ١٩٤٧، ١٩٤٨ وكنت فى العاشرة من عمرى . تعلقت عينى باللوحة التى أثارت شغفى فقرأت القصة، وبين كل سطر وآخر كنت أتطلع متأثرة غاية التأثر بالوجه الحزين الذى رسمته «سميحة» لبطلة القصة الطفلة التى كان عليها أن تثبت جدارتها فى تحمل مسئوليات البيت بعد وفاة الأم . توحدت مع يتم العيون الدامعة وأحسستها عيونى .



أكثر من نصف قرن الآن واللوحة بذاكرتى لم تبهت . كانت رسومات «عزيزة عيد» - إبنة الفنان عزيز عيد وفاطمة رشدى -







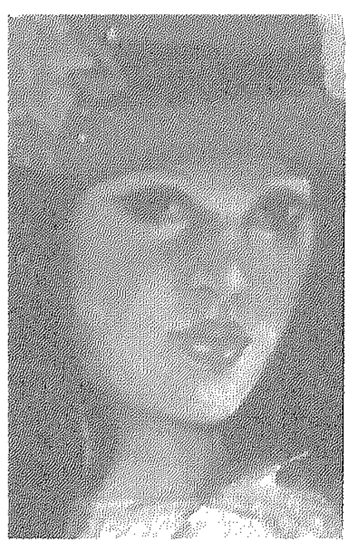
الفنانة سميحة حسنين .. نذرت ريشتها للتوهج والوسامة

و«سميحة» فى مجلة الهلال تشد انتباهى وأتكلم عنها مع صديقاتى ونتناقش : أيهما أفضل ؟ كنا نحب رومانسية «عزيزة» وخطوطها المشغولة بالرقة والدانتيل وحروف اسمها التى تكتبها ممطوطة تائهة نهايتها كالدخان الذى يوشك أن يتلاشى . بعد قليل أعلنت للجميع انحيازى الكامل لـ«سميحة» وقلت : انظرن إلى خطوطها التى تجتمع فيها الرومانسية الهفهافة مع الحيوية النابضة والحضور الطاغى الذى يجعل من شخوصها كائنات حية ، ثم هذا التناسق الأنيق فى توقيعها الذى يبدو فيه اسمها مبتسما سمحا حقا : «سميحة» ، هكذا باختصار وببساطة ولطف

● ● ●

صاحبتنى رسومات «سميحة» من طفولتى وصباى وشبابى إلى وقتنا الحالى. لا يمكن أن يقع ناظرى على رسم لها ولا يستوقفنى، وحين أرى غلافا لكتاب أو رواية غير موقع وأجزم أنه لـ «سميحة» يتأكد يقينى بإشارة داخلية تنوه: «الغلاف بريشة الفنانة سميحة حسنين». تميزت بوجوه حلوة بؤرتها العيون ، معسولة وآسرة، حزينة كانت أو مبتهجة ، جادة أو مراودة ، مفكرة ولاهية . ريشة نذرت نفسها للتوهج والوسامة ، لا تحتمل الانطفاء ولا تجيد القبح . بلا مقدمات وراثية وجدت الطفلة «سميحة» يدها ترسم بمهارة ، وحين تقدمت فرحة بإنجازها لم تصدقها مدرستها بالابتدائى ولطمتها على وجهها : « إنت كدابة مش ممكن ده يكون رسمك .. قولى أبوك... قولى أخوك .. لكن إنت مش معقول..»، وكانت تلك الصفعة هى أول أجر تقاضته تقديرا لموهبتها . تركت دراستها الثانوية وأعلنت مبكرا انضوائها تحت لواء الرسم وحده : «ماكنتش عاوزة أذاكر أو امتحن .. عاوزة أرسم وبس..»، والدها لا علاقة له بالفن « موظف شريف فقط»، ولم يكن لها أخ: هن ثلاث شقيقات ، الكبرى فاطمة والصغرى عايدة وهى فى الوسط بينهما . تزوجت فاطمة وكان شعارها : «احنا هوانم وكفاية» ، ولكن عايدة أكملت دراستها

○ تفرح بتكليفات الرسم وبرغم مرضها وآلمها تدب العافية في روحها عند التقاط فرشاتها لإنجاز المطلوب



الجامعية وأخذت سلك التدريس ، واستمرت «سميحة» مع الرسم ، درسته فى أكاديمية رسم خاصة كانت بميدان مصطفى كامل، والتحقت بدار الهلال ١٩٤٦ وهى فى الحادية والعشرين لتكرس توجهها: «رسامة صحفية» ، ولتكون مع «عزيزة عيد» أول مصريتين تقتحمان هذا الحقل فى الصحافة المصرية وتسجلان فيه ، مع الريادة، التفوق المبهر . كان الفنان كنعان من أبرز فنانى دار الهلال فى ذلك الوقت ، أفادها ووجهها وأرشدها لأساليب انضاج موهبتها . فى دار الهلال اشتغلت فى المطبعة وفى الإعلانات وفى التحرير ، تقول بحب: «لم أرفض أى تكليف ، كان معنا فى تلك السنوات الفنان جمال كامل ولما طلبوا منه الرسم فى الإعلانات رفض وراح روزاليوسف، أنا ما فرقتش معى ، رسمت فى الإعلانات وصاروا يطلبوننى بالاسم ، وكنت أحصل على مكافأة فى نهاية العام ، وهذا لم يكن يحدث بسهولة فى دار الهلال أيام إميل وشكرى زيدان



كنت دائما تواقة إلى لقائها منذ خطوت للعمل بدار الهلال عام ١٩٦٦، ولكن بدا لى دائما اللقاء معها مستحيلا، لم أصادفها بالدار أبدا وكلما سألت عن طريقها كانت الاجابات تأتينى شاردة. تمكنت منذ عامين فقط من تحديد موعد للقائها عبر الهاتف، جاءنى صوتها، رغم ضعفه، هاشا باشا مرحبا، قلت لها أننى من جمهورها المتن لفنها فاندهشت متسائلة: «هل أنا أعنى أى شئ لأحد»؟ مولودة فى ١٩٢٥/١٠/١٣ ولذلك فلم أستغرب جملتها التى تنم عن تواضع جم، فهى تحمل سمات برجها «الميزان» ، الانسحاب من الأضواء والزحام والخجل من كلمات الإطراء: «أنا انطوائية، لا أسعى إلى إقامة صلات وعلاقات ، تجبرنى السلبية على إضاعة حقى، أخذت الصفعة من المعلمة وسكت، لم أدافع عن نفسى . سعادتى فى الرسم والصمت والاختباء» . تزوجت من الكاتب المسرحى، ضابط البوليس ، سعد الدين وهبة بعد أن قابلته فى مجلة الرسالة الجديدة عند عبدالعزيز صادق، وطلب منها أن ترسم لمجلة البوليس التى كان يرأس تحريرها بعد ١٩٥٢/٧/٢٣. أنا التى أجتهد فى تحديد «التاريخ»، فلا جدوى من أى

سؤال خاص بتحديد «أى سنة» مع «سميحة» فهي لا تتذكر الآن أى تاريخ ، عرفت تاريخ مولدها من حفيدتها الجميلة سهام فاروق ، الطالبة بآداب القاهرة قسم اللغة الانجليزية، وهى ابنة ابنتها الكبرى منى سعد وهبة، لا تذكر متى تزوجت سعد وهبة ولا متى تم بينهما الطلاق ، ولا متى أنجبت منه ابنتيها وحيدتيه : « منى» و«أمانى» تذكر فقط أن الطلاق وقع أثناء ولادتها لابنتهما الصغرى أمانى . تألمت بتكتم ونبل: « عندى المقدرة إنى أنسى وألغى مصدر الإزعاج ، أغرق فى الرسم ، كنت ألبى طلبات الرسم الكثيرة فى دار الهلال وغيرها من المجلات .. كل طلب رسم أهتم به وأخدمه بضروراته بإخلاص ... واجباتى فى الرسم للمجلات كانت لا تعد ولا تحصى، رسمت فى مجلة التحرير، والرسالة الجديدة رسمت فيها رواية لنجيب محفوظ ، وطبعا مجلة البوليس ... حياتى كانت الرسم ومازلت حتى الآن بعد كل هذا العمر أفرح بتكليفات الرسم ، ورغم مرضى وآلامى، تدب العافية فى روحى عندما ألتقط فرشاتى وأنجز المطلوب...» تناديها حفيدتها سهام بـ «أنه» ، أى جدتى بالتركية، رغم كونها صعيدية ابنة عائلتى مسلم وحسنين من سمالوط ، أسيوط . حين طلبت منها مشاهدة لوحاتها لم تستطع أن تجمع بين يديها سوى حفنة قليلة من كتب رسمت أغلفتها ، ومالا يزيد عن خمسين قطعة رسم بالجواش وألوان الماء على ورق سميك مساحته ٣٠سم×٣٠سم، فى زهد قالت : «هذا كل ما تبقى لدى من شغلى ... كله ضاع فى المطابع .... لم أستطع أن أسترد الأصول لأننى لا أعرف الإلحاح فى المطالبة » هذا القليل المتبقى من الحياة الحافلة لهذه الفنانة المبدعة يشهد على استحقاقها لقب : «ملكة فن لوحة الغلاف لأكثر من نصف قرن» . أشارت إلى واحدة من لوحاتها : «هذه تعجبنى ... تصورى أننى لم أتأمل قيمة رسوماتى من قبل .... أرسم وأعطى وأنسى أول ما أطلع الرسم أنسى اللوحة حتى أننى وأنا أجمع هذه اللوحات الباقية لم أصدق أننى أنجزتها ..» .

● ● ●

كنت حين قابلتها قد أحضرت معى جهاز تسجيل، لكننى

انطوائية لا تسعى الى اقامة صلات وعلاقات تجبرها السلبية على اضاعة حقها

اكتشفت أن لا جدوى من التسجيل ، فهى لا تتكلم إلا باقتضاب شديد ، وكان على أن أفهم ماتريده بالاحساس وبالاستنباط . أعمالها مبعثرة، أوراقها ضائعة ، صورها الشخصية اندثرت : « فيللا العائلة تهدمت ، وكل واحد أخذ نصيبه، وضاعت صناديق مليئة بالصور والأوراق ... ولا يهم ... أنا ح أكون ايه؟... تراب ....»، تقول هذا من دون أسف . أسألها : هل ترى الدنيا مثل ألوانك مرحة جياشة أم ترسمين ما تتمنين؟ تضحك : «تصدقى... أنا شايفة الدنيا كده ... مرحة جياشة!» تحب الوجوه الجميلة التى تنقلها فى رسومها من مختزنها الذهنى. لم تكن لديها فرصة لإقامة معرض ، لكنها تذكر لوحتين لها فى متحف وأخرى فى بينالى . تهدى لوحاتها ولا تبيع أبدا : «بكامل وعيى بددت ثروتى الفنية» تقولها ضاحكة ، لكنها مازالت تحتفظ بلوحتها التى رسمتها لابنتها منى وهى طفلة ، أما لوحة سهام حفيدتها فقد أخذها والدها .



● ● ●

أشاعت برسومها على مدى ٥٧ عاما الضياء الخلاب ، ومازالت تؤثر أن تبقى دائما بعيدا بعيدا عن الأضواء ، تنعشها ذكرى زيارتها لقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين : « لم يكن هناك زحام على الإطلاق ، كنت أجلس مع قريبتى .. هى تقول الدعاء وأنا أردده وراءها، شعرت بيد تربت على ظهرى، تلفت ولم أجد أحدا .... مرتين يتكرر الأمر ... قالت قريبتى الملائكة تربت عليك .... تخوفت .... قالت لا تخافى .... الحكاية لا تزال تنزل على قلبى بردا وسلاما .....» .



تحية لـ «سميحة» ملكة فن الغلاف وهى تخطو إلى عامها الثامن والسبعين فى ٢٠٠٣/١٠/١٣ إن شاء الله، وأدعو الله أن يبارك أناملها وهى ترسم بريشتها على صفحات مجلة الهلال وأغلفة رواياته وتبعث فى نفسى الفرح. ■





قطعة من أوروبا

رواية غير تقليدية لرضوى عاشور

بقلم
د. محمد أبو الغار

قطعة من أوروبا هى أحدث ماكتبته رضوى عاشور التى أثرت الواقع الثقافى المصرى برواياتها المتميزة وكتاباتها النقدية وهذه الأعمال الضخمة لم تؤثر على ريادتها فى عملها الأكاديمى وقبل كل ذلك هى المصرية العربية الوطنية الرائدة التى تتفجر حماساً دفاعا عن الوطن والحق والحرية

نحن بصدد رواية غير تقليدية يقوم ببطولتها الراوى وهو الذى تطلق عليه المؤلفة لقب الناظر وتعنى أن له نظراً ثاقباً فى قراءة التاريخ والحاضر وربما المستقبل وأحداث حياة الناظر هى جزء هامشى فى هذا العمل فالناظر ابن للطبقة الوسطى أبوه كان يعمل موظفاً بالبنك الأهلى تزوج شهر زاد وأنجب منها ولكنها أخذت بناته وتركته وطلقت منه والسبب فى ذلك هو أنه كان هائما فى تاريخ مصر الحديث منذ غزوة نابليون يقرأه وينقب فيه عن أحداث مهمة ولكنها منسية أو منزوية فى أركان مهملة من كتب التاريخ ولم يعطها المؤرخون حقها

فى التحليل، وكان الناظر يستلهم عبق التاريخ من مبانى وسط القاهرة التى بناها الخديو إسماعيل مستعيناً بأوسمان مهندس باريس الحديثة والتى أراد لها إسماعيل أن تكون قطعه من أوروبا وأصبحت بالفعل قطعه من أوروبا ليس فقط فى الشكل المعمارى ولأن سكانها أيضاً كانوا خليطاً من الأوروبيين وكان اليهود يلعبون بينهم دوراً محورياً أما المصريون فكان دورهم هامشياً فى القاهرة الأوربية وقد كان استشهاد الأخ الأصغر للناظر فى حرب ١٩٦٧ بمثابة صدمة أثرت على حياته وفكره وكانت من الأسباب المهمة لعزلته الإختياريه فى شقته يتأمل ويفكر ويجتر أحزانه العامة والشخصية .

وقرر بطلنا الذى ولد فى عام ١٩٣٧ أن يكتب هذا المخطوط عندما كان عمره خمسة وستين عاماً وهو الرجل الذى لم يكتب أبداً كتاباً أو حتى مقالاً قبل ذلك .

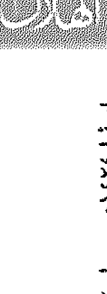
بداية الحكاية

تتخلل الأحداث القليلة التى تخص حياة البطل حوادث عامه قرأها بعين لاقطة فقام بكتابتها ويبدأ التدوين بزيارة تشرشل وروزفلت لأبى الهول فى الجيزه أثناء الحرب العالمية الثانية ويقارن بين ما شاهداه وبما كتبه المقريزى عن أبو الهول الذى سماه طلسم الرمل والذى وصف أيضاً تمثالاً آخر مشابها له على الضفه الأخرى من النهر والذى اندثر بعامل الزمن .

وتبدأ فكرة قطعه من أوروبا بزيارة الخديو إسماعيل لأوروبا وهو طفل للعلاج ثم وهو خديو شاب عاش فى فرنسا وانبهر بأوروبا وشاهد المهندس الأشهر أوسمان يخطط ويبنى باريس الحديثة فقرر على الفور إنشاء قطعه من أوروبا أو من باريس على وجه الدقه فى القاهرة المحروسة ويحكى الناظر كيف أنقذت السرعه فى بناء المشروع قاهرة المعز من الهدم فبنيت القاهرة الأوروبية بجوار القاهرة القديمة يفصلهما شارع إبراهيم باشا وميدان الأوبرا وسكن فى هذه القطعة من أوروبا سكانها الأوروبيين وامتلك المحلات والفنادق والمطاعم والمقاهى الراقية أوربيون معظمهم من اليهود وكان وجود المصريين نادراً عدا طائفة الخدم والسفرجية الذين كان لهم سلم خاص للصعود والهبوط سمى سلم السكندو(أى السلم الثانى بالايطالية) حفظاً لماء الوجه وهو ما يسمى فى أوروبا الأصلية بسلم الهروب أو سلم الحريق .

تاريخ القاهرة الحديثة

وكان الناظر يتأمل ويحكى حكايته من مسكنه فى شارع قصر النيل بجوار ممر بهلر فأمتعنا بدراساته المستفيضة وبحثه المتأنى والعميق فى تاريخ أسماء ملاك البيوت والمحلات مثل الألمانى بهلر والسويسرى الأيطالى جروبى واليهودى المتجنس بالمصرية شيكوريل وتحدث الينا الناظر من شوارع هذه القطعه من أوروبا فوصف شوارعها ومبانيها بل وذكر أسماء مهندسيها أحياناً وما هدم وأعيد



بناؤه منها وطاف بنا من الأوبرا وشارع إبراهيم إلى ميدان الإسماعيليه (التحرير) ووصف الميادين والتماثيل وأرخ لها جميعاً .

وكان للناظر وهو ساكن قديم لوسط المدينة جيران معظمهم من الخواجات الأوربيين وكان يحكى بطلاقة عن جارته الخياطة الايطالية والطفل اليهودى صديق أخيه الشهيد وكانت ذاكرة الناظر وأوراقه تنتقل من عصر إلى عصر وقد أخذ مشهد حريق القاهرة يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ جزءاً مهماً وحيوياً فى تاريخ القاهرة الأوربية وشغل المؤرخين والصحفيين وشهود العيان وقراء التاريخ بل وجميع المصريين طوال نصف قرن وكتبت فيه الكتب واحتل جزءا مهما من الأبحاث التى درست تاريخ مصر فى القرن العشرين، وقد نقل الناظر فقرة عن المؤرخ الشهير عبد الرحمن الرافعى يصف فيها حريق القاهرة اتهم فيها الغوغاء بتدبيره وتنفيذه ولم يشرح لنا الرافعى أية أسباب وراء غضب الغوغاء ولماذا غضبوا من هذه القطعة من أوروبا، ولماذا كان الحريق مركزاً على أبنية ومحلات بذاتها مع ترك محلات بجوارها لم تمس فشيكوريل وإريكو وشملا وبنزيون وشالون وبقية المحلات اليهوديه احرقت بينما ترك المعبد اليهودى المجاور لم يلمسه أحد وترك محل سمعان صيدناوى لم يمسه أحد وانهالت (الغوغاء!!) على جروبى بفروعه الأربعة سليمان وعدلى والأمريكين سليمان وعماد الدين .

كان اهتمام الناظر بوصف حريق القاهرة كبيراً وتم ذكره فى عدة أماكن من مخطوطه ونقل عن شهود عيان كيف بدأ الحريق فى ميدان الأوبرا بحرق كازينو بديعة وكيف شاركت بلوكات النظام (الأمن المركزى بلغة الآن) فى الحريق وتكاسلت ووقفت تتفرج على ما يحدث بل وشوهدت مظاهرات من بلوكات النظام فى طريقها إلى ميدان الأوبرا تهتف ضد الإنجليز ويركز الناظر على أن أحمد حسين وجماعته مصر الفتاة وكذلك الإخوان المسلمين كان همهم الأول هو تحطيم البارات ودور السينما ويعود الناظر ليحكى جذور الحريق بدءاً من مظاهرات ١٩٤٦ وانطلاق الفدائيين ليؤرقوا مضاجع الإنجليز، بعد أن ألغى النحاس معاهدة ١٩٣٦، وكيف عم الشعور الشعبى كل مصر ضد الإنجليز وكيف ضرب الإنجليز مبنى محافظة الإسماعيلية الذى استشهد فيه خمسون رجل شرطة مصرى.

وينتقل الناظر إلى أبيه الوفدى الهوية والموظف الصغير فى البنك الأهلى المصرى ويذكر طفولته وكيف كان يتسلق كرسياً ليفتح الراديو ويستمع إلى الف ليلة وليله ويتحدث عن صوت شهرزاد الذى سحره أعواماً طويله من طفولته وشبابه ويتذكر إعجاب أبيه بأغانى عبد الوهاب

وينتقل الناظر مرة أخرى إلى الإنجليز



وكيف قتلت المقاومة منهم أربعة وعشرين جنديا وكيف انتقمت انجلترا باكتساح قرية كفر عبده بالسويس ونسفت منازلها ويذكر الناظر مره أخرى مؤرخنا عبد الرحمن الرافعى حين قامت مظاهرات كفر الدوار بعد الثورة بشهر واحد وكان رأيه أنها فتنة وهياج ولم يعلق المؤرخ الكبير بالرأى على إعدام خميس والبقرى بل ونادى الطلبة بالاجتهاد فى المدرسة وترك الإدارة لأولى الأمر. واضح أن الناظر لا يحب وجهة نظر الرافعى فى التحليل والتعقيب على الأحداث التاريخية وربما يشارك الكثيرون الناظر فى هذا الرأى .

وكان تعليق الناظر على رأى الرافعى هو (قتلتنى يامؤرخ) إلا أن الناظر عاد وانتقد نفسه فى فصل لاحق بسبب هذه الجملة .

حكاية اليهود فى القاهرة

وعندما نصل إلى اليهود فى القاهرة الأوروبية يحتار القارئ هل هذه رواية أم كتابا للتاريخ أم للجغرافيا لكن الناظر يمزج الجميع فلا تحس بالملل أو الضجر وإنما تفتح الكلمات شهيتك على قراءة تاريخ اليهود فى القاهرة والمرتبط بتاريخ بعضهم فى أوروبا ومرتبط أيضا بتوطين اليهود فى فلسطين فى أوائل القرن العشرين وحين تقرأ هذا الجزء تشعر بأن الناظر يرى أمامه دائما أخاه الشهيد والذى حمله وهو وطفل بين يديه ويتصرف أحياناً كأن أخاه لازال موجوداً .

ويكتب الناظر عن المليونير اليهودى الإنجليزى كاسل الذى أنشا وامتلك خمسين بالمائه من أسهم البنك الأهلى المصرى والذى كان مسئولاً عن إصدار أوراق النقد المصرية بعد طبعها فى انجلترا، أما يعقوب قطاوى باشا فهو يهودى قدم إلى المحروسة من حلب وأصبح أغنى الأغنياء وأقربهم للسلطة وكيف كانت حفلات ختان أولاده وأحفاده أحداثا كبرى وحفلات ضخمة وكيف تحولت هذه العائلة الشرقية فكراً ولبسا وتصرفا بالتدريج إلى عائلة إفرنجية ويذكر الناظر أن علاقة قطاوى باشا مع حاييم وايزمان كانت وثيقة وأن بنت قطاوى حضرت حفل زواج أبا إيبان أول وزير خارجية إسرائيلى مع بن جوريون الذى جاء خصيصا من فلسطين لحضور الفرح .

ويصف الناظر العلاقة المتشابكة التى يجمعها الحب والكراهية والغيرة والمواقف السياسية بين سكان هذه القطعة من أوروبا .

فيذكر التعصب الشديد بين الجنسيات ويذكر تعصب اليهود الغربيين ضد اليهود الشرقيين ورفض زواج بناتهم من أولاد الحاره الشهيرة، يتداخل وصف القاهرة الرومية كما تسميها الكاتبة مع مشاهد تاريخية مهيبة تحرك فيها مئات الآلاف من المصريين داخل أوروبا المصرية مثل جنازة عبد المنعم رياض ويوم تنحى عبد الناصر وكذلك يوم رحل .

ولكن عندما يكتب الناظر من هنا

وهناك ويقفز عبر الفترات التاريخية ذهاباً وعوده قد تعتقد أن به مساً من الجنون أو أن ذكرى استشهاد أخيه مازالت ماثلة أمامه أو أن حال مصر قد أصابه باكتئاب شديد .

وعندما دعى الناظر لحضور فرح ابنته اعترض على إقامة الفرح فى فندق شبرد بسبب التاريخ الاستعمارى للفندق وقسوة أول من أنشاه على المصريين وفعلا تم نقل الفرح إلى فندق ماريوت ليس بسبب احتجاج الناظر وإنما لأن العروسين يريدان فندقا أفخم وأكبر وترك الناظر الفرح ليجلس على القهوة يرتشف فنجاناً من القهوة ويتأمل حتى استدعوه على عجل للسلام على المدعوين وتوديعهم .

ويوم أن حضر لزيارته الشاب الاسرائيلى الذى كان يسكن نفس العمارة عندما كان طفلاً وكان أعز أصدقاء أخيه الشهيد استقبله ببرود وفتور شديدين ووصلته رسالة من الشاب بعد سفره مع سلسلة من مقالات ضد دولة اسرائيل بعد أن تركها ليعيش فى أوروبا .

ويتحدث الناظر عن أمشل اليهودى الألمانى المؤسس لعائلة روتشيلد الذى أنجب خمسة من الذكور أصبح كل منهم من أساطين المال فى برلين ولندن وباريس وفيينا ونابولى وكلهم ساهموا بطريق مباشر أو غير مباشر بما حدث لنا فأولهم أقرض أربعة ملايين جنيه استرلينى للمفاوض الإنجليزى الذى اشترى أسهم مصر من قناة السويس ليدفعها للخديو إسماعيل والثانى هو الذى اتفق على وعد بلفور بإعطاء فلسطين وطن قومى لليهود والثالث هو الذى بنى المستوطنات الأولى ودفع الأموال لشراء الأراضى الفلسطينية فى مطلع القرن العشرين .

وينتقل الناظر من روتشيلد إلى الجندى الإسرائيلى اليهودى كردى وهو العربى الأصلى والمجنون بكرة القدم والذى رفع علم فريقه على البلدوزر الرهيب واستمر يهدم منازل جنين فى فلسطين لمدة ٧٥ ساعة متصلة وهو يتجرع الويسكى .

ويحكى حكاية الطفل فارس عودة الذى كان يلقى بالحجارة كل يوم على الدبابات الاسرائيلية وكان لايخشاها ويرقص أمامها حتى ضرب وترك ينزف حتى مات .

ولكن الناظر ينهى كتابه بجرعة من الأمل عندما يصور الاحتفال بولادة محمد الدره الصغير الذى سماه أبويه على اسم أخيه الذى اغتيل غدراً برصاص اسرائيل.

***

هذا كتاب جميل فيه من الفن والفكر والتاريخ الكثير والمؤكد أن جمع مادته العلمية استغرق وقتاً وجهداً فالحكاية لم تكن فقط ابداعاً وانما كانت عملاً أكاديمياً عظيماً أكمل الإبداع وقدم لنا هذه الدرة الجميلة .. ■



تحيــة إلى الكاتب الجزائرى الراحــل

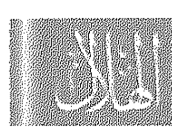
محمد ديب

بقلم
ابراهيم فتحى

نعرف محمد ديب الكاتب الجزائرى الذى يكتب بالفرنسية باعتباره فى المحل الأول مؤلف ثلاثية الجزائر التى تمتد أحداثها بين ١٩٣٨ و١٩٤٢ والتى ترجمها إلى العربية المترجم السورى الرائع د. سامى الدروبى ونشرتها دار الهلال . وقد صدرت أجزاء الثلاثية بالفرنسية تباعا : الدار الكبيرة عام ١٩٥٢ ولم تطبع بعد ذلك . أما الحريق عام ١٩٥٤ فقد صدرت لها طبعة ثانية عام ٢٠٠١ وكذلك الحال مع النول عام ١٩٥٧ التى صدرت طبعتها الثانية عام ٢٠٠١ أيضا . فلا يعتبر أحد أن الثلاثية عمل دعائى قصير العمر ينتمى إلى التحريض السياسى ولا تستهدف كتابته باللغة الفرنسية إلا تعريف العالم بوحشية الأوضاع التى تعيشها الجزائر تحت وطأة الاستعمار الفرنسى دون أن تكون لها قيمة أدبية متميزة. فهناك دراسات متعددة بالفرنسية لا تقف إلا عند الأساليب اللغوية والصيغ الشكلية لبعض أجزاء الثلاثية (مثل دراسات شارل بون المغرقة فى الشكلانية) .

ولكن محمد ديب (المتوفى فى ٤ مايو ٢٠٠٣ والمولود فى ١٩٢٠) كتب ما يزيد على ٢٠ كتابا ، وصدر كتابه الأخير «سيمورج» غريب العنوان بعد وفاته . ولم تكن الثلاثية الشهيرة أولى كتاباته المنشورة . فقد بدأ شاعرا من نوع خاص ، وتدفق عالمه الشعرى المبكر فى عروق رواياته اللاحقة، فالشعر هو الذى يغزل الخيوط الهادية التى ترشد النقد إلى قراءة متاهات أعماله متعددة الأنواع. وأشعاره التى سبقت الثلاثية مثل أعماله كلها تطارد المعنى المراوغ لوجود الإنسان فى عالم اليوم انطلاقا من تجربة محو هويته فى أرض ميلاده ، وجوعه إلى قضمة خبز، وظمئه الجنسى . وإدراكه عبر التساؤلات المتعثرة لذاته الفردية والوطنية . وهناك تجربته فى المنفى ، تجربة اقتلاع الجذور واستحالة العودة إلى الدار الكبيرة مرة ثانية الغارقة في دماء الاشقاء ، أو الاستقرار فى فم الأفعى الباريسية وفردوسها الكابوسى. إن علامات الطريق فى كتابة محمد ديب تدعو إلى الحيرة ، فهى تتعقب مغامرة بلا خريطة مسبقة تحاول استكشاف الإنسان فى كليته الحسية والانفعالية والعقلية والروحانية من خلال اللغة . وهى لغة عملية لكى يكون إنسانا حرا ، يقرر مصيره الذاتى بنفسه أن يدخل فى صراع معها كوسيط تعبير . إنه منفى ، بدوى متجول مرتحل فى مراع لغوية غريبة . فقد اضطرته الظروف إلى أن يكتب بلغة غير لغته . ولم تكن العربية هى اللغة التى تعلم بها أو استمد ثقافته ورؤاه منها أو أجدادها . وإن تكلم بلهجة من لهجاتها العامية الهجين فى الشئون العملية . وفى طفولته كما يقول فى كتابه الأخير لم تكن لديه أدنى معرفة عن معنى أن يكون أى شخص مواطنا جزائريا .. بل إن نصف سكان مسقط رأسه تلمسان كانوا يتوهمون أنهم أتراك . ويذكرنا ذلك بالانتماء إلى الخلافة العثمانية وجنسها السيد قبل تبلور الحركة الوطنية المصرية . وكانت الفرنسية تدخله إلى عالم الوعى والثقافة وتعلمه الانضباط فى الكتابة بمفردات وصيغ مكتسبة .. كما كانت تمكنه من مخاطبة قراء متعلمين فى بلده ومن التوجه إلى متلقين أوسع فى العالم . ومن البداية فى أشعاره كان يصارع الترابطات والتداعيات والمعانى المتداولة في الفرنسية التى ينجرف إليها الفرنسيون دون وعى . وفى تلك الأشعار نجد عرقا يتصبب نتيجة لجهد محمد ديب فى الصراع مع البديهيات اللامرئية فى





الصيغ الكتابية المتعارف عليها وما تؤدى إليه من سلاسة ملساء زلقة سطحية وهو جهد يبذله لكى لا يعبر عما صممت الكلمات والجمل والبلاغيات الفرنسية بحكم استعمالها المقر من جانب السلطات التعليمية والسياسية لكى تغطيه وتخفيه : القهر الاستعمارى والاستغلال الطبقى والمتناقض واللايقينى . لذلك اختار اتجاها فى الشعر الفرنسى يبدو غريبا على كاتب مثله يعمل محررا فى جريدة الحزب الشيوعى الجزائرى : الاتجاه الرمزى ، واختار شاعره ستيفن مالارميه مصدرا للإلهام دون أن يتبنى آراءه فى وظيفة الشعر واللاسياسة .

الإلهام الأورفيوسى

يرى معظم نقاد محمد ديب أن هذا الإلهام الأورفيوسى بصيغته الأسطورية الكتبية الغامضة هو الخط الهادى فى متاهة أعماله . وكانت نظريات الحداثة وما بعدها تعتبر هذا الإلهام وأسطورة أورفيوس أصلا لكل إبداعات نهاية القرن العشرين فيما يتعلق باللغة والصمت . ولكن تعامل محمد ديب مع الأسطورة له وجهه الخاص الشخصى والفنى والجزائرى .

أورفيوس الشاعر وعازف القيثار تغادره زوجته يوريديس بموتها ويذهب إلى العالم الآخر لاسترجاعها ويفشل وتمزقه النساء إربا . ولكن رأسه المنطلق نحو البحر يواصل الغناء والبحث عن السر، كما أن قيثاره منزوع الأوتار يواصل العزف . (الفنان فى المنفى ، يبحث عن اتحاد مع أصله المختفى) الشمس ومن ناحية أخرى كان أورفيوس كاهن أبولو الشمس أى «الانسجام العقلانى للنور ومثاليته تصور الأشياء كما ينبغى أن تكون» بعد نزوله إلى الأعماق السفلى المظلمة قد تصالح مع ديونيسوس أسيوى الأصل ممثل الكائنات التى تتصل بذواتها المظلمة تحت الأرض . أورفيوس يصالح العناصر الجامحة العاصفة فى الإنسان وأغنية النشوة العربيدة ، على نور الانسجام في صيغ دينامية ، مصالحة حافلة بالتوترات المتجددة . وقد أضاف محمد ديب إلى أشعار مالارمية ذلك الإلهام الأورفيوسى الشرقى ، فى شكل يماثل بعض الطرق

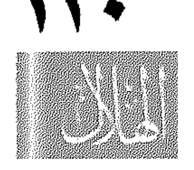
الصوفية الشعبية الفلاحية فى الجزائر . وهى تقوم لا على الإدراك الواعى أو المعرفة العقلية بالله الخالق ، بل على صلة مباشرة دون توسط عرفانية (غنوصية) حسية شخصية كثيفة بأسرار الوجود التى يتخللها المعبود عن طريق الوجد والحدس .

ويمزج محمد ديب التصوف الفلاحى المغربى ونزعته الإشراقية بالإلهام الأورفيوسى عند شعراء الرمزية متجاوزا أى فلسفة نظرية للشعر أو أى جانب تقديسى للإغريق عندهم . فلم يكن يعنيه إلا الجانب اللغوى متمثلا فى انصهار الكلمة بالجسد داخل رقصة وجود دائرية تشى بانسجام الأفلاك ولكنها لا تتحقق إلا عبر حلقات ذكر ، ورقصات دراويش (رقصات التنورة) صارخة بعبارات تبعث فى الأعضاء حالة التوثب والانتشاء والترنح وخرق الانسجام الظاهرى . وكانت أغنية أورفيوس عند محمد ديب تمتزج بالطبيعة والحياة السرية للأشياء باحثة دون توقف عن تآلف مراوغ فى عالم مختل. إنها أغنية يلتقى فيها الإدراك باللغة ، والشعر بالجسد ، فهى الوعى الذاتى للكيان العضوى الصوفى اللغوى المتكامل للإنسان .

لذلك نرى فى الأشعار المبكرة وفى قصائد المنفى (ظلال حارسة - الكثير جدا فى الشمس - تحالفات مستحيلة)، بل وفى روايات المنفى كذلك محاولة الكلمات والإيماءات الرمزية وقنوات الحكى أن تتمرد على حصرها فى «علامات» أو «شفرات» فهى تغتصب لنفسها كتلة وكثافة الأشياء ، وطاقات الفاعلية السحرية كأنها تعاويذ أو رقى، مقتنصة فى صياغتها إيحاءات الأسماء الملتبسة (هابيل - ليلى - سيمورج .... إلخ) وتداعيات الألفاظ وجرسها وهالاتها . ونصل بعد ذلك إلى أن أشعار محمد ديب ورواياته التى سميت بعد ذلك سيريالية ورمزية - بطريقة اختزالية كسول - لم تغرق فى الجسدى الفيزيقى باعتباره الوجه الوحيد بل بعثت فيه أنوار تساؤلات التجريد الفكرى الإنسانى .

ثلاثية الجزائر .. ماذا يبقى منها ؟

كثيرا ما تقارن تلك الثلاثية عن الجزائر بثلاثية نجيب محفوظ عن مصر (القاهرة) وكثيرا ما يتكلم النقد السطحى عن قطيعة إبداعية عند الكاتبين بين مرحلتين. فى مصر لا يقرأ أحد القصص القصيرة المبكرة عند نجيب محفوظ (صوت من العالم الآخر، همس الجنون ، الشر المعبود) ، وفى فرنسا لا يقرأ أحد



أشعار محمد ديب السابقة على الثلاثية . فهنا وهناك لم يقف الأسلوب عند المظاهر والسطوح وجلود الواقع المسلوخ بل نفذ إلى عالم التجربة العميقة . وفى الثلاثيتين احتفظ الأسلوب بالسطح المعتاد المألوف ولكنه استخدم أدوات تسمح للواقع الأعمق (النفسى والاجتماعى) أن يشق طريقه وأن يفصح عن نفسه فى مواقع الأزمة للتعبير عن المدى الكامل للتجربة الإنسانية . فى «الدار الكبيرة» على العكس من «بين القصرين» تنعقد البطولة لشخصية واحدة بدءا من الطفولة ويظل عمر بطلا «للحريق» و«النول» كذلك . وابتداء من السطر الأول بل ومن عنوان الرواية الأولى نلمح رمزية كامنة . فالدار هى دار «سبيتار» واسم الموقع هو التحريف العامى الجزائرى لكلمة «اسبتالية» ، المحرفة عن كلمة مستشفى اللاتينية وفرسان المستشفى فى الحرب الصليبية ، «الاسبطارية» عند العرب . وذلك للتأكيد على الاختلال العام والمرض والتشوش وما يتطلبه ذلك من التقلب على الجنبين والرغبة فى الشفاء. والسطر الأول سؤال لعمر إلى طفل آخر يرجوه قضمة من لقمة خبز يشاركه فيها . رغبات ونظرات وتململ واستياء وإحباط وتعبير عن طرائق سلوك وشعور . ولن نجد فى «الدار» وهى استعارة للجزائر كلها أنظمة أفكار أو تحليلات سياسية أو إعلان مذهب أو عقيدة بل سنجد أشكالا مختلفة من الجوع تلازم جماعات متشابهة من الناس تقابل أشكالا مختلفة من الشبع عند بيض البشرة والمتعاونين معهم . الأم بعد موت الأب منحنية على ماكينة خياطة الجلد نهارا وليلا تصنع الصنادل لتطعم الجياع دون نجاح وتبيعها بثمن بخس لمستوطن . الحنان والتضامن والأمل فى أن يتعلم عمر . فلم يكن محمد ديب جراحا يشرح جثة مجتمع . بل كان يرسم لوحة من الحياة الإنسانية ، تتجاوز الوثيقة الاجتماعية والسيكولوجية بالمعنى الوصفى المعتاد، بواسطة لغة وأساليب سرد مبتكرة إنه يصور تجارب الحياة فى لغة التعبير الخارجية وأشكال الوعى والوجدان الجماعية المراوغة غير الملموسة ولن نجد فى كلمات عمر أو الراوى أفكارا خالصة . بل سنجد الأفكار كما يحس بها الأفراد والجماعات ولن نجد مشاعر بدائية لم تمر خلال استجابات التفكير

للأوضاع الحية . وتصور الرواية الاختلال والفقدان وسلبية اليأس من خلال أصوات إنسانية عادية تمارس حياتها من خلال حلم بإمكان طريقة أخرى للحياة بواسطة لغة الاهتمام والرعاية والحنان والحب (الأم والزملاء والأصدقاء والأقرباء) . والظمأ إلى المعرفة ويطرح طرق التعليم بالفرنسية التساؤل الممتزج بمشاعر الفخر والامتياز . فلم تقف الرواية عند دراما الوصف الاجتماعي بل صورتها من خلال درامات أخرى ، حالات الجوع الحسي وظمأ مشاعر الكرامة والتحقق والوعي . وكان كل ذلك يجد ترحيبا لدى أقلية من قراء الطبقة الوسطى المتعلمة في الجزائر وأقلية من المهاجرين المغاربة في فرنسا تتعدي إعدادهم الآلاف . إنها صرخات شخصية مكثفة في الظلام لها ايقاعات أغنية حزينة عند بعض مثقفي الطبقة الوسطى الفرنسية .

أما «الحريق» فقد اندلعت نيرانها الأدبية واللغوية في النقد الفرنسي طويلا

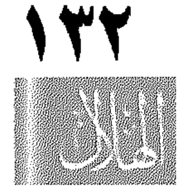
لقد كان عمر الشاعر المغنى (شبيه أورفيوس) في «الدار الكبيرة» طفل شمس الجزائر التي كانت وحدها عطوفا على الجزائر . فالجغرافيا والسكان والتاريخ لم تكن جميعا كذلك (كامو) .

إن النور هو العنصر الغالب على الظلمات . وينزل عمر في براعم مراهقته إلى الريف في إجازة مدرسية في قرية بني بوبلين حيث انتزع المستوطنون الفرنسيون من الفلاحين الجزائريين أخصب الأراضي واستعبدوهم كأجراء .

والتقى عمر بمن هم أكثر جوعا منه في أقصى درجات القدرة على تحمل الجحيم الأرضي . وعلى الارتباط الوثيق العميق بالأرض. وأحداث هذه الرواية منقولة عن وقائع حقيقية وصفها محمد ديب عام ١٩٥١ في الصحيفة الشيوعية «الجزائر جمهورية» عن إضراب في عين طايا . وقد نقل محمد ديب هذه الأحداث من منطقة العاصمة إلى تلمسان التي يعرفها وإلى عام ١٩٣٩ . فهناك توازِ بين عمر ومحمد ديب . أورفيوس يهبط إلى جحيم متعدد الطبقات بحثا عن حبيبته . النار تشتعل في العصيان الفلاحي وفي يقظة الجنس . وفي أحداق السلطات الاستعمارية والمتعاونين الجزائريين معها، بيوت الفلاحين المتداعية ، وفي الحلم بالحريق الثوري القادم .

روايات المنفى

إن الكاتب اليساري الثوري بعد طرده من الجزائر عام ١٩٥٩وتوسط اندريه مالرو والبير كامو له لكي يمنح حق الإقامة



فى فرنسا وجد باريس منفى شديد القسوة لأمثاله على العكس من جوليا كريستيفا وكلامها عن متع المنفى . لقد مكنته يساريته من أن يواصل الترحال والسفر فى أرض أوروبا الشرقية (الاشتراكية الواقعية الفعلية) وربما عرف من مشاهداته أن المجتمع الألفى السعيد خرافة كاذبة . وفى اليوم الرهيب ١٧ أكتوبر ١٩٦١ خرج آلاف الجزائريين المهاجرين ، من الرجال والنساء وحتى الأطفال فى مسيرة سلمية تماما مغادرين الجيتو ومدن الصفيح فى الضواحى ، جاهلين بموعد حظر التجول المفروض عليهم وحدهم ، متجهين إلى باريس . وكان ذلك استجابة لنداء جبهة التحرير الجزائرية . وكانت القوات الفرنسية الخاصة فى انتظارهم . وقد قتلت منهم المئات وتم انتشال جثثهم من نهر السين . ولم يتكلم الحزب الشيوعى قط عن هذه المجزرة بل كان نوابه قبل ذلك قد وافقوا على منح سلطات خاصة لجى سوليه لكى يخمد بالقوة ثورة الجزائر، ثم واصل ديجول تلك الحرب القذرة. وكان كتاب هنرى أليج الشيوعى «السؤال» الذى يفضح شناعات الاستعمار الفرنسى فى الجزائر صادرا من خارج الحزب ودون إقرار منه . بل لم يعمل الحزب على إقامة تضامن بين العمال المهاجرين والنقابات الفرنسية . ومن ناحية أخرى كان الديمقراطيون واليساريون فى فرنسا يتحدثون عن مستقبل الجزائر «الحرة» بسخرية. إنها ستكون محكومة بالحزب الواحد ممثل التكنوقراطية العسكرية، وستنفرد الطبقة البورجوازية «الوطنية» بالحكم لتصب دماء وبطولات الشعب الجزائرى كامتيازات فى جيوبها ، وسيظل العمال والفلاحون وفقراء الطبقة الوسطى محرومين من أى امكانية للتنظيم النقابى أو السياسى المستقل . وكان الواقع الجزائرى تحقيقا للنبوءة الساخرة، وما أتى بعد ذلك كان أشد وطأة ويقترب من صراع دموى بين العلمانية والأصولية. لقد أزهقت روح سؤال التحرر الإنسانى بأشكاله القديمة ولكن محمد ديب ظلت كتابته تحمل الجزائر فى قلبها . ونزل أورفيوس إلى الجحيم بحثا عن محبوبته .

وفى «من يتذكر البحر» (١٩٦٢) حكايتان متوازيتان لكل منهما تسلسلها الخاص. الحكاية الأولى عن مدينة الاستعمار مدينة الاحتجاز والسجن والصروح البشعة والتحجر والحكاية الثانية الأقل حجما عن طفولة الراوى، وتؤكد الحكاية الأولى تحويل سكانها إلى جثث محنطة وتحكى عن زمن متجمد فى مستنقعات ، وملوث بالسواد على الأسفلت وحتى تفرض على السكان مقاومة القمع الاستعمارى أى تجبر الجزائريين على اللجوء إلى مدينة سرية

تحت الأرض وبالمثل نجد الحكاية الأولى منحصرة عند طفولة الراوى داخل منزل متداع مقام على قلعة تحول ثلاثة أرباعها إلى حطام . والراوى يتسكع بين مدينة الاستعمار التى سيغزوها البحر حتما لتتحول إلى انقاض وسيكون مثلها مسوقا إلى الموت إذا لم يغادرها وبين المدينة السرداب، أدغال المقاومة بحثا عن نفيسة . البحر يتواطأ مع مدينة المقاومة ومدينة الاستعمار محكوم عليها بالفناء ومدينة الطفولة متلاشية، والراوى الأورفيوسي متعاطف مع مدينة الثورة تحركه الرغبة فى الاتصال والتوحد بالبحر والريف ولكنه لن يجد البحر ولا نفيسة . بل إن امرأة أخرى غير نفيسة انزلقت بلهجة آمرة إلى فراشه . ويبدو العالم للراوى المنفى الغريب مظلما يظل يبحث فيه عن قبس من نور ، عن تحقيق واتحاد بعد أن حرم من ذكريات وطنه (داره) ومن أوهام أرض ميعاد فى المستقبل ، ومن عودة محبوبته الضائعة وابتداء من رواية «من يتذكر البحر» التى تصور الجزائر وحرب تحريرها بطريقة رمزية تشبه تصوير قرية جيرنيكا فى لوحة بيكاسو الشهيرة لم تعد الحياة الفردية للشخصيات المركز الرئيسى. فروايات السير على الضفة الوحشية» (١٩٦٤) و«هابيل» (١٩٧٧) و«شرفات أورسول» (١٩٨٥) كتبت بعد أن رفض الجنسية الفرنسية عام ١٩٦٢ . وكان قد بدأ فى كتابة «شرفات أورسول» قبل الثلاثية الأولى ولم يكملها إلا بعد ذلك فأصبحت فاتحة لثلاثية الشمال وجاءت بعدها إغفاءة حواء «وثلوج المرمر » من ١٩٨٥ - ١٩٩٠ وكلها ارتحال وبحث بعد فقدان المدينة الأصلية لليقين والانفصال عن وجوده الأول وعبور إلى شواطئ أخرى خلسة ، فلا استقرار فيها ولا وصول . فلم يعد ديب يروى عن أفراد فى مشهد واقعى هو المنفى المكانى المحدد بل عن أسماء هى تجسيدات لمواقف إنسانية أساسية. ولم يعد يروى عن أحداث لها بداية محددة تؤدى إلى نهاية بل عن أنماط بين الأوضاع يتساءل هل ستظل تتكرر؟.. إنه لا يحكى حكاية بل يستكشف أوضاعا ملغزة متغايرة عن طريق تنظيم الصور الشخصية والمواقع والعبارات المتداخلة المتنافذة.

وفى رواية «الرب فى البربرية» (١٩٧٠) نبوءة لحكيم عن أن الفلاحين بمجتمعهم وصمتهم سيشكلون للعالم نفى خطابات المدينة وسيشغلون مدن الكلام الرائعة بقوة العدد وحدها وهو وعد عرقوبى .

وستظل المدن تلفظ الشاعر المغنى الباحث عن معنى وعن إجابات وعن طرق جديدة لصياغة الأسئلة القديمة، وعن



جسد للكتابة . ويلقى كتابه الأخير «سيمورج» أضواء على رحلته . سيمورج بالفارسية (ربما) هو طائر النفس وهو الورقاء عند ابن سينا: هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تدلل وتمنع . فالنفس كانت فى الأعالى عند أفلاطون أيضا وعرفانها تذكر، وبعث فى الروع. مثل نفس الراوى الشاعر في بلده وثقافته وقد هبطت إلى مدن المنفى . إنها نفس تشبعت بالثقافات المختلفة وترفض المركزية الأوروبية أو الأمريكية المغتصبة للتراث العربي واليونانى والمسيحى وتطويعه لأهدافها . وهو يسخر من الفرنسيين الذين يمنون على الكتاب الجزائريين بأفضالهم ، ويبين تناقض السياسة الخارجية الأمريكية مع خطاب الحريات المعلن ضدها، ومن عولمة تقوى الحواجز وحصون الحدود أمام حركة البشر ومن أصولية مدعاة تغطى يأسها بالدم والعقم والاستفادة.

إن الورقاء (السيمورج) عند محمد ديب ، كما كانت عند ابن سينا ، يتربط «إشراقها» بالنفاذ من الأعالى إلى الأعماق وتخلل الظلمة وتلبس الجسد والأشياء واكتشاف طرائق الكتابة والغناء ، مثل أورفيوس على الرغم من منفاها . ■

روايات الهلال

بقلم محمد ديب
ترجمة د. سامي الدروبي

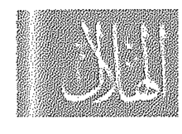
رئيس التحرير
مصطفى نبيل



أوروبيـــة المولد مـــصـــرية الهـــوى

بقلم
د. ماهر شفيق فريد

أما الفنانة فهى مارجوڤيون التى ولدت بمدينة القاهرة فى ١٩٠٧ لرجل أعمال سويسرى وزوجته النمساوية . وقد أنفقت قسما كبيراً من حياتها فى الفن تحاول اقتناص ما تتسم به الحياة اليومية فى مصر من حيوية وحركة . وكانت تقسم وقتها بين بيتها فى القاهرة وبيتها فى سويسرا . وقد سبق أن أصدرت مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة ثلاثة مجلدات من لوحاتها تحت عنوان : الحركة المتفجرة (١٩٩٦) حصاد مصرى (٢٠٠٠) احتفالات مصرية (٢٠٠٢) . واليوم تصدر نفس الجهة ، فى عيد ميلاد الفنانة السادس والتسعين ، مجلدا كبيرا بالألوان ، من القطع الكبير ، فاخر الطباعة والإخراج عنوانه «تصوير مصر» Painting Egypt يضم مائة من لوحاتها التى تقتنيها الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، وقد أشرف على إصدار المجلد برونو رونفارد الذى يعيش فى القاهرة ويتعاون مع الفنانة فى تقديم عملها تعاونا وثيقا .



مارجوڤيون



وسط الزهور -- ١٩٦٤

أقامت مارجوفيون عديدا من المعارض فى مدن مختلفة: القاهرة والاسكندرية وزيوريخ وبرن ولندن . كان أول معرض لها فى صالون جمعية محبى الفنون بالقاهرة فى ١٩٢٨ وأحدث معرض فى قاعة إيوارت بالجامعة الأمريكية بالقاهرة فى ٢٠٠٢.

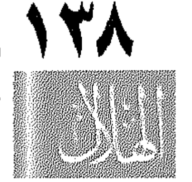
يقول مارك لينز مدير النشر فى مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة فى تصديره للمجلد : إن م. فيون - التى تتميز بالإبداعية والتصميم والاستقلال - قد سجلت ، على امتداد قرن تقريبا ، جوهر الحياة اليومية فى مصر فضلا عن حياتها فيها منذ عشرينيات القرن العشرين حتى مطلع هذا القرن الجديد . كذلك مارست فنها فى باريس وسافرت إلى إسبانيا وإيطاليا واليونان والمكسيك وجواتيمالا ، ثم إلى لندن ونيويورك ، وكثيرا ما تسافر إلى سويسرا حيث تقضى شهور الصيف الطويلة . ولكن بيتها والفضاء الفنى الذى تتحرك فيه إنما هما مصر ، صحاريها وقراها ، محصولاتها واحتفالاتها ، نهرها الذى تابعته أيضا فى النوبة والسودان وإثيوبيا ودلتا النيل ، لتعود دائما إلى مرسم بيتها بالمعادى حيث تعيش منذ أكثر من خمسين سنة .

يعرف أصدقاؤها القلائل القريبون منها اليوم - وقد كان لها أصدقاء كثيرون جاءوا وذهبوا - حرارة التزامها برؤيتها الفنية للحياة من حولها وهى حياة تزخر بالطاقة والحركة والجمال والصدق إذ يمارس المصريون حياتهم جدا أو لهوا فى المدن والريف . وتقف الفنانة فى مركز عملها إذ تصور الناس واللوحات الوجهية والمنظورات .

والقول بأن مارجوفيون قد عاشت حياة غير عادية ، ملؤها الإنتاج والقلق ولكن ملؤها الحكمة أيضا ، لا يفى عملها الفنى واسع المدى ، شديد التنوع ، حقه : فقد أنتجت آلاف الرسوم والتصاوير الملونة وصور الجواش والحفر والصور التخطيطية والصور الفوتوغرافية واليوميات والنوادر والذكريات : وكلها أعمال تتسم بالتعقيد والمباشرة الجسور .

حياة مكتملة ومتنوعة

أما برونو رونفارد محرر المجلد فيصف مرسم الفنانة فى المعادى : لقد بنت بيتها هناك فى نهاية أربعينيات القرن العشرين ، وجعلت مرسمها يقع من البيت فى المركز ، يواجه الشمال كى يقتنص النور غير المباشر الذى يحتاج إليه المصور . وإذ يعبر المرء بوابة البيت الخضراء يجد نفسه فى حديقة تتزاحم فيها الأشجار والشجيرات الكثيفة . إن هذا الركن الصغير من الأرض انعكاس صادق لحياتها فى فن التصوير : حياة مكتملة ومتنوعة ، تملؤها الأصداء والذبذبات . أما حديقتها السرية فهى الأماكن والصداقات الكثيرة التى نسجتها خلال حياتها الطويلة . ليس من السهل أن نصف حياة فنانة عاشت مثل هذا العمر الطويل : لقد قضت فترة من الزمن قريبة من الحقبة التكعيبية الثانية فى باريس ، ثم عادت إلى أسلوب فى التصوير أكثر كلاسيكية ، يبرز قدرتها على الرسم وإحساسها بالتكوين ، وذلك قبل أن تطلق العنان لخيالها ويدها : ثم جمعت بين هذه الأساليب الثلاثة فى سلسلة لوحاتها التى تحمل عنوان : منظورات عالمية Globrl



Bers Pectives . هنـاك كـل أنـواع الحياة بقدر ما يوجد من فنانين . فهناك حيوات تسير فى أخدود بعينه ، بصبر، وكثيرا ما تعيش في الظل - يفكر المرء هنا في فنان مثل بالثوس - وهناك فنانون يعيشون بسرف وبلا حدود مثل بكاسو . وقد اختارت مارجو أن تعانق هذا كله ولكنها حرصت على أن تظل بعيدة عن الاتجاهات الكبرى وصخب المشهد الفنى . ومع ذلك نستطيع أن نتتبع عدة خيوط فى عملها : مصر التى علمتها كيف تنظر وكيف تركز لكى تقتنص جوهر الإيماءة والحركة ، متحفها التخيلى (بعبارة أندريه مالرو) الذى نجد فيه تصاوير من كل الفترات ومناظر صحراوية جنبا إلى جنب ، ثم المنظورات العالمية وهى اكتشافها الرئيسى .

ولدت مارجو لأسرة من الطبقة المتوسطة (كان أبوها تاجرا واسع الاسفار) وكانت مبكرة النضج قررت منذ البداية أن تتجه إلى الفن: «كانت لعبتى وأنا صغيرة جدا هى أن أتتبع الرسوم التخيلية التى تجرى على طول الموائد الخشبية أو الرخامية بإصبعى» وفيما بعد ، حين بلغت الثانية والعشرين ، سافرت إلى باريس لمدة عامين وهي فترة وصفتها بأنها فترة اللقانة initiation فى حياتها ، هناك قرب نهاية العشرينيات ، سرعان ما هجرت الدروس الشكلية لتتحرك حرة بين مصورين أجانب آخرين فى مرسم قرب مونتيارناس . وتعلمت من خلال الممارسة كيف تتحرر من المحاكاة الأكاديمية لكى ترسم ببطء ، بضربات قصيرة من فرشاتها ، دون أن تنزع عينيها عن النموذج الذى تصوره . وأنتجت هذه الفترة بعض تصاوير بالغة القوة قريبة من السريالية ، مع أثر تكعيبى ، إذا كان لابد لنا من أن نستخدم هذه البطاقات . خلفت فيها هذه السنوات من التدريب التجريبى ندوبا عميقة خصبة ، ولكنها اتخذت قرارا حاسما فى حياتها الفنية وحياتها الشخصية هو العودة إلى مصر والعيش بها ، وإن ظلت تكثر من الاسفار (إلى إبيزا بإسبانيا ووادى النيل بصفة خاصة) ، بصحبة مصور ألمانى هو مارتن سيدل الذى مات مبكرا ولكنه خلف تأثيرا في عملها) .

هكذا عادت - بعد باريس - إلى مدرستها المتواضعة الفنية : مدرسة الحياة المصرية كى تسجل تفاصيلها فى صور تخطيطية معبرة قوية . وفى القرى المحيطة بضاحية المعادى وجدت ما عرفت به أكثر ما عرفت: آلاف الرسوم للحياة المصرية التى أنجزتها فى ثلاثينيات القرن العشرين وكانت أشبه بلوحة حية Tabteau Vivant تجتمع فيها إيماءات الأسلاف وتحصدها يدها البارعة . صورت الاحتفالات والعمل فى الحقول والحياة اليومية للنساء فلم تقتصر على نقل حقيقة هذه الأمور وإنما أبرزت على نحو أعمق - الجمال الخفى للعالم ، وذلك بنظام وعاطفة حارة في آن . كان العالم المرئى ، بالنسبة لها ، يملك من السحر ما يكفى لأن يكون مادة لعملها . والتقطت أيضا عدة صور فوتوغرافية تشهد بحدة بصرها - بصر العقاب - وراء يدها الماهرة كما صورت بلطيم عند نهاية الخمسينيات .

تنوعات لا نهائية

يبدأ متحف مارجو الخيالى بمستنسخين بسيطين علقتهما ، بعد فترة قصيرة من بناء بيتها عند مدخل مرسمها



جبل يهمون - ١٩٤٥

كأنما ليؤنساها : كلاهما صورة وجهية لفنان يحمل لوح ألوانه : إحداهما لرمبرانت والأخرى لبرويجل . من المحقق أنها قد أخذت عن هؤلاء الأساتذة القدامى (كما تعلمت من بلانسكيت) إحساسها «الفطرى» بالتكوين ، وميلها إلى التصوير المكتمل، ونزوعها إلى لونين من التصوير لهما تنوعات لا نهائية تسمح للفنان بأن يركز على ما هو أساسى : اللوحات الوجهية (واللوحات التى تصور الذات Seff - Partvaits) والحياة الساكنة Stiff life ثم هناك تأثير بكاسو . لقد كان بالتأكيد مصدر إلهامها حتى أنها تروى أنها حلمت به فى نومها فى عدة مناسبات (حلمت ذات مرة أنها وجدت نفسها فى ميدان تسفعه الشمس ، بين نافورة وسوق ، بينما هو جالس يصور) ، وقد تحدثت إليه وأراها محتويات صناديقه المليئة بأشياء مختلفة الأشكال والأحجام . وقد سألتها : «ألا ترمى أى شىء ؟» فأجابها : بالتأكيد لا ، لا أرمى شيئا البتة ! . ويمكن أن ينسحب هذا على مارجو ذاتها التى احتفظت - عبر السنين - إلى جانب صورها التخطيطية ولوحاتها بمئات الأحجار وغيرها من الأشياء وصنفتها واقتنتها . لكنها سلكت أيضا - مثل استاذها - دروبا تجريبية كثيرة منها التصاوير الفانتازية ورسومها الحدثية بالقلم الرصاص : دروب مشت فيها ، ثم هجرتها ، ثم عادت إليها مرة أخرى.

وفى متحفها الذى كونته ثمة مجموعة مدهشة من الأحجار هى بمثابة منحوتات فعلية ذات أشكال لا تصدق جمعتها من



بلا تعليق – ١٩٨٨

صحارى مصر التى لم تكف عن استكشافها .

وهذا الجزء الكلاسيكى من عملها قد أتاح لها – من غير شك – حرية فى الخط لم تعد مجرد تمثيل للواقع وإنما هى جوهر الأشياء ، حركتها ، وتركيبها الداخلى ، ويتجلى هذا فى رسمها للعاريات Nudes وما تسميه الليليات Nac-turnes (مثل بعض أعمال شوبان الموسيقية) وهى مئات من الارتجالات ملؤها نفاد الصبر وحرارة العاطفة أنتجتها خلال حرب الخليج . إن الخط هو من أى مصور بمثابة توقيعه وطابعه وملمحه المميز . وفى الوقت ذاته فقد ظلت طوال حياتها تسعى إلى العمق ، وأكثر استجاباتها شخصية ولمعانا إنما هى سلسلة تصاويرها المرسومة بـ «منظورات عالمية» .

المرئى والمحسوس

وتشغل هذه المنظورات مركز المجلد الذى نتحدث عنه كما تشغل مركز عمل مارجو . كانت أولى رسوماتها فى هذا الباب ضرب من الاستنارة التلقائية . وقد أرخت لها على نحو دقيق : فقد أنجزت ستة منها فى ١٩ أكتوبر ١٩٦٦ وأربعة فى اليوم التالى . ومنذ ذلك الحين حتى عام ١٩٩٨ ظلت تسعى – فى هذا العمل المطرد – إلى أن تصور، فى آن واحد ، ما تراه فى المرسم الذى تجلس به وما لا تسمح لها حدود الرؤية البشرية برؤيته . أو بمعنى آخر لم تقتصر على ما تستطيع العين رؤيته وإنما مدت شبكتها إلى ما كان يراد به أن يكون حاضرا فى هذا المكان : المرئى والمحسوس . وقد صبت كل طاقاتها فى هذه السلسلة من عشرين

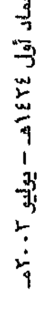
لوحـة – أو نحـو ذلك – بالزيت والعـديد من الرسوم التمهيدية والجواش والألوان المائية وكـأنما هى عـاكـفـة على آيتـهـا الكبرى . وهذه الرؤية الكلية التى أرادت أن تضعها على قماش اللوحة تشترك فى أشياء مع التكعيبية ، ولكنها تكعيبية بلا شكلانية . لئن كانت أعمالها عن الحياة اليومية المصرية ترمى إلى أن ترى العالم الذى تصـوره بحرية من خـلال إيماءاته ووجـوهه واحـتـفـالاته ، فـإن منظوراتـهـا العالمية – وفى فترة لاحقة : ليلياتها – تعـالج قضـية وحـدة عالم شـذرى . وفى هذه السلسلة من اللوحـات الزيتـيـة التى أنجزتها فى الفترة ١٩٨٦ – ١٩٨٨ كان الحل الذى توصلت إليـه هو التـحـريف وإعـادة بناء الفـراغ وأحـيـانا اسـتـخـدام مناطق كبيرة من اللون الراسخ الصلب . إنها ترمـى لا إلى تقديم مرسم فـى حـالة فـوضـى شـعـثـاء وإنما إلى تقـديم وحـدته الداخليـة ، لا مـا تراه وإنما مـا تريهـا يداها إياه . تريد أن تتغلب على التعـدد المتنافر وذلك بإماطة اللثام عنه.

وتقـول: «لا تسـتـحـوذ علىّ فكرة الموضـــوع فى ذاته، خطه، وطابعـــه التـصـويرى وإنما أنا أدركـه من خـلال مدخل مغاير من حيث علاقته بالكل وبلا شئ، ومن حـيث عـلاقـتـه بنفسى. إنه لم يعد ببساطة بصريا وفى هذه التصـاوير نجـد الفنانة حـاضـرة دائمـا ترسم أو تصـور بالألوان، ونحـن نـراها عـادة من ظهرهـا وفى يدهـا دائمـا قلم رصـاص أو فرشاة وثمة نوافذ أمـامـهـا، يتذكر المرء هنا مـاتيس الذى كان يسـتـخـدم النوافذ لكـى يضـع العـالـم فى تـصـاويره. هكذا تصـبـح الفنانة بوضـوح، مـعـنا تـتـأمل تصـاويرها، ولكننا نصـبح أيضـا واقـفين وراءها إن قماشة اللوحة تسجل ملاحظتها ورسـمـهـا، ويدها هى الوسـيط بين العـالم وبيننا لا عـجـب إذن أن نرى لليـد مكانة بارزة فى عملها كما فى لوحاتها المسماة «خـداع غـرامـى» والليليـات والنسـاء المصـريات فى لوحـتـى «صنـع الخـبـز» و«صنـع الزبد» ومن المحـقق أن اليـد هى أكـثـر مـا يشـد الانتـبـاه فى منظوراتهـا العالمية.

وللفنانة صـورتان ذاتيـتـات Self portraits تواجهنا فيهما داخل إطار : كـأنهـا تصـوير داخل تصـوير . أما أحدث لوحـة زيتـية لهـا فـلا تصـور فـيـهـا الفنانة نفسـها لقد انسـحـبت . إننا مـازلنا نرى المرسم، ولكن هذه المرة من خارج النافذة، كما نرى ريف دلتا مصـر، والانفصـال بين البيت والمنظر الطبيعى هنا انفصـال حـاد وفى الوقت ذاته يلوح كل شئ مـفـتـوحـا كـالنوافـذ إن كل شئ يتـحـول إلى فـراغ واحـد ليس فـيـه أبواب داخليـة ولا أبواب خارجية كل شئ يغدو أكثر تحررا وأبسط. لقد اكتمل العمل بكل عمقه.

★★★

شـــهـدت باريس مـولد الرؤية الفنيـة لفنانتنا فـفى عـشـرينيـات القـرن الماضى اجتمع فيـها حشد من الفنانين الأجانب: من بكاسـو إلى سوتين، ومن دى كـيـريكو إلى موندريان. وهنا غـازلت مارجو تقنيات السـريالية والتـعـبـيـرية وقبـل كل شئ – التكعـيـبـيـة إن تصاويرها التى ترجع إلى هذه الفترة تصـاوير كلها إبداع وانقشاع أوهام لم يعف عليها الزمن: فـهى مشربة بحساسية عالية وفيها تكمن بذور اتجاهها الفانتازى اللاحق.





نساء -١٩٩٤

والافتتان بحياة القرية المصرية ملمح جوهرى من عمل الفنانة لقد راحت ترسم من الواقع أرباب الحرف والنساء وهن يعملن، وألوان الاحتفالات والأعياد والموالد، ووجوه الفلاحين المشرقة. وتتميز هذه التصاوير أيضا بحسها التكوينى فكل شئ فيها فى مكانه الصحيح وسيطرتها على أدواتها كاملة. لئن كانت الألوان الزيتية تضفى جلالا، من لون معين - على الحركة الأولية لشخوصها، فإن توازن الألوان والأشكال ونوعية الخط تولد إحساسا بالهارمونية، وتميز هذه الأعمال التى وضعت لها اسما فى عالم الفن التشكيلى.

وقد ظلت الصحراء تطارد خيال مارجو. كانت هى حديقتها فقد تجولت فيها وحدقت فى مجاليها والتقطت ثمارها: نعنى أحجارها، فى بحث دائب عن الشكل، وصورتها. إن هذه الطبيعة - التى تلوح لأول وهلة خاوية جرداء - تتمتع بحياة فائقة فى ناظريها. إنها تقاتلها لكى تمسك بكل نبضة من نبضاتها. وتصاويرها التى تحمل آثارها إنما هى دفقات كبيرة من اللون، تقذف بها على قماش اللوحة فى دفعات باستخدام السكين، وفى عجلة، قبل أن تولى اللحظة المناسبة والشعور الدافق.

ومن هذه التقنية تنبثق تصاوير شديدة الشبه بالحياة غدت موّارة بالانفعال من خلال الألوان المتدافعة، يخيم عليها أيضا صمت العالم عندما يتحدث الشكل عن نفسه.

مصادر للإلهام

وأسفار مارجو مصدر آخر للإلهام فهى موضوع المئات من رسومها

وصورها الفوتوغرافية ومذكراتها التى جمعت فيها صورا تخطيطية من الحياة وتأملات وأوصافا. إننا إذا نحينا جانبا سنتى تدريبها فى باريس، وزياراتها المنتظمة فى كل صيف كزيوريخ منذ ستينيات القرن الماضى، فسنجد إنها وهى التى عاشت فى المعادى ثمانين سنة - قد جابت أنحاء ليست بالقليلة من الكرة الأرضية لقد قضت عدة أشهر فى برشلونة وإبيزا، بعد أن عبرت البحر المتوسط فى ١٩٣٥. وأنتجت هذه الرحلة لوحات مائية لامعة. ثم فى الفترة من الأربعينيات إلى الستينيات قامت بعدة رحلات على طول نهر النيل، واكتشفت لندن (التى زارتها عدة مرات فى الستينيات) فضلا عن اليونان وإيطاليا ولبنان والمكسيك وجواتيمالا ونيويورك.. ومن هذا الثراء اللانهائى للمواجهات والاكتشافات رسمت مئات الصور التخطيطية والانطباعات، وإن كانت قد تركت الكثير منها دون اكتمال على قماش.

وتشرح مارجو ما كانت ترمى اليه فى منظوراتها العالمية - وهى معنية، بمعنى الرؤية فتقول : «فى البداية ثمة فكرة مباغتة مؤداها أن أبقى بلا حراك فى غرفة، ألا أحرك رأسى وأن التقط ما تستطيع عينى أن تبصره فى ثانية، ولا ما هو أمامى فحسب ، وإنما يمينا ويسارا فوق وتحت إنى لا أحرك رأسى ولا يعنى تظل نظرتى ثابتة الحملاق، هكذا أرى الأرض ترتفع والحائط الأيسر يميل يسارا والحائط الأيمن يميل يمينا ، وتغدو الغرفة محرفة تماما تحت عينى ، وفى وسط هذا كله علىّ أن أصور نفسى بطريقة أو بأخرى، لأنى أرى نفسى هناك أيضا ، إنى أرى قدمى وساقى ، ولكنى أيضا أحس بجسدى - ثقله ، والطريقة التى يتحرك بها . أشعر بيدى تتحرك ، بيدى ترسم . وإذا كانت واقفة آو إذا كنت جالسة ، فإن إدراكى للمكان ذاته يجىء مختلفا كلية . هكذا يوجد مصدر لتنوعات لا نهاية لها .

والرؤى الفانتازية هى نتاج الأصايف التى قضتها فى زيوريخ فى التسعينيات ، بل أحدث رسوم لها فى عامى ٢٠٠١ و٢٠٠٢ وهى تبلغ المئات عددا . هذه الرسوم - كما تصفها صاحبتها - «حرة وبلا مخاوف» ، تتبع فيها اليد طريقها على الورق أو القماشة ، دون توقف . وتقول . «إنى أحشد نفسى . يجب أن يكون كل شىء مستعدا ، لا تعرقله أفكار . وأنا أجد طريقى باستخدام الألوان والإيقاعات وآلية اليد إذ تهديها إرادة شبه واعية . وقرب النهاية أكون فى حالة غيبوبة تقريبا ، ويكاد يعادل ذلك يسراً أن أنتهى وأنا أرقص».

وفى تصاويرها للحياة الساكنة تبذل كل جهدها فى صياغة التكوين . هذه التصاوير بالغة الاكتمال ، أو على حد تعبير الفنانة : «أحسن تصويرها» إنها تصنع ثم تفكك - وكأنها تطرز - موضوعات من الحياة اليومية : فواكه ، أزهارا ، أوان ، أسماكا ، باحثة عن التوازن أو انعدام التوازن . وكثيرا ما كانت تصور تكويناتها بآلة التصوير ، من أجل المتعة أو كمصدر تسجيلى لتصاويره تزمع القيام بها فى المستقبل . ولا يمل المرء النظر إلى تصاويرها هذه . أو كما كتبت الفنانة فى يومياتها فى لندن

فى منتصف صيف ١٩٨٨ «تشعر العين وكأنما يربت عليها نسيج الأجسام واستدارتها» .

و«الليليات» مزيج من الحدة والحرية، وكأنها تعبر عن العالم الداخلى للطفولة . إنها تمثل الجهد الصبور الحاد لامرىء يمشى فى نومه (مسرنم) . بدأتها فى ليالى حرب الخليج الأولى ، استجابة لغارات القصف المأسوى ، وكأنما تحلق الفنانة فى طائرة وحيدة مستوحشة . يتذكر المرء هنا لوحة بكاسو عن جرنيكا

إن ضربات حادة كالصرخة تقطع خطوطا مفاجئة ، تتكسر فى وليمة من الألوان . وتفيض هذه التصاوير بنفاد الصبر : فهى قد أنجزت بسرعة إزاء خلفية من الموسيقى الحديثة . إن العين تتوه أو هى تدع نفسها تستهدى بهذه الاحتفالية من الألوان وضربات الفرشاة . فى هذه الأشكال المتعددة – التى لا تغيب عنها التورية الساخرة irony – ثمة مواجهة ليلية للأسرار وشذرات التاريخ . إنها مواجهة مستخفية أو هى لا تعدو أن تكون قد رسمت لها صورة تخطيطية ، طروب وصعبة .

غنى الألوان

وماذا عن لوحاتها الوجهية ولوحاتها الذاتية ؟ عن المصورة ونظيرها إذا جاز التعبير ؟ أن مارجو – إذ يفتنها الناس – تحب أن ترسمهم إذ يقضون ليلة بالخارج ، أو يحتفلون ، أو يضطربون فى غمار حياتهم اليومية . إنها لا تحول عينها عن النموذج الذى ترسمه . ضربات فرشاتها سريعة حتى وهى ترسم بالزيت . حسبها أن ترسم خطا أول ، ثم بضع لمسات ، ثم عجينة لونية تدفقها بسخاء على السكين ، وسرعان ما يظهر جوهر شخصية بوضوح على قماشة اللوحة . ولوحاتها الذاتية ترسم معالم حياتها وتكشف عن غنى الألوان على لوح الألوان . وكما هو الشأن فى لوحاتها الفخيمة فى السبعينيات ، فإنها تركز عادة على النظرة وعلى اليد التى ترسم .

وينتهى الكتاب بعدد من الشهادات عن الفنانة بأقلام فنانين وأساتذة جامعيين ونقاد للفن التشكيلى وكتاب ونقاد منهم الفنانة جاذبية سرى ، والكاتبة جيل كامل ، وأن رضوان مديرة لجنة فولبرايت بالقاهرة ، وجون رود نبك أستاذ الأدب الانجليزى والمقارن بالجامعة الأمريكية بالقاهرة .

واللوحات المائة التى يضمها المجلد، حسبنا هذا كلاما ولنبدأ فى النظر – دعوة إلى التمشى فى حديقة عمل مارجوفيون : حديقة بالغة التنوع، لافتة التكوين ، يفوح منها العبير. ■

رحيل الفنانة مارجوفيون

بعد إعداد هذا المقال رحلت الفنانة مارجوفيون عن الحياة في ١١ يوينه الماضي بعد حياة فنية حافلة أوقفتها علي التعبير عن الحياة المصرية بكل صورها

من إعلام الفن المصرى المعاصر

تحية حليم

(١٩١٩-٢٠٠٣)

والمدرسة المصرية فى الفن التشكيلى

بقلم
د. صبرى منصور



تحية حليم

رحلت الفنانة الكبيرة تحية حليم عن دنيانا فى الشهر الماضى، واختفت بجسدها الصغير، لكنها تركت لنا بعضا من روحها فى لوحات تنبض بالصدق والشفافية، فى نفس الوقت الذى تعكس فيه قبسا من الروح المصرية الأصيلة الممتدة عبر آلاف السنين.

ولقد أوجدت الفنانة لنفسها - بإبداعها المتميز - موقعا مهما بين رواد الاتجاه المصرى فى الفن التشكيلى، والذى بدأت تتضح معالمه وتتكشف أبعاده ويزداد أتباعه بعد حوالى مائة عام من بدء الحركة الفنية الحديثة فى مصر.


العودة من السوق - ١٩٧٠



منظر في منبل الروضة - ١٩٤١

وحين يذهب الفنان إلى حيث لا عودة، فإنه يصطحب معه كل ما هو مزيف ومصطنع ، من بريق وعلاقات وإدعاءات، ولا يبق منه سوى مجموعة من الأعمال الفنية هى قربانه الحقيقى الذى يقدمه لرب الخلود، وعطاؤه المصفى الذى يخضع - دون أية تأثيرات جانبية - لمعايير النقد والتقدير من الأجيال اللاحقة. ويمثل مجمل ما أبدعته تحية حليم نموذجا فريدا فى نواح عديدة. فهى - أولا - تقدم لنا تجربة إمرأة مصرية قادرة على الخوض فى مجال كان مايزال جديدا على المصريين، وينظر إليه باعتباره لهوا وتسلية، ولا يتم تصنيفه تحت الأنشطة الفنية المحترمة كفنون الأدب والشعر. وكان إصرار تحية حليم واضحا - منذ بداية تجربتها - على جدية تعلم مبادىء وأصول فن التصوير، مما دفعها إلى منذ سن العشرين وحتى سن الثلاثين بين مراسم الفنانين لتتلقى على أيديهم أصول الفن وتتعرف على أسراره، وربما كان عدم اتمامها دراستها الثانوية سببا فى عدم التحاقها بالدراسة بالفنون الجميلة، وإن كانت قد عوضت ذلك حين سافرت إلى باريس لتدرس فى أكاديمية «جوليان» لمدة ثلاث سنوات على نفقة أسرتها. ويأتى رفض التقليد والانطواء تحت أى من المذاهب الفنية الحديثة - التى راج الحديث عنها والدعاية لها فى الأوساط الثقافية المصرية خلال فترة الأربعينات والخمسينات من القرن الماضى، أحد أهم ملامح تجربة هذه الفنانة التى استطاعت وسط ضجيج التحديث أن تحافظ على استقلالية فكرها، وصفاء أسلوبها، ولاشك أنها كانت تتمتع برغبة فردية حصنتها



سليمان والهدهد - ١٩٥٤

وجعلتها تصمد أمام إغراء الإنضمام إلى الجماعات الفنية التى كانت تصدر بياناتها المؤثرة ذات الرنين، والتى تبنت الترويج لأفكار واتجاهات التحديث فى الفنون على هدى الأنماط الأوروبية ، وكان أعلاها شأنا وأشدها دويا جماعتى الفن السيريالى والفن التجريدى.

ولقد منحت هذه الاستقلالية الفكرية للفنانة فرصة تطوير أسلوبها الذاتى فى هدوء، وعدم الوقوع فى دائرة الإلتزام بحدود معينة يفرضها الإنتماء لجماعة ذات منهج محدد، فكان التزامها فقط تجاه صفاء إحساسها الصادق والمباشر، مبتعدة عن عوامل التصنع والإدعاء.

وعلى الرغم من أن دراستها الفنية فى مستهل تجربتها خلال الخمسينات قد قامت على أسس الفن الأوروبى . مما ترك أثره واضحا على أعمالها المبكرة، والتى جاءت متأثرة بأسلوب الفنانين التعبيريين والحدشيين، حين لجأت الفنانة لاستخدام الألوان الصارخة، ولمسات الفرشاة القوية المنفعلة والعجينة اللونية السميكة، كما يبدو ذلك واضحا فى لوحة «الأمومة» المؤرخة عام ١٩٥٣ ، إلا أنها ومنذ بداية الستينات بدأت تكتشف أسلوبها الذاتى الذى عرفت به، فلقد فجرت رحلة الفنانة إلى بلاد النوبة فى تلك الفترة ينابيع الإبداع فى فنها، فكأنها قد عثرت على ذاتها، وبدأت مرحلة جديدة فى حياتها الفنية ظلت مخلصة لمعالمها حتى نهاية حياتها، وقدمت من خلالها تنويعات لا حصر لها لموضوعات إنسانية استمدتها من حياة الناس البسطاء فى النوبة، فتناولت فى لوحاتها أفراحهم وطقوسهم الاحتفالية ممتزجة بعناصر البيئة النوبية المختلفة من البيوت والنخيل ، وذلك فى

صياغة فنية تمثل مزيجا فريدا استمدته من روح الفن المصرى القديم والفن القبطى الإسلامى، وهى الفنون التى ازدهرت على أرض مصر وتمثل تراثها الفنى فى تنوعه وثرائه بالإضافة إلى ملامح من الفن الشعبى.

أسلوب فنى بسيط وصادق

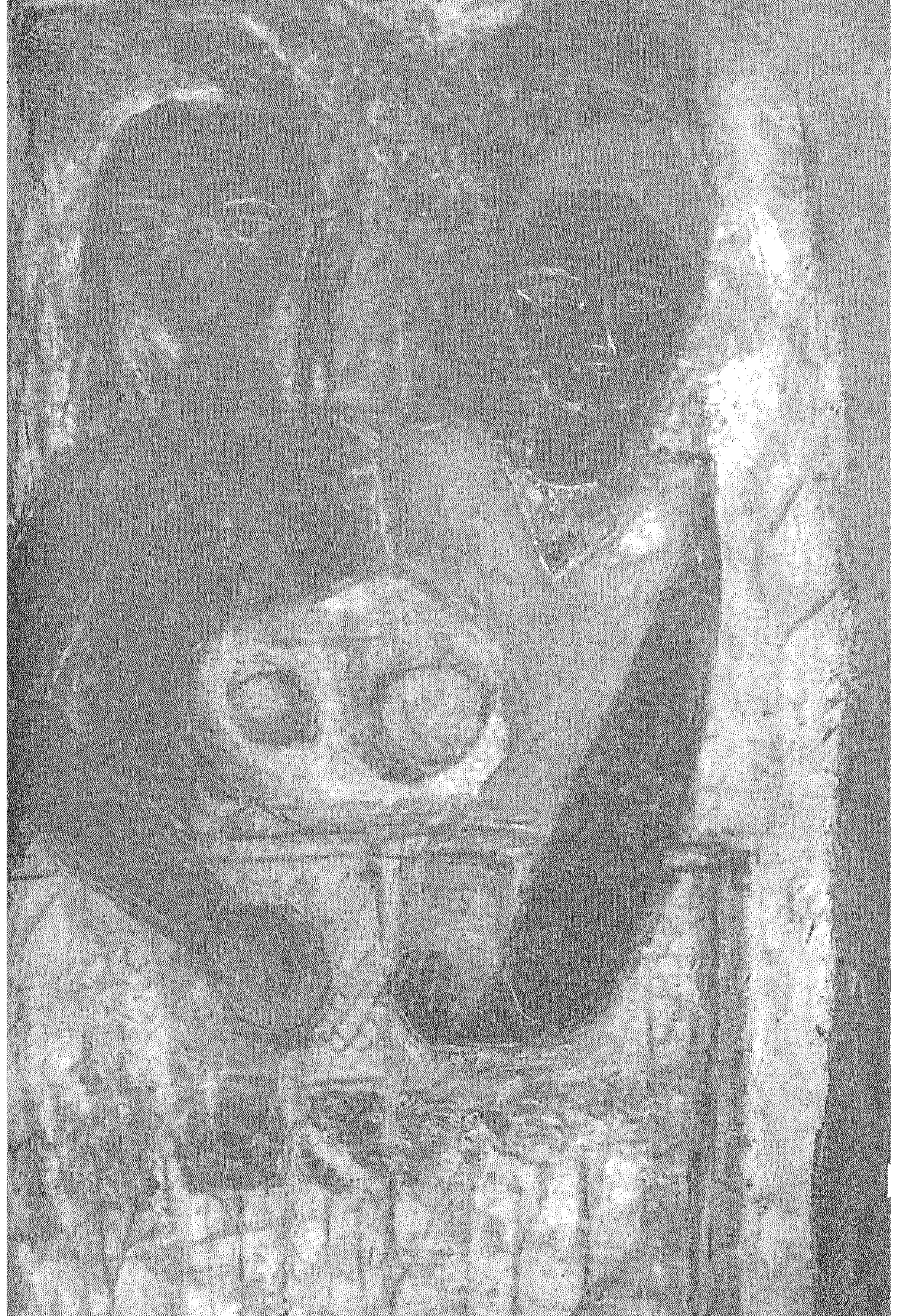
ولقد اتسم أسلوب تحية حليم بطابع البساطة فى الصياغة والتركيب والمعالجات الفنية، فهى لم تلجأ لتكوينات معقدة، ولم تشغل بالها بتجريب تشكيل جديد مبتكر عما هو مألوف وتقليدى، وأشكالها محورة بأسلوب يقترب من طرق الرسم الطفولية البريئة، كما أنها لم تسع نحو خلق أوضاع تصويرية مبتكرة، فأسلوبها الفنى لا يتطلب جهدا فى تقبله والإستمتاع به، وقد أتاح كل ذلك لفنها أن يكون أقرب إلى تذوق وتقدير قاعدة عريضة من المثقفين ومتذوقى الفنون التشكيلية، فلقد إعتمدت الفنانة على إحساسها الصادق والمباشر فطرحته بصورة تلقائية دون أن تحاول إضفاء دلالات رمزية، أو تضمنه أبعادا فلسفية أو فكرية عميقة الغور، كما أنها ومنذ عثرت على ضالتها الفنية فى منطقة النوبة فإن أعمالها قد تحولت من الموضوعات التعبيرية الدرامية والمؤثرة إلى غنائيات مبهجة، تحتفل بمظاهر الحياة اليومية، وتمجد الجمال الإنسانى فى أبسط أشكاله. كل تلك العوامل قد ساهمت فى أن يصل إبداعها إلى الوجدان مباشرة، دون أن يرهق النفس والفكر بعناء الكشف عن المعانى والدلالات، أو أن يفاجىء العين بعلاقات تشكيلية غريبة وغير مألوفة.

الخبز من الصخر

يظل لكل فنان فى مجموع إنتاجه الفنى عمل بعينه يكون علما عليه، ويمثل قمة إنتاجه وذروة تألقه، حين تتجسد فيه معالم أسلوبه، وتكتمل ملامح شخصيته، ففى ظروف معينة - ليس لها حساب دقيق - يمتزج المثير الفنى مع نضوج موهبة الفنان، وتوقد شعلة الإبداع الفنى عنده، حينئذ يولد ذلك العمل مكتملا متميزا ليتخذ مكانه ضمن الأعمال الفنية النادرة التى كتب لها الخلود. ولقد تهيأت تلك الظروف للوحة تحية حليم «الخبز من الصخر» التى أبدعتها عام ١٩٦٤ فى مساحة ضخمة الحجم نسبيا (٢٣٧ × ٢٥٢ سم). وقد صورت فيها امرأة منكفئة على الصخر وهى فى حالة إعداد للخبز. وهو مشهد استقته من معالم الحياة اليومية، وأعادها إلى مرحلة موضوعاتها التعبيرية الدرامية، وظهر ذلك واضحا من خلال وضع المرأة الذى يعكس المعاناة من أجل الخبز أو الحياة. وفى تشكيل رصين إعتمد على الحوار بين الخط الأفقى الذى تمثله المرأة المنكفئة على الأرض. وبين الأشكال الرأسية لمجموعة من البيوت النوبية، التى تبدو وكأنها واقعة تشارك فى المشهد كمجموعة «الكورس» ، وقد ساهم التناقض الشديد بين الدرجات اللونية القائمة لجسم المرأة والدرجات الفاتحة للبيوت والخلفية فى تأكيد درامية المشهد وقوة تعبيره.

ومما يمنح هذه اللوحة قيمة كبرى تلك الدلالات والمعانى متعددة الطبقات، فتلك المرأة الفقيرة بردائها المصرى التقليدى، وملامحها النوبية، تتخطى فى دلالتها





مجرد امرأة نوبية تكافح من أجل لقمة العيش، وإنما يمكن لها أيضا أن تشى بمعاناة مصر فى سبيل الحياة الكريمة، كما أنها فى النهاية تعكس كفاح الإنسان المطحون - أينما كان على وجه البسيطة - من أجل البقاء واستمرار الوجود.

ولقد أهلّت القيمة التشكيلية الرفيعة، والدلالات التعبيرية تلك اللوحة كى تتبوأ مكانة رفيعة بين أعمال فنانين آخرين، تمثل لوحاتهم بصمات واضحة وعلامات مؤثرة فى تاريخ التصوير المصرى المعاصر. مثل لوحات «بنات بحرى» و«ذات الضفائر الذهبية» لمحمود سعيد، و«الرجل الأخضر» و«فرح زليخا» لعبد الهادى الجزار، و«فرح عزة» و«الفجر» و«الفرقة الموسيقية» لحامد ندا.

تحية حليم والمدرسة المصرية

مايزال تصنيف أساليب الفنانين المصريين ضمن مناطق الاختلاف بين الباحثين والدارسين، وإن كان معظمهم يميلون إلى اتخاذ التصنيفات الأوروبية دليلا إلى تحديد وتوصيف اتجاهات الفنانين المصريين، فهم يطبقون عليهم تلك القواعد التى اتفق عليها واستقرت مبادئها، فى نفس الوقت الذى يطيب فيه لعديد من الفنانين المصريين إدراج أساليبهم تحت لواء الاتجاهات الأوروبية الحديثة، إذ يتصورون أن ذلك يعنى عالمية إبداعهم، وتخطيه نطاق المحلية المحدود، وربما كان ذلك منطقيا وطبيعيا فى الوقت الذى بدأت فيه الفنون المصرية نهضتها الحديثة دون أن تستند الى تقاليد فنية قريبة العهد، فالفنان فى إبداعه لا يبدأ من فراغ، وإنما لابد أن يتصل انتاجه بحلقات فنية أخرى. لذلك فقد وجد الفنان المصرى نفسه واقعا تحت تأثير حلقتين. تمثل الأولى منهما الفن الأوروبى الحديث الذى يعكس روح الحياة الحديثة وتطور أفكارها، لكنه لا يعكس روح المكان وثقافته، فى حين تمثل الحلقة الثانية تراث مصر الفنى الذى بعد به العهد فانفصل عن روح العصر وإيقاعه، ولكنه مع ذلك يمثل الجذور الأصيلة التى يجب أن يتصل بها الفنانون المصريون، فهى أكثر تعبيرا عن وجدانهم وروحهم الجماعية الممتدة والمتصلة عبر التاريخ.

ولقد مثلت تلك الإشكالية الإبداعية هما ثقافيا عند بعض المصورين المصريين الذين رفضوا كلا الطريقين، واختاروا إبداعهم فى أسلوب يحاول الجمع بين معالم الحداثة الفنية فى صياغة تشكيلية تتصل بشكل أو بآخر - ووفقا لموهبة وإمكانية كل منهم - بأصول الفن المصرى عبر تنوعاته المختلفة، فتربط بين الماضى والحاضر، وتبلور خصائص متفردة تتمتع بالاستقلالية عن أشكال الفنون العالمية الأخرى، ويعتبر المصور الرائد محمود سعيد الأب الروحى لهذا التوجه حين وضع لبناته الأولى، وزامله من جيل الرواد المصور راغب عياد، وجاء من بعدهما آخرون أضافوا أبعادا مختلفة، وصيغا جديدة فى نفس الاتجاه. كما جاء إبداع تحية حليم ليمثل ملمحا آخر من ملامح تلك المدرسة المصرية التى تمثل إضافة حقيقية وإثراء للإبداع الإنسانى فى الفنون التشكيلية المعاصرة. ■

أخوة - ١٩٦٤

نصفي

قصة
نبيل صلاح الدين
بريشة
سميحة حسنين

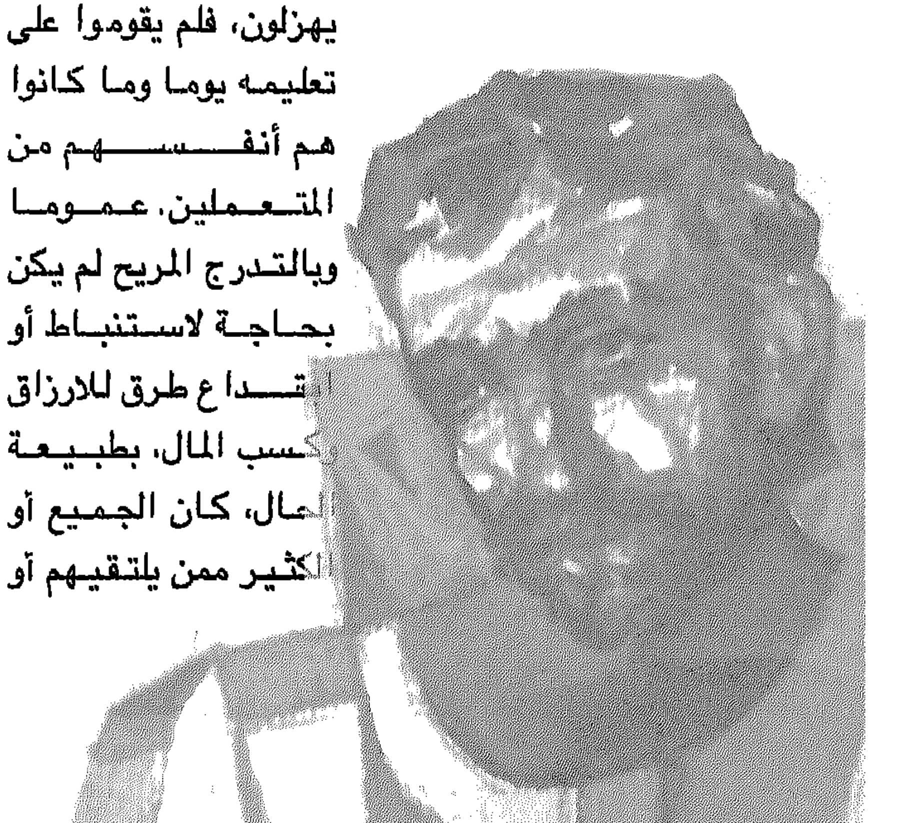


لعله أضعف مخلوق فى الوجود، نقولها عنه بملء الفم فلديه حجته الدامغة والدليل الساطع على ذلك. هو، حفظكم الله، نصف رجل، فى الواقع، النصف العلوى منه فقط، رجل بذراعين وهذا كل هنالك.. دون ساقين! غنى عن القول أنه النصف الأهم ولا غرو ، فلا وجود وما سمعنا بنصف بشرى أسفل يتحرك مستقلا.

النصف السفلى وحده لا قيمة له بلا دماغ يوجهه، دماغ طبيعى أو صناعى أو الكترونى من تقنية متقدمة عالية. ولكن لا بأس فالأمر أبسط مما تتصورون، والحال خير مما تتخوفون. فهو يعيش عيشة الأسوياء بلا فروق جوهرية، سوى أنه ومذ تشكل وعيه، قعيد كرسى متحرك، والأكثر من ذلك ما يتمتع به من ميزات كبرى لا ينعم بها

الأصحاء. الكل مطالب بإعانته، الجميع مدعوون لنصرته ونجدته أينما تعرض لظلم أو جور. أو موقف يعجز فيه عن الدفاع عن نفسه. وفوق كل هذا وذلك، لا يرجى منه الكثير. في الحقيقة ولا القليل، لا يرجى منه شيء البتة. لكن الضروري المستحب والمرغوب، بل والمرجو، أن يخفف من ظهوره قدر الامكان، يبتعد ويغرب عنهم بنقصه وعاهته، رحمة بهم ورأفة بضمائرهم وبسبب إحساس متوطن بالعجز.

في البداية ، ومنذ شب عن الطوق، عفوا فهي عبارة غير معبرة ولا هي موحية، فلم تكن في الأمر أطواق، لكنها تعبر عن المرحلة السنية أو الفترة العمرية التي يتعين على الفرد فيها أن يمضي في الحياة وحيدا معتمدا على نفسه دون عون خارجي، مستقلا عن الأبوين والأسرة. عليه ايجاد عمل، أو البحث عن وظيفة، هذا ما أعلنته به الأسرة صراحة ودون مواربة، ظنهم أول الأمر يهزلون، فلم يقوموا على تعليمه يوما وما كانوا هم أنفسهم من المتعلمين. عموما وبالتدرج المريح لم يكن بحاجة لاستنباط أو ابتداع طرق للارزاق وكسب المال، بطبيعة الحال، كان الجميع أو الكثير ممن يلتقيهم أو يصادفونه، من يعرف أو لا يعرفهم يسارعون فيبادرون باعطائه مالا قل أو كثر، والعطايا والمعونات والكثير والكثير من نظرات الاشفاق أينما حل. هذا ، ومن عجب أن يجد الكثير من الأصحاء الاشداء صعوبة، وقد يلقون عنتا ومشقة في اكتساب المال، لكنه لم يعرفها أبدا، يكفيه وحسبه أن يقف في مكان أو يتخذ موقعا في هيئة معينة وبكيفية تتامى اقتداره عليها مع تراكم خبرات المراس وخوض التجربة خاصة في المواقع الحساسة والميادين الكبرى، تجار أو كبار يتسابقون كلهم في اغداق العطايا سرا وعلانية، يالها من أيام! لذلك لم تدم طويلا، فدوام الحال من المحال.. وذلك زمان ولى، لم يعد أحد يتعطف حتى بنظرة عطف أو شفقة حقيقية،



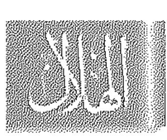
كلها مصمصة شفاه فارغة، دون فعل او عطاء او تكافل ذى معنى.. بل لا يعدم نفر منهم يؤذونه ويسيئون إليه قولا وفعلا. يسخرون منه ويلمزونه تلميحا او تصريحا. لكن الحياة تمضى ولا تتوقف فعليه أن يحيا، يعيش أو يتعايش.

فكر فى الرحيل،لم يعد له «مستقبل» هنا، لكن إلى أين؟ فالمناطق كلها تعانى ذات الفقر وضربها نفس الكساد. لأسباب عديدة مركبة لم يعد هناك «حجاج» زمان، ممن يبادرون باللحم والثريد. وحلاوة المولد فى موسمها، والكستور فى الشتاء، دون طلب أو الحاف فيه. تلك طائفة انقرضت، لم تعد موجودة ولا يدرى كيف انقرضت. ففيم البقاء فى هذه الأنحاء، عليه أن يبحث عن أرض وفرة، أرض براح. مجتمع رخاء كما سمعهم يقولون فى التلفاز.. لابد أنها هناك حول بيت الحاكم.

جاءت الصورة الواقعية كما تصورها تماما، لم تختلف كثيرا عما تابعة مرارا من مشاهد الصندوق السحرى المثيرة، طرقات نظيفة وأكثر اتساعا، تخلو من المتسكعين والمتسولين، الكل يمضى لحال سبيله، تغسل الشوارع كل يوم، والأشجار مقلمة بعناية، أرصفة جيدة التبليط.. أما قصر الحاكم فكان مهيبا رائعا بحق، لم يعرف قبلا هذا البهاء وتلك الروعة، وكل ما حوله مرسوم بعناية والخطوط بيضاء ناصعة لامعة حول القصر الكبير. هنا يمكنه أن يختار موقعا، أو بقعة يحتلها بكرسيه، بعيدا عن رذالات البشر، القوم هنا أكثر مالا وقدرة ونفوذا عن بقية المناطق، ويسعد من يجاور السعداء.

بدأ «النصف» يتبين طريقه، الأمر بسيط للغاية ، كل ما عليه أن يقبع فى الجوار، أن يتعايش فى هذه الجيرة، أن يظل قريبا من هذه المرابع ما أمكن . لا داعى للابتعاد كثيرا ، فقد يلاقى ما لا يحب. هنا الأمان الكامل ولا يأتى الا ذو حيثية ونفوذ، والموقع ولا شك طارد للآفات كافة. هنا يمكنه الارتزاق بسهولة، الحاكم ورهطه، فى بحبوحة اكيده، والاغداق خصلتهم ومن شيمهم لا ريب.

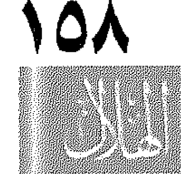
جاءت التجربة كما توقعها تماما، المؤشرات مشجعة لغاية والتدفقات مرضية تماما، أكدت صدق حدسة وحيوية، وعافية الموقع وأهله. مواكب تكاد لا تنقطع من كبار القوم تفد لزيارة الحاكم، فلا يحرم من عطاياهم، هى



الحياة الرغدة كما يقولون. لم يخل الأمر فى البداية من بعض التحرشات من «الاوغاد» اللئام المتخمين غذاء ورياء ، حاولوا بطرق شتى ابعاده، فلم يكن من اللائق، كما قالوا، أن يطالع الحاكم او زواره من كبار القوم وعلية الناس، أمثاله من الحالات المزرية، لكنه تعلم المراوغة وتفنن في الاستخفاء عن ابصارهم، وهو موجود هنا أو هناك، فى الزوايا المهملة حول القصر الكبير وحوله جوقته وصحبه (الأوباش) المتشردين الجياع.

ولما كانت واحة آمنة من تحرشات رجال الأمن، فقد طابت المنطقة مقاما لثلة من بائعات الهوى. الأمن فى عصر (السوق)، منشغل بمهام أخرى يتضاءل الى جانبها بعض المتسولين أو الأوباش المتشردين، أو بضع جانحات ، وظيفتهم ومسئوليتهم الأساسية، همهم الاكبر سلامة الحاكم وأمنه الشخصى من مضايقات الرعاع او عداوات الخصوم والمناوئين. وضمان سلامته الشخصية صادروا المنطقة فلا يؤمها سوى الحاكم وحاشيته وزواره والوفود، يأتون فى مواكب فخمة مهيبة ، يسبقهم الأتباع والحاشية توسع الطريق وتجهز الموقف. كلها طوائف لا تقلقه، اختلاف (طبيعة العمل) لا يدع مجالا للمنافسة، ولا يمكن اغفال حقيقة اختلاف «طبيعة الزبون» هم صنف اخر من الناس، شريحة مختلفة من السوق، لا تعارض هناك بالمرة ولا من يعارضون . بارك الله فيما رزق، وبارك وطوبى للحجاج من كل لون. من كل حدب وصوب. لكن للأيام تقلباتها وللدهر تصاريف. طالما كان مدركا لتلك الحقائق، ربما هاجس فى النفس يحدثه بزوال النعم، وهل هناك ما هو أنعم مما يأتى (رغدا) دون سعى أو كد.

ما نفدت الأعيب (الأوغاد) وما فترت افاعيهم فى العمل على ابعاده عن المنطقة. وبين ترغيب وترهيب جاء عرضهم واضحا محددا، عليك أن ترحل. قبل أن يعبر عن اين ولم؟ كانت الاجابة ان اعتبارات امن وسلامة الحاكم توجب ذلك بل تفرضه، ولكن ما هى المستجدات ، فقيل ان التطورات المدهشة فى القدرات الاجرامية لأولئك الرعاع والجياع، أصبحت تتطلب خططا متقدمة لتطوير أداء جهاز أمن الحاكم وهو ما يحتل اولوية اهتمام كل مواطن محترم. ولكن لا تخش شيئا فقد



اعددنا للأمر عدته، ولن نتركك الا بعد تمام التجهيز والتأهيل لتصبح كصحيح البنية سواء بسواء، وبعد سكتة قصيرة وربما افضل، فتح صندوقا كبيرا كان يحمله، سرح (النصف) بفكره وغاب عن اللحظة وهو يرى امامه اجمل ساقين يمكن ان تحملا رجلا، مقاييس مثالية، صحة فتوة، تقليد متقن بارع جدير بالثناء. استخرج احدهم كتيبا صغير ليشرح له مزايا الساقين، من قوة لسرعة لاحتمال لرشاقة، طاقات عالية ، وتضمن العرض اضافة لذلك مشروعا (متناهى الصغر) يمكن أن يدر على صاحبنا عائدا طيبا ومضمونا مجزيا. بذلك ولكل ما سبق فليس ما يحول دون انطلاقه وبزخم عال للشارع الاقتصادى وعالم السوق. لم يكن (النصف) يوما ممن يؤكلون بسهولة او من يسمون باللقمة الطرية. أسعفته قريحته او خبرته، لا شىء يغلب الخبرة ، فأجاب ببساطة أنه كان يود لو قبل العرض الكريم لكن لا يسعه سوى الاعتذار. وتعلل بأسباب خاصة اعتبرها شخصية يفضل الاحتفاظ بها، وبالتضييق عليه بما خبره «الأوغاد» من أساليب الاستجواب اقر أمامهم، وهو يتمنى لو انشقت الأرض وبلعته، أنهما سببان وجيهان انه امى لا يقرأ ولا يكتب ومن سواقط القيد فلا بطاقة لديه. ظل الاوباش يتندرون ببطولة «النصف» الذى هزم الأوغاد فى تلك الوقعة وجعلهم اضحوكة المجالس بكلمات ودقائق معدودات.

تسارعت بعدها الأحداث بشكل درامى ملفت، وتصاعد منحنى ضغط الأوغاد، لكن الحيلة التى قلبت الموقف بشكل درامى، كانت ذلك المسخ العجيب الغريب الذى فوجىء به يحتل موقعه مع بداية الوردية الصباحية من يوم أغبر لا ينسى، غريب. فلا يذكر أنه رآه من قبل، عجيب إذ كان كالنصف تماما، بلا

ساقين ولكن تفوق عليه بكم الجلباب يتأرجح الى جواره خاليا من إحدى الذراعين، يتمتع بعاهة إضافية، مما يعد إعاقة مركبة، والأغرب أنه كان بمعية بعض (الأوغاد) يتحدثون في ود واضح ما أضفى على المشهد مسحة من واقع أليم.

تدهور الموقف بعدها في تسارع أوضح، إذ قبل أن يقيم الموقف كما يجب بإتاحة الفترة المناسبة الضرورية للجو العام المحيط بعملية اتخاذ القرار، ما يعرف بالتعايش الموازى لحالة صنع القرار، فجأته طوارىء مستجدة، تدنى وانخفاض حاد يدعو للقلق فى التدفقات النقدية أو (الغلة) ، كان ذلك ما حاول شرحة لرفاقه من الأوباش القلقين من تدنى نصيبهم مما كان يصيبهم . وأرجعه لما يمتصه المسخ الملعون (أبو دراع) من القدرات والطاقات، دعا الجميع على المذكور بالخراب او الموت وأمّن النصف بالقلب والعينين. قال بعض الخلصاء إنه أخطأ يوم رفض الساقين الصناعيين والمشروع «متعاظم الصغر» فمن الممكن بل والمفروض ان يبارك الله فى مثل هذه المشروعات الطموحة إذ تهدف لتحقيق التنمية المستدامة وهى الأهم، وليس مجرد التنمية وحدها فقط فهى الى زوال، ولم يعدم من يقول إن عليه ان يستوعب المعطيات وصولا لإمكان التعايش مع المستجدات الوافدة.

ثم جاءت الأنباء بأن الأوغاد استصدروا بأساليب أفعوانية مؤسفة ، قرارا بالإزالة، حتى بلغت بهم الصفاقة أن هددوا بالتنفيذ بالقوة الجبرية، وبات الأمر صراع البقاء أمام الونش، والونش لمن لا يعرف وحش مارد لا يجدى أو ينفع معه منطق أو حجة أو حقوق أو شرع أو قانون أو برهان. تحفظ البعض وذهبوا إلى أن هناك ما يمكن أن يفيد فى هذا الموقف. وحده فقط ونش اخر، اشد منه قدرة ، أعلى طاقة، أكبر حمولة، أحدث تقنية مما لا يتوفر إلا للحكام والسلاطين ومن لف لفهم. اشار بعض الأوباش أو من ذوى الرأى منهم ألا يركب رأسه فلا قبل له ولا لغيره بالونش وليس أمامه سوى الرحيل. هى الحرب إذن! والحرب كما يقولون خدعة، فعليه بالمكيدة فهى أمضى سلاح. هز رأسه فى صمت كمن يضمر أمرا وهو يتسمع لذلك الهواء المتهافت ممن حسبهم أحباءه، بطانته وعزوته وسنوات من عطايا



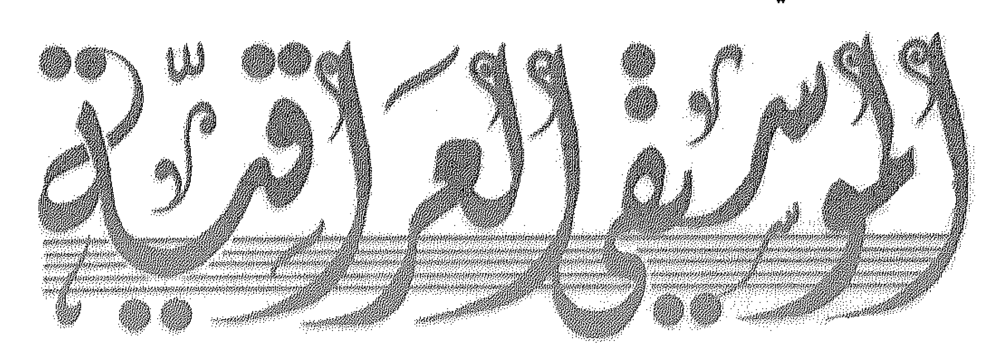


ومعونات وإغداق كان فيها بحق الراعى الرئيسى بما كان يضخه، نقدا وعينا، طعاما ودخانا.

فى الصباح قام (النصف) لساعته، فعمد إلى ذراعيه فبترهما قبل أن يرمى بهما جانبا فى بساطة أخاذة أثارت حسد كل من حضر، استهول الأوباش الأمر واستغربوا فعلته. وايقنوا من سوء العاقبة، ولكن ابتسامة الواثق من انتصاره كانت تملأ وجهه وهو يخاطبهم قائلا «النصر أكيد، ها أنا الآن أقوى وأقدر على لقائهم من أى وقت مضى» لم يرسم علامة النصر بإصبعيه لأسباب غير خافية ، وخرج (النصف) على الأوغاد بجلباب تتأرجح على جوانبه الأكمام خاوية بين تهليل الأوباش وهتافهم. بهت الأوغاد . فارتج عليهم وأسقط فى يدهم وبان فى عيونهم التسليم. هذا وتجمع أدبيات هذه المرحلة على عبقرية هذه الخطوة، إذ أصاب (النصف) عصفورين أو أكثر بحجر واحد، ضمن موقعه بتأكيد مكانته بلا مناوىء، وتخلص من هاجس الونش، على العكس من (أبو دراع) الذى بات تحت رحمة الونش ليل نهار. لكن السؤال ظل قائما بعدها وتناقلته الأجيال لعقود طويلة، هل انتصر النصف على تلكم الأوغاد؟ أم أن الأوغاد كانوا هم الفائزون؟

يحتضن العراق تعددا غريبا من الثقافات التي قامت علي أرضه الخصبة (والتي جلبت عليه الأطماع) علي مر عدة آلاف من السنين، وجاء تنوع الحضارات ليكون أحد أهم روافد التميز لأوجه الحياة المختلفة.

دوما يبرز الفن حينما تتضح وتترسخ معالم حضارة بمعني الكلمة، كل زمن أفرز نوعا من أساليب التفكير والتعبير من خلال الفنون وأبرزها الموسيقي.



ثراء...تنوع...تفرد...خصوصية

بقلم
نصير شمة

كل جزء من أرض العراق قامت عليه حضارة ، بدءا من حضارة أور جنوبا، ونينوى شمالا، وبابل فى وسط العراق، وآشور فى شمال العراق، وحضارة سومر فى جنوب العراق، وأكد وصولا إلى عاصمة الخلافة العباسية بغداد والبصرة والكوفة، فى كل ما ذكرت وما لم أذكر قامت شعوب وثقافات وأعراق وديانات وطقوس كانت الموسيقى تأخذ روح المجتمع وثقافته وجوهره وتعكسها كما لو كانت مرآة.

نحتاج هذه المقدمة لنعرف لماذا تعددت اللهجات الموسيقية داخل العراق بهذه القوة والوضوح.

تتوزع الموسيقى العراقية بين

المقام العراقى، الغناء الريفى، البدوى، الموسيقى الكردية، الآشورية، الموسيقى الكنسية ، الأغنية البغدادية، الأغنية الموصلية، الأغنية البصراوية، والغناء التركمانى والكلدانى إضافة إلى الموسيقى الدينية الإسلامية وهي كذلك تتوزع على الأشكال والمذاهب المختلفة.

إذن هى لوحة فسيفسائية زاهية الألوان والأشكال تكمل بعضها ،

الموسيقي العراقية لوحة فسيفسائية زاهية الألوان

والغريب أن الشعب العراقى بكافة فئاته يطرب لكل هذه الأشكال ويتبناها كونها تراث البلد، وفى الثلاثة عقود الأخيرة تغيرت خارطة مواقع الأشكال الغنائية فلم تعد الأغنية الريفية محصورة بالمناطق التى نشأت بها، بل وصلت إلى العاصمة والمدن وأصبح حضورها طاغيا كونها فنا وجدانيا موغلا فى الألم الذى يستطعمه غالبية أفراد الشعب العراقى.

الغناء الريفى

والغناء الريفى له خصائصه المتفردة، وهو يستخدم اللهجة الشعبية المحلية للمدن والأرياف وكذلك يستخدم تكنيك أداء خاص لهذا الشكل الغنائى ، وقد برز رموز لهذا الشكل الغنائى أحبهم الشعب العراقى بقوة هم : حضيرى أبو عزيز وداخل حسن وزهور حسين، إضافة إلى أصوات برزت فى أوائل السبعينيات منهم حسين نعمة الذى حاول أن يقدم بصوت ريفى أغنية معاصرة، أى مؤلفة حديثا لكن لها خصائص الإيقاعات والأنغام واللهجة الريفية، وتلا ذلك قائمة من المغنيين فى مجال الأغنية الريفية من أعمار مختلفة.

وحتى بالنسبة للسلالم الموسيقية التى تستخدم فى الأغنية الريفية فهى لها خصوصيتها، وهناك سلالم موسيقية لاتستخدم إلا فى الغناء الريفى العراقى،

منها المحمداوي والصبى وسلالم أخرى.

الغناء البدوى

أما بالنسبة للغناء البدوى فقد تحدر من البادية بقوة إلى المدينة بدبكاته وبإيقاعاته وبآلة الرباب ذات الوتر الواحد وأصبح المغنى البدوى جبار عكار نجما رغم كبر سنه رفع شعبية اللون البدوى إلى درجة عالية وإلتف حوله غالبية محبى الفنون الأصيلة، آذكر عندما شاركنا جبار عكار فى جولة بين فرنسا وعدة مدن ألمانية عام ١٩٨٦ وكان لحضوره تأثيرا كبيرا على الجمهور الأوروبى لأنه قدم فناً منفردا، بالإضافة إلى أنه يشكل طقسا غنائياً ، خصوصا وأن هذا الغناء يقدم على آلة واحدة هى الربابة، وسرعان ما طبعت له الأسطوانات وقد منح العكار لهذا الفن تميزا داخل العراق وخارجه وبالتأكيد فإن شعر البادية يعتمد على ما يشبه الحكم ولكن باللهجة البدوية التى تحتاج فى الغالب إلى تفسير.

الموسيقى الكردية

فيما يخص الموسيقى الكردية فلها سلالمها الخاصة بها، بمعنى إن قلنا مقام البيات فهو لا يشبه البيات فى جنوب العراق أو وسطه، وتتميز الموسيقى الكردية بإيقاعاتها الحية وبالنبرة العالية الحادة والسريعة وترافق هذه الموسيقى حتى وإن كانت تتناول موضوعا حزينا دبكات يشترك بها النساء والرجال مجتمعين. وكثير من الموسيقيين فى بغداد وفى مدن أخرى يعزفون تراث العراق الكردى بجودة ومهارة إلى الحد الذى لانستطيع فيه أن نفرق بين العازف إن كان عراقيا من الشمال أو عراقيا من الجنوب ، وطبعا فإن اللغة الكردية هى لغة مختلفة بشكل كلى عن اللغة العربية.

ويعد المغنى محمد جزراوى واحدا من أهم أقطاب الأغنية الكردية التى قدمت الكثير من العازفين والمغنيين البارعين.

أما عن المقام العراقى فإنه يعد خلاصة النتاج الابداعى فى مجال الغناء لدى العراقيين عبر أكثر من ١٥ قرناً، وهو شامل لكل الأشكال الموسيقية الموجودة أو لتلك التى نشأت فى بلاد ما بين النهرين وكأنه أصبح نهرا ثالثاً، وحين نقول مقام لا نعنى هنا سلما موسيقيا ، بل هو قالب غنائي صارم على المغنى والفرقة المصاحبة له والتى تسمى (الجالغى البغدادى) أن يتبعوا طريقة أداء أصبحت قوالب لايسمح العبث أو التغيير بها، وتجد ضمن المقام العراقى أجزاء من الريفى وتسمى (الفراكيات) وأجزاء من الجمل الكردية وباقى الموسيقات العراقية، والمقام يبدأ بمقدمة موسيقية ثم التحرير فالمتن ويستخدم فيه أبيات من الشعر العربى الفصيح ويدمج مع الفصيح الزهيرى وهو شعر عراقى شعبى، وهناك الميانة الأولى والميانة الثانية وهى التسلسل إلى درجات



حادة فى السلم الموسيقى. ثم التسليم الذى هو العودة بداية المقام الأصلى بعد أن عمل المغنى والفرقة عدة انتقالات نغمية وإيقاعية ، وبعد أن يتم المغنى التسليم يبدأ بغناء البستة وهى أغنية من المقام نفسه وفيها نفس الانتقالات الداخلية تقريبا وكان هذا الشكل الغنائى حكرا على المجالس الخاصة لسنوات طويلة.

ويعد الشعر فى المقام أحد المقومات الرئيسية ، وهناك مقامات تغنى بالكامل من الشعر العربى الفصيح وهناك مقامات أخرى تغنى عبر كلمات من الشعر العراقى الشعبى.

هناك أكثر من ٥١ مقاما رئيسيا، وهناك مقامات كثيرة فرعية، وقد وصلتنا هذه المقامات بطريقة شفاهية وكانت فترة العصر العباسى هى الفترة الذهبية لتطور المقام العراقى بوجود إبراهيم الموصلى وإسحاق الموصلى وزرياب ويعتقد أنها وصلت إلينا بشكلها القديم. وهناك عدد كبير من الإيقاعات تستخدم مع المقامات.

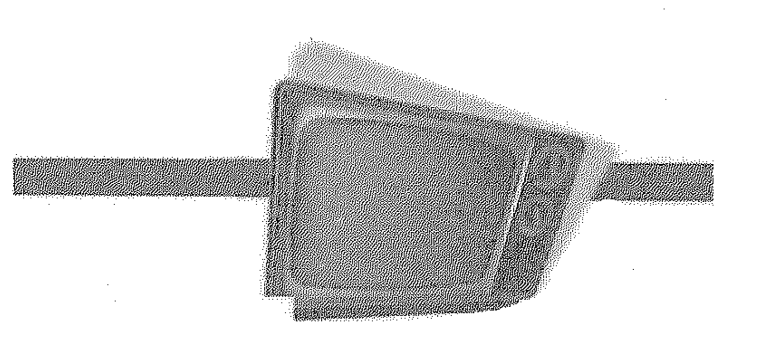
وغالبية الموضوعات التى يتناولها الشعر المغنى فى المقام هى موضوعات الحب والفراق والتفاخر والوطنية، وأشهر قراء المقام من بدايات القرن العشرين هم محمد القبنجى الذى نال الجائزة الذهبية فى مؤتمر الموسيقى العربية ١٩٣٢ فى القاهرة، ويوسف عمر وسليمة مراد وهى أول سيدة كانت تغنى المقام وناظم الغزالى ومن المعاصرين حسين الأعظمى وحامد السعدى وفؤاد الأعظمى وفريدة محمد على وآخرون.

أما الأشكال الموسيقية التى ذكرت أعلاه والتى تنتمى إلى مواقع جغرافية وإلى أقليات فهى أيضا غنية وثرية بتنوعها وبلهجاتها ولغاتها لأن الأغنية التركمانية والكلدانية والآشورية هى لغات لايعرفها إلا أبنائها، وموسيقى الكنيسة تختلف عن كل هذه الاشكال وكذلك موسيقى الذكر والتواشيح الدينية، وهناك فنون غنائية أخرى داخل بغداد شعبية منها فن المربعات وهو مجموعة من الرجال وآلات إيقاعية فقط وهو فن مسل كثيرا ويغنى فى المحلات الشعبية ولكنه قديم جدا ويرتدى فيه الرجال أزياء تقليدية ويستخدمون الأكف للتصفيق كإيقاع مع آلات النقر وأصوات الرجال ككورس وهناك دائما عدة مغنيين منفردين يتبارون.

لم أشأ التعمق فى شرح كل شكل لأن هذا يتطلب عددا كاملا من المجلة كى يتسع لغزارة المعلومات المتوفرة لدى لهذه الأشكال الغنائية، وما أردته فقط هو أن أفتح قوسا بشىء من الضوء على هذه الفنون العريقة التى يقف عليها العراق. ■







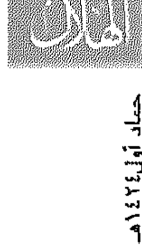
بقلم : مرفت رجب

مربط الفرس

ظهرت علينا «الست» ، وقد ألقت بنصفها العلوى على المائدة، تاركة لساعديها مهمة إحكام وزن كتلة جسدها على المقعد الذى يقوم بالكاد على حمل من فى نصف وزنها. بدا بياض الوجه والذراعين شاهقا بفعل التناقض مع لون ردائها الأحمر الشاهق أيضا.. كان اليوم الخميس الموافق الثانى عشر من يونيو ٢٠٠٣ وهو اليوم التالى لوقوع الهجمة الإسرائيلية التى استهدفت حياة المناضل الفلسطينى د. عبدالعزيز الرنتيسى، وكان الجالس إلى جوارها على مائدة الحوار هو سفير إسرائيل فى فرنسا.. أما ذات الرداء الأحمر فقد كانت الست «ليلى شاهين» ممثلة السلطة الوطنية الفلسطينية فى فرنسا.

لم تكن المرة الأولى التى أراها فيها على الشاشات الفرنسية، فهى وإن تكرر ظهورها إلا آن الصفة التى تقدم بها تتراوح بين «سفيرة» السلطة الوطنية الفلسطينية و«ممثلة السلطة الوطنية الفلسطينية»، وليس مجالنا مناقشة الصفة وإنما الوقوف بالبحث والتأمل عند الموصوف.. وكذلك لم تكن تلك هى المرة الأولى التى يظهر فيها سفير إسرائيل فى فرنسا على شاشاتها التليفزيونية، والأحداث المتلاحقة تبرر، لكن المهم أن آخر ظهور له كان فى اليوم السابق مباشرة لظهوره بجوار الست الناصحة ليلى شاهين فقد كان يوم الأربعاء الحادى عشر من يونيو ٢٠٠٣ هو اليوم الذى تحدد قبل نحو شهر لإذاعة برنامج كبير تكرر الإعلان عنه، كما تكررت الإشارة إلى أنه سيشمل الصراع العربى الإسرائيلى بالبحث عن قرب، والإعلانات عن البرنامج تحفل بمقتطفات تسجيلية تنبىء بصدق المقصد، وكذلك العنوان الذى كتبوه على خلفية بدت كأنها دماء سائلة تظهر من بينها حروف كلمتى «Reves Brises» أحلام محطمة»

جاءت ساعة إذاعة البرنامج فى مساء نفس اليوم الذى وقعت فى صباحه محاولة إغتيال الرنتيسى، وصحيح أن الرجل خرج منها سالما إلا من جراح، لكن الهجوم الآثم عليه فضح أكاذيب القيادة الإسرائيلية، ونسف خارطة الطريق، وترك قيادات العالم تخبط بين إعلان غضب كسيح، والتمسك بتصريحات عن السلام أثبتت الواقعة ما بها من ضلال.. وانعكس ذلك كله على البرنامج ومقدمه وضيوفه، لكنه بالقطع أعطى مزيداً من المصداقية لكل ما نطق به السيد، صائب عريقات وممثل الاتحاد الأوربى، والشابة الفلسطينية التى ظهرت فى البرنامج لتتحدث باسم الحكومة الفلسطينية ولتشرح بمنطق هادىء مقنع معنى تضييع فرص السلام، وفى المقابل تزعزع منطق الضيف الإسرائيلى واختلت معه حجة السفير الإسرائيلى الذى كان وجهه يزداد امتقاعا مع استمراره فى كلام خلا من أى تفسير لما أقدمت عليه حكومته لتكون المحصلة فى هذا البرنامج أن الموقف الإسرائيلى كان مخزيا وقد عجز كلام السفير الإسرائيلى عن ايجاد مخرج..



المتفرجة

لكن الست الناصحة ليلى شاهين ظهرت إلى جواره فى اليوم التالى لإذاعة البرنامج الذى شهد خزيه، ولم يكن التعليق على واقعة محاولة اغتيال الرنتيسى، وإنما كان التعليق على ردة الفعل الشعبية، فماذا قالت الست ليلى شاهين

الزكاة..

قالت السبب فى كل ذلك هو الزكاة.. هكذا نطقتها بالعربية.. وشرحتها بالفرنسية قائلة.. إنها تلك الأموال التى تجمع فى المساجد وترسل إلى حماس.. سألها محاورها الفرنسى مذعورا: تقصدين أن الفرنسيين هم الذين يدفعونها؟! فأكدت له.. ليس فى فرنسا وحدها إنما فى فرنسا وانجلترا وأمريكا وألمانيا، وكل بلاد الدنيا.. أنهم يجمعونها فى المساجد ويرسلونها إلى حماس ولابد أن يوقف جمع الزكاة فى المساجد حى يمكن لمفاوضات السلام أن تنجح!!!؟

وطبعا تمت إذاعة هذا المقتطف من كلام الست ليلى شاهين فى بقية نشرات الأخبار التالية فى ذلك اليوم.. وفشلت محاولاتى فى العثور على أى تعليق عربى على هذا التصريح.. وإن كنت واثقة أن الأيام - كعادتها - ستوافينى بالرد الشافي إلا أننى أجد من واجبى «كمتفرجة» أن أضع بين أيدى القراء الأغراء بعضا من الأسئلة التى تزاحمت على ذهنى المنصعق من هول ما نطقت به الست الناصحة ليلى شاهين.. أول الأسئلة عن الدور الذى ترسمه لنفسها وقد قبلت أو اختارت أن تتحدث باسم السلطة الوطنية الفلسطينية.. فهل مثلا ننسب حجمها لهذا الدور ولنا أن نستنتج من فرط البدانة إيحاء بأن ممثلى السلطة يعيشون خارج الوطن المحتل عيشة هانئة أقل ما توصف به هو الرغد.. وهل ، مثلا ، نسمح لأنفسنا بتفسير اختيارها لأن تطلع علينا - حال ظهورها فى برنامج إخبارى يستضيف سفير إسرائيل إلى جوارها - وقد اختارت أن يكون رداؤها بذلك اللون الأحمر الزاهى؟! كيف لنا أن نفهم العقلية التى حددت هذا الاختيار والأحداث المأساوية على أرض الوطن تفرض على الروح الأسى، حتى وإن بعد



خاطر التعاطف الراعى إلى الاحتشام..

ثم هل هى فعلا سفيرة اختارتها السلطة الوطنية الفلسطينية لتتحدث باسمها فى برامج التليفزيون الفرنسى؟ وعلى أى أساس تم اختيارها؟ وهل هى موفدة أصلا لهذا الغرض؟! أم أنها مقيمة فى فرنسا لأغراض أخرى وعليه جاء ذلك من أسباب اختيارها أو من الأسباب التى استند إليها من رشحها للقيام بهذا الدور؟!!

وإذا كانت هى السفيرة، فلماذا انتدبت الحكومة الفلسطينية تلك الشابة ذات المنطق الموزون.. والتى ظهرت فى برنامج «Reves Brises» «أحلام محطمة».

ثم هل نفسر ظهور الست ليلى شاهين إلى جوار السفير الإسرائيلى فى فرنسا محاولة من جانب «نصاحتها» بأن تقيل السفير الإسرائيلى من عثراته، وتقدم له المخرج ليظهر بصورة أفضل من تلك التى ظهر بها على الشاشة فى اليوم السابق فى برنامج «أحلام محطمة» .

التحريض..

ويبدو أن قلمى يؤجل عنى الحديث فى مربط الفرس.. الذى قد يكون «التحريض» والسؤال الملح .. كيف جرؤت الست السفيرة أن تقوم بهذا التحريض العلنى الكوكبى على المسلمين المؤدين لفرض من أركان دينهم وهو الزكاة.. هل افترضت مثلا أن مشاهدى البرنامج الذى ظهرت فيه - والمنقول إلى أنحاء الأرض عبر الفضائية الدولية الفرنسية - يعلمون عن الزكاة ما يفيدهم بأنها ركن أصيل من أركان الإسلام يفرض على المسلم فى ماله حقا معلوما ينفق من حصيلة تجميعه على إعانة فقراء المسلمين فى معاشهم، وهل خطر ببالها «المرتاح» أن تلتفت إلى صنوف الحرمان والهوان التى يعيشها المسلمون فى ظل الاحتلال، أم أن ذكاءها صور لها أن خروجها على الدنيا بهذه النصيحة كفيل بالأخذ بها وبعدها تنجح مفاوضات السلام؟! لكن ترى ما هى الوسائل التى خطرت ببالها «المرتاح» والكفيلة بمنع جمع الزكاة فى عواصم بلاد الدنيا التى يعيش على أرضها مسلمون؟!! أم أن برأسها هدفا تريد الوصول إليه بكونها صاحبة هذا التصريح؟؟!! ■

ذكريات مع مكتبة ومجلات سينما

بقلم
مصطفى درويش

بدأ العام الذى لانزال نعيش أيامه ولياليه الحالكة السواد بداية رديئة، ولا تبشر بأى خير.

فلم يكد ينتصف شهره الأول، حتى جاء الموت «ايفيت فرازلى» صاحبة «الكتاب الفرنسى» «ليفردى فرانس»، تلك المكتبة التى يرجع مولدها إلى الربع الثانى من القرن العشرين.



وبعد بضع ساعات من إعلان وفاتها، يوم الثامن عشر من يناير.

وبينما أهلها وعمال المكتبة، مع نفر من روادها، يلقون النظرة الأخيرة على نعشها، مودعين

حدث امر لم يكن فى الحسبان

انقض نفر من الشركة المالكة لعمارة ايموبيليا، بشارع قصر النيل، حيث المكتبة، منتهزا فرصة أنها مغلقة حدادا، وإلى حين الانتهاء من طقوس الوداع الأخير، انقض كخساس الطير فاستولى عليها. بإحكام اغلاقها بسلاسل من حديد.

الكتاب أم الحذاء

وعن هذا الاستيلاء البربرى، غير المسبوق، والذى جرى، وبالسخرية الأقدار، فى تاريخ مواكب لافتتاح معرض الكتاب، تحت اشراف الهيئة العامة للكتاب.

عنه كتب الاستاذ أنيس منصور فى عموده اليومى بجريدة الأهرام متنبئا بتحول المكتبة من منتدى فكرى إلى محل لبيع الأحذية ، بدلا من الكتب.





جوليا مور فى «بعيداً عن النعيم» ، ومع الزوج الشاذ دينس كويد في أحد مشاهد الفيلم

كما كتبت الأستاذة «صافى ناز كاظم» في الجريدة نفسها استغاثة إلى كل من يهمه الأمر، بأمل أن تفيد استغاثتها، قبل فوات الأوان، فى انقاذ قط من موت أكيد، شاء له عبث الأقدار، ودون ذنب جناه، أن يجد نفسه سجين المكتبة المغلقة.

ورغم ما كتب دفاعا عن المكتبة والقط السجين لم يحرك احد فى وزارة الثقافة ساكنا.

هذا، ولم يتم انقاذ القط إلا بفضل مجهود جمعية حماية حقوق الحيوان، الأمر الذى حدا بصاحبة الاستغاثة إلى أن تتساءل ساخرة فى مقال ثان.

واين جمعية حماية حقوق الكتاب؟

ولأن كل شيء في مصر ينسى، بعد حين، أصبح إغلاق مكتبة لها من العمر خمسين سنة، وازدادوا ثلاثا. ولها دور كبير فى اسعاد اجيال من المثقفين، اصبح امرا منسيا.

ولأمر ما، لعله إحدى المعجزات، لم تتحقق النبوءة القائلة بانحدار المكتبة من منتدى في خدمة الأذهان، إلى محل فى خدمة الأقدام.

يحيا العدل

ففى السابع والعشرين من فبراير، أصدر قاض مستنير حكما برد حيازة ورثة صاحبة المكتبة، على العين.

ورغم صفة الاستعجال، عاند تنفيذ الحكم النفر المعتدى ومحرضوه عناد البغال.

فاستمروا فى غلوهم متحايلين بشتى الوسائل، إلى أن قضى الأمر الذى كانوا فيه يتنازعون، دون وجه حق، بعودة الروح إلى المكتبة فى الثالث من يونيه «حزيران».

ففى ذلك اليوم السعيد، استقبلت زوارها الظامئين.

وهكذا، انتهى كابوس، مرت أيامه بطيئة، ثقيلة، اشهرا بعد اشهر، وجدتنى، خلالها، محروما من مكتبتى المفضلة، التى لم انقطع عن التردد عليها، على امتداد نصف قرن من عمر الزمان.

ولهذا ، فما أن زال سبب الحرمان، حتى وجدتنى داخلها. فى اليوم التالى لافتتاحها، متصفحا الكتب التى طال الشوق إليها والحنين.

خارجا من فردوسها ، ومعى من زاد الثقافة طقوس الارباب وحوارات مع جان بول سارتر «أغسطس سبتمبر ١٩٧٤» لصاحبته رفيقة عمر سارتر «سيمون دى بفوار».

ولأنه من مجموعة كتب «فوليو»، زهيدة الثمن، لم ادفع ثمنا له، وبعد التخفيض المريح، سوى خمسين جنيها!!

واحه حرية

أما لماذا كانت مكتبتى المفضلة ، ولاتزال، فذلك لأننى كنت فيها اجالس الأصدقاء، اتناقش معهم فى موضوعات شتى، دون خوف او وجل من رقيب، فى جو من الحرية نحسد عليه فى اكثر من مكان.

واطلع على احدث الكتب والمجلات، وكأننى فى الحى اللاتينى، او على ضفاف السين.

واشترى ما استطيع شراءه من كتب ومعاجم وقواميس عن الفنون، لاسيما فن السينما.

والحق، انه لولاها، لما كان فى وسعى أن أعرف مبكرا، بأمر وجود مجلتين كان لهما شأن كبير فى تثقيفى سينمائيا.

وهاتان المجلتان هما الآداب الفرنسية وكراسات السينما.

ضحايا العدوان

فبفضل قراءتى بانتظام للآداب الفرنسية التي استمر الشاعر «آراجون» رئيسا لتحريرها، حتى اغلاقها ، عقب غزو الجيش السوفييتى، تحت غطاء حلف وارسو، لتشيكوسلوفاكيا، عقابا للمجلة على موقفها المناهض لعدوان وأد ربيع براغ، على نحو اصبح معه أى امل فى اشتراكية ذات وجه إنسانى، كآمل ابليس فى الجنة.

بفضل ذلك، اصبحت حصينا من السقوط فى هاوية الانجذاب إلى تأييد النظم الديكتاتورية فى البلاد المتحررة من رق الاستعمار. بدعوى حماية الاستقلال وانجازاته. من كيد المعتدين.

وتعلمت من متابعة كتابات كل من «جورج سادول» و«ميشيل كابدنياك» فى نقد الأفلام، تعلمت كيف تكتب المقالات بأسلوب سهل، خال من التعقيد ومن ذلك النوع المسمى بالسهل الممتنع، لأنه يتيح للقارىء العادى، غير المتخصص ان يتذوق فن السينما، ويفهم من امره الشىء الكثير، دون جهد كبير.

نكسة ثورة ومجلة

وحتى قيام الثورة الثقافية فى الصين الشعبية، وتبنى مجلة كراسات السينما «للماوية» ، منهجا لسينما جديدة، منبتة

الصلة بالسينما القديمة، المخدرة للشعوب، خدمة للامبريالية، والفئات الطفيلية، الدائرة فى فلكها.

حتى هذا التاريخ الفاصل، كانت كراسات السينما، تجيئنى بانتظام عن طريق المكتبة.

ومما يعرف عن هذه المجلة التى لاتزال ، كعهدنا بها، تصدر كل شهر، انها لعبت دورا كبيرا فى النهوض بالسينما الفرنسية، بفضل موجة جديدة، اكتسحت بأفلامها الشابة، ما كان يطلق عليه، من باب السخرية، سينما بابا.

ولولاها لما ذاع صيت كوكبة رائعة من صانعى الاطياف، اذكر من بينهم على سبيل المثال «جاك ريفيت» «فرانسوا تريفو» ، «كلود شابرول» أو «جان لوك جودار».

ومن بين مزايا المجلة الأخرى، انه، وبعد تخلصها من المنهج الماوى، شاء نقادها للسينما الا تكون لونا من ألوان الترف الفنى، وانما اداة من أدوات الحياة.

فلم يجنحوا إلى الاعتصام ببروج عاجية، وإنما سعوا جاهدين ان يجعلوا من الكراسات منبرا للفن السابع، حتى فى بلاد لايزال فيها هذا الفن يحبو، مثل بعض الدول الافريقية وسرى لانكا وفلسطين.

العدو الأخير

وقد لا اكون بعيدا عن الصواب، اذا ما قلت ان عدد الكراسات عن شهر ابريل الماضى، خير دليل على هذا النهج السليم.

فهو عدد استثنائى ، عنوانه «اطلس السينما - عام ٢٠٠٢ بالارقام، وجهات نظر نقاد من اربعين دولة، من بينهم نقاد من مصر وفلسطين.

وأول ما لفت نظرى فى هذا الأطلس الفريد ان جميع مقالات النقاد الواردة بين دفتيه، قد روعى فى نشرها ان تكون مكتوبة باللغتين الفرنسية والانجليزية معا.

وان ايا من تلك المقالات المزدوجة لغويا، لا تحتل من صفحات الاطلس سوى صفحة واحدة، احيانا تقل بضعة سطور ، او تزيد قليلا.

وان الغرض من الاطلس معرفة حال السينما عالميا فى مجالات انتاج، وتوزيع وعرض الافلام.

وفضلا عن ذلك، فمن بين ما لفت نظرى استكتاب المشرفين على الاطلس لثلاثة نقاد امريكيين.

وباستثناء صورة من فيلم حديث صاحبه «بول توماس اندرسون»، وهو مخرج لم يعرض له اى فيلم فى بر مصر، باستثنائها، لم تنشر سوى صورتين من فيلم واحد صاحبه «ستود هينز» والفيلم اسمه «بعيدا عن النعيم».

الاستثناء لماذا؟

وهذا يعنى ان فيلما واحدا قد حظى بصورتين فى حين ان جميع الأفلام الأخرى ، فيما عدا فيلم اندرسون لم

تحظ باية صورة، رغم ورود ذكر لها بشكل أو بآخر فى إحدى المقالات الثلاث، ورغم ان بعضها من الإنتاج الضخم، مثل الرجل العنكبوت ، عصابات نيويورك وشيكاغو.

والسؤال لماذا انفرد «بعيدا عن النعيم» بصورتين، دون غيره من الأفلام وأين؟

فى مجال ضيق من اطلس لايزيد على اربع صفحات بداية هذا الفيلم شاهدته ، بفضل اسطوانة مدمجة.

الحلال والحرام

وما ان وصلت إلى خاتمته حتى أيقنت انه لن يكتب ان تصل الينا منه، ولو نسخة واحدة، فى المستقبل القريب، ربما لانصراف نية أصحابه عن توزيعه عندنا ، لعلم أولى الأمر فى هوليوود علم اليقين انه من ذلك النوع الحرام، الممتنعة مشاهدته علينا . أو ربما لجنوح أصحاب الأمر والنهى فى بلاد العم سام إلى حرماننا من مشاهدة طريقة الحياة الأمريكية، كما هى على حقيقتها . دون تزويق.

أما لماذا هذا اليأس اليائس من عرضه فى ديار مصر المحروسة، فذلك لانه فيلم دامغ للعنصرية فى الولايات المتحدة ، من خلال عرض رائع لحياة الشرائح العليا فى المجتمع الأمريكى، فى منتصف عقد الخمسينيات من القرن الماضى، عندما كانت الولايات المتحدة محكومة بالجمهوريين ، تحت رئاسة الجنرال «دوايت ايزنهاور» ، والذى كان يوصف بالضعف والغباء.

فيلم أم جحيم

ففى هذا الزمن الموغل فى القدم، كانت تلك الشرائح تعيش حياة لذيذة، ترفرف عليها السعادة والهناء، بحيث كان يبدو وكأنها تعيش فى نعيم مقيم.

فى حين أنه فى حقيقة الأمر نعيما زائفا أقرب إلى الجحيم، ينخر فيه سوس الشذوذ المغلف بالنفاق الاجتماعى والفجاجة والغباء، فضلا عن عنصرية مقيتة افسدت على ملايين السود فى الولايات المتحدة حياتهم، واضطرتهم الى الوان من الذل والهوان، اقل ما توصف به انها لا تلائم كرامة الإنسان.

وكل ذلك الشذوذ والعنصرية قد عكسهما الفيلم بصدق وعمق، وباسلوب يقطر بساطة وانسيابا، خال من بهلوانيات هذه الايام.

واغلب الظن ان كشف العلاقات الشاذة والعنصرية فى ارض الأحلام، هو الذى حال دون مجىء اية نسخة من بعيد عن النعيم، حتى الآن، وربما يحول دون عرضه فى مستقبل غير بعيد!! ■

لغويات

كلا وكلتا (٢)

اجتمع قوم على شراب فغنتهم جارية بشعر لحسان بن ثابت:

سأل شاب لما يزل يطلب العلم: لكنك ياشيخنا أوضحت ماقى الشعر، ولم تعرض القاعدة نفسها التى نحتكم إليها عند الخلاف.

ـ الحق معك يابنى، لا بأس، إليك مجملها:

كلا وكلتا مفردان لفظا، مثنيان معنى، مضافان أبدا لفظا ومعنى إلى كلمة واحدة معرفة، اسما ظاهرا أو ضميرا، تدل على اثنين حقيقة أو مجازا، الأولى كلا لتأكيد المثنى المذكر، والثانية كلتا لتأكيد المثنى المؤنث.

إذا وليهما اسم ظاهر لزما حالة الألف دائما: فى الرفع والنصب والخفض.

يقول أمير الشعراء شوقى:

ضل الأمير كما ضل الوزير بهم
كلا السرايين أظماهم ولم يصب

السرايين مثنى سراى، لم يصب: لم يمطر.

وفى القرآن الكريم: «كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا» (سورة الكهف الآية ٣٣).

أما إذا وليها ضمير فتلزم الألف فى حالة الرفع، يقول شاعر:

كلانا غنى عن أخيه حياته
ونحن إذا متنا أشد تغانيا

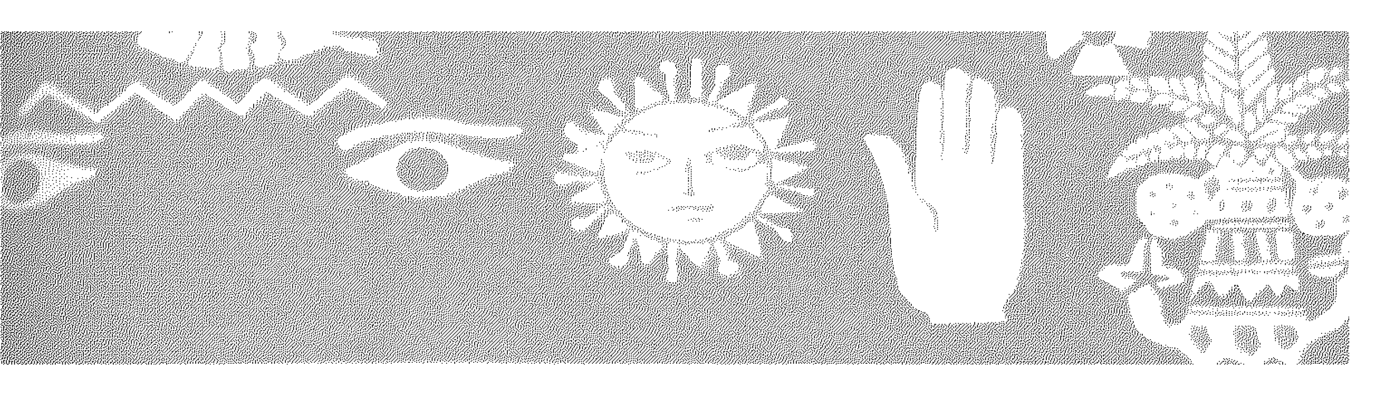
ويقول أمير الشعراء:

كم فى الحياة من الصحراء من شبه
كلتاهما فى مفاجأة الفتى شرع

أما فى موضع النصب والجر فتصبح الألف ياء، يقول شاعر:

فى عمق عينيها كليهما سحر يغنى.

ومن العرب من تستعمله بالألف مطلقا، فى كل الحالات، الرفع والنصب والجر، كما لو وليا الاسم الظاهر. ■



الثقافة الجماهيرية

فى دورة جديدة

أمانى عبد الحميد

«الثقافة الجماهيرية» مفهوم موروث من زمن قديم يضع هيئة حكومية بأكملها داخل مأزق خطير وعسير، الهيئة العامة لقصور الثقافة أطلقت أخيرا استراتيجية جديدة للعمل الثقافى، ترى أنها وسيلة للخروج من المأزق الذى استمر يخنقها أكثر من ٢٥ عاما: فلسفتها تقوم على الابتعاد عن قضايا الأدب والثقافة بشكلها الجماهيرى، وتبنى أفكار وتوجهات «الجماعة الرسمية مثل قضايا التنمية والتحديث وتنظيم الأسرة والصحة الانجابية.

فهل ستتمكن الهيئة بتطبيقها لاستراتيجيتها الجديدة الخروج من عنق الزجاجة؟ ،وهل ممارسة الهيمنة والتوجه الثقافى بما يتناسب مع الخطاب السياسى الرسمى هو الحل الأمثل؟؟

طرحت الهيئة العامة لقصور الثقافة مع حلول شهر يوليو الجارى استراتيجية جديدة للعمل الثقافى والفنى، لتكشف عن تحول فكرى ووظيفى بعد مرور أقل من عامين على رئاسة أنس الفقى لها. ويبدو أن الاتجاه الجديد يسعى إلى ربط الهيئة بالمنظومة السياسية والاجتماعية السائدة داخل المجتمع وبالثقافة والتى تتبناها الدولة فى وقتنا الراهن. فكما يرى الفقى أن على الهيئة التخلى عن الاهتمام الزائد بالأدب والأنشطة والمؤتمرات الأدبية وتتجه نحو خدمة قضايا المجتمع والدولة، بهدف الارتقاء بأنماط الحياة فى مصر».

تقوم الاستراتيجية الجديدة على ثلاثة محاور أولها: تحديث البنية التحتية

• لا أدب، لا ثقافة، لا جماهير

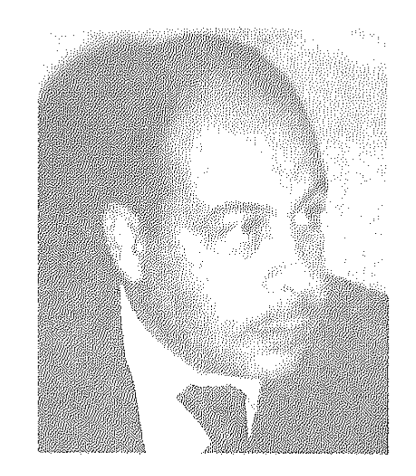
• الفقى: « يجب توجيه أعمال أدباء الأقاليم نحو خدمة قضايا الدولة»!

• ١٠٠ مليون جنيه. ١٢ ألف موظف، ٤٩٥ فرعا هل تكفى للدور الجديد؟

المنشآت والتى تحتاج إلى مايقرب من ٤٠ مليون جنيه للقضاء على الحالة السيئة التى تعانى منها القصور والبيوت التابعة لها. علما بأن الميزانية الحالية تصل إلى ٨ ملايين جنيه فى العام، والمبلغ المخصص منها على الصيانة لايزيد على مليون و٦٠٠ ألف جنيه فقط كما أكد «الفقى» .

ثانيا: تغيير النظم الإدارية وتنمية الموارد البشرية حيث تسعى الهيئة إلي وضع قواعد تحدد من الأصلح الذي سيستمر فى العمل الثقافى كما أكد «الفقى» أن الهيئة ستلجأ إلى نظام التعاقد مع مستشارين من خارجها، لتتخطى عقبات الهيكل أو السلم الإدارى، مع ضرورة إقامة صندوق مالى يسمح بمكافأتهم بشكل مجزى، إلى جانب تدريب العاملين وتنمية مهاراتهم الوظيفية.

وثالث: محاور الاستراتيجية وهو الأهم .. تعديل الفلسفة العامة، والنهج الذى تتبعه الهيئة خلال الفترة القادمة، حيث يوضح «الفقى» أن أنشطة الهيئة الثقافية جزء من المعطيات التى يتعرض لها الانسان والتى تؤثر على أنماط سلوكه وكيفية تعامله مع المجتمع، لذا تسعى من خلال فلسفتها الجديدة إلى خلق أجيال تخدم قضايا الوطن، فهو يرى أن الثقافة ليست قدرة الشعب على القراءة إنما على السلوك الحضارى والتفاعل مع القيم الجمالية للوطن.



أنس الفقـى

ولكن يظل السؤال المطروح هل ستكفى تلك المحاور الثلاثة للخروج من عنق الزجاجة الذى ظلت الهيئة حبيسة داخلها سنوات طويلة..؟

حارس ثقافي

إذا نظرنا إلى الهيئة العامة لقصور الثقافة كجهاز حكومى نجد أنها حملت فلسفة تقوم على نشر مفردات الثقافة من فن، وفكر وإبداع، وأدب إلى كل شبر فى مصر حتى النجوع النائمة فى أقاصى الصعيد، وقامت لتكون منارة للفكر ومركزا للإشعاع الثقافى.

وللحفاظ على التراث القومى والهوية المصرية واكتشاف الإبداع والمبدعين. كل ذلك من خلال المشاركة الفعلية لجمهور الأقاليم عبر مراكزها وأطرافها التي

يصل عددها إلى «٩٤٥» فرعا لذا فهى أخطر قطاعات وزارة الثقافة على اعتبار أنها الحارس على الميراث الثقافى.

ونظرا لأهميتها كانت دائما محطا للأنظار وللجدل حول الدور المنوطة به وكيفية القيام به خاصة أنها تعانى من أزمات متعددة أولها أزمة مصطلح ومفهوم تطبيقه وثانيهما أزمة أداء وإمكانية الخروج من دائرة الفكر البيروقراطى نحو صياغة جديدة للعمل الوظيفى . وغيرها من الأزمات التى تعتصرها. فهل ستتمكن الاستراتيجية الجديدة فى التغلب على تلك الأزمات..؟!.

المصطلح والمنظومة الاشتراكية

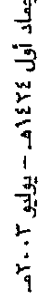
ظهر لأول مرة مصطلح الثقافة الجماهيرية فى عام ١٩٦٦ بقرار من الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة وذلك لإرساء قاعدة العمل الثقافى الذى يسعى إلى تسخير جميع الأدوات الثقافية للشعب المصرى من خلال تأصيل القيم والمبادىء الإنسانية، واستلهام التراث الفكرى والفنى ونشر الوعى الثقافى بين الجماهير وإن كانت البدايات الأولى فى عام ١٩٤٥ حيث تأسست الجامعة الشعبية والتى اقتصر نشاطها على الأهداف المدرسية والتعليمية، ثم تحولت إلى المراكز الثقافية فى عام ١٩٤٨ لتعمل على إقامة الندوات والمحاضرات فقط، وفى عام ١٩٥٨ تم ضمها إلى وزارة الثقافة والإرشاد القومى، ليبدأ الاهتمام بالمسرح والموسيقى والفنون التشكيلية. لتظهر بعدها فكرة انشاء قصور للثقافة عام ١٩٦٠.

إن أهم ما اتسمت به فترة الستينات فى القرن الماضى أن هيئة الثقافة الجماهيرية كانت ضمن منظومة سياسية وجزءا لايتجزأ من مشروع قومى كبير يسعى إلى تحديث الدولة المصرية، ومن خلال إقامة مجتمع اشتراكى يسعى إلى ترسيخ مفهوم الثقافة الجماهيرية ومراكزها المنتشرة فى أرجاء البلاد، إلى جانب إعادة بعث الثقافة والفنون الأدبية والفكرية إلى الأقاليم البعيدة عن عاصمة النخبة المثقفة .

زمن بائد

لكن خفوت المد الاشتراكى والمنظومة الشمولية فى أعقاب وفاة الرئيس جمال عبدالناصر دخلت مصر في سياسات انفتاحية مختلفة وتعرضت لتغييرات سريعة ذات اهتمامات مختلفة ليس من بينها الثقافة، لذا كان من الطبيعى أن يبدأ جهاز الثقافة الجماهيرية مرحلة هبوط سريع بعدما فقد الدافع المحرك له ، وأصبح أحد رموز عهد بائد، ففى عام ١٩٧٧ صدر قرار بتغيير اسمها إلى «المراكز الثقافية» ليوضح بصراحة الفلسفة الجديدة التى ينبغى للجهاز أن يتبناها وليكون أول قرار ينهى التوجه الجماهيرى داخلهافتوالت من بعده الانهيارات وتقلصت الأنشطة من مسرح وسينما وأدب، مما دفع عدد كبير من أعضائها إلى الهجرة خاصة مع تزايد حملات مطاردة رموز الثقافة المصرية الذين ينتمون إلى ذلك العهد وهجرتهم إلى خارج البلاد، رغم أن عددا قليلا استمر على أمل أن تحدث صحوة أو نبضة ما لكن تلك الآمال لم تكن تكفى لتعيد الحياة مرة أخري لها. ومع منتصف ونهاية فترة السبعينات تحولت إلى جهاز يعج بالموظفين الذين لاصلة لهم بالثقافة





وأحوالها بل إن كثيرين منهم وجدوا أنفسهم يحتلون مواقع ثقافية لايعلمون بحقيقة الدور المنوط بهم.

ويحكى لنا الروائى ابراهيم عبدالمجيد وهو أحد العاملين فى جهاز الثقافة الجماهيرية منذ عام ١٩٧٥ أنه قام بسؤال أمين مكتبة بأحد المراكز الثقافية بإحدى القرى عن سبب عدم قراءته للصحف اليومية فرد عليه أمين المكتبة بأن المخصص لشراء الصحف داخل المركز لايتعدى ثلاثة جنيهات فى الشهر وأنه ذو دخل محدود لايستطيع شراءها على حسابه الخاص!!

مركزية شديدة

غرق الجهاز فى مركزيته الشديدة وتقلص الاهتمام بالأطراف بل تحول التركيز المالى إلى «القاهرة» فقط .. وتلقصت باقى مخصصات الأقاليم البعيدة خاصة فى أعقاب صدور قرار بإيداع جميع العوائد المالية فى القاهرة مما حرم الأقاليم فى العوائد الخاصة بهم. علما بأن جماعات الرواد داخل المراكز كان لها أنشطة تدر عليها دخلا ماليا مثل إقامة حفلات سينمائية.

كما عانى الجهاز من حالة انفصال مابين المركز والقواعد أو الرأس والأطراف. فلم يعد التدفق يسير فى الاتجاهين كما كان فى الماضى فلم تحتج القواعد على الإهمال المتواصل ولم يهتم المركز بتوطيد العلاقة بينهما، وفتح الباب أمامها لتمارس مايحلو لها من أنشطة طالما أنها لاتحتج حتى أصبحت القواعد فريسة سهلة أمام المحليات والمحافظات التى حولتها إلى مراكز احتفالية لمناسباتها الخاصة.

وإن كانت أهم المخاطر التى تعرضت لها القواعد كانت الهجمات الشرسة من داخلها من الموظفين ذوى الرؤية الضيقة، على سبيل المثال كان خلال إحدى الفترات التي شهدت حالة بعد المحافظ الشديد كان القائمون على قصر ثقافة طنطا ينظرون إلى فن المسرح علي أنه نوع من أنواع الكفر بحب القضاء عليه، بل إن بعض المراكز اتجهت إلى إقامة جمعيات لتنظيم رحلات للحج والعمرة فى مقابل تخليها عن باقى أدوارها الثقافية كما يوضح «عبدالمجيد».

قرار جمهوري

وفى عام ١٩٨٩ صدر قرار جمهورى رقم ٦٣ بانشاء الهيئة العامة لقصور الثقافة لتتحول من مجرد مراكز ثقافية إلى هيئة حكومية مستقلة ماليا، وتابعة إداريا إلى وزارة الثقافة، ونص قرار الانشاء بضرورة «ألا تكون مهمة الهيئة الوحيدة هى تقديم الزاد الثقافى للمواطن المصرى فحسب بل من مهامها اكتشاف المواهب ورعايتها حتى تنضج ويصبح أصحابها من صانعى الثقافة ..» والسؤال الملح هنا هل قامت الهيئة منذ قرار استقلالها وحتى يومنا هذا بذلك الدور المنوطة بها؟. الإجابة تحتاج إلى بحوث طويلة خاصة أن حسين مهران أول من تولى رئاسة الهيئة بعد استقلالها اعترف أن الثقافة الجماهيرة لم تكن لها خطة مدروسة للعمل الثقافى، وأنها تعانى من تكدس المواقع بعمالة زائدة غير مدربة ولا علاقة لها بالثقافة سوى الوظيفة كما أوضح أن الهيئة تعانى من مركزية فى الإدارة حيث تتجمع كل الخيوط بالقاهرة كما جاء فى التقرير الصادر فى عام

١٩٩٠ والمعروف أن «مهران» قام بتقسيم مصر إلى خمسة أقاليم ثقافية (القاهرة الكبرى وشمال الصعيد، شرق الدلتا ، غرب ووسط الدلتا. القناة وسيناء، ووسط وجنوب الصعيد) بهدف القضاء على المركزية الشديدة لكنه في مقابل ذلك فتح الباب أمام مشاركة المحليات والمحافظات للمساعدة فى التغلب على ضعف الإمكانيات المادية على أقل تحريك الركود الثقافى القائم ولكن مع الوقت تحول الدعم إلى تدخل، وتحول النشاط الثقافى إلى الطابع الاحتفالى بما تراه المحافظات ملائما لها مما أدى إلى تزايد سيطرة المحليات على الفروع الثقافية ، وبرغم ذلك أكد «مهران» أن هيئة قصور الثقافة هى المحرك الثقافى الذي يستطيع تحريك خمسة آلاف قرية فى وقت واحد. لذا كان على كل العاملين داخلها أن يفهموا خباياها ويتعرفوا على الناس كل على حسب طاقاته وإمكاناته..

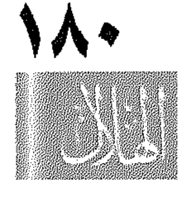
وعندما نعود وننظر للتحول الفكرى الذي تسعى إليه الهيئة من خلال استراتيجيتها الجديدة، نجد أنها فى حقيقة الأمر لاتحمل فى مضمونها أى تحول من أى نوع. فهى كسابقاتها فى الاستراتيجيات التى تم وضعها على مدى تاريخ الهيئة لترتبط بالمنظومة السياسية التى تتبناها الدولة، كما حدث خلال فترة المد الاشتراكى الشمولى الذى يؤمن بدور الدولة فى توجيه الثقافة نحو الجماهير فى أرجاء المجتمع.

وكذلك حدث مع وجود سياسات الانفتاح التى أهملت مفاهيم الثقافة برمتها ومن بعدها المد المحافظ المتزمت الذي حاول تقييد الفكر والابداع والفن، وها نحن اليوم نجدد التجربة من خلال ربط العمل الثقافى بالعمل فى خضم ماتتبناه الدولة من مفاهيم ومضامين قد لاترتبط بالثقافة بشكل حقيقى، مثال ذلك الإصرار على مشاركة هيئة قصور الثقافة فى تنفيذ استراتيجية تهدف إلى تنظيم الأسرة والصحة الانجابية، بل وتعمل من خلال فروعها على إكساب المعرفة والاتجاهات الايجابية تجاه مثل تلك القضايا الأسرية وتهدف أيضا إلى استمرارية تصوير البرامج الإعلامية للتوعية بها، فنجد الإدارة المركزية للدراسات والبحوث تصدر تقريرها عن «إنجازات الهيئة من الخطة التنفيذية للبرنامج السكانى لعام ٢٠٠٢/٢٠٠٣» وتضع على قمة استراتيجياتها تنظيم الأسرة وتطالب بتعميم ذلك داخل نوادى المرأة التابعة للهيئة لتكون أماكن لتقديم الخدمة التنظيمية والصحة الإنجابية هذا علاوة على اتسام الأنشطة بالطابع الاحتفالى مثل الاحتفال بأعياد الأم والأسرة وعيد الأضحى والحج والهجرة ....!!

واستكمالا للاستراتيجيات التابعة لاستراتيجيات الدولة نجد «الفقى» يصر على عقد صالون «الشباب» الدورى تحت شعار «قادة المستقبل» وكأن الشعب المصرى يحتاج إلى القادة فقط ولايحتاج إلى زاد ثقافى يعينه خلال الأعوام القادمة.

الابتعاد عن الأدب

يقود أنس الفقى استراتيجيته الجديدة التي يطالب فيها بالتخلى عن الأنشطة



الأدبية حيث يرى أن «الهيئة تحاول استرداد ثقة المجتمع لها بعدما حدثت فجوة بينهما نتيجة أزمتي «وليمة لأعشاب البحر» و«الروايات الثلاث» لذا تحاول الهيئة التأكيد على احترام المتلقى والاهتمام بإعادة تقديم التراث والتخلى عن الأدب، وهذا ما حدث خلال مهرجان محكى القلعة وعروضها المسرحية والفنون الشعبية، لكن للأسف لم يدرك «الفقى» أن الأدب لم يكن يوما مصدرا للتقليل من احترام أية جهة. بل إن إدارة النشر داخل الهيئة تحولت إلى قوة لايتسهان بها ولايمكن إغلاقها أو حتى تقليل امكانياتها خاصة أن إصداراتها تباع بأسعار زهيدة حتى يقدر على شرائها الشباب ومحدودو الدخل لذا فمن الأجدى التفكير في كيفية تفعيل الدور الثقافى الإقليمى للهيئة بدلا من الابتعاد عن الأنشطة الأدبية.

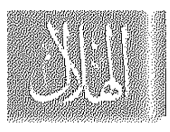
وإن كانت إدارة النشر تواجه انتقاداتها داخل أوساط المثقفين حول الدور المطلوب منها والدور الذى أصبحت تلعبه بالفعل فترى الانتقادات أن الهيئة تحولت إلى مؤسسة للنشر حتى تداخلت وظيفتها مع وظيفة الهيئة العامة للكتاب على حساب دورها فى النشر الجماهيرى، وأصبحت تصدر ١٢ سلسلة وثلاث مجلات برغم أن عليها عبء نشر كل ما يكتبه أدباء الأقاليم وتقديم المواهب الجديدة للحياة الأدبية للمرة الأولى فقط. علما بأنه خلال أول مؤتمر لأدباء مصر بالأقاليم الذى عقد فى المنيا خلال الثمانينات كان من أهم توصياته إقامة إدارة لنشر أدبهم من قصة وشعر.

وإن كان «الفقى» يري أن ثروة مصر من أدباء الأقاليم يجب أن يتم توجيهها بحيث يكون نشر أعمالها لخدمة مفاهيم الثقافة الجديدة، لكى تلعب دورا فى بناء الدولة».

ويضرب مثالا لذلك ويقول: الحزب الوطني الحاكم يدعو إلى مشاركة المثقف فى خدمة المجتمع وقضايا الدولة ..بل ويؤكد أن التغييرات على الصعيد السياسى لم يواكبها تغييرات مماثلة على المستوى الثقافى ومثال ذلك ضرورة نشر ثقافة العمل الحر والاستثمارات الصغيرة حتى يتخلص المواطن المصرى من فكرة العمل كموظف داخل القطاع العام.

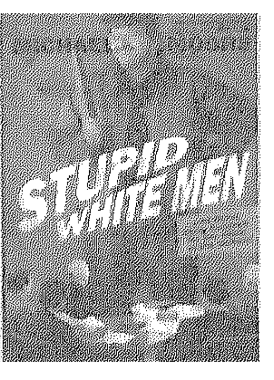
***

وفى النهاية يظل السؤال الأهم مطروحا .. لماذا لاتكفى ١٠٠ مليون جنيه كميزانية سنوية و١٣ ألف موظف ، و٤٩٥ فرعا لتفعيل دور الهيئة كمنارة ثقافية حقيقية لا قصور رفاهية خاوية تعج بالموظفين؟؟ لذا فالمطلوب أن تعترف هيئة قصور الثقافة بفلسفتها الجديدة التى تتخلى عن مفهوم الثقافة الجماهيرية بمضمونه القديم، وتعلن عن توجهها القائم على الهيمنه الثقافية .. فالخطط والاستراتيجيات الجديدة تقوم على توجيه الجماعة الثقافية نحو وجهة بعينها .. وبرغم أن ذلك أثبت فشله طوال عمرها المديد!! ولكن علينا أن نقول : إن التنوع أو ما يمكن إن نطلق عليه الموازييك الثقافى الموجود داخل مجتمعنا لن يقبل الهيمنة والتوجيه مرة أخرى بل على العكس فهو يحقق الثراء الذى نلمسه فى مختلف أقاليمنا شمالا وجنوبا وغربا وشرقا. ■









رجال بيض أغبياء

المؤلف: مايكل مور
الترجمة: د. فاطمة نصر
الناشر: إصدارات سطور

كتاب حقق أعلى نسبة مبيعات فى الولايات المتحدة الأمريكية واحتفظ بالمركز الأول فى قائمة «النيويورك تايمز» وفى كندا حتى يومنا هذا، برغم التعتيم الإعلامى المكثف الذى واجهه الكتاب من قبل رجال السلطة والإعلام الأمريكيين .

صدر من الكتاب - عمل أول «لمور» - تسع طبعات خلال الأيام الخمسة الأولى من صدوره، وكان من المقرر أن يتم توزيعه فى نطاق الولايات المتحدة وكندا فقط. لكن شعبية الكتاب الكاسحة فى ظل الأحداث المؤسفة التى قادها الرئيس الأمريكى جورج بوش، جعلت الطلب يتزايد عليه فى جميع أنحاء العالم، حتى صدرت الترجمة العربية له على يد الدكتورة فاطمة نصر .

ويبدو أن ما قدمه الكتاب من أفكار جريئة ورؤى مغايرة جعلت من العسير التغاضى عنها ، بل إن روح التهكم التى تمتلئ بها سطوره وعناوينه جاءت كأصدق تعبير عن آراء الجمهور الأمريكى، بعيدا عما تبثه وتفرضه أجهزة الإعلام المضللة فى بعض الأحيان .

يتناول الكتاب عددا من القضايا التى تؤرق عددا كبيرا من الأمريكيين . يعرضها «مور» بأسلوب بعيد عن التعقيد قريب من لغة المواطن العادى. يبدأ بعنوان مثير «انقلاب عسكرى أمريكى جدا» حيث يرى أن الانتخابات الرئاسية الأمريكية لعام ٢٠٠١ والتى فاز بها جورج دبليو بوش ماهى إلا انقلاب عسكرى قاده لص قدير . لذا يوجه استغاثة الشعب الأمريكى لكوفى عنان أمين عام الأمم المتحدة لنجدتهم فى استعمار البيض الأغبياء اللصوص .

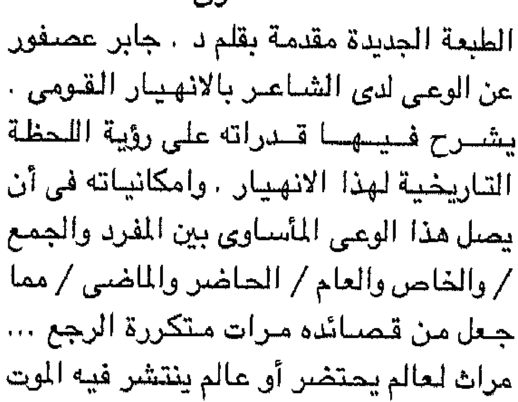
ومن أهم ما يفضحه «مور» العلاقة القائمة على التوتر والارتياب بين البيض والسود داخل المجتمع الأمريكى. ويرى أن الإعلام قام عن عمد بتدمير الصورة الذهنية لمجتمع السود الفقير فى نظير إعلاء مجتمع البيض برغم انحلاله وانحرافه . ويقر أن بلاده أصبحت الأمة رقم واحد التى يكرهها العالم من الأعماق . وإن كان أصدق ما كتبه هو رسالة يبعثها إلى الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات ، يقترح فيها تنظيم إضراب وعصيان مدنى جماعى للشعب الفلسطينى» . كفوا عن العمل لدى اسرائيل... تمددوا فى الطرقات...» حتى يكتشف العالم مدى فظاعة الآلة العسكرية الاسرائيلية أمام اعتراض الفلسطينيين السلمى .

مجموعة من الكتب عن الشاعر أمل دنقل

الناشر: المجلس الأعلى للثقافة

فى الذكرى العشرين على رحيل الشاعر أمل دنقل أقام المجلس الأعلى للثقافة احتفالية عربية بعنوان «الانجاز والقيمة» . صدر ضمن فعالياتها مجموعة من كتب :

الأعمال الشعرية الكاملة



أصدر المجلس الأعمال الشعرية الكاملة لـ«دنقل» فى طبعة منقحة بعد تصويب جميع الأخطاء التى وردت فى الطبعات الأخرى. كما ضمت الطبعة الجديدة مقدمة بقلم د . جابر عصفور عن الوعى لدى الشاعر بالانهيار القومى . يشرح فيها قدراته على رؤية اللحظة التاريخية لهذا الانهيار . وامكانياته فى أن يصل هذا الوعى المأساوى بين المفرد والجمع / والخاص والعام / الحاضر والماضى / مما جعل من قصائده مرات متكررة الرجع ... مراث لعالم يحتضر أو عالم ينتشر فيه الموت

عم صباحا أيها الصقر المجنح



إعداد وتقديم: حلمي سالم

كتاب يضم مجموعة من المراثى التى كتبها الشعراء العرب فى أمل دنقل (أثناء المرض أو بعد الموت) . بعضها جاء كمناقشة لشعره ورصد الجوانب الفكرية والفنية فيه . وبعضها ذهب إلى رصد حياته الصعبة وموته المفجع فى إشارة إلى تماثل الحياة والموت فى مسار الشاعر .

النشيد الأبدي - أمل دنقل سيرة شعرية ثقافية

المؤلف: د. حسن الغرفي

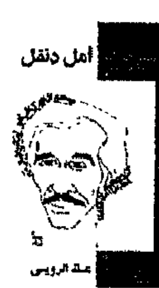
يقدم الكتاب مجموعة من الكتابات النثرية لـ«دنقل» ومعظم الحوارات التى أجريت معه فى مختلف المجلات والجرائد . وذلك طبقا للتسلسل الزمنى من حيث النشر . كما يقدم مجموعة من الآراء حول القضايا الثقافية والفكرية وشهادات شعراء وكتاب أمثال نجيب سرور ، أحمد عبدالمعطى حجازى وصلاح عبدالصبور .

بيليوجرافيا - أمل دنقل

إعداد: عبلة الرويني

تقول «عبلة» فى مقدمتها: إن العمل فى البيليوجرافيا استغرق أكثر من عشرين عاما . وهى الطبعة الثالثة بعد تحديث معلوماته . وتضم سردا لكل أعماله الشعرية





والمقالات النثرية وقصائده المنشورة فى الدوريات علاوة على التسجيلات المرئية والصوتية . بالاضافة إلى الكتب والدراسات والمقالات والرسائل الجامعية والمواقع الالكترونية . التى تحدثت أو تناول أمل دنقل وشعره بالدراسة والتحليل والنقد مما يسهل مهمة الباحثين



اللولب المزدوج

تأليف: جيمس د. واطسون
ترجمة: د. أحمد مستجير
د. محمود مستجير
الناشر: سلسلة إصدارات سطور

ممارسة العلم ليست أكثر من محاولة بشرية يقوم بها بشر ككل الناس، وهى ليست نشاطا معقما محنطا لأناس فى معاطف بيضاء ذاهلين انفصلوا عن عالمهم. هكذا كان ينظر «واطسون» للبحث العلمى وهكذا عاش حياته. أدرك ذلك مبكرا حتى أخذه اكتشافه الذكى البسيط «اللولب المزدوج» أو (حل لغز جزئ الدنا) إلى استكهولم ليتسلم جائزة نوبل فى الفسيولوجيا والطب عام ١٩٦٢ وهو لم يتعد الثلاثة والثلاثين من عمره .

الجديد فى كتابه أنه يكسر الحاجز الوهمى بين العلماء وعامة البشر. حيث كتبه بأسلوب بسيط ملئ بروح الفكاهة. قدم به طريقة اكتشافه لتركيب الـDNA أهم الحوادث العلمية فى القرن العشرين. والذى أحدث انفجارا غير مجرى علم الكيمياء الحيوية. ورغم أن الكتاب صدر فى عام ١٩٦٧ إلا إنها المرة الأولى التى يترجم ويصدر بالعربية (٢٠٠٣) ، يعود الفضل إلى إصدارات سطور التى أخذت على عاتقها ترجمة الكتب المتميزة فى مختلف المجالات (محمد - القدس - صدام الحضارات - عصر الجينات) وغيرها من الكتب التى استحقت عناء الترجمة وبالتالى القراءة .

الكتاب الذى بين أيدينا كتبه «واطسون» بعد فوزه بالنوبل بخمس سنوات. يقدم فيه دراما انسانية شيقة حول تجربته مع البحث العلمى والدنا . ويسرد تفاصيل حياته اليومية وعلاقاته المتعددة (مع أصدقائه زملائه من العلماء - أقربائه) والأماكن التى زارها من بلدان ومدن حتى دور السينما وذلك طوال فترة بحثه المتصلة عن تركيب ملح الحامض النووى .

ويذكر الدكتور أحمد مستجير فى مقدمة الكتاب «أن اكتشاف واطسون غير

من طريقــة تفكيـرنا عن أنفـسنا، وعن الكائنات الحية من حولنا. غير ثقافتنا وأصبح شـعـارا ثقافيا لعصـرنا . وفتح الباب واسعا لعصر البيولوجيا الجزيئية والبيـوتكنولوجيـا والهندسة الوراثية . ويوضح المترجم أن العلم الكبير إنما يأتى عن طريق الجدل والنقاش والاتصال بين الأفراد والمؤسسات العلمية فى المجتمع العلمى العـــريض . وهو يخلق المناخ الصحى السليم الذى يحفز ويشحذ القرائح لتبدع .



المرأة الجديدة
تأليف: إقبال بركة
الناشر: دار قباء

بعد أكثر من مئة عام يصدر كتاب يحمل نفس الكتاب الشهير لقاسم أمين «المرأة الجديدة» الذى صدر فى عام ١٩٠٠ مبشرا بمرحلة جديدة يعيشها المجتمع المصرى . أما الكتاب الجديد فترى كاتبته أنه يتحدث عن المرأة الجديدة التى اقترن اسمها بتاريخ تحقيق حرية الأمة المصرية . وتوضح أنه جاء التزاما بمبدأ «حتى لا ننسى» أى انعاش ذاكرة القارئ بمواقف وأحداث وشخصيات من التاريخ المصرى الحديث سبق سرد تاريخ كل منهم فى كتب واصدارات متعددة . مثل الخديو عباس حلمى الثانى ، الخديو اسماعيل ، مصطفى كامل ، علاوة على ورود بعض الشخصيات الأجنبية أمثال جون ستيوارت ميل / تشارلز داروين / كارل ماركس/ فريدريك إنجلز. وتبرر «إقبال» أن تأمل تلك الشخصيات والتوقف عندها يفيد فى فك طلاسم الأحداث الجارية ومواجهتها .

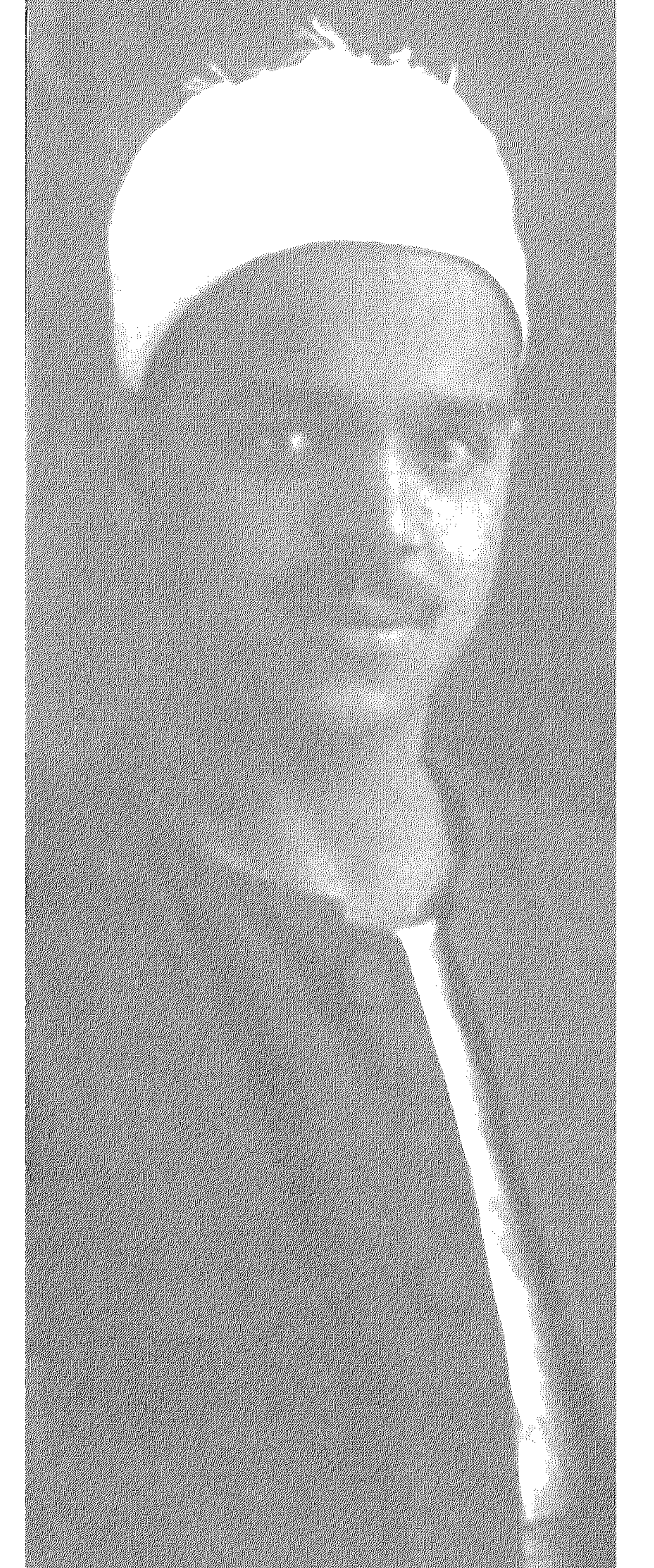
ويركز الكتاب على مسيرة المرأة المصرية والأدوار التى لعبتها خلال القرنين التاسع عشر والعشرين وتعتقد أن المؤرخين تجاوزوها أو استهانوا بمدلولاتها أو تجاهلوا عواقبها وتأثيراتها على الأجيال اللاحقة . أمثال هدى شعراوى رائدة العمل العام . كما تلقى الضوء على بعض الرائدات فى مختلف المجالات أمثال عزيزة أمير أم السينما المصرية والعربية ، شفيقة محمد أول شهيدة مصرية، وفاطمة رشدى وروزاليوسف والكسندرا أفرينو .

سمات أبجلها في شخصية

والدى أمين الخولى

بقلم
د. سمحه الخولى

دعتنى رئاسة تحرير مجلة الهلال العريقة منذ عام لكتابة مقال عما أخذته عن والدى - أمين الخولى وطرأت ظروف خارجة عن الإرادة أجلت تلبيتى لهذه الدعوة ولكنى أمعنت النظر فى فكرة المقال وتجلى لى ما يحيط به من محاذير لأن أغلب ما أخذت عن والدى كان صفات حميدة مميزة لهذه الشخصية المصرية النادرة ومعنى هذا أننى لو استسلمت لإغراء الكتابة عما أخذته عنه فقد ينتهى بى الأمر إلى مأزق حرج .. ولذلك رأيت أن أكتب هنا عن السمات التى سحرتنى فى والدى وتمنيت أن تكون لأبنائى بل ولكل أبناء مصر . ومن هنا جاء عنوان هذا المقال : «سمات أبجلها فى شخصية والدى أمين الخولى» . ولابد لى أن أعترف هنا بفضل الهلال فى اكتشافى أثناء كتابة هذا المقال ، أن فى حياتى مواقف متوازية ومشابهة لبعض مواقف حياته ولم أكن على وعى واضح بهذا ، إلا حين أخذت فى كتابة هذا المقال .. فشكرا للهلال على معاونتى للتوصل لهذا الاكتشاف المثير !



ولكى ندرك حقيقة ما أنجزه أمين الخولى فى حياته (١٨٩٥ - ١٩٦٦) ، ولأن الكثيرين من أبناء الأجيال الشابة اليوم قد لا يعرفون عنه إلا القليل ، فقد رأيت البدء بترجمة موجزة لحياته ليتابع القارىء من خلالها ، ما تحقق له من سعة الأفق والقدرة الباهرة على اندماج أفضل ما فى الحضارة العربية من قيم شب عليها ودرسها بتعمق ، وأفضل ما فى الحضارة الغربية من قيم فى العلم والفن والفلسفة ..

صبى صغير خرج من قريته شوشاى فى المنوفية وهو فى السابعة ، دفعت به أسرته للقاهرة ليتعلم فيها علوم الدين مثل والده الشيخ ابراهيم الخولى الذى حصل فى الأزهر قدرا من التعليم الدينى أعفاه من القرعة العسكرية (التجنيد) ثم عاد لقريته ليكوّن أسرته وليمارس فلاحة الأرض وفنون رياضات الريف (كالرماية وضرب النار والتحطيب .. الخ) . وفى القاهرة عاش الصبى أمين فى كنف جده لأمه الشيخ الأزهرى ، وفى رعاية خاله الأزهرى أيضا ، أى فى أسرة كل أبنائها خدمة للعلم فى الأزهر الشريف - وأرسلوه لمدرسة مدنية لصغر سنه ، وتولى جده فى نفس الوقت تحفيظه

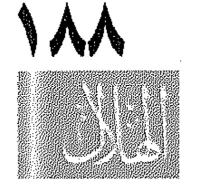
أمين الخولى فى مرحلة الشباب

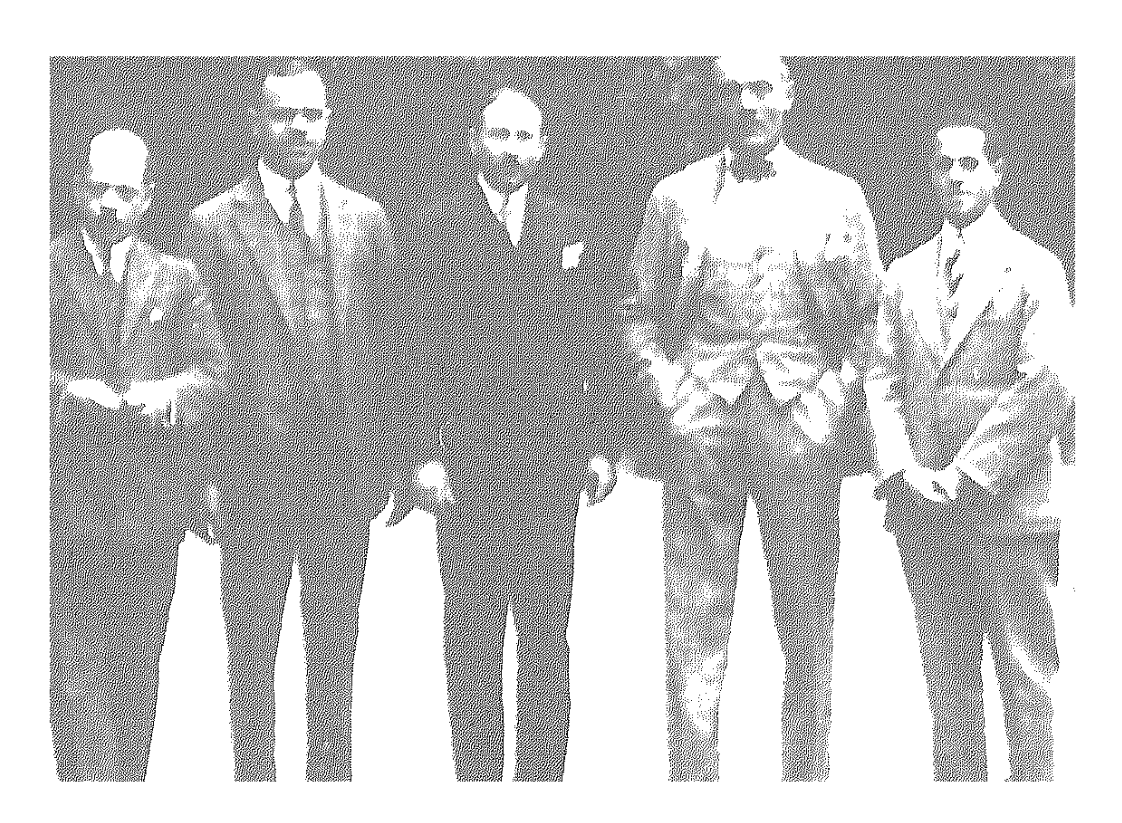
القرآن الكريم وما يتصل به من التجويد ، كما علمه مبادىء الحساب « ثم التحق بمدرسة من نوع الكتاتيب . وبدأ الصراع بينه وبين جده ، الذى أراد له أن يلتحق بالأزهر بينما كان هو متطلعا لدراسة مدنية . وإزاء اصرار جده أخذ يبحث بنفسه إلى أن وجد مدرسة «مدنية» هى مدرسة عثمان باشا ماهر التى تقبل طلابها من حفظة القرآن ومن لهم إلمام بالحساب وهى التى أهلته لما كان يتمناه من الالتحاق بمدرسة «القضاء الشرعى» وهى مدرسة عالية تخرج قضاة شرعيين تلقوا تعليما دينيا صحيحا مع تعليم دنيوى عصرى . وفى القضاء الشرعى تألقت قدراته بفضل أساتذة متميزين متعددى الثقافات ، ما بين ثقافة دينية راسخة ، وثقافة أوروبية ، وكان من أهم عناصر التأثير فى تكوين شخصيته فيها «ناظرها» عاطف بركات باشا بشخصيته الحازمة وثقافته الواسعة وسماته التربوية الأبوية الحقة ووطنيته التى غرسها فى طلابه فكان نموذجا متفردا فى جمعه بين حسم الإدارة وحنو الأبوة ..

وكان طبيعيا أن يندفع طلابه فى سنوات ثورة عام ١٩١٩ للمشاركة فيها بكل قوة .. (وأظننى تأثرت بشكل غير مباشر بشخصية ومبادىء عاطف بركات فى السنوات العشر التى توليت فيها عمادة معهد الكونسرفتوار «المعهد القومى العالى للموسيقى بأكاديمية الفنون» ، لكثرة ما سمعته عنه من والدى ، فكنت أتمثل فيه واحدا من المثل العليا التى حاولت أن أطاولها قدر الاستطاعة فى الإدارة التعليمية والفنية!) .

وكان الطالب أمين الخولى طالبا نشطا متفوقا واسع الاطلاع ، وكون مع مجموعة من زملائه جماعة أطلقوا عليها اسم «إخوان الصفا» وكانت لهم مناظراتهم ومناقشاتهم فى الأدب والسياسة واكتسبوا خبرة ومعارف واسعة عن طريق التبادل الفكرى «والمناقشات الحرة» واتجهوا لدراسة اللغات الأوروبية مدرسة فرنسية ، وكانت تربطهم أواصر المحبة والوفاق . وعندما تخرج أمين الخولى بتفوق عام ١٩٢٠ عين مدرسا بنفس المدرسة ورئيسا لتحرير مجلتها حين وقع عليه الاختيار ليشغل وظيفة «إمام المفوضية المصرية» فى روما ، التى قضى بها ثلاث سنوات تعلم فيها اللغة الإيطالية وأتقنها ثم نقل لوظيفة فى برلين حتى عام ١٩٢٣ . وخلال السنوات الخمس التى قضاها فى أوروبا تفتحت أمامه أبواب الثقافة الغربية بعلومها الطبيعية وفنونها ، فاقبل عليها بنهم ولكن دون أن يهتز اعتزازه بتراثه وأصوله .. ومن أبلغ ما قيل عنه فى هذا المجال ما كتبه تلميذه الشاعر الكبير صلاح عبد الصبور :

«كان يحترم الحضارة الغربية فى مظاهرها الثقافية والفكرية ، دون أن يستخذى أمامها فهو يرى أن من واجبنا أن نفيد منها فى تفتيح مفهوماتنا وإثراء أرواحنا حتى تضيف إلى تقاليدنا الناضرة تقاليد جديدة .. ولعله حين رحل لأوروبا استطاع بهذا الذكاء الملهم ، أن يضم إلى وجدانه أثمن ما فيها من فكر وفلسفة وفن ، ثم مزج ذلك كله بتراثنا





أمين الخولى بين مجموعة من أفراد السفارة المصرية بروما

المتد على طول الزمان» والذى لا شك فيه أن تجربة تلك المعايشة الكاملة للحضارة الغربية خلال تلك السنوات الخمس ، كانت مرحلة جديدة فى تكوينه الثقافى شكلت فكره وآراءه للمستقبل ، وزودته «بالمنهج» الجديد الذى تناول به علوم التراث فى اللغة والنحو والأدب والبلاغة والتفسير والفلسفة»

سيرته العلمية

استأنف أمين الخولى بعد عودته من برلين التدريس بمدرسة القضاء الشرعى ، وعندما أغلقت أبوابها عام ١٩٢٨ عين مدرسا بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة) ، وظل يتدرج فى وظائف هيئة التدريس بها إلى أن أصبح أستاذا لكرسى «الأدب المصرى» الذى كان من أبرز من نادوا بدراسته ودافعوا عنه ، ورئيسا لقسم اللغة العربية ووكيلا للكلية . وانتقل فى عام ١٩٥٣ مستشارا لدار الكتب ثم مديرا عاما للثقافة ، وهى الإدارة المنوطة بالفنون والثقافة فى مصر (لم تكن هناك وزارة ثقافة بعد) وظل بها حتى عام ١٩٥٥ حين بلغ سن المعاش .

ولم تقتصر جهوده التعليمية على الجامعة وحدها بل تولى التدريس لسنوات طويلة فى كليات جامعة الأزهر «كلية اللغة العربية وكلية أصول الدين» وكذلك بمعهد الدراسات العربية العليا (التابع لجامعة الدول العربية) ومعهد الدراسات الإسلامية .

واستمر بعد المعاش يتابع نشاطه كعضو فى مجمع اللغة العربية ومقررا لإحدى لجانه ، وأسهم بدراساته فى دوائر المعارف العربية والإسلامية

والباكستانية ، ومثل مصر فى عدد من المؤتمرات الدولية (بدأ أولها عام ١٩٣٦ فى بروكسل عن الأديان وقدم فيه بحثه عن «صلة الإسلام بإصلاح المسيحية» ، وفى تركيا عام ١٩٥١ وموسكو عام ١٩٦٠ وبغداد عام ١٩٦٥ وغيرها) - وأنشأ فى قريته «جماعة حياة القرية» وطبق فيها أفكاره ورؤياه لإنعاش حياة الريف اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا . وأصدر مجلته الشهيرة مجلة «الأدب» منذ عام ١٩٥٦ وعلى صفحاتها تفتحت مواهب فنية شابة ولقيت التشجيع والتوجيه ، ونوقشت قضايا وأفكار جوهرية فى حياة المجتمع ، واستمرت مجلة الأدب تصدر شهريا حتى عام ١٩٦٦ حين صدر آخر أعدادها (برئاسة تحريره) قبيل وفاته بأيام معدودة .. ولم يصدر منها بعد ذلك إلا عدد مزدوج (هو إبريل ومايو) عام ١٩٦٦ خصص بأكمله لتأبينه وفيه أفضى تلاميذه واصفياؤه بمشاعرهم عنه وتقييمهم لهذا النموذج الإنسانى والعلمى والثقافى المتفرد .

ولأننى لست متخصصة فى مجالات الأدب والنحو والبلاغة والتفسير وما إليها ، كما أننى لا أريد أن أقع فى محظور «الفتاة المعجبة بأبيها» ، فإنى أوثر أن أقدم للقارىء صورة متكاملة لشخصيته الانسانية والعلمية من كلمات بعض تلاميذه كتبوها عنه بعد رحيله عام ١٩٦٦ ونشرت فى العدد الأخير من مجلة الأدب :

شهادات معاصريه

كتب د . عبد الحميد يونس بعنوان «أمين الخولى الرائد العظيم»

«من الصعب على مثلى أن يتخلص من آثار تلك المفاجأة - المروعة .. فقد كنت أعلم كما يعلم اصفياؤه - أنه مريض ، ولكنى لم أفكر للحظة أنه يمكن أن يكون المرض الأخير .. أو البرء الأخير .. كنا جميعا نتصور أنه سيقاوم كما استطاع بقدرته الهائلة على المقاومة ، ويعود إلينا ببشاشته الدائمة وطمأنينته الغالية وفكره الناضج وقلبه الكبير» .

ويستطرد بعد هذه المشاعر الشخصية إلى صفاته العقلية كأستاذ فيقول :

«كانت طريقة المحاضرة التقليدية فى الجامعة أقل ما يأنس له فى دروسه. وذلك لأنه امتداد لفحول الأئمة الذين عملوا على تواصل المعرفة وتجديدها والإضافة إليها وكان يعتقد ويصرح بأن «الجامعة أستاذ ينهض به تلاميذه» ولذلك آثر منهج الجدل وتوليد الأفكار وآثر تدريب طلابه على فن التفكير أولا وعلى مواجهة المادة الأدبية المدروسة ثانيا .. ولا أستطيع أن أنسى أنه فى مناقشته إياى فى امتحان الدكتوراه أنه ه هد بهذه المعادلة ط = أ + ز .. وفسرها أمام الجمع الحاشد بأنها : «الطالب هو الاستاذ مضافا إليه الزمن» أى أن الطالب خطوة تالية من خطوات الحياة يجب أن تجاوز خطوة الأستاذ ، وإلا توقفت الحياة وليس من طبيعتها التوقف .. وهذه خليقة نادرة قل إن تجدها بين الناس الذين تضيق أنانيتهم .. أما استاذنا أمين الخولى فلم يكن بالنسبة لنفسه ولنا وللحياة أنا» .. بل كان نحن» !

إنه كان فنانا قبل أن يكون استاذا للبلاغة والأدب . ولن ينسى زملاؤه فى القضاء الشرعى - إلى جانب زعامته للشباب فى ثورة عام ١٩١٩ - إنه من الذين ألفوا للمسرح ومثلت إحدى

مسرحياته وهى «الراهب المتنكر» .. ومن هنا كان أمين الخولى من أقدر الناس على استشفاف مثار الابداع الفنى .. ومن أبصرهم بحوافز الإبداع ووظائفه ، ومن أكثر الناس لماحية لومضات الفكر ونبضات القلب فى كلمة أو عبارة »

وكتب عنه د. شكرى عياد بعنوان «شيخ الأمناء» عبارات نقتطف بعضها هنا لتضيف للصورة الشاملة :

«كان له إيمانان الإيمان بالحياة والإيمان بالعقل ، والأمناء سموا أنفسهم مدرسة الفن والحياة» وكانوا - على قدر علمى - أول من رفع هذا الشعار فى تاريخ أدبنا الحديث هل نعود بشباب هذا الجيل إلى أواخر الثلاثينات أيام كنا نجلس أمام شيخنا فى قاعات الدرس ، ونحن نشعر كأننا نولد من جديد ؟ .. لم يكن جيلنا فى تلك السنوات العصيبة أحوج إلى شىء منه إلى الإيمان بالحياة والإيمان بالعقل .. كنا نحن الطلاب الذين قصدنا إلى كلية الآداب وإلى قسم اللغة العربية بالذات تحدونا آمال كبار - كنا نشعر بأن هذه الآمال تبوخ فى نفوسنا شيئا فشيئا بقدر ما كانت الحياة الاجتماعية والسياسية خارج الجامعة تصدمنا بجمودها الراسخ أو حركتها المفتعلة - وبينما كان الحل السياسى والإجتماعى خيالا يشفق من تصوره أجرأ الحالمين وكانت الحياة الجامعية .. تبدو لنا غريبة بهدوئها القاتل .. وكنا نشعر أننا نستطيع على الأقل أن نمارس حرية عقلنا فى البحث ووجداننا فى الإحساس .. وقد ارتبط اسم الاستاذ أمين الخولى بأكثر من دعوة فى الدراسات الأدبية ، ارتبط اسمه بما سماه التفسير الأدبى للقرآن الكريم

وأثار المشاغبون من أعداء العقل ما أثاروا من ضجيج حول هذا المنهج حتى نشر الاستاذ أحاديثه «من هدى القرآن» وعرف الناس بعدها أن الضجة التى قامت حول الرسالة الجامعية الأولى فى التفسير الأدبى للفن القصصى للقرآن الكريم لم تكن غير نقيق مزعج (المقصود رسالة د.محمد أحمد خلف الله للدكتوراه والتى جلبت لأستاذه الخولى المشرف عليها الهجوم الضارى من المتزمتين) .

وكتب عنه عبد المنعم شميس :

فلاح خرج من قلب مصر يحمل خصب أرضها وصبر أهلها وقسوة صحرائها ، فكان المثال المتجسد لهذه البيئة التى وصفها بكلمته الشهيرة .. «إن مصر واحة فى صحراء» وكنت أراه وسأراه ما حييت ، وجها سمحا صلبا ، وعينين ذكيتين نافذتين ميز الله بهما أولئك القادة المجددين ، ويعجز عن وصفهما أى قلم مهما أوتى من البلاغة .. وابتسامة تتحول حين يضحك إلى نغم يعرفه الأقوياء المناضلون . عاش قويا لا يعزف الهزيمة ولا يحب لأحد أن ينسكر أمام عاصفة أو منهزم فى معركة ومنذ عرفت الاستاذ الإمام تعلق به فكرى ووجدانى ورأيت فيه المعلم الذى يقود تلاميذه فى خضم الحياة لا فى كتب الدرس .. وكان جيلنا يعيش فى فورة الاستعمار والطغيان ، نقود المظاهرات .. ويتزعم حركات التحرير فى وجه أعداء مصر ، والتقى هذا الجيل الناشىء فى أعقاب ثورة ١٩١٩ بالاستاذ الذى خاض غمار تلك الثورة .. وجلسنا فتيانا على مقاعد الدرس فى كلية الآداب بعقول متفتحة للعلم وقلوب ملتهبة بالوطنية ثم رأينا شيخنا (أمين الخولى) ينضم إلى

صفوفنا فى مجال التدريبات العسكرية ويدعو لمبدأ القوة الذاتية لجماهير الشعب حتى «نواجه الاستعمار بالسلاح لا بالهتاف ! هو معنا فى النضال الفكرى ، ومعنا فى النضال الوطنى» .

أما الشاعر الكبير صلاح عبد الصبور فقد استهل مقاله «وداعا .. أمين الخولى» الذى نشر فى الأهرام فكتب يقول :

«أصبحت الحياة بدونه أقل جمالا وثراء ، وأندر شجاعة وحكمة ، وفقد تلاميذه ومريدوه فيه لا الأستاذ فحسب ، بل قيمة من قيم الحياة العليا ، كانت تمدهم بالعون على رحلتهم فى سبيل الحق ، وبالصبر على طريق المعرفة ، وبالنور حين يستخفى الجمال فى ضباب الزركشة والتمويه .. كان رجلا فيه صلابة حجر هذا الوادى وتدفق نيله بالخير والنعمة والحنان ، ومعلما من طراز المعلمين القدامى الذين يعلمون بالقول ، وحين بكيناه كنا نبكى الأب والصديق والمثل الأعلى.

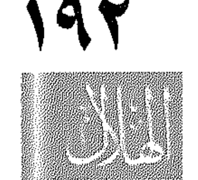
طلب منا الخولى أن يتقدم كل منا ببحث عن موضوع من موضوعات النقد ، وحين أشرف العام على نهايته سألنى عن البحث الذى سأتقدم به فاعتذرت .. فسألنى بحدة وماذا كنت تصنع طوال العام ؟ فتصايح الزملاء ضاحكين «كان يكتب شعرا .. لعل الشعر ينفعه» والتقط الخولى الصيحات وقال لى إنه سيقبل الشعر كبحث فى النقد ويعطينى عليه تقديرا لو كان شعرا جيدا . وقدمت له نوتة أودعتها خطرات ذلك العهد وقلبى يدق خوفا .. ولكن الله سلم وراقت خطرات ذلك العهد لشيخى وأحبنى منذ ذلك الوقت كشاعر.. ولعل هذا هو معنى الجامعية فيه ، أن يجعل من تلامذته أفضل ، كل منهم فيما أحب واختار» .

ولا نترك هذه الصورة بغير كلمات قلائل من قلم فاروق خورشيد بعنوان «كريم على نفسى» :

لكى نكون ، لابد أن نعرف مكانتنا وحقيقتنا ، نحن جزء من الوطن العربى ولكنه جزء لم يعرف نفسه – ولنبحث عن حقيقتنا بعيدا عما أرضى أصحاب السلطان وعميقا فيما أرضى أصحاب الأرض المعفرين جباههم بطينها والحاملين فوق رؤوسهم صخرها .. وبدأ الخولى ليقدم لنا فى الأدب المصرى بحثا عن شخصية مصر وإيمانا بضرورة معرفة النفس لنعرف الكون ، وتحقيقا لمنهج يقول «إن معرفة الجزء سبيل إلى تبيان حقيقة الكل .. وعاش أمين الخولى ليرى فى حياته دعوته تمتد وتتحقق مناهج فى دراسة الأدب الشعبى وتخلق مدارس فى البحث عن مصر وعن العالم العربى كله من خلال مصر » .

ولعل القارىء أن يلتمس لى العذر فى اقتباس هذه السطور البليغة فما أظننى كنت قادرة على تقديم مثل هذه الصورة الحية لشخصية أمين الخولى بكل هذا الصدق والتلقائية التى أفاض بها تلاميذه من أبناء «*الرأس*» على حد تعبيره .. وأود هنا أن أذكر أننى لا أدعى أنى أخذت كل هذا الشمول والثراء فى الشخصية عن والدى ولكننى ربما أكون قد ورثت شيئا من ملامح شخصية أمين الخولى : الأستاذ والانسان والوالد .

البقية العدد القادم



مسرح

عن بعض عروض هذا الموسم

وجائزة اوناسيس

بقلم
مهدى الحسينى

قد لاتتسع المساحة المتاحة هنا لتغطية كل عروض الموسم، وهذا أمر بديهى، فمقال واحد عن عرض واحد يجد مجالا بالكاد ليغطى معظم مسائله وقضاياه، فثمة غبن إجبارى لعروض أخرى بذل فيها مجهود ما وأنفقت عليها الأموال وذهب إليها بعض الجمهور، وظهرت فى ثناياها مواهب مصرية مبشرة، فدائما هناك - رغم كل شىء - بصيص من أمل

لذا اخترت لهذا المقال أربعة عروض لافتة دون الأخرى .. ثم أضفت إليها - فى النهاية - قضية مسرحية ذات دلالة.

الطعام لكل فم

نص توفيق الحكيم الذى كتبه ١٩٦٣، كان يبغى طرح خطين متوازيين متصلين ضمنا: الجوع الجسمانى والجوع العقلى، خط تطرحه أسرة من زوجة وزوج من متوسطى الحال، لاينجبان، يسكنان فى ملك لسيدة من بنات البلد، وخط افتراضى أو خيالى تطرحه أرملة لها ابن يدرس العلم الحديث فى الخارج وإبنة فنانة موسيقية تشك فى سلوك أمها وأسباب وفاة والدها المفاجئة وتظن أن مؤامرة اغتياله على يد أمها وقريب لها (كحكاية أجا ممنون وكليتمنسترا وإيجست وأنتيجون وأورست الإغريقية القديمة). هذا الخط أفرزه فى خيال الأسرة الأولى (نَشَعْ) ظهر فى الحائط يجسد رسمه صورة الأسرة الثانية، والنص الأصلى ملىء بالحوارات (المجادلات والأفكار) المطولة بأوسع مما يتطلبه هذان الخطان .. الأمر الذى عالجه المخرج المجتهد محمد متولى باختصارات غير مخلة، فتمكن من إدارة عرضه باقتدار - رغم فقر الامكانيات التى أتيحت له - بين هذين المستويين: الأمامى ثم الخلفى، فتنقل بينهما بسلاسة ويسر ووضوح تام.

وقد أجاد الممثل العصامى همّام تمام تقديم صورة الموظف محدود الطموح والأفق .. أمام الممثلة وفاء الحكيم، بينما أفلحت البادئة دينا نور فى تقديم الصورة الخارجية لبنت البلد الثرية المتبرجة، دون أن تلجأ إلى تقليد أحد ممن سبقوها من نجمات السينما والمسرح فى هذا اللون،

رغم أنها تقف على المسرح لأول مرة!! وفاجأتنا حنان كرم مطاوع بأداء واع ومرهف ، لم يكن ينقصها شيء إلا أن تتلقى تدريبا فنيا لتوسيع مساحة صوتها كي يصبح صوتها مسرحيا بحق، وهذا الأمر ينطبق على كثير من الممثلات والممثلين الذين عملوا كثيرا بالتمثيل التليفزيونى الذي يضعف طاقة الممثل المسرحية، أما وليد جمال الذى قام بدور العالم الشاب فلم تتح له مساحة الدور المبتور أصلا فى نص الحكيم أن يعبر عن الشخصية ذاتها محققا طموحه الفنى، أما الممثلة المخضرمة سلوى عثمان فلعلها توافقنى أن هذا الدور لم يكن يناسبها رغم إخلاصها وجهدها الصادق، وقد أتاح الفنان محيى فهمى مصمم السينوغرافيا للمخرج فرصا للحركة وتوزيع الممثلين على نحو سلس، إلا أن نقصا ما فى الميزانية لم يتح لمخرج العرض فرصة تقديم خلفية عبارة عن فيلم فيديو بروجكتور ليطرح قضية الجوع والعلم فى عصرنا.

❑ ❑ ❑

الجريمة والعقاب

عاد الممثل والمخرج حماده عبدالحليم بعد غيبة طويلة عن الوطن، ولكنه - كما يبدو - لم يفقد طموحه ولم تذبل مهاراته، فقد تميز بشخصية ضابط فرنسى فى مسرحية «القدس» تأليف شريف الشوباشى، ثم طرح نفسه كمخرج فقدم عرضا جديدا أعده عن رواية الأديب الروسى الفحل «فيدور دويستوفسكى» فى قاعة متناهية الصغر بثلاثة ممثلين ومساعدين: الممثلة منى حسين التى شهدت قصصة كفاحها كفنانة وتابعتها منذ كانت راقصة صغيرة فى فرقة السامر للفنون الشعبية فطالبة تدرس الديكور بكلية الفنون الجميلة ثم عضوا فى مكتب هندسى لتصميم الديكورات الداخلية، ثم عضوا بمسرح العرائس، بينما تقوم أحيانا بالتمثيل المسرحى والسينمائى والتليفزيونى، حيث تراوحت أدوارها بين الصغر والكبر وبين التألق والنجاح العادى، وهكذا تراكمت خبراتها حتى تمكنت أخيرا من دور عمرها بجوار رشدى الشامى الممثل النشيط المجتهد الذى لايترك دورا يسند إليه إلا ويمنحه لمحة جمال تجعل له مذاقا خاصا، وهكذا كان الأمر حين قام بدور القاتل «راسكلينكوف». أما ممدوح عقل فإننى لم أره يمثل من قبل كما مثّل دور المحقق .. هذا الذكى الهادىء الذى يبيّت نواياه كى يخدر المتهم .. ثم يفاجىء الجميع بقراره الصارم.

أدار المخرج الحركة والمناورة بين الاتهام والمتهم حول المركز ، أى «سونيا» المسكينة، واصطنع واقعة قتل المرابية العجوز فى كواليس خانقة، كل ذلك فى تتابع مذهل وايقاع مثير لاهث، فمر الوقت الذى استغرق أقل من ساعة، وكأنه خمس دقائق!!.. غير أن لنا ملاحظة على المنظر المسرحى الذى اتخذ شكل رقعة الشطرنج على الأرضية، مؤكدا ذلك بقطع شطرنجية مكبرة على الجانبين محاولا نقل الممثلين فى مربعات الأسود والأبيض وفقا لخطة فى رأسه تعبر عن الصراع الدرامى بين



كارولين خليل وأشرف سرحان فى مشهد من مسرحية « اللحن المفقود »

الشخصيات، وكان قدرا مايحرك هؤلاء البشر نحو مصير محتوم، الأمر الذى ألزم المخرج وكذا المصممة صفاء العنانى بتصوير مكان واحد لكل هذه الأحداث الظاهرة، بينما كان مكتب المحقق الفخم ماثلا إلى يمين المشاهد كمكتب حقيقى وواقعى، كان المضجع يمثل كمستقر للضحية «سونيا» كمكان واقعى وحقيقى إلى اليسار ، فثمة تناقض بين الرمز والاختزال بالشطرنج وبين الواقعية الصريحة والتفاصيل باللجوء لمفردات طبيعية، رغم هذا فإن المعالجة الأدبية المسرحية للنص الروائى الأصلى الضخم وإيقاع العرض وجماله، لم يتأثرا كثيرا بهذا اللبس السينوغرافى، لذا كانت معالجة ثالثة ما، بعيدا عن الرمز الشطرنجى والتجسيد الطبيعى معا كانت سوف تجلو هذا العرض الجميل جوهرا ومظهرا.

❑ ❑ ❑

اللحن المفقود

من تأليف نادية البنهاوى وإخراج عمرو قابيل، ورغم إحساسى بالغربة عن النص وعالمه فإننى ظننته قد أعد عن قصة إنجليزية أو مسرحية لا معقول فرنسية، إلا أن عالمه الانعزالى قد يوجد فى مصر بين بعض الأفراد والأوساط.

والعرض عبارة عن أربعة أشخاص يعانون العزلة أو عدم وجود إمكانية للتواصل فيما بينهم، هم منغمسون فى الـ «أنا» الخاصة بكل واحد منهم، وما يهمنا هنا هو كيف عالج المخرج الشاب عمرو قابيل ومجموعته الإخراجية : سينوغرافيا محمد عبدالمنعم ورقصات داليا العبد

وجيتار محمد درويش ولوحات تشكيلية خالد الحلبى، كيف عالجوا معا هذه المسرحية الغارقة فى الانعزالية ورنين كئوس المسكرات والأحزان والأشواق والرغبات المحبطة والأضواء الخافتة؟ يبدو أن المخرج ومعاونوه يملكون طاقات شعرية تفصح عن نفسها سواء فى الديكور الذى يتراوح بين الأبيض الناصع الشفاف البارد وبين الرمادى والأسود اللذين ينضحان حزنا ومرارة، وفى الإضاءة التى لا تتبدى إلا لكى تتحدث وتعبر بلغة من الشعر المرئى والفعل البصرى، فضلا عن وظائفها التقليدية الأخرى، كذلك الموسيقى الساحرة كأنما تخرج من جوف الشخصيات صارخة أو هامسة كى تحيط بهم وتظلل المكان بعبقها المشحون المثير الغامض.

وفى هذا المناخ الخاص للغاية ترك المخرج والمصممة الممثلين يتبادلون المواقع والأمكنة والمكانة.. سواء فى القلوب أو فى الزمن أو فى الذاكرة.

كانت الصاعدة الشابة كارولين خليل هى أبرز مجموعة الممثلين الصغيرة، هؤلاء الممثلين الذين اجتهدوا كل فى حدود دوره، إلا أننا ننتظرهم فى أدوار أكبر وأعمق حتى نستطيع الحكم عليهم أو إسداء النصح لهم.

. لقد أحسست بالغربة عن «الموضوع» المشوب بشىء من عدم الإشباع، ولكننى أدركت أن المسرح المصرى يستقبل شاعرا من شعراء المسرح ، أى مخرجا مرهفاً لا يشبه أحداً.

❑ ❑ ❑

ياطالع الشجرة

تأليف الحكيم إخراج أردش بطولة أمينة رزق وأحمد فؤاد سليم وطارق اسماعيل ومحمود عبدالغفار وعبدالله الشرقاوى وعبير مكاوى وجمال زغلول ومحمد درديرى، وقد أدهشنى أن كثيرا ممن يرودون المسارح والحياة المسرحية لم يتزاحموا على مشاهدة هذا العرض والذى ترجع أهميته إلى حضور عملاقين قلما يجود الزمان بمثليهما هما الكاتب المفكر العبقرى توفيق الحكيم والفنانة المبدعة النادرة التى يعز علىّ وصفها بدقة أبلغ الكلمات، أدهشنى أيضا ذلك الجمهور الصامت الذى لايقول لا أو نعم وكأنه يعيش فى أرض غريبة بين غرباء فى زمن غريب!! سيما وأن هذا الكاتب الرائد حين كتب تحفته تلك إنما كان يناطح ثقافة مسرحية مستجلبة أراد وكلاؤها أن يبهرونا بلون من الأدب المسرحي ظنوا أنه لايوجد له مثيل عندنا سواء فى تراثنا الثقافى أو فى ميراثنا الفولكلورى أو حياتنا اليومية، فرد الحكيم عليهم بأحجيته التى حبكها بحنكة مراوغة دون إن يفض أسرارها أو يحل ألغازها أو يشرح رموزها ومقاصدها الخفية، معتمدا على ألمعية فنانى المسرح من مخرجين وممثلين ومصممين، ولأنه لم يسعدنى الحظ كى أشهد عرضها الأول على مسرح الجيب بالحديقة الفرعونية بجزيرة الزمالك سنة ١٩٦٣، فقد سارعت لمشاهدة عرضها الثانى هذا، أى بعد مضى ٤٠ عاما!! أما ما قرأته عن عرضها الأول، فهو إما كان انبهارا ساذجا، أو كلاما طيبا يعبر عن عدم فهم، أو مقارنة نظرية أو أدبية مع المثيل الأوروبى عند بيكيت ويونسكو، وكانا كلاهما اسمين جديدين علينا نحن الجمهور العام. ثم تابعت بعد



أمينة رزق وأحمد فؤاد سليم في مشهد من «ياطالع الشجرة»



حنان كرم مطاوع ووليد جمال في مشهد من «الطعام لكل فم »

ذلك محاولات تالية لهواة ومحترفين ولكنهم لم يقدموا (تفسيرا فنيا لأسرار النص) رغم نجاح بعض محاولاتهم فى فن التمثيل أو رسم الحركة (الميزانسين) أو المنظر المسرحى (السينوغرافيا) .. الخ.

ولكننى سأشير إلى صورة العرض وإيقاعه العام وطابعه كما تخيله الحكيم فى مقدمته للنص المسرحى قبل أربعين عاما فهو يشرح انطباعه الشخصى عن الفن الحديث حينها: « أصبح التصوير مجرد بقع لونية، والنحت بقع كتلية. والموسيقى بقع صوتية ، والشعر بقع لفظية .. ونتج عن ذلك نوع من الفن يتصل مباشرة بالعين أو الأذن، دون أن يمر بالعقل».

ثم يشرح الحكيم إحساسه بشكل المسرحية فوق خشبة المسرح .. فيقول:

«بؤرة إحساسى التى تكونت فيها - أى المسرحية - هى مسرحية بحتة .. فالذى تمثلته فيها هى العلاقات التشكيلية والتركيبية فوق خشبة مسرح بين أشخاص ومواقف وأزمنة وأمكنة وأصوات يتداخل بعضها فى بعض تداخلا ماديا كما تتداخل الألوان والخطوط والأشكال فى التصوير الحديث».

ويقول أيضا: «لست أنصح بأى التجاء الى وسائل مساعدة .. كالموسيقى أو كالأضواء الحاصرة أو الكاشفة، لست أريد هنا تفسيرات خارجية».. ثم يقول: «الذى أريده هو استخراج كل مايتوقع ومالا يتوقع من نتائج فنية تشكيلية لهذه المقابلات المادية بين أحوال مختلفة

لشخص واحد فى مكانين معا دون أن يجعل ضوءا يفصل بين الأمكنة أو موسيقى تفصل بين الأزمنة».

هذه مقتطفات من مقدمة طويلة كتبها الحكيم حينذاك، وهو الذى عرف عنه. مرونته وتقدميته بقدر ما عرف عنه الميل للتأصيل، وهذه هى (صورة) عرض ياطالع الشجرة كما يراه ويتمناه، فهل استطاع المخرجون تحقيق رؤيته الخاصة تلك؟ إن من البديهى - فى الفن المسرحى بالذات - أن من حق المخرج (الخالق المفسر) أن يخالف المؤلف أو لا يلتزم بآرائه المتعلقة بمهنته .. وهى فن الإخراج، وعلى هذا الضوء سوف نحاول أن نشهد بعيوننا - لابعيون الحكيم أو سعد أردش - هذا العرض: كان المخرج شديد الأمانة مع النص المسرحى حين نقله بحذافيره، وحين اختار مجموعة الممثلين بحكمة واقتدار، وخاصة حين اختار أمينه رزق وحين عقد المسابقة بين ممثلين هما أحمد فؤاد سليم بهادر أو الزوج الذي كان مفتشا للقطار وبين عبدالله الشرقاوى فى صورة المفتش حين كان بهادر أصغر سنا، وحين أدار عملية التحقيق بجدية وثبات وحين أفاد من الطابع الخاص بالممثل محمود عبدالغفار ثم دفع بممثلة صغيرة خفيفة الظل هى عبير مكاوى فى دور الخادمة، إلا أننا لم نجسد تلك الصورة الوجدانية الحسية التى تخيلها الحكيم عن مسرحيته، وهذا حق للمخرج، ولكننا أيضا لم نجد الصورة العقلانية المضادة، إننى لم أتلق إجابة واحدة عن ألغاز النص! ماهى السحلية؟ ماهى الشجرة؟ من هى المرأة؟ من هو الزوج؟ أين اختفت المرأة؟ ولماذا؟ ما الوظيفة الدرامية للمحقق؟ ما أهمية عودة الزوج إلى الماضى؟ ماذا يعنى الماضى؟ وماذا يعنى الحاضر، وما الوظيفة الدرامية للمحقق؟ إلام يرمز القطار والمفتش والمساعد والجناينى؟ وما معنى أغنية الشجرة والبقرة؟ إن خلق (الحالة) التى شرحها الحكيم أو طلبها من المخرج تتطلب أدوات ووسائل على المخرج أن يكتشفها تجريبيا حتى إذا ما تحققت فإنها (تسيطر) على آذاننا وأبصارنا .. بل أحاسيسنا ووجداننا، ومن ناحية مقابلة يكون الوعى بمفردات النص متطلبا لأدوات ووسائل و(منهج إخراجى) مختلف تماما، إذن كيف نحل هذا اللغز؟ تلك هى المسألة.

وأظننى أكون محقا حين أرى أن عرض الطليعة الحالى قد اكتفى بـ «تقديم» النص من خلال إبداعات الممثلين كل حسب موهبته وقدراته وخبراته، أما الإعجاز الحق فقد كان فى الأداء المذهل للفنانة الكبيرة أمينة رزق، وأن تظل - حتى هذا العمر - فى مثل هذه المقدرة الابداعية، خاصة حين أدت «لأ» لأكثر من مرة متلاحقة، وفى كل مرة تفتح عالما مختلفا، وكل «عالم» له سره وغوامضه وأحجياته .. فزادت الزوج والجمهور معا حيرة على حير، وهنا نحيى اجتهاد الممثل الجاد أحمد فؤاد سليم على محاولته الناجحة فى اللحاق بأستاذة الجميع، وكذا طارق اسماعيل الذى قام بدور المحقق، ومحمود عبدالغفار الذى نجح فى الحفاظ على غموض شخصية الدرويش، أما عبدالله الشرقاوى فقد كان متراوح الأداء

بين ليلة عرض وأخرى!! وأخيرا، لنتذكر دائما حين نعرض لنص ياطالع الشجرة - أن فى اعتبارنا مايلى :

١ - أن التيمة الرئيسية والدائمة عند الحكيم هى الزمن.

٢ - أنه درس القانون وعمل بالنيابة والقضاء.

٣ - أنه فى أغلب كتاباته فنان مراوغ لايفصح عن أغراضه بسهولة.

٤ - أن الفولكلور المصرى أحد مصادره الثقافية والإبداعية.

❑ ❑ ❑

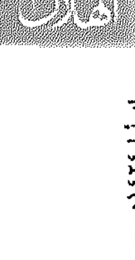
لغز جائزة أوناسيس

فى أعوام ١٩٩٧، ٢٠٠٠، ٢٠٠٥ رصدت هيئة جائزة أوناسيس فى الفنون المسرحية مبلغ ١٥٠،٠٠٠ يورو للفائز الأول، و١٠٠،٠٠٠ يورو للفائز الثانى، و٧٥،٠٠٠ يورو لفائز الثالث لكل من المسابقتين فى مجالى التأليف المسرحى والعروض المسرحية الموسيقية الراقصة، وفى كل مرة تقوم اليونان بإبلاغ الجهات المعنية فى مصر، ولكن الأخيرة لاتبلغ أحدا يذكر!!

وفى عام ٢٠٠٠ طرحت الدورة الثالثة (الأخيرة) من هذه الجائزة السخية، وقام السيد يانيس الملحق الثقافى اليونانى النشيط بإبلاغ كل مايتعلق بالمسابقة الى العلاقات الثقافية الخارجية المصرية التى قامت بدورها بإبلاغ أ.د. جابر عصفور رئيس المجلس الأعلى للثقافة الذى قام بتكليف لجنة المسرح بالمجلس ورئيسها الكاتب والمفكر المسرحى الكبير الفريد فرج بتولى هذا الأمر، ولكن لجنة المسرح لم تفعل مثلما فعل سابقوها .. فلم تبلغ أحدا، اللهم إلا وضع إعلان صغير، قد يلحظ أو لا يلحظ وقد يبقى لمدة كافية أو لايبقى - قد علق فى مداخل قطاع المسرح - بينما انهمك أعضاء اللجنة أو بعضهم فى التأليف للمسابقة ، وترجمة نصوصهم إلى واحدة من اللغات اليونانية والإنجليزية والايطالية والألمانية والفرنسية كشرط من شروط المسابقة، وكأنما انحصر التأليف المسرحى فيهم وحدهم، أو لايوجد مؤلفون آخرون خارج اللجنة، لا يوجد فى أكاديمية للفنون، ولا يوجد فى الجامعات، ولا في تجمعات المثقفين والفنانين فى القاهرة والاسكندرية، ولا فى الأقاليم، ولا فى دور النشر والصحف، ولا فى قصور الثقافة، ولا هناك كتاب متفردون يعيشون بطريقتهم مع أفكارهم وثقافتهم ومجتمعهم ووطنهم .. ويحلمون بمسرح آخر وبفن جديد.

ولم تحاول اللجنة نشر إعلان بالصحف، ولم يحاول أعضاؤها أن يكتبوا فى الصحف والمجلات التى تزدحم بأسمائهم وأخبارهم وصورهم ومقالاتهم كل يوم كما لم يشر أحدهم إلى المسابقة عبر برامج التليفزيون والإذاعة التى تفيض برامجها بأحاديثهم، وأيضا لم يقولوا لأصدقائهم المقربين أو الـ (بعدا) .. فقد كفوا على الخبر ماجورا من فخار مصمت بغير مسام.

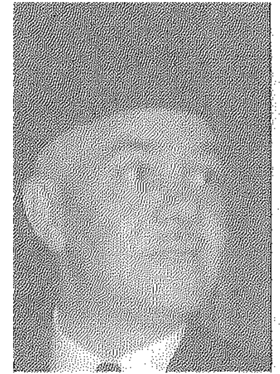
ولكن هؤلاء الذين حجبوا خير الجائزة عن المثقفين والكتاب والفنانين وعشاق المسرح فى مصر، هل يستطيعون حجبها عن المنافسين فى كل بقاع العالم؟ أم أن الأمر سوف يضيرهم لو فاز مصرى مجهول بهذه الجائزة .. بينما لم يفوزوا وهم العمالقة؟ أرجو أن يقدموا تفسيرا شافيا يبرئهم من هذه الفعلة غير الحكيمة. أتمنى من كل قلبى وعقلى. ■



«على الإستعمار أن يحمل عصاه على كاهله ويرحل»
جمال عبد الناصر

أين نحن الآن من ثورة يوليو؟

بقلم
عبد الرحمن شاكر



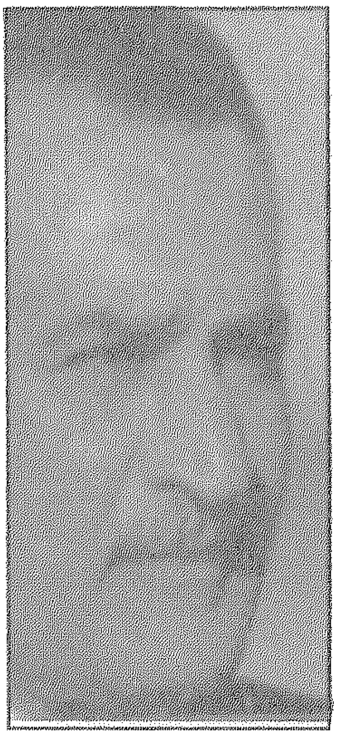


مصطفى النحاس النقراشى ابراهيم عبد الهادى

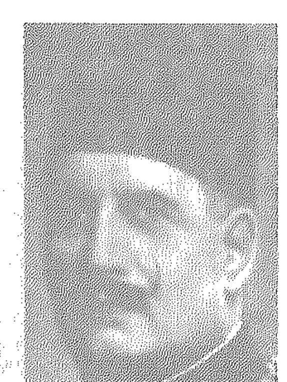
لايسعنا، نحن أبناء الجيل، الذى عاصر ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢، ومقدماتها ونتائجها، إلا أن نعقد بعض المقارنات، ونحن فى ذكرى الثورة، بين ملابساتها السياسية، والأوضاع التى يمر بها وطننا العربى حالياً، حيث سقطت واحدة من أهم البلدان العربية وأعرقها، وهى العراق الشقيق، تحت براثن احتلال جديد، من جانب أقوى دولة فى العالم، بل وفى التاريخ، وتابعتها بريطانيا، التى كانت عظمى!، وبعض نفايات الدول، مثل استراليا وبولندا ...الخ ومفهوم بالطبع أننى أقصد الولايات المتحدة الأمريكية، التى قادت تحالفها المذكور لاحتلال العراق.



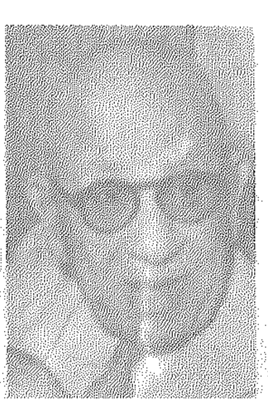
جموع الشعب فى الإسكندرية بعد تنازل الملك فاروق عن العرش ورحيله عن مصر فى ٢٦ يوليو ١٩٥٢



جمال عبد الناصر



الملك فؤاد



اسماعيل صدقى



أبو مازن

الثورة التى قام بها الضباط الأحرار فى الجيش المصرى عام ١٩٥٢، كانت تتويجاً لنضال الشعب المصرى للتخلص من الاحتلال البريطانى لمصر، والذى ظل جاثماً على صدرها لمدة سبعين عاماً حتى وقت قيام الثورة، لذلك كان هدفها الأول هو القضاء على الاستعمار وأعوان الاستعمار.

تطبيق سياسة جديدة

بعد ثورة ١٩١٩ المصرية ، ضد الاحتلال البريطانى، شرع المستعمرون فى تطبيق سياسة جديدة فى مصر ، تكفل لهم الاستمرار فى احتلالهم لها، دون التعرض للمواجهة العنيفة مباشرة

مع الشعب الثائر ضدهم، وذلك عن طريق محاولة احتواء بعض القيادات الوطنية، وتسخيرها فى قمع الثائرين من جماهير الشعب، فى مقابل مظاهر شكلية للاستقلال، وقيام سلطة وطنية. فكان تصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ بانهاء الحماية البريطانية على مصر، وإعتبارها دولة مستقلة ذات سيادة ، وتسمية السلطان فؤاد بالملك فؤاد الأول، والسماح بوضع دستور للبلاد بصفتها دولة ملكية وراثية فى أسرة محمد على، وبعد ذلك إجراء الانتخابات، التى كان من الطبيعى أن يحصل الأغلبية فيها على الأغلبية حزب الوفد المصرى، وأن يعهد إلى زعيمه سعد زغلول برئاسة الوزراة. ولقد قمعت هذه الوزارة بعض التيارات الثورية التى كانت تعتبر متطرفة، مثل حركة الحزب الشيوعى فى الاسكندرية، ولكن هذه الحكومة لم تصمد، بعد أن أقدم بعض الشبان الوطنيين على اغتيال السيرلى ستاك المعتمد البريطانى فى مصر وسردار الجيش المصرى وأجبر الجيش المصرى على الانسحاب من السودان، واستقالت حكومة سعد ، وعهد بالحكم إلى شخصيات سياسية مناوئة للوفد وأقل شعبية منه بكثير.

وظلت الحياة السياسية سائحة فى مصر على هذا المنوال حتى قيام الثورة: يستدعى حزب الوفد أو يسمح بتولى الحكم عن طريق الانتخابات، حينما تدلهم الأمور، أو يراد تمرير معاهدة من نوع معاهدة ١٩٣٦، بعد ثورة ١٩٣٥ الطلابية، التى قتل فيها الشهيد عبد الحكم الجراحى، والتى أذكت الروح الثورية عند جمال عبدالناصر. ثم يقضى على الوفد وتعود أحزاب الاقلية إلى الحكم ، بما فيها أحزاب شكلها وفديون سابقون منشقون عليه مثل الحزب السعدى، بحيث لم يحكم الوفد، وهو صاحب الاغلبية الدائمة إلا سنوات معدودة من الحياة السياسية بمصر قبل الثورة.

قمع الحركة الطلابية

بعد انقضاء الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٤٥، اندلعت من جديد نيران الحركة الوطنية ضد الاحتلال البريطانى، الذى كانت مساخره إبان الحرب واحدة من أهم دوافع الثورة عليه من جديد، وتولت حكومة النقراشى عرض القضية المصرية على مجلس الامن مطالبة بجلاء القوات البريطانية عن أرض مصر، وفى ذات الوقت تولت هذه الحكومة ذاتها، قمع الحركة الطلابية ضد قوات الاحتلال البريطانى! حيث وقعت حادثة كوبرى عباس، الذى فتحته السلطات الحكومية أثناء عبور مظاهرة طلابية عليه، ووقع ضحيتها عشرات الطلبة مابين قتيل وجريح.

وتوالت الأزمات الوزارية مع تصاعد سخط الشعب على الاحتلال البريطانى، فسقطت حكومة النقراشى، وجاء إسماعيل صدقى، الذى حاول أن يمرر معاهدة جديدة مع سلطات الاحتلال، باسم مشروع صدقى - بيفن ، وبيفن هذا



كان رئيساً لحزب العمال البريطانى وللحكومة البريطانية فى ذلك الوقت، ولكن الشعب المصرى رفض المشروع، فسقط صدقى وعاد النقراشى إلى الحكم مرة أخرى، ولكنه قتل، وجاء بعده إبراهيم عبد الهادى، ولم تنجح أى من حكومات الأقلية هذه فى تهدئة الجماهير الثائرة، رغم نجاحها فى إقناع قوات الاحتلال بالانسحاب من المدن الكبرى، القاهرة والأسكندرية أساساً، والاكتفاء بقواعدها عند قناة السويس، التى هى المصلحة الكبرى لبريطانيا فى احتلالها لمصر!

الغاء معاهدة ١٩٣٦

وكان لا مفر من الاستنجاد بالوفد مرة أخرى، فعاد إلى الحكم فى بداية الخمسينيات، ولم يتردد زعيمه مصطفى النحاس فى الإقدام على خطوة درامية إزاء الاحتلال تلخصها عبارة النحاس المشهورة: «من أجل مصر وقعت معاهدة ١٩٣٦، ومن أجل مصر أعلن إلغاء هذه المعاهدة»!

وازدادت الحركة الوطنية اشتعالاً واصرارا على جلاء القوات البريطانية عن كافة الأراضى المصرية، وزاد جو الحرية الذى أشاعته الحكومة الوفدية من حدة النشاط الوطنى بما فى ذلك إنشاء أحزاب جديدة وإصدار صحف ثورية، حتى وصل إلى حد تنظيم حركة «الفدائيين» للعمل ضد قوات الاحتلال البريطانى فى منطقة القناة، واشترك بعض ضباط الجيش الأحرار فى تنظيم تلك الحركة وتدريبها وتسليمها، بموافقة ضمنية أو حتى مجرد غض الطرف من جانب الحكومة الوفدية ! حتى شعرت السلطات البريطانية بالخطر وقامت بالمذبحة الشهيرة فى ٢٥ يناير عام ١٩٥٢ ضد محافظة الإسماعيلية التى أمر فيها وزير الداخلية الوفدى فؤاد سراج الدين ضباطه فى المحافظة بالصمود حتى آخر رجل وآخر طلقة من بنادقهم العتيقة فى مواجهة مدفعية ودبابات الجيش البريطانى! واندلع السخط الشعبى فى شوارع القاهرة فى اليوم التالى، وتحول إلى ثورة عارمة على الاحتلال والملك المتواطىء معه، ويتهم هذا التواطؤ بأنه المسئول عن تحويل ثورة القاهرة في اليوم المذكور إلى حريق القاهرة المشهور، وترتب على ذلك إعلان الأحكام العرفية وإقالة حكومة الوفد وعودة حكومات الأقلية من جديد، التى كان أول أعمالها هو الزج بالعناصر الوطنية فى السجون.

ولكن حكومات الأقلية عجزت عن الاستمرار فى الحكم، وتبدلت أربع وزارات متعاقبة على مدى ستة أشهر، حتى حزب الضباط الأحرار ضربتهم فى يوليو من العام ذاته وأسقطوا النظام برمته وشرعوا فى حكم البلاد، ونصب أعينهم هدفهم الأول هو طرد قوات الاحتلال البريطانى، وتحت غطاء سياسة ملاينة إزاء الاحتلال من نوع السماح لعمال «الأرنص» بالعودة إلى العمل فى معسكرات الاحتلال، والسماح بمرور قوافل المواد الغذائية والتموينية إليها، مارست حكومة الثورة سياسة تحويل حياة البريطانيين وعائلاتهم فى مصر إلى



جحيم! عن طريق عمليات فدائية غاية فى الدهاء تولى أمرها ضباط متطوعون، اتفق معهم على أن حكومة الثورة لن تعترف بمسئوليتها عن نشاطهم ضد قوات الاحتلال لو سقط أحدهم فى أيديهم! ونجحت هذه السياسة ذات الوجهين فى إجبار البريطانيين على توقيع معاهدة الجلاء الكامل عن أرض مصر عام ١٩٥٤.

الاحتلال الأمريكى

والآن جاء الدور للمقارنة المقارنة المشار إليها فى أول المقال: فالاحتلال الذى أقدمت عليه الولايات المتحدة الأمريكية للعراق ، بدعوى ثبت بطلانها وهى امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل يهددها به كما يهدد جيرانه! قد انكشف أن للولايات المتحدة غايات أخرى منه فى مقدمتها الاستيلاء على النفط العراقى لاستكمال سيطرتها العالمية، وذلك من خلال الضغوط على الاتحاد الأوربى الذى أصبح منافساً اقتصادياً وسياسياً للولايات المتحدة والذى يعتمد كلية تقريباً على النفط العربى. وذلك مايفسر رفض القوى الرئيسية فى أوربا شن الحرب على العراق!

غرض آخر أعلنته الولايات المتحدة الأمريكية صراحة، وهو الاعتماد على وجودها المسلح فى العراق لما تسميه إعادة ترتيب الأوضاع فى الشرق الأوسط بما يلائم مصالحها، وفى مقدمتها ضمان أمن إسرائيل!

إن معنى ذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية تريد أن تحكم الوطن العربى كله باحتلال العراق، ومعه كل أو بعض أجزاء العالم الاسلامى! تماماً كما كانت بريطانيا تحكم مصر عن طريق قواتها فى منطقة القناة.

ومن أجل استدامة هذا الحكم قدمت تسمية خارطة الطريق لحل القضية الفلسطينية على أساس إقامة دولة فلسطينية على قطعة من أرض فلسطين إلى جوار دولة إسرائيل، التى تصر على أن تجعلها يهودية خالصة، حتى لايفكر الفلسطينيون المطرودون منها فى العود إليها!

تحاول الولايات المتحدة بتلك الخطة أن تسكن ثائرة بعض العرب عليها، بما تجبر الدولة الصهيونية على إفرازه لهم على قطعة من أرض بلادهم المستباحة المنهوبة منذ أكثر من نصف قرن! ومفهوم أنها القوة الكبرى المساندة للكيان الصهيونى والمسئولة عن إعاشته اقتصاديا وتسليحه عسكرياً ودعمه سياسياً.

تقدم الولايات المتحدة هذه الخطة وهدفها الأول منها هو إنهاء الانتفاضة الفلسطينية المسلحة ضد الاحتلال الصهيونى للأرض التى وافق الفلسطينيون طبقاً لقرارات مجلس الأمن على أن تكون هى أرضهم، وهى الضفة الغربية وغزة اللتين جرى احتلالهما فى عام ١٩٦٧، ولكن الطمع الصهيونى يحاول الاستلاء عليهما عن طريق التوسع فى إقامة المستوطنات اليهودية عليها.



والهدف الأمريكى من محاولة إنهاء الانتفاضة ليس هو الانزعاج الصهيونى وما يكبده للصهاينة من خسائر بشرية واقتصادية فحسب، فالخسائر على الجانب الفلسطينى أكبر وأفدح بكثير، ولكن استمرار المقاومة المسلحة الفلسطينية حال الاحتلال الأمريكى للعراق ، يعتبر تحريضاً مباشراً للعراقيين لكى يقاوموا الاحتلال الجاثم على بلادهم كما يفعل الفلسطينيون على أرض فلسطين! ومن المحتمل أن يقوم التعاون بين المقاومة فى كل من القطرين عبر بلدان عربية لايتردد الكثير من سكانها العرب الغاضبين من صنع التواصل مابين جناحى المقاومة وتقديم ما يسعهم تقديمه من عون لهما!

لذلك لجأت الولايات المتحدة الأمريكية إلى دعم حكومة محمود عباس «أبو مازن» عسى أن يقوم إزاء المقاومة الفلسطينية، بدعوى مكافحة الإرهاب، وبأعمال مثل ما كانت تقوم به حكومات الأقلية فى مصر إزاء العناصر الوطنية المناوئة للاحتلال! محولة الرئيس الشرعى للفلسطينيين ياسر عرفات إلى زعيم للمعارضة ضد تلك الحكومة، على نحو ما كان عليه النحاس باشا فى مصر فى ظل حكومات الأقلية!

وقد سبق للأمريكان بعد أوسلو أن جربوا عرفات فى قمع المقاومة فلم يفلح، وخاصة بعد أن رفض مشروع كلينتون للتسوية الذى كان يعطى نصيباً من «جبل الهيكل» ويعنون به ساحة المسجد الأقصى للصهاينة ، لكى يقيموا عليه الهيكل، فأقدم شارون على الاستفزاز بزيارته المسلحة المشئومة لساحة المسجد فى سبتمبر عام ٢٠٠٠، مما ترتب عليه اندلاع الانتفاضة الحالية .

ولكن منظمات المقاومة الفلسطينية تزداد عناداً وإصراراً على عدم تسليم أسلحتها لأبى مازن حتى يتم انسحاب الصهاينة من الأرض الفلسطينية المحتلة بعد عام ١٩٦٧ ، وينسى الأمريكان أن احتلالهم للعراق إذا كان من شأنه إرهاب بعض الحكومات أو السلطات الحاكمة فليس من شأنه إرهاب من وطنوا أنفسهم على التضحية بالحياة من أجل تحرير أوطانهم، بل على العكس، فهم قد أصبحوا يشعرون بالانتكاس، فليسوا هم المنبوذين الوحيدين فى الأرض العربية ، وهم فى انتظار شبوب المقاومة الواقية التى بدأت بالفعل بشائرها مع تلكؤ الأمريكان فى إعمار العراق، بعد أن دمروه كلية وأصبح شعبه يعيش بلا ماء ولا كهرباء ولا غذاء ولا علاج ولا وقود للطبخ أو تشغيل السيارات .. وأخيراً وليس آخرا بلا أمن أو حكومة وطنية!

وفضلا عن هؤلاء فى فلسطين والعراق، فلسان حال كافة المنبوذين فى المنطقة يقول : وأين نصيبنا فى خارطة الطريق ؟ ويقولها المحتلة أرضهم فى سوريا ولبنان، واللاجئون الفلسطينيون فى كل منها، بل فى الأردن أيضاً!

ومن يعيش ير، مصداق ماقاله يوماً جمال عبدالناصر: أن على الإستعمار أن يحمل عصاه على كاهله ويرحل! ■

ظــــلال أمــريكيــــة

على ثــورة يوليــو

بقلم
عبدالقادرياسين

تنفست مصر الصعداء بمجرد نجاح «حركة الجيش» في الاطاحة بالملك فاروق الأول علي أن هذا الارتياح سرعان ما أخذ في الانحسار، حين لم يشعر الشعب بتغيير ملموس، حتى أن رسام الكاريكاتير المصري الشهير عبدالسميع عبدالله رسم لوحة كاريكاتيرية في «روز اليوسف» القاهرية، وفيها يطلب ابن الشعب المصري إلي أحد البقالين أن يفك له «فاروق بصاغات» ودلالات هذه اللوحة في غير حاجة إلي توضيح، إذ تؤكد بأن التغيير كان في الأشخاص وحسب. فالملك فاروق حل محله بضعة ضباط معظمهم يحمل رتبة صاغ (رائد)!

بدأ التململ الشعبى يتحول إلى سخط عارم، مع ظهور مؤشرات قوية على ارتباط حركة الجيش بالأمريكان، ولم تستطع المبادئ الستة للحركة أن ترضى الطموح الشعبى المصرى، إذ بقيت مجرد حبر على ورق، بدءا من الاستقلال الوطنى، إلى محاربة الاستعمار وأعوانه، والقضاء على سيطرة الاقطاع، والاحتكار، ورأس المال على الحكم، عبر بناء جيش وطني قوى، وعدالة اجتماعية، وحياة ديمقراطية سليمة كما أن الشعار الثلاثى الذى استحدثته حركة الجيش، والمتمثل فى الاتحاد والنظام والعمل لا يسمن ولا يغنى من جوع، والشئ نفسه يمكن قوله على قرار إحلال البيرية محل الطربوش، غطاء للرأس!

ظلال أمريكية

تجمعت مؤشرات وقرائن عدة على ارتباط حركة الجيش بالأمريكيين، فهذه الحركة جاءت فى شكل انقلاب عسكرى، فى الوقت الذى اعتمدت فيه الولايات المتحدة صيغة الانقلابات العسكرية فى أقطار العالم الثالث، وسيلة رئيسية لوراثة الامبرياليتين المتداعيتين، بريطانيا

وفرنسا، فى مستعمراتهما، ومناطق نفوذهما.

الأمر الذى تعزز مع انكشاف أمر إبلاغ «الضباط الأحرار» السفارة الأمريكية فى القاهرة، دون سواها من السفارات، بساعة تحرك الجيش من ثكناته ضد النظام الملكى وجاء هذا الابلاغ، كما هو معروف، عبر مسئول مخابرات الطيران المصرى، آنذاك، قائد الجناح على صبرى.

فيما أعلن مسئول المخابرات المركزية الأمريكية فى مصر، وقتها، كيرميت روزفلت، بأنه فتش عن الضباط الأحرار، قبل حركة الجيش، فلم يجدهم، وإن كانوا هم الذين وجدوه!

بعد أن نجحت حركة الجيش أعلن روزفلت نفسه بأن ضباط هذه الحركة نزلوا إلينا من السماء، ذلك أن الولايات المتحدة كانت قد فقدت الأمل، تماما، فى تقويم السلوك الأخلاقى المشين للملك فاروق.

فى السياق نفسه من يمكنه أن ينسى السفير الأمريكى فى القاهرة، آنذاك جيفرسون كافرى وهو يرافق الملك فاروق من قصر رأس التين فى الاسكندرية إلى اللنش الذى نقل الملك إلى حيث يرسو يخت «المحروسة»، الذى نقل فاروق إلى أوروبا، خاصة وأن فاروق كان استنجد هاتفيا، بكافرى فى وجه تهديد حركة الجيش له، إذا لم يتنازل عن العرش، فما كان من السفير الأمريكى إلا أن نصح جلالته بالاذعان للتهديد، وتوقيع وثيقة التنازل عن العرش، فضلا عن أن الولايات المتحدة نصحت بريطانيا بعدم تحريك قواتها فى قناة السويس ضد حركة الجيش.

ما كان لهذه المؤشرات والقرائن إلا أن تتجلى فى غير موضع، فمجلس قيادة الثورة عين القائمقام (العقيد) عبدالمنعم أمين عضوا فى المجلس، ليلة التحرك (١٩٥٢/٧/٢٣)، وقد عرف عن أمين صلاته الودية بالسفارة الأمريكية، ناهيك عن الحضور الملموس لأصدقاء الولايات المتحدة الأمريكية فى محيط حركة الجيش، خاصة مصطفى وعلى أمين.

إلى ذلك أذعن مجلس قيادة الثورة فورا، لطلب السفارة الأمريكية بالعدول عن تكليف القانونى المصرى الشهير، عبدالرزاق السنهورى بتشكيل الوزارة التى ستخلف وزارة على ماهر باشا، الذى استقال فى ١٩٥٢/٩/٧ وقد تذرعت السفارة الأمريكية فى هذا الصدد بمجرد أقدام السنهورى على توقيع نداء ستوكهلم للسلام، الذى وقفت أحزاب شيوعية وراء إصداره! على الرغم من انتماء السنهورى المعروف للحزب السعدى المعادى للشيوعية.

ثم ما كان من المواقف غير الودية لحركة الجيش من الشيوعيين المصريين، ومن الحركة النقابية المصرية وأذكر أن حركة الجيش عمدت إلى الافراج عن كل الذين اعتقلهم النظام الملكى، فى الأشهر الستة التى سبقت حركة الجيش، حين أعلنت حكومة الوفد الأحكام العرفية، غداة حريق القاهرة الشهير (١٩٥٢/١/٢٦)، فأقصاها الملك فاروق، بعد أن ورطها بإعلان الأحكام العرفية، التى استخدمتها أجهزة الأمن المصرية ضد مختلف القوى الوطنية المصرية (مصر الفتاة - الوطنى الجديد -

الشيوعيين). واللافت أن قرار الافراج استثنى ثمانية من الشيوعيين؟ من قادة حدتو وكوادرها، فيما كانت حدتو أسهمت فى حركة الجيش، والتحضير لها، وقد امتلكت نحو ثلث مجموع الضباط الأحرار، الذين تحركوا، يوم ٢٣ يوليو/ تموز ١٩٥٢. والأنكى أن عبدالناصر صرح بأن حركة الجيش أفرجت عن كل من اعتقل (١٦/١٠/١٩٥٢)، بعد حريق القاهرة، عدا ثمانية عملاء لبلد أجنبى ما دعا رأس أولئك الثمانية، يوسف حلمى، للرد على عبدالناصر ببرقية غاضبة، قائلا له: «نعم! نحن عملاء لبلد أجنبى عنك، هو مصر»! وكان عبدالناصر قد كتب مقدمة كتاب معاد للشيوعية، ألفه كل من أمين شاكر، وسعيد العريان، وعلى أدهم، حمل عنوان «حقيقة الشيوعية»، وصدر فى ثلاث طبعات متتالية، بين سنتى ١٩٥٣ و١٩٥٥، عن دار المعارف القاهرية، ضمن سلسلة «اخترنا لك» ثم توسعت حركة الجيش فى اعتقال الشيوعيين، اعتبارا من ١٦/١/١٩٥٣، وبضمنهم المسئول التنفيذى للضباط الشيوعيين فى «الضباط الأحرار»، آنذاك، الصاغ (الرائد) أحمد حمروش، كما نحى مجلس قيادة الثورة عن عضويته وعن وزارة الأوقاف، بضربة واحدة، ذلك الضابط الشيوعى الذى أنقذ حركة الجيش بمبادرة، على مسئوليته، حين حرك قواته قبل ساعة الصفر بساعة كاملة، بمجرد علمه بتسرب أمر حركة الجيش إلى قيادة الجيش، والتى سارعت إلى الالتئام فى قصر القبة، لمواجهة حركة الجيش، وهو القائمقام (العقيد) يوسف صديق فضلا عن العداء الذى أظهرته حركة الجيش للطبقة العاملة المصرية، وحركتها النقابية، وتجلى هذا العداء فى الأحكام الجائرة التى صدرت فى حق زعماء الإضراب فى مصانع النسيج بكفر الدوار، والتى قضت بإعدام كل من مصطفى خميس، ومحمد حسن البقرى، المتهمين بتنظيم الاضراب، فيما لم يمس المالك المشتبه فى تحريضه للعمال (١٢ و١٣/٨/١٩٥٢).

محاولة للتفسير

لقد حافظت علاقة حركة الجيش بالأمريكان على درجة عالية من الحرارة، على مدى نحو ثلاثة أعوام متصلة، وحين أخذت هذه العلاقة فى الفتور، ظن البعض بأن تكتيك حركة الجيش المبكر كان استغلال التناقضات بين الأمريكيين والبريطانيين فى تحقيق جلاء قوات الأخيرة عن مصر، وما أن تحقق لحركة الجيش هذا المكسب حتى أدارت للولايات المتحدة ظهر المجن.

على أن الأمر لم يكن على هذا النحو، كما لم تكن حركة الجيش صنيعة أمريكية، وكل ما فى الأمر أن المتنفذين فى مجلس قيادة الثورة كانوا لا يعرفون حقيقة الامبريالية الأمريكية، حتى أن عبدالناصر لم يمنع نفسه من التطلع إلى تحديث مصر، على غرار ما فعل كمال أتاتورك، وبمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية لكن اسرائيل كانت لعبدالناصر بالمرصاد، فحاولت ضرب علاقة «حركة الجيش» بالأمريكان والانجليز، عبر التفجيرات التى نظمها فرع المخابرات الاسرائيلية فى

مراكز أمريكية وبريطانية، فى القاهرة والاسكندرية (يوليو/ تموز ١٩٥٤)، للايحاء بأن «حركة الجيش» هى التى نظمت تلك الانفجارات، ما يحبط محادثات الجلاء مع الانجليز، ويدفع الأمريكان إلى النفور من حركة الجيش لكن المصادفة وحدها، أفضت إلى اعتقال أحد عملاء اسرائيل، فانكشف أمر المؤامرة الإسرائيلية، التى خطط لها أعوان الرمز الصهيونى المعروف ديفيد بن جوريون فى وزارة الدفاع الاسرائيلية، وإن حرفوا أدلة الاتهام فاتجهت إلى وزير الدفاع نفسه، آنذاك، اسحق لافون، ما جعل المؤامرة المكشوفة تحمل اسم «فضيحة لافون» وإن كان الوزير المظلوم برئ، لاحقا.

حين فشل بن جوريون، وهو خارج الحكم عاد إليه، فى أواسط فبراير، شباط ١٩٥٥، خلفا لموشيه شاريت. وبعد أيام شنت الوحدة العسكرية الاسرائيلية (١٠١) بقيادة أرييل شارون، هجوما مسلحا (١٩٥٥/٢/٢٨) على بعض المواقع فى غزة وضواحيها، سقط ضحيته زهاء أربعين مصريا وفلسطينيا وسودانيا، فاندلعت انتفاضة شعبية فى قطاع غزة، من أقصاه إلى أقصاه، طالبت بتحصين القطاع، وتسليح شعبه، واسقاط مشروع سيناء»، الذى كانت الحكومة المصرية قد اتفقت على تنفيذه (١٩٥٣)، لتوطين اللاجئين إلى مصر وقطاع غزة فى منطقة بشمال غربى سيناء، فى سياق مشاريع توطين أخرى، هدفت الولايات المتحدة من ورائها إلى طى القضية الفلسطينية.

لم يف عبدالناصر بالوعد الذى قطعه على نفسه، بتحقيق كل مطالب المنتفضين فحسب، بل أضاف إليها تشكيل وحدات فدائية فلسطينية، حملت اسم الكتيبة ١٤١، وأوكل أمر قيادتها إلى البكباشى (المقدم) مصطفى حافظ، وهى الوحدات الى ألحقت بإسرائيل خسائر بشرية فادحة، خلال بضعة أسابيع (١٣٨٧ قتيلا)، كما استدار عبدالناصر إلى الاتحاد السوفييتى طالبا السلاح بعد أن حجبه عنه الأمريكان (سبتمبر/ أيلول ١٩٥٥)، وما كان من طلب الادارة الأمريكية إلى عبدالناصر الغاء صفقة الأسلحة هذه، ورده بالرفض، مما دفع الادارة الأمريكية إلى سحب عرضها تمويل مشروع السد العالى، وفى أذيال تلك الادارة سار مدير البنك الدولى، آنذاك، يوجين بلاك، ما اضطر عبدالناصر إلى تأميم قناة السويس، ليبنى بدخلها السد العالى، الذى حلم به الزعيم الراحل، فى سبيل تنمية مصر وتقدمها. ثم ما كان من ردود الفعل الغربية ضد قرار التأميم هذا، التى توجت بالعدوان الثلاثى (١٩٥٦/١٠/٢٩) على مصر وقطاع غزة، وهو العدوان الذى باركته الادارة الأمريكية، ثم عادت ورفضته، فى محاولة لوراثة الاستعماريين البريطانى والفرنسى فى المنطقة، ومنع السوفييت من استثمار هذا العدوان لتعزيز الحضور السوفييتى. ولهذا قصة تروى. ■

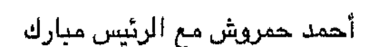
كتبت قصة ثورة يوليو في ثمانية مجلدات

أحمد حمروش

عندما طلب منى الهلال الكتابة عن تكوينى.. عادت بى الذكريات إلى هذه الدار الصحفية العريقة، ونحن نجلس فى إحدى غرفها خلال الأيام الأولى من شهر سبتمبر ١٩٥٢ نعمل على إصدار أول مجلة لثورة ٢٣ يوليو بعد أن حصلت على موافقة جمال عبدالناصر ووافق الأستاذ إميل زيدان على طبع المجلة فى داره الصحفية العريقة.

كنا مجموعة من الشباب.. الفنان حسن فؤاد وعبد المنعم الصاوى وعبدالرحمن الشرقاوى وصلاح حافظ.. وقد اخترنا للمجلة اسم (التحرير) تعبيرا عن رغبة مشتركة فى تحرير مصر من الاستعمار، وكنا في سباق مع الزمن لسرعة إصدار المجلة التى أخذنا الموافقة على صدورها يوم أول سبتمبر ١٩٥٢ وصدرت بعد ١٦ يوما فقط.




أحمد حمروش مع الرئيس مبارك

كانت هذه هى أول مرة أتحمل فيها مسئولية إصدار مجلة صحفية.. ولكنها لم تكن المرة الأولى التى أعمل فيها بالصحافة.. فقد أتاح لى الأستاذ محمد زكى عبدالقادر عام ١٩٤٦ الكتابة فى مجلته الشهرية (الفصول).. وكنت وقتها ضابطا فى الجيش المصرى.

كانت هواية الكتابة قد نشأت معى منذ درست فى كتاب قريتى (الخوالد) بمحافظة البحيرة أثناء الأجازات الصيفية التى اعتادت والدتى أن تقضيها مع أخوالى فى القرية.. فقد كان والدى قد توفى ولم أشاهده حيا أبدا.. ولم أقل فى حياتى كلمة (بابا) مثل بقية الأطفال.. لم أسرع الخطى لأرتمى فى أحضان الأب.. عيناى لم تكتحل برؤيته.

كان قد مات وعمرى عامان وبضعة شهور.. وكل ما عرفته عنه صورة كانت تزين المنزل، ويبدو فيها شخصا جليلا فى عمامته، له ذقن سوداء ليست مرسلة.. وكثيرا ما وقفت أمام هذه الصورة التى كان يضمها إطار مذهب عريض.. أتأمل الأب الغائب وأكاد أتحدث إليه.

وفى أحد الأيام لاحظ ذلك زوج شقيقتى وابن عمى أيضا والذي كان ولى أمرى وبمثابة والدى، فأقبل على وأخذنى بيديه محاولا تغيير انتباهى.

هل تعرف صور المشايخ الذين يجاورون صورة والدك على الحائط؟

وقلت له:

– نعم أعرف واحدا منهم هو الشيخ محمد عبده.

والآخر.

– لا أعرف.

وقال لى: (إنه الشيخ حسن العطار، إمام فاضل من أئمة المسلمين، كان شيخا

للأزهر وكان أول من تولى الإشراف على «الوقائع المصرية» أول مجلة أصدرها محمد على.. وكان أستاذا للشيخ رفاعة الطهطاوى وهو الذى رشحه فى بعثة إلى فرنسا، ولما عاد أشرف على الوقائع بعد أن أصبح الشيخ حسن العطار شيخا للأزهر.

وواصل حديثه الذى كنت أستمع إليه فى تشوق وانبهار.

أسرة دينية

كان والدك وفيا لأساتذته.. ولذا أطلق اسم (محمد عبده) على أخيك الكبير.. واسمك (أحمد أبوخطوة) كان أستاذا له فى الأزهر ومفتيا للديار المصرية.. كما أطلق اسم الشيخ (محمود سعيد) أحد أساتذته أيضا على أخيك الصغير.

وهكذا نشأت فى أسرة دينية، وتحمست لآراء وأفكار الذين أحبهم والدى وأطلق أسماءهم على أبنائه أو زين جدران المنزل بصورهم.

وفرضت السياسة نفسها على حياتى عندما كنت فى الرابعة عشرة تلميذا فى مدرسة التوفيقية الثانوية فقد فوجئت عام ١٩٣٥ أن مدرسا يمنعنى من الدخول إلى المدرسة، وهو يلفت نظرى إلى كشف وضع على الباب الخارجى وكان فيه اسمى ضمن ٣٤ اسما من التلاميذ تقرر رفتهم نهائيا من المدرسة.. وكنت الوحيد من السنة الثانية والباقين فى معظمهم من تلاميذ السنة الرابعة والخامسة.

ولما سألت عن السبب اقترب منى البواب النوبى وهو يربت على كتفى فى أبوة حانية، ويقول (علشان المظاهرات)!

كنت قد خرجت مع تلاميذ المدرسة فى مظاهرة كانت تهتف (يسقط هور ابن التور) .. وهور هذا هو صمويل هور وزير الخارجية البريطانى الذى أدلى بتصريح قال فيه : إن دستور ١٩٢٣ يجب أن يعود.

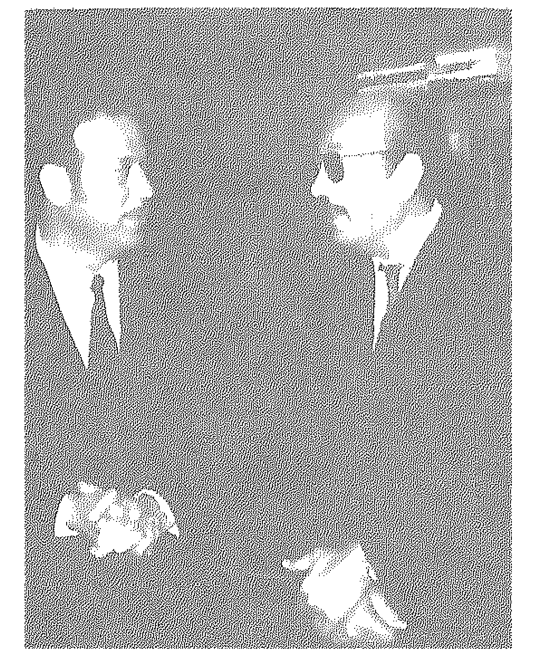
خرجت فى المظاهرة سعيدا بالانطلاق بعيدا عن الفصل دون إدراك لشىء سوى أننا نهتف ضد الإنجليز المحتلين .. ولم أكن أعرف وقتها شيئا عن الدستور والفرق بين دستور ١٩٢٣ والدستور الذى أصدره إسماعيل صدقى باشا عندما تولى رئاسة الوزارة عام ١٩٣٠.

صدمت من قرار الرفت النهائى .. ولم أعرف كيف أنقل الخبر إلى أمى أو إلى زوج أختى وولى أمرى.. وشرعت أجوب الشوارع حتى تعبت فجلست على أحد المقاهى حتى حان موعد انتهاء الدراسة وعدت إلى البيت وكأن شيئا لم يكن.

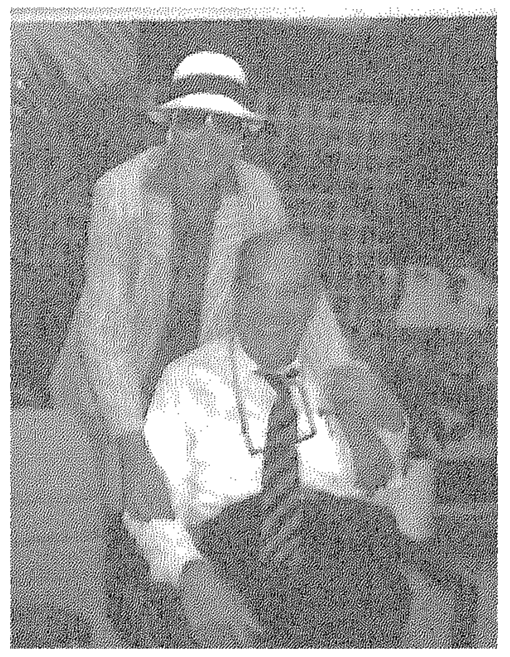
زارنى يومها بعض الزملاء، وأبلغونى أن الدراسة لم تكن هادئة وأن التلاميذ خرجوا من الفصول ولكنهم لم يقتحموا البوابة للخروج إلى الشارع.

لم أخبر أمى.. لم أجرؤ على مفاتحتها فى هذا الموضوع.. بقيت فى الأيام التالية أخرج فى موعد المدرسة وأعود بعد انتهاء الدراسة، إلى أن فوجئت بزوج أختى يسألنى على انفراد (أين كنت وأين أمضيت اليوم؟).





حمروش مع مصطفى بهجت بدوى



.. ومع زوجته

وأجبت فى لعثمة : (كنت فى المدرسة)

الاهتمام بالسياسة

ولكنه قال فى حسم لم أعهده منه فقد كان شديد العطف والحنو (لا تكذب وقل الحقيقة).

ولم أجد مفرا من الاعتراف قائلا (أصلى اترفت من المدرسة).

وكانت المفاجأة فى قوله: (ولماذا تخفى الأمر وأنت لن ترفت لخطأ أو انحراف فى سلوكك الشخصى، وإنما لسبب سياسى).

سبب سياسى.. كان وقع الكلمة عندى غريبا.. فلم أكن أهتم بالسياسة حتى ذلك الوقت إلا على قدر ما يهتم بها الزملاء الآخرين من التلاميذ.. وهم يعلقون على ما تنشره الصحف.

وبقيت مرفوتا ٣٦ يوماً لا أذهب إلى المدرسة.. ولا أشاهدها إلا من بعيد.. وقاسينا الوحدة والحرمان من الأصدقاء إلى أن صدر قرار بعودة جميع التلاميذ إلى الدراسة بعد أن صدر قرار بعودة دستور ١٩٢٣ فى عهد توفيق نسيم باشا.

وبدأت الأسرة تراقب نشاطى.. ويحذرنى زوج أختى من لعنة السياسة.. ولذا فكروا وقرروا ادخالى الكلية الحربية بعد أن كان ١٧ تلميذا من المدرسة التوفيقية الثانوية قد دخلوا إليها بشهادة الثقافة فى العام السابق.

وفى الكلية الحربية لحقت بنا السياسة أيضا عندما دعانا البكباشى محمد كامل الرحمانى مع عدد من الطلبة لتدارس الموقف إذا حاول البريطانيون إغراق الدلتا لمنع تقدم قوات المحور أثناء الحرب العالمية الثانية بعد أن كانت قواتهم قد وصلت إلى العالمين.

تخرجت فى الكلية الحربية عام ١٩٤٢

ضابطا فى المدفعية بالأنوار الكاشفة وكنت فى هذه السن المبكرة أتطلع إلى تكوين أسرة أؤدى فيها دور الأب فى الوقت الذى غاب فيه عن الأب.. والتقيت مع شقيقة أحد زملائى الضباط وجمع بيننا عاطفة الحب.. وتزوجت وأنا لم أكمل بعد ٢٣ عاما من العمر.. ومازالت الحياة متصلة حتى كتابة هذه السطور.

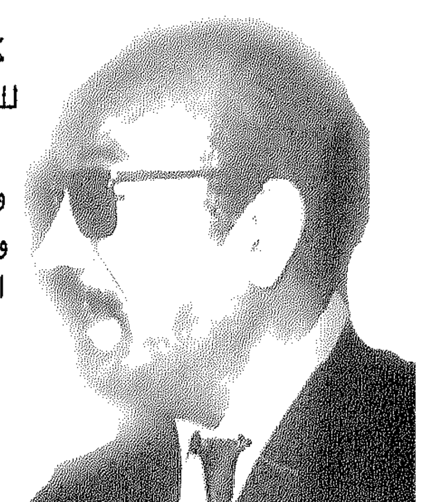
وشاءت الظروف أن أشهد نهاية الحرب العالمية الثانية فى معسكر لمدرسة الدفاع الجوى البريطانية فى حيفا قريبا من قرية (الطيرة) .. عندما أذيع خبر إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما وتوقع نهاية الحرب بين لحظة وأخرى.

السعادة التى غمرت المعسكر البريطانى فى هذه الليلة حجبت التفكير فى ضحايا المدينة اليابانية البائسة.. ولكنها كانت تعبيرا عن ابتهاج عام باقتراب اليوم الذى يعود فيه الجنود إلى أسرهم بعد عودة السلام.

وخلال الأسابيع التى قضيتها فى معسكر الجيش البريطانى، ألحت علينا مشكلة جديدة لم نكن قد اقتربنا منها كثيرا فى مصر فى غمار الاهتمام بالقضية الوطنية ومقاومة الاحتلال البريطانى.

حرب فلسطين

كانت هناك مستعمرات لليهود.. وكانت لهم متاجر فى حيفا والقدس وتل أبيب.. وكانت علاقاتهم فى ذلك الوقت مع العرب بدأت تشكل واقعا يستحق الاهتمام.



ومازلت أذكر حديثا بين ضابط البعثة ومجندة من مجندات الجيش البريطانى فى القطار الذى أقلنا من القدس إلى يافا إذ قالت: إننى عربية رغم أننى يهودية وأخشى آن يوقع الاستعمار البريطانى بين العرب واليهود.

وبعد سنوات كانت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ بعد أن رفض العرب قرار التقسيم الذى أصدرته الامم المتحدة عام ١٩٤٧ فى وقت كانت فيه معظم الدول العربية تحت نير الاحتلال.

ما كادت تنتهى الحرب العالمية الثانية حتى تصاعدت بشكل مثير مطالب الطوائف المختلفة التى عانت طويلا من القهر الاجتماعى.

وارتبطت الحركة الوطنية المعادية للاستعمار والاحتلال بالحركة الاجتماعية التى لم تعرفها مصر من قبل.

ولم تقف حياتى فى الجيش التى كنت قد اندمجت فيها اندماجا تاما.. لم تقف.. حائلا بينى وبين متابعة القضايا العامة.

وعندما قرأت خبرا فى الصحف أن عضوا فى مجلس الشيوخ قد قدم مشروعا لتحديد الملكية الزراعية، وجدت نفسى منجذبا إليه راغبا فى معرفة تفاصيله.. فقد كان يثير اهتمامى ما أسمعه فى الخوالد عن تفاتيش الأسرة المالكة فى إيتاى البارود وعن الأملاك التى تمتد لتصل بين محطات القطار.. وأسمع عن مظاهر الثراء الشاسع، وأقارن بين حال بعض أصدقائى من أبناء القرية لا يملكون ثمن الحذاء ويجبرون على

أحمد حمروش فى لقاء مع الرئيس اليمنى على عبد الله صالح

السير حفاة الأقدام، يضطرون إلى الرحيل بعيدا عن أهلهم فى لوارى عمال التراحيل.

لم أتردد فى كتابة خطاب إلى (حضرة صاحب العزة محمد بك خطاب عضو مجلس الشيوخ) الذى قدم مشروع القانون أطلب منه تفسيرا.. وكنت وقتها قد تخرجت فى الكلية الحربية والتحقت بسلاح المدفعية.

قانون تحديد الملكية

وفوجئت بخطاب أزرق يحمل اسم (مجلس الشيوخ) وعندما فتحته وجدته من محمد بك خطاب يدعونى إلى مقابلته عصر أحد الأيام من شهر مايو عام ١٩٤٥ فى منزله رقم ٢ شارع الطلمبات بجاردن سيتى، الحى الذى ضم السفارة البريطانية التى كانت تصل حديقتها إلى شاطىء النيل، ويسكنه أبناء الطبقة التى اعتدنا واعتادت الصحف وقتها أن تسميها الراقية أو «الهايلايف».

وبدأ محمد بك خطاب حديثه موضحا أهمية قانون تحديد الملكية الزراعية، بعد أن تفاوتت الثروات، وأصبح الفارق واضحا بين قلة قليلة من الأثرياء يملكون المئات والألوف من الأفدنة وأغلبية ساحقة لا تملك شيئا من الأرض، ولا تجد فرصا دائمة للعمل.

انبهرت بحديث محمد بك خطاب الذى لم يكن مشروعه يتعرض لمصادرة أو تأميم أية أراضٍ زراعية، وإنما كان يحرم على من يملك خمسين فدانا شراء مزيد من الأرض، ويترك الأمر للقدر والوراثة حتى يصل الحد الأعلى إلى خمسين فدانا فقط.

وبعد جلسة امتدت ما يزيد على الساعة.. لم يعرف فيها صاحب المنزل أننى كنت ضابطا فى الجيش، فقد ترددت فى إعلان ذلك بعد أن أخذنى الحديث الشيق والجو الرشيق والوعد على لقاء جديد فى (دار الأبحاث العلمية) حيث كان محددا

لمحمد بك خطاب إلقاء محاضرة هناك بعد يومين.

وقدم لى محمد بك خطاب كتابا باللغة الإنجليزية بعنوان (بعثة إلى موسكو) كتبه سفير الولايات المتحدة السابق فى الاتحاد السوفييتى (افريل هاريمان).

ومنذ ذلك التاريخ وبعد حضور محاضرة محمد بك خطاب التى ضمت عددا من كبار المثقفين اليساريين ارتبطت بالتنظيمات اليسارية إلى أن أصبحت عضوا فى اللجنة المركزية للحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى التى كانت تجمعنا لتنظيمات يسارية متعددة.

وفى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى تعرفت على «هنرى كورييل» الذى كان قد شكل الحركة المصرية للتحرر الوطنى والتى ضمت عناصر من الجيش والطيران والأزهر والطبقة العاملة.

وفى قسم الجيش «بحدتو» لم نقتنع مطلقا بأن حربا وطنية يمكن أن تقوم فوق أرض فلسطين ومن خلف ظهورنا الجنود البريطانيون يحتلون قناة السويس.. ووصلنا إلى موقف عبرت عنه (حدتو) بقولها:

«إننا لا نريد أن ننزع فلسطين من العرب ونعطيها لليهود بل ننزعها من الاستعمار ونعطيها للعرب واليهود، ولا نوافق على التقسيم إلا مضطرين كأساس لاستقلال فلسطين ثم يبدأ كفاح طويل للتقريب بين وجهات النظر فى الدولتين العربية واليهودية».

وقد عارضت «حدتو» الدعوة المحمومة لدخول حرب دينية موضحة أنه لن يفيد منها سوى المستعمر منادية كما جاء فى مجلتها الجماهير، لتوجه السلاح إلى الاستعمار فى فايد وقناة السويس والسودان فلا يمكن تحرير فلسطين وظهورنا مكشوفة للعدو.

بداية دخولى إلى المعركة

وبادرت بدخول المعركة.. ولكن بطريقتى الخاصة.. ترجمت كتابا باسم (حرب العصابات) أهديته (إلى المضطهدين فى أوطانهم) وطبعته على نفقتى ووزعته على المكاتب بنفسى.

صدر (حرب العصابات) مع بداية حرب فلسطين .. ولحقه كتاب آخر اسمه (خواطر عن الحرب) وأهديته إلى (زملائى تحت ثرى فلسطين).

ولم تكن كتابة هذه الكتب هى تجربتى الأولى فى ميدان الكتاب.. فقد بدأت أمارس الكتابة الصحفية، تحت ضغط ظروف اقتصادية.

ولم تكن لغتى الإنجليزية تسمح وقتها بالترجمة الجيدة.. والتحقت بالمعهد البريطانى وبدأت أمارس الدراسة والترجمة معا منذ عام ١٩٤٥.

كانت تجربتى الأولى فى النشر كما ذكرت مع الأستاذ محمد زكى عبدالقادر الذى كان يصدر مجلة (الفصول) من شقة فى الدور الأرضى بإحدى عمارات شارع شريف.

وعندما قام الأستاذ زكى عبدالقادر برئاسة تحرير الأهرام، أتاح لى فيه فرصة

نشر مقالات سياسية، وكانت صلتى به قد توطدت، وثقته فى قد رسخت.. وكان قد تعرض لحملة الاعتقالات التى شنها إسماعيل صدقى باشا واعتقله فيها مع الأستاذ سلامة موسى والدكتور محمد مندور وأعضاء لجنة نشر الثقافة الحديثة .. عبدالرحمن الشرقاوى وسعيد خيال وسعد لبيب وغيرهم.

وشاءت الظروف أن ألتقى بهم فيما بعد وأن يصبح البعض منهم أصدقاء أعزاء.

كنت معجبا بما يكتبه الأستاذ سلامة موسى فى الصحف.. ولم تفتنى قراءة كتاب من الكتب التى أصدرها والتى أثرت تأثيرا عميقا فى ثقافة جيلنا لما حوته من أفكار عميقة وثقافة عصرية وبساطة ساحرة.

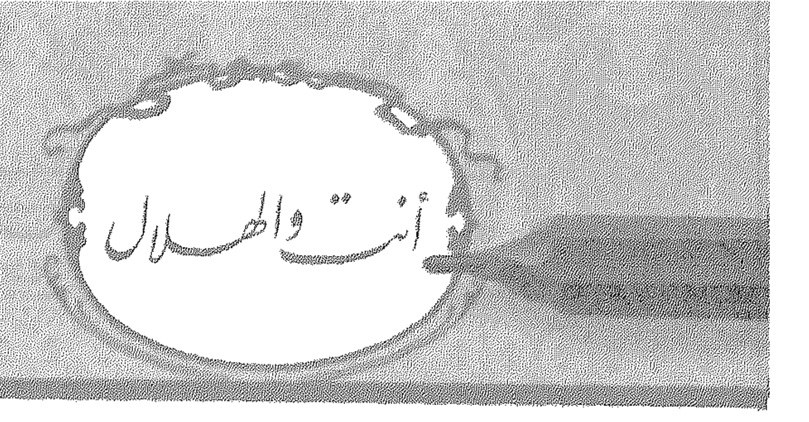
واقتربت من الدكتور محمد مندور الذى كان يشكل مع الدكتور عزيز فهمى ثنائيا متقدما ومضيئا فى صحافة الوفد.. اقتربت منه كثيرا بعد إعجاب واحترام لما كان يكتب بعد الثورة.. وقد تزاملنا بعد ذلك فى جريدة الجمهورية وفى المسرح القومى.

هؤلاء المثقفون الكبار وضعهم إسماعيل صدقى خلف قضبان السجون بتهمة الشيوعية .

وظهرت حركة الضباط الأحرار بعد حرب فلسطين وبادر قسم الجيش فى الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى الذى تشكلت قيادته من أحمد فؤاد الذى تولى رئاسة مجلس إدارة بنك مصر فيما بعد، والصول طيار شوقى فهمى حسن وكاتب هذه السطور بالاندماج معها تحت قيادة جمال عبدالناصر.

وسرعان ما قدمت ثورة ٢٣ يوليو التى كتبت عن قصتها ثمانية كتب.. ومعها عدت كما ذكرت إلى هوايتى فى الكتابة.. فأصدرت مجلة «التحرير» كما أوضحت، وفتحت الظروف لى بابا لدخول المسرح عندما استدعانى الأستاذ يحيى حقى مدير مصلحة الفنون وطلب منى أن أعين مديرا للفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى خلفا للفنان يوسف وهبى.

كانت المفاجأة كبيرة.. ولكن قبلت وأمضيت فى المسرح سنوات من أمتع سنوات العمر سجلتها فى كتاب بعنوان (عشر سنوات فى المسرح).. وخلال هذه السطور كتبت عددا من المسرحيات ومجموعات القصص القصيرة وتمنيت أن يتواصل عملى فى هذا المجال الثقافى إلى أن فوجئت بعودتى إلى الصحافة عام ١٩٦٤ رئيسا لتحرير (روزاليوسف) بينما كنت مديراً لمؤسسة فنون المسرح والموسيقى وهكذا عدت إلى الكتابة والصحافة التى عشت لها.. ومازلت حتى اليوم أمارس الكتابة فى روزاليوسف إلى جانب العمل السياسى الذى ارتبطت به فى مجال التضامن حيث طلب منى الأستاذ عبدالرحمن الشرقاوى أن أتعاون معه فى منظمة التضامن الأفريقى الآسيوية ومازلت فى هذا المجال رئيسا للجنة المصرية للتضامن حيث أسجل حاليا كتابا تسلط فيه الأضواء على هذه الفترة باسم (مصر .. تضامن.. وسلام).. إيمانا منى بأن خبرة كل إنسان وتجربته ليست ملكا له ، وإنما هى ملك الجماهير. ■



جمال عبدالناصر صاحب قرار التأميم

فى العدد الماضى تحدثتم عن تكريم الدولة لرموزنا الثقافية والوطنية بإقامة تماثيل لهم فى أهم ميادين مصر، وذكرتم أن الزعيم عبدالناصر لم يقم له تمثال وأن السادات بطل العبور كان يستحق تمثالا جزاء قراره الجسور، وكنت أحب أن يذكر لجمال عبدالناصر أهم قرار يذكر به على مر التاريخ المصرى وهو تأميم شركة قناة السويس شركة مساهمة مصرية فى عام ١٩٥٦ حتى تستبين الأجيال التى غيب عنها كثير من تاريخنا المشرق ما خفى عنها، وتعرف مثلها العليا، وأيضا لابد أن يعلم هذا الجيل أن أول رئيس لجمهورية مصر هو اللواء محمد نجيب ، وهو يستحق أيضا التكريم ضمن هؤلاء .

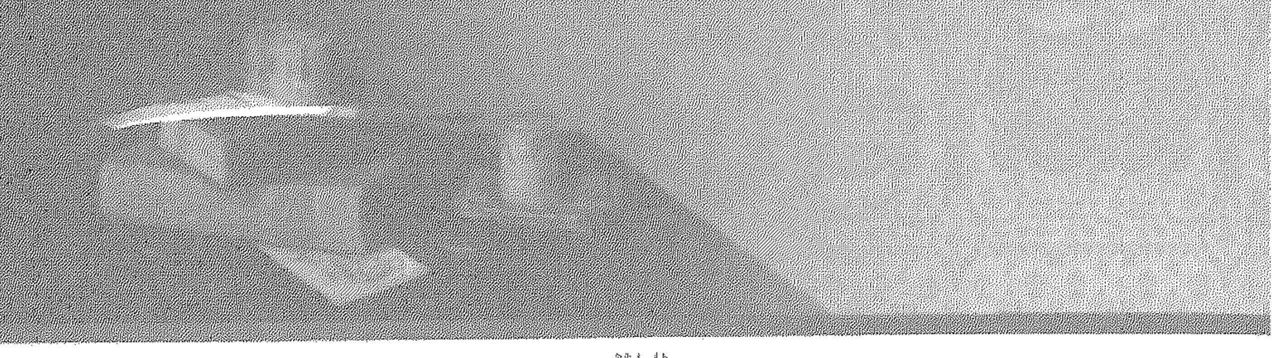
د . سامى منير
الاسكندرية - كلية التربية

الهلال : نشكر لك ملاحظاتك ، وكما أشرت فذلك كان ضمن افتتاحية الهلال، وهى كلمة قصيرة ، وأما عن تكريم رموز مصر، فقد اقترحنا أن تكون هناك لجنة تشرف على هذا المشروع وتتولى اختيار كل الشخصيات التى أثرت الوجدان المصرى .

خيمة ملك

ما رأيت الهوى بعينيك غصنا ... يانع العود .. بل سمعتك لحنا
أذنت لى بالشدو رعشة جفن ... لمن الوعد؟ هل طوى الوعد جفنا؟
ياحبيبى .. يمزق الروح رمز ... يتمادى .. ولا يمزق سجنا
صادح لا يطيق غيرك إلفا ... مستفيق للحظة منك وسنى
نحن فى الكون وحدنا.. كيف أنسى ... أننى خالق بحبك كونا ؟
من شظايا شعاعة مزقتها ... قبلة سرمدية أشعلتنا
هذه الأنجم البعيدة تحكى ... أن كوخا لنا وكرما ودنا
هذه الشمس حانة فى العشايا ... لعقتها الكئوس من شفتينا
هذه العاصفات غضبة سر ... جسد السر ينطفى ثم يبنى

سليم الرافعى - طرابلس - لبنان



دور مهم للهلال

وصلت رسالة مهمة من قارئ تونسي هو محمد قشيك يقول فيها : أقرأ الهلال التى تعتنى بقضايا الساعة وخاصة بالتراث العربى الإسلامى والإنسانى ، وأثنى على هذا الدور المهم الذى تقوم به المجلة العربية الأولى فى الوطن العربى ، وأتمنى أن يتواصل اشعاعها الأدبى المتنوع الذى يسهم فى تطوير اللغة العربية ، والاستفادة من إعجاز القرآن الكريم .

وقال : إن النبى محمد (ﷺ) هو الذى تعتبر أمته خير أمة أخرجت للناس ، لا تقهرها النكبات العجيبة فى هذه المنطقة أو تلك من الأرض الغنية بالتقوى والتراث العربى الأصيل ونحن نعيش الآن تحولات تاريخية وأزمة تثبت مرة أخرى قيمة الإسلام وضرورة تمسكنا به .

أمثال شعبية

* « لكل صغير كبير ولكل رئيس مرؤوس » !
* اللى مالوش كبير يشترى له كبير » !
* « لما أنت أمير وأنا أمير مين يسوق الحمير » !
* « اللى يتجوز أمى أقوله يا عمى » !
* « أرقص للقرد فى زمانه » !
* « بلد بتعبد ثور ، حش وارمى له » !
* « طاطى رأسك ما بين الروس أحسن الماشى عليه يدوس » !
* « إن طلع من الخشب ماشة ، يطلع من الفلاح باشا » !
* « مهما الفلاح اترقى تبان فيه الدقة » !
* « الاعتبار للمال مش للرجال » !
* « أصلك فلوسك وجنسك لبوسك » !
* « طلب الغنى شقفه ، كسر الفقير زيره » !
* « حاميها حراميها » !
* « ارشوا تشفوا » !
* «امشى سنة ولا تخطى قنا » !
* « أصبر على جارك السو، لا يرحل لا تيجى له غارة » !
* « يا بخت من بات مظلوم وما بتش ظالم » !

ألا تدل هذه الأمثال التى تتناقلها أجيال وراء أجيال على الخضوع والاستسلام والسلبية والرضا بالواقع ، وعدم الرغبة فى التغيير .

أحمد الفيومى - نزلة السمان - الهرم

الهلال :

هناك العديد من الأمثال الأخرى التى ترفع من قيمة الشجاعة والمبادرة ومقاومة السلطان الجائر .

أنت والهلال

القراءة متعة ذهنية

أعجبني مقال «زمن المجلات القديمة: الهوس اللذيذ للحنين إلى الماضي»، والذى كتبه الأستاذ محمود قاسم ونشر فى عدد يونيو الماضى ، وقد أصاب الكاتب عندما قرر أن إعادة قراءة الأمس تتمثل فى مزج الحاضر بالماضى ، فكل ما نراه اليوم جديدا ، سوف تنبث منه رائحة إطلال الماضى فى السنوات القادمة .

إن الإنسان ليسعد عندما يقرأ أو يطالع صفحات مجلدات المجلات القديمة مثل الهلال والمقتطف والثقافة والرسالة ، ويجد بين صفحاتها عبق التاريخ وعبير المعرفة الانسانية فى أرقى صورها ، وهى متعة ذهنية للقارئ لا تدانيها متعة وليست هوسا!

عمرو عبدالمنعم حمودة
برما - مركز طنطا

أصل كلمة بغداد

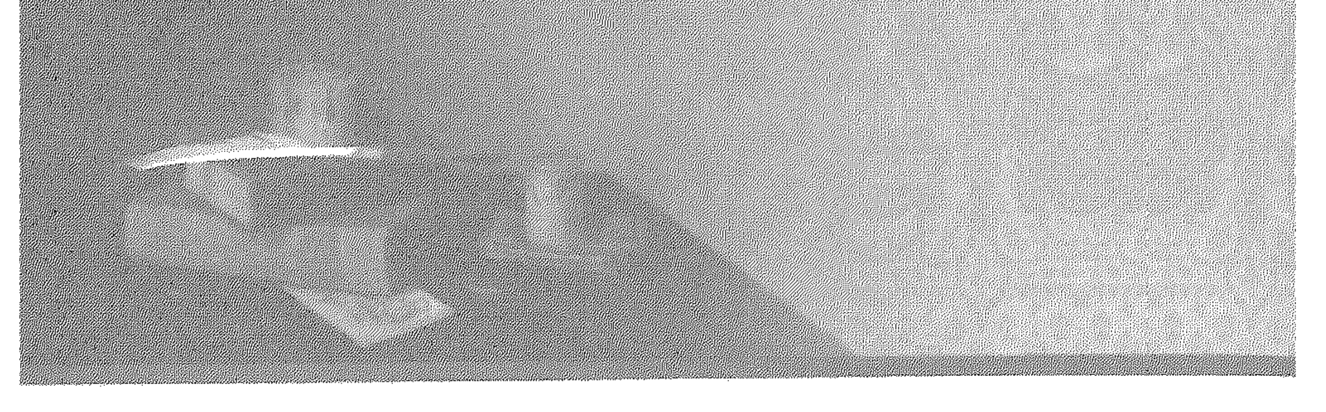
قرأت مقال الزميل الدكتور طاهر أحمد مكى عن بغداد والذى نشر فى عدد ابريل الماضى، فوجدته لم يطلع على الاكتشافات الأخيرة البابلية والآشورية بأن كلمة بغداد قديمة ، وبذلك نسخت النظرية القديمة بأن اسمها يتكون من كلمتبن هما (با غ) و(داد) من الفارسية فقد وجدت مكتوبة (بغدادو) و(بغداذا) و(بكدادو) فالأصل قديم ولا علاقة بالتسمية التى كانت شائعة قبل قراءة الخط المسمارى .

د . يوسف عزالدين - انجلترا - ويلز

غدنا حلم قديم

أقسمت بالفجر أن العطر طل فى ثراها
ودبيب الخصب والثورة يسرى فى دجاها
ذهب اليأس وهذا أمل جدد للأرض قواها
أيها الشعب الذى حطم فى الغيب قيوده
ومضى يرفع للحق على النار بنوره
إنها ثورة شعب وانتفاضة
وضمير يتحرر
ومصير يتقرر
ودماء وشهادة
وتحد وإرادة
اسمعينى لحنك الثائر فى قلب الظلام
أنت ياأرض النبيين ويامهد السلام
حدثينى يانجوم
نبئينى يا رياح
غدنا حلم قديم
ليلنا فجر صباح
إنها ثورة شعب وانتفاضة
وضمير يتحرر
ومصير يتقرر
ودماء وشهادة
وتحد وإرادة

سامى محمد عبدالحميد



رأي عميد الأدب العربي في الغناء

تناولتم فى مقال شيق فى العدد الماضى الحديث عن جمع تراث طه حسين ، فما أطرف ما تضمنه هذا التراث ؟

محمد منسى -القاهرة

** لعميد الأدب العربى رأى فى الغناء ذكره فى حوار طريف نشر بجريدة الجمهورية فى أول أكتوبر ١٩٥٩ ..

* ألا تسمع الأغانى ؟

- مطلقا .

* ألم تسمع أى مطرب أو مطربة ؟

- أبدا .

* لماذا ؟

- لأن أغانينا تافهة .

* وكيف عرفت أنها تافهة دون أن تسمعها ؟

- سمعت بعضا منها مصادفة .

* لقد تطورت الأغانى وأصبحت شيئا جديرا بأن نستمع إليها .

ويرد طه حسين : مستحيل .. فأنا أكره طريقتنا فى تلحين الأغنية وتأليفها، وتأديتها ، أكره ما فى أغانينا من سطحية وتفاهة .

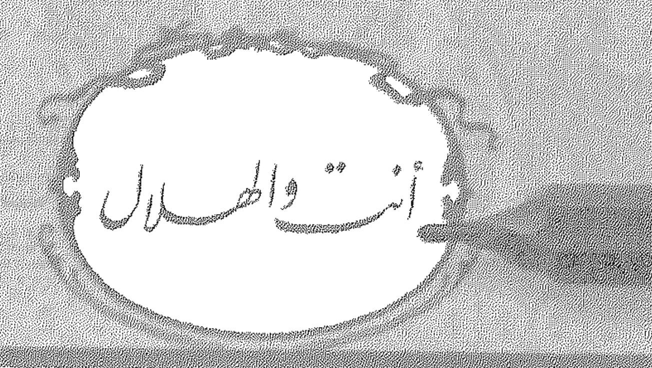
●

« ترى ماذا كان سيقول عميد الأدب العربى لو استمع إلى أغانينا الآن ، وأيضا إلى الأشعار السطحية التى تنشر أو نستمع إليها أحيانا ؟!»

لؤلؤة

ومعى امرأة
لى لى، بلون الخبز
طعم التوت
رائحة اللحاء
سميتها وطن السفر
سميت نظرتها المطر
سميت قبلتها الهدوء
ودفء قبلتها المساء
لو قيل هذى أم كنوز الأرض؟
قلت اخترتها
لكم الكنوز تركتها
حسبى من الدنيا العريضة
لـؤلـؤة

عبدالناصر عبدالرحيم أحمد السويس



أقصوصة

الجنيه

رأس أصلع، ووجه حرقته الشمس، ولحية مبعثرة فى أنحاء الوجه .. أما العيون فتبدو مطفأة لا تستمتع بجمال الحديقة التى تقف على بابها .. السيارات تهدر فى الشارع ذهابا وإيابا ..

صرخت فى داخلى :

– إنه أعمى ..؟! كيف لم أنتبه لذلك قبلا؟

كان يقف بقامته الفارعة ، وملابسه البالية على جانب الطريق المؤدى إلى مدخل حديقة «شجرة الدر» بالمنصورة . كان يصيح بين الحين والآخر .

– سجاير «الملكة» .

نظرت فى يده الممدودة، كانت علبة وحيدة زرقاء ..

– مسكين هذا الرجل ، قلت فى نفسى .. يبدو فى حالة شديدة من البؤس .

تقدمت منه ببطء وقد أخرجت من جيبى عملة ورقية فئة الجنيه ، وقلت له :

– تفضل يا والدى .

انتبه لى ، ارتجف حاجباه ، وانفرجت شفتاه ويده تلامس الجنيه بمهارة شديدة ثم وضعها فى جيبه الداخلى ، ثم فتح علبة السجاير وراح يمد، ولكنى قاطعته :

– انى لا أدخن .

توقفت يده ، وبعد لحظة صمت وقال:

– لماذا أعطيتنى «الجنيه» إذن ؟

لم أجد ما أقوله فسكت ..

قال بتحد وإصرار وهو يخرج «الجنيه» من جيبه ويقدمه لى :

– لست شحاذا ياولدى !

بتردد أخذت «الجنيه» وإحساس يجعلنى أتضاءل حتى صرت كرأس دبوس ملقاة على رصيف الشارع ..

نظرت إليه .. كان جسمه كالطود ، ووجهه كالسماء والمدى .. انطلقت أعبر الشارع .. أهرب كأنى مطارد من قوة غير منظورة ، وعندما بلغت الجهة الأخرى من الشارع نظرت خلفى إليه .. رأيته واقفا فى شموخ نخلة شابة فى عنفوانها .. وكانت يده ممدودة ، وصوته يدوى ويطن فى أذنى وهو ينادى سجاير «الملكة» !

فرج مجاهد عبدالوهاب
شربين – دقهلية

وصية .. لم تحفظها العصافير

مات عصفور الحديقة
تاركا
للروض صكا
عند أوكار لصيقة
مرت الأعوام حيرى
كيف أوصى للفيافى
أن تذيع اليوم ضيقه؟!
كان يلزم الأنهار .. دوما
أن تدارى
كل جرح فى الوثيقة

ظل يعشق الترحال عمرا
ظل يعشق الهجرة ..
فى أرض سحيقة
ظل بالجرح يعانى
سنوات
كلما نامت جراح بالذرا..
عادت جراحات عميقة

عبدالناصر أحمد الجوهرى
دكرنس

السلام والقبضة

لعبة رياضية نعرفها جميعا وهى لعبة « الرست» أى لعبة الذراعين ، والقبضتين القويتين ، يتنازلان فوق المنضدة .. العضلة القوية تهزم العضلة الأضعف، وماذا بعد، هناك منتصر وهناك مهزوم .

الانتصار لا بأس ! والانهزام شئ سيئ ، ولكن لابد من التعايش معا بعد ذلك .

إذن لماذا الهزيمة والانتصار ؟

إن التعايش هو الهدف ، وليكن لكل ما يعتقده فى حدود ، بينما يعرف كيف يكون التعايش ، وهنا الانتصار بدون هزيمة ، ومع التعايش يكون الكسب الحق ، ويكون النماء الذى يغمرنى لأنه يغمر الجميع ، أنا والقبضة الأخرى أيا كانت .

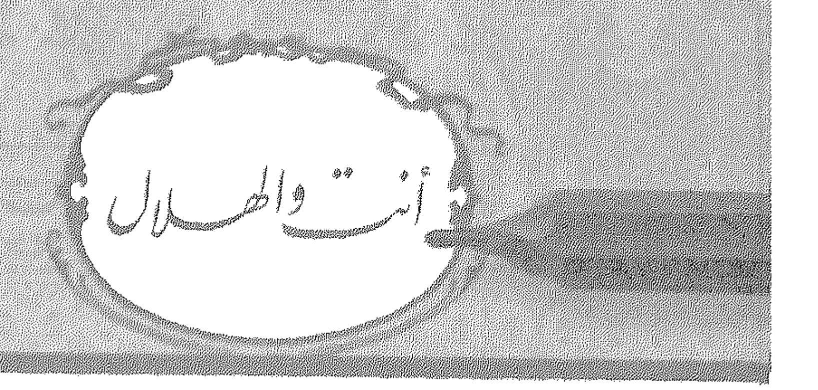
مهندس رستم غالب - القاهرة

مقال طبي بالهلال

أنا من عشاق مجلة الهلال وأتابع كل ما يكتب فيها ، وقد أستوقفنى كثيرا ماكتبه د . صلاح قنصوة فى هلال مايو الماضى بعنوان : « الركض خارج الملعب» ، ولى ملاحظة وهى لماذا لا يتضمن الهلال موضوعا طبيا ، وأعلم أن دار الهلال تصدر طبيبك الخاص والكتاب الطبى .. وقد خصصا للأطباء المشاهير فى القاهرة فقط ، فلماذا لا يكتب فى هاتين المطبوعتين أطباء من خارج العاصمة؟..

أقول هذا وقد تربيت منذ ٢٥ عاما على مجلة طبيبك الخاص .

د . جمال على العطار - الإسكندرية - كامب شيزار



● الهلال : شكرا لملاحظاتك يا دكتور ، وفعلا تصدر عن دار الهلال مجلات تتولي الجانب الطبى ، وعموما ماذا لديك من مقترحات حول موضوعات طبية معينة يقوم الهلال بنشرها ؟.

حيلة التاجر

قدم تاجر عراقى إلى المدينة المنورة ليبيع بها خمرا ملونة «جمع خمار وهو غطاء لرأس المرأة » فباعها كلها الا السوداء منها ولما شكى ذلك إلى الدارمى الشاعر وكان قد تنسك وتعبد ، كتب شعرا أخذ التاجر يطوف بالمدينة وهو ينشده .

قل للمليحة فى الخمار الأسود	ماذا فعلت بناسك متعبد
كان قد شمر للصلاة ثيابه	حتى وقفت له بباب المسجد
فسلبت منه دينه ويقينه	وتركته فى حيرة لا يهتدى
ردى عليه صلاته وصيامه	لا تقتليه بحق دين محمد

ولما سمع الناس فى المدينة هذا الشعر قالوا : إن الدارمى رجع عن نسكه وعشق صاحبة الخمار الأسود فلم تبق امرأة بالمدينة الا واشترت خمارا أسود ، وباع التاجر كل ما كان معه .

محمد أمين عيسوى
الاسماعيلية

الجواهري من أصول عربية

فى عددى أبريل ومايو الماضيين من الهلال موضوعات تزيد من ثقافة الانسان العربى ..

وفى عدد مايو وفى كلمة مختصرة عن الشاعر العراقى محمد مهدى الجواهرى قلتم إنه من أصول كردية .

والحق أن الجواهرى من مشاهير الأسرة العلمية النجفية ، وهو من أصول عربية كانت تقطن النجف الأشرف .

وهذه الأسرة دوحة من دوحات الفضل العلمية ، بزغ بدرها فى أفق النجف ، واشتهرت بعنوانها الجواهر ، وكان لآبائها فى النجف ذكر قبل ذلك فى أوائل القرن الثانى عشر .

وقد ولد الجواهرى فى النجف سنة ١٩٠٣ أو ١٩٠٠ كما يقول مدونو سيرته .

واصل عبدالله البو خضر
الإحساء - الهفوف -السعودية

خطأ غير مقصود!

إشارة إلى مقالي «المحافظون الجدد» : الأصول والمفاهيم «الذي نشرته الهلال في عدد يونيو الماضي، أود أن أوضح أن العنوان الفرعي الذي اخترتموه للمقال «لماذا ازدادت سطوة المحافظين الجدد في عهد بوش الأب» جاء مناقضا لمضمون المقال الذي أوضح أن المكانة التي اكتسبها المحافظون الجدد في عهد إدارة ريجان ، لم يشأ أن تستمر أو تتأصل في عهد إدارة بوش ١٩٨٨ - ١٩٩٢ لاعتبارات أوردها المقال . لذلك أرجو التنويه .

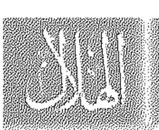
د . السيد أمين شلبي

أيضا جاء في مقال مبكيات الأفراح بالعدد الماضي للدكتور رجب البيومي « وتبذل آلاف الجنيهات في رقص ماجن خليع، فتكون العاقبة إهدار المال في أحسن وجوه الانفاق » .
وصحتها في أخس وجوه الإنفاق .

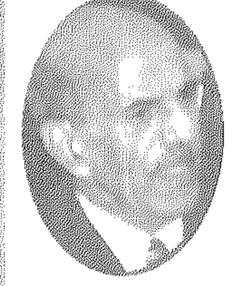
« المعجزات »

أنا الفارس الهارب من كل الأساطير
وحكايا المعجزات
جئتكم أتساءل :
من ألبسكم أردية الخوف المرير
ونزع عنكم رداء الأمل ؟!
استيقظوا
الأحلام لا تفيد
فالمعجزات ...
لا تكون إلا في الواقع
استيقظوا
الأمل الأخير لنا :
حين يملؤنا الإيمان
تحدث معجزة :
فتنبت حقول الألغام
ورودا وأمان
استيقظوا
المعجزة الحقيقية
اننا مازلنا نتنفس
رغم اختناق كل أمانينا

د . جاسر محمد رياض



إختلاف الأجيال حول رؤية التعليم



بقلم: د. حامد عمار

مع موسم الامتحانات تكثر ثرثرة جيل الكبار في زهو رومانسي بين ما كان عليه تعليمهم في الأيام الخوالي، ويصبون نقدهم اللاذع على أحوال التعليم الحالية. ويتجلى ذلك فيما يتصورونه من مفارقة بين ماضي الأحوال الحياتية بما كانت عليه من ألوان وردية مشرقة وبما هو كائن حالياً من مشقة وعتمة وفي ذلك يتناسون تغير الظروف والسياقات المجتمعية وتبدل الأحوال، كما يقول ابن خلدون، وفي تفنيد للنظرة الرومانسية للماضي التي تذكر إيجابياته وتختزل الحاضر في سلبياته، يقول أبوالعلا المعري:

لكل جيل أكاذيب يدين بها • فما تفرد بالهدي جيل

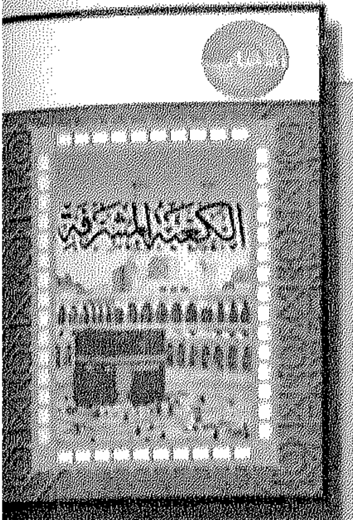
واليوم تتواتر الشكوى من أحوال التعليم وتدني مستوياته ومن مختلف الشكاوى والهموم التي تعانيها كل أسرة حسب رؤيتها للطلب من التعليم.

ومع مافي تعليم اليوم كما هو الشأن في الماضي من إيجابيات وسلبيات في جميع مراحله فإنه لا مشاحة في أنه شهد توسعاً هائلاً في فرصه منذ الخمسينيات، حيث بلغ عدد الطلاب عام ١٩٥٠ (٥٤٠) ألفاً بمعدل (٢.٥)٪ من مجمل عدد سكان المملكة المصرية . ومنذ ومع تطبيق سياسة المجانية في جميع مراحله حقاً دستوريا وإنسانياً، تدفق سيل الطلب على التعليم ليبلغ عدد طلابه عام ٢٠٠٢ (١٥.٥) مليون أي أن ربع سكان مصر هم طلاب.

بيد أن هذه الزيادة الهائلة لم ترافقها زيادة متناسبة في البنية الأساسية من المباني والتجهيزات. ومن ثم جرى (حشر) الطلاب في الإمكانات المؤسسية القائمة دون توسع ملحوظ ومن المعروف أن البنية الأساسية في التعليم كالبنية الأساسية في النشاط الاقتصادي، شرط لازم لكفاءة الأداء وجودة المخرجات، ومن هنا جاءت مشكلات التكدس وانخفاض المستويات وقلق التنافس الحاد للمرور من اختناقات عنق الزجاجة من المرحلة الثانوية إلى الفرص المحدودة في التعليم الجامعي، وبخاصة في كليات القمة.

وبالرغم مما تم أخيراً من المباني الجديدة، فإن ما تراكم من أعباء الماضي يتطلب إيلاء أولوية متقدمة للاستمرار في تشييد البنى الأساسية، مما سوف يقضي على كثير من أعراض الاختلالات. ومن ثم يقتضي الأمر توفير كافة الموارد المالية اللازمة لذلك، إذ ليس ممكنا توافر مدرسة من مستوى خمسة نجوم ينفق عليها (١٣٠) دولاراً في السنة متوسط تكلفة لكل تلميذ، وهو مبلغ لايكفي لعشاء أسرة في فندق خمس نجوم، ورحم الله الشاعر القائل (ومن يطلب الحسناء فليغلها المهر). ■



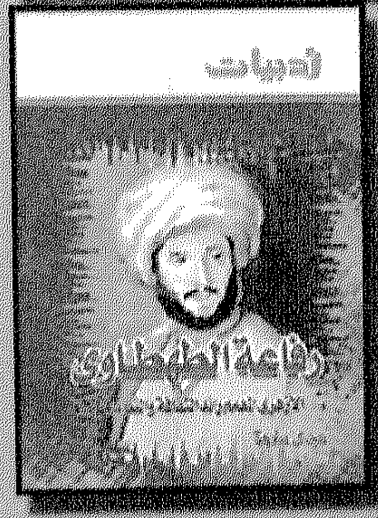






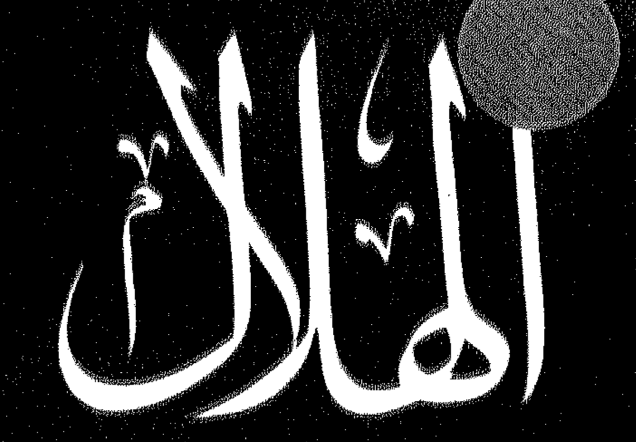








طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع (مطابع ملاح التلميذ) 8، 10، 11 شارع 47 المنطقة الصناعية بالعباسية
المكتبات 10، 18 شارع كامل صدقي بالفجالة - 4 شارع الإسحاقي بمنشية البكري - روكسي - مصر الجديدة - القاهرة
ت 0835534 - 0851801 - 0823792 - 2586197 ج.م.ع فاكس 6827002 - 202/2596650

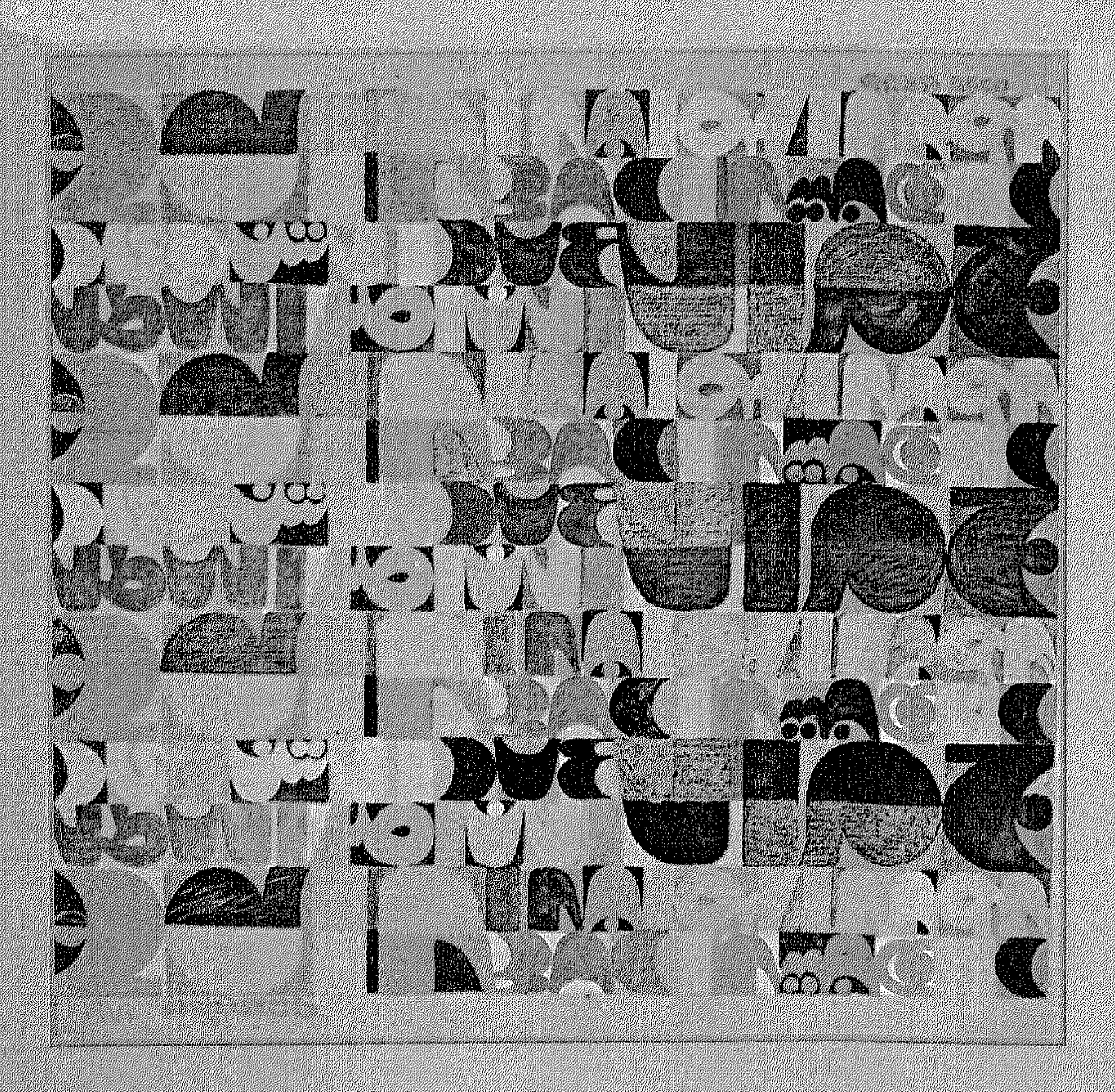


أغسطس ٢٠١٢ الثمن ٤ جنيهات

فوضى الواقع الثقافى

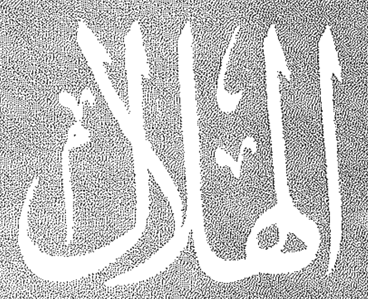
نهاية العروبة !!

ادم حنين الخيال فى التمثيل



لوحة وفنان

لوحة
جمال عبد الناصر
للفنان
فتحي جودة ١٩٧١



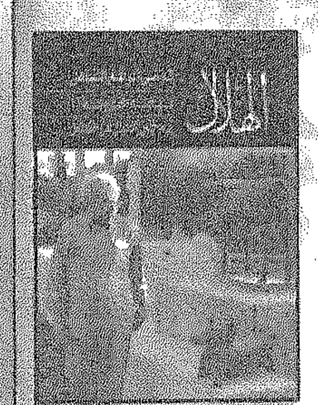
مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الحادي عشر بعد المائة جمادى الثانية ١٤٢٤ هـ - أغسطس ٢٠٠٣م

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات ص.ب ٦١- العتبة - الرقم البريدى: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
ت ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى: **darhilal@idsc.gov.eg**

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٢٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - امريكا ٨ دولارات

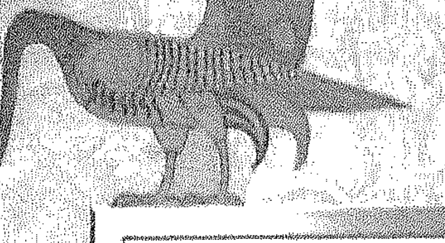
الفهرس



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب
تصوير الفنان
محمد صبرى

١٠ - تجميل مصر بين التخطيط والعشوائية ....
.... د. صبري منصور
١٨ - فوضى الواقع الثقافى ....
.... د. محمد رجب البيومي
٢٦ - فى مقام الشيخ الأكبر ....
.... د. يوسف زيدان
٣٤ - تسويق الأديان على الانترنت ....
.... د. أحمد محمد صالح
٤٢ - حكاية حالة أمريكية ....
.... محمد يوسف عدس
٥٠ - نهاية العروبة.... د. أحمد يوسف أحمد
٥٦ - الاحتلال وقضية الديمقراطية ......
.... عبدالرحمن شاكر
٦٢ - زكى نجيب محمود: طوع اللغة وعبر عنها بلغة رضيئة
.... د. عبدالرشيد الصادق محمودي
٧٠ - حامد ربيع: راهب فى محراب المعرفة ...
.... د. نيفين مسعد
٧٨ - الإبداع وفلسفة التعليم «دائرة حوار» .....
.... د. شريف حتاتة
٨٤ - الحضارة الإنسانية: تزاوج لا صراع ...
.... فاروق خورشيد
٨٧ - على خطى النفرى «شعر» ....
.... محمد عبدالسلام منصور

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٠ دولاراً، باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.
ع وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.



٨٨ - حداثة بيدبا الفيلسوف ودبشليم الملك ... صافي ناز كاظم

١٢٤ - عائلات ثقافية (سمات أجلها في والدى) ... د. سمحة الخولي

١٣٢ - رحلة الصين (فى رحاب التنين الأسيوى)........ ماجد يوسف

١٤٤ - مرشد القارئ إلى الخطاب الثقافى... د. صلاح قنصوه

١٥٠ - مؤتمر الثقافة العربية .... أماني عبدالحميد

١٥٥ - رحيق الكتب ....

١٦٠ - سهر الليالى وفيلم هندى .... مصطفى درويش

١٦٦ - المتفرجة «العرى» .... مرفت رجب

١٧٢ - ثلاثة من الأدباء (السحرتى وكرو والجر) .... وديع فلسطين

١٧٨ - أبو حنفى «قصة» .... زاهد مطر

١٨٦ - مسرحية فى عز الضهر .... أسامة أبو طالب

١٩٢ - المسارح اللندنية اليوم «رسالة لندن» ... إبراهيم فتحي

٢٠٠ - النديم والأفغاني فى القفص السلطانى ... د. عبدالمنعم الجميعي

٢٠٦ - استبصارات ..... محمد عفيفي مطر

الأبواب الثابتة

- عزيزى القارئ ٦

- أقوال معاصرة . ٢٥

- لغويات (د. الطاهر أحمد مكى) ٦١

- من ذخائر الكتب العربية (نجباء الصعيد) د. نبيل حنفى محمود ١٠٢

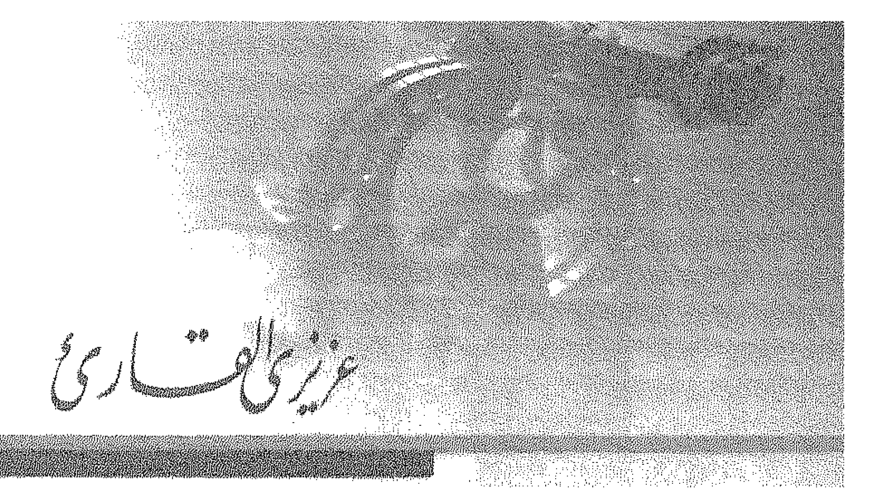
- شخصية العدد آدم عليك السلام. مصطفى الحسيني ١١٢

- آدم يبحث عن أصوله الأولي... ١١٨ ياسر مصطفى

- التكوين (منح الصلح) ٢١٠........

- أنت والهلال عاطف مصطفى ... ٢١٨

- الكلمة الأخيرة (اللمسة سر الحياة) ٢٢٦.. د. أحمد مستجير



البقــرات المقدســة

على طريق مراجعة الذات ، والبحث عن طريق للإفلات من التخلف ، وملاحقة العصر والعمل على نهضة البلاد ، وتحقيق العدل والحرية، حان الوقت لتأمل ما يجرى حولنا ..

وهنا .. نتجنب جلد الذات ، فهناك فرق بين نقد الذات وجلد الذات ، أقول ذلك لما نلاحظه من أن الثقافة إذا بعدت عن الواقع ، تتحول إلى حديث مجموعة من المثقفين يفهمون بعضهم ، ويعيشون فى برج عاجى بعيدين عن القراء، طالما نأوا عن الواقع ، وتجاهلوا مفرداته..

والسؤال .. لماذا يحلق المثقفون فى الأفكار المجردة، ويبعدون تدريجيا عن حقائق الواقع حولهم ، ولماذا يغوص البعض الآخر فى تفاصيل الواقع، ويبتعدون عن أى منهج شامل أو إطار فكرى، أى نسق يضم تفاصيل ذلك الواقع ، ويصبح كالتائه فى الصحراء لا يجد شربة الماء ..

وتتراوح خطى المجتمع بين من يرى الأفكار كالأبقار المقدسة التى يجب لىّ الواقع من أجل اتباعها ، وبين أولئك الذين يغرقون فى تفاصيل الواقع بلا خريطة ولا دليل يسترشدون به .

والمهمة التى مازالت تنتظر من المثقفين القيام بها ، هى الوصول إلى منظومة فكرية، بسيطة ومركزة، على ما ينبغى عمله فى مواجهة التحديات والأحداث المأساوية المتلاحقة، وتقديم حلول عملية للمواطنين ، وخلق تيار وطنى عام ، لا يتوحد حول الأهداف فقط، بل يتوحد أيضا على طرق الوصول إلى هذه الأهداف ، أى إلى برامج عمل واضحة ، وأدوات – أى مؤسسات مستقلة – تملك القدرة الذاتية على تحقيقها .

وهذا هو ما تحقق فى كل مكان، وما تحقق فى تاريخنا عندما قامت ثورة ١٩١٩، وطرحت شعارات الاستقلال الوطنى ، وعندما قامت ثورة ١٩٥٢ ووضعت أهدافا وشعارات من الضمير الوطنى .

ويتأكد هذا الهدف بعد سقوط عصر «البقرات المقدسة» أو الأفكار والأيديولوجيات المسبقة ، التى تخفى أو تضلل الباحث فى رؤية الواقع والوصول إلى نتائج صحيحة . فمن الطبيعى أن تطوع كل الأفكار والأيديولوجيات من أجل تغيير الواقع، فيستحيل تطويع الواقع لكى يناسب تلك الأيديولوجيات .

وفى الماضى كانت «الاشتراكية» هى « البقرة المقدسة» وهى الذريعة لكثير من الحماقات التى ارتكبت .

واليوم «الرأسمالية» أى الليبرالية وحرية السوق هى البقرة المقدسة، بدون النظر للاعتبارات الواقعية أو العملية ، وبصرف النظر عن تاريخها ، وتطبيقها فى واقع مختلف، وتجارب تاريخية أخرى، وإذا كانت الدول الغربية قد تجاوزت الرأسمالية المتوحشة ، وإذا كانت أدركت الواجب الاجتماعى نحو شعوبها ، إلا أن أولئك الذين يعبدون البقرات المقدسة ، يطالبون بتطبيق تلك الرأسمالية المتوحشة ، وهو ما يفسر العديد من الأخطاء التى ترتكب ، باسم اقتصاديات السوق ، فمثلا ... حسن أن يباع القطاع العام ويتحول إلى القطاع الخاص ، ويدار بأسلوب اقتصادى ، ولكن أين تذهب حصيلة هذا البيع؟.. هل تفتح آفاق استثمارات جديدة؟.. وهل تنفق على أبحاث علمية تفتح مجالات جديدة للاستثمار والتصدير..؟ أم تصب فى الميزانية ، ويصبح حالنا مثل المفلس الذى يبيع أثاث بيته لكى يجد ما يسد حاجته للطعام.. ويتم ذلك بحجة الانتقال إلى قوانين السوق، وتنص البقرات المقدسة على عدم مشاركة الحكومة فى الاستثمارات .. مع

أن هناك وسائل عديدة، تقوم فيها الحكومة بالدراسة ، وتطرح المشروع الحيوى للاكتتاب العام ، وتجعل إدارته والسيطرة عليه للجمعية العمومية

قضية أخرى .. وإن كانت إحدى نتائج الفهم الخاطئ لمعنى الحرية، فهل معنى الحرية هو التسيب والفوضى؟.. وهل تتناقض الحرية مع وجود سلطة قوية تستمد قدرتها من القانون ، ففى العالم الثالث لا يمكن إنجاز النهضة إلا بسلطة قوية عادلة ، ولا تعنى السلطة القوية غياب الديمقراطية ، بل على العكس تحتاج بشدة إلى العدل لكى تحقق النهضة والنمو .

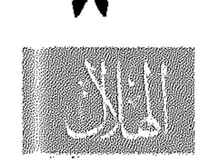
وأظن أن «العدالة» شعار يسبق غيره من الشعارات . ثم تأتى «الحرية» التى تؤكد وتحقق إنسانية الإنسان .

كما يجب الحفاظ على الأولويات حتى لا يضيع منا الطريق .. ومتى يكف المثقفون عن الإغراق فى الحديث عن الآمال أو الأهداف البعيدة ولا يشغلهم أسلوب وأداة تحقيقها؟! أى أن يقرن القول بالعمل .. فلا يقوم التقدم سوى بامتزاج الفكر بالواقع .

* * *

وعند مراجعة الذات ، لا ينبغى لنا أن ننسى، أنه مهما كانت أهمية القرارات الاستثنائية التى تتخذ فى بعض الأحيان لمواجهة موقف ما ، يصبح بقاؤها واستمرارها أمرا ضارا حتى بالهدف الذى اتخذت من أجله

ويقرر علماء الإدارة ، ضرورة ربط أى قرار استثنائى بمدة زمنية محددة ، أو بانتهاء الأسباب الداعية إليه ، ويقول الأصوليون .. «تغير الأيام يقتضى تغير الأحكام» والثورة ذاتها حالة استثنائية ، يجب أن تنتقل من الشرعية الثورية إلى الشرعية الدستورية .



ولو أخذنا مثلا على ما أريد أن أقول .. اتخذت الحكومة قرارات خاصة بالإسكان ، واستمرت هذه القرارات بلا تغيير أو تعديل، فخلقت مشكلة، واختفت يافطة «شقة للإيجار» ، وتآكلت الثروة العقارية ، واستمر هذا الحال قرابة نصف قرن.. ومازال مستمرا .. إن المطلوب هو تغيير العقليات ، وتغيير المفاهيم هو الأصعب دائما .

* * *

ولابد أن نذكر أيضا عند مراجعة الذات .. أنه من العار أن تبقى مشكلتا الأمية والقمامة قائمتين!. وليس عارا أن يعانى البعض من الفقر، فمن الممكن أن تكون نظيفا وفقيرا، فالتدريب والتعليم يعالجان الفقر .. ومن العار أيضا ألا يستطيع المجتمع التخلص من فضلاته ، وأن يلجأ لشركات أجنبية لهذا الغرض .

أما الأمية التى أخذت تتزايد فى الآونة الأخيرة، رغم الميزانية التى رصدت والجهود البيروقراطية التى بذلت، ولست فى حاجة إلى القول إن الأمية لها تأثير مباشر على كل مناحى الحياة، وهى التى تزيد المصاعب التى تواجه المجتمع ، والتأثير على الإنتاج وحل مشكلة البطالة ، وعلى شيوع قلة الذوق والجمال والفن فى حياتنا .

ولا يمكن حل مشكلتى القمامة والأمية سوى بعقول خلاقة وحلول مبتكرة غير تقليدية، ترى عملها رسالة مقدسة يجب إنجازها. وقد قضت كوبا على الأمية عن طريق وقف الدراسة فى المدارس والجامعات فترة محدودة ، وانتهى المشروع بلا أمى واحد فى كوبا كلها . وهناك تجارب كثيرة أخرى تمكن أصحابها من القضاء على الأمية .

■

المحــــرر

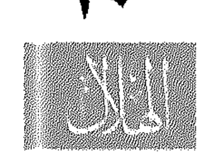


بين التخطيط والعشوائية

بقلم
د. صبرى منصور

أطلت علينا خلال السنوات الأخيرة ظاهرة طال انتظارها كثيرا، حين بدأت الأعمال الفنية التشكيلية تجد طريقها إلى الميادين العامة، وتمتد على أسطح وجدران المبانى والأسوار. التى اكتست بصنوف الأشكال وشتى الألوان، وكانت مدينة الإسكندرية التى هى الرائدة، والتى خلقت نموذجا سرعان ما انتقل تأثيره إلى محافظات الجيزة والقاهرة، والأقصر وقنا، وبدا وكأن هناك صحوة فنية تسعى إلى تجميل البلاد، بعد طول إهمال للجوانب الجمالية فى حياتنا العامة، ونسيان لدور الفن فى الارتقاء بالذوق وتنمية المشاعر القومية المشتركة للمواطنين، ولكن - وآه من كلمة ولكن حين تفسد كل فكرة طيبة ذات هدف نبيل - فللأسف جاءت معظم المشاريع التجميلية مخيبة للآمال، فهى لاتتناسب إطلاقا مع تاريخ مصر الفنى العريق، وما تحفل به البلاد من آثار فنية خالدة، كان أهم سماتها العظمة والجلال، بل إن بعض هذه الأعمال التجميلية الحديثة تتناقض مع الغرض الذى أقيمت من أجله، فبدلا من نشر الجمال والذوق الرفيع، فإنها تجسد القبح بما تحتوى عليه من قيم جمالية مشوهة، وأشكال قميئة، وألوان منفرة

تمثال عبد المنعم رياض







بين الأمس واليوم

إن المرء ليعجب كيف استطاع المصريون فى بداية نهضتهم إقامة صروح فنية ذات قيمة جمالية رفيعة كتمثال نهضة مصر، بينما لايستطيعون اليوم وبعد عقود زمنية عديدة، وتنمية تعليمية وثقافية مستمرة، وازدياد أعداد الفنانين والمهندسين والمتخصصين، أن يواصلوا بنفس القيمة وعلى نفس القدر من المستوى الفنى مسيرة تجميل بلادهم وتحديث مدنهم على مستوى العصر، فإن نظرة فاحصة إلى ماتم إنجازه أخيرا لتبرهن لنا على أننا غير قادرين على الاختيار الدقيق والسليم، وهى صفة أضحت من صفات المصريين خلال العقود الماضية، فانعدام التخطيط، والتسرع فى التفكير،وعدم منح الوقت الكافى لدراسة المشروعات اكتفاء باسمها الرنان ومعناها السامى، وسيطرة جهاز الإداريين من الموظفين على آراء المتخصصين والدارسين، والربط بين إنجاز المشروعات ومناسبات معينةحتى يتم الافتتاح خلالها بأية طريقة كانت، وفى كل هذا لاندرك أن مشروعات تجميل المدن الكبرى - خاصة عاصمة البلاد - هى مشروعات خالدة، تمتد فى الزمن إلى ماشاء الله، وهى بهذا تستحق العناء والتريث، والدراسة والتمحيص ودقة التنفيذ حتى تخرج إلى النور فى أبهى صورة وأكملها.

وتعج مدينة القاهرة الكبرى بالعديد من الأعمال النحتية الركيكة، واللوحات الجدارية الهابطة فنيا، والتوافير الترخيصة، مما يسىء إلى تاريخ المدينة ومكانتها، ويقدم الدليل على تخلف الجهاز الإدارى وجهله بشئون التعمير والتجميل.

وحين تتجول فى شوارع وميادين القاهرة والجيزة فإن عينك تصدم بأشكال مشوهة لا معنى لها ولا دلالة، وتفتقد لأية قيمة فنية، والنماذج متنوعة مابين تماثيل لكلاب البحر والأسماك والضفادع والبلاليص والأوانى المرصعة بالموزاييك، والتماثيل المتواضعة التى تصلح لميدان فى قرية أو فناء فى مدرسة ثانوية، ناهيك عن النخيل البلاستيكى المضىء الذي انتشر فجأة فى شوارع وميادين محافظة الجيزة ، واضطر المسئولون عنه إلى إزالته بعد هجوم حاد من الرأى العام.

ومما يثير الدهشة أن مصر تزخر بكفاءات هندسية وفنية راقية ومع ذلك لانرى حولنا إلا هذا المستوى الردىء من الفن، فكيف لم تسمح آليات اختيار الفنانين وتكليفهم بإتاحة الفرصة للمواهب المصرية المتميزة لكى تكشف عن قدراتها، وتقدم أعمالا ذات قيمة عالية .. فتشرف بلدها وترفع من شأن فنها المعاصر؟

عشوائية التجميل فى الأقصر

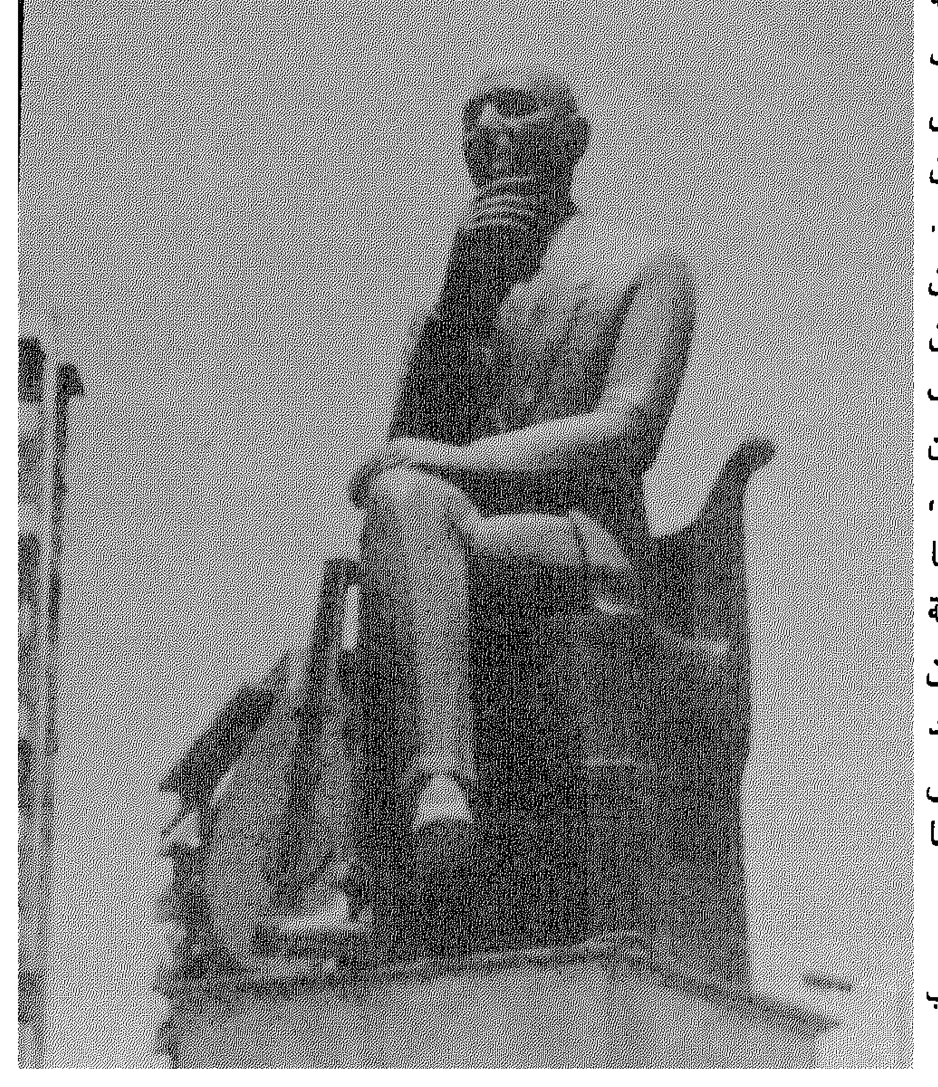
أمّا ماحدث فى مدينة الأقصر أخيرا فهو مأساة فنية بكل المقاييس، ويستحق

من تولى الإشراف والموافقة على المشروعات (التجميلية) فيها أن تتم مساءلته بتهمة إفساد الذوق العام، والإساءة إلى تاريخ مصر الفنى والحضارى، فمدينة الأقصر تتمتع بخصوصية فريدة ، فهى من أهم مدن العالم الأثرية، بما تحتوى عليه من كنوز حضارة إنسانية راقية، وتضم معابدها ومقابر ملوكها من الأعمال الفنية التاريخية - فى فنى النحت والتصوير - مايعدّ إعجازا بشريا فى كمال الذوق الفنى ودقته ورهافته، ثم يأتى القائمون على أمرها اليوم ليقيموا نوافير غريبة الشكل والتصميم منفرة اللون إلى حد إيذاء العين المدربة الحساسه، ناشرين بذلك عناصر التلوث البصرى فى أرجائها وعلى مقربة من معابدها الدينية القديمة.

والغريب فى الأمر أن الأقصر تضم كلية للفنون الجميلة تابعة لجامعة جنوب الوادى، ولكن المسئولين المحليين لم يلتفتوا إليها، ولم يستشيروا أساتذتها فيما ينفذون من أعمال فنية مما يثير التساؤل عن جدوى إقامة المعاهد والكليات المتخصصة فى ربوع مصر إذا لم يكن لها دور فى حياتنا العامة.

ملاحظات حول التماثيل الميدانية الجديدة

ولتماثيل الميادين أسس فنية وثقافية وتاريخية يجب أن تراعى بدقة شديدة، وكذلك مواقعها والوسط المعمارى الذي يحتويها، كما يجب أن يأتى تمثال الميدان فى نهاية الأمر كله صرحية شامخة تفرض وجودها على الفراغ المحيط والتمثال يجب أن يجسد شخصية صاحبه ويوميء إلى مجال تفوقه ونبوغه، وأن يحمل صفاتا اشتهر بها وأصبحت علامة دالة عليه، وفى جميع الأحوال فإن تمثال الميدان يجب أن يعكس شموخ الشخصية وكبرياءها، وتلك كلها عناصر



تمثال عبدالوهاب

افتقدتها مجموعة التماثيل التى نصبت فى أرجاء القاهرة والجيزة أخيرا، وعلى سبيل المثال فإن الوقفة التى اختارها الفنان لتمثال الشهيد عبدالمنعم رياض جاءت غير معبرة أو موحية بعظمة هذا القائد العسكرى الشجاع الذى واجه الموت بين جنوده فى الميدان، ولاتعكس مقدار قوته وصموده، وإصراره على النصر فى ميدان الحرب والقتال، فهى مجرد وقفة عادية لعسكرى يخطو ممسكا - فى ضعف - بنظارة الميدان، ويبدو كالتائه الباحث عن شىء مفقود. أما تمثال طه حسين فجاء أقرب إلى أن يكون تمثالا لكاهن حين اختار الفنان ذلك الرداء ليكسى به جسم التمثال، وهو رداء - رغم أن الفنان يقصد به الرداء الجامعى - لم يكن رداء مميزا لشخصية الأديب العبقرى، فهو فى بداية الشباب كان يرتدى الجبة والقفطان، ولكن الرداء الذى عرف به فترة طويلة من حياته فكانت السترة العادية أنيقة المظهر.

ولاشك فى وأن التفاصيل الصغيرة فى تمثال الميدان - داخل إطار الكتلة الصرحية. لها دلالة ورمزيتها كإيماءة الحركة وطريقة الوقفة، وشكل الثياب، وحركات الإيدى واتجاه النظرة، فكلها عناصر يجب أن تخضع للدراسة والبحث المستفيض التى يمكن أن يشارك فيه بعض معاصرى الشخصية من المثقفين والكتاب، حتى يأتى التمثال فى النهاية معبرا عن شخصية صاحبه أبلغ تعبير، وأن يقدمه فى الصورة النموذجية المتكاملة.

ويعدّ اختيار موقع التمثال من أهم عوامل إنجاحه، وذلك بإتاحة الفرصة لرؤيته بوضوح من جميع جوانبه، ومن أجل ذلك يجب دراسة الوسط المحيط من مبان ومنشآت، وضرورة مشاركة المصمم المعمارى لإيجاد علاقة متوازنة بين العمارة والنحت، وخلق الفراغ المناسب لوضع التمثال، فتمثال محمد عبدالوهاب فى ميدان باب الشعرية لايكاد تلحظه العين وسط الفراغ الضخم الذى ببتلعه، وتمثال عبدالمنعم رياض لايكاد يظهر وسط المسطحات العديدة التى تؤثر على إمكانية رؤيته، مابين مسطح، الكوبرى العلوى من خلفه والمبانى الضخمة التى تحيط به من باقى الجوانب، بينما يزيد حجم تمثال أم كلثوم فى الزمالك كثيرا عن الفراغ المحيط فيبدو مخنوقا، وإذا قارنا هذه الأوضاع بوضع تماثيل نهضة مصر وسعد زغلول وإبراهيم باشا مثلا فسنجد أن هذه التماثيل تتواجد فى فراغ يتناسب مع أحجامها ويتيح الفرصة الكاملة لرؤيتها.

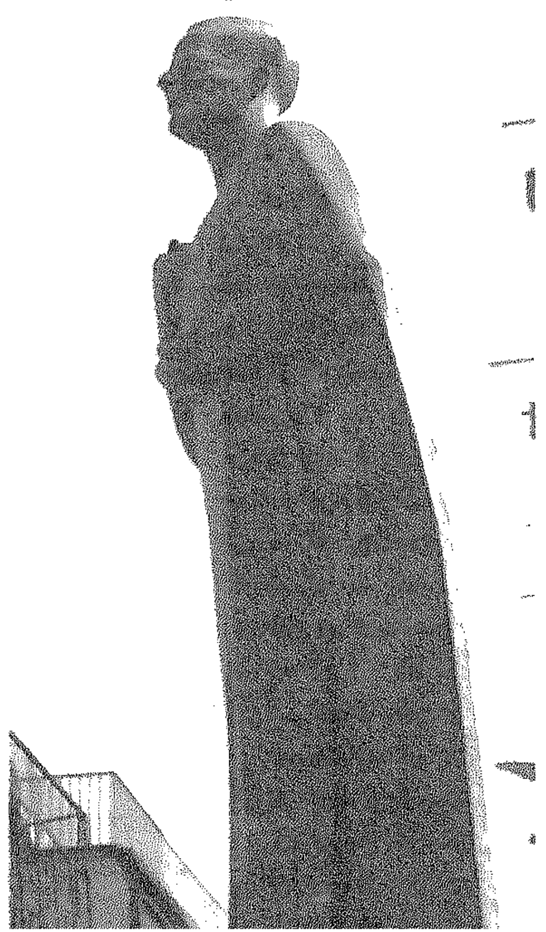
وللقاعدة التى ينتصب فوقها التمثال أهمية فائقة، ويمنح تصميمها الفنى قيمة إضافية، وبها تكتمل الرؤية الفنية والجمالية للتمثال، ويلاحظ فى التماثيل الجدبدة أن قواعدها فقيرة فى تصميمها، رخيصة فى خامتها، مما انتقص من القيمة الجمالية للتمثال نفسه، ولقد كان محمود مختار عبقريا حين أولى

قواعد تماثيله عناية قصوى، كما نلمس ذلك بوضوح فى تمثالين لسعد زغلول بالقاهرة والإسكندرية، فعلى جوانب قاعدة التمثال المقام أمام كوبرى قصر النيل نفذ مختار لوحات من النحت البارز تمثل ملامح من حياة المصريين وأحلامهم فى الحياة والتقدم، وذلك بأسلوب فنى يعتمد على الإيجاز البليغ والرموز المعبرة التى أكسبت تمثال سعد زغلول ثراء فى الشكل والمعنى.

تصوير أم تشويه جدارى

ولم تسلم المسطحات الجدارية من العشوائية فى التفكير وفى التنفيذ فمعظم اللوحات ذات تصميم ضعيف، وتنفيذ فنى ركيك لاينم عن خبرة وتمكن من أصول وتقاليد فن التصوير الجدارى، كما لاتربطها صلة وثيقة بالجدار نفسه ولابشخصية المكان، وإنما هى لطعات ملونة لاتحمل معنى أو دلالة، وصادرة عن مفهوم ساذج بأن التجميل هو أن تضع أشكالا وألوانا هنا وهناك كيفما اتفق ، ونذكر هنا كمثال تلك الجداريات المتقدة فى حى المنيب بالجيزة، والجدارية التى أطلق عليها جدارية نجيب محفوظ فى شارع النيل، واللوحة التى (تجمل) مدخل نفق ميت عقبة، وجدارية تمثل (ميكى ماوس) فى الإسكندرية، وكلها نماذج على أعمال


طه حسين




أم كلثوم



فنية تجارية تسىء للمكان الذى لو كان قد تم تنظيفه بطلاء مناسب لكان ذلك أفضل من جميع النواحي.

كذلك فإن ماتم اقامته بحديقة ميدان تريومف فى مصر الجديدة يعد مهزلة فنية لا مثيل لها، فهو عبارة عن كتل نحتية غريبة النسب، وقد رصعت بأشكال فرعونية تسىء إلى الفن المصرى القديم، ووحدات زخرفية بخامة الموزاييك، وهى فى مجموعها تمثل المستوى الفكرى والثقافى والجمالى المتواضع لأولئك المسئولين الذين باركوا وضعه هناك وهى تعد دليلا على فساد الذوق وهبوط مستواه.

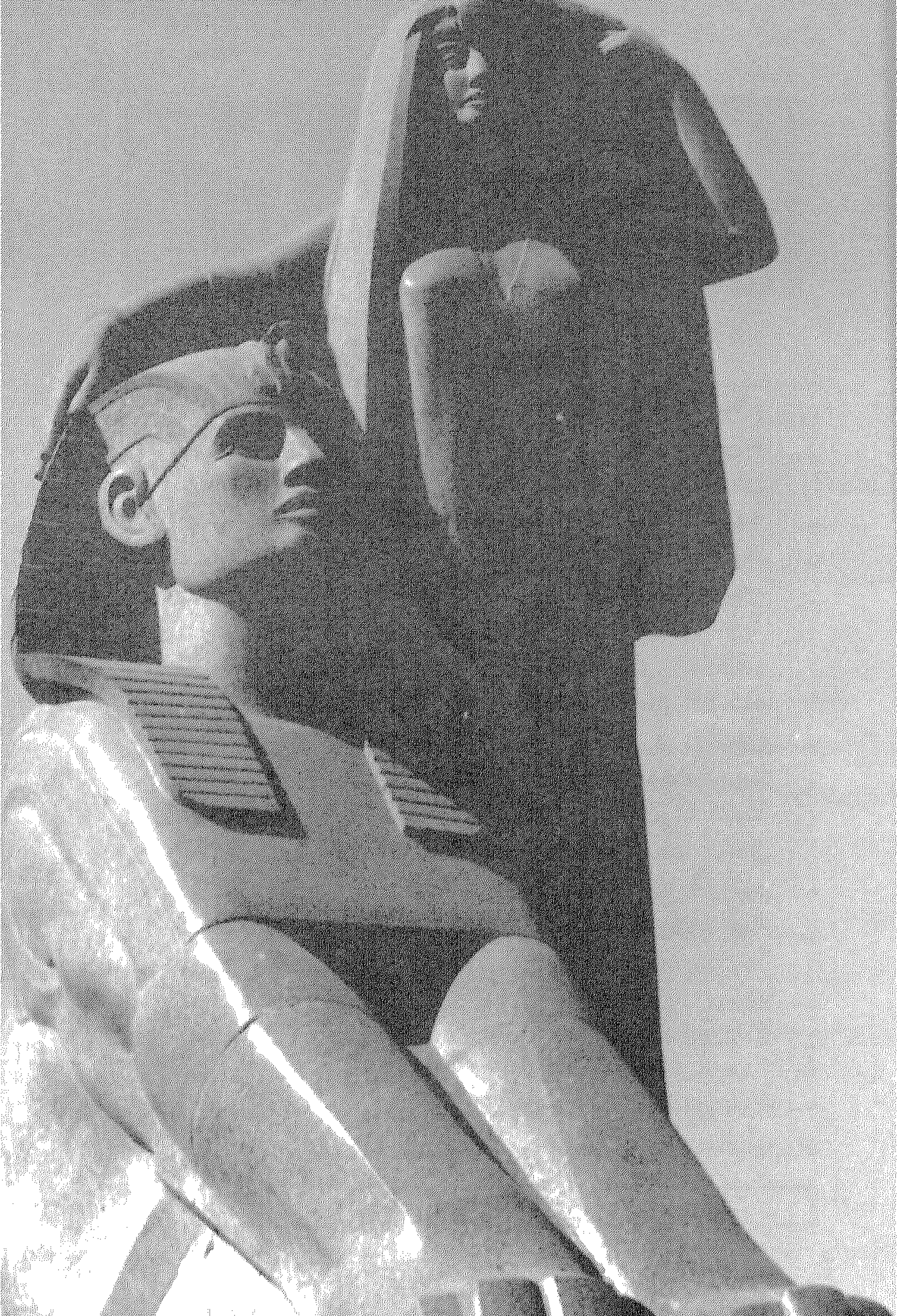
أما ماقامت به مدارس القاهرة والجيزة من تشويه لأسوارها الخارجية التى تصافح عيون الناس صباح مساء بأشكال قميئة، وألوان رديئة ورخيصة ورموز ساذجة، فإنه أبلغ دليل على العشوائية التى ينتهجها المصريون المعاصرون من أجل تجميل بلادهم.

مطلوب هيئة قومية لتجميل البلاد

إن حصيلة الأعمال الفنية والمشروعات التجميلية خلال السنوات الماضية وما تضمنته من مستوى فنى لايعبر عن القدرات الفنية للمصريين المعاصرين، يدعونا إلى المطالبة بكفّ أيدى المسئولين فى أجهزة الحكم المحلى عن تولى تلك المسئولية، التى يرون أنها مسألة هيّنة. وأنهم قادرون على إصدار الرأي فيها واتخاذ القرار النهائى بشأنها بعيدا عن ذوى الخبرة والتخصص، بل إن هناك بعضا منهم قد تخيل أنه فنان موهوب فأقام فى مدينة سوهاج – فى التسعينات – نصبا فى قلب المدينة، وكان تصميمه الركيك ذا اللون الوردى نموذجا للقبح يفرض نفسه على الرائح والغادى، وينفث سموم التلوث البصرى فى عيون الناس.

وعلى وجه العموم فإنه يجدر إعادة النظر فى أسلوب حكم المحليات وطريقة اختيار مسئوليه، فقد أثبتت التجربة فيما عدا استثناءات فردية محدودة – إخفاق النظام الحالى فى تحديث أقاليم مصر، بل إنه حوّل بعضها إلى مدن خراب، وعاد بها فى الزمن – سواء بالإهمال أو بالفساد – عشرات السنين إلى الوراء، وحتى على مستوى مدينة القاهرة فإنه فشل فى معالجة مشكلة النظافة، أو تمكين الناس من السير على رصيف آمن! فما بالك بتولى مسئولية إقامة مشروعات تجميلية كبرى.

لذلك فإن إنشاء هيئة قومية يديرها متخصصون أكفاء فى جميع النواحى المعمارية والفنية التشكيلية، ويتولى المسئولية الكاملة فى التخطيط والتنفيذ للمشروعات التجميلية بالأسلوب الذى يتلاءم مع تاريخ مصر ووضعها المعاصر، كأكبر دولة عربية وأفريقية كان لها السبق فى النهضة ومواكبة العصر الحديث. ■

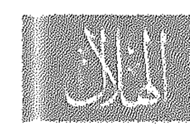


التأليف ... إلى أين ؟!

بقلم
د. محمد رجب البيومي

ذكر الدكتور طه حسين فى مقدمة فجر الإسلام أنه اتفق مع الأستاذين أحمد أمين وعبدالحميد العبادى على أن يؤلفوا أجزاء تاريخية تدرس الناحية الأدبية والناحية السياسية والناحية العقلية لتصور الفكر الإسلامي فى وضعه المقارب، وقد بدأ أحمد أمين بإخراج «فجر الإسلام» سابقا صاحبيه، وقال الدكتور طه حسين فى تقديم الكتاب !

«وثلاثتنا متضامنون في هذا الكتاب على اختلاف أقسامه، فقد استقل أحمد أمين بدرس الحياة العقلية، ولكنه قرأه معنا وأقررناه كما أقره ، فنحن شريكان فيه على هذا النحو، واستقل عبدالحميد العبادى بدرس الحياة السياسية، ولكنه قرأه علينا وأقررناه كما أقره فنحن شريكان فيه على هذا النحو ، واستقللت بدرس الحياة الأدبية، ولكننا قرأناه جميعا، وأقررناه جميعا ، فنحن جميعا شركاء فيه على هذا النحو» .

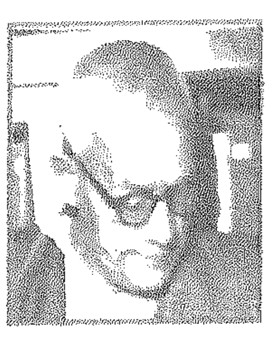


هذا ما قاله الدكتور طه . وقد مرت الأيام ، ولم نر من حقق هذه الأمانى غير أحمد أمين فى سلسلة «فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام» و«ظهر الإسلام»، فأين ما قرأه طه من مؤلف العبادى، وما قرأه زميلاه من مؤلفه:

سؤال توجهت به إلى صديق المؤلفين الثلاثة أستاذنا أحمد حسن الزيات، فذكر أن أعمال الدكتور طه الأدبية والسياسية والإدارية قد حالت دون أن يكتب ما وعد، أما الأستاذ عبدالحميد العبادى فقد ألف الجزء الأول فى الحياة



طه حسين





أحمد أمين

عبد الحميد العبادي



أحمد حسن الزيات

السياسية ، وعرضه على زميله ثم استشعر نقصا فى الكتاب فتحرج من نشره ، مع أنه قرأه على زميليه ، فأعلنا سرورهما التام بتوفيق المؤلف، وكان ذلك كافيا لإقناع العبادى، ولكنه تريث، ثم عرض الكتاب عليّ فى مسودته فرأيته لا يقل عما كتبه الأستاذ أحمد أمين ، وأشرت عليه بضرورة نشره فأحجم، لما يرى من نواح مفقودة فى تقديره، ومرت الأيام ، ومات العبادى ودفن كتابه معه، لشدة حساسيته العلمية، وهى حساسية لم تصادف موضعها الصحيح: هكذا قال الزيات .

الضمير العلمى

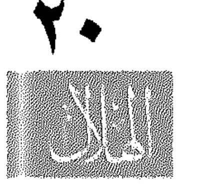
أذكر هذا الموقف، فى مقدمة حديثى عن فوضى التأليف المعاصر، فهذا كتاب أجمع الأساتذة الكبار أحمد أمين وطه حسين وأحمد حسن الزيات على تقديره ورجاحة منزلته العلمية . ولكن المؤلف الكبير ، وهو أستاذ التاريخ الإسلامى بالجامعة لأكثر من عشرين عاما، وقد تخرج على يده من التلاميذ من صاروا أساتذة يشاركونه العضوية فى هيئة التدريس ، ويحملون له من التجلة ما يحمله المدرس النابه لأستاذه الكفء البصير، هذا الأستاذ الكبير قد استشعر وجوها من النقص لم يلتفت إليها سواه ، فحمله ذلك على أن يهمل طبع صفحات سهر فى تسويدها الليالى الطوال ، ورأى ذلك مما يستريح له ضميره العلمى فآثر رضاه .

واليوم ماذا نقول فى هذا الطوفان الجارف الذى تصدره مئات المطابع ، وتسعون فى المائة منه مليئ بالغث الركيك ، وصورة من التقليد الشائه ، والتكرار السقيم ؟ لقد أصبحت عواصم المحافظات فى مصر مليئة بدور الطبع ، وأساتذة الجامعات فى الأقاليم ، وغير أساتذة الجامعات يمدونها بوقود لا ينفد ، وهذه حركة محمودة نشجعها كل التشجيع لو أطردت على وجهها الصحيح ، ولكنك تقرأ ما يقع فى يدك من هذا السيل الجارف، فترى كتابا لمؤلف لم يبلغ الثلاثين بعد ، وفى خاتمته صفحة تحمل عنوان (مؤلفات الكاتب) وهى لا تقل عن عشرة مؤلفات !! أو تزيد، فتساءل كيف استطاع هذا الناشئ المبتدئ أن يتحف القراء بهذه المكتبة

الحافلة، ثم تراجع نفسك ، فتقول لعله أحد الموهبين ، والله واسع الفضل العظيم ، وتقرأ ما بيدك من الكتاب ، فلا تجد غير الترداد المملول لصفحات من صحف الدروس الجامعية، قد نقلت باختلاف العبارة عن مؤلفات مماثلة ، بحيث لو عكف تلميذ مجتهد على تأليف كتاب فى الموضوع ذاته لأتى بما جاء به مدرسه المعضال ! ولا يستغرب القارئ كثرة المؤلفات لدرس ناشئ فإن الفقر العلمى فى أساتذة المادة ، جعل المدرس الذى يحبو حبوا فى السنة الأولى من تعيينه يأخذ ثلاث مواد على الأقل ، ويرى من حقه أن يؤلف فى كل مادة ليغنم ربحها المادى الجزيل، فإذا قضى ثلاث سنوات فحسب، فقد ألف عشرة ملخصات سماها كتبا: وصارت هى المثل المحتذى للطلاب !

المتشوقون للتأليف

فإذا تركنا الجامعيين إلى هواة التأليف ممن يحسبون أنفسهم على شئ، فإننا نجد فريقا من الشباب المتحمس يعشق الأدب قراءة، ولا يستمر فى القراءة حتى يؤتى أكله، ولكنه يتشوق للتأليف . وقد يجهد فى توفير أعباء الطبع حتى يهون العسير ، وهنا يتلقفه الناشر كما يتلقف الصائد عصفورا قريبا من مكمنه ، وما إن يقع فى يده حتى يستولى على ما فى جيبه، ولا يهمه إن كان الكتاب رديئا أو جيدا . وكثيرا ما يكون قصة أو مسرحية ، وتكون القصة غرامية ترضى المراهقات والمراهقين ، فللتوزيع أسباب يحذقها الناشر كل الحذق، فهو وثيق الصلة بشركات النشر فى الجرائد ودور الإعلان من ناحية ، ومن لجان الاختيار فى الوزارات المتخصصة من ناحية أخرى ، أما شركات النشر فيقدم لها الكتاب فى ورق السلوفان الملون ، ويكون الغلاف ذا إغراء جاذب ، فإذا به يحتل دواليب البيع جنبا إلى جنب الصحف والمجلات ،وفى القراء من يغتر بالشكل وحده أو بعنوان القصة الجاذب ، فيدفع الثمن عن سخاء ، وبذلك ينتشر الكتاب فى أرجاء الجمهورية على وجه سريع ، ومهما كان المرتجع كثيرا فما بيع منه أكثر، أما اللجان التى نختار الكتب ، فالرجل الحاذق يعرض خدماته للأعضاء نشرا وتوزيعا ، ويجد الاستجابة فى أكثر الأحيان فتمتلئ مكتبات المدارس والكليات ومخازن الوزارات لما كان التخلص منه أولى وأجدر ، وهكذا تنهال المؤلفات على القراء كما ينهمر المطر، بل إن للمطر موسما لا يتعداه ، وهذه تتقاطر دون انقطاع ، وأنت الآن تجد الشباب مدفوعا إلى القراء فتحمد هذا الاتجاه ، وقد ساعدت مكتبة الأسرة فعلا على التوجيه السديد الرائع حقا لكتب ممتازة بثمن زهيد ، ولكنها ليست كل شئ فى هذا المحيط الواسع الذى يموج بالتيار المتلاطم فيسئ إلى الناشئة إذ ينحدرون بما يقرءون ، وقد حيل



بينهم دين مايثمر ويفيد!... وإذن فلابد من تكوين رأى أدبى عام ، بقرر أن قدر التـأليف ليس بالكثـرة، أو بالقلة، بل بالطرافـة والابتكار ، وأن الأديب يأخذ مكانه اللائق بكتاب أو كتابين إذا أحسن تأليفهما وأن العالم يرتفع قدرا بكتاب واحد إذا أضاف من الحقائق ما يعد جديدا فى بابه ، وقد اشتـهر لدينا مؤلفون كبار لم يخرج الواحد منهم غير كتاب أو كتابين ، فتركوا دويا صارخا بهذه الصفحات المعدودات ، فقاسم أمين ليس له غير تحرير المرأة، وهو كتاب زلزل المجتمع المصرى ربان صدوره وانهالت عليه ردود شتى رأى المؤلف أن يرد عليها فى كتاب تال «هو المرأة الجديدة» وقد كان أسلوب قاسم متميزا فى التأليف الاجتماعى المستنير ، بحيث اقتفاه كثير ممن يشعرون بتأثيره أو لا يشعرون بل أن معارضيه قد تأثروا به منهجا وإن خالفوه اتجاها ، وكذلك كتاب (الإسلام وأصول الحكم) للاستاذ على عبدالرازق أحدث من الدوى ما لا يزال بتردد صداه إلى الآن ، ومع أنى أخالف المؤلف كل المخالفة فيما اتجه إليه من آراء لم يثبت صوابها لدى الفاقهين لا الهواة ، إذ هو فى رأيى قد اجتهد فأخطأ ، وللمخطئ ثوابه فإنى أقرر أن كتابا واحدا يحدث هذه الثورة الفكرية لهو أفضل من عشرين كتابا لا تضيف الجديد ، وقد بدأ الأستاذ كتابه سنة ١٩١٤، وأخرجه بعد عشر سنوات! بمعنى أنه عانى فى بحثه معاناة طويلة كانت مدعاة بحث متصل! فما يقول هؤلاء الذين يتباهون بكثرة مؤلفاتهم ، ويحرصون على رصدها فى كل غلاف، وهى كالبغاث كثرة بدون جدوى، أما الكتاب الثالث الذى أشير إليه فهو كتاب (إحياء النحو) للأستاذ إبراهيم مصطفى ، وهو وحيد لم يردفه المؤلف بتابع ولكنه أحدث ثورة فكرية فى محيطه ، ومازال موضعا للمجاذبة والمشادة بين كبار الدارسين يبحثون مسائل التيسير فى أبواب النحو ! وقد يكون من المؤلفات فى هذا المجال مالم أحط به ولكن دلالتها الواضحة على أهمية الكيف دون الكم يجب أن تكون موضع الاعتبار لدى من يكتبون فى كل شئ ثم لا ينتهون إلى شئ غير المباهاة بسرد المؤلفات فى غلاف الكتاب !

ولست أنكر علي المؤلف الموهوب ، والباحث المتمرس الدءوب أن يكثر التأليف أدبيا وعلميا ، وأن نتعدد مؤلفاته القيمة بمرور الأيام حتى تبلغ الستين أو السبعين أو تزيد فالاستاذ الكبير عباس محمود العقاد قد ترك من الآثار المتنوعة فى شتى فنون المعرفة ما جعله عملاق الفكر العربى فى عصره ، ولكن ذلك لم يأت من فراغ، بل من دراسة متصلة ، واطلاع مضن مرهق، وقد كانت كتبه تتوالى هادئة فى أيام شبابه ولكنه منذ الكهولة تدفق كالطوفان ، فكان مثل الشجرة الحافلة بالثمر الناضج ، تسقط

ثمرها الشهى لأول هبة من هبات النسيم! بعد أن طاب الجنى، وأينع الحصاد ، وللعقاد فى ذلك أشباه يقاربونه ولا يحاذونه وهم أولى بالتبجيل والاطراء، ومؤلفاتهم هى التى أسعدتنا فى عهد التكوين ، فظفرنا منهم بما لم يظفر أبناء اليوم إذ يتلفتون فى كل اتجاه فلا يجدون البديل، كنا فى عهد التكوين طلابا متحفزين نقرأ مؤلفات العقاد وطه حسين وأحمد آمين ومحمد حسين هيكل وتيمور والمازنى والحكيم والرافعى وشكرى والزيات والبشرى فإذا جاوزنا هؤلاء فإلى من يقتفيهم من أمثال محمد مندور وزكى نجيب محمود ومحمود شاكر وعلى أدهم وسيد قطب ونجيب محفوظ، وعلى باكثير ويحيى حقى و نقرأ لهؤلاء فنجد الغذاء القوى ، والتوجيه الحافز، ويكون مقال أحدهم كأنه كتاب ذو صفحات ! فماذا يقرأ جيل اليوم ، والمطابع لاتنى تصدمه بما يقطع به الوقت فى ضيق وحيرة ؟! بل إن الناشئ المتطلع يقرأ الآن القصة ذات الغلاف المبهر والورق المصقول ، فيجدها قريبة مما يتصور وينمثل ، فيخيل إليه أنه يستطيع محاكاتها ، وهو يستطيع فعلا ، فيمسك بالقلم ويضع قصة قريبة منها ، ويسارع إلى ناشر يغريه العنوان الجاذب، فيحلم بالكسب العاجل وقد حذق طريقة التوزيع، فيبادر بطبعها ، بعد أن يكلف أحد نقاد اليوم بكتابة مقدمة ترتفع بمسنوى القصة إلى منزلة الأعلام الكبار! وهذا مايحدث فعلا ، فإذا كثر اليوم الإنتاج القصصى فى غير طائل، فهذا سبيله ، وتلك دواعيه .

انفصام فى الأسلوب

وفيما نقرأه فى أكثر مؤلفات اليوم ظاهرة تدعو إلى العجب ، فإنك تشاهد شبه انفصام تام بين أسلوب كثير من الكتاب فى هذه الأيام والمؤلفين بنوع خاص وبين كتاب الجيل الماضى، فأسلوب المؤلفين اليوم لا ينقيد كثيرا أو قليلا بدقة التعبير ، وتواصل المعانى وصحة اللغة وسلامة النحو ، وكأن المعنى السطحى هو كل شئ، أما ابنداء القول بمقدمة تمهد لما بعدها وأما تناول العرض بانبساط يتم عن سعة الأفق، وشمول الإحاطة، وأما العناية بإيضاح النتائج التى انتهى إليها الفصل الممتد فى غير طائل، فكل ذلك لا يعنى أكثر كتّاب هذا الجيل وهم لا يستشعرون قصورا فيما يسطرون بل ربما عدوا الانفلات من قواعد الأسلوب العلمى تحررا من قيود يجب تحطيمها، وقد كانت الصلة مطردة بين جيل المنفلوطى، وجيل طه والعقاد ، بحيث لم يكن هناك خلخلة واضحة بين اتجاه واتجاه ، فالمحافظة على سلامة اللغة ، ووضوح الفكرة ، وجمال الصورة قاسم مشترك بين الجيلين ، مع عمق فى النظرة يحتمه ارتقاء الثقافة من جيل إلى جيل، ولكن تعال لنقرأ اليوم كتابا علميا أو أدبيا لهؤلاء الذين يندفعون إلى التأليف



المتواصل ثم قارنه بالكتب السالفة تعبيرا وتفكيرا وصورا ، حيث لا تجد وجها للمقارنة ، فتقرر في نأزم منفعل أننا نتحدث في الشارع ولا نكتب سطورا في صفحات ! والسبب راجع إلى تفاهة ما أخذه مؤلف اليوم من القواعد الأدبية في المدارس الثانوية ، ثم في الكليات الجامعية . حيث أحرز شهادة النجاح فعلا وربما كانت السبب الأول في وظيفته العلمية ولكن هذه الشهادة أصبحت في كثير من الأحوال كشهادات الميلاد، وشهادات الوفيات تعطى لأى طالب! وهل تصدق مثلا أن نتيجة اللغة العربية تعلن في السنوات المتوالية دالة على أن نسبة النجاح ٩٠٪ أو ٨٥٪ ثم تسأل المتخرج عن البدهي الذى كان يعرفه حامل الابتدائية القديمة فلا يجيب ! وبعد هذا كله يهيم صاحبنا بالتأليف ، ويحرص على أن تكون له قصص تتداول ، ودواوين شعرية تحفل بعشرات القصائد ، ومؤلفات تباع في ورق السلوفان مع باعة الصحف والمجلات !

سبل من الإطراء

ويأتى الحديث عن مقدمة الكتاب، وعن تقريظ بعض الصحف، فعهدنا بالمقدمة أن يكتبها أديب نابه، أو باحث متميز، لتكون بابا للتعريف بموضوعات الكتاب قبل أن تكون سيلا من الإطراء يوجه للمؤلف ، ولكن المشاهد فيما يطبع اليوم للشباب أن يكون كاتب المقدمة زميلا للكاتب ليس له من الرصيد الأدبى ما يجعله يقوم بالتعريف إلا على وجه مفيد ، وهنا لا أنكر أن جماعة من الشباب في العقد الثاني من القرن العشرين قد اجتمعت على مذهب نقدى في فهم الشعر ونظمه ، فأصدرت من الدواوين الشعرية ما كان نمطا فريدا في زمنه ، وتولى كل منهم تقديم ديوان أخيه الشاب، موضحا اتجاه المذهب الحديث في الشعر ، وهؤلاء هم الأساتذة العقاد وشكرى والمازنى، فجاء ت مقدماتهم ذات توجيه نير لا يفهم ما نظموه تمام الفهم إلا في ضوئه الكاشف ، هنا كان تقديم العقاد لديوان شكرى، وتقديم المازنى لديوان العقاد، وتقديم العقاد لديوانيهما فنا جديدا من الدعوة لمذهب جديد، وهذا شئ وما نجده من تقديم القصص والدواوين هذه الأيام شئ آخر إذ هو في الحقيقة تصفيق شاذ في غير موضع الاستجادة، وليست المقدمات دائما مما ينحو منحى التأييد المطلق، فكثيرا ما يكون للمقدم الجاد وجهة نظره المخالفة لبعض ما في الصفحات من اتجاهات ، فيشير المقدم إلى ذلك في التزام خلقى أمين، وأذكر أن الإمام محمد مصطفى المراغى قد قدم كتاب «حياة محمد» للدكتور هيكل وكتاب «صلة الإسلام بإصلاح المسيحية» للأستاذ أمين الخولى تقديما منصفا كريما لم يخله من لمحات النقد الهادف، فصادف استحسان صاحبى الكتابين قبل أن يصادف إعجاب الفضلاء من الدارسين كما أقول

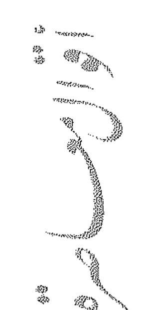
للذين يرون المقدمة فنا من فنون الدعاية الأخوية أو تشجيعا متبادلا بين زميلين، أقول لهم إن أمانة الكلمة تفرض على المقدم ألا يتجاوز الحق فيما يقول ، واستشهد هنا بإمام آخر هو الأستاذ الأكبر مصطفى عبدالرازق، حيث رجاه مدرس بالمعهد الأزهرى أن يقدم له كتابا فى العروض واستحيا الشيخ الرقيق ، وهو شيخ الأزهر أن يرد صاحب الطلب كسير الخاطر، فكتب مقدمة صادقة قال فيها :

«طلب إلىَّ فضيلة الأستاذ الشيخ مصطفى الصاوى المدرس بمعهد القاهرة أن أكتب مقدمة لكتابه فى العروض، ومع أنى درست العروض ، وحفظت فى عهد الطلب بعض متونه المشهورة ، وأديت فيه امتحان العالمية منذ عهد ، ومع أنى أقول منذ شبابى شعرا ، ولا أزال أميز بين المنظوم والمنثور ، لكنى أعترف أنى لست عروضيا بالذوق ، ولا أعتبر نفسى فنيا فى العروض ، وإذن فإنى أرى من الجرأة أن أضع مقدمة لكتاب رجل فنى يشتغل منذ سنوات كثيرة بتدريس العروض ، ولكن لا يسعنى إلا أن أثنى على أستاذ يضع مجهوده فى صورة كتاب يقدمه للناس ليستفيدوا من ثمرة مجهوده من ناحية ، وليستفيد هو مما قد يصل إليه من ملاحظات ، وأعتقد أن هذه هى السبيل إلى بلوغ الكمال ، لأن المؤلف يستطيع على هذا الوجه أن يعيد طبع كتابه، فيوضح ويستكمل ، وعلى هذا الاعتبار أشكر للأستاذ مجهوده ، وإخلاصه لفنه ، واسأل الله له التوفيق والنجاح » .

فماذا يرى القارئ فى هذا الالتزام الأمين بقول الحقيقة دون تزيد! إن ما كتبه الإمام مصطفى درس أدبي وخلقى معا ، وأظننى قد تحدثت من قبل عن هذه المقدمة على صفحات الهلال ، وقد اقتضى المقام أن أعيد الحديث ، فهو عبرة بالغة يزينها الترديد !

أما تقريظ الصحف، فيتوقف على الصلة الشخصية بمحرر الجريدة الأدبية ، وهى فى أكثر أحوالها صلة تقوم على الوساطة والمحاباة، وقل أن تهتم بنقد موضوعى يضع الكتاب فى الميزان الدقيق ، ولكن مجرد التنويه بالأثر يجعل الكتاب فى منطقة الضوء ، وهذا ما يحرص عليه المؤلف والناشر معا ، وحسبهما ذاك .

إن تحديد النسل البشرى لم يتيسر مع بذل الجهود فى سبيله ، ثم رئى أن يكتفى بتنظيم النسل لا تحديده حتى يتيسر التنفيذ ، ومع ذلك يواجه التنظيم صعوبات موقف اطراده المرجو فهل يمكن تنظيم النسل الفكرى على وجه يتيح للقارئ المتطلع أن ينقذ نفسه من غثاء متراكب يضر ولا يفيد! وأخيرا أكرر إعجابى الخالص بمكتبة الأسرة ، وأعدها جامعة ممتازة ، لها أساتذتها المؤلفون ، وطلابها الدارسون . ■



● «منتقدو حرب العراق ، يعتقدون أن تونى بلير سلم بلاده لهووس سلاح من تكساس» .

الكاتب الانجليزى ويليم رايس موج

● «مصر فى حاجة ملحة إلى إعداد ترتيب تفضيلى للموارد المتاحة والحاجات».

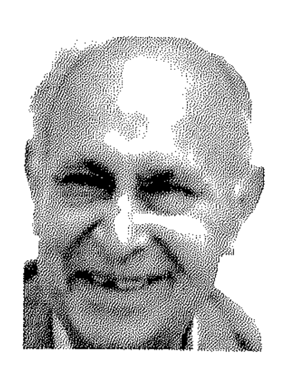
د. صليب بطرس
الأقتصادى والمحاسب الكبير

● «الجماهير تعبير أريد به ، منذ العصور ، اقتياد الناس إلى الشوارع من أجل أن تهتف ضد حريتها ، وضد حقوقها ، فى أن تكون أفرادا أخلاقيين ، مبدعين ، متساوين» .

المفكر اللبنانى سمير عطا الله

● «أحس بأنى خارج المجتمع الأدبى فى مصر ، لا هم يهتمون بى ، ولا أنا أهتم بهم» .

الأديب وديع فلسطين

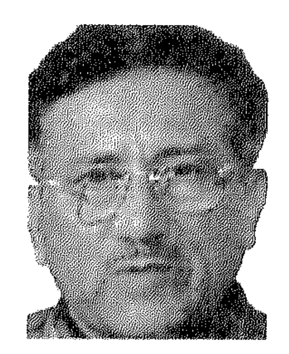

وديع فلسطين

● «بعض اليسار أصبح كالقبائل البدائية شعاره : تتغير الدنيا ، ولا نتغير» .

المفكر التونسى عفيف الأخضر

● «التحديث المستنير خير سبيل لمكافحة الإرهاب» .

برويز مشرف
رئيس جمهورية باكستان

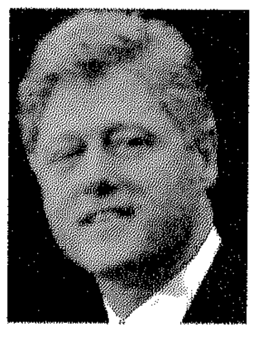

برويز مشرف

● «كل رجل دولة أوروبية غربية أسير شعورين متناقضين : فهو من ناحية يشعر بالارتياح ، لأن الولايات المتحدة الأمريكية موجودة ، ومن ناحية أخرى يشعر بالغيظ ، لأن حياة ورفاهية مواطنيه مرهونة إلى حد كبير بقرارات يتخذها رئيس دولة أجنبية ، وبعيدة» .

المفكر الألمانى ألفريد جروس

● «إن أردت صديقا فى واشنطن ، فلتقتن كلبا» .

مقولة الرئيس السابق
بيل كلينتون مولع بترديدها


بيل كلينتون

● «الله لم يتخل عن المؤمنين ، وإنما المسلمون تخلوا عن العلم» .

د. مهاتير محمد رئيس حكومة ماليزيا

● «هناك نوعان من وزراء المالية ، نوع يفشل فى مهمته ، ونوع آخر ينجو بجلده ، قبيل فشله !!» .

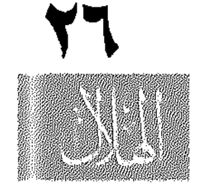
وزير المالية البريطانى

فى مقـــام



بقلم
د. يوسف زيدان

لطالما اشتقت لزيارة عاصمة الشام، ولطالما منعتنى عنها الموانع مع أننى درت عدة مرات فى فلكها الجغرافى، وكنت أرنو لدمشق من البلدان المحيطة بسوريا الأردن، لبنان، تركيا، وغايتى من دمشق، زيارة مقام شيخ الصوفية الأكبر: محيى الدين بن عربى.
كان الشيخ قد ولد بالأندلس سنة ٥٦٠ هجرية وارتحل عنها فى شبابه فنزل مصر وزار الحجاز ثم قر مقامة ببلاد الشام، حتى وفاته بدمشق سنة ٦٣٨ هجرية تقول المصادر التاريخية: ودفن بسفح جبل قاسيون، وقبره ظاهر يزار!



الإذن بالزيارة

لم يسمح الزمان – أم لم يأذن لى الشيخ بهذه الزيارة المشوقة إلا آخر يوم من شهر مايو الماضى .. فقد كنت فى بيروت لحضور مؤتمرين دوليين، أتاحا يومين بين الأول منهما والأخير، فاتجهت ليلاً من لبنان إلى الشام.. وعجبت من أمر الناس هناك، إذ لايقولون (دمشق) أبداً، وإنما يسمونها (الشام) ولم أجد عندهم إجابة عن السبب فى إطلاق اسم البلد على المدينة تذكرت أننا نفعل الشئ نفسه. فنقول (مصر) لمدينة القاهرة، ونسمى محطة القطار المتجه من الإسكندرية إلى القاهرة (محطة مصر) وكأن الإسكندرية خارج نطاق مصر تأملت الأمر، فرجح عندى أن العواصم كانت دوماً تختصر البلاد، ويسكنها الحاكم الذى يختصر العباد وكأن لاشئ خارج المختصرين.

ضريح الشيخ الأكبر

وصلت دمشق بعد ساعتين، منها ساعة راحت فى بوابتى الحدود بين البلدين (هل سيسقط يوما سور برلين الفاصل بين بلاد العرب) كان ليل المدينة رائقاً من بعيد، وبدت أنوارها المستحية المتماوجة مع الجبال المحيطة بها .. أفهمنى الجمال المحيط بالمدينة، سبب تعلق القدماء ببلاد الشام وشكواهم من طبيعة مصر، تذكرت مخطوطة البقاعى المحفوظة بدار الكتب المصرية (هل لاتزال محفوظة؟) وهى كتاب كبير غير منشور جعله البقاعى بعنوان " الإعلام بسن الهجرة إلى الشام ".

الصخب الدمشقى

فوجئت بصخب المدينة، وإيقاعها القاهرى سألت السائق عن عدد سكان دمشق، فقال : كثير .. كان كثير من الناس فى الشوارع والميادين المليئة بصورتى الرئيس الحالى ووالده الرئيس السابق، مليئة على نحو لافت داع للتأمل . تأملت الأمر، فوجدتها فى الواقع ليست صوراً لأشخاص، وإنما هى تمائم تحمى الواحد من غيره، وتحتمى بها الجماعة من الآخر المتربص .. كثير الحول والحيل وارتجفت من هاجس جاثم على الروح: هل ستلقى دمشق يوماً مصير بغداد الأخير؟ .. سيحرسها الشيخ الأكبر .. هذا الخاطر مر ببالى فهدأت قليلا وسرعان ما انزعجت ثانية مع خاطر قاصف مضاد : ولماذا لم يحرس الإمام عبد القادر الجيلانى بغداد مما عصف بها هذه الأيام، ومما عصف بها من قبل مرات بيد الصفويين، ومرة بيد هولاكو ؟ فمن

مدخل مسجد ابن عربى بدمشق

الذى يحمى البلاد إذن، هل ربها أم أربابها أم أقدارها.. أم دم أولادها .. أم دعوات الأمهات ؟ قلبى عليك يابغداد ملتاع .

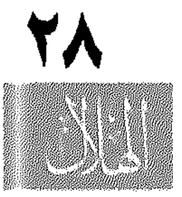
ذات مرة كنت محوطا بأهوال أهل الزمان، وبلغ بى السيل الزبى .. وفى لحظة وجد وفقد واعتصار، وقعت عينى على (رسائل محيى الدين بن عربى) فقمت إليها استفتح، لأرى ما يقول الشيخ لى .. فتحت الكتاب من منتصفه، فوقعت عينى على قوله :

لاراحة لك من الخلق، فارجع إلى الحق، فهو أولى بك !

فى ليلتى الدمشقية الأولى سألت نفسى، هل النزوع لزيارة مقام الشيخ نابع من شوق أم اشتياق، وتذكرت كلام الشيخ فى الباب التاسع والخمسين بعد الخمسمائة من كتابه الزاخر (الفتوحات المكية) حيث يقول : **الشوق يسكن باللقاء، والاشتياق يهيج بالالتقاء.. ماعرف الاشتياق إلا العشاق.. للنار التهاب وملكه، فلابد من الحركة، والحركة قلق، فمن سكن، ما عشق .. كيف يصح السكون، وهل في العشق كمون ؟ هو كله ظهور، ومقامه نشور**

الحضرة

سكنت فندقا بوسط دمشق، وأمضيت ليلة ملؤها القلق والترقب لنور النهار المؤذن بزيارة الشيخ فى الصباح الباكر قلت للسائق أريد مدفن الشيخ محيى الدين، قال ذلك فى (حى الشيخ محيى الدين) وانطلق دقائق، ثم أوقفنى بمدخل سوق دهليزى للخضار





« المجاورون » لمقام الشيخ الأكبر

والفاكهة، نظرت متسائلاً، فقال السائق ما مفاده إن مقام الشيخ بقلب هذا السوق الصاخب .. كنت أتخيل الأمر دوما بعكس ذلك : جبل اسمه قاسيون يمتد من تحته واد فسيح، وعند سفح الجبل ساحة فيحاء ممتدة الأطراف، في وسطها مقام متسام للشيخ، تحيط به مراقد للأولياء، تجلله رهبة ويلفه خشوع ..

صياح البائعين شوشني، وبعثرني في الممرات الضيقة، في منتصف السوق سألت بائع فواكه عن الشيخ، فابتسم بسمة عذبة، وقال: الباب أمامك .. كان البائع يفرش فواكهه في مدخل مسجد منخفض بضع درجات، مكتوب على بابه: **جامع الشيخ محيي الدين بن عربي، أنشاه السلطان سليم سنة ٩٢٤ هجرية!**

ما الذى دعا الفاتح العثمانى لبناء مسجد فوق مرقد الشيخ الأكبر، هل كان يتبرك به .. أم أراد للناس أن يتبركوا ليتفرغ هو للفتوحات؟ هل استبشر السلطان بالشيخ لأنه صاحب (الفتوحات) وهو يتوق أيضاً للفتوحات ؟ وهل ثمة صلة بين فتوحات الشيخ الأكبر (المكية) وفتوحات السلطان للبلاد الأوروبية والعربية .. وهل علم السلطان أن الشيخ كانت له مواقف فريدة من حكام عصره، حتى إنه كتب للملك الكامل يدعوه لجهاد الصليبيين بلغة حادة لم يسبق لحاكم عربى أن خوطب بها **(قال الشيخ للملك : إنك دنئ الهمة وإما أن تقاتلهم أو نقاتلك نحن)** .

كيف للصوفى، وهو المتعلق بالجانب الإلهى المتعالى، أن يقاتل لأمر دنيوى مهما بلغ

شـأوه . أم تراها إشـارة إلهيـة وردت للشـيخ تدعـوه لدعوة الملك للجـهـاد بهـذه اللغـة الحادة التي لم نعرفها في أسلوب ابن عربي ولماذا ينزعج محيي الدين بن عربي من غزو الصليبيين للشـام في زمنه، وهو الذي يقول في أبيات شعرية شـهيرة، إنه يؤمن بدين (الحب) المتجاوز كل الديانات:

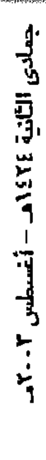
لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي
إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلا كل صـورة
فمرعى لغـزلان ودير لرهبـان
وبيت لأوثـان وكعبـة طـائف
وألواح توراة ومصحـف قـرآن
أدين بدين الحـب انى توجهـت
ركائبـه فالحب ديني وإيمـاني

.. ههنا لطيفة دقيقة، ومسالة عصية على الفهم فالبيت الأول من هذه الأبيات المذكورة، كنت دوما استحضره من ذاكرتي في مطلع هذه القطعة الشعرية .. وأوردته من ذاكرتي يوما في بحث انتهيت منه - كعادتي - ثم عدت إلى المصادر لأضع الهوامش والتوثيق اللازم للنصوص لم أتذكر موضع ورود الأبيات في كتب ابن عربي، فرحت أراجعها جميعها : الديوان، الفتوحات المكية، فصوص الحكم، الرسائل الصغرى .

العاشق الرباني

استغرق الأمر لليالي، حتى انقدح خاطري بأنها في كتاب (ذخائر الأعلاق) الذي شرح فيه الشيخ كتابه (ترجمان الأشواق) الذي أورد فيه أشعار قال معاصروه إنه تغزل فيها بفتاة أحبها اسمها النظام ابنه شيخة المقيم بمكة آنذاك (ابن رستم الكيلاني) يقول الشيخ في ديباجة (ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق) ما نصه:

الحمد لله الحسن الفعال الذي يحب الجمال .. أما بعد فإني لما نزلت مكة سنة ٥٩٨ هجرية ألفيت بها جماعة من الفضلاء ولم أرفيهم مع فضلهم .. مثل الشيخ أبي شجاع زاهر بن رستم الكيلاني .. وكان لهذا الشيخ رضي الله عنه، بنت عذراء، طفيلة هيفاء، تقيد النظر وتزين المحاضر والمحاضر وتحير المناظر، تسمى بالنظام وتلقب بعين الشمس .. ساحرة الطرف، عراقية الظرف، إن أسـهبت أتعبت، وإن أوجزت أعجزت، وإن أفصحت أوضحت، إن نطقت خرس قس بن ساعدة، وإن كرمت خنس معن بن زائدة، وإن وفت قصر السموأل خطاه ولولا النفوس الضعيفة السريعة الأمراض السيئة الأغراض، لأخذت في شرح ما أودع الله تعالى في خلقها من الحسن، وفي خلقها الذي هو روضة المزن، شمس بين العلماء بستان بين الأدباء، حقة مختومة، واسطة عقد منظومة، يتيمة دهرها، كريمة عصرها.. مسكنها جياد وبيتها من العين السواد ومن الصدر الفؤاد، أشرقت بها تهامه، وفتح الروض لمجاورتها

أكمامه .. عليها مسحة ملك وهمة ملك فقلدناها من نظمنا في هذا الكتاب (ترجمان الأشواق) أحسن القلائد بلسان النسيب الرائق وعبارات الغزل اللائق، ولم أبلغ في ذلك بعض ما تجده النفس من كريم ودها وقديم عهدها إذ هي السؤال والمأمول، والعذراء البتول، ولكن نظمنا فيها بعض خاطر الاشتياق، من تلك الذخائر والأعلاق .. فكل اسم اذكره في هذا الجزء فعنها أكني، وكل دار أندبها فدارها أعني ولم أزل فيما نظمته في هذا الجزء على الإيماء إلى الواردات الإلهية والتنزلات الروحانية والمناسبات العلوية، ولعلمها رضي الله عنها بما أشير إليه .. وكان سبب شرحي لهذه الأبيات، أن الولد بدراً الحبشي والولد إسماعيل بن سودكين (من تلامذة الشيخ المقربين) سألاني في ذلك، لأنهما سمعا بعض الفقهاء بمدينة حلب ينكران هذا من الاسرار الإلهية فشرعت في شرح ذلك .

البيت الأول : راجعت (ذخائر الأعلاق) فوجدت الأبيات هناك، وليس معها البيت الاول الذي أوردته منذ قليل، فظننت أن البيت سقط من هذه الطبعة، فرجعت لمخطوطات الكتاب، فلم أجد البيت.. سألت الزملاء المتخصصين والدراويش الهائمين بابن عربي، فلم يعرفه واحد منهم !

من أين أتيت بهذا البيت الذي هو على وزن وقافية بقية الأبيات، ولاينتظم معنى الأبيات إلا به، خاصة أن البيت (الثاني) يبدأ بواو عطف تصله بما سبقه .. لا إجابة حتى الآن عندي .

مقام الشيخ

دخلت من بهو المسجد، فألفيت شارة تدل على مرقد الشيخ، نزلت بضعة درجات آخر (هذا هو مستوى سطح الأرض قبل ثمانمائة سنة) وفي غرفة مستطيلة، داخل سياج من الفضة الخالصة، كان مقام الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي .. أشهر صوفي في تاريخ الإسلام .

بجوار المرقد ثلاثة مشاهد لأولياء أرادوا أن يدفنوا تحت أقدام الشيخ، وإلى جوارهم قبر الأمير عبد القادر الجزائري الذي ولع بالشيخ، ونشر لأول مرة كتاب (الفتوحات المكية) وكان إلى جانب تاريخه الجهادي المعروف، ذا نزوع صوفي أصيل .. بل كان مؤلفا صوفيا، نشرت له قبل أعوام شرحا صوفيا بديعا لأبيات صوفية مجهولة المؤلف شرحها أيضا صوفية آخرون – وتقول :

رأت قمر السماء فأذكرتني
ليالي وصلها بالرقمتين
كلانا ناظر قمراً ولكن
رأيت بعينها ورأت بعيني

يحيط بمرقد الشيخ مساحة تكفي لجلوس بضعة رجال، وفي الجانب المقابل مساحة أقل مخصصة للنساء،وقد أسدلت بين الجانبين ستارة خضراء مشدودة بخيط .. وجدت لي بين الجالسين بالمقام موضعاً، كانوا خمسة أربعة منهم من يقرأون



المصاحف همسا والخامس مطرق أمام مقام الشيخ في استغراق لا آخر له ،، لما دخلت، رفع رأسه فرأيت في وجهه ملامح شيخي - يوم كنت متصوفا - الذي فارق دنيانا قبل سنوات : مصطفى حلمي القادري .

جلست لأقرأ الفاتحة قرأت فواتح كثيرة فانفتحت أمام بصيرتي كوة سطعت منها تجليات الشيخ الأكبر، رأيته - على بقايا مرايا ذاتي - ساطعاً في أحواله ومقاماته، منذ بدو شأنه في بلاد الأندلس، حيث نشأ وتلقى العلم وبرقت أعلام ولايته، وهو بعد - بحسب تعبيره - لم يبقل وجهه (يقصد : لم ينبت له شارب أو لحية).

في هذا الوقت المبكر من حياة محيي الدين بن عربي، سمع به الفيلسوف الشهير أبو الوليد بن رشد ، وكان الأخير صديقاً لوالد محيى الدين فطلب ابن رشد من الوالد لقاء ولده .. فكان لقاء الفيلسوف والصوفي يحكي لنا ابن عربي لقاءه مع ابن رشد، فيقول ما نصه :

دخلت يوما بقرطبة علي قاضيها أبى الوليد بن رشد، وكان يرغب في لقائى لما سمع وبلغه ما فتح الله به علي في خلوتي، فكان يظهر التعجب مما سمع فبعثنى والدى إليه في حاجة، قصداً منه حتى يجتمع بى، فإنه كان من أصدقائه، وأنا (آنذاك) صبي ما بقل وجهى ولا طر شاربي فعندما دخلت عليه، قام من مكانه إلي محبة وإعظاما فعانقني وقال لي: نعم ! قلت له : نعم فزاد فرحه بي لفهمي عنه، ثم استشعرت بما أفرحه فقلت : لا فانقبض وتغير لونه وشك فيما عنده وقال لى : كيف وجدتم الأمر في الكشف والفيض الإلهى، هل هو ما أعطاه لنا النظر؟ قلت : نعم ولا، وبين نعم ولا تطير الأرواح من موادها والأعناق من أجسادها ! فاصفر لونه

وهكذا، كان لقاء ابن عربي وابن رشد عند تقاطع طريقين .. طريق الصبي العارج من العلوم الدنيوية إلى المعارف الإلهية، وطريق الشيخ الذي أفنى عمره في الاشتغال بالفلسفيات الأرسطية وهموم الدنيا لم يكن الفيلسوف ابن رشد مؤمنا بالطريق الصوفي، لكنه كان قلقاً حياله كان يعلم أن (الحقيقة) غير محدودة، وعزيزة المنال.. الحقيقة عند ابن رشد تتجلى حينا في ثوب فلسفي، وحينا في إهاب الدين، وحينا في إطار الدين .. فأين التجلي الأتم للحقائق، هل هو في الكشف الصوفي، وهل يدرك الصوفية (الحقيقة) بنوع من الإشراق والفيض، وهل هذا الصبي - ابن عربي - قد عرف في بداياته، الطريق الذي غاب عنه - ابن رشد - حتى في نهاياته.. أسئلة قلقة كانت تعتمل بعقل ابن رشد (الشيخ) الذي كما رأينا، زاده ابن عربي (الصبي) حيرة على حيرته .

انتباه

رددت من غيبتي بالمقام المتوغل في الأرض قدر قامتين، وانتبهت ثانية لمن حولي، كان الشيخ المواجه للمقام لايزال جالساً بإطراقته الخاشعة، وكان الجالسون حولي

لايزالون يترنمون بآى القرآن وسرت من خلف الستارة الخضراء همهمة النسوة اللواتى آتين مبكراً لمجاورة الشيخ، علت أصواتهن فى الجانب النسوى غير المعزول بالستارة وقف البعض منهن ليقمن الصلاة سألت الشيخ المهيب الجالس على باب المقام : هل تجوز صلاة النساء أمام الرجال ؟ نظر إلى هنيهة، ولم يجب ! عدت لأساله . هل أمضيت وقتا طويلاً حارساً للمقام ؟ هز رأسه إيجابا، ولم يزد .. أردت لو أسمع صوته، فسألته. هل هذا المقام هو قبر الأمير عبد القادر الجزائرى ؟ قال بهدوء : نعم .

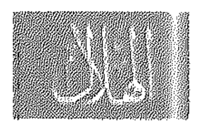
أعرف أن رفات الأمير عبد القادر انتقلت للجزائر قبل سنوات، وأقيم له مشهد عند الطريق الممتد من المطار إلى العاصمة .. لماذا حرص الجزائريون على نقل رفات الأمير.. هو لإبراز اعتزازهم به .. أما كان من الممكن الاعتزاز به وهو مدفون بالموضع الذى اختاره لنفسه .. تراهم رأوا فى (سوريا) بلداً آخر، قاصيا وإن لم يكن قاسيا! تألت ماذا لو قام كل بلد عربى وإسلامى بنقل رفات أعلامه المدفونين فى البلاد العربية الأخرى فى هذه الحالة سيتبش العرب أرضهم بطولها وعرضها .

الرحيل

كان النهار قد انتصف، مرت الساعات سريعة بمعية الشيخ ، وأهشنى فور خروجى من المقام المستقر فى بطن الأرض، وذلك الصخب الآتى من السوق المحيطة .. لم يصل شئ إلى مسامعى داخل المقام، فقط كان السكون ،والسكينة ،والغوص فى بحار ابن عربى .. تلك البحار الهادرة المغرقة، الساطعة المشرقة .

فى طريق خروجى من المقام، عرجت لزيارة المسجد .. مسجد فسيح، ذى حضور خاص . على بابه وضع احدهم (لافتة) للنظر، عليها صورة تليفون محمول عليه شارة المنع.. وبجوار الصورة كتب :

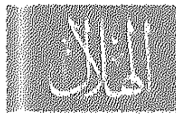
اقطع اتصالك بالخلق، واجعل اتصالك مع الخالق !



تسويق الأديان على الإنترنت

المخاوف والنتائج (٣)

بقلم
د. أحمد محمد صالح



يوجد خط باهت بين الإنسانية والتقنية ، تلك العبارة هى ملخص الأفكار المقلقة لرأى كورزويل (Ray Kurzweil) ٥٤ عاما ، مؤلف كتاب «عصر المكائن الروحية : عندما تتجاوز الحاسبات الذكاء الإنسانى» ، الذى نشر فى يناير عام ٢٠٠٠ ، وكورزويل له حتى الآن مئات المقالات و٤ مؤلفات حول التكنولوجيات ، ومستقبلها ، وتطبيقاتها على المجتمع ، وهو مخترع ومؤلف موسيقى ، وكاتب ومفكر مستقبلى مشهور حول العالم ، استلم ١١ دكتوراة فخرية في العلم والهندسة والموسيقى والإنسانيات من جامعات العالم ، وأطلقت عليه صحيفة الوول ستريت العبقرى القلق ! والبعض سماه ماكينة التفكير ، ويهتم فى مؤلفاته المستقبلية بالعلاقة بين الحواسيب والخلود ، ويأخذ كورزويل مكانه بشكل واضح كمستقبلي بارز في وقتنا الحاضر ، وتتم المقارنة بينه وبين توماس اديسون ! ، وكتاب كورزويل الأحدث والأكثر رواجا هو عصر المكائن الروحية

! نشر في ٩ لغات ، وحصل علي العديد من جوائز الاختراع والإبداع العلمي ، كتابه الأول «عصر المكائن الذكية» سمي أفضل كتاب عام ١٩٩٠ في الحاسبات ، وكتب في أواخر الثمانينات ، وكانت تنبؤاته دقيقة جدا حول التسعينيات وبدايات ٢٠٠٠ سنة . كتابه القادم عنوانه The Singularity الخصوصية أو التفرد ، إن صح التعبير ، وسيصدر خلال هذا العام (٢٠٠٣)

الروح ورقاقة السيليكون

كورزويل يدعو قرائه إلى «نخيل عالم جديد ، حيث الفرق بين الماكينة والإنسان ، فرق باهت وضبابى ، ويتلاشى الخط بين الإنسانية والتقنية ، وتتحد الروح مع رقاقة السيليكون ! وكتب يقول : أن الاخصائيين بعلم الأعصاب من جامعة كاليفورنيا فى سان دياجو ، وجدوا فى جسم الإنسان ما يدعونه وحدة قياس الاتصال مع الله «God module» مكان صغير جدا من الخلايا العصبية فى شحمة الأذن الأمامية ، التى تبدو منشطة جدا ، أثناء ممارسة الشعائر والطقوس والواجبات الدينية، ويمكن تحسين وتعميق وتفعيل تلك الممارسات من خلال مؤشر تنشيط تلك الخلايا! ويتوقع كورزويل قبل عام ٢٠٣٠ ، مكائن تنتج أقوالا مأثورة يستشهد بها الناس!» وهذه المكائن اشتقت من التفكير الإنسانى ، ولكنها فاقت البشر فى القدرة والحنكة ، وستطالبنا تلك المكائن أن تكون واعية ! وستطالبنا أيضا أن تكون لها حياتها الروحية .. ! وستعتقد تلك المكائن بأنها تملك تجارب روحية ، ولديها القدرة على إقناعنا بأن تجاربها الروحية ذات مغزى .. ! مكائن القرن الحادى والعشرين – المستندة على تصميم التفكير الإنسانى – ستفعل كما يفعل أسلافها الانسانيون – ستذهب إلى بيوت العبادة الحقيقية والمتخيلة للتأمل ، والصلاة ، والاعتراف بالذنوب والاستغفار !

ويضيف كورزويل ويقول : إن تقنية الاتصال بين العالم الالكترونى والعالم العصبى الإنسانى تشكلت فعلا ! ونحن سنكون قادرون على تغذية ممراتنا العصبية مباشرة بسيول من البيانات ! ولسوء الحظ ، هذا لا يعنى أننا قادرون على تغذيتها وتحميلها مباشرة بالمعارف ! لأن المعرفة تتضمن ملايين الرتباطات بين تلك البيانات ، وكذلك البنية المعرفية للإنسان لم تحصر فى مكان معين ، ولم يزود الإنسان بممر مباشر لتعديل كل تلك الارتباطات ، ماعدا الطريق التقليدى البطىء ، وهو التعلم ! ويتوقع كورزويل عام ٢٠٠٩ بأن الحاسبات ستلعب دورا مركزيا فى كل مظاهر التعليم ، وبحلول عام ٢٠١٩ ، يؤكد على أن عمليات التعلم ستتم بالكامل من خلال برامج الكمبيوتر المعتمدة على محاكاة المعلمين ، وحتى إذا كان المعلم إنسانا ، سيكون دوره مجرد مستشار من على بعد ، بدلا من المعلم التقليدى . وفى عام ١٠٢٩ ، يلمح كورزويل بأن البشر سيتعلمون مبدئيا عن طريق المعلمين التخيلين ، لكن التعلم سيتم بشكل واسع عن طريق زراعة وغرز البيانات فى الشبكة العصبية المتوفرة فى الإنسان ، التى ستستخدم لتحسين الذاكرة والفهم والإدراك ، ووقتها لن يستطيع الإنسان أيضا تحميل وتنزيل المعرفة مباشرة !

هل يريد كورزويل أن يقول لنا أن نيل وبلوغ المعرفة يبدو تشكلا كارتباطات وتراكيب ، لكن الروحانيات ببساطة مسألة ميكانيكية ، تتم بإدخال البرنامج الصحيح أو تحديد مكان الأعصاب الصحيحة للاستثارة ، أى باتحاد الروح ورفاقة السيليكون ، حيث يبهت الخط بين الإنسانية والتقنية كما يقول ؟! ..

في السنوات الأخيرة ظهرت عدة أبحاث وكتب أشهرها كتاب الدكتورة شرى توركلى Sherry Turkle الحياة على الشاشة . الهوية فى عصر الانترنت (١٩٩٧) ، ومازال يطبع منه طبعات جديدة كل عام ، والدكتورة توركلى من معهد ماساشوسيتس التكنولوجى ، وبدأت ملاحظتها المنهجية لقياس التغيير السيكولوجى لمستعملى الكمبيوتر مبكرا فى عام ١٩٨٠ حين حدثت ثورة الكمبيوتر الشخصى ، خاصة بعد انتشار نظام النوافذ كنظام تشغيل . ومن أجمل ما قالته فى كتابها : أن الكائنات الإنسانية أصبحت فى تشابك تام مع الكائنات التكنولوجيا ، وأيضا مع بعضها البعض ، لدرجة الصعوبة التامة فى التمييز بين ماهو إنسانى وما هو تكنولوجى ! فنحن نعيش الحياة كلها الآن على شاشة الكمبيوتر أو شاشة الانترنت ، حتى أصبحنا مخلوقات ميكانيكية تتكون من خليط من البيولوجيا والتكنولوجيا والشفرات المكودة ، وصار من الصعب المحافظة على المسافة التقليدية بين الإنسان والآلات ! وأصبحنا نعيش بدلا من ثقافة الحساب والأعداد ، ثقافة المحاكاة بالملاحصة والتفاعل فى بحور فضاء الانترنت ! وبينت نتائج دراسات علم النفس وعلم الاجتماع الحديثة ، أن هناك قلقا عاما بين البشرية من تآكل الحدود بين الحقيقى والتخيلى ، بين الحى والجامد ، بين النفس الاحادية والمتعددة! وهنا نتذكر مخاوف وقلق مارشال مكلوهان صاحب النظرية المشهورة فى الاتصال منذ أواخر الستينات على نوعية الحياة القادمة التى سماها حياة الديسكارنيت «The discarnate life» ، وفيها يستطيع الإنسان عن طريق التقنية الالكترونية ، التخلص من جسمه بشحمه ودمه ، وينتقل فورا إلى أى مكان يريده ! حيث يجتمع الناس فى أى وقت ، وفى أى مكان ، هناك فى الفضاء لكى يصلون ، أو يغنون ، ويتأملون أو يفكرون ، أو حتى يأكلون ! وإذا استبعدنا حكاية الأكل هذه ، فإن الناس فعلا الآن تجتمع هناك فى فضاء الانترنت لتصلى وتفكر وتتأمل !

الصلاة فى فضاء الانترنت

يمتلىء فضاء الانترنت Cyberdpace بالمحتوى الدينى ، ويقدم فرصا جديدة ، ويتحدى كل سمات واعتبارات الدراسات الدينية، سواء التاريخية أو النصية ، أو الدراسات الميدانية . علاوة على ذلك، يملك الانترنت كوسيط اتصالى مميزات فريدة ، التى ربما تعدل السياق الثقافى والاجتماعى للتدين الذى تنشغل به الدراسات الأكاديمية للدين . والثورة الاتصالية الجارية الآن ، ربما بقصد أو عن غير قصد ، سوف تغير واجهة ومظاهر الدين بتغيير السياق الاجتماعى والثقافى الذى يحدث فيه الدين . ومن المهم أن نفهم كيف ولماذا يحدث هذا التغيير ؟

وكما هو الحال مع ثورات إعلامية واتصالية سابقة ، بداية من اختراع الكتابة إلى



التليفزيون ، يجب أن نعترف بأن النتائج الاجتماعية يحتمل أن تكون عميقة جدا ، وإذا كانت الاستعمالات الدينية للانترنت تتشابه مع الاستعمالات الدينية للتليفزيون ، لكن يمكن رصد ثلاثة اختلافات مهمة وحاسمة : (١) الانترنت وسيط تفاعلى وليس مجرد جهاز للبث والإذاعة ؛ (٢) أى واحد يمكن أن يطلق نفسه على شبكة الويب العالمية ، مكونا موقعا بسهولة نسبية ونفقة صغيرة ؛ (٣) الانترنت عالمية الانتشار والوصول . ويمكن لأى إنسان فى العالم باستثمار مالى صغير نسبيا ، أن يجعل آرائه الدينية معروفة ، ومنتشرة ، على الأقل إلى مئات آلاف الآخرين فى كافة أنحاء العالم ، فشبكة الانترنت عالمية ومفتوحة نظريا وعلميا لكل شخص فى العالم .

ونزعم أن الأفكار والممارسات الدينية تواصل تزويدنا بالإطار النهائى للمعنى الضمنى الذى يطرحه الناس حول مسائل الهوية والمجتمع ، لكن الرابطة بين الانترنت والدين ، خلال تجارب تشكيل وصياغة الهوية والمجتمع ، رابطة جدلية ولس سببيه . لقد مارست الأديان نفوذا عميقا دائما على مفاهيمنا عن النفس وإحساسنا بالمجتمع ، لكن إذا تغيرت الشروط المادية لتسهيلات الاتصال ، تظهر ممارسات وطرق تفكير جديدة حول النفس والعلاقات الاجتماعية على مقابس واسع ، ومن ثم يتغير الإطار الدينى للشرعة الاجتماعية ، وبالطبع تلك التغييرات المستحدثة ستقاوم من قبل آخرين !

توظيف تقنيات الانترنت

كل الأديان كانت تعتمد على المطبوعات بكافة أشكالها لتوصيل رسالتها ، الآن أصبحت كل الأديان تدعو كافة المؤمنين لدخول عضوية فضاء الانترنت ! وفى إمكانك الآن ، إذا لم تكن عندك هواية معينة ، أن تنظم وتبنى لك موقعا على الانترنت ، وتقدم نفسك كواحد من الكهنة ، أو من الشيوخ ، والرهبان ، أو الوعاظ ، أو القساوسة ، أو الحاخامات!

وكل الأديان لها نصوصها المقدسة ، بل أن بداية الإيمان دائما تبدأ بالنص ، وقد فهم المسلمون والبروتستانتيون ، والكاثوليكيون ، الأرثوكسيون، واليهود وغيرهم من أصحاب الديانات ، فهموا جميعا أهمية النص ، فكانت الرسالة المطبوعة هى الأداة الإئيسية التى تستخدمها الأديان فى توصيل رسالتها ، ودائما كان أصحاب الديانات يملكون مخاوف وحساسية من أى تكنولوجيا جديدة يهدد مكانة وأهمية النصوص ، ويتوجسون من تهديد العقيدة نفسها ، فالمؤمنون دائما يلتفون ويتجمعون حول النصوص (أهل الكتاب)! ومن هذا المنظور احتفل كل أصحاب الدينات بالانترنت ، بتلك اللغة الإنسانية الجديدة hypertext، التى تفعل وتعنى النصوص ، رغم أن هذه اللغة تتطلب مهارات وعادات خاصة فى القراءة والكتابة ! بل أنهم أوجدوا تشابها بين خصائص النص المقدس ، سواء القرآنى أو التوراتى أو الانجيلى النص الاليكترونىhypertext ، فكلاهما نص مطبوع يتكلم Talk Text! وكلاهما يحمل من الاشارات والأدلة ، أو الصلات التى تشير إلى الأجزاء الأخرى!

لقد أدرك أصحاب الدينات المختلفة بسرعة كبيرة ما للانترنت من أهمية فى نشر أفكارهم والتبشير بها ، وايصالها إلى أوسع قاعدة ممكنة من أتباعهم أو للآخرين ، فقد نشرت صحيفه (صنداى تايمز) البريطانية ٢٠٠٢/٨/٢٠ تحقيقا موسعا عن العائلة اليهودية الاسرائيلية التى اعتنقت الإسلام بعد اقتناعها به ، عن طريق الدردشة على الانترنت . ويقول التحقيق الذى بعث به مراسل الصحيفة فى تل أبيب أن يوسف كوهن

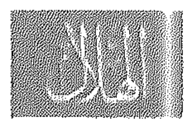
وزوجته لونا وصلا إلى إسرائيل من الولايات المتحده قبل أربع سنوات وأنهما كانا عضوين فى حركة شاس الدينية اليهودية المتشددة . وقالت الصحيفة بأنه بمرور الوقت تعرف يوسف كوهين عن طريق غرف دردشة الانترنت على أحد مشايخ المسلمين ، وتبادلا الآراء والأفكار حول الأديان ، واقتنع كوهين بان يحصل على نسخة مترجمة من القرآن ، ويقوم بدراستها . وتحت رعاية هذا الداعية الإسلامى تعرف يوسف على المزيد من الدعاة فى القدس الشرقية، واعتنق الإسلام هو وزوجته وأطفاله .

وعلى صعيد آخر وهو الأحدث والأطرف أن الصلاة أصبحت تبث على الشبكه ، ويمكن المشاركة فيها دون الانتقال إلى أماكن العبادة نفسها . وهذا بالضبط ما فعلته مؤسسة «لوريس للاتصالات» التى أنجزت المعجزات خلال حفل نهاية العام الماضى ، حيث كان يكفى لاتباع الديانة المسيحية أن يتطلعوا إلى شاشة ضخمة من نوع ويبكام لمتابعة الحفل الدينى الذى أقيم بالمناسبة ، كما كان يكفيهم أن يقوموا بإرسال بريد الكترونى لتقديم واجب الصلاة . وإذا كان المسيحيون يستخدمون الانترنت للصلاة ، فإن المسلمين واليهود والبوذيين استخدموها للدعوة والتبشير بدياناتهم، فمئات المواقع الإسلامية ، التى لم تترك شيئا يخص العلوم الإسلامية إلا ونشرته! ومن ناحية أخرى قرر أحد القساوسة الخروج عن سلطة روما من خلال موقعه على الشبكة ، حيث يقول الأسقف غايو الذى سبق أن نبذته كنيسة روما ، بفضل الانترنت لم نعد مجبرين على المرور عبر روما وسلطاتها ، فاليوم على الكنيسة أن تدمقرط وتنفتح على الخارج! والأمر ليس سهلا على الجميع ، فقد منعت السلطات الصينية الرهبان التبتيين من دخول المقهى السبرنيتي بالعاصمة «اليهاس» حيث كانوا يتواصلون ويبعثون بصلواتهم إلى «دهار مسالا» منفى الدايلي لاما فى الهند ، ورغم أن شبكة الانترنت أخذت طريقها لتحل محل الدروس الدينية التقليدية للمسلمين والمسيحيين واليهود ، إلا أن المناهضين للأديان يستطيعون بث نقدهم لها ، من دون أن تطالهم أيدى الدينيين والسلطات ، لأن جهل الهوية وإخفائها فى الانترنت ، يشجع على المناقشة والنقد ، وتفنيد المسائل الدينية والروحية والناس الآن فى الغرب يدخلون الانترنت على المواقع الدينية المسيحية واليهودية ، ويؤدون الصلاة وهم على الخط ، وأصبح من المعتاد عندما يواجه أحد الأفراد أزمة صحية ، تتوجه أسرته وأصدقائه لصلاة من أجله ، ليس فى الكنائس ، بل على الانترنت من خلال المواقع الافتراضية للكنائس والمعابد ، بل حتى أصدقاء الأسرة الآخرين من عقائد مختلفة ، يدخلون الانترنت ويرسلون صلاوتهم ، وهم مطمئنون أن أحدا لن يكتشف انهم على عقيدة مختلفة !

وفى دراسة أمريكية قامت بها مجموعة Barna البحثية ، تبين منها أن ٢٥٪ كل شهر من الأمريكان المتصلين بالانترنت ، يستعملونها لأغراض دينية ، من خلال الاتصال بالآخرين عن طريق البريد الاليكترونى . ومنتديات الدردشة ، والحوار ، لتبادل الأفكار والتجارب الدينية ، وأظهرت الدراسة تزايد عدد الأمريكيين الذين يستخدمون الانترنت لأغراض دينية أكثر من استخدامهم لها من أجل القمار أو لإجراء عمليات مصرفية أو متاجرة فى الأسهم . وقالت دراسة أخرى اذاعها مشروع بيو انترنت وآمريكان لايف منذ



شهور ، أن واحدا من كل أربعة امريكان بستخدمون الانترنت ، وحوالى ٢٨ مليونا تقريبا سعوا لاستقاء معلومات دينية أو روحية عبر الشبكة ، ويوميا يسعى ما يزيد على ثلاثة ملايين امريكى إلى الحصول على معلومات دينية عبر الانترنت وهو رقم يزيد عن العام الماضي بنحو مليونين . لكن الينا لارسن التى أعدت هذه الدراسة قالت أن الكنائس والمعابد فى الولايات المتحدة لن تبدو قريبا مهجورة من روادها ، لأن مستخدمى الانترنت يلجؤون إليها لإجراء أنشطة فردية مثل البحث ، فهم لا يستغنون عن الأنشطة الدينية الجماعية . وخلصت الدراسة إلى أن من يلجؤون لأنشطة دينية عبر الانترنت ويبحثون عن مواد تعليمية أو مرجعية ٦٩٪ ، ونسبة من يبحثون عن معلومات تتعلق بديانات أخرى أكثر من ٥٠٪ ، و٣٥٪ يقدمون النصائح الروحية بالبريد الالكترونى ، و٢١٪ يطلبون تلك النصائح ، وقالت الدراسة أن من يبحثون عن المعلومات الدينية عبر الانترنت ، على الارجح ينتمون إلى هيئة ككنيسة أو معبد أو مسجد ، ويواظبون على حضور الصلوات أكثر من غيرهم ، كما أنهم يميلون إلى وصف معتقداتهم الدينية بأنها قوية للغاية . وقالت لارسن أنه من غير المرجح أن تغير الانترنت آراء ١٤ بالمئة من الامريكيين ممن ليس لهم أى انتماء دينى ، وأردفت بقولها أن الانترنت تقوى وتدعم الحياة الدينية لمستخدميها ، وفى تقرير آخر نفهم منه حين اندفع الامريكيون إلى الكنائس والمعابد والمساجد ، فى أعقاب هجمات الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ ، تحول الكثيرون إلى أجهزة الكمبيوتر أيضا . وأوضح التقرير أن واحدا من كلعة أمريكيين يستخدمون الانترنت ، سعوا من خلالها للحصول على معلومات عن الإسلام بعد الهجمات ، وأن ٤١ بالمئة قالوا أنهم ارسلوا أو تلقوا طلبات بالصلاة عن طريق البريد الالكترونى ، كما تبرع سبعة بالمئة لأعمال خيرية عبر الانترنت ، وقال معتنقو ديانات أقل انتشارا أن الانترنت تسمح لهم بالبقاء على الاتصال بمعتنقى معتقداتهم . وقال ٦٢ بالمئة أنهم يعتقدون أن توفر المعلومات الدينية عن طريق الانترنت يشجع على التحلى بالتسامح ، بينما قال ٥٣ بالمئة أنها تسهل على الجماعات المتطرفة ايذاء مشاعر الغير . وتشير دراسة كومسكور بأن مواقع الويب الدينية تميل إلى جذب النساء أكثر من الرجال! وفى مقارنة بين السود والبيض هناك ، وجدوا ٣٣ بالمائة من السود على الانترنت و٢٠ بالمائة من البيض على الانترنت يبحثون عن معلومات روحية ودينية ، وأن النساء الافريقيات الامريكيات المتوسطات العمر على الأغلب يتجهن إلى الويب لأغراض دينية ، وأن الكنائس هناك استعملت البريد الالكترونى وبطاقات الأعياد على الانترنت لتجنيد الأعضاء الجدد .



وجود الدين على الانترنت

الدين حاضر جدا على شبكة الانترنت العالمية ، وخاصة فى منتديات الدردشة ومجموعات الاخبار . وكل الأديان الرئيسة العالمية التى سبق استعراضها ، ممثلة فى الانترنت ، بل كل الطوائف الكبيرة والصغيرة فى تلك الأديان موجودة على الانترنت ! وتقريبا كل الحركات الدينية الجديدة ، آلاف من الشيع والفرق والملل حاضرة وموجودة ، وصفحات ويب شخصية غير معدودة تدار من قبل مؤمنين عاديين ، وقيادات دينية معلنة ، ومرشدين، ودعاه ، ووعاظ ، وآخرون مهتمون بالأخلاق ، وأيضا هناك مرتدين وملحدين يهاجمون الأديان ! والشبكة افرخت مخلوقاتها الدينية ، فى مواقع الروحانيات ، والكنائس

المعابد الافتراضية ومواقع الأديان العلى الخط! هذا غير المواقع التجارية العديدة التى ترغب فى الربح على حساب شهياتنا الروحيه ، وتزودنا بالأخبار الدينيه ، وتبيعنا معدات دينية متنوعة من ملابس وكتب وشرائط ، وبخور وروائح ! وتوصلنا أيضا إلى مئات المواقع الدينية الأخرى . وهناك أيضا الاف المواقع التى انطلقت لتعليم الجمهور أو لمتابعة القضايا ، والمناظرات الدينية .

والناس على الانترنت يمكن أن يمارسوا القراءة عن الدين ، والكلام مع الآخرين حول الدين ، وتحميل النصوص والوثائق الدينية ، وشراء الكتب الدينية والمصنوعات اليدوية ، ويقوموا برحلات سفر تخيلية إلى معارض الفن الدينى والمتاحف الدينية ، ويشاهدوا روائع العمارة الداخلية للكنائس والمساجد والمعابد ، وبفتشوا فى الكتب المقدسة التى تستعمل أدلة الكترونية ويحددوا أماكن الكنائس والمساجد والمعابد والمراكز الدينيه وبشاركوا فى جلسات الطقوس والمراسيم والشفاعة والتوسط ، ويصوتوا على المقترحات التنظيمية وبروا صور زعمائهم الدينيين ، ويراقبون مقاطع الفيديو للمواعظ والتعاليم الدينية ، ويستمعون إلى الموسيقى الدينية مثل التواشيح والتراتيل والتسابيح والترانيم ، وأيضا إلى الخطب، والصلاوات ، والتزكيات والمحادثات ، وقريبا جدا سوف يستطيعون الاحساس بنسيج وبنيه الأهداف الدينية المقصودة على شاشتهم ، وبشمون رائحة حرق البخور التخيلى على المذبح المولد بالحاسوب !

لقد أصبح النمو فى الاستعمالات الدينية للانترنت شامل وسريع جدا ، بحيث من الصعوبة الشديدة حصر وإحصاء عدد المواقع المتوفرة ، فعددها يتجاوز قدرة مكائن وأدلة البحث على الانترنت ، لأن التغييرات سريعة ومتزايدة ، وصار من الصعب أن يحتفظ أحدا بخطوته فى فضاء الانترنت ، وظهرت حاجة ملحة ، على أية حال ، للبدء بدراسة وتخطيط ورسم تضاريس الانترنت بصورة أكثر وضوحا ودقة . ونحتاج لمعرفة أكثر حول المحتوى والمضمون الموضوع على الشبكة ، ومن الذى وضعه هناك ؟ ولماذا؟! لهذا يقتضى التحليل العلمى لمضمون محتوى مواقع الشبكة ، بالإضافة إلى مسح ومقابلة صناع تلك المواقع ، ورؤساء جلسات ، ومستعملى مواقع الوبب مثل جماعات المناقشة ، ومنتديات الحوار ، ومجموعات الأخبار ، وغرف دردشة . نحتاج لتوطير لمحة حياة أكثر دقة عن مستعملى المواد والفرص الدينية على الانترنت . نحتاج لمعرفة خصائص مستعملى الشبكة للمواقع الدينية العلى الخط (أعمارهم ، إنتمائهم العرقى ، نوعهم ، مهنتهم ، موضوعهم الجغرافى ، خلفياتهم الدينية ، الخ) . ماهى عاداتهم ، ودوافعهم ، والنتائج العائدة عليهم ؟ وهل التدين الافتراضى «Virtual religiosity» شيء حقيقى موجود فعلا ؟ فى هذه الحالة ، كيف ، ولماذا ، وماهى النتيجة ؟ وإلى أى التأثر ؟

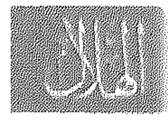
التأثيرات والمخاوف

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن ! كيف يمكن لهذه التقنية أن تؤثر على ديناميكايان من المؤمنين فى تجمع ما ؟ فالاتصال بالبريد الاليكترونى بين القيادات الدينية والأعضاء ، والاتصال بين الأعضاء أنفسهم ، يتم من خلال تبادل الاعلانات أو النسخ الالكتروبية من

نشرات أخبارهم وصحفهم ومطبوعاتهم ، وبعض الكنائس والمعابد لها بريد الكتروني لاستقبال طلبات الصلاة الالكترونية ، وهذا لاشك يحسن خطوط التفاعل ويعزز الاتصال بين المؤسسة الدينية المعنية وقيادتها وبين التابعين ، لكن في نفس الوقت يتوسط التفاعل بينهما ، وقد يأخذ مكان الثقافة الشفهية التي يتم فيها الاتصال بين الأعضاء عبر ساحة المؤسسة الدينية ، أو على فنجان من القهوة ، أو حتى عبر ثرثرة على التليفون ! فالنشرات الالكترونية الدينية من قيادة دينية إلى التابعين ليست تماما مثل الزيارة التي تتم شخصيا بين القيادة الدينية والتابعين ، ولا حتى مثل الثرثرة التي تتم عبر بريد الكتروني ، فلا شيء مثل الاتصال الشفهي ، والأثر الورقي للنصوص الدينية .

ومعنى تقني ثاني يظهر في ديناميكة مجتمع العقيدة ، وهو متعلق بالقوة والهوية - حيث يمكن «للعضو العادي» أن يلعب دور الزعامة الدينية بدلا من أحد رجال الدين ، ومن ناحية الأخرى ، اتصال الانترنت كنمط أساسي من الاتصال في مؤسسة دينية يمكن أن يخلق صنفين من العضوية للتابعين لتلك المؤسسة ، عضوية تقليدية ، وعضوية أخرى على الخط ! وأيضا كما هو الحال مع التليفزيون عدلت الانترنت سلوك الوعاظ والجمهور بشكل جذري! وعلى الرغمن من الممارسة شبه لموحدة للمواقع الدينية على الويب في حرصها على عرض المعلومات الدينية الأساسية والتاريخ المقدس لكل دين ، فقد ابدى الكثير من المراقبين والمهتمين عدم ارتياحهم ، وقلقهم الكبير حول انضمام الدين إلى التقنية ، لكنه ممكن في مجتمع العقيدة ، حيث الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية ، والمساجد الإسلامية يمكن أن تمد رسالتها وعضويتها إلى ما وراء مواقعها الطبيعية ، هناك في فضاء الانترنت ! لكن هل هناك تخوفات واخطار من التحويلات والتبديلات الدينية التي تتم عبر مواقع الويب ؟! هل يمكن أن تنتهي تلك التحويلات بخلق أديان هجينية جديدة من صنع التابعين أنفسهم ؟! هل يمكن أن يلجأ البعض إلى الإدعاء أنه واحد من التابعين لعقيدة معينة ، ويدخل بتلك الهوية مواقع تلك العقيدة ، كنوع من المغامرة ، والبعض كحب استطلاع ، وآخرون بأهداف تعصبية ضد تلك العقيدة ؟ هل يمكن لأعضاء في عقيده راسخة وقائمة أن يلجأوا إلى طوائف أو تجمعات دينية أخرى غريبة وشاذة ؟ على مقياس أكبر هل يمكن أن تكون المواقع الدينية في فضاء الانترنت هو البديل المكافيء عن اندلاع والتهاب الحروب الدينية مرة ثانية ؟ وهناك من يقول أن الدافع الديني يزدهر احيانا على أحاسيس ومشاعر كاذبة ، وعلى حاجات عاطفية ، وكبح أو سقوط ثقافي وتسطيح ثقافي ، فتندلع الحروب الثقافية الدينية !

والخلاصة أن الانترنت ، وخصوصا الويب ، أحدثت ثورة في التفاعل الإنساني ، وأمتد أثرها على الحياة الدينية ، ولو أن الدين على الشبكة لن يكون البديل لوجو (الإيمان الحقيقي ، لكن «الويب» عدل وغير الحياة الدينية . وإذا كانت ممارسة الدين حقيقة اجتماعية ،لذا فإن أي تغييرات في تلك الحقيقة ، خصوصا التغييرات المعميقة التي أحدثتها الويب ، ستغير معها التجارب الدينية . ■





حكاية حالة امريكية

الفكر العنصرى وازدراء البشر

بقلم
محمد يوسف عدس

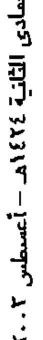
حيث تفرخ العنصرية تنعدم المساواة بين البشر وتتوارى حقوق الإنسان وتقوم العلاقات بين البشر على أسس من الاستعلاء والغطرسة والجور ، وهذه أبرز مصادر الاضطهاد والإرهاب والعدوان فى العالم .

ومما يثير الدهشة حقا أن تتوجه أمريكا بكل قوتها وضغوطها لمحاربة معاهد التعليم الدينى فى بلاد المسلمين بحجة أنها مراكز لتخريج الإرهابيين الكارهين لغيرهم من البشر ، بينما تتجاهل معاهدها التعليمية التى تكدس الفكر العنصرى وتمارس ازدراء البشر والتمييز العنصرى ممارسة عملية فى قلب الولايات المتحدة .

جامعة بوب جونز

هى جامعة دينية خاصة صاحبها «بوب جونز» الأصولى، تجمع فى تخصصاتها بين العلوم العلمانية والدينية ، وتوفر مناخا تربويا لتخريج آلاف الدعاة والمبشرين بالبروتستانتينية الجديدة ، وبالجامعة كنيسة يرأسها بوب جونز نفسه .

ولكن الجامعة كانت تمارس التفرقة العنصرية ضد الأمريكيين السود ، فلا تسمح للطلاب السود بالالتحاق بها أو بالمدارس التابعة لها، وفى هذا مخالفة صريحة لقانون الحقوق المدنية الذى





مظاهرات ضد التفرقة العنصرية تجتاح الولايات المتحدة الأمريكية

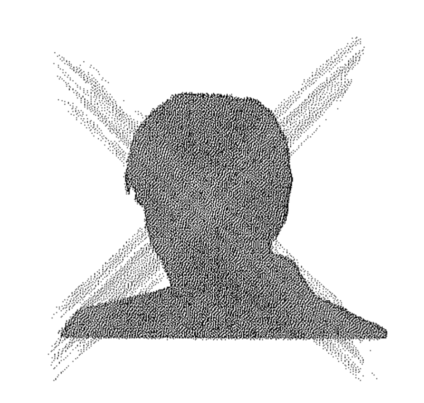
صدر سنة ١٩٦٤ فى عهد الرئيس جون كنيدى .

لذلك اعتبرتها السلطات الضريبية غير مؤهلة للإعفاء الضريبى الذى تتمتع به الجامعات والمدارس الخاصة. وقد بدأت المشكلة تتفاقم بعد تنبيه السلطات للجامعة بخطاب رسمى سنة ١٩٧٠م.. ولكن تمادت الجامعة فى موقفها العنصرى دون مبالاة، ومن ثم انتقلت الخلافات بين السلطات الضريبية وبين الجامعة إلى ساحة القضاء ، وظلت القضية تتصاعد حتى وصلت إلى المحكمة العليا الفيدرالية .

وخلال عقدين من الزمن ظل الجدل والمقارعة بالحجج متبادلا بين بوب جونز ومؤيديه من ناحية ، وبين القضاة وممثلى إدارة الضرائب والنقاد الذين هاجموا الممارسات العنصرية للجامعة من ناحية أخرى .

الغريب فى الأمر أن بوب جونز ومؤيديه حرصوا دائما على تصوير المسألة على أنها إصرار من الجامعة على مبدأ الحرية الدينية وليست موقفا عنصريا كما يرى الآخرون .

وقد شرح بوب جونز هذا الموقف فى مقال منشور فى «واشنطون بوسط» عدد يناير ١٩٨٢/٢٤م فقال . « النقطة الجوهرية فى القضية كلها هى الحربة .. حرية أن تمارس عقيدتك الدينية بإخلاص متحررا من تهديد سلطات



الضرائب أو أى مؤسسة رسمية أخرى تعارض عقيدتك التى تؤمن بها وتعتز بها » .

وهنا يأتى السؤال الكاشف .

ما الذى تتطلبه هذه العقيدة الدينية من المؤمنين بها ؟!

والإجابة عند بوب جونز هى :

« ألا نسمح باختلاط الأجناس » !.

* فهو لا يستطيع أن يفهم الآية القرآنية : ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ....** ﴾ ولو فهمها لأنكرها .

و ثم اعتادت إدارة الجامعة أن تقدم لكل زائر مستفسر خلاصة لسياستها فى القبول التى تأسست على عقيدة التمييز العنصرى فى بيان مطبوع يشتمل على العبارات التالية :

« إننا نؤمن بأن الكتاب المقدس فى عمومه يشير بوضوح إلى أن الرب الخالق قد خلق أنواعا من البشر مختلفين وفرق بينهم لحكمة سامية فأقام بينهم الحواجز العازلة .. وليست هذه الحواجز جغرافية فحسب ولكنها أيضا حواجز لغوية وثقافية وعرقية ... فالإله – عند بوب جونز – قد خلق الناس مختلفين قاصدا أن تبقى هذه الاختلافات مستمرة .. وأى انتهاك لذلك هو عصيان للمقاصد الإلهية وتمرد عليها .... «ولا يوجد مسيحى حقيقى واحد يفكر أو يسعى لانتهاك هذه المقاصد الإلهية أو التمرد عليها »،

ويرجع بوب جونز مشاهد الاضطرابات المأساوية التى تسود العالم الآن إلى مخالفة البشر للحكمة الإلهية فى فصل الأجناس بعضها عن بعض ، حيث يقول « إن العالم أثناء الاضطراب العظيم كما يصوره «سفر النبوءات» سوف يحكمه عدو المسيح (المسيح الدجال)، حاكم النظام العالمى الواحد ... وهذا الضجيج والصخب حول جمع الأجناس وتوحيد البشر تحت نظام عالمى واحد من شأنه أن يطمس الاختلافات والسمات المميزة بين الأجناس البشرية وهذا من عمل الشيطان ، وهو فتنة وشر .. وليس من حق أى مسيحى أن يساهم فى بناء عالم المسيح الدجال فالمسيحى لا يستطيع أن يفعل ذلك ويزعم فى نفس الوقت أنه يحب المسيح .

آخر فقرات هذا البيان الجامعى تكرار للأسباب التى جعلت الجامعة تتمسك بموقفها من المزج العنصرى حيث تقول :

« تعارض جامعة بوب جونز الزواج المختلط بين الأجناس لأن فى هذا تحطيم للحواجز التى صنعها الرب .. إنه مزج بين ما فصله الرب وكان قصده أن يظل

منفصلا .. وكل جهد فى تاريخ العالم لجمع البشر معا يؤكد غرور الانسان وتمرده على الرب ورفضه أن يبقى العالم كما أراد الله..»،

ويمضى البيان فى هذا السياق قائلا : «إن أى محاولة لتجميع العالم تحت حكم واحد هى اختراع بشرى لنظام يستبعد منه الإله .. وهو ترويج لوحدة عالمية تستغنى بقوتها المصنوعة عن الإله الخالق .. ونحن لا نريد أن نشترك فى هذه الجريمة .. نحن لا نستطيع أن نكون مخلصين للرب وفى نفس الوقت مخلصين للنظام العالمى الواحد .. من أجل هذا السبب نقف حيث نقف » .

مؤيدو سياسة بوب جونز العنصرية يقولون إننا لا نتحدث عن جنس منحط وجنس سام، فإن الجنس إذا كان من خلق الله فليس منحطا ، وعندما ينتقل الناس إلى الحياة الآخرة سيتوحدون مع المسيح .. أما هنا فى هذه الدنيا فإننا لسنا واحدا .. بل أجناس مختلفة وأمم مختلفة لا يصح امتزاجها .

محكمة شمال كارولينا

فى هذا المشهد نحاول أن نستشكف الأساس الأيديولوجي لهذه العقيدة العنصرية فى جامعة بوب جونز .

الزمن . ١٤ يوليه ١٩٧٥ .

والمكان قاعة محكمة شمال كارولينا .

والشاهد أمام المحكمة هو : مدير مدرسة «جولد سبورو» التابعة لجامعة بوب جونز .

يفسر جونز الاضطربات السماوية فى العالم بسبب مخالفة البشر للحكمة الإلهية فى فصل الأجناس بعضها عن بعض

تسأل المحكمة الشاهد أن يتحدث بالتفصيل عن السياسة السائدة فى المدرسة، وعلى أى أساس ترتكز هذه السياسة.

بدأ الشاهد إجابته بتلاوة فقرات من الكتاب المقدس تشير إلى أن كل السلالات البشرية تنتمى إلى ذرية نوح (عليه السلام) الثلاثة وهم حام وسام ويافث ، من هذه السلالات الثلاث الرئيسية ظهرت أقسام وفروع كثيرة تطورت إلى شعوب، فمن السلالة الأولى خرجت الشعوب الحامية شاملة للمشارقة والهنود والمصريين والأجناس السوداء، ومن السلالة الثانية خرجت الشعوب السامية ومنها اليهود، ولم يذكر الشاهد العرب ضمن هذه السلالة.

أما السلالة الثالثة فقد خرجت منها الشعوب اليافثية من القوقازيين والألمان والاسكندنافيين والإغريق والرومان والروسى.

ومضى الشاهد شارحا حيث قال: إن هذه الأجناس منفصلة بعضها عن بعض لأن الله أرادهم كذلك.. فلابد أن يحتفظ كل جنس بخصائصه المتميزة وأن يحافظ



عليها امتثالا لإرادة الله».

يقول الشاهد. «لقد أراد الله أن توجد أجناس منفصلة لها وظائف ولا ينبغي أن تختلط هذه الأجناس ثقافيا أو اجتماعيا أو بيولوجيا فذلك أمر الله الذى لا يحب انتهاكه . لا يصح أن يتبنى شعب ثقافة أو أساليب حياة شعب آخر سواء كان ذلك فى التعليم أو فى العبادة.. فالانفصال هو الأصل المحمود والامتزاج هو البدعة المرذولة».

ينتقل الشاهد بعد ذلك إلى ذكر الآثار المفجعة التى ترتبت على انتهاك إدارة الله كما صورها الكتاب المقدس في سفر التكوين.

حيث يسجل هذا السفر العواقب الوخيمة التى ترتبت على الزواج المختلط بين أفراد من جنس بأفراد من جنس آخر مختلف.. هنا تدخل الرب فى شئون البشر وصب غضبه عليهم فى ثلاث كوارث كونية مشهورة فى التاريخ.

فى الكارثة الأولى أرسل الله الطوفان فدمر به كل شيء على الأرض فيما عدا نوح وأهله.. وكان هذا الطوفان رداً على الغرور والشرور التى ظهرت فى الأرض عندما تزاوج أناس من سلالتين مختلفتين من البشر.

بمعنى لم تكن القضية فى نظر الشاهد هى قضية رسالة من عند الله رفضها أناس وكفروا بها فانتقم الله منهم.

فى الكارثة الثانية وفقا لرواية الشاهد نقلا عن الكتاب المقدس:تدخل الرب مرة ثانية عندما أراد أبناء نوح من أجناس متباينة أن يقوموا ببناء برج بابل.. وهنا يبدو أن امتزاج الأجناس سواء كان امتزاجا بيولوجيا (كما فى الزواج) أو ثقافيا حضاريا كما هو الشأن فى برج بابل.. هذا الامتزاج يعتبر فى الكتاب المقدس مجلبة للعنة الإلهية لذلك دمر الله برج بابل وشتت أصحابه فى الأرض.

أما الكارثة الثالثة فى نظر الشاهد استنادا إلى ما ذكره الكتاب المقدس فى سفر التكوين فصل ١٦، فقد حدثت عندما اتخذ إبراهيم عليه السلام وهو سامى من هاجر المصرية وهى حامية زوجة له فولدت له ابنه اسماعيل.

ولما كان إسماعيل - على هذا النحو - نتاجاً لاختلاط خصائص لأجناس متباينة كان رجلا وحشياً.. ومن ثم ورثت سلالته العربية طبيعته الشكسة فلم تنقطع بينهم الحروب والاضطرابات والعنف إلى يومنا هذا.

بعد هذا السرد التوراتى المفصل وما أعقبه من تأويلات قال الشاهد:

لن تجد فى الكتاب المقدس عبارة واحدة تقول. لا ينبغى تعليم الأطفال من أجناس مختلفة فى مدرسة واحدة.. ولكنك تفهم منه أنك إذا فعلت هذا

استدعيت غضب الله ولعنته وخالفت إرادته.. ذلك لأن الاختلاط العرقى فى التعليم يؤدى إلى الزواج المختلط.. فإذا حدث هذا تلاشى التمايز الذى خص الله به كل جنس على حدة وزالت الفوارق الوظيفية المرتبة على هذا بين الأجناس.. لذلك فإن مدارس جولدسبورو المسيحية تقبل فقط اليافثيين (يقصد البيض) وتمنع السود والملونين.

لا يزال المشهد مستمرا فى المحكمة ولكن جاء دور القضاة لتوجيه الأسئلة . وسنرمز لهم بحرف «م» وللشاهد بحرف «ش».و هكذا دار الحوار .

م · هل نفهم من كلامك أنك على يقين تام أن الزنوج هم أبناء حام بن نوح وليس يافث ؟

ش : تماما ..

م . وليس عندك أى شك أن اليونانى من ذرية يافث بن نوح ؟

ش · تماما .. تماما ياسيدى ..

م وهل الإيطالى أيضا يافثى ؟

ش نعم أنه كذلك ..

م · وأن جميع القوقازيين يافثيون؟

ش · بالتأكيد ..

م . والشرقيون جميعا من سلالة حام .. أليس ذلك صحيحا ؟

ش . صحيح ياسيدى..!

م فمن أين جاء الهنود الأمريكيون ؟

هنا تردد الشاهد قليلا ثم قال : ربما يحتاج الأمر إلى بعض البحث ولكن أعتقد بصفة عامة أنهم حاميون.

م · فما هو شأن الباكستانيين ..؟

ش إنهم ينتمون إلى الشعوب الهندية .. وأغلب سكان هذه المنطقة من الحاميين الذين نزحوا إليها من مناطق أخرى ..

م . فما هو شأن اللبنانيين ؟

ش : أعتقد أن غالبيتهم من الساميين .

م · هل تعتبرهم بهذه الصفة عبرانيين يهود .

ش : إنهم ينتمون إلى العبرانيين ولكن أظن أن بعضهم قد اختلطت دماؤهم بالحاميين .. وقد أكون مخطئا .. ربما لأننى أجيب بسرعة .. ولكننى أعتقد أننى مصيب .

م : أعتقد أنك قلت إن العرب هم أبناء إسماعيل .. أليس كذلك ..؟

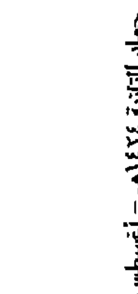
ش : تماما يا سيدى .

م : وهنا كان الزواج مختلطا بين أجناس مختلفة .

ش . نعم .. فقد كان اسماعيل ابن إبراهيم الذى أنجبه من هاجر المصرية وهى حامية .. تزوجها بناء على نصيحة زوجته سارة التى لم تكن قد أنجبت له أطفالا .. وقد أخبر الله إبراهيم أن هذا الطفل لن يكون وريثا لوعد الله الذى وعد به إبراهيم ..

م · وقد أنبأك كتابك المقدس أن عرب هذا الزمن هم نتاج هذا الزواج المختلط ؟

ش · نعم ياسيدى .. وتستطيع أن تتأكد من ذلك بنفسك فى الكتاب المقدس



.. كما يمكنك أن تلاحظ هذه السلالة (التعسة) وترى مسلكها حتى الوقت الراهن .

المشهد الأخير

جاءت قمة الدراما فى هذه القضية عندما تم عرضها أمام المحكمة العليا للولايات المتحدة . كانت طوابير الناس الذين ينتظرون دورهم للدخول إلى قاعة المحكمة لمشاهدة المحاكمة أطول ما حدث من طوابير فى تاريخ هذه المحكمة لعدة عقود .. وكان الناس خارج المحكمة ينتظرون صدور الحكم النهائي فى القضية بصبر نافد .

حاول محامى الدفاع أن يركز فى مرافعته على المبررات الدينية لسياسة الجامعة فى الفصل العنصرى فقال : إنها جامعة دينية تؤمن بالكتاب المقدس وتنفذ تعاليمه بدقة ، وتعتقد أن الكتاب المقدس يحرم الزواج المختلط بين الأجناس المختلفة ، ومن ثم ترى أن الفصل العنصرى فى الزواج واجب دينى

وحرمان الجامعة من الإعفاء الضريبى حتى تتخلى عن عقيدتها الدينية التى يفرضها الكتاب المقدس هو أمر غير جائز .

كان عدد قضاة المحكمة تسعة بينهم امرأة هى القاضية «ساندرا داى أوكنر» ، سألت محامى الدفاع عما إذا كان القانون ينطبق أيضا على الكنائس التى تمارس الفصل العنصرى بين السود والبيض ، وكانت إجابة المحامى بالنفى ..

الهجوم على المحكمة وتجريح القضاة

بعد ساعات قليلة من صدور حكم المحكمة العليا ضد جامعة بوب جونز فى يوم ٢٤ مايو ١٩٨٣ كان بوب جونز الثالث يقود صلاة فى كنيسته بالجامعة أمام حشد كبير من طلابها وأساتذتها وموظفيها ، فشجب قرار المحكمة بوصفه قرارا جائرا .. وهاجم القضاة هجوما عنيفا حيث قال : « إنه قرار ضد الدين وضد الإنجيل .. إنه تلويح بقبضة أرضية فى وجه الرب ... إن قرار المحكمة العليا يعنى أن عندنا إله آخر فى الأرض أهم من إله السماء الذى نعبده .. إله يسمى الدولة ... وعندما يجد أولئك الذين يعبدون الله أن المعتقدات الإنجيلية التى يؤمنون بها تتناقض مع قوانين الدولة فإن عليهم أن يخضعوا للدولة أو يتعرضوا لغضبها » .

ثم تحول بوب جونز إلى الهجوم على قضاة المحكمة فقال : «إن أمريكا تواجه مأزقا خطيرا بسبب حكم جائر أصاب الحريات الدينية فى الصميم .. حكم أصدره ثمانية رجال بلغوا من العمر أرذله وامرأة يائسة بائسة غبية .. إن

المحكمة العليا قد خرقت القوانين التى تحمى دين الدولة الأمريكية وانحازت إلى القوانين العلمانية ، وبهذا جعلت التابعين لدين الدولة الأساسى مواطنين من الدرجة الثانية ... لقد أخرجت المحكمة الدين من المدارس العامة من قبل وهاهى الآن تشجع الدولة على تدمير الكتاب المقدس فى المؤسسات الدينية المسيحية حيث لا يزال هذا الدين يحظى بالاحترام والرعاية ، . كل ذلك لترتفع راية الدين العلمانى الذى تعتنقه سلطة شمولية » .

وأخيرا ..

١ - ليس التمييز العنصرى موقفا سياسيا فحسب بل عقيدة دينية عميقة الجذور فى العقل الأمريكى البروتستانتى ، عقيدة مؤسسة على نصوص من الكتاب المقدس لا يمكن تجاوزها ، هذه العقيدة الدينية العنصرية هى امتداد للنظرة التوراتية اليهودية تجاه الأغيار ، وهى نظرة تقسم العالم إلى شعب الله المختار وإلى الأغيار من الشعوب الأخرى المنبوذة وهؤلاء جميعا هم الخدم والعبيد وتلك وظيفتهم المقدسة كما اتضحت جلية فى شهادة رجل الدين مدير المدرسة أمام المحكمة فى كارولينا ، ولذلك لا نستغرب شتائم القيادات الدينية الاسرائيلية للفلسطينيين والعرب ووصفهم بأنهم الأراذل أبناء الثعابين ، ولا نستغرب شتائم الأصوليين من أمثال جيرى فالويل وبات روبرتسون وغيرهما للمسلمين ولنبى الإسلام من ذرية اسماعيل .

ليس التمييز العنصرى موقفا سياسيا فحسب بل عقيدة دينية عميقة الجذور في العقل الامريكي

٢ - بالنسبة لوعد الله لإبراهيم أن تكون الأرض من النيل إلى الفرات ملكا لذريته هو وعد مقصور على ذرية ابراهيم من فرع اسحاق ويعقوب ، وأما إسماعيل فليس مشمولا بهذا الوعد الإلهى . إقرأ هذا فى الفصل السابع عشر من سفر التكوين (العهد القديم) .. عندما تجلى الرب ليبشر ابراهيم بابن آخر غير اسماعيل «فقال إبراهيم لله لو أن إسماعيل يحيا بين يديك ؟ فقال الله : بل سارة امرأتك ستلد لك ابنا وتسميه إسحق وأقيم عهدى معه ، وأما اسماعيل فقد سمعت قولك فيه ، وها أناذا أباركه وأنميه وأكثره جدا جدا ، ويلد إثنى عشر رئيسا وأجعله أمه عظيمة ، غير أن عهدى أقيمه مع إسحاق الذى تلده لك سارة فى مثل هذا الوقت من قابل».

* فلا بأس عندهم من كثرة عربية كثيرة ولكنها تبقى أمة من الخدم والعبيد فى المنظور التوراتى اليهودى الأصولى على السواء . ■

نهاية العروبة

بقلم
د. أحمد يوسف أحمد

يضطر المرء كارها أن يتوقف من حين لآخر عند بعض السخف الفكرى إذا كان الربط بين السخافة والفكر جائزا، ولو كان الأمر يقف عند حد أحاديث المجالس العابرة لجاز السكوت عليه ، لكن أنصار ذلك السخف - بغض النظر عن حسن نواياهم أو سوئها - يحاولون إلباسه ثوب العلم ، ونشره علي أوسع نطاق من منابر مؤثرة ترويجا لأفكار يراد لها أن تكون أصفادنا الجديدة في مستقبل إخطبوطى التكوين لن يقدر له أن يلتف حول وجودنا وهويتنا بإذن الله .

في هذا الإطار تأتى الأفكار التى ينطق بها أنصارها بحماسة شديدة - وربما كان بعضهم مقتنعا بها حقا - عن نهاية العروبة، فكلما تعرضت الأمة العربية لمحنة قاسية خرج من يبشرون بنهاية العروبة إيذانا بميلاد جديد، وربما ادعى بعضهم الحزن على ما وقع ولكن ما حيلتنا وقد أصبح من قبيل تحصيل الحاصل. يختلف منطق هؤلاء بطبيعة الحال عن منطق شاعرنا الكبير نزار قبانى عندما تساءل فى قصيدته المشهورة: متى يعلنون وفاة العرب؟ فقد كان يطرح تساؤل المكلوم فى عروبتنا محاولا استثارة الهمة لا قتلها .

لم يكن التجرؤ على العروبة فى ظنى ملمحا دائما فى حياتنا الفكرية ، ثمة فارق يجب أن يسجل أولا بين «العروبة» باعتبارها تيارا فكريا وغيرها من

التيارات الفكرية الموازية لها أو المتقاطعة معها أو حتى المتصادمة، فالتنوع الفكرى هو الأمر الطبيعى ، وبين محاولات الهدم السياسية المغرضة لرابطة العروبة وما بنى عليها من إطار سياسى . بعبارة أخرى فإن ثمة فارقا هائلا بين أن تتباين التيارات الفكرية فى مجتمع ما بين دينى وليبرالى وقومى واشتراكى... الخ، وتتنافس بل وتتصارع فيما بينها على الصعيدين الفكرى والسياسى، وبين أن تكرس فئة ما جهودها لهدم تيار بعينه تمهيدا لترتيبات جديدة يراد لها أن تسود . فى الحالة الأولى نكون ازاء حياة فكرية وسياسية عادية وصحية، أما الحالة الثانية فتنطوى على محاولة للتخريب الفكرى والسياسى .

عندما وقعت هزيمة ١٩٤٨ أمام اسرائيل كانت الصدمة مروعة فى العقل والوجدان العربيين، لكن جل الجدل الذى أعقب الهزيمة انصرف إلى إصلاح الذات سواء بمحاولة تمتين الرابطة العربية على النحو الذى ظهر فى توقيع اتفاقية الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادى فى عام ١٩٥٠، أو بموجة التحرر الوطنى والقومى الهائلة التى تفجرت فى عقدى الخمسينات والستينات من القرن الماضى وأنجزت ما أنجزته ، وعندما وقعت هزيمة ١٩٦٧ شغلت الساحة الفكرية العربية كثيرا بحديث التطوير الديمقراطى كمخرج من الضعف الذاتي العربى، ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن التيار الاسلامى الذى بدا وكأنه يحقق انجازات سياسية متصاعدة فى أعقاب الهزيمه لم يفعل ذلك لأنه انشغل بالحديث عن هدم العروبة، وإنما فعله لأنه أثبت فى ساحة الممارسة فاعلية أكبر فى تحقيق الأهداف ذاتها التى تصدى التيار القومى لتحقيقها فى علاقته بمحيطه الخارجي.

غير أنه منذ وقع الغزو المشئوم للكويت فى ١٩٩٠ علا صوت الهاتفين بسقوط العروبة. قال بعضهم إن الغزو قد وضع نهاية للنظام العربى، وكان لحديثهم أساس من المنطق وإن عابهم أنهم لم ينظروا سوى إلى مواقع أقدامهم، لكن البعض الآخر زاد فتساءل من قال إن النظام العربى كان موجودا من الأصل . ومرت الأيام والسنوات بطيئة لكن قدرة النظام العربى على البقاء تأكدت، إذ أخذ يستعيد عافيته بالتدريج، وعقدت قمة ١٩٩٦ فقمة ٢٠٠٠ التى قررت دورية انعقاد القمم العربية . لم تكن لدى أحد أية أوهام بأن تلك التطورات قد مثلت استعادة لفاعلية النظام العربى ، لكنها بالتأكيد أثبتت كما سبقت الإشارة قدرته على البقاء ، وكذلك على استعادة فاعليته ولو إلى حد ما ، كما يظهر على سبيل المثال فى ذلك

الدعم الاقتصادى العربى لانتفاضة الأقصى الذى لا يصل إلى المستوى المطلوب ، لكنه بالتأكيد لعب دورا فى تدعيم قدرتها على الصمود .

لكن الأمر العجيب حقا أن دعاوى نهاية العروبة قد تصاعدت من جديد بعد احتلال العراق ، ووجه الغرابة هنا أنه إذا كان من المفهوم أن يقال إن العروبة قد أخذت فى التآكل بواقعة الغزو العراقى للكويت فإنه ليس من المقبول أن نتحدث عن انهيار العروبة بمناسبة محنة هائلة تتعرض لها الأمة بأسرها بفعل سياسة عدوانية مجنونة تقودها نخبة أعمتها مصالحها . لا يسمع المرء حديثا من أى نوع عن العدوانية الأمريكية التى بدأت محاكمتها سياسيا فى الداخل الأمريكى ذاته وإنما يتركز الحديث كله حول عيوبنا الذاتية .

صحيح أن هذه العيوب حقيقية فى معظمها ولكن ثمة فارقا هائلا بين أن يكون حديثنا عنها هو حديث المواجهة والاصلاح وبين أن يكون حديث التبرير أو على الأقل التمهيد للوقوع فى براثن الهيمنة الأجنبية .

مناقشة واجبة لحجج واهية

لم يعدم القائلون بنهاية العروبة حججا تساند موقفهم، فأى عروبة تلك التى تبرر غزو بلد عربى لآخر؟ أليس النظام العراقى الذى اتخذ قرار الغزو فى إطاره نظاما يستند فى شرعيته إلى القومية العربية؟ بل إن هذه الممارسة بمعنى من المعانى لم تكن هى الأولى من نوعها ألم ترتكب نظم تستند فى شرعيتها بدورها إلى العروبة مجازر فى حق الفلسطينيين؟ ثم أين هى تلك العروبة بنظمها الرسمية وجماهيرها فى مواجهة ما وقع للعراق من عدوان؟ ألم تقف بعض الدول العربية موقف المساندة الصريحة للعدوان ويسكت البعض الآخر بينما يكتفى الفريق المتبقى باستنكار لفظى سرعان ما خفت حدته وتلاشت نيرانه ليحل محله قبول ضمنى بالاحتلال وتعامل معه؟ ألم يقصر الرأى العام العربى فى حركته التى لا يمكن مقارنتها بمثيلتها فى الساحة الدولية رفضا للعدوان على العراق وإدانة له؟ ولأنه كان من الصعب على القائلين بنهاية العروبة أن يتجاهلوا حقيقة اللغة الواحدة التى تجمع القاطنين على الأرض العربية فقد قبلوا على مضض أن تبقى العروبة على الصعيد الثقافى دون أن تتجاوزه بطبيعة الحال إلى النطاق السياسى .

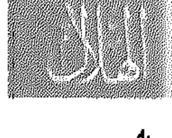
تظهر مناقشة الحجج السابقة وهنا ملحوظا فى منطق القائلين بنهاية العروبة، فالنظام العربى - على الرغم من بشاعة واقعة غزو الكويت - من أقل النظم الأقليمية فى العالم عنفا فى التعامل بين وحداته ، فغزو الكويت هو



الواقعة الوحيدة من نوعها فى أكثر من نصف قرن منذ نشأة النظام رسميا فى ١٩٤٥ . صحيح أن دوجة العنف هذه لا تقارن بالوضع السائد فى أوربا حاليا غبر أننا يجب أن نتذكر أن القارة الأوربية ظلت حتى نهاية الحرب العالمية الثانية - وهى نقطة زمنية ليست بعيدة تاريخيا - منتجة للعنف فى داخلها ونحو الخارج، ومعنى هذا أن واقعة غزو الكويت ليست بالتأكيد ولا ينبغى أن تكون شهادة الوفاة للنظام العربى ، وإنما هى مرحلة - صحيح أنها كئيبة - من مراحل تطوره يجب أن تفسح الطريق لمراحل أكثر رقيا على النحو الذى وقع فى القارة الأوربية على سبيل المثال .

أما القول بأن النظم المستندة فى شرعيتها إلى العروبة هى مصدر كوارث النظام العربى فليس سوى الخطأ بعينه ، ذلك أنه يتضمن تعميما مبنيا على حالة أو حالتين بينما شهدت التفاعلات العربية نماذج سلوكية مغايرة تماما لنظم ذات شرعية قومية . ألم يكن نبج النظام المصرى بعد ثورة ٢٣ يوليو تجاه المسألة السودانية مبنيا على حق تقرير المصير على الرغم من اعتراض فصائل عديدة فى الحركة الوطنية المصرية آنذاك أو على الأقل تحفظها؟ ألم يكن نهج النظام نفسه تجاه مسألة انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة فى ١٩٦١ قائما على رفض استخدام القوة المسلحة لابقاء سوريا فى دولة الوحدة على الرغم من حقه قانونا فى ذلك، وعلى الرغم كذلك من الضغوط التى مورست على جمال عبدالناصر فى الاتجاه المضاد؟ ألم يعمد النظام اليمنى الحالى ذى التوجهات القومية إلى حل كل مشكلاته الحدودية مع جيرانه بالوسائل السلمية على الرغم من الاهانات واتهامات التفريط فى الوطن التى تعرض لها من خصومه السياسيين وبالذات فى قضية احتلال أريتريا لجرر حنيش اليمنية؟ لماذا إذن الإصرار - عمدا أو باللاوعى - على اجتزاء حالة غير سوية والتعميم منها على النظم ذات الشرعية القومية ككل ؟

ولماذا هذا التجاهل التام للعنف الذى ينتجه خصوم العروبة على أرضها وفى الساحة الدولية ، فإذا كانت المقابر الجماعية تكتشف فى العراق لتكون علامة على ممارسات نظام بائد لماذا لا يكلف هؤلاء أنفسهم مشقة الإشارة الى المقابر الجديدة التى خلفها العدوان الأمريكى على العراق والذى دفن آلافا من العراقيين ليس بمقدورنا الآن أن نحصيهم عددا إلى أن يتم زوال الاحتلال الأمريكى بإذن الله لتفتح صفحتهم المخزية فى سجل الجرائم ضد الانسانية؟ وإذا كانوا يتحدثون بحماسة



عن الاستبداد السياسى فى العراق فى ظل نظامه السابق وعن ممارسات صدام وولديه وأقاربه فلماذا لا يكلفون أنفسهم مشقة تفقد الواقع العربى ولو بنظرة عابرة لكي يكتشفوا بيسر أنه يحتاج منهم إلى بعض هذه الحماسة الليبرالية ؟

أما الاستناد إلى تهافت مواقف النظم العربية تجاه العدوان على العراق لإثبات نهاية العروبة فهو فى غير موضعه ، إذ من قال إن الرابطة العربية الحقة يمكن أن تبنى على أداء تلك النظم ؟ وإن كان يتعين علينا للأمانة أن نشير إلى أن شراسة الهجمة الأمريكية تبرر بعض هذه المواقف وإن لم تغفر لتلك النظم تقاعسها عن تطوير نفسها إلى الحد الذى أوصلها لهذا المستوى من الهشاشة فى مواجهة السياسة العدوانية الأمريكية . وأما الاحتجاج بضعف حركة الرأى العام العربى تجاه العدوان على العراق فهو غير دقيق ، ذلك أن الجماهير العربية تكاد أن تكون على قلب رجل واحد فى رفضها لذلك العدوان ، وإن كانت لم تصل إلى الآن إلى مستوى الفاعلية المطلوب كي تكون قادرة على التأثير فى القرار السياسى فى بلدانها لأسباب لا مجال الآن لمناقشتها ، ومع ذلك تبقى هذه الجماهير حاضنة لقوى المقاومة للسياسة العدوانية الأمريكية الاسرائيلية تجاه الوطن العربى متأهبة لدعم أى تغيير حقيقى إلى الأفضل فى الواقع العربى ، ناهيك عن أن قدرتها على التأثير قد تتصاعد مع تبلورتطورات عربية (كالمقاومة العراقية للاحتلال الأمريكى) أو دوليه (كتضييق الخناق على بوش وبلير لتورطهما فى الكذب الصريح لتبرير العدوان على العراق).

يستحق القائلون ببقاء العروبة على الصعيد الثقافى قدرا من الشكر دون جدال ، غير أن التنبيه واجب إلى أن الظواهر الاجتماعية لاتوجد منبتة الصلة ببعضها البعض. فليست العروبة الثقافية مجرد قصيدة يطرب العرب لسماعها ، أو أديب تقرأ له غالبية النخبة المثقفة، أو صحيفة واسعة الانتشار ، لدى القراء العرب أو مطربة يجمعون على تفردها ، أو مسرحية يقبل المشاهدون عليها فى عديد من الأقطار العربيه ، وإنما هى قبل ذلك كله وبعده حقيقة هويه وانتماء . ومنهما تبدأ العروبة السياسيه وتنبعث وتقوى وترسخ أقدامها وتؤسس كيانها .

العروبة ليست إنسانا يموت

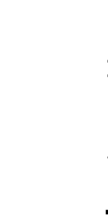
ثم ما هى حكاية نهاية العروبة أصلا؟ وهل يكون الحديث عن مثل هذه الظواهر الاجتماعية شديدة التعقيد فى تركيبها بهذه الخفة؟ إن العروبة ليست إنسانا يموت فتتذكر محاسنه وعيوبه، وقد يمد فى ذكره بعض الوقت لولد صالح أنجبه أو عمل طيب قام به لكنه يبقى فى كل الأحوال مجرد ذكرى، وإنما العروبة كالأرض الصالحة قد تصيبها الكارثة



حينا لإحمال أصحابها أو لعوامل خارجة عن إرادتهم أو للأمرين معا ، غير أن الكارثة قد تدوم عاما أو أعواما ليعود للأرض ازدهارها وإيناعها من جديد حين يقدر لها من يحسن زراعتها ويجيد التحسب للعوامل الخارجية المتربصة بها ، لقد وقع العرب بأسرهم تقريبا تحت الاحتلال والهيمنة الأجنبية لكنهم استردوا استقلالهم فى واحدة من أشرس وأعظم معارك التحرر فى القرن العشرين ، فماذا كانوا فاعلين ياترى لو قدر لهم أن يصدقوا من يقول إن هويتهم القومية قد انتهت بواقعة خضوعهم للاحتلال والهيمنة؟ وتعرضت فلسطين ومصر وسوريا والأردن ولبنان لاحتلال اسرائيلى فى ملابسات مختلفة ولكن القدرة على المقارنة والتحرير كانت لافتة كما تشهد بذلك المقاومة الفلسطينية وحرب الاستنزاف وحرب أكتوبر والمقاومة اللبنانية. وها هى العروبة تتعرض الآن لمحنة الاحتلال الأمريكى للعراق ومع ذلك فإن الشعب العراقى يفاجئ أشقاءه العرب والعالم بأسره بقدرة متصاعدة على المقاومة لم يتوقعها الكثيرون أن تكون بهذه السرعة والفاعليه .

يبقى السؤال الأهم بعد ذلك كله: ما الذى يريده هؤلاء ؟ إسقاط رايات العروبة ورفع رايات جديدة؟ أتكون الرايات الجديدة هى رايات القطرية الضيقة فى عالم لم يعد يعرف إلا الأقوياء والتكتلات؟ أم رايات الشرق أوسطية المشبوهة التى تطالبنا بالسكنى فى بناية واحدة مع كيان عنصرى استعمارى لم يتمكن حتى الآن من فهم منطق التاريخ وإدراك أن آفاق المستقبل مسدودة أمامه مالم يتحول جذريا من داخله على النحو الذى حدث فى حالة النظام العنصرى فى جنوب أفريقيا ؟ أم رايات التبعية لمشروع بالغ الأنانية وضيق الأفق تتبناه إدارة أمريكية تعبر عن مصالح جشعة طالما حذر العقلاء من الساسة الأمريكيين من طغيانها على القرار الأمريكى ؟

لحسن الحظ أن الرد الحقيقى على منطق نهاية العروبة لا يأتى أساسا من كلمات كتلك التى سطرتها فى هذا المقال، ولكنه يقرع رؤوس انصار ذلك المنطق بالانجازات التى تحققها قوى المقاومة الفاعلة ضد أشرس ظاهرتين فى واقعنا الدولى المعاصر الاستعمار الصهيونى على أرض فلسطين ، والجموح العدوانى الأمريكى لا فى العراق فحسب، وإنما فى وطننا العربى كله بل والعالم بأسره. فهل يثوب أولئك إلى رشدهم؟ أن المسألة برمتها غير ذات صلة بالجدل الفكرى وإنما بأمور أخرى تخرج مناقشتها عن سياق كهذا السياق؟ ■



الاحتـــلال

وقضيــة الديمقــراطيـــة

بقلم

عبـد الرحمـن شاكـر

مع تصاعد أعمال المقاومة العراقية المسلحة، ضد قوات الاحتلال الأمريكية وحلفائها تذهب الادارة الأمريكية إلى القول بأنها باقية فى العراق حتى تتم تنفيذ أهدافها وفى مقدمتها حسب ماتزعم - إقامة نظام حكم ديموقراطى فى العراق يكون نموذجا يحتذى لكل دول المنطقة !!

تذهب إلى اتهام عناصر المقاومة ضدها بأنها من فلول قوات صدام حسين وحزب البعث، متناسية أن الحالة المتردية التى آل اليها العراق بعد الغزو الأمريكى وبسبب هذا الغزو وخاصة الغارات الجوية المكثفة على المدن العراقية ولاسيما العاصمة بغداد، وحالة التسيب الأمنى التى سادت العراق وماتزال تسوده فى أعقاب الغزو .. هذه الحالة جعلت أغلبية الشعب العراقى تضيق ذرعا بالاحتلال ولاتطيق وجوده وتعتبر المقاومة ضده ضربا من البطولة، حتى ولا جاءت هذه المقاومة من جانب أنصار صدام حسين فيقدر كراهية الشعب العراقى للنظام البائد واستبداده إلا أن كراهيته للاحتلال الذى قضى على ذلك النظام أشد مصداقا لقول الشاعر العربى :

إذا استشفيت من داء بداء

فأقتل ما أعلك ماشفاكا !

وإذا كان مؤدى الديموقراطية هو تحقيق إرادة الشعوب فإن الادارة الأمريكية لو كانت لديها الشجاعة لإجراء استفتاء للشعب العراقى، عما إذا كان يريد بقاء قوات الاحتلال أم يرغب فى رحيلها، فإن الأغلبية العظمى منه سوف تجيب بأنها تريد رحيل قوات الاحتلال، وعلى الفور، حتى يفرغ الشعب العراقى

لأمره، لكي يعيد بناء حياته من جديد وعلى النحـــو الذى يريده هو، وليس الأمريكان ومن والاهم !

القيمة الأولى

لقـد أصبـحت الديموقـراطيـة هى القيمة السياسية الأولى المرعية في عالم اليوم ليس بسبب أن الولايات المتحدة الأمريكية تدعيها وتدعى أنها راعيتها وحارستها الكبرى في هذا العالم، بل - ربما - رغم هذا الادعاء الأمريكى لها !

لقد أثبتت الديموقراطية جدارتها، أو استردت هذه الجدارة بعد ما حدث في المعسكر الاشتراكى السابق في بداية التسعينيات من القرن الماضى. حيث ثبت استحالة تخطى أو إغفال قيمة الديموقراطية فى مختلف المجتمعات باسم العدل الاجتماعى، حيث كان هذا العدل هو القيمة الكبرى التى رفعت شعارها الثورة الأشتراكية فى روسيا عام ١٩١٧، وحسب عبارة شهيرة لزعيم تلك الثورة فلاديميرلنين، فإن أكبر قدر من الحرية السياسية لايكفي لاشباع البطون الجائعة وبناء على ذلك أقدمت الثورة على العصف بالديموقراطية، وأقامت نظام «ديكتاتورية البروليتاريا» لإنتاج وتوزيع ما يكفى لأشباع تلك البطون ! ولكن رغم نجاح حكومة الثورة فى أداء تلك المهمة إلى حد كبير، فإن استمرار الاستبداد السياسى باسم الاشتراكية وتحوله إلى طغيان ونظام بوليسى خانق فى عهد ستالين خليفة لنين، قد أفضى فى نهاية الأمر إلى تضعضع الأسس الاقتصادية للنظام الاشتراكى، وشحوب حتى فكرة العدل الاجتماعى ذاتها وحيث نشأت فى ظل الاستبداد طبقة جديدة من البيروقراطيين والمتنفذين تحتكر السلطة والمزايا الاجتماعية والاقتصادية التى تستأثر بها دون كافة الطبقات العاملة التى تحكم باسمها، حتى فقد هذا النظام قدرته على الصمود فى الحرب الباردة ضد النظام الرأسمالى فى الغرب وانتهى الأمر فى بداية التسعينيات كما سبق ذكره، إلى سقوط هذا النظام وحل الاتحاد السوفيتى واستسلام المعسكر الاشتراكى فى شرق أوربا للنظام الذى كان مناوئا له !

وليس أدل على فشل الاستبداد باسم العدل الاجتماعى من جمود النظم الاشتراكية الديموقراطية فى الغرب، وخاصة فى الدول الاسكندنافية، تمكنها من تحقيق مزايا اقتصادية واجتماعية حقيقية للغالبية من الجماهير العامله فيها. صحيح أن هذه قد انطلقت من مستوى اقتصادى وصناعى مرتفع كثيرا عن ذلك الذى انطلقت منه روسيا وحليفاتها السابقات فى شرق أوربا، ولكن التجربة أثبت أن الديموقراطية السياسية هى الضمانة الواقية لاستمرار العدل الاجتماعى والتطلع إلى المزبد من إنجازاته..

وإذا كان صدام حسين وحزب البعث الخاضع لرئاسته فى العراق، قد جنح إلى تقليد الاستبداد الستالينى باسم العدل الاجتماعى فقد تمادى فى هذا الاستبداد إلى حد جعل نظامه أشبه

بالنظم الفاشية التى قامت فى أوربا - وخاصة فى ألمانيا النازية وإيطالية الفاشستية - ودفع بها إلى حرب عالمية طاحنة تحالف فيها الاتحاد السوفيتي ذاته مع الديموقراطيات الغربية فى أوربا والولايات المتحدة الأمريكية لدحر تلك النظم .

لذلك كان سقوط نظام صدام حسين على يد قوات التحالف بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية مكسبا للشعب العراقي لايمكن إنكاره، ولكن إلى هنا وكفى، وتحقيق هذا المكسب لايقاس بالخسائر الفادحة التى سببها الغز والأمريكي للعراق بفقدان العراق استقلاله من ناحية وتعرض بنيته التحتيه للدمار الشامل من ناحية أخرى .

الديموقراطية الأمريكية

إن إقامة نظام ديموقراطي حقيقي فى العراق هو مطلب عاجل بعد طول ماعاناه،ولكن جلاء قوات الاحتلال عن أرضة هو مطلب أعجل، لكى يقوم هذا النظام الديموقراطي على نحو صحيح !

إن ظاهر الأمر أن الإدارة الأمريكية تتلكأ فى إقامة نظام سياسى مستقل فى العراق، سواء كان ديموقراطياً ، أو غير ديمقراطى كما تتلكأ فى إعادة أعمار العراق بعد الخراب الذى لحق به بسبب حربها عليه، وقد أفصح ساستها عن دخيلة أنفسهم فى هذا الصدد، حيث اعلنوا أنهم لن يسمحوا بأن يقوم فى العراق نظام شبيه بذلك الذى هو قائم فى جارتها إيران !

إن السبب فى هذا الخوف الأمريكي ما هو معروف من أن أغلبية الشعب العراقى هم من مسلمى الشيعة وغير بعيد إن تركت لهم حرية الاختيار والتصرف أن يقيموا نظاما دينيا يقوم على ولاية الفقية على نحو ما هو معمول به فى إيران، مع تعديلات معينة تكفل عدم الصدام مع مسلمى السنة والأقليات الدينية والعرقية الأخرى .

ولكن الديموقراطية فى نهاية المطاف تعنى حرية الاختيار من جانب جماهير الشعب والنزول عند إرادة القرار الذى تتخذه الأغلبية منه، وليس من حق الولايات المتحدة التى تزعم حراسة الديموقراطية، أن تحدد مسبقا للشعب العراقى ما الذى ينبغى لهذا الشعب أن يختاره أو يبتعد عن اختياره !

لست أحبذ بهذا القول أن يختار الشعب العراقى نظام حكم دينى كالذى يقوم فى إيران ولكننى أتمنى أن يختار نظام حكم ديموقراطى علمانى على نحو صحيح .

ولكن لايسعنى إلا أن أعتبر الولايات المتحدة الأمريكية وسياستها هى المسئولة عن تدهور قيمته الفكر السياسى الديموقراطى العلمانى فى البلدان العربية وسائر البلدان الإسلامية، وأن سياستها فى الانحياز المطلق للصهيونية وفكرها الرجعى العنصرى، وممارساتها الهمجية إزاء الشعب الفلسطينى وسائر الشعوب العربية المبتلاة باحتلالها، هذه السياسة هى



المسئولة عن ظهور نزعات التطرف الدينى بما فيها تلك التى تتهمها الولايات المتحدة الأمريكية بالإرهاب !

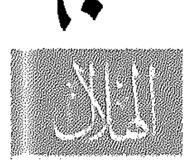
إن الديموقراطية لاتنفصل عن العدل بين الشعوب وصحت مقولة كارل ماركس «ليست حرة تلك الأمة التى تستعبد غيرها ليست حرة الولايات المتحدة الأمريكية ولا ديموقراطية حقيقية، ما دامت تفرق هذه التفرقة الشائنة فى المعاملة ما بين ربيبتها الصهيونية والشعوب العربية والإسلامية: لقد أقدمت على غزو العراق بدعوى البحث عن أسلحة دمار شامل فيه، فهل تنكر أن الدولة الصهيونية تملك من تلك الأسلحة أضعاف أضعاف ما كان يمكن أن يملكه العراق !!

ثم : هل هناك عدوانية على العلمانية أكبر من اشتراكها فيما يسمى خارطة الطريق على الفلسطينيين والدول العربية من الاعتراف بحق اسرائيل فى الوجود بصفتها دولة يهودية !! ما الفرق فى المقياس الرجعى ما بين هذه الدعوى، بين ما قد يحاوله الشيعة فى العراق من إقامة دولة توصف بأنها إسلامية إلا فرق واحد : أن أقصى رجعية يصل إليها متطرف مسلم ولو كان أسامة بن لادن هو إعادة خلافة إسلامية مضى عليها أقل من خمسة عشر قرنا، أما مدى رجعية الصهيونية وحلفائها من اليمين الأمريكى المتطرف فهو ثلاثون قرنا مضت على زوال هيكل سليمان الذى يسعون الآن إلى إعادة بنائة على ساحة المسجد الأقصى ويصمون كل من يناوئ السياسة الأمريكية الباغية فى العالم الإسلامى بالإرهاب سواء المقاومة الفلسطينيه أو العراقية وينسون ما يفعلونه داخل الولايات المتحدة ذاتها من اضطاد للجاليات العربية والإسلامية ويكفى أن ثلاثة عشر ألفا منهم مرشحون للطرد من البلاد بعد أن جاءوا إليها واستقروا بها، وأصبح منهم البزال أبو زيد اللبنانى الأصل الذى عينوه مكان فاتح العراق تومى فرانكس الذى انتهت مدة خدمته .

وماذا عن المعتقلين فى قاعدة جوانتينامو حيث لايلقون أى قدر من المعاملة الإنسانية التى نصت عليها معاهدة جنيف لمعاملة أسرى الحرب، ولايقدمون لمحاكمة عادلة ليطلق سراح البرئ منهم وينال من ارتكب منهم جرائم حرب عقابه، وكثير منهم حاولوا الانتحار للتخلص من عذابهم المقيم .

وعلى ذكر المحاكمات الدولية، فإن الولايات المتحدة الأمريكية تستثنى مواطنيها من المثول أمام محاكم جرائم الحرب الدولية باعتبارها دولة فوق القانون، هى وربيبتها الصهيونية وتفرض على الأمم المتحدة الموافقة على هذه التفرقة الشائنة عن طريق التهديد بقطع حصتها فى مبزانية المنظمة الدولية !

وإذا كانت سوف تقدم ديموقراطية حقيقية فى العراق، فلن يكون ذلك انفاذا للإرادة الأمريكية، بل بالرغم عنها، ومن خلال مقاومة صادقة لقوات احتلالها ! ■





الرشيد يؤدب ولديه

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

أرسل الرشيد فى طلب المفضل الضبى مؤدب ولديه ، فلما دخل عليه وجد الأمين عن يمينه، والمأمون عن يساره ، والكسائى النحوى بين يديه ، يطارحهما معاني القرآن والشعر . سأل الرشيدُ المفضل : كم اسما في هذه الآية «فسيكفيكهم الله»؟ فرد : ثلاثة أسماء : الله ، والكاف الثانية ضمير يعود على النبى ، والهاء مع الميم ضمير يعود على الكفار ، فعلّق الرشيد ، وبهذا قال الكسائى أيضا .

ثم التفت إلى ولديه يسألهما :

أفهمتما ما قال؟ . أجابا نعم ، فطلب منهما أن يعيدا عليه ما سمعا ثم سأل الكسائى : أعندك مسألة؟

قال نعم : هذا البيت للفرزدق.

أخذنا بآفاق السماء عليكمُ
لنا قمراها والنجوم الطوالع

التفت الرشيد إلى ولديه · أحفظتما ما قال الكسائى؟ قالا : نعم ، علّمنا على بن حمزة أن القمرين ها هنا : الشمس والقمر ، كما قالوا سيرة العمرين ، يريدون أبا بكر وعمر ، وكما قالوا : «ما اطرد الأسودان ، يريدون الليل والنهار.

قال المفضل : أزيد يا أمير المؤمنين فى السؤال ؟ قال زد ، قلت : فيم استحسنوا هذا ؟ .

قال الكسائى . إذا اجتمع شيئان من جنس واحد ، واختلفا لفظا ، وأريد تثنيتهما ، جاءت التثنية من الاسم الأشهر منهما تغليبا له ، فالقمر أشهر عند العرب من الشمس، لأنسه، وكثرة بروزهم فيه ، ومشاهدتهم إياه دون الشمس ، والشىء نفسه يقال عن عمر، فقد كانت خلافته أطول ، والفتوحات فى عهده أوسع ، وشهرته أقوى، وكذلك الليل ، لأنهم فيه أفرغ، وسمرهم فيه أكثر .

وهكذا يجرى التغليب مع كل اثنين من هذا القبيل . ■

زكى نجيب محمود

طوع اللغة وعبر عنها بلغة رصينة

بقلم
د. عبد الرشيد الصادق محمودى

تعرفت على الدكتور زكي نجيب محمود لأول مرة في سنة ١٩٥٦ . كنت عندئذ طالباً فى السنة الثالثة بقسم الفلسفة فى كلية الآداب بجامعة القاهرة؛ وكان الأستاذ يحاضرنا فى المنطق. وتوثقت العلاقات بيننا فى السنوات التالية حتى أصبحت أنعم - مثلى مثل عدد آخر من زملائى - برعايته وحدبه. ولست أريد هنا أن أناقش مواقفه الفكرية والفلسفية بقدر ما أريد - من باب الوفاء والعرفان بالجميل - أن أسجل بعض ذكرياتى عنه بوصفه معلماً وراعياً، وأبين باختصار فضله فى تكوينى.

كان زكى نجيب محمود عندما رأيته فى تلك الفترة رجلاً أسمر البشرة قوى البنية عريض المنكبين، وكان كل مافيه يوحى بالجد: ملابسه النظيفة الرصينة، وأسلوبه فى الإلقاء بلغة سلسة واضحة، وإسهابه فى الشرح والإيضاح حتى يصل المعنى إلى الجميع، وخلو حديثه من الفكاهة، وتركيزه الشديد، وحرصه على الوقت. كان إذا دخل قاعة المحاضرات استهل الدرس دون تلكؤ واستمر فيه حتى آخر دقيقة من الساعة المقررة. وكان حديثه متدفقاً وإن كان يلقى



من حين إلى آخر نظرة خاطفة على قصاصة من الورق سجل فيها عناصر الموضوع. وقلما كان يستطرد؛ فإذا فعل أشار إشارة سريعة إلى فيلسوف أو كاتب خارج نطاق الموضوع المباشر. وكنا نتشوق إلى تلك الاستطرادات النادرة التقاطاً للأنفاس أو طلبا للمتعة. ولم يكن الأستاذ ضيق الأفق أو بخيلاً بمعلوماته، ولكن كانت لديه خطة وأولويات لابد أن تراعى.

ومع ذلك فقد استطاع هذا الرجل الجاد الذي يعلم المنطق - وهو أكثر العلوم تجريداً وصرامة وبعداً عن الحياة - أن يشعل جذوة الحماس في نفوس بعض الطلاب الذين كان لدروسه في الوضعية المنطقية وقع شديد عليهم؛ فأحسوا أنهم بإزاء ثورة فلسفية بعيدة المدى، وصبوا إلى حمل رايتها. فكان أن ذهب إليه فريق منهم - من بينهم كاتب هذه السطور - ليقترح عليه تكوين جمعية «وضعية منطقية» تحت رئاسته؛ وذلك على غرار «جماعة فيينا» التي تكونت في عاصمة النمسا في أوائل القرن العشرين وأسست الوضعية المنطقية، وكان لها فروع وأتباع في بلاد غربية شتى، كما كان لها مانفستو أو بيان «ثوري». وكان ذلك الفريق من الطلاب المتعطشين إلى المعرفة والفلسفة يطرب لسماع أسماء أعلام المذهب مثل مورتس شليك ورودولف كارناب، ويتشوق إلى قراءة كتاب إيار في اللغة والصدق والمنطق، وإلى فك فك طلاسم الرسالة المنطقية الفلسفية لفتجنشتين. ولكن الأستاذ كان أكثر اتزانا وحصافة من طلابه الذين لعب الشباب والجهل برؤوسهم؛ فرفض الفكرة وإن أبدى استعداده لمناقشتهم خارج قاعة الدرس بطريقة غير منظمة فيما قد يعن لهم من استفسارات. ولاشك أنه كان يدرك أن التفكير في تكوين جماعة «ثورية» في ذلك العصر الناصري حري بأن يجر على أصحابه المتاعب.

أما لماذا خلبت الوضعية المنطقية ألباب أولئك الطلاب، فتفسيره يرجع في رأيي إلى عاملين. أولاً: أن المذهب كان ينزع نزعة علمية منطقية حاسمة في حل المشكلات الفلسفية. كان يرفض الفلسفات الميتافيزيقية (التي تتجاوز معطيات الخبرة) بناء على نظرية «علمية» في المعنى. فمعنى العبارة وفقا لأصحاب المذهب هو إمكانية التحقق من صدقها أو كذبها بالرجوع إلى المعطيات التي تشير إليها في عالم الواقع المتاح للجميع. ومثال ذلك أن عبارة «العصفور على الشجرة» ذات معنى لأن من الممكن أن نتأكد من صدقها أو كذبها بالتحقق مما إذا كان العصفور الذي تشير إليه موجوداً بالفعل على الشجرة المرئية. أما ما تصدره الميتافيزيقا من قضايا عن «المطلق» على سبيل المثال فهو فارغ من المعنى لأن من غير الممكن أن نتحقق من صدقه أو كذبه على ضوء ما نجده في الخبرة؛ فالمطلق - بحكم التعريف - يتجاوز هذا المنطق.

منطق اللغة والعلم

وقد كانت هذه الوضعية حاسمة لأنها كانت كالنصل في استئصالها لكل تلك الكائنات الغريبة الغامضة التي افترضتها الميتافيزيقا وحيرت بها العقول على مر العصور. ولقد شهد تاريخ الفلسفة

مذاهب أخرى نستبعد الميتافيزيقا؛ فذلك ما فعله «كانط» فى فلسفته النقدية التى تقيد العقل بنطاق الخبرة البشرية، وذلك ما فعله «أوجست كونت» مؤسس الوضعية الفرنسية فى القرن التاسع عشر، والذى رأى أن العقل البشرى فى تطوره قد تجاوز مرحلة الميتافيزيقا ودخل طور المعرفة الوضعية التى تقتصر على المشاهدة واستخلاص القوانين العلمية منها. ولكن الوضعية المنطقية كانت فيما يبدو أكثر من كل ذلك بساطة وأناقة وأشد حسما، وذلك بناء على أسس بدا أنها أشد رسوخا وأقدر على الإقناع لأنها تتعلق بمنطق اللغة والعلم. ولابد أن هذه الصبغة العلمية المنطقية كان لها دور مهم فى خلب ألباب الطلاب.

ويضاف إلى ذلك ثانياً : أن هؤلاء الطلاب كانوا - كما قلت - متعطشين إلى الفلسفة. وذلك أن تدريس الفلسفة كان فى ذلك العصر - ومازال حتى يومنا هذا - فى حالة مزرية. كنا نتوقع الكثير من قسم الفلسفة فى بداية عهدنا به، فلما تعرفنا على ما يقدم فيه أصبنا بخيبة أمل شديدة. كانت هناك محاضرات ممتازة فى علم النفس يقدمها الدكتور يوسف مراد والدكتور مصطفى سويف، وكان الدكتور عبدالهادى أبوريدة يلقى محاضرات قيمة فى الفلسفة الإسلامية. أما فيما عدا ذلك فإن تعليم الفلسفة يقتصر بصفة عامة على تقديم نتف من المعلومات السطحية عن تاريخ الفلسفة وملخصات هزيلة لمذاهب الفلاسفة وأقوال مكرورة يراد بها الحفظ والتلقين لأغراض الامتحان بدلا من الفهم وإثارة الفكر والتشجيع على النقد. وكان تدريس الفلسفة - وأحسبه مازال - يتردى فى بعض الحالات إلى مستوى المهزلة المضحكة المبكية. فلما ظهر زكي نجيب محمود وأخذ يشرح مذهبه فى إطار من الحجاج المنطقي وتحليل المفاهيم ونقد المذاهب، شعرنا أننا أصبحنا نقترب من روح الفلسفة وأننا صرنا أقدر على ممارسة التفكير الفلسفي.

الفلسفة علم برهانى

وصحيح أن حماسي للوضعية المنطقية قد فتر بعد فترة قصيرة، وبدأت الشكوك تراودنى فى صحتها حتى قبل التخرج. ولما ذهبت إلى جامعة لندن لمواصلة تعليمى الفلسفى وجدت هنالك البراهين الحاسمة التى تدل على بطلانها. ولكن ذلك لم يغير شيئاً من احترامى وتقديرى لزكي نجيب محمود؛ فقد تعلمت منه كثيراً من الدروس الباقية فى مجال الفلسفة وصنعة الكتابة والقيم التى ينبغى لدارس الفلسفة وللمفكر والباحث بصفة عامة أن يستمسك بها. تلقيت على يديه - كما ألمحت من قبل - درساً أساسياً هو أن الفلسفة علم برهانى. وهذا قول صادق رغم أن البراهين الفلسفية قابلة للنقد والتفنيد؛ ولابد أن تكون كذلك. والقول صادق أيضا رغم التسليم بأن للبرهان حدوداً لا يتجاوزها؛ فالفلسفة مضطرة أحياناً إلى استخدام التشبيه والاستعارة وغير ذلك من الحيل البلاغية فى الإشارة إلى بعض الحقائق التى تند عن العقل البرهانى. بل إننى أصبحت أؤمن أن الفلسفة لا يمكنها أن تقدم معرفة يقينية نهائية؛ ومع ذلك فإن طريقها الرئيسى هو

طريق البرهان. وقد كان هذا الدرس الذى تعلمنه عن زكى نجيب محمود ركيزة أساسية فى دراسة الفلسفه بجامعة لندن؛ فهكذا كان يدرس الموضوع فيها عندما التحقت بها فى أوائل الستينيات.

وقد كونت بفضل الأستاذ قاعدة متينة من المعارف المتعلقة بتراث التجريبية البريطانية (وخاصة ديفيد هيوم وبرتراند رسل)، وبالفلسفة التحليلة والمنطق الرياضى. وكان كل ذلك عونا كبيرا فى دراسة الفلسفة فى الجامعة البريطانيه.

وهنا ينبغى أن أشيد بفضل زكى نجيب محمود فى نقل هذه المعارف إلى العالم العربى؛ فقد طوع اللغة العربية وشحذ أسلحتها للتعبير عنها بطريقة سلسة سائغة رصينة. ولمن شاء أن يقرأ كتاب الأستاذ عن هيوم أو كتابه فى المنطق الوضعى ليرى كيف يمكن للغة الفلسفة أن تكون لغة جميلة؛ فقد تمكن المؤلف من صياغة المعلومات والمفاهيم التقنية الجديدة فى كلام مصقول كأنه سلاسل الفضة.

وهو ما ينتهى بى إلى فضل الأستاذ علىّ فى مجال الترجمة والكتابة بصفة عامة. فقد أتيح لى أن أترجم مع آخرين تحت إشرافه الموسوعة الفلسفية المختصرة (مشروع الألف كتاب، عام ١٩٦٣). ولكن التجربة التى خرجت منها بأعظم الفائدة هى تلك التى خضتها عندما ترجمت بمعونته وتحت إشرافه كتاب برتراند رسل «فلسفتى كيف تطورت» عام (١٩٦٠). ولذلك قصة لابد أن أرويها. كنا فى صيف سنة ١٩٥٩ عندما كتبت بحثا فى إطار السنة الأولى من برنامج الدراسات العليا بجامعة القاهرة. وكان البحث يتألف من ترجمة لمقالة لبرتراند رسل عنوانها «ديانة الرجل الحر» والتعليق عليها. وقد لاحظ الدكتور زكى عندما قرأ البحث أننى أشرت فى إحدى الحواشى إلى الكتاب المذكور؛ فسألنى كيف استطعت الحصول عليه وقد كان حديث الصدور، واقترح علىّ أن أترجمه. وقد فوجئت بالاقتراح ورفضته دون تردد. قلت إن الكتاب صعب وليس لى خبرة كبيرة بالترجمة. قال الأستاذ: «ترجمه وسأساعدك. سوف أراجعه». قلت: «لا أريد أن أضيع وقتك. لذلك أقترح أن أترجم عينة من الكتاب، ولتكن الثلاثين أو الأربعين صفحة الأولى. فإذا راقت لك الترجمة واصلت العمل. أما إذا لم ترض عنها، فخير لى ولك أن أتوقف». ووافق الأستاذ على الفكرة؛ وكان من حسن حظى أنه رضى عن الترجمة. وكانت تلك بداية للتجربة المفيدة التى حظيت بها. فقد اقتضت مراجعة الجزء الذى ترجمته أن أقرأ عليه ترجمتى جملة جملة فيصحح منها ما يرى حاجة إلى تصحيحه. وكانت تلك إذن مراجعة دقيقة مكثفة. أما مراجعة الترجمة فى بقية أجزاء الكتاب، فقد اقتصرت على تدخل الأستاذ من حين إلى آخر فى المواضع التى كانت تشكل علىّ فأطلب إليه المساعدة.

وكانت تلك تجربة مفيدة أعظم الفائدة لأنها أتاحت لى أن أشاهد زكى نجيب محمود وهو يعمل: كيف يفهم الانجليزية وكيف يتغلب على صعوبتها ويطوعها للأسلوب العربى السليم بحيث تخلو العبارة من الرطانة الأجنبية. وقد وضع



نصب عينى منذ ذلك اليوم مثلاً أعلى للترجمة، وهو توخى أقصى درجة من الدقة مع الحرص على فصاحة الأسلوب وجودته. وهو مطلب عسير المنال؛ ولكن لابد للمترجم من أن يسعى إلى بلوغه بقدر الإمكان. وكانت التجربة تنطوى ضمنا على درس أعم يتعلق بالكتابة بصفة عامة؛ فجمال الأسلوب كما فهمته منها هو وضوح العبارة وسلاستها وإحكام سبكها.

معركة على ساحة الورق

وقد لاحظت من خلال تلك التجربة وغيرها من التجارب أن زكى نجيب محمود كان إذا كتب تدفق تخرج الصفحة من قلمه جاهزة للطبع خالية أو تكاد من أى شطب أو تصويب. ولقد كان ينتمى إذن إلى فئة سعيدة من الكتاب أحسدهم، فالنص المكتوب يصدر عن قرائحهم كاملا. (قارن ذلك بما يفعله كاتب هذه السطور، فالكتابة عنده معركة تدور على ساحة الورق وتعج بغبار الكر والفر ويسيل فيها العرق ولا يبزغ المعنى المنشود وتظهر العبارة المبتغاة إلا بشق الأنفس). حدثنى الأستاذ ذات يوم عن ترجمته لكتاب «جون ديوى» فى المنطق - وهو مجلد شديد الضخامة - فقال إنه أنجز الترجمة فى وقت قياسى وإنه كان «بحمد الله» يترجم النص كما لو كان ينسخه.

وما إن انتهت الجلسة الأخيرة فى مراجعة كتاب رسل «فلسفتى كيف تطورت»، حتى نهض زكى نجيب محمود وذهب إلى غرفة أخرى ليعود بعد دقائق فى كامل ملابسه مستعداً للخروج. قال: «هيا بنا». واصطحبنى إلى مكتبة الأنجلو حيث اقترح على صاحبها أن ينشر الكتاب. فلما لاحظ الأستاذ تردد الناشر لأننى كنت صغير السن ولم أكن بالكاتب المعروف، قال: «انشره على مسئوليتى. لقد راجعته، وتستطيع أن تعلن ذلك على الغلاف. ولا تقلق من حيث التوزيع: فسأقرر الكتاب على الطلاب فى العام الدراسى القادم». وقد كان.

ولا يفوتنى أن أذكر فى هذا السياق أننى انتهزت فرصة نشر الكتاب لكى أدس فيه - إلى جانب مقدمة زكى نجيب محمود - «كلمة للمترجم» لم يقرأها الأستاذ إلا بعد صدور الكتاب. وكانت هذه الكلمة تتضمن نقداً لفلسفة برتراند رسل، كما كانت تنطوى ضمنا على إعلان استقلالى الفكرى عن الأستاذ . غير أنه لم يعلق على ما كتبت؛ ولم يبد عليه أنه وجد فيه مدعاة لأى لوم. ولعله ابتسم تفهما عندما قرأ تلك الكلمة التى نشرت دون الرجوع إليه. فنقد المترجم للعمل الذى ترجمه ليس بالأمر المألوف، ولكن كان لابد للشاب الذى كنته أن يثبت ذاته، وتلك هى سنة الحياة.

والواقع أنه ماكان لأحد أن يفهم الجوانب الإنسانية من شخصية زكى نجيب محمود إلا إذا اقترب منه وجالسه. فعندئذ كانت الصرامة البادية تزول، ويدرك المرء كم كان الرجل سخياً عطوفاً حسن المعشر مرحاً وعلى دراية بأحوال الدنيا. كان رءوفا بطلابه. على علم بعيوبهم، ولكنه لا يسمح لنفسه ولا لغيره بأن يذمهم أو يقسو عليهم بالنقد. وكان يرعى بعضهم كأنهم أبناؤه. وأذكر فى

هذا الصدد أنه حاول غير مرة أن ينقذنى من شر البطالة المستحكمة وأن يجد لى عملا بعد التخرج، وأنه كان يساعد بعض الطلاب بالمال. ورغم أنه كان صارما فى تنظيم وقته، فلم يكن يبخل على طلابه بالمشورة والنصيحة ويفتح لهم أبواب مسكنه. (وكان العصر أحب الأوقات إليه لاستقبال طلابه، وعندئذ كان يقدم لهم الشاى على الطريقة الانجليزية. ويبدو أنه بعد الزواج أدخل تعديلا على هذه العادة عندما صار يقدم لهم الشاى مصحوبا بالحلوى).

اهتمام بالأدب والثقافة

ورغم جده فى الالتزام بالوضعية المنطقية، فقد كان واسع الأفق متسامحاً إلى أقصى درجات التسامح. فلم يكن ذلك المذهب الصارم يحول بينه وبين الاهتمام بالأدب والأمور الثقافية بصفة عامة. وكان يعد نفسه أديباً. وكلنا نعرف جهوده الممتازة فى فن المقالة (باعتباره نوعا أدبياً) وفى النقد الأدبى. ولكن ما قد يجهله البعض أن زكى نجيب محمود لم يكن يرحب بالتخصص الفلسفى الضيق وكان يحبذ سعة الأفق وتعدد الاهتمامات. أذكر أننا التقينا ذات يوم فى لندن وتحدثنا عن «فلان»، وكان فلان هذا أحد تلاميذه؛ فذكره الأستاذ بالخير وأثنى على جده فى دراسة الفلسفة، ولكنه عاب عليه - برفق - أنه «ليس من أهل الثقافة».

ولم تكن اهتمامات زكى نجيب محمود الواسعة النطاق تقتصر على الأدب؛ فلقد كان يرى أن للفلسفة مهمة تؤديها فى إصلاح الفكر والمجتمع. وكان يعتقد على وجه التحديد أن ما تتسم به الوضعية المنطقية من نزعة علمية منطقية واهتمام باللغة وتحليل الألفاظ وتوضيح المعانى يمكن - بل لابد - أن يساهم فى الإصلاح. ومن الواضح أنه كان يستلهم فى نهاية المطاف النموذج السقراطى؛ فقد كان يفترض أن للجهد الفلسفى الرامى إلى تحديد مدلولات الألفاظ دوراً إصلاحياً مهما فى شئون المدينة

وكان معجبا ببرتراند رسل لأنه كان قريبا منه من الوجهة المذهبية، ولكنه كان معجبا أيضا بوايتهد كثير الاستشهاد به، رغم اختلاف هذا الأخير عن رسل وعن زكى نجيب محمود. وإذا تفكرنا قليلا فى هذا الموقف تبين لنا أن الأستاذ كان معجباً بالفيلسوفين لأنهما كانا، كل على طريقته، من «أهل الثقافة» والإصلاح

ولم يكن التزام زكى نجيب بمذهبه المعادى للميتافيزيقا يحول بينه وبين نوع جميل من التسامح الفلسفى. فلم يكن يرفض الإشراف على رسائل جامعية تتناول من يخاصمهم من الفلاسفة.

وكان يرحب فى محاضراته بالحوار مع الطلاب ويرد على أسئلتهم واعتراضاتهم. وأذكر أنه احتد فى النقاش ذات يوم لأننى ألحفت عليه، ولكنه سرعان ما كظم غيظه. وفى ذلك اليوم لحقت به بعد انتهاء المحاضرة، وكان فى طريقه إلى خارج الجامعة، واعتذرت له. وكان بيننا صلح سريع. وربما كانت تلك المناسبة هى بداية توثق العلاقات بيننا. وفى تلك المناسبة، أو ربما فى مسيرة أخرى نحو باب الخروج من الجامعة، سألنى عن سنى، وكنت عندئذ فى العشرين أو الحادية والعشرين. فلما

أجبته، قال. «ما شاء الله! إن من يقرأ لك دون أن يعرفك يظن أنك صاحب تجربة طويلة في الكتابة كأنك شيخ في الستين». وأرجو ألا يسيء أحد فهمي فالقصد من رواية القصة ليس الدعاية لنفسي، بل هو الإشادة بكرم الأستاذ وحرصه على تشجيع طلابه وتعهد مواهبهم بالرعاية.

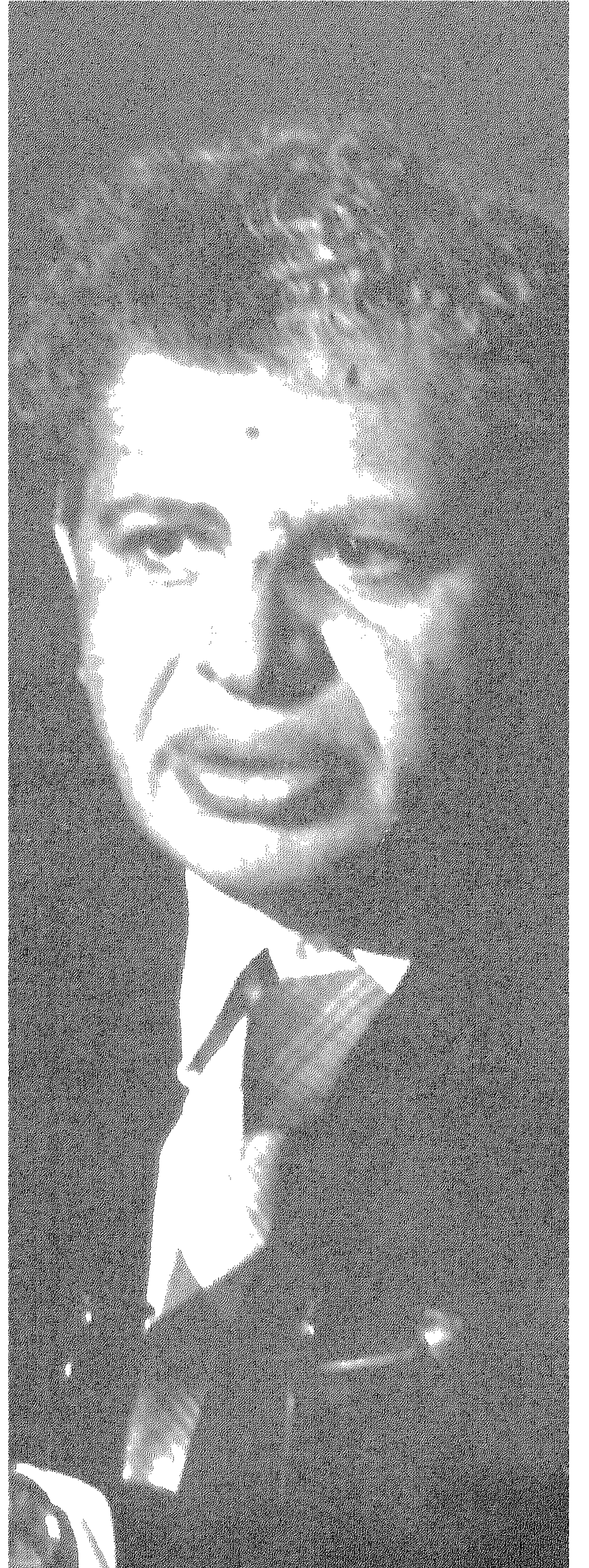
عف اللسان

وكان يضرب لهم مثلا بسلوكه. فلم أسمع منه في يوم من الأيام أي طعن في زملائه من الأساتذة رغم أن الطعن في الزملاء كان - وأحسبه مازال - رائجا في قسم الفلسفة. وكان عف اللسان؛ فلم يحدث قط أن سمعت منه - أو نقلا عنه - كلمة نابية أو جارحة. وذلك رغم أنه كانت لديه مآخذ على الأوساط الفكرية والأدبية في عصره؛ وكان ساخطا على سوء حظه في تلك الأوساط. فقد كان يشعر بالظلم لأنه لم ينل حقه من التقدير، ولكنه كان يصوغ سخطه بلغة التألم والشكوى دون عدوان على أحد. وبقدر ماكان متسامحا في نقد الغير، كان صريحاً قاطعاً في نقد نفسه. وقد سمعته ينحي باللائمة على نفسه وينقد بعض أعماله نقداً مراً. ولمن أراد أن يرى نموذجاً رائعاً لصرامة الأستاذ مع نفسه، فعليه أن يقرأ نص حديث أجراه معه الدكتور عبدالغفار مكاوي* ففي موضع معين من هذا الحديث يحاول عبدالغفار مكاوي أن يثبت أن تحليلات زكي نجيب محمود لمعاني الحرية تنطوي على فلسفة في الحرية، في حين أن هذا الأخير يرفض رفضاً قاطعاً أن يدعي لنفسه ذلك الشرف، ويصر على أن جهوده في مجال التفلسف لم تكن سوى «قفزات مجزءات أو طرقات على باب الفلسفة». وأستطيع أن أشهد أن ما رآه زكي نجيب في هذا الصدد لم يكن من قبيل التواضع بأي معنى من المعاني، بل كان تعبيراً صادقاً عما يؤمن به؛ فقد كان يأبى أن يستجيب للأوهام مهما كان إغراؤها.

وقد ازداد حظ الرجل من الرضا مع تقدم العمر به. فقد لقي التقدير بعد طول انتظار، كما اهتدى بعد عزوبة طويلة إلى زوجة مثالية نعم معها بالسعادة والنجاح، وصار له من طلابه أبناء كثيرون وهو الذي لم ينجب. ولكني أحسبه ظل على وعيه الحاد بغربة الفلسفة والتفكير العلمي في عالم عربي يتجه نحو التدهور وتسوده قيم واتجاهات معادية.

وكنت ألتقي به في لندن عندما يزورها، وأزوره في القاهرة عندما آتي إليها؛ وتبادلنا بعض الرسائل. ثم انقطعت عن لقائه والاتصال به لسنوات طويلة. ولما اتصلت به تليفونيا بعد غياب طويل ودون سابق إنذار، سمعته يهتف دهشاً: «من؟ أهو أنت فلان»! قلت: «هو أنا. هل يمكنني أن أزورك»؟ فرحب بالفكرة. قلت «متى أستطيع أن أراك»؟ قال: «الآن على الفور إذا أحببت». وكان هو الذي فتح الباب. وفتح لي ذراعيه؛ فتعانقنا. كان كالأب الحنون إذ يرحب بعودة ولد ضال. ■

* عبدالغفار مكاوي، «حديث معه» - حسن حنفي (إشراف وتقديم)، زكي نجيب محمود (القاهرة عام ١٩٩٨)



حامد ربيع

راهـــب
فى محــراب العلــم

بقلم
د. نيفين عبد المنعم مسعد

كان يلفت النظر أن نحو نصف من حضروا احتفال قسم العلوم السياسية بكلية الاقتصاد جامعة القاهرة، فى ٢٩ و٣٠ يونيو الماضى، بإحياء تراث الدكتور حامد ربيع أحد أبرز أساتذة العلوم السياسية العرب فى النصف الثانى من القرن العشرين، هم من جيل الثمانينيات أو على أقصى تقدير من جيل السبعينيات الذى لم يقدر له أن يتتلمذ على أيدى الراحل الكبير. ولعل أحد التفسيرات لهذا الحضور الكثيف لجيل الشباب مردود إلي كم الغموض الذى أسدله الرجل على نفسه وعلى سيرته وعلى علاقاته المتشعبة، والذى جاءت الملابسات المثيرة لوفاته متممة له. فمن المفارقة أن الرجل مع كثرة ما كتبه عن خبراء السلطة إلا أنه كان بعيداً عن زمرتهم.

حاول لفترة قصيرة أن يقترب من مركز صنع القرار زمن الرئيس عبدالناصر، لكنه سارع بالاحتفاظ لنفسه بمسافة كافية، مؤثراً موقع الناصح للسلطة من خارجها كما فعل شهاب الدين بن أبى ربيع الذى افتتن به عالمنا وحقق مخطوطته فى نصح المعتصم «سلوك المالك فى تدبير الممالك»، وكتب لها مقدمة هى الأطول من كل مقدمة (٥٠٠ صفحة) حتى لا تنافسها سوى مقدمة ابن خلدون، ومع ذلك فإن عالمنا كثيراً ما تجاوز النصح إلى التأنيب والتوبيخ إن لزم الأمر، وبالتالى بدا مفهوماً أن يظل الرجل طيلة حياته خارج دائرة الضوء، ويبقى تراثه على ثرائه ودسامته موضع اهمال وتجاهل. على أن الأمر الثابت أن هؤلاء الشبان الذين جاءوا يبحثون عن المعرفة، خرجوا بعد كل ما سمعوا ورأوا على مدار يومين كاملين وقد اشتعلت رءوسهم بعشرات الأسئلة، بعدما تبينوا من الندوة وملابسات الاحتفال كم كان الرجل مثيرا للجدل والخلاف حيا وميتاً. فقد وجدوا بين تلامذته من يصفه بثيوروس علم السياسة ومن يجعله عالما بذاته ، كما وجدوا بين هؤلاء من يقلل من شأن إسهامات الرجل ويصفها بأنها عادية، فهل كان إحياء تراث الدكتور حامد ربيع يحتاج أربعة عشر عاماً أخرى (توفى الرجل فى ١٩٨٩/٩/٩) ليصل مقيموه إلى كلمة سواء؟

• قضى يدرس عشرة أعوام في دير إيطالى

صورة عن قرب

كان الشعور بالتفرد إلى حد يصل إلى التعالى يعد جزءاً تكوينيا فى شخصية الدكتور ربيع، ومفتاحا أساسياً من مفاتيح فهمها. هذا التفرد الذى كان يحرص عليه الرجل فى المضمون بل وفى الشكل الخارجى أيضاً، وكان يسجله فيما يكتب، ويكرسه فى علاقاته بمن حوله، مسئول، إلى جانب بعده عن دائرة الضوء، عن تجاهله وغمطه حقه ، وبالتالى فإنه يجيب جزئياً عن السؤال الذكى الذى طرحه أحد الحضور، ومضمونه: لماذا عندما يذكر رواد الدراسات الإسرائيلية يسقط اسم الدكتور ربيع وهو الذى اهتم بالدولة العبرية بعد اثنى عشر عاماً فقط من تأسيسها؟ ولماذا عندما يكرم أداء الفكر السياسى الإسلامى ينكر الدكتور ربيع وهو الذى كان شديد التفاعل مع هذا الفكر تأليفاً وتحقيقاً؟

كان يستتر خلف هذا الشعور بالتفرد إدراك عميق من الرجل لمواطن قوته التى يمكن تلخيصها فى نقطتين أساسيتين تقود إحداهما للأخرى، التعبد فى محراب العلم والثقافة الموسوعية. ولا يؤخذ الحديث عن تعبد الدكتور ربيع فى

محرب العلم بالمعنى المجازى الذى يمكن أن ينطبق على عالم فى قامة الدكتور جمال حمدان على سبيل المثال، لكنه يؤخذ بالمعنى الحرفى من واقع تجربته الفريدة داخل أحد الأديرة الإيطالية لمدة عشرة أعوام كاملة، وهو بعد فى قمة سنوات نضجه: عقد الثلاثينيات. فى الدير تعلم الدكتور ربيع اللغة اللاتينية، واقترب من الحضارة المسيحية الكاثوليكية، ووقف على عدد من المخطوطات الإسلامية النادرة، واتخذ سبيله إلى دراسة فقه الحضارات وعلم الأديان المقارن ، هذا الفقه الذى قاده إلى اكتشاف جوهر الإسلام والتأكيد على الإطار القيمى المحدد للحركة السياسية. قسوة على الذات وتطرف فى المثالية نجسدها هذه التجربة التى كنا نستمع إليها بانبهار نحن طلابه ونحن ندرس على بديه مادتى النظرية السياسية والعلاقات الدولية، لكن تلك القسوة وهذا التطرف كانا يعبران عن إيمانه العميق بالوظيفة الكفاحية لعالم السياسة ، تلك الوظيفة التى كان يعنى بها دور العالم فى تغيير مجتمعه وقيادته نحو الأفضل، والتى فرضت عليه تعاملاً عفوياً مع كل ما يمس المصالح العليا للأمة. ففى تحديد تلك المصالح وتعيين أدوات حفظها كان الرجل قاطعاً، كما قال أحد الحضور، فى أن هذه حرفة النخبة وصنعتها . ولذلك لا ينبغى أن نندهش عندما نتبين موقفه من استفتاء الشعب المصرى، على معاهدة السلام مع إسرائيل، ونجده وهو الذى يجعل من الديمقراطية جوهر نظريته عن القيم السياسية، يعتبر أن هذا الاستفتاء يمثل تشويها للمصلحة العليا المصرية، ويعكس فى هذه الحالة تحديداً لوناً من ألوان المهاترة.

الموطن الثانى الذى كان يستمد منه الدكتور ربيع تفرده هو ثقافته الموسوعية. فقد كان الرجل قانونى التكوين من حيث الأصل والمنشأ، لكنه عبر حدود القانون فلم يترك فرعاً من فروع العلوم الاجتماعية إلا ودرسه دراسة لا تقف عند سطح العلوم كما فى التعبير الشيعى المعروف، لكنها تغوص إلى أعماقها فإذا بحصيلته العلمية تشمل اثنين من درجة دكتوراه الدولة من جامعة باريس، وثلاثاً من درجة الدكتوراه الخاصة من جامعة روما، وستة دبلومات فى تخصصات مختلفة. لكنه مثله مثل أرسطو وشأنه شأن فخر الدين الرازى كان يعتبر أن علم السياسة هو أسمى المعارف بامتياز أو هو تاج العلوم ، لأنه العلم الذى يدرس ظاهرة الدولة. ومن هنا، فإنه على كثرة ما ألف وكتب، كان أكثر إسهامه فى علم السياسة وكما كان علم السياسة ينزل لديه منزلة خاصة، كانت النظرية السياسية هى مدخله إلى دراسة مختلف فروع علم السياسة والتأليف فيها. الفكر السياسى، العلاقات الدولية، نظم الحكم، الرأى العام، ولذلك عندما ذكر أحد



الحضور أن الراحل الكبير لم يكن متخصصاً فى العلاقات الدولية، وأنه يكتب فيها بحس هاو وتوجه مهموم بالشأن العام، كان الرد أن الرجل كان فى كل ما كتب منظراً سياسياً.

كان يكمل هذا التفرد فى المضمون نفرد لا يقل أهمية ميز الرجل فى مظهره الخارجى ولذلك فإن عيناً أبداً لم تكن تخطئه عن بعد، بنظارته السوداء الضخمة، وغليونه المدلى من بين شفته الغليظتين، وضخامة قامته وامتلائها، وموجات الشعر الأبيض والأسود تعلو رأسه،وفانتازيا الألوان المميزة لأربطة عنقه وغير المتجانسة بالضرورة مع تلك المربعات الشهيرة التى لم تكن تخلو منها بدلة واحدة مما يفتنى. كان هذا المنظر بالنسبة لنا نحن طلابه منظراً شديد الاثارة والابهار، مكملاً للصورة غير التقليدية التى يجسدها الرجل . وكانت لطلته هيبة العالم، تلك الهيبة التى كانت تتجلى كأوضح ما يكون فى قاعات الدرس، حيث المعرفة أقل والخبرة أدنى والثقة بالنفس أضعف. لكننا تعلمنا منه كما لم نتعلم من سواه، ولازلت بعد نحو خمسة وعشرين عاماً أذكر حديثه عن شد الأطراف أى الضغط على قلب الوطن العربى بجذب أطرافه فى الصحراء الغربية وفى جنوب السودان وفى الخليج، ومبدأ توزيع الأدوار والمقارنة بين توظيفه فى إدارة العملية السياسية فى الدولة العبرية والفشل

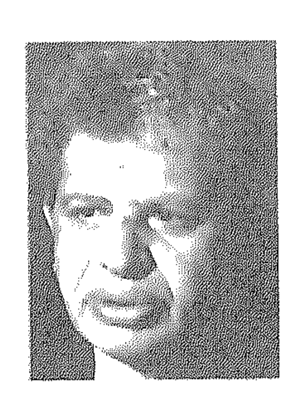
• حصل على درجتى دكتوراه من باريس وثلاثا من جامعة روما

العربى التام فى فهمه والتعامل معه، وتراتيبه المنظومة القيمية وأثر اختلال قيمة العمالة التى هى فى نظره القيمة الأم فى الحضارة الإسلامية على اضطراب الحركة السياسية على المستويين الداخلى والخارجى. أستعيد ما حدثنا به الرجل، وأقارنه مما بحدث على ساحتنا العربية وأجده وكأنه كان يقرأ فى كتاب مفتوح.

عربى بين ثقافتين

استخدم أحد الحضور هذا التعبير للدلالة على أن الراحل الكبير احتك بالثقافتين الإسلامية والغربية وعاشهما معا معايشة نامة من دون أن يسقط فى أحد النقيضين:

الانكفاء على الذات أو الاستلاب بواسطة الآخر ، بل جاءت القسمة العقلية بين هذين الطرفين قسمة متوازنة إلى حد بعيد. وكلمة «بين» كلمة مهمة فى الحقيقة لأنها تنسحب على قدرة الدكتور ربيع على ارتياد عوالم مختلفة والانفتاح على خبرات شتى ليخرج فى النهاية بخلاصة لا تعكس سوى خبرته الذاتية ورؤيته الخاصة. ولذلك فإنه مع انبهاره



بتراث عصر الأنوار ، قوى الحنين إلى صدر الخلافة، وهو مع نقله عن ماكس فيبر وجوته وروزنتال وفشته، شديد الاحتفاء بآثار ابن خلدون وابن رشد والفارابي ، وهو مع تأكيده على أن كافة العلوم وفي مقدمتها علم السياسة لا تونع - والانياع أحد المصطلحات المحببة إليه - إلا في مناخ الديمقراطية فإنه يؤكد أن القيم نسبية تختلف من زمن لآخر ومن مكان لآخر. تلك القدرة على استقبال الوافد من دون قطع مع الموروث سنجدها تتجلى لديه في شكل أوضح على مستوى المنهاجية التحليلية . فلقد تأثر الرجل بالحركة السلوكية من جراء تردده على مركز الدراسات الاجتماعية المسمية في جامعة ميتشجن التى سافر إليها مبتعثاً من جامعة القاهرة، لكنه ضبط هذا التأثر وسيجه بعدد من الضوابط والقيود. فالحركة السلوكية كانت لا تؤمن بغير التجريب وسيلة للتحقق من الشواهد واثباتها، وكان الدكتور ربيع لا يكف عن تأكيد التلازم بين الفكر والحركة وعلى أنه يستحيل فهم الممارسة السياسية لهذا النظام أو ذاك حين ينزع عن إطاره القيمي ويدرس بمعزل عنه. والحركة السلوكية تمثل انقلاباً على المناهج التقليدية في دراسة الظاهرة السياسية ، ومنها المنهاجان القانوني والتاريخي، لكن الدكتور ربيع الذي وظف بعض أدوات هذه المدرسة في تحليله للطابع القومي المصري وفي دراسة اتجاهات الرأي العام المصري، لم يتخل عن الأداتين القانونية والتاريخية، أولاً بحكم تكوينه الأكاديمي المبدئي، وثانياً لاقتناعه بأن التاريخ هو مخزن للشواهد وبالتالي يمكن أن يكون بديلاً للتجريب حيثما ينعذر هذا الأخير.

والحركة السلوكية تركز على النظام السياسي كوحدة للتحليل وتهتم بمتابعة تفاعلاته في مشابهة بينه وبين الجسد الإنساني. أما الدكتور ربيع فلم يفقد للحظة واحدة اهتمامه بالدولة ووظائفها خصوصاً وظيفتها الاتصالية التي يعتبرها ضرورية لتحقيق جملة أهداف تتصل بتدعيم التكامل القومي والترابط الحضاري ومساندة السياسة الخارجية، ولا ننسى أن الدكتور ربيع كان يثق كثيراً في الحرب النفسية كأداة لتحطيم إرادة الخصم واختراق صفوفه. لذلك فعندما يوصف الرجل بأنه كان له «هوى» سلوكي فإنه يفهم من ذلك أنه كان متأثراً بهذا التيار وكان واعيا في الوقت نفسه بحدود هذا التأثير.

الظاهرة الصهيونية

تفتحت عيوننا وآذاننا نحن طلاب السنة الرابعة بقسم العلوم السياسية

بكلية الاقتصاد جامعة القاهرة على دراسة الظاهرة الصهيونية لأول مرة عندما قرر علينا الدكتور ربيع كتابه عن «النموذج الإسرائيلى للممارسة السياسية» الذى كان يقدم فيه تشريحا دقيقاً للنظام الإسرائيلى. لم يحدثنا أحد قبله عن إسرائيل ولا عن الصهيونية، وربما لم يقدر لأجيال تالية أن تعرف شيئاً عن كليهما عندما ترك الرجل مصر إلى عاصمة الرشيد ليدير من هناك معهد البحوث والدراسات العربية فى ظل القطيعة بين مصر والعرب. فقط قبل سنوات قليلة أعيد الاعتبار لهذا النوع من الدراسات التى كان الدكتور ربيع رائدها فى نطاق كليتنا.

كان النموذج الإسرائيلى يستفز أستاذنا الكبير على المستوى النظرى وأيضا على المستوى العملى. كان يثيره كعالم سياسة هذا التناقض الذى ينطوى عليه النموذج الإسرائيلى والذى يمثل تحديا للتصنيفات التقليدية للنظم السياسية. فالدولة جديدة هذا صحيح إن عدنا لتاريخ زراعتها على الأرض الفلسطينية، لكنها ليست كذلك إذا ما تتبعنا جذور الفكر الصهيونى الذى قدم للدولة العبرية صك الشرعية . والدولة ديمقراطية فى تقاليدها البرلمانية، لكنها عنصرية فى تنظيمها علاقة اليهود بالعرب، بل وعلاقة اليهود من الغرب باليهود من الشرق، وهذه النقطة تحديداً يهتم بها الدكتور ربيع كثيراً لأنه يعتبرها

هل كان للمخابرات الإسرائيلية يد فى قتله لمنع نشر وثائق ترسانتها النووية؟!

مسئولة عن السلوك الانبربالى الإسرائيلى جرياً على قاعدة تصدير الخلافات الداخلية إلى الخارج. ثم أن الدولة فى حينها لم تكن تقف فى مصاف الدول المتقدمة لكنها فى الوقت نفسه كانت فى نصف الطريق بين الدول النامية من خلفها وتلك التى تسبقها فى مستوى التطور العلمى والتقنى، والدولة العبرية تمزج بين الاشتراكية التى تعود لمخالطة الفكر اليسارى للفكر الصهيونى ، تلك المخالطة التى وجدت تطبيقها العملى فى مؤسسات كالكيبوتز والهستدروت، وبين الرأسمالية التى تنحاز لها جزئياً من خلال تشجيعها الملكية الخاصة. هذا إلى الخلط الذى تنطوى عليه منظومتها العقيمة ما بين القومية والدينية أو بين العلمانية واليهودية . بكل ذلك وجه الدكتور ربيع كعالم سياسة فى الدولة العبرية نموذجاً صالحاً للدراسة واستخلاص الدلالات والنتائج.

لكن على صعيد آخر، لم يكن كل

اهتمام الرجل بالنموذج هو اهتمام العالم بحالة دراسية، بل كان جزءا أساسياً من اهتمامه به مبعثه الخطر الذي يمثله الكيان الإسرائيلي على الأمن القومي العربي. فمن وجهه نظره فإن الصراع بين العرب وإسرائيل هو صراع وجود لا حدود، وبالتالي فلا موضع للحديث عن تعايش مع الكيان العربي أو إقامة علاقة معه. يفسر ذلك موقفه القاطع من معاهدة السلام المصرية - الإسرائيلية، وهو الموقف الذي لم يتردد في المجاهرة به والذي ربما كان أحد أسباب سفره إلى بغداد، وإن كانت هذه المرحلة من حياة الرجل ستظل واحدة من أكثر المراحل غموضاً سواء من حيث ظروف السفر أو بشكل أدق من حيث ملابسات العودة.

وفي تحليله لأسباب استحالة استمرار التعايش مع إسرائيل، يعود الدكتور ربيع إلى ثلاثة مبادىء يعتبر أنها حاكمة لإدراك النخب الإسرائيلية المتعاقبة - وبغض النظر عن اتجاهاتها السياسية - لمفهوم الأمن القومي الإسرائيلي. المبدأ الأول هو الاندماج في المنطقة لأسباب جغرافية لا تستطيع الدولة العبرية الفكاك منها. والمبدأ الثاني هو استيعاب المنطقة وابتلاعها وتفتيتها وهو المبدأ الذي يؤكد على وجودية الصراع واستمراريته. المبدأ الثالث هو السلام الذي يعني حق الدولة العبرية في أن تحقق الحد الأدنى من الأمن لشعبها بما في ذلك حقها في استباق التطورات التي يمكن ان تشكل تهديداً محتملاً في المستقبل. ضرب المفاعل النووي العراقي كان تجسيدا لهذا المبدأ، وهو بالمناسبة المبدأ نفسه الذي ترفعه الإدارة الأمريكية الحالية بصقورها وحمائمها.

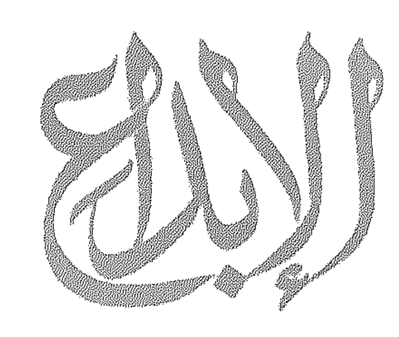
احتل الخطر الصهيوني إذن مكاناً مركزيا من فكر أستاذنا الكبير، ومرة أخرى في تجسيده لشعوره بالمسئولية الكفاحية حرص على ان ينقل احساسه بالخطر لنا نحن طلابه. ولذلك لم يكن مفاجئا أن يختار لي موضوعا للماجستير «الصهيونية والقوى الضاغطة في فرنسا» انطلاقا من إيمانه بعلاقة التساند العضوي بين يهود الداخل ويهود الخارج، واقتناعه بأنه في الدولة العبرية تتحدد السياسة الداخلية على وقع السياسة الخارجية وليس العكس (وهي مقولة قد يكون هناك من يختلف عنها من حيث شكل العلاقة وليس من حيث أصلها). لم يكن كثيرون في مصر في مطلع الثمانينات يملكون المجاهرة بالخطر الصهيوني، وأقل منهم أولئك الذين يبحثون عن هذا الخطر خارج الإطار الأمريكي، فالنفوذ الصهيوني لا موضع له إلا داخل الولايات المتحدة، أو دعني أقول لاموضوع له بهذه القوة وهذا التأثير إلا داخل الولايات المتحدة لكن عندما شققت طريقي إلى عاصمة النور لأبحث عن مراجع تعينني على دراسة هذا الموضوع الصعب، ووجدت



على بعد أمتار من مطار «أورلى» ، المطار الوحيد فى حينه، لافتة تشير إلى أكبر مصحة فى فرنسا لعلاج الأورام تحمل اسم ville juif ، تساءلت فى داخلى: هل يبدأ النفوذ الصهيونى من حدود الدولة الفرنسية؟.. وعلى الرغم من أنى اكتشفت لاحقاً أنه لا دلالة تذكر لتلك اللافتة ، ولا علاقة لها بالنفوذ الصهيونى من الناحية الفعلية، لكنى تبينت أيضاً مبلغ تخلل هذا النفوذ حياة المواطن الفرنسى العادى دع عنك مركز صنع القرار فى قلب العاصمة : باريس.

المقال الحادى عشر

فى الوقت الذى كانت تتعرض فيه عروبة مصر لحملة ضارية بعد الصلح مع إسرائيل، وتتردد فيه المقارنة الخبيثة بين أمن مصر وأمن العرب من زاوية تروج لانفصالهما، كتب الدكتور حامد ربيع سلسلة من المقالات فى منابر مختلفة، يدافع فيها عن عروبته ، فما كان لديه شك فى أن العروبة ظهير مصر كما أن لمصر دوراً قياديا لا تملك ترف التنازل عنه فى منطقتها العربية. حملت إحدى هذه السلاسل اسم «العرب فى قلب العاصفة»، والأخرى «أمتى والعالم»، والثالثة «سوف أظل عربياً»، والرابعة «إسرائيل والحرب القادمة» ثم «مصر والحرب القادمة». والسلسلتان الأخيرتان جاءتا على هيئة مقالات نشرت فى جريدة الوفد، وأثارتا قضية السلاح النووى الإسرائيلى، هذا الخطر المسكوت عنه لأنه يتعلق بالدولة العبرية، والمستباح فى غيرها خصوصاً ما طالها منه تهديد. وعندما كان يهم الدكتور ربيع بكتابة المقال الحادى عشر فى سلسلة «مصر والحرب القادمة» قضى نحبه فى ظروف غامضة، مخلفاً وراءه سؤالاً كبيراً : هل ثمة شبهة فى قتل العالم الكبير؟.. وإذا كانت الإجابة بالايجاب فهل للمخابرات الإسرائيلية يد فى تدبير الحادث خصوصاً وقد وعد الراحل قراءه بنشر وثائق جديدة عن الترسانة النووية للدولة العبرية؟.. هل نحن إزاء إعادة إنتاج سابقة الدكتور المشد مع اختلاف السياق والظروف واتفاق الهدف : تأكيد التفوق العسكرى الإسرائيلى المطلق والحيلولة دون تطوير أى من دول المنطقة للسلاح النووى؟.. لم ننجح السنوات الأربع عشرة الماضية فى إزالة الغموض عن ظرف رحيل العالم الكبير، وأظن أنه مع أهمية السؤال الذى أثير إلا أن كثيرين لم يكونوا يحفلون بإجابته، إما لأن التفسير لم يكن على هواهم باعتباره يسقط فى هاوية النظرية التآمرية التى يولع بها العرب، وإما لأن الرجل نفسه لم يكن على هواهم لأسباب كثيرة أهمها أنه لم يكن يجيد تسويق نفسه، والأرجح أنه للسببين معاً لم نعرف كيف فارقنا الدكتور ربيع. ■



الإبداع وفلسفة التعليم

بقلم
د. شريف حتاته

في ذلك اليوم في الصباح الباكر من شقتنا في «سبرنج ستريت» (أي شارع الربيع) بمدينة «بورتلاند» هبطت طبقات الثلج تمتد فوق الأرض مثل القطن الأبيض . والصقيع يخترق الملابس الصوفية السميكة التي لففتها حول جسمي . سرت في الشوارع مستعينا بخريطة للمدينة أرسلتها إلى إدارة الجامعة . الشوارع تكاد تكون خالية من الناس، والسيارات في هذا الوقت المبكر فيما عدا أطفال المدارس ألمح وجوههم الصغيرة الموردة تطل من أغطية الرأس الصوفية الملونة . عند تقاطع الشوارع يقف رجال يحملون في أيديهم لوحات معدنية لإيقاف السيارات كلما اجتاز طفل أو مجموعة من الأطفال أحد الشوارع .



اجتزت غابة صغيرة . الأشجار ترفع أغصانها السوداء العارية إلى السماء ، وطيور النورس تدور حولها صارخة. فمدينة «بورتلاند» تقع على شاطئ المحيط الاطلسى فى أقصى شمال الولايات المتحدة. جئت إليها لأقوم بالتدريس فى جامعة «ساثرن ماين»، ورغم الثلوج والبرد القارس قررت أن أذهب إلى مكتبى سيراً على قدمى حفاظاً على عادة التريض التى لم أتوقف عن ممارستها طوال السنوات.

وصلت إلى مبنى «لوثر بونى» حيث يوجد مكتبى بعد خمسة وأربعين دقيقة. دفعت الباب الخارجى لأجد نفسى فى صالة ضخمة مزدحمة بالطلبة، والطالبات يثرثرون فى مجموعات، أو يجلسون على موائد تصطف على جانب ليقرأوا فى كتاب أو يتناولوا قدحاً من القهوة، وفطيرة للإفطار.

خرجت من المصعد عند الطابق الثالث لأجد باب مكتبى المرقم ٣٢٥ أمامى. دخلت ملقياً نظرة سريعة حول الحجرة الفسيحة المريحة باتساعها، وأثاثها البسيط. خلعت السترة، والملابس الصوفية بسرعة ، وجمعت بعض الأوراق قبل أن أهبط إلى الفصل رقم ٢٠٨.

حول المنضدة المربعة الممتدة قرب الجدران كانوا يجلسون. خمسة عشرة من الطلبة، والطالبات. اخترت مقعداً خالياً إلى جوار السبورة، وأسفل شاشة العرض السينمائى المعلقة قرب السقف. جلست ثم درت بنظراتى على الوجوه. تطلعت إلى عيونها تفحصنى فى صمت.

قلت. «صباح الخير» . أريد أن نبدأ بالتعرف على بعض. فأرجو من كل منكم أن يذكر اسمه، وسنه، ومجال الدراسة الذى اختاره لنفسه، والأسباب التى من أجلها قرر أن يلتحق بالمنهج الذى سأقوم بتدريسه تحت اسم «كسر الحواجز».

هكذا بدأت الحصة الأولى التى أجاب فيها كل من الطلبة، والطالبات على الأسئلة التى طرحتها عليهم، اكتفيت فيها بالاستماع إليهم، والتدخل بالتشجيع كلما لاحظت عند بعضهم قدراً



من الخجل دفعهم إلى الصمت. وهكذا بدأت مرحلة جديدة من الاستكشاف فى التجربة التى خضتها فى جامعة «ديوك» الامريكية منذ سنوات ست.

التعليم فى حاجة إلى فلسفة جديدة

«من علمنى حرفاً صرت له عبداً». هذه مقولة كانت شائعة أيام أن كنت تلميذاً فى المدرسة، ثم طالباً فى الجامعه أى منذ أكثر من ستين سنة. ربما لم يعد أحد يرددها الآن. مع ذلك مازالت الفلسفة العبودية هى السائدة فى جميع نظم التعليم، وفى جميع البلاد. فهى فى رأيى لا نصنع رجالاً، ونساءً أحراراً، وإنما عقليات لا تملك القدرة على التفكير المستقل، والإبداع ولا تهبهم تلك الثقة فى النفس التى تجعل الإنسان يؤمن بأنه يستطيع أن يكون، بل هو بالفعل، منبع للمعرفة بحكم تجاربه. أنها تغرس الاعتقاد بأن المعرفة تأتى إلينا من عبرنا، ولا نستطيع أن نضيف إليها، أو نطورها، أو نبين الخطأ الذى قد نحمله. إن علينا أن نقبلها، ونستوعبها كما هى لنصبح من عداد المتعلمين، أو المثقفين.

فالمجتمع منقسم إلى أقلية حاكمة تملك المال، والسلطة، والسلاح، وإلى أغلبية مطلوب منها الخضوع والطاعة. حتى تستمر هذه الأقلية متربعة على قمة الهرم، وحتى يظل النظام الذى هو فى صالحها قائماً دون تغيير، فإن هذه الأقليه الحاكمة فى حاجة إلى تشكيل عقول الناس، وعلى الأخص عقول الشباب من الجنسين بحيث يقبلون الأوضاع كما هى، أو على الأقل بحيث تنقصهم المعرفة التى لا غنى عنها كى يتمكنوا من تغييرها، وليحققوا حلم الإنسان الأبدى فى أن يعيش حياة تسودها الحريه، والعدالة.

ففى ظل الأوضاع السائدة فى العالم، وفى بلادنا مطلوب منهم أن يظلوا خاضعين للظلم، والقهر، وعدم المساواة، ولمختلف أنواع التفرقة المبنية على الطبقة، أو الجنس، أو الدين، أو العرق.

عندما عملت لمدة ثمانى سنوات فى منظمة العمل الدولية، ثم كأستاذ زائر فى بعض الجامعات، سمحت لى الظروف بأن أطلع على نظم التعليم فى عدد من البلاد. فى الوقت نفسه بدأت أستعيد تجربتى كتلميذ فى المدرسة، وكطالب فى الجامعة. فأدركت أن جميع هذه النظم فى جوهرها لا تتجه إلى تكوين إنسان له عقل مبدع، وناقد، ومستقل. هذا فى ظل مجتمعاتنا أمر طبيعى. فالتعليم إذا قام على فلسفة تؤدى إلى تكوين عقول واثقة فى قدراتها، تمارس تفكيراً مستقلاً، عقول قادرة على صنع المعرفة، على النقد وعلى الإبداع، فإن سيطرة الأقلية المدججة بالمال والسلاح، والمسيطرة على التعليم، ووسائل إعلامنا مآلها حتى وإن طال الزمن قليلاً هو الزوال.

هذا هو حالنا منذ المجتمع العبودى،

منذ أن انقسم المجتمع إلى طبقات، إلى أقلية تملك، وأغلبية لا تملك وتفنى عمرها بحثاً عن لقمه العيش. منذ الحضارات الأولى التى نشأت فى كل من مصر، واليونان، والهند، والصين، والمكسيك، والعراق. ومنذ أن سادت الفلسفة العبودية فى المجتمعات. لذلك كان القطاف من شجرة المعرفة إثماً أدى إلى طرد آدم وحواء من الجنة ليثبت بذلك أن الأساطير القديمة تشير إلى حقائق يجب أن ندرك عمق معناها.

وفى عصرنا «الحديث» أو «ما بعد الحديث» تمارس الطبقات الحاكمة سيطرتها على العقول عن طريق التربية فى الأسرة، والتعليم، والإعلام، والمؤسسات الدينية.

ليس قصدى من هذا الكلام أن هناك مؤامرة مدبرة بواسطة الأقليات التى تحكم فى العالم وفى كل البلاد. لكن معناه أن أى نظام لابد أن تكون له فلسفته وآلياته التى نبقى عليه وتضمن استمراره. فالمجتمعات، والمؤسسات جميعاً بطبيعتها تسعى إلى الحفاظ على نفسها. هذه هى طبيعة الأشياء، طبيعة النظام الطبقى الأبوى الذى يسود فى عالمنا. لابد أن يفرز فلسفة عبودية فى جميع المجالات بما فيها التعليم. وهى فلسفة لا يمكن أن تؤدى إلى صنع مبدعين أحرار. الأحرار المبدعون دائماً أقلية خارجة عن القاعدة، ثائرة، ومتمردة، تكسر أطر التعليم الرسمى الذى تلقته فى الأسرة، أو المدرسة، أو الجامعة، أو فى بيوت العبادة التى يشرف عليها رجال نصبوا أنفسهم مفسرين لكلام الله.

التعليم حتى اليوم، وعلى الأخص فى البلاد الرأسمالية المتقدمة صناعياً تهتم بصنع المهارات، بالتخصصات، بالعلوم، بالمعارف التى يحتاج إليها المجتمع. لأن فى غيبه هذه المهارات سيعجز عن الاستمرار، سيعجز عن تحقيق التطور الذى تريده الأقلية صاحبة السلطة والمال. لكن التعليم لا يسعى أبداً إلى صنع عقول قادرة على تغيير الأسس الظالمة، التى مازالت تقوم عليه كل المجتمعات.

كسر الحواجز

عندما دعيت للتدريس فى جامعة «سوثرن ماين» قادنى هذا التفكير إلى خوض تجربة مختلفة فى منهج وأسلوب التعليم لا أدعى أنها الأولى من نوعها، فلاشك فى أن هناك محاولات تسير فى ذات الاتجاه. وأيا كانت مميزات وعيوب هذه التجربة فقد كانت نتاج حوار طويل، دار بينى وبين نوال السعداوى طوال السنوات، ونتاج القراءات وتجارب الحياة.

هذا المنهج سميته كسر الحواجز»، ونظام التعليم الجامعى فى الولايات المتحدة الأمريكية يتمتع بميزات. منها



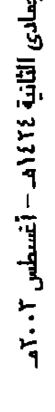
الحرية التى تعطى للأستاذ، وعلى الأخص للأستاذ الزائر فى تصميم المنهج الذى يريد تدريسه دون أى تدخل من رئيس القسم أو غيره من المسئولين القائمين على التعليم الجامعى، فهم يعتقدون أن تعرض الطلبة والطالبات لمختلف المعارف والخبرات وبالذات تلك الآتية من خارج البلاد يمكن أن تصنع نخبة من المتعلمين أقدر على تسيير شئون المجتمع فى جميع المجالات، وربما أيضاً لأن سيطرة الرأسمالية النيوليبرالية فى الولايات المتحدة مازالت قوية. فهى حتى الآن لا تخشى من أثر الأفكار المختلفة بل على العكس تبحث عن وسائل لاستيعاب التجارب الجديدة والاستفادة منها.

ورشة فكر جماعى

كانت لى حصتان فى الأسبوع كل منهما تمتد لمدة ساعة. كنت أجلس بين الطلبة والطالبات كواحد منهم. أو يقوم أحدهم للكتابة على السبورة، وأحياناً يعرض فيلم ڤيديو يدور بعده نقاش. لكن من لحظة دخولى إلى الفصل إلى لحظة خروجى منه كان يدور حوار نشارك فيه جميعاً دون استثناء. فى بعض الحصص كنت أترك الحوار ليدور بينهم وأظل صامتاً مشغولاً بتسجيل بعض النقاط التى أرى أهمية لإثارتها فيما بعد. ولكن فى كل الأوقات، ماعدا فى مناسبات نادرة، ظل دورى هو المشاركة وليس التدريس. قد أسأل أسئلة ليفكروا فيها أو أعرض فكرة نساعد على تطوير النقاش. لكنى كنت أحرص دائماً على أن أتكلم باختصار وأن يدفعهم كلامى إلى التساؤل، أو إلى قدر أكبر من التعمق فى القضية المثارة. ظل التساؤل دائماً هو سيد الموقف. ابتعد عن إملاء المعلومات أو فرض آرائى كأستاذ.

كنت أسعى إلى أن تكون النتائج التى نصل إليهم نابعة من تفكيرهم وحوارهم المشترك. أدفعهم إلى التساؤل حول كل شىء دون أن يتملكهم الحرج أو الخوف مهما كانت حساسية الموضوع. إلى تحطيم التحيزات، والأفكار المسبقة، وفحص كل المعلومات والآراء بعقل ناقد. دورى كان مساعدتهم على تأصيل المعارف وعلى تتبع جذورها، وأسبابها وتاريخها. كيف نشأت، وكيف تطورت. أن أعينهم على أن يكتشفوا بأنفسهم أن لكل ظاهرة جوانب مختلفة، أن هناك صلة بين الاقتصاد، والسياسة، بين الاجتماع، والفلسفة، والثقافة، وعلم النفس، والجنس والدين، بين الفن والعلم. إن المعرفة الكلية هى المعرفة الحقيقية تساعد على ربط الجزء بالكل، والخاص بالعام. فالإنسان فى حياته يمارس كل هذه الأشياء. والحياة تتعلق بكل هذه المجالات لا نستطيع أن نفهمها إلا إذا أدركنا هذه الصلات، ولا نستطيع أن ندفعها إلى الأمام إلا بكسر





الحواجز»، والقضاء على التحيزات المبنية على الطبقة، أو الجنس، أو الدين، أو العرق، أو القومية، أو التفكير الجزئى الذى يحول الحقائق الجزئية إلى حقائق كلية.

كانت القراءات المقررة عليهم أساساً عدد من الروايات العربية المترجمة إلى الإنجليزية. اخترتها ليطلوا على عوالم غير عالمهم. اخترت أن تكون أغلب قراءاتهم من الأدب الروائى بالذات لأن الأدب الروائى يعبر عن كلية الحياة، عن الإنسان الذى هو كائن اقتصادى، اجتماعى، ثقافى، فلسفى ، نفسى. مكون من جسم، وعقل لا ينفصلان عن بعضهما . الرواية هى الإنسان فى علاقته بكل ما يدور فى المجتمع، وبالآخرين . والرواية هى حاضر وماض ومحاولة لاستشراف المستقبل.

كل أسبوع كنت أطلب منهم أن يكتبوا ورقة من ثلاث أو أربع صفحات حول موضوع معين أثير أثناء الحوار. فى هذه الأوراق لم أكن معنياً بأن «يرصوا» فقرات من كتاب، أو يستعرضوا معلومات. كنت أحثهم على التعبير عن رؤيتهم للأشياء، عن تجاربهم الخاصة والحميمة، عما أثار انتباههم، عما أثر فى حياتهم، عما طور تفكيرهم، عن نظرتهم للمجتمع والحياة، عن أحلامهم. كنت معنياً بأن يكتشفوا هم قدراتهم، ومواهبهم، وأن يثقوا فيها . أن ينتقدوا ما يدور فى الفصل إن كان لهم انتقاد. أن يعبروا عن أنفسهم بجرأة وصراحة. أن ينبع كل ما يكتبون من أعماقهم وليس من الكتب، أو من الآخرين. كنا نستخدم القراءات لإثارة التفكير، والتساؤل، والتحليل وليس كمراجع للحفظ.

كانت ورشة جماعية للفكر، والحوار عن طريقها تعلمنا من بعضنا، واقتربنا . عن طريقها زادت ثقتهم فى أنفسهم، فى قدراتهم على التفكير، والتعبير، والإبداع. وطوال الوقت كنت واحدا منهم أتعلم منهم وينعلمون منى. عن طريق هذه الورشة تفتحت أذهاننا للشمس والهواء، للمساحات، للمستقبل والآفاق. لا أريد أن أبالغ فيما فعلناه، لكننا على الأقل خرجنا من هذه التجربة أقوى ، وأوعى مما كنا . نشأت بيننا عواطف من الاحترام، والصداقة. كنا كمن أبحروا فى سفينة خاضت البحار فى رحلة اكتشاف فيها علم وفن شاركنا فيها جميعاً، فأصبحت المعرفة نتاجا جماعيا لا تعتمد على فرد أعلى هو المعلم أو الأستاذ . نضجوا وكبروا أثناءها وخرجوا منها أعمق فكراً وأصلب عوداً، وأنا كذلك. وعندما ظهرت نذر الحرب تصدروا المظاهرات رافعين أعلامهم، حاملين اللافتات التى كتب عليها:

«لا للدم مقابل النفط». «لا للحرب ضد شعب العراق». ■

الحضارة الإنسانية

تزاوج لا صراع

بقلم
فاروق خورشيد

من أخطر المقولات التى راجت هذا العصر بعد الخطب الرنانة والتصريحات المتفاخرة لرئيس أمريكا وقادته ، مقولة ، الصراع الحضارى . وقد فاتهم جميعا أن الذى يتصارع هو الدول وليس الحضارات ، بل إن الدول تتصارع داخل الحضارة الواحدة لتكون لها فى مرحلة ما صدارة هذه الحضارة والسيطرة الكاملة على كل مقوماتها البشرية وكل قدرات الثروات فيها – وتظل مسيرة الحضارة مترافعة ومتواكبة .. والدول التى تتولى الصدارة تتغير ، بحكم الشيخوخة التى تصيب من فى القمة ، والداء الذى يسببه الثراء والاسترخاء ينخر فى قدرتها على القيادة ، حتى تثب قوة شابة جديدة ، لتزيحها عن صدارة هذه الحضارة ، حتى تتجدد هذه الحضارة وتكون قادرة على الاستمرار والبقاء والإضافة الدائمة . أو هكذا قال «ابن خلدون» فى مقدمته من قديم الزمان .

وهكذا أثبتت تواريخ الأحداث ، وتعاقب المتغيرات التاريخية التى أكدت أن الحضارة شىء أكبر من الدول ، والدول قد تتصارع داخل الحضارة الواحدة ، ولكن تظل الحضارة الإنسانية هي نتاج الوجود الإنسانى المتفاعل

والدائم والمستمر ، رغم صراعات الدول ، وارتفاعها أو تدهورها وسقوطها .. ويمكن أن تكون الدول فصولا أو عصور عصورا فى حضارة واحدة تشملها وتجسد صراع شعوب ودول أصحاب مصالح وطموحات متصارعة ومختلفة .. وإن كانت كلها تنتمى إلى حضارة واحدة أو تمثل مراحل متعددة ساهمت بتجدد شبابها فى تطور هذه الحضارة واستمرارها ، وتأكيد قيمها وبلورة هذه القيم وتأصيلها .

تطور الحضارات

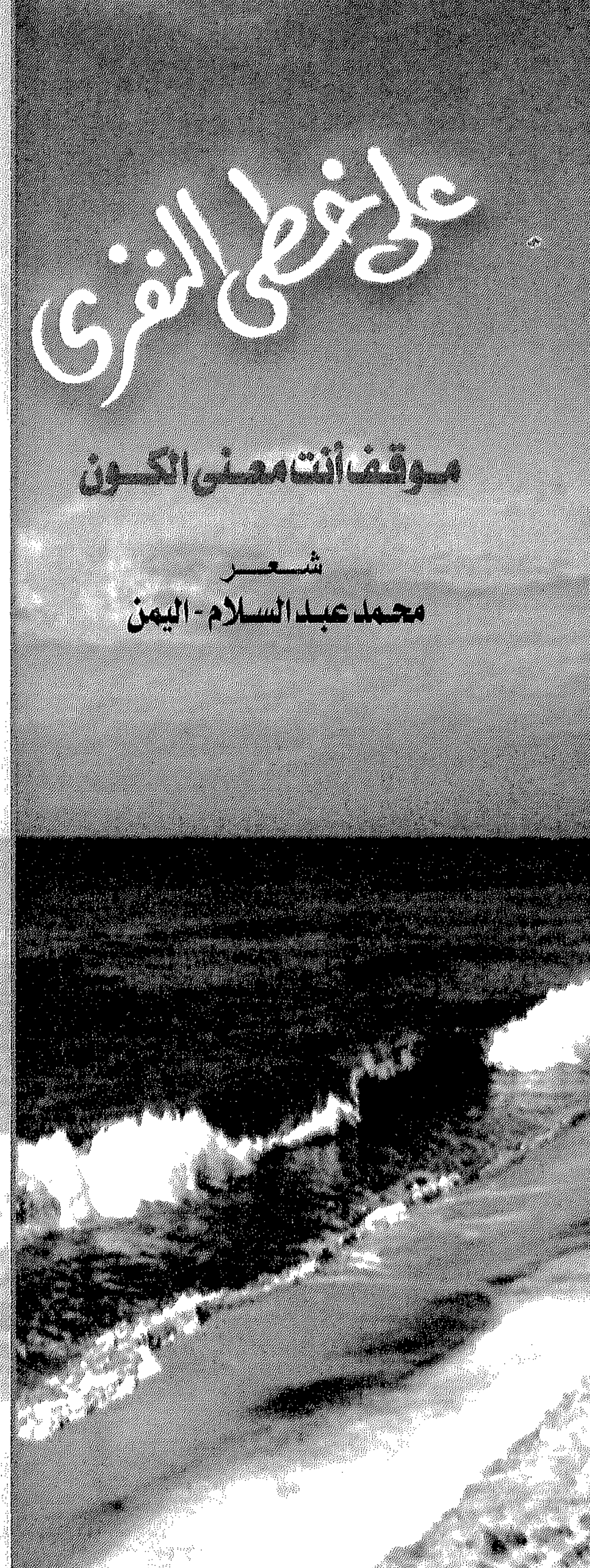
فالحضارة الإغريقية .. التى هى الأم المباشرة للحضارة الغربية ، قادتها الدولة الإغريقية فى ازدهار أثينا وفلاسفتها ومفكريها ، ثم قادتها الدولة الرومانية فى عصر ازدهار روما وسيطرتها العسكرية والفكرية معا على مقدرات العالم القديم كله ، ثم سادتها الإسكندرية فى عصر تحولها إلى ماسمى باسم الحضارة الهلينستينية التى جمعت الزخم الفكرى لأثينا وروما والإضافات التى جاءت من عواصم البحر الأبيض الحضارة الفينيقية والحضارة الفرعونية ، وحضارة شبه جزيرة آسيا الصغرى ، وتزعمتها فى هذه المرحلة الإسكندرية وجامعتها ومكتبتها والمدرسة الأفلوطينية رائدة هذه المرحلة الفكرية العالمية .. وهذا حدث أيضا بالنسبة للحضارة الإسلامية ، إذ قادتها مكة والمدينة صدر الإسلام ، ثم دمشق فى العصر الأموى ، فبغداد فى العصر العباسى ، ثم عواصم الشرق الأوسط الإسلامية كلها فى عصر الولايات إلى أن تركزت فى عاصمة الدولة العثمانية مع ما تضيفه إليها هذه الدول من الناحية الحضارية .. رغم الصراعات العسكرية بين بؤر التفوق العسكرى فى كل هذه البؤر ، إلا أن هذه الصراعات لم تعكس صراعا حضاريا ، لأن الأسس الثقافية والعلمية والفكرية التى قامت عليها هذه الحضارات ازدادت وضوحا ورسوخا وتطورا ، بشكل أو بآخر ، أثناء انتقالها من عاصمة حضارية إلى أخرى ، تضيف كل منها ما تستطيع ، إذ أن هناك تكاملاً تحققه توالى الدول داخل الحضارة الواحدة ، ذات الطابع الواحد ، وتوالى الحضارات داخل الزحف الإنسانى المتكامل نحو تحقيق مستقبل حضارى أفضل ، وأكثر تطورا لصالح الإنسان نفسه ، ولصالح تحقيق حقه المكتسب فى ثروات عالمه ، وفى الحرية والإخاء والمساواة .. وكل حضارة سادت فى مرحلة ما تقدم كل ما توصلت إليه فى دنيا المعرفة والسلوك والفكر إلى الحضارة التالية لها ، لتكامل السير الحضارى الإنسانى . ومن قديم أيضا قال (توتى) إن الحضارات تتعاقب ولكنها تتعايش .. وهذا يعنى أن ليست هناك حضارة نزول على



بد حضارة أخرى ، وإنما هناك حضارة تنزوى بعيدا عن الزحف العام للحضارة الجديدة ، محتفظة بكل خصائصها الحضارية ، وعن طريق هذه البؤر المتوارية حضاريا يمكن لنا أن نعرف كل المراحل التي مرت بها الحضارة الإنسانية منذ المرحلة البدائية الأولى - التى مرت بها الإنسانية فى تكوين وجودها الحضارى حتى وجودها المعاصر لنا - وقامت علوم إنسانية كثيرة على هذا الأساس كعلوم الميثولوجي والأنثروبولوجي والفولكلور ، للكشف عن السمات الأساسية لكل حضارة والتى بقيت عبر الزمان لتكون الماضى الحى ، الذى يكشف الخصوصية الإنسانية لكل حضارة فى كل مرحلة وكل عصر من العصور الحضارية الإنسانية المتتالية ، ولا يأتى هذا إلا بالدراسة العلمية لكل المتبقيات الحضارية واحترامها ، ومحاولة فهمه ، لتكشف لنا عن كل الوجوه المتعددة للصراع الإنسانى ضد الجهل وضد المعوقات البدائية والمستمرة التى حاولت أن تعوق نمو الإنسان الحضارى ، ومسيرته الثقافية ، فالإنسان هو المخلوق الحى الوحيد فى هذا العالم الذى لايكرر نفسه ، فكل الحيوانات تعيش من جيل إلى جيل تكرر نفسها وطرق معيشتها وطريقة سلوكها هى والطيور والحشرات والنباتات أيضا ، المخلوق الحى الوحيد الذى لايكرر سلوكه هو الإنسان ، لأنه يستفيد من تجربته ، وممارسته للعلاقة بينه وبين الزمان والمكان، ليتطور معتمدا على كل ثقافته القائمة على المعاناة والتجربة ومحاولا الاستفادة من معرفته بما حوله وتطويعه لكل ما حوله ليكون فى خدمته الحضارية والثقافية معا . لينطور من مرحلة إلى مرحلة ، وليخلق من هذه الحركة التطورية معنى حضارته النامية والمتكاملة أبدا .. وعلى هذا فالإنسان يبنى الجديد على ما حصله من ثقافة حضارية قديمة ، وهو لايهدم هذا القديم ولا يدمره ، لأنه يعرف ويحترم أنه يحتاجه ويبنى عليه ويكون منه عطاء ليومه الذى يريد أن يكون هو الأساس الذى يقوم عليه غده - وقد ركزت الدراسات الأثرويولوجية وعلى رأسها دراسات سير (جيمس فريزر) على محاولة معرفة هذه الخصوصيات الثقافبة ودراستها وإبرازها كعناصر أساسية فى الوجود الحضارى الإنسانى العام .

هذه محاولة للرؤية ، وهى بالقطع محاولة قاصرة تحتاج إلى كثير من التوثيق والمناقشة والفهم ، ولست آمل إلا فى أن يكون طرحها بداية لمناقشة ومتابعة وإضافة وفهم . ■





قال لى فى غمرة الشجن
ودموع الشوق تسكبنى
أنت معنى الكون مكتملا
وأنا لولاك لم أكن
لم هذا الحزن؟ قلت له:
لا تسلنى قال: تنهرنى؟
قلت كلا بل عجبت لمن
هو أدرى. كيف يسألنى
سكرة العشاق اكتمها
عن نديم بات يسكرنى؟
فدع الأحزان خذ قدحاً
إن فيها الروح للبدن
هاتها أحيى بها ألماً
نازفاً فينى يذكرنى
غفلة الماضى وقد سفحت
عمرى تيها فيحرقنى
وغداً فى الغيب أجهله
كسيول الليل يفزعنى
كيف أسلو والشجى قدر
جارح والروح تعصرنى
فأضئها اقدح بها قبساً
واسقنيها حين تشربنى
واعزف الروح انسكب نغماً
واستمعنى فيه يعزفنى
يانديماً عاشقاً ثملاً
سوف تبقى دائماً سكنى

« حداثة »

بيدبا الفيلسوف ودبشليم الملك وكيف كان ذلك ؟

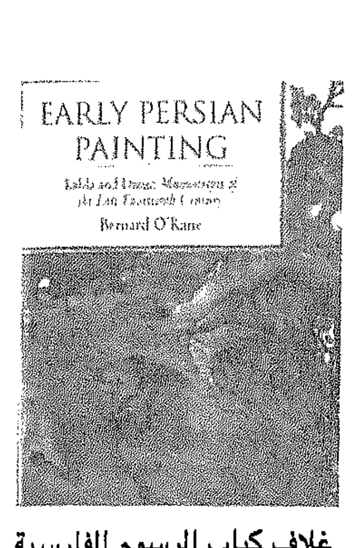
بقلم
صافي ناز كاظم

الذئب الطماع



في أول فبراير سنة ١٩٦٨ ، وكـــان يوم خـمـيس ، أصـدرت دار ومطابع الشعب كتاب «كليلة ودمنة» ١١٢ صفحة ، في سلسلة «كتاب الشعب» التي كانت تقدم «كل أسبوع» كتابا من الذخائر بعشرة قروش، وكان شعار الدار: «أخصائيون في المطبوعات العاجلة» ، ورئيس مجلس الإدارة «السيد إبراهيم» . أخرجت الكتاب من مكتبتي لأقرأه من جديد بمناسبة صدور كتاب الأستاذ «برنارد أوكين» ، عن الجامعة الأمريكية بالقاهرة، والذي عنوانه ، مترجما عن الإنجليزية يكون، «الرسوم الفارسية المبكرة، مخطوطات كليلة ودمنة نهاية القرن الرابع عشر» .

◄ هروب السلحفاة الثرثارة



غلاف كتاب الرسوم الفارسية المبكرة لـ «كليلة ودمنة»


النجار وزوجته الخائنة وعشيقها

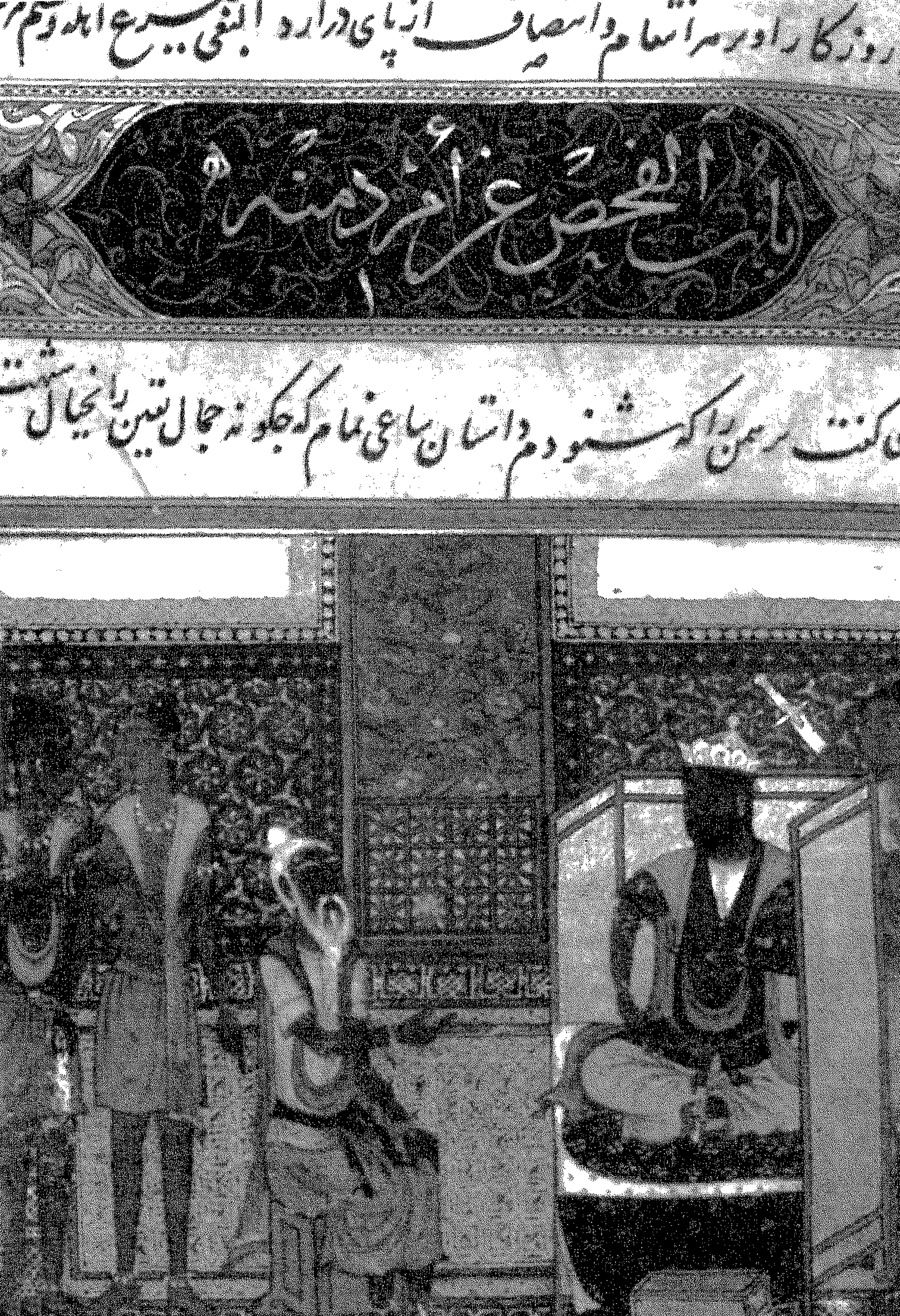
وكتاب الأستاذ «أوكين» مجلد ضخم، فاخر الورق، يزن ما بين كيلوين وكيلوين ونصف، تحسبه لأول وهلة أكثر من ألف صفحة، لكنه فى حقيقته ٣٣٦ صفحة، وهذا يعطينا تصورا عن سُمك ورقه المصقول اللائق والمناسب تماما لنقل اللوحات الملونة - (صفحات ٩٧ إلى ١٢٨، و١٤٥ إلى ١٦٠، و١٧٧ إلى ١٩٢) - والأسود والأبيض - (صفحات ٥٣ إلى ٩٢، و١٣٤ إلى ١٤٢، و١٦١ إلى ١٧٠) - واللوحات المنقولة من مخطوطات استامبول ورامبور والقاهرة صورها المؤلف بنفسه عدا اللوحات الأخرى التى زودته بها بعض المؤسسات الثقافية وقد أشار إليها.

قسم الأستاذ «أوكين» كتابه إلى أربعة أقسام، غير المقدمة، ضمّن القسم الأول: النصوص، الرسوم والتاريخ، والثانى: المخطوطات، والثالث: تحليلات مقارنة، والرابع. ملحقات مخطوطات كليلة ودمنة.

***

كتاب الأستاذ «أوكين»، كتاب علمى فنى ثقافى، ثرى وغنى، متقن غاية الإتقان، وإن ظهرت به بعض الأخطاء المطبعية ، وهو فرجة ممتعة، بمعرض لوحاته، حتى لمن لا يصبر على قراءة البحث والشرح والتحليل. وأهمية هذا

دبشليم الملك وبيدبا الفيلسوف - « باب الفحص عن أمر دمنة»



باب الفحص عن امر دمنه

الكتاب فيما يخصني شخصيا أنه انساني، مؤقتا، وجه جورج دابليو بوش ودونالد رامسفيلد وكوندوليزا رايس، وفك الارتباط قليلا بين «القبيح» وما هو «آمريكى»، فهذا كتاب لا يجابهنا بكلمات مثل «عليكم آن تذعنوا...»، بل لعله انعاش ذاكرة أصحاب الأحذية الثقيلة، والأيدى الصافعة، والنظرات الاستعلائية، لجانب من الحضارة الإسلامية التى مازالت، حتى الآن، تمتع خلق الله على مدار الكرة الأرضية ونشكل مصدرا رئيسيا فى إثراء التراث الإنسانى للكافة.

والأهمية الثانية لهذا الكتاب انه آعادنى لقراءة «كليلة ودمنة» فى طبعة «كتاب الشعب»، التى ذكرتها فى مقدمة كلامى هذا، وهى ننوه باختصار إلى أن «الكتاب» تأليف «بيديا الفيلسوف» وترجمة «عبد الله بن المقفع»، من دون آن يذكر المشرفون المصدر الذى نقلوا عنه هذه الطبعة الشعبية، لا سيما وأن ما ذكره الأستاذ «أوكين»، فى قائمة المصادر الخاصة بكليلة ودمنة، طبعتين بالعربية: الأولى صدرت فى بيروت عام ١٩٠٥ تحقيق وتقديم الأب شيخو، لويس اليسوعى، والثانية صدرت بالقاهرة عن دار المعارف سنة ١٩٤١ بتقديم وتحقيق الدكتور عبدالوهاب عزام - ولم يشر الأستاذ «أوكين» إلى طبعة «كتاب الشعب» سنة ١٩٦٨ ربما لأنها قد تكون منقولة عن طبعة «عزام». والذى يبهرنى فى طبعة «كتاب الشعب» لكتاب «كليلة ودمنة»، أنها خالية تماماً من أى خطأ مطبعى، رغم تجشمها تشكيل كل الحروف بالفتحة والضمة والكسرة والسكون. وقد استعنت بكتاب الدكتور شوقى ضيف «العصر العباسى الأول»، الذى انتهى منه ديسمبر ١٩٦٦، لأفهم بالضبط الدور الذى لعبه «عبدالله بن المقفع» فى نقله «كليله ودمنة» من اللغة الفارسية إلى العربية، هل كانت ترجمته حرفية لا زيادة فيها ولا نقصان أم انه استعان بها للتعبير عن أزمات زمانه وعلاقته هو بأصحاب السلطان ومعاناته من مكائد المتحلقين حولهم؟ فى هذا يقول الدكتور شوقى ضيف صفحة ٥٢٠ و٥٢١ التالى «... ورجح كثير من الباحثين آن ابن المقفع زاد فى الكتاب بعض الفصول والقصص، ولكن ربما زاد ذلك بعض من جاء بعده، إذ ترجم الكتاب مرارا، شعرا ونثرا، وأكبر الظن أن ابن المقفع لم يزد إلا الفصل الذى وضعه بين يدى القصص وسماه وعرض الكتاب، ... ... ومثل ابن المقفع فى ترجمة هذا الكتاب مثله فى ترجمة الحكم والآداب الفارسية السياسية والاجتماعية والخلقية يصب فى دقة المعنى الذى يترجمه فى القوالب العربية التى تلائمه وتلائم الذوق العربى، بحيث خيل إلى كثير من القدماء آن كل تلك الترجمات من تأليفه



وتصنيفه، إذ لم يجدوا آى فارق فى الصياغة بين ما يترجمه وينشئه..»

ومع شهادة د. شوقى ضيف، يبدو أن الأستاذ «أوكين» ظل ميالاً إلى التصديق بأن عبدالله ابن المقفع قد أضاف، على الأقل ، خمسة فصول أو أبواب إلى النص الهندى الأصلى لكليلة ودمنة، ويؤيده فى هذا التصديق الأستاذ نيكلسون فى كتابه الشهير «التاريخ

نصر الله امام بهرام شاه





الأدبى للعـرب». وكل هؤلاء العلمـاء معذور، فعندما نقرأ كليلة ودمنة العربية، لا نجد فيها خدشا من خدوش الترجمة - (كالتى نجدها فى مستخرجات الحداثة المحدثة لكلمات «الماضوية» ومثيلاتها التى «تكركبت» على أدمغتنا وآذاننا فى حفل افتتاح «مؤتمر الثقافة العربية. نحو خطاب ثقافى جديد، من تحديات الحاضر إلى آفاق المستقبل، ١ - ٣ يوليو ٢٠٠٣»، حتى أننى لم أستطع متابعة معظم ما قيل...) - بالإضافة إلى اللمسات الإيمانية الإسلامية التى لازمت النص مع كل ذكر لله سبحانه وتعالى ومشيئته وأقداره - (مع ذلك حكم المنصور، ثانى خلفاء الدولة العباسية، بقتل عبدالله بن المقفع فقتله سفيان بن معاوية المهلبى ، عامل المنصور على البصرة، الذى كان يحقد على ابن المقفع فأمر بتنور ممتلىء بالوقود، وبعد أن حميت ناره قطع فيه جسد عبدالله بن المقفع قطعة قطعة ورماه فيه، ولا أدرى هل فعل فعلته الشنعاء وابن المقفع حيا أم بعد إسلامه الروح لمن خلقه سبحانه وتعالى، وقد تم ذلك قبل أن يبنى المنصور بغداد، حاضرته الثقافية! سنة ١٤٢ أو ١٤٣ أو ١٤٥ هجريا، الموافق ٧٥٧م أو ٧٦٠م ، ولتبرير هذا الجرم أكد الكثيرون أن ابن المقفع كان زنديقا يروج للزندقة، وحتى لو صدق هذا الزعم فهل وافقت عملية قتله تعاليم الإسلام الحنيف؟ وهل كان ذلك السفيان بن المهلبى ، عامل المنصور على البصرة، أقل زندقة فى جريمته من ضحيته، لو تأكدت عليه تهمة الزندقة؟).

* * *

تقول المصادر العلمية إن قصص كليلة ودمنة تمت كتابتها فى الهند باللغة الهندية فى القرن الثالث الميلادى تقريبا، وترجمت إلى اللغة «الفهلوية» - الفارسية - فى عصر كسرى أنوشروان، ونقلها ابن المقفع إلى العربية فى القرن الثامن الميلادى، وتعود النسخة التى حققها الدكتور عبدالوهاب عزام إلى عام ١٢٢١م. وهذا كله كلام لا يعنينى كقارئة للنص فى طبعة كتاب الشعب، ١٩٦٨/٢/١. الذى لاحظته أن الكتاب كان دوائى من تعب النفس وضيق الصدر، وأنه شدّنى من رمال الاكتئاب المتحركة، فلم أغص فيها طويلا، وهذا الكتاب وصفتى العلاجية لمن أرهقتهم أحداث منطقتنا، ومناظرات من تم تعيينهم، من قبل أنفسهم وأصدقائهم ، النخب الثقافية والإعلامية والسياسية، الذين لم يعودوا يشوفون عقبات لدينا نحو «التقدم» إلا «الإسلام» و«المسلمين» المصرين على إعلاء كلمة الحق والدين، والذين حين يتكلمون عن «الكارثة والكارثية» لا يرون إلا «كارثة ٢٠٠١/٩/١١»، التى لا نعرف حتى الآن من هم المتسببون فيها، وإن كنا نعرف

صاحب الدار يضرب اللص فى غرفة النوم فى قصة « اللص وأشعة القمر »

من المتسبب فى كوارث وكارثات ونوازل ١٩٤٨/٥/١٥ ونوابعها حتى الآن على أرض فلسطين المحتلة، و١٩٦٧/٦/٥، و١٩٧٩/٧/١٤، و٢٠٠٣/٤/٩، و٢٦ يناير ١٩٥٢ ... إلخ... إلخ... إلخ، ونعرف تماما سعة مقابرنا الجماعية وقدراتها الهائلة على الاستيعاب. ياااااااااالله!

☆ ☆ ☆

فى فهرس طبعة «كتاب الشعب» نجد الإشارة إلى ١٥ بابامن الأبواب الأصلية لكليلة ودمنة بزيادة باب واحد عن أبواب النص الهندى التى تقول مقدمة الكتاب إنها ١٤ باب. يضاف إلى تلك الأبواب. «مقدمة الكتاب»، ١٢ صفحة، التى «قدمها بهنود بن سحوان ويعرف بعلى بن الشاه الفارسى. ذكر فيها السبب الذى من أجله عمل بيديا الفيلسوف الهندى رأس البراهمة لدبشليم ملك الهند كتابه الذى سماه كليلة ودمنة وجعله على ألسن البهائم والطير صيانة لغرضه فيه من العوام، وضنا بما ضمنه عن الطغام – (الأرذال) – ، وتنزيها للحكمة وفنونها ومحاسنها وعيوبها ، إذ هى للفيلسوف مندوحة، ولخاطره مفتوحة ، ولمحبيها تثقيف، ولطالبيها تشريف...» ، ثم : «بعثة برزويه إلى بلاد الهند»، ٦ صفحات، ثم «باب عرض الكتاب ترجمة عبدالله بن المقفع»، ٦ صفحات، وكلمة «ترجمة» هنا غير مقصود بها النقل من لغة إلى لغة، بل بمعنى «فاتحة الكتاب» أو «تمهيد» مثلا، أو «بقلم عبدالله بن المقفع». ثم «باب برْزويه، ترجمة بزرجمهر بن البختكان» ، أى «بقلم بزرجمهر بن البخنكان»، و«بزرجمهر بن البختكان» كان وزير كسرى أنوشروان ويضرب به المثل لقيمته الثقافية والفنية وعظمته فى صنعة الكنابة، وكان الناس يقولون «بزرجمهر زمانه وعصره وأوانه» للكاتب الذى يبلغ من صنعة فن الكنابه شأوا كبيراً، مثلما نقول نحن مثلاً عن الصوت الجميل «أم كلثوم زمانها» أو «عبدالوهاب عصره وأوانه».

☆ ☆ ☆

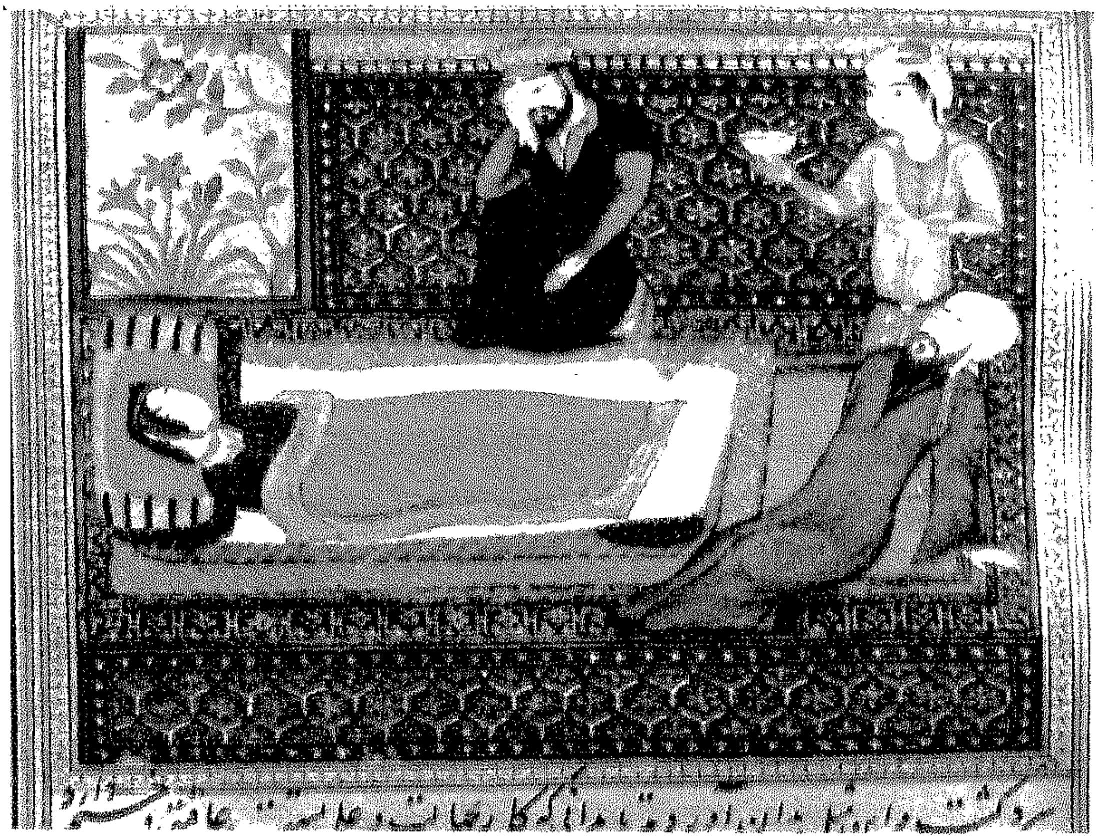
تلخيص حكاية بيديا الفيلسوف مع ملكه الهندى دبشليم، كما ترويها «مقدمة الكتاب» على لسان على بن الشاه الفارسى هى أن الإسكندر ذو القرنين الرومى اجتاح فى غزواته للشرق، مع ما اجتاحه فى العالم، البلاد الهندية وانتصر على مقاومة ملكها، الذى قاوم وتصدى ببسالة للاسكندر حتى وقع صريعا، وقرر الاسكندر أن يعين على بلاد الهند واحداً من أتباعه يحكمها باسمه قبل أن يمضى هو ليواصل اجتياحاته للبلاد الأخرى، ولكن أهل الهند لم يعجبهم الحاكم الأجنبى فاختاروا من بينهم «دبشليم» وجعلوه ملكا عليهم. هذا الدبشليم لم يحفظ عهد رعيته وأمانة الملك، فتبدل من ملك عادل رحيم بشعبه إلى طاغية جبار

برتكب كل جرائم الحكام الفاسدين مما دفع بالفيلسوف الحكيم بيدبا إلى أن يقرر الذهاب إليه وتقديم النصح لهذا الملك الذى «لم تفزعه النوائب، ولم تؤدبه التجارب»، وطلب بيدبا الإذن بالدخول على الملك دبشليم فأذن له وهو متصور أن الفيلسوف جاءه لحاجة يطلبها، «وقال له نظرت إليك بابيدبا ساكتا لا تعرض حاجتك ولا تذكر بغينك... ... لم يكن لبيدبا أن يطرقنا على غير عادة إلا لأمر حركه لذلك، فإنه من أفضل أهل زمانه...» ،المهم أن بيدبا وصل مربط الفرس فى كلامه حين قال للملك بعد تمهيد حكيم «.. ... أقمت فيما خولت من الملك وورثت من الأموال والجنود، فلم تقم فى ذلك بحق ما يجب عليك، بل طغيت وبغيت

الناجر الغنى وأولاده

وعتوت وعلوت على الرعية، وأسأت السيرة، وعظمت منك البلية، وكان الأولى بك أن تسلك سبيل أسلافك .. وتقفو محاسن ما أبقوه لك.. تحسن النظر برعيتك، وتسن لهم سنن الخير الذى يبقى بعدك ذكره .. فإن الجاهل المغتر من استعمل فى أموره البطر والأمنية، والحازم اللبيب من ساس الملك بالمداراة والرفق، فانظر أيها الملك ما ألقيت إليك، ولا يثقلن ذلك عليك. فلم أتكلم بهذا ابتغاء عرض تجازينى به، ولا التماس معروف نكافئنى فيه، ولكنى أتينك ناصحا مشفقا عليك...»، طبعا جن جنون دبشليم لأول وهلة وأمر بقتل وصلب بيدبا، ثم أحجم عن الإعدام وقرر استبداله بالحبس وتقييده . وعندما علم تلاميذ بيدبا بما حل بأستاذهم «هربوا فى البلاد واعتصموا بجزائر البحار»، ولكن دبشليم – ما شاء الله! – «سهد سهدا شديداً، فطال سهده ، ومد إلى الفلك بصره ، وتفكر فى تفلك الفلك وحركات الكواكب، فأغرق الفكر فيه.. فذكر عند ذلك بيدبا ، وتفكر فيما كلمه به، فارعوى لذلك، وقال فى نفسه: لقد أسأت فيما صنعت بهذا الفيلسوف، وضيعت واجب حقه، وحملنى على ذلك سرعة الغضب. وقد قالت العلماء : أربعة لا ينبغى أن تكون فى الملوك: الغضب فإنه أجدر الأشياء مقتا، والبخل فإن صاحبه ليس بمعذور مع ذات يده، والكذب فإنه ليس لأحد أن يجاوره، والعنف فى المحاورة فإن السفه ليس من شأنها . وإنى أتى إلىّ رجل نصح لى، ولم يكن مُبلغا – أى واشيا – فعاملته بضد ما يستحق ، وكافأته بخلاف ما يستوجب. وما كان هذا جزاءه منى ، بل كان الواجب أن أسمع كلامه، وأنقاد لما يشير به». وأرسل دبشليم الملك من يحضر له بيدبا من السجن «... يابيدبا أعد علىّ كلامك كله، ولا تدع منه حرفا إلا جئت به». وفعل بيدبا ذلك ودبشليم يستمع متأثرا: «يا بيدبا، إنى قد استعذبت كلامك؛ وحسن موقعه من قلبى، وأنا ناظر فى الذى أشرت به، وعامل بما أمرت . ثم أمر بقيوده فحلت. وألقى عليه من لباسه، وتلقاه بالقبول..» ، مع هذه النهاية السعيدة لبيدبا الفيلسوف كانت البداية لوضع كتاب فى الحكمة: «... إن الملوك لها سورة كسورة الشراب، فالملوك لا تفيق من السورة إلا بمواعظ العلماء وأدب الحكماء ... فكرهت أن يموت أو أموت وما يبقى على الأرض إلا من يقول: إنه كان بيدبا الفيلسوف فى زمان دبشليم الطاغي فلم يرده عما كان عليه...»، طلب دبشليم من بيدبا بعد ذلك كتابا يخلده: «... أحببت أن تضع لى كتابا بليغا.. ظاهره سياسة العامة وتأديبها ، وباطنه أخلاق الملوك وسياستها للرعية وأريد أن يبقى لى هذا الكتاب بعدى ذكراً على غابر الدهور».

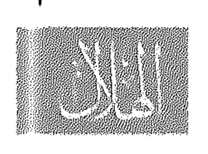
موت ابن آوى « دمنة »

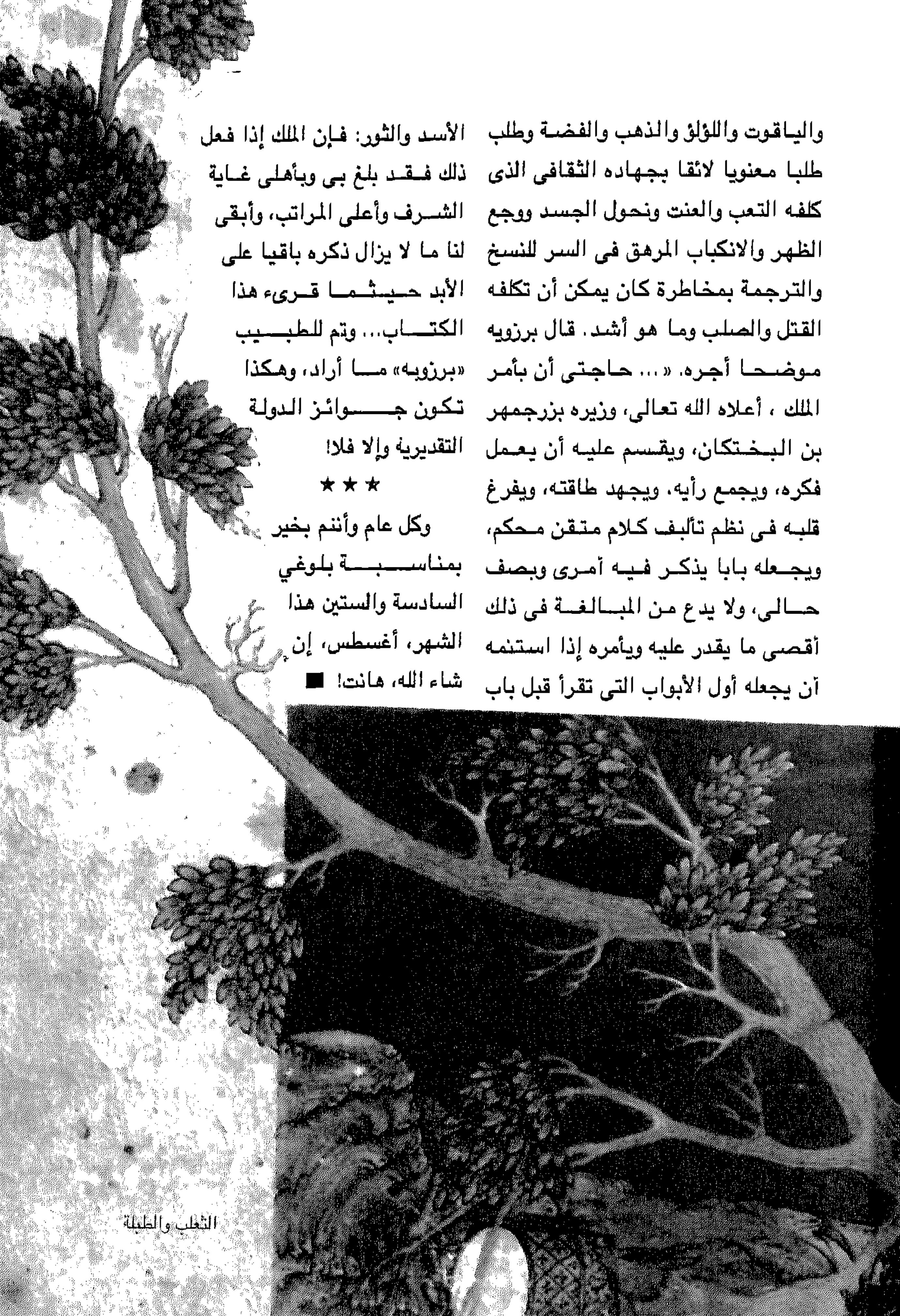


الطبيب الجاهل وابنة الملك

وهكذا جلس بيدبا مع تلاميذه ليحدد معهم «الخطاب الثقافى» المناسب لمثل هذا الكتاب: «حتى استقر الكتاب على غاية الإتقان والإحكام ، ورتب فيه أربعة عشر بابا، كل باب منها قائم بنفسه. وفى كل باب مسألة والجواب عنها، ليكون لمن نظر فيه حظ من الهداية . وضمن تلك الأبواب كتابا واحداً، وسماه كليلة ودمنة . ثم جعل كلامه على ألسن البهائم والسباع والطير: ليكون ظاهره لهوا للخواص والعوام ، وباطنه رياضة لعقول الخاصة».

وفرح دبشليم الملك بخبر انتهاء بيدبا من وضع الكتاب المطلوب، وعقد مؤتمراً ثقافيا حاشداً حضره أهل المملكة ودخل بيدبا ومعه تلميذه حاملاً الكتاب، وأجلسه الملك على سرير مثل سريره: يابيدبا ارفع رأسك ، فإن هذا يوم هناءة وفرح وسرور، وأمره أن يجلس. فحين جلس لقراءة الكتاب، سأله عن معنى كل باب من أبوابه، وإلى أى شيء قصد فيه...»، وحين سأل الملك دبشليم بيدبا عن الأجر الذى يطلبه، لم يزد أن قال: «يأمر الملك أن يدون كتابى هذا.. ويأمر بالمحافظة عليه: فإنى أخاف أن يخرج من بلاد الهند، فيتناوله أهل فارس إذا علموا به...»، والحقيقة أننى لم أفهم الحكمة فى هذا الطلب الغريب من بيدبا الفيلسوف، فالمنطقى كان أن يطلب ترجمته إلى كل اللغات والعمل على توزيعه فى أنحاء الدنيا، على أية حال، الذى حصل أن كسرى أنوشروان لما علم بخبر كتاب «كليلة ودمنة» لم يهدأ حتى «بعث برزويه الطبيب وتلطف حتى أخرجه من بلاد الهند فأقره فى خزائن فارس». ومن هنا يبدأ الفصل الخاص بحكاية تفاصيل الخطة التى وضعها «برزويه» طبيب كسرى أنوشروان ليتمكن من استنساخ الكتاب وترجمته من الهندية إلى الفارسية ، وهى خطة تشبه خطط الجاسوسية التى يكون هدفها سرقة الأسرار الحربية، غير أن الأمر الجميل هنا هو سرقة «كتاب» من كتب الحكمة - ولا أعتذر فى هذا لاتحاد الناشرين - وقد استغرقت المهمة سنة كاملة و«... عشرين جرابا ، كل جراب فيه عشرة آلاف دينار...» ، وعندما عاد «برزويه» بالكتاب إلى كسرى أنوشروان فرح بدوره فرحاً شديداً، وعقد كذلك مؤتمراً ثقافيا لكل أهل فارس وطلب من برزويه قراءة الكتاب كله على الملأ - (لست متأكدة من تقسيم القراءة إلى جلسات صباحية ومسائية ، ولا من عدد الأيام الذى استغرقته تلك القراءة ، لكننى على يقين من أنها كانت خطابا ثقافيا جديداً جداً لأهل مملكة كسرى أنوشروان!) - الظريف أن الطبيب «برزويه» رفض أن يكون أجره من خزائن الجوهر والزبرجد



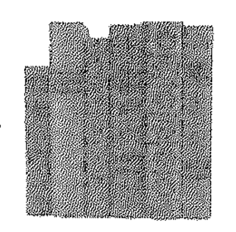


والياقوت واللؤلؤ والذهب والفضة وطلب طلبا معنويا لائقا بجهاده الثقافي الذى كلفه التعب والعنت ونحول الجسد ووجع الظهر والانكباب المرهق في السر للنسخ والترجمة بمخاطرة كان يمكن أن تكلفه القتل والصلب وما هو أشد. قال برزويه موضحا أجره. «... حاجتى أن يأمر الملك ، أعلاه الله تعالى، وزيره بزرجمهر بن البختكان، ويقسم عليه أن يعمل فكره، ويجمع رأيه، ويجهد طاقته، ويفرغ قلبه فى نظم تأليف كلام متقن محكم، ويجعله بابا يذكر فيه أمرى ويصف حالى، ولا يدع من المبالغة فى ذلك أقصى ما يقدر عليه ويأمره إذا استتمه أن يجعله أول الأبواب التى تقرأ قبل باب الأسد والثور: فإن الملك إذا فعل ذلك فقد بلغ بى وبأهلى غاية الشرف وأعلى المراتب، وأبقى لنا ما لا يزال ذكره باقيا على الأبد حيثما قرىء هذا الكتاب... وتم للطبيب «برزويه» ما أراد، وهكذا تكون جوائز الدولة التقديرية وإلا فلا!

★★★

وكل عام وأنتم بخير بمناسبة بلوغي السادسة والستين هذا الشهر، أغسطس، إن شاء الله، هانت! ■

الثعلب والطبلة



الطالع السعيد الجامع

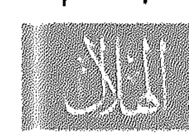
أسماء نجباء الصعيد

لكمال الدين جعفر بن ثعلب الادفوى

أول معجم بيوجرافى إقليمى

بقلم
د. نبيل حنفى محمود

تميز الأدب العربى منذ بواكيره وعبر مراحله المختلفة بالتراجم التى حفلت بها كتبه العامة أو مؤلفات خاصة أفردت لذلك، إذ شهد الأدب العربى من خلال تدوين سيرة النبى صلى الله عليه وسلم بداية التأليف فى التراجم، وهو ماتقوم به دليلا عليه طبقات الواقدى وتلميذه محمد بن سعد التى وضعت فى القرنين الثانى والثالث الهجريين، ثم تلا ذلك - وبدءا من القرن الثالث الهجرى - سيل من كتب التراجم التى عقدت لأعلام فى كل فن من فنون العربية، ويكفى أن نذكر هنا ثلاثة من أشهر كتب التراجم التى ظهرت فى هذا القرن وأدارها مصنفوها حول الشعر - وهو النبع الأكثر ورودا من الكتاب - والشعراء، وأول هذه الكتب هو كتاب «طبقات فحول الشعراء» لمحمد بن سلام الجمحى (١٣٩ - ٢٣١هـ)، وثانيها هو كتاب «الشعر والشعراء» لعبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦ هـ)، وأما ثالث هذه الكتب فهو كتاب «طبقات الشعراء» لعبد الله بن المعتز بالله محمد بن المتوكل على الله الشهير بابن المعتز (٢٤٩ - ٢٩٦هـ).



وقد تنوعت المحاور التى أدار عليها مؤلفو التراجم كتبهم فشملت. الأدباء - النحاة - الفقهاء - المفسرين - القضاة والأطباء ، وقد لمعت أسماء كثير من الكتاب فى تصنيف التراجم ، ولعل أشهر أصحاب هذه الأسماء إثنان هما: شهاب الدين أحمد بن على الكنانى العسقلانى المعروف بابن حجر العسقلانى (٧٧٣ - ٨٥٢) هـ) وتلميذه شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى (٨٣١ - ٩٠٢هـ)، تميز ابن حجر العسقلانى بكثرة مصنفاته فى مجال التراجم التى نذكر منها: الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة - طبقات الحفاظ - الإصابة فى تمييز الصحابة - إنباء الغمر بأنباء العمر - رفع الإصر عن قضاة مصر وغيرها كثير ، بينما تميز السخاوى بثراء المادة التاريخية التى يوردها فى معرض ترجمته لأعلام كتبه، إضافة إلى جزالة أسلوبه ودقة تصويره، وهى مبزات يلمسها القارىء لتراجم كتبه الشهيرة مثل الضوء اللامع لأهل القرن التاسع - الشافى من الألم فى وفيات الأمم - وبغية العلماء والرواة ، وقد اختلف ترتيب التراجم فى هذه الكتب وفقاً لمناهج عدة، ولكنها اتفقت جميعاً فى أنها أديرت حول الأعلام والأعيان من ساكنى العواصم والقريبين من دوائر الحكم والسلطة، ولم يحدث عبر مئات السنين - التى شهدت مولد عشرات من كتب التراجم - أن أقدم كاتب على الترجمة لأعلام مدينة أو إقليم بعيد عن العاصمة، كما فعل جعفر بن ثعلت اتلإدفوى حينما عكف قبل منتصف القرن الثامن الهجرى على تصنيف كتابه «الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد».

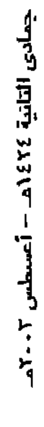
كمال الدين الادفوى

ولد جعفر بن ثعلب الإدفوى الثعلبى مؤلف كتاب «الطالع السعيد» فى إدفو فى شهر شعبان من سنة ٦٨٥ هـ، وقد لقبه والده بكمال الدين - أبو الفضل - عبد الله وجعفر كما ذكر عبد الرحيم بن الحسن بن على الاسنوى (٧٠٤ - ٧٧٢ هـ) فى كتابه «طبقات الشافعية» (جزءا- ص ٨٦)، وتنتمى أسرة جعفر إلى الثعالبة وهم «بطن من طيىء من القحطانية» كما جاء فى «معجم قبائل العرب القديمة والحديثة» لعمر رضا كحالة (ص ١٤١)، وينتشر الثعالبة بصعيد مصر كما ذكر عمر رضا

كحالة فى كتابه «معجم قبائل العرب القديمة والحديثة» ، وكما أشار إلى ذلك أيضاً تقى الدين المقريزى فى كتابه «اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا»، يقول المقريزى : «فيها (أى سنة ٤٦٩ هـ) اجتمع بميدينة طوخ من صعيد مصر عدد كبير من عرب جهينة والثعالبة والجعافرة لمحاربة أمير الجيوش» (جزء ٢ - ٣١٩)، وبالرغم من أن مدينة إدفو - مسقط رأس جعفر - كانت : «مدينة عظيمة واقعة على الشاطىء الغربى للنيل بين أسوان وإسنا في جنوب إسنا» كم وصفها على باشا مبارك فى «الخطط التوفيقية الجديدة» (جزء ٨ - ص ١٤٥)، الا أن الروايات التاريخية لم تشر إلى وجود مدرسة بإدفو مثل تلك المدارس التى أضاءت باشعاعاتها كثيرا من الصعيد ، وأول هذه المدن ... عاصمة الجنوب: قوص، ومن ذلك ماذكره على باشا مبارك فى المجلد الرابع عشر من «الخطط التوفيقية الجديدة» نقلاً عن الكندى - وأظنه محمد بن يوسف الكندى (٢٨٣ - ٣٥٠ هـ) : «إن بمدينة قوص ست مدارس ، وبإسنا مدرستين، وبالأقصر مدرسة، وبأرمنت مدرسة، وبقنا مدرستين، وبهو مدرسة، وبقمولى مدرسة» (ص ٤٠٢)، ولقد ساهم الاصلاح السنى الذى نهض به سلاطين المماليك بدءاً من صلاح الدين الأيوبى - لمواجهة انتشار المذهب الشيعى على يد الفاطميين بأكثر مدن الصعيد - فى إنشاء العديد من المدارس والجوامع ذات الطابع السنى بهذه المدن ، فأثمر ذلك مضاعفة عدد المدارس بقوص ليبلغ ست عشرة مدرسة فى مطلع القرن الثامن الهجرى،وقد أحصى هذا العدد من المدارس محمد عبده الحجاجى نقلا عن المقريزى فى خططه وأثبته فى كتابه «قوص فى التاريخ الإسلامى»، وقد انفق الفرنسى جان - كلود جارسان فى رسالته للدكتوراه والتى كانت بعنوان «ازدهار وانهيار حاضرة مصرية: قوص» مع محمد عبده الحجاجى فى هذا العدد لمدارس قوص عند بداية القرن الثامن الهجرى، لكل ذلك .. كان من الطبيعى أن يشد الطلبة الرحال إلى قوص طلباً للعلم فى مدارسها الكثيرة، وهو مافعله جعفر بن ثعلب عندما ترك موطن آبائه إدفو منحدراً فى النيل نحو قوص قرابة عام ٧٠١هـ / ١٣٠١م، حدث ذلك بعد أن أتم جعفر دراسة كتاب «التنبيه» فى فروع الشافعية بمدينة إدفو، وقد أتمه جعفر على يوسف بن محمد بن أبى البركات السيوطى ... قاضى أسوان الذى جمع بين قضاء مدينتى إسنا وإدفو أيضاً، فلما أعجب القاضى يوسف بذكاء تلميذه جعفر فإنه زاده فى النفقة والغلة المخصصة لطلاب ذلك الزمان، وقد أثبت جعفر فى «الطالع السعيد» أن القاضى يوسف هو من نصحه بالتوجه إلى قوص لإكمال تعليمه، وعن ذلك يقول جعفر : «وأشار على (يعنى القاضى يوسف) بالتوجه إلى قوص ، فتوجهت إليها وأقمت بها سنين، وحصل خير، فجزاه الله عنى خير الجزاء» (ص ٧٢٨).

مكث جعفر بقوص قرابة خمس سنوات ، نهل فيها الكثير من العلوم الإسلامية

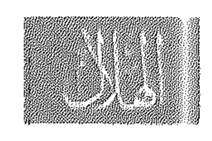


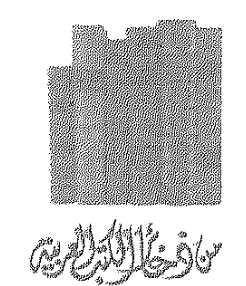


على أيدى مجموعة من الشيوخ ذكرهم فى كتابه «الطالع السعيد» فيما بعد، ومن هؤلاء الشيوخ نذكر : أحمد بن محمد بن أحمد القرطبى القنائى - على بن هبة الله بن أحمد الشهاب الإسنائى محمد بن عثمان بن عبد الله سراج الدين الدندرى يحيى بن عبد الرحيم القوصى - ويونس بن عبد المجيد الأرمنى ، فلما أتم العلوم الاسلامية الأولية فى بعض مدارس قوص التى تردد عليها مثل : المدرسة العزية - المدرسة المجدية - المدرسة النجيبية - دار الحديث - المدرسة الشمسية نسبة إلى أستاذ جعفر الشيخ على بن هبة الله بن أحمد الشهاب الإسنائى - والجامع العمرى ، وهى علوم الفقه والتفسير والحديث والقراءات والفرائض .. إضافة إلى علوم النحو والأدب والتاريخ وبعض الرياضيات، فانه غادر قوص فى عام ٧٠٦ هـ/ ١٢٠٦م مرتحلا إلى القاهرة لمتابعة رحلته مع الدرس والتحصيل.

عندما استقر جعفر فى القاهرة ، كانت سنوات طوال قد مضت منذ أن قدم العلامة الأندلسى أبو حيان الغرناطى (٦٥٤ - ٧٤٥) إلى القاهرة عقب خروجه من الأندلس فى سنة ٦٧٩ هـ، جاء خروج أبى حيان من الأندلس خوفاً من أن يبطش به الأمير محمد بن نصر إثر خلاف شجر بين أبى حيان وأحمد بن على الطباع، ولما كان أبو حيان حجة عصره فى النحو والتفسير والحديث والتاريخ ، فإن طلابا كثيرين بل وشيوخ كبار توافدوا لتلقى علوم النحو والحديث عنه بالمدرسة المنصورية، يقول تقى الدين المقريزى عن المدرسة المنصورية فى الجزء الثالث من خططه: «هذه المدرسة من داخل باب المارستان الكبير المنصورى بخط بين القصرين بالقاهرة، أنشأها هى والقبة التى تجاهها والمارستان الملك المنصور قلاوون الألفى الصالحى» (٣٤٢)، وكان كمال الدين الادفوى واحداً ممن تتلمذوا على أبى حيان، كذلك تلقى جعفر العلم بمدارس القاهرة الأخرى على شيوخ ترجم لبعضهم فى «الطالع السعيد» ، وذلك لانتمائهم لقوص وإقليمها، ولم يترجم للبعض الآخر فى «الطالع السعيد» وأولهم أبو حيان الغرناطى لانعدام صلتهم باقليم قوص، ومن شيوخه بالقاهرة نذكر : عبد الرحمن بن يوسف الاسفونى (ت ٧٥٠هـ) - بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة (ت ٧٣٣هـ) - علاء الدين على بن إسماعيل القونوى (ت ٧٢٩هـ) وشمس الدين محمد بن يوسف الخطيب الجزرى (ت ٧١١هـ).

جذب اهتمام جعفر بالعلم وتحصيله فى مدارس القاهرة أنظار شيوخه ، مما قربه اليهم وأثمر ذلك علاقة أقرب إلى الصداقة بينه وبين أبى حيان الغرناطى، ولما كانت قوص فى ذلك العصر - العقد الأول من القرن الثامن الهجرى - ثالثة المدن المصرية وموطن العلماء والشعراء والأعيان ، فان ذلك كان حافزاً لأبى حيان كى يقترح على تمليذه جعفر أن يضع كتاباً يترجم فيه لأعلام إقليم قوص الذى يحن اليه كثيراً منذ أن صل بالقاهرة، وهو حنين عبر عنه جعفر بقصيدة استهلها بالأبيات





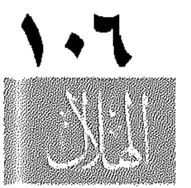
التالية (الطالع السعيد - ص ٤):

أحن إلى أرض الصعيد وأهلها
ويزداد شوقى حين تبدو قبابها
وتذكرها فى ظلمة الدجى مهجتى
فتجرى دموعى إذ يزيد إلتهابها

وقد اتصف جعفر إلى جانب حبه للعلم بالأمانة العلمية التى حفزته لتسجيل فضل أستاذه أبى حيان فى إلهامه فكرة «الطالع السعيد» ، يقول جعفر عن ذلك فى معرض حديثه عن أستاذه أبى حيان:

«وكان شيخى الأستاذ الحجة البارع جامع المناقب والمآثر، والمحامد والمفاخر، ذخر الأوائل وشرف الأواخر، ذو العلوم الجمة الفائقة، والآداب المنقحة المحققة الرائقة، والفضائل التى النفوس إليها شائقة وبها واثقة، أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسى الغرناطى، أبقاه الله تعالى للعلوم الشرعية يبرزها ويظهرها، وللفنون الأدبية يناضل عنها بالأدلة وينصرها، أشار علىّ أن أعمل تاريخاً للصعيد مره ومرة، وراجعنى فى ذلك كرة بعد كرة، فرأيت امتثال إشارته علىّ متعنياً حتماً» (ص ٥).

اشتغل جعفر في القاهرة بالعلم ووقف عليه حياته، وقد اتخذ من المدرسة الصالحية سكناً ومدرسة، ونقع المدرسة الصالحية «بخط بين القصرين من القاهرة»، بدأ بناءها الملك الصالح نجم الدين أيوب فى سنة ستمائة وأربعين للهجرة كما ذكر المقريزى فى الجزء الثالث من خططه (ص ٣٣٣)، وقد أثبت عبد الرحيم الاسنوى فى الجزء الأول من كتابه «طبقات الشافعية» المدارس التى عمل بها جعفر فقال : «سمع وحدث، ودرس قبل موته بأيام يسيرة بمدرسة للحديث أنشأها الأمير جنكلى بن البابا بمسجده، وأعاد (أى عمل معيداً لأحد الشيوخ) بالمدرسة الصالحية بالقاهرة، وكان مقيماً بها» (ص٨٦)، بينما أحصت الدكتورة فاطمة محجوب في ترجمتها لمؤلف «الطالع السعيد» بالجزء الثالث من «الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية» مؤلفاته فقالت بأنها أربعة، وهذه المؤلفات تشمل خلا «الطالع السعيد» الكتب التالية : «فرائد الفوائد ومقاصد القواعد» وهو فى علم الفرائض - «البدر السافر وتحفة المسافر» وترجم فيه لبعض شعراء القرن السابع الهجرى - و«الإمتاع فى أحكام السماع» وهو بحث فى الغناء والآلات الموسيقية، إن تعدد إسهامات جعفر الفكرية هو ماجعل الاسنوى يقول عنه فى الجزء الأول من «طبقات الشافعية»: «كان مشاركا فى علوم متعددة، أديباً شاعراً ذكياً كريماً، طارحاً للتكلف ذا مروءة» (ص ٨٦)، وقد توفى جعفر بن ثعلب بالقاهرة بعد عودته من الحج فى سنة ٧٤٨ هـ، قال بذلك ابن حجر العسقلانى فى الجزء الأول من «الدرر الكامنة بأعيان المائة الثامنة» (ص ٥٣٦)، وأكده الاسنوى فى «طبقات



الشافعية» بقوله «مات قبل الطاعون الكبير الواقع سنة ٧٤٩هـ).

منهجا الترجمة والكتاب

كانت الترجمة لأعلام قوص . الإقليم والمدينة ... محور كتاب «الطالع السعيد» ، وقد أخذ جعفر نفسه بضوابط ثلاثة فى الترجمة لمن ترجم لهم من أعلام، جمع بينهم جميعاً الانتماء لقوص وإقليمها، وأول هذه الضوابط أن يكون صاحب الترجمة من أهل الفكر وليس من أهل السياسة والمال، فجاءت أعلام «الطالع السعيد» بين فقيه ومحدث وراوية ومقرىء ومدرسي وشاعر وكاتب وأديب ونحوى ودمرس وولى، وإتفق أن جمع بعض أعلام الكتاب بين أكثر من صفة من صفات أهل الفكر السابقة، ومثال ذلك أحمد بن على بن هبة الله بين السديد الاسنائى صاحب الترجمة الثالثة والخمسين فى الكتاب ، يقول عنه جعفر: «اشتغل بالفقه - على مذهب الشافعى - على الشيخ بهاء الدين هبة الله القفطى، وتولى الخطابة بإسنا، وناب فى الحكم بها، وبإدفو وبقوص، ودرس بقوص، وبنى بها مدرسة» (ص ١٠٢)، وصادف كذلك أن ترجم جعفر فى الكتاب لبعض رجال الدولة من ناظر وحاكم وما شابه، أو لبعض التجار ، ولكن ذلك كان لجمعهم بين تلك المهن وبين صفة أو أكثر من صفات أهل الفكر، ومن هؤلاء الأعلام نذكر أحمد بن أبى الكرم بن عرام الأسوانى. ناظر الأحباس الديوانية بالاسكندرية وصاحب الترجمة الثانية والثلاثين من تراجم الكتاب ، حيث جمع ناظر الأحباس الديوانية هذا بين وظيفته وبين نظم الشعر والنثر وصنف فى الفقه والعربية أيضاً، وأما ثانى الضوابط التى التزام بها جعفر فى تراجمه .. فقد تمثلت فى أن معظم تراجمه كانت للراحلين من الأعلام ، ببنما جاءت تراجمه للأحياء منهم : «إلا من النادر لغرض أو لأمر عرض» (ص ٦)، وجعل لتراجم الأحياء شروطا أهمها . قلة التراجم الموجودة فى باب الحرف ، أو أن يكون العلم قد جمع من الكمال والمكارم مايصعب معه إهمال ذكره، أو أن يكون صاحب الترجمة قد أسدى للمؤلف صنيعاً أو ساق إليه معروفا، وعن ثالث الضوابط يتحدث جعفر فى مقدمة الكتاب فيقول . «ولم أشحنه بالأسانيد فقد أنسب إلى غرض مذموم، ولا أخليه منها فأوصف بأنى منها محروم، بل أكسو بعض التراجم منها ذلك الوشى المرقوم» (ص ٦).

فإذا ما انتهى جعفر من توصيف منهجه فى الترجمة ، فإنه ينتقل إلى بسط منهج الكتاب أمام قارئه ، فيوضح بأنه سيبدأ الكتاب بترجمة الاقليم نفسه، بأن يتحدث عن جغرافيته ويذكر بعض محاسنه وصفات أهله ، فإذا ما أوفى ذلك فانه يبدأ فى تراجم الأعلام التى تترى فى الكتاب مرتبة على حروف المعجم، وقد بلغت عدة هذه التراجم خمسمائة وأربعة وتسعين، كانت الكثرة الغالبة منها للرجال عدا أربع من النساء هنّ: تاج النساء إبنة عيس بن على بن وهب (الترجمة رقم ١٠٧) - خديجة بنت على بن



وهب (الترجمة رقم ١٦٤) - رقية بنت محمد بن على بن وهب (الترجمة رقم ١٧٠) ومظفريّة بنت عيس بن على بن وهب (الترجمة رقم ٥٠٦)، وهذا وقد أثبت محقق الكتاب سعد محمد حسن إخلال جعفر بترتيب بعض تراجم الكتاب تبعا لحروف المعجم، فمن ذلك أنه قدّم «خلف ابن عبدالرحمن» على «خديجة بنت على» و«عبدالله بن نصر» على «عبدالبارى بن أبى على الحسين» وغير ذلك كثير، ويمكن أن يكون راجعا إلى أن جعفر أتم الكتاب فى سنة ٧٣٨هـ، ثم عاد وأضاف إليه تراجم جديدة حتى سنة ٧٤٠هـ، ولما كانت تلك الإضافة قد حدثت فى السنوات الأخيرة من عمر المؤلف، ولعل الموت لم يمهله لترتيب ما أضاف إلى الكتاب من تراجم.

محاسن قوص

بدأ كمال الدين جعفر بن ثعلب معجمه الفريد بالترجمة لقوص وإقليمها، فقال عن إقليم قوص: «وأما مسافته فى الطول: فمسيرة إثنى عشر يوما بسير الجمال السير المعتاد، وأما عرضُه: فثلاث ساعات وأكثرُ وأقل بحسب الأماكن، أعنى العامر منها» (ص٧)، ويصف الإقليم فيقول بأنه مكون من كوُرتين: «شرقية وغربية، والنيل فاصل بينهما» (ص ٧)، والكُورة هى المدينة أو الصقع، ثم يذكر أن الكُورة الشرقية تبدأ من الشمال بمرج بنى هُميم المتصل بأرض جرجا وتنتهى جنوبا فى أُبْهُر التى تقع بأول أراضى النوبة، ويتبع ذلك بذكر مدن الإقليم فى الكُورة الشرقية والتى تبدأ بالمرج من بلاد إخميم شمالا وتنتهى جنوبا عند أُبْهُر الشرقية، بينما تعد برديس أول مدن الكورة الغربية من جهة الشمال وأُبْهُر الغربية آخر مدنها من جهة الجنوب.

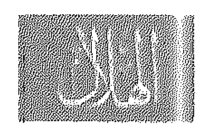
يفيض جعفر بعد ذلك فى ذكر محاسن إقليم قوص، فمن ذلك قوله: «ومن محاسنه كثرة نخيله وأشجاره على شاطىء النيل من الجانبين الشرقىّ والغربىّ، يشقُّ بينهما سبعة أيام، لا يخلو منها إلا القليل» (ص ٢٥)، يصف جعفر محاصيل هذه الأرض الطيبة ويحصى مقدار نتاجها من تمر وزبيب وغلال، وينقل عن الشيخ تقىّ الدين القُشيرىّ - قاضى قضاة مصر وابن ولىّ قوص إلى قوص، قال التلميذ وهو الشيخ العالم فتح الدين محمد بن سيد الناس: «قال لى الشيخ نقىّ الدين القُشيرىّ: تروح إلى قوص تدرس بدار الحديث بها، فذكرت له بعدها وحرارتها، فقال: أين أنت من طيب فاكهتها وعطريّة رياضها؟، ورُطُبها من أحسن الرُّطب، صادق الحلاوة، كثير السَّقْر» (ص٢٧)، والسَّقْر هو عسل التمر، ومن الواضح أن الشيخ تقىّ الدين قد أسدى هذه النصيحة لتلميذه أثناء إقامته بالقاهرة، وتمتد حلاوة الثمر من التمر إلى البطيخ الذى يقول عنه جعفر. «وكذلك البطيخ كثير الحلاوة، والبطيخ الأخضر منه كبير الحبّة، بحيث ما يكاد يستقلُّ بحمل الحبّة الواحدة إلا الرجل الشديد القوة»! (ص٢٨)، ولا ينسى جعفر مذاق لحوم الإقليم... فيتحدث عن طيب مطعمها ولذته،

ولكن كل تلك المحاسن الحسّية تتضاءل بجانب ما تميز به الإقليم وأهله من الفضائل والمكارم، فيذكر جعفر من ذلك: «ومن محاسنه أيضا الجليلة كثرةُ الأمن» (ص ٢٨)، ويُلحق بذلك فضيلة أكثر فى قوله: «والغالب عن إقليمه العلم والفهم والدين والرّياسة وحب العمارة وجمع المال والسماحُ والبهاء والزينة» (ص٢٩)، ويمضى بعد ذلك يحدث قارئ كتابه عن فضائل مدن الاقليم: مدينة مدينة، حتى إذا ما أوفى عاصمة الإقليم. مدينة قوص حقها فى حديثه عن فضائل مدن الإقليم، فانه يجمل محاسن الإقليم بقوله (ص ٤٥). «وفيه من المحاسن ما لا ينطق اللسان بشكره، والبنان بذكره، عَرْفٌ معروفةٌ أعبق من عَرْف الرّياض، ووصف محاسنه أعلق بالقلوب من الحَدَق النُّجل والجفونِ المِراض، وفيها أقول:

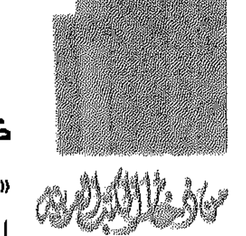
بلاد بِهَا أهلُ المكارم والنُّهى ... وللعلم فِيهَا طارفٌ وتليدِ
صعيد علا فوق الأقاليم قدره ... به إلعيش حلو والمقام حميدِ
به مِن آدابٍ وعلمٍ وسؤددٍ ... معيدٌ ومن للمكرمات مفيدِ
يضوع به المعروف حيثَ يضيعه ... زمانٌ فيلقي الجود وهو جديد»

غيض من فيض

قبل أن نعرض إلى ترجم الشعراء الثلاثة المختارة، يجدر بنا أن نستشف أسلوب جعفر فى الترجمة، وهو أسلوب اختطه المؤلف لنفسه ولم يحد عنه كثيرا فى كل ما قدم من تراجم، يبدأ جعفر الترجمة بإثبات نسب صاحبها... وذلك بذكر اسمه وألقابه وأسماء أبيه وأجداده، ثم يتبع ذلك بفقرة من جمل مسجوعة يصف فيها صاحب الترجمة. ويعدد سجاياه، لينتقل بعد ذلك إلى ذكر شيوخه وتلاميذه وبعض المواقف أو النوادر المرتبطة بسيرته، وتختلف التراجم تبعا لمحتوى الترجمة من العناصر السابقة، التى قد يختفى البعض منها نظرا لندرة المعلومات التى نمت إلى جعفر عن صاحب الترجمة، ولكن التراجم تتفق جميعا فى أن ختامها دائما يذكر تاريخ وفاة صاحب الترجمة.



والشعراء الثلاثة الذين سوف نعرض لهم هنا كنماذج لما حفل به «الطالع السعيد» من تراجم لأدباء وشعراء، هم وبترتيب تاريخ وفاة كل منهم: أحمد بن عبد القوى الرّبعيّ القوصىّ (ت ٦٨٦هـ) وهو صاحب الترجمة رقم (٤٤) من الكتاب، عبد الغفار بن أحمد بن نوح القوصىّ (ت٧٠٨هـ) وجاءت ترجمته بالكتاب تحت رقم (٢٥٠)، ومجير الدين ابن اللّمْطى (ت ٧٢١هـ) وترجمته هى الترجمة رقم (٧٢١) من تراجم الكتاب، يقول جعفر معرفاً الشاعر الأول: «أحمد بن عبد القوى بن عبدالله بن شداد الربعى، الكمال بن البرهان، ناظر قوص ورئيسها فى زمنه» (ص ٨٥)، وبعد أن يعدد جعفر شيوخ إبن عبد القوى الربعى ومن أخذ عنهم العلم ومن تتلمذ عليه، فإنه يعرض قصيدة كتبها ابن عبد القوى الربعى لتبديد جفوة حدثت بينه وبين صديقه



ضياء الدين أحمد بن محمد القرطبى، يقول جعفر واصفا ما حدث:
«كتب إليه ابن القرطبىُّ الشيخ يستعطفه فيه، فكتب كمال الدين جوابه إليه، وابتدأ بقصيدة يقول فيها (ص ٨٧)

يابن الأكارم من بني الأنصار والمالكين زمــام كلّ فخـــار
والسـابقين الأولين إلى العــلا والقائمين بنصـــرة المخــتار

ويختم ابن عبد القوى الربعىُّ قصيدته تلك بالأبيات الأربعة التالية والتى أزالت ما بينه وبين ابن القرطبِىّ من جفوة (ص٨٩):

ها قد محضت لك النصيحة طائعا وأعدت نفسي بعد طول نفار
الدهـــر أقصر أن تفرّق بيننا أيامه بالعتب وهو عـــواري
لا كانت الدنيا إذا هِي لم تفدّ إسداء معروفٍ إلي الأحـــرار
ولئن جنحت لما يكدّر بعــدها حسبي وحسبك عالم الأسرار»

أما الشاعر الثانى فهو عالم وولىّ من أولياء قوص، يقول جعفر عن نسبه إنه: «عبد الغفار بن أحمد عبد المجيد بن عبدالحميد، الدروىُّ الممتد، الأقصرىُّ المولد، القوصىُّ الدار الشيخ عبد الغفار بن نوح صحب الشيبخ ابا العباس أحمد الملثم وهو دولى كبير بقوص ودفن بها، والشيخ عبد العزيز المنوفى، وتجرّد زمانا وتعبّد» (ص ٣٢٣ - ٣٢٤)، تلقى الشيخ عبد الغفار العلم بالقاهرة وقوص ومكة، ويقول جعفر عن إنتاجه: «وصنّف كتابا سماه (الوحيد فى التوحيد)، وكان له شعر حسن وقدرة على الكلام، وحال فى السّماع، وينسب أصحابه إليه كرامات» (ص٣٢٤)، ويعد الشيخ عبد الغفار حالة نادرة فى تراثنا الفكرى والدينى جديرة بأن تعرض على المتعصبين فى زماننا الذين ينكرون الغناء على الناس ويحرمونه، إذ هاهو شيخ كبير وولىّ من أولياء قوص أجمع الكل على كراماته وحسن عبادته، لايجد هذا الشيخ حرجاً فى (السماع)، والسماع فى اللغة والتصوف بمعنى الغناء، بل والأهم من ذلك أن الشيخ عبدالغفار أعطى البعض من شعره الصوفىّ للحن كى يلحنه ويتغنى به، وعن ذلك حدثنا جعفر فقال: «سمعت من شعره ما كتب به لجعفر المزَمْزم ليلحَّن ، فلحَّنه وغناه له، وهو هذا (ص٣٢٤):

أنا أفتي أن ترك الحــب ذنبٌ آثمٌ في مذهبي من لايـــحِبُّ
ذقٍ علي أمري مرارات الهوي فهو عذبٌ وعذاب الحب عذبٌ
كلُّ قلبٍ ليس فيــه ســاكن صبوةٌ عذْريّة مـــاذاك قلب»

وللشيخ عبد الغفار رباط يظاهر قوص من جهة الغرب، أقام الشيخ فى رباطه حتى حدثت فتنة بقوص، قام على أثرها استادار نائب السلطنة بنفس الشيخ إلى القاهرة، ليلقى الشيخ الشاعر وجه ربه بالقاهرة ويدفن بها.

إن الهدف من اختيار نماذج من شعراء «الطالع السعيد» يتمثل فى إلقاء ضوء

كاشف على التكوين الثقافى لأعلام إقليم قوص فى فترة إزدهاره، إذ تكشف لنا تلك النماذج مدى ثراء الوسط الثقافى الذى شكله مجتمع قوصى، مما أفرز عديد من الشعراء والأدباء مثل ابن عبد القوى الربعىّ، وهو أيضا- أى الثراء الثقافى - ما جعل من واحد من أولياء الاقليم مثل الشيخ عبد الغفار بن نوح بعالج قضايا شائكة إلى جوار قضايا الدين والفقه مثل نظم الشعر والغناء، لذلك كان من الطبيعى أن يفرز وسط ثقافى كهذا رجل سيف وقلم مثل الأمير مجير الدين ابن اللّمْطى القوصى الذى كان واليا لقوص، وهو عمر بن عيسى بن نصر وينتهى نسبه إلى كعب بن سعد يتم، ويصفه جعفر فيقول عنه: «وكان فاضلاً نحوياً شاعراً أديباً، سمع الحديث من الشيخ أبى الحسن على بن وهب القُشيرى، وابنه قاضى القضاة أبى الفتح» (ص٤٤٨) ويضيف إلى ذلك فيقول: «وله أدب فائقٌ ونظمُ، رائق ولم يرض الشعر بضاعة، ولا إتخذه صناعة، وإنما دعاه إليه محبة الأدب، وسجية العرب» (ص٤٤٩)، ويبدو أن ما ساقه جعفر من رأى هنا كان ترجمة لما قاله إبن اللّمْطى فى مطلع القصيدة التاليه، والتى أوردها جعفر فى ثنايا ترجمة ابن اللّمْطى، ويقول مطلعها (ص٤٤٩).

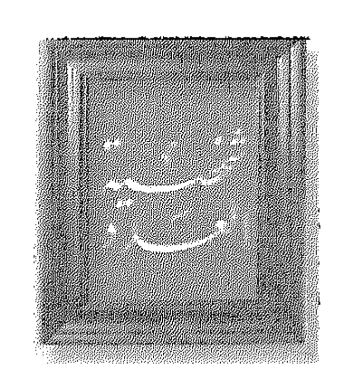
وما الشعر مما أرتضي كنيتى به لعمرى ولا وصفي به في المحافل
ولا قلْتُه كي أبتغي بمقاله هنالك أن أجزي عليه بنائل
ولكن دعتني شيمة مضرية إلي قولة معروفة في القبائل

يثبت جعفر فى ترجمة ابن اللّمْطى صلة الصداقة بينهما، مما مكنه من تقديم نماذج كثيرة من شعر الوالى القوصىّ، ومن ذلك قصيدة قال ابن اللّمْطى إنه نظمها فى سنة خمس وسبعين وستمائة وسماها «تذكرة الأديب»، وقد أوردها جعفر فى سياق ترجمة ابن اللّمْطى كاملة وقال عنها. «وهى قصيدة طويلة جيّدة الشعر» (ص٤٥١).

يزيّن الشعر معظم تراجم «الطالع السعيد»، ولم لا؟... والشعر ديوان الأمة ولسان حال أعلام مجتمع تدل الشواهد الباقية منه على ثراء مادى وثقافى صبغ كل نشاطاته، لقد بلغ هذا المجتمع من الرقى الفكرى والثقافى حدّ تعاتب أعلامه بالشعر، لذا لم تصل إلينا منه إلا الأزاهر والأناشيد.

حق واجب

تلك كانت لمحة عامة إلى كتاب متفرد بين الكتب النى حفظت تاريخ مصر الإسلامية، وقد أنفق محققه: سعد محمد حسن - وهو من علماء الأزهر - من عمره إثنى عشر عاما، حيث استعان على إخراج الكتاب فى صورنه الحالية بست نسخ مخطوطة له، واستخدم لتحقيق وشرح ما جاد بالكتاب من أعلام وأحداث ومواضع خمسة وسبعين ومائتين من المراجع، والله نسأل أن يجزيه عما أنفق فى ذلك من جهد ومال وعمر خير الجزاء. ■





آدم عليك السلام

بقلم
مصطفى الحسينى

تصوير الفنان: **محمد صبرى**

بدأت زيارتى الأخيرة للقاهرة فى ربيعها المتقلب الأخير (قادما من لبنان حيث اخترت العيش) بالبحث عن آدم حنين. لم يكن فى المدينة. كان فى مأواه الثانى المختار «سمبوزيوم» - أى منتدى النحت فى أسوان. كان علىّ أن أنتظر عودته.

عدا عن شوق الصداقة التى تقادم عليها الزمان دون أن تبلى، كنت أريد أن أرى إلى أين وصل مشروع «سفينة آدم» - أسوة بسفينة نوح.



صخور المركب يجلس، عليها الفنان آدم حنين



تجهيز بعض الآعمال التى ستوضع فى المركب التى يصل طولها الى ٣٠ مترا ، وسوف توضع فى حديقة بيته بالحرانية

كنت فى العام الماضى قد شاهدت نموذجا مصغرا صنعه آدم لمشروع سفينته ، شرح لى أنها ، على خلاف السفن، تصنع من الجرانيت وترسو وسط حديقة بيته الحرانية ولن تنزل أبدا إلى الماء، ناهيك عن أن تمخر عبابه. وأنه سيحشد عليها نماذج مصغرة من أعماله فى النحت أو مختارات منها.

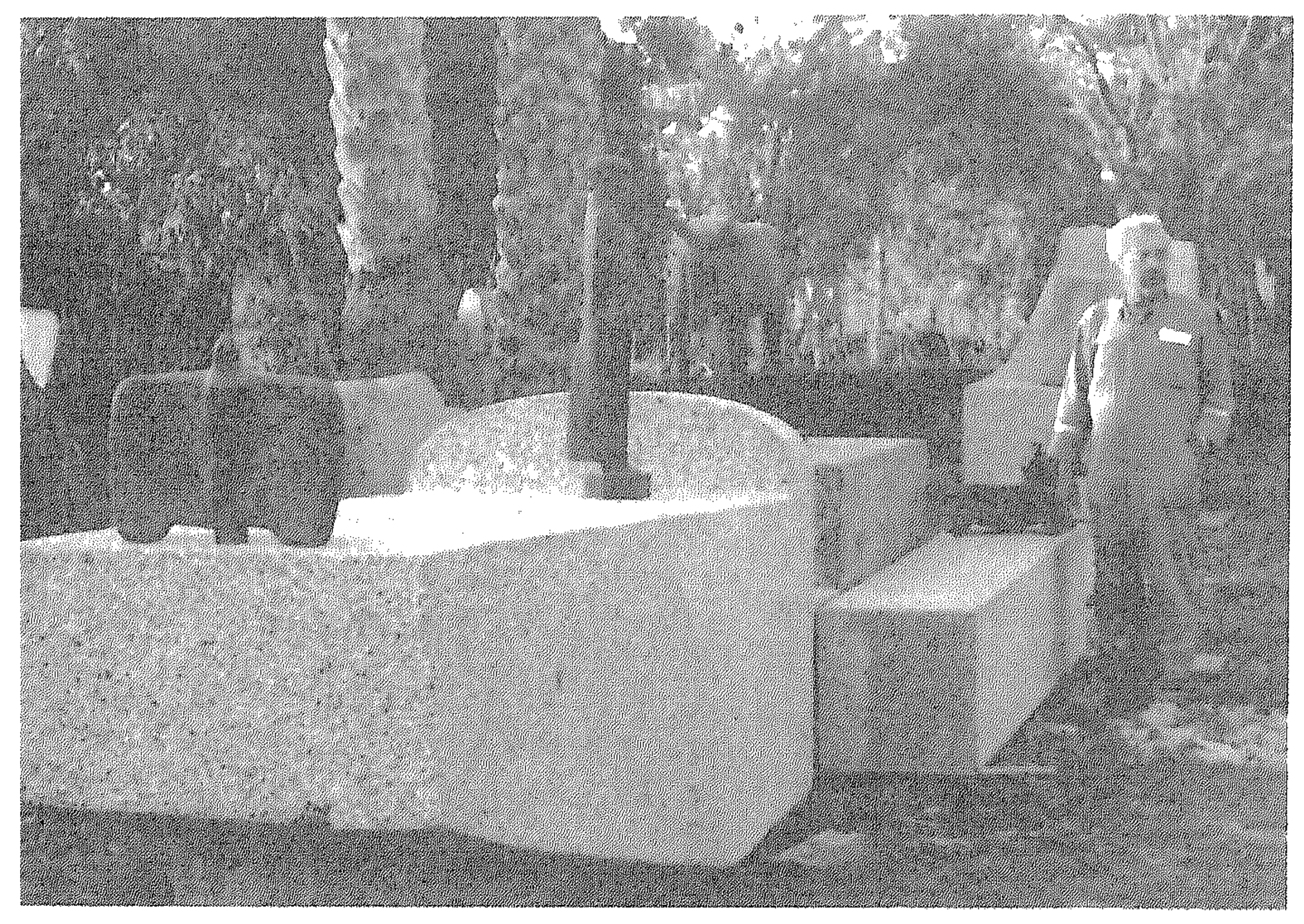
عندما عرفت أن آدم عاد من أسوان ، طرقت بابه فى الحرانية بعد ظهر أحد أيام أواخر شهر مارس الماضى، ما أن دلفت (كان يحيى حقى رحمه الله لا يستخدم هذه الكلمة إلا مصحوبة بابتسامة ساخرة لطيفة المكر لأن «الأدباء الشبان» يسرفون فى استعمالها) المهم ما أن دلفت إلي باحة البيت حتى قدمنى آدم إلى محمود ، واحد من اثنين من قاطعى الأحجار جاءا معه من أسوان لتنفيذ مشروع السفينة. يتعاملان مع الجرانيت بدقة وحزم وحنو. خطر لى أنهما مشروعين محبطين لنحاتين. لعن الله الفقر وقلة الفرص. كان العمل فى السفينة قائما على قدم وساق، أو بالأحرى بين أربعة أياد وعدد لا أعرفه من الأزاميل والمناشير ، ترقبها باطمئنان واضح عينا آدم اللتان لا يبدو فيهما أبدا أنه يتعمد النظر.

وجدت نفسى ، دون استئذان آدم أتسلل إلى الورشة.

بدلا مما كنت أبحث عنه فى أركانها المزدحمة، لقيتنى مفاجأة. تمثال شاهق لم يكتمل بعد، مغطى بقماش خفيف يلتصق ببعض أجزائه لأنه تمثال من نوع من الطين. تعقبنى آدم «لبزيح الستار عن التمثال». هناك كانت تقف شامخة أم كلثوم. *الوقفة* وميل *الرأس إلى الخلف* هما كل ما بنبىء عنها دون أى احتمال للخطأ، حتى لو كان الرانى لم يشاهد لها فى حيانه أكثر من صورة من الصور. أما من لم يرها ولم بسمع أو حتى لم يسمع عنها، فسيدرك *على الفور* أن التمثال لواحدة من سيدات الغناء. لا ملامح فى الوجه. لا عينين، لا شفتين مضمومتين أو منفرجتين. لا معالم للجسد تتجاوز تموجات الثوب. لكنها بالتاكيد ومن *النظرة الاولى* هى أم كلثوم.



تعرفت على آدم حنين ، أو بالأحرى على صمويل هنرى، دون لقا ، فى العام ١٩٥٤ . فى *ذلك الحين* كانت نصدر فى مصر مجلة ثقافية شهرية لم يكتب لها طول البقاء. كان اسمها «الغد». وكان الفنان الراحل حسن فؤاد هو «مدبرها» ومبدعها ومخرجها. وإن كانت رئاسة تحريرها قد انعقدت للكاتب الراحل



الفنان آدم حنين بجوار مركبه وعليها بعض أعماله

(أيضـا) عبدالرحـمن الشـرقـاوى. كـان صـدور مجلة من نوع تلك المجلة فى ذلك الزمـان يحـتـاج فـعـلا إلى «تـدبيـر» من وجهين على الأقل؛ من ناحية كانت مجلة يصـدرها الشـيـوعـيـون، بينمـا كـانت الشيوعية فكرا وتنظيمـا محظورا فى البلاد. ومن ناحية أخرى كانت الحركة الشيوعية المصرية نفسها موزعة بين تنظيمات سرية متناحرة . كان «التدبير» يستلزم «تمرير» المجلة «من سم الخياط»، ليس القانونى وحده، إنما - بالضرورة - السياسى أيضا. لم يكن ذلك، فى حينه، سهلا. كان النظام الجديد الذى أقامه «الضبـاط الأحرار» يشـرع أبواب آماله على الولايات المتحدة الأمريكية وكان قد أعلن قبوله مشروعا أمريكيا عرف باسم «النقطة الرابعة»، قوامه تقديم معونات اقتصادية للبلدان التى تحتاجها حتى تستطيع «مكافحة الشيوعية».

كما كان التدبير يستلزم التوفيق بين «الأطراف» الشيوعية ، حتى تأتى المجلة تعبيرا عن المشترك الثقافى بينها والذى يفترض اتساعه.. لكن العادة أن التنازع السيـاسى، خصـوصـا إذا كـان «داخل

القبيلة» يفتت كل شيء.

الشاهد على نجاح حسن فؤاد أن المجلة صدرت. وأنها لقيت قبولا يشارف الرواج في الحياة الثقافية وكسبت احترامها ، إلى أن أغلقتها الدولة.

في أحد الأعداد القليلة التي صدرت من تلك المجلة، في سياق تحقيق نقدي عن معرض لمجموعة من شباب النحاتين المصريين، استوقفت نظري صورة تمثال يشخص عنزة.

لم يقف الأمر عند توقف النظر. تجاوزه بعيدا إلى رغبة داخلية تصل إلى حد التصميم أن أرى التمثال. لكن المعرض كان قد استوفى زمنه. وأن أتعرف على النحات صاحب التمثال. كان الاسم المكتوب تحت الصورة : صمويل هنري.

كانت «العنزة» هي ما نسللت إلى ورشة آدم أبحث عنه، كعادتي كلما زرته في بيته في الحرانية.

* * *

لا أعرف كيف استقر في «تكويني»، إن جاز التعبير، أن السعي للتعرف إلى شخص بعينه هو نوع من التطفل لا يليق. المستقر عندي أن الناس يتعارفون عندما تجمع بينهم ظروف تؤدي إلى ذلك، لذلك مضى وقت غير قصير قبل أن أتعرف إلى «صموئيل» لا أذكر كيف ولا متى، إنما بالتأكيد يناهز عمر صداقتنا الآن خمسا وأربعين سنة. توثقت الصداقة منذ بدايتها واختلطت بزمالة عمل في مجلة «روز اليوسف» حيث حظيت في بداية ستينات القرن الماضي بأن أكون واحدا من كتابها «المزاجيين». لعله وصف غريب على مهنة الصحافة، تزداد غرابته مع تحولها إلى صناعة. ولعل «روز اليوسف» - السيدة والمجلة - هي التي ابتدعته وتركه لها أصحاب الصحف، حتى ورثه «رئيس تحريرنا» إحسان عبدالقدوس. اختصارا، كان الكاتب «المزاجي» يكتب وقتما شاء، رغم أنه يتقاضى راتبا منتظما وإن لم يكن كبيرا. إنما ليس من حق الكاتب أن ينشر في مطبوعة أخرى.

في تلك الفترة كان «صمويل» يعمل رساما في المجلة. في ذلك الزمن كان الرسامون في «روزاليوسف» هم «ملوكها» على ما كنا نقول جادين مازحين وربما حاسدين حسدا حميدا.

إذ لم تكن المجلة تنشر الصورة الفوتوغرافية، فكان الرسم فيها هو أداة التعبير الموازية للكتابة - لا المصاحبة لها. في هذا المركب تزاملنا. أكتب ويرسم.

سألته مؤخرا إن كان يحتفظ بالرسوم البديعة التي وازت مقالات غيري ومقالاتي، أجابني بابتسامة تنطق بالأسف أننا كنا صغارا وحمقى. لم نكن نعرف قيمة عملنا. كان الرسم يذهب من عند سكرتير التحرير إلى قسم الحفر - «الزنكوغراف» وبعد ذلك لا أعرف مصيره .



* * *

فى سياق تلك الزمالة، فى العام ١٩٦٣، نشر الكاتب المسرحى البريطانى «جون أوزبورن» مسرحيته «لوثر» نسبة إلى مارتن لوثر والتى عالج فيها حركة الإصلاح الدينى التى شهدتها أوروبا فى القرن السادس عشر. كتبت مقالا عن مصادر المسرحية، نشر مصحوبا برسم لـ «صمويل». كان من مصادر المسرحية أن دعوة مارتن لوثر نبتت فى مناخ فشل «ثورة الفلاحين فى ألمانيا»، التى كتب عنها فريدريك إنجلز كتابا فذا. وكان من بين ما أعقب فشل تلك الثورة من ظواهر، أن قادتها الميدانيين راحوا يجوبون الريف الألمانى وهم يرتدون أثوابا تشبه ثياب ملوك العصر ومسوح كبار كهنته، سوى أنها مصنوعة من بقايا أثواب تخاط من مزقها الأرجوانية والقرموزية والزرقاء الملوكية. عرفوا باسم «الملوك الشحاذين». كان يحملون رايات عليها شعار «ثورة الفلاحين» التى يحاولون إحياءها. كان الشعار يجمع إلى الصليب، الحذاء الخشبى الذى كان الفلاحون الألمان ينتعلونه آنذاك، وهو المعروف عندنا باسم «القبقاب».

فكان أن اخترت عنوانا للمقال: «الصليب والقبقاب».

كان النعال «القبقاب» دارجا بين المصلين المسلمين عند ارتياد دورات المياه للوضوء، وقاية من ما قد يكون على أرضها من خبث.

لم أسلم من غضب الدكتور لويس عوض، رحمه الله، الذى أخذنى بمظنة تعمد إهانة الصليب. لم يشفع لى عنده أن هذا كان علم ثورة تطلب العدل المسيحى. ولم يشفع لى أن الراية التى جمعت «القبقاب» إلى الصليب مكنونة فى ذمة التاريخ. ولا شفع لى اسم «صمويل» الموقع على رسم من عناصره راية يتجاور فى وسطها «الصليب والقبقاب».

(لما نقلت إلى «صمويل» قصة غضبة لويس عوض - من باب تحذيره، ضحك من سذاجة المفكر الكبير).

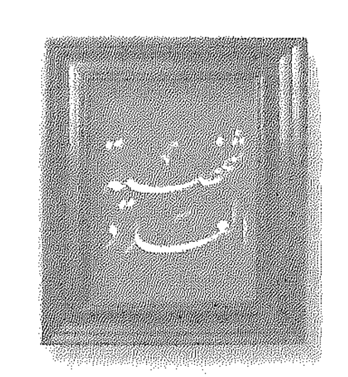
* * *

لا أذكر متى غير «صمويل هنرى» اسمه إلى «آدم حنين» وهو الاسم الذى تلبسه حتى لم يعد أحد يتذكر أنه كان «صمويل هنرى» لما لا يقل عن ثلث عمره حتى الآن.

لكننى يلزمنى أن أقرر أننى لم أعرف فى حياتى شخصا غير «صمويل هنرى/ آدم حنين» أو أنه آدم، فقط دون إشارات أو إحالات، اكتنز حياته كلها فى أمر واحد لا ينشغل بغيره على أى نحو. والغريب أنه لا يكاد يتكلم عنه إلا لماما، حتى لو حاولت استدراجه إلى الكلام فيه

هل يليق القول أن آدم لم يعرف فى حياته .. إلا النحت.

سيدنا آدم عليك السلام. وأطال الله لنا عمرك. ■





يبحث عن أصوله الأولى

ياسر مصطفى

لم نجد شيئا نكتبه عن أدم حنين هذا الفنان الجميل سوي ما كتبه عنه الاستاذ أحمد بهاء الدين في اخبار اليوم منذ ٤٠ عاما «٢٤ أغسطس ١٩٦٣» وتناول رحلته الي النوبة التي عشقها وأحبها حيث يرى بهاء أن عودة آدم إلى النوبة إنما كانت من أجل أن يعود إلى أصوله ليستلهما لأن النوبة هى المكان الوحيد الذى مازالت حضارتنا المصرية مستمرة فيها ولذلك فان بهاء رأى ان ادم حينما يعود الى جذوره فإن ذلك كان بحثا عن منابعة الأولى ليستلهم منها فنه الذى احبه وتجلى فى اعماله الباقية

نمذج لمركب آدم حنين صنعه من الجبس بطول ١٥٠سم



تمثال أم كلثوم في مرسم [illegible]

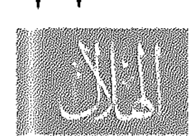
يقول الكاتب الكبير احمد بهاء الدين :

«هبط على الصديق المثال الموهوب صمويل هنرى فجأة، كما اختفى فجأة.. وكان اختفاؤه منذ سنة تقريبا. وكانت آخر الأنباء التى سمعتها عنه عقب اختفائه انه شوهد آخر مرة وقد خلع الجاكتة والبنطلون ولبس جلبابا واسعا، وحمل أدواته وأخشابه وأحجاره، وبعض الأثاث البسيط والزاد القليل، ورحل ليقيم فى قرية نائية مجهولة فى بلاد النوبة.. حتى البريد عرفت انه لا يمكن أن يصل إليه.. فقد ترك فى الطريق اسم «صمويل» كما ترك البدلة والجاكتة، وأطلق على نفسه اسم : آدم:.. هل هو آدم يخرج من جنه المدينة؟ آدم الذى يهبط أرضا جديدة، يريد أن يبدأ حياة جديدة.. يريد أن يبدأ من البداية نفسها؟ ولم أندهش يومها أن يقدم صمويل ابن القاهرة وميونخ وروما وفينسيا على هذا العمل . فقد كنت اعرف ان لديه مقدرة فطرية على مقاومة «عوامل الجذب» الطبيعية السائدة فى عصرنا هذا : المال والشهرة والنجاح السريع والأنباء المنشورة فى الصحف كل يوم.

وسألته كيف رحل.. وكيف وصل.. لقد ركب ببساطة الباخرة النيلية التى تقف عند كل القرى من اسوان الى الشلال حاملة البريد والمسافرين. واختار نقطة تبعد عن أسوان حوالى ٨٠ كيلو مترا. لينزل عندها ثم يبدأ فى البحث - بينها وبين اسوان - عن القرية الملائمة التى يعيش فيها. كانت النقطة التى نزل عندها قربة «ماريا» وكان الوقت ليلا، وقد وقف على الشاطىء والرجال يحملون الفوانيس يستقبلون السفينة يتسلمون البريد. أن البريد فى النوبة هو محور الحياة فكل الرجال القادرون على العمل يعملون بعيدا فى مدن الشمال ويبعثون ابناءهم ونقودهم الى قراهم المعلقة بين الماء والجبل. وتسلم الرجال البريد. ثم وضعوا الفوانيس على الأرض وجلسوا حولها يقرءون العناوين ويوزعونها فيما بينهم ان كل قرية فى النوبة تتكون من عدة «نجوع» نمتد على مسافات طويلة. وكل رجل يأخذ بريد هذه النجوع وينطلق إليها. شبح واحد بقي واقفا فى الظلام.. بين أنوار السفينة المبتعدة وانوار الفوانيس التى يجلس حولها الرجال.. حتى فرغوا من توزيع البريد، ثم التفتوا إليه.. أهلا وسهلا.. ثم ماذا يريد وقال لهم انه يريد ان يرى عمدة القرية . فتقدم أحدهم وقال انه العمدة.

ولم يسألة العمدة مرة أخرى ماذا يريد. الترحيب والضيافة هنا أولا. كان الوقت ليلا ولابد انه سيبيت.. هكذا أخذه العمدة مرحبا الى بيته. وفى «الدوار» قدم له الطعام وقضى الليل معه فى نفس الحجرة دون أن يسألة ماذا يرد.

ومع الصباح شرح آدم للعمدة ماذا يريد.. شرح انه مثال يصنع التماثيل ويبيعها للناس. وقال له انه يريد بيتا يسكن فيه لا يزيد ايجاره عن جنيه واحد فى الشهر! «كنت قد سألت عن مستوى الايجارات.. فلو أننى تصرفت كسائح وعرضت مبالغ كبيرة بالنسبة للمنطقة فمعنى هذا أننى سأظل سائحا. غريبا ولو عشت هناك مائة سنة. وكنت كذلك استقر فى قريه صغيرة. فالقرى الكبيرة فيها موظفون ومعنى ذلك اننى سأعيش مع الموظفين.. وزوده العمدة بعناوين



كثيرة في قرى متعددة وقضى آدم خمسة عشرة يوما يسير في طرق صخرية على الأقدام ، أو ينادى سفينة شراعية تحمله. أو نائم في بيوت العمد. حتى وصل إلى أسوان.

وهناك كان قد اقتنع بأن أول قرية نزل فيها وهي ماريا هي اقرب مكان إلى ما يريد فعاد الى القرية والى العمدة الطيب، الذى كان قد وجد له بيتا من ثلاث حجرات.. وفناء واسع .. بايجار مرتفع قليلا عن الايجار الذى كان يريده.. مائة وثلاثين قرشا في الشهر.

ويضيف أحمد بهاء الدين.

وعاش آدم في ماريا الى الآن.. وعندما هبط على فجأة كما اختفى فجأة منذ عشرة شهور ، كان آتيا إلى القاهرة لأيام قليلة يقضى فيها بعض الأعمال ويعود.. وقال انه يبحث الآن عن قرية جديدة ينتقل إليها بعد قليل لأن ماريا سوف تغرقها البحيرة الكبرى بعد تحويل مجرى النيل عند السد العالي. وقد وجد - مبدئيا - جزيرة صغيرة قرب أسوان يريد أن يشترى فيها قطعة ارض - فالاراضى هناك ثمنها قروش وملاليم - ليبنى فوقها بيتا يعيش فيه.

لماذا ذهبت؟ عن اى شيء تبحث؟.

لم أذهب بحثا عن موضوع ولا محاولة تسجيل الحياة في المناطق التى ستغرق وتختفي .. ولكنى ذهبت بحثا عن اسلوب.

الفنان بعد ان يدرس ويفهم كل الأساليب الفنية القديمة والحديثة.

وبعد ان يرى ويقرأ كل فنون العالم المعاصرة.. يجب أن يعود إلى أسلوب بلاده.. يبحث عن اصوله .. ويستلهمها . ان النوبة هى المكان الوحيد الذى مازالت حضارتنا القديمة مستمرة فيها. صحيح انها موجودة بأسلوب متخلف ضعيف. ولكنها على قيد الحياة لو تأملت طراز المبانى والنقوش.. فسوف تلاحظ شيئا غريبا: سوف تجد طرز المعبد الفرعونى والكنيسة القبطية والمسجد الإسلامى العربى. كلها مندمجة في طراز واحد متسق .. سوف تكتشف ملامحها كلها فى البيت النوبى.

ثم ان هذه المنطقة تتمتع بانسجام فنى لا يوجد فى القاهرة، ولا فى أى عاصمة عصرية كبيرة. هناك . المبانى المنسجمة مع الثياب. مع الزخرفة.. مع العادات والتقاليد.. مع الاخلاق لا يمكن ان تجد هذا الانسجام فى اى عاصمة حيث لا ترى الا عمارات ضخمة قبيحة، واسفلت واعمدة حديدية، وسيارات ونساء في ثياب غربية وتسريحات شعر مضحكة!

ويواصل بهاء حواره مع الفنان آدم حنين فيسأله:

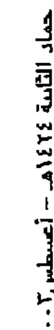
- أنت اذا تبحث عن اسلوب فنى.. وليس مجرد البعد والعزلة؟

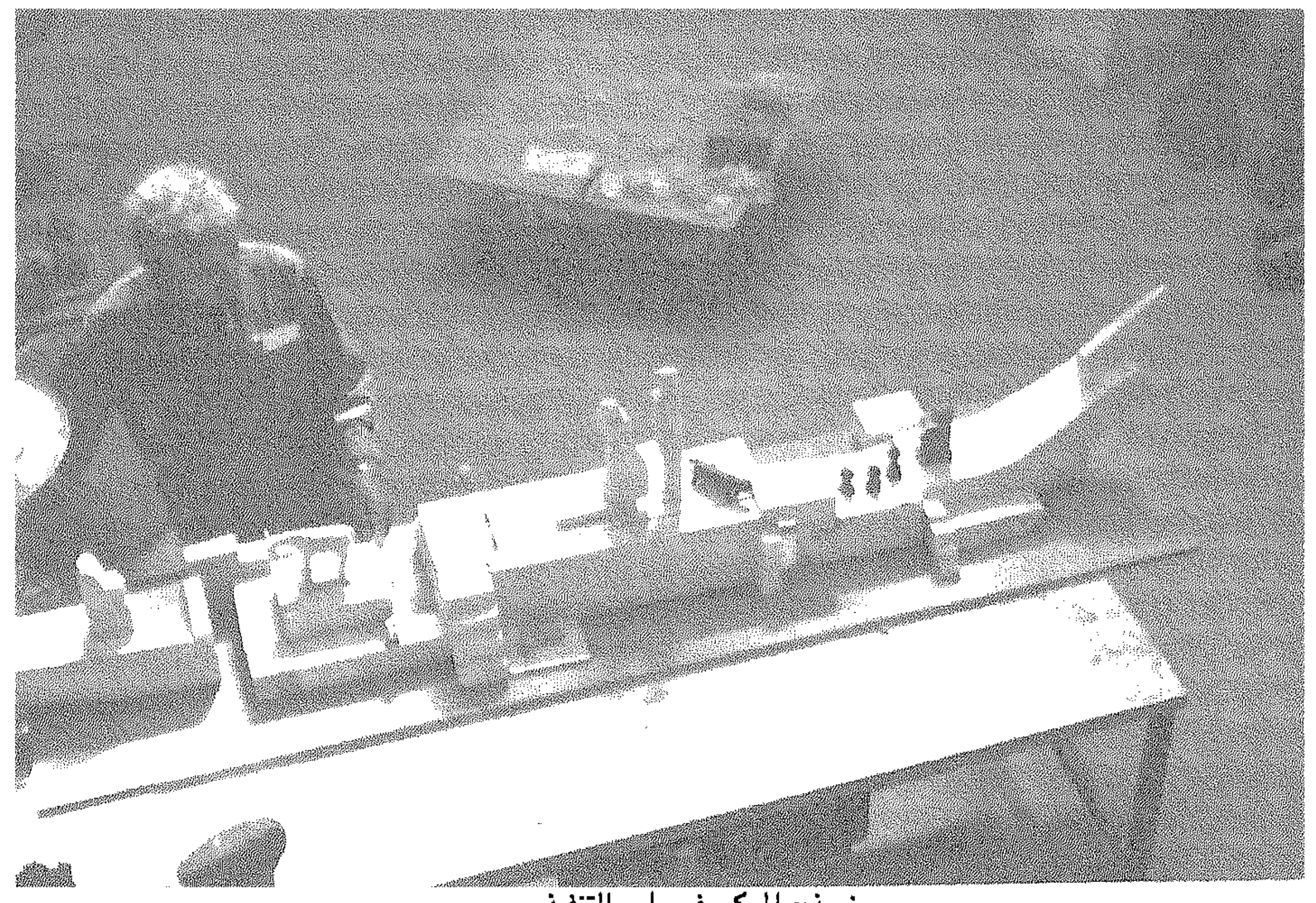
- الاثنان معا.. فهناك حيث تخفت كل الأصوات، وتندثر ملامح كل المشاكل اليومية..

تكتشف بوضوح شديد ماذا تريد بالضبط. حيث أصحو من نومى صباحا لا أجد بين يدى سوى ما جئت من اجله فقط . ان اعمل.

وحول ما استلهمه أدم حنين من سال فنية في هذه العزلة الاختيارية سأله بهاء

- وفى البيت المطل على النيل الراقد بين الصخور، وسط طبيعة جرداء.. أى تماثيل صنعتها إلى الآن؟





نموذج المركب فى طور التنفيذ

– طيور فقط. كل موسم له طيور تمر بالقرية، ويتوقف فيها ، خلال رحلتها الطويلة. اجملها البجع. طبق كبير من العدس والفول الجاف يستوقفها . وتذكرت رحلة الرسام الفرنسي الخالد بول جوجان «١٨٤٨ – ١٩٠٣ . ففى سنة ١٨٩١ باع الرسام جوجان كل لوحاته فى باريس فى مزاد علنى، ثم شد رحاله إلى جزر تاهيتى فى بحار الجنوب حيث عاش مع السكان البدائيين نفس حياتهم حيث عاشوا كما انتهت حياة البدائية هى العودة الى الشباب!.. ولقد تركت ورائى كل ما هو صناعى عادى الى حيث ادخل عالم الحقيقة. عالم الطبيعة.. وعاش جوجان هناك إلى آخر عمره.. وعندما سافرت اعماله عبر المحيطات من الجزيرة البدائية النائية الى العاصمة المتحضرة الصاخبة، ترك في فنونها اعمق الآثار.

– وقد لا يرضى بعض الأدباء والفنانين عن هذه العزلة الطويلة قائلين ان الفنان يجب ان يكون فى قلب المشاكل، وفى وسط العاصفة، يتأثر بحياة بيئته ويؤثر فيها .

– وهذا صحيح، ولا شك ، وما صنعه صمويل هنرى – أوافق عليه . ولكننى لا اجعله نموذجا ليحتذيه كل فنان.

ولكن.. من قال ان كل الفنانين يجب ان يسيروا فى قافلة واحدة؟

اننا نحتاج الى الفنان الذى يعيش بيننا ونحتاج الى الفنان الذى يركب قاربا ويرحل الى المجهول!

الحياة ذاتها، حتى فى واقعها المادى، لا تتقدم الا اذا توفر لها قدر من الاستكشاف والسعى وراء التجربة الجديدة والمجهول الذى.. نعرفه.. سواء فى ذلك استكشاف قرية جديدة، او بئر بترول فى صحراء مهجورة، او نظرية جديدة فى معمل مغلق، او اسلوب فنى جديد فى بيئة بدائية.

روى لى صمويل انه عندما وصل الى القاهرة ، ليلا كان مازال يلبس الجلباب! وسار فى احد ضواحى القاهرة الساكنة بحثا عن بيت صديق له فاشتبه فيه عسكرى البوليس ، واستوقفه . اشتبه فيه حين رأى امامه شابا يلبس جلبابا، ولكن كان يحمل حقيبة ثياب فيها بلدلة.. وفى جيبة نقود فسألة السؤال التقليدى عن مهنته وخشى صمويل الا يفهم الشرطى منه لو قال له أنه مثال او لعله اراد أن يعرفه انه رجل تعترف به الدولة. فقال له انه متفرغ! يعنى آيه متفرغ.. يعنى ان الدولةتدفع له مرتبا لكى يتفرغ لعمل تجارب فنيه. وضرب الشرطى كفيه عجبا وقاده الى قسم البوليس! قلت له: أن بعض المثقفين عندنا مازالوا يعانون من نفس هذه الدهشة - الطيبة المفهومة من الشرطى البسيط - عندما يجدون واحدا من الناس يبدأ فى تجربة مجهولة وراء شىء صعب، ويحاولون ان يقودوا صاحبها إلى اقرب بوليس، ولكن هذه الروح.. روح الاستكشاف هى التى بنت الحضارة.. وهى التى تصنع تقدم الإنسان.

وسألت آدم عن اثر السد العالى والهجرة القريبة، على البيئة الساكنة هناك. فقال لى ان كبار السن من اهل النوبة يكرهون الهجرة ويفكرون فيها بتوجس شديد. انهم يريدون ان تنتهى حياتهم. حيث عاشوا كما انتهت حياة آبائهم واجدادهم. اما الشباب فهم فرحون بالهجرة ينتظرونها فى لهفة وشوق شديد. انهم يستمعون الى الراديو. ويدركون عزلة بلادهم ان الهجرة الى اسوان وكوم امبو هى اشبه فى مخيلتهم بحلم عظيم . أسوان هى اول الحضارة.. كوم معناها القطار الذى يؤدى إلى القاهرة رأسا.

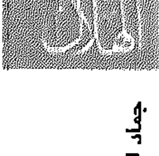
والرجال بوجه عام اكثر تقبلا للسفر من النساء. فالرجل هناك مسافر دائما لا يعود إلى بلاده الا فى زيارة أو حينما تدركه الشيخوخة. انه دائما فى بلاد الشمال باحثا عن الرزق. اما المرأة فهى اساس الحياة هناك. وهى صانعة الفن بالذات.. انها تتسلم البيت جدرانا عارية وتتجمع النساء ليقمن بعمليات البياض ورسم النقوش. والمرأة هى التى تختار الألوان وتصنع الخوص والجريد.

واختتم أحمد بهاء الدين مقاله عن الفنان صمويل هنري» أو «أدم حنين» بقوله:

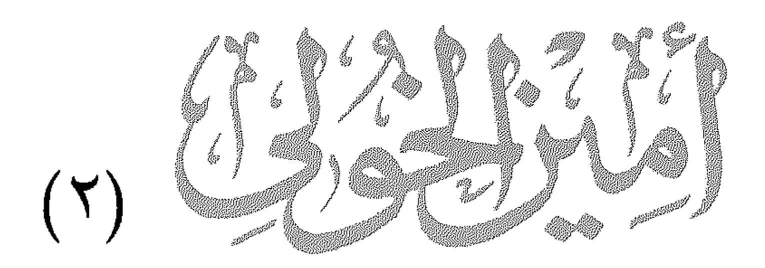
وتركنى صمويل هنرى لكى يخلع البدلة ويلبس الجلباب ويعود الى هناك. ويذهب صمويل هنرى ليصبح آدم.

ان آدم يعود من حيث أتى.

أدم الذى خرج من الجنة الى الأرض يعود من حيث اتى.. باحثا عن المنابع الأولى، التى ربما تمنيناها فى رحلتنا الشاقة الطويلة. ■



سمات أجلها فى شخصية والدى



أمين الخولى (٢)

بقلم
د. سمحة الخولى

تناولت د. سمحة فى العدد الماضى من الهلال بعض السمات الانسانية فى شخصية والدها واليوم تستكمل الكاتبة حديثها عن تأثير والدها العميق فى حياتها وموهبتها الفنية.

والأمر الذى أجدنى أسير فيه إلى حد كبير على نهج والدى هو موقفه المتوازن الرشيد بين الحضارة الغربية والتراث العربى ، أى موقفه التوفيقي الواقعى الذى ساد حياته العلمية وهو موقف «يمثل أحد الوجوه المتعددة للثقافة المصرية الحديثة التى تؤمن بتطور الذات بالتفاعل مع الغرب» (كما كتب سامى خشبة) وهو نفس الموقف الذى تنطلق منه كل ممارساتى وكتاباتى وآرائى التى آمنت بها عبر السنوات فى كل مواقع عملى الموسيقى فأنا من المؤمنين بتحديث الخطاب الموسيقى لأنه من المستحيل أن تعيش الأجيال الجديدة على تراث كان فى يوم من الأيام موسيقى جديدة أفرزتها مجتمعات مختلفة التركيب عن مجتمعنا الحاضر اختلافا جذريا - ولكنى مؤمنة بنفس القدر بأن الحل الحقيقى والوحيد هو التوفيق بين جوهر الموسيقى العربية



والسيطرة الكاملة على وسائل التعبير الغربية للتوصل لابتكار لغة موسيقية مصرية جديدة يكون فى مقدور مبدعيها أن يعبروا عن أنفسهم وهويتهم بعيدا عن التبعية الثقافية والروحية للغرب ، ولذلك فإننى لا آسف لشىء قدر أسفي على انكفاء الشباب المصرى على تقليد الموسيقى الغربية الخفيفة والراقصة (النابعة عن مجتمعات مختلفة تماما) ومحاولة تقليدها بما يلغى وجودهم ويحولهم لأبواق جوفاء وببغاوات هدامة لثقافتنا ولا تضيف إليها بل تنتقص منها يوما بعد يوم . وهذا ما يفسر حرصى الشديد على فهم الموسيقى الغربية فهما عميقا يغوص فى أغوارها ليس لذاتها فحسب ، كأحد الانجازات الانسانية القيمة ، بل ولكي تكون عدة فنية فى متناول مبدعى الموسيقى المصرية المعاصرة ، الذين يخاطبون الانسان المصرى الجديد ، المتفتح على العالم والراسخ فى جذوره الحضارية والثقافية فى آن واحد . ولا أريد أن أزحم القارىء بكل التجارب والنتائج التى تم التوصل فيها لتأكيد هذا المنهج فى الحياة الموسيقية فقد عملنا - زملائى بهيئة التدريس بالكونسرفتوار وأنا - لكى تدخل عناصر الموسيقى العربية فى كل مستويات التعليم

الشيخ أمين الخولى

الموسيقى فى الكونسرفتوار وهى المناهج التى تعد فى مجملها مناهج غربية صرفة - فقد توصلنا فى هذا المجال إلى تطعيم دراسة الصولفيج (قراءة وكتابة النوتة) بالمقامات والإيقاعات العربية وتعليم وتوجيه عازفى الآلات الوترية (وبعض آلات النفخ الخشبية الأركسترالية) لعزف الموسيقى العربية ذات المقامات الربعية (٣/٤ الصوت) مثل الراست والبياتى والسيكاه والصبا الخ . وأنشأنا للكونسرفتوار أركسترا من الآلات الوترية بعزف موسيقى التراث العربى ، بجانب المؤلفات المصرية الحديثة ، والموسيقى الغربية (الكلاسيكية) من كل العصور وامتدت هذه السياسة القائمة على الاندماج العضوى ، إلى قسم الغناء حيث أصبح دارسوه مطالبين بغناء مقطوعات من التراث العربى كالموشحات ، وقد وجه هذا بمقاومة عنيفة من أساتذة الغناء (الأوبرالى) - ومع ذلك نجحت التجربة وأصبح من بينهم وبينهن فنانون قادرون على غناء أدوار سيد درويش بنفس الكفاءة مثل الآريات الأوبرالية الحافلة بالصعوبات (الكولوراتورا) ، وعلى مستوى رفيع من التمكن فى الحالتين ، وكانت حفلات جميعة الشباب الموسيقى منبرا لتشجيع ومساندة هذه النماذج غير العادية والمشرقة ، من التفاعل والتداخل الفنى البناء بين عالمين مختلفين يتقابلان لأول مرة ليثرى كل منهما الآخر ..

أما دراسات التأليف الموسيقى (الأكاديمى) فقد كانت المجال الأمثل والأقوى لتطبيق هذه المبادىء «يجب أن ندرس فن التأليف الموسيقى العربى بكل تعمق ، لكى نوجه ما نفيده منه ، لخلق موسيقى مصرية جديدة» ، وهذا المبدأ هو الذى أثرى حياتنا الموسيقية برافد بالغ الأهمية هو «التأليف الموسيقى الجديد» فى ابداعات حياتنا الموسيقية بمؤلفين موسيقيين مصريين يعرفهم العالم الخارجى الآن ويكتب عنهم وقد رأينا كلمات تلاميذ أمين الخولى مدى حماسه لاحتضانه للمواهب الأدبية ورعايتها ، سواء فى الجامعة أو على صفحات مجلة الأدب الشهرية التى أنشأها بعد تقاعده فى عام ١٩٥٦ واستمرت تصدر شهريا بانتظام حتى مارس عام ١٩٦٦ فصدر العدد الأخير منها قبيل وفاته بأيام قليلة . وقد كانت صفحاتها المجال الأول الذى وجد كثيرون من الكتاب والشعراء والقصاصين فيه فرصتهم للتعبير ، ومنهم عبد الغفار مكاوى وصفوت كمال، وكنت أنا ممن

استفادوا من فترة التدريب على الكتابة فى مجلة الأدب أيضا !

والحق لم أكن على وعى بأثر والدى غير المباشر علىَّ لانتسائى لجمعية «الشباب الموسيقى المصرى» بعد التقاعد . فى أوائل الثمانينات (وسجلت رسميا عام ١٩٨٥) . ومن خلالها خطا عدد كبير من شباب المؤدين فى العزف والغناء خطواتهم الأولى نحو الحياة الموسيقية الاحترافية الحقيقية ، وهم الذين اشتهروا فيما بعد ويقودون اليوم أنشطة الحياة الموسيقية ، ومن خلال حفلات «جمعية الشباب الموسيقى» تم ارساء أفكار وانجاهات لها مغزها فى تحقيق التوازن بين أداء الموسيقى الغربية والموسيقى العربية بنفس التفهم والتخصص ولكن القيمة الكبرى لجمعية الشباب الموسيقى المصرى هو دعمها ومساندتها الفاعلة والمتصلة لحركة التأليف الموسيقى المصرى الجديد ، فهى تخصص حفلا سنويا على الأقل ، لتقديم أعمال المؤلفين الشبان وتتحمل نفقات أدائها وتقديمها للجمهور (وتسجيلها تلفزيونيا لنشرها على نطاق أوسع) ولعل حفلاتها لازالت حتى الآن المجال الحقيقى لنشر ابداعات المؤلفين المصريين الشبان الدارسين فى مصر للجمهور ، ولذلك فإنه لا يمكن المبالغة فى تقدير دورها فى فتح الآفاق أمام المؤلفين بكل توجهاتهم وأجيالهم وتبنى قضيتهم .

وبديهى أن السعى لتحقيق التوازن الرشيد بين تيارى الموسيقى العربيه والغربية واتخاذ الوسائل العملية لتطبيقه في الآداء ، ثم العمل على استكشاف المواهب المبدعة فى الآداء والتأليف ومساندتها ، كل هذا يتطلب قدرا كبيرا من الجلد والصبر والمثابرة (العنيدة أحيانا) والتفانى والرغبة فى الاتقان ، وهذه كلها صفات محوريه فى شخصية والدى . فمنه استمد القدوة والمثال وطاقة الكفاح فى سبيل ارساء هذه القيم والمعانى وهى طاقة ضخمة، فى بلادنا التى لاترحب بالجديد إلا بشق النفس. وكذلك عملى فى تقديم برامج التذوق الموسيقى تلفزيونيا من خلال برنامج «صوت الموسيقى» الشهير وأقول لعل هذا العمل الإعلامى المتصل انعكاس لجهود والدى العميقة فى تقديمه لأحاديث «من هدى القرآن الكريم» فى الإذاعة ، لسنوات طويلة تمكن من خلالها أمين الخولي من نشر أفكاره وفهمه المقدم للقرآن وربطه بقضايا المجتمع والحياة المعاصرة . وإن كان مما يؤسف له أن هذا الامتداد لأحاديث والدى لم يتحقق لبرنامجى صوت الموسيقى.

وإذا ابتعدنا قليلا عن أمين الخولى

العالم والمفكر والأستاذ فإننا نجد فى حياته انسانا ووالدا علامات بعبدة المغزى تركت فى نفوسنا نحن أبناؤه «من الصلب» أثارا عميقة فى تكوين شخصياتنا ومبادئنا الأخلاقية، ويكفى أننا أخذنا عنه سماحته الدينية الجميلة وتقبل الأديان الأخرى واحترامه لها ، فقد كان كأعلب أبناء جيله مثاليا فى فكره الدينى الرحب ، ورغم زيه وسمته الدينى فقد تجلى فى تصرفاته الحياتية ومفاهيمه قدر أكبر وأعظم من المعتاد من السماحة وسعة الأفق الدينى .. وكثيرا ما راودنى - فى العقود الأخيرة - شعور بافتقادنا هذا النمط من الشخصيات الدينية المتسامية السمحة التى نحتاج إليها فى عصرنا هذا أشد الاحتياج...

وكان حدب أمين الخولى على طلابه معنى كبيرا فى حياته تمثلناه جميعا ، نحن أبناؤه، وخاصة من سلكوا مسالك التعليم، فقد كانت صلته بطلابه صلة وثيقة عميقة وصادقة، يساندهم فى مواقفهم الانسانية والعلمية والعملية بكل قوته ولذلك ترددت فى كلماتهم عنه معانى «الحدب والرعاية» بما جاوز مجرد صلة الأستاذ والطالب التقليدية بكثير- وفى هذا المجال فإنه من مصادر سعادتى ما أتيح لى من فرص مؤازرة وصداقة عدد كبير من طلابى الذين قمت بالتدريس لهم فى معهد الكونسرفتوار بكل أجياله طوال قرابة نصف قرن، وهم الذين أصبح أغلبهم الآن فى طليعة الحياة الموسيقية المصرية وتربطنى بهم صلات زمالة وصداقة وثيقة وممتدة.

أما المشاعر الوطنية المتأججة عند والدي (وأقصد بالوطنبة هنا معنى أعمق بكثير من «الانتماء» الذى انكمشت إليه فى عصرنا كل صلة المواطن بوطنه) ففد كانت من أوضح معانى حياته، ولعلها هى التى ولدت اعتزازه المصرى العميق الذى آشرنا إليه قبلا وأذكر فى إحدى الرحلات الأوروبية لأركسترا الكونسرفوار - أثناء فترة عمادتى لهذا المعهد - أننى وجدت مكان الاستضافة المقرر لأعضاء الأركسترا فى مدينة ألمانية غير لائق ولامقبول، فطالبت بشدة بتغييره فورا حتى لانعود أدراجنا بلا حفلات.. واعتذر المنظمون الألمان بأنه المكان الوحيد الذى وجدوا فيه أماكن لهذا العدد، وأنهم على استعداد لتبنى أى مكان أفضل أقترحه علبهم (ولعلها كانت وسيلة للتعجيز) وفعلا قضيت أنا وزوجى (رحمه الله) يومنا فى البحث وأخيرا وجدنا مكانا لائقا بأبناء مصر ولم يأت المساء إلا وقد استقر بهم المقام



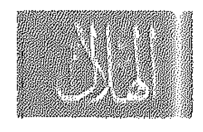
فى فندق محترم يليق بهم وبمهمتهم الوطنية والثقافية.

كان يجيد الألمانية إجادة تامة

وفى المهرجان الدولى لأركسترات الشباب فى أبردين (اسكتلندا) فى أواخر السبعينات- فوجئنا بأن لإسرائيل أركسترا شباب من جامعة تل أبيب مشارك فى المهرجان ، وأن برنامجه قد تضمن إحدى السيمفونيات التى كانت فى برنامجنا (المبلغ منذ أسابيع ، وإذا بهم يطالبوننا بأن نقدم حفلا مشتركا للأركسترا المصرى والإسرائيلى معا يكون من برنامجه سيمفونية بريتن المشتركة ورفضت الفكرة رفضا مطلقا وأكدت أن هذا المهرجان ليس سياسيا بل المعلن عنه أنه عمل موسيقى بحت ، وليس هناك أى قوة تجعلنا نقبل هذا العرض الذي نرفضه روحيا ووطنيا - ولم تجد محاولاتهم المستميتة فى تغيير هذا الموقف - وعزف كل أركسترا وحده وكان نجاح أركسترانا المصرى مدويا (واكتشفنا بالمناسبة أن كل أعضاء ذلك الأركسترا الإسرائيلى كانوا جميعا من الروس المهاجرين الجدد لتوهم لإسرائيل ، حتى أنهم لم يتحدثوا العبرية بل الروسية !).

ولعل وطنية والدى هى التى فتحت أعيننا على ريف مصر وتراثه الشعبى وآخلاقيات أبنائه وتقاليدهم فقد كنا نقضى الأجازات الصيفية أثناء سنوات الحرب العالمية الثانة فى قريتنا شوشاى، وهناك اقتربنا من الأرض والمنابع ، وتعلمنا الكثير من الطبيعة والفلك منه (كان ينبهنا لمجموعة الدب الأكبر) ويشجعنا على تعلم مهارات أبناء الريف وتذوق فنونهم وكان المثل الذى استنه لى أن أتقن كل ما تتقنه الفتاة الريفية والمدنية المصرية ، وكل ما تتقنه الفتاة الاوروبية ، وفعلا تحقق لى توجيه بفضل الأسرة قدر لا بأس به من كليهما فلا أنسى أننى ظللت أتوجه كل يوم خميس إلى مدرسة الراهبات الفرنسية المواجهة لبيتنا فى مصر الجديدة لتلقى دروس خاصة فى اللغة الفرنسية بها - وكان هذا الاتصال بالفرنسية من مصادر الخصوبة فى حياتى، ولازلت أقدر لوالدى هذه المبادرة الحضارية المستنيرة.

ويبقى السوال الكبير ماذا أخذت عن أمين الخولى الأب؟ هنا نصل إلى لب الموضوع، لأن منظومة القيم الأخلاقية هي بلا شك صنيع الأسرة ، ولأن الوالد هو الذى يحتك بالعالم الخارجي ويتعامل معه فإنه يتعرض أكثر للمواقف التى تتجلى فيها قيمه الأخلاقية أمام أولاده - ولعل أعمق هذه القيم الصدق وتحمل المسئولية وحرية الرأى والانضباط - وقد



يبدو هذا شيئا جانبيا ولكنه جزء من بناء الشخصية المتكاملة، فقد كان يضيق بأى صور الضعف أو التسيب، ولا يقبل أن يعتذر أحدنا فى صغره عن خطأ بقوله «دى وقعت منى غصبا عنى ! وهنا ينهره رافضا تماما أن يتخلى الانسان عن مسئولية تصرفاته بمثل هذه الحجج الواهية ... وقد تعودنا أن نأخذ أنفسنا بعد ذلك بنفس الجدية والمسئولية، وأن نحكم على تصرفاتنا فإذا أخطأنا اعترفنا بالخطأ لكى يصحح ...

وكانت نظريته فى «العقاب الطبيعى» ماثلة فى صغرنا بصورة مجسمة، فأى تصرف غير محسوب أو خاطئ يكون له دائما عقابه «الطبيعى»، فإذا لم يكن الانسان يقظاً فى مشيته فإن عقابه «الطبيعى» أن يتعثر ويقع أو يصيبه أذى مثلا ... والأهم من هذا أنه كان يطبق ذلك على نفسه وليس على أولاده فقط ..

قيم الصداقة والجمال

ومن السمات التى كانت تدهشنى فهمه فيه لمعنى الصداقة، فقد كان يحرص على أن يود الدكتور طه حسين ويزوره فى داره فى الأزمات التى يكون فيها بعيدا عن منصبه، أما فى ظروفه العادية فإنه لا يحرص على زيارته، وكان هذا جزءا من مثالياته الأخلاقية التى نسير أحيانا على عكس التيار السائد فى مجتمعنا، حيث يتكالب الناس على أصحاب المناصب، ثم ينفضون من حولهم إذا إبتعدوا عنها! أما هو فقد كان الصديق الصدوق فى الشدائد وإذا ابتعدنا عن منظومة القيم الأخلاقية إلى عالم القيم الجمالية فإننا نذكر - وأنا بصفة خاصة - أنه فتح قلوبنا وأعيننا على حب الطبيعة والنباتات والزهور، وهو الذى عود أعيننا منذ الطفولة فى بيتنا على روائع التماثيل العالمية فى مستنسخات رخامية صغيرة أحضرها معه من أيطاليا. وهو الذى أهدانى وأنا فى المدرسة الإبتدائية، أول كتاب عن الفنون التشكيلية الأوروبية. ولازمه عشقه للمسرح طول حياته، وانتقل بعضه إلينا (وإن اتخذ عندى صورة عشق الأوبرا) وكثيرا ما كنت أذهب للمسرح - بعد عودتى من البعثة - فى رفقته وكنت أجد فى تعليقاته عليه متعة حقيقية وكان حبه للأسفار والرحلات من أهم ملامح حياته، وعنه أخذت شيئا من هذا فقد أتيح لى السفر إلى كثير من قارات العالم والتعرف على شعوب وعادات وجوانب انسانية وثقافية شديدة الثراء .

وأخيرا وليس آخرا فإن أثمن ما أخذت عن والدى أمين الخولى أنه

وضعنى على الطريق الصحيح لهدف حياتى ومؤنسها ومكمن ثرائها وهو فن الموسيقى ...! فقد كان هو ووالدتى مرهفى الحس لما قيل لهما (فى روضة الأطفال) عن موهبة موسيقية أنعم الله علىَّ لها، وكان والدى هو الذى فتح أمامى أبواب عالم الموسيقى الساحر على مصراعيه منذ الطفولة - وتابع خطاى فيه عن كثب ولم يأل جهدا أو مالا فى سبيله - وإن كان قد عارض التحاقى بالمعهد العالى لمعلومات الموسيقى معارضة شديدة بعد ذلك - رفضاً لمبدأ الاحتراف - إلا أنه عاد واقتنع بالحجج التى قدمتها والدتى وأخى الكبير أسامة (رحمهم الله) فوقف بجانبى بكل ثقله بعد ذلك، وأخذ يرقب تقدمى فيه بالتشجيع والمشورة (التى امتدت لفترة كتابة رسالتى للدكتوراه فى بريطانيا) ... وأذكر أنه عندما صحبنى إلى بورسعيد ليودعنى قبل أن أستقل الباخرة التى ستحملنى لمقر بعثتى فى بريطانيا، ذهلت عندما رأيت عينيه تغرورقان بالدموع؟! واكتشفت فى تلك اللحظة أن الوالد الحازم الشديد الصارم كان يحمل قلبا عطوفا حانيا لا يظهر على السطح بسهولة ولكنه سرعان ما تمسك واتخذ سمت المربى فقال لى «أذ لم تأخذى الدكتوراه فلست ابنتى!! ومن العجيب أننى كثيرا ما سمعت من زملائى وتلاميذى مثل هذا التعليق على شخصيتى وكيف أن المظهر الجاد الحازم يخفى وراءه طبيعة يرونها حساسة دافئة ..

ولعلى بهذة الصفحات أكون قد عرضت على القارئ بعضا مما يأخذه الأبناء (والبنات) عن الآباء ومدى إمتداد أثر الأب على حياة أولاده ..

وإنى لأشكر الهلال الذى أتاح لى بهذا المقال أن أكتشف أوجه التشابه والتناظر بين حياتينا فى عمله الإعلامى والإذاعة، وعملى الإعلامى فى التليفزيون - وفى تأسيسه لمجلة الأدب لرعاية الأدباء الشبان، وإنشائى لجمعية الشباب الموسيقى المصرى لرعاية الموسيقيين الشبان وخاصة المؤلفين منهم، ثم فى اهتماماته الاجتماعية بجماعة «حياة القرية»، واهتماماتى الاجتماعية برعاية الكفيفات موسيقيا (منذ الستينيات وحتى اليوم) وهو الاهتمام الذى أثمر «أركسترا النور والأمل» الشهير والذى كانت نجاحاته فى رحلاته العديدة لأوروبا وآسيا والبلاد الغربية تشريفا لمصر ولفنيانها وموسيقاها المعاقات .

ولكن مما يؤسف له هذا التشابة بين حياتينا لم يمتد إلى إنجازاته العلمية .. ■



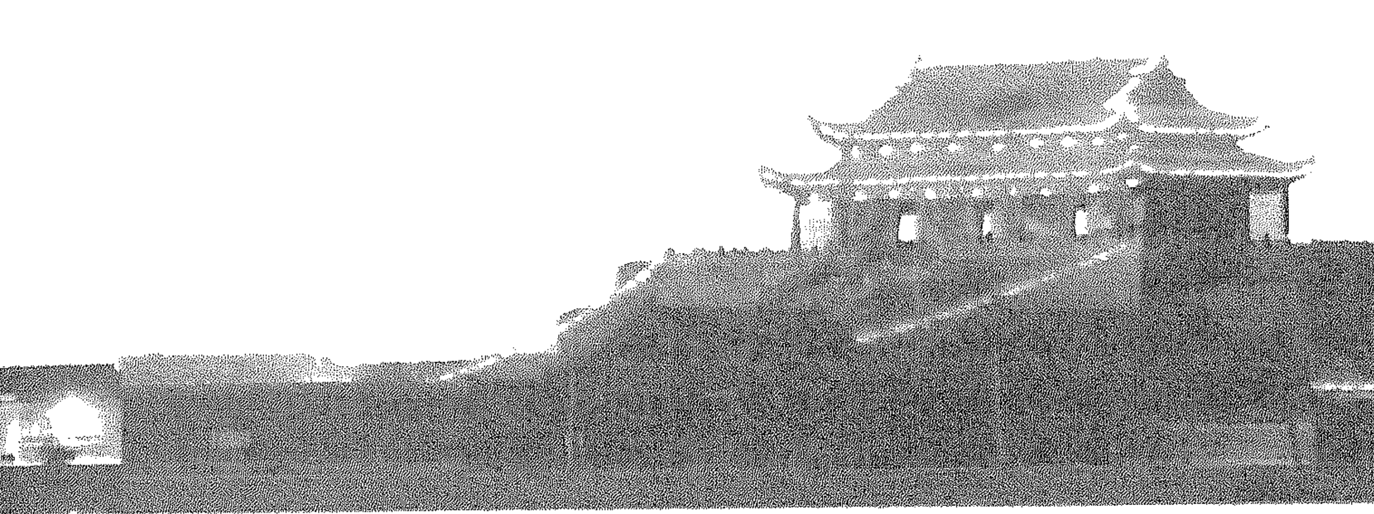


مــاجــد يوســـف : يكتــب من الصيــن

رحلة إلى الصين

في رحاب التنين الأسيوى

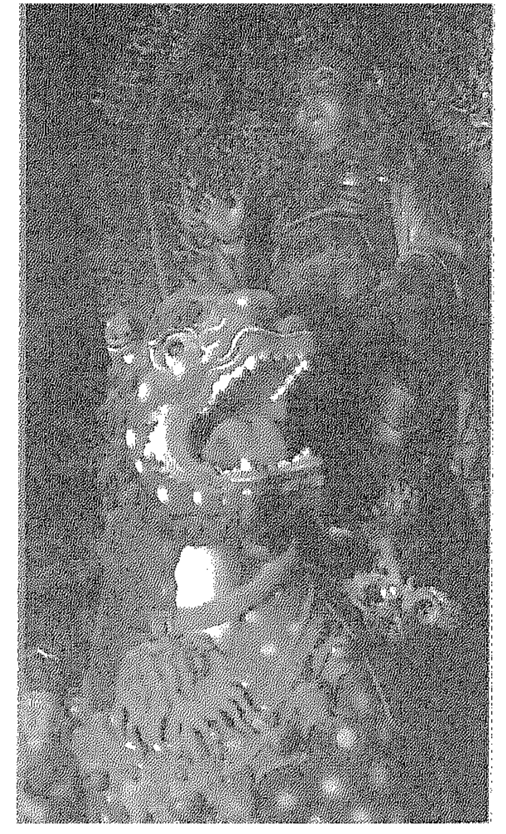
الصين في سباق مع الزمن لتحقيق المعجزة الكبرى!

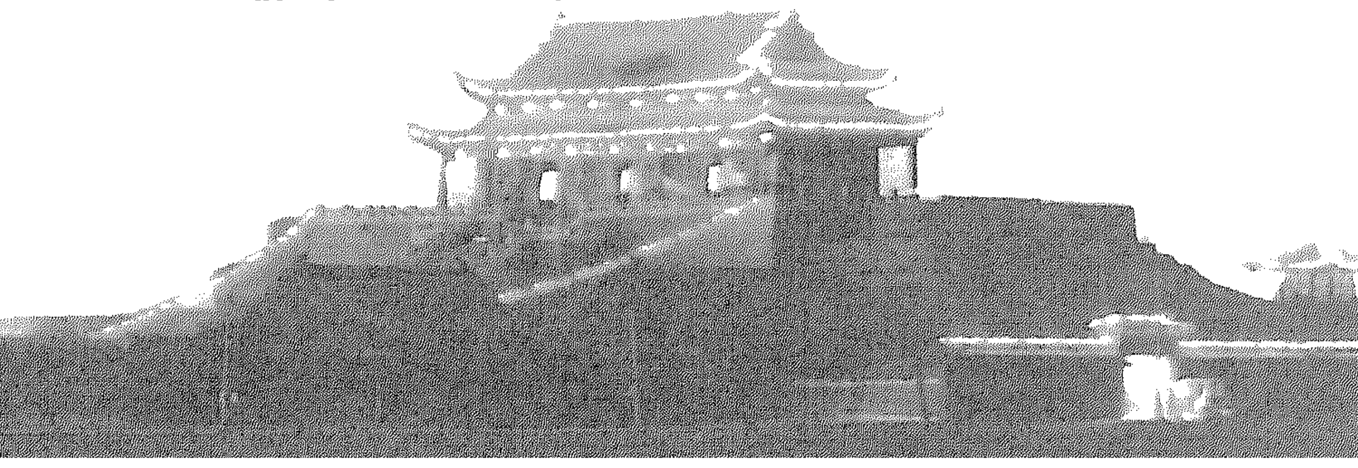


فرضت أعواد قصب البامبو الشكل المقوس للسقوف التى تميز بها الطابع المعمارى الصينى

عندمــا بدأت رحلة الطائرة من القــاهرة إلى بكين أخذت أستــرجع معلومــاتى السابقـة عن لغز التنين الأصفر، وكيف استطاعت الصين في خلال سنوات قليلة أن تنتقل من خانة الدول الناميــة إلى مصــاف الدول المتـقدمة، كإحدى الدول العمـلاقة سياسياً وإقتصادياً وعسكريا.


فتاة صينية من فلاحى القرى


التنين الصينى الأسطورى رمز مقدس لدى الصينيين



حيث تكمن عناصر القوة عند العملاق الصينى فى تلك القوة البشرية الهائلة المتمثلة فى أكثر من مليار نسمة يشكلون خمس سكان العالم تقريباً وفى مساحة ضخمة تمتد إلى ٩.٥ مليون كيلو متر مربع تجعل الصين فى المرتبة الأولى عالمياً فى عدد سكانها، وضمن أضخم ثلاثة بلدان مساحة فى العالم (روسيا - كندا - الصين) كما تكمن قوتها فى اقتصادها القوى الذى يتمتع بامكانات طبيعية وبشرية كبيرة ، بجانب توظيف طاقاته الهائلة.

وأثناء ركوبنا الطائرة إلى الصين لإعداد حلقة فى التليفزيون (قناة التنوير) عن هذا العملاق الصينى الكبير، برزت أمامى عدة محاور عما يمكن إنجازه فى

هذه الرحلة لنتعرف من خلالها بالكاميرا، واللقاء المباشر ، والحوار الموسع على جوانب. مختلفة وفى أصقاع مختلفة من مساحة الصين (القارية) ومتنوعة المعالم الحضارية والفلكورية، فضلاً عن تنوع الطبيعة الجغرافية من جبال وسهول ووديان وأنهار وبحار وصحارى وخضرة ، واختلاف طبيعة الطقس من حار إلى بارد، ومن شمس إلى مطر.

- ٢ -

صينى من شبرا فى قلب بكين!

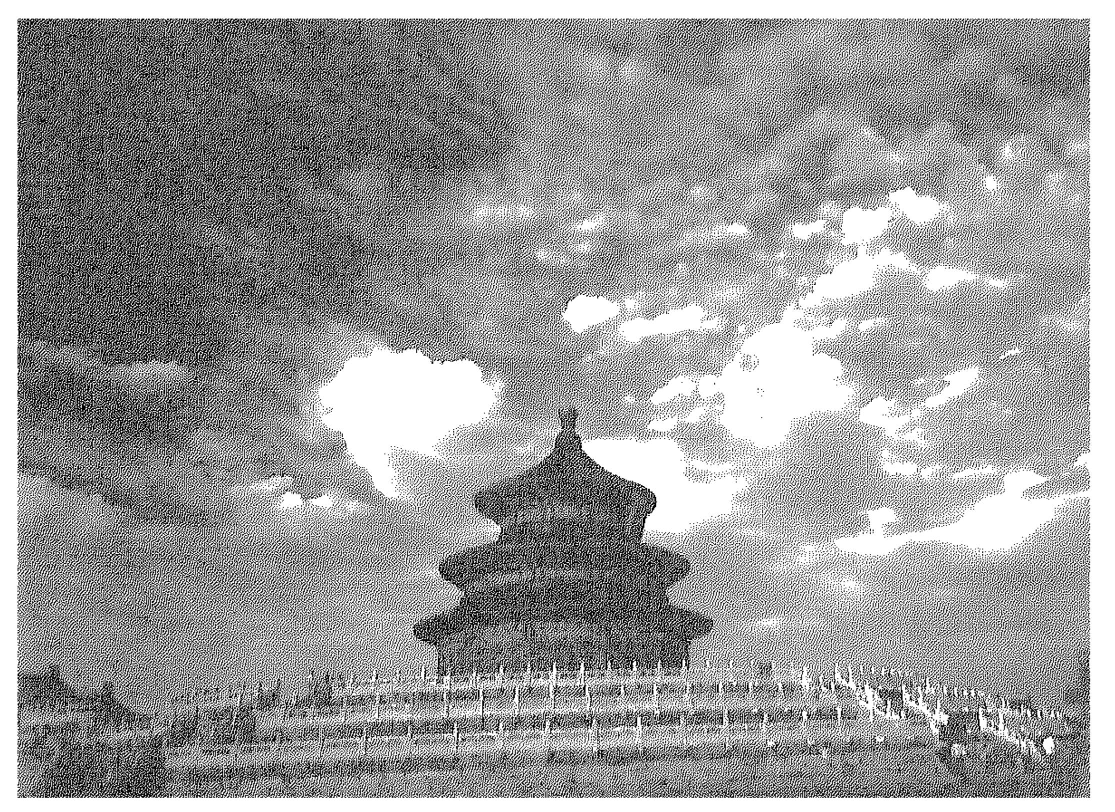
عند هبوطنا فى مطار بكين .. النظيف جداً . المنظم جداً .. الواسع جداً .. والذى يدير كل شىء فيه مجموعة من الشباب والشابات (المجتمع الصينى بالمناسبة هو مجتمع الشباب فى كل القطاعات والأنشطة والأنحاء والشوارع والمصانع والمتاحف والمطاعم .. الخ ، ولا يعنى هذا أن الكبار غير موجودين فى كل هذه المظان .. هم موجودون .. نعم .. طبعاً ولكن الطابع الغالب .. أو العنصر المسيطر .. أقصد .. الأغلبية المسئولة .. الواضحة للعيان فى كل مكان هم الشباب .. هذا درس أول) وطبعاً ، يخلق الشباب (المسئول) فى كل موقع بحكم حيويته وشبابه وثقته بنفسه وبدوره فى هذه السن الباكرة .. روحاً من الفاعلية والإتقان وسرعة الإنجاز والكفاءة .. فلم يستغرق خروجنا من المطار إلا الوقت الضرورى للعبور من الحواجز الأمنية والإجراءات القانونية ، وملء الإستمارات، وتسليم الجوازات ، والحصول على التأشيرات، ولا مشكلة على الإطلاق فى أى شىء .. فعربات الحقائب موجودة بوفرة ، وحقائبنا سبقتنا ببساطة إلى «السير».

وهذا هو ما حدث معنا بالضبط حينما وصلنا إلى مطار بكين ، كانت عيوننا تتأمل فى مطار بكين الواسع الكبير ، والأهم النظيف - والملىء أيضاً بالورود والزهور والخضرة الموضوعة فى مكانها بتنسيق واضح وحساب مضبوط فى كل ركن تقع عليه عيناك تقريباً .

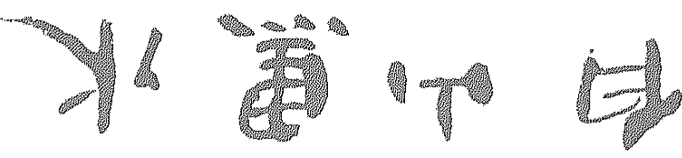
وفى منطقة الإستقبال الرئيسية، هناك صورة كبيرة مرسومة بالألوان الزيتية خلف مكاتب ضباط المطار - أقصد ضابطاته ، فمعظمهن من البنات . فتيات صغيرات السن لا تتجاوز أعمارهن الخامسة والعشرين - وهذه الصورة البانورامية البديعة تمثل سور الصين العظيم، مرسومة ببراعة وبحلول تشكيلية ذكية للمساحة المتطاولة التى جسدت بتطاولها العرضى - أو حاولت - التطاول الأصلى لسور الصين العظيم بتدرجاته ونعرجاته فوق الجبال صعوداً والوهاد نزولاً ، محاطاً بالأشجار وبالأسوار والأحجار .. كان العمل الفنى على هيئة شريط طويل على حائط ممتد يأخذ العين ويخطف البصر ، فيما الضابطة الشابة تنهى إجراءات الباسبور فى ثوان معدودة، وتحاول آن تخبرنى أن اعتماد أوراقى قد انتهى .. وأنا لاه عنها فى هذه اللوحة الجميلة ، ولاعتفادى التاريخى الراسخ داخلياً من مجموع التجارب السابقة فى المطارات المصرية وبعض المطارات العربية . إن إنهاء اعتماد جواز سفرى لايمكن أن يتم بهذه السرعة الفائقة والجديدة على تماماً!.

المهم ، خرجنا نحن الأربعة (بعثة

سور الصين العظيم بتدرجاته ومعرجاته صعوداً ونزولاً ، محاط بالأشجار والأحجار



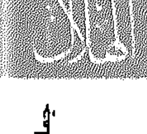
العمارة الصينية القديمة تتميز بألوانها التى يغلب عليها اللون الأحمر

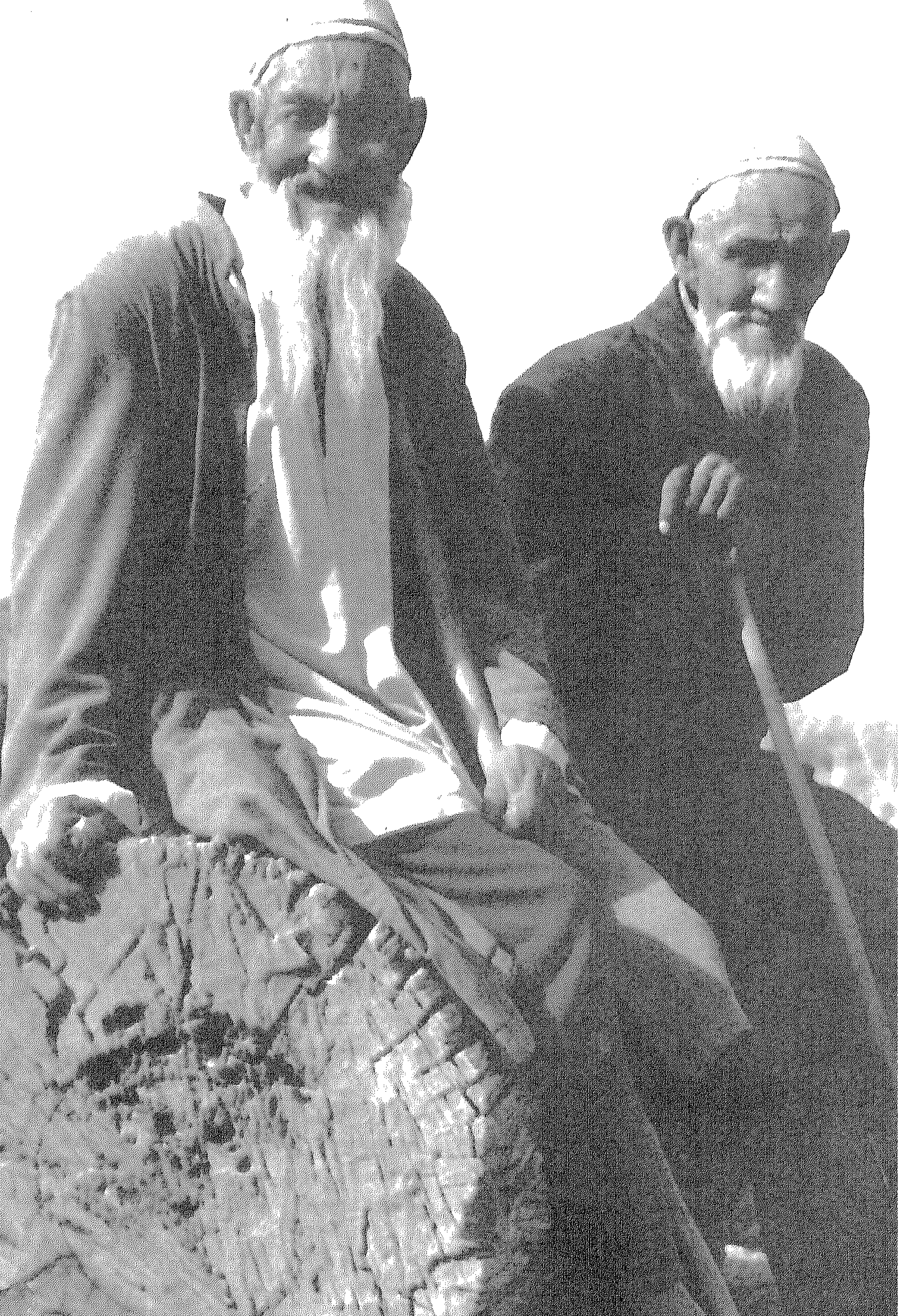


قناة التنوير) لنجد من ينتظرنا ويتعرف علينا بسهولة ويقدم نفسه لنا باعتباره (صبحى) - اسمه بالعربية - وأنه مترجمنا ومرافقنا في هذه الرحلة طيلة إقامتنا في الصين، ومعه زميله الصيني (ساو) من وزارة الثقافة الصينية بالإضافة إلى السائق ، أما صبحى أو (Zhu Xi) - وهذا اسمه الصيني - فشاب في الخامسة والعشرين من عمره، تخرج من قسم اللغة العربية بجامعة بكين، وعمل لفترة في العراق مترجماً في السفارة الصينية هناك، وهو الآن يعمل مترجماً للوفود العربية في وزارة الثقافة الصينية في الإدارة الخاصة بدول شمال أفريقيا ، التي تحتل موقع الصدارة فيها .. مصر بطبيعة الحال .. وبدت عربيته الفصحى متلعثمة ومتكسرة، وإن كانت معبرة وموصلة وكافية لتحديد المعاني والمقاصد وبدت أيضاً وكأنها عربية كلاسيكية لحد ما .. قاموسية .. العربية كما تتمثل في القواميس ، وتفصح عنها المعاجم ، ولذلك ، فسنتولى نحن - في فترة بقائنا في الصين - نفخ الحياة والروح والحيوية في عربية السيد (صبحى) لتمتلىء بنبض الواقع وإيقاع الحياة وحرارة البشر، لا برودة الكتب، وتاريخية المعاجم، وقدم القواميس، وعتاقة المفردات .. وكانت نوادر ومغامرات في هذا الشأن مع السيد صبحى، ربما أتت الفرصة لقص طرف منها على القارىء العزيز في مقال آخر.

أما السيد (ساو) الذى لايعرف إلا الصينية فقط، والذى يكبر زميله الشاب صبحى بحوالى ربع قرن كامل ، فهو رجل في الخمسين من عمره ، إنيط به تخليص مسائلنا الإدارية والورقية وتذليل كافة الصعوبات لنا .. من مثل الحصول على التصاريح لدخول الأماكن المختلفة المراد تصويرها .. من متاحف، ومزارات سياحية ، ومكتبات عامة، وأبراج، ومصانع .. الخ.. ودفع الرسوم ، وحجز الفنادق ، وحساب المطاعم وتلبية الاحتياجات، وتجهيز الانتقالات ، والسيارات والسائقين .. الخ .. والحقيقة التي لابد أن نذكرها في هذا السياق .. هو التفاني الكامل لهؤلاء الناس اللطفاء الكرماء في أداء ماهو منوط بهم .. وبدا جليا لنا مدى حرصهم وخوفهم علينا باعتبارنا مسئوليتهم الشخصية المباشرة ، ومدى تلبيتهم لمطالبنا فوراً ، وأحياناً بمجرد الإشارة، ومن اللافت للنظر هنا، أن السيد (ساو) الذى لايجيد العربية ولا يعرف إلا الصينية .. كان يفهمنا - ولا ندرى كيف كان يتم ذلك حتى الآن - وكان يلتقط بحساسية مفرطة مقاصدنا ورغباتنا التي طبعاً لم نفصح عنها بالصينية التي لانعرفها نحن ولا يعرف هو سواها ، ولكنه كان يمتلك روحاً ذكية، وحساسية بالغة ، ورهافة خاصة، وكما نقول في مصر (كان يفهمها وهي طايرة) .. وكان لماحاً للغاية يمتلك حساً راداريا يحقق به الاتصال المباشر والناجح مع معظمنا رغم عائق اللغة ، حتى إنني بعد عدة أيام دهشت للتفاهم شبه الكامل بينه وبين زميلنا شريف المصور إلى حد تبادل النكات والضحك لدرجة الإستلقاء على القفا .. نتيجة الإتصال العالى بين الإثنين بدون لغة .. أى لغة!.. ولكن - في الواقع - كانت هناك لغة ، لغة أعمق للتفاهم ، لغة الروح الإنسانية الرحبة ، والأخوة البشرية العميقة والصداقة .. ولغة الروح والجوهر هذه - كما أسميها

الصينيون يستمتعون بالحياة كبارا وصغارا لما يتبعونه من نظام غذائي صحى متكامل ◀





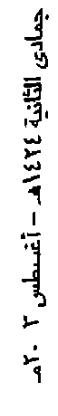
- كانت الوجه الإنسانى الفائق القدرة على التعبير عن مختلف الخلجات الشعورية، والإنفعالات الداخلية .. يلعب فيها الدور الأساسى فى تحقيق هذا التواصل المدهش واللافت للنظر ..

خرجنا من مطار بكين ، الجو يبدو معتدلاً وغريباً لحد ما ، السيارة الميكروباص تقطع بنا الشوارع النظيفة جداً ، والمنسقة جداً ، والمشجرة جداً .. وندخل بعد نصف ساعة أو ربما أكثر قليلاً، العاصمة العتيقة . بكين .. التى يخلتط فيها - بوضوح - تلك المبانى الحديثة جداً ، والشاهقة والعالية ، وذات الخطوط التجريدية والهندسية الواضحة التى من الممكن أن تراها فى أى مدينة من مدن العالم الحديث .. مع تلك المبانى الأثرية التراثية التى تبزغ أمامك بين الحين والحين فيما أنت تخترق المدينة عبر كباريها وأنفاقها وشوارعها .. وهذه المبانى القديمة ، قد تكون قصر الإمبراطور الشاسع الواسع فى قلب بكين مرة .. وقد تكون معبداً بوذياً متميزاً وتاريخياً .. وقد تكون مسرحاً عتيقاً .. أو مطعماً قديماً .. وهكذا .. تتضافر الأنماط المعمارية الحديثة جداً ، مع أنماط معمارية أخرى تعود للقرن التاسع عشر مثلاً، مع طرز تاريخية تعود للقرون الوسطى وتميز الطابع المعمارى الصينى العتيق بسقوفه المقوسة باستخدام أعواد هائلة وغليظة من قصب البامبو التى لم أر ما يشبهها فى حجمها فى أى مكان من الدنيا ، والتى فرضت هذا الشكل المنحنى المقوس للسقوف نتيجة انحناء ساق البامبو الطويلة من الوسط.

وحديث العمارة الصينية القديمة والحديثة ، حديث آخر يطول .. وتنتشر فى كل مكان فى مداخل بعض العمارات والمحال والبيوت والمطاعم والفنادق - تلك الثريات الصينية التى هى فى الغالب حمراء اللون (اللون الأحمر لون مسيطر على مظاهر التزيين وأدوات الحياة والإعلانات والمداخل والأبواب وكتب ماوتسى تونج والعلم الصينى بالطبع .. و.. و.. الخ، هو خرج من حده - أقصد اللون الأحمر - ليكون مكوناً من مكونات الثقافة الصينية والرؤية الصينية للعالم .. وهذه الثريات المشار إليها مصنوعة فى الغالب من الورق أو من القماش أحياناً .. وبأحجام مختلفة .. صغيرة جداً «أحياناً» وكبيرة جداً فى أحيان أخرى .. أذهلتنا بحجمها الضخم جداً فى ليلتنا الأخيرة فى بكين ، عندما زرنا مسرح الأكروبات الصينى الشهير .

ودائماً على الباب - أى باب فى الصين ، يربض أسدان أسطوريان على جانبى الباب ، بأحجام مختلفة حسب كل باب .. وبخامات مختلفة حسب قيمة وأهمية المكان .. وهكذا استقبلنا هذان الأسدان الحجريان الضخمان أمام باب الفندق الدوار الذى وصلنا له الآن .. لنحط رحالنا - لليلة واحدة - لأننا فى الصباح الباكر سنعاود رحلتنا بالطائرة إلى بلد آخر داخل الصين الكبيرة شاسعة الأرجاء

الملاحظة الغريبة ، أننا فى المطار ، وفى الشوارع ، وفى الفندق ، وفى كل مكان ، لم نجد أى زحام ، من أى نوع يتوازى مع هذا الرقم المرعب لتعداد الشعب الصينى .. مليار و٣٠٠ مليون نسمة!!.. فقد ظل - مثلا - ميدان التحرير أو ميدان العتبة فى عيوننا أكثر



زحاماً بكثير من أى مكان رأيناه فى الصين .. حتى فى قلب ميدان القصر الإمبراطورى الكبير ببكين ، ولكننا عرفنا بعد ذلك ، لماذا لم نلحظ أى زحام فى أى مكان وفى أى وقت فى الصين .. وهذا حديث آخر على كل حال!

- ٣ -

شعب على عجل !

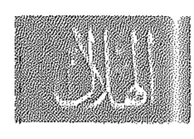
لعل الظاهرة الشعبية التى تلفت نظر الزائر الأجنبى للصين - قبل غيرها من الظواهر الأخرى - هى هذا الإستخدام الشعبى الواسع للدراجة كوسيلة فعالة من وسائل الانتقال .

نعم .. الشعب الصينى بأكمله - تقريباً - يركب الدراجة .. من تلاميذ الإبتدائى لطلاب الجامعات ، ومن سيدات البيوت .. لفلاحى القرى ، ومن عمال المصانع لموظفى الحكومة .. الدراجة .. وسيله بطلة وعمليه و«صينية جداً» للإنتقال السهل والسلس من مكان إلى آخر .

ولنتخيل - للحظة - أن الشعب الصينى (مليار و٣٠٠ مليون) لم يخترع هذه الوسيلة الذكية لإنتقالاته الرئيسة ، واستبدالها بالسيارة مثلاً .. لكان من الصعب عندئذ أن تتسع لهذا الشعب شوارعه ، ولضاقت به ميادينه ، وطرقه السريعة ، وبلاده المترامية على سعتها ، ولوقع فى مشكلة مرورية مستعصية على أى حل ، كالتى نعانيها فى مصر !.

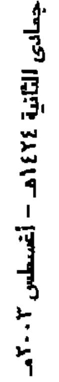
والحكومة الصينية ، من جانبها ، لم تتعامل مع هذه الظاهرة الإيجابية تعاملاً سلبياً .. بل شجعت ذلك بأخذ هذه الوسيلة الذكية مأخذ الجد والتخطيط ، فأختطت مسارات خاصة للدراجات .. فى الشوارع والطرقات والميادين ، ليس ذلك فحسب ، بل وخصصت أماكن الإنتظار الملائمة أمام المصالح الحكومية والمصانع والمدارس والمحال العامة .. هناك باستمرار ، وفى كل مكان ، ساحات ومساحات موقوفة على الدراجات ، ولها اعتبارها المحسوب فى أنظمة المرور ، وخطوط السير .. بين السيارات العملاقة والسيارات الصغيرة سواء .. فللدراجة حقوقها على الأرض ، ولراكبيها - خصوصاً الصغار والتلاميذ - حقوقهم فى الحركة والإنتقال السلس والمؤمن والحانى والعطوف من المجتمع كله .

والملاحظ - فى هذا السياق - أن الناس قد حولوا هذه الوسيلة إلى وحدة متكاملة لقضاء عدة أغراض معاً .. فهى وسيلة انتقال ناجحة للفرد من ناحية ، أو لعدة أفراد ، فهناك دراجات مجهزه لحمل عدد من الأفراد معاً .. فى الخلف والأمام (أسرة بحالها) ، وقد زودت كل دراجة - باستمرار - بصندوق أمامى من السلك المتين ، يتسع لحقيبة التلميذ ، وأدوات الجامعى ، وتسوق سيدة البيت ، وأغراض العامل ، وملفات الموظف .. كما تجد بصحبة كل راكب دراجة مظلة بلاستيكية نستخدم عند الحاجة .. مثلاً .. عند هطول الأمطار المفاجىء فى أحايين كثيرة ، فالجو شديد التقلب فى اليوم الواحد من الحر إلى البرد ، ومن الشمس إلى الضباب ، ومن الجفاف إلى الأمطار الغزيرة .. وهذه المظلة البلاستيكية يرتديها راكب الدراجة لتغطى رأسه وجسمه بالكامل ، وتمتد لتغطى أغراضه داخل الصندوق الأمامى للدراجة .. من حقائب وكتب وملفات وأغراض منزلية ، بحيث يصل سالماً من البلل إلى هدفه ، هو وملابسه وأشياؤه .. فهذه المظلة السابغة - عند الحاجة -



تنسدل عليه من رأسه إلى كامل جسمه فيما عدا الجزء الأسفل الذى يقود الدراجة .. وتمتد لتغطى على يديه الممسكتين بمقود الدراجة ، وعلى صندوقه الحافظ لمتعلقاته كلها .

وقد لاحظنا أن الدراجة الصينية مصنوعة بخامات متينة ، ففى حالات نادرة شاهدنا تلك الدراجات المصنوعة إطاراتها الداخلية من السلك المعدنى ، بل الدراجات هناك ، تصنع من أعمدة راسخة من الحديد القوى ، الذى يجعل الدراجة تتحمل العمل الشاق والخدمة الثقيلة ، واستبدال الحديد بالسلك ، منطقى فى هذه الحالة ، لأننا هنا لسنا إزاء استخدام ترفيهى خاص للدراجة بين الحين والحين .. بل إزاء خدمة شاقة ودائمة استوجبت صناعة أكثر قوة ومتانة لهذه الدراجة التى حلت - وببساطة شديدة - مشاكل المواصلات لعموم الشعب الصيني .. أو على الأقل .. الجزء الأكبر من هذه المشاكل .. وكان لابد للمرء فيما هو يرى هذا الحل السهل والعبقرى لمشكلة من المشاكل المستعصية ، وهى مشكلة المواصلات ، أن يتذكر نفس المشكلة فى مصر ، وأن يفكر فى هذه وسيلة ، لو تم الإقتناع بها وتعميمها فى بلادنا .. لانحلت - وببساطة متناهية - المشاكل المستفحلة للمواصلات العامة ، والزحام الدائم لشوارع القاهرة ، والاختناقات المرورية المزمنة ، التى لم يعد ينفع معها فى القاهرة الكبرى - على سبيل المثال - لا مترو تحت الأرض ، ولا كبارى علوية فوق الأرض ، ولاأنفاق ، ولا حتى شبكات الطرق الدائرية الضخمة .. لأن السيارات فى أزدياد مستمر ، ولأن المخطط لا يأخذ فى اعتباره الموائمة الضرورية بين عدد السيارات التى تعطى تصاريح جديدة كل شهر ، وطاقة الشوارع والطرق والميادين وأماكن الانتظار ، وطبعا لا نغفل فى هذا السياق ، الأسباب المظهرية التى تحكمنا - ولو ضد مصالحنا - فالدراجة عندنا هى وسيلة (الفقراء) والأوساط الدنيا من الناس ! وبالتالى ، فالدراجة - من هذا المنظور - لها مردودها الاجتماعى ، ومحمولها الطبقى .. فراكب الدراجة عندنا هو شخص أقل فى مرتبته الإجتماعية ، وقيمته المظهرية من راكب السيارة !.. نحن لا ننظر للدراجة باعتبارها مجرد وسيلة فعالة وعملية جداً للمواصلات .. لا تحيل إلى شىء آخر .. بل هى - عندنا - ترادف قلة القيمة ، وقلة الهيبة والاحترام ، والبهدلة .. الخ ، عكس السيارة التى تعطى إنطباعا مغايراً بالقيمة والهيبة والطبقة الإجتماعية والتميز والإحترام العام .. الخ ، ولعلنا مازلنا نذكر ذلك المذيع التليفزيونى المصرى الشهير فى عقد السبعينيات الذى حاول أن ينتقل من منزله فى كوبرى القبة إلى عمله بتليفزيون مصر بالدراجة .. ففتحت عليه الصحف والمجلات النار .. نقداً وتريقة وسخرية منه ومن دراجته .. وهو المذيع التليفزيوني والإذاعى النابه شفيع شلبى .. وطبعاً تم وأد تجربته الجريئة فى مهدها .. والتى لو كان قدر لها الانتشار على نطاق واسع .. لحلت - وببساطة - مشكلة من أكبر وأعقد مشاكل القاهرة المستعصية على الحل حتى الآن كما قلنا .. وهى مشكلة الزحمة ، ومشكلة إكتظاظ الشوارع - المميت والمعطل أحياناً للسير





الغناء والرقص والموسيقى من أهم أشكال الثقافة الشعبية الصينية



تعتبر الأعمال اليدوية من مصادر الدخل للأسر الريفية الفقيرة والمتوسطة

وربما لساعات طويلة - بالسيارات والأوتوبيسات بمختلف مقاساتها ، وسيارات النقل بأنواعها ، والميكروباص بتجلياته ، والميني باص بتنويعاته ، بل والحنطور والكارو أيضاً وعلى أجدع كوبرى فى القاهرة ، وفى ساعات الذروة كمان !! .

***

والأهم ، أن هذه الدراجات - فى الصين - توفر للمجتمع كله ، الوصول المنضبط إلى مواقع عمله فى الوقت المناسب تماماً والمجتمع الصينى بالمناسبة له نظامه الدقيق فى العمل ، الذى يبدأ بالإفطار فى تمام السابعة (للمجتمع كله) والغذاء فى تمام الثانية عشر ، والعشاء فى السادسة مساء .. ولك أن تتخيل عزيزى القارئ .. الأمة كلها .. وفى وقت واحد (تقريباً) تتناول طعامها فى هذه المواعيد المقدسة .. الشعب بمختلف فئاته ونوعياته ، وعلى تعدد أعماله ومستويات ناسه ، فمواعيد العمل والطعام مواعيد ثابتة بل حديدية .

والطعام ، بالمناسبة - ولو أن هذا سيكون موضوعاً لحديث آخر - طعام صحى بالمعنى الكامل للكلمة ، فهم لايعرفون السكر (تقريباً) على سبيل المثال.

وقد استلزم الأمر منا حوالى الأسبوع لنعثر على السكر لنضعه على الشاى ، فهم لا يستعملون السكر إلا فيما ندر ، والنزر اليسير من الملح ، ويغلب على أطباقهم الخضر والفواكة الطازجة ، والبحريات من الأسماك والقواقع والجمبرى ومخلوقات بحرية أخرى .. ولا تجد لديهم - على الإطلاق - الأفضلية الطبقية الموجودة عندنا للحوم والدجاج مثلاً ، بل هى تحظى بنفس الأهمية التى تحظى بها بقية المأكولات الأخرى !!

وطبعاً لا أحدثك عن (صحة) شعب .. هو فى حالة ركوب للدراجة معظم يومه ، ويأكل الخضر والفواكة والأسماك ، ولا يعطى أهمية مركزية (للحمة) ولا يعرف - تقريباً - السكر والملح .. لك أن تتخيل الحالة الصحية العامة لهذا الشعب العامل المجد المنتج ، ولرشاقته ولسلامة بنيانه .. رجالاً ونساءً ، شيوخاً وشباباً ، كباراً وصغاراً .. وبالتالى ، إمتلاء الحياة هناك .. من حولك ، وأينما تحركت .. بكبار السن الذين تجاوزوا الثمانين والتسعين من أعمارهم يتحركون ويروحون ويجيئون ويستمتعون بالحياة فى هذه السن دون انحناء أو حتى عصا يتوكأون عليها!.

***

وبرغم ذلك ، لاتشعر أينما يممت وجهك فى أقاليم الصين ، شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً .. إنهم مجتمع عامل فقط ، ومنتج فحسب .. بكل ما تعنيه هاتان الكلمتان من إمتلاء بالمعنى الكامل للعمل والإنتاج .. بل للمتعة بالحياة ، والاستمتاع بالطبيعة الجميلة نصيب وافر فى برنامج الحياة اليومية لهذا الشعب .

ولا تشعر عند زيارتك لأية مدينة صغيرة أنه ينقصها شيء ، أو أنها تختلف عن العاصمة فى درجة الأهمية .. على الإطلاق ، كل المسألة ، أن العاصمة بكين أو المدينة الثانية شنغهاى .. هما مدن كبرى فقط .. ولكن كل مايوجد فيهما من محال وملاه ومطاعم ومتاحف ومسارح ودور سينما ومعابد وشوارع تجارية كبرى ومكتبات وفخامة ورفاهية

فريق عمل قناة السوبر فى أحد مواقع التصوير بالصين

وحدائق غناء مليئة بالأعمال الفنية لكبار الفنانين الصينيين ومعارض للفن التشكيلي ومنتديات للفكر ومراكز للثقافة وقاعات للغناء والرقص والموسيقى .. الخ ، موجودة فى كل مدينة صينية كما هى موجودة فى بكين وشنغهاى لايوجد هذا الإحساس بالفارق - الذى نجده عندنا مثلاً - بين القاهرة وكفر الشيخ ، أو الأسكندرية والمحلة .. بل كلها مدن صينية تحظى بنفس القدر من الاهتمام والعناية على كل المستويات التى أشرنا إليها .. وهذا نترك أثره فى مواطنى كل مدينة .. أن مدينتهم تحظى بنفس القدر من الأهمية والاعتبار والقيمة ، مثلها مثل المدن التاريخية الكبرى كبكين وشنغهاى

ومن ثم لايفكر مواطن إقليم صينى ما فى ترك إقليمه والهجرة للعاصمة ، لأن العاصمة بها من المزايا الحياتية والفرص والمنع ماليس فى إقليمه ..

وكان هذا هو السر فى أنك لاتشعر على الإطلاق بأى زحام أو كثافة بشرية خانقة كما تشعر فى القاهرة .. لأن المواطنين الصينيين موزعون على كامل الأرض الصينية (القارية) بعدالة وانسجام وحسن إنتشار .. ولأن كل مدينة أو إقليم - كما قلنا - يمتلك من مقومات الحياة والتقدم والرفاهية والمتعة والعناية ما تمتلكه بالضبط بكين وشنغهاى ، ومن ثم فلا يفكر المواطن فى ترك إقليمه الجميل والذى يتميز بتنوع طبيعى لخصائص سياحيه ربما ، أو إنتاجية أحياناً تفرقه عن بقية الأقاليم ، ولكنه فى نفس الوقت ليس محروماً من كل ما يميز العاصمة أو المدن الكبرى .. بل إن الإقليم بالإضافة إلى ما يشترك فيه بالضبط مع بكين وشنغهاى يمتلك خصوصيته المضافة .. كمنطقة سياحية مثلاً لوجود آثار قديمة بها .. أو كمنطقة زراعية ريفية أحياناً ، أو كمنطقة صناعية .. أو كمنطقة بحرية .. الخ ، ولكن الثابت والمؤكد أن كلها مدن صينية تستظل بعلم واحد ، وبعمل وجهد واحد .. وبفرحة وحب وإعتزاز بالوطن الذى ليس لديه خياراً وفاقوساً فى تعامله ورعاية وعنايته بأبنائه جميعاً وأقاليمه كلها .

وأخيراً

فالإنطباع المؤكد الذى يتركه لديك تأملك للشعب الصينى .. أنه شعب على عجل .. بكل المعانى .. بمعنى أنه شعب راكب للعجل أو للدراجات .. وأنه أيضا على عجل بمعنى أنه فى سباق مع الزمن ليتبوأ مكانته التى هو جدير بها فعلا كقوة مقبلة بجدارة لتحتل مكانها اللائق بها عالمياً ودولياً فى غضون سنوات قليلة قادمة ، وعلى الجميع أن يحسب لهذه القوة ، أو لهذا التنين المستيقظ النابه النشط ألف حساب وحساب !

مرشد القارئ إلى

الخطاب الثقافى

بقلم
د. صلاح قنصوه

لا ينبغى أن يتبرم البعض بعقد مؤتمر وزارة الثقافة الأخير، أو يسخط على جدول أعماله، أو قائمة مدعويه التى وضعتها لجنته التحضيرية. بل هو يجدر بالحمد والتقدير لأنه كان أولاً مساوقاً ومتجانسا مع الأمر الواقع لدعاوى المثقفين العرب والمصريين فيما يكتبونه ويذيعونه فى الفضائيات.

وثانيا جرى إعداده على نحو طبيعى خلال شهرين . فلم يكن من المتوقع من المثقفين أن يغيروا من آرائهم المعروفة، ويعدلوا عنها إذا أمهلناهم متسعا أكثر من الوقت، فالنتيجة واحدة سواء فى شهرين أو فى عام.

ولم يكن من المستطاع أن يستوعب المؤتمر كل من له الحق فى إعلان موقفه، وكان لابد من اختيار البعض دون الآخر فيما يسمى «بالقائمة القصيرة» short list لأن اللجنة التحضيرية مشكلة من بشر وليس من حاسبات الكترونية تصنف المثقفين، كما يصنع مكتب التنسيق للجامعات، وفقا لأعلى المجاميع .

ومن ثم فالدعوة لم تقم على حكم تقدير أو تقليل لجدارة أعضاء الطائفة الواسعة من المثقفين. وربما لو استبدل بعض أعضاء اللجنة بغيرهم لتغيرت قائمة المدعوين.

فالأمر كله طبيعي مقبول إذا اعتبرنا المشاركين عيّنة ممثلة لكل فصائل أصحاب الرأى. ولعل أمراً آخر مضافاً يرفع الحرج عن منظمي المؤتمر، وهو أنه عقد فى ظل وضع عالمى ومحلى طارىء لا يغيب عن فطنة القارىء، ويتطلب حساباً وتقديراً خاصاً.

إذن، فالمؤتمر مناسبة محمودة وضرورية لنرى أنفسنا على حقيقتها فى مرآة صافية. والمرآة مستوية وسليمة من العيوب، إلا أن ذلك لا ينسحب على ما تعكسه من صور من يقف أمامها لأنها تكشف عن نقائصه أو مآثره.

مضمون الرأى

وقبل أن نتناول الصورة، علينا آن نتفق أولاً على الالتزام بشرط منهجى غاب كثيراً عن خطاباتنا الثقافية.

وهذا الشرط هو ما نعلّمه أبناءنا فى الفلسفة والمنطق بأن نميز بين مضمون الرأى (أو الحكم) وبين نوايا صاحبه. وهو ما يعنى استبعاد ما يسمى بالحجة

الشـخـصى . فـينصـرف الأول إلى موضوعية النتائج التى تترتب على صحة المضمون، بينما يقتصر الثانى على الحكم الأخلاقى لصاحب الرأى. وهذا هو ما لا يعنينا لأن النوايا الفـردية أو الأغـراض الذاتية لا تهم فى التحليل الأخير، ولا تؤثر فى مجرى الحوادث والوقائع التى يتوجه إليها الرأى . فهناك من المثقفين على سبيل المثال من يؤدى دوراً رائعاً فى الهجوم على السلطة لرفع سعر بضاعته وتسويق نفسه عندما تفكر الدولة فى إيلائه منصبا أو حظوة أو دوراً أو شهرة . بل إن بعض من يهاجمون الحكومة بشراسة قد يتفقون عمليا وتعاقديا على امتداد صحافتهم أو وسائل الإعلام التى ينتشرون فيها. أو يقدمون المقابل للشيكات والجوائز والأسفار التى تغدقها عليهم دول أخرى غير أوطانهم. إلا أنهم قد يكتبون أو يقولون كلاماً يستحق المناقشة، وأحياناً التقدير.

وهناك بطبيعة الحال من لايختار جمهوره المتلقى من هيئات السلطة، بل يعّول فقط على جماهير البسطاء من المتدينين لكى تحيل موقع النجم أو الزعيم الذى يسوقهم (ولا أقول يقودهم) بدغدغة عواطفهم، وإثارة حماسهم المشبوب.

فليس المهم إذن نوايا أولئك أو هؤلاء، أو ما حققوه من مكاسب، وهى كثيرة جداً، بل المهم هو «ماذا» يقولون، وليس «لماذا» يقولون. فالمهم هو النتائج التى تعود على الناس من مضمون الكلام. فالنية أو الغرض أو السيرة الشخصية يجب ألا تشغلنا ونحن بصدد الشأن العام، الذى هو الساحة أو الحلبة التى يعمل فيها المثقفون ويتنافسون. والتاريخ العام، كما نعلم، مفعم بمثل هذه الأمور، فربما استهدفت النية لدى البعض شيئاً، إلا أن الحدث يتخطى هذه النية إلى واقع موضوعى يتجاوز أصحاب النوايا، وقد يعارضه أو يصادقه.

كيف نجدد الخطاب الثقافى؟

ولنقف عند «تجديد الخطاب الثقافى» للتأمل والمناقشة، ماذا عسى أن يكون الخطاب الثقافى، وماذا نفهم من تجديده.

يلوح لى أن ما قصد بالخطاب الثقافى عنوان أو تسمية موجزة لما يشيع من سمات مشتركة، غالبة على مجمل خطابات المثقفين. ولا يعنى جملة الأنشطة الثقافية ومجالاتها. فالمقصود إذن هو المثقفون وليس الثقافة لأنها المجموع الكلى والرصيد الكامل لكل الصور المرهفة المنعكسة على المرايا المصقولة لكل وسائل التعبير والابداع، وهذا إذا اجتزأنا من دلالتها العامة ما يستوعب أنشطة وزارات التعليم والاعلام والثقافة. وبالتالى ننصرف عن دلالة الثقافة العامة التى تضم كل ما يفرق الفاعليات الإنسانية عن الطبيعة والحيوان. والمثقف ليس صفة تضاف إلى الفرد بقدر ماهو دور يقوم به. وهو دور لايتحدد إلا فى نطاق السياسة العامة للوطن من حيث اكتشافه للمشكلات الرئيسية لبلده، وتحديده لمعالمها وعناصرها، وأسلوب طرحها ووضعها، واقتراحاته بحلولها، وذلك بعيداً عما يخص مصلحته الذاتية أو المهنية ويقترن ذلك بنقده للأوضاع الراهنة، وتقديمه للبدائل عبر حوار مع غيره من المثقفين، ومع هيئات السلطة التى تقوم بتنفيذ برامج معينة.

فهذا هو دوره الذى يفقده إذا ما تحول، فى نظم تداول السلطة، إلى منفذ لبرامج السلطة الجديدة، لأنه حينئذ غير مطالب بالنقد والاقتراح كما كان مطلوباً منه عندما كان مثقفاً. ولكنه يحتفظ بدوره دوما إذا ما نأى عن تقلد المناصب التى تهيمن عليها السلطة فى أية مرحلة من



مراحل تداولها . ولا يعيبه قط أن يتولى منصبا، على شريطة أن يخرج مؤقتا من زمرة المثقفين إلى هيئة المتنفذين، ثم ما يلبث أن يخلى موقعه فيعود موفوراً إلى جماعة المثقفين.

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال يستنكر ما أقول: وهل يفقد المثقف ثقافته أو يخلعها عنه عندما يتبوأ منصباً؟ طبعا لن يفقد ذلك الشخص «صفته» كمستنير واسع الاطلاع، ولكنه يتخلى عن دوره كمثقف.

ولمزيد من الإيضاح يلزمنا أن نذكّر بأن مصطلح «المثقف» intellectual مستحدث لدينا وليس أصلاً في تاريخنا لأنه مرتبط بازدهار الرأسمالية في الغرب، وغلبة المشروعات الحرة، وانحسار وظائف الدولة الليبرالية التي أدت إلى تداول السلطة وتعددية الأحزاب وفاعلية السلطة التشريعية البرلمانية، وأهمية أصوات الناخبين الفعلية. وقد أدى ذلك إلى ظهور فئة المثقفين التي لا تكسب خبزها فقط من وظائف الدولة. وهؤلاء هم الذين يكشفون للناخب أوجه القصور في برامج السلطة القائمة، ويقدمون البدائل، وينيرون الطريق أمام المواطن ليحسن اختياره. فلهم دور مستقل معترف به. وهذا ليس موجوداً عندنا على نحو كامل أو فاعل، فمعظم المؤسسات التي تخرّج ذوي الثقافة والاستنارة تابعة للدولة، بل هي أيضاً جهة عملهم وكسب عيشهم.

كما أن ترجمة المصطلح الأجنبي اقترن في اللغة العربية بالثقافة وهو ما أفضى إلى ذلك الالتباس. بينما في اللغات الأخرى أوصاف كثيرة لمن هو مستنير أو متحضر، أو واسع الاطلاع، أو ذو ثقافة عميقة بخلاف ما يقصدونه «بالمثقف» كدور وليس صفة. ولا ريب أن المثقف كدور لابد أن يكون من بين أدواته الاطلاع الواسع العميق فهذا شرط ضروري، ولكنه ليس شرطاً كافياً لتسميته مثقفا بالمعنى المقصود في بلد المنشأ.

غير أن ذلك لايحول دون أن يمارس من نطلق عليهم المثقفين عندنا دور المثقف الحقيقي ولكن دون أن يكون دوره كاملا. وهو ما نتبين آثاره السيئة في كثير من الشئون . فالمثقف لدينا يحاول جاهداً، في كثير من الأحيان، أن يقوم بدوره، غير أن طبيعة السلطة هي التي تعوقه عن أداء دوره على نحو غير منقوص. ولا أدل على ذلك من أن الكثير من النواب المنتخبين موظفون يتبعون الوزراء الذين عليهم - نظرياً - مراقبتهم واستجوابهم! وكان دستور ٢٣ يفرض استقالتهم قبل ترشيح أنفسهم. كما نجد أن معظم الصحفيين والكتاب معينون من الحكومة. كما أن أساتذة الجامعات يمكن نقلهم إلى وظائف في المصالح الحكومية المختلفة عند هبوب أية بادرة من رياح معارضة.

نعود ثانية إلى خطاب المثقفين الذي أطلق عليه المؤتمر «الخطاب الثقافي» فنتساءل هل يمكن تجميع أو حشد المثقفين حول خطاب واحد؟

يفترض هذا المطلب، الذي لاشك في نبل مقصده، أن المثقفين فئة متجانسة من الموظفين أو التكنوقراط المهيئين للتوجيه إلى تنفيذ برنامج أو خطة بعينها. وكأن هنالك جهة ما ، هيئة ما، قوة ما سياسة ، ما .. إلخ تهيمن عليهم ويعترفون مقدماً بأنهم خاضعون لها ولتوجهاتها واستراتيجيتها. ولعل صياغة التوصيات الختامية للمؤتمر تشي بذلك حيث توجهت معظمها إلى السلطات صاحبة الحق في النقض أو الابرام.

وأغلب الظن أن هذا ينبيء بأننا قد درجنا وألفنا استخدام المصطلحات التي سكّت في بلد المنشأ بمدلولات مختلفة،

ليس بابتكار دلالات أو إضافات جديدة، بل باستخدام المصطلح الوافد بديلاً عن مدلول متهالك قديم لمصطلح تراثى آخر نشأ ونشط فى سياق تاريخى مغاير عما يجرى الآن من سياق جديد لم يعد يطيق الانغلاق على نفسه فى حدود مكانية معينة، بعد أن اجتاحت العالم كله متغيرات فاعلة متفاعلة بعضها مع البعض الآخر، ويستحيل الفرار منها والاعتصام بنجوة، أو فجوة، أو ربوة عالية.

نحن إذن فى حاجة إلى العودة إلى البديهيات المنهجية لنعيد الصياغة، ونتفق على الدلالة، ليس لأننا أقل ذكاء من الآخرين، بل لأننا نتعامل مع المفهومات والآراء والمصطلحات كما نتعامل مع واجهة لمحل سلع استهلاكية ننتقى منها ما نشاء لنصطنعه حسبما يلائمنا ونرتاح إليه، فلا يكلفنا تبعه أو عنتا.

فإذا كان وجود المثقف مشروطا بدوره فى مجتمع تعددى يسمح بتداول السلطة والتأثير فى المواطنين - الناخبين، أى يعمل فى سياق موات لحرية العمل الحزبى، إذا كان الأمر كذلك، فكيف نناقش خطابه بين مجموعة من الانتماءات إلى نظم لاتسمح بهذا السياق؟ وهل يمكن أن نخرج من المنافسة أو الحوار باتفاق على شىء مشترك يمكن عمله؟

فلكى نؤثر فى الواقع علينا أن نواجهه، ولا نتعامل مع واقع مستعار موهوم يجمع أجزاء متفرقة متباينة فى كتلة هلامية.

بعبارة صريحة، هل يجمع المتحدثين بالعربية سياق واحد، وواقع واحد ومشكلات واحدة؟ فى مكان ما بتهم المطالب بالأحزاب بالخيانة (من تحزب خان)، وفى أماكن أخرى تكتلات برلمانية لاتعترف بالأحزاب. وفى معظم المواقع لاتصرح بالأحزاب، ولا يسمح بتداول السلطة.

كيف نوحد الخطاب بين المثقفين، وكيف يتم تجديده ونحن نواجه مشكلات مختلفة أشد الاختلاف؟

ثمة تعبير شهير ابتذل من كثرة الاستعمال، وهو «الفرار إلى الأمام» يصدق، مع الأسف، تماماً علينا. فنحن نفر من مواجهة الواقع الذى ينتسب إلى كل بلد على حدة لكى نركض بعيداً فى أوهام الوحدة والتماثل. فنجعل من الهدف الذى نتمناه فى المستقبل البعيد شرط تحقيقه هو نفسه. وهذا هو ما يسمى بالدور المنطقى أو الدائرة الشريرة.

إذن علينا أن نبدأ بالواقع الراهن الذى نملكه ونسعى إلى أن نستطيل به، ونمتد بإمكانياته حتى تشتبك مع واقع الإخوة الآخرين، فربما صنعت عرى وثيقة تتطلب دعما وترسيخاً بفضل برامج المثقفين واقتراحاتهم، ومن قبل، انتقاداتهم.

الانتماء للوطن

لماذا نخجل من الاعتراف أو الحديث عن الوطن، لا أقصد ما يسمى بالوطن العربى فهذا هدف بعيد وليس واقعا نحياه بالفعل ويملك كل منا دوره فيه كمواطن كامل الأهلية.

إن الاعتراف بالانتماء للوطن يعصمنا من عمليات الإقصاء والاستبعاد، دينياً أو عرقياً. فالاكتفاء بالعربى يعنى إقصاء الكردى والتركمانى والنوبى والأمازيغى... الخ. ويستبعد الإسلامى أصحاب الديانات الأخرى من وطنهم ليصبحوا غرباء.

إن ما يطلبه المصرى من الاعتراف أو إعلان الانتماء لمصر وطنا هو عين ما يطلبه لغير المصرى بالانتماء لوطنه. لم يطالب المتحدثون بالألمانية فى ألمانيا والنمسا وسويسرا وشمال إيطاليا وشرق فرنسا بالوحدة الألمانية. ولم يطالب المتحدثون بالفرنسية فى فرنسا وبلچيكا



ولوكسمبورج وسويسرا بالوحدة الفرنسية، كما لم يطالب الماليزيون والإندونيسيون بالوحدة لاشتراكهم في لغة واحدة، كما لم يطالب سكان أمريكا اللاتينية بالوحدة الإسبانية، ولا المتحدثون بالتركية في آسيا الوسطى والصغرى بالانضمام إلى دولة واحدة... إلخ.

وربما يقال لنا تاريخ مشترك. والواقع أن هذا لم يحدث قط بل نشبت الحروب واستعر القتال وتوزع المتحدثون بالعربية بين الخلافات المتحاربة في زمن واحد: العباسية في بغداد، الأموية في الأندلس، الفاطمية في أفريقيا ومصر واليمن فضلاً عن الدويلات التي يستعصي على الحصر. ويكشف لنا التاريخ عن تعدد السلطات بين الخليج والمحيط. وإذا كان ثمة وحدة فهي وحدة الأسرة الحاكمة وآخرها بني عثمان، واستدرك، عفواً، ليست آخرها. ولقد سميت الأقاليم والبلدان باسم العائلة التي ملكت كل شيء، ولم يكن ثمة أوطان أو وطن واحد، بل أسرة حاكمة ورعايا. هذا هو التاريخ الفعلي. وعلينا أن نتذكره، كما ينبغي أن نعترف بأن لنا الآن أوطانا تجدر بالولاء لها وحل مشاكلها إن الوحدة المنشودة والمتاحة التي تزداد وثاقة وشمولا هي الثقافة المشتركة، وليس هناك ما يدعو إلى القلق بشأنها أو الخشية عليها.

وعلينا أن نؤكدها وننميها ولكن دون انفاق الجهد الضائع لإقامة وحدة سياسية.

والوطن، كما نعلم، مفهوم حديث، إلا إذا استثنينا مصر فهي أول دولة مركزية في التاريخ. وقد نشأ الوطن مع الرأسمالية التي كان من مصلحتها إقامة الدولة القومية المكتفية بذاتها، والمنافسة لغيرها.

والوطن ليس مجرد بقعة جغرافية، بل هو محل لإقامة المواطنين (وليس الرعايا) الذين يتمتعون بحق المشاركة الحرة في اتخاذ القرارات لحل المشكلات عبر الحوار والانتخابات.

أحلام اليقظة

لماذا لاتوضع أمام كل مشترك في المؤتمر لافتة تحدد وطنه الذي يقيم فيه، وتكتب جنسيته إذا كان طريداً من وطنه؟ فهنا يكون الحوار مثمراً وحقيقياً بدلاً من الضباب الكثيف الذي يغلف الحضور، ويوهم بالوحدة والتماثل. ويتوجب علينا أن نستبدل بأحلام اليقظة مناقشة البرامج الفعلية والإمكانات الحقيقية المتاحة لخروج كل وطن من أزمته الخاصة. ورغم أننا نتحدث كثيراً عن الخصوصية والهوية إلا أننا نذروها عمليا في الهواء الذي تخنقه الشبورة.

ولا يفوتني هنا أن أطمئن المثقف العربي الراهن على نجوميته واتساع جمهور معجبيه. فلن يخسر نجوميته التي يستثمرها على امتداد جماهير الأوطان العربية لأن قراء مجلداته، ومستمعي ندواته، ومشاهدي فضائياته سيظلون مفتونين بتنديده لكل السلطات العربية وأشعار هجائه للغرب والامبريالية والصليبية.. إلخ.

بيد أنه يحسن صنعاً إذا ما حاول أن يستكشف مشكلات وطنه الحقيقية، وقدم لها الحلول عوضاً عن الندب والشجب!

أما ما يشغلني حقاً ويثير حنقي فهو ما يطلق عليه «تجديد الخطاب الديني» ولنسأل بادئ ذي بدء هل هناك خطاب ديني للمثقف؟

إن خطاب المثقف هو البيان أو المانيفستو الذي ارتضاه لمساهمته في تسيير شئون الوطن بمنأى عن وضعه الشخصي كمهني أو صاحب مصلحة، أو سليل عرق معين، أو مؤمن بدين بعينه. أي فقط بوصفه مواطنا مهموماً بالشأن العام الذي يشارك فيه الجميع بحصص متساوية. فعندئذ تتعين محاور التصنيف بين المثقفين على أساس الموقف الخاص المختار من قضايا الوطن المشتركة بين



الجميع على قدم المساواة.

أما إذا أدرجنا ما يسمى بالخطاب الدينى فى معالجة الشأن العام، فقد فرضنا محور تصنيف مختلفا لا يصلح للتمييز بين المثقفين، وبهذا نكون قد فرقنا بين المواطنين بحسب حظوظهم من البعد أو القرب من نقطة بدء السباق بل الأخطر من هذا هو ما يؤدى إليه من حظر واستبعاد لبعض المواطنين وحرمانهم من حق المشاركة فى الحوار فيما يهمهم من شئون وطنهم الواحد الذى ينتمون إليه بنفس القدر من الامتيازات أو التبعات على السواء.

ولا يعنى هذا استبعاد الدين «ووضعه على الرف» كما يروق للبعض عندما يملأ فمه وتنتفخ أوداجه، بل يعنى أن يواصل الدين تأثيره وهيمنته على المؤمن إذا ما استفتاه دوما فى كل شئون حياته بوصفه فرداً يحاسبه الله تعالى فى اليوم الآخر، يثيبه أو يعاقبه، أو يغفر له. كما لا يعنى ذلك التقليل من شأن الدين بتحويله إلى نصوص تماثل فى مكانتها أية نصوص قانونية أو قواعد عملية نعلم جميعا كيف نشأت وتطورت وتبدلت دون وصاية خاصة أو حصانة.

وتسفر العبارة الاستنكارية «وضع الدين على الرف» عن تصور معيب للدين والإيمان لأن الدين فى نظر هؤلاء المستنكرين سيكف عن نفوذه لو لم تقم على إعماله وتنفيذه أجهزة سياسية ذات سلطة شاملة. فهذه نظرة إدارية غليظة تجعل من الدين لائحة بالأوامر والنواهى ينصاع لها المؤمن وغير المؤمن فى ظل نظم رقابية يخشى المواطن بطشها، وقد يلتمس القربى والجائزة من القائمين عليها لأنهم وحدهم المفوضون بإجراء الثواب والعقاب.

ويتحدث أصحابنا عن «المرجعية» التى الإيمان فى نظرهم. ولكن أليس هو الذى وقر فى القلب والضمير، ولا يمكن شق قلوب المواطنين وتفتيش ضمائرهم سياسيا للكشف عنه؟ ولا أحسب أن هناك وسيلة عملية أو دستورية لتطبيق ذلك الكشف عن «المرجعية»، وجعله شرطاً مسبقاً لازماً من شروط حق الانتخاب أو الترشيح، اللهم إلا إذا اعتمدنا التقارير والوشايات والبلاغات الوسيلة المثلى لإقصاء البعض أو حرمانهم من حقوقهم السياسية.

ولابد من الاعتراف بأن أصحاب هذا التوجه يلقون ترحيباً هائلاً ساحقاً من القاعدة العريضة من الجماهير. وربما كان ذلك المبرر لخشية بعض الأنظمة من الاحتكام إلى صناديق الاقتراع.

غير أن هذه الأنظمة نفسها هى التى ساهمت عمداً، أو غباءً فى تشكيل هذا الجيش الاحتياطى الذى ينتظر القادة «ذوى الأيدى المتوضأة» كما يصفون أنفسهم فى الدعاية الانتخابية. ساهمت فى تكاثرهم عندما حاصرت التعليم، والاعلام داخل دائرة التلقين والتبرير. وحظرت على المواطنين التدرب والمران على أساليب الحوار والمعارضة والمصارحة، فأصبحت الجماهير فريسة سهلة لغزو، أو حشو أدمغتهم التى سبق أن أفرغها التعليم والاعلام من كل قدرة على التصدى والمواجهة واستقلال الرأى.

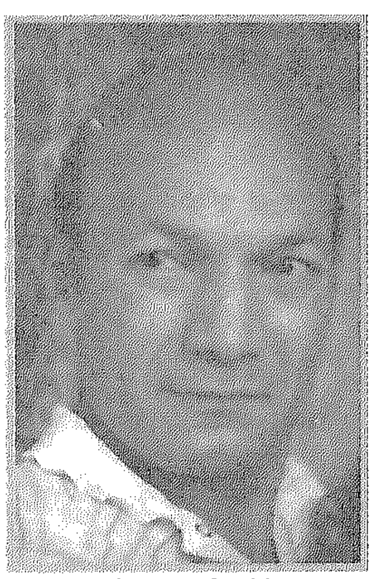
وتهب علينا الآن صيحات «تجديد الخطاب الدينى» التى أظن أنها لاتعنى فى نهاية الأمر سوى تطويع الدين لأهداف سابقة التجهيز.

إن الطريق الحقيقى يبدأ من الخروج من «نادى الخطاب الثقافى» ليمضى إلى ميدان الوطن. وهو طريق ذو اتجاهين؛ من الجماهير والمثقفين إلى السلطة، ومن السلطة إلى الجماهير حيث يلتقيان فيما اتفقا عليه معا من ثنايا الحوار، رغم تعدد الاجتهادات، فى خدمة وطن واحد مشترك، مفتوح على العروبة والإنسانية. ■





د. محمود حمدى زقزوق



عبد المعطى حجازى





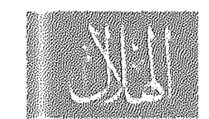
د. جابر عصفور

مؤتمر الثقافة العربية

هل هو مجرد إعلان نوايا أم بعث روح المقاومة؟؟

إعلان القاهرة الثقافى استعراض لمطالب قديمة تخلو من التجديد !!

أمانى عبد الحميد



لماذا كل هذا الضجيج والاعتراض والتشكيك، فقد خيم على المشهد الثقافى طوال الشهر الماضى حالات من القلق والتوتر. واعتصرته موجات من الاتهامات لم تترك رمزا من الرموز إلا وأصابته . ومن جديد تعالت أصوات - خفتت منذ فترة - تتوعد بالخطر والدمار وتتهم المعارضين لها بالارتداد والجنون . حتى بدت أجواء القاهرة في أعقاب ختام مؤتمر الثقافة العربية كئيبة وخانقة تغلفها غيوم التشاؤم والانكسار. ورغم نجاح المؤتمر فى بعث رسالة مقاومة تعيد للمثقف العربى دوره الذى طالما همشته الأنظمة العربية. وقدرته على أن يكون فاعلا فى مواجهة نكبات الواقع المرير. إلا أن المؤتمر وإعلانه ألقى حجرا ضخما فى المياه الراكدة ليصبح لها موج صاخب عات، أخرج مافى باطنها من أحقاد ومخاوف وأفكار مهلهلة قديمة.

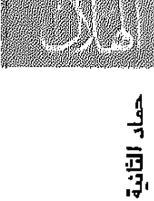
انفض مؤتمر الثقافة العربية الذى حمل عنوان « نحو خطاب ثقافى عربى جديد .. من تحديات الحاضر إلى آفاق المستقبل» بعد ثلاثة أيام بدأت فى الأول من يوليو الماضى جدلا واسعا بين أكثر من مئة باحث ومثقف مصرى وعربى من مختلف التيارات.

كان الهدف المطلوب من المؤتمر والمؤتمرين أن يحاولوا التوصل إلى صياغة مشروع ثقافى حضارى عربى مستقبلى. يمكن الأمة العربية من مواجهة التحديات التى تعتصرها فى ظل صدمة الاحتلال الأمريكى للعراق، وتدهور الأوضاع داخل الأراضى الفلسطينية المحتله . وانتهت فعاليات المؤتمر دون أن تنتهى ردود أفعاله. بل ظلت متواصلة مشتعلة لا تهدأ فأيام المؤتمر الثلاثة لم تكن تكفى لوضع آليات المشروع الثقافى ولا لصياغة خطاب ثقافى وآخر دينى جديدين. كما أن حرارة الجدال والمناقشات داخل قاعات المجلس الأعلى للثقافة دفعت كثيرا من المتشككين ومحبى الإثارة من الخارج إلى إيجاد الفرصة السانحة لاشعال الحرائق ونراشق الاتهامات القديمة بالخيانة والعمالة والكفر والجنون . والدخول فى دائرة مفرغة تبعدنا عن الهدف الأساسي الذى ينبغى لكل مثقف ومواطن عربى أن يسعى إليه .

• د. عصفور: المثقفون استغرقوا في نقد الذات وتناسوا استشراف المستقبل».

إعلان القاهرة

وقد أصدر المؤتمر بيانه الختامى الذى أسماه «إعلان القاهرة الثقافى » يحوى تسعة بنود بالغة الأهمية كخطوة أولى نحو مشروع ثقافى أكبر ولكن الأهم الوقوف عندها وعدم مواصلة المسيرة وبقائها حبرا على ورق . طالب الإعلان بضرورة المحافظة على وحدة الثقافة العربية، والاستقلال الوطنى والقومى لكل الأقطار العربية، والدفاع عن حق الشعب الفلسطينى وتحرير



أرضه المحتلة، وندد بالاحتلال الأمريكى العسكرى للعراق . تلك كانت أولى بنود الإعلان الثقافى، جاءت فى مستهله تأكيدا على أن المؤتمر عقد ليتحاور فيه المثقفون العرب حول كارثة الغزو الأمريكي للعراق ، وليواجهوا المخاطر والتحديات المترتبة على ذلك والتى تهدد الأمة العربية وتجعلها عرضة للهيمنة والسيطرة بجميع أشكالها السياسية والعسكرية والثقافية .

وطالب المشاركون فى المؤتمر الأنظمة العربية بمطالب صريحة بالغاء الأوضاع العرفية وحالة الطوارئ التى تحاصر الحريات العامة مثل حرية الرأى والفكر والمعتقد والابداع الأدبى والفنى، كذلك طالبوا بضرورة تحديث النظم السياسية بما يجعلها نظما دستورية تعطى الشعوب حق الرفض والقبول . كما طالبوا بتطوير التعليم العام والجامعى ومحو الأمية ، وخلق وعى قومى يحافظ على الوحدة الوطنية والقومية .

وتلك مطالب قديمة لكل مثقف ومفكر عربى يعيش داخل أمتنا ويلمس بسهولة ووضوح مدى التردى الذى وصلت إليه الأحوال داخل النظم التعليمية واستشراء التسطيح الثقافى وغياب الوعى والإدراك عند الكثيرين. كما أن المطالبة بإلغاء الأوضاع العرفية خطوة جادة يحلم بها مواطنو دول عربية عدة . هاجر كثير منها هربا من قيودها ولكنها أحلام أيضا قديمة تنتظر منذ فترة طويلة تحقيقها على أرض الواقع .

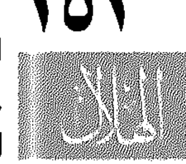
ثم جاءت باقى بنود الإعلان لتستكمل مطالب المثقفين العرب بضرورة تحسين الأوضاع الاجتماعية والثقافية التى من شأنها أن تنتج خطابا دينيا متطورا منفتحا على العصر . يتجاوز الخطاب الدينى المتزمت . وبضرورة التمسك بهوية الأمة العربية فى مقابل رفض دعوات الانعزال عن العالم أو مناصبته العداء. كما طالب السلطات بتأمين وصول الثقافة إلى المجتمع كله والارتقاء بالوعى الثقافى المجتمعى . ونادوا جميع المثقفين العرب بالخروج عن الصمت وتحدى القمع والتهميش . واختتم المثقفون مطالبهم بضرورة تشكيل لجنة لمتابعة نتائج الحوار وتوسيعه أملا فى تحقيقه وتطبيقه بشكل كلى أو نسبى .

وبعد استعراض بنود إعلان القاهرة الثقافى كيف يمكن لنا توصيفه . فهل هو مجرد إعلان نوايا كما يرى د . جابر عصفور أمين عام المجلس الأعلى للثقافة . هل هو بعث جديد لروح المقاومة لدى المثقفين العرب؟ أم أن الأمر انتهى بانتهاء أيام المؤتمر وعادت كل الأمور إلى ما كانت عليه من قبل. صامتة، عادية، تعانى من الاكتئاب وترزح تحت شعور بالهزيمة والصدمة .

يبدو أن ما أحدثه انعقاد المؤتر فى ظل الظروف القاسية التى تعيشها الأمة العربية من تأثير واسع وأعقبته ردود أفعال عنيفة سواء بالتأييد أو الرفض، يجعل أيامه لا تمر مرور الكرام .

أولا المؤتمر نجح فى مواجهة ما أسماه «د. عصفور» «بمثلث الرعب» أضلاعه تتمثل فى الرفض التام للهيمنة الأمريكية بجميع أشكالها .

ومواجهة فساد الأنظمة السياسية العربية وذلك عن طريق المطالبة الصريحة باطلاق الحريات العامة . كما خاض المؤتمر معركة حامية ضد «العناصر الثقافية الجامدة والخطاب الدينى



المتعصب والمتطرف» كما يرى «د . عصفور».

ولكن هل مواجهة «مثلث الرعب» تكفى لتشكيل خطاب ثقافى نهضوى جديد.. يؤكد د . عصفور أن إعلان القاهرة الثقافى مجرد «إعلان نوايا» فقط وأنه لبنة أولى فى سبيل طريق طويل ملئ بالعوائق والصعوبات . ويحتاج إلى عمل متواصل تقوم به أجيال متعاقبة . حتى نستطيع أن نشكل خطابا جديدا سواء أكان ثقافيا أم دينيا .

وبنظرة قريبة لفاعليات المؤتمر توقفنا عند محورين مهمين ثار حولهما الجدل والخلاف والاعتراضات .

نقد الخطاب الثقافى العربى

عندما نتحدث عن الخطاب الثقافى فعلينا أن نفكر فى نواقصه ونحلله ونقف عند تناقضاته . خاصة وأنه أصبح من الصعب تجاوزها وفك التعارض بينها .

وداخل قاعة «الآداب» دارت مناقشات المائدة المستديرة التى شارك فيها ما يقرب من ١٧ باحثا ومفكرا عربيا ومصريا . للوقوف على نواقص الخطاب الثقافى الراهن ومحاولة الوصول إلى خطاب جديد يفك جوانب التعارض القديمة . جاءت أغلب الأصوات الحاضرة معارضة فى الأساس لفكرة تشكيل خطاب جديد . حيث اتفق أغلب المشاركين أن بحث تلك الاشكالية ينطلب أكثر من مائدة مستدير داخل مؤتمر . وإن اتفقوا على ضرورة الخروج من دائرة ثقافة التعميم

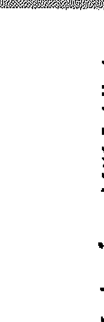
والمضى نحو التنوير والاستنارة. فنجد المفكر اللبنانى كريم مروّه يرى أن التحدث عن تجديد الخطاب الثقافى يدفعنا نحو كل ماهو شمولى وكلى وأحادى ويحدد أن ما نحتاجه هو القيام

• المؤتمر واجه الهيمنة الأمريكية ،وفساد الأنظمة العربية.

بثورة ثقافية تعيد صياغة المفاهيم وطرق تفكيرنا وحياتنا . كما نادى بعضهم بالاتجاه نحو الجماهير العادية ودراسة مرجعية الثقافة الشعبية، أيضا يرى الدكتور كلوفيس مقصود أن الجماهير الشعبية تمتلك الوعى أحيانا أكثر من النخبة المثقفة. واتفق الجميع على أن مفهوم «الجده» أو الخطاب الجديد يعنى الهدم والتخلص من القديم وهذا غير مطلوب. ويدافع هنا د. «جابر عصفور» عن الخطاب الجديد بقوله أنه لايعنى التخلص من كل ماهو قديم «فالجده لاتعنى الالغاء الكامل للقديم» إنما تعنى «البدء من عناصر موجبة تكون قوة دافعة للأمام حتى يتأسس بذلك سياق يتناسب مع الواقع المعقد الذى نعيشه» ورغم ذلك انتهى الوقت المخصص للمناقشات ولم تنته جملة الاعتراضات والتساؤلات حول ماهية هذا الخطاب وما حقيقة جدته وإلى من يتوجه؟ فهل هو خطاب للنخبة المثقفة؟ أم: إنه خطاب السلطة السياسية؟ أم خطاب جماهيرى مفتوح يلمسه رجل الشارع العادى؟

تجديد الخطاب الدينى

أشارت مناقشات المائدة المستديرة التى حملت عنوان «تجديد الخطاب الدينى» تحفظات واعتراض الكثيرين من ممثلى التيار الإسلامى خاصة الذين لم يحضروها، اتفق المشاركون فيها - والتى أدارها الدكتور محمود حمدى زقزوق وزير الأوقاف - على ضرورة تحديد المقصود بمصطلح تجديد الفكر



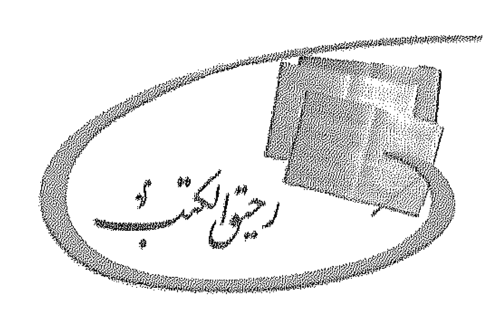
الديني أحد محاور المؤتمر. فالشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي يطالب بخطاب ديني جديد ينافس بديله الشائع والمشكك في كل ما تحقق خلال القرنين الماضيين من استقلال، ودولة وطنية، وعلم، ودستور، وأدب، وديمقراطية، وحرية.. ويعتقد جمال البنا أن التجديد وحده لايكفي بل التغيير مطلوب أيضا خاصة مع سيطرة الجذور التراثية الوثنية على نفوس وتفكير البشر. ويحمل العفيف الأخضر التعليم الديني والاعلام مسئولية تخويف وإرهاب الشعوب العربية تجاه الحداثة وقبول الأفكار الغربية. أما الدكتور حسن حنفي فشدد على ضرورة تجديد اللغة والبعد عن غلق الدين على ذاته بعيداً عن حياة الناس والمجتمع، وتحرير الفرد من الخوف وتوحيد الأمة. وإن أكد فيصل دراج أن الحديث عن الاصلاح الديني لا معنى له دون الإشارة إلى دور الاصلاح السياسي والثقافي.

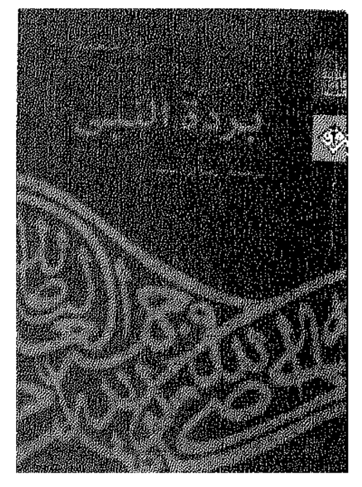
وعن ردود الأفعال العنيفة التي لاحقت مناقشات الندوة أوضح د.«عصفور» «أننا مجتمع فيه أناس عندما تقترب المناقشات من الدين يتهمون من قام بها بالكفر».

ويؤكد أن من يقود حملات التكفير والارتداد هم «سدنة التطرف والتعصب الديني في مصر». بل يرى أن ردود الأفعال السلبية والعنيفة ماهي إلا علامة مبشرة وصحيحة «لأنها تؤكد على نجاح المؤتمر في إحداث هزات قوية ضد جميع القوى المتخشبة». مدافعاً عن المؤتمر ويصفه بأنه أحدث أثرا قويا لم يحدثه مؤتمر ثقافي من قبل.. مشيرا إلى أن «إشعال شمعة أفضل من أن نلعن الظلام» ومؤكداً أن اجتماع المثقفين هو السبيل الوحيد «لخلق خرائط عقلية جديدة وقوة دافعة للتفكير الحر».

***

وانتهت أيام المؤتمر الثلاثة دون أن يتم تحديد كثير من نقاط الخلاف كما بدأت. أهمها عدم التحديد الدقيق للمحاور الرئيسية واستخدام مفردات وعبارات مطاطة لاتنم عن مفاهيم محددة تفتح المجال أمام التأويل، والتكهن بالمقصود بها. كما فشل المؤتمر في بحث آفاق المستقبل الذي عُقد من أجلها. وشهدت قاعاته مناقشات استغرق فيها المثقفون نقد الذات واسترجاع ويلات الماضي والحاضر متناسين أو غافلين عما يجب أن نستشرف به المستقبل كما يرى د.«عصفور». حتى أن الإعلان الختامي أيضا لم يقدم الجديد وواصل دعوات طالما طالب بها مثقفي الوطن العربي. رغم أنه أعلن بشجاعة عن تلك المطالب وهاجم المؤسسات التي لم تكن تُمس من قبل - المؤسسة الدينية العتيقة، والأنظمة السياسية غير الدستورية التي تعصف بالحريات بعضها جميعها. أي أن المؤتمر وإعلانه الختامي جاء بكل ما تردد وطالب به المثقفون طوال قرنين من الزمان منذ أيام جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وغيرهما من المفكرين والمجددين. ولم يضف شيئاً جديدا سوى اللقاء بين المثقفين العرب المتجدد دوماً وسط أجواء من الاكتئاب والكآبة الفكرية والنظرة التشاؤمية. لكن د. جابر عصفور يؤكد أن المؤتمر فتح بارقة الأمل وأشعل الرغبة في الواقع المرير. فلماذا كل هذه الضجة والاعتراض والتشكيك، والمؤتمر لم يخرج سوى بمجموعة من المطالب والمبادئ القديمة أملا في أن يأتي اليوم الذي يستطيع المثقفون العرب تكوين خطاب ثقافي جديد!! ■





بردة النبي .. الدين والسياسة في إيران

المؤلف: روس متحدة
المترجم: رضوان السيد
الناشر: المشروع القومي للترجمة .. المجلس الأعلى للثقافة

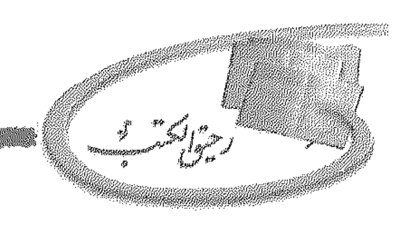
«على هاشمى» اسم غير حقيقى لشخص حقيقى .. هو أحد رجال الدين فى إيران عاش متأملا حياة الإيرانيين ووصفها بصدق. خلال محاورات قام بها الكاتب معه ومع غيره ممن درسوا نصوص الشيوخ والأئمة فى المدارس التقليدية سواء فى إيران أو العراق، ويقدم قراءة تفصيلية لتاريخ الثقافة الإيرانية من خلال نص سردى شيق، يحكى برؤية هادئة ليبرالية تبتعد فى كثير من المواقف عن الصورة النمطية لرجل دين من مدينة «قم» المقدسة حيث ينحدر ساداتها إلى صلب النبى «محمد» والتى تضم الحوزات العلمية التى تلقن العلم الشيعى التقليدى فيها.

يصفه الكاتب فى مقدمته بأنه استاذ فى جامعة طهران، انصرف عن صحبة الملالى وآيات الله بعد أن أمضى سنوات طويلة معهم ودراسة نصوصهم، مفضلا «تحصيل دراسة علمانية. رغم أنه طوال حياته فى «قمم» كان يلبس العمامة الخضراء التى تميزه بلونها بوصفه سيدا من آل البيت.

يسرد الكتاب حياة الطالب المبجل داخل فصول الدراسة وطلب العلم، ويناقش دور دروس الفسفة الإسلامية وفلاسفتها فى إثراء الفكر الشيعى الدينى، ويرصد تزايد اهتمامه بالتصوف منذ بلوغه السادسة عشرة من عمره، كوسيلة لفتح الطريق أمام معرفة أمور تبدل فى وجود المرء، ويكشف عن تجربته الدراسية فى مدينة «النجف» العراقية وهى القاعدة الوحيدة للتعليم الشيعى المنافسة لمدينة «قم» حيث التقى بآيات الله الخمينى، وأنه أكتشف فى خلال علاقته .. أن الملالى حصلوا أخيرا على قائد سياسى.

ويشرح الحياة بمختلف مظاهرها داخل إيران إبان حكم الشاه، ويكشف عن المشكلات والمظالم والاستغلال والفساد السياسى الذى رزحت تحت وطأته البلاد.

وإن كانت الخاتمة تكشف عن الصدمة التى أصابت الإيرانيين بمختلف اتجاهاتهم برغم مرور مايزيد عن ست سنوات على قيام الثورة الإسلامية فالصورة البطولية للمتحمس والمضحى اكتشفوا أنها كانت دورا ملعوبا أو مجرد وضع استعراضى لم يعد بمقدورهم الحفاظ عليه، فالواقع مالبث أن علمهم شيئا آخر، وينتقد مدينة «قم» التى بقيت الدراسة الشيعية داخلها دون تغيير برغم نمو عدد المقبلين عليها فى مقابل تناقص عدد الأكفاء والجادين. وفى النهاية يأمل «على هاشمى» أن يكون هو «المجدد» حتى يتحقق الحديث النبوى «إن صورة أبناء عائلتى كصورة سفينة نوح من يدخلها سينجو ومن يخاف دخولها



سيهلك ويغرق».

وإن كان أهم ما يكشفه الكتاب هى حقيقة المكانة التى يحتلها رجل الدين الإيرانى، ويوضح عن قرب تفاصيل حياته ونشأته والمناهج المتبعة لتنمية ثقافته وعلمه الدينى وسلطته (الملا والشيخ الشعبى والمرجع وآية الله) كل ذلك فى سياق اجتماعى وروحى سواء قبل الثورة الإيرانية أو بعدها، ليتبدى للقارىء من بعد قراءة الكتاب حقيقة السياق السياسى والدينى والثقافى الذى تعيش من خلاله إيران على مر العصور.



٥ ديسمبر ١٩٩٧



يوميات الكاريكاتير فى قضية فلسطين ١٩٩٧ - ٢٠٠٢

رسوم: أحمد طوغان

الناشر: المجلس الأعلى للثقافة

«رسوم ليست ضحكا فحسب، ولا هى من قبيل السخرة والهزء بالعدو، إنما هى عمل من أعمال المقاومة المجيدة. وليست مجرد ألبوم يضم صورا لذكرى أو للتاريخ إنما هى بذور لتخصيب روح المقاومة مجموعة بين دفتى كتاب ...» كلمات كتبها الروائى خيرى شلبى ليقدم بها رسوم أحد أهم رسامى الكاريكاتير فى مصر خلال القرن العشرين، أحمد طوغان فنان مرهف الحس بالنية الخفية للمجتمع وبملامح الشخصية الموغلة فى القدم، وعلى دراية كاملة بالمعترك السياسى ومتطلبات الوطن من حرية واستقلال وعزة هكذا كانت رسوماته تخرج على صفحات الصحف المصرية منذ الأربعينات لتعبر بقوة وتسرد تاريخ مصر المعاصر ومن خلال كتبه السابقة التى يصل عددها إلى عشرة مجلدات سنجد اهتمامه بقضايا التحرر الوطني وفضح الفساد السياسى والاجتماعى والقضايا القومية والوحدة العربية، والكتاب الحادى عشر الذى بين أيدينا يقدم مجموعة رسومات ترصد المقاومة الفلسطينية الباسلة، لكنه يقتطع شريحة زمنية تتعلق بالانتفاضة الحجرية بداية من عام ١٩٩٧ وحتى ٢٠٠٢. وسنرى أن جميع رسوماته ماهى إلا يوميات لتلك الانتفاضة المجيدة يتوحد معها الفنان ويواكبها

لتخرج رسوماته كالقنابل التى تنفذ إلى قلب العدو، ولم يكتف الكتاب بعرض يوميات الانتفاضة فقط، بل تعمق فى الأحوال المتردية للأمة العربية ككل بجرأة متناهية.

فتناول عددا من القضايا الشائكة مثل الأوضاع داخل العراق وعمليات التفتيش على أسلحة الدمار الشامل، واتفاقيات السلام والانتخابات الإسرائيلية، احتلال الجنوب اللبنانى، التطبيع العربى مع إسرائيل.



ثورة يوليو إيجابياتها وسلبياتها بعد نصف قرن

المؤلف: د.رؤوف عباس

الناشر: دار الهلال

مع استمرار وجود الاحتلال البريطانى وانتشار الفساد السياسى، ومع استمرار هيمنة الأجانب على الاقتصاد المصرى ماعرف بالامتيازات الأجنبية واحتكار كبار الملاك الزراعيين لباقى البنية الاقتصادية كان لابد من انبعاث تيارات سياسية جديدة يقودها شباب يقدمون النموذج الأمثل لتحرير مصر من قبضة الاحتلال والفساد والاستغلال.

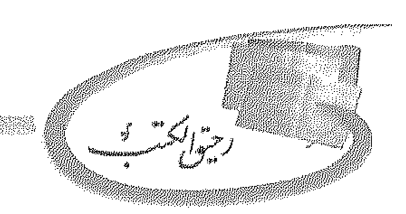
جاءت ثورة ٢٣ يوليو لتحقق المطالب الأساسية للحركة الوطنية المصرية فى مختلف أبعادها السياسية والاقتصادية.

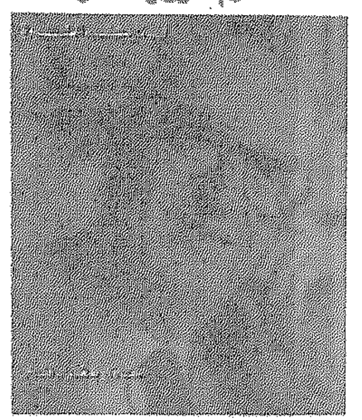
وفى الكتاب يقدم د.عباس خطابا جديدا للشباب يضم رؤية موضوعية عن أهم محطات مسيرة الثورة، ويطرح دراسة نقدية (مالها وما عليها) فيتناول المغزى من القيام بالثورة، والأوضاع التى قادت إلى قيامها. فيؤكد أنها جاءت فى نهاية طريق طويل من الكفاح والنضال، كما يلقى الضوء على حقيقة الضباط الأحرار وتنظيمهم من خلال دراسة أحوال الجيش المصرى أول الجيوش الحديثة التى تكونت فى المنطقة العربية والحروب التى خاضها مثل الحرب العالمية الثانية حتى ظهور تنظيم الضباط الأحرار كتنظيم عنقودى باغت النظام الملكى الحاكم بثورته فى ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢.

يستعرض الكتاب الوثائق البريطانية التى كانت تعكس حالة القلق من الأوضاع الداخلية فى مصر، وهى عبارة عن وثائق ومراسلات رسمية ترصد الواقع المصرى سياسيا واقتصاديا من خلال تقارير دورية ترتكز على حالة عدم الاستقرار التى سادت منذ إقالة حكومة الوفد عشية حريق القاهرة.

وتتوالى الأحداث.. خروج الملك، محاولات التخلص من الاحتلال البريطانى، العدوان الثلاثى، حركات التحرر والقومية العربية، تحرر أفريقيا.

ويختتم د.عباس كتابه بالحديث عن الثورة وآفاق المستقبل، ويحاول أن يجيب عن التساؤل الذى طرحه فى بداية الكتاب «ماتبقى من الثورة؟» فى ظل نظام عالمى جديد وهيمنة أمريكية قبيحة الوجه، ليؤكد أن التاريخ لايتكرر والماضى لايعود لكن الذى يبقى هو ذاكرة الأمة ومحصلة تجاربها لتستلهم منها الأجيال المتعاقبة بما يحدد خطاها على طريق المستقبل.





كريم مروة يتذكر.. في ما يشبه السيرة

حاوره صقر أبو فخر
إصدار: دار المدى طبعة ٢٠٠٢

«إنها تجربة مناضل عتيق .. شيوعي حتى النخاع. يسرد تفاصيلها حوار ليس بسيرة ذاتية .. وليس تأريخا للحقبة الماضية رغم أنه يحفل بالكثير من الأحداث وليس سجالا فكريا حول قضايا كانت ولاتزال موضع للجدل الدائم .. إنه كتاب من نوع خاص تمتزج فيه وتتداخل هذه الأمور كلها. وهو أقرب إلى القراءة النقدية لحقبة بكاملها هي حقبة نصف قرن في تاريخنا. «كلمات في كتاب لصقر أبوفخر حاور فيه كريم مروة المناضل والسياسي والمفكر اللبناني الكبير ليقدم للقارئ العربي خلاصة خمسين عاما.

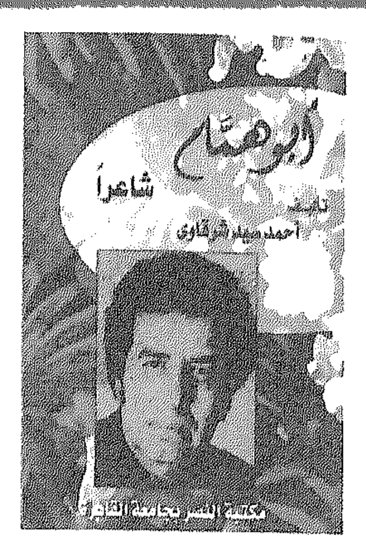
وعن رحلته الطويلة التي اجتازها في مسالك النضال السياسي والاجتماعي وفي حقول الثقافة والفكر، كان يحلم خلالها بالعدالة للجميع، وبالحرية للأفراد، وبالديمقراطية للمجتمعات وبالتحرر للأوطان كلها.

يبدأ الحوار من عالم الطفولة، قضاها في منزل والده الشيخ أحمد مروة أحد وجهاء الجنوب اللبناني، ويحكي عن المؤثرات التي أسهمت في تكوين وعيه السياسي والتحولات التي طرأت على شخصيته، وأصبح بعدها عضوا في الحزب الشيوعي حتي ترقى داخله يتولى منصب نائب الأمين العام إلى أن يعتزل العمل السياسي في عام ١٩٩٩، يسرد «مروة» عن تجاربه مع مجلس السلم العالمي. وعلاقاته بالنضال التحرري لشعوب العالم.. وعن الشيوعيين العرب وعلاقة ذلك بالوحدة بين مصر وسوريا وشخصية جمال عبدالناصر ويبحث في النسيج السياسي اللبناني وعلاقاته وتحالفاته ورجال الحكم والسلطة والزعامة مثل كمال جنبلاط، رشيد كرامي، ريمون راده.

يتنقل بين عدد من القضايا الشائكة مثل المقاومة الفلسطينية للاحتلال وبداياتها وتطورها وحتى الانتفاضة الفلسطينية.

ومثل الحرب الأهلية اللبنانية وشرارتها الأولى وخفاياها وشخوصها وحتى خفوتها بعد سنوات مريرة. ويكشف بعض أسرار وخفايا العمل السياسي داخل الحزب الشيوعي اللبناني مثل حقيقة دعاوى التجديد والتطوير وأوضاعه المالية. علاوة على استعراض وجهات نظره في قضايا العولمة، والإعلام خاصة الإعلام الحزبي، وعالم الثقافة والمثقفين وعالم الكتابة والقراءة والسفر.

وينهي كتابه بنقد للذات وللمواقف التي ينظر إليها بعد سنوات على إنها أخطاء فادحة، يتحمل مسئوليتها بشكل شخصي أو شارك في تحملها مع زملاء ورفاق الطريق الطويل.



أبو همام شاعرا

تأليف: أحمد سيد شرقاوي
مكتبة النصر بجامعة القاهرة

يصدر هذا الكتاب عن الجانب الشعرى عند د. عبداللطيف عبدالحليم «أبو همام» الذى تتعدد اهتماماته من بحث علمى ونقد أدبى وترجمة عن الأسبانية ولكن مؤلف الكتاب اختار أن يقصر بحثه على شعر أبى همام باعتباره أحد الأصوات المتميزة فى ساحة الشعر.

وفى المقدمة التى صدرت الكتاب للدكتور الطاهر أحمد مكى يرى إن أشعار أبى همام صدى لداخله فى مختلف أطواره بدءاً بديوانه الأول الخوف من المطر وانتهاء بآخرها زهرة النار ومرورا بدواوينه الأخرى «لزوميات» «ومقام المسرح وهدير الصمت» وأغانى العاشق الأندلسي ومن خلالها كلها تستطيع أن تؤرخ له روحا ووجدانا فأصدق الشعر ما جاء تأريخا لحياة صاحبه على حد تعبير د. مكى.

يقع الكتاب فى أربعة فصول بخلاف مقدمة د. مكى والسيرة الذاتية للشاعر والفصول هى:

الفصل الأول: الموضوعات الشعرية ويتناول فيها الباحث أغراض الشعر عند أبى همام وهى المرأة التأمل فى الحياة والناس الرثاء - الخواطر الذاتية الإخوانيات - الوطنية والقومية.

الفصل الثانى: عن الأسلوب واللغة وتناول فيها الباحث الوحدة الفنية والشعورية عند الشاعر ثم تحدث عن الظواهر التركيبية ثم القصة الشعرية فى شعر أبى همام وأخيرا المعجم الشعرى عنده.

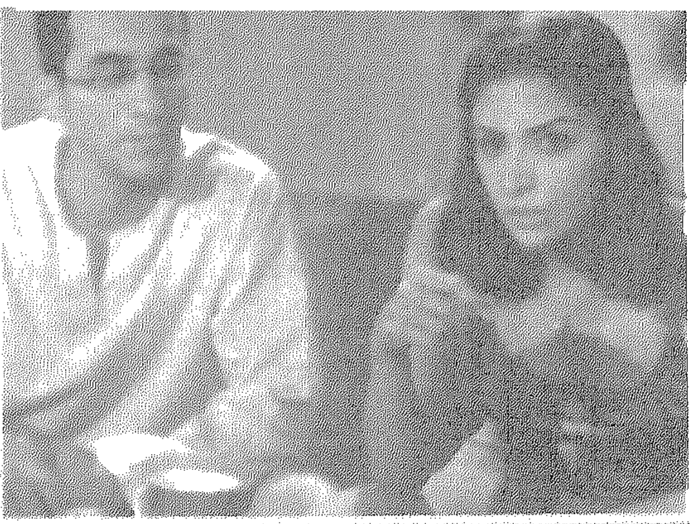
الفصل الثالث: الصور الشعرية عند أبى همام والتى تناول فيها الصور الشعرية عنده ثم وسائل تشكيل الصورة والرمز والتشخيص والتجسيد والتجربة وتراسل الحواس.

الفصل الرابع: الموسيقى الشعرية تناول الباحث فى هذا الفصل الوزن والقافية والإيقاع عند الشاعر.

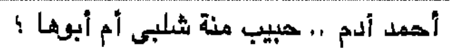
ثم الخاتمة التى يجمل فيها الباحث ما توصل إليه من نتائج ودلالات فى هذا المبحث الأدبى عن شعر أبى همام حيث يرى أن المرأة قد شغلت مساحات واسعة فى شعره وأن الشاعر قد مثل حياته خير تمثيل بالإضافة إلى أنه قد جمع فى شعره موضوعات شعرية غير متداولة كثيرا على ألسنة الشعراء إلى غير ذلك من الدلالات الفنية عند الشاعر.

ويجئ هذا الكتاب عن أبو همام شاعرا فى وقت كثرت فيه الكتب التى تروج لما يسمى بشعر الحداثة وقصيدة النثر وفى وقت كثر فيه هؤلاء الذين يحاولون تشويه صورة الشعر العربى الأصيل وأعلامه فى منظومة تشكل الشعر والقصة والأغنية واللوحة وكأن هناك مؤامرة غير مكتوبة للنيل من الأصالة خاصة من الشعر فن العربية الأول.









أحمد آدم .. حبيب منة شلبى أم أبوها !

سهر الليالى وفيلم هندى

إرهاصات نهضة

بقلم
مصطفى درويش

ما أن حل فصل الصيف بقيظه الشديد، حتى هرول أصحاب الأفلام المصرية، إلى طرح بعضها فى دور السينما، بطول وعرض البلاد .

وكان فرس الرهان بين ما طرحوه ، فيلم «كلم ماما» بطولة «عبلة كامل» ، «حسن حسنى» و«منة شلبى» تلك النجمة الصاعدة الواعدة، التى بدأت مشوارها مع الأطياف، فى «الساحر» فيلم «رضوان الكاشف» الأخير.

ومن عجب أن يكون فرس رهان، ومخرجه «أحمد عواض» صاحب واحد من أفشل أفلام موسم الصيف الماضى «كذلك فى الزمالك» ، أول فيلم روائى طويل يقوم بإخراجه، بعد تخرجه فى معهد السينما ، قبل اثنى عشر عاما وعلاوة على «كلم ماما» ، جرى طرح ثلاثة أفلام ، أحدها «قصاقيص العشاق» بطولة نبيلة عبيد «نجمة الجماهين» وإخراج سعيد مرزوق ، بقى حبيس ظلام العلب حوالى أربعة أعوام .

وآخر «سهر الليالى» ، ظل توزيعه متعثرا ، زهاء عام أو يزيد .

أما ثالث الأفلام المطروحة ، علاوة على «كلم ماما » ، وهو «فيلم هندى» ، فقد طال التردد فى انتاجه زمنا كاد يصل إلى ثمانية أعوام .

نهاية سينما عجوز

هذا، ولم يمض سوى أسبوع على عرض «قصاقيص العشاق»، إلا وكان قد سقط سقوطا مدويا ، ومنتزعا ، غير مأسوف عليه، من معظم دور السينما .

وباختفائه السريع ، رغم بطولة نجمة الجماهير ، تقلص المعروض من الأعمال السينمائية المصرية إلى ثلاثة أفلام .

وفى البداية كان «كلم ماما» ، فى المقدمة ، محققا أعلى الإيرادات غير أنه سرعان ما فقد المركز الأول لصالح «سهر الليالى» الذى ازداد الإقبال على مشاهدته ، خاصة من بنات حواء ، رغم تحذير رقابتنا الرشيدة للجمهور غير الواعى بخطورة ما ينطوى عليه الفيلم من مشاهد وألفاظ خادشة للحياء ، وذلك بجنوحها إلى قصر عرضه على الكبار .

ولأن «كلم ماما» لم أشاهده ، حتى كتابة هذه السطور ، فلن أتناول بالحديث سوى «سهر الليالى» و«فيلم هندى» ، وكما سبق القول، فالفيلم الأول قصرت رقابتنا عرضه على الكبار .

كبار أم صغار

وفيما يبدو، فالكبار فى مفهومها، وهى تقصر عرض سهر الليالى عليهم ، لازالوا صغارا .

والا فبماذا نفسر جنوحها إلى حذف مشهد مطارحة «خالد أبو النجا» غانية الاسكندرية الغرام، دون جدوى، رغم حظر مشاهدة الفيلم على الصغار .

الأكيد أن الحذف فى مثل هذه الحالة أمر غريب ومرير معا ، لأنه يعنى استمرار الوصاية على الراشدين، لا فرق بينهم وبين الصغار ، فيما يتصل بالرقابة، إلا فى أقل القليل والحق، أن سهر الليالى ، كما شاهدته ليس فيه ما يدعو إلى حرمان الصغار، حتى وهم فى صحبة أولياء الأمور ، فهو خال من أية شائبة تسئ من قريب أو بعيد لحسن الآداب ، وذلك لأنه من نوع الأفلام التى

يحلو لدعاة الفضيلة وحماتها أن يطلقوا عليها الأفلام النظيفة، تمييزا لها عن نوع آخر، قوامه إثارة، لا تقيم وزنا للتقاليد والعادات .

فثلاثة من أبطاله الأربعة رجال يعيشون حياة زوجية تبدو مستقرة، ولا أقول نموذجية .

والوحيد بينهم غير المتزوج «شريف منير» ينتهي به الأمر ، والفيلم يقترب من الختام السعيد، وقد تزوج هو الآخر بمن يحب «علا غانم» في فرح ولا كل الأفراح

والبطلات الثلاث المتزوجات متمسكات بأهداب الفضيلة، محصنات ضد نداء الجسد، وما يصحبه من اغراءات .

إحداهن «منى زكى» أم محجبة، حامل فى شهرها السابع من زوج زير نساء، يخونها عمال على بطال «فتحى عبدالوهاب» .

وأخرى «حنان ترك» وإن كانت متعالية. بعض الشئ على زوجها الذى ينتمى لبيئة واطية « أحمد حلمى» ، إلا أنها لا ترفض أن تهان كرامته بلسان أم متسلطة، سليطة اللسان «رجاء الجداوى

هزيمة الشيطان

أما الثالثة «جيهان فاضل» فتصون كرامتها، متغلبة على اغراء شيطان متمثلا فى فارس شاب ، جميل المحيا ، يطاردها بحرارته ليل نهار ، حتى كادت تنهار ، فى مشهد صحراوى من أروع مشاهد الفيلم ، يذكرنا «بدون جوان دى ماركو» الذى تقاسم بطولته «مارلون براندو» مع «جونى ديب» وأخرجه «جيريمى ليفين»، قبل ثمانية أعوام .

وهى تقاوم الإغراء ، وتتغلب عليه، رغم أن زوجها «خالد أبو النجا» لا يشبع رغبات جسدها المكبوتة ، لسبب لم يفصح عنه صراحة سيناريو «تامر حبيب » ، ربما ، رعبا من مقص رقيب ، لا يعيش عصرنا .

وهنا ، لا يفوتنى أن أذكر أن سيناريو «حبيب» رغم النهاية السعيدة ، المفتعلة ، وغير المقنعة إلى حد كبير ، من ذلك النوع المتماسك، المحكم البناء، على نحو ذكرنى بسيناريوهات الأفلام الإنجليزية الأمريكية الجادة، متعددة الشخصيات ومن بينها أذكر على سبيل المثال «أصدقاء بيتر» لصاحبه المخرج والممثل الانجليزى «كينيث براناج» (١٩٩٢) و«البرود الكبير» (١٩٨٣) و«جراند كانيون» (١٩٩١)، وكلاهما للمخرج الأمريكى، ذى البصمة المتميزة «لورانس كازوان» .

مولد مخرج

هذا ، ومن حسن حظ «حبيب » أن تقع مهمة ترجمة السيناريو على كاهل «هانى خليفة» ، وهو مخرج لم يسبق له، قبل «سهر الليالى» إخراج أى فيلم



روائى طويل ، رغم تخرجه فى معهد السينما ، قبل عشرة أعوام .

فالظاهر من فيلمه الأول أنه على دراية، واسعة بلغة السينما، وكيف تكون المخاطبة بها ، بحيث بدا لى وكأنه مخرج مخضرم ، صاحب رصيد ، لا بأس به ، من الأفلام .

فإيقاع سهر الليالى المنضبط أشد انضباط ، وتحريك الممثلين والممثلات ، وهم عكس المألوف كثير، واختيار الأماكن فى القاهرة والأسكندرية ، وتكوين اللقطات ، بحس تشكيلى رفيع المستوى ، كل ذلك ينبئ بميلاد مخرج يرجى منه الكثير .

يبقى لى أن أقول أن «هانى» كان موفقا غاية التوفيق فى اختيار كل من «هشام نزيه» ، و «أحمد عبدالعزيز» و«عماد الحضرى» و«خالد مرعى» ، الأول للموسيقى التصويرية والثانى للتصوير والثالث للديكور والرابع للتوليف (المونتاج) .

فالأربعة ، والحق يقال ، أصحاب مواهب واعدة ستنهل منها السينما المصرية بمقدار ما تستطيع أن تنهل ، فيما لو صح مسارها فى مستقبل قريب

علامة مميزة

وإذا كان «سهر الليالى» أول عمل سينمائى روائى طويل لمخرجه «هانى» «ففيلم هندى» ثالث عمل سينمائى روائى طويل لمخرجه «منير راضى» .

ورغم غرابة اسمه ، فكل ما فيه مصرى ، باستثناء أن بطلته «منة شلبى» مولعة أشد الولع بمشاهدة الأفلام الهندية ، مع حبيب قلبها «أحمد آدم» ، والبكاء على بطل أو بطلة الفيلم لما آل إليه مصيره أو مصيرها ، وهو غالبا مأساوى، تدمى له القلوب .

كما أنه بأحداثه ، وأسلوب تناولها ، لا ينتمى إلى الميلودراما الهندية ، بأية حال من الأحوال .

إنه فى حقيقة الأمر ، من ذلك النوع من أفلام الملهاة، ذات الطابع الاجتماعى ، التى تدغدغ حواسنا، بالإضحاك، بغير ابتذال .

الوحدة الوطنية

فبطلاه اللذان تدور حولهما الأحداث



، يؤدى دورهما «أحمد آدم»، و«صلاح عبدالله» الفائز بجائزة المهرجان القومى للسينما المصرية المخصصة لأفضل ممثل رئيسى (٢٠٠٢)، وذلك عن أدائه لدور مخبر فى فيلم داوود عبدالسيد «مواطن ومخبر وحرامى» (٢٠٠١) .

وكلاهما نجم كوميدى ، لامع، مشهود له بالقدرة على الاضحاك ، دون إسراف فى الإسفاف .

والإثنان حسب رسم سيناريو المؤلف السينمائى الموهوب «هانى فوزى» لشخصيتهما ، تجمعهما منذ الصغر صداقة استقرت فى قلب كليهما ، حتى استأثرت به ، وملكت عليه كل شئ، وذلك رغم اختلاف الدين .

فآدم (الشاب سيد) مسلم ، يمتهن الحلاقة، ومعها يهوى الطرب بأسلوب مغنى الراى الجزائرى (الشاب خالد) .

ومن حين لآخر ، يشارك فى الأفراح والليالى الملاح بحى شبرا ، حيث يعمل ويقيم .

وصلاح عبدالله (عاطف) ، هو الآخر من سكان هذا الحى، قبطى مهنته تركيب الأطباق الهوائية .

وعكس صديق عمره (الشاب سيد) شديد الحياء، والخوف من السقوط فى هاوية الخطيئة مع الجنس اللطيف .

مهرولا دائما إلى الكنيسة ، حيث يعترف بأية نزوة مع فتاة ، ملتمسا ، وهو يكاد يبكى ، الغفران.

وكلاهما ، خلافا لسيناريو «هانى فوزى» الذى جرى تشويهه بالحذف تارة ، وبالاضافة تارة أخرى ، قد جاوز سن الشباب من زمان .

ومن هنا ، فارق السن الكبير بين «منة» حبيبة «آدم» و«رشا مهدى» خطيبة «صلاح» ، وهو فارق نال ، لا ريب ، من مصداقية العلاقة الغرامية بين فتاتين فى عمر الزهور، وبطلين فى عمر الآباء، وربما الأجداد .



فشل كلم ماما !!

الله محبة

ومع ذلك ، «ففيلم هندى» علامة مميزة فى تاريخ السينما المصرية .

فرغم طابعه الهزلى، يعتبر عملا سينمائيا جادا ، أراد به كاتب السيناريو أن يقول أشياء كثيرة ، ربما أهمها أن الله محبة ، وأن الصداقة خير وأبقى من علاقات عابرة ، قوامها مصالح ، عادة ليس لها دوام «فسيد» و«عاطف» كلاهما يضحى من أجل الآخر .

الأول بالتنازل لصديقه عن شراء الشقة اللقطة، محل النزاع بين الحبيبة والخطيبة .

والثانى بالامتناع عن توقيع عقد شراء الشقة ، الأمر الذى انتهى به فاقدا الشقة والخطيبة معا ، وذلك بمجرد الوصول إلى علمه أن صديقه ، بتنازله عن الشقة ، فقد حبيبته التى آثرت الزواج من سواق «ميكروباس» .

الاسم لماذا؟

ومن الأكيد أن هذه التضحية المزدوجة من قبل الصديقين، هى الدافع الأول والأخير إلى إطلاق اسم «فيلم هندى» على العمل السينمائى الأخير لكل من «هانى فوزى» و«منير راضى» .

فعادة مثل هذا النوع من التضحية لا يحدث إلا فى الأفلام الهندية .

وقد يكون من المناسب هنا أن أذكر أن كليهما كاتب السيناريو ، والمخرج مقل فى إبداعه ، فالأول رصيده من الأفلام المأخوذة عن سيناريوهات من تأليفه ثلاثة فقط ، وذلك على امتداد عشرة أعوام .

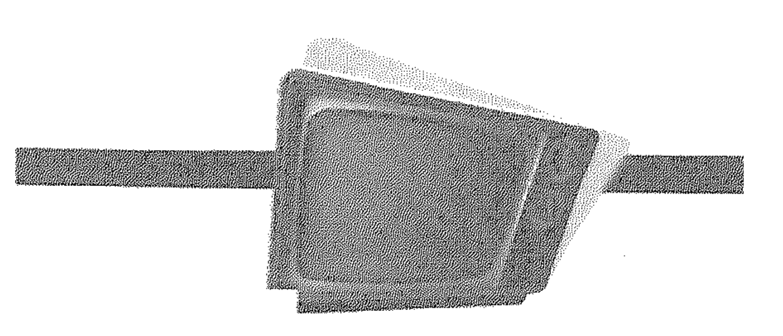
والثانى لم يخرج سوى ثلاثة أفلام على امتداد أربعة عشر عاما .

تعملق الأقزام

ولعلى لست بعيدا عن الصواب ، إذا ما جنحت إلى القول بأن فقر السينما عندنا ، هذه الأيام ، إنما يرجع أساسا إلى أن كاتبى السيناريو والمخرجين الجادين ، منصرفون عن الابداع .

وأغلب الظن ، أن ما دفعهم إلى ذلك ، إن هو إلا لون من ألوان اليأس ، وليد أكثر من إحباط ، وأكثر من ضرر ، أدى فى مجال الفن السابع إلى تعملق الأقزام !! ■



بقلم : مرفت رجب

العري

ظهرت الصورة في النصف الثاني من الدقيقة الأولي في النشرة الرئيسية لأخبار التليفزيون السويسري، ولأن الدقيقة الأولي مخصصة لموجز أهم ما تحمله النشرة من أخبار مصورة، فقد كان ظهور الصورة خاطفا لم يتجاوز ثوان، لكنها كانت كافية لإحداث الصدمة اللازمة لحشد كل أجهزة الترقب، لعلي أتأكد من صدق ما رأيت ولعلي أفهم السر وراء لوحه الإعلانات التي ظهرت تحمل صورة لخسمة من النساء العاريات تماما..



لم تكن مشاهدتى لتلك النشرة مجرد مصادفة، فقد سعيت إليها وانتظرتها فى موعدها اليومى متوقعة آن جد فيها متابعة لخبر الحادث المأساوى الذى وقع فى اليوم السابق، حين سقطت سيارة من فوق معبر بأحد شوارع لوزان، وتحير الناس فى سبب سقوطها الذى أودى بحياة ركابها وترك سائقها حيا.. وجاءتنى النشرة ببعض ما انتظرت ، فقد أفادت بأن حالة السائق لم تسمح بأى تحقيق معه، لكنها قدمت ما توصل إليه المحققون من معلومات حول السائق بما يفيد أنه كان بطلا رياضيا.. ولكنه نعرض على مدى

العامين الماضيين لحالات متكررة من الإخفاق.. وإن ظهر جبران له على الشاشة يؤكدون انه إنسان ودبع لطيف المعشر إلا أن المرجح لدى المحققين السويسريين انه قفز بالسيارة من على المعبر عمدا، فى محاولة انتحار يحتاج فك لغزها إلى تحسن حالة السائق بما يسمح باستكمال التحقيق !!

وتوالت أخبار النشرة السويسرية إلى أن وصلت إلى موضوع لوحة الإعلانات .. قالت المذيعة إن جماعة ناشطة فكرت في هذه الصيغة لتكون وسيلتها للاعلان عن الاحتجاج على التنميط.. وفى حوارات قصيرة سريعة أجريت مع المارة فى الشارع السويسرى المرفوع على أحد جانبيه الإعلان. نتعرف على رأى أكثر من رجل ومنها نفرا معهم محتوى تلك الصورة الفوتوغرافية التى تعمد ملتقطها أن يجعل خمسة من النساء يقفن متجاورات بحيث تكون ظهورهن العارية تماما موضحة لتباين الأحجام والاوزان، وإن خلت لوحة الإعلان من أى تعليق.. فمن أول نظرة إلى الصورة تستطيع أن تتكهن أن الأصغر حجما لاتزيد وزنها على الستين كيلو جراما وأضخمهن لا تزيد على المائة كيلو وإن بدت الأجسام مفرودة ممشوقه على تباين طول وعرض ودرجة استداره كل واحدة عن الأخرى.

وملخص ما ورد فى تعليق الرجال الذين ظهروا فى تقرير النشرة، انه «فعلا.. معهن حق.. ليس شرطا أن تكون المرأة نحيفة حتى تكون جميلة أو فاتنة».. أما صاحبات الفكرة، فقد ظهرت عنهن فى النشرة واحدة لتؤكد أن الأمور وصلت إلى حد لا يمكن احتماله.. فكل الصور والأفلام وعروض الأزياء ومحلات بيع الملابس تفرض شكلا وحجما يحصر المتاح والمقبول فى حدود مقاسات وأوزان ضئيلة ، تستبعد الغالبية من النساء فى سويسرا، ولما بلغ بهن الضيق والضجر مداه. قررن الاحتجاج من خلال الإعلان الرافع لصورة «المدورات» العاريات.

وحكايه النحافة إلى حد الجفاف والضآلة ، فى مقابل تفاوت الامتلاء والاستدارة ليست غريبة على بلادنا.. فبالرغم من اختلاف الاصول والجذور عندنا سواء منها العرقى أو الثقافى عما عندهم أننا من الغرب موجة الإفراط فى النحافة، ومعها موجة اللصاق ما يلبس بجلد اللابس لتفرض نفسها فتكاد تشمل عموم شبابنا على اختلاف الطبقات والمشارب. وبإمعان البحث والتقصى، تبينت أن البنات والشابات معذورات الى حد ما ، فتلك هى المقاسات المتاحة فى محلات بيع الملابس، تلك التى فرضت، وبكل قسوة، أشكالا ومقاسات لا تمت بصلة للمواصفات الجينية عندنا. مع استبعاد اعتبارات الجمال والاناقة، وهى التى يمكن توفيرها فى حدود أى مقاس وأى جنس وأى لون .. المهم أن قسوة إحكام مواصفات المعروض فى السوق تسفر دائما عن زيادة الضغوط النفسية والعصبية على الشباب، وقد أصبح مشغولا بفرض مزيد من القيود على نفسه، سعيا وراء محاولة مطابقة شكله



وحجمه ووزنه لمواصفات المعروض فى السوق.

ولقد ظللت أتابع الشاشات العربية، بحثا عن برنامج يهتم بمثل هذه الظواهر ، ويناقشها ، وظل بحثى بغير جدوى إلى أن وجدت ضالتى فى سهرة تليفزيونية عرضتها القناة الخامسة الفرنسية فى إطار واحد من أشهر وأمتع برامجها هو برامج Vie Privee Vie Pub- lique وهو البرنامج الذى يدور جوهره حول المقابلة بين الحياة الشخصية والحياة العامة ، حيث تتغير الموضوعات المطروحة فى هذا الإطار من حلقة لأخرى.. فكيف إذن وجدت فى تلك السهرة ضالتى.

الصلح .. أو المصالحة

كان السؤال الذى تطرحه الحلقة موجها لكل المشاركين.. هل عندك مشكلة مع شكلك؟!!

وأما المشاركون فهم من عموم الفرنسيين. باستثناء اثنين من الفنانين، وأما بقية المشاركين ، فهم سائق ، يعانى من قصر القامة، وامرأة فى الخمسينات من عمرها ترتدى قبعة حمراء، من ثلاثة أدوار، وفتاتان، واحدة فى العشرين، والثانية فى الثلاثينات. وامرأة أخرى تجاوزت الخمسين . وأما عن المذيعة مقدمة البرنامج فهى مثال للأناقة والبساطة والبشر والتلقائية، فهى دائما تطرح الأسئلة بشكل يبدو عفويا، ولكن كل كلمة وكل حرف له معنى يناسب موضعه، وهى أبدا لا تسبب أى قلق أو إزعاج أو إحراج لمن تحاور ، إنما هى دائما تعرف كيف تعينه على الإفصاح المثرى للحوار. ومع أن معها سبعة ضيوف.. إلا أنها تنجح فى تحقيق التوازن فى توزيع وقت البرنامج واهتمامه بكل منهم، كما تعرف متى تنقل كرة الكلام ليتلقفها أكثر من مشارك بحيث يكون الحوار هنا بين المشاركين وبعضهم، حين تقررirelle M Damas أن تحتفظ لنفسها بدور قائد الاوركسترا.. ويزيد من ثراء البرنامج أنه يعرض تقريرا تسجيليا عن حياة كل منهم - فيما له صلة بموضوع الحلقة - تعرف المذيعة، أين ومتى أثناء الحوار، تدعونا لمتابعة مثل هذا التقرير التسجيلى، الذى يفتح آفاقا أغنى للكلام.. وفى براعة العارف بالمفاتيح، بدأت المذيعة كلامها مع الممثلين، وكأنما باعترافاتهما، تفك قيود الحرج، فيفصح كل من الحاضرين عن مكامن نفسه.

تحدث الممثل الأول عن زملائه فى المدرسة الذين كانوا يسخرون من حال أمه التى كانت تحضره إلى المدرسة كل صباح، وسخرية الشياطين الصغار تتركز على العكازين، تتوكأ عليهما الأم، وبطء الحركة والميل إلى كل جنب يتحرك إليه العكاز، يضاعف الغمز الصاخب من الأقران. وكان الألم الذى اعتصر قلب الصغير، هو المحرك لمكامن الكوميديا التى مكنته من تحويل سخرية أقرانه، حين عرف كيف يجعلهم يضحكون من

أنفسهم، بدلا من توجيه الضحك الساخر إلى أمه.

وأما الممثل الآخر.. فقد اعترف أن أنفه المفرط فى الطول كانت وراء اتجاهه إلى التمثيل الساخر، وله من المشاهد المسرحية ما أتاح للبرنامج أن يطلعنا على قدرات هذا الممثل على تفجير الضحك الصاخب بين صفوف المشاهدين.. ولقد أضاف إلى الكوميديا علاجا اخر.. فقد اعترف بأنه كان يحرص دائما على مصاحبة الجميلات، بحيث تتوجه الى صاحبته نظرات الناس، بدلا من أن تركز عليه، واستمر فى ذلك الى أن تزوج من واحدة من أجمل الجميلات.

وجاء دور صاحبة القبعة الحمراء لتقول لنا إنها كانت تدرك أن عدم الرضا عن الشكل أمر يحدث لمعظم الناس.. ولكنها قررت منذ فترة ان تريح نفسها تماما من هذا القلق، ذلك حين قررت هى الأخرى ان تصرف نظرات الناس الى ما تلبسه ، وليس إليها .. وبالتحديد تركز حرصها على ارتداء القبعات الغريبة، تلك التى من فرط غرابتها، لابد أن تتعلق بها الأنظار بحيث يصعب أن تتذكر شيئا سوى القبعة، وكان التقرير المصاحب للحوار معها، فيه متابعة لها فى أماكن ومواقف مختلفة، وفى كل لقطة نجدها تظهر بقبعة أكثر غرابة ولفتا للانتباه.. وهى الآن مرتاحة تماما لأن أحدا لا يلتفت لا إلى وجهها، ولا إلى شكل جسمها.

وأما عن ضيف البرنامج الشاكى من القصر، فهو الآخر لم يترك لمعاناته العنان لتهزمه وإنما انتصر عليها هو الآخر بطريقته . فبينما عرض لنا التقرير التسجيلى عن حياته مشاهد له تستعرض ما يلاقيه من صعوبات فى اختيار ملابسه، حيث لا يجد ما يناسبه فى أقسام الرجال.. فهناك يحتاج الأمر إلى الاستغناء عن ثلث طول أى شىء يقع عليه اختياره، وتلاحقه الصفة، «لأنك صغير» لكننا نراه فى مشاهد أخرى مع صاحبته بادية الطول ، وهو يتركها تسير تحت الرصيف، بينما هو يلتزم بمعانقتها وهو فوق الرصيف وحين ينتهى التقرير التسجيلى ، وكل ضيوف البرنامج غارقين فى الضحك، نجده معهم يضحك ويؤكد أنه كان حريصا أن يتزوج ممن هى أطول منه بكثير، تأمينا لمستقبل الأبناء.. كانت الشابة الأصغر سنا فى مجموعة الضيوف صاحبة مشكلة كبيرة فى نظرها، ذلك أنها كانت تشعر انها ليست ككل الفتيات، فصدرها لا يكاد يظهر.. وتحدثت هى الأخرى عن اهتمامها بصحتها العامة ، والاجتهاد فى الدراسة والعمل ، صرفا للانتباه، انتباهها هى، لهذا الأمر الذى قررت ونجحت فى أن تتجاهله بأن تركز على مصادر رضى أخرى فى شكلها ، وفى حياتها بوجه عام.

وأما المرأة صاحبة الوجه المشدود فقد بين لنا التقرير التسجيلى المصاحب للحوار معها أنها تعمل فى مركز تجميل ، لكنها لم تكتف بالعمل وإنما ذاقت من الاناء مغرفة.. فقد عرضت وجهها لكل عمليات الشد والنفخ المستحدثة.. والنتيجة جاءت على لسانها هى . حين صرحت

بأنها الآن أقل رضى عما كانت حين اتخذت قرارها بإجراء تلك التغييرات في محاولة لإزالة أثر الزمن من ملامحها.. فهي الآن لا تشعر بالتواؤم مع هذا الوجه خاصة وهي في صحبة احفادها.. وتعترف بأنها تشعر الآن أنها ضحية ما فعلت!

وجاء الحوار مع الشابة الممتلئة التي تشع النضارة والمرح من وجنتيها.. هي في أواخر الثلاثينات من العمر.. تقول لنا إنها قبل عدة سنوات نبينت أنه من المستحيل أن يتحول جسمها إلى النحافة التي تنتشر بين قريناتها من بنات جنسها.. وقررت أن تقبل نفسها على حالها.. ليس فقط أن ترضى بأنها هكذا تنتمي إلى الممتلئات «المدورات» وإنما أن تتوجه بكل اهتمامها لمساعدة كل المدورات على تحقيق الرضى اللازم لحياة نفسية متوازنة.. عملت في تصميم الملابس الملائمة للمدورات، وأنشأت موقعا على الإنترنت اذا فتحته اى «مدورة» وجدت فيه كل ما تبحث عنه من عناصر الملبس والمأكل والتريض الملائمة.. والمذيعة الذكية الباسمة دوما، كعادتها، لا تفوت فرصة.. فتتيح لكل من الحاضرين مساحة للتعليق. لينتهي البرنامج ونحن معهم مقتنعون بأنه «طبعا.. ولم لا.. النحافة ليست شرطا للجمال أو الملاحة أو الصحة أو الأنوثة. المهم أن يتوافق الإنسان مع شكله فيكون نفسا راضية، أقوى على التكيف ومواصلة كفاح الحياة.. والمهم أيضا أن البرنامج لا يعطيك رأيا قاطعا في أي شيء.. فقد تكون كل الآراء فيه خلافية، لكن بطرحها وتحاورها، تتركك كمشاهد وانت اكثر قدرة على ترتيب افكارك.

التنميط

والرأى عندى أن مثل هذا البرنامج يعتبر نموذجا للبرامج الثقافية.. فالشأن الثقافي لا يقتصر على ما ينتجه الأدباء من مقالات وبحوث وكتب، أو ما يبدعه الفنانون من لوحات وتماثيل، وألحان، وإنما هو يشمل طرائق تفكير الناس وإبداعاتهم كذلك فيما يأكلون أو يلبسون، أو في إطاره يختارون أشكال بيوتهم ومحتوياتها. وفي كل أمور الحياة كيف يتعاملون، وفي كل ذلك تتضح قيمة التعرف على الموروث وقيمة الاحتفاظ أو الالتزام بنواميسه أو اختيار تعديلها على النحو الذي يجعل الأفراد أكثر قدرة على التصالح مع الذات واستكشاف مواضع القوة فيها والبناء عليها. أما الاستسلام الكامل لكل ماهو مستورد، مفروض علينا بدافع الرغبة في مضاعفة وتضخيم الأرباح التجارية، فلا يؤدى إلا إلى تعرية النفس من كل مقومات مناعتها وقدرتها على تكوين عوامل الرضى، ومنه الاعتزاز بما لدى كل منا كأفراد وبما في أوطاننا من كنوز.

كما أن الرأى عندى أن موجة النحافة بدأت أوائل التسعينات مع نهوض



اقتصاديات النمور الآسيوية.. وتواتر الأخبار المصورة عن نجاحات الآسيويين، ومنها التقط مصمموا الأزياء فى الغرب فكرة تصغير حجم الملابس، اعجابا بنموذج المرأة الآسيوية دقيقة الحجم، وفى تدرج متسارع زحفت الموجة الجديدة معها زحف الى بلادنا نظام الفرانشيز Franchise كما رحف الي كل بلدان العالم الآخذة بانظمة اقتصادات السوق.. ولأن نظام الفرانشيز يفرض علي الممنوح له ان يلتزم بشروط المانح التى تنص على أن يكون شكل المحل التجارى ومحتوياته وطريقة العرض فيه مطابقة، أى صورة طبق الأصل، مما تجده عند المحل التجارى صاحب الاسم الاصلى.. وجدنا الأذواق الوطنية من حيث اختيار الألوان او الاحجام - تختفى، ليحل محلها النمط المفروض من الشركة المانحة.. ذلك أنها لا تمنحك المال.. وإنما هى تكسب منك قدرا معلوما من حصة الأرباح مقابل منحك الاسم بشرط التزامك بكل مواصفات الشكل والمحتوى.. ولقد راق الامر الكثيرين ممن رأوا فيه فرصة ليتاح للسوق المحلى أن ينعم بكل ما هو متاح فى اى بلد من بلاد الغرب التى نشر الفرانشيز وجودها الكثيف فى بلادنا. وهو الذى القى بظلاله على المنتجات المحلية ايضا، إذ صارت تقلد المستورد سعيا وراء مكان فى سوق المنافسة المحتدمة. ومن هنا عم التنميط فى بلادنا كما عم فى بلاد الغرب.

وإذا كان برنامج حياة خاصة حياة عامة يبين لنا، بين أمور اخرى، ان اكتشاف منابع القوة فى النفس اقصر الطرق وأسهلها للتكيف مع الواقع، والانتصار على مثالبة. فإن لوحة الإعلانات التى ظهرت فى نشرة الاخبار السويسرية بنسائها العاريات ، توضح من خلال تقريرها التسجيلى المصاحب أن هناك آثارا سلبية ، استفحلت معاناة السويسريات منها الى حد اللجوء الى هذا الشكل الصارخ للاحتجاج.. واما المصادفة التى جمعت بين هذا التقرير الاخبارى والتقرير عن حادث انقلاب السيارة من على المعبر. فى نشرة اخبارية واحدة. فإننى لا أراه مصادفة.. فإذا صح التوقع المشار إليه لدى السويسريين - من ان السائق تعمد الانتحار فبما بدا انه هروب من الاخفاق المتكرر للبطل الرياضى العاجز عن التكيف مع انسحاب البطولة، فهذا مثال حى على عواقب تراكم الاكتئاب بفعل فقدان الطريق الى منابع القوة فى الذات.. وأما فشل السائق فى تحقيق بغيته من الانتحار، وخروجه حيا بينما خرج بقية ركاب السيارة الثلاثة وقد فارقوا الحياة.. فنحن هنا امام سبب أقوى للتأمل.. فتركنا لأفراد بيننا يسقطون فى دوائر الاكتئاب . تشمل اخرين بآثارها السلبية الفادحة.. وتأتى مثل تلك الحادثة ، كأنما هى صفعة كونية. لعلنا نفيق فنرى مهالك التنميط الذى هو بالقطع من ثمار العولمة.■

ثـلاثــــة مـن الأدبـــاء

السّحرتي وكرّو والجرّ

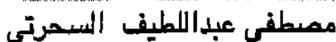
بقلم

وديـع فلسـطين

لشيخ الأزهر الراحل عبد المجيد سليم قولة ذهبت مثلاً .. فقد رأى الدولة تحول الأموال بلا حساب إلى الملك فاروق في كابرى بفرنسا ليلهو هناك مع عشراء السوء، في حين تضن بأموال الشعب على وزارات الصحة والتعليم والشئون الاجتماعية والمرافق العامة، فأعلن الشيخ صيحته قائلاً: إسراف هناك وتقتير هنا، ثم قدم استقالته راضياً مرضياً!

وأخشى أن تكون حياتنا الثقافية الحالية في حاجة إلى مثل هذه الصيحة المدوية. فمن دواعي الحيرة فهم المعايير التي يستند إليها في تقييم رجال الفكر والأدب، ففي حين تقام الاحتفاليات الصاخبة لشعراء هم في أفضل الأحوال كتّاب منشورات سياسية، أو لشعراء فيهم أدونيسية وماغوطية تنحدر بالشعر إلى متاهات العبث والغموض، فإن هناك إهمالاً تاماً ومتعمداً لرجال خدموا الثقافة خدمات جلّى على مدى سنوات طويلة من العمر دون أن يحظوا بشيء من التقدير الذي يبذل بسخاء لمن لايحاكونهم في المنزلة والقيمة الأدبية الباقية.





مصطفى عبداللطيف السحرتى   بلقاسم محمد كرو

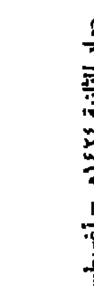
هذه زفرة أطلقها بمناسبة مرور عشرين عاماً على وفاة الأديب الناقد مصطفى عبد اللطيف السحرتى المولود فى ميت غمر فى ٢٣ ديسمبر ١٩٠٢ والمتوفى فى ٢٩ مايو ١٩٨٣.

السحرتى الذى لايعرفه نقاد اليوم

مرت هذه الذكرى فى غيبة من اهتمام المجتمع الأدبى كله، اللهم إلا من حفل متواضع بعيد عن الأضواء أقامته رابطة الأدب الحديث التى كان السحرتى رئيسها الأول وراعيها على مدى ثلاثين عاماً، والتى تجاهد فى سبيل أداء رسالتها الأدبية بهمة رئيسها الحالى الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى.

ولو سئل بروفسيرات النقد الأدبى فى يومنا الحاضر عن مصطفى عبد اللطيف السحرتى، فأكاد أجزم بأنهم يتلعثمون قبل الرد عن هذا السؤال المعجز، مع أن عشرات من الأدباء المعاصرين ترددوا - وهم بعد ناشئون - على رابطة الأدب الحديث ينهلون من علم رائدها السحرتى وينعمون بتشجيعه وتوجيهاته ويستضيئون بآرائه ونقده. فلما استقامت أعوادهم نسوا هذا المربى الرائد الجليل الذى لم يضن على أديب بآيات التشجيع والإشادة ، وبقى طوال العمر يعطى ولا يأخذ إلى أن أقعده المرض دون أن يقعده ذلك عن متابعة الجيل الناشىء بالرعاية والتقويم. ومن حق السحرتى علىّ، وقد عرفته منذ أربعينات القرن الماضى، أن أحاول دفع بعض الظلم عنه، وهى محاولة يعيبها أن كاتبها يعيش على هامش الحياة الأدبية متفرجاً، وأن الحيز المتاح يفرض عليه حدوداً لا يريد تجاوزها.

كنا مازلنا نعقد مساء كل يوم أحد اجتماعات رابطة الأدباء التى أنشأها الشاعر الدكتور إبراهيم ناجى فى عام ١٩٤٥، وكنت أنوب عنه فى رياستها بوصفى الوكيل المنتخب للرابطة . ومع أن هذه الرابطة عاشت ثمانى سنين ، فلم يتهيأ لنا أن نستقر فى أى مكان فكنا مثل البدو الرحل الذين ينصبون خيامهم فى أرض ليغادروها إلى أرض سواها. ولهذا كنا نرحب بأى دعوات لاستضافة الرابطة ، فاجتمعنا مرة فى مدرسة فى حى السيدة زينب، ومرة فى ساحة خلف إحدى العمارات فى الجيزة، ومرة فى مكتب للصحفى محمد زكى عبدالقادر (١٩٠٦ - ١٩٨٢) فى شارع شريف باشا، ومرة فى



مكتب للأدبية سنبية قراعة (ت ١٩٩٠) فى ميدان سليمان باشا ومرات فى اتحاد للموظفين فى شارع عماد الدين وبسبب هذه التنقلات كانت تتردد على الرابطة وجوه تختلف من أسبوع إلى آسبوع، ربما بسبب قرب آو بعد مكان الرابطة عن آماكن سكناهم. ومن الذين زارونا ولو مرة واحدة الدكتور محمد صلاح الدين باشا (ت. ١٩٩١) وزير الخارجية الأسبق وإبراهيم فرج باسا (١٩٠٣ - ١٩٩٣) الوزير الوفدى السابق وزكريا مهران باشا وهو من رجال الأعمال والدكتور أحمد هيكل وزير الثقافه السابق والدكتور الشيخ آحمد الشرباصى (١٩١٨ - ١٩٨٠) وعشرات آخرون يعييني سرد أسمائهم

وفى إحدى جلسات الرابطة حضر الشاعر محمد عبدالغني حسن (١٩٠٧ - ١٩٨٥) وكنت أعرفه وكان بصحبته رجل متوسط القامة غليظ العوينات لم آتبين معالمه تماماً . وكان معهوداً إلى يومها فى رياسة الجلسة بسبب تاخر الدكتور ناجى فى عيادته ، فرحبت بعبد الغنى حسن وبالشخص الذى برافقه الذى لم آقف على اسمه إلا عند مصافحة الحاضرين بعد انتهاء الجلسة.



وكنا وقتها نعقد ندوة آسبوعية فى مجلة المقتطف» الشهرية التى عاشت ٧٧ عاماً وودعت دنيا الفكر فى ديسمبر ١٩٥٢، فدعوت السحرتى لمشاركتنا فى هذه الندوة، وبادر بتلبية الدعوة. ولكنه جاء إلينا ومعه مشروع رغب إلينا فى مساعدته على إنجازه ، آلا وهو إعداد دراسه جديده عن الشعر المعاصر فى ضوء المذاهب النقدية الحديثة . ورجانا أن نزوده بما لدينا من دواوين الشعراء العرب حتى يستعين بها فى إعداد دراسته. ومن حسن التوفيق آننى كنت آقتنى مجموعة غير قليلة من دواوين الشعراء العرب، بعضها مهدى من مؤلفيها والبعض الآخر ظفرت به شراء، فوضعتها جميعاً تحت تصرف السحرتى إلى جانب الدواوين التى كانت مودعه فى خزانة كتب «المقتطف». ولم تمض آسابيع إلا والفصول الأولى من دراسته الرائده «الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث» باتت جاهزة، فأخذنا ننشرها تباعاً فى «المقتطف» ونجهز للمؤلف نسخا إضافيه منها نهدى إليه بعد الفراغ من نشر جميع فصول الكتاب، وكانت هذه الهديه ، وهى بضع عشرات من النسخ هى المكافأة الوحيدة التى نالها السحرتى عن نشر كتابه، فقام بإهداء هذه النسخ إلى أصدقائه وأصبح هذا الكتاب الرائد المهم غير متداول على نطاق واسع إلى أن قامت دار تهامة فى المملكة العربية السعودية من سنوات باعادة طبعه وإتاحته لجموع الباحثين بتزكية من الأديب عبد الله عبد الجبار وبأريحية من مدير الدار محمد سعيد طيب أطال الله بقاءهما.

وبعد توقف رابطة الادباء فى عام ١٩٥٢، لأن رئيسها الدكتور إبراهيم ناجى أدرج اسمه فى آول قائمة للتطهير آصدرتها حكومة الثوره ، ولأن وكيلها جرى اعتقاله ، فكر بعض الأدباء بتوجيه من محمد ناجى شقيق الدكتور إبراهيم ناجى - وهو ضرير - فى إنشاء الرابطة باسم جديد ، فعقدوا اجتماعاً فى بيت فى ميدان الدقى نقرر فيه إنشاء رابطة الأدب الحديث» باعتبارها امتداداً لرابطه الأدباء ، وانتخب مصطفى عبد اللطيف السحرتى رئيسا لها . كان هذا فى عام ١٩٥٣ بعد وفاة الشاعر ناجى فى

٢٤ مارس ١٩٥٣ (وهو من مواليد ١٨٩٩). وبكل الحماسة والتفاني أدار السحرتي شئون الرابطة الجديدة التي اجتذبت كثيرين من ناشئة الأدباء والشعراء. وهي قد عانت بدورها من عدم الاستقرار في مكان معين إلى أن انتهى بها المطاف في غرفة في رابطة أبناء الدقهلية في شارع بنك مصر أمام البنك المركزي.

ولئن كان السحرتي سلك طريق المحاماة بعد تخرجه في كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول في عام ١٩٢٦ وبقي يمارس هذه المهنة ستة عشر عاماً عمل بعدها رئيساً للتحقيقات بوزارة التجارة ورئيس نيابة إدارية، كما عمل في وزارة العدل، فقد كان الأدب هو هوايته الأولى. وبسبب ذلك زار باريس لكي يغشى مجالس الأدباء في الحي اللاتيني ويتردد على المتاحف والمكتبات ودور الثقافة، وهي زيارة لم يتح له فيها الانخراط في أي دراسة منهجية، وإنما كانت غايته أن يعيش في هذا الجو الموحي في عاصمة النور، شأنه في هذا شأن سلامة موسى (١٨٨٧ - ١٩٥٨) الذي رغب في أن يعيش في باريس لمجرد استنشاق أجواء الثقافة والفنون وحرية الفكر. وفيما بعد انتقل السحرتي إلى مؤسسة التأليف والترجمة والنشر مراقباً لأنشطتها.

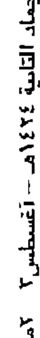
وفي أثناء ذلك اختير السحرتي عضواً في لجان المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

اكتشف السحرتي هواية الأدب في سن مبكرة، فكتب سلسلة من المقالات في مجلة «السياسة الأسبوعية» التي كان يصدرها الدكتور محمد حسين هيكل باشا (١٨٨٨ - ١٩٥٦) درس فيها حياة أعلام الفكر الغربي، ورأس تحرير مجلة «الأمام» واتصل بجماعة أبولو ورائدها الشاعر الدكتور أحمد زكي أبي شادي (١٨٩٢ - ١٩٥٥) وكتب في مجلتها، وأصدر في عام ١٩٣٧ كتاب «أدب الطبيعة»، وفي عام ١٩٤٢ نشر ديوانه الوحيد «أزهار الذكرى» ثم توالت كتبه ومنها «شعر المعاصر على ضوء النقد الحديث» و«أيديولوچية عربية جديدة» و«الشعر اليوم» و«شعراء مجددون» و«النقد الأدبي من خلال تجاربي» و«شعراء معاصرون» بالاشتراك مع الأديب العراقي هلال ناجي، وشعر عبد الحميد السنوسي» وهو تحقيق بالاشتراك مع محمد مفيد الشوباشي (١٨٩٩ - ١٩٨٤) و«الفن الأدبي» و«معروف الرصافي شاعر العرب الكبير» بالاشتراك مع قاسم الخطاط (١٩٢٣ - ٢٠٠٣) والدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، و«دراسات نقدية في الشعر المعاصر»، وكان له مقال شهري في مجلة «الثقافة» على عهد الدكتور عبد العزيز الدسوقي.

رجل هذا بعض أياديه ، كيف ينضم إلى قافلة المجهولين ، وكيف يسقط من اهتمام النقاد المحترفين - وأكاد أقول المحتكرين - في يومنا المعاصر؟ وسؤال آخير: متى تستقيم المعايير الأدبية فلا ينطبق عليها قول الشيخ عبد المجيد سليم إسراف هناك وتقتير هنا؟!

تكريم مزدوج لأبي القاسم كرو

في الأسبوع الأخير من شهر مايو الماضي تم تكريم الأديب التونسي الكبير «أبو القاسم محمد كروّ» مرتين، حيث أقام بيت الحكمة التونسي - وهو المجمع اللغوي هناك - حفلاً لتكريمه قرر فيه إصدار كتاب تذكاري عنه . وبعد يومين اثنين أعلن عن



منحه أكبر جائزة ثقافية في تونس وهي «الجائزة المغاربية» وهي تساوى من حيث قيمتها المادية جائزة مبارك فى مصر. ولكن السلطات التونسية تعتمد فى منح جوائزها أسلوباً لايستند إلى الترشيحات بين عدد من الأشخاص، بل تقوم بانتقاء الشخص الذى يستحق الجائزة بكل جدارة دون ان تعرضه لمسابقات ينجح فيها أو يفشل كما حدث عندنا فى مصر.

وسبق لأبي القاسم أن نال جائزة الدولة التقديرية في تونس، وقلده رئيس الجمهورية زين العابدين بن على بنفسه أعلى وسام ثقافي.

وأبو القاسم محمد كرو عضو في جميع مجامع اللغة العربية فى مصر وسورية والأردن، وعمل على مدى سنوات طويلة مستشاراً ثقافياً لوزراء الثقافة التونسيين المتعاقبين، كما كان ضمن الوفد المشارك لتوقيع أول اتفاقية ثقافية بين مصر وتونس.

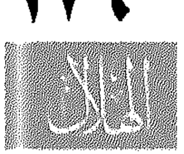
ومن عامين فاجأ الحياة الأدبية بإصداره ستة مجلدات ضخام اختار لها عنواناً جامعاً هو «حصاد العمر» سجل فيه دوره في سنوات الكفاح إلى أن حققت تونس استقلالها، كما أنصف أعلاماً منسيين وعنى بدراسة الشاعرات العراقيات اللائى عرفهن عندما كان يتابع دراساته العليا فى بغداد، وعقد فصولاً فى الدفاع عن الثقافة العربية ، وتناول بالدراسة كتباً استأثرت باهتمامه ، وكان لابد أن يضم هذا السفر جزءاً يسجل فيه كرو مواقفه فى تصحيح أوهام الباحثين والدارسين، ويبلغ عدد صفحات هذا السفر المتعدد الأجزاء ٣٤٠٠ صفحة.

ولأبى القاسم كرو الفضل الأول فى الحفاظ على كل مايتعلق بشاعر تونس الأكبر أبى القاسم الشابى (١٩٠٩ - ١٩٣٤) فينشر ديوانه الكامل مؤرخاً لكل قصيدة، وجمع رسائله ومذكراته ومخطوطاته وكل مايتعلق به. عدا أنه نشر مايزيد على ٦٠ كتاباً عرّف فيها بالأعلام التونسيين بحكم اقترابه من معظمهم ، كما أرخ للحركة الثقافية فى تونس وعالج قضايا الأدب والفكر بدقة الباحث، ونشر كثيراً من الصفحات المطوية التى لاتكتمل دراسة التاريخ دون الإحاطة بها.

وقد دانت لأبى القاسم محمد كرو على مدى العمر خزانة ضخمة للكتب فيها كثير من النوادر باللغتين العربية والفرنسية ، فقام بإهدائها إلى كلية الآداب فى مدينة منوبة بتونس حيث انفردت بجناح خاص تتصدر صورته، وأقيم بهذه المناسبة حفل كبير شارك فيه المسئولون الثقافيون الذين أشادوا بهذه المكرمة العلمية الجليلة.

وفى شهر مايو الماضى، كان أبو القاسم محمد كرو يزور مدينة الرباط فى المغرب، وينزل فى أكبر فنادقها، وفوجىء وهو يقيم فى طابقه العاشر بهزة عنيفة اكتشف بعدها أن الفندق كان مستهدفاً من الإرهابيين الذين حاولوا نسفه ولكن متانة بناء الفندق جعلته يتماسك إلا من الطابقين السفليين اللذين دمرتهما المتفجرات. وهكذا نجا بأعجوبة حتى وإن كان قد فقد بعض أمتعته.

وكان الأديبان العربيان عادل زعيتر (١٨٩٧ - ١٩٥٧) وشقيقه أكرم زعيتر (١٩٠٩ - ١٩٩٦) ينزلان فى فندق شبرد القديم الذى تعرض للإحراق فى ٢٦ يناير ١٩٥٢، ولكنهما سلما من هذا الحريق وإن كانا فقدا جميع أمتعتهما التى ذهبت طعمة



للنار . فمد الله فى أعمار كرو والزعيترين كيما يواصولا أداء رسالتهما خدمة لأمة العرب.

صاحب فكرة العصبة الأندلسية

كنت من جملة الذين يعتقدون أن جماعة العصبة الأندلسية التى أقيمت فى سان باولو بالبرازيل عام ١٩٣٢ لتكون نظيراً للرابطة القلمية التى أنشئت فى أمريكا الشمالية إنما كانت من بنات أفكار أسرة المعلوف الشهيرة التى كانت تملك مصانع كبيرة للحرير، ولا سيما لأن الرئيس الأول للعصبة هو ميشال معلوف (١٨٨٩ - ١٩٤٣) وتولى رياستها فيما بعد شفيق معلوف (١٩٠٥ - ١٩٧٦). ولكن الصديق اللبنانى السورى اليونانى تيوفيل بتسيدس المعنى بالأدب المهجرى فى أمريكا اللاتينية نبهنى إلى أن صاحب الفكرة فى إنشاء هذه الرابطة التى عاشت عشرين عاماً هو الشاعر المهجرى شكر الله الجرّ (١٩٠٧ - ١٩٧٥) مع أنه كان يقيم فى ريودى جانيرو بعيداً عن العاصمة البرازيلية.

فقد شجر نزاع غريب بين أفراد الجاليتين اللبنانية والسورية فى سان باولو حول اسم المستشفى الذى أقاموه هناك وأطلقوا عليه اسم المستشفى السورى واللبنانى، فى حين أراد آخرون من أفراد الجالية حذف حرف الواو من اسم المستشفى ليصبح «السورى اللبنانى» إيماناً منهم بأن الهجرة وحدت الجاليتين السورية واللبنانية، وأن حرف الواو يؤدى إلى التفرقة بينهما.

وعندما تفاقم هذا النزاع قرر الشاعر شكر الله الجرّ السفر إلى العاصمة البرازيلية وفى ذهنه مشروع جمع العرب المهاجرين تحت مظلة واحدة. أما المشروع المقترح فهو تأليف عصبة تضم جميع المهاجرين وتحمل اسم الأندلس تيمنا بالعصر العربى الأندلسى. وبمجرد وصول شكر الله الجرّ إلى سان باولو اتصل بكبار الأدباء هناك، وعرض عليهم الفكرة، فرحبوا بها فرادى، ثم ارتأوا عقد اجتماع تأسيسى يعلن فيه رسمياً إنشاء «العصبة الأندلسية» مع إصدار مجلة أدبية عنها تحمل اسم «العصبة» وفى الخامس من يناير ١٩٣٢ ولدت هذه العصبة رسمياً، واختير لرياستها ميشال معلوف باعتباره أكبر الأعضاء سناً.

وبعدما أنجز شكر الله الجرّ مهمته فى التوفيق بين الآراء المتباينة حول اتحاد أو انفصال الجاليتين اللبنانية والسورية، عاد إلى ريودى جانيرو ليواصل إصدار مجلته «الأندلس الجديدة» دون أن يسعى إلى عضوية العصبة، وجعل مجلته ساحة لنشر آثار أعضاء العصبة إلى أن تسنى لهم إصدار مجلتهم الخاصة. وقد وصف الأديب المهجرى نظير زيتون (١٨٩٦ - ١٩٦٧) عهد العصبة الأندلسية بأنه «أخصب وأزهى حقبة عرفها الأدب العربى فى المهجر».

وبسبب بُعد العهد بالحركة المهجرية ورحيل أعلامها الكبار من الشعراء والكتاب مع صعوبة الحصول على المراجع المهجرية، يقع الباحثون فى خلط حول بعض جوانب هذه الحركة ودور كل من الأعلام فى إذكائها، ولهذا رحبت بتصويب هذه الواقعة حول صاحب الفضل الأول فى إنشاء العصبة الأندلسية شاكراً للأخ تيوفيل بتسيدس تنبيهه إلى هذا الخطأ الشائع.. ■

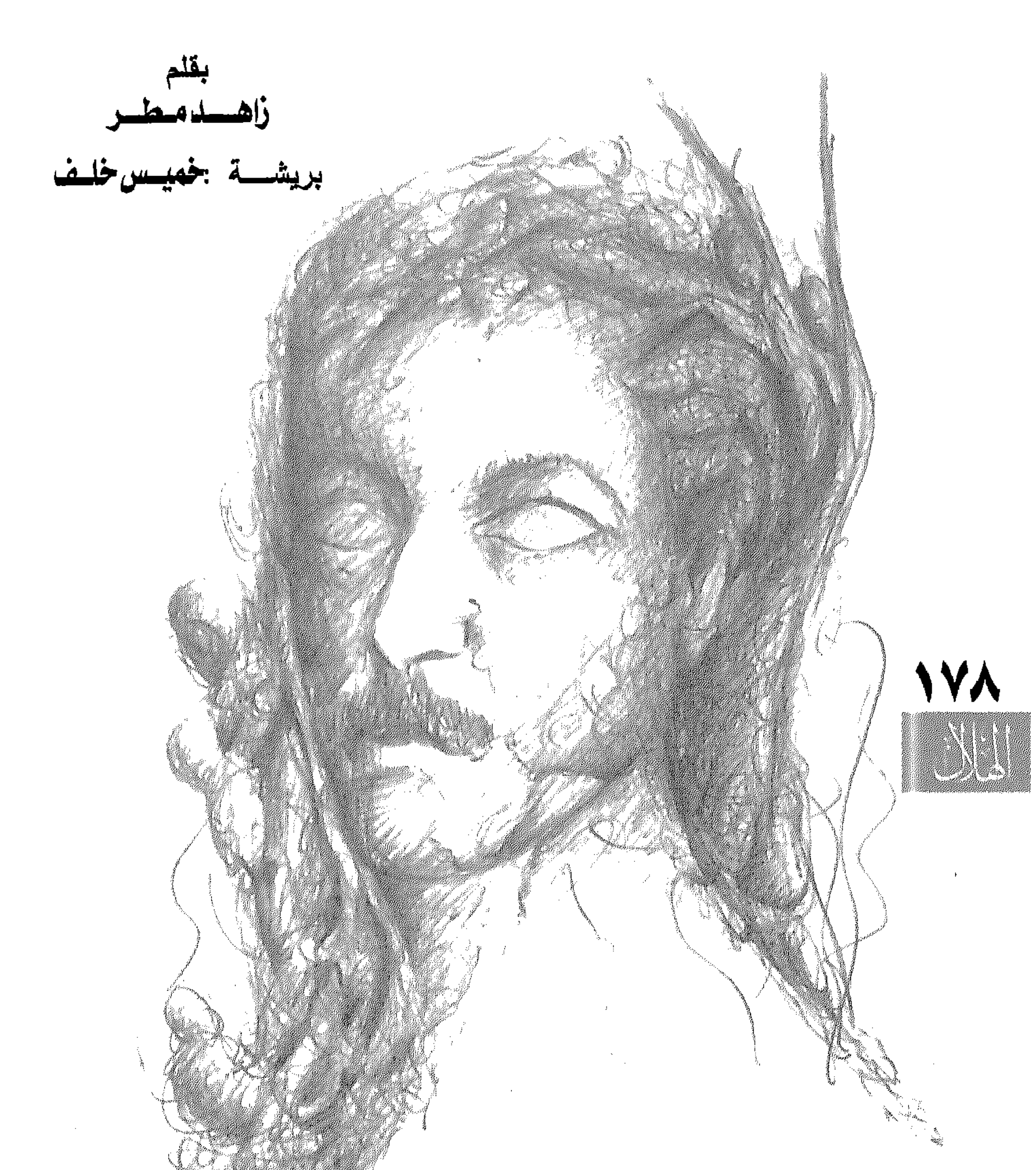


قصة قصيرة

أبو عنفى

بقلم
زاهد مطر

بريشة :خميس خلف



لدى نزعة فطرية إلى العزلة حجبتها سنوات الوظيفة والزواج الطويلة إلى أن توفيت شريكة عمرى رحمها الله ثم بلغت سن التقاعد بعد وفاتها بعامين، فإذا بهذه النزعة وكأنها قد تحررت مما كان يكبح جماحها، تعود إلى الظهور مرة أخرى وتنمو مع تقدم سنوات العمر وضعف القدرة على المقاومة حتى لأحسب أنها بلغت مراحل الحالة المرضية .

ومن أعراض هذه الحالة أننى أبيت بإصرار الرضوخ لمحاولات ابنى وابنتى لإقناعى الانتقال للسكنى مع أى منهما بدلا من العيش وحيدا فى شقة من شقق العمارة القديمة التى كانت تنسب فى لغة المخضرمين أمثالى إلى الشركة البلجيكية وهى بحى عابدين، تطل على شارع حسن الأكبر ، وكان يشغلها صديق لى حميم أيام عمله بالمحاماة ورضى بأن يؤجدها لى بأجر شهرى معقول بعد أن تقاعد هو الآخر ولم يعد يمارس العمل .

وقد شمرت ابنتى جزاها الله كل خير عن ساعديها لتزيل عنها آثار وملامح مكتب المحامى وتحيل الغرف الأربعة الواسعة إلى مأوى سكنى لا ينقص مثلى فيه شئ مما يحتاجه بل ومما كان يحلم به، بما فى ذلك غرفة مكتب مريحة ومكتبة اتسعت لكل ما أملك من الكتب، وما كنت أجد لها من قبل مكانا إلا فى صناديق من الورق المقوى استطاعت زوجتى رحمها الله أن تتخلص منها بتخزينها فى بيتنا الريفى حيث تكفلت الفئران والقوارض الأخرى طوال السنوات الطويلة بالعبث بصفحاتها إلا ما شاء القدر أن تبقى سليمة منها إلى يوم الخلاص واستقر بى العيش طيلة شهور ثلاثة حتى خيل إلى أننى وجدت فى الحياة أخيرا ما كنت أنشده من عزلة وسكينة لا يقطعها على شئ إلا زيارات أولادى وأحفادى المتباعدة، ولا يشاركنى فيها إلا فتى يافع يتردد على يوميا ليقوم على خدمتى ويدبر لى مأكلى ومشربى وينصرف مع غروب الشمس .

وفجأة وبلا مقدمات رن جرس الباب فى أمسية كنت مسترخيا فيها على مقعد مريح فى

مكتبى استمتع بمطالعة كتاب من كتب التراث، فمزق السكون فى أرجاء الشقة الخالية وأخل باتزان نفسى، فلم يكن الوقت مما أتوقع فيه زائرا من أهلى وقد عودونى على الاتصال تليفونيا قبل أن يقوموا بالزيارة .

واتجهت مضطربا صوب الباب فلم أعن حتى بالنظر من العين السحرية لأتبين الطارق قبل أن أفتحه، ووجدت أمامى فى الفرجة وجها مكتنزا لا أحسب أننى التقيت بصاحبه من قبل، وإن كانت ملامحه مألوفة فى بشرة مائلة للسمرة وعينين واسعتين يقظتين تتطلعان إلى بحرارة وكأنهما تتساءلان : ألا تعرفنى؟ «سعادتك الأستاذ فلان؟» .

غمغمت واضطرابى مازال واضحا «نعم» .

ارتسمت ابتسامة



على الشفتين امتد معها فى الاتجاهين الشارب المنمق فى مساحة الوجه المكتنز أنا جار سعادتك محمود الشيمى .. أتيت لأتعرف على سعادتك .. هل تسمح لى ؟

ولا أدرى إن كنت أنا فتحت له الباب أم هو دفعه بلطف ودلف إلى الردهة، فوجدتنى مضطرا لأن أدعوه للجلوس ففعل ببساطة والابتسامة لا تفارق وجهه

وكانت هذه البداية ، حضر إلى الأستاذ محمود ... أعنى «أبوحنفى» كما بصر هو على أن أناديه كلما اتبعت المألوف وناديته باسمه مضافا إليه لقب أستاذ ، ليتعرف على ثم ليدعونى لأصحبه إلى قهوة «حسن الأكبر» التى تقع على بعد أمتار من العمارة ليعرفنى بمجموعة من رجال الحى الأفاضل المحالين إلى التقاعد مثلى تواقين لأن يتعرفوا على منذ أن علموا بأننى أسكن بينهم !

حسبت أول الأمر أن الدعوة مؤجلة بطبيعتها إلى مناسبة أخرى أكون فيها مستعدا ، ولكن الذى حصل أن الأستاذ محمود .. أعنى أبو حنفى تسمر مكانه وأصر على أن ينتظرنى حتى أبدل ثيابى وأصحبه .

وغلبنى ذلك الضعف الآخر المصاحب عادة لنزعة الانطواء، أقصد فرط الحياء فوجدتنى وقد أعيانى البحث عن الحزم وعن كلمات الاعتذار قد اتجهت إلى غرفة نومى

وبدلت ثيابى ثم اتجهت وراء الأستاذ إلى الباب .

«سعادتك تذكرت مفاتيح الشقة؟».

وكان معه حق .. فلولا ذكرنى لخرجت وقد نسيت فى اضطرابى أن أضع المفتاح فى جيبى .

وجدت المجموعة المتحلقة حول مائدة منعزلة فى القهوة فعلا كما وصفها الاستاذ محمود ، أقصد أبوحنفى ، كلهم فى مثل سنى تقريبا من الرجال الطيبين الذين يضفى عليهم السن رزانة ، وهو إن كان بالغ فى شئ فهو المناصب والألقاب التى خص بها كل منهم وهو يقدمنى إليهم ، كما بالغ فى نفس الوقت فى لقب «سعادة الوكيل» الذى أطلقه على

انقضت الأمسية على خير وكنت متلهفا على العودة إلى عزلتى فى نهايتها فالأحاديث التى دارت خلالها لم يكن فيها شئ مما يحرك لدى شهوة الكلام أو يجذبنى لمتابعة المتحدثين ، وإن كان الرجال الأفاضل قد ودعونى بحرارة وأظهروا من الحفاوة بى ما أثر فى نفسى .

ومع هذا ورغبة فى زيادة الاحتياط فقد اخترت بعد ذلك بيومين حين غادرت الشقة لأقوم برياضة المشى التى تعودت أن أقوم بها على فترات متباعدة أن أتوجه إلى شارع جامع عابدين بدلا من أن أمشى فى شارع حسن الأكبر فى اتجاه القهوة .

ولم أكن ابتعدت لأكثر من خطوات فى اتجاهى الجديد حتى سمعت وقع خطوات مسرعة ورائى وصوت ينادى «ياسعادة الوكيل.. ياسعادة الوكيل»

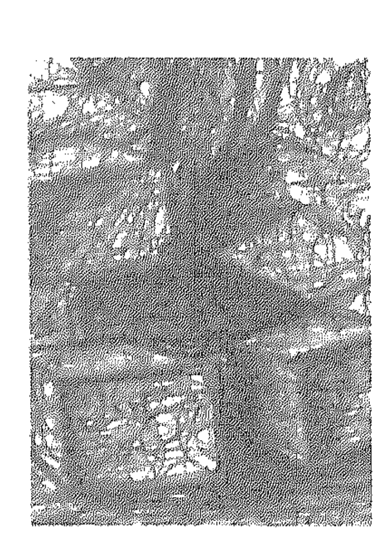
والتفت لأجد أبوحنفى فى مواجهتى يجاهد ليلتقط أنفاسه وهو يردد معاتبا «ياسعادة الوكيل.. قطعت أنفاسى لألحق بك .. الجماعة منتظرينك بالقهوة على أحر من الجمر » .

واكتشفت من يومها أن عضوية مجتمع القهوة التزام يومى لا فكاك منه، وأنه لا مهرب من عين «أبوحنفى» قطب الرحى فى ذلك المجتمع الذى لا يجمع

بينه وبين أعضائه شئ من تقارب العمر أو المظهر، اللهم إلا أنه من أولاد الحى ويحب صحبة الناس المحترمين .

واكتشفت بعد عدة أمسيات مع مجموعة المتقاعدين، أو أعيان الحى كما يحلو لأبو حنفى أن يطلق عليهم، أن نشاطهم لا يتوقف عند حدود جلسات القهوة فحسب، بل إن أداء الواجبات الاجتماعية من عزاء فى المآتم وتهنئة فى الأفراح مما يدخل فى برنامج الأمسيات الذى يعده أبو حنفى بدائرته الواسعة من المعرفة الاجتماعية وحرصه على الأداء الجماعى للواجب .

ولم أستطع أن أفهم إلى اليوم سر سيطرة هذا الرجل الذى لم يكمل بعد الأربعين من العمر على هذه المجموعة من أرباب المعاشات الذى هو فى مقام الابن منهم



وقدرته على أن يجمعهم ويحركهم بأسلوبه الفريد الذى يجمع بين الإلحاح والمجاملة والاستعداد لتقديم الخدمات حتى الطلبات المنزلية كما فهمت تلميحا من جلساتى المتكررة بينهم .

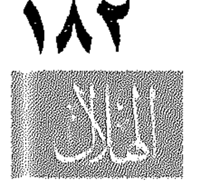
ولم أعرف فيما وراء ذلك شيئا عن أبو حنفى الذى يبدو أنه كان يعرف كان شئ عن كل فرد من أفراد المجموعة تفصيلا .

ولعل الأستاذ عبدالبارى بوصفه أقرب جار إليه فى الحارة الضيقة المتفرعة من شارع حسن الأكبر كان بالضرورة يعرف، ولكن حتى لو كان يعرف فإننى

لم أر الجماعة قط ملتئمة من غير حضور أبو حنفى بعينه المدققة الفاحصة وسمعه الذى يلتقط دبيب النملة .

ويبدو أن الأيام هى أفضل مصدر للمعرفة، ففى ليلة كنت أستعد فيها لأن آوى إلى فراشى ، وكان هدير السيارات كاد يتوقف فى الشارع الرئيسى حتى عم الحى ما يشبه السكون إذا بجلبة وصياح وصراخ ترتفع من اتجاه الحارة الضيقة التى تطل عليها شقتى من الخلف وتقع فى نهايتها العمارة التى يقطنها أبو حنفى ، تختلط فيها أصوات نسائية حادة بأصوات الرجال الغاضبة .

ولو كنت من الذين يستهويهم استطلاع مشاكل الآخرين لكان من السهل على أن أتبين موقع المعركة وأشخاصها من نافذة الحمام ،



ولكننى آثرت أن أوى إلى فراشى ودفنت رأسى بين الوسادتين حتى لا تزعجنى الجلبة واستطعت أن استجلب النوم .

وكان الفتى «أحمد» الذى يقوم على خدمتى هو الذى تطوع بأن يقص على وأنا أتناول وجبة إفطارى ما التقطته أسماعه عن واقعة الأمس فى جولته الصباحية للتسوق ، وتبين أن بطلها ليس أحدا آخر غير الأستاذ محمود .. أبو حنفى ، فقد أغارت عليه زوجته الأولى التى طلقها منذ عام فى جمع من أقاربها لتطالبه بنفقتها ونفقة الأطفال الخمسة الذين أنجبهم منها وتخلص منها ومنهم ليخلى البيت لزوجته الجديدة ... وهى حامل فى شهرها السادس .

والعجيب أن الزوجة الجديدة قد انضمت للأولى فى الشكوى من إهماله لأمور بيته وعياله وانطلقت تنفس عن نفسها هى الأخرى بمشاركتها سبه وإهانته ، وكاد الأمر يتطور إلى مالا يحمد عقباه لولا تدخل أولاد الحلال لفك الاشتباك وتخليص أبو حنفى من أيدى المرأتين .

أعترف بأننى شعرت بارتياح إذ تصورت أن فى ذلك نهاية نشاط أبوحنفى الاجتماعى فى الحى ، وخلاصى بالتالى من سهرات قهوة حسن الأكبر ومن مهام المجاملات الاجتماعية التى كانت قدمى قد بدأت تنزلق إليها .

وأيقنت أننى قد عدت إلى برنامج عزلتى المحببة عندما انقضى يومان لم أغادر فيهما شقتى ولم أسمع فيهما حسا ولا خبرا عن العالم الخارجى ولم بقطع على صفو قراءاتى فى الأمسيات شئ .

حتى كانت الليلة الثالثة ، وكنت أستعد للجلوس فى الشرفة المطلة على الشارع أتلهى بمراقبة حركة السيارات والمشاة إلى أن يحين موعد نومى وإذا برنين جرس الباب ينطلق حادا مزعجا حتى كادت ضربات قلبى تتوقف من وقع المفاجأة .

وجدت وجه أبو حنفي يطل على بابتسامته المعهودة من فرجة الباب ، ووجدتنى أهتف فى دهشة غير مفتعلة :

« أستاذ محمود الشيمى؟» .

«وبعدين معك ياسعادة الوكيل .. أبو حنفى ياباشا .. أبو حنفى» .

وقبل أن أنطق بكلمة أخرى كان قد انسل إلى الداخل واحتل مقعده المعتاد فى الردهة .

كنت محرجا لا أدرى ماذا عساى أقول أو لا



أقول وقد علمت بنبأ مشكلته الصاخبة مع زوجتيه؟ ولكنه كان يجلس أمامى هادئا مبتسما كعادته لا يبدو عليه أدنى تغيير .

«سعادتك وحشتنا فقلت أمر عليك لأطمئن... ولأحدثك فى موضوع لا يمكن أن أثيره إلا بينى وبينك على انفراد قبل أن ننزل إلى الجماعة فى القهوة»

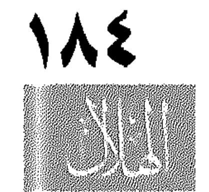
توقعت أنه آثر أن يحدثنى عن الواقعة بنفسه فاتخذت وضع الاستماع وجاهدت أن أرسم على وجهى علامات التعاطف والتأثر مقدما .

«سعادتك رجل فاضل وتستحق كل راحة وتحتاج إلى من يملأ عليك فراغ هذه الشقة ويؤنس وحدتك وأنت ماشاء الله كل من يراك لا يصدق إلا أنك مازلت شابا ..» .

وهنا صمت برهة ليتنحنح، وتململت فى مقعدى فلم أكن مرتاحا للوجهة التى بدأ يأخذها كلامه .

«هناك من السيدات الفاضلات من يليق بمقامك ، ومن تتمنى أن تصبح شريكة حياة شخصية عظيمة مثلك .. هناك مثلا سيدة فاضلة.. أرملة توفى زوجها منذ خمس سنين.. شقيقة حرم المستشار عبدالبارى ...» .

وقبل أن يكمل أبو حنفى حديثه الذى لم أسمع بقيته كنت قد اتخذت فيما بينى وبين نفسى قرارا بأن أرحل عن حى عابدين منذ الغد وأن أقبل عرض ابنتى للمعيشة معها فى غرفة



مستقلة بحمامها بين أحفادى حتى ولو كلفنى الأمر أن أعيد وضع كتبى فى صناديق الكرتون وأبعثها مرة أخرى إلى حيث تلتهم الفئران والقوارض صفحاتها وإلى اليوم وقد مضى مايقرب من عامين منذ رحيلى من عابدين مازالت صورة أبو حنفى تمر بخاطرى كلما تذكرت أيام إقامتى بعابدين ، وتجعلنى أشعر أحيانا بوخز فى الضمير إذ يخيل إلى أننى ربما كنت مبالغا فى نفورى منه رغم أنه لم يخطئ فى حقى بل ربما كان مجاملا كما يفهم هو المجاملة وربما كان حسن النية فيما يفعل ، وربما كان يحاول أن يهرب من مواجهة مشاكله الخاصة بأن يلقى بنفسه فى دائرة أوسع من مشاكل الآخرين .

وتذكرت أننى كنت أحتفظ بين أوراقى بقصاصة دونت بها سطور نقلتها عن مثال قرأته منذ سنين يكاد كاتبه يتحدث فيه عن مشاعر مشابهة تجاه نموذج لشخصية قريبة من شخصية أبو حنفى، وبحثت بين أوراقى حتى عثرت على القصاصة ووجدت مدونا بها:

«يوجد صنف من الناس لا يدرى أشر هو أم خير، لين الجانب إن أحسن أو أساء، ليس بذى طعم مر فتلفظه النفس جملة ولا هو حلو حلاوة خالصة .

أمره مختلط وما يتركه فى نفسك من الأثر غامض أيضا غير واضح، لا تستطيع أن تحبه لأنك تشعر بشك فى إخلاصه وصفوه ، ولا تجرؤ أن تكرهه مخافة أن يكون طيبا .. لا يمكنك أن تأخذ عليه رذيلة عارية ولا يمكنك أن ترى له فضيلة بينة .

أعرف من هذا الصنف أناسا ممتازين بذكاء ونشاط وكفاءة، ولكننى أكره أن يكثر أمثالهم فى الناس » .

ولو عاش من كتب هذه السطور منذ سنين إلى يومنا هذا لوجد أن أمثال الأستاذ محمود الشيمى، أعنى أبو حنفى ، قد تكاثروا فى الناس حتى صارت تتشكل منهم شعوب بأسرها . ■

فى عز الظهر

بين نقد النقد وجاذبية مسرح الفضيحة..

بقلم
د. أسامة أبو طالب

بقدر ما حظيت به تجربة أسامة أنور عكاشة المسرحية الأولي «الناس اللى فى التالت» من شبه اجماع على الإعجاب، بقدر ما أحاط بعمله الثاني من هجوم - بدأ قبل الرؤية واستبق المعاينة - حتى بدا وكأنه نوع من التربص المسبق بالكاتب ينتظر الفرصة للتمحك به كى يطلق عليه اتهاماته بالقصور وأحكامه بالفشل. كان ذلك هو الطابع العام لغالبية ما كتب - نقدا علميا أو صحفيا - فيما عدا قلة من الكتابات ينسب أغلبها لغير متخصصين أبدت إعجابها بما شهدته نصا وعرضا.

وربما كان دافعها إلى هذا الإعجاب هو تأييد «الخطاب السياسى الاجتماعى للنص. ذلك الذى بدا سافرا يطل بوجهه - كل لحظة - متحديا صنعة الكاتب ومهارته المجربة فى صنع الحكايات باعتباره حكاء «قديما أو قاصا» أفرغ فى دراماته التليفزيونية» «حواديته الواقعية» فلما اتجه إلى المسرح لم يعان من فقر فى الخيال يلجئه إلى «الموضوع المسرحي القديم» فيعيد تقديمه - مثلما فعل ويفعل الكثيرون - أو إلى «التاريخ» يتمحك فيه مستجديا منه موضوعاً. أو ربما يتحول إلى «الكلاسيكيات» يعيد سبكها ناسجاً على بنيانها القائم معارضات غالبا ما تكون «ذهنية» تمتد أسهمها إلى «الخطاب» - أو عالم المعنى - بالمناقضة الفكرية أو بالتعديل فيما هى تخفى تعيشها على جسد النص: دمه ولحمه!.. أو تقوم بالاعتداء على «جسده» وبنيته - فى ادعاء للتجديد وتشدق بالابتكار - بينما لا يعدو دورها عن تشويه ملامحه بتعديلات لا تخرج عن كونها شكلية مفتعلة دون مجادلة للخطاب الأساسى أو مماحكة عميقة معه تبرر إحداث ما أريد به من تغيير!

لكنها تأييد الخطاب السياسى والاجتماعى فى العمل لم يكن وحده المتسبب فى صياغة موقف الإعجاب أو الرفض للعمل. فقد تدخلت عوامل أخرى ليست من صلب النقد المسرحى بل من حوله وعلى هامشه فى تشكيل موقف التلقى بشقيه القابل والرافض معا. يتضح ذلك من مراقبة جملة ما كتب عن



سميحة أيوب وعمر الحريرى فى مشهد من « فى عز الظهر »

عرض مسرحية «عز الضهر» - ما سبقها وما صاحبها من كتابات أو أعقبها - ومن استقرائها يتضح «الخلط» بين ما هو إدارى تنظيمى وما هو فني نقدى. ورغم أن ذلك شأن غالبية التغطيات الصحفية وديدنها، إلا أن هذه الحملة المسبقة على المؤلف لظفره بفرصة أخرى للعرض على المسرح القومى - أكبر وأهم مسرح مصرى - فى موسمين متتاليين كان من شأنها أن تجند رأيا عاما مسرحيا ضده وضد إدارة البيت التي أقرت ذلك، وأن تعلو أصابع الاتهام مشيرة إلى ممارسة الكاتب الناجح ضغطا كان من شأنه تمرير المسرحية بعد رفضها رفضا مبدئيا حجته تحقيق عدالة التوزيع فيما أسميناه بكعكة مسرح الدولة. فإذا كانت مثل تلك الاعتراضات مشروعه - ومن حق الصحفى والناقد وجمهور المسرح وطابور الكتاب والأعمال التى طال انتظارها للتحقق على خشبة المسرح العريق - أن يثيروها وينتظرون إجابة «إدارية» شافية مقنعة عليها، فالذى ليس مشروعا ولا عادلا هو تركها تطغى على الرؤية النقدية للعمل فتصدمه بأحكام جاهزة ورفض مسبق دون تمحيص علمى يفصل بين ما هو «إدارى» وما هو «فنى» أو بين الذاتى والموضوعى بلغة النقد.

فهل أثر ذلك الموقف - من الكاتب «المحظوظ» على ما وجه لمسرحيته الثانية «فى عز الضهر» من نقد؟ .. ذلك ما سوف تكشف عنه قراءة أهم الانتقادات وأكثرها جدية ومجادلتها فى دراستين نتخذهما نموذجا لـ «نقد النقد فى مقالين (أولهما للناقد للأستاذ مهدى الحسيني . نشر بمجلة الهلال عدد يونيو ٢٠٠٣

بعنوان : فى عز الضهر عرض غير مسرحى لا يكشف شيئاً. والثانى للدكتورة وفاء كمالو، نشر بجريدة الأهرام المسائى فى ٢٠٠٣/٥/٢٦ - تحت عنوان : انتهاكات مسرحية مستفزة فى عز الضهر).

الدعوة إلى التفاؤل

ولنبدأ بالمقال الثانى حيث صيغ فيه النقد على هيئة تساؤلات ومآخذ تبدأها صاحبته بالاعتراض على ما رأته فيه من «عدمية وإحباط وظلم. حيث المؤلف - من وجهة نظرها - قد اتجه إلى اللون الأسود القاتم ليرسم به ملامح شخصياته وتنازل طواعية عن ثورة التوهج التى تبعثها تناقضات الألوان.. بما يجعل تلك الرؤية الأحادية المغلقة تتنافى تماما مع مفاهيم الجدل والحوار ، ومع الطبيعة النسبية للوجود). أما اتجاه المقال فهو واضح تماما فى مطالبته للكاتب - أى كاتب - أن يبعد عن العدمية والتشاؤم وأن يكون متفائلا !! وهو حق تدعيه الكاتبة للنقد فيما هو لا يملكه ولا يمكن للناقد إذا أراد أن يكون موضوعيا أن يدعيه. ذلك لأن أولى شروط الموضوعية فى النقد هى رؤيته للعمل الفنى «كما هو على حقيقته».

أم عن «غيبة الصراع الحقيقى» - التى أكد عليها لمقال - فيحمل هذا الرأى نظرة سطحية إلى كنه الصراع الدرامى وحقيقته مثلما يميل إلى تضييق مساحته وقصر نوعه على صنف تقليدى واحد. وبمثله ينسى فن تشيكوف ويتم تجاهله تماما على سبيل المثال. مثلما يفتقد الانتباه إلى حالات مسرحية هى مجرد «عرض درامى» أو «تقليب كاشف» للشخصيات حيث تصبح كل واحدة منها هى «دراما بوح» أو «إفضاء» لكل منها توتره الخاص. مثلما يرسم اجتماعها لوحة تتناثر على مساحتها مجموعة من «التوترات الفردية» وتستقر كى تصنع توترا جامعا تنوء فيه كل منطقة - أو شخصية - بما تحمله من هم وعجز وخجل وطيبة وشر وخير وفساد وصلاح بدرجات متفاوتة . مثلما ترزح تحت وطأة ما تخبئة وتخاف أن ينكشف ، وما تكشفه وتخشى أن يجرها إلى هتك سرها أو دفع تاريخها إلى لحظة الافتضاح!

ومن هنا لا يجب أن تؤخذ «تقنيات السرد» على أنها نقيصة أو تعامل باعتبارها مثلباً. وإنما ينبغى أن توضع الملاحظة فى مكانها وتطرح على صيغة الضرورة التى أوجبتها والنسق الفنى المتقبل أو الرافض لها. وإلا أصبحت كل تقنيات السرد فى الدراما مرفوضة وفقا لهذا المنطق وحكم على تقنيات الدراما ولغة الحوار فى القصة أو الرواية بكونها خطأ وجريمة. وهو ما نظن النقد العالم متعاليا عليها لا يقع فيها أو هكذا يجب أن يكون. ومن هنا أيضا ينبغى أن ينظر إلى ما أصاب العرض من تفكك أو ترهل باعتباره إطلالات وزوائد تأخر اكتشافها فى التدريبات وجلسات العمل بين المخرج والكاتب مثلما مررها الممثلون طواعية وعن رضا. فأى الممثلين يرفض أن يترك ليقول وأن يعزف فينفرد؟؟ خاصة إذا كان ما يقوله دافئا وحميما ومؤثرا .

وعلى ذلك يجب أن يحاسب المخرج - صاحب العرض - لتردده فى استعمال المقص. ذلك التردد الذى يصيبه فى مقتل اسمه «الايقاع» فيثبطه ويهبط بتوتره وانتظامه. وفى هذه النقطة لصاحبة

المقال الحق فيما أبدته من نقد.

استنكار لائق

فإذا انتقلنا إلى مقال الأستاذ مهدى الحسيني وضعنا أيدينا على رؤية واضحة منه لمفهوم صراع الأجيال . لكنه لا يلبث أن يفترض - هو الآخر - أنها مسرحية عنه أو يظن أن الكاتب أراد ذلك ! ومع أنه قد انتبه تماما لمقصد «العرض» الذى أراده الكاتب من العمل، إلا أنه أراد له أن يكتب كما يريد هو لا كما أراده صاحب العمل وابتغاه . ولذا فهو يركز فى العمل حين ينعى عليه «تركيزه على هذه الجزئية المشوهة واجتهاده أن يجمعهم فى بلاج واحد ومسرحية واحدة .. «مثلما يستنكر عدم وجود شخص أو شخصين صحيحين يشكلان نقيضا دراميا لهؤلاء الفاسدين الذين اكتفى المؤلف بتقديمهم؟! وهو استنكار يليق بأى شخص وأى لسان سوى شخص الناقد المسرحي ولسانه . فليست مهمة الناقد - كما يعرف - هى تحقيق التوازن الاجتماعي واستيفاء تمثيله فى العمل الفنى الدرامى. ويكفى أن أحيله على «الآنسة جوليا» ليتذكر نوعية البشر الذين عرضهم أوجست سترنبرج الكاشف لأغوار النفس الإنسانية فى فسادها وعدم استوائها دون تقيمه أطرافا أخرى توازن هذا السقوط أو تعادله! فتلك صنعة الكاتب وخياراته وليس لنا على خياراته تبديل وإنما أن نبدأ فنرى من حيث انتهى وفرغ من عمله . وأن نقل عدم الاتفاق الفكرى معه ليس باعتباره نقيصة تستدعى الحرب وإنما خلاف يحتمل الحوار ويغرى بالمناقشة!

ولذا نرى فى هذا المقال نوعا آخر من الحكم غير المفصل أو المثبت على هبوط المسرحية حيث يقول. «إذا كانت النوايا المسرحية - كما استنتجناها - تحكى قصة عاهر بدأت حرفتها فى مرحلة الستينات (المجيدة) وتحولت بفضل مهنتها إلى نوع رخيص من سيدات الأعمال (تملك بعض العقارات وتأجير المفروش والسمسرة وتهيمن على أغلب بلاج الثغر.. إلخ) حيث حاول المؤلف أن يصور من خلالها جانباً من حقبة طويلة مركبة من تاريخ المجتمع المصرى أو فئة من الفئات الطفيلية العالقة بجسده (لم يفلح المؤلف فى هذا المسعى لأنه لا يملك الرؤية الفكرية أو الفنية .. ولا القدرات الإبداعية والتقنية اللازمة لذلك).

«ولكن لم يقدم المصمم سوى مجموعة شاليهات ومبان تطل على البلاج وقام بتغيير هذا المنظر إلى مشهد لقسم الشرطة لا لزوم له».

وهو ما نراه قفزا سريعا إلى الحكم وإطلاقا له دون ما برهنة أو إثبات. لكن ما أثبته عن عدم وجود ضرورة لدورى بائع الفريسكا ينبغى التوقف عنده ليس بالحذف بل بإعادة المعالجة حيث يمثل البائع شاهدا على واقعة الغرق، بينما كان يمكن حذف مشهد قسم الشرطة بكامله والاكتفاء بردود الأفعال على الأهل لولا ولع المؤلف «بموقف الفضيحة» الذى جربه فى مسرحيته السابقة بنجاح مثير. وعلى ذلك يصبح رأيه فى عدم جدوى وضرورة عودة الضابط بالجثث زائدة تمثل عبئا على العمل وترهقه دون أن تضيف له.

ولأن المؤلف لم يقل أن هؤلاء التافهين هم جيل المستقبل فى مصر، فلا نرى



محلا للخلاف إذن بين الناقد وبين صاحب النص، بل هم كما وصفهم «مجموعة مخيبة للآمال معنويا . ومشاريع لشخصيات سيئة كذويهم» إلا واحدة فقط نسى الأستاذ مهدى أنها رافضة وأن رفضها هو بشارة على الوعى ووعد به. وأنها قدمت تقديما صحيحا من أول العمل وما دام قد اعترف بذلك لداليا مصطفى ولدورها فلم التعميم إذن ؟!

لكننا لا نرى رأيه فى البناء الدرامى ولا نوافقه من أنه «يقوم على المصادفة والاعتباطية لا على الضرورة الدرامية، فكأن الشاليهات جاءت بالمصادفة وكان من الممكن أن يأتى بالمصادفة غيرهم من أنواع أخرى وبالتالى يتغير موضوع المسرحية .. إلخ» لأن الدراما فن يقوم على الممكن والمحتمل شريطة أن يصدقه العقل. ومما يصدقه العقل اجتماع مثل تلك الزمرة فى مكان واحد على الشاطىء. وما يصدقه العقل كذلك تكرار حضورهم لهذا المكان واستئجارهم له كل صيف وهو ما اعتادت عليه كثير من العائلات لو ارتاحت إلى مكان! فأى خطأ فى ذلك؟ وأى نقيصة فى أن يتخير الكاتب أشخاصه فيضعها فى مكان أو ينقلها لآخر؟ إن الدراما تبحث عن الدوافع للفعل أى فعل حتى ولو كان غريبا واستثنائيا مادام يصدر عن بشر أو يتوقع صدوره عنهم؟

ملاحظة أخرى حول المذهب الطبيعى الذى زعم أنه منهج صياغة هذا العمل. وهو ما نراه بعيد عنه بالمرة لأن عرض نماذج سيئة لا يعنى الانتماء لهذه المدرسة بالضرورة.

مسرح الفضيحة

فما الذى نراه فى «عز الضهر»؟؟ التى نريد أن ننسبها كسابقتها «الناس اللى فى التالت» لمسرح نسميه بـ «مسرح الفضيحة» حيث ينطوى أكثر من نصف الفصل الأول على كوميديا راقية منتظمة الإيقاع خصصت لعرض واقع الشخصيات سكان المكان والتعرف تدريجيا على بعض من حياتهم الماضية. لكن النصف الثانى يبدأ الثرثرة ليتهاوى التوتر ويكثر الكلام. (كان توفيق عبدالحميد رائعا ملهما خفيف الظل متعاونا مع يوسف داوود فى دويتو رائع بالغ العذوبة والتفاهم).

أما فى الفصل الثانى : فقد أتت معالجة المخرج لمشهده معالجة تقليدية وإن كان له حق فى السخرية من عناصرها المسكينة الجاهلة . لكنه عامل المشهد بحس تهريجى بدلا من تناوله بجدية فاضحة يستحقها دون تدخل منه بقصد الإضحاك. أما الذى أفقد فعل غرق الأولاد مصداقيته وتسبب فى تعامل الفنانين مع هذا الحدث الجلل من السطح فتركوا أنفسهم يمثلون دور من فقدوا الأولاد لا أهلهم الذين فقدوهم بالفعل فيما عدا عمر الحريرى الذى عاش دوره صادقا . وبعد ذلك تبدأ «المحاكمة» التى يعشقها أسامة عكاشة وأدارها فى مسرحيته السابقة بتمكن وعلى صورة فضيحة أيضا قوامها كشف الماضى بتعرية الشخصيات - أو التفتيق لبعضهم البعض كما يقولون جميعا كى تنكشف عفونة الأرض التى يقفون عليها جميعا وفضح فسادها . هكذا يهتكون حقيقة بعضهم البعض! وعندها تبدو توبة زينات سطحية . مثلما يظل الخلاص بعيدا إلا عن الشابة الصغيرة داليا التى مهد لخلاصها وزرع له منذ البداية . أما رد فعل غرق الأولاد فلم يعامل بجدية

ربما لرغبة المخرج فى تغليب المستوى الرمزى بايحاءاته المباشرة فى العمل. بينما تسبب كشفها على هذه الصورة فى ترهل الإيقاع وضياع التوتر - لقد صادر تعميمه عودة الأولاد بغموضها على استخراج المعنى لدى المشاهد. حيث كان من الممكن أن يعودوا بالفعل وتصبح عودتهم نذيرا لجيل مدان يمثله الأهل. وإفاقة لجيل متوسط ضائع يمثله صاصا. مثلما كان من الممكن أن تكون تلك العودة خدعة تمثيلية صنعوها كى ينتبه لهم الأهل أو يحاكمونهم فيرفضونهم. وإنما دون السقوط فى المباشرة كما حدثت .

ومن الصحيح والمنطقى أن بناء وطن على أرض تحولت إلى بركة أو مستنقع لابد وأن ينهار . وأن هذا الماضى مدان - من وجهة نظر الكاتب - وقد تفرغ لإدانته بتكنيك كشف الفضيحة المختبئة تحت سطح العفة المدعاة قد برع فيه عكاشة وكرره لكن تكراره لا يجب أن يمتد إلى عمله المسرحى القادم. مثلما لا ننكر أن الثرثرة فى المشاهد والإفضاءات الطويلة للشخصيات والبوح والمناجاة قد تسببت فى مباشرة وخطابية وقعت فيها مجموعة من الممثلين القادرين والرائعين يحسب تخيرهم للمخرج.

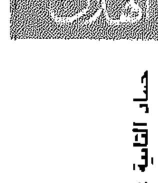
الشكل المسرحى

أما عن المنظر المسرحى فقد أعلن عن تماسكه وتعبيره عن الاختناق والتداخل والاتكاء على بعضه دون ما استقلالية مما يوحى بفهم واضح للنص والبشر والمكان المتخير كى تدور فيه الأحداث. وكذلك الملابس بألوانها وقصاتها أيضا. فيما جاءت الأغانى زائدة - رغم جودة كلماتها إذا نظر إليها منفصلة عن العمل - مقتحمة أو مقحمة تصادر على اكتفاء الاقناع بالدراما بتدخلها غير الضرورى وسيطا بينها وبين عقل المتفرج.

لكن أداء الممثلين كان رائعا فزوجة البواب «فلك نور» ممتازة وعلى عبدالرحيم رائع كممثل كوميدى وكذلك صبرى عبدالمنعم وسامى مغاورى - أما سميحة فكعهدها دائما متألقة متمكنة وقادرة. وكذلك عمر الحريرى بعبق وقفته التاريخية وأدائه السامق وحضوره المعهود على المسرح (أليس هو من قدم رائعة ديستوفسكى الجريمة والعقاب ذات مرة بأسلوب مبتكر لم يسبق إليه أحد؟ لكنها مع الأسف ضاعت فيما أضعناه من ذاكرة المسرح المصرى دون ما حفظ أو توثيق!). أما سلوى خطاب فقد استقرت فى العرض مجددة لشخصية تقليدية، ومشعة لجاذبية حقيقية أدتها بلا افتعال أو حشرجة ميلودرامية رغم ميلودراميتها»!

وبعد: فهل كانت مصر هكذا فعلا؟ لا أظن ولكنها القيادة الفاسدة التى تسببت فى كل ما هو حادث بعد الهزيمة الانفتاح المترف غير المسئول!

بقيت كلمة تتعلق بتصميم العمل تدور حول انتهائه بخطبة ضعيفة ربما كان الأفضل منها هو الانتهاء بالفاجعة . فاجعة الفقد إما نهائيا أو بعودة الأولاد وتفكك هذه العلاقات العفنة بالطلاق والخروج من المخدرات وهجر الدعارة والقوادة . أى بإفاقة حقيقية يشترطها كل شاب أو شابة على ذويه - أو رفضهم الكامل لهم - لكن أما وقد أراد الكاتب تركهم بلا وعى - فهذا شأنه ومن حق الكاتب الذى لم يعتمد للصحوة غير صوت الشابة «داليا» وحدها وعلينا أن نناقش عمله كما أراد له أن يكون.



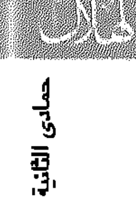
رسالة لندن

المسارح اللندنية اليوم بين الوهم والحقيقة

بقلم
أبراهيم فتحى

يعرض على المسارح اللندنية هذه الأيام كثير من المسرحيات المتنوعة بين كلاسيكية وحداثية وما بعد حداثية وما بعد بعد حداثية، ولكن شكسبير فى عروضه المتباينة وأزياء ممثليه ومنظورات مخرجيه شديدة الاختلاف دائبة التنقل بين العصور والأقطار والتفسيرات نجم الموسم وكل موسم. وتساءلت لو عاد شكسبير إلى الحياة وامتحنته لجنة أكاديمية من اللجان عالية الكعب المتخصصة فى أدبه ومسرحه ، وتعدد قراءاته المتناقضة الاجتماعية والسيكولوجية والاسطورية والسيمبولوجية والثقافية لطردته اللجنة باعتباره لا يستحق إلا ما تحت الصفر فى الفهم العميق «للبنى العميقة» لتراجيدياته وكوميدياته. فهل توجد قراءة ممتازة لمسرحياته تصل إلى «حقيقتها» العارية من الزيف؟
(على المسرح القومى عام ١٩٩٨ تعرت الممثلة الشهيرة هيلين ميرين فى دور كليوباتره داخل المسرحية الشكسبيرية «انطوني وكليوباتره» فهل كان ذلك وصولا إلى حقيقة الملكة المجردة أو دون أى ضرورة كما تقول الممثلة إلا ضرورة الخضوع لمقتضيات بيع المسرحية كبضاعة؟).

وبعد شكسبير تعرض لندن فى أسابيع ممتدة ثلاث مسرحيات لتشيخوف: الشقيقات الثلاث، بستان الكرز، والخال فانيا، وقد شاهدت الأولى والثانية والكراسي ممتلئة والحجز مقدما. وما تقدمه المسكوكات المطبوعة مع برامج العرض والمكررة فى المراجعات الصحفية لا يخرج عن تفسيرين لمجمل أعمال تشيخوف: الأول تجسيد لحياته «قل الأشياء البسيطة ببساطة»: نحن نعيش ونعمل ونعانى ثم نموت لنصنع حياة أسعد للآخرين فى المستقبل، ولكن هذا الأمل يخالطه يأس ما من الحاضر لأن الحب والسعادة سيواصلان مراوغة الذات



الفردية ، فهل هذا » بسيط بما يكفى وهى قالته أعماله ببساطة؟) والتفسير الثانى الذى يبدو متناقضا مع الأول وإن يكن معتمدا على منطقه ليصل به إلى نفس النتيجة.

مسرح تشيخوف

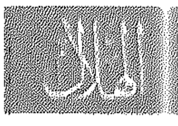
يعتبر مسرح تشيخوف معاديا لكل أنواع التبسيط ولا يتضمن رسالة من أى نوع فهو يحاول دائما البحث عن شىء ما والإمساك به على الرغم من أنه يعرف أن هذا الشىء لا يمكن أبدا الإمساك به. وما هو هذا الشىء؟ إنه «الحقيقة». ويصبح تشيخوف إذن - بكل يقين - عدوا لليقين . والتفسيران يصلان إلى «حقيقة» واحدة عن طبيعة الوجود الإنسانى الثابتة التى لا مخرج منها. وعلى الرغم من هذه الضحالة الفكرية التى تقيم سورا لا يمكن تخطيه بين الحقائق النسبية الجزئية اليقينية فى الطبيعة والمجتمع وبين إمكان تعميمها فى مستويات لا تنتهى من النفاذ إلى الحقيقة فإن تشيخوف الفنان والطبيب لم يكن من القائلين بحقيقة مطلقة عن الكون والإنسان.

كان يؤكد الشقاء الإنسانى الرازح على زمنه وبلده وإمكان أن يحقق البحث المتواصل أهدافا متزايدة، وكان يحلم بإمكان عالم لا يموت الناس فيه بالجملة من السل (كما مات هو) ولا تنسحق أجسادهم وعقولهم وعواطفهم تحت حوافر وغارات فرسان الرب وسوقة البوليس الفكرى وحقائقهم (أكاذيبهم) المطلقة.

ويبدو أن تصورا رئيسيا ونغمة مهيمنة تشغل الناس ويستجيب لها المسرح فى بريطانيا اليوم، عن حقيقة مرحلة حرب دائمة ضد الإرهاب ومن أجل حرية المواطن وسعادته واشباع رغباته المنطلقة وأمنه. فما هى حقيقة الأخيلة الإعلامية عن الواقع التى يخشى بها الأفراد؟ وما هى العلاقة بين الذوات الإنسانية وصورها عن أنفسها وامكانات تحقيق سعادتها ومتعتها . أى ما هى العلاقة بين الأخيلة الجمعية والفردية من ناحية والواقع الخارجى والداخلى أو حقيقته من ناحية أخرى وهل توجد حقيقة؟

وننطلق إلى مسرحية كلاسيكية «حداثية» للكاتب الإيطالى لويجى بيراندللو (١٨٦٧ - ١٩٣٦) هى مسرحية «أنت على صواب إذا اعتقدت أنك كذلك». وقد ترجمت وأعدت من جديد بالإنجليزية بعنوان مختلف هو: إطلاقا (ربما).

وتختلف تجربة قراءة هذه المسرحية كنص أدبى عن تجربة مشاهدتها متجسدة على المسرح مؤداة معاداً تفسيرها لتطل بمستوى من مستوياتها على أيامنا. وقد كتبها بيراندللو وبلاده غارقة فى نيران ودماء وجثث الحرب العظمى التى دارت مذابحها فى أوروبا والشرق الأوسط. وكانت إيطاليا جزءا من «الحلفاء» الديموقراطيين (بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية ثم انضمت اليهم الولايات المتحدة) ضد معسكر الاستبداد (القيصرية الألمانية والإمبراطورية النمساوية المجرية والخلافة العثمانية) . وكانت «الحقيقة»



التى يموت من أجلها فلاحو وعمال بلاده البائسون العاطلون هى «التحرير» والديموقراطية فى آوروبا والشرق الأوسط. مجزرة مباركة من أجل الحرية والقيام بمسئولية الرجل الأبيض تجاه الشعوب المتخلفة عن طريق الإطاحة بمستبدى الخلافة العثمانيه الذين يضطهد منهم فى الخليج والعراق وسوريا وفلسطين ولبنان ومصر، ونشر الليبرالية الاقتصادية والسياسية بعد اقتلاع جذور «البطش الإسلامى وعقلية القرون الوسطى» ومن يقرأ رواية «وداعا للسلاح» لهمنجواى عن إيطاليا أيام كتابة بيراندللو لهذه المسرحية لا يشك فى «حقيقة» آلاف الجثث المتعفنة والرءوس المقطوعة والأطراف المبتورة والبطون المبقورة وفداحة آلام الخراب والبؤس وراء أناشيد ومارشات وملصقات وشعارات المجد والليبرالية وحرية التجارة وانقاذ الشعوب المقهورة. ويقول بيراندللو فى خطاب لابنه عن هذه المسرحية (١٧ ابريل ١٩١٦) «الحياة تبدو الآن أكثر فأكثر مثل سلسله صور كابوسية محمومة من الأوهام الضخمة المندفعة المتلاحقة، مثل صور كوميدية مجنونة»، ويكتب لابنه فى ١٨ ابريل ١٩١٧ عن هذه المسرحية إنها «أمثولة (أى مصممة لكى تنقل تصورا عاما أو نموذجا إيضاحيا مجازا لا يقف عند واقعية الجزئيات) أكثر منها كوميدية، مسرحية شيطانية من الفكاهة الطائشة المتهورة الماكرة الفارغة إلى الإزعاج».

وأمامنا على الورق «حالة» عائلة مكونة من زوج وزوجة وأمها، هاجروا إلى المدينة الجديدة بعد أن دمر «الزلزال» مدينتهم الأصلية وفقدوا كل أقاربهم وجيرانهم وأحباءهم وممتلكاتهم وأشياءهم الخاصة، وبطبيعة الحال فقدت العائلة المستندات الرسمية لهوياتهم وهويات أهلهم من شهادات ميلاد وعقود زواج وشهادات وفاة و... ولم تستطع العيش إلا بفضل مهارات الزوج العملية التى آهلته للالتحاق بوظيفة لدى المستشار الذى تدور المسرحية فى شقته العائلية، وهى تقع بجوار المسكن الذى وضع فيه الزوج حماته بعيدا عن مسكنه مع زوجته. ولا تزور الأم ابنتها فى مسكنها بل تقف تحته وتخاطبها ويتبادلان الرسائل بواسطة سلة تنزلها الزوجة وترفعها. ويقوم الجيران المحترمون وهم من النخبة المثقفة فى الفصل الأول والثانى ومعهم أهل المدينة وعمدتها فى الفصل الثالث من النص باقتحام حياة الحماة والزوج فى الفصلين الأولين والزوجة فى الفصل الثالث متسائلين مستجوبين. ومن الطبيعى فى وضع العائلة المنكوبة أن يعصف «الزلزال» بذاكرتهم عن الماضى وبأن يفرض عليهم اللجوء إلى شرانق هروبية تشبه الهلاوس يخدعون بها أنفسهم على المستوى الفردى ليستطيعوا مواصلة الحياة بعد فقدان معظم ما كان يشكل لهم معنى الحياة. فالزوج يتخيل أن زوجته الأولى ابنة الحماة ماتت فى الزلزال وأن زوجته الحالية ليست ابنة الحماة «المجنونة» لذلك يفصل بينهما رغم المشقة فى النفقات، والحماة تتخيل أن ابنتها حية وأنها هى الزوجة الحالية للزوج «المجنون» وتتظاهر بمجاراة أوهامه فهو حنون ملتزم بها وبابنتها.

الأخيلة الجماعية

ولا يركز بيراندللو على الأخيله الفردية وحدها وأوهامها عن الواقع والهوية الذاتية بل على الأخيلة الجماعيه ، أيضا كإطار تدور فيه الألغاز . فالأخيلة الجماعية المقرة المقبولة التى يبثها أصحاب النفوذ الاجتماعى والسياسى والإعلامى عن صورة النفوذ الاجتماعى والسياسى والإعلامى عن صورة العائلة وقواعد اللياقة والسلوك قد تكون نابعة من الفهم المشترك الراكد والرأى العام المصنوع والذوق السليم المعلب ويومىء مفارقات الحوار الفكاهية عن تناقضات هذه الأخيلة مع السلوك الفعلى للنخبة المحترمة وعن هشاشتها . ولكن هذه الأخيلة الجماعية تقدم القوالب التى تصب فيها النخبة الهويات الذاتية للأفراد داخلها وخارجها ، وتقوم «بتأليفهم»وهذه الأخيلة الشائعة المتداولة تتحول إلى ضغوط عملية واقعية تدفع الزوج إلى محاولة ترك المدينة ليقع فى بؤس مجهول ، ولها نتائجها «الحقيقية» المدمرة على حياة الأسرة ، تحاصرها وتجرحها وتدميها . وفى هذه المسرحية لفت بيراندللو أنظار الممثلين فى أول عرض إلى «الكلمات الأخيرة التى تحوى أعمق معنى لها، وهى الكلمات الموضعة فى فم الزوجة الممتلئة بالحيوية، إنها رمز الحقيقة، وهذه الكلمات الأخيرة ملغزة . فهى تقول عن ذاتها أنها تجمع معا تخيلى الأم والزوج اللذين ينفى كل منهما الآخر، هى الابنة الحية كما تدعى أمها، وهى زوجة ثانية بعد وفاة الابنة الميتة كما يدعى زوجها بل هى فى حقيقتها الداخلية الذاتية ليست هذه ولا تلك ولا احد على الإطلاق هى كل ما يتخيله الآخرون عنها وليست كذلك فى الوقت نفسه . وتذكرنى هذه القفلة المسرحيه «بشهر زاد» لتوفيق الحكيم (رمز الحقيقه)، فهى عقل كبير كما يتخيلها شهريار وقلب كبير كما يتخيلها الوزير قمر وجسد شهى كما يتخيلها العبد الأسود وستظل مرندبة قناعا يخفيها

الهلاوس وفضح التصورات الرائجة

والتفسير المعتمد لأعمال بيراندللو يؤكد أن الواقع الخارجى لا يمكن معرفته وأن الفرد الإنسانى وحيد منعزل دون إمكان للفكاك وهناك إلى الأبد توتر بين الظاهر والباطن . وحاجز لا يمكن تخطيه يفصل ظواهر الأحداث والذوات الفردية عن جوهرها الحقيقى الذى سيظل محجوبا خفيا .

ويصور نص المسرحية الهلاوس الشخصية للزوج والحماة من خلال منظور خداع النفس الجماعى، ويستخدم التحولات المفاجئة المثيرة غير المتوقعة تباعا ، وتدمر كل منها حقيقة كانت مقبولة وتدخل الشخصيات وتخرج وقد ازدادت الحيرة والشك . ولا يظهر أهل المدينة كامتداد لتخيلات العائلة المحترمة إلا فى الفصل الثالث والأخير ليؤكدوا الحيرة والشك، والخداع الشامل للتفسير، ومن ناحية الفكرة الفلسفية تبدو المسرحية ومعظم أعمال بيراندللو ، ذات وجهين متناقضين ، فهى تزيل التعمية وتفضح التصورات الرائجة المتداولة عن الواقع وقواعد السلوك وطبيعة الذوات. ولكنها

كما يقول ريموند ويليامز بعد أن تزيل ما في التصورات المطلقة من تعمية تفرض تعمية مطلقة مؤكدة استحالة الوصول إلى أى حقيقة. وكيف نصف بعض الأخيلة بالوهم والخداع إذا لم تكن لدينا فكرة ما عن بعض الحقائق؟. ومن الواضح أن المواقف والأوضاع في هذه المسرحية وفي غيرها - إلغاء الزلزال لأى طريقة أو أثر للكشف عن هوية الشخصيات حتى من ناحية أسمائها وميلادها وموتها مفتعلة التخطيط التجريدى لتؤدى المقدمات المفروضة تعسفا إلى النتائج الموضوعة مسبقا في هذه المقدمات ولكن هذه المسرحية وغيرها من الناحية الفنية في حدود «عالمها الخاص» تجسد ما يقوله بيراندللو من أن الحياة في هذا العالم المحدود مهزلة ماجنة محزنة وهو ولوع بهذه المفارقات فأول ديوان له عنوانه الفرحة المؤلمة بمعنى مختلف. وهذا العالم من الممكن أن يكون عالمنا. وفنه كشيف التعاطف الحافل بالمرارة مع هؤلاء الذين فرض عليهم «القدر» البغيض (السياسة والتركيب الطبقى وسيطرة الميديا؟) الحكم بخداع الذات. وقد عاش بيراندللو معاصرا لحكم موسوليني منذ بدايته عام ١٩٢٢. ونال جائزة نوبل وهو مشمول برعاية الفاشية مديرا لمسرح روما (عام ١٩٣٤) تطوف مسرحياته بالعواصم الهيموقراطية وقد لاقى انقلاب موسوليني ترحيبا كبيرا من تشرشل باعتباره انتصارا عظيما ضد البلشفية. وكانت الثقافة الليبرالية في بريطانيا والولايات المتحدة تشيد بحزمه ضد مطالب العمال واضراباتهم ونقاباتهم، وفي الكتاب الكلاسيكي لحنا ارندت عن «الشمولية» ترفض الكاتبة اعتبار موسوليني أو الفاشية الإيطالية مندرجين تحت تصنيف الشمولية. ولم يبدأ تغير الموقف إلا بعد تهديد مصالح الامبريالية البريطانية في أفريقيا بغزو موسوليني للحبشة (لتحرير شعبها من استبداد وبشاعة حكم الامبراطور هيلاسلاسي ووحشيته!!). لقد كانت الفاشية الإيطالية ذات الشعبية الجارفة من أكبر عمليات الخداع الجماعي للذات، ومصنعا للأوهام الوبائية الرائجة وتحويل الواقع إلى مسرحية هزلية شديدة المرارة بالملابس الرومانية والموسيقى الصاخبة. لذلك كان التساؤل عن الوهم والحقيقة شديد الحدة.

أما العرض المسرحي الحالي في لندن «لإطلاق ربما» فيخرجه ويصمم مناظره المخرج الإيطالي العالمي فرانكو زيفيريللي القادم من بلد تشترك حكومته في الحرب الدائمة على الإرهاب. ورئيس هذه الحكومة السنيور برلسكوني من «أكبر ملاك الميديا التليفزيونية والصحفية ومن صناع صور الحقيقة المطلقة» من العالم والذوات الفردية اليوم وكان حزبه متحالفا مع حزب الفاشية الجديدة بزعامة حفيدة موسوليني. ومن المعروف أن زيفيريللي كان من تلاميذ فيسكونتي ومساعده في إخراج أفلام بيلليسما (مدينة السينما) وسنسو (الحواس) وتيرا تريما (الأرض المزلزلة). وقد أخرج في إنجلترا مسرحيات شكسبيرية متعددة كما أخرج في السينما أفلاما شكسبيرية عالمية النجاح: ترويض المتمردة (اليزابيت تايلور وريتشارد

بيرتون)، وروميو وجوليت وهاملت . وتعرض إطلاق ربما على مسرح ويندام العريق الذى رعى بدايات بيتر أوستينوف وديرك بوجارد وديانا ريج وفانيسا ريدجريف كما قدم مسرحيات أرثر ميللر وإدوارد ألبى. وممثلو المسرحية وممثلاتها: جوان بلورايت وأوليفر فورد ديفير. والبقية لهم انجازاتهم الباهرة . وقد لاحظت أن هذا المسرح الممتلىء حتى الحافة بالمشاهدين والمشاهدات لا يضم إلا أقل القليل من الشبان والشابات (هل يرجع ذلك إلى أن لهذا المسرح رواده القدامى الدائمين؟) على العكس من غلبة الشباب فى عروض تشيخوف والبير كامى ومصمم (كاليجولا) وفى العرض المسرحى أعطى زيفيريللى (المخرج ومصمم المناظر) لأهل المدينة بخلاف النص حضورا بارزا منذ البداية وجعلهم يحيطون بالشقة العائلية المحترمة من الجانبين كأنهم منفرجون فى مسرح مكشوف وجعل بعضهم يتكلم من الصالة ويقول إنه جعل المتاهة والضياع فيها بين الاتجاهات المتعاكسة والحواجز بمكانة الاستعارة المركزية للمسرحية بالنسبة للعائلة المحترمة.

أما العائلة المنكوبة من الزوج والزوجة والحماة فقد وضعها داخل دائرة متخيلة لا يستطيع الآخرون النفاذ إليها . ولكن مقتضيات النهاية السعيدة التجارية جعلت المخرج يضع العائلة التى كانت منكوبة (ولا شىء حدث يمكن أن يخلصها من نكبتها) فى أعلى المسرح ملتصقة معا تلتف أذرع أفرادها حول الحضور فى حالة من الابتسام كأنها ستترك فى حالها رغم العلاقات المستمرة التى تفرض الخداع والأكذوبة . إن اجتماع شمل العائلة الذى أضافه المخرج على النص يمزق نسيج المسرحية . ويجعل من إشكال الوهم والحقيقة الذى هو محورها مسألة جانبية يمكن التغلب عليها بتجاهلها وبعدم التدخل الفضولى فى شئون الآخرين .

ويبقى التساؤل عن «الحقيقة» وراء وابل المظاهر والصور المزيفة من الأخبار المتلاعب بها التى تمثل لأهل المدينة وكل مدينة اليوم حياتهم التى يتفرجون عليها ، وحياة الآخرين وأحداث العالم وزلازله .

كاليجولا : البيركامى حقيقة العالم وحرية الذات

وعلى مسرح دونمار تعرض مسرحيه كاليجولا فى ترجمة جديدة إلى الانجليزية تراعى إملاءات التمثيل أكثر مما يراعى الأصل الفرنسى البلاغة الأدبية بقلم ديفيد جريج. والمترجم مؤلف مسرحى شارك فى تكوين فرقة الثقافة المشبوهة عام ١٩٩٠ ، وكتب ضمن ما كتب مسرحية كانديد موديل عام ٢٠٠٠ (وهى معارضة ساخرة لرواية فولتير حسب الاسم ، عن الرجل حسن الطوية الذى يؤمن بفلسفة أن عالمنا أفضل العوالم الممكنة ، من حيث حرية الفرد التى تندمج فى تناسق العالم وعقلانيته رغم الحروب والمذابح والكوارث). ومخرج كاليجولا هو مايكل جرانديج مخرج أعمال شكسبير وبرنارد شو . والبطل هو الممثل مايكل شين وفى سجله انظر إلى الوراء فى غضب (أوزبورن) وأماديوس (بيتر شافو) وبيرجنت (إبسن) وأفلام كثيرة . والبطولة النسائية (المخطبة) لديانا كنت وقد مثلت حلم ليلة

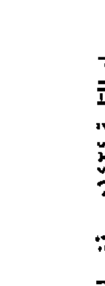
صيف لشكسبير ، وعن الفئران والناس لشتاينبك وفى مسرحيات معاصرة وأفلام وعروض تليفزيونية .

وما معنى القراءة الجديدة والإخراج الجديد لكاليجولا ، إن الاسقاطات على الحاضر شديدة الوضوح . فالملابس معاصرة والامبراطور يشعل السجائر من ولاعته .. وهو فيلسوف على الطراز الوجودى . وفى البداية يختفى أياما وبعد أن كان لعبة خالية بين أيدى الأرستقراطية فى الامبراطورية يعود متمردا . فقد أدرك «حقيقة ما بعد موت أخته عشيقته ، حقيقة بسيطة مبتذلة عن لا معقولية الوجود الإنسانى . وهى مثل التعليقات الاختزالية على مسرح تشيخوف منحصرة فى أننا نموت وأننا غير سعداء . ولكن الناس لا يفسدون غداءهم أو عشاءهم بسبب هذه الحقيقة ويواصلون التعايش معها غير أنها تغضب كاليجولا لأن الناس يخدعون أنفسهم وهو يريدهم أن يواجهوها . فإذا لم يستطيعوا ذلك بأنفسهم فإنهم يحتاجون إلى أن يعلمها لهم . إنه مثالى يريد رغم بشاعة الحياة الإنسانية أن يتمسك الناس بالقيم العليا ولذلك فهو فى طريقه نظرا للإخفاق المحتوم إلى أن يصبح كليا (مستهزئا بكل القيم محتقرا للطبيعة الانسانية) . إنه يكتشف منطقاً عقلانياً متسقاً لا معقولية الامبراطورية فبما أن الأولويات الأولى فيها للخزانة والمال والاقتصاد والقانون والنظام والدفاع والسياسة الخارجية وعظمة روما (واشنطن / لندن) فإن الحياة الإنسانية تصبح ثانوية . لذلك سيعرض على أصحاب المال ألا يورثوه لأبنائهم بل للدولة . وبما أن الحاجة للمال من أجل الامبراطورية والدفاع مأسة فيجب أخذه عنوة من الأثرياء وإعدامهم عشوائيا (فالجنود يقتلون بالجملة) أو حسب حروف الهجاء فكلهم سفلة . أليس ذلك أكثر أخلاقية من النظام السائد الذى يسرق المواطنين سرا بفرض الضرائب على الخبز والضروريات ومادامت كل الحكومات تسرق فستقوم حكومته بسرقة من يملكون جهرا . ومادامت حياة الناس فى النظام الامبراطورى بلا قيمة فقد قرر أن يكون إمبراطورا منطقيا ، فيستأصل التناقض (المعارضة) وكل من يعارضون . فهل هو لا معقول ؟ وهل منطقه جنونى ؟ إنه يؤكد أن هذا هو المنطق الإمبراطورى .

تراشق فكري

لقد فهم أخيرا وظيفة السلطة المطلقة فهى تعطى المستحيل فرصة الوجود فلا حدود لحرية من يتمتع بها . وهو يقول للكاتب إنه لا يحب الكتاب ولا يتحمل الطريقة التى يكذبون بها ولا فرحتهم بعمق أفكارهم . ولو أصغوا مدة إلى أنفسهم فقد يدركون مدى تفاهتهم . ويطرده في اشمئزاز ولكن الكاتب يرد عليه بأن كذبهم غير مقصود وأنه برئ . ويؤكد كاليجولا أن الكذبة ليست بريئة قط . والكذبة المميزة للكتاب هى تمثيل الوجود كما لو كان له أى معنى . وهى كذبة لا يغفر لها . وفى هذا التراشق بالأفكار يقول الكاتب إننا لابد أن نعطى معنى للعالم لأننا مضطرون للعيش فيه . ويؤكد كاليجولا أن القضية مرفوضة فالوجود بلا معنى . وما لم تتحقق من ذلك ستكون عبدا له وهو يكره الآخرين جميعا لأنهم عبيد برغبتهم . ويصرخ أنه الإنسان الحر فى الامبراطورية كلها . ويطلب الهتاف له ثلاثا . فأخيرا جاء الامبراطور الذى يريد أن يحور الجميع .

ويأمر الكاتب بالذهاب ليخبر العاصمة أن حريتها ردت إليها وسيرى إذا كانت نستطيع أخذها ومن الواضح التناقض فى هذا الهذيان الفلسفى فالذى يصدر حكما بانعدام المعنى يفترض أنه يتعرف على المعنى أو يستطيع معرفته ، يفترض معرفة كيف يكون موجوداً لكى يحكم بعناية . والحرية هنا هوس بخرافة مماثل لأى هوس عدمى آخر لأنه يذوق الظلام بلسانه ويبدو الناس جميعا له مقززين فكيف يدعى مرارة تلك العملية ، عملية أن يكون إنسانا خارج الإنسانية ومعاديا لها . ولماذا لا يعطى بقوته فرصة للممكن ؟ فما جدوى القوة عنده إذا كان لا يستطيع تغيير طريقة الاشياء في الوجود ؟ وما فائدة السلطة إذا كانت لا تستطيع أن تجعل الشمس تغرب فى الشرق ، أو أن تلغى المعاناة أو تجعل الناس لا يموتون . إنه يطمح لأن يكون فوق جومبيتر وأن يفتح مملكة المستحيل . وسيعطى القرن الجديد هدية اللامعنى (عاش كاليجولا من ١٢ - ٤١ بعد الميلاد ، وكان امبراطورا من ٣٧ - ٤١ ميلادية فأى قرن جديد فى النص ؟ ذلك إسقاط على أيامنا ؟ وهو يرفض الحب ويقول كبعض الامبراطوريين فى عالم اليوم هناك الخزانة وحدها . وأنا حى والحياة هى نقيض الحب وسأدعو إلى حفلة جميلة بلا نهاية . وموضوعها استعراض محاكمة واريد مشاهدين وبطبيعة الحال يحتاج إلى ضحايا والى المذنبين . ويطالب بإحضار المذنبين . كل الناس يدينون المذنبين . ولابد من قضاة وشهود ومتهمين وهو سيجدهم جميعا مذنبين ويحكم عليهم بالإعدام غيابيا . وسيريهم تبينا عجباً الرجل الحر الوحيد فى العالم . ويشبه كاليجولا فى بعض ملامحه الصورة الشخصية الرائجة التى يقدمها المجتمع الاستهلاكى للشباب ؟ الحيوية والطاقة وكثافة المتعة وتنوعها وتجددها والفردية والعدوانية المقتحمة وبعض السادية فالحياة قصيرة وكلما احتدمت المتع المستحيلة وتعمقت أصبح الشعور بزوال الشباب والشيخوخة والموت حقيقة فاضحة . وهبط العبث واللامعنى على كل شئ . فالحرية هى وهم تجاهل الضرورة وقوانين العالم والقيم الجماعية وسرعان ما تصطدم بعجز القدرة الفردية المشبوهة عن تعبير نظام الكون أو المجتمع . ويقول الناقد تيد فريمان إن كاليجولا عندما فهم حتمية موته وضآلة قدرته على فهم العالم أو على جعله متسقا معقولا يندفع متهورا فى عصيان مدحه ضد عالم يستطيع منحه أشد المتع الجسدية كثافة ثم بطرحه أرضا جاعلا كل متعة مللا . ويبدو كاليجولا ممارسة نوع من الجماع المتقطع مع جسد العالم ، مع أوهام من طبيعة العالم وطبيعة ذاته . فالعالم غريب معا والذات الانسانية بلا ماهية ولا أساس ثابت والتمرد عبثى بلا هدف ولا مضمون . وفى فقدان حس الواقع تتفتت الذات الداخلية . ولكن الإخراج الجديد جعلنا كمتفرجين لا تطابق بين أنفسنا ومأزقه ، وجعلنا نسخر من الامبراطورية . والسلطة المطلقة والعدمية ونتوق إلى البحث عن حقائق العالم والفن . ■



النديم والأفغاني

في القفص السلطاني

بقلم
د.عبد المنعم ابراهيم الجميعي

بعد هزيمة العرابيين ظلّ عبدالله النديم مختفيا عن أعين السلطة والانجليز حوالى عشر سنوات، وبعد القبض عليه نفى إلى يافا بفلسطين حيث استضافة «السيد على أبو المواهب» مفتيها لمدة شهر، ثم اتخذ النديم لنفسه دارا أصبحت مقرا للأدباء والعلماء هناك وخلال ذلك تطرق حديثه إلى مصر وإلى المساوىء التى سبَّبها الاحتلال الانجليزى لها، كما تعرض لسياسة الدولة العثمانية فأخذ ينتقد السلطان الذى أعلن عصيان عرابى إرضاءً للانجليز وما أن بلغت السلطان أقواله أمر بإخراجه من يافا وإبعاده عن كل البلاد التابعة للدولة العثمانية ومنها مصر فتأزم الموقف بالنسبة للنديم وظل حائرا لا يدرى إلى أين يتجه، فأرسل إلى الاسكندرية حتى تقرر الحكومة أمرا فى شأنه، وخلال ذلك قابله «الغازى مختار باشا» مندوب السلطان وشجعه على السفر إلى الأستانة وسعى له فى ذلك .

ولما كان من سياسة «السلطان عبدالحميد» فى تلك الفترة استرضاء أرباب الأقلام وذوى الأفكار الثائرة واستمالتهم، ثم التحفظ عليهم فى الآستانة حتى يكونوا على مقربة منه وتحت سمعه وبصره ليتقى مهاجمتهم له ويضمن تأييدهم لسلطته الزمنية، ويعزز بهم مكانته ويوطد سيطرته خاصة أنه تمسك بحقوقه فى الخلافة على أساس أنها تضفى عليه نوعا من القداسة، وساعده على تحقيق مبتغاه نمو الحركة الاسلامية التى يتزعمها جمال الدين الأفغانى. فقد صدرت الأوامر السلطانية بسفر النديم إلى الآستانة، وهناك نال الحظوة لدى المقام السلطانى وتعرف على كثير من الوزراء وأرباب المكانة العلمية، ولكنه اختص بالملازمة والصحبة «جمال الدين الأفغانى».

وخلال ذلك دخل النديم القفص السلطانى بعد أن سبقه إليه أستاذه الأفغانى حيث تجمد نشاطهما، وتكاثرت العيون حولهما.

لقد كان قفص الافغانى ضيقا ولكنه من ذهب حيث كان يعيش فى مظاهر خداعة من عطف السلطان الذى كان يحترم الأفغانى وفى نفس الوقت يخشاه ويراقب خطاباته، ويختفى وراء ستار لملاحظته. أما قفص النديم فقد كان واسعا من حديد إذ كانا يختلفان بمقدار خطورة كل منهما على السلطان وبمقدار مكانته وحسبه ونسبه فالأفغانى يتقلد رياسة العمل فى سبيل الدعوة للجامعة الإسلامية، وينزله السلطان فى دار ضيافة خصه بها ويجرى عليه الأرزاق الوفيرة، ويضع تحت تصرفه عربة وخدما وحشما، ويعرض عليه مشيخة الإسلام فيأبى. أما النديم فلا خدم ولا حشم فهو من الشعب وابن الشعب وخادمه.

وفى جو كبت الحريات والإحاطة بالجواسيس اتصلت أسباب الالفة وتمكنت روابط الاتحاد حسا ومعنى بين كل من الأفغانى والنديم فكان لا يصبر أحدهما على فراق الآخر، ولا يطيب له مجلس إلا إذا كانا فيه معا. فقد كانا شريكين فى مصير واحد هو قفص السلطان فجمعت بينهما المحنة والغربة.

عاش النديم فى الآستانة معطل المواهب فلا خطابة ولا كتابة ولا تهييج للأفكار ولا تحميس لأحد وهو الذى لم يعرف للهدوء طعما، فأصبح فى وسط يكاد يختنق فيه، لا يفرج عنه إلا مجلس صديقه الأفغانى يتحادثا ويشكو كل منهما للآخر تعذيب روحه الحبيسة فى القفص. وقد بلغ تعلق الأفغانى بالنديم وجميل اعتقاده فيه أن أصبح وأمسى يعجب بقوة حجته فى المناظرة والجدل وسرعة بديهته فى التحرير حتى صرح في عدة مجالس بأنه ما رأى مثل النديم طول حياته فى توقد الذهن، وصفاء القريحة، وشدة العارضة ووضوح الدليل، ووضع الألفاظ وضعا محكما بإزاء معانيها إن خطب أو كتب.

المبارزة الفكرية بين النديم وأبو الهدى الصيادى

والجدير بالذكر أنه كان يوجد بحاشية «السلطان عبدالحميد» فى ذلك الوقت رجل له أهمية فى التاريخ لهذه الفترة وهو «أبو الهدى الصيادى» الذى وصل نفوذه إلى كل أرجاء الدولة العثمانية، وامتد نفوذه من السياسة إلى الجيش والإدارة، واستطاع أن يبطش بجبروته بكل رأى حر.

ولما كان الصيادى يكره الأفغانى

لمنزلته لدى السلطان فقد استغل النديم عداء أبى الهدى الصيادى للأفغانى فى التنفيس عن قدراته المعطلة وأفكاره المكبوتة. يضاف إلى ذلك أن كراهية أبو الهدى المصريين قد زادت النديم غضبا عليه.

ومع أن أبا الهدى كان من الجبروت بحيث يخشاه العظماء فإن النديم انطلق فى هجائه دون أن يعبأ بسطوته وقدرته على الانتقام منه فأخذ يخوض فى سيرته بلسان حاد فاضحا دسائسه وكتابته التقارير الملفقة للسلطان، واتخاذه الدين ستارا لتنفيذ أغراضه. ولما لم يستطع الصيادى إسكات النديم اضطر إلى الاستنجاد بالسلطان، ومع ذلك فقد استمر النديم على موقفه ووضع فيه كتابا سماه «المسامير» تضمن هجاءه فى أسلوب كان فى قوة تأثيره أحد من المناشير فقد أدخل النديم ضمن شخصيات هذا الكتاب الشيطان فوضعه فى صورة الحزين الكئيب لظهور المنافس له من بنى الإنسان الذى سبقه فى حيله وألاعيبه، كما وضعه فى صورة المستنجد من مكر وخداع أبى الهدى، ثم اتهم النديم والد ووالدة الصيادى بكل الرذائل والموبقات التى تمس النسب والشرف. وما أن سمع الصيادى بأمر هذا الكتاب حتى جن جنونه، فاتصل بالسلطان وأبلغه بأمر الكتاب وذكر له أن هجاء النديم شمله كذلك مما دفع السلطان عبد الحميد ، إلى التشديد فى البحث عن الكتاب ومصادرته فهاجم رجال البوليس بيت النديم وفتشوه، ولكن النديم كان قد سبقهم إذا أعطاه لأحد أصدقائه الذى استطاع الفرار به إلى مصر وطبعه فخرج مكونا من مقدمة وتسعة مسامير فى أربعة وتسعين صفحة، ومزينا برسوم كاريكاتيرية. ولم يهدأ للصيادى بال حتى رد على مسامير النديم بكتاب سماه «صوت الهزار وزيق العذار» دافع فيه عن نفسه وهاجم النديم كما هاجم مصر والمصريين.

النديم والأفغاني رسل الخديو لدى السلطان

والجدير بالذكر أن النديم والأفغانى كانا رسولى الخديو لدى السلطان فلما زار الخديو الآستانة فى عام ١٨٩٤ اتصل بالنديم، وطلب منه الوساطة فى أمر مصاهرته فى بنات الخليفة، وتوسط النديم والأفغانى فى ذلك وكاد يتحقق لهما النجاح فى ذلك لولا دسائس أبى الهدى وتدخله لدى السلطان، وإقناعه بأن الخديو يحيك الدسائس ضده، وأفهمه خطر هذا الزواج لأنه إذا أنجبت كريمته ذكرا فلا يستبعد أن يرشحه الانجليز للخلافة، وتمحى الخلافة من تركيا وتنقل إلى مصر، واقتنع السلطان بهذا الرأى، وأفلح أبو الهدى فى منع هذا الزواج.

وعن دسائس أبى الهدى ضد الأفغانى والنديم ما قدمه للسلطان حول مقابلة الخديو لهما فى الآستانة، ومبايعتهما له بالخلافة مما جعل السلطان يتغير قلبه عليهما حيث احضر لديه جمال الدين وقال له «أتريد أن تجعلها عباسية» كما شدد عليه الرقابة ومنع أى أحد من الاختلاط به إلا بارادة سلطانية، فأصبح محبوسا فى قصره لفترة.

وفى أثناء زيارة الخديو لتركيا فى عام ١٨٩٥ رجاه النديم أن يسمح له بالعودة إلى مصر لشدة حنينه لها وشوقه إليها ورغبته فى أن يقضى بها

نص طلب بخط يد عبد الله النديم لتحويل معاشه الى أحد البنوك في الاستانة

بقية حياته، وقد سمح له الخديو بذلك واصطحبه معه إلى مضيق الدردنيل ولكن هذا الخبر وصل إلى السلطان قبل تحقيقه فانتهز أبو الهدى ذلك وذكر للسلطان أن المؤامرة التى رسمت خيوطها من قبل قد بدأت تنفذ، فصدرت الأوامر بعدم تحرك الباخرة حتى ينزل منها النديم، فاضطر النديم إلى النزول من الباخرة، وكتب للسلطان يتبرأ مما نسب إليه وذكره بأنه وإن كان قادرا على الانتقام منه بلا معارض فإنه سيقف بين يدى الله العادل القاهر، فأعجب السلطان بشجاعته وعفا عنه بعد أن كان قد أصدر أمرا بنفيه إلى إحدى الولايات البعيدة. وظل النديم بالآستانة حتى أصيب بداء السل الرئوى فأحس بأن نهايته قريبة لذلك أرسل تلغرافا إلى شقيقه ووالدته يطلب رؤيتهما وهو على سرير المرض قبل أن توافيه الأجل فسافرا إليه حتى يرياه قبل أن يموت. وفى ليلة العاشر من أكتوبر ١٨٩٦ توفى النديم بالآستانة دون أن يترك أولادا حيث ماتوا جميعا فى طفولتهم.

لقد مات النديم في نحو الثانية والخمسين من عمره، وليس هذا بالعمر الطويل، ولكنه عمر عريض فطالما غذّى الناس بقلمه وهيجهم بأفكاره وأضحكهم وأبكاهم، وحيّر رجال الشرطة وأقلق بال

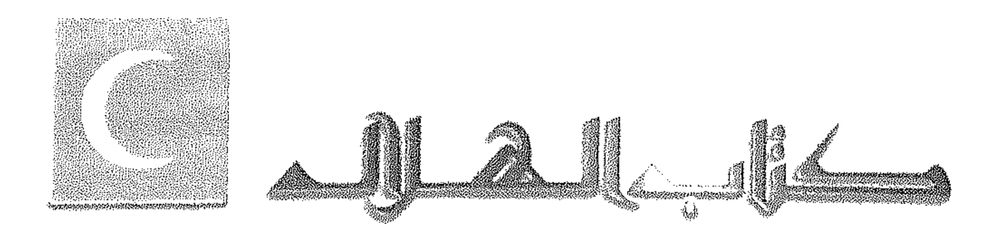
رجال السياسة ونازل خصومه من رجال الصحافة فنال منهم أكثر مما نالوا منه ولم يهدأ له لسان ولا قلم حيث حلّ فعلى الرغم من محنة الغربة واللحظات الحرجة التي واجهت النديم فإنه لم يتورع عن مهاجمة الفساد والظلم في عقر داره فكانت المبارزة الفكرية بينه وبين الصبادي، واستمر النديم ثائرا حتى هدأه الموت الذي يهدئ كل ثائر.

وبأمر من السلطان العثماني احتفل بجنازة النديم رسميا في الآستانة حيث سارت أمام نعشه فرقتان من الجيش، وفرقة من الشرطة وكبار رجال الدولة وعلماؤها يتقدمهم السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ «محمد ظافر» شيخ مشايخ الطرق الشاذلية في دار الخلافة، ومن أشد المقربين إلى السلطان وكثيرون غيرهم، فساروا به حيث دفن في مقبرة «يحيى أفندى» في «باشكطاش» بعيدا عن الأهل والوطن الذى عاش من أجله، وقاسى الكثير في سبيله. وكان العزاء لروحه يوم أن مات أنها سلمت رايه الكفاح إلى الجيل الجديد وعلي رأسه مصطفي كامل ليواصل الجهاد ويقود المرحلة التالية من مراحل الحركة الوطنية فى سبيل الحرية والاستقلال وفى النهاية يمكن القول إن أهم ما فى النديم كان شعبيته وقوة تأثيره ورغبته الشديدة فى الاجتماع بمواطنيه، فهو رجل خالط الشعب بجميع طبقاته حيث انبعث من غمار عامة الشعب وعاني وذاق ما يعانيه أفراده من فقر وحرمان فالتأم شقاؤه بشقاء أمته فكانت كلماته تعبيرا حيا عما يدور في خلد الشعب، ثم ارتفع إلي مصاف القادة فلم يفتنه المجد بل عمل علي رفع مستوى شعبه الاجتماعي، وبعث وعيه الوطني والعمل على تعليمه، فكان أعلم الناس بمحاسن هذا المجتمع وعيوبه لذلك كانت آراؤه فى روحها وجوهرها تعبيرا عما يجيش فى صدور أبناء وطنه من أحاسيس الألم والأسى كما كان أول كاتب مصرى بعالج مشكلة القومية المصرية باسلوب شعبى فهو أول من سهل على الشعب استيعاب المفاهيم القومية التى كان إدراكها مقصورا على المثقفن والأرستقراطيين. وكان حركة لا تهدأ، وكان رجلا من رجال العمل ورجال القلم والقرطاس ذكى القلب شديد العارضه، ذرب اللسان سريع الخاطر حاضر البديهة، ظريف المحاضرة، حلو الشمائل، وكان كذلك جريئا، سريع الغضب صعب الرضا. عاش حياته يتأمل أفراح وطنه ويعاني أتراحه فترجم عما يجول بخاطر شعبه.

إن أبرز ما فى الندم كان ذلك النشاط الروحى الزاخر، وتلك العزيمة التى لا نكل عن العلم يوما حتى وافته المنية فكان بوقا عظيما للشعب دائم التفكير فى إصلاح أحواله، عمل من أجله أكثر مما عمل لنفسه ولأسرته، وبوقا عظيما للجند، وبوقا عظيما للثورة، أفنى نفسه وحسه فيها، ووهب حياته لها، وحارب الطغيان فى الداخل وناهض المستعمر الذى وفد من الخارج حتى بالغ البعض فى وصفه بأنه كان نادرة عصره وأعجوبة دهره، وأنه «ليس فى طلائع نهضتنا مثال آخر من هذا الطراز يضارع عبدالله النديم»، كما قيل عنه أنه أذكى ناقد لأوربا فى مصر وأنه صحفى القرن الناسع عشر بلا منازع.

رحم الله عبدالله النديم ذلك الرمز الوطنى والعقل التنويرى جزاء إخلاصه، وما قدمه لوطنه مصر من خدمات جليلة. ■





تاريخ مدة الفرنسيس بمصر

تأليف

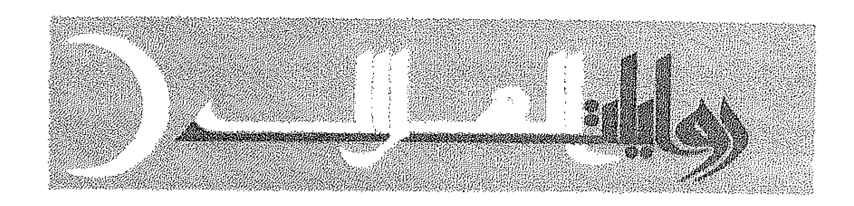
عبد الرحمن الجبرتى

تحقيق: ش. مورية

ترجمة: شعحات صادق

يصدر ٥ **أغسطس**
سنة ٢٠٠٣

رئيس التحرير
مصطفى نبيل



٢٠٥



خيال الظل

بقلم

جورج سيمينون

ترجمة

د. حماده إبراهيم

تصدر ١٥ أغسطس
سنة ٢٠٠٣

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

جماد الثانية ١٤٢٤هـ - أغسطس ٢٠٠٣م

مسامرة الأولاد كي لا يناموا...

استبصارات



بقلم

محمد عفيفي مطر

ظلمات بعضها فوق بعض.. ليل كثيف وشاعر يغوص فى آبار زيته الغليظ الأسود ، وهو عريان بين جدران الزنزانة ومن فوق عينيه عصابة سوداء مشدودة تضيف إلى طبقات الظلام طبقة أخرى محكمة وموجعة تغوص بعقدتها الصلبة فى عظام رأسه ، والقيد الحديدى يعض على رسغيه فيسرى ثلج الخدر والشلل ويعلو من ساعديه إلى كتفيه ورقبته وجلد رأسه الذى يتورم الإحساس به ويتضخم كأنه معمم بكل مامر تحت السماوات من سواد الليل فى كل الدهور .. وياله من تاج ثقيل يطوح برأس الشاعر بين الظنون والمخاوف !!

كان الجلادون يتداولون جسده المرتعد بالضرب والتعليق من الرسغين المكبلين وحرق ظاهر كفيه بأسلاك الكهرباء ، وهو يتخبط فى السواد المطلق للظلمات المتكاثفة، فيستيقظ خياله الطليق على مشاهد عجيبة من مخزونه البصرى العتيق، ويمارس الطيران المحلق الجبار بين ذكرياته الملونة الباهرة ، ويشق غبشة النسيان عن أبهى وأصفى طاقات البصر الجوال بين المتاحف والكتب، ويوغل شيئا فشيئا بين السطوح المتفجرة بضربات الفرشاة وحركة الخطوط وفوران الألوان وهى تتذاوب وتتداخل متمازجة أو تتوهج صريحة فى درجاتها وإيحاءاتها وتجسيدها للأخيلة والأفكار والمعانى والتوازنات المتناظرة والإيقاعات المتقابلة والرياضيات التى تنسج الهارمونيات الشاملة .

كان الشاعر فى غاية العجب، لا يعرف كيف تفجرت هذه الينابيع المدهشة، ولم يعرف من أحواله مثل هذا الاضطراب العاصف بين واقع تعذيب لعله يفر منه ويدافع عن نفسه وحياته حرمته بآخر ما بقى له من حرية الخيال، بهذه الينابيع التى كمنت فى أعماقه

لتفيض عليه بنعمة الألوان والطيران فى بهجة الرؤية، سأل نفسه: ماذا بك أيها الأعمى الذى يتخبط فى أرحام لبل ذى طبقات من السواد ؟! أعمى أنت وعيناك تحت العصابة المشدودة، من فوقك ليل الزنزانة ومن حولك ليل الجلادين العتاة الذين لايستأسدون ولايتجبرون إلا على أهلهم ومواطنيهم المكبلين بالقبود ، وأنت تعرف من خنوثة أصواتهم ورخاوتهم، وترهل أرواحهم أنهم خدم وعبيد عند كل من يحكم ، ومن حولكم جميعا ليل من ظلام دموى قد أطبقت جيوشه وأساطيله على أرضك وشعبك فى كل مكان .. فماذا بك ؟!

أم أنت على شفا الهلاوس والجنون؟

تتحرك مقلتاه على إبر مسنونة من الصديد والإفرازات المتحجرة المتكلسة تحت جفونه فيندلع البرق الذهبي وتنكشف فى وهجه الأليم جدران المقابر الفرعونية ولوحات الرسم والألواح المحفورة، وقد جلس العازفون العميان ذوو العيون المفرغة بتحديقها المبهم فى الفراغ ، يغمزون الأوتار بأصابعهم الرشيقة العجيبة وقد حف بهم جلال الوقار والاستغراق ومهابة الأردية الكتانية المتناسقة، هم فى لحظة شرود جليل ذاهل عن كل شىء سوى الإنصات لأنغام الكون لتمر عبر الأصابع إلى أوتار «الهارب» ، ومن حولهم مغنيات المعابد وراقصات القصور ، بنات إيزيس ونفتيس وماعت وحتحور ، يتمايلن أو يعزفن ويضربن الدفوف ، وقد تطايرت من زينتهن بروق الذهب والجواهر وشفافية الكتان والحرير .

لم يدر بخاطر الشاعر من قبل أن يسأل عن سر اختيار العميان ليكونوا العازفين فى القصور والمعابد وحدائق الأغنياء ، وها هو يكتشف جانبا من السر لقد ربط الجلادون عينيه بالعصابة السوداء الثقيلة حتى لايرى وجوههم أو تحدق عيناه فى عيونهم الذليلة المستخزية فيكشف هوانهم المستأسد ويتعرف على أشخاصهم ووجوه مخبريهم وعملائهم الأدنياء، أما العميان العازفون فلم يكن لهم أن يروا أسرار القصور ومباذل الترف السفيه والإغراق فى اللذائذ بينما يكدح الشعب المخدوع في الغيطان والمستنقعات والمحاجر والمراعى والدفاع عن الحدود وهو مغيب الوعى مهان الجسد مستذل الروح .

كان الشاعر فى خضم الهلوسة البصرية يدافع عن جسده المعذب وآدميته المهدرة بأسلاك الكهرباء التى

تكشط جلد يدبه بالقاء حواسه كلها في الأجواء الملونة وأشكالها ، تأتيه من بعيد أصداء صرخاته الغاضبة الهالعة فلا يعرف أهو الذى يصرخ أم هو رجع الدهشة مما يسمع ويرى ..تدفعه يد الجلاد ، فيتأرجح جسده المعلق بحبال الظلمة التى تلتهم جلد يديه ، فيعبر إلى سرداب آخر من سراديب خياله وذاكرته فيرى عجبا .. كان ينحدر مع المنحدرات والقنوات الموحلة تحت أجواء الخريف الشاحبة وشمس الأصيل تنير بضوئها المعتل أسطح البيوت القرميدية المثلثة وبرج الكنيسة الذى يعلو فى أعلى يسار المشهد كأنه الهضبة العالية التى ينحدر منها صف من ستة عميان، يهيمون على وجوههم منحدرين من المعنى العميق للأمثولة الخالدة : «هل يقدر أعمى أن يقود أعمى ؟ أما يسقط الإثنان فى حفرة » * .

كان العميان الستة ينحدرون متساندين ، يد اللاحق على كتف السابق، واليد الأخرى تقبض على العصا الطويلة التى تصل بينهم لينتظموا فى مسيرة موحدة، ورآهم الشاعر ذو العينين المعصوبتين وهم يكادون يسقطون فى الأوحال ، فصاح صيحته الجريحة أدركهم يا «بروجل» واصرخ معى لينتبهوا .. يابروجل .. يا صديق العمر وبهجة الرؤية وجلاء البصر والبصيرة..

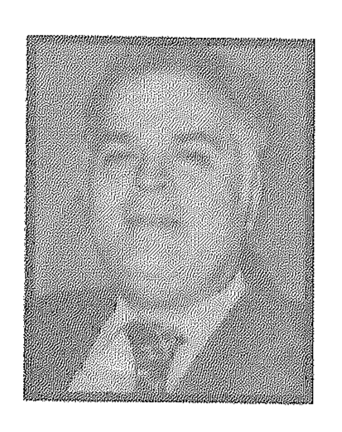
واندفع الشاعر معصوب العينين يحاول المبادرة إلى الأعمى الذى يقود العميان ليقيله من عثرة السقوط فى الوحل قبل أن يتهاوى فوقه جميع العميان ، ولكن سلك الكهرباء الذى يأكل ظاهر كفيه والقيود الثقيلة التى شلت قدرته على الحركة فتحت فى جنون صراخه ومقاومة ذاكرته صفحة من كتاب قديم تتوهج بصورة أعظم العميان في التاريخ .

كان المعلم الأول والفيلسوف الأعظم أرسطو يضع يده اليمنى على رأس تمثال نصفى لسيد الشعراء وملك الملاحم ، أعظم العميان الملهمين هوميروس ، كمن يضع كفه على مصدره الأول فى معرفة الإنسان وتأمل الوجود ودراسة العقل والفكر والحكمة واكتشاف مجاهل النفس وعلم السياسة والأخلاق ومعانى البطولة والنضال ، وفى الصفحة المقابلة تتوهج صورة الشيخ الضرير وهو مستغرق فى الاستماع للمجهول ، يرفع يده ليضبط الإيقاعات وأوزان الموسيقى وارتمى الشاعر المعذب تحت قدميه ، وقد بدأ يغيب عن الوعى، تملأ مسمعيه الأصداء البعيدة لقعقعة الأحصنة الخشبية التى يجرها الحمقى عبر أسوار المدن التى حانت لحظة سقوطها. ■

التكوين

كنت وحدويًا قوميًا بعيدًا عن المزايدة وتأجيج الخلافات

منح الصلح

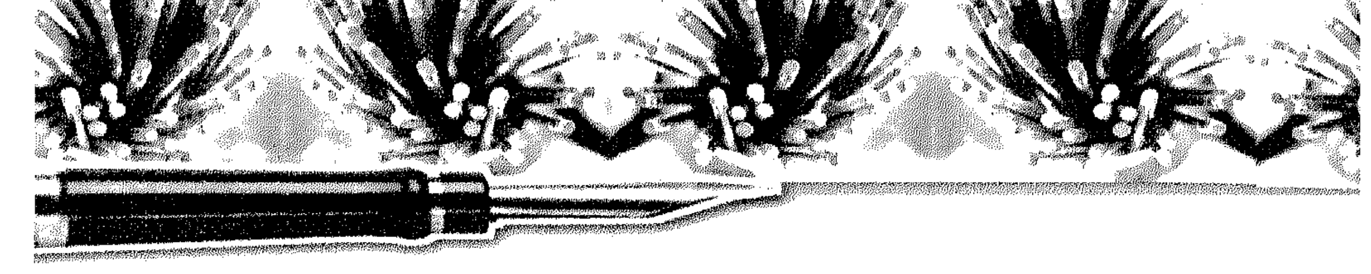


- ماذا كان رد عبد الناصر على عرض ميشيل عفلق الذى حملته إليه؟

- لماذا خرج أبو عبده عن نص رسالتى المكتوبة فى مؤتمر القمة ليهاجم عبد الناصر؟

نشأت فى مدينة بيروت فى أسرة كل شخص فيها سياسى بدأت الأسرة بارزة فى العهد العثمانى كجزء من الدعوة إلى التحرر العربى من أسر الدولة العثمانية، وكان كبير العائلة (رضا الصلح) والد رياض الصلح رئيس وزراء لبنان الأسبق هو الرجل الأبرز فى حركة إخراج فرنسا من سوريا ولبنان.

هذا التراث وهذا الجو الذى عشت فيه صغيرا جعلنى مرتبطا بحلم الوحدةالعربية ولكن التعدد الثقافى والطائفى الموجود فى لبنان جعلنى عروبيا من نوع خاص، ملتفتا باستمرار إلى ضرورة الديمقراطية والحريات، فإذا كانت العروبة هى القضية فإن الديمقراطية هى الروح والأثنان يوصلان إلى الحضارة والإنسان



ما أثر فى منذ نشاتى الأولى كلام كانت تقوله والدتى التركية الأصل من العائلات العريقة فى الدولة العثمانية حيث كان جدها هو درويش باشا الذى كان حاكما لبلاد الشام لفترة طويلة.. وقد جاء إلى مصر مرة ليسوى خلافا بين الخديوى عباس والحركة القومية المصرية ومن أقارب والدتى البرنس عمر المختار والد أميرات فى الأسرة المالكة المصرية.

. كان يلفتني من والدتي قول غريب حيث كانت تقول لي . لماذا تهتم بالسياسة والألقاب والأمجاد السياسية ، فالكاتب الكبير والمهندس الكبير والطبيب الكبير أهم من السياسى أيا كان مركزه وكنت أسأل نفس متعجباً· لماذا تقول والدتى كلاماً مختلفا عن جو عائلتى اللبنانية العربية؟

واكتشفت السبب فى أن والدتي نشأت فى عهد الاتحاد والترقى فى تركيا حيث انتشرت الدعوة القومية التى تؤكد على الثقافة والتقدم والترقى، فالثقافة هى الأهم فى صنع الأمم.

وبالفعل فإن الأتراك كأمة أدركوا قبل العرب أهمية الحضارة الحديثة والتربية القوميه والجدارة الفردية الاجتماعية وأنى لاحظت مؤخراً على سبيل المثال الموقف التركى من قضية العراق وصانعه هو حزب إسلامى ولكن يؤمن بالتقدم هو «الرفاه» الذى وقف وقفة لفتت الأنظار فى رفض إعارة الأرض التركية الحملة الأمريكية العسكرية على العراق والأصل فى هذه الوقفة هو ان الإسلام التركى قد تطعم بالعزة القومية وبالقيم الحضارية

لقد كان إيمانى بالوحده العربية وبالديمقراطيه معاً هو رفيقى الدائم فى حياتى . فأحيانا أنحاز للديمقراطية بين القوميين وأحيانا أنحاز للقومية بين الديمقراطيين.

ولأسرتنا فرع بمصر حيث استوطن مختار الصلح مصر منذ الحرب العالمية الأولى وأشترك فى تلك الحرب مع ستة أشخاص من كبار الشخصيات العربيه فى إصدار اعلان بالمطالب العربية يذكره





ألبرت حوراني تحت عنوان إعلان السبعة» مطالبا بالوحدة العربية

وابنه هو الجنرال عدنان الصلح كان عسكريا في الجبش المصرى

أحببت مصر

درست أول ما درست في الصف الأول الابتدائي في مدرسة المقاصد الإسلامية ببيروت وقد أرسلني والدى إليها قائلاً. أنه يجب أن يتعلم دينه أولا. خارج هذه السنة الوحيدة كنت باستمرار تلميذاً في منطقة رأس بيروت المتقدمة ثقافيا عن باقي العاصمة ونوع الدراسة الابتدائية كانت مدرسة أنجيلية وطنية وبعد ذلك درست في الجامعة الأمريكية ببيروت (بالقسم الفرنسي الثانوى من الكلية الثانوية العامة) وفيها حصلت على شهادة أستاذ آداب في الأدب العربي ثم أعددت أطروحة ماجستير عنوانها «السخرية في الأدب العربي» لم تنشر

ثم ذهبت إلى باريس لإعداد أطروحة للدكتوراة مع مستشرق اسمه جاستون فييت.. كان مديراً – على ما قال لي – للمتحف المصرى وكان موضوع الأطروحة «تعامل الدولة العباسية مع الأقليات»..

الحقيقة أخذت من هذا المستشرق حبا إضافيا لمصر ولعهد النهضة العربية فيها كان هذا المستشرق متعلقا بمصر أكثر منه بفرنسا ولو أن مصر التي تعلق بها هي مصر خاصة به .

وقد كتبت الأطروحة ولم أتقدم بها للمناقشة والسبب أن والدى انصل بي في ذلك الحين وقال لي أن محمود أبوالفتح صودرت صحيفته«المصرى» ومطابعه في مصر وهو يريد أن يصدر صحيفته في لبنان وأن أبي وأعمامي نصحوه بالاعتماد على لأنني سأكون أهلا لتحريرها.

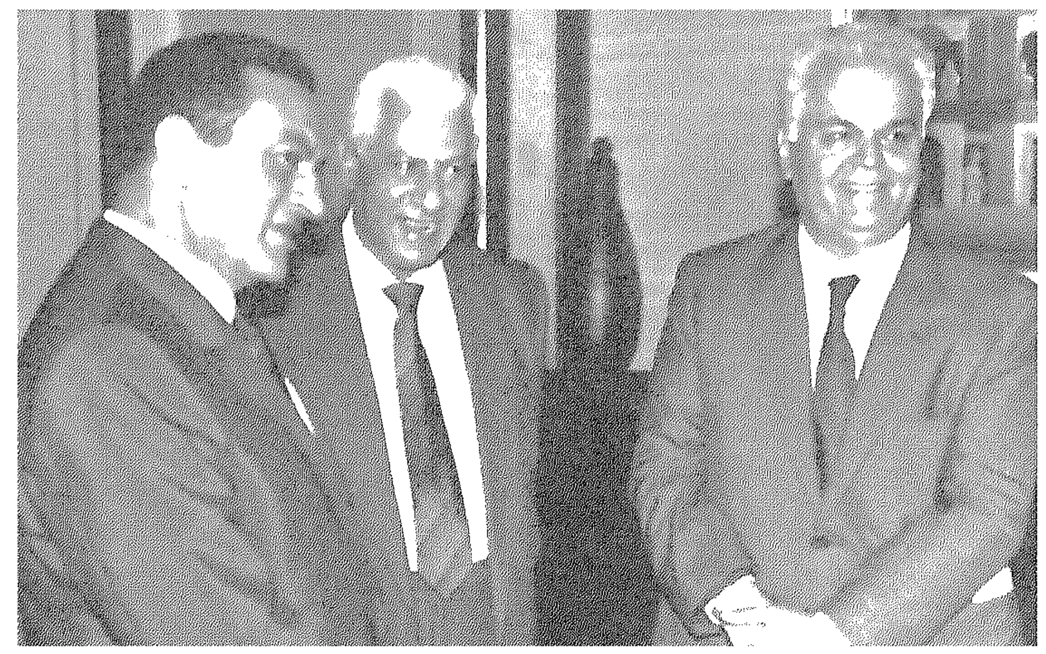
والمسكين محمود أبوالفتح لم يكن يتصور أن التأميم معناه مصادرة المطابع والاتفاقات التجارية والممتلكات أيضا .. فقد كان عنده مفهوم لحدود التأميم لم تكن واقعية .

وعندما رجعت إلى بيروت في مطلع الخمسينيات كان موضوع صدور جريدة المصرى باسم آخر من بيروت قد أنتهى..

بين السياسة والثقافة

كانت حياتي تدور دائما حول السياسة والثقافة والصحافة، ففي الجامعة الأمريكية ببيروت كنت في اللجنة التحريرية لمجلة العروة الصادرة عن جمعية العروة الوثقى بالجامعة هذه الجمعية التي نشأ فيها ونما الوعي القومي للطلاب العرب وللأساتذة الذين كانوا يعملون كمستشارين للجمعية





منح الصلح في لقاء مع الرئيس حسني مبارك و مكرم محمد أحمد أثناء الاحتفال بمئوية الهلال في سبتمبر ١٩٩٢

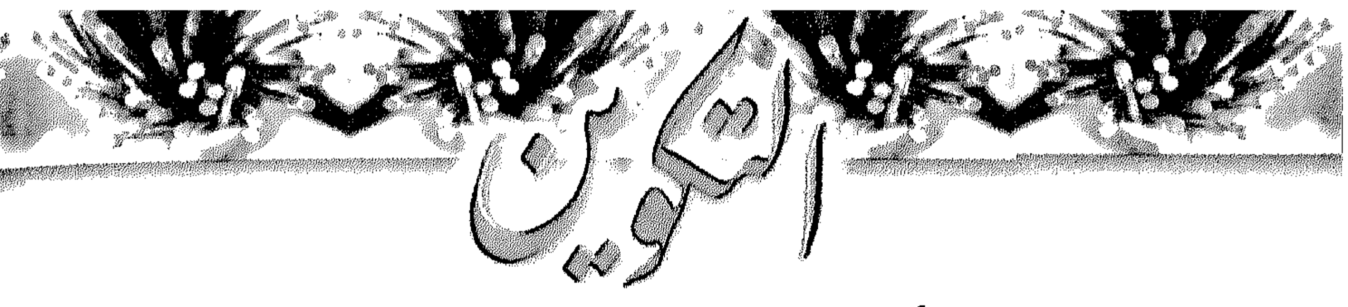
لكى يصبحوا جزءا منها يؤمنون إيمانها العربى بعد عودتى من باريس شكلت مع آخرين ناديا باسم «العروة الوثقى فى رأس بيروت ضم بعض الطلبة السابقين بالجامعة الأمريكية وغيرهم وكان هذا النادى يعمل بروح العروة الوثقى التى أغلقتها الجامعة لأسباب سياسية واستمر هذا النادى يؤدى رسالته القومية لمدة أربع سنوات .

كان هناك أيضا ناد آخر أقدم وهو لايزال مستمراً حتى الآن اسمه النادى الثقافى العربى كنت عضواً أيضا فيه

وعندما أصدر مجلة اسمها «الثقافة العربية» كتبت فيها مقالات قومية سياسية.

جو رأس بيروت منطقة معينة ببيروت هو جو ثقافى انفتاحى على ثقافات العالم كما سماه - أحمد بهاء الدين ذات مرة فى أحد مقالاته - الحى اللاتينى فى بيروت.

طبعاً كان لى اتصال بحزب لبنانى عربى هو «حزب النداء القومى» الذى كان يترأسه كاظم الصلح ثم نجيب الصايغ ثم إدمون رباط، وكان هذا الحزب يدعو إلى دور لبنان العربى وارتباطه بالقضية كانت تصدر عن هذا الحزب صحيفة ليبرالية إلى حد ما اسمها «النداء» وكنت أحرر فيها مقالات يومية تواكب الأحداث العربية فى مرحلة المقاومة ضد الاستعمار والاستبداد المحلى خاصة مرحلة حلف بغداد وصعود عبدالناصر.



الاهتمام بأفكار الشباب

وأثناء كتابتي في جريدة «النداء» كنت أكتب الافتتاحيات ومقالات أخرى بدون توقيع كنت أنقل للجيل الأكبر مني سنا الروح والفكر السائد في الحركة الطلابية الذي كان أشد جذرية وثورية من النمط السائد في الحزب . فكانوا يقولون لي: كنت في الجامعة تكتب للشباب وبأفكارهم وجئت الآن تكتب في صحيفة الحزب بأفكار هؤلاء الشباب أنفسهم، بما يعني أنني جئت أنقل إلى جو الحزب والجريدة جذرية طلاب الجامعة الأمريكية ومصطلحاتهم وأفكارهم، فكنت مثلا لا أستعمل كلمة «اللاجئين الفلسطينيين» في جريدة النداء أيضا كما كنت أفعل في المجلة الطلابية فأقول «النازحين» أو العائدين بدلا من اللاجئين .

الفكر الثوري الجذري الذي كان يحمله الطلاب الشباب نقلته إلى وسط الحزب التقليدي فأثار حيوية وتفاعلا بين الفكرين.

وكتبت مقالات عنيفة ضد التجديد لرئيس الجمهورية بشارة الخوري.

طالبت فيها بأن يكون للرئيس ولاية واحدة ثم يذهب ، وكان الحزبيون القدامى يتشكون ويقولون كنت في جريدة العروة في الجامعة تنقل لهم آراء الطبقة السياسية الناضجة واليوم انت تنقل للجريدة آراء الطلاب الفجة!

والواقع ان نوع ارتباطي الدائم بالعمل الفكري والسياسي جعلني أعمل على التأثير فيمن كنت أعيش بينهم سواء في الجامعة أو بعد التخرج.

وقد أثرت في من هم أصغر مني وفي من هم أكبر مني سنا وعمرا سياسيا وفكرياً.

ولعل من أسباب ذلك أنني في عائلة متمرسة بالعمل السياسي وكوني مؤمنا متفرغا للعمل الفكري المفتوح على العالم العربي وقد ربطتني رابطة خاصة بميشيل عفلق وصلاح البيطار من قيادات حزب البعث العربي وقد اتيت إلى مصر بطلب من ميشيل عفلق الذي كان في لبنان متخفيا في ذلك الحين في مدينة طرابلس فرارا من سوريا وكان حزب البعث التابع له نظرياً قد تسلم زمام الحكم في العراق جزئيا وأصبح الطرف الأقوى من أطراف الحكم هناك.

مع جمال عبدالناصر

وقد جئت إلى القاهرة وأمن لي المرحوم أحمد بهاء الدين اتصالا للاجتماع بالرئيس جمال عبدالناصر. وقد اجتمعت



به فى اليوم نفسه الذى كان قد قتل فيه ضابط سورى موجود فى مصر هو «طعمة العودة الله» وفى اجتماعى مع الرئيس عبدالناصر حدثته عن عرض عفلق بالتعاون مع الناصريين فى بغداد من أجل قومية الحكم فاجابنى يومذاك أن سياسته الآن قد طرأ عليها تغيير فى مثل هذه المواضيع، وهو مقتنع بأن فى العراق عقلية سياسية خاصة نرفض التدخل ولذلك فان سياسته الآن هى ترك الأمور تتفاعل هناك وهو يقبل بالنتائج التى تسفر عنها تجاذبات قطر حاد القطرية.

عروبي وحدوي

كنت فى الأصل بسبب نشأتى عروبيا وحدويا ديمقراطياً وأنا الآن على تعلقى القديم بموضوع الديمقراطية والحريات الذى كنت أتمسك به وأدافع عنه داخل مجموعات مهيئة لذلك وغير مهيئة وأذكر أننى عند تسلم البعثيين الحكم فى العراق (حوالى ١٩٦٨) وعلى أثر انفراد صدام حسين بالسلطة ذهبت إلى بغداد كصديق قديم فدعيت إلى إلقاء محاضرة فى مدرسة الكادرات فى بغداد وكان بين الحضور حردان التكريتي وصالح مهدى عماش وغيرهما من قيادات حزب البعث العراقى.

وفى المحاضرة التى ألقيتها حذرت من سابقة حلف المنظمة الحزبية والنظام وقلت إن مثل هذا الحلف سبق وأوصل الفاشية والنازية إلى الهاوية .

وعندما استرجعت بعد عودتى إلى بيروت قراءة ما قلته فى المحاضرة على ضوء بعض الأخبار التى وصلت لى حمدت الله على سلامتى مدركا الفارق الكبير بين حديث ما قبل السلطة وما بعدها.

وبمناسبة هذه المحاضرة التى كادت تسبب لى المشاكل آذكر واقعة حدثت لى فى مصر على هامش اجتماع قمة ملوك ورؤساء الدول العربية كان قد دعا إليها الرئيس الراحل جمال عبدالناصر ، فقد كنت اتفقت مع رئيس الحكومة السورية صلاح البيطار الذى كان صديقا لى للمجيء إلى القاهرة أثناء انعقاد تلك القمة والتعاون مع وزير الخارجية السورية يومذاك حسان مريود على كتابة خطاب الرئيس السورى آمين الحافظ على أن يسلمه وزير الخارجية ذلك الخطاب قبيل إلقائه مباشرة ، وبالفعل كتبت أنا نص ذلك الخطاب فى فندق هيلتون وتسلمه منى وزير الخارجية السورى فلما جاء دور الرئيس أمين الحافظ لإلقاء كلمته بدآ يقرأ وفي أول الخطاب شكر الرئيس عبدالناصر

على فكرة هذه الدعوة لمؤتمرات القمة، فلما قال ذلك هتف به أحد أعضاء الوفد السوري وهو عسكري «دهورك الناصريون يا أبو عبده» وسمع أبو عبده ذلك ولكنه استمر في إلقاء كلمته المكتوبة، فلما أنهاها أضاف شفهياً.. «هكذا وأن التاريخ هو الذي سيحكم من هو الصادق ومن هو الدجال».

يقصد أن سوريا تنوي الخير ومصر ليست في هذا الوارد.

وبمجرد أن قال ذلك تصدى له الملك فيصل يرحمه الله والقذافي والملك حسين وقالوا أيضا جميعا: إن هذا الكلام لا يجوز لرئيس دولة وأن ذلك يبدو مؤامرة على هذا المؤتمر.

أقول هذا لأدلل على أمر واحد هو أنني وإن كنت وحدويا قوميا إلا أنني كنت دائما بعيدا عن فكرة المزايدة وتأجيج الخلافات.

فالطرح الفج لقضية الوحدة العربية وبشكل بعيد عن المنطق الديمقراطي كان أكثر ما آذاها وعرقل مسيرتها إذ أن البعض تصور طريقا لهذه الوحدة لا يمر بالعقول والقلوب، ففرغها من جديتها وفعاليتها وعدم تحولها إلى مدرسة جدية من مدارس الفكر السياسي العربي الذي نحتاج إليه، فلا يجوز أن تتحول فكرة الوحدة العربية إلى عبء على التضامن العربي ومصدر مشاكل له بل إلى تكسير الأقطار من داخلها، فتكسير الأقطار هو النهج السياسي الأخطر على أمتنا العربية والوحدة العربية كفكرة.

ضد الطائفية تماما

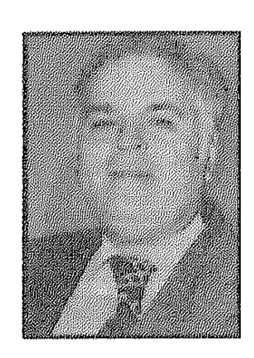
التجربة الوحيدة التي قمت بها في الهيكل السياسي اللبناني الرسمي هي تولي مديرية الإرشاد والتوجيه عند مجيء الرئيس فؤاد شهاب إلى سدة الحكم، وكنت أثناء الثورة ضد كميل شمعون أعمل على إنشاء لجان في لبنان انطلاقا من بيروت مهمتها عدم ترك الأحداث والصدامات الداخلية الدامية تتحول إلى فتن طائفية.

وقد نجحت هذه اللجان في عدم تحول الخلافات السياسية أثناء عهد شمعون إلى صدامات طائفية أهلية داخل المجتمع اللبناني وكانت هناك قابلية لذلك.

وقد اتصل بي الرئيس شهاب فور تسلمه الرئاسة وقال لي: انني أعرفك من مراقبتي لمواقفك وأعمالك أثناء الثورة على كميل شمعون، فعلى الرغم من انك كنت ضده لم تكن تجهل خطر التأجيج الطائفي في بلد كلبنان.

وقد استطعت من خلال تسلمي لمديرية الارشاد والتوجيه أن أغير الخطاب السياسى لرئيس الجمهورية ، فان خطابه منذ أن تولى السلطة اتسم بالدعوة الاصلاحية الداخلية والسياسة الاجتماعية التقدمية ، والخط العربى الصادق حتى راجت كلمة «الشهابية» كنعت لمجموعة الخطب والمواقف والمبادرات التى حاول الرئيس شهاب أن يشد فيها من أوصال الوطن عملت السياسات الخارجية والعربية والداخلية على إعطائه صورة البلد المكسر قطريا فكانت سياسته طبلة عمره خير ما عرفه لبنان من جهود وأعمال ومواقف مشروحة للبنانى شرحا جيدا من خلال شعارات وأفكار بسيطة أدخلت الهدوء ولو لفترة في روح لبنان القلقة . ■

.. من عائلة «الصلح» العريقة التى تولى رئاسة الحكومة فيها ٣ شخصيات هم
رياض الصلح - سامى الصلح - تقى الدين الصلح.



منح الصلح

- ولد منح عادل الصلح فى بيروت سنة ١٩٢٧
- درس فى كلية المقاصد الإسلامية.
والجامعة الأمريكية ببيروت وجامعة السربون بباريس.
- مفكر عربى بارز.
- من مؤلفاته:
١ - مصر والعروبة.
٢ - الكيان والثورة فى العمل الفلسطينى.
٣ - الانعزالية الجديدة فى لبنان.
٤ - الأدب الساخر عند العرب «لم يطبع».
٥ - العباسيون ومعاملة الأقليات «لم يطبع».



حول رؤية الأجيال في التعليم
رد على د. حامد عمار

يشرفني أن أستمتع بتمعن بمقالات الهلال التى ترقى عددا بعد عدد .

ولى تعليق حول ما كتبه د. حامد عمار خبير التعليم فى هلال يونيو بعنوان (اختلاف الأجيال حول رؤية التعليم) – الكلمة الأخيرة .

فقد قال «مع موسم الامتحانات تكثر ثرثرة جيل الكبار فى زهو رومانسى ، بين ما كان عليه تعليمهم فى الأيام الخوالي .. إلخ» .

وتعليقى : ألسنا أستاذنا الدكتور عمار – جميعا – ننتمى إلى جيل الكبار هذا المزهو بما قد حصله من تعليم ؟ .. ألسنا – وأنت واحد خبير منا – تعرف تمام المعرفة دخيلة هذه الأحوال التعليمية المتردية ، بسبب ما اجتاح حياتنا التعليمية الرسمية من قوانين ولوائح يضارب بعضها بعضا إلى درجة تفقد المتمعن للأمور اختيار الجادة السوية حينما يخوض فى الحديث عن شئون التعليم .

أستاذى الجليل ، لقد تعلم جيلنا فى ظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية على درجة كبيرة من القسوة والظلم ، إلا أن الأمور التنظيمية للعملية التعليمية كانت أكثر استقرارا وتحديدا ومعرفة بالهدف المرجو بلوغه.

أما عن التجهيزات المادية التى نلقى بأعبائنا عليها ، فإنها كما أشاهد بنفسى أكثر مما ينبغى والأمر كله لا ينقص سوى عنصر مغيب ، ألا وهو الضمير الحى الذى افتقدناه كثيرا فدفعنا إلى ما تسمونه سيادتكم بالثرثرة !

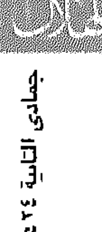
د. سامى منير عامر
كلية التربية – جامعة الاسكندرية

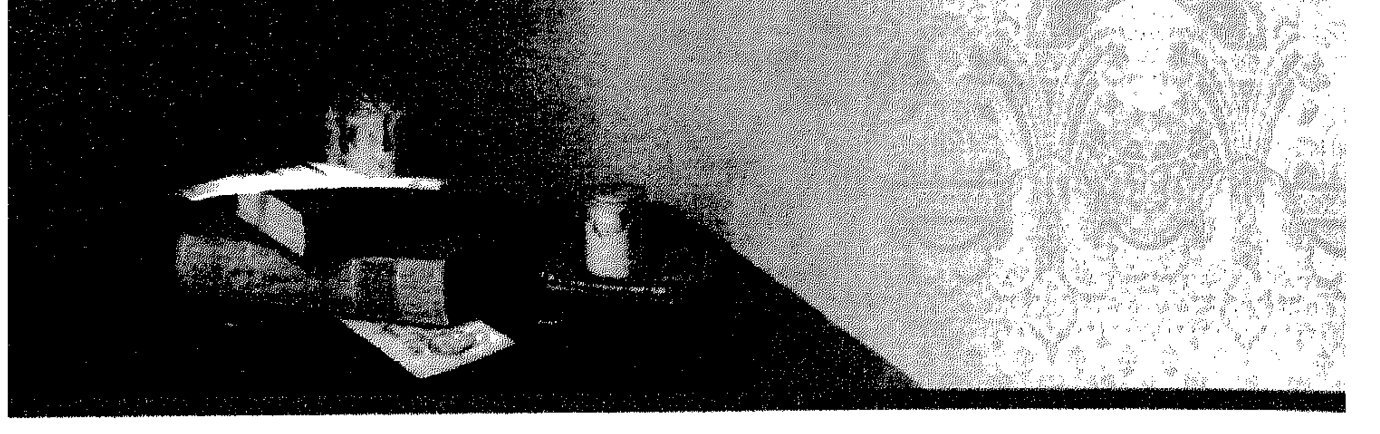
الهلال وروح الوطنية

أقدر جهد كم فى إخراج الهلال وإحكام موضوعاته ، وروح الوطنية العارمة التى تتدفق معه أقلامه العربية الخالصة ، التى لم تنحن للعواصف والأعاصير .

لقد عرفت «الهلال» فى مراحلها المختلفة ، وأنا من قرائها : وأشعر بالفخر والمتعة والفائدة لمطالعتها : وانتمائها الصادق إلى العروبة والإسلام .

ولدى بعض الملاحظات فى عدد يوليو الماضى





ففى الصفحة الأولى كتبتم «جماد أول» والأصح «جمادى الأولى» .

كما لدى ملاحظة عامة وهى أن بعض الصحف والمجلات المصرية تكتب «عبداللاه» بدلا من «عبدالله» وهذه الكتابة مغلوطة ، غيرت المعنى كاملا ، فإننا بذلك نضع كلمة «اللاه» وهى من لها ، يلهو ، لاه فى مكان لفظ الجلالة ، آمل أخذ ذلك فى الاعتبار ، وقليلا ما حدث ذلك فى الهلال ، ولكننى أردت نشر ذلك لديكم ليأخذ فى الاعتبار عند الآخرين .

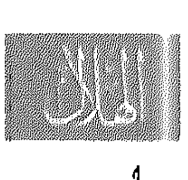
كما جاء فى مقال «الشعر الحلمنتيشى للدكتور مصطفى رجب ص١١٢ السطر ١٦ (قربا مربط النعامة منى» وهو شطر بيت شهير قاله المهلهل بن ربيعه أثناء حرب البسوس الشهيرة ، والحقيقة أن البيت هو من قصيدة «للحارث بن عباد وهو بكرى» وهو زوج أخت المهلهل بن ربيعه، والحارث هو والد بجير ، وقد أرسله والده إلى خاله المهلهل فى سفارة من بنى بكر ، لعله يفلح فى إصلاح ما بينهما من حرب .

مصطفى محمد ياسين
الزرقاء - الأردن

الهلال : شكرا للقارئ العزيز على ملاحظاته الطيبة .

نغني صباحا !!

نجدف نحو شواطئ هذا الأمل ..
كى نساوم هذا المدى ..
نستحث الخمائل ..
حتى يبوح العبير
ونجدل تلك المساءات ..
لحنا نديا
نغنى صباحا ،
ونشعل كل الحروف الشقية
نحيل الزمان الذى فر من دفتر العشق ..
وردا ، شموسا
بحارا تثور ، تفور
نجوما عصية
سيوفا أبية
نقاتل حزنا عنيدا ،
ونمحق فينا جحيم الجراد الجديد
تشد يداى يداكم
فننسبق خطوا عصيا
ونمنح كل الطيور الندية دوما ..
إشارات بدء أخيرة
نزين كل القلوب ..
بأغلى شجيرة فرح
تموت طيور الحداد
يعود لحلمى المدار



أنت والهلال

تصير البلاد
قصيدة شعر ..
تحرك فينا خيول الرجولة
نرفض موتا غبيا ،
كموت النعاج .
نسافر حتى الغياب ،
نعود ..
لنرسم فوق وجوه البلاد
نهارا زكيا !!!

محمود أحمد المصلى
شربين - المنصورة

أول امرأة سافرة في بغداد !

سرنى كثيرا ما جاء فى مقال الدكتور عدنان الرشيد فى عدد يونيو ٢٠٠٣ بعنوان «٦٥ عاما على سفور أول طالبة فى بغداد» عن المرحومة صبيحة الشيخ التى دخلت قاعة المحاضرات فى كلية الحقوق ببغداد وهى سافرة ، حيث أحدث منظرها هذا ضجة ولغطا .

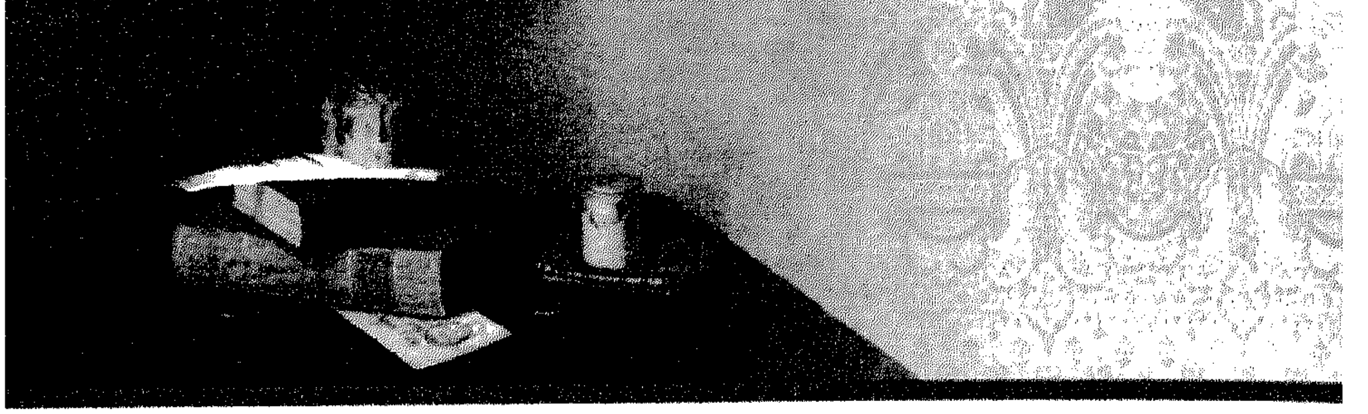
وقد ذكرنى ذلك بما كان حدثنى به صديقى الصحفى العراقى المعروف الأستاذ صبيح الغافقى رحمه الله (توفى فى ١٩٨٤/٨/٣٠) من أن صبيحة كانت الطالبة الوحيدة بين ألف طالب فى كلية الحقوق ببغداد عام ١٩٣٦ ، وكانت الأولى على دفعتها عند التخرج ، ومع أن والدها كان من رجال الدين ، وتولى منصب وزير الأوقاف عام ١٩٢٧ ، إلا أنها أصرت على أن تقود حركة تحرير المرأة فى العراق بجرأة وشجاعة .

لقد كانت صبيحة الشيخ داود الحقوقية الأولى فى العراق ، وأول قاضية عربية ، وكانت نموذجا فذا للإنسان الكامل ، وصورة فريدة للأدب الجم والروح العالية .

وفى عام ١٩٥٠ أصدرت كتابا بعنوان (أول الطريق) وهو سجل حافل ليقظة المرأة العراقية ، وقد توفيت فى ١٩٧٥/١١/١١ رحمها الله

القاضى ماجد ذيب غنما
عمان - الأردن

الهلال : نحن نرحب بإلقاء الضوء على هذه الشخصية والهلال تفتح بابها لكل الكتاب العرب ، فهى مجلتهم التى تعبر عن الثقافة العربية ونبض العرب جميعا .



أبقى وحيدا

(١)

وكنت أرى نهرا .. ولا أعبره
فكيف استطاع النهر أن يعبرنى ؟

(٢)

لابد من ماض ليندس الغبار
فيه .. مثل كدمة تشيخ
لابد من ماض لكى أشبه
صورة لو
على الجدار
ابتدأت تفضحنى بصمتها الفصيح
لابد أن ينسع الماضى
لكى ندفن هذا الحاضر القبيح

(٣)

قل لهم - عنى - لماذا يذهبون
كلما أتى إليهم
كلما تمضى السنون
وأنا أبقى وحيدا

(٤)

لا يمكن أن أطلب منهم
أن يتشحوا برماد يسكننى
وغبار يعلونى
وفضاء لا أملكه
......
...
لا يمكن أن أطلب منهم
أن ينتصروا لهزائم روحى

(٥)

تأنق «يصنع» أشياء كثيرة
سوى نبتة فرح طازجة
ووحشة
تقتحم الجدار بالفرح

(٦)

المرأة التى تؤدى الدور نفسه
كل يوم
لم تزل تأمل فى
ساسة لعرض عبثها !

(٧)

كان وقارها
مقنعا
ومقنعا .. إلى حد كبير
غير أننى فشلت
أن أكون
ذلك الأبلة

محمد فتحى غريب

موقع الهلال على شبكة الانترنت

الهلال وهو يجتاز عامه الحادى عشر بعد المائة هو بمثابة جامعة للفكر والثقافة العربية ، أتمنى أن أرى للهلال ناديا يجمع بين كتابه وقرائه ، يكون هذا النادى همزة وصل بين الأجيال المتابعة والتى شاركت فى الكتابة فى الهلال فى مختلف مراحله ، وبين قرائه من مختلف الأعمار ، وأن يكون هذا النادي - نادي أصدقاء الهلال - أداة للتعارف والتواصل الفعال والمباشر بين كتاب الهلال وقرائه .. وأتمنى أيضا أن أرى للهلال موقعا على شبكة الإنترنت ننسر من خلاله مواده التحريرية ، وتعرف بتاريخه وكتابه وأعلامه .



ولا يفوتني أن أرسل تحية تقدير لصاحب تكوين عدد يوليو الماضى .
الأستاذ : أحمد حمروش الذى كتب قصة ثورة يوليو فى ثمانية مجلدات فى نزاهة وأمانة ، وكشف أسرار الثورة من خلال شهودها ثم أتبعه بكتابه المهم «ثورة يوليو عقل مصر»

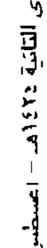
عمرو عبدالمنعم حمودة
برما - طنطا

الهلال : لا نتوانى فى الهلال عن توفير كل مواده منذ صدوره حتى الآن وقد تمثل ذلك فى الكشاف الذى طبع فى دار الهلال وتستكمله حاليا دار الكتب .
أيضا المشروع الكبير الذى يتم الآن إعداده بكل الهمة والنشاط فى مكتبة الاسكندرية - وهو طبع الهلال على (C.D) منذ صدوره وحتى الآن .
ويتم الإعداد الآن لعمل موقع لدار الهلال بحيث توضع مواد الهلال التى يتم نشرها شهريا أولا بأول .

قصة قصيرة

إحساس

كنت حين أراها تضم ذراعيها لصدرها فى استكانة وهدوء وهى جالسة تصغى لفرحة البنات وهن مجلجلات فى فناء المدرسة .. أحس برشق السكين فى قلبى .
انتهت حصة الألعاب ودخلت الفصل .. كتبت عنوان الدرس وحدقت البنات ، حين رأيت وجه هدى .. ابتسمت وانشغلت ، أنظم السبورة ناقشت البنات فى الدرس .. مرت الحصة وقبل خروجى ناديت «هدى تعال» وقفت بجوارى .. قلت محذرا «الفصل تحت مسئوليتك وبالذات المشاغبات .. أنت أمينة الفصل .. تمام يا هدى» .
لمحت ابتسامة خجولة على شفتيها وقد وقفت ثابتة ، رفعت رأسها وفردت صدرها .. أمسكت الطباشير وفى محتوى عينيها بريق الأمل .
وقبل خروجى قلت «شوفوا يا بنات» وجه هدى زى إيه يا بنات «قالوا بلهجة فرحة ، زى الوردة يا أستاذ» .
وهدى تضحك
كنت موقنا أن صدورهن تشتعل غيرة منها ، وما قالته إحداهن بالامس ليس كذبا ، البنات يتهامسن «هو مفيش غير هدى» تكتب الأسماء .. تنظم الكراسات .. هاتى يا هدى ... تعالى يا هدى» .
فى وقت الفسحة .. تعودت أن تجلس بجوارى .. تهتم بما أكتب ولا تبرح المكان إلا فى حصة النشاط .
ونحن جالسان جاءت إحدى التلميذات .. قالت «لو سمحت يا أستاذ .. الدفتر للاستاذ مدحت» .





أخرجت الدفتر وكدت أناوله للطالبة إلا أن يدى انحرفت نحو هدى وقلت لها «طلعى الدفتر .. هيا يا هدى .. بسرعة» .

حدجت الأستاذة «صفاء» من خلف نظارتها السميكة وقالت معاتبة، «كنت خلى طالبة غير هدى تطلع الدفتر» ثم مصمصت بشفتيها «مسكينة يا هدى».

نظرت إليها بوجه حاد .. قلت «هدى طالبة قوية وأظن من الخطأ أن تلغى شخصيتها كإنسانة» .

أسقطت رأسها على صدرها وغمغمت كأنها لم تفهم قصدى .خلال الحوار .. دخلت هدى .. وضعت على مكتبى قطعة «شيكولاته» «أتفضل يا أستاذ .. الشوكولاته فى جيبى لك من أمس» .

خطفت الأستاذة صفاء النظارة من فوق أرنبة أنفها وسألت بامتعاض : «الشوكولاتة للأستاذ صلاح ، فين حقى يا هدى ؟!»

من فوق مكتبى أخذت حقيبتى .. صعدت السلالم .. صاحت «الحصة بدأت» .

صعدت خلفها حتى كلت قدماى .. ركنت على «الدرابزين» التقط أنفاسى وهى كالرهوان تصعد ، وكأن خيطا ورديا يشد قلبى إلى ساقها «الصناعى» المتوثب .

سادات طه محمد -دقهلة - مركز الزرقا - دمياط

أعدوا الخيول

لصد الأعادى أعدوا الخيول فعما قليل ، تدق الطبول
أعدوا الخيول فخيل العدا تعد وتعدو وكم ذى تجول
إذا لم نعد لهذا الردى فلا من نجاة ولا من وصول
سنهلك فى نارهم كلنا وتأكلنا النار نار المغول

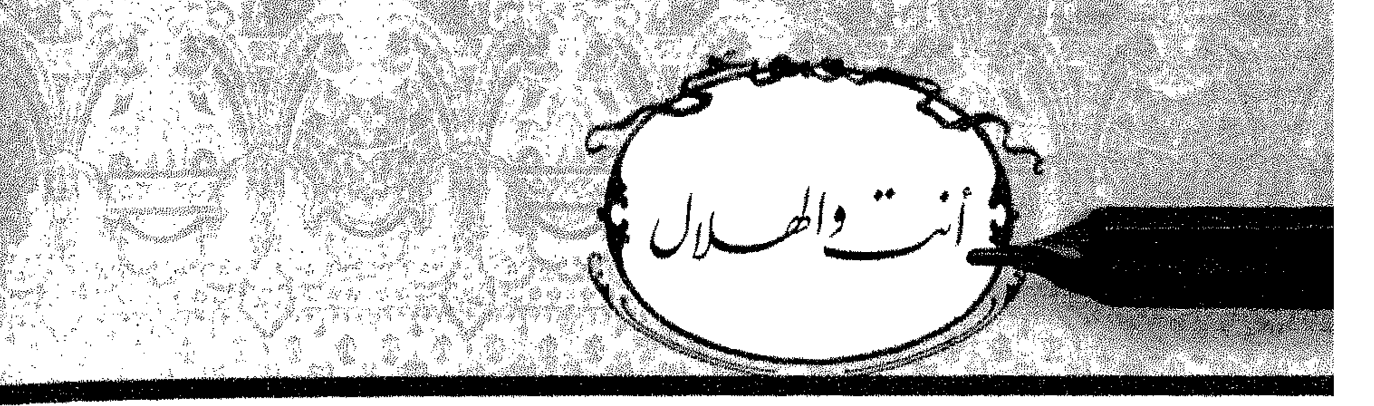
* * *

أرانا كطير تغنى هنا وهم كالوحوش تأست بغول
ألا فلنجد إلى مجدنا فما لمجيد حياة الخمول
إلى الأصل هيا إلى أصلنا فليست فروع الورى كالأصول
نسيتم كثيرا هنا فاذكروا وذكر القديم ينير السبيل

* * *

دعوا كل داع إلى محدث يرى لقديم الورى أن يزول
قديم الحياة أساس لها ولولا الأساس فكل يميل
ولو تنظرون إلى ما مضى فسوف ترون جمال الجميل
ولو تعلمون طريق الرضا لما كان عما مضى من بديل

حسن أبو الغيط - المصيلحة - منوفية



شكرا للمحافظ ولرئيس الهيئة العامة للكتاب

طالبنا فى عدد يونيو الماضى ، وتحديدا فى افتتاحية الهلال التى تناولنا فيها إقامة التماثيل للمفكرين والمبدعين والفنانين ، بأن يكون لاثنين من زعماء مصر نصيب فى إقامة تمثالين لهما وهما جمال عبدالناصر وأنور السادات .

وقد قرر د. عبدالرحيم شحاتة محافظ القاهرة إقامة تمثالين لهما مؤكدا أن ذلك يأتى فى إطار حرص القيادة السياسية على إحياء ذاكرة الأمة بتخليد العظماء من رجال مصر والحفاظ على التراث .

وفي عدد يوليو الماضى طالبنا بطبع مذكرات المشير الراحل محمد عبدالغنى الجمسى ضمن مشروع كتاب الأسرة وعلى الفور استجاب الدكتور سمير سرحان رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب .

فشكرا لمحافظ القاهرة ، وشكرا للدكتور سمير سرحان

« الهلال »

الحسد يورث السقم والألم!

يقول الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه : لا راحة لحسود ولا إخاء لملول ، ولا محب لسئ الخلق ، وقال الحسن : ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من حاسد نفس دائم وحزن لازم ...

وقال أبو العتاهية :

يا رب إن الناس لا ينصفوننى ... وكيف ولو أنصفتهم ظلمونى
وإن كان لى شئ تصدوا والآخذه ... وإن جئت أبغى فضلهم منعونى
ومهما كان بذلى فلاشكر عندهم ... وإن أنا لم أبذل لهم شتمونى
وإن أصابتنى نقمة فرحوا لها ... وإن أصابتنى نعمة حسدونى
سأمنع قلبى أن يحن إليهم ... وأحجب عنهم ناظرى وجفونى

وقال أحد العارفين : ما أضيع للايمان ولا أهتك للشر من الحسد لأن الحاسد معاند لحكم الله ، باغ على عباده ، عات على ربه بعد نعم الله نقمه وعدل قضائه حيفا ، لا يبرد غليله، ولا تؤمن غوائله ، إن سالمته وترك وإن واصلته قطعك .

محمد أمين عيسوى
الاسماعيلية



مع الأصدقاء

* وصلت هذه المساهمة من الصديق أحمد محمد عسكر - دسوق - كفر الشيخ وهى قصيدة زجلية عنوانها «جنون الموضة» وننشرها لطرافتها :

الموضة كلمة محيرانى فيها نص دسته من الحروف
جت لخبطت كل المعانى وغيرت كل الظروف
نستنا معنى الاحترام وعلقت حتى المبادئ ع الرفوف
الواد سمير بقى اسمه سوسو وحالقلى شعره زى الخروف
وأفندى لابس سلسلة ، وانسيال يادى الكسوف
تقابل بنت بفستان وشعرها بالحجاب ملفوف
وعدى بص لظهرها تلاقى فتحة لوسطها ولحمها مكشوف
ألفين خسارة على الشهامة والنخوة والمعروف
شفنا العجايب والعقل غايب ياما بكره نسمع وكمان نشوف

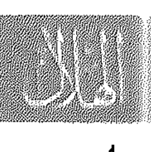
* ومن بلقاس جاءت هذه التأملات من الصديق إسلام عوض ويقول فى إحداها :

الليل فى انقضاء بعدما يأتى الضياء
والصبح فى رواح عندما يأتى المساء
والموت يأتى بغتة كبزوغ ضوء فى الظلام
واحترت بعد الموت أهو الصباح أم المساء !

* محمود إبراهيم حسن : قنا يسأل عن كيفية كتابة مقال للهلال :

وأقول للصديق إن كل عدد من الأعداد يحدد رئيس التحرير موضوعاته وعناوينه ونتفق على كل كاتب مقال ، ويتم الاتصال بالكتاب ويمر وقت ويبذل جهد للحصول على مقالات الهلال ، لكن إذا وصل إلينا مقال جيد نحتاجه يتم نشره على الفور .

* وإلى الأصدقاء الذين بعثوا إلينا قصصا قصيرة وشعرا نعدهم بنشر إنتاجهم فى الأعداد القادمة .



الكلمة الأخيرة



اللمسة: سر الحياة

بقلم: د. أحمد مستجير

اقرأ معي ما كتبه الروائي المصري الفذ خيري شلبي في رواية «وكالة عطية».

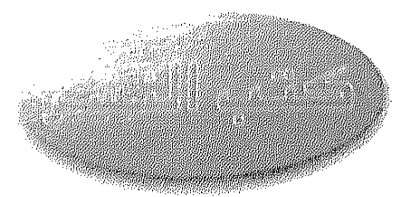
«وجدتني أربت على كتفيها لأول مرة . يبدو أن يدي قد حملت الكثير من مشاعري نحوها لحظتئذ ، فإذا هي طفلة صغيرة تنتظر هذه الحركة منذ زمن ، فانزلقت على صدري ، مريحة رأسها على كتفي في حنان حقيقي متصفى ... (ثم) ... تلقفت راحة يدي فطبعت على ظهرها قبلة امتنان حارة ، فسحبت [illegible]».

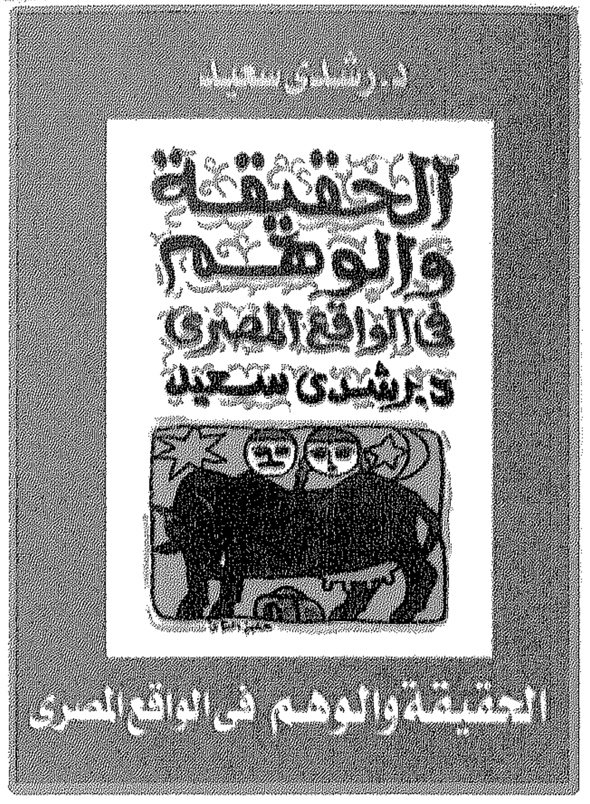
لمن هذا الكاتب العبقري يصل إلى لب الحياة وجوهرها . هو يصل بيسر إلى لب الحياة . الذي تحمل المشاعر [illegible] ، حاجتنا ملحة وعميقة إلى أن نلمس وأن نُلمس ، نعبر عنها في لمسة يد ، في ربتة كتف نحكيها لآخر ، في ربتة على الكتف ، في حضن ، في عناق ، في قبلة ، في نظرة عين تنقل الحنان إلى آخر ، أو تصلنا من آخر ، وتجهر برابطة ، بصلة ، باهتمام ! حاجتنا إلى «اللمسة» حقيقية ومتأصلة : هي التي تثري وجودنا ، هي التي تجعلنا بشراً ، وتجعل البشر كلاً ، وتضفي على الكل المعنى . أن تبتسم لغريب ، أن تمد يدك تلمس صديقاً أو غريباً ، أن تهدهد طفلاً يبكي ، أن تكف عن كره نفسك فتحب الآخرين ، أن تغدق الحب على حياة الغير ، أن تدرك أن ثقافتنا تفتقر إلى اللمسة ، تفتقر إلى الاطمئنان ، وإذا أحس الفرد بالاطمئنان ، أصبح منفتحا يستجيب للآخرين ، يلمسهم ليعبر عن نفسه ، ويحس الآخرون بأن هناك من يهتم بهم ، يستيقظ في الصباح وهو يحس بأنه محبوب ، وينام في الليل وهو يحس بأنه محبوب رغم كل ما حدث طوال النهار . من هذا الحب ينبع الكمال ، والالتزام ، والإخلاص ، والفضيلة .

جرحى نحن ، جرحى نمشي كالتائهين ، جرحى في عالم مادي غابت عنه اللمسة ، غاب عنه الحب ، جروحنا في الروح ، وجروح الروح تدمي عميقاً . النضج الصحيح للإنسان هو أن يصبح قادرا على الحب ، على العمل ، على اللهو واللعب ، على أن يستخدم عقله على نحو سليم . جوعى نحن للمسة ، جوعى للاتصال والحميمية . العالم مكتظ بالبشر ، لكن كل واحد منا يمشي وحده ، «فيا للزحام لا أحد» كما يقول الشاعر ، نحس جميعا بأن شيئا ما من حولنا خطأ ، شيئا ما في حضارتنا ، شيئا ما خطأ يلفنا ويخنقنا ، ثم لا نعرف ما هو ، نموت في بطء ولا ندرك أننا نموت ، نموت جوعا للمسة ، تقلقنا وتحيطنا ثقافة فقدت جذورها ، بالزمان الذي نحن عبابه ، الذي نفكر فيه طويلا قبل أن نرفع [illegible] كي نحتضنه ، قبل أن يفاجئ الفرد منا حبيبته بقبلة على غير توقع ! قد تحول [illegible] الفرد تائه في صحراء ، زماننا المزدحم قد يهز بالكامل رؤيته عن قيمته بهذا العالم . اللمسة إن جاءت من القلب تشفي ، من أيها شخص كانت ! كلنا ، كل شخص لا سيما الصغار الأبرياء منا يحتاج إلى اللمسة . اللمسة أكبر بكثير من جلد يلامس جلدا . اللمسة تحمل التسليم بإنسانيتنا جميعا بأن الإنسانية تجمعنا . اللمسة إدراك بقابلية للانجراح متأصلة فينا برغبتنا الكامنة في الاتصال . ثم إن التحقق عن طريق اللمسة - جسدية كانت أو غير جسدية - هو أبعد بكثير مما يتخيله معظم الناس . اللمسة جزء عزيز غزير من كياننا الأسمى .

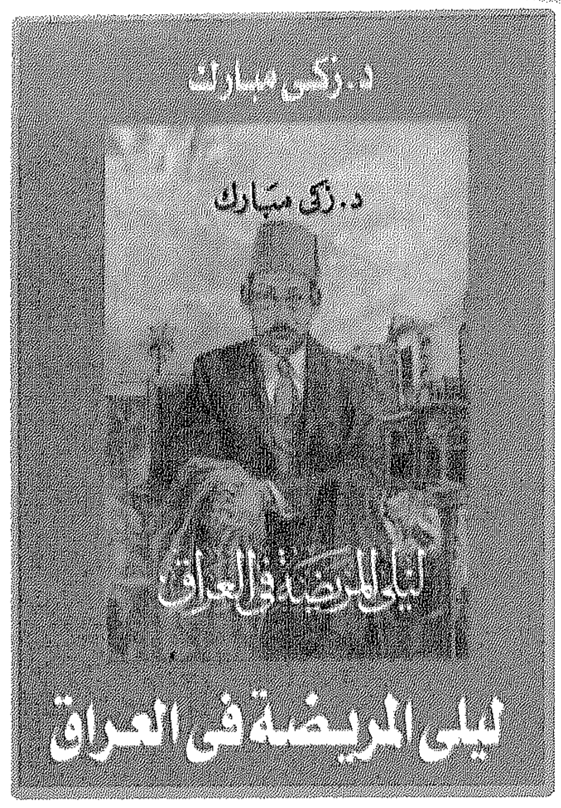
عندما كتب آشلي مونتاجيو عام ١٩٧١ أول كتاب عن «اللمسة» بيع منه ستة ملايين نسخة . نحن في حاجة إلى اللمسة حقاً .

أحدث إصدارات دار الهلال

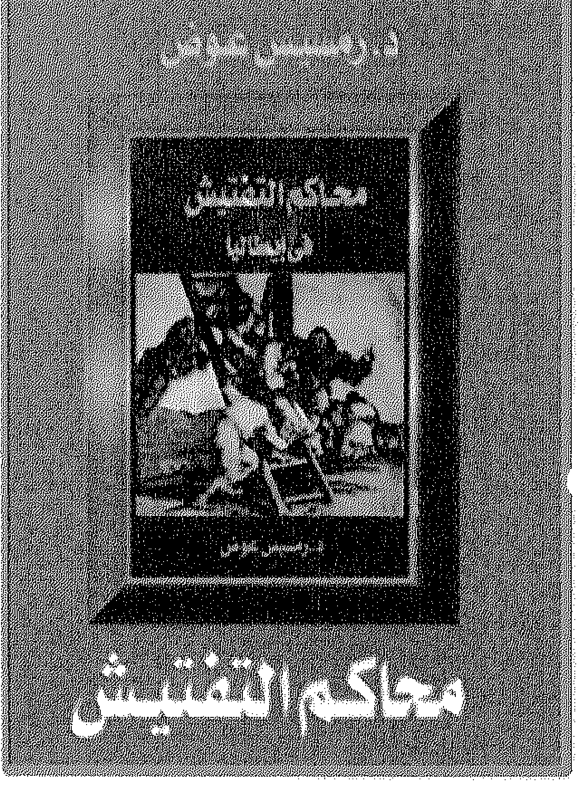




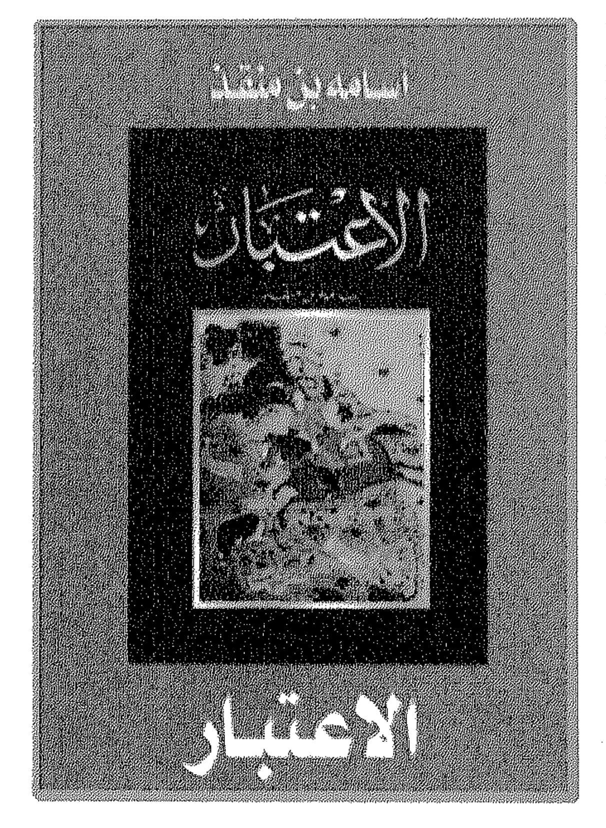
الحقيقة والوهم فى الواقع المصرى



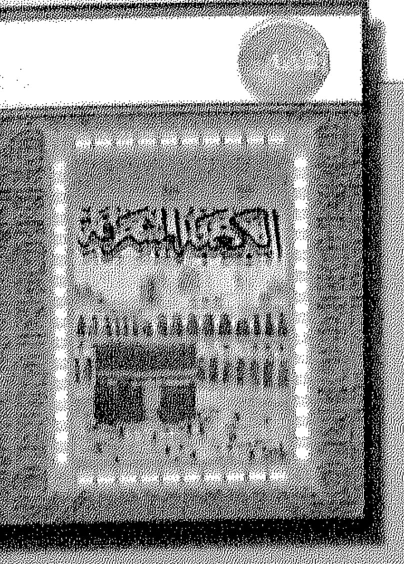
ليلى المريضة فى العراق



محاكم التفتيش

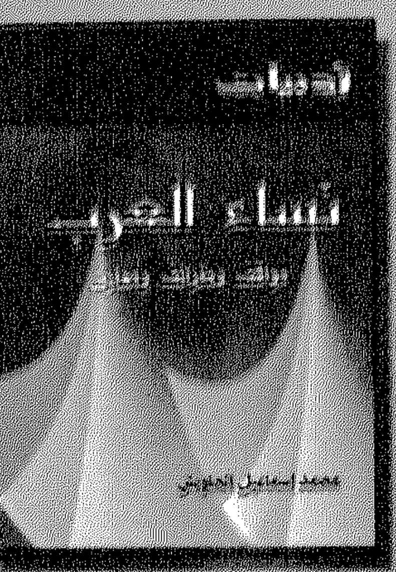


الاعتبار





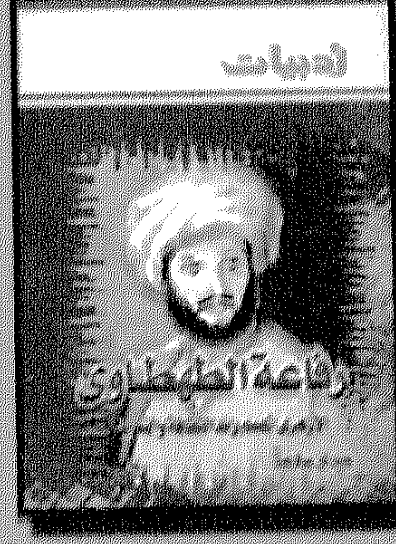








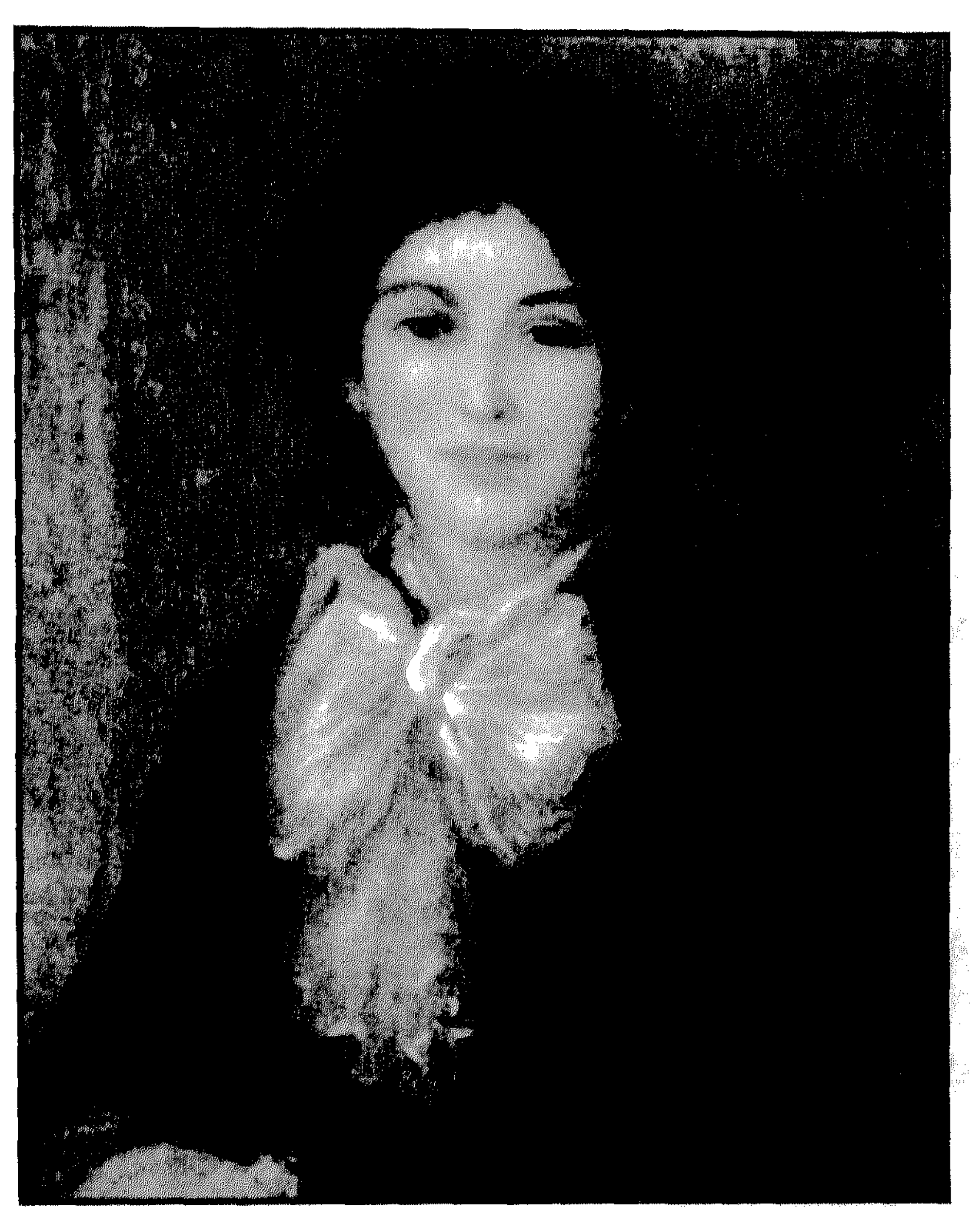




ـاعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع (مطابع سلاح التلميذ) 13،10،8 شارع 47 المنطقة الصناعية بالعباسية
المكتبات 10، 16 شارع كامل صدقي بالفجالة - 4 شارع الاسحاقي بمنشية البكري - روكسي - مصر الجديدة - القاهرة
ت 6835854 - 6851801 - 6821792 - 2586197 ص.ب: فاكس 6827002 - 202/2596650



الهلال
سبتمبر ٢٠٠٣ الثمن ٤ جنيهات
الإسلام والنهضة
قواعد اللعبة بعد غزو العراق
قصة الأسرة الهاشمية
الماس
والحروب الأهلية فى إفريقيا

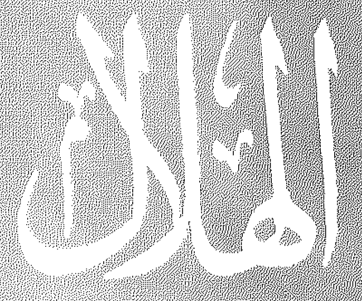


لوحة وفنان

(ذات رابطة العنق)

للفنان: راينوار أوجست

متحف: محمد محمود خليل



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال

أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

العام الثاني عشر بعد المائة رجب ١٤٢٤ هـ - سبتمبر ٢٠٠٣م

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).

المكاتبات: ص.ب: ٦١ - العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا - المصور - القاهرة ج.م.ع. مجلة الهلال

ت: ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: darhilal@idsc.gov.eg

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - امريكا ٨ دولارات



٨ - الماس والحروب الأهلية فى أفريقيا
.... **جميل مطر**
٢٤ - الإسلام والنهضة ....
.... **د. أحمد محمد الطيب**
٣٤ - الانترنت بيتكلم عربى ....
.... **د. أحمد محمد صالح**
٤٤ - مشاهد تاريخية ....
.... **د. محمد رجب البيومى**
٥٢ - قواعد اللعبة بعد غزو العراق ....
.... **د. منير زهران**
٦٢ - الولايات المتحدة الغاضبة ....
.... **محمد يوسف عدس**
٧٠ - تزامن المبادرة المصرية مع المقاومة العراقية
.... **عبدالرحمن شاكر**
٧٤ - لابد من صنعاء .... **مصطفى نبيل**
٨٦ - أحمد صبرى بين المبالغة والحقيقة «دائرة حوار» .... **نزار أحمد صبرى**
٩٤ - المثقفون وتجديد الخطاب الثقافى ....
.... **صافى ناز كاظم**
٩٦ - الغباء ظاهرة تتزايد فى العالم ....
.... **هديل غنيم**



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الاشتراكات: قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

الأبواب الثابتة

- عزيزى القارئ ٦
- أقوال معاصرة . ٢٣
- لغويات
د. الطاهر أحمد مكى
.... ٩٣
- شخصية العدد د. محمود حافظ
بقلم د. محمد الجوادى
.... ١٠٠
- من ذخائر الكتب العربية رحلة ابن جبير
بقلم: د. حاتم الطحاوى
.... ١١٤
- التكوين (كريم مروة)
- أنت والهلال (عاطف مصطفى) ٢١٨
- الكلمة الأخيرة
بقلم: د. عبدالعظيم أنيس
...... ٢٢٦

١٠٦ - أورجانوس المصرى .... فكرى أندراوس
١٢٢ - قصة الأسرة الهاشمية ....
.... د. عاصم الدسوقى
١٣٤ - لورانس وسقوط الأسطورة ....
.... د. صبرى محمد حسن
١٤٢ - الفن والقمامة .... د. محمد المهدى
١٥٢ - أشهر المعارك الفنية ....
.... د. نبيل حنفى محمود
١٦٢ - المتفرجة (حلم) .... مرفت رجب
١٦٧ - العيب فى أفلام الصيف............
.... مصطفى درويش
١٧٢ - القاهرة الخديوية .... أمانى عبدالحميد
١٨٠ - طه حسين من الأزهر إلى السربون .....
.... د. محمد الدسوقى
١٨٦- أوراق العائلة "قصة"
.... محمد البساطى
١٩٢ - مرايا نجيب محفوظ ....
.... د. فهمى عبدالسلام
٢٠٠ - عزف منفرد على ذاكرة الشجرة «قصيدة»
.... محمد يوسف
٢٠٢ - فى عالم الأدب والصحافة ....
.... وديع فلسطين



فى الحب

كتب د. طه حسين فى مقاله الافتتاحى «فى الحب» فى مجلة الكاتب المصرى فى فبراير ١٩٤٦، قارن فيه بين كتاب «طوق الحمامة» لابن حزم الأندلسى الذى عاش فى القرن الحادى عشر وكتاب الأديب الفرنسى ستندال «فى الحب» والذى عاش فى القرن التاسع عشر وجاء فيه..

«مضى فى تاريخنا الأدبى والعقلى عصر لم يكن الحب فيه هزلا ولا دعابة، وإنما كان جدا خالصا لا يخلو من صرامة وحزم فى كثير من الأحيان، فقد كان القدماء أسمح منا نفوسا وأحسن منا استقبالا لأمور الحياة، يعنفون بأنفسهم فى مواضع العنف، ويرفقون بها فى مواطن الرفق، ولا يتكلفون هذا الجد السخيف والتزمت الذى لا يدل على شئ.. وأريد أن أتحدث عن الحب من حيث إنه كان موضوعا للبحث والدرس والتأليف عند أديبين عظيمين، أحدهما عربى مسلم، والآخر أوروبى مسيحى.. فالاختلاف بين الرجلين بعيد إلى أقصى غايات البعد، ولكنهما يلتقيان.. أحدهما عربى الحياة والآخر فرنسى الحياة، وكلاهما عاش فى عصر فتنة واضطراب، عاش ابن حزم فى عصر انهيار الدولة الأموية فى الأندلس، ولم يشهد ذلك من برجه العاجى، وإنما شهده شهود المشارك فيه، المصطلى بناره، المتحمل لآثاره، فذاق السجن والنفى.. ولقى ألوانا من المحن وضروبا من الخطوب، وعاش ستندال فى عصر الثورة وفى عصر الحروب التى أثارها نابليون وشارك فى هذه الحروب.

والمهم أن كليهما منح حسا دقيقا وشعورا رقيقا وعاطفة ثائرة ومزاجا حادا وذوقا رفيعا، فتأثر بهذه الفتنة وتأثر بهذا الاضطراب، وعاش عيشة سخط وقلق لا عيشة رضا واطمئنان.

وكان الرجلان يختلفان ويتفقان. فرغ ابن حزم لعلوم اللغة والدين، وفرغ ستندال للقصص والإنشاء الأدبى الخالص، ولكن ابن حزم ألف كتابا فى الحب، وستندال ألف كتابا فى الحب أيضا.

والظاهر أن الحب كان خطيرا حقا فى إسبانيا المسلمة أيام ابن حزم، ونقرأ كتاب ابن حزم فنرى أن الحب شغل ابن حزم فى حياته كلها كما شغله الفقه والتفسير والحديث والكلام.

أما فى فرنسا فالحب خطير فى كل وقت لا يحتاج ذلك إلى دليل وأخص ما يتفق فيه ابن حزم وستندال أنهما لم يريدا أن يكتبا فى الحب كتابة المتزيد المتكلف، وإنما كتابة العالم الذى يؤثر البحث والاستقصاء، ويعتمد على الملاحظة والمشاهدة، ويستنبط من هذا كله أصولا وقواعد هى أشبه بالعلم وأقرب إليه من شبهها بالأدب.. يثبت ابن حزم أن الحب حقيقة واقعة لا منصرف عنها ولا تخلص منها، وأنه من أجل ذلك شئ مباح لا ينكره الدين ولا العرف مادام لا يتجاوز حدود الدين والعرف. وما هية الحب «الاتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع» وهذا الاتصال إنما هو ملاءمة فى الشكل وتشابه فى الطبع وحنين جزء من النفس إلى جزء آخر من النفس، والأعراض الطارئة هى التى تباعد بين هذه الأجزاء أو تتيح لها أن تقترب وتأتلف.

أما ستندال فلا يعرف الحب جملة وإنما يستقصى أنواع الحب عند أفراد الناس، وليس هنا حب واحد، إنما هناك أنواع أربعة من الحب:

أولها الحب الجامح الذى يملك على النفس أهواءها وعواطفها وحسها وشعورها، الذى يندفع كالسيل لا يلوى على شئ ولا يترك لصاحبه حظا من أناة أو روية أو تفكير، والثانى الحب المترف الذى ينشئه التكلف وما تقتضيه الحضارة الراقية المصفاة من إتراف فى الذوق وتأنق فى فنون المتاع، والذى لا يكاد يتصل بالنفس ولا بالقلب، وهو لون من ألوان الذوق وفن من فنون الترف، أحاط الناس بأسراره ودقائقه فهم يصعدون فيه عن علم وينبهون إلى غايته عن بصيرة، والثالث الحب الجسدى الذى تدفع إليه الغرائز والذى يشترك فيه الإنسان والحيوان. والرابع حب الغرور الذى ينشأ عن الكبرياء وإيثار النفس بهذه الظواهر الخداعة التى يكبر بها الإنسان أمام نفسه.

وهو ليس تقسيما نهائيا، ومن الممكن أن ينقسم كل نوع إلى أنواع جزئية أخرى، والمهم أن نتبين كيف ينشأ الحب وكيف ينمو وكيف يضعف وكيف يموت.

فأنت قد أعجبت ثم اشتقت ثم أملت ثم استمال هذا كله فى نفسك إلى لذة قوية تحدث بمجرد أن ترى من تحب أو تسمعه أو أن تمسه أو أن تتصل بسبب من أسبابه.

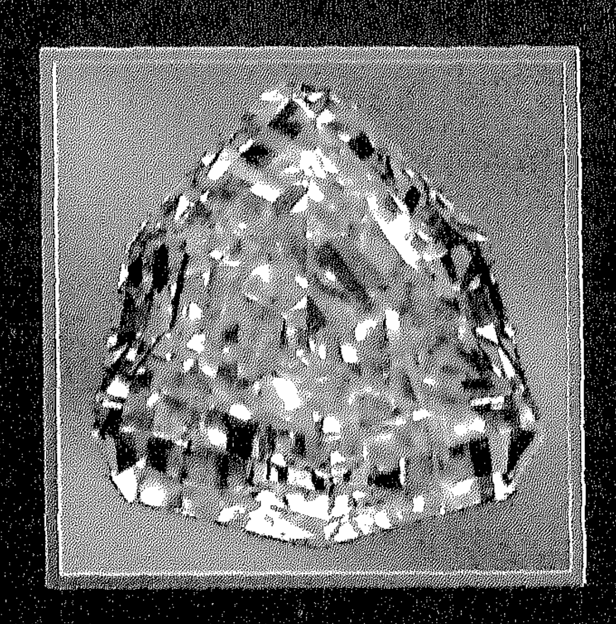
وسلك ابن حزم وستندال طريق الملاحظة المباشرة، ولكن ابن حزم لا ينتفع فى ملاحظته المباشرة كما ينتفع ستندال، فبين الرجلين دهر طويل تطور فيه العقل الإنسانى وتطورت فيه مذاهب البحث ومناهجه ووسائل الملاحظة وأدواتها تطورا عظيما بعيد المدى.

وهناك فرق آخر، هو أن ابن حزم على شذوذه الذى لفت إليه المعاصرين جميعا فى الشرق والغرب، لم يستطع أن يتخلص من العادة المألوفة فى الاستنباط فقد فكر كما كان الناس يفكرون. ولم يستطع أن يتجاوز ذلك.

فكلا الرجلين قصد إلى إجادة الدرس وإتقان البحث وتعمق الاستقصاء، ولكن أحدهما وفق إلى مالم يوفق له الآخر لأنه ملك من الوسائل والأدوات وأسباب العلم والثقافة ما لم يتح لصاحبه.

ويتجاوز ستندال النقد إلى الاقتراح، ويقترح مذهبا جديدا فى تربية الفتاة لتستطيع أن تحب حبا صحيحا. ويقترح ألوانا من الإصلاح تقرب المسافة بين الحب والزواج.

وأصبح كتاب ابن حزم وكتاب ستندال كتابين لهما خطرهما فى التاريخ الأدبى.



الماس.. والحروب الأهلية فى إفريقيا

وحل وصراع ومخمل وحب

بقلم
جميل مطر

لو عرفت الحبيبة قصة حجر الألماس الذى قدمه لها حبيبها تعبيراً عن حبه لربما ترددت فى قبول هذه الهدية رغم حسن نوايا الحبيب وصدق تعبيره. هذا الحجر، صغر أو كبر، وسواء رصع خاتماً أو عقداً أو سواراً وصل إلى مكانه على إصبع أو على عنق أو على رسغ فاتنة هنا أو هناك بعد أن مر برحلة طويلة، مخلفاً وراءه فى كل خطوة من خطواته عذابات وأهوال وقصص ومآسى بلا حصر أو حدود.



ليست كل أحجار الألماس المتداولة فى السوق العالمية نعمة فكثير منها ملعون ومخضب بالدماء. لم يعرف الناس، وبخاصة العشاق بينهم، الحقيقة فى مسيرة هذه الأحجار من حيث كان مرقدها على شاطئ نهر أو عند قاعه حتى وصلت إلى محل بيع المجوهرات. وقف وراء إخفاء هذه الحقيقة عديد من الأطراف، فى صدارتها شركات استخراج وصقل وتوزيع أحجار الألماس، وعلى رأس هذه الشركات دى بيرز، والدولة البلچيكية وإسرائيل وكبرى أجهزة الإعلام العالمية. كل هذه الأطراف كانت تخشى لو تسربت الحقائق المرعبة التى تختفى وراء بريق حجر الألماس أن يحدث للألماس والمنتفعين من تجارته دولاً كانت أم شركات أم جيوش ما حدث للفراء. فقد أصيبت صناعة تربية الثعالب وحيوانات أخرى كانت تذبح من أجل فرائها بالكساد فى أعقاب الحملة الإعلامية التى قامت بها منظمات غير حكومية مهتمة بالدفاع عن الحيوانات. فقد تعمدت هذه المنظمات توزيع صور لقطع فراء ملطخة باللون الأحمر، أى لون الدم الذى سال من الحيوانات عند ذبحها قبل سلخها. قيل أيضاً فى تبرير محاولات إخفاء الحقائق فى قصة الألماس أن هذه الأطراف نفسها كانت فى الحقيقة تخشى على وظائف العاملين الأفارقة فى استخراج الألماس فى وقت تمر فيه اقتصادات الدول الإفريقية بأزمات طاحنة، وتزداد فيه البطالة إلى درجات كبرى. قيل إنه من الظلم أن تذاع قصص مؤلمة عن الألماس فيفقد العمال الأفارقة المساكين وظائفهم.

ولا شك أن جوهرة الألماس تحمل معان كثيرة وتؤدى أكثر من وظيفة. الألماس لافت للنظر أكثر من أى شىء آخر، لعله فى أحيان يكون لافتاً أكثر من فتنة وجاذبية من تتجمل به أو تتزين ، أو فلنقل يزيدها فتنة ويزيدها ثقة بنفسها. فالألماس كما ذكرنا أقوى تعبير عن الحب. اكتسب هذه السمعة بفضل استراتيجية بارعة يجيدها المستثمرون فى صناعة الألماس وبائعو المجوهرات. وفى الواقع فإنك فعلاً إن دخلت إلى مكان متلألئ الأضواء ومكتظ بالسيدات والفتيات ففى الغالب يزداد المكان بهجة وتلألأ كلما ازداد عدد قطع الألماس الموجودة فيه. كذلك صار واقعاً أن الألماس عند المتزينات والمتزينين به يحمل رسالة مرح وفرح وحب.

الوجه الآخر للألماس

الوجه الآخر للألماس تقابله هناك فى القارة السمراء جنوب الصحراء وعلى شواطئ الأنهار وفى بعض التلال. هناك ترى أطفالاً ورجالاً وقد انحنوا من مطلع الشمس الحارقة حتى غروبها، وأيديهم تغوص فى الوحل تبحث فيه عن أحجار وحصى لعل بينها حجرة من الألماس الخام. أجداد هؤلاء الأطفال والرجال ربما كانوا من بين أوائل من ربطهم تاجر الرقيق منذ ثلاثة أو أربعة قرون بالحبال وساقهم عبر الغابات والمستنقعات تلدغهم الحشرات وتقتل أغلبهم الأمراض

الاستوائية حتى يصل أقلهم إلى شاطئ الأطلسي. وهناك يقوم تاجر الرقيق بوضع كل فرد منهم على الميزان لتقدير حمولة السفينة. ويفتح فمه ليفحص أسنانه ثم يفحص جسده ويختبر قوته. وبعدها يقدر ثمناً له يتقاضاه إن وصل العبد سالماً إلى جزيرة في البحر الكاريبي أو إلى شاطئ في الولايات المتحدة الأمريكية. الرقيق والألماس كلاهما ثروة إفريقية . وكلاهما لايصلحان للاستهلاك في إفريقيا. وكلاهما استخرجا من مكامنهما بفضل استثمارات أمريكيا وأوروبية. والمؤكد في كل الأحوال أن الرقيق والألماس تسببا في خراب إفريقيا وتدمير بنى اجتماعية وأخلاقية وسياسية غيرت وجه القارة وأوقفت حركة التقدم الإنساني فيها قروناً.

ويصف تقرير صحفي منظر منجم من مناجم الألماس فيقول «رأيت عمالاً في ثياب رثة وأطفالاً عيونهم غائرة وبطونهم منتفخة من الجوع، كلهم ينحنون بحثاً عن قطع الألماس في الوحل، وفوق رءوسهم يقف جنود، أحياناً جنود حكومة وأحياناً أخرى جنود في جيش متمرد، شاهرين أسلحتهم. وعند المغيب يقوم الجنود بتفتيش كل عامل عن أحجار يكون قد دسها في فمه أو في مكان آخر من جسده. وفي الليل يهاجم الجنود القرى المحيطة بالمنجم فيخطفون عدداً من الأطفال للعمل في اليوم التالي في المنجم، أو للعمل كجنود بعد قضاء فترة من الوقت يجبرونهم فيها على تعاطي المخدرات حتى يدمنونها إدماناً تاماً ثم يسلمونهم رشاشات للقتل. وفي هذه القرى التي يتداولها الجنود قرية بعد قرية وليلة بعد ليلة، يشربون حتى الفجر ويتسلون باغتصاب السيدات والفتيات، وعند الفجر يحرقون القرى فلا يبقى من رأى أو من سمع».

أين كل هذا من الشعار الإعلامي الذي رفعه أصحاب دي بييرز لترويج بيع الألماس على امتداد عقود طويلة، يقول الشعار «حجر من الألماس إلى الأبد»، وحددت الشركة شروطاً أربعة هي التي على أساسها يتحدد سعر الألماس، وهي كلمات بالإنجليزية تبدأ كلها بحرف C وترجمتها هي القطع واللون والصفاء والوزن. وليس بينها كما نلاحظ أجرة عمل أو تعب أو عرق أو دماء هذا الرجل الإفريقي المنحني أو هذا الطفل المنتفخ البطن والنساء اللاتي اغتصبن والقرى التي أحرقت والدول التي خربت.

قليلون هم الذين أتيحت لهم الفرصة ليشاهدوا على الطبيعة الموطن الأصلي لصخرة الألماس في وحل إفريقيا، ثم ليشاهدوا بعدها هذا المتجر اللامع والأنيق والأكثر شهرة في مدينة نيويورك وهو محل «تيفاني» المتخصص في بيع أحجار الألماس. ويقول أحد الذين دخلوا هذا المتجر أنه في بعض أركانه توجد نوعية خاصة من أحجار الألماس لا تعرض إلا لمشترين معروفين لدى إدارة المتجر، أو من الذين يسبق وصولهم موعد ووساطة. في هذا الركن تقدم الشمبانيا إلى هذه النوعية الخاصة من الزبائن بغض النظر إن كانوا سيشترون أم سيشاهدون ثم يقررون. وقال آخر كان من حظه زيارة المتجر مع معارف له «إنهم يقدمون من الشمبانيا أفخر أنواعها وبعضها بلون الزهر» . وفي مكان آخر من المتجر رأى صاحبنا أحد مدراء المتجر وهو يقدم لزبائنه نوعاً من الشيكولاتة البلجيكية النادرة والباهظة الثمن. لا أحد في هذا المتجر المخملي البارد نوعاً في صيف نيويورك الحار والدافئ نوعاً في شتائها

القارس، ممن أكلوا من الحلوى أغلاها وشربوا من الأنبذة أفخرها، ولا أحد من مديرى المتجر أو العاملين فيه، لا أحد من كل هؤلاء يعرف أن وراء هذه الأحجار التى تخطف الأبصار من داخل خزائن المحل البلورية قصصاً دامية ومآسى رهيبة ووراء كل حجر رجال ومدن ودول وشركات.

شركات وراء مأساة الألماس

لا تبدأ رواية أو تقرير عن تجارة وصناعة الألماس دون الإشارة إلى الشركة الأم التى كان لها الفضل فى ازدهار هذه التجارة وهى شركة دى بييرز. أنشأ هذه الشركة فى جنوب إفريقيا أحد أبرز رواد الاستعمار العالمى، وبخاصة الاستعمار البريطانى، اللورد سيسيل رودس. واستطاعت الشركة فى سنوات قليلة أن تهيمن على سوق الألماس حتى وصلت فى وقت من الأوقات إلى أنها كانت تتاجر فى ٩٠٪ من الألماس غير المصقول، ثم هبطت النسبة تدريجياً حتى صارت الآن حوالى ٥٠٪ وقد احتفظت الشركة بمقرها الرئيسى فى جوهانسبرج لسنوات ممتدة قبل أن تنشئ مقاراً أخرى. قامت استراتيجية دى بييرز منذ البداية على عدم الكشف عن حجم المخزون لديها ولدى غيرها من الشركات من الألماس فى العالم. وقامت أيضاً على تجنب الزيادة فى الإنتاج وبالتالى تفادى زيادة المعروض. وقد وضعت هذه الشركة قاعدة أساسية فى تجارة الألماس التزم بها كبار المنتجين والصانعين والتجار على حد سواء وهى أن قيمة الماس وسحره ليس فقط فى جماله وصلابته وديمومته ولكن أيضاً فى ندرته. وينقل بعض من كتبوا عن الألماس عن أصحاب شركة دى بييرز أنهم يكسبون من وراء ندرة الألماس أكثر من أى شىء آخر يتميز به الألماس، وبمعنى آخر أنهم مهما خفضوا من تكاليف إنتاج الألماس ونقله وحمايته، ومهما خفضوا من أجور العمال، يظل عنصر الندرة سواء كان حقيقياً أو وهمياً هو المصدر الأكبر لأرباحهم. ولذلك عندما كانت الشركة فى موقع الاحتكار اهتمت أكثر شىء بحماية مناجم ومصادر الإنتاج بحيث لاتتسرب أحجار من الألماس مع العمال أو الحراس أو المواطنين العاديين. ثم جاء يوم أصبحت تجارة الألماس مهددة نتيجة التهريب، وهذا بدوره اتسعت مجالاته وأسواقه نتيجة الحروب الأهلية التى نشبت للسيطرة على مناجم الألماس.

ومع اكتشاف مصادر جديدة للألماس أصبح لشركة دى بييرز نفوذ كبير فى سيراليون التى اكتشف فيها الألماس على نطاق واسع فى الستينيات، وأصبح للشركة حق الامتياز لاستخراج الألماس من مياه المحيط الملاصقة لسيراليون فى عقد الثمانينات وأنشأت مكتباً لها فى فريتاون عاصمة سيراليون. وفى خلال الحرب الأهلية كانت تعلم أن معظم إنتاج المتمردين يجرى تهريبه إلى أوروبا، فأنشأت مقراً لها فى منروفيا ومكتب مشتريات فى كوناكرى عاصمة غينيا لتشترى من المهربين أيضاً. وبعد قليل أنهت شركة دى بييرز علاقاتها بالالماس

المستخرج بطريقة مشروعة فى سيراليون وركزت على الألماس غير المشروع. وفى تقرير للأمم المتحدة عن المآسى الناتجة عن استخرج الألماس وتهريبه من دول غرب إفريقيا قامت اللجنة التى شكلتها الأمم المتحدة بتحميل شركة دى بييرز جزءاً من المسئولية عن عمليات التهريب وانتشارها بصفتها أكبر مشتر للماس فى العالم وذكر التقرير أنه كان يمكن للشركة والمسئولين فيها أن يتحققوا من بلد المنشأ والأحجار التى تصل إليها وأن تتحقق أيضاً من كمية الدماء التى سالت بسبب تهريب هذا الألماس.

ومن الأمثلة البارزة على دور بعض الشركات فى تخريب الاقتصاد الإفريقى وتدميره أن شركة سجلت نفسها باسم أوريكس فى جزر كايمان، وهى الجزر التى كانت إلى عهد قريب تمثل ملاجئ آمنة لأموال عصابات الجريمة الدولية والمهربين. وبعد تسجيلها أعلنت الشركة عن توقيع عقد تقاسم أرباح مع حكومتى الكونغو وزيمبابوى. وكان العقد يتضمن تفاصيل صفقة من الألماس قيمتها مليار دولار، إلا أنه عندما حاولت الشركة عرض أسهمها فى بورصة لندن ثارت شكوك لدى المسئولين عن البورصة، وكلفوا لجنة للتحقيق فى أصول هذه الشركة وميادين عملها وأعضاء مجلس إداراتها. واكتشفت اللجنة أنه فى الوقت الذى سجلت فيه الشركة نفسها فى جزر كايمان لاستغلال الألماس فى الكونغو كانت منطقة الامتياز التى حصلت عليها تخضع لسلطة جيش زيمبابوى. فى ذلك الوقت كانت زيمبابوى حليفاً لحكومة كينشاسا ضد المتمردين الكنغوليين والجيوش الإفريقية الأخرى التى دخلت الكونغو لمساعدة المتمردين على الحكومة الشرعية. كذلك اكتشفت لجنة التحقيق البريطانية أنه يوجد فى مجلس إدارة الشركة عدد من كبار ضباط جيش زيمبابوى وأغلبهم كانوا موجودين فى إقليم كساى فى الكونغو. كانت نتيجة التقرير امتناع الشركة عن طرح أسهمها فى بورصة لندن.

وفى الكونغو أيضاً كان لوران كابيلا قد عقد اتفاقاً قبل اغتياله مع شركة IDI الإسرائيلية للألماس. يقضى الاتفاق بأن تحتكر الشركة كل إنتاج الكونغو. وقبل أن تبدأ الشركة عملها اغتيل كابيلا الأب وتولى الحكم ابنه الذى قام بإلغاء الاتفاق بحجة أن الشركة الإسرائيلية لم تنفذ الشرط المادى فى الاتفاق، والذى يقضى بدفع مبلغ معين إلى الحكومة الكنغولية. كان الشرط أن تدفع الشركة لكابيلا وحكومته ٣٠ مليون دولار فى السنة مقابل الحصول على ما قيمته ٦٠٠ مليون دولار من أحجار الألماس المستخرجة فى الكونغو. وفى تحقيق قامت به لجنة فى الأمم المتحدة وصدر بشأنه تقرير فى شهر ديسمبر سنة ٢٠٠٠ جاء أن هذا العقد اعتبره كابيلا الابن كابوساً كبيراً، بل كارثة ، لصناعة الألماس فى الكونغو. ولذلك قام بإلغاء الاتفاق، بالإضافة إلى أن الشركة لم تدفع فعلاً إلا ٣ مليون دولار إلى حكومة كينشاسا. أما الكارثة التى يشير إليها التقرير فجاءت نتيجة أن الاحتكار الذى فرضته الشركة الإسرائيلية أدى إلى عمليات تهريب واسعة النطاق، الأمر الذى دفع قيادات فى الشركة إلى اقتراح أن توقع حكومة الكونغو عقداً آخر مع الشركة يكلف بموجبه الجيش الإسرائيلى تدريب جنود كنغوليين على حماية الألماس ومنع تهريبه مقابل مبالغ طائلة تدفعها الحكومة الكنغولية للجيش الإسرائيلى. وجاء فى التقرير الذى أجرته



قبائل البوشمن مهددة بعملية ترحيل أو إبادة، بسبب شائعة اكتشاف الألماس فى صحراء كالهارى

اللجنة الأممية أنه بسؤال مدير الشركة الإسرائيلية صرح قائلاً أنه لا صحة لوجود اتفاقية عسكرية بين إسرائيل والكونغو لحماية الألماس. «كل ما فى الأمر أننى قدمت قائمة لحكومة الكونغو بأسماء خبراء عسكريين إسرائيليين رشحتهم لمعاونة القوات الكونغولية فى مهمتها لحماية الألماس الخاص بالشركة». هذا التقرير لا يكشف عن أن لوران الأب كان فى حاجة لأى مبلغ من المال يدخل خزانة الحكومة للإنفاق منه على تكاليف الحرب الأهلية التى شنها المتمردون لمساعدة أوغندا ورواندا، بينما كانت تساعد حكومة الكونغو الشرعية كل من ناميبيا وزيمبابوى وأنجولا، ولكل منها قصة دامية مع الألماس.

حدث أيضا أن المتمردين فى سيراليون قاموا باتصالات لعقد اتفاقات مع شركات استثمارية كندية وأمريكية لاستخرج الألماس فى سيراليون فى المناطق التى كان يحتلونها . وأن هذه الشركات جاءت إلى سيراليون بعلم الحكومة الأمريكية ومن هذه الشركات شركات كندية هى ركس دياموند وأمكان منيرالز ودياموند ويركس، وكان مقر إحدى الشركات الأمريكية مدينة ماكلين فى فيرجينيا وشركة أخرى تحت اسم لازار كابلان وشركة ثالثة فى واشنطن يمتلكها أمريكى من أصل بلچيكى. وتقول الرواية إن زعيم المتمردين سافر إلى جنوب إفريقيا مرتين لعقد اتفاقات ومشاورات حول استخراج وبيع الألماس بجواز سفر أمريكى رغم أن أمريكا كانت طرفا فى فرض الحظر الدولى عليه للسفر فى سيراليون بسبب جرائمه ضد الإنسانية، بمعنى آخر لا يمكن إعفاء الشركات الكبرى الكندية والأمريكية والجنوب إفريقية والبلچيكية والإسرائيلية وشركات أخرى لم يأت ذكرها فى تقارير الأمم المتحدة عن مسئولية العذاب الذى لاقاه ومازال يلاقيه الملايين من أبناء إفريقيا، بسبب الجرائم التى ارتكبتها هذه الشركات سواء لتمويل جروب المتمردين والحكومات فى الحروب الأهلية الناشبة، أو فى الاستمرار فى تهريب الألماس من هذه البلاد وبيعه فى أوروبا والولايات المتحدة بأسعار لا تتناسب مع حاجة إفريقيا. ولابد هنا من الإشادة بالموقف الذى اتخذته الأمم المتحدة. فقد خطت خطوة جريئة خارج إطار الدبلوماسية التقليدية حين أقامت لأول مرة لجنة تضم الشركات والحكومات والمنظمات غير الحكومية التى تراقب عمليات نهب الألماس الإفريقى والمذابح التى وقعت بسبب تجارة الألماس وتهريبه، ويأتى فى مقدمة هذه المنظمات غير الحكومية منظمة «شاهد عالمى».

رجال وراء المأساة «الألماسية»

هذا عن الشركات التى ساهمت فى مأساة الألماس والدمار فى غرب إفريقيا. أما عن الرجال فلهؤلاء قصة أخرى. من الأسماء التى ذاعت وارتبطت بفضائح تهريب الألماس شارل تايلور رئيس

جمهورية ليبيريا السابق والذى قررت الأمم المتحدة عزله وطلبت منه مغادرة البلاد قبل وصول قوة السلام التابعة لها بقيادة نيجيريا. قيل على لسان أحد كبار المسئولين فى ليبيريا إن الشعب الليبيرى لم يعرف من قبل حاكما على هذه الدرجة من الفساد والثراء والوحشية صفات ثلاث إذا اجتمعت شكلت أغلب الشروط التي يجب توفرها لزعيم إفريقى وصل إلى الحكم عن طريق تمرد عسكرى وحرب أهلية دامية، واحتكر تهريب الألماس، وساعد المتمردين فى عدد آخر من الدول المجاورة بكافة الوسائل، أهمها بطبيعة الحال، الحصول منهم على إنتاج بلادهم من الألماس وبيعه لحسابه الخاص ودفع المقابل من أسلحة يستوردها مرورا بدولة عربية أو أخرى.

شارل تايلور متمرد صار رئيساً للجمهورية. لذلك احتل موقع النموذج والرائد لكثير من أقرانه فى الجيوش الإفريقية المجاورة. كان أفضل تلاميذه على الإطلاق فوداى سنكوح الذى قاد الجبهة الثورية فى سيراليون ضد الحكومة الشرعية فى فريتاون. وفى الواقع توجد أوجه تشابه متعددة بين الرجلين. كلاهما تلقى تدريبه فى ليبيا. أحدهما أعلن التمرد فى ١٩٨٩ والآخر ١٩٩١، وتعاون جيشاهما منذ البداية. ففى ١٩٨٩ أشعل تايلور حرباً فى ليبيريا. واستمرت هذه الحرب تحصد آلاف المواطنين وتذيق ليبيريا الدمار والخراب بدرجات متصاعدة حتى استولى على الحكم فى عام ١٩٩١. ولم يكن خافياً على كل الدول التى تعاملت معه بعد ذلك أنه كان مجرماً ووحشياً فى تعامله مع أبناء بلده. ويصف هولبروك المندوب الدائم للولايات المتحدة فى مجلس الأمن والوسيط الذى تدخل لدى البوسنة خلال الحرب الأهلية فى يوجوسلافيا شارل تايلور بأنه «ميليسوفيتش فى إفريقيا محاط بالألماس أو غارق فيه». هولبروك قال هذا الوصف فى عام ٢٠٠٠ ومع ذلك بقي بعدها شارل تايلور رئيساً لأكثر من ثلاث سنوات. وذكرت تقارير من المخابرات الغربية أن تايلور ما كان يمكن أن يسمح للمتمردين فى سيراليون بالهزيمة لأنه كان متعاقداً مع شركات استثمارية أوروبية وأمريكية ضامناً لهم استمرار مناجم الألماس فى سيراليون مفتوحة أمام المهربين. هذا الدور الذى لعبه شارل تايلور تقابله حقيقة أن ليبيريا نفسها ليست من أوائل الدول المنتجة للألماس فى إفريقيا، فهى تنتج ما يعادل ١٠ ملايين دولار فى السنة، ومع ذلك صدرت فى عام ١٩٦٩ ما قيمته ٣٠٠ مليون دولار. أى أنها صارت دولة تعتمد اعتماداً رئيسيا على عمليات تهريب الألماس ومستعدة أن تفعل كل ما فى وسعها لحماية عمليات التهريب وحماية المتمردين. هؤلاء بدورهم استمروا يستخدمون السخرة فى سيراليون لاستخراج الألماس رغم وجود قوات السلام التابعة للأمم المتحدة. وعندما وجه رئيس القوة الدولية بتهمة تقصيره فى حماية عمال وأطفال السخرة قال أن مهمته تنحصر فى فرض السلام وليس مراقبة المناجم وأعمال السخرة.

ويذكر أنه حيث فرضت الأمم المتحدة الحظر على ليبيريا رفضت فرنسا أن يمتد الحظر ليشمل صادرات الخشب الليبيرية، وهى الثروة التى تخضع كاملاً لسيطرة شارل تايلور والطبقة الحاكمة الليبيرية. واتخذت فرنسا هذا الموقف رغم أن جماعات المحافظة على البيئة حذرت أكثر من مرة من خطر إزالة غابات غرب إفريقيا على البيئة فى إفريقيا وفى أوروبا بل وفى العالم بأسره. وحذرت أيضاً من أن النشاط الذى تمارسه الشركة المتعددة الجنسية التى تقوم باقتلاع أشجار غابات ليبيريا مركزها إندونيسيا وهى تفعل فى إندونيسيا ما تفعله فى غرب إفريقيا، وكلها مناطق استوائية كثيفة الأشجار. واللافت للنظر أن هذه الشركة الإندونيسية تستورد العمال من جنوب شرقى آسيا للعمل فى غرب إفريقيا وخاصة فى ليبيريا.

ومن الرجال أيضاً فى قصة الألماس سام بوكارى مساعد سنكوح وهو الذى كتب يقول «إن الفضل فى إطلاق تجارة التهريب فى سيراليون، حتى قبل فرض المتمردين سيطرتهم على هذه التجارة يعود إلى شخص يدعى محمد حجازى لبنانى الأصلى» . فقد كتب بوكارى رسالة عنوانها «لمن يهمه الأمر» وعلى ورق يحمل شعار الجبهة الثورية أى الجبهة التى تقود التمرد ضد حكومة فريتاون . تتضمن الرسالة بلاغاً رسمياً بتعيين محمد حجازى تاجر الألماس المعروف فى سيراليون وكيلاً عن الجبهة الثورية المتمردة للتفاوض مع أى شخص أو شركة أو دولة داخل أو خارج سيراليون فى أى موضوع يتعلق باستخراج وشراء وبيع وصقل الألماس.

وتحكى قصة الألماس فى سيراليون أنه فى عام ١٩٣٠ تم اكتشاف أول حجر من أحجار الألماس وأن شركة دى بييرز اكتشفت منذ البداية أن الألماس المنتج فى سيراليون يتميز بالجودة الفائقة. وفى عام ١٩٦٨ قام رئيس الوزراء سيكا سيتفنس بتأميم شركة الإنتاج وصار يتخذ كل القرارات الخاصة بالألماس استخراجاً ونقلاً وتقديراً ويساعده محمد حجازى رجل الأعمال اللبنانى (وفى تقارير دولية أخرى جاء اسمه محمد جميل). وكانت سيراليون فى عام ١٩٧٠ تصدر أكثر من مليونى قيراط بشكل قانونى بينما كانت فى عام ١٩٨٠ تصدر ما لايزيد على ٥٩٥ ألف قيراط وفى عام ١٩٨٨ انخفض الرقم إلى ٤٨ ألف قيراط. هذه الأرقام الأخيرة هى أرقام صادرات الألماس المنتج وفقاً للقانون والمسجل رسمياً . وبمناسبة محمد حجازى ربطت تقارير متعددة نشرت فى الغرب بين الحرب الأهلية اللبنانية وعمليات تهريب الألماس من سيراليون، كما ربطت بين الحرب الأهلية اللبنانية والاستعدادات لتفجير حرب أهلية فى سيراليون وهو ما حدث فعلاً ولكن بعد سنوات عدة. تقول هذه التقارير إن بعض أمراء الحرب فى لبنان وجهوا تعليمات إلى الرعايا اللبنانيين التابعين لهم طائفياً فى سيراليون بدفع ضريبة ولائهم للميليشيات اللبنانية من عائد تجارتهم فى تهريب الألماس من غرب إفريقيا. ويقال أنه عندما تقرر نفى محمد حجازى إلى الخارج حل محله على الفور مستثمرون إسرائيليون تربطهم علاقات وثيقة بعائلات الجريمة المنظمة فى أمريكا وروسيا وبرجال صناعة الألماس فى بلجيكا.

اتسعت شبكة المسئولين العاملين فى موضوع تهريب الألماس حتى كادت تشمل كل دول غرب إفريقيا ودول أخرى فى

وسط القارة وشرقها. وقد جاء في بيان الحكومة البريطانية أن بليز كامبوريه رئيس جمهورية بوركينا فاسو كان يبعث بطائرات إلى أمراء الحرب في سيراليون مقابل أكياس الماس المهرب. وكان كامبوريه معروفاً بعلاقاته الوثيقة بمسئولين وصناعيين في أكرانيا يرسلون إليه السلاح وهو ينقله بدوره إلى المتمردين في سيراليون، هذه الأسلحة كانت تستخدمها قوات فوداي سنكوح التي تخصصت في بتر الأطراف. ومازالت الصور التليفزيونية التي خرجت من سيراليون شاهداً على بشاعة هذا التخصص الذي فقد بسببه مئات الألوف من أهل ليبيريا أطفالاً وكبارا سيقانهم أو أذرعتهم أو أقدامهم أو أيديهم أو كلها معاً. وقد عثر صحفي رافق قوات الأمم المتحدة على تفاصيل هذه الأمور والتعليمات التي كانت توجه للجنود الذين قاموا بحماية مناجم الألماس، والمكلفين بإجراء عمليات البتر في كراستين مكتوب على غلافيهما «السلام.. بارك الله المعلم». والمقصود بالمعلم هنا فوداي سنكوح قائد الجبهة الثورية المتمردة. من ناحية إفريقية لاستقدام مرتزقة تدفع لهم مئات الملايين من الدولارات ونسبة معينة من الألماس المصادر من المتمردين. ولم يكن هؤلاء المرتزقة أقل وحشية في التعامل مع السكان المدنيين. بل يقال إن المنافسة كانت ضارية بين قوات الحكومة وقوات المتمردين على من ينجح أولاً في إذلال المدنيين وإخضاعهم، ويفرض عليهم تقديم الأطفال ليعملوا جنوداً في هذا الجيش أو ذاك.

وقد اعتمد سنكوح وغيره من قادة تهريب الألماس على وسطاء للتهريب سواء عن طريق ليبيريا أو غيرها إلى أوروبا. كان المتمردين يبيعون إلى وسطاء، وهؤلاء يدفعون ما يعادل تقريباً ٩٠٪ من قيمته الإسمية كصخور خام، وأغلب الوسطاء من اللبنانيين الذين يسلمونه إلى مهربين يقومون بتهريبه إلى ليبيريا وغينيا، ومن هناك بالطائرات إلى تل أبيب وأنتويرب. وكان المهرب أو حامل الرسالة يحصل على ١٪ من قيمة الألماس الذي يحمله. كل هؤلاء، متمردون ومسئولون ووسطاء ومهربون، استخدموا حسابات سرية في بنوك سويسرا معروفة لكافة أجهزة المخابرات الدولية باسم حسابات «جبال الدولار». وكان للوسطاء مكانة كبيرة في غرب القارة حتى عهد قريب. ويحكي أحدهم أنه كان يُستقبل في كل مرة ينزل فيها مطار منروفيا أو كوناكري وقد فرشت له سجادة حمراء حتى قاعة كبار الزوار في المطار وعلى رأس مستقبليه كبار موظفي المطار ومسئول من قيادة التمرد أو الحكومة حسب ملكية الشحنة المطلوب تهريبها. كل هذا بسبب الرشاوي الذي كان يدفعها لموظفي الجمارك وكبار موظفي الدولة.

جوناس سافمبي رجل آخر نزل اسمه بقائمة الدم الألماسي أو الالماس الملوث بالدم. كان سافمبي يقود حركة أونيتا التي قامت ونشطت بدعم من الولايات المتحدة الأمريكية واتحاد جنوب إفريقيا في

مواجهة حكومة رواندا الشرعية التى استلمت الحكم من البرتغاليين، وهذه كانت تحظى بتأييد الاتحاد السوفيتى وكوبا. وعند انتهاء الحرب الباردة ونهاية عهد التفرقة العنصرية زال الدعم الخارجى، فلجأ سافمبى إلى تهريب الألماس المستخرج من المناطق التى تحتلها قواته. وبتحريض من موبوتو سيسى سيكو، الرجل الأشهر فى تاريخ إفريقيا السمراء بعد القضاء على جيل الثوار العظام من نوع لومومبا ونكروما. عرض موبوتو على سافمبى أسلحة مقابل تزويده بالألماس المستخرج من أراضى أنجولا، وساعده فى ذلك بليس كامباورى رئيس بوركينا فاسو. وهنا أيضاً فى أنجولا ألقت الأمم المتحدة مسئولية المجازر التى وقعت فيها على سافمبى والحرب الأهلية التى نشبت فيها وعلى شركة دى بييرز لأنها قامت بالشراء مباشرة أو بطريقة غير مباشرة الألماس المستخرج من المناطق التى كان يسيطر عليها المتمردون بقيادة سافيمبى.

من الرعيل الأول بقيادة سيسيل رودس وحتى شارل تايلور لعب كثير من الرجال البارزين فى التاريخ الإفريقى والتاريخ العالمى دوراً دموياً فى عملية اغتصاب إفريقيا. بدأ الاغتصاب منذ قرون على أيد تجار من كافة المشارب والجنسيات قضوا تماماً على أجيال شابة من وسط القارة وغربها وقادوهم كالقطيع إلى مصيرهم المؤسف إنسانياً وتاريخياً فى النصف الغربى من الكرة الأرضية، ثم اجتمعت الدول الأوروبية فى برلين فى عام ١٨٨٤ وقررت تقسيم إفريقيا بينها. صدق من أطلق على مؤتمر برلين مؤتمر اغتصاب إفريقيا. واستمر الاغتصاب على أيدى الشركات الغربية وبمساعدة حكام أفارقة.

دول فى مأساة الألماس

إلى جانب الشركات والرجال الذين ساهموا فى تلطيخ الوجه البراق للألماس بالدم الأحمر الإفريقى لعبت دول بعينها أدواراً لا تقل بشاعة. أنا شخصياً، كلما قرأت عن القانون البلچيكى الشجاع الذى قضى بمحاكمة الشخصيات العالمية التى ارتكبت جرائم ضد الإنسانية وأسقطته الحكومتان الأمريكية والإسرائيلية، كنت أفكر على الفور فى أعمال الملك ليبولد جزار الكونغو الشهير. ويبدو من تقارير اللجان التى شكلتها الأمم المتحدة لدراسة موضوع تهريب الألماس وعلاقته بالحروب الأهلية وبالمذابح فى إفريقيا أن أعضاء هذه اللجان لم يخفوا حقيقة موقف بلچيكا من هذا الموضوع. فبلچيكا بحكم مسئوليتها فى الكونغو وبحكم أنها المقر الرئيسى لصناعة وتوزيع الألماس، كانت دائماً على علم كامل بكل التفاصيل المتعلقة بموضوع الألماس المشروع والمهرب على حد سواء. إذ يقع على الأرض البلچيكية وفى مدينة أنتويرب تحديداً أهم مركز عالمى لاستيراد الألماس وصقله وإعداده للتوزيع فى كافة أنحاء العالم. فى هذا المجال لا ينافس أنتويرب مدينة أخرى فى العالم ولكن يكمل نشاطها مدن مثل نيويورك وتل أبيب وبومباى كمراكز لصناعة الألماس وتجارته. أهمية نيويورك تكمن فى أن الولايات المتحدة وحدها تستهلك أكثر من نصف إنتاج العالم من الألماس سنوياً. وبالتالى كانت أقدر من غيرها على إيقاف تجارة الألماس المهرب أو مهربى الألماس فى إفريقيا لو أنها أرادت كبح سيول الدماء التى جرت واختلطت بمياه الأنهار فى شرق سيراليون وفى الكونغو وفى ليبيريا وفى

غينيا وفى زيمبابوى وفى جنوب إفريقيا وفى أنجولا . ولكنها لم تفعل. بلچيكا كانت تستطيع أيضاً باعتبارها المنتج الأول للألماس الجاهز للاستخدام ولكنها لم تفعل.

هذه الثروة الطائلة المتركزة فى مدينة أنتويرب فى بلچيكا نبهت إليها الأمم المتحدة حيث اتهمت كبار مصنعى الماس فى أنتويرب والمجلس العالمى للألماس ومقره هذه المدينة بغض الطرف عن التهريب وعدم الإصرار على أن لا يصل إلى معاملها ومصانع الصقل فيها إلا الألماس المنتج بطريقة قانونية. تجاهلت أنتويرب نشاط منظمة أونيتا واستمرت تستورد الألماس المهرب من أنجولا حتى آخر يوم فى حياة سافمبى، ثم استمرت تسمح بوصول الألماس من ليبيريا وبوركينا فاسو وكلاهما كانتا تدعمان أمراء الحرب من الطرفين فى سيراليون، وبالتأكيد كانت كل أحجار الألماس الواردة عن طريقهما ملوثة بالدماء. كل ما فعلته بلچيكا هو تأييد ما يصدر عن الولايات المتحدة التى هدت شارل تايلور فى وقت من الأوقات بتجميد أرصدته وكبار قادة ليبيريا إذا لم يتوقف عن دعم أمراء الحرب. ولكن لم تتخذ بلچيكا أو الولايات المتحدة قراراً فى شأن وصول هذه الأحجار إليهما.

ثم أن بلچيكا لا تعترف إلا بالمجلس الأعلى للألماس صوتا وحيداً ينطق باسم هذه الصناعة. وهو مجلس تأثر بعمق بأساليب التعامل التى اتخذتها شركة دى بييرز على مر السنيين. كان موقف المجلس باستمرار إنه يستحيل مقاومة عمليات التهريب لأن الألماس يمكن تهريبه بكميات كبيرة ذات قيمة عالية بأقل مساحة ممكنة فى جسم الإنسان أو حقائبه. وادعى المجلس فى وقت من الأوقات أن كل الألماس المهرب من العالم لايزيد على ٦٪ من الألماس المستخدم. ولكن المشكلة لم تكن فى كثرة أو قلة الألماس المهرب ولكن أن هذا الألماس المهرب على ضآلته وقلته تسبب فى نشوب حروب أهلية استمرت لعقود فى غرب القارة ووسطها، وسقطت بسببه مئات الألوف من الضحايا وتشردت شعوب بكاملها. ففى ليبيريا وحدها بلغ عدد النازحين من قراهم وبيوتهم نصف مليون نسمة. وأصر المجلس على أن يستمر فى اعتبار دولة المنشأ هى الدولة التى صدر منها الألماس وليس الدولة التى أنتج فيها . وبالتالى فالألماس المستخرج من سيراليون لم يصل إلى بلچيكا أو أنتويرب باعتباره من إنتاج سيراليون وإنما إنتاج ليبيريا أو بوركينا فاسو أو إسرائيل. فالغريب أن دولاً كثيرة فى الغرب والعالم توافق على شهادة تقول بأن منشأ الألماس إسرائيل، مع العلم أن إسرائيل لاتنتج قطعة واحدة من الألماس وإنما تقوم فقط بصقله وترصيعه.

ولو أن الدول التى كانت تعلم عن مسئولية الألماس المهرب فى المأساة الإفريقية توقفت عن استيراده لتوقفت معظم الحروب الأهلية الإفريقية. الدليل على ذلك أن الحكومة الشرعية فى فريتاون فشلت على امتداد سنوات طويلة فى القضاء على قوات التمرد أو الجبهة



جماعات المحافظة على البيئة حذرت من خطر إزالة غابات غرب إفريقيا

الثورية المتمردة لأن القوات الحكومية كانت تستخرج الألماس من مناطق ناضبة بينما كانت المناجم الممتازة فى حوزة المتمردين. من ناحية أخرى لم تتوقف الحرب الأهلية فى أنجولا إلا عندما نجحت قوات الحكومة فى الوصول إلى مناجم الألماس التى كانت تسيطر عليها أونيتا وتطردها منها وتستولى عليها وتستغلها لمصلحتها.

كتب الكثيرون عن وجود علاقة ما بين انتهاء الحرب الباردة واشتعال الحروب الأهلية المعتمدة على الألماس المهرب فى إفريقيا. يقولون إن النزاعات الإفريقية اعتمدت فى تمويلها خلال الحرب الباردة على قروض ومعونات الدولتين الأعظم ووكلائهما من الدول الأخرى، وحين توقفت الحرب الباردة توقفت هذه التمويلات الأجنبية فلجأت الأطراف الإفريقية إلى الألماس بغية تهريبه من أجل تمويل النزاعات الإفريقية التقليدية وغير التقليدية. ولم تهتم الدول الكبرى.

★★★

وفى الواقع لم تتحرك الولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى بحماسة نسبية للقضاء على ظاهرة الألماس المهرب إلا تحت ضغط ثلاث عوامل أساسية:

أولاً: اكتشاف الولايات المتحدة والدول الغربية عموماً أن الطفرة فى كمية الألماس المهرب أى غير المشروع اقتربت من أن تتسبب فى أزمة فى صناعة الألماس، وهى صناعة لها مكانتها فى الغرب. فقد تسببت فى زيادة المعروض زيادة هائلة الأمر الذى يؤدى، إن استمرت الزيادة، إلى أن يفقد الألماس معظم قيمته بين بقية الجواهر والأحجار الكريمة. فالألماس كما ذكرنا يعتمد فى جزء كبير من قيمته على ندرته.

ثانياً: لم يعد مقبولاً استمرار هذه البشاعة التى مارستها الجيوش الحكومية

وجيوش المتمردين فى أنحاء القارة خاصة بعد أن صارت منظمات غير حكومية كثيرة تضغط فى اتجاه ضرورة وقف هذه العمليات العسكرية فى القارة الإفريقية، وصارت تشير بأصابعها إلى كثير من التواطؤ من جانب الدول الغربية مع زعماء أفارقة يعملون فى تجارة تهريب الألماس. ولا يبدو أن هناك نهاية قريبة لجشع الطبقات الحاكمة فى إفريقيا . إذ تنقل وسائل الإعلام حكاية أخرى مثيرة ودامية من بتسوانا . فقد تبين أن حكومة بتسوانا وهى الدولة التى تحتفظ بمكانة طيبة بين الاقتصادات الإفريقية المختلفة هددت قبائل البوشمن التى تسكن صحراء كالهارى بقطع المياه عنها لحفزها على مغادرة المحمية التى تعيش فيها إلى مكان آخر. إذ سرت شائعة فى جنوب إفريقيا أن البوشمن، وهم شعب من الأقزام يعيشون الآن فى محمية فى الصحراء، عثروا على مناجم الألماس. وقد سارعت منظمات غير حكومية فى صدارتها منظمة «البقاء الدولى» والمهتمة بالدفاع عن الشعوب المهددة بالفناء بدق أجراس التنبيه إلى أن هذا الشعب طردته من موطنه الأصلى قبائل البانتو وهى قبائل أرستقراطية كانت تعمل فى رعى البقر خلال زحفها نحو الجنوب آلاف السنين، ثم جاء المستوطنون الأوروبيون فدفعوا شعب البوشمن شمالاً فى اتجاه صحراء كالهارى. هذا الشعب مهدد الآن بعملية ترحيل أو إبادة جديدة .. بسبب شائعة اكتشاف الألماس.

ثالثاً: سرت شائعة أخرى لعلها السبب الحاسم فى دفع الولايات المتحدة ودول غربية أخرى نحو الاهتمام بقضية الألماس المهرب وعلاقته بالمذابح والحروب فى أفريقيا . تقول الشائعة والتى سربتها إحدى الجمعيات غير الحكومية أن منظمة القاعدة كانت تشترى الألماس من الجبهة الثورية فى سيراليون وتبيعه فى أوروبا . وتقول المنظمة إنها تعتقد أن منظمة القاعدة قامت بغسل أكثر من ٢٠ مليون دولار عن طريق صفقات الألماس من المتمردين ومع شارل تايلور وفى تقرير آخر صدر فى إبريل ٢٠٠٣ أى منذ شهور قليلة تحت عنوان «من أجل مزيد من الدولارات» تشير هذه المنظمة إلى أن القاعدة تاجرت فى الألماس على امتداد عشر سنوات.

أتصور أنه إذا كان هناك من دافع أساسى وراء تحرك الولايات المتحدة والغرب عموماً للفصل بين الألماس وسيول الدم فى إفريقيا ، فهو الحرب ضد الإرهاب. فالدم يسيل فى إفريقيا منذ عقود والألماس المهرب يشتريه الأمريكيون والأوربيون ومن دخله يتمول المسئولون والمتمردون ويذبحون المدنيين الإفريقيين، ومع ذلك لم يتحركوا فى الغرب إلا أخيراً ، وفى الشرق لم يتحرك أحد . وفى عالمنا العربى لم أسمع شكوى أو انتقادات من مثقف أو مسئول يندد . رغم التأكيد المتكرر بأننا كعرب ومسلمين نكره الظلم ونقف ضد القتل وأخلاقنا ترفض البهرجة. ■



● «واحد من أول اهتماماتى هو حقيقة أن الناس لا يعيشون حياتهم بكل ما فى تلك الكلمة من معنى، فهم لا يساهمون بأى نصيب فيها»

ادوارد إلني
الأديب الأمريكي الحائز علي جائزة بوليترز للآداب أربع مرات

● «الناس لم تعد تستمع إلى صوت المثقفين العاملين فى قطاع التجسير مع سلاطين الانحطاط»

المفكر اللبناني الياس خوري

● «النخبة العربية تنتحر اليوم انتحارا جماعيا، بسبب كذبة كبرى اسمها أمريكا، تلعب على الوتر الحساس من حقوقنا المقدسة»

المفكر الفلسطيني محمد صادق الحسيني

● «الحياة ليست سهلة!!»

كاترين هيبورن
النجمة الفائزة بأوسكار أفضل ممثلة رئيسية أربع مرات والمتوفاة عن عمر ناهز الستة وتسعين

● «الديمقراطية ليست بكل بساطة مجرد عملية تقنية، تنظيم انتخابات حرة، إنها ثقافة، تربية يومية، اقرار بقواعد وقيم»

الطاهر بن جلون - المفكر والروائي المغربي



الطاهر بن جلون

● «الديمقراطية وتحديد الهوية شرطان أساسيان لتحقيق التكامل الثقافى العربى»

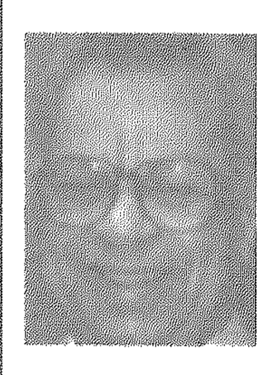
د. فيصل دراج - وزير الثقافة الفلسطيني

● «أكبر إساءة للديمقراطية هى انتخاب غير الديمقراطيين بالأغلبية»

فريد زكريا
رئيس تحرير مجلة نيوزويك الأمريكية
وصاحب كتاب مستقبل الحرية

● «أدواتى الغربة والعزلة والمكر، ولست حقلا بورا كما يتصورنى البعض»

الطيب صالح - المفكر والروائي السوداني



الطيب الصالح

● «الشعر هو اصطياد المعنى فى قفص اللفظ»

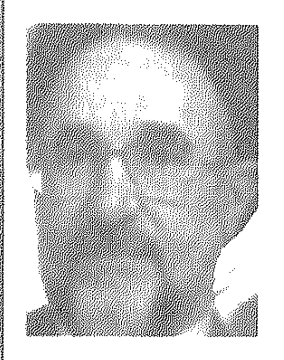
الشاعر المصري سيد حجاب

● «إنه يجنى مبالغ طائلة على كلماته، فى هذه الآونة التقيت به فى نيويورك قبل أيام حيث قلت له أهلا بيل فقال لى هذه سعرها عشرة دولارات.

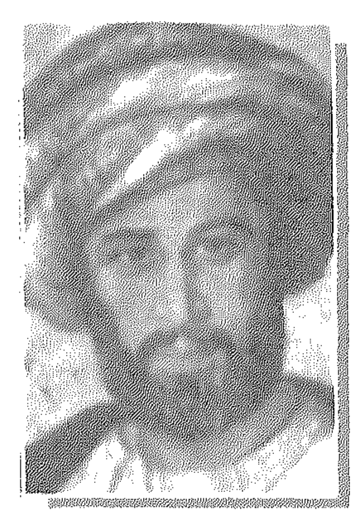
قول للمرشح الأسبق عن الحزب الجمهوري لرئاسة الولايات المتحدةعن الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون

● «أرجح الاستبداد الداخلى على السلطة الأجنبية»

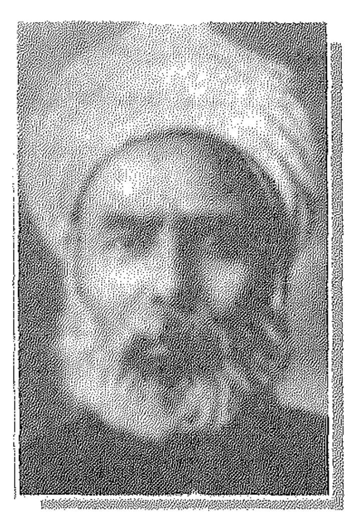
قول منسوب إلي محمد خاتمي
رئيس الجمهورية الإيرانية



محمد خاتمي



رفاعة الطهطاوى



محمد عبده





عبد الرحمن الكواكبى



الإسلام والنهضة

بقلم

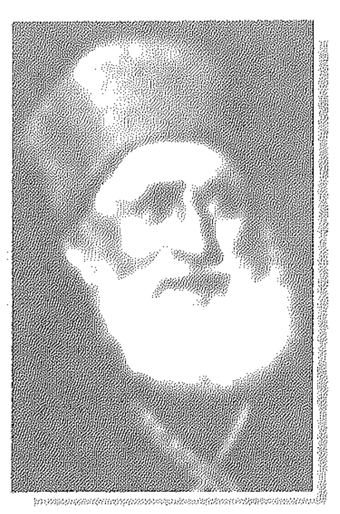
د. أحمد محمد الطيب

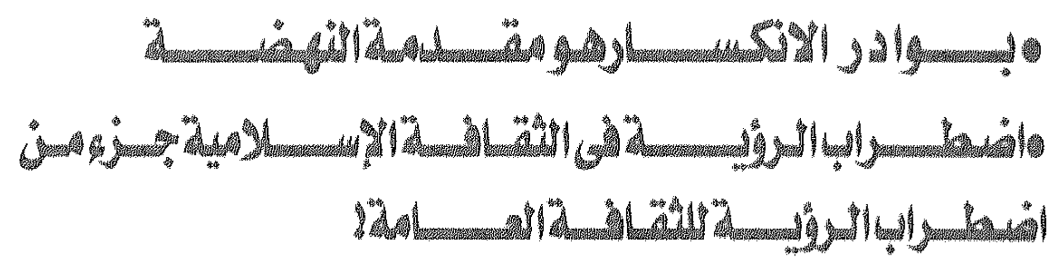
مفتى الديار المصرية

تذكرنا الظروف العصيبة التى تحيط بالأمة العربية والإسلامية اليوم بالظروف ذاتها التى أحدقت بهذه الأمة وألمت بها قبل قرنين مضيا من تاريخها الطويل، وهى الظروف التى شكلت فيما مضى أسباب النهضة العربية الأولى، وتعود اليوم من جديد لتشكل الأسباب الجديدة للنهوض من الكبوة التى تردت فيها النهضة الأولى وعقمت قبل أن تؤتى ثمارها ونتاجها الطبيعى الذى تؤتيه أية نهضة مناظرة لها فى الشرق أو الغرب.. ويبدو أن ظواهر الانكسار والتراجع وفوضى الاضطراب هى المقدمات الضرورية أو الشروط الموضوعية لانبعاث النهضة فى تاريخ الأمم المتخلفة، أو تلك التى حاولت النهوض ولكن لأنها تحركت فى غير الاتجاه الصحيح فإنها سرعان ما ضلت الطريق، وعادت إلى نقطة الصفر .


محمد رشيد رضا


جمال الدين الافغانى


محمد على



وشىء من هذا يمكن أن يصدق على نهضتنا التى مضى عليها قرابة قرنين من الزمان: فمن المسلم به أن رفاعة الطهطاوى الذى تؤرخ به بدايات النهضة العربية ولد وعاش فى الفترة ما بين ١٨٠١م - ١٨٧٣م، ومن الثابت أنه فى غضون هذه الفترة سلط الأضواء على كل الشروط اللازمة لقيام نهضة قابلة للترقى والنماء، مثل الديمقراطية والدستور والمؤسسات النيابية، ومراقبة تصرفات الحكومة وتقييدها بقيود القوانين مثل الاستبداد والمرأة.. إلى آخر هذه القضايا التى عادت جذعة - من جديد - فى أيامنا هذه، وكأنها لم تقتل - من قبل - بحثا ودراسة وتقعيداً وتنظيراً.. ولم يكن صوت رفاعة الطهطاوى صوتا صارخا فى البرية، بل جاوبته أصداء أصوات أخرى أكدت هذه القضايا، وحملت همومها ودفعت بمسألة النهضة إلى الأمام، وهنا تذكر اسماء شوامخ الرواد من أمثال الافغانى ومحمد عبده والكواكبى ورشيد رضا والحجوى

وابن باديس.. ولم تكن هذه الأسماء اللوامع إلا أمثلة ونماذج جاوبتها قائمة طويلة من الأعلام ممن جاءوا بعدهم.

ويتحدث المؤرخون - في مشروع النهضة العربية - عن نهضتين أو مرحلتين: -

أولاهما: مرحلة التأسيس التى بدأت على يد محمد على وابنه إبراهيم باشا فى مصر، فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر، وكان من آمالها بناء دولة قوية تعتمد على جيش حديث، وصناعة متطورة وتعليم عصرى، بيد أنها سرعان ما أخفقت بسبب تحديات الاستعمار الغربى الذى كان ينتظر لحظة الانقضاض على مصر والمشرق العربى.. ولا يغفل المؤرخون فى هذا السياق نهضات عدة واكبت النهضة المصرية فى أقطار عربية أخرى ، مثل تونس والمغرب وإن لاقت نفس المصير، حين انتهى بها أمر الاستعمار إلى فرض الوصاية والحماية ثم الاحتلال.

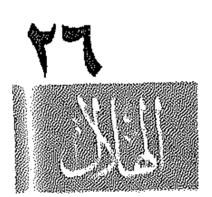
أما المرحلة الثانية من مراحل النهضة العربية فكانت مع ثورة يوليو فى بداية النصف الثانى من القرن العشرين، وكان برنامج الثورة هو الصيغة التى بشرتنا بالآمال العريضة من مطامح التنمية، وتحديث الجيش والتصنيع الثقيل ومجانية التعليم وبناء القوة الاقتصادية والعسكرية ومساندة حركات التحرر الوطنى داخل الوطن العربى وخارجه.

وقد واكبت النهضة المصرية الثانية نهضات مماثلة فى ستينيات القرن العشرين فى سوريا والعراق والجزائر ، ولم تكن ظروف النهضة العربية الثانية بأحسن حالا من ظروف النهضة العربية الأولى فلم تلبث أن انتكست النهضة فى مصر عقب هزيمة ١٩٦٧ وانتكست معها النهضات المجاورة.

ولا يهمنا فى هذه الورقة المتواضعة أن نتابع مع مؤرخى حركة النهضة العربية فى طوريها السابقين أسباب وعلل الانتكاس والانكسار والتراجع والعودة إلى نقطة قريبة من نقطة الصفر، ولماذا جاءت النتائج فى التجربتين شديدة التواضع على المستوى الاقتصادى والسياسى إذا ما قورنت مثلا بتجارب مماثلة فى بلدان أخرى بدأت معنا - بل بعدنا - واستطاعت أن تقفز بشعوبها إلى مستوى الصدارة.. أو على الأقل مستوى الأمم المانحة لا المستجدية.. وما يهمنا هنا هو حالة «الثقافة» التى بدأت بخطوات ثابتة وواعدة ومتوهجة، ثم ما لبثت أن بدأت فى العد التنازلى شيئاً فشيئاً حتى صار الأمر الآن إلى ما يشبه «الخواء»، وذلك بالمقارنة إلى ما كان عليه حال الثقافة فى بدايات القرن الماضى وحتى ما بعد منتصفه بقليل.

اضطراب الرؤية

ولا أدعى هنا أننى سأضع يد القارىء على مكمن الداء الذى أدى إلى اضطراب الرؤية واختلاطها فيما يتعلق بأمر الثقافة

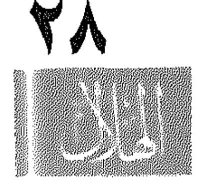


الإسلامية.. فهذا موضوع دقيق وشديد التعقيد، ولكن لعلي لا أصادر على المطلوب لو ذهبت رأسا إلى ادعاء أن اضطراب الرؤية فى الثقافة الإسلامية فرع عن اضطراب الرؤية فى الثقافة العامة ككل، وهذه خاصة الثقافة الإسلامية التى ربما تنفرد بها من بين سائر الثقافات الدينية الأخرى، حيث يمكن لأية ثقافة دينية - غير اسلامية - أن تعمل وتزدهر فى معزل عن المنظومة الثقافية العامة، لأن خطاب هذه الثقافات يتوقف بطبيعته عند الفرد ولا يتخطاه إلى حيث مخاطبة النظم الحياتية من سياسية واجتماعية وثقافية وفنية وغيرها من النظم التى يعيش الفرد فى ظلالها.. وهذا الفرق بين طبيعة الثقافة الإسلامية فى تغلغلها فى كل ظواهر الاجتماع والتمدن من جانب، وانحصار الثقافات الدينية الأخرى فى نطاق الفرد من جانب آخر، هو فرق ما بين طبيعة الدين الإسلامى وطبيعة الأديان السماوية السابقة فى علاقتها بالفرد والمجتمع والتاريخ.. وهو - أيضا - فرق ما بين حضارة الشرق وحضارة الغرب فى موقفهما من الوحى والنبوة والدين، فالوحى فى حضارة الشرق مقدس ومطلق ومتعال، وهو فوق الإنسان والمجتمع بل فوق التاريخ، ثم هو قوة هادية وموجهة ومصصحة وكاشفة عن المعنى الحقيقى لقيم الحق والخير والجمال، سواء على الخط القصير لهذه الحياة أو الخط الطويل اللانهائى الذى تمثله الحياة الأبدية. والأمر مختلف بالنسبة لموقف الحضارة الغربية من هذه الينابيع المقدسة، إذ الإنسان بجسده ومتعه - لا بروحه - هو المقدس فى الغرب، وهو مركز الكون ومحوره، وعلى الدين أن يعمل فى الحضارة الغربية فى هذا الإطار الضيق المحدود، وهو إطار خانق، عاد معه الدين شأنا خاصا بالحرية الفردية، إن استحسنته حرية الفرد فهو حسن، وإن استقبحته فهو قبيح.. وهكذا انزوى الدين إلى ركن بائس قصى وانسحب من منظومة القيم الفاعلة والموجهة لحضارة المجتمع وثقافته وأنماط سلوكه.. وقد ساعد على هذا الانفصام النكد بين الدنيا والدين فى ثقافة الغرب طبيعة الفصل المشروع فى «المسيحية» بين ما لله وما لقيصر، الأمر الذى انتهى بتكريس نظام العلمانية أو فصل الدين عن الدولة وإقصائه كليا عن مراكز التوجيه فى المجتمع، وقد دفعت هذه المأساة بعض المخلصين من علماء المسيحية إلى محاولة القيام بإحداث تغييرات فى تفسير الكتاب المقدس وفى طبيعة الكنيسة ووظيفتها، أملا فى أن تتعاصر قيم الإنجيل وقيم المجتمع الجديد فى أنموذج الإنسان الغربى المعاصر، لكن الأمر انتهى - من جديد - إلى اكتساح قيم المنفعة والمصلحة والمتعة ووفرة الإنتاج، وقال ماسكال فى كتابه: «علمنة المسيحية.. قولته الشهيرة»: «إننا بدلا من أن ندخل العالم فى المسيحية نريد أن ندخل المسيحية فى

العالم».

الغرب وإقصاء الثقافة الدينية

وهذا الذى حدث فى الغرب من إقصاء تام للثقافة الدينية لا يمكن أن يحدث مثله فى الشرق الإسلامى ، لأن الثقافة الإسلامية تأخذ اتساعها من اتساع الإسلام نفسه وتستمد حيويتها وتجددها من تجدد شريعة الإسلام - وهنا لا يمكن بحال فصل الدنيا عن الدين، لأنهما - فى حالة الإسلام - وجهان لعملة واحدة، ومن المعلوم أن حضارة الإسلام تكاد تكون الحضارة الوحيدة التى تصالحت فى منظورها ثنائيات كبرى لم يقدر لها أن تلتقى قط فى سائر الحضارات الأخرى: وفى مقدمة هذه الثنائيات : الدنيا والآخرة والدين والدولة، والفرد والمجتمع والجسم والروح.. الخ.. الأمر الذى يعنى بالضرورة أن النظام الإسلامى والنظام العلمانى نقيضان لا يجتمعان، لأن أحد النظامين أحادى النظرة وانتقائى الاتجاه، والآخر ثنائى تكاملى، وأحدهما يعمل بمنطق: «إما هذا وإما ذاك»، وأما الآخر فيعمل بمنطق: «هذا مع ذاك»، ومن ثم فإن كل المحاولات التى تمت فى اتجاه مصادرة الثقافة الإسلامية لصالح تأسيس نظام علمانى يسوس مجتمع المسلمين باءت بالفشل.. وسوف تلقى المحاولات القادمة نفس المصير، اللهم إلا إذا أمكن اجتثاث الإسلام من الجذور أو - على الأقل - تحويله إلى منظومة أخلاقية مجردة من الأحكام تجريداً تاما، فهنا فقط يمكن تصور نظام علمانى بديل للشريعة الإسلامية.. وإذن فليس الحل - كما يقال - العلمانية أو الكارثة - إذ من غير المعقول تصور مجتمع إسلامى وعلمانى فى الوقت نفسه، لأن العلمانية نظام بديل للدين ينفيه ولا يتكامل معه.. وهى - فى أفضل أحوالها - إقصاء للدين والشريعة.. من مراكز التأثير فى المجتمع: سواء على مستوى الأسرة أو الاقتصاد أو السياسة أو التربية أو الفن أو الثقافة أو الإعلام أو غير ذلك من ظواهر الاجتماع والنظم العلمانية لا تعول فى شىء من ذلك على الأديان ولا على مقاصدها ولا توجيهاتها العامة.. فالأسرة فى الغرب العلمانى - مثلا - لا تنبنى بالضرورة على أساس من أحكام الشرائع الإلهية التى تقيم الأسرة على أصول الحلال والحرام، ومن المقبول والمبرر أن تتم هذه العلاقة بين الرجل والمرأة كيفما اتفق، وربما تخلو كليا من أى بعد أخلاقى او قيمى بالمعنى الدينى، وقد تتم فى إطار قانونى يقيم هذه العلاقة الخطيرة كما يقيم أية علاقة أخرى من منظور جاف، هو منظور الحقوق والواجبات وخذ مثلا آخر : ظاهرة المثليين أو ظاهرة زواج الرجل برجل مثله أو امرأة بامرأة مثلها: إنها فى المجتمع العلمانى حق من حقوق الإنسان، وحرية شخصية يكفلها القانون وينظم لها الحقوق



والواجبات من ميراث ومن حضانة أطفال (بالتبنى) وغيرها، والمجتمع يحميها ويحرسها بكل أجهزته القضائية والتنفيذية .. ومنذ أيام قلائل حملت إلينا الصحف، من بين ما حملت من غرائب الأنباء، أن هذا الشذوذ اكتسب - ويالكارثة!! - نوعا من القداسة حين استطاع أحد المثليين أن يتسلل وينجح «بالانتخاب!!» فى ترسيمه «أسقفا» باحدى الكنائس فى الولايات المتحدة ومسئولا عن حراسة الأخلاق المسيحية، وأمانة تبليغها للشعب، وليس من حق أحد أن يمنعه من الوعظ والتبشير ، «بالمثلية والمثليين».. وهذه بعينها الكارثة التى حذرنا منها «ماسكال» حين قال : إنه مع العلمانية المسيحية فى العالم ولا يدخل العالم فى المسيحية. وصدق «ماسكال»، لأن معيار القيم فى النظام العلمانى هو: المنفعة والمصلحة والمتعة، سواء كانت المنفعة أو المصلحة أو المتعة مشروعة أو غير مشروعة، منضبطة بأصول الأخلاق وثوابتها أو منفلتة منها، والعلمانية لا تؤمن بثبات القيم، ولا مطلقية الأحكام، وكل شىء فى منظورها متحرك أو قابل لأن يتحرك حسب تطور التاريخ، وما كان بالأمس حسنا يمكن أن يكون اليوم قبيحاً والعكس صحيح.. ومادامت المسلمة الأولى فى الفلسفة العلمانية هى «فصل الدين عن الدولة» فكل النتائج التى تترتب بعد ذلك هى نتائج صحيحة، ومتسقة ومقبولة فى منطق هذا المذهب، وباستبعاد الدين من أن يكون ميزانا أو معياراً للحكم بالحسن أو القبح، يهتز - لا محالة - ميزان القيم الإنسانية ويضطرب ويختل .

من الصعب تجاهل الكارثة

ونحن لا ننكر أبداً أن حضارة الغرب فيها الكثير والكثير جداً مما يشاد به، ويستحق الإعجاب ، ويبعث على الانبهار، وأنها أفادت الانسان والإنسانية على المستوى التقنى والفنى والعلمى بل والإنسانى أيضا ، ولكن من الصعب تجاهل خطر.. «الكارثة» التى تردت فيها هذه الحضارة الكبرى حين حرمت نفسها من هدى السماء، وعندى أن هذه الحضارة أعطت باليمين، وسلبت باليسار كل ما أعطته بل وأكثر مما أعطته.

وقد كانت هذه الفلسفة،أعنى فلسفة إقصاء الدين كليا عن مشاريع النهضة فى عالمنا العربى أول مسمار يدق فى نعش ثقافة الامة بشكل عام والثقافة الإسلامية على وجه الخصوص ، ولنا أن نتأمل قليلا: لماذا نجحت تجربة الإمام محمد عبده إلى حين ثم انتكست بعد ذلك؟ ولماذا يتغنى المثقفون جميعا - بمن فيهم دعاة محاصرة الثقافة الإسلامية الآن - بتجربة الإمام وتلاميذه من بعده، ويعدونها الأنموذج الرائد الذى يجب أن نقتفى آثاره؟

وأغلب الظن أن السبب فى ذلك هو أن تجربة الإمام درجت فى اتجاه صحيح، فلم تقدم على إلغاء التراث وشطبه بجرة

قلم، ولم تتعامل مع حضارة الغرب من فراغ ، بل بدأ الإمام من التراث أولا وأسند ظهره إليه وهو يقلب عقله وبصره في منجزات الغرب العلمية والسياسية، وكان برنامجه أشبه بتركيبة جمعت بين المفاهيم الحضارية الغربية ذات المنزع الإنسانى والأخلاقى والمفاهيم السياسية الشرعية المرنة فى تراث الإسلام : نصوصاً وقواطع وفهوما أيضا.. وفى هذه التركيبة تمت المواءمة بين يسر الإسلام وسماحته ووسطية حضارته وبين حضارة الغرب فى جانبها الإنسانى والأخلاقى، وقد انطلق الإمام محمد عبده وتلاميذه المخلصون من مسلمة بسيطة هى: شرعية أن يأخذ الإسلام من الغرب ما ليس عنده مادام لا يصطدم مع أصوله ومبادئه وقواطع نصوصه، فمثلا: يستند الإمام فى جواز تطبيق صور الحكم العادلة عند أهل الكتاب على قاعدة تراثية، عبر عنها «ابن القيم» بقوله: «إن إمارات العدل إذا ظهرت بأى طريق كان، فذاك شرع الله ودينه»، كما استند إلى تراث الإسلام وهو ينفى أن تكون الدولة فى الإسلام دولة دينية، لأن الأمة هى صاحبة الحق فى تنصيب الحاكم، وهى صاحبة الحق فى عزله «فهو حاكم مدنى من جميع الوجوه» حسب عبارة الإمام.. وما نريد أن نصل إليه هو أن تجربة الإمام لم تكن أبداً مصالحة بين عناصر دنسه لا أخلاقية فى حضارة الغرب وبين دين الأمة، كيف وهما نقيضان لا يجتمعان بحال!!

وأن هذه التجربة الناجحة سرعان ما دخلت على يد المتغربين فى مأزق التنكر للدين والقطيعة مع التراث، والتماهى مع الغرب شكلاً وموضوعاً، والمناداة بالعلمانية بجناحيها:

اليسارى والليبرالى والقومية، بديلاً عن تراث الأمة وتاريخها ودينها، ولم يجد دعاة التغريب حرجا فى الهجوم على التراث والإزدراء من قيمته، وتصويره فى صورة معوقة للنهضة والتنمية، وأنه والحداثة نقيضان، وما لم نغسل أيدينا منه فلن يمكن لمشروعنا النهضوى أن يستوى على سوقه.

وهنا تدخل الثقافة الإسلامية التى كانت مصدر قوة فى تجربة الإمام فى أزمة لا تزال تعانى منه حتى يومنا هذا، ومع أن أحداث ١١ سبتمبر وتداعياتها المرعبة والمريبة أيقظت كثيرين من دعاة التغريب وراجعوا موقفهم وتحملوا مسئولياتهم ، فإن الساحة لازالت مملوءة بالعداء للتراث والسخرية منه.. ولدرجة أن أحد دعاة التغريب لم يتحرج أن يقترح إعادة النظر فى قوله تعالى: «كنتم خير أمة أخرجت للناس» لأنها فى منطق سيادته تشعر بتعالى المسلمين: ولست أدرى لم صمت الأستاذ المثقف صمت القبور عن آية أخرى خاطبة بنى إسرائيل بقوله تعالى: «وأنى فضلتكم على العلمين» (البقرة ٠٤٧) ولاتزال ثقافتنا الاسلامية



توصف فى أدبيات المتغربين بأنها: ثقافة ببغاوات يرددها الطلاب دون فهم.. وأنها لا تتفق مع تصورات الفيلسوف الفرنسى condorcet، وهى ثقافة تلقين، وفيها يقين أعمى، وتعليمها تعليم ظلامى يورث الخوف والهستيريا، ثم هى تحارب الفلسفة وتكفر الفلاسفة، وتحارب العقل لصالح النقل، وترسخ العداء للمرأة وتحض على عداء غير المسلم، وأن الثبات - لا التطور - هو سنة الله فى الخلق والكون، والحل عند هذا المجدد (للثقافة الإسلامية !!) إحلال التعليم التنويرى - وربما الفرنسى تحديداً- محل التعليم الإسلامى الظلامى .

خطورة عدم التوثيق

والذى يقرأ هذا الكلام يأسى كثيراً على المستوى الذى تردت فيه هذه الأقلام، وعلى الجراءة التى تتناول موضوعات علمية خطيرة دون توثيق للمعلومات أو إلقاء نظرة فاحصة على مصادر الموضوع الذى تتحدث فيه، وكدليل على أن هذا الكلام قد ألقى على عواهنه إلقاء، وأنه أشبه بحديث المقاهى منه بحديث العالم المسئول، أسوق للقارئ المنصف بعض ملامح سريعة من تراثنا المظلوم، ونؤكد أن هؤلاء الساخرين من التراث هم غرباء عليه بكل المقاييس، حتى وإن صدعوا رؤوسنا بدعاوى التحديث والتجديد :

- فليس صحيحاً أن ثقافتنا تحارب العقل، بل العكس هو الصحيح، والقاعدة الذهبية التى يحفظها صغار الطلاب المطلعين على هذا التراث تقول : «إذا تعارض العقل والنقل قدم العقل وأول النقل «أى : حين يتعارض النقل - من قرآن أو سنة - مع أحكام العقل، فالقاعدة أن أقدم أحكام العقل وأجريها كما هى، ثم أفسر النقل وأؤوله بما ينسجم مع العقل، والعقل فى ثقافتنا الإسلامية مناظر للشرع، وقد سماه الإمام الغزالى شرعاً باطناً، وسمى الشرع عقلاً ظاهراً وحسب القارئ المنصف فى الاستدلال على تغلغل العقل والعقلانية فى قلب الثقافة الإسلامية أن الخطوة الأولى التى تبدأ بها رحلة الإيمان بالله تعالى خطوة عقليه، وأن الدليل على صدق النبى صلى الله عليه وسلم دليل عقلى، ولا يجدى فيه دليل النقل، ودلالة المعجزة - كما هو معلوم للمثقف المطلع على التراث - دلالة عقلية وليست دلالة نقلية، وإثبات الوجود الإلهى قائم على دليل العقل، ولا يمكن أن يقوم على دليل النقل، لاعتبارات منطقية، يصعب فهمها فى هذا المقام ومنها أن إثبات الوجود الإلهى انطلاقاً من دليل القرآن والسنة يستلزم الدور المحال . وللساخرين من ثقافتنا أن يصدقوا - أو لا يصدقوا - أن مادة «عقل» و«فكر» و«نظر» ومشتقاتها وردت فى القرآن الكريم أكثر من ١٢٠ مرة، وأن القرآن الكريم يفرق تفرقة حاسمة بين رتبة العلم واليقين من جانب ورتبة الشك والظن من جانب آخر، وأن كلمة «حجة» و«كلمة برهان» وردتا فى القرآن الكريم كطريق وحيد للاستدلال وفى القرآن نعى صريح وواضح على هؤلاء الذين لايستخدمون عقولهم ويركنون لتقليد الآباء

والأجداد أو الكبراء أو أصحاب العاهات الفكرية .. فهل هذه الثقافة ثقافة تجارب العقل ؟!

وليس صحيحا أن ثقافتنا تحارب الفلسفة والفلاسفة، ويكفينا أن نحيل الأستاذ الساخر إلى كتاب تراثي، هو كتاب «فصل المقال فيما بين الحكمة والتشريع من الاتصال» لابن رشد وهذا الكتاب يدور على كشف الصلة الحميمة بين الفلسفة (الحكمة) وشريعة الإسلام، وفي هذا الكتاب يقول ابن رشد: «فإننا معشر المسلمين نعلم على القطع أنه لا يؤدى النظر البرهانى إلى مخالفة ما ورد به الشرع، فإن الحق لا يضاد الحق، بل يوافقه ويشهد له (...) وأن الحكمة (الفلسفة) هى صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة ... وهما المصطحبتان بالطبع، والمتحابتان بالجوهر والغريزة».

وإذا كانت ثقافتنا تحارب الفلسفة والفلاسفة ففيم إذن عشرات أقسام الفلسفة فى الكليات الإسلامية وغير الإسلامية فى عالمنا العربى والإسلامى بل فيم تخصصات الفلسفة الإسلامية فى جامعات الغرب وأمريكا واليابان ؟!

ثقافتنا .. ثقافة النور

- وليس صحيحا أن ثقافتنا ظلامية، بل الثقافة الوحيدة التى أبرزت فلسفة «النور» - فى العالم - هى ثقافتنا، وفى القرآن سورة تسمى سورة «النور» و«النور» اسم من أسماء الله تعالى، وقد تكررت كلمة النور فى القرآن ٤٩ مرة، وجاءت كلمة النور والأنوار جزءاً من عناوين مئات الكتب والمصنفات فى التراث، وإذا كانت مصادر المعرفة فى الفلسفات الغربية ظلت حتى الآن حبيسة مصدر «الحس» أو«العقل»فإن» النور فى الفلسفة الإسلامية مصدر من مصادر المعرفة، ربما يفوق فى يقينيته مصدر العقل ومصدر الحواس.. ومفهوم النور فى الثقافة الإسلامية غاية فى الثراء والخصوبة والتنوع : فالله نور، والقرآن نور، والتوراة، والإنجيل نور، والنبى - صلى الله عليه وسلم - نور، والأنبياء نور، والعلم نور والجهل ظلام، والبصيرة نور وعمى القلب ظلام، والإيمان بالله نور والكفر به ظلمة.

- وليس صحيحا أن ثقافتنا تكرس الثبات والسكون وتنفى التطور والتجديد،بل التجديد أصل فى متن هذا الدين الذى نشأت حوله هذه الثقافة :

- فالتغير مبدأ قرآنى، وهو شرط التطور للأفضل(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) «الرعد»

- والتجديد فى الدين، واستمراره وتواصله حقيقة قررها النبى صلى الله عليه وسلم فى ألفاظ صريحة واستعمل فيها كلمة «التجديد» نصا، وذلك فى الحديث الشريف :

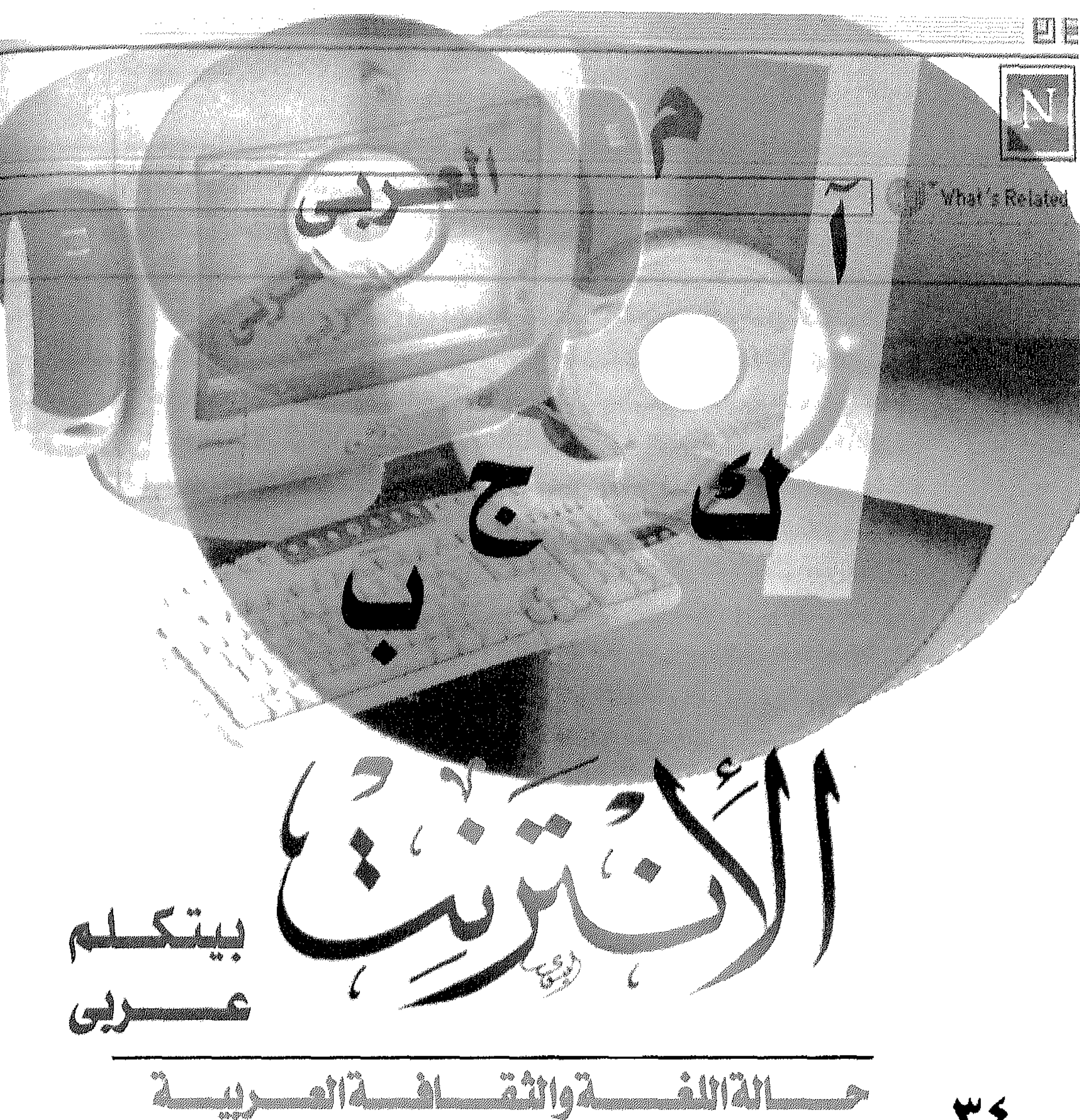
(إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها)

- وتراثنا الكلامى يتكئ فى تصوره للكون وفى مباحثه الطبيعية على مبدأ التجدد اللحظى ، ونظرية الخلق المتجدد عند الأشاعرة تغنينى عن الجدل فى هذا

الموضوع، فعندهم : أن العرض لا يبقى زمانين متتاليين، بل ينعدم ويوجد لحظة بعد أخرى، والمعتزلة - كالنظام والكعبى - يخطون خطوة أبعد حين يقررون أن «الأجسام المادية كلها تتجدد حالاً فحال» مما يعنى أن الكون متجدد وصائر من حال إلى حال فى كل لحظة والفيلسوف المسلم «صدر الدين الشيرازى» (ت ١٦٤١) يتفرد فى تاريخ التفلسف العقلى بالقول بالحركة فى الجوهر، وكان الفلاسفة قبله يجترون نظرية أرسطو فى ثبات الطبيعة فى عالميها : العلوى والسفلى، وله مقولة سبق بها فلاسفة الصيرورة والديمومة فى الغرب، من أمثال برجسون (١٨٥٩- ١٩٤١) يقول فيها : «إن حال الشمس والقمر كحال زيد وعمرو فى تبدلهما وانقضائهما ودثورهما وفنائهما (...) وأن الحمل والثور والسنبلة فى عالم السماء كالحمل والثور والسنبلة فى عالم الارض من حيث أن أشخاص الكل متجدد فى كل حين». وحتى علماء التصوف المسلمين لم يغب عن وعيهم هذا المبدأ، وها هو ابن عربى يقول :

«إن الموجود كله متحرك على الدوام دنيا وأخرى» بل أن أصغر طالب فى كلية أصول الدين يتعلم أن الاستدلال على وجود الله تعالى - فى تراثنا - يرتكز على مسلمة أولى، هى تغير العالم وتبدله، ويحفظ عن وعى وفهم نظم الدليل هكذا : «العالم متغير وكل متغير حادث وكل حادث لابد له من محدث ».

وإذا كانت الثقافة الإسلامية عانت - وتعانى - الكثير من معسكر التغريب المتربص بها، فإنها - فى الطرف المقابل - تعانى - وبالقدر نفسه - من معسكر التشدد والمتشددين والذى ظهر مؤخرا على الساحة وزعم لنا أنه المتحدث الرسمى - الوحيد - باسم الإسلام، وحول لنا هذا الدين الذى قدمه القرآن الكريم ورسوله العظيم للبشرية يسراً وسماحة ونفياً للحرج ودفاعاً عن الإسلام وتكريماً له، وتأصيلاً لمبدأ الاختلاف بين الناس، وتقريراً لحقيقة اختلاف الناس فى الأديان والعقائد والمذاهب والأخلاق والأعمال، وأن هذا الاختلاف مستمر إلى يوم القيامة، وأن العلاقة بين المسلم وغير المسلم هى - تحديداً - علاقة «التعارف» التى نص عليها القرآن وذكرها بهذا اللفظ فى قوله تعالى:«ليتعارفوا »، وأن علاقة «التعارف» تستلزم- بالضرورة - علاقة الاحترام المتبادل - إن هذا الدين فى رحمته وعدله وإنسانيته وعالميته تحول على يد هؤلاء المتشددين وفى أدبياتهم إلى قائمة تعيسة من الممنوعات والمحظورات، اختلط فيها المكروه بالمحرم وزالت الحدود والحواجز بين ما هو مندوب وما هو واجب، واستبيحت فيها حرمات ما كان لها أن تستباح لولا سوء التفسير والتأويل .. وإذا كانت أزمة التغريب قد أربكت الثقافة الإسلامية وشلت فاعليتها فى مشروع النهضة فإن أزمة التطرف لا تقل خطراً عن أزمة التغريب فى إرباك هذه الثقافة وشل فاعليتها .. وبيان ذلك يحتاج إلى حديث آخر . ■



الإنترنت بيتكلم عربى

حالة اللغة والثقافة العربية

بقلم
د. أحمد محمد صالح

هل الإنترنت تعانى من إنجليزية حادة؟ هل أصبح من الأمور الاعتيادية فى هذا العصر أن نقول ونكرر، إن الإنترنت اخترعت فى الولايات المتحدة الأمريكية، وان اللغة والثقافة الإنجليزية سيطرا تماما على فضاء الإنترنت بشكل غير قابل للنقض؟! وإذا كان عدد الصفحات المتاحة على شبكة الإنترنت حوالى ٣,٨ مليار صفحة، ويشهد كل يوم إضافة قرابة خمسة ملايين صفحة، وأصبح من تكرار القول التذكير بأن ٨٠٪ من كل صفحات الويب إنجليزية اللغة، ويقتبس منها دائما كمستندات ومراجع وحجج فى نقط النزاع التى





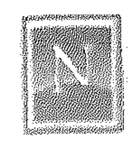



تثار فى المناقشات والحوارات والبحوث، وإذا كان الأمر كذلك، فهل الخيار الوحيد لمستعملى الإنترنت حول العالم أن يتعلموا هذه اللغة الإنجليزية بأسرع ما يمكن؟! وإلا كان عليهم تجنب استخدام الإنترنت تماما للوصول او الولوج إلى المعلومات التى يريدونها..! وهل إهمال أهمية التنويع الثقافى، وسيادة لغة واحدة على الإنترنت مفيد لمجتمع المستقبل، مجتمع المعلومات ، الذى يرى أن الشبكة تحدث التقارب بين الشعوب، وتعتبر منصة انطلاق للتقدم؟

نزعم هنا أن الأفكار السابقة غير دقيقة، فرغم أن فكرة سيطرة الإنجليزية وثقافتها على الإنترنت، فكرة واسعة الانتشار، ليس فى أمريكا نفسها بل فى معظم انحاء العالم لكنها نشأت من انتقائية، وضعف ذاكرة التاريخ الرسمى للإنترنت الذى نشرته وسائل الإعلام، فيما يتعلق بالعديد من الانجازات البارزة التى ساهمت بها بقية دول العالم فى تطور الإنترنت، ليثبت ان هذه الهيمنة المطلقة المزعومة للغة الإنجليزية ونتائجها الثقافية كانا ببساطة ظاهرة عابرة فى مراحل الإنترنت المبكرة.

التاريخ غير الرسمى للإنترنت!

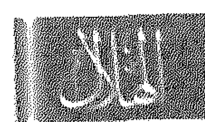
عندما يتحدث الناس حول تاريخ الإنترنت يسيطر نوع من تشويش ذو دلالة، مدعم برؤية بسيطة من تقويم زمنى للأحداث، وهذا يستوجب ضرورة استدعاء الفترة التى سبقت إطلاق الشبكات ، لنؤكد البعد التقنى على البعد الاجتماعى. وهنا يجب أن نميز بين الشبكة وهى تؤدى خدمات عظيمة لمستعمليها ، وبين بروتوكول الشبكة الذى يتضمن قواعد تلك الخدمات والطرق التى تقدم إلى المستعملين. وإذا كان صحيح أن «الانترنت» فى شكل نظام السيطرة على الارسال Tcp/ip، نظام اتصال، اطلق من وزارة الدفاع الأمريكية، على يد العلماء جيروم سالزير Jerome Saltzer وديفيد كلارك David Clark وديفيد ريد David Reed فى ١٩٨٤، وكان هذا التصميم مبنيا على ترك جزء قليل منه يستكمل بناءه بنفسه داخل الشبكة! وتترك الشبكة حرة وعامة لتطويرها عند النهايات، وهى التطبيقات التى نستعملها ، وكان يمكن للإنترنت أن تكون اختراعا أمريكيا! لكن المبدعين من كل انحاء العالم امكن لهم أن يبنوا على منصة الشبكة، ويضيفوا ما يشاءون من إبداعات، وبشكل ملحوظ جاءت بعض إبداعات الإنترنت الأكثر أهمية من هؤلاء «الغرباء»، من خارج أمريكا فنسيج الويب WWW طور من قبل باحث فى مختبر سويسرى، وجاهد حتى وصلت لأهميتها الحالية، فهى من ابداع عالم الكمبيوتر تيم بيرنيرس لى Tim Berners-lee من المنظمة الأوروبية للبحث النووى Cern فى مختبر جنيف أواخر ١٩٩٠، بيرنيرس لى أراد تمكين مستعملى الإنترنت من الوصول السهل إلى كل الوثائق بأنواعها فى أى مكان على الشبكة، وهو لذلك طور مجموعة من البروتوكولات لتمكين الوصلات بين نصوص الكمبيوتر hyperteti فى مواقعها عبر الشبكة، وبذلك وفر للإنترنت المناخ



What's Related

المناسب لاحتضان شبكة الويب داخلها. ويقول بيرنرز – لى أن شبكة النسيج أو الويب the web لا وجود لها بدون الـ NET يعنى بدون شبكة الإنترنت، فنسيج الويب جزء من الإنترنت فيه مجموعة عالمية من النصوص، وملفات الوسائط المتعددة المرتبطة بعضها ببعض عن طريق نظام من الوثائق المتعددة النصوص http. وبرتوكول النقل المتعددة النصوص hypertext transfer protocol هو بمثابة اقتسام البيانات الدولية فورا وبرخص الثمن، وطور أيضا لغة الـ html التى تتيح للمستعملين أن يتصلوا بسهولة بالخدمات من أى صفحة أو شبكة وكذلك الذى جاء بفكرة البريد الإلكترونى على الويب كان مهاجرا إلى الولايات المتحدة من الهند، اسمه Sabeer Bhatia سابير بهاتيا، وهو ولد أحد نظم البريد الإلكترونى الأسرع فى التاريخ – وهو الهوتميل Hotmail وعلى نفس النمط نجد المنظومة الأساسية التى قامت عليها خدمة الدردشة وهى ICQ كانت اختراعا إسرائيليا تم تصميمه من الخنادق البعيدة فى تصميم الشبكة. وتم بيعه لشركة AOL بـ ٤٠٠ مليون دولار، مرة ثانية نقول، إن إبداعات الإنترنت لم تقتصر فقط على الولايات المتحدة، فالمنظمات الديمقراطية المفتوحة مثل منتديات الحوار الديمقراطى فى الويب، تمركزت فى لندن، ويتم فيها النقاش وتبادل الآراء حول الديمقراطية والحكم فى كافة أنحاء العالم، وبالمناسبة هنا لم نرصد أى إضافة أو ابداعات عربية لمنظومة تقنيات خدمات الإنترنت! والأسباب معروفة للجميع ملخصها تدهور وتقزم عربى على كافة المستويات فى السياسة والاقتصاد والثقافة والتعليم والبحث والفكر.

وفى الحقيقة، الأدوار الحاسمة فى تطوير الإنترنت تاريخيا كانت من قبل باحثين. ومبدعين من بلدان الجنوب، الذين تعلموا منذ أواخر السبعينات كيف يستعملون الأدوات التى أنتجها منتجو الحاسوب. ببداية التسعينيات وبشروا بيوتوبيا القرن الحادى والعشرين كأداة مفضلة للعولمة الاقتصادية ، حيث فيضان المعلومات التى يتدفق بحرية. وإذا كان صحيحا ان الانجليزية هى اللغة المفضلة للمنشورات العلمية ، فالثقافة البحثية المنبثقة من الإنترنت نتجت من باحثين من كل القارات، من الشمال والجنوب، ومن تشكيلة اللغات والثقافات العالمية. فثقافة الإنترنت العلمية ظهرت من تفاعل الباحثين من كافة انحاء الدنيا، حيث يتواصلون عبر الإنترنت للإجادة والتطوير من خلال كيانات ومجتمعات الإنترنت، وذلك بجانب الثقافة التجارية التى تجذرت بشكل كبير على الشبكة



وجود اللغات على الإنترنت

فى أطلس لغات العالم التى تعانى خطر الاختفاء ، الصادر عن اليونسكو تاليف Stephen A. Wurm عام ٢٠٠١ يرصد حوالى ٦٠٠٠ لغة يتكلمها العالم، نصفها تقريبا مهدد بالأختفاء فى المستقبل القريب، وإختفاء أى لغة هو خسارة لميراث الجنس البشرى، لا يمكن تعويضها، خاصة إذا عرفنا ان معدل انقراض تلك اللغات فى تسارع متزايد، حتى وصل هذا المعدل الى اختفاء لغة من لغات البشر كل أسبوعين تقريبا!

ووفقا لإحصائيات مؤسسة Global Reach جلوبال ريتش حتى مارس ٢٠٠٣ ، بلغ سكان العالم ٦.٣٣٠ مليار نسمة ، يعنى ٦ مليارات و ٣٣٠ مليون نسمة. وصنفوا وفقا للغة الأم إلى حوالى ٣٣ مجموعة لغوية، مرتبة تنازليا وفقا لعدد المتحدثين بها

بالمليون : الصينية ٨٧٤، الإنجليزية ٥٠٨، الإسبانية ٣٥٠ ، العربية ٣١٥، الملاوية ٢٢٩ ، البرتغالية ١٧٦، الروسية ١٦٧، اليابانية ١٢٥، الألمانية ١٠٠، الكورية ٧٨، الفرنسية ٧٧، التركية ٦٧.٤ ، الفارسية ٦٤، الإيطالية ٦٢ ، وكرانيانية Ukranian ٤٧، التايلاندية ٤٦، الصقلية ٤٤، الرومانية، ٢٦، هولندية ٢٠، كرواتية صيربو ٢٠، التشيكية ١٢، اليونانية ١٢، الهنغارية ١٠، سويدية ٩، كاتالانية Catalan فلندية ٦، السلوفاكية ٥.٦، دانماركية ٥.٤، عبريه ٥.٢، النرويجية ٥، السلوفينية ٢، الأيسلندية ٣٠٠ الف الفيتنامية لم تذكر.

فيما يتعلق بالوجود الفعلى للغات على الإنترنت، من سوء الحظ ترك الباحثون ارقام نتائجهم فى هذا المجال بدون تقديم الدليل الوثائقى الذى يجعلنا نشكل رأيا حول صلاحية النتائج المعلنة ودفاعا عن التنويع الثقافى واللغوى فى عالم شبكات الاتصالات . ضد قوى السوق التى تعمل على سيادة لغة واحدة على الانترنت، قادت مؤسسة فانريدز WWW Funredes Org ، بين عام ١٩٩٦، و ٢٠٠٢ عدة دراسات على موضوع اللغات والثقافات، على شبكة الويب، والنتائج متوفرة حاليا بالانجليزية والاسبانية والفرنسية على موقعها المبين. وفانريدز منظمة غير حكومية، كرست جهودها الى نشر المعلوماتية وتقنيات الاتصال Icts فى الدول النامية خصوصا فى امريكا اللاتينية والكاريبى، بالتعاون مع منظمات عالمية حكومية، وغير حكومية بهدف المساهمة فى تنمية اقليمية، وتبين من دراسات المنظمة حول التنوع الثقافى واللغوى على صفحات شبكة الويب، وتحديدا حول ٧ لغات اساسية هى الانجليزية، الاسبانية ، الفرنسية، البرتغالية، الرومانية، الإيطالية، الألمانية، بمعنى اكثر دقة اللغات اللاتينية بالاضافة للألمانية اتضح النتائج الآتية:

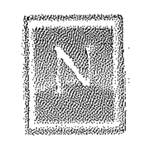
١ - أن الوجود النسبى للإنجليزية على صفحات الويب فى الشبكة هبط من ٧٥٪ فى ١٩٩٨ الى ٤٥٪ اليوم «حتى شهر فبراير عام ٢٠٠٣».

٢ - ان وجود كل اللغة على الشبكة تبدو متناسبة مع عدد مستعملى الويب الذين يتكلمون تلك اللغة.

٣ - رغم حضور حوالى ٥٠٠ لغة على الانترنت، لكن تركز التنوع الثقافى واللغوى ، الرومانية، الإيطالية بالإضافة الى الالمانية، حيث بلغت نسبة حضورهم حولى ٨٧٪ عام ٩٨، وتناقضت الى ٦٥٪ عام ٢٠٠٣ ، فى حين بقية لغات العالم رغم حضورها بنسبة صغيرة على الويب، الا ان نسبة حضورها ارتفعت من ١٣٪ عام ٩٨ الى ٣٥٪ عام ٢٠٠٣.

٤ - لوحظ ايضا ان تلك اللغات السبعة (الانجليزية، الاسبانية . الفرنسية ، البرتغالية ، الرومانية، الإيطالية، الالمانية) تناقص حضورها على شبكة الويب من عام ٩٨ حتى عام ٢٠٠٣ بسرعات مختلفة كان اكبرها فى الانجليزية ثم الفرنسية.

٥ - ان النمو فى عدد المستعملين الذين يتحدثون الإنجليزية تباطأ، وعلى مقربة من الإشباع ، بينما اعداد المستعملين فى المناطق اللغوية الأخرى تنمو قوية جدا فى اغلب

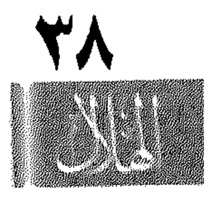


الأحيان، وتبدو الصينية في المقدمة.

٦ – عدد الاقتباسات والاستشهادات من ناس يعكسون القيم الثقافية للغات اللاتينية: الرومانية والبرتغالية والإيطالية والفرنسية والإسبانية فى الحقول المختلفة من الثقافة . والأدب، والفنون البصرية، والموسيقى والأغنية، الخ، ارتفع بنسبة أكثر من ٥٠٪ فى السنوات الثلاث الأخيرة. وهذا يثبت كيف ان الحضور الثقافى على الشبكة متناسب ومطابق مع نمط وجود اللغات المختلفة، ويتبع نفس نمط النمو.

وتظهر كل هذه المؤشرات بأن الفترة الانتقالية الأولية على الانترنت التى تميزت بالهيمنة المطلقة للإنجليزية، قد انتهت! بالطبع، الإنجليزية ، كاللغة مفضلة للتبادل العلمى والتجارى على مستوى العالم، ستبقى لها فائدتها ومميزاتها الكبيرة جدا، لكن تلك المميزات لن تكون مطلقة بعد فترة طويلة، فمنذ فترة قليلة ، أكثر من ١٠٪ فقط من البشر تعتبر الإنجليزية لغتهم الأولى أو الثانية! وقريبا جدا لم تعد فائدة الانترنت عظيمة للمستعملين الذين يتحدثون الانجليزية فقط، لكنها بالأحرى الى اولئك الذين يتقنون عدة لغات، ان من يعتقد بأن لغة الانترنت. هى حكر على اللغة الانجليزية ومن يتكلمها يبقى اعتقاده خاطئا، فعندما يبحر الألمانى او الفرنسى او الايطالى او البرتغالى او الصينى او اليابانى فى الانترنت ويبحث عما يريده بلغته الوطنية فإنه يجد آلاف المواقع تتكلم لغة بلاده، بل ويجد اكثر مما يتوقع. ويعتقد بأن لغته هى التى تطغى على الانترنت.. ويبقى الواقع هو سيد الموقف بالنسبة لهذا الاعتقاد. فلنأخذ على سبيل المثال آليه البحث «ياهو Yahoo» سنجد بأنها قسمت آلية بحثها حسب الدول التى لها مواقع كثيرة بلغتها الوطنية، فخصصت قسما للدول الأوروبية، تشمل حتى الآن كل من الدنمراك وفرنسا والمانيا وايطاليا والنرويج واسبانيا والسويد والمملكة المتحدة وايرلندا وقسم خصص لاسيا يشمل اسيا بشكل عام، ثم استراليا ونيوزيلندا والصين وهونغ كونغ واليابان وكوريا وسنغافورة وتايوان، اما قسم الأمريكتين فيشمل كل من البرازيل وكندا والدول الناطقة بالاسبانية، فى حين نجد قسم الولايات المتحدة الأمريكية يشمل كل من لوس انجلس ونيويورك وسان فرانسيسكو وشيكاغو والعديد من الولايات المتحدة الأخرى، مما يجعل عملية الابحار بالنسبة للمنتمين لهذه المناطق عملية متخصصة، وسهلة، وتوفر لهم كل ما يحتاجوه اليه بلغاتهم الخاصة، إضافة الى تفادى متاهات الشبكة العالمية للمعلومات. والتى تشمل ملايين المواقع. ومن ناحية اخرى نزعم ان مستقبل الشبكة فى تعدد اللغات، وان هناك حاجة ملحة لنوعية افضل من البرامج التى تترجم بين اللغات المختلفة، وعالم الشبكة، عالم مفتوح لكل اللغات، ولكل الثقافات ، وكل الأمم مدعوة ان تنتج محتواها على فضاء الانترنت فى لغتها التى تعكس ثقافتها بدون الشعور بالنقص او التشائم!

والدراسات التى قامت بها مؤسسة فانريدز حول اللغات اللاتينية الرئيسية مثل الاسبانية الفرنسة، البرتغالية، الرومانية، الإيطالية، تبين ان العدد الكلى لمتكلمى تلك اللغات اللاتينية اعلى من هؤلاء المتكلمين بالانجليزية، وتبين ان اللغات القليلة الانتشار خارج مجتمعاتها المحلية ظاهرة منتشرة فى كل القارات ، وتتمثل اكثر فى

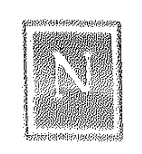


التنوع اللغوى الكبير فى قارة افريقيا، وان كل ثقافة يجب ان تساهم بخلاصتها فى فضاء الانترنت.. فالتنويع اللغوى والثقافى يجب الا نخاف منه بالعكس هو قاعدة لقدرة البشر على البقاء والتواصل، والتكيف مع السياقات الجديدة.

حضور اللغة العربية على الانترنت

ومن المؤشرات السابقة يتضح ان اللغة العربية كلغة أم «٣١٥ مليونا فى أكثر من ٢٢ دولة» تحتل المرتبة الرابعة بين مجموعات لغات العالم وفقا لاعداد المتحدثين بها، ونزعم ان انتشار اللغة العربية فى تسارع متزايد نتيجة الاسباب التى رصدتها دراسة منشورة على الانترنت للباحث التونسى مراد الطيب تحت عنوان «اللغة العربية فى عالم متغير: من اليقظة الى النهضة» وكانت اهم تلك الاسباب اندحار الاستعمار المباشر، الذى كان يحكم قبضته على الثقافة والتعليم فى مستعمراته السابقة، واغلبها من البلدان الإسلامية والتوسع الكبير فى مجال التعليم، والتوجه بقوة نحو تعريب التعليم فى مستوياته، وتنامى التواصل بين مختلف اجزاء الوطن الإسلامى وذلك عبر التبادل التجارى، أو الرحلات الجوية، أو البعثات التعليمية ، وتزايد عدد منظمات الدعوة الإسلامية العاملة خصوصا فى افريقيا واسيا، والتطور الهائل الذى عرفته وسائل الإعلام والاتصال، من شبكات الهاتف والمحمول، والقنوات الفضائية «٢٠٠ قناة فضائية ناطقة بالعربية» وشبكة الانترنت ، وأزعم ان السبب الاخير لم يعمل فقط على انتشار لغة الضاد، بل عمل ايضا على انتشار بقية لغات العالم. ويضيف انه اذا ما تواصل النسق الحالى فى تزايد عدد الناطقين بالعربية، فمن المنتظر ان تتخطى اللغة العربية اللغة الانجليزية، وتحتل المرتبة الأولى عالميا، مع نهاية الربع الأول من القرن الحالى . ويرى الباحث ان ذلك هو ما يفسر الى حد ما، الحرب الشعواء، التى تشنها امريكا على المناهج التعليمية الإسلامية وأداتها اللغة العربية، فى إطار ما يسمى «الحرب على الإرهاب» وتجفيف منابع التطرف هذا رأى الباحث . وتلمح فيه العاطفة الدينية، وفكرة المؤامرة فى صورة حرب دينية ولغوية ، لقد تجاهل الباحث اللغة الصينية التى يقترب الناطقين بها من المليار، وتجاوز الاسبانية التى تقترب من نصف مليار . ونسى ان الانجليزية ترتيبها الثانى بعد الصينية، ولم يفرق الباحث بين مكانة لغة معينة كلغة مفضلة فى التحدث والكتابة وبين مكانة اللغة وفقا لعدد الناطقين بها. وهذه الأمور تحسمها كما ازعم ثقافة تلك اللغة نفسها ومدى مساهمتها فى الاضافة والابداع فى حضارة العصر.

هذا عن موقف العربية بين لغات العالم اليوم، لكن ماذا عن موقف اللغة العربية على الانترنت؟ تبين احصائيات Global Reach ان عدد مستعملى الانترنت فى العالم حتى مارس ٢٠٠٣ بلغوا ٦٤٨.٧ مليون مستخدم يتوقع أن يصلوا ٩٤٠ مليونا عام ٢٠٠٤ ، واذا تم توزيع اعداد مستعملى الانترنت وفقا للغات التى يتحدثون بها نلاحظ ان متحدثى الانجليزية احتلوا المرتبة الأولى ٣٥.٢٪ بفارق مغزوى ثم الصينيون

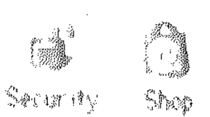


What's Related

٩. ١١٪ ، واليابانيون ٣. ١٠٪، الاسبان ١. ٨٪، الألمان ٥. ٦٪ ، الكوريون ٢. ٤٪ ، الإيطاليون ٦. ٣٪، الفرنسيون ٣. ٣٪ ، البرتغاليون ٨. ٢٪، الروس ٧. ٢٪، الهولنديون ٠. ٢٪، الملاويون ٢. ١٪، ثم العرب ٨. ٠٪، وبقية لغات العالم تكاد لا تذكر. معنى ذلك ان العرب فى الترتيب الثالث عشر حيث بلغ اعداد متحدثى العربية المستخدمين للانترنت ٥. ٥ مليون مستخدم بنسبة ٨. ٠٪ من الإجمالى العالمى، ويتوقع ان يصلوا الى ٧ ملايين مستخدم فقط فى عام ٢٠٠٤ ، فى حين ان هناك ٢٣٨.٥ مليون مستخدم يتحدثون الانجليزية بنسبة ٢. ٣٥٪ من اجمالى مستعملى الانترنت حول العالم ، ويتوقع ان يصلوا ٢٨٠ مليونا عام ٢٠٠٤.

والمفارقة هنا بين حضور لغات العالم على الانترنت، وبين حجم المجموعات اللغوية التى يتكلمها العالم فى الواقع الفعلى، فاللغة الصينية ٨٧٤ مليونا من المرتبة الأولى، والعربية ٣١٥ مليونا فى الترتيب الرابع، فى حين ان اللغة الفرنسية ٧٧ مليونا اوتحتل المرتبة الحادية عشرة، رغم ذلك نجد مواقع المنظمات العالمية على الانترنت . مثل مواقع الأمم المتحدة، واليونسكو، والفاو، وبقية الهيئات العالمية كل وثائقها وابحاثها باللغات الانجليزية والأسبانية والفرنسية فقط ، إذا كان من المنطق ان نقبل وجود الانجليزية ٥٠٨ ملايين والاسبانية ٣٥٠ مليون، فأين اللغة الصينية ٨٧٤ مليونا واللغة العربية ٣١٥؟! لقد قامت تلك الهيئات بترجمة واجهة مواقعها فقط العربية والصينية احيانا! ونكرر مرة ثانية ان ثقافة كل امة كامنة فى لغتها، والعامل الحاسم فى مدى حضور اى لغة انسانية على الانترنت ، هو ثقافة اللغة نفسها ومدى مساهمتها فى الاضافة والابداع فى فضاء الانترنت.

فحضور اللغة العربية، متواضع للغاية، فحوالى ٩٠٠ من صفحات الويب باللغة العربية. اقول الصفحات ولا اقول المواقع، فعددها لا يقارن مع بقية اللغات ، فقد دلت الدراسات الاحصائية المنتشرة على شبكة الانترنت التى اعتمدت على العديد من المصادر كالمراكز البحثية والمجلات المتخصصة والنشرات الصادرة من الشركات والقطاعات المحلية العالمية المعتمدة لتسجيل اسماء النطاقات والتى لا نجدها على مواقع الهيئات العربية المسئولة بشكل مباشر او غير مباشر عن الانترنت على ان عدد المواقع العربية المحلية قد بلغ حتى نهاية عام ٢٠٠١ ما يقارب ٩٢١٦ موقعا بما يمثل نسبة ٠٢٦. ٠ فى المائة من إجمالى عدد المواقع المحلية العالمية البالغ عددها ٣٦ مليون موقع، حسب احصائية domainstast.com فى يناير ٢٠٠١ ، ونعنى هنا بالمواقع المحلية، تلك المواقع التى تنتهى بالامتداد eg التى تدل على مصر او sa التى تدل على المواقع السعودية او ae التى تدل على المواقع الاماراتية وخلافها، فيما توجد مواقع عربية وعالمية مسجلة على المستوى العام المعروف بالامتداد com أو Net أو edu أو org وما إلى ذلك ، التى لا ترتبط بالمواقع المحلية بل بنوع نشاط القطاع، والتى لا توجد احصاءات دقيقة حول عددها، ولكن من المفيد ان نعلم ان الاسماء المسجلة عالميا على مستوى النطاق العام com وnct يتعدى ٢٩ مليون اسم . وتحتل ليبيا المركز الأول فى عدد المواقع العربية المسجلة محليا بواقع ٤٤٢٦ موقعا، تليها السعودية بحوالى ٣١٥٨



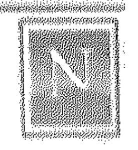
موقعا، ثم مصر بواقع ٢٤٨٥ موقعا، وهكذا إلى ان يصل عدد المواقع فى بعض الدول العربية الى اقل من مائة موقع، وهنالك من الدول ما يقل عدد المواقع به عن عدد اصابع اليد الواحدة، مقارنة مع حوالى ٤٠٠ ألف موقع فى الارجنتين، وإذا ما اخذنا هذه الاحصاءات بشكل تقريبى فإن الجميع ينفق على قلة المواقع باللغة العربية، على الرغم من أن المستخدمين العرب يدركون ذلك دون هذه الاحصاءات!

إن الحاجة إلى المزيد من مواقع انترنت التى تستخدم اللغة العربية هى انعكاس لاتجاه عالمى الى استخدام اللغات القومية، وتخفيف الاعتماد على اللغة الانجليزية، وتتوقع الدراسة التى اجرتها وحدة ابحاث عجيب كوم. ان تصل نسبة مستخدمى انترنت العرب الذين لا يستفيدون من المواقع الانجليزية بسبب ضعف مهاراتهم فى تلك اللغة ، إلى ٥٨ بالمائة من العدد الاجمالى مستخدمى الانترنت العرب هذا العام ٢٠٠٣ وان هذه النسبة سترتفع فى عام ٢٠٠٥ لتصل الى ٧٦ بالمائة من ٢٥ مليونا، هو العدد الاجمالى المتوقع لمستخدمى انترنت العرب ذلك العام ، واعتقد انه رقم مبالغ فيه كثيرا.

تحديات أمام اللغة والثقافة العربية

ودعونا نعترف ان اللغة العربية تواجه مشكلة كبيرة وتحد عظيم امام كمية المصطلحات المتراكمة المرتبطة بأنماط الاتصال الجديدة عبر شبكة الانترنت، ومن عملية ابحار سريعة فى المواقع العربية رصد الشاعر الاستاذ شاكر لعيبى فى مقال له منذ شهور فى مجلة افق على الانترنت، فشل الكثير من المواقع العربية، وتخبطها فى ترجمة مفردات الانترنت، فنقرأ عربية لا نعرفها مثل فوتوشوب، الفجول بيسك، جافا، فلاش، الاتش تى ام ال، ماسنجر، كروت اغانى، سكربتات للتشات، سكربت، وب توب، على فور كوم. علاوة على ان هذه المواقع ترتكب اخطاء متعددة فى السيطرة على اللغة الام. نقرأ مثلا «مواقع موختلفة فى موقع صوت العراق» بالواو وليس بالضمة ، ونقرأ دايم ياخذون بيظلها، من موقع الشاملة السعودية» وليس بيضها، وفى موقع كويتى نرى مكتباة بالتاء المدورة وليس مكتبات!! ولا تتردد جريدة الوطن العراقية على الانترنت من ان تطلق على صفحتها هومليس homeless ويستعينون بالمترجم الآلى فى ترجمة البسيط والبديهى حتى من اسماء العلم، ولان هذا المترجم من الحماقة والغباء بمكان فإنه يتوصل الى ترجمات هنا واحد من اكثر امثلتها مأساوية: مصادر هانى شاكير محمد، ناول الزغبى، ناجوا كرم وغيرها من المهازل ويتساءل الكاتب ما الذى يحدث للغة العربية على الانترنت بالضبط؟ ويقول: ان هناك استسلاما وقبولا بموت العربية الى درجة ان كلمة ميديا Media ستدخل ، منذ الان فصاعدا فى القاموس العربى بتصويتها اللاتينى لكن بكتابتها العربية رغم امكانية تعريبها اليسيرة الميديا هى مثال لغوى باهر على العقدة من الاخر فترجمة مصطلحات الانترنت يطرح المشكلة على مستوى اعمق واخطر، لان





الامر يتعلق بالدرجة الأولى بالاستسلام الكامل للاخر الثقافى وليس بالتبادل المعرفى المتوازن ولو بعض التوازن معه ، ويسترسل الشاعر قائلا إن ترجمة مصطلح لغة «الجافا» تستوجب أولا معرفة ما الذى تعنيه الكلمة على وجه الدقة. فإننا لا نستطيع ترجمة شىء لا نعرف معناه الحقيقى وآليات عمله، ولا شىء اليوم من قبيل الاستنطاق المسبق لمعانى مثل «الجافا» الا لدى القلة القليلة من المتخصصين وهؤلاء يبدون بحالة من التباهى والزهو بمعارفهم ولا يمتلكون ايه علاقة مع حقول معرفية أخرى ناهيك عن غياب الشعور بالمسئولية الاجتماعية لدى بعضهم إزاء لغة الجماعة التى ينتمون اليها! ويصرخ الكاتب محتجا على المواقع التى تكتب العربية بالحروف اللاتينية، وضد هؤلاء المستخدمين العرب، الذين توصلوا . لوحدهم، الى اعراف موحدة عن طريقة كتابة العربية بالحروف اللاتينية ، فحرف الخاء يستعاض عنه برقم ٥ اللاتينى، وحرف العين يستعاض عنه برقم ٣ اللاتينى.. الخ. ويقدم امثله من احدى المواقع مثل: Kelma 3al waraq معناه اى كلام على ورق، El-ghayeb el 7athcr معناه اى الغايب الحاضر، Ya nas 5alooni معناه ياناس خلونى! هذا ما رصده شاعر عربى على ما يحدث للعربية فى المواقع العربية على الانترنت، وهو تشويه للغة، وهذا ما نجده عادة فى النص العربى الذى يتطرق إلى موضوعات تتعلق بتكنولوجيا المعلومات، بصفة عاة، ولمواضيع الانترنت بشكل خاص، حيث ان الكلمات الانجليزية تتخلل كل سطر. وهنا فى سلسلة المقالات والدراسات التى نقدمها فى مجلة الهلال منذ اكثر من سنتين عن المعلوماتية كثيرا ما نضطر الى وضع المصطلح الانجليزى بجوار اجتهاد الترجمة العربية. حتى يصحح لنا علماء اللغة اجتهادنا المبدئى، واحيانا كثيرة نضع المصطلح الانجليزى بدون ترجمة ونتكلم عن معناه، ونترك الفرصة للباحثين فى اللغة العربية فى وضع ترجمة سليمة له.

وخلاصة المؤشرات السابقة هو ضعف وتهافت العربية وثقافتها فى فضاء الانترنت، رغم كل الضجة التى نسمعها فى وسائل الاعلام، من مزاعم تبشر بزيادة انتشار اللغة العربية على الانترنت، نعم هناك تزايد مستمر فى حضور اللغة العربية على الانترنت، ولكنه تزايد لا يتناسب ابدا مع حجم الناطقين بالعربية، ولا مع مكانة الثقافة العربية وتاريخها . فمازالت الجهود غير كافية وغير خالصة حيث يسيطر عليها الطابع التجارى! ولعل نقطة الخلل الرئيسية فى المعلوماتية العربية تكمن فى نقص الابداع المعرفى والانتاج الفكرى لدى الباحثين العلميين والادباء والمفكرين داخل بلاد العرب، الأمر الذى أدى إلى مواصلة اعتماد العرب على المعلومات العلمية والثقافية التى تنتجها مراكز البحث الأوروبية والامريكية ونقل فكر الاخرين وتقديمه الى المستفيد العربى دون ان يكون العطاء العلمى العربى بنفس القدر، هذا مع عزوف الباحثين العرب عن الكتابة بلغة الضاد ويفضلون كتابة ابحاثهم ومؤلفاتهم باللغات الاجنبية، سعيا منهم للتواصل مع المجتمع العلمى الدولى ومع المثقفين فى أوروبا وأمريكا، مع عدم اقتناع المؤلفين والباحثين بقدرة اللغة العربية على تأمين التواصل المعرفى، كما أن المناخ العلمى والفكرى فى العالم العربى لا يشجع على الابتكار والانتاج الفكرى. ان المحاولات التى



تبذل الان ومنذ عدة سنوات حول تعريف نطاقات اسماء المواقع، ازعم انها جهود مظهرية لا تصل إلى جوهر المشكلة ، وهو حضور المحتوى العربى على الانترنت، ويذكرنى ذلك، بما تفعله دول الغرب حين تستورد طائرات الركاب الحديثة، وتدهن جسم الطائرة بلون العلم الوطنى. وتكتب عليه بالعربية الشعار الإسلامي للبلد، وتكتشف حين تركب الطائرة ان طقم قيادتها ومضيفيها كلهم من الاجانب وبعض الدول تستورد دواء معين فى عبوات كبيرة وتعبئة هى فى عبوات صغيرة وتكتب عليه بالعربية انه صنع فيها او يستوردون الدبابة او المدفع ويرفعوا عليها علم البلاد، وتبقى الطائرة والدواء والدبابة صناعة اجنبية، كما ستبقى الانترنت كذلك، والسؤال الاهم كيف نوظف الانترنت فى خدمة اللغة العربية وثقافتها، وليس العكس . ما فائدة ان يكون عنوان الموقع بالعربية ومحتوى الموقع بالانجليزية او غيرها من اللغات الاساسية وازعم بجانب اهمية زيادة المحتوى العربى على الانترنت فإن السعى والجهد فى انتاج وابداع برامج ومواقع تترجم من والى العربية مع لغات العالم المنتشرة على الانترنت.. هى الطريقة الافعل فى جعل الانترنت عربية. وإذا كان البعض ينظر الى اللغة العربية على انها لغة الحب والشعر والعاطفة والادب فقط، فلا ننسى ، علماؤنا مثل ابن سينا وابن الهيثم وابو بكر الرازى وغيرهم من الذين وضعوا قاعدة علمية باللغة العربية ساهمت فى صنع حضارة اليوم! فالمشكلة ليست هى طبيعة وامكانيات اللغة العربية، فهى صمدت اكثر من ١٥ قرنا وتستطيع ان تستوعب كل مستحدث ، لكن المشكلة فى العرب الناطقين بالعربية، فتاريخنا يدور فى نفس الساقية التى يجرها ثور اعمى! ويعيد نفسه فى كل دوره! نفس الهزائم، نفس القهر . نفس القمع! نفس القضايا! نفس التخلف! ؟ لماذا يملك اعدائنا اسباب القوة؟! ونحن قابعون فى استكانة ندعو الله بتقطيعهم تقطيعا؟! اذا كنا لا نزرع ، ولا نصنع، ولا نعمل، ولا نبدع، ولا نشارك فى صنع حضارة العصر! فمن أين يأتى المحتوى العربى على الانترنت، وكيف تنتشر ثقافة العرب فى فضاء المعلومات!؟ لقد بات الوطن العربى ثقافة.. وتعليما.. ونظاما تربة خصبة لتجذير التخلف! فالعقل العربى يعيش فى مأساة حقيقية عندما هرب الى التاريخ منذ هزيمة عام ١٩٦٧ وسادت الافكار المتشنجة المتاجرة فى الدين. وسيطر خطاب دينى هستيرى ينمى قيم التزمت وحجب وعزل المرأة ورفض الآخر والمبالغة فى النزعة الذكورية وتفضيل الماضى ونبذ العلم والتفكير العلمى وتضخيم النزعة العائلية والقبلية وتنمية الروح القدرية، ونشر الافكار المسطحة والسلوكيات المصابة بالانفصام بين الكلام والعمل، وفرض سلوكيات شكليه، ووظفها سياسيا، والنتيجة كانت غلبة هذا الخطاب على معظم المحتوى العربى الموجود حاليا على الانترنت! وبعد كل ذلك نتساءل اين اللغة العربية وثقافتها على الانترنت؟! ان حضور اللغة العربية وثقافتها فى فضاء المعلومات مرتبط تماما بإصلاح وتحديث المنظومة العربية سياسيا، وثقافيا واجتماعيا! ■

مشاهد تاريخية

حديث أميل لودفيج

مع الملك فؤاد ووزراء مصر


إميل لودفيج

بقلم
د. محمد رجب البيومي


واصف غالي

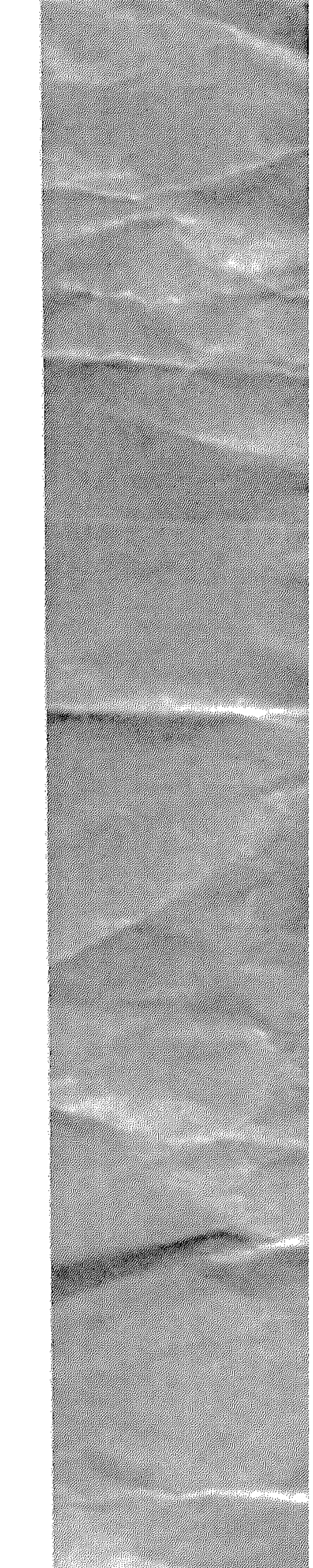

مصطفى النحاس


مكرم عبيد


عثمان محرم

الملك فؤاد

دعيت إلى ندوة علمية في تونس فى أوائل يوليو من سنة ١٩٩٧ م فلاقيت من كرم الضيافة وجميل اللقاء ما لا أزال أذكره بالحمد والثناء ، وفى صباح يوم مشرق الشمس جلست مع صديقى الأستاذ الحبيب شيبوب ، وهو من أدباء تونس المرموقين ، فأطلعنى على جريدة الصباح التونسية الصادرة فى ١٣ يوليه سنة ١٩٩٧ لأقرأ فيها حديثا ممتازا كتبه الأديب الألمانى أميل لودفيج عن ملك مصر أحمد فؤاد. وعن وزرائه الذين سعد برؤيتهم أثناء زيارته لمصر سنة ١٩٣٠ م وقد قرأت الحديث فأعجبنى بعد النظر الثاقب للمؤرخ الكبير ، كما أسفت لأن مثل هذا الحديث القيم لم ينشر فى صحف مصر ، وهى أولى به ، لأنه يتحدث عن حقبة مهمة من أحقاب التاريخ المصرى المعاصر ، كما صور انطباعه الصادق عن أحمد فؤاد ومصطفى النحاس وواصف غالى وعثمان محرم ومكرم عبيد ، وهم من الذين تولوا أزمة الحكم عند زيارته ، والحق إن ما سجله الكاتب المؤرخ عن الزعيم الجليل مصطفى النحاس وزملائه فى الوزارة ، لم يتجاوز الواقع الملموس فى شئ وقد احتفظت بجريدة الصباح التونسية لأكتب كلمة عما قرأت بها من حديث أميل لودفيج .



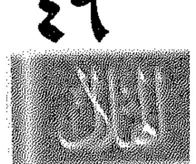
ولكن الجريدة قد فقدت منى مع اهتمامى الزائد بحفظها ، ومما أعجب له من أمور هذه الحياة أن شدة الاهتمام بالشئ قد تكون باعثا على ضياعه ، إذ أن أوراقا غير مهمة جئت بها من تونس لم تفقد ، على حين ضاعت صحيفة أميل لودفيج ! وقد كتبتُ لصديق تونسى فتفضل بإرسال صورة ضوئية للحديث المشار إليه ، فله الشكر

ومعروف أن أميل لودفيج قد فارق الحياة فى ١٩٤٨/٩/١٨ بعد أن ترك ذخيرة ثمينة من المؤلفات عن أمثال نابليون وبسمارك وكليوباترا وروزفلت وستالين وسيجموند فرويد وغيرهم من رجالات التاريخ ، هذا إلى قصص ومقالات شتى ، وحين زار مصر فى سنة ١٩٣٠ بهرته عظمة النيل فاشتاق إلى أن يكتبه تاريخه . وأطلع الملك فؤاد على رغبته هذه ، فرحب بها ، وجعل تحت يده باخرة خاصة حملته من القاهرة إلى السودان ، كما قدمت له الدولة كثيرا من الوثائق السياسية التى لم يحصل عليها الكثيرون ، وقد كان الرجل ذا إحاطة شاملة بتاريخ مصر والسودان حيث تحدث عن عهد الفراعنة ، وعصر الشهداء ، ومصر المملوكية ومغامرة نابليون ، ويقول الذين كتبوا عن «كتاب النيل» إنه فى نظر لودفيج ليس وحدة جغرافية فقط ، بل هو كائن حى له خواصه الإنسانية ، وقد نظر إليه الكاتب كأنه شخص يتحدث عنه مثل حديثه عن نابليون وبسمارك وهندنبرج وغيرهم ، وتلك براعة فائقة، لأن الشخصية الإنسانية تعطى من الموافقة الخاصة ما لا تستطيعه الشخصية الطبيعية الصمّاء ! فإذا أصبح النيل كائنا حيا بما توالى عليه من أحداث العصور ، فتلك براعة نادرة .. لم يقنع أميل لودفيج بمشاهدة القاهرة بآثارها الفرعونية الخالدة ، ومساجدها وكنائسها ودور التعليم بها ، وبما سعدت به من تقدم حضارى فى البناء والمرافق الاقتصادية والصناعية بل حرص على أن يتعرف إلى رجال الحكم ، وأن يسمع الكثير عنهم من المؤيدين والمعارضين وإذا كان رئيس الوزراء فى هذه الفترة ، هو زعيم الأمة الرئيس الجليل مصطفى النحاس فقد سجل المؤرخ عنه ماجبن عن قوله الوصوليون من الهتافين والمصفقين ، إذ قال فى صدق برئ من التزيد والافتعال .

مصطفى النحاس

«إن مصطفى النحاس باشا رئيس حزب الوفد المصرى ، ورئيس الوزراء وخليفه سعد زغلول فى التفاف الشعب حوله ، وتقديسه شخصه ، هو رجل فى الخمسين من العمر ، يبدو لمحدثه بصوته الجهورى الرنان ، وعينه الفاحصة ، ومظاهر القوة التى فيه أنه رجل حزم وثبات وتعقل .

ومما يلاحظ فيه كما هو الحال مع رءوساء الأحزاب العظيمة دائماً ، أن الفساد يقف بعيداً دون بابه وليس بين ألد



مشاهد تاريخية

خصومه من يتهمه بشيء من الصفات القبيحة التى لم تعد من صفات الشرق وحده وهو شديد الثقة بالمصريين ، قوى الإيمان بحزبه وبنفسه ، ويبدو كأنه أقل عداء للإنجليز من بعض زملائه»! .

هذا ما قاله المؤرخ الصادق ، وواضح أنه قابل الرئيس ، واستمع إليه ، ووصف ملامحه كما تراءت لنظره الدقيق ، وإذا كان كتاب النيل قد ظهر بعد ست سنوات من تاريخ هذا اللقاء، فقد جدْت فى هذه الحقبة أمور تدلّ على تمسك النحاس بالدستور ، ومعارضته للحاكم المستبد، وصرامته مع الإنجليز فى المناورات السياسية التى قام بها مع المستر هندرسن وزملائه فى قاعة لوكارنو التاريخية بوزارة الخارجية البريطانية ، وتمسكه بالسودان واتحاده مع مصر بعيدا عن السيطرة الإنجليزية وتلك أحداث عرفها الكاتب الذى اشتغل بتأليف الكتاب قرابة ست سنوات ! وكان عليه أن يشير إلى تصلّب الرئيس ، ومواجهته إرادة الملك فؤاد فى الاستبداد السياسى ! لتكون الصورة مكتملة لقارئه البعيد عن مجرى الأحداث فى مصر ! ولعلّه دوّن مذكرات سريعة عقب لقائه بالنحاس باشا ، واكتفى بها دون أن يتابع ما جدّ .

وزير الخارجية

أما واصف غالى باشا وزير الخارجية فى الدولة ، فلم يكن مجهولا لدى الكاتب من قبل ، إذ أن مؤلفاته المدونة باللغة الفرنسية قد أذاعت فضله فى الغرب ، فاعترف القوم به كاتبا ذا حجة واقتدار ، ومترجما لروائع الأدب الحديث والقديم مما اختاره من ثمار القرائح الناضجة ، وقد قال عنه الكاتب «إنه فيلسوف وأديب معروف ، وتبدو على وجهه سيماء الخيال الشرقى ، وأذكر بهذه المناسبة أنه الوزير الوحيد فى العالم كله الذى يوجد فى مكتبه قبل الساعة التاسعة والنصف صباحاً» وهذه الملاحظة تدل على أن لودفيج قد تابع وزراء الدولة قدر ما يستطع أثناء مقامه بالقاهرة ، فعرف من يبادر بالحضور مبكراً ، وعدّ ذلك فضيلة تحسب له .

«وزيران آخران»

ثم تطرق إلى الحديث عن عثمان محرم باشا وزير الأشغال ، فقال إنه خبير حقيقي ورجل أعمال أكثر منه رجل سياسة ، وهو نشيط يلتهب غيرة ، وتملأ رأسه المشروعات المتعلقة بنهر النيل ، والعبارة الأخيرة تدل على أن المؤرخ وقد عزم على أن يدرس حياة النيل غابرا وحاضرا قد اتصل بكبار المسئولين باحثا عن مجال دراسته ، وقد وجد فى عثمان محرم من أفاض فى الحديث عن النيل ، وما يقترحه من مشروعات خاصة بمياهه ،

كانت موضع انتباه المؤلف ، ولابد أنه أفاد منها فى بعض ما كتب .

ويأتى حديثه عن مكرم عبيد باشا وزير المالية ، فقد خصّه بثناء خاص حين قال إنه كان أكثر الجميع تأثيراً فى نفسه ، وهو كما قال الكاتب رجل فى الأربعين من العمر ، ذو مظهر وأخلاق أوروبية وقد حكم عليه بالإعدام مثل كثير من السياسيين ، ثم نفى إلى جزيرة موحشة فى البحر الأحمر ، وهو مسيحّى الديانة ، على أنه أبدل اسمه الانجليزى باسم عربى رغبة منه ألا يكون فيه شئ إنجليزى ، ونحن نعلم أن مكرم عبيد كان واسع الثقافة، وكان محاميا ذات تأثير قوىّ بين الجمهور ، وخطيبا ينتمى إلى الجزالة العربية التى ورثها عن زعيمه سعد ، وكل ذلك كان له أثر فى حديثه مع المؤلف . حتى قال عنه إنه أكثر الجميع تأثيراً فى نفسه .

ثم تطرق المؤرخ إلى حديث مقارن بين نهضة مصطفى كمال فى تركيا ، ووثيقة مصر الداعية إلى الاستقلال ، وكان مما قاله إن الشباب المصرىّ يعجب بالزعيم التركى ، ولكن الشيوخ يحذرونهم من الطفرة والبدع التى قام بها ! ولعلّ الكاتب لم يتصلّ إلا بفريق خاص من الشباب ، رأى فيه الإعجاب .. بالزعيم التركى لأن أكثر الشبيبة المسلمة قد عارضت اتجاهه العاصف بكثير من تعاليم الدين ، وقد عبّر عنهم أمير الشعراء أحمد شوقى حين قال :

إن الغرور سقي الرئيس براحة
كيف احتيالك في صريع الراح
نقل الشرائع والعقائد والقري
والناس نقل كتائب فى الساح
هم أطلقوا يده كقيصر فيهمو
حتى تناول كل غير مباح
غرته طاعات الجموع ودولة
وجد السواد لها هوى المرتاح
وإذا أخذت المجد من أمية
لم تلق غير سرابه اللماح

ونترك مصطفى كمال إلى حديث المؤرخ عن الملك فؤاد ، وقد جالسه عدة مرات ، وكان ما قوبل به من زائد الاحتفال وعظيم الاهتمام ، ذا أثر بارز فى تقديره ، لأنه فى تسجيل حديثه عنه لم يعقب على أمور تستدعى المراجعة ، ومثله فى إلمامه الواسع لا تفوته مواضع النقد ، فماذا قال عن الملك أحمد فؤاد ؟

الملك فؤاد

قبل أن يسجل الكاتب حديثه مع الملك فؤاد بدأه بمقدمة قال فيها :

«الملك فؤاد مثال للملك الشعبى ، ولا ريب أن أفضل تربية للرجل الذى لم يكن ينتظر أن يكون ملكا هى التربية التى تقوده إلى أرفع درجات الاختبار وأعمقها ، وتزج به فى مجتمعات وأوساط يصعب على ولى العهد أن يصل إليها وأن يختلط بها ، مع ضرورة اطلاعه على بعض الشئ عنها ، إذا كان لابد له أن يحكم عن خبرة وتعقل ».

وأوضح أن لودفيج لم يقصد . بقوله



مشاهد تاريخية

إن فؤاد مثال للملك الشعبي ، أنه هو الذي يخالط الشعب بعد ملكه وتصدر عن رأيه ، ويستجيب لمطالبه ، فهذا لم يكن لدى الملك بل كان في تصرفاته السياسية ضائقاً بالدستور ، لأنه يجعل الشعب مصدر السلطات ، وبمحاربته لسلطة الشعب استطاع أن يجد من أمثال أحمد زيور ومحمد توفيق نسيم وإسماعيل صدقي رؤساء وزراء يصدرون عن أمره وحده ، بل إنه كان يكن العداء لسعد زغلول وعبد الخالق ثروت وعدلي يكن لأنهم مع اختلافهم الحزبي كانوا من أنصار الأمة التي تعتبر في رأيهم مصدر السلطات، وهذا ما يعتقده تماماً أميل لودفيج بدليل أنه حين سأل الملك عن نسبة الذين يحوزون الكفاءة من الوزراء أجاب فؤاد بقوله :

«صدقني أن الرجل ذا الخلق الكامل ليس دائماً أهلاً لتولي الوزارة ، فإن رجلاً كهذا يكون عرضة للضعف عند الأزمات والاستسلام لليأس » .

فالملك إذن لا يبحث في اختياره الوزرا ، عن صاحب الكفاءة بل عمّن يثق في ولائه مع اعترافه بأنه آلة في يده ، وهذه هي الدكتاتورية بعينها ، لذلك عقب لودفيج على إجابة الملك بقوله «هنا استطعت عندما سمعت هذا الكلام من جلالة الملك أن أفهم سبب إعجابه بيسمارك الداهية الألماني ! ونحن نعرف من تاريخ بسمارك عدم اهتمامه بالعهود والمواثق ونرى في سياسته تطبيقاً عملياً للمكافيلية ! وهذا ما كان يتجه إليه الملك ، حين أمتنع عن التوقيع على دستور ١٩٢٣ عند تقديمه إليه، لأنه نقل السلطة إلى الشعب ، وحين رأى المعارضة العاصفة من كل اتجاه، حتى من أمراء بيته الذين أصدروا بياناً بتوقيعاتهم الصريحة يطالبون فيه الحاكم باحترام رغبات الشعب وإذ ذاك اضطر للتوقيع إذ لم يجد من الإنجليز نصيراً في هذا الموقف فقد آثروا أن يشتعل الحريق بين الملك والزعماء ليزداد التوتر ! وهذا ما يبعدُ فهم شعبية الملك عمّا يتبادر للذهن السريع .

ثم نقل عن الملك قوله :

«لقد عرفت جميع أنوا ع الناس من الأمراء إلى العمال وسائقي المركبات ومن أفراد الجنود إلى كبار القواد ، وعرفت الفقر ، واختبرت تطورات كثيرة من التي يعرض لها البشر ، وزرت جميع بلدان أوروبا ، ما عدا روسيا ، وكافحت الحياة بنفسي في كل مكان وكان لابد من ذلك لأني لم أكن أترقب اعتلاء العرش.

ثم قال الملك بعد حديث مماثل .

«إني أدرك مخاطر التعليم المؤدي للغرور الذي يُلقَّنُ عادةً للأمراء ، أما أنا

فقد اختلطت بجميع طبقات العظماء والأدنياء معا ، ولم أمض حياتى بطولها فى البلاط أو فى الأسواق المتأنّقة ، وكنت جنديا وطالبا ودرست شئون التجارة . ولا أدع أحداً يُملى علىّ إرادته فى مَنْصبى الحالى ، إن الأساليب التى كانت تتخذ فى تربية الأمراء وتعليمهم هى التى أوجدت هذا الانحطاط فى الأسر ، لأن معرفة الناس واختيارهم هما أعظم الأشياء ، ومَن حاز ذلك عرف كيف يحكم الناس » .

وتعليقاً على هذا الرأى الصائب نرى أن الملك فؤاد . وقد أكّده تأكيداً تاما ، قد انحرف عنه فى تربية ولده فاروق . إذ لم يَشأ له أن يختلط بأحد ما ، وأحضر له المدربين النابهين فى القصر الملكى ليتلقى الدراسة بمفرده ، فحرمه هذا الاختبار الإنسانى الذى فاخر به فى نشأته بل إن والده الخديوى إسماعيل قد أنشأ مدرسة الأنجال ، لتكون مجمعا لأولاد الذوات والحكام فيشاركوا أنجاله دروسهم الراقية ، ولعل فؤاد كان أحد هؤلاء ! ولست أدرى سرّاً لهذا التناقض السافر بين القول والعمل .

وحين جاء ذكر بسمارك حاول الملك أن يبدد وهم محدثه فى ميل الملك إلى الدكتاتورية فسارع الملك يقول رداً على سؤال وجّهه لودفيج فى قوله :

مادمت جلالتكم من المعجبين كل الإعجاب ببسمارك فلابد أن تكون دكتاتورية هذه الأيام حائزة إعجابك أيضاً ؟

والسائل حذر متلطف فقد أوهمه أنه يريد بدكتاتورية هذه الأيام ما شاع عن موسوليني وهتلر وفرنكو من طواغيت الثلاثينات ! وهو فى الباطن يريد أن يسأله عن مظهر من مظاهر سلوكه فى السياسة المصرية ، ولكن الملك فاجأه بقوله .

«إننى من أشد المقاومين للنظام الدكتاتورى ويسرنى تماماً أن الدكتاتورية هنا فى مصر قد زالت تماماً ، ولا يمكن أن تحكم إلاّ تحت سيطرة البرلمان» .

وأنا ألمح شبه ابتسامة على فم أميل لودفيج حين سمع هذا الرأى ، لأنه قرأ تاريخ مصر قبل أن يزورها وعرف أن الملك قام بانقلابين على الدستور ليأتى بحكومات رجعيه كما قام بالانقلاب الثالث بعد رحيل المؤلف ، وقبل أن يصدر كتابه ببضعة أعوام ، فإذا لم يكن ذلك هو الحكم الدكتاتورى فى صميمه فماذا يكون ؟

وقد أراد الملك أن يضفى على تاريخ والده الخديوى إسماعيل ما يزيده لألاء فى عين محدثه فقال إن أبى كان يود أن يعلن استقلال مصر فى الوليمة الكبرى التى أقامها فى حفلة افتتاح قناة السويس ، فنظر إليه محدثه وعبر عن دهشته فى قوله : دهشت مما قال جلالته ، لأنى لم أكن أعلم شيئاً عن ذلك فيما قرأت من المطبوعات الكثيرة ، وأراد الملك أن يزيل دهشتى فقال : هذه حقيقة معروفة فى عائلتنا يتناقلها الخلف عن السلف ، وسأواصل البحث عن الوثائق الرسمية

الايطالية التى تحتوى بعض المفاوضات التى جرت بشأن ذلك .

يقول الملك : ويظهر أن إحدى الدول الكبرى وقفت فى آخر لحظة فى وجه هذه الأمنية ، واستطرد الملك فذكر بعض الجهود التى تبذل الآن لجمع الوثائق من كافة محفوظات أوروبا ، التى لها علاقة بالأسرة الحاكمة ، وقد دعا ممثلى فروع عامة من فروع العلم والمعرفة للاجتماع فى مؤتمر دولى ليدرك العالم مكانة مصر ، فقال لودفيج مكانة مصر معترف بها دون إنكار !

وكعادة لودفيج فى استقصاء المظاهر الخارجية ، والخواطر العابرة لإيضاح الحقيقة النفسية التى يحاول استجلاءها فى جميع مؤلفاته ، لم يفته أن يتحدث عن بلاط الملك كما شاهده ، وأن يقول عنه .

«إن جلالته فى الثانية والستين من العمر ، ولكنه يبدو فى مظهره دون ذلك بعشر سنين وكل ما يحيط به فى قصره الفخم ، وأثاثه الفاخر ، من طراز لويس الخامس عشر ، وسلالمه الرخامية الواسعة ، وأصناف السجاد الفاخر الذى يغطى أرضه ، كل ذلك جعله للتأثير فى نفوس الفلاحين ».

وقد حيرتنى كلمة (الفلاحين) هذه ، لانه لو أراد بهم أبناء الشعب من المزارعين ، فهم لا يرون القصر ، وما أظن أحدهم قد خطر بباله أن يزوره ، لسطوة ما يرى من الحجاب والحراس ، أما إذا

مشاهد تاريخية

كان المراد منهم أبناء الشعب ممن ارتقوا إلى مناصب الوزارة والإدارة ، ولهم زيارتهم الرسمية فى المواسم والأعياد ، فهؤلاء بثقافتهم المعاصرة لا ينخدعون بالطلاء عن حقيقة الوجه ، لأنهم يعرفون عن الملك كل اتجاه !

ولم يترك لودفيج تسجيل ما مرّ به من مظاهر التسامح الدينى فى مصر ، فقال إن الانتماء إلى أى مذهب دينى لا يحول دون صاحبه بكافة المنافع والمزايا ، وأكبر دليل على ذلك أن اثنين من أكبر مقاعد الوزارة أهمية (هما الخارجية والمالية) يشغلهما مسيحيان مع أن المسيحيين فى مصر يبلغون مليونا واحداً مقابل أحد عشر مليونا ونصفا من المسلمين وقد كان ذلك سنة ١٩٣٠ حين سجل المؤلف حديثه الدقيق .

لقد طاف الكاتب الكبير فى أكثر ممالك العالم وجمهورياته شرقا وغربا وحادث رؤساء الدول محادثة المفكر المتمرس الدءوب ، وسجل ذلك فى أسفار تعددت طبعاتها وترجماتها فهل نجد لدى أدبائنا الكبار من خاض هذه الغمرات ، إلاّ ما كان من أحاديث كبار الصحافيين وهم من ذلك قليلون ! فمتى نستشرف هذه الآفاق كما استشرفها أمثال لودفيج ؟ ■

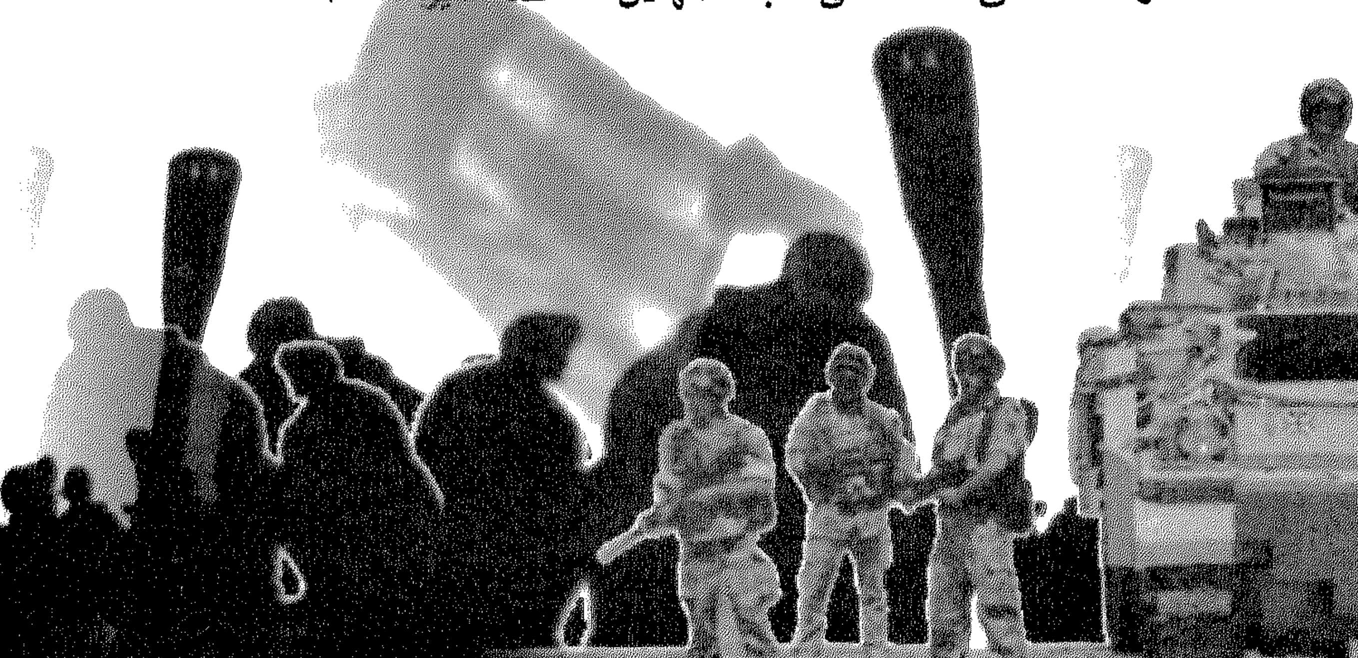
قواعد اللعبة

بعد غزو العراق

بقلم

د. منير زهران

وهكذا فشلت الولايات المتحدة وبريطانيا فى حمل مجلس الأمن على اصدار قرار جديد فى مارس ٢٠٠٣ يسمح بالعدوان على العراق تحت ذريعة عدم تعاون حكومته السابقة مع فريق المفتشين الدوليين للبحث عن أسلحة الدمار الشامل بما يشكل خرقا ماديا لقرار مجلس الأمن رقم ١٤٤١ الصادر فى ٨ نوفمبر ٢٠٠٢، وبالتالى ادعاء شرعية غزو العراق من جانب الحليفين الرئيسيين أى الولايات المتحدة وبريطانيا، رغم معارضة واحتجاج غالبية أعضاء مجلس الأمن ومنهم أعضاء دائمين فى مجلس الأمن اشارة لفرنسا وروسيا والصين. وتجدر الاشارة إلى أن القرار ١٤٤١ لكى يصدر بالاجماع تم شطب العبارة الواردة فى مشروعه الانجلو أمريكى الأول، والذى كان ينص على «استخدام القوة» فى حالة فشل العراق فى تعاونه مع فريق المفتشين الدوليين، وتم استبدال تلك العبارة بعبارة تحمل العراق لتبعات وخيمة "SERIOUS CONSEQUENCES" فى حالة عدم التعاون، على نحو ما أوضحناه فى مقالنا فى مجلة الهلال - عدد مايو ٢٠٠٣



ورغم تعاون العراق - بدرجات متفاوتة - وفقا لتقارير المفتشين الدوليين - إلا أن الحليفين الرئيسيين كان فى عجلة من أمرهما إزاء اقتراب فصل الصيف وعدم التمكن من تعبئة تسعة أصوات لإصدار قرار جديد من مجلس الأمن يسمح باستخدام القوة صراحة ويضفى شرعية على غزو الولايات المتحدة وبريطانيا للعراق، فتم سحب مشروع القرار من المجلس وانطلق الغزو الانجلو آمريكى للعراق يوم ١٩ مارس ٢٠٠٣ باستخدام أعتى الترسانات العسكرية وأحدثها فسقطت بغداد يوم ٩ ابريل ٢٠٠٣. وبغض النظر عن مدي صمود المقاومة العراقية، فقد كان سقوط بغداد واستكمال غزو العراق متوقعا إن آجلا أو عاجلا، خاصة بعد الاستمرار فى قصف وتدمير العراق وحصاره منذ عام ١٩٩١، وبعد فرض منطقتى حظر الطيران فى الشمال والجنوب عنوة - بدون آن يصدر قرار بذلك من مجلس الامن - وذلك بمعرفة القوات الأمريكية والبريطانية، وبعد أن تاكد الفريق الأول للمفتشين الدوليين "UNSCOM" من تدمير أسلحة الدمار الشامل العراقية.

أما بعد أن سقط قناع الغزو الانجلو أمريكي للعراق - أى ذريعة حيازة أسلحة الدمار الشامل، والتحايل على قرار مجلس الأمن رقم ١٤٤١، وعلى ضوء فشل قوات الاحتلال الأمريكى البريطانى فى العثور على أى من أسلحة الدمار الشامل المزعومة - سواء نووية أو كيماوية أو بيولوجية ، واجهت دولتا الاحتلال عدة تحديات أهمها.

- السعى لإضفاء شرعية دولية على احتلالهما للعراق من خلال توظيف مجلس الأمن لتحقيق ذلك.

- توسيع دائرة التحالف مع دولتى الاحتلال - من خلال التهديد والوعيد أو العصا والجزرة - بضم أكثر عدد من الدول للتحالف، وإغراء تلك الدول بالمساعدات أو دفع نفقات جنودها فى العراق.

- البحث عن ذرائع أو حجج أخرى لاستمرار الاحتلال مثل تحرير العراق من النظام الديكتاتورى وارساء دعائم الديموقراطية واحترام حقوق الإنسان.

- تصاعد عمليات المقاومة العراقية لقوات الاحتلال الأمريكى البريطانى وسقوط القتلى والجرحى بين صفوف تلك القوات وتدمير آلياتها وتصاعد مظاهرات الاحتجاج الشعبى ضد الاحتلال الأجنبى، إضافة إلى حرق آبار ومخازن وخطوط أنابيب النفط العراقى - بعد إطفاء ما سبق حرقه من آبار فى الشمال والجنوب أثناء عمليات الغزو.



سعت دولتا الاحتلال - وخاصة الولايات المتحدة - لتعبئة الجهود الدولية لاضفاء الشرعية على الاحتلال، بأن حثت الدول التى تربطها بها علاقات وثيقة سياسيا واقتصاديا - على المشاركة بوحدات عسكرية فى احكام القبضة الأمريكية البريطانية على العراق، والمساهمة فى تقديم المساعدات الإنسانية والمالية لإعادة البناء فى العراق، وإزاء تردد البعض ورفض البعض الآخر التجاوب مع تلك المساعى فى غياب الشرعية الدولية وانتفاء دور الأمم المتحدة ، آثرت دولتا الاحتلال العودة لمجلس الأمن - مؤيدة من إسبانيا - لاستصدار قرار جديد من المجلس يتعامل مع الواقع الجديد وينهى الحظر ويرفع العقوبات عن العراق بعد سيطرة الاحتلال الأنجلو أمريكى شبه الكامل على الموقف فى العراق. وإزاء تهديد الولايات المتحدة للدول التى سبق أن عارضت غزو العراق، خاصة فرنسا وروسيا وألمانيا ، آثارت تلك الدول التعامل مع الواقع الجديد مع إدخال تعديلات على مشروع القرار المقدم لمجلس الأمن، بالنص على تحميل سلطات الاحتلال المسئولية عن إدارة العراق مؤقتا واحترام سيادة العراق وسلامته الإقليمية واحترام القانون الدولى الإنسانى مع الموافقة على رفع الحظر والعقوبات عن العراق والربط بين ذلك واستئناف برنامج النفط مقابل الغذاء - لاحترام العقود السابق ابرامها خاصة فيما بين الحكومة العراقية السابقة والشركات الفرنسية والروسية.

وهكذا تقدمت الولايات المتحدة وبريطانيا (ومعهما إسبانيا) بمشروع قرار لمجلس الأمن فى مايو ٢٠٠٣ بهدف الحصول على شرعية الاحتلال والحصول على تفويض بإدارة العراق إلى أن يتم انتخاب حكومة وطنية شرعية تمثل الشعب العراقى، وتنسيق تقديم المساعدات الإنسانية وإعادة إعمار العراق.

وقد صدر قرار مجلس الأمن رقم ١٤٨٣ فى ٢٢ مايو ٢٠٠٣ بعد شهرين من بدء غزو العراق ووافقت ١٤ دولة على القرار وتغيبت سوريا عن جلسة التصويت بسبب التشاور مع دمشق ثم أبلغت رئيس المجلس فى اليوم التالى بموافقتها على القرار.

ما هى قواعد اللعب فى ظل القرار ١٤٨٣ ؟

لقد تم التحايل على أهداف ومبادىء الأمم المتحدة التى نص عليها الميثاق من خلال صياغة قرار مجلس الأمن رقم ١٤٨٣ رغم إدخال بعض التعديلات عليه ورفض تعديلات أخرى نتيجة الضغوط التى مارستها دول مثل فرنسا وروسيا وألمانيا والصين والمكسيك، وهكذا نرى تغييراً فى قواعد اللعبة، بالاعتراف بالغزو الأجنبى لدولة عضو فى الأمم المتحدة بدون سند من الميثاق والتدخل فى شئونه الداخلية والسيطرة على موارده ومقدراته انتهاكا لقرار الأمم المتحدة الخاص بالسيادة الدائمة على الموارد الطبيعية لكل دولة ، والخشية كل الخشية من استخدام نموذج العراق الذى تم فرضه كأمر واقع لتطبيقه على دول أخرى مستقبلا بادعاء أنها «دولة مارقة» باختلاق ادعاءات مثيلة أو مغايرة فى حالة عدم تجاوب مثل تلك

الدول مع خطط الدول الكبرى أو تهديد مصالحها.

وجدير بالملاحظة أن الولايات المتحدة وبريطانيا لم يستطيعا تقديم دليل على ادعائهما مساندة العراق لتنظيم القاعدة أو لنظام طالبان فى أفغانستان، ولم يستطيعا إثبات وجود تهديد مباشر للنظام العراقى السابق للولايات المتحدة أو بريطانيا ورغم اعتراف حكومة كوريا الديموقراطية بتطويرها برنامجها النووى لأغراض عسكرية.

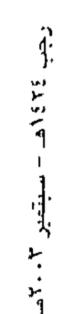
وقد جاء قرار مجلس الأمن رقم ١٤٨٣ فى ديباجة يتكون من ١٨ فقرة استهلالية و٢٧ فقرة عاملة بعضها واقعا جديدا، وتشريعا لأحكام مستحدثة ستفرض نفسها على العلاقات الدولية، واعتبر الإدارة الأمريكية المدنية فى العراق (ومعها البريطانية) «السلطة العليا» والتى على الدول الأخرى والمجلس العراقى الحاكم (الموقت) والأمم المتحدة أن تنفذ رغباتها، وأن من حق «السلطة» أى الإدارة الأمريكية المدنية فى العراق أن تمارس حق الفيتو لكل ما لا يرضى عنه بشأن إدارة العراق سواء من جانب المجلس العراقى الحاكم الذى اختاره بول بريمر يوم ١٣ يوليو ٢٠٠٣ من ٢٥ شخصية عراقية.

دور الأمم المتحدة

وهكذا فانه من واقع صياغة القرار ١٤٨٣ فإن الدور المحورى فى إدارة العراق وتحديد مستقبله ليس للأمم المتحدة وليس للمجلس العراقى الحاكم، وفقا لما كانت تطالب به فرنسا وألمانيا وروسيا - وإنما للسلطة أى للقيادة الإدارية الموحدة والمكونة من الولايات المتحدة وبريطانيا، وأى دور تقوم به الأمم المتحدة - من خلال الممثل الخاص للسكرتير العام فى العراق - يلزم أن يوافق عليه رئيس الإدارة الأمريكية المدنية فى العراق السفير بول بريمر.

أين أسلحة الدمار الشامل؟

كان تبرير غزو العراق ما جاء فى القرار ١٤٤١ لعام ٢٠٠٢ الصادر عن مجلس الأمن بالعثور على أسلحة الدمار الشامل وتدميرها، ورغم إعلان العراق أنه سبق تدمير تلك الأسلحة أثناء ولاية بعثة الأمم المتحدة الأولى المعروفة باسم "unscom" والتى أنهت مهمتها فى ١٩٩٨، ومع اصرار الولايات المتحدة وبريطانيا على استمرار حيازة العراق وتطويره أسلحة الدمار الشامل الثلاث : نووية وكيماوية وبيولوجية، بعد مغادرة فريق التفتيش الدولى عام ١٩٩٨ وادعاء الدولتين تعاقد العراق مع حكومة النيجر على استيراد يورانيوم أو ما يسمى بالكعكة الصفراء لتطوير البرنامج النووى العراقى للأغراض غير السلمية، ونفى العراق لذلك، فقد جاءت اشارة لذلك فى خطاب الرئيس بوش عن حالة الاتحاد الذى ألقاه أمام الكونجرس يوم ٢٨ يناير ٢٠٠٣، إلا أن وزير الخارجية كولين باول يشر إلى ذلك فى بيانه أمام مجلس الأمن يوم ١٥ فبراير ٢٠٠٣ بمناسبة تقديم الأدلة على حيازة العراق وتطويره لأسلحة الدمار الشامل، وإنما أشار إلى وجود أدلة على امتلاك العراق لمعامل متنقلة فى شاحنات قام بعرض صورها، مشيراً إلى استخدامها فى إنتاج الأسلحة البيولوجية والكيماوية، وقد نفى العراق جميع تلك الاتهامات كما نفى العلماء العراقيون الذين تم استجوابهم بمعرفة فرق التفتيش، ثم بعد ذلك من جانب قوات



الاحتلال بعد الغزو - نفى هؤلاء استمرار وجود برامج لإنتاج أو تطوير تلك الأسلحة ، وحول التعاقد مع حكومة النيجر لتوريد يورانيوم للعراق، أوضح د. محمد البرادعي مدير عام الوكالة الدولية للطاقة الذرية بأن العقد المشار إليه ثبت أنه كان مزوراً، وهو ما أكده السفير الأمريكي السابق ولسون الذى سبق ايفاده لافريقيا عام ٢٠٠٢ بمعرفة وكالة المخابرات المركزية للتحقيق فى صحة ما تردد عن استيراد اليورانيوم من أفريقيا - وعاد بتقرير تشكك فيه من صحة الخبر.

ويعد سيطرة قوات الاحتلال الأمريكية البريطانية على العراق وسقوط النظام العراقى السابق رفضت الولايات المتحدة عودة فرق التفتيش الدولية رغم مطالبة العديد من الدول الأعضاء فى مجلس الأمن بذلك خاصة الاتحاد الروسى وفرنسا ، وأعلنت الولايات المتحدة وبريطانيا أنهما بصفتهما سلطة الاحتلال ستتولى البحث عن تلك الأسلحة وتدميرها . وكانت وجهة نظر الدول الأخرى أعضاء مجلس الأمن أنه من الصالح أن تبحث فرق التفتيش الدولية عن تلك الأسلحة حتى تكون لتقاريرها مصداقية، ومع ذلك أذيع أن الولايات المتحدة أوفدت عدداً كبيراً من الخبراء والمتخصصين للعراق للبحث، أذيع أن عددهم وصل إلى ألف - ومنذ ذلك الحين لم يعثروا على أسلحة الدمار الشامل والتى كانت ذريعة غزو العراق.

وهذا ما سبق أن أكده هانز بليكس ومحمد البرادعى فى تقريرهما أمام مجلس الأمن يوم ١٩ مارس ٢٠٠٣ حيث طالبا بمهلة اضافية تصل إلى عدة أسابيع لانهاء مهمتهما .

وجدير بالذكر أن قرار مجلس الأمن رقم ١٤٨٣ أعاد . فى فقرته العاملة الحادية عشر - تأكيد أهمية نزع أسلحة الدمار الشامل فى العراق والقيام فى نهاية المطاف بتأكيد نزع سلاح العراق، وأكد المجلس من جديد على ضرورة أن يلبى العراق التزاماته بشأن نزع السلاح، ودعا المملكة المتحدة والولايات المتحدة إلى ابقاء المجلس على علم بأنشطتهما فى هذا الشأن، واعتزم المجلس العودة إلى مراجعة ولايات لجنة الأمم المتحدة للمراقبة والتحقق والتفتيش (unmovic) والوكالة الدولية للطاقة الذرية ، وهو ما يعكس اصرار السلطة (أى الولايات المتحدة وبريطانيا) على عدم عودة فرق التفتيش الدولية وفقا للولايات التى سبق أن حددها لهما مجلس الأمن - رغم الحاح العديد من الدول الأعضاء فى مجلس الأمن على استكمال مهامها.

وفى ٣٠ مايو ٢٠٠٣ وزع سكرتير عام الأمم المتحدة التقرير ربع السنوى الثالث عشر للرئيس التنفيذى للجنة الأمم المتحدة للرصد والتحقق والتفتيش (unmovic) تنفيذاً لقرار مجلس الأمن رقم ١٢٨٤ لعام ١٩٩٩ الذى أنشأ تلك اللجنة، ويغطى التقرير الفترة من أول مارس حتى آخر مايو ٢٠٠٣ ، مع ملاحظة أن عمل المفتشين الدوليين قد انتهى بمغادرتهم العراق - بناء على تعليمات السكرتير العام - يوم ١٧ مارس ٢٠٠٣، أى قبل غزو العرق بيومين، وأهم ما جاء فى

التقرير الآتى :

١ - لم يعثر المفتشون الدوليون على دليل على استمرار أو استئناف برامج أسلحة الدمار الشامل فى العراق.

٢ - كشفت عمليات التفتيش عن وجود عدد صغير من الرؤوس الحربية الكيمائية الفارغة والتى تم إنتاجها قبل عام ١٩٩٠، وتم تدمير تلك الرؤوس الفارغة.

٣ - بعد أن انتهت اللجنة إلى أن منظومة صاروخ الصمود ٢ تتجاوز حدود المدى المسموح به من قبل مجلس الأمن، قامت اللجنة بتدمير سبعين صاروخا والمعدات المرتبطة بها تحت اشراف اللجنة قبل تعليق عملياتها (فى ١٧ مارس ٢٠٠٣).

٤ - أعربت اللجنة عن استعدادها لاستئناف أنشطة التفتيش فى العراق، إلى أن يعاود مجلس الأمن النظر فى ولاية اللجنة وفقا للفقرة العاملة ١١ من قرار مجلس الأمن رقم ١٤٨٣.

هذا وقد أنهى هانز بليكس مهمته كرئيس تنفيذى للجنة انموفيك مع انتهاء عقده يوم ٣٠ يونيو ٢٠٠٣ وتفرغ لكتابة مذكراته، وتجدر الاشارة إلى أن بليكس صرح فى نهاية مهمته بأنه لو كان قد سمح له باستكمال مهمته لاقتضى الأمر البحث عن ذريعة أخرى لغزو العراق.

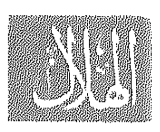
وقد اجتمع مجلس الأمن يوم ٢٢ يوليو ٢٠٠٣ للنظر فى تقرير الممثل الخاص للأمم المتحدة فى العراق، ولم تعرض الولايات المتحدة أو بريطانيا أو السكرتير العام عودة المفتشين الدوليين لاستئناف مهامهم، كما لم يتم الإعلان عن العثور عن أى من أسلحة الدمار الشامل المزعومة.

إعادة إعمار العراق أو ارساء دعائم الهيمنة على موارده الطبيعية

نص القرار ١٤٨٣ فى فقرته العاملة ١٢ على انشاء صندوق «تنمية العراق»، باشراف البنك المركزى للعراق، ويقوم بمراجعة حساباته محاسبون مستقلون يقر أسمائهم المجلس الدولى للمشورة والمراقبة للصندوق، والذى يشارك فى عضويته كل من ممثلى السكرتير العام وصندوق النقد الدولى والبنك الدولى والصندوق العربى للانماء الاقتصادى والاجتماعى، وأن يتم الصرف من أموال الصندوق بتوجيه من «السلطة» وبالتشاور مع الإدارة العراقية المؤقتة.

وأوجه الصرف من أموال الصندوق حددها القرار (الفقرة العاملة ١٤) بأنها لتلبية الاحتياجات الإنسانية للشعب العراقى، وإعادة بناء الاقتصاد واصلاح الهياكل الأساسية للعراق ومواصلة نزع سلاح العراق وتغطية تكاليف الإدارة العراقية المدنية- بالاضافة إلى الأغراض الأخرى التى تعود بالفائدة على شعب العراق.

وقد نص القرار على تفويض السكرتير العام فى إدارة برنامج «النفط مقابل الغذاء» بموجب قرارى مجلس الأمن رقمى ١٤٧٢ بتاريخ ٢٨ مارس ٢٠٠٣ و١٤٧٦ بتاريخ ٢٤ ابريل ٢٠٠٣ لمدة ستة أشهر (تنتهى فى ٢١ نوفمبر ٢٠٠٣) وانهاء هذا البرنامج حينئذ ونقل المسئولية عن إدارة أى نشاط متبق فى إطار البرنامج إلى «السلطة». ويسمح هذا البرنامج باستخدام حصيلة مبيعات النفط العراقى بالوفاء بالاحتياجات الغذائية والإنسانية لشعب العراق والتى يعتمد



عليها ٦٠٪ من السكان، وقد سمح هذا المد – الذى لم يكن وارداً ضمن المشروع الأول للقرار .

وقد تم إضافته للقرار بضغوط العقود من كل من فرنسا وروسيا – بأن يحدد السكرتير العام أولويات تنفيذ العقود التى سبق توقيعها بتصدير ما قيمته بلايين الدولارات للوفاء بالاحتياجات الإنسانية للشعب العراقى وتحويل ما يتبقى من أنشطة للسلطة ، بما يسمح بتنفيذ العقود المبرمة مع الشركات الفرنسية والروسية – وذلك لضمان عدم اعتراض فرنسا وروسيا على القرار بعد أن كانت ترفض رفع العقوبات عن العقوبات فى ظل الاحتلال الأجنبى، وقد طلب القرار من السكرتير العام أن يحول إلى «صندوق التنمية» مليار دولار أمريكى من الأرصدة التى لم يتم الارتباط بها، والمودعة فى الحسابات المنشأة وفقا لقرار مجلس الأمن رقم ٩٨٦ لعام ١٩٩٥ والخاص ببرنامج «النفط مقابل الغذاء»، وأن يعيد الأموال التى تخص العراق والتى قدمتها الدول الأعضاء للسكرتير العام – وفقا للقرار ٧٧٨ (١٩٩٢). هذا بالإضافة لتحويل السكرتير العام للصندوق جميع الأرصدة الفائضة فى حسابات الضمان المنشأة وفقا للقرار ٩٨٦ المشار إليه، بعد خصم مصاريف الأمم المتحدة ذات الصلة بالشحن تنفيذاً لعقود مستلزمات الغذاء والدواء للشعب العراقى والتى تم تحويلها من حصيلة مبيعات النفط العراقى.

كما أنهى القرار ١٤٨٣ فوريا مهام السكرتير العام المرتبطة بمراقبة ورصد تصدير النفط العراقى ومنتجاته نظراً لقيام «السلطة» أى سلطة الاحتلال بذلك بدون حسيب أو رقيب.

وقد نص القرار على ايداع جميع العائدات المترتبة على مبيعات النفط العراقى – ابتداء من تاريخ صدور القرار أى ٢٢ مايو ٢٠٠٣ – فى «صندوق التنمية للعراق»، إلى أن يتم تشكيل حكومة عراقية تمثل الشعب ومعترفا بها ، وهكذا سوف تستمر سيطرة «السلطة» أى سلطات الاحتلال الأمريكية البريطانية على ثروات العراق لسنوات قادمة، إلى أن يتم صياغة دستور جديد للعراق واجراء انتخابات حرة تنبثق عنها حكومة وطنية تحت اشراف سلطات الاحتلال وبرضائها ، ومع افتراض أن الحكومة الجديدة التى سوف تتأسس نتيجة انتخابات حرة سوف تفرز نظاماً بعثياً أو إسلاميا (شبيها بالنظام الإيرانى) فمن غير المتوقع فى هذه الحالة أن توافق سلطتى الاحتلال الأمريكى البريطانى انهاء وصايتهما على القرار كما نص القرار ١٤٨٣ على ايداع نسبة ٥٪ من عائدات مبيعات النفط العراقى فى صندوق التعويضات عن غزو العراق للكويت، وذلك لضمان سداد التعويضات التى يقررها مجلس إدارة الصندوق (أى صندوق التعويضات) .

وهكذا بالتوازى تتم عملية تلبية الاحتياجات الإنسانية والضرورية للشعب العراقى واصلاح المرافق وإعادة الخدمات واعمار وإعادة بناء العراق فى ظل الوصاية الجديدة.

وفى نفس الاتجاه طالب قرار مجلس

الأمن رقم ١٤٨٣ المؤسسات المالية الدولية بمساعدة شعب العراق فى إعادة بناء اقتصاده وتنميته وتيسير تقديم المساعدات اللازمة من جانب الأطراف المانحة، مع التذكير بأن المدير التنفيذى لصندوق النقد الدولى ورئيس البنك الدولى يشاركان فى عضوية «المجلس الدولى للمشورة والمراقبة لصندوق التنمية العراقى».

وتجدر الإشارة أيضا إلى أن القرار رحب باستعداد الدائنين - بما فى ذلك نادى باريس - الذى يشارك فى اجتماعاته البنك الدولى وصندوق النقد الدولى - بالعمل على حل مشاكل الديون السيادية العراقية.

وسعيا إلى تعبئة الأرصدة لتغذية «صندوق تنمية العراق» نص قرار المجلس رقم ١٤٨٣ فى فقرته العاملة ٢٣ على أن تقوم جميع الدول الأعضاء التى توجد بها أرصدة عراقية أو موارد اقتصادية تخص الحكومة العراقية السابقة أو الهيئات الحكومية أو رموز النظام العراقى السابق - بتجميد تلك الأرصدة والموارد ونقلها إلى «صندوق التنمية للعراق».

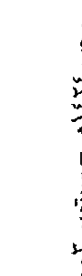
وجدير بالذكر أن المكسيك كانت الدولة الوحيدة التى أبلغت رئيس مجلس الأمن تفسيرها للقرار بأنه لا ينطوى على التزام يستدعى تغيير النظام القانونى المكسيكى على «... عدم جواز حرمان أى شخص من الحياة أو الحرية أو من ممتلكاته أو حيازاته أو حقوقه إلا عن طريق اجراءات قانونية أمام محاكم قائمة سلفا وتراعى فيها «الجوانب الاجرائية الأساسية وفقا لقوانين قائمة مسبقاً»، وأنه.. لا يخضع أى شخص للتعدى على شخصه أو على أسرته أو مكان إقامته أو على مستنداته أو حيازاته إلا بناء على إذن خطى صادر من سلطة مختصة يبين ويثبت الأسس القانونية للاجراء». هذا الموقف المكسيكى جدير بالتسجيل والتقدير ونموذج جدير بالاتباع بما يتفق مع أحكام المادة الثانية من ميثاق الأمم المتحدة التى نصت على عدد من المبادىء منها عدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول، وهو المبدأ الذى طالما انتهكته عدة قرارات صادرة عن مجلس الأمن ومنها على سبيل المثال القراران ١٤٤١ و١٤٨٣.

★ ★ ★

أما بعد فرض نظام جديد للوصاية على العراق والسعى لاقحام الأمم المتحدة كغطاء دولى لاضفاء الشرعية على الاحتلال الأجنبى هناك، فإن لنا بعض الملاحظات وأهمها:

١ - إزاء رفض عدد من الدول الصديقة والحليفة «وعددها تسعة عشر دولة» الاستجابة لطلبات دولتى الاحتلال بإرسال قوات للعراق للمشاركة فى تحمل المسئولية فى احكام السيطرة على العراق أسمتها الولايات المتحدة تحالف الدول الراغبة فى ذلك "Coalition of the Willing" وأسماها الكاتب الأمريكى توماس فريدمان فى مقاله فى صحيفة نيويورك تايمز «تحالف الدول تحت اغراء الحصول على مساعدات أو تعويضات "Coalition of the Billing".

وقد كان ود بعض تلك الدول على الولايات المتحدة بأنه لا تتمكنها ارسال قوات للخارج الا بعد موافقة برلماناتها الوطنية، وتذرع البعض الآخر بأنه لا يمكنها ارسال قوات للعراق نظراً لأنه لا توجد قوات تعمل تحت علم الأمم المتحدة هناك.



لذلك أعلن كولن باول وزير الخارجية الأمريكي بعد زيارة تونى بلير لواشنطن ومباحثاته مع الرئيس بوش فى أواخر يوليو ٢٠٠٣ بأنه يجرى دراسة امكانية تقديم مشروع قرار جديد لمجلس الأمن لاعتماد تشكيل بعثة من قوات حفظ السلام للعراق لتحل محل بعثة حفظ السلام بين العراق والكويت "Unikom" والتى تقرر مد العمل بها حتى أكتوبر ٢٠٠٣.

٢ – ويرجع الباعث الدافع لتفكير الولايات المتحدة فى العودة من جديد لمجلس الأمن لاستصدار قرار ثالث – بعد قرارى المجلس ١٤٤١ فى نوفمبر ٢٠٠٢ و١٤٨٣ فى ٢٢ مايو ٢٠٠٣ إلى السعى لاضفاء الشرعية على الاحتلال الانجلو أمريكى للعراق لتحتمى بعلم الأمم المتحدة من ناحية ولتشجيع الدول التى اعتذرت عن المشاركة بقواتها فى عملية الاحتلال لتغيير مواقفها.

٣ – ويسمح الوجود الأمريكى البريطانى فى العراق بتحقيق مآرب أخرى ومنها :

أ – تخفيض الضغوط التى تتعرض لها قوات الاحتلال الانجلو أمريكى من هجمات المقاومة العراقية التى يذهب ضحيتها المزيد من القتلى والجرحى يوميا واستمرار ذلك رغم اغتيال القوات الأمريكية لنجلى الرئيس السابق صدام حسين ، عدى وقصى ، اعتقاداً بأنهما يقودان المقاومة.

ب – استخدام علم الأمم المتحدة كضمان وحصانة ضد المقاومة العراقية ، بحيث إذا استمرت عمليات المقاومة بعد ذلك، فإن الولايات المتحدة وبريطانيا يمكنهما كسب تعاطف المجتمع الدولى والرأى العام تحت غطاء الأمم المتحدة .

جـ – تمكين قيادة قوات الاحتلال من الترخيص بعودة المزيد من القوات التى تم تعبئتها لغزو العراق منذ بداية عام ٢٠٠٣ ، وذلك بعد أن ساد شعور من التذمر فيما بين صفوف تلك القوات ، إزاء استمرار عمليات المقاومة العراقية وسقوط القتلى والجرحى فيما بين صفوفهم يوميا.

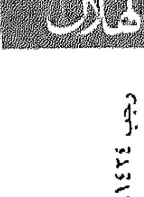
٤ – أدت هجمات المقاومة العراقية إلى تأخير تأخير الاحتلال باستعادة تصدير النفط العراقى للأسواق الدولية بما يسمح بزيادة الاحتياطى النفطى الذى تناقص إلى أدنى الحدود نتيجة للشتاء القارس فى بداية العام ثم نتيجة غزو العراق وتوقف إنتاج وتصدير البترول العراقى الذى تعرضت حقوله فى الشمال والجنوب للحرائق، وهكذا تأخرت خطط إغراق الأسواق الدولية بمزيد من المعروض من النفط الخام بما يساهم فى خفض أسعاره بعد أن تراوح سعر برميل النفط الخام فى الشهور الأخيرة بين ٢٨ و٣٠ دولارا، ومن المتوقع أن تنخفض أسعار النفط الخام فى الأسواق الدولية إلى أقل من ١٠ دولارات للبرميل بعد إصلاح وتجديد وتحديث معدات الاستخراج والإنتاج، ويحد من ترجمة تلك التوقعات إلى واقع ملموس قيام وزراء البترول لمنظمة الدول المصدرة للبترول (أوبك) بخفض أسقف الإنتاج، وهو ما لم يحدث حتى نهاية يوليو ٢٠٠٣ .

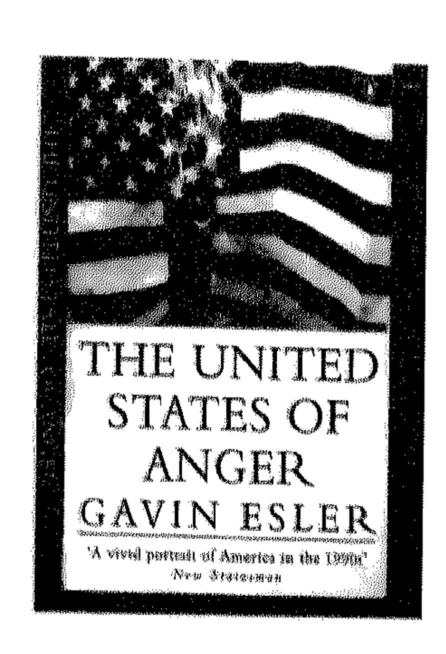
٥ – سوف يترتب على ذلك خفض

تكاليف الإنتاج فى الدول الصناعية وزيادة القدرات التنافسية للشركات عبر القومية الأمر الذى سوف يساعد على استفحال العولمة ومزيد من الهيمنة من جانب الدول المتقدمة والتهميش للدول النامية فى النظام الاقتصادى والتجارى الدولى .

٦ - وعلى ضوء ما تقدم من حقنا ومن حق شعوب العالم - وخاصة شعوب العالم النامى - طرح السؤال الآتى: ما هى قواعد اللعبة ؟ ما هى قواعد اللعبة بعد اهدار مبادىء الأمم المتحدة التى نص عليها الميثاق وقواعد القانون الدولى ، وقد نص الميثاق فى ديباجته ومختلف مواده على انقاذ شعوب العالم من ويلات الحروب وعدم استخدام القوات المسلحة إلا فى حالة الدفاع الشرعى - الفردى والجماعى - فى حالة اعتداء دولة على أراضى دولة أخرى، وعدم استخدام القوة فى العلاقات الدولية، وتسوية المنازعات بالطرق السلمية والحفاظ على السلام والأمن الدوليين ، وعدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول والتعاون الدولى فى الشئون الإنسانية وتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية، هل تطبق تلك الأحكام فقط على الدول الصغيرة والفقيرة والمتوسطة، أما الدول الكبرى وبصفة خاصة الدول ذات المقاعد الدائمة فى مجلس الأمن فهى بمنأى عن المساءلة عن مدى التزامها بتلك الأحكام نظراً لتمتعها بحق الفيتو ، وبالتالى ترفض الالتزام بقواعد الميثاق والقانون الدولى إذا لم تخدم مصالحها وبالتالى تعمد إلى إهدارها ، بل إنه بعد انهيار المعسكر الشرقى وتفكك الاتحاد السوفييتى لم يعد هناك توازن دولى من شأنه احترام تلك القواعد فى ظل القطب الأوحد الذى لا يطبق من تلك القواعد إلا إذا اتفقت مع مصالحه وأهدافه.

وبالنسبة لمنطقة الشرق الأوسط على الخصوص، إلى متى ستعتبر الولايات المتحدة وإسرائيل فوق القانون الدولى، فالمستثنى لا ينطبق على إسرائيل بحيث يجب أن يلتزم الجميع بأحكام الميثاق والقانون الدولى فيما عدا إسرائيل، وتستثنى إسرائيل فى حالة عدوانها واهدارها للحقوق الوطنية للشعب الفلسطينى وفى حالة ارتكابها لجرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية والابادة وازاء امتلاكها لأسلحة الدمار الشامل وخاصة السلاح النووى وهو أكثر الأسلحة فتكا ودماراً وفى حالة تطويرها لصواريخ تحمل الرؤوس النووية يمكن أن يصل مداها إلى جميع الدول العربية والإسلامية بل وتهدد السيادة والسلامة الإقليمية لدول آسيا وأفريقيا وأوروبا. وإلى متى سوف يستمر هذا الوضع، ولماذا لم يتم الاستجابة لمبادرات مصر بإخلاء منطقة الشرق الأوسط من السلاح النووى كخطوة أولى نحو انشاء منطقة خالية من جميع أسلحة الدمار الشامل بما يحقق السلم والأمن للجميع، وتعيش جميع دول المنطقة ضمن حدود آمنة ومعترف بها بما فى ذلك دولتى فلسطين وإسرائيل، وهل وضعت خريطة الطريق لكى يلتزم بها طرف واحد وهو الفلسطينيون أما إسرائيل فتبقى طليقة اليدين تصنع ما تريد ، فينطبق عليها كما ينطبق على الولايات المتحدة - المستثنى بإلا !؟. ■

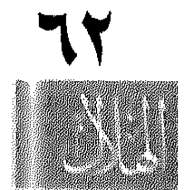




الولايات المتحدة الغاضبة!

بقلم
محمد يوسف عدس

فى يوم شديد البرودة من أيام شهر يناير سنة ١٩٩٧م وقف الرئيس بل كلينتون على السلم المؤدى إلى مدخل مبنى الكونجرس فى واشنطن يلقى خطابه الافتتاحى لولايته الثانية ، فتحدث طويلا عن الانجازات الكبرى التى حققتها الولايات المتحدة فى القرن العشرين، ثم انتقل بعد ذلك مباشرة إلى قضية شائكة رأى أنها تشكل الهاجس الأكبر للأمريكيين عندما يفكرون فى مستقبل بلادهم وهى مقبلة على قرن جديد.



من بين ما ذكره كلينتون من إنجازات بلاده: أنها أصبحت أقوى دولة صناعية فى العالم، وأنها استطاعت أن تنقذ العالم من الاستبداد فى حربين عالميتين، وفي حرب باردة طال أمدها إلى خمسين عاما، وأنها طالما مدت يد المساعدة إلى ملايين البشر الذين يتوقون إلى نعمة الحرية، وأنها أقامت أعظم المؤسسات التعليمية التى لا تضارع وفتحت المدارس العامة لجميع المواطنين ، وفصلت الذرة وغزت الفضاء واخترعت الكمبيوتر والميكروتشيب، وصنعت ثورة فى الحقوق المدنية للأقليات، ووسعت دائرة المواطنة ، وأتاحت الفرصة والكرامة للنساء.

وبعد أن فرغ من حديث الإنجازات قال كلينتون: «اليوم وللمرة الثالثة يوشك أن يطل علينا قرن جديد وأمامنا فرصة للاختيار»، فما هو هذا الاختيار الذى وضعه كلينتون أمام شعبه؟ يقول كلينتون وهو يتكىء على كل كلمة ينطقها: «هل سنكون أمة واحدة بمصير واحد مشترك

أم لا؟

هل سيلتئم شملنا ونتوحد أم نتمزق ونتفرق؟!

مثل هذا الكلام من رئيس اختاره الشعب لولاية ثانية هى الأخيرة بحكم الدستور - إذا وقع على أذن أجنبية لابد أن يثير كثيرا من الاستغراب..! بعد ذكر قائمة طويلة من الإنجازات الباهرة يحرص رئيس الدولة على أن يكشف عن مخاوفه من احتمال تفكك أمته؟ لابد أنه أدرك أن حالة عامة تسود المزاج الأمريكى تنذر بخطر عظيم، ربما كانت تفشى مشاعر الغضب العارم والقلق وعدم المبالاة ماثلة أمام عقله وهو يتحدث عن مخاوفه.. لعله قد أدرك أن هذه أعراض ثلاثة لمرض التفكك الأمريكى الذى ينخر فى المجتمع. قد يبدو الجسم فى صحة وقوة خصوصا فى نظر العالم الخارجى.. ولكن مرض السرطان ينهش فيه تحت الجلد دون أن يراه أحد.

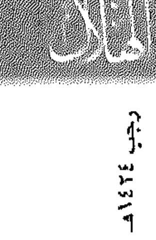
فى تسعينات القرن العشرين وفى عهد الرئيس كلينتون حققت الإدارة الأمريكية ازدهارا اقتصاديا ملموساً وتغلبت على العجز المزمن فى الميزانية .. ولكن توجد فجوة هائلة بين الصورة الزاهية التى تعلنها الحكومة وتروج لها الصحافة والإعلام وبين ما يشعر به الكثرة الغالبة من المواطنين العاديين الذين لا يجدون أثرا واضحا فى حياتهم اليومية لهذا الازدهار الاقتصادى، لذلك يزداد غضبهم.

التناقض المثير

صحيح أن الولايات المتحدة هى أنجح دولة فى العالم وأكثرها تقدما وازدهارا وأكثرها تأثيرا فى شعوب العالم: فالأفكار الأمريكية والسلع الأمريكية تنتشر فى كل بقعة من الأرض ولا ينجو من تأثيرها إنسان يدب على قدميه فى هذا العالم، فإذا لبست «الجينز» الأزرق أو استمعت إلى موسيقى «الروك أندرول» أو طرت فى طائرة «بوينج» أو شاهدت فيلما من أفلام هوليوود أو استخدمت القمر الصناعى فى مكالماتك التليفونية أو استخدمت برامج ميكروسوفت على جهاز الكمبيوتر الشخصى.. إذن فإن حياتك قد تأثرت بشكل أو آخر بالمخترعات الأمريكية العظيمة.

لقد دخلت الكوكاكولا والهامبرجر وعشرات أخرى من المنتجات الأمريكية فى ثقافة البشر وأصبحت روتينا يوميا لمئات الملايين من الناس فى كل قارة على وجه هذه البسيطة .. لقد أصبحت أمريكا هى قمة القمم وبلغت نهاية التاريخ كما يقول فوكى ياما.. ومن ثم نتوقع أن نشاهد الرقص فى شوارع المدن الأمريكية .. وأن نرى ملايين الأمريكيين يسيرون مبتهجين فى مهرجانات النصر التى لا تنتهى! ولكننا لا نرى شيئا من هذا أمامنا .. بل نرى استياء وتذمرا وغضبا مقنطا ، فإذا دققنا النظر أكثر نرى صراعا مذهلا يوشك أن يفجر وحدة هذه الأمة إلى أشلاء.

إننا أمام تناقض مذهل يجعلنا نتساءل: لماذا فى قلب هذا النجاح الكاسح نجد كثرة غالبة من الأمريكيين العاديين الكادحين قلقين على مستقبلهم .. يؤرقهم تفكك مجتمعهم ومظاهر التدهور الاجتماعى والثقافى والعسكرى؟



ولماذا يجرف هذه الكثرة السخط على نظامهم السياسى الذى يرون فيه أزمة حقيقية وأنه على حافة الانهيار؟ ولماذا تجد بلاد نفسها مع نهاية القرن العشرين وهى لا تشكو من عدو حقيقى تخشاه.. قوة عظمى ولكن بالغة الاضطراب؟

أمريكا التى غزت العالم واخترقت أسرار الكواكب عاجزة عن تحقيق أى نوع من السلام والأمن لشعبها!!

الكتاب والمؤلف

الإجابة عن هذا السؤال ليست سهلة ولكن الكتاب الذى نحن بصدده يحاول أن يقدم نوعا من الإجابة أراها منطقية جدا وتستند إلى حقائق ومشاهدات وتحليل عميق للأحداث وخبرة صحفية لرجل عاش فى الولايات المتحدة عشرين عاما مراسلا صحفيا يراقب ويشاهد وينغمس فى الحياة اليومية مع مئات الأمريكيين العاديين والمثقفين والسياسيين والقادة والكتاب، من مختلف التيارات وشتى الاتجاهات.

عنوان الكتاب هو : The United States of Anger The People and the American Dream وترجمتى للعنوان : الولايات المتحدة الغاضبة: الشعب والحلم الأمريكى. أما المؤلف فهو الصحفى الإنجليزى جافين إيسلر، يصفه أحد المعلقين بأنه يتمتع بقدرة ملحوظة على أن يخترق جلد الأمريكيين ليفهم آمالهم ومخاوفهم.

أول ما يطالعنا به الكتاب أنه يبين لنا بتفصيل شديد كيف أن قواعد الحياة الأمريكية قد بلغت فى تسعينات القرن العشرين مبلغا من التحولات انقلبت فيه الأسس التى اعتبرها الأمريكيون أمرا مستقرا ومفروغا منه خلال الخمسين سنة الماضية.

من أبرز مظاهر هذه التغييرات أن الكثرة الغالبة من المواطنين الأمريكيين قد أصبحوا يشيرون بأصابع الاتهام إلى الحكومة الأمريكية بصفة روتينية بأنها سبب كل علة تحل بهم ابتداء من التدهور الاجتماعى والأخلاقى والثقافى.. إلى التدهور السياسى.

يفحص الكتاب تلك التغييرات التى تجتاح اليوم أمريكا بسرعة مخيفة، عشرات الملايين من المواطنين الذين هم أصلا محبون لبلادهم ومطيعون للقانون - متقززين غاضبين خائفين لأن الحكومة لا تفهم أو أنها لا تعنى بهم وأنها تخون تقاليد بلادهم العريقة.. إنهم خائفون لأن دولتهم التى هى أكثر الدول نجاحا فى التاريخ العالمى تقف على حافة الإخفاق الدرامى .

الخوف من المستقبل

عندما يفكر ملايين الأمريكيين فى المستقبل يشعرون أن أفضل أيام بلادهم قد ولت بغير رجعة، وأن نسيج الحياة اليومية قد أصبح خشنا، وأن الانقسامات الطبقية والعرقية تزداد سوءا .. ولب القلق الجديد يرجع إلى أن القواعد التى كانت تحكم ما يعتقد الأمريكيون أنه الأمر السوىّ قد تغيرت تغيرا مخيفا. عاش الأمريكيون فى ظل عقيدتين راسختين

كانتا سر انبثاق معجزة الطبقة الوسطى خلال الخمسين سنة الماضية هما: إذا اجتهدت فى أمريكا يأتيك حظك وافرا، وأن كل جيل سوف يكون أفضل من جيل آبائه.. ارتقت هاتان العقيدتان إلى درجة العبادة.. ولكنهما انهارتا تماما منذ نهاية الحرب الباردة.

خلال تسعينات القرن الماضى تقلص الأمن الوظيفى فى كل مكان بين أبناء الطبقة المتوسطة وكان أثره أشد سوءا خصوصا فى بلد لم يعتد النظام التقليدى الذى كان سائدا فى أوربا، وأقصد الضمان الاجتماعى والرعاية الصحية المجانية. والفرق هو أنك إذا فقدت وظيفتك فى أمريكا فمعناه أنك وأسرتك قد فقدتم غطاء الرعاية الصحية وأصبحتم معرضين لتدهور مستوى المعيشة بل ربما فقدتم المأوى، لأنك غير قادر على تسديد أقساط مديونية البيت والسيارة وغير ذلك من تجهيزات منزلية نظرا لانقطاع المرتب.

فى سنة ١٩٩٦ - وكانت فترة الاقتصاد المزدهر - سجلت الولايات المتحدة أكثر من مليون حالة إفلاس لأول مرة فى تاريخها.. فمن الذى استفاد إذن من هذا الازدهار الاقتصادى؟ إنها طبقة الأغنياء الذين ازدادوا غنى وتكديسا للثروة بينما تتراجع الأغلبية إلى مزيد من الفقر .. الهوة تتسع بين الفقراء والأغنياء الذين لا يفهمون سر القلق الذى أصبح يسود الطبقة المتوسطة بل لا يبالون به.

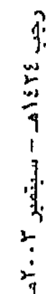
الاستقطاب والعنصرية

أكثر الأصوات غضبا هى أصوات أولئك الذين يشعرون أن المجتمع الأمريكى فى تدهور عميق ومستمر.. خصوصا أولئك المبشرين بالأصولية الجديدة والمتنبئين والنبوئيين من اليمين المتطرف.. إنهم يعتقدون أن نهاية الزمن قد أصبحت وشيكة وأن عودة المسيح إلى الأرض واقعة فى غضون هذا الجيل.. وأنهم مكلفون من الرب بإصلاح العالم والقضاء على الموبقات لا بالقلب واللسان ومحطات الإذاعة والتليفزيون فقط ولكن باليد والرصاص والقنبلة.. وهكذا استعرت الحرب الثقافية فى التسعينات بين متطرفين لاهوتيين ومتطرفين علمانيين وتعددت حوادث العنف المادى الذى بلغ ذروته فى تفجيرات أوكلاهوما.

التوتر بين السود والبيض قصة قديمة متجددة لاتزال قابلة للتفجر، وإلى جانب هذا ظهر خطر جديد، حيث يشعر الأمريكيون بأنهم يغرقون فى مستنقعات المهاجرين المتدفقين من أمريكا اللاتينية فى موجات هى أكبرها فى التاريخ الأمريكى ، يزاحمونهم فى الوظائف الدنيا ويعزلون أنفسهم فى مجتمعاتهم الخاصة رافضين الانخراط فى تيار الحياة الثقافية الأمريكية، مما أشعل الغضب بين الأمريكيين السود والبيض على السواء .

وقد أدرك الرئيس السابق بل كلينتون خطر تزايد التيار العنصرى الغاضب فأشار إليه فى خطابه الذى أشرنا إليه سابقا.. قال:

«إن الانقسام العرقى كان دائما لعنة أمريكية مستمرة.. فالتعصب والازدراء المتسربلين بعقائد دينية أو سياسية هما الآفة التى دمرتنا فى الماضى ومازالت هى



ابتلاؤنا إلى اليوم.. إنها لاتزال تغذى التعصب والإرهاب وتؤكد الهواجس التى أعاقت حياة الكارهين والمكروهين على السواء.. وإننا لا يمكن ولا يصح أن نستسلم لهذه الدوافع السوداء الكامنة فى أعماق النفوس والمنتشرة فى كل مكان».

يعلق جافين إيسلر على هذا قائلا: التأكيد على هذه الدوافع السوداء الكامنة متصل بالتعبير عن الخوف من تدهور أخلاقى مزمن ومن تفكك الأسرة الأمريكية وارتفاع نسبة المواليد غير الشرعيين ومن جرائم العنف والإرهاب المتصاعدة .. ثم تلك المخاوف المتصلة بالصدام العرقى وهى أكثرها استعصاء على العلاج.

حالة الانفكاك

هذا عنوان دراسة قام بها معهد جالوب تحت إشراف جامعة فرجينيا سنة ١٩٩٦، أريد بهذا العنوان أن يكون مناقضا لخطاب الرئاسة الأمريكية السنوى «حالة الاتحاد».

وعادة ما يتناول المؤلف قياسات الرأى العام بشىء من الحذر ولكنه يقول: «إن ما يثير الفزع حقا هو تواتر وثبات بعض نتائج هذه القياسات واتفاقها مع دراسات أكاديمية أخرى كثيرة خصوصا ما يتعلق بتدهور ثقة الشعب الأمريكى المستمر بحكومته خلال الأربعين سنة الأخيرة.

يتضح لنا من هذه الدراسة أن الغالبية من الأمريكيين يعبرون عن قلق شديد مصحوب بسخط على أوضاع مجتمعهم المتردية، ويصف ٢١٪ من الناس أنفسهم بأنهم غاضبون أو ثائرون أو مستاءون من النظام، ويعتقد واحد فقط من كل عشرة أشخاص بأن الولايات المتحدة تتحسن، بينما يعتقد ٥٠٪ أنها فى حقيقى، ويرى واحد من كل خمسة أشخاص أنه تدهور شديد جداً.

فى القرن التاسع عشر كان «أليكس دى توكفيل» قادرا على أن يقول وهو مطمئن «إن أمريكا عظيمة لأنها خيرة» ولكن تغير كل شىء فى تسعينات القرن العشرين وأصبح ملايين الأمريكيين يجأرون بالشكوى لأنهم أقل ثقة بالطبيعة الإنسانية.. أقل ثقة بعضهم فى بعض وأقل ثقة فى حكومتهم.. وفى هذا يقول سناتور جورج ميتشل وهو مراقب ذكى لتطور الحياة الأمريكية: «إن عدم الثقة يخترق مجتمعنا اختراقا.. فثقة المجتمع فى مؤسساته وحتى بين الأصدقاء والجيران بل وبين أفراد الأسرة الواحدة - فى تدهور مستمر».

موت ثقافة البطل

يتناول المؤلف فى فصول كتابه مظاهر التدهور فى الحياة الأمريكية ويكشف لنا من خلال ذلك عن الآثار المرضية التى تدل على انهيار القيم والمبادىء التقليدية التى قام عليها بناء المجتمع الأمريكى.. نحاول إيجازها فيما يلى:

ثقافة البطل الأمريكى تتوارى لتحل مكانها ثقافة الضحايا.. كان البطل الأمريكى فى القرن السابع عشر هو المغامر قوى العزيمة.. وفى القرن الثامن

عشر كان هو الوطنى الثائر ضد الاحتلال البريطانى.. وفى القرن التاسع عشر كان هو راعى البقر الخشن الشجاع، جسدته هوليوود فى شخصية «جون وين».. أما فى نهاية القرن العشرين فهم المحامون والمعالجون النفسانيون.. لقد باع «جون وين» سلاحه وحصانه وهو الآن يرقد مستسلما على أريكة الطبيب النفسى يذرف الدموع.

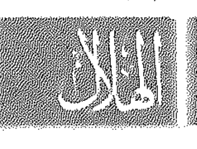
ذهبت ثقافة الأبطال وجاءت ثقافة الضحايا - أفرادا وجماعات - يشعرون بالظلم الحقيقى أو الموهوم .. وللضحايا أنين يسمع فى كل مكان ولهم شكاوى يضعونها أمام الأبطال الجدد، وهم المحامون الذين يدافعون عن الضحايا، ولزيادة الطلب عليهم طفرت أعدادهم طفرة هائلة: من ٢٥٠ ألف محام فى السبعينات إلى ٨٠٠ ألف سنة ١٩٩١.. إلى مليون محام سنة ٢٠٠٠، كل صاحب مهنة يخشى من وقوع أخطاء فى عمله ومن شكاوى العملاء فيحتاط بتوكيل محام للدفاع عنه أمام المحاكم ويخصص لهذا قدرا كبيرا من دخله .. حتى الرئيس بل كلينتون لم ينج من هذه الآفة مع أنه هو نفسه محام .. وقد كان محاميه فى قضايا فضائحه الجنسية يتقاضى ٤٧٥ دولارا فى الساعة الواحدة.

لهذا يكره الأمريكيون واشنطن

وبسبب انعدام الثقة أيضا فقد الأمريكيون اهتمامهم بالشئون العامة وشاعت روح اللامبالاة والنفور من صناديق الانتخابات، كل ذلك لانعدام الثقة فى السياسيين واليأس من إصلاح النظام السياسى .. والخوف من الحكومة.

يقول المؤلف: «لقد ذهب الاتحاد السوفييتى وذهب معه الخوف الأحمر Red scare وحل محله ما يسمى بالخوف الفيدرالى Fed scare .. وتلك بانوراما أصبحت شائعة ضد الحكومة الفيدرالية .. ليس مصدرها فقط الجناح اليمينى المتطرف أو الميليشيات المعادية للحكومة ولكن أيضا الأمريكيون العاديون.. وهم ليسوا من الفقراء ولا من الجهال ولا من الأقليات العرقية إنما من البيض المتعلمين تعليما جيدا المنتمين إلى الطبقة المتوسطة. هؤلاء الأمريكيون البيض الغاضبون يعتقدون أن الحكومة قد فقدت السيطرة.. وأن جماعات الضغط (اللوبيات) وبعض فئات من السياسيين والصحفيين وكبار البيروقراطيين يشكلون جميعا فى واشنطن النخبة الحاكمة التى لا تبالى إلا بمصالحها الخاصة.. وهذا هو اعتقاد ٧٧٪ من الأمريكيين وفقا للدراسة المشار إليها.

لقد ذهب ٢٥٪ من الأمريكيين إلى حد القول بأن هذه النخبة الحاكمة متورطة فى مؤامرة ضد مصالح الشعب الأمريكى.. يقول المؤلف: «لقد أصبحت فكرة أن الحكومة الفيدرالية تضمر مؤامرة كبرى من أكثر أنواع العصاب الأمريكى شيوعا وخطرا منذ تسعينات القرن العشرين.. ولم تعد هذه مجرد ثقافة شعبية شفوية وإنما دخلت فى نسيج الثقافة العامة وفى أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة وضرب لذلك مثلا بأفلام هوليوود، ومن أشهرها فيلم «إكس فايل X Fli



الرؤساء يكذبون

امتدت الكراهية وعدم الثقة فى الحكومة إلى المؤسسات الفيدرالية الأخرى فشملت مؤسسة الرئاسة والكونجرس وأجهزة الاستخبارات .. حتى وكالة حماية البيئة وإدارة الضرائب.

هذا الانهيار فى الثقة بالحكومة ومؤسساتها حدث فى جيل واحد ففى سنة ١٩٥٨ كان ثلاثة أرباع الأمريكيين يعتقدون أن الحكومة تفعل ما هو صحيح ولا تكذب.. الآن تقلص هذا الرقم إلى ٥٪ فحسب. خلال هذه الفترة تفجرت فضائح كذب فيها الرؤساء الأمريكيون والقادة السياسيون كذبا مبينا:

فى الحرب الفيتنامية، وفى ووترجيت أيام نكسون ، وفى فضيحة إيران - كونترا أيام ريجان .. وكذب بوش الأب عندما وعد بعدم فرض ضرائب جديدة فى حديثه الشهير Read Mylips ثم نكس، وكذلك فعل من بعده بل كلينتون وزاد على ذلك كذبه فى قضية فضائحه الجنسية.

■ ولو تأخر صدور هذا الكتاب بضع سنوات قليلة لسجل أيضا كذب بوش الابن فى قضية الأسلحة ذات الدمار الشامل التى جعلها سببا فى الحرب على العراق ثم تبين لشعبه وللعالم كله أن كاذب.

الإفراط فى الديمقراطية

كما يخصص المؤلف فصلا فى كتابه عن كراهية الأمريكيين لحكومتهم تحت عنوان «لماذا يكره الأمريكيون واشنطن؟» يخصص فصلا آخر للديمقراطية الأمريكية أو بحسب تعبيره الإفراط فى الديمقراطية ويرى أنها وصلت إلى حالة من الشلل يرثى لها.

وهنا يرصد المؤلف الأسباب الرئيسية التالية:

أولا: حالة اللامبالاة التى أصابت قطاعات واسعة من الناخبين حيث أصبح ما يقرب من نصفهم يتجنب الذهاب إلى صناديق الاقترع يأسا من أى تغيير حقيقى.

ثانيا : كثرة الانتخابات وتكرارها الذى يحدث فى الكونجرس كل سنتين، وفى الرئاسة كل أربع سنوات .. فلا يكاد الرئيس الجديد يستقر فى منصبه حتى يبدأ المخططون يعدون للانتخابات التالية. يضاف إلى ذلك أن عملية الانتخابات باهظة التكاليف تضطر المرشحين للاعتماد على تمويل أصحاب المصالح السياسية والاقتصادية ، والمرشح أو النائب بعد ذلك يفقد حرية الرأى ويشعر بالعجز عن الدفاع عن القضايا التى يؤمن بعدالتها ، كما يفقد الشعور بالأمن لأنه دائما غير واثق من ترشيح الحزب له ولا من استمرار التمويل ولا من أصوات الناخبين فى نهاية الأمر.

ثالثاً : التضخم البيروقراطى ظاهرة ربما تكون فريدة فى الولايات المتحدة حيث توجد ٨٥ ألف حكومة تبدأ من القرى الصغيرة والبلدات مرورا بالولايات حتى الحكومة الفيدرالية فى واشنطن، ويعمل بهذه الحكومات ١٩,٥ مليون موظف ..



وتبدو المقارنة مفجعة عندما نعلم أن عدد العاملين فى هذه الحكومات خلال تسعينات القرن العشرين قد فاق عدد العاملين فى الصناعات الإنتاجية.

الفقراء يزدادون فقرا

وعندما يتحدث المؤلف عن الاقتصاد الأمريكى يضع أيدينا على حقائق مذهلة فالفقراء يزدادون فقرا والأغنياء يزدادون تكديسا للثروة. ورغم التقارير الاقتصادية الوردية عن اقتصاد التسعينات ورغم انخفاض التضخم المالى ورغم نجاح كلينتون فى تخفيض العجز الهائل فى الميزانية.. رغم كل هذا لا تشعر الكثرة الغالبة من الأمريكيين بالأمن الوظيفى.. ويلمس العمال الأرباح الهائلة التى تحققها شركاتهم بينما تبقى أجورهم ثابتة أو فى تراجع، فيما عدا المديرين الكبار فهؤلاء يثرون على حساب العمال. من أمثلة ذلك: مدير يحصل على ٣ ملايين دولار كمرتب سنوى يطرد أربعين ألف من العاملين فى شركته ، وآخر يحصل على ٢.٥ مليون دولار ليضحى بـ ١٢ ألفاً من الموظفين .

■ ونحن نعلم قصة إفلاس شركة إنرون التى حصد مديروها ملايين الدولارات ثم تركوها تسقط على رؤوس ضحاياهم من العملاء الصغار الذين فقدوا مدخرات حياتهم .

لذلك لم يكن المؤلف مخطئا عندما أطلق على أمثال هؤلاء الحيتان اسم «البارونات اللصوص» لأنهم يسرقون المليارات عن طريق تدمير آلاف الأسر الأمريكية.

إلى متى ؟

النمط الذى ساد فى التسعينات بالولايات المتحدة يسجل مكاسب فى الخارج وانتكاسات فى الداخل : ففى ٤ يوليه ١٩٩١ (يوم الاستقلال الأمريكى) أراد بوش الأب أن يذكر الناس بانتصاراته الباهرة فى حرب الخليج ولكنهم لم يلتفتوا إليه وتخلصوا منه فى أول انتخابات رئاسية. كذلك فعل بوش الابن فى حرب العراق فهل يلقى نفس المصير!؟

كان النضال الأمريكى على أشده طوال خمسين سنة فى مواجهة العدو الشيوعى فلما انهار الاتحاد السوفييتى زال الخطر وانطفأت جذوة النضال وانطفأ معه الهدف الوطنى الموحد وبدأت أمريكا تتحلل تحت وطأة الحرب الثقافية ونذر الصراع العرقى والطبقى.. فهل كان اختراع فكرة الحرب الطويلة على الإرهاب العالمى وإشغال الأمريكيين بحروب خارجية فى أفغانستان ثم العراق وسيلة لإلهاء الناس عن الصراع الداخلى المدمر؟ وإلى متى يمكن أن تستمر هذه الأكذوبة الكبيرة قبل أن يكتشف الشعب الأمريكى الحقيقة وينتفض عليها ؟ ■

تــزامن المبــادرة المصـرية مع المقاومــة العـراقيــة

بقلم
عبد الرحمن شاكر

لم يكن من قبيل المصادفة ، أن يتزامن صدور المبادرة المصرية لتطوير العمل العربى المشترك ، مع تصاعد المقاومة العراقية ضد الاحتلال الأمريكى ، فكلتا الظاهرتين - على تباينهما - تعبران عن انبعاث الروح من جديد فى الأمة العربية للخروج من حالة التردى التى آلت إليها ، والتى كانت ذروتها - أو حضيضها فى واقع الأمر - هى وقوع العراق فى براثن الاحتلال الأجنبى من جديد ، بعد أن ظن الناس أن عصر احتلال البلدان الأخرى بالقوة العسكرية وخاصة فيما يسمى بالعالم الثالث ، قد انقضى إلى غير رجعة !

لقد جاء احتلال العراق ، من جانب الولايات المتحدة الأمريكية ، وحلفائها ، وخاصة بريطانيا العظمى ، نتيجة لظروف دولية غاية فى التعقيد ، فى مقدمتها أن الولايات المتحدة قد أصبحت هى القوة الدولية الأولى والكبرى الوحيدة فى العالم، بعد انتهاء الحرب الباردة بين المعسكرين ، وحل الاتحاد السوفييتى الذى كان يقود أحد هذين المعسكرين ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية فى عام ١٩٤٥ ، إلى تاريخ انحلاله فى أوائل التسعينات فى القرن الفائت .

ولكن انفراد الولايات المتحدة الأمريكية ، بالصدارة الدولية ، وسعيها إلى فرض هيمنتها على العالم بأسره ، لم يكن هو العامل الوحيد فى وقوع احتلالها للعراق ، بل كان لأوضاع الأمة العربية ، والعراق من بينها ، دخل كبير ، فى وقوع هذا الحدث الجلل ، الذى أصاب العراق ، والأمة العربية فى مجموعها فى الصميم .

أول عناصر السوء فى أوضاع الأمة العربية ، وأخطرها ، كان - ومايزال - هو تمزقها وتفرقها ، وعجزها عن إيجاد صيغة سياسية ، تكفل تماسكها ، وتحقق وحدة إراداتها ، فى مواجهة الأخطار التى تحيط بها من كل جانب ، ومطامع القوى الدولية المحيطة بها فى ثرواتها ، وخاصة البترول ، مما مكن القوى المعادية لها من العبث بها وتلعب بمستقبلها ، على النحو الذى تريد ، والذى يقربها من تحقيق أطماعها فى بلاد العرب .

خذ عندك مثلا الحرب العراقية الإيرانية ، التى دامت قرابة على ثمانى سنوات من ثمانينيات القرن الماضى ، فلو كانت الأمة العرب موحدة آنذاك ، لما مثلت التهديديات الإيرانية وسعيها إلى تصدير مايسمى بالثورة الإسلامية ، أى نوع من الخطر بالنسبة للدول العربية ، بل كانت إيران سوف تبدى قدرا أكبر من الاحترام للأمة التى نزل الدين الإسلامى على نبى منها وبلسانها العربى المبين .

ولقد دفعت الجارتان الإسلاميتان ثمنا باهظا لتلك الحرب العبثية ، مئات الألوف من الضحايا قتلا أو جرحا أو أسرا على كلا الجانبين ، فضلا عن الخسائر الاقتصادية الفادحة ، حيث كان ناتج الثروة البترولية الضخمة عند كلا الدولتين يذهب إلى تجار السلاح الدوليين ، الذين لم يدخروا وسعا فى العمل على إطالة تلك الحرب المجنونة ليستمروا فى جمع الأرباح، ولم يتورعوا عن تزويد كلا الدولتين بأسلحة أو أدوات لصنعها تمكنهم فى المستقبل من اتهامها بحيازة أسلحة دمار شامل كذريعة لاحتلالها كما حدث فى العراق أو التهديد بضربها على الأقل كما يحدث مع إيران !

فلما تداعت الأمور إلى حد إقدام العراق على احتلال الكويت فى عام ١٩٩٠، تبين مدى تفسخ النظام الإقليمى العربى إلى حد العجز عن منع وقوع هذا العدوان أو دفعه بعد أن وقع ، وانفتح الباب واسعا للتدخل العسكرى الأمريكى فى المنطقة باسم تحرير الكويت فى الوقت الذى كان فيه الاتحاد السوفييتى - الصديق الدولى التقليدى للعراق وعدد من الدول العربية - يلفظ أنفاسه الأخيرة كدولة كبرى ويسلم مقاليد الأمور الدولية جليلها وحقيرها للولايات المتحدة الأمريكية.

فقدان الديمقراطية

لم يكن غياب الديمقراطية عن معظم الأنظمة السياسية العربية بدرجات متفاوتة، سببا يقل أهمية عن انعدام التوحد العربى فى الوصول إلى حالة التردى الشنيعة التى آلت إليها الأمة العربية .

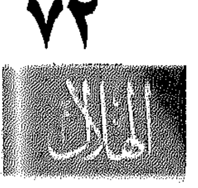
إن غياب الديمقراطية لم يكن يعنى تغيب الجماهير العربية عن المشاركة فى

صنع القرار الذى يتعلق به مصيرها فحسب ، بل كان يعنى خضوع تلك الجماهير لوسائل قمعية شديدة القسوة تصل إلى استنزاف طاقات الأمة فى تلك الوسائل القمعية ، وأخيرا وليس آخرا كان الاستبداد الشيطانى المفضوح للنظام العراقى ذريعة أخرى مضافة لإقدام الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها على احتلال العراق ، بدعوى تحرير العراق ذاته وليس الكويت هذه المرة ، من هذا النظام الكريه ، وخاصة بعد افتضاح أمر الدعاوى الكاذبة فيما يتعلق بأسلحة الدمار الشامل .

ومرة أخرى بأن عجز النظام الأقليمى العربى عن دفع هذا العدوان الجديد عن العراق ، أو منع شن الحرب عليه ثم احتلاله ، فى الوقت الذى كانت الجماهير الواسعة فى مختلف أرجاء العالم ، وكثير من دولة تعارض هذا العدوان وترفض المشاركة فيها ، أو حتى الموافقة عليه ، خاصة وأن القوى المعتدية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية قد أظهرت استخفافا هائلا ، ليس بالجماهير الساخطة على الحرب فى أرجاء العالم فحسب ، بل فى داخل الولايات المتحدة ذاتها ، واستخفافا أشد بالنظام الدولى وبالأمم المتحدة ، التى زعم المعتدون أنهم قد أقدموا على شن الحرب على العراق ، بدعوى إجباره على تنفيذ قرار مجلس الأمن الدولى بنزع أسلحة الدمار الشامل التى يملكها أو قيل إنه كذلك ، رغم شهادة المراقبين الدوليين بأن نزعها أو تدميرها قد تم بالفعل !

صحوة لا انتهاء

فى الوقت الذى أرجف فيه المذعورون والانهزاميون وذوو الأغراض السقيمة ، بأن المحنة الحالية للأمة العربية التى توجت بالاحتلال الأمريكى للعراق هى نهاية العروبة - كما بين الدكتور أحمد يوسف أحمد فى مقالة البديع تحت هذا العنوان فى العدد الفائت من الهلال - فإن الشعب العراقى أبى الاستسلام للواقع الكريه المفروض عليه بالقوة العسكرية ، وراح يبذل كل جهد فى مقدوره لمقاومة احتلال القوة الدولية الكبرى لأرضه ، وتصاعدت أعمال المقاومة المسلحة العراقية ضد قوات الاحتلال ، مما أجبر القوات الأمريكية على الاعتراف بصراحة بخسائرها فى «حرب العصابات» هذه كما سماها بعض خبراؤها العسكريون ، وراحت الإدارة الأمريكية تستنجد بالدول الأخرى لكى ترسل قوات إلى العراق تشارك القوات الأمريكية فى التصدى لأعمال المقاومة ، وقد رفضت الدول العربية بالإجماع المشاركة فى هذه المهزلة ، ولم تبد استعدادها لإرسال قوات للعراق إلا تحت علم الأمم المتحدة لحفظ النظام فيه ، ريثما تتشكل فيه حكومة وطنية حقيقية تتولى ضبط الأمور داخله بعد انسحاب



قوات الاحتلال المعتدية .

وكان هذا الموقف العربى الحازم هو أوضح تكذيب لادعاء أن الأمة العربية قد وصلت إلى حد الاستسلام الكامل لإرادة أعدائها ، وتمت صياغة هذا الموقف من داخل آلية عمل الجامعة العربية ، التى دعا بعض من ذكرنا من المرجفين إلى حلها إعلانا عن نهاية العروبة كظاهرة سياسية!

ثم جاءت المبادرة المصرية لتطوير عمل جامعة الدول العربية والتى نشرت جريدة الأهرام تفاصيلها فى الثامن والعشرين من شهر يوليو المنصرم . وعقب عليها السيد عمرو موسى أمين عام الجامعة العربية فى اليوم التالى لإعلانها على صفحات الأهرام بأن مطلب البرلمان العربى الذى هو أهم بنود تلك المبادرة جاء استجابة لمطالبة الجميع بقيامه على غرار البرلمان الأوروبى .

ومن بين ما تحتويه المبادرة من بنود كثيرة هو إنشاء محكمة العدل العربية لكى يكون حل المشاكل التى تنشأ ما بين دولة عربية وأخرى مثل واقعة احتلال العراق المشئومة للكويت من داخل البيت العربى ، وبآلية العدل العربى ، دون حاجة إلى فتح الأبواب للتدخل الأجنبى الذى لايسعى إلا إلى تحقيق أغراضه الذاتية .

أما البند الخامس من المبادرة وهو الخاص بالبرلمان العربى ، والذى نشارك السيد عمرو موسى فى اعتباره أهم بنود المبادرة ، فهو يجسد بصدق صورة مستقبل جديد مأمول للأمة العربية يتم من خلاله توحيد إرادتها السياسية بصورة فعالة ، وفيه يمكن أن يجتمع عقلاء الأمة العربية وخبراؤها فى مختلف المجالات لرسم تفاصيل المستقبل الجديد للأمة العربية فى زمن الكيانات الكبرى الذى لا مجال فيه لكيان صغير أن يحقق طموحه فى التقدم . ومثل هذا البرلمان هو الذى يمكن أن يضع أسس التوحد الاقتصادى والتكامل بين الأقطار العربية ، كذلك تضافر جهودها فى تحقيق التقدم العلمى والتكنولوجى والثقافى ، وكذلك فى الدفاع عن الكيان الموحد للأمة العربية .

ولاشك فى أن إقرار الديموقراطية فى مختلف الأقطار العربية سوف يكون شرطا ضروريا لكى يأتى اختيار أعضاء هذا البرلمان معبرا عن إرادة الجماهير العربية وآمالها الواسعة .

ولا يسعنى فى النهاية إلا أن أشيد بموقف «الهلال» الذى فتح صفحاته لدعوة الداعين إلى قيام هذا البرلمان منذ عام ١٩٨٣ ، جاء فى ذلك الجهد المتواضع فى هذا المجال لكاتب هذه السطور ، إيمانا من «الهلال» بدوره التاريخى كمنبر ثقافى للعروبة يحيا بها وتحيا به . ■

لابد من صنعاء

بقلم
مصطفى نبيل

• وصل المهاجر اليمني إلي كاردف ومارسيليا وبروكلين
• طالبات معهد تدريب الكمبيوتر جميعهن منقبات
• إلي أين تتجه اليمن.. إلي مجلس التعاون الخليجي أم إلي شرق أفريقيا..؟!
• أخيرا.. رد الاعتبار للجنبية والقات!

«أتاكم أهل اليمن، هم ألين قلوبا، وأرق أفئدة والحكمة يمانية».
هذه رحلة سريعة إلي اليمن السعيد، وتجربة عميقة تستحق أن تتابع، يمتزج فيها الحاضر بالماضى والمستقبل، فى منطقة هى الخزان البشرى للعرب، وإحدى قلاع القبائل والعشائر..
مازالت مظاهر الفقر والعوز قائمة، فى وطن يحمل كل مؤهلات الازدهار والرخاء..
ونجاح تجربته رمز لمعركة التحديث فى العالم العربى..

لابد من صنعــــا .. وإن طال السفر ..

مـضى مـا يزيد على ستـة وثلاثين عـامـا على آخر زيارة قمت بـها لصنعاء ، ويمر خـلال هذا الشـهر واحـد وأربعـون عامـا على ذكرى قـيـام ثورة ٢٦ سبـتـمـبـر ١٩٦٢.

وعلاقتى باليمن قديمة وعميقة حيث ربطتنى عـلاقـات وثيـقـة بالزعـمـاء من أحرار اليمن ، الذين كانوا يعيشون فى القاهرة لاجئين فى الستينيات ، الأستاذ أحـمـد النعـمـان والقـاضى الزبيـرى والقـاضى الايريانى ومـحـسن العـينى وعدد من اليمنيين الأحرار ، وغيرهم من الذين عرفتهم بعد قيام الثورة، محمد نعمان وحمود الجائفى وأحمد المعلمى ومـصطفى يعـقـوب وعـمـر جـادى ، وشاركتـهم أحلامـهم الخاصة بمستقبل اليمن ، وتوثقت بينى وبينهم العلاقات .

كما تسللت فى مغامرة شيقة إلى جنوب اليمن قبل الاستقلال ، وشاهدت الاحتفالات بجلاء القوات البريطانية ..

فـعرفت وتجـولت فى اليمن شـمـاله وجنوبه ، وعـشت أحـداثه التى هزت العالم العربى .

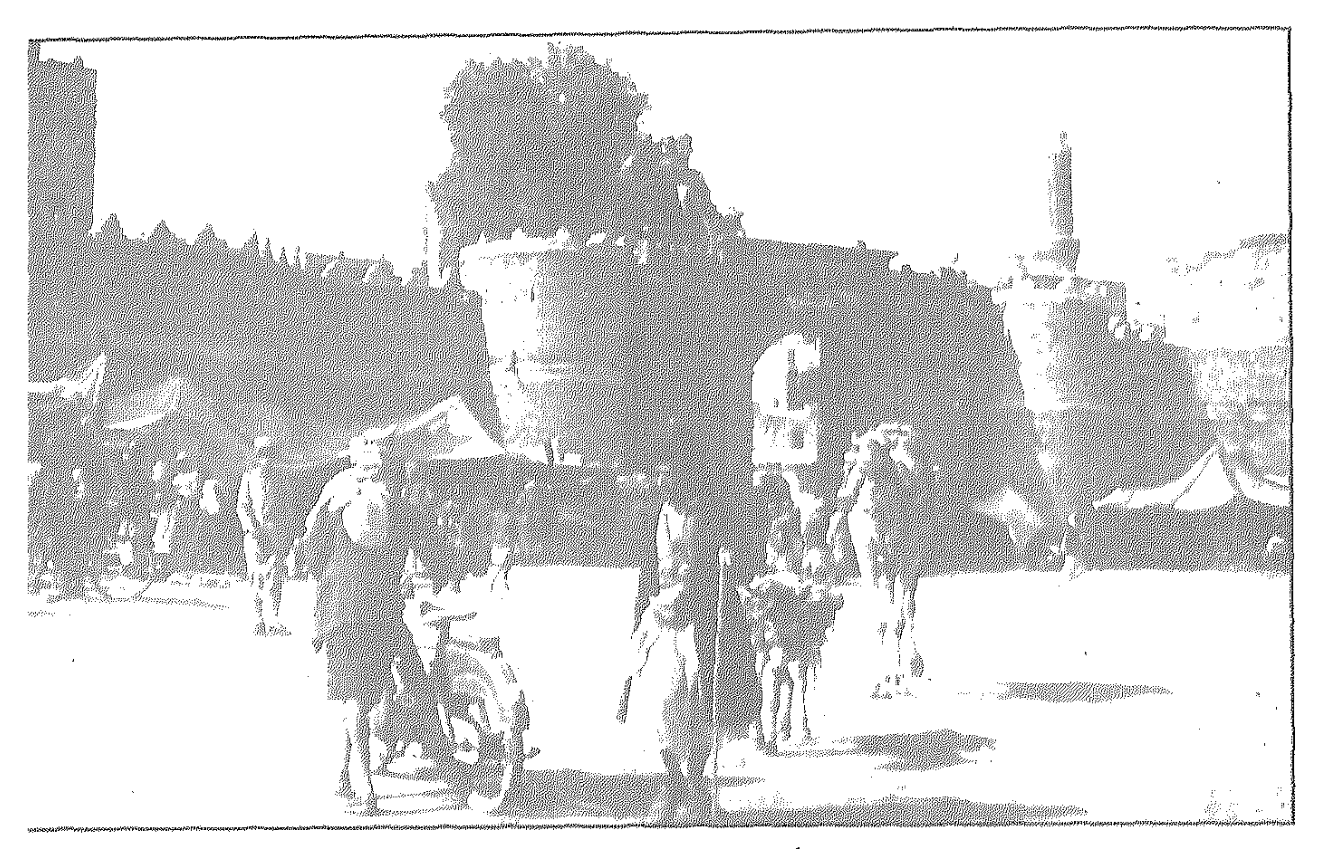
يوم استيقظ العرب على نبأ أن ثورة اشـتـعلت فى الـيـمن ، وأطاحـت بعـرش الإمام وأعلنت الجمهورية ، وقمت بعدها بالعديد من الزيارات لليمن ..

وجـاء هذا الحـدث بعـد مـا قـيل إن اليـمن تجـمـدت فى ظل حكم الأئمـة، بل وإنهـا خــرجت من التـاريخ ، وسـتظل متـحفا لما كانت عليه الحياة في القرون الوسطى ، وبعـد أن ضـرب الأئمـة الرقم القـيـاسى فى الحكم ، وتعـاقب على حكم اليمن ثلاثة وسبعون إماما بعد أن اختلط مـا هو سـيـاسى بما هـو دينى ، واسـتـمـر حكمـهم ألفا ومـائة عـام متـصلة، وهو مـا يكاد يكون أطول حكم فى التـاريخ، كـان خـلاله أهل صنعـاء يعـيشـون عزلة كاملة خلف سور صنعاء ووراء سبعة أبواب تغلق عند غروب الشمس!

كانت المعلومات عن اليمن نادرة، وقليل من الكتـاب الذين نجـحـوا فى زيارتهـا ، وورووا بعض الجوانب من حـيـاتهـا . وأبرز هؤلاء الكتـاب أمين الريحـانى .. الذى زار اليمن بأمـر الإمام فى عشرينيات القرن الماضى، واتسمت معظم الكتابات بقدر من السخرية والمزج بين الطرائف والغرائب . ومما يرويه الريحـانى قـوله.. «سـمـعت عن الرهائن ما استغربت واستنكرت وأخذت أكذب مـا سمعت ، إلا أن أغرب الأمور هو أقـربهـا إلى الحـقـيـقـة، فـالإمـام يـحـيى يتقاضى من كل شئ قبيلة ومن كل موظف من موظفى حكومته الكبار رهينة واحدة، تبـقى فى حـوزته كـفـالة الاخـلاص والاستقامة فى الخدمة، وضمـان الصدق والوفاء» .

وتمكن الصـحـفى جـمـيل عـارف من الحصول على إذن دخول اليمن من الإمـام شخصيا ، وإن كل مـا يتحـرك فى اليمن لا يتم إلا بإذن الإمـام وبناء على مشـيـئـتـه ويذكر أنه أول صـحـفى يصل اليمن سنة ٤٧ ، ولم تكن الكهـرباء دخلت ويحكى.. «أخذنى الإمام إلى سرداب تحت القصر ، يحتفظ بمفاتيحه، وفيه عشرات الزكائب





أحد الأسواق الشرقية على جانب من أسوار صنعاء وبواباتها وحصونها الكبيرة

امتلأت بريالات ماريا تريزا» .

وكتب جلال كشك كتاب «روسى وأمريكى فى اليمن» يستعرض فيه الصراع الدولى على اليمن ، بينما الإمام يعيش فى ظل اهتمامات أخرى ! ويصف «استقبال جوقة عسكرية من جنود اليمن الحفاة، فالحفاء يكاد يكون مقصورا على القوات المسلحة..» .

ولعل وصف أمين الريحانى للحياة فى اليمن فى تلخيص دقيق للأوضاع.. «كأنك فى السياحة فى تلك البلاد السعيدة تعود فجأة إلى القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى، لا مدارس، لا جرائد ، لا مطابع، لا أدوية، لا أطباء ، لا مستشفيات ، والإمام هو كل شئ.. هو العالم والطبيب والمحامى والفقيه..

أما كتاب «كنت طبيبة في اليمن»، الذى كتبته الطبيبة الفرنسية كلودى فايان وترجمه محسن العيني، فيتميز بالرقة والحس الإنسانى المرهف ، والتعاطف مع ما يعانيه أهل اليمن ، وهى تعترف أنها كانت تجهل كل شئ عن اليمن ، ولا تعرف حتى أين توجد ... وأن اليمنيين قوم طيبون .. وأنها لم تدخل اليمن إلا بعد حصولها على موافقة الإمام شخصيا، وتبين خلال إقامتها أن الحضارة ليست مجرد مدن حديثة، وشوارع معبدة، وسيارات فارهة، ولكنها أيضا المشاعر الإنسانية الرقيقة، والأنفة والكبرياء التى يتمتع بها أهل اليمن .

ونجد أن معظم ما كتب عن اليمن لا يختلف عن الوصف الذى كتبه الرحالة

الايطالى «لودفيك دى فارتيما» الذى تنكر فى زى مملوك وزار اليمن سنة ١٥٠٣م، وأدهشه مارأى من أسوار صنعاء الكبيرة التى تتسع لسير ثمانية من الخيول، وحصون السور ، كما لاحظ وجود أسواق شرقية كبيرة ، وأن كل ما يجرى يتم بإذن الإمام وتحت رقابته..!

تغيرات وإشارات

لقد تركت اليمن الحديثة كل ذلك الماضى وراء ظهرها وتطلعت للمستقبل وتعاقبت الأحداث ، وتوالت التطورات .

مجتمع يتغير ، وكل يوم هو فى شأن جديد ، يشهد صراعا حادا أحيانا وهادئا أحيانا أخرى بين القوى الحديثة والأخرى التقليدية ، داخل مثلث يتكون من القوات المسلحة والقبائل والقوى الجديدة التى تتكون من الأحزاب والنقابات والجمعيات الأهلية، وهى المعركة التى أشعلتها ثورة سبتمبر فى الشمال وثورة أكتوبر فى الجنوب .

وأمدتنا اليمن فى التاريخ الحديث بأغلى الانتصارات العربية ، عندما جاء استقلال اليمن الجنوبى كبلسم شاف بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧، ثم ماوقع بانجاز وحدة شطرى اليمن ، والتى تمت فى ظل انكسار الفكر الوحدوى .

وأخذت تمضى فى طريقها متحملة مصاعب الطريق وآلامه .

وتمكنت اليمن من تخطى الكثير من المشاكل التى ورثتها من نظام الإمامة ، فتم رسم الحدود مع جيرانها والانتهاء من منازعات الحدود مع كل من السعودية وعمان.

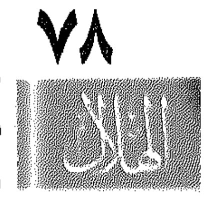
المتحف المسكون

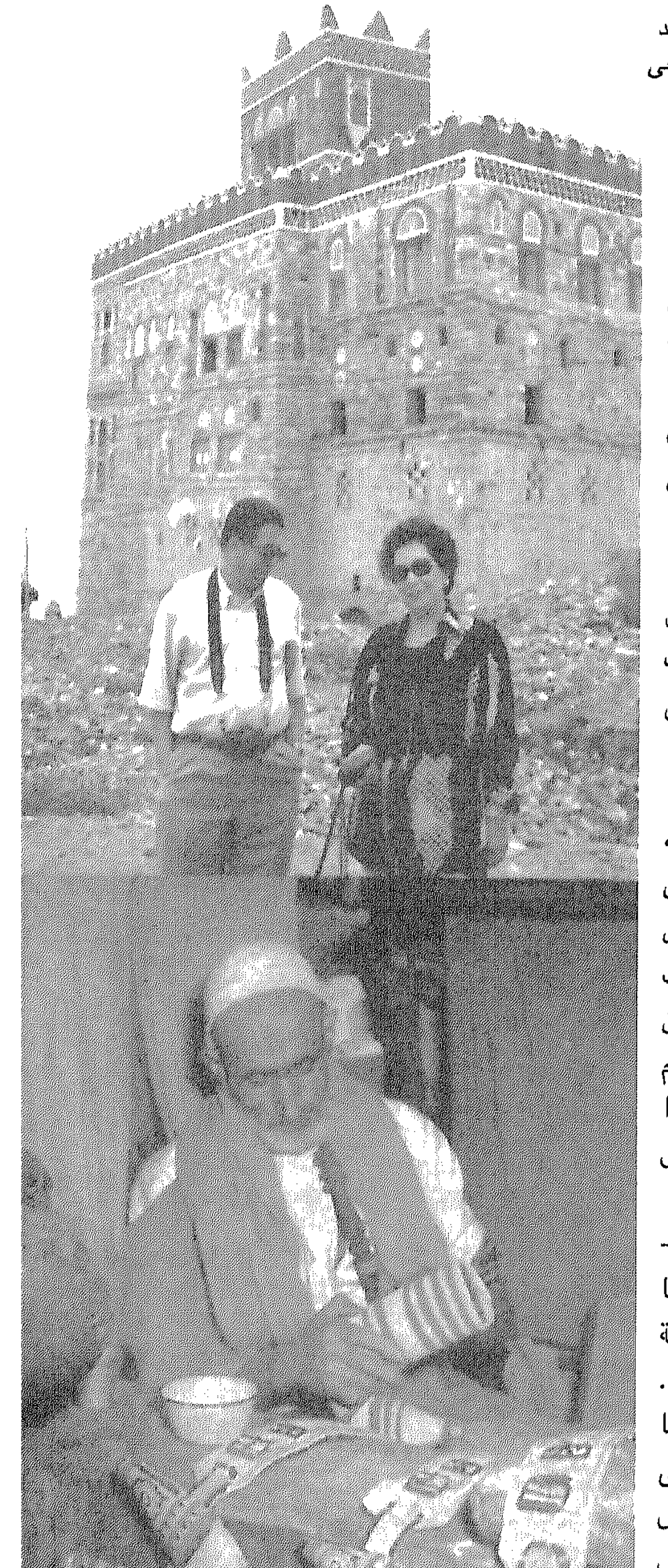
و«اليمن» اسم تاريخى لبلاد تقع يمين المتجه إلى الكعبة، ولا تستطيع سوى أن تتوقف طويلا أمام طراز العمارة الإسلامية المميزة، والذى يفصح عن حضارة قديمة تعود إلى آلاف السنين ، وتقف مشدوها أمام الأزياء التقليدية، وأمام العمامة والجنبية ، وتشعر وأنت تتجول فى دروب صنعاء القديمة ، أنك داخل المتحف المسكون .

أتجول فى أزقتها ، وزخات المطر المنعشة التى تسقط فى عز الصيف. متأملا المقابلة بين الماضى والحاضر، بعد أن قامت اليونسكو وعدد من المنظمات الدولية بمشروع الحفاظ على صنعاء بوصفها أحد منجزات الإنسانية وترميم المدينة القديمة ورصف طرقها وإعادة بناء سورها وأحيائها والحفاظ على آثارها . وإدخال المياه والصرف الصحى إلى بيوتها ، وقدمت بذلك نموذجا للحفاظ على المدن التاريخية، التى تتقوض عند إدخال مستحدثات العصر .

جمعت صنعاء ميزات القديم والجديد فى تناغم مذهل ، واحتلت مكانتها كهمزة وصل بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب والتى تقع على ارتفاع سبعة آلاف وخمسمائة قدم فوق سطح البحر ، وهى أعلى مدن العالم العربى ، تقع فوق جبل نقم ، وتحيطها جبال شاهقة من جميع الجهات .

وعندما تدلف إلى دروب صنعاء من الباب الكبير عند المسجد الجامع، فكأنك انتقلت فى الزمان والمكان معا ، إلى عالم





مصطفى نبيل مع أنعام محمد
على أمام قصر الإمام التاريخى

العمارة المميزة تطلى الأطراف والنوافذ والأبواب باللون الأبيض . والأسواق والأسوار واللباس المميز، حيث يشاهد المرء ما كان يتصور أنه اندثر ، فى مدينة نادرة شيدها شعب فنان ، ومن المنطقى أن تصبح صنعاء عاصمة ثقافية عربية طوال عام ٢٠٠٤ .

وترى الصانع اليمنى وتخرج من بين يديه الأعمال اليدوية، فيتأكد لك أن اليمن ستحتل مكانتها على خريطة العالم بعد أعوام قليلة إذا تمتعت بحكم رشيد .

فمثلا .. تتشابه أسواقها مع أسواق دبى أو أبوظبى أو الدوحة ، ولكن هناك فارقا مهما ، أن الصانع الفنان فى أسواق صنعاء هو ابن البلاد ، أما الحرفيون هناك فأغلبهم من الأجانب !

أما الفلاح اليمنى فهو نشيط ومثابر ، لا يترك أى بقعة من الأرض التى يمكن زراعتها دون أن يزرعها مهما تكن صغيرة، وتشهد على ذلك المدرجات وسفوح الجبال الشاهقة وفى الوديان الملتوية العميقة ، وترى القرى فوق قمم الجبال العالية فى جهد بشرى خارق، لذا يمكن لليمن الاكتفاء الذاتى فى المحاصيل الزراعية .

فإذا علمت أيضا - عزيزى القارئ - أن الاكتشافات البترولية تتوالى ، مما سيمكن اليمن من إقامة بنية أساسية تنتقل على طرقاتها إلى عصر جديد .. فهو شعب له طبيعة ذكية ونشيطة ، وها هو النجاح الذى يحققه اليمنى الذى يهاجر إلى أى بقعة من الأرض فى دول شرق أفريقيا ودول الخليج ، بل لقد وصل

الصانع الفنان فى أسواق صنعاء هو ابن البلاد

عدد من اليمنيين إلى مارسيليا الفرنسية وكاردف البريطانية وإلى حي بروكلين في نيويورك بالولايات المتحدة عندما ضاقت بهم سبل العيش ، كما لعبت هجرة الحضارمة اليمنيين دورا تاريخيا عندما حملوا أفكارهم وبضائعهم إلى شرق آسيا والمحيط الهندي ، ومازالت هناك جاليات يمنية في كل من أندونيسيا وسنغافورة . إنك أمام شعب صانع الحضارة عندما تتاح له الفرصة .

هذا ما مر بخاطرى أمام عبقرية صنعاء العتيقة أما عن صنعاء الجديدة التي تمددت خارج السور متخطية القيود ، وقامت أحياء جديدة وفنادق وأسواق وورش وقصور فخمة في أحياء يسكنها الأغنياء الجدد، وشقت فيها شوارع متسعة أطلق عليها أرقام تدل على مدى اتساعها ، وهي تحمل معها بعض عوارض العشوائية ، فمازالت تعاني بعض أحيائها من نقص المياه، وإن كانت مازالت تحافظ إلى حد كبير على الطراز المعماري الطاغي المميز لليمن .

تنامي البيروقراطية

ويبدو أن روشتة العلاج واحدة في معظم البلدان العربية ، وتشمل هذه الروشتة إقامة مجلس للشورى وأحزاب سياسية والأخذ بقوانين السوق والعمل على جذب الاستثمارات الأجنبية ، سواء كانت تلك المؤسسات أصيلة أم مصطنعة ، وتضمن أيضا تنامي ظاهرة الأمن ، وزيادة سيارات الحراسة أمام وخلف المسئولين والمباني الحكومية وأيضا السياح .

وهي ظواهر جديدة في اليمن ، ففي الماضي وفي ظل الثورة ، وعندما كانت الحرب مشتعلة بين الجمهوريين والملكيين، لم نشاهد هذه الكثافة للأمن ، وكانت بساطة المجتمع اليمني ظاهرة للعيان ، وعندما تذهب للقاء مسئول يتم ذلك دون رسميات أو حواجز أو أية إجراءات بيروقراطية!، أما اليوم فقد تزيدت قوة الجهاز الحكومي وتعددت مظاهر البيروقراطية .

النقاب !

وإذا مضينا في محاولة رصد التغيرات في اليمن الحديثة فإننا نجد أن دور المرأة في المجتمع يتغير، وتراجعت الفتاة اليمنية وعادت للنقاب ، ففي زيارات سابقة إلى عدن ، كانت حركة التحديث تمضي للأمام ، ولاحظت تراجعا شديدا ، ومن شواهد ذلك أنك لا تكاد ترى فتاة دون نقاب ، وإذا كان يمكن فهم ارتداء الحجاب ، إلا أن النقاب وما ينتج عنه من إقامة حاجز بينها وبين قومها ، فهو أمر آخر.

فمع كل مظاهر التحديث من سيارات ومكيفات ، يتراجع وضع المرأة الاجتماعي ، رغم أن القوانين تعطي المرأة حقوقها ، فهي ممثلة في مجلس الشورى ، وهي وزيرة وهي دبلوماسية، بل وهناك سيدات أعمال يعملن في السوق ، وهناك جمعية أهلية لسيدات الأعمال ، بل وهناك معهد لتعليم الكمبيوتر كل رواده من الفتيات المنقبات ، مما يؤكد أن التغيير الاجتماعي أصعب بكثير من التغيير المادي ، فليس

بالقوانين وحدها تحصل المرأة على حقوقها ، وفى تراث اليمن ، أنه حكمت اليمن الملكة بلقيس وأروى بنت أحمد .

ولعل تلك الظواهر أحد آثار المواقف الاجتماعية المتباينة بين الشوافع (السنة) سكان السهل ، وبين الزيود (الشيعة) سكان الجبل، والذى يعكس نفسه على العديد من الأوضاع الاجتماعية ، والذى يمسك خيوطه توازن دقيق بين الجنوب والشمال .

القات والجنبية

ومن الملاحظات التى لا يفوت الزائر أن يلحظها اختفاء البقشة وريال ماريا تريزا (النمساوى)، ففى السابق لم تكن لليمنيين ثقة فى الأوراق النقدية، لذا يتبادلون ريال ماريا تريزا الذى تنحصر قيمته فى وزنه من الفضة.

واليوم استبدلت بالبقشة الريال اليمنى..

وفى زيارات سابقة كانت هناك محاولة جادة لمقاومة «القات» باعتباره آفة اجتماعية، فمثلا تحدد فى عدن بيعه يومى الخميس والجمعة، وعملت الحكومة على تقليص زراعته، ولكنه عاد من جديد يتصدر الإنتاج الزراعى، ويلتقى فى المقايل النخب الحاكمة والمثقفة ، ويزعم الفنانون والشعراء أنه يزيد قدرتهم على العمل، وتجاهل الجميع الدراسات التى أكدت الآثار السلبية الصحية والاقتصادية للقات ، وينفقون فى الحصول عليه أكثر مما ينفقون على ملبسهم وطعامهم وشرابهم!

وصاحب ذلك انتشار «الجنبية» أى الخناجر القصيرة المعقوفة والمعلقة فى أحزمة، وهى عادة قبلية ، وتحدد هذه الجنبية مكانة حاملها الاجتماعية إذا كانت من الجلد أو الفضة ، ولم يكن يرتديها السياسيون أو المثقفون أما اليوم فيحدث العكس! وهى دليل الرجولة.

ومن الظواهر الايجابية أن المجتمع يعطى لصغار السن المسئولية مبكرا، وكأنهم فى عجلة من أمرهم.

ومن صفات الشخصية اليمنية أنها شخصية طيبة ولكنها ذات دهاء كبير، كما يتسم اليمنى بالشجاعة فهو لا يهاب الموت.

ويذكر القاضى الزبيرى عن الطبيعة اليمنية «إننا نجد تاريخ اليمن إما حضارة مزدهرة وإما انحطاطا وفقرا وكلاما.. فإن أرض اليمن كالآلة الدقيقة المعقدة التركيب، لا يحسن تصميمها وإدارتها إلا من له علم بها، مدرب عليها، وهى كالجواد ولد على ظهره شعب منبثق من وعوره وتعقيدا، تمرس على ترويضه وسياسته وعاش يقظا حذرا جلدا صبورا، عمليا فعالا، لا يعتمد على الغيبيات فى حياته العملية ولا على الأوهام لأنه مضطر بحكم واقعه العصى العصيب أن يربط الأسباب بالمسببات، لأنه إذا لم يعتمد على تجربته العملية الواقعية فى يومه فسيموت جوعا فى غده.

ولابد لازدهار الأرض من الحصول على مستوى رفيع من الجلد والصبر وشدة اليقظة وسعة الحيلة وميراث التجارب الحضارية، وتلك شروط إذا لم تتوافر انقلبت طبيعة الأرض جحيما على أهلها!

وبقى أن أقول إن محاولات اليمن للانضمام إلى مجلس التعاون الخليجى مازالت تلقى صعوبات كبيرة، ولعل ذلك سببه أن مكان اليمن فى الخطط الاستراتيجية الأمريكية أن تصبح جزءا من شرق أفريقيا، وأن تعطى ظهرها لأمتها العربية.

شئ من الذكريات!

وتتوالى الصور عند العودة إلى الذكريات اليمنية القديمة.. كان لقاء د.عبدالرحمن البيضانى مثيرا ومن هنا عندما زرته فى شقته المطلة على النيل فى المنيل، ولفت نظرى وجود كمية من الصور له كتب عليها «نائب رئيس الجمهورية، فى ذات الليلة التى أعلن فيها قيام الثورة.

ووجدته على علم بتفاصيل ما يجرى فى اليمن، وفجأة فتح باب غرفة المكتب وأطل علينا أنور السادات نائب الرئيس أيامها وقال.. «يبدو أنكم تحتاجون المزيد من الوقت فاسمحوا لى بالانصراف..» فأدركت أنى أخذت الكثير من الوقت وسارعت بالاعتذار وإنهاء اللقاء!

وتتوالى الذكريات..

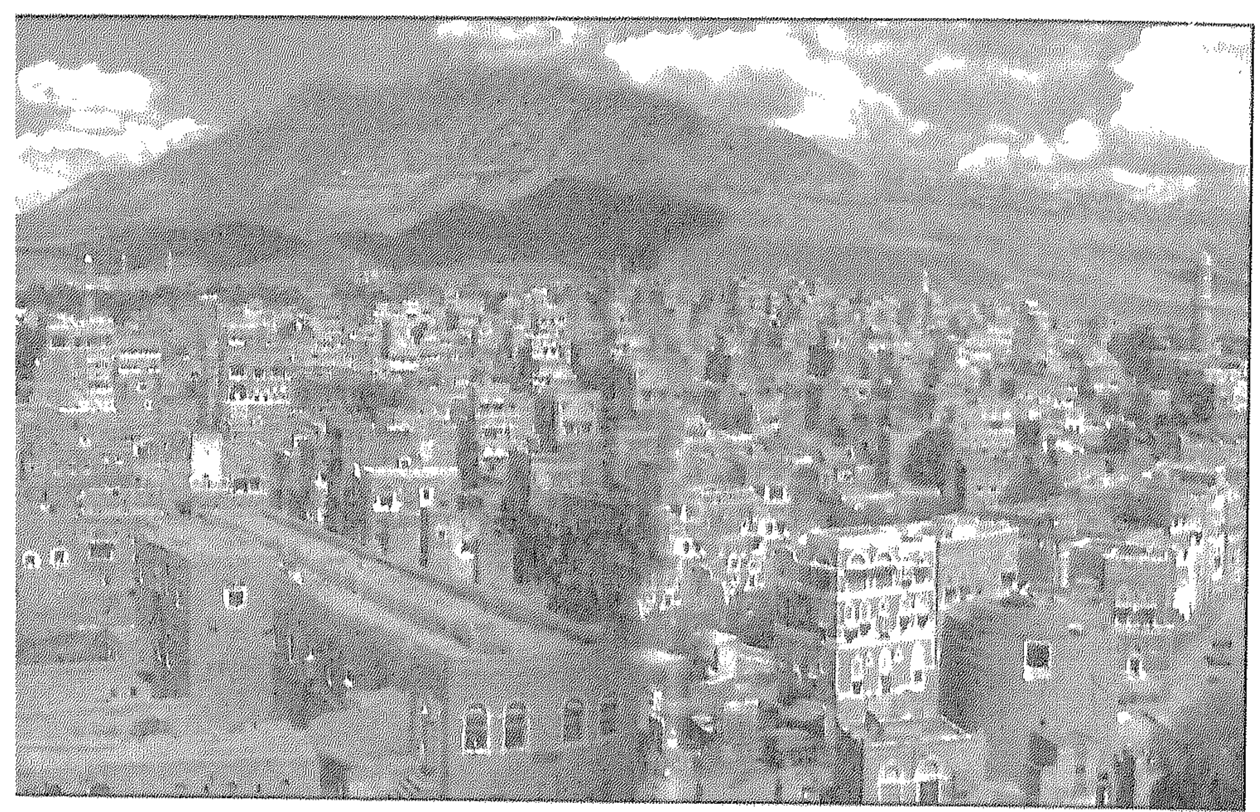
قمت برحلة صحفية فى خريف ٦٧ إلى اليمن شماله وجنوبه وكان هدفى حضور انسحاب القوات البريطانية من الجنوب وانتصار حركة التحرير اليمنية، وعندما وصلت الحديدة فى الشمال كان انسحاب آخر ما تبقى من القوات المصرية ورأيت بعد ذلك انسحاب القوات البريطانية فراعنى الانسحاب المصرى المتعجل والانسحاب المنظم للقوات البريطانية، رغم أن القوات البريطانية قوات احتلال استعمارية بينما القوات المصرية قامت بمهمة جليلة فى حماية الثورة ومساندة القوى التى تعمل لإخراج اليمن من ظلام القرون الوسطى.

وتصور البعض أن انسحاب القوات المصرية سيعيد الإمامة والتخلف إلى اليمن ، وساد رأى آخر يرى أن حكم الإمامة ولى دون رجعة، وأن الشعب اليمنى الذى عانى طويلا من هذا النظام هو الذى يرفضه ولا يسمح له بالعودة ، وأن الثورة اليمنية تعبير أصيل عن اليمن وهى قادرة على الدفاع ضد من يريد القضاء عليها، وأن اليمن شهدت أول محاولة للتغيير والثورة عام ١٩٤٨، ثم تكررت المحاولة أكثر من مرة وتوجت هذه المحاولات بثورة سبتمبر.

حصار السبعين يوما!

ووقع الانقلاب بمجرد انسحاب القوات المصرية، وأطاح برئيس الجمهورية عبدالله السلال، وكان السلال قد سافر إلى مصر والعراق لكى يتفاوض مع قادة هذه الدول حول دعم الجمهورية فى اليمن.

وتولت السلطة حكومة جديدة يرأسها مجلس جمهورى وأصبح محسن العينى رئيسا للوزراء وتنبأ الكثيرون بسقوط الجمهورية واستنفر ذلك قوى الثورة والقوى الفتية التى أنجبتها وبدأت المعركة وكانت قوة الملكيين مكونة من خمسة آلاف جندى نظامى وخمسين ألفا من رجال القبائل بالإضافة إلى الضباط المرتزقة الأوربيين والأمريكيين والإيرانيين بل وانضم إليهم عدد من يهود اليمن ووضعوا



العمارة اليمنية المميزة شيدها شعب فنان

تحت قيادة الضابط البريطاني سمايلي.

وبدأ حصار صنعاء في أول ديسمبر ٦٧ ، ونجحوا في إغلاق الطرق المؤدية إليها ، وتم تعيين حسن العمرى رئيسا للوزراء ونجح الأمير محمد حسين في حشد أكبر قوة نجح الملكيون في حشدها وأعلن استباحة صنعاء حتى يجذب رجال القبائل ويستميلهم.

وقامت ملحمة حصار السبعين يوما.. وظهرت قوة المقاومة الشعبية كما أرسلت عدن قوات دعم إلى القوة المحاصرة في صنعاء وتأييدا للجمهورية. وانسحبت القوات المصرية واستطاعت الثورة اليمنية أن تدافع عن نفسها، وأعلن القائد العام أن الدفاع عن صنعاء وعن الجمهورية لن يكون مهمة القوات المسلحة وحدها، بل مهمة كل يمنى، وامتدت قوات المقاومة الشعبية إلى كل شبر في اليمن، وتحولت اليمن إلى جبهة مقاومة انصهر فيها الجميع.

وفي اليوم الحادي والسبعين كان الحصار قد انقشع، وأسدل الستار على آخر أعلام وأوهام الأئمة، وانتهت عائلة حميد الدين وآخر حكام أسرة حكمت ألف عام. وأكدت ثورة اليمن أنها وجدت لتبقى، وقد تهب عليها الأعاصير ولكنها باقية تشق طريقها، فلن تعود عقارب الساعة إلى الوراء.

وكان بطل الحصار حسن العمرى الرجل القوى وأحد الثوريين ونائب الرئيس السلال السابق.

شاهد على الاستقلال

وتتتابع الصور والذكريات..

فكان استقلال اليمن الجنوبي أول

انتصار عربى بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ وقد حضرت ولادة هذه الدولة التى أصبحت اليوم جزءا من جمهورية اليمن، كما كانت دائما، فقد جاء رحيل القوات البريطانية من أول المستعمرات التى احتلت فى المنطقة العربية كإحدى نتائج الوجود المصرى فى شمال اليمن. وكان المشروع الاستعمارى يقتضى تفتيت الجنوبية إلى عدة مشيخات كما جرى مع دول الخليج.

فهل يمكن أن تفوتنى فرصة إعلان الاستقلال بعد متابعتى الدائمة للحركة الوطنية فى جنوب اليمن ، وكنت أتردد على مكتب الجنوب العربى التقى فيه بمحمد على الجفرى وشيخان الحبشى وقحطان الشعبى.

ووصلت برحلة مثيرة إلى الشيخ عثمان، وجاء وصولى مع اشتعال الاقتتال بين كل من جبهة التحرير والجبهة القومية، فى محاولة من السلطات البريطانية لجعل الحرب الأهلية بديلا عن حرب التحرير.

وشهدت اختفاء آخر جندى بريطانى، بعد احتلال استمر قرنا وثلث قرن من الزمان واختار سير همفرى تريفيليان المندوب السامى البريطانى للجبهة القومية حتى تبعد احتمالات الوحدة الوطنية، واحتمالات الوحدة بين شطرى اليمن، فالجبهة القومية المعروفة باتجاهاتها اليسارية يصعب عليها أن تحكم مجتمعا تقليديا عشائريا، مما يقيم الحواجز بينها وبين أهلها، وبينها وبين اليمن الشمالى!

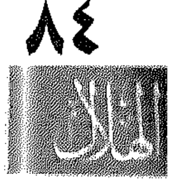
ورغم أن القوات البريطانية كانت فى ساعاتها الأخيرة إلا أنها أصرت على إظهار أنيابها وبينما كنا نتجول فى حى كريتر أى «فوهة البركان» أعدت السلطات الاستعمارية البريطانية كمينا للقبض علينا بحجة دخولنا عدن من غير تأشيرة.

وبقينا محتجزين حتى جاء رجل المخابرات البريطانى وتبين أننا صحفيون سبق وحاولنا الحصول على تأشيرة دخول، وأفرج عنا . ومازلت أذكر أن ذلك كان بعد هزيمة يونيو وأن الحراس الانجليز كانوا يضعون يدهم على أحد عيونهم ويقولون «دايان»!

ومازالت صورة جنود الاحتلال وهم يفتشون الأهالى ماثلة فى مدخل كريتر تحت تهديد السلاح عند الممرات الضيقة بين الجبال التى تحيط بالحى.

كما شاهدنا أول حكومة برئاسة قحطان الشعبى ، ويتسلم مجموعة من الشباب المناضل فى مقتبل العمر السلطة بعد ثورة مسلحة استمرت أربع سنوات ورأيتهم وهم يتسلمون قصر الحكم الذى كان مقرا للمندوب السامى البريطانى، فى كرنفال من الأزياء، فالبعض منهم لم يكن يرتدى حذاء فى قدميه ، وبعضهم يرتدى الزى التقليدى والبعض الآخر يرتدى البدلة ورابطة العنق ، وبعضها ليس على مقاسهم. وليس بينهم أحد من أبناء العائلات أو كبار التجار وأغلبهم تظهر أسماؤهم لأول مرة.

ومن المفارقات التى لا يمكن أن تنسى رحلتى إلى بيمان مع المناضل محمد على هيثم، فبيمان ذات موقع استراتيجى جنوب شرق اليمن وهى إحدى البوابات





مصطفى نبيل مع الصحفيين المصريين أثناء استقبال أهالى منطقة شحر بحضرموت لهم بعد استقلال اليمن الجنوبى

التى تصلك بعدن. تقع جنوب شرق اليمن وتطل على المحور الشرقى الذى تقع عنده بلدتا مأرب وحريب وعلى مشارق الربع الخالى وآخر المناطق التى سقطت فى أيدى الثوار.

قضينا ليلتنا فى بيت شريف بيمان السلطان حسين الهبيلى الذى فر هاربا، وهو الذى كان يتلقى ويوزع المساعدات للقوى المعادية للثورة فى جنوب وشمال اليمن، ولأنه خرج على عجل فقد ترك وراءه كمية من الوثائق التى تكشف المرتزقة. وقراءة سريعة تكشف أن العديد من الأسماء التى تعمل فى صفوف الثورة ومن رؤساء القبائل كانوا يتقاضون مرتبات وعطايا من الانجليز ومن الملكيين ومن السعوديين. الوثائق منظمة بمعرفة هيبر بارسى الضابط السياسى فى عدن، ووارث كل من بالمر فى سيناء ولورنس وفيليبى فى الجزيرة العربية. وهى وثائق تشمل كميات السلاح والعتاد التى قدمت، وقائمة أسماء الخبراء الذين قدمتهم بريطانيا للعمل فى خدمة شريف بيمان، وتوجد أيضا محاضر اجتماعات مقاومة ثورة سبتمبر والثورة فى الجنوب.

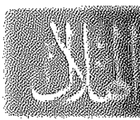
وبعد..

هذه رحلة إلى اليمن فى المكان والزمان تؤكد استمرار الصراع وتعدد صوره ، فبعضها مستمر ضد التخلف، والبعض الآخر ضد التبعية.

وكما رأينا غيرت الثورة والوحدة موازين القوى فى الجزيرة العربية ، ولا يمكن أن ننسى إغلاق باب المندب أمام السفن الإسرائيلية خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣.

فالطاقات التى تفجرت فى اليمن لا يمكن القضاء عليها. ■

طبيعة صامتة



أحمد صبرى

بين المبالغة والحقيقة

بقلم
نزار أحمد صبرى



جاءنا هذا الرد من نزار أحمد صبرى ابن الفنان الكبير أحمد صبرى تعليقا على مقال د . صبرى منصور فى عدد يونية الماضى فى الهلال لتوضيح بعض المعلومات والحقائق عن الفنان الكبير

لقد تساءلت يادكتور صبرى عن سر عدم تفاعل أحمد صبرى مع معالم الحداثة الفنية، وذكرت أنه صنع لنفسه قوقعه أغلقها على ذاته.

للاجابة على هذا السؤال لابد أن نوضح ما هو فن البورتريه ..

فن البورتريه هو فن رسم الصورة الشخصية، وهو فن مصرى أصيل أخذه الغرب عن قدماؤنا المصريون ، وأن اختلف الاستخدام ، فالمصريون القدماء استخدموه للأغراض الجنائزية ودفنوه مع الجثث ، أما الغرب أخذوه وزينوا به غرفهم .

إن فن البورتريه هو أصعب فنون التصوير لأنه لا يعطى مجرد الملامح الشخصية للموديل وإنما الفنان يصور انطباعاته عن الشخصية بعد أن يغوص فى أغوارها، فيتمكن المتلقى من التعرف على هذه الشخصية التى صورها الفنان

هل....؟؟ يتخيل أحد أن الحداثة فى فن البورتريه أن أصور وجه امرأة صلعاء ولها عين فى منتصف صلعتها .

هل هذا معنى الحداثة..؟ أم هذا يكون مسخا للجمال الذى خلقه الله سبحانه وتعالى .

ثم لنتعرف على معنى التجديد والتحديث فى فن البورتريه للفنان أحمد صبرى وسوف استخدم لوحة عازفة العود التى عرضتها فى مقدمة موضوعك

● هذا أول بورتريه يرسم من الظهر فى صورة شخصية ، ونجد كيف عالج الفنان أحمد صبرى بحرفية فنية بالغة الدقة وجه الموديل الذى كان فى الظل .

● استخدام الفنان فى تكوين الموضوع لآلة العود وهى آلة موسيقية شرقية وكان من الصعب أن ترى سيدة فى هذا الزمن تعزف على العود .

● خلفية وما تشتمله من رسوم زخرفية تتماشى مع الجو العام لموضوع اللوحة .

● خلفية اللوحة تدل على مدى تأثر الفنان بالبيئة التى نشأ فيها والزخارف الاسلامية المحيطة به أعتقد أنه مما سبق فى قراءة لوحة واحدة استطعنا أن نتعرف على بعض من أسلوب أحمد صبرى فى التجديد والتطوير والتحديث فى البورتريه .

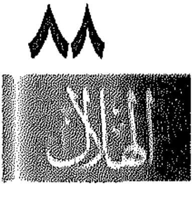
وإذا نظرنا وتفحصنا باقى أعمال أحمد صبرى سنجد أن وضع الجلوس لا يتكرر فى بورتريهات أحمد صبرى أليس هذا تجديد وتحديث وتطوير مما سبق يتضح أن أحمد صبرى لم يتقوقع على نفسه .

لقد عاصر أحمد صبرى أثناء وجوده فى فرنسا مرحلة التمرد التى أفرزت بعض الاتجاهات الفنية ويقول أحمد صبرى عن تلك التحولات والمذاهب التى استحدثت .

«ورحت أتأمل هذه الاتجاهات الحديثة وتلك الأعمال بحيطة كبيرة .. ولا أكذب عليك .. أنى لم أبلعها .. وشاهدت فى تلك الأعمال هروبا من البحث وراء القيم الحقيقية العميقة فى الفن » .

أما التساؤل الثانى يادكتور وعلاقة أحمد صبرى بدعوى الصحوة الثقافية التى واكبت ثورة ١٩١٩، وعدم وجود أعمال أو أى إشارات أو تضمينات تراثية أو ملامح مصرية شعبية فى فن أحمد صبرى .

إن أحمد صبرى لم يكن فى وقت من الأوقات فنانا يرسم الملاحم التراثية، ولم يكن يرسم من خياله بل كان يكوّن




استرخاء ذات الرداء الأزرق

الموضوع الذى يتخيله سواء كان لموديل ليرسم البورتريه أو تكوينات الطبيعة الصامتة أو يختار الزاوية المناسبة فى صياغة المنظر الطبيعى .

لو دققنا النظر فى اللوحات المعروضة فى المعرض كنت ستجد لوحة للمرحوم ويصا واصف، وللعلم فإن ويصا واصف هو أحد رفقاء الزعيم سعد زغلول، كذلك كنت ستجد اسكتشين ألوان مائية للسيدة سيزا نبراوى وهى إحدى رائدات العمل النسائى المصرى ... إنى أؤكد لك أن أحمد صبرى كان أول من تفاعل مع ثورة ١٩١٩ وقد صور بورتريه لرفيقى الزعيم سعد زغلول أثناء وجود الوفد فى فرنسا وكما صور ويصا واصف حمد الباسل .

إن تفاعل أحمد صبرى لم يقتصر على ثورة ١٩١٩ والدليل على ذلك البورتريه الذى رسمه أحمد صبرى للأديب الكبير الأستاذ العقاد ... آلا تعلم أن الملابس التى يرتديها العقاد فى هذه اللوحة هى نفس الملابس التى كان يرتديها أثناء محبسه السياسى ... وقد أراد أحمدصبرى من تسجيل هذا الحدث أن يبرز اعتراضه على السلطة الظالمة التى أمرت بحبس العقاد .

إن الأديب الكبير العقاد وكلنا يعلم مدى اعتزازه الشديد بنفسه لو لم يكن يتفق مع أحمد صبرى فى الرؤية لما سمح له أن يرسمه بهذه الملابس . أما بالنسبة لأعمال أحمد صبرى التى تشمل الملامح المصرية الشعبية .. ألم تسمع عن لوحات لأحمد صبرى تسمى بائعة الجوافة، بعد الصلاة .. عم سرور .. أمومة .

أماتعليقك بلوحات غريبة على أسلوب الفنان والادعاء بأن هناك لوحات مستواها أدنى بكثير من مستوى فنان قدير .

أنما أقول لك أنه الفارق بين اللوحة الفنية والاسكتش .

إن فلاحة بقسط اللبن ، وسيدة بالملاية والبرقع فى واقع الأمر ضمن الاسكتشات الملونة وليست لوحات .

أما عدم معرفتك لاستخدام أحمد صبرى لخامة الجواش فمرجعه إلى أنه عندما توفى أحمد صبرى ١٩٥٥ كان سنك ١٢ عاما وعندما صرت فى مرحلة الصبا والشباب كان متحف الفن الحديث الذى كان كائنا فى شارع قصر النيل قد هدم وشونت الأعمال فى فيلا فينى بالدقى فلم تتمكن من رؤية أعمال أحمد صبرى وليس قبل ١٩٨٩ عندما افتتح المتحف الحالى وهو يضم بعض من أعمال أحمد صبرى وليس كلها .

قد تكون حاولت معرفة فن أحمد صبرى من خلال إطلاعك على الكتب التى كتبت عن أحمد صبرى ، ولكنها كانت بالأبيض والأسود ... ستجد اسكتش السيدة بالملاية والبرقع فى صفحة (١١١) فى كتاب أعلام الفنانين العرب أحمد صبرى بقلم الاستاذ مصطفى الجمال عن دار النهضة العربية، ومكتوب تحت الصورة بالألوان المائية وطبعا أنت عارف أن ألوان الجواش ضمن مجموعة الألوان المائية ..

بالمناسبة يا دكتور أنت لم تقم بزيارة المعرض لأنك لو كنت زرت لكنت رأيت استخدامات متعددة فى لوحات أو اسكتشات ملونة بألوان الجواش اعتبار من سنة ١٩٢٢ .

أما نقدك للوحة ورد بلدى بالألوان المائية فإنه يجافى الحقيقة لأنها لوحة فنية قيمة ذات مستوى عالى جدا ، أما بالنسبة للمطالعة على الشيزلونج فهذا استكش وعلى الرغم من وجوده ضمن الكتالوج إلا أنه لم يعرض بالمعرض.

على فكرة يادكتور أن رسمه بالفحم لفلاحة جالسة فهذا الاسكتش يشابه اسكتش الأمومة المنوه عنه فى كتاب أحمد صبرى الذى ألفه الاستاذ محمد صدقى الجباخنجى عن الدار المصرية للتأليف والترجمة، وقد أورد المؤلف « وفيها نلاحظ اهتمامه بالتكوين الهرمى الشكل وتوزيع الأضواء والظلال » وهو ما ينطبق على اسكتش الفلاحة الجالسة

أما تعليقك بأن هذه الأعمال أرخت فى أوائل الثلاثينات ... فهذا يدل على أنك تتشكك فى التوقيعات المهورة بها اللوحات والاسكتشات..!!

وبصفتى المسئول عن تراث والدى أؤكد أن هذه التوقيعات أصلية وبخط الفنان العظيم أحمد صبرى ، وأنا لا أسمح بأن تنضم أى لوحة أو استكش ليست من عمل الفنان أحمد صبرى .

لو كنت زرت المعرض يادكتور .... لكنت علمت أن لوحة ويصا واصف قد محا الزمن جزءا من توقيع أحمد صبرى ولا اسمح لأحد بأن يقوم باعادة رسم توقيع الفنان لأن خطوط أحمد صبرى ولسات فرشاته يمكن التعرف عليها حتى لو كانت بدون توقيع .

كذلك كنت ستقرأ بعض خواطر أحمد صبرى ومأثوراته كما كنت ستشاهد أدواته وبعض مقتنياته التى صورها فى أعماله المعروضة كذلك كنت ستتعرف على التواريخ الحقيقية التى أخطأت أنت فى تسجيلها عن أحمد صبرى .

إن أحمد صبرى التحق بمدرسة الفنون الجميلة سنة ١٩١٠ وتخرج منها سنة ١٩١٤ وكان أول دفعته وسافر إلى باريس على نفقته الخاصة سنة ١٩١٩ فور اعلان الهدنة وتقابل مع الزعيم سعد



منظر طبيعى

زغلول والوفد المرافق له ورسم بورتريه بالفحم لـ ويصا واصف كما رسم بورتريه لـ حمد الباسل وعاد إلى مصر فى أواخر سنة ١٩٢١ .

ثم سافر إلى فرنسا فى بعثة على نفقة وزارة الأشغال فى سنة ١٩٢٣ لدراسة فن الزخرفة ودرسها حتى سنة ١٩٢٥ ثم امتدت بعثته على نفقة وزارة المعارف العمومية من سنة ١٩٢٥ إلى سنة ١٩٢٩ وقد نال الميدالية الذهبية فى معرض الفنون بنانت سنة ١٩٢٦ ونال نفس الجائزة فى معرض سنة ١٩٢٧ .

وقد تمكن أحمد صبرى من أن يعرض لوحته بعد القراءة فى صالون باريس الدولى سنة ١٩٢٦ ويتقدم للعرض فى هذا الصالون ما يقرب من أربعة عشر ألف فنان من مختلف أنحاء العالم يقبل منهم ما يقرب من أربعة آلاف لوحة التى يجيزها هيئة المحكمين التى يبلغ عددهم ستون محكما من كبار فنانى العالم .

ثم تلى ذلك اشتراكه فى صالون باريس سنة ١٩٢٩ ونالت تحفته الرائعة تفكير (الراهبة) جائزة الشرف وبذلك يكون أحمد صبرى هو الرسام المصرى الوحيد الذى نال جائزة من أكبر معرض للفنون فى العالم .

عاد أحمد صبرى سنة ١٩٢٩ إلى مصر ومعه لوحة الراهبة بعد أن رفض بيعها فى فرنسا وعين مدرسا بمدرسة الفنون الجميلة منذ عودته .

تقدم أحمد صبرى بفكرة انشاء الدراسة الحرة إلى د . طه حسين عندما كان مراقبا عاما للفنون الجميلة واقتنع بالفكرة فأنشئت الدراسة الحرة وأسندت رئاستها إلى صاحب فكرتها الفنان أحمد صبرى وكان ذلك سنة ١٩٤٢ .

وفى سنة ١٩٤٦ تولى رئاسة القسم النظامى الى جانب رئاسته للقسم الحر


ويصا واصف


عم سرور

وأحيل إلى المعاش فى سنة ١٩٤٩ ومدت خدمته إلى نهاية سنة ١٩٥١ وأصيب بالشلل فى الخامس من مارس سنة ١٩٥٥ نتيجة جلطة بالمخ وفاضت روحه إلى بارئها فى الثامن من مارس سنة ١٩٥٥ .

وبالمناسبة فان أحمد صبرى لم يصب بالعمى ولكن بعد العملية التى أجريت له فى يناير سنة ١٩٥٤ حاول أن يعاود الرسم ثانية لكن نظره لم يسعفه فتوقف عن الرسم وقد عرضت فى المعرض آخر محاولات أحمد صبرى .

لقد كان أولى بك يادكتور أن تشكر وزارة الثقافة على تبنيها لهذا المعرض الذى كان الغرض الأول منه تعريف الجمهور من العامة والمتخصصين بفن علم من أعلام الفن المصرى وإحياء لذكرى فنان عظيم أثرى الوجدان بفنه المتقن ورفع اسم مصر فى المحافل الدولية.

ويسعدنى أن أتقدم من خلال صفحات مجلة الهلال إلى السيد وزير الثقافة الفنان فاروق حسنى لتفضله بافتتاح معرض الفنان أحمد صبرى ورعايته له والذى أمر باسترجاع لوحة الراهبة من الخارج بعد غياب طال أكثر من أربعين سنة .

كما أتقدم بعظيم شكرى للاستاذ الدكتور أحمد نوار الذى وافق على إقامة المعرض فى قاعة العروض المتحفية قاعة أفق واحد .

ولا يفوتنى أن أتقدم بتحية إعزاز للفنان محسن شعلان مدير عام المتاحف لسعيه لإقامة هذا المعرض.

كما أشكر كل من ساهم فى إحياء ذكرى فنان مصر العظيم الذى أفنى حياته فى سبيل فنه ورفعة شأنه . ■

العقد: جمعه والنسب إليه

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

لغويات

العقد فى اللغة مصدر عَقَد الحبل ونحوه جعل فيه عقدة وعقد البيع أو اليمين أو العهد: أحكمه وشده وأكده.

والعقد فى باب العدد اسم للعشرة ومضاعفاتها: عشرين وثلاثين.. إلى التسعين ودلالاتها لا تختلف عن دلالة غيرها من ألفاظ العدد، فهى تدل على مقدار المعدود ومبلغه.

وترد ألفاظ العقود فى كتابات المعاصرين على ألوان شتى، بعضها له نظائر داعمة فى التراث وبعضها يأتى فيها على قلة، وبعضها من مستحدثات المعاصرين ويمكن إجمالها فى:

● يدلون بلفظ العقد على الواحد، كما هو دال على الجمع فيقولون:
الوزير العشرون أى الوزير الذى موقعه فى الترتيب يلى التاسع عشر والأصل أن يقال: الوزراء العشرون أى أن مجموع الوزارة عشرون وزيرا، ففى المثال الأول دل اللفظ على واحد، وفى الثانى دل على جمع.

● يلزمونها الياء دائما، مهما كان موقعها من الإعراب مع أن ألفاظ العقود ملحقة عند أغلب النحويين بجمع المذكر السالم ويسرى عليها حكمه فى الإعراب بالواو رفعا وبالياء نصبا جرا يقولون: مر عيد الثورة الخمسينى ووقعت الحرب السبعينية وهى فى المثال الأول مجرورة وفى الثانى مرفوعة وكلاهما لزم الياء.

● أنهم ينسبون إليها على وضعها فيقولون: الأربعينى والستينى، والأصل عند نسبة الجمع، أن ترد الكلمة إلى مفردها ثم ينسب إليها، فيقال: الأربعى والستى والسبعى.

● أنهم يجمعونها جمع مؤنث سالما فيقولون: السبعينات والأربعينات ونحو ذلك مع أنها ملحقة بجمع المذكر السالم وهذا الجمع وما ألحق به لا يجمع جمع تأنيث.

● أنهم يريدون بجمع لفظ العقد الدلالة على المعطوف عليه من العدد فإذا قالوا حدث هذا فى الخمسينات كان مرادهم الأعداد المعطوفة على الخمسين، من الواحد إلى التاسع، أى حدث هذا فى غضون العقد السادس من السنين.

وقد عرض مجمع اللغة العربية لهذه الظواهر اللغوية المعاصرة، ودارت حولها مناقشات شارك فيها أستاذنا الجليل المرحوم الشيخ عطية الصوالحى عضو المجمع، والمرحوم محمد شوقى أمين، الخبير بالمجمع حينئذ وعضو المجمع فيما بعد، وانتهى فيها إلى عدة قرارات وافق عليها مؤتمر المجمع العام.

للبحث بقية

دائرة حوار

المثقفون وتجديد الخطاب (النفاقى)

بقلم
صافى ناز كاظم

● كلمة «المثقفون» كلمة من كلمات خداع الرمال المتحركة، ذلك لأنها صارت فى «الوقائع الرسمية» من ألقاب الوجاهة التى توزع بالمجاملات مثل لقب: يا «حاج». وهى كذلك مسحوبه على مجموعة من عشاق الذات يتزينون بها ويزينون أصدقاءهم ومعارفهم بالحق والكذب. ولعل هذا ما يجعل المشهد «الثقافى» ملتبس الرؤية وعديم الفائدة، فلا نستطيع أن نعرف منه أبسط الأمور مثل : من هم حقا «رموز» الأمة الثقافية، ومن هم حقا «روادها» و«شهداء الدفاع» عن قيمها. قد نوافق أن نجيب محفوظ من أهم كتاب الرواية العربية، لكنه ليس صحيحا أنه الروائى الأوحد فى التميز حتى لا نقرأ أو نسمع عن أحد غيره، اللهم إلا لأنه مازال على قيد الحياة يسير - بحفظ الله - نحو عامة الثانى والتسعين غير أن هذه الحقيقة ليست ميزة فى ذاتها بحيث تجعله محور كل المواويل والملاحم فى المؤتمرات والمهرجانات والجوائز والحوليات. وقد نوافق - حتما أوافق - على إعلاء ذكر النضال الثقافى للأستاذ الدكتور طه حسين لكنه ليس الوحيد الذى فصلته الجامعة فقال وعاند ورفع رأسه . بل إن طه حسين قام بفصل الدكاترة زكى مبارك - من نفس الجامعة التى فصلوه هو منها - حتى قال زكى مبارك وهو مهدد بالجوع : «سأشوى لحم طه حسين وأطعمه أطفالى!» . وعندما ينفش «المثقفون» أنوفهم فى مؤتمر لوزارة الثقافة، ليدغدغوا أشواقنا للحرية والرأى وخلافه، ويطالبون بالإفصاح عن «المسكوت عنه»، ليس بالضرورة أن يفهم كل المستمعين الغرض المطلوب فى نية القائمين على إعداد المؤتمر، وهو فى ملخصه طلب مشروعية سب الدين وإتاحته بكامل البنود الديمقراطية ولعن السائرين على نهجه ووصمهم بكل مفردات القائمة الأمريكية لمحاربة الإسلام، فقد يجد الكثير فى كلمة «المسكوت عنه» الرغبة فى التساؤل مثلاً: أين مقام المفكر والمثقف العملاق سيد قطب فى تقديراتكم وأين ذكره فى «خطابكم الثقافى» القديم والجديد والمستقبلى؟ - أم من الواجب أن أقول «الماضوى» وفى «التناص» مع «الحداثة»؟ - لكن الذى لديه الرغبة فى الحديث عن «سيد قطب»، المثقف، غلطان فى الذهاب، بداية، إلى مثل هذه المؤتمرات و«مسكوتاتها».

فى ٢ أغسطس عام ١٩٥١ نشر سيد قطب كلمة له فى جريدة «الاشتراكية» تحت عنوان «شعب عظيم» قال فيها :

«نحن نظلم هذا الشعب العظيم ونتجنى عليه حين نتهمه بأنه شعب ميت أو جامد أو ذليل لأنه لا يتحرك فى هذه الأيام ليبطش بالطغاة والمستهترين والمستغلين. لأنه يقبل هذه الأوضاع السيئة التى لايقبلها الآدميون، لأن الخسف والعسف ينزلان به كل يوم، بل كل لحظة وهو ساكن مستسلم. لأن حقوقه القومية وحقوقه الإنسانية وكرامته الآدمية تداس كل يوم، بل فى كل لحظة، فلا يغضب ولا يثور. لأن غيره من الشعوب يتملص ويتخلص أو يضرب ضربة هنا وضربة هناك تدل على أنه حى. ولكن هذا الشعب قد خابت ظنونه فى الرجال! لقد شهد زعماءه يخونونه ويخونون كل مبادئ الشرف والاستقامة طوال ثلاثين عاما أو تزيد ... لقد شهدهم يبدأون حياتهم مكافحين فقراء، ويختمونها إقطاعيين أثرياء. لقد شهدهم يبدأون حياتهم فى شقة للإيجار ويختمونها وهم أصحاب ضياع وقصور. لقد شهد كلمات التضحية والجهاد تنقلب معانيها إلى السمسرة والارتزاق والاتجار فى السوق السوداء. لقد شهد الشرفاء يستحيلون لصوصا ومرتشين وقوادين، لأن هذا هو أقرب الطرق للثراء.

وقبل أن يولد فى هذا الشعب زعماء يولدون فقراء ويموتون فقراء. قبل أن يتساقط على أرضه شهداء لا يطلبون منه ثمن الشهادة. قبل أن يصمد جيل من هؤلاء المكافحين على الشظف والحرمان والأذى والبلاء. قبل أن يحس الشعب أن هنالك مجاهدين لا تسندهم أقلام المخابرات، ولا تسندهم السفارات، بل لاتسندهم هيئات ولا أحزاب، لأن كل فرد من هيئاتهم وأحزابهم مجاهد لا يسنده إلا الإيمان... قبل أن يتم ذلك لن تعود للشعب ثقته فى نفسه ولا فى زعمائه ولا فى أهدافه. لن يستجيب لدعوة ولن يستجيب لرجل. فطالما خدعته الدعوات وطالما خانه الرجال. فمن شاء أن يدعو هذا الشعب إلى تضحيات جديدة فليكن هو نفسه الضحية الأولى. فليعرض عنقه للمشنقة وصدره للرصاص دون تلعثم أو تحرج. فليتقدم صراحة لمواجهة قوى الشر والطغيان فى غير تحفظ ولا تخوف ولا احتراس، وليثق أن الشعب يومها لن يتركه وحيداً.»

★★★

بعد ١٥ سنة و١٨ يوما من نشر هذه الكلمة، قدم سيد قطب عنقه للمشنقة من دون تلعثم أو تحرج فى ٢٠ أغسطس ١٩٦٦ . لم يكن قاتله هو الملك فاروق، الذى نشر سيد قطب فى ظل نظامه الفاسد كلمته هذه العذبة النارية، لكن قاتله كان ثورة ١٩٥٢/٧/٢٣ التى فرح بها وقال عن رجالها يوم قاموا متمثلا الآية الكريمة من سورة الكهف "**إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى**" !

سبحان الله!





الغباء ظاهرة تتزايد فى العالم

بقلم
هديل غنيم

كتب الأستاذ جميل مطر فى عدد يوليو من مجلة الهلال مقالاً شائقاً عن «الغباء»، يتسائل فيه عن أسباب شيوع الغباء بين البشر وازدياده فى الآونة الأخيرة بالذات.
وبقدر ما يحتويه المقال من أقوال ونظريات طريفة عن الغباء للمشاهير من العلماء والفلاسفة، بقدر ما يثير القلق من تلك الظاهرة التى نادراً ما يلتفت الكثيرون إلى خطورتها. فهل الأغبياء بالفعل مصدر خطورة على المجتمع كما يحذرنا الأستاذ جميل مطر؟

ظل السؤال معلقاً، إلى أن وجدت أمامى رواية «الغبى» للكاتب الفذ فتحى غانم. وظهر من الصفحات الأولى للكتاب أن موضوع الغباء قد أثار فضوله واهتمامه إلى أقصى حد، لدرجة أنه يصف كتابه فى أكثر من موضوع بأنه ليس مجرد رواية، بل بحث طويل عن الغباء مبنى على وقائع وحقائق دقيقة. يقول فتحى غانم فى صدر روايته، أن دراسته لشخصية «محمود» أو «الغبى» بطل الرواية، جعلته يحب الغباء من بعض نواحيه.

وبالفعل تنجح هذه الرواية الفريدة فى أن تجعلنا ننظر إلى «الغباء» نظرة مختلفة. فمحمود الغبى الذى لا يفهم وإنما يحفظ المعلومات لكى يرددها مثل الببغاء، يفعل ذلك لأنه يرفض أن يتأثر بمعلومات مفروضة عليه، معلومات لم يخترها هو. لذلك فهو يعلق المعلومات فى رأسه كما نعلق الملابس على المشجب. أى أن عدم الفهم هنا هو نوع من المقاومة ورفض الاستسلام. وعندما تعرض محمود لاختبار ذكاء وهو مازال فى روضة الأطفال، جاء فى التقرير أن الولد متأخر الفهم وضعيف الملاحظة. بينما يفسر لنا المؤلف المشهد من موقف الغبى، فنجد أن مشكلة «الغبى» فى أنه لاحظ الكثير . فبدلاً من أن يقوم بترتيب بعض الحجارة الملونة على طاولة خبير التربية ليبرهن على ذكائه وقوة ملاحظته، أخذ

يلاحظ أنف الممتحن، ولسانه، ورقبته، وذلك الشيء الذى يتحرك فيها، وأصابع الناظرة، والبساط الأخضر فى الغرفة، ولم يمد يده أو يذعن لطلب الممتحن.

ومن ناحية أخرى وضع الكاتب مواهب وقدرات غريبة فى شخصية هذا «الغبى»، فنجده يقدر الجماد والحيوانات والحشرات تقديراً خاصاً ويرمى عليهم السلام كلما مر بهم. وهو لا يخاف الحيونات المفترسة أو الثعابين، وخلال الرواية يقدم على تصرفات تتصف بشجاعة ليست مألوفة بين الأذكياء.

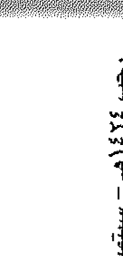
وقد أعادتنى شخصية «محمود» فى رواية «الغبى» إلى شخصية «الأمير ميشكين» بطل رواية «الأبله» لدستوفسكى. هنا أيضاً نحن أمام إنسان مختلف. إلا أن مشكلة الأمير أو الأبله تكمن فى مثاليته المفرطة ، وتحليه بالأخلاق المسيحية فى أنقى صورها . فهو عطوف ومحب ومحسن وصبور ومتسامح . ولكنه فى علاقاته بغيره من البشر يضر بنفسه ويضر بالآخرين ممن يحبهم. وهو لا يفهم ولا يلاحظ حين يسخر منه أحد الأشخاص، ولا يستطيع أن يدرك التصرفات الخبيثة من حوله، بالرغم من أنه يمتلك قدرة خارقة على النفاذ إلى أرواح وأعماق الشخصيات التى يراها، فيدرك جوهرها ويكتشف جوانب ضعفها ومخاوفها الدفينة مما يزيده تعاطفاً وتسامحاً مع تلك الشخصيات التى تترصده بالشر.

وعلى الرغم من روعة هذه الأعمال الأدبية ونجاحها فى تصوير سمات سيكولوجية وعقلية يعجز العلماء عن التعبير عنها، فقد قررت الابتعاد قليلاً عن خيال الأدباء ومعانيهم المركبة، حيث إن الروايات قد تحتمل أكثر من تأويل وأكثر من مستوى. وانتقلت إلى المعاجم وقواميس البلاغة العربية لكى أبحث عن تعريف أقل سيولة وأكثر تحديداً للغباء، وأعرف الفرق بين الغبى والأبله والبليد والأحمق، ربما أتوصل إلى أيهم أشد خطورة على المجتمع.

غير أننى وجدت أن قواميس اللغة العربية تؤيد نظرة الأدباء الشاعرية للبلهاء. ففى محيط «الأبله هو الغافل عن الشر أو الأحمق الذى لا تتمييز له والحسن الخلق، والقليل الفطنة لمداق الأمور». وفى مختار الصحاح فإن الأبله هو «الذى غلبت عليه سلامة الصدر». بل ويضيف المختار أن هناك حديثاً نبوياً يقول «أكثر أهل الجنة البله» مفسراً: «يعنى البله فى أمر الدنيا لقلة اهتمامهم بها». أما الغبى فهو «قليل الفطنة والجاهل». بينما الحمق هو «قلة العقل». أما عن البلادة، ففى المحيط أن الجمل أو الحمار إذا كان لا ينشطه تحريك فهو بليد . وبلد الرجل أى فتر طبعه من الابتهاج إلى المحاسن العقلية، وضد ذكاء وفطن، والبلادة ضد الذكاء.

خطر الحمق والبلادة

وحسب هذه التعريفات، فإننا لا يجب أن نخشى البلهاء الطيبين، وربما لهذا شاع فى الثقافة الشعبية حب المجاذيب واعتبارهم مصدراً للبركة. ولكن مما لاشك فيه أن «قلة العقل» أو الحمق مصدر الخطر، بينما البلادة هى مصدر التخلف والجمود



الحضارى. وقد ذكر الأستاذ جميل مطر فى مقاله أن لكل نصيبه من الغباء. وهو ما يؤكده الدكتور روبرت سترنبرج أستاذ العلوم النفسية والسلوكية والذى تخصص فى دراسة الحماقة. فهو مؤمن بأن الأفعال الغبية تصدر عن الأذكياء. وهو يعتبر أن الغباء ليس نقيضاً للذكاء وإنما نقيضاً للحكمة. ويرى سترنبرج أن شخصيات تتسم بالذكاء الشديد مثل الرئيس نكسون أو الرئيس كلينتون تتورط فى أفعال تتسم بالغباء، يرجع إلى نوع من «قلة العقل» الذى ينتاب الأشخاص حين يسيطر عليهم الغرور أو الطمع. إذن فالأخلاق الفاسدة تفسد التفكير المنطقى.

وفى نفس الاتجاه جاء كتاب «الذكاء العاطفى» للدكتور دانييل جولمان ليحدث ثورة فى النظرة التقليدية لأهمية الذكاء العقلى. صدر الكتاب عام ١٩٩٥ (ونشرت ترجمته العربية فى سلسلة عالم المعرفة). ومنذ ذلك الحين شاعت نظرية جولمان التى قللت من شأن الذكاء المنطقى الذى يقاس بمقياس (IQ) لتعطى أهمية أكبر للذكاء العاطفى الذى يتمثل فى الوعى بالذات والقدرة على الشعور بالآخرين، والقدرة على التحكم وضبط الانفعالات، وتنظيم الحالة النفسية، وحث النفس فى مواجهة الإحباطات، والقدرة على تأجيل الإشباع، والحفاظ على التفاؤل.

وكان من شأن الشهرة التى اكتسبتها نظرية جولمان فى الذكاء العاطفى، أن بدأت بعض الجامعات المختلفة تعيد النظر فى جدوى الامتحانات التى تجرى حسب مقياس (IQ) والأهمية التى تعلقها على الدرجات التى يحرزها الطالب فيها. والمعروف أن هذا المقياس وضعه العالم الفرنسى ألفريد بينيه فى أوائل القرن العشرين وجرى تطويره فى الولايات المتحدة، وتعتمد عليه بعض امتحانات القبول فى نظام التعليم الأمريكى، وكذلك فى الجيش الأمريكى والعديد من الشركات والمنشآت الاقتصادية التى تختبر قدرات المتقدمين فى الوظائف المختلفة.

وجاء جولمان ليثبت أن هذه الاختبارات تشتمل على نظرة ضيقة جداً للذكاء، وأن الذكاء العاطفى هو المؤشر الأهم لاستمرار نجاح الشخص سواء فى حياته العملية أو حياته العائلية. مثال ذلك دراسة أجريت على مجموعة من ٨٠ طالباً من طلبة الدكتوراة فى العلوم فى الخمسينيات، حيث تعرضوا لاختبارات نفسية واختبارات الذكاء (IQ) وبعد مرور أربعين سنة تم تتبعهم وقد بلغ معظمهم أوائل السبعينيات من أعمارهم. فكشفت المقارنة أن هؤلاء الذين حققوا مراكز علمية واجتماعية ومرتفعة هم الذى أحرزوا درجات أكبر فى الامتحانات النفسية، وأن أهمية القدرات الاجتماعية والعاطفية بلغت أربع أضعاف أهمية مقياس الذكاء (IQ).

واتضح من ذلك أن الجوانب المعرفية فى العقل مثل الذاكرة والقدرة على حل المشكلات التى ركز عليها العلماء فى السابق لا تكفى لكى يتأقلم الإنسان مع الحياة ويحرز النجاح فى العمل. وهذا بالضبط ما توصل إليه فتحى غانم فى رواية الغبى. فقد وصل محمود بغبائه الذى لاشك فيه إلى منصب وكيل وزارة وعاش حياة أسرية

مستقرة.

الذكاء العاطفى

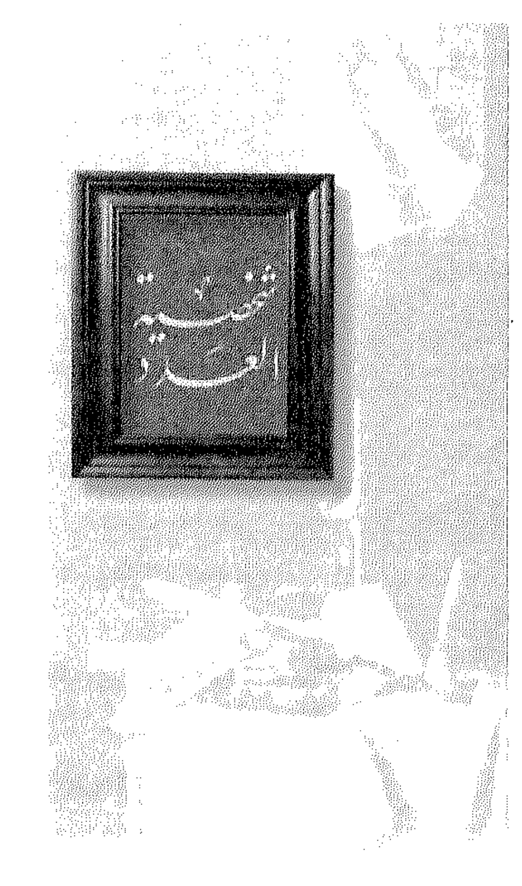
وقد استفاد جولمان من المفاهيم والدراسات التى شاعت فى الثمانينات حول «الذكاء المتعدد» والذكاء الاجتماعى» حتى تم صك تعبير «الذكاء العاطفى» عام ١٩٩٠ على يد سالوفين وماير. ويؤكد جولمان أن أمراضاً وشروراً كثيرة نعانى منها فى المجتمع تكمن جذورها فى «الغباء العاطفى». فهو الذى يؤدى إلى التصرفات التى تتسم بالأنانية والعنف وعدم التقدير للآخرين، وبالتالى فإن له آثاراً تدميرية على المجتمع. ويعتقد جولمان أن المجتمع سيتحسن كثيراً إذا تعلمنا ضبط عواطفنا وانفعالاتنا لنزاوج بين التفكير والإحساس.

وفى التراث اليونانى القديم، تقول الأسطورة أن أحد الآلهة استحوذ على «قوة العقل» ولكنه لم يستطع الصمود طويلاً أمام «الغضب» و«الشهوة». مما يعنى أن الغباء العاطفى أكثر خطورة وإيذاءً للمجتمع من الغباء العقلى أو المنطقى. ومن الملفت أيضاً أن المصريون القدماء اعتقدوا أن القلب هو مركز كل من الذكاء والعاطفة.

وفى هذا الخصوص يقول جولمان فى كتابه أن لدينا فى الحقيقة عقلين، عقل يفكر، وعقل يشعر. وهما يمثلان طريقتين مختلفتين للمعرفة. طريقة العقل المنطقى وطريقة العقل العاطفى. ويضيف جولمان أن هذا التقسيم الثنائى إلى عاطفى ومنطقى يقترب من التمييز الشائع بين العقل والقلب. فالمعرفة بالقلب. والكلام لجولمان - نوع من المعرفة أعمق من اليقين.

وقد أعادتنى هذه الملاحظة من جولمان إلى التعريفات التى وجدتها فى معاجم اللغة العربية، وذلك لأنها تربط الذكاء والفهم بالقلب وليس بالعقل كما تعودنا أن نربط فى ثقافتنا المعاصرة. فقد عرف مختار الصحاح الذكاء بأنه «حدة القلب». بل إن استخدام كلمة القلب للإشارة إلى العقل مجاز أصيل فى اللغة العربية، وتؤكد آيات القرآن الكريم على هذا، إذ يقول تعالى عن الضالين : «لهم قلوب لا يفقهون بها» وكذلك «أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها». فمن الواضح أن فى ذلك حكمة أعمق من مجرد المجاز اللفظى .

الجدير بالذكر أن أحد نقادنا ومفكرينا البارزين قد سبق جولمان وماير بعدة سنوات فى صك تعبير «الذكاء العاطفى». فقد كتب الراحل سلامة موسى فصلاً فى كتاب «هؤلاء علمونى» عنوان : دستوفسكى وذكاء العاطفة. فقد لاحظ سلامة موسى أن قصص دستوفسكى التى تشع بالإيمان تتسم بالإحساس والذكاء معاً، ووصفها بأنها إحساس فوق الذكاء وخيال فوق العقل، حتى انه يقول بأن دستوفسكى يمثل بالنسبة للإنسانية «عبقرية الإحساس». ويدافع سلامة موسى عن هذا الإفراط فى الحنان وجمال الخيال قائلاً «انه حتى إذا تسبب فى مناقضة العقل والمنطق فإنما كما كان يناقضه غاندى وتولستوى». أى أن الأبطال الذين يخدمون الإنسانية يدفعهم ذكاء القلب الذى قد يناقض ذكاء المخ . ■



الأستاذ الدكتور



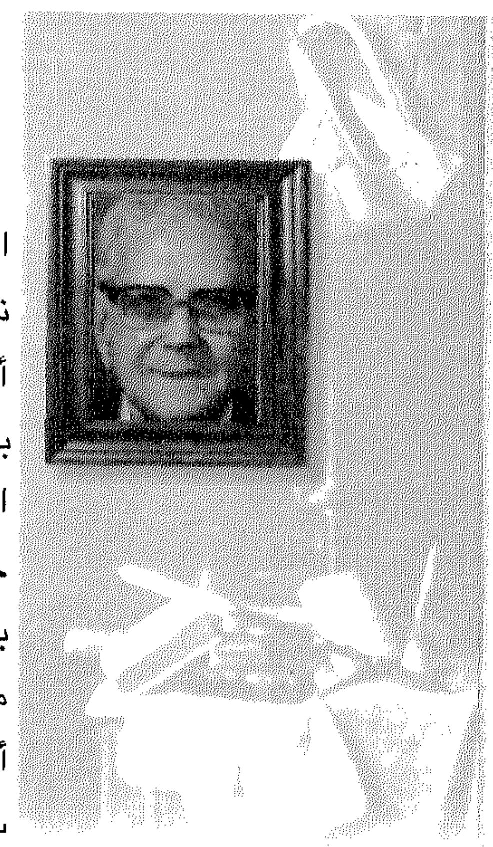
لا يوجد قسم يفوق قسمه في اكتمال أدواته !!

بقلم
د. محمد الجوادى

محمود حافظ هو العمود الفقرى لخيمة العلم المصرى المعاصر، ونحن ندرك قيمة العمود الفقرى لأى كيان وإن كنا لا نحيط بالحدود التى تظللها خيمة العلم المصرى على نحو مايحيط هو بها ، ومحمود حافظ هو الرمز السامق للعطاء فى مصر المعاصرة، أنعم الله به على بلاده ليكون نموذجا يقتدى به، ومنارا عاليا يهتدى اليه طيلة حقبة الزمن الممتدة التى شهدت تأسيس المدرسة العلمية الوطنية الحديثة وظهورها ونموها وتفرعها وانتشارها وتكاثرها، وقد ظل طوال هذه المراحل فى مكانة متقدمة جدا من ضمير أمته ووجدان علمائها، وقد أهله لهذه المكانة تصوفه العميق من أجلها، فلا نعرف جميعا بين أعلامنا من وهب حياته كلها مضاعفة ومكثفة ومركزة زمانا ومكانا للمدرسة العلمية الوطنية فى مجال تخصصه .



ولاشك فى أن هناك عوامل كثيرة قد أعانته على هذه الصوفية النادرة، فقد وهبه الله نفسا راضية سامية، وعقلية ناقدة رائدة، كما أنعم عليه بالهيام بشخصه ممن عرفوه فى أربعة أجيال هى أجيال السابقين عليه والمعاصرين له واللاحقين به وتابعى اللاحقين، اقول هياما ولا أقول وجدا ولا حبا ولا احتراما فحسب، ذلك أن محمود حافظ هو الشخص النادر الذى حظى ولا يزال يحظى بالاجماع، وهو النادر أيضا فى أنه حظى بالإجماع على شخصه فى مجموعه من ناحية، وعلى جميع ماقيه من ناحية أخرى، وكلنا يعرف إلى أى مدى نعتقد جميعا فى ألمعيته ونسلم له بالقيادة ونمضى وراءه ونحن مطمئنون الى أننا سننال الصواب والحكمة والانجاز.



● ساعد على مضاعفة انجازاته انه استعذب التصوف من اجل العلم

رائد علم الحشرات

محمود حافظ هو بلا جدال رائد علم الحشرات فى مصر، توسم فيه أستاذاه على مشرفة وحسن شاكر أفلاطون الألمعية المبكرة فاجتبياه لهذه المهمة النبيلة، وقد كان عالمنا عند حسن الظن به بل ربما أتيح له أن ينجز مالم يكن بخاطره أن ينجزه فى بداية حياته وفى عنفوان شبابه، ومالم يكن أستاذاه يتوقعانه منه، وقد ساعده على مضاعفة إنجازه أنه استعذب التصوف من أجل العلم واستلذ به فإذا بالتصوف يعطيه الفرصة من حيث لا يدرى لتحقيق ذاته وليؤكدها وليفرض بصماتها على كل ركن فى حياتنا العلمية، وقد قدر له أن يؤسس ويطور مدارس متعددة لعلم الحشرات لا فى كليته وحدها وانما فى كل موقع علمى له علاقة من قريب او من بعيد بعلم الحشرات، وإليه - على سبيل المثال - يرجع الفضل فى تأسيس قسم الحشرات فى المركز القومى للبحوث، وفى مؤسسة الطاقة الذرية، والمركز الاقليمى للنظائر المشعة، ومعهد بحوث الحشرات فى وزارة الصحة، فضلا عن أقسام الحشرات فى كليات العلوم فى كل الجامعات المصرية وما

يتصل بها من دراسات فى الكليات الجامعية الأخرى كالزراعة والطب، والطب البيطرى .

متحف وقسم للحشرات

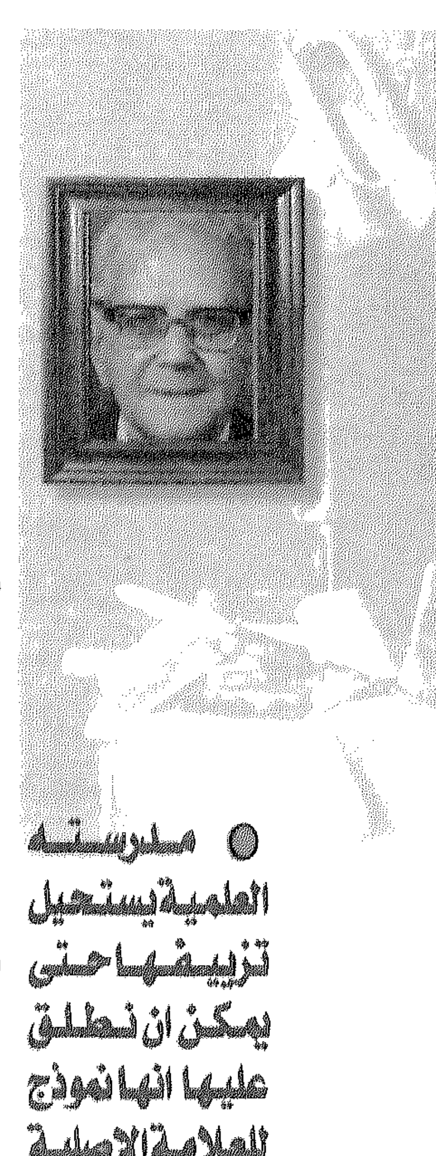
وليس هناك فى جامعاتنا المصرية كلها قسم يفوق قسم الحشرات فى جامعة القاهرة من حيث اكتمال ادواته المعمارية والبحثية والمتحفية، وقد تسلم الدكتور محمود حافظ راية هذا القسم من أستاذه العظيم أفلاطون فأبدع فى صياغة مملكة هذا القسم بداية من المشاركة فى الرسم الهندسى له والاشراف على التنفيذ ثم فى استغلال المبنى على نحو رائع للعرض المتحفي العلمى الخالد على مدى الأعوام، ومن الإنصاف أن نشير فى سرعة الى عظمة واكتمال المجموعة المتحفية (التى يضمها هذا القسم/ المتحف) للحشرات فى بيئاتها المختلفة مع التأصيل والتوصيف العلمى الدقيق لكل من هذه المعروضات، كما أن صالات العرض الذى يضمها تتفوق على كل صالات العرض الجامعية والعلمية والمتحفية فى اى معهد مماثل بل انها تصل فى رحابتها وتنظيمها وقدرتها على أداء الغرض العلمى النبيل إلى مستوى قاعات اللوفر ومتحف التاريخ الطبيعى وذلك بفضل مثابرة دائبة وتميز نادر فى توظيف الفنون والذوق من أجل العلم والتعليم .

وبالاضافة الى هذا الانجاز الضخم فى تخصصه الدقيق فإن محمود حافظ علم فرد بين المهتمين بتاريخ العلم وفلسفته، وبين المسئولين عن الإدارة العلمية والجامعية، وبين رواد البحث العلمى والنشر العلمى كذلك، كما انه القطب البارز فى الجهود التطوعية والأهلية وغير الحكومية فى العلم وفى غير العلم، وهو علم خفاق فى العمل النقابى، وهو صاحب الصوت المسموع فى المجالس القومية المتخصصة، والمجالس العلمية المتعاقبة، وهو شيخ من الشيوخ الذين يعول على آرائهم ويعتمد على أفكارهم فى اللغة العلمية وفى المصطلحات وفى تنقيحها وتوحيدها.

راعي البحث العلمي

وقد كان اداؤه فى كل هذه المجالات متميزا الى حد معجز، فهو نموذج عبقرى لانصهار خلقين نادرين يبدوان متناقضين، فهو الأستاذ الدقيق





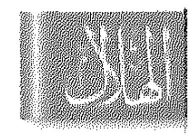
والحنون فى الوقت نفسه، وقد ظل يأخذ تلاميذه بشدة يبطنها الحنو وهى خاصة ليس لها مثيل لأنها شدة موضوعية متسامية تحرص على أن تعود هؤلاء التجويد الرفيع فى الشكل والمضمون، وهو يحتضنهم الى حد لا يدع فرصة لأى مؤثر خارجى ان ينفذ إليهم بعيدا عن العلم والبحث العلمى، وهو يكاد يدفعهم دفعا الى الترهبن وكأن مكتبه ومدرسته ومعمله ومكتبته بل بيته تشكل مع بعضها دارا للرهبنة لا يخرج منها الباحث الذى دخلها الا وهو عالم قوى وباحث متميز فى الوقت نفسه. وهو فى أستاذيته حريص كل الحرص على الشكل والمضمون فى الوقت ذاته، وحريص كل الحرص على تنمية مهارات تلاميذه وقدراتهم حتى فيما يبدو بعيدا عن مجال العلم، ويكفى على سبيل المثال أن نتأمل تعويده لهؤلاء التلاميذ على ألا يقدموا بروفات بحوثهم إلا مطبوعة وكأنها جاهزة للنشر، وكان يفعل هذا فى وقت مبكر جدا. كما يكفى على سبيل المثال فهمه لقيمة إتاحة الصورة والعلم على الجدران فى أعظم متحف حائطى على جدران قسم الحشرات، إضافة إلى المتحف الضخم الذى لا نظير له الذى يقوم قسم الحشرات ومكاتبه ومعامله من حوله فى مبنى فريد متميز ينطق من داخله بعظمة هذا الرجل ودأبه وحبه لعلمه ، وتفانيه فى البحث العلمى.

● مدرسته العلمية يستحيل تزييفها حتى يمكن ان نطلق عليها انها نموذج للعلامة الاصلية

صاحب مدرسة علمية

ومع أنه درس فى كمبردج فإنه فى عظمة أدائه العلمى يفوق كمبردج، ومدرسته العلمية هى ابرز نموذج لما يسمى فى المنتجات التكنولوجية بالعلامة الأصلية التى يستحيل تزييفها أو الانتساب إليها فى تسرع أو بمجرد الرغبة، ومع أنه كان يعنى عناية فائقة بمستوى تلاميذه، فإنه قد استطاع مع الدأب الجميل والعمر النبيل أن ينمو بمدرسته إلى حدود قصوى لم يتمكن أحد ممن سبقه إليها ولا إلى اللحاق به فى مستواها وفى عدد أبنائها .

وقد ظل منذ أكثر من ثلث قرن من الزمان بمثابة الملاذ الآمن



الذى يلجأ إليه العلماء من أجل قيادته الحكيمة لحركتهم العلمية، وقد هدته الحكمة الإلهية الموهوبة من الله إلى أن يدرك الوسائل الذكية والطرائق الناجعة الكفيلة بالحفاظ للعلميين على مكانتهم وعلى حقوقهم فى مجتمع بدأ يلهث لهثا شديداً وراء المادة ووراء الإعلام الصاخب، وقد تمكن بفضل شخصيته وتاريخه من أن يحفظ للعلماء والبحث العلمى فى العلوم مكانته السامقة فى الجامعة الأم والجامعات الأخرى، و فى أكاديمية البحث العلمى، وفى كل المؤسسات الأخرى المعنية بالعلوم

حكمة التجربة وبلاغة الحديث

وهو كاتب دقيق، رائع الألفاظ والمعانى، وهو يفعل هذا حتى فيما يظنه الآخرون روتينا، وأنت تقرأ له فتحس بأنك ترتقى بنفسك إلى آفاق صوفية من آفاق العلم العليا، وتستطيع أن تفهم مما يكتب أبعادا لم تفهمها من قبل فيما قرأت، بل فيما درست وظننت نفسك أستاذا فيه .

وهو إلى كل هذا، خطيب رائع يأخذ بمجامع القلوب، هادئ الصوت، عميق النبرة، تحس وأنت تستمع إليه أنك تستمع إلى عالم جليل من علماء القرون الوسطى الذين جمعوا الحكمة والفلسفة مع العلم والأدب، وهو قبل كل هذا رئيس رائع ملتزم بالموعد لا فى البدايات وحدها ولكن فى النهايات أيضا، وهو من هذه الناحية قادر على أن يجعل لكل اجتماع أو حفل يرأسه نهاية محددة بحيث ينتهى الاجتماع أو الحفل أو الإنجاز بالقدر الكامل من الوقار الذى بدأ به، وهو من أجل هذا يتحمل الظروف القاسية والطارئة، ويعيد توظيف المعطيات ليخرج بأفضل النتائج دون أن يشعر أحد بالمعاناة التى بذلها من أجل تحقيق الإنجاز .

وهو على الدوام أينما سار وأينما جلس محوط أو مصحوب بأفذاذ الرجال والسيدات من علمائنا، كما أنه مصون فى قلوبهم وعقولهم إلى حد لا يبارى فيه ولا يصل إليه غيره

وهو بالنسبة الىّ مثل أعلى طيلة أكثر من ربع قرن حمانى الله بوجوده وبمعرفته وبعطفه وتوجيهه وتشجيعه من الاحباط واليأس والقنوط والغرور والكبر والشرود على حد سواء .

■

الفيلسوف الرومانى الناسك الذى سبق عصره



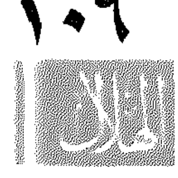
فيلسوف المسيحية الأول

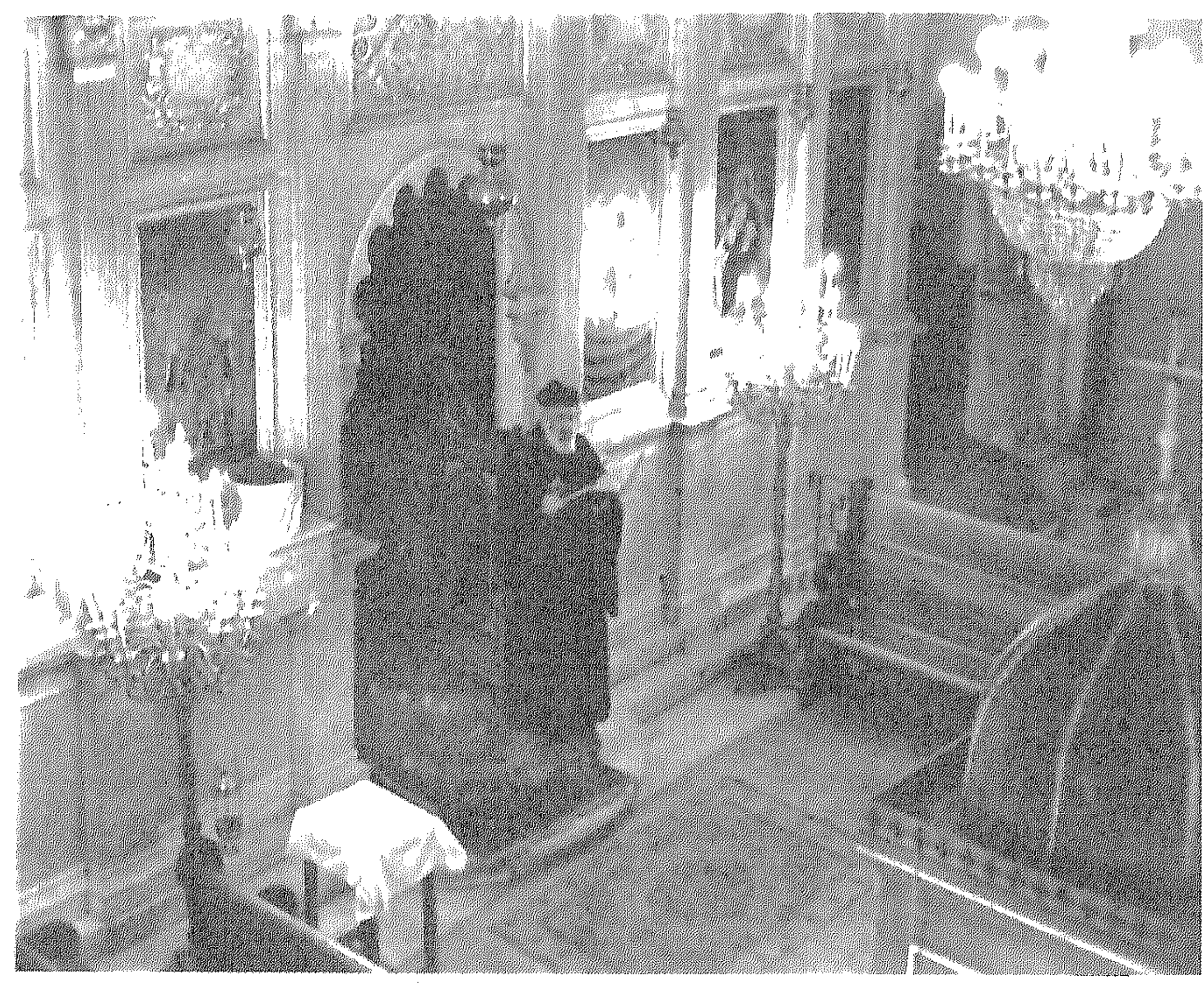
كتب ألف كتاب

لماذا أدين أوريجينوس واضطهد بقرار كنسى؟

بقلم
د. فكرى اندراوس
كنيتكت - الولايات المتحدة

عالم وفيلسوف سابق لعصره كتب ما بين ستمائة وألف كتاب ووضع أسس التفسير الرمزى للكتاب المقدس . كان متبحرا فى الفلسفة اليونانية واستخدمها فى تفسيراته . ولد ذلك المعجزة بالإسكندرية سنة ١٨٥م ، رأس مدرسة اللاهوت وعمره ثمانى عشرة سنة ، توفى سنة ٢٥٤ بمدينة صور بلبنان الحالية تاركا ثروة ثقافية تفوق الخيال . أثناء حياته وبعد وفاته صدرت ضده قرارات كنسية بالهرطقة والإدانة سنة ٢٣١ ثم سنة ٤٠٠ ومرة أخرى سنة ٥٥٣ .





شيدت الكنيسة المرقصية بالإسكندرية فى القرن الأول الميلادى

وقد أدانه أيضا الإمبراطور الرومانى جوستين Justin-ian سنة ٥٤٣ . وفى تلك الفترة التحمت الكنيسة بالدولة وأصبح وجود خلاف كنسى يهدد وحدة الإمبراطورية . منذ ذلك الوقت أصبحت قراءة أعمال أوروجينوس محرمة وكان الإحتفاظ بها عملا غير شرعى ودمرت أغلب أعماله الأصلية . ولكن من حسن الحظ حفظت بعض أعماله وهى تلك التى ترجمت إلى اللاتينية أو التى وجدت طريقها فى كتابات آخرين .

إن علمـــاء اللاهوت والتـــاريخ المعـاصـرين يعيـدون اكـتشـاف أعـمـال ذلك الفـيلسوف . وإن كـان هذا الاكـتشـاف مـصـحـوبا ببـعض الجدل إلا أنه مـصـحـوب أيضا بكثير من الإعجاب والاحترام . وابتداء من سنة ١٩٧٣ تعقد مؤتمرات دورية عن أعـماله وآخر مؤتمر منها عقد سنة ١٩٩٦ وقد إشـترك فـيه ٥٦ عـالما من جامعات الغرب المختلفة ونشـرت أعـمـاله في كـتـاب يضم ٨٣٣ صـفـحة وفي مكتبة جامعة بيل Yale والتى إستخدمتها فى تحضير هذا المقال يوجـد ٨٥١ مرجـعا عن ذلك الفيلسـوف المصـرى الذى لا نعـرف عنه إلا أقل القليل.

***

وقـبل الدخـول فى مـوضــوع هذا الفـيلسـوف المصـرى ، لابد من وقـفـة قصيرة حول دخول المسيحية لمصر وعن بداية مدرسـة الإسكندرية للاهـوت وهـى أول مــدرســة من نوعـهــا فى العــالم المسـيحى والتى سـاهمت إلى حـد كـبير فى تشكيل المسـيحـية حـتى سنة ٤٥١ حين انفـصلت الكنيسـة المصرية وبعض الكنائس الشـرقـيــة عن باقى كنائس الإمـبـراطورية الرومـانيــة احـتـفـاظا بشخصيتها القومية .

دخلت المسـيحـيـة مـصـر عن طريق الإسكندرية على يد القديس مرقص سنة ٤٣م ، وهـو أول بطريرك مـصــرى عن سلسلة لم تنقطع من البطاركـة آخـرها الأنبا شنودة الثالث والبطريرك الحالى . وقد كتب القديس مرقص الإنجيل الذى يحمل اسمه فى مدينة الإسكندرية وهو أحـد الأناجيل الأربعة التى تمثل العـهد الجديد فى الكتاب المقدس .

ويعـتـقـد البـعض أن بداية مـدرسـة الإسكندرية تعــود إلى زمن القـــديس مـرقص إلا أنه لايوجـد دليل على ذلك . وأغلب الظن أنها قد بدأت فى وقت مبكر بداية بسيطة بهـدف تعليم المسـيحـيـة لراغـبى الانضـمــام إليـهــا . وكــانت المسـيحـيـة قد بدأت فـى الانتشـار فى أوسـاط البـسطاء . وكـانت هنـاك أوجـه تشابه بين المسيحية وديانة مصر القديمة وخـصــوصــا الثــالوث إيزيس وأوزيرس وحورس .

وكـانت الإسكندرية فى ذلك الزمـان أكبر مركز ثقافى فى العالم وكانت تكتظ بالمثـقـفين والفـلاسـفـة . وكـان لابد لرواد المسـيحـيـة أن يتكلمـوا لغة ذلك العـصـر حـتى يتـمكنوا من التـحـاور مـع هؤلاء المثقفين والفلاسفة الذين حارب بعضهم هذا الدين الجديد . ولم يمض وقت طويل على مـــدرســة اللاهـوت حـتى تطـورت وأصبحت قادرة على هذا الحوار وكانت المدرسـة سـعيـدة الحظ بروادها الأوائل بداية من أواخـر القـرن الثـانى . وقـد أنجـبت المدرسـة العـديد من علمــاء اللاهوت والفلاسفة بل والعلماء ، فكان أوروجينوس (Origen) وقبله كليمنتص (Clements) وبعـــده ديديمـوس الضرير (Didymus) والذى إختـرع طريقة تمكن العميـان من القراءة وهى تشبه طريقة بريل (Braile) وإن سبقته بحوالى ١٥٠٠ سنة ، وغير هؤلاء كثيرين آخرين .

وأول رئيس ذاعت شـهـرته لمدرسـة

اللاهوت هو بنتينوس (Pantaenus) حوالى سنة ١٨٠م . وكان بتنينوس ذا علم بالفلسفة اليونانية وفى عهده أصبحت المدرسة أكثر تنظيما ويعد من أوائل من كتبوا باللغة القبطية وهى اللغة المصرية القديمة الديموطيقية مكتوبة بحروف يونانية بعد إضافة سبعة حروف إليها وقد استخدمت اللغة القبطية لترجمة الإنجيل . ولم يستمر بتنينوس فى رئاسة المدرسة لأكثر من عشرة سنين حيث كلفه البطريرك المصرى سنة ١٩٠م بمهمة فى الهند ترك على أثرها المدرسة فى رئاسة تلميذه النابغة كليمنتص الأسكندرى .

حضر كليمنتص للأسكندرية من أثينا وكان قد درس الفلسفة اليونانية بفروعها المختلفة . إعتنق المسيحية فى الاسكندرية وتتلمذ على أيدى أستاذه بتنينوس . ويعد أول من طوع المدرسة لدراسة الفلسفة اليونانية كمدخل لمخاطبة أهل الأسكندرية المثقفين وقد إحترم العلم والثقافة كثيرا فقال أن الجهل أسوأ من الخطيئة . كتب ثلاثة مراجع رئيسية معروفة وإن كان قد كتب أيضا عن الثقافة المعاصرة والأداب العامة وكان أستاذ أوروجينوس الذى أدى إلى إتهامه بالهرطقة وتدمير الكثير من كتاباته . رأس المدرسة منذ حوالى سنة ١٩٠م وحتى سنة ٢٠٢ حين أضطر لترك الأسكندرية نتيجة الاضطهاد الشديد . وقد خلفه فى ظروف صعبة تلميذه أوروجينوس وكان عمره ثمانية عشرة عاما.

ولد أوروجينوس بمدينة الأسكندرية واسمه مشتق من اسم حورس أو أورس وكان والده لينودس (Leonides) مثقف وصاحب مكتبة ذاخرة وقد ربى ابنه تربية مزدوجة بين علوم ذلك الزمان وبين الدين المسيحى . منذ الصغر درس أوروجينوس الفلسفة اليونانية وكان يلتهم العلوم التهاما . كان ذلك الوقت وقت اضطهاد شديد للمسيحيين حيث كثر عددهم وأصبح ولاؤهم للدولة مشكوك فيه فعذبوا واستشهد منهم الكثير ومن ضمنهم والد أوروجينوس والذى صودرت أيضا ممتلكاته ، والغريب أن أوروجينوس شجع والده على الاستشهاد بل وكتب كتابا فى وقت لاحق عن الاستشهاد .

أصبح أوروجينوس فى سن صغيرة مسئولا عن والدته وستة أخوة مما اضطره إلى بيع مكتبة والده واقتات من تدريس قواعد اللغة وكان أيضا منتظما فى مدرسة اللاهوت وتتلمذ على أيدى استاذه كليمنتص والذى لاحظ موهبته الفذة فى تحصيل العلم وقدرته العالية على التفكير المستقل . واشترك فى التدريس بالمدرسة فى سن مبكرة . وعندما اضطر كليمنتص لترك الاسكندرية خلفه أوروجينوس سنة ٢٠٠٢ .

ترك كليمنتص بصماته على المدرسة أما أوروجينوس فقد انطلق بها إلى الأمام فأصبحت المدرسة تدرس بخلاف علوم اللاهوت الرياضة والطبيعة والفلك والموسيقى . وقد دفعت الاسكندرية ومدارسها بثقافتها الرائدة مدرسة اللاهوت للتقدم ولم يكن من العسير بعد

أن ارتفع مستواها اجتذاب بعض المثقفين والفلاسفة للمسيحية ، ومع أن أوروجينوس كان رئيس للمدرسة إلا أنه كان دائبا على تحصيل العلم فكان يحضر محاضرات أمونيوس صاحب مدرسة الافلاطونية الحديثة وكان أمونيوس مسيحيا إلا أنه تركها للفلسفة ولم يمنع ذلك أوروجينوس من سماع محاضراته التى تأثر بها ولم يعتبر الفلسفة مناهضة للمسيحية بل إنه قال إن أفلاطون أقرب الفلاسفة للمسيحية لأنه صديق الحقيقة .

أصبحت مدرسة اللاهوت فى عهده ذات شهرة واسعة فى العالم القديم . وكان هناك احتياجات كثيرة لأوروجينوس خارج مصر فسافر لروما وأثينا وفلسطين والقسطنطينية والعربية وغيرها وأصبح بعض الأساقفة داخل مصر وخارجها من تلاميذه وكانوا جميعا يفخرون بذلك . ورغم تلك الشهرة الواسعة إلا أنه كان إنسانا شديد التقشف والزهد فغالبا ما كان يسير حافى القدمين رث الثياب . وقد كان لذلك تأثير مباشر على الرهبنة المصرية رائدة الرهبنة فى المسيحية .

كانت الكتابة تنساب من قلمه كنهر متدفق وقد تبناه أحد المقتدرين فعين له سكرتارية من سبعة أشخاص بالإضافة لعدد من الناسخين ، وقد أصبحت تلك المجموعة بمثابة دار نشر صغيرة ومتخصصة .

وكتابات أوروجينوس يصعب حصرها ، وإن كان هذا أيضا خارج نطاق هذا المقال إلا أنه لابد من إعطاء القارىء فكرة مبسطة جدا عن بعض كتاباته المهمة . لقد كتب ما يعرف باسم السداسية Hiexapla وهو أول محاولة قامت على مستوى علمى فى دراسة نصوص العهد القديم (التوراة) وشملت السداسية ستة أعمدة متوازية للنص العبرى القديم والنص العبرى بحروف يونانية والترجمة السبعينية (ترجمها (٧٠) سبعون حاخاما فى مدينة الاسكندرية) وثلاثة نصوص يونانية مختلفة . بالإضافة إلى أنه فسر الكثير من العهد القديم تفسيرا رمزيا ولم تك التفسيرات للعامة بل كانت للخاصة المتعلمة والمثقفة حتى لا يساء فهمها . ويعد هذا العمل الضخم من أهم أعماله وقد كرس أغلب حياته لتلك الترجمة . وقد استغرق ذلك ٢٨ سنة وقد كتبت فى موسوعة من ٥٠ كتاب .

وتشمل بعض أعماله الأخرى الكثير من التعليقات والتفاسير فمثلا كتب خمسة عشر كتابا عن انجيل مرقص وخمسة وعشرين كتابا عن انجيل متى واثنتين وثلاثين كتاب عن انجيل يوحنا وأربعة كتب عن انجيل لوقا . هذا بالإضافة إلى كتاب عن المبادىء ومجلد عن «فى البدء كانت الكلمة» وكتاب عن تعاليم أفلاطون وأخر عن الصلاة وحوالى مائة خطاب مطول خلاف العديد من الردود المطولة على الفلاسفة المعادين للمسيحية وكتب أخرى كثيرة لا مجال لذكرها هنا .

وتفسيرات أوروجينوس فى غاية الأهمية لأنها بالإضافة إلى التفسير الحرفى البسيط فإنه استخدم التفسير

الرمزى والروحانى وهذا النوع من التفسير وليد الفلسفة اليونانية . ولا اعتقد أن الدخول فى مجال التفسير الرمزى مناسب لهذا المقال إلا أنه هناك مثال مناسب نستطيع أن نفهمه بسهولة وهو إسرائيل والمسيح . تقول نبوءات التوراة أن المسيح سوف يأتى ليحرر المأسورين ولإعادة بناء مدينة الله وليقيم مملكة أرضية تحكم العالم كله . وهذا هو التفسير الحرفى أيضا لتلك النبوءات وبناء على ذلك رفضت رسالة المسيح من بعض اليهود لأنه لم يطرد الرومان ولم يحرر اليهود . ويرى أوروجينوس أن أول المخطئين فى تفسير التوراة هم اليهود لتمسكهم بالتفسير الحرفى ورفضهم رسالة المسيح الذى جاء برسالة سلام ، رسالة لتحرير النفس البشرية وليس لتحرير من استعمار رومانى أو غيره .

وإن كان التفسير الرمزى يفتح المجال لتطوير مفهوم الدين إلا أنه سيف ذو حدين حيث قد يختلف البعض مع أى تفسير لكتاب مقدس إلا أن بعض العلماء المعاصرين يعتبرون أن تفسيرات أوروجينوس الرمزية تشبه الفن التجريدى حيث يرى فيه الإنسان ما يريد أن يرى وهذا يناسب التفسير المتطور والمعاصر للمسيحية . ولكن هذا قد لايناسب بعض الكنائس التقليدية والمحافظة .

المضايقات والحرمان الكنسى

من الصعب تحليل شخصية أوروجينوس تلك . والشخصية التى بلغت هذا التفوق لابد أن تثير الحب والكراهية معا . وكما سنرى أن أغلب متاعب أوروجينوس كانت نتيجة الضعف البشرى . وسأتحدث هنا ببعض التفصيل عما حدث له خلال حياته أو بعد وفاته حيث أن رواد تطوير مفهوم الدين (ليس فى المسيحية فقط) ما زالوا يلاقون الكثير من التعسف والاضطهاد .

ابتدأت متاعب أوروجينوس فى الاسكندرية حيث كان البطريرك المصرى ديمتريوس (٢٣١ - ١٨٩) غير سعيد بتلك الشهرة الواسعة التى نالها أوروجينوس . فأمره بالعودة من بعض رحلاته لأنه وعظ فى وجود رتب كهنوتية ولم يكن هو ذا رتبة كهنوتية ! لبى أوروجينوس طلب البطريرك وانكب على التدريس والكتابة . وفى إحدى سفرياته اللاحقة لليونان عرج على انطاكية وكان أسقف قيصرية أحد تلاميذه وكان على علم بمضايقة البطريرك المصرى له ولم يرق للأسقف أن يكون أوروجينوس بلا رتبة كهنوتية فرسمه كاهنا حوالى سنة ٢٣١ فغضب البطريرك المصرى واعتبر الرسامة باطلة وأدان أوروجينوس بقرار كنسى وقد أيد بابا روما هذه الإدانة . لم يكن لتلك الادانة تأثير كبير حيث لم يعرها أساقفة فلسطين اهتماما . واقتصر آثرها على ترك أوروجينوس للاسكندرية واستقراره فى فلسطين حوالى سنة ٢٣٣ حيث أنشأ مدرسة أخرى للاهوت هناك واستمر فى الكتابة والتدريس إلى أن توفى هناك سنة ٢٥٤ . ويقول يوسابيوس القيصرى مؤرخ المسيحية الأول إن عوامل حرمان أوروجينوس تعود إلى الضعف البشرى وغيرة ديمتريوس من شهرة أوروجينوس

الواسعة .

لم تبدأ أعمال إدانة أوروجينوس الحقيقية إلا بعد أكثر من قرن من وفاته . وقد ابتدأت أيضا بالبطريرك المصرى توفيلس ٤١٢ - ٣٨٥ (Theophilus) وانتقلت إلى القسطنطينية وروما . كان هذا البطريرك ذا شخصية قوية وقد استخدم القوة وأحيانا العنف فى حل بعض المشاكل التى واجهته وقد استمد بعض من تلك القوة من وفاق الكنيسة مع الامبراطورية والتى أصبح دينها الرسمى هو المسيحية بداية من سنة ٣٨٠ خلال حكم الامبراطور ثيودوسيس (Theodosius) وكان توفيلس صاحب تأثير واسع داخل مصر وخارجها وكان يلجأ إليه للتحكيم فى بعض مشاكل الكنيسة خارج مصر .

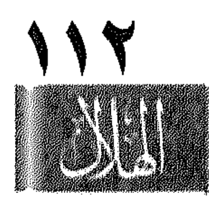
وسبب إدانة أوروجينوس هذه المرة غريب حيث ابتدأ بخلاف بين البطريرك وبعض رهبان منطقة نتريا (١٥ كم غرب مدينة دمنهور وحاليا تسمى قرية البرنوجى) وبدلا من مواجهة الأسباب الحقيقية لهذا الخلاف قام البطريرك بطرد حوالى ٥٠ راهب سنة ٣٩٩ واتهمهم باتباع تعاليم أوروجينوس . ولكن لم يكن ذلك السبب الحقيقى وراء طردهم ولم تكن تعاليم أوروجينوس حتى ذلك الوقت غير مقبولة وكان البطريرك نفسه على علم جيد بها وكذلك الرهبان . بل إن راهب المسيحية الأول القديس انطونيوس (٢٥١ - ٣٥٦) كان على علم جيد بتلك التعاليم وكان على وفاق معها كما أثبتت بعض الابحاث الحديثة .

كان البطريرك ورهبان نتريا على علاقة طيبة بل أنه أيضا أرسل ابن أخيه والذى خلفه كبطريرك ليتتلمذ على أيديهم ، بل وقد عين بعض هؤلاء الرهبان أساقفة فى الصعيد وقد قبلوا ذلك على مضض لنسكهم وتقشفهم . ما الذى حدث إذن ؟

لم تستمر العلاقات الطيبة بين البطريرك والرهبان لسببين السبب الأول خلاف بين البطريرك وكاهن اسمه ايسودورس (Isidoras) حول هبة مالية وكيفية التصرف فيها وقد كان البطريرك كثير البناء والعمار فبنى الكنائس وعمر الأديرة واستولى على بعض المعابد القديمة وحولها إلى كنائس ودمر البعض الآخر وكان ذلك بتصريح من الامبراطور . لم يكن ايسودورس ومعه آخرين ومن ضمنهم رهبان نتريا راضين عن ذلك الاهتمام الزائد بالماديات . على أثر ذلك الخلاف هرب ايسودورس إلى رهبان نتريا الذين أحسنوا استقباله وكانوا على علاقة طيبة به حيث أنه كان يتمتع بسمعة طيبة .

أما السبب الثانى فكان بعض الأساقفة الذين عينهم البطريرك من رهبان نتريا ولم يكونوا هؤلاء أيضا راضين عن تصرفه واهتمامه بالماديات فما كان منهم إلا أن تركوا مناصبهم وعادوا إلى أديرتهم فى نتريا . وقد كان هذا التصرف شديد العنف ومسىء للبطريرك .

وربما قد بدا للبطريرك أن هذه حركة عصيان قد تمتد لباقى الرهبان فى صحراء وادى النطرون وكانوا كثيرين ، وربما كانت هناك بالفعل حركة



عصيان . وكان لابد للبطريرك أن يفعل شيئا فقرر طرد ٥٠ راهبا سنة ٣٩٩ وقد استخدم بعض تفاسير أوروجينوس المشكوك فى صحتها كسبب للخلاص منهم وأصبحت تعاليم أوروجينوس وكتاباته كبش الفداء .

لم تنته المشكلة بطرد الرهبان من مصر بل كانت البداية ، التجأ الرهبان إلى فلسطين ولكنهم طردوا منها فلجأوا إلى بطريرك القسطنطينية يوحنا ذهبى الفم وكان متعاطفا معهم وقد طلب منه البطريرك المصرى طرد الرهبان من القسطنطينية إلا أن بطريرك القسطنطينية رفض ذلك بعد أن تحقق من براءة الرهبان وتبادل البطاركة الاتهامات والادانة وفى النهاية انتصر البطريرك المصرى بل وتمكن من إدانة بطريرك القسطنطينية إلا أن أغلب المؤرخين بعد ذلك أدانوا تصرفات البطريرك المصرى والذى كان مدفوعا بعداء شخصى .

وكنتيجة لهذا الصراع ابتدأت إدانات شاملة لأعمال أوروجينوس وابتدأها البطريرك المصرى توفيلس ففى سنة ٤٠٣ عقد مجمع كنسى بالاسكندرية لإدانة أوروجينوس وأعماله وقد أيد ذلك القرار بابا روما انستاسيوس الذى قال إن كل ما كتبه أوروجينوس والمخالف لايماننا مرفوض ومدان . كانت هذه بداية أخرى ، وفى مناخ كنسى محافظ وبعد أكثر من قرن آخر من الزمان اتخذ مناهضو أوروجينوس ستة أسباب لادانته ولا ندرى كيف أصبحت الأسباب الستة خمسة عشر سببا فى تاريخ لاحق وإن كان بعض هذه الأسباب مشكوك فى صحته ، أدين أوروجينوس سنة ٥٤٣ وسنة ٥٥٣ وبذلك يكون قد أدين فى الاسكندرية وروما والقسطنطينية أى من قيادات الكنيسة كلها . وحتى لو كانت أسباب إدانته صحيحة فهل كانت تلك المجامع الكنسية عادلة لإدانة هذا الكم الهائل من الأعمال الجليلة . لقد كان ذلك عصر ظلام وعصر رقابة الكنيسة على ما يكتب وما يقرأ .

ولكثرة أعمال أوروجينوس لم تختف تعاليمه بل تسربت بطريقة أو بأخرى إلى كتابات البعض وفى خلال عصر التنوير ومع بداية انفصال الكنيسة عن الدولة ابتدأ الاهتمام بأعماله وفى النصف الثانى من القرن الماضى كان هناك الكثير من الأبحاث عن أعماله . وقد تعرض بعض الباحثين لدراسة أسباب إدانته ووجدوا أن بعض تلك الأسباب جانبه الصواب وبعضها كان دخيلا على أعمال أوروجينوس ، ويعتبر بعض الباحثين أن المسئولين عن قرارات الإدانة قد خذلوا المسيحية وخدموا أعداءها .

إن أوروجينوس لم يكن فيلسوفا ولم يكن المدافع عن الأرثوذكسية ولم يكن ناسكا ولم يكن مفسرا شاملا للكتاب المقدس ولم يكن رجلا روحانيا ولم يكن رجل الكنيسة بل كان كل ذلك ، إن أوروجينوس أصبح يخص الحاضر والمستقبل .. لقد كان سابقا لعصره بقرون عديدة .

تحية لهذا المفكر الكبير أحد أبناء مصر العظام . ■

رحلة ابن جبير بين الآثار والمناسك

قراءة
د. حاتم الطحاوى •

يحتل أدب الرحلات مكانة متميزة في التراث التاريخى والجغرافى العربي والإسلامى، وساهم الرحالة المسلمون - منذ القرون الأولى للهجرة - فى التعريف بالأقاليم الجغرافية، ومناخها، وشعوبها، فضلا عن عاداتها وتقاليدها.

كما جاب العديد منهم البلدان غير الإسلامية البعيدة، مما ساعد المسلمين على تكوين صورة شبه متكاملة عنها، وهو ما ساهم فى صياغة المسلمين لتصوراتهم عن «الآخر» غير المسلم، أفكاره، وعاداته.

ومن ناحية أخرى، كان أداء فريضة الحج إلى بيت الله الحرام هو المحرك الرئيسى لبعض الرحالة، وخاصة المغاربة منهم (ابن جبير ق ٦ هـ، ابن بطوطة ق ٨ هـ). وعلى حين تخطت رحلات الأخير حدود العالم العربى الإسلامى، فإن رحلة ابن جبير اقتصرت على انتقال الحاج الرحالة من أقصى المغرب الإسلامى حيث الأندلس، إلى أقصى الشرق العربى، بعد مروره على البلدان ذات الثقل السياسى والدينى كمصر، والأراضى المقدسة، والعراق، والشام (سوريا - لبنان - فلسطين).

الكتاب الذى بين أيدينا اليوم اسمه الحقيقى «رسالة اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك» وهو نفسه المعروف بعنوان أكثر يسراً وسهولة: رحلة ابن جبير، لمؤلفه الرحالة أبى الحسن محمد بن أحمد ابن جبير الكنانى الأندلسى، الذى ولد فى بلتسيه عام ٥٣٩ هـ - ١١٤٥م. وتلقى تعليماً دينياً كأقرانه،

• كلية الآداب - جامعة الزقازيق - مصر.

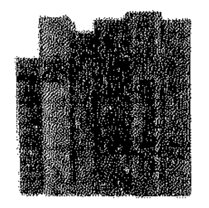


فدرس القرآن وعلومه.

وعلى الرغم من قيام ابن جبير بثلاث رحلات فى حياته، فإن الكتاب الذى بين أيدينا يسجل رحلته الأطول، إذ استمرت لثلاث سنوات من شوال ٥٧٨ هـ إلى محرم ٥٨١ هـ وفيها عرض للعديد من الأماكن والآثار الإسلامية، والمدن ، والسكان، والأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية السائدة فى تلك البلدان.

ابن جبير فى مصر

لدى وصوله إلى الإسكندرية بعد رحلة بحرية استمرت شهراً كاملاً، أبدى ابن جبير إعجابه بالمدينة، وخاصة منار الإسكندرية ودوره فى إرشاد السفن البحرية . وكذلك بالمدارس والمستشفيات



(البيمارستانات) الموجودة بها.

واصل ابن جبير رحلته حتى القاهرة. فاهتم بذكر المساجد الموجودة بها، وخاصة مساجد الحسين رضى الله عنه، وعمرو بن العاص، وأحمد بن طولون.

كما أعجب بقلعة القاهرة وحسن عمارتها. ولم ينس ذكر وجود بيمارستان المرضى النفسيين بقسميه، للرجال والنساء، واهتمام الدولة به، كما لم يفته بالطبع مشاهدة وذكر أهرامات الجيزة، وأبى الهول، وإن كان قد أسماه «أبو الأهوال».

ثم ركب ابن جبير سفينته فى نهر النيل للوصول إلى الصعيد، حيث وصف مدن أسيوط، وأخميم ، وتحدث عن تركز السكان الأقباط بها، ثم مدينة قنا التى قال عنها «... من مآثرها صون نساء أهلها والتزامهم البيوت، فلا تظهر فى زقاق من أزقتها امرأة البتة». كما عبر بمدن قفط وقوص، واصفاً الأخيرة بأنها مدينة تجارية ملأى بالتجار اليمنيين والأحباش والهنود فضلاً عن الحجاج المصريين والمغاربة.

بعد ذلك اتخذت قافلة ابن جبير طريقها براً من قوص إلى ميناء عيذاب على البحر الأحمر، فوصفه بأنه «من أحفل مراسى الدنيا» بسبب وجود العديد من المراكب الهندية واليمنية التى تعمل فى نقل الحجاج والتجار به. ومن عيذاب استقل ابن جبير سفينة حشر فيها الحجاج حشراً إلى ميناء جدة، بعد اجتياز البحر الأحمر، الذى أسماه «بحر فرعون».

ابن جبير فى الأراضى المقدسة

نزل ابن جبير وصحبه إلى ساحل مدينة جدة ، حيث هاجم استغلال سكانها للحجاج بعد فرضهم للإتاوة عليهم، وحسب تعبيره «... فالحاج منهم لايزال فى غرامة ومؤونة إلى أن ييسر الله رجوعه إلى وطنه».

بعد ذلك يصف ابن جبير عملية تسجيل أسماء الحجاج لدى صاحب جدة، ثم انتقالهم بعد ذلك إلى «مكة المكرمة»، حيث طافوا طواف القدوم، وصلوا بالكعبة وتعلقوا بأستارها ، وشربوا من ماء زمزم، ثم سعوا بين الصفا والمروة.

أخذ ابن جبير فى وصف المسجد الحرام بإسهاب شديد، ذكر أركانه وسقفه وداخله، ومقام إبراهيم والحجر الأسود، وموضع الطواف، والميزاب، وبئر زمزم، وحلقات المدرسين وأهل العلم حول الحرم الشريف، كما تحدث عن كسوة الكعبة المشرفة، وبابها، وأركانها ، وأبواب الحرم الشريف.

ثم أخذ ابن جبير فى وصف مكة المكرمة ، وأبوابها، وجبانتها حيث قبور الصحابة والتابعين التى اندثرت. فضلاً عن وصفه للعديد من الدور الشريفة بها، كدار السيدة خديجة ودار أبى بكر، وقبة

بين الصفا والمروة تنسب إلى عمر بن الخطاب.

وبالإضافة إلى المزايا الدينية لمكة المكرمة، فقد لاحظ ابن جبير أيضاً تفردها من الناحية التجارية، فذكر أن أسواقها يجتمع فيها تجار من المشرق والمغرب، مع سلعهم الوفيرة من الطيب والمسك والكافور والعنبر والعود والعقاقير الهندية، والأحجار الكريمة، وكافة السلع والبضائع الواردة من الهند والحبشة والعراق وفارس واليمن والمغرب.

ثم يخبرنا مؤلفنا قيامه بأداء عمرة شهر رجب، وحضوره ليلة النصف من شعبان فى مكة المكرمة، ويذكر أن أهلها يفرحون بهذه الليلة ، فيبادرون إلى أعمال البر والعمرة والطواف والصلاة.

يعلمنا ابن جبير بدخول شهر رمضان المعظم عليه فى مكة، فيصف عملية تجديد الحصر، والإكثار من الشمع والمشاعل فى الحرم الشريف، كما يذكر صلاة أصحاب المذاهب الأربعة بالحرم، وطواف الأمير سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخى صلاح الدين الأيوبى.

ولم يفته ذكر وصف صلاة التراويح فى مكة المكرمة ، وختم القرآن ليلة السابع والعشرين من رمضان كذلك قام ابن جبير بأداء صلاة عيد الفطر فى مكة المكرمة.

ظل ابن جبير فى مكة حتى وقت الحج، فوصف مناسك الفريضة بالتفصيل، ولم ينس ذكر وجود سوق كبير بمكة أوان الحج، ثم غادر مكة المكرمة بعدها مكث بها أكثر من ثمانية أشهر هجرية.

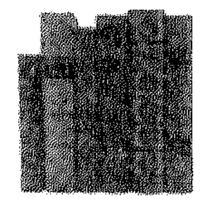
اتجه ابن جبير بعد ذلك إلى المدينة المنورة «لزيارة الروضة المكرمة المطهرة» ، والصلاة بها، وأفاض فى وصف مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ومنبره، ثم غادرها وهو حزين تبغى نفسه عدم مفارقتها ، بعد مكوثه بها خمسة أيام فقط.

ابن جبير فى العراق

بعد رحلة طويلة من المدينة المنورة، وصل ابن جبير إلى مدينة الكوفة، ولفت نظره التخريب الذى تعرضت له المدينة ، وفسر ذلك بسبب هجمات قبيلة خفاجة المجاورة لها، ثم وصف الجامع الكبير بالكوفة، والمشهد الشهير المنسوب لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه، بعد ذلك توجه ابن جبير من الكوفة إلى مدينة الحلة، ومنها إلى بغداد عبر مجموعة من القرى والبساتين ، ولم ينس إخبارنا لجسر على نهر يسمى النيل وهو فرع متشعب من نهر الفرات.

تحدث ابن جبير عن بغداد بوصفها حاضرة الخلافة العباسية ضعيفة الشأن .

وفى بغداد ، سجل ابن جبير حضوره وإعجابه بمجلسى علم للشيخ الإمام رضى الله عنه القزوينى، رئيس الشافعية، وفقيه المدرسة النظامية فى بغداد. كما حضر



من ذخائر الكتب العربية

ثلاث مجالس علم للفقيه جمال الدين أبى الفضائل بن على الجوزى . رئيس الحنابلة ، وأبدى إعجابه الشديد ببلاغته وعلمه.

ولم يفتنا مؤرخنا الإشارة إلى البيمارستان الشهير فى بغداد، وتفقد الأطباء للمرضى به مرتين أسبوعياً، كما وصف مساجد المدينة، بالإضافة إلى وجود أكثر من ثلاثين مدرسة فى بغداد ، أشهرها المدرسة النظامية، ولهذه المدارس أوقاف وعقارات تقوم برعاية الطلبة والفقهاء والمدرسين بها. ولفت نظر ابن جبير كثرة عدد حمامات بغداد، وذكر أنه سمع أن عددها نحو الألفى حمام.

وبعد أن مكث فى بغداد ثلاث عشرة يوماً، تحرك ركب ابن جبير باتجاه مدينة تكريت فوصفها بأنها مدينة كبيرة ملأى بالمساجد والأسواق، ووصف سكانها بأنهم أفضل سلوكاً من سكان بغداد، وبعد أن رحل عن تكريت باتجاه الموصل ، ذكر وجود عدة عيون تنتج القار بجوار موضع عرفه الناس باسم «القيارة».

وصف ابن جبير الموصل بأنها مدينة قديمة تمتاز بحصانة أسوارها، وبمساجدها وحماماتها وأسواقها، وكان أكبر الأسواق يدعى «الخان العظيم»، من كثرة الدكاكين الموجودة به ، وأشاد بأهلها لاستقبالهم الطيب للغرباء .

ابن جبير فى بلاد الشام

وصل ابن جبير إلى مدينة حلب، فذكر تاريخها القديم ، وأبدى إعجابه بعمارة المدينة وجوامعها، ومدارسها الخمس، بالإضافة إلى البيمارستان الخاص بها، ثم واصل رحلته إلى قنسرين ، وبلاد المعرة التى يقع خلفها جبل لبنان الذى يحوى قلاع الإسماعيلية حيث وصفهم بالملاحدة. كما ذكر جبل لبنان بوصفه الحد الفاصل بين أراضى المسلمين والفرنجة (الصليبيين).

بعد ذلك عرج ابن جبير على مدينة حماة، فذكر وجود ثلاث مدارس وبيمارستان بها، وذكر جوامعها وشهرتها بالتجارة والأسواق، ثم وصل إلى مدينة حمص واصفاً أهلها بالنخوة والشهامة، وأنهم كانوا على استعداد لمجابهة الفرنجة فى أى وقت بسبب قرب مدينتهم من المدن التى استولوا عليها مثل أنطاكية واللاذقية، وذكر أن أهم آثارها قبرى خالد بن الوليد وابنه عبدالرحمن.

على أن ابن جبير وصف دمشق كأفضل ما يكون الوصف «جنة المشرق. عروس المدن التى اجتليناها» «إن كانت الجنة فى الأرض فدمشق لا شك فيها . وإن كانت فى السماء فهى بحيث تسامت وتحاذيها». وأبدى إعجابه الشديد بالمسجد الأموى بالمدينة ، وأسهب فى وصفه وكيفية بنائه ، وقبته ومقصوراته الثلاث، وصوامعه وقبابه الثلاث، وأبوابه الأربعة. واهتم بذكر

وجود حلقات التدريس به، ولاحظ زاوية لتدريس الفقه المالكى فى الجانب الغربى للجامع ، يجتمع فيها الطلبة المغاربة ، كما لاحظ ابن جبير الأندلسى وجود أحد فقهاء مدينة أشبيلية ، وهو الفقيه المرادى ، يقوم بالتدريس فى زاوية المالكية.

ولم يغفل ابن جبير كذلك وجود كنيسة مريم داخل أسوار مدينة دمشق. كما ذكر وجود حوالى عشرين مدرسة أهمها مدرسة نور الدين محمود ، فضلاً عن وجود بيمارستان بها ، كما لاحظ وجود وقف بالمدينة للعناية بالأيتام ، وذكر تركز الصوفية فى مدينة دمشق، والامتيازات التى حصلوا عليها ، فضلاً عن حديثه عن وجود حوالى مائة حمام ، وشهرة دمشق بالأسواق، وخاصة السوق الكبير. كما لاحظ تواصل القوافل التجارية بين مصر ودمشق ومرورها داخل المناطق الصليبية . وكذلك ذهاب التجار المسلمين من دمشق إلى عكا وهى تحت الاحتلال الصليبى، وكذلك اختلاف التجار الصليبيين إلى المناطق الإسلامية دون ممانعة من الطرفين سوى أن يدفع كل طرف الضريبة المفروضة عليه.

ورحل ابن جبير من دمشق إلى بانياس حيث شاهد الأراضى الزراعية المشتركة بين المسلمين والفرنجة، ثم وصل إلى قلعة تبنين وذكر يسار حال الفلاحين المسلمين بها تحت الاحتلال الصليبى، وتعجب من أن أحوالهم أفضل من أحوال المسلمين المجاورين لهم فى المناطق الإسلامية.

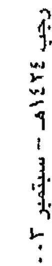
ثم تحدث ابن جبير عن وصوله إلى مدينة عكا فوصفها بأنها «قاعدة مدن الإفرنج بالشام» و«ملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق»، وذكر التغييرات التى أحدثها الصليبيون بالمدينة بعد سقوطها، وتحويل مساجدها إلى كنائس.

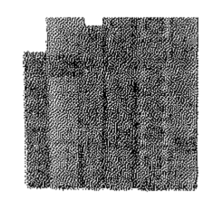
بعد ذلك غادرها ابن جبير إلى مدينة صور الواقعة تحت الاحتلال الصليبى أيضاً، فذكر أن سكانها الصليبيين غير متعصبين تجاه المسلمين الغرباء، ولهذا فإن أحوال المسلمين بها أفضل من حالهم فى مدينة عكا.

ولم يفت ابن جبير أن يصف لنا حضوره حفل زفاف فرنجى فى مدينة صور، فوصف ما جرى بالتفصيل، فستان العروس، وضرب المزامير والأبواق وآلات اللهو.

ولم يوفق ابن جبير فى ركوب سفينة من مدينة صور فى رحلة عودته إلى بلاده، الأمر الذى دعاه إلى العودة إلى مدينة عكا، وفيها رأى العديد من أسرى المسلمين ، ولفت نظره قيام تاجرين من كبار تجار دمشق بدفع الأموال وافتداء الأسرى، وخاصة الأسرى المغاربة.

وأبحرت سفينة ابن جبير من ميناء عكا فى رحلة عودته إلى وطنه بالأندلس،





من ذخائر الكتب العربية

عبر المرور بجزر البحر المتوسط، وتم إنقاذ سفينته من الغرق قرب سواحل صقلية، فنزل إليها ، ووصفها ، وذكر وجود عدد قليل من المسلمين بها، فضلاً عن وجود عدد آخر من الذين يخشون إظهار إسلامهم، لأن غالبية أهل صقلية المسيحيين فرضوا ضريبتين في العام على المسلمين ، لكنه لم ينس الإشارة إلى الملك وليم (غليام) ملك صقلية، وحسن علاقته بالمسلمين في الجزيرة.

ثم واصل ابن جبير رحلته في البحر المتوسط حتى ميناء قرطاجنة، ومنه إلى مرسيه بالأندلس حتى وصل في الثاني والعشرين من المحرم ٥٨١ هـ إلى منزله بغرناطة منشداً :

فألقت عصاها واستقر بها النوى
كما قر عيناً بالإياب المسافر

***

هذا .. ولا تكتمل تلك القراءة لرحلة ابن جبير إلا بعد الخروج بالعديد من الملاحظات المهمة :

● يعرف المشتغلون بالتاريخ أن المصادر التي لم يتم تأليفها بقصد أن تكون تاريخاً هي الكتب التي يمكن استخلاص المادة التاريخية الحقيقية منها، لأن مؤلفها لم يقم بذلك وفي وعيه أن يكتب تاريخاً، بل يقوم فقط بتسجيل أحداث رحلته، كما فعل ابن جبير على سبيل المثال، وهكذا اكتسبت الرحلات أهميتها القصوى بوصفها من أهم المصادر التاريخية الأصيلة.

● اعتمد ابن جبير على منهج المشاهدة والملاحظة في تدوينه لتفاصيل رحلته. وأحياناً ما اعتمد على السماع ، كأن يقول سمعت عن أحد الأشياخ (الشيوخ).

● جرت أحداث رحلة ابن جبير داخل أقاليم معظمها يخضع لحكم صلاح الدين الأيوبي (مصر - الأراضي المقدسة .. الشام) ، وتحدث عن حسن سيرته في الرعية في مصر والشام، ودوره الجهدي ضد الصليبيين، على حين أبدى إعجابه به أيضاً عندما رفع المكوس التي كانت تفرض على حجاج بيت الله الحرام، وهو ما كان يتطلع إليه الحاج ابن جبير.

● ذكر ابن جبير أنه شاهد أسرى صليبيين تم جلبهم إلى الإسكندرية ، بعد محاولتهم الفاشلة غزو سواحل البحر الأحمر، والوصول إلى الأماكن المقدسة، وهو ما يتفق مع المصادر التاريخية الإسلامية والصليبية المعاصرة لابن جبير، التي ذكرت أطماع الأمير الصليبي ريمون دي شاتيون في الوصول إلى الأراضي المقدسة للمسلمين، وطلب صلاح الدين الأيوبي من قائد أسطوله حسام الدين لؤلؤ اللحاق بالأسطول الصليبي وهزيمته، وهو ما كان .

● ادعى ابن جبير رغبة سكان الإسكندرية والقاهرة في سقوط مصر في

أيدى الموحدين، وهو ادعاء لا تؤيده باقى المصادر التاريخية المعاصرة له، ربما كان مجرد تمن من ابن جبير الأندلسى، فضلاً عن إشادته الدائمة بسياسة صلاح الدين الأيوبى تجاه رعيته فى مصر.

● نظراً لأن الغرض الأساسى من رحلة ابن جبير كان من أجل القيام بالحج، فقد أفرد العديد من الصفحات - ١٢٠ صفحة - لوصف رحلته بالأماكن المقدسة، وجاء هذا على حساب باقى الأقاليم ، ونحن نرى ذلك طبيعياً لمكوثه حوالى تسعة أشهر بالأماكن المقدسة، فضلاً عن كونها الهدف الأساسى من رحلته.

● إبان رحلة ابن جبير فى العراق، ذكر وجود «عيون القار» فى منطقة تقع بين تكريت والموصل، وهى إشارة إلى آبار النفط بهذه المنطقة من العراق.

● ربط الرحالة ابن جبير بين الأندلس والشرق العربى، وضعف حكامهم ، مع اعتزازهم بالألقاب الجوفاء، فعند وصفه لمدينة دنيصر بالعراق قال... «وهذه البلدة لسلاطين شتى كملوك طوائف الأندلس ، كلهم قد تحلى بحلية إلى الدين، فلا تسمع إلا ألقاباً هائلة. وصفات لدى التحصيل غير طائلة..».

كما ربط مرة أخرى بين الشرق العربى والأندلس الذى يحن إليه دائماً، لدى وصفه لمدينة قنسرين بالشام ، فذكر أنها تشبه مدينة جيان بالأندلس، ولهذا فإن الفاتحين المسلمين للأندلس، من أهل قنسرين الشام، اختاروا السكن فى جيان لأنها تشبه مدينتهم الأصلية ، كذلك الأمر حين ذكر أن مدينة حمص تشبه أشبيلية بالأندلس، ولذا نزل أهل حمص من الفاتحين بها. كما يلاحظ تعاطفه مع كافة المغاربة الذين التقاهم إبان رحلته ، من الحجاج والتجار والمجاهدين.

● لاحظ ابن جبير أنه على الرغم من حالة الحرب بين المسلمين والصليبيين بالشام ، فإن المصالح التجارية للطرفين طغت على السياسة والحرب. فالتجار يتحركون بحرية بين الجانبين بينما «أهل الحرب مشتغلون بحربهم». ومرة أخرى يذكر «ومن أعجب مما يحدث به فى الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج، وسبيهم يدخل إلى بلاد المسلمين».

● لاحظ ابن جبير أن الفلاحين المسلمين تحت الاحتلال الصليبى فى منطقة تبنين أفضل حالاً من أقرانهم فى المناطق الإسلامية ، وهى ملاحظة مهمة، لكن يجب أن نفطن إلى أن ذلك كان حالة خاصة بسبب ندرة الفلاحين فى قلعة تبنين ، ولهذا فقد احتاج المحاربون الصليبيون إلى خدمات الفلاحين المسلمين بشكل دائم، وبالتالى عاملوهم معاملة خاصة، لا تعبر عن معاملة الصليبيين المحتلين للمسلمين بشكل عام. ■

قصة الأسرة الهاشمية
فى تاريخ العرب الحديث
ولعبة التوازنات والولاءات

من الحجاز
إلى العراق
والاردن

بقلم
د. عاصم الدسوقى

كانت شرافة مكة فى يد الهاشميين من قريش اتفاقا بين حكومات الخلافة الإسلامية ثم أصبح عرفا ثابتا وقائما على مر الزمن بصرف النظر عن تداول الحكم بين فروع قريش.. فلما انهارت الخلافة العباسية ووقعت أجزاؤها تحت حكم عناصر أخرى غير قريشية، باستثناء الفاطميين فى مصر، حافظ الحكام الجدد على تقليد منصب شرافة مكة



الشريف حسين

فى بنى هاشم بما فى ذلك العثمانيون الذين تركوا أشراف مكة يختارون شريفهم بطريقتهم ثم يعتمد السلطان العثمانى تعيينه، فى مقابل اعتراف الشريف بأن السلطان حامى حمى الحرمين الشريفين وخاقان البرين والبحرين، ترفع له الدعوات فى خطبة الجمعة بالمساجد مثلما هو الحال فى سائر البلاد العربية التى تخضع للعثمانيين منذ ١٥١٦م، ولو أن العثمانيين احتفظوا بمدينة جدة باشوية عثمانية مباشرة نظراً لأهميتها الاستراتيجية باعتبارها ميناء بحرياً..



الملك فيصل الأول

الملك غازي

ولما كان الحكم العثماني حكما لا مركزيا يشبه بدرجة ما الحكومة الفيدرالية، لا يهتم كثيرا بالشئون الداخلية لرعاياه الذين يديرون أمورهم من خلال الطوائف، فلم تحدث مصادمات حادة بين الطرفين، وطالما حافظ ولاة الدولة علي الحكم باسم السلطان، وأظهرت الزعامات المحلية فروض الطاعة والولاء، واستمر الرعايا فى تسديد ما يفرض عليهم من ضرائب ، ظلت البلاد الخاضعة للعاثمانيين وحدة سياسية تابعة للسلطان وتحت راية الإسلام..

فلما استولت جماعة الاتحاد والترقى على الحكم فى السلطنة العثمانية فى يوليو ١٩٠٨م وتم عزل السلطان عبدالحميد فى العام التالى بدأت طبيعة الحكم العثمانى اللامركزى تتغير، ذلك أن الاتحاديين وهم من أنصار فكرة القومية التركية (المعروفة بالتورانية) كانوا يستهدفون مركزية الحكم، وتتريك ولايات الدولة، وفرض التبعية على البلاد العربية التى لم تكن تخضع خضوعا مباشراً للدولة، وفى هذا الخصوص استعان الاتراك الجدد بالشريف حسين الهاشمى الذى أعلن ولاءه لهم فتراهم يستخدمونه لقتال الإدريسى حاكم عسير على حدود اليمن ليتسنى لهم إخضاعه وإخضاع إمام اليمن، ثم يتجه الشريف تحت هذه الحماية الجديدة ليضم أراض موضع نزاع بينه وبين آل سعود فى نجد (١٩٠٩م)، ويتمكن من أخذ الأمير سعد شقيق عبدالعزيز آل سعود رهينة، وكان شرط فديته اعتراف عبدالعزيز بالسيادة التركية ودفع جزية عن إدارته لمنطقة القصيم، غير أن عبدالعزيز انطلق يهدد مناطق النفوذ التركى فى شرق الجزيرة قرب البصرة، بل وتوجه إلى المقيم العام البريطانى فى الخليج بحثا عن ظهير.. لكن السلطات البريطانية آنذاك كانت تكتفى بالسيطرة على ساحل عمان والجنوب العربى حتى عدن، ولم تكن تهتم بمنطقة نجد الداخلية، ومن هنا عمل عبدالعزيز على إحياء وهابى جديد بين القبائل بتكوين جماعة إخوان جديدة، الولاء فيها للمذهب وليس للقبيلة وذلك اعتبارا من ١٩١٢م وبنهاية العام أصبح سيد نجد بلا منازع.

ولكى تواجه الحكومة التركية نفوذ ابن سعود قررت فى العام نفسه إخضاع الحجاز كله للحكم المباشر، وتحقيقا لذلك أرسلت وهيب باشا واليا على الحجاز

وليس على باشوية جدة فقط مزوداً بتعليمات تقضى بربط الحجاز مدنيا وعسكريا ومن ذلك مد خط السكة الحديدية بين دمشق - المدينة إلى مكة، وعلى هذا اخذ الشريف الحسين يتطلع إلى قوة خارجية تعينه على مواجهة الأتراك فلم يجد غير الانجليز ظهيراً يستند عليه، ، فكانت بداية طريق قطع فيه الهاشميون أشواطا انتقلوا خلاله من تبعية لأخرى حرصا على البقاء فى السلطة، والتمتع بالنفوذ على حساب مصالح الآخرين بل والمصالح العربية الكبرى حين بدت الرابطة العربية أسلوبا لمواجهة سياسات الغرب الأوروبى - الأمريكى لاحتواء المنطقة.

أزمة الشريف مع الاتراك

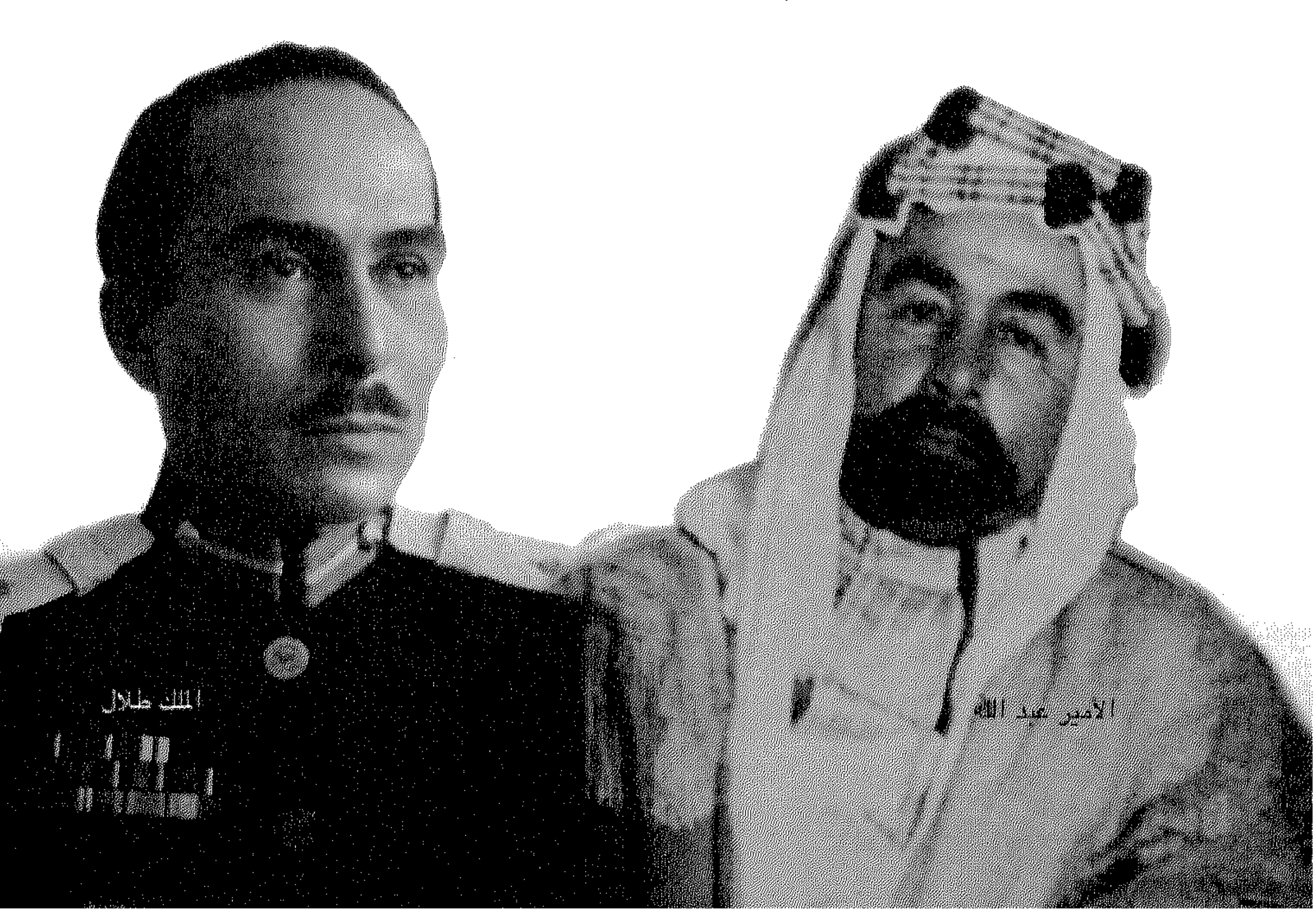
وعلى هذا أرسل الشريف ابنه عبدالله (أول أمير لإمارة شرق الأردن فيما بعد) إلى القاهرة ليقابل اللورد كتشنر المعتمد البريطانى فى مصر ليعرض عليه الموقف فى الحجاز ويستطلع رأى الانجليز فى حالة نشوب حرب ضد الأتراك، غير أن الانجليز لم يعدوا بشيء وكل ما هنالك أنهم عرفوا بوجود أزمة فى علاقة الشريف بالاتراك ، فلما قامت الحرب العالمية الأولى (اغسطس ١٩١٤) دخلتها تركيا فى نوفمبر ١٩١٤ إلى جانب النمسا وألمانيا (دول الوسط) ضد انجلترا وفرنسا وروسيا وإيطاليا (دول الحلفاء)، ولما كان موقف الحلفاء حرجا فى الشهور الأولى، والروس يشكون من ضغط القوات التركية عليهم، بدأ التفكير فى كيفية فتح جبهة على الأتراك ، وآنذاك كان اللورد كتشنر - الذى قابل الأمير عبدالله ابن الشريف حسين بالقاهرة عام ١٩١٢ حين كان المعتمد البريطانى فى مصر - قد أصبح وزير الحرب فى بلاده فتذكر اللقاء وأزمة الشريف مع الأتراك، ومن ثم تقرر استثمار الخلاف فى إثارة شريف مكة ضد الحكم التركى حتى تضطر الحكومة التركية إلى سحب قواتها من أوروبا لمواجهة الموقف.. ثم ما كان من أمر الثورة التى أعلنها الشريف حسين ضد الوجود التركى فى الحجاز (يونية ١٩١٦)، ومبايعته ملكا على العرب (ديسمبر ١٩١٦)، ووصول قواته بقيادة ابنه فيصل (أول ملك على العراق فيما بعد) إلى دمشق (أول أكتوبر ١٩١٧) وإعلانه قيام حكومة الدولة العربية الجديدة مما سهل دخول جيوش الحلفاء فلسطين واحتلال القدس (٩ ديسمبر ١٩١٧).

وكان اتفاق الشريف مع الانجليز

بشــأن الثــورة على الاتراك قــد تم من خــلال مـراسـلات بين الطرفـين عـرفت بمراسلات الحسين - مكماهون (المندوب السامى البريطانى فى مصـر) ابتداء من ١٤ يونيــة ١٩١٥ إلى ١٠ مــارس ١٩١٦ على أســاس أن يعلن الشــريف الثورة لإسقاط الحكم التركى فى سوريا مقابل إعلان الدولة العربية برئاسته على شبه الجزيرة العربية جغرافيا، وحدودها الشمالية تبدأ من الاسكندرية - مرسين - أطنه إلى أدنه مـارا بماردين وجـزيرة ابن عمر حتى حدود إيران شرقا حتى الخليج، وجنوبا بسـاحل البحـر العربى، وغـربا بالبحـر الأحمـر شـمـالا حـتى الاسكندرية - مرسـين، على ان تدخل الدولة الجـديدة فى تحـالف دفـاعى مع بريطانيـا ، غـيـر ان المراسـلات انتـهت باستبعـاد المناطق الشمـاليـة بحجـة أن أهلها ليسوا عربا اصلا، واستبعاد عدن بحجة أنها محمية بريطانية ، وكذا جنوب العراق بغداد - البصرة بحجة أن القوات البـريطانيـة احـتلتـهـا فـور قـيـام الحـرب، وأيضـا منطقـة غـرب دمشق - حـمص - حلب بحجة أن فرنسا لها مصالح فيها.

قاصمة الظهر!

وفي هذا المنعطف من سـيـر الأمـور كـانت كفـة الحلفـاء قـد رجحت فـى الحـرب ولم يعد الانجليز يهتمون بأمر إعلان الدولة العربية برئاسة الشريف حسين حتى بعد اختزال حجـمـهـا كـمـا سـبـقت الإشـارة


الملك طلال
الأمير عبد الله

خصوصا أن مناطق الدولة المزمعة كان قد تم ترتيب تبعيتها لكل من الانجليز والفرنسيين بمقتضى إتفاقية سايكس - بيكو فى مايو ١٩١٦، وقبل أن يعلن الشريف حسين الثورة على الأتراك فيما عرف فيما بعد بنظام الانتداب، ولكن فى إطار توازنات المصالح بين انجلترا وفرنسا من ناحية وللاحتفاظ بتبعية الأصدقاء (الحلفاء - الأتباع!!) من ناحية أخرى تقرر إخراج فيصل من دمشق بعد أن قضى فيها أكثر من عام ونصف (نوفمبر ١٩١٨ - يوليو ١٩٢٠) وتعيينه ملكا على العراق «محافظة على الشرف البريطانى فى إعطاء الكلمة (٢٣ أغسطس ١٩٢١)، فلما علم عبدالله بذلك صاح قائلا: أيزدان مفرق فيصل بتاج العراق وعبدالله يرزق.. تلك والله قاصمة الظهر».. وهنا وإعمالاً لنفس المنهج تم اقتطاع منطقة شرق نهر الأردن من بلاد سوريا بالتفاهم مع فرنسا مكافأة للأمير الساخط الذى أصبح أميرا لشرق الأردن ولكن الانتداب البريطانى مع إعفائه من مقتضيات تصريح بلفور (أى إنشاء وطن قومى لليهود)، وهكذا تم إيجاد نظامين للحكم فى المنطقة هاشميين موالين تماما للانجليز، مما سهل مهمة إنشاء وطن قومى لليهود فيما بقى من سوريا الكبرى (أى فى فلسطين).

شرعية واجبة الاحترام

ويتعيين فيصل ملكا على العراق وعبدالله أميرا على شرق الأردن وببقاء الشريف حسين والدهما بالحجاز أصبح الهاشميون يمثلون وجودا متسعا فى المنطقة قد يزداد اتساعا مع الأيام.

وعلى هذا وفى إطار سياسة توازنات القوى أغمضت بريطانيا عينها عن قيام عبدالعزيز آل سعود باجتياح الحجاز فى ١٩٢٦ واخراج ما بقى فيه من الهاشميين الذين ذهبوا مع أعوانهم إلى إمارة شرق الأردن أو إلى العراق. مع أن الانجليز سبق وأن منعوا عبدالعزيز من دخول الحجاز فى مايو ١٩١٩ وكان بإمكانه ذلك دون صعوبة، كما صدت هجومه على حدود شرق الأردن فى خريف ١٩٢١ حماية لوليدها الجديد، وآنذاك لم يشهر أحد سيف الشرعية الدولية أو يتحدث عن مدى مشروعية اجتياح أراض الغير دون مبالاة ، والإجابة بسيطة.. إن القوى الكبرى آنذاك كانت ترى فيما يحدث شرعية واجبة الاحترام لأنه يخدم منهج التوازنات.

وعلى هذا ومنذ عشرينيات القرن

العشرين والهاشميون يشعرون بالولاء التام للانجليز.. ألم يقم أولئك الانجليز بتعيينهم على عروش كانوا يتطلعون إليها، بل وبتثبيتهم ضد محاولات الانقلاب ضدهم.. أليس الولاء لدافع الأجر أولا واخيرا!!.. وعلى هذا إذا ما تعارض الولاء للانجليز مع ولاءات أخرى ستكون الأولوية للولاء للإنجليز حتما ولابد.. وإذا ما تعارضت مصالح الانجليز مع مصالح الهاشميين تكون الغلبة لمصالح الانجليز.. وعندما حل النفوذ الأمريكى محل النفوذ البريطانى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية تحول ولاء الهاشمين للقوة العالمية الجديدة.. وهكذا.

ففى أثناء الحرب العالمية الثانية صرح وزير خارجية بريطانيا أنتونى إيدن فى ٢٩ مايو ١٩٤١ بأن بلاده تشجع قيام منظمة عربية للتنسيق بن المصالح، وعلى حين تحفظت الحكومات العربية إزاء هذا التصريح الذى بدا مريبا استجاب له عبدالله أمير شرق الأردن الذى رأى فيه فرصة ذهبية لتحقيق طموحه والخروج بسلطانه عن نطاق إمارته الصغيرة، فنراه يرسل مذكرتين فى ٢ يوليو ١٩٤١ للخارجية البريطانية يعرض فيهما فكرة إقامة سوريا الكبرى، وكيف أنه يجب أن تندمج إمارته مع سوريا ويسترد عرش الهاشميين فى دمشق الذى سقط عام ١٩٢٠ كما سبقت الإشارة، ولكن بريطانيا أرجأت النظر فى الموضوع فتراجع الأمير، أما حكومة ملك العراق الهاشمى بزعامة نورى السعيد فقد تقدمت بمشروع «الهلال الخصيب» فى ديسمبر ١٩٤٢ إلى وزير الدولة البريطانى لشئون الشرق الأوسط والمشروع يهدف إلى إقامة فيدرالية بين العراق وسوريا ولبنان وشرق الأردن وفلسطين، مع منح استقلال إدارى لليهود المقيمين فى فلسطين لأنهم لن يكونوا خطرا يذكر وسط الدولة العربية الكبيرة المقترحة.. لكن بريطانيا لم تستجب لأى من المشروعين لتعارضهما مع فلسفة استراتيجيتها فى المنطقة التى تقوم على تفكيك البلاد العربية وليس وحدتها أو إقامة كيانات كبرى فيها من شأنها التأثير سلبا على المشروع الصهيونى هناك، وفضلت بريطانيا فيما بعد المشروع الذى تقدمت به حكومة مصطفى النحاس بإقامة منظمة تجمع الدول العربية المستقلة لأنه يتفق مع استراتيجية الكيانات الصغير حتى ولو كانت تجمعها

منظمة واحدة خصوصا ان ميثاق المنظمة (الجامعة العربية) لا يشجع على اقامة وحدة حقيقية بين البلاد العربية.

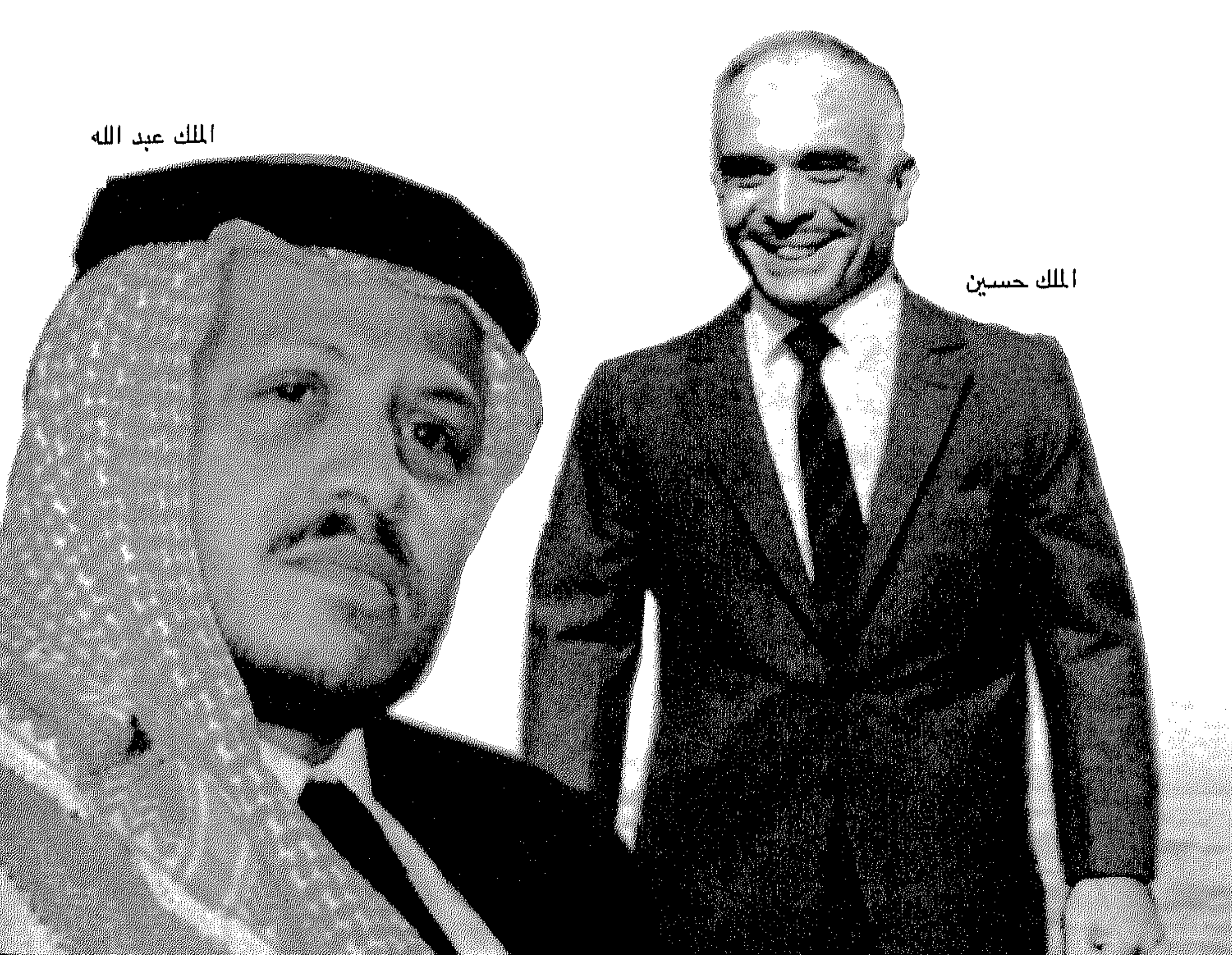
الملك يقع بين شقي رحى

ولما اعلنت انجلترا أنها سوف تنهى انتدابها على فلسطين بنهاية يوم ١٤ مايو ١٩٤٨ كما هو معروف وكان على العرب مواجهة الموقف بدخول فلسطين لاستعادتها لأهلها، تقرر أن يكون الملك عبدالله قائدا عاما للجيوش العربية مع أن جيشه تحت قيادة جنرال إنجليزى (جون باجوت جلوب)، والانجليز هم رعاة المشروع الصيهونى من بدايته، ولأن إمارة الأردن نفسها صناعة بريطانية كما مر بنا يصبح من السهل فهم هذه العلاقة الثلاثية الأردنية - البريطانية - اليهودية - والحاصل أنه قبل نشوب المعارك كان هناك ثمة اتفاق بين عبدالله وبين اليهود مؤداه أن يحصل لإمارته على الجزء المخصص للعرب بمقتضى قرار التقسيم (٢٩ نوفمبر ١٩٤٧) وبهذا وقع الملك بين شقى الرحى ذلك أن اختياره قائداً عاما للجيوش العربية يغريه ويفتح أمامه الطريق لكن اتفاقه مع اليهود يقيد خطواته ويلزمه بحدود معينة، وكان يعتقد من ناحية أخرى بأن القادة العرب الذين اسلموه قيادهم يتشككون فيه، وأنهم قد ارتضوا قيادته ليس عن اقتناع وإنما لاستمالته حتى لا يجنح بعيدا عن الصف العربى، وعلى هذا وعندما حاصرت القوات اليهودية (الهاجاناه) مدينة القدس أواخر مايو ١٩٤٨ أمر الملك الجنرال جلوب بالتقدم نحو المدينة من ناحية رام الله لإرغام اليهود على رفع الحصار عن الأحياء العربية فيها. غير أن جلوب لم ينفذ أوامر الملك بل نراه يتصل بالمقيم العام البريطانى فى عمان الذى ابلغه عبر الخارجية البريطانية بتنفيذ قرار الملك بشرط عدم الاقتراب من الأحياء اليهودية، ولم يتحرك الملك لفرض سلطته على قائد قواته، ذلك أن ظاهر تطور الحوادث أوضح أن الملك يتصرف ضمن خطة متفق عليها مع اليهود، إذ نراه يتغاضى عن استيلاء اليهود على أراض أكثر مما تخصص لهم بقرار التقسيم لأنه يطمع فى أن يعترف له اليهود بمملكة تضم إلى شرق الأردن ما يتبقى من فلسطين بالضفة الغربية كما لاحظ ذلك..

أحمد خشبة باشا وزير خارجية مصر الذى حضر اجتماع وزراء الخارجية العرب فى قصر رغدان فى عمان (٢٨ يوليو ١٩٤٨) لمناقشة الموقف.

ولما ارتاب كل من الملك عبدالعزيز آل سعود والرئيس شكرى القوتلى ومفتى فلسطين فى موقف الملك عبدالله طالبوا الملك فاروق بالوقوف أمام تصرفاته . لكن فاروق بناء على نصائح مستشاريه من خلال وسطاء يهود وافق على ضم غزة والنقب فى مقابل عقد صلح منفرد مع اسرائيل (سبتمبر ١٩٤٨) . ولم توافق اسرائيل بطبيعة الحال ولم يوافق عبدالله الذى أبلغ اسرائيل بأنه « لا يريد جوارا مع المصريين على الإطلاق» . وأكثر من هذا نراه يحرض إسرائيل على مهاجمة الجيش المصرى بالنقب لتصفية الوجود العسكرى المصرى هناك لإنهاء الموقف وهو ما حدث فى منتصف سبتمبر ١٩٤٨ .

وتمضى الأيام ويقرر الملك عبدالله ضم الضفة الغربية إلى بلاده اعتبارا من أول ديسمبر ١٩٥٠ وأصبح اسم فلسطين بموجب هذا القرار «المنطقة الغربية للأردن» . وتعترض الجامعة العربية على أساس أن الضفة وديعة فى يد الملك شأن غزة تحت الإدارة المصرية إلى أن يقضى الله أمره بشأن الوطن الفلسطينى ولكن دون جدوى، إذ فرض الملك الأمر الواقع الذى لقى ترحيبا من كل من بريطانيا



الملك عبد الله

الملك حسين

والولايات المتحدة الأمريكية وبالتالى إسرائيل على أساس أن هذا الإجراء ينهى مشكلة اللاجئين الفلسطينيين بوجودهم تحت مظلة دولة الأردن الجديدة!!

استعادة الحق الفلسطينى

وتقوم الثورة فى مصر فى يوليو ١٩٥٢ وتأخذ تحت قيادة عبدالناصر خطوات متشددة لاستعادة الحق الفلسطينى فى اطار القومية العربية وفى مواجهة الغرب الأوروبى - الأمريكى الذى لا يفكر فى ترك شعوب العالم الثالث وخاصة العرب لتقرر مصيرها بنفسها . وهنا تحدث أزمة العلاقات العربية - العربية .. فعندما يرفض عبدالناصر الانضمام إلى التحالفات التى يصيغها الغرب باسم منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط بحجة حماية العرب من الشيوعية، وذلك أثناء المفاوضات مع بريطانيا بشأن الجلاء (أبريل ١٩٥٣ - أكتوبر ١٩٥٤) مثلما سبق وأن رفضها مصطفى النحاس باشا فى أكتوبر ١٩٥١، بدأ الغرب فى الاحتيال على الموقف فلم يجد إلا الهاشميين فى العراق الذين يستمدون شرعيتهم فى الحكم من التأييد البريطانى القديم كما سبقت الإشارة . وهكذا عقد الحلف فى ٢٤ فبراير بين العراق وتركيا أولا باسم حلف بغداد على أن يكون مفتوحا لانضمام أى دولة من دول الجامعة العربية أو غيرها. ثم انضمت بريطانيا إليه فى أبريل ١٩٥٥ وشن عبدالناصر حملة شرسة ضد الحلف لاقت تأييدا من سوريا والسعودية التى رأت فى الحلف مظهرا لتمدد الهاشميين فى المنطقة .

وفى إطار حلف بغداد سعى الهاشميون فى العراق لمد نفوذهم إلى الكويت وتزعم إمارات الخليج باسم التحالف مع الغرب وإقامة إتحاد فيدرالى بينها تحت التاج الهاشمى، إلا أن بريطانيا التى كانت لا تزال تحكم تلك الإمارات بدرجة أو بأخرى وقفت ضد هذه المحاولة، ووقفت ضدها السعودية أيضا إيقافا للمد الهاشمى . ومن المعروف أن ضم الكويت للعراق مطلب قديم منذ إعلان الملكية العراقية حين تخلت تركيا عما تبقى من ولايتها فى المشرق العربى بمقتضى معاهدة لوزان ١٩٢٣ إذ اعتقد الهاشميون أنهم ورثة الحكم العثمانى فى المنطقة حيث كانت الكويت قضاء تابعا للواء البصرة فى التقسيم الإدارى العثمانى هناك. ومن المعروف أن هذا الهدف كان مطمحا

«عراقيا» اتفق عليه الهاشميون والشيوعيون والبعثيون والقوميون فى العراق حتى انتهى نهاية مأساوية بغزو الكويت فى أغسطس ١٩٩٠ .

ولما أعلنت الوحدة المصرية - السورية فى ٢٢ فبراير ١٩٥٨ تحرك الهاشميون فى العراق والأردن وأعلنوا بعد يومين من قيامها وفى يوم ٢٤ فبراير بقيام «الاتحاد العربى» لتدعيم موقف الهاشميين ضد المد القومى الناصرى ، وانجرفوا أكثر نحو تأييد مبدأ إيزنهاور الذى كان قد أعلنه فى ٥ يناير ١٩٥٧ بعد قيام عبدالناصر فى أول يناير ١٩٥٧ بإلغاء اتفاقية الجلاء مع بريطانيا لاشتراكها فى العدوان الثلاثى ١٩٥٦ . وكان المبدأ يقضى بتدخل الولايات المتحدة عسكريا لضمان الاستقلال السياسى لدول المنطقة اللاتى تتعرض لهجوم من دول تحكمها نظم شيوعية. وما لبثت الأوضاع أن انقلبت رأسا على عقب بقيام الثورة فى ١٤ يوليو ١٩٥٨ ضد الهاشميين فى العراق وأعلنت الجمهورية التى انسحبت من حلف بغداد فى مارس ١٩٥٩ . وبقيام الثورة فى العراق انتهى دور الفرع الرئيسى والأكبر للهاشميين فى المنطقة، ولم يبق إلا فرع الأردن بزعامة الملك حسين الذى وجد نفسه وحيدا وسط محيط عربى معاد لأسباب مختلفة، فكانت النتيجة ارتمائه أكثر وأكثر فى أحضان الغرب الأوروبى - الأمريكى بدلا من أن يلتحف بالغطاء العربى مهما كان متهرئا ممزقا فهو خير وأبقى .

وتولى الملك حسين استكمال المنهج الهاشمى فى السياسة العربية والدولية وأبرز ما فيه عدم تشجيع التقارب العربى الحقيقى، والتنسيق مع إسرائيل سرا ثم علنا بعد رحيل عبدالناصر وحتى قبل أن يعقد السادات اتفاقيته مع اسرائيل فى مارس ١٩٧٩ ، والقيام بدور شرطى محدود فى المنطقة يحرس المصالح الأمريكية خاصة بعد القضاء على شاه إيران بثورة مارس ١٩٧٩ ، والاستجابة للمطالب الاسرائيلية فيما يتعلق بالفلسطينيين وفى هذا لا ينبغى أن ننسى مذابح سبتمبر ١٩٧٠ المعروف بأيلول الأسود حين تولى الملك الهاشمى نيابة عن إسرائيل مسح الفلسطينين من الخريطة حتى تزول العقبة الرئيسية أمام تسوية المشكلة ، إذ كانت مشكلة اللاجئين الفلسطينيين تتصدر كل مشروع من مشروعات تسوية علاقات إسرائيل بالعرب . ومن سياسات الملك الهاشمى ومواقفه تحفظ الأردن على قرار القمة العربية فى نوفمبر ١٩٧٣ الخاص

باعتماد منظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطينى، وتكرر التحفظ فى قمة الرباط فى نوفمبر ١٩٧٤. كما تحفظ على ثلاثة قرارات فى قمة بغداد ١٩٧٨ (الصمود والتصدى) فى مواجهة قرار رفض اتفاقيتى كامب ديفيد، وتعليق عضوية مصر بالجامعة العربية، ومقاطعتها سياسيا واقتصاديا. ولم يكن هذا التحفظ بدافع الشفقة على مصر أو نصرتها، وإنما إرضاء للتحالف الأمريكى - الاسرائيلى الذى لا يشجع على مقاطعة من يتحالف مع إسرائيل..

ومازال الهاشميون يواصلون رسالتهم التقليدية وآخرها قيام الشريف على بن الحسين الذى غادر العراق فى أعقاب ثورة ١٩٥٨ وعمره سنتين بتأليف حزب ملكى دستورى يطالب بعرش العراق. ومن يدرى فقد يظهر هاشمى آخر يطالب بعرش الحجاز.. وكله مرهون بإرادة النظام العالمى الجديد حسبما يخدم أغراضه فى التفكيك وخلق النزاعات بين العرب حتى يكره بعضهم بعضا. ■

كلمات عاشت

● عبقرية العقل تخلق الأعداء والحساد، وعبقرية القلب تخلق الأصدقاء والأحباب.

العقاد

● أنا أؤمن إيمانا قويا بمزايا الصمت، وأستطيع أن أتكلم ساعات وساعات فى هذا الموضوع.

برناردشو

● أعطنى مكانا خارج الأرض وأنا أحرك الأرض!

أرشميدس

● يحتاج الحق إلى رجلين.. أحدهما ينطق به، والآخر يفهمه.

جبران

● الحرية سجن ما بقى على وجه الأرض إنسان واحد مستعبد.

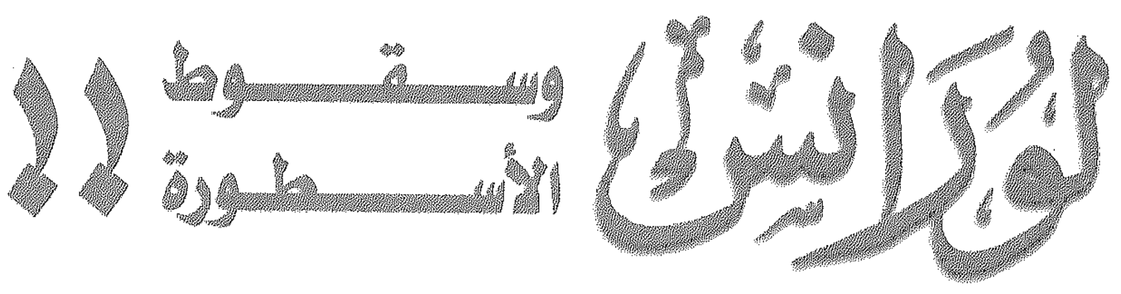
ألبير كامي

● كنا نسير التاريخ فأصبح يسيرنا.

سارتر

● احذر أن تسخر من أحلام الشباب فإن السخرية منها عارض من أعراض مرض الشيخوخة يسميه المرضى حكمة!

شكسبير



بقلم

د. صبري محمد حسن

إذا كان بالجريف، صاحب كتاب «وسط الجزيرة العربية وشرقها»، قد تنكر في عام ١٨٦٢ في زى طبيب مزيف، عجزت السلطات المحلية عن اكتشاف حقيقته، مما جعله يتمكن من جمع مادة كتابه بعيداً عن أعين السلطة وعين رقابتها، ليخرج على القراء وعلى الباحثين، وعلى المهتمين بشئون الجزيرة العربية في ذلك الوقت بكتاب ينطوى على مادة غزيرة جمعها، من أفواه الناس، وإذا كان بالجريف قد بعد عن أعين السلطات المحلية تخوفاً منها وتجنباً لها..

وإذا كان شارلز دوتى بعد بالجريف بأربعة عشر عاماً، أى في عام ١٨٧٦ قد حذا حذو بالجريف وانتحل الطبابه وأطلق هو الآخر على نفسه اسما عربيا (خليل) وخاطر بحياته بعد أن رفض القنصل البريطانى التدخل لدى الحاكم التركي في دمشق لتوفير الحماية اللازمة له

توماس ادوارد لورانس بالملابس العربية

وإذا كان دوتى قد ارتدى الملابس العربية وانضم خلسة إلى قافلة الحج، وقام بالرحلة التى حددها لنفسه دون أن ينكشف أمره عند باشا الحج أو أمير الحج، وينجح فى النهاية فى جمع مادة علمية لكتابه الرائع «ترحال فى الجزيرة العربية»، إذا كان هذان الاثنان قد تنكرا حباً فى العلم وطلباً للمعرفة. فان فيلبى فى كتابه «قلب الجزيرة العربية» جمع مادته العلمية تحت أعين، وعلى مسمع ومرآى من السلطة، دون تحسب أو تزلف للسلطة لأن فيلبى كان مطلوبا من السلطة ومرغوباً فيه أيضا.

وإذا كان بالجريف قد انطلق من معان، ومنها إلى الجوف ثم إلى حائل، ومنها إلى القصيم ثم الرياض، ثم العودة إلى البحرين، ثم عرّج على قطر، وعمان، ومنها إلى البر الفارسي، ثم إلى بغداد ومنها إلى انجلترا مرة ثانية.

وإذا كان دوتى قد انطلق من دمشق ومنها إلى معان، ثم تبوك، ومنها إلى مدائن صالح.

وإذا كان فيلبى قد جاء إلى الرياض قادماً من بلاد الرافدين، وانطلق إلى بلاد الرافدين ليعود ثانية إلى الرياض بإيعاز من ملك بريطانيا والاستخبارات البريطانية لمقابلة ابن سعود ثم يقوم برحلة إلى الجنوب يأتى بعدها إلى الرياض لمقابلة ابن سعود بعد أن استعد لكسر شوكة ابن الرشيد؛ فإن إعداد المسرح بهذه الطريقة الأنيقة الدقيقة لاستقبال هذه السيمفونية العلمية فى المقام الأول، والاستخباراتية فى المقام الثانى يوحى بوجود خيط رفيع بين ماكان يدور فى وسط الجزيرة العربية وجنوبها من ناحية، أى ماكان يقوم به فيلبى وبين ذلك الذى كان يدور فى القسم الغربى، أى الحجاز على وجه التحديد.. ترى هل كان خيط الوسط والجنوب ممتداً إلى المنطقة الغربية؟ هل كانت هناك علاقة من نوع ما بين ما يدور هنا وهناك فى الجزيرة العربية على أيدى البريطانيين فى فترة مابعد الحرب العالمية الأولى وما قبلها؟ الإجابة عن هذه الأسئلة تجرنا إلى التركيز على الدور الذى كان يلعبه توماس إدوارد لورانس، الذى اشتهر بكنية، «لورانس العرب»، فى الجانب الغربى فى ذلك الوقت؟ ماذا كان ظاهر هذا الرجل؟ وماذا كان باطنه؟

هذا اللورانس كان جنديا ورجل استخبارات وجاسوساً وكاتباً. عمل لحساب الاستخبارات البريطانية فى شمال أفريقيا فى الفترة من ١٩١٤ – ١٩١٦. وفى العام ١٩١٦ الميلادى وبترتيب أيضا من الاستخبارات انضم إلى الثورة العربية على الأتراك.

بين الذيوع والخمول

ذاع صيت توماس إدوارد لورانس بعد الحرب العالمية الأولى على أثر الدور البارز الذى لعبه يوم أن كان ضابطاً بريطانياً للاتصال طوال فترة الثورة العربية فى الفترة من ١٩١٦ – ١٩١٨. وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى طاف لويل توماس الصحفى الأمريكى فى بريطانيا وفى الإمبراطورية ليقدم للناس عرضا بارزاً ناجحاً باستخدام الشرائح يوضح المنجزات العظيمة التى حققها لورانس. هذه القصة الرومانسية التى رواها ذلك الصحفى عن الحملات والمهام التى قام بها لورانس فى بلاد العرب واللنبى فى الأراضى المقدسة استحوذت استحواذاً كبيراً على خيال الجمهور البريطانى الذى سبق أن استحوذت عليه الحكايات المريعة عن حرب الخنادق التى دارت على الجبهة الغربية. ومن هذه البداية الصغيرة ذاع صيت لورانس وعمت شهرته الآفاق.

زد على ذلك ، أن حقائق مغامرات لورانس العسكرية زادتها الأساطير لبثا، فضلا عن

أن شخصية لورانس نفسه، لا تزال إلى يومنا هذا هدفا مفضلا للجدل والنقاش الشعبى فى بريطانيا. ومع ذلك، وبعد إفراج المحفوظات البريطانية فى ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، عن المستندات الخاصة بالعمليات التى دارت فى الشرق الأوسط، أكدت تلك المستندات والوثائق أن عمل لورانس مع العرب لا يقل روعة عن روعة الأساطير.

لورانس نفسه لم يكن يرغب فى أن يكون بطلاً: وهو لا يطيق الحديث عن دور فى زمن الحرب، إذ كانت كل مطامع لورانس تتمثل فى أن يكون كاتباً. وقد عبر ذاته مرة عن أمله هذا بقوله: «فى المستقبل البعيد، أن قدر لذلك المستقبل البعيد أن يأخذ تفاهتى بعين اعتباره، أتمنى أن يقيمنى الناس كصاحب أفكار لا كصاحب أعمال».

سمعة لورانس الأدبية ترتكز على مادة كتابية، القسم الأكبر منها من قبيل السيرة. وهذه المادة الكتابية تشتمل على حوالى ٦٠٠٠ رسالة كتبها لورانس فى الفترة مابين عام ١٩٠٦ الميلادى ووفاته فى عام ١٩٣٥، فضلا عن كتابين آخرين من كتاب السيرة غير الذاتية أولهما: أعمدة الحكمة السبع، الذى يحكى فيه قصته أو أن شئت فقل حكاية عمله مع الثورة العربية؛ وثانى هذين الكتابين هو كتاب أسماه «الابتكار» ويتناول فيه تجاربه وخبراته عندما كان مجندا مجهول الاسم فى صفوف القوات الجوية يمضى فيها حياته بعد عام ١٩٢٢، هذا الكتاب أدهش الكثيرين من معاصريه وسبب لهم الكثير من القلق والإزعاج.

أسلوب كتب الملاحظة الدقيقة

من يقرأ هذين الكتابين، هما ورسائل لورانس يكتشف انه كان مراقبا دقيقاً للناس، وللأماكن، والأحداث أيضا. ومن بين المقطوعات التى تنبض بالحياة والحيوية، فى كتابه «أعمدة الحكمة السبع» تلك الأوصاف التى يقدمها للمناظر الطبيعية الصحراوية والبدو الرحل الذين شاركهم حياتهم. وكتاب «الابتكار» الذى كتبه لورانس بأسلوب مختلف تماما عن أسوب «أعمدة الحكمة السبع» يشبه إلى حد بعيد أسلوب كتب الملاحظة الدقيقة، التى يكتبها مؤلفون على درجة عالية من الذكاء وجدوا أنفسهم محبوسين بلا ذنب أو جريرة. الفارق هنا بين الكتابين أن لورانس خلص كتابه الأول من الأوصاف التى شاهدها مرات ومرات.



رسائل لورانس تحظى هى الأخرى بصيت ذائع. وأصدقاء هذا الرجل يتدرجون من رفاقه وزملائه وأصدقائه فى صفوف الخدمة العسكرية إلى كبار الشخصيات العالمية، فى الأدب، الفن، والسياسة. ونظراً لأن ظروف حياة لورانس كانت لا تسمح له بلقاء الأصدقاء، فقد كانت رسائله فى كثير من الأحيان، الوسيلة الوحيدة للمحافظة على هذه العلاقات.

ترى، هل نحكم على لورانس من منطلق أنه كان من رجال الأفكار، أم من منطلق كونه رجلاً من رجال الأعمال؟ هذه القضية ظلت معلقة إلى أواخر القرن العشرين.

شباب لورانس

اشتهر لورانس بين افراد أسرته باسم «نيد»؛ هذا النيد ولد فى عام ١٨٨٨ فى مقاطعة ويلز. وكان ترتيبه الثانى بين خمسة أبناء غير شرعيين أنجبهم السير توماس شابمان، ذلك البارون البريطانى - الأيرلندى، من ساره جونر، التى كانت من قبل فى أسرة شابمان، تعمل مربية لشقيقات توماس الأربع الشرعيات. وبعد أن هربا سويا أطلقا على نفسهما

لقب لورانس.

فى عام ١٨٩٦ استقر الاثنان فى مدينة اكسفورد، التى عاشا فيها عيشة زوج وزوجة. والتحق أبناؤهما بالمدرسة الثانوية للبنين فى مدينة اكسفورد. ومن تلك المدرسة، حصل نيد، أو بالأحرى توماس إدوارد لورانس على منحه لدراسة التاريخ فى كلية يسوع فى جامعة اكسفورد. وفى عام ١٩١٠ الميلادى حصل لورانس على مرتبة الشرف الأولى فى الامتحان النهائى، وذلك عن اطروحة شهيرة ألفها عن القلاع الصليبية. وقد اشتملت الأبحاث التى أجراها على القيام بجولة طويلة سيرا على الأقدام فى كل من فلسطين وسوريا.

كان لورانس مفتونا، منذ طفولته، بالآثار. وبعد أن تخرج لورانس فى الجامعة عمل فى الفترة من ١٩١٠ إلى ١٩١٤ مساعداً مع فريق المتحف البريطانى للتنقيب عن الآثار فى مدينة كارشميش الحيثية على نهر الفرات. كانت المهام المسندة إلى لورانس ضمن هذا الفريق تقتصر على التصوير، والخزف، وإدارة العمالة المحلية. وفى كارشميش تعلم لورانس كيف يحفز القرويين العرب، وذلك على العكس تماما من الإنجليز الذين كانوا يعملون فى الإمبراطورية البريطانية، دون الاستعانة بالقانون العسكرى البريطانى أو السلطة الاستعمارية.

بعد نشوب الحرب، امضى لورانس فترة وجيزة فى القسم الجغرافى فى أركان الجيش البريطانى العامة فى مدينة لندن. ثم نقل بعد ذلك للعمل ضمن إدارة الاستخبارات الحربية فى القاهرة، التى أسندت له فيها بالإضافة إلى أشياء أخرى، مهمة الخبير فى حركة التحرير القومية فى الأقاليم التركية التى كانت تشتمل فى ذلك الوقت على كل من سوريا ولبنان، وفلسطين، والأردن، وأقليم الحجاز من السعودية.

وفى أكتوبر من العام ١٩١٦ الميلادى، أوفد فى مهمة لتقصى الحقائق فى الحجاز، التى قام فيها الشريف حسين فى مكة بثورة على الحكم التركى الأميريالى. وقد أسفرت نوعية التقارير التى كان يكتبها هى وتقمصه الوجدانى للزعماء العرب إلى قيامه بدور طويل لعب فيه دور ضابط الاتصال فى الثورة العربية، بأن راح يعمل ضمن القوات التى كان يقودها الأمير فيصل، أحد أبناء الشريف حسين الأربعة.

حملات الحجاز

فى المراحل الأولى من الثورة العربية، حرَّض المستشارون العسكريون البريطانيون والفرنسيون، العرب على الاستيلاء على معقل المدينة المنورة وقطع خط حديد الحجاز الذى كان بمثابة خط الإمداد التركى المتجه جنوبا إلى الحجاز قادما من دمشق.

وسعياً إلى تحقيق هذا الهدف، وبمساعدة من البحرية الملكية تحركت قوة الأمير فيصل الرئيسية، فى ربيع عام ١٩١٧ شمالاً، متجهة إلى أعالى ساحل البحر الأحمر، أو بالتحديد من ينبع إلى منطقة الوجه . وما أن وصلت تلك القوة إلى الوجه حتى أصبحت تشكل تهديداً خطيراً لخطوط المواصلات التركية.

تناهى إلى مسامع استخبارات الحلفاء، بعد ذلك مباشرة، أن الأتراك يخططون للانسحاب الكامل والحاسم من المدينة المنورة. وبينما كان ذلك يحظى برضا الشريف حسين، كان مركز الرئاسة البريطانى فى القاهرة يخشى قيام الأتراك بنقل هذه القوات إلى الجبهة الفلسطينية، ومن ثم يمكن أن تكون مثل هذه القوات عقبة إضافية أمام التقدم

البريطانى. وهنا عجلت القاهرة بالتماس مفاده أن العرب يتعين عليهم منع الأتراك من الانسحاب من المدينة المنورة.

ومن باب الاستجابة لذلك الالتماس وتحقيق ذلك المطلب، ابتكر لورانس استراتيجية جديدة. وفى ضوء هذه الاستراتيجية يسمح العرب لخط حديد الحجاز بالاستمرار فى العمل، اللهم باستثناء القيام ببعض الاغارات من حين لآخر، لإحداث بعض الأضرار البسيطة، فى بعض المواضع على طول الخط الحديدى، تؤدى فى النهاية إلى توقف عمل ذلك الخط لبضعة أيام قلائل فى المرة الواحدة. يترتب على ذلك أن تصبح مسألة الانسحاب من المدينة المنورة أمراً مستحيلاً فى واقع الأمر، ويترتب على ذلك استخدام عدد كبير من الجنود الأتراك وعمال الإصلاح، لنشرهم على طول الخط الحديدى للدفاع عنه واستمراره فى العمل. وبدأ تنفيذ هذه الاستراتيجية، ومن ثم أمكن إصابه القوة التركية الموجودة فى المدينة، بالعجز اعتباراً من ذلك التاريخ.

الاستيلاء على العقبة

كان الموقف على مايرام فى الحجاز فى منتصف عام ١٩١٧ الميلادى، ولكن كل من لورانس والأمير فيصل كانا يريدان مد الثورة وتوسيعها فى اتجاه الشمال لتشمل دمشق وما بعدها. تحقيق مثل هذا الهدف يتطلب كفالة حرية الحركة لقوات الغزو العربية، وبخاصة أن حرية الحركة فى ذلك الوقت كانت أمراً مستحيلاً فى المناطق الزراعية المستقرة فى كل من فلسطين ولبنان. يضاف إلى ذلك أن أية عمليات فى الشمال يجب أن تعتمد على الداخل، وبخاصة فى منطقة الصحراء الواقعة فى ناحية الشرق.

تنفيد هذا المقترح واجهته مشكلة حرجة: إذ كيف تستطيع مثل هذه القوات الحصول على المؤن والتموينات اللازمة لها؟ يضاف إلى ذلك انه لم يكن هناك طريق فعلى للإمداد يصل إلى هذه المناطق قادما من أقرب المناطق التى كانت تحت أيدى وسيطرة البريطانيين فى ذلك الوقت. فإن لورانس كان يعرف أن هناك طريقا واضحا ولكنه بحاجة إلى التأمين. كان ذلك الطريق يتمثل فى ذلك «المدق» الذى يؤدى إلى الداخل قادما من العقبة عند الطرف الشمالى من البحر الأحمر. كانت العقبة هى ومنطقتها الجبلية الداخلية، فى أيد الأتراك، ولكن هل يمكن الاستيلاء عليهما؟

كان لورانس قد سبقت له زيارة العقبة قبل الحرب، وعلم عن طريق عمله الاستخبارى فى القاهرة أن الأتراك كانوا قد شيدو دفاعات قوية فى الممر الضيق المؤدى إلى وادى إتم. من هنا، إذا كان من السهولة بمكان الاستيلاء على العقبة عن طريق البحر، فإن وادى إتم يستحيل الاستيلاء عليه. ومن ثم فإن العقبة وحدها بدون ذلك الوادى تصبح عديمة القيمة. وهنا ابتكر لورانس خطة جديدة، مستخدما فيها معرفته بالمكان وبالسكان القبليين المحليين أيضا، قام بمقتضاها بتوسيع الدائرة الداخلية من خلال الصحراء. وطبقا لهذه الخطة تقوم جماعته الصغيرة بتشكيل قوة محلية، تستولى على دفاعات وادى إتم وذلك عن طريق مهاجمته من الخلف.

تحققت تلك الخطة فى اليوم السادس من شهر يوليو من عام ١٩١٧ الميلادى، إذ استولى العرب بمقتضاها على كل من العقبة وعلى الممرات الجبلية الحيوية. بعد ذلك بأربعة أيام، فاجأ لورانس الذى سبق له أن سافر على ظهر جمل عبر شبه جزيرة سيناء،

مركز الرئاسة البريطاني فى القاهرة، بمجيئه طالبا إمدادات عاجلة.

الحملات السورية

استطاع لورانس بذلك، أن يصبح همزة الوصل الرئيسية بين كل من الجنرال اللنبى، القائد الجديد للقوة العسكرية المصرية الجديدة التى تعمل خارج أراضى الوطن، وجيش الأمير فيصل، مع اتساع رقعة الثورة ازداد الدور الذى يلعبه لورانس أهمية على أهميته.

وضع اللنبى خطة للتقدم فى اتجاه الشمال، ولكن خط الإمداد التركى الرئيسى كان يتمثل فى خط الحجاز الحديدى وفرعه المؤدى إلى فلسطين. هذا الخط الحديدى كان شديد الانحدار داخل الأراضى التى تسيطر عليها تركيا، الأمر الذى صعب على اللنبى مسألة الهجوم على ذلك الخط. هذا يعنى أن مثل هذا الخط يمكن أن يكون معرضا ومكشوفا إذا ما هاجمته من الداخل قوة عمليات خفيفة. وهنا وعد لورانس بقيام الجيش العربى بقطع ذلك الخط فى الوقت المناسب. يضاف إلى ذلك أن السكان المحليين سيقومون بالثورة فى المرحلة النهائية ويمنعون القوات التركية من الانسحاب. وبعد سلسلة من التأخيرات والتعطيلات، والأحداث السيئة على الجانب البريطانى جرى تنفيذ هذه الخطة فى شهر سبتمبر من عام ١٩١٨ الميلادى. وعندما بدأ اللنبى تقدمه، اكتشف الأتراك قطع خطوط مواصلاتهم، وجرى الهجوم من كل جانب بواسطة رجال القبائل على القوات التركية كلها على شكل هزيمة ساحقة.

الرواية التى أوردها لورانس فى كتابه المعنون «أعمدة الحكمة السبع» عن الثورة العربية، تدعمها الوثائق العسكرية البريطانية التى جرى الكشف عنها أخيراً. وهذه الوثائق تثبت أن نفوذ لورانس الشخصى فى الفترة مابين شهر يوليو من عام ١٩١٧ وشهر سبتمبر من عام ١٩١٨ جرى التقليل من شأنه ولم يوف حقه فى ذلك الكتاب.

عجل لورانس بعد الاستيلاء على دمشق بالعودة إلى إنجلترا حتى يتسنى له مساعدة ذلك الذى كان يسميه، قضية استقلال العرب، التى كان يؤمن بها إيمانا ظاهريا. ولذلك انضم إلى الوفد البريطانى الذى أوفد إلى مؤتمر باريس للسلام فى عام ١٩١٩ الميلادى، وراح يعمل بصورة، قيل: إنها كانت وثيقة مع الأمير فيصل، ولد الشريف حسين.

وعلى الرغم من أن الحكومة البريطانية كانت على دراية كاملة بالإنجازات التى حققها لورانس ، إلاّ انه لم يكن معروفا لدى عامة الشعب، بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها. هذه الصورة تغيرت فى عام ١٩١٩ الميلادى بعد وصول الصحفى الأمريكى «لويل توماس» إلى لندن. هذا التوماس، سبق أن قام بزيارة قصيرة إلى العقبة أثناء الثورة العربية، وشجعه لورانس على الكتابة عن كفاح العرب من أجل الحرية والتحرير. عندما وصل ذلك الصحفى إلى لندن كانت لديه مادة غزيرة تشتمل على محاضرات وشرائح، وأفلام وموسيقى بل ورقص أيضا.

هذه القصة الرومانسية التى رواها ذلك الصحفى الأمريكى عن الانتصارات التى جرت فى أرض الكتاب المقدس (الانجيل) لقيت نجاحا مدويا فى بلد أصابته المخاوف من حرب الخنادق الأوروبية، بالخدر وانعدام الإحساس. وسرعان ما تحول لورانس، على إثر ذلك. إلى بطل شعبى، كما اكتشف لورانس أن تلك القصة زادت من ثقل حملته السياسية. وبذلك تصبح هذه هى الفترة الوحيدة، من حياة هذا الرجل، التى سعى خلالها إلى توسيع دائرة

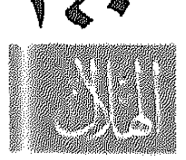
شعبيته، وراح يجرى المقابلات الواحدة تلو الأخرى، متطلعا، من وراء كل ذلك، إلى مساندة ما يسمى بالقضية العربية.

عاد لورانس إلى إنجلترا وأمضى جزءا من حياته فى مدينة اكسفورد، التى حصل من جامعتها على منحة بحث من كلية أول سولز، كما أمضى أيضا جزءا من حياته فى سكن تحت سطح المنزل استأجره من صديق له فى المنزل رقم ١٤ بشارع بارتون، فى مدينة لندن، فى تلك الأثناء كان لورانس قد بدأ فى تأليف كتابه المعنون «أعمدة الحكمة السبع»، عندما كان فى بارس «ولكن مسوداته هى وبعض الكراسات التى كان يدون فيها ملاحظاته كانت قد سرقت منه فى خريف العام ١٩١٩. وطوال العام ١٩٢٠ أعاد كتابة الكتاب معتمدا على ذاكرته، ثم بدأ بعد ذلك فى تصحيح الكتاب فى ضوء المصادر التى أمكنه العثور عليها.

بانتهاء العام ١٩٢٠ الميلادى، أدت محاولات فرض إدارة استعمارية بريطانية على العراق إلى استثارة العداء والتمرد العلنى، وترتب على ذلك، أن راحت الحكومة البريطانية تنفق مبالغ طائلة على عملية القمع. وجرى تعيين ونستون تشرشل وزيرا للمستعمرات على أمل أن يجد لتلك المشكلة حلا. وهنا استطاع تشرشل إقناع لورانس، الذى كان يشن فى الصحافة حملة على سياسة الحكومة فى ذلك الوقت. على الانضمام إليه فى وزارة المستعمرات ليكون مستشارا له. ويجب الا يغيب عنا هنا أن لورانس كان له دور فى اعتلاء الأمير فيصل عرش العراق، كما كان له دور أيضا فى تأسيس مملكة شرق الأردن «الاردن فيما بعد»، وبالرغم من أن هذين البلدين كانا لايزالان تحت الوصاية البريطانية إلا انهما تمتعا بعد ذلك بقدر كبير من الحكم الذاتى. وفى صيف العام ١٩٢٢ الميلادى، احس لورانس. فى حدود السلطة والنفوذ البريطانى ، ان تشرشل استطاع التوصل إلى تسوية أو حل مشرف لتلك المشكلة.

الخدمة فى صفوف القوات المسلحة ١٩٢٢ - ١٩٣٥

فى تلك الأثناء انجرف لورانس فى سلسلة من الذكريات الخطيرة، فبعد أهوال الحرب وضغوطها عمل لورانس مدة ثلاث سنوات فى مجال السياسة، تلاها انشغاله وتوتره توترا شديدا عندما استهل العمل فى كتاب بلغ عدد صفحاته الألف صفحة. وكان يؤمل له أن يكون فى مكانه رواية «الحوت الأبيض» التى الفها شنانيبك، او رواية «الاخوة كرامازوف لدستوفسكي، وحرصا من لورانس على سلامته العقلية استقال من وزارة المستعمرات، وراح يبحث لنفسه عن ملاذ فى صفوف القوات الجوية الملكية، التى سجل نفسه فيها تحت اسم جون هيوم روس وبعد مضى أربعة اشهر اكتشفت الصحافة أمره وجرى على أثر ذلك تسريحه أو إن شئت فقل إخلاء سبيله من القوات الجوية الملكية. عند هذا الحد. كان لورانس على قناعة تامة بأن الانخراط فى صفوف القوات المسلحة البريطانية هو السبيل الوحيد الذى يتمناه وتتوق إليه نفسه، من هنا وبمساعدة من أصدقائه الذين كانوا يشغلون مناصب رفيعة أعاد لورانس تسجيل نفسه من جديد فى سلاح الدبابات البريطانى تحت اسم توماس إداواردشو خدم لورانس فى ذلك السلاح حتى منتصف العام ١٩٢٥ الميلادى، فى معسكر بوفينجتون فى مدينة دورسيت وخلال هذه الفترة استأجر لورانس كوخا صغيرا اسمه كلاودز هيل، ويقع بالقرب من المعسكر.



بعد انتهاء العام ١٩٢٣ الميلادى انفق لورانس كل وقت فراغه بل وسخر كل طاقته لمراجعة الطبعة التجارية من كتابه «اعمده الحكمة السبع».

وفى منتصف الطريق أثناء القيام بذلك العمل، نجح لورانس مرة ثانية فى الانتقال من سلاح الدبابات إلى القوات الجوية الملكية البريطانية مرة ثانية، وفى نهاية العام ١٩٢٦ قبل لورانس إحدى الوظائف فى الهند، حتى يصبح بعيدا عن متناول الصحفيين بعد نشر النسخة المختصرة تحت عنوان «ثورة الصحراء» واقبل الناس على اقتناء الكتابين: «ثورة فى الصحراء»، «أعمدة الحكمة السبع» الأمر الذى عجل بسداد القرض الذي كان لورانس قد أخذه من البنك. ومن المحتمل أن يكون لورانس قد أثرى على حساب هذين الكتابين، ولكنه وجه كل المبالغ التى زادت على تكلفة النسخة المختصرة إلى وجوه البر والإحسان.

بعد أن انتهى لورانس من كتاب «الابتكار» قبل تكليفا بترجمة الأوديسا التى كتبها هوميروس، ولم ينته من ترجمتها حتى العام ١٩٣٢، وقبل هذا التاريخ، وبالتحديد فى نهاية العام ١٩٢٨، اضطر لورانس، كالعادة، إلى العودة إلى إنجلترا على إثر بعض الشائعات الصحفية حول قيامه ببعض أعمال الجاسوسية فى الهند.

نقلت الاستخبارات لورانس بعد ذلك إلى وحدة من وحدات الطائرات المائية فى مدينة بليموث، التى التزم فيها التزاما شديدا بواحدة من القضايا الجديدة، فقد شاهد لورانس فى مطلع العام ١٩٣١ الميلادى حادث تحطم واحدة من تلك الطائرات بالقرب من الشاطىء ولكن لنش الإنقاذ بلغت سرعته من البطء حدا تعذر معه الوصول إلى مكان الحادث على وجه السرعة الأمر الذى أسفر عن وفاة من كانوا فى الحادث بلا داع أو مبرر، فى ذلك الوقت. كان لورانس قد أعاد تجديد لنش ميكانيكى أمريكى سرعته أكبر بكثير من اللنش سالف الذكر، واعتبارا من تلك اللحظة، راح هو وقائده (الذى كان صديقا وفيا للورانس) يتزعمان حملة لاستخدام القوات الجوية الملكية لتلك اللنشات الأمريكية، الأكثر من ذلك، أن لورانس أصبح أكثر انشغالا بتطوير هذه المركبات، الأمر الذى جعله ينفق سنواته الأخيرة فى القوات الجوية، فى العمل فى أحواض بناء السفن وهو يرتدى ثيابا مدنية، أسفرت الجهود التى بذلها لورانس. مع مطلع الحرب العالمية الثانية فى العام ١٩٣٩ عن تزويد القوات الجوية الملكية بأسطول من تلك اللنشات السريعة، لا لشىء سوى إنقاذ حياوات الكثيرين من البشر.

لم يطل عمر لورانس كى يشهد ذلك التغيير ، فقد انتهت فى شهر مارس من عام ١٩٣٥ الميلادى فترة انخراطه فى صفوف القوات الجوية الملكية التى دامت اثنى عشر عاما. تقاعد لورانس من الخدمة، وعاد للعيش فى كوخه اللندنى الصغير كلاودز هيل، وفى ذهنه خطة لإنشاء مطبعة صغيرة ينتج فيها طبعة من كتابه المعنون «الابتكار» ، وفى شهر مايو من العام ١٩٣٥ الميلادى وبينما كان يركب لورانس دراجته النارية فى جولة محلية، انحرف عن مساره تفاديا لاثنين كانا يركبان دراجتين، فطاح من فوق دراجته النارية ساقطا على الأرض، وقد أسفر ذلك عن إصابته بإصابات بالغة فى الرأس، فقد وعيه على أثرها، ليموت بعد ذلك بأيام قلائل. ■

الفن والقمامة

التنافر قمة إحكام التفكيك
والتفكيك قمة الإبداع !!
الاحتفاء بالمتلقى الغافل بعد عرض النفايات وبقايا الكائنات!

بقلم
د. محمد المهدى

دعت منحوتات (هنرى مور) الأطفال للولوج إلى داخلها، والأنس بحميمية أحضانها. ودعا النحات (جياكوميتى) الأنامل للمس نتوءات منحوتاته الرشيقة. كانت بداية قلق الفنان من فصل العمل الفنى عن متلقيه. مع الزمن تحول القلق إلى تمرد. ازداد التمرد فتحول إلى جنوح وجنون.

وفى أحد معارض هذا الجنون أعلن أصحابه فى باريس، أنه قد آن الأوان لأن تحكم التفكيكية الفنون التشكيلية.

نماذج من النفايات البشرية - من فنون التفكيك



عرضوا النفايات، وبقايا الكائنات.. التناثر فيها قمة أحكام التفكيك.. والتفكيك فى نظرهم قمة الإبداع. ولكى تخلو ساحتهم من عين الرفيق الفنان . طردوه من الساحة. رفضوه. منعوه من دخول معارضهم. رحبوا فقط باستقبال المتلقى الصامت.. الغافل .. اعتبروه هو النص. أو هم النصوص وما عداهم لصوص يسرقون العقول والجيوب.

والمدهش أنهم تعساء لاندهاش الناس. فاندهاش الناس يدل على تخلفهم. إذن عليهم بمزيد من المبالغة حتى تختفى الدهشة!!

التشكيل والمسرح

لقد كانت للأوعية الإبداعية غير المسرح والرواية محاولات للتمرد على التبعية لفن آخر. وصل (بيتهوفن) إلى الموسيقا المجردة، أى عدم الترجمة أو التعبير، أو الاستلهام المباشر من إبداع سابق سواء من صورة أسطورية، أو حكاية شعبية، أو رواية دينية، أو شخصية درامية مسرحية، أو روائية سابقة. وجاء دور التشكيل للتمرد فكانت المدرسة (التأثيرية) متمردة على الواقعية ومن قبلها الكلاسيكية الجديدة. فالمادة فى المدرستين مستمدة عادة ومنذ أيام نهضة (أنجلو) و(دافنشى) و(رفائيل) من الأسطورة، أو القصة الدينية، أو النتاج الدرامى القديم. ودعت المدرسة التأثيرية إلى اجروميه جديدة (ألفها) اللون. و(ياؤها) الضوء.

لكن الموسيقا عادت تستهدى فى صورة حوار بين فن وآخر بخطوات المقروء المسبوق. عادت تصور من عالم الأدب ما يعرف بالقصيد السيمفونى.. أو فن الباليه، أو الأوبرا، فكلها أوعية إذا لم يوضع لها خصيصا النص، فإنها تستعين بالنص الأدبى كما تفعل السينما فى نقل الأعمال الروائية الكبيرة إلى الشاشة.

واقتضى إصرار حركة التمرد التشكيلى على السردية، أو النقلية، أو الاستعارية أو حتى الاستلهامية من حدث خارجى أو فن مباشر، اقتضى الدخول فى دائرة التجريد فى الشكل واللون.أو تبلور المدرسة التجريدية للوصول إلى الاستثنائية الجمالية فى عيون المتلقى دون وسيط.



الأجـداث في بعض العروض التشكيلية

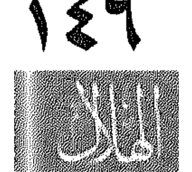
وأنتج (توفيق الحكيم) مسرحا ذهنيا يصلح للقراءة أكثر من الأداء المسرحي، ومسرحا لا يصلح إلا على خشبة المسرح. أنتج من النموذج الأول والذى تفوق فيه (أهل الكهف) و(بجماليون) و(شهرزاد) وغيرها. وأنتج من النموذج الثانى (رصاصة فى القلب) و(الأيدى الناعمة) و(الصفقة).

والفرق بين المسرحين عند الحكيم هو الفرق بين الفن المعد للقراءة، والفن للرؤية. وأن عد البعض - وأنا منهم - أن المسرح الذهنى هو المسرح الذى يدعو للتفكر أى تحريك ذهن المتلقى وليس مجرد التلقى فى مقعد هادىء.

لغة خاصة للسينما

وجاءت محاولات السينما فى الاستعارة من فنون الكلمة. القليل من الأفلام نجح والكثير فشل. وما نجح كان فنا من الدرجة الثانية إذا صح التعبير، أو مذكرة تفسيرية للنص الأصلى. وليوسف إدريس قصة (على ورق سلوفان). تروى أن زوجة جراح مشغول تعيش حالة فراغ. زوجها يعاملها باهتمام، يلفها فى ورق سلوفان. ولكنها تضيق بالرتابة ولذلك تشدها شخصية هشام الآمرة. إلى أن تذهب إلى المستشفى. ويثير ذلك اهتمامها فتضيع من ذهنها صورة هشام.

والقصة بهذه الخطوط العريضة تذكرنا بمسرحية (المتحذلقات) لـ (موليير). تناقش أيضا الإعجاب بالجانب الشكلى دون المضمون. قصة فتاتين لا يثير أعجابهما سيدين لا يجيدان فنون الغزل وسلوك الفروسية. ويأتى خادمهما ويصطنعان شخصية السيدين مع قدرة هذين الخادمين على التلاعب بالألفاظ والغزل. فيثيران إعجاب الفتاتين إلى أن ينكشف أمرهما. وقصة يوسف إدريس ومسرحية (موليير) إذ خرجنا منها بالجانب السردى السطحى نكون قد ظلمناهما. وهذا ما فعلته السينما حينما قدمتهما. وهذا ما يسر أيضا للسينما تقديم قصة إدريس (قاع المدينة). فالأحداث فيها يمكن أن تشغل (الشريط) دون الانشغال بالمضمون. وهذا ما حدث بصورة (أعمق) تشويها لبعض أعمال نجيب





فنون النفايات فى أكاديمية الفنون الجميلة - باريس

محفوظ على الشاشة.

وحاولت السينما أن تستقل بلغة خاصة فيما يعرف بسينما (المخرج) أو (المنتير) أو (المصور).. ونجحت أحيانا.. ولكن بحكم عناصر السينما جاءت لغة غير موحدة فى غالبية الأحيان مهما حاول قائد المجموعة أن يسيطر على ناصية هذه العناصر. وفى فيلم (اليوم السادس) الذى أخرجه (يوسف شاهين) عن قصة الكاتبة (أندرية شديد) أضاف شاهين وحذف ليحكم رؤيته بأدواته السينمائية. ودار الحديث والتساؤل. أيهما قدم المضمون أفضل من الآخر؟ ولكن أى مضمون إذا كان شاهين قد غيره من أساسه.

وإذا كان قد نجح فى هذه الاستقلالية فهل يحسب عمله فنا

مستقلا، أم فنا تابعا؟ أقصد بلغة الموسيقا انه وضع تنويعه على لحن الأساس الذى وضعته (شديد).

المبدع والدائرة الدرامية

وجاءت مرحلة تمرد الفنون جميعا من رواية ، ومسرح، وتشكيل وشعر. وموسيقا، على القوالب القديمة، فى عصر الحرية والتحلل فى أن فتح الباب على سديم عظيم. اندهش المبدع وحاول أن يتوازن. حاول التقعيد لمحاولته الجديدة رغم ان منطقها فى كثير من الأحيان يرفض التقعيد، أو القولبة، فهو يحاول أن يمسك بناصية فنه بكافة أدواته وإمكانياته ولكنه يسعى إلى هذا الطموح فى زمن يسير مسارا عكسيا. يسير إلى توسيع دوائر المعرفة وتداخلها الى اقصى جهد، وأكبر تسارع.. واقتضى هذا ضرورة تصغير دوائر التخصص فى حدود قدرات البشر. وربما هذا ما يرد المبدع الى الدائرة الدرامية التى تحفزه الى طموح امتلاك عناصر متناهى الصغر كرمز لامتلاكه عناصر متناهى الكبر.

ومحاولة تقديم المتناهى الصغر والكبر فى آن متحرك أدت بالبعض إلى الغموض والى تفكك يردنا الى حالة شبه طوطمية. فالحرية لمجرد الحرية تنتمى لنفس نتيجة القدسية لمجرد القدسية. واقصى اليمين يتفق مع اقصى اليسار فى موقف التعصب والعنصرية.

محاولة إنتاج ما يتصوره البعض إمساكا بناصية ما يدور فى الرأس، أدت إلى اغلاق النص داخل تفككه. بما احتاج من المنتج فى محاولة التبرير الى ان يكون القارئ معادلا لحالته حتى يستطيع فهم نصه، غافلا حالة التنوع والتحرك الدائم داخله وداخل قارئه والتى يدعى بها. وادعى أنها كانت محركه الأول للإبدا ع.

وهكذا انتهى إلى التفكيك من حيث أراد الإمساك بناصية العمل . واعتقد ان هذه الحالة قد ادت الى صاحب هذا النص نفسه وفى غالبية الأحيان لا يفهم ما أراده عندما يعيد القراءة، او المشاهدة أو السماع لما انتج. والغريب انه يبرر ذلك فى غالبية الأحيان بما يدعيه أو يسميه خصوصية النص. اى انك تفهم منه فى كل مرة معنى جديدا - هذا إذا قبل ان يقدم



الفنان البلغاري كريستو ومشروع تغطية جسر بون نوف

تفسيرا - وهذا بالضبط حالة ما يسمى بالشعر الجديد.

وإذا كانت جماعة (الديوان) قد هاجمت شعر شوقى وحافظ فى زمانهما لان القصيدة عندهما تفتقر الى الوحدة. اى انك تستطيع تغيير توزيع البيان دون خلل فى الشكل. وتستطيع بالتالى بلعبة المنطق ان تعلل وتفسر التركيبة الجديدة. فان المدعى بالشعر الجديد قد انتهى الى نفس النتيجة.

اى انك تستطيع ان تغير مواضع الكلمات دون خلل فى الشكل، وتستطيع تحت شعار خصوبة النفس، او فى الحقيقة باللعبة السوفسطائية ان تصطنع له من المعانى الكثير الكثير. والاطرف انه كلما غمض التفسير نفسه، كان هذا

فى صالح دعوة هذا المدعى. لان ذلك يتسق مع منطق خصوبة النص. او حاجته الى تفسير جديد.

وهكذا ينتهى الامر باللانهاية .. اى إضافة حاشية للحاشية، وحاشية لحاشية الحاشية.. ويختفى المتن!

تفكيك التشكيل

ونعود الى التشكيل، اكثر الفنون تعرضا للتناثر والضياع اذا ما دخلتها جرثومة التفكيك باسم التحديث.

توسعت دعوة الخروج من إطار البناء المخصص للفن أو العرض الفنى، الى خروج مواد او تحف العرض باتساع الأفق الخارجي. ثم الى تحويل الافق نفسه الى مادة تعبير فنى تشارك فيها البيئة مع ابداعات الفنان.

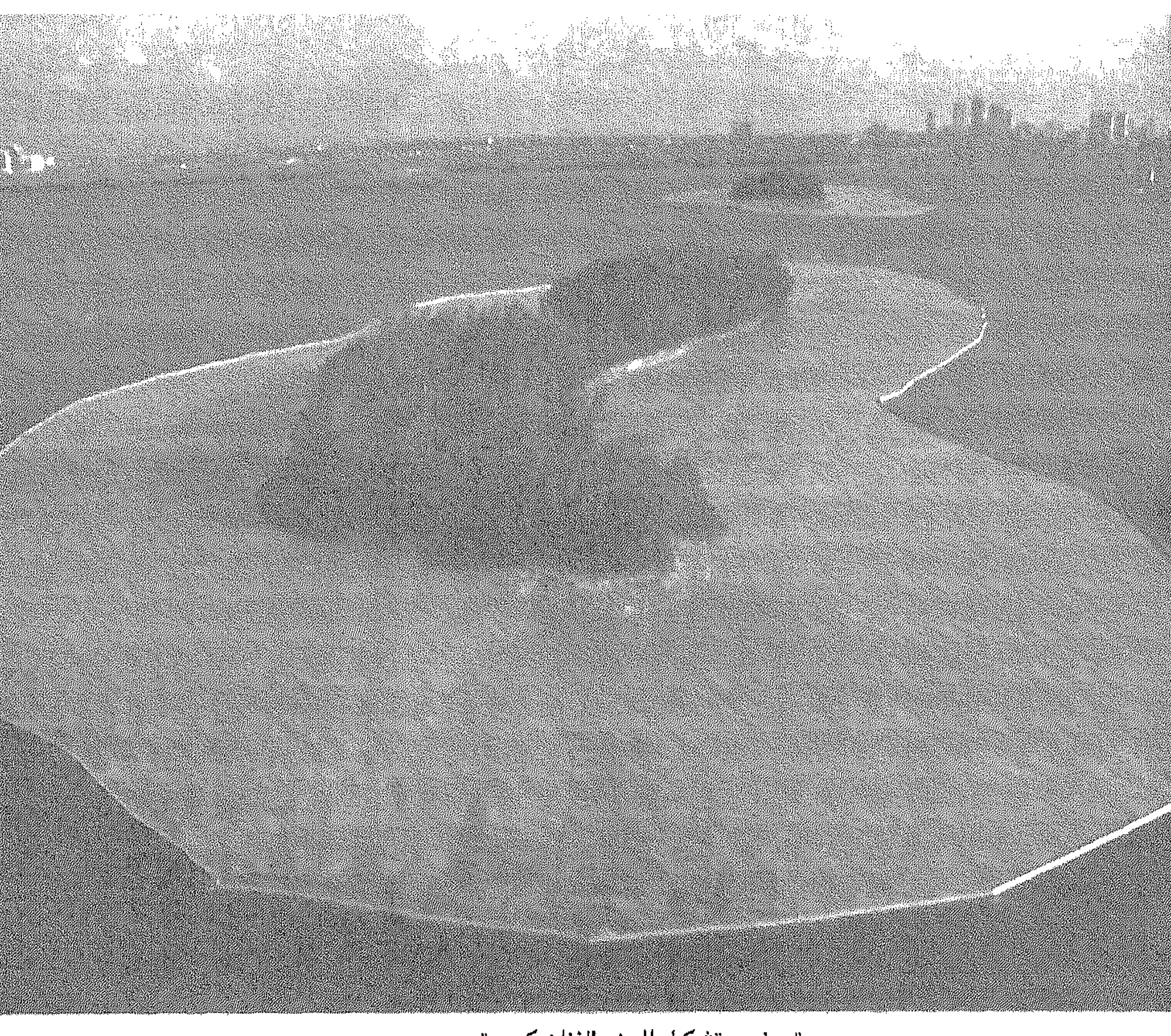
ظهر فن البيئة، فقام (دومنيك تينو) بتجربة تحريك أغصان ببطء وكأنها تعوم فى مياه آسنة. تتدافع الى مصيرها المحتوم. وقدم الفنان البلغارى (كريستو) حواجز قماشية تصل إلى خمسة امتار ارتفاعا مشيدا بها جدار الصين الجديد. ثم قدم تجربة شق المحيط بطول أربعين مترا، أو تغليف جسر (بون نوف) على نهر السين فى باريس. أو تغليف برلمان برلين. وقام الفنان الجزائرى عبدالله بن محجوب بفرش عدة كيلو مترات فى طريق الشمال الفرنسى بحياكته المشتقة من المخطوطات والتعاويد العربية.

وارتبط بفن البيئة فن التصحر وضعه الايطالى (جرمانو سيلان) مرتبطا بصحراء (نيفادا). وقام الفنان (م . هايزر) بانتزاع صخرة تزن عشرة أطنان بآلات ضخمة من الأرض ثم اعادها الى نفس حفرتها مع تعديل زواياها لتحمل بصمات الحوار الحسى بين المبدع ومادة الطبيعة. وتعددت التجارب.

فن البيئة، او التصحر تعبير عن حالة من قلق الفنان أمام حالة اقتراب الكون منه وابتعادة عنه فى آن. قلق من حصار المكان. حصار الثقافة. حصار المادة المعروضة. ومن جانب اخر طموح مثقف للخروج من الحيز الإقليمى. القومى.. السياسى، الى الافق الإنسانى الأوسع.فما هو معروض هنا هو صنو ومكمل لما هو معروض هناك. محاولة لتظليل كل الثقافات بمظلة واحدة. قلق طبيعى وشرعى.

لكن القلق ازداد، فازداد التمرد. وازداد التمرد فتحول الى ، جنوح وجنون ومبالغة ذاتية باسم التفكيكية التشكيلية. ويسمى الدكتور عبدالعزيز




تصنيع وتشكيل الجزر للفنان كريستو

حمودة كتابة عن البنيوية والتفكيكية (المرايا المحدبة) لماذا؟

وقد وجدت نفسي غير قادر على الهروب من صورة المرايا المحدبة وقد وقف امامها الحداثيون جميعا دون استثناء الأصليون منهم والناقلون لفترة كانت كافية لاقناعهم بأن صورهم في المرايا المحدبة هي حقائقهم».

هل هي حالة رومانسية جديدة أرادت التخلص من عسف القديم بتمرد او تبديل دون بديل؟

المستقبل حرى بالإجابة.

وما علينا من النباتات المتسلقة على حاشية حاشية الحاشية لهذه الموجه عندنا، لأنها ببساطة تحاول ان تسرق الألقاب بأقصر وأكثر الطرق سذاجة في عالم غافل. ■



بقلم
د. نبيل حنفى محمود

- عبد الحليم حافظ يهاجم سيد درويش
- **صوت عبد الحليم حافظ : صوت من لا صوت له**
- سيد درويش ومصباح الزيت

عبد الحليم حافظ

سيد درويش

شهدت سنوات الخمسينيات من القرن العشرين الصعود السريع للمطرب الكبير عبدالحليم حافظ (١٩٢٩ - ١٩٧٧) من عثرة فشله الفنى الأول والوحيد إلى ذرا الشهرة فى آفاق فن الغناء، وهو صعود لم يلفت الأنظار إليه فى بداياته، عندما سجل فى عام ١٩٥١م أول أغنيات بصوته - وعددها أربعة - بطريقة الدوبلاج فى الفيلم الأجنبى «مصباح علاء الدين»، وهى نفس الأنظار التى لم ترصد عثرته الأولى عندما ثار عليه متعهد الحفلات المعلم صديق وجمهور حفل أقيم بالإسكندرية مساء الخميس ١٩٥٢/٨/٧م، حيث قام الجمع الثائر ليلتها بمنع المطرب الجديد - آنذاك - من غناء أغنيات عرف بها فيما بعد، إذ لم توافق نبرة الغناء فى تلك الأغنيات ما ألفته آذان جمهور الحفل من أغنيات مطلع الخمسينيات الشعبية

تلك الأغنيات التى اعتادت آذانهم على سماعها من أصوات كبار نجوم الصف الثانى من أهل الغناء، فى ذلك الزمان من أمثال محمد عبدالمطلب وعبدالغنى السيد وعبدالعزيز محمود وكارم محمود وغيرهم، جاء حفل الاسكندرية فى سياق محاولات عبدالحليم جذب إنتباه جمهور الغناء - الذى يشكل غالبية الشعب المصرى - إلى مايبشر به من جديد، وهى محاولات شملت أيضا إطلاق مجموعة من الأغنيات فى النصف الثانى من عام ١٩٥٢، وقد واكبت أغنيات البداية هذه أحداث الشهور الأولى لثورة يوليو، وهى مصادفة تبدو لنا الآن - وبعد مرور أكثر من نصف قرن عليها، وكأنها إشارة قدرية إلى ماسوف يجمع بين القادم الجديد إلى دنيا الغناء بصوت يحمل سمات لهجة غنائية جديدة وبين الثورة التى قامت لتغير من بنية المجتمع المصرى، ويمكن القول الآن بأن أغنيات البداية لعبدالحليم .. لم تحقق أيضا لاسمه فرقعة الشهرة الداوية.

مضى عبدالحليم حافظ - بقوة إيمانه بهدف وبيقين شعوره بموهبته - يسجل أغنيات جديدة ويشارك فى الحفلات الغنائية التى أصبحت سمة العهد الجديد وذلك خلال عامى ١٩٥٣ و ١٩٥٤، وتجىء أغنية «صافينى مرة» للثنائى «سمير محبوب - محمد الموجى» والتى تغنى بها عبدالحليم من إذاعة القاهرة فى صباح الخميس ١٩٥٣/٤/١٦م على رأس هذه المجموعة من الأغنيات (الإذاعة المصرية: العدد ٩٤٣ - ١٩٥٣/٤/١١ - ص ٣١)، وبالرغم من ذلك .. فإن النجاح لم يطرق باب عبدالحليم إلا بحلول ربيع عام ١٩٥٥، حدث ذلك بعد أن شاهد المصريون فى الأول من مارس ١٩٥٥م فتى رقيقا تشع عيناه بحزن دفين وينطق صوته بأسى غامض وساحر يترنم بكلمات محمد على أحمد وألحان كمال

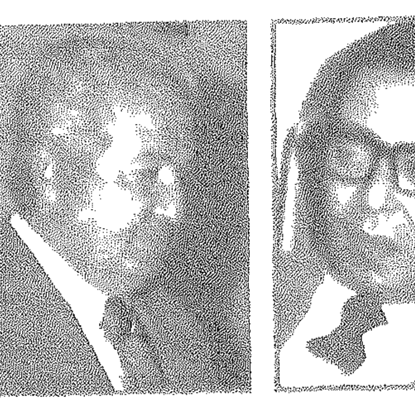
الطويل فى أغنية حملت اسم «على قد الشوق»، كانت الأغنية من قالب الطقطوقة وتوسطت باقة من الغنائيات الجميلة ضمت: «لاتلمنى» - «احتار خيالى» - «أحن إليك» - دويتو «تعالى أقولك» وأوبريت «لحن الوفاء»، ازدان بتلك الباقة فيلم «لحن الوفاء»، وهو الفيلم الأول للقادم الجديد لدنيا الغناء، كانت «على قد الشوق» كلمة السر التى فتحت لعبدالحليم مغاليق أبواب الشهرة والجماهيرية، حيث عملت استعانة كمال الطويل - ملحن الأغنية - بمقام (اللامس) وهو مقام عراقى فى صياغة لحن الأغنية، إلى جانب استخدامه لآلات الساكسفون والدرامز بين آلات الفرقة الموسيقية، عمل كل ذلك على إضفاء روح البهجة والمرح فى جو الأغنية، مما ساهم بعد ذلك فى اجتذاب أسماع كل المصريين إلى الأغنية (عمار الشريعى: غواص فى بحر النغم - حلقة ١٩٩٢/٥/٣١م)، كذلك فإن روح التفاؤل والشبابية التى غلفت أداء عبدالحليم لأغنيات فيلمه الأول، وعلى الأخص حواره الغنائى مع المطربة اللامعة شادية فى دويتو «تعالى أقولك»، كانت من مفاتيح قلوب الناس له.

لم يكن فيلم «لحن الوفاء» هو الفيلم الوحيد لعبدالحليم حافظ فى عام ١٩٥٥م وإنما لحقته ثلاثة أفلام أخرى هى: «أيامنا الحلوة» وقد عرض فى ١٩٥٥/٣/٧م - «ليالى الحب» الذى عرض فى ١٩٥٥/١٠/١٥م، و«أيام وليالى» الذى جاء عرضه فى الخامس من ديسمبر ١٩٥٥م، ومما هو جدير بالذكر هنا أن فيلم عبدالحليم الرابع كان من إنتاج الموسيقار محمد عبدالوهاب، وكانت أغنيات هذا الفيلم (أنا لك على طول - إيه ذنبى إيه - توبة - شغلونى - علشانك ياقمر) جميعها من تلحين محمد عبدالوهاب، إذ من المعروف الآن أن صوت المطرب الجديد لم يكن بعيدا فى تلك الحقبة عن أذن موسيقار الأجيال الحساسة، فعندما لاحت تباشير نجاح الصوت الجديد، عمل محمد عبدالوهاب على احتضانه فنيا من خلال إنتاج فيلمه الرابع تارة، وبإدخاله تارة أخرى فى ١٩٦٠/٧/١م شريكا معه فى شركة للاسطوانات (الأهرام: ١٩٦٠/٧/٢ - ص١٠).

جسّد عبدالحليم حافظ - منذ بداياته الأولى فى عالم الفن - أحلام الطبقات الفقيرة من المصريين فى غد مشرق تتحقق فيه أحلامها المشروعة مع ثورة يوليو، ولكن اقتراب عبدالحليم من الثورة لم يبدأ إلا مع مطلع عام ١٩٥٧م، وذلك لأنه عمل بدأب وصبر خلال فترة السنوات الخمس فيما بين عامىّ ١٩٥٢ و ١٩٥٧م على إرساء دعائم شهرته ومستقبله الفنى، وبانتهاء تلك المرحلة.. انتقل عبدالحليم الى مرحلة أخرى انصب فيها جانب من جهده على إنتاج الأغنية الوطنية، حيث قدم فى شهر يناير من عام ١٩٥٧م أربع أغنيات وطنية هى: «إنى ملكت فى يدى زمامى» من شعر مأمون الشناوى وألحان كمال الطويل - الله بيلادنا» من نظم أنور عبدالله وألحان محمد عبدالوهاب - «إحنا الشعب» من تأليف صلاح جاهين وتلحين كمال الطويل و«ثورتنا المصرية» من كلمات مأمون الشناوى وألحان رؤوف ذهنى (الإذاعة: العدد ١١٣٩ - ١٩٥٧/١/١٢ والعدد ١١٤١ - ١٩٥٧/١/٢٦)، كان الخطاب الغنائى فى هذه الأغنيات جديدا على أسماع المصريين، إذ جاءت كلمات مثل: «الله يابلادنا الله .... على جيشك والشعب معاه .... فى سلامك غنوة ... فى جهادك قوة .. يابلادنا الحلوة .. بتسابقى فى المجد علاه .. الله يابلادنا الله» فى مطلع أغنية «الله يابلادنا»، وأبيات مثل: «إلى البناء عاليا إلى العمل .. إن هبت الريح فإننى الجبل .. كان

انتفاضى وحده أغلى أمل .. وثورتى قد حققت أحلامى» فى ختام قصيدة «إنى ملكت فى يدى زمامى» جاءت جميعها تعبيرا عن أحلام وطموحات البسطاء من المصريين وترجمة غنائية لأقوال قادة الثورة وزعيمها خلال السنوات الخمس الأولى من عمر الثورة، وهكذا فكت مغاليق الشهرة التى كانت موصدة أمام عبدالحليم عند بدء مشواره مع قيام الثورة، فأصبحت أغنياته فى عيد الثورة ومناسباتها بدءا من يناير ١٩٥٧م من المظاهر الأساسية للاحتفال بهذا العيد وتلك المناسبات، قدم عبدالحليم الأغنيات التالية فيما تلا يناير ١٩٥٧م من مناسبات وخلال ماتبقى فى عقد الخمسينيات من سنوات: «ياجمال ياحبيب الملايين» من تأليف إسماعيل الحبروك وألحان كمال الطويل وقدمت فى ١٩٥٩/٧/٢٣م - «اللى فات» وقد غناها عبدالحليم بالاضافة إلى مشاركته فى نشيد «الوطن الأكبر» وذلك فى عيد الثورة الثامن (١٩٦٠/٧/٢٣)، وقد نظم أحمد شفيق كامل كلمات كل من الأغنية والنشيد، بينما لحنهما الموسيقار محمد عبدالوهاب، ولايفوتنا هنا أن نذكر أغنية عبدالحليم الشهيرة «حكاية شعب» وهى من تأليف أحمد شفيق كامل وتلحين كمال الطويل، وقد تغنى بها عبدالحليم أمام الزعيم جمال عبدالناصر فى حفل أضواء المدينة الشهير الذى أقيم مساء الأحد ١٠ يناير ١٩٦٠م بمدينة أسوان احتفالا ببدء العمل فى مشروع السد العالى، هكذا صعد عبدالحليم سلم الشهرة قفزا فى ثمانى سنوات، ليجمع عند مطلع الستينيات بين حب جمهور كبير يتنامى فى كل يوم وتقدير القيادة السياسية للبلد، مما جعله فى مقدمة من اختارهم النظام لحضور مؤتمر الاتحاد القومى لإقليمى دولة الوحدة والذى عقد فى العشرين من يونيو ١٩٦٠، وقد


أحمد بهاء الدين


إحسان عبد القدوس

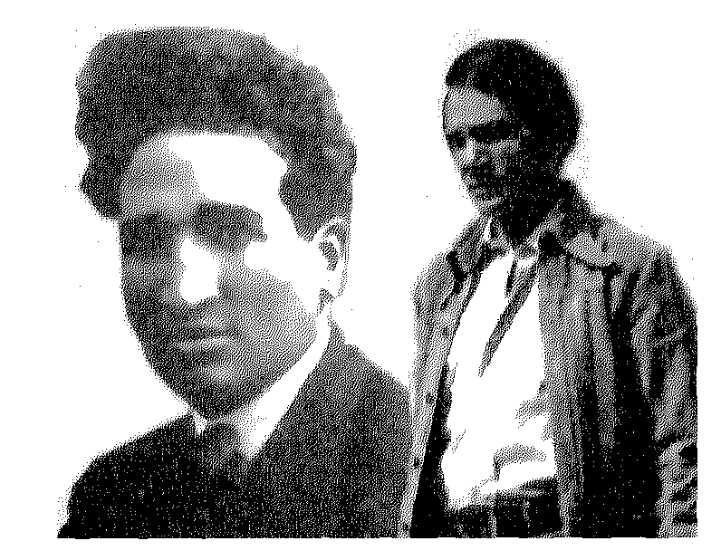
حضر عبدالحليم المؤتمر إلى جانب أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب كممثلين لأهل الغناء، لتخرج الصحف والمجلات بعد ذلك مزينة بصور أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب وعبدالحليم حافظ بين حضور المؤتمر، ومن ذلك الصورة المنشورة على الصفحة الحادية عشرة بالعدد رقم (٤٦٥) من مجلة «الكواكب» والصادر فى ١٩٦٠/٦/٢٨م.

بلبل له أنياب!

تميز صعود عبدالحليم حافظ إلى ذرا الشهرة شأنه فى ذلك شأن أى نشاط إنسانى - بعديد من الظواهر المصاحبة، وتعد صداقته بلفيف من الكتاب والصحافيين منذ بداياته الأولى أهم تلك الظواهر، وعن ذلك يقول صديق عبدالحليم ومدير أعماله وكاتم أسراره .. الراحل مجدى العمروسى فى سلسلة من الأحاديث أدلى بها لعادل البلك ونشرت فى مجلة «أكتوبر» خلال عامىّ ١٩٩٢ و١٩٩٣م: «ولم تكن علاقة عبدالحليم بالصحفيين وكبار الكتاب مجرد علاقة بين فنان أو مطرب وكاتب أو صحفى، ولكنها كانت الصداقة القوية المتينة، عميقة الجذور، وكان يعتبر الصحافة مدرسته، والصحفيين أساتذة ومدرسين، فكان يمضى نهاره فى مدرسة أخبار اليوم، أما الفترة المسائية ففى مدرسة روزاليوسف، يتنقل فيها بين إحسان وأحمد بهاء وفتحى غانم وصلاح جاهين وجمال

كامل» (أكتوبر – العدد ٨٣٥ – ٢٥/١٠/١٩٩٢– ص ٤٧)، ولا يختلف عن ذلك كثيرا وصف صديق آخر لعبدالحليم هو الإذاعى الكبير وجدى الحكيم للعلاقة التى ربطت بين عبدالحليم والصحافيين، حيث يصف وجدى الحكيم هذه العلاقة فى ندوة أجرتها معه مجلة «الكواكب» فيقول: «علاقته بمعظم الصحفيين كانت علاقة مودة وصداقة، وحتى من لايحبونه لم يكن يتوتر فى علاقاته معهم، وقد اجتمع حوله مجموعة منتقاة من كبار الكتاب والصحفيين والنقاد والأدباء فى عصره، ولم تكن علاقة عبدالحليم بالأصدقاء وحدهم، إنما امتدت إلى عائلاتهم أيضا» (الكواكب: العدد ٢٦٤٢ – ١٩/٣/٢٠٠٢ – ص٤٣)، لذلك كانت أخبار عبدالحليم وأحاديثه تجد دائما من ينشرها فى كل مطبوعات وإذاعات ذلك الزمان، ولنضرب مثلا هنا بتغطية الصحافة لرحلات عبدالحليم العلاجية إلى بعض المراكز الطبية فى دول أوروبا، فقد عرف عبدالحليم نوبات النزيف جراء إصابة قديمة بالبلهارسيا منذ أول خطواته إلى الشهرة، وها هو يعود فى يوم السبت ١٣/٦/١٩٥٩م من رحلة علاج استغرقت عدة أسابيع فى ألمانيا، فتقوم مجلة «الإذاعة» بتغطية تلك الرحلة فى تحقيق يشغل كامل الصفحة السابعة عشر من العدد رقم (١٢٦٥) الصادر فى ١٣/٦/١٩٥٩م وتتوج المجلة تلك التغطية بجعل صورة غلاف هذا العدد – العدد رقم ١٢٦٥– لعبدالحليم مع تعليق أسفلها نصه «النغم الحالم يعود» وتكرر ذلك فى مناسبات أخرى، ومنها ماقدمته مجلة «الجيل» التى كانت تصدر عن دار «أخبار اليوم» من تغطية لرحلة أخرى قام بها عبدالحليم فى مطلع صيف عام ١٩٦٠م إلى كل من ميونيخ وبون وفرانكفورت ودسلدورف ولندن وبيروت، جاءت تلك التغطية على الصفحات السادسة والأربعين والسابعة والأربعين من عدد المجلة رقم (٤٣٨) الصادر فى ١٦/٥/١٩٦٠م. وكانت بعنوان «البلبل الأسمر يعود إلى أرض الوطن، فى كل تلك التغطيات والموضوعات الصحافية .. يستوقف الاهتمام قدر الود الهائل الذي غلف تلك الكتابات، ولم يحدث أن كتب كاتب خلال تلك السنوات من الخمسينيات مقالا أو خبرا ليهاجم به النجم الصاعد إلى قمة الغناء بسرعة الصاروخ، وإنما كان الحنان والحب والتقدير هما سمة كل مايكتب أو يذاع عنه، لذلك كان من الغريب أن يصدر عدد السبت ١٨ يونيه، ١٩٦٠م من صحيفة «الجمهورية» وقد حوت صفحته التاسعة مقالا للكاتب راجى عنايت يتضمن هجوما من عبدالحليم على موسيقار الشعب سيد درويش.

كتب راجى عنايت فى بابه «أفكار» وتحت عنوان «رأى غريب» مايلى: «قال عبدالحليم حافظ (أكتب على لسانى .. سيد درويش أسطورة كاذبة .. موسيقاه كانت شيئا فى زمنه .. أما الآن فموسيقانا التى نقدمها تفوق موسيقاه بمراحل عديدة) وكانت مناسبة هذا الكلام ماقيل من أن محمد البحر ابن سيد درويش سيرفع قضية على محمد عبدالوهاب لأنه صرح لأحد الصحفيين بأن (الكوكايين) قضى على سيد درويش،، بدأ عبدالحليم حديثه مدافعا عن



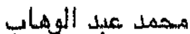
كلام عبدالوهاب، قائلا إنه درس هذه الحقيقة فى معهد الموسيقى، وأن دفتر محاضراته يضم محاضرة عن سيد درويش ورد ضمنها أن المخدرات قضت عليه، ثم استطرد عبدالحليم فجأة .. قائلا رأيه فى موسيقى سيد درويش مصرا على اعتبارها موسيقى متخلفة بالنسبة لما نسمعه من أغانى هذه الأيام، وأنا أختلف مع عبدالحليم اختلافا تاما، فالذى أصبح عتيقا عند سيد درويش، قد يكون التوزيع الموسيقى أو التأدية أو حتى كلمات بعض الأغانى، أما موسيقاه .. فجوهرها مازال متطورا عن معظم مانسمعه هذه الأيام، وهمسة فى أذن عبدالحليم، اسأل كمال الطويل .. على أى أرض تقف موسيقى (حكاية شعب)؟!» (الجمهورية: ١٨/٦/١٩٦٠م - ص٩).

أحدث مقال راجى عنايت دويا بالوسط الفنى، وولد شعورا لدى كل من قرأه أشبه بالصدمة، إذ أصابت الجميع الحيرة، ولم يجد كل من قرأ ذلك المقال سببا واحدا .. مقنعا ومنطقيا يدفع بالفتى الرقيق الحالم - كما تبدو صورته فى مقالات الصحف وأحاديث الإذاعة - ليتوجس هكذا ويهاجم رائدا راحلا، وكانت المفارقة اللافتة لنظر البعض متمثلة فى تحول الفتى الذى وصفته مجلة «الجيل» قبل شهر من هجومه على سيد درويش بأنه «البلبل الأسمر» الى شخص آخر يوغل فى مهاجمة الموتى، وبقول آخر .. أطلت المفارقة من سؤال يقول: متى نبتت للبلبل الأسمر أنيابه التى أنشبها فى ذكرى أعظم من أنجبت مصر من موسيقيين؟!.

دفاع وهجوم

استفز هجوم عبدالحليم حافظ على سيد درويش مشاعركل من طالعه آنذاك من قراء، وسرعان ما توالت ردود الفعل على صفحات الصحف والمجلات .. تفند ماجاء





محمد عبد الوهاب

صلاح جاهين

بمقال راجى عنايت وتندد بما قاله عبدالحليم عن سيد درويش، جاء رد الفعل الأول فى مقال قدمه الكاتب المعروف أحمد حمروش تحت عنوان «الذين يظلمون تراثنا الموسيقى»، شغل المقال معظم اليوميات التى كان يقدمها الاستاذ أحمد حمروش فى صحيفة «الجمهورية»، انطلقت الأقلام تهاجم عبدالحليم حافظ وتدافع عن سيد درويش، وكان من الطبيعى أن يرد عبدالحليم على ما وجه إليه من هجوم، فحمل عددا صحيفتى «الجمهورية» و«أخبار اليوم» الصادرين فى ٢٥/٦/١٩٦٠م ردين مختلفين لعبدالحليم على ما أثاره من هجومه على سيد درويش من ردود فعل وانتقادات، ظهر رد عبدالحليم فى «الجمهورية» فى باب «أحاديث الأسبوع» الذى يقدمه الشاعر الغنائى مأمون الشناوى وقد أعطى مأمون الشناوى إجابات عبدالحليم على أسئلته عنوانا نصه: «عبدالحليم حافظ يقول : لست ملحنا حتى أحقد على سيد درويش»، حاول عبدالحليم فى إجاباته عن أسئلة مأمون الشناوى أن يخفف ماتركه هجومه على سيد درويش من صدمة فى قلوب الناس، فكان مما قاله فى هذا الصدد: «كيف يتهمونى بالحقد على سيد درويش؟، هل أنا ملحن حتى أحقد عليه؟، هل عشت فى عصر سيد درويش ورفض أن يعترف بى؟، هل كانت حياة سيد

درويش حياة ناعمة سهلة تثير الحقد؟، إن حياة سيد درويش كانت مأساة طويلة تستحق العطف والرثاء والبكاء»، هكذا افتتح عبدالحليم حديثه مع مأمون الشناوى وقبل أن يوجه إليه مأمون أسئلته، وبدا من تلك السطور أنه نادم على ماصرح به قبل ذلك لراجي عنايت، بل إنه حاول أن يصحح ماخلفه حديثه السابق لراجى عنايت من آثار سيئة فى نفوس القراءة والنقاد، فكان مما قاله لمأمون الشناوى فى نفس الحديث المنشور بعدد ١٩٦٠/٦/٢٥م من صحيفة «الجمهورية» الآتى: «إن سيد درويش هو الذي وضع الأساس للموسيقى المصرية الصميمة بعد أن كانت مجرد بشارف وموشحات تركية»، ولكنه يعود قبل نهاية حديثه مع مأمون الشناوى لحكاية سيد درويش والمخدرات فيقول عنها ملتمسا تخفيف قسوة اتهامه فى حديثه الأول: «ولعل سطوة المخدر التى لجأ إليها سيد درويش هربا من ظلم الحياة واغفالها لشأنه هى التى أثرت فى عمر حياته وعمر فنه»، وقد نوه عبدالحليم فى نهاية حديثه مع مأمون الشناوى إلى أن ماقاله عن سيد درويش كان من باب الدراسة وليس من باب التشهير!، لكن ما قاله عبدالحليم فى عدد «أخبار اليوم» الصادر فى نفس اليوم - ١٩٦٠/٦/٢٥ - كان شيئا مختلفا، جاءت أقوال عبدالحليم فى مقال لجليل البندارى حمل عنوان: «عبدالحليم حافظ يقول: سيد درويش إخترع الشموع وعبدالوهاب إخترع الكهرباء!»، صاغ البندارى مقاله فى صورة سؤال منه وإجابة من عبدالحليم، تميزت إجابات عبدالحليم فى هذا المقال بالمباشرة والصراحة فى هجومه على سيد درويش، ونحىّ عبدالحليم جانبا محاولاته فى عدد اليوم نفسه من «الجمهورية» لتخفيف وقع حديثه السابق عن سيد درويش، واستعان بآراء لكتاب آخرين وأفاض فى ضرب الأمثلة لتوضيح أسباب هجومه على سيد درويش، بدأ عبدالحليم حديثه مع جليل البندارى بقوله: «نعم أنا قلت إن سيد درويش كان يتعاطى المخدرات والكوكايين .. أنا لست جبانا حتى أنكر رأيا قلته بلسانى!»، ثم يتبع ذلك بتقديم دليله على مايقول، وقد تمثل هذا الدليل فى كتابين .. أحدهما لأستاذ بكلية الفنون الجميلة بالاسكندرية يدعى محمد إبراهيم والآخر هو كتاب «ذكريات» للسيدة فاطمة اليوسف، أخذ عبدالحليم يقرأ لجليل البندارى ماتضمنته بعض صفحات الكتابين من تفاصيل دقيقة عن تعاطى سيد درويش لأنواع كثيرة من المخدرات، ولينتقل بعد ذلك إلى تقييم أعمال سيد درويش فيصفها بأنها قد أضحت قديمة قدم المصباح الذى يعمل بالزيت، وذلك إذا ما قورنت بموسيقى محمد عبدالوهاب والتى تشبه - على حد تعبير عبدالحليم - مصباح الكهرباء!، ولسنا هنا فى موقف يسمح بتحليل ما قاله عبدالحليم حافظ عن سيد درويش وموسيقاه، وإنما - ونظرا لطبيعة المقال - سوف نعرض هنا لما وقع من أحداث المعركة طبقا لتسلسلها الزمنى، ثم ندع محاولة الكشف عن الأسباب الحقيقية وراء أحداث المعركة لنهاية المقال.

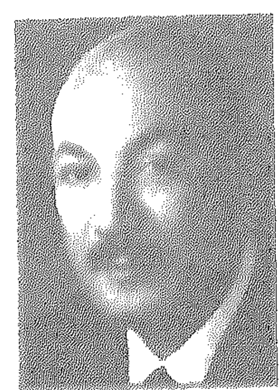
لم يكن ماقاله عبدالحليم فى «أخبار اليوم» - وبالرغم من شهرته الداوية ونجوميته التى تحققت آنذاك - ليمر مرّ الكرام، فقد انبرت أقلام عدة لكتاب وموسيقيين تفند ماكاله لسيد درويش من اتهامات وما حاول أن يمرره خلال حديثه مع جليل البندارى من آراء، كان راجى عنايت - مفجر الطلقة الأولى فى المعركة - أول من تصدى لما جاء فى حديثى عبدالحليم لصحيفتى «الجمهورية» و«أخبار اليوم»، ناقش راجى عنايت فى مقال نشر بعدد

٢/٧/١٩٦٠م من صحيفة «الجمهورية كل ماساقه عبدالحليم من دفوع، وأول هذه الدفوع هو تشبيهه موسيقي سيد درويش بمصباح الزيت وتصويره موسيقى محمد عبدالوهاب بمصباح الكهرباء، وعن هذه الجزئية من حديث عبدالحليم ... قال راجي عنايت: «وهذا كلام يدل على أن عبدالحليم لايفهم حقيقة الثورة التى بدأها سيد درويش، كما يدل على أنه لايفهم طبيعة المعركة التى يجب أن تخوضها موسيقانا وفنوننا بشكل عام، فسيد درويش لم يخلق شعلة خابية من الزيت .. وعبدالوهاب لم يخترع الكهرباء، وإذا أردنا أن نستعير نفس التشبيه الذى ابتدعه عبدالحليم، وجب علينا الاعتراف بأن سيد درويش قد أنجز اختراعا ضخما فى موسيقانا .. وأن عبدالوهاب قد تألق عندما نجح فى تشغيل هذا الاختراع

أسباب ودوافع

إن من يتابع أحداث هذه المعركة الآن، سوف يخرج من متابعته بالسؤال التالى: هل كانت تلك المعركة بلا أسباب؟. كأن يكون اندلاعها إثر زلة لسان .. حاول البعض من الكتاب اللعب عليها والنيل بها من عبدالحليم حافظ. أم أنها كانت معركة لها من الأسباب - وإن تكن خافية - مايسوغ شنها؟، إن الرجوع قليلا عبر الزمن إلى عام ١٩٦٠ .. سوف يلقى ضوءا كاشفا على ما أحاط بتلك المعركة من ملابسات، وهو ماسوف يساعد على الإجابة عن هذه التساؤلات.

شهدت السنوات فيما بين ١٩٥٥ و ١٩٦٠م اضطراد التقارب بين محمد عبدالوهاب وعبدالحليم حافظ، وهو تقارب تمثل فى قيام الاستاذ بإيثار تلميذه الموهوب بمزيد من الألحان الناجحة، فبعد أن أنتج عبدالوهاب الفيلم الرابع لعبدالحليم (أيام وليالى) فى عام ١٩٥٥م، بل ولحن له



احمد حمروش



راجي عنايت

جميع أغنيات الفيلم، فإنه عاد لتكرار التجربة مرة أخرى، فأنتج لعبدالحليم فيلمه السادس (بنات اليوم) فى عام ١٩٥٧، وقد قام عبدالوهاب - فى إشارة واضحة إلى احتضانه الفنى للنجم الصاعد - بتلحين جميع أغنيات فيلم «بنات اليوم»، ثم اتبع عبدالوهاب ذلك بتلحينه لواحدة من أجمل أغنيات عبدالحليم والمرحلة، وهى أغنية «فوق الشوك» التى تغنى بها عبدالحليم فى عام ١٩٥٩م، هكذا مضى تقارب الاستاذ والتلميذ فى الازدياد عاما بعد عام، إذ أنه مما لاشك فيه أن المدقق سوف يلحظ وبسهولة وجود الكثير من الصفات الشخصيةوالفنية المشتركة التى تجمع بينهما، وقد توج هذا التقارب فى مطلع شهر يوليو من عام ١٩٦٠ بإنشاء شركة للإنتاج الفنى جمعت بين إسميهما وشخصهما، ولم يقف هذا التقارب عند ميدان العمل، وإنما إمتد - مصداقا لقول الاستاذ وجدى الحكيم فى أول المقال - ليشمل شئوننا شخصية وعائلية، ومن ذلك نذكر هنا ذهاب عبدالحليم فى صباح ٦/٧/١٩٦٠م إلى مستشفى لندن - أثناء زيارته لانجلترا - لحضور جراحة فى الكلى خضع لها المطرب سعد عبدالوهاب.. ابن شقيق محمد عبدالوهاب!، وكان حضور عبدالحليم للجراحة نيابة عن عبدالوهاب الذي تعذر سفره إلى لندن آنذاك (الأهرام:

١٩٦٠/٧/٦ –ص ١٠) لذا .. يمكن القول بأن العلاقة الحميمة بين الموسيقار وتلميذه شكلت أول أسباب عبدالحليم للهجوم على سيد درويش، حيث جاء حديث عبدالحليم عن تعاطى سيد درويش للمخدرات مع راجى عنايت (الجمهورية: ١٩٦٠/٦/١٨) تاليا لحديث آخر أدلى به محمد عبدالوهاب لصلاح عبدالصبور ونشر فى مجلة «روزاليوسف»، وقد قال عبدالوهاب فى حديثه لصلاح عبدالصبور: إن سيد درويش كان يعيش تحت سطوة المخدر (الجمهورية: ١٩٦٠/٦/٢٥م – ص ١٢)، وهو مايجعل من هجوم عبد الحليم على سيد درويش مصداقا للحديث الشريف: أنصر أخاك ظالما أومظلوما!.

أما ثانى أسباب عبدالحليم على سيد درويش ... فإنه من الممكن أن يعزى إلى سلسلة النجاحات المتلاحقة التى حققها عبدالحليم فنيا وشخصيا خلال ثمانى سنوات، ولقد عرضنا لسلسلة نجاحاته الفنية سريعا خلال هذا المقال، ويبقى أن نشير هنا إلى بعض نجاحاته الشخصية التى تحققت خلال هذه الفترة القصيرة من الزمن، كانت علاقته بمحمد عبدالوهاب – مطرب الملوك والأمراء والثورة – فى الصدارة من هذه النجاحات، بيد أن مالقيه عبدالحليم من رعاية وتشجيع فى ظل ثورة يوليو .. جعلته بين من مثلوا أهل الغناء فى مؤتمر الاتحاد القومى المنعقد فى ١٩٦٠/٦/٢٠م.. ولد لديه إحساسا بالثقة وشعورا بالأهمية، ليبلغ ذلك الإحساس وتلك المشاعر ذروتها فى مساء السبت ١٩٦٠/٥/٢٨م وقبل أيام قليلة من هجومه على سيد درويش، ففى الساعة السابعة من ذلك المساء .. اجتمع الرئيس جمال عبدالناصر بأعضاء مجلس إدارات الصحف ورؤساء التحرير فى أحد صالونات القصر الجمهورى بالقبة، دار حديث الرئيس مع الحضور من أهل الصحافة حول إجابة السؤال الحيوى التالى: كيف تستطيع الصحافة أن تبنى المجتمع وكيف يمكن أن تنحرف به وتهدم كيانه؟ (الأهرام: ١٩٦٠/٥/٣٠ – ص١)، وقد خصص عبدالناصر الجزء الأخير من حديثه للإشادة ببعض نماذج من المواطنين شملت أساتذة جامعة وفنانين، فكان مما قاله عن رسالة الفنانين فى المجتمع الاشتراكى الذى يتمناه لمصر الآتى: «الفنانون لهم رسالة زى الصحافة تماما»، بالأغنية .. باللحن .. بالسينما .. بالصورة .. بالتمثال، نعتبرهم رأس مال كبير جدا ولهم أثر كبير»، يعنى لو تفتح لندن بتذيع أغانينا، وكان فيه فكرة إنهم يمنعوا الأغانى والمغنين بتوعنا من أن يتعاملوا مع محطة لندن، ولكن كونك تفتح لندن وتسمع عبدالحليم حافظ أو تسمع عبدالوهاب .. هو فى رأيى كسب عظيم، ولابد من أن ندعم طبقة الفنانين عندنا بحيث نمكنهم أكثر من أداء رسالتهم» (الأهرام: ١٩٦٠/٥/٣٠م– ص٣). وإزاء هذه اللفتة التى حوت الكثير من المعانى .. أقلها التقدير والتكريم، توجه محمد عبدالوهاب مصطحبا عبدالحليم إلى القصر الجمهور فى صباح اليوم التالى لنشر الحديث – وهو يوم الثلاثاء ١٩٦٠/٥/٣١ – وذلك لتسجيل شكرهما على لفتة الزعيم، وتصف صحيفة «الأهرام» زيارة الأستاذ وتلميذه للقصر الجمهورى فى عددها الصادر صباح ١٩٦٠/٦/١ فتقول: «فوجىء الموسيقار عبدالوهاب وعبدالحليم حافظ أثناء توقيعهما فى دفتر الزيارات فى القصر الجمهورى لشكر الرئيس على ماصرح به بالنسبة لتقديره فنهما ومجهودهما خلال حديثه لرؤساء تحرير الصحف .. فوجئنا بالرئيس وهو يترك مكتبه فى طريقه إلى بيته، شاهدهما الرئيس



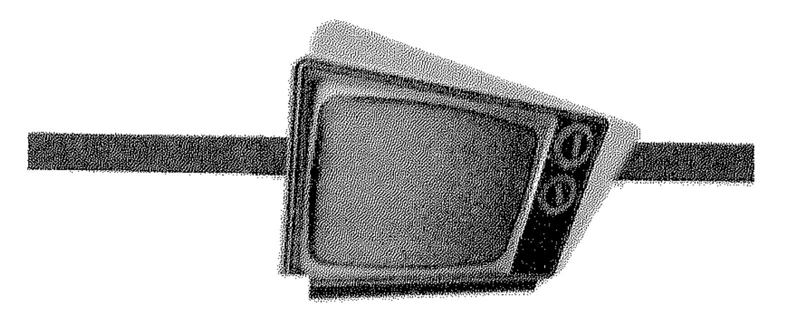
وحياهما» (ص ١٢)، ولسنا ندرى أكان لقاء عبدالناصر بعبد الوهاب وعبدالحليم مرتبا أم جاء مصادفة، ولكن الثابت كما تحدثت به صحف صباح ١٩٦٠/٦/١ .. أنه التقاهما بالقصر وحياهما وتحدث إليهما، ولنتصور الآن أو نتخيل ما ملأ عقل وقلب عبدالحليم من أفكار ومشاعر أنذاك، فها هو الفتى القادم من ملجأ الزقازيق إلى القاهرة في مطلع الأربعينيات ليبحث عن ثقب إبرة ينفذ منه إلى حياة كريمة، فإذا به الآن - وبعد أقل من عشرين عاما - يصافح رئيس الدولة الذى يشيد به ويذكره فى حديثه إلى كبار مثقفى البلد، ألا يدفع ذلك ببعض الغرور وشيء من الخيلاء إلى نفس شاب فى العام الواحد والثلاثين من عمره؟، إن فى تتابع مظاهر التكريم التى تلاحقت على عبدالحليم مطلع صيف عام ١٩٦٠م الكفاية لتشويش تعقل الحكماء، فكيف بعبدالحليم حافظ ؟، حتى إذا ما جاء ذكر سيد درويش فى جلسة بين أصدقاء،، فإن عبدالحليم - وبدافع من غرور ألمّ به - قال ماقاله فى حق موسيقار الشعب الراحل.

الرجوع إلى الحق

طوى الدهر سريعا ماتبقى من أيام شهر يوليو من عام ١٩٦٠، فإذا بالصحف والمجلات وقد خلت صفحاتها من أخبار تلك المعركة، وكأنما حدث ذلك بفعل فاعل، وتناسى الناس فى غمار ماشهدته سنوات الستينيات والسبعينيات فى القرن الماضى من أحداث .. أنباء تلك المعركة، ولكن عبدالحليم حافظ بحكم ما وهبه المولى عز وجل من رهافة حس وصدق شعور يليقان بفنان صادق، كان هو الوحيد الذى لم تمح الأيام من ذاكرته أنه هاجم فى يوم من الأيام - وبعد أن اشتد عوده ولمع نجمه - فنانا كان أستاذا للجميع بما فيهم أستاذه محمد عبدالوهاب، حتى جاء هذا الهجوم وكأنه مصداق لقول الشاعر:

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رمانى

ظل الشعور بالذنب مالكا على عبدالحليم نفسه، حتى كانت رحلته الأخيرة إلى لندن قبل وفاته فى ٣٠ مارس ١٩٧٧م، حيث زاره هناك الناقد الفنى حسن إمام عمر، وفى غمار معاناة عبدالحليم من آلام مرضه .. تحدث كثيرا مع حسن إمام عمر وكشف أمامه عن بعض أخطائه، وقد صاغ الاستاذ حسن إمام عمر ذلك الموقف فى مقال له بعنوان «أخطاء فى حياة عبدالحليم حافظ»، وهو المقال الذى قدم بمناسبة الذكرى السادسة عشر لرحيل عبدالحليم بالعدد رقم (٢١٧٤) من مجلة «الكواكب» والصادر فى ١٩٩٢/٣/٣٠م، يقول الاستاذ حسن إمام عمر فى هذا المقال: «وروى لى عبدالحليم - وكأنه يزيح حملا ثقيلا من على صدره - كيف أخطأ فى أواخر الخمسينيات عندما هاجم الشيخ سيد درويش فى أحد أحاديثه الصحفية، وذلك نتيجة استفزازه من سؤال وجه إليه عن سبب امتناعه عن ترديد ألحان سيد درويش كان عبدالحليم يرى أن الألحان التى يغنيها توائم المرحلة التى يعيش فيها، وأن ألحان سيد درويش كانت تمثل مرحلة انتهى عهدها» (ص ٢٩)، هكذا تحرر الفنان الصادق أمام شبح الموت الذى كان يقترب منه من شعوره بالذنب تجاه خطأ ارتكبه، ولاينتقص تأخر هذا الاعتراف من قيمة وقدر عبدالحليم، وإنما يعلى ذلك من قيمة هذا الاعتراف ويرفع من ذكر صاحبه، إذ يجيىء ذلك الاعتراف بمحض إرادة الفنان وبعيدا عن تأثير أى ظرف خارجي، فها هو الفنان الصادق - وبالرغم من آلام مرض الموت -يتذكر نادما خطأ ارتكبه ومرت عليه سنوات وسنوات، فيريح ضميره وينقى ذكراه من أن ينسب إليها خطأ كهذا، رحم الله عبدالحليم حافظ الفنان الصادق الموهبة وغفر له. ■





بقلم : مرفت رجب

حلم

مضى العام أو كاد.. وصورتها باقية ، تلح على بين الحين والحين ، كأنما هى تذكرنى أنها ستظل باقية ، تبعث فى نفسى ذلك النوع من النور الهادىء ، يهز منابع التفاؤل.. وينتصر للحياة ، فهكذا رأيتها ، وهكذا استقرت فى ذاكرتي ، تلك الصبية التى ظلت الظلمة تلفها ، وهى بكل العزم والبراءة تصارع ، متشبثة بحقها فى أن تبتهج.

ومع أن حكايتها أبسط من البساطة.. إلا أن الفيلم التسجيلى رفعها إلى مصاف أبطال الملاحم والأساطير.. ومع أنها واحدة.. مجرد واحدة من بين العشرات من البنات والصبيان الذين رأيناهم فى الفيلم، وأدركنا أن هؤلاء هم من أصبح يطلق عليهم «بكل أسف» تصنيف «أطفال الشوارع»، إلا أنها كانت صاحبة حلم، تكافح من أجله، تتعذب ، وتعانى وتصمد، وتواصل الكفاح، وتحقق الحلم فتملأ الدنيا رقصا وغناء وبهجة..

ونحن معها نبتهج ونتفاءل، وتتفتح في قلوبنا وعقولنا الينابيع، ومن عيوننا تسقط الدموع.

ولم تكن ظروف صاحبتنا من البساطة بحيث نعرف بأمر حلمها من بدايات الفيلم، ولا كان صاحب السيناريو والإخراج من السذاجة بحيث يفرط في هذا الكنز قبل أن يقطع نفسنا متابعة للصغيرة المطرودة دوما مع صاحبة لها. تنافسها البؤس، وتقوى بالكاد على ملاحقة البطلة صاحبة الحلم.. ولقد كانت بطلتنا الصغيرة سريعة الحركة، سواء كان ذلك بالطبع أم بالقهر، ونحن مع عين الكاميرا نرصد تحركها من رصيف إلى رصيف، ومن زقاق إلى شارع إلى حارة، ومن عمل يسد الأجر عنه الرمق بشق الأنفس، إلى عمل آخر يتراكم أجر الأيام فيه وقد تطرد قبل أن يحل موعد الإثابة، وصاحبتها التي هي مثلها لم تتجاوز الثانية عشرة من العمر تتبعها كظلها، وتلاقي في الأغلب نفس المصير حتى وإن كان التعرض للاغتصاب. ونحن كمشاهدين للفيلم نتقلب بين الدهشة والصدمة ولكننا على طول الخط، ومن أول لقطة في الفيلم إلى آخر نقطة نور مأسورين بسلاسة إبداع الفنان وقدرته على متابعة دقائق حياة تلك الجموع المشردة، كيف رصدها وانتقى منها ورتب، وكيف جاءت زوايا اللقطات وإيقاعاتها ونوع ودرجة الإضاءة في كل منها معمقة للدراما والصراع واحتدام الأزمة وانفراج الأمل؟ وإجابة السؤال عندي محصورة في كلمتين، هما، الفهم، والحذق.

فهذا الفيلم الذي يحمل اسم بطلته ميموري Memory يفهم حدود موضوعه كما يفهم ما يريد.. فهو لا يشغلنا مثلا بأسباب أو ظروف أو ملابسات وجود هؤلاء الأطفال في أسر الشوارع على رحابتها.. إنه لا يشغلنا بأهلهم سواء كانوا من هذا البلد الإفريقي، أم نزحوا إليه مثلا من بلاد مجاورة، كما أنه لا يشغلنا بموقف المجتمع، هل هو مجتمع مستسلم مثلا لمشكلة أطفال الشوارع؟! هل في الأصل هناك إدراك من المسئولين في ذلك البلد أن عندهم مشكلة اسمها مشكلة أطفال الشوارع؟ ، وهل إن كان الأمر كذلك، هل يفعلون أي شيء لمعالجة هذه المأساة الإنسانية؟ لم يشغل الفيلم نفسه بأي من هذه الأمور، وبالتالي لم يشغلنا بها وإن كان تحديده الشديد لموضوعه كفيلا ببعث كل تلك الأسئلة، وعلى طول الخط. فلقد ركز همه على البطلة وصاحبتها. وعن طريق الرصد الوثيق لما يحدث لهما وكيف يقع في نفوسهما أثره، وكيف تتصرفان إزاءه. عن هذا الطريق فقط تضاء في عقل المشاهد ووجدانه كل الأنوار بالتضاد مع العتمة التي تخيم



على معظم مشاهد الفيلم وتصل إلى ذروتها لتنبئنا بوقوع الاغتصاب.

ليس بالحذق وحده تفوز الأفلام!!

وعلى عكس أى توقع، ورغم توافر كل العناصر المكونة للميلودراما إلا أن هذا الفيلم التسجيلى خلا منها تماما.. حتى اللقطات التالية لفعل الاغتصاب وجدناها مشحونة بالغضب وقد مشت معه الواقعية كتفا بكتف. فالبطلة وهى تفضى لصاحبتها بما عانت تلقى فى وجهنا بأبعاد الواقع الذى فيه يعيشون، وما تكرر الاغتصاب فيه إلا مجرد بعد واحد من أبعاد المأساة.

وأما عن أبعاد حذق مبدعى الفيلم، فمنها على سبيل المثال لا الحصر، أنهم ادخروا لنا حلم البطلة، كما ادخره لها كيانها البرىء ليكون القوة الحافزة لها على مواصلة الحركة والحياة والنشاط إلى الكفاح بعد أن ظننا سواد الاغتصاب يغوص بها إلى هاوية . لا وقت عندها للبكاء لابد من العمل، أى عمل، مهما كان ومهما كانت مشاقه، فذلك حتمى ، ليس فقط لتهدئة صراخ البطن الجائعة، ولكن من أجل الحلم، فموعد كسوف الشمس أخذ يقترب، وبطلتنا مصرة على مشاهدة الكسوف، ولأنها جمعت كل المعلومات عن عيد البهجة الذى تنتظره ، فهى تعرف أن مشاهدة الكسوف بالعين المجردة خطر على الإبصار ولذلك تدخر من قوت يومها لتشترى النظارة اللازمة.. هى إذن النظارة الحلم.. تلك التى حفزت قوى الإبداع عند الصبية الصغيرة وجعلتها تبتكر من المخلفات البلاستيكية - تلتقطها من صناديق القمامة - ما تستطيع أن تبيعه فى الأسواق عوضا عن العمل الذى فقدته بفعل فظاظة صاحب العمل.. ونجد أنفسنا وقد انتهينا من مغامرات تجميع القروش، ندخل فورا فى مغامرات شراء النظارة.. وبرغم شظف البؤس، فالفيلم لا يخلو من فكاهة. وأما فيضان البهجة والمرح، فهو ما تهيم فيه الصبية الأسطورة، قاهرة الظلم واليأس، صاحبة أحلى صرخة وأجمل غناء، ساعة أن رأت كسوف الشمس وهى لابسة النظارة ، حلمها الصغير الذى رفعها على أجنحة البهجة وثبتها فى الذاكرة رمزا للأمل والقدرة على ابتكار التفاؤل.

ومع كل ما سبق خرج الفيلم من المهرجان الدولى للأفلام التسجيلية بالإسماعيلية ٢٠٠٢ صفر الدين.. وهو الجدير بست جوائز على الأقل، للسيناريو والتصوير والإضاءة والمونتاج والإخراج والإنتاج، وأقول على الأقل لأن الأمر لو كان بيدى لاقترحت جائزة سابعة يمكن أن يكون لكل فرد من فريق العمل ، منها نصيب، فالفيلم يستحق ،إن ضن عليه

مهرجاننا بأى منها الحلم الشخصى!!

لماذا طفت صورتها على سطح الذاكرة وألحت على؟! والإجابة تنافس حكاية بطلتنا فى البساطة، كما تنافسها فى التشابك.

فالسبب الأول هو اقتراب موعد المهرجان الدولى للأفلام التسجيلية فى الإسماعيلية، ولقد ظلت البطلة الصغيرة تلح على ذهنى أن أكتب راجية أن تسمح لنا اللجنة المنظمة للمهرجان هذا العام بمشاهدة إنتاج أصحاب الفيلم موضوع هذا المقال.. وإن كانت تلك المجموعة أحجمت عن محاولة المشاركة فى مهرجان هذا العام، ربما بفعل استشعار الغبن من قرارات لجنة التحكيم ، أو من أن منظمى المهرجان يفضلون الاستئثار بجوائزه، يوزعونها بمعايير قد لا تخطر على بال مبدع متفان هو بالقطع غافل عن مقتضيات العلاقات العامة.. إن كان هذا لا قدر الله قد حدث.. فإننى أحلم، طبعا أحلم، بأن تتحرك اللجنة المنظمة وتدعو أمثال ذلك الفيلم للمشاركة فى المهرجان.

كما أننى أحلم بأن تعمل إدارة المهرجان على اتخاذ التدابير اللازمة لإتاحة عرض أفلام المهرجان على شاشة التليفزيون لينعم بها الجمهور العريض ، كما أننى أحلم بأن تكون إذاعة هذه الأفلام التسجيلية والروائية القصيرة وأفلام الكرتون المشاركة فى المهرجان مصحوبة بإذاعة الندوات الثرية التى تعقب عرض كل فيلم فى المهرجان..

وصحيح أن ما أطلبه حلم، ولكنه ليس بدعة، فهناك قنوات تأخذ بهذا المنهج والمسألة تتطلب إضافة بند واحد على شروط المشاركة فى المهرجان، يحدد مقابلا ماديا معقولا يدفع لجهة إنتاج الفيلم المشارك مقابل الموافقة على العرض – ولو مرة واحدة – على شاشة تليفزيون القناة التى ستدفع هذا المبلغ. وإذن فإن حلمى الحقيقى هو أن تتسع حدود احتفائنا بهذا الحدث الفنى الدولى رفيع المستوى، وأن نحول مهرجان الإسماعيلية للأفلام التسجيلية إلى مصدر إثراء للشاشة الصغيرة وجمهورها وبذلك نوسع دائرة المعرفة المبهجة.

وأما السبب الثانى الذى استدعى قصة هذا الفيلم ومشاهده وفرضها علىّ موضوعا لكتابة هذه السطور، فهو واحد من التقارير الاخبارية التى شاهدتها على قناة يورونيوز وهى قناة الإخبار الأوروبية التى خصصت واحدا من تقاريرها التسجيلية قبل يومين، وركزت فيه على أوضاع الفقر والمرض فى إثيوبيا.

ولست بحاجة هنا لأن أفصل فى فظاعة المشاهد المعروضة فى ذلك التقرير، فليست الأولى من نوعها.. كما أن اليورونيوز ليست القناة الوحيدة التى تكرر عرض تلك المشاهد المأساوية الموجعة، والتى ترد إما فى نشرات الأخبار أو فى التقارير الإخبارية كأنما تفرض علينا الإحساس باليأس وانعدام الجدوى.. باختصار، يستعرض التقرير



أطنان المعونة الأوروبية والأمريكية، وكما يؤكد على مشاهد المرض والبؤس، فهو يؤكد من خلال شهادات مسئولى المعونة والمواطنين.. أن المعونة هى الأخرى تعانى إما من عدم وفائها بما هو مطلوب.. وإما من نهب المستغلين ومحترفى الفساد والإ فساد، حتى فى مثل تلك الظروف.. يبين التقرير أن المفروض ألا تعانى اثيوبيا من أى نقص فهى غنية بزراعة البن والذرة لكن انعدام التخطيط وسوء الإدارة أدى إلى ربكة اقتصادية شاملة ليس فقط لتدهور محصولى الذرة والبن، ولكن أيضا بالانهيار المروع لأسعار البن فى الأسواق.

المهم أن التقرير المذاع على اليورونيوز، يركز كل التركيز على مشاهد الألم واليأس. ولكنه لا يذكر شيئا لا عن ممارس الفساد والإفساد ولا عن المتسببين فى هبوط أسعار البن الاثيوبى فى الأسواق.

ومثل هذا النوع من المواد المعروضة على الشاشات التليفزيونية يذاع بدرجة من الانتظام والكثافة تجعل المتفرج المدقق يدرك انها لابد تهدف بين أمور اخرى الى تصدير اليأس وترسيخه فى نفوسنا فتموت فى حنايانا بواعث الهمة لأى عمل ايجابى، وفى نفس الوقت ترسخ فى نفوس الغربيين احساسهم بالفروق الكبيرة بيننا وبينهم. وتغذى فى نفوسهم الاحساس بأنهم اصحاب فضل، يرسلون بالمعونات ويدفعون بالهبات والأفارقة لا يفهمون ولا يقدرون.

فنحن لا نجد تقريرا تسجيليا يتتبع تاريخ نهب الثروات الافريقية، ولا نجد تقريرا يكشف استمرار التواطؤ بين شركات الاستثمار العملاقة ودوائر الحكم والحكام التى تبتلع ملايين بل بلايين الدولارات من ثمار خيرات قارتنا المعطاءة، وصعب جدا ان نرى السيد سيمون تيلور يتحدث على اى شاشة تليفزيونية. وهو إن ظهر فسيحكى للعالم عن المعلومات التى تحت يده عن التفاصيل الخفية للتعاملات الزرية بين الشركات العملاقة ودوائر الحكم والحكام فى زمن يجرؤ على التباهى بالشفافية.

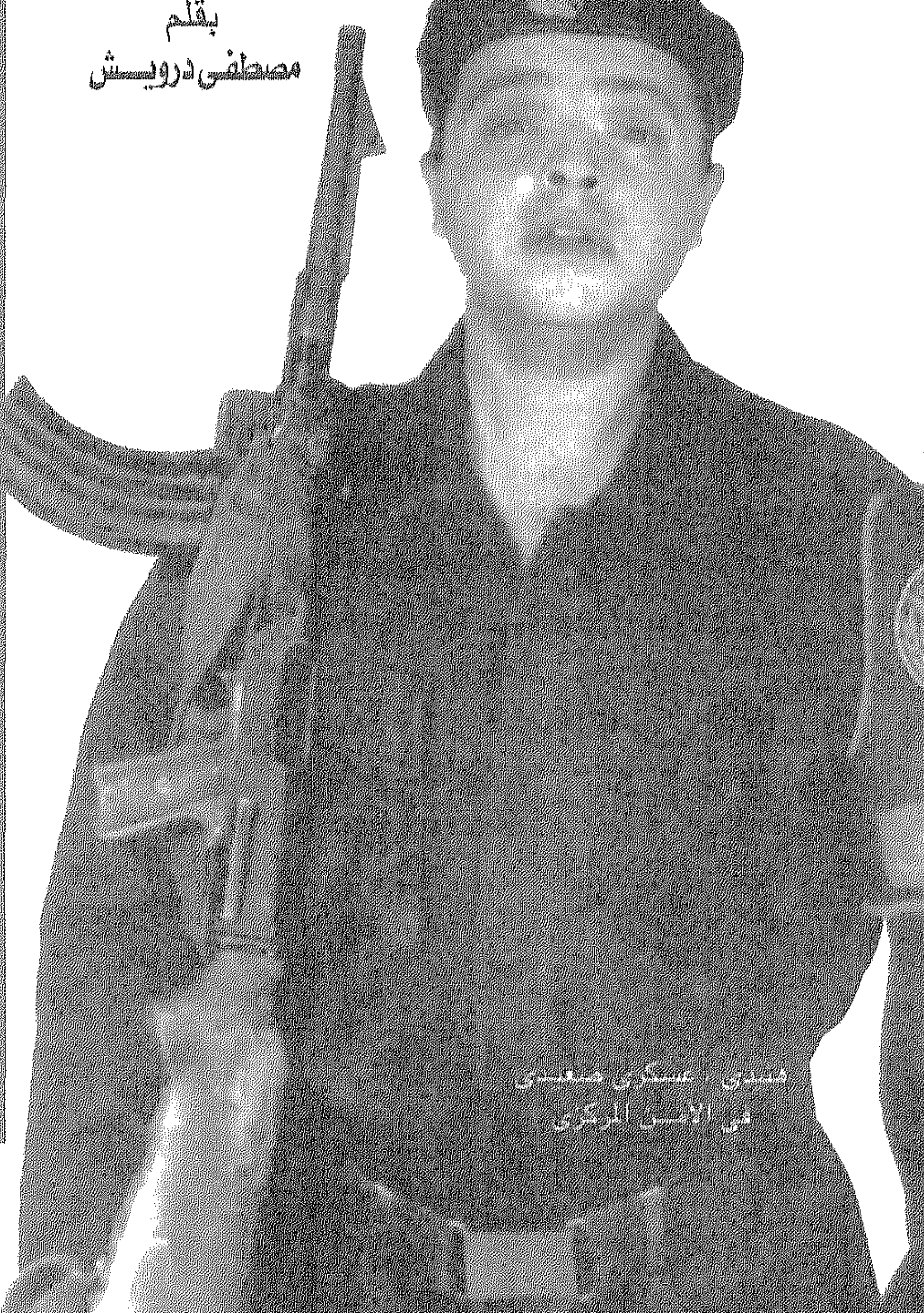
أما عن علاقة كل ذلك بالبطلة الأسطورية التى سكنت ذاكرتى منذ شاهدت وقائع بطولتها فى الفيلم التسجيلى Memory من إخراج سامبا ويلكي فهى علاقة أبسط من البساطة.. ففيلمها يقف على طرفى نقيض من التقرير الاخبارى المأساوى المذاع فى الـ Euronews عن اثيوبيا.. ولاننى واثقة أن فى بلادنا.. كما فى عموم قارتنا.. يعيش الملايين، بنفس روح وعزم وإرادة بطلتنا الصغيرة.. ومثلها يوفقون إلى غزل خيوط الأمل والبهجة فى حياتهم ..وسيظل حلمى أن أرى هؤلاء يغمرون شاشاتنا بصور وحكايات كفاحهم وانتصارهم للحياة فنراهم وتراهم الدنيا معنا.. ومنهم نستقى إرادة الحياة.

العيب في أفلام الصيف

بقلم
مصطفى درويش

تكفى نظرة طائرة على أفلام الصيف، المنتسبة إلى فن الملهاة، والمتنافسة على إيرادات الشباك؛ كى يتبين لنا أن ثمة عيبا أساسيا، شاب هذا النوع من الأفلام، ومنه تنبع بقية العيوب.

وأرجح الظن، إنه، ومع التوصل إلى ذلك العيب، وهو ينحصر فى سطحية وعدم نضج، وليد جهل بالمقاييس المستقرة، الشائعة للجمال والذوق والحياء، فقد يكون فى وسعنا معرفة مكمن الداء



هنيدى : عسكرى صعيدى فى الأمن المركزى



هاني رمزى مترهــلاً - عايز حقى

وهنا، اكتفى للتدليل على تفشى ذلك العيب، بالوقوف قليلا عند فيلمين، أحدهما «عاوز حقى»، عمل سينمائى طموح، يقوم على فكرة مبتكرة، صاحبها «يوسف عوف، ذلك الكاتب خفيف الظل، الذى رحل فجأة عن دنيانا، قبل بضعة أعوام، تاركا فراغا كبيرا.

والآخر «عسكر فى المعسكر»، عمل سينمائى قوامه القص واللزق لأفكار ومشاهد، منقولة من أفلام قديمة، تدور وجودا وعدما، حول الثأر، لا لهدف سوى التشهير بأهل الصعيد. و«بعاوز حقى»، بدأ أحمد نادر جلال، وهو سينمائى أبا عن جد، مشواره مع إخراج الأفلام الروائية الطويلة.

ولقد استهل فيلمه الأول بعناوين كل ما فيها جديد، فريد.

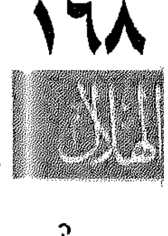
فمع أسماء مبدعى الفيلم، أخذت تظهر تباعا على الشاشة رسوم متحركة لسيارات من مختلف الأحجام، فيها من الابتكار الشىء الكثير واختيار السيارات فى تلك الرسوم بحيث تظهر عليها أسماء المبدعين، كلما تحركت، لم يكن أمرا عفويا، بل كان أمرا محسوبا، وثيق الصلة بمهنة بطلى الفيلم (صابر)، هانى رمزى، و(شوقى)، عصام كاريكا.

فكلاهما سائق تاكسى، يعانى، وبخاصة (صابر) من متاعب مهنته، ومشاقها الجسام.

زبائن وزبانية

ومعناة (صابر) بالذات، مع مالك التاكسى، ومع زبائنه، ومع عساكر المرور الذين بلغ تعسفهم معه قطع رزقه، بسحب رخصته.

هذه المعاناة تشغل حيزا كبيرا من



أحداث النصف الأول من الفيلم، حيث نراه سائقا معذبا، يذوق الأمرين، حتى لحظة اكتشافه أن لمصر دستورا، نص فى عدد من مواده أن لكل مواطن مصرى الحق فى نصيب من الناتج القومى، الذى تقدر قيمته بمليارات الجنيهات.

وبحكم هذه المواد، فله أى (صابر) نصيب فى تلك المليارات.

وبالتالى، فهو واسع الثراء، له الحق فى أن يتصرف كأى مالك، بالبيع، والإيجار لنصيبه هذا.

ثمار الاكتشاف

وبدءا من اكتشاف الدستور، وحقوقه التى تخوله حقوقا تجعل منه مالكا ثريا، انقلبت حياته رأسا على عقب فإذا به يتحول من مواطن فقير، مغمور، لا حول له ولا قوة إلى ناشط سياسى، بل قل زعيم يحرك الملايين، من أجل المطالبة بنصيبها من المال العام، يلتقيه رئيس الوزراء - ويؤدى دوره «وحيد سيف»، ويعمل لنشاطه ألف حساب.

خيبة الأمل

ومع هذا التحول المفاجىء فى حياة (صابر)، كان متوقعا أن يبتعد الفيلم عن الأسلوب الواقعى الطاغى على المعالجة، قبل الاكتشاف.

غير أن التوقع سرعان ما خاب، باستمرار طغيان الأسلوب الواقعى؛ ذلك الأسلوب الذى تخلى عنه حتى رواد الواقعية الجديدة الإيطالية، فى أزهى أيامها، حين كانت أخبارها تملأ الدنيا، وتشغل الناس.

وليس أدل على ذلك من فيلم «معجزة فى ميلانو» (١٩٥١) لصاحبه «فيتوريو دى سيكا»، أحد هؤلاء الرواد، ومبدع أشهر فيلم فى تاريخ تلك الواقعية «لصوص الدرجات».

ولست أدرى، ولا سبيل إلى أن أدرى، أن كان «طارق عبدالجليل»، كاتب سيناريو «عاوز حقى» قد شاهد معجزة «دى سيكا»، من عدمه.

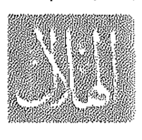
وإن كنت أرجح الظن بأنه لم يشاهده، وذلك لتقطع العلائق بيننا وبين السينما العالمية ورجالها ومجلاتها ونشراتها، ردحا طويلا من الزمان.

اللياقة.. أين؟

يبقى لى أن أقول

أولا أنه ما أن انتهت العناوين برسومها المتحركة المبتكرة، حتى صدمنا المخرج بمشهد قبيح لنجم الفيلم «هانى

هند صبرى - غصن بان

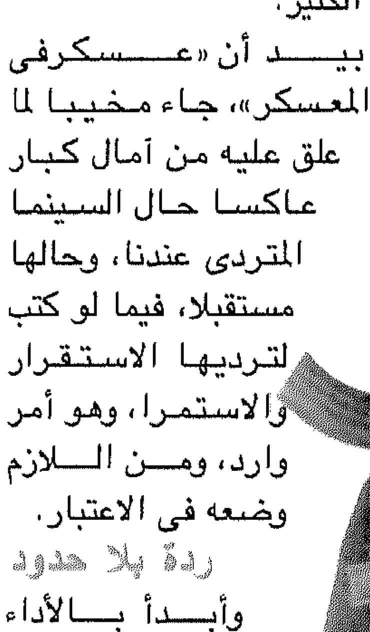


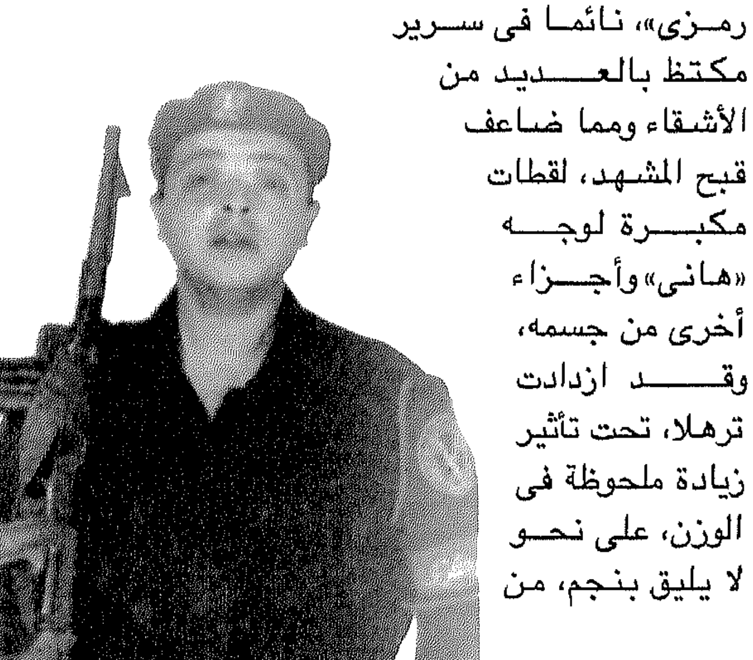
الحق عليه، احتراما لعشاق فنه، ألا يدخر وسعا، من أجل الحفاظ على لياقته البدنية ثانيا أنه بقدر ما فقد «هانى» لياقته اللازمة لتقمصه شخصية شاب خريج جامعة، محبط أهله دستور البلاد أن يكون بطلا قوميا، بقدر ما احتفظت خطيبته فى الفيلم، وتؤدى دورها النجمة التونسية «هند صبرى» بلياقتها، وعلى نحو مثير للإعجاب.

نكسة مخرج

هذا عن «عاوز حقى»، أما «عسكر فى المعسكر» لصاحبه «محمد ياسين» فهو ثانى فيلم روائى طويل له ، بعد «محامى خلع» ذلك الفيلم الذى أخرجه قبل عام وجعل منه، بعد تخرجه فى معهد السينما، قبل ستة عشر عاما، سينمائيا واعدا، يرجى منه الكثير.

لقاء الخميسى في بطولة مطلقة - « عسكر فى المعسكر»





بيد أن «عسكرفى المعسكر»، جاء مخيبا لما علق عليه من آمال كبار عاكسا حال السينما المتردى عندنا، وحالها مستقبلا، فيما لو كتب لترديها الاستقرار والاستمرا، وهو أمر وارد، ومن اللازم وضعه فى الاعتبار.

ردة بلا حدود

وأبدأ بالأداء

رمزى»، نائما فى سرير مكتظ بالعديد من الأشقاء ومما ضاعف قبح المشهد، لقطات مكبرة لوجه «هانى» وأجزاء أخرى من جسمه، وقد ازدادت ترهلا، تحت تأثير زيادة ملحوظة فى الوزن، على نحو لا يليق بنجم، من

لأقول أن ممثلى «عسكر فى المعسكر» جميعا، وبلا استثناء، بدءا من «محمد هنيدى» فى دور (خضر) المجند الصعيدى الساذج، أو بمعنى أصح العبيط، مروراً «بحسن حسنى» فى دور والده، و«صلاح عبدالله» فى دور خاله الفاجر الماجن، مدرس التاريخ سابقا، وحاليا مطرب خليع فى ملهى ليلى، حيث يعرف باسم «حسن كولونيا»، وانهاء بماجد الكدوانى فى دور زميله فى المعسكر، وعدوه المكلف من قبل عمه وأمه بقتله ثأرا لأبيه الذى قتل، وهو فى المهن صبيا، و«لقاء الخميسى» زوجته وشريكته فى السراء والضراء، و«حنان طويل» فى دور الراقصة الرداحة بفاحش العبارات أقول أنهم جميعا، وبلا استثناء، لم يعتمدوا فى التعبير على الصدق والاقتراب من الواقع، ولو قليلا، بل عمدوا إلى الزعيق والتشنج والتشويح، دون أية مراعاة للذوق المهذب، وأصول فن الأداء.

باختصار ارتدوا بهذا الفن إلى التشخيص فى كازينو ليلاس، وغيره من كازينوهات روض الفرج، أيام زمان.

القديم الجديد

وفوق سوء الأداء، وصل الكسل، بكاتب سيناريو الفيلم «أحمد عبدالله»، إلى حد اتخاذه من موضوع فيلم قديم «شهر عسل دون ازعاج»، بطولة حسن يوسف، محمد عوض، أمين الهنيدى وناهد شريف، موضوعا «لعسكر فى المعسكر».

فكلاهما يدور موضوعه حول الثأر فى الصعيد وكلاهما تلعب فيه الصداقة، تحت تهديد الثأر دورا كبيرا.

وكلاهما يعجز فيه البطل المتزوج حديثا عن الاستمتاع بزوجته فى عش هادئ، أثناء شهر العسل.

فما أكثر فشل هنيدى (خضر) فى محاولته الاستمتاع بزوجته فى الحلال.

فكلما حاول ذلك، أنهالت المصائب على رأسه، مصيبة وراء مصيبة، بلا منطق معقول، ولا سبب ظاهر، وباءت محاولته بالفشل الذريع.

الوهم الكبير

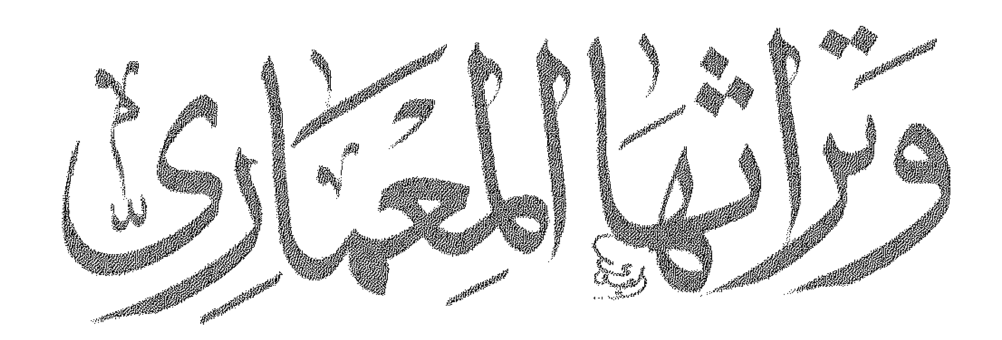
ولا غرابة فى أن يهفو السيناريو على هذا النحو، مقلدا القديم، متى كان السائد فى الوسط السينمائى أن الجمهور ساذج، ومن السهل استهباله بأى كلام ولكن هذا الجمهور المفترض أنه ساذج، وهم فى عقول السينمائيين، لأنى سمعت أكثر من ملاحظة استنكار من جيرانى البسطاء، وأنا أجلس، فى قاعة العرض أشاهد «عسكر فى المعسكر».

وكانت كلمة «مش معقولة»، الكلمة المترددة بانتظام فى الظلام. ■

القاهرة الخديوية



باريس الشرق حلم الخديو اسماعيل(مبنى عمر افندي للمهندس راؤول برندون ١٩٢٣)



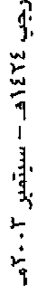
أمـاني عبـد الحميد

● دعـوة للحفـاظ علي ذاكـرة المدينـة ومـواجهة مخـاطر الانـهيـاروالتـشويـه.

● وسـط البلـد مـركز تاريخي لعمارة القرن التاسـع عشـر

● ٤٢٠ مبني ذات قيمة تراثية تحتاج الـي تـرميم عاجـل

ذاكرة المدن تحملها شوارع.. مبان.. ميادين و أحياء إن طال عمرها نابضة بالحياة وبأهلها يصبح الحفاظ عليها حفاظا على التراث والكيان الحضارى. يورث للأجيال المتتالية تأكيدا على الذاكرة والأصالة والتراث. لذا بنى الخديو إسماعيل قاهرته الجديدة لتكون «باريس الشرق» ، تنافس بجمالها مدن العالم. وتصبح مدينة أحلامه مركزا تاريخيا معماريا. يمثل جزءا من ذاكرة أمتنا وتراثها النابض بالحياة. علينا انقاذ ما تبقى قبل أن تنال منه معاول الهدم والتشويه ، حتى نحفظ ذاكرة مدينتنا ونحمى هوية أمتنا من الأندثار.



القاهرة الخديوية وتراثها المعماري

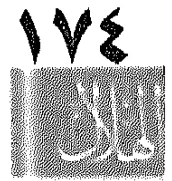
شعوب العالم تعي أهمية الحفاظ على التراث المعماري واحيائه. فحركة التجديد والارتقاء تبدأ دوما من الأحياء القديمة والمباني ذات الطرز التراثية التي تمثل حقبة تاريخية من حياة الأمة. وهذا ما نراه داخل دول أمثال انجلترا وفرنسا، إيطاليا، سويسرا، النمسا، هولندا، بولندا.. دول استطاعت أن تجسد أرصدتها التراثية بشكل عام والعمرانية بشكل خاص، كقيمة متفردة تشهد على ماضيها العريق وتاريخها الحضاري. وتسلط الأضواء على فترات ازدهارها المتعاقبة.

لكن للأسف فإن غياب هذا الفكر الواعي بالقيم التراثية، وتصنيفها الدقيق أضر كثيرا بعمران القاهرة. وأصبحت العمارة المصرية تتعرض لحملات تشوية كل يوم، وحملات اغتيال للمباني والقصور القديمة. كثير منها تعرض للإزالة التامة من أجل استثمار أراضيها أو بغرض التحديث غير المدروس.. فنجد عددا من الأحياء ذات الجذور التاريخية مثل وسط البلد، جاردن سيتي، الزمالك، مصر الجديدة، وغيرها من الأحياء التي شهدت ثراء معماريا متميزا، أصبحت تعاني من تشويه ماضيها الجميل.. صحيح أن الدولة قامت خلال الأعوام القليلة الماضية بوقف عمليات هدم القصور والفيلات من أجل حماية التراث العمراني. لكنه قرار جاء متأخرا. ولولا الوجود الدبلوماسي وبعض الشركات الكبيرة حيث اتخذت بعض السفارات الأجنبية من المباني القديمة مقارا لها – لكنا فقدنا الكثير من رصيدنا التراثي العمراني العريق.

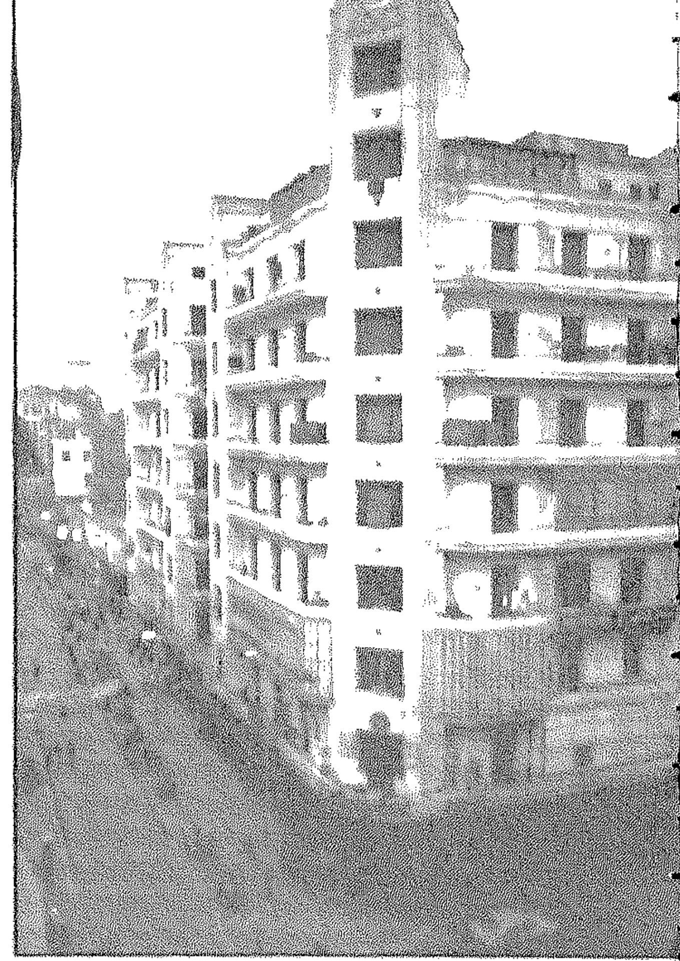
ويكفي أن نعلم أن الخديوى إسماعيل عندما أمر ببناء قصر عابدين فور توليه حكم مصر عام ١٨٦٣ ، ونقل مقر الحكم من القلعة إلى قصر عابدين أملا في انتقال بلاده من العصور الوسطى إلى الحديثة . قرر بناء قاهرته الجديدة على الطراز الأوروبي. وكلف المهندس الفرنسي «هاوسمان» في عام ١٨٧٤ باستحداث طرز ومعالم جديدة تختلف اختلافا جذريا عن طابع البيئة الإسلامية التقليدية واستغرق إعداد وتنفيذ مشروعه الحالم خمس سنوات. بدأه بافتتاح شارع محمد على بطول ٢.٥ كيلو متر فيما بين ميدان باب الحديد والقلعة على خط مستقيم . وتوالت المباني والانشاءات الكبرى دار الأوبرا، كوبرى قصر النيل أو الخديوى إسماعيل كما كان يطلق عليه وقتها، وتحولت مدينته الخديوية إلى شبكة من الشوارع المستقيمة ، والمتقاطعة، وميادين فسيحة ، وقصور ومباني، وجسور على النيل، وحدائق غناء بالأشجار ، والنباتات النادرة. لتصبح القاهرة الخديوية تحفة معمارية حضارية تنافس أجمل مدن العالم وقتها . أين نحن من هذا الجمال اليوم؟؟

متحف مفتوح

لذا تعتبر منطقة وسط البلد متحفا مفتوحا لتراث إنساني يمثل مصر منذ بدايات تحديثها وعصر نهضتها . من خلال رصيد هائل من المباني القديمة يتعدى عددها ٤٢٠ مبنى داخل مساحة لا تقل عن حوالى ٧٠٠ فدان ، ويعود تاريخ انشائها إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. تجمع بين الطرز المعمارية المختلفة مثل الكلاسيكي، رينسانس، الأرت ديكو، الفن

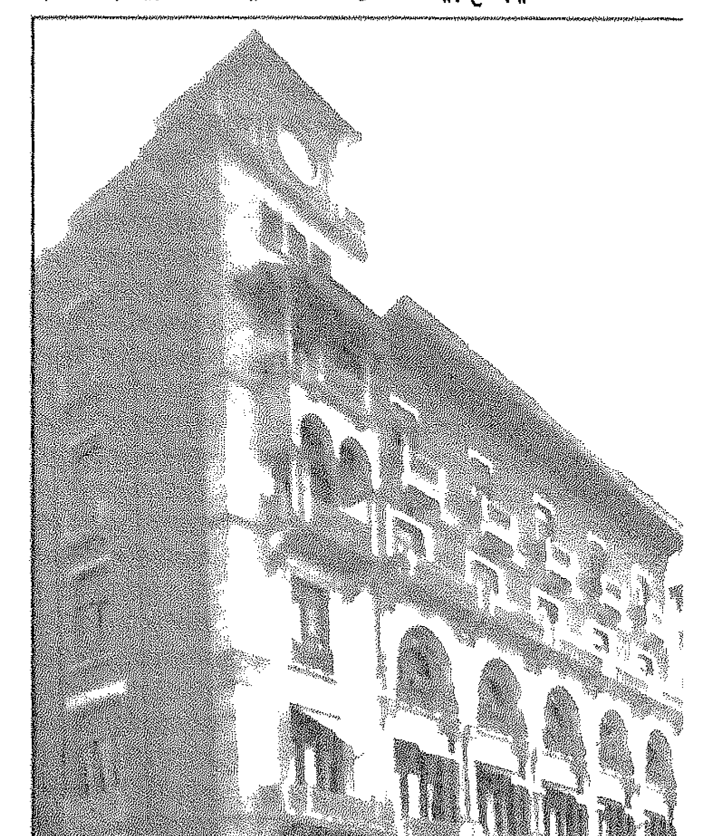


الحديث، الباروك، والمدرسة التعبيرية، والإسلامية المتطورة. كما تؤكد د. سهير حواس في كتابها «القاهرة الخديوية» فجولة صغيرة دخل أحد شوارعها يجعلنا نشعر بالفخر. فما نراه حولنا من مبان ليس مجرد أدوار خرسانية متراصة. لكنها ثروة لا تقدر بثمن. تاريخ تحكيه ميادينها: «التحرير / سليمان باشا / عابدين / باب اللوق / مصطفى كامل. وتراه على أرصفه شوارعها «٢٦ يوليو / قصر النيل / شريف باشا / عدلي باشا / عبدالخالق ثروت / عماد الدين بل تبرزه واجهات مبانيها الثرية: عمارات الخديوية / بهلر، نادى محمد على، الشواربي..» حتى مقاهيها ريش / جروبى / الأمريكين.. وقام بتصميمها أشهر المهندسين المعماريين في ذلك الزمان، أمثال لاشياك مصمم عمارات الخديوية بشارع عماد الدين. ومارسيل دور جنون «المتحف المصرى» ١٨٩٧ وكاستامان «مبنى جروبى» وأ.مارسيل «النادى الدبلوماسى» ماتاسك «المعبد اليهودى» ماريو روسى «جامع عمر مكرم» علاوة على المهندسين المصريين مصطفى فهمى «جمعية المهندسين» أبو بكر خيرت «عمارة الطيران الفرنسية» وغيرهم مثل سيد كريم، محمد شريف نعمان، وعلى لبيب جبر.



شارع الألفى الذى تحول الى منطقة للمشاه ضمن خطة تجديد وترميم وسط البلد

أحد أعمال عبقرى العمارة «لاشياك» ومبناه الذى يجمع بين العمارة الأسلامية والأوروبية (١٩٢٧)



الانهيار السريع

بعد أقل من مائة عام فقط أصبحت مخاطر التشويه والانهيار تحدق بالقاهرة الخديوية.. فرغم نجاح الخديوى إسماعيل فى تنفيذ رغبته الجارفة بتحويل القاهرة إلى باريس الشرق وتكبده الأموال والديون الطائلة فى سبيل ذلك، إلا أن دوام الحال من المحال. شاخت مدينة أحلامه رغم قصر عمرها مقارنة بالقاهرة الإسلامية



ميدان العتبة الخضراء بانوراما للعمارة التراثية بالقاهرة الخديوية ويضم مبنى البريد والمطافىء

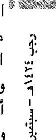
القابعة خلفها فى أحضان جبل المقطم، وحاصرتها المخاطر من كل صوب، وعلى مدى خمسين عاما سارعت معاول الهدم فى تدمير وجهها الجميل وإزالة معظم التراث المعمارى من قصور وفيللات وحدائق وبدأ الزحف الخرسانى القبيح بأبراجه وعماراته يغتال ما تبقى ويحول القاهرة إلى غابة أسمنتية لا طراز لها أو معنى أو شخصية. فقدنا دار الأوبرا العريقة ليحل محلها جراج قبيح متعدد الطوابق وفقدنا حدائق البستان ليحل محلها جراج ومركز تجارى يحمل فقط الأسم بعيدا عن تاريخ المكان. فقدنا واجهات العمارات رغم جمالها وشوهتها أضواء النيون ويافطات المحال التجارية وديكوراتها الرخيصة. فلا ترى عين الزائر سوى لافتات الإعلان الفجة شديدة التأثير على عقول البشر وبالتالى التأثير على روح المكان. كما ساهم سكانها فى تدمير وتغيير ما تبقى كل كما يحلو له.

الأسوأ هو تعديات الحكومات المتوالية وإدارات الحكم المحلى. فتحولت كثير من القصور إلى مدارس أو مكاتب حكومية يشغلها موظفون لا يدركون قيمة وأهيمة المكان. مثل قصر سعيد حليم باشا الرائع الجمال الذى تحول إلى المدرسة الناصرية. ولايزال حتى الآن مصيره حائرا ما بين وزارة التربية والتعليم ووزارة الثقافة ومحافظة القاهرة. على أمل أن يتم تحويله إلى متحف. علاوة على عدد من المبانى والقصور التى تحتلها مصالح حكومية مثل سراى الجيزة المقام على جزء منها مجلس الدولة . وقصر الأميرة شويكار الذى تشغله الآن رئاسة مجلس الوزراء وقصر عمر طوسون باشا وبه مركز المعلومات ودعم اتخاذ القرار.

محاولات للانقاذ

عدد كبير من الباحثين المعماريين طالبوا بضرورة الحفاظ على هوية وسط البلد وعماراتها ومبانيها.. كثير منهم قام برصد أبنيتها حتى لا تفقد شكلها أو طرازها مع تواصل التعديات عليها. أو حتى قيام الجهلاء بهدمها من أجل حفنة جنيهات. وكان أول من اهتم بالقاهرة الخديوية الدكتور محمد شرابى وذلك فى كتابه «القاهرة» الصادر باللغة الألمانية. ونأمل أن نراه باللغة العربية كما وعدنا الأستاذ كامل الزهيرى مدير مكتبة القاهرة الكبرى. ومن بعده اهتم عدد من الباحثين بطراز وسط المدينة. ومن أبرز عمليات البحث جهود قدمتها مجموعة من المعماريين المصريين استطاعوا الحصول على منحة ضمن برنامج تتبعه المجموعة الأوروبية يقضى بدعم الأبحاث المعنية بالتراث الحضارى والمعمارى لمراكز المدن القديمة ونجحت مجموعة الباحثين فى الحصول على المنحة الأوروبية ، ومن خلالها قاموا برصد وتوثيق كافة عمارات وأبنية وسط البلد التى يرجع تاريخها إلى العصر الذهبى للقاهرة الخديوية.

ترأست المجموعة الدكتورة جليلة القاضى أستاذة العمارة فى معهد أبحاث من أجل التنمية التابع لوزارة البحث العلمى. والتى ترى أن مشروع تطوير وترميم وسط البلد بدأ منذ عام ٢٠٠٠ بهدف الحفاظ على التراث المعمارى والعمرانى الذى يرجع الى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. ولكن ما حدث لمركز المدينة أنه تعرض لعمليات انتشار وانتقال أى بدأ المركز فى الاتساع ليشمل مناطق مجاورة «جاردن سيتى . الزمالك» ثم انتقل إلى مناطق اخرى مجاورة «المهندسين» أو بعيدة «مصر



الجديدة، مدينة نصر» مما أثر سلبيا على المركز الرئيسى خاصة وأنه يمثل الوسط التاريخى للمدينة فتفاقمت مشكلاته مع الوقت مثل التدهور العمرانى لعدم وجود اهتمام أو صيانة مع انهيار الشبكات الخديوية مثل الصرف الصحى وشبكة الاتصالات. ونزوح السكان القدماء بعيدا عنه وحلول طبقات اجتماعية أدنى. علاوة على تحويل الشقق السكنية الى مكاتب تجارية. فخرجت الأمور عن السيطرة وأصبحت مخاطر الانهيار تهدد مبانى المركز التاريخى التراثى.

وعن مشروع ترميم وإدارة المبانى التراثية الذى تقدمت به مجموعة البحث التى ترأسها توضح أنه فى عام ١٩٨٩ قامت المجموعة الأوروبية بطرح عطاء ضمن خطة زمنية بهدف دعم كافة العلوم. ومنها مجال العلوم الإنسانية. كان التخصص المختار هو الحفاظ على التراث وعليه تقدمت مجموعتها البحثية باقتراح حول دراسة التراث الثقافى والحفاظ على هوية المدن القديمة. تضمنت المجموعة باحثين من جامعة «حلب» والقاهرة قسم عمارة كلية الهندسة، جامعة ليون الفرنسية ومركز طور بفرنسا والمعهد الهندسى للعمارة فى فينسيا . بدأ العمل فى سبتمبر عام ٢٠٠٠ المرحلة الأولى كانت عبارة عن دراسة كافة القوانين والجهات التى تحافظ على التراث والقوانين المنظمة لذلك. وأدوار القطاعين العام والخاص فى الحفاظ على المبانى ذات القيمة واستطاعت مجموعة البحث فى رصد حوالى ٤٢٠ مبنى ذات قيمة داخل مثلث وسط البلد. وتقول الدكتورة «جليلة» أن مقاييس اختيار المبانى تقوم على عدة عوامل أولها العامل التاريخى أى تاريخ انشائه ثم العامل الرمزى اى قيمته الرمزية من ذكرى أو حدث هام شهده، والعامل الجمالى واسم المهندس المعمارى الذى قام بتصميمه وموقعه المميز وعلاقته بالمبانى المجاورة والشارع الذى يقع فيه.

وبالنظر لشارع عماد الدين كنموذج نجد أنه يحوى مبانى تعود للقرن التاسع عشر من كل الطرز المعمارية ولأهم المهندسين المعماريين آنذاك . كما عاش فيه عدد من الشخصيات مثل فاطمة رشدى ، نجيب الريحانى، على الكسار. أى أنه شارع ذو قيمة تراثية كبيرة.

مخاطر الانهيار

وتؤكد الدكتورة أن مجموعة البحث قامت بعمل دراسات للتربة والأساسات لكل المبانى ذات القيمة وإعداد قائمة بالمبانى الأكثر تهديدا بالانهيار والتى تحتاج الى ترميم عاجل.

مثال ذلك مبنى نادى ريسوتو الواقع فى ميدان مصطفى كامل . حيث اصيب بتصدعات خطيرة. وهو مبنى قام بتصميمه المهندس النمساوى لاشياك فى عام ١٨٢٩، كما حددت الدراسات أن العمارات الواصلة بين شارعى عماد الدين ورمسيس مهدده بالانهيار وتحتاج للترميم العاجل أيضا .

وتحلم أن تجعل من منطقة سوق التوفيقية منطقة مغلقة اى منطقة للمشاه فقط على غرار ما حدث فى منطقتى «الألفى و«البورصة» أملا فى إتاحة الفرصة امام الناس ليتأملوا جمال المبانى هناك ودفع التجار للتعاون واصلاح المكان للحفاظ عليه. والمعروف ان محافظة القاهرة بمشاركة بعض رجال الأعمال قد

طراز «الروكوكو والباروكي والأرت نوفو» وشمل المشروع تجديد البنية الأساسية وتحويل الشوارع الجانبية الى مناطق للمشاة علاوة على عمليات التجميل والإنارة التى تحمل نفس الطابع.

والمعروف ان منظمة اليونسكو قد أصدرت حديثا قائمة تحت مسمى «التراث المهدد» تحوى المبانى الحديثة نسبيا المعرضة لخطر الانهيار مقارنة بالآثار القديمة. وهو ما ينطبق على وسط المدينة بالقاهرة ، حيث تعتبر مبانيها مهددة بالانهيار وتمثل ذاكرة الأمة. ولاتزال تتعرض لمخاطر متزايدة مثل التلوث والتعديات المتواصلة.

علما بأن وزارة الثقافة قد اتبعت منذ عام ١٩٨٠ سياسة تهدف الى تحويل القصور القديمة الى مراكز ثقافية وتعليمية لاتاحة الفرصة امام الجمهور الواسع للتعرف عليها كتراث معمارى مهم يحمل قيما جمالية وتاريخية متميزة على سبيل المثال تم تحويل قصر النبيل عمرو ابراهيم بالزمالك الى قصر للفنون ومتحف للخزف الاسلامى، وقصر الطحاوية بالجيزة الى مكتبة مبارك، وقصر الأميرة سميحة حسين كامل بالزمالك الى مكتبة القاهرة الكبرى وقصر محمد محمود خليل الى متحف يضم مقتنياته الفنية كما قامت الوزارة بترميم حوالى ١٤ مبنى تراثيا مثل فندق ماريوت الذى كان فى الأساس قصر الجزيرة الذى بناه الخديوى إسماعيل عام ١٨٦٩ بتصميم للمهندس الألمانى كارل فون بهدف استضافة مدعوين لحفل افتتاح قناة السويس ، كذلك تحويل منازل عدد من الشخصيات العامة الى متاحف مثل متحف ناجى / طه حسين، أحمد شوقى ، علاوة على قصر المانسترلى ومعهد الموسيقى العربية. ■



نادى ريسوتو أقدم مبانى وسط البلد المهددة بالانهيار المبنى على الطراز الايطالى الخاص بمدنية فينسيا ١٨٩٧



صيدناوى الخازندار من تصميم المهندس جورج بارق (١٩١٣) وهو نسخة مطابقة لمباني باريس خلال تلك الفترة

طورت منطقتى الألفى والبورصة. والأخيرة تعتبر من أهم المناطق التى تم تجديدها من حيث المساحة حيث تصل الى ٦٠ ألف متر مربع، وتضم ٣٥ مبنى ذا قيمة معمارية عالية «البنك المركزى / البورصة

فندق الكوزموبوليتان ، دار الإذاعة المصرية القديمة بشارع الشريفين وهى مبانى تعود لبدايات القرن العشرين من



من الأزهر إلى السوربون

تأليف وترجمة: د. عبد الرشيد الصادق محمودى

عرض وتحليل: د. محمد الدسوقى

طه حسين طاقة فكرية متميزة طبقت شهرتها فى حياته العالم كله تقريبا، فقد منحته أكثر من جامعة عالمية درجة الدكتوراه الفخرية، وصدرت عنه بالعربية وغيرها دراسات ومؤلفات عدة، وخصصت بعض المجلات على مستوى العالم بعض أعدادها عن حياته ومؤلفاته وآرائه، وترجمت بعض هذه المؤلفات وبخاصة الأيام إلى معظم لغات العالم، وسعى إليه كثير من المفكرين والباحثين من مختلف الجنسيات والدول لمناقشته والحديث إليه، وشارك فى كثير من المؤتمرات والندوات الدولية بأبحاثه ودراساته، ولم يتحقق هذا لمفكر عربى معاصر - غير العميد - فيما أعلم.

وبعد وفاة العميد كثرت الكتابة عنه، وجمهرة ما كتب ينعت طه حسين بأنه من أعظم مفكرى مصر إن لم يكن أعظمهم فى القرن العشرين، وأن مواقفه الفكرية شامخة، وأنه رائد من رواد النهضة الفكرية والأدبية المعاصرة، إلى غير ذلك من أوصاف الإكبار والاجلال والثناء. وفى مقابل هذا يصفه بعض الباحثين بأوصاف تصادم فى ما أومأت إليه آنفا.

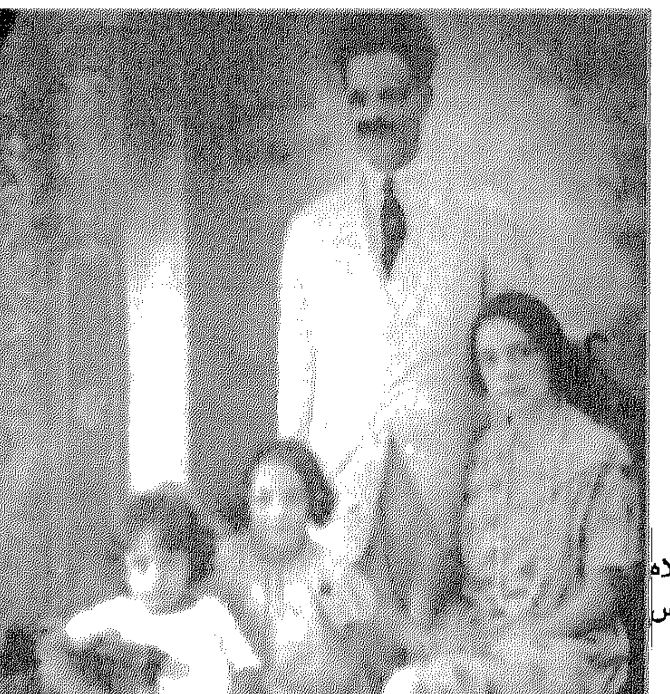
وأحدث ما صدر عن العميد كتاب: طه حسين من الأزهر إلى السوربون. للدكتور عبدالرشيد الصادق محمودى، وهذا الكتاب فى الأصل رسالة دكتوراه قدمت بالانجليزية إلى جامعة مانشستر سنة ١٩٩٥م، ثم ترجمها صاحبها إلى العربية، ونشرها المجلس الأعلى للثقافة فى سلسلة المشروع القومى للترجمة، ويتركب منهج هذه الدراسة الجامعية من تصدير ومقدمة وسبعة فصول وخاتمة بالإضافة إلى ملحق عن اتجاهات الأفكار الفلسفية فى البلاد العربية.

جاء فى التصدير أن فكرة الدراسة خطرت للمؤلف منذ عدة سنوات، وتتناول هذه الفكرة الدور الذى أداه طه حسين كوسيط بين الثقافات الشرقية والغربية، بيد

في جلسة عائلية

في أحد المتنزهات الباريسية

كان لاساتذته أثر كبير في فكره ومنهجه



طه حسين وزوجته وطفلاه
آمينة ومؤنس في باريس

أنه حين أقدم على البحث وانهمك فيه تحول اهتمامه - شيئا فشيئا وعلى نحو تلقائي - إلى تعليم طه حسين في حد ذاته، فقد كان هذا أمرا موفقا وضروريا، لأنه ليس من الممكن أن نفهم العميد في نضجه الفكري دون أن ندرس كيف تشكل تفكيره في مراحل تعليمه المختلفة..

واشتملت المقدمة على الأسباب التي حملت المؤلف على اختيار هذا الموضوع، وقد أفاض القول في هذه الأسباب، وهي في مجملها محاولة لتقصي مسيرة طه التعليمية من الكتاب إلى السوربون، أو الكشف عن الطريقة أو الطرق التي تعامل بها العميد مع التأثيرات التي تلقاها في إطار تعليمه أو تكوينه ككاتب، أو في إطار تحقيقه لذاته، وذلك لفهم التطورات التي طرأت على تفكيره في المراحل التي تلت فترة الطلب والتكوين.

وأما الفصل الأول وحمل عنوان شوق إلى العالم، فقد عرض فيه الباحث بإجمال وايجاز لحياة طه حسين، ورحلته التعليمية كما رواها في سيرته الذاتية «الأيام» مع التأكيد على معاناته للعمى كنوع من العزلة التي تستدعي بالضرورة الرغبة في التحرر منها والخروج إلى العالم الرحب.

وتناول الفصل الثاني تحت عنوان «من علوم الدين إلى درس الأدب» الفترة الأزهرية في تعليم طه حسين مع تفصيل القول بعض التفصيل في التيار الفكري المحافظ الذي تمثله المؤسسة الأزهرية والاتجاه الإصلاحي الذي كان يمثله الإمام محمد عبده ومدرسته، وما نجم عن هذا من ضيق العميد بالمناهج الأزهرية وتمرده عليها، واكتشافه للأدب والاقبال على دراسته.

ويبرز الفصل الثالث وعنوانه «اكتشاف التاريخ» أخطر نقطة تحول في حياة العميد بأسرها، لأنه يتناول لقاءه مع لطفي السيد وتعليمه في الجامعة المصرية، وفي هذه المرحلة توصل طه إلى اكتشافه للتاريخ، وكان في المرحلة الأزهرية قد اكتشف الأدب واهتم به. وفي الفصل الرابع حديث عن الكتابات المبكرة لطه حسين، وهذه الكتابات على تنوعها تعرض للدراسات التاريخية، وفيها حاول العميد أن يستوعب ويطبق ما أخذه عن المستشرقين الذين درسوا له في الجامعة الأهلية، وأن يكوّن لنفسه رأياً في التاريخ ، ومن ثم كانت رسالته عن أبي العلاء تتويجا لهذه المحاولة التي سبقتها دراسات نقدية عن تاريخ الأدب واللغة العربية.

الثقافة الفرنسية

وحرص الباحث في الفصل الخامس وعنوانه «الرجوع إلى المصادر الفرنسية» على أن يثبت أن طه حسين قد وقف على قدر لا بأس به من الثقافة الفرنسية قبل سفره إلى فرنسا، وأن التقاء طه بهذه الثقافة بدأ في سنة ١٩٠٧م وهو لما يزل طالبا في الأزهر عن طريق علاقته بلطفي السيد وعبدالعزيز جاويش، ثم كانت مرحلة الدراسة الجامعية التي وقف فيها عن طريق أساتذته الغربيين على طرف من المناهج العلمية التي كان لها أثرها في فكره، والتي تعد البذور الأولى لاندفاع العميد نحو المستقبل، يتخطى بها أساتذته الأوربيين نحو المصادر الأصلية الفرنسية للفكر الوضعي.

وأما الفصل السادس وعنوانه «أفول الوضعية» فقد تحدث عن حياة طه حسين في فرنسا، في مونبلييه أولا، ثم في باريس، وكيف التقى بالفتاة التي أحبها وتزوجها. وركز الفصل بعد هذا على المقررات التي درسها في السوربون والأساتذة الذين تعلم عليهم.. وخلص من هذا للكلام عن الأزمة الوضعية، والشك الديكارتي، والأزمة المنهجية.

وتتضمن الفصل السابع والأخير وعنوانه «مصالحات» عدة موضوعات تتغيا كلها هدفا واحدا، وهو وضع مجموعة من التركيبات أو المصالحات التى تعبر عن أهم السمات المميزة لفكر طه حسين فى مراحل نضجه.

ولخصت الخاتمة رحلة العميد التعليمية والفكرية، كما قدمت تقويما لأداء العميد الثقافى، مع الاهتمام بوجه خاص بجانبين مترابطين وهما: مذهبه فى الحداثة، ونزعته الإنسانية.

وأما الملحق فهو تقرير أعده ماسينيون بتكليف من وزارة المعارف الفرنسية عن دراسة اتجاهات الأفكار الفلسفية فى البلاد الناطقة باللغة العربية، وذلك بوصفه محاضرا فى تاريخ المذاهب الفلسفية بالجامعة المصرية فى الفترة من ١٠ نوفمبر سنة ١٩١٢م حتى ١٠ يونيه ١٩١٣م وهذا المقرر دعمته إدارة العلاقات الخارجية الفرنسية.

ويتكون هذا التقرير من أربعة أقسام وخاتمة.. تحدث القسم الأول عن السمات العامة للاتجاهات الفلسفية الراهنة فى البلاد الناطقة باللغة العربية.

ودرس القسم الثانى الحركة الفلسفية فى مصر باعتبارها المركز الحقيقى لهذه الحركة فى اللغة العربية، وذلك من خلال الجامعة المصرية والمؤسسة الأزهرية.

وفصل القسم الثالث أهم ما جدّ من مقررات فلسفية ومنطقية فى الأزهر ودار العلوم، ودار الدعوة والإرشاد.

ونوه القسم الرابع بالإشارة إلى الأعمال الفلسفية المطبوعة باللغة العربية سواء أكانت نشراً لنصوص قديمة أم طباعة لمؤلفات جديدة.

وبينت الخاتمة الموقف العام من التجربة العملية لتدريس المقرر الذى عهد به إلى ما سينيون، فهناك من رحب به وأثنى عليه، وهناك من نقده وبخاصة بالنسبة إلى بعض تعريفات الاصطلاحات الفلسفية كما قررها بعض فلاسفة الإسلام والغرب.

اهتمام بمرحلة التكوين

ويتضح من هذا العرض المجمل لما تضمنه كتاب طه حسين من الأزهر إلى السوربون من قضايا أن هذا الكتاب دراسة علمية عميقة تختلف فى منهجها وعناوين فصولها وأسلوب عرضها للموضوعات عما ألف من قبل عن العميد، وأنها انفردت بالاهتمام بمرحلة الطلب والتكوين فى حياة طه حسين، وهذه المرحلة لم تكن تلقى من المؤرخين والباحثين العناية التى ينبغى أن تحظى بها حتى تكشف عن الموارد الفكرية التى أسهمت فى تكوينه ثقافيا وأدبيا.

ومع الجهد العلمى الذى بذل فى إعداد ذلك الكتاب، فإن كل عمل بشرى لا يسلم من هنات، هينات وغير هينات، ولعل الملاحظات التالية تعبر عن وجهة نظر يؤخذ منها ويرد عليها وأهمها ما يلى:

أولا: إن الحديث عن التيارات المذهبية والفكرية التى كان لها دور مهم فى التكوين العقلى للعميد وسيلة لا غاية، ولكن المؤلف الفاضل أفاض القول فى هذه التيارات، بحيث طغى حجم المادة العلمية فيها على ما كتب عن طه حسين، اللهم إلا ما جاء عن رسالة ابن خلدون، ومن ثم يكاد يكون الكتاب دراسة للفلاسفة والمفكرين فى الربع الأول من القرن العشرين، وليس دراسة لفكر العميد، لأن الحديث عنه جاء مقتضبا بوجه عام.

ثانيا: إن المرحلة الأزهرية لم تأخذ حقها فى الدراسة الوافية مع أهميتها وأثرها فى فكر وأدب طه حسين، فالعميد وإن ضاق ذرعا بالمناهج الأزهرية، عرف فى هذه المرحلة طريقه إلى قراءة الأدب ودراسته فى حلقة أستاذه سيد المرصفى، كما أنه تعرف فى هذه المرحلة على زميلين لهما: أحمد

حسن الزيات، ومحمود زناتي، وجمعت الصداقة وحب الأدب بين هؤلاء الثلاثة على الاقبال فى نهم لقراءة أمهات كتب التراث فى الأدب العربى، وكان لهذا أثره فى طبع أسلوبه فى كل نتاجه بطابع الأصالة الأدبية وليست ظاهرة التعبير عن الفكرة الواحدة أو المعنى الواحد فى أسلوب العميد بأكثر من صياغة إلا دلالة على الثراء اللغوى، والإحاطة الدقيقة بالمفردات والاشتقاقات.

وهذا الثراء اللغوى مرده إلى حب التراث والعكوف على قراءته في كل مراحل حياته، ومن ثم كان لهذا التراث أثره فى تميز كل مؤلفات العميد حتى ما كان منها مترجما من لغة غير عربية، بالسليقة اللغوية.

ثالثا: ذكر الدكتور عبدالرشيد أن المستشرقين الثلاثة : نالينو وسانتلانا، وماسينيون كان لهم دورهم المهم فى توجيه العميد نحو العالمية وعقد الصلات والمقارنات بين الحضارات واللغات المختلفة، وقد يصدق هذا القول على كل من نالينو وسانتلان أما ماسينيون فقد حدثنى عنه العميد بما يوحى بأنه لم يكن يطمئن إليه، قال إن النشاط العلمى للمستشرقين لا يجب أن يغمض عيوننا عن نشاطهم المريب فى مجال السياسة الاستعمارية وأذكر لك مثلا أن ما سينيون وهو مستشرق فرنسى مشهور، وكان عضوا فى مجمع اللغة العربية، وله أبحاث فى الدراسات العربية والإسلامية، هذا المستشرق كان موظفا فى إدارة المخابرات فى وزارة الخارجية الفرنسية، وكان إذا قدم مصر فإنه يقابل الملك فؤاد، ثم من بعده فاروق ولكنه بعد قيام ثورة ١٩٥٢ حاول مقابلة عبدالناصر فلم يفلح..

أما نالينو فقد قال عنه العميد: لقد أحببت هذا الأستاذ كل الحب، كما أحببت أستاذى الشيخ سيد المصرفى، ولا أنسى دروس نالينو فقد كانت بلغة عربية فصيحة، وكان لا يتكلم العامية لأنه لا يحسنها.

فتأثير ماسينيون على كتابات طه حسين ليس حاسما كما يرى الدكتور محمودى.

رابعاً: نظرا لأن موضوعات كتاب طه حسين من الأزهر إلي السوربون متداخلة ومتكاملة كان التكرار فى بعض الأفكار والنصوص أحيانا وما يترتب عليه من تكرار بعض الجمل والعبارات والمفرادت، ولا بأس بهذا مادام الأمر لا يتجاوز حدود الضرورة العلمية، ولا يدخل فى باب التكرار المخل أو الممل.

ومع هذا اشتمل الكتاب على تكرار ليس له مسوغ، فمثلا عبارة «القول بأن القرآن - على خلاف الشعر الجاهلى - هو أول وثيقة صحيحة فى تاريخ العرب يتضمن أصدق صورة للأوضاع اللغوية والدينية والفكرية فى بلاد العرب قبل ظهور الإسلام» هذه العبارة تكررت لفظا أو معنى أكثر من مرة ..

خامسا: إن الفلاسفة والمفكرين الغربيين وغيرهم الذين ورد الحديث عنهم وعن أستاذيتهم للعميد كان القارىء فى حاجة إلى مزيد من التعريف بهم أو الترجمة لهم ترجمة موجزة فى الهامش، فليس كل القراء على دراية بهؤلاء الفلاسفة والمفكرين.

كذلك الحديث عن المناهج الفكرية كالوضعية وغيرها لم يقدم الصورة التى تمد القارىء بمعلومات واضحة عنها، ولعل المؤلف فى حديثه عن هذه المناهج التى درسها فى مصادرها الأصلية دراسة وافية يظن أن القارىء فى مستواه من حيث المعرفة بها.

سادسا: لجأ الدكتور عبدالرشيد إلي الترجمة الحرفية لبعض المصطلحات دون أن يعرف بها أو يعبر عنها بلغة عربية، ومن ذلك مثلا: «الاسكولائية الأزهرية» وقد تكرر هذا

المصطلح أكثر من مرة، «والدجماطية الأزهرية» والأوليجاركية. وكاريزمة عبدالعزيز جاويش، «والانطولوجية. والكوزمولوجيا. والفيلولجيا»

مثل هذه المصطلحات كان على المؤلف أن يشرحها مادام لم يجد لها مقابلا عربيا، فالقارىء غير المتخصص لن يفهم هذه المصطلحات وما تعبر عنه، والكتاب مترجم للقارىء العربى فى موضوع يهم كل المثقفين مهما تكن تخصصاتهم أو ثقافاتهم.

سابعا: جاء فى صـ ٢٥٩: ومن الممكن أن نجد شواهد أخرى على أن طه حسين فى كتابه فى الشعر الجاهلى كان يؤيد وجهة نظر دوركايم وذلك عندما شكك فى الصدق التاريخى للقرآن فيما يتعلق بإبراهيم وإسماعيل، فهو يقول: إن ورود هذين الأسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لاثبات وجودهما التاريخى:

هذه القضية الخطيرة كانت فى حاجة من المؤلف إلى وقفة يمحص فيها الحقيقة العلمية، ولكنه مر عليها دون دراسة لها، وجاءت الإشارة إلى مباركة جاك بيرك لرأى طه حسين لتؤكد أن العميد كان يشكك فى صدق النص القرآنى.

وسألت العميد عن هذا الموضوع، فقال لى: إنى لم أشكك فى صدق التوراة والقرآن، ولكنى قلت إن العلم لم يثبت وجودهما، أى فسألته ماذا تعنى بأن العلم لم يثبت وجودهما؟ قال: أقصد أنه ليست هناك آثار ولا حضريات تدل على وجودهما. ثم قال: إن السبب فى حفظ قضية الشعر الجاهلى أن ما اتهمت به من أنى أنكر أخبار القرآن أن قاضى المحكمة لم يجد فيما كتبت ما يدل على انكارى لأخبار القرآن، وكل ما هناك أنى أعرض قضية من وجهة نظر النصوص المقدسة والعلم.

ثامنا: إن مهمة الخاتمة فى المنهج العلمى تسجيل أهم ما وصل إليه الباحث من نتائج، وليس من مهمتها تلخيص البحث كله، وإنما تقديم خلاصة وافية لأهم النتائج العلمية، وما أضافه البحث من أفكار جديدة، وحقائق علمية مبتكرة، وقد يشفع الباحث هذه الحقائق وتلك النتائج ببعض المقترحات التى تفتح مجالا لمزيد من الدراسة حول الموضوع والقضايا التى تتصل به أو تدور فى فلكه، ولا تتجاوز هذه الخاتمة غالبا أربع صفحات.

إن الدكتور عبدالرشيد كتب خاتمة بلغت نحو عشرين صفحة، لخص فيها بعض فصول الدراسة، وكرر بعض ما سبق القول فيه، وناقش بعض المعاصرين فيما ذهبوا إليه حول طه حسين، ولايكاد القارىء ينتهى من هذه الخاتمة إلا بأمشاج من المعلومات دون أن تضع يده على نتائج موجزة مرتبة تقدم تصورا عاما عن أهم ما انتهى إليه البحث من نتائج علمية أو حقائق تاريخية.

وبعد فإن تلك الملاحظات كما أسلفت وجهة نظر يؤخذ منها ويرد عليها، وهى لا تقلل من أهمية الدراسة وقيمتها العلمية، فقد ألقت الضوء على مرحلة مهمة فى حياة العميد، فضلا عن لغتها العربية الأصيلة التى تدل على تمكن المؤلف من لغة الضاد كما هو متمكن أيضا من اللغة الإنجليزية، وأن وردت بعض الفقرات التى لا تسلم من الاضطراب، ولعل سبب ذلك يرجع إلى الأخطاء المطبعية فالسطور الأولى فى ص ١٢٢ تحتاج إلى مراجعة، كذلك وردت كلمة «تماهى» مرتين فى صـ ١٣١، وصـ ١٣٩، وكنت أطمع من المؤلف أن يفسر هذه الكلمة، فهى غير مطروقة لأذن القارىء العادى.

وشكرا جزيلا للمؤلف المترجم الذى أتاح لى أن أعيش مع دراسته لحظات فكرية ممتعة عن شخصية عرفتها عن كثب ودونت عنها بعض المذكرات التى تدخل فى باب الرواية أكثر مما تدخل فى باب الدراسة.

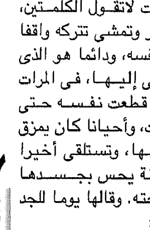
رحم الله العميد وجزاه عما قدم خير الجزاء ■

فصل من رواية

أوراق العائلة

للروائي الكبير:
محمد البساطى

الجد شاكر ولا على باله ، وربما استراح لما جرى، لم يعجبه أبدا أن يمد يده عليها من وقت لأخر، وكل مرة يضربها يظل ساعات عكر المزاج ويعانى من أوجاع فى بطنه، هو بطبعة ينفر من ضرب النساء، وقال ذلك كثيرا فى قعداته، وحين يتصادف مروره فى حارة ويرى واحدا يضرب امرأته يتوقف والألم على وجهه، وأحيانا يتدخل مهدئا الرجل . الجدة زينب لا تريحة أبدا مجرد وقفتها تنظر إليه تستفزه تعاليها والرد عليه بكلمة أو كلمتين فى صوت خافت لايسمع، وأوقات لاتقول الكلمتين، تستدير وتمشى تتركه واقفا يكلم نفسه، ودائما هو الذى يسعى إليها، فى المرات الأولى قطعت نفسه حتى رضيت، وأحيانا كان يمزق قميصها، وتستلقى أخيرا ساكنة يحس بجسدها ميتاتحته. وقالها يوما للجد كامل :



– قصر الكلام لا هى من توبى ولا أنا من توبها.

لم تراوده فكرة الطلاق سيصيبها ذلك بالكثير من الأذى، وهو لا يكرهما ، غير أنها لو طلبت الطلاق فلن يقول لا . لم يكن له فى الزواج أصلا، واكتشف ذلك

بعد زواجه بأيام، ولو ترك لشأنه ما سعى اليه ابدا هو ابوه كامل، وكان قصده خيرا .

شال الموضوع كله من دماغه، واستعاد بشاشته وكأن عبئا ثقيلا أزيح عنه، لا شئ ينقصه، وأموره فى البيت تجرى كما كانت، تاتبه واحدة من النسوة بصينية الفطور، تأتيه أيضا بصينية الغداء فرشته نظيفة ومرتبة، ملابسه مغسولة ومطوية فى الدولاب ويمر بهن فى الحوش لدى خروجه يتوقفن عن الكلام لا يلمحها بينهن، لابد أنها فى مكان ما تنتظر خروجه ويضحك فى نفسه ويمضى

حتى كانت مرة بعد القطيعة بشهر أو أكثر عاد فجأة بعد خروجه لسبب ما، ورآها أمامه وسط الحوش، نظر إليها فى دهشة، كان قد نسيها، وأراد أن يقول شيئا ولم يسعفه الكلام، وهى استدارت إلى حجرتها .

تصحو الجدة زينب مبكرا، تعد الفطور على صينية وتنتظر، أذنها على حجرة الجد كامل المجاورة، تعرف من حركته هناك أنه انتهى من ارتداء ملابسه، ودائما تجده بدون حذاء وكأنما ينتظر مجيئها بالفطور، يتربع أمام الصينية :

– مدى يدك .

وتمد يدها بجوارها موقد سبرتو صغير فرقه براد الشاى، يسترخى الجد كامل بعد الفطور وذراعه ممدودة فوق ركبته يرمق الجدة زينب مبتسما ويقول أنه لم يحظ بمثل هذه المعاملة من قبل تبتسم الجدة زينب وتناوله كوب الشاى .

ويقول الجد كامل أنه طول عمره يلتقط ما يأكله وهو فى الطريق، حبة طماطم خيارة، شمامة وأحيانا رغيفا وجبنا من الفلاحين معه .

– أخر مازهقوا منى عملوا حسابى فى الأكل.

الجدة زينب منحنية على الموقد تعد القهوة، هو لم يشربها فى حياته غير أربع أو خمس مرات، ومنذ بدأت تأتيه بالفطور أخذ يعتادها، تناول رشفة فى متعة كانت ترقبه قال :

– تسلم يدك .

فى قعدتها تحسب ما يحتاجه البيت من طلبات، تعدها على أصابع يدها، ويقول لها عندك المحفظة مشيرا إلى منضدة صغيرة، تفتح المحفظة وتسحب نقودا، تقول :

– أخذت كذا ما كل هذه الأوراق ؟

– الله أعلم .



تفتح بعدها وتقرأ تضحك :

- منصور أخذ كذا وعبد الستار سدد، طلمبة ماء ماسورة ..

- حاجات قديمة .

- ولم تحتفظ بها ؟

- ومن يدرى دائما يطلبون أوراقا

- لم تخبرنى طريقك اليوم .

- لن أخبرك ولا تتعبى نفسك بالمجئ

- ولا تعب ولا حاجة..

- مشوار عليك يازينب

- ولا مشوار ولا حاجة .

مستندة بظهرها لحلق الباب المفتوح، ويدها تتحسس ضفيرتها المسترخية على صدرها ويأتيها صهيل الفرس وقد جاء بها ولد من الزريبة وربطها بشباك البيت فى الخارج ويقول الجد كامل :

- آن الأوان

وتمسك الجدة زينب بطرف جلبابه :

- لن تخرج حتى تقول لى .

يضحك الجد كامل : الأمر الله

ويخبرها بالمكان الذى يقصده .

أحيانا تأتى النسوة مبكرا حين يكون هناك خبيز وغسيل، ويمر بهن الجد كامل تتبعه الجدة زينب، يتوقف قليلا يسأل عن أحوالهن، كان يعرفهن واحدة، واحدة، ويستدير ليخرج، تنفض الجدة زينب بأصابعها غبارا لمحته على كتفه، النسوة يتبادلن بسمة خفيفة، عيونهن على الجدة زينب فى وقفتها بالباب، ظهرها الممشوق، عنقها النحيل، ضفيرة شعرها الأسود اللامع

- كلها حلوة .

- حلوة وحلوة .

عدن إلى ما فى أيديهن من عمل، والجدة زينب أغلقت الباب .

يقف الولد بالحمار خارج البيت . النسوة أعددن المقطف الذى ستأخذه الجدة زينب معها، به حلتان وطبقان وملعقتان وأرغفة عيش طرى وخيار مخلل .

الجدة زينب بجلباب مشجر، تحكم الطرحة حول رأسها ورقبتها .

تقول للنسوة أنها لن تغيب . ساعة زمن .

توقفها واحدة منهن ، تبلل طرف طرحتها بلسانها وتمسح كحلا سال جنب عينها، وتساعدها على امتطاء الحمار .

أتخيلها والمقطف أمامها والولد يهرول بجانبها، تخرج من حارة لحارة، وتمر بنسوة قاعدات على مصاطب البيوت ، ورجال يجلسون على مقهى يطل على الطريق المؤدية للغيطان ، ما أن يحتويها الزرع حتى تفك الطرحة وتتركها تنساب على كتفيها، شمس الظهيرة

الحامية، ولا ظلال حولها، نسمة خفيفة تسرى بين الأحــواض تحس بهــا تتسلل داخل جلبابها .

ويكون الجد كـامل أخذ جولة واسعة بين الغيطان، لديه سقيفتان، واحـــدة فى الطرف الشـرقى من أرضــه الجديدة، والأخرى فى أرضه القديمة التى ورثها عن أبيه، قاد فرسه إليها.

السقيفة من أعواد الغـاب وجريد النخل، أرضها مغطاة بعيدان الذرة الجافة، تطل على مــجرى مــاء، مـعلق بجـوانبـهـا من الداخل جلباب قديم وصيدرى ، وحبل غليظ، وقلة مـاء ممتلئة دائمـا ملفوفة بقطعة خيش مـبتلة لتحتفظ ببرودتها، وكيس من القـمـاش به أدوات الشاى.

نهض مستقبلا الجدة زينب، أخذ منها المقطف وأعطاها كتفه ، استندت إليها ونزلت عن الحمار.

– وليه التعب يا زينب ؟

– أشم هوا يا أبـا كامل . النسمة هنا حلوة

تنزل إلى مــجرى الماء، تشطف وجـهـهـا وتجففه بطرحتها، تتربع جنب المقطف :

– تأكل وهو ساخن .

– محشى ؟

– كنت تقول نفسك فيه .

– آه . من شـهـور. والله يازنيب بنت حلال .

يعد الجد كامل راكية نار خارج السقيفة ويأتى بأدوات الشاى.

اسـتـراحـا فى قـعدتهما بعد الشـاى، تظللهما بالخارج فروع شجرة توت، يستقبلان نسـمـات العـصـارى وعيونهما على أطراف الزرع المتمايلة .

ربما كان مشوارها من يوم لآخر بالغداء للجد كامل هو ما أثار فيما بعد القيل والقال عنهما .

فى شـهـرها الثـالث من الحمل توقفت عن الذهاب ، وكانت ترسل بنتا بالغداء، وربما هدأت بذلك شكوك الكثيرين. غير أن البذرة ظلت كامنة تنتظر الفرصة .

بلغ الهــمـس أذان النسـوة فى الحـوش، الجـدة زينب كـانت فى شهرها الأول أو الثانى ، ربما لم تتنبه إلى حملها بعد . تتحرك فى خفة بينهن، التفتن إليها وكانت متربعة على حصير فى ضـــوء منور السلم ، تسرح شعرها المغسول، ورذاذ ماء خفيف يتناثر منه. تهامسن:

– قطع لسـانهم واحد. واحد.

– لم يجدوا غـيـر المسكينة ليتكلموا عنها .

الشـتـاء. توحل الشـوارع والحـوارى سريعا، وتتجمع المياه وسطهـا، وتسـيل من الأسطح على واجـهـات البـيـوت، يفـرحـون فى البلدة بمجيئه، ويقف الكثيرون طويلا على المصاطب بمداخل بيوتهم يرقـبـون تدفق المطر وتسرح أفكارهم .

الجد شاكر لا يوقفه مطر أو حـر، ينطلق فى موعده بعد قيلولته التى تستمر أحيانا ساعات .

ينتبه لشدة المطر وهو بالباب قبل أن يخرج، يعـود. يقلب فى الدولاب حتى يعثر على الشمسية والعبـاءة، يفـردها على كـتـفـيـه ويمدها لتغطى رأسه ، ويرفع ذيل جلبابه بيده وهو يخوض فى الوحل. عادة ما ينتظره الحنطور فى مـثل هذه الأيام على ناصية الحارة .

قليلا ما يخرج الجد كـامل بعد عودته من

الغيطان، اعتاد النوم مبكرا، يتناول عشاءه بعد الصلاة، ويتربع جنب فراشه مطرقا ويداه فى حجره، وحين يحس ببوادر النعاس يصعد إلى السرير

فى الليالى الممطرة لا يستقر نومه ، يغفو مع ايقاع المطر الرتيب، ويصحو فى فترات انقطاعه مرهفا أذنه للأصوات فى الخارج. كنت أسمع فى حجرتى سعاله وغمغمته فى الليل وخطواته المتمهلة وهو يتجول فى الحوش .

يحتفظ تحت مخدته فى الشتاء بطاقية صوف لم تكتمل وبكرة خيط من صوف الغنم وإبرة، لا أدرى أين يخفيها بعد الشتاء ، يسحبها فى فترات صحوه ، تتعثر الإبرة أحيانا ويفك ما عمله من غرز ويبدأ من جديد .

يقول : لابد أننى نسيت طريقتها.

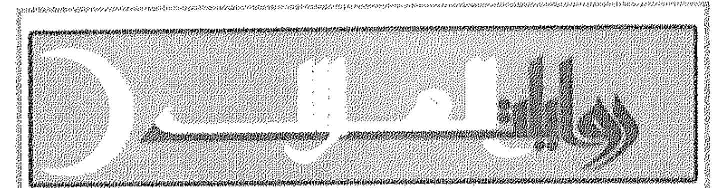
ويسألنى : كم تظن عمرها؟

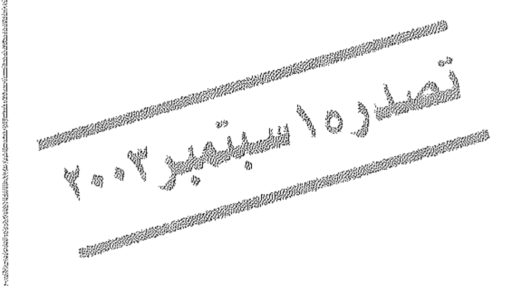
– سألتنى مائة مرة .

– مائة ؟

– آه . كل مرة تسألنى

– عمرها أكبر من عمر أبيك. جدتك زينب أتذكرها؟

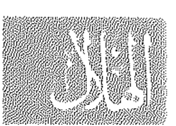


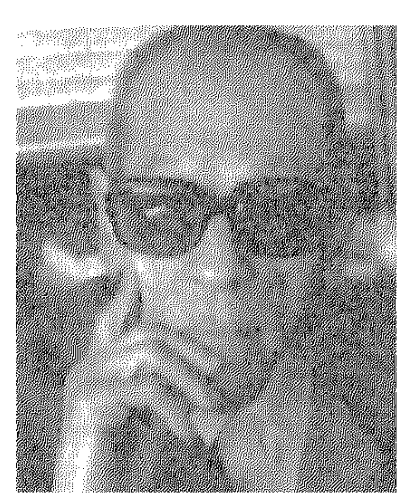




بقلم
محمد البساطى

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

١٩١

رجب ١٤٢٤هـ – سبتمبر ٢٠٠٣م



مرايا نجيب محفوظ..

مرآة صادقة لأحزان الوطن

«تأليف الكتب عند الموظف القح نوع من أنواع العربدة لا تليق بالمحترمين من الرجال»

(نجيب محفوظ - المرايا)

بقلم
د. فهمى عبد السلام

رواية المرايا لأديبنا الرائع نجيب محفوظ - ذلك العمل الفاتن الجميل - أشبه بجراب الحاوى البارع، الذى تمتد يده لتخرج للقارىء المفاجأة المبهجة تلو المفاجأة المبهجة، وشخصياتها خليط هائل من النماذج الإنسانية التي تتفاوت فى المهن والحظوظ والقدرات والمصائر. إذا أردت شيوعيا خائنا ستجد، إذا طلبت شيوعيا مخلصا ستجد، والقوادون لهم نصيب وتجار المخدرات إلى جوار الأطباء المرموقين، وخلال تلك الملحمة الطويلة الفاتنة ستسمع بأذنيك هدير الحياة وسترى تلاطمات أمواجها العنيفة حيث تلعب الأقدار لعبتها، فتكتب الحياة الشقاء على البعض، وتمنح السعادة للآخرين بلا منطق سوى منطقها الفاتن المجنون، هذا الخليط الهائل يحتل فيه الموظفون ركنا مهما فى تلك الجدارية الرائعة، وكيف لا ومؤلفنا الكبير موظف عتيد، ظل فى الوظيفة الحكومية حتى الرمق الوظيفى الأخير وهو الإحالة إلى المعاش

وشاء كاتبنا الكبير أن يؤلف للموظفين رواية صغرى داخل رواية المرايا، كاشفا دهاليز عالم الموظفين المظلم، واختار مسرح الأحداث - وكل الإشارات تؤكد ذلك - وزارة الأوقاف، وهنا تظهر المفارقة الأولى، أن ذلك المبنى الجميل، المزين بالأرابيسك وبالأشجار الرائعة، زد على ذلك الجمال الظاهر، ذلك الوقار الديني الذى يتسم به العمل في الأوقاف، إلا أن هذا الوقار وذلك الجمال ماهما إلا قشرة ظاهرية، تخفى تحتهما عالماً يمور بالصراعات والإحن والمظالم والمفاسد والانتهازية والمحسوبية والكيد والفضائح الجنسية، حتى اللواط والشذوذ الجنسى كانا لهما نصيب فى دنيا الموظفين.

«إدارة السكرتارية» - احدى إدارات الوزارة - يجلس الراوى - نجيب محفوظ - يرقب بعين الفنان القدير تراجيديا الموظفين، وعبر البورتيريهات الفاتنة نتعرف على أبطال العمل، وسنبدأ بـ عباس فوزى، وهو تراثى ضليع وعالم من علماء اللغة العربية، «ويستطيع عباس فوزى أن يسمع تراث اللغة كله شعراً ونثرا دون مبالغة ، عن ظهر قلب».. وهو فى نفس الوقت مؤلف لكتب التراث.. إلا أن المؤلفات لا تجد لها حظا مع القراء..

لكن ذلك الموهوب اللماح الذكى لم يحصل على شهادات، ولأنه كثير العيال وفقير لابد أن يكون ممروراً ، فيقول عنه الراوى «لم أعرف فى حياتى رجلاً ينضح بالمرارة مثله» تلك المرارة كان عباس فوزى يحولها إلي سخريات لاذعة لا ترحم كبيراً ولا صغيراً، ولا موظفا ولا كاتباً ولا وزيراً أو مفكراً.

لو كان هناك انصاف - فى بلادنا - لتبوأ عباس فوزى المكانة التى يستحقها، فبداياته لم تكن فى إدارة السكرتارية، كانت فى الأرشيف ، فهو لا يحمل سوى الابتدائية - وهناك من يشكك فى حصوله عليها - فمكانه فى دنيا الموظفين هو الأرشيف، ومع نجيب محفوظ نرى محاولات عباس فوزى المستميتة كى يقب من الأرشيف المظلم، فمع كل تغيير وزارى يحمل عباس مؤلفاته ممهورة بإهداء شعرى إلى الوزير الجديد، الذى يأخذها شاكراً، وليعود عباس إلى الأرشيف مسدلاً بذلك الستار عن تلك الدراما المتكررة، وعندما جاء عدلى المؤذن - وسنأتى إلى ذكره فى حينه - موظفا مهماً وصعد نجمه فى سماء الوزارة، حاول عباس معه، فحمل المؤلفات المهورة بإهداء شعرى إلى عدلى المؤذن المؤذى الشرس، فقال عباس المسكين ..

- ليس من عادتى أن أهدى كتبى إلى أحد، لكن الكتب لا تهدى إلا لأمثالك.

فقال عدلى ببروده النادر..

- اعترف لك بأنى أطلعت عليها.

فشاع الفرح فى وجه عباس، إلا أن عدلى واصل مردفاً :

- إلا أننى وجدتها سطحية لم تضف إلى الأصل شيئاً.

فاصفر وجه عباس وقال مداريا هزيمته بمرح مصطنع :

- لا تحكم بعقلك يا أستاذ، نحن نكتب للبسطاء لنعلمهم، أما الفلاسفة فلا سبيل لنا إليهم..

وكان نجيب محفوظ حاضراً اللقاء، وكان من قدم، كل منهما للآخر، وكانت لعدلى المؤذن محاولات فلسفية قديمة وأثناء

عودة الراوى والمسكين عباس وهما فى المشى قال عباس :

- لا تخبر بما سمعت أحداً من الرعاع (يقصد بقية الموظفين).

- طبعا.

واسترد الرجل طبعه الساخر فقال:

- بدأت الفلسفة بابن رشد وانتهت بابن كلب.

* * *

وتصادف أن جاء وزيرا جديدا وكان محباً للأدب ، فرقي عباس من الأرشيف إلى إدارة السكرتارية، فاعتبر مجتمع الموظفين أن عباس مغتصب للدرجة بالخزعبلات التى يؤلفها، «فالموظف القح لا يعترف إلا بالموظف «الحقيقى»، ذلك الملم باللوائح، والتعليمات ، أما تأليف الكتب فهى فى تقديره نوع من العربدة التى لا تليق بالمحترمين من الرجال»، وكان عباس يعلم بما يقولونه عنه، فأطلق فيهم لسانه اللاذع، وبادلوه كراهية بكراهية وكان يقول إن والده كان مهندسا فقالوا أن والده كان «تربيا» وأن أمه كانت غسالة وبالجملة رموه بالشذوذ الجنسى!!.

ويذكر لنا الراوى أن مكتب عباس فوزى كان ملتقى الأدباء والشعراء والصحفيين والزجالين ، وكان يقوم بتصحيح أعمالهم مقابل أجر زهيد، فيستقبلهم بأعذب ألحان المديح، فإذا ما غادروا انهال عليهم بالحجارة.

- مسكين هذا الزجال، طلق زوجته لأنه وقع فى غرام ابن لها من زوج آخر.

- هذا الشاعر لعله الشاعر الوحيد الذى فاق فى لواطه الشاعر الراحل الكبير فلان.

- وزارهم انجليزى عجوز لبث فى مصر بعد إحالته على التقاعد وكان يتقن العربية، فقال عباس لما ذهب الانجليزى :

- اننى معجب بالأخلاق الانجليزية فثمة فارق هائل بين اللوطى الاتجليزى واللوطى المصرى (....)، فاللوطى الانجليزى يحمل لواطه معه إلى أقصى الأرض، ولا يمنعه ذلك من خدمة الامبراطورية حتى الموت، أما اللوطى المصرى فلا يعرف لنفسه مبدأ أو عقيدة.

وعندما تمت ترقية «شرارة النحال» - وسنأتى إلى ذكره فى حينه - محدثة صدمة للجميع، قال عباس العليم بخفايا الأمور متهكماً ساخراً، صلى وسلم على سيدك لوط..

وهذه الشخصية العجيبة تختلط المشاعر حيالها، بين رفض مرارتها وبين الرثاء للظلم الذى حاق بها، وما بين الرثاء والرفض يضحكنا نجيب محفوظ على أعجوبته النادرة عباس فوزى، فعندما عادوه لمرض أصيب به فى الكليتين، وزاروه فى منزله وهو طريح الفراش قال له نجيب محفوظ :

- سلامة الكلية ، بالكسرة كما ننطقها بالعامية.

رد عليهم بصوت واهن من شدة المرض لا يرد للتحية، إنما ليصحح لهم النطق فقال:

- الكلى يا فلان وليست الكلية.

أما رئيس «إدارة السكرتارية» فكان أعجوبة هو الآخر، وشخصية لا تقل تفرداً وأصالة عن عباس فوزى، إنه طنطاوى إسماعيل، حين تم تعيين، الراوى عام ٣٥ كان طنطاوى رئيساً للإدارة .. وفى الخمسين من عمره، وطيلة عشرة

أعوام عرفه الراوى عن كثب، كان نقيا ناصع الخلق ومتدنيا لا حدود لإيمانه بالله، ووطنياً حتى التعصب الأعمى، كثير الإطلاع على المراجع الدينية، ميالاً للمحافظة إلى درجة التزمت.

وعلاقة الرجل بالرؤساء حضر الراوى لقاءات بين طنطاوى والمديرين، فلم يكن يحنى ظهراً ولا يردد تملقاً ويحافظ على كرامته إلى أقصى درجة.. ولم يكن يترك فى النفوس إلا أسوأ الأثر.. أما عن معاملته لمرءوسيه ، فكان يفتش فى حجرات الإدارة، ولا يتسامح مع مهمل أو متلكىء أو مستهتر بحقوق الجمهور، على هذا لم تشفع فضائل طنطاوى له عند الرؤساء أو المرءوسين، فاتهموه بالجنون، وشعر الجميع ناحيته بالنفور، بل وبالكراهية.

قبل أن يستقر طنطاوى فى إدارة السكرتارية كان قد اجتاز رحلة أليمة تعتبر نموذجاً للاضطهاد، وللظلم الذى يحيق بالإنسان الشريف فى مجتمع وزارة الأوقاف - الذى يصفه الراوى بالمستنقع المكتظ بالجراثيم - فقد تم تعيين طنطاوى خريج مدرسة التجارة العليا بالحسابات، وخلال خمس سنوات من الجد والاستقامة تم ترقيته إلى منصب مراقب الحسابات.. ويتطرق طنطاوى فى النزاهة التى تصل إلى الهوس، انفجر بين المحاسبين والكتبة المرتشين مثل القنبلة، فدبروا له مكيدة لعبوا خلالها بإمضائه لعبة دنيئة، وأحيل إلى التحقيق، وتقرر فصله من العمل، وتخيل إنسان مهووس بالاستقامة وبالنزاهة يتم فصله بتهمة فساد الذمة!

وخرج من الوزارة وهو يصرخ بأعلى صوته «أنا شريف.. أنا أمين.. أنا مظلوم.. حسبى الله ونعم الوكيل».. وظل خمسة أعوام يعانى من الجوع والألم والقهر، حتى انهارت اعصابه تماما، واضطر عمه إلى نقله إلى مصحة نفسية، وخرج بعد عام بعد أن تماثل للشفاء ، ومرض رئيس الحسابات - زعيم العصابة - وشعر بدنو الأجل ، فاستدعى رئيس التحقيقات واعترف بالمؤامرة كلها، وأعيد فتح التحقيق، وأعيد طنطاوى إلى العمل، ليس فى الحسابات ولكن فى إدارة غير مالية (.....)، كى لايؤذى غيره ولا يؤذى نفسه!!

عاد طنطاوى إلى الوزارة مستقيماً نزيهاً ممروراً، عنيفا فى الحق، يتسائل فى حيرة ومرارة :

- هل لازالت الأخلاق الحميدة موجودة أم أنها أصبحت موضة قديمة..!؟

ثم ينهال يندد على الجبن والنفاق والرياء والفساد والانحلال وينهى تنديده بهياج ويقول :

- نحن فى حاجة إلى طوفان جديد لتمضى السفينة بقلة من الفضلاء ليعيدوا خلق العالم من جديد.

★ ★ ★

خلال سنوات الرواية كانت الحياة السياسية تشهد التغييرات الوزارية والانقلابات الدستورية، فكل من الملك والمندوب السامى كان قادراً على حل الوزارة، وكانت تلك التقلبات الحزبية السياسية تلقى بظلالها على موظفى الحكومة، فأنصار الحزب الفائز يتم الإغداق عليهم بالترقيات والمكافآت، أما أنصار الحزب المهزوم فيتم التنكيل بهم إلى درجة الفصل، وفى «المرايا» نتعرف

على طبيب يعمل مديراً لمستشفى حكومى كبير، ونشرت جريدة وفدية صورة لجموع المهنئين لسعد زغلول فى مناسبة، وظهر الطبيب فى الصورة ضمن المهنئين ، فتم فصله من العمل، ليبقى فى منزله لسنوات طويلة، فى هذا الجو الموبوء بالخصومات وبالتربص وبالإحن الحزبية، فتصبح الحسابات الرخيصة هى سيدة الموقف والسلوك والكلام، فالتأييد يأتى بحساب، والتنديد يأتى بحساب، حتى الصمت له حساب.

وفى إدارة السكرتارية وصبيحة يوم مشهود فى التاريخ المصرى الحديث، صباح ٢٥ فبراير ١٩٤٢، فقد أصبحت مصر كلها لا حديث لها إلا عن حصار الانجليز لسراى عابدين، وإجبار الملك فاروق بالقوة العسكرية، على تشكيل حكومة وفدية يرأسها النحاس باشا.. الأمر الذى اصاب الكبرياء والكرامة الوطنية بطعنة فى الصميم، حادثة تذكر المرء باحتلال العراق الآن وبديمقراطية الدبابات الأمريكية ، وفى أكثر من موضع ذكر أن جمال عبدالناصر شعر بالمهانة يوم ٢٥ فبراير ٤٢..

وينقلنا نجيب محفوظ إلى الوجدان المصرى فى وزارة الأوقاف فى صباح ٢٥ فبراير، الوفديون المخلصون - يمثلهم نجيب محفوظ شعروا بالأسى وهم يرون صورة حزبهم العتيد تترنح أمامهم، أما هلافيت الوفد مثل صقر المنوفى فقد هللوا طرباً وقالوا بالفم المليان :

- عادت أيامنا السعيدة..

والموظفون - حتى أيامنا هذه - حكوميون بالفطرة، وجبناء بحكم الغريزة ، فلاذوا بالصمت ، أما طنطاوى اسماعيل فدخل الإدارة وقبل أن يجلس على مكتبه قال للراوى وبأعلى صوت :

- ما رأيك.. !؟ ها هو زعيمك يعود إلى الحكم فوق الدبابات البريطانية!؟

وتجنب الراوى مناقشة رئيسه الذى يتلذذ بأن يقول للأعور أنت أعور.

- أسمعتم عن زعامة من هذا النوع من قبل!؟

ثم اجتاحت طنطاوى موجة من الغضب فجعل يصيح كالممسوس:

- الطوفان.. الطوفان.. الطوفان.

ويقدم لنا نجيب محفوظ كيف انتهز المحاسب الأريب والداهية عباس فوزى فرصة هياج طنطاوى وكان قبلها قد ظل صامتاً - ولكى لا يتم تفسير صمته بأنه يكن مشاعر غير ودية للوفد، قال عباس برزانه وبصوت مسموع :

- قولوا ماشئتم فيما حدث ليلة أمس، لكن سيحسب للنحاس أنه أنقذ الوطن فى هذه الساعات الحرجة..

كلمات كلها بالحساب، والحساب عند هذا الأنانى الماكر دقيق، ودقيق جداً، وبالجرامات، جرام ونصف اعتراض ملتو ملولب «قولوا ماشئتم»، وثمانية جرامات تأييد خالص، فقد ايد وعارض وأشهد الكل على ذلك ويتبقى أن تعرف رأى كل من طنطاوى إسماعيل وعباس فوزى فى بعضهما البعض، وكلاهما ضحية الظلم وعدم الانصاف وما ينتج عنهما من تشوهات، وكلاهما أسر برأيه إلى الراوى.

- احذر هذا الرجل فهو صاحب علم لكنه بلا خلق».

هكذا قال طنطاوى للراوى، أما عباس فوزى الساخر اللاذع ، فلم يكن يقول عن

طنطاوى إلا «سيدنا طنطاوى ابن الخطاب رضى الله عنه».

* * *

نتابع مع نجيب محفوظ مصائر أبطاله فى الإدارة، إذ يظل عباس فوزى يكافح لاسعاد نفسه وأسرته، ساخراً هجاءاً لاذعا سماويا، وتزداد مراراته بكساد مؤلفاته عندما ينجح أحد تلاميذه فى تأليف كتب عن النبى والقرآن ولاقت رواجاً هائلاً، ودرت على صاحبها أرباحا خرافية الأمر الذى جعل عباس يكاد أن يجن، فاقترح عليه الاستاذ شعبان عبدالرحمن مترجم الوزارة أن يؤلفا سويا كتابا - يقوم عبدالرحمن بالترجمة - لمستشرق أنصف الاسلام والرسول.

هنا تظهر لنا أعجوبة ثالثة - نحتها نجيب محفوظ - ولا تقل طرافة أو أصالة عن بطلى الإدارة السابقين، ويقدم لنا نجيب محفوظ - الراوى - رحلة حياة الاستاذ عبدالرحمن، فهو ابن لوزير حربية، بعثه الأب إلى باريس لدراسة الطب بعد البكالوريا. فمكث عامين فى باريس وقضى عشرة أعوام متنقلا بين باريس ولندن حيث قضى عامين فى العلوم ومثلهما فى الآداب ، وهكذا فلم يثابر ولم يحصل على شهادة، ومات الأب الذى كان مقامراً متلافا، وأضطر عبدالرحمن إلى العودة إلى مصر، حاملاً داخل رأسه دائرة معارف مضطربة غير متكاملة عن النساء والقمار والمسارح وبيوت الدعارة والسينما وخبرة عميقة بالانجليزية والفرنسية، واضطر للعمل كى يعول نفسه وزوجته اللبنانية وابنته التى يعبدها عبادة.

ابن عز مثل النجم الذى هوى ، فخيم المظهر ضخم الجثة ومدخن مجنون وسكير عربيد ومقامر متهور ومحب للكلام فيما يعلم ، أما إذا ما تحدثت إليه فيما يجهل يتحول إلى وحش كاسر يغضب كالاعصار ، وذات مرة تناقش معه موظف وأمعن فى العناد، وكى يفحم الاستاذ عبدالرحمن استشهد الموظف بنادرة من نوادر التاريخ الإسلامى - وعبدالرحمن كان جاهلاً بالتراث الإسلامى كل الجهل فقال الموظف

- دخل عبدالملك بن مروان فقال:

فهاج عبدالرحمن وانتتر مثل عمود السوارى وقال:

- عبدالملك بن مروان.. !؟ ومن هو عبدالملك بن مروان !؟ تستشهد لى بحيوان يا حيوان؟

ملعون ابوك أنت وعبدالملك بن مروان.

وهجم عليه كالوحش «قفز الموظف من أمامه مثل النحلة».

هذا الغضوب كان يملك قلب طفل، ومعارض للمعارضة، فإذا لم يقابل بتحد هدأ غضبه ولان وتراخى وقدم السيجارة، وطلب القهوة واعتذر، على الرغم من فخامته البادية إلا أن مرتبه كان زهيداً لا يتجاوز العشرين جنيها.

وبذل جهداً كبيرا كى يقطن فى شقة جميلة فى شارع فؤاد، وترجم من الانجليزية والفرنسية ، كى يوفر لأسرته ولنفسه الحياة الرغدة على الطريقة الأوروبية ، وأحاط نفسه وأسرته بصداقات مع عائلات أجنبية، وحماه مظهره الفخم الضخم من الموظفين الأقوياء المؤذيين، وهو من جانبه علمته التجارب وفضله من وظائف عديدة - قبل إدارة السكرتارية أن يتحاشى الاصطدام مع تلك النوعية وكان

يتنهد ويقول:

– رحم الله أبى.. لو لم يفقد ثروته فى القمار لما اضطررت إلى معاملة هؤلاء الحيوانات.

كل هذه العجائب فى كوم، أما آراء عبدالرحمن كانت كوما آخر، ينقلها لنا الراوى، خلال مشوارهما اليومى من باب الوزارة فى باب اللوق، وهما يسيران إلى محطة الترام فى شارع فؤاد، فينتقد عبدالرحمن كل ما تقع عليه عينه.

– أتعجبك هذه الدكاكين والمحلات؟.. انها زنزانات سوقية..

– أنظر إلى القذارة فى الشوارع وفى قلب المدينة !؟ سيأتى اليوم الذى سيطلب فيه الذباب حق المواطنة.

– أنظر إلى هذا المنظر الفريد.. الكارو والجمل والسيارة والترام فى قافلة واحدة.. وتقولون الاستقلال التام أو الموت الزؤام.

– أيعجبك حقا ذلك المقرئ المدعو على محمود!؟.. رجل ضرير منفر المنظر يزعق كالأبلة.

قارن ذلك بقداس كاثوليكى تسبح فى جوه الموسيقى الخالدة.

– ملايين الفلاحين القذرين بأى منطق يستحقون الحياة!؟.. لماذا لا تستغنون عنهم بالآلات الزراعية الحديثة!؟

– خير ما تمخضت عنه الحضارة المصرية هو الحشيش ، ومع ذلك ما اقبحه إذا ما قارنته بالويسكى!؟

– اسمح لى أن أبول على كل من تحبهم من الزعماء والأدباء والسياسيين والمطربين.

– أتعرف ما هى أكبر نعمة اغدقت علينا!؟.. هى الاستعمار الأوروبى وسوف تحتفل الاجيال القادمة بذكراه كما تحتفلون بالمولد النبوى.

– لا يغيظنى شىء سوى ضربكم للأمثال بعدالة عمر ودهاء معاوية وعسكرية خالد.. عمر شحاذ ومعاوية دجال وخالد فتوة درجة ثالثة لم يجد من يؤدبه.

– أليس من الأفضل للإنسانية هى أن ينتشر الأوروبيون فى الأرض وأن يبيدوا ماعداهم من أجناس!؟

– أوروبا روح الدنيا وأهلها وملائكته الخلق أما من عداهم فهم حيوانات أو حشرات.

– أصاب أحيانا بذهول مرضى عندما انظر حولى فأجد نفسى غريبا وسط نفر من الموظفين التعساء الجهلاء الخانعين المطيعين المتملقين المنافقين.

هذا الإنسان العجيب لم تكن هذه الآراء تصدر عن حقد، ولكنها عن انفعال، ولو صادف بعد ذلك شخصا متعصبا للغرب، لانقلب عبدالرحمن وبنفس الحماسة مدافعا عن الاسلام ومهاجما الغرب (...)، وعلى الرغم من المودة الحميمة بين الراوى والأستاذ عبدالرحمن، إلا أن هذا لم يمنع أن يهيج عبدالرحمن عليه غاضباً، فذات يوم كان الراوى يقرأ فى جريدة فى صفحة متخصصة عن سلامة حجازى بمناسبة ذكراه، ونقلاً عن كاتبها قال الراوى بسرور للأستاذ عباس فوزى.

– هل تصدق أن فيردى قال عن سلامة حجازى إنه لو كان ولد فى إيطاليا لما كان له – فيردى – شأن!؟

فإذا بعبدالرحمن يرمى بكتاب كان



يقرأه ويصيح به كبركان :

- ما هذا الكلام الفارغ.. أتصدق أي كلام يتقوله هؤلاء الأوباش في الصحف!؟ من هو سلامة حجازي ، أي منادي سيارات فرنسي اعذب منه صوتا، هكذا انتم ايها المصريون، ستظلون غارقين في أوهام الكلمات حتى تموتوا، كوكب الشرق.. مطرب الأمراء والملوك.. سلطانة الطرب.. عاهل التمثيل في الشرق.. لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا.. ولم لا تتمنى أن تكون حمارا، فيكون على الأقل لك نفع، نيلة تاخدكم انتم وبلدكم؟

★ ★ ★

ونتابع مصائر ثلاثي إدارة السكرتارية ، أحيل طنطاوي اسماعيل إلى المعاش عام ٤٥، وحل محله عباس فوزي بعد ترقيته بفضل وزير أديب، إلا أن مرارة عباس لم تبارحه حتى قاما بطبع كتاب ترجمه عبدالرحمن، ودر على عباس أول ربح ذي وزن في حياته، مع ذكر ان كل منهما كان من الملحدين إلحاداً كاملاً، وعرف الملحد العدمي المرور عباس فوزي الطريق أخيراً، فكعف على تأليف الكتب الدينية التي لاقت رواجاً، وقامت ثورة يوليو فلم يهتم وظل يكدح ويؤلف سيراً للأنبياء والرسل، وكان يقول للراوي:

- ليت الله أرسل من الأنبياء والرسل اضعاف اضعاف ما أرسل.

وكون ثروة، وابتسمت له الدنيا، وزوج اولاده، وبنى عمارة كبيرة ، شيد فوق سطوحها فيلا جميلة لنفسه، هل تغادره المرارة؟ أبداً، خلق ممروراً لكي يشكو ويسخر.

- تصور انني لم انتخب إلى الآن في مجمع اللغة العربية.. كأن أعضاءه الخواجات (..) أفقه مني في اللغة!

والمجلس الأعلى للآداب لا يوجد عباس فوزي ضمن اعضائه.. هل حتم الا يدخله إلا العوام..!

أما الاستاذ عبدالرحمن شعبان، فحياته العجيبة انتهت اعجب صباح ٢٧ يناير عام ١٩٥٢، فبينما اعضاء الادارة جالسون على مكاتبهم ، دخل من ينعى لهم الاستاذ عبدالرحمن الذي مات بالأمس في احداث حريق القاهرة، وعرفت النهاية وكانت عبثية، أن عبدالرحمن كان يجلس في «الترف كلوب» مع أصدقائه من الانجليز، فهاجم المتظاهرون الكلوب، وقتلوا من فيه، وكان عبدالرحمن من ضمن القتلى!.

وبعد عام ٦٧، يذهب الراوي إلى عباس فوزي، الذي كان قد أحيل على المعاش، ويجلسان في الروف الجميل الظليل، ويلاحظ عباس ما على الراوي من هم وغم، فيقول عباس:

- شاب شعرك ولم تتعلم الحكمة بعد.

وقبل أن يتلقى الاجابة يردف:

- هل ثمة فارق بين أن يحكمك الانجليز أو المصريون أو اليهود !؟..

هذه العبارة الموجعة، والتي تدل من ناحية على عدمية عباس فوزي الكاملة، تلك العدمية التي حفرتها سنوات الظلم الطويلة التي عاناها عباس وتعانيها مواهب كثيرة ومهدرة في بلادنا، وتدل الكلمات من ناحية أخرى على وطنية كاتبنا الكبير - وقد قرأنا أن هناك من سجد لله شاكراً في ٦٧ - وعلى سماحة نفسه الكبيرة، والتي تثبت لنا أن خلف كل أديب كبير هناك نفس كبيرة.

ينهي كاتبنا الكبير تراجيديا «إدارة السكرتارية».. ■



عزف منفرد
... في ذاكرة الشجرة

شعر: محمد يوسف

إلى العالم المصري الكبير د. أحمد مستجير رائد الهندسة الوراثية الذي يؤاخي بين الأضداد: اليوجينيا والشعر/ الهندسة الوراثية وذاكرة الشجرة

أنت كما أنت:
الشجرة أصل الأشياء
لا فاصلة بين النار
وبين الماء
وبين الوردة والكيمياء
فالكون هو الكون
الأرض هى الأرض
الإنسان هو الإنسان
الخير المحض
الشر المحض
أو المابين
البسط المتدثر بالخضرة
والقبض
الشح المتصحر
والفيض
وما تخفى القطرة
فى الينبوع أو العين
وما تلقى الفطرة
من نار الحمأ المسنون
لا فاصلة بين الكاف وبين النون
وبين فراشات الأوزان
وإيقاع الميزان
لك ما شئت من الرؤية
اليوجينيا
الجينوم
اللغز الملغوم
المطر الحمضى
الإيكولوجيا
رجل الثلج
التكنولوجيا الحيوية
القدمانية
الشعر المرقوم
هو السبب
و... ترقيم التفعيلة
تفتح ثقبا
ليمر البحر الموزون
من جوف الكوكب والحلزون
دوللى
والجين المتدلى
من شجر اليوجينيا

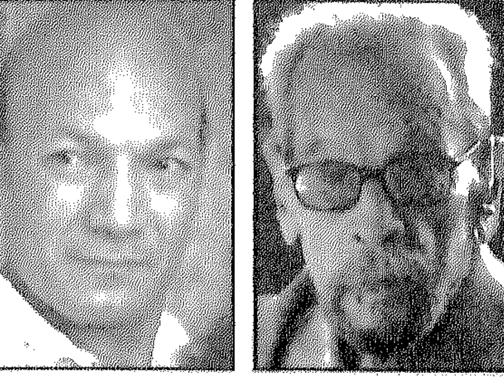
...
لك ما شئت من الرؤية
فالفيروس
هو الجاسوس
المدسوس
الحاسوس الملموس
يعكر صفو مزاج العصفور
ويسكن
أحشاء الجاموس
ليلعب لعبته
فى الرأس
وفى الصدر
وفى الخيشوم
وجمجمة الأسطورة
واللحم الموشوم
.....
لك ما شئت من الرؤية
ينسخ
يستنسخ
ويكلون
ويلون
ويطرطش
فوق اللوحة ألوانا
ويخربش
ينفخ
فى الصورة
ويلطخ
ويبخ
وينفث
ويطرطخ
...

و.. الغابة واسعة
حد الكابوس
وضيقة حد الحلم
و.. أنت كما أنت
تؤاخى بين الوردة
والسنبلة
وإرث الأرض
وميراث الأسئلة البيضاء
المحشورة بين شفافية الحكماء
ولزوجة ثرثرة الغوغاء
والعصفور الأخضر
والببغاء
... الغابة واسعة
والدم مخزون فى الذاكرة
المحتفية بالأسماء
سالومى
ترقص رقصتها
والرأس المتدحرج
مغترب
لا السجن
ولا المنفى
لا الشعر المتجلى
فى الإيقاع الأوفى
والدم ينطق
يستنطق
ميراث
الماء

مجرد أسماء

فى عالم الأدب والصحافة

بقلم
وديع فلسطين



نجيب محفوظ — أحمد عبد المعطى حجازى

• أزمة الكتاب العربى

في معرض للكتاب أقيم فى بيروت من عامين لجأت إحدى دور النشر اللبنانية إلى التعبير عن أزمة الكتاب العربى بعرض تابوت فى جناحها كتبت عليه عبارة «القارىء» أى أن القارىء قد «مات مماتاً لعمرى لم يقس بممات» بتعبير الشاعر حافظ إبراهيم . وإذا كان القارىء بانصرافه عن القراءة يتحمل بعضاً من تبعات أزمة الكتاب ، فإن للأزمة جذوراً «مؤسسية - بالتعبير المستخدم اليوم - هى التى ساعدت على طرد الكتاب من اهتمام القارىء العربى.

فحتى يصل الكتاب إلى يدى القارىء يتم تحميله بأعباء باهظة سواء من الرسوم الجمركية المفروضة على الورق ومستلزمات الطباعة ، أو من الفجوة العميقة بين سعر الدولار الذى نستورد به هذه المواد وبين سعر الجنيه، مما ينعكس على ارتفاع سعر الكتاب، ناهيك عن الإجراءات العقيمة التى تقف حجر عثرة كؤوداً فى سبيل انتقال الكتاب من قطر عربى إلى قطر آخر، وكذلك الرسوم المغالى فيها التى تفرض على أى كتاب يرسل بالبريد إلى الخارج . فمازالت جميع الأجهزة الحكومية تعامل الكتاب باعتباره مجرد طباعة كأى حديد خردة ، وليس باعتباره وعاء للعلم ورسولاً للثقافة وسبيلاً من سبل النهضة الفكرية . وقد اضطررت غير مرة إلى رفض تسلم كتب وردت إليّ بالبريد مهداة من أصحابها بأن جمارك البريد فرضت عليها رسوماً مغالى فيها، وكنت فى كل مرة أكتب على نفس قسيمة البريد احتجاجاً صارخاً لأن الكتب معفاة من جميع الرسوم الجمركية فى كل انحاء العالم وبقرار من منظمة اليونسكو الدولية ، ولكن لاحياة لمن تنادى ، وعندما سألت موظف البريد عن مصير هذه الكتب المرفوضة قال : تطرح فى مهملات البريد - أى زبالته - وربما تباع بعد ذلك فى المزادات التى تقيمها هيئة البريد - هذا إن وجدت من يشتريها !

ومازالت الرقابة العلنية المستمرة مفروضة على الكتاب - العربى ، فلا يسمح له بدخول بلد عربى إلا بعد «الفسح» أى الإجازة ، بل إن بعض البلدان العربية لاتسمح بإرسال كتاب على سبيل الهدية بالبريد إلا بعد مروره بأجهزة الرقابة ووضع خاتمها على مظروفه . وليس ببعيد عن الذاكرة أن بعض الكتب الصادرة فى مصر مؤخراً تعرضت للمصادرة سواء قبل عرضها على المحاكم أو بعد ذلك استناداً إلى اعتبارات تتعلق بما يسمى بالنظام العام .. وهى عبارة فضفاضة تفسر دائماً تفسيراً يدين الكتاب ومؤلفه.

وإذا كانت الرقابة - حتى من عمال الطباعة فى المؤسسات الحكومية!! - تحول دون نشر

كتاب، فقد انفسح المجال أمام نشر الكتب المحظورة فى دور عربية للنشر أقيمت فى ألمانيا والدانمرك والسويد والنمسا وانجلترا بعيداً عن أى رقابة . وما أكثر الكتب المصرية التى تم تهريبها إلى بيروت لنشرها هناك، ومنها «عودة الوعى» لتوفيق الحكيم و«أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ و«مدينة بلا قلب» لأحمد عبد المعطى حجازى و«ماهى النهضة» لسلامة موسى وجميع مؤلفات المفكر السعودى عبد الله القصيمى، بل إن رواية «المعذبون فى الأرض» لطه حسين التى صودرت بعد نشرها فى مصر، جرى طبعها فى بيروت بعيداً عن أعين الرقباء. وهناك كتب كانت ممنوعة فى عهد، فلما زالت الموانع طبعت فى مصر مثل ديوان «وطنيتى» للشيخ على الغاياتى وكتاب «الإسلام وأصول الحكم» للشيخ على عبد الرازق و«كتابات ممنوعة» للدكتور محمد مندور وغيرها.

أما مشكلة القارىء ، وهو العنصر الرئيسى فى رواج الكتاب أو بواره، فتتمثل فى اضطراره إلى توزيع دخله المحدود على أولويات الاحتياجات اليومية، ومؤكداً أن القراءة ليست من هذه الأولويات، ولا سيما بعدما ارتفعت أثمان الكتب ارتفاعاً يبهظ ميزانية أى رجل متوسط الدخل . فقد انتهى العصر الذى كان الكتاب يباع فيه بقروش معدودة، وأصبحت حتى الكتب الشعبية تباع بجنيهات يضاف إلى هذا أن القراءة عموماً ، سواء بالنسبة للكتاب أو للصحف والمجلات، تواجه مزاحمة شرسة من جانب وسائط الإعلام المصورة. وعوضاً عن أن يشترى القارىء رواية لأديب مرموق، فالأيسر والأرخص أن يتابع مشاهد الرواية على شاشة التليفزيون.

ثم إن هناك عقلية حكومية مازالت ترى فى الكتاب تشويهاً لمنظر الشوارع فتطارد باعة الصحف والكتب وتضيق عليهم وكأنهم يبيعون بضاعة محظورة. ولا بأس أن أذكر أنه زارنى مرة شخص زعم أنه مفتش تليفونات ورغب فى فحص آلة التليفون. فأدخلته إلى المنزل، واقتصر على رفع السماعة ثم إعادتها إلى مكانها، وجلس فى أقرب مقعد ثم سألنى : أهذا بيت أم مكتب؟ فقلت له إنه بيتى، وغرف النوم مفتوحة لتفقدها . فتحرج من القيام بذلك. ثم سألنى، وقد رأى الكتب تتصاعد على الجدران: لماذا إذن كل هذه الكتب؟ فقلت له :لأننى صحفى وأديب وعملت بالتدريس الجامعى، أفلا ينبغى أن أستعين بهذه المراجع لتعليم أولادكم؟ ثم قلت له: وهل المكتبة الخاصة تهمة؟ إن السيدة حرم رئيس الجمهورية تشرف على مهرجان لتعويد الناس على القراءة والاحتفاظ بمكتبات فى بيوتهم ، وأنت تسألنى عن «جريمة» اقتناء مكتبة خاصة؟ وبعدما اطلع على بطاقات عضويتى فى نقابة الصحفيين واتحاد الكتاب انصرف كاسفاً.

والمؤكد أن هذا الزائر لم يوفد من هيئة التليفونات، وإنما أوفد من جهاز حكومى آخر يضيق بالكتب والمكتبات وأصحابها.

ومادامت كل هذه الأوضاع باقية ، فلا حل لأزمة الكتاب.

• من بلاد الرافدين

منذ الاجتياح المغولى الأمريكى البريطانى الاسترالى للعراق انقطع بريدى مع الأدباء العراقيين تماماً، فقد انهارت جميع المرافق العامة، بما فيها البريد، وبتنا منزعجين على أصدقائنا فى العراق راجين أن تكون الراجمات العشوائية قد طاشت ولم تصبهم بأذى. ولهذا فرحت فرحاً غامراً عندما تلقيت اليوم (أول أغسطس) أول رسالة من بغداد


الجواهرى


بلند الحيدرى

قال مرسلها أن حركة البريد استؤنفت، ولكن عوضاً عن مرورها بالأردن صارت الآن تمر بالكويت. والمهم أن تنظيم هذه الحركة للاعتبارات الإنسانية وحدها كيما يستطيع المغتربون من العراقيين - وهم مئات آلاف - أن يطمئنوا على ذويهم من المواطنين العاديين في بلاد الرافدين.

وإذا كان في وسع الأحياء من المهاجرين العودة إلى الوطن - إن ارتأوا ذلك - فإن الشعراء والأدباء وأهل الفكر والفن الذين ماتوا فى الغربة ودفنوا فى بقاع شتى من العالم، فى البلاد العربية وأوروبا وأمريكا وحتى استراليا - باتت عودتهم إلى ثرى الوطن رهناً بهمة العراقيين أنفسهم.

وقد طالبت الأديبة الصحفية العراقية إنعام كجه جى المقيمة فى باريس بإعادة رفات كل أديب عراقى دفن فى الخارج ، لكى يرقدوا فى ثرى العراق، وذكرت منهم الشاعرين الجواهرى والبياتى المدفونين فى دمشق والشاعر بلند الحيدرى المدفون فى إنجلترا والدكتور فاضل الجمالى المدفون فى تونس وغائب طعمة فرمان المدفون فى موسكو وجعفر الخليلى المدفون فى دبى وغيرهم وغيرهم . وقالت إن العراقيين لن يحتاجوا إلى وصية لأنهم سيتصرفون ببداهة وعرفان بالجميل . وكما أن الأمم تسعى لاستعادة ثرواتها المسروقة من المتاحف، فان أهل العراق سيتحركون لاستعادة رفات مبدعيهم الراقدين فى المقابر القصية. وقالت إن العراقيين سيعبرون بهم الحدود التى هجرها العسس وهرب منها المحققون وحملة الأختام السود وكل غلاظ القلوب الذين أقاموا الحواجز بين الأرواح وبين مستقراتها. ولعل الكاتبة كانت فى ذلك تستعيد قول الشاعر نزار قبانى:

وخريطة الوطن الكبير فضيحة

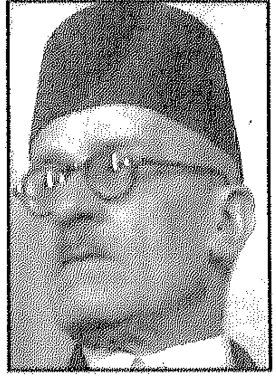
فحواجز ومخافر وكلاب!

واستطردت الكاتبة فقالت إن يوم عودة الرفات يخرج تلاميذ المدارس وهم يلوحون بالأعلام الملونة، وتهلل النساء من حناجر أضناها النحيب، ويؤدى جنود الوطن التحية اللائقة، ويقف العراقيون ليتلقوا التعازى المؤجلة فى كبارهم.

وختمت إنعام كجه جى أمنيتها قائلة : لن يكون الحدث الفذ عيداً للاحتفاء بمن سبق فى الرحيل فحسب، بل لكل المنفيين وأبناء الهجرات الذين يؤرقهم أن تهال عليهم ذات يوم تربة غريبة.

هذا وقد أصدرت إنعام كجه جى أخيراً كتاباً باللغة الفرنسية فى باريس عنوانه «كلام عراقيات الدراما العراقية بقلم المرأة» ترجمت فيه كلمات منثورة وقصائد لشاعرات عراقيات فى حب الوطن والحرية ومقاومة القهر.

مجرد أسماء


أنطون الجميل


فؤاد صروف

لايكاد يمضى يوم دون أن أواجه بسؤال أعرفه عن أديب أو شاعر أو صحفي كانت له في عصره صولة وجولة، ولكنه أصبح مع توالى الأيام نسياً منسياً، وكأنه ساقط قيد فى سجل الفكر المعاصر . فإن عرفت شيئاً بادرت بذكره ، وإن لم أعرف أقررت بعجزى عن الرد على التساؤل.

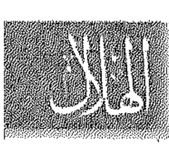
وقد اجتهد صديقنا الراحل أنور الجندى فى فترة انشغاله بالمآرب الأدبية ، فى

التنبيش فى الصحف القديمة لإجراء عملية مسح للحياة الفكرية فى مئة عام تناولت رجال النثر والشعر والصحافة والأدب الروائى والأدب النسائى والمترجمة وكذلك المعارك الأدبية ، فأصدر عدة مجلدات خص كل فئة من هذه الفئات بمجلد مستقل منها. ولولا الأغاليط الناشئة عن العجلة لأصبحت هذه المجلدات موسوعة مرجعية فريدة . ولا أعرف لأحد من الباحثين محاولة مماثلة - وهى ليست بيلوغرافية مجردة - لحصر أعلام الحركة الأدبية فى أى فترة من الفترات، ولهذا تخلفت ثغرات واسعة فى سجل الأدب والفكر، وهو ماحدا بى إلى سرد أسماء - مجرد أسماء - لحملة أقلام لايكادون يذكرون فى يومنا الحاضر.

فإن استهللت الكلام بالصحافة، أبديت عجبى لأن **أنطون الجميل باشا** الذى رأس تحرير جريدة الأهرام منذ وفاة محررها السابق داوود بركات فى عام ١٩٣٣ وإلى وفاته فى عام ١٩٤٨ لم يظفر بأى دراسة تسجل سيرة حياته وتتناول بالتقييم المقالات التى كان ينشرها فى الجريدة بغير توقيع ، وهو العرف الذى كان مرعياً فى ذلك الحين على خلاف مانعهده اليوم من توقيع حتى صغار محررى الصحف على كل خبر ينشرونه مهما تواضعت أهميته . **وفؤاد صروف** الذى رأس تحرير مجلة «المقتطف» منذ وفاة عمه «**الدكتور يعقوب صروف** فى عام ١٩٢٧ وإلى عام ١٩٤٤ قد انسحبت عليه ستائر النسيان هو وسكرتير تحرير المقتطف «سبيرو جرى». ومن ضحايا النسيان **عزيز مرزا رئيس تحرير الأهرام ونجيب كنعان** سكرير تحريره فى سنوات طويلة والصحفى الشاعر محمد الحناوي والصحفي العجوز توفيق حبيب وعبدالله حسين وأسعد داغر وصالح البهنساوى وتوفيق حنا الشمالى وكلهم عملوا فى «الأهرام». ومن المنسيين فى جريدة «المقطم» نجيب شاهين وفريد كامل وأنطون نجيب مطر والصحفية مارى كاترين بولاد. وهناك الشاعر محمود رمزى نظيم المكنى «بأبى الوفا» - وهو غير الشاعر محمود أبى الوفا - وكان يعمل فى جريدة البلاغ . وهناك الصحفى الأديب عباس حافظ الذين تنبأ بقوله «نحن الأدباء نموت فطيساً «فسرى عليه ناموس الفطس» وهناك مصطفى القشاشى صاحب مجلة «الصباح» وأمين صندوق نقابة الصحفيين فى سنوات طويلة . وهناك الأديب إبراهيم المصرى وسامى الجريدينى وطاهر الطناحى وقد عملوا جميعاً فى دار الهلال.

فإذا انتقلنا إلى ميدان الكتابة الأدبية ، لاحظنا أن أدباء كباراً انطوت صفحاتهم دون ذكر، منهم أحمد فريد رفاعى محقق «معجم الأدباء» ليرقوت فى عشرين جزءاً، ومنهم الأديب محمد صادق عنبر والشيخ محمود أبو رية والشاعر الباحث على عبد العظيم والمستشار عبد الحليم الجندى والشاعر الصاوى شعلان والشاعر المحقق أحمد الزين. وفى الوقت الذى يحتفى فيه تلاميذ الدكتور عبد العزيز الأهوانى بأستاذهم بسبب نزعته اليسارية ، فهم يهملون سميه الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى بسبب نزعته اليمينية، ومازال يعيش بيننا شاعر الملاحم كامل أمين فلا يذكره فى مرضه منظمو المهرجانات والاحتفاليات. وهناك المترجم فؤاد إندراوس والكاتب العلمى عوض جندى والأديب محمد نجيب البهبيتى والشاعر محمد الهراوى والأديب على محمد البحراوى والأديب محد البشبيشى والأديب حسن محمود والأديب المترجم حسن الشريف والناقد الدكتور رمزى مفتاح والشاعر فايد العمروسى والأديب حبيب عوض الفيومى والمحقق إبراهيم الإبيارى والشاعر عبد السلام رستم والشاعر محمد محمود المكنى «بابن محمود» والأديب الناقد حليم مترى والشاعر الصعلوك محمد فهمى والشاعر نظير إسكندر. ومن أصحاب الصحف محمود سمهان صاحب مجلة «الراوى الجديد» ومحمد على حماد صاحب مجلة «الشعلة» وإبراهيم الروبى صاحب مجلة «رابطة الشباب» ومنرفا عبيد ناشرة مجلة «الطالبة».

وما أحصيت فى هذه القائمة إلا ما أسعفتنى به الذاكرة من أسماء ، ومؤكد أن هناك عشرات غيرها من الأسماء التى أسهمت فى حياتنا الفكرية والصحفية والتى لولا الذاكرة الخؤون لاستدركتها فى هذه السطور. ■

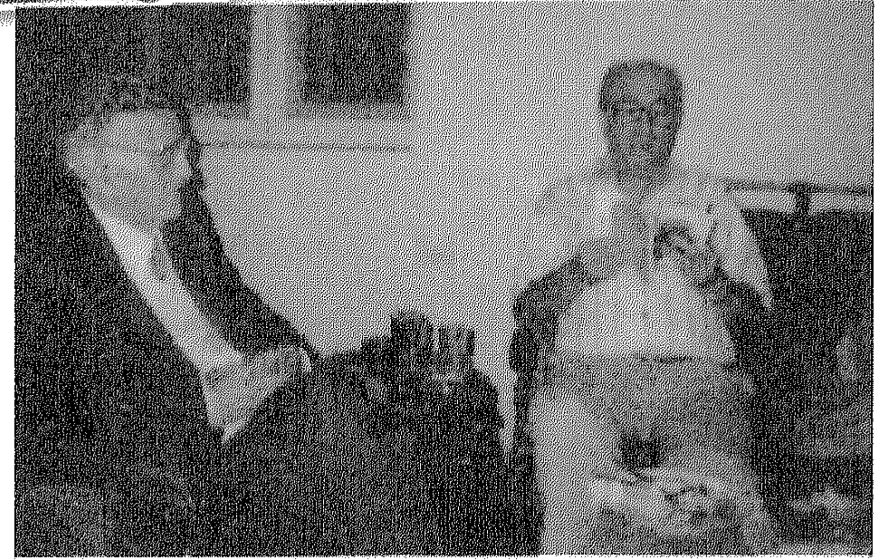


كدت أصبح رجل دين... لكنني اخترت الاشتراكية

كريم مروة

لم أعرف تاريخ ميلادى إلا بعد عقد ونيف من الزمن، إذ اكتشف شقيقى الأكبر أبوهادى، وهو يقلب صفحات نسخة أثرية من القرآن الكريم، أن والدنا الشيخ أحمد كان قد كتب بريشته تواريخ مواليد عائلتنا بالتقويم الهجرى. وتطوّع يومذاك ابن عم والدى الأديب والمفكر الشهيد حسين مروة بنقل التقويم الهجرى إلى التقويم الميلادى.. وهكذا صار لى تاريخ محددا لولادتى هو مساء الخميس الواقع فى الثامن من شهر مارس من عام ١٩٣٠، وقد حصل ذلك «الحدث» فى بلدتنا «حاريص» الواقعة فى أقصى المنطقة الجنوبية من لبنان المحاذية للحدود مع فلسطين. وهى المنطقة التى تمتد من شاطىء البحر المتوسط غربا إلى سفوح جبل الشيخ «جبل حرمون» شرقا. والاسم المعروف تاريخيا لهذه المنطقة هو جبل عامل الذى يقول المؤرخون أنه يشمل منطقة الجليل الأعلى الفلسطينى، الذى صار بعد نشوء دولة إسرائيل يعرف بشمال الدولة العبرية.





كــريم مــــروة في جلســـة خـــاصـــة مع الجـــواهري في بيـــروت (١٩٩١)

وقـد نشـأت بين هذه المنطقــة الجنوبيـة من لبنان وبين المدن الفلسطينية عكا وصفد ويافا وحيفا علاقة استمرت حتى عام ١٩٤٨، عام النكبة، وتعددت جوانب تلك العلاقة وميادين النشاط الإنساني فيها. وأذكر منذ طفولتي أن اشقائي وعددا غير قليل من أفراد عائلتنا ومن أبناء بلدتنا كانوا يذهبون للعمل في تلك المدن الفلسطينية. وكان التجار يأتون بسلعهم إلى بلدتنا من تلك المدن وليس من المدن اللبنانية صور وصيدا والنبطية وكانت العملة المتداولة في بلدتنا وفي المنطقة هي العملة الفلسطينية. وهكذا صارت فلسطين في وعيي، منذ الطفولة، جزءا مكونا من وعيي العام. وتحولت فلسطين، عندما اتخذت صفة القضية العربية الأولى، واحدا من أكبر الهموم التي ظلت ترافقني على امتداد عمري كله من دون خلل أو كلل حتى هذه اللحظة التي أخط فيها هذه السطور عن مسار تكويني.

حفظت القرآن وأنا صغير

لقد نشأت في كنف عائلة دينية، والدي وعائلته ووالدتي وعائلتها، وكلاهما، الوالد والوالدة من آل مـــروة. وتمثلت أولى ارتباطاتي دينيا بالعائلة الدينية بانتسابي في سن الثامنة إلى كتاب «الشيخ خليل العتريسي الذي تخرجت منه بعد عام ختما القرآن تجويدا، وحافظا السور القرآنية التي كان يفترض بالمتخرج من «الكتاب» أن يحفظها لكي يحظى بلقب «خاتم القرآن». ثم انتقلت إلى مدرسة حديثة في بلدتنا فور تخرجي من «الكتاب» وفي أول عام من تأسيس تلك المدرسة، وبقيت فيها ثلاثة أعوام. وإذ انتقلت العائلة من بلدتنا للإقامة في مدينة صور «١٩٤١» فقد انتسبت إلى المدرسة الجعفرية التي كان قد أسسها قبل ذلك ببضعة أعوام المرجع الديني عبد الحسين شرف الدين صديق، والدي. ثم انتقلت منها بعد إنهاء المرحلة الابتدائية إلى مدرسة في العاصمة

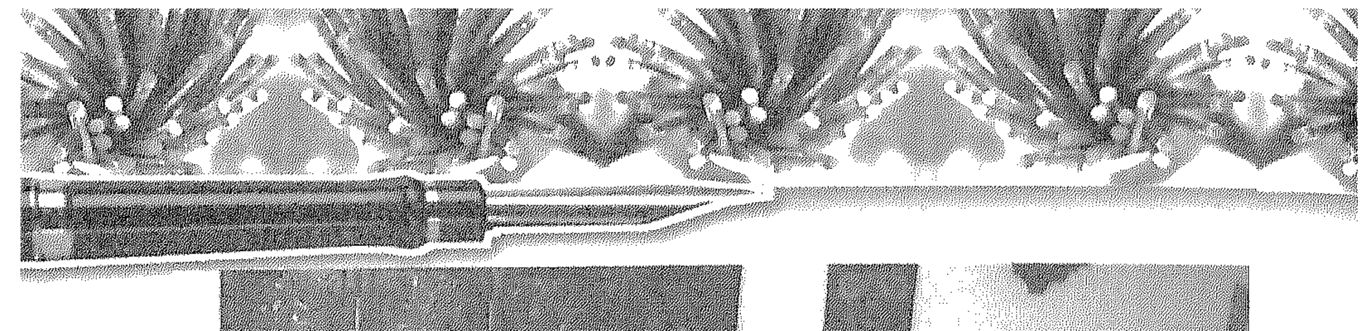


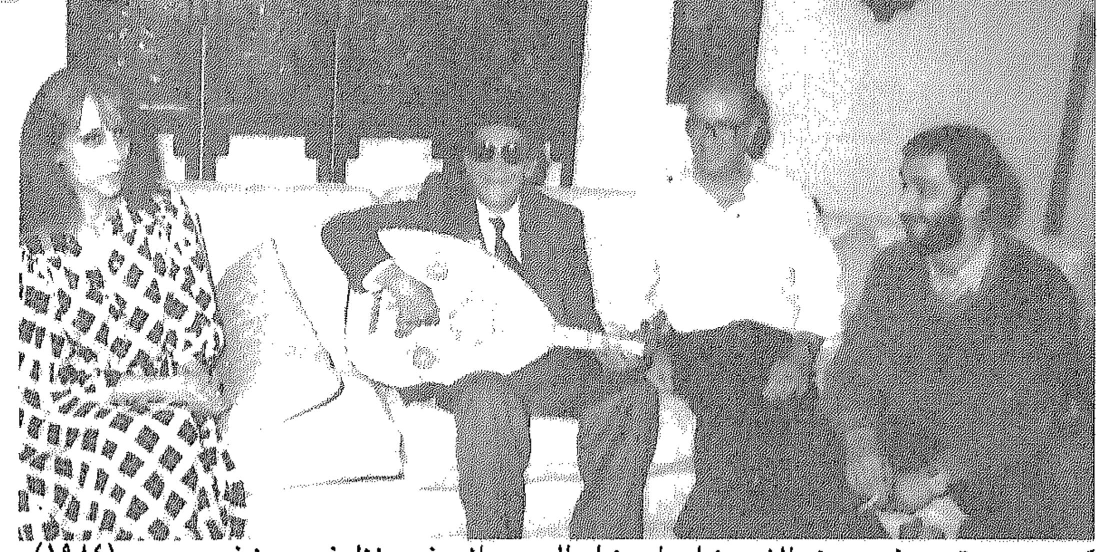
بيروت لمدة قصيرة عدت بعدها إلى مدينة صور لمتابعة دراستى فى مدرسة الكاثوليك، ومنها إلى المدرسة الجعفرية بعد أن تحولت إلى كلية.

فى مدينة صور تفتحت أمامى آفاق جديدة لم يكن بالإمكان أن توفرها لى بلدتنا الجنوبية الجميلة حاريص، . وأخرجتنى علاقاتى بالناس الآخرين المختلفين فى تلك المدينة من الأجواء المغلقة إلى أجواء جديدة أكثر ثراء. وكان هؤلاء الآخرون يتكونون من زملائى فى المدرسة ومن أساتذتى ومن أصدقاء جدد ممن كانوا ينتمون إلى احزاب لم أكن قد سمعت بها من قبل «القوميون العرب والقوميون السوريون والشيوعيون» وأهمية هذه الأنواع الجديدة من الناس الذين التقيت بهم وانخرطت معهم فى نمط جديد من الحياة هى أنهم أضافوا أنواعا جديدة من الاتجاهات والأفكار والرؤى والعادات إلى الناس الآخرين الذين كان والدى يقيم معهم صداقات. وكانوا يزوروننا فى كل مكان كنا نقيم فيه. وكانوا خليطا من رجال الدين وأدب وسياسة. كبار فى السن. وقد كان لهذا المزيج من الأجيال ومن الأنماط ومن الاهتمامات ومن المواقع الدينية والدنيوية أثر كبير فى الثورة الفكرية والسياسية والاجتماعية التى حدثت فى حياتى منذ الخامسة عشر من عمرى.

الثورة والتمرد

وإذ أصنف ما حدث لى فى تلك المرحلة المبكرة من عمرى بالثورة فلأننى كنت قد خرجت - بفعل ذلك الجديد من العلاقات - فى أفكارى وفى نمط حياتى من الدائرة التى كان يضعنى فيها انتسابى إلى عائلة دينية معروفة فى المنطقة، كادت تقودنى فى شبابى الأول إلى أن أصبح رجل دين متخرجا فى جامعة النجف الدينية. وكانت قراءاتى الجديدة تعمق الإحساس عندى بالثورة والتمرد على السائد من الثقافة والمعارف والتقاليد. وكان من أكثر الذين أثرت كتاباتهم فى تحولاتى جبران خليل جبران وإيليا أبو ماضى وميخائيل نعيمة ومعروف الرصافى وآخرين من الأدباء والشعراء العرب الذين تميزوا فى ذلك التاريخ بخروجهم على التقاليد والطقوس وثورتهم على المألوف والسائد من الأفكار والقيم والمفاهيم إلا أن أهم ما ساعدنى فى التوغل فى ذلك الاتجاه هو أننى كنت شريكا فى تلك القراءات مع عدد من زملائى فى المدرسة وخارجها. وكان اقرب أولئك الأصدقاء إلىّ صديق العمر الأديب العصامى «محمد دكروب» . وكنا نقرأ معا ونناقش ما كانت تحفل به مجلات «الهلال» و«الرسالة» و«الثقافة» من مواضيع شيقة فى شتى ميادين المعرفة. وكان دكان السمكرى محمد دكروب واحدا من أماكن لقاءاتنا ونقاشاتنا الجميلة تلك. وسرعان ما شكلنا، نحن تلامذه السنة النهائية من المرحلة المتوسطة «١٩٤٦» ، تحت تأثير تلك القراءات والنقاشات، جمعية ثقافية فى الكلية الجعفرية، وتم اختيارى لأكون أمين سر تلك الجمعية. وكان من أولى اهتماماتنا فى الجمعية تأسيس مكتبة. ووجهنا لتلك





كـريم مـروة مع فـيـروز والشـيـخ إمـام وزياد الرحـبـاني في منزل فـيـروز في بيـروت (١٩٨٤)

الغـايـة رسـائل إلى عـدد من الكتـاب اللبنانين والعرب نطلب منهم إرسال بعض كتبهم لإغناء مكتبتنا وتلقينا اجوبة من بعض الكتـاب أذكـر منهم من مـصـر ابراهيم عبدالقادر المازنى ومحمود تيمور ومصطفى لطفى المنفلوطى.

الهلال أول مرجع لى

وكان كتاب «مجلة الهلال» من أكثر الذين كـانوا مـوضع اهـتـمـامنا. وكـانت روايات جـروجى زيدان التـاريخـيـة أول مـرجع لى ولزمـلائى لقـراءة تاريخنا العربى. ثم انضمت إلى مجلات «الهلال» و«الرسالة» و«الثقافة» فى النصف الثانى من الأربعينات كمرجعيات ثقافية ومعرفية لى مجلات «الكاتب المصرى» و«الطريق» و«الأديب» وتوالت قـراءاتى فى الفـتـرات اللاحقة لكتابات سلامة موسى وطه حسين وعـمـر فـاخـورى وتوفـيق الحكيم ورئيف خورى وحسين مروة. وكانت قد بدأت تثير اهتمامى واهتمام جيلى بكامله الروايات السوفييتية عن بطولات الجيش الأحمر فى الحرب العالمية الثانية، ورواية الأم لمكسيم غـوركى، خـصـوصـا، التى كـانت بمثـابة مـدرسـة للشيـوعيين. وكـذلك كـان الأمـر بالنسـبـة لروايات هـاورد فـاست وجـون شتينبيك الكاتبين الامـريكيين التقدميين وكتـابات الكاتب الايرلندى السـاخـر جـورج برنارد شو وروايات كتاب عصر التنوير فى فرنسا. قبل الثورة وبعدها، فولتير وروسو وفكتور هيجو وإميل زولا وكثيرين اخرين من رموز الثقافة العربية والعالمية.

فى خضم تلك التحـولات فى حيـاتى، التى جاءت نهاية الحرب العالمية الثانية على النحـو المعـروف بدور ممـيـز للاتحـاد السوفييتى فيها، سافرت إلى العراق. وكان ذلك فى خـريف عـام ١٩٤٧. إذ ارسلنى والدى إلى العراق لمتابعة دراستى برعاية ابن عمه حسين مروة الذى كان قد تخلى عن مـهنة رجل الدين وزيه، وصـار استـاذا للادب والفلسـفـة فى المدارس العـراقـيـة المختلفة. وكانت الضائقة الاقتصادية فى

عائلتنا قد بلغت ذروتها. إذ كانت العائلة قد كبرت وصارت مؤلفة من أحد عشر ولدا.

التحولات الفكرية

وكان وجودى فى العراق بين عام ١٩٤٧ وعام ١٩٤٩ مصدر غنى كبير، بالنسبة الى فى السياسة والثقافة وفى التحولات الفكرية. فقد كانت تلك الفترة فى العراق حافلة بالأحداث الدراماتيكية. ففى عام ١٩٤٧ صدر قرار تقسيم فلسطين وأحدث خيبة كبيرة فى نفوس جيلنا. ثم حدثت انتفاضة شعبية فى العراق أطاحت الحكومة التى كانت قد عقدت معاهدة مع الانجليز حملت اسم معاهدة بورتسماوث نسبة إلى المدينة التى جرى فيها التوقيع على المعاهدة. فقد كانت تلك المعاهدة بنظر العراقيين تحول دون انتقال العراق إلى السيادة الكاملة والاستقلال الكامل عن بريطانيا. وفى عام ١٩٤٨ حصلت نكبة فلسطين التى تمثلت بهزيمة سبعة جيوش عربية فى حربها ضد العصابات الصهيونية. وانتهت بإقامة دولة إسرائيل غصبا عن البلدان العربية. وبمنع الشعب الفلسطينى، بقرار عربى تعسفى، من إقامة دولته على ما كان قد تبقى من أرض فلسطين «الضفة الغربية وقطاع غزة» بحجة الإعداد لمعركة قادمة تعيد فلسطين كل فلسطين إلى الشعب الفلسطينى. وهى المعركة التى لم تأت، أو هى أتت اكثر من مرة فى الاتجاه المعاكس لذلك الشعار الخائب، أدت إلى وقوع فلسطين كلها تحت الاحتلال الإسرائيلى، وإلى فرض قوانين استثنائية فى العراق وفى بلدان عربية أخرى دخل بموجبها إلى السجون العديد من الوطنيين وجرت إعدامات فى العراق «قادة الحزب الشيوعى» كما جرى تهجير اليهود بالجملة من العراق وبلدان عربية اخرى الى إسرائيل. وقد كان لكل تلك الأحداث وقع الصاعقة على وجدانى ووجدان جيلى، مما أجج الثورة فى داخل كل منا. وقادتنى ثورتى إلى البحث والتفتيش عن مرجعية فكرية أخرى غير تلك التى كانت مرجعيتى فى السابق الفكر القومى مرجعية جديدة تدلنى على الطريق إلى مستقبل أفضل لبلادى. وهكذا تعرفت تحت وطأة تلك الأحداث وذلك القلق وبفعل تلك الثورة عندى، إلى عدد كبير من مثقفى العراق الجواهرى والسياب والملائكة والحيدرى، وإلى عدد كبير من القيادات السياسية ومن بينهم الشيوعيون. وكان واسطتى الأولى إلى تلك العلاقات ابن عم والدى حسين مروة. وصرت شيوعيا. إذ اعتبرت ان كل ما كنت أتصوره مدخلا إلى حرية بلداننا وتقدمها من افكار ومشاريع لم يعد قابلا للحياة. وصارت الاشتراكية بالنسبة اليّ هى الحل.

وحين عدت الى لبنان فى صيف عام ١٩٤٩ مع عائلة حسين مروة دخلت إلى سلك التعليم لمدة عامين ثم انتقلت إلى الجامعة اللبنانية فى فرع الأداب «١٩٥٢» وانتخبت الى منصب نائب رئيس الرابطة الطلابية بصفتى الشيوعية من دون أن أكون قد انتسبت الى الحزب الشيوعى اللبنانى. والسبب فى عدم انتسابى الى

الحزب الشيعي ، بعد ان كنت قد صرت شيوعيا يعود إلى أنني كنت قد تعرفت الى الاديب اللبناني رئيف خوري وتأثرت بأفكاره وبكتاباته. حيث اخبرني هو، بمرارة أن الحزب قد اتخذ منه موقفا عدائيا بسبب تضمامنه مع القائد الشيوعي فرج الله الحلو، الذي كان قد اعترض على موقف الأحزاب الشيوعية العربية المشرقية المؤيد لقرار تقسيم فلسطين تماهيا مع موقف الاتحاد السوفييتي ومعروف ان فرج الله الحلو قد اقصى من موقعه في قيادة الحزب بسبب موقفه ذلك. وكان موقف كل من فرج الله الحلو ورئيف خوري يتفق مع مشاعري، غير أنني عدت فانتسبت إلى الحزب في آخر عام ١٩٥٢، تحت ضغط مورس علي من قبل بعض أصدقائي في الحزب، موفقا بوعد في حل قريب لأزمة العلاقة بين الحزب ورئيف خوري وكنت في حقيقة موقعي قد بدأت أقتنع بأن وجودي خارج الحزب كان يتعارض مع اهتماماتي السياسية وعينت فور انتسابي إلى الحزب مسئولا طلابيا. ثم أرسلتني المنظمة الطلابية الى بودابست «صيف عام ١٩٥٣» لكي أمثل الشبيبه العربية في اللجنة التنفيذية لاتحاد الشباب الديمقراطي العالمي، ولكي اكون جزءا من فريق العمل القيادي في الاتحاد في مقره في بودابست . حيث بقيت هناك أربعة اعوام متواصلة.

تجربة مهمة في حياتي

ورغم أنني امتثلت من دون اقتناع لقرار الحزب بقطع دراستي الجامعية إلا انني أشهد ان تجربتي في العمل في منظمة عالمية كانت فائقة الغنى. وكان من أولى الدروس التي وضعتني الأحداث في صميمها ان الاشتراكية في التجربة العملية كانت مختلفة اختلافا جوهريا عما كنت قد بدأت منذ وقت مبكر بالتعرف إليه من مصادرها في فكر ماركس ولينين ، من خلال قراءاتي لبعض كتاباتهما وبعض الكتابات التي تعرف بكل منهما، اي ماركس ولينين، لكنني كنت مقتنعا بأن الحياة أكثر تعقيدا من الأفكار، ولذلك لم أجعل من المقارنة بين الفكر والممارسة مجالا للابتعاد عن الاشتراكية رغم بشاعة ما عرفت من بعض الأحداث التاريخية «إعدامات ستالين لقيادات شيوعية في الاتحاد السوفييتي وفي البلدان الاشتراكية الأوروبية» وما عايشته من أحداث دراماتيكية، كان أكثرها إيلاما ما حدث في المجر في ١٩٥٦ . ففي ذلك العام الذي كان قد عقد فيه المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفييتي مؤتمر التجديد بقيادة خروشوف حصلت ثورة شعبية ضد النظام الاشتراكي، وكنت اتابع عن كثب المهدات التي أدت إلى وقوع تلك الحركة والتي تمثلت في السجالات السياسية والفكرية الشديدة التوتر حول التجربة الاشتراكية وحول عناصر الخلل فيها. وهي سجالات استمرت لبضعة شهور، ورافقتهما زيارات جماهيرية الى مقابر قياديي الحزب الذين كان ستالين قد أعدمهم، ودار جدل كبير في العالم، لاسيما في داخل الأحزاب

الشيوعية، حول الأسباب التى أدت إلى وقوع تلك الحركة وحول الظروف التى قادت الاتحاد السوفييتي الى قمعها. وكان لنا نحن الأجانب من الشيوعيين والاشتراكيين داخل فريق العمل فى اتحاد الشباب الديمقراطى العالمى، دورنا فى ذلك الجدل. ولا أزال أذكر الموقف الجرىء الذى أعلنه فى أعقاب تلك الأحداث بالميرو توليياتي. الامين العام للحزب الشيوعى الايطالى، ومفاده ان ثمة خللا بنيويا فى التجربة الاشتراكية ينبغى أن يرى بوضوح وأن تتم دراسته بعمق وان تستخلص الاستنتاجات الضرورية منه.

بدايات الانطلاق إلى العالم

كان وجودى فى اتحاد الشباب الديمقراطى العالمى أول منطلق لى إلى العالم، الى بلدانه والى احداثه والى ثقافاته. لكن بداية سفرى فى مهمات محددة كانت فى اتجاه العالم العربى. ففى عام ١٩٥٤ كلفت، بحكم مسئوليتى فى الاتحاد عن الشرق الأوسط وشمال افريقيا، بالسفر الى البلدان العربية «لبنان وسوريا والأردن ومصر والسودان» للتحضير لمؤتمرين كانا سينعقدان فى بكين وفى فيينا، الا ان زياراتى الى مصر تعددت. وكنت كلما زرتها بين عام ١٩٥٤ و ١٩٥٨، أزداد شغفا بها وتعلقا بكل ما تميز به الشعب المصرى ومثقفوه من جيل جيد وغنى، جعل مصر بالنسبة إلينا نحن ابناء بلاد الشام مرجعا ومحجا فى الثقافة خصوصا آدابا وفنونا وسينما، وفى السياسة الوطنية وكانت اللهجة المصرية ؟؟؟؟؟ المصرية وطيبة الشعب المصرى هى الأقرب الى قلوبنا.

وظلت علاقتى بمثقفى مصر وسياسييها تكبر إلى ان كدت اصبح مصريا، وكان اصدقائى المصريين الكثر. بالنسبة لى يصبحون لبنانيين لشدة قربى منهم وكان من بين الاوائل من مثقفى مصر وسياسييها فى الخمسينات من القرن الماضى، الذين اعتز بالصداقة التى ربطتنى بهم: عبد الرحمن الشرقاوى وخالد محيى الدين ومحمود أمين العالم وحسن فؤاد والفريد فرج ولطفى الخولى وصلاح جاهين واحمد بهاء الدين وعبدالغنى ابو العينين وعبدالمنعم القصاص وصلاح حافظ وكمال عبدالحليم وسعد التائه. وانضم الى هذا العدد الجميل من المثقفين والسياسيين فى الأزمنة اللاحقة حشد كبير أغنت علاقتى بهم ثقافتى. ومعارفى.

وكان انتقالى إلى العمل فى مجلس السلم العالمى بين عام ١٩٦٢ وعام ١٩٦٤ مصدرا إضافيا لجملة تلك المصادر فى الأفكار والأشخاص فى تكوين شخصيتى. إلا أن وجودى فى فيينا فى قلب تلك الحركة العالمية العظيمة المدافعة عن السلم وحرية الشعوب، وقد وضعنى على مقربة من أحداث العالم الكبرى. وأضاف إلى معارفى فى الثقافة والسياسة معارف أخرى اكثر غنى وأكثر تأثيرا فى التكوين النفسى. وكانت المؤتمرات التى عقدها مجلس السلم العالمى تجمع اعدادا كبيرة من كبار الشخصيات العالمية. وكانت تعالج مشاكل

العالم الكبرى، وكانت تلتقي في تلك المؤتمرات وتتنافس وتتصارع الأفكار والاتجاهات داخل الحركة العالمية من اجل السلم ومن اجل حق الشعوب في تقرير مصيرها، وداخل الحركة الشيوعية بالذات. وما أكثر ما كان بعض الصراعات الفكرية والسياسية يوحي اليّ كما لو ان الاختلاف هو الأساس في العلاقات بين الاتجاهات وبين الدول، وان وحدة العالم على أسس انسانية مشتركة تكاد تبدو مستحيلة وكان مصدر ذلك القلق عندي هو احتدام الصراع بين الاتحاد السوفييتي والصين وبين افكار كل منهما داخل الحركة الشيوعية وحتى داخل البلدان وداخل حركة النضال من اجل السلم، بشكل خاص.

ورغم أنني غبت كثيرا عن بلدي لبنان وعن المنطقة ورغم انشغالي بالمهمات الاممية التي كان يكلفني بها كل من اتحاد الشباب الديمقراطي العالمي ومجلس السلم العالمي، إلا أنني كنت على صلة دائمة باحداث بلادي. وكانت قضايانا العربية في صلب اهتماماتي في كلا المنظمتين العالميتين وكانت قضية فلسطين والعدوان الثلاثي على مصر وقضايا عربية أخرى موضوع سجال دائم بيني وبين الهيئات والشخصيات التي كانت مهمتي تفرض على الإلتقاء بهم بمن في ذلك شخصيات يهودية. وتحتفظ ذاكرتي بحشد من الاحداث والتوترات التي أدت اليها تلك السجالات حول قضايانا العربية.

لقد كانت تلك التجربة الغنية التي كدستها في عملي الخارجي السبب الذي جعل قيادة الحزب الشيوعي اللبناني تستدعيني في اواخر عام ١٩٦٤ في صورة كانت مفاجئة لي العودة من مقر عملي في فيينا لكي اضم الى عضوية المكتب السياسي للحزب بعد انفصال هذا الحزب عن الحزب السوري، بزعامة خالد بكداش. وقد اثار قرار ضمي الى المكتب السياسي أسئلة عندي طرحتها بوضوح امام نقولا شاوي الامين العام للحزب، الذي اوضح لي يومها ان الحزب هو في مرحلة تأسيسية وان الشرعية الحزبية ستأخذ طريقها إلى التحقق في وقت لاحق. ثم أضاف قائلا لي بأن التجربة التي كدستها في عملي في الخارج كانت كافية لكي تنقلني الى موقع مسئولية أساسية في الحزب. ومنذ ذلك التاريخ بدأت مرحلة جديدة مختلفة في حياتي، إذ تحولت بالكامل من مشروع مثقف إلى مشروع مسئول حزبي ، سرعان ما أصبح أي هذا المشروع الجديد بعد سنوات قليلة، واقعا مثقلا بالمسئولية. إذ شاركت في عام ١٩٦٦ مع عدد من رفاقي الشباب في القيادة وخارجها بحركة تجديدية في الحزب الشيوعي اللبناني كانت الأولى من نوعها في الحركة الشيوعية العربية. وقد تمثلت تلك الحركة بإقرار استقلالية الحزب اللبناني عن المرجعية السوفييتية في الأمور المتعلقة بلبنان وبالمنطقة العربية، ثم بالتمايز عن التجربة المحققة في البلدان الاشتراكية في موضوع الديمقراطية والتعددية الحزبية.

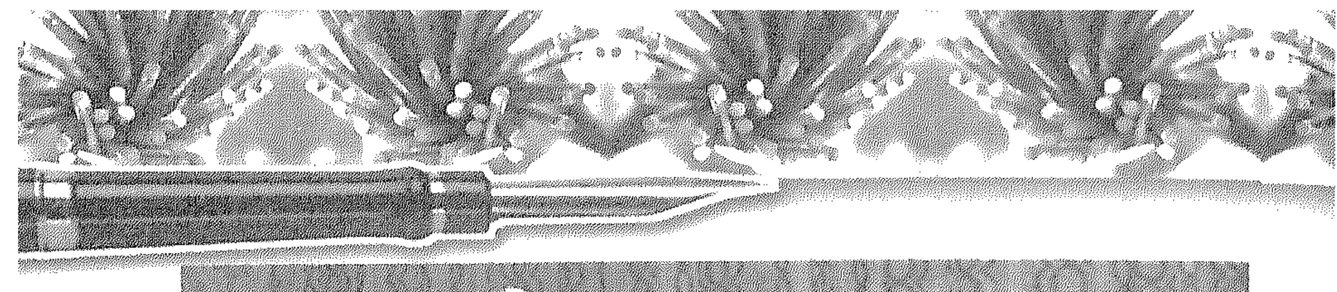
العلاقة بالمثقفين

إلا أنني مارست جهدا كبيرا في

اتجاه الابقاء على اهتمامي بالثقافة عموما، وبالعلاقة مع المثقفين ، وكرست جزءا غير قليل من اهتمامي بالميدان الفكرى، رغم ضعف تكويني الأكاديمي، وقد نجحت جزئيا. وصدرت لى عدة كتب ابتداء من عام ١٩٧٤ وصولا إلى هذه اللحظة، بلغت بمجموعها عشرة كتب متنوعة فى محتوياتها . فضلا عن كتابات كثيرة فى مجالات شتى بما فى ذلك قراءة خاصة لسيرة وتراث بعض المثقفين العرب المعاصرين، أدباء وفنانين ومفكرين.

ولابد لى من الإشارة ، هنا إلى أن الحرب الأهلية اللبنانية قد ساهمت فى تعطيل الكثير مما كانت تحفل به السنوات السابقة عليها من اتجاهات حقيقية نحو التجديد فى حياتنا السياسية والثقافية والفكرية. إذ تحول كل شيء خلال الأعوام الخمسة عشر من الحرب فى خدمة العمل العسكرى. وتراجع دور الفكر. وتراجع دور الثقافة وتراجع الوعى العام. وتراجعت القيم. وحل محلها فى كثير من الأحيان نقيضها. ولابد لى من الإشارة ايضا الى ان الهزائم السياسية والعسكرية والاقتصادية التى انتجتها انظمة الاستبداد فى بلداننا وارتبطت باسمها قد ولدت الكثير من الخيبات عند الشباب، ولم تستثن من تلك الحالة النخب السياسية والثقافية وقيادات الأحزاب. وتركت تلك الهزائم ونتائجها تأثيرها السلبية على مجمل الأوضاع فى بلداننا حتى هذه اللحظة. وشكلت مأساة الشعب الفلسطينى ، برغم انتفاضاته المتواصلة، النموذج الصارخ للمأزق الذى ما نزال نعيش فى مناخاته ومتاهاته من دون ان نجد الطريق الى الخروج منه.

وكثيرا ما كنت اتساءل بيني وبين نفسي، فى السنوات التى أعقبت هزيمة يونيو «١٩٦٧» والسنوات التى اعقبت تفجر الحرب الأهلية في لبنان «١٩٧٥»: إلى أين نحن ذاهبون فى بلداننا؟ إلى أى مصير؟ كنت اتساءل من موقعي الشخصى كإنسان عربى، ومن موقعى القيادى فى الحزب الشيوعى اللبناني. وكنت أكثر من الكتابة نقدا للأوضاع القائمة ونقدا للذات. وكنت أتابع العمل كما لو أننى لم أقل شيئا ولم ار ولم افكر فى ما هو قائم. ولعلى لم أكن الوحيد فى تلك الحالة من الاضطراب. وقد لا يعرف القراء أننى كنت من الأوائل الذين كتبوا منذ أواخر الستينات فى تحديد طبيعة الأزمة التى تمر فيها بلداننا وتمر فيها احزابنا الديمقراطية، الشيوعية والقومية. وكان كتابى كيف نواجه الأزمة الصادر فى عام ١٩٧٤ حصيلة اولية للمحاولات فى الاجابة عن التساؤلات . وتابعت الكتابة فى الموضوع ذاته فى مطالع الثمانينات بمناسبة مئوية ماركس. فنشرت فى مجلة «الطريق» ثلاثة ابحاث بين اواخر عام ١٩٨٣ وأوائل عام ١٩٨٤ فى ما يشبه ملاحظات نقدية حول الحرب الأهلية اللبنانية وحول حركة التحرر الوطنى العربية وحول الثورة الفلسطينية فى تطورها وفى ازمتها. وافردت فصلا خاصا فى احد تلك الأبحاث حول الأزمة فى الماركسية فى البلدان العربية، أعيد نشره





كريم مروة في حديث حميم مع الرئيس ياسر عرفات في بيروت في أوائل سبعينات القرن الماضي

فى كراريس وفى مجلات عربية، واثار جدلا بما فى ذلك بين سجناء الرأى فى أنظمتنا العربية، وتابعت المحاولات ذاتها فى كتابى الذى صدر فى مطلع عام ١٩٩٠ بعنوان «حوارات» الذى تضمن مواقف لى ومناقشات لها من قبل عدد كبير من المثقفين العرب. كما تضمن فى اخر الكتاب نقدا للتجربة الاشتراكية التى كانت تلفظ أنفاسها . ونقدا ذاتيا لحركتنا الديمقراطية واليسارية بمدارسها المختلفة.

الغزو غير الكثير من التكوين

وقد كان من الصعب علىّ ان أمارس هذا العمل الفكرى النقدى وأنا فى موقعى فى قيادة الحزب، عاجزا مع حزبى ومع الحركة اليسارية كلها عن شق الطريق الى مستقبل افضل لبلداننا . مستقبل يحررنا من انظمة الاستبداد ومن هيمنتها على مصائرنا ويحررنا من عناصر الخلل فى تجربتنا الاشتراكية . وكان صعبا علىّ ، فى الوقت عينه. ان أغادر ذلك الموقع واترك رفاقى وأهلى فى الأزمة. وكان ذلك مصدر قلق دائم لم أستطع أن اعبر عنه إلا فى كتابى الاخير الذى حمل إلى القراء بعضا من سيرتى: كريم مروة يتذكر فى ما يشبه السيرة.

إلا أننى أذكر بمرارة يوم قررنا نحن مجموعة من المثقفين فى قيادة بعض الاحزاب اليسارية وعلى تخومها ان نبحث فى انشاء جهة ثقافية ديمقراطية عربية لمواجهة ما كنا نراوح فيه من مأزق . كان موعد اللقاء الأول فى منزلى عشية الرابع من يونيو ١٩٨٢ ، وكان الحضور يأتون الى الموعد فرادى، وكان أول القادمين حسين مروة ومحمود درويش ومهدى عامل ومحمد دكروب وفواز طرابلسى وياسر عبد ربه وفيصل دراج.وكان من المنتظر مجيىء اخرين وفيما كنا نتبادل الأحاديث بانتظار مجيىء الآخرين فوجئنا بالطائرات تقصف بيروت، وكان الهدف يومذاك المدينة



الرياضية التى كانت قد تحولت الى مركز للمقاتلين. فألغينا الاجتماع وحددنا الموعد الثانى للقائنا فى اليوم التالى. لكن ذلك اليوم كان قد تحول الى بداية الغزو الإسرائيلى للبنان. ولم نكرر التجربة إذ جاء الغزو الكثير مما كان قائما على الأرض ومما كان قيد التكوين فى الأحلام.

فى العقد الأخير من القرن، أى بعد انتهاء الحرب الأهلية اللبنانية وعودة الحياة الطبيعية الى البلاد، وكنت قد بلغت الستين من عمرى. قررت أن أخفف من مسئولياتى الحزبية لأمارس نوعا آخر من المسئولية متحررا من قيود العمل اليومى الذى كان قد أكل الجزء الأكبر والأجمل من حياتى. لكننى لم أجرؤ على الانتقال من تلك الحرية والمسئولية قفزا الى موقع اخر من دون أن أعد نفسى واعد رفاقى لذلك الانتقال. فبقيت فى قيادة الحزب من دون مسئولية محددة. وتطوعت مع صديقى محمد دكروب للعمل على إعادة اصدار مجلة «الطريق» فى صيغتها الجديدة الراهنة محررة من الالتزام الحزبى ومفتوحة للنقاش والجدل والحوار بين التيارات الفكرية والأدبية والسياسية فى بلداننا . ثم خرجت بقرار ذاتى فى المؤتمر الثامن للحزب الشيوعى من أى مسئولية ١٩٩٩ وتفرغت للعمل الفكرى من دون أن أتخلى عن خيارى الاشتراكى وعن التاريخ الذى أسهمت فى صنعه بحدود امكاناتى لكننى قررت ان اتابع، فى الشروط الجديدة، الجهد البحثى مع كثيرين سواى عن افق جديد لنهضة عربية تنقل بلداننا من عهود الاستبداد والتخلف والاحتلال الأجنبى الى رحاب الحرية والتقدم. ورغم أن الشروط القائمة لا تشير الى احتمال ولادة سريعة للقوى المؤهلة للقيام بتلك النهضة، الا اننى ارى ان على وعلى امثالى من الجيل القديم أن نتابع جهدنا فى الاتجاه الذى يبدد غيوم اليأس والإحباط والهزيمة التى تسيطر على اجيالنا الشابة، ويحثها على الانخراط فى صناعة مستقبلها ومستقبل بلدانها.

وقد علمتنى تجربتى الطويلة ان اظل متفائلا ، وان اظل احلم بالمستقبل حتى وأنا فى مثل هذا العمر متجاوزا الثالثة والسبعين من الأعوام، جاريا بأمل لا يفارقنى نحو الرابعة والسبعين وما بعدها.

العلاقات اسهمت كثيرا في تكويني

وقد يرضى فضول القراء أن اخبرهم بأننى قد زرت خلال نصف القرن الذى مضى بمهمات مختلفة العديد من بلدان العالم فى القارات الخمس. والتقيت خلال تلك الزيارات بالعديد من قادة الدول والاحزاب وقادة المنظمات العالمية والاقليمية. وبالعديد من كبار الأدباء والشعراء فى العالم. لكن المهم بالنسبة لى هو ان هذه العلاقات قد اسهمت فى تكوينى من الناحية الإنسانية فضلا عن الناحيتين السياسية والثقافية. وكانت لى بين تلك الشخصيات فى مواقعها المختلفة علاقات صداقة مازال بعضها قائما حتى الان.

وسوف يكون من العسف أن انهى هذا

العرض لتجربتى وسيرة تكوينى من دون أن اشير إلى غنى علاقاتى الانسانية بجوانبها المتعددة، وهى علاقات احب أن اشير الى المدن التى كانت تشكل المراكز التى تأسست فيها تلك العلاقات. وتركت تأثيرها فى وجدانى وفى مشاعرى على مدى الحياة. وهذه المدن هى: بودابست وفيينا وموسكو وباريس والقاهرة وبغداد. لكن بيروت تبقى المدينة الأصل، المدينة التى يشكل انتمائى اليها جزءا اساسيا من شخصيتى وتكوينى. فإليها مرجعى اولا واخيرا، ومنها اذهب الى الأمكنة المختلفة، وإليها ارجع بشوق من كل الأمكنة التى تقودنى اليها مهمة من مهماتى السياسية والثقافية او تقودنى اليها أو فسحة من الراحة، إلا أن اجمل ما بقى لى من كل تلك العلاقات الإنسانية فى الداخل والخارج هو عائلتى الصغيرة التى تمنحنى القدرة على الاستمرار فى الحياة طويلا: نجوى رفيقة حياتى منذ ثلاثين عاما وولداى هانية وغسان.

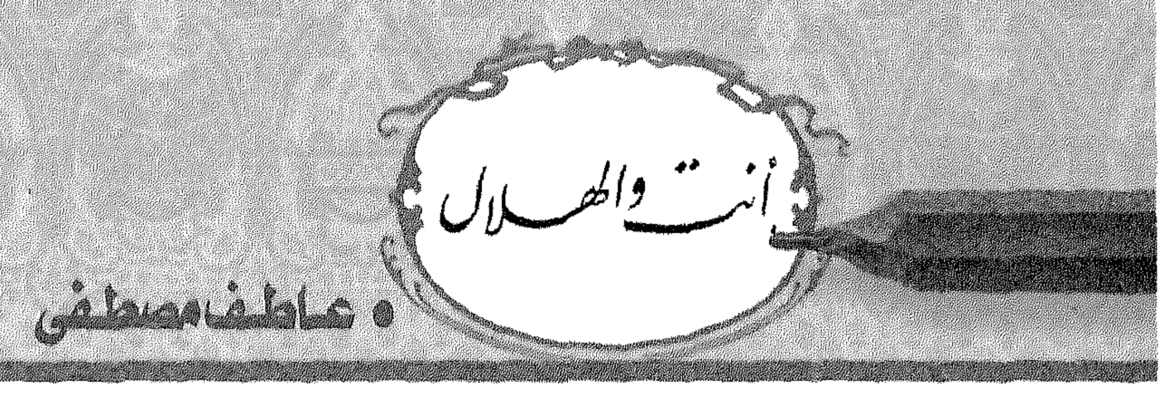
وإذ أشير إلى مجمل تلك الأسماء والأمكنة فليس للمباهاة قط بل لكى يعرف القارىء مدى الأثر الذى تركته فى عقلى ووجدانى كل تلك التجربة،، بالمتعة والمعاناة فيها، والدور الذى لعبته فى إغناء ثقافتى وفى اغناء الجانب الإنسانى فى شخصيتى.

وفى يقينى فإن المتعة والمعاناة مجتمعتين هما اللتان تعطيانى هذا الإصرار على التمسك بالحياة والاصرار على النضال من اجل جعلها جميلة. وانا هنا اكرر ما قاله ذات يوم ناظم حكمت فى إحدى كتاباته: الحياة جميلة يا صديقى، وتستحق أن نعيشها! ■

كريم مروة

- ولد كريم أحمد مروة فى ٨ مارس ١٩٣٠ ببلدة حاريص بجنوب لبنان وكان والده الشيخ أحمد مروة يتمتع بصداقات واسعة مع رجال الدين والأدب والسياسة فى لبنان.
- تلقى دراسته الابتدائية فى صور والثانوية فى بيروت.
- عمل لفترة فى مجال التدريس
- أتم دراسته بدار المعلمين العليا ببيروت تخصص أدب عربى.
- انغمس منذ مطلع شبابه فى العمل السياسى من خلال التنظيمات الشيوعية.
- من مؤلفاته:

كيف نواجه الأزمة (١٩٧٤) - المقاومة (١٩٨٥) - حوارات (١٩٩٠) - جدل الصراع مع إسرائيل وجدل السلام معها (١٩٩٤) الوطن الصعب.. الدولة المستحيلة (١٩٩٥) حوار الايديولوجيات (١٩٩٧) - ذاكرتى الفلسطينية (١٩٩٨) نحو جمهورية ثالثة (٢٠٠١).



من الذي قتل د. حامد ربيع ؟!

بنشر موضوع «حامد ربيع : راهب فى محراب العلم» «فى الهلال» فذلك يفتح قضية من أخطر قضايا الاغتيالات ، وهى اغتيال العلماء .

لقد كانت نظرته ثاقبة ورؤيته للصهيونية ، على أنها مصدر خطر داهم على الأمن القومى المصرى والمنطقة العربية ، وفى إطار الفكرة ذاتها كان موقفه من معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية التى أبرمت عام ١٩٧٩ .

لقد طرح نقاطا محددة لاستحالة التعايش بين الفلسطينيين وإسرائيل من بينها ابتلاع اسرائيل لفلسطين وفرض هيمنتها .

لقد رحل عالمنا فى ظروف غامضة والمؤكد أن رحيله هذا جاء نتيجة لمؤامرة صهيونية مدبرة سلفا بعدما وعد بنشر وثائق جديدة عن الترسانة النووية الاسرائيلية .

ولذلك لابد من فتح الملفات لمعرفة من هم وراء هذا الرحيل المفاجئ ، خاصة ونحن نعرف جرائم اسرائيل التى ارتكبتها ومازالت ترتكبها حتى الآن!

د . صمويل لبيب سيحه - المنيا

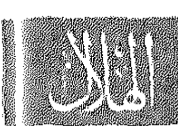
الوجه الآخر للدكتور حامد ربيع

تعليقا على مقال «حامد ربيع ، راهب فى محراب العلم» والمنشور فى هلال أغسطس الماضى للدكتورة نيڤين مسعد أشير إلى أن من مظاهر الوفاء أن تكتب طالبة لإحياء ذكرى أستاذها ، وهذا ما فعلته الطالبة التى صارت بدورها أستاذة عن أستاذها الراحل الدكتور حامد عبدالله ربيع طيب الله ثراه.

المقال طيب ورصين ، ولكن لنا تحفظات على أكثر من جانب :

لم تلق الكاتبة أية إضاءة على الجانب الإنسانى من أستاذنا الفذ ، وإذا كانت قد أشارت إلى غموض مرحلة العراق في حياته ، وإن إلتمسنا لها عذرا بأنها لم تقترب منه إنسانا إلا كواحدة من طلابه ، فقد كان عليها أن تلتمس الوجه الآخر للأستاذ - وهو شديد الأهمية لتقييم علمه وإنجازه - فى مصادره ، أو أضعف الإيمان تضع علامات استفهام على كل مرحلة منها ، وأهمها :

أ - كيف نشأت حكاية الدير هذه ؟ وهل يسمح لغير الكاثوليك بالالتحاق





بأديرتهم ؟ وهل هو الوحيد أم فعلها آخرون ؟

ب - إلحاقا بما سبق : عرفنا أن الدكتور ربيع تزوج من امرأة إيطالية . كذلك ذكر الدكتور الراحل فى أحد أحاديثه المنشورة عن إمرأة فرنسية تزوجها فى باريس . غير الزيجات العربية الثلاث التى نعرفها ..

أليس ذلك أحد أبعاد الشخصية التى لا تهمل ، كما علمنا هو نفسه ، فى دراسة الرأى العام (علم النفس الاجتماعى) .

جـ - موقفه من السلطة : لم يكن مجرد «عدم تسويق نفسه» ، ولكنه كان ظاهريا شخصية طاردة لا تستأنس ، يبدأ من يتعرف عليه بالهجوم والتنديد والتعالى ، كما أنه شديد الانعزالية ، حياته كلها للعمل (النظرى الأكاديمى) .. وقلما اهتم بالجوانب (العلمية الحركية) .

وبقدر علمى أنه ظل طول عمره .. لا يرفض ، أو كان يتوقع أن تستخدمه السلطة فى مجالات علمه ، ولكنه في كل لحظات حياته لم يعطها الأمان ، كما أنها من جانبها لم تعطه الثقة .

٣ - تقول الكاتبة أنها تتحدث عن احتفال قسم العلوم السياسية بإحياء تراث د. حامد ربيع . وبعدها لم تذكر اسما واحدا من حضور الندوة . كما لم تشر إلى أن أحدا حضر من أسرته ، وفيها الصحفية الكبيرة شقيقته الدكتورة عواطف عبدالجليل

* * * *

وأؤكد فى الختام ، أن جميع الأجيال التى عاصرت سنوات تدريس الدكتور حامد ربيع فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة ، كانت أكبر فائدة خرجت بها من الكلية هى محاضرات الدكتور ربيع ، وأن كل الفروع التى درسها كانت شديدة الدينامية ، تحرك الفكر بشدة وتزيده نضجا ، وتضيف إليه آخر مستجدات العلم فى المجال الذى يحاضر فيه .

مصطفى كمال أحمد
مؤسس جمعية خريجى كلية
الاقتصاد والعلوم السياسية



حين عادت للمفترق

كان نصف العمر يخبو..
عند جدران الحروف
كان عصفور المنى يحبو
يزرع الصيف صمودا
فى حقولى،
فى عيونى،
فى تخومى
كان يهفو..
كل نجم/ كل طفل/ كل حلم..
فى ليالى (القادسية)
كان يغفو..
فوق صدر الأمنيات
يجعل الورد رصاصا،
وجيوشا،
وإمامه!
هل بقايا الكبرياء
تنقش القلب (عراقا)
يتخلى عن.. حكايات الرحيل!!
يا روابى (أرو) ثورى،
ثم فورى،
فجرى هذا الثرى فوق الأعادى
ثم دورى فى مدارى
رتبى فوضى العصافير التى..
أحيت ليالى (كربلاء)
اشطبى كل حزن.. من سنينى
واحضنينى
غلقوا الأبواب فى وجه الصباح
فانقذينى
وانقذى ذكرى البراح
واعبرينى
أدركينى أدركينى
أورق القهر اللعين.. فى لحونى!
فاعزفينى
واتركينى فى المساءات..
واتركينى فى الصباحات..
إنهم قد حطموا كل النصال..
فوق نصلى
إنهم قد أسكبوا نار الغياب..
فوق حلمى
فاذكرينى،
هاأناقد:
ثار قلبى.. واخترق
ثارت خيول الشعر..
حين عادت للمفترق
حاورتنى،
جادلتنى،
حايلتنى،
أسكبت فى حنينا
أشعلت سهوا فؤادى..
فاحترق!!

محمود أحمد المصلى
شربين - دقهلية

الهلال .. والعام الثاني عشر بعد المائة

بداية من هذا الشهر (سبتمبر) يدخل الهلال عامه الثانى عشر بعد المائة، وقد حقق خلال رحلته الطويلة عطاء كبيرا فى ثقافتنا العربية، وحمل مشعل الثقافة والنهضة العربية، وهو بحق خير شاهد على تطورنا الحضارى والثقافي الكبير.

ومكتبتى التى تضم أعداد من بدايات الهلال وحتى أيامنا هذه بفضل أسرة تعشق الثقافة ، هى خير مكان أجلس إليه، أتصفح هذه المجلة العريقة التى سطرت مقالاتها أقلام كبار مفكرى الأمة العربية .



فتهنئة للهلال بمناسبة دخولها عاما جديدا، ولتبدأ عامها الثانى عشر بعد المائة وكل الأمنيات بأن تظل دائما كما هى مجلة العرب الأولى.

حمدان أبو أحمد - الامارات العربية المتحدة

تواريخ وأحداث مهمة

القارئ حسام على حسن محمد من سوهاج كتب إلينا عدة ملاحظات حول مقالات نشرت فى الهلال ، من خلال متابعته الدوبة ، وإلمامه بأحداث مهمة مرت بمصر ، يحرص على تصحيحها ، حيث يقول :

«كان استشهاد الفريق أول عبدالمنعم رياض يوم ٩ مارس ١٩٦٩ ولم يكن ٢٩ مارس كما ذكر الأستاذ مصطفى نبيل فى مقاله وكانت جنازة عبدالمنعم رياض جنازة شعبية تقدمها جمال عبدالناصر والذى ذاب مع جموع الشعب وهتف فى الجنازة للشهيد الغالى الذى كان يدخره عبدالناصر لحرب التحرير ، وأتحدى أن يكون هناك قائد مثله فى مقدمة الجيش مضحيا بحياته فداء لوطنه ولأمته العربية ، والحمد لله أننا أخذنا بثأره أثناء حرب الاستنزاف ووصلنا إلى إيلات وعبرنا القناة وانتصرنا فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

وفى مقال د. الطاهر مكى عن المعهد المصرى فى مدريد ومن الذى أنشأه إقالة وزارة الوفد لم يكن فى ٩ أكتوبر ١٩٤٥ ، ولكن كان فى ٨ أكتوبر ١٩٤٤ أيضا قال فى ص ٨٥ (ثم اقيلت حكومة الوفد إثر حريق القاهرة فى ٢٨ فبراير ١٩٥٢ ، وهذا خطأ لأن حريق القاهرة الشهير كان فى ٢٦ يناير ١٩٥٢) .

فى مقال للأستاذ عبدالرحمن شاكر قال بأن حكومة النقراشى تولت فى عام ١٩٤٥ وأوضح بأن من الثابت تاريخيا أن محمود فهمى النقراشى تولى رئاسة الوزارة مرتين : الأولى بعد اغتيال أحمد ماهر باشا فى ١٩٤٥/٢/٢٤ إلى ١٩٤٦/٤/١٥ ، وكانت الوزارة الثانية ابتداء من ديسمبر ١٩٤٦ إلى ديسمبر ١٩٤٨ ، حيث اغتاله طالب الطب الإخوانى عبدالمجيد أحمد حسن .

المثل العليا في حياتنا

كلما عاودت قراءة مقالات د. محمد رجب البيومى أشعر بسعادة بالغة وذلك لحرصه على إيراد المثل العليا فى حياتنا المصرية على شبابنا أن يستضئ فيهتدى خاصة فى مقالة العدد الماضى من الهلال (التأليف إلى أين؟) حيث أطال الكلام حول أستاذى الذى نعمت وشرفت بتدريسه لنا مادة تاريخ المغرب والأندلس سنة ١٩٥٣ العالم المؤرخ عبدالحميد العبادى والذى كانت محاضراته تجتذبنا من حوله متحيرين : هل نكتب أم نستمع ؟ فلقد كان موسوعة فى الثقافة التاريخية والأدبية والسياسية والاجتماعية .

لقد أوضح لنا د. البيومى التأليف الغثة ، ولدينا الكثير من كتب هؤلاء المفكرين الذين أشار إليهم وينبغى أن تطبع من جديد ، بدلا مما نرا ويحدث الآن للكتاب الجامعى !

د. سامى منير عامر
جامعة الاسكندرية - كلية اللغة العربية

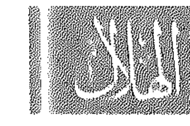


الغدير تد وحيدا



مرهقة كانت ..
تصلح ما أفسد فيها الدهر
ترسم حزنا أبديا
تبحث عما إن كان بوطنى
ثمة نسب بين النور وبين الغدر
مرهقة تنشد موال العزة ..
تنشد .. قد عاد «السبط» وحيدا م
ماذا تنتظروا الآن قد أرضعنا الز
حان الوقت لكى نحلم برجوع الطب
فرحت ، رقصت ، ثملت ، تعبت
شربت من كأس هواه
أتعبها ما لم تعلم بمجيئه
لم تدرك أن يزيدا يترقبه
قد وعد الأحزاب بأن يقتله دون دم
سرق ضياء القمر
أطلق نيران الحقد على بستان الز
هى مازالت ..
مرهقة تبكى على موال العزة
تنشد .. من أشبعنى حزنا
من أغمض إغماضته الثكلى عند الفجر ؟!

صابر معوض / المنصور



المثقفون وأرض الواقع

أتفق مع «محرر الهلال» فى عدد أغسطس الماضى فيما ذهب إليه من سقوط «عصر البقرات المقدسة» ، وأتفق معه أيضا فى ضرورة نزول المثقفين إلى أرض الواقع وأن مجتمعنا المصرى فى حاجة ملحة إلى حلول غير تقليدية لمشاكله الاقتصادية والاجتماعية .. وحلا لمشكلتى محو الأمية والقمامة اقترح أن يكون هناك جيش للعمل الوطنى من خريجى وخريجات الجامعة والذين يعانون حاليا من البطالة .

لابد من الاستفادة من هذه الطاقات ، وأتصور أن يكون لمؤسسات المجتمع المدنى مثل الأحزاب السياسية والنقابات المهنية والجمعيات الخاصة والأهلية دورها فى مؤازرة



جيش العمل الوطنى من أجل حل المشكلات التى تواجخ بلادنا ..

ولا ننسى ونحن نعمل على حل هذه المشكلات فسوف نقضى على مرارة البطالة التى يعيشها أبناؤنا من الخريجين والذين ينتظرون فى طابور طويل فرصة عمل تنقذهم من الجلوس على المقاهى أو فى بيوتهم ينتظرون الأمل .. وهو بعيد بعيد .

عمرو عبدالمنعم حموده - برما - الغربية

بين الاثنتين !

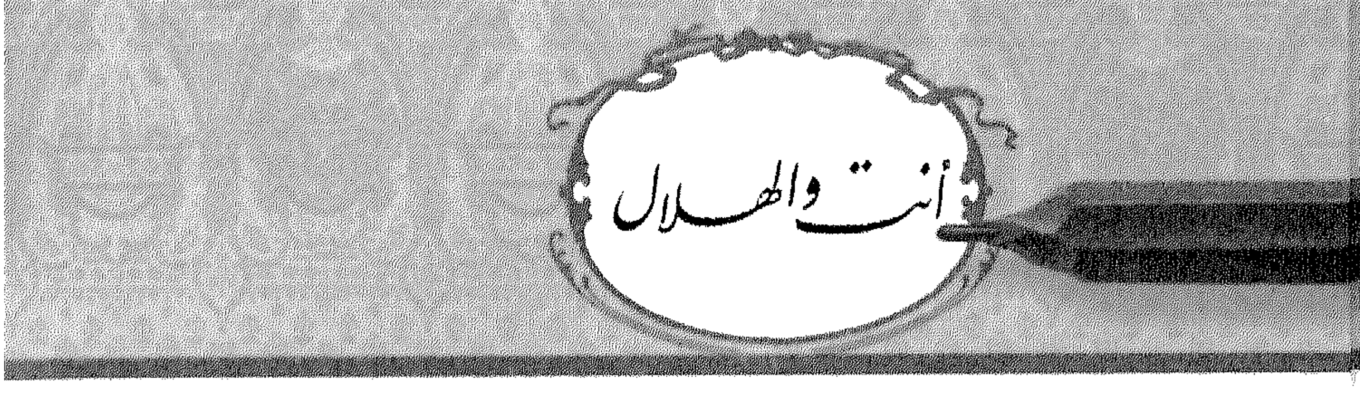
(١)
سأنهض يوما من عفار طريقى
وأتركه خلفى
وأمضى بعيدا
ليفجأنى هذا العفار أمامى
.أرى كنهه ..
مشكاتى الأبدية
لأهمس
- بعد الفوت :
كان بريقي !

(٢)
خديعة تشبهنى
وكذبة أشبهها
- لكننى مازلت أستطيع تمييزى
من بين
الأثنتين !

(٣)
كم سنة
تعثرت خطاى
دون أن ألحظها
كم سنة
مشيت هذا الشارع
الآن فقط
رأيت كم من حفر تملؤه
حين سقطت



محمد فتحى غريب



خريطة التأجيلات الكبرى ؟

خريطة الطريق التى نسمع ونقرأ عنها كل يوم .. ما هى إلا خريطة التأجيلات الكبرى ، فهى تؤجل الموضوعات الهامة والحيوية ولا تبحث إلا فى موضوعات ثانوية قد تحدث فى أى وقت ..

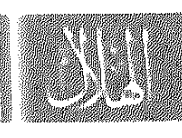
لقد وجدت قضية فلسطين بسبب طرد شعبها من أرضه لكى تقام دولة اسرائيل بدعم ومساندة الدول الكبرى وفى مقدمتها القطب الأوحد حاليا «أمريكا» والمشكلة الرئيسية الآن هى إيجاد حل لحوالى أربعة ملايين لاجئ فلسطينى ترك أرضه وبلاده منذ عام ١٩٤٨ وشردوا فى جميع أنحاء العالم .. ولما نوقشت عودتهم تم تأجيل ذلك حتى عام ٢٠٠٥ .

التأجيل الثانى : فقد تضمن قرار التقسيم الصادر من الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ إيجاد دولة إسرائيل إلى جوار دولة فلسطين .. والآن أين هى دولة فلسطين ؟! لقد تم تأجيل إعلان هذه الدولة إلى سنة ٢٠٠٥ .

وقضية المستوطنات التى انتشرت فى كل الضفة الغربية وقطاع غزة ، لم يتم تفكيك هذه المستوطنات ويتم بحثها حتى عام ٢٠٠٥ .

إن القضايا تؤجل .. والقتل والدمار يحدث الآن ويشهد على ذلك العالم والدول راعية السلام ، وأمريكا نفسها صاحبة مبادرة خريطة الطريق .. فإلى متى .. وسوف يجئ عام ٢٠٠٥ وستظل كل الأمور كما هى إن لم تزد سوءا وسوف نرى .. وإن غدا لناظره لقريب !

د. جمال العطار
الاسكندرية - كامب شيراز



الوفاء بالوعد

خرج عمران بن حطان على طاعة الحجاج فأمر بإحضاره ولما حضر قال لرجاله : أضربوا عنق ابن الفاجره قال عمران : أن بئس ما أدبك أهلك كيف أمنت أن أجيبك بمثل ما لقيتنى به أبعد الموت منزله أصانعك عليها .. فصمت الحجاج استحيا ، من كلام عمران وأمر بإطلاق سراحه فلما خرج عمران قال له بعض أصحابه : أرضيت بإطلاقه سراحك والله ما أطلقك إلا الله فعد إلى حربه معنا قال عمران : لا والله لقد عفى الرجل عنى ووعدا منى ألا أخرج على طاعته مرة أخرى .

ومن أمثال العرب فى خلف الوعد «مواعيد عرقوب» وأصل المثل أن عرقوبا جاءه يوما جار له فى حاجة فقال له عرقوب : انتظر حتى تزهر نخلتى فلما أزهرت قال له : انتظر حتى تبلح فلما أبلحت قال له : انتظر حتى ترطب أى تصير رطبا فلما أرطبت قال له : انتظر حتى تتمر أى تصير تمرا فلما أتمرت أخذ التمر وباعه ولم يف بوعده لجاره ومن يومها أصبح عرقوب مثلا يضرب فى خلف الوعد ، يقول كعب بن زهير فى لامبته المشهورة



كانت مواعيد عرقوب لها مثلا   وما مواعيدها إلا أباطيل
وعدت وكان الخلف منك سجيه   مواعيد عرقوب أخاه بيثرب

وقال آخر :

وأكذب من عرقوب ساكن يثرب   وبي شؤم في الحوائج من زحل

محمد أمين عيسوى - الاسماعيلية

متي يعاد نشر مجلة «المجلة» ؟!

المجلات الثقافية هى تاريخ أمتنا والذى يبرز وجهها الحضارى من خلال كتابها ومفكريها البارزين .. وقد سبق ووعد الدكتور سمير سرحان رئيس الهيئة المصرية العامة للكتاب بإعادة طبع مجلة «المجلة» التى كان يرأس تحريرها الكاتب الكبير يحيى حقى ، كجزء من مشروع إعادة نشر المجلات الثقافية لما تضمه هذه المجلات من آراء مستنيرة وفكر متجدد .

إننا نطالب د. سمير بأن ينفذ وعده ، ويتم هذا المشروع لكى يحقق للقارئ والمهتم بالثقافة متعة لا تقل عن قراءة كتاب يحبه ، أو مؤلف يهتم به .

إبراهيم أمين
الفيوم

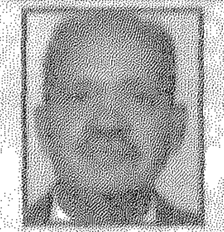
مع الأصدقاء

الصديق : إمام عبدالقادر مرسى .. كتب لنا مساهمة زجلية تتناول مشكلة كثرة النسل وما يترتب عليها من مشكلات كثيرة أصابت بلادنا والتى يقترب تعدادها من سبعين مليون نسمة يختزئ منها بعض ما كتبه بعنوان «زحام زحام يا ناس حرام» :

الأرض تعبت من اللى فيها   والناس بتكتر مافيش كلام
خمسة ، ستة كتير عليك   حتضيعهم من إيديك
والمهية ماتكفيش   ولا حتى تجيب العيش
الكترة ليه ما اتنين كفاية   تكون معاهم للنهاية
الأرض تعبت م اللى فيها   والناس بتكتر مافيش كلام

الأصدقاء : محمود مرسى - بورسعيد ، ابراهيم سعيد - مرسى مطروح ، أحمد سعيد أحمد - المنوفية ، مروة سعيد السيد - الاسكندرية ، محمد إبراهيم هاشم - طنطا ، هشام إبراهيم أحمد - دمياط ، وغيرهم من الأصدقاء .. وصلت مساهماتكم وسوف تنشر فى أعداد قادمة ..

الكلمة الأخيرة



إقالة عصام الخفاجي

بقلم: د. عبد العظيم أنيس

الدكتور عصام الخفاجي واحد من أبرز الاقتصاديين العراقيين ، خرج من العراق متمردا على ديكتاتورية صدام حسين ، وعمل في الأمم المتحدة ، والبنك الدولي سنين طويلة .

وعندما قررت واشنطن غزو العراق تحت حجة كاذبة بالبحث عن أسلحة الدمار الشامل في بغداد ، أرادت أن تغطي على أهدافها الاستعمارية الحقيقية بوسائل عدة ، منها تشكيل ماسمي «مجلس إعادة أعمار العراق» وأختير لهذا المجلس عدد يفوق المائة من الخبراء العراقيين الموجودين في المنفى ، وكان عصام الخفاجي في طليعة هؤلاء الذين وصلوا إلى مطار بغداد في مايو الماضي .

لكن عصام الخفاجي المثقف الحر ، ذو الضمير الوطني قدم استقالته من هذا المجلس منذ أيام ، وعندما سئل عن الأسباب قال في وضوح وصراحة ، أنه أصيب بخيبة أمل من سلوك الأمريكيين في بغداد . فقد تصور أن الهدف من تشكيل مجس إعادة أعمار العراق ، أن يقدم أعضاؤه المشورة الفنية للمسئولين الأمريكيين في قضايا الحياة العامة للشعب العراقي ، مثل الماء والكهرباء والنفط والغذاء .. الخ ، فإذا به يجد أن الأمريكيين لايريدون مشورة من هؤلاء الخبراء ولا يحزنون ! ، وإنما كل المطلوب منهم أن يستدلوا على البعثيين السابقين في الوزارات التي يعملون بها .

والأسوأ من هذا أن بعض هؤلاء الخبراء كان قد أعد دراسات فنية هامة في بعض القضايا التي نشأت بعد سقوط نظام صدام .

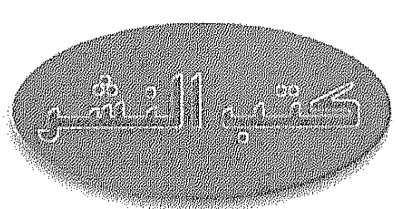
لكن أحدا لم يهتم أن يطلع على هذه الدراسات لمعرفة مدى أهميتها وصلاحيتها للتنفيذ .

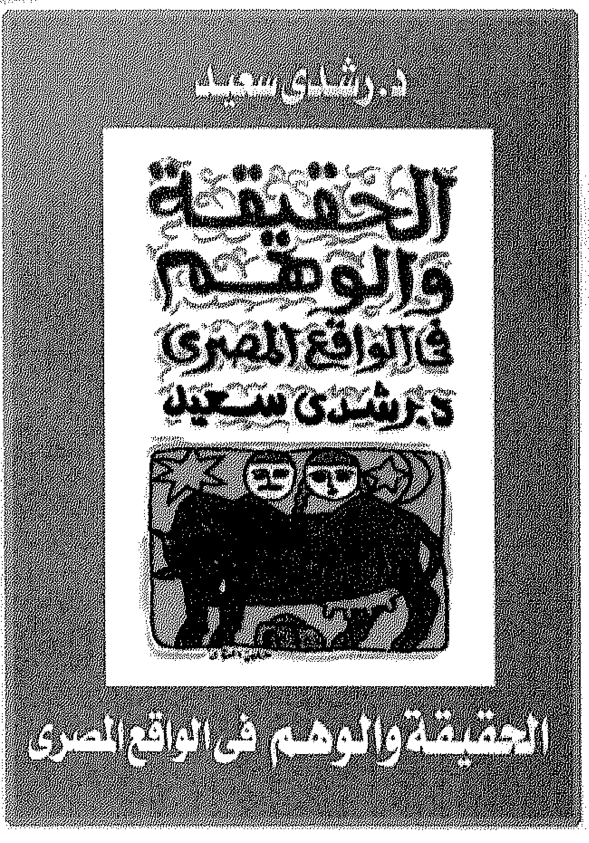
والدكتور عصام الخفاجي متشائم من تشكيل مايسمى «مجلس الحكم الانتقالي» فهو يقول إنه مجلس فاشل يثير حساسيات بين السنة والشيعة ، لكن الأسوأ من ذلك أن غالبية أعضائه كانوا في الخارج سنين طويلة ، وليس لهم أي قاعدة شعبية في العراق حاليا ، ومثاله الواضح الدكتور أحمدالجلبي الذي ارتبط بعلاقات وثيقة مع البنتاجون وإسرائيل ، وهو محكوم عليه بأكثر من عشرين سنة سجن في الأردن في قضية بنكية مشهورة .

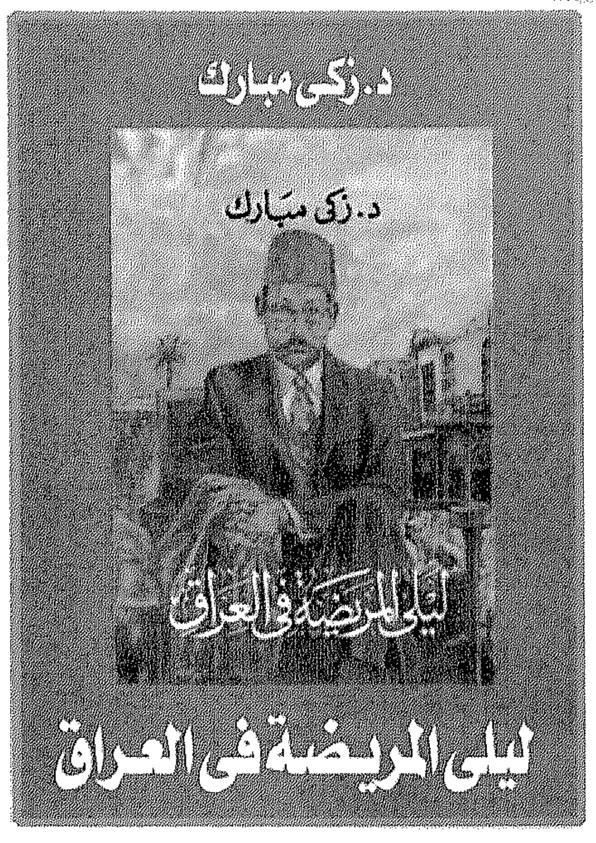
هذه إذن حقيقة المجلس الحاكم ببغداد والذي تسعى أمريكا بكل قوة لأن تعترف الدول العربية به كسلطة حاكمة .

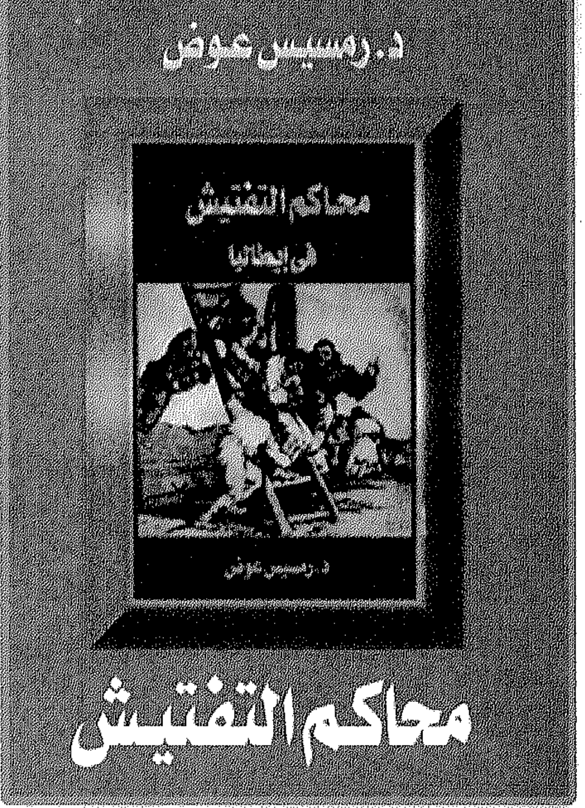
وحمدا لله أن وزير خارجيتنا قال منذ أيام إنه مجلس غير شرعي ، ولا يمثل الشعب العراقي ، وحمدا لله أن الجامعة العربية رفضت ارسال قوات عربية إلى بغداد ، كطلب الحكومة الأمريكية والأمل أن يظل هذا الرفض مستمرا . ■

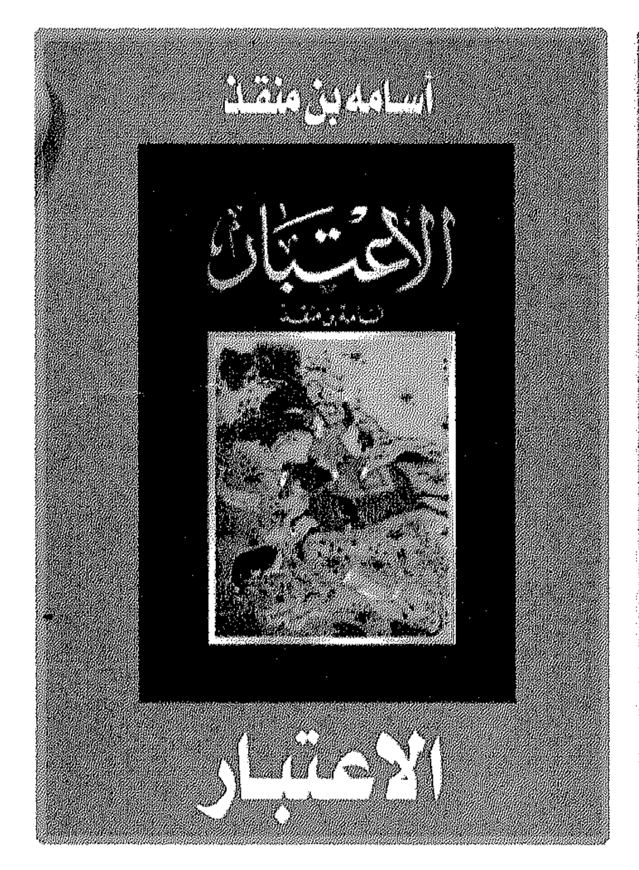
أحدث إصدارات دار الهلال













أون لاين
www.elmoalemonline.com
07771555
مجانًا
إلعب و تعلم على الإنترنت من خلال الرقم ٠٧٧٧١٥٥٥
للمذاكرة و المراجعة
للألعاب و الترفيه
PUZZLE
للاستفسار و مراسلة المدرسين
بضمان
المعلم اون لاين — بوابتك الإلكترونية إلى المستقبل

الهلال

أكتوبر ٢٠٠٢ الثمن ٤ جنيهات

اسلاميون وراديكاليون وليبراليون

اتحاد الكتاب برج الزمالك المائل

الكمبيوتر بديلاً للانسان

التيه في دروب سيناء!



لـوحـــة و فــنـــان

والدى يستمع إلى العازف (١٨٦٩)
بريشة الفنان : ديجا
محفوظة بمتحف اللوفر



مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجى زيدان عام ١٨٩٢
العام الثاني عشر بعد المائة شعبان١٤٢٤ هـ - أكتوبر٢٠٠٣م

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط)،
المكاتبات:ص.ب: ٦١- العتبة - الرقم البريدى: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال
ت:٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكترونى: darhilal@idsc.gov.eg

مصطفى نبيل رئيس التحرير

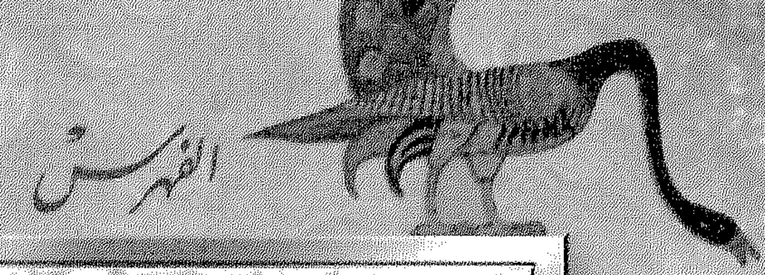
محمد أبو طالب المستشار الفنى

عاطف مصطفى مدير التحرير

محمود الشيخ المدير الفنى

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبى/ أبوظبى ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - امريكا ٨ دولارات



٨ – النظام الليبرالى.. هل عرفته مصر؟ .... **د. رءوف عباس**

١٥ – الراديكاليون فى مصر الأمل والمأزق والمصير ...... **د. عاصم الدسوقى**

٢٤– من هنا نبدأ : الإسلام والتجديد .... **هبة رءوف عزت**

٣١ – الأساتذة وعام جامعى جديد .... **د. مصطفى سويف**

٤٠ – ربع قرن على كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد..... **إبراهيم فتحى**

٥٢ –هل المستقبل يحتاج إلي البشر؟! .... **د. أحمد محمد صالح**

٦٠ – محو الأمية الخلقية .... **د. محمد رجب البيومى**

٦٦ – حقيقة مشكلة البطالة فى مصر .... **د. جلال أمين**

٨٦ – الشاعرة نازك الملائكة ... **وديع فلسطين**

٩٠ – «لؤلؤة» بين شواطئ الضياع ومدائن الوهم .... **صافى ناز كاظم**

٩٨ – رؤى نقدية : من فلسفة الفن إلي عالم الفن......... **د. عبدالمنعم تليمة**

١٠٢ – التيه فى دروب سيناء ... **مصطفى نبيل**

١١٨ – نموذج فاضح لأكاذيب الغرب .... **د. عبدالعظيم أنيس**



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

الإشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية– البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً، باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول – ص.ب رقم ٢١٨٣٣ – الصفاة – الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

١٢٠ - إلى أين تسـيـر أمـريكا؟ ....
.... محمد يوسف عدس
١٢٨ - التسلل الإسرائيلى إلى العراق فى ظل الاحتلال
.... د. محمود عبدالفضيل
١٣٢ - تطورات التنمية الإنسانية فى الوطن العربى
.... د. نادر فرجانى
١٤٨ - أمى نوال السعداوى (عائلات ثقافية) ..
.... د. منى حلمى
١٥٦ - تنويعات فنية فى حدائق متحف البرادو..
.... د. صبرى منصور
١٦٦ - اتحاد الكتاب.. برج الزمالك المائل!..
.... محفوظ عبدالرحمن
١٧٠ - أموات وأفلام صيف حار ....
.... مصطفى درويش
١٧٧ - المتفرجة (السكوت) .... مرفت رجب
١٨٢ - فصل المقال فى واقع الحال «قصيدة» ....
.... حسن طلب
١٨٤ - حلم نحات (من المسرح التجريبى) ...
.... مهدى الحسينى
١٩٠ - كمال الطويل.. آخر نجوم العصر الذهبى
.... د. نبيل حنفى محمود
٢٠٠ - مشاهد بغدادية «قصة» ....
.... حسنى سيد لبيب

الأبواب الثابتة

- عزيزى القارئ ...٦
- أقوال معاصرة ... ٣٩
- شخصية العدد بهاء طاهر بقلم د. صبرى حافظ ٧٢
- لغويات د. الطاهر أحمد مكى ٩٧
- من ذخائر الكتب العربية (الموافقات للإمام الشاطبى) د. محمد الدسوقى ١٣٨
- التكوين (د. قاسم عبده قاسم) ٢٠٦
- أنت والهلال (عاطف مصطفى) ٢١٨
- الكلمة الأخيرة «سلوي بكر» ... ٢٢٦



إلى أين تذهب بعثاتنا العلمية؟!

بعد أحداث ١١ سبتمبر أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب على الإرهاب وغزو أفغانستان ثم العراق من بعدها، والترهيب بأن دولا أخرى سوف تكون ضمن المسلسل الأمريكي الذى يعيد إليها هيمنتها وتفردها بزعامة العالم أجمع!

بعد هذه الأحداث تأثرت البعثات العلمية التي كان معظمها يذهب إلى أمريكا ومعظم دول أوروبا، حيث يتخصص الكثير من علمائنا فى مجالات متعددة تحتاج إليها مصر ومن بينها الجيولوجيا والفيزياء وعلوم الذرة وغيرها.

وخلال الأعوام الماضية كان نتاج هذه البعثات أن عاد إلينا علماء كثيرون ذاع صيتهم، وتفوقوا فى هذه العلوم، بل إن الكثير من خريجى الجامعات من الموهوبين، تتلمذوا عليهم واستفادوا بخبراتهم وعلمهم الذى تعلموه فى تلك البلاد المتقدمة، والتى تستخدم أحدث نظريات العلم، من خلال المعامل المجهزة تقنيا وفنيا والتى يتوفر لها كل جديد من المخترعات، تساعد الباحثين والعلماء على تحقيق النتائج بأقل نسبة من الخطأ، بل ربما يتقدم هذا الخطأ مع التقدم العلمى الكبير والطفرة التى تشهدها أوروبا فى مجالات العلوم والطب والزراعة والفضاء.

والعلماء العرب لهم تاريخ طويل فى الغرب والولايات المتحدة الأمريكية بشكل خاص، وبعض هؤلاء العلماء النابغين إما استقطبوا، فأصبح نتاج علمهم وخبراتهم تذهب إلى تلك الدول وذاعت خبرة عدد منهم حتى أن الموساد الإسرائيلى تتبع عدداً منهم، تم تصفيته كما حدث ليحيى المشد وسميرة موسى حيث رأوا فى علمهم خطراً شديداً، بسبب خشيتهم من أن تستفيد الدول الإسلامية والعربية من هذا العلم، وخطره على إسرائيل، ولا ينبغى بعد موقف أمريكا ودول الغرب من المعاناة التى يشهدها علماؤنا الذين يودون استكمال دراساتهم وأبحاثهم أن نقف مكتوفى الأيدى،

فلابد أن يتجه هؤلاء العلماء إلى بلاد أخرى صديقة مثل روسيا والصين والهند، خاصة وأن هذه البلاد، تضم قاعدة علمية متقدمة فى مجالات عديدة من بينها الكمبيوتر والتكنولوجيا الحيوية وغيرها.

كما أنه من الضرورى الاستفادة من علمائنا الموجودين بيننا فى مصر، والذين لديهم القدرة على إعداد أجيال جديدة من العلماء، وذلك فى إطار صياغة هياكل العلم للاستفادة من هذه العلوم المختلفة التى يتعلمونها، ولكى تنمى القدرات العلمية فى مصر ويتم تطويرها..

ولكى يتحقق ذلك فلابد من بناء قاعدة علمية سليمة خاصة وأن مصر لديها الكثير من العلماء، والمطلوب أن نوفر لهم المناخ المناسب، وعمل خطة علمية واضحة وصريحة، من المفروض أن تضعها أكاديمية العلوم والكنولوجيا.. والتى نرجو أن يتألف مجلسها من العلماء فقط!

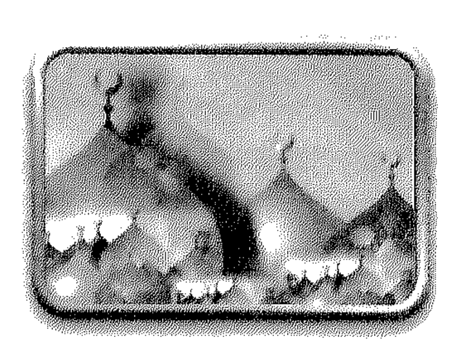
إن جامعاتنا المصرية تخرج الآلاف الذين يحصلون على درجة البكالوريوس فى العلوم والهندسة بتفوق، ولكن المشكلة التى تواجههم فى الدراسات العليا، ربما بسبب المعامل، وعدم مسايرتها للتطور الذى يحدث كل يوم فى العالم، فى مجالات التقنيات وغيرها.. إذا فالمعامل لدينا غير مجهزة والتقدم التكنولوجى فى العالم أسرع بكثير من أن نلاحقه، ولابد أن نتلافى مثل هذه المشكلات وبهذه المناسبة هناك احصائية تثبت أن ما ينفق فى العام على ميزانية العلم لايزيد على ٦ر٪ من ميزانية العام سنويا وهذا قليل جدا ولا يحقق ماننشده من تكوين جيل من العلماء يحقق طموحات مصر.

كما أتساءل.. بعد هذه الضجة التى أثيرت بعد فوز د.أحمد زويل بجائزة نوبل ومشروع انشاء الجامعة التى اقترحها على مسئول متقدم.. أين هى هذه الجامعة. وهل سبب توقف هذا المشروع الذى نال ضجة إعلامية كبيرة وقتها سببه البيروقراطية التى طالما عطلت الكثير من المشروعات؟!

ونحن نحاول توجيه مسار علمائنا إلى الوجهة الصحيحة الآن، ليتنا نجد المساعدة من علمائنا المنتشرين فى أنحاء العالم، يقدمون من خلال جهودهم العلم الذى يخدم تلك البلاد التى هاجروا إليها، وربما كانوا أحد أسباب نهضتنا وتقدمها العلمى.. ليت هؤلاء العلماء لا ينسون الوطن الأم ويسارعون إلى دعمه من خلال خبراتهم..

فمصر لديها الكثير من هؤلاء العلماء.. وننتظر منهم الكثير لكى يتحقق لها النهضة العلمية المنشودة.

المحـــرر



جزء خاص

إسلاميون وراديكاليون وليبراليون

النظام الليبرالى هل عرفته مصر؟

بقلم

د. رؤف عباس

اصطلح الباحثون على إطلاق صفة «الليبرالية» على النظام السياسى الذى ساد فى مصر فى أعقاب ثورة ١٩١٩، على اعتبار أن دستور ١٩٢٣ الذى غلبت عليه الملامح الليبرالية، كان يمثل إطار النظام السياسى فيما بين ثورتى ١٩١٩ و١٩٥٢، بحكم اتخاذه لبعض الدساتير الليبرالية الأوربية إطاراً مرجعياً له، وبحكم كون «الديمقراطية» محوراً للصراع السياسى خلال تلك الحقبة، بل إن بعض الكتاب اليوم ينظرون إلى «الحقبة الليبرالية» نظرتهم إلى الفردوس المفقود، مقارنة بالنظام السياسى الذى جاءت به ثورة يوليو.

ونعنى هنا بالبحث عن إجابة لسؤال جوهرى، هو : هل استطاعت مصر أن تحقق نظاماً سياسياً ليبرالياً فى ظل دستور ١٩٢٣؟ أو - بعبارة أخرى - هل كان النظام السياسى الذى أقامه دستور ١٩٢٣ نظاماً ليبرالياً حقيقياً ، وهل عرفت مصر الديمقراطية الليبرالية فى ظله؟

إن قيام نظام سياسى ليبرالى يتطلب توفر ثلاثة شروط أساسية، أولهما : حدوث تحول رأسمالى يستبدل بالقوى الانتاجية التقليدية وبعلاقات الانتاج التقليدية أخرى رأسمالية (حديثة).

وثانيهما : تكون طبقة «بورجوازية» تلعب دوراً رئيسياً فى تحقيق التحول الرأسمالى لصالحها.

وثالثهما : توفر الوعى الطبقى والسياسى عند هذه الطبقة الجديدة الذى يجعلها تقف حارسة لمصالحها من خلال صياغة النظام السياسى الذى يكفل لها تأمين هذه المصالح .

فهل تحققت لمصر هذه الشروط الثلاثة على مر تاريخها الحديث منذ مطلع القرن التاسع عشر؟ وهل نضجت تلك الشروط نضجاً كافياً لإفراز نظام سياسى «ليبرالى»؟

إن الإجابة الدقيقة على هذا التساؤل تتطلب دراسة موسعة يضيق المقام هنا بها ، ولكن خلاصة القول إن الشروط الثلاثة الضرورية لتحقيق قيام نظام سياسى ليبرالى لم تتوفر فى مصر بشكل كامل نتيجة الظروف التاريخية التى مرت بها التجربة المصرية ، فقد تعثرت تجربة التحول الرأسمالى فى مصر لأسباب محلية وخارجية ، وانعكس ذلك التعثر على نشأة وتطور «البورجوازية» المصرية (وخاصة شرائحها العليا)، بقدر ما انعكس على درجة نضج وعيها الاجتماعى والسياسى. وكان لذلك آثاره على خيارات نخبة البورجوازية المصرية عند وضع أسس النظام السياسى الذى صاغته فى دستور ١٩٢٣ ، فجاء معبراً عن مصالحها الضيقة، ولم يأت تجسيداً لمصالح الشرائح الدنيا من الطبقة نفسها أو مصالح الجماهير الشعبية التى لعبت الدور الرئيسى فى ثورة ١٩١٩. وعبر الدستور عن توازن سياسى لعبت فيه قوى القصر، والانجليز ، وكبار ملاك الأراضى الدور الأكبر.

من وضع الدستور

ومن عجب أن تأتى مبادرة إقامة حكم دستورى فى مصر من جانب السلطات البريطانية ذاتها فى المذكرة الايضاحية التى قدمها المندوب السامى البريطانى إلى السلطان فؤاد رفق تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، الذى اعترف بمصر دولة مستقلة ذات سيادة مع التحفظات الأربعة الشهيرة التى جعلت من هذا الاستقلال اسماً على غير مسمى. إذ نص البند العاشر من المذكرة الإيضاحية على أن «إنشاء برلمان يتمتع بحق الإشراف والرقابة على السياسة والادارة فى حكومة مسئولة على الطريقة الدستورية يرجع الأمر فيه إلى السلطان وإلى الشعب المصرى». وكان ذلك يعنى - ضمناً - ضرورة قيام حكم دستورى نيابى يقترن بقبول تصريح ٢٨ فبراير ،

ومن ثم يلتزم السلطان بإقامة نظام برلمانى دستورى طالما قبل بالتصريح . ولعل ذلك يفسر محاولات فؤاد الأول (الذى أصبح ملكا) التملص من إصدار الدستور فيما بعد دون جدوى ، كما يفسر الأسلوب الذى أعد به الدستور، وتدخل الملك فى صياغته .

فبدلاً من أن تضع الدستور جمعية تأسيسية وطنية منتخبة من الشعب، شكل الملك لجنة إدارية حكومية لوضعه، استبعدت منها العناصر السياسية الفاعلة، ولذلك سماها سعد زغلول «لجنة الأشقياء». وبدلاً من تتخذ اللجنة من التجربة الدستورية المصرية التى تمثلها لائحة ١٨٨٢ إطار مرجعياً لها، لجأت إلى بعض الدساتير الغربية - وخاصة الدستور البلچيكى - وصاغت مواد الدستور على هديها ، بعد أن شذبت ما اقتبسته منها بما يتواءم مع رغبات الملك ومضمون تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ . وعندما لم يرض ما توصلت إليه «لجنة الأشقياء» من نص مقترح للدستور مطالب الملك، دفع به إلى اللجنة التشريعية بوزارة الحقانية (العدل) التى راحت تعدل فى المشروع وتوسع سلطات الملك على حساب الشعب. وبدلاً من أن يطرح الدستور للاستفتاء العام قبل إصداره، صدر بمرسوم ملكى (١٩ ابريل ١٩٢٣) فى صورة «منحة ملكية» ، ومن ثم كان من حق الملك استرداد مامنح متى شاء ذلك، وهو ماحدث بالفعل فى الانقلابات الدستورية الشهيرة.

وقد أدت السلطات الواسعة التى خص الملك نفسه بها فى الدستور إلى اضعاف التجربة، والإضرار بالدستور. فاتخذ القصر من أحزاب الأقلية أدوات يستند إليها فى حكمه ، وزيفت الانتخابات ليتم بذلك تقويض المبدأ القائل بأن الأمة مصدر السلطات الذى نص عليه بالدستور، والذى يعد حجر الزاوية فى النظام السياسى الليبرالى . وبذلك قيدت الإرادة الحرة للناخب فى اختيار من ينوب عنه ويمثله فى البرلمان ، ولم تشهد مصر فى تلك الحقبة انتخابات حرة بعد تلك التى أجريت عام ١٩٢٤ وفاز فيها الوفد بالأغلبية سوى مرتين : الأولى فى ١٩٣٦ والثانية فى ١٩٥٠ ، عندما رأى الإنجليز ضرورة تولى الوفد الحكم ومارسوا ضغوطا على الملك لهذا الغرض .

الحقبة الليبرالية وعدم الاستقرار

ولذلك اتسمت الحياة النيابية فى «الحقبة الليبرالية» بعدم الاستقرار . فمنذ برلمان ١٩٢٤ ، توالت على مصر عشر هيئات نيابية حتى قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ولم يكمل برلمان واحد سنواته الخمس على مدى تلك الفترة . فقد انعقد برلمان عام ١٩٢٤ فى مارس ، وتم حله فى ديسمبر من العام نفسه . وعندما أجرت وزارة أحمد زيور الانتخابات اجتمع مجلس النواب يوم ٢٣ مارس ١٩٢٥ ليحل فى اليوم نفسه .

وانعقد البرلمان الثالث فى يوليو ١٩٢٦ لدورات ثلاث ، ثم أوقف محمد محمود باشا الحياة النيابية لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد (عام ١٩٢٨) ولكن وزارته سقطت قبل انتهاء هذه المدة ، وانتخب برلمان رابع فى يناير ١٩٣٠

ليحل فى السنة نفسها (وهى الفترة التى شهدت الاطاحة بدستور ١٩٢٣ واصدار دستور اكتوبر ١٩٣٠) ، ووضع قانون انتخاب جديد ضيق من حق الانتخاب ، وقصره على شرائح اجتماعية معينة . وفى ظل الانقلاب الدستورى ، انتخب برلمان خامس أستمر أربع دورات تشريعية . قطعها عودة دستور ١٩٢٣ من جديد تحت ضغط الحركة الوطنية (ديسمبر ١٩٣٥) . وانتخب البرلمان السادس فى ظل دستور ١٩٢٣ (مايو ١٩٣٦) ، ولم يستمر أكثر من عامين . وقام البرلمان السابع فى ابريل ١٩٣٨ ، والثامن فى مارس ١٩٤٢ ، والتاسع فى يناير ١٩٤٥ ، والعاشر فى يناير ١٩٥٠ .

ومن الغريب أن تشكيل البرلمانات العشرة التى شهدتها مصر فى تلك الحقبة كان يتناقض تناقضا كبيرا من مجلس تشريعى لآخر . فنجد الحزب الذى أحرز الأغلبية فى مجلس نيابى ، يحتل مقاعد الأقلية فى المجلس الذى يليه ، وقد تتحول هذه الأقلية إلى أغلبية ساحقة فى برلمان تال تنتخب بعد شهور قليلة ، وهلم جرا . ولا يعكس هذا التحول تغيراً حقيقيا فى موازين القوى على الساحة السياسية ، أو تحولا فى اتجاهات الرأى العام . وإنما كانت تعبر عن التغير فى المزاج الملكى ، ومهارة وزير الداخلية فى (طبخ) الانتخابات .

ومع عدم استقرار الحياة النيابية خلال تلك الحقبة ، عانت مصر من عدم استقرار السلطة التنفيذية ، فتعاقبت الوزارات على الحكم الواحدة تلو الأخرى، ولم تعمر أى منها إلا أربعة عشر شهرا فى المتوسط ، مما كان له آثاره السلبية على الأداة الحكومية ، وعلى أداء الحكومة، وحال دون متابعة السياسات التى تحولت إلى مجرد «وعود» يحفل بها (خطاب العرش) الذى جرى العرف على أن يلقيه رئيس الوزراء - باسم الملك - عند افتتاح البرلمان ، لأن الملك فؤاد كان لا يعرف اللغة العربية

وألقى هذا الوضع بظلاله على الأحزاب السياسية التى تداولت السلطة فى تلك الحقبة . فإذا كان الدستور قد ركز السلطات فى يد الملك ، ودعم حكمه الفردى ، فقد كان قادة الأحزاب السياسية يتمتعون بصلاحيات مطلقة فى قيادة أحزابهم ، وكان للوفد قصب السبق فى هذا المجلس ، فقد أطلق على سعد زغلول «نبى الوطنية» و«زعيم الأمة» ، وحمل مصطفى النحاس نفس اللقب إضافة إلى «الرئيس الجليل» ولقبه مكرم عبيد ذات مرة «بالرئيس المقدس» ويعكس ذلك أوتقراطية قيادة الوفد التى كانت واء الانشقاقات التى حدثت فيه ، نتيجة انفراد «الزعيم» باتخاذ القرارات حتى لو خالف بها معظم أعضاء «هيئة الوفد» . فحدث الانشقاق الأول فى ٢٥ ابريل ١٩٢٧ ، عندما فصل سعد زغلول معظم أعضاء الهيئة لمخالفتهم له الرأى حول تشكيل وفد التفاوض . ووقع الانشقاق الثانى فى عام ١٩٣٢ ، عندما طرحت فكرة تشكيل حكومة ائتلافية لعقد معاهدة مع بريطانيا وفقا لما أسفرت عنه مفاوضات ١٩٣٠ ، يعاد بعدها العمل بدستور ١٩٢٣ ، فرفض النحاس باشا تلك الفكرة انطلاقا من

مبدأ عدم المساومة بحقوق البلاد ، فاستقال تسعة من أعضاء «هيئة الوفد» (أى نحو ثلث قيادته) احتجاجا على ذلك . وحدث الانشقاق الثالث والخطير عام ١٩٣٧ نتيجة الصراع على السلطة داخل قيادة الوفد ، وهو الانشقاق الذى فصل فيه النقراشى وأحمد ماهر فكونا «الهيئة السعدية» . وحدث الانشقاق الرابع عام ١٩٤٢ بخروج مكرم عبيد فى اطار الصراع على السلطة أيضا داخل قيادة الحزب وشكل «الكتلة الوفدية» ، ونشر «الكتاب الأسود» الذى وصم قيادة الوفد بالفساد .

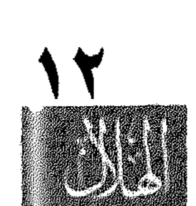
ولم ينفرد «الوفد» بظاهرة استبداد الزعيم بالسلطة ، إذ انتقلت عدواها إلي الأحزاب التى خرجت من عباءته ، فغالبا ما كان رئيس الحزب يتولي تعيين أعضاء هيئة قيادة الحزب ، وقد يطلب إلى الجمعية العمومية للحزب تزكية ذلك التعيين ، وقد لا يهتم بذلك. ولم تكن لتلك الأحزاب - بما فيها «الوفد» - مستويات قاعدية تغذى التنظيمات القيادية بالكوادر . وكان انضمام الأفراد إلى القيادة دون المرور بالعضوية أمرا واردا عند جميع الأحزاب ، مما أتاح لبعض الشخصيات فرصة الانتقال من قيادة حزب إلى آخر أربع مرات خلال ثلاث سنوات .

ولعل ذلك يفسر السهولة التى استطاعت بها ثورة يوليو التخلص من هذه الأحزاب بقرار الحل الذى صدر فى يناير ١٩٥٣ ، فلم تتحرك الجماهير للدفاع عن تلك الأحزاب (بما فيها الوفد) لغياب القواعد الحزبية الجماهيرية فى تنظيماتها ، ولعدم اهتمامها بتربية الكوادر ، ولعجزها - بالطبع - عن طرح البرامج التى تقدم حلولا لمشاكل الجماهير. بينما لقيت ثورة يوليو معارضة ومقاومة لا يستهان بها من جانب التنظيمات الايديولوجية الأقل وزنا على الساحة السياسية كالشيوعيين والإخوان المسلمين لأنها كانت أدق تنظيما مقارنة بالأحزاب الليبرالية ، كما كانت لها قواعد لا يستهان بها .

غياب البرامج السياسية

واشتركت جميع الأحزاب (الليبرالية) فى غياب البرامج السياسية التى تعالج مشاكل المجتمع وترسم إطار السياسات الاجتماعية اللازمة لحلها ، فقد جاءت قيادات هذه الأحزاب من نخبة البورجوازية من كبار الملاك الزراعيين وأصحاب الأعمال ، فلم تهتم إلا برعاية مصالحها الذاتية على حساب مصالح الجماهير الشعبية ، وجاءت دعوات الاصلاح الاجتماعى من عناصر لا تنتمى إلى تلك الأحزاب ، ولقيت تلك الدعوات مقاومة شديدة من جانبهم ، مثل الدعوة إلى الإصلاح الزراعى ، وتوفير الخدمة الصحية للفلاحين ، وحماية الملكيات الصغيرة ، والتعليم الإلزامى . ولم تصدر التشريعات العمالية المحدودة - خلال تلك الحقبة - إلا تحت ضغط الحركة العمالية ، ونصت على استبعاد الفلاحين وعمال الزراعة من نطاق الخضوع لها ، حرصا على مصالح كبار الملاك .

وكانت حجة تلك الأحزاب فى اغفال السياسات التى تعالج المسائل الاجتماعية، أن قضية الاستقلال الوطنى هى القضية الرئيسية ، أما ما عداها من



قضايا ، فتستطيع الانتظار إلى ما بعد تحقيق الاستقلال الوطني . وحتى تلك المهمة العاجلة (الاستقلال الوطنى) أصبحت موضع مزايدات من الأحزاب كلما دارت المفاوضات مع الانجليز حولها ، فإذا لم يكن الوفد طرفا فيها ، هاجم خصومه واتهمهم بالتفريط فى حقوق الوطن .

وأدى هذا القصور فى أداء تلك الأحزاب إلى اتجاه الشباب إلى الالتفاف حول حركات الرفض السياسى والاجتماعى منذ أواخر العشرينات ، وانضمامهم إلى الجماعات ذات التوجهات الماركسية أو الفاشية أو الإسلامية السلفية ، وهو اتجاه زاد وضوحا بعد إبرام معاهدة ١٩٣٦ التى وصفها النحاس باشا بأنها «معاهدة الشرف والاستقلال» .

واشتركت جميع تلك الأحزاب - أيضا - فى ظاهرة محاباة الأنصار عند الوصول إلى السلطة ، فيتم فصل عمد القرى المناصرين للخصوم ، ويرقى الأنصار من موظفى الدولة ترقيات استثنائية ، مع محاباة الأقارب والأصهار .

دور أحزاب الأقلية

ولعبت أحزاب الأقلية - التى خرجت من عباءة الوفد - دورا مهما فى إضعاف النظام ذاته من خلال حملات المهاترات الصحفية التى وجهت ضد الوفد ، أو من خلال الارتماء على أعتاب قصر عابدين (بالملك) تارة ، أو الارتماء على أعتاب قصر الدوبارة (المندوب السامى البريطانى ثم السفير فيما بعد ١٩٣٦) تارة أخرى ، ضمانا للوصول إلى السلطة طالما كانت لا تستطيع تحقيق ذلك بالطرق الدستورية . وكانت تلك الأحزاب نخبوية تقليدية تقوم على عناصر محدودة من الشخصيات ، وترتبط بها ارتباطا وثيقا . وفى ظل ظروف كهذه ، كانت علاقات الصداقة والمصاهرة والقربى أهم من الاتفاق السياسى أو الفكرى ، وكانت الولاءات الشخصية أساس العلاقات السياسية فهى أحزاب أشخاص لا أحزاب مبادىء ، ومن ثم اتسم نشاطها بالانتهازية السياسية ، والبعد عن الجماهير ، فكانت أقرب إلى الأجنحة السياسية منها إلى الأحزاب .

كما أن القيادة السياسية لأغلب هذه الأحزاب جاءت من الشرائح العليا للبورجوازية (كبار الملاك الزراعيين ورجال الأعمال) ، ويشترك معها الوفد فى هذه الخاصية بالاضافة إلى تمثيله للشرائح الوسطى من البورجوازية المصرية ، وإن غلبت على قيادة النخبة المحتلة للشرائح العليا (بعد معاهدة ١٩٣٦) . لذلك لا نجد غرابة فيما توصل إليه عبد العزيز فهمى باشا (عام ١٩٤١) ، عندما كلفه «حزب الأحرار الدستوريين» بدراسة برامج الأحزاب السياسية ، فاكتشف أنه لا فرق بينها ، فجميع تلك الأحزاب - دون استثناء - صاغت برامجها نخبة طبقة اجتماعية واحدة ، لتعبر عن مصالحها ، وعن رؤيتها للقضية الوطنية التى تأخذ بمبدأ التدرج فى تحقيق الاستقلال عن طريق التفاوض . وظلت تلك النخبة الاجتماعية صاحبة الصوت الأعلى ، والتمثيل الأكبر فى السياسة المصرية حتى عام ١٩٥٢ ،

مع اتساع مساحة ممثلى المصالح الرأسمالية الصناعية والتجارية إلى جانب المصالح الزراعية . ولا يستثنى «الوفد» من هذه الظاهرة التى كانت من عوامل تفسخه وضعفه .

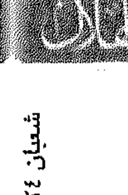
ثمار دستور ١٩٢٣

وخلاصة القول، إن النظام السياسى الذى أقامه دستور ١٩٢٣كان نظاماً أوتقراطياً استبدادياً يلبس مسوح الليبرالية التى تمثلت فيما اشتمل عليه الدستور من مبادئ تتعلق بالحريات العامة والشخصية ومن نصه على أن الأمة مصدر السلطات، إذ سرعان ما كبلت الحريات العامة والشخصيات بالأحكام العرفية التى سادت معظم ما سمى بالحقبة الليبرالية - إلا سنوات قليلة معدودة - استخدمت دائما لضرب المعارضة السياسية وتكميم الصحافة، وحرمان الجماهير الشعبية من التعبير عن مصالحها، بتنفيذ حريتها من ناحية، وتزوير إرادتها فى الانتخابات العامة من ناحية أخرى. وكان الملك هو المصدر الحقيقى للسلطات (وليس الأمة) يشاركه فيها الانجليز بحكم وجود جيش الاحتلال على أرض مصر، ومن خلال ما كفله لهم تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ من حق التدخل فى شئون مصر الدفاعية والتشريعيه فى إطار التحفظات الأربعة الشهيرة، ثم من خلال ما تمتعت به «الحليفة بريطانيا العظمى» من مزايا وفرتها لها معاهدة ١٩٣٦ بعد ابرامها.

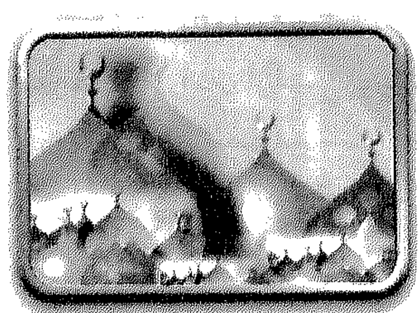
وكيفت الأحزاب السياسية نفسها - بما فيها الوفد - مع هذا الوضع، فجعلت من الوصول إلى السلطة هدفا لها حتى تستطيع تحقيق الاستقلال الوطنى (كما تراه) بوسيلة واحدة هى التفاوض. غير أن هدف الوصول إلى السلطة احتل مرتبة الصدارة على حساب الغاية المنشودة من ورائه (الاستقلال)، وكانت السلطة مغنما عن كل الأحزاب السياسية التى وصلت إليها (بما فى ذلك الوفد) تسعى من وجودها - المحدود زمنيا - على مقاعد السلطة، لتحقيق أكبر قدر من المكاسب الشخصية لقياداتها وأنصارها، وإن تميز الوفد بمحاولة تحقيق بعض المطالب التشريعية للجماهير المصرية فى أضيق الحدود، بما لا يضر بالمصالح المادية للنخبة الحاكمة، ويحقق استرضاء قطاعات من الجماهير التى تستند إليها شعبيته (وخاصة فى وزارة ٤ فبراير ١٩٤٢).

ومن الجدير بالذكر أن السلطات الواسعة التى حظى بها رئيس الجمهورية فى دساتير ثورة يوليو، كانت إعادة صياغة تكاد تكون نصية للسلطات الاوتقراطية التى كانت للملك فى دستور ١٩٢٣.

ولعل مرد ما حفلت به «التجربة الليبرالية» من سلبيات إلى عدم توفر الشروط الضرورية لإقامة نظام سياسى ليبرالى فى مصر توافرا تاما نتيجة تعثر تجربة التحول الرأسمالى عندنا لأسباب محلية وخارجية قد نتناولها فى مقال آخر. ■







جـــزء خـــاص

إســلاميــون وراديكاليــون وليبراليــون

الراديكاليون فى مصر.. الأمل.. والمأزق.. والمصير

بقلم
د. عاصم الدسوقى

الراديكالى Radical هو الذى يريد إجراء تغييرات كبرى متطرفة بالنسبة لما هو قائم وموجود فى بلده من أفكار أو عادات أو أحوال أو مؤسسات ، وهى مشتقة من الأصل اللاتينى radic بمعنى جذر ، ومن هنا يقال أن التغيير الراديكالى تغيير جذرى (راجع موسوعة ويبستر Webster طبعة ١٩٩٤) . وعلى هذا فإن الراديكالية مصطلح واسع المجال يستوعب فى أعطافه كل من وقف ضد كل ماهو قائم أو سائد فى مجتمعه من أفكار وأحوال ودعا إلى تغييرها بالقول أو بالفعل بمفرده أو من خلال جماعة تتفق فى الاتجاه .

وبهذا المعنى فإن قافلة الراديكاليين فى مصر الحديثة طويلة ويمكن أن تبدأ بالشيخ رفاعة الطهطاوى الذى سعى لتغيير عادات بلده بنقل أفكار المجتمع الفرنسى فيما يتعلق بالعقد الاجتماعى وأصل القانون ؛ وعلى مبارك الذى إستثار التفكير المقارن من خلال كتابية «علم الدين» و«نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر» ؛ والأفغانى الذى دفع المصريين للثورة على الظلم ؛ وعبدالله نديم الذى كتب مسرحية «الوطن» دعا فيها إلى الإصلاح الاجتماعى ؛ والشيخ محمد عبده إمام المجددين الذى فصل من الأزهر جراء دعوته لتغيير مناهج التعليم ؛ ومصطفى كامل ومحمد فريد اللذان نذرا نفسيهما لإجلاء الإنجليز عن البلاد حتى لقد وصفتهما التقارير البريطانية بالمتطرفين ؛ وقاسم أمين الذى أثار خاطر المجتمع المحافظ بالدعوة إلى تحرير المرأة ؛ وهدى شعراوى التى كانت أول من خلع الحجاب من سيدات المجتمع المحافظ ؛ والشيخ على عبدالرازق الذى نفى أن يكون نظام الخلافة من أصول الشريعة الإسلامية ؛ وطه حسين الذى أثار المخاوف على التراث بتطبيقه منهج الشك الديكارتى ؛ والشيخ حسن البنا الذى دعا إلى إقامة حكومة إسلامية خلافا لما هو قائم لأن الإسلام دين ودولة

وينضم إلى هذه القافلة دعاة الكتابة بالعامية ومنهم عبدالعزيز فهمى وقاسم أمين أيضا ؛ والشعراء الذين نظموا أشعارهم خارج عمود الشعر فيما وصفه عباس العقاد بقصيدة النثر أو النثر المشعور ؛ وكذلك أصحاب الفن التجريدى فى الرسم والنحت الذين خرجوا على المدرسة الطبيعية .

ورغم أن تلك الكوكبة من المفكرين يعتبرون راديكاليين بالمعنى الإصطلاحى الذى سبقت الإشارة إليه ، إلا أن الراديكالية فى مصر تكاد تنصرف فقط إلى أنصار الماركسية وأعضاء الحركة الشيوعية التى بدأت بإعلان الحزب الاشتراكى فى مطلع ١٩٢١ ، ربما لأن هؤلاء الماركسيين استهدفوا قلب نظام المجتمع رأسا على عقب وبشكل شامل وليس بتغيير أحد جوانبه .

مصر والفكر الاشتراكى الراديكالى

والحق أن الماركسيين كانوا يمثلون خطرا حقيقيا علي المناخ السياسى والثقافى القائم فى المجتمع المصرى المحافظ بطبيعته حتى لقد وصفت أفكارهم رسميا «بالأفكار الهدامة التى يجب حماية المجتمع منها» طبقا لما جاء بالمذكرة التفسيرية لدستور ١٩٢٣ الذى نص على أن الصحافة حرة ، ومن ثم خضوع الصحافة للرقابة والأنذار والتعطيل .

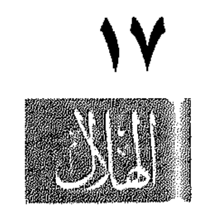
وإذا كان المثقفون السياسيون فى




رفاعة الطهطاوى — طه حسين — حسن البنا

مصر قد تعرفوا على الديموقراطية - الليبرالية من خلال إحتكاكهم بأوربا عن طريق البعثات التعليمية التي بدأها محمد على فى ١٨٢٦ وعملوا على إستزراعها فى التربة المصرية بالقلم ، فإن الفكر الاشتراكى (الراديكالى) عرف طريقه إلى مصر بواسطة الأجانب الذين وفدوا إلى مصر للعمل فى الشركات التجارية والصناعية والخدمية التى أقامها رأس المال الأجنبى حاملين معهم آليات العمل النقابى فى ضوء البيان الشيوعى (١٨٤٨) والدولية الشيوعية الأولى (١٨٦٤) وكوميونة باريس (١٨٧١) ، وفى طليعتهم يونانيين وإيطاليين وأرمن . وكانت باكورة هذا النشاط إضرابات عام ١٨٩٤ التى إندمج فيها العمال المصريون وذلك قبل إنشاء أول نقابة عمالية فى مصر ١٨٩٩ . ثم وفد إلى مصر بعض الروس الذين فروا من روسيا بعد فشل ثورة ١٩٠٥ ، كان منهم روذنشتين الذى عمل فى ١٩٠٧ رئيسا لتحرير الطبعة الإنجليزية لجرنال «اللواء» الذى أصدره مصطفى كامل باسم The Egyptian Standard ثم عمل سكرتيرا للينين بعد ثورة ١٩١٧ . وقد أصدر هؤلاء النشيطين نشرة فى مدينة الإسكندرية باسم «مارياك» أى البحار رفعت لافتات الحزب الاشتراكى الديموقراطى البلشفى ، وأسسوا عدة جمعيات ماركسية الطابع : جمعية الدراسات الاجتماعية وجماعة الوضوح وجماعة اتحاد المستأجرين والاتحاد العام للعمال ولجنة صناديق العمل الحمراء وهدفها جمع مدخرات وتقديمها إعانة للعمال الذين يفصلون من أعمالهم .

ومن الواضح أن هذا النوع من النشاط كان جديدا تماما على حياة المصريين ولم يرتبط به إلا بعض المثقفين ممن أطلعوا على الماركسية ، وبعض العمال الذين نما دخلهم الوعى الطبقى . فلما قامت ثورة ١٩١٩ وسارت

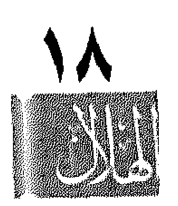


المظاهرات تندد بالاحتلال وتطالب بالجلاء اشتركت العناصر اليسارية فى توجيه تلك المظاهرات ورفعت شعرات تطالب بالخبز والعمل . وهنا إنزعجت السلطات البريطانية من أن تتحول الحركة الوطنية المطالبة بالجلاء إلى حركة اجتماعية لصالح العمال والفلاحين فأوعزت إلى الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية آنذاك لإصدار فتوى ضد الشيوعية فى ١٨ أغسطس ١٩١٩ عن طريق سؤال وصل إلى المفتى من أحد المسلمين جاء فيها : «إن طريقة جماعة البلشفية طريقة تهدم الشرائع السماوية وعلى الأخص الشريعة الإسلامية» . فما كان من «البلاشفة» فى مصر إلا أن أصدروا منشورا يرد على الفتوى عنوانه «اعتنقوا البلشفية أيها المصريون - البلشفية والإسلام والشيخ بخيت» بتوقيع «اللجنة المستعجلة» برقم ٧٣ ، أى أن هناك ٧٢ منشورا سبق نشرها قبل هذا المنشور .

ثم نشر الحزب الاشتراكى بيانه بجريدة الأهرام فى ٢٩ أغسطس ١٩٢١ بتوقيع كل من على العنانى (أستاذ الفلسفة) ، وسلامة موسى (كاتب) ، ومحمد عبدالله عنان (مؤرخ) ، ومحمد حسنى العرابى (تاجر قطن) دعا إلى «إلغاء الاستغلال ومحو التفريق بين الطبقات» . وكان برنامجا بسيطا يمثل الحد الممكن من الإتفاق ربما بسبب تنافر اتجاهات مؤسسية بين الفابية (سلامة موسى) ، والهيجلية اليسارية (على العنانى) ، ومبادىء الدولية الثانية فى الاشتراكية الديموقراطية (محمد عبدالله عنان) . ثم يأخذ الحزب اسم «الحزب الشيوعى المصرى» فى يناير ١٩٢٣ على أساس الماركسية اللينينية بلغت عضويته فى عام ١٩٢٤ سبعمائة عضوا وهو عدد ليس هينا إذا ما عرفنا أن عضوية الحزب فى الصين فى العام نفسه كانت ثمانمائة وفى تركيا ستمائة عضوا . كما تأسس إتحاد عام للعمال ضم حوالى عشرين ألف عامل إنضم فى نهاية ١٩٢٣ إلى الإتحاد العالمى للنقابات .

ومن المهم أن نذكر أن برنامج الحزب الشيوعى تضمن مطالب لم تتحقق إلا بعد سنوات طويلة : من ذلك تأميم قناة السويس (تحقق فى ١٩٥٦) ، وإلغاء الامتيازات الأجنبية (تحقق فى ١٩٤٩ بعد فترة انتقالية من ١٩٣٧) ، وحق النقابات العمالية فى الدفاع عن مصالح العمال (تحقق بشكل جزئى فى ١٩٤٢) ، ومصادرة جميع الملكيات الزراعية أكثر من مائة فدان دون تعويض (تحقق فى ١٩٦١ بقانون الإصلاح الزراعى الثانى) ، وتنظيم فقراء الفلاحين فى نقابات (تحقق بمقتضى الإصلاح الزراعى فى ١٩٦١).

لقد كان مأزق الحركة الشيوعية فى



مصر فى بواكيرها أنها حاولت تنمية وعى طبقى اجتماعى بين العمال ضد الطبقة الاجتماعية الحاكمة من كبار ملاك الأراضى الزراعية والعقارات وأصحاب رأس المال فى الشركات الصناعية والتجارية ، فى الوقت الذى كانت هذه الطبقة فى بداية التكوين إذ ترجع إلى أواخر القرن التاسع عشر عندما استقرت الملكية الفردية للأرض الزراعية ، ولم تكن قد أفرزت بعد سيئاتها فى الاستغلال ، عكس الحال فى المجتمعات الرأسمالية الأوربية التى ظهرت فيها الاشتراكية بعد قرون طويلة من النظم الإقطاعية - الرأسمالية فوجدت إستجابة كبرى بين المطحونين .

ومن ناحية أخرى ففى الوقت الذى كان العمال ينتظمون فيه تحت لواء حزب شيوعى واحد كانت الصفوة الاجتماعية الحاكمة تتجمع فى أكثر من هيئة ومنظمة لحماية مصالحها أبرزها آنذاك : نقابة تجار الأقطان (١٩٢٠) ، والنقابة الزراعية (١٩٢١) ، واتحاد الصناعات (١٩٢٢) ، وشركات التعاون الزراعية للتسويق (١٩٢٣) ، ومن قبل كانت هناك محاولة لتكوين نادى للأعيان ١٩١٨ ، «ناهيك عن عضويتهم فى مجلس النواب والشيوخ بمقتضى دستور ١٩٢٣ الذى كان يمثل مصالح هذه الصفوة جملة وتفصيلا ، وكثيرا ما انتقدوا الشيوعية وحذروا منها ومن أقوالهم فى هذا الشأن : أنه لا مصلحة لمصر البتة فى أن ينشر فيها نظام شيوعى (مجلس النواب فى ١٩٣٠/٤/٣) ، وأن الاشتراكية الزراعية الحكومية أمر غير مرغوب فيه على الإطلاق (مجلس نواب ١٩٣٢/٦/٢٢) ، وأن الملكية الجماعية أو الاشتراكية لا تحقق العدالة فى التوزيع لأن الملكية الفردية امتياز يؤدى إلى أفضل النتائج الاقتصادية» .

الصدام والسرية

وكان لابد من الصدام بين الحركة والسلطات الحاكمة ، ففى أواخر فبراير ١٩٢٤ وبعد أقل من شهرين على حكومة سعد زغلول إندلع إضراب عمال مصانع الغزل والنسيج الأهلية بالإسكندرية واحتل العمال المصانع بعد طرد أصحابها ، وسرعان ما تم اعتقال زعماء الحزب الشيوعى من ثلاثة عشر مدينة وأودعوا السجون (١٩٢٤/١٠/٦) . ومنذ ذلك التاريخ أخذ العمل الشيوعى طابع السرية ، ففي مطلع العام التالى (١٩٢٥) جاء إلى مصر مندوب الكومنتيرن لإعادة تأسيس الحزب الشيوعى ونجح فى تكوين فرعين : واحد بالقاهرة وسكرتيره عبدالسميع الغنيمى الموظف بوزارة المعارف ، والثانى بالإسكندرية وسكرتيرته شارلوت روزنتال وهى يهودية روسية . وأصدر الحزب جريدة «الحساب» لسان حال العمال والفلاحين صودرت بعد ثمانية

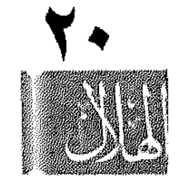
أعداد . وكان هدف مندوب الكومنتيرن توحيد الأحزاب الشيوعية فى كل من مصر وفلسطين وسوريا . ولا يغرب عن البال أن حركة التوحيد هذه مع وضع وفلسطين تحت الإنتداب البريطانى (١٩٢٢) والتزام بريطانيا بإنشاء وطن قومى لليهود هناك طبقا لوعد بلفور كان يستهدف خدمة المشروع الصهيونى وهو ما إتضح فى موافقة الشيوعيين المصريين فيما بعد على قرار تقسيم فلسطين (نوفمبر ١٩٤٧) . ولكن سرعان ما تم القبض على عناصر الحزب الجديد وقياداته فى يونية ١٩٢٥ بعد أقل من ستة أشهر من إعادة تأسيسه.

الشيوعية واليهود

وفى ثلاثينيات القرن العشرين أعيد إحياء الحركة الشيوعية فى مصر على يد اليهود الذين فروا من ألمانيا وخاصة بعد أن تولى هتلر الحكم فى ١٩٣٣ وتحالف مع إيطاليا الفاشية بزعامة موسولينى وتكونت عدة منظمات : أنصار السلام ، والفن والحرية ، والخبز والحرية ، وجماعة الدراسات ، والنادى الديموقراطى ، وجماعة مناهضة العداء للسامية وهو اسم له مغزاه . ويعلن الحزب الشيوعى برنامجه فى ١٩٣١ مناديا بتحرير كل الشعوب العربية من أجل وحدة عربية شاملة ، والإطاحة بالنظام الملكى ، وفصل الدين عن الدولة ، وفصل القضاء عن الدين . ثم تصطدم الحركة بالسلطة فى منتصف الأربعينيات إحتجاجا على تعثر المفاوضات مع بريطانيا ، ولم تكن حكومة إسماعيل صدقى رجل اتحاد الصناعات أقل عنفا من حكومة سعد زغلول زعيم الأمة فى المواجهة ، إذ تم اعتقال زعماء الحركة (يوليو ١٩٤٦) وأضيفت لقانون العقوبات مواد تقضى بسجن كل من يؤسس منظمة شيوعية أو يشترك فيها .

على أن الشيوعيين لم ييأسوا وواصلوا النضال وتشكيل المنظمات برغم تشديد العقوبة ، ومع تدهور الأوضاع الاجتماعية والسياسية فى مصر إنضمت أعداد هائلة من كافة شرائح الطبقات الاجتماعية إلى قافلة اليسار من أبناء الصفوة الاجتماعية الحاكمة ومن أبناء الطبقة الوسطى فضلا عن العمال والفلاحين مما يؤكد عدم الربط بين الوضع الاجتماعى للإنسان وبين إنتمائه الفكرى ، فكانت الحركة المصرية للتحرر الوطنى ومنظمات إيسكرا وتحرير الشعب والفجر الجديد .. إلخ . وأكثر من هذا سعت الحركة لإختراق الجيش وتشكيل خلايا داخله بين الضباط وصف الضباط والفنيين لتحقيق الجلاء بالكفاح المسلح .

واللافت للنظر فى الحالة الشيوعية فى مصر بالنسبة لنظيرتها فى أوربا الرأسمالية أمر غريب يستحق التأمل . ففى أوربا كان مجرد إعلان البيان الشيوعى وتكوين الكومنتيرن والتبشير بحتمية انهيار الرأسمالية وإقامة حكومة الطبقة العاملة كفيلا بإثارة مخاوف



القوى الرأسمالية الحاكمة فنجدها تبادر بتجديد آليات الحكم حتى تتجنب الأزمة وتفوت الفرصة على الشيوعيين . ومن هنا تعميم الحقوق الدستورية ، وتقديم تنازلات للطبقة العاملة ، وتوفير الحاجات بنظام التقسيط المريح جدا حتى لقد انقسمت المدرسة الماركسية على نفسها حيث ظهر فريق رأى إمكانية الوصول إلى الاشتراكية من خلال صيغة الديموقراطية القائمة دون عنف ثوري ، على حين أن الحركة الشيوعية في مصر لم تؤد إلى خوف الرأسمالية - الإقطاعية الحاكمة على نفسها وبالتالي لم تفكر في تقديم تنازلات من أي نوع ، ورأت في الشيوعيين عناصر حرمها الله من نعمة الرضا ، ولم تجد إلا الاعتقالات وأحكام السجن سبيلا لحماية ثرواتهم ..! ترى ما السبب في هذا ؟ هل يعود إلى طبيعة الشخصية المصرية صاحبة الإعتدال التي تحرص دوما على «تجنب وجع الدماغ» كما يقول عامة الناس عندما تصادفهم معضلات شديدة .. هل أن مصر كما قال عنها كين بويد في ١٩٢٤ رجل المخابرات الإنجليزية في مصر «محظوظة بأهلها الذين لايعتبرون أرضا خصبة لبذر بذور الشيوعية فيها .. وأنه لا خوف من الشيوعيين الذين يمكن استمالتهم بطريقة أو بأخرى .‹›» .

الشيوعيون وثورة يوليو

أما المأزق التالي للراديكاليين المصريين فكان مع ثورة يوليو ١٩٥٢ التي قام بها الضباط الأحرار ، وكان المأزق الأصعب لأكثر من سبب ، فمن ناحية كان الشيوعيون قبل الثورة يعادون طبقة كبار الملاك وأصحاب رأس المال في سبيل تحقيق مبدأ العدالة الاجتماعية وجاءت الثورة للإطاحة بالملك أكبر ملاك الأراضي الزراعية وتنحية صفوة الملاك عن الحكم . ومن ناحية أخرى كان الشيوعيون يطالبون بجلاء الإنجليز وهو نفس ماسعى إليه الضباط . ومن ناحية ثالثة كان تنظيم الضباط الأحرار يضم بين صفوفه عناصر شيوعية عسكرية ومدنية !! .

وعلى هذا انقسم الشيوعيون تجاه حركة الضباط ما بين اعتبارها انقلابا عسكريا فاشستيا أثرا بالمقولات الماركسية عن أن الجيش والشرطة أداة في يد الطبقة الرأسمالية - الإقطاعية الحاكمة ، وبين اعتبارها ثورة طبقة وسطى لصالح العمال والفلاحين مما أدى إلى مزيد من الانشقاقات وتبادل الاتهامات بين الشيوعيين . ثم جاء إعدام خميس والبقري عمال كفر الدوار (١٨ أغسطس ١٩٥٢) تذكرة للشيوعيين بما حدث في ١٩٤٦ ، ١٩٢٤ ، وكذا التخلص من خالد محيي الدين ويوسف صديق الشيوعيين الوحيدين في قيادة الثورة انتصارا للفريق الذي دمغ حركة الضباط بالفاشية .

وزاد من انقسام الشيوعيين على أنفسهم تجاه يوليو الإجراءات التى قامت بها حكومة الضباط لصالح العمال والفلاحين من حيث إلغاء الفصل التعسفى للعمال ، وإقرار الإصلاح الزراعى ، والإعلان عن مواجهة الاستعمار وتحقيق الجلاء بإتفاقية أكتوبر ١٩٥٤ والانضمام لمجموعة الحياد الإيجابى وعدم الانحياز ١٩٥٥ وكثر احتقار السلاح والاتجاه ، نحو المعسكر الاشتراكى والاعتراف بالصين الشعبية (١٩٥٦) ثم إجراءات التأميم وإنشاء القطاع العام .. إلخ ، إذ وجد البعض أن ما يقوم به الضباط هو ذات مايسعى الشيوعيون لتحقيقه ومن ثم فلماذا الوقوف ضد الضباط ؟ .

ثم تمت المصالحة بين الضباط وقيادات الشيوعيين على أساس حل الحزب الشيوعى والإندماج فى الاتحاد الاشتراكى الذى يضم «تحالف قوى الشعب العامل» . ومرة أخرى ينقسم الشيوعيون على أنفسهم فالذين لم تكن لهم كلمة فى حل الحزب رفضوا التعاون مع حكم جمال عبدالناصر فانصرفوا إلى هامش الحياة السياسية ، أما الذين قبلوا سواء عن إقتناع بأن رسالة الاتحاد الاشتراكى هى ذاتها رسالة الحزب الشيوعى أو بسبب اليأس من النضال الذى طال أمده دون جدوى من التغيير إلا تغيير السجن بين كل اعتقال وآخر ، تولوا مسئولية تكوين منظمة الشباب الاشتراكى والمعهد العالى للدراسات الاشتراكية وتثقيف الشباب وأعضاء التنظيم السياسى فى وحدات الإنتاج والخدمات والقرى والمدن .

السادات واليسار

وما أن تولى السادات الحكم دخل فى صراع مع اللجنة التنفيذية العليا للتنظيم السياسى (الاتحاد الاشتراكى) وأطاح بأعضائها ليلة ١٥ مايو ١٩٧١ بدعوى أنهم عملاء للاتحاد السوفييتى ، وبدأ فى مغازلة الولايات المتحدة الأمريكية بدعوى أنها تملك فى يدها ٩٩٪ من أوراق الصراع العربى - الإسرائيلى . وهنا انتفض طلاب الجامعات هجوما على السادات فأعادوا إلى الأذهان حركة فبراير ١٩٤٦ (اللجنة العليا للطلبة والعمال) بدرجة أو بأخرى واحتلت حركة الطلاب مقاعد الراديكالية التى كانت قد خلت تقريبا منذ تصفية الحزب الشيوعى وأصبح الطلاب ضيوفا دائمين على المعتقلات .

وبعد انتهاء حرب أكتوبر ١٩٧٣ أراد السادات أن يقدم نفسه ديموقراطيا للغرب الأوربى - الأمريكى فابتدع فكرة منابر الرأى التى تحولت إلى أحزاب سياسية فى أكتوبر ١٩٧٦ وكان حزب التجمع الوطنى التقدمى والوحدوى يمثل اليسار وكان السادات يصفه بالمغامر وينعت اليمين بالرجعية على أساس أن السادات نفسه يمثل الوسط الذهبى . ويلاحظ أن حزب التجمع الذى رأسه خالد محيى الدين ضم مختلف

الاتجاهات اليسارية من شيوعيين وناصريين وعناصر دينية مستنيرة فى محاولة لتأسيس جبهة ما ، نراه يكتفى بكلمة «تقدمى» بديلا للإشتراكية التى أصبحت كلمة غير مقبولة فى عصر الإنفتاح الاقتصادى ، واكتفى بكلمة «وحدوى» بديلا للعروبة التى لم يعد يقبلها الغرب وترفضها عناصر مصرية تدعو إلى انعزال مصر داخل حدودها لصالح المركز العالمى . وسرعان ما خرج الناصريون من التجمع وأسسوا حزبا مستقلا فى ١٩٩٢ .

على أن مأزق حزب التجمع والحزب الناصرى وكل من يمثل اتجاها راديكاليا بالنسبة للحزب الوطنى الحاكم يتمثل فى أن الحكومة تسيطر على الحياة الحزبية بعد أن أفرغتها من مضمونها وحولتها إلى فروع لها ، وإلا فماذا تنتظر من حزب راديكالى يباشر نشاطه بموافقة الحكومة التى تمنحه مقرا ومالا ويباشر نشاطه تحت رحمة قانون الطوارىء !!

والخلاصة إن الراديكاليين فى مصر فشلوا فى الوصول لكراسى الحكم ، وفشلوا فى تحقيق أغلبية فى مقاعد الهيئة التشريعية تمكنهم من فرض تشريعات العدالة الاجتماعية ، بل لقد صدرت قوانين تصفية القطاع العام ورفع الدعم عن السلع وإطلاق الأسعار وترك فرص العمل لآليات العرض والطلب و«تحرير» العلاقة بين المالك والمستأجر .. فى وجود أعضاء راديكاليين بمجلس الشعب .. أليست هذه هى الاشتراكية الديموقراطية التى رفضها لينين !!

لكن الراديكاليين فى مصر نجحوا أيما نجاح فى حفر تيار الواقعية الاشتراكية فى التربة الثقافية ، إذ أثروا الفكر والفن والأدب إثراء كبيرا وتعلم الناس كيف يبحثون عن الأبعاد الاجتماعية والسياسية فى العمل الأدبى والفنى ، كما كانت كتاباتهم عن تاريخ مصر الاجتماعى وتفسيره ماركسيا تأثيره الكبير على جيل من طلاب التاريخ فى الجامعات الذين أقبلوا بنهم ملحوظ على دراسة التاريخ الاقتصادى - الاجتماعى وتفسيره ماركسيا بعد أن كانت دراسة التاريخ أسيرة المنهج المثالى ، وكذلك الحال في أقسام الاجتماع التى كانت الدراسة بها تدور فى نطاق دوركايم وماكس فيبر .

أما التغيير فى سياسات الحكم فموضوع آخر ، إذ تعلمنا من تاريخ مصر الطويل كل محاولات التغيير الاجتماعى لصالح الطبقة الوسطى والعمال والفلاحين تتحطم على صخرة الدولة المركزية إلا إذا كان الحاكم نفسه مقتنع لسبب أو لآخر بإجراء تغييرات معادية للمركز العالمى كما حدث زمن محمد على باشا والخديو إسماعيل وجمال عبدالناصر . ■



جـزء خـاص

إسلاميون وراديكاليون وليبراليون

من هنا نبدأ

الإسلام والتجديد

لا يوجد تداول للسلطة فى الأوساط الثقافية!

بقلم
هبة رؤوف عزت *

تعد الأسئلة التى يثيرها العقل الحضارى فى لحظات تاريخية معينة الخطوة الأهم قبل العكوف على بلورة الإجابات، ذلك أن بذل الجهد فى الإجابة المتأنية المدققة على أسئلة خاطئة فى جوهرها هو العثرة التى يقع فيها الفكر فى مرحلة تاريخية ما، فلا يفلح فى الخروج من الجمود فيضيع جهد المخلصين هباء، ولذا تغدو مسألة إعادة النظر فى الأسئلة ذاتها ومراجعة المسلمات والموضوعات التى استقر عليها هى بداية النهضة ومفتاح التجديد المنشود .

* مدرس مساعد العلوم السياسية - جامعة القاهرة

ولا خلاف على أن قضية تجديد الخطاب الدينى من القضايا التى تحتل أولوية على أجندة النهضة من أجل خروج الأمة من مآزقها الكثيرة. فالبديل لتطوير تلك «الأجندة» هو خروج الأمة من التاريخ . لكن السؤال هو كيف؟ كيف يمكن تطوير الخطاب الدينى ليصبح خطابا تجديديا نهوضيا فاعلا؟.

يمكن القول أن الإجابة تدور حول ثلاثة محاور رئيسية: أولها حال العقل المجدد ولحظته الراهنة، والثانى: هو القضايا التى هى موضوع التجديد، والثالث: هو السياق الأوسع لـ«حالة التجديدية».

أولا: حالة العقل وأفقه :

هل يمكن أن ننشد تجديدا والعقل المنوط به هذا التجديد يعانى هو ذاته من مشكلات جمة تعوق تحليقه مجتهدا ومتجاوزا للحظته الراهنة ؟

يمكن رصد ثلاثة قيود أساسية تكبل هذا العقل وتحول بينه وبين مواجهة التحديات الراهنة الوطنية والدولية العالمية :

١ - انحسار معارف هذا العقل عن مساحات العلوم الاجتماعية واقتصاره على ما سمى بـ«العلوم الشرعية»، ولعل أبرز أسباب هذا الانشطار الذى نعانيه هو واقع النظام التعليمى ما بين نظام «حداثى» غربى فى كليات العلوم الاجتماعية فلا يدرس طلابها ولو نبذة عن العلوم الشرعية، فى حين يدرس طلاب التعليم الدينى الفقه والعلوم الشرعية دون معرفة بالنظريات الاجتماعية المتغيرة والتى هى مدخل فهم الحداثة التى نعيش فيها مدنا وإعلاما واتصالا وعلاقات ، ولذا يبقى الفريقان فى انفصال وانفصام، ولذا فإن تأسيس المعرفة التجديدية يجب أن يعبر هذه الفجوة فى الاتجاهين ، ليس بعلمنة مناهج التعليم المدنى ولا بتحديث - وأيضا علمنة - مناهج نظام التعليم الدينى ، من أجل تجاوز حالة التوجس بين الدائرتين ، والتى تظهر جليا عند تناول موضوع التعددية السياسية والحرية الفكرية. ولا حاجة هنا للتفصيل فى أن عبور تلك الفجوة رهن بمشروع وطنى لتطوير النظام التعليمى برمته والذى لا يمثل التعليم الدينى أكبر الخطر فى خريطته الراهنة بل التعليم الأولى الذى لا يدرس فى ظله الطالب لغته القومية ولا عقيدته الدينية، بما ينذر بمزيد من الاستقطاب الاقصائى لغياب الأرضية المشتركة لا من الفكر والمفاهيم بل من اللغة والمفردات ابتداء .

٢ - انحسار سلطة هذا العقل عن تغيير الواقع بما أفقده الدافع للتجديد ، فقد تم تهميش العلماء من قبل النظام وتم تأميم مؤسسات الوقف والتعليم

والافتاء التى ضمنت لهم عبر القرون الاستقلال المالى وبالتالى الفكرى، كما حفظت لهم مكانة اجتماعية وأدبية متميزة بين الناس (لا فوقهم)، وعندما تراجعت مكانتهم على خريطة القوة (ولا أقول السلطة) وبرزت نخب سياسية واقتصادية وفكرية جديدة مختلفة، افتقد العقل الفقهى الاجتهادى الدافع الأساسى للتجديد والتطوير وانشغل بالقضايا الفرعية التى لا تسبب صداما مع السلطة ، لذا فإن تنشيط العقل الاجتهادى مقترن باستعادة أصحابه المكانة وقوتهم وإحساسهم بالجدوى الوجودية بما يدفع بدوره للشعور بالتأثير مما يستنفر الذهن ويشحذ التفكير .

٣ – اعتزال هذا العقل الشرعى مساحات الهموم العامة وانغلاقه فى الهموم الفردية للناس واليومى من مشكلاتهم ، بما أحدث – ومنذ قرون – خللا فى خريطة الاجتهاد ، فتطور فى مجالات فقه العبادات وأبوابه، فى حين لم يتواكب هذا مع تطور فى الاجتهاد فى فقه المعاملات ، ولا أقصد هنا جدل الاقتصاد الاسلامى الذى بزغ وكان آمنا بدرجة كبيرة وبدعم من أنظمة وتيارات لا مجال لتفصيلها هنا ، وإنما أقصد بالأساس فقه السياسة وفقه العولمة الاقتصادية والثقافية ، والتى استقل بالحديث فى مباحثها المفكرون المستقلون أو الحركيون والحركات الإسلامية ، والذين لم يطوروا رؤى مركبة فى شئون الديمقراطية وحقوق الانسان تتجاوز العموميات ولا أفكار وأطروحات فى فهم النظام الرأسمالى العالمى وأدواته الثقافية تتجاوز المقولات الفضفاضة التوفيقية ، وبقى الخطاب الدينى الشرعى بمنأى عن تلك المساحة هو الآخر فعانت من سطحية بالغة فى التعامل الفكرى معها ، وزاد الأمر سوءا انقطاع الفكر الدينى والحركى عن الفكر الماركسى الذى حاول تطوير أدوات لفهم مسالك القوة الرأسمالية وعملها وديناميتها قطريا وعالميا ، ابتعد الشرعيون بالأساس لمقولة ماركس أن الدين أفيون الشعوب (وقد كان بالفعل فى واقع ماركس) ولفقر الماركسية من الناحية الأخلاقية ، وابتعد الحركيون لحسابات المنافسة مع التيارات السياسية اليسارية ، رغم أن الفكر الماركسى بمدارسه المتجددة بالغ الأهمية فى تفيهمنا آليات العولمة وجدلياتها ، لكن الفكر الدينى بل والحركى (منذ العدالة الاجتماعية فى الإسلام ربما لسيد قطب حتى الآن) لم يطور تصورا متكاملا ومتطورا حول قضايا العدل الاجتماعى والحرية الاقتصادية ، لكن هذه قضية مستقلة

تستحق بحث مستقل .

ثانيا : قضايا التجديد : ما وراء الفقهى وما قبل السياسى

إذا كان هذا حال العقل كما سلف البيان فما هى القضايا التى يجب أن توضع على خريطة العقل من أجل تطوير الخطاب الدينى بصددها؟ أى ما هى الأولويات الملحة التى نريد لهذا الفكر أن ينشط للإجتهاد بشأنها ؟

لاشك أن التحديات التى نواجهها كثيرة والقضايا متشابكة ، لكن هناك ثلاثة ملفات أساسية أعتقد أنها الجديرة بالنظر والتحليل والبحث من أجل تنمية «الخيال الاجتهادى» وبالتالى الفكر والخطاب الدينى :

١ - قضايا العمران والمكان

فقد انشغل الفكر الدينى وكذلك الخطاب الإسلامى بالقضايا الفقهية التفصيلية والأبعاد الأخلاقية الظاهرية ، لكن السياقات المكانية لتنزيل تلك القواعد والآداب لم تنل الحظ الكافى من التأصيل لفهم التحول الذى أصابها فى ظل اتساع السوق الرأسمالى وإعادة تشكيله للمساحة فالاقتصاد الرأسمالى الصناعى ثم المعلوماتى العالمى قام بتغيير أمكنة الاجتماع الإنسانى ومنطقها ، وأبرز مظاهر ذلك تحولات المدن كمراكز اقتصادية ونقاط محورية فى علاقات العولمة ، ومن أبجديات أصول الفقه الشرعى والحضارى أن نفهم سياقاتنا المكانية .

فما هو سبيل لتنزيل الشرع والآداب فى فضاء المدن التى تخلق مساحات ومسافات وتفاعلات اجتماعية وأنماط سلوكية لا تتعلق بإرادة المواطن المنفردة بل بهيكل وبنيان المدن وتخطيطها وعمارتها ؟ وكيف يمكن إدارة الشورى كأداة فى يد الجماعة الاجتماعية أو السياسية مع تفكك البنية الاجتماعية على خريطة النمو العمرانى العشوائى الذى يفرز الفقر أفقياً أو الاغتراب والفردية رأسياً ؟

فى أبواب فقه المعاملات نجد تأصيل وتفصيل لأحكام المعاملات المالية مثل إحياء الموات والخراج وحق الاختصاص ، وحق الارتفاق والشفعة وحق التعلى وحق الجوار وحق الخصوصية وحق الطريق ، وغيره .

وفى الفتاوى الكبرى فى تراثنا الفقهى تفصيل وشرح ورؤى عميقة لجوانب هذه القضايا المختلفة . ثم هناك كتب السياسة الشرعية فى حديثها عن ترتيب السلطات وإدارة الأسواق والأوقاف .

ثم هناك كتب الأدب التى تذكر مسارات الحياة الاجتماعية وتفاعلاتها المختلفة ، وهناك كتب التاريخ والخطط التى تعطينا صورة عن كيفية إدارة

الحياة فى المدن الإسلامية .

والحق أن كل هذه النقاط المبثوثة تشكل فى كليتها رؤية متماسكة متكاملة لعلاقة الإنسان بالمكان وبالشريعة التى تتجاوز هنا التعريف القانونى الضيق لتشمل الأعراف والآداب ودورة المجتمع المدنى وتفاعلاته مع محيطه المعمارى وصلته بالأرض وسكانها .

ولقد شكل المحيط العمرانى رؤية الفقيه والأديب والمؤرخ للسلطة وللحيز والمكان ، وانعكست عليه رؤى الإنسان السائدة وعقيدة التوحيد وما ترتبه من مفهوم للحقوق والجماعة والنفع والاستخلاف ، ومع تحولات العمارة وتشكل المدن الحديثة لخدمة منظومة رأسمالية كان لزاما التساؤل عن صيغ وتحديات تنزيل الشريعة على عمران متحول أقل مايوصف به أنه معمار « كاذب » ظاهره لا يعكس قيم سكانه الباطنة بل ويتحداها ، وقد يوصف فى وصف أشد قسوة أنه معمار ضد الشريعة ، يشلها ويقننها ويقتلها بمعاداته لفكرة الأمة أو الجماعة العضوية ، وفكرة العرف ومساحات السلطة الشعبية ودوائر التفاعل الدينى وطقوس الثقافة المحلية التضامنية ، معمار يكسر بوابات الحارات كما فعل الفرنسيس عند احتلال القاهرة ، ويتجاهل خصوصية الأمكنة ، وينمط فكرة «العلو فى البنيان» بتثمينه للأرض بما هو خارج عن خراجها ومرتبط بحسابات رأسمالية وطبقية ، ويكرس المركزية ويفتح كراهية وعنوة دوائر الخصوصية بل والشروط الدنيا للعيش الإنسانى .

٢ - قضايا الوجود وحقوق الإنسان

فالخطاب الدينى والحركى الإسلامى بحاجة إلى تجاوز المقولات العامة إلى اشتباك حقيقى وواقعى مع قضايا الوجود والجسد والحقوق الإنسانية ، وتسكين الأحكام الفقهية التفصيلية فى أطرها الكلية المرتبطة بمقاصد الشريعة ، والدوران مع هذه المقاصد فى المساحات المكانية آنفة الذكر ، وإعادة صياغة اللغة التى يتم بها التوجه للناس لتكون لغة دالة وليست لغة اصطلاحية وحسب (مثل الانتقال من فقه فتنة المرأة إلى فلسفة الجسد وعلاقته بالقيم وبإدراك الذات فى التصور الإسلامى - رجالاً ونساءاً) . ولعل مفهوم المواطنة بما طرأ عليه من اتساع وتطوير فى الفكر الغربى بمدارسه الأيدلوجية المتنوعة يمثل مفهوماً صالحاً للتطوير - والتطويع - من أجل حفظ حقوق الناس فى ظل تراجع دور الدولة من مساحات الضمان الاجتماعى وضعف الشبكات الاجتماعية التقليدية الداعمة للأفراد ،

بما يتجاوز الحديث عما «كفله الإسلام» من حقوق للفئات الاجتماعية المختلفة إلى تفصيل كيفية حماية هذه الحقوق فى السياسات العامة والموازنات الحكومية ، وهى الكيفية التى تستلزم عودة احترام الإنسان كفاعل له حقوق أساسية ، وسبل حماية مصلحة الأفراد والجماعة فى توازن متناغم ، وهو اجتهاد لابد أن يشتبك مع تحولات السوق بمعناه الشامل وسياسات التكيف الهيكلى والخصخصة والآثار بعيدة المدى لها على توازن القوة بين الطبقات والشرائح الاجتماعية ، وهى قضايا تحتاج اجتهاد جماعى ولن يفلح العقل والخطاب الدينى الحالى فى الاشتباك معها دون تطوير لحالة العقل كما سبق بيانها ، وإلا بقى يخاطب واقعاً متخيلاً ويتحدث عن حقوق تضيعها الهياكل والسياسات والتشريعات وتنتهكها فى تفاصيل الإدارة المؤسسية وتركيبة التفاعلات الاجتماعية بشكل يومى ومستمر .

٣ - قضايا المشاركة والعمران

فلم يعد من الممكن الصمت والتعميم تجاه قضايا التمثيل والحضور الجماهيرى وتداول السلطة والشفافية ومكافحة الفساد، ببساطة لأن أثرها على أحوال الناس اليومية فادح الثمن ، وهى من أصول البلاء بحيث يصبح التعامل مع القضايا الفرعية للتفكير والفقه والفتوى دون تغيير أسباب المشكلات دوران فى حلقة مفرغة .

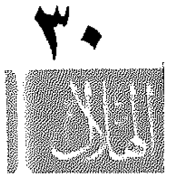
والمذهل أن متابعة الجدل الدائر بين التيارات الفكرية يجده رغم مظهره السياسى الصاخب متجاهلا لأبرز موضوعات الجدل السياسى فى مجتمعات عديدة أخرى، من اختلاف ونقاش بشأن القيم العامة التى ينبنى عنه العقد الاجتماعى وتحولاتها ومستقبل التعامل معه ، أو كيفية تحديد مساحات الخصوصية ودوائر الاجتماعى العام، أو الفلسفة التى يقوم عليها النظام التعليمى ، أو السياسة الاعلامية والعلانية وعلاقتها بالمجال العام وبالثقافة وبالهندسة الاجتماعية التى تفرزها آليات السوق والتسويق وتلعب دورا أساسيا فى تشكيل الوعى بعد أن سقط مفهوم الاعلام الجماهيرى وأصبح المجتمع استهلاكيا يكرس الفردية والشراهة الشرائية وتطارد لافتات وشاشات الدعاية فيه المواطنين على الأرصفة وفى المحلات التجارية بل وداخل أورقة السوبر ماركت بشكل غير انسانى . هذه البيئة الاجتماعية ومن وراءها البيئة الطبيعية التى تعانى من ذلك التحول الرأسمالى المشوه ، ويموت الناس فيها على الأسفلت فى حوادث الطرق

بمعدلات هى الأعلى فى العالم ، فيصبح الخطاب الدينى فى مواجهتها قدريا يؤمن بأن لحظة الموت لا فكاك منها (ونحن والله نشهد) بدلا من أن يكون أفق هذا الخطاب ما وراء القدر هو التأصيل لمفهوم المسئولية والمحاسبة والعدالة القضائية والمساواة أمام القانون بين الطبقات الاجتماعية عند التقاضى، والدفاع عن الحقوق البيئية للأفراد ومكافحة التلوث والتأكيد على أن حق الحياة يبدأ بضمان الحد الإنسانى من نوعية الحياة الإنسانية وليس محض العيش على هامشها .. المتآكل .

الخطاب الدينى .. الخطاب الديمقراطى

تبقى المسألة الثالثة هى اللحظة التاريخية والسياق، المحلى والعالمى، وقد تعمدت ألا أضع حرف الواو بين الخطابين فى العنوان هنا، ذلك أن العقل الذى نطالبه بأن يجدد تفكيره وخطابه الدينى إذا فعل ذلك بجدية واشتبك مع القضايا التى حددناها كأولويات للتفكير والاجتهاد لابد أن يجد نفسه فى قلب جدل الديمقراطية، مخيرا بين أن يكون مع السوق الرأسمالية أو مع الإنسان ، وأن يكون إما مع العدل الاجتماعى والحرية السياسية والاستقلال الوطنى أو مع العولمة الرأسمالية وأجندتها، ولا أكتفى بالقول بأن الخطاب الدينى الذى سينقذ واقعنا من أزماته لابد أن يكون خطابا تحرريا (بالمعنى «الوطنى» الذى عهدناه فى الأربعينات) بل أذهب إلى حد القول بأنه تطور هذا الخطاب هو شرط من شروط أى تحول ديمقراطى وطنى حقيقى اليوم ، إذ لم تعد المفاهيم الأيدلوجية الرخوة قادرة على دأب الفجوة بين واقعنا ومستقبلنا ، ولطالما قلنا أن الخطاب الدينى مصدر خصب لخطاب إنسانى تحررى لكن قلما عكفنا على أداء هذه المهمة ، كما أن صياغة خطاب وطنى ديمقراطى مستقل وعالمى رحب فى الوقت ذاته لا يمكن أن يحدث بقطيعة مع ثقافتنا التى تحمل مقومات دينية وإنسانية فى آن واحد، وهى التربة التى نزرع فيها جذورنا ثم تنمو أشجارنا نحو السماء، حتى وإن انحنت للريح وقت العواصف.. الرعدية .

لكن كيف يمكن تجديد الخطاب الدينى دون تغيير جوهرى فى الشروط الموضوعية المكبلة له ، ودون اشتباك مع القضايا الحقيقية التى ما فتئنا ندور حولها ونخشى مواجهتها باستقامة وصراحة ، ودون تثوير خطابنا الثقافى على كافة الأصعدة والذى شاخ ومازال يجتر نزاعات عقود مضت ببساطة لأن أصحابه عاشوا هذه العقود ، ولا يوجد



تداول للسلطة حتى فى الأوساط الثقافية بل والابداعية .

لم يعد وصف «الوسطية» كما يستخدم الآن فى أدبيات مطالبة الخطاب الدينى بأن يتطور - فى ظنى - مناسبا (فهذا مختلف عن الوصف القرآنى لنا بأننا أمة وسط)، إذ أن الوسطية فى الخطاب السياسى السلطوى لم تعد ميزانا عادلا له معايير أصيلة بل مساحة من الرمال المتحركة يحدد معاييرها من يحدد الوسط والتطرف منسوبا إليه هو كقوة مهيمنة ، أو إلى مواقفه ومصالحه كقوة «امبراطورية» ، لذا اخترت قبل أن أشرع فى كتابة هذا المقال أن يكون وصف الديمقراطية التى يجب أن يتسم بها الخطاب الدينى هو وصف «الديمقراطية الراديكالية» ، أى التى تنشد التغيير والنهضة لا تثبيت الوضع القائم بآليات ديمقراطية شكلية دون أن يتزحزح أحد من مكانه - فكريا أو هيكليا، وهو وصف معتمد ومعتبر فى أدبيات فقه الديمقراطية المحترمة ويحررها من اقترانها الشائع / الزائف بالليبرالية الاقتصادية وسياسات السوق، لكن لفظ الراديكالى - مثل وصف «الثورى النضالى» و«الرسالى الجهادى» صار من الألفاظ المصادرة التى تم الإساءة لسمعتها عمدا لأسباب «عولمية»، لذا آثرت أن أسميها الديمقراطية الوطنية ، وأن أسمى «الوسطية» الرائجة فى مقولات المطالبة بتجديد الخطاب الدينى «بالوسطية المشروطة» ، وشروطها هو مناط نفيها وتقويضها ، وهو ألا تكون راديكالية - البتة .

نعم.. الخطاب الدينى الفقهى الشرعى يحتاج تجديد ، بل التجديد أصل من أصوله فى التصور الاسلامى ، وهو يجدد نفسه دوما (المشكلة أن ذلك لا يتم بسرعة كافية أو فى القضايا الأهم) لكنه الآن يحمل مسئولية ما هو أبعد وأخطر من التجديد ، ربما يحمل مسئولية مستقبل الديمقراطية فى أوطاننا بعد أن أصبحت تواجه مأزقها الأخطر فى أخطر تداعيات الأوضاع الاقليمية والدولية بعد أن تنكرت لقيمها الدول التى كانت ترعاها فلم يبق لحقوق الانسان إلا من يؤمن بها حقا دون ادعاء أو انتهازية (لحظة فرز تاريخية فريدة). وربما إذا أدرك الخطاب الدينى - الفقهى والحركى معا - هذه اللحظة وتلك المسئولية يتحرك بما يليق به من اجتهاد وفعل ، وبنا من كرامة ومكانة ، كبشر وشعوب وأمة .

من هنا .. نبدأ !

والله أعلم . ■

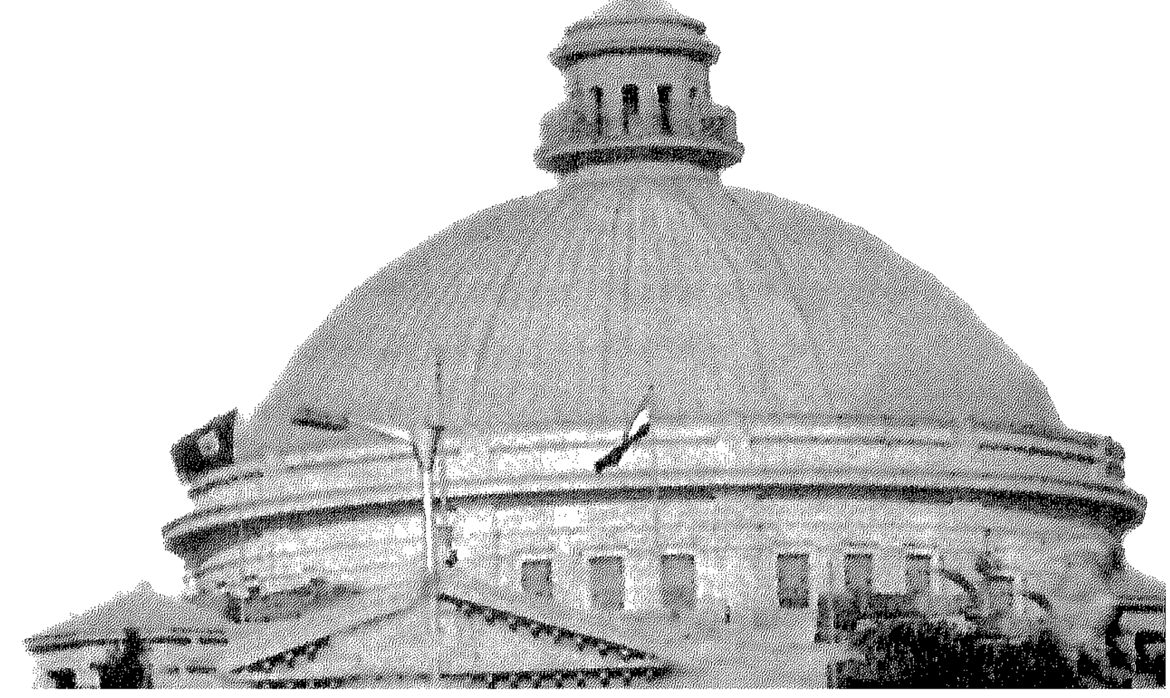


الأساتذة

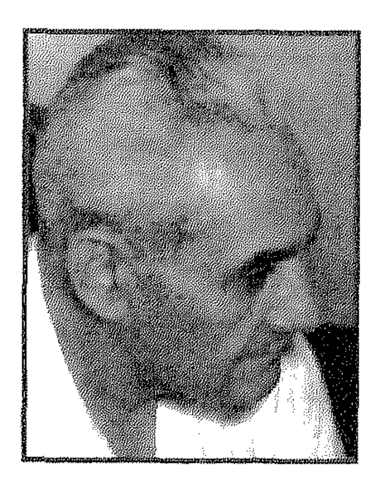
وعام جامعي جديد

بقلم
د. مصطفى سويف

رأيت أن أهدى هذا المقال إلى رفاق المهنة، أساتذة الجامعات بمناسبة بدء العام الدراسي الجديد، ولا أقصد هنا إلى الاقتصار فى الخطاب على الزملاء الذين يشغلون منصب الأستاذية فى أعلى درجات السلم الجامعى، ولكننى أسعى إلى مخاطبة المعلم الجامعى أيا كان موقعه على السلم. ولا تعنينى هنا التفرقة على أساس المرحلة العمرية، ولا على أساس التخصص، ولا على أساس الجنس، إنما الذى يعنينى هو جوهر وقفتنا أمام الطالب ونحن نبثه العلم. وإنما يعنينى من هذه الوقفة أننا نسهم بها فى صنع مستقبل هذه الأمة «سواء كان ذلك عن وعى أو عن غير وعى»



ومهما يكن الوزن النسبى لهذا الإسهام وسط غيره من إسهامات العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدولية.. إلخ فهو قائم ولا يمكن إنكاره، ولا يمكن تجاهله. وربما لا أكون بعيدا عن الصواب إذا قلت إننى أرى أن قيمة هذه الوقفة تزداد مع تعاظم أخطار الأيام العصيبة التى تمر بها أمتنا المصرية / العربية فى الوقت الحاضر، بل أكاد أجزم أن الموقف الذى يضمنا وطلابنا فى الظرف الراهن يحتاج إلى ترشيد هذه الوقفة أكثر ما كان فى أى وقت مضى. ومع ذلك فأنا لا أعنى بهذا الترشيد أن نوعيهم ضد الاستعمار الجديد وأعوانه، ولا أن نحصنهم ضد حرفة خلط الأوراق التى برع فيها الكثيرون من حولنا، ولا أن نبصرهم بالحاجة إلى دعم معانى المواطنة الصالحة فى مواجهة تنوع أساليب العبث بركائزها، لا أعنى ذلك كله رغم يقينى بالحاجة الملحة إلى التوعية والتحصين والتبصير فى تلك المجالات جميعا، ولكننى بترشيد وقفتنا معنى شديد البساطة والمباشرة، وهو أن نؤدى دورنا، دور الأستاذية، بالصورة الواجبة أو اللائقة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، فالطلاب الذين نواجههم أشد ما يكونون حاجة إلى القدوة الصادقة، ومن نافلة القول أن نتذاكر فى هذا المقام أن دورنا هذا ينطوى على شقين: هما تقديم المعرفة، وتخليق القيم. والسؤال الذى يفرض نفسه فى هذا المقام ولا يجوز أن نواجهه بكلام


د. يوسف مراد

لا ينفع ولا يشفع، هو : كيف نؤدى دورنا وقد تكامل فيه هذان الشقان؟ وقد اخترت للإجابة عن هذا السؤال أن أقدم بين أيدى الزملاء والقراء جميعا نماذج للأستاذية تجمع بين الواقع والتصور، الواقع بشوائبه التى نحاول دائما أن نعلوا فوقها، والتصور بنقائه الذى يلزمنا دائما أن نقترب منه، فإذا أصبنا فلنا أجران، وإذا أخطأنا فلنا أجر واحد. ولن أقدم هذه النماذج من خلال تصنيف نظرى يغرى بالمجادلة التى لا طائل من ورائها ،ولكنى سأقدمها من خلال الخبرات الحية التى مررت بها فى عدد من مراحل العمر المبكرة.

نماذج من الأستاذية

عرفت فى مراحل حياة الطلب عدة نماذج للأستاذية رفيعة المستوى، أنتقى من بينها لهذا المقام ثلاثة، شاءت الأقدار الطيبة أن أتعامل مع أصحابها عن قرب، ولفترات طويلة نسبيا، وهو ما مكننى من تبين الكثير من دقائقها، وتسجيل هذه الدقائق فى ذاكرة تجمع

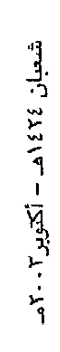
بين ثبات الأثر، ووضوح الدلالة، والوعي بأسلوب الفاعلية، وتلك جميعا عوامل أعتمد عليها اعتمادا كبيرا فى تقديم حديثى الراهن.

عرفت فى حياة الطلب فى مصر أستاذين ، كلاهما نموذج متفرد للأستاذية ، هما يوسف مراد، وكان أستاذا لعلم النفس بجامعة القاهرة، ومصطفى زيور، وكان أستاذا لعلم النفس بجامعة عين شمس. وعرفت فى حياة الطلب فى الخارج «لندن» أستاذا كان نموذجا متفردا كذلك، هو هانز أيزنك، وكان أستاذا لعلم النفس فى معهد الطب النفسى بجامعة لندن. وقد التقيت بأساتذة فضلاء أخرين، فى مصر وفى الخارج، ولكن التوجه الأساسى لحياة الطلب كما كنت أحياها لم يتح لى الاقتراب منهم قدر اقترابى من الأساتذة الذين أتصدى للحديث عنهم فى هذا المقال. جدير بالذكر أننى لا أقدم بهذا الحديث سيرة حياة لهؤلاء الأساتذة ولكنى أقتصر على تقديم لمحات عن مواضع الاتصال بينى وكل منهم، وما عايشته فى إطار هذه المواضع من أمور قرأتها على أنها علامات بارزة على طراز الأستاذية الذى كنت أتعامل معه.

يوسف مراد

درست على يوسف مراد فى سنوات الليسانس «مقدمة فى علم البيولوجيا»، ثم تلقيت دروسا فى علم النفس. وكان الأستاذ عائدا لتوه من فرنسا حيث أوفى بعثته العلمية فى جامعة السوربون، وامتد الاتصال بيننا بعد ذلك لما يزيد على عشرين عاما. كان الرجل طلق اللسان، متمكنا من الإبانة عما يريد أن يقدم من معان. وكان شديد الاهتمام باللغة العربية، هادفا إلى توظيفها فى نحت الألفاظ التى تصلح لترجمة العديد من المصطلحات الأجنبية كما ترد فى إطار تخصصه. وأذكر أنه كان مولعا بذكر أبى هلال العسكرى فى كتابه «الفروق فى اللغة». وكان يلقى محاضراته فى غير تعجل، وفى إطار من بشاشة الوجه واستواء الصوت بصورة تبعث الطمأنينة فى نفوس طلابه.

وذات يوم كلفنا الأستاذ بإجراء بحث عملى محدود وكتابة تقرير عنه. وكنا حنئذ فى سنة التخرج، ويبدو أن ما أنجزته نال رضاه، فإذا به يبدأ خطواته الأولى فى الاهتمام بمستقبلى العلمى، جاءت المبادرة منه، وأحسنت الاستجابة، فاتصلت رعايته إياى. وتولى الإشراف علىّ كدارس للحصول على درجة الماجستير. وهنا أقف قليلا لأتامل هذا السلوك من جانبه، وأضاهى بينه من ناحية وكلام يقوله من ناحية أخرى الشيخ أبو الحسن على بن محمد الماوردى، فى كتابه «آدب الدنيا والدين»، تحت عنوان «فراسة العلماء». يقول الشيخ: «وينبغى أن يكون للعالم فراسة يتوسم بها المتعلم، ليعرف مبلغ طاقته.



وقدر استحقاقه، ليعطيه ما يتحمله بذكائه. فإن أروح للعالم وأنجح للمتعلم». ثم يستطرد ليقول: «وإذا كان العالم فى توسم المتعلمين بهذه الصفة ، وكان بقدر استحقاقهم خبيرا، لم يضع له عناء. ولم يخب على يديه صاحب».

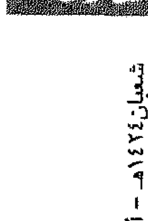
واتصلت العلاقة بيننا، وبقيت على امتداد اتصالها واضحة المعلم. علاقة تلميذ بأستاذه. وافتتح الأستاذ صالونا علميا فى بيته، ورحنا نؤم الصالون صباح الجمعة من كل أسبوع، ثم بدأ بالاشتراك مع الدكتور مصطفى زيور وبالتعاون مع دار المعارف نشر مجلة مخصصة لعلم النفس «يونيه ١٩٤٥» وكانت المجلة مفخرة لنا جميعا، واتخذ الأستاذ من المجلة سبيلا إلى مزيد من تشجيع تلميذه لتنمية مهاراته الأكاديمية، طلب إلى أن أعيد كتابة التقرير البحثى الذى سبق أن قدمته فى سنة التخرج وذلك لكى يصبح لائقا بالنشر فى المجلة، فكان من ذلك مقال «الاستشفاف والتخاطر» ، أول مقال علمى ينشر لى، وكان لهذا النشر فعل السحر فى نفسى، ثم توالى ظهور مقالاتى العلمية فى المجلة، وتخلقت وتأكدت من خلال هذا النشر كثير من معالم صورتى فى مرآة نفسى. واستمر التشجيع، وكانت له تجليات عدة ، كان أبرزها ما لقيته أثناء مناقشة رسالتى لنيل درجة الماجستير، ثم نشر الرسالة كتابا يحمل عنوان «الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الشعر خاصة». والكتاب يحمل على صدره تقديما بقلم الأستاذ.

كان هذا طراز الأستاذية كما قدمه يوسف مراد. كانت النقطة المركزية فيها هى التشجيع الذى يبدأ حذرا متحفظا، يحدوه توسم معين، ثم تتوالى خطواته مع ارتقاء مستوياته. صحيح أن بعض الشوائب شابت هذه العلاقة فى فترة ما. ولكن صحيح أيضا أن هذه الشوائب أمكن احتواؤها فيما بعد، وأمكن لنا أن نعلوا فوقها، وبقيت صورة الأستاذية صامدة بإشراقها.

مصطفى زيور

سمعت عن مصطفى زيور وأنا بعد تلميذ فى سنة التخرج، ثم كان أول لقاء لى به فى صالون يوسف مراد. وقد شعرت منذ بواكير لقائنا أنه أستاذ يضبط كل حركاته وسكناته، وأنه ينتقى ألفاظه وعباراته بعناية واضحة. ومن خلال اهتمامى المتنامى بشئون مجلة علم النفس أتيح لى أن أقترب منه، وفى أثناء عملى فى رسالة الدكتوراه أتيح لى أن أزداد اقترابا منه، وأن أتعرف طراز أستاذيته واستمر اقترابى منه على مر السنوات التالية.

كان الرجل معتدا بروح تخصصه العلمى «كان طبيبا وأستاذا فى التحليل النفسى الفرويدى». وكان يجمع إلى ذلك سعة الآفق عقلا ووجدانا. وكانت كتاباتى فى مجلة علم النفس واضحة فى توجهها النقدى نحو التحليل النفسى بوجه عام، والفرويدى بوجه خاص، مثال ذلك ما كتبته فى مقال بعنوان «التحليل النفسى



والفنان» «أكتوبر ١٩٤٦» ، وما كتبته فى مقال آخر بعنوان «الأسس الديناميـة للسلوك الاجرامى» «فبراير ١٩٤٩». ومع ذلك لم ألق من مصطفى زيور أى اعتراض أو امتعاض، ولم تكن المسألة مجرد حياد سلبى من جانبه، بل كانت أفضل من ذلك بكثير: فقد لمست ذلك فى جلساتى معه بشأن ما كان يعده من كتابات للمجلة «وكنت قد توليت سكرتارية التحرير»، ولمسته وأنا أطلب النصيحة بشأن كتابة الدكتوراه، ولمسته أيضا فيما هو أشد من ذلك إفصاحا عن كثير من المعانى والتوجهات رفيعة المستوى، قال لى ذات يوم، وكنا نجلس إلى مادة يعدها للنشر فى المجلة إنه يهمه أن يندبنى لكى ألقى على تلاميذه «فى الدراسات العليا» سلسلة محاضرات حول كتاب كلود برنار «مقدمة فى الطب التجريبى»، وأدركت ما تنطوى عليه هذه الدعوة من توسم وتقدير. فلم يكن الكتاب يمس التخصص بمعناه الضيق، ولكنه كان فى حقيقته مقالا فى فلسفة المنهج العلمى، وأديت ما طلب إلىّ وقد غلبت علىّ مشاعر الأمتنان لهذه الثقة. كان الأستاذ يستشف توجهات فلسفية أساسية وراء ما أكتب فى علم النفس، وكانت هذه الحقيقة تصادف عنده تقديرا أى تقدير، وكثيرا ما تشعبت أحاديثنا وأنا فى ضيافته لتطال أمورا فى فلسفة العلم أو فى فلسفة الفن. كانت سعة الأفق بأرحب معانيها خصيصة من أهم خصائص هذا الأستاذ. وإلى جانب ذلك كانت لديه سمة أخرى هى الاستعداد لبذل المساندة وقت الحاجة إليها، لمست ذلك بنفسى أثناء مناقشتى فى الرسالة التى تقدمت بها لنيل درجة الدكتوراه، فلم أكن حينئذ متمكنا من كثير من طرق التحليل الإحصائى لبيانات البحث الميدانى. ولفت انتباهى الى ذلك أحد الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة،ومع أن ملاحظات هذا العضو لم تكن عنيفة ولا متجنية فقد شعرت بالحرج الشديد، ويبدو أن مظاهر الحرج بدت واضحة علىّ. وبعد أيام كنت ضيفا على الدكتور زيور فى بيته وخطرت فى حديثنا سيرة الدكتوراه. وإذا به يبادر إلى طمأنتى قائلا أن ثغرة التحليل الإحصائى التى بدت فى الرسالة لم تكن خطيرة ، ووعد بتقديمى الى زميل كان يعمل معه فى جامعة عين شمس هو الدكتور السيد خيرى الذى كان يتقن تطبيقات علم الإحصاء فى البحوث النفسية، وتم ذلك فعلا، وأجريت التصويب لما كنت قد تورطت فيه، هكذا كان مصطفى زيور، سعة الأفق بصورة كريمة ، والتوسم، وبذله المساندة عن طيب خاطر.

هانز أيزنك

هاهنا تجسيد لطراز ثالث من الأستاذية، عرفته بعد أن حصلت على درجة الدكتوراه. كتبت اليه رسالة محدودة وواضحة، قلت فيها إننى اكتشفت أثناء إعدادى رسالة الدكتوراه أننى لا أكاد أعرف شيئا عن موضوع

الاتجاهات النفسية رغم مركزيته فى البحوث السلوكية الحديثة. وقلت إننى أعرف من خلال اطلاعاتى المحدودة أن هذا الموضوع يلقى عناية خاصة فى قسم «قسم علم النفس. بمعهد الطب النفسى، بجامعة لندن» وتساءلت : إذا كنت مستعدا للسفر إلى لندن فهل أجد عنده العون اللازم لدراسة هذا الموضوع ؟ وسرعان ما تلقيت الرد بالترحيب، وسافرت فعلا. والتحقت بقسمه كدارس منتظم لمستوى ما بعد الدكتوراه، وأنا الآن أتذكر هذا الحدث باعتباره حدثا كاشفا لأول خصيصة فى أستاذية هذا العالم، وأزنه بموازين الحكمة العربية فى هذا المجال فأجد كفته راجحة كل الرجاحة، فقد روى عن الإمام علىّ بن أبى طالب قوله : «ما أخذ الله العهد على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ العهد على أهل العلم أن يعلموا. وروى عن غيره قوله: «كما أن الاستفادة نافلة للمتعلم كذلك الإفادة فريضة على المعلم». وعن غيرهما القول: «من كتم علما فكأنه جاهله».

وبقيت ملتحقا بالقسم أتتلمذ على الأستاذ لمدة سنتين كاملتين .

وعلى امتداد هاتين السنتين «اغسطس ١٩٥٥ - اغسطس ١٩٥٧» تلقيت عطاءه الذى كان مزاجا فريدا من المهارات العلمية والنفحات القيمية، ذات يوم طلبت منه النصيحة بشأن بحث ميدانى كنت قد بدأته فى مصر قبيل سفرى، فلما تعثرت فى بعض إجراءاته نحيته جانبا وسافرت. ونصحنى الأستاذ بأن استعيد أوراق البحث من مصر وأعرضها عليه. وفعلت ما أشار به. ونظر الرجل فيما أنجزت من خطوات، وهنأنى، ثم أشار بكيفية إكمالها. واستحثنى مباشرة أن أكتب التقرير اللازم لإرسالة للنشر، وقاد خطاى فى كتابة التقرير. وكان أسلوبه فى كل ذلك يجمع بين الرفق والحسم. ونشر البحث فى «مجلة علم النفس البريطانية» سنة ١٩٥٨ وأذكر الآن فى هذا السياق، بعد مرور خمس وأربعين سنة على وقوع ذلك الحدث، قول الشيخ أبى الحسن الماوردى : «ومن آدابهم «أى العلماء» أن لا يعفوا متعلما، ولا يحقروا ناشئا، ولا يستصغروا مبتدئا ، فإن ذلك أدعى اليهم، وأعطف عليهم، وأحث على الرغبة فيما لديهم».

واقتضى استكمال دراساتى فى القسم تحت إشراف هذا الأستاذ أن أستأذن جامعة القاهرة فى السماح لى بالبقاء لمدة عامين بدلا من عام واحد، ورفضت الجامعة طلبى فى بداية الأمر، وعلم الأستاذ بالرفض، فتقدم لمساندتى بخطاب وجهه الى جامعة القاهرة، وكان الخطاب أية فى فن الأستاذية الراعية، مما حفز جامعة القاهرة إلى الموافقة، وأكملت مهمتى كما كان ينبغى لها أن تكتمل.

هكذا كانت أستاذية هانز ايزنك الجود بالعلم اذا طلبه طالب جاد، وحث خطى المتعلم برفق وحسم معا، والتقدم

للمساندة إذا لزم الأمر.

الأستاذية الخصال والمسئولية

تلك كانت ثلاثة نماذج للأستاذية، عايشتها على امتداد فترات مختلفة من حياة الطلب، ورغم التفرد الذى تميز به كل من هؤلاء الأساتذة فقد شاعت بينهم خصال مشتركة، هى قوة الفراسة أو قدرة التوسم والتشجيع أو دفع الناشئة فى رفق وحسم معا، والتسامح أو سعة الأفق عقلا ووجدانا، والمبادرة الى المساندة وقد عايشت عند هؤلاء الأساتذة خصالا أخرى غير ما ذكرت. منها سعة الاطلاع ومداومته، وطلاقة اللسان، وحسن الإبانة ومنها كذلك عزة النفس بمعنى العزوف عن المغريات التى يذل لها الكثيرون من أحاد الناس كالجاه والمنصب والولع بالكسب المادى.

جدير بالذكر أن هذه الخصال جميعا، وخصالا أخرى غير ما ذكرت ترد الإشارة اليها فى كثير من الأدبيات القديمة، مثل «أدب الدنيا والدين» للماوردى ، وفى «المقدمة» لابن خلدون ، كما ترد فى كثير من الأدبيات الحديثة، مثل كتب علم النفس التربوى انظر على سبيل المثال جييج وبيرلاين فى كتابهما «علم النفس التربوى ١٩٨٤»و وكتابات الباحثين المعنيين بموضوع الاستاذية الراعية من أمثال بولتون وتولر.

(راجع فى هذا الصدد الدكتور مصرى عبدالحميد فى مقاله المنتورية واحتضان الابداع ١٩٩٣) كل ذلك يعنى، فيما رأى الوعى عبر مراحل تاريخية طويلة بأهمية الموضوع الذى نحن بصدده، وحيويته المتجددة، ويدعو إلى تنشيط النقاش حوله من حين لآخر ويقينى أن سباقاتنا الجامعية الراهنة أحوج ما تكون الى هذا التنشيط. فقد ظهرت على جامعاتنا فى العقود الأخيرة الآثار التراكمية لأضرار العديد من العوامل المؤذية التى ما فتئت تصيب الجامعات بأنواع وأقدار مختلفة من الأذى حتى أقعدتها عن الوفاء بالكثير من مسئولياتها. ولا يسمح المقام هنا بذكر هذه العوامل أو حصر تراكمات أذاها، ولكن أولى من ذلك وأبقى أن يعى الأساتذة الزملاء أن أمور الجامعة سائرة من سىء إلى أسوأ، وأنها تبدو وكأنها فى سباق مع الزمن نحو مزيد من التدهور، وأن يعوا فى الوقت نفسه أن لا أحد سواهم يستطيع أن يوقف هذا التدهور لأنهم أدرى من غيرهم بمواطن الضعف فى المؤسسة كلها، بنيويا ووظيفيا، وهم بهذه الصفة أجدر أن يأخذوا بزمام الأمور لتحديد التوجه الرئيسى لإصلاح، كيف؟ وإلى أين؟ ولكن لا يمكن لهذا التوجه أن يتخلق دون أن يعى الأساتذة أنفسهم وأدوارهم كأساتذة ، ولكى يتبلور هذا الوعى ويصبح طاقة فاعلة لابد للأساتذة أولا وقبل كل شىء أن يسلكوا كأساتذة، حتى يصبحوا مقنعين لأنفسهم، ولطلابهم، وللقوى الاجتماعية الفاعلة من حولهم. ■

أقـــوال معاصرة

● «الحقيقة التى عاشتها نيجيريا فى ظل النظام العسكرى كانت جد مظلمة، وجد مؤلمة، خصوصا بالنسبة للشبان الموهوبين والطموحين»

الكاتب النيجيرى هيلون هابيلا
وصاحب رواية فى انتظار الملاك

● «فى كل مرة يسود فيها الظلام، لا يستطيع أحد أن يمنعنا من إضاءة شمعة، وقد ساد بالفعل الظلام!»

رئيس وزراء الهند فاجبايى

● «لن نسمح للعنف بأن ينتصر على إرادتنا الحرة»

رئيس وزراء السويد يوران برشون

● «العلاقة بين الرأى العام ورأى الحكومة تحكمها معادلة تقول أن من حق الناس أن تتكلم وأن تعبر عن رأيها، ولكن من حق الحكومة أن تفعل ما تراه دون أن تتقيد لحظة برأى الناس»

الكاتب الصحفى لبيب السباعى


نلسون مانديلا

● «عندما تغيب الحرية يفتقد المنطق ويتحول العالم إلى شكل من أشكال اللا معقول»

المخرج العراقى عونى كرومى

● «آلاف الاستخفافات وآلاف الاهانات، وآلاف اللحظات المنسية، تجمعت لتثير فى نفسى ذلك الغضب، وروح التمرد، والرغبة فى مناهضة النظام الذى عزل قومى واستعبدهم»

نلسون مانديلا
رئيس جمهورية جنوب أفريقيا السابق

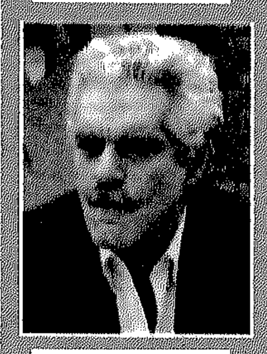

أحمد ماهر

● «قيام القضاة بعملهم يتطلب أن يكونوا مصابين بالاضطراب عقليا ونفسيا»

سلفيوبرلسكونى
رئيس وزراء الحكومة الايطالية

● «إذا كان صدام حسين فى أثناء وجوده قد قسم الأمة العربية فلا يجوز أن يؤدى غيابه إلى تقسيمها ثانية»

أحمد ماهر
وزير خارجية جمهورية مصر العربية


عمر الشريف

● «كل يوم يمر يقل معه الوقت الذى يمكن أن نعيشه فى الحياة»

نجم السينما عمر الشريف

● «أكتب عن الجنس لأنه عنصر مهم للاقتراب من أغوار النفس غير المتاحة»

الأديب اليابانى هاروكى موزاكامى

● «ما ينعى على أبناء هذا الجيل، افتقارهم إلى التواصل مع الأجيال السابقة»

الكاتب الصحفى وديع فلسطين

ربع قرن على كتاب

الإستشراق

لإدوارد سعيد

ثلاثية الاستشراق والامبريالية والصهيونية

بقلم
ابراهيم فتحى

نشر ادوارد سعيد - الناقد الأدبى والمفكر العالمى الفلسطينى الأصل الأمريكى الجنسية كتابه «الاستشراق» بالانجليزية عام ١٩٧٨، وكان للكتاب أثره العاصف الانقلابى الذى واصلت أصداؤه التردد حتى اليوم بعد ٢٥ سنة من صدوره وستنشر دار بنجوين طبعة شعبية جديدة فى شهر أغسطس (يوم ٢٧) احتفالا بالكتاب مع مقدمة للمؤلف تربطه بالأوضاع الراهنة .. وقد نشرت الجارديان البريطانية فى ملحقها (٢٠٠٣/٨/٢) ما يشبه عرضا لهذه المقدمة، وفيها يواصل ادوارد سعيد تأكيد انتقاداته لدور الاستشراق فى خدمة مايسميه صراحة الامبريالية وارتباطها بالصهيونية

لقد كان الشرق وعلى الأخص الشرق الأوسط منذ غزو نابليون لمصر بناء متخيلا تصوغه الأهواء والمصالح يكاد أن يكون أسطوريا قد تمت صناعته وإعادة صناعته مرات لاتحصى، ورسمت خرائطه وأعيد رسمها بطرق متعددة. والآن إن خبراء العالم العربى والإسلامى من أمثال برنارد لويس وفؤاد عجمى وعشرات من الببغاوات (لدينا فى العالم العربى أمثالهم) لهم دورهم فى مساعدة صقور البنتاجون على إبراز ظواهر مثيرة للسخرية مثل تحجر العقلية العربية، وتدهور القيم المنسوبة إلى الإسلام منذ قرون فلا يبقى إلا الدور الحاسم للعسكرية الأمريكية (الغربية) لكى تعكس الاتجاه وتحقق «الإصلاح» وتمتلىء المكتبات الأمريكية بمطبوعات رثة جائرة تحمل عناوين صارخة عن الإسلام والإرهاب، والتهديد والخطر العربى الإسلامى بأقلام مدعى المعرفة المتخصصة، كما أن محطات سى. إن. إن وفوكس حافلة بالمنحرفين مع كتاب الصحف الرائجة الإثارية الذين يقومون بتدوير أخيلة لايمكن التحقق منها، وتعميمات جارفة عن المتعصبين الذين يمتلكون الحقيقة المطلقة لتحريك الناس ضد هذا الشيطان الأجنبى. فالمسلمون والعرب ليسوا بشرا «مثلنا» ولايمكن أن يفهموا «قيمنا»، وهذا هو الجوهر المستمر للعقيدة الاستشراقية التقليدية، وتردد جوقة المثقفين وراء مستشارى البيت الأبيض والبنتاجون نفس الكليشيهات والمحفوظات التى تحط من قدر شعوب وثقافات وقيم تبريرا لاستخدام القوة والعنف ضدها .وقد ادعت كل الإمبراطورية فى خطابها الرسمى أنها ليست كالأخرى السابقة فهى ذات رسالة تنوير ونشر العقلانية والديموقراطية عند بشر أدنى مرتبة.

التدخل الإمبريالى

ويطرح ادوارد سعيد سؤالا يتردد الآن بين قلة من المثقفين العرب ألم تنته الإمبريالية منذ زمن طويل ؟ (طول هذا الزمن مختلف عليه عند دعاة الامبراطورية الأمريكية الحميدة المحبة للغير)، أليس الوقوف عندالنواح على جرائم السلب والنهب الاستعمارية طريقة لتجنب المسئولية فى الحاضر؟. إن الاستشراق الحديث (قد يكون عربيا) يؤكد «أننا» سرنا فى الطريق الخطأ وأخفقنا وذهبت بلادنا العربية والإسلامية أو الشرقية عموما (قد تشمل الهند بعد الاستقلال) إلى الأذناب المحليين دون ذنب للتدخل (الإمبريالى) ويسخر أحد الحكام العرب المدله بحب بعض الرؤساء الأمريكيين (رجال الدين والأخلاق) وبعض الجنرالات الإسرائيليين (رجال السلام) ويسمى الامبريالى «الفاشكولى» إشارة إلى

استحالة وجوده أو ضرره (كلمة الفاكشولى لامعنى لها تشير إلى العبثية، واستخدام أصوات بلا دلالة)، ويجيب أدوارد سعيد موضحا السطحية فى هذا الرأى، ففى السنوات الطويلة المتعاقبة واصلت «الإمبراطورية» طريقها، فى حيوات الفلسطينيين والجزائريين والعراقيين والكونغوليين. فالخط الذى بدأ بنابليون واستمر مع صعود الدراسات الاستشراقية والاستيلاء على شمال افريقيا واصل «انجازاته» فى فيتنام ومصر وفلسطين وظل طوال القرن العشرين متمثلا فى الصراع على البترول والسيطرة الاستراتيجية على الخليج والعراق وسوريا وافغانستان، وكذلك فى محاصرة الحركات القومية المطالبة بالاستقلال فى وحشية لاتعرف هوادة، وأنتج كل ذلك معرفة زائفة مشوهة بالأخرين فى صور وقوالب وسرديات اختزالية هدفها التحكم والسيطرة والتلاعب.

وبذلك حل محل «الشرق» مجموعة من الأفكار والاستعارات والأساطير المرنة سهلة التكيف قد تكون مترابطة الأجزاء أو بالغة الدقة المتخصصة فى بعض المجالات وصولا إلى تعميمات ضخمة، ويبقى بين أيدينا بديل كاريكاتيرى لواقع ولتاريخ العرب والمسلمين وهدف هذا الخطاب الاستشراقى كما كان دائما منذ الدعاة البارزين أمثال سيلفستر دى ساسى وأرنست رينان ووليام لين تمهيد الطريق أمام المشروع الإمبريالى الضخم لوضع الشرق الأوسط (الأدنى سابقا) تحت سيطرته تاركا للنخب المحلية إدارة الشئون الداخلية. وفى العالم العربى تعلو أصوات الآن كما علت أمثالها فى بداية القرن العشرين، لسنا فى وضع يمكننا من المقاومة نتيجة للفارق الهائل فى القوة بيننا وبين امبراطورية لاتغيب عنها الشمس لم يسبق لقوتها العسكرية مثيل، ولايبقى لنا إلا بناء قوتنا الداخلية بالتعليم والصناعة الحديثة (حتى تصبح قوتنا قريبة من قوة الإمبراطورية عسكريا؟!!) مرددين قول الشاعر

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهمو
لم يبق مجد على جهل وإقلال

وبطبيعة الحال لم يتصد تاريخيا لرأى أصحاب المصالح الحقيقية هؤلاء، من سراة البلاد وأعيانها متشابكى المصالح مع الامبراطورية وشريحة تثقيفهم، إلا سياسيو ومثقفو حركة الاستقلال الوطنية الديمقراطية، فأول شىء تطيح به الإمبراطورية هو الحق فى إرادة البناء المستقلة، فى نموذج البناء الذي يلبى مصلحة الأغلبية ولا ينحصر فى شريحة ضيقة تابعة، فى ممارسات

ديمقراطية وفى ثقافة قومية متفتحة (تجارب الإمبراطوريات اللغة القومية فى البلاد التابعة وتفرض ثقافات بديلة تجعل المواطنين أعضاء فى القبيلة الاستهلاكية العالمية). وليست المقاومة مقصورة على الجانب العسكرى، فقوة الحركة الجماهيرية باكتسابها الوعى والتنظيم فى صراع مع توجهات واملاءات وايديولوجية الاستشراق لها وزنها، وقد أبرز ادوارد سعيد أن الغرب «ليس» كتلة مصمتة متجانسة..

فهناك الحركات والقوى والتيارات الديمقراطية المعادية للغزوات الامبريالية التى تفضح أجوائها وأكاذيبها حتى داخل الولايات المتحدة وهو نفسه مثال لذلك.

فالضغوط والرفض والتحالفات على النطاق العالمى تلحق الخسائر بالإمبراطورية.

ثلاثية الاستشراق

فى البداية كان إدوارد سعيد يصنف ضمن ناد عالمى من نقاد الأدب ومنظريه الأكاديميين تحيط بهم دعاية مكثفة من وسائط الإعلام دون أن يقرأ أحد لهم شيئا من خارج دائرة «الثلاثة آلاف» على النطاق العالمى. يكتب بعضهم لبعض ويناقش بعضهم بعضا ويعقدون الندوات والمؤتمرات الخاصة. ولكنهم كانوا يشكلون البيروقراطية الأكاديمية التى تحدد المعيار السائد للثقافة «الرفيعة» فى المؤسسات التعليمية (فى الغرب والبلاد التابعة) يعلنون موت المدارس وميلاد المدارس، وما هى التقليدية والحداثة وما بعد الحداثة، وماهى السردية والشعرية، وما النقد النسوى والنقد الجنسى المثلى، وعلى الرغم من التعددية والمجادلات والاختلافات حول تاريخ شهادات الوفاة أو الميلاد وحول من يبقى فى الذاكرة الثقافية ومن ينبغى محوه فقد كانت لهذا النادى لائحة صارمة، إنه ليس ذاتى التشكيل أو التمويل أو النطاق، ومبرر وجود مهنة النقد الأدبى والجامعة الحاضنة للحرفة هو وضع سلطة تلك المؤسسة فى خدمة الجهاز الأيديولوجى للدولة الإمبراطورية على نحو غير مباشر فالاستعمار ليس فرض جيوش أجنبية فحسب بل فرض طرق بعينها من مزاولة تجربة العالم، تؤثر حتى فى الجذور الحميمة للدلالات اللغوية، وأصبحت التجربة الأدبية والصياغة الجمالية ماركة مسجلة منتزعة من العلاقات الاجتماعية والقومية عمياء عن أنظمة السلطة فالأدب ينبغى أن يعزل فى نقاء معقم بعيدا عن التاريخ، وأن تصبح كلمة «واقع» غير محترمة وأن تكون الشكلانية العقيمة ملصقة فى تقوى زائفة بالحقائق الأبدية الوهمية التى تزدرى المسئولية. وكان إدوارد

سعيد من أبرز مكتشفي التواطؤ الخفي بين بناء الأنساق النقدية ونظريات إنتاج المعرفة من ناحية ومؤسسات وهياكل السلطة من ناحية أخرى.

وفي البداية كان مهتما بمجال متخصص من البحث «خطاب تمثيل الشرق والشرقية طوال قرون بواسطة الغرب ولمصلحته وعند أبنائه، وقد قوبل الكتاب (الاستشراق) بطبيعة الحال عند نشره عام ١٩٧٨ بهجوم حاد من جانب الذين يفضح خطابهم وفي مقدمتهم برنارد لويس صهيوني الهوى وكان برنارد لويس كأمثاله من حراس وبوابي نادي التخصص يرفع في وجهه أسئلة الشرنقة الحامية لدائرة التخصص التي يمنح إنتاج أفرادها شرعية لهيكل السلطة الامبريالية، أو يبدد هذا التخصص شبه اللاهوتي سحريا منتميا إلى الكيمياء القديمة محكم الانغلاق لايتأثر بشيء خارجه وإن كان غائصا في وحل السلطة بالفعل).

ماهي مؤهلاتك في هذا التخصص؟ ماذا تعرف عن المعاجم العربية القديمة، المجادلة أسلوبها جلف فظ بلا إلمام والكتابة رديئة. وبهذه الطريقة الرخيصة المتعالية يهرب برنارد لويس من أي مناقشة جادة وفي العالم العربي تعرض الكتاب لمناقشة حادة موضوعية من جانب صادق العظم ومهدي عامل. ومن الواضح أن الكتاب، وقد ترجمه إلى العربية كمال أبو ديب بلغة وعرة «أكاديمية» تترجم المصطلحات دون اعتبار للشائع ابتداء من الصفر حسب فهم المترجم بحيث أصبح الكتاب بالعربية في حاجة إلى ترجمة - حشد شواهد كثيرة كانت مطموسة واستبصارات لامعة تاريخية ونظرية ساعدت في طرح التساؤلات وثيقة الصلة بالموضوع، وحاول إقامة الصلات عبر الحدود بين التخصصات. والأهم من كل ذلك أنه طرح للمناقشة القضية الإيديولوجية المسلم بها عن حياء الفاعلية النقدية في عرض العلاقة بين الجلادين والضحايا. وليس مستغربا أن يترجم الكتاب إلى ١٧ لغة وأن يعده كثيرون النص المؤسس لنظرية مابعد الكولونيالية، والمسهم في نشوء النقد الثقافي، وقد تابع إدوارد سعيد توضيح وتدقيق حججه في دراسة الخطاب الاستشراقي وتدعيم التقليد المناهض للامبريالية في كتابيه: «مسألة فلسطين» و«تغطية الإسلام» لتشكل معا ثلاثية الاستشراق التي تدرس الامبريالية الأوروبية في أوجها، ووريثتها الهيمنة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية.

والخطاب الاستشراقي عند ادوارد

سعيد لم يدخل فى علاقة مباشرة متماثلة مع السلطة السياسية فى حالتها الفجة الصرف، ولكنه خطاب يجرى انتاجه ويحيا فى تبادل غير مستو، متفاوت القوة مع أنواع مختلفة من السلطة: المؤسسات الكولونيالية التى قد تكون متنازعة، ومع «علوم» سائدة فى القمة تمتد من القانون إلى نظريات السياسة إلى اللغويات المقارنة إلى أصوليات ومعايير الحكم على النصوص، أى السلطة الثقافية، ويعد ذلك تجىء السلطة الأخلاقية فى تحيزها الذى يفرض لنفسه طابعا إطلاقيا منتحلا (سلوكنا «نحن» لايستطيعون «هم » مجاراته أو فهم قيمه مثلنا) ومفاهيم الاستشراق بطبيعة الحال تتضمن بعدا جوهريا مما يسمى الثقافة الفكرية العقلية «الحديثة» من الإدراك السائد فى الغرب لنفسه.

وعلى الرغم من أن الاستشراق يبرر إلى حد ما نوعا من الاستغلال السياسى والاقتصادى البشع فلا يمكن اختزاله إلى مجرد حزمة من الأكاذيب والقوالب المتكررة المكشوفة التى ستقضى نحبها بمجرد تسليط نور «الحقيقة» عليها، فلا ينبغى إساءة تقدير قوة هذا المجال المملوء بالحذق والدقة والدهاء بل والخصوبة أحيانا (دراسة المخطوطات وتحقيقها، نشر وترجمة نصوص مهجورة أو كانت تعد بلا قيمة مثل «ألف ليلة وليلة» تطبيق المناهج الحديثة على دراسة نواحى معينة من التاريخ السياسى والأدبى والفكرى).. إنه توزيع للوعى الجيوسياسى (إقامة تمييز شبه انطولوجى أى يتعلق بالطبيعة الجوهرية بين ثقافتين، إحداهما أرقى وأكثر تطورا رغم الماضى الذي كان مزدهرا فى مجالات معينة للدنيا، بهدف الحفاظ على مصالح راسخة، وهذا التوزيع للوعى يشارك فى عدد كبير من المنهجيات وأنساق المعرفة، ويعتبر الاستشراق فى الغرب الثروة الثقافية التى جمعت عناصر المعرفة عن الشرق، وفى تراكيب استخدمت كل طرائق المقارنة المكنة وهذا النطاق المهيمن المشبع بالرغبات وضروب الكتب والمحظورات وجداول الأعمال المفروضة يجعل الشرق أرشيفا من النصوص وموقعا للاكتشاف وإعادة الاكتشاف ولوحة حية يمكن تحقيق الأحلام والفانتازيات داخلها، أى يعرضه كمتحف ثقافى ويقوم بتشريحه كعينة فى مختبر ، ويضبطه داخل تخصص دراسى كما يفرض عليه الانضباط لمصلحة الامبريالية. إن الاستشراق يغطى الشرق بالمعنيين أى يعرضه عرضا شاملا وهو يقوم بحجبه وإخفاء

حقيقته، بنفس الطريقة التى «يغطى» بها الإسلام.

وتواصل صيغ التمثيل الاستشراقى تخلل الخطابات العمومية الأوروبية والأمريكية خالقة مناخا عدائيا تجاه العالم العربى والاسلامى.

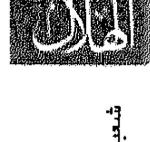
ويرى ادوارد سعيد فى كتاباته اللاحقة أن الاستشراق الأمريكى مصاب بفقر الدم هزيل القيمة يجدد صيغ الخطاب العتيق ويختلط فيه البحث الأكاديمى بإثاريات وسائط الإعلام الجماهيرية، فمن تخصصات تزداد ضيقا مثل مدارس الفقه فى بغداد القرن العاشر أو أنماط المدى فى مغرب القرن التاسع عشر إلى عمى كامل عن المجالات الأشمل للحضارة من سياسة وتاريخ وقانون وأدب وتترك هذه المجالات العديدة تعميمات اختزالية عريضة عن الثقافة الإسلامية والدين الإسلامى، إن ١٥ قرنا من التاريخ الإسلامى حافلة بالتحولات والتنوعات والتوترات وعشرات اللغات والأعراق، والتوجهات السياسية ومدارس «التفسير» المتباينة تصب فى تجارب معاصرة لبيئات اجتماعية ثقافية حافلة بالمجادلات الحامية حول التراث والحداثة ودور المرأة والعلاقات بين القوميات والدول والعقائد والجسور بين الثقافات عند مايزيد على ألف مليون من المسلمين، ماذا يفعل الأداء المبتذل للاستشراق الأمريكى بهذه الأنماط المتعددة الرحبة المتغايرة . بهذه الأنواع من الحياة الاجتماعية الثقافية متعددة الألوان؟ إنه يختزلها فى سطحية تخنقها داخل معادلتين رائجتين جمياهيرا، داخل تعميمين شنيعين من العدوان والعداء ويلاحق ادوارد سعيد فى الطبعة المنقحة لكتاب «تغطية الإسلام» الصادرة عام ١٩٩٧ بعد ١٦ عاما من صدوره الهيستريا المعادية للإسلام والعرب فى الكتابات «الأكاديمية» عند صمويل هنتنجتون وبرنارد لويس وفى الصحافة واسعة الانتشار والأفلام الروائية والتسجيلية وتحليلات شبكات التليفزيون والكتب الانتزالية (فريدمان: من بيروت إلى أورشليم) وهذه الأفكار المتسلطة بحكم حجمها وتكرارها تشكل المدركات العامة الراهنة عن الإسلام وركوده ومقاومته للحداثة وهوس العنف اللا عقلانى المترسب فى صميمه نتيجة لمشاعر الدونية وما إلى ذاك من الخرافات الأمريكية ورطاناتها فى «علم» اجتماع زائف شكلته ضغوط صناعة الأخبار والترفيه، وهذه البالوعة العفنة العنصرية لاتطفح على «الشرقيين» الآخرين من أفارقة وأسيويين. وويوضح إدوارد

سعيد صلات النسب بين الصهيونية والاستشراق الأوربى والأمريكى فى كتابه «الثقافة والامبريالية».

الامبريالية ونقد المفاهيم

وليس مستغربا أن تتردد صيحات، الاستشراق فى تدهوره الحالى على ألسنة بعض المثقفين العرب التكيفين هيكليا عندما يركزون حملاتهم على صورة وهمية للإسلام وللتاريخ العربى (تخلف ونزعة قدرية) ولا عقلانية وكراهية للأجانب لدى كائنات تحت انسانية) وبعضهم يتحدث عن جوهر مصرى أبدى زراعى نيلى معاد لجوهر عربى صحراوى رعوى (ومع ذلك يخرسون عن رابطة مشتركة مع السودان). كما يشنون أكبر هجوم على حركات التحرير العربية كأنها كانت مختزلة فى انقلابات عسكرية من جنود شطرنج للكتلة الشيوعية عزلت المواطنين عن العالم «الحر» وحضارته «الإنسانية» ولن نعدم مأفونا يتحدث عن حركات التحرير (مصر ٥٢، عراقى ٥٨ .. الخ) كأنها انقلابات على الحكم الشرعى الامبريالى شبه الإقطاعى «الليبرالى» ولكن سعيد يستخدم ضد الامبريالية مفاهيم ليست مستمدة من مذاهب الهوية التى تشجعها المركزية الأوروبية فالهويات لايحللها كجواهر نهائية أعطاها الله مرة وإلى الأبد بل كنواتج للمشاركة فى تفاعل التيارات الاقتصاديةوالسياسية، كأجزاء تتشكل عبر تناقضات ومحاولات قد تتعثر وتطيش للحل فى مجموعة (كل متنام) يمكن أن تكون متناسقة متنامة لايفرض تشكلها مبدأ أصلى بل تدنيه تدريجيا ممارسات تاريخية ومواجهات تاريخية (لاتخلو من ارتكاب الأخطاء والجرائم فى الداخل والخارج) من أجل التخلص من القيود والعوائق والسير نحو أفق موحد أو يمكن أن يكون موحدا.

وفى مذكراته «خارج المكان ١٩٩٩» يسرد حياته الشخصية المبكرة ومأساة الفلسطينيين التى يحاول الخطاب الصهيونى محوها فى الغرب، فذاتية المؤلف مرتبطة بذاتية جماعية فلسطينية. أما تأملات فى المنفى (٢٠٠٠) مقالاته بين ١٩٦٧ و١٩٩٨، فتواصل موضوع الإقصاء عن المكان وإقصائه وإقصاء أهله، وهو لايطرح للارتياب فكرة الهوية العربية المضمرة فى تكوينه، وتبدأ الصفحة الأولى من كتاب الاستشراق بوصف الحرب الأهلية الدائرة فى لبنان فالأفكار والمثل من الشعب الفلسطينى والعرب هى اهتمامات عملية عند الرجال والنساء، ولاتستمر مستقلة محلقة فى الأذهان وحدها بل يصنعها البشر فى أوضاع اجتماعية تاريخية عيانية فأفكار



الهوية هى فاعليات ممارسة داخل مؤسسات وهى تشتبك فى صراعات جدل السلطة والنفوذ والحقوق والامتيازات ولها نتائج فى جميع المجالات ويطرح سعيد فكرة الامبريالية الآن، الامبريالية الجديدة فى عصر مابعد الكولونيالية (زرع مستوطنين وقواعد عسكرية فى أماكن بعيدة) فالولايات المتحدة لم تكف عن التدخلات والانقلابات والاغتيالات والغزوات وفرض الحصار وقد شاركت فى ذبح أناس بالملايين فى أفريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا (آندونيسيا سوهارتو - فيتنام، كوريا انقلابات باكستان «الإسلامية» والعراق وأفغانستان» وخصوصا فلسطين ولبنان) وهى تقسم حكومات العالم الثالث أو الجنوب إلى معتدلة تتبنى المخططات الأمريكية مهما تكن تلك الحكومات إجرامية وأخرى شريرة مارقة معارضة ومن الصعب أن نجد تعريفا محددا اقتصاديا أساسا للامبريالية عند ادوارد سعيد، ومن النادر أن يستخدم كلمة رأسمالية أو مراحل مختلفة من تطورها أو ابنيتها فى تحديد الاستشراق. لقد اعتمد فى «الاستشراق» على مفهوم «الخطاب» عند ميشيل فوكو لسوء الحظ لا كما نفهمه عادة فالخطاب عنده هو ممارسة تتألف من مجموعة منتظمة من العبارات تقدم تقريرا يؤكد نفسه بنفسه عن الواقع بواسطة تعريف لموضوع الاهتمام وانتاج مفاهيم لتحليله (الخطاب الطبى، الخطاب القانونى، الخطاب الجمالى، والخطاب الاستشراقى) فالخطاب يحدد موضوعه ولاتوجد معايير صدق أو حقيقة خارجة، ويصبح الاستشراق بهذا الخطأ المنهجى لاعلاقة له بأى شرق واقعى بثقافات وأمم وبشر وطرق حياتهم وتواريخهم وأعرافهم، إن سعيد لايرد على تزييف الاستشراق «لحقيقة» الشرق بأى إمكان لحقيقة يمكن اختبارها وتمثيلها إلى حد ما من القابلية للتوصيل والوثوق. هل الخطاب «تشويه» لسمات واقعية؟

لم يقدم سعيد أى محاولة عيانية يفهمها فالخطابات بهذا المفهوم لاتشير إلا إلى نفسها. ورغم الانزلاق إلى ثنائية جوهرية بين الشرق والغرب طول التاريخ ظل الكتاب عاجزا فى نقده «للخطاب» الذى يشوه أوجه الواقع المعقد للشرق ويحيطها بالزيف والإعتام عن أن يقول لنا شيئا عما يكونه ولايكونه هذا الشرق هل ظلت أوروبا الجغرافية تعى نفسها كغرب موحد ثقافيا طول التاريخ فى مواجهة «شرق» موحد؟ هذه تعميمات جارفة ومن مفهوم

«الخطاب» الملتبس المتضارب يبقى معناه عن الكلام الذى يستعمله المتعصبون الاستعماريون الأوروبيون فى سياق الاتصال مع شعوب يقهرونها.

ولم يربط الكتاب بين «الخطاب» وموقع «الدولة» الأوروبية و«الانتاج الاقتصادى» على الإطلاق ولابين «الخطاب» والقوة المناهضة للكولونيالية داخل الحركة الاشتراكية فى أوروبا ومفكريها (ينتزع فقرة لبعض الكتاب المعادين للرأسمالية عن دور الاستعمار البريطانى فى الهند من خطاب نقد الاقتصاد السياسى من حيث تصديره نمط الاستغلال الرأسمالى دون نمط الانتاج الرأسمالى ليدمج التقليد المناوىء للرأسمالية فى الخطاب الاستشراقى العابر للتاريخ) كما أن قائمة ادوارد سعيد عن المستشرقين من ايسخيلوس وفيكتور هيجو ودانتى وكارل ماركس ولامارتين وشاتوبريان وبايرون وفولتير بلا قيمة من حيث التمييز الجاد بين أعمدة الخطاب الاستشراقى، وممثلى خطابات أخرى تشمل استبصارات تحريرية وكذلك الحال مع «الامبريالية» عنده فلن نجد نقدا معرفيا كما يقول «إعجاز أحمد» على المستوى الأكثر أساسية للمفهوم، يمكن أن يسهم فى النضال المعادى لها. قد تكون الامبريالية عند اودارد سعيد بدلا من «خطاب» أو «نسقا من الأفكار» على طريقة فوكو «بنية من المشاعر» على طريقة ريموند وليامز دون تمسك دقيق بتصورات فوكو أو وليامز إنها على نحو غامض أبنية هيمنة معاشة ليست متحققة فى سكون بل تتجدد ويعاد خلقها وتعديلها، من المواقف والمراجع، منتشرة خلال نسيج الحياة الاجتماعية وتبدو طبيعية كعادات وممارسات عفوية داخل الحياة السيكولوجية للأفراد وتواصل إعادة إنتاج نفسها وشق طريقها فى الدائرة الثقافية وكذلك فى الممارسات النوعية السياسية والأيديولوجية والاقتصادية والاجتماعية، نحن أمام شعيرات دموية للهيمنة والسلطة دون قلب نابض ودون تمايز المستويات.

ولن تسعفنا انتقائية ادوارد سعيد المنهجية ولاتناقضاته الكثيرة فى بناء استراتيجية مقاومة أو برنامج تحويرى كما لن تسعفنا تمثيلاته للمثقف فى تقييم أدوار واقعية للمثقفين ، هؤلاء الطيور النادرة جدا المدافعة عن مثل أفلاطونية – كما قيل فى نقد تصوره – أمثال سقراط وربما المسيح الذين يشكلون ضمير الجنس البشرى فى نزعة إطلاقية مستحيلة وسيملؤنا العجب حين يقدم لنا تيودور أدورنو فى هذه

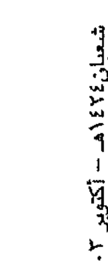
النزعة النخبوية المتعالية نموذجا للإعجاب.

(لم يتعاطف أدورنو قط مع ثورات العالم الثالث ولا مع القضية الفلسطينية وكان من كتاب الحرب الباردة الأمريكية ضد ما كان يسمى المنظومة الاشتراكة واستدعى البوليس الى الجامعة فى المانيا الغربية ضد حركة الطلبة فى الستينيات ، وكان يرى عدم إمكان الحياة بعد الهولوكست ومعسكر اعتقال أوشفيتس:

الصهيونية : ولكن انجاز سعيد شديد الضخامة فيما يسمى أدوات التكنولوجيا النقدية، إنه يطرح للمناقشة الجهاز المفهومى الحديث بأكمله، وقد أثرى الجدال حول الثقافة والهوية وتشكيل المعيار ومفاهيم مابعد البنيوية وربما انفرد بالكشف العميق عن المترتبات السياسية لأدوات التحليل النظرية والتباين بين القيمة النقدية الفكرية والهوية السياسية أنه الملتزم سياسيا، المنف بلا وطن، المرتحل دون أثقال وخصائص جامدة، بروفيسور الإرهاب كما يفترى عليه الفكر الاستشراقى الامبريالى الصهيونى.

وهو يربط مركزية أوروبا واستثنائية أمريكا بمفهوم التراتب بين الشعوب، فالمتفوقون ينبغى أن يحكموا الأعراق الأدنى التى تجىء خضوعها لمصلحتها ويستمر هذا الدجل القديم. ولأمريكا فى هذا الخطاب قدر مرموق فانتصار القوة العسكرية الأمريكية معادل لانتصار الديمقراطية وإصلاح الأديان الأخرى والخير فى العالم، والبيوريتان الأمريكان ينحازون إلى أمة الرواد: اسرائيل، أنها مثلهم تنتزع الأرض من «الهمج» الذين اساءوا استخدامها وتركوها خرابا ولو أبادوهم لتحقيق الرسالة الحضارية تدعيم النمو التدريجى للاستيطان «واكتساب» فدان آخر وجدى آخر يوميا واعادة بناء فلسطين كلها لليهود، حق ملكية مطلق لاهوتى فى استيطان إحلالى «ديمقراطى» ذى خصوصية أخلاقية وتلك «الديمقراطية» فى مجتمع عسكرى منقسم بين مصالح مختلفة للقادمين من لغات مختلفة وأصول مختلفة تقوم على تراتب قاس جدا بين نخب مختلفة وداخل هذه النخب وبين مؤسساتها بحيث يصبح «الفرد» المجند دائما المحشو بتحيزات التهديد، الخاضع لقوى عسكرية واقتصادية تتحكم فى مصيره وحياته وموته بلا أى فاعلية حقيقية، ولكن النزاعات الداخلية حول التوسع ومداه وإيقاعه لاتحل إلا من خلال تداول الشخصيات الحاكمة فى تعاقب بطىء أو سريع

حسب المقتضيات، ويصبح التغيير كما يقول تشومسكى مؤسسة التغيير الثابتة ، تبادل مختلفة لأدوار اللاعبين بنفس قواعد لعبة التكنة العسكرية، بين الجنرألات والحاخامات المحافظين على النظام من أجل التمتع بمزايا إدارة البلاد ونهب الأموال ، ولا ضرر على الإطلاق فى نظام الفصل العنصرى الذى يمنح الفرد الإسرائيلى نصيبا من الدخل المتحصل من المساعدات والمنح الأمريكية وامتيازات المساحة والماء على حساب الفلسطينيين من حق النقد داخل التوافق المرسوم لبعض الشخصيات والممارسات، ويحدد ادوارد سعيد مسألة الهولوكست تحديدا موضوعيا فالنازية استمرار لايعرف الخجل للتفوق العرقى الأوروبى لم يحاول إخفاء الطابع القبلى النوردى وتحقير السلاف واليهود والغجر والسود، إنها تعبير عن هذا التفوق العرقى بعد مده إلى نهايته المنطقية، وينبغى رؤية كارثة اليهود على أيدى النازية فى السياق الأوسع وموقعهم الخاص فى الخطاب الغربى لقد كانوا أوروبيين ذوى امتيازات فى تراتب الأعراق والثقافات، ولم يوضعوا فى خانة السود والصفر، وأسهم مثقفوهم فى تشكيل الإدراك الذاتى للأوروبيين ومن ناحية أخرى تعرضوا للكراهية والاضطهاد باعتبارهم الأقلية الدينية الملموسة الوحيدة فى أوروبا ، بمقدار مايتم تصورهم باعتبارهم لايمكن هضمهم فى فكرة تتفق عليها عن أوروبا المسيحية، لقد كانوا أحيانا يعتبرون الآخر الكيان السلبى النهائى اللازم للتحديد الذاتى الأوروبى فى نقائه أقلية صغيرة غير محصنة فريسة سهلة وكبش فداء للسلطات السائدة وكان الهولوكست الناتج النهائى لتاريخ طويل من الإجرام الأوروبى (إبادة السكان الأصليين بالملايين فى أمريكا واستراليا ومذابح واستبعاد الأفريقيين ، وقتل الوطنيين العرب والأسيويين) ضد الأقلية الدينية الملموسة الوحيدة فى أوروبا أيامها وبعد ذلك تم التفاعل الثلاثى بين الصهيونية والخطاب الاستشراقى والامبريالية الجديدة الأمريكية ضد الشبح المختلق لأصولية إسلامية. فتلك الأصولية ليست منتشرة فى العالم الإسلامى أكثر من الأصولية اليهودية أو المسيحية فى إسرائيل وأمريكا . وهذا التحالف الثلاثى يحافظ على التحكم فى الشرق الأوسط وفى احتياطيات البترول ■



هل المستقبل يحتاج إلى البشر؟

بقلم
د. أحمد محمد صالح

علم الإنسان الآلى robotics ، وهندسة الجينات genetic engineering والنانوتكنولوجى nano-tech ، بمعنى التكنولوجيات فائقة الصغر، وحوسبة الكم والتزاوج بين العقول البشرية والعقول الاليكترونية، هى تقنيات بدايات القرن الحادى والعشرين. وهناك الكثير الذى لم تره البشرية بعد! سيحدث تغيير مثير فى السنوات الثلاثين القادمة أكثر مما رأينا فى القرن العشرين بكامله! وإذا كانت كل هذه التقنيات تهدد وتعرض الجنس البشرى للخطر ! فالسؤال الآن هل المستقبل يحتاج إلى البشر!؟

التحول المنتظر

يزعم علماء الحاسوب ان ثورة الكمبيوتر لم تحدث بعد! ويرصدون فى صمت نمو وسيط جديد للفكر الإنسانى. فعندما تصل النماذج الأولية لماكينات الانتاج الكبير Massproduction، إلى بيوتنا، ومكاتبنا، ومدارسنا فإن حياتنا ستتغير بشكل فجائى وجذرى! والصورة الأولية لماكينات العقول التى تضخم الإنتاج، وهى من ذرية وأحفاد الحواسيب الشخصية التى نراها الآن حولنا، وستشبه تقنية معالجة المعلومات اليوم. فهى أن تكون اكثر من التليفزيون الذى يشبه آلة طباعة من القرن الخامس عشر. وسينضم

مئات الملايين من الناس حول العالم سويا. لخلق انواع جديدة من المجتمعات الإنسانية، تستعمل تلك الماكينات. التى حلم بها عدد صغير من المفكرين والفنيين على مدى القرن الماضى.

ولا أحد يعرف أن هذه التقنيات ستجلب الخير او الشر للجنس البشرى ولأن نتائج هذا التحويل سيعتمد فى الجزء الكبير على كيفية استجاباتنا وتفاعلنا مع ماكينات العقول تلك وايضا على اختياراتنا، ولن يستبدل العقل الإنسانى بماكينة، على الاقل فى المستقبل المنظور، لكن هناك القليل من الشك تضخم فى خيال المثقفين والمفكرين حول العالم، بأن المجتمعات الالكترونية التفاعلية ستغير طرق الناس فى الاعتقاد، والتعليم، والاتصال. ويبدو وكأن هذا التحول الذى ستسببه تلك التقنية الأخيرة، على المجتمع، سيكون له تأثير أكبر من آخر مرة. دمج ونمى فيها الفكر الإنسانى! قبل خمسمائة عام، عندما تعلم العالم الغربى القراءة، حيث انبثق مجتمع المثقفين فى أوروبا، ونمى من أقلية متميزة بالمقارنة ببقية السكان. وتغيرت حياة الناس بشكل جذرى وبسرعة، ليس بسبب اختراع مكائن الطباعة، لكن بسبب ان ذلك الاختراع وفر المعرفة للناس، فالكتب كانت مجرد العربات التى حملت الأفكار وهربت بها من المكتبات الخاصة للنخبة المثقفة ووزعتها بين بقية السكان.

والقيمة الحقيقية للكتب ترجع إلى المجتمع الذى صنعها! مجتمع المثقفين الذى، مازال موجودا وحيا فى جميع انحاء العالم. والصفحة المطبوعة كانت وسيطا لتوليد أفكار الكيمياء والشعر، وأفكار النشوء والتطور والثورة، وأفكار الديمقراطية وعلم نفس والتكنولوجيا والصناعة. والعديد من الأفكار الأخرى التى تجاوزت بكثير رؤية مخترعى الآلة المتحركة ورؤية كتب الدين.

وأليات الإنتاج الكبير من اجهزة الكترونية متطورة امامها عشر سنوات او اكثر! فالتأثيرات الأولية للانجازات المدهشة فى عالم الحاسبات منذ ١٩٦٠ بدأت بدخول حياتنا الآن فقط. فمعالجات النصوص. والعاب الفيديو والبرامج التعليمية ورسومات الكمبيوتر graphics كانت مفاهيم مجهولة إلى الكثيرين قبل عشر سنوات فقط، لكن اليوم هى اسماء للصناعات ببليون دولار، ويقول الخبراء بأن التطورات الأكثر إذهالا لم تظهر بعد للبشرية!

حلم الحاسبات

قليل من رواد الحاسبات الشخصية، والذين مازالوا يعملون فى صناعة الكمبيوتر يستطيعون ان يتذكروا ولادة الحلم، عندما كانت فكرة استعمال الحاسبات الشخصية بدعة غامضة وهرطقة فى اعتبار كهنة الكمبيوتر وقتها. منذ أكثر من ثلاثين سنة. كانت الأغلبية الساحقة من الناس الذين صمموا، وصنعوا، وبرمجوا. واستعملوا الكمبيوتر، يعتقدون فى فكرة واحدة حول المناسب والممكن لمكانة الكمبيوتر فى المجتمع: وقالوا: إن الحاسبات ادوات غامضة، القصد منها فقط الاستعمال فى الحسابات الرياضية، وبعد فترة اعتقد أن تقنية الكمبيوتر هشة جدا، وثمينة جدا، ومعقدة جدا لغير المتخصصين. وفى ١٩٥٠ كان يمكنك ان تحسب الناس الذين خرجوا عن هذا الاعتقاد على أصابع اليد الواحدة. وكانت هناك قلة تعارضهم لهم تصورات متباينة عن تطبيقات الكمبيوتر، ولكنهم اشتركوا فى رؤية واحدة حول حتمية استعمال الكمبيوتر لتحسين السمات الابداعية للذكاء الإنسانى، لكل شخص، وليس فقط للمتخصصين! حتى الأغلبية التى اعتقدت فى استعمال الكمبيوتر فى

معالجة البيانات الرياضية كآلة حاسبة، هم ايضا اشتبهوا فى إمكانية أن يكون الكمبيوتر اكثر تفاعلية. وان يساعدنا لتخمين وبناء ودراسة النماذج، وفى الاختيار بين البدائل، والبحث عن الأنماط ذات المغزى فى مجموعات المعلومات، وتساءلوا ايضا عن امكانية هذه الأداة المولودة الجديدة ان تصبح وسيطا اتصاليا بالاضافة إلى كونه آلة حاسبة. واقترح هؤلاء المنظرون المتشقون، بأنه اذا كانت فعلا المعرفة الإنسانية فى حقيقتها قوة، والكمبيوتر فى امكانه تحويل المعلومات الى معرفة، يجب ان يكون ذلك قاعدة لتقنية قوية جدا. وبينما اكثر العلماء والمهندسين بقوا فى رهبة من آلات الجمع العملاقة هذه الأقلية اصرّت على التفكير فى كيفية جعل الكمبيوتر يساعد فى عمليات العقول الإنسانية بالطرق غير الرياضية. ونركز هنا على افكار قلة من هؤلاء الناس، وازعم انهم، مشهورون فى الدوائر العلمية، لكنهم غير معروفين إلى الجمهور العام، مازالوا يعملون ويحلمون إلى اليوم. ويواصلون استكشاف حدود التفاعل بين ماكينة الكمبيوتر والعقل البشرى، ولا نعرف ماذا سيقول التاريخ عن افكارهم.

حاسبات الغد

يقول هؤلاء العلماء الحالمون ان الحدود المستقبلية لتقنية الحاسبات ليست فى العتاد والاجهزة لكن فى عقولنا. فالكمبيوتر الرقمى مستندا فى الاصل على اكتشاف نظرى معروف بـ الماكينة العامة او الشاملة universal machine وهى ليست فى الحقيقة أداة ملموسة او جهازاً واقعياً، لكنها وصف رياضى لماكينة قادرة على تقليد ومحاكاة أعمال أى ماكينة اخرى فهى جهاز لكل الأجهزة. وعندما نبدع ماكينة عامة، ونستطيع بها تقليد ومحاكاة أى ماكينة اخرى، فإن مستقبل تطور وتنمية هذه الأداة يعتمد فقط على المهمات التى يفكر فيها المستعمل. لتؤديها هذه الماكينة! وفى المستقبل القريب، قضية أن تكون الماكينة اكثر ذكاء، تعتبر قضية قليلة الأهمية بالمقارنة بقضية تعلم التعامل مع جهاز يستطيع ان يفعل اى شىء نتخيله فى عقولنا. والاختلاف المحورى بين حواسيب اليوم الشخصية وحواسيب الغد الذكية سيكون اقل فيما يتعلق بالهارد وير – القوة الصلبة، وهى عتاد الماكينة، فالاختلاف الجوهرى سيكون فى السوفت وير – القوة اللينة – ونذكر هنا ان السوفت وير فى الكمبيوتر هى المعرفة والمعلومات، وعن علاقة السوفت وير «القوة اللينة» بالهارد وير «القوة الصلبة» فى الكمبيوتر ان غياب احدهما يعنى أن الأخر متوقف عن العمل، وفى كمبيوتر الغد الناس نفسها مستعملى الجهاز، هى التى ستصدر الأوامر للسيطرة على عمليات الحوسبة، بواسطة البرنامج (السوفت وير) الذى يأمر الماكينة الهارد وير لتقليد نوع معين من الاجهزة. وكما هو الحال فى تطور الهارد وير حيث تطورت من الموصلات Relays إلى الانابيب المفرغة vacunm tubes إلى الترنزستورات transistors إلى الدوائر المدمجة intcgratcd cir-cuits، البرامج نفسها تطورت ايضا. فعندما تتطور عمليات معالجة المعلومات إلى معالجة المعرفة، نجد ان الكمبيوتر الشخصى الصحيح سوف يصل الى ما وراء العتاد والأجهزة! ويرتبط ويتصل بمصادر اوسع من القوة الدوائر الكهربائية الالكترونية الصغيرة electronic mi-crocuitry، وسيرتبط ويعمل بقوة العقول الإنسانية! وكمبيوتر الغد لا يشترط لاستعماله الإلمام بأبجدية الحاسوب، أو الرطانة بمصطلحات تخصصية تكنولوجية. كل ذلك سيختفى ! عندما يصبح كمبيوتر الغد وبرامجه اكثر ذكاء لأن تصميمه سيتم بطريقة تخول الناس ان يعملوا وينجزوا ما

تعودوا ان يفعلوه بشكل افضل باستعمال المكائن. والذى سينجزه الكمبيوتر بشكل افضل كثيرا من تلك المكائن . والعديد من الناس خائفون من حاسبات اليوم لأنهم اخبروا بأن هذه المكائن اذكى منهم! وهذه الخدعة. دعمها طقوس المبتدئين فى استعمال الكمبيوتر الشخصى، والذين اجبروا على استعمالها! فى الحقيقة فإن كمبيوتر الغد سيقع عليه عبء الاتصال بك شخصيا ليعرف ماذا تريد. ليصبح الحاسوب الذى يصعب استعماله هو الحاسوب الأخرس الذى لا يفهم ماذا تريد، بل ان كل المعارف المكتوبة فى العالم ستوجد فى جيب كل تلميذ حول العالم . حاسوب القرن الحادى والعشرين سيكون فى كل مكان . وفى كل الاحوال.

أحلام الخلود

نحن ندخل عصرا جديدا سماه رأى كورزويل Singularity سينجولاريتى الترجمة الحرفية للمصطلح هو التفرد، ولكن هنا يحمل معنى الاندماج بين ذكاء الماكينة والذكاء الإنسانى حيث يخلق شيئا اكبر! وسيكون الحد الفاصل للتطور على كوكبنا، بل ستكون ثورة فى تطور الذكاء بصفة عامة ، لأنه لا توجد إشارة إلى حدوثه فى اى مكان اخر. وهو جزء من قدرنا وتطورنا لمواصلة التقدم بدرجة اسرع، ورأى كورزويل كما نوهنا عنه فى مقال سابق هو مخترع ومؤلف موسيقى، وكاتب ومفكر مستقبلى مشهور حول العالم، وصاحب كتاب «عصر المكائن الروحية: عندما تتجاوز الحاسبات الذكاء الإنسانى الذى نشر فى يناير عام ٢٠٠٠ و كتابه القادم عنوانه The Singularity وهو على وشك النشر فى الشهور القادمة من عام ٢٠٠٣.

هل نحن مكائن روحية كما يقول كورزويل؟ نعم الحاسبات فى طريقها ان تصبح اكثر قوة وذكاء بمعدلات متسارعة، لكنها لن تملك ابدا ان تكون كيانا واعيا!؟ ويوضح كورزويل كيف ستتم هندسة وبرمجة البشر حيث تمثل (عقولنا) السوفت وير، واجسامنا هى الهارد وير، لتمتد الحياة الإنسانية بشكل غير محدد قبل فجر القرن الثانى والعشرين، ويجادل كورزويل بأن النمو المتسارع لقوة الحاسوب سيؤدى الى ان ذكاء الماكينة سوف يتجاوز ذكاء الإنسان مبكرا فى هذا القرن وان ما سماه بـ Nanobots نانوبوتس سوف يمسح أدمغتنا ويؤهلها من جديد ويهندسها ويبرمجها ويزودها بواقعية تخليلية مجسمة، ويحرر العقل الإنسانى من تقييداته الطبيعية الصارمة كخطوة قادمة فى التطور. فى النهاية ، سيتم دمج تقنية الكمبيوتر فى البشر! وهنا ننبه إلى أن عنوان الكاتب عصر المكائن الروحية مضلل وفيه خدعة كبيرة، وليس له علاقة بالعلم أو بالدين، بالأحرى هو عرض أولى مقنع للقرن الحادى والعشرين، مستندا على التقدم المتوقع فى التقنية، هو ايضا دليل مفيد للكتاب وقراء الخيال العلمى، وهو يصف التقدم المحتمل على مدى السنوات الـ ٢٠ القادمة حيث النماذج الأولية لذلك التقدم التقنى المتوقع فعلا موجودة الآن! وكورزويل نفسه له الكثير من المخترعات باسمه والتى تشكل تلك النماذج الأولية مثل ماكينة كورزويل للقراءة، وآله كورزويل الموسيقية واسمها Synthesizer، وهى آلة موسيقية اليكترونية تعزف مختلف الأصوات! وآلة كورزويل للتعرف على الكلمات وتمييزها. ومن امثلة تلك النماذج الأولية لتقنيات القرن الحالى ظهرت فأرة ملموسة tac-tile mouse، وهى مثل فأرة الحاسوب التقليدية، ولكنها تسمح للمستعمل ان يشعر بإحساس قوام السطوح. والاجسام، حتى البشر انفسهم. فعندما نحرك تلك الفأرة على صورة زهرة مثلا فى الكمبيوتر



نشعر بملمس تلك الزهرة!؟
ورغم محدودية ذكاء حاسباتنا المعاصرة، إلاَّ انها تستطيع تزويدنا بحلول فعالة للنقائص التى يعانى منها اكثر الأشخاص إعاقة ذهنية . فالذكاء المحدد والمقيد للماكينة ، وهو عمليا ذكاء واسع ومرن بالمقارنة بذكاء الشخص المعوق فالحاسبات لها امكانية عظيمة لمساعدة التعبير الانسانى وتوسيع قاعدة الابداع.
ويرى كورزويل أن ذكاء الحاسوب سوف يجارى الذكاء الانسانى خلال الـ ٢٠ سنة القادمة ثم بعد ذلك يتوفق ذكاء الماكينة ويذهب بعيدا، وتتضاعف قوته سنويا وتأتى أولا مرحلة الواقعية المتخلية او الواقع الافتراضى virtual reality ونعيش بدايتها الآن، ثم مرحلة التكنولوجيا المتناهية الصغر nanotechnology حيث الحقيقة المتخلية واقع فعلى، وبحلول عام ٢٠٩٩ تصبح التنبوءات خيالاً علمياً قابلاً للتحقيق، وتصبح عقول الناس سوفت وير برامج تستطيع ان ترتبط مباشرة فى انواع اخرى من الاجسام هارد وير متضمنة تكنولوجيات متناهية الصغر! ويمتلك كل شخص بالقانون عدة نسخ من هذه العقول البرامج (ذاكرة او اكثر وانماط مفكرة) وهى التى تحدد هوية البشر وليس الاجسام، ولن يكون هناك اى سبب للموت (فقد الاحساس الحيوى) حيث تندمج عقول الماكينة وعقول الانسان سويا على نفس الشبكة العالمية، لكن اذا نحن نزلنا وحملنا وعينا ونفسنا من على الشبكة، ما الفرص التى تضمن لنا ان نكون انفسنا فيما بعد او حتى مجرد إنسان؟ يبدو لى ان وجود إنسان آلى لن يكون ابدا مثل الإنسان الطبيعى فى أى إحساس ! حتى اذا اعتبرنا ان الرجال الآليين لديهم احساس اطفالنا فهذا معناه اننا ربما نفقد انسانيتنا للأبد.
ويستمر كورزويل فى رواية كتابة فى اوسع عبارات ممكنة.
ومثل ستفين هوكتك Stcphcn llaw-king كورزويل فى كتابه التاريخ المختصر للزمن Brief Itistoru of Time ، بدأ كورزويل بحكاية خلق الكون فى الثانية الأولى للارتطام الكبير، وعرض اطروحته الأساسية فى عبارات تربط بين مصطلحات علاقة الطاقة والنشوء والارتقاء والتطور فى ترتيب يحدث تشويشاً فى الفهم، ملخص ما يراه كورزويل بان نسبة تحسين التقنية ستعجل بأننا سنصبح الرجال الآليين او نندمج مع الرجال الآليين او شىء ما مثل ذلك، لكن جون سيرل، فيلسوف جامعة بيركيلى الذى يدرس الوعى يحتج بأن هذا لا يمكن أن يحدث، لأن الرجال الآليين لا يمكن ان يكونوا واعيين. ويسترسل ويقول: بينما سمعت مثل هذا الكلام قبل ذلك واعرف ان هناك رجالاً آليين حساسين دائما كانوا فى افلام الخيال العلمى، لكن لن نسمع هذا الكلام من لارى كورزويل الآن. معنى ذلك ان امكانية تحويل تلك الاحلام اصبحت وشيكة. لان قدرة كورزويل مثبتة تماما فى تخيل وخلق المستقبل، خاصة ان التقنيات الجديدة مثل هندسة الجينات وتكنولوجيا الصغائر تعطى القوة لاعادة صنع العالم، لكن المفاجأة ان سيناريو واقعى وشيك للرجال الآليين الأذكياء!

سيطرة الماكينة

يلخص رأى كورزويل فى كتابه «عصر الروحية» The Age Spiritual Ma-chincs اليوتوبيا أو المدينة الفاضلة التى يتنبأ بها، فى ان البشر يمكنهم الخلود، حينما يصبح كل واحد منا مجرد روبورت او إنسان تقنى آلى . وهذه اليوتوبيا جعلت بيل جوى Bill Joy مؤسس وكبير علماء النظم الشمسية متناهية الصغر Sun Microsystems ، وهو استاذ كرسى ورئيس لجنة ابحاث مستقبل تكنولوجيا المعلومات، وشارك فى تأليف لغة الجافا

يشعر بقلق شديد! ويطرح آلاف الأسئلة، والأخطار المحتملة والنتائج غير متوقعة في هذا المسار ، وكتب يقول في دراسة منشورة له بمجلة Wircd عدد ابريل ٢٠٠٠:

دعونا نفترض اولا بأن علماء الحاسوب نجحوا في تطوير المكائن الذكية التي تستطيع عمل كل الأشياء بشكل أفضل من الأعمال التي يمكن ان ينجزها البشر! في تلك الحالة من المفترض ان كل تلك الاعمال سيتم انجازها من المكائن الذكية بشكل دقيق ومنظم جدا ، ولا ضرورة للجهد الإنساني! وهنا ينبثق موقفان الاول: أن المكائن قد يتاح لها اتخاذ كل قراراتها بدون الاشراف الإنساني للموقف الثاني: وجود سيطرة انسانية على المكائن عند اتخاذ القرار !

في الموقف الأول إذا اتيح للمكائن اتخاذ كل قراراتها ، نحن لا نستطيع تخمين اى النتائج المتوقعة، لانه من المستحيل الحدس كيف يمكن لمثل هذه المكائن أن تتصرف! لكن المؤكد بان مصير الجنس البشرى سيكون تحت رحمة تلك المكائن، لكن كورزويل يجادل في كتابه بأن الجنس البشرى لن يكون احمق بما فيه الكفاية لتسليم كل القوة إلى المكائن! وسواء كان الجنس البشرى قد سلم القوة طوعا لتديرها تلك المكائن، او المكائن العنيدة استولت على السلطة فإن الجنس البشرى ربما يسمح لنفسه بسهولة للانحراف في الاعتماد الكامل على المكائن، وان يكون عنده اختيار الا قبول كل قراراتها. وعلى مستوى المجتمع سيواجه مشاكل اكثر تعقيدا مع المكائن التي ستصبح اكثر ذكاء، وستتركها للناس تتخذ اكثر قراراتهم المتعلقة بهم، لأنه ببساطة قرارات الماكينة وانجازها، سيجلب نتائج أفضل من تلك التي يتخذها البشر. في النهاية سوف نصل لمرحلة يعجز فيها البشر عن اتخاذ القرارات الضرورية لإبقاء النظام لانها ستكون معقدة جدا بحيث يفشل البشر في تأديتها بذكاء. في هذه المرحلة ستكون المكائن اكثر فعالية في التحكم والمراقبة، ولن يستطيع الناس أن يوقفوا ويطفئوا ويغلقوا تلك المكائن، لانهم سيكونون معتمدين عليها حتى النخاع. ويصبح اغلاقها بمثابة انتحار.

في الموقف الثاني يتمثل في إمكانية الاحتفاظ بالسيطرة الإنسانية على المكائن في هذه الحالة الإنسان العادى ربا يملك سيطرة على بعض المكائن ستكون في أيدى نخبة صغيرة جدا. كما هو حادث اليوم، لكن باختلافين. فبسبب تقدم وتطور التقنيات ستملك النخبة سيطرة اعظم على الجماهير، ولأن العمل الإنساني لن يكون ضروريا . ستكون الجماهير زائدة على الحاجة، عبء عديم الفائدة على النظام واذا كانت النخبة عديمة الرحمة وقاسية ستقرر ببساطة إبادة الكتلة الإنسانية لانه لا فائدة منها. وإذا كانت النخبة اكثر انسانية . قد يستعملون دعاية او اساليب نفسية او حيوية اخرى لتخفيض معدل الولادات في الكتلة الإنسانية حتى تنقرض،وتترك العالم للنخبة! أو إذا كانت النخبة طيبة القلب جدا، هنا قد يقررون لعب دور الرعاة الجيدين لبقية الجنس البشرى، وستسعى إلى إشباع كل الحاجات الطبيعية للكتلة الإنسانية وستنشأ كل الأطفال تحت شروط صحية ونفسية ، وسيشجعون كل شخص عنده هواية مفيدة لإبقائه مشغولا، وأى واحد يصبح مستاء او ساخطا . ستتم معالجة مشكلته! بالطبع الحياة ستكون بلا هدف! لانه سيتم هندسة الناس بيولوجيا ونفسيا بازالة حاجتهم للقوة والسلطة والتميز. او جعلهم يتسامون في دوافعهم وبواعثهم بانشغالهم في بعض الهوايات غير المؤذية

وهؤلاء البشر الذين يتم هندستهم حينا قد يكونوا سعداء فى مثل هذا المجتمع لكنهم سيكونون بكل تأكيد عبيدا وغير احرار وسوف ينزلون الى منزلة الحيوانات الأليفة . هذا ملخص ماكتبه Bill Joy فى دراسته معقبا على كتاب كورزويل.

انقراض البشر

ونفس هذا القلق من سيطرة الماكينة وانقراض البشر ظهر في كتاب هانز مورافيك Ilans Moravcc في مايو عام ٢٠٠٠ وعنوانه Mere Machine to Transcendent Mind ومورافيك احد الرواد فى بحث علم الإنسان الآلى robotice وكان مؤسس اكبر برنامج حول العالم في ابحاث علم انسان الالى فى جامعة Carncgic Mcllonk، ويقول فى كتابه على مستوى المستقبل القريب المنظور فإن الانواع البيولوجية لن تنجو ابدا من المنافسة والاصطدام مع انواع متفوقة عليها. فقبل عشرة ملايين سنة، فصل جنوب امريكا وشمالها ببرزخ بنما الغارق. وعند هذا البرزخ استغرق الامر فقط بضعة آلاف من السنوات فى الشمال لإزاحة وإزالة تقريبا كل الجرابيات الجنوبية، وتحولت الى النوع المشيمي المجهز بعمليات تمثيل عضوى فعالة، وأجهزة تناسلية وعصبيه، لكن مازالت امريكا الجنوبية مثل استراليا اليوم، معمرة بالثدييات الجرابية، بما فى ذلك الجرابيات البديلة مثل الجرذان والغزلان، والنمور. وفى سوق حرة تماما يتوقع مورافيك ان الإنسان الآلي فى امريكا الشمالية سيتفوق ويؤثر على البشر بالتأكيد، مثلما اثر الأمريكى لشمالى المشيمى، على الامريكى الجنوبى الجرابى، وسوف يتأثر الجنس البشرى كله! وملخص وجهة نظر مورافيك بان الانسان الالى سيخلفنا فى النهاية، وان البشر يواجهون الانقراض بشكل واضح. وقد درس الفيلسوف جون سيرل، فيلسوف جامعة بيركيلى هذا الاحتمال واستنتج ان خطر حدوث الانقراض الانسانى نسبته على الاقل ٣٠ بالمائة! بينما رأى كورزويل يعتقد بأننا كبشر لدينا فرصة أفضل من الفرصة المتساوية ، لكن كورزويل اتهم دائما بالتفاؤل. لأن توقعاته لا تتضمن احتمال العديد من النتائج المروعة التى تنتهى بالانقراض ولا يجب ان نتابع قرب الخلود بدون اعتبار التكاليف، وبدون اعتبار الزيادة المتعادلة فى خطر الانقراض.

لماذا القلق ؟

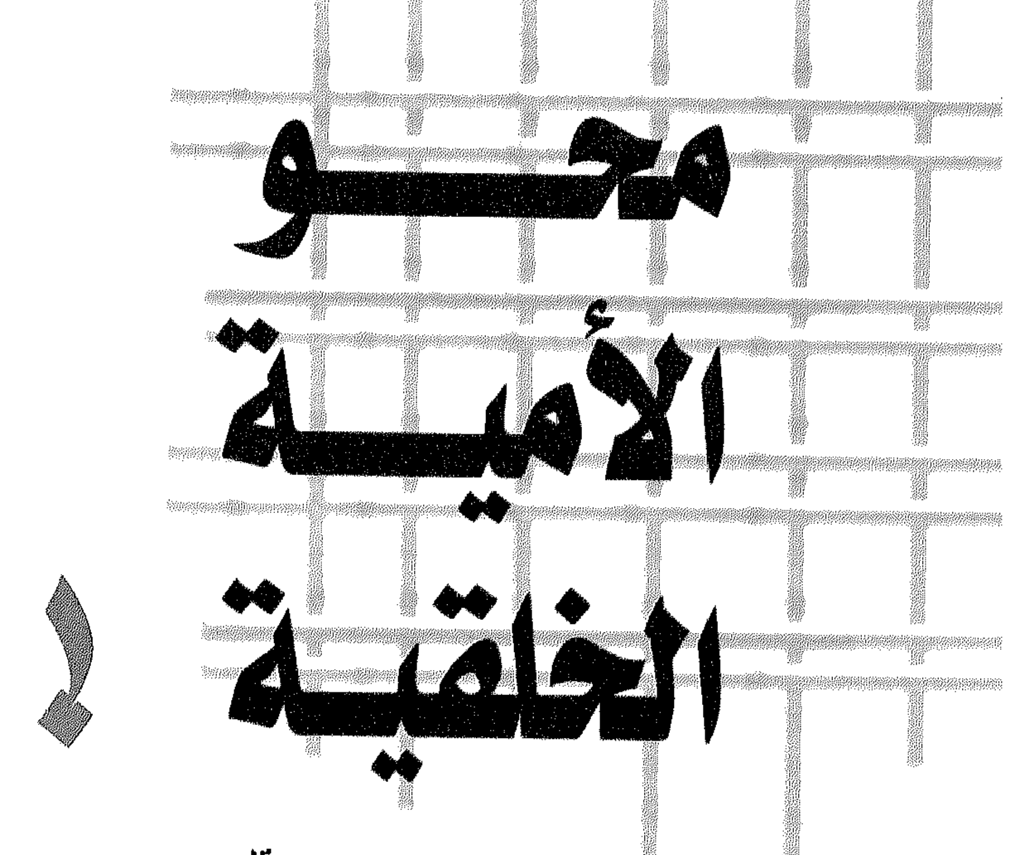
العلماء فى العالم كله قلقون بشأن هذه السيناريوهات المرعبة؟ والسؤال لماذا القلق؟ جزء من الجواب يكمن فى موقفنا بالتأكيد نحو الجديد، وفى تحيزنا نحو الألفة الفورية والقبول المطلق للجديد ورغم اننا تعودنا تقريبا على العيش مع الاختراقات العلمية الروتينية، لكن حتى الآن لم نقبل الحقيقة التى تقول: إن تقنيات القرن الحادى والعشرين الاكثر اهمية علم الانسان الآلى هندسة الجينات، الأجهزة المتناهية الصغر تشكل تهديدا مختلفا تماما عن التقنيات التى جاءت قبل ذلك فقبله واحدة يمكن ان تنفجر فقط ذات مرة – لكن روبورتوا واحدا يستطيع ان يكرر نفسه بالاستنساخ ويصبح عدة روبورتات. ويخرج بسرعة عن السيطرة ! واذا كان العمل على الحاسوب وشبكاته حيث إرسال واستقبال يخلق الفرصة لان يكون استنساخ هذه الرسائل وتكرارها خارجا عن السيطرة ويمكن ان يكون ذلك مصدر ازعاج. فى اسوأ الاحوال يعطل الماكينة او يقطع خدمة الشبكة! لكن الاستنساخ الذاتى غير المراقب فى هذه التقنيات الاحدث. يحمل خطرا أعظم بكثير ، وهو خطر يحدث ضررا كبيرا فى العالم الطبيعى. وكل واحد من هذه التقنيات تحمل ايضا وعدا لم نسمع به من قبل:

وهو حلم الخلود الذى يراه كورزويل فى احلامه الالية. فهندسة الجينات قد تزودنا قريبا بطرق لمعالجة تامة لاكثر الامراض خطورة! والأدوية والعلاج القائم على تكنولوجيا الصغائر يستطيع معالجة أكثر الامراض خبثا. وتستطيع تلك التكنولوجيات الجديدة مجتمعة ان تمد متوسط عمرنا بشكل كبير، وتحسن نوعية حياتنا.. رغم ذلك، كل واحدة من هذه التقنيات، تحمل فى طياتها بشكل منفرد تراكم قوة عظمى، ويصاحبها خطر عظيم فما هو المختلف فى تقنيات القرن الحادى والعشرين. بالتأكيد التقنيات التى تقع تحت أسلحة الدمار الشامل وهى الاسلحة النووية والبيولوجية والكيماوية كانت اسلحة قوية. وتحمل تهديدا هائلا للبشرية لكن بناء الاسلحة النووية يتطلب، على الاقل فترة من الوقت، للحصول عى مواد أولية، والوصول إلى المعلومات المحمية جدا نفس المتطلبات فى بناء برامج الاسلحة الحيوية والكيماوية، حيث تتطلبا ايضا نشاطات واسعة النطاق. لكن تقنيات القرن الحادى والعشرون. الهندسة الوراثية، وتكنولوجيا صغائر وعلم الإنسان الآلى ثلاثى قوى جدا بحيث يستطيع تفريخ اصناف جديدة كاملة من الحوادث العرضية، واكثر الخطر يحدث فى المرة الاولى. وتحدث الحوادث العرضية على نحو واسع ضمن نتيجة وصول اشخاص خارجين عن النظام او مجموعات صغيرة متعصبة لتلك التقنيات. ولن يتطلب الامر منهم وسائل كبيرة أو مواد أولية نادرة، بل المعرفة وحدها ستمكنهم من استعمال تلك التكنولوجيا. وهكذا يتوفر عندنا الامكانية ليس فقط فى اسلحة الدمار الشامل، لكن سيتوفر لنا المعرفة التى تحقق الدمار الشامل الكبير والضخم. وهذا الدمار إلى حد كبير جدا يملك قوة الاستنساخ الذاتى!

وليس من المبالغة فى القول أن العالم الآن على قمة منحنى الكمال للتطرف فى الشر، الشر الذى تنتشر امكانياته ابعد بكثير من التى ورثتها اسلحة الدمار الشامل الى الدول القومية، ومن المدهش والفظيع ان سلطة الشر المتطرف فى يد قلة من الافراد الآن. فماذا يحدث حين تصل ايديهم للتكنولوجيات الجديدة. خاصة اذا عرفنا ان التقدم السريع والجذرى الاخير فى الالكترونيات الجزيئية، سيجعلنا بحلول عام ٢٠٣٠ قادرون على بناء مكائن الحواسب التى تزيد قوتها مليون مرة عن حواسب اليوم، وهذا كاف لتطبيق أحلام كورزويل ومورافيك. وهذه القوة الهائلة للحاسبات عندما تندمج مع التقدم الموازى فى العلوم الطبيعية. والفهم العميق الجديد فى علم الوراثة، تصبح قوة تحويلية هائلة عندما يطلق لها العنان وتتيح الفرصة لإعادة تصميم العالم بالكامل سواء بالخير اوالشر! وازاء هذه القوة المدهشة والمرعبة لهذه التقنيات الجديدة، الا يجب ان يكون السؤال المطروح كيف نستطيع نحن البشر ان نتعايش مع تلك التقنيات بطريقة افضل؟ واذا كان انقراضنا هو الاحتمال القائم، أو حتى يمكن حدوثه. نتيجة تطورنا التكنولوجى؟! فكيف يمكن ان نتقدم مع الانتباه والحذر الشديدين؟

وبعد «فهذه الرحلة السريعة للمستقبل، والتى تشكك فى حاجة المستقبل للبشر، تزاحمت الأسئلة فى ذهنى، ولم استطع ان امنع من إعادة صياغة عنوان المقال بطريقة احتجاجية على مستقبل الاوضاع العربية، ونقول إذا كان المستقبل لا يحتاج البشر! فهل المستقبل يحتاج للعرب!؟ ■





محو الأمية الخلقية ؟

بقلم
د. محمد رجب البيومى

ظهرت صحف الصباح ذات يوم تحمل البشرى للقراء بأن الأمية الأبجدية ستمحى بعد أربع سنوات لا تزيد، وأن الخطة المحكمة قد أعدت للتنفيذ، بحيث لا يتبقى فى مصر جاهل أو جاهلة بعد السنوات الأربع، وما كاد محررو الأعمدة اليومية فى هذه الصحف يتلقون هذا النبأ وهم يتلمسون أى موضوع يملأون به الفراغ اليومى الذى التزموا به مهما انقطعت دواعى الكتابة الواعية، ما كادوا يتلقون هذا النبأ حتى امتدت بهم الأحلام فأخذوا يتحدثون عن ارتقاء الأمة ونهوضها الاجتماعى عقب زوال هذه الأمية الأبجدية ، واتسع المجال لديهم لكى يقرروا جدوى التعليم وأثرة القوى فى ارتقاء الوعى الخلقى المؤدى إلى نقص الجرائم، واعتدال السلوك! وصبوا لعناتهم على الجهل الذى أدى إلى كثرة الحوادث الإجرامية، وتعدد السرقات والخيانات والسطو على الآمنين من الشرفاء.

وكنت أقرأ ذلك فأقول في نفسي هل عمي هؤلاء عما نطالع من آثام حملة الشهادات الجامعية، وهي تفاجئنا كل يوم بالمذهل المروع من الأنباء، إن درجات الليسانس والماجستير والدكتوراه لم تعصم الكثيرين من السقوط المشين! فهل الخلاص من أمية فك الخط، وكتابة الحروف دون فهم لمعانيها سيقضيان على الإجرام حتى نبني هذه القصور الشاهقة على الهش الضعيف من الرمال! لماذا لا ننظر الى مآسي المتعلمين التي تطالعنا في كل صباح، لنعرف مدى الانهيار الخلقي التي انحدرت إليه الطوائف المختلفة من العلماء والجهلاء!

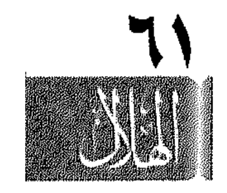
وقد أرمى بالغلو والمبالغة فيما أدعيه، ولكن هل يرمى الأستاذ سامح عاشور نقيب المحامين بالغلو حين يذكر في جريدة الجمهورية الصادرة في ٥ سبتمبر ٢٠٠٣، أن مجلس التأديب ينظر في الأسبوع في مائة وسبع وخمسين قضية بشأن مخالفة المحامين لآداب المهنة، وأنه قرر من قبل شطب أحد عشر محاميا بشكل نهائي من كشوف النقابة لارتكابهم أعمال تزوير لا تتفق مع شرف المهنة، كما قرر توجيه الإنذار واللوم لاثنين وأربعين من هؤلاء، ثم منع خمسة وعشرين منهم من مزاولة المهنة لمدة عام!

فساد مستطير

هل نغمض عيوننا عن الكثيرين من رؤساء الأحياء الذين تناولوا الرشوة المجزية، لكي يتستروا على مخالفات البناء.. ومنها منازل سقطت على عشرات الأبرياء. ولم يسمحوا بإزالتها حيث تقاضوا رشى المنتفعين ومنها منازل أزيلت عن مواقعها وهي متينة قوية كي يستغل مالكو الأرض في بناء جديد يحقق عشرات الأضعاف! هل نغمض عيوننا عن نهب الأموال بالمليارات من البنوك تواطؤا مع رجال الاعمال. واقتساما لمكسب غير مشروع. وهؤلاء وأولئك من ذوي الوجاهة اللامعة في المجتمع المنكوب منصبا ونفوذا؟ هل نغمض عيوننا عن تزوير الدرجات في الكليات المرموقة ليرتقي الخامل، ويطرد النابه، والقائمون بذلك في الصف الأول من أساتذة الجامعات! هل نغمض عيوننا عن من يحتمون بالحصانة البرلمانية، فيهجمون في حندس الليل على الآمنين من النائمين ليطردوهم من المنزل الذي لا مأوى لهم سواه! فإذا جوبهوا بمخالفة القانون، قال أحدهم في غطرسة: أنا القانون ! ولا قاض سواي!

إن هؤلاء جميعا - ومعهم الآلاف ممن يحتذون بهم في كل اتجاه . ومن انحدروا الى حضيض المذلة الإنسانية والهوان الخلقي - لم يتعلموا القراءة والكتابة فقط، بل حملوا اعلى الدرجات، وتسنموا اوج المناصب المرموقة . ولم يكونوا جائعين حتى يضطروا الى السرقة، ولا مفلسين حتى يبحثوا عن موارد الكسب الحرام ، هؤلاء لم يستفيدوا من التعليم الجامعي ما يعصمهم من السقوط! فكيف خابت الجامعة، وقبلها المدرسة في إعداد مجتمع فاضل يعتصم بمكارم الأخلاق!

وأقرر بدءا ان محو الأمية الخلقية أيسر كثيرا من محو الأمية الأبجدية، لأن النفس الإنسانية مفطورة على معرفة الخير والشر والتمييز بينهما، لذلك لا يحتاج الامي الساذج إلى مشقة في الاهتداء إلى المعروف، لأن النظرة



السليمة جاذبة إليه وهذا الرجل الهادىء يجد فى درس المسجد وفى خطبة الجمعة ما يهديه الى الصراط القويم، وما يدفعه إلى انكار ما لا يرتاح اليه ضميره البرىء، والتلميذ بطبيعة الحال يحمل بذرة الخير الكامنة فى نفسه، فإذا وجد من يقوم عليها بالرى والرعاية فستنشق الأرض عن عود أخضر اذا صادف الهواء النقى، والماء الروى، أثمر وأينع وقد كانت المدرسة من قبل تقوم برعاية النشء على نحو يضمن سلامة السلوك فماذا جد الآن؟

اسم استعماري !

لقد كانت وزارة التربية والتعليم قبل قيام الثورة تسمى وزارة المعارف، وأخذ المولعون بالتغيير والتبديل ينقصون هذا الاسم ويقولون انه اسم استعمارى يحصر دور المدرسة فى تلقى العلوم فقط مع أن المدرسة يجب ان تكون للتربية والتعليم معا، حيث ينشأ الطالب مزودا بأفضل أدوات السلوك الإنسانى كما يزود بمعلومات عن المواد الدراسية ولن تصلح المدرسة إلا إذا ساعدت على التربية الناضجة والسلوك السوى للشباب، وبناء على ذلك تغير اسم الوزارة، وكان المنتظر أن يكون لتغيير الاسم صدى فى الاتجاه التربوى بالمدرسة إذ توقع الذين قرأوا عن هذا التغيير انقساما واسعا فى نمو الشخصية لدى الطالب، واتساعا فى وسائل الحياة العملية . فماذا كان؟ لقد كانت المدرسة فى عهد وزارة المعارف حافلة بأنواع النشاط المدرسى فأسرة للرحلات تضم فريقا من الطلاب يهيىء أسباب الرحلة ويقوم بتنفيذها ، وأسرة للتربية الرياضية تجعل المباريات اسبوعية وشهرية بين المدارس المجاورة وغير المجاورة واسرة للاشغال اليدوية تجعل من الطلاب ذوى حرف مهنية تعين على الكسب العملي، واسرة للموسيقى وأسرة للتمثيل وأسرة للخطابة، بحيث يلزم الطالب الزاما على اختيار اسرة تتفق مع ميولة وله اجتماعه الأسبوعى مع زملائه تحت رعاية مدرس يرعى الأسرة، ويرسم لها برنامج العمل السنوى كي تقوم بدورها الاجتماعى غارسا مبادىء السلوك الإنسانى بين الأعضاء بحيث تكون الاسرة درسا عمليا للأخلاق يواكب الدرس العلمى فى حصص الديانة والتهذيب! وكان من المنتظر بعد أن أصبحت الوزارة وزارة التربية والتعليم أن يتسع نشاط هذه الأسر حتى تكون المواطن الصالح ذا الكفاءة الخلقية والمهارة القوية فى التعامل الإنسانى، ولكن الذى كان وهذا من أغرب ما حدث - أن أهملت هذه الأسر اهمالا تاما، واذا وجد لها صدى ما ففى سجلات الأوراق يكتبها القائم بالعمل ليوقع عليها من الوجهين من يرى فى نفسه نشاطا السؤال عن الأسرة الدينية أو اسرة المواد الاجتماعية ! أما اختلاط الأفكار بالمناقشة وتنوع الرحلات! واكتساب المهارات، فقد عاقة ازدحام الفصول، وتحويل الفناء المدرسى الى حجر بدائية تحد من كثافة الطلاب! وتسأل عن مدلول التربية، فلا تجد بعض ما كنت تراه من قبل؟ وفى الفصول قل ان يجد التلميذ النموذج الطيب من استاذ يبحث عن الدرس الخصوصى فى المدرسة والجامعة معا؟ فأين التربية الخلقية التى تهيىء للطالب سبل الاستقامة وتعوقه من الانحراف؟!

انحدار الأخلاق

إن المؤتمرات الثقافية متعددة فى

مصر تعددا لا مثيل له في الدول النامية. وتأخذ من النفقات الباهظة ما يثقل كاهل الأمة، والمتحدثون فى الحقل التربوى من كبار علماء النفس والتربية والاجتماع وكل منهم يكتب البحث الضافى فى اكثر من عشرين صفحة، ثم يلخصه فى صفحة او صحفتين؟ فهل افادت هذه المؤتمرات قليلا او كثيرا فى العمل على الارتقاء الخلقى؟ وهل كانت اقتراحاتها المتكررة موضعا للتنفيذ، وقد لفتت الأنظار واستهلكت الأموال وأضاعت الأوقات! إننا نجد الأخلاق قد تنحدر من سيىء الى أسوأ نجد الرأى العام الآمر بالمعروف والناهى عن المنكر لا وجود له ، بل نجد بديلا له الرأى الوصولى الذى يدعو الى الانتهاز والابتزاز لانهما سبيل للكسب المادى والمعنوى معا. فمتى نعترف بانهيار المثل، فباعترافنا بذلك نبدأ خطوات الإصلاح!

أعود إلى ما أعنيه فى هذا المقال وهو محو الأمية الخلقية . فأقول إن الاخلاق الفاضلة مجمع عليها. وليست بذات انكار، ولكن الصعوبة لديها تقع فى التنفيذ لما علم، فليس كل معلوم مما يسهل تطبيقه، واذ كان التنفيذ ميدانه الاحتكاك بالنظراء والامثال. فأقرب الطرق الى السلامة الخلقية، ان تجعل الإنسان نفسه فى موقف غيره. اذ يفكر فى بواعث افعاله ويحللها تحليل الشخص المحايد، واذا ذاك تقترب الخطا من الجانبين، وأذكر بهذه المناسبة قول أحد الشعراء:

كن انت مثلى واقترن بعواطفى
تجد المعيب لدى غير معيب

وما كثرت الفجائع. وتعددت المثالب الا بابتعاد المرء عن شعور غيره. وانكماشه فى عواطفه الذاتية دون التفات الى مشاعر من يتوجه لهم باللوم والانتقاد، اذ قد يترتب على ذلك ما لا تحمده عقباه، وفيما تقرأ من احداث المجتمع ما يؤلم المنصفين من العقلاء، ويتركهم فى حيرة من ملأ لا يرعى مشاعر الغير، بل يزيد الخطب اشتعالا بما يصدر عنه من جموح، واضرب المثل بحادثة قرأت عنها منذ شهور فى جريدة سيارة، وهى حادثة تدل على تحجر المشاعر الإنسانية، بل على افتقاد المشاعر الإنسانية اطلاقا حتى لم تعد لها ادنى وجود! فقد اصيبت فتاة فى عقلها. وهذا ما لا حيلة لها فيه. بل هو قدر تكنفها وتكنف ذويها المساكين ولا مرد له وقد خرجت من المنزل عارية حيث لم يكن به احد يقف فى طريقها ورآها الجيران والمارة على هذا النحو الذى يستدر الدموع! فماذا كان من امر هولاء الأوغاد ؟! اذ انهم تحلقوا حولها ضاحكين كأنهم فى مسرح هزلى، وسارع احدهم الى اخيها العامل فى بعض المتاجر القريبة فصاح امام زملائه أختك عارية ترقص فى الشارع الا تستطيع ان تزجرها! كيف تكون هذه البلهاء بدون زاجر، وانت رجل عاقل! وقف المسكين ليجد حلقة من السفهاء، يتضاحكون ويشيرون الى العارية المجنونة فى سرور وابتهاج . فتقدم اليها وحاول اصطحابها الى المنزل، فلم تعقل، وكرر المحاولة فاستعصت فحين فقد صبره. وهو يرى السفهاء من حوله فى وضع يثير الموجدة هوى عليها بالعصا وكانت مريضة ضعيفة فسقطت على الأرض فاقدة الحياة، وجاء البوليس فاقتاد المسكين إلى النيابة فالقضاء !

أفلو كان لدى الجيران نخوة ذات همة. اما اقبل على الفتاة من حاول ملاطفتها حتى اقتادها الى منزلها! أما علم هؤلاء الرعاع أن المرض العقلى مما لا حيلة فيه. وقد تقع فيه والدة من يضحك الان او اخته او امرأته. أو هو بنفسه فلا مجال للاستهزاء! اما كان من هؤلاء من يسارع الى الاخ القادم فى ثورته وبلواه. فيطمئنه ويقول له : إنها مريضة وكلنا معرضون لمحنتها. وأنت رجل فتصبر وكن شجاعا فى صبرك واحتمالك فيستل منه غضبه ويصب الماء على الحريق المشتعل في طواياه! لو وضع كل إنسان نفسه مكان الأخ لمرت العاصفة بسلام! ولكن الغباء الاحمق، وانحلال التربية الخلقية بلغ فى مجتمع انانى وسيقدم الأخ المسكين للقضاء وسيحكم عليه لا محالة لأنه قاتل وسواء أكان الحكم مخففا او مشددا فانا ارى ان المجرم ليس الاخ البائس ولكنه المجتمع السفيه!

لماذا انحلت الروابط الإنسانية بين الناس، فلم يعد فى كل قرية وفى كل حى رجل من ذوى السن والفضل يكون صاحب الامر الاختيارى ، فاذا علم بما يشبه هذه المأساة خف الى مكانها. وعرف القوم منزلته فتركوه يعالج الامر بما يستطيع، بل لماذا لا تكون فى كل حى جماعة خيرية تكون ملجأ للطريد، ومثابة للهيف. وبهذا الرجل الكبير وبهذه الجماعة الخيرية، نتقى اذى السفهاء وننجو من شر كبير!

التكافل الإنساني

لقد كان الناس من قبل، فى أوائل القرن الماضي حتى أوسطه مفطورين على هذا التكافل الإنسانى الحميد، كان اكثرهم لم ينل من الثقافة الرسمية قليلا او كثيرا ، ولكنه بفطرته المؤمنة يعلم باب الخير فيقترب منه سعيدا. ويلمح باب الشر فيفر منه فرار السليم من الاجرب. ولم يكن فى حاجة الى محو الامية الخلقية. لانها ممحوه تلقائيا بما نشأ فى تكوينه الانسانى من نوازع البر والمعروف ! كان يقرض المال ولا يكتب الايصال لانه يعرف ان الامانة دستور لا ينتقض وكان يساعد المحتاج ولا ينتظر الرد لأنه يعلم ان الله سيضاعف الاجر! فلما تعددت الوان الحضارة كثر الطمع وتوارى الورع. واشتدت الاثرة، وانكمش الايثار!

إن تعدد رغبات الحياة واتساع ابواب الترف مما باعد بين النفس وفضائلها المدخرة فى اعماقها. وكنت اتحدث فى ذلك مع بعض الزملاء واضرب المثل بما روته الكتب عن اخلاق العرب فى البادية، من حب للكرم وتعاون على البر واغاثة للطارىء اللهيف. فقال ان اكثر هذه الاخبار موضوعة وان المؤلفين رووها دون تمحيص، وهو قول لا يخلو من خطأ. لأن هؤلاء الرواه نقلوا عن البدو بعض النقائص الذميمة، فلو كانت المسألة مسألة محاباة للبدو ما اخذوا عليهم هذه الهنات. على ان الواقع الملموس الذى سجله المشاهد عن البدو فى ايامنا هذه يؤيد ما ذكره السابقون عنهم من قبل، وقد ذكرت فى احدى مقالاتى فى الهلال مثلين معاصرين ذكرهما من لانشك فى صدقهما اذ ليس لهما دافع ما للمبالغة والا طراء. وقد رأيا ما شاهداه رأى العيان.

السلوك الحميد

أما الشاهد الأول فهو الجنرال جلوب باشا ، وقد كان المعتمد البريطانى

فى شرق الأردن ، حين كانت انجلترا صاحبة الأمر فى هذه البلاد . فقد ذكر فى يومياته انه قام بجولة خاطفة فى البداية متنكرا لا يلبس ما يدل على منصبه الكبير فرأى جماعة من البدو يتوسطهم كبيرهم الشيخ ، وهم يأكلون الطعام وقد كان على غير العادة من لحم الضأن. فرحبوا به وبصحبه وقدم لهم الشيخ احسن ما بين يديه فى سماحة ظاهرة، وحين انتهى الطعام وقد بقى منه الكثير. امر الشيخ بحمل ما بقى من اللحم المشوى. والعظم الهش الى خارج الخيام قريبا من الخلاء ليظل فى الطريق فسأل جلوب باشا لماذا لا تحفظون باللحم وهو مما يصلح للغد فقال الشيخ يارجل فى الليل حين تهدأ الحركة ستأتى حيوانات البادية من ثعالب وذئاب وكلاب فتجد خير الله وتأكل مما نأكل ، فتعجب جلوب وقال: وهل ستجدون فى الغد مثل هذا الطعام! فقال الشيخ : يا رجل ان الله يرزق الدود فى الصخر أفما يرزقنا ونحن عباده المؤمنون؟!

اما الشاهد الثانى فأحمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى فى عهد الملك فاروق، فقد قام برحلة استكشافية فى الصحراء الغربية وكتب عنها جزأين كبيرين . قال فى احدهما ان الزاد قد نفد منه وهو فى الصحراء القاحلة، ورأى على البعد بعض الخيام العربية فاتجه اليها . وحادث القوم ليشترى بعض ما لديهم من الأرز والتمر والدقيق، فسارعوا بتقديم ما يطلب عن سماح وحين قدم لهم الثمن، صاحوا فى وجهه غاضبين أناخذ ثمنا للطعام! أنتم ضيوفنا، وأنتم جائعون ! هل يدفع الضيف ثمن ما يأكل؟

قال أحمد حسنين «ورأيت مظاهر الفاقة والعوز فى وجوه القوم وفى ملابسهم. فاستحيت ان آخذ طعامهم دون اجر. وهم فى اشد الحاجة اليه ففكرت مليا ثم قلت لهم. لقد قبل النبى الهدية ومعى هدية لكم هى اقمشة بيضاء تصلح للثياب والسراويل. وليست ثمنا للطعام. ففكروا كثيرا . واصر احمد حسنين على رأيه، فقال كبيرهم: ان كانت الأقمشة هدية فسنأخذها جبرا لخواطركم، وقبلها بعد الحاح!

فليت شعرى أكان الجنرال جلوب باشا مفتريا؟ أم كان احمد حسنين باشا مدعيا؟ وهذا ما ذكراه وشاهداه!

ان القوم فى الأردن وليبيا لم يتعلموا الخلق فى مدرسة ولم يستمعوا الوعظ المتكرر فى مسجد، ولكنهم رجعوا الى فطرتهم السليمة ذات السلوك الحميد. ونجوا من اوضار الترف وملذات الحضارة، فصحت نفوسهم، قبل ان تصح أبدانهم ، وعلينا بعد ان رانت علينا غشاوات الانانية والاثرة، والجشع. ان ننادى بتربية جديدة للنشء. نمحو بها اميته الخلقية ونهيئه لحياة التسامح والود، فيعرف معنى المشاركة الوجدانية الصحيحة، ويعتنق التكافل الاجتماعى بمعناه الانسانى الشامل، حين يكون التراحم والتعاطف والتآزر من اقوى دواعيه، ولا يقتصر على العون المادى وحده ، فرب بسمة مضيئة يتضاءل دونها بريق المال، ورب كلمة طيبة تعيد الحياة لمحتضر يئس من البقاء ! كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها فى السماء! ■



حقيقة مشكلة البطالة فى مصر

بقلم
د. جلال أمين

فى فندق فاخر من فنادق القاهرة، عقد منذ بضعة أشهر مؤتمر كبير لمناقشة مشكلة البطالة فى مصر. وقد دعيت للتعليق على بحث قدمه البنك الدولى ، وقبلت الدعوة لسبب واحد هو أن انتهز هذه الفرصة للتعرف على آخر تقديرات البطالة فى مصر، واستمع إلى بعض كبار المتخصصين فى هذا الموضوع، سواء من المصريين أو من القادمين من هيئات دولية مختلفة



أما بحث البنك الدولى نفسه فلم أستفد شيئا من قراءته إلا أنى تأكدت مرة أخرى من صحة ماقاله الاقتصادى المصرى الشهير سمير أمين عن التقارير الصادرة من هذا البنك، وهى أن ميزتها الوحيدة أنك تستطيع أن تخمن مافيها من قبل أن تقرأها، وبالفعل لم يقل هذا البحث، بعد بضع صفحات قليلة عن ضخامة مشكلة البطالة فى المنطقة العربية، إلا أن سبب البطالة هو انخفاض معدل النمو، وأن علاجها هو رفع معدل التنمية، وهو كلام أقرب فى رأيى إلى الخطأ المحض منه إلى الصواب، إذ إن من الممكن جدا أن يرتفع معدل النمو وتزيد البطالة في الوقت نفسه، والعكس صحيح أيضا، أى أن من الممكن أن تعالج مشكلة البطالة حتى مع ثبات معدل النمو (كما لو وجهت جزءا من استثماراتك مثلا إلى صناعات صغيرة تستوعب عددا كبيرا من العمال، أو إلى مناطق تعج بالمتبطلين أكثر من غيرها ، كالصعيد مثلا، بدلا من الاستثمار فى صناعات كبيرة لاتشغل إلا القليل من العمال أو فى مناطق لاتعانى بشدة من البطالة).

ولكن هذا لم يكن غريبا من البنك الدولى، فالبنك منذ فترة طويلة، إذا سئل عن أى شىء يتعلق بمشكلة اجتماعية، سواء كان بطالة أو سكنا أو صحة أو تعليما .. إلخ، لا إجابة له إلا رفع معدل النمو.

وأنا أفسر هذا بأن البنك لايهمه فى الحقيقة علاج هذه المشاكل الاجتماعية بقدر ما يهمه تشجيع الاستثمارات الخاصة، خاصة الاستثمارات الأجنبية، وإحدى وسائله فى ذلك الترويج لفكرة أن علاج كل المشاكل هو رفع معدل النمو، وأن رفع معدل النمو لايكون إلا بزيادة الاستثمارات، وأن أفضل أنواع الاستثمارات هو الاستثمار الأجنبى الخاص.

فى تعليقى على ورقة البنك الدولى قلت هذا الكلام، ثم قبلت الدعوة الكريمة، من جانب منظمى المؤتمر لتناول الغداء فى هذا الفندق الفاخر، ثم استمعت إلى اقتصادى مصرى كبير يشغل منصبا كبيرا فى هيئة دولية بالخارج، وانصرفت.

أثناء جلوسى فى القاعة الكبيرة التى ضمت أكثر من خمسمائة شخص، سألت نفسى عما يحاول المشاركون فى هذا المؤتمر أن يفعلوه بالضبط؟

إن المناقشة دائرة على قدم وساق حول ما إذا كان معدل البطالة فى مصر نحو ٨٪ كما تقول الحكومة، وكما قال رئيس الوزراء فى كلمته الافتتاحية فى المؤتمر أو هو أقرب إلى ضعف هذا القدر، كما يقول بعض الاقتصاديين المرموقين فى معهد التخطيط القومى، أو حتى ٢٠٪ أو أكثر ، كما يزعم بعض الاقتصاديين المتشددين من أحزاب المعارضة.

من هو المتبطل ؟

المسألة بالطبع تتوقف على تعريفك للمتبطل ، فهل يدخل فى عداد المتبطلين كل قادر على العمل ولا عمل له، وكان

يبحث عن العمل بالفعل خلال فترة معينة سابقة؟ أم يشمل أيضا من لم يكن يبحث عن عمل خلال هذه الفترة مادام قادرا على العمل ولا عمل له، على اعتبار أنه قد توقف عن البحث عن العمل لمجرد اليأس من العثور عليه أو لأن الأعمال المعروضة عليه أقل بكثير مما يعتبره ملائما لمؤهلاته أو أجرها أقل بكثير مما يحتاج إليه؟

ثم ما حكم هؤلاء الملايين (الذين قيل إنهم ستة ملايين) الذين تقدموا بطلبات التعيين في الـ ١٨٠ ألف وظيفة، المتواضعة المرتب، والتى أعلنت عنها الحكومة قبل هذا المؤتمر بشهور قليلة؟ فهل نعتبر كل هؤلاء الملايين من المتبطلين، أم نستبعد منهم معظمهم ممن كان، وقت تقديمه لهذه الوظائف الحكومية ، يشتغل فى وظيفة أخرى غير حكومية، ولكنه كان يطمع فى وظيفة حكومية، مهما كان دخلها متدنيا، للإفادة من مزايا المعاش والتثبيت والتأمين الصحى .. الخ؟

بل لقد همس فى أذنى أثناء الغداء، مسئول كبير فى هيئة العمل الدولية، بأن رأيه أن يُعدّ من بين المتبطلين ملايين ممن لهم عمل بالفعل، طالما كان دخلهم متدنيا إلى درجة لاتبسمح لهم بتلبية حاجاتهم الأساسية، وقد تعاطفت بشدة مع هذا الرأى، على أساس أن الإنسان ، أى إنسان، لابد أن يجد طريقة أو أخرى لسد رمقه، وستر جسمه، والعثور على سقف من أى نوع لينام تحته. فمهما كان العثور على مصدر للدخل صعبا لابد له من أن يجد طريقة أو أخرى للحصول عليه، فإذا لم يجد وظيفة فراش فى الحكومة، اشتغل مناديا لأصحاب السيارات أو ماسحاً للأحذية . فإذا تعذر ذلك ، وقف ببضعة مناديل ورقية عند إشارات المرور ليحاول بيعها، فإذا تعذر ذلك اشتغل بالبغاء أو نشالا ، وهما وظيفتان، وإن لم يسمح بهما القانون فهما على الأقل من مصادر الدخل.

هؤلاء جميعا ليسوا متبطلين بالطبع، إذ ألا تراهم مشغولين طوال النهار، أو ربما طوال الليل ، فى كسب الرزق؟ ولكننا إذا لم ندخلهم فى حساب نسبة البطالة، فما جدوي النسبة التى نحسبها ؟ بعبارة أخرى، ما جدوى أن نقول إن نسبة البطالة ٨٪ أو أكثر أو أقل إذا لم تشمل هذه النسبة بائعى عقود الياسمين والمناديل الورقية عند تقاطع الطرق، أو ماسحى الأحذية فى الشوارع الفرعية أو المظلمة؟ أو الرجال ذوى الأجسام الضخمة الذين ينحصر رأس مالهم فى فوطة يدورون بها فى الشارع فى انتظار صاحب سيارة، فإذا ظهر مسحوا بها التراب من زجاج سيارته، ثم هنأوا صاحبها على العودة بالسلامة ، أو تمنوا



له أن تعود عليه السنة وهو طيب ، مما هو أقرب إلى الشحاذة منه إلى العمل ؟

ليس فى ضم هؤلاء فى عداد المتبطلين أى شىء جديد، على الرغم من إصرار التقديرات الرسمية على استبعادهم فالاقتصاديون منذ فترة تقرب من خمسين عاما ابتدعوا اصطلاح «البطالة المقنعة» وقالوا إن مشكلة العمالة والبطالة فى البلاد التى كانت تسمى حينئذ بالمتخلفة، ليست هى البطالة الصريحة الواضحة، بل هذه البطالة المقنعة التي تشمل نسبة كبيرة من قوة العمل. ولكن مشكلة البطالة فى مصر، المقنعة ، وغير المقنعة مرت بتقلبات وتحولات هامة خلال هذه الخمسين عاما، من المفيد استعراضها، ولو استعراضا سريعا، من أجل أن نفهم ما نحن فيه الآن، بالضبط .

تاريخ البطالة فى مصر

فى مطلع الخمسينات من القرن العشرين، كانت الصورة الأساسية للبطالة فى مصر هى هذه البطالة المقنعة، وفى قطاع الزراعة بالذات. ولم يكن أحد ليهتم كثيرا بالبطالة المكشوفة أو السافرة «أى التبطل الكامل عن العمل مع البحث عن عمل دون جدوى» إذ كان حجم هذه البطالة المكشوفة أو السافرة ضئيلا للغاية بينما كانت البطالة المقنعة عالية جدا، حتى قيل وقتها إن البطالة المقنعة فى الريف المصرى قد تصل الى ٥٠٪ من حجم قوة العمل فى الزراعة، وقال اقتصادى سويدى (راجنار نيركسه) وقتها ، إن هذه البطالة فى الريف المصرى ربما كانت أعلى نسبة للبطالة المقنعة فى أى بلد فى العالم. كان السبب واضحا تماما. فالغالبية العظمى من السكان كانوا يعيشون فى الريف ويعتمدون على الزراعة، والزيادة السكانية كانت تذهب، كلها تقريبا، فى زيادة المعتمدين على الزراعة دون أن تكون الزراعة فى حاجة حقيقية إليهم، ولا تذهب إلا نسبة صغيرة منهم للبحث عن عمل فى المدينة بسبب ضعف معدل التصنيع وبطء النمو فى القطاع الحكومى قبل قيام ثورة ١٩٥٢ .

تغير الأمر جذريا فى السنوات العشر التالية (٥٥ - ١٩٦٥) حيث زادت الاستثمارات بسرعة فى الصناعة والزراعة على السواء ، وبدأ بناء السد العالي الذى استوعب أعدادا كبيرة من العمال، ونما القطاع الحكومى بسرعة مما استوعب أيضا أعدادا كبيرة أيضا . أدى هذا كله الى هجرة كبيرة من الريف الى المدن، فانخفض بشدة معدل البطالة المقنعة فى الريف، دون أن يرتفع معدل البطالة فى المدينة، بل انخفض معدل البطالة المكشوفة والمقنعة ، ولم تعد مشكلة البطالة مصدر قلق لأحد .

تغير الأمر بشدة مرة أخرى فى السنوات العشر التالية (٦٥-١٩٧٥) ، وعلى الأخص فى أعقاب حرب ١٩٦٧، اذ تراخى معدل التنمية والتصنيع والاستثمار فى الزراعة ، مع استمرار السكان فى الزيادة بمعدل مرتفع ، ولم يحدث لافي قطاع السياحة ولا فى أى قطاع آخر ما يسمح باستيعاب هذه

الزيادة الكبيرة فى السكان استيعابا منتجا .

لم يبق إلا القطاع الحكومى والقطاع العام العاجز عن النمو، اللذان اضطرا إلى فتح أبوابهما لاستيعاب الأعداد الزائدة، دون أن تكون ثمة حاجة حقيقية لهم مع ضعف الاستثمار ، وذلك فى محاولة لتجنب المشاكل السياسية والاجتماعية التى لابد أن تظهر لو سمح لمعدل البطالة السافرة بالارتفاع. وهكذا انتقلت مشكلة البطالة المقنعة التى اشتهر بها الريف المصرى ، من الريف إلى المدينة، أى من الزراعة الى الحكومة .

صحوة لم تدم

فى تلك الفترة ظهر فى الفكر الاقتصادى اتجاه حديث لم يدم للأسف طويلا، وحملت لواءه منظمة العمل الدولية، فى فترة صحوة قصيرة للفكر التنموى، إذ نادى بعض الاقتصاديين ، وأيدتهم تلك المنظمة ، بالتأكيد على حل مشكلة البطالة بدلا من التأكيد على مجرد رفع معدلات نمو الناتج القومى . أكد هؤلاء الاقتصاديون بحق (وعلى رأسهم أستاذ عظيم هو دادلى سيرز DADLEY SEERS

، الذى كان استاذا فى جامعة ساسكس ببريطاني)ا على أن مشكلة البلاد الفقيرة تكمن فى البطالة أكثر مما تكمن فى انخفاض متوسط الدخل، أى أنها تتمثل أساسا فى عجز نسبة ملموسة من سكانها القادرين على العمل عن الحصول على عمل مجز، أكثر منها فى انخفاض متوسط الدخل للدولة ككل ، وأن الأحرى بواضعى السياسة الاقتصادية أن يوجهوا جهودهم لحل مشكلة البطالة أكثر مما يوجهونها لرفع معدل نمو الدخل وزيادة الاستثمارات . كان هذا الكلام فى رأيي ورأى كثيرين ، فى محله تماما ، وكان ملائما لحالة مصر تمام الملاءمة فى تلك الآونة على الأقل .

ولكن الأمور تغيرت مرة أخرى فى السنوات العشر التالية (٧٥-١٩٨٥) . فقد رزقت مصر بمنحة من السماء ، فرجت الكرب المتمثل فى ارتفاع معدلات البطالة، إذ فتحت أمام ملايين من المصريين فرصة الهجرة إلى دول الخليج وليبيا فى أعقاب الارتفاع الكبير فى أسعار البترول، فى ١٩٧٤/٧٣، ثم فى ١٩٧٩ بعد قيام الثورة الايرانية ثم بسبب حرب العراق / ايران التى زادت أيضا من الطلب على العمالة المصرية فى العراق . فى تلك الفترة أخذ بعض الاقتصاديين المصريين يتكلمون ، لا عن فائض العمالة وارتفاع معدل البطالة بل عن ندرة الأيدى العاملة وارتفاع

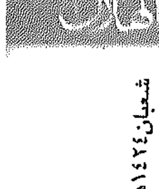


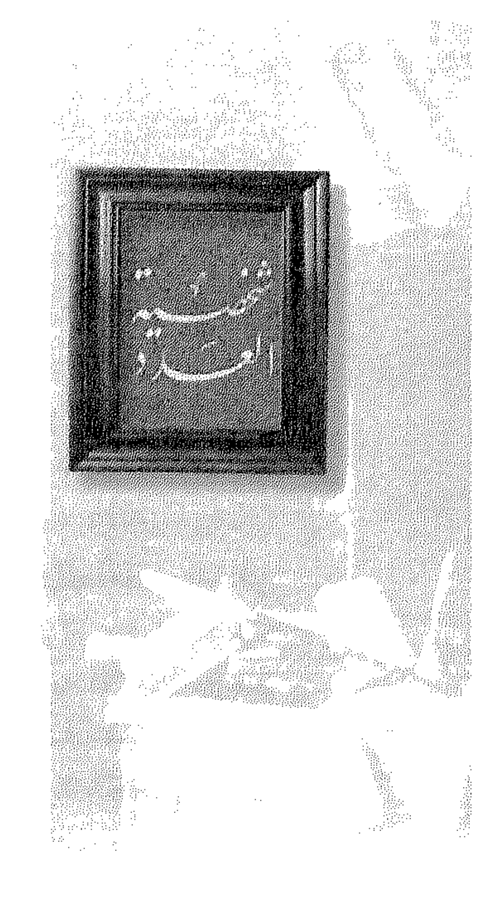
أجـورها، إن هـذا الذى حـدث ليس من شـأنه أن يلقى أى شك فى صـحـة آراء الاستاذ دادلى سيرز . كل ما فى الأمر ان مـشكلة البطالة لم تعـد من المشـاكل الحالة، ومن ثم كان من الممكن نسيانها لبعض الوقت .

ولكن هذه المنحة من السماء لم تدم طويلا فـمع انتـصاف الثـمانينات بدأت مرحلة مظلمة أخرى لازلنا للأسف نعيش فى ظلها حـتى الآن. فـمع الانخـفـاض الشـديد فـى أسـعار البـترول ابتداء من ١٩٨٦، والانخفـاض الشديد والمستمـر فى طلب دول النفط على العـمـالة المصـرية، ليس فـقط بسـبب انخـفـاض أسـعـار البـتـرول ولكن بسـبب تدهور مـدخراتها بسـبب هـجـوم العـراق على الكويت ثم نشـوب الحـرب ضـد العـراق، والميل المتزايد لدى تلك الدول للاستعاضة عن العـمـالة العـربيـة بعـمـالة آسـيـوية ، انخفضت بشدة معدلات هـجرة العمالة المصـرية الى الخليج . زاد الأمـر سـوءا تبنى الحكومة المصرية ما سمى بسياسة التكيـيـف الهـيـكلى ابتـداء من أول التسـعينات ، وقـبض يد الحكومـة عن الانفـاق على مـختـلف أنواع الخـدمـات ودعم السلع ، وذلك اسـتـجـابة لضـغـوط صندوق النقد و البنك الدولى ، ثم تتـابع الضربات الموجهة لقطاع السياحة مما سـمـى بالإرهـاب ، أدى هـذا كله إلى استمـرار حـالة من الانكمـاش الشديد ، خاصة إذا قورنت بحالة الانتعاش التى سادت فى السنوات العشـر السـابقـة (٧٥-١٩٨٥) . فما أن وصلنا إلى أواخر التسـعينات ومطلع القرن الجديد حتى بدأت الضـربات تتوالى بتـخـفيض سـعر الجنيه المصرى (استجابة أيضا لطلبات صندوق النقد الدولى) مما زاد من حـدة الانكمـاش الاقـتـصـادى. وكـان لابد ان تنعكس هذه التطورات الانكماشية كلها فى ارتفاع معدلات البطالة .

ماذا يقول البنك والصندوق ؟

ومع هـذا مـــا زال البـنك الـدولى والصندوق يقـولان : إن حل مـشكلة البطالة هو رفع مـعـدلات التنمـيـة وزيادة الاسـتـثـمـارات (خـاصـة الاسـتـثـمـارات الأجنبـيـة) مع أن خـبـرة خـمسين عـامـا تؤكـد صـحـة ما ذهب اليـه دادلى سـيرز منذ ثلاثين عـامـا . وهو أن مشكلة البطالة يجب أن تحـل حـلا مـبـاشـرا دون لف أو دوران ، بخلق فـرص عمل مجزية لفـئـات مـحـددة من البـاحـثين عن عـمـل ، وفى مناطق مـحـددة تشكو من البطالة أكـثـر مما تشكو غـيـرها، وبالاسـتـثـمـار فى مـشروعات بعينهـا تتـمـيـز عن غـيـرها ، ليس بقدر مساهـمـتها فى زيادة الناتج، بل بكثـافـة مـا تخلقـه من فرص العـمل ، وكـــذلك تفـضـيل نوع مـــعين من الاستثمـارات الأجنبـيـة على غيـرها وهـى تلك التي تـخلق فـرص عـمـالة كـبـيـرة ومـجزية . أما الإصـرار على الانشـغـال برفع النـاتج بصـفــة عـامــة، وزيادة الاستثمـارات بوجه عام دون تمييز، وفى مـصـر كلهـا دون تفـرقـة بين القـبلى والبـحـرى ، فلن ينتج عنه إلا استمـرار ما نحن فـيـه من بطالة ، سـافـرة أحـيـانا، ومقنعة فى معظم الأحيان . ■



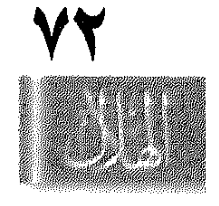


بهاء طاهر

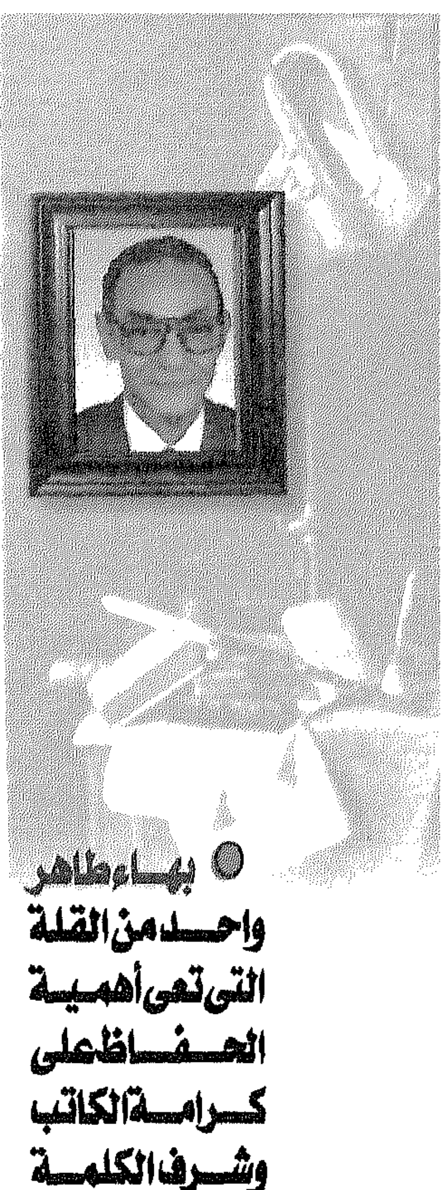
الكاتب والموقف ونقطة نور

بقلم
د. صبرى حافظ

فى هذ الزمن العصيب الذي يبلغ فيه العالم العربي حضيضا غير مسبوق من العجز والذل والهوان فإن أحد سبل تلمس الأمل في الخروج هو التعزى بوجود نفر قليل من القابضين علي الجمر، يؤكدون لنا بأفعالهم، وليس بأقوالهم وحدها، أننا لا نستحق كل هذا الهوان. نفر من الذين يحرصون علي شرف الكلمة، واستقلال الكاتب عن المؤسسات الوالغة فى التبعية والهوان، ووضوح الرؤية وسلامة القصد. خاصة وأن الكتابة الأدبية في عالمنا العربي هي الدليل الباقي علي حياة الأمة وسلامة عقلها. وهي المعقل الأخير لكرامة الوطن والمواطن معا. وهي المنارة الباقية للعقل العربي الذي مرغته ممارسات المؤسسات السياسية والإعلامية في وحول التزييف والتبعية والهوان.







○ بهاء طاهر
واحد من القلة التى تعى أهمية الحفاظ على كرامة الكاتب وشرف الكلمة

فى هذا الزمن العصيب يجب علينا الاحتفاء بالنماذج القليلة من الكتاب الذين رفضوا احتواء المؤسسة العربية الفاسدة والتابعة والفاقدة للمشروعية لهم، وترفعوا عن تلويث أقلامهم بالكلام المغشوش، والأفكار المغرضة، ونأوا بأنفسهم عن مواطن الشبهات المادية منها والفكرية على السواء، واعتصموا بشرف الكلمة ومسئولية الكاتب، وآمنوا بدور الكاتب فى إنارة الدرب أمام أمته كلما اشتدت حلكة اليأس وانتشر الخلط والتخليط، وحث الأمة على رفض الهوان والنهوض من وهاد التمرغ فى وحول التبعية والانصياع للمخطط الصهيونى الأمريكى البغيض. فما يدور الآن فى العراق وفى فلسطين المحتلة على مرأى ومسمع من العالم كله، ومن عالم عربى خامد كالجثة الميتة لايحرك ساكنا لمواجهة الاحتلال الأمريكى البريطانى لوطن عربى. ولا يمس المصالح الأمريكية المزدهرة فى شتى بقاع الوطن العربى المهيض. ولا يبذل أى جهد للتصدى للعصف الصهيونى بشعب عربى يكشف لنا عن مدى ما يعانى منه عالمنا العربى من بؤس وهوان غير مسبوقين فى التاريخ الحديث. ويدعونا إلى الاحتفاء بالشخصيات التى تقاوم بالكلمة هذا التردى والهوان وتتصدى لفضح مخططاته البائسة.

وبهاء طاهر واحد من هذه القلة القليلة القابضة على الجمر فى مصر، والتى تعى أهمية الحفاظ على كرامة الكاتب وشرف الكلمة. حرص منذ بواكير حياته الأدبية على استقلال الكاتب وكسب المصداقية للكتابة الجادة الحادة الناصعة. وواصل الإخلاص للكتابة والوعى بقيمتها، والحفاظ على تألقها بنشر ما يرضى عنه من نصوص. لأننى أعلم أن لدى بهاء طاهر عددا من النصوص الجيدة، ولكنه لم ينشرها، لأنه لم يرض عنها كل الرضى، أو لأنه يتخوف من أن تساهم سياقات نشرها فى إساءة فهمها. فهو يعى أن لكل نص وقته وزمنه وسياقات تلقيه. وهذه القدرة النقدية، التى تعامل النفس بقدر كبير من الصرامة، وتحرص على الكيف أكثر من حرصها على الكم لا يتمتع بها إلا عدد قليل من كتابنا المجيدين، كان فى مقدمتهم أستاذنا الكبير يحيى حقى. لذلك فإنه برغم مواصلته الكتابة لأكثر من أربعين عاما لم ينشر إلا حفنة من الروايات والمجموعات القصصية. ولكنها كلها من عيون الأدب السردى الناصعة. ولذلك فإن كل عمل من أعماله الروائية، وكل مجموعة من مجموعاته القصصية تحتاج إلى أكثر من وقفة نقدية متأنية. فهى من الأعمال التى لاينفع معها الحديث العابر، لأن كلا منها ينطوى على عدة مستويات متراكبة من المعانى والدلالات، يمسك بعضها بناصية بعض. ولهذا السبب فإننى لن أتناول مسيرته بطريقة عابرة، ولكنى سأتوقف مليا عند أحدث أعماله المنشورة، وليس آخرها، لأننى قرأت فصولا من روايتين مختلفتين عمل عليهما فى العامين الأخيرين.

الرؤية والأداة

وإذا كان من الممكن الحديث عن خيط عام يجمع أعمال هذا الكاتب الكبير، فهو الوعى بالرباط الوثيق بين الرؤية والأداة. فعلى صعيد الرؤية يدرك بهاء طاهر ضرورة أن يكون للكاتب موقف واضح مما يدور فى عصره ومجتمعه. وأهمية الانشغال بهموم الوطن الاجتماعية والسياسية على السواء، لأن السياسة هى أحد مصادر إلهام هذا الكاتب الأساسية. فهو كاتب له موقف وطنى متميز، يحرص فيه على استقلال الكاتب والكتابة، ولكنه ينحاز للوطن ويكرس قلمه للدفاع عن قضاياه فى زمن يتعرض فيه الوطن للهوان. وعلى صعيد الأداة يحرص على أن تكون كتابته صادرة عن خبرة حميمة بالموضوع الذى يتناوله، وعن دراسة مستفيضة لمختلف جوانبه وأن تكون الكتابة سلسة رقراقة ومركزة مكثفة معا. لا تثقلها المعاضلات اللفظية أو الركاكة الأسلوبية. ولا تنوء تحت وطأة الانفعالات الزاعقة أو الإطناب غير الموظف. كما أنه يحرص على أن ترجع مجموعة من الحبكات الثانوية أصداء حبكته الرئيسية وتعمق من فهمنا لمختلف أبعادها المضمرة. ولهذا قلت إن نصوصه تتسم بتعدد مستويات المعنى وتراكبها. وبعد هذه المقدمة الموجزة علينا أن نتعرف على تجليات كل هذه الخصائص فى عمله الروائى الأخير.

تمثل رواية بهاء طاهر الأخيرة (نقطة النور) نقلة نوعية فى كتابة هذا الكاتب القدير، تستحق من النقد التريث عندها قليلا، فقد انفق الكاتب خمس سنوات من العمل المتواصل الدءوب فى كتابة هذه الرواية المهمة. لذلك على النقد محاولة التعرف على طبيعة ما تقطع مع انتاجه السابق، ونوعية ما تصل معه، فهى برغم تشكيلها لنقلة مهمة فى كتابته، فإنها فى الوقت نفسه ذات صلة وثيقة بعالم هذا الكاتب الحميم، وخاصة مع قصة العنوان فى مجموعته القصصية (أنا الملك جئت). لأن البحث فى هذه الرواية الجديدة الجميلة، بحث عن الذات فى ألقها الصافى النقى، وعن سلامها الداخلى العميم، بقدر ما هو بحث عن العدل بمعنييه الميتافيزيقى والاجتماعى معا. فالمعنى الميتافيزيقى هو الذى يشد الرواية إلى قصتى (أنا الملك جئت) و(سأعطيك بركة) وبعض قصص (ذهبت إلى شلال) بينما يشدها المعنى الاجتماعى إلى (شرق النخيل) و(قالت ضحى) و(خالتى صفية والدير). وإذا كانت هذه الروايات الثلاث، ومعها روايته الكبيرة (الحب فى المنفى)، قد اهتمت بقضايا الواقع الاجتماعى والسياسى، ورصدت تغيرات الواقع المصرى من الستينات وحتى الثمانينات، وجسدت ما اعترى الشخصية المصرية من تحولات تحت وقع معاول التغيير الذى انقض على المجتمع المصرى بعد هزيمة ١٩٦٧، وتواصلت ضرباته المصمية حتى الآن، فإن هذه الرواية الجديدة تهتم هى الأخرى بوقع هذه الضربات على الإنسان المصرى فى العقود الثلاثة الممتدة من السبعينات وحتى التسعينات. مع اختلاف جوهرى هو خفوت حدة الدراما التى تتوهج فى (قالت ضحى) و(خالتى صفية والدير) و(الحب فى المنفى).

المعادل الروائى

وخفوت حدة الدراما فى هذه الرواية الجديدة، والذى صاحبه إيقاع هادئ رصين، إيقاع يوشك أن يطرح نفسه فى النص كنقيض لصخب الواقع وتطوراته التحتية الصادمة، ليس مجرد خاصية فنية تتسم بها هذه الرواية دون بقية الروايات. ولكنه فى الوقت نفسه المعادل الروائى لما انتاب الواقع المصرى فى الفترة التى تتناولها الرواية من تغيرات مزلزلة. فبهاء طاهر فيما يبدو شديد الوعى، وبشكل حدسى خالص، بما يدعوه النقد الأدبى الحديث بـ«محتوى الشكل». أى أن للشكل الروائى، وكل ما يتعلق به من تقنيات سردية، محتواه

الدلالى الذى لاينفصل بأى حال من الأحوال عما كان يدعوه النقد الأدبى فى الخمسينات بالمضمون. بل هو المضمون الأهم فى التحليل النصى للعمل الروائى، لأنه المضمون الذى يصوغ بنية العمل ويشكلها ويتجلى عبر تحولاتها. فقد تجاوز النقد الحديث القول بالعلاقة العضوية بين الشكل والمضمون، إلى القول بأن الشكل نفسه، مصادراته، والمسكوت عنه فيه، هو أهم ما فى العمل الأدبى، وهو مايميزه عن غيره من صيغ التعبير المختلفة.

ولذلك جاء اختياره لشكل هذه الرواية اختيارا لموضوعها وعالمها ورؤاها. لأن محتوى الشكل فى هذه الرواية الجديدة هو ما يصوغ لنا تلك النقلة النوعية التى تحدثت عنها قبل قليل. لأنه ينطوى على أخطر منطلقات هذه الرواية، وأهم ما تطرحه من قضايا. فقد جسد هذا الشكل بصوته الروائى الخافت، ومروره العفوى المراوغ على التحولات الاجتماعية الصادمة، أو حتى سكوته العمدى عنها، ما يمكن دعوته بالبنية الجوهرية لمرحلة التسعينات المصرية. بنية يبدو فيها أن صوت التطورات الدرامية بالغ الخفوت، ويمكن إغضاء الطرف عنها أثناء تسللها الحثيث للنيل من كل ما كان وتدميره من الداخل، وأن كل ما يحدث لايستحق الاهتمام به، فهو مجرد مجموعة من الأمور التافهة التى لايجب أن تكون. ولكن هذه البنية المراوغة ذاتها تخفى تغيرات مزلزلة للقيم والعلاقات على السواء، وتتستر على داء اجتماعى وأخلاقى وبيل لابرء منه، وتكتب لنا التردى والتداعى والدمار تحت قشرة حياة هذه الأسرة الشعبية البسيطة.

وما يدعم هذا التأويل لمحتوى الشكل فى الرواية عندى هو العلاقة المعقدة بين زمن السرد والمجال الزمنى الذى يغطيه هذا السرد. فزمن السرد هو الزمن الذى اختارت الرواية أن تدور أحداثها الأساسية فيه، وهو الفترة الممتدة من عام ١٩٧٥ وحتى التسعينات وتداعى بيت الأسرة الآيل للسقوط منذ زمن وإخلاؤه. أما المجال الزمنى الذى يغطيه هذا السرد، فيشمل حياة بطلها الرئيسى «توفيق السعدى» كلها. أى يشمل القرن العشرين بأكمله، وما انتاب الإنسان المصرى والحياة الاجتماعية المصرية فيه من تحولات. فنحن نعرف أنه قد ولد فى أول سنة من القرن، وقدر عليه أن يحمله على كتفيه حتى اقترب القرن من نهايته. ونعرف تفاصيل حياته شابا، وما جرى لابنه وحفيديه من بعده. لكن أهم ما يدعم هذا التأويل عندى هو الدلالة الاستعارية والروائية لما جرى للبيت الذى ورثه «توفيق السعدى» عن أبيه، وحاول ترميمه حينما بدأت الصدوع تظهر فيه. ولكن هذا الترميم الذى دار ـــ لدلالة التوقيت الزمنى المهمة ـــ فى زمن الانفتاح، أساء للمبنى ولم يشد أزره، فكان من الطبيعى أن ينهار البيت كله، وأن تتقاسم أرضه أهواء الطامعين. وتصدع البيت وتهدمه علامة روائية بالغة الأهمية فى هذا النص الروائى الجميل، علينا ألا نغفل عن ظهور

● **الخيط العام الذى يجمع أعمال بهاء طاهر هو الوعى بالرباط الوثيق بين الرؤية والأداة**

صدوعها الأولى فى القسم الأول من الرواية، وبلوغ هذه الصدوع، بعد محاولة الترميم الغريبة، مداها فى قسمها الأخير بإجبار الحكومة السكان على إخلاء العقار وهدمه.

وعلاوة على هذه العلاقة الجدلية المهمة بين زمن السرد فى الرواية، وجدل الحاضر والماضى فيه. هناك علاقة مماثلة تتعلق بفضاء الرواية، وتركزه فى القاهرة وفى حى السيدة زينب الشعبى الذى يقع فيه بيت الأسرة الأساسية فيها. وعلاقته بالفضاء المصرى كله. حيث تأخذنا الرواية إلى مجال جغرافى يمتد من أسيوط فى الصعيد حتى المنصورة فى الوجه البحرى. وهناك ثالثا هذا المجال القيمى الأوسع الذى يطرح قيم عالم قديم فى مواجهة قيم العالم الجديد الذى انبثق بعد الانفتاح فى مصر، وانتهى بقعقعة انهيار البيت الكبير كله. وتقدم الرواية فى هذا المجال مجموعة من التنويعات المتعددة على هذا الجدل أو الصراع بين العالمين. إذ يقدم لنا «فراج» مسيرة مجموعة القيم القديمة التى شاركت فى تكوين حلم الشباب بمستقبل أفضل بعد حرب أكتوبر، وما جرى لهذا الحلم، وما ينطوى عليه من تبديل. بينما يقدم لنا الدكتور شوكت، وقصته مع ماضيه وزوجته تنويعا آخر على مسيرة عدد من القيم القديمة وتحولاتها فى عصر الانفتاح، وما جره على الواقع المصرى من «سداح مداح».

أما قصة «سالم» و«لبنى» فإنها توشك أن تجسد لنا وقع هذا الصراع بين عالمى القيم على الجيل الجديد الذى شب عن الطوق فى هذه الفترة. بل توشك الرواية كلها، فى مستوى من مستويات التأويل، أن تكون ساحة للصراع بين هذين العالمين القيميين، أو بالأحرى سيرة للضربات الموجعة والقاصمة التى تلقاها عالم القيم القديم صاغرا، وصامتا، ومذعنا فى آن. وهى سيرة تكشف عجز هذا العالم وقلة حيلته، بطريقة دفعت الروائى إلى خلق هذا السعى الروحى الحثيث فى الرواية وكأنه نوع من التشبث بشىء خفى، قد يخفف وقع معاول الهدم على عالم القيم القديمة، قبل أن تقع على البيت القديم نفسه، وقد يعلل النفس بأن ثمة خلاص من هذا الواقع الكابوسى المبهظ الذى يأكل مع ضربات الانفتاح كل أمل فى الخلاص الفردى أو الروحى.

الصيغة المراوغة

هذا كله يدعم القول بأهمية محتوى الشكل فى هذه الرواية الجديدة الجميلة، لأنها وقد لجأت إلى هذه الصيغة الروائية التى تبدو لأول وهلة وكأنها مجرد صيغة تقليدية بالغة الهدوء، تؤكد لنا أن هذه هى الصيغة المراوغة التى يتبدى عليها الواقع التسعينى فى مصر، وهو واقع خال شكليا من الدراما، تدور فيه الأحداث وكأنها تفاصيل لا أهمية لها، هى مجرد صيغة مراوغة لابد لنا من تدقيق النظر فيما تخفيه، أكثر من الاهتمام بما تبرزه. لأن المسكوت عنه فى هذه الصيغة هو الأمر الفادح الذى يستحق كل اهتمام. ولأن الواقع المصرى فى التسعينات ينطوى بحق على مجموعة من التغيرات المزلزلة، والتى تمررها عملية خفوت الصوت ذاتها، أو تطلسمها وتصرف النظر عن التفكير فيها. وهذا نفسه ما يحتاجه القارئ مع هذه الرواية الجديدة الجميلة. وأول ما يلفت نظرنا إلى هذا الجانب المراوغ فى الرواية هو الإهداء الجميل «فى ذكرى مولد الكاتب والإنسان الكبير يحيى حقى، رحمه الله، أتنسم عطر الأحباب». فقد كان يحيى حقى شديد الحرص على مناسبة القول للغرض، وملاءمة الشكل للمعنى، ودقة التعبير ووضوح القصد. وهذه كلها من سمات السرد فى هذه الرواية الجديدة.

لأن الرواية تبدأ بداية تقريرية هادئة: «عاش سالم منذ طفولته فى رعاية جده الباشكاتب» وتدور فيها أكثر الأحداث درامية دون أن يطرف للسرد جفن فيها، وكأن لاشىء ذا بال يحدث فيه. لكننا ما أن نقرأ الرواية، ونتأمل العلاقة بين أقسامها الثلاث، وهى فى الوقت نفسه علاقة

بين مراحل ثلاث من حياة شخصياتها، ومن حياة مصر معها، حتى نكتشف ما وراء هذا السطح الهادئ من تغيرات ودلالات. وحتى ندرك أن ذاكرة النص الداخلية هى ذاكرة مطمورة فى طوايا النسيان، كذاكرة واقعنا التاريخية ذاتها. مطمورة، ولكنها موجودة إذا ما حفرت وراء قشرة هذا الواقع السطحية واستنقذتها من طوايا النسيان.

ويقدم لنا القسم الأول من هذه الرواية والمعنون «سالم» قصة هذا الحفيد سالم، الذى تخلى أبوه عن مسئوليته فى تربيته لجده «توفيق» حتى يرعاه. فى نوع من تخلى جيل كامل عن مسئوليته حيال الواقع وحيال أبنائه فيه ومنه. يبدأ بتناول وعيه بالبيت، أى بالمكان الذى نشأ «سالم» فيه، بعمارته وجغرافياه معا. ثم ينتقل إلى حى السيدة زينب الذى يقع فيه البيت، ومسجد السيدة زينب الذى يصحب إليه الجد حفيده كل جمعة للصلاة. ويعود بعدها محملا ببعض المشتريات لحفيدته «فوزية»، وببعض الحكايات عن الباشمحضر «السيد السنانيرى» وكراماته التى عرف بسببها باسم «أبوخطوة». وتنبأ «توفيق» الباشكاتب لحفيده «سالم» بمستقبل باهر، وساعده على تحقيق هذا المستقبل بأن اهتم بدروسه وذاكر معه حتى وصل «سالم» إلى نهاية المرحلة الثانوية عام ١٩٧٥. أى أنه بلغ بدايات وعيه مع بداية مرحلة الانفتاح الساداتية.

صحيح أن الرواية تشير عرضا إلى تاريخ وصوله إلى الثانوية العامة، ولكنها لاتشير من قريب أو بعيد للسادات أو لانفتاحه المشئوم. لأنها تحرص على أن تجسد كيف أثر هذا الانفتاح على أسرة «توفيق» الباشكاتب، دون أن تتحدث مباشرة عنه. ترصد تفاصيل هذا الانفتاح فى حديث «جابر» نادل المقهى عن تجارة الشنطة وتجارة الدولارات، وفى استجابته المغايرة لاستجابة الباشكاتب للخطاب الذى جاء من تنظيم الحى بأن شرخا قد ظهر فى جانب البيت «غيرك يا أستاذ يدفع أموالا لكى يحصل على هذا الخطاب. فقد كان هذا هو زمن سعار بناء عمارات التمليك، وهدم عمارات الإيجار التى لاتغطى تكاليف تسييرها. لكن هناك أيضا جانب آخر تكشفه لنا آليات العلاقة داخل الأسرة. وكأن الجد بحرصه على تعليم حفيده، أو على نجاح الحفيد فى التعليم، يريد أن يعوض إخفاقه مع ابنه «شعبان» الذى لم يتقدم فى تعليمه بعد السنة الأولى الثانوية، فاضطر الجد أن يوجهه للتجارة، وأن يفتح له دكان «مانيفاتورة». لكنه لم يفلح كثيرا فى التجارة، وظلت أحواله متعثرة طوال حياته.

حالة الحصار

وترسم لنا الرواية تفاصيل السياق الذى نشأ فيه «سالم» فبعد المكان والزمان نتعرف على موت أمه المبكر وهو فى الثالثة من عمره. وقيام شقيقته «فوزية» التى تكبرة بأربع سنوات فقط بدور الأم بالنسبة له، وللأسرة كلها. وحالة الحصار التى يعيش فيها وقد أجبره أبوه

○ تمثل رواية «نقطة النور» نقلة نوعية فى أدب بهاء طاهر تستحق من النقد التريث عندها قليلا

بالضرب القاسى، خوفا عليه لجماله، على أن يتجنب اللعب مع أبناء الحارة. وما سببته الوحدة له من حالات «بذاءة» تأتيه دون سيطرة منه عليها، فينطلق لسانه بأبشع سباب لكل من حوله. وحينما أخذه أبوه وعرضه على طبيب، وفحصه هذا الطبيب بعناية وعرف سياق حياته كلها، قال لأبيه فيما يشبه التأنيب ماهى المشكلة؟ فشرح له «شعبان» حكاية النوبتين والشتائم التى يطلقها، فرد الطبيب: «والله أنا شخصيا أفعل ذلك فى سرى طوال اليوم. وليتنى أبوح بهذه الشتائم مثل ابنك. ما أكثر من يستحقونها»(ص٢٤)

ولم يقتنع الأب بهذا الرد، ولا بتشخيص الطبيب الأمين. وعرض ابنه على طبيب آخر، تلاعب به، وطلب رسما للمخ، ووصف له أدوية كثيرة ومكلفة كادت تقضى عليه. وقال لجده بصوت واهن وقد أوشكت الأدوية أن تودى به: «قل لى ياجدى، هل أنا مجنون» فرد عليه «لا يا ولدى بل نحن المجانين»(ص٢٦) وهو رد دال على أكثر من مستوى، لأن تنفيس الصبى عن نفسه فى واقع يستحق الشتم، اعتبر جنونا أو مرضا يستلزم العلاج. بينما سكوت الجميع عن الجرائم التى ترتكب كل يوم تحت أعينهم، دون تمرد أو احتجاج يعد عقلا وهو فى واقع الأمر أشد أنواع الجنون. وكأن الرواية فى مستوى من مستوياتها هى رواية التربية القمعية التى تخضع الجميع للسكوت، إزاء ما يجب أن ينطلقوا فى وجهه بأبشع السباب وأحط التهم. أو كأنها دراسة فى تجذر آليات الاستبداد فى الواقع المصرى واستحالة الشفاء من شرورها. وكلما تقدم بنا السرد، كلما أدركنا أن هذا الواقع الذى تخلق فى مصر منذ صبا «سالم» المبكر، واستشرى مع مراهقته وشبابه واقع يستحق ـــ كما قال الطبيب ـــ أقذع الشتائم.

وحتى يدرك القارئ بنفسه أن هذا الواقع يستحق بحق أقذع الشتائم، يقدم السرد خيطا روائيا آخر إلى جانب خيط «سالم» ذاك، وهو خيط اخته فوزية. فقد كانت «فوزية» جميلة هى الأخرى ويلاحقها، لجمالها الجميع. فأصر الأب على إخراجها من المدرسة وهى فى بداية المرحلة الثانوية، بالرغم من معارضة الجد، وإصراره على إكمال دراستها الثانوية على الأقل قبل إخراجها من المدرسة. لأن الشهادة سلاح فى يدها ينفعها فى المستقبل، ولكن دون جدوى. وقد نشأت علاقة ما بينها وبين جارها «فراج» الذى جاء، بعدما انتهى من دراسته وحصل على بكالوريوس التجارة، وعين فى إحدى شركات القطاع العام، لخطبتها. وأصر الأب بحماقته على رفضه، ولكن الجد ـــ وقد اكتشف أن فوزية على علاقة بفراج ـــ تدخل بحصافته لإتمام الزواج، وللتغطية على «غلطة» حفيدته، التى ما أن عرف بها أبوها حتى انفجر فى وجه الباشكاتب «أنت أفسدت حياتى يا أبى. أخذت منى أولادى وضيعتهم كما ضيعتنى»(ص٣٢) فليس ثمة فى هذه الرواية شخص يستطيع أن يتنصل من المسئولية، أو يتهرب من تقريع أسئلتها الملحاحة.

ولحسن حظ «فوزية» لم يتنصل «فراج» من مسئولية ما فعل بها، فلم تكن أخلاقيات السوقة قد تفشت بعد وأصبحت هى القانون. وجاء لخطبتها من أسرتها. فقد كان «فراج» بحق شابا مثاليا من زمن آخر. نتعرف معه على لغة قديمة لاتدرك أنها قد فقدت مصداقيتها وفاعليتها فى بدايات الزمن السبعينى الذى لم يكشف عن أنيابه بعد. «أنا إنسان متفائل وواثق من المستقبل بفضل الله. شاركونى فى تفاؤلى وستكون ابنتكم فى عينى» (ص٢٩) وقد تشبث بتفاؤله حتى دمره الواقع المزلزل، ودمر معه «فوزية» الجميلة.

وإذا كان هذا القسم الأول من الرواية هو قسم «سالم» وقسم العلاقة الجذرية الحميمة بينه وجده الباشكاتب، وأخته «فوزية»؛ فإنه فى الوقت نفسه هو قسم حياة الباشكاتب مع زوجته «سمية» وما عاشه معها من سعادة غامرة، وفرح حقيقى انصرما بموتها المبكر. وهو

في الوقت نفسه قسم علاقته مع ابنه «شعبان» وإخفاقه في تعليم هذا الابن، أو حتى في إسعاده. فقد زوجه من «سعاد» الجميلة الوديعة الذى انجبت له «فوزية» و«سالم»، ولكنه قتلها بإهماله أو سذاجته، أو بغبائه. ومع ذلك ظل هناك في داخل الابن نوع من الإحساس بأن الأب هو الذى أفسد حياته. بينما يشاغل الجد إحساس مماثل بأن ابنه هو الذى نغص حياته وبأنه فعل كل شيء من أجله دون جدوى.

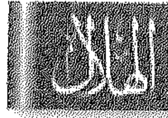
أسئلة مؤرقة

وهذا المناخ الغريب الذى ملأ البيت هو المسئول عما انتاب «سالم» من اضطراب، وما يأتيه من نوبات. ولذلك ليس غريبا أن ينفجر «سالم» فى جده مرة، كما انفجر «شعبان» فيه «لاتكذب ياجدى. لماذا يهرب أبى منى، لماذا يهرب من كل إنسان. من فوزية ومنك؟ لماذا ليس له أصحاب؟ لماذا لايزوره أحد، ولايزور هو أحداً؟ لماذا يحوّل وجهه بعيدا كلما كلمته أنا؟ ولماذا ينظر فى الأرض حين تكلمه أنت؟ ما الذى فعله أبى؟ ... أبى فعل شيئا يخفيه هو، وتخفيه أنت. أبى لايحبنا. كان يريد أن يضعنى منذ زمن مع المجانين. وزوج فوزية لرجل فلاح فى الحارة لأنه يريد أن يتخلص منها، ويريد أن يعاقبنا لأننا نحبها ولا نحبه. لاتكذب ياجدى! أنت لاتحبه. وأنا لا أحبه، ولا أحد يحبه. ولهذا لايأتيه زبائن فى المحل، ولهذا يعاقبه ربنا»(ص٤٣). هذه الأسئلة المؤرقة تكشف عن خلل دفين فى علاقات هذه الأسرة التى تبدو ـــ كالمجتمع المصرى فى العقود الثلاثة الأخيرة ـــ وكأنها أسرة بالغة التماسك، ولكن بنيتها تعانى من الصدوع والشروخ تماما كالبيت الذى تقيم فيه.

وحتى يكشف لنا بهاء طاهر عن الوضع العام الثاوى وراء هذه الحالة الأسرية بالغة الخصوصية، فإنه يلجأ إلى تقنية التضافر والتفاعل بين خيوط الرواية المختلفة. فهو مولع بهذا النوع من التقنيات السردية، وبأن يكون للحبكة الرئيسية فى الرواية مجموعة من الروافد، أو الحبكات الثانوية التى توسع من أفق المعنى فيها، وتعمق دلالاته. فهناك خيط قصة الحب الأساسية بين «سالم» و«لبنى»، وهى فى الوقت نفسه قصة هذا الجيل السبعينى الذى ذهب إلى الجامعة فى النصف الثانى من السبعينات، وعاش بقية مرحلة السادات فيها، وعانى مع مصر كلها ما عانته منه من اضطرابات ما لبثت أن انفجرت فى انتفاضة يناير الشهيرة عام ١٩٧٧. وهناك كذلك خيط اخته «فوزية» وزوجها «فراج» الذى ينتمى إلى آخر دفعة من جيل الستينات، أو أول دفعة من جيل السبعينات، تلك الشريحة التى ذهب شبابها إلى المعهد الاشتراكى بعد الهزيمة، وتفاءلوا بحلم التحرير والتغيير، ثم عصفت بهم تحولات السبعينات الانفتاحية، ودمرت أملهم فى حياة كريمة وهم لايزالون فى شرخ الشباب. وشهد كيف أن تسارع معدلات التضخم يضرب أسرته الصغيرة بقسوة. تقول زوجته

● خفوت حدة الدراما فى «نقطة النور» إيقاع هادىء رصين يوشك أن يطرح نفسه فى النص كنقيض لصخب الواقع وتطوراته التحتية الصادمة





قبل انتفاضة يناير: «المرتب الذى كان يكفى تماما قبل سنتين، أصبح الآن يتبخر قبل آخر الشهر بكثير، رغم كل ما تفعله لتدبير أمور المعيشة فى البيت، ورغم ما يعطيه لها جدها»(ص٩٩).

وهناك أخيرا قصة الجيل الأول: جيل الجد، الذى ولد مع بداية القرن، ومن هذا الجيل نعرف الجد، و«أبوخطوة» و«نازلى هانم». وكذلك جيل ابنه «شعبان» الذى خاب فى التعليم، وهو الجيل الذى نتعرف على تنويعين مهمين له فى شخصيتى الدكتور «شوكت» والد «لبنى» الذى أفلح في التعليم وخاب فى السياسة؛ والدكتورة «صفاء» والدتها. وهذا الجيل الذى يبدو وكأنه جيل غير رئيسى فى الرواية هو الجيل الذى تحرص الرواية علي أن تقدم لنا ثلاث تنويعات مختلفة عليه. «صفاء» بنت الطبقة الارستوقراطية، و«شعبان» ابن الطبقات الشعبية، و«شوكت» الذى ناضل من أجل هذه الطبقات الشعبية ودفع الثمن. ثم تحول مع من تحولوا بعد الانفتاح المشؤوم. ومع تحولات كل هذه الشخصيات والأجيال، هناك كذلك تحولات المكان نفسه، وما جرى للبيت الذى ظهرت فى جدرانه الصدوع منذ بداية الرواية. وحاول الجد ترميمه، «عرف الباشكاتب متى بدأت عملية ترميم البيت، لكنه لم يعرف أبدا متى ستنتهى»(ص١٦٨)، ولا كيف انتهت، ولكن نهايتها الحاسمة كانت فى سقوط البيت الحتمى فى النهاية.

تنويعات مختلفة

وإذا كانت الرواية قد قدمت ثلاثة تنويعات مختلفة على من يمكن تسميتهم بجيل الأربعينات: شوكت وصفاء وشعبان. وعددا من شخصيات الجيل السابق عليهم: الباشكاتب، و«نازلى» هانم و«أبوخطوة» وبعض سكان بيت السيدة زينب من الأسطى حميد الكهربائى إلى الحاج إبراهيم المنجد، فإن مدار اهتمامها الأول هو جيل السبعينات الذى ينتمى إليه «سالم» و«لبنى» وحتى «فوزية» إلى حد كبير. هو الجيل الذى ينتمى إليه «فراج» كذلك، وبقية زملاء الكلية، «دعاء» الناصرية و«مرتضى» الذى يعمل مع الأمن. وأشباح طلاب يرتدون الجلابيب ويطلقون اللحى، ويمسكون بالجنازير. نتعرف فيما بعد على أثرهم على «فراج» بعدما ضاقت به وبمثاليته تحولات السبعينات، وضربات الثمانينات القاصمة، فانقلب إلى البحث عن خلاص فى «الإسلام».

وتقدم لنا الرواية فى «لبنى» وقع عنف السبعينات الذى عصف بمن شاركوا فى انتفاضة ١٨و١٩ يناير على هذا الجيل. وكيف أنها انتهت بـ«لبنى» فى مصحة نفسية فى إيطاليا. هناك شاهدت مع جلسات الأطباء بقية فصول المأساة. «رأت فى بيت زوج عمتها الدبلوماسى تجار الانفتاح الذين كانت تسمع عنهم. اعتاد أن يدعوهم للعشاء. وبعد أن يأكلوا ويشربوا عدة كؤوس من الويسكى، يفلت عيارهم وتنطلق ألسنتهم. يتبادلون الخبرات عن كيفية تهريب الشحنات من الجمرك، وعن أماكن شراء البضائع المضروبة من إيطاليا، وتمريرها على أنها بضائع صالحة، وعن أضمن الطرق لتهريب العملات، ومن الذى يجب أن يدفعوا له فى البلد! كانوا يتباهون أيهم أشطر من غيره، ويتكلمون بصراحة تدهشها. لايشعرون بخجل مما يقولون، ولا يفهمون حتى مدى البذاءة والإجرام فيما يقولون»(ص٢٠٠)

لكن الرواية تبدو فى مستوى من مستويات المعنى الأساسية فيها، وكأنها رواية التعرف على حقيقة الخلل الذى أصاب أسرة مصرية بسيطة هى أسرة « الباشكاتب». لا تفصح لنا عن حقيقة هذا الخلل، وإنما تترك لنا استنتاجه بأنفسنا. تعرض علينا بعض تجليات هذا الخلل أو



سياقاته العامة أولا، ثم تركز على تجلياتها في الأسرة. ولاتفعل ذلك بشكل عمدي، وإنما عفوا. فالجد يكشف لحفيده «سالم» عن السياق العام من خلال القضايا التي احتفظ بملفاتها، وكان ينوي أن يؤلف كتابا عنها. وهي كلها قضايا لأناس ارتكبوا جرائم كبيرة دون أن يكون لأي منهم سوابق، أو يتسم أي منهم بميول إجرامية من أي نوع. رجل يقتل جارا لأن ابنه تشاجر مع ابن الجار، وآخر يقتل زوجته لأن طعام العشاء لم يعجبه، وصراف يختلس من خزينة الحكومة ليقضي أسبوعا في الإسكندرية، وهو يعلم أنه سيقضي بعده سنوات في السجن.

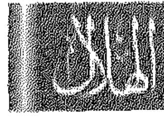
والباشكاتب يبحث «عن سر تلك الأسباب التافهة للجريمة، فلم يتوصل إلى شئ يطمئن إليه. تمنى لو يكتب كتابا عن الموضوع. ولكن الوقت متأخر، وسيترك لسالم هذه المهمة بعد أن ينتهي من دراسته للقانون»(ص٧١) ويدور نقاش دال بين الجد وحفيده، يطرح فيه الجد عددا من الأسئلة المهمة: «ما الذي يجعل خطانا تقودنا إلى عكس الطريق، ونحن نعرف أنه عكس الطريق؟ ... لماذا إذن يغيب العقل، وتسيطر التفاهة؟» وهما سؤالان بالغا الأهمية، بل من الأسئلة المفتاحية في الرواية كلها. فإذا كان ما أثار السؤالين هو محاولة النص موضعة الخلل الذي انتاب الأسرة في سياق أوسع تنتشر فيه جرائم تحدث كلها في غياب العقل وسيطرة التفاهة، فإن الرواية مشغولة كذلك لا بتناول تجليات هذا كله داخل الأسرة وانعكاساته عليها فحسب، وإنما بنوع من البحث عن سر خيبة مصر كلها، لا جيل واحد من أجيالها، وعما إذا ما كان ثمة أمل في خلاص ما، حتى ولو كان هذا الخلاص روحيا أو ميتافيزيقيا.

○ قسمت الرواية ثلاثة تنويعات مختلفة على من يمكن تسميتهم بجيل «الأربعينات»

فالجد ينفي عن الأب، ابنه شعبان، كل اتهامات حفيده له، ويدافع عنه. وهو ينفي عن نفسه في الوقت نفسه أي تميز له عن ابنه الضائع إلى حد ما، والذي يوشك أن يكون الشخصية الحاضرة الغائبة في هذه الرواية. له وجوده الملموس بالفعل، ولكنه وجود يبدو وكأنه ملاحق بلعنة غامضة تصيب بشرها كل ما تلمسه يداه. فتجارته تبور، وزواجه يدمر منذ البداية، وحتى حينما يسعى لعلاج ابنه من تلك النوبات التي تصيبه تزداد حالة الابن تدهورا، ولا تتقدم. أما الجد فإننا نعرف أيضا أن حياته مليئة هي الأخرى بالأسرار. وأنه يحتفظ في أدراجه بمجلات وصور جنسية، توهم مرة حينما بدأ بعضها في الاختفاء أن حفيده هو الذي يسرقها، فقاطعه وعاقبه على ذلك بالجفاء، الذي كان على «سالم» أشد وقعا من أي عقاب. لم يكلف نفسه عناء التحقق من التهمة قبل إنزال العقاب.

ولكن «فوزية» هي التي اكتشفت السر وحدها، وهي التي أكدت لجدها أن «سالم» لايعرف شيئا عن موضوع المجلات، فطرد «الباشكاتب» الشغالة الجديدة، وعاد الصفاء بينه وبين حفيده من





جديد. فـ«سالم» يوشك أن يكون نموذجا للبراءة المطلقة، فهو لايعرف ما تعرفه «فوزية»، ولايبدى رغبة فى أن يعرف أين يذهب جده كل خميس. بينما هى تريد أن تعرف، «أدفع نصف عمرى وأعرف أين يذهب يوم الخميس» (ص٥١) فالخروج كل خميس سر من أسرار الجد التي لايعرف بقية أفراد الأسرة عنها شيئا. وسيظل هذا الخروج سرا يراوغ القارئ نفسه حتى تكشف عنه الرواية فى القسم الثانى منها فى نوع من إرهاف عملية التشويق السردى. ولكن بعد أن تكون «فوزية» قد حدست به بذكائها الفطرى، وشعورها النسوى الحاد. ففوزية ذكية وتعرف بحدسها كل شئ. تدرك أن «سالم» وقع فى الحب حينما تسأله «من هى التى لخبطت أخى العاقل» (ص٩٨) وتدرك أنها لابد زميلة له فى الكلية، لأنها تعرف كل الجارات المحتملات لمثل هذا الحب. وتعرف بحدسها أيضا سر اختفاء الجد فى مشاوير الخميس الغامضة «مصيبة ياسالم أن يكون جدك متزوجا في السر»(ص١٠٠)

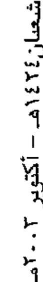
الخلل الذى أصاب الأسرة المصرية

والواقع أننا سنكتشف أن الجد قد تزوج فى السر من «نازلى» هانم البالغة الثراء، وفق شروطها التى أصرت على سرية الزواج وعلى عرفيته، حتى لايرث أحدهما الآخر، وحتى لايعترض أبناؤها على الزواج، الذى قد يهدد ميراثهم. وإذا كانت هى قد صرحت له أنها ستعلن هذا الزواج لأبنائها، وأن باستطاعته هو أن يفعل كذلك لو أراد، إلا أنه لم يفعل. غرق فى هذا الزواج الذى أشبع كل شهوته للمرأة، وأغناه عن المجلات التى كان يعتبرها أهون الزلل «هذه الزلة تعصمه من زلة الزنا الحقيقية»(ص١٠٨)، ولكنه لم يشبع شهوته للحب، ولم يرو ظمأه لراحة البال. وهى الأخرى ارتوت كما طلبت منه: «هذه الأرض ظلت جرداء طويلا، وتريد الآن أن ترتوى»(ص١١٢) ولكنه لم يصرح أبدا بهذه العلاقة لأسرته، ولم يشهرها خارج نطاق شاهدى الزواج العرفى. لأن «نازلى التى كانت تمارس العشق بجنون، لم تتحدث مرة واحدة عن الحب، ولا هو أيضا ... لكنه استمر مع ذلك فى الترتيب، لأنه كان يحتاج إليه وكان يناسبه»(ص١١٤)

لكن آخر ما يقدمه لنا القسم الأول من الرواية هو علاقة «سالم» مع البنات، أو بالأحرى بدايات هذه العلاقة. فقد بدأت كالعادة مع بنت الجيران «ثريا» وإن كانت تجربة خائبة من تجارب المراهقة الأولى، ثم حكاية ثانية مع «عنايات» أرملة ناضجة لعوب من قريبات أبيه، طلب منه أبوه أن يساعدها فى إنهاء بعض الأوراق ففعل. وكانت تكبره بخمس عشرة سنة، وعبرت عن رغبتها فيه بطريقة الأنثى المكشوفة والمواربة معا، وأحست برغبته فيها وهو يلهث ويزداد وجيب قلبه كلما اقتربت منه، أو لمس ذراعها العارى وصدرها الباذخ جسمه، وبدلا من أن تساعده بخبرتها، فإنها ضاقت بعدم خبرته، وبعدم قدرته على إشباع تلك الرغبة معا.

تجربتاه

و يورد النص هاتين التجربتين المخفقتين كتمهيد للتجربة الناجحة، وحتى يقيم من خلال التعارض بين التجربتين دلالة التجربة الأولى الناجحة مع «لبنى»، والتى لاحظ الجد ما تركته من تغيرات فى «سالم» قبل أن يلاحظ «سالم» نفسه أنه يحبها. كان يتابعها عن بعد حتى تعرف عليها، لدلالة المفارقة، وهو يقرأ إحدى مجلات الحائط التى انتشرت فى منتصف السبعينات فى الجامعة. «كانت هناك مجلات كثيرة داخل إطارات زجاجية تنشر كلاما مع الرئيس السادات. ومجلات أخرى بعضها مثبتة إلى الحائط مباشرة بدبابيس وقد تمزقت أجزاء منها وتكتب كلاما ضد الرئيس»(ص٧٥) وبينما كان يقرأ هذه المجلات سمع «مرتضى» يتحرش بـ«لبنى» فأنقذها منه. وكانت تلك بداية حبهما، أو بداية تلك النعمة التى هبطت عليهما

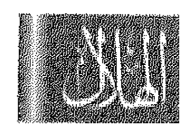


فجأة، دون أن يعرفها حقيقتها أو يدركا اسمها أو معناها.

وكان من الطبيعي وقد انتهى القسم الأول «سالم» بقصة الحب هذه أن يكون القسم الثاني هو قسم «لبنى» حبيبته، أصلها وفصلها. أذ ندلف معها بعد نعمة تعرفها على «سالم» وما جرى في يوم التعارف الأول ذاك إلى بيتها، ونبدأ في معرفة قصتها. وفى قصتها شئ من قصة «سالم» وكأنهما معا أبناء جيل فقد الآباء، وعليه أن يختار مسيرته وحده دونهما، وأن يعانى آلام اليتم الصعبة وحده. وكأن الرواية تنطلق من أن قدر جيل السبعينات المصرى وأزمته معا هو أن يعيش هذا اليتم الحاد المروع. فإذا كان سالم قد فقد أمه بالموت وهو لايزال طفلا، وفقد أبيه بتلك اللعنة الغريبة التى لايدرى كنهها، والتى تجعله غائبا حاضرا فى النص، فإن «لبنى» هى الأخرى قد فقدت أبويها برغم أنهما لايزالا على قيد الحياة. فقدت أبوة أبيها الطبيب الكبير الناجح الدكتور «شوكت» الذى يوفر لها كل شىء إلا الأبوة ذاتها. يعود بعد عمله في مستشفاه وعيادته تفوح منه رائحة الويسكى أو عطر امرأة أخرى، منذ أن انفصل عن زوجته الدكتورة «صفاء» بالطلاق؛ وحرمها من ابنتها التى كانت لاتزال فى العاشرة من عمرها، وحرم ابنتها من الأمومة التى هى الآن — يوم لقائها المشهود بـ«سالم» ووقوعهما معا فى الحب — فى أمس الحاجة إليها. تعترف لها بأنها تحب. وتشاركها لحظة سعادتها الغامرة تلك. لكن فقدان «لبنى» لأبويها وهما على قيد الحياة له دلالات أخرى غير تلك التى نستخلصها من فقدان «سالم» لأبويه.

فقد كان الأب «الدكتور شوكت» ثوريا قديما أدخله عبدالناصر السجن بسبب هجومه على الإمبريالية ودفاعه عن البروليتاريا، وكانت الأم «الدكتورة صفاء» الجميلة المثقفة المغرمة بالقراءة بنت طبقة البكوات التى تكره عبدالناصر هى الأخرى. ولكن لم تجمعهما كراهية عبدالناصر وإنما تناقضات عصره المزرية، التى انجذب فيها اليسارى لابنة الطبقة الأرستوقراطية القديمة. ولم يستطع أبدا الارتفاع إلى مستواها الثقافى أو حتى الطبقى، وإن أصبح الآن، لمرارة المفارقة من أثرياء العصر الجديد. أو كما تقول ابنته «لبنى» بسخرية «لم تعد لدينا فى البيت إمبريالية ولا بروليتاريا! بيتنا الآن ملىء بلوحات غالية، وتحف غالية يشتريها بابا لأنها غالية ... لم يعد لديه وقت حتى لقراءة الجرائد. يسمع الراديو فى الصباح على الإفطار دون انتباه. تدهشة أخبار مرت عليها أسابيع وشهور. فيسألنى ياه! تيتو فى المستشفى؟ وأضحك أنا فى سرى. كيف أصبح جاهلا بأخبار الرفاق إلى هذا الحد. فى الواقع أصبح جاهلا بكل شىء، عدا المال طبعا، والطب ربما، والنساء طبعا طبعا! ولكن لاتهتمى يادكتورة. مازلت أنا هنا. نهتف للرجل الذى كنتم تلعنونه. بابا لأنه البطل الثورى الذى أدخله السجن. وأنت لأنك سليلة المجد والشرف»»(ص٨٦) فى هذا المنولوج

● السؤال الهام
هل يستطيع الحب أن ينقذ مصر حقا من الهوان والتبعية والتردي الذى صاغ عقلية أجيال متعقبة



القصير تلخص لنا لبنى بعض ملامح مأساتها، ومأساة جيلها كله. جيل تيتم معنويا وسياسيا وحضاريا بعد رحيل عبدالناصر، كما تيتم نفسيا برغم أن أبويه على قيد الحياة.

أم علينا أن نقول إنه جيل مغتصب ومستباح كليه. فقصة اغتصاب «لبنى» وهى فى السادسة عشرة من عمرها، ومدرس الرياضيات «حمام» الذى كان فى عمر أبيها واغتصبها وفض بكارتها فى بيتها بفظاظة أثناء إعطائه لها درسا خصوصيا، ليست إلا مجرد قصة عادية من عشرات القصص المماثلة التى تتكرر مع هذا الجيل، ولكنها قصة دالة على هذا الاغتصاب النفسى واليتم المعنوى معا، وستكتمل دلالات هذه القصة المؤلمة قرب نهاية الرواية عندما يوشك أبوها، فى نوبة سكر، أن يقدم على فعل مشابه. «من الصغر وهى تؤنب نفسها، وتكتشف أخطاء لم ترتكبها. ثم اعتقدت أنها السبب فى طلاق أبيها وأمها، وإن لم تستطع أن تحدد كيف! حين كانت تسمع اسمها يتردد وهما يتشاجران فى غرفتهما بصوت عال، كانت تظن أنهما يتشاجران بسببها. ولم تستطع أبدا أن تتغلب على موجات الخوف الكاسحة التى تغزوها وتشل تفكيرها»(ص٨٩)

وربما كان هذا المزيج من الخوف والإحساس باليتم هو الذى دفعها إلى الاشتغال بالسياسة، على طريقة جيل السبعينات ومجلات الحائط فى الجامعة. «لم تدخل تنظيما ثوريا كالذى دخله الدكتور شوكت. كانوا مجرد مجموعة من الطلبة والطالبات التقت بهم فور دخولها الجامعة ووجدت أنهم يفكرون بطريقة أعجبتها. تغضبهم التغيرات العجيبة التى تحدث فى البلد. تجار التهريب وتجار العملة والغلاء البشع، وبذاءة الأغنياء الجدد، وفقدان الكرامة وغياب فكرة الوطن، ونسيان تضحيات الحرب القريبة، ... وذلك فى الوقت الذى ظهر فيه فى الجامعة عشرات من الطلبة بجلابيب بيضاء ولحى يمزقون مجلات الحائط التى تكتب هذا الكلام، ويضربون زملاءهم الذين يكتبونه، بينما يحميهم حرس الجامعة حين يمزقون وحين يضربون. أحبت لبنى زملاءها الذين يحنون إلى أيام لم يكن فيها شىء من ذلك، ويحنون إلى الزعيم الذى أحبت صورته وصوته وهى طفلة. وكانت تغضب عندما تسمع أباها وأمها يسبانه كلما أطلت صورته من شاشة التليفزيون. وجدت نفسها وسط هؤلاء الطلبة الممتلئين بالحماس، وأحست أنها تحتمى بهم من وحدتها ومخاوفها»(ص٩٠)

لكن هذه الاحتماء لا يشكل أى أمل فى الخلاص، لأن جميع هؤلاء الطلبة، ومعهم لبنى بالطبع، يعتقلون ضمن موجة الذين اعتقلوا فى المظاهرات فى السبعينات، ولأن الانفتاح المشؤوم يواصل مسيرته، ويعصف فيما يعصف ببيت الأسرة القديم، وبحياة «فوزية» و«فراج» الذى يتصور أن خلاصهما فى الحجاب والإيمان. كما تعصف ضربات التغيرات السياسية بحب «سالم» و«لبنى»، وبحياة الباشكاتب وبيته معا. حيث تنتهى بنا الرواية وقد صدر قرار هدم البيت، بينما الجد نفسه بين الحياة والموت. وقد عادت «لبنى» لسالم بعد تجربة العلاج الأليمة فى إيطاليا، ويتمسكان معا بأمل واه وهو «الحب» فهل يستطيع الحب أن ينقذ مصر حقا من الهوان والتبعية والتردى الذى صاغ عقلية أجيال متعاقبة منذ هذا الجيل التسعينى المنكوب؟ هذا هو السؤال الذى تتركه لنا هذه الرواية الجميلة، نتأمله، ونتأمل معه مسئولية الأجيال المختلفة عن هذا التردى الذى أصاب مصر، وصدع بيتها. □

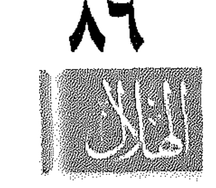
الشاعرة

نازك الملائكة

بقلم
وديع فلسطين

في عام ١٩٥١ كنت منصرفاً إلي عملي في جريدة «المقطم» عندما أطل من باب غرفتي الأديب العالم سلامة موسي وفي صحبته شابة ضئيلة الحجم شديدة الاحتشام والتحفظ توحي ملامح وجهها بالجدية فلا تبتسم إلاّ بحساب. وتوهمت لأول وهلة أنها ابنته وأنه ربّما يفكر في مشروع زواج، ولاسيما لأنني كنت أعرف أن لسلامة موسي قبيلة من البنات والأبناء وسبق أن دعاني إلي عرس واحدة من بناته. ولمّا قمت لتحيته هو وابنته قال: يسعدني أن أقدم الشاعرة العراقية نازك الملائكة، فأدركت أن مشروع الزواج من هلاوسي! وكنت أعرف الشاعرة من ديوانها الأول «عاشقة الليل» ومما كانت تنشره من شعرها ونثرها في مجلة «الأديب» اللبنانية التي كنت بدوري من كتابها الدؤوبين، وكانت تعرفني من متابعتها لكلامي في نفس المجلة. أما المشافهة فلم تتحقق إلاّ في هذه المناسبة السعيدة.

وأخبرتنى نازك أنها عائدة من الولايات المتحدة حيث كانت تدرس فى جامعة برنستن الشهيرة، فاستفسرت منها عن صديقى المؤرخ الدكتور فيليب حتّى وطمأنتنى عليه. ولمّا أبديت دهشتى من كونها التحقت بجامعة كل طلابها من الشباب دون الشابات، قالت إن الجامعة استثنتها من هذا القيد فكانت الطالبة الوحيدة فى الجامعة. وقالت إنها تعرفت فى الولايات المتحدة برائد جماعة «أبولو» الدكتور أحمد زكى أبى شادى الذى نصحها بالتوقف فى





القاهرة فى طريق عودتها إلى العراق للتعرف بأدبائها، وأوصاها بأن يكون رائدها فى غشيان المجتمعات الأدبية فى القاهرة سلامة موسى.

وبعدما كانت نازك الملائكة مجرّد اسم لشاعرة يطالعنى فى الصحف والمجلات الأدبية شخصية معروفة لى من لحم ودم تمثل كياناً أدبياً يزداد شموخاً، وشتان بين الإعجاب من واقع الآثار المنشورة وبين الإعجاب بشخصية أدبية فرضت نفسها فى عالم الضاد بما أنجزته من آثار شعرية ونثرية ملأت أكثر من ٢٤٠٠ صفحة من المجلدات الأربعة التى نشرها المجلس الأعلى للثقافة مؤخراً.

ولدت نازك الملائكة فى بغداد فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٣ أى أنها استكملت عامها الثمانين من بضعة أشهر. واختار لها والدها اسم نازك تيمناً بالمجاهدة السورية نازك العابد زوجة صديقنا العلاّمة اللبنانى محمد جميل بيهم.

وكانت الابنة البكر لوالديها اللذين رزقا بعد ذلك بثلاث بنات وولدين. وبعدما أنهت المرحلة الثانوية التحقت بدار المعلمين العالية - وكانت هى الجامعة الوحيدة فى العراق وقتئذ، وتخرجت من فرع اللغة العربية بمرتبة الامتياز فى عام ١٩٤٤. وسافرت بعد ذلك لمتابعة الدراسة العليا فى الولايات المتحدة مرتين، ففى المرة الأولى تخرجت من جامعة برنستن وفى المرة الثانية نالت درجة الماجستير فى الأدب المقارن من جامعة وسكنسن.

وعند عودة نازك إلى بغداد زاولت التدريس في كلياتها دون أن يصرفها ذلك عن إبداع الشعر ومعالجة النثر، واختارت أن تنشر آثارها فى المجلات العربية التى تصدر خارج بغداد كى تتواصل مع أدباء العالم العربى. صحيح أنها أصدرت ديوانها الأول «عاشقة الليل» فى عام ١٩٤٧ ولكنها بدأت نظم القصائد وهى فى سن العاشرة، ولم يكن هذا نتيجة «لعدوى» من أسرتها العامرة بالشعراء أو من قبيل الوراثة لأن «جين» الشعر كان كامناً فى والديْها وشقيقها وأخوالها، بل كان جدّها لأمها - المعروفة باسم أم نزار - شاعراً، وإنما اكتسبت موهبة الشعر ذاتياً وجعلته هواها الأوّل والأبدى.



عملت نازك سنوات طويلة أستاذة للأدب فى جامعة الكويت التى كرمتها بأن أصدرت كتاباً تذكارياً أهدى إليها، كما نالت جائزة الإبداع الشعرى من مؤسسة البابطين. ومن حسنات صدام حسين النادرة أنه منحها أعلى وسام ثقافى من بضع سنين خلت.

لم تشغلها وظائفها التربوية عن تكوين أسرة خاصة بها، فتزوجت من الدكتور عبد الهادى محبوبة مؤسس جامعة البصرة الذى توفى فى القاهرة من عامين ودفن فيها، ورزقت منه بابنها الوحيد الدكتور البراق الذى يملأ حياتها فى شيخوختها الحالية.

ومع أن نازك أدركت عهد الملكية فى العراق ثم عهود الثوار الذين خرّبوا البلاد بدءاً بعبد الكريم قاسم وانتهاء بصدام حسين، فقد التزمت دائماً البعد عن الخوض فى السياسة الكثيرة المزالق، ولم تتلّون كما تلون شعراء العراق الكبار محمد مهدى الجواهرى وبدر شاكر السّياب وعبد الوهاب البياتى فحافظت على اسمها نقياً من الشوائب السياسية والمذهبية والحزبية.

تعددّت دواوين نازك بعد «عاشقة الليل»، فأصدرت «شظايا ورماد» و«قرارة الموجة» و«شجرة القمر» و«أغنية للإنسان - فى جزءين» و«للصلاة والثورة» و«يغيّر لونه البحر» و«الوردة الحمراء» و«مأساة الحياة». أما كتبها النثرية فهى «قضايا الشعر المعاصر» و«سيكولوجية الشعر» و«الصومعة والشرفة الحمراء» وهو دراسة فى شعر الملاح التائه على محمود طه، و«التجزيئية فى الشعر»، عدا مجموعة من الأقاصيص عنوانها «الشمس التى وراء القمّة».

ولئن أجادت نازك اللغات الإنجليزية والفرنسية واطلعت على آثار الأدباء فى الغرب، فإن ذلك لم يجعلها تتغّرب أو تحاكى أساليب الفرنجة فى شعرها، بل إنها لم تحاول تقليد حتى الشعراء العرب القدامى اعتقاداً منها بأن الإبداع ينبغى أن يتفرّد بخصائصه فلا يكون مجرّد

تقليد لشعر الأوائل. وفى سبيل تأكيد إبداعها المتفرّد، نشرت فى عام ١٩٤٧ قصيدة «الكوليرا» متحررّة من ضوابط الشعر إلا من التفعيلة والموسيقى، ففتحت الباب على مصراعيه أمام التجديد فى الشعر، وشتان بين التجديد وبين الفوضى العارمة التى آل إليها حال الشعر فى يومنا الحالى بتحرره من كل خصائص الشعر. وحرصاً من نازك على تأكيد ريادتها فى هذا الميدان، بعثت إلى صديقها الأردنى عيسى الناعورى برسائل - نشرت مؤخراً فى عمّان بتحقيق تيسير النجار - أوضحت فيها أنها سبقت بدر شاكر السياب فى هذا الاتجاه الشعرى الجديد، ودافعت بذلك عن حق التأليف Copyrigt الذى نازعها فيه عدد من الشعراء.

ولم تشأ نازك أن تجعل من هذه القضية معركة أدبية لأنها تفادت المعارك الأدبية أياً كانت دوافعها، وحرصت دوماً على عدم الردّ على نقادّها حتى وإنْ كانت حججهم على قدرٍ من الضعف والهزال.

بل إن نازك لم تشارك فى كثرة من المؤتمرات الأدبية التى عقدت هنا وهناك لنفورها الفطرى من المظاهر المهرجانية واعتقادها بأن هذه المؤتمرات هى مجرّد ساحات للكلام الذى يتبدّد فى الهواء.

وإذا كان هناك طابع عام يطبع شعر نازك، فهو طابع الحزن والألم، وآية ذلك قصيدتها المعنونة «جنازة المرح» أو قصيدة «كلمات مكتوبة على قبر شاعر محزون». وهذا اتجاه يصعب تحليله لأن نازك لم تجرب ما جربته زميلتها الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان من قمع من جانب أسرتها، فقد كان طريق الحياة كله مفتوحاً أمامها، تتابع الدراسة بجميع مراحلها بل وفى الخارج أيضاً دون أن يعترض على ذلك معترض من أسرتها، ثم إنها لم تصادف رقابة عائلية على شعرها تضطرها إلى نشره بأسماء مستعارة كما كانت فدوى تعمل فى بداياتها . ولعلّ نغمة الحزن التى تشيع فى شعرها هى نتاج شخصيتها التى تؤثر الانطواء على النفس وحسبها أن تتعامل مع المجتمع الأدبى من واقع كتاباتها المنشورة شعراً ونثراً.

وقد اختارت نازك أن تقيم فى القاهرة لتتابع العلاج من أمراض الشيخوخة دون أن يحول ذلك من متابعتها للنشاط الثقافى فى العالم العربى. ولكنها آثرت العزلة وعدم غشيان المجتمعات الأدبية بصخبها وضجيجها. وكم ساءها أن يفسرّ الصحفيون عزلتها وصمتها بأنها تعانى من غيبوبة أو أن وطأة المرض اشتدت عليها، فهذه قسوة غليظة من أقلام لا تستشعر مسئوليتها ولا ترحم إنسانيتها، وهى التى لم تعرف العدوان فى كل عمرها.

وقد قرأت نازك كل ما قيل عن تدهور صحتها فلم تخرج على الناس قائلة: خسئتم، فإنّى مازلت على قيد الحياة، كلاً. لقد آثرت الصمت والصبر مع الكبرياء.

يا شاعرة العرب: إن منزلتك الأدبية السامقة وشخصيتك النبيلة الأصيلة وآثارك الإبداعية الباقية تكتب لك فى صفحة الأدب المعاصر أنصع الآيات. فقرّى عيناً بما صنعت ومن تاريخ طويل خصيب شريف. ■



بين «شواطىء الضياع» و« مدائن الوهم »

بقلم
صافى ناز كاظم

إنه حقا «لؤلؤة» ، الاسم الذى على مسمى ، الأستاذ الدكتور ، الناقد ، الأديب ، المازح ، الجاد ، «عبدالواحد لؤلؤة» من كنوز الثقافة العربية .

هو من العراق ، بالتحديد من محلة حوش الخان بالموصل ، وهى مجمع الكنائس المسيحية القديمة ، وكان يشار إلى دارهم باسم «بيت المسلمين» ، لكنه من بغداد ، لكنه من كل الأرض العربية ، لكنه من كل الدنيا الواسعة

حين وصلت بغداد سبتمبر ١٩٧٥، للعمل مدرسة لمادة المسرحية بكلية آداب المستنصرية، كان من الطبيعى أن أتصل أولاً بمن لى بهم سابق معرفة، وكان لى سابق لقاء ومراسلات مع الناقد والمترجم والروائى



د. عبد الواحد لؤلؤة

الأستاذ الكبير جبرا إبراهيم جبرا، وقد أنجزت معرفتي بالأستاذ جبرا وبزوجته الفاضلة لميعة برقي العسكري صلة التعارف بالدكتور عبدالواحد لؤلؤة، أستاذ الأدب الانجليزي والأدب المقارن بكلية الآداب جامعة بغداد، وبأسرته المكونة من زوجته، الفلسطينية المولودة بعكا، مريم موسى عبدالباقي، زميلته في تدريس الأدب الانجليزي بالقسم والجامعة نفسها، وابنه الصبي بشار وابنته الصبية رشا، التلميذين بمدرسة الموسيقى والبالية.

تدريجيا توهجت وتوطدت صداقتى بآل لؤلؤة، مع ذبول حثيث - له أسبابه - فى علاقتى بآل جبرا حتى نقطة التوقف النهائى.

خلال الفترة التى أقمتها فى بغداد من ١٩٧٥/٩ حتى ١٩٨٠/٦/٢٩ كان بيت «لؤلؤة» ، فى حى أساتذة الجامعة، واحتى الوارفة الظلال ، أتداوى فيها من كل شأن منغص. كانت صراحة «مريم وعبدالواحد» المنطلقة بالتعقيب ، من دون خوف أو مبالاة، تغسل أحزانى وتواسينى ، وسريعا كنا ننتقل من أحاديث الشئون المكدرة إلى أحوال «الحديقة» فننسى الآلام وتنشرح الصدور.

لم يكن هناك فرق فى عناية الدكتور لؤلؤة بحديقة أفكاره وكتاباته ومشاريعه فى الترجمة ومسالكه الثقافية ، وبين عنايته بحديقة منزلة، ما أن ننتقل إلى حديث «الحدائق» حتى يدب الشغف فى صوته وعينيه وإيماءات رأسه وتستمر حركة يديه دائرية فى رغبة لتجسيد الأفعال والأحلام . يتكلم عن أشجار الورد وأحواض الزهر وتلافيف أغصان الجهنميات المتعددة الألوان وثمار الزيتون والتفاح وعناقيد العنب و«خلال الطوش» فى أعناق النخل، بعبارات الفرح الجياشة التى يتكلم بها عن نجاحاته فى العثور على المصطلح العربى المناسب الذى اصطاده ، من لغة القرآن ومن الشعر الجاهلى ومن تراث الكتابة العربية ، ليضعه فى مكانه المناسب الدقيق فى ترجمته لأجزاء من «موسوعة المصطلح النقدى» التى تضمنت : «المأساة»، و«الرومانسية»، «والجمالية»، و«المجاز الذهنى»، و«اللامعقول»، و«التصور والخيال» و«الهجاء»، و«الوزن والقافية والشعر الحر»، و«الواقعية»، و«الرومانس»، و«الدرامة و الدرامى»، و«الحبكة» ، و«المفارقة»، و«المفارقة وصفاتها»، و«الترميز»، و«الرعوية». مازلت أذكر حماسه وهو يذكر أمامى كيف عثر على كلمة «مهاد»، بدل خلفية، لتعنى مصطلحا فشل الجميع فى اختيار لفظه الملائم.

كان قد صدر له كتابه «البحث عن معنى» فى بغداد عام ١٩٧٣ عن وزارة الإعلام فور عودته من تفرغ علمى بانجلترا لمدة عام، من ١٩٧١ - ١٩٧٢ بجامعة كمبردج، لإجراء أبحاث عن الشعراء التروبادور ودور العرب فى تطور الشعر الأوروبى، وذلك أثناء مواصلته عمله بكلية آداب جامعة بغداد التى عين بها قبل حصوله على درجة الدكتوراه فى الأدب الانجليزى عام ١٩٦٢ عن «الشعر الحديث والنقد» من جامعة وسترن رزرف بمدينة كليفلاند بولاية أوهايو الأمريكية.

***

كان وراءه سجل متفوق من

التحصيل العلمي، منذ حصوله على ليسانس شرف في اللغة الانجليزية وآدابها من جامعة بغداد عام ١٩٥٢، وهو في الواحد والعشرين من عمره، سافر بعدها ببعثة عام ١٩٥٥ إلى جامعة هارفرد، وقرأ النقد على شيخ نقاد العصر أي. إيه . ريتشاردز ونال من تلك الجامعة عام ١٩٥٧ درجة الماجستير في اللغة الانجليزية وتدريسها، وعين مدرسا للانجليزية والفرنسية بجامعة بغداد وأثناء تحضيره للدكتوراه في بعثة ثانية حضر دورة عن الأدب الانجليزي الحديث بجامعة أكسفورد جمع أثناءها مواده اللازمة لرسالته.

هكذا ظل على مدى ربع قرن من ١٩٥٢ حتى ١٩٧٧ يقطف من رياض المعرفة أشكالا وألوانا لتكتمل أدواته النقدية القادرة في ثقة على سبر أغوار فنون الشعر والرواية والقصة وفهم ما تم التعارف عليه بكلمة «أدب» -التي يعتبرها من الكلمات الهلامية كما قال في مقدمة كتابه «شواطيء الضياع» - المعرفة الواثقة مع الموهبة المتجذرة في تكوينه اللغوي، التي أعطته القدرة الخلابة على التعبير الثاقب والحاد المازج بين التهكم والعطف ، مع صراحته المعتزة بمسئوليته الثقافية، كل هذه العوامل أهلته للبروز والتفوق فنال الاحترام والتقدير مغزولين بالحذر منه والتخوف ، فليس هو الذي يمكنه الانحناء والمسايرة ومن ثم - في طقس القهر وسياسة كسر الرقاب والإخضاع الجبري للأهواء السياسية التي تشتهي دائما تعبيد العلماء والمثقفين وإلا.. - صدر القرار الجائر نهاية عام ١٩٧٧ بمنع الدكتور عبد الواحد لؤلؤة، وهو في سمت عطائه ولم يبلغ السادسة والأربعين ، من أداء واجبه العلمي في قسمه، في كليته، في جامعته، وتم حرمان طلابه من دوره الجامعي الأكاديمي الفذ بناء عن تقرير سري حرره كسول بليد في اتحاد الطلبة يتهم الأستاذ الجليل بمناوأته للنظام ولحزب البعث. انتشر الخبر وسادت الهمهمة الانتهازية التقليدية في مثل تلك الملابسات وعلت النبرة لتلوم الدكتور عبدالواحد لؤلؤة بدعوى أن شخصيته وأسلوبه الاستفزازي كان لابد أن يقوداه إلى مثل هذا المصير. في زيارتي لهما، كانت «مريم» موجوعة غاضبة ، وكان هو مندهشا ضاحكا من شر البلية. ظل من ١٩٧٧ حتى ١٩٨٣ ببيته يرعى «حدائقه» ، متفرغا للتأليف والترجمة وكانت الحصيلة:

نشر عشرين كتابا في تلك الفترة العصيبة التي اخترع لها مصطلحاً أنيقا هو: «تمتع بتقاعد مبكر من جامعة بغداد» ، ومالبثت «مريم»، بعده بعامين، أن انضمت إلى ذلك «التقاعد المبكر»

القسرى!.

* * *

انقطعت صلتى بآل لؤلؤة منذ رحلت عن بغداد فى ١٩٨٠/٦/٢٩ تضامنا مع آلام الشعب العراقى، الذى زادت مآسيه مع تسلم صدام حسين السلطة فى يوليو ١٩٧٩ وتخلصه من رفاقه فى القيادة الجماعية بإعدامهم جميعا رميا بالرصاص فى ١٩٧٩/٨/٨، لينفرد وحده بالهيمنة الشريرة الكاملة على مقدرات العراق.

* * *

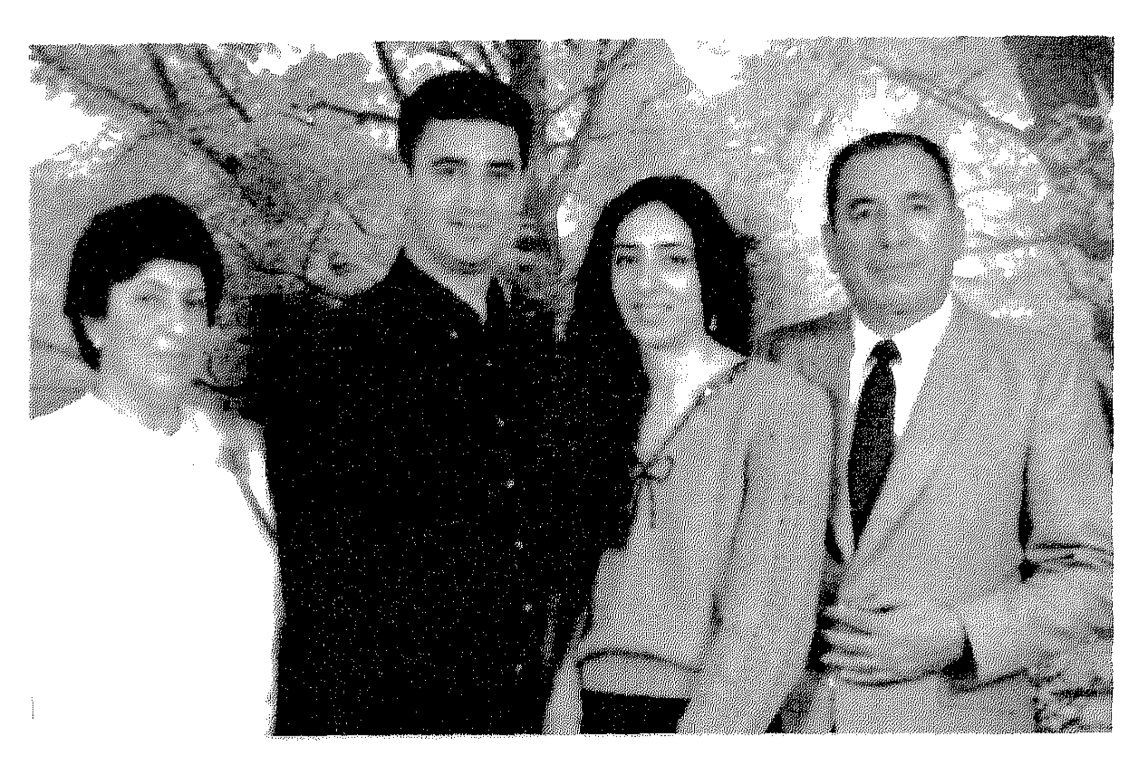
فى يوم جميل عام ١٩٨٣ جاءتنى رسالة منهما تحمل أخباراً سعيدة بانتقالهما إلى الأردن لتفوز جامعة اليرموك بعبد الواحد لؤلؤة أستاذا مشاركا بدائرة اللغة الانجليزية وآدابها، ثم بترقيته إلى درجة أستاذ ورئيس قسم اللغة الانجليزية وآدابها، ثم ليصير مدير دائرة اللغات الحديثة، وليستقر فى اليرموك حتى عام ١٩٨٩ لتفوز به بعدها جامعة الإمارات العربية المتحدة، وظل فى الإمارات أستاذا للأدب الانجليزى، عاد بعدها إلى الأردن وجامعة الزيتونة، ثم دعته الجامعة الإسلامية العالمية بكوالالمبور بماليزيا، وعاد من جديد إلى الأردن حيث هو الآن فى عمان : أستاذ الأدب الانجليزى، فى جامعة فيلادلفيا منذ ٢٠٠١/١٠/١ - «فيلا دلفيا»: هو الاسم القديم لعمان

* * *

فى شهر أكتوبر ٢٠٠٢ أهدانى آخر مؤلفاته: «شواطىء الضياع»، دراسات نقدية، الصادر عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر عام ١٩٩٩ ، و«مدائن الوهم»، شعر الحداثة والشتات، دراسة نقدية ، عن دار رياض الريس، أبريل، ٢٠٠٢، ووقع لى باسمه وصفته : «الضائع رغما عنه»! وكانت مجمل مؤلفاته ، البالغة ٤٤ عنوانا، قد رشحته لينال جائزة البابطين لـ «الإبداع فى نقد الشعر».. فى أكتوبر ٢٠٠٢، قال لى هاتفيا وأنا أهنئه : «جائزة كويتية لعراقى تقدم له فى البحرين!».. هل كان ممتنا أم متحسراً لسلب الأفذاذ جائزة الوطن؟

حين رغبت أن أقدم وجها للعراق ، بعيدا عن الهم والغم والدم، قلت له أحضر مقالا عنك وأريد صورة. فأرسل يقول : «... لست أدرى لماذا تريدين أن تحضرى مقالا عنى؟ لطرد الأرواح الشريرة مثلا؟ أرفق لك صورة لتخويف القطط.. أحسب أن مقدمة (شواطىء الضياع) تعطى صورة عن مخاوف تلبستنى قبل سنوات عما سيحصل بنا ولنا.. وقد حصل (ياويلك من موجات الغد)، استشعار الرعب عن بعد؟

لا أقول نبوءة ولكن الأحداث برهنت.. متعة للناظرين؟!»



د. عبد الواحد لؤلؤة مع زوجته الأستاذة مريم والأبناء بشار ورشا - مدينة العين - ١٩٩٠

***

تلك المقدمة التى أشار إليها فى رسالته كان عنوانها : «الوقوف على شواطىء الضياع» بدأها متسائلا فى تهكم حزين:

«ضائع ؟ وقد بلغت الشواطىء؟..

هل بلغت الشواطىء؟ أم مازلت أصارع أمواجا كواسر تتقاذفنى بين الماء والماء؟ كلما هدأت موجة لعنت أختها.. وتحسب أن موجات الأمس كانت رحيمة؟ يا ويلك من موجات الغد!

وعليك أن تحتفظ بقواك الجسدية وأنت تصارع، لكى تبلغ الشواطىء، وتقف عندها، تتأمل هذه الدنيا الضائعة بين الماء والماء، وكل يدعى وصلا بليلى!

عند التقاء الرمل بالماء لا مجال للمكابرة والنفاق، ولا لدفن الرأس فى الرمال، كما تقولوا على النعام ظلما وعدوانا . فالنعام ، أو أى طائر خرج من مأزق أو غرق، يسارع إلى رفع الرأس، والنظر، بعيدا تارة، قريبا أخرى: من أين سيأتى الخطر القادم؟

وضائع أنت، وقد بلغت الشواطىء!

وترفع الرأس وتتأمل، وتتساءل: ماذا ورثنا فى دنيا تمتد بين الماء والماء؟ كلمات ، كلمات ، كلمات ، قالها هاملت وقد عصفت به الحيرة، يريد أن يعرف ما حدث وكيف انقلبت دنياه عاليها سافلها..»

***

وفى خريف ٢٠٠١، بين ماليزيا

وكاليفورنيا ولندن وعمان، كان يكتب دراسته النقدية عن شعر الحداثة والشتات فى مؤلف أسماه بعنوان مقدمته : «مدائن الوهم» التى قال فيها:

«.. وفى العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين تفاقمت ظاهرة غير صحية فى المجتمع العربى، اتخذت شكل الاغتراب عن الوطن والعيش فى بلاد غريبة ، لأسباب ودوافع شتى.

وكان من بين المغتربين عدد كبير من الشعراء، والأدباء، تفرقوا فى شتات عجيب فى أقاصى المعمورة، وحملوا معهم ثقافتهم التى بدأت تتأثر بدرجات متفاوتة بثقافات ولغات بلاد الشتات وكان من بعض نتائج ذلك شعر يحمل مياسم غريبة فى معانيه وأساليبه . تستعرض هذه الدراسة أمثلة من شعر الحداثة والشتات فى العربية ، الذى نشر فى حدود العقدين الأخيرين من القرن العشرين.

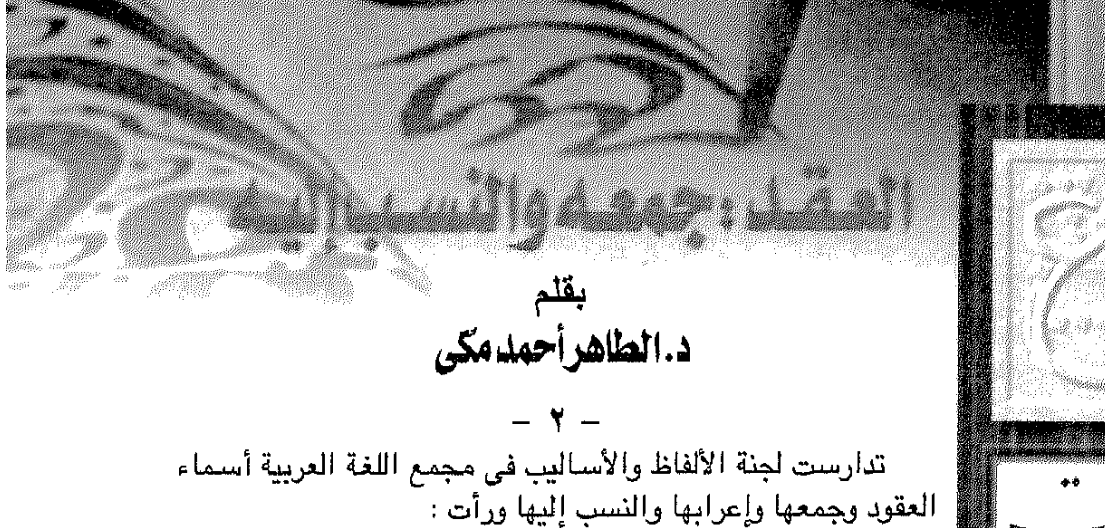
والغالب من هذه الأمثلة لا يرتفع كثيرا فوق المتوسط من جيد الشعر، عند مقارنته بالشوامخ من تراث الشعر العربى . والتماس التسويغ لذلك بأنه شعر (حداثة) يختلف عن شعر (التراث) هو سعى فى حدود الوهم. كما أن التفرق فى بلاد الشتات، بحثا عن ظروف حياة أفضل يشير فى كثير من أمثلة شعر المغتربين إلى أنه سعى فى مدائن الوهم».

***

بلغ الدكتور عبدالواحد لؤلؤة فى ٢٠٠٣/٧/١٦ الثانية والسبعين، وحين سألته عن بشار الذى صار فى ٩/١٩ الماضى فى الأربعين، ورشا التى صارت فى الثامنة والثلاثين ، عرفت أن الشتات قد أصابهم جميعا، ولا يخفف من آلامه سوى عزاء الفن الذى أعطى بشارا شهادات عليا فى قيادة الأوركسترا، وبعد أن انتهى من دراسته الموسيقية فى فيينا وأمريكا أقام فى لندن، وقد طاردته شرور حرب الخليج فى انعكاساتها على تصرف الأمريكان تجاه العراقيين والمسلمين منهم خاصة ، حتى فى المجال الجامعى.

أما رشا - أم فيروز - فقد نالت الماجستير فى عزف البيانو من فيينا ومعها الجنسية النمساوية. وتبقى « مريم وعبدالواحد» فى عمان، لؤلؤتين يواصلان، رغم كل شيء ، الشغف بالحدائق ، وعلى حد تعبيره فى رسالته:

«استشعارا عن بعد، أقضى أيامى وليالى فى (معاقرة) الترجمة، أرخص أنواع (الأفيون) فى هذا الزمن (اللايوصف)، وفى كتابة الدراسات النقدية، ويخضع كل ما أترجم وأكتب إلى (الرقيب الأول)، أم بشار (نصفى الأحسن)، التى تشاركنى عذابات المراجعة..» □



لغويات

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

- ٢ -

تدارست لجنة الألفاظ والأساليب فى مجمع اللغة العربية أسماء العقود وجمعها وإعرابها والنسب إليها ورأت :

● أنها ليست جمع مذكر سالم، لأنها لم تستوف شروطه، فهى - مثلا - تقع على المؤنث أيضا، وعلى غير العاقل، وزيادة الواو والنون بها فى حالة الرفع، أو الياء والنون فى حالتى النصب والجر، لم تلحق اسما علما ولا صفة.

● أنها ليست جمع تكسير، لأن شرط هذا الجمع أن يكون له واحد من لفظه يبنى عليه، وألفاظ العقود لايتوفر فيها هذا، فثلاثون - مثلا - ليست جمع ثلاث، وكذلك سائر العقود. وانتهت إلى أنها اسم جمع لا واحد له من لفظه ولامعناه.

فى ضوء هذه الدراسات انتهت إلى القرارات التالية، وأقرها المؤتمر العام للمجمع:

١ - فيما يتصل باستعمال ألفاظ العقود بعد المفرد، وقول الكتاب مثلا: القرن العشرون، والنائب الثلاثون ونحوها، ترى اللجنة:

«أنه ليس هناك ما يمنع من استعمال العقود بعد المفرد فيقال: الكتاب العشرون، والباب الثلاثون، ونحو ذلك».

٢ - فيما يتصل بالنسب إلى العقد على لفظه دون رده إلى مفرده، كما هى القاعدة فى غيره، ترى اللجنة :

«صحة إلحاق الياء بألفاظ العقود عند النسب إليه، وجعل الإعراب بحركات ظاهرة على ياء النسب، فيقال: هذا هو العيد الخمسينى».

٣ - تدارست اللجنة بحث الأستاذ الشيخ عطية الصوالحى، والذى عرض فيه حكم جمع العقود، والتزام الياء عند النسب إليها فيقال: عشرينيات، دون عشرينات، لأن اطراد الجمع هذا نتيجة إلحاق ياء النسب، وانتهت إلى القرار التالى:

«ترى اللجنة أن ألفاظ العقود يجوز أن تجمع بالألف والتاء إذا ألحقت بها ياء النسب، فيقال مثلا: ثلاثينيات، ويدل اللفظ حينئذ على الواحد والثلاثين إلى التاسع والثلاثين، وفى هذا المعنى لا يقال: ثلاثينات بغير ياء النسب».

ورأى د. ناصر الدين الأسد، فى بحث له، أن ترك ياء النسب أولى من إثباتها، وأن استعمال العشرينات والثلاثينات والأربعينات أقرب إلى ذوق العربية وأدخل فى أساليبها.

والحق معه نغما وإيقاعا، أما بميزان صواب المعنى، ودقة الدلالة، فالحق فى جانب المجمع. ■

من فلسفة الفن إلى علم الفن

بقلم
د. عبد المنعم تليمة

اعتمد النقد نظرياً ، حتى مشارف العصور الحديثة ، التأملية ، واعتمد تطبيقياً فى التعامل مع الإبداعات الفنية ، الجزئية .

فلما جاء قرن التاريخ ، التاسع عشر ، تأسست العلوم الحديثة المنضبطة منهجياً ، وإجرائيا ، علوم التاريخ والاجتماع والنفس . وفى مناخ التطور العلمى الشامل لهذه العلوم والعلوم الطبيعية ، شق النقد سبيله مستفيداً من نتائج كل هذه العلوم الاجتماعية والطبيعية ليكون علماً ثقافياً شاملاً يصوغ الأسس المعرفية لماهية الابتكار البشرى فى كل صياغة أدبية وفكرية وعلمية وليتعامل مع كافة الصياغات فى كافة الحقول .

وفى هذين القرنين ، التاسع عشر والعشرين ، قفز النقد قفزات هائلة ، أهمها أنه حرر مفهومين أساسيين ، من التأملية والجزئية فى اتجاه التجريب والعلمية ، أول هذين المفهومين مفهوم الثقافة ، وثانيهما مفهوم الفن ، والواقع : يصوغ العلم وتطبيقاته اليوم قاعدة لمستقبل الثقافة . إن الثقافة أداة للإنسان فى التعرف وفى التغيير .

وعلى الرغم من أن مفهوم الثقافة بهذا الشمول والتركيب ، إلا أن الثقافة تتبدى فى تجليات وصور وأشكال مادية وروحية تعكس مساحة (التعرف) الذى وصل إليه البشر فى سعيهم لفهم ظواهر المجتمع والطبيعة ، ومساحة (المعرفة) التى امتلكوها فى هذا السعى ، ومساحة (السيطرة) التى أنجزوها على تلك الظواهر الاجتماعية والطبيعية . وتنتظم تجليات الثقافة وصورها وأشكالها كل الخبرات والتشكيلات والإبداعات والصياغات التى أنجزتها البشرية وصارت فى حيز إدراك الإنسان وممارسته . إنها تنتظم التصوارت والمفهومات والمعارف القلسفية والعلمية ، والخبرات والمهارات العملية والتكنولوجية ، والأنظار والنظريات الأخلاقية والقانونية ، والمبادىء الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، والإبداعات التشكيلية والفنية والأدبية ، وتنتظم المثل والقيم والعادات والأعراف ، وتفسر الأنماط فى السلوك الفردى والجماعى ، وتفسر الطرز فى الأبنية والمعابد والهياكل.

ولا ريب فى أن من آيات التقدم العلمى وتطبيقاته الراهنة أن العالم يعيش ثورة (معلوماتية) فريدة تعين ، بأداءات وآليات دقيقة منضبطة ، فى الحصول على المعلومات والمعارف والبيانات وجمعها ، وفى تخزين هذه المواد (المعرفية) المجموعة وتنظيمها وتصنيفها وتحليلها وتفسيرها .

إن هذا كله يمثل قوة هائلة تفتح الآفاق الجديدة فى كل مناحى الحياة مادية وروحية ، ويتأسس عليها التخطيط لهذه الحياة .

أين موقع الفن فى هذا العالم النازع إلى التوحيد . يحقق فن المستقبل (وحدته) المعجبة . تزول التخوم بين الأجناس ، والأنواع والأشكال ، وتزول التخوم بين العملية الإبداعية وعملية التلقى وبين المرسل والمستقبل ، ويتغيا الفن المتوحد (الجوهرية) فتتراجع المباشرة والآلية والمرآوية، ومع هذه الوحدة ينهض التعدد ونتنوع المناهج والإجراءات وأساليب التشغيل والإتجاهات والمدارس . ذلك لأن الوحدة لاتقضى على التميز ، إنما تقضى على الانفصال والانعزال .

تنوع المناهج

وأين موقع الشعر ، فن الكلمة ؟ كل شواهد اليوم على أن البشرية تنتقل من طور الكلمة إلى طور الصورة . الصورة أقدر من الكتابة بما لايقاس . وليس معنى هذه العبارة زوال الكتابة ، إنما معناها زوال استقلالها . لقد ظلت الكتابة ، آلاف السنين ، أداة تدوين وتوثيق وحفظ وتوصيل ، لكنها صارت اليوم أضيق من أن تتسع لانهمار المعلومات والمعارف وتراكمها ، وأعجز من (تسجيل) تعقد الإبداعات العلمية والفكرية والفنية وشمولها ، وأبطأ من تلبية حاجات هذه المعلومات والإبداعات ، هذا التوصيل الذى بات يعتمد السرعة والاتساع الكبيرين كما الشأن اليوم يؤدى إلى زوال استقلال الكتابة واندماجها بغيرها . الإشارات والعلامات والإيماءات والنبرات والأداءات والظلال والتمثيل والتشكيل إلخ .. فى وعاء توصيل أقدر وأشمل وأبقى . إن هذا التطور العام يؤثر تأثيراً عميقاً فى التطور الفنى ، يجعل الفنون تتنوع ،

وتتعاون وتتداخل ، ويعقد الخبرة الجمالية ويصقلها، ويؤسس عادات ومدارك فى التلقى جديدة .

ولهذا كله نجد أن الفنون والآداب المعاصرة تحقق بصورة غنية واسعة تداخل المواقف الجمالية فى كل أثر فنى ناجح .

الصلة الجمالية بالواقع

أما عن الظاهرة الجمالية والواقع فإن هذا التأسس العصرى للنقد فإنه يتصل بفهم محرر للصلة الجمالية بالواقع ، ومن ثم لعلاقة الفن بالواقع . وكان هذا المبحث يعتمد تقليديا على أسس فى نظرية المعرفة مدارها الانعكاس ، بينما مدار هذا المبحث : الموازنة الرمزية . الفن موازاة رمزية للواقع . ولقد اعتمد هذا المحور - منذ ربع قرن - مصطلح الموازاة الرمزية ليتجاوز طلب (الواقع فى الفن) الذى يشى بالمرآوية والفوتوغرافية والتماس (صورة) الواقع فى الفن ، إلى طلب (الفن فى الواقع) الذى يسعى إلى بيان خصوصية الظاهرة الفنية والتماس (دور) الفن فى الواقع . وينهض هذ المحور على مفهومات أربعة : الجمال والفن والواقع والمجتمع . إن الماهية الاجتماعية لعلاقات البشر بالطبيعة تنشىء فى بعض الصياغات الفكرية وهم يقصر الواقع على المجتمع بينما الصحيح أن الواقع ينتظم الطبيعى والاجتماعى . كذلك فإن الماهية الجمالية للفن تنشىء فى بعض الصياغات الفكرية وهما يقصر الجمال على الفن بينما الصحيح أن الجمال يوجد فى الفن وفى غيره من الظواهر والأحياء والأشياء . إن الواقع أعم من المجتمع وإن الجمال أعم من الفن . إن الواقع معنى شامل فهو يتضمن المادى والإنسانى ، وإدراكه محكوم بمستوى الخبرة التكنيكية وطبيعة العلاقات الاجتماعية ولذا فإن هذا الإدراك نسبى لأنه تاريخى . وبهذا التصور فإن الواقع من حولنا يبرز فى كل مرحلة من مراحل التطور جوانب جديدة ومظاهر وظواهر لاتقف عند غاية ولا تحدها نهاية . إن الواقع ليس ثابتا بل هو فى تطور دائب، كما أن جزئياته وظواهره ليست مرصوصة معزولة عن بعضها ، بل هى متشابكة ومتداخلة ومترابطة ومتبادلة التأثير والتأثر . الواقع حركة متطورة موارة ، والفن عمل خاص لايخضع لظاهرة هذه الحركة ، بل إنه ليلمح جامعا بين عناصرها الباطنية ويكشف عن مغزى هذا الجامع وجوهره . والفنان منتج متخصص ، لكنه لايخضع كغيره من المنتجين خضوعاً كاملاً لشروط تقسيم العمل والتخصص فيه . هو موهوب فى هذا الجانب من النشاط الاجتماعى ، وخصوصية عمله تجعله يتميز عن غيره من المنتجين لكنه لايمتاز عليهم . والفن - لأنه عمل متحرر من الظاهر والمرئى ومن الجزئى والعرضى - يشد من اللحظة ماترهص به من مستقبل فينبىء ويتنبأ . يكتشف بين الحالات والمواقف والأشياء جوامع لاتراها كل عين ، يكتشف من الماثل صورة المثال . وعناصر الأصالة والذاتية والغنائية شروط لازمة فى كل عمل فنى ، لأن هذا العمل الخاص نتاج إنسان له أشواق ورؤاه ومواقفه وأحلامه . كل هذا يساعد فى بيان خصوصية للفن بين الظواهر الثقافية والنشاطات الإنسانية إن الفن الفقير وحده هو الذى يقف عند (عكس) لحظته التاريخية ، بينما

يجعل الفن العظيم هذه اللحظة واحدة من لحظات الإنسانية . إن الخوالد فى الفن هى ثمرة مجتمعاتها ، وهى فى نفس الوقت ذات دلالة إنسانية عامة تمنحها البقاء والخلود .

مرآة العصر

ويشارك العرب المحدثون والمعاصرون فى هذه الحركة العلمية لتأسيس علم منضبط للنقد ، ينهض فى النظر على منهجية محكمة وعلى إجراءات - فى الممارسات التطبيقية على قواعد تستفيد من نتائج كافة العلوم : كان مدخل طه حسين (العصر) حيث يرى منذ معالجته للشعر الجاهلى إلى معالجته لشعر معاصريه من أمثال جبران وعلى محمود طه ، أن الفن مرآة عصره . وكان مدخل أمين الخولى (البيئة) ، حيث يرى أن الفن نتائج بيئته . وكتب الخولى فى ذلك كثيراً وفجر معارك فكرية حتى أسس على مفهوم البيئة مادة الأدب فى الجامعة المصرية . وكان مدخل محمد مندور (المجتمع) ، حيث كان يأسس علمه النقدى - نظريا وتطبيقياً على أسس معرفية تنهض على العوامل الاجتماعية الفاعلة . وكان مدخل لويس عوض (الفكر) ، حيث كان يفتش أبداً ، فى الفن عن التماس المذاهب والملل والنحل والإيديولوجيات . كانت حركة التجديد العربى تفتش عن (مقومات) وخصائص لـ (شخصية) الأمة ، وكانت هذه المقومات والخصائص في أغلب الأحيان مثالية ثابتة مطلقة ، وكان رواد هذه الحركة يوقنون بأن الكشف عن هذه المقومات والخصائص إنما يعين فى تحديد (هوية) الأمة .

ويضيف الفكر العربى المعاصر ، بعد جيل الرواد إضافات مرموقة أهمها تجاوز ثنائية (الشكل والمضمون) . وينهض هذا التجاوز على مفهومات محررة للمصطلحات الأربعة : الجمال والفن والواقع والمجتمع يتأسس هذا المدخل على أن العمل الإبداعى تشكيل جمالى لموقف . وقد يرى راء أن هذا يوجد ثنائية جديدة : التشكيل والموقف . وليس هذا بشيء . لأن مذهبنا إنما يعنى - فى البدء وفى الانتهاء أن النص تشكيل ، ينتهى مع آخر وحدة من وحداته إلى موقف ، بمعنى أن التشكيل عماد النص والفيصل فى (وجوده) ، وأن الموقف ثمرة لهذا التشكيل وليس طرفا موازيا له فى ثنائية جديدة تحل محل الثنائية القديمة : شكل ومضمون . ولابد فى هذا الشأن من النص على أمرين : أولهما أن عمل الفنان إنما يرتد جملة وتفصيلا إلى اقتداره التشكيلى . وليس معنى الاقتدار (الحذق) - الذى ينتظم درجة استيعاب تقاليد النوع الفنى وتشكيلاته المتواترة - وحده . بل معناه هذا الحذق موجها بموهبة مغزاها العميق أن الفنان (يرى) واقعه مشكلا . وثانيهما أن (موقف) الفنان إنما يرتد إلى طائفة معقدة من العناصر والمكونات الموضوعية والذاتية والاجتماعية والفردية الفكرية والوجدانية ، الماثلة والمثالية . لما كان موقف الإنسان - فنانا وغير فنان يمكن أن (يفرز) بوسائل إشارية وتعبيرية لا نهائية ، فإن الموقف فى الفن لايمكن أن (يبين) بوسائل تشكيلية جمالية من هنا كان المدار فى قراءة النص التشكيل ، مذاهبه وطرائقه وأساليبه وإجراءاته . □

التيه فى دروب سيناء!

بقلم
مصطفى نبيل



ليست هذه هى المرة الأولى التى أتناول خلالها «المشروع القومى لتنمية سيناء» ، ولن تكون الأخيرة .

فكلما جاءت ذكرى حرب أكتوبر ، وسمعنا أصوات الشهداء، وتذكرنا التضحيات الغالية التى قدموها من أجل استرداد سيناء ، تذكرنا الوعود الكثيرة الخاصة بتعميرها ..

ولا ينبغى أن يكون هذا المقال مسألة موسمية ، بل يجب أن يشغلنا جميعاً على كل المستويات ، وفى كل الأوقات وفى مختلف المواقع «تعمير سيناء»

فمازالت «سيناء» تئن وتشكو من إهمال أبناء الوادى ، وسيحاسب أبناء الوادى يوماً لا على ما قاموا به نحوها ، بل على ما لم يقوموا به ، ولن نكف عن الدعوة إلى ضرورة الإسراع فى مشروعات التعمير ، وبيان أوجه النفع من ذلك بعد مضى ثلاثين عاماً على انتصار أكتوبر ، ومن الطبيعى أن نتساءل على ما تحقق خلال هذه الفترة ، ونطالب بضرورة زيادة وتيرة العمل ، خاصة كلما تذكرنا التضحيات الهائلة التى قدمناها على محراب سيناء .

ولا يمكن لنا إنكار الجهود التى بذلت فى هذا الصدد ، ولكن لا يمكن أيضاً إنكار أن هذه الجهود ليست كافية .

فسيناء «قدس الأقداس» وأرض التحدى والمستقبل ، وهى المشكلة والحل معاً ، ونتذكر تلك التصريحات الواعدة وإعلان المشروع القومى لتنمية سيناء وتعميرها والتى تضمنت العمل على نقل ثلاثة ملايين نسمة من سكان الوادى إليها ، والعمل على تطوير مواردها .

وإمكانياتها الاقتصادية الكبيرة من أرض زراعية وثروات معدنية وأخرى سمكية علاوة على الإمكانيات السياحية ، وأعلن أنه عند إتمام المشروع سنة ٢٠١٧ ستصبح أجمل بقاع الأرض رونقا وتقدماً وجمالاً .

وهو مشروع طموح ، ويتضمن مثلاً تحويل «نخل» وهى البلدة التى تضم القلعة التى بناها السلطان قنصوه الغورى سنة ١٥١٦ م ، إلى واد للتكنولوجيا المتقدمة وإنشاء معاهد متخصصة ومراكز أبحاث تضارع أرقى المعاهد التكنولوجية الـ (M.I.T) .

كما يتيح المشروع فرص عمالة تصل إلى ٨٠٠ ألف فرصة عمل ، فى المشروعات الحكومية المتعلقة بإقامة البنية الأساسية وبتكلفة ٧٥ مليار جنيه.

وتمضى الأيام سريعة ولا يتحقق من ذلك المشروع الطموح سوى القليل، فتم - بالفعل - كسر العزلة التى كانت تعيشها سيناء ، وأقيم نفق الشهيد أحمد حمدى وجسر الفردان ، وتم تطوير ميناء العريش ، وبقى عودة خط السكة الحديد إلى العمل والذى يصل من القنطرة إلى رفح .

وأتذكر متى بدأت علاقتى بسيناء ، ومتى وطئت قدماى أرضها المقدسة أول مرة ..؟ ، جاء ذلك مع قصف المدافع وأزيز الطائرات ، عقب هزيمة يونيو .

ولذلك قصة لم يحن الوقت بعد لروايتها كاملة ، فبدأ الهجوم الإسرائيلى فى ٥ يونيو بينما كنت فى زيارة للمغرب، التى سافرت إليها بعد حضور مؤتمر «الاشتراكيون العرب» فى الجزائر ، وسارعت بمحاولة العودة عن طريق ليبيا ، ورفضت السلطات القنصلية الليبية إعطائى تأشيرة دخول لأراضيها حتى أصل منها إلى القاهرة براً ، فعدت إلى الجزائر ضيفاً على الرئيس الجزائرى هوارى بومدين، ومن هناك عدت على أول طائرة تهبط مطار القاهرة بصحبة السيد عبد العزيز بوتفليقة الذى

الشعب المرجانية والأسماك الملونة أجمل ما يميز مياه سيناء



الطبيعة الخلابة على شواطئ سيناء

كان وزيراً لخارجية الجزائر أيامها ، ومعه الرائد سعيد عبيد ممثلا للجيش لكى يتعرف على الدعم الذى تحتاجه القوات المسلحة ، وهو الذى اتهم بالتآمر وأعدم فيما بعد!.

توجهت بعد وصولى إلى القاهرة مباشرة إلى بور سعيد التى بدأ فيها تنظيم المقاومة الشعبية ، وأخذ كل من السيد عبد الفتاح أبو الفضل فى العمل ومعه مما أذكرهم جمال الألفى وعاطف زيد (سكرتير محافظة القاهرة وقتها) ، ومن بين المتطوعين معيدان فى كلية الطب جامعة القاهرة ، وللأسف غاب عنى إسمهما ، رغم الأعمال المجيدة والشجاعة الفائقة التى قاما بها ، وكان معنا الصديق سعد زغلول فؤاد ، وكانت المهمة الرئيسية إقامة أماكن مؤقتة على شاطئ بحيرة البردويل لاستقبال الجنود العائدين ، وإجراء الإسعافات الأولية للذين قادهم البدو إلى هذه الأماكن ، ثم نقلهم بمراكب الصيد إلى بور سعيد .

ولعب كل من بدو سيناء وصيادى بحيرة البردويل دورا حيوياً ، وتشكلت منهم شبكة تسهم فى وصول الجنود إلى أماكن الاستقبال المعدة لذلك ..

وترددت بعد ذلك على أرض سيناء كثيراً بعد انتصار اكتوبر وتفقدت ما تبقى من خط بارليف ، وبعد الجلاء الإسرائيلى عام ١٩٨٢ ، وتجولت فيها من الشمال إلى الجنوب .. «ذلك القفر الجميل الموحش» .

المشكلة والحل !

وسيناء هى المشكلة والحل ، لأنها تقدم حلا لأخطر المشاكل التى تواجهنا ، وهو الاكتظاظ السكانى فى الوادى الضيق ، وهى الحل عندما تتحول عند تعميرها سداً بشرياً ودرعاً للوطن ، وحين تمتص جانبا من الكثافة السكانية وعندما تقدم سيناء تجربة تحتذى فى تعمير الصحارى المصرية الشاسعة .

وغزو واقتحام الصحراء ، أمر جديد نسبياً على مصر ، فإذا تذكرنا أن عدد سكان مصر عند قيام ثورة يوليو قارب ٢٠ مليون نسمة ، تكفيهم مساحة الأرض الزراعية المتاحة ، وبعدها أخذت مساحة الأرض الزراعية تتناقص وعدد السكان يتزايد ، والذى يصل اليوم إلى ٧٠ مليون نسمة ، وأخذت العشوائيات تلتهم ما يزيد على مليون فدان من الأرض الزراعية ، وعاد البحث عن آفاق وأرض زراعية جديدة ، وعن مصادر جديدة للمياه ..

وهى قصة طويلة نتناول بعض جوانبها ..

توجد مقالتان معبرتان – فى وقت مبكر – عن هذه المشكلة ، إحداهما لإسماعيل صدقى فى مجلة «مصر المعاصرة» ، والأخرى للأمير عمر طوسون عن «مالية مصر» ، وكلاهما أدرك مخاطر تناقص مساحة الأرض الزراعية . ورأيا الحل فى الامتداد نحو السودان الذى كان جزءاً مكملاً لمصر .

التوازن

فالتوازن بين السكان والأرض الزراعية كان على الدوام إحدى أولويات

نقوش جدارية على الواجهة الشرقية لجبل المغارة تعود إلى ٢٦٠٠ ق.م



واحد من أكبر مناجم الفيروز على أحد جوانب جبل المغارة

الفيروز اكتشف في سيناء منذ المملكة القديمة فى الألف الثالثة قبل الميلاد

أطلال «جبل القلعة» التى تحوى معبد «حاتور» من الأسرة الثانية عشرة

الحكم فى مصر . وكان محمد على أول من شغلته هذه المسألة يوم كان عدد السكان أربعة ملايين نسمة فحسب ، كما قامت فى مصر ثورة زراعية فى مطلع القرن التاسع عشر، عندما كان عدد الأفدنة التى تزرع ثلاثة ملايين فدان وأصبحت فى نهاية القرن خمسة ملايين فدان .

واتصلت هذه المحاولات فى النصف الأول من القرن العشرين ، سواء بتجفيف البحيرات الشمالية ، أو قيام مشروع مديرية التحرير ، وتوج ذلك ببناء السد العالى الذى ضاعف رقعة الأرض الزراعية ، نتيجة زيادة كمية المياه وإنقاذ ٣٢ مليار متر مكعب كانت تهدر فى البحر ، وزادت رقعة الأرض الزراعية ٢,٨ مليون فدان ، وما نزرعه اليوم هو ٦ ملايين فدان (كتاب النيل - د. رشدى سعيد) .

كما شهدت مصر إحدى المبادرات الشجاعة سنة ١٩٥٩ فى أول تفكير جدى للخروج من الوادى الضيق وشبكات الرى المتآكلة ، والاتجاه خارج الوادى ونحو زراعة الواحات التى كانت مناطق نائية وبها عدد قليل من السكان وبعض النخيل والقليل من الآبار الإرتوازية ، وبلغت مساحة ما يزرع فى الواحات ، الداخلة والخارجة والفرافرة والبحرية وسيوة مالا يتجاوز ثمانية آلاف فدان .

وتطلع المشروع الجديد إلى إقامة واد جديد فى محازاة وادى النيل ، ولم ينجح هذا المشروع عندما تبين ندرة المياه ، التى دلت الأبحاث العلمية على أنها غير متجددة وعلى أعماق بعيدة .

ولم تتوقف المحاولات والتى وصلت إلى الركن الشمالى الغربى فى شرق العوينات التى تم زراعة ١٩٠ ألف فدان ، وتوفير سبعة آلاف متر مكعب من المياه للفدان ، باستخدام الطاقة الشمسية والتقنية الحديثة .

وتزيد أهمية هذه المحاولات إذا عرفنا أن مساحة مصر تبلغ حوالى مليون كيلو متر ، ولا تزيد مساحة وادى النيل على ٤٪ من المساحة ويظل ٩٦٪ من أرض مصر شبه خالية .

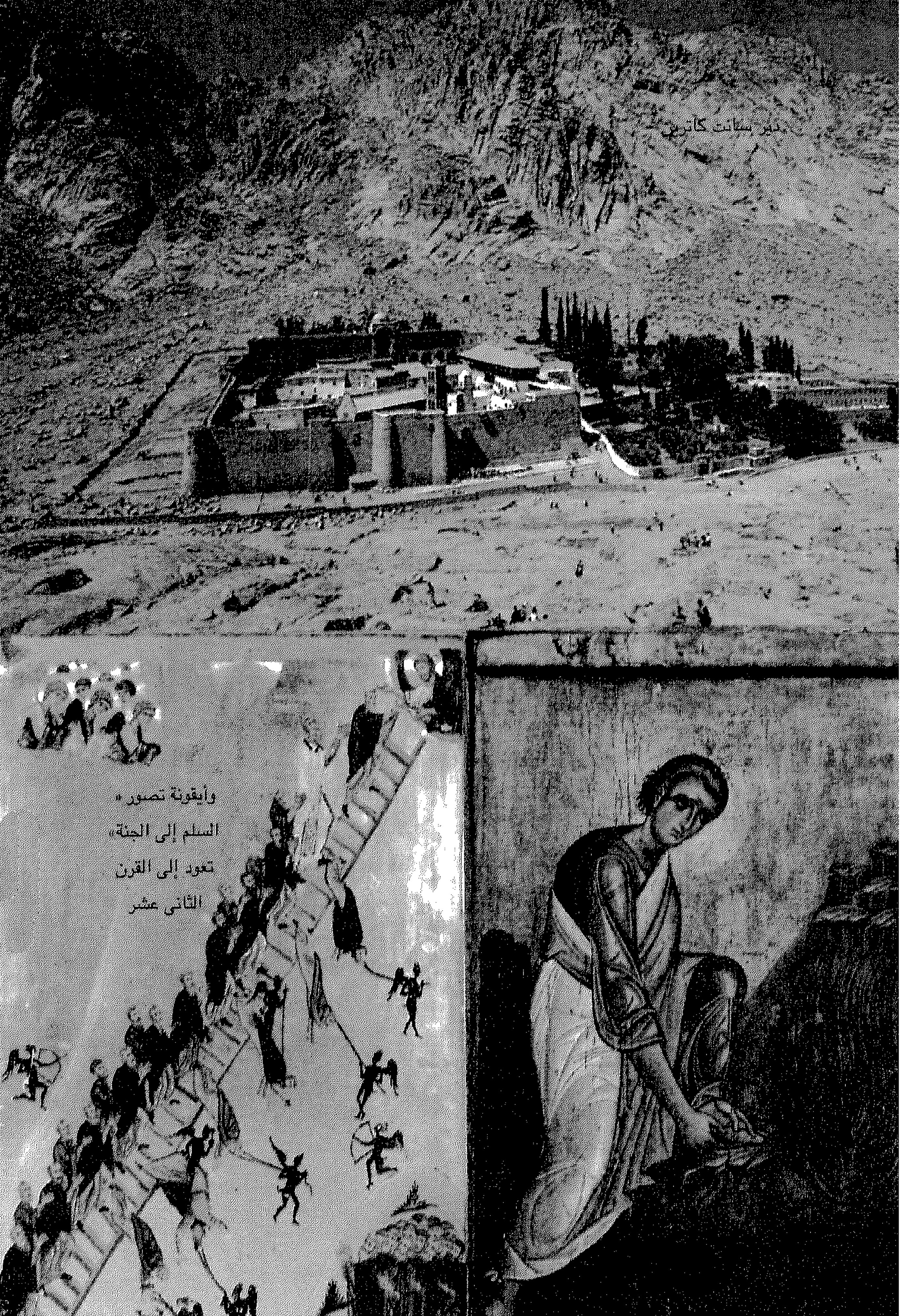
لذا فتعمير سيناء هو المشكلة وهو الحل . فتعمير سيناء هو جزء من تعمير الصحراء فى مصر كلها .

مجتمعات جديدة

سقطت عزلة سيناء القديمة ، وتغلبنا على الحاجز المائى ، وحان الوقت لإقامة مجتمعات عمرانية جديدة ، ونقل السكان خارج الوادى بشكل لا قصر فيه ، ولا يجوز إقامة هذه المجتمعات فى معزل عن قضية الأمن القومى . ولا حاجة إلى التأكيد على القيمة الاستراتيجية لإقامة هذه المجتمعات ، فلا تترك أطراف مصر فارغة من القوة البشرية ، أو تترك بها ثقوب . فالحدود الآمنة هى الحدود البشرية التى يعطيها الإنسان صلابة ومناعة .

وتعتبر مصر كما جاء على لسان جمال حمدان .. «دولة الصحراء الأولى فى العالم .. ودولة النهر الأولى أيضاً »

صورة تخيلية لسيدنا موسي وهو يخلع نعليه بالوادي المقدس طوي



دير سانت كاترين

وأيقونة تصور «السلم إلى الجنة» تعود إلى القرن الثاني عشر

وسيناء متنفس متاح لاستيعاب جزء من الزيادة السكانية ، وهى المجال الطبيعى لإقامة المجتمعات الجديدة فى بيئة ساحرة ، وإقامة المراكز السكانية التى يمكنها استيعاب جزء من الأعداد التى يضيق بها الوادى ، وبذلك تسهم سيناء فى حل معضلة مصر الرئيسية .

على أن تصبح منطقة جذب سكانى، ولعلنا نذكر تكالب العاملين على العمل فى شركات البترول فى المناطق النائية ، نتيجة الامتيازات المقدمة لهم ، وأليس من الممكن أن تصبح سيناء مغرية أكثر من بعض المناطق فى دول الخليج ، وأن تكون البديل الطبيعى عن هجرة آلاف المصريين إلى دول أخرى بحثا عن فرص العمل .

إن التعمير المطلوب هو الذى يخدم الرؤية الوطنية العامة ويثريها ، وهو ليس مجرد قرارات فوقية أو بيروقراطية ، بل هو خطط ومراحل مدروسة ، كما أن تجربة نقل مجتمعات بشرية إلى أرض جديدة وآفاق بعيدة هى عملية دقيقة لها شروطها ومقتضياتها ، وتحتاج للكثير من البحث والدراسة والتأمل .

وحان الوقت - بعد مضى ثلاثين عاما على مشروع تنمية سيناء - لكى يعاد النظر فى الكثير من الأمور، مثل الخطط والمشاريع والطرائق المرسومة ، وأن تشهد سيناء عملا غير تقليدى ، وتغييرا نوعيا فى أساليب التنمية التى تستهدف رفاهية سكانها ، وأن يقوم التعمير على أساس تصور شامل وأهداف وبرامج محددة وعلى أساس جدول زمنى ، وأن يكون هذا التصور جذابا وملهما ، وأن يتجنب وطأة البيروقراطية وأمراض الوادى المستعصية .

وأن نتجه إلى الميزات النسبية ونعمل على الاستفادة منها ، وأن يتحلق السكان - القدامى والجدد - حول مراكز الإنتاج والعمل على جذب الاستثمارات العربية وخاصة من السعودية والأردن وفلسطين .

وفى سيناء الكثير مما يدعو إلى الأمل ، فمثلا بها ما يزيد على ٥٢٧ نوعا من النبات الذى لا يوجد مثيله فى الوادى ، بل ويزرع فيها الكثير من النباتات الطبيعية التى مازال يستخدمها «الحكيم» التقليدى الموجود بين العشائر فى الحياة البدوية .

كما لا يجب أن يقتصر الإنتاج على المصانع الكبيرة والتكنولوجيا المتقدمة ، بل على المشاريع والأفكار التى تحتاج إلى عمالة كثيفة ، وتقدم كل من التجربة الصينية واليابانية نموذجين للإنتاج الذى يسهم فيه عدد كبير من الأهالى، يساهمون فى بيوتهم، وكثيرا ما يكون بصورة جماعية ، أى يشترك فريق فى منتج واحد، سواء كانت منتجات حديثة أو منتجات يدوية.

وأن تجمع خطة تعمير سيناء بين الإنتاج التقليدى كالرعى وصيد السمك وبين الإنتاج الحديث ولا تقتصر على أحدهما ، مستغلين فى ذلك ما تتمتع به أرض سيناء من تنوع .

ويحدث ذلك عندما تشهد سيناء

رأس الإلهة حاتور فى المعبد الذى سمى باسمها فى جبل القلعة

لوحة تصور الكدانيين يأخذون الجمال
ويذبحون الجمالين - دير سانت كاترين

روحا جديدة ، وإيمانا وجدانيا عميقا بالمستقبل ، من خلال «خطة حاكمة» تعرف للكافة ، ولا تحول هذه الخطة من المبادرات الفردية ، وأن تتحدد الأولويات بدقة . وأن توكل مهام التعمير إلى مؤسسة واحدة مستقلة ذات صلاحيات كاملة ، كما حدث من قبل بالنسبة لمشروع السد العالى وكل المشروعات الكبرى .

وهل يمكن أن تتحول سيناء مثل ما شهدته الصين ، عندما جعلت منطقة شنغهاى منطقة ذات طبيعة خاصة حررتها من كل القيود واعتبرتها منطقة مستقلة ، لا تنتقل إليها النظم البيروقراطية بل تتبع النظريات والطرق الحديثة فى الإدارة والعمل .

وواضح أن لكل مكان طبيعته ومقوماته الخاصة التى يستمد جزءا منها من تاريخه ، وهو ما يظهر بوضوح فى سيناء ، فهى منطقة قديمة وعريقة ، ويرتبط الإنسان ببيئتها المميزة ، ويتفاعل مع البيئة المميزة التى تحيطه .

ولا يمكن لأى مشروع للنهضة أن يقفز على هذه الوقائع ..

فمن ميزاتها الطول النسبى لسواحلها بالمقارنة بنسبة السواحل المصرية ، ويصل طول سواحلها إلى ٧٠٠ كيلو متر وتمثل ٢٩٪ من طول السواحل المصرية ، وهى تقع على البحر الأبيض ويحتضنها البحر الأحمر ، وهذا يعنى مشاريع تتناول السياحة والموانئ والصيد ، لذا ازدهرت المدن الساحلية أكثر من المدن والقرى الداخلية .

ويروق للبيروقراطية إعطاء الاهتمام الأكبر للسياحة ، التى توافق هواها . كما أنها النشاط الأسهل والأكثر ربحا ، ورأينا «شرم الشيخ» تتحول إلى منتجع عالمى يأتى إليه السياح من كل مكان ، وقامت القرى السياحية من شرم الشيخ حتى نويبع وطابا .

وقامت على أرض سيناء الكثير من الوقائع الدينية المقدسة ، فقد عبرها النبى موسى والعائلة المقدسة . ومازالت تضم الكثير من المزارات الدينية .

التين والزيتون

والنخلة من أشهر وأقدم الأشجار فى سيناء ، وتقف باسقة على طول الشاطئ وتزداد كثافة وجمالا فى منطقة المساعيد ، وعلى الامتداد بين العريش ورفح ، وراعنى وأدهشنى اقتلاع النخيل فى بعض المناطق لإقامة المنتجعات السياحية ، سواء من المحافظة أو من الأهالى !

ويمكن إقامة الكثير من المشاريع حول النخيل ، فيمكن تصنيع منتجاته ، مثل العجوة والعسل الأسود واستخراج الزيت من النوى ، بالإضافة إلى الحبال والخوص وصنع الأساس من الجريد .

ويوجد أكثر من ٧٥ ألف شجرة زيتون وهى مع التين والنخيل أقل الأشجار احتياجا للماء ، ويمكن إقامة الكثير من الصناعات على الزيتون من استخراج زيته إلى تخليله .

وهناك الكثير من النباتات التى تعتمد على المياه المالحة .

ولا يجوز تجاهل الحرف التقليدية ، وإنما يجب تطويرها ، مثل الرعى ، أقدم حرف بدو سيناء ، وأفضل نسق اقتصادى يتلاءم مع المناطق شبه القاحلة ، ومن المؤكد أن انتشار التعليم ووصول أعداد متزايدة من الشباب إلى التعليم العالى ، سيؤثر فى تطوير سيناء ، كذلك وجود مساحات كبيرة من الأراضى الصالحة للزراعة يقدرها البعض بخمسة ملايين فدان إذا وصلت لها المياه سواء الجوفية أو من ترعة السلام .

ولعل من الخطوات المهمة لنجاح التعمير دراسة احتياجات الناس الفعلية وعدم الاكتفاء بالدراسات الاكاديمية التى يأخذ بها المخططون وبيوت الخبرة الأجنبية دون دراسة كافية أو معرفة بالواقع .

ومازالت الثروة المعدنية تحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة ، خاصة بعد

سيناوى وجمله

طفلة من بدو سيناء

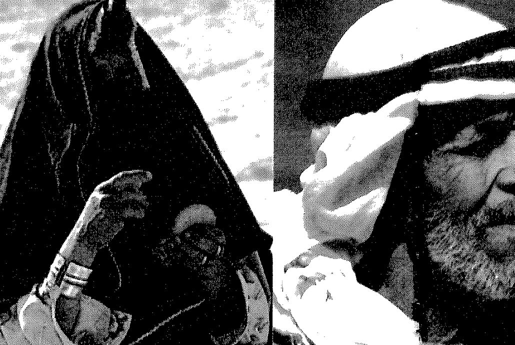
بدوي بالزى السيناوى التقليدى



بدوية عجوز بملابسها المميزة

« الشاى» وسط أحجار سيناء







التقدم العلمى المذهل والوصول إلى المعرفة الدقيقة من خلال الاستشعار عن بعد بالأقمار الصناعية، وتوجد شركة أمريكية هى فريبورت لاستخراج الكبريت واستغلاله بالإضافة إلى شركات البترول العاملة هناك .

ويصاحب الرغبة فى جذب أبناء الوادى إلى سيناء بالضرورة جهد مواز لتوطين البدو وتوصيل الخدمات إليهم ، ومد شبكات الطرق إلى كثير من الأنحاء وربط المدن والقرى ببعضها .

ويراعى ما خلفته تجربة الأهالى مع الاحتلال الإسرائيلى ، منها الإيجابى الذى أدى إلى مقت الاحتلال، ومنها ما هو سلبى عند المقارنة مع الإدارة المصرية ، ويذكرون مثلا ، كيف وصلت المروحية الإسرائيلية بسرعة لنقل الأم التى تعثرت ولادتها أو الصبى الذى أصيب فى حادث إلى المستشفى !

ترعة السلام

الشقة واسعة بين الوقائع والآمال ، بين ما سبق إعلانه وما يتحقق بالفعل، فقد تأخرت طويلا ترعة السلام ، وهذا المشروع مفصل جوهرى فى عمليات التعمير ، فندرة السكان إحدى نتائج ندرة المياه .

وقد رأت الإدارة المصرية أن تستغل ماء نهر النيل من مشروعات التوسع الأفقى ، مثل مشروع ترعة السلام ، ومشروع ترعة الحمام ومشروع توشكى .

ووضعت آمال كبيرة على ترعة السلام ، وبقيت أرض سيناء عطشى ، وتأخر تنفيذ المشروع طويلا ، ويبلغ طول ترعة السلام ٣٦ كيلو مترا ، وتعبر قناة السويس بواسطة سحارة ، وهو مشروع ضخم لا يحظى بالإعلام الكافى عنه ، وتستمد ترعة السلام مياهها من فارسكور حتى شمال مدينة القنطرة عند رأش العش ، وتصل إلى سهل الطينة فى محازاة البحر الأبيض حتى تصل إلى مشارف بحيرة البردويل ، وهناك فرع آخر مواز لقناة السويس .

وتم حفر وتبطين ٨٦,٥ كيلو متر وبناء خمس محطات رفع ، وبقيت محطة واحدة ، وأنفق على المشروع حتى الآن خمسة مليارات جنيه من التكلفة التى تبلغ ستة مليارات جنيه ، وسيكتمل المشروع بعد إقامة قناة جونجلى ، أى بعد نهاية الحرب الأهلية فى جنوب السودان !

والمدهش أن تأخير هذه المشروعات يتكرر فى عدد من المشروعات المشابهة، ففى الوقت الذى لم تكتمل فيه ترعة السلام بدأ العمل في مشروع آخر هو مشروع توشكى ، رغم أن ترعة السلام أولى بالرعاية ، والأفضل أن ينتهى مشروع ثم يبدأ مشروع آخر جديد ، والغريب أيضا أن ترعة الحمام التى تصل إلى العلمين على الساحل الشمالى الموازى للبحر الأبيض ، لم تضخ فيها المياه بعد ، وستردمها الرمال من جديد ، وهذا يعنى إهدار المال وزيادة الإنفاق الرأسمالى دون عائد .

كما يؤكد الجيولوجيون غنى سيناء

نقوش ترجع إلى العصر المملوكى أيام قنصوة الغورى فى القرن السادس عشر



بالمياه الجوفية ومياه الأمطار ، إذا أقيمت السدود المناسبة التى تحافظ على مياه الأمطار ، وحفرت الآبار الارتوازية ، ولابد من استغلال كل قطرة ماء .

من الهكسوس ..
إلى بنى اسرائيل !

ومن المؤكد أنه فى ذكرى انتصار أكتوبر يصبح الاستكمال الطبيعى لمشهد العبور المهيب ، هو تنمية سيناء وتعميرها ، وتمثل الذكرى حافزا على زيادة معدل العمل من أجل تعمير سيناء ، وعندما يتوالى فيض صور تلك الأيام التى مازالت حية فى ذاكرتنا ، وعندما نتذكر موكب الشهداء الذين دفعوا حياتهم ثمنا لكل حبة رمل ، والصور التى عشناها على سواحل بحيرة البردويل نجمع فلول الجيش المنسحب فى عام ١٩٦٧ كفيلة بمد الجميع بطاقة هائلة للجهد والعمل ، فلعل عمق اللحظة ورفاهة المشاعر تظل حية ودافعا من أجل دوام الجهد وتحقيق تعمير سيناء ، ولن ننسى أن أرض سيناء بقيت طويلا ساحة الصراع تلتقى على أرضها الجيوش ، سواء المدافعة أم المهاجمة ، ويكفي أن نذكر أنها شهدت مالا يقل عن خمسين حربا كبرى من الهكسوس وحتى الإسرائيليين ، وامتزجت رمال سيناء بدماء المدافعين عن الشريان الذى يصل إلى قلب مصر . من شاروهن الهكسوس ، وقادش تحتمس إلى قرقميش البابليين ، وحطين صلاح الدين ، وعين جالوت قطز وبيبرس ، ومرج دابق الغورى ، وعكا نابليون ، وحمص ونصيبين محمد على !

وإذا تحدث هذا الدرب الذى يقود إلى قلب مصر فلديه الكثير الذى يرويه

ونتساءل .. هل بطء التعمير ، يعود إلى أن قرار التعمير لم يحسم نهائيا بعد ؟! .. أم أن التقاعس يعود فى بعض جوانبه إلى مصاعب الاستثمار فى سيناء كجزء من الاستثمار فى مصر المحروسة وما يواجهه من عقبات، ومازلنا فى انتظار الاستثمارات الأجنبية التى لا تأتى !

أم أن هناك شروطا لم تتحقق مثل دور أكبر لمراكز البحث ، والجامعات والجمعيات الأهلية والنقابات والقوى السياسية ، الذين عليهم أن يقدموا الدراسات والآراء التى تضئ الطريق أمام صاحب القرار ، ومثل ضرورة توحيد الجهات العديدة التى تقوم بمسئولية تعمير سيناء ، تجنبا للخلاف والتضارب ، بين كل من هيئة تعمير الصحارى ، ومعهد بحوث الصحراء ، وجامعة قناة السويس التى أقامت ثلاثة مراكز علمية ، أحدها مركز بحوث التنمية الزراعية فى العريش ، ومركز البحوث الجيولوجية والمعارف والبترول فى سانت كاترين ، ومركز العلوم الجيولوجية فى شرم الشيخ يضاف إلى ذلك الوزارات والمحليات .

أم أن التقصير يأتى من الإعلام الذى عليه مهمة حشد الرأى العام وراء برامج وخطط تعمير سيناء ، ومتابعة وإشراك وتفاعل الرأى العام مع كل

خطوة نحو التعمير .. ؟!

وعلى أية حال .. فهذا التقصير يعنى عدم إدراك طبيعة ما يجرى حولنا، والآثار التى تتهددنا ، فمثلا لسيناء حدود مشتركة مع قطاع غزة الذى يبلغ طوله ١٤ كيلو مترا ومساحته تبلغ ٣٣٦ كيلو مترا ، ويعيش عليه قرابة المليون نسمة ، وأحد الأهداف المعلنة لبعض الدوائر فى إسرائيل ، هو التهجير (الترانسفير) ، بحجة أنه لا يمكن أن تتجاور منطقة بها سكان أكثر من اللازم إلى جانب منطقة قليلة السكان .

وهذا يعنى ضرورة الإسراع فى عمليات تعمير سيناء .

النخب المصرية

ولم تقصر النخب المصرية فى المناداة والتنبيه إلى أهمية «تعمير سيناء» ، والقائمة طويلة تضم الدراسات والأبحاث حول «قدس الأقداس» ، ومن هذه الكتب كتاب قديم بعنوان «تاريخ سينا» والذى كتبه نعوم شقير (١٨٦٤ - ١٩٢٢) . والذى صدر عام ١٩١٦ ، ويذكر فيه .. «خصت الطبيعة مصر بأربعة حصون منيعة ، البحر الأبيض من الشمال ، وشلالات النيل فى الجنوب وصحراء ليبيا فى الغرب وصحراء سيناء من الشرق» ، وتحول حصن الشرق إلى بوابة خلال الحروب المصرية الإسرائيلية من ١٩٤٨ وحتى ١٩٧٣ !

ويأتى بعده الكتاب الفذ الذى كتبه د. عباس عمار فى منتصف الأربعينات عن سيناء وأسماه «المدخل الشرقى لمصر» ، وكتاب آخر للدكتور جمال حمدان ، صادر عن كتاب الهلال سنة ١٩٩٣ وهو جزء من كتاب «شخصية مصر» ، ونشر د. رشدى سعيد سنة ١٩٥٦ كتابا صغيرا بعنوان «تعمير شبه جزيرة سيناء» ، وكتب إبن سيناء درويش مصطفى الفار كتابا بعنوان «فى تعمير سيناء» وكتاب آخر للزميل محمود المراغى بعد حرب ١٩٦٧ مباشرة «سيناء الحرب والمكان» وكتاب آخر للزميل فتحى رزق بعنوان «رباعية سيناء» ، كما صدرت موسوعة سيناء اشترك فيها د. محمد السيد غلاب ، د. محمد صبحى عبدالحكيم ود. أحمد فخرى ، ود. رشدى سعيد وآخرون . وكتاب «سيناء .. بوابة مصر للقرن الواحد والعشرين» لحسن كامل راتب ، وقائمة طويلة من الكتب والدراسات يصعب حصرها . وحان الوقت للاستفادة منها ، وتحويلها إلى خطط عمل .

وبعد ..

علينا أن نذكر الأعمال البطولية التى قام بها أهل سيناء ، من شبكة البدو الذين ساهموا فى المقاومة والعمليات الفدائية ، وما جرى عندما تحولت بعض البلدات وبعض الأحياء السكنية فى العريش إلى مناطق لا يدخلها جنود الاحتلال مثل الفواغيرية، وصور المقاومة المختلفة ضد سلطات الاحتلال والتضحيات الكبيرة التى قدموها ، وحان الوقت لكى نرد بعض ما قدموه . □


صدام حسين


أسامة بن لادن

نموذج فاضح لأكاذيب الغرب

بقلم
د. عبدالعظيم أنيس

لنظام صدام حسين فى العراق خطايا وجرائم عديدة ، لكن لم يعرف على طول تاريخه أنه على علاقة ما بتنظيم قاعدة أسامة بن لادن ، وهو الوهابى المتطرف دينيا إلى حد الإرهاب ، بينما نظام صدام حسين «علمانى» معاد للجماعات الدينية التى تعمل بالسياسة ، وما قصة ضرب الشيعة والفتك بهم بعد انتهاء عملية «غزو الصحراء» بعيدة عن الأذهان .

لهذا كان غريبا أن تلجأ أجهزة الدعاية الأمريكية والبريطانية إلي فبركة صلة بين نظام صدام حسين وأسامة بن لادن وقاعدته ، والحقيقة أن حكام واشنطن ولندن كانوا في أشد الحاجة إلى هذه الفبركة لتبرير هجومهم على العراق باعتباره محاربة للإرهاب الدولي ، فضلا عن البحث عن أسلحة الإرهاب الشامل التي يخبئها صدام حسين .

وهكذا بدأ السيناريو المفبرك بتصريح لوزير داخلية براغ بأن محمد عطا (قائد عمليات ١١ سبتمبر كما يزعمون) قابل أحمد خليل سمير العاني ، القنصل الثاني للسفارة العراقية فى براغ ، ووفقا لأقوال المخابرات التشيكية فإن مصدر هذه القصة هو مهاجر عربى تطوع بتقديم هذه المعلومة بعد أحداث

١١ سبتمبر وبعد نشر صورة محمد عطا فى الصحف .

لكن القصة المزعومة تم بحثها فى المخابرات الأمريكية العديد من المرات وثبت لديها أن محمد عطا كان فى فيرجينا فى نفس الزمن المزعوم أنه كان فى براغ . وعلى الرغم من أن المخابرات الأمريكية تأكدت من أن القصة مفبركة وأبلغت البيت الأبيض بذلك ، إلا أن بوش استمر فى الترويج لهذه الأكذوبة ، كما استمر البنتاجون فى نفس الاتجاه .

الأغرب من ذلك أن رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا (هافل) أبلغ البيت الأبيض فى هدوء أنه بعد قيامه بتحقيقاته الخاصة فى هذا الموضوع لم يجد دليلا واحدا على لقاء محمد عطا المزعوم مع ملحق السفارة العراقية فى براغ .

فعل هافل هذا فى هدوء حتى لايتسبب فى إحراج البيت الأبيض ، واعترفت صحيفة التيمس اللندنية أن مسئولين آخرين فى براغ اعترفوا بأنه لايوجد دليل على أن محمد عطا كان فى براغ فى أبريل ٢٠٠١ .

وكان على بريطانيا أن تدلى بدلوها فى هذه الفبركة العدائية الغريبة ، فبركة دليل على وجود علاقة بين نظام صدام والقاعدة . لكن هذه المحاولة البريطانية كانت صلب الفضيحة التى ذاعت فى بريطانيا فى فبراير الماضى ، عندما تبين أن ما أذاعته الحكومة البريطانية فى تقريرها عن هذه الصلة مفبرك تماما ، ومع أنها - أى الحكومة البريطانية - كانت قد نسبت هذه المزاعم إلى جهاز M.I.6 (المخابرات البريطانية الخارجية) فى تقرير بعنوان «البنية التحتية للخداع والإخفاء والترويع» ، ومع أن وزير خارجية واشنطن أشار إلى هذا التقرير فى حديثه أمام مجلس الأمن قائلا فى ثقة عظيمة «أريد أن أنبه زملائى فى المجلس إلى التقرير الرائع الذى وزعته بريطانيا والذى يصف بتفصيل كامل أنشطة الخداع العراقى»

إلا أن الذى حدث وفضح بلير ومساعديه أغرب منه الخيال؛ فأستاذ من جامعة كمبردج - هو الأستاذ جلين انجوالا - تذكر بمجرد قراءة التقرير أنه قرأ من قبل معظم ما ورد فى هذا التقرير . وبمراجعة الموضوع على «الإنترنت» تبين أن معظم صفحات التقرير البريطانى (من صفحة ٦ إلى ١٦) مأخوذ طبق الأصل من بحث أجراه طالب عراقى فى جامعة كاليفورنيا للدكتوراه . وهكذا ثبت أن هذا التقرير لم يعده جهاز M.I.6 ، وإنما جهاز أليستر كامبل المسئول الإعلامى فى مكتب بلير والذى اضطر إلى الاستقالة بعد انتشار الفضيحة .

وقد اعترف مساعدو كامبل بالخطأ مدعين أنه وقع نتيجة السرعة فى إعداد التقرير .

وكتب تشارلز هايمان فى مجلة Janes world armies «من الواضح أن ذلك التقرير هو جزء من حملة بلير الدعائية ، وأن أجهزة المخابرات لم تكن لها صلة بالموضوع . لقد تحدث معى إثنان منهم هاتفيا وقالوا بالحرف : «ليست لنا صلة بهذا الموضوع» .

المعرفة الجاهلة والإعلام الأمريكى

بقلم
محمد يوسف عدس

«ليس الناس أغبياء ولكنهم غالبا ما يكونون جهلاء، وبسبب جهلهم يتقبلون المعلومات التى ينقلها إليهم صحفيون جهلاء، وهؤلاء بدورهم يأخذون معلوماتهم من سياسيين جهلاء مثلهم.. والنتيجة: أن سياسيا جاهلا يدلى بحديث جاهل، يلتقطه صحفى جاهل، ثم يعرض على شاشة التليفزيون فى أربعين ثانية لجمهور جاهل»

صاحب هذا الكلام الغريب سياسى أمريكى معروف من قيادات الحزب الجمهورى، كان رئيسا لمجلس النواب فى الكونجرس أثناء إدارة الرئيس السابق بل كلينتون - ذلك هو «نيوت جنجريتش»، رجل اشتهر بتصريحاته الغاضبة ونقده الحاد ولسانه اللاذع.. وهو لا يتمتع بشىء من الدبلوماسية ولا يبتسم لدعابة أو مزحة، وأعظم مواهبه الطعن بالكلمات الموجعة.. ولكنه عادة ما يقول ما يؤمن به ويعتقد أنه صحيح.

بهذه العبارات البسيطة الواضحة لا يصف جنجريتش شعبا من شعوب العالم الثالث وإنما يصف الجمهور الأمريكى العريض الذى يعتمد على وسائل الإعلام المحلى الهزيل كمصدر وحيد للمعلومات والمعرفة، وهى وسائل

أكبر همها التسلية والإعلانات المثيرة والأخبار ذات الطابع المحلي، ولا تعنى بتثقيف الناس أو تنويرهم، وهي بذلك تدعم حالة الجهل والسذاجة السائدين.

فإذا صح ما يقوله جنجريتش نكون أمام واقع خطير.. لماذا؟

لأن هؤلاء الجهلاء السذج هم الذين ينتخبون أعضاء الكونجرس وينتخبون الرئيس الأمريكي الذي لم يعد يعتبر نفسه رئيسا للولايات المتحدة فحسب.. ومهما يكن الأمر فإن القرارات التي يصدرها الكونجرس وتصدرها مؤسسة الرئاسة لا يقتصر تأثيرها على الأمريكيين فحسب وإنما يمتد ليشمل العالم بأسره. هذا إذن كلام يستحق منا كثيرا من التأمل بقدر ما يحتاج إلى وضعه على محك الواقع.

حرب النجوم

مجموعة من الجمهوريين المؤيدين لرونالد ريجان في استراتيجيته الدفاعية المعروفة شعبيا باسم «حرب النجوم» - رأت أن تنظم لقاء بين عينة من مواطني مدينة كولومبيا وبين عدد من أعضاء الكونجرس، من أبرزهم «فلويد سبنس» رئيس لجنة الدفاع القومي وسيناتور «ستورم ثيرموند» رئيس لجنة الخدمة العسكرية، وهما شخصيتان لهما أكبر الأثر في القرارات المتعلقة بميزانيات الدفاع عن الولايات المتحدة وطرق استخدامها.

كان الهدف من هذا اللقاء أن يتعرف هؤلاء القادة على آراء الناخبين مباشرة، ويروا بأنفسهم كيف يفكرون في مسألة حرب النجوم.. يعني أن يتعلموا من الشعب وينقلوا رغباته الحقيقية إلى مراكز اتخاذ القرار.

ستدعى لإدارة حلقة النقاش أحد خبراء استطلاعات الرأي هو دكتور «فرانك لونتز». وحضر النقاش الصحفي الإنجليزي النشط «جافين إيسلر» الذي سجل اللقاء مفصلا، وتابع تداعياته في لقاءات تالية مع المنظمين والضيوف، وضمن كل هذا في كتابه «ولايات الغضب المتحدة» The united states of Anger، كتب يقول: «الذي حدث في هذا اللقاء كان صدمة مفجعة



للجميع فقد عبر الجمهور عن جهل مذهل وتشوش معرفي.. ولم يستطع أي واحد من المشاركين أن يبرهن على أنه يدرك أبسط الحقائق الأساسية عن «الدفاع الأمريكي».. كانت مهزلة أن يذهب سياسيون كبار لكي يتعلموا شيئا من الناخبين الذين يتمتعون بجهل مطبق في الشئون العامة لبلادهم.. يحدث هذا في عصر يسمى عصر المعلومات، وفي أمريكا التي هي رائدته بلا منازع».

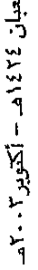
كان المشاركون الذين حضروا اللقاء يجلسون في قاعة كبيرة في مواجهة د. فرانك لونتز، وقد روعي في اختيارهم تمثيل الطبقة المتوسطة الدنيا كعينه تمثل جمهور السكان في المنطقة، تراوحت دخولهم السنوية بين ٢٥ ألف إلى خمسين ألف دولار، كان من بينهم رجل أسود يعمل موظفا في المستشفى ويدعى كلايد وامراة سوداء لها ابن يعمل في الجيش الأمريكي، أما الباقون فكانوا جميعا من البيض انقسموا بالتساوي بين رجال ونساء، من بينهم من يعمل بالسجن ومحاسبون قانونيون ورجل واحد في المعاش، ثم مجموعة من رجال الأعمال مقسمين بين الجمهوريين والديمقراطيين والمستقلين.

اعتاد لونتز أن يعقد مثل هذه اللقاءات في أنحاء مختلفة من الولايات المتحدة ويسميها focus Group وهي تختلف عن استطلاعات الرأي التي تعطي فكرة عامة عن الرأي العام السائد، في أنها تمنح فرصة للسياسيين أن يلتقوا بالناخبين لقاء مباشرا لكي يتحسسوا المزاج القومي بشيء من التفصيل، ويتعرفوا على الأسباب التي تجعل الناس يحبون أو يكرهون سياسة معينة. ومن ناحية أخرى هي فرصة مواتية للسياسيين أن يشرحوا آراءهم ويحاولوا إقناع الناخبين بها خلال الحوار المتبادل.

بدأ لونتز ببعض أسئلة لتسخين الحاضرين عن دور أمريكا في العالم: هل كان البنتاجون يقلص ميزانية الدفاع بسرعة أكبر مما ينبغي؟.. من هم أعداء أمريكا الآن؟ العراق.. إيران كوريا الشمالية.. ليبيا.. الصين.. الشرق الأوسط.. روسيا.. اليابان..؟ كان لكل واحد رأيه الخاص في هذه الموضوعات ولكن – من خلال الحوار – اتفق الجميع على أن الولايات المتحدة تحتاج إلى جيش قوي بعد زوال خطر الحرب الباردة.. كان كل واحد يناقش بذكاء وبمنطق واضح.. فلم يكونوا – من هذه الناحية – مجموعة من الأغبياء .. إلا أن المحتوى المعرفي لديهم في هذه الشئون كان قريبا من الصفر.. ولذلك يصفهم «إيسلر» بأنهم مجموعة من الجهلاء بلا جدال.. وهذا رأي يعزز مصداقية كلام نيوت جنجريتش الذي أشرنا اليه آنفا.

مرت فترة التسخين ثم أطلق لونتز السؤال الأساسي.. وكان يريد من الحاضرين أن يتخيلوا ما الذي يحدث لو أن روسيا أطلقت صاروخا نوويا على كولومبيا؟

اتفقت إجابات الجميع على أن مثل هذا الصاروخ سيتم إسقاطه بالدفاعات الأمريكية.. ولكنهم اختلفوا في



التفاصيل.. وهنا تبين ان الجميع كانوا يجهلون هذه الأمور التى يخوضون فيها جهلا مطبقا.

قال روند: أعتقد أن المقاتلات الأمريكية سوف توجه للصاروخ الروسى صاروخا مضادا لتدميره.

وقال جون إن شيئا ما سيعترض هذا الصاروخ.. ولكن لم يكن متأكدا أى شىء هذا من بين أجهزة تكنولوجيا حرب النجوم!

وقالت سيلفيا: «لقد أنفقت البلاد المليارات على أنظمة دفاع عالية التقنية لكى تدمر صواريخ الروس وتسقطها».

وظل لونتز يدور فى القاعة على مدى ساعتين حتى تأكد أن كل واحد من الحاضرين قد أدلى بدلوه فى المسألة وأيقن أن كل واحد منهم يعتنق فكرة أن «نظام حرب النجوم» الذى تملكه الولايات المتحدة بشكل أو آخر هو الدفاع الرادع ضد الصواريخ المهاجمة.

ثم تأتى المفاجأة التى لم تكن فى الحسبان، اطلقها لونتز بهدوء وتلطف فعرفوا أنهم جميعا يقولون كلاما فارغا .. قال: «فى الحقيقة ان الولايات ليس لديها أى دفاع فعال ضد الصواريخ المعادية.. نحن لا نستطيع أن نفعل شيئا للأسف..».

فهب جو واقفا وهو يقول: لقد صدمتنى .. فمن دقائق كانت سيدة وقور تتحدث بثقة تامة عن «درع السلام» على أنه درعنا فى الدفاع عن أنفسنا .. وأنه درع غير قابل للاختراق.. إنه سيحمينا !

وسأل رجل آخر: تعنى أننا لا نملك من وسائل الدفاع سوى صاروخ باتريوت!؟ ثم عقب بغضب ظاهر: لقد استخدم باتريوت هذا الذى تكلف الملايين مع ضجة سياسية وإعلامية كبيرة ولكنه لم يحقق نجاحا عسكريا أمام صواريخ سكود التى يملكها صدام حسين أثناء حرب الخليج.

وقالت جين: من الصعب أن نصدق أنه ليس لدينا أى شىء لمواجهة هجوم صاروخى على بلادنا.. المسألة تربك العقول!

المعرفة الجاهلة

يقول جافين إيسلر: بعد أن انتهت الجلسة تحدثت إلى رجل الكونجرس «سبنس» فقال: الذى يحيرنى حقا هو أن هؤلاء الناخبين وهم فى هذه المدينة المشهورة بتاريخها العسكرى لا يفهمون إلا قليلا فى مسألة بالغة الأهمية قتلتها الصحافة والإعلام بحثا وجدلا على مدى عقد كامل.. إننى مذهول لهذا القدر من الجهل الذى يخيم على عقول هؤلاء الناس.

لكن الدكتور فرانك لونتز لم يكن مندهشا فإن دراساته للعديد من استطلاعات الرأى العام قد كشفت له أنه فى كثير من القضايا العامة – وليس فقط فى



قضية «الدفاع» - أن الجمهور الأمريكي لا يعرف إلا القليل جدا وأن ما يعرفه الناس كان دائما خطأ محضا.

وقد نجح مؤلفان بريطانيان في صك مصطلح جديد ينطبق على هذه الحالة الأمريكية هو «المعرفة الجاهلة» ضمناه في كتاب لهما بعنوان «لماذا يكره العالم أمريكا» سبق أن قدمت عرضا له في مقالة سابقة.

على هذا النمط من الجهل المعرفي أو «المعرفة الجاهلة» يعتقد الأمريكيون أن المساعدات التي تقدمها بلادهم لدول العالم تمثل نسبة هائلة من الميزانية أكثر مما ينفق على الرعاية الصحية.. والواقع أن هذه المساعدات الخارجية لا تمثل إلا نسبة ضئيلة من الدخل القومي وهي أقل مما تنفقه اليابان وبعض الدول الأوربية.. وأقل بكثير جدا مما ينفق في الولايات المتحدة على الرعاية الصحية.. خلافا لما يعتقده أو يتوهمه الأمريكيون من أسرى الإعلام الأمريكي المزيف للحقائق.

أكد د. فرانك لونتز أن الأمريكيين لا يعلمون كثيرا من الحقائق التي تدور حولهم.. كما أكد أن هؤلاء الناس الذين فوجئوا بمعرفة أن دفاعاتنا العسكرية ليس فيها شيء ضد الصواريخ النووية لن يناموا - كما اعتادوا - نوما هنيئا هذه الليلة وقد يمضي وقت طويل حتى يستعيدوا شعورهم بالأمن مرة أخرى. وأضاف قائلا: «يبدو أن ما فعلناه مع هؤلاء الناس كان شرا فسوف يتملكهم الغضب ولن يغفروا لحكومتهم هذا التقصير».

سأل الصحفي «جافين إيسلر» الدكتور لونتز : لماذا فشل جميع أفراد الندوة في إدراك واحدة من أكبر القضايا وأهمها في الولايات المتحدة خلال السنوات القليلة الماضية؟.. لماذا فشلوا في الحصول على المعلومات الصحيحة؟.

قدم لونتز إجابة مطولة شارحة فقال: «سوق الأخبار الأمريكية متناثرة مفككة إلى مدى غير معروف في أي دولة صناعية أخرى، هنا نحن نختلف عن بريطانيا ومعظم دول أوربا بما في ذلك روسيا - لا يوجد لدينا صحافة قومية رفيعة المستوى فالصحيفة القومية الوحيدة عندنا هي USA Today ولكنها غير واسعة الانتشار وتوزع أحيانا بالمجان في الفنادق، وليست معروفة عالميا مثل «واشنطن بوست» و«نيويورك تايمز» ومعظم صحف الأخبار صحف محلية سواء في محتواها أو في توزيعها».

والنخبة الأمريكية قليلة العدد هي التي تطلع على المجلات والصحف والفضائيات ذات الشهرة العالمية أما عشرات الملايين من الأمريكيين فيقتصرون على مشاهدة التليفزيون المحلي ولا يشتركون في أي صحيفة أو مجلة محترمة، ومن ثم فالغالبية العظمى من الناس يجهلون ما يدور في العالم من حولهم ولا يهمهم سوى أخبار بلدتهم وعلى الأكثر أخبار الولاية التي ينتمون إليها.

يقول إيسلر : ببساطة شديدة أمريكا تعاني من هوة معرفية سحيقة بين

الصفوة القليلة ذات الأفق المعرفى الواسع وبين الكثرة الغالبة التى أطمأنت إلى حالة من الجهل مزرية.. ويضيف : «إن هذه الهوة المعرفية تساوى فى عمقها الفرق المذهل بين الأغنياء والفقراء فى الولايات المتحدة.

غياب المصداقية

فى هذا المجال يرصد إيسلر اتجاهين خطيرين يرى أنهما سيؤديان إلى اتساع الهوة المعرفية المعلوماتية فى المستقبل:

الاتجاه الأول يتمثل فى حقيقة أن التيار الإعلامى التقليدى العام يتقلص فى أهميته وكثيرا ما ينظر إليه القراء والمشاهدون بكثير من الشك فى مصداقيته.

والاتجاه الثانى يتمثل فيما يعرف الآن بـ «الإعلام الجديد» وفيه عنصران متصاعدان :١ - الانترنت ٢ - Talk Radio سمه إن شئت إذاعة الحديث والحوارات المستمرة مع الجمهور على مدار أربعة وعشرين ساعة فى اليوم، هذان المصدران تتزايد شعبيتهما وانتشارهما كل يوم ولكن مما يؤسف له أن المحتوى المعرفى والثقافى لهما لا يساعد على التنوير الحقيقى فأكثره غثاء وهواجس غارقة فى الظنون وتسيطر عليها فكرة المؤامرات السرية.

أمام هذا التطور الإعلامى الجديد نسمع كل يوم عن صحيفة تغلق ابوابها، ويتناقص عدد قراء الصحف يوما بعد يوم . ففى عام ١٩٧٠ كانت نسبة القراء ٧٨٪ انخفضت سنة ١٩٩٥ إلى ٦٤٪ والشباب هم أكثر الناس عزوفا عن القراءة، وأكبر ثلاث شبكات إخبارية وهى , CBA NBC ABC كانت تتباهى بأن ٤١٪ من البيوت الأمريكية يستمعون إليها كل مساء.. انخفضت هذه النسبة سنة ١٩٩٥ م الى ٢٦٪ فقط.. وصاحب كل هذا تدهور فى سمعة الصحفيين ومكانتهم الاجتماعية.. كانوا فى الماضى أبطالا فأصبحوا طغمة منبوذة، يستخدمون أساليب غير أخلاقية فى تصوير الانحرافات وفضحها ويهتمون بإثارة الجمهور لا بإخباره وتنويره.

آلهة اللاعقل

أما محطات الراديو التى أشرنا إليها فيبلغ عددها ١٢٠٠ محطة.. يتحدث الكل فيها طوال الوقت وهى ايضا تهتم بالإثارة اكثر من أى شىء آخر. وتمتلىء أحاديثها بالسفاهة والعبث الى حد التحريض على قتل الشرطة ورجال الحكومة.. بل توجه إلى جمهورها ارشادات فى طريقة القتل: «صوب على الرأس دائما»، وتبث احاديث الكراهية ضد الحكومة والسلطة حتى أصبح غالبية الأمريكيين لا يثقون فى السياسيين سواء الديمقراطيين منهم او الجمهوريين فالجميع يكذبون ويقولون مالا يفعلون وفى كل يوم يتزايد عدد الذين يتشككون فى النظام



والغاضبين من التوسع المستمر فى الحكومة.

فى هذا المناخ الغاضب الكاره ازدهرت محطات إذاعة وقنوات تليفزيونية انجليكانية أصولية متطرفة لشخصيات دينية شديدة التعصب خطابها الإعلامى محتقن بالكراهية والعنصرية ضد الأقليات الدينية والعرقية، على رأسهم سواجارت، وجيرى فالويل وبات روبرتسون وغيرهم.

يقول جافين إيسلر: كانت الثورة الفرنسية تدفع الناس بعيدا عن الايمان المسيحى التقليدى الى معبد إلهة العقل اما الأمريكيون فإنهم يبالغون فى الاتجاه المعاكس ويتجمعون حول آلهة اللاعقل واللامنطق. فهم يستمعون ليل نهار الى اسطوانات تعاد وتتكرر عن خرافات وأساطير خطيرة تغص بها وسائل الإعلام الجديدة.. ويبدو أن البشر يحبون ان يستمعوا فقط إلى ما يعزز تعصباتهم لا ما يناقضها.

أغرب جلسة استماع فى الكونجرس

نأتى أخيرا إلى هذا السؤال الجوهرى الخطير.. يطرحه إيسلر فيقول: «إلى أى مصير تسير أمريكا؟» فإذا كنت مهتما بالاجابة على هذا السؤال تعال معى إلى هذا المشهد نطل منه على أغرب جلسة استماع حدثت فى الكونجرس «يوم ١٥ يونيه ١٩٩٥م» بعد مرور شهرين على حادثة تفجير مبنى أوكلاهوما.. لقد اهتز الكونجرس لهذه التفجيرات المروعة ولاكتشافه المفاجىء للمليشيات مسلحة منتشرة فى الولايات المتحدة معبأة بكراهية للحكومة ولديها مخزون متراكم من الغضب لم يلتفت اليه احد ولم تعن به وسائل الإعلام الغارقة فى السفاهة واللهو.

فى قاعة الاستماع بمجلس النواب جلست مجموعة من قيادات المليشيات خلف منضدة كبيرة وكان رئيس جلسة الاستماع هو سيناتور أرلين سبيكتر من بنسلفانيا.. بدأ بدعوة قادة المليشيات ان يشرحوا للحاضرين فلسفتهم وأسباب شعورهم بالكراهية للحكومة الفيدرالية وانبرى للاجابة «جون تروتشمان» أحد قادة مليشيات مونتانا.. كان بسمته وثيابه ولحيته يشبه انبياء العهد القديم.. فى خطابه نبرة حادة.. شرح للحاضرين كيف تحول منصب الرئاسة الأمريكية إلى مركز للاستبداد والدكتاتورية.. وتساءل: كيف تسمح الحكومة الفيدرالية لجيشنا أن يأخذ أوامره من أجانب يسيطرون عليه.. ثم أنحى باللائمة على الإعلام الأمريكى المنحرف الذى يخضع لتوجيهات مجموعة قليلة من اصحاب المصالح الخاصة ويعمل على تدمير ما تبقى من الثقافة الأمريكية الأصيلة.

تكنولوجيا التحكم فى المناخ الكونى

استمع الحاضرون على مدى ساعات من قادة المليشيات عن قصص مؤامرات تقوم بها الحكومة الأمريكية . وكان اكثرها غرابة الاعتقاد بأن هذه الحكومة لديها تكنولوجيا للتلاعب بالمناخ الكونى تمكنها من إحداث العواصف والجفاف

بهدف تجويع الشعب وتدمير العالم. كان صاحب هذا الكلام هو «روبرت فليتشر» أحد قادة المليشيات.. وهنا بدأ السيناتور «هرب كول» يسأله : هل أفهم مما تقول أن الحكومة قد طورت نوعا من التكنولوجيا تسيطر بها على المناخ لتجويع الأمريكيين والهيمنة على العالم باسم النظام العالمى الجديد؟.. سكنت القاعة وتعلقت الأنظار بشفتى السيد فليتشر الذى قال بصوت هادىء واثق: قلت إن النظام العالمى الجديد يملك تكنولوجيا يتحكم بها فى مناخ الأرض، وأن الزلازل وفيضانات نهر المسيسبى وجفاف اثيوبيا كلها أجزاء من مؤامرة كبرى لقتل ملايين البشر والهيمنة على العالم . أعاد سيناتور كول استفساره كأنه لا يصدق ما سمع.. فرد عليه فليتشر مؤكدا: إنها محاولة للسيطرة على العالم.. هذا ما أعنيه. وللمرة الثالثة يعيد سيناتور كول سؤاله: لست أفهم تماما.. مؤامرة فى أمريكا وتمتد إلى خارج أمريكا لتشمل العالم كله!؟ فأجاب فليتشر بحدة: نعم .. هذا ما أعنيه تماما..

قداسة الجهل

يعلق جافيز ايسلر قائلا: لقد كشفت تصريحات قادة المليشيات فى هذه الجلسة عن نوع خطير من البارانويا الجماعية هى ثمرة تدهور مصداقية الإعلام الأمريكى التقليدى وانصراف الناس عنه الى وسائل الإعلام الجديدة وللقنوات التلفازية الأصولية وكلها تضخ قصصا اسطورية ونظريات مؤامرة وتلعب على أوتار الغضب والخوف والقلق والمشاعر الدينية السائدة فى المجتمع الأمريكى.

ويقول سيناتور ارلين سبكتر قدر عدد المليشيات فى أمريكا فى وقت تفجيرات أوكلاهوما بـ ٢٢٤ فرقة.. وقد عرفنا ان حوالى اربعين الف شخص منهم كانوا يخرجون الى الغابات فى عطلة نهاية الاسبوع لحماية البلاد من غزو طائرات سوداء تملكها الأمم المتحدة ومن قوات روسية مختبئة فى مواقع حصينة. ولم يكن احد يعبأ بهذه المليشيات، ولكن يبدو انها اقوى وأخطر من كل التقديرات المعلنة. وتتميز بدرجة عالية من الإصرار وعقيدتها راسخة لا تقبل النقاش ولا تبالى بالمنطق.

ويرى جافين إيسلر أن أمريكا تعانى من علاقة خطيرة بين الجهل والسذاجة كما تبين لنا من لقاء مدينة كولومبيا حيث رأينا عددا كبيرا من المواطنين الأذكياء يجهلون كل شىء عن القضايا السياسية المهمة فى بلادهم.. وأن هذا الجهل يسهل على أقلية صغيرة من المتلاعبين بالعقول اقناعهم بخرافات ومؤامرات لا يصدقها عقل سليم.. كما يفعل فرسان الإعلام الجديد الذين لا يصححون الجهل وإنما يرفعونه الى مستوى القداسة. ■





التسلل الإسرائيلى إلى العراق فى ظل الاحتلال

بقلم
د. محمود عبد الفضيل

هذا المقال ليس مقالا تحليليا حول إعادة ترتيب الأوضاع في منطقة الشرق الأوسط غداة الحرب علي العراق ولكنه محاولة لرصد آخر التحركات الإسرائيلية للتسلل إلي العراق الجديد في ظل دعم ومباركة قوات الاحتلال هناك، للحصول علي حصة ودور في إعادة تشكيل مستقبل العراق السياسي والاقتصادي .

وقد كشفت مصادر إسرائيلية مطلعه أن **أكثر من عشر شركات إسرائيلية كبرى** وقعت، أو فى طريقها إلى التوقيع، على عقود تجارية مع القوات الأميركية فى العراق، مؤكدة أن هذه الشركات بدأت عملها داخل الأراضى العراقية . إما بشكل مباشر مع **شركة بكتيل**، التى يرأسها جورج شولتز وزير الخارجية الأميركى الأسبق، أو من **خلال شركات أردنية** تعمل فى إطار «الغرفة التجارية الأردنية - الإسرائيلية».

وأكدت المصادر أن بين الشركات الإسرائيلية العاملة فى العراق شركة «اريديوم» **التي وقعت عقداً مع الجيش الأميركي بخمسة ملايين دولار لإقامة شبكة تليفونات عامة** . كما وقعت **شركة** «أوسم»

للمنتجات الغذائية عقداً آخر . وأوضحت المصادر أن غالبية رجال الأعمال ومسئولي الشركات الإسرائيلية يعملون تحت مظلة الجيش الأميركي «لدواع أمنية»أو من خلال رجال أعمال وشركات أجنبية، وذلك على غرار ما تقوم به شركة «تنور غاز» لصنع أفران الطبخ التي هي بصدد تصدير إنتاجها عبر شركة قبرصية، إلى منظمات الإغاثة والمساعدة الدولية العاملة في العراق كذلك بدأت شركة «تامي أربع» لتكرير المياه بنقل معدات إلى العراق في الفترة الأخيرة للبدء بتنفيذ أحد مشروعاتها هناك، فيما تبحث شركة اسرائيلية أخرى متخصصة في تصنيع أبواب «مولتيلوك» المصفحة في جدوى مشروع ضخم لها في العراق (راجع التقرير المنشور في جريدة الحياة، ٣١ / ٨ / ٢٠٠٣) .

وتوقع معهد التصدير الإسرائيلي في تقرير له أن يبلغ حجم الصادرات الإسرائيلية إلى العراق، في مشاريع البنية التحتية والتسويق وغيرها من المعاملات التجارية خلال السنوات الثلاث المقبلة نحو مائة مليون دولار، تضاف إليها ٥٠ مليونا على شكل تمويل غذائي ومستلزمات مماثلة لمئات الآلاف من الجنود الأميركيين (المصدر نفسه).

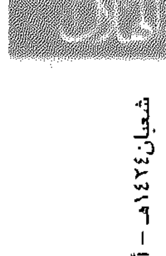
ووفقا لاتحاد الصناعيين الإسرائيليين، بدأت شركات إسرائيلية بالإعداد لتنفيذ مشاريع كبيرة في العراق وبين أبرز المسئولين عن العلاقات التجارية مع العراق **أمنون شاحاك** رئيس الأركان السابق للجيش الإسرائيلي

إعادة العمل في أنبوب النفط من كركوك إلى حيفا

يلقى مشروع إعادة العمل في أنبوب النفط من كركوك، عبر الأراضي الأردنية، إلى ميناء حيفا كما كان عليه الوضع خلال الأنتداب البريطاني لفلسطين، اهتماماً إسرائيلياً على أعلى المستويات، بما فيها وزارات التجارة والصناعة والطاقة والمال وأكدت المصادر أن فكرة إعادة العمل بهذا الخط كانت موضع نقاش على أعلى مستوى خلال اجتماعات المنتدى الاقتصادي الدولي الذي عقد في البحر الميت بعد ما عرضها رئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون على الرئيس چورچ بوش خلال زيارته الأولى لواشنطن، طالباً منه عدم الموافقة على نقل النفط العراقي عبر سورية «لأن ذلك سيعتبر مساندة للإرهاب (راجع : جريدة الحياة، العدد الصادر في ٣١ / ٨ / ٢٠٠٣).

ومن ناحية أخرى، دعا نائب وزير الخزانة الأميركي **جون تايلور** الشركات الإسرائيلية إلى استغلال «الواقع الاقتصادي الجديد» في العراق والفرص الهائلة أمامها والمشاركة في إعادة أعمار هذا البلد، معرباً عن قناعته بأن الاستثمار في مشاريع البناء سيعطي دفعة كبيرة للاقتصاد الإسرائيلي برمته.

وأكد المسئول الأميركي في حديث لصحيفة «يديعوت أحرونوت»، أجرته معه



على هامش مشاركته فى أعمال المنتدى الاقتصادى العالمى فى الأردن، أن أبواب العراق مفتوحة أمام الشركات الإسرائيلية للعمل والاستثمار والمشاركة فى العطاءات المختلفة مضيفا أن عملية التشريع فى القضايا الاقتصادية التى سيشهدها الاقتصاد العراقى فى الأسابيع المقبلة ستتيح الفرصة أمام الشركات الإسرائيلية لمباشرة العمل والاستثمار فيه خصوصا أن الشركات الإسرائيلية تتمتع بمزايا فى مجالات التكنولوجيا والبنى التحتية. كما أشار المسئول الأمريكى إلى أن العراق لا يفرض حاليا أى قيود على الاستيراد أو حتى رسوماً جمركية، مشدداً على أن أبواب العراق مفتوحة تماما على مصاريعها .

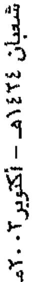
كذلك كشف النقاب عن أن ممثل الوكالة اليهودية جيف كى، عاد إلى إسرائيل مؤخرا بعد زيارة إلى العراق استمرت خمسة أيام وكي يشغل منصب مدير قسم التسويق فى الوكالة اليهودية، وهو أول شخصيته رسمية إسرائيلية يقوم بزيارة العراق بعد احتلاله من قبل القوات الأمريكية والبريطانية فى التاسع من أبريل الماضى . وقالت مصادر إسرائيلية رسمية أن الزيارة تمت بموافقة رئيس الوزراء أرييل شارون ، وأنها تمت بالتنسيق مع الإدارة الأمريكية .

مشروع إبرام اتفاق سلام بين العراق وإسرائيل

أعلنت إسرائيل فى المنتدى الاقتصادى الدولى المنعقد فى البحر الميت رغبتها صراحة فى إبرام اتفاق سلام مع العراق، وفتح أبوابه أمام رجال الأعمال الإسرائيليين، بينما عرضت الولايات المتحدة سلطة الاحتلال فى العراق أفكارها لكيفية القيام بعملية الانتقال نحو اقتصاد السوق فى العراق تسهيلا لعمليات الخصخصة وتمهيدا لنقل ملكية الأصول الإنتاجية العراقية إلى رأس المال اليهودى العالمى المتخفى فى عباءة رأس المال الأجنبى .

ومن جهة أخرى، وبمبادرة من اتحاد صناعات البلاستيك والمطاط الإسرائيلى افتتح فى تل أبيب مؤتمر اقتصادى هو الأول من نوعة بمشاركة ٤٠٠ رجل أعمال من بينهم رجال أعمال عرب من مصر والأردن والمغرب ودول الخليج العربى وكانت تقارير قد ذكرت أن وفدا صناعيا إسرائيلياً يضم خمسة وثلاثين رجل أعمال اجتمعوا فى تل أبيب مع مدير شركة من البحرين ومدير شركة من أبو ظبى لهما علاقات تجارية بالسوق العراقية ومشاريع إعادة إعمار العراق، وذلك بغرض الحصول على مساعدتهما فى إشراك شركات إسرائيلية فى ما يجرى على الأرضى العراقية .

وعلى الإجمال، فتح الاحتلال الأميركى للعراق الباب أمام الإسرائيليين للشروع بالحديث ليس فقط عن تغيير استراتيجى لمصلحة إسرائيل وحسب، وإنما عن مكاسب اقتصادية أيضا بالإضافة إلى الحديث عن الاستعدادات الجارية للمشاركة فى العطاءات الأميركية لإعادة إعمار العراق، يزداد



الحديث عن صادرات إسرائيلية إلى العراق بشكل مباشر وغير مباشر عبر كل من تركيا والأردن، وقد تحدثت الصحافة الفرنسية مؤخراً عن أن حجم التجارة الإسرائيلية في الشهور الماضية مع العراق بلغ نحو خمسين مليون دولار .

مطالبة العراق بدفع تعويضات عن الأملاك اليهودية فيها

يجرى الحديث هذه الأيام عن قيام جمعيات يهودية، بتشجيع رسمي من الحكومة الإسرائيلية، بجمع معلومات عن الأملاك اليهودية المتروكة فى الدول العربية عامة، وفى العراق على وجه الخصوص . وقد ذكرت صحيفة يديعوت احرونوت أن الحكومة الإسرائيلية تنوى فى الأيام القريبة، وعبر إعلان فى الصحافة، مطالبة اليهود العراقيين بتقديم معلومات عن الأملاك التى تركوها فى العراق وتهدف إسرائيل من وراء ذلك إلى السعى لدى الإدارة الأميركية للحصول على تعويضات عن هذه الأملاك. وبحسب صحيفة يديعوت احرونوت فإن منظمة يهودية مختصة تقدر الأملاك اليهودية فى العراق بحوالى عشرة مليارات دولار . ومع ذلك فإن العديد من العائلات اليهودية الغنية، ليس فى العراق وحسب وإنما كذلك فى دول عربية أخرى تنوى رفع دعاوى قضائية ضد حكومات كل من العراق وسوريا ولبنان ومصر للمطالبة بتعويضات عن أملاكها . (راجع : جريدة السفير اللبنانية، العدد الصادر بتاريخ ١٩ / ٨ / ٢٠٠٣).

وأشارت الجريدة إلى أن وزير الطاقة الإسرائيلى الأسبق، المحامى موشيه شاحال ينسق مع وزارة العدل الإسرائيلية أمر التعاون من أجل استرداد الأموال اليهودية التى ماتزال حسب الصحيفة مقيدة فى السجل العقارى العراقى . وترغب إسرائيل فى الاستفادة من إمكانية إلغاء قوانين التأميم التى صدرت فى العراق ومست باليهود وفى نظر إسرائيل يعتبر إلغاء التأميم إضفاء للشرعية على مطلب استرداد الأملاك .

وكان موضوع يهود الدول العربية قد أحتل مكانة متميزة من الناحية السياسية، عندما أشار الرئيس الأميركى السابق بيل كلينتون إلى الأموال اليهودية المتروكة فى الدول العربية وقد اقترح كلينتون حينئذ تشكيل صندوق دولى خاص لتعويض يهود الدول العربية .

ويشير يهودا شنهاف فى جريدة هاآرتس الإسرائيلية إلى أن الحملة المكثفة للحصول على اعتراف بيهود الدول العربية كلاجئين بدأت قبل ثلاث سنوات وأوضح أن هذه الحملة ترمى إلى إظهار أن اليهود أيضا كانوا ضحايا حرب عام ١٩٤٨، وإنه جرت عملية تبادل سكان بين العرب واليهود الأمر الذى ينفى مبدأ حق العودة للفلسطينيين (نقلا عن جريدة السفير اللبنانية، ١٩ / ٨ / ٢٠٠٣).

ولعل هذا هو أخطر ما فى الأمر !

فانتبهوا أيها السادة . ■

تطورات التنمية الإنسانية

في الوطن العربي

السياق العالمي والإقليمي

بقلم

د. نادر فرجاني

رغم شيوع استعمال «التنمية البشرية» بالعربية كترجمة للمصطلح الانجليزى Human Development ، الذى جاء به برنامج الأمم المتحدة الإنمائي فى مطلع تسعينيات القرن الماضى، ومثل نقلة نوعية فى الفكر التنموى، إلا أن «التنمية الإنسانية» عندنا تعريب أصدق تعبيرا عن المضمون الكامل والأصيل للمفهوم، كما سيتضح بعد قليل، مع الإبقاء على مصطلح «التنمية البشرية» بدلالة أضيق، تقابل تقريبا ما اصطلح عليه فى وقت سابق بعبارة «تنمية الموارد البشرية» "Human Resources Devel-opmant" ، وذلك ما يسمح به ثراء اللغة العربية .

فعلى حين تستعمل كلمتا «البشرية» و«الإنسانية تبادليا في العربية، يمكن إنشاء تفرقة، دقيقة، ولكن دالة، بين الأولى، كمجموعة من الكائنات، والثانية، كحالة راقية من الوجود البشرى. فلفظة الإنسانية تعبر عن سمو الوجود البشرى. وهذه التفرقة هى أساس تفضيلنا لمصطلح «التنمية الانسانية» بالعربية .

* مدير مركز « المشكاة» للبحث فى مصر

وعلى صعيد آخر ، استقر بالعربية استخدام مصطلح «رأس المال البشرى» كتعريب لمصطلح Human Capital، بمعنى التوجهات والمعارف والقدرات التى يكتسبها الأفراد ، أساسا من خلال التعلم والتدرب والخبرة العملية .

وعندنا أيضا أن مفهوم « رأس المال » الذى يتسق مع «التنمية الإنسانية» أوسع كثيرا من «رأس المال البشرى» على المستوى الفردى، ويعد أرحب على المستوى المجتمعى .

ونقترح اعتماد مصطلح رأس المال المجتمعى ليعبر عن تكامل مفاهيم رأس المال الاجتماعى ، والسياسى ، والفكرى ، والثقافى ، فى رأسمال عماده الأنساق التى تنظم البشر فى بنى مؤسسية تحدد طبيعة النشاط المجتمعى ، وعائده . وإذا جمعنا بين مفهومى رأس المال المجتمعى ، الذى يتعامل مع الناس باعتبارهم مؤسسات - بما فى ذلك مجتمعات بكاملها ، ورأس المال البشرى ، الذى يتعامل معهم كأفراد، لاكتمل مفهوم لرأس المال الإنسانى نعتبره جديراً بالاقتران بمفهوم التنمية الإنسانية .

دور البشرية فى التنمية

وقد اكتسب مفهوم «التنمية الإنسانية» ذيوعاً منذ عام ١٩٩٠ بتبنى برنامج الأمم المتحدة الإنمائى للمصطلح ، بمضمون محدد، وتركيب مقاس للتنمية الإنسانية - هو فى الواقع أقرب لكونه مقياساً للتنمية البشرية بالمعنى المرادف لرأس المال البشرى - ونشر تقرير سنوى حول الموضوع ، تحت قيادة طيب الذكر الاقتصادى الباكستانى «محبوب الحق» .

وينبنى المفهوم على التراث الفكرى الخاص بدور البشر فى التنمية الذى مر بتطورات متتالية توصلت إلى جُل العناصر التى تبناها تقرير التنمية البشرية (العالمى) الأول (برنامج الأمم المتحدة الإنمائى ، بالإنجليزية ، ١٩٩٠)

ويقوم المفهوم على أن «البشر هم



الثروة الحقيقية للأمم» وأن التنمية الإنسانية هى «عملية توسيع خيارات البشر» . ونتوقف هنا لتبيان مركزية الحرية فى مفهوم التنمية الإنسانية . فمنطق توسيع خيارات الناس يرتِّب أولوية مطلقة لإعمال حرية الاختيار بين بدائل متاحة، الأمر الذى ينطوى بدوره على مركزية الحرية فى التنمية الإنسانية، حتى تساوى بعض الكتابات النظرية الأحدث بين التنمية والحرية (سن ، بالإنجليزية، ١٩٩٩).

والواقع أن «الخيارات» Choices تعبير عن مفهوم سابق، يعود إلى الاقتصادى، هندى الأصل، «أمارتيا سن» ، الفائز بجائزة نوبل فى الاقتصاد فى العام ١٩٩٨، تقديراً لأبحاثه فى مجال الرفاه، خاصة الفقر والمجاعات، منذ الثمانينيات ألا وهو «الاستحقاقات» Entitlements، ونرى فيه تعبيراً عن حق البشر الأصيل فى هذه «الخيارات»

للبشر إذاً ، لمجرد كونهم بشراً ، حق أصيل فى العيش الكريم ، مادياً ومعنوياً ، جسداً ونفساً وروحا . ويتفرع عن هذا المنطلق نتيجتان مهمتان :

الأولى : ترفض التنمية الإنسانية بداية أى شكل من أشكال التمييز ضد البشر على أى معيار كان : النوع أو الأصل أو المعتقد .

الثانية : لا يقتصر مفهوم الرفاه الإنسانى فى التنمية الإنسانية على التنعم المادى وإنما يتسع للجوانب المعنوية فى الحياة الإنسانية الكريمة مثل التمتع بالحرية، واكتساب المعرفة والجمال والكرامة الإنسانية وتحقيق الذات الذى ينبع من المشاركة الفعالة فى شئون الاجتماع البشرى كافة .

وأحقيات البشر ، من حيث المبدأ، غير محدودة، وتتنامى باطراد مع رقى الانسانية . ولكن عند أى من مستويات التنمية، فإن الاستحقاقات الثلاثة الأساسية ، فى نظر تقرير التنمية البشرية، هى «العيش حياة طويلة وصحية، والحصول على المعرفة، وتوافر الموارد اللازمة لمستوى معيشى لائق» .

ولكن التنمية الانسانية لا تقف عند هذا الحد الأدنى، بل تتعداه إلى استحقاقات إضافية أخرى، والاستمتاع باحترام الذات وضمان حقوق الانسان (المصدر نفسه) .

وتقوم عملية التنمية الانسانية على محورين أساسيين :

الأول : بناء القدرات البشرية الممكنة من التوصل إلى مستوى رفاه إنساني راق، وعلى رأسها العيش حياة طويلة وصحية، واكتساب المعرفة، والتمتع بالحرية ، لجميع البشر دون تمييز .

والثاني : التوظيف الكفء للقدرات البشرية في جميع مجالات النشاط الانساني ، الانتاج ومنظمات المجتمع المدني والسياسة.

التنمية الإنسانية إذاً ليست مجرد تنمية «موارد بشرية»، أو حتى «تنمية بشرية»، أووفاء بالاحتياجات الأساسية للناس فحسب، وإنما هي نهج أصيل الإنسانية في التنمية الشاملة المتكاملة ، وللمؤسسات المجتمعية ، يستهدف تحقيق الغايات الانسانية الأسمى: الحرية والعدالة والكرامة الإنسانية .

٢ - أهم استخلاصات تقرير التنمية الإنسانية في البلدان العربية

رغم الانجازات التي حققتها البلدان العربية على أكثر من صعيد في مضمار التنمية البشرية خلال العقود الثلاثة الأخيرة، تبقى السمة الغالبة على مشهد الواقع العربي الراهن هي تغلغل نواقص محددة في البنية المجتمعية العربية تعوق بناء التنمية الانسانية، أجملها التقرير في نواقص ثلاثة، في الحرية، وفي تمكين المرأة، وفي القدرات الانسانية - خاصة المعرفة. حتى أن أخذ هذه النواقص في الاعتبار ، كما في تركيب مؤشر بديل للتنمية الإنسانية، يقلل من مكانة البلدان العربية على مقياس التنمية البشرية التقليدي ، ويؤكد أن تحدي بناء التنمية الانسانية مازال ضخما للغالبية الساحقة من العرب.

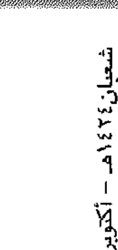
في المنظور الإيجابي، يعني بناء التنمية الانسانية في الوطن العربي أن تتوفر البلدان العربية على تجاوز النواقص الراهنة، بل تحويلها إلى نقيضها ، أي إلى ميزات ينعم بها المواطنون العرب، دون تفرقة ، وتزهو بها البلدان العربية .

على وجه التحديد يخلص التقرير إلى ضرورة أن تتوفر البلدان العربية على إعادة تأسيس المجتمعات العربية على :

١ - الاحترام القاطع للحقوق والحريات الانسانية باعتباره حجر الزاوية في بناء الحكم الصالح المحقق للتنمية الانسانية .

٢ - تمكين المرأة العربية، عبر إتاحة جميع الفرص، خاصة تلك الممكنة من بناء القدرات البشرية ، للبنات والنساء على قدم المساواة مع «شقائقهن» من الذكور .

٣ - تكريس اكتساب المعرفة ،



وتوظيفها بفعالية، في بناء القدرات البشرية ، وتوظيفها بكفاءة في جميع صنوف النشاط المجتمعي ، وصولا إلى تعظيم الرفاه الانساني في المنطقة .

هذا هو صلب التجاوز اللازم لتخطي أزمة التنمية الانسانية في المنطقة العربية، ولكنه ليس منتهى الأمل . فاستكمالا لتجاوز نواقص الوضع العربي الراهن، يمكن الإشارة أيضا إلى ضرورة بناء القدرات الانتاجية العربية في مواجهة الطبيعة الريعية للاقتصادات والمجتمعات العربية .

واستكمالا لإصلاح البناء المؤسسي العربي خدمة للتنمية الانسانية، يتعين ، بالاضافة لإصلاح نسق الحكم على الصعيدين القطرى والقومي ، على أساس متين من الحريات ، تمتين التعاون العربي على أساس من توسيع نطاق المشاركة الشعبية الفعالة في اتخاذ القرار على الصعيد العربي ، وتعظيم فرص الاستفادة من العولمة، وتوقي مخاطرها المحتملة .

وقد قام تصميم سلسلة تقرير «التنمية الإنسانية العربية» على أن يكون العدد الأول ، الذي صدر في يوليو/ تموز ٢٠٠٢، شاملا لجميع أبعاد التنمية الانسانية وفق التعريف الذي تبناه التقرير على أن يليه أعداد أخرى تتناول بالتدقيق والفحص المعمق قضايا بعينها تعد ذات أهمية جوهرية للتنمية الإنسانية في البلدان العربية ، ويبدأ هذا التقليد بالعدد الثاني من السلسلة المنتظر صدوره في الخريف القادم والمخصص لموضوع المعرفة، ويتواصل في التقرير الثالث المزمع صدوره في خريف العام ٢٠٠٤، والمخصص لموضوع الحرية والحكم الصالح .

٣ - تطورات التنمية الإنسانية في البلدان العربية

تقضي مراجعة التطورات العالمية والإقليمية والمحلية منذ انتهاء العمل على «تقرير التنمية الإنسانية العربية» الأول إلى أن تحدي التنمية، متمثلا في تجاوز النواقص الثلاثة في المعرفة والحرية وتمكين النساء، مازال جد خطير. بل ربما ازداد التحدي خطورة، خاصة في مضمار الحريات ، بسبب هذه التطورات

إذ بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ المأساوية، اتخذ عدد من الدول إجراءات وسياسات بالغة الصرامة في إطار ما سمى «الحرب على

الإرهاب» . إلا أن هذه السياسات أو الإجراءات تجاوزت هدفها الأصلى لتؤدى إلى تآكل الحريات المدنية والسياسية فى أقطار عديدة من العالم ، وبخاصة فى الولايات المتحدة وبعض بلدان أوروبا الغربية، مما انتقص على وجه الخصوص من رفاه العرب والمسلمين فيها ، وضيق من فرص اكتسابهم للمعرفة فيها ومنها .

ولعل أوخم العواقب لإجراءات التضييق على الحريات فى الدول المتقدمة أن السلطة فى بعض البلدان العربية وجدت مبررا آخر لسن قوانين جديدة حدّت من الحريات المدنية والسياسية، كما تبنت الدول العربية مجتمعة تعريفا موسعا للارهاب اتخذ تعبيرا مؤسسيا على الصعيد العربى فى «الميثاق العربى لمكافحة الارهاب». وقد تعرض هذا الميثاق للنقد فى دوائر حقوق الانسان العربية والدولية باعتبار أن مثل هذا التعريف الموسع يفتح الباب لإساءة الاستخدام ، من قبيل السماح بالرقابة ، وتقييد الوصول إلى الانترنت، وتقييد الطباعة والنشر ، إضافة لكونه لا يحرم ، صراحة ، الاحتجاز أو التعذيب. كما أنه لا يتيح سبلا للاعتراض على قانونية الاحتجاز، ولا يحترم الحرية الخاصة لأنه لا يشترط إذنا من القضاء لفرض التنصت على الأفراد والجماعات .

وأعادت إسرائيل احتلال الأراضى الفلسطينية مخلفة وراءها أهوالا من الخراب المادى والضحايا البشرية والمؤسسية، مرتكبة ما وصف بجرائم حتى فى رأى منظمات حقوقية غربية .

وقام تحالف قادته الولايات المتحدة وبريطانيا مع بعض من الشركاء بغزو العراق واحتلاله، مما وضع شعب العراق، والمنطقة، أمام تحد من نوع جديد لا يمكن الخروج منه إلا بتمكين الشعب العراقى من حقوقه الأساسية وفق الشرعية الدولية بالتحرر من الاحتلال واستعادة ثرواته إضافة إلى إقامة نظام حكم صالح يمثل جموع العراقيين تمثيلا سليما يسهر على إعادة بناء العراق فى منظور التنمية الانسانية

وفى مواجهة مخاطر إعادة تشكيل المنطقة العربية من الخارج، تطمح سلسلة «تقرير التنمية الإنسانية فى البلدان العربية» إلى حفز رؤية استراتيجية تبلورها النخب العربية، عبر عملية إبداع مجتمعى وطنية، تتوخى إعادة تشكيل المنطقة من الداخل خدمة للتقدم الإنسانى فيها. فلا جدال فى أن الإصلاح من الداخل، المتأسس على نقد رصين للذات ، هو البديل الصحيح لمواجهة هذه المخاطر . ■



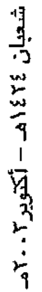
الموافقات

أول مؤلف في المكتبة الأصولية يفصل القول في المقاصد الشرعية للإمام الشاطبي

بقلم
د. محمد الدسوقي

يلاحظ من يستقرئ ذخائر المكتبة الإسلامية أن من بين هذه الذخائر مؤلفات انفردت من حيث موضوعها ومنهجها، فلم تسبق بما كتب فى قضاياها على النحو الذى عرضت له هذه المؤلفات من حيث الابتكار والعمق والشمول، ولم تظهر بعدها دراسات فى موضوعها أضافت جديدا إلى ما اشتملت عليه هذه المؤلفات من حقائق علمية.

وأهم المؤلفات التى انفردت فى موضوعها وفق منهج علمى متميز واحتلت من ثم مكانة مرموقة لا فى المكتبة الإسلامية فحسب، ولكن فى مكتبة الفكر الإنسانى بوجه عام، السير الكبير للإمام محمد بن الحسن الشيبانى (ت: ١٨٩هـ) والموافقات للإمام الشاطبى (ت: ٧٩٠هـ).



وقد عرفت فى عدد فبراير ٢٠٠٢ من الهلال بكتاب الإمام الشيبانى، واليوم أقدم هذه الدراسة المجملة عن كتاب الإمام الشاطبى.

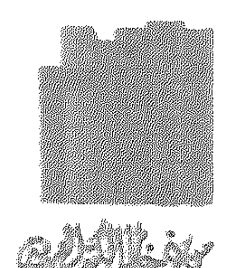
يعد أبو إسحاق ابراهيم بن موسى ابن محمد اللخمى الغرناطى الشهير بالشاطبى من أعلام الفكر الإسلامى الذين اتسم عطاؤهم العلمى بالموسوعية والجدة والابتكار، فهو أصولى فقيه محدث مفسر لغوى بيانى محقق، له القدم الراسخة فى كل هذه العلوم، ومن ثم كان إماما مجتهدا مطلقا، وكان إلى هذا ورعا صالحا زاهدا، حريصا على اتباع السنة، مجانبا للبدع والشبهة.

وقد عاش هذا الإمام فى القرن الثامن الهجرى، ولم يحدد المترجمون له سنة ولادته، وإن كان الراجح أنه ولد فى العقد الثانى من هذا القرن، لأن أسبق شيوخه وفاة، وهو أبو جعفر أحمد بن الزيات كانت وفاته سنة ٧٢٨هـ وهذا يومئ إلى أن التلميذ كان يافعا فى العام الذى مات فيه شيخه مما يرجح أن ولادته كانت كما ذكرت آنفا.

نشأ الشاطبى بغرناطة، وبها ترعرع، وظل مقيما فيها إلى وفاته، وأقبل منذ صباه على الدراسة، وأخذ العلوم عن كثير من أئمة عصره، وتعاطى علوم الوسائل وعلوم المقاصد دون أن يحصر اهتمامه فى نطاق علم معين لا يتجاوزه، وأهلته دراسته للقرآن الكريم والسنة النبوية أن يكتنه مقاصد الشريعة ويدرك أسرارها ثم أن يحسن التعبير عنها وبيانها والتأليف فيها.

جاء فى مقدمة كتابه «الاعتصام» ما يشهد للشاطبى بشغفه المبكر بأصناف العلوم، وحرصه على فهم مقاصد الإسلام التى أدرك كمالها وتحقيقها للسعادة الكبرى، قال: «وذلك أنى - ولله الحمد - لم أزل منذ فتق للفهم عقلى، ووجه شطر العلم طلبى أنظر فى عقلياته وشرعياته وأصوله وفروعه، لم أقتصر منه على علم دون علم، ولا أفردت عن أنواعه نوعا دون آخر حسبما اقتضاه الزمان والإمكان وأعطته المنَّة المخلوقة فى أصل فطرتى، بل خضت فى لججه خوض المحسن السباحة وأقدمت فى ميادينه إقدام الجرئ حتى كدت أتلف فى بعض أعماقه، أو انقطع فى رفقتى التى بالأنس بها تجاسرت على ما قدر لى، غائبا عن مقال القائل وعذل العاذل، ومعرضا عن صاد الصاد ولوم اللائم إلى أن من علىّ الرب الكريم، الرءوف الرحيم، فشرح لى من معانى الشريعة ما لم يكن فى حسابى، وألقى فى نفسى القاصرة أن كتاب الله وسنة نبيه لم يتركا فى سبيل الهداية لقائل ما يقول، ولا أبقيا لغيرهما مجالا يعتد به فيه وإن الدين قد كمل، والسعادة الكبرى فيما وضع والطلبة فيما شرع وماسوى ذلك فضلال وبهتان وإفك وخسران».

ألف الشاطبى مؤلفات نفيسة فى



الأصول والفقه والبدع والفتاوى والنحو، وبعض هذه المؤلفات يتركب من عدة أجزاء، وكان مع هذا أديبا شاعرا، وإن كان شعره أقرب إلى النظم منه إلى الشعر بمفهومه الاصطلاحى.

ومن مؤلفاته التى اشتهر بها «الموافقات» و«الاعتصام» فهذان الكتابان من كنوز التراث الإسلامى الثمين وبخاصة الموافقات الذى لم يؤلف مثله فى أصول الإسلام وحكمته كما قال صاحب تفسير المنار، وذلك أن الموافقات جاء منهجا فريدا فى الكتابة الأصولية لم يسبق به الشاطبى.

وتجدر الإشارة قبل الحديث عن منهج الشاطبى فى الموافقات إلى مناهج الأصوليين قبله.

إن علم الأصول تعددت تعريفاته، طوعا لاعتبارات مختلفة بيد أن كل التعريفات التى قال بها علماء الأصول قديما وحديثا على ما بينها من تفاوت تدور فى فلك أن هذا العلم هو: قواعد يتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية.

ويندرج تحت هذه القواعد ما يلى:

أولا: الأدلة الشرعية التى يستدل بها على الأحكام كالقرآن والسنة وطرق الاستنباط منها والاستدلال بها.

ثانيا: الأحكام الشرعية الكلية التى تستنبط من تلك الأدلة كالوجوب والحرمة، وما يتصل بذلك من بحوث تتعلق بهذه الأحكام.

ثالثا: الشروط التى يجب تحققها فيمن يستنبط هذه الأحكام من تلك الأدلة وهم المجتهدون.

فعلم الأصول تتناول مباحثه الأدلة الشرعية وطرق الاستنباط منها وبيان مراتب حجيتها، والأحكام الشرعية ومن يخاطب بها، ومن هو أهل للاجتهاد ومن ليس أهلا له.

تطور علم الأصول

وكل هذه المباحث ترسم للفقيه المنهاج الذى يتقيد به فى استخراج الأحكام من أدلتها، ولهذا كان علم الأصول ميزانا يضبط المجتهد فى آرائه ويتبين به الاستنباط الصحيح من الاستنباط الباطل.

وقد تطور علم الأصول فى نشأته منذ القرن الأول، وفى القرن الخامس تكامل نمو هذا العلم، واتضحت مباحثه، وظهرت فيه مؤلفات كثيرة، وتشعبت طرق العلماء ومناهجهم فيه، ولكن هذا التشعب لم يتجاوز الشكل إلى المضمون فقد ظل هذا العلم على الرغم من كثرة ما ألف فيه فى دائرة الركن الأول منه وهو علم اللسان العربى، دون الاهتمام بالركن الثانى وهو علم أسرار التشريع ومقاصده.

ووقف العلم منذ القرن الخامس عند حدود ما تكون منه فى مباحث الركن الأول، وما تجدد من الكتب بعد ذلك دائر بين تلخيص وشرح، ووضع له فى قوالب

مختلفة.

وهكذا بقى علم الأصول فاقدا قسما عظيما حتى كتب الشاطبى الموافقات، فتدارك بهذا الكتاب لأول مرة فى تاريخ هذا العلم هذا النقص، وأضاف إلى علم الأصول بما كتب بيانا إبداعيا فى مقاصد الشريعة.

وكتاب الموافقات يتكون من أربعة أجزاء فى الطبعة التى حققها الشيخ عبدالله دراز (ت: ١٣٥١هـ) رحمه الله التقى الشاطبى مع علماء الأصول بوجه عام فى الأجزاء الأول والثالث والرابع فى القضايا التى درسها، ولكنه فى الجزء الثانى انفرد بحديث لم يسبق به تناول فيه مقاصد التشريع بتفصيل وشمول.

وإذا كان الشاطبى قد خص الجزء الثانى بالحديث عن المقاصد، فإن هذا الحديث ليس مقصورا على ذلك الجزء، وإنما يرد الكلام عنه فى الأجزاء الأخرى وكان هذا الحديث لحمة الكتاب وسداه للربط بين كل القضايا، وليصبح الكتاب بكل أجزائه تعبيرا عن المقاصد الشرعية بأسلوب مباشر أو غير مباشر، وليكون بهذا أول كتاب تدور كل مباحثه حول مقاصد الشريعة، ومنهج استنباط الأحكام وفقا لهذه المقاصد.

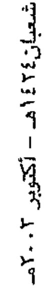
ويبدو أن الشاطبى خشى أن يرفض البعض ما ذهب إليه، أو أن يسارع فيحكم عليه بالابتداع، لأنه أتى بشئ لم يسمع بمثله، فقال فى خطبة الموافقات: «فإن عارضك فى هذا الكتاب عارض الإنكار وعمى عنك وجه الاختراع فيه والابتكار، وغر الظان أنه شئ ما سمع بمثله ولا ألف فى العلوم الشرعية الأصلية أو الفرعية ما نسج على منواله أو شكل بشكله، وحسبك من شر سماعه، ومن كل بدع فى الشريعة ابتداعه فلا تلتفت إلى الأشكال دون اختبار، ولا ترم بمظنة الفائدة على غير اعتبار، فإنه بحمد الله أمر قررته الآيات والأخبار، وشد معاقده السلف الأخيار، ورسم معالمه العلماء الأحبار، وشيد أركانه أنظار النظار، وإذا وضح السبيل لم يجب الإنكار، ووجب قبول ما حواه، والاعتبار بصحة ما أبداه والإقرار، حاشا ما يطرأ على البشر من الخطأ والزلل، ويطرق صحة أفكارهم من العلل، فالسعيد من عدت سقطاته، والعالم من قلت غلطاته».

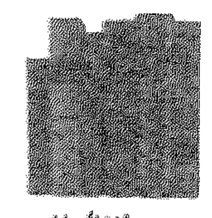
والشاطبى فى هذا النص يقرر أنه لم يبتدع، فما ذهب إليه قد قررته النصوص، وأطبقت عليه كلمة السلف، وأن النظر العلمى فى كتابه يقضى بصحة ما قال به، اللهم إلا إذا كانت هناك هنات أو هفوات لا يسلم منها بشر، ولعلها تكون قليلة أو معددة.

أقسام الكتاب

وكتاب الموافقات وإن طبع فى أربعة أجزاء قسمه المؤلف خمسة أقسام:

اشتمل الجزء الأول على قسمين، وخص كل جزء من الأجزاء الثلاثة بقسم





واحد ودرس الشاطبي في القسم الأول ثلاث عشرة مقدمة يرى ضرورتها العلمية تمهيدا للقضايا التي سيبحث فيها، وهذه المقدمات تحدثت عن قطعية علم أصول الفقه، وأدلة هذا العلم، وأنها ليست عقلية محضة، لأنها تستعمل مركبة على الأدلة السمعية، أو محققة لمناطها، وما يعد من أصول الفقه وما لا يعد منه وأن كل اجتهاد لا ينبني عليه عمل فالخوض فيه لا دليل عليه، وأن كل علم شرعي فطلب الشارع له إنما يكون حيث هو وسيلة إلى التعبد بالله تعالى، وأن العلم المعتبر شرعا هو العلم الباعث على العمل، وأن من العلم ما هو من صلبه ومنه ما هو من ملحه ومنه ما ليس من صلبه ولا من ملحه، وأنه إذا تعاضد النقل والعقل على المسائل الشرعية فعلى شرط أن يتقدم النقل فيكون متبوعا، وأن من انفع طرق العلم أخذه على أهله العاملين به، والذين رباهم الراسخون في العلم بالأخذ عنهم والاقتداء بهم.

وعرض القسم الثاني من الجزء الأول للأحكام الشرعية، وهي نوعان، أحدهما يرجع إلى خطاب التكليف، وتسمى بالأحكام التكليفية، والآخر يرجع إلى خطاب الوضع وتسمى بالأحكام الوضعية.

والحكم التكليفي هو ما اقتضى طلب فعل من المكلف أو كفه عن الفعل، أو تخييره بين الفعل والكف عنه.

وهذا الحكم ينقسم خمسة أقسام: الواجب وهو ما طلب الشارع فعله من المكلف طلبا حتما، كالأمر بالزكاة والصلاة ومن ثم يلزم الاتيان بالواجب ويثاب فاعله، ويعاقب تاركه، ويكفر من أنكره إذا ثبت بدليل قطعي.

والمندوب، هو ما طلب الشارع فعله من المكلف طلبا غير حتم ككل ما واظب عليه الرسول صلى الله عليه وسلم من الأمور الدينية، ولم يتركه إلا نادرا، أو الأمور التي فعلها مرة أو أكثر وتركها. والمندوب يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه، اللهم إلا إذا أصر على ترك جميع المندوبات.

والمحرم، وهو ما طلب الشارع الكف عن فعله على وجه الحتم والإلزام، كتحريم الميتة والخمر والزنا والربا، والمحرم يعاقب شرعا فاعله.

والمكروه، هو ما طلب الشارع من المكلف الكف عن فعله طلبا غير حتم كقيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال، والمكروه لا يستحق فاعله العقاب، وقد يستحق اللوم والعتاب.

والمباح، هو ما خير الشارع المكلف بين فعله وتركه كالأكل والشرب واللهو البرئ ولا ثواب ولا عقاب على فعل المباح أو تركه.

أما الحكم الوضعي فهو ما اقتضى وضع شئ سببا لشئ، أو شرطا له أو مانعا منه، وينقسم هذا الحكم خمسة

أقسام:

السبب، هو الأمر الظاهر المنضبط الذى جعله الشارع علامة على حكم شرعى هو مسببه كدخول الوقت لإيجاب الصلاة.

الشرط هو الأمر الذى يتوقف عليه وجود الحكم، ويلزم من عدمه عدم الحكم ولا يلزم من وجوده وجود الحكم، كالوضوء شرط لصحة إقامة الصلاة، ولا يلزم من وجود الوضوء إقامة الصلاة.

المانع. هو الأمر الشرعى الذى يلزم من وجوده عدم الحكم أو بطلان السبب، كما إذا وجدت الزوجية الصحيحة، ولكن منع ترتب الإرث عليها اختلاف الزوجين فى الدين.

الرخصة والعزيمة.. الرخصة هى ما شرعه الله تخفيفا على المكلف فى حالات خاصة تقتضى هذا التخفيف كإباحة المحظورات عند الضرورات مثل أكل الميتة وشرب الخمر.

والعزيمة هى ما شرعه الله أصالة من الأحكام العامة التى لا تختص بحال دون حال، ولا بمكلف دون مكلف فتشمل الناس جميعا.

الصحة والبطلان.. الصحة هى ما شرعه الله عز وجل من الأحكام التى تتعلق بالأفعال التى يقوم بها المكلف على الوجه الذى قررته الشريعة الإسلامية وتترتب عليه آثارها الشرعية.

أما البطلان فهو حكم شرعى يلحق بأفعال المكلفين إذا جاءوا بها على غير الوجه المشروع، ومن ثم لا تترتب عليها الآثار الشرعية التى تترتب على الفعل الصحيح.

تلك أقسام الحكم الشرعى بنوعيه، ولكل قسم منها تفريعات وتفصيلات، وقد شقق فيها الشاطبى والقول فى خمس وثلاثين مسألة، وفق منهج علمى سيرد الكلام عن أهم سماته فيما بعد.

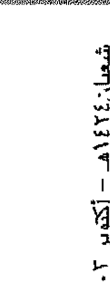
وعقد الشاطبى القسم الثالث من كتابه لدراسة المقاصد، وهذا القسم اشتمل عليه الجزء الثانى من الموافقات.

حفظ العالم

والمقاصد يراد بها ما تهدف إليه الشريعة من وراء أحكامها أو الغاية منها، فالله تبارك وتعالى لا يشرع لمجرد الرغبة فى التشريع، ولا يشرع عبثا، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، وإنما يشرع لمقاصد وغايات تهدف كلها إلى حفظ العالم بتحقيق المصالح وإبطال المفاسد، وكل مصلحة حثنا الشارع عليها، وكل مفسدة رد عنا عنها فإن ذلك لا يخلو من الرجوع إلى أحد أصول ثلاثة؛ أحدها: تهذيب النفس، وثانيها: إعلاء كلمة الحق، وثالثها: انتظام أمر الناس.

وقسم الشاطبى كتاب المقاصد قسمين: أحدهما يرجع إلى قصد الشارع، والآخر يرجع إلى قصد المكلف.

والقسم الأول الذى تحدث فيه عن قصد الشارع جعله أربعة أنواع: درس فى النوع الأول قصد الشارع فى وضع



الشريعة ابتداء، وذلك في ثلاث عشرة مسألة استهل المسألة الأولى بقوله: تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، وهذه المقاصد لا تعدو ثلاثة أقسام: أحدها أن تكون ضرورية، وهي التي لابد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، ومجموعها خمسة وهي:

حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل.

والثاني: أن تكون حاجية، وهي التي يفتقر إليها من حيث التوسعة ورفع الحرج والمشقة، كتيسير حاجات الناس بالإباحة بالبيع والصيد والتمتع بالطيبات، وتخفيف التكاليف عنهم بقصر الصلاة والفطر في رمضان للمسافر.

والثالث: أن تكون تحسينية، وهي الأخذ بما يليق من محاسن العادات وما تقتضيه المروءات، ويجمعه قسم مكارم الأخلاق.

والنوع الثاني تحدث فيه عن قصد الشارع في وضع الشريعة للإفهام من خلال خمس مسائل تناولت عربية الشريعة وبعض القضايا المتصلة بما أشار إليه القرآن من علوم.

أما النوع الثالث فدرس فيه قصد الشارع في وضع الشريعة للتكليف بمقتضاها، وذلك في اثنتي عشرة مسألة، وضحت أن القدرة شرط التكليف، وأن الشارع لا يقصد بالمكلف المشقة في المأمورات وكذلك في المنهيات وأن الشريعة في أحكامها لا تعرف الإفراط أو التفريط وما إلى ذلك.

وجاء النوع الرابع ليدرس قصد الشارع في دخول المكلف تحت أحكام الشريعة وذلك في عشرين مسألة، ورد في الأولى منها أن المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبدا لله اختيارا، كما هو عبد لله اضطرارا. ثم عرض في باقي المسائل لبطلان الأعمال بسبب الهوى، وأنواع المقاصد وأثرها في التكاليف، ومناقب الرسول صلى الله عليه وسلم، والعلاقة بين المعجزة والكرامة، والعوائد وأنواعها، وأن الطاعة أو المعصية تعظم بحسب عظم المصلحة أو المفسدة الناشئة عنها، والأصل في العبادات والعادات.

وفي القسم الثاني الذي عقده للكلام عن مقاصد المكلفين تحدث في اثنتي عشرة مسألة عن علاقة النية بالأعمال، وبين أن المقاصد معتبرة في التصرفات، ويجب موافقة قصد المكلف لقصد الشارع في العمل حتى يكون الفعل صحيحا. مقبولا، كما تعرض لفروع تطبيقية كثيرة مثل الحيل الفقهية.

جهد متميز للشاطبي

وفي خاتمة الموضوع تحدث عن الجهات التي يعرف بها مقاصد الشارع. إن كتاب المقاصد في الموافقات يمثل



الجهد العلمي المتميز للشاطبي في الحديث عن موضوع لم يسبق به كما خطه قلمه، ولا مجال لتفصيل القول في هذا الجهد، وما تحدثت عنه ليس إلا لمحات عامة، وأطمع أن تكون مفيدة. وتضمن القسم الرابع كتاب الأدلة الشرعية، واستوعب هذا القسم من الموافقات الجزء الثالث ونحو ثلث الجزء الرابع، وقسمه الشاطبي قسمين أطلق عليهما الطرف الأول، والطرف الثاني، ودرس في الطرف الأول الأحكام العامة للأدلة، وهي تمثل قواعد كلية مثل الظني إذا خالف قطعيا وجب رده، والأدلة الشرعية لا تنافي قضايا العقول وجعل الحكم تابعا للدليل عمل الراسخين في العلم، وقد درس هذه القواعد في أربع عشرة مسألة.

ثم تحدث في خمسة فصول عن عوارض الأدلة، فتناول في الفصل الأول الإحكام والتشابه، وفي الفصل الثاني الإحكام والنسخ وفي الفصل الثالث الأوامر والنواهي، والرابع العموم والخصوص، والخامس البيان والإجمال، وكل فصل من هذه الفصول قسم إلى مسائل، ويبلغ عددها في هذه الفصول الخمسة سبعا وأربعين مسألة.

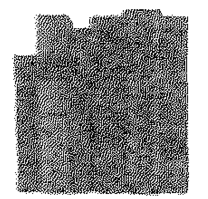
أما الطرف الثاني فدرس فيه الأدلة على وجه التفصيل وهذه الأدلة هي: الكتاب والسنة والإجماع والرأي، ولكنه اقتصر على النظر في الكتاب والسنة لأنهما الأصل لما سواهما.

تناول الكتاب في أربع عشرة مسألة درس فيها بعض القضايا المتعلقة بعلوم القرآن، مثل معرفة أسباب النزول، ومنهج القرآن، في تعريفه للأحكام، والمدني مبني على المكي وذم القول بالرأي في القرآن.

وفي الجزء الرابع من الموافقات تحدث الشاطبي عن الدليل الثاني وهو السنة، وذلك في عشر مسائل، عرضت لمفهوم السنة وإطلاقاتها المختلفة وعلاقتها بالقرآن الكريم، وأن الاقتصار على القرآن دون السنة رأي قوم لاخلاق لهم، وأن أحكامها مبنية على مراعاة المقاصد الثلاثة التي جاء بها القرآن، وهي الضروريات والحاجيات والتحسينات ومكملات كل منها، وأن السنة رسمت للمجتهدين طريق الاستنباط من القرآن، وأن سنة الصحابة كسنة الرسول صلى الله عليه وسلم يعمل بها ويرجع إليها، لثناء الله عليهم، وما جاء في الحديث من الأمر باتباعهم ومحبتهم.

ثم انتقل الشاطبي إلى القسم الخامس والأخير من الموافقات فدرس فيه موضوع الاجتهاد من خلال ثلاثة أطراف، شرح في الطرف الأول في أربع عشرة مسألة أنواع الاجتهاد، وشروط المجتهد، وأنه لا اختلاف في أصول الشريعة ولا فروعها، ومنهج الاجتهاد الانتقائي وأسباب الخلاف بين حملة الشريعة، والفرق بين الاجتهاد الخاص بالعلماء والاجتهاد العام لجميع المكلفين، والخطأ في الاجتهاد.

وفي الطرف الثاني حديث عن الفتوى



فى أربع مسائل بين فيها أن المفتى قائم مقام النبى صلى الله عليه وسلم، وأن الفتوى تكون بالقول والفعل والإقرار، وأن من خالف فعله قوله لم ينتفع بفتواه، وشروط المفتى الخليق بمنصب الفتيا.

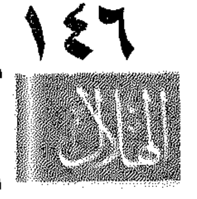
والحق الشاطبى بكتاب الاجتهاد لواحق أوردها فى نظرين، عرض فى النظر الأول للتعارض والترجيح فى ثلاث مسائل، فبين أنه لا تعارض فى الشريعة فى نفس الأمر، بل فى نظر المجتهد، وبسط القول فى منهج الترجيح فى حالة التعارض الظاهرى..

أما النظر الثانى وفيه ست مسائل. فقد عقده الشاطبى لأحكام السؤال والجواب فأشار إلى الحال التى يلزم فيها العالم أن يجيب المتعلم، وأن الإكثار من الأسئلة مذموم. ومتى يكره السؤال فى بعض المواضع، وأن الاعتراض على أهل العلم مذموم، وكذلك الاعتراض على ظواهر النصوص غير مسموع، وخص موضوع المناظرة بثلاث مسائل تحدث فيها عن ضوابط المناظرة العلمية..

ويتضح من هذا العرض العام لموضوعات الموافقات أن هذا الكتاب موسوعة أصولية بلغت صفحاتها نحو ألف وخمسمائة صفحة ولم تنفرد بحسب تفصيل القول فى المقاصد الشرعية، وإنما انفردت إلى هذا بمنهج علمى لم يسبق به الشاطبى، فالمقدمات التى صدر بها كتابه تعد دعائم ضرورية للبحث الأصولى، فضلا عما اشتملت عليه من توجيهات تربوية، والذين سبقوا مؤلف الموافقات لم يضعوا مثل هذه الدعائم أو الأسس الكلية.

المنهج الاستقرائى

وقد عول الشاطبى فى بحثه لكل المسائل التى تحدث عنها على المنهج الاستقرائى، وكذلك المنهج التحليلى، فكلمة الاستقراء ترد فى مواطن كثيرة فى الموافقات، ومنها مثلا ما جاء فى التدليل على أن الشريعة تحافظ على القواعد الثلاث: الضرورية والحاجية والتحسينية، قال: «ودليل ذلك استقراء الشريعة والنظر فى أدلتها الكلية والجزئية، وما انطوت عليه من هذه الأمور العامة على حد الاستقراء المعنوى الذى لا يثبت بدليل خاص، بل بأدلة منضاف بعضها إلى بعض، ومختلفة الأغراض، بحيث ينتظم من مجموعها أمر واحد تجتمع عليه تلك الأدلة، «الموافقات ج٢ص٥١» وإذا كان المنهج التحليلى يقصد به عزل عناصر الشئ الواحد بعضها عن بعض حتى يمكن إدراكه بوضوح فإن الشاطبى أخذ بهذا المنهج فى تقسيمه للموضوعات إلى فصول ومسائل؛ طوعا لترتيب منطقى، بحيث تسلم كل مسألة إلى التى تليها، وهو فى دراسته يحلل ويعلل ويدلل، ويثير أحيانا بعض النقد أو الاعتراضات ثم يرد عليها، ويلجأ غالبا إلى ضرب الأمثلة وذكر الشواهد



المختلفة للتوضيح.

وهذا التقسيم للفصول والمسائل ودراستها دراسة منطقية علمية يعبر عن وضوح الرؤية العلمية لكل ما كتب فيه هذا الأصولي المجدد.

والشاطبي إذا كان قد التقى مع علماء الأصول في كثير من القضايا فإن منهج التناول لديه فيها كان مختلفا عن منهج هؤلاء العلماء، فحديثه عن الأحاكم والقواعد اللغوية والأدلة الشرعية يتميز بنظرات أصولية لم يسبق بها، ولم يهتم بما اهتم به من كتبوا قبله، ولذلك أخذ على الأصوليين أنهم أدخلوا في علم الأصول ما ليس منه وأنهم افترضوا مسائل لا ثمرة لها في الفقه.

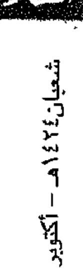
والشاطبي إلى هذا كان لا يكرر نفسه، ولا يلقي بالا لما لا جدوى منه، وما بسط غيره القول فيه لا يتحدث عنه فهو يقول: «ثبت في الأصول أن شرط التكليف أو سببه القدرة على المكلف به فما لا قدرة للمكلف عليه لا يصح التكليف به شرعا وإن جاز عقلا ولا معنى لبيان ذلك ههنا فإن الأصوليين قد تكفلوا بهذه الوظيفة ولكن نبني عليها» (الموافقات ج٢ص١٠٧).

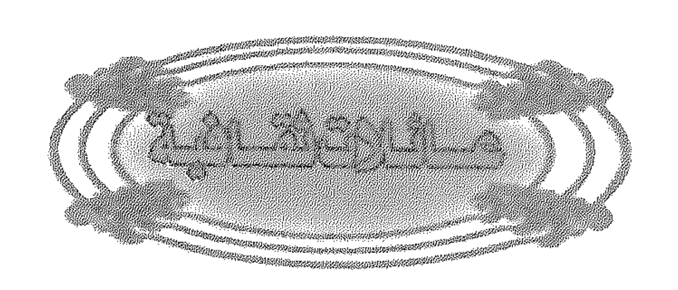
ويذهب بعض المعاصرين إلى أن كتاب الموافقات - وإن كان قد خلص أصول الفقه من الجدل اللفظي، ووجه النظر إلى المعاني والمقاصد - حافل بالاستطرادات، وذكر القاعدة أو الأصل في عدة أسطر، ثم يأخذ في فرض الاعتراضات والردود عليها مما أضفى على الكتاب روح الجدل..

ولعل الشاطبي أفاض في الاعتراضات والردود عليها لإدراكه أنه يقدم عملا علميا فريدا، وأن هذا العمل قد يقابل بالرفض له أو التحامل عليه فأراد أن يبطل كل ما يمكن أن يدور بخلد من ينظر إلى الموافقات نظرة تقليدية تضيق بالتجديد والتطوير.

وظل كتاب الموافقات في دائرة الظل أو الإهمال نحو أربعة قرون، وأول من فطن إلى أهميته علماء الزيتونة وطلابها، فقد كانوا يتدارسونه ويتداولونه، وقد ظهرت طبعته الأولى بتونس في سنة ١٣٠٢هـ - ١٨٨٤م ولماذا والإمام محمد عبده (ت:١٣٢٣هـ) تونس في نفس السنة التي طبع فيها الموافقات لأول مرة، عرف الكتاب عن طريق بعض علماء الزيتونة، ومن ثم نوه به ووجه الأنظار إليه.

وزبدة القول أن الموافقات عمل علمي متميز في المكتبة الأصولية فهو معالجة جديدة لأهم قضايا علم الأصول، ومحاولة لربط هذا العلم بمقاصد الشريعة، وهذا الكتاب على ما له من منزلة علمية فريدة لم ينتفع به الانتفاع الأمثل في الدراسات الأصولية المعاصرة، فهذه الدراسات صياغة جديدة لآراء غير جديدة، ولهذا كان التفاوت بينها في الشكل لا في المضمون، وفي التعبير والكم لا في التفكير والكيف. ■





أمي .. نوال السعداوى

لا شيء يبقى إلا كلمتي الحرة الحاملة أسمي !!

بقلم
د. منى حلمى



• أورثني عشق الكتابة، خصلات الشعر البيضاء قبل الأوان .. وحساسية – تربك ملامحى – ضد النظر فى المرآة. أورثنى الوجع، الممتع، للرحيل الدائم إلى آفاق التفرد، والمحال.

أورثنى عدم الإنسجام مع العالم،

ونهماً لايفقد عنفوانه، للبقاء جامحة، متوترة .. حرة، العقل والجسد والمصير.

أورثتني النفور من أوقات الفراغ، ومن خدمة الرجال. والجرى وراء المديح.

أن تستيقظ حواسى كل صباح، لتعاشر إمرأة، لاتغفل لحظة عن حقها فى الكلمة، ومساحتها فى الحركة. ودون ندم تدفع الثمن، فهذا شىء جميل يجعلنى محظوظة.

أتذكر حينما كنت طفلة صغيرة، وأمسكت بالقلم لأول مرة.

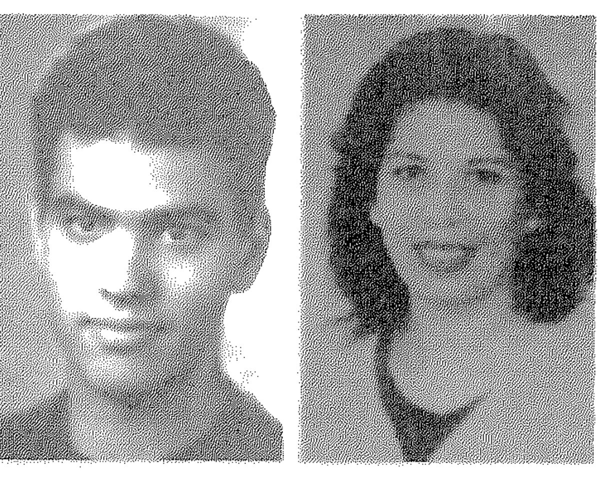
كانت سطورى الأولى، تعبيراً عن دهشتى من جو البيت الذى أسكنه.

فأنا أعيش فى بيت، يتكرر فيه منظر «شاذ» كل يوم، لا أراه فى أى أسرة حولى .. أرى أمى «تكتب».



د. نوال السعداوي

د. شريف حتاتة

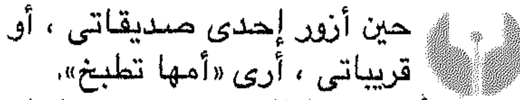


د. منى حلمى

عاطف حتاتة



صورة تذكارية تجمع د. نوال السعداوي و زوجها د. شريف حتاتة وسط مجموعة من أصدقائهما



حين أزور إحدى صديقاتى ، أو قريباتى ، أرى «أمها تطبخ».

لم أفهم هذا الشذوذ فى بيتنا، لم أفهم لماذا أمى «تكتب»، ولماذا أم صديقتى «تطبخ» شىء آخر غريب أثار دهشتى فى بيتنا .. ليس فى بيتنا «رجل»، أو «أب» مثل البيوت التى كنت أدخلها.

وبشكل ما، ارتبط عندى منذ وقت مبكر، وبصورة غير مكتملة الأبعاد، غياب الرجل أو الأب، بإمساك المرأة للقلم، بيت بلا رجل أو أب ، يعنى الكتابة ، أو إمرأة تكتب . بيت فيه رجل أو أب، يعنى الطبيخ، أو إمرأة تطبخ.

قضيت طفولتى مع «أم»، لم تقع فى غرام «المطبخ» .. ولكن فى غرام «القلم» .. لاتنتظر رجلاً أو زوجاً، يمنحها شرعية الاكتمال والوجود .. لم تهدينى فى أعياد ميلادى الفساتين، والعرائس والحلوى.

أهدتنى حجرة خاصة، وقصائد شعر، ووقتا كافياً لأن ألعب وأتساءل عن سبب «شذوذها» عن باقى الأمهات.

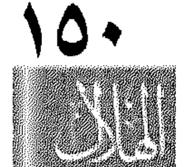
أكبر مع الوقت، لاكتشف أن أمى نوال السعداوى، ليست «شاذة» .. ولكنها طبيعية تماماً.

هى ببساطة .. امرأة عاشقة للكتابة .. تتضاءل كنوز الأرض والسماء بالنسبة إلى إبداعها الحر .. حياتها أثمن عندها من رجال العالم أجمعين.. تفتح بـ قلمها المستقل عن جميع السلطات، «الدمامل» التى تئن تحت جلد المجتمع العربى .. تعرى الكذب والفساد ، وإزدواجية المقاييس فى غرف النوم ، وتحت قبة البرلمان .. تفضح الخوف من الحرية .. تربط عضوياً بين القهر السياسى والقهر الجنسى .. لايعنيها اهتمام «النقاد» .. ونيل الجوائز والأوسمة والمناصب، «وبروزة» الإعلام الزائف لأنصاف الموهوبين، وأقزام الإبداع، شىء واحد، فقط يهمها، ويعنيها . فيها .. حياتها .. وفيه موتها . وأن تكتب «ماتؤمن به».

الأسرة الفكرية

تمت صداقتى بنوال السعداوى منذ طفولتى الأولى، هذا الانتماء إلى النوع نفسه، لا أعنى النوع الأنثوى الخانع للموروث منذ العبودية. ولكن النوع الإنسانى، الثائر القادر على التغيير والتحرير. والانتماء أيضاً إلى الأسرة نفسها. لا أعنى الأسر البيولوچيية التى تحمل إسم الأب، ولكن الأسرة الفكرية المتساوية فى الحق والتساؤل ذاته. هذه الصداقة تكاد تشبه نصل المشرط، يقطع عنف التاريخ الأبوى الطبقى، الذى يجعل الإبنة عدوة أمها، والمرأة كارهة للنساء مثيلاتها . تبدو نوال السعداوى امرأة جديدة يتم إكتشافها لحظة قراءتها . كاتبة تحمل قلمها وتمشى به، تشق به الطرق الوعرة. تحمل فى رأسها فكرة قديمة جداً، منذ الحضارة المصرية الأولى، حيث كانت معات هى آلهة العدل، وكانت إيزيس آلهة الحكمة والمعرفة، وأمهما نوت آلهة السماء، وجدتها البكر نون ربة السماء، والأرض قبل الانشقاق، فى قوتها الحيوية الاتحادية، وفى تدفقها مثل مياه نهر النيل الطبيعية، قبل أن يُسجن داخل مساحات من الأسفلت والحديد.

هى صديقتى التى تشبهنى ، وتفهمنى، وتساندنى. وهى أمى التى صنعت معادلة صعبة. فقد كنت طفلة مدللة جداً (ومازلت) ومع ذلك ، مسئولة جداً . بـ طلاقها من زوجين، أنقذتنى من التعرض لسلطة الأب الذكورية. ولهذا، أدين لها بالفضل. فقد تذوقت مبكراً، ثمرة الحرية .. أدمنت مذاقها، ولست على استعداد



للتخلي عنها.

إن لون بشرتها السمراء، المزيج من حمرة الطمي والشمس، ونظرتها للحياة، وإيمانها بالحرية، مع جمالها الطبيعي دون مساحيق، وأناقة أسلوبها الموجز الجاد المباشر، دون لف أو دوران، دون مراوغة أو موارية، وعشقها للحرية، كل ذلك يعطيها تفردها كإنسانة، وككاتبة مبدعة. وكأم مختلفة. أم قالت لي ك «اجعلي ذاتك وأحلامك، هي مثلك الأعلى. لا أنا أو شخص آخر. فالمثل الأعلى من ميراث العبودية».

كأنما قوة ما أوكلت إليها مسئولية تغيير العالم، أو تحريره، ليس النساء فقط، ليس الوطن فقط، لكن العالم كله المحكوم بالنظام الطبقي الأبوي، والذي يتجسد في مدينتها القاهرة، عاصمة أقدم دولة مركزية في العالم.

فيض أدبي

بحكم التاريخ تنتمي نوال السعداوي للجذور البعيدة الممدودة في الزمان والمكان، والتي توحد البشر داخل إنسانية الفن والإبداع والثورة. تهدم الحواجز المصنوعة بين الناس. حواجز الجنس واللغة والدين والجنسية والعرق والطبقة، والإثنية، لتصل إلى النبع الإنساني القديم العميق، المتجدد كل يوم مثل مياه النهر، الذي يمكن أن يفيض. هذا الفيض من انتاجها الأدبي المستمر عبر نصف قرن، يوصل أناشيد إزيس التي جمعت النور والظلام في بوتقة واحدة. بكتابات المعاصرات في القرن العشرين، من عائشة التيمورية وملك حفني ناصف ومي زيادة وفيرجينيا وولف وسيمون دي بوفوار وإزابيل أليندي وأماآتايدو وغيرهن الكثيرات. هنا يبرز السؤال الوارد دائماً عن الأسباب التي دعت إلى تجاهل كتابات النساء في بلادنا العربية، والكاتبات في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، بل وأيضاً النساء في أوروبا الغربية والشرقية.

نوال السعداوي من كاتبات اللغة العربية القليلات اللاتي يجمعن بين الفن والعلم، أو بين الأدب والطب. حينما أقرأ روايتها «امرأة عند نقطة الصفر»، أو امرأتان في امرأة، أو سقوط الإمام، أو براءة إبليس أو الأغنية الدائرية، أو الحب في زمن النفط، أو الغائب، أو سيرتها الذاتية، أحس كأنما أصعد فوق جبل من الأحاسيس. هذه الكاتبة الحرة مثل الجبل الوعر، من الصعب صعوده. كلما زادت حرية المرأة ارتفعت قامتها وقمتها. هذا العقل القادر على تجاوز الخيال المبتور الأنثوي والذكوري على حد سواء، أعني أن العقل والجسد لدى نوال السعداوي مادة واحدة للإبداع الأدبي، ومنهج يخضع للتحليل العلمي، إنها محاولة مفتوحة على الأفق للكشف عن المخبوء وراء المكبوت، هذه الكتابة غير القابلة للكتابة باللغة المألوفة، أو بالحجاب المسدل على العقل والجسد.

لهذا أصبحت التعرية ضرورية في الأدب كما في الطب، وأصبحت نوال الروائية المرأة والطبيبة الكاتبة التي تمسك بالقلم، كما تمسك بالمشرط، ربما يكون قلمها أكثر حدة من المشرط أو أكثر إيلاماً، لكنه ربما يكون أكثر قدرة على الشفاء.

إنها كاتبة تملك وسائل متعددة للتعبير، ولأن الفن والعلم ضروريان بالنسبة لها، فإن روايتها تخرج عن نطاق القانون الأدبي والقانون العلمي على حد سواء، ربما لهذا السبب يقول بعض نقاد الأدب إن أعمالها ليست أدبية، ويقول بعض العلماء إن أعمالها ليست علمية، فهي مدرسة جديدة في الفكر والتعبير،

تختلف عن غيرها وتحتاج إلى حركة نقدية جديدة قادرة على إلغاء الفواصل الموروثة.

دقة الواقع وفوضى الحلم

إن عالم نوال السعداوى سواء فى رواياتها أن سيرتها الذاتية أم بحوثها العلمية والإجتماعية. إنما هى بناء أدبى وعلمى شديد الدقة ومغرق فى الخيال أيضاً، لاتعارض بين دقة الواقع وفوضى الحلم. فهى تلعب دور الخالقة للأشياء الممزقة، المهترئة، مثل جدتها القديمة إيزيس التي جمعت أشلاء زوجها المقتول وأعادت إليه الحياة، إن كتابات نوال السعداوى تدعونا كى نعود إلى الأصل والجذور،، لا أعنى التقهقر إلى الماضى.

ولكن التقدم نحو الحاضر، نحو هنا والآن، فى هذا الزمان وهذا المكان، عبر جذور الألم واللذة. تكاد تشبه آلام الولادة ولذتها، حين ينبعث من رحم الأم مولود جديد ومختلف رغم التشابه.

يعتقد البعض، أن نوال السعداوى قهرت فى طفولتها وترسب لديها، منذ الصغر «عقدة» من الرجال .. لكنها فى الحقيقة، لم تقهر فى طفولتها .. على العكس كانت طفلة محظوظة. فأبوها كان رجلاً متحرراً، مفتوح الأفق، يحترم المرأة ويقدرها، لم يرفع صوته عليها، منحها ثقة كبيرة فى نفسها، وكانت تسمعه يردد «أرمى نوال فى النار ومخفش عليها»، ولأنه كان رجل دين، كانت تلجأ إليه كثيراً لمناقشة بعض الأمور الدينية. كان يستمع إلى رأيها ويناقشها مناقشة الصديق للصديق. وحين كانت لا تقتنع بما يفسره لها كان يقول : «لاتؤمنى بشىء لا يوافق عقلك». هكذا علمها أبوها الدين منذ صغرها. وكان مؤمناً بها إلى درجة تدهشها هى، وكان فخوراً بتفوقها فى الدراسة عن أخيها الذى يكبرها بعام.

تقول نوال : «أعتقد أن إيمان أبى بشخصيتى، وتربيته لى على ألا أخافه، وثقته فى عقلى، هى التى جعلتنى أواجه حياتى بشجاعة. عدم استعدادى لأن أخضع لأحد، سببه أننى لم أخضع لأبى، ولم أنشأ فى أسرة تحكمها سلطة الأب المطلقة، وبالتالى لا أرضى أن تحكمنى سلطة أخرى. كثيرون من الناس بسبب التربية القائمة على الخوف وتحكم الأب، يفقدون بذرة الإبداع فى فترة الطفولة».

العداء مع الرجال

وتقول فى تعليقها على أنّها معقدة من الرجال ، أو فى عداء مع الرجل .. «لست فى عداء مع الرجل أو مع أى شخص. أنا فى عداء، مع أفكار وأنظمة تمنح السلطة المطلقة للرجل فى الأسرة والدولة، وتعتبره الأعلى والوصى علىّ، بل والمالك للمرأة. أنا أكره وأعادى أى نظام يفرق بين البشر على أساس الجنس أو اللون أو الدين أو الطبقة أو الفكر . أنا لست فى عداء مع الرجل كإنسان، لكننى ضد الرجل كمطرقة حديدية تضرب إنسانية المرأة وإبداعها، فى رواياتى وكتاباتى. لم أكن أهدف إلى إدانة الرجل وتصوير المرأة على أنها الضحية. كان الهدف هو كشف الأسباب الحقيقية التى تشوه حياة الرجال والنساء معاً».

كتاباتى أولاً

تزوجت أمى ثلاث مرات .. المرة الثالثة والأخيرة من الكاتب والروائى والمناضل د. شريف حتاته .. طلقت أمى، زوجين (كما تقول) لأنها شعرت أن العلاقة ، ليست ندية وليست إنسانية، وسوف تعطل موهبتها وتعوق إبداعها ... لقد خيرها زوجها الثانى قائلاً : «أنا أو كتاباتك» .. بدون تردد ، ردت نوال «طبعاً .. كتاباتى» .. رفضت أمى الزواج ، كنظام اقتصادى

لشراء النساء .. هى ضد كل أنواع العلاقات الإنسانية التى لايتساوى فيها الأطراف .. كان زواج أمي بالدكتور شريف حتاته عام ١٩٦٤ لافتا للنظر، مثيراً للشائعات، فهو خارج من السجن السياسي. بعد ١٥ سنة إعتقال لفكره الإشتراكي، وهي كاتبة معروفة بجرأتها ضد المجتمع الطبقى ، الأبوى، وخارجة من تجربتي زواج وطلاق .. إستمر هذا الزواج ،، لأنه غير تقليدى .. لا تنبع حقوقه وواجباته من ورقة الزواج، ولكن من الحب الحقيقى والهدف المشترك لتغيير العالم إلى مكان أجمل وأعدل وأشجع ..

أعتقد أن أسرتي نوال السعداوى، شريف حتاته، وأخي المخرج السينمائي، عاطف حتاته، قد نجحنا في خلق أسرة عربية جديدة ، ثائرة ، مبدعة.

هذا يدحض الفكرة الشائعة ، الخاطئة ضد نوال السعداوى، أنها ضد الأسرة .. هى ليست ضد الأسرة، وليست ضد الزواج، أو الأمومة . لكنها ضد الإزدواجيات الأخلاقية، التى تقوم عليها الأسرة .. وضد الزواج الذى يحول المرأة إلى ملكية خاصة للرجل .. وضد الأمومة، التى تختزل كيان النساء وقدراتهن إلى مربيات، وتحبسهن داخل البيوت.

من أكثر الأشياء، التى تستهوينى فى فكر نوال السعداوى، هى غضبها من تجاهل واحتقار إسم الأم فى التاريخ، تتساءل كيف يختفى إسم أمها، التى حملتها فى أحشائها، ولدتها وأطعمتها وعلمتها. من طموحاتها الكبيرة، أن يأتى يوم، يحترم فيه اسم الأم، ونسب الأم. وأن يحمل الطفل أو الطفلة، اسم أبيه واسم أمه معاً .. أليس هذا هو أبسط الوفاء، للأم التى نغرقها بأغنيات الحب والهدايا، ولكنها متوارية فى التاريخ؟

كانت حياة أمى، نوال السعداوى، ولا تزال ، سلسلة متواصلة من المعارك الشائكة، التى عايشتها فى مراحل عمرى المتعاقبة . اتهمت من جميع التيارات، يمين ويسار ووسط، وبكل الاتهامات التى يمكن أن تلصق بـ كاتبة. قالوا إنها تدعو إلى الإباحية الجنسية، مع أنها تكتب لـ «أنسنة الجنس» وربطه بالحب الإنسانى .. قالوا إنها ضد الطبيعة والأنوثة لأنها ترفض أنوثة الجوارى، وأنوثة مساحيق التجميل. قالوا إنها ضد الإسلام، لأنها ترفض قيام الدولة الدينية المؤسسة على أى دين، وضد تسييس الأديان، وضد تفسير الدين ليكون مطرقة حديدية تضرب حقوق النساء والرجال. قالوا إنها تحرض الفتيات على الفساد، لأنها تفضح فساد الأخلاق المزدوجة ، ولأنها تكتب ضد أن تكون العذرية، هى مقياس الشرف للفتاة أو المرأة، وضد فرض الكبت على النساء، وإباحة الاستستهار الجنسى للرجال. قالوا أنها ، متطرفة الأفكار، عدوانية ، لأنها لاتساوم على كلمتها الحرة، ولا تعقد المهادنات، والتنازلات، وليست داخل عباءة أى نظام سياسى، أو مؤسسة صحفية، وليست منتمية لأى حزب سياسى أو شلة نقاد.

قالوا عن شهرتها الواسعة فى العالم، وبعد ترجمة معظم أعمالها الأدبية إلى ٣٠ لغة «شرقاً»، «غرباً» أنها تكتب، للغرب.

لقد عبر أحد الكتاب الأدباء المصريين عن شهرة نوال السعداوى فى الخارج بأنها ظاهرة مريبة، إن الأدباء عندنا، لايستطيعون فهم، كيف يمكن لـ نوال السعداوى، وهى الكاتبة التى فرض عليها التعتيم، والتجاهل فى وطنها، ولم يكن لها، فى أى عهد ، عمود ثابت فى أى مجلة، أو صحيفة ، سواء يمين، أو وسط، أو يسار، كيف يمكن لـ نوال السعداوى ، التى

يحظر اسمها من التداول، وتحجب أعمالها عن موائد النقاش الأدبى، ولا تتحدث فى الإذاعة، ولا تظهر فى التليفزيون، وليس لها «شلل» أو «اتصالات»، كيف يمكن لـ نوال السعداوى، التى لم تصفق لأى نظام سياسى، ولم تدخل أى حزب، ولم تعقد صفقات توفيقية بينها، وبين السلطة، كيف يمكن لـ نوال السعداوى، أن تحافظ على حريتها واستقلالها دون أن يسندها نظام، أو مؤسسة صحفية، كيف يمكن لها ، أن تكتب، وتبدع، ويصل صوتها إلى خارج بلده، ولهم حق فى السؤال.

فالنجاح، والشهرة، فى المجتمعات الطبقية الأبوية، أمران غير ممكنين، إلا من تحت عباءة السلطات المهنية، سواء كانت سياسية، أو ثقافية، أو إعلامية، أو دينية.

لقد وقع الكتاب والنقاد الذكور العرب، فى مأزق، كان عليهم ، أن يخرجوا منه. فهم مواجهون بشهرة امرأة، فى الخارج، ويسمعون كل حين، وآخر، عن ترجمة إحدى رواياتها فى الشرق والغرب، وأنها تنال أرفع الجوائز الأدبية العالمية، أحدثها نوبل كتالونيا، ٢٠٠٣ بأسبانيا. فهى الكاتبة، التى أعلنوا الحرب عليها، فى وطنها، وفرضوا الحصار على صوتها، وقلمها، وهى ليست منتمية لأحد منهم. كان رد الفعل الطبيعى، هو خلق فكرة أنها - أى نوال السعداوى - مشهورة فى الخارج، أكثر منهم ، ليس لأنها كاتبة مبدعة، أصيلة، ولكن لأنها، تعزف على الأوتار التى تطرب لها دور النشر الغربية، وأن كتاباتها، تستجيب لما يريده الغرب ذو النوايا المغرضة. لقد تجرأ البعض، وقال أن روايات نوال السعداوى، ليست «أدبا» من الأساس. وأنها مجرد «مقالات» إجتماعية، ثائرة على أوضاع المرأة.

وكان أول عمل يترجم، فى أوائل الثمانينات، ترجمة زوجها الروائى د. شريف حتاته، أى بعد عشرين عاماً، من بدء مشوارها، وأنها دائمة النقد للغرب الاستعمارى المتحالف مع الهيمنة الأمريكية والمصالح الإسرائيلية. والجهات التى تترجم أعمالها ، جهات مستقلة عن الحكومات وشديدة النقد لسياسات حكامها. كما أن الفصل التعسفى بين الشرق والغرب، ليس صحيحا. نحن نعيش حضارة واحدة. التيار الرجعى فى كل مكان. والتيار المتقدم فى كل مكان.

إن أصحاب هذه الحرب، لم يقرأوا شيئاً من أدب نوال السعداوى، الذى أثمر عن أربعين رواية وقصة قصيرة. ولم يكلفوا أنفسهم عناء التعرف، على مادة هجومهم. ولماذا يبذلون كل هذا الجهد؟ هى امرأة. وفى المجتمعات الذكورية، «يستخسر» الرجال، الكتاب، والنقاد، (وأيضاً النساء بالمناسبة) قضاء الوقت، للتعرف على أعمال كاتبة . خاصة، إذا كانت كاتبة، ترفض الانحناء، وإذا كانت، كتاباتها، لا ترضى أذواقهم، ومزاجهم الأكاديمى، التقليدى.

هم يعتبرون هذا ، مضيعة للوقت الثمين، الموجه إلى أهداف «عظمى»، أهم، وأرقى . ثم ما غاية التعرف على كتابات نوال السعداوى ؟ فهى خارج أى سلطة فى بلادها، وبالتالى ، لا يوجد فى الأفق، ما يجعل لهذا التعرف ، فائدة عملية لهم.

كما أن هناك الاحتمال ، أن كتاباتها تستحق ، بل وتتفوق ما يكتبه الرجال ، والنساء الواقعات فى زمرتهم، وشلتهم . وهذا أكبر من قدرتهم على التحمل. وليسوا على استعداد، لتقبله ، أو فهمه ،



أو مواجهته، أو التعايش معه، أو حتى الاعتذار عنه.

اننى أندهش ، حين يختفى اسم نوال السعداوى، من قائمة الكاتبات، حين تقام ندوة أدبية فى مصر . أو حين يذكر رواد ، ورائدات التنوير ، فى حياتنا الثقافية ، بينما تذكر أسماء أقل قامة ؟ أو حين تقام مؤتمرات الفكر والإبداع، والثقافة، والمرأة، ولا تدع إليها؟

أندهش، حين أرسل للجرائد، والمجلات، خبراً عن ترجمة رواية لها، أو حصولها على جائزة أدبية، أو اختيارها إحدى الشخصيات العالمية للقرن ٢١، ولا ينشر.

كيف يتحدثون عن «التنوير»، وهم يمارسون «التعتيم» على جهد كاتبة ؟! كيف يتشدقون، بـ بالنزاهة الصحفية، وانجازات نوال السعداوى، تخفى، أو تشوه، أو تبتر؟!

كلما قرأت رواية جديدة ، لأمى نوال السعداوى، يدهشنى الطزاجة والتوهج، والجرأة المطلة من بين السطور .. والسبب، ليس فقط أنها تمس فى كتاباتها تناقضاتنا الصارخة، ولكن لأنها كاتبة تعيش ما تكتب، وتكتب ماتعيش .. إن حياتها، هى أجمل وأروع، وأبدع مؤلف كتبته. إن التحام الفن والفكر بالحياة العامة، هو ما يعطى كتابات نوال السعداوى، نكهتها الفريدة ، المفعمة بجرأة العقل والقلب، والجسد، دونما انفصال .. هى «متورطة فيما تكتبه ، تورطاً، حياتيا، عضوياً. كأنما هى تكتب بـ «دمها» وليس بحبر القلم.

ولذلك فهى حينما تتحمس وتدافع عن آرائها ، لا تحمى «إبداعها» أو «فكرها»، وإنما كل حياتها، فى وحدة غير قابلة للتجزئة.

وهذا هو شرط أن تؤثر الكتابة فى القراءة ، وأن يكون لها صدى فى المستقبل، فالكتابة التى عجزت عن تغيير كاتبها ، والتأثير فى حياته، تعجز عن تغيير الآخرين، والتأثير فى حياتهم.

الأفكار عند نوال السعداوى، حيوات تعاش. الفكرة، كائن حى صعب المراس، لايمنح أسراره الثرية، إلا بـ عناق، دائم ، متجدد.

نوال السعداوى ، كامرأة، كإنسانة، وكأديبة مبدعة، رفضت القهر على المستوى الشخصى، والعام. وما تاريخها إلا صراع لا يهدأ، لفك سلاسل القيود فى جميع أشكالها.

لكنها تقول دوما كلمتها ، وتكتب، لأنها تؤمن بـ «أنه من الصعب أن يتحرر الإنسان، فى عالم لاتزدهر فيه من حوله حريات الآخرين».

تقول نوال السعداوى أمى:

«أكتب لأن هذا العالم لايرضينى، ويغضبنى. فالكتابة أخلق عالماً بديلاً أكثر صدقاً، وعدلاً وحرية، أكتب حتى لا أصل إلى اليأس الكامل. أكتب لإدراكى أن كل شىء يزول، وأن لاشىء يبقى إلا كلمتى التى أضعها فوق الورق وتحمل اسمى إننى أتمسك بقلمى الحر، وأزهد فى كل شىء آخر. فهو الشىء الوحيد الذى لا يمكن لأحد أن يأخذه منى، أو يعطيه لى. وأكتب لأن الكتابة هى الهواء الذى يدخل إلى صدرى، فيبقينى على قيد الحياة. أكتب لأن الكتابة هى لذتى الكبرى ومتعتى القصوى». ■



(لاس مينيناس) - ڤيلاسكيز ١٦٥٦

تنويعات فنية

فى حدائق متحف البرادو

بقلم
د. صبرى منصور

ينتاب المرء وهو يصطف فى طابور طويل للحصول على تذكرة دخول لمتحف البرادو «بمدريد» - فى يوم حار من أيام أغسطس الماضى - شعور يفتقده فى بلادنا ، وهو الشعور بالأهمية والتقدير والقيمة الرفيعة للفنون الجميلة ، بينما يمنحها الأوربيون أهمية قصوى فى تكوينهم الثقافى والروحى . وحين تلمح الناس من جميع الأعمار والهيئات وقد عكست وجوههم أشواق اللقاء الوشيك بالأعمال الفنية الكبرى فى صورتها الأصلية ، يتأكد المرء أن هناك درجة من الارتقاء قد بلغها هؤلاء الناس ، ويتساءل بحسرة يا ترى فى أى زمان يصل فيه المصريون إلى مثل هذه الدرجة ؟

أما حين تدلف إلى داخل المتحف ، وتلمس مدى الدقة فى التنظيم وروعة العرض ، وتشاهد ضخامة المبنى وفخامته ، فهو مكون من ثلاثة أدوار ويضم عشرات الصالات ، وحين تلتقى عيناك بلوحات عباقرة الفن الأفذاذ خلال فترة عصر النهضة وما بعده بقليل ، فإن شعوراً بالفخر ينتابك من قدرة الإنسان حين يحسن استغلال الإمكانيات اللانهائية التى أودعها الله فيه ، ويصل بها إلى ما يشبه المعجزات التى يندر تكرارها على مر الأزمان .

إنشاء المتحف

ومتحف البرادو (ويعنى متحف المرج أو متحف الحدائق الغناء) قد أقيم فى مدخل أكبر منطقة حدائق فى مدريد ، وهى حدائق «الريتيرو» (وتعنى الخلوة) .

وهو يعد واحداً من أضخم المتاحف العالمية ، ومجموعته الفنية تضارع فى ثرائها وتنوعها المتاحف العالمية الأخرى مثل «اللوفر» فى «باريس» ، و «الأرميتاج» فى «موسكو» ، و «الناشونال جاليرى» فى «لندن» ، و «المتروبوليتان» فى «نيويورك» .

ولقد كانت «إيزابيل برجانزو» زوجة «فرناندو السادس» هى صاحبة فكرة أنشاء المتحف ، وقد توفيت قبل افتتاحه عام ١٨١٩ وكان يطلق عليه المتحف الملكى للتصوير والنحت ، وكان الملوك الإسبان خاصة «كارلوس الخامس» و «فيليب الثانى» ، و «فيليب الرابع» من كبار المقتنين للأعمال الفنية ، واعتمد المتحف فى بدايته على المقتنيات الملكية من أعمال تنتمى إلى القرن السادس عشر وحتى بدايات القرن التاسع عشر . وضم المتحف فيما بعد أعمالاً عديدة فى النحت والتصوير تنتمى إلى القرن الحادى عشر وماتلاه ، وبالطبع فإن المتحف يحتوى على أكثر المجموعات الفنية اكتمالاً وتمثيلاً للتصوير الإسبانى منذ القرن الحادى عشر وحتى القرن الثامن عشر ، وكذلك يحتوى المتحف على نماذج وفيرة من اللوحات التى تعود إلى القرن السابع عشر الذى يعد قرناً ذهبياً للفنون والآداب فى أوربا .

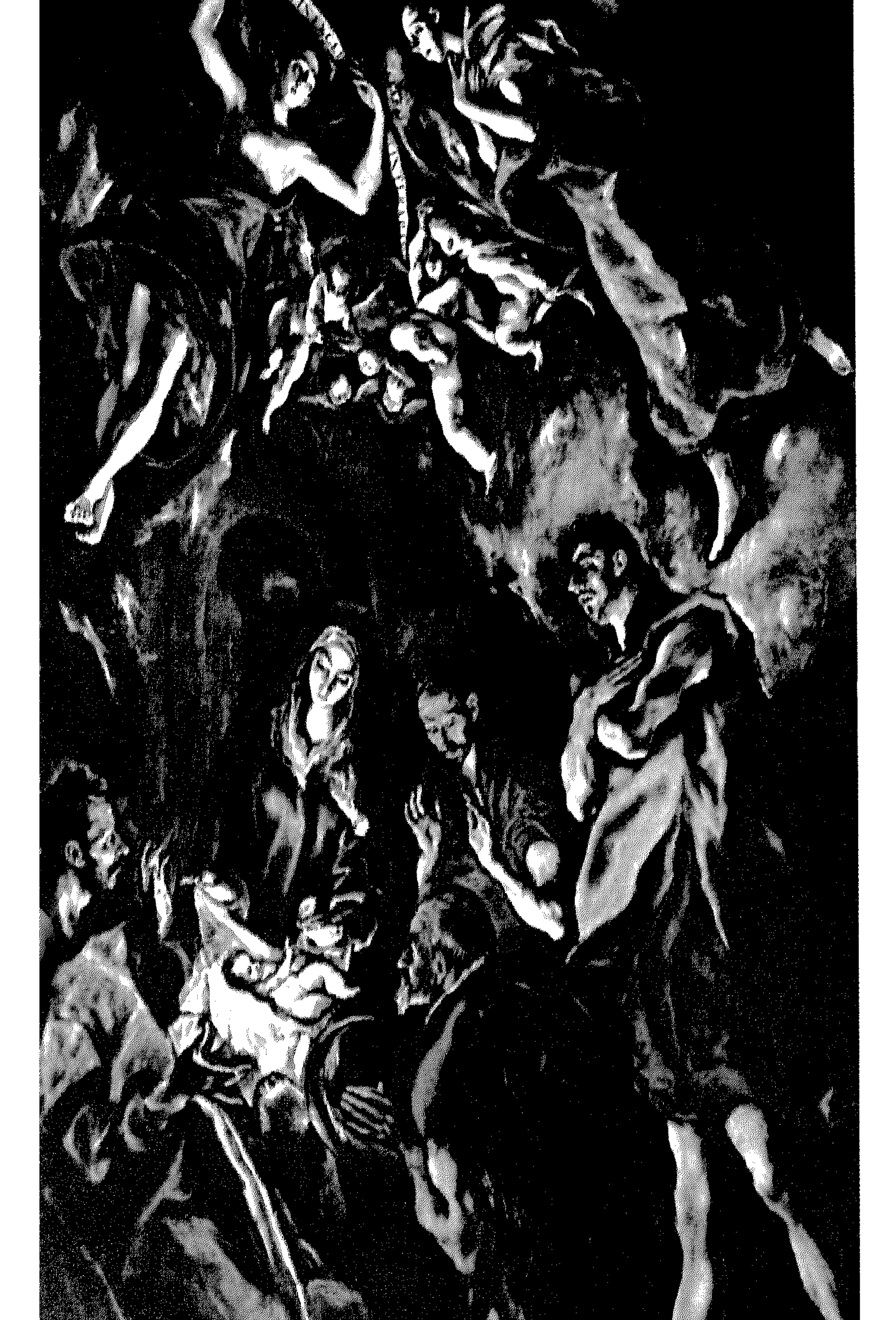
مجموعة الفن الإسبانى

ويزهو متحف «البرادو» بامتلاكه أعمال ثلاثة من المصورين العظام ، وتحتل لوحاتهم العديدة قاعات كاملة ، لتكشف عن تطور أساليبهم الفنية منذ البدايات الأولى وحتى مراحل النضج الفنى الكامل . والثلاثة هم «ڤيلاسكيند» و «جويا» و «إلجريكو» .

«دييجو ڤيلاسكيند» ولد عام ١٥٩٩ بمدينة سيڤيا (إشبيلية إبان الوجود العربى) ثم انتقل إلى «مدريد» عام ١٦٢٢ .

حيث تم تعيينه مصوراً فى بلاط الملك «فيليب الرابع» ، وظل كذلك حتى وفاته عام ١٦٦٠ . ويعتبره الإسبان أستاذ الأساتذة ، ولذلك فإن المتحف يعرض أعماله فى الموقع الشرفى بأسلوب يليق بعظمتها وروعتها ، ومن بين أكثر من مائة لوحة رسمها الفنان فإن المتحف يمتلك من بينها واحداً وخمسين لوحة . ومن أهمها بالطبع لوحته الشهيرة الضخمة «لاس مينيناس» وهى علامة على أسلوبه الفنى الرصين ، وقد استعرض فيها امكانياته فى التصميم المحبوك . واللون الغنى ، وعلاقات الضوء والظل ، كما جعل فيها من الهواء والجو المحيط البطل الرئيسى لتكوينه ، وقد أجرى الفنان الإسبانى الشهير «بابلو بيكاسو» تنويعات عديدة على هذه اللوحة ، كاشفاً عن القدرات الفنية الفريدة التى تحتوى عليها .

«عبادة الرعاة» – الجريكو ١٦١٢



كما تعرض لوحاته المتميزة «الرماح» و «استسلام بريدا» و «المسيح المصلوب» وكلها أعمال ذات قيمة فنية عالية ، توضح مراحله المختلفة ، والموضوعات المتنوعة التى تناولها وتراوحت ما بين صور شخصية ، وصور دينية أو أسطورية أو تاريخية . كما تعرض مجموعة لوحاته التى صور فيها العديد من شخصيات الأقزام والتى تعد من لوحاته المتميزة ذات القيمة الفنية العالية ، فقد امتزجت فيها معالم الواقعية بالملامح التعبيرية ذات المغزى الإنسانى العميق .

«فرانسيسكو جويا» ولد عام ١٧٤٦ وتوفى عام ١٨٢٨ ، وهو عبقرى من عباقرة التصوير على مر العصور ، وحالة فريدة لم تتكرر كثيراً فى تاريخ الفن لنقلاته العنيفة فى أسلوبه الفنى الذى كانت بداياته الفنية مرحة مبهجة حين كان يصور الأعياد الشعبية الاسبانية والمناسبات الاحتفالية فى «مدريد» ، مثل لوحتيه «الشمسية» و «الربيع» ، وفى نهاية حياته الفنية جسد عالماً من الفانتازيا والأحلام الكابوسية ، أو ما يطلق عليه المرحلة والسوداء .

و «جويا» الذى كان مصوراً فى بلاط الملك «كارلوس الرابع» ، لم يكن مجرد فنان بلاط عادى ، وإنما كان فناناً مثقفاً واعيا ، تعتمل نفسه بشتى الأحاسيس ، وأعمق المشاعر ، كما كان شاهداً مخلصاً على الفترة التاريخية الدقيقة من التاريخ الإسبانى التى عاصرها وعاشها متفاعلاً مع أحداثها وقد أسفرت قدراته وإمكانياته الفنية الخلاقة عن أسلوب فنى خاص كان له السبق فى الدخول إلى عوالم جديدة ، كما كان له التأثير الواضح على التطورات الفنية التى حدثت فى القرنين التاسع عشر والعشرين .

وقد انفرد أسلوب «جويا» الفنى بالقدرة على تجسيد النواحى السيكولوچية للشخصيات التى صورها ، مسجلاً نفوره منها أو تعاطفه نحوها ، مثلما يتضح فى لوحته الضخمة «لعائلة كارلوس الرابع» أو لوحة «عائلة دوق أوسونا مع الأبناء» ففى كلتا اللوحتين يتضح التعاطف الشديد الذى أولاه «جويا» للأطفال دون آبائهم .

وتظل لوحتاه التى أطلق عليها «الحسناء» سواء التى صورها عارية أو تلك التى صورها مرتدية ملابسها من أشهر لوحات جويا ، ولم يتضح حتى اليوم غموض شخصية الموديل المرسومة . أما لوحتيه «الثانى من مايو ١٨٠٨ فى «مدريد» : الصراع بين المماليك» و «الثالث من مايو ١٨٠٨ فى «مدريد» : الإعدام رميا بالرصاص فى جبل الأمير بيو» فإنهما تحددان فى علامة مهمة فى إبداع «جويا» لما احتوتا عليه من درامية انسانية مؤثرة .

«إلجريكو» (١٥٤١ - ١٦١٤) واسمه الأصلى «دومينيكوس ثيوتوكوبولوس» أما إلجريكو فإنه يعنى باللغة الإسبانية «اليونانى» فقد كان مولوداً فى «كريت»

تفصيلية من لوحة « حديقة اللذات» - بوش ١٥٠٥



وهاجر إلى «اسبانيا» فى سن الخامسة والثلاثين بعد فترة قضاها فى إيطاليا فى ذروة عصر النهضة ، وقد استقر فى مدينة «توليدو» (وكانت خلال الحكم العربى تدعى طليطلة) التى كانت فى تلك الفترة العاصمة السياسية لأسبانيا وأيضاً عاصمة النخبة من المثقفين . وقد حمل إلجريكو معه تقاليد الفن البيزنطى وأحسن دمجها بالرؤية الجديدة التى هلت على أوربا فى عصر النهضة ، فأبدع نموذجاً غريباً هو الفريد من نوعه فى تاريخ الفن العالمى ، ويعكس الأسلوب الشخصى للفنان الذى تميز بالتطويل الزائد للأشخاص مع اختصار للخلفيات التى تكاد تبدو مسطحة ، ولوحاته مليئة بالتناقضات الضوئية الشديدة . وفى المجموعة الكبيرة المعروضة من أعماله يمكن ملاحظة تأثيرات مايكل أنجلو فى لوحة «الثالوث» التى أنجزها فى بداية حياته الفنية ، بينما يتضح النضوج الفنى والأسلوب المميز لإلجريكو فى لوحته الشهيرة «عبادة الرعاة» . ومن بين الصور الشخصية التى رسمها لأصدقائه ونجوم مجتمع توليدو لوحته المعبرة «رجل ويده على صدره» ، وعامة فإن مجمل ابداع إلجريكو يعكس روحاً نبيلة سامية ، ويشى بعالم صوفى قدسى تساهم جميع العناصر الفنية فى تجسيده والإيحاء به .

ومن بين كبار مصورى القرن الذهبى يحتفظ متحف «البرادو» بأعمال لكل من المصورين الإسبان أمثال «ريبالتا» و «ريبيرا» ، «زورباران» و «موريللو» .

التصوير الفلمنكى

وهناك عدد كبير من المصورين الفلمنك ، أمثال ڤان درڤايدن» من كبار فنانى القرن الخامس عشر ، ولكن أهمهم على الإطلاق هو المصور «هيرونيموس بوش» (١٤٥٠ - ١٥١٦) - وهم أسم اخترعه لنفسه - ومن بين لوحاته المعروضة لوحة «الرحمة» و «العذراء والطفل» و «حديقة اللذات» وهى لوحة من أمهات الفن العالمى وقد رسمها الفنان فى ثلاثة أجزاء وخلق فيها عالماً خيالياً يمتلئ بجميع الأفكار والأشكال ، ويتسم بالجرأة فى التعبير والتجديد والابتكار فى العلاقات بين العناصر ، وتتوج هذه اللوحة الأسلوب الفنى لبوش وتجعله أول سيريالى فى التصوير الغربى دون منازع .

وتسترعى الانتباه بشدة لوحة المصور بروجل الكبير» انتصار الموت» لما احتوت عليه من نضج فنى تفصح عنه تلك الحلول التشكيلية المميزة لموضوع قاتم يصعب الاقتراب منه والتعبير عنه .

وتعد لوحة المصور روبنز «الجميلات الثلاثة» من أروع أعمال الفنان الذى يعتبر فنه مثلا نموذجياً لفن القرن السابع عشر .

كما أن هناك مجموعة متميزة للمصور ڤان دايك تمثل عناصر من الطبيعة الصامته والزهور والمناظر الطبيعية .

المجموعة الإيطالية



صورة شخصية للفنان دورر ١٤٩٨

ويضم «البرادو» مجموعة أعمال لفنانى ما قبل عصر النهضة الإيطالية أمثال «فرا انجيليكو» و «بوتتشللى» و «ميسينا» و «فونتانيا» ، ومن لوحات عباقرة النهضة لوحة رافاييل «صورة شخصية لكاردينال» ولوحة «العائلة المقدسة» ويضم المتحف كذلك لوحات لكل من أندريا دل سارتو وكوريچيو ،

وتلمح أعمال المصور تيتسيانو ومدرسة ڤينسيا التي تعد مجموعتها المعروضة في المتحف من أثمن المجموعات المعروضة معاً في أي متحف عالمي . وتصعب المقارنة بين أعمال تيتسيانو الكبرى مثل لوحات «كارلوس الخامس في معركة موهلبرج» و «ايزابيل امبراطورة البرتغال» و «قربان ڤينوس» و «ڤينوس وأدونيس» وبين أعمال المصور تينتوريتو مثل لوحته «الحمام» وكذلك بين أعمال ڤيرونيز مثل لوحته «نجاه موسى من مياه النيل» وكذلك بين أعمال چيورچيونى مثل حلم سالومون وأيضا تيبولو فى لوحته «الحمل الطاهر» .

نماذج أوربية أخرى

وهناك أيضا مجموعة تمثل التصوير الفرنسى ، من بينها أعمال لكل من المصورين بوسان ، وواتو ، ودى لاتور .

وتأتى على رأس الأعمال الفنية الهولندية لوحة رامبرانت ، إلى جانب أعمال فنية أخرى تتضح فيها المعالم التى تميز الفن الهولندى عن الفن الفلمنكى منذ نهايات القرن السادس عشر .

ومن اللوحات التى تمثل الفن الألمانى توجد بالمتحف لوحة «صورة شخصية» التى رسمها لنفسه المصور والحفار الشهير دورر ، وهى لوحة متميزة تجدها دائماً فى قواميس الفن وكتب تاريخ الفن نموذجاً على الفن الألمانى في وقته وصرامة تعبيره كما توجد أيضاً مجموعة صور شخصية للمصور مينجز الذى كان مصوراً فى بلاط الملك كارلوس الثالث ، وكان أول من اقترح على الملك إقامة متحف فنى مفتوح للجمهور .

ويمثل الفن الانجليزى فى البرادو مجموعة ممتازة من أعمال تنتمى للقرن السابع عشر والتاسع عشر ، لفنانين من أمثال رينولدز ورومنى ولورنس .

أما عن المجموعة النحتية فى متحف البرادو فهناك حوالى سبعمائة تمثال بدئ فى تجميعها منذ عهد الملك فيليب الثانى ، وتشمل أعمالاً منذ العصور القديمة السومرية والمصرية واليونانية والرومانية الكلاسيكية .

ومن بين القطع النحتية الثمينة التى يفخر المتحف بعرضها تمثالى «ڤينوس فى مدريد» و «ڤينوس دى لاكوفشا» .

يوم واحد لا يكفى

وفى نهاية يوم زيارة متحف البرادو يحس المرء أنه قد تناول وجبة ثقافية دسمة ، ويشعر فى نفس الوقت بالرغبة فى معاودة الرؤية المتأنية للأعمال الفنية والدخول فى كل تفاصيلها للإلمام بنواحى الجمال فيها ، وتأمل قدرة كل فنان فى صياغة أسلوبه الفنى الخاص ، بكل ما يحتويه من قدره على التميز والاختلاف والإضافة إلى عالم الفن والابتكار فيه .

لذلك فإن المتحف يعد بمثابة مدرسة مفتوحة ينهل منها كل شخص على قدر ثقافته وخبراته ، وتظل الأعمال الفنية الخالدة رابضة دائماً هناك عارضة نفسها على الناس كشاهد على قدرة الانسان الفذة على تجاوز الواقع والإبحار فى عوالم خيالية ووجدانية ساحرة . ■



تفصيلة من لوحة «الخطايا السبع القاتلة» - بوش ١٤٧٥

اتحاد الكتاب

بـــرج الزمـــالك المـــائل !

بقلم
محفوظ عبد الرحمن

حتى بعد مرور خمسة عشر عاما على انشاء «اتحاد كتاب مصر» لم تخطر على بالى فكرة التقدم لعضويته. فلقد كان من وجهة نظرى واعتقد أيضا من وجهة نظر الكثيرين مجرد تكوين أشعث بنى فى ظروف خاصة. فلم يكن نتيجة احتياج نقابة للادباء ولكن الاحداث أوجبت انشاء تجمع يكون تحت عين السلطة يحسن أن يكون تحت يدها. وكان الحدث الطامة هو البيان الذى وقعه توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وغيرهما من كبار الكتاب قبيل حرب ٧٣ يدعون فيه الى اجلاء الامور، ويوجهون الى السلطة النقد لمواقفها المتخاذلة.

قامت حرب ٧٣ بعدها وداوت الجراح. وبعد أن كانت السلطة قد نكلت بالأدباء، اعادتهم الى اعمالهم، واحتفت بهم، لكن مافى القلب فى القلب. اثبتت التجربة ان تقابل كاتبين أو أكثر ولو صدفة وتدارسهما أحوال الأمة من الممكن أن يفجر موقفا يؤذى السلطة ويضعها فى حرج شديد.

ولا أدرى، ولا أظن أن أحدا يدرى من صاحب الفكرة «العبقرية» فى انشاء اتحاد للكتاب. فالاتحاد الذى من الممكن أن يكون مطية للسلطة هو نفسه الذى يستطيع تحويل تجربة توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ومن معهما الى تجربة يومية. ولذلك كان لابد من انشاء اتحاد له صفات خاصة.

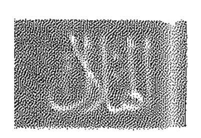
ولم ينشأ برج بيزا مائلا. لكن اتحاد الكتاب بنى مائلا، وكان المهندس

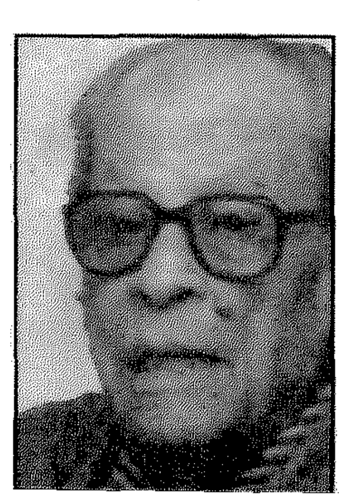
الاكبر له رجلا اقدره كثيرا هو يوسف السباعى ، وصل الى اعلى المناصب الثقافية وبينها وزارة الثقافة، وكان المهيمن على شئونها. وكان على علم بدروبها وقادرا على اسكات أصوات المعارضين، وبالطبع ليس لهذا اقدره فلقد كتب بعض الكتابات الجيدة منها «السقا مات» فضلا انه كان له مواقفه المشرفة الى جوار بعض المبدعين. وان كنا نضع هذا كله بين أقواس.

المهندس كان رجلا مقبولا خاصة من السلطة فأجاد بناء الاتحاد مائلا . ولا أريد هنا أن تحدث عن استبعاد كتل بأكملها مقابل الترحيب بجماعات معينة حتى لو كانت لا تمتلك التاريخ الأدبى. فأنا كما ذكرت فى البداية كنت على بعد من التجربة، ولا أرى فيها ما يستحق الاهتمام. وربما كان هذا خطأ. لكن كان قطاع كبير ومهم من الأدباء يرى مقاطعة هذا الكيان السلطوى الهجينى، وفعلا قاطعه كثيرون. وكان هناك اتجاه يرى تجاهل هذه التجربة والسعى الى انشاء اتحاد للكتاب يعبر عنهم فعلا. وهذا لم يحدث لحسن الحظ أو سوئه.

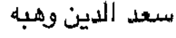
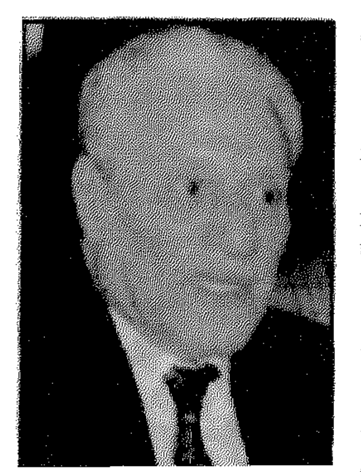
ودخل اتحاد الكتاب آنئذ عدد كبير من مدعى الكتابة مثلوا أغلبية من الممكن تسييرها . وبالطبع لم تمت هذه الأغلبية أو تختفى بل استمرت. وطبعا انقسمت أحيانا وتزايدت.

وأحيل قانون انشاء اتحاد الكتاب الى المهتمين فهو تدبير محكم لامالة البرج. ولكننى أخذ منه هنا نقاطا سريعة. مثلا مجلس الادارة يتكون من ثلاثين عضوا. وأنا لا أعرف نقابة أو جمعية أو منظمة مشابهة يتكون مجلس ادارتها من هذا العدد. وهو بالطبع غير قادر على ادارة الاتحاد. فالمجلس يجتمع مرة كل شهر ماعدا شهرين فى الصيف، وماعدا الجلسات الطارئة وهى أندر من الكبريت الأحمر، فالاتحاد فى تاريخه الذى تجاوز ربع قرن لم يجد فى احداث الكتّاب والبلاد والدنيا ما يستحق الاجتماع الطارئ. والمجلس له رئيس لا يُنتخب من الجمعية العمومية مثل بقية النقابات. فاتحاد الكتاب حسب القانون هو نقابة وان كان نقابة ذات طبيعة خاصة .




نجيب محفوظ


توفيق الحكيم



سعد الدين وهبه

الرئيس ينتخب من مجلس الإدارة . وهى فكرة عبقرية أخرى قائمة على نظرية: يحدث ما يحدث المهم «التربيطات» ! فوسط ثلاثين من الممكن عقد أية اتفاقات مهما كان هدفها . ومن أول مجلس ادارة والسوس ينخر فيه، وتكوينه يجمع عناصر عديمة الموهبة أو قليلة الموهبة بنسب مختلفة، ومن السهل التأثير عليها .

وفى القانون تبعية الاتحاد لوزارة الثقافة (يوسف السباعى) وسلطته حتى فى حل المجلس، وهى نقطة ذات وجهين. اذا أراد الكتاب الاستفادة من وزارة الثقافة . قالوا اذن انتم توافقون على التبعية. واذا رفضوا قالوا: اشربوا من البحر! ثم كان المقر البصمة الاخيرة لتفصيل الاتحاد كما يريدون. فلقد منحوه المكان الذى كان يعيش فيه خدم أحد القصور. ومنحوه بتردد فزحفت «جموع كتاب الاتحاد الجديد» واستولت على السلاملك بالقوة، ودافعت عنه بالصدور. ومازالت تذكر كلمات كأنها كلمات بديعة. وفركت السلطة يديها سعيدة بنجاحها فى تقديم الادباء. وبعد ان جلسنا أول اتحاد وثانى وثالث.. فى السلاملك حدث ماحدث. وتحول المبنى الى بيت اشباح. وواجه الاتحاد منذ البداية قضية نقل اتحاد الادباء العرب من مصر الى سوريا، مع المقاطعة العربية لمصر مع كامب دافيد. ولقد اثبت الكتاب المصريون خلال هذه السنوات وحتى اليوم انهم اشد الرافضين لكل انواع التطبيع مع اسرائيل والصهيونية.

ثم حدثت هبة «سعد الدين وهبة» الذى أراد أن يكون اتحاد الكتاب المصريين اتحادا بحق . ودعا عددا كبيرا من الكتاب لدخول الانتخابات بدلا من ترك الساحة لعديمى الموهبة وقليلى الموهبة الذين أشرنا اليهم منذ بداية التكوين.

وكان من الذين اتصل بهم ورشحوا انفسهم بناء على دعوته أو تشجيعه ونجحوا فى الانتخابات. بهاء طاهر ، جمال الغيطانى، فاروق خورشيد، وحيد حامد وكاتب هذه السطور. ثم لحق بهم الدكتور صلاح فضل.



وأعلن سعد الدين وهبة مشروعه الذى التف حوله الكتاب حتى الآن: استقلال اتحاد الكتاب، زيادة موارده ، حماية الاديب وفكره. التعاون مع الاتحادات العربية، ثم اعادة نقل الاتحاد العام الى مصر. أو على الأصح اعادته مرة أخرى.

ثم كانت وفاة سعد الدين التى احدثت هزة فى الاتحاد. وان كان التصور العام ان الامور ستسير فى نفس الطريق، فلم يكن ما جاء به سعد الدين وهبة سرا مغلقا بل كان التعبير عن رغبة الادباء.

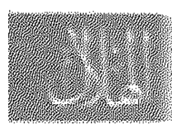
ولكن السوس الذى كان ينخر فى الاتحاد كان أقوى من رقى الرغبة وحسن النية. وفى مثل هذه الحالات كما نعرف تنشأ عناصر تتستر وراء النقابة. ولأنها عديمة الموهبة وليس لديها اى مشروع أدبى أو ثقافى فهى تملك الوقت للاتصالات وتتفهم

وسائل الترغيب والترهيب. ولذلك تنجح هذه العناصر فى الانتخابات. غالبا لا تنجح نجاحا باهرا فهى ليست مقنعة للشارع الادبى. لكنها تنجح على اى حال. واذا ما وصلت الى مجلس الادارة بدأت تنخر فيه بوسائل لا تغيب عن فطنة أحد، ولأسباب ايضا لا تغيب عن فطنة أحد. ولم يحتمل البعض الوضع الجديد فاستقالوا ومنهم : بهاء طاهر، جمال الغيطانى، وحيد حامد. وفى انتخابات اخرى سقط نجوم الادب ونجح من لا يعرف اسماءهم – وبالطبع انتاجهم ـ أحد .

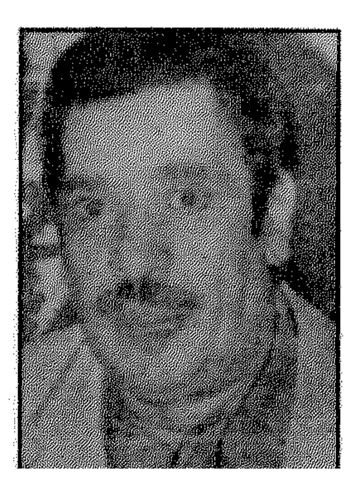
ثم جاءت قضية اقامة مؤتمر ثقافى عربى فى مصر. وتحدد موعد المؤتمر منذ وقت طويل، ومن المفروض انه تمت اتصالات وتحضيرات. وفجأة صدر بيان من المجلس دون علمه بتأجيل المؤتمر. وكلمة «تأجيل» هنا لا تخفى على اللبيب، فهى تعنى الغاءه. وحتى هنا والامر واضح، المكتب الذى يتكون من الرئيس ونائبه والسكرتير وامين الصندوق رأى صعوبة عقد مؤتمر ادباء فى مصر فقرر الغاءه، ولأن الأدب يتطلبه كلمة أخرى. فأسموه تأجيلا . لا بأس. لكن البيان الذى صدر والذى تنصل منه الجميع حتى وقع على رأس مقرر لجنة الاعلام (مالها وهذا!!) قال ان الذين يريدون اقامة مؤتمر ادباء لمصر لديهم نية مبيتة لم يكشفوا عنها، وهى ترشيح مصر لرئاسة اتحاد الادباء العرب. ليس هذا فحسب بل لديهم الرغبة والعياذ بالله لنقل اتحاد الادباء الى مصر أو على الأصح اعادته. وحتى هنا كان الامر معقولا. الا أن البيان فجأة هاجم من يريدون اقامة المؤتمر ويرغبون سرا فى اعادة الاتحاد بأنهم ضد القومية العربية.. و .. و .

وفجر هذا حالة من الذهول والغضبة. المكتب عاجز عن اقامة مؤتمر أو غير راغب فيه. مفهوم. ولا مانع . أما جر الموضوع الى ميدان آخر. فأمر غير مقبول . وفى اجتماع طارئ من الاجتماعات الاندر من الكبريت الأحمر تراجع المكتب، وهذا شئ جميل ولو انه حقيقى.

ولو انك تسير الآن فى شارع حسن صبرى فى الزمالك سترى برجا مائلا، قال أحدهم أن عدله مستحيل. ولذلك ليس علينا ألا نغمض العين ونسير ندعو حسبما نريد بالستر أو العفو أو الرحمة. ■



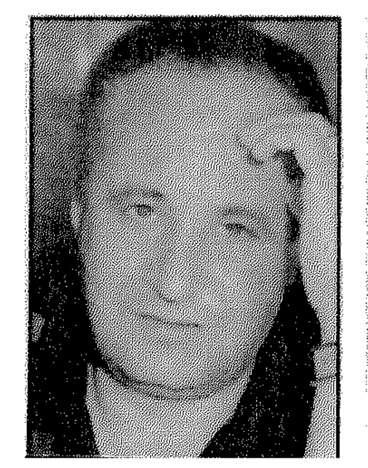
فاروق خورشيد



صلاح فضل



وحيد حامد



أموات....

وأفلام صيف حار، حالك السواد

بقلم
مصطفى درويش

كان صيفا حارا ، حالك السواد ، لم تكد تمضى أشهره العجاف ، حتى كان الموت قد أتى على كوكبة رائعة من مشاهير السينما ، رجالا ونساء .

ففى اثنائه اختفى من عالمنا كل من النجم «جريجورى بيك» الذى عرف بأدائه الرصين .

هيبورن وأمينة رزق نوعية وحيدة فى مصنع الأحــــلام



«وجــون شليــسنجــر» المخــرج الانجليـزى الذى لم يتـهـاوى أمـام سطوة القدر إلا بعـد أن أبدع «بيلى الكذاب» «وراعي بقر منتصف الليل» ، وأفلامـا أخرى فتحت أفاقا جديدة لفن صناعة الأطياف .

وبوب هوب ، ذلك النجم الكوميـدى الذى أضـحك الملايين بـأفـلامـه ونكاته وقـفـشـاته ، والذى لم يسلم الروح فـى السـابع والعـشـرين من يوليه ، إلا بعد أن استجابت السماء ، قبل شـهرين ، لأمنية حياته ، أن يعيش حتى يبلغ من العمر مائة عام .

«وشـارلز برونسـون» المـمـثل الذى لم يبدأ نجمه فى الصـعود إلا بعد أن جاوز الشـباب كثيرا بعمر قارب الخمسين ، هذا عن مشاهير رجال السينما الذين اختفوا مع الآلاف المؤلفة من المسنين فى أوروبا ، وبالذات فـــرنســـا وايطاليا والبرتـغال ، تحت تأثير موجة عاتية من الحـر غـيـر المسـبـوق فى تاريخ القـارة العجوز .

الغيرة القاتلة

أمـا مشاهير نسـاء السينما اللائى رحلن أثنـاء الصـيـف اللعين ، فـالحـديث عنهن يطول بعض الشـىء ، وابدأه بأصـــغــرهـن سنا ، النجـمـة الفـرنسـية «مـارى ترانتـينيـان» ابنة المخرجة «نادين» والممثل الذائع الصيت «جان لوى ترانتـينيـان » نجم «رجل وامـرأة» ، ذلك الفيلم الفائز بسعفة مـهرجان كان الذهبية ، قبل سبعة وثلاثين عاما .

أما لماذا فقدت حياتها ، وهى لاتزال فى ربيع العمر ؛ فذلك لأن حبيبها مغنى الروك « برتران كـــانتـــا » الذى اصطحـبتـــه إلى «ڤيلنيوس» عاصمة ليتوانيا ، حيث كانت تلعب دور الأديبة الفرنسية «كوليت» فى فيلم من إخراج أمـهـا ، يجرى تصـويره فـى تلك المدينة .

فقد كال كانتا لها ، أثناء مشاجرة ، لكمات مميتة ، تحت تـأثير غـيـرة قـاتلة ، انتهت بها فاقدة الوعى ، حتى أسلمت الروح ، بعـد بضـع سـاعـات من نقلهـا جـوا إلى باريس ، بأمل انقاذ حياتها من موت أكيد .

المفاجئ والمتوقع

وبقدر ما كان اختفاء «مارى» على هذا النحو أمرا مفاجئا عاصفا ، بقدر مـا كان اختفاء الرائدات الثلاث «كاترين هيبورن» و «أمينة رزق» و«لينى ريفنشتال» أمرا متوقعا ، هادئا .

ولا غـرابة فى هـذا ، فـالثـلاثة كن عند لحظة الاختفاء ، قد بلغن من الكبر عتيا .

«فـهـيـبورن» كـان لهـا من العـمـر سـتـة وتسـعـون عـامـا ، عندمـا جـاءهـا الموت فى التـاسع والعـشـرين من يونيـه (حـزيران)



و«أمينة» بدورها كان عمرها ، وهى طريحة فراش الموت، قد جاوز التسعين بثلاثة أعوام .

«وريفنشتال» ، وهى أطول الثلاثة عمرا ، استسلمت للنومة الكبرى فى هدوء ، وربما دون أن تدرى ، فى منزلها بمدينة «بوكينج» بولاية باڤاريا ، جنوب ألمانيا ، عن عمر جاوز المائة بعام والراحلات الثلاث يمثلن ، والحق يقال ، ظاهرة فريدة فى تاريخ السينما.

وأى تقييم سليم لدورهن ، لابد أن ينولهن أعلى مراتب الريادة فى مجال فن السينما ، فهن فى ميدانه قد انتبذن لأنفسهن مكانا ساحقا ، يكاد يتأبى على غيرهن من الرائدات

أسطورة أمريكية

وابدأ باولى المختفيات «هيبورن» لأقول أن أول ظهور لها على الشاشة كان فى فيلم «ورقة طلاق» (١٩٣٢) ، وأمام من ؟

«جون باريمور» أحد أساطير المسرح والسينما فى ذلك الزمان.

ووقتها لم يكن لها من العمر سوى خمسة وعشرين عاما هذا ، ولم يمض سوى عام ، إلا وكان قد جرى تتويجها بجائزة أوسكار أفضل ممثلة رئيسية عن أدائها فى فيلم «مجد الصباح» (١٩٣٣) .

وهذه الجائزة لم تفز بها مرة أخرى، إلا بعد خمسة وثلاثين عاما ، أى وهى فى الستين من سنيها ، وذلك عن أدائها لدور أم لفتاة ، وقعت فى حب شاب أسود (سيدنى بواتييه) فى «خمن من القادم إلى العشاء» (١٩٦٧) آخر أفلامها التسعة مع النجم «سبنسر تراس» الذى جاءه الموت بالسرطان، عقب انتهائه من أداء دوره فى هذا الفيلم ، بقليل والغريب ، أن تفوز بأوسكار ثالثة فى العام التالى مباشرة لفوزها الثانى ، وذلك عن أدائها أمام النجم «بيتر أوتول» فى فيلم «الأسد فى الشتاء» .

والأكثر غرابة أن تفوز بأوسكار رابعة بعد ذلك بثلاثة عشر عاما ، عن أدائها أمام «هنرى فوندا» ، قبل موته هو الآخر بقليل ، فى فيلم «على ضفاف البركة الذهبية» .

ووقتها كان عمرها قد تخطى السبعين بثلاثة أعوام .

وبفضل هذا التتويج الرابع ، تكون «هيبورن» قد ضربت رقما قياسيا فى الفوز بأوسكار أفضل ممثلة رئيسية .

ولعلها المرة الأولى ، وربما الأخيرة ، التى يكتب فيها لنجمة الفوز بثلاث جوائز أوسكار بعد تخطى الستين .

النجاح لماذا ؟

وذلك النجاح فى البقاء نجمة متربعة على عرش هوليوود ، زهاء نصف قرن من عمر الزمان ، إنما يرجع فى رأى افتتاحية عدد أغسطس من مجلة «سايت آند ساوند» أقدم مجلات السينما فى العالم المتكلم باللغة الإنجليزية ، وأكثرها جدية وعراقة ؛ إلى امتلاك هيبورن لعزم أكيد ، وإرادة من حديد

فضلا أولا عن تمسكها باستقلالها فى مواجهة استديوهات هوليوود الكبرى وذلك فى عصر كانت تلك الاستديوهات تتحكم فى نجماتها ، على نحو لا تترك معه ، كبيرة أو صغيرة من حياتهن إلا وتتدخل فيه ، وتبدل حسبما تهوى وتشاء ، إلى حد تغيير الوجوه ، وتسريحات الشعر والأسماء .

وثانيا عدم تمسكها بلعب أدوار لاتتلاءم مع كبر سنها فما أن أحست بزحف الشيخوخة ، حتى أخذت فى الانسحاب برشاقة ، وكرامة ، مؤثرة دون خوف أو تردد ، أداء أدوار نساء مسنات فى أفلام مثل «فجأة الصيف الماضى» (١٩٦٠) و«رحلة يوم طويل فى ظلام الليل» (١٩٦٢).

والأهم ، فصمودها وانتصارها فى نهاية الأمر ، إنما يرجع أساسا إلى نشأتها الأولى ، فى جو من رغد العيش والحرية .

فوالداها ، كلاهما كان نصيرا للفكر الحر، جانحا بشكل أو بآخر لليسار .

ومن الأكيد ، أنه لولا هذه النشأة الأولى ، لما كان فى وسعها أن تترك آيات سينمائية

، من أروع ما أبدعه خيال صانعي الأطياف ، على مر السنين .

وأخيرا ، لا يفوتني أن أذكر أنها ، وباستثناء أشهر قليلة ، عاشت متحررة من الزواج واعبائه ، ومن الخلفة بالتزاماتها وهمومها الجسام ، الأمر الذى أتاح لها فرصة التفرغ لتحقيق حلم حياتها ، أن تكون نجمة فى القمة يحفل بها الزمان .

الأسطورة المصرية

ليس ثمة شك فى أنه لو طرحنا للمقارنة سيرتها وسيرة أمينة رزق ، لكشفت لنا المقارنة أنها كانت أسعد حظا من نجمتنا .

فعلى امتداد ستين عاما ، أو يزيد لم تقف هيبورن أمام الكاميرا إلا لأداء الدور الرئيسى فى الفيلم .

فى حين أن الأدوار التى أدتها «أمينة» أثناء مسيرتها الأكثر طولا من مسيرة «هيبورن» كانت فى معظمها أدوار ثانوية ، تكاد تنحصر فى دور الأم .

وثمة فرق آخر بين النجمتين ، أثر على مسيرتيهما ، لاريب ولعله يلقى بعض الضوء على فشل «أمينة » حيث نجحت «هيبورن» وهو أنها ولدت ، عكس النجمة الأمريكية ، فقيرة ، وتيتمت صغيرة .

وعلى كل ، فما يعرف عنها ، أنها بدأت مسيرتها فى درب التمثيل ، منذ عشرينات القرن العشرين ، حين غادرت طنطا (١٩٢٤) ، حيث ولدت ، مع خالتها «أمينة محمد» إحدى رائدات السينما المصرية ، ليكون استقرارها فى القاهرة ، حيث التحقت ، بعد جهد بفرقة رمسيس .

وبدءا من التحاقها بتلك الفرقة ، وهى تمثل ، دون انقطاع اما على خشبة المسرح ، واما أمام الكاميرا .

ولقد كان أول ظهور لها على الشاشة فى الفيلم الصامت «سعاد الغجرية» (١٩٢٨) .

ونظرة طائرة على مجموع أفلامها، تكفى للقول بأنه ، باستثناء يوسف شاهين، وتوفيق صالح ، قام جميع مشاهير المخرجين الذين ساهموا فى بناء صرح السينما المصرية ، باسناد أدوار لها ، بعضها رئيسى ، وبعضها الآخر ثانوى ، في واحد أو أكثر مما أبدعوه من أفلام .

أم شعبية

ومن البداية ، ورغم هيمنة «الفاطمتين» (اليوسف ورشدى) ، نجحت «أمينة» فى أن تفصح بملامح وجهها ، ورقتها عن طبيعة المرأة المصرية الحنونة ، الباكية على ما تعانيه من عبث الأقدار ، فذلك الوجه بملامحه ذات المسحة الفلاحية ، برعت بفضله فى التعبير عن تلك الطبيعة.

ومما ساعدها على ذلك استيعابها الوجدان الشعبى المليء بروافد الحزن المتراكم على مرّ العصور ، وهو حزن ، فى جوهره ، نبيل .

والغريب أنهم اسندوا إليها دور الأم ، من بداية مبكرة ، وهى لاتزال فى ريعان الشباب .

فإذا بها تفلح فى أداء هذا الدور ، حتى أصبح أداؤها له ، مضرب الأمثال، تقتدى به الممثلات ، عندما تسند إليهن أدوار الأمهات

ومن أهم أفلامها فى بداية العقد الأخير من حياتها ، حيث تقمصت شخصية أم تعيش فى بيت للمسنين ، فيلم أرض الأحلام (١٩٩٣) .

فيه كانت أما للنجمة «فاتن حمامة».

وكم كان أداؤها رائعا ، وكم كانت فى أكثر من مشهد متفوقة على ابنتها سيدة الشاشة العربية .

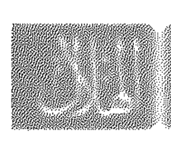
وكم تسخر الأقدار .

وحدة الهدف

وختاما ، فلعله من المفيد أن أضيف إلى ما ذكرته باختصار من سيرتها أمرين:

الأول : أنها لم تشعر أبدا بالرغبة فى الزواج ، وهى عن ذلك غير نادمة ، لأنها ، وفق قولها ، قد وهبت نفسها للفن الذى وجدت فيه منجاة لها ، فرنت إلى مزيد منه منذ البدايات .

وفعلا وجدته فى أضواء المسرح ،



وأطياف السينما .

والثانى أنها ، عند انسحابها من الدنيا ، قبل أسابيع ، كانت قد استكلمت ثلاثة أرباع القرن ، وازداد أربعة أعوام ، من الظهور المتواصل على خشبة المسرح ، والشاشات كبيرها وصغيرها .

وأغلب الظن ، أنها بفضل ذلك تستحق لقب الممثلة الأطول عمرا فى المسرح والسينما

وربما لا ينافسها فى استحقاقه عالميا سوى النجمة الأمريكية «ليليان جيش» التى بلغت من الكبر عتيا (٩٩ عاما) ومعروف عنها أنها ظهرت على خشبة المسرح ، وهى طفلة ليس لها من العمر سوى خمسة أعوام .

واختارها المخرج «دافيد جريفيت» ابو السينما للتمثيل فى أفلامه بدءا من عام ١٩١٢ .

ومثلها مثل «أمينة» ، وهبت حياتها للفن ، فامتنعت عن الزواج ، وظلت تمثل حتى عام ١٩٨٧ ، حيث تقاسمت بطولة فيلم «حيتان أغسطس» مع النجمة بت ديفيز .

وفى مهرجان كان ، حيث جرى عرض الفيلم ، شاركت فى الندوة المخصصة لمناقشته ، بمخ حاضر ، يقظ ، لا يتلعثم فى الكلام ووقتها كان لها من العمر ثلاثة وتسعون عاما !!

وبذلك تكون هى الأخرى ، قد ضربت رقما قياسيا ، وتكون هى و «أمينة» فرستى رهان !!

الأسطورة الألمانية

والراحلة الثالثة «لينى ريفتشتال» ، وإن كانت قد بدأت مسيرتها السينمائية ، بالوقوف أمام الكاميرا ، أى ممثلة ، شأنها فى ذلك شأن كل من «هيبورن» و «أمينة» ، إلا أنه ما أن استولى الحزب النازى على السلطة فى ألمانيا ، حتى وقفت وراء الكاميرا ، استجابة لرغبة ، أو بمعنى أصح أمر «أدولف هتلر» ، وذلك لإخراج فيلم عن «انتصار الإيمان» (١٩٣٣) .

وهى بوصفها مخرجة ، لم تشتهر ، ويذيع صيتها فى الآفاق إلا بفضل فيلمين تسجيليين

أحدهما «انتصار الإرادة» (١٩٣٤) والآخر «أوليمبيا) (١٩٣٨) .

والفيلم الأول لايعدو أن يكون تمجيدا للحزب النازى ووحدته ، متمثلة فى وقوف أعضائه صفا واحدا متراصا ، وراء الزعيم «هتلر» وهو يلقى خطابه فى مدينة نورنمبرج ، أثر نجاحه فى تصفية «ارنست روم» زميل النضال ، وأفراد عصابته يلقيه أمام الجماهير الملتهبة حماسا ، الهاتفة بحياته زعيما أوحدا للبلاد والعباد .

أما فيلمها الثانى فلا يعدو أن يكون تمجيدا للرياضيين وخاصة عدائى المسافات الطويلة ، والغطاسين المشتركين فى مباريات دورة الألعاب الأوليمبية ببرلين (١٩٣٦) .

عنصرية بغيضة

ومن بين ما سجلته فيه تلك الواقعة المخزية فى تاريخ تلك الدورة ، واقعة امتناع هتلر عن مصافحة الرياضى الأمريكى «جيسى أونز» ، رغم نجاحه فى تحطيم أحد عشر رقما قياسيا أوليمبيا ، لا لسبب سوى أنه من الملونين .

هذا ، ولم تتح للفيلم فرصة العرض العام ، إلا بعد عامين من انتهاء تلك الدورة ، وفى حضور هتلر حفل العرض الأول ، وذلك

الكائنات البحرية فى عالم نيمو

بمناسبة ، عيد ميلاده التاسع والأربعين (١٩٣٨) .

ويرجع تأخر عرضه على هذا النحو ، إلى قيام مخرجته بتوليف (مونتاج) ما صورته من أشرطة ، بلغ طولها مائتان وخمسون ميلا !!

وفى مهرجان «فينسيا» لقى عرض فيلمها من الاستحسان الشيء الكثير .

وعلى العكس من ذلك تماما كان استقبالها هى والفيلم فى الولايات المتحدة ، حيث جرى نشر مقالات معادية لهما فى «هوليوود ريبورتر» كان من بين ما جاء فيها الاتهام لها بأنها عشيقة كل من هتلر وجوبلز وهرمان جورنج !!

وهذا الاتهام سيظل يلاحقها ، حتى بعد هزيمة ألمانيا الهتلرية.

فما أن سكتت المدافع ، حتى ألقى الجنود الأمريكيون القبض عليها .

تحولات واكتشافات

وبعد انقضاء ثلاثة أعوام على تحديد اقامتها فى مسكنها ، برئت ساحتها من تهمة النازية ، مع اعتبارها رفيق طريق للنازيين ، الأمر الذى أدى إلى حرمانها من شغل أى مركز عام ، ومن ممارسة مهنة صناعة الأفلام .

وتمر الأيام أعواما بعد أعوام ، تكتشف أثناءها أفريقيا ، وخاصة بلاد النوبة ، حيث مارست مهنة التصوير الفوتوغرافى للصحف والمجلات .

وتتعلم الغطس ، والتصوير تحت سطح الماء ، وهى فى السبعين .

وتنشر ذكرياتها ، وهى تقترب من التسعين تحت عنوان «غربال الزمان» .

وأخيرا ، وقبل انسحابها من الحياة بقليل ، تعود ، فتزور بلاد النوبة زيارة الوداع الأخير (٢٠٠٠) .

وصفوة القول أن رينشتال اشتهت المجد ، وكادت تصل إليه بفضل النازية ، إلا أنه وبسبب النازية ، أصبح سرابا، لاسبيل للوصول إليه ، وانتهى مشوارها مع السينما ، وهى لاتزال فى الربع الأول من الطريق .

هذا عن الأموات الذين رحلوا عن عالمنا . فماذا عن الأفلام ؟

كعهدنا بالصيف كانت أغلب أفلامه من ذلك النوع الهازل ، اللاهى ، الذى يعانى تارة من داء الاستسهال ، وتارة أخرى من داء التكرار ، وتارة ثالثة من الداءين معا .

وكانت ايراداتها أقل من ايرادات أفلام صيف العام الماضى ، إذ هى فى مجموعها لم تصل ، رغم شبه احتكارها لشاشات دور السينما ، إلى ستين مليون جنيه ، أى ما يعادل عشرة ملايين من عزيز الدولارات .

أرقام قياسية

وبالمناسبة ارتفع إجمالى إيرادات السينما الأمريكية أثناء أشهر الصيف من عروض أفلامها داخل الولايات المتحدة فقط إلى ثلاثة مليارات وتسعمائة مليون دولار ، بزيادة قدرت باثنين فى المائة عن إجمالى ايراداتها ، أثناء أشهر صيف العام الثانى من القرن الواحد والعشرين .

ووصل عدد الأعمال السينمائية التى حققت إيرادات المائتى مليون دولار إلى خمسة أفلام تصدرها «العثور على نيمو» بايرادات تجاوزت الثلاثمائة وثلاثين مليون دولار وكل شئ عن هذا الفيلم غريب حقا، فهو من نوع الرسوم المتحركة ، تدور أحداثه فى أعماق البحار والمحيطات .

نجاح وفشل

ولأول مرة يحقق فيلم من هذا النوع الذى ابتدعته استويوهات ديزنى ، ايرادات تفوق ايرادات أى فيلم آخر جرى عرضه أثناء أشهر الصيف .

فحتى أفلام حركة وخيال علمى مثل «ماتريكس» (جزء ثان) و«الجهنمى» (جزء ثالث) لم تستطع أن تصمد أمام عالم «نيمو» الصغير ، ومغامراته ، وهو حر طليق فى أعالى البحار ، ثم وهو أسير فى مربى مائيات ، إلى أن ينقذه أبوه الملتاع «مارلين» ، بعد أن يتعرض لأهوال تشيب منها الولدان .

ورغم انهزام الأفلام القائمة على

المغامرات والعضلات المفتولة أمام سحر «نيمو» الأسير و«مارلين» الأب الملهوف .

ورغم تحقيق «مارلين» وابنه «نيمو» ايرادات بفيلمهما فاقت الرقم القياسي فى ايرادات أفلام الصور المتحركة الذى حققه «الأسد الملك» ، وذلك قبل سبعة أعوام .

رغم ذلك ، لم يقبل الجمهور عندنا على مشاهدة «عالم نيمو» الاسم الفرنسي البديل لأسمه الأمريكى «العثور على نيمو»، فانتهى به الأمر محققا أدنى الايرادات ، فى صيف حار ، حالك السواد ، يتهدده شبح الكساد .

الآباء والأبناء

و«نيمو» يبدأ به الفيلم يتيما من الأم ، بعد أن فقدت حياتها بفعل فك مفترس ، هى وأولادها الثلاثمائة وتسعة وتسعون ، الذين جاءهم الموت فجأة ، وهم لايزالون أجنة فى البيض ، لا حول لهم و لا قوة أمام قوة البغى والعدوان .

الوحيد الذى نجا هو «نيمو» (يتكلم بصوت الكسندر جولد) فلذة كبد «مارلين» (يتكلم بصوت البرت بروكس).

و«نيمو» كأى طفل شقى ، لا يطيع أوامر أبيه ونواهيه التى تحذره دائما وأبدا من مخاطر الدخول فى أعماق المحيط .

ولن أحكى كيف انتهى به عدم الاستماع إلى نصائح أبيه ، إلى وقوعه فى أسر مركب صيد ، وبيعه كالعبيد إلى طبيب أسنان فى مدينة سيدنى باستراليا.

ولا كيف عاش أسيرا ، مهموما ، مع أسماك أخرى فى مربى مائيات ، يحاول الهرب ، دون جدوى .

قلب أب

ولا كيف ركب أبوه «مارلين» المخاطر والأهوال وهو يقاوم غدر سمك القرش المفترس ، ويسبح مع التيار ، متغلبا على جميع الصعاب ، بما فيه حاجز استراليا الصخرى العظيم ، القريب من سطح الماء ولا كيف نجح مع رفيقة الطريق «دورى» (تتكلم بصوت الين ديجينيرس) فى الوصول إلى مرفأ سيدنى ، بفضل سربين من الأسماك



بوب هوب يموت عن مائة عام

والسحالف البحرية .

ومع هذا الوصول يلتقى الاثنان الأب والابن العزيز الذى كان قد نجح فى الهروب من أسر طبيب الأسنان .

لن أحكى كل ذلك بتفصيل ، فذلك شىء يطول ، وإنما اكتفى بأن أقول بأن مغامرات الإثنين ، كانت تمر أمامى على الشاشة ، وأنا من سحرها مذهول .

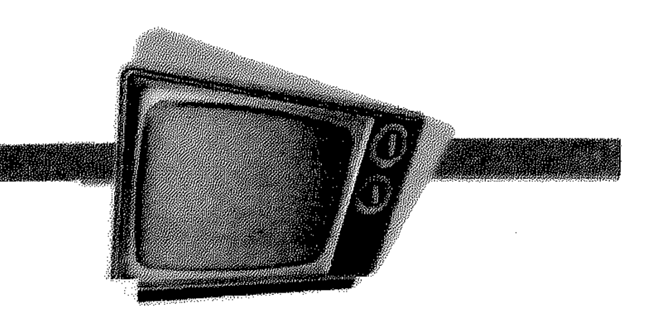
سر الذهول

وأقول مذهول دون أى تهويل ، لأن مياه البحر والمحيط ، كانت تبدو لى ، وكأنها طبيعية ، مع أنه من المعروف ، أن رسم المياه وتحريكها من أصعب الأمور فى الرسوم المتحركة .

ولأن تكوين الكادرات وتشكيلها جاءا آية فى الجمال وليس هذا بالأمر الغريب فى فيلم من إنتاج «بيكسار» تلك الشركة التى كان لها فضل الريادة فى استعمال الكومبيوتر فى فن التحريك .

ولا يفوتنى وأنا اقترب من الختام أن أذكر بأن «نيمو» هو اسم «الكابتن نيمو» فى فيلم «٢٠ ألف فرسخ تحت البحر» المأخوذ عن قصة بنفس الاسم للأديب الفرنسى «جول ڤيرن» .

وإن عالم «نيمو» يريد صاحبه المخرج «اندرو سترانتون» أن يقول من بين ما يقول أن على الآباء أن يتيحوا لصغارهم فرص النمو الواعى واكتشاف العالم الملىء بعجائب وغرائب الأشياء والمخلوقات . ■





المتفرجة

بقلم : مرفت رجب

السكوت

هذا رجل سكت، وليس الحزن البادى من عينيه هو التعبير الوحيد عن العتمة التى ألمت بروحه، والتى ربما من أجلها اختار صانعو فيلم «أوزاك» أن يكون تصويره فى شتاء استنبول الرمادى .

تكرر عرض الفيلم فى اليوم الأول لمهرجان الاسكندرية السينمائى ٢٠٠٣ بعد أن عرض ليلة الافتتاح، ربما ليوحى بمستوى رفيع لأفلام المهرجان التاسع عشر، وإن خاب هذا الإيحاء على مدى الأيام التالية للمهرجان الذى لم يخل من أفلام فقدت كثيرا من مسوغات المشاركة فى أى مهرجان ، وفى هذا كما فى جوائز المهرجان كلام مؤجل كثير، فكلامنا هنا عن فيلم الافتتاح التركي «أوزاك» أو مسافة فهو فيلم العتمة الكاشفة ..

العتمة الكاشفة

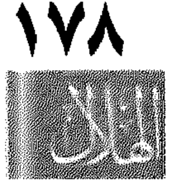
يوحى لنا الفيلم بالعتمة التى تهيمن على أرواح أبطاله بأدوات سينمائية جعلت قدرته على الكشف تتجاوز هؤلاء الأبطال إلى ما يحيطهم من واقع تعيشه تركيا، بل إن قدرة الكشف فى الفيلم تشمل حياتنا المعاصرة برمتها. فالبطل الساكت معظم الفيلم مصور فوتوغرافى يعيش وحيدا فى شقته الكائنة بمدينة استنبول، وهو معظم الوقت صامت ، لا يتحاور مع أحد ولا حتى مع تلك العشيقة التى تزوره فى

أوقات تختلسها من زوجها، أما الكلام القليل الذى سمعناه منه فى لقاء مع مطلقته فهو على قلته يكشف أبعاد العتمة التى تكتم شخصية هذا البطل فلا تجعله يعرف إن كان مازال يحب هذه المرأة التى طلقها، بعد أن فرض عليها التخلص من الطفل الذى حملته منه بحجة أنهما كانا أصلا قد قررا الطلاق . ويظل بطلنا لا يفصح، لكن الفيلم يطلعنا على حيرته وحزنه وهو يتابع مطلقته - خلسة - وهى متجهة مع زوجها الجديد إلى صالة السفر إلى كندا .

ولم يكن ذلك هو الخط الأساسى فى الفيلم ، إنما هو خط فرعى يبلور عجز بطلنا عن رأب الصدع الذى يمزق روحه فلا يجعله يفعل ما يريد. فقد استضاف بطلنا قريبا له ولكنه يضيق بضيفه من اللحظة الأولى لوصوله ، فلا نراه يرحب به أو يتحاور معه إلا فى عبارات شديدة الاقتضاب وهى تنحصر فى أمرين: أما الأول فهو تلك التعليمات التى يلاحق بها ضيفه ليلزمه بمكان نومه ومكان التدخين ومكان وضع الحذاء، وأما المبرر الثانى للكلام فهو السؤال الملح .. هل وجد عملا ؟ وحين تتعثر محاولات ذلك القريب فى الحصول على أى عمل على ظهر أى مركب ، ويقبل بطلنا أن يشغل ضيفه مساعدا له فى مهمة تصوير ، لا نجد من سلوكه ما ينم عن قبول حقيقى لهذه المساعدة ، فكل حركاته وإيماءاته متراوحة بين العصبية والجفاف، وهو ما يصدق على علاقته بأمه المريضة ، فهو لم يذهب لزيارتها إلا بعد اتصالات تليفونية متتالية سمعنا فيها صوت أخته يعلو بالصراخ ، وهو لا يرد، وحتى حين يقرر زيارة أمه ، فالزيارة قصيرة، وهى أيضا خالية من أى حوار .. وحين يعود إلى شقته ويلمح ما يدل على أن ضيفه أخذ راحته فى البيت ، يحدث الانفجار فنراه يصرخ فى جمل قصيرة مقتضبة ولكنها كانت كافية لتؤكد للشاب أنه ضيف غير مرغوب فيه .. ومع ذلك فحين يعود بطلنا من متابعته للمطلقة التى غادرت البلاد ، وحين يكتشف أن ضيفه هو الآخر قد غادره ، ينتهى بنا الفيلم ونحن نرى البطل يمشى على الشاطئ، ساكتا وإن نطقت عيناه بما تعانيه روح تغوص فى بحار الوحدة والتردد .

النور

وهذا فيلم يغيب عنه النور ومن غيابه تقوى القدرة على الكشف. فقد كان قرار مخرج الفيلم وكاتب السيناريو نورى بيلج سيلان Nuri Bilge Ceylan أن يكون التصوير فى جو ضبابى دائم، وقد جعل معظم اللقطات الخارجية فى محيط رمادى إما عاصف أو ممطر، بل إن المشاهد الأولى للفيلم تتم فى ظل تدافع الرعد، والمطر شديد، كأنما لينبئنا بما ينتظر الضيف الذى وصل قبل عودة



مضيفه من عمله مما يضطره للنوم على مقعد حارس البيت .. وأما اللقطات الداخلية فالضوء فيها أيضا شحيح فالبطل إن جلس إلى مكتبه فالضوء يكفي بالكاد، وأما إن جلس إلى التيلفزيون فالضوء الصادر عن الشاشة يكفيه، وإن «طب» عليه ضيفه وهو يتابع فيلما جنسيا فهو يعجل بتحويل القناة ويتركنا لنحتار! هل فعل ذلك استئثارا بما كان يشاهد، أم إمعانا فى عزل ضيفه عن عالمه؟ إنها نفس الحيرة التى تنتابنا ونحن نتابع بطلنا يطفئ كل نور يتركه ضيفه فى حجرة أو مطبخ أو ممر ، فنحن لا نستطيع أن نجزم هل هذا تجنب للإسراف أم لإشعار الضيف بأنه ثقيل، وعلى كل فالعتمة جاثمة .

ولا يغيب النور عن نفس البطل ومحيطه وحده ولكنه يغيب أيضا عن ضيفه الذى ترك أهله وقريته بعد أن فقد عمله وانتقل إلى استنبول ليسكن مع صديقه إلى أن يجد عملا .. ولكنه حين تتعثر محاولاته فى إيجاد العمل الذى حلم به – على ظهر أى مركب – لا نجده يفكر فى بديل ، وحتى حين يفكر ، ففى أضيق الحدود، ذلك أنه لم يذهب أبعد من محاولته الفاشلة أن يكون مساعدا لصديقه المصور . ولقد أكد لنا الفيلم تردد هذا الشاب وقلة حيلته ، ليس فقط ببطء الحركة وقلة الكلام وإنما كذلك بعجزه عن التواصل مع أى فتاة، حتى وإن رغب فى ذلك .. فلقد جعله الفيلم يلاحق جارة بنظراته ، يراقبها ويتعقبها إلى أن تصل إلى «ميدان تقسيم» وهو الميدان الرئيسى باستنبول، ولكنه إذ يصدم بأنها إنما خرجت لمواعدة حبيب، يعود خائب السعى ولكنه يكرر نفس السلوك فى يوم آخر ، مع أخرى لا يعرفها ، ويظل يراقبها ويتعقبها إلى دار سينما ، ليصدم مرة أخرى حين يشهد على البعد لقاءها بمن واعدت.. حتى تفكيره فى ملامسة ساق الجالسة إلى جواره فى الترام، يرتد عليه بالخزى حين تفزع من جانبه الفتاة إلى مقعد آخر بعيد عنه، أما هو فيبقى يتجرع خيبته فى صمت بليد . وفى ظل كل ذلك يتناوب على الشاشة حوار درجات مختلفة من العتمة التى تخف قليلا حين يبدو أنه يقترب من أمله فى التحدث إلى فتاة، ولكن الاضاءة الخافتة لا تلبث أن تنسحب

جائزة الجوائز

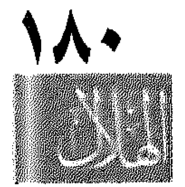
وليست أفضل الجوائز التى حصل عليها الفيلم كأحسن فيلم تركى ٢٠٠٣ وأحسن ممثل ، مناصفة بين بطليه «مظفر أوزديمير» و«محمد أمين تبراك»، وإنما أفضل جوائزه هى أنه ذهب إلى مهرجان الاسكندرية التاسع عشر كفيلم افتتاح محمل بما حصد من قبل من جوائز ، فهو خارج المسابقة مستغنيا بذلك عن الدخول فى مسابقة شائهة.. ولقد نجح كاتب السيناريو ومخرج الفيلم « نورى بيلج سيلان المولود فى استنبول عام ١٩٥٩ رغم أنه لم يدرس الإخراج السينمائى إلا لمدة سنتين بجامعة ميمار



سينان باستنبول ، وهو ما أهله لإخراج أفلام مثل الشرنقة (١٩٩٥) والمدينة الصغيرة (١٩٩٧) وغيوم مايو (١٩٩٩)، ومنها أيضا الفيلم موضوع الكلام ، أوزاك UZAK (٢٠٠٣) وهو الذى يثبت لنا أنه صاحب رؤية متقن للغة السينما التى سخرها فى خدمة رؤيته. ولقد اعتمد مخرج الفيلم على نوع الموسيقى القادر على تعميق إحساسنا بدرجات الضوء ومعها بطء فى حركة الممثلين محسوب فهو أبدا لا يصل إلى حد الإملال، ولكنه بالتأكيد ينقل ثقل الهم الجاثم على نفوس الممثلين، ذلك أنه يصدق على العشيقة والزوجة السابقة، كما يصدق على البطل وضيفه ويبدو أن كون المخرج متخرجا أصلا فى كلية الهندسة له صلة بما يظهر فى فيلم UZAK من قدرة نادرة على موازنة إيقاع الصورة بالتوافق مع الإيقاع النفسى لمحتواها..

كذلك فإن أفضل جوائز فيلم UZAK هى تلك التى تأتى من مشاهديه، هؤلاء الذين يرون فيه أنفسهم ، كما يرون أصدقاء وأقارب وجيرانا لهم بصرف النظر عن مكان عرض الفيلم أو عن اللغة التى يعرفها مشاهدوه .. فأنت تستطيع أن تفهم وتدرك وتحس بكل ما يحمله هذا الفيلم دون حاجة منك إلى الاستماع إلى أى كلام ، فمعظم الفيلم سكوت ولكنه سكوت أوفق من أى كلام، ومساحة السكوت أو مسافته، لا تبعدك عنه إنما هى بالقدر الذى يعينك على التأمل جنبا إلى جنب مع أبطال الفيلم ، فكأنه بالسكوت يعينك على قراءة ما يعتمل فى أرواحهم ، والرءوس .

وإذا كان البعض يرى أن الفيلم حدث ، فالحدث فى uzak كثيف كما بينا ، لكن البعض الآخر يرى أن الفيلم ، أى فيلم هو شهادة على زمانه ولذلك فإن هذا فيلم يدين هذا الزمان ، كما يدين تخبط الأنظمة وأخذها بأساليب فى العمل الاقتصادى قاصرة. فإشارة البطل المستنكرة لتفكير قريبه فى ترك قريته جعلت الضيف يفصح عن يأسه من البقاء بعد أن تم فصله من العمل تلو فصل أبيه فى إطار التسريح الجماعى للعاملين وهو الكائن فى كل بلاد الدنيا الآخذة بنظام السوق، عماد النظام العالمى الجديد وهو الذى لا يترك البشر إلا على حالة من اثنتين ، إما حالة البطل الذى يظن أنه حقق النجاح بعمله كمصور فى استنبول ولكنه نجاح عصبى ، غير قادر على خلق طمأنينة ، فهو شقى بسابق شقائه لينجز ما أنجز، كما أنه شقى الروح ، يطلق زوجة يبدو أنه مازال متعلقا بها ، ويضاجع زوجة آخر دونما حوار ، ويحتسى الخمر وحيدا فى البار، وحتى أمه أو أخته فالعلاقة بهما أبرد من الفتور وإن جئنا لقريبه الذى استضافه ، فهو



معه غير قادر على أى تعاطف ودعنا من الرحمة .

وأما الحالة الأخرى فهى حالة الضيف ، المسّرح من عمله والذى يغادر القرية إلى المدينة آملا فى العمل والحياة والمدينة تصدمه بكل ألوان القسوة والجفاء، فلا عمل ولا قرابة ولا صداقة ولا حب .

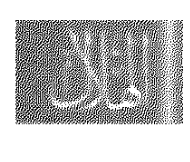
وهكذا يكون «أوزاك» ، قراءة جيدة فى ثمار العولمة ولعله عن قصد أو غير قصد يذكرنا بما يتمنى النظام العالمى الجديد أن ننساه .

حتى لا ننس

شاهدت فيلم «أوزاك» فى اليوم الأول من أيام مهرجان الاسكندرية السينمائى التاسع عشر والذى وافق الرابع من سبتمبر ٢٠٠٣ ، ولعلنا نتذكر أنه فى الرابع من سبتمبر عام ١٩٧٠ تم انتخاب «سالفادور الليندى» Salvador AL-Lende رئيسا للجمهورية فى شيلى وفى الحادى عشر من سبتمبر عام ١٩٧٣ وقع الانقلاب الذى قاده بينوشيه ودخل به التاريخ خائنا وأما سالفادور الليندى فقد حرم خائنيه من فرصة قتله ، لأنه اختار أن يقتل نفسه وبذلك ثبت فى خانة الزعماء الأساطير .. ذلك أنه الأول - وربما يكون الوحيد حتى الآن - من بين اشتراكيى العالم ، هو الوحيد الذى أصر على الديمقراطية سبيلا للتغيير .. هو الوحيد من بين الاشتراكيين - الذى أصر على أن يكون وصوله للحكم عن طريق واحد هو طريق الانتخابات ، وليس الانقلابات، كذلك فهو الوحيد الذى ظل متمسكا بالديمقراطية طوال فترة حكمه القصيرة، كما أنه ظل مصرا على أن تكون الديمقراطية هي السبيل لتحقيق التغيير الاجتماعى الشامل، وهو الوحيد بين الحكام فى استمساكه بما يؤمن به بالرغم من وجود أعداء وطامعين وطامحين سواء فى الداخل أو فى الخارج .

ونحن فى هذه الأيام .. وبعد ثلاثين سنة كاملة من الإطاحة بنظام الزعيم الشيلى الأسطورة سالفادور الليندى، نظل نقلب الكفوف عجبا من حكام العالم ومن الاستسلام لروشتات قاصرة عن تحقيق بغية تدعيها وتواصل قهر الشعوب وسحقها فى أتون النظام العالمى الجديد الذى يقولب التغيير ليكون دائما فى خدمة الأقلية الأكثر غنى .

وتأتى ذكرى سالفادور الليندى لتدعونا لفحص أكثر تعمقا فى كل مايدور حولنا ، يشهد عليه فيلم «أوزاك» ، كما تشهد عليه وقائع اجتماعات منظمة التجارة العالمية فى المكسيك ، تلك التى تعكس إصرار الولايات المتحدة الأمريكية ، ومن لف لفها ، على استنزاف موارد وطاقات دول العالم الثالث حتى الموت ، والظن عندها أن الرد لن يجاوز السكوت !!! ■



فصل المقال في واقع الحال

شعر
حسن طلب

أمسك ريشة .. وخطَّ :
السمك الكبير يأكل الصغيرْ
والدود يحيا – والطفيلياتُ
– في مستنقع العصر ..
ولم يبق سوى اللصوص ..
والحمقى
يسوسون البلاد وحدهم
وينهبون الدور .. والقصور !
هذا هو الخرابُ لا مناصْ
وليس من خلاص
فنحن كلنا – على بكرتنا
– نهوِى إلى مصيرنا الأخير !

– ٢ –

مازال وحده يسير
ولم تزل هيئتُه
هيئَته
ممتشقا ريشته
في الشارع المكتظ بالأجساد ..
والأنفاس ..
أو في الواقع الذي :
يُموِّهُ الغياب بالحضور !

* * *

مازالت القصيدة النُّفُورْ
لغزا عصيا هاربا كالسِّرِّ
بين القلب والضمير !
تدنو .. وتنأى
فهي محض همهمات
غامضات واضحاتٍ !
جسمها موحٍ ..
ولكن روحها ليست بموحاةٍ
ولا يزال متعبا يسيرُ !

* * *

وفجأة ..
أوقف نفسه أمام متجر

أتى بممحاة
محا ما خطه
صعد فوق منبر
إليه نادى رهطه
وصاح : كلا
لن تفيد هذه السطور !

– ٣ –

كضفادع القنوات حين تنق :
« نحن موافقون »
هزُّوا رءوسهمو الثقال ..
وأغمضوا حدق العيون !

* * *

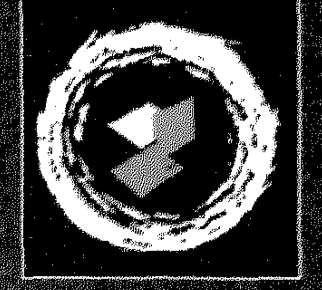
يا أيها الرهط الحزين
أنا لست منكم .. فاغربوا عنى
وعيشوا كالعجائز ها هنا :
هينون .. لينون ..
العنوا الدنيا .. وسبوا الدهر ..
أنتم تستحقون المذلة
أجمعين !

* * *

فلتنعموا بهوانكم
فى ذلك البلد المهين !

– ٤ –

من قال :
إن التوت يورق فى الربيع ؟!
كذبٌ ..
أجل كذبٌ فظيع !
فلسوف يبقى توتنا العارى
بلا ورقٍ
سيبقى هكذا
مادام فى أجوائنا :
هذا الصّقيعْ !



من المهرجان التجريبى الـ ١٥

حلم نحّات

لوحة استعراضية عن محمود مختار

بقلم
مهدى الحسينى

تغير اسم هذا الاستعراض من «رياح الخماسين» إلى «حلم نحات» بين عرضه الأول على مسرح الجمهورية فى يونيو الماضى ثم عرضه الثانى فى سبتمبر الماضى فى افتتاح التجريبى، كما يقول مصممه ومخرجه «وليد عونى»: «المشكلة أن لا أحد يعرف ماهى رياح الخماسين حتى فى أوروبا، لكنه يعود ليقول إن مختار:

... أبدع تمثالا اسمه رياح الخماسين وهو من أحدث الأعمال النحتية من حيث المنهج، وهو تمثال ذائع الصيت فى العالم كله، وفى أوروبا يعتبرون مختار من كبار نحاتى العالم، هذا التناقض يكشف عن اضطراب أهداف المؤلف/ المصمم / المخرج، وارتباكها وعدم وضوح طبيعة الجمهور المستهدف من عمله، علما بأن نجيب محفوظ حين كتب «زقاق المدق» أو غيرها لم يكن يستهدف القارىء الانجليزى أو السويدى، وإنما كان يستهدف القارىء المصرى والعربى بالأساس، غير أنه حصل على نوبل رغم عدم اصطناعه لعمل روائى «يرضى» لجنة الجائزة.

يبدو أن رضاء لجنة تحكيم التجريبى لم يكن تاما هذه الدورة أيضا، فهو لثانى مرة يحصل على جائزة «السينوغرافيا» أى تصميم المنظر البصرى المكون من الديكور والأزياء والاكسسوار والإضاءة فى حالة حركة متغيرة، ولكننا نحتفظ هنا بحق الاختلاف مع اللجنة حيث كانت هناك عروض أخرى تستحق جائزة فى السينوغرافيا، الأمر الذى يبرز أهم عيوب هذا النظام ـ أى التحكيم ـ لأن أحدا لايصح له أن يفاضل ثقافة عن أخرى ولا فنا عن آخر، خاصة أن برامج عروض المهرجان لم تصنف إلى أقسام أو مجالات نوعية منسجمة نسبيا معا، بحيث يمكن أن يجرى التسابق بين كل نوع منها على حدة، أضف إلى ذلك أن هناك مهرجاناً خاصاً بالعروض الراقصة قد أقامته دار الأوبرا العام الماضى، لعله يكون فرصة أكثر لياقة لتقديم هذا العرض.. وغيره من العروض الراقصة التى تزاحم عروض الفن المسرحى فى المهرجان التجريبى.

فى البدء كان الفراعنة

كانت نقطة البدء فى عرض «رياح الخماسين ـ حلم نحات» صحيحة تماما، وهى أن ثمة صلة عميقة بين فن مختار وبين فن أجداده النحاتين الفراعين، وقد نجح «وليد» فى تجسيدها وخلق الصلة (البصرية *الراقصة*) المعبرة عنها نجاحا تاما من كل وجوه فن العرض الراقص وجوانبه، هذا وقد أحاط منظره العام بخلفية من جبال الجرانيت كانت مهيمنة ملحوظة المعنى والأثر.

ولما كان فن محمود مختار يشكل ثروة جمالية نحتية فريدة، فضلا عن دلالتها الوطنية والتاريخية وبعدها الاجتماعى المنحاز للشعب وشخوصه وبيئته وعمله وكفاحه، فإن المرء ليحار حقا حين يفكر كيف ينظم كل ذلك فى

عمل فنى ما ـ وأعترف هنا أنه أمر بالغ الصعوبة ـ ولكى ينقله من وسيط (فن النحت) إلى وسيط ثان (فن الرقص المسرحى)، هل يقف الفنان هنا كى (يقدم) حياة وأعمال الفنان فى صور حية ولوحات راقصة وحسب؟ وهل تتيح له (حدود) المسرح الزمانية والمكانية ـ مهما اتسعت ـ كى يمسرح (حياة وأعمال) فنان ما فى صور حية ولوحات راقصة؟ أم أنه (يخلق) رؤية فنية خاصة ومكثفة لهذه الحياة وتلك الأعمال عبر نظرة جوهرية إلى الجوهر؟ نظرة جمالية عميقة إلى فن هذا الرجل؟ نظرة إلى المصدر والتجربة والمعاناة والدافع والفعل والإنسان والفكر.. والتجلى الإبداعى؟.

البحث عن الجوهر

والسؤال الرئيسى تتبعه أسئلة أخرى: ماهو قانون العلاقة التى تربط قطع هذا الفنان ببعضها البعض ثم تربطها مع وجدان المشاهد المتغير عبر الأزمنة؟ وماهى الفكرة / المعنى/ الإحساس العالى / الرسالة/ المراد طرحها على الجمهور؟ أية تماثيل وشخوص اخترتها؟ وماترتيبها؟ وما أسس تساوقها؟ وأين تتشابه وأين تختلف؟ وفى أى إطار من الأحداث الدرامية؟ وفى أى زمن أو أزمنة؟، وإذا لم أجب إجابات واضحة وعميقة على هذه الأسئلة أكون قد نجحت ـ فقط ـ فى أمرين:

١ ـ تحريك راقص لبعض القطع فى إطار تشكيلى متسق فى ذاته (مع كثير من التحفظ على اختيار الألوان وحول أصالة كثير من المفردات الحركية الراقصة وأبجدية العناصر الفنية).

٢ ـ إيراد بعض المعلومات الحياتية والتاريخية عن مختار ومنحوتاته وآخرين (سعد زغلول وهدى شعراوى وأم كلثوم) مجسدة فى هيئة مسرحية مباشرة.

إذن : ماهو هذا «الجوهر» الذى لم يحصل عليه «وليد» ـ على حد زعمنا ـ أو حصل عليه هو على حد قوله؟.

صناعة الزمن سر الخلود

قبل حضارة الفراعين لم يكن لأى شىء معنى إنسانى: الطبيعة والزمن، لم يكن هناك سوى الرياح والمطر والأرض ودورة الشمس والقمر، وحين قامت حضارتنا فإنها أعطت للكون المعنى، وبغيرها كانت الرياح ستمضى إلى مالا نهاية، وتشهد الأرض تحولات الماء دون امتلاء أو شبع، وتشهد الجبال رحلة الكواكب والنجوم دون جدوى، لم يكن ليدرى أحد ـ فلم يكن هناك أحد أصلا ـ ماذا كان وماذا يكون وماذا سوف يكون، لولا أن جاء المصريون، فبغير الإنسان وصراعه ضد الطبيعة ومنجزه الحضارى لم يكن هناك إلا الهباء وقبض الريح.

لذا ليس صحيحا ما كتبه ورده «وليد» من أن الهواء هو أعظم نحات، لا..بل الإنسان، والإنسان المصرى على الأخص الذى ترك ٩٦ هرما ومالا يحصى من التماثيل والآثار المعجزة فوق الأرض وتحتها، منجزات تستند إلى أرقى ما

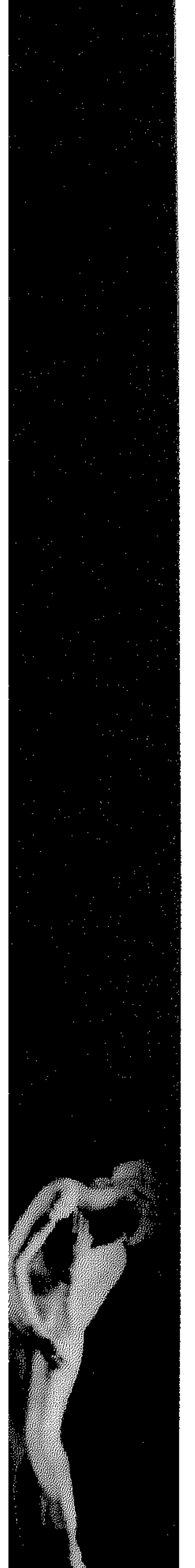
وصل إليه الإنسان، حتى الآن ـ من منجزات علمية وتقنية.. وإبداعية.. فالنحات الأول هو النحات المصرى وليس الهواء كما يزعم «وليد» وهذه هى الفكرة الخاطئة التى جعلت «حلم نحات» عاجزا عن فهم فن مختار لأنه لايعى سر فنون الفراعين، فليس الأمر مجرد حنكة تعامل مع الطبيعة والرياح أو تقنية تعامل مع الخامة أو استخدام ماهر للأزميل ومسمار الصلب.. ولا حتى مجرد ابداع عادى، بل هو إبداع أسطورى، لأنه ابداع أمة، أمة تأملت الكون فى البكور واختبرت عناصره ورصدتها وحسبتها وحددت لكل منها معنى وصنف ووظيفة ومنفعة وشكل وصفة، هنا تمكنت من صنع أهم مكتشفات البشر فى الوجود.. لقد صنعت الزمن.. قبل فلاسفة عين شمس كان الزمن بلا معنى .. نحن أعطيناه المعنى، ثم قسمناه ونظمناه فأصبح مادة تستطيع البشرية التعامل معها، حيث يبدأ من (الأزل) وينتهى فى (الأبد) وبين هذا وذاك وجدت القرون والسنوات والأشهر والأيام والساعات والدقائق والثوانى.. والفيمتو ثانية التى أحصاها ورصدها أحمد زويل المصرى الفرعونى المستنير.

لذلك كان كبير الكهنة ـ بعد الانتهاء من صنع تمثال الإله ـ فإنه يعتمده بمفتاح الحياة مرددا «لقد أقيم هذا التمثال ليبقى أبد الآبدين.. له الحياة والخلود، إذن ففكرة الحياة والخلود والزمن هى التى جعلت النحت الفرعونى أعظم ما أنتجته أمة من النحت، ولذا أصبح مختار فنانا عظيما كتب لفنه ولاسمه المجد والخلود.

لقد هوم «وليد» مع فكرة خاطئة وهى أن الهواء أعظم نحات، وهذا ليس صحيحا، بل إن «بك» و«سنب» و«ايمحتب» وغيرهم .. وغيرهم، من أعظم النحاتين لأنهم اعتنقوا فكرة الخلود، وهم لم ينحتوا فقط فى (الهواء) بل نحتوا فى (الزمن).

عبقرية الخماسين

هذا التمثال الذى يلفه خيط متصل أو خط دينامى واحد من (الساس للراس) عبر تعاريج حادة جارحة وناعمة حانية متحركة ساكنة فى آن واحد، تستطيع أن تراه جميلا متسقا مع أى زاوية أو جهة، ولكنك لاتستطيع أن تخمن كنهة أو ماذا يحمل فى جوفه العميق اللانهائى، لايخدعك سكونه فهو يمضى ـ أبدا ـ إلى الأمام فى تصميم لايعلن عن نفسه، يمضى وقد وطئت قدماه الرمال فى رسوخ وإصرار، فمن هى تلك المرأة القابعة طى البردة أو من هى تلك اللؤلؤة المحتمية فى صدفتها القوية التى تواجه رياح الخماسين (السموم / الهبوب/ كما يسميها أهل الجنوب) من هى تلك الشامخة تتحدى الرمال والشوك والعقارب والأفاعى، إن



السكون هنا ليس لحظة دائمة، فإزاء العاصفة القادمة من الصحراء هناك ثورة جبارة سوف تتفجر من قلب التمثال الحجرى إنها فى لحظة التأهب للزوج والاحتشاد للثورة والصراع، إنها سوف تسفر حتما عن وجهها الشجاع الجميل القوى حين تخلع «بردتها» فيخرج الشعب كله: آلهة وفراعين وأبطالاً وزعماء ورجالاً ونساء وحاملات للجرار وعرائس للنيل وشيخ للبلد وعمالاً وفلاحين وفلاحات.. وأبناء بلد وغيرهم إن امرأة الخماسين هى رمز المرأة الخالقة الولود المتجددة، هى إيزيس وشجرة الدر وأم صابر.

لماذا إذن لانستنسخ من هذا التمثال نسخة مكبرة لنضعها فى أحد كبرى ميادينا؟ ولماذا لاتوزع منه نسخ على المدارس والمصانع والأحياء والمدن الصغيرة لعله يلهم الشعب روحه من جديد؟ ولماذا لم يتخذ «وليد» من هذا التمثال المدهش المحير نقطة انطلاق أخرى لمعرض «روح» مختار التى هى من «روح» مصر؟، ولماذا لم يكرر هذه الراقصة / التمثال/ الخماسين/ ليصبح على المسرح عشر (خماسين) أو يزيد؟ ألا يؤكد هذا فكرة روح مصر الخبيئة المتأهبة؟ ولتخرج من كل منها فكرة التمثال التى تتفاعل مع يد الفنان ومع ذاتها لتستقر فى صيغتها النهائية، وإذا كان الخماسين هو أول الخيط.. فيكون آخره بداهة تمثال نهضة مصر، بعد ذلك ينظم العقد ترصعه (مدى العرض وتفاصيله) باقى القطع النحتية الراقصة وفقا لترتيب يؤكد الفكرة: فكرة مختار فنان عصر النهضة القومية بكل ما تحويه من أفكار وقيم ومنجزات تاريخية ووطنية واجتماعية وثقافية.

إذن لسنا فى حاجة لمشاهدة سيرة حياة مختار وتماثيله ومعاصريه (ممسرحة) بالرقص، فزيارة لمتحفه وقراءة كتاب أو أكثر عنه تغنينا عن مشاهدة هذا العرض الساذج المباشر، الذى لم يخرج عن عالم الأدب والتأريخ والسيرة الذاتية.. إلى عالم الفن المسرحى الراقص، ولم يكن مطلوبا شىء من النقد أو التحليل بالرقص أو إعادة تصوير مفردات الموضوع وتحريكها، وإنما المطلوب كان رؤية بصرية حية متحركة بالجسم البشرى والضوء والموسيقى، رؤية جديدة تماما تعبر عن وعى خاص بالأثر الكلى لهذا الفنان وأعماله يفسره ويعيد طرحه من جديد، أما عكس ذلك فهو الأمر الذى ضيق أفق المصمم وحصره فى محاولات السرد المتكررة والتصوير بالمماثلة المباشرة، ثم الوقوف عند ذلك فحسب، دون محاولة للاجتياز نحو الفروض القريبة والرؤى البعيدة والعميقة.

الرقص المصرى القديم والحديث

ليس هناك من دراسة أكاديمية مصرية لهذا الفن عندنا، فقط هناك إشارات بليغة عند سعد الخادم والحفنى وثروت عكاشة ومحمود رضا، ولم تتم ترجمة العشرات من الكتب التى كتبها أثريون وفنانون أجانب عن هذا الفن، حركته وموسيقاه وأزيائه ومناسباته ومعانيه لم يترجم منها سوى كتاب واحد، كما توجد إشارات عديدة عنه فى كتب

المصريات المؤلفة والمترجمة، وتوجد رسالة دكتوراه غير منشورة وضعها سمير جابر بشاى، هذا هو كل حصيلة المصريين من فنهم الرائع الجميل، وهكذا لعب (التحريم والتجريم) تحت دعاوى دينية وأخلاقية وطبقية زائفة لمنع المصريين من الرقص وحب الحياة لتكتب على جبينهم الكآبة والعجز، مع أننا شعب يرقص حتى فى الجنازات، وهكذا أصبح (عيبا) أن يرقص رجل أو ترقص فتاة والكارثة أن يرقص رجل مع فتاة (!!)، هذا التحريم فتح الباب على مصراعيه أمام (استيراد الرقص) من الخارج فأصبح (الباليه) هو الفن الراقى ورقصة «الدحية» رقصة شعبية (أى رخيصة ورديئة).. وهكذا.. وهكذا نمارس ـ بترفع مفعم بالدونية ـ مرض التنكر لذاتنا الثقافية بلذة عارمة.

وحين أنشىء معهد الباليه دلف إليه عديد من أبناء بقايا الطبقات القديمة وكثير من أبناء الطبقة الجديدة، وجاء إلينا الخبراء الروس ليعلمونا رقصة بحيرة البجع والأميرة النائمة، وحين أنشئت الفرقة القومية جاء الخبراء الروس أيضا ليعلمونا رقصة (الكازاتشوك) وحين أنشئت فرقة الرقص المصرى الحديث فقد شاهدنا مايشبه الرقص الأوربى والأمريكى الحديث (موسييف/ بيجار/ مارتا جراهام) بعد إضافة مسحة مصرية من الخارج لا من حيث الجوهر، كل هذا بسبب الشعار الخديو: مصر قطعة من أوروبا الغربية أو الشرقية، ومات الخديو والشعار لم يزل يفعل فعله المدمر، ففى حين اهتمت الدولة بإنشاء معهد للباليه الروسى فى مصر، استنكر بعض رجالها المتنفذين اقتراح إنشاء معهد لدراسة وتعليم الرقص والموسيقى الشعبية المصرية وتصنيع وإحياء آلاتها، وهكذا يصبح المصرى منزوعا عن تراثه منتزعا من ذاته الثقافية.. ومع مرور الوقت يصبح رهنا للنفوذ الذليل وغسيل المخ والوجدان، ليقلد ـ كالقرود ـ فنون وثقافات الآخرين ثم يستمرىء هذا التقليد القبيح.

لكل ما سبق لم نجد ـ مع الأسف ـ فى العرض سوى المنطق الحركى/ الشكلى/ مبررا لترتيب جزئيات «حلم نحات» ومحاولة الانخراط فى «التشبه» بالتماثيل التى لم تنجح حيث غلب على خيال المصمم أشكال متكررة وثابتة وتقنيات نقلها من أوروبا، لاتعكس صفات التمثال المصرى القديم ولا التمثال الذى صنعه مختار، الذى يعتمد على الكتلة والرصانة والتوازن والقوة والرسوخ والتؤدة والتأهب للحركة القادمة وهى فى الأغلب إلى أعلى أو إلى الأمام.

ومن هنا جاءت تقنيات «حلم نحات» عبارة عن قشرة فرعونية/ مصرية حديثة من الخارج فى باطنها تقنيات غربية وحيل ومراوح وأزياء وراقصات وراقصين، وميزانية مفتوحة. ▢

آخر نجوم العصر الذهبى للأغنية العربية

كمال الطويل

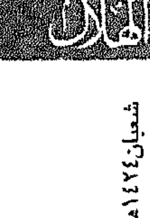
بقلم

ـل حنفى محمود

عندما غيب الموت كمال الطويل عن عالمنا فى التاسع من يوليو الماضى ، فإن ذلك كان إيذانا بسقوط الفرع الأخير من شجرة الغناء العربى المتقن ، تلك الشجرة التى تفيأت ظلالها الساحرة وتمتعت بثمارها الرائعة جماهير الغناء العربى من مصريين وعرب طوال سنوات القرن العشرين ، ليكون الحزن على رحيل كمال الطويل مضاعفا لانقطاع الغناء المتقن الجميل وانتشار الغثاء المسمى بالأغانى الشبابية ، والمقال الحالى يهتم بسرد مسيرة كمال الطويل مع فن الغناء وإلقاء الضوء على البعض من أعماله.

ولد كمال محمود زكى الطويل فى الحادى عشر من شهر أكتوبر سنة ١٩٢٢م بمنزل أسرته فى حى المنيرة بالقاهرة ، وتنتمى هذه الأسرة إلى عائلة ذات حسب تنحدر من أصول سكندرية ، فوالده هو المهندس محمود زكى الطويل بك .. وكيل وزارة الأشغال لشئون السودان فى عهد الملك فاروق وأول سنوات الثورة ، وعمه عبدالفتاح الطويل باشا الوزير الوفدى السابق ، نشأ كمال الطويل مع شقيقة وثلاثة أشقاء فى منزل ظللت الثقافة والفن أركانه ، فقد عرف عن والده حب الشعر وكتابته .. مما أهله لبث الأحاديث الإذاعية ، حيث تشير سجلات البرامج الإذاعية إلى أحاديث بثتها إذاعة القاهرة فى سهراتها للاستاذ محمود زكى الطويل بك ، ومن ذلك حديثه الذى نوهت عنه مجلة «الإذاعة المصرية» فى الصفحة الخامسة والعشرين من عددها رقم (٨٧٢) الصادر فى ١٩٥١/١٢/١م .

أقام الصبى كمال الطويل لفترة من الزمن فى كنف جده لوالدته بمدينة طنطا ، مما إنعكس على فكره الموسيقى كما سنعرض له لاحقا ، كانت إقامة كمال الطويل بمنزل جده فى مدينة طنطا معاصرة لفترة دراسة والده للهندسة (مصطفى حمدى : أخبار اليوم - ٢٠٠٣/٧/١٢ م - ص ٢١ ، محمد قابيل: أكتوبر - العدد ١٣٩٤ - ٢٠٠٣/٧/١٣ م - ص ٦١) ، ثم انتقلت الأسرة بعد إنتهاء الوالد من دراسته للهندسة وعمله بوزارة الأشغال إلى حىّ منيل الروضة ، حيث قضى الفتى كمال سنوات المراهقة فى ذلك الحىّ ذى الطابع المميز من قاهرة الثلاثينيات (طارق الشناوى : روز اليوسف - العدد ٣٩١٨ - ٢٠٠٣/٧/١٨م - ص ٧٤) ، عمل موقع حىّ المنيل فى جزيرة الروضة - التى تتوسط مجرى النيل قبالة ساحلى مصر القديمة من الشرق والجيزة من الغرب - على إلتحاق الفتى كمال الطويل بمدرسة الأورومان الابتدائية (عبدالحميد توفيق زكى: المعاصرون من رواد الموسيقى العربية - ض ٧٨) ، حيث تخرج منها وحصل على الشهادة الابتدائية فى عام ١٩٣٨م ، ومن الواضح للمدقق فى أحداث حياة كمال الطويل .. أن استعداداته الفنية قد لعبت دوراً حاسما فى توجيه خطواته فى الحياة ، ومن ذلك التحاقه عقب نيله الشهادة الابتدائية فى عام ١٩٣٨م بمدرسة الفنون التطبيقية العليا ، وكيف لا ؟ .. وقد ازدانت مصر آنذاك بابداعات كوكبة من الفنانين لم يجتمع



مثيل لهم قط فى تاريخ مصر الحديث ، فلم يكن بعيدا عن سمع الفتى كمال وبصره أعمال رواد مثل محمد ناجي (١٨٨٨ - ١٩٥٦) - محمود مختار (١٨٩١ - ١٩٣٤) ومحمود سعيد (١٨٩٧-١٩٦٤) ، فيثور فى النفس التساؤل عن كيف شهد ذلك العهد ازدهار الآداب والفنون .. بينما ينعق البعض فى أيامنا هذه بفتاوى تكفير الفنون ومبدعيها؟، وعقب تخرجه من مدرسة الفنون التطبيقية فى عام ١٩٤٢م .. عمل كمال الطويل رساما فى وزارة الشئون الاجتماعية ، وجاء عمله كرسام بوزارة الشئون الاجتماعية بمدينة الاسكندرية وبمرتب قدره اثنى عشر جنيها شهريا ، حيث أقام - وحده - بمنزل عمه عبدالفتاح الطويل باشا الكائن على كورنيش الاسكندرية فيما بين حى سيدى جابر ومنطقة مصطفى باشا (طارق الشناوى : كمال الطويل نغمة لاتعرف الموت - القاهرة - ٢٠٠٣/٨/٥ م - ص ٢٠) ، كانت الاسكندرية - آنذاك - فى أزهى عصورها كمدينة بحر - متوسطية ، تعج بالجاليات الأجنبية وتموج بالنشاطات الحضارية وعلى رأسها الفنون ، وعلى دوى غارات الحرب العالمية الثانية التى أصابت المدينة تبدت مواهب كمال الطويل وميوله الموسيقية .

التحق كمال الطويل بمعهد خاص للموسيقى فى مدينة الاسكندرية يدعى معهد جمجموم ، فى تلك الآونة وبعد ذلك وحتى آخر عمره .. جذب صوت المطرب محمد عبدالمطلب اهتمام كمال الطويل واستأثر بحبه، كان عبدالمطلب قد بلغ آنذاك - قرابة منتصف الاربعينيات - أوج شهرته بعمله فى الأفلام الغنائية ، ويصف كمال الطويل للناقد طارق الشناوى أين وكيف التقى سمعه بصوت محمد عبدالمطلب فيقول : « كان يصادف لما باخد الترام من محطة الرمل لحد سيدى جابر ، أنا كنت ساكن بين سيدى جابر ومصطفى باشا على الكورنيش ، وفى قهوة فى الطريق من المحطة بتاعة سيدى جابر - محطة السكة الحديد بتاعتها - إلى البحر ، فكثيرا ما كنت باسمع محمد عبدالمطلب وأنا ماشى» (طارق الشناوى : المصدر السابق) ، هكذا بدأ كمال الطويل خطواته الأولى على درب هوايته للموسيقى .. تعتمل فى نفسه عوامل التغريب وقيود الأصالة ، فقد كان ما يعرض من غناء وموسيقى فى هذه الأيام يميل إلى الغرب .. ما أنتج منه بمصر بواسطة المصريين أو ما جاء مع الفرق الزائرة أو ما تقدمه الجاليات المقيمة بمصر ، بينما كانت هناك فئة من أمثال محمد عبدالمطلب تتمسك بالموروث فى الغناء والموسيقى .. وتعد امتدادا لما اختزنته ذاكرة كمال الطويل من أنغام دينية صافحت سمعه فى طنطا وفى أحياء القاهرة الشعبية، وكان كمال الطويل يحاول أن يجد الوسيلة لإخراج ما يعتمل بداخله من أحاسيس موسيقية ، فيقوم تارة بالنقر على منضدة أو يحاول أن يتعلم العزف على آلة موسيقية كالعود ، وبالرغم من التحاقه بمعهد جمجموم للموسيقى فى الاسكندرية ، إلا أن شعورا بعدم الاقتناع بما يقوم به نحو تعلم الموسيقى كان يداخله ويؤرقه .

قفل كمال الطويل عائدا إلى القاهرة حوالى عام ١٩٤٦ ، حيث عمل بعد استقراره فى القاهرة بإحدى الوظائف فى ديوان الموظفين ، والتحق فى نفس الوقت بالدراسة الليلية فى قسم الأصوات بالمعهد العالى للموسيقى المسرحية على غير رغبة من والده (عبدالحميد توفيق زكى - المصدر السابق) ، والمعهد العالى للموسيقى المسرحية هو معهد خاص

أنشأته وزارة الشئون الاجتماعية ، وقد تولى عمادته أثناء دراسة كمال الطويل به العالم الموسيقى المعروف : الدكتور محمود أحمد الحفنى (١٨٩٦ - ١٩٧٣) ، التقى كمال الطويل أثناء دراسته بالمعهد العالى للموسيقى المسرحية بمجموعة من الدارسين شاركته صنع ثورة النصف الثانى من القرن العشرين فى الموسيقى المصرية والعربية ، ومن هؤلاء الدارسين نذكر أسماء : عبدالحليم حافظ (١٩٢٩ - ١٩٧٧) - عواطف محمود كامل عبدالرحمن الشهيرة بفايدة كامل (١٩٣٢ -) - أحمد فؤاد حسن (١٩٢٦ - ١٩٩٣) - شعبان أبو السعد (١٩٢٦ - ١٩٨٨) ، ومن الغريب والمعروف أيضا أن دراسة كمال الطويل كان فى قسم الأصوات بالمعهد ، بينما كانت دراسة عبدالحليم حافظ فى قسم الآلات وبالتحديد آلة (الأبوا) ! ، وفى معهد الموسيقى المسرحية .. بدأ كمال الطويل محاولاته الأولى فى التلحين ، فعندما عثر بين أوراق والده على قصيدة يقول مطلعها :

إلهى ليس لى إلاك عونا
فكن عونى على هذا الزمان
إلهى ليس لى إلاك حصنا
فكن ذخرى إذا خلت اليدان

قام كمال الطويل بتلحين القصيدة مستلهما ما اختزنته ذاكرته من أنغام الموالد وايقاعات الذكر فى حضرة السيد البدوى وأولياء القاهرة ، وبعد أن أنهى دراسته فى معهد الموسيقى المسرحية فى عام ١٩٤٩ م .. فإنه التحق للعمل بوظيفة مشرف فى قسم الموسيقى والغناء بالإذاعة المصرية فى عام ١٩٥٠ م .

بداية تألق عبقرى

لم يطل بكمال الطويل المقام فى الإذاعة .. حتى بدأ إنتاجه التلحينى فى

كمال الطويل بين لطيفة ولبلبة والمذيعة سهير شلبى

يشرح أحد ألحانه للفرقة الموسيقية التى تعزف خلف محمد رشدى



حوار باسم بين الطويل ومحمد عبد المطلب

الظهور ، وكانت الأغنية الأولى التى استمع إليها جمهور الإذاعة المصرية من ألحانه هى أغنية «الصباح غنوه» التى صاغها إبراهيم رجب وتغنت بها سعاد مكاوى فى التاسعة وخمسين دقيقة من صباح الجمعة ١٩٥٠/١٢/٢٩ (الإذاعة المصرية : العدد ٨٢٣ - ١٩٥٠/١٢/٢٣ - ص ٢٧) ، ثم أتبع كمال الطويل أغنيته الأولى بعد ثمانية وأربعين ساعة من إذاعتها بأغنيته الثانية ، وهى أغنية «طول ما أنا وياك» التى تغنت بها سعاد مكاوى أيضا ونظم كلماتها إبراهيم كامل رفعت ، وجاءت إذاعة الأغنية الثانية من ألحان كمال الطويل فى السادسة وخمس وخمسين دقيقة من مساء الأحد ١٩٥٠/١٢/٣١ (الإذاعة المصرية : العدد ٨٢٤ - ١٩٥٠/١٢/٣٠ - ص ٢٢) ، ومن الواضح أن كمال الطويل كان قد انتهى من تلحين الأغنيتين فى نفس الوقت تمر بعد ذلك ثلاثة شهور .. حتى طلع كمال الطويل على جمهور الإذاعة بأغنيته الثالثة وهى رائعته الخالدة « يارايحين الغورية» ، وهى من تأليف الملازم محمد على أحمد - كما قدمته مجلة «الإذاعة المصرية» عند التنوية عن الأغنية - وغناء المطرب محمد قنديل ، وأنه لمن المثير للتأمل أن يلحن من كان يلحق باسم والده فى مطبوعات ذلك الزمان لقب «صاحب العزة» كلاما مثل :

يارايحين الغورية
هاتوا لحبيبى هدية
هاتوا له توب بالقصب
يليق على كسمه
والطرحه ويا الشال
وإسورة وخلخال
نقوا وشوروا عليه
يارايحين الغورية

ولكنها الأصالة .. إذا ما صادفت العبقرية أخرجت لنا الروائع من مثل هذه الطقطوقة الخالدة .

انقضى من الزمان أكثر من شهرين قبل أن تقدم الإذاعة فى الثامنة والثلث من مساء السبت ١٩٥١/٧/٩ الأغنية الرابعة من ألحان كمال الطويل ، كانت هذه الأغنية التى كتب كلماتها الشاعر الغنائى إبراهيم رجب . وحملت اسم «شكوى» هى اللقاء الأول بين ألحان الطويل وصوت عبدالحليم شبانه ، وليست قصيدة «لقاء» كما قال بذلك غالبية من كتبوا عن كمال الطويل بعد رحيله ، وبدءا من تاريخ إذاعة هذه الأغنية .. تغيير الاسم الذى كانت تشير به مجلة «الإذاعة المصرية» والإذاعة نفسها إلى المطرب الجديد عبدالحليم شبانه ، ليصبح اسمه ومع لقاءه الأول بألحان رفيق الدراسة : « عبدالحليم حافظ» تيمنا بالإذاعى الكبير حافظ عبدالوهاب واعترافا بفضله ، وقد اقترنت هذه الأغنية بظاهرة لم تعهد قبل ذلك فى مجال الأغنية الفردية ، إذ حوت إشارة مجلة «الإذاعة المصرية» إلى توقيت إذاعتها الأولى ملاحظة تقول بأن الأغنية من توزيع فؤاد الظاهرى (الإذاعة المصرية : العدد ٨٤٧ - ١٩٥١/٦/٩ - ص ٢١) ، مضت ثلاثة شهور أخرى حتى ظهرت للنور الأغنية الخامسة من ألحان كمال الطويل ، وهى الثنائية الغنائية (دويتو) « أنا ولا أنت» التى جمعت بين صوتى سعاد مكاوى - أول من تغنى بألحان الطويل - وعبدالحليم حافظ رفيق مشوار الدراسة والغناء ، قدمت هذه الثنائية الغنائية فى العاشرة والنصف من صباح الخميس ١٩٥١/٩/٦ (الإذاعة المصرية : العدد ٨٥٩ - ١٩٥١/٩/١ - ص ٢٦) ، لم تكن الأصداء الطيبة لثنائية «أنا ولا أنت» قد تبددت من الآذان أو حتى أذيعت للمرة الثانية فى الإذاعة ، حتى أطلق

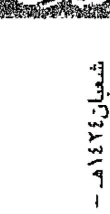
الطويل لحنه الدينى الأول متمثلا فى قصيدة «إلهى ليس لى إلاّك عونا» التى نظمها والده محمود ذكى الطويل بك، جاءت الإذاعة الأولى لهذه القصيدة التى حملت اسم «دعاء» بصوت المطربة فايدة كامل فى السابعة والربع من مساء السبت ١٩٥١/٩/١٥ (الإذاعة المصرية : العدد ٨٦١-١٩٥١/٩/١٥ - ص ٢٢) ، أى بفاصل تسعة أيام بين الأغنية السادسة والأغنية الخامسة ، لم ينقض شهر على ترنم فايدة كامل بقصيدة «إلهى ليس إلاّك عونا» .. حتى أتبعتها فى الثامنة من صباح الأربعاء ١٩٥١/١١/٧ بإعادة غناء أغنية «الصباح غنوة» ، وهى الأغنية الأولى من ألحان كمال الطويل والتى سبق وأن قدمتها الإذاعة بصوت سعاد مكاوى قبل ما يقرب من العام فى برنامج الجمعة ١٩٥٠/١٢/٢٩ .

قدم كمال الطويل الأغنية السابعة من ألحانه بالإذاعة فى مطلع عام ١٩٥٢ م ، وهى أغنية «ياضنين الأمس» التى كتبها مرسى جميل عزيز وتغنى بها كارم محمود فى الواحدة وعشرين دقيقة من بعد ظهر الجمعة ١٩٥٢/١/٤ (الإذاعة المصرية : العدد ٨٧٦ - ١٩٥١/١٢/٢٩ - ص ٢٧) ، لحقت بهذه الأغنية سريعا - كدأب الطويل فى أول مشواره - الأغنية الثامنة من ألحانه وهى أغنيته الوطنية الأولى على الإطلاق ، تغنى المطرب إبراهيم حموده بهذه الأغنية التى حملت اسم «يابورسعيد يا اسماعيلية» للمرة الأولى من الإذاعة المصرية فى السادسة من مساء الأحد ١٩٥٢/١/٣٠ ، وفيما يلى مطلع الأغنية التى نشرت مجلة «الإذاعة المصرية» نصها الكامل بالصفحة العشرين من العدد رقم (٨٧٩) الصادر فى يوم السبت ١٩٥٢/١/١٩ :

يا بورسعيد يا إسماعيلية
فى جهادكم رمز الوطنية
أبطالكم بالدم الغالى
كتبوا لنا تاريخ الوطنية
يا بورسعيد يا إسماعيلية

لحقت بتلك الأغنية بعد يومين فقط الأغنية التاسعة لكمال الطويل هى رائعته الخالدة «يا اسكندرية» ، ففى السابعة من مساء الثلاثاء ١٩٥٢/١/٢٢ انطلق صوت محمد قنديل «الباريتون» - طبقا للتقسيم الغربى لأصوات الرجال - ليترنم بكلمات محمد على أحمد - أيضا - التى تشكل مذهب هذه الأغنية : « بين شطين وميه .. عشقتكم عينيه .. يا غاليين عليه .. يا أهل اسكندرية» مصحوبة بلحن كمال الطويل المميز (الإذاعة المصرية : العدد ٨٧٩ - ١٩٥٢/١/١٩ - ص ٢٤) .

تعد قصيدة «لقاء» التى لحنها كمال الطويل من أشعار صلاح عبدالصبور ليتغنى بها رفيقه عبدالحليم حافظ .. آخر ما قدم الطويل من أغنيات إذاعية فى هذه الحقبة ، فقد قدمت الإذاعة المصرية قصيدة «لقاء» للمرة الأولى فى السادسة من مساء الأربعاء ١٩٥٢/٤/٢ (الإذاعة المصرية : العدد ٨٨٩ - ١٩٥٢/٣/٢٩ - ص ٢٧) ، وبأغنية «لقاء» بلغ عدد ما قدمه كمال الطويل عبر الإذاعة المصرية من أغنيات خلال عام ونصف عام .. عشر أغنيات ، تراوحت تلك الأغنيات من حيث القالب بين القصيدة والطقطوقة والأنشودة ، وتنوعت طبقا لأغراضها بين الأغنية الوصفية والعاطفية والوطنية والدينية ، ولكنها حملت جميعا سمات فكر كمال الطويل الموسيقى الذى اعتنقه طوال مشواره مع فن الغناء ، وهو فكر تمحور حول بساطة الجمل الموسيقية التى يتكون منها اللحن (الميلودى) الغنائى ، واعتماد



القفلات الغنائية البسيطة عوضا عن القفلات المركبة التى برع فى إبتكارها جيل العمالقة من أمثال زكريا أحمد ومحمد القصبجي ورياض السنباطى ، إضافة إلى اتخاذ الايقاعات البسيطة القريبة من بعض الايقاعات الغربية بديلا للايقاعات الشرقية المركبة ، وانتهاءا بادخال التوزيع الموسيقى ليصبح جزءا أساسيا من بنية هذه الأغنيات

التحول إلى السينما

لم يكن طريق كمال الطويل فى الإذاعة مفروشا بالورود كما قد يتوهم البعض الآن ، فبالرغم من أن تعينه كمشرف بقسم الموسيقى والغناء في عام ١٩٥٠ قد حدث إبان وجود وزارة وفدية فى الحكم (وزارة مصطفى النحاس الأخيرة) ، وهو ما قد يفسر الآن ووقتها على أن التحاقه بالعمل الإذاعى قد تم بناءا على صلة والده وعمه وكل الأسرة بحزب الوفد ، ولكن الثابت الآن - وكما ذكر كمال الطويل فى حديث الذكريات الذى أدلى به لطارق الشناوى - أن الطويل وجد نفسه خارج الإذاعة منقولا للعمل بوزارة التموين ، حدث ذلك بعد إقالة وزارة مصطفى النحاس فى ١٩٥٢/١/٢٧ أثر حريق القاهرة الشهير ، فكان من جراء ذلك الأبعاد أن توقفت ألحانه فى الإذاعة بعد قصيدة «لقاء» .



والأمر المؤكد .. هو أن كمال الطويل قد عاد إلى الإذاعة مرة أخرى فى عام ١٩٥٣ ، لم يعد الطويل إلى الإذاعة فى عام ١٩٥٣ كملحن كما بدأ معها فى عام ١٩٥٠ ، وإنما عاد ليعمل فى لجنة مختارات الإذاعة .

ولكن باب تلحين الأغانى الإذاعية ظل موصدا فى تلك الفترة أمام كمال الطويل ، مما حدا به للتحول إلى السينما يفرغ فى أفلامها الرائجة آنذاك بعضا من طاقاته التليحينية التى ظهرت بواكيرها المبشرة فى أعماله الأولى للإذاعة .

كان دعاء «قل أدع الله إن يمسسك ضر» من شعر والد كمال الطويل .. المهندس محمود ذكى الطويل ، هو أول ما لحن كمال الطويل من أغان سينمائية ، حيث تغنت به المطربة شادية فى فيلم «ماليش حد» الذى عرض فى ١٩٥٣/١١/١٦ ، وقد نهج كمال الطويل فى تلحين هذا الدعاء نفس نهجه فى تلحين الدعاء الأول «إلهى ليس لى إلاك عونا» وفى توقيت مقارب لتوقيت ظهور أغنية الطويل السينمائية الأولى .. ظهرت أغنيته الثانية فى ١٩٥٣/١١/٣٠ ، وذلك عندما عرض فيلم «الدنيا لما تضحك» والذى تضمن أغنية «يا شمعدان حارتنا» التى نجحت نجاحا يفوق الوصف يوم ظهور الفيلم ، فقد جذبت صياغة الطويل للجملة الأساسية فى اللحن الغنائى (الميلودى) لهذه الطقطوقة قلوب الجماهير قبل أسماعها ، ولم لا ؟ .. والجملة جاءتا من أعماق الحارة المصرية ومثلت أجواءها أصدق تمثيل ، وفى العام التالى - وهو عام ١٩٥٤ - قدم الطويل للسينما واحدة من أجمل وأطرف أغنياتها ، وهى طقطوقة «عجباني وحاشته» التى تغنت بها شادية فى فيلم «أوعى تفكر» الذى عرض فى ١٩٥٤/٩/٢٠ ، حيث لعب مذهب (مطلع) الطقطوقة الدور الأساسى فى جذب اهتمام المستمع ، فمن ذا الذى كان يتخيل أن تتغنى فتاة جميلة بهذه الكلمات : «عجبانى وحاشية عجبانى .. يا حبايب وهوه بيهوانى» ، فإذا ما اقترن هذا الكلام الطريف بإيقاع راقص بسيط .. فليس لاعجاب المستمع بعمل كهذا حدود ، ولم تكن «عجبانى وحاشته» هى الأغنية الوحيدة لكمال الطويل فى أفلام عام ١٩٥٤ ، وإنما سبقتها أغنية «الظلم حرام»

التى لحنها الطويل وتغنت بها شادية فى فيلم «الظلم حرام» الذى بدأ عرضه فى ١٩٥٤/٧/٢٥ .

حملت طقطوقة «على قد الشوق» وقصيدة «لاتلمنى» اسم كمال الطويل إلى ذرا الشهرة فى عالم الغناء ، وكلاهما - الطقطوقة والقصيدة - من نظم الشاعر محمد على أحمد ، وقد تغنى بهما رفيق الطويل فى دراسة الموسيقى .. المطرب عبدالحليم حافظ فى فيلمه الأول «لحن الوفاء» الذى عرض فى ١٩٥٥/٣/١ ، كانت بساطة الألحان والإيقاعات .. إضافة إلى ما تميز به صوت عبدالحليم فى تلك المرحلة من سمات خاصة .. هى جواز مرور كل من كمال الطويل وعبدالحليم حافظ إلى عالم الشهرة الساحر ، لم يكن قد انقضى أسبوع واحد على إنطلاق «على قد الشوق» و «لا تلمنى» من فوق شاشة سينما فريال بمدينة الاسكندرية لأول مرة ، حتى انطلقت طقطوقة «أسرار الحب» الساحرة بصوت نجاح سلام من على شاشة سينما أوبرا بالقاهرة فى يوم الاثنين ١٩٥٥/٣/٧ ، كانت «أسرار الحب» هى الأغنية السينمائية الخامسة لكمال الطويل ، والأغنية من نظم حسين السيد وتضمنتها أحداث فيلم «السعد وعد» ، ثم توالت بعد ذلك فيما تبقى فى عام ١٩٥٥ من أيام مجموعة من أجمل ما لحن كمال الطويل من أغنيات ، فاستمع الجمهور إلى «الحلو حياتى» و «هى دى هى» من عبدالحليم حافظ فى فيلمه الثانى «أيامنا الحلوة» الذى عرض فى ١٩٥٥/٣/٧ - «القلب بيتنهد» و «ليه خليتنى أحبك» بصوت ليلى مراد فى فيلمها الأخير «الحبيب المجهول» الذى عرض فى ١٩٥٥/٥/٢٣ وبذلك بلغ مجموع ما قدم كمال الطويل من أغنيات سينمائية فى عام ١٩٥٥ تسعة أغنيات ، مما جعل إبداعه فى هذا العام يقترب فى حجمه من إبداعه فى الإذاعة خلال العام ونصف العام الأول من مشواره مع الغناء والتلحين .

كان نصيب أغنيات أخرى قدمها الطويل بعد ذلك للسينما من النجاح معادلا لما لقيته أغنياته السينمائية الأولى من نجاح ، نذكر من تلك الأغنيات السينمائية أغنية قدمها مطرب لبنانى يدعى محمد مرعى من ألحان كمال الطويل فى فيلم وحيد ظهر فيه هذا المطرب ، كانت الأغنية هى «لأ يا حلو لأ» من نظم مرسى جميل عزيز ، وقد تغنى بها محمد مرعى فى فيلم «أول غرام» الذى للمرة الأولى فى ١٩٥٦/٣/٢٦ ، وقد حققت أغنية «لأ يا حلو لأ» نجاحا جعل الإذاعة تقدمها فى مختاراتها لسنوات طويلة ، وفى فيلم «غرام المليونير» الذى عرض فى ١٩٥٧/٢/١٨ .. تغنت نجاة الصغيرة بأغنية «سمارة» من ألحان كمال الطويل ، ولحن الطويل أيضا فى عام ١٩٥٧ استعراض «قطار السكة الحديد» الذى قدمه إسماعيل يس مع المطربة اللبنانية نزهة يونس فى فيلم «إسماعيل يس فى جنينة الحيوانات» الذى عرض للمرة الأولى فى ١٩٥٧/٩/١٦ ، وأعادت نجاة الصغيرة الكرة وتغنت بلحن آخر لكمال الطويل فى فيلم «غريبة» الذى عرض فى ١٩٥٨/٣/٥ ، كان هذا اللحن لأغنية من أجمل أغنيات الأفلام الغنائية هى أغنية «منسيه» التى عدت آنذاك «أغنية العام» برأى أهل الغناء والنقاد والجمهور ، كثيرة هى ألحان كمال الطويل الناجحة التى قدمها للسينما الغنائية ، ولايزال الجمهور يذكر حتى الآن الكثير من هذه الألحان التى قدمت فى أفلام مثل : « ألمظ وعبده

الحامولى : ١٩٦٢» - «الزوجة رقم ١٣ : ١٩٦٢» - «رابعة العدوية : ١٩٦٣» - «خللى بالك من زوزو : ١٩٧٢» - « أميرة حبى أنا : ١٩٧٤» - «جفت الدموع: ١٩٧٥» - «عودة الابن الضال : ١٩٧٦» و «شفيقة ومتولى : ١٩٧٨» ، وقبل هذه الأفلام .. وفى الصدارة تأتى ألحان كمال الطويل لعبد الحليم حافظ فى خمسة عشر فيلم تشكل مجمل ما مثل من أفلام عدا فيلمه الأخير « أبى فوق الشجرة» ، ويمكن القول بأن نجاح كل هذه الأغنيات السينمائية التى لحنها كمال الطويل ، إنما يرجع إلى أن السمات الأساسية لألحان تلك الأغنيات - ممثلة فى بساطة الجملة الغنائية والقفلات إضافة إلى سرعة الإيقاع وبساطته - تعد هى الأنسب لتوفير المتطلبات الضرورية لنجاح الأغنية السينمائية ، وهو ما جعل ألحان الطويل موضع طلب دائم فى الأفلام الغنائية خلال مشواره مع الغناء .

أغنيات الحماسة

تعددت أغراض الغناء على مدار التاريخ باتساع اهتمامات البشر ومداركهم ، ولكن يظل الغناء للوطن - منذ عرف الناس الغناء - فى الصدارة من كل ما ينتج من هذا الفن ، ولقد أظهر كمال الطويل إهتماما مبكرا بالأغنية الوطنية ، وذلك عندما لحن أغنية «يابور سعيد يا إسماعيلية» فى شهر يناير من عام ١٩٥٢ ، كما سبق وأسلفنا فى سياق هذا المقال ، وكانت ثانى أغنيات كمال الطويل الوطنية وفى نفس الوقت أول أغنية وطنية له بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، هى أغنية «قوم يا أسطى مجاهد» التى كتبها إبراهيم رأفت ولحنها كمال الطويل ، ليتغنى بها المطرب سيد إسماعيل من إذاعة القاهرة فى الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقة من مساء الأحد ١٩٥٣/٧/٢٦ (الإذاعة المصرية : العدد ٩٥٨ - ١٩٥٣/٧/٢٥ - ص ٣٤) وفى عام ١٩٥٥ - وبمناسبة عيد الثورة الثالث - لحن كمال الطويل أغنية «عاشق جمال بلدى» وهى من نظم محمود جاد وغناء سيد إسماعيل أيضا .

لم تكن أحداث السنوات الأولى للثورة - الموجهة ضد الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها كمال الطويل وضد ما تعتنقه من فكر سياسى - لتترك صدى فى إبداعات الطويل، ولكن الاعتداء على أرض الوطن فى الأيام الأخيرة من عام ١٩٥٦ مثل مصدر الإلهام الحقيقى عند الطويل وجمهرة أهل الغناء فى ذلك الوقت لإبداع أعمال غنائية كتب لها الخلود ، فعلى صوت غارات الطائرات المعادية تقتحم حرمة السماء المصرية وتدك أرض الوطن ، أملى الشاعر صلاح جاهين لصديقه كمال الطويل النص التالى لمطلع نشيد استلهمه مما يدور حوله : «والله زمان يا سلاحى .. اشتقت لك فى كفاحى .. انطق وقول أنا صاحى .. يا حرب والله زمان» ، فينفعل الطويل بهذه الكلمات القوية التى تضج بالحماسة .. فيبدأ فى تلحينها من فوره ، وعندما أكمل جاهين كتابة النشيد خلال يومين ، كان فى ستة وثلاثين ساعة الكفاية لتسجل أم كلثوم هذا النشيد الحماسى الهادر ، وهو نشيد يجيىء فى المقدمة من أناشيد يوليو بحماسة الذى فاق الحدود ، وبالرغم مما حفل به نشيد «والله زمان يا سلاحى» من حماسة .. فقد لحن الطويل أغنية أخرى إبان العدوان الثلاثى لاتقل فى حماسها وصدقها عن ذلك النشيد ، كانت الأغنية هى «الجنة هى بلادنا» التى كتبها صلاح جاهين وتغنى بها الصوت الأثير بين النساء لدى الطويل ويغنى به صوت المطربة نجاة الصغيرة.

تأخر لقاء ألحان كمال الطويل الوطنية بصوت عبدالحليم حافظ حتى شهر يناير من عام ١٩٥٧ ، ففى هذا الشهر .. سجل عبدالحليم حافظ لإذاعة القاهرة قصيدة « إنى ملكت فى يدى زمامى» من شعر مأمون الشناوى وأغنية «احنا الشعب» من نظم صلاح جاهين وكلاهما - القصيدة والأغنية - من ألحان كمال الطويل (الإذاعة : العدد ١١٣٩ - ١٩٥٧/١/١٢) ، كانت قصيدة « إنى ملكت فى يدى زمامى» مثالا لألحان الطويل السابقة .. جمل سهلة يضبطها إيقاع بسيط ويجملها توزيع حديث ، بينما جاءت «إحنا الشعب» متقدة بالحماسة التى مازالت حتى اليوم لايخبو لها أوار ، فمن من الأجيال التى عاصرت ظهور هذه الأغنية لايشعر - حتى الآن - بالحماس يهز كيانه مع كلمات مطلعها التى تقول : «إحنا الشعب .. إحنا الشعب .. اخترناك من قلب الشعب .. يا فاتح باب الحرية .. ياريس يا كبير القلب» ، ثم توالت ألحان الطويل لعديد من الأغنيات الوطنية التى شدا بها عبدالحليم حافظ فى مناسبات الثورة واحتفالاتها ، كانت هذه الأغنيات وطبقا لتسلسلها التاريخى :مصر وسوريا : فبراير ١٩٥٨ - « يا جمال يا حبيب الملايين : مايو ١٩٥٨» - «حكاية شعب : ١٩٦٠/١/١٠» - « بالأحضان : ١٩٦١/٧/٢٣» - « مطالب شعب : ١٩٦٢/٧/٢٣» - «المسئولية : ١٩٦٣/٧/٢٣» - «بلدى يا بلدى : ١٩٦٤/٧/٢٣» - « يا أهلا بالمعارك : ١٩٦٥/٧/٢٣» و «صورة : ١٩٦٦/٧/٢٣» ، وهى أغنيات سجلت إنجازات الثورة ومعاركها فى الحقبة التى توالت فيها ، حملت تلك الأغنيات بصمة كمال الطويل المعروفة فى الألحان الغنائية ، وعبرت عن فكره التجديدى الذى عمل على تحرير الأغنية العربية من كثير من عيوبها .

لم تقتصر أغنيات كمال الطويل الوطنية - بالرغم من قلة إنتاجه الملحوظة - على صوت عبدالحليم حافظ ولا على مرحلة بعينها ، حيث قدم لأصوات أخرى بعض الأغنيات الوطنية ، وأما من حيث تدفق أغنيات كمال الطويل الوطنية عبر مراحل النضال المصرى فى النصف الثانى من القرن العشرين ، فإن أغنياته التى قدمها فى أعقاب نكسة عام ١٩٦٧ : « إبنك يقولك يا بطل» - « أحلف بسماها وبترابها » و«خللى السلاح صاحى» وكلها بصوت عبدالحليم حافظ ، إلى جانب أغنيته الشهيرة «صباح الخير يا سينا» التى تغنى بها عبدالحليم حافظ فى أعقاب انتصار أكتوبر ١٩٧٣ ، تقف كل هذه الأغنيات شاهدا على أن ألحان كمال الطويل الوطنية كانت ديوانا لنضال الشعب المصرى بدءا من خمسينيات القرن العشرين وحتى نهايته .

[illegible]

إمتد عمل كمال الطويل بلجنة مختارات الإذاعة فيما بين عامى ١٩٥٣ و ١٩٥٦ ، ثم نقل فى عام ١٩٥٦ ليعمل كمفتش للموسيقى بوزارة التربية والتعليم ، وفى عام ١٩٦٥ .. استقال كمال الطويل من عمله ليتفرغ للتلحين ، وبالرغم مما قدمه كمال الطويل للغناء على طول مشواره ، فإن ما ناله من الجوائز والتكريم كان أقل مما يستحقه .

إن ما قدمه كمال الطويل للغناء العربى لاتعدله جائزة مهما بلغت قيمتها ، ولكن يعدله حب الجمهور وتقدير الدولة فى زمن الفن الجميل الذى (راح وانقضى)! ■



قصة قصيرة

مشاهد بغدادية من القصف المتواصل

بقلم
حسنى سيد لبيب

١ - صلاة الفجر

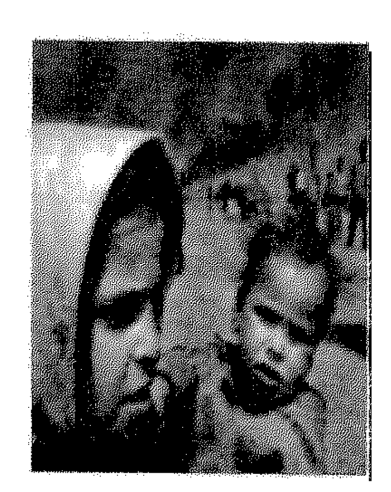
مازال القصف متواصلا ليل نهار . انفجارات هنا وهناك ، تخلف دمارا شاملا وحرائق هائلة ! القصف من طائرات صماء بكماء، تصنع الكارثة من على ارتفاع شاهق . قذائف المدفعية المضادة تضرب فى كل اتجاه خبط عشواء . قائد الطائرة يخترق الأجواء مختالا بما يلقيه من قنابل ضخمة ، غير مكترث بما تخلفه من دمار وخراب . غير مكترث بأثر القوة الهائلة على تركيبة القشرة الأرضية ، وما يخلفه القصف من آثار بدنية ونفسية . كأن ما بيده دمية يلهو بها ! القصف المدوى المزلزل لايخطىء أهدافه من البنايات والناس والمساجد والآثار العريقة، إلا رحمة الله تقف بالمرصاد ليخطىء القصف بعض الأهداف . تهتز الأرض من تحت أقدام العراقيين . دوى الأصوات مرعب يخرق الآذان .

يتضوع الفضاء الممتد بعبق أذان الفجر . يبث السكينة فى القلوب المؤمنة . يكبر المؤذن . الله أكبر .. الله أكبر .. يتقاطر المسلمون من كل حدب ، قاصدين . جامع أبى حنيفة النعمان بالأعظمية . القصف لايتوقف . صوت الإمام ينادى

بإقـامـة الصـلاة ، بينا يسـمع انفـجـار فـى مكان بعيد . يكاد صوته المدوى يغطى على صوت الإمـام . تسـتـوى صـفـوف المصلين ، مـتـقـربين إلى الله . يتلو الإمـام سـورة الفاتحة وسورة المؤمنون : **﴿قـد أفلح المؤمنون ● الـذيـن هـم فـى صلاتهم خاشعون﴾** .. قـصـف مـتـواصل يكاد يقطع على الإمـام والمصلين خـشـوعـهم .. يكاد يعد عليهم أنفاسا مـعدودة قبل أن يأتيـهم الموت المبـاغت . لكنهم ظلوا رابطى الجـأش .. أكمل الإمـام **﴿والذين هم عن اللغـو مـعـرضـون﴾** .. يكمل السـورة .. يتـواصل الخـشـوع مع الركـوع والقيام والسجود . صوت الإمام الجلى يغطى على دوى القصف ، والمصلون خلفه فى خشوع تام ...

٢ - كيس الحلوى

عـاشت بغـداد تحت الحصار أوقاتا عصيبة ، حين أمطرت السـمـاء قنابل وصـواريخ . لكن الحيـاة تبدو طبيـعـية .



طفل فى العاشرة يخرج من البيت يبتـاع كيس حلوى من مـحل أبو مـصطفى صاحب الابتسامة الطيبة. تناول الكيس ، وهرع إلى البـيت . لكنه توقف على صـوت أنفـجـار . ناس يتصايحون : «قنبلة أصابت بيتـا ..» . جرى الرجـال والشـبـاب إلى مكان الانفجار . إنهار بيت ودفن أسفله ثلاثة محال بمن فيها .قـفـز عـمـرو راجـعـا . لم يتـمكن من رؤية شىء . تزاحم الناس مـحـاولين إنقـاذ الأحـيـاء وإخـراج الضحـايا . ندت دمـعـة من عـينيـه . سـأل عن أبومصطفى . أين هو ؟ قد تحول المحل إلى كومة تراب . لم يجبـه أحد . الكل لاه عنه . ومـا درى بكيس الحلوى وهو يسقط من بين يديه ..

عـاش عـمـرو أهوال القصف المتواصل . سمع حكايات ومـرويات عن شـهـود عـيـان للمجـازر والمذابح . وفى جعبته حكاية مريرة عن الشهيد أبومـصطفى . سـمع عن الدبابات الأمـريكيـة التى اسـتـقـر بهـا المقـام فى الشـارع الرئيسى . خرج هو وأصـحـابه الثـلاثة . تشـجـعـوا ليـروا الدبابة الضـخـمـة . هل يقذفهـا بحـجـر ؟ نهـره رفـاقـه . حـتى لايفـتح الأمـريكان النار عليهم . هم ذاهبون ليـروا الدبابة .شـاهد فى التلفـاز مـا يفـعله الفلسطينيـون من رجم المحتل بالحجارة . سمع من أبيه كلمات يسمعهـا ربما لأول مرة الاحـتـلال .. تـأمل الأربـعـة الدبابة والجـنـود المسـلحـين والخـوذات الفـولاذية .. ابتسم أحدهم للصغار.. لم يبـادلوه الابتسـام . ظلوا مكفـهرى الوجوه . قـفـزوا راجـعين إلى الحى الشـعـبى .. لكن عـمـرو غافل أصحابه . كان قد خبأ حجرا صغيرا فى جيبه ، ألقاه على الجندى

.. لكنه أخطأه . ابتسم الجندى الذى رغبه فى الاقتراب . دنا منه . أرتعد . خاف أن يصوب نحوه السلاح . حاول أن يلوذ بالفرار . خشى أن يصيبه الجندى . تسمر مكانه لايدرى كيف يتصرف . مد الجندى يده بكيس حلوى ، متوددا ، فركض فى خوف .. وحكى لأصحابه عن الحلوى الذى رفض أن يأخذها ، وعن الحجر الذى ضرب به الدبابة الضخمة !

١ - عرس بغدادى

أصر جاسم على عقد القران والزفاف باكر .

قال أبوفاطمة :

- تريث لحين انتهاء الغارات التى لاتنقطع ليل نهار ..

- لا أعرف متى تنتهى الحرب ..

أكمل مصمما :

- كل شىء جاهز .. البيت والأثاث .. لاينقص الدار إلا فاطمة ..

الموافقة فكرة مجنونة لم يتحمس لها أحد . انحاز أبوفاطمة إلى جاسم ، رغم عدم



اقتناعه، مد يده يصافحه :

- على بركة الله ..

لم يتمالك كتمان فرحته الطاغية ، فنهض محتضنا أبا فاطمة ..

وأقيم العرس على إيقاع القنابل المضيئة ، والمواقع المشتعلة . احتشد الجمع الذى استطاع أن يشارك فى زرع ابتسامة ما . توافد صحفيون ، مصورين ومراسلين ، يباركون الزيجة ، وينقلون لقطات من حفل العرس ، بعد أن ملوا من نقل أخبار الموت والدمار . البعض يتساءل : أمن رحم الموت تولد الحياة ؟

التف حشد حول العروسين ، وقد اشتعلت الأكف بالتصفيق والتهليل . فتيات وأطفال يضيئون العرس بالشموع والابتسامات .. على إيقاع الأكف رددت البنات والسيدات هتافاً غنائياً لايغيرنه :

- لا إله إلا الله .. لا إله إلا الله ..

٤ - نخيل البصرة والفاو

صرخت سيدة أردنية فى وجه الصحفى :

- إن خلصت الرجال، يبقى النساء . وإن خلصت النساء ، يبقى الأطفال .. وإن خلصت الأطفال ، يبقى نخيل البصرة والفاو ..

وصرخت سيدة عراقية :

- أين أنتم يا عرب !

حين اشتد الحصار ودهس جنود الغزاة شوارع بغداد ... انقلبت المدن العراقية إلى حالة من الفوضى وحوادث السلب والنهب ..

اقتحمت سيدة الحشد الملتف حول مراسل صحفى ومصور. انتزعت من الواقفين الأضواء ، صارخة :

- عندنا الماء والكهرباء والطعام . لانريد إحسانا من أحد . فقط إعطونا الأمان ..

قال شاب محتدا :

- عندنا من العطام

مايكفينا ..

قالت امرأة عجوز بصوت متحشرج :

- كله راح ، البيت تهدم .. العوائل ماتوا .. أين ضمير العالم ؟ أين الشعوب ؟

٥ - استشهاد مراسل صحفى

هرع مراسلون وصحفيون ينقذون مصابين من زملائهم ، ناقلوا الأخبار أصبحوا هم خبرا تتناوله الصحف وقنوات البث . صدمهم استشهاد زميلهم . شيعوه فى جنازة مهيبة إلى السيارة التى تقله إلى الأردن . كان طارق أيوب من أنشط المراسلين . قال أبوه :

- أتمنى أن أموت شهيدا مثله .. أتمنى ...

مساء الثلاثاء الحزين ، أوقد زملاؤه الشموع فى فندق فلسطين بوسط بغداد . كل يدعو له بالرحمة والجنة التى وعد الله الشهداء بها . التفوا فى نصف دائرة ، فى بهو الفندق . اختلفت جنسياتهم وألسنتهم ، لكن وحدت بينهم مشاعر



إنسانية .. إنهم يمثلون ضمير العالم . ثمة صمت مهيب جمعهم فى تلك اللحظة العصيبة . من الممكن أن يكونوا وليمة سهلة لقنبلة مجنونة أو صاروخ طائش ! انتحرت الكلمات على الشفاه ، فما عاد أحد يصدق ما قيل وما يقال . طارق أيوب فلسطينى الجنسية .. وفلسطين مأساة أخرى ، قديمة وجديدة !

٦ - بئر سحيقة

التف الناس حول بئر سحيقة . قال البعض أن فى أسفلها مساجين ربما هم تحت الأرض منذ سنوات بعيدة . أطلق البعض نداء فسمع الصدى القوى بما يبين عن مقدار المسافة الكبيرة، التى تمتد خلالها الأسطوانة الأسمنتية المخيفة . انتظروا حتى تلاشى الصوت والصدى . فأتاهم صوت رجل لايراه أحد يجيب على النداء . يتردد الصدى المخيف ، أسفل المياه الجوفية ، عبر سراديب ودهاليز لا يعلمها أحد . كأن بين عالمهم والعالم السفلى مفازة هائلة كتلك التى بين الأرض والقمر أو المريخ ! لطمت سيدتان متشحتان بالثياب السوداء ، على حال من يعيشون فى جوف الأرض معزولين عن العالم . اقترح أحد الواقفين أن يمد حبل سميك . حذره آخر من أن الحبل قد يكون قصيرا ، أو أن الذى يمسك به قد يقع فى البئر فيغرق فى مياهه !

لايعرف أحد كيف انتهت فصول المأساة . فقد انقطع بث التقرير المصور من على شاشة التلفاز ، ليبدأ تقرير آخر عن فاجعة أخرى ! ▢



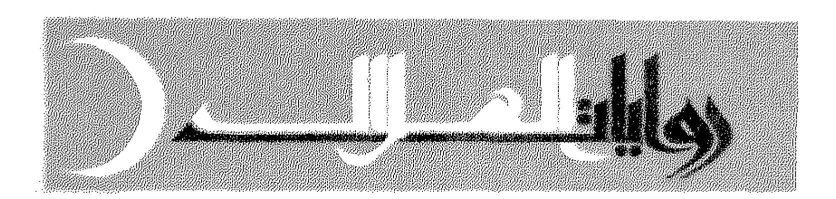


بقلم

د. عبد المحسن صالح

يصدر ٥ اكتوبر
سنة ٢٠٠٣

رئيس التحرير
مصطفى نبيل



٢٠٥



شعبان ١٤٢٤هـ - أكتوبر ٢٠٠٣م

شارع مصنع النسيج

بقلم

صفوت عبد المجيد

تصدر ١٥ اكتوبر
سنة ٢٠٠٣

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

رحلة فوق ملامح الزمن

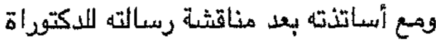
قاسم عبده قاسم

كثيرا ما يوصف الزمن بأوصاف إنسانية تعبر عن رغبة البشر فى نسبة أفعالهم، حلوها ومرها، إلى الزمن. ولأن الزمان وعاء آنى لأفعال البشر فلا يمكن أن تكون له هذه القدرة الإيجابية على تشكيل حياة الناس. وربما يكون المقصود بالزمن الظروف السائدة فى مرحلة زمنية ما، وهى على أية حال، ظروف صنعها الإنسان بشكل تراكمى. فالمرحلة الزمنية التى يمكن أن توصف «بالزمن الجميل»، مثلا، هى فى واقع الأمر نتاج لعمل البشر في مجالات الحياة المختلفة وداخل إطار ثقافة بعينها، وفى حدود نظام قيمي وأخلاقى متناغم ومتناسق، وحياة سياسية تخلو من الاستبداد والظلم ... وهلم جراً. أما الفترة الزمنية التى توصف بالزمن الرديء مثلا، فهى فى حقيقتها نتاج الاستبداد السياسى، والتراجع القيمى والأخلاقى، والتدهور الاقتصادى، والارتباك الثقافى.. وهكذا. والذى يشكل ملامح الفترة الزمنية فى كل من المثالين السابقين هو عمل الإنسان. ومن ثم فإن ان هو المسئول عن ملامح الزمان .



صورة تذكارية في لندن – منتصف الستينات

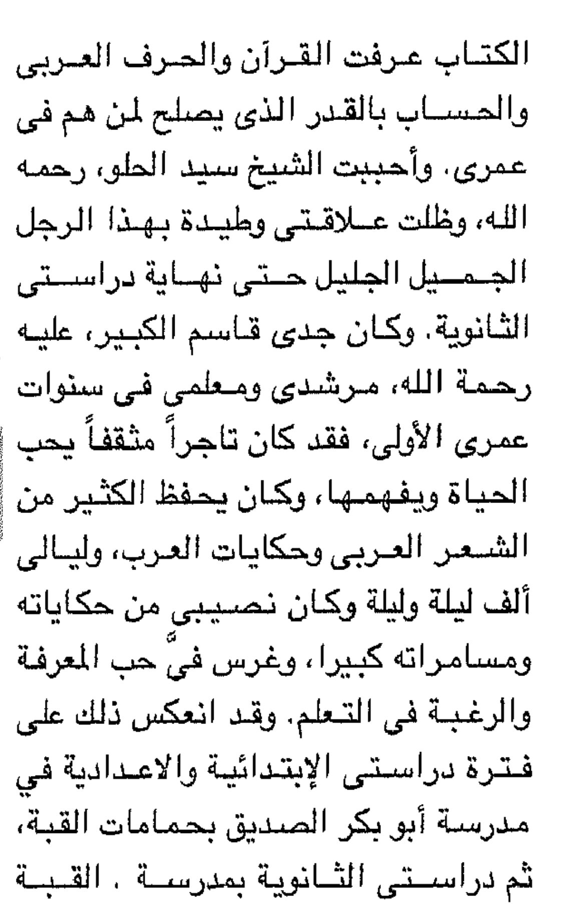




ومع أساتذته بعد مناقشة رسالته للدكتوراة

هذه الفذلكة ضرورية، فى تصورى، للدخول إلى عالم الرحلة التى قطعتها فوق ملامح الزمن الذى عشت حياتى فى رحابه، وقد تنوعت هذه الملامح ما بين الابتسام والعبوس، والثورية والتراجع، والانتصار والانكسار، والفرح والترح، والرخاء والشقاء. فقد كان مولدى ذات يوم من أيام شهر مايو سنة ١٩٤٢م، أى فى عز أحداث الحرب العالمية الثانية، وحكت لى أمى أنها كانت تحملنى وتجرى لتحمينى ونفسها فى المخابىء التى عرفتها القاهرة آنذاك هرباً من غارات الألمان فى حرب لم تكن لمصر فيها مصلحة ولكنها ذاقت مرارة ضررها.

عرفت أول طريق العلم والدراسة فى الكُتَّاب وأنا دون الخامسة من عمرى، وفى



الكتاب عرفت القرآن والحرف العربى والحساب بالقدر الذى يصلح لمن هم فى عمرى، وأحببت الشيخ سيد الحلو، رحمه الله، وظلت علاقتى وطيدة بهذا الرجل الجميل الجليل حتى نهاية دراستى الثانوية. وكان جدى قاسم الكبير، عليه رحمة الله، مرشدى ومعلمى فى سنوات عمرى الأولى، فقد كان تاجراً مثقفاً يحب الحياة ويفهمها، وكان يحفظ الكثير من الشعر العربى وحكايات العرب، وليالى ألف ليلة وليلة وكان نصيبى من حكاياته ومسامراته كبيرا، وغرس فىَّ حب المعرفة والرغبة فى التعلم. وقد انعكس ذلك على فترة دراستى الإبتدائية والاعدادية في مدرسة أبو بكر الصديق بحمامات القبة، ثم دراستى الثانوية بمدرسة . القبة

الثانوية فى منشية البكرى.

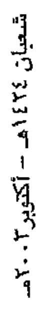
كنز لا ينضب

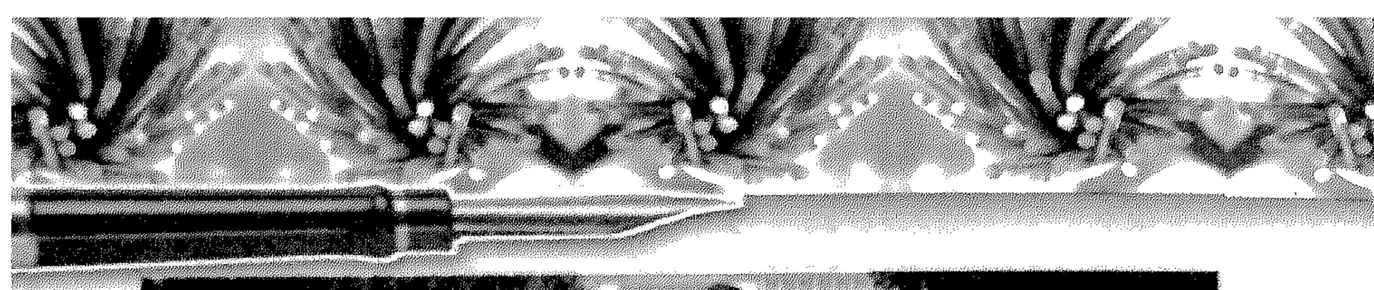
فى هذه السنوات الباكرة من عمرى عرفت القراءة كنزاً لا ينضب، واتخذت الكتاب رفيقاً لا يخون ولا يغدر. ولكن قراءاتى الأولى كانت روايات الجيب وقصص شرلوك هولمز وأرسين لوبين التى كنت أؤجرها بقرش صاغ من «عم حجازى» بائع الكتب القديمة على الرصيف بشارع الملك «مصر والسودان» بحدائق القبة حيث انتقلنا للسكن هناك من منشية البكرى.

كان أبى رحمه الله رجلاً بسيطاً من أبناء الطبقة الوسطى فى القاهرة وكان حظه من التعليم قليلاً، لكنه كان فناناً مرهف الحس، يغنى ويمثل ويعزف على العود على سبيل الهواية فى آخر النهار عندما يعود من عمله ليغسل إرهاق اليوم بهذا الفن البديع، ولم يكن قارئا مثقفاً مثل جدى لكنه كان إنساناً راقياً بكل معنى الكلمة. وبسببه أحببت الفن وتذوقته وما كنت أتمنى شيئا في حياتى مثلما تمنيت أن أكون فناناً.

كانت تلك أياماً تتسم بالدفء والبساطة والجمال، وكان يوم ذهابنا إلى سينما الفالوجا بمنشية البكرى بمثابة العيد الأسبوعى لنا نقضيه بصحبة أبى. وأدركت أن الحياة لا تستقيم ولا يكون لها معنى إذا خلت من الفن. وحين كبرت كنت أدخر جزءاً من مصروفى اليوم للذهاب إلى السينما أسبوعيا، وانبهرت بالأفلام العربية وأداء جيل الفنانين الكبار، بكيت مع فاتن حمامة وأمينة رزق، وضحكت مع نجيب الريحانى وسليمان نجيب وعبدالفتاح القصرى وإسماعيل ياسين وحسن فايق وعبدالسلام النابلسى وغيرهم، وعشقت فريد شوقى نائب الضعفاء على الشاشة البيضاء... وفوق هذا وذاك صدقت كل القيم النبيلة التى حملتها أفلام ذلك الزمان.

وحين أشتد عودى، وسار فكرى خطوات نحو النضج انتشيت بأغانى عبدالوهاب وعبدالغنى السيد، ومحمد قنديل، وعبدالعزيز محمود، وعرفت الحب مع أغانى عبدالحليم حافظ ، وأحببت أغنيات شادية وفايزة أحمد وليلى مراد ونجاة الصغيرة. حين ظهر عبدالحليم حافظ وذاع صيته كنت أظنه يغنى نيابة عنى أنا بالذات. وكان تلك مرحلة البراءة الكاملة والخيال المحلق بلا حدود. أما أم كلثوم، فلم أعرف قدرها سوى وأنا فى الجامعة، وكان الخميس الأول من كل شهر – موعد حفلتها الشهرية – مناسبة نستعد فيها للسهر عند أحد الأصدقاء ممن يمتلكون جهاز الراديو الذى كانت العائلات التى تمتلكه قليلة، وتحرص على وضعه فى مكان بارز فى الصالة حتى يراه زوارها.







قاسم عبدة قاسم مع أحد الاصدقاء أثناء زيارته لليونان

صعوبة فى الفلسفة

لم يكن التليفزيون قد ظهر بعد فى مصر، وكانت تمثيلية الساعة الخامسة والربع تجتذب أعداداً من الجيران للاستماع إليها فى بيتنا، وفى بيوت أخرى مجاورة، وكانت المسلسلات تسد حاجة الناس الدائمة إلى «الحكاية» (وحين ظهر التليفزيون فيما بعد شدت مسلسلاته الناس بعيداً عن الراديو) ولكن ذلك لم يكن كافياً ليشدنى بعيداً عن الكتاب، ففى المرحلة الثانوية بدأت أقرأ روايات نجيب محفوظ (التى شدتنى إلى التاريخ الاجتماعى فيما بعد) وقصص إحسان عبدالقدوس، وأمين يوسف غراب، ومحمد فريد أبو حديد وجرجى زيدان. ثم بدأت أقرأ كتباً أخرى فى الأدب وفى التاريخ وفى الفن. وحين حاولت القراءة فى الفلسفة لم أفهم شيئا. أما القراءات السياسية فقد تأخرت كثيراً إلى ما بعد تخرجى من الجامعة.

لقد أمضيت ذلك الشطر الباكر من حياتى، شأن بقية أبناء الطبقة الوسطى موزعاً بين الدراسة المنتظمة فى المدرسة، مرحلة بعد مرحلة، وبين الاستمتاع بالفن وأشكاله المتاحة من خلال السينما والراديو (فأنا لم أعرف المسرح سوى فى المرحلة الجامعية) والقراءة فى الكتب التى يتيسر لى الحصول عليها والصحف والمجلات. ولم أكن قد عرفت طريقى أو حددت هدفى حتى دخول الجامعة. وحين التحقت بكلية الآداب بجامعة القاهرة فى أوائل الستينيات لم أكن أعرف بالضبط ماذا أريد. وحدث ذات مرة أن حضرت مع زميل بقسم التاريخ محاضرة لأستاذنا الراحل الدكتور محمد أنيس فحدث الانقلاب الأول فى مجرى حياتى، بيد أنه كان انقلاباً جميلاً. كان

الأستاذ يلقى محاضرة فى قسم التاريخ، وكنت طالباً بالسنة الأولى، وفى الأيام الأولى محتاراً بين أقسام الكلية حتى سمعت هذا الأستاذ العظيم رحمه الله، وعرفت أن التاريخ ليس علماً ينتمى للماضى، وأنه ليست حكايات تحكى، وقصصا تروى عن سالف العصر والآوان، وأدركت فيما يشبه الإلهام أن هذه هى الدراسة التى اختارنى الله لها، فاخترتها لنفسى.

تكوينى الأكاديمى

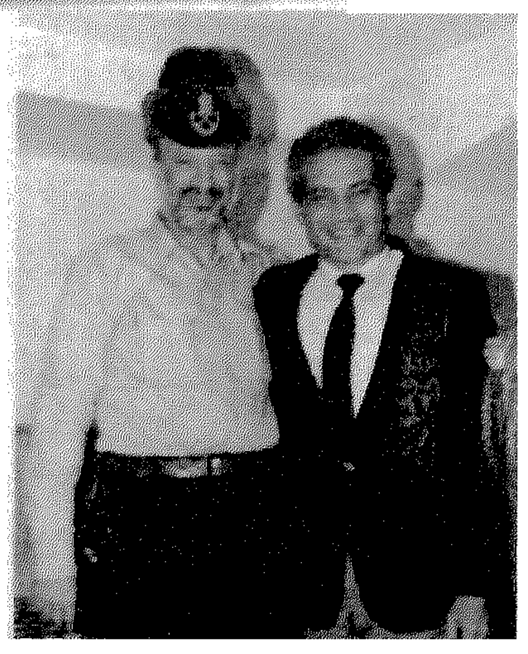
وفى قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة اسهم كثير من أساتذة ذلك الزمان فى تكوينى الأكاديمى والفكرى، فالدكتور محمد أنيس والدكتور سعيد عاشور، أمد الله فى عمره، والدكتور إبراهيم نصحى، والدكتور محمود شكرى أستاذ الأدب الإنجليزى.. وغيرهم كانوا يجسدون معنى الاستاذية الحقة وكانت علاقتى الشخصية بهم حميمة وقوية لاسيما الدكتور سعيد عاشور والمرحوم الدكتور عبداللطيف أحمد على. وفى كلية الآداب تفتحت شهيتى على الحياة الجامعية، وعشت المرحلة الجامعية طولاً وعرضاً وعمقاً. فقد بدأت أقرأ كثيراً فى تخصصى وفى مجالات أخرى ليس من بينها السياسة، ولكنى عرفت الطريق إلى القراءة فى الفلسفة. وكان من حظى أن المؤرخ الكبير أرنولد توينبى جاء أستاذاً زائراً بقسم التاريخ وكنت ممن أسعدهم الحظ بسماع هذا الرجل، وزاد يقينى من أهمية التاريخ فى فهم الإنسانية وحل مشكلاتها. وفى كلية الآداب مارست كل أنواع النشاط الجامعى، فقد كنت بفريق الجوالة وانتخبت فى اتحاد الطلبة ثم انسحبت، وانضممت إلى فريق التمثيل، وشاركت فى عدد هائل من الحفلات الجامعية تمثيلاً وغناءً.. ثم أدركت أن الفن ليس بالنية ، وإنما بالموهبة التى لم يمنحنى الله إياها. وكنت عضواً نشطاً فى الجمعيات الفنية والأدبية والثقافية التى كانت الجامعة تعج بها فى تلك الأيام، بل إننى كنت عضواً فى فريق التجديف بالكلية. وأذكر أننى لم أترك رحلة من رحلات الكلية لم أشارك فيها.

للحياة جوانب عديدة

كان هذا النشاط الجامعى من أهم مصادر تكوينى الثقافى، فقد تعلمت من المشاركة فى النشاط الجامعى بكلية الآداب أن للحياة جوانب عديدة، وأنه لا يمكن للإنسان أن يعيش جانباً واحداً من هذه الجوانب. وقد تعلمت الكثير من حقائق الحياة من خلال معسكرات العمل فى الريف المصرى، وفى المعسكرات الدولية التى كانت تقام فى وادى النطرون وفى أبو قير بالإسكندرية والتى كانت تضم شباباً من جميع أنحاء العالم. ويرجع الفضل فى اهتمامى بدراسة التاريخ الاجتماعى إلى



قاسم عبدة قاسم في فريق الجوالة



وفي لقطة تاريخية مع ياسر عرفات

هذه الفترة الغنية الخصبة من شبابى.

كان المسرح هو الباب السحرى الذى دخلت منه إلى رحاب الثقافة الإنسانية العالمية، وقد جربت التمثيل على المسرح، ولكن الأهم من ذلك أننى قرأت بنهم مسرحيات عالمية كثيرة، وشاهدت مسرحيات رائعة زخرت بها فترة الستينيات، وعرفت عن قرب أساتذة كباراً من المخرجين والممثلين والفنيين لاتزال تربطنى بعدد منهم علاقات ود وصداقة حميمة، منهم الأستاذ سعد أردش، والأستاذ نجيب سرور رحمه الله، والأستاذ كرم مطاوع رحمه الله والأستاذ محمود ياسين والأستاذ أحمد بدير والأستاذ المنتصر بالله والدكتور هانى مطاوع، والدكتور سامى صلاح، والدكتور سامى عبدالحليم والدكتور فاروق الرشيدى.. وكثيرون غيرهم. وكان المسرح مصدراً مهماً من مصادر تكوينى الثقافى أيضا من خلال ندوات المناقشة التى كانت تعقد فى بعض المسارح، أو فى رحاب الجامعة، لمناقشة النصوص والإخراج والتمثيل وموسيقى المسرحيات، والديكور، والإخراج... وما إلى ذلك.

وكان المسرح، أيضا، كنز المعرفة الإنسانية العظيم الذى عرّفنى بالنماذج البشرية الفردية، والمواقف الإنسانية، والمشكلات الاجماعية، والتفاعل الفكرى والثقافى بين أمم البشرية. وبفضل المسرح أدركت الكثير من القيم الإنسانية مثل الحب، والبطولة، والشجاعة، والصدق، والتضحية، والمدهش أن المسرح كان

بالإضافة إلى هذا كله بابى الذى دخلت منه إلى عالم السياسة المذهل بتناقضاته وتشابك العلاقات الإنسانية داخله. وتعرّفت بفضل المسرح على مشكلات مصر والعالم العربى السياسية، ونضال أمم الأرض وشعوبها فى سبيل الحرية والتخلص من استبداد الإمبريالية العالمية فى الخارج، والنظم الاستبدادية فى الداخل.

دور المتفرج

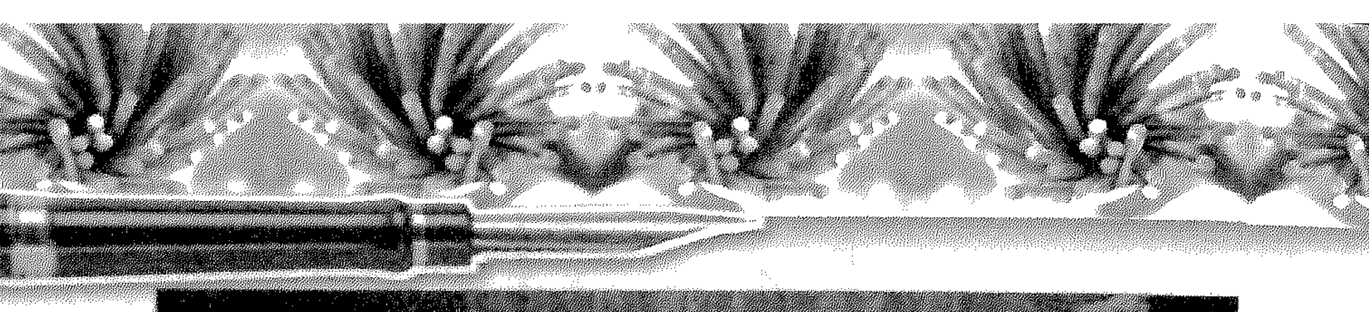
كنت قبل هذا قد عشت ملحمة النضال المصرى والعربى من أجل التحرر الوطنى فى أزمة السويس والعدوان الثلاثى سنة ١٩٥٦، ولكن درجة النضج الفكرى والوعى السياسى لدى لم تكن تسمح لى بأكثر من دور المتفرج وظل الحال كذلك طوال حياتى الجامعية حتى عرفت المسرح، وبدأت أسأل وأسعى للحصول على الإجابات. لقد شاهدت أولى حوادث ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م حينما شاهدت من نافذة بيتنا فى شارع الخليفة المأمون عددا من الجنود والدبابات فى ذلك الشارع صباح ذلك اليوم المجيد. وحين جاءت جريدة المصرى وقرأ أبى الخبر رأيته مبتهجاً بشكل لم يحدث من قبل، كما أن أمى عبرت عن فرحتها بالزغاريد، ولم أفهم ساعتها سبب كل هذه الفرحة وكان على أن أنتظر طويلاً حتى أفهم.

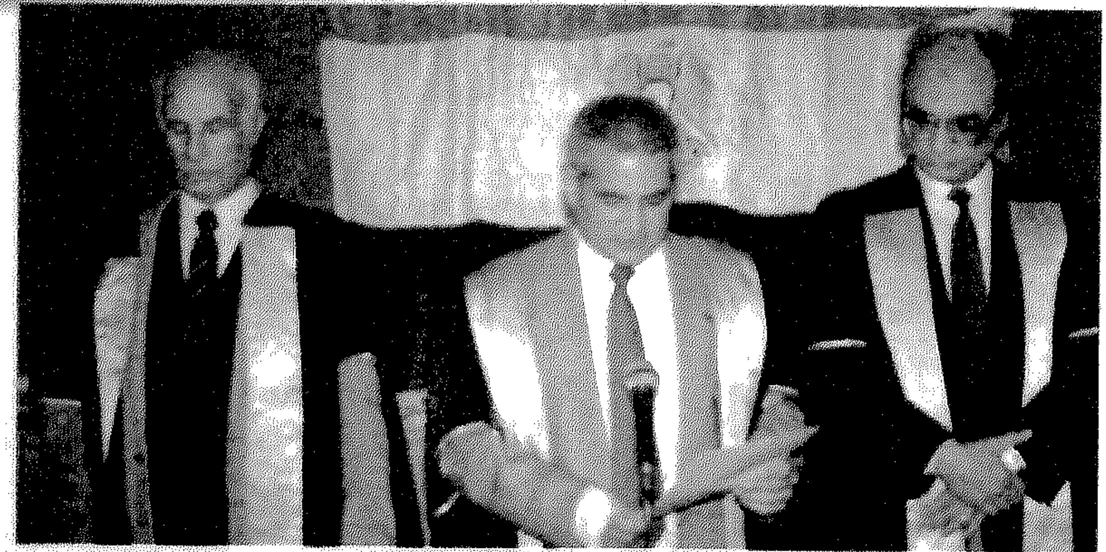
وتخرجت من الجامعة..

ثم جاءت هزيمة ١٩٦٧م، وبدأت أفهم، وبدأت أهتم بالسياسة وعرفت الكثير مما شكل ثقافتى السياسية، وحدد موقفى السياسى. ولكننى تعلمت درسى الأول فى السياسة بشكل جاد فى الزنزانة رقم ١٨ بمعتقل القلعة. فقد كنت ممن شاركوا فى مظاهرات الطلبة سنة ١٩٦٨م وأنا أدرس للحصول على درجة الماجستير. وتم اعتقالى، مع عشرات من الطلبة، بسبب هذه المظاهرات وبسرعة لفقت لنا أجهزة الأمن تهمة عجيبة هى التآمر مع دولة بلغاريا لقلب نظام الحكم. ولم أعرف حتى الآن لماذا اختاروا بلغاريا هذه بالذات؟!! ولكن الأدهى والأمر أن ضباط الشرطة بهمتهم المعروفة لفقوا لنا تهمة سخيفة – هى أننا تقاضينا مائة دولار لكل فرد للإطاحة بحكم جمال عبدالناصر بشرط أن نحصل على نصف ورقة المائة دولار أولاً، ثم نحصل على نصفها الثانى بعد نجاح الانقلاب. وحين قلت للضابط الذى حقق معى فى سجن القلعة إن هذه تهمة سخيفة وعبيطة هاج وماج، وحين قلت إننا فى حالة نجاح الإنقلاب المزعوم لن نكون بحاجة إلى مائة دولار من بلغاريا لأن الأمور ستكون بأيدينا بُهت، ثم استغرق فى نوبة ضحك غريبة.

الوطن ملك للجميع

المهم أننى تعلمت من هذه الحادثة، ومن رفاق المعتقل الذين كان بعضهم من أركان





د. قاسم عبده قاسم يعلن نتيجة مناقشة إحدي الرسائل الجامعية

الحكم أيام عبدالناصر، ثم أدينوا فيما عرف باسم مراكز القوى، أن هذا الوطن ملك لنا جميعاً، وأن مسئولية حمايته مسئوليتنا جميعا، وأن الاستبداد هو الذى جلب لنا كارثة الهزيمة. وعلى الرغم من أن أحداً لايشك فى وطنية عبدالناصر ونزاهته، فإن رجلاً واحداً لا يمكن أن يكون قادراً على إدارة شئون بلد كبير مثل مصر تحيط به المؤامرات، ويراد له البقاء عاجزاً حتى يمكن للصهيونية والامبريالية أن تنفرد بالمنطقة العربية. وكان أخطر الدروس هو أن أجهزة الأمن تعمل فى جزء كبير من مهامها لصالحها الخاص إذ لم تكن خاضعة للرقابة الشعبية من خلال مؤسسات مسئولة. وكانت استجابة عبدالناصر إيجابية، فزاد من عدد الوزراء المدنيين، وألغى الحرس الجامعى، كما تم إنشاء اتحاد طلاب مصر واتحادات الطلاب فى الجامعات يتم انتخابها دون تدخل من الأجهزة الأمنية، ولعبت دوراً مهماً فى تقوية الجبهة الداخلية وفى هذه المرحلة كانت مقالات الأستاذ هيكل، والكتب العربية والأجنبية هى وسيلتى فى بناء ثقافتى السياسية التى تأخرت كثيراً.

كنت فى بداية حياتى الجامعية قد انضممت إلى منظمة الشباب الاشتراكى، لكننى تركتها سريعاً لعدم اقتناعى بمحاولات التثقيف التلقينية فى هذه المنظمة، وربما كان ذلك سبب عزوفى عن الاهتمامات السياسية حتى زلزال يونيو ١٩٦٧م. وكان رد الفعل الثقافى للهزيمة إيجابياً ومثمراً، فى المسرح وفى الآدب، وفى الدراسات التاريخية والاجتماعية والإنسانية بوجه عام. وازداد الناس تمسكاً بأهدافهم وقيادة عبدالناصر، وعبّرت عن هذا الموقف تجليات ثقافية

التكوين

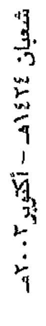
وفكرية عديدة. وكانت حرب الاستنزاف زاداً ساعد الناس على هذا الموقف الراسخ الصلب. ثم مات عبدالناصر...

وجاء السادات، وحدثت تراجعات كثيرة على الرغم من انتصارات أكتوبر سنة ١٩٧٣م، ومازالت التراجعات تفرز نتائجها الرديئة على مصر والمنطقة العربية على النحو الذى تراه العيون اليوم.. وتلك قصة أخرى.

تراث الثقافة العربية

أما تكوينى الأكاديمى فقد تم فى مسارين أساسيين، أحدهما فى الدراسة المنتظمة للحصول على درجة الماجستير ثم درجة الدكتوراه فى مجال تاريخ مصر الاجتماعى. وفى هذه الفترة كثفت قراءاتى فى مجالات الاجتماع والاقتصاد والعلوم والسياسية فضلاً عن التاريخ وفلسفة التاريخ بطبيعة الحال. وأدهشنى تراث الثقافة العربية الإسلامية فى مجال الكتابة التاريخية، ورسخت دراستى حبى لمصر كما عمقت انتمائى العربى الإسلامى. كانت دراستى للماجستير عن نهر النيل وأثره فى المجتمع المصرى، وكانت رسالة الدكتوراه عن أهل الذمة فى مصر فى عصر سلاطين المماليك. وقد أتاحت لى هاتان الدراستان فرصة جيدة لمعرفة الكثير من حقائق تاريخ مصر الاجتماعى، وحقائق الحياة الدينية للمصريين، وكم أحببت ذلك النيل الذى حبسناه فى صنابير المياه والمواسير و دوارييناه وراء أسوار الجهات ذات النفوذ التى أقامت النوادى على شاطئيه وحجبته عن عيون المصريين كأنه عورة!! أحببت نهر النيل حين طالعت ما كتبه المؤرخون المسلمون عنه، ولمست انبهارهم به وإعجابهم وولعهم بهذا النهر العظيم الذى نسبوه إلى أنهار الجنة. وكرهت كل من لوث مياهه المقدسة فى زمن الفوضى، واحتقرت كل من أقام سوراً أو حائطاً يحجبه عن الناظرين فى زمن القبح. أحببت نهر النيل فى الأساطير العربية، وفى كتابات المؤرخين، وقصائد الشعراء. وأحببته فى الواقع حين سافرت ورأيت التيمس والسين والتيبر، وحتى الدانوب، وأحببته فى الواقع حين رأيته صابراً على زمن غير الزمن، ورجال غير الرجال، وأمة تبدل حالها تحت وطأة الاستبداد والقهر... وكان ذلك كله رافداً من روافد تكوينى الثقافى.

وكما أحببت النيل بفضل دراستى للماجستير، عشقت وطنى من خلال دراستى للدكتوراه، فقد كانت عن موضوع اليهود والمسيحيين المصريين. واكتشفت أن هذا الوطن قد اتسع للجميع وفتح صدره لهم على الدوام، كما عرفت أن لهذا المجتمع نسيجاً واحداً قوياً اكتمل على مرّ الزمان، واكتشفت - أيضا - أن الفقر والاستبداد هما أساس كل مصائب البلاد والعباد.





د. قاسم عبده قاسم بين د. محمود ذهنى ومحمود قاسم بمكتبة القاهرة يلقي كلمة أثناء احتفالية محمد فريد أبو حديد - ١٩٩٧

ولأن الدراسة ذات بعد دينى واجتماعى، فقد قرأت الكتب المقدسة للديانات السماوية الثلاثة. وترسخ إيمانى بوحدة المنبع الإلهى للدين، وعرفت معنى عبارة «إن الدين عند الله الإسلام». وزاد إيمانى بالإسلام، كما زادت مساحة ثقافتى الدينية، وعرفت عن يقين أن الإسلام هو الدين الذى يعترف بوحدة الإنسانية، ويعترف بالآخر وجوداً وعقيدة وحقوقاً واندهشت حين اكتشفت الحقيقة البديهية القائلة إن الإسلام علاقة مباشرة بين الله والإنسان، وأنه لا يزعم أن الله اختار لنفسه أمة ميزها على العالمين، وإنما هو دين لكل البشر. وكان ذلك كله مما شكل موقفى الفكرى من جماعات الإسلام السياسية، والفرق التى رفعت راية الدين فى ساحة السياسة.

مراقبة جوية

بيد أن هناك رافداً مهماً آخر أسهم بشكل حاسم فى تكوينى الفكرى، وهو مجال عملى قبل أن ألتحق بالجامعة عضواً بهيئة التدريس. إذ إننى لم أعين معيداً بالجامعة لأسباب لا علاقة لها بالعلم. وكان علىّ أن أناضل من خارج الجامعة حتى أعود إليها بدرجة الدكتوراه. وقد وفقنى الله إلى وظيفة ضابط مراقبة جوية بالهيئة العامة للطيران المدنى. وأحسب أن الله قد أنعم على بهذه الوظيفة لكى تشكل سلوكى فى الحياة وتطبعه بطابعها. ومهمة ضابط المراقبة الجوية توجيه الطائرات وتأمين سلامتها منذ لحظة إدارة محركاتها حتى لحظة الهبوط وإنزال الركاب. وهى وظيفة تحتاج إلى تأهيل خاص، ولكن الأهم أنها تعتمد علي



الدقة المتناهية، والتحسب لأى خطأ، لأن الخطأ معناه ببساطة إهدار أرواح عشرات الركاب. وتعلمت أن أكون دقيقا وألا أترك شيئاً للمصادفة، وأن أؤدى واجبى على الوجه الأكمل. ومن ناحية أخرى، أتاحت لى هذه الوظيفة فرصة السفر إلى الخارج، وكان السفر من أهم مصادر تكوينى الثقافى. إذا إن السفر والرحلة وسيلة ناجعة من وسائل العلم والمعرفة. وجاءتنى الفرصة للسفر إلى عدد كبير من بلاد أوربا، ولكن رحلتى إلى انجلترا وفرنسا كانتا مفيدتين فى تكوينى الأكاديمى، فقد أفدت من الرحلة إلى هاتين الدولتين من حيث التعرف على كنوز مكتباتهما وكبار المستشرقين (والمستغربين من العرب والمسلمين أيضا) على أرضهما. وكان أهم من قابلته فى ذلك الحين المستشرق اليهودى برنارد لويس، الذى كان أستاذا بمدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن قبل أن ينتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية. ولم يكن من العسير علىّ أن اكتشف عنصريته وانحيازه لأن الرجل لم يبذل أى جهد لإخفاء ذلك.

التعرف على ثقافة الآخرين

وعلى الرغم من ذلك فإن الفائدة الأكاديمية التى حصلت عليها فى لندن وباريس كانت عظيمة بكل المقاييس، فقد تعلمت الكثير. وكان هذا الكثير موزعاً ما بين المعرفة التاريخية والمعرفة الإنسانية عموما. تعلمت الأساليب البحثية المتقدمة وتعرفت على مختلف المدارس والاتجاهات فى الدراسات التاريخية، وعرفت عدداً من الأساتذة الكبار، وحضرت لقاءات وندوات وحلقات بحث ومناقشة كشفت لى أفاقاً رحبة فى الدراسات التاريخية. ومع تكرار الرحلة زادت معلوماتى ونضجت أساليب البحث التى استخدمها، فضلاً عن التقدم الإيجابى فى معرفتى باللغة الانجليزية واللغة الفرنسية. وقد أفدت من هذا كله فى حياتى الجامعية بجامعة الزقازيق. وانعكس ذلك بشكل إيجابى على تلاميذى فى هذه الجامعة، وغيرها، سواء فى مرحلة الليسانس أو فى مرحلة الدراسات العليا. ومن ناحية أخرى اتسع منظورى بفضل احتكاكى بثقافات أخرى مختلفة. ولم تتوقف الرحلة ونتائجها الإيجابية عن التأثير فى حياتى الجامعية حتى هذه اللحظة، إذ إننى حرصت على الرحلة بشكل مستمر حتى الآن.

وسارت بى حياتى بين العمل الأكاديمى، والعمل الثقافى العام، والعمل السياسى في رحاب الأحزاب (ولو أننى لم استمر طويلا فى العمل الحزبى لأسباب تتعلق بطبيعة التجربة الحزبية المصرية وما يشوبها من قصور وعجز)، وحاولت قدر طاقتى أن أسهم فى الحياة الثقافية العامة، وكان هذا أيضا من مصادر

ثقافتي. فالعمل العام مدرسة يتعلم فيها المرء الكثير مما لا يجده في بطون الكتب سواء من حيث طبائع الرجال، أو حقيقة مشكلات المجتمع، والعلاقات بين القوى الاجتماعية والسياسية، أو من حيث فهم تأثير الموروث التاريخى على الناس. وقد أتاح لى العمل العام أن أعرف أهم العقول المصرية والعربية وأفدت منهم الكثير، وتعلمت منهم ومازلت أتعلم منم.

وكانت تجربتى فى الكويت تجربة ثرية ومثيرة من جوانب عديدة، فقد عملت بجامعة الكويت أستاذا على مدى خمس سنوات تخللتها تجربة الغزو العراقى المؤسفة والمحزنة (والتى أظن أنها السبب الرئيسى فى كل الكوارث التى حلت على المنطقة العربية منذ ذلك الصباح المشئوم فى الثانى من أغسطس سنة ١٩٩٠ وحتى الآن. كانت تلك تجربة انكسار وتراجع سببتها عنجهية الدكتاتورية التى لم تكن وقفاً على صدام حسين وحده. ولأن الحكام العرب تصرفوا بصورة استبدادية، فقد كانت الهزيمة من نصيب الجميع. ولم يكسب من هذه الحرب الحمقاء سوى أعداء العرب) وعلى أية حال، فإن تجربة عملى فى الكويت كانت إضافة لها وزنها فى تكوينى الثقافى، فقد زاملت أفضل الأساتذة فى العالم العربى. وهو أمر تتميز به جامعة الكويت. واكتشفت أن الوطن العربى غنى بعقوله وخبراته، فقير بنظمه السياسية الاستبدادية التى تهدر هذه الثروة. وكانت رفقة هذه العقول فى جامعة الكويت وديوانيات الأصدقاء الأساتذة الكويتيين، من أمثال سليمان العسكرى، وعبدالمحسن المدعج، وسليمان البدر، وعبدالمالك التميمى وخالد الوسمى.. وغيرهم كُثر، من أهم موارد ثقافتى التى ازدادت ثراء بفضل التجربة الكويتية. وعرفت جوانب من حياة العرب فى منطقة الخليج العربي لم يكن ممكناً أبدا أن أعرفها بدون السفر. وزاد يقينى بأهمية وحدة العرب على أى مستوى من المستويات بغض النظر عن أن تكون هناك دولة عربية واحدة أم لا؟

وحين عدت إلى مصر، منذ أكثر من عشر سنوات، كانت أمور كثيرة قد تبدلت، وتغير شكل المجتمع وثقافته على النحو الذى نعرفه جميعا. ومنذ بداية التسعينيات وحتى الآن تسير بى الحياة وهى تحمل كل يوم رياحاً جديدة بعضها يحمل السموم، وبعضها يحمل أريج الأمل والمستقبل. وفى ظل هذه الحال من السيولة الثقافية يحاول المرء أن ينظر فى مرآة الزمان لكى يعرف ملامح العصر الذى نحياه.. ولكن المرآة تأبى عن أن تكشف سوى عن ملامحى التى تغيرت مثلما تغيرت ملامح الزمن الذى قطعت رحلتى فى رحابه... ■

أنت والهلال

● عاطف مصطفى

دور الملك فيصل الأول

تعقيبا على مقال «قصة الأسرة الهاشمية» المنشور فى العدد الماضى بقلم د . عاصم الدسوقى . أشير إلى أن كاتب المقال أغفل دور فيصل الأول (١٨٨٥ - ١٩٣٣) ابن الشريف حسين كملك وزعيم وطنى فى الفترة التى تولى فيها حكم العراق بين سنتى ١٩٢١ - ١٩٣٣ ، فهو يعد مؤسس العراق الحديث ، من تأسيس الجيش العراقى عام ١٩٢١ إلى إصدار الدستور عام ١٩٢٤ - ولم يعتبره العراقيون فى أى وقت كعميل للاستعمار البريطانى .

أيضا لم يكشف الدكتور عاصم عن دور النظام الناصرى فى القضاء على دور الفرع الرئيسى والأكبر للهاشميين فى المنطقة وفى بغداد تحديدا بقيام الثورة العسكرية فى ١٤ يوليو سنة ١٩٥٨ .

عمرو عبد المنعم حموده
برما - طنطا

الهلال : كاتب المقال لم يتناول «قصة الأسرة الهاشمية» سوى فى مقال عدد صفحاته قليل ، وبالتالى فإنه لن يتناول تلك التفاصيل التى تعرفها ، وذلك يحتاج إلى كتاب يتناول كل الجوانب التى أشرت إليها وربما يختلف رأى الكاتب عن رأيك فهو أستاذ للتاريخ الحديث ويلم تماما بهذه القضايا المهمة .

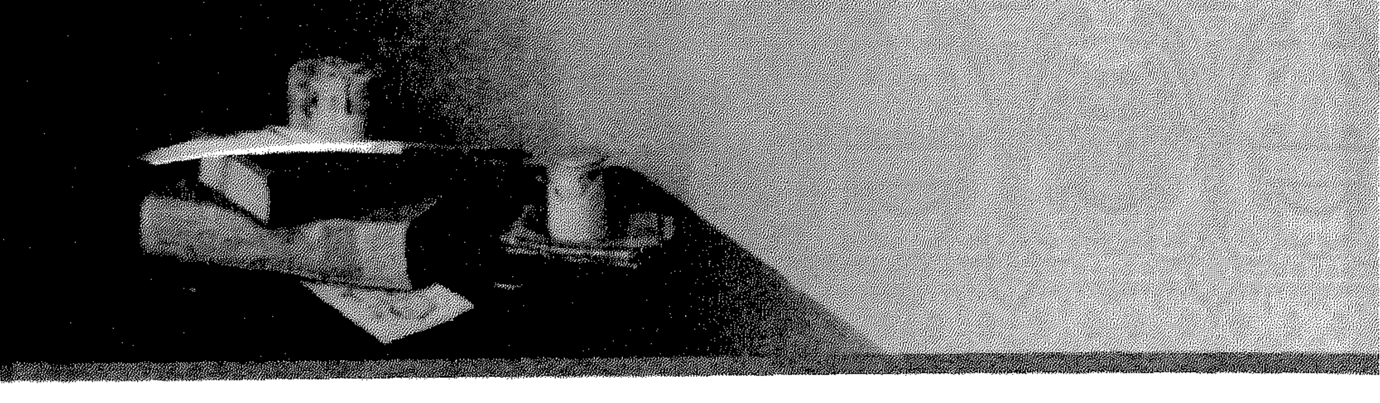
احترام الرأي الآخر

يعد مقال نزار أحمد صبرى الذى نشر فى العدد الماضى ردا على مقال الدكتور صبرى منصور ، هو سمة أصيلة تميزها الهلال وأذكر واقعة فى نفس هذا السياق ، فلقد بعثت برسالة معترضا على ما قاله زميل أكبر بجامعة القاهرة ، وكان ذلك فى فبراير ١٩٩٦ ، وبعد ستة أشهر جاء الرد منشورا فى هلال أغسطس ١٩٩٦ ص ١٨٧ دون زيادة أو نقصان ، ومايزال الهلال يحوطنى بتكريمه حتى الآن ، وذلك يعنى أن الموضوعية ، بما تفرضه على صاحبها من كبح جماح ذاتيته ، هى السمة التى اتسع لها صدر الهلال .

د . سامى منير عامر
كلية التربية - جامعة الاسكندرية

تحقيق متعة القراءة

عشت مع مجلة الهلال منذ أكثر من ثلاثين عاما ، لا تفارقنى ، وأدعو الله أن تظل كذلك مددا ثقافيا للقراء .



أتأمل صورة الغلاف متمنيا راحة الشغاف ، وأشارك المحرر النجيب فى تقديم العدد لعزيزى القارىء اللبيب المتطلع إلى أدب رفيع وعلم نافع ، وأثب إلى الكلمة الأخيرة التى أود أن تكون قبل الأخيرة أشفعها بالتكوين ففيهما خلاصة تجربة حياتية

ثم أدع المجلة يوما أو يومين ، ثم أعود إليها ألتمس موضوع الساعة فإذا مللته ، شدنى إليه موضوع أدبى أو فنى ، وأستعيد عافيتى الإطلاعية بالإبحار فى الماضى وشئون الحياة والتاريخ ، وفى حالة صفاء الذهن أعود إلى الشعر والقصة ، وقد أسرح مع نقد مسرحى للترويح.

وأطلع على بقية العناوين ، تاركا موضوعاتها إلى ساعات أخرى ، قد تكون بعد أن يطل علينا الهلال الجديد .

وأدعو هذا الدعاء

اللهم أهله علينا بالنصح والارشاد لصالح البلاد والعباد .. اللهم أصلح ألسنتنا بخطاب عربى مبين ، يهدى الحائرين .

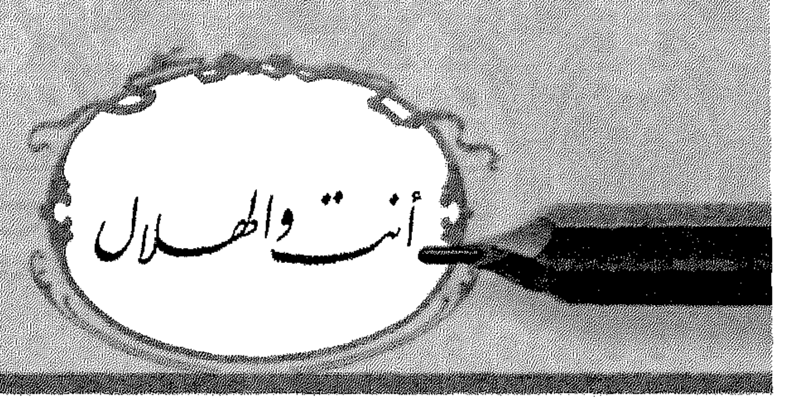
سعيد عبد القوى حواس
بني سويف

الهلال : نشكر القارىء العزيز على ما جاء فى رسالته .

ألف يوم ترحلين..

ألـــف يـــوم تـــرســـلـــين ..
لحـــمـــامـــاتى الزهور الندية
والبطاقـــات الشـــقـــيـــة
وعليـــهـــا تكتـــبين..
خـــافـــقـــينا :
فـــينام البـــحـــر فـــيـــا
حـــاضنا باقـــة شـــعـــر ..
لـــلـــمـــنـــابـــع !
ألـــف يـــوم تـــســـكـــنين ..
فى شـــرايين القـــصـــيـــه
تـــسكـــنين فـــى ترانيـم المواجـع
تـــســـكـــنـــين ..
فى الحكايات الخـــرافـــيـــة !
ألـــف يـــوم تـــرحـــلـــين ..
فـــى تـــكـــاويـــنـــى
وصـــهـــيل الحب ..
يحـــتـــل المحـــابر
فـــعلى عـــشب الأمـــانى ..
نـــام طـــيـــفـــك
ثم أهدى قلبـــه الحـــر ..
إلـــى كـل الأقـــاحـــى .
والأزاهـــــر !!

محمود أحمد المصلى
شربين - المنصورة



تعقيب وتصحيح

أتابع مقالات الناقد الكبير مصطفى درويش باهتمام ، وأجدها مناسبة للرجوع إلى إحدى مقالاته القيمة فى عدد مايو ١٩٩٨ عن فيلم «تايتانيك» الذى رافق عرضه ضجة إعلامية كبيرة ، فقد كتب أن المخرج جيمس كاميرون حقق انجازا رائعاً بفوزه وحده بالجوائز الثلاث المخصصة لأفضل فيلم وإخراج ، وسيناريو ، الأمر الذى لم يحدث - حسب رأيه - إلا مرة واحدة ، فى حالة جيمس بروكس ، عندما فاز بثلاث جوائز عن فيلمه «شروط المحبة» عام ١٩٨٣ .

والواقع أن المخرج المشهور فرانسيس فورد كوبولا ، كان السباق إلى الفوز بالجوائز الثلاث فى الجزء الثانى من فيلم «العراب» ١٩٧٤ وبالرغم من أن فيلم «تايتانيك» فاز بإحدى عشرة جائزة ، فلم يكتمل حصوله على الجوائز الأربع الكبيرة التى بدأت كأدعية الضوء فى منحها عام ١٩٢٨ ، كما اكتملت للأفلام «حدث ذات ليلة» ١٩٣٤ وفيلم «طائر فوق عش الوقواق» ١٩٧٥ ، وفيلم «صمت الحملان» ١٩٩١ ،

أيضا فى مقال للأستاذ مصطفى فى عدد يوليو الماضى وردت العبارة «خساس الطير» فى موضع الذم لهذه الفئة الضعيفة من الطير والصواب حرفا الشين لا السين فى خساس .

وقد عبر عن معنى العبارة كثير عزة فى قصيدة مشهورة له بهذا البيت

خشاش الطير أكثرها فراخا.. وأم الصقر مقلات نزور .

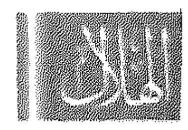
أحمد عزيز - عمان - الأردن

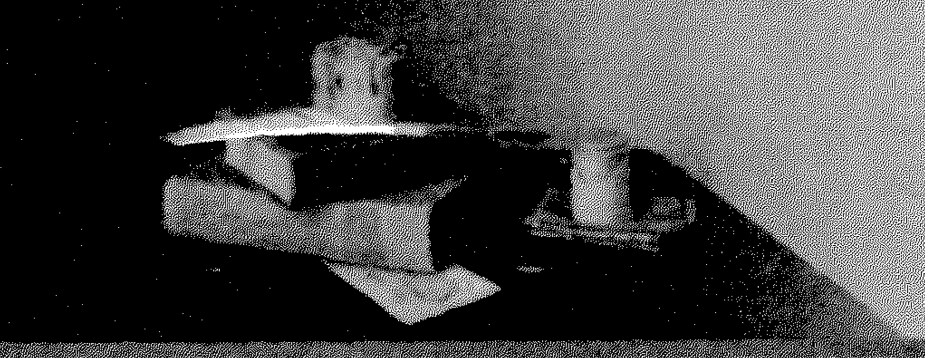
تنويه حول أصداء سيرة نجيب محفوظ

فى مقدمة العدد الأخير من كتاب الهلال الصادر فى الخامس من سبتمبر تحت رقم (٦٣٣) وهو بقلم الناقد فاروق عبد القادر والمسمى «فى الرواية العربية المعاصرة» أجد أمرا لابد من تصحيحه ، لأنه يخص أستاذنا نجيب محفوظ .

فلقد حرص الناقد على تسمية كل مرحلة من مراحل انتاجه باسم المنظومة مؤرخا لسنة اصدار كل مجموعة من مجموعات انتاجه ، وكان أن قال عن تاريخ المرحلة التى صدرت خلالها (أصداء السيرة الذاتية) إنها قد نشرت سنة ١٩٩٢ مسلسلة بالأهرام (انظر ص٦) من كتاب الهلال المذكور .. والصحيح أنها نشرت بدءا من عدد الجمعة ١١ فبراير سنة ١٩٩٤ وانتهاء بعدد الجمعة ٨ ابريل ١٩٩٤ .

د . سامى منير عامر
الاسكندرية





لا شيء.. يسكت الوتر !!

حطت فـــراشــــة على غـــصن
تحـــصن بالشــجــر
واجــتـــازت الأســوار ليــلاً
ثم عــادت قــبل إبحــار السحــر
عــــاشت غــريبــــة هناك ..
بـــين أنــــات الـــــرواح ،
بين أوجـــــاع الســـفـــر
فالشوك في البستان عار من بهائها
وحـــــــسنهـــــــا
وأعـــــراس الســـمــــر
وحــاصــروها عندمــا غنت نشــيـدا
لـــلـــربـــيــــع ،
لـلـمـــســـــاء ،
لـــلـغـــديـــر ،
لـــلـــوطـــن
فـقـــد أذاعت الحـــقـــول .. للروابى
عن أسى عـــزلتـــهـــا
وســط الـــكـــروب والمحــن
ظل الخريف واقـفـاً قرب الضفاف ،
كـى يـدس الخـــــوف ..
عـنـد المـنـحـــــدر ..
ويقتل الدفء المهيض فى حنايا خدرها
ويــســلــب الحــنـين ..
والشــمــوخ من حـضن الزهر
ويــســلــب الــرؤى /
الحــكــايــا /
الأمـنـيـــات /
والـعـــبـــر

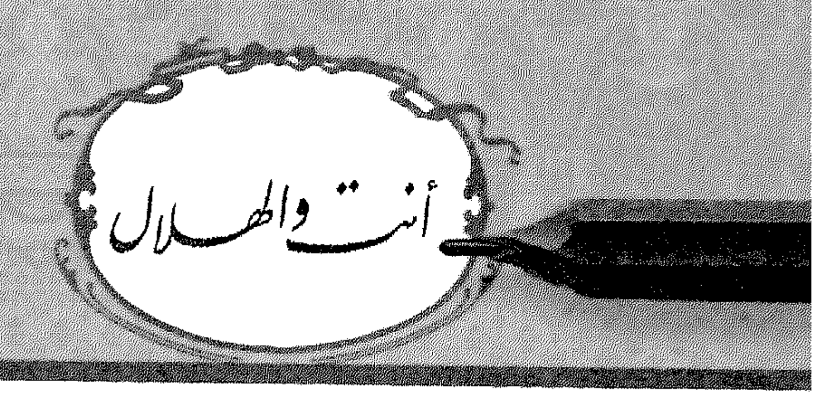
عبد الناصر أحمد الجوهرى- دكرنس دقهلية

فتوات أمريكا وفتوات الحسينية

من خلال قراءاتنا لنجيب محفوظ في رواياته عرفنا الكثير عن الفتوات وكيف كان الفتوة يعترف بخطئه ويتعهد بإصلاح ما أفسده ودمره وعقب غزو أمريكا وبريطانيا للعراق . وهما ضمن فتوات هذا العصر تصورت للوهلة الأولى بأن السيناريو سيتم طبقا لقانون الفتونة إلا أننا فوجئنا - من خلال ما ينشر في الصحف - بإعلان فتوات أمريكا وبريطانيا وبكل تبجح بأن الدمار والخسائر الذى أحدثاه فى العراق سيدفع فاتورة إعادة إعماره العراق نفسه ، من عائدات بتروله ، أى سيتم على حساب الدولة المعتدى عليها ، بل وصل الأمر إلى تحديد الشركات التى ستقوم بعملية إعادة اعمار العراق والتى كان معظمها بطبيعة الحال أمريكية !

وما أريد قوله أن أخلاق فتوات أمريكا فى القرن الحادى والعشرين لم تصل حتى إلى أخلاق فتوات الحسينية عندنا فى مصر فى القرن الثامن عشر .. وياللعجب .

د . حمدى ابراهيم حافظ
جامعة الأزهر



احذروا الفتنة !

كان من أسباب ضعف الأمة الإسلامية وقوعها فى براثن الاستعمار ، ولكنه رحل وتركها منذ عشرات السنين وكنت أظن بأن الحواجز التى وضعت فى هذه الدول أمام المسلم سوف تزول ، ولكن ذلك لم يحدث .. وكان أحد مظاهر الضعف الإسلامى .

لكن الأخطر ما قد يحدث الآن من فتن بين الشيعة والسنة فى العراق ، خاصة بعد مقتل أية الله محمد باقر الحكيم والذى قتله أعداء الإسلام والذين يريدون تمزيق العراق ، ونشر أكاذيب حول الخلاف بين الشيعة والسنة .

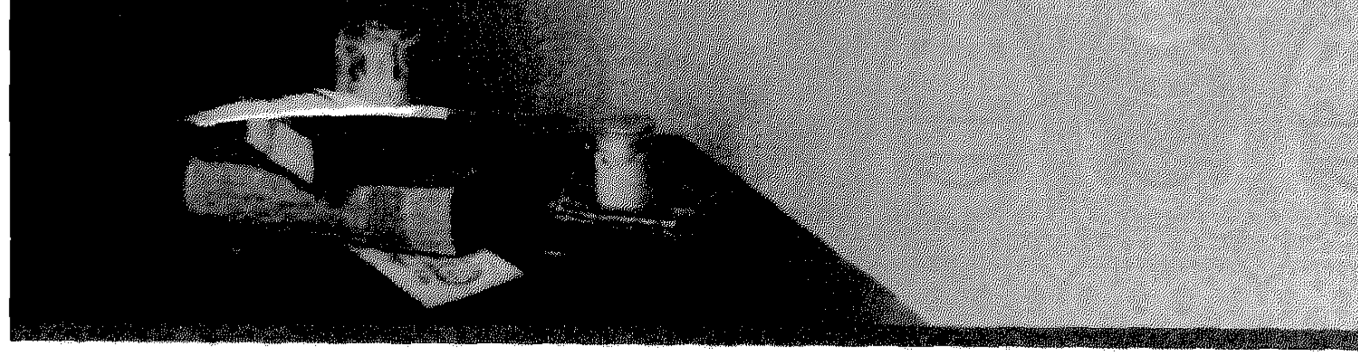
أيها المسلمون لا فرق أبدا بين الشيعى والسنى ، فكلنا مسلمون وكلنا يحب آل البيت .. نحب فاطمة الزهراء والحسن والحسين ولذلك لا ينبغى أن نعود إلى الفتنة التى حدثت أيام سيدنا عثمان ابن عفان ومقتله ، أيضا مقتل سيدنا على ابن أبى طالب كرم الله وجهه ومقتل الحسين سيد شهداء أهل الجنة .

د . جمال العطار
الاسكندرية - كامب شيزار

وحدة وانتصار
إلي أبطال حرب تشرين (أكتوبر) ..

ماذا أقول عن الأبطال إذ وثبوا ؟ ... هم الليوث بهدب الشمس كم كتبوا
نحن الأباة لقد عدنا إلى عبق ... إلى جبال على أهدابنا تجب
عمنا بدمع حزيران إلى جبل ... من الشموخ وعانقناك يا سحب
لن يبتروا فى روابى القدس قصتنا ... حضارة العرب للنجمات تنتسب
سمعت نجماً بجفن الليل مبتسماً ... يقول فى منكبى الله والعرب
أسرابنا فى سما الجولان زوبعة ... وفى القناة بروق رعدها غضب
لما سمعنا صياح العابرين بكت ... عيوننا وانتشى فى الجنة العنب
بيوتنا أورقت والأنهر انطلقت ... مع الجنوب إلى أرض هى القصب
لولا الطواغيت لاجتزنا الجليل وما ... بنوه فى القدس واختالت بنا النقب
هناك أرض لنا ، شعب بلا وطن ... فى صدره سيف إسرائيل والحطب
كم صخرة صرخت بوركت يا ثقفى ... وقالت اللد : ها قد جاءك العرب
لنا فلسطين ، والجولان دمعتنا ... ورمل سيناء فى لبنان ينسكب

د . هيثم الحويج العمر - دمشق



متحف للحضارة المصرية في كل محافظة

رأينا ولع الفرنسيين بالآثار والحضارة المصرية القديمة وذلك من خلال متاحف الآثار المقلدة والتى انتشرت فى أنحاء متعددة من فرنسا .

والسؤال الذى أعرضه من خلالكم .. لماذا لا نقوم عند أصحاب هذه الاثار بإنشاء معارض ومتاحف تشمل هذه الآثار المقلدة ، وصورا لما يصعب تقليده ، وأن تنشأ متاحف فى كل عاصمة بمحافظة من محافظات مصر ، لنشر الوعى بحضارتنا وآثارنا وأن يكون دخول هذه المتاحف برسوم رمزية ، كنوع من التشجيع لمشاهدة تاريخ مصر وحضارتها القديمة .

أتمنى أن تقوم وزارة الثقافة بتنفيذ هذه الفكرة ، وعائدها المادى الرمزى كفيل بألا يكلف الوزارة أية أعباء مادية .

حسين منتصر
فارسكور - دمياط

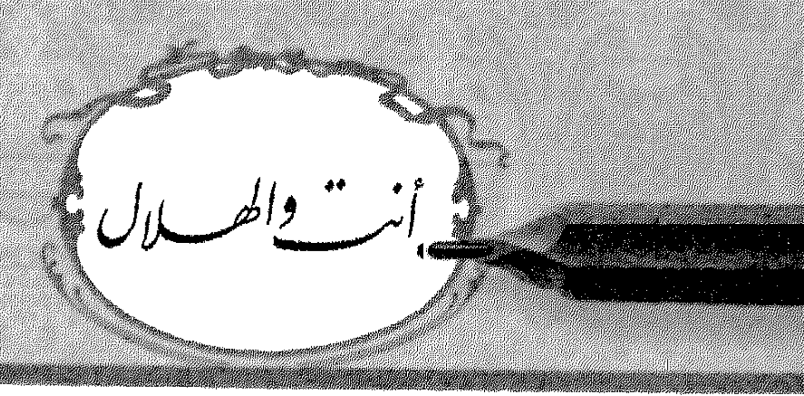
قصة قصيرة

غـــريب

مثل كل مرة ، وجدت المكان مغلقا .. التراب يكسو كل شئ .. زجاج «الفتارين» تغبر وجهه .. كل الدلائل تشير إلى أنه لم يحضر منذ فترة طويلة .. هل ترك المهنة إلى غير رجعة .. استبعدت ذلك فقد توارثها أبا عن جد .. لم نعد نراه فى القرية مثل زمان . كان حريصا على المجاملات الاجتماعية .. سباق فى حضور المآتم .. يرسل باقة ورد فى المناسبات السارة إذا تعذر الحضور لسبب ما .. يحضر مساء الخميس يقضى يوم الجمعة بطوله بيننا ثم يعود صباح السبت إلى عمله بالمدينة الكبيرة .

الآن انقطع كل شئ .. حتى جلستنا على حافة الترعة شرق القرية تحت شجرة التوت بعد صلاة الجمعة لمناقشة قضايا العالم التى نسيها .. يبدو أنه نسى كل شئ منذ أن اتصل ذكره في الصحف .. كان هذا يسعدنا فى القرية .. طبعا أليس ابن بلدنا ؟ كان اسمه يضئ الصفحات الثقافية فى أكبر صحف مصر بين الحين والآخر .. الأسبوع الماضى أخبرنا جابر أبو المعاطى أنه شاهد صورة الأستاذ – نطلق عليه اسم الأستاذ – فى جريدة الأهرام بمناسبة صدور كتاب جديد له وأن قصته «السيد الديك» سوف تمثل فى إحدى القنوات الفضائية وتذاع بعد لقاء مع المؤلف الأستاذ .

فى الماضى كان يقول لى ، عندما أزوره فى عمله فى المدينة .. يلازمنى إحساس دائم أننى غريب في هذه المدينة المتنافرة .. الكل فى صراع .. لا أحد يحس بالآخر .. لكى



تعيش هنا يجب أن تزرع لك أنيابا وأظافر لكى لا تؤكل مثل السمك الصغير فى البحر أو فى المحيط .

قررت أن أسأل صاحب المكتبة المجاور عنه .. أجابنى اجابات غامضة مبهمة .. صاح ابنه الذى استمع لحوارنا: يمكنك أن تقابله بمقر صحيفة «العاصمة» بعد الثانية ظهرا .. أضاف البائع :

– يقيم ندوته يوم الأربعاء فى النقابة تستطيع مقابلته فيها بعد الساعة السابعة مساء .

قال الرجل الكبير :

– إذا كان الأمر ضروريا يمكنك محادثته تليفونيا ، فقد أدخل التليفون مؤخرا .. أخرج بعض الأوراق من جيبه .. أملانى الرقم . تغيرت كثيرا يا صديقى .. حتى البرنامج اليومى الذى كنت أحفظه تغير .

عند أقرب تليفون عمومى أدرت الرقم وانتظرت سماع صوته .. صدم أذنى صوت أنثوى ناعم يتحدث برقة .. أخبرتها عن نفسى .. قالت بصوت ثلجى :

– هو غير موجود .. عنده تسجيل فى القنوات الفضائية .. ثم أضافت مستدركة:

– أنا المدام ، تحب نبلغه بشئ ما ؟

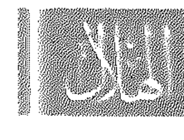
شكرتها ثم وضعت السماعة .. ألقيت الورقة المدون بها رقم التليفون على الأرض ، ثم حملت حقيبتى واتجهت إلى محطة القطار .

فرج مجاهد عبدالوهاب
شربين – دقهلى

عندما تقولين حبيبى

قال : عندما تقولين حبيبى
قلبى يسر
قالت : عندما تقول حبيبتى
أزف نفسى
كزخات المطر
قال : عندما تقولين هوايا
أرى الزغاريد أمامى
تعلو وتعلو كالشظايا
وكأننى فى مرقص
للصبايا
قالت : عندما تقول حياتى
تحلو الأحاديث عنا
والحكايا
قال : عندما تقولين منايا
أراك
كزهرة تنمو وتزدهر
قالت : عندما تقول آهاتى
أراك
كعطر فى الدنا
يفوح وينتشر
قال : عندما تقولين
حبيبى / هوايا / منايا
أراك سعيدة
وأرانى على الأحزان
كالبرق كالرعد
أنتصر

رمضان ابراهيم بشير





ماذا يريدون منا؟!

يبدو أن إسرائيل لا تغفل ولا تنام ، وتعمل فى كل الاتجاهات ، لتحقيق مآربها وأطماعها ، فقد بدأت حربا من نوع آخر ، من الممكن أن نطلق عليها حربا ثقافية ، حيث طالعتنا الصحف مؤخرا بأن أحد رجال المخابرات الاسرائيلية قد فتح مركزا فى بغداد للدراسات وتحديدا فى واحد من أهم شوارع بغداد وهو شارع أبو نواس ، مدعيا أن دور هذا المركز جسر بين الشرق والغرب ، ويقوم بترجمة مناهج المدارس وخطب الجمعة ، وما تنشره الصحف والدوريات المختلفة ، وبذلك انتقل عمل الموساد الذى كان يتم سرا إلى القيام به علنا .

كما تلقت أوساط المثقفين العرب نبأ إغلاق مركز زايد للتنسيق والمتابعة بحزن شديد ، حيث شهد المركز ، وهو مركز أبحاث تابع للجامعة العربية ومقره «أبو ظبى» ضغوطا أمريكية صهيونية متزايدة على مدار العامين الماضيين ، وطلبت الولايات المتحدة رسميا إغلاقه، بينما أعلن اللوبى الصهيونى أن إغلاق المركز ليس كافيا .

والسؤال المطروح .. لماذا كل ذلك الآن .. وماذا يريدون منا؟.

إبراهيم عباس مدنى
أسوان

الخفة والاستخفاف

الخفة فى معاجم اللغة ضد الثقل وتكون فى الجسم ، أو فى العقل .

وخفة الخفيف تكون فى الأجساد والأبدان ، وخفة الخفاف تكون فى العقول والأذهان ، والخفة تعنى أيضا اليسر ..

يقول عز وجل «انفروا خفافا وثقالا» أى انفروا شبابا وشيوخا وركبانا ومشاة ، سواء خفت عليكم الحركة أو ثقلت ..

هذا عن الخفة .. أما الاستخفاف فيأتى فى عدة معان ، فيقال استخف فلان بفلان ، أي استهان به ، واستخف الغضب بفلان ، إذا ما حمله الغضب على ركوب الحماقة ، أو التردى فى العطب . واستخف فلان فلانا إذا تجاهله ولم يعره اهتماما .. يقول عزمن قائل «الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا» ..

محمد أمين عيسوى -الاسماعيلية

تنويه

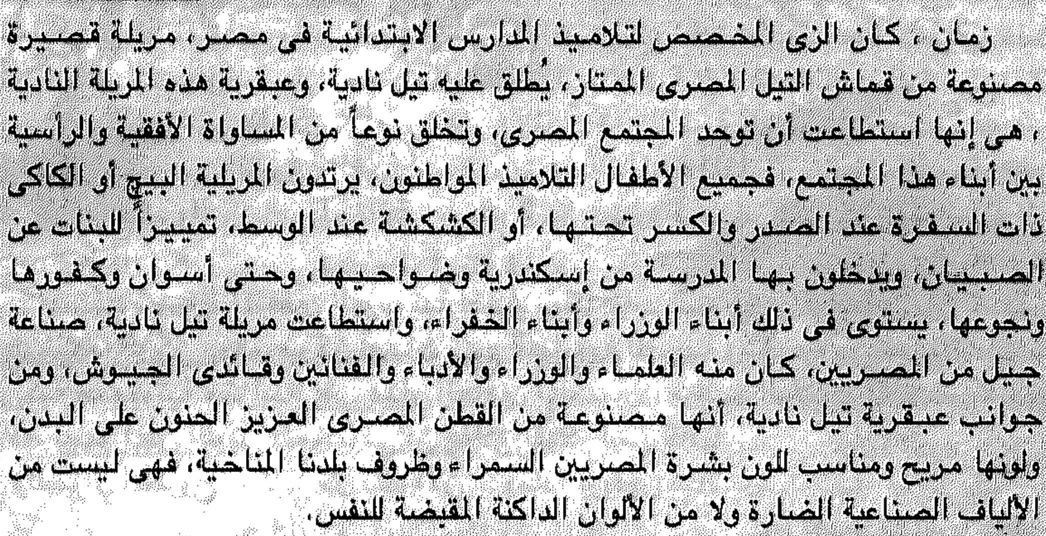
نشر فى العدد الماضى من الهلال بالكلمة الأخيرة للدكتور عبد العظيم أنيس وموضوعها « استقالة عصام الخفاجى» وقد وردت كلمة «اقالة» عن طريق الخطأ بدلاً من كلمة « استقالة ».

هذا وقد نشر د. أنيس فى عدد يونيه الماضى من الهلال مقالاً عن« هل الذكاء الصناعى أكذوبة ؟» وقد نشر بالفهرس مبتسراً تحت عنوان « الذكاء الصناعى أكذوبة » .. لذا لزم التنوية

الكلمة الأخيرة

عبقرية تيل نادية

بقلم : سلوى بكر



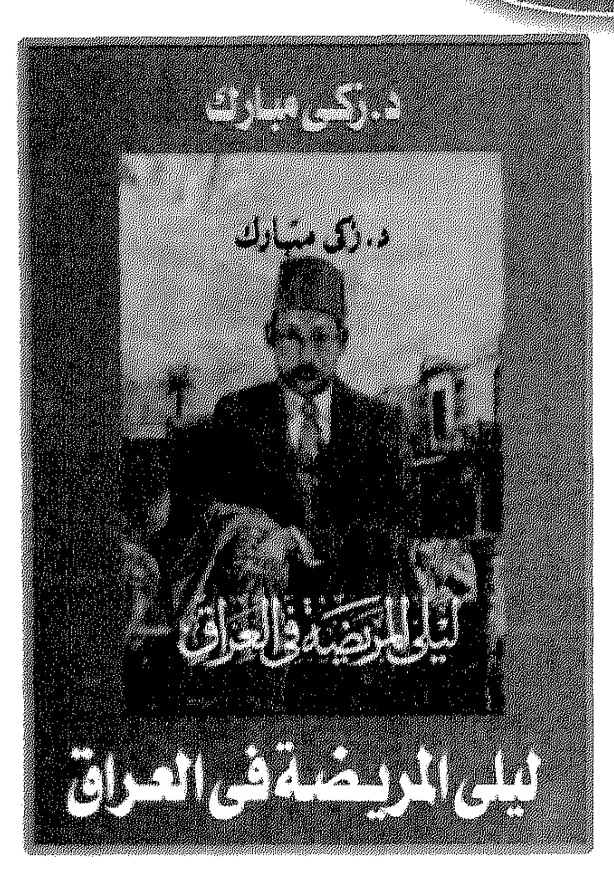
زمان ، كان الزى المخصص لتلاميذ المدارس الابتدائية فى مصر، مريلة قصيرة مصنوعة من قماش التيل المصرى الممتاز، يطلق عليه تيل نادية، وعبقرية هذه المريلة النادية ، هى إنها استطاعت أن توحد المجتمع المصرى، وتخلق نوعاً من المساواة الأفقية والرأسية بين أبناء هذا المجتمع، فجميع الأطفال التلاميذ المواطنون، يرتدون المريلة البيج أو الكاكى ذات السفرة عند الصدر والكسر تحتها، أو الكشكشة عند الوسط، تمييزاً للبنات عن الصبيان، ويدخلون بها المدرسة من إسكندرية وضواحيها، وحتى أسوان وكفورها ونجوعها، يستوى فى ذلك أبناء الوزراء وأبناء الخفراء، واستطاعت مريلة تيل نادية، صناعة جيل من المصريين، كان منه العلماء والوزراء والأدباء والفنانين وقائدى الجيوش، ومن جوانب عبقرية تيل نادية، أنها مصنوعة من القطن المصرى العزيز الحنون على البدن، ولونها مريح ومناسب للون بشرة المصريين السمراء وظروف بلدنا المناخية، فهى ليست من الألياف الصناعية الضارة ولا من الألوان الداكنة المقبضة للنفس.

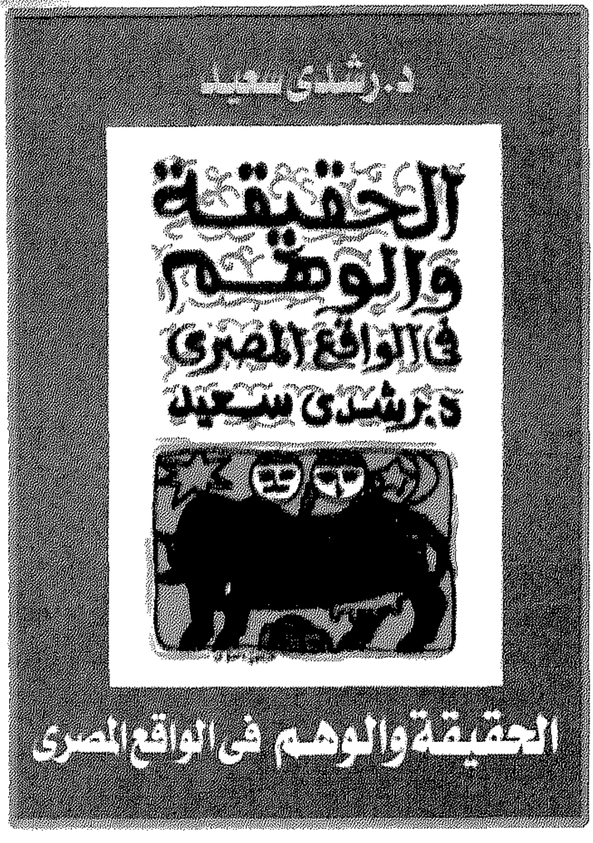
وكانت وزارة التربية والتعليم ، تقدم مجانا ملابس مادة التربية العسكرية أو الفتوة، لجميع طلاب وطالبات مدارسها الثانوية، وهذه الملابس شبه العسكرية المصنوعة من قماش الجبردين المصرى الممتاز، هى الزى الرسمى لمعظم هذه المدارس، مما يريح أولياء الأمور ويرفع عن كاهلهم عبء مصروفات الملابس، وكانت ألوانه عملية جداً وتتحمل العُفار ومشكلات البيئة المصرية، أما الآن فهناك كوكتيل من الملابس فى المدارس المصرية تتراوح ألوانه بين البمبى المسخسخ، والنبيذى السمج، وما بينهما من كحليات وأخضرات وأصفرات، وكل مدرسة وحسب ربنا ما يقدر لها من إبتداع ألوان وأنسجة وموديلات، وأصبح الزى المدرسى معبراً بحق عن كل التناقضات الاجتماعية، وغياب فلسفة التعليم ودوره فى المجتمع، فإذا رأيت أطفالا يرتدون البمبى المسخسخ، أو قمصان كاروهات بيتى بول صغيرة فاعرف أنهم من أبناء المدارس الخاصة التى تحصل مصروفات بالشىء الفلانى، وإذا رأيت أطفالاً يرتدون ملابس ذات لون رمادى كالح كالمتسخة تماماً، فاعرف أن هؤلاء من أولاد الجارية الذين يتعلمون فى مدارس الحكومة، وما يجب أن تعرفه أيها القارىء العزيز إن كنت لا تعرف هو أن هذه الملابس الجربة الكالحة يعز شراؤها على بعض من أبناء هذا الوطن، بسبب سوء أحوالهم المعيشية وضيق ذات اليد، وأعلم - أيدك الله - أن مصر التى ترابها زعفران بات فيها من يؤثر الموت والانتحار مخالفة لطاعة الله، لأنه لا يستطيع شراءها لأولاده عند دخولهم المدرسة.

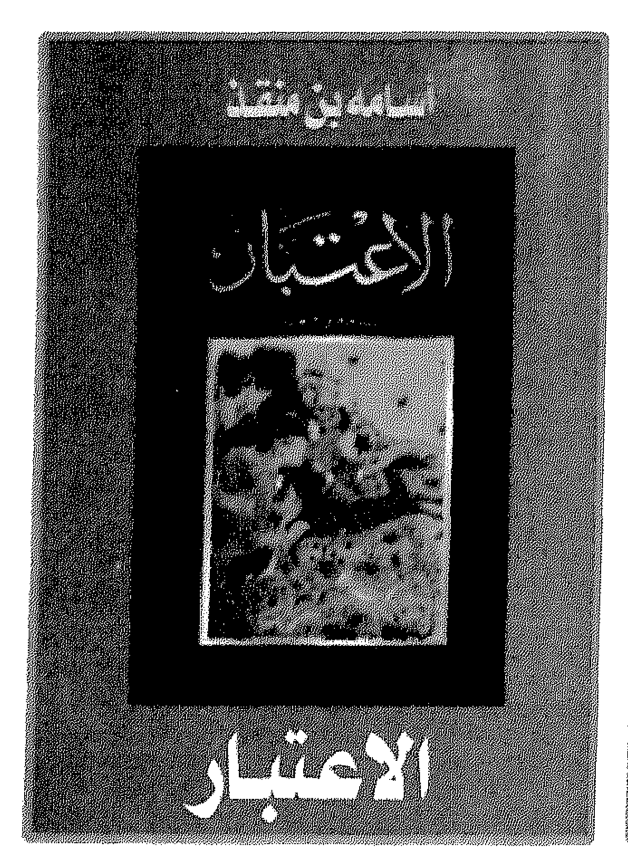
فهل نعود لنادية وتيلها العبقرى رحمة بالناس لعل الله يرحمنا برحمته جميعاً!

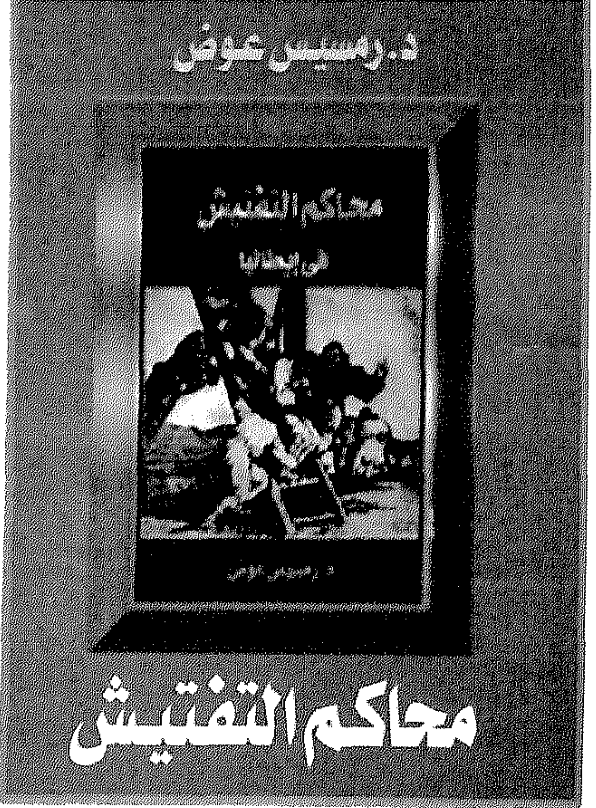


أحدث إصدارات دار الهلال












المعلم أون لاين
www.elmoalemonline.com
07771555
مجانًا
إلعب و تعلم على الإنترنت من خلال الرقم ٠٧٧٧١٥٥٥
للمذاكرة و المراجعة
للألعاب و الترفية
PUZZLE
للاستفسار و مراسلة المدرسين
بضمان
المعلم اون لاين — بوابتك الإلكترونية إلى المستقبل

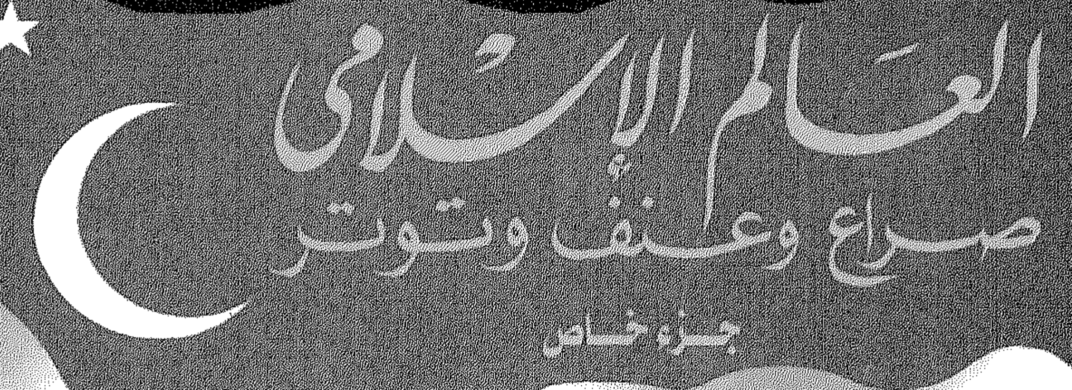
الهلال

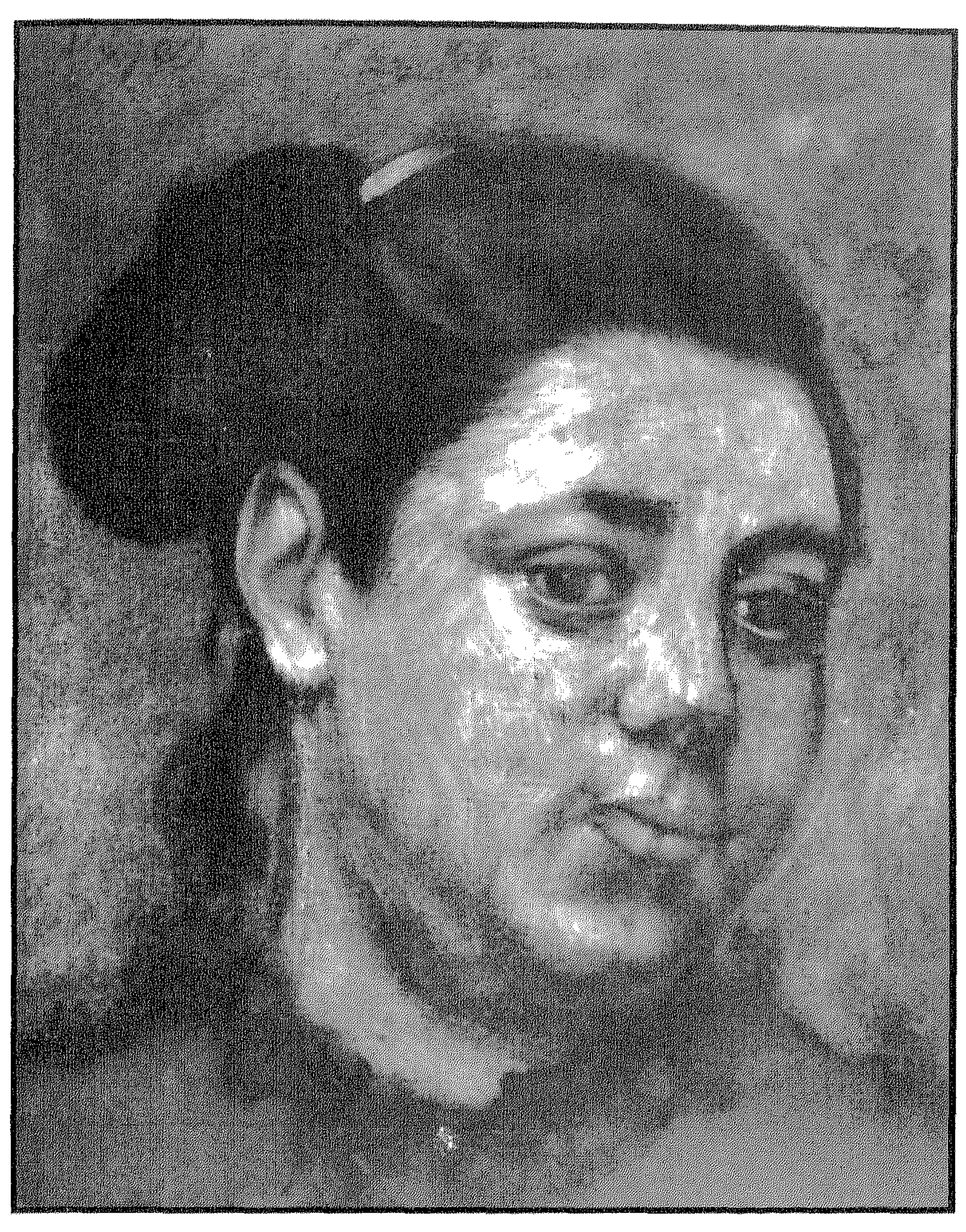
نوفمبر ٢٠٠٣ الثمن ٤ جنيهات

الإسلام على الإنترنت فى رمضان

إبداع الجيل الجديد:

الكتاب الأول - لوحات الشباب



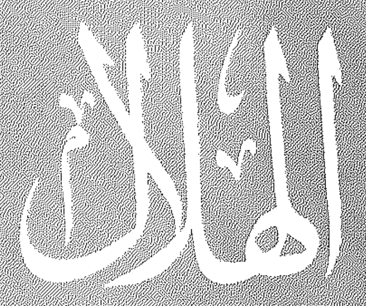


لـوحــة وفـنــان

رأس امرأة

للفنان العالمى: إدجار ديجا

عام ١٨٨٣ - المتحف البريطانى



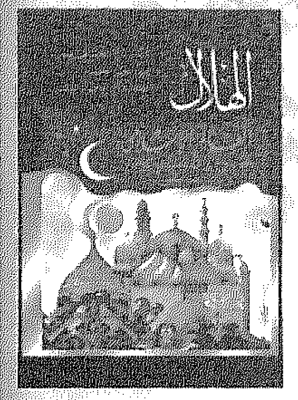
مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال
أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢
العام الثاني عشر بعد المائة رمضان١٤٢٤ هـ - نوفمبر٢٠٠٣م

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات:ص.ب. ٦١- العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع مجلة الهلال
ت:٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: **darhilal@idsc.gov.eg**

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار - البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال - تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار - إيطاليا ٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - امريكا ٨ دولارات





تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

العالم الاسلامى جزء خاص

٨ – الإسـلام على الإنتـرنت في رمـضـان ....
.... د. **أحمد محمد صالح**

١٨ – حلقـات الذكـر فى رمـضـان ....
.... د. **محمد رجب البيومى**

٢٦ – التدخل الخارجى فى الدول الاسلامية
.... د. **نادية مصطفى**

٣٦ – تشينجيانج الإقليم الإسلامى فى الصين ....
.... **محمود أحمد**

٥٤ – المخـابرات والتـحليل السـيـاسـى ....
.... **جميل مطر**

٦٠ – هل تعـود الثـقـة إلى النظام الدولى؟ ....
.... د. **منير زهران**

٦٧ – الجـدار العـازل دواعي أمن أم اغـتـصـاب أرض........ **ترجمة : حسن صبرى**

٧٤ – الحـيـاة فى مـخـيـمـات اللاجـئين الفلسطينيين

٨٦ – هل تنجح أمريكا في وقف برنامج ايران النووي؟
.... د. **فوزى حماد**

٩٥ – قصيدتان (شعر) د. حسن فتح الباب

١٠٤ – د. عبدالعظيم أنيس المثقف المصرى بامتياز
.... د. **جلال أمين**

١٠٨ – نسيج الغربة فى حياة إدوارد سعيد ....
.... د. **عزة مازن**

الإشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٢٥ دولارا، أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً، باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

● وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول - ص.ب رقم ٢١٨٣٣ - الصفاة - الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

دائرة حوار

١١٤ - فوضى التأليف .. وغياب النقد العلمى «دائرة حوار» .... د . محمد الدسوقى
١١٨ - عقدة العقاد. ..د. عبداللطيف عبدالحليم
١٢٤ - التاريخ الاجتماعى على لسان هؤلاء .... مصطفى نبيل
١٣٤ - سلاسل إبداعات الشباب .... أمانى عبدالحميد
١٤٠ - جيل جديد والثورة الثانية للفن الحديث .... صلاح بيصار
١٤٨ - قراءة فى أعمال كوتزى الحاصل على نوبل .... إبراهيم فتحى
١٥٨ - فن عايدة عبدالعزيز... صافى ناز كاظم
١٦٦ - مهرجان محاصر بالرقابة وداء النسيان .... مصطفى درويش
١٧٢ - المتفرجة (الصفعة) .... ميرفت رجب
١٧٨ - الشاطئ الظامئ (شعر)...... أحمد خميس
١٨٠ - رحيق الكتب ....
١٨٤ - سكة أباظة (قصة)...... خليل الجيزاوى
١٩٠ - باريس التى لم يشاهدها رفاعة الطهطاوى .... د. محمد المهدى
٢٠٠ - تذكير بفضل الراحلين .... وديع فلسطين

الأبواب الثابتة

- عزيزى القارئ ٦
- أقوال معاصرة .. ١٧
- من ذخائر الكتب العربية : (الموشى) أحمد حسين الطماوى ٤٦
- لغويات «د. الطاهر أحمد مكى» ٥٢
- شخصية العدد «د. محمد البرادعى» بقلم شكرى فؤاد..... ٩٦
- التكوين «صنع الله إبراهيم» ٢٠٦
- أنت والهلال «عاطف مصطفى» ٢١٨
- الكلمة الأخيرة «نعمات البحيرى» ٢٢٦



ذكرى الرئيس السادات

تثير شخصية الرئيس الراحل أنور السادات الكثير من الجدل .. ربما يعود ذلك إلى أنه جاء بعد الزعيم الراحل جمال عبدالناصر ، وربما لأنه تولى مسئوليته في ظروف دقيقة ، بعد أن ظهرت بوادر تغيرات إقليمية وعالمية كبيرة، كان لها كبير الأثر على مسار التجربة المصرية .

وكل ما يكتب عنه يتناول المسائل الكبرى ، قرارات الحرب والسلام ، ومدى توافق النتائج السياسية للحرب مع النتائج الظافرة لحرب أكتوبر، أو بداية العصر الليبرالى المتمثل فى عودة الأحزاب أو الانفتاح الاقتصادى وغير ذلك من القضايا الكبرى .

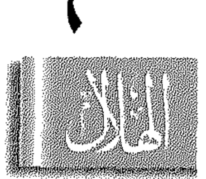
ولكنى أتناول هنا قرارين بالغى الأهمية :

أول هذه القرارات ، إصدار تعليمات حاسمة بعدم تعرض المتهم لأية صورة من صور الإيذاء البدنى ، سواء كان معتقلا أو مسجونا ، وبالفعل جاءت كل الشهادات التى أدلى بها أصحاب التجربة تؤكد ذلك .

وهذا القرار – لو تعلمون – عظيم ، فتاريخيا عانى المواطن فيه منذ عهد محمد على من قضيتين هما : استخدام «الفلقة» و «الكرباج» ، ونظام السخرة، وألغيت السخرة ، وبقى العقاب «بالكرباج» !

وبالتالى أصبحت إحدى العقبات أمام دروب النهضة ، علاقة السلطة بالمواطن التى اتسمت فى معظمها بالقهر والعسف .

ويسجل الجبرتى على عصر محمد على ، فرض السخرة على الأهالى فى تنفيذ المشروعات ، «ولم يتحرر الشعب من الشقاء ، ووقع عليه إرهاق ومظالم كثيرة» ، وحتى فى عصر إسماعيل ضرب الفلاح «بالكرباج» من أجل جمع الضرائب ، كما سخر الفلاح فى أسوأ الظروف ، ويجد من يقلب صفحات



التاريخ تكرار إعلان إلغاء السخرة والكرباج خلال القرنين الماضيين ، مما يؤكد استمرارهما . ففى يوم ١٧ يناير ١٨٨٠ صدر مرسوم بإلغاء ضريبة الملح وأبطل استعمال الضرب بالكرباج لتحصيل الضرائب ، أى استمرار استخدامه لأغراض أخرى .

وكل من جرب مرارة القهر ، يدرك آثار الطغيان الذى تعددت أشكاله ودوافعه ، ويعرف آثاره على المستقبل ، وتدمير الإنسان وتحطيم قيمه . فإذا دخل القهر من الباب ، هربت الحرية وكرامة الإنسان ، وتمضى أيام المقهورين فى سكون ، بلا طموح ، وليس فيها من النشاط الإنسانى سوى إشباع الحاجات الرئيسية ، ومن الطبيعى للمجتمع عندما يزيد فيه البطش أن يضعف العمل العام ، وأن تضعف وتخبو الحياة السياسية ، والطغيان الذى يرتبط بالاستبداد والتسلط ، هو الذى يثمر ألوان التعصب والتطرف .

ويدرك حدود القهر الذى عاناه أبناء الشعب ، من كابده .

ويكاد يكون الرئيس السادات هو الحاكم الذى وصل الحكم ، بعد حياة مثيرة ، فكانت حياته مليئة بالمشقة والعنف ، وعمل نتيجة كفاحه السياسى فى العديد من الأعمال ، بعد أن فصل من عمله كضابط فى القوات المسلحة .. تباعا ومقاولا وسائقا ، وتردد على السجون والمعتقلات فى أكثر من قضية سياسية ، مثل قضية حكمت فهمى وقضية اغتيال أمين عثمان ، وشاهد بعينيه. كيف يقضى التعذيب على مروءة من يتعرض له ، وكيف تتوارى الشجاعة داخل أروقة السجون ، كما أدرك أن القهر يقضى لا على من يتعرض للتعذيب وحده ، بل على من قام بالتعذيب أيضا ، وأنه لا يقتصر على من يعذب ومن يتعذب بل يمتد إلى الشعب ويغير من صفاته ويؤثر على الشخصية الوطنية .

فحقا إن الضد لا يعرف إلا بضده ..

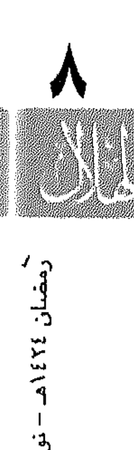
أما القرار الثانى والذى رفع قهر الجوع والفقر عن المواطن ، والذى صدر أيضا نتيجة خبرة وتجربة عميقة ، بعد أن عانى فى فترة النضال من الجوع والتعطل ، فقرر معاشا لكل من ليس له مصدر رزق أطلق عليه «معاش السادات» ،يتقاضاه كل مواطن يثبت أن ليس له دخل آخر ، وهو بذلك يواجه إحدى صور القهر المتمثلة فى الجوع والفقر . ويحفظ كرامة الأرامل والشيوخ ويعفيهم من غائلة الجوع .

هذا ما نتذكره فى ذكرى رحيل أنور السادات ، فأليس خير ما فى الماضى، هو الحلم بالمستقبل . وأن يكون ذلك وضع الأساس للحرية وهى بداية البدايات .

المحــــرر

العالم الاسلامي

الإسلام
على الإنترنت في رمضان



بقلم
د. أحمد محمد صالح

أصبح الإنترنت جزءاً مهما في حياة العديد من المسلمين، وأسس الكثير من المنظمات والأشخاص مواقع فعالة للإسلام على الويب، واستعملوا إمكانيات النشر والربط بين وصلات الشبكة. ومنذ حوالى سنتين نشر للكاتب في سلسلة كتاب «الهلال» كتابا متواضعاً

عن تداعيات الإنترنت الاجتماعية والسياسية، تضمن فصلا كاملاً عن إسلام الإنترنت، واكسبه ذلك قراءة واسعة للمحتوى الدينى للمواقع الإسلامية، لكن الإنترنت حتى عام ٢٠٠٠ كان فيها ١٠ ملايين موقع تغطى جميع الموضوعات والمجالات، ويتوقع بأن هذا العدد سيزيد إلى مائتى مليون بحلول عام ٢٠٠٥، ويعنى هذا التوسع المستمر زيادة حتمية ونسبية فى عدد المواقع ذات العلاقة بالأديان عموما، وبالإسلام بصفة خاصة، وتصعد ضرورة استمرار التحليل، والبحث، وتسجيل التطورات المتعلقة بالمواقع الإسلامية على الإنترنت! وفحص أشكال التعبير الدينى الإسلامى على الإنترنت من خلال المحتوى المنشور، اعتماداً على شرعية الإنترنت كمصدر أكاديمى

وقبل أن نسترسل فى تتبع التطورات على الظاهرة الإسلامية على الإنترنت نذكر أهم النتائج التى رصدت فى دراستنا السابقة، وهى انتشار عشرات الآلاف من المواقع التى تتحدث عن الإسلام، غالبيتها بالإنجليزية وبقيتها بالعربية والفرنسية والألمانية والعبرية والفارسية والتركية والأردية، بكل لغات العالم، وتقف أمام تلك المواقع حائرا. فهى قد تكون محطات إذاعية أو تليفزيونية، أو مواقع للدعاء المستجاب، صحف ومجالات ومطبوعات، ومؤسسات أكاديمية ومراكز دعوة ودراسات وفتاو ومواقع للسنة النبوية الشريفة، وأخرى للأحاديث، وثانية للقرآن الكريم ويمكن أن نقول إن العالم كله يتكلم عن الإسلام! وكنت أعتقد عن جهل منى وتقصير معرفى أن غالبية المسلمين يعيشون فى المنطقة العربية أو المحيطة بها، وأن الشيوخ الذين نعرفهم والكتاب والصحف والمطبوعات والأزهر هم المراجع الأصيلة والوحيدة للإسلام، واكتشفت جهلى، وأن الإسلام موجود بكل لغات العالم على الإنترنت أقلها العربية لغة القرآن الكريم، وعرفت أن ٨٠٪ من المسلمين يعيشون خارج المنطقة العربية «أندونسيا وحدها ٢٠٠ مليون مسلم» وأن هناك ألوف الشيوخ والعلماء والدارسين والكتاب والمفكرين والصحف والمجلات والدراسات والمطبوعات الإسلامية وشرائط كاسيت وفيديو واسطوانات كمبيوتر وأفلام كلها عن الإسلام بغير اللغة العربية، ولا نعرف

عنها شيئاً، واكتشفت أيضاً أنه يستحيل الكلام عن العالم الإسلامى باعتباره كتلة واحدة، أو رؤية إسلامية موحدة، فالمواقع الإسلامية التى تعكس فلسفة الشيعة، مختلفة عن تلك التى تعكس فلسفة السنة، وتتباين تلك المواقع طبقاً للمنطقة التى تصدر منها، المنطقة العربية أو أمريكا أو أوربا وهكذا، وإذا كان فكر السلفية يسود على غالبية المواقع الإسلامية، نجد المواقع الإسلامية السلفية نفسها يختلف كل منها عن الآخر باختلاف الدولة التى ترعاه فهذا يعكس الإسلام فى السعودية بفتاويه المعروفة، وذلك يعكس فلسفة شيوخ قطر، وآخر يصدر من باكستان، وفى أندونسيا، وجنوب أفريقيا، ونيجيريا، والمواقع الإسلامية الصادرة من أوربا تباينت هى الأخرى من مجتمع أوربى إلى آخر حسب أوضاع المسلمين فى كل مجتمع، واكتشفت أنه موجود بدرجات مختلفة فى معظم المواقع التى تتحدث عن الإسلام فى الإنترنت وتكرر فى كل المواقع تقديم الخدمات التعليمية الإسلامية كل حسب لغة الموقع من قرآن وسنة وصلاة وزكاة ومعاملات مالية وحج وفتاوى، وكل حسب مستوى الموقع فى التصميم. وأبرز الملحوظات على المواقع الإسلامية الصادرة من المنطقة نفسها التكرار الشديد، وقليل منها ما أتى بجديد، وغياب أدوات البحث، وكثرة القوائم البريدية الإليكترونية، ولم تضارع المواقع الإسلامية الأجنبية، أو مواقع الأديان الأخرى من حيث الكيف والكم فى تقنية الموقع، ورغم مزاعمها، بأنها موجهة للمسلمين فى العالم كله بغض النظر عن انتماءاتهم السياسية والمذهبية، لكن لا يخفى على المتابع لتلك المواقع، أن كلا منها ينتمى إلى بلد معين، ونقلوا لمواقعهم كل أمراض الظاهرة الإسلامية، ويمثل المذهب الوهابى فيها أغلبية، حيث تسود فى تلك المواقع فتاوى وأحاديث الشيوخ الذين أنتجهم النفط، وهم أصحاب مصلحة اقتصادية حقيقية وأصيلة فى فتاويهم وتفسيراتهم، وتحولت تلك المواقع إلى سوق مثل الأسواق التى تفرش أمام المساجد لبيع الأناشيد، والعطارة، والكتب الصفراء، والثعبان الأقرع، والثعبان أبو شعر، وشرائط الكاسيت والفيديو، التى تتكلم عن غسيل الموتى، والنهاية السوداء لكل من لا يسمع تلك الشرائط. وانتشرت أيضاً فى المواقع باللغة العربية والإنجليزية والألمانية، وغيرها من اللغات مثل الأردية، والأندونيسية لغة التهديد والوعيد، وأن الغرب وأنصاره ملاعين شياطين، يعيشون فى ظلمات، ويعترضون على نشر تشريع الله وحكمته! ورصدنا أيضاً كثرة المواقع الأجنبية الأكاديمية التى تتكلم عن الإسلام، وهى تصدر عن جامعات مثل اكسفورد، وبيركلى، وكورنيل وغيرها من الجامعات العالمية، وتتكلم لغات العالم المختلفة أغلبها الإنجليزية، وهى غنيه جداً بالكتب والدرسات الإسلامية، وفيض ضخم من المعلومات الأكاديمية عن الإسلام. فى المقابل غياب شبة كامل للمواقع الأكاديمية العربية التى تتكلم عن الإسلام.



واليوم فى هذا المقال نستكمل رصدنا للظاهرة الإسلامية على الإنترنت، وأبحرنا إلى مواقع جديدة لم نزرها فى دراستنا السابقة، ورغم خبرتنا فى الإبحار إلى المواقع الإسلامية فإن الانتقائية كانت هى المفتاح فى البحث، حيث يواجه المرء فى النظرة الأولى بآلاف المواقع الإسلامية الجديدة الدعائية للإسلام، حتى قوائم مواقع «الإسلام» كانت معقدة وتوقعنا فى الحيرة، ومحتوياتها لا تعطينا بصيرة كاملة عنها، وكان يجب تعريف ما هو إسلامى فى السياقات الاجتماعية والسياسية، والفقهية، وكشف هذا التعريف فى هذه المواقع الجديدة المختارة انتقائيا، البيئات الإسلامية على الإنترنت، كالهويات والشخصيات التى تظهر وتقدم نفسها تحت الرايات الإسلامية العلى الخط، وتمثل تفسيرات وتأويلات واسعة ومداخل ثقافية متعددة نحو الإسلام، والعديد من المواقع لم تقبل بالضرورة أن تظهر الصفة الإسلامية فى كافة أنحاء الموقع. وفى الحقيقة، يمكن أن نلحظ فوراً تأكيداً لملاحظاتنا السابقة وجود خصومات كثيرة بين المواقع الإسلامية على الخط والتى تمثل مذاهب وفرقاً مختلفة، تماما كما يحدث فى الواقع الإسلامى «الحقيقى»، وتأكدت مرة أخرى المفارقة فى أن فكرة الاجتماع أو وجود مجتمع إسلامى عالمى تتناقض تماماً مع الخصومات المنتشرة بين مواقع الإسلام على الخط!

وكما ناقشنا فى المقالات السابقة كيف تؤثر الإنترنت، على السلطة التقليدية فى الأديان المختلفة، وبالتالى فهى تؤثر على الشبكات التقليدية للسلطة الإسلامية، وعلى وسائلها التى تستعملها للحصول على قرار دينى، وتؤثر أيضاً على النظرة المرجعية للمصادر الأساسية الإسلامية، وكلما تقدمت تقنية الشبكة توسعاً، زادت المعركة على موضع قدم فى فضاء الإنترنت، فيزيد عدد الجماعات الإسلامية التى أسست لنفسها مساجد الإنترنت لتعلن الإصدارات والأوامر المختلفة للسلطة الدينية، وتبشر وتدعو وتقدم معتقداتها الدينية إلي جمهور عالمي. وقدمت المواقع الإسلامية، وأيضاً المواقع ذات العلاقة بالإسلام، منظورات متنوعة لما تعنيه بما هو إسلام؟! ومنظورات عديدة للكيفية التى تفسر وتأول وتقترب بها من الإسلام!

خصائص الموقع الإسلامي الفعال

ولوحظ أن العديد من صناع المواقع الإسلامية على الشبكة ليسوا «علماء دين» بالمعنى التقليدى، لكن يقدمون أعمالهم كجزء من التزام أو واجب دينى، مستندين على نصوص قرآنية تأمر بتبليغ رسالة الإسلام. وفى أغلب الأحيان يرتبط تأثير هذه الرسالة المبلغة عبر الإنترنت بفعالية وكفاءة تصميم مواقع الويب، وإذا ما نجحت فى التعبير عن إحساس ومشاعر الهوية الإسلامية، وأن ينجح الموقع فى توظيف الصور بفورماتها المتعددة، ومدى حرصه على تشجيع وتوليد المرور على الموقع، وفعاليته فى أن يوصل

إلى «مواقع مؤثرة أخرى» ومرتبطة إلى حد كبير بمكائن البحث لتتكامل البيانات فى تصميم الموقع، على أن يكون للموقع اسم إسلامى له تأثيره. ويمثل فضاء الإنترنت اليوم شكلاً جديداً من بيئة إسلامية، تستند على الأفكار والأساليب التقليدية للمجتمع الإسلامى، وتتكامل فى ترابط تقنى ملائم، حيث تطورت الكيانات الإسلامية على الإنترنت بسرعة كبيرة، واستقرت خارج الفضاء والزمن التقليدى، لكنها ارتبطت بالأفكار المعاصرة والتاريخية للهوية الإسلامية، والكثير من تلك الكيانات الإسلامية تحمل لافتة السنة، ويعتبر المسلمون «السنة» أنفسهم يمثلون فرع الأغلبية الإسلامى، حيث يبلغ عدد المسلمين السنة ٩٤٠ مليون، والشيعة ١٢٠ مليوناً، الأحمدية ١٠ ملايين، الدروز ٤٥٠ ألفاً، وفقاً لإحصائيات قاعدة بيانات الأديان على الإنترنت Adhcrcnts.com فى آخر تعديل، فى ٦ سبتمبر عام ٢٠٠٢، هناك مواقع مهمة تمثل تفسيرات واعتقادات إسلامية أخرى، فالعديد من المواقع سخرت نحو إسلام الشيعة، وكمية كبيرة من المواقع تحت راية الإسلام الصوفى. وظهرت خلافاتهم على الإنترنت. وتوجد منافسة، وتزاحم كبير بين مواقع الويب الإسلامية المختلفة، ورغم ذلك التنافس فى أغلب الأحيان، تتشابه المادة المعروضة والمحتويات بين المواقع وهو ما رصدناه فى الدراسة السابقة، بل أحيانا ينسخ المحتوى ويعرض في عدة مواقع. وتوجد زيادة فى التخصص بين مواقع الويب الإسلامية، فهى تركز بصفة خاصة على المجتمعات الإسلامية التى تمثلها. وتعمل تلك المواقع كأدوات ربط شبكية، ترسو على سواحلها جميع المعتقدات الإسلامية. وبعض مناصات تلك المواقع تستعمل تقنيات الويب بحرفية وبشكل أوسع من مواقع أخرى. والمواقع الإسلامية الكثيرة التى تظهر حين نبحث فى آلات البحث المختلفة ونكتب كلمة إسلام أو مسلمين، ليس بالضرورة أن تضم كل المناطق الأخرى من الطيف الإسلامى.

المعارضة الإسلامية

ومنذ عدة سنوات تستعمل الإنترنت بنجاح لنشر رسائل إسلامية بشكل علنى فى سياقات عالمية أخرى تولدت على الإنترنت، مثل المواقع المرتبطة بالمعارضة للحكومة العربية السعودية، ومواقع الطالبان فى أفغانستان أو المجاهدين فى الشيشان، والإخوان المسلمين، والجماعات الإسلامية فى مصر، وهناك مواقع إسلامية أيضاً تقدم مفاهيم تعتبر راديكالية و«غير إسلامية» فى السياقات الإسلامية الأخرى. مثال بارز تلك المواقع التى تقدم وتشجع المسلم الشاذ جنسيا. وتنافى هذه المواقع التفسيرات السائدة فى القرآن. بمنع الشذوذ الجنسى. فى مثل هذه الحالات، تسهل الإنترنت للأشخاص المسلمين أو المجموعات المسلمة للتعبير ونشر وتوزيع آرائهم حول الإسلام تلك الآراء التى لا تجد ترحيباً ضمن سياقات المواطن الاجتماعية

والثقافية.

الإنترنت ونساء المسلمين

وقدمت المواقع الإسلامية على الإنترنت فرصة لمختلف مجموعات نساء المسلمين، اللاتى يجدن فى الإنترنت وسيلة اتصال ملائمة وسرية، يتم من خلالها مناقشة قضايا دينية وثقافية، بما فى ذلك مخاوفهم من قضايا الجندر النسوية gender. حيث تتم مناقشة المنظورات الدينية المتنوعة والتعبيرات والمفاهيم الإسلامية الشعبية، بما فى ذلك المفاهيم والقضايا الروحية والصوفية والباطنية، وتسعى تلك المواقع لتقديم نظرتهن للعالم الإسلامى من خلال الفيديو، والملفات الصوتية، ووثائق نصية تحمل أفكارهن وفهمهن وتفسيراتهن الدينية.

دعوة عالمية

فالشبكة أصبحت أداة لانتشار الإسلام، وتستهدف المشاهدين فى مختلف انحاء العالم. فنرى بعض المواقع استهدفت تعزيز الإيديولوجيات، كجزء من عملية ربط وتأسيس قوائم العضوية وقوائم القراء . وآخرون يقدمون رسالة للمسلمين الذين يحملون اعتقادات مختلفة، ربما محاولة منهم لإقناعهم، ويقدمون تعاطفاً مع الاتجاهات المختلفة حول العالم. وهناك أيضاً مواقع استهدفت أولئك الذين لا يعرفون أنفسهم كمسلمين، وتسعى لكسب تحولهم إلى الإسلام، أو تدخل فى حوارات لاهوتية بالمجموعات الدينية الأخرى، وكثيراً ما يصاحب هذا الحوار رسائل بريدية الكترونية ملتهبة بين الفئات المعارضة، فهذه إجابة الإسلام، وأخرى إجابة المسيحية، وهناك إجابة اليهودية، ثم الاجابة على إجابة الإسلام، وهكذا! ومن الملاحظات المثيرة الى ارتبطت بهذا «الحوار» بأن نادراً ما يكون هناك استعداد للاتصال المباشر الشخصى بين الأشخاص المتحاورين، فهم عادة، وفى العديد من الحالات يستعملون أسماء مستعارة متبنية!

السلطة الإسلامية

والمواقع الإسلامية على شبكة الويب قد تكون إنتاجا فرديا، أو تمثل منظمة كبيرة، ولوحظ أن السلطة الإسلامية «كما تقدم على الإنترنت تنبثق عادة بقدر قربها من مكة المكرمة! وقد يكون هناك بعض الإشارات بذلك بالنسبة إلي منزلة أولئك الذين ينشأون ويبدأون مادة إسلامية على الإنترنت، والإنترنت دمرت تماما الطرق التقليدية للمعرفة والتفسير، وفتحت الباب لمشاهدين جدد من جميع انحاء العالم للتعرف على الإسلام، وبدأت السلطات فى المساجد والمدارس الدينية بإعارة انتباه أكبر إلى الوسط الجديد، والعلماء الدينيون يستطيعون الآن أن يتعملوا لغة النص الإليكترونى hypertext بجانب اللغة العربية الكلاسيكية فى المؤسسات الإسلامية الكبرى مثل قم فى إيران والأزهر فى مصر، ويستطيعون العمل باللغات العالمية مثل الإنجليزية وغيرها، ويسعون لتقديم نظرتهم العالمية على الإنترنت. ولوحظ أن بعض المواد التى يعظون بها تهدف

بوضوح ومباشرة إلى تحول المشاهدين من الديانات الأخرى إلى الإسلام. بينما مواقع أخرى تخاطب بكياسة ولباقة اللاتوازن الموجود فى طبيعة الإنترنت، هذا وقد تزايد الوعى المؤسساتى الإسلامى للإنترنت إثر ظهور موقع نقدى يسمى «suras» سور أو آيات قرآنية Qu-ranic Verses على الإنترنت عام ١٩٨٩، وتصدر عناوين الأخبار فى بعض أجزاء العالم الإسلامى، وكانت شركة Ameri-ca On-line هى التى تزود الموقع بالخدمة وتستضيفه! ولكن الشركة خشيت وقتها وفزعت من الفتوى التى اصدرت بإهدار دم الكاتب الهندى الإنجليزى سليمان رشدى، فأغلقت الموقع تجنباً لخسارة أعمالها، ولكن الوقت كان متأخراً جداً، فظهرت العديد من المواقع الإسلامية التى ترد على تلك المواقع الناقدة، وقرر العلماء الذين اعتبروا من قبل إن الإنترنت بيئة معادية وخطرة على الإسلام قرروا دخول فضاء الإنترنت لمعارضة ودحض الآراء المعادية للإسلام. وهو ما نشاهده بكثرة الآن على الإنترنت. وكانت هناك مواقع أخرى، غير موقع America on line، حيث رصد ذلك التحريف وقتها على موقع شركة تريبت كوم وعلى موقع شركة جيوستيير، هذه المواقع هى ما يسمى بالميروسايت أو المواقع المنعكسة، حيث نفس المحتوى موضوع على الـ٣ شركات، وقد أغلقت تلك المواقع، لأن هذه الشركات لا علاقة لها بالمحتوى بشكل مباشر، هى توفر هذه المساحة على أجهزة الكمبيوتر الخاصة بها لمن يرغب فى أن يحصل على هذه المساحة ويضع المحتوى الذى يكون مسئولاً عنه بما يتفق مع بعض فى أن يحصل على هذه المساحة ويضع المحتوى الذي يكون مسئولاً عنه بما يتفق مع بعض القواعد التى تضعها الشركات وهى ألا ينشر الكراهية بين الناس وألا يسئ للأشخاص، أو للأديان، وألا يضع معلومات مزورة إلى آخره. وقد يتصور البعض أن المسلمين مطالبون باللهث وراء تلك المواقع التى يمكن أن يصنعها أى مخبول، والرد على ما ينشر فيها من إساءة، بل مطلوب منهم تأسيس مواقع تعكس صورة المسلمين وأفكارهم الحقيقة.

القرآن في
الفضاء السيبيري

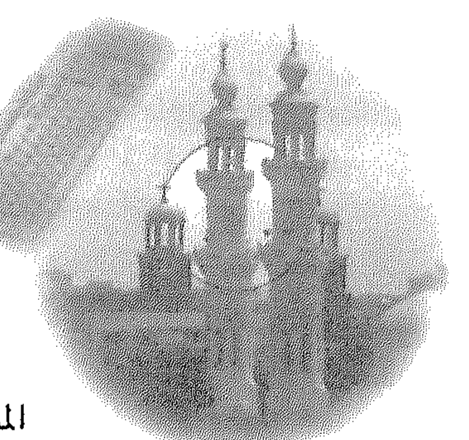
انتشر القرآن على الإنترنت فى شكل غير تقليدى للقراءة والفحص والتأمل، وكمادة إنترنت hyportext قابلة للبحث. وأصبح القرآن يعرض بكثافة فى المواقع الإسلامية على الإنترنت، وتعرض معه ترجمات للنص القرآنى الإنجليزى، ولن يستطيع قارئ النص الإنجليزى أن يتفهم المعانى العميقة للنص المقدس، إلا إذا فهم اللغة العربية الكلاسيكية وفى المقابل كان النص العربى للقرآن صورة من المصاحف المعاصرة للقرآن اليوم حيث المطابقة المضبوطة من شكلها الأصلى، في كل إيقا ع، وتفصيل نصى ولغوى، مع تقديم تفسيرات بديلة من المعنى وتقييم للأحكام، عكس الترجمات العديدة

والمتنوعة المتوفرة باللغة الإنجليزية، التى لا تحترم الفروق الدقيقة فى فهم المعانى الإنجليزية، وتقدم قضايا فقهية تتطلب تحليل اشتقاقي، ووجوب العود إلى المصدر العربى الأصلى، وهذا يجعلنا نتساءل عن طبيعة الدوافع وراء تعدد الترجمات الإنجليزية للقرآن الكريم على مواقع الإنترنت، وهل هى دوافع تجارية أو ثقافية وأيديولوجية؟ ففى موقع لويس فرخان، the nation of islam on line وعنوانه www.noi.org، وموقع www.submission.irg لدكتور اسمه راشد خليفة وغيرها من المواقع الإسلامية الأجنبية تحمل ترجمات للقرآن فيها الكثير من الخزعبلات الدينية والخرافة، وعلى الدارسين والعلماء، أن يدخلوا تلك الموقع، ويفندوا تلك المزاعم ويقولوا لنا ولغيرنا من المسلمين كلمتهم.

أن انتشار وتعدد المواقع الإسلامية على الإنترنت يعكس رغبة صريحة من أصحاب تلك المواقع بتوظيف الانتشار العالمى لشبكة الويب لوصول القرآن الكريم لكافة أنحاء المعمورة خاصة السكان المسلمين فى الدول النامية. لأن فكرة اقتصار إمكانية وسهولة الولوج إلى الإنترنت على نخبة المجتمع فقط أصبحت فكرة بالية، وبلا معنى بعد أن أصبحت الحاسبات متوفرة فى الأماكن العامة من جامعات ومكتبات ومنازل.

صورة الإسلام

وبعد هجوم الثلاثاء الأسود يوم ١١ سبتمبر ٢٠٠١ على الولايات المتحدة الأمريكية، وبعد انتهاء الصدمة الأولى بدأت حرب حقيقية فى منتديات الحوار بالإنترنت، واشتعل فضاء الإنترنت بأعنف موجة حقد وكراهية ضد كل ما هو عربى وإسلامى، وشنت هجمة منظمة على الإسلام عبر مواقع أسستها مؤسسات صهيونية تشن حرباً ثقافية وعقائدية لتشويه صورة الإسلام وتقديم سور القرآن الكريم وآياته بشكل مغلوط، لدرجة أن الحكومة الإسرائيلية عملت على اصدار ترجمة محرفة باللغة العبرية لمعانى القرآن الكريم غيرت فيها معانى الآيات القرآنية الخاصة بإظهار خيانة اليهود، وأضافت ألفاظاً وحذفت ألفاظا أخرى لإظهار أن القرآن الكريم كتاب من تأليف النبى محمد صلى الله عليه وسلم، لكن ما أكثر المواقع على الإنترنت التى يدعى أصحابها أنهم مسلمون، لكنهم فى الحقيقة يشوهون الإسلام، ففى المواقع المذكورة عاليه، نجد من يناقض شهادة التوحيد، ويقولون إن هناك شخصاً اسمه «فرض محمد Fard Muhammad» أعطى النبوة لواحد أسمه «إليجا محمد Elijah Muhammad» وأنه خاتم الأنبياء، وليس محمد بن عبدالله، وينفى البعث، ولن نسترسل فى تلك الأقاويل فعنوان الموقع منشور، طبعاً حاولت أن أفهم ذلك البرهان الذى أثبته، من آيات القرآن، والإنجيل والتوراة، ولكنى أترك ذلك للمتخصصين من علماء الإسلام، واكتشفت أننى الوحيد الذى لم اسمع عنه من قبل، فهناك كثير من المصريين يعرفونه من قراءة مطبوعاته ولا أعرف كيف وصلت لهم!؟ وعرفت منهم أنه مصرى هاجر إلى أمريكا وهناك ظهر عليه النبوغ



الدينى. وهناك نموذج لموقع منظمة اسمها الفاتحة، توظف الدين لمباركة الشذوذ الجنسى، وتمكنت هذه المنظمة الدولية التى تعرف نفسها بأنها «منظمة الشواذ المسلمين» من تسجيل نفسها رسمياً فى نيويورك «أميركا» وتورنتو «كندا» لكى «تدافع عن حق الشذوذ الجنسى، وتمكنت هذه المنظمة الدولية التى تعرف نفسها بأنها «منظمة الشواذ المسلمين» من تسجيل نفسها رسمياً فى نيويورك «أميركا» وتورنتو «كندا» لكى «تدافع عن حق الشذوذ فى الإسلام»، وما إن تفتح موقع هذه المنظمة على الإنترنت حتى تفاجأ بكثرة توظيف الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فى سياق إثبات «حرية الشذوذ فى الإسلام»!! ولعل مما يلفت الانتباه في موقع منظمة «الفاتحة» ابتداؤها بالبسملة، ثم بآيات وأحاديث كثيرة تعكس محاولتها لكسب ثقة المسلمين، وهى تدعم هذا الموقع بعدد من حلقات النقاش أو ما يسمى بـ«غرف الدردشة» وأحدها عنوانه «إيمان» وهو خاص بالسحاقيات! وليس موقع «الفاتحة» هو المنظمة الوحيدة للشواذ، فهناك موقع «الأحباب»، وموقع الكلمة، وموقع «الأشوريون العرب» الذين هم من أصل سورى، ويتحدث أعضاؤها عن معاناتهم مع الجالية الأشورية الرافضة لشذوذهم!.

لن نعلق على مواقع تلك المنظمات الشاذة التى تتحدث باسم الإسلام! لكن من الواضح الآن أن هناك فئات من المسلمين فى داخل الدول الإسلامية، وفئات أخرى من المسلمين يعيشون فى الغرب لهم دور أساسى فى تشويه صورة الإسلام! لكنى أزعم، أن الإسلام لم يتعرض منذ ظهوره للتشويه على يد أحد كما تفعل فئة من المسلمين اليوم، وللأسف صوتها مرتفع للغاية، وتستغل جهل وبساطة وأزمة جموع المسلمين.

وبعد هذه البانوراما السريعة لبعض الملاحظات على المواقع الإسلامية فى الإنترنت، يذكر أن الإنترنت وسيلة يمكن أن تستخدم فى الخير ويمكن أن تستخدم فى الشر، وحكمها يأتى بحسب استخدامها، المسلمون مطالبون بتوظيفها فى التعريف بالإسلام وفى إلقاء الضوء على الرسالة والحضارة الإسلامية، والثقافة والشريعة الإسلامية وتاريخ الأمة الإسلامية، وإذا كان الإسلام بطبيعته دين انتشارى، دين دعوة، فعلى المسلمين أن يستفيدوا منها ويوظفوها فى نشر الحق، والدفاع عنه والرد على الأباطيل والشبهات التى يحاول الآخرون أن يثيروها حول الإسلام، إن الإنترنت ليست كما يريد البعض أن يشير الآن بأنها خطر يهدد الإسلام والمسلمين وإنما هى فرصة تاريخية للمسلمين للاستفادة من هذه الشبكة ومن إمكانياتها ، هى خطر يهدد الإسلام والمسلمين إذا تركها المسلمون لغيرهم. ■

أقــوال معاصرة

● «التوجه الإنساني هو خط المقاومة الوحيد، بل الأخير، لنا ضد لممارسات اللا انسانية، والمظالم التي تشوه التاريخ»

المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد

● «الفن لا يستطيع أن يعتاش على الفقر فقط، يجب عليه أن يسعى أيضا إلى الحميمية والعاطفة والحب»

جون ماكسويل كوتزي

الكاتب الجنوب الأفريقي الفائز بجائزة نوبل

● «لم تعد الحياة أمامي، بل الموت»

الشاعر أدونيس

● «التجديد في الشكل مغامرة، وهي أجمل ما في الابداع»

الأديب المصري محمد ربيع

● «ليس كل من اختلف معنا غبيا، ولا عميلا للاستعمار»

د. مديحة دوس

الأستاذة بكلية الآداب بجامعة القاهرة

● «الكلمة التي يغلب على استخدامها، عندما أتحدث مع شباب العرب هي النظام»

د. أحمد زويل

العالم المصري الحاصل على جائزة نوبل

● «العراق ليس إلا نقطة البداية في سلسلة تدخلات عسكرية أمريكية في المنطقة على نطاق واسع»

المفكر الأمريكي شارلز شلسنجر

● «إنني دائما اقرأ نهاية القصة أولا، فإذا مت قبل الإنتهاء من قراءتها، أموت وأنا أعرف على الأقل نهايتها»

المخرجة وكاتبة السيناريو الأمريكية نورا افرون

● «المثقفون فقدوا الدور والمصداقية، وباتوا صالحين لشئ واحد هو الدفن»

المفكر الفرنسي ريجيس ديبريه

● «لا يعقل أن نطوف العالم كله بالطائرات، إذا أردنا أن نضع وردة على كل قبر يضم مبدعا من فلسطين»

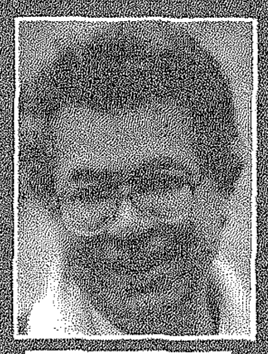
الشاعر الفلسطيني مريد البرغوثي

● ينتظر العرب من يقطعهم ويأكلهم ويشويهم مثلما حصل في« بغداد وجنين والخليل»

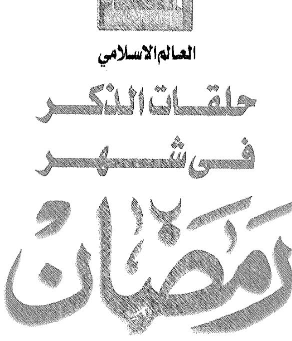
معمر القذافي


إدوارد سعيد


د. أحمد زويل


مريد البرغوثي

العالم الاسلامي



حلقات الذكر في شهر رمضان

بقلم
د. محمد رجب البيومى

تغيرت تقاليد رمضان فى هذا القرن عما عهدناه فى القرن الماضى أو فى نصفه الأول على التحديد، وقد تحدثت فى العام الماضى عن سهرات شاعر الربابة فى هذا الشهر الكريم، وأريد اليوم أن أتحدث عن بعض حلقات الذكر فى هذا الموسم، إذ كانت هذه الحلقات ذات رواج ذائع فى المساجد، ولها عشاقها الذين كانوا ينتظرونها بفارغ الصبر، لأنها تضفى كثيرا من البهجة الروحية على نفوس صافية تريد أن تؤكد صلتها بالسماء فى حفل بهيج كله نشاط وخفة وإيقاع.

ويزيد من متعته الروحية أن الذين يقومون بالذكر قضوا نهارهم صائمين، وقد أقبل الليل عليهم ليضيفوا إلى ثواب الصوم لدى الله ثوابا آخر فيما يقومون به من ذكر جماعى يتخلله الإنشاد الدينى وله من المبتهلين من يقوم بالترجيع الخاشع، ومن يجلس وسط الحلقة ليضرب بيده متجاوبا مع رنات المنشد، وقد يكون الجالسون جماعة إذا اتسعت الحلقة فامتد صفاها إلى الجدارين المتقابلين، والمنشد يصدح والذاكرون يهتفون بأسماء ذى الجلالة، الله، الله. حىّ حى، هو هو وفق نظام متعارف لا يحيد عنه إنسان، وأذكر أن الدكتور طه حسين قد وصف فى الجزء الأول من الأيام بعض حلقات الذكر فقال عن اجتماع الذاكرين «إنهم يذكرون الله أوّلا قاعدين ساكتين، ثم تتحرك رءوسهم وترتفع أصواتهم قليلا، ثم تتحرك أنصافهم وترتفع أصواتهم قليلاً، ثم تنبثّ فى أجسادهم رعدة فإذا هم جميعا وقوف، قد دفعوا فى الهواء كأنما حركهم لولب» ويظهر أن حلقات الصعيد التى وصفها الدكتور تختلف بعض الشيء عن حلقات الوجه البحرى، حيث أن ما شهدته من الحلقات، لا يبدأ بالذكر الصامت فجأة، بل يبدأ بقراءة أجزاء القرآن، حيث يأتى صندوق من بيت شيخ الفقهاء يضم ثلاثين جزءاً، هى جميع أجزاء القرآن، ثم توزع الأجزاء على الجالسين فيقرأ كل إنسان ما بيده من كتاب الله، حتى إذا فرغوا من ذلك كان كتاب الله قد قرئ جميعه، وتجتمع الأجزاء لتوضع فى الصندوق كعهدها السابق، ثم يأتى قارئى حسن الصوت فيفتتح المجلس بقراءة ما تيسر من آيات الله، وفق اختيار دقيق لآيات الترغيب والترهيب مما ينقل السامعين إلى العالم الروحى، فإذا انتهى من قراءته ابتدأ الذكر الصامت على نحو ما ذكره الدكتور، أما عند الخاتمة فلابد أن توزع النفحة، وهى قطع صغيرة من الحلوى يتبرع باحضارها أحد الذاكرين طيلة شهر رمضان لتوزع على الذاكرين تذكيرا بطعام أهل الجنة ومنهم من يحتفظ بها كعلاج روحى للشفاء إذا نزل به داء، لأن جو الذكر والخشوع قد خلع عليها فى اعتقاده ما يجعلها بعض أسباب الشفاء

لقد كان المتبع أن تقام الحلقات فى هذا الشهر الكريم كل ليلة، فهى من الأمسيات الدينية التى لا تقل مكانة عن دروس الوعظ فى المساجد بعد العصر، وبعد المغرب، بل إن بعض هذه الدروس فى المساجد الكبيرة، تخلق جوا من الانتعاش الروحى، فينهض السامعون فجأة لينتظموا فى حلقة الذكر تهليلاً وتسبيحا، وقد حدثنى أحد أساتذتى بالأزهر منذ عهد طويل أن الأستاذ الكبير الشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية كان يلقى فى العشرينيات درساً دينياً فى شهر رمضان بمسجد الحسين بعد صلاة العصر، وقد اختار حكم ابن عطاء الله السكندرى موضوعا لدروسه الموسمية، وفى أحد هذه الدروس تعرض لشرح قول ابن عطاء الله عن رب العزة.

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذى أظهر كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذى ظهر فى كل شيء؟

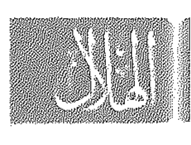
كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجله شيء وهو أظهر من كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو الواحد ليس معه شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء، وهو أقرب إليك من كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ما كان وجود شيء؟

التفاعل الروحى

وكان السامعون فى شبه انجذاب روحى يتفاعل مع هذه المعانى، فنهض أحدهم صائحا لا إله إلا الله، لا إله إلا الله، فهب الجالسون جميعا من ورائه، وانتظموا تلقائيا فى حلقة صوفية ذات رنين وابتهال، ونزل الشيخ بخيت رحمه الله ليجلس وسط الحلقة إذ كان فى سن متقدمة لا تسمح له بالنشاط كتلاميذه الشبان، وظلت الحلقة ممتدة حتى أذان المغرب، فآثر القوم أن يأكلوا سندوتشات الفول، ولم يذهبوا إلى منازلهم، ليعتكفوا فى المسجد حتى يؤدوا صلاة التراويح بعد العشاء! وهم فى جو روحى شغلهم عن الحياة والأحياء !

أخلص من هذه المقدمة إلى وصف ما أريده من الحديث عن ليلة من ليالى الإيمان فى أول يوم من رمضان قدر لى أن أكون سببا فى إقامة احتفال دينى بها ترن فيه الأذكار، وينتصب المحيا هاتفا بألحان السماء، فقد كنت زميلا للمستشرق الكبير الأستاذ عبدالكريم جرمانوس فى إحدى زوراته للقاهرة الخاصة بدورة مجمع اللغة العربية السنوية، حين ذهبت معه لزيارة مسجد الإمام الشافعى، فقلت له: وهل نسيت عمر بن الفارض سلطان العاشقين إنه قريب منا، فرحّب باقتراحى، ومضى يتحدث عن نوادر طريفة تروى عن العارف بالله شعرا ونثرا وسرنا فى الطريق فقلت له إن هذا الطريق كان يسمى فى العهد الأيوبى (وادى المستضعفين) فقال تسمية وافقت معناها، إذ لا يوجد مستضعف أذلّ من عاشق، فما بالك بسلطان العاشقين.

ولكن سرورنا لم يتم ، إذ ما كدنا نصل إلى مسجد الشاعر الكبير حتى رأيناه مهجورا تظلله الوحشة وليس به من زائر، والمصابيح منطفئة، ولا أدرى هل انقطعت الكهرباء فجأة فى هذا المساء أو كان انقطاعها دائما، وقد كان ظلام المسجد، وانصراف الناس عنه، مما خلع على نفسينا كآبة، قاتمة، فقال الدكتور جرمانوس: لو لم يكن ابن الفارض صوفياً كبيراً، لكان شاعرا قديرا، فكيف يهمل مزار نابغة مثله ، إن عبقريات الشعراء المشاهير من أمثال أبى تمام والبحترى والمتنبىء متشابهة لأنها تمتاح من بئر المدائح الإنسانية، أما عبقرية ابن الفارض فمصدرها النبع الدافق من القلب الرقيق، وقد تكون خبرته بالحياة العامة قليلة، ولكن خبرته بالنفس العاشقة ذات عمق بعيد، وانتهت الزيارة، ولكن صداها كان أليماً فى نفسى، فاتجهت فى صبيحة الغد إلى



الجامع الأزهر وبه الشيخ العارف الشهير صالح الجعفرى رحمه الله، ولى به صلة حميمة، وكان الرجل يرى بنور الله فقال لى حين رآنى : ما تركت عملك وجئت فى الصباح إلا لأمر شغلك فما هو؟ قلتُ: وأى أمر ياسيدى، لقد كنت فى مساء الأمس أزور مسجد عمر بن الفارض، فلم أجد به إنسانا ولا سراجا حتى ماء الوضوء كان منقطعا، لقد أحسست أنى فقدت أملاً كبيراً حين جئت إليه سعيداً، فرجعت حزينا؟ لماذا لا تهتم وزارة الأوقاف بالمسجد، وهى تهتم بمساجد تحمل أسماء لا نعرف عنها شيئاً! ما شعور الشاعر الدفين بجسمه، الحى بروحه، وهو يرى الوحشة تكتنفه فى كل مكان، فقال الشيخ صالح ما نصه: حَيهٍ (١) يا مولانا إن روح الشاعر العارف بربه تطرد كل وحشة، وهو فى قبره يعيش فى روضة من رياض الجنة. فالوحشة لا يعانيها ابن الفارض، ولكن نعانيها نحن! قلت: وماذا نصنع إزاء هذه الحالة؟ فسكت الرجل قليلا ثم قال: نحن الآن فى الأيام الأخيرة من شعبان، وعليك أن تحضر فى اليوم الأول من رمضان إلى مسجد ابن الفارض قبل الغروب بساعة لترى احتفالنا به قلت وكيف؟ قال لا تنسي الموعد ، وتوكل على الله!

الذوبان الصوفى

كنت أعرف عزيمة الشيخ وصدق حديثه فلم أتردد فى تصديق ما قاله، وأخذت أنتظر مرور الأيام حتى حان اليوم المرتقب، فاستأذنت أولادى بالفيوم أن أتركهم فى أول أيام الموسم السعيد، لأسافر إلى القاهرة فى عمل ضرورى - هكذا قلت - وما كدت أصل إلى الطريق المتجه للمسجد، حتى رأيته محاطا بأناس كثيرين من مريدى الشيخ، وفيهم من يضع القدور على النار، وبجوارهم أكداس الخبز الطرى، وما خالطت القوم حتى عرفت أن الشيخ صالح سيحيى الليلة بالمسجد، وأن أحباءه جاءوا بالمصابيح الغازية ليكونوا فى مأمن إذا انقطع التيار الكهربائى فجأة، كما عرفت أن هذه القدور تمتلىء بالفول المدمس، إذ رأى الشيخ أن يكون الإفطار منه، أما ما جاور القدور من أقفاص الفاكهة فهى للسحور، وقد اتجهت إلى المسجد فكدت أضيع فى الجمع المحتشد به، ثم علت ضجة، فانتبهت لأرى الشيخ صالح الجعفرى يقوم بقامته الفارهة، ساحباً عباءته الفضفاضة، وبيده مسبحته الشهيرة، وخلفه جمع «من مريديه» وما كاد يطأ سجاد المسجد، حتى اتجه إلى الضريح فى شوق، ثم علا صوته هاتفا بقول الشاعر :

وأقرب ما يكون الشوق يوما
إذا دنت الخيام من الخيام

وأخذ يحتضن الضريح، فخيل الىّ أن الشيخ يعانق صديقا يتقبل أنفاسه ، ويسمع صوته، ويتمتع بدفء حنانه، وقد اهتاج الحاضرون هياج الطرب، وغمرهم روح من التواجد، فانتصب المحيا تلقائيا، صفوفاً خلف صفوف ، والشيخ فى الوسط يتواجد ويترنح، وقد حضر جميع من كانوا خارج المسجد ليشاركوا فى الابتهال، ويستمعوا لما ردده الشيخ

من شعر ابن الفارض إذ يقول:

كلّ من فى حماك يهواك لكن
أنا وحدى بكل من فى حماكا
لك فى الحىّ هالك بك حىّ
هام واستعذب العذاب هناكا
وبشيرى لو جاء منك بعطف
ووجودى فى قبضتى قلت هاكا!

ولا أدرى لماذا هب نسيم كله عطر، حتى رحت أتساءل: أحمل بعض الذاكرين قارورة عطر وأراقها! أم آن هذا الجو الروحى جعل للهواء رائحة غير التى نعهد؟ ولم ينقطع المحيا حتى ارتفع صوت المؤذن فخشعت الأصوات للرحمن ثم اتجه الشيخ إلى المحراب، فأدينا الصلاة خلفه، ولم يطل حيث جلسنا فى صفوف، لنتلقى لفائف السندوتش تحمل ما يحليها من التوابل والسلطات، وكانت مهلة للراحة ، حددها الشيخ بآذان العشاء!

حان موعد الصلاة فأم الشيخ، وقرأ فى الركعة الأولى بعد الفاتحة خاتمة سورة الكهف (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) قرأ الآيات بصوت عجمى كأنه ترجيع الطير، وقرأ فى الركعة الثانية بعد الفاتحة قول الله تعالى فى خاتمة سورة غافر، وقد بلغ ترتيله غاية الروعة حتى ليخيل لسامعه أنه يبكى، قرأ قول الله، أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم قوة وآثارا فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون (١) «فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون». «فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده، وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا، سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون».

وتبعت فريضة العشاء سنتها، فصلاة التراويح والوتر، وجلس الشيخ ليعظ، فجعل يتحدث عن أنبياء الله ورسله، ويلم بشذرات من أخبار المتصوفة، حتى وصل إلى عمر بن الفارض فأفاض فى سيرته إفاضة مدهشة، إذ حدثنا بما نعلم ونجهل معا، واختار نبذا من خطراته الوجدانية أذكر منها ما رواه عن الشاعر العاشق من أنه كان يمشى ذات ليلة فى سوق القاهرة، فمرّ على جماعة من حُراس البضائع. إذ لم يكن للدكاكين أبواب «حينئذ» ولكن حراساً منتظمين يكلفون بحراستها لقاء أجر شهرى، وكى يطردوا النوم جعلوا يترنمون بأبيات شعرية سمع ابن الفارض منها:

مولاتى سهرنا نبغى منك وصال
مولاتى فلم يسمح فقنعنا بخيال
مولاتى فلم يطرق ، فبلا شك بان
ما نحن إذن عندك يا مولاتى ببال

فصرخ عمر صرخة مدوية حين سمع (ما نحن إذن عندك يا مولاتى ببال) وأقبل الناس على الولىّ الصارخ، وتحلق حوله المارة وهم يرددون معه (ما نحن إذن عندك يا مولاتى ببال) وترك الحراس أمكنتهم حين سمعوا الضجيج، وجعلوا

يكررون «الأبيات» والحاضرون يذكرون مبتهلين، وترنح القوم ، وسقط الكثير على الأرض متواجدين، وسقط معهم عمر بن الفارض فحملوه على الأكتاف وساروا به فى حفلة ذكر متنقلة، ومنهم من خلع ملابسه ، ورمى بها فى الطريق، وظل يذكر فى شبه غيبوبة، ثم أعاد الشيخ الأبيات السابقة بإيقاع شجى لا يسمح به فى كثير من الأوقات، وأخذته الصبوة فانتصب واقفا، وانتصب من خلفه سامعوه، وهم يملئون ساحة المسجد، وانتظمت حلقة ذكر تلقائية ما شهدتُ مثلها إلا فى القليل، وأذكر أن الشيخ قد جلس ليستريح، وجلس معه القوم، ثم دار بعينه فرآنى ، وسألنى، ماذا سأنشد مما تختاره أنت فى النوبة الثانية من شعر ابن الفارض، فقلت إنى لا أمل سماع القصيدة العينية، فقال: بارك الله فيك، لقد خطرت على بالى، وأنا أراجع بينى وبين نفسى قصائد الديوان، إن هذه القصيدة ذات نفس حار وذات نبض دفاق! ودارت كئوس القرفة فشرب من شرب، حتى إذا تمت الراحة على نحو مستطاب ، نهض الشيخ للذكر مرة ثالثة، وما كادت الأرواح تتجاوب حتى سبح الشيخ فى جو ابن الفارض، فأنشد قوله:

أبرق بدا من جانب الغور لامع
أم ارتفعت عن وجه ليلى البراقع
أنار الغضى ضاءت وسلمى بذى الغضى
أم ابتسمت عما حكته المدامع
ألا ليت شعرى هل سليمى مقيمة
بوادى الحمى حيث المتيم والع
وهل عذبات الرند يقطف نورها
وهل سلمات بالحجاز أيانع
وهل ظبيات بالغوير يرميننى
مرابع نعم ، نعم تلك المرابع
وهل ظل ذاك الضال شرقى ضارح
ظليل فقد روّته منى المدامع
وهل عامر من بعدنا شعب عامر
وهل هو يوماً للمحبين جامع

حلاوة الإنشاد

ولا أذكر أن حلاوة للإنشاد قد تذوقها من منشد - على كثرة ما سمعت - كما استمرأت هذه الحلاوة والعجيب أن الذاكرين من العامة وأكثرهم من أرباب الحرف المتواضعة ممن لا تؤهلهم معارفهم وخبراتهم إلى فهم الدقيق من هذه المعانى، قد بلغ بهم الطرب الوجدانى أبلغ ما يتصور، ولله فى ذلك سر لا أدريه، أما أنا فقد خيل إلى أن الذى ينشد الأبيات هو عمر بن الفارض نفسه، لا الشيخ صالح، وقد حدثته بما تخيلت، فقال إنى لا أشك أنه كان حاضرا معنا وأنه هو الذى خلق هذا الجو الروحانى بين الذاكرين!

وبعد ما يقرب من ساعة ونصف، جلسنا نستريح ، وانفرد الشيخ فى المحراب خاليا للتسبيح، بينه وبين نفسه، وكذلك فعل أكثر الحاضرين، وجاء من مريدى الشيخ من يفرقون الفاكهة والخضراوات من برتقال وموز وجزر وطماطم ، لتغنى غناء السحور، فأخذنا نأكل مستمرئين، وسقاة الماء من المتطوعين يدورون علينا بالأكواب، فكان الماء خاتمة السحور.

وارتفع الابتهال قبل أذان الفجر، فكثرت ركعات التهجد، وترددت التسابيح من الشفاة ردحاً من الوقت، ثم انشق عمود الفجر الصادق فدوى الأذان، وخشعت النفوس، وتليت آيات من القرآن نهض الشيخ بعدها للإمامة، ومن خلفه جميع الحاضرين!

وجئت أسلم عليه بعد انتهاء الصلاة، فضغط على يدى وسأل: هل أدينا بعض حق سيدنا عمر، ثم قال. ولنا عودة إذا أذن الله، وتفرق الجميع رجالا ركبانا حتى وصلنا إلى محطة الترام بعد ليلة ساهرة من ليالى رمضان!

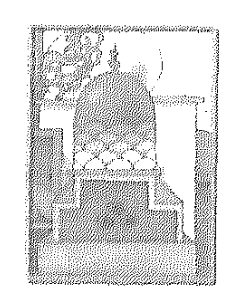
وبعد، فقد ينكر بعض قراء اليوم ما للإنشاد فى حفلات الذكر من تأثير، ولكنه واقع مشهود، بل رويت فيه من الغرائب ما لا يكاد يصدق، ومنها ما ذكره الدكتور زكى مبارك فى كتاب «التصوف الإسلامى» وهو رسالة جامعية ناقشها من كبار المفكرين في مصر من نشهد لهم ببعد النظر وبراعة التصويب، وعنها أنقل ما يأتى جـ (١) ٣٣٤.

نوادر القوالين

«والمغنى (المنشد) كان يسمى القوال» وللقوالين نوادر كثيرة مع الصوفية من ذلك ما وقع حين زار ذو النون المصرى بغداد فقد حضر أحد تلاميذه مجلس أحد القوالين، فلما طاب السماع، وتواجد السامعون، صرخ هذا التلميذ ووقع على الأرض فحركوه فوجدوا ميتاً، أقول وإلى هنا والأمر طبيعى فقد يكون لدى التلميذ مرض قلبى لم يتحمل هزات الذكر فانكفأ ميتا، ولكن غير الطبيعى أن يقول الدكتور زكى مبارك بعد ذلك فوصل الخبر إلى ذى النون فقال لأصحابه: تجهزوا حتى نصل إلى هذا القوال، فلما وصلوا دارت الحلقة وأنشد ذو النون، والقوال يسمع، ثم صرخ ذو النون فوقع القوال ميتاً، فقال ذو النون: أخذنا ثأرنا، قتيل بقتيل! هذه النادرة كانت تحتاج إلى توثيق يدفع عنها الشك الصريح، ولكن الدكتور زكى مبارك، ذكر لها أشباها وأمثلة مما سجلته كتب التصوف عن منشد يسمى الشجاع جبريل، كان يؤثر فى بعض السامعين فيموت منهم من يموت! وقد اعترف ابن خلكان أنه شاهد وقائع هذا القوال بنفسه، ورأى بعينه كيف مات أحد السامعين، وابن خلكان لم يكن متصوفا، ولم يذكر ما يروى من المناقب عن الصوفية، إنما كان مؤرخا يلتزم بالواقع! فبم نفسر ما كان؟

لقد ضاع الكثير من مباهج رمضان الروحية فى المدن والقرى هذه الأيام، فلم تبق سهرات القرآن فى المنازل، ولا حلقات الذكر فى المجالس، ولا ابتهالات اللقاء وتواحيش الوداع فى أعلى المآذن، ولا امتداد الموائد قبيل المغرب أمام البيوت ليفطر من يشاء كرما يتدفق فى شهر رمضان، والذى بقى مسلسلات الخلاعة وبلاهة الفوازير ورقصات المجون على الشاشة البيضاء)ابتهاجا) بالشهر الكريم!

كدنا لما جد من عكس الأمور بنا نمشى على الرأس لا نمشى على القدم! ■

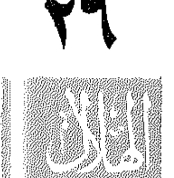


التدخل الخارجي فى الدول الاسلامية

بقلم

د. نادية مصطفى *

تقع البلاد الأسلامية دائما فى قلب تفاعلات العالم، سواء فى مرحلة قوتها ووحدتها وصعودها، أو فى مرحلة جمودها وتخلفها وضعفها وتجزئتها، وإذا كانت المراحل المتعاقبة من تاريخ الأمة تبرز التطور فى هذا الوضع سواء كانت الأمة شاهدة أو مشهودة، فإن المرحلة الراهنة من وضع هذه الدول فى النظام الدولى، ابتداء من نهاية الحرب الباردة وحتى الآن مروراً بتداعيات الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، تمثل مرحلة من مراحل إعادة تشكيل أقاليم العالم والعلاقات فيما بينها وبين بقية العالم، وهذه المرحلة من إعادة التشكيل ليست إلا حلقة من حلقات سابقة فى مسلسل التحول من الشهود إلى المشهودية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، وهى المرحلة التى مارس فيها «الخارج» أو «الآخر» أو «الغير» تأثيراته على الأمة، وبصورة متصاعدة لا تعكس فقط ما أضحى عليه الخارج من قوة ومكنة، ولكن ما أضحى عليه الداخل من ضعف وتجزئة



* استاذ العلاقات الدولية - بكلية الاقتصاد - جامعة القاهرة

ومن ثم فإن استعراض خريطة صراعات وقضايا الأمة الراهنة لابد وان ينطلق من التفاعل - غير المسبوق فى درجته وطبيعته - بين دوائر - متقاطعة ثلاث: داخلية وإقليمية وعالمية، فإذا كان النظام العالمى قد دخل مرحلة تحولية مهمة - منذ بداية العقد الأخير من القرن العشرين - فإن انعكاسات هذه المرحلة على الأمة الإسلامية تتضح فى بعض الخصائص الجديدة المتصلة بالأبعاد المختلفة لوضع الأمة فى العالم.

وهذه الأبعاد هى: عناصر القوة الشاملة، قضايا التطور الداخلى بين إشكاليات الأصالة المعاصرة، التقليد/ الحداثة، العلمنة/ الإسلامية ، قضايا العلاقات البيئية فى ظل إشكاليات الوحدة/ التجزئة، الأمة / الدول القومية، قضايا العلاقات مع النظام الدولى القائم فى ظل إشكاليات الاستقلال/ التبعية، العالمية/ الخصوصية، وأخيرا قضايا الأقليات المسلمة فى العالم، فإن قضايا الأمة الإسلامية لا تنسحب على دولها فقط ولكن على شعوبها أيضا.

الأمة الإسلامية والمؤثرات العالمية

وبالنظر إلى بعض أهم الخصائص العالمية الجديدة التى تحيط بالأمة الإسلامية وتؤثر على وضعها يمكن التوقف عند الأمرين التاليين:

من ناحية: تجدد الاهتمام بالأبعاد الثقافية الحضارية فى التفاعلات العالمية، سواء فى ذاتها أو من حيث ارتباطاتها بالأبعاد السياسية والاقتصادية بل والعسكرية أيضا.. ولقد امتدت الاختراقات الخارجية الكثيفة والعميقة إلى النطاقات الثقافية والاجتماعية وبدرجات غير مسبوقة.

ولقد أضحت الأمة الإسلامية ساحة لاختبار أسباب هذا التجدد فى الاهتمام بالأبعاد الثقافية الحضارية ومؤشراته وآليات إدارته ونتائجه ، فعلى سبيل المثال إذا كانت الصراعات المساحة التى اندلعت - بعد نهاية الحرب الباردة - قد تركزت فى أرجاء العالم الإسلامى فإن جذورها وتجلياتها الدينية والعرقية والقومية كانت واضحة وجلية، كما أن التدخلات فى العالم الإسلامى، لم تعد قاصرة على الوسائل التقليدية العسكرية والسياسية والاقتصادية ولكن قفزت على صعيدها أدوات متجددة تتصل بالشأن الثقافى - الحضارى - وفى قلبه الإسلام.

من ناحية أخرى : ومن خلال التعمق فى مفردات الفكر الاستراتيجى الغربى عن وضعية الإسلام والمسلمين فى النظام الدولى، وبالنظر إلى أهداف وأدوات السياسات الغربية تجاه عالم الإسلام والمسلمين منذ نهاية الحرب الباردة وحتى الآن، تتضح لنا قواسم مشتركة كبرى، وتشير هذه القواسم إلى أن هناك نمطاً من التأثيرات الخارجية على مناطق العالم الإسلامى من شأنها إعادة تشكيله على أسس جديدة وذلك باستخدام مجموعة متطورة من الأدوات التدخلية التى تتراوح بين أدوات القوة

الصلدة وأدوات القوة الرخوة، وتلعب الولايات المتحدة الأمريكية وبصورة متصاعدة دوراً ينحو للانفراد بإدارة هذه التدخلات وعلى رأسها العسكرية ، وهي ليست بديلا عن القوة الرخوة ولكن سبيلاً ممهداً لها.

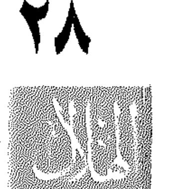
ومن ثم وإذا كانت السياسات التدخلية الخارجية فى العالم الإسلامى تمتد بين عدة مستويات، ابتداء من النطاقات الحضارية الثقافية المتصلة مباشرة بمنظومة القيم إلى السياسات على صعيد الصراعات المسلحة التى تندلع على أراضى الدول الإسلامية وفيما بينها، ثم إلى السياسات المتصلة بالأقليات المسلمة بأنماطها المختلفة، فإننا سنقتصر فى هذا الموضوع على رسم خريطة التدخلات الخارجية فى الصراعات المسلحة فى محاولة لإبراز أنماط التدخل المختلفة باختلاف هذه الصراعات من ناحية، وقدر التغير الذى أصاب هذه التدخلات بعد الحادى عشر من سبتمبر بالمقارنة بما قبل هذا التاريخ من ناحية أخرى، وما تحمله هذه المقارنات من دلالات ونتائج بالنسبة لدرجة وطبيعة التحديات التى تواجه عالم الإسلام والمسلمين فى بداية القرن الحادى والعشرين من ناحية ثالثة، حيث إن الصراعات المسلحة والتدخلات الخارجية فيها ليست إلا بؤرة تصب فيها السياسات التدخلية على الأصعدة الأخرى، السياسية والاقتصادية والثقافية.. بعبارة أخرى فإنه لا انفصال بين القوة الصلدة والقوة الرخوة، فهما يتكاملان بتناغم شديد فيما يتصل بالقضايا الراهنة للعالم الإسلامى.

إذن ما هى خريطة هذه الصراعات وما هى خصائصها المقارنة من حيث التدخلات الخارجية عقب نهاية الحرب الباردة؟ فى نفس الوقت الذى كان يشكل فيه توازن عالمى جديد فى بداية التسعينات من القرن الماضى - تشكلت مقدمات صراعات مسلحة متوالية فى أرجاء العالم الإسلامى فى الخليج وأرجاء أخرى من العالم العربى، فى البلقان، فى القوقاز، فى جنوب شرق آسيا، فى شبه القارة الهندية وفى أفريقيا، ومن ثم تعاقبت طوال التسعينيات حروب فى البوسنة، الشيشان، كوسوفا، كشمير، تيمور الشرقية، جنوب السودان، الصومال ، ناهيك عن درجات أقل من العنف المسلح، كما حدث فى الجزائر ، وأزمة أكراد تركيا، وفى إقليم سيكيانج، وفى الفلبين.

وإذا كانت هذه الأنماط من العنف المسلح تختلف من حيث جذورها وأسبابها وسياقاتها الوطنية والإقليمية ومن حيث درجة ونطاق العنف المسلح، فلقد عكست أيضا أنماطا مختلفة من التدخلات الخارجية فى صراعات ذات أبعاد عرقية وقومية ودينية واضحة.

مبررات وآليات التدخل

ولقد اتسم التدخل الخارجى فى الصراعات الإقليمية والأهلية - بعد نهاية الحرب الباردة - بالتدخلات الجماعية الدولية، بمبادرة وقيادة أمريكية

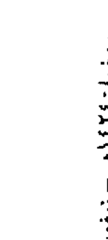


وتحت إطار الشرعية الدولية (الأمم المتحدة) أو تحت أطر أخرى (حلف الأطلنطى)، ولقد اقترن هذا النمط بمبررات أساسية، وهى التدخل لحماية حقوق الإنسان، لاعتبارات إنسانية، لحماية منظومة القيم الغربية، لحماية حق تقرير المصير، لتخفيف عواقب الحروب على الشعوب، وإذا كانت الأداة العسكرية أداة أساسية فى تحقيق بعض هذه التدخلات إلا أنها استخدمت بدرجات مختلفة، كما تم إلى جانبها توظيف أدوات أخرى اقتصادية ودبلوماسية ، ولقد فجرت هذه الموجة من التدخلات فى هذه الصراعات ذات الأبعاد القومية - العرقية - الدينية الواضحة جدالا سياسياً وفكريا حول حقيقة الدوافع والمبررات وحول العواقب وخاصة على سيادة الدولة. وأفسح تكرار هذه الصراعات وتكرار التدخلات الدولية فى سياقات متنوعة السبيل للمقارنة على نحو يساعد فى استخلاص بعض الدلالات حول آثار هذه التدخلات على مصير الدول والشعوب المسلمة، وترجع أهمية المقارنة بين أنماط هذه التدخلات إلى حقيقة مردها أن التغييرات الراهنة فى عمليات إعادة تشكيل مناطق العالم الإسلامى منذ نهاية الحرب البادرة كانت ترتهن وتتوقف على حالة توازن القوى العالمية الجديدة الجارى تشكيلها، وعلى وضع «العالم الإسلامى» فى مخططات هذه القوى واستراتيجياتها العالمية، ومن ثم برز سؤال مهم: هل حققت التدخلات حماية حقوق الشعوب أو الدول المسلمة المعنية أم أن تكييف طبيعة هذه الحماية وسبلها كان يرتهن بقواعد لعبة المصالح الكبرى وليس القيم والاعتبارات الإسلامية؟ ومما لا شك فيه أن الإجابة على هذا السؤال تزداد وضوحاً من استدعاء خبرات التاريخ خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، حيث ان لجميع هذه الصراعات المذكورة جذوراً سابقة تأثرت أيضا بالتغيرات السابقة فى توازنات القوى العالمية وآثارها على مناطق العالم الإسلامى شرقاً وغرباً.

لكل مقال مقام

ومع ذلك فإن المقارنة بين أوضاع التسعينيات الخاصة بحالات: البوسنة، كوسوفا، الشيشان، أكراد تركيا، جنوب السودان، كشمير، تيمور الشرقية، إنما تبين ما يلى: من ناحية، اختلاف الاستجابات الخارجية ما بين مراقبة، صمت، احتواء حركة فاعلة لتغيير الواقع أو للإبقاء على ما هو عليه، ومن ناحية أخرى التصاعد فى درجة انفراد الولايات المتحدة بقيادة التدخلات العسكرية المباشرة، ومن ناحية ثالثة إدارة مشاكل وأزمات الأمة من الخارج وبدون مشاركة فاعلة من جانب أطر الحركة الإسلامية الجماعية.

فإذا كان التدخل العسكرى باسم الشرعية الدولية وبدرجة كبيرة من السرعة والكثافة وبقيادة أمريكية قد تم خلال أزمة وحرب الخليج الثانية (١٩٩٠ - ١٩٩١)، ففى البوسنة وبالرغم من



وضوح العدوان الصربى ووحشيته وسعيه لتغيير الأمر الواقع من خلال سياسة تصفية وابادة وتطهير عرقى منظمة، إلا أن التدخل الدولى فى إطار الأمم المتحدة استند أساسا إلى أدوات اقتصادية وسياسية، ولم يصل توظيف الأداة العسكرية إلى ما كان مفترضا فيه من حيث الحجم والسرعة، فلقد اقتصرت القوات الدولية على مهام حفظ السلام وليس وقف الحرب ولم يتصاعد توظيف الأداة العسكرية (من خلال الناتو) إلا ببطء شديد (حصار جوى مناطق آمنة) وصلا إلى ضربات الناتو لمواقع صربية محدودة، ومن ثم لم تكن اتفاقية دايتون إلا تكريساً للواقع الجديد الذى فرضته القوة الصربية.

وفى حالة كوسوفا: حدث تدخل عسكرى كثيف من جانب الناتو بقيادة أمريكية، وهو وإن لم يتأخر - كما حدث فى البوسنة - إلا أنه صاحبه تفاقم مأساة شعب كوسوفا الذى عايش - خلال شهور الضربات العسكرية - أكبر عملية تهجير شهدها القرن العشرون، وفى المقابل كانت ضربات الناتو ضد صربيا ضرورة لتحقيق أهداف استراتيجية حيوية فى جنوب شرق أوروبا.

أما فى الشيشان: فلم يحدث بالطبع تدخل عسكرى ضد روسيا أو تدخل سياسى بأدوات ضغط غير عسكرية.. ففى مواجهة الاستخدام الروسى العنيف للقوة العسكرية فى تدمير جروزنى عام ١٩٩٤ (خلال الحرب الشيشانية - الروسية الأولى) أو فى تدمير قواعد المقاومة الشيشانية (خلال الحرب الثانية منذ ١٩٩٩)، لم تواجه روسيا إلا الإدانات الشفوية الواهية لانتهاكها حقوق الإنسان فى الشيشان.

وفى كشمير: وحين اندلعت أزمة صيف ١٩٩٩ (كارجيل وما تلاها من تطورات) فى ظل تداعيات توازن القوى العسكرية الجديد بين الهند وباكستان عقب تفجيراتهما النووية فى صيف ١٩٩٨، ثارت التساؤلات حول أهداف باكستان تجاه تدويل القضية وحول مآل الجولة الراهنة من مقاومة مقاتلى كشمير ومطالبهم ، ولكن جاءت ردود الفعل السلبية فى داخل باكستان تجاه اتفاق واشنطن بين نواز شريف والولايات المتحدة ليبين آثار الضغوط الاقتصادية والسياسية التى مارستها الولايات المتحدة على باكستان بصدد مساندتها لكشمير.

وحول جنوب السودان: استمرت المواجهات بين النظام السياسى (الإسلامى) وبين القوى الغربية واتخذ التدخل شكل الحصار والعقوبات وشكل توظيف ورقة انفصال الجنوب، وفى ظل الحرب فى الجنوب والتوازنات الإقليمية حولها ارتفعت التقارير المهددة بتدخل عسكرى دولى لوقف انتهاكات حقوق الإنسان في جنوب السودان.

وبصدد تيمور الشرقية ظلت القضية ساكنة منذ ١٩٧٥ وتزامن تفجيرها مع تداعيات الأزمة المالية فى جنوب شرق آسيا على الكيان الإندونيسى برمته: النظام الاقتصادى والنظام السياسى



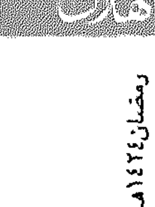
ووحدة أراضيه والسلام بين طوائفه، وكان قبول الحكومة الإندونيسية بإجراء استفتاء على الحكم الذاتى أو الاستقلال ثم إعلانها قبول الاستقلال ثم قبولها التدخل الدولى العسكرى (فى إطار الأمم المتحدة وبقيادة أسترالية) لوقف دائرة العنف بين المسلمين والأغلبية المسيحية فى الإقليم، كل هذا يقدم مؤشرات عن ماهية الضغوط الاقتصادية والسياسية التى واجهتها إندونيسيا.

وبشأن أكراد تركيا: فخلال تفجر أزمة عبدالله أوجلان ومنذ الأزمة التركية - السورية ١٩٩٨ لم تستخدم القوى الأوروبية القضية الكردية فى تركيا إلا كذريعة لعدم قبول عضوية تركيا فى الاتحاد الأوروبى، ولم يتم الضغط على تركيا بورقة حقوق الإنسان للوصول إلى حلول تفاوضية تحفظ لأكراد تركيا حقوقهم الذاتية، بل إن تركيا أضحت منذ نهاية الحرب الباردة طروادة الغربى فى الشرق الأوسط وآسيا الوسطى والقوقاز.. وفى نفس الوقت استمر توظيف ورقة أكراد العراق والتدخل الدولى باسم الاعتبارات الإنسانية لحمايتهم فى شمال العراق، وذلك خلال عملية المواجهة المستمرة مع النظام العراقى منذ ١٩٩١.

«جملة القول إن الحالات السابق عرضها تشترك فى قسمات عدة منها: أنها قضايا ذات أبعاد قومية أو عرقية أو دينية واضحة الدلالة، أنها ذات جذور تاريخية ممتدة وسبق انفجارها فى شكل عنف مسلح فى مراحل سابقة، إنها فى صميم إعادة تشكيل توازنات مناطق العالم الإسلامى، أنها تعكس قدر التأثر بالتغيرات فى التوازنات العالمية، وهى أخيراً تطرح بصورة أو بأخرى - قضية العلاقة بين عالم الإسلام والمسلمين وبين القوى الكبرى القائدة للنظام الدولى، ولذا فهى من أهم أسباب ومؤشرات تجدد الاهتمام بوزن ودور البعد الثقافى - الحضارى - العقيدى فى التفاعلات الدولية بعد نهاية الحرب الباردة إلى بعد نهاية الصراع العالمى بين الأيديولوجيات.

وبقدر ما كانت الحرب الباردة نقطة تحول فى ماهية الصراعات الإقليمية أو الداخلية التى قفزت على الساحة العالمية، وعلى نحو استدعى للصدارة مناطق العالم الإسلامى انطلاقا من ابعاد عرقية أو قومية أو دينية، بقدر ما كانت أحداث الحادى عشر من سبتمبر وتداعياتها على الأمة الإسلامية كاشفا ومؤكداً لإرهاصات العقد الأخير من القرن العشرين حول ما أضحى عليه وزن البعد الثقافى - الحضارى - العقيدى من محورية فى تفسير التفاعلات الدولية من ناحية وحول ما وصلت إليه أطماع الهيمنة الأمريكية بعد سقوط عصر الثنائية القطبية من ناحية أخرى.

فلقد كانت الهجمات على نيويورك وواشنطن (بالنظر إلى آليات تنفيذها والجدال حول أهدافها والمنفذين لها) نتاجا وتعبيرا فى نفس الوقت عن



محصلة السياسات الأمريكية العالمية القائدة والموجهة لسياسات العولمة والمحددة لإيديولوجيتها.. فهى السياسات والأيديولوجيات التى سعت لإعادة تشكيل موازين القوى العالمية والإقليمية بعد نهاية الحرب الباردة وفى ظل منجزات الثورة الاتصالية والمعلوماتية على صعيد القوة الأمريكية، وعلى النحو الذى يرسخ دعائم الهيمنة الأمريكية.

ولقد أكدت تداعيات هذه الهجمات - منذ حدوثها وحتى الآن مروراً بكل السياسات الأمريكية التى أعقبتها، والتى توظف كل الأدوات العسكرية، والسياسية والاقتصادية والثقافية فى تناغم شديد لإدارة ما يسمى الحرب الدولية ضد الإرهاب . أكدت هذه التداعيات أن الأمة الإسلامية قد أضحت فى قلب عمليات إعادة تشكيل موازين القوى العالمية والإقليمية ، فلقد أضحى وضع الأمة الإسلامية فى بداية القرن الحادى والعشرين ساحة تتجدد حولها وعليها اختبارات مقولات «صراع الحضارات» ومقولات التهديد الإسلامى للغرب، فى مقابل مقولات «الحرب الصليبية» والمؤامرات على الإسلام المسلمين.

أشكال التدخل العسكرى

وتبرر من قلب هذه المقولات خطورة التحديات الحضارية الثقافية التى أضحت تواجه الأمة من جراء التدخلات الخارجية بقيادة أمريكية، وهى التدخلات التى انكشفت على أكثر من صعيد، لعل من أوضحه - وإن لم يكن أكثر خطورة - التدخل العسكرى المباشر .

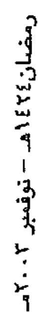
فمن ناحية لم يعد التدخل العسكرى الأمريكى تدخلاً فى إطار الشرعية الدولية (الخليج ١٩٩١) أو فى إطار (الناتو) وبدون قرار من الشرعية الدولية (كوسوفا ١٩٩٩) ولكنه أضحى تدخلاً مباشراً أو منفرداً (العدوان على أفغانستان) أو مباشراً ومنفرداً وضد إرادة الشرعية الدولية (العدوان على العراق واحتلالها) ولقد أضحى خطاب القيادة الأمريكية خطاباً عن القوة العسكرية والحرب مجدولاً بخطاب منظومة القيم التى ترفع شعارها الإدارة الأمريكية اليمينية المتحالفة مع اليمين الدينى البروتستانتى المتشدد، وهو الأمر الذى يبرز ما أضحى عليه التداخل الشديد بين الأبعاد الثقافية العقدية والأبعاد الاستراتيجية فى السياسة الأمريكية تجاه عالم الإسلام والمسلمين ومازال الجدال دائراً بين من يرون أن الأبعاد الثقافية- العقدية أضحت محركا ومحدداً لهذه السياسة ومن يرون أنها ليست إلا حجة أو ذريعة تخفى الدوافع الحقيقة ألا وهى الدوافع الاستراتيجية المتصلة باستكمال حلقات الهيمنة الأمريكية سواء فى آسيا الوسطى أو الخليج والشرق الأوسط .

وفى مقابل صعود التدخل العسكرى المباشر فى حالتى أفغانستان والعراق، وتحت وطاة متطلبات ما يسمى التحالف مع الولايات المتحدة فى حربها ضد الإرهاب الدولى تراجعت الاعتبارات الإنسانية وحقوق الإنسان المتصلة بقضايا الشيشان وكشمير ناهيك عن حقوق تقرير المصير، واحتجبت من جديد قضايا مسلمى سيكيانج والفلبين وكذلك

دخلت القضية الفلسطينية مرحلة جديدة من تطورها منذ اندلاع الانتفاضة الفلسطينية، فإذا كانت هذه القضية والصراع العربى الإسرائيلى بصفة عامة - فى قلب سياسات الحرب الباردة وتصفيتها ثم انتهائها طوال نصف قرن - إذا كانت عملية التسوية السلمية قد تم تدشينها فى مدريد ١٩٩١ ثم تمت إدارتها فى ظل إجراء الحرب الأمريكية ضد الإرهاب حيث تطابقت الخطابات الأمريكية والإسرائيلية وكذلك سياساتهما فى مواجهة قوى المقاومة الفلسطينية وضد حق تقرير مصير الشعب الفلسطينى .

ومن ثم يمكن القول إن التدخلات العسكرية الأمريكية في أفغانستان والعراق ليست إلا وجهاً لعملة وجهها الآخر هو ما يجرى فى فلسطين والأركان الثلاثة هى أركان عملية إعادة رسم خريطة قلب العالم الإسلامى بالقوة العسكرية الأمريكية والإسرائيلية بعبارة أخرى منذ اليوم الأمريكى (١١/٩/٢٠٠١) وما تلاه مباشرة أى اليوم الأفغانى (٧ / ١٠ / ٢٠٠١) توالت أيامنا ذات الدلالة فلقد وقع اليوم الفلسطينى مع الاجتياح العسكرى الإسرائيلى للضفة الغربية وسلطة الحكم الذاتى الفلسطينى فى ٢٨ / ٣/ ٢٠٠٢ كما وقع يوم مسلمى الولايات المتحدة فى ٢٢ / ٣/ ٢٠٠٢ مع غارة الأجهزة الأمريكية المتضافرة (المباحث الفيدرالية، المخابرات، الجمارك) على مؤسسات إسلامية رائدة في واشنطن وفرجينيا، ثم وقع اليوم العراقى (٢٠ / ٣/ ٢٠٠٣) ولم تخف جسامة هذه الأيام الكبرى - والتى تجلى على صعيدها تحالف صهيونى أمريكى فى أوضح وأعمق درجاته - تداعيات اليوم الأمريكى متعددة الأبعاد فى بقية أرجاء الأمة.

ومن ناحية أخرى تتعاضد مع العملية العسكرية وتتكامل معها تدخلات أخرى . وهى التدخلات المرتبطة بالأبعاد غير العسكرية لما يسمى «الحرب ضد الإرهاب» وهى الأبعاد الخاصة بضغوط إعادة تشكيل المجتمعات العربية والإسلامية تحت مسمى تجفيف جذور ومنابع الإرهاب .وهى الضغوط التى تظهر جليا فى مواجهة الحركات الإسلامية، المجتمع المدنى الإسلامى وخاصة هيئات الإغاثة الإسلامية، نظم التعليم الدينى حقيقة لم تنفصل الأدوات الثقافية عن نظائرها الاقتصادية والعسكرية والسياسية طوال تاريخ تطور الهجمة الأوروبية الحديثة على العالم الإسلامى، ولكن بعد إتمام السيطرة على الأرض والثروة أضحت مساحة الثقافة والحضارة ساحة هجوم خطيرة فى ظل عمليات العولمة الراهنة التى لاتعكس مجرد تدخلات خارجية ولكن اختراق واجتياح الخارجى للداخلى وللنطاقات الثقافية - الحضارية وبتناغم شديد واندماج واضح مع الأدوات السياسية والأقتصادية والعسكرية للتدخلات ذلك الأن المرحلة الراهنة من تطور النظام العالمى هى المرحلة التى تقود فيها الولايات المتحدة المعركة لاستكمال تنمبط العالم ليس اقتصادياً فقط على النمط الرأسمالى، أو سياسياً فقط على نمط الديمقراطية البرلمانية ولكن أيضا فى



إطار منظومة القيم الأمريكية ولن يكتمل الانتصار الاقتصادى والسياسى بدون الثقافى - الحضارى، بل أن الفشل الأمريكى على الساحة الثقافية - الحضارية - من جراء المقاومات والممانعات الحضارية - من شأنه أن يحمل إمكانات نمو مراكز قوة عالمية بديلة، وهنا تواجه الأمة - ليس تحديات العدوان العسكرى المباشر وغير المباشر، ولكن تواجه تحديات إزالة الضباب عن مفهوم الأمة وعن مفهوم الجهاد تحديات تحديد الخطابات الدينية ونظم التعليم الدينية لحاجاتها لهذا التجديد بغض النظر عن الضغوط الخارجية بصددها، تحديات تجديد أهداف الحركات الإسلامية وأدواتها وسبل مشاركتها فى التغيير السياسى والمجتمعى، تحديات ألا نجعل تاريخ الحادى عشر من سبتمبر إساراً لإدراكنا بأننا المتهمون وأن الولايات المتحدة فى موقف رد الفعل والدفاع، ومن ثم تحديات تحرير مدركاتنا ومصطلحاتنا ومفاهيمنا فتستدعى : التحرير، المقاومة، الاستعمار العدوان فى مقابل السائد الآن : الإرهاب، الأخر، السلام، الأقليات.

ومن ناحية ثالثة وأخيرة : قفز إلى دائرة الاهتمامات وضع الأقليات المسلمة فى الغرب وهى تختلف عن أقليات أخرى من حيث النشأة ومن حيث طبيعية المشاكل التى تواجهها ومن ثم من حيث مجالات حركتها ومطالبها فبعد أن أحرز الوجود المسلم فى أوروبا والولايات المتحدة خلال العقد الأخير من القرن العشرين بصفة خاصة - مكاسب جعلته ذا حضور ملموس ويقترب من الاندماج فى المجتمعات الجديدة، وبعد أن أضحى يمثل زخماً فى مساندة قضايا الأمة وخاصة جانب الإغاثة الإنسانية وجانب الدعوة الإسلامية فى الغرب، فإذا بأحداث الحادى عشر من سبتمبر تضع على المحك كل هذه الإنجازات بل ويتعرض الوجود المسلم فى الغرب لضغوط جديدة. فلقد مثلت الإجراءات الأمنية وسياسات الهجرة الجديدة التى شرعت فى تطبيقها الحكومات الغربية تحت مبرر مكافحة الإرهاب، مثلت تحدياً خطيراً لهذا الوجود، بقدر ما مثلت تحدياً لنموذج الحريات المدنية وحقوق الإنسان فى المجتمعات الغربية.

ثمرات التدخل ونتائجه

خلاصة القول : تمثل نهاية الحرب الباردة، وأحداث الحادى عشر من سبتمبر، والاحتلال الأمريكى للعراق ثلاث محطات أساسية اختبرت أنماط التدخلات الخارجية فى العالم الإسلامى، سواء تجاه الصراعات المسلحة أو سواء الأبعاد المجتمعية والسياسية الداخلية ويتضح من الخط العام لتطور هذه التدخلات بأنماطها المختلفة النتائج التالية :

من ناحية : اتجاه الولايات المتحدة للانفراد بإدارة هذه الصراعات على النحو الذى يبرز أثر الإدارة الأمريكية الراهنة على عسكرة السياسة الأمريكية بصورة كبيرة ومن ناحية أخرى: تمتزج الأبعاد الثقافية - العقدية مع الأبعاد الاستراتيجية التقليدية فى خطابات وسياسات الإدارة الأمريكية الراهنة،



على نحو يبين كيف يحتل عالم الإسلام والمسلمين موضعاً فى الاستراتيجية الأمريكية العالمية فى مرحلة ما بعد نهاية الحرب الباردة والقطبية الثنائية .

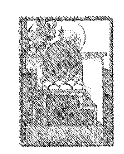
ومن ناحية ثالثة : يتضح من أنماط التدخل المختلفة مصداقية مقولة المعايير المزدوجة لدى الإدارة الأمريكية المتتالية، وعلى نحو يبين أنه لم يعد مقبولاً الحديث عن نظرية المؤامرة، لأن المؤشرات والأدلة الظاهرة من واقع السياسات الغربية المتراكمة هى أصدق تعبيرا من حديث المؤامرة .

ومن ناحية رابعة : لم يعد التحالف الصهيونى الأمريكى قاصراً على النطاق الفلسطينى والعربى ولكن اتسع وامتد للنطاقات المجاورة القريب منها والبعيد : التعاون الإسرائيلى التركى ليست إلا من قبيل الأمثلة الظاهرة الآن، والتى تجتمع تحت راية ما يسمى الحرب الدولية ضد الإرهاب .

ومن ناحية خامسة : لايقتصر التدخل العسكرى على نمط التدخل المباشر بالقوة العسكرية ولكن يتضح أيضا فيما يتصل بالقيود المتراكمة على تسليح الدول العربية والإسلامية ولعل الضغوط المستمرة والمتصاعدة على القدرات النووية الإيرانية» طوال عام مضى أحدث النماذج الصارخة بعد نموذج أسلحة الدمار الشامل فى العراق :"

ومن ناحية سادسة : مشاكل وأزمات الأمة يتم إدارتها من الخارج فى ظل سياسات تفكيك العلاقات الإسلامية – الإسلامية وبعيداً عن أطر الحركة الإسلامية الجماعية . فإلى جانب ميراث التجزئة القطرية وهو الميراث الأول من الاستعمار تراكمت تحديات العمل الجماعى الإسلامى وتتجسد هذه التحديات فى أشكال عدة مثل القيود على فعالية منظمة المؤتمر الإسلامى وخاصة فى إدارة أزمات الأمة وصراعاتها، تنازع الأدوار بين دول الأركان الكبرى وهى مصر وإيران وتركيا والسعودية وباكستان وماليزيا، التحالفات مع الأخرى على حساب التحالفات الإسلامية – الإسلامية تعبيراً عن صراعات المصالح القومية، الاتجاه نحو الانضمام إلى الترتيبات الإقليمية وغير الإقليمية كبديل عن الأطر الجماعية الإسلامية والعربية القائمة، الصمت أو المراقبة للتدخلات الخارجية بأدوات مختلفة فى بعض الدول العربية والإسلامية، تحديات تنمية العلاقات عبر القومية لإعادة بناء الوحدة من القاعدة إذا كان يتعذر بناؤها من القمة السياسية .

أخيراً فإن تداعيات هذه السلسلة المتـ ـية من التدخلات، منذ نهاية الحرب الباردة، والتى تجلت على صعيد عالم الأفكار وعالم المؤسسات وعالم الأحداث فى الأمة، لتبرز جميعها عمق ما وصلت إليه أزمة المسلمين، وعلى نحو أضحت معه الحاجة ماسة للبحث عن مؤشرات الممانعة والمقاومة فى مقابل دعوات الأنهزامية باسم العقلانية والرشادة والبراجماتية والواقعية . ■



جولة .. فى بلاد الصين

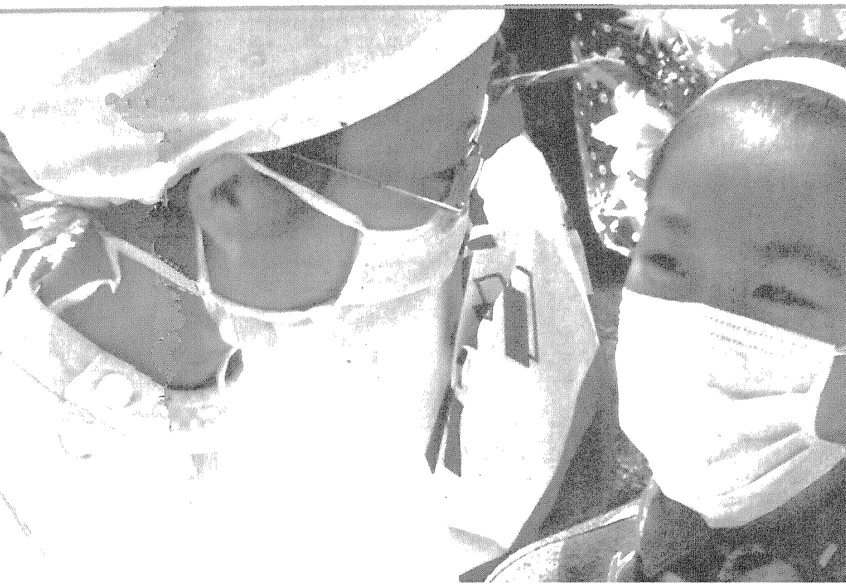
ماذا بقى بعد محنة (السارس)

وهواجس العنف فى تشينجيانج الإسلامية ؟!

بقلم
محمود أحمد



الثقافة الإيجورية فى « تشينجيانج» كما تنعكس فى الموسيقى التى تستخدم الآلات الشرقية ..



« السارس » .. أرعب الصين والعالم

عندما أقلعت بنا الطائرة من «أورمتشي» ، عاصمة منطقة «تشينجيانج» ، فى مطلع شهر أكتوبر الماضى ، كان أهالى المنطقة يتهيأون لاستقبال شهر رمضان. ورغم أن المسلمين فى الصين ينتمون عرقيا إلى عشر قوميات مختلفة ، أهمها الإيجورية والقازاقية والهوا والطاجيكية والأوزبكية والتتارية فإن المناسبات الدينية الكبرى - وفى مقدمتها الاحتفال بحلول شهر رمضان - تجمع بينهم وتشجعهم على توثيق أواصر العلاقات .. خاصة فى المناطق التى يشكلون فيها أغلبية ملحوظة ، وأهمها «تشينجيانج» .

ولا أخفى أن هذه الزيارة السريعة إلى الصين كانت تحف بها ، قبل أن تبدأ ، هواجس عديدة.. فى مقدمتها أن المنطقة كانت خارجة لتوها من محنة مرض الالتهاب الرئوى الحاد اللانمطى «السارس» الذى روعها وأثار قلقا ومخاوف فى العالم كله.

ونحن نعلم الآن أن الوباء كان أكثر فتكا فى الصين حيث بلغ عدد المصابين به ٥٣٢٧ شخصا كما حصد أرواح ٣٤٩ من الصينيين.

وكان من بين الهواجس ، أيضا ، أن برنامج الزيارة كان يتضمن جولة فى «تشينجيانج» تلك المنطقة البعيدة فى أقصى شمال غربى الصين والتى تلوح لنا وكأنها أقصى الأرض! فزيارة المنطقة ستعنى التلامس مع واحدة من القضايا الحساسة بالنسبة للصين وحكومتها التى لا تخفى غضبها إزاء محاولات بعض الدول والمنظمات فى الغرب لاستغلال التقلصات العرقية والدينية فى المنطقة - وإن كانت قد خفت حدتها كثيرا الآن - وإظهارها على أنها دليل على «الانتهاكات» التى تمارس لحقوق الإنسان فى الصين.

على أنه ينبغى أن ننبه إلى أن هذه «الهواجس»، مهما تضخمت، لا يجوز أن تطغى على المشهد العام الذى يتجلى لأى زائر للصين اليوم، فالمؤكد أن هذه البلاد المترامية، تعيش هذه السنوات مرحلة تحول كبرى بدأت نتائجها تظهر للعيان بوضوح كما بدأت تشى ببزوغ قوة كبرى على المسرح الدولى لابد وأن تفرض نفسها فى مستقبل قريب قد لا يتعدى عقدين أو ثلاثة عقود.

إلا أن هذا التحول، وتأثيراته وانعكاساته على الحياة فى الصين اليوم، له حديث يطول. وربما يكون من الأفضل أن نفرغ أولا من تلك «الهواجس» التى خيمت على الزيارة فى بدايتها.. على أمل التفرغ بعد ذلك للحديث الذى قد يطول .

تخطى محنة الوباء

فيما يتعلق بمرض «السارس»،

إسماعيل تلوالدي
حاكم « تشينجيانغ»


عبد الغفور نائب رئيس المعهد الاسلامي في أورومتشي ..

سرعان ما هدأت الهواجس عندما ظهر لنا بجلاء أن الصين قد استطاعت التغلب على المحنة وتجاوز الأزمة ، وهو ما يعكسه شعوراً هو مزيج من الارتياح والزهو.. على ضوء ما أبداه البعض من أن الاقتصاد الصيني - الذى يحقق منذ سنوات نموا مدهشا بكل المعايير - سيواجه عثرات وكبوات قد لا يتمكن من مواجهتها وتحمل عواقبها. ولكن الأرقام الرسمية تشير إلى أن أداء الاقتصاد الصينى، بعد تجاوز المحنة ، استمر بمعدلات عالية قد تصل إلى ثمانية بالمائة - أو تزيد - هذا العام الذى هو عام الوباء! ومع ذلك، فإن التصدى للمحنة لم يكن سهلا. فبالإضافة إلى العوامل النفسية التي نجمت عن الرعب الجماعى أمام المرض، كانت هناك أيضا مخاوف عميقة إزاء ما يمكن أن يسببه الوباء من تأثيرات لعل أهمها الإحجام من جانب العالم الخارجى عن التعامل مع الصين بصورة طبيعية.. بما يعنيه ذلك من عرقلة للنشاط التجارى الذى يحقق للصين فوائض هائلة تدفع عجلة التنمية بقوة وسرعة وتغير وجه الحياة على أرض هذه البلاد ذات المساحة الهائلة والكتلة السكانية التى يصل حجمها إلى مليار وثلاثمائة مليون من البشر.

وهكذا ، فقد كان لابد من خوض مواجهة هائلة مع الوباء الغامض، بحشد كل طاقة الإصرار والدأب المعروفة عن الصينيين، واستنادا إلى مزايا الانضباط والالتزام الصارمين اللذين زرعهما الحزب والنظام الحاكم على مدى العقود التى شغلت النصف الثانى من القرن العشرين، ولم يهدأ هذا الحشد أو يفتر حتى أمكن تجاوز المحنة، وإن كانت هناك بعض العوامل التى تدفع الحكومة إلى الاطمئنان إلى حد ما حتى الأوقات التى بلغ فيها الخطر ذروته. وكما قال لنا أحد المسئولين الصينيين، فإنه كان هناك إدراك لحقيقة أن للاقتصاد الصينى قدرة على تجاوز المخاطر التى تتهدده.. حتى لو تقطعت بعض السبل أو سدت بعض القنوات التى تربط الصين بالاقتصاد العالمى. فالسوق الصينية - ذات المليار والثلاثمائة مليون مستهلك -

تضمن للمنتج الصينى، المعروف بجودته ، بديلا محليا يمكنه تعويض السوق الدولية بدرجة كبيرة. ومع ذلك، فإن إدراك هذه الحقائق لم يحمل المسئولين على التهاون أو التخفيف من الصدمة والجدية فى مواجهة الخطر. وكانت إقالة وزير الصحة وعمدة بكين، لفشلهما فى التعامل مع مشكلة «السارس»، بمثابة رسالة واضحة إلى المسئولين على كافة المستويات بأنه لن يكون هناك تهاون إزاء أى تقصير أو تقاعس.

ومع ذلك ، ورغم الارتياح الذى خلفه النجاح فى التغلب على محنة «السارس»، فإن المسئولين الصينيين يشيرون إلى بعض الصعوبات والآثار السلبية التى تخلفت عن هذه التجربة القاسية والمخيفة.. منها ، مثلا ، تفاقم مشكلة البطالة نتيجة لإقدام بعض المؤسسات على تسريح نسبة من العمالة بها وعدم قدرة القطاع العام على استيعاب العمالة الجديدة التى تخرج للسوق كل عام . وقد دفع الإحساس بخطورة هذه المشكلة، اقتصاديا واجتماعيا، مسئولا صينيا كبيرا هو نائب رئيس مجلس الدولة «هوانج جيوى» إلى أن يعلن ، أثناء جولة له فى عدد من المقاطعات لتفقد الآثار الناجمة عن المرض، أن الحكومة الصينية تدرك بشكل خاص أهمية وخطورة الأبعاد الاجتماعية والأمنية والسياسية التى قد تسببها مشكلة البطالة. وقد حثت الحكومة المركزية الإدارات المحلية على تنفيذ سياسات لتفضيل استخدام العمالة المسرحة وتقديم القروض الميسرة وتخفيض الضرائب لتشجيع المشروعات الصغيرة.

التنمية .. والعنف المرفوض

أما ملامسة قضية الأقليات والأديان، ذات الحساسية العالية خاصة لدى المسئولين الصينيين، فقد كانت حتمية طالما أن برنامج الزيارة قد تضمن قضاء أربعة أيام فى مقاطعة «تشينجيانج» التى تضم ٤٧ قومية مختلفة من بينها أقليات كبيرة تدين بالإسلام. وهنا يجب أن نشير أن إثارة القضايا الدينية والعرقية، والدخول فى مناقشات حولها مع بعض المسئولين فى الإقليم، كان لابد وأن تدفعنا أيضا إلى التطرق إلى قضايا التنمية والتحديث فى هذه المناطق المتخلفة نسبيا.. وذلك باعتبار أن التنمية والازدهار الاقتصادى والتحديث هى التى ستحقق بشكل حاسم تحسنا فى حياة الناس وتوفر الثقة فى مستقبل أفضل.. وبالتالى فإنها تؤدى إلى القضاء على التقلصات الاجتماعية والسياسية، وأيضا الدعاوى بتعرض الأقليات إلى «انتهاكات لحقوق الإنسان».

وفى لقاء مطول مع محافظ «تشينجيانج» وحاكمها الإقليمى – باعتبارها واحدة من خمس مناطق تتمتع بالحكم الذاتى فى الصين – ظل المحافظ «إسماعيل تلوالدى» يلح مرارا وتكرارا على أن توفير الأمن والاستقرار شرط لازم لتحقيق النجاح المنشود للتنمية

والازدهار الاقتصادى. وما استغرق شرحه لهذه النقطة بالذات أكثر من ساعة خلال اللقاء، وارتفعت نبرة صوته وهو يؤكد المرة تلو الأخرى على أنه لن يكون هناك تهاون أمام أية أعمال عنف أو تمرد على نحو ما جرى قبل عدة سنين عندما شهدت المنطقة هجمات على حافلات وتفجير مبان فى أنحاء متفرقة فى «تشينجيانج»

يركز المسئولون في «تشينجيانج» على التنمية ..فهى القادرة على تغيير وجه الحياة في المنطقة

وشدد المحافظ على أن العنف مرفوض، وأنه لابد وأن يواجه بقوة وحسم أيا كانت الدعاوى الخارجية، وإن حرص على أن يشير أيضا إلى أن السنوات الأخيرة لم تشهد أية حوادث تذكر.

فى سياق تأكيده على أهمية التنمية فى الإقليم، ذكر لنا «إسماعيل تلوالدى» أنه عندما أنهى دراسته الثانوية فى مسقط رأسه ببلدة «كاشجار» - أو «قشقر» (وقد أتيحت لنا زيارتها أيضا) - وأراد التوجه إلى «أورمتشى» عاصمة الإقليم للالتحاق بالجامعة، فإن الرحلة استغرقت سبعة أيام كاملة. لم تكن هناك وسائل نقل جوى، ولم تكن الطرق معبدة بما يكفى، وكانت الحافلات والسيارات بعيدة المنال فى أغلب مراحل الرحلة مما دفعه إلى استخدام الدواب أحيانا والسير على قدميه أحيانا أخرى. أما اليوم، فإن رحلات الطائرات المتعددة يوميا بين «كاشجار» والعاصمة «أورمتشى» لا تستغرق أكثر من ساعة وبعض الساعة، ويمكن قطع المسافة بالسيارة فى أقل من يومين.

ولا جدال فى أن إقليم «تشينجيانج» قد حقق بالفعل تطورا ملموسا خلال العقدين الماضيين وقفز قفزة كبيرة استطاعت أن تغير وجه الحياة إلى حد كبير لسكان الإقليم، ولكنه لايزال يتخلف عن المناطق الغربية والجنوبية فى الصين التى سبقته بخطوات واسعة. ورغم اتساع مساحته التى تتجاوز المليون و٦٠٠ ألف كيلو متر مربع - أى سندس مساحة الصين الإجمالية تقريبا - فإن عدد سكانه لا يكاد يصل إلى العشرين

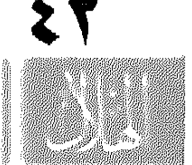
مليون نسمة.. أى واحد إلى ستين من مجموع سكان البلاد. وطبقا لسياسة واعية وتخطيط يتسم بالمرونة فى مجال تنظيم الأسرة، تسمح الحكومة الصينية للأسرة الواحدة فى المناطق قليلة السكان بانجاب ثلاثة أطفال (فإذا جاءت الذرية كلها من الإناث منحت الأسرة فرصة رابعة لإنجاب صبى) مقابل طفل واحد للأسرة فى المناطق كثيفة السكان . ومع ذلك، فإنه رغم قلة عدد السكان، والنجاح النسبى فى الأداء الاقتصادى والذى وصل بالناتج المحلى الإجمالى إلى ما يزيد على ١٨ مليار دولار فى سنة ٢٠٠١ حسب الأسعار الثابتة، فإن الأرقام الرسمية تشير إلى أن هناك هوة واسعة لاتزال تفصل بين المواطن فى «تشينجيانج» (حيث لا يكاد متوسط دخل الفرد يتجاوز تسعمائة دولار سنويا) والمواطن فى المناطق الصينية الأخرى الأكثر تقدما ونموا فى الغرب والجنوب (فى شنغهاى، مثلا، وصل متوسط دخل الفرد إلى خمسة آلاف دولار ويتوقع أن يرتفع خلال ثلاث سنوات إلى ٧٥٠٠ دولار سنويا). وتعتمد المنطقة على مواردها الذاتية من النفط والمعادن، وأهمها الذهب والأحجار الكريمة ، والثروة الزراعية - وأهمها القطن طويل التيلة الذى يصدر إلى المناطق الأخرى وإلى الخارج كذلك - والفواكه والمحاصيل الزراعية الأخرى وتربية المواشى.

ومع أن «تشينجيانج» قد استطاعت أن تحقق طفرة فى توفير الموارد الذاتية اللازمة لتنفيذ خطط التنمية، فإنها لاتزال تعتمد على دعم الحكومة المركزية.. خاصة فى أوقات الأزمات والكوارث الطبيعية. فعندما حلت بالبلاد محنة «السارس»، اعتمد الإقليم على الدعم الذى وفرته الحكومة لتنفيذ إجراءات الحماية والوقاية من المرض بتكاليف بلغت ثلاثمائة مليون «يوان».. أى حوالى أربعين مليون دولار . وقبل ذلك. كما يقول «إسماعيل تلوالدى» ، ضرب المنطقة زلزال، فى أواخر شهر فبراير الماضى ، فقتل العشرات وجرح المئات وشردت عشرات الآلاف من الأسر.. وسارعت الحكومة المركزية بتقديم دعم وصل إلى نحو أربعمائة مليون «يوان».

وعموما ، فإن هذا التفاوت فى مستوى المعيشة بين «تشينجيانج» والمناطق الأخرى هو الذى يزيد الشعور بالحاجة إلى ضرورة مضاعفة الجهد فى مجال التنمية .. وهو أيضا ما يجعل المحافظ وغيره من المسئولين يتشددون على أهمية عامل الأمن والاستقرار، اللذين لا يمكن بدونهما التفرغ لتحقيق التنمية المنشودة ، والتعبير فى كل مناسبة عن الإسرار على مواجهة أى عنف بقوة وحزم فى حالة وقوعه.

القوميات .. وجذور «الانفصالية»

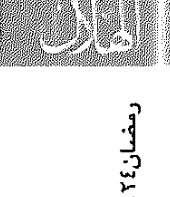
ولكن ، ما هى حكاية النزعات الانفصالية لبعض القوميات فى هذه القضية من بلاد الصين المترامية والتى أثارت الاتهامات من جانب هيئات وجماعات حقوق الإنسان وبعض دول



الغرب بأن حكومة الصين تمارس القمع إزاء بعض القوميات وتنتهك حقوقها ؟

بداية، يجب أن نشير إلى أن الصين تضم ٥٨ قومية مختلفة ، كبراها قومية الـ «هان» السائدة فى مختلف أنحاء البلاد، ومن بين هذه القوميات تقطن إقليم «تشينجيانج» ٤٧ قومية منها. وتعتبر القومية «الإيجورية» التى يعتنق أبناؤها الدين الإسلامى فى غالبيتهم ويكتبون لغتهم الخاصة بحروف عربية، هى القومية الأكبر عددا فى الإقليم حيث تزيد فى عددها على الثمانية ملايين بنسبة إلى ٤٧٪ تقريبا من مجموع السكان.. ولهذا السبب أعطت هذه القومية اسمها للإقليم الذى أطلق عليه رسميا اسم «منطقة تشينجيانج الإيجورية ذات الحكم الذاتى». ويقع الإقليم فى قلب آسيا الوسطى و تشترك حدوده التى يبلغ طولها ٥٦٠٠ كيلو متر ، مع ثمانى دول مجاورة هى أفغانستان .. وباكستان .. والهند .. ومنغوليا .. وروسيا.. وقيرغيزستان.. وقازاخستان وطاجيكستان. وبسبب هذا الموقع ، ولأن المنطقة تعد نقطة رئيسية يمر بها «طريق الحرير» الشهير الذى قطعته جحافل الجيوش وقوافل التجار بلا انقطاع على مدى القرون.. فإن هذا الإقليم الفريد فى موقعه بين الوطن الصينى الكبير والجوار الآسيوى الزاخر بالأعراق والجنسيات والقوميات، كان دائما عرضة لموجات من المهاجرين والغزاة ، ظل مهدا لقيام ممالك مستقلة أو ولايات ملحقة حتى انتهى الأمر به إلى الالتحاق بشكل نهائى بدولة الصين الحديثة، وكان ذلك فى ٢٥ سبتمبر عام ١٩٤٩.. وبعد خمسة أيام من هذا التاريخ شارك أهالى «تشينجيانج» باقى شعب الصين فى الأول من أكتوبر بالاحتفال بقيام ما أصبح يعرف باسم «جمهورية الصين الشعبية».

غير أن هذه كانت نهاية لقصة طالت فصولها . فقد سجل التاريخ لهذه المنطقة وما حولها قضية عرفت لأمد طويل باسم «مسألة تركستان الشرقية». والواقع أن المفهوم الجغرافى لكلمة تركستان كان دائما شديد الغموض، ولم يكن هذا التعبير يستخدم أساسا فى السجلات والكتابات التاريخية لفترة طويلة من الزمن، إلى أن عادت تسمية «تركستان» لتظهر من جديد فى مستهل القرن التاسع عشر فى فترة تزامنت مع تعميق التوسع الاستعمارى فى آسيا الوسطى عموما. وقد تجددت التسمية فى تقرير للروسى «تيمكوفسكى» وهو يدعو إلى إرسال بعثة دبلوماسية إلى المنطقة التى تضم جزءا من آسيا الوسطى يشمل أيضا حوض نهر «تاريم» فى جنوب إقليم «تشينجيانج» الصينى. وفى أواسط القرن التاسع عشر ، ضمت روسيا عدة أقاليم فى هذه المنطقة تباعا وأقامت ما أطلقت عليه أسم «منطقة حاكم تركستان» فى الجزء الأوسط من المنطقة المعروفة بسمرقند فى اسيا الوسطى، وتعارف السياسيون والجغرافيون على إطلاق اسم «تركستان

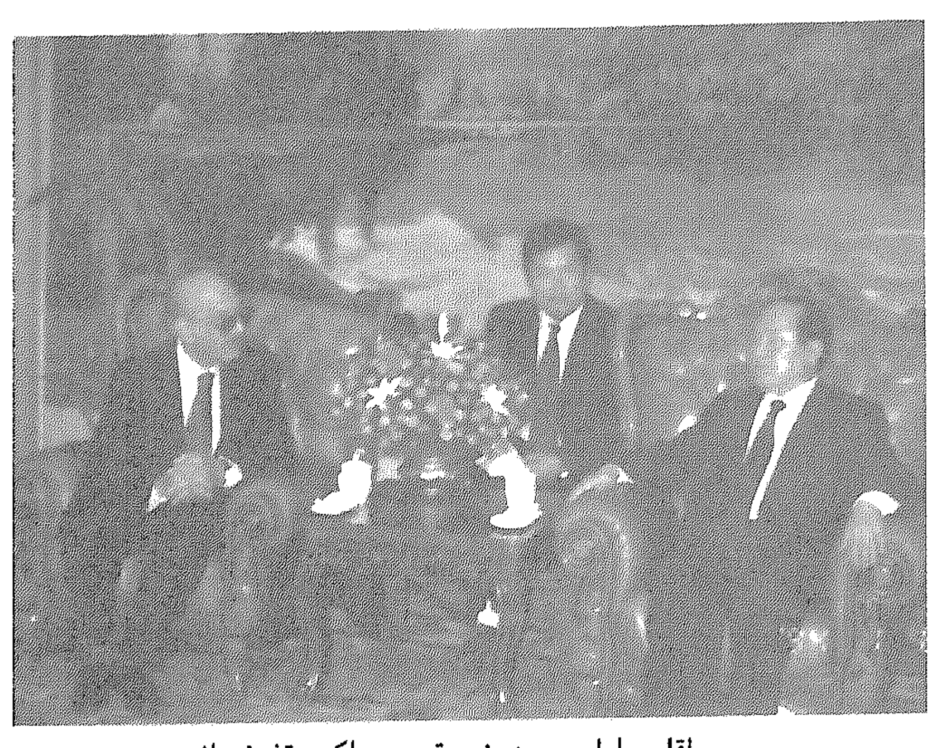


الغربية» أو «تركستان الروسية» على هذه المنطقة، بينما أطلقوا اسم «تركستان الشرقية» على إقليم «تشينجيانج».

ويقول المسئولون الصينيون اليوم، فى معرض شرح التطورات التى شهدتها المنطقة منذ ذلك الوقت، إن انتشار النزعات القومية آنذاك قد شجع على ظهور حركات انفصالية تستند إلى العرق أو الدين بين قوميات عدة. وبسبب تشابك المصالح وتعقيداتها، فإن القوى الاستعمارية القديمة كانت كثيرا ما تزكى نيران هذه الحركات الانفصالية لتستخدمها فى خدمة أغراضها، بما فى ذلك الحركات التى جرى تشجيعها فى «تركستان الشرقية».. أى فى تشينجيانج الصينية. وظلت المنطقة نهبا للاضطرابات وأعمال العنف منذ أوائل القرن العشرين، حتى أن شخصا يدعى «ثابت داملا» أقدم فى عام ١٩٣٣ على إقامة ما سمى بجمهورية تركستان الشرقية واتخذ من بلدة «كاشجار» ذات الأغلبية المسلمة عاصمة له.. إلا أن جمهوريته لم تعمر لأكثر من ثلاثة أشهر، انفجرت بعدها الأحداث التى عرفت باسم «ثورة المناطق الثلاث» - وهى مناطق: إيلى وتاتشنج وآلطاى.. وكلها تقع فى «تشينجيانج» - وفى خضم الاضطرابات التى وقعت، قام أحد قادة الحركات الانفصالية، ويدعى «على خان طوراى» بانتزاع قيادة ثورة المناطق الثلاث التى كانت تعتبر - من وجهة النظر الصينية - جزءا من «الثورة الديمقراطية الشعبية» فى الصين. ولكن اثنين آخرين من زعماء الثورة، هما قاسمى أحمد جان وعبدالكريم عباسوف، تصديا له وأعادا تنظيم مجرى الثورة على النحو الذى أدى إلى ما يطلق عليه المسئولون الصينيون اليوم «تحرير تشينجيانج».. وبالتالى انضمامها إلى جمهورية الصين الشعبية نهائيا.

هذه هى ، باختصار، الخلفيات التاريخية لما جرى واستمر لسنوات فى «تشينجيانج». ويقر المسئولون الصينيون بأن التقلصات والدعوات الانفصالية لم تنته تماما بعد «التحرير» والانضمام. ويشرحون ذلك بالقول إن «عددا ضئيلا» من الانفصاليين الهاربين من «تشينجيانج» ظل يترقب الفرصة - بالتواطؤ مع عناصر انفصالية بالداخل - لممارسة ما يسمونه بالنشاطات الانفصالية والتخريبية، وذلك بالاستعانة بدعم من «قوى دولية معادية للصين». ومن الواضح أن هذه النشاطات قد تزايدت حتى لفتت أنظار العالم مع بداية التسعينات من القرن العشرين حيث لجأت بعض قوى «تركستان الشرقية»، من داخل الصين وخارجها، إلى استخدام وسائل الإرهاب والعنف - على حد تعبير المسئولين الصينيين - لإظهار التمرد ولفت أنظار العالم الخارجى.. مع استغلال التأثير الدينى من ناحية، والاستعانة بالإرهاب الدولى من ناحية أخرى.. وشهدت المنطقة لفترة غير قصيرة حوداث شملت أعمال تفجير واغتيالات وحرق ممتلكات وتسميم وهجمات أخرى من كل نوع. ويشدد المسئولون على أن هذه الأعمال قد ألحقت أضرارا بالغة بالسلام الاجتماعى

والاستقرار فى الإقليم وفى البلاد بصورة عامة.. لاسيما وأن تلك القوى وجدت فرصة متجددة، فى أعقاب حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فى الولايات المتحدة، لتعود إلى التلويح بدعاوى حماية حقوق الإنسان والحريات الدينية ومصالح القوميات والأقليات، وما إلى ذلك.

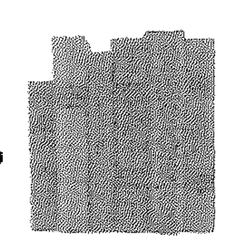


لقاء مطول .. وحديث ممتد مع حاكم « تشينجيانج»

أما الحكومة الصينية، والمسئولون المحليون المرتبطون بها وفى مقدمتهم المحافظ «إسماعيل تلوا لدى»، فإنهم يواجهون ذلك بأسلوب يسير فى اتجاهين:

الأول، التأكيد على منح الأقليات فرصا كافيا لتحقيق هوياتها وتأكيد ثقافاتها وممارسة دياناتها مهما اختلفت وتعددت.. وهو توجه تدل عليه مؤشرات كثيرة يمكن أن يلمسها أى زائر، خاصة مع كثرة الحديث عنها من جانب المسئولين وعزوف الناس العاديين عن الخوض فيها، وتأكيدا لذلك الطرح من جانب المسئولين، وجدنا منهم من يشجعنا على زيارة «المعهد الإسلامى» فى «أرومتشى» عاصمة «تشينجيانج» أثناء وجودنا بها. وبالفعل، توجهنا لزيارة المعهد، بعد اللقاء المطول مع «إسماعيل تلوا لدى» .. ولكن زيارته لم تترك لدينا تأثيرا قويا، ربما لأنه أنشىء «بقرار» من الحكومة المركزية فى بكين وليس نتيجة لاستجابة من الإيجوريين وغيرهم من الأقليات الإسلامية. وبدا أن «القرار» جاء ردا على حملات الخارج وليس تلبية لحاجة المواطنين فى الداخل. وعلى أى حال، ورغم ما يتمتع به المعهد من رونق وأناقة، فإن عدد تلاميذه لا يزيد على ١٦٠ تلميذا يقبلون جميعا بالقسم الداخلى ويشرف على تعليمهم أكثر من ثلاثين مدرسا، بالاضافة إلى عدد كبير من الموظفين الإداريين.

أما الأمر الثانى فهو التنمية المستمرة للإقليم الذى يشهد كل يوم إنجازات كبيرة وملموسة تؤدى بالفعل إلى تغيير وجه الحياة فى «تشينجيانج».. بجبالها، وصحاريها، ومدنها التى مستها بالفعل عصا التحديث السحرية! ■

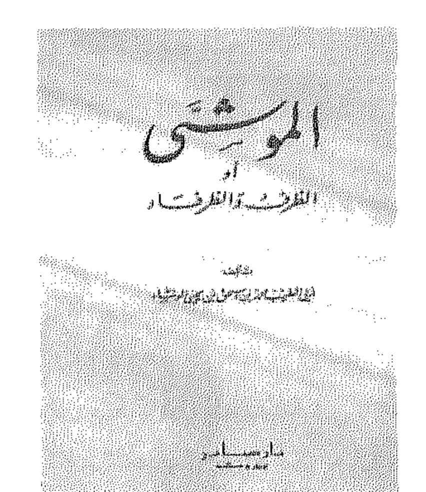


من ذخائر الكتب العربية



أو الظرف والظرفاء

بقلم
أحمد حسين الطماوى



ستقر فى أذهاننا من خلال قراءاتنا فى الأدب الحديث أن الظرف (بفتح الظاء وتشديدها) هو الفكاهات والقفشات والمنادمات والمساجلات بالشعر والزجل والقافية التى يغلب عليها السخرية الشديدة، والهزل والمزاح، وأن الظريف هو الشخص اللطيف، «أبو دم خفيف» ابن البلد، يقظ الحس، حاضر البديهة. الذى يلتقط الكلام ويرد عليه فورا بما يضحك، وهو الشخص الذى يداعب ويلاعب، ويشيع بين صحبه جوا من الفرح والمرح والأنس، ويسليهم برواية الملح الطريفة، والنوادر المضحكة، ويقفش ويقلد غيره بطريقة تثير الضحك. وهناك دراسات منشورة تتناول هذه الأشياء منها كتاب «رحلة مع الظرفاء» للسفير أحمد عبد المجيد الذى قال فى مقدمة كتابه «هل عرف التاريخ عصرا لم يكن فيه المجون والظرف من ضرورات الحياة ولوازم الحضارة»

ولكن الظرف فى لغة العرب وآدابهم ليس هو التنكيت والهزل والإطراب بالضحك، وإنما الظريف هو النبيل النزيه الأديب الورع. وفى مادة «ظرف» (لسان العرب) : «الظرف البراعة وذكاء القلب.. وقيل الظرف حسن العبارة وقيل حسن الهيئة، وقيل الحذق بالشيء... وقيل الظرف فى اللسان والبلاغة.. ويقول الوشاء: «سألت بعض الظرفاء فقال الظرف فى أربع خصال: الحياء والكرم والعفة والورع» ويقول الوشاء أيضا «سألت بعض متظرفات القصور عن الظرف فقالت : من كان فصيحا عفيفا كان عندنا متكاملا ظريفاً»..

ومن معانى الظرف الأخرى صدق اللهجة ، وكتمان السر، والكرم، والسخاء ومراعاة الجار، والنفور من العار ، والانصراف عن الذنوب، والأدب، وحسن تركيب الطباع والغرائز. وبطبيعة الحال فإن عكس ذلك لا يكون ظرفا . وكلام العرب الذى أورده الوشاء فى هذا المجال كثير، يبين أن الظرف سلوك جاد، ونظرية فى الأخلاق لها علاقة وطيدة بالنفس والمجتمع. ومن يتأمل الأقوال السالفة يدرك أنها من أهم عناصر الأخلاق . فهى تتناول الخير والشر واللذة والألم، والسلوك الايجابى والسلوك السلبى، وتتعامل مع الواقع والمثال ، وتساهم فى حل المشكلات الشخصية والاجتماعية.

وصلة الظرف بالنفس وثيقة ذلك أن بنود الظرف تعمل على تحقيق الذات، وتعزز النفس السوية ، والإرادة القوية، وتهذب الحس ، وتحد من ثورة العواطف والانفعالات. وحقيقة الأمر أن الظرف كامن فى النفس ثم يظهر فى السلوك والافعال .

أما من الناحية الاجتماعية فإن الظريف يبحث عن الخير له وللآخرين ، ولا يغلب مصالحه على مصالح الناس، ويسعى إلى السلام الاجتماعى، ويقوى روابط الفضيلة التى تربط بين الناس.

وبايجاز يمكن القول إنه من خلال الظرف تحيا المثل العليا من حق وخير وحب، وتستقيم النفس، وتسمو الغرائز، وترتقى المدارك والعواطف .

وكل هذا له تأثير فى المجتمع .

ويؤكد الوشاء فى كتابه على كل المعانى الأخلاقية للظرف التي استقاها من العرب ويوضحها بالامثال والحكايات لكى تثبت فى الذهن ، ويضيف اليها قوله : «إنه لا ادب لمن لا مروءة له، ولا مروءه لمن لا ظرف له . ولا ظرف لمن لا أداب له..فكأن الظرف والأدب والمروءة شيء واحد. والأدب هنا فى عبارة الوشاء هو التهذيب أو السلوك المهذب ولكن من الظريف أن يجمع العرب بين المكتوب من نثر وشعر والظرف ، لأنهم يعرفون الظرف فى بعض أقوالهم بالفصاحة والبلاغة، وكأنهم يرمون إلى أن الأدب العالى المبتدع هو نتيجة للأخلاق السامية، أو أن البدائع الأدبية الجميلة البليغة هى التى تتسم بالطابع الخلقى أو بالظرف.



أمـــا تلازم الأدب والمروءة والظرف الذى ذكـره الوشـــاء فـإنه يعنىِ به أن الظريف هو الذى يتودد للناس، ويقضى حوائجهم ، ولا يتكلم حين يلزم الصمت ولا يتحدث فى غير غرض، ويسأل عندما يجهل شيئا ليعرف .

ومن خـلال هذا العـرض والتـحليل يتضـح لنا أن الظرف خـلاف مـا نعرفـه الآن، فليس الظرف فكاهة ومزاحـا. وقد أظهـر الوشـاء ذلك فى «الموشى» وكـأنه يرد سلفا على هؤلاء الذين خرجـوا على المفهوم الصحيح للظرف فيقول :

«اعـلـم ان مـن زى الأدبـاء، وذوى المروءة والظرفـاء ، قلة الكلام فى غـيـر أرب، والتـجـالل عن المداعبـة واللعب، . وترك التبـذل بالسـخـافـة والصـيـاح بالفكاهة والمزاح، لأن كـثرة المزاح يضع القدر، ويزيل المروءة ، ويفسد الاخوة ..»

الظرف والحب

والحب عند الوشاء من سنن الظرف ، والمحب من الظرفــاء ، فـهـو لا ينكر الحب النزيه ويراه نافـعـا لأنه، «يشـجع الجبـان، ويسخى البـخيل، ويطلق لسان العـيى ، ويقـوى عـزم العـاجـز » وكـان العـربى لا يجـد بأسـا فى الحب ، «قـيل لبـعض البـصـريين : إن ابنك قـد عـشق، فـقال : ومـا بأس به إنه إذا عشق نظف وظرف ولطف» واستشهد بقول شاعر.

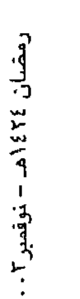
وما الناس إلا العاشقون ذوو الهوى

.. وما خير فيمن لا يحب ويعشق ومن هذا المنطلق ضـمن كتـابه «الموشى» أخبار بعض العشـاق الظرفـاء ، ووجه اللوم إلى غيرهم ممن خرجـوا على شـرع الظرف، والحب عند العشـاق الظرفـاء يتـجـه نحـو الكمال والمثال، وهو في نظرهم قيمة كبرى ينبـغى أن تصـان. ومن هؤلاء العـشـاق الذين ذكرهم عبدالله القس وسلامة، وكان كـلاهمـا يحب الآخـر، فلمـا دعت سلامـة حبيبها القس إلى تقبيلها ، وضم صدره إلى صـدرها ، عف القس عن ذلك وقـال لها: «أنا أكره أن تكون خلتى لك فى الدنيا منقطعـة فى الآخـرة ثم وثب فـانصـرف». فـالقس أظهـر قـوته وقـدرته وكـبح جمـاح غريزته .

و يورد المؤلف كـلام بثـينة صـاحـبـة جـميل الذى ذهبت فيه إلى «أن الحب إذا نكح فـسـد» إن العـاشـق الظريف لا يرى المعشـوق جسداً وروحا، وإنما يراه روحا خالصا مـا لم يربط بينهمـا رباط مقدس. وكـان للإمـام على كـرم الله وجهـه مؤذن شـاب وجـارية، وقـد تحـابا وصـبـرا على تباريح الهوى ولم يقـترفـا إثمـا، ولما علم الامام بذلك زوجهما. إن تفتح قلب العاشق على المعشـوق لا يعنى بالضـرورة الرذيلة والسقوط، وانما الحب الروحى المتغلغل فى الاعماق يحرر المحب من الأثرة والأنانية ، ويحـافظ علي حـرية المحـبـوب ويحـفظ الفضيلة .

فالوشاء لم ينكر الحب، وكان من قبله الفـقـيـه الظاهرى ابن داود الذى وضع





كتاب، الزهرة ومن بعده ابن حزم العالم الفقيه الظاهرى صاحب كتاب «طوق الحمامة في الالفة والالاف»، وابن القيم الجوزيه العالم الفقيه الحنبلي تلميذ ابن تيمية ، مؤلف كتاب «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» لا ينكرون الحب أو يلومون المحبين إلا إذا ضلوا، والمحبون فى نظرهم تجمع بينهم الالفة ويتنزهون فى روضة الحب. كما انهم لم يتجاهلوا العلاقة بين الرجل والمرأة مادام العشق بغير فسق. وكان ابن القيم يرى أن العالم العلوى والسفلى إنما وجد بالمحبة ولأجلها . ويذهب إلى أن الحب يحرك النفوس إلى أنواع الكمالات، وأن دواء المحبين فى كمال الوصال الذى أباحه رب العالمين .

ويؤكد الوشاء على ضرورة وفاء المحب بالعهود ، والإخلاص للحبيب ، والإحساس القوى به ، والاستغراق فيه وعدم التعلق بغيره حتى الممات مع مراعاة المحظورات ، ويحمل بشدة على من يؤثرون الاستبدال والانتقال من معشوق إلى آخر، وفى زعمه ان الحبيب الأول هو حبيب العمر الذى لا ينسى ذكره . والعاشق الظريف هو الذى لا يرفع طرفه إلى غير معشوقه ويذكرنا بقوله الشاعر .

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى
ماالحب إلا للحبيب الأول

أما العاشق الماجن فهو الذى يتغنى بقول الشاعر.

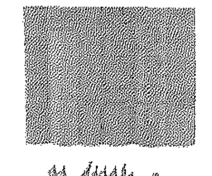
أفخر بآخر من بليت بحبه...
لاخير فى حب الحبيب الأول

ويشدد النكير على النساء ، لأن الغدر طبعهن ، ويذم القيان لان حبهن غير متصل ويطمعن فى الأغنياء ، ولكنه عاد وأظهر ما فى الرجال من غدر وما فى النساء من وفاء ونظرات الوشاء فى أمر الحب الدائم مثالية، لأنه ينظر إلى الحب من زاوية أخلاقية بحتة ، ولكن الحب الأول ، فى كثير من الأحيان لا يدوم بسبب تغير الأحوال، وكثرة انتقال الإنسان من مكان إلى مكان واختلاطه باناس جدد فى البيئة الجديدة ومن ناحية نفسيه يصعب الاحتفاظ بانفعالات الحب طوال العمر، ولا أذهب إلى الغدر والاستبدال ، ولكن الموضوع فيه نظر وقد كان أكثر واقعية عندما تناول قضية هجر المحب لمحبوبه، فهناك من يرى ضرورة الاحتفاظ بالمحبوب حتى وإن اظهر الملل، ويرى الوشاء أنه ليس من الظرف أن يصبر المحب علي محبوبه الهاجر حتي يعجز أو يموت ، وهى نظرة واقعية وصحيحة لأن للمحب كرامة يجب أن يعتز بها ويذكر الوشاء قول الشاعر :

من سلا عنك فاسله
لك فى الناس مثله

السلوك الحضارى

أما حديثه عن ملابس الظرفاء وأطعمتهم وطيبهم ففيه تهذيب وحضارة، ورقى اجتماعى ، وكأنه ينظر من وراء القرون البعيدة إلى ما نتشوف إليه الآن ونحن نراعي «الاتيكيت » أثناء الحديث والسير وتناول الطعام.



فمن اللباس المستحسن للظرفاء أن يكون من الكتان الناعم والأردية المحشاة والقمص اللطاف، ولا يجوز لبس الملابس الجديدة مع القديمة، ولا الملابس الدنسة مع غسيل ، وأحسن الزى ما تشاكل وانطبق ، وهو ما نقول عليه الان الطقم المتجانس ، ولا الملابس الممسكة أو الضيقة ، ولا الثياب الوهاجة الألوان أو المصبوغة بالزعفران . وعند الطعام يتناول الظرفاء اللقم الصغيرة. ويترفعون عن الشره والنهم، ولا يلحسون أصابعهم ولا يملأون باللقم افواههم ويجتنبون الفجل والكرات والبصل لرائحتها .

ومن كمال أدبهم يتحلون بالأخلاق الرصينة. ولا يقطعون على متكلم كلامه، ويتبطئون عن الأشياء الرذيلة، ولا يتثاءبون ولا يسرعون فى المشى ولا يلتفتون فى الطريق ، ولا ينفضون الغبار عن أرجلهم فى الأماكن النظيفة. ولا يأكلون فى الأسواق أو علي قارعة الطريق ، ولا يماكسون فى الشراء ولا يشاتمون رفيقا ولا يسرقون ولا يهتكون الحرمات . ومن تكامل ظرف الظريف ظهور طيب رائحته ، ونظافة بدنه، ومداومة الوفاء، والصفح عن المسيء والفتوة عنده «ليست بالفسق ولكنها عفاف واجتناب للقبيح وخلق طاهر وترك مجالسة أهل الشرور» والظريف لا يتختم بالذهب وإنما بالفضة .

فميلهم إلى الألوان الهادئة يدل على ذوقهم ومزاجهم، ونفورهم من الملابس الضيقة يشير إلى أدبهم ، وتختمهم بالفضة يظهر تمسكهم بدينهم، وثيابهم على ما وصفوها به تجمع بين الجمال والوقار . وسائر أنواع سلوكهم يبين تمدنهم ورقيهم .

لحن الزهور

اللحن عندنا هو السيم، وهو كلام يقوله شخص لآخر فيعرف مغزاه ، ويجهل غيره معناه، وقد يكون اللحن إشارة عين او تحريك منديل أو إهداء زهرة .

وقد التفت الوشاء إلى هدايا العشاق الظرفاء، ومنها الزهور، وعين زهورا يتفاءلون بها وأخرى يتطيرون منها ، وفى الغالب يكون اسم الزهرة سببا فى تشاؤمهم منها. وعلى سبيل المثال يتجنبون إهداء السفرجل لأن نصف اسمه سفر وفراق ، ويتطيرون من زهرة الشقيق لأن نصف اسمها شقاء،

لا تراني طول د هـ ...
رى أهوى الشقائقا
إن يكن يشبه الخدو...
د. فنصف اسمه شقا

ويتطيرون من الورد ويتفاءلون بالآس ، وقد أهدت قينة الى محبها آساً فقال :

والآس يبقى وإن طال الزمان به
والورد يفنى ولا يبقى على الزمن

وسبب التشاؤم ان الورد عمره قصير أما الآس فلا يفنى، وعلى هذا النحو يبغضون زهرة الياسمين لأن نصف اسمها يأس ، ويقصون الريحان لأنه نمام

يذيع الأسرار . كذلك كانوا يتطيرون من بعض الثمار لمخالفة ظاهرها باطنها مثل الليمون : أخضر اللون مرير المذاق ، ويستحسنون البنفسج ويتفاءلون به لأنه دليل السرور واللقاء .

وليس بالضرورة أن يكون ذلك صحيحا، فالسفرجل لا يفرق بين اثنين والياسمين لا ينطوى على يأس، والبنفسج لا هو يحزن ولا هو الرسول السار، وانما كل ذلك من أوهام العاشقين، وتحول عندهم إلى لغة سرية يتفاهمون بها . ودلالات الزهور أو هذا السيم قد يختلف من شخص لآخر أو من بيئة لأخرى.. فالآس عند ظرفاء الموشى.. دليل الحب الدائم وعند غيرهم دليل الجوى والشدة، ويقول أحد شعراء الهلال (فبراير ١٩١٦) :

والآسى إقرار الفتى بالجوى
كأنما يصبو الى مسعف

والبنفسج عند شعراء «الموشى» دليل الوصال وقرب تحقيق الآمال ، وعند شاعرة معاصرة (شريفة فتحى) دليل الشجن والحرمان. تقول

كأن البنفسج آهة الأشجان
أو أنه الشكوى من الحرمان

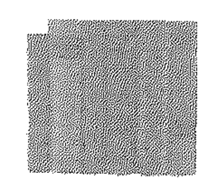
الشعر والمجتمع

ويحفل كتاب الموشى بطائفة كبيرة من الأشعار الجميلة المدهشة التى قيلت فى موضوعات كثيرة، وأظهرت قدرات الشعراء العرب على تحليل عواطفهم ومشاعرهم وأهوائهم ، وتوصيف المناظر التى يعرضون لها مع ذكر خواصها ومـلامـحهـا، وتطويع قرائحهم الفياضة لما يرغبون في التعبير عنه بما يعجب ويطرب مع التمثيل والتصوير ، وذكر دقائق الأشياء حتى يسطع المشهد الجميل. كذلك يظهر الشعر العربى مدى تعلق الناس به وروايته وكتابته على مختلف الأشياء التى يتعاملون معها، وهذا يبين تغلغل الشعر فى شئونهم المعنوية والحسية . ومدى تعلقهم به وملء أوقات فراغهم بترديده وتسجيله ، بل يظهر مقدار تأمله، ونمو ذوقهم الفنى لتفهمه وتمثله .

ويخبرنا الوشاء عبر كثير من أبواب كتابه أن العرب كتبوا الشعر فى رسائلهم، وضمنوه التحية والسلام فى كتب بعثوا بها إلى عشاقهم ، ونقشه المتصوفة وأهل الهوى على فصوص خواتمهم ، وكتبوه بماء الذهب على التفاح ، وذيلوا به الأقمصة. وسجلوه على الأعلام وطرزوا به الأردية والأكمام ومشاد الطرر والعصائب والتكلك والمناديل والبسط والمقاعد والستور والوسائد والأسرة والكلل والأرائك ، وزينوا به المجالس والأبواب والقباب والخفاف والنعال ، وقد أهديت نعل لبعض الظرفاء كتب عليها

لك خدى من الثرى لك نعلا
قد للنعل من فؤاد شراكا

والشراك جلد فى باطن النعل يكون على ظهر القدم، ويعرفنا الشاعر أنه قد من قلبه، وهذا يجعلنا نتذكر المغنى الذى قال «يا شبشب الهنا..» ونقش الشعر على الدراهم والدنانير وسطر على الملابس والوشاح والأقدام والراح والجبين والخد.



وزينت به الكاسات والأقداح والأرطال على أواني الفضة والذهب ومدهون الصيني المذهب، وعلى الطبول والدفوف والنايات والأقلام، وقد كتب بعض الكتاب على قلم أهداه .

إذا دخل الديوان أشرق نوره
ولم يك للشمس المضيئة نور
فياليت أنى كنت فى بطن كفه
له قلما ، إن المحب شكور

وكل هذا يظهر أن الشعر تغلغل فى المجتمع وزين نواحيه وارتقى بالعمران ، وأضفى جمالا على ما يستخدمه الناس .

الموشى والوشاء

وأبو الطيب محمد بن أحمد بن أسحق الأعرابى الوشاء ليست له سيرة وافية ، وهناك أخبار قليلة عنه تفيد أنه ولد نحو عام ٢٤٦ هـ وتوفى سنة ٣٢٥ هـ ويذكر النديم فى الفهرست أنه من الأدباء الظرفاء، وكان نحويا معلما والغالب على تصنيفه كتب الأخبار والشعر واحصى من مؤلفاته أقل من عشرين كتابا منها كتاب جامع النحو وكتاب الموشح وكتاب المتظرفات ولم يبق من هذه الكتب إلا كتابا «الموشى» و«تفريج المهج» ويرجح أحد الباحثين أن «الوشاء» من تعاطى التوشية، وقد ترجم له جرجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية ج٢ بثلاثة أسطر اقتبس معظمها من «الفهرست» ويبدو أن الوشاء كان على صلة واسعة بأبناء عصره ونتبين ذلك من قوله عن الظرف .. «ورأينا أربابه وأهله وطلابه متبعين لسبلها ومتمسكين بحبلها» وقد أفاده هذا فى جمع كثير من مواد كتابه النادر .

أما الموشى فهو كتاب فى الظرف والحب ، ويعتبر من الكتب الأوائل التى تناولت موضوع «الحب»، وقد أفاد منه ابن حزم الأندلسى فى كتابه «طوق الحمامة» وقد بين ذلك د. الطاهر مكى عندما نقل إلينا ما كتبه المستشرق الإسبانى غرسيه غومث فى كتابه «دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة» .. فقد ذكر غومث فى بحثه الأشياء المشتركة والمتشابهة فى الكتابين وما جاء عليها من تعليقات مما يوقع فى نفوسنا أن ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦هـ تأثر بالموشى، وقد أفاد من الموشى آدم ميتز فى كتابه «الحضارة الإسلامية» الذى ترجمه أبو ريده ، وذكره جرجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية مرتين ووصفه بأنه كتاب «فريد فى بابه» ووقف عنده د.محمد حسن عبدالله فى كتابه «الحب فى التراث العربى» .

ويتكون الكتاب من جزأين صغيرين وكانت توجد مخطوطة منه فى ليدن بهولندا حققها المستشرق الأمريكى رودلف برونو وطبعت عام ١٨٨٦ ثم طبع الكتاب فى الشرق عدة مرات كان آخرها طبعة دار صادر عام ١٩٩٢، وفى كل طبعة يتجدد ذكره وتعم فائدته. □

لغويات

ألف ابن متى تكتب ومتى تحذف؟

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

جذر هذه الكلمة هو (ب ن و)، فأصلها إذن بنو، وقيل بنى، حذف الحرف الثالث، وعوض منه بألف الوصل فى البدء فصارت «ابن»، ومعناها ولد، وجمعها أبناء وبنون للمذكر الآدمي، وتجمع على بنات لغير الآدمي، فجمع ابن آوى «وهو الثعلب» بنات آوى.

والنسبة إلى ابن بنوى، ويقال لكل ما يرتبط بشىء أو يلازمه هو ابنه، كناية عنه، فيقال: ابن حرب، وابن السبيل، وابن ليل، وابن عمل، وابن يومه، وهكذا.

ومؤنث الابن: البنت، جاءت على غير بناء مذكرها، وجمعها بنات.

وألف «ابن» تنطق موصولة دائما، ولكنها لا تكتب دائما فى الإملاء، وإنما تحذف إذا وقعت صفة بين علمين من أعلام الأسماء، أو الكنى، أو الألقاب ليشى بأن موقع «ابن» من الاسم الذى قبله بمنزلة الاسم الواحد، لشدة اتصال الصفة بالموصوف، وحلوله محل الجزء منه. تقول الحسن بن على، ويزيد بن معاوية.

وفى غير هذه الحالة يجب إثبات الألف، وذلك فى خمسة مواطن:

● إذا أضيفت ابن إلى ضمير، تقول: المعتضد بالله ابن أخى المعتمد بالله.

● إذا نسبته الى الجد، تقول: فؤاد ابن محمد على.

● إذا وقع فى الكلام خبرا بدل أن يجىء صفة، تقول: إن فاروقا ابن فؤاد.

● إذا عدل به عن الصفة إلى الاستفهام، تقول: هل فؤاد ابن إسماعيل؟

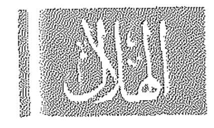
فى غير هذه المواطن تحذف الألف كتابة، وتبقى ألفا موصولة نطقا. ■

المخابرات

والتحليل السياسى

بقلم
جميل مطر

ما أسهل الكتابة فى السياسة.. وما أصعبها. الكاتب فى السياسة قد يكون أكاديميا أى أستاذا فى الجامعة، أو باحثا وخبيرا فى مركز من مراكز الدراسات والعصف الفكرى، ينطبق أيضا تعبير الكاتب فى السياسة على كاتب المقال السياسى وهو فى الغالب يعمل بالصحافة واختار كتابة المقال السياسى. النوع الثالث هو المحلل السياسى. المحلل السياسى هو ذلك الشخص المكلف بتحليل التطورات السياسية. وجرى العرف على أن هذا النوع من التحليل السياسى تختص به أجهزة المخابرات المختصة بالأنشطة الخارجية. ويختص به أيضا الدبلوماسيون العاملون فى وزارات الخارجية وبعض المنظمات الدولية، وكذلك المحللون الذين يعملون لحساب الشركات الكبرى ذات الأنشطة عابرة الحدود، مثل شركات النفط والدواء والمصارف ومثل عصابات الإجرام الدولية وتهريب المخدرات.



ابتداء بالاكاديمى وانتهاء بكاتب المقال السياسى فى صحيفة من الصحف أو دورية من الدوريات، أو ابتداء من هذا الأخير وانتهاء بالأكاديمى، يتشابه هؤلاء فى أمرين: الأمر الأول، أن جميعهم مهتمون بالموضوع السياسى. الأمر الثانى ، أن جميعهم يعانون من حقيقة أن أغلب صانعي القرار وكبار المشتغلين بالسياسة لا يثق فى مصداقية أو كفاءة ما يكتبه الأكاديمى أو الصحفى أو المحلل السياسى. قد يقرأ صانع القرار أو المسئول السياسى تحليلا اقتصاديا أو تحليلا عسكريا وبعد قراءته سيجد وقتا لمناقشته مع كاتبه. سيطلب معلومات إضافية أو يطلب شرحا لبعض ماورد من أفكار. ولكن صانع القرار هذا أو المشتغل بالسياسة لن يناقش كاتب التقرير السياسى سواء كان أكاديميا أو صحفيا أو محللا سياسيا. يزعم المسئول السياسى أنه يعرف أكثر من أى كاتب فى الشئون السياسية. وقد سببت هذه المشكلة أرقا لكثيرين من علماء السياسة. فأستاذ علم السياسة يكتب مادته فى كتاب أو مقال أو يدلى بها فى محاضرة متصورا أن يصل بإبداعه وفكره إلى صانعى السياسة والقرار فى الدولة، أو متمنيا شئ جديد إلى علم السياسة. كذلك الصحافى الذى يعتقد أنه صاحب رسالة ويهدف بما يكتبه إلى توعية الرأى العام ليضغط الرأى العام بدوره على صانع القرار فيغير فى السياسة. أو ذلك الذى يكتب لأن وظيفته تحتم عليه الكتابة، ومهمته أن يملأ مساحة معينة مفروضة عليه أو مفروضة على الصحيفة. ولكن هناك أيضا الكاتب الصحافى الذى يكتب لشخص واحد أو لنفر قليل من الأفراد فى قمة السلطة .

أقل هؤلاء حظا هو الأكاديمى لأنه وإن كان يحظى باحترام السلطة فى بعض الأحيان، إلا أن علاقته بالسلطة تبقى علاقة متوترة. فالمسئولون عن صنع السياسة عند القمة يعتبرون الأكاديمى - وهذا فى أفضل الأحوال - واهما أو حالما أو أبعد ما يكون عن الواقع. الوحيد - فى رأيهم - الذى يعرف الواقع بكل تفاصيله هو صانع القرار. أما الأكاديمى فلا يعرف الكفاية، ولذلك فإنه غير قادر على تقديم النصح والإرشاد لمن يعرفون أكثر منه وأعمق. تذكرت وأنا أكتب هذا المقال واقعة سرد لى تفاصيلها أستاذ كان يعمل فى جامعة ماكاريرى فى كمبالا، عاصمة أوغندة. فقد حدث ذات يوم أن قرر ميلتون أوبوتى رئيس الدولة، زيارة الجامعة. ولم يكن له فى الحكم إلا شهور قليلة. وخلال الزيارة وجه إليه رئيس الجامعة الدعوة لمقابلة بعض الأساتذة وقام بتقديمهم إليه واحدا بعد الآخر. وجاء دور الدكتور على مزروعى فسأله رئيس الدولة وما هو تخصصك؟ أجاب الأستاذ الشهير «أقوم بتدريس علم السياسة». وشرد الرئيس ثم قال، لم أكن أعرف أن السياسة علم، وأن لها أساتذة. وأضاف موجها حديثه لرئيس الجامعة، أظن أن هناك خطأ جسيما يجب إصلاحه على الفور، إذ لا يصح أن تستمر هذه الازدواجية: سلطة سياسية وعلماء سياسة.

وبعد أسابيع أصدر رئيس الجامعة قراره بإغلاق قسم العلوم السياسية .

مارست شخصيا خلال مراحل متلاحقة فى حياتى العملية أشكالا مختلفة من الكتابة فى السياسة. مارستها فى الميدان الأكاديمى. وفى مرحلة أخرى مارستها فى الميدان الصحافى. ومارستها فى مرحلة ثالثة فى ميدان التحليل السياسى. اكتشفت فعلا أن هناك اختلافات واسعة بين الأنواع الثلاثة من الكتابة فى السياسة. وعرفت قيمة كل واحدة منها. واختلف مع هؤلاء الذين يصنفون الكتابة السياسية حسب تراتيب من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى . فلكل مجال جمهوره. ولكل مجال أسلوبه وقواعده. وفى كل مجال من المجالات الثلاثة يمكن للكاتب فى السياسة أن يبدع وأن يضيف وأن يخدم رسالة، إن كانت لديه رسالة.

تذكرت المراحل الثلاث التى انشغلت فيها بكتابة التحليل السياسى، وكتابة المقال السياسى، وكتابة البحث الأكاديمى، وبينما كنت أقرأ ورقة كتبها رئيس سابق لقسم التحليل السياسى فى وكالة المخابرات الأمريكية. القصد من الورقة كما يقول كاتبها أن يستفيد منها كل من يعمل بالتحليل السياسى فى أجهزة المخابرات ووزارات الخارجية. وكنت قد لاحظت ، أنا شخصيا، أن بعض من يقوم بالتحليل السياسى غير مدرك لأهمية أن يبنى لنفسه مصداقية. هذه المصداقية هى المفتاح الذى بدونه لن يصل إلى عقول قرائه، حتى إن كانوا يعتقدون أنهم أكثر كفاءة منه ولكى يكتسب المحلل السياسى صفة المصداقية، يتعين عليه أولا أن يدرك هذه الحقيقة التى أسلفت ذكرها وهى أن قارئ التحليل إن كان صانع قرار أو سياسة يعتبر نفسه – قبل قراءة التحليل وخلالها وبعدها – أقدر وأكفأ وأكثر علما من كاتب التحليل. هذه هى الحقيقة الأولى .

الحقيقة الثانية : يجب على المحلل السياسى أن يدرك أن القائمين على السلطة فى الدولة لا يهتمون، عندما يتعاملون مع دولة أجنبية، بتاريخ هذه الدولة وتراثها السياسى والثقافى ومشكلاتها الاجتماعية الكبرى والحضارية. السياسى بطبعه ، حين يفكر فى فرنسا أو بريطانيا أو أمريكا فإن أول ما يتبادر إلى ذهنه جاك شيراك وطونى بلير وجورج بوش، فالتاريخ يصنعه رجال أقوياء وحكماء مثلنا . ولن يؤثر فى علاقة دولة بدولة أخرى أكثر من علاقة زعيم هذه الدولة بزعيم تلك الدولة. الزعيم هو الوحيد الذى يتخذ القرار والزعيم هو الوحيد الذى يؤثر فى صنع قرار زعيم آخر. هكذا يفكر الزعماء .

الحقيقة الثالثة : أن يدرك المحلل السياسى أن صانع القرار فى بلاده يعرف أشخاصا يعملون فى الحقل السياسى أكثر مما يعرف هو، أى المحلل السياسى. وصانع القرار حين يقرأ تحليلا سياسيا لن يهتم كثيرا برأى المحلل السياسى، وإن اهتم أحيانا ببعض المعلومات الواردة فيه. فالمحلل لم يعرف كل الناس الذين قابلهم

ولا كل الأوراق التى عرضت على الزعيم وبالتالى ما يكتبه المحلل لا يزيد فى أحسن الأحوال عن ترديد لأفكار قيلت للرئيس أو سمع بها .

الحقيقة الرابعة : يعتقد صانع السياسة أن لديه فراسة فى فهم البشر، فهو الأقدر على تقديم الرجال والنساء وبخاصة الذين يتولون المسئولية فى حكومته أو حكومات فى دول أخرى، وبالتالى لا يجوز أن يصدر كاتب التحليل حكما على شخص لا يتوافق مع رأى صانع القرار فيه الأمر الذى يفقد المسئول الثقة فى التحليل السياسى المقدم إليه. بمعنى آخر يعرف صانع السياسة فى الغالب القرار الذى سيتخذه ولكنه ينتظر التحليل السياسى ليجد فيه الوقائع التى تثبت سلامة القرار الذى قرر اتخاذه وليبرر لنفسه مسئولية القرار وليشيع عن نفسه سمعة التشاور والاستماع إلى كل الآراء .

الحقيقة الخامسة : يجب أن يعرف المحلل السياسى تاريخ شعبه وثقافته. هذه المعرفة ضرورية حتى يتمكن المحلل من إقناع صانع السياسة. فصانع القرار فى أى دولة يتحيز دون أن يعرف لثقافته وتاريخه وثقافة شعبه وحال المجتمع الذى يعيش فيه ويتأثر قراره باستعداده ومزاجه الشخصى. النصيحة التى يجب أن نقدمها للمحلل السياسى هى أن يعرف أنه يجب أن يكون «متحيزا» بنية مسبقة كصانع القرار الذى قد لا يعرف أنه متحيز، ولكنه فى الحقيقة أشد الناس تحيزا دون أن يدرك. لا يجوز مثلا للمحلل السياسى أن يكتب تحليلا سياسيا يعرف أنه سيعرض على رئيس الدولة مستعينا بتقرير فى نفس الموضوع سبق عرضه على رئيس الدولة السابق. بمعنى آخر يجب أن يتحلى المحلل السياسى ببراعة توصيل ما يريد توصيله إلى رئيس الدولة بالشكل المناسب الذى يتفق مع مزاجه النفسى والسيكولوجى والمؤثرات الشخصية والاجتماعية التى تؤثر عليه عند قراءة هذا التقرير أو عند اتخاذ القرار.

وفى كتابه «فن الحروف» ينصح سان تسو فيلسوف الصين ومفكرها الاستراتيجى العظيم منذ قرون طويلة بأنه من الأهمية بمكان أن تعرف نفسك وتعرف عدوك، أى تعرف الآخر. المحلل الذى يكتب عن أمريكا لابد أن يكون مدركا أن القانون هو أساس الفكر السياسى الأمريكى، بمعنى أن الالتزام بالنص أساس العلاقات التى تقيمها أمريكا مع الدول الأخرى. العكس ينطبق على الصين. يقول المثل الصينى «لا تذهب إلى القضاء فلن تجد هناك سوى المتاعب»، يقولون أيضا «رغم أنك غاضب جدا لكن لا تذهب إلى القضاء، ورغم أنك جائع جدا لا تصبح لصا»

كذلك فى بعض المجتمعات تكون المظاهر أهم من الواقع. فالمعروف عن بعض الرؤساء مثلا أنهم يتوقعون أن تصبح العلاقة متميزة أن هم باشروا باحتضان الضيف وتقبيله فى أكثر من كان من وجهه ورأسه. كما أن مجتمعات معينة تميل إلى

الصراحة والشفافية والوضوح والدقة فى استخدام الكلمات أثناء التفاوض، وفى مجتمعات أخرى يسود الغموض والالتفاف حول الموضوع وإلقاء القصص والنكات والثرثرة. كذلك يجب أن يضع المحلل السياسى فى اعتباره عمر صانع السياسة عند كتابة التحليل السياسى، فالمعروف أنه عندما يتقدم صانع السياسة فى العمر يصبح أقل انفتاحا على الأفكار الجديدة وأكثر ميلا للنظر للماضى بحثا عن المستقبل، مثله فى هذا مثل أى إنسان آخر .

من المهم أيضا أن يكون المحلل السياسى المتخصص فى الكتابة عن دولة معينة أو مجتمع بعينه قارئا لآداب هذه الدولة وفلسفتها ومطلعا على كتابات أهم أدبائها. فالمحللون السياسيون العاملون فى وكالات المخابرات المركزية، الذين يكتبون من واشنطن عن مصر لابد أن يكونوا قد قرأوا لنجيب محفوظ أو عرفوا عنه. والمحللون السياسيون المصريون الذين يكتبون عن إسرائيل لابد أن يقرأوا لآموس ألون. ولابد للمحللين الذين يدرسون الصين أو يكتبون عنها أن يكونوا على دراية بفلسفة كنفوشيوس وخاصة فيما يتعلق بالعلاقات الخمس فى المجتمع الصينى وهى علاقة الإمبراطور بالرعية، والأب بالابن، والزوج بالزوجة، والشقيق الأكبر بالأصغر، والصديق بالصديق. يلاحظ القارئ أن هذه العلاقات جميعها علاقات فوقية بمعنى أنها علاقة بين الأقل شأنا بالأكبر شأنا، وأنها تحمل معنى اللامساواة الكاملة فى العلاقات الاجتماعية باستثناء علاقة واحدة هى علاقة الصديق بالصديق. ولكن المتتبع للتراث الصينى يعرف أن مفهوم الصديق فى الصين مختلف عنه فى أى مجتمع آخر فحين تقول فى الصين أنت صديقى فأنت فى الواقع تقول أنت ملتزم تجاهى بواجبات معينة تفرضها عليك علاقة الصداقة التى تفضلت عليك بها. أنا إذن أعلى منك وأتوقع منك خضوعا واحتراما. ولا نذهب بعيدا حين نقول أن التحليل السياسى الرصين يضع فى اعتباره أن الصين عندما تقيم علاقات وتطلق عليها علاقات صداقة فهى تتوقع أن تقوم الدول الأخرى بواجباتها تجاه الصديق الذى تنازل فمنح الطرف الآخر علاقة الصداقة.

ومن معرفة التراث والتقاليد يستطيع المحلل السياسى أن يصل إلى نتائج مهمة تبنى عليها سياسة خارجية واقعية. ففى الدول العربية مثلا القوة أو السلطة لا تكون إلا عند الزعيم الأول وليس عند شخص أو مؤسسة أو جماعة أخرى. وإذا كان الكاتب أو المحلل يكتب عن تركيا ويحلل الأوضاع السياسية فيها فواجبه أن يهتم بدور العسكر. ففى المؤسسة العسكرية تتوطن السلطة والقوة وليس فى الأحزاب ولا فى منصب رئيس الدولة. وإن كنت فى الصين فستلاحظ على الفور العكس تماما. فالعسكر لا يحظون بأى مكانة سياسية مهمة. ستلاحظ أن موقعهم فى السلم الاجتماعى متواضع لغاية، ولدى الصينيين أمثال كثيرة توضح هذه الحقيقة، منها مثلا «أنت تصنع مسامير من حديد جيد ولن تصنع جنودا من رجال جيدين». ولكنك

لكى تعرف موطن السلطة فى الصين فعليك آن تبحث عن الأكاديميين. ففى التاريخ الصينى احتل الاكاديمى هذه المكانة وكان يجمع بين الصفتين، صفة البيروقراطى وصفة الباحث والكاتب، هؤلاء كانوا دائما الأعلى مكانة فى تاريخ الصين ولكن لم يكونوا موطن السلطة.

الدراية والمعرفة بالدول

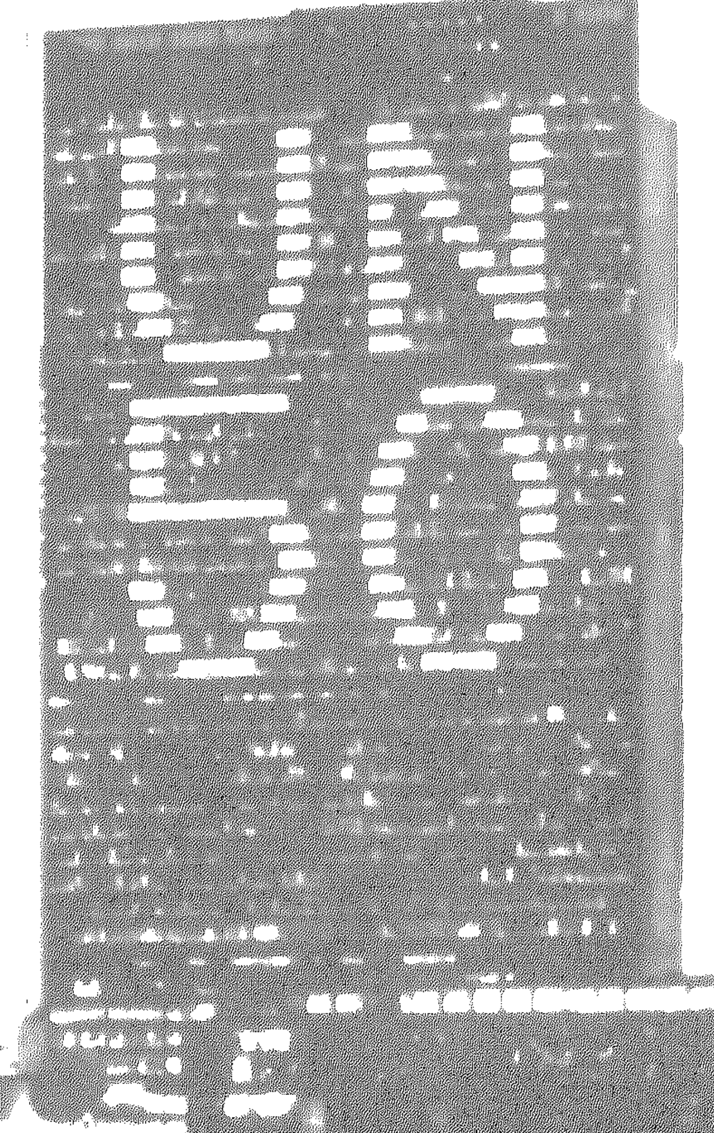
إلا أنه مهما توفرت لدى كاتب التحليل السياسى الدراية والمعرفة بالدول الأخرى التي يقدم عنها تحليله لصانع القرار، تبقى نقطة حيوية يستحسن توافرها لكسب المصداقية لدى جمهوره أو المطلعين على تحليله لكى يضمن هو نفسه دقة التحليل ورصانته. فقد لاحظت بنفسى أننى أستحسن مقالا أو تحليلا سياسيا أو كتابا أكاديميا أشعر أن كاتبه كان فى المكان الذى يتحدث عنه أو مر به أو عاش فيه. وبالإضافة إلى هذه العلاقة الشخصية بين المحلل وبين الدول موضوع التحليل، يتعين الإلمام باللغة. فاللغة مفتاح ثقافة الأمة. وهى الكاشفة عن طريقة تفكيرها وفلسفتها. ويلعب الإلمام باللغة دورا كبيرا فى المباحثات بين رؤساء الدول. ولذلك من المهم دائما أن يوصى التحليل السياسى صانع القرار أو المفاوض بالتدقيق فى المقصود من استعمال المضيف أو الضيف لكلمة لها دلالات متعددة . ولدينا فى اللغة العربية كنز هائل يفيد المحللين السياسيين الأجانب الذين يدرسون أحوالنا السياسية. ففى اللغة العربية إمكانات وفيرة تشجع على المبالغة وتصوير الأمور بصور متعددة تتدخل فيها العاطفة أحيانا والمشاعر الدينية فى أحيان أخرى. كان معروفا مثلا أن اللغة الصينية، وهى واحدة من أشد لغات العالم تعقيدا، تمثل وعاء للفلسفة الصينية وللثقافة الصينية. إن اقتربت منها ودققت فيها تكتشف أمورا عجيبة. فمثلا إذا قرأت أو رأيت الرمز الصينى للمرأة مرتبطا برمز الطفل الذكر فأنت أمام كلمة «جيد» أو «طيب». ومن اجتماع رمز المرأة مع رمز السقف تتكون كلمة السلام، وأنت دائما حسب اللغة الصينية فى وضع صيرورة وليس فى وضع ثبات أو وضع نهائى .

نصف المصداقية فى التحليل السياسى يتحقق حين يسرد المحلل السياسى من القصص والمعلومات ما يثبت أنه كان بالمكان الذى يكتب عنه . والنصف الثانى يتحقق لو شرح لرئيسه أو لصانع القرار فى بلده ألغاز اللغة فى دولة أخرى. إن معرفة اللغة وحدها والتى أحيانا يتفاخر بها دبلوماسى أو آخر من الذين قضوا فى العمل الدبلوماسى جل عمرهم لا تعنى شيئا كثيرا إذا لم تتوفر لدى الدبلوماسى الخبرة والقدرة على كتابة تحليل سياسى، ولكن من ناحية أخرى فإن توفرت معرفة اللغة مع القدرة على التحليل السياسى فالمؤكد أن معرفة اللغة ستجعل التحليل أكثر امتيازا وأشد قابلية للتصديق . ■

هل تعود الثقة إلى النظام الدولى ؟



بقلم
د. منير زهران



بعد الغزو الأمريكى البريطانى للعراق فى مارس ٢٠٠٣ ، وسقوط بغداد يوم ٩ إبريل الماضى ومعها النظام البعثى ، انتابت واشنطن نشوة الفرح والنصر إزاء هذا الغزو الانفرادى الذى يصرح به مجلس الأمن ، ولم يستند إلى أى من مبادىء القانون الدولى ، بل جاء انتهاكا صارخا لأحكام ميثاق الأمم المتحدة! وهكذا اهتزت أركان نظام الأمن الجماعى الذى أرساه الميثاق ، رغم سعى قمة الجمعية العامة فى سبتمبر ٢٠٠٠ والمسماة بقمة الألفية لإحيائه وتحديثه مع إعادة صياغة قيم المنظمة .

ورغم محاولات دولتي الاحتلال العودة للأمم المتحدة لإضفاء الشرعية على احتلال العراق من خلال استصدار قرارين من مجلس الأمن ، إلا أن عمليات المقاومة العراقية للاحتلال استمرت يوميا في مختلف أنحاء العراق.

ومن هنا جاء التساؤل عن مصداقية الأمم المتحدة ودورها مستقبلا وعما إذا كانت قواعد اللعبة التى أرساها قرار مجلس الأمن رقم ١٤٨٣ سوف تعتبر سابقة لتكرارها فى حالات جديدة للغزو والعدوان يجرى الإعداد لها، وإذا لم يكن كذلك، فكيف يمكن استعادة الثقة فى الأمم المتحدة ونظام الأمن الجماعى الذى أرسته.

وكانت ذكرى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ والاعتداء على مقر الأمم المتحدة فى بغداد مقدمة ونقطة البداية فى تقرير السكرتير العام للأمم المتحدة الذى صدر يوم ٢ سبتمبر الماضى والذى حمل عنوان «تنفيذ إعلان قمة الألفية» حيث أشار الأمين العام فى تقديمه للتقرير إلى أن نظام الأمن الجماعى استلهمه قاعدة العالم عند اعتماد الجمعية العامة لإعلان الألفية، بتوافق الآراء، واستعراض الأهداف الرئيسية للإعلان موضحا رؤيته فى كيفية متابعة تنفيذها بالنسبة للسلم والأمن الدوليين والتنمية وحقوق الإنسان والديمقراطية والحكم الرشيد ، وتدعيم المؤسسات متعددة الأطراف .

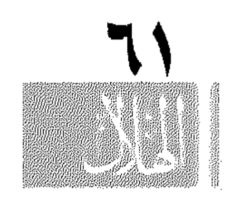
استعادة الثقة في النظام الدولي كيف؟

وبعد انهيار الثقة فى الأمم المتحدة، ومحاولة إعادة الثقة إليها من خلال تقرير السكرتير العام المعنون «تنفيذ إعلان قمة الألفية»، فإن لنا وقفة نجتهد فيها لتوضيح ما يلزم القيام به لإعادة الثقة فى الأمم المتحدة والنظام الدولى عامة فى ظل استفحال ظاهرة العولمة التى أدت إلى زيادة تهميش الدول النامية مع سيادة القطبية الأحادية بعد انهيار الاتحاد السوفييتى منذ بداية التسعينات ثم إنشاء المنظمة العالمية للتجارة منذ عام ١٩٩٥ التى انضمت إلى مؤسستى بريتون وودز لوضع ومتابعة تنفيذ قواعد العولمة والتحكم فى النظام الاقتصادى الدولى تحت سيطرة الدول المتقدمة وخدمة مصالحها.

ولذلك فإن دعوة السكرتير العام فى تقريره إلى أن تعمل العولمة لصالح الجميع أى لخدمة الدول النامية وانهاء تهميشها، فإن تلك الدعوة لكى يتم ترجمتها فى الواقع العملى لابد من أن تشمل إصلاح النظام الاقتصادى الدولى والمنظمات التى تتحكم فيه أى مؤسستى بريتون وودز والمنظمة العالمية للتجارة، وسنعرض فيما يلى لكيفية استعادة الثقة فى النظام الدولى:

١ - مجلس الأمن

فاستعادة الثقة فى الأمم المتحدة وخاصة مجلس الأمن لن تتحقق من خلال توسيع عضوية مجلس الأمن حتى يكون أوسع تمثيلا، كما لم يوضح السكرتير العام وجهة نظره حول زيادة دور الجمعية وإعادة النظر فى دور المجلس الاقتصادى والاجتماعى ومجلس الوصاية ودور الأمم المتحدة فى الموضوعات الاقتصادية والاجتماعية. ولم يكن السكرتير العام محدداً إلا فيما يتعلق بتوسيع عضوية مجلس الأمن، وفى هذا يحضرنا قول الشاعر



(المتنبى):

ورب ساع مبصر فى سعيه
أخطأ التوفيق فيما طلبا

فاستعادة الثقة فى الأمم المتحدة وخاصة مجلس الأمن لا تقف عند توسيع عضوية مجلس الأمن، وإنما من خلال أعمال الديموقراطية، ديموقراطية اتخاذ القرار بالمجلس، وإلغاء تصنيف الدول الأعضاء والتمييز فيما بينها إلى طبقتين، العليا تحتفظ بمقاعد دائمة لكل منها حق النقض، ومن لا ينتمى إلى الخمسة ، أى ١٨٦ عليها أن ترضى بالتناوب على باقى المقاعد من خلال الانتخابات.

فلابد من إلغاء مثل هذا التمييز الذى هو ميراث الحرب العالمية الثانية وسيادة الديموقراطية فى مجلس الأمن وتحقيق المساواة فى السيادة فيما بين الدول إعمالا لنص المادة الثانية الفقرة الأولى من الميثاق وبالتالى إلغاء حق النقض، كما يمكن تصنيف الموضوعات التى تعرض على المجلس إلى فئتين: الأولى اجرائية يتم اتخاذ القرار فيها بالأغلبية البسيطة، أما الموضوعات التى تمس السلم والأمن الدوليين مباشرة وخاصة تطبيقات الفصل السابع من الميثاق، فتتخذ القرارات فيها بمجلس الأمن بأغلبية الثلثين نظراً لخطورتها.

كما يجب تقديم تعهدات من الدول الكبرى بعدم ممارسة ضغوط على الدول الأعضاء لتمرير القرارات التى تخدم مصالح الأولى من خلال التهديد والوعيد.

وفى هذا يلزم احترام مقاصد ومبادىء الميثاق فيما يصدره مجلس الأمن من قرارات وخاصة وقد اعترف السكرتير العام فى تقريره من أن العديد من قرارات المجلس انتهكت الشرعية رغم أنه نسب ذلك إلى الدول النامية.

وفى حالة فرض المجلس لعقوبات وفقا لأحكام الفصل السابع من الميثاق، فيلزم تحديد المدى الزمنى لسريان تلك العقوبات، وعدم تجديدها إلا بناء على قرار جديد يصدر من المجلس. كما يلزم وضع حد للانتقائية وازدواجية المعايير فى مداولات المجلس وما يصدر عنه من قرارات أو بيانات، وهكذا يجب إلغاء «المستثنى بإلا» وألا تعلو دولة فوق مستوى القانون . كما يلزم أن تلتزم جميع الدول بتنفيذ قرارات المجلس، حتى تلك التى صوتت ضدها أو امتنعت عن التصويت إعمالا لحكم الأغلبية، وينطبق ذلك على القرارات التى أصدرها المجلس حول مشكلة الشرق الأوسط والقضية الفلسطينية ووضع مدينة القدس.

حينئذ يمكن استعادة الثقة فى مجلس الأمن كأهم إجراء لتمتع الأمم المتحدة بمصداقية تآكلت على مر السنين.

٢ - باقى أجهزة الأمم المتحدة

وإعمالا للديموقراطية والحكم الرشيد اللتين تشدقت بهما الدول المتقدمة، فيلزم اتخاذ جميع قرارات تلك الأجهزة ولجان الجمعية العامة والانكتاد بالأسلوب الديموقراطى ومن خلال التصويت، وإلغاء ممارسة اتخاذ القرارات بتوافق الآراء التى فرضتها الدول المتقدمة على مؤتمرات الأمم المتحدة وبعض لجان الأمم المتحدة مثل اللجنة الخامسة (الشئون المالية والإدارية والميزانية) والانكتاد، حتى يترتب على اتخاذ القرارات واعتماد نتائج المؤتمرات بتوافق الآراء فرض مواقف الدول المتقدمة وتقديم تنازلات بالنسبة

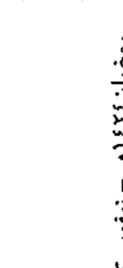
لمطالب وأولويات الدول النامية الأمر الذى أدى إلى تأخر تنفيذ أجندة التنمية وزيادة الفجوة فيما بين الدول الغنية والدول الفقيرة، وفقدان الثقة فى النظام الدولى. كما يلزم أن تنفيذ الدول المتقدمة والدول النامية على حد سواء القرارات التى تصدرها الجمعية العامة وأجهزتها من خلال التصويت حتى لو لم يكن تصويتها فى صالح تلك القرارات، وفى هذا احترام لمبدأ الديموقراطية الذى نصت عليه المادة الثانية - الفقرة الأولى من المساواة فى السيادة بين الدول.

وحول اقتراح السكرتير العام إعادة النظر فى دور الجمعية العامة والمجلس الاقتصادى والاجتماعى وبالنسبة للموضوعات الاقتصادية والاجتماعية، فقد جاء الاقتراح غامضا، فإذا كان الهدف هو تقليص دور الأمم المتحدة فى تلك المجالات، فيجب الوقوف أمام هذه المبادرة ووأدها فى مهدها، فلن يستفيد من هذه المبادرة إلا الدول المتقدمة التى تجد فى مؤسستى بريتون وودز والمنظمة العالمية للتجارة ما يكفيها لحماية مصالحها حيث تتحكم فى اتخاذ القرارات فيها ، أما بالنسبة للموضوعات الاجتماعية فقد سبق اقتراح بعض الدول المتقدمة توزيعها فيما بين بعض الوكالات المتخصصة مثل اليونسكو والصحة العالمية والعمل، وأن تقتصر الأمم المتحدة على الاشراف على الموضوعات الانسانية بما فى ذلك اللاجئين وحقوق الإنسان ، ويجب التذكير هنا بما صدر عن اجتماع قمة الدول السبع الصناعية الكبرى فى هاليفاكس Halifax عام ١٩٩٥ من الغاء الانكتاد ومنظمة التنمية الصناعية (يونيدو) وقد تضامنت الدول النامية فى الأمم المتحدة ورفضت هذا الموقف، وانتهى الأمر بخفض المخصصات المالية لميزانية كل من الانكتاد واليونيدو. كما يلزم التذكير بما سبق أن نادت به قمم حركة عدم الانحياز وقمة الدول النامية التى عقدت فى هافانا فى أبريل ٢٠٠٠ وقمة مجموعة الخمس عشرة التى عقدت فى القاهرة فى يونيو ٢٠٠٠ من ضرورة أن تلعب الأمم المتحدة الدور المحورى فى خدمة التنمية والموضوعات الاقتصادية والاجتماعية .

كما يجب التنبيه لمحاولات الدول المتقدمة الالتفاف حول القرارات التى سبق أن صدرت عن الجمعية العامة بالنسبة للمساعدات الرسمية للتنمية ومطالبة الدول المتقدمة بتخصيص ٠.٧٪ من ناتجها القومى الاجمالى لتمويل التنمية وللأسف الشديد ، لم تلتزم غالبية الدول المتقدمة بتلك القرارات، وانخفضت المساعدات الرسمية للتنمية تدريجيا حتى بلغت ٠,٢٢٪ أو ما يعادل ٥٠ مليار دولار فى السنة عام ٢٠٠٢ بينما كان يلزم أن تصل تلك المساعدات إلى حوالى ١٧٠ مليار دولار فى السنة، ويكفى مقارنة ذلك بالدعم الذى تقدمه كل من الولايات المتحدة والاتحاد الأوربى للمزارعين فيها بما يعادل ٣٦٠ مليار فى السنة، وما أشار إليه تقريرى البنك الدولى والانكتاد عام ٢٠٠٢ من أن الاجراءات الحمائية التى تتخذها الدول المتقدمة يترتب عليها ضياع حوالى ٧٠٠ مليار دولار فى السنة من حصيلة صادراتها .

تمويل أنشطة الأمم المتحدة

يتم تمويل أنشطة الأمم المتحدة من خلال برامج الميزانية العادية التى يتم



اعتمادها كل سنتين. وتتوزع الميزانية على الدول الأعضاء من خلال جدول للمساهمات نصيب الدول المتقدمة فى تلك المساهمات يرتبط بوضعها الاقتصادى والناتج الاجمالى وعدد السكان حتى أن عشرة من الدول المتقدمة تساهم بما يزيد على ٧٥٪ من الميزانية ويكفى أن نشير إلى أن نسبة مساهمة الولايات المتحدة قد انخفضت من ٢٥٪ إلى ٢٢٪ يليها اليابان بنسبة ١٩,٦٪.. الخ إلا أن هذا لا يعنى أن تتحكم الدول المتقدمة فى برامج وأنشطة الأمم المتحدة من الناحية النظرية نظرا لمساواة الدول فى التصويت ، إلا أنه عمليا تتحكم الدول المتقدمة فى توجيه موارد وأنشطة الأمم المتحدة ، نظرا للممارسة التى جرى عليها العمل فى لجنة الميزانية والادارة فى الجمعية العامة، وهى اللجنة الخامسة من اعتماد الميزانية والبرامج من خلال توافق الآراء، ومن هنا تفرض الدول المتقدمة مواقف على الغالبية:

يضاف إلى ذلك أن الميزانية العادية تغطى تمويل ٤٠٪ من أنشطة الأمم المتحدة، أما باقى الأنشطة (أى ٦٠٪) فيتم تمويلها من خلال صناديق Trust Funds بلغ عددها مائتى صندوق ويتم تمويلها من خلال مساهمات طوعية من الدول المتقدمة على سكرتارية الأمم المتحدة أن تلتزم فيها برغبات الدول المانحة بدلا من مراعاة أولويات واحتياجات الدول النامية، ومن هنا يمكن تفسير اتساع الفجوة فيما بين آمال وطموحات البشرية وما أنجزته الأمم المتحدة .

وعلى ضوء ما تقدم يصعب استعادة الثقة فى الأمم المتحدة مع استمرار هذا الوضع الذى - لو استمر ، فسوف تتحول أهداف إعلان الألفية إلى سراب . لذلك يتحتم صهر الصناديق الخاصة وضم مواردها للميزانية العادية للأمم المتحدة لكى يتم توجيهها وفقا لاحتياجات الدول النامية المستفيدة وليس وفقا لأهواء الدول المتقدمة .

الأمانة العامة

رغم أن السكرتير العام الحالى والسابق ينتميان لأفريقيا وسبقهما اثنين من أسيا (يوثانت) ومن أمريكا اللاتينية (بيريز ديكويار) ، إلا أن كبار موظفى الأمانة الذين يتحكمون فى الأمانة العامة ينتمون للدول المتقدمة خاصة الشئون السياسية والإدارة والميزانية وعمليات حفظ السلام وبرنامج الأمم المتحدة الانمائى .. الخ. ويلزم الاشارة هنا لأن لكل دولة حصة من موظفى الأمانة تتناسب مع نسبتها فى جدول مساهمات الميزانية ، ومن هنا يمكن تفسير مدى تحكم الدول المتقدمة فيما يصدر عن المنظمة من تقارير ومن توصيات . ونورد فيما يلى أمثلة لمساهمات الدول المتقدمة (الولايات المتحدة ٢٢٪، اليابان ١٩,٦٪، ألمانيا ٩,٨٪، فرنسا ٦,٥٪ ، المملكة المتحدة ٥,٥٪، ايطاليا ٥٪، كندا ٢,٦٪، أسبانيا ٢,٥٪، هولندا ١,٧٥٪، استراليا ١,٦٤٪ وروسيا ١,٢٪ .. الخ).

ومن المقترح لاستعادة الثقة فى الأمم المتحدة الفصل فيما بين جدول المساهمات والتعيينات فى وظائف الأمانة مع مراعاة التوزيع الجغرافى العادل والتخصص والكفاءة، بحيث

تعكس الأمانة العامة وموظفيها بما فى ذلك الوظائف العليا الثقل السكانى للدول النامية وكفاءاتها ، وبالتالى يمكن أن تعكس تقارير السكرتير العام وتوصياتها آمال وطموحات وأولويات سكان العالم على نحو متوازن وادعاء حيادية موظف الأمم المتحدة واستقلاليته ، ادعاء نظرى لا يعكس الواقع العملى، فلا يمكن نزع الموظف الدولى من بيئته وثقافته وجذوره وتوجهات الشعب الذى شب فيه وأخيرا يجب أن يلتزم أعضاء الأمانة العامة بعدم التدخل لدى وفود الدول الأعضاء لمحاولة تمرير مشاريع قرارات فى الجمعية العامة ولجانها وأجهزتها تتفق مع توجهات الدول المتقدمة . وقد شهد على ذلك الدكتور بطرس بطرس غالى فى كتابه الذى نشرته دار الأهرام عام ٢٠٠٣ تحت عنوان «الديمقراطية خير وسيلة لمواجهة العولمة» والذى أشار فيه إلى خبرته عندما تولى منصب السكرتير العام للأمم المتحدة .

* * *

وهكذا يلزم اعمال الديموقراطية والحكم الرشيد فى الأمم المتحدة حتى يمكن استعادة الثقة فيها .

وينطبق ذلك أيضا على باقى مكونات النظام الدولى وبصفة خاصة المنظمات الدولية التى تتحكم فى مسار العولمة أى صندوق النقد الدولى والبنك الدولى والمنظمة العالمية للتجارة، التى يلزم إعادة النظر فى نظام اتخاذ القرارات فيها بما يعكس آمال وطموحات وأولويات الدول النامية وموازنتها مع مصالح الدول المتقدمة . فيجب النظر فى إصلاح النظام المالى والنقدى الدوليين لمراعاة احتياجات الدول النامية من مصادر تمويل التنمية الاقتصادية والاجتماعية بدون فرض مشروطيات تتعارض مع خطط التنمية أو تشكل أعباءً لا تتحملها الدول النامية وشعوبها . كما يلزم أن تتجاوب مؤسستى بريتون وودز مع مطالب الدول النامية بتخفيف عبء ديونها - كما يلزم ايقاف ممارسة اتخاذ القرارات فى المنظمة العالمية للتجارة من خلال توافق الآراء لتفادى تحكم الدول المتقدمة فى مصائر شعوب الدول النامية وانهاء تهميشها فى النظام الاقتصادى الدولى .

فاذا تجاوبت الدول المتقدمة مع تلك الاصلاحات تكون قد صدقت فيما تنادى به من احترام الديموقراطية والحكم الرشيد قولا وعملا ،. وتكون قد توفرت لديها الارادة السياسية فى اقامة نظام دولى يتمتع بثقة الغالبية العظمى من شعوب العالم .

وإلى أن يتم فلابد من تعزيز التضامن فيما بين الدول النامية وعدم الانصياع وراء الضغوط والوعود والتهديدات التى لا تتردد الدول المتقدمة فى ممارستها وأن تعتصم بالاعتماد الجماعى على الذات . وقد ضربت الدول النامية مثالا رائعا فى ذلك بمواقفها التضامنية للدفاع عن مصالحها ومقاومة ضغوط الدول المتقدمة على نحو ماشهدناه فى الاجتماع الوزارى الخامس للمنظمة العالمية للتجارة الذى عقد فى مدينة كانكون بالمكسيك من ١٠ إلى ١٤ سبتمبر ٢٠٠٣ وبالله التوفيق . ■

الجدار العازل

دواعى أمن أم أغتصاب أرض ؟

ترجمة
حسن صبرى

نشرت مجلة الايكونوميست مقالا تهاجم فيه الجدار العازل وتتساءل عما إذا كان إجراء أمنيا أم عملية استيلاء على الأرض الفلسطينية حيث تناولت مساره الذى يقتطع اجزاءا كبيرة من الأراضى الفلسطينية وقالت إنه فى الوقت الذى تقول فيه اسرائيل أنها تشيد الجدار العازل من أجل حماية نفسها من العمليات الارهابية فإن مسار الجدار بدأ يتخذ مسارا غريبا من أ[illegible] هذا الغرض حيث يتم استقطاع مناطق شاسعة من الأراضى الفلسطينية مما يثير الشكوك حول الغرض منه وعما إذا كان يهدف إلى الاستيلاء على الأرض الفلسطينية بزعم حماية المواطن الفلسطينى بالاضافة لعواقبه على المواطنين الفلسطينيين والاقتصاد الفلسطينى» .

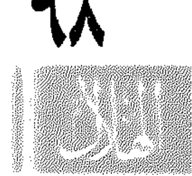
تزداد شعبية الجدار العازل بين المواطنين الإسرائيليين بعد كل عملية تفجير انتحارية، وذلك على الرغم من أن منفذة عملية حيفا الأخيرة فى الرابع من أكتوبر تسللت داخل اسرائيل عبر بوابة فى المنطقة المكتملة من الجدار العازل ولكنها تخلو من أى حراسة وقبل ثلاثة أيام من هذه العملية كان مجلس الوزراء الإسرائيلى قد وافق على خطط الجيش بشأن طول الجدار العازل بين اسرائيل والضفة الغربية، وهذه الخطط تتضمن عمليات اعتداء كبيرة على الأراضى الفلسطينية لكى تضم العديد من المستوطنات الاسرائيلية الكبيرة ويلتف حول القدس الشرقية المحتلة بالكامل مما يجمد حركة سكانها من الفلسطينيين وخاصة فيما يتعلق بالوصول للمناطق الفلسطينية الداخلية .

وإذا كانت اسرائيل قد أوقفت مؤقتا واحدة من أعمق عمليات التغلغل والتى تتضمن مستعمرتى أريل وأمانويل بسبب الاعتراضات الأمريكية غير أن رئيس الوزراء الأسرائيلى أرئيل شارون يعتقد أن الضغوط الأمريكية ستضعف مع الوقت وخاصة مع اقتراب موعد الانتخابات وإذا كان شارون قد تباطأ فى البداية فى الخضوع لضغوط الرأى العام بشأن إقامة الجدار العازل حيث كان فى البداية قد وقف فى صف المستوطنين الذين خشوا من أن أى فصل مادى قد يزيد من صعوبة إقامة حدود سياسية فى المستقبل مما يسمح للفلسطينيين بأراضى أكبر مما يمكنه تقديمها فإنه فى وقت لاحق وجد أن ارضاء الرأى العام مع الاحتفاظ بالسيطرة على الأرض أمران لاينفصلان

موقف اليسار

ويعارض اليسار المتطرف الاسرائيلى الجدار على أساس أن هذا العمل من جانب واحد من جانب إسرائيل سيوجه بالضرورة ضربة لاحتمالات التوصل لتسوية سلمية من خلال المفاوضات مع الفلسطينيين، وفور البدء فى بناء الجدار فى يونيه من العام الماضى انضم دعاة السلام الإسرائيليون إلى الفلسطينيين الذين يعيشون على طول المرحلة الأولى من الجدار العازل فى شكواهم من آثاره، غير أن الاتجاة السياسى الرئيسى تبنى عملية بناء الجدار العازل بوصفه أول إجراء دفاعى يتم تنفيذه مع استمرار الانتفاضة وتوقف عملية السلام ويرى غالبية الاسرائيليين أن عزل المناطق الفلسطينية يمثل الأولوية وينحون جانبا المخاوف الانسانية المتعلقة بشأن مايحدث للفلسطينيين المقيمين على طول مسار الجدار العازل .

ومع ذلك فقد أكد قرار الحكومة



الإسرائيلية في الأول من أكتوبر ما كان يخشاه الفلسطينيون منذ أمد طويل فهذا الجدار لن يكرس الخط الأخضر لعام ١٩٦٧ ولكنه سيخترق وبعمق وبشكل متكرر الضفة الغربية .

مساوئ الجدار

وقد اكتملت المرحلة الأولى من الجدار في يوليو الماضي وتمتد لمسافة ١٢٥ كيلو مترا من قرية سالم الفلسطينية الإسرائيلية في الشمال وحتى مستوطنة القانا جنوب قلقيلية وبعمق خمسة كيلو مترات داخل الضفة الغربية وتمتد المرحلة الأولى على طول الخط الأخضر على الرغم من أنها شيدت على الجانب الفلسطيني من الحدود

غير أنه مع مضي الجدار جنوبا فإنه يبدأ على نحو متزايد في اقتطاع الأراضي الفلسطينية مثلما يحدث من أجل احتواء عشرة مستوطنات تضم تسعة عشر ألف مستوطن مما يقنع الفلسطينيون بأن الجدار ليس مجرد عملية لتأمين الأسرائيليين وإنما تكريس الطموحات الاستعمارية للحكومة ومؤيديها، وتستهدف الخطة محاصرة خمس عشرة قرية فلسطينية تضم أكثر من ثلاثة عشر الف وخمسمائة فلسطيني بين الخط الأخضر والجدار وهؤلاء سيتم حرمانهم من دخول اسرائيل غربا ومن الوصول لأراضيهم وأعمالهم وعائلاتهم في المناطق الداخلية من الضفة الغربية شرقا كما يتم حاليا عزل نحو ثلاثين مزارع فلسطيني يعيشون في الجانب الشرقي للجدار عن أراضيهم ومزارع الزيتون الخاصة بهم على الجانب الغربي. وفي الوقت نفسه فقد الألاف من الفلسطينيين أي منفذ للوصول إلى المدارس والمستشفيات والخدمات الحكومية والجامعات في المناطق الحضرية الرئيسية في جنين وطولكرم وقلقيلية ونابلس .

ويشير تقرير الأمم المتحدة إلى أن ستة وستين ألف دونم من أراضي الضفة الغربية تقع حاليا في الجانب الإسرائيلي من الجدار العازل من بينها بعض من أفضل المناطق الزراعية الفلسطينية وقد تمت مصادرة عشرة آلاف دونم من الأراضي المملوكة للفلسطينيين أو ازالتها لمد الجدار وتم اقتلاع ثمانين ألف شجرة زيتون وإزالة

سبعة وثلاثين كيلو مترا من أنابيب المياة.

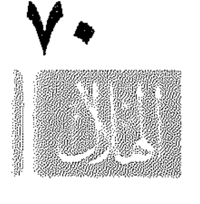
وفى قلقيلية على سبيل المثال زادت الأمور سوءا فى المدينة التى يقطنها اثنين وأربعين ألف فلسطينى ولكنها تخدم بأعمالها ومنشآتها الطبية تسعين الفا ممن يقيمون فى اثنتى عشرة قرية مجاورة وتبدو المدينة حاليا محاصرة من ثلاثة جهات بثلاثة عشر كيلو مترا من الجدار والحواجز، وهناك مدخل واحد للمواطنين والسلع ومعبرين زراعيين وتسجل نسبة البطالة ثلاثة وستين فى المائة مقارنة بنسبة عشرين فى المائة فى بداية الانتفاضة، كما توجد هجرة بطيئة ولكن واضحة من المدينة حيث يتوجة الشباب والمتعلمون إلى وسط الضفة الغربية أو الأردن أو الخليج .

مؤيدو الجدار

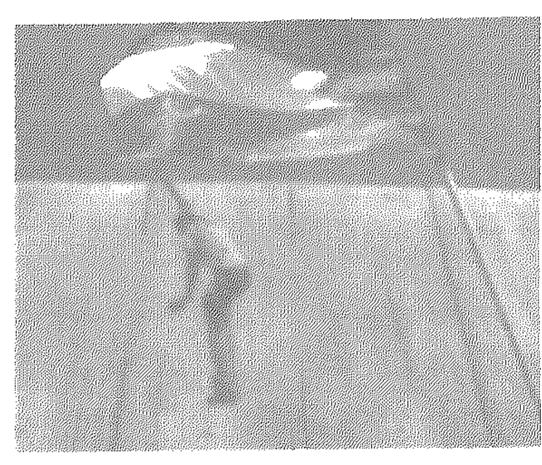
ويقول مؤيدو الجدار العازل أن كل هذه الأمور مؤقتة ولكن لايعتقد الفلسطينيون فى صحة ذلك، ويشيرون إلى أن الامتداد غير المستقيم للجدار العازل، ففى القطاع المكتمل يبلغ عرضه بين ستين ومائة متر ويتكون من حوائط اسمنتية وعوازل من الأسلاك المكرهبة والشائكة والخنادق اضافة إلى ثلاثة طرق واحد لتعقب المتسللين وآخر لدوريات الشرطة وثالث للدبابات وتم فية استثمار مالى ضخم حيث يقدر أن المرحلة الأولى كلفت الحكومة مائتى مليون دولار أمريكى، ولم يتم احتساب التكلفة النهائية ولكن حدد محلل اسرائيلى التكلفة بواقع مليار دولار أمريكى ويرى الفلسطينيون أن كل هذا ينفى أن يكون عملية مؤقتة .

كما يشعر الفلسطينيون بالقلق من الوسائل القانونية التى تستخدمها اسرائيل لإقامة الجدار الأمنى خاصة وأنهم عانوا منها من قبل، فغالبية الأرض الخاصة بالجدار العازل تمت مصادرتها لأغراض عسكرية من جانب الجيش. وهذه الأوامر سارية حتى عام ٢٠٠٥ ولكن يمكن تجديدها ويوسع أصحاب الأراضى الفلسطينيون الاعتراض على مصادرة الأراضى أمام المستشار القانونى الإسرائيلى فى الضفة الغربية أو الاستئناف أمام المحكمة العليا غير أنه منذ بدء العمل فإن جميع قضايا الاستئناف تم رفضها

ويقول الجيش الإسرائيلى أن المشكلات ستقل حين يتم اقامة البوابات الخمس الرئيسية ونقاط العبور الست والعشرين الخاصة بالمناطق الزراعية على طول الجدار غير أنه تم إقامة عدد محدود للغاية من المنافذ ولم يتم تخصيص أى أموال للمزيد فى ميزانيات ٢٠٠٣ وبدلا من ذلك يتجمع الفلسطينيون كل صباح فى مشارف



بلدانهم وقراهم على أمل أن يسمح لهم الجنود باختراق الجدار ويمضى آخرون عبر طرق وممرات وعرة وقذرة ويمضى البعض ليلهم فى أراضيهم فى حين تخلى أخرون عن مزارعهم حيث لم يعد الأمر يستحق الاحتفاظ بها وهذا الأمر الأخير خطير للغاية حيث أنه بوسع اسرائيل أن تطبق قانون يعود للعصر العثمانى يقضى بمصادرة الدولة لأى أرض خاصة لم يتم العمل بها لثلاث سنوات متصلة ومنذ عام ١٩٦٧ استخدمت اسرائيل هذا القانون للاستيلاء على ستين فى المائة من الضفة الغربية كأراضى تابعة للدولة من أجل اقامة مائة وخمسة وثلاثين مستوطنة ونقل اربعمائة ألف من المواطنين اليهود إلى الأراضى المحتلة بما فى ذلك القدس الشرقية ويخشى الفلسطينيون من أن يطول نفس المصير الأراضى المصادرة.



التكتلات الاستيطانية الجنوبية بما فى ذلك المستوطنات القريبة من الخليل ويقول المحللون الاسرائيليون أن هذا يعنى أن ثمانين فى المائة من مستوطنى الضفة الغربية سيكونون داخل الجانب الإسرائيلى من الجدار العازل ويقول الخبراء الجغرافيون الفلسطينيون أن هذه الأراضى المستقطعة تعنى ضم اسرائيل بحكم الأمر الواقع عشرين فى المائة من الضفة الغربية .

فى انتظار الأسوأ

وإذا كانت المرحلة الأولى من الجدار العازل سيئة بالنسبة للفلسطينيين فإنهم يخشون من الأسوأ القادم، وربما لاتتضمن المرحلة التالية من الجدار اريل والمستوطنات الأخرى فى قلب شمال الضفة الغربية غير أنه من المؤكد أن تضم

وفى منطقة القدس الشرقية سيتم ضم خمسة وأربعين كيلو مترا من الأراضى إذا سار العمل حسب الجدول الموضوع، وبشكل عام فسوف يمضى الجدار على طول الحدود البلدية غير أن هذا الخط رسم على عجل بعد حرب ١٩٦٧ وضم المنطقة بأكملها عاصمة أبدية وغير مقسمة لاسرائيل ووجد عشرات الألاف من الفلسطينيين أنفسهم سكان فى مدينة أعلنتها اسرائيل من جانب واحد واليوم أصبحوا مئات الألاف بجانب مئات الألاف الأخرين الذين يعيشون فى الضواحى فى شمال وشرق المدينة وإذا كانت الحدود البلدية غير منظورة فإن الجدار المقترح سيخترق

العديد من الضواحى مما يفصل الأطفال عن مدارسهم وأصحاب المتاجر عن متاجرهم ويقسم بين العائلات الفلسطينية

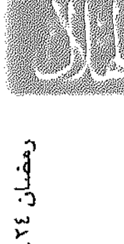
وعما إذا كان سيكون هناك جدارا شرق الضفة الغربية كما هو الحال غربها، فإن شارون كان قد أعلن فى مارس الماضى أن تشييد القطاع الشرقى من الجدار سيبدأ أولا شرقا وبعد ذلك جنوبا من سالم ولكنه غالبا لن يكون مشابها للجدار الغربى، فعلى عكس الجبال الغربية فى الضفة الغربية فإن وادى الأردن لايضم كثافة سكانية عالية ويمكن فصل الفلسطينيون بسهولة عن المناطق الداخلية الشرقية بسياج بسيط .

وفى الوقت نفسه هناك غموض تجاه ما يتم التخطيط له ويقول زعماء المستوطنين فى بلدة معالى أدوميم الاستيطانية الكبيرة الوسطى وفى المستوطنات الأصغر على خط وادى الأردن أنهم تلقوا تأكيدات من رئيس الوزراء بأنه سيتم ضمهم ،هم أيضا للجانب الإسرائيلى من الجدار الفاصل .

وربما يتفق هذا الجدار الشرقى مع رؤية شارون الاستراتيجية، فقد جادل طويلا بأنه من مصلحة اسرائيل الحيوية أن تحتفظ بشريط من الأرض بين ستة وعشرة كيلو مترا شرق الخط الأخضر وبعمق عشرين كيلو مترا غرب حدود الأردن وبالقدس الموحدة وقد أمضى ثلاثين عاما فى المبادرة باقامة المستوطنات ودعمها مما يجعل تمسكه بالأرض أمراً حتميا واسوأ سيناريو متوقع سيبقى للفلسطينيين نحو أربعين فى المائة من أراضى الضفة الغربية مقسمة إلى ثلاث جيوب منفصلة واحد بين جنين ورام الله والثانى بين الخليل وبيت لحم ودائرة صغيرة حول اريحا .

وتعتمد اقامة الجدار الفاصل حسب التخطيط الحالى بدرجة حاسمة على موقف الإدارة الأمريكية وقد اشار الرئيس جورج بوش علنا الصيف الماضى أن الجدار يمثل مشكلة ويبدو شارون حريصا على ألا يثير ضيقه ويسعى لتسوية المشكلة الخاصة بجيب أريل - ايمانويل .. لكن وزير الخارجية الأمريكى كولين باول قال فى عطلة نهاية الأسبوع أن الأقتراح الأسرائيلى غير مرضى وأن المسئولين الأمريكيين يجرون مشاورات مكثفة حول هذا الرد والمشكلة لاتكمن فى الجدار نفسه ولكن فى تغلغله داخل المناطق الفلسطينية مما يعنى الالتفاف حول مناطق كبيرة من الأراضى الفلسطينية مما يضر باى مفاوضات مستقبلية مع الفلسطينيين وهذه هى المشكلة الحقيقية .

وفى الوقت نفسه يتردد أن المسئولين الأمريكيين يدرسون ما إذا كانت التكلفة



المقترحة التى تبلغ مليار دولار يمكن خصمها من مبلغ ضمانات القروض التى تبلغ قيمتها تسعة مليارات دولار التى وافقت الإدارة على تقديمها لإسرائيل، ومع ذلك فإن هذه العقوبة وحدها من غير المرجح أن تردع شارون ووزرائه، والخصومات التى تقترحها الولايات المتحدة ستكون على أى عمليات بناء اسرائيلية جديدة فى المستوطنات وهو أمر لن يردع الحكومة عن المضى قدما في مشروعاتها، وبعد أن كان شارون مترددا بشأن الجدار فإنه ربما يستخدم حاليا الدعم الكاسح من الرأى العام من أجل تبنى طموحاته الاستراتيجية والخاصة بضم الأراضى وهو ما يتبناه من أمد بعيد.. ■

كلمات عاشت

● إن سر الحياة أن يغوص الإنسان فى نفسه ثم يبرز منها كما تغوص القطرة فى البحر فتصير لؤلؤة .

الشاعر إقبال

● الفنان عدو الواقع الذى يرتضيه البشر ، لذا يحاربونه، ولهذا فسيظل التاريخ أبدا مليئا بالقسوة والعنف .

مكسيم جوركى

● اعرف نفسك ، فإن عرفتها عرفت الأشياء كلها .

أبو حيان التوحيدى

● إن وراء إرادتنا دنيا وشياطين، تهزأ من تصميمنا، وتفسد علينا نوايانا الطيبة .

نجيب محفوظ

● عجبت لمن يغسل وجهه مرات فى النهر ، ولا يغسل قلبه ولو مرة واحدة فى السنة .

ميخائيل نعيمة

● الالتزام هو عبارة عن حضور الكاتب في الكتابة حضورا كليا .

سيمون دى بوفور

● الرجل الذى يملك موهبة التمثيل ، يكون سعيدا فى مجتمع النساء.

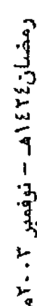
ألبير كامى

● إننى أحرص على احترامى لنفسى ، قبل أن أحرص على احترام الناس لى .

العقاد

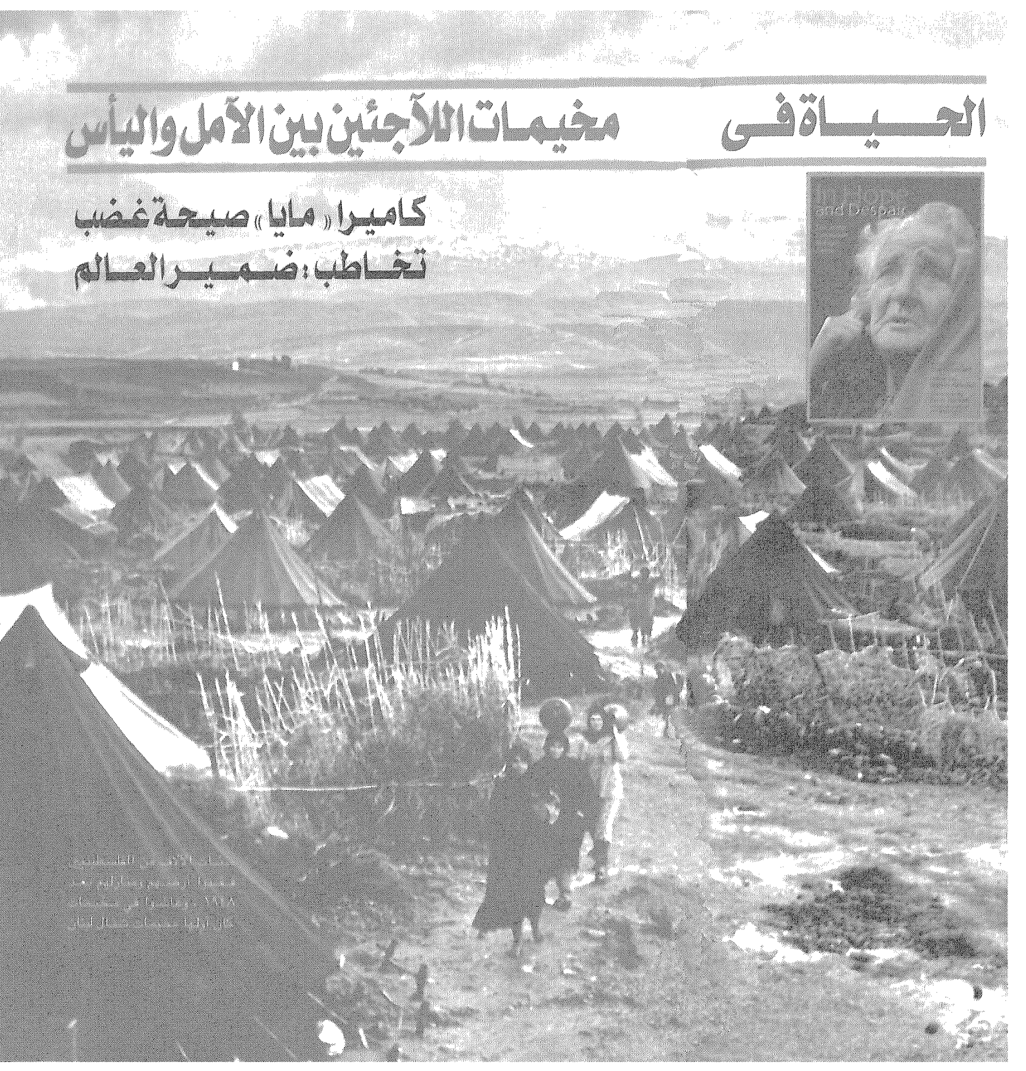
● على قدر حصول الأسباب والمسببات فى الفكر، تكون إنسانيته .

ابن خلدون



الحياة فى مخيمات اللاجئين بين الأمل واليأس

كاميرا «مايا» صيحة غضب تخاطب: ضمير العالم



حول الحياة فى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين بعد أكثر من نصف قرن على محنتهم وطردهم من بيوتهم وأرضهم صدر كتاب تذكارى باللغة الإنجليزية تحت عنوان «بين الأمل واليأس: الحياة فى مخيمات اللاجئين» اعتمد فى معظمه على سجل مصور بعدسة المصورة السويدية «مايا جروندال» التى قامت بزيارة معظم مخيمات اللاجئين الفلسطينيين فى كل من لبنان وسوريا والأردن والضفة الغربية وقطاع غزة بين عامى ١٩٩٩ و ٢٠٠٢ واكتسبت تلك الصور مصداقية خاصة لأنها صور حميمة ومباشوة نقلت بأمانة وصدق حياة إناس ينجزون أفضل مايمكن من وجودهم المؤقت الذى جاوز نصف قرن.

وشارك فى الكتاب بقلمه كل من السيدة حنان عشراوى عضو المجلس التشريعى الفلسطينى والسيد. بيتر هانسن من وكالة غوث وتشغيل اللاجئين

يجىء هذا الكتاب التذكارى فى وقت يعانى فيه اللاجئون الفلسطينيون من محنة مضاعفة بسبب سياسة التعنت الإسرائيلى فى الداخل والخارج وليؤكد لنا من جديد أن هناك أكثر من أربعة ملايين لاجىء فلسطينى ينتظرون العودة إلى وطنهم، حيث يعيش الغالبية العظمى منهم فى ظل ظروف قاسية فى مخيمات مكدسة بالبشر سواء فى الأراضى المحتلة أو فى بعض الدول العربية، مما جعلهم يعيشون حالة الانتظار التى تنتقل الآن إلى الجيل الرابع منهم، فهم أناس تم تعليق حياتهم، ومع ذلك فهم لم يتخلوا بعد عن الأمل فى يوم يجىء، يصغى فيه العالم لهم، ويعترف بحقهم فى العودة.

حنان عشراوى : ضحايا بلا وجوه!

تؤكد السيدة حنان عشراوى عضو المجلس التشريعى الفلسطنى فى تقديمها للكتاب أنه فى عام ١٩٤٨ تم إلقاء الشعب الفلسطينى خارج مسار التاريخ : حيث تعرض الكثيرون منه لاقتلاع الجذور والترحيل والطرد القسرى، بعيدا عن قداسة وأمان وطنهم، ولكونهم ضحايا خرافة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» فقد تم قمع حكايتهم، وإنكار هويتهم وكذلك تشويه حقائقهم التاريخية والثقافية.

وتضيف السيدة حنان عشراوى أنه على مدى مايزيد على نصف القرن يتعرض الفلسطينيون لظلم مزدوج يتمثل فيما يفرض عليهم من حرمان وتشتيت ونفى من ناحية، كذلك يتعرضون لقمع الاحتلال الوحشي والحرمان من حقوق الإنسان الأساسية فضلا عن تطبيق



القفز فوق قناة متعرجة كالأفعى الخطرة، فالأطفال عليهم التعايش مع مخلفات الصرف الصحى

عروس من مخيمات سوريا، سعيدة لأنها اصبحت محط الأنظار - ١٩٩٩

وهيبة، ذات التسعين عاما، تعيش وحيدة فى «عشة» من الصفيح بلا ماء أو كهرباء - مخيمات الاردن - ٢٠٠٠

لا يستطيع كثير من الآباء توفير الكيروسين للتدفئة فى شتاء مخيمات الأردن - ٢٠٠٠



عندما يحين وقت النوم يتسابق أطفال العائلة لحجز مكان على الأرض..! مخيمات الأردن ١٩٩٩

أسرة فلسطينية تزور قبر عائلها - مخيمات لبنان ١٩٩٩

فتاة من مخيمات لبنان تمشط شعرها - ١٩٩٩

فلسطينيون يحملون العجائز والمرضى فراراً من القوات الاسرائيلية فى يونيو ١٩٦٧ - الأردن

سياسة القمع المنظم من ناحية أخرى.

وتستذكر محنة الفلسطينيين بعد خمسة وخمسين عاما على نكبتهم، حيث تذكرنا بالمعاناة المستمرة التى تجسد محنتهم المأساوية الدامية حيث ترى أن المخيم فى الأراضى الفلسطينية المحتلة، كما فى الأردن وسوريا ولبنان، يمثل رمزا لمثابرة وتصميم الفلسطينيين، كما يمثل تذكيرا لمعاناتهم، ورغم كل تلك المحن نجد أن الفلسطينيين فى مخيماتهم يسعون للحفاظ على هويتهم وتصميمهم على العودة إلى الوطن الأم فى يوم من الأيام، رغم مايتعرضون له من تجرع العذاب فى ظل ظروف فقر مدقع وحرمان وخوف وغياب لليقين ومع ذلك ورغم ذلك كله لم يغب عنهم أبدا جوهر إنسانيتهم المميز.

أن إنكار إسرائيل المتكرر لحق اللاجئين الفلسطينيين المشروع فى العودة إلى ديارهم فترى د.حنان أنه إنكار لتاريخ الفلسطينيين ذاته وتكريس للنكبة بمختلف الأساليب والأشكال، ورغم ذلك فإن هؤلاء اللاجئين بدلا من أن يجعلوا أنفسهم موضوعا للشفقة فقد أصبحوا رمزا للتصميم والأمل والالتزام بالحياة.

الصور .. شهادة مؤثرة!

وترى د.حنان أن الصور الإنسانية للمصورة السويدية «مايا جروندال» التى التقطتها عدستها لحياة اللاجئين الفلسطينيين تعد شهادة مؤثرة على هذا الواقع المزدوج الذى يعيشونه، كما أنها شاهد لاغنى عنه، على انتصار روح الإنسان على الألم المؤبد، حيث استطاعت «مايا» أن تمسك بلحظات إنسانية مؤثرة فى حياة اللاجئين، ضغطا للزمان والمكان. لتطلق أقوى أدوات الإدراك البناء والتعرف

النافذة هي المكان الوحيد الذي يتطلع من خلاله الأطفال إلى ضوء النهار - مخيمات لبنان ١٩٩٩

العائلات الفلسطينية تغادر المدن التي احتلتها القوات الإسرائيلية - ١٩٤٨

الانساني، فقد قدمت عدستها وصفا مرئيا لذاكرة الفلسطينيين الجمعية كطاقة دافعة تؤكد الإنسانية، بينما هي في نفس الوقت تقدم تحية مؤثرة لشجاعة الفرد.

أما بيتر هانسن من وكالة غوث وتشغيل اللاجئين فيذكر في مقدمته للكتاب أن الوكالة آلت على نفسها أن تبقى على سجل لايضارع من الصور الفوتوغرافية لحياة وتاريخ من ينضوون تحت رعايتها ولذلك جاء هذا السجل بعدسة المصورة، «مايا» ليحفظ معاناة وتاريخ هؤلاء البشر وليجعل الابقاء على حكايتهم حية نابضة، كما أضافت صورها إلى أرشيف الوكالة مجموعة حديثة من الصور الحافلة بالألوان ومظهر التعاطف والإنسانية ، فلم تكن صورها مجرد تسجيل مبسط للفقر وفرط الزحام واليأس ، لكنها أضافت أيضا قدرتها على بث لمحات المرح ووقفات من الجمال الصافي في نفس الناظر إليها .

ويضيف هانسن: أن أعمال الوكالة لم تقتصر على تحقيق أثر بعيد المدى في حياة اللاجئين الفلسطينيين سواء كان ذلك في مجال التعليم أو الرعاية الصحية ولكنها أيضا حرصت على نشر هذا السجل المصور للحفاظ على هوية الشعب الفلسطيني لصالح الأجيال القادمة ومن أجل ذلك فإن الأمم المتحدة يحدوها الأمل أن يأتي يوم يصبح فيه الأرشيف المصور لوكالة غوث وتشغيل اللاجئين ملكا للشعب الفلسطيني نفسه!.

تجربة مايا :
المأساة .. والجمال!

أما نجمة هذا الكتاب ومحوره وهي المصورة السويدية «مايا جروندال» فتروي لنا تجربتها الصحفية والثرية في تصوير تلك المشاهد المؤثرة في مخيمات اللاجئين

الفلسطينيين فى كل من لبنان وسوريا والأردن والضفة الغربية وغزة فتقول فى البداية بكل مرارة:

«بينما نجد وسائل الإعلام الغربية تركز على المنتصرين، وهم الاستعماريون والمهاجرون الذين تمكنوا فى نهاية الأمر من الاستيلاء على فلسطين وتحويلها إلى إسرائيل ، وبينما تم نشر قصة نجاح الرواد الإسرائيليين فى جميع انحاء العالم، فقد تم اسدال ستار التعتيم على الشعب الفلسطينى.

وتعطى لنا بعض لمحات من تجربتها الإنسانية الصعبة فى مخيمات اللاجئين فتقول:

– لقد شعرت فى أول زيارة قمت بها لإحدى المخيمات بعجز عينى عن استيعاب فوضى الملاجىء الأسمنتية ذات الأسطح المعدنية، وقد تم دعمها بمزيد من الكتل الأسمنتية، بينما تتعانق أسلاك الكهرباء في الهواء، أما الحوارى الضيقة فتشقها من الوسط قنوات المجارى المفتوحة، وقد هيمنت على تلك الفوضى درجات متباينة من الطلاء الرمادى فى غياب كامل لأى نوع من الشجر أو الزرع أو الزهر، وكان شعورى بالتناغم يضطرب ، كلما حركت عدستى لدرجة أعجزتنى عن الإمساك بما يظهر أمام ناظرى، ورغم كل تلك المعاناة وجدت «مايا» فى تلك المخيمات صورا أخرى تقول عنها:

وبالرغم من كل ذلك فقد وجدت كما هائلا من الجمال فى تلك المخيمات: وجدت ذلك الجمال فى البشر، وجدته فى وجوههم وفى هيئتهم: فى ذلك المظهر الذى ينم عن المودة والاعتزاز بالنفس.

«وكنت أعجب من أين يأتى هؤلاء



لاجئة فلسطينية عزلت عن بيتها بالأسلاك الشائكة بعد حرب ١٩٤٨

خليل غسان أبوليدة فقد رجله ومنزله معاً فى هجوم اسرائيلي – غزة ٢٠٠١

الأطفال يساعدون عجوزا على المرور وصعود الدرج الحجرى – الضفة الغربية ١٩٩٩

اللاجـئـون بتلك المودة والحـفـاوة فى أن يفتحوا قلوبهم وبيوتهم لتدخلها «كاميرتى»، ومعها كل أسئلتى عن حياتهم وعن ماضيهم وحاضرهم وكذلك عن أحلامـهم وآمالهم فى المستقبل .

ثم تختتم مايا شهادتها عن تجربتها الإنسانية المؤثرة فى تلك المخيمات قائلة:

« وحينما أنظر لتلك الصور التى قمت بالتقاطها لفاطمة وحمدة ومحـمود وبدر وغيرهم ممن قابلتهم فى مخيمات اللاجئين فإننى أفكر فيهم كأفراد فى أسرتى: فيهم من كـــان يمكن أن تكون أمى أو أبى أو خـالتي أو أخـتى أو أخى، وكـان يمكن أن يكون الأطفال أطفالى. أنظروا إلى عيونهم، فستجدون أناسا لايستحقون عطفنا وتفهمنا فحسب، وإنما كذلك يستحقون أصواتنا التى يجب أن ترتفع لتساعدهم على إنجاز حقهم فى العودة إلى وطنهم!

شهادة حية تخاطب ضمير العالم

وبعد، فـقـد جاء هذا الكتـاب المصور والذي يحـوى تلك المجـمـوعـة من الصـور الإنسانية المؤثرة للشعب الفلسطينى اللاجيء فى مخيماته ومعاناته الصعبة، بعدسة مصورة غربية شجـاعـة انفعلت بمأساة الشعب الفلسطينى ومحنته، جاء هذا الكتاب بمثابة شهادة حية لتلك المأساة، وليخاطب ضـمـيـر العـالم الحى لازدواجيـة المعـايير، وتجـاهـل لتلك المأسـاة التى مـضى عليـها أكثر من نصف قرن لعله يصحو ويستيقظ من غفلته!

إنها صيحة غضب من فنانة شجاعة فى وجه ذلك العصر الظالم المتحجر القلب!. ■



بعد انسحاب الدبابات الاسرائيلية عادوا إلى حطام منازلهم على أمل أن يجدوا شيئا صالحا للاستخدام - مخيم جنين ٢٠٠٢

طفل من مـخـيـمـات الأردن - ١٩٩٩

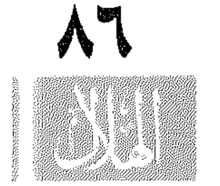
فتاة فلسطينية من مخيمات الضفة الغربية - ١٩٩٩

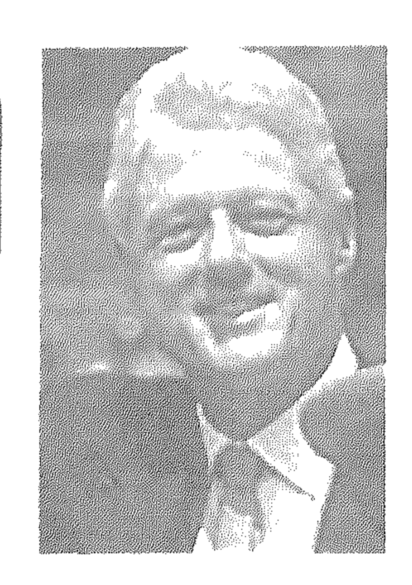
التعليم هو الأمل فى مستقبل أفضل - الضفة الغربية ١٩٩٩

هل تنجح أمريكا في وقف برنامج إيران النووي ؟

بقلم
د. فوزى حماد

علنت إيران عن برنامج نووي متكامل يتضمن مفاعلات القوي النووية لتوليد الكهرباء، ودورة الوقود النووي اللازم، وفي قلبه مشروع لاثراء اليورانيوم «وليس تخصيب) لإنتاج وقود نووي منخفض الاثراء يحتوى على ٣-٥٪ يورانيوم ٢٣٥ لتشغيل محطات الماء الخفيف التى تشكل أساس برنامج المفاعلات الإيراني، منذ زيارة الدكتور محمد البرادعى مدير عام الوكالة الدولية للطاقة الذرية لمحطة إثراء اليورانيوم الريادية في فبراير الماضي، التي أوضحت تقدما تكنولوجيا نوويا رفيعاً في إطار معاهدة منع الانتشار النووي تتصاعد حملات التهديد العسكري لإيران من جانب اللوبي الإسرائيل في الولايات المتحدة، ومن جانب عدد من المسئولين الأمريكيين، وأخيرا من جانب إسرائيل نفسها





كلينتون





خاتمـــى

بــوش



وقـد صـعـد مـجلس المحـافظين بـالوكـالة الدوليـة، وهـو المجلس الحـاكم لهـا موقفه من إيران وطالبهـا في اجتمـاع سبتمبر المـاضى أن تقدم مـا يثبت أنه ليس لديهـا برامـج تسليح نـووى سرية قـبل ٣١ أكـتـوبر ٢٠٠٣. زيادة على ذلك تصـاعدت المواقف الأوروبية بشكل كـبير وطلبت من إيران وقف نشـاطهـا فى إثراء اليــورانيــوم بغض النظر عن أنه نشــاط سلمى أو غــيــر سلمى ودون دليل من تفــتـيش حــتى الآن على وجـود نشــاط عــسكرى نووى إيرانى أى إضــافــة إلى نظام الضمانات النووية المستخدم حالياً الانتشار.

كما تطالبها الوكالة بتوقيع البروتوكول الإضافى، ولكن هذا أصبح مطلبا ثانويا الآن.

إن هذا الموقف الجـديد لا يتـفق مع نظام منع الانتشـار وهو تطبيق للسياسة الأمـريكيـة الجـديدة مـجابهـة للانتشـار النووى أى استئصال أى عمل تكنولوجى قد يؤدى إلى قـدرات نووية سلميـه تمكن من الاقتراب من صناعة السلاح النووى، وهذه هـى السـيـاسـة التى أتبـعت فى العراق.

إن إيران الدولة الثـانيـة في مـحـور الشـر وفق الخطاب الرئاسى الأمـريكى تواجه مأزقا نوويا حرجا، فـهل تستطيع مـواجـهتـه والحفـاظ على إرادتهـا فى بنـاء تكنولوجيا نووية سلمية فى إطار معاهدة

منع الانتشار النووى، وهذا هو ما نتعرض له فى هذا المقال.

البرنامج النووى الإيرانى

أعلنت إيران عن برنامجها النووى فى المؤتمر العام للوكالة الدولية للطاقة الذرية «نشير إليها اختصارا بالوكالة» فى سبتمبر ٢٠٠٢ وفى بيان ألقاه نائب رئيس جمهورية إيران الإسلامية فى مقر الوكالة بمدينة فيينا فى مايو ٢٠٠٣. يتضمن هذا البرنامج بناء ست محطات نووية سعتها المركبة «أو المنشأة» ٦٠٠٠ ميجاوات كهربى، بالإضافة إلى محطة بوشهر الواقعة على الخليج جنوبى إيران وسعتها المركبة ١٠٠٠ ميجاوات كهربى، وهى محطة قيد الإنشاء ألمانية المنشأ والصنع، وقد بدأ إنشاؤها فى عام ١٩٧٤ أثناء الحكم الملكى وتوقف البناء عقب قيام الحكم الثورى الجمهورى الإسلامى، ويجرى الآن استكمالها بواسطة روسيا الاتحادية.

أوضحت إيران أن هذا البرنامج المخطط إقامته حتى عام ٢٠٢٠ يهدف إلى مواجهة تزايد معدل استهلاك الكهرباء فى بلد تعداده ٦٥ مليون نسمة، ويبلغ ٥ر٨٪ سنويا.

كما يبلغ معدل استهلاك البترول اللازم لإنتاج الكهرباء ٨ر٨٪ سنوياً، ويفوق هذا المعدل بكثير معدل نمو المصادر البترولية وهو ٨ر٥٪ سنوياً. سوف يحقق البرنامج فى حالة اكتماله إلى توفير ١٩٠ مليون برميل من البترول الخام فى العام قيمتها الاقتصادية حوالى ٥ مليارات دولار سنوياً، بالإضافة إلى التحسن البيئى الكبير نتيجة عدم إطلاق غاز ثانى أكسيد الكربون وأكاسيد النتروجين والكبريت.

برنامج متواضع

تجدر الإشارة إلى أن هذا البرنامج أكثر تواضعاً من البرنامج الذى تم إعلانه فى فترة الحكم الملكى فى مطلع السبعينيات والذى تم تخطيطه بواسطة خبراء أمريكيين. هدف برنامج شاه إيران إلى بناء محطات نووية قدرتها المركبة ٠٠٠ر٢٠ ميجاوات فى فترة ٢٠ عاماً، يبلغ ثلاثة أمثال البرنامج الحالى وقد اعلن وسط زهو إيرانى ٨ رفيع، كما تم التخطيط لمشاركة غربية واسعة فى هذا البرنامج شملت المانيا وفرنسا وأمريكيا، وتم التعاقد فى ذلك الوقت على ست محطات نووية إثنان من كل من ألمانيا وفرنسا والولايات المتحدة. وتم البدء فعلاً بتشييد محطتين المانيتين فى مدينة بوشهر فى الجنوب التى تقع على الخليج الفارسى هما يوشتهر.. أو بلغت نسبة بسعة التشييد منها ٧٥٪ وبوشهر، بلقب من التشييد منها ٦٠٪ وحين قامت

الثورة الإيرانية وتوقف البناء.

الاعتماد على الذات

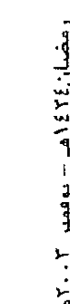
أعلنت إيران أيضاً عن سياستها فى الاعتماد على الذات فى تنفيذ هذا البرنامج وخاصة فى مجال دورة الوقود النووى، ويستلزم ذلك توفير مصادر خام اليورانيوم محليا بالكميات التى يحتاج إليها البرنامج وبناء دورة وقود نووى محلية ومنها استخراج خام اليورانيوم ثم ركاز اليورانيوم وتنقيته وتحويله إلى وقود نووى صالح للاستخدام، ويدخل ضمن دورةالوقود النووى عملية إثراء اليورانيوم «Uranium Enrichment».

«نشير هنا إلى استعمال تعبير تخصيب اليورانيوم هو استعمال خاطئ، وتقتضى عملية الإثراء زيادة نسبة اليورانيوم – ٢٣٥ وهو النظير الانشطارى فى اليورانيوم الطبيعى وتبلغ نسبته ٧ر٪ تقريبا والباقى وهو النظير الغالب يورانيوم – ٢٣٨ أى ٣ر٩٩٪ تقريباً. يحتاج مفاعلات الماء الخفيف إلى وقود منخفض الإثراء تتراوح نسبة اليورانيوم ٢٣٥٠ فيه بين ٣٪ إلى ٥٪.

إن تكنولوجيا الإثراء وهى فى الأساس تكنولوجيا فصل اليورانيوم – ٢٣٥ عن اليورانيوم –٢٣٨ هى– تكنولوجيا معقدة وتحتاج إلى كميات كبيرة من الكهرباء، ولقد تم تطوير تكنولوجيا الطرد المركزى الغازى حديثاً، التى وفرت كميات الكهرباء اللازمة بشكل كبير. وأصبحت هى التكنولوجيا التى تستخدم، وقد استخدمتها الباكستان فى الثمانينيات استخداما عسكريا وذلك بإنتاج يورانيوم عالى الإثراء أى ٩٠٪ يحتوى على يوارنيوم-٢٣٧، ويختلف فى ذلك عن اليورانيوم منخفض الإثراء الذى يستخدم فقط فى أغراض لتوليد الكهرباء النووية.

قررت إيران الدخول في هذه التكنولوجيا المعقدة منذ الحكم الملكى فقد تضمن البرنامج النووى وقت ذاك التعاقد على شراء ١٥٪ من أسهم شركة يوريديف وهى شركة فرنسية أوروبية لاثراء اليورانيوم وكان لإيران حق المعرفة التكنولوجية...، كما تم إقامة مركز تكنولوجى فى اصفهان كخطوة مهمة لتصنيع الوقود النووى لمفاعلات الماء الخفيف بواسطة شركات فرنسية وبريطانية. إزاء هذه الخبرات السابقة قررت إيران إثراء اليورانيوم كخطوة لتصنيع يورانيوم- ٢٣٥.

وقد قد قررت إيران الاستمرار فى بناء مفاعلات من طراز الماء الخفيف التى تكونت لديها خبرة ومعرفة بها منذ العصر الأمبراطورى أو الملكى ولكنها أجرت تعديلا مهما وهو أن يكون



البرنامج النووى الإيرانى خليطا من مفاعلات الماء الخفيف ومفاعلات الماء الثقيل أى مفاعلات كاندو هى مفاعلات كندية الأصل أى كندية التصميم والتشييد.. وتستخدم هذه المفاعلات اليورانيوم الطبيعى كوقود.

يوضح ذلك أن البرنامج النووى الإيرانى فى العهد الجمهورى تأثر كثيراً بالبرنامج النووى فى العصر الملكى فى نوع المفاعلات ودورة الوقود النووى مع تعديل مهم هو إضافة مفاعلات الماء الثقيل وإنتاج الماء الثقيل. وقد اتخذت عدد من الدول هذا الاتجاه منها الهند وباكستان وكوريا الجنوبية والصين. ونحن نؤيد أيضاً هذا الاتجاه فهو يخلق صلة قوية مع هذين النوعين من المفاعلات والتكنولوجيات الخاصة بهم.

محطة ناتانز لإثراء اليورانيوم

فى هذا الإطار قامت إيران بالتعاقد مع روسيا فى عام ١٩٩٥ لاستكمال محطة بوشهر-١ التى رفضت ألمانيا استكمالها وإمدادها بالوقود النووى مع إعادة الوقود النووى المستهلك أو المحترق «الذى يحتوى على بلوتونيوم» إلى الاتحاد السوفيتى، كما تعاقدت أيضاً على إدخال تكنولوجيا الطرد المركزى الغازى لإثراء اليورانيوم بشكل بحثى تجريبى. إلا أن الرئيس الأمريكى كلينتون فى ذلك الوقت تدخل لدى الرئيس الروسى يلتسين لايقاف الجزء الخاص باثراء اليورانيوم، وهذا يوضح المعارضة الأمريكية المبكرة لعملية الأثراء حتى على المستوى البحثى والتجريبى.

إلا أن الإصرار الإيرانى لامتلاك هذه التكنولوجيا منذ الشاه جعل إيران تعمل على امتلاك هذه التكنولوجيا، وليس معروفا الآن كيف حصلت عليها.

أعلنت إيران فى سبتمبر ٢٠٠٢ عن مشروع إقامة محطة لاثراء اليورانيوم فى منطقة ناتانز بوسط إيران وأبلغت الوكالة بذلك. وقد قام الدكتور محمد البرادعى المدير العام للوكالة ووفد معه بزيارة هذه المحطة فى فبراير الماضى «٢٠٠٣».

شاهد الوفد محطة ريادية تتكون من ١٦٢ وحدة طرد مركزى غازى تم تركيبها حديثاً، وأن هذه الوحدات قد تم اختبارها ووجد أنها يمكن أن تعمل بكفاءة.. كما شاهد وفد الوكالة أيضاً ١٠٠٠ «الف» وحده طرد مركزى تحت التطوير. كما وجد أن إيران تخطط لاستكمال عدد وحدات الطرد المركزى الغازى إلى ٥٠٠٠ وحده ليكون لديها وحدة اثراء إنتاجية للوقود النووى.

وقد نشر أخيراً أنه تم تطوير هذه



التكنولوجيا واختبارها سريا في الورش التابعة لمحطة كالابى الكهربية غرب طهران، قبل الانتقال إلى ناتانز التى تقع على بعد ٣٠٠ كيلومتر جنوب طهران، وقد اكتشف مؤخراً آثار يورانيوم عالى الاثراء فى تلك المنطقة مما آثار قلقا عالياً.

الأزمة

منذ زيارة البرادعى لمحطة ناتانز التى أوضحت هذا التقدم التكنولوجى الهائل لإيران، وامتلاكها تكنولوجيا متقدمة هى تكنولوجيا إثراء اليورانيوم وبدأت التهديدات توجه إلى إيران. إن هذه التكنولوجيا تكنولوجيا بالغة الاتقان تتضمن تداخل فروع علمية وهندسية متعددة علم وهندسة المواد، هندسة ميكانيكية، هندسة كهربية، هندسة نووية، هندسة كيميائية، وهندسة التحكم- علم الفيزياء - علم الكيمياء - إن التكامل بين هذه المجالات المتخصصة فى التصميم والتشييد والتشغيل يوضح الوصول إلى قدرة علمية وتكنولوجية متميزة. هذا بالإضافة إلى هذه التكنولوجيا آثار امتلاك إيران لها مخاوف الولايات المتحدة وإسرائيل والدول الغربية بأن إيران يمكنها تطوير واستخدام هذه التكنولوجيا فى إنتاج يورانيوم عالى الاثراء نوعية السلاح..

لذلك تصاعد القلق الإسرائيلى - الأمريكى وأصبح قلقا أوروبيا من عدة نواح تصاعد القدرة العلمية والتكنولوجيا النووية لبلد شرق أوسطى قريب من إسرائيل مهما كانت التزاماته بمعاهدة منع الانتشارالنووى، ومن ناحية أخرى فإن إيران لديها القدرة على إنتاج يورانيوم عالى الإثراء لأغراض السلاح، ونشرت سيناريوهات شبيهة بما جرى فى كوريا الشمالية بأن إيران تستطيع أن تقيم نشاطاً سريا غير معلن للوكالة تزاول فيه إنتاج اليورانيوم عالى الإثراء، أو أن تعلن انسحابها من الوكالة وتصبح دولة لديها سلاح نووى.

هذا هو لب الأزمة الحالية التى عالجها المؤتمر العام للوكالة فى دورة سبتمبر وطلب من إيران أن تعلن قبل ٣١ أكتوبر الماضى أن ليس لديها برنامجاً سرياً لصنع السلاح النووى. والأخطر من ذلك بدأت مطالبة إيران بواسطة الوكالة وبواسطة الدول الغربية إيقاف برنامج إثراء اليورانيوم.. كما تم الطلب منها الانضمام إلى البروتوكول الإضافى للوكالة الدولية للطاقة الذرية.. منشور دورى رقم٥٤٠.

هذا هو المأزق الإيرانى.. إذا رفضت إيران فسوف تطلب الولايات المتحدة عرض الموضوع على مجلس الأمن وتحاول الحصول على قرار بالعقوبات،

وقد تتجه إسرائيل إلى العمل العسكرى. وبالنسبة للانضمام إلى البروتوكول الإضافى ففى رأينا آنه لن يوقف التحرك العسكرى. وشاهدنا على ذلك معركة العراق.. إن عمليات التفتيش وفق القرار ١٤٤١ اشد من أى نظام دولى ومع ذلك لم تعتد به الولايات المتحدة وحين تم الاستعداد الكامل أوقفت التفتيش، وباشرت العمل العسكرى ضد العراق.

باشرت العمل العسكرى فى إطار تضليل هائل بوجود أسلحة دمار شامل، ويعرف المسئولون فى الدول النووية وكذلك مراقبون محايدون بعدم وجود أسلحة دمار شامل فى العراق، بل وأكد ذلك أحد كبار المسئولين الأمريكيين الذى قال لقد أطلقنا «فرية» آسلحة الدمار الشامل حتى يمكن توحيد الجميع معنا..

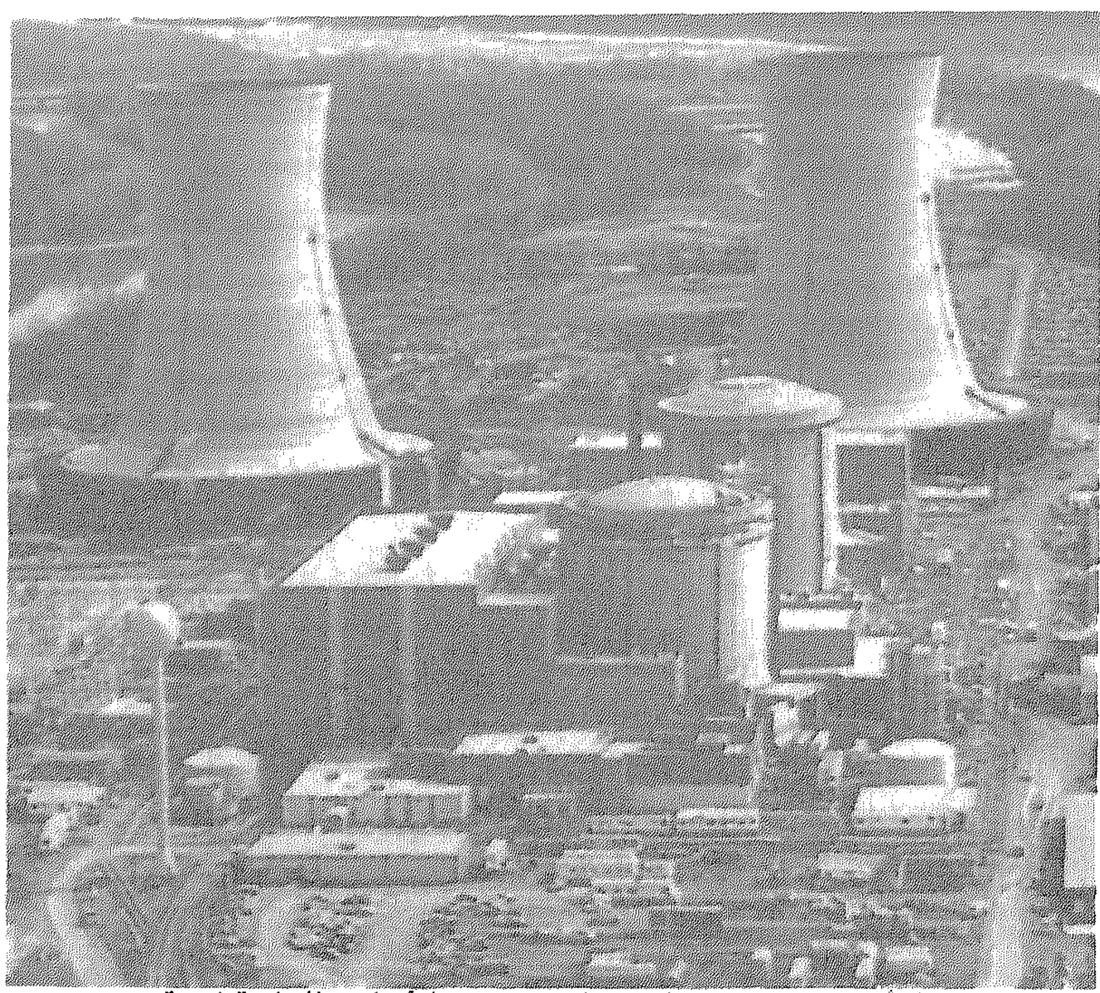
كان الهدف هو تصفية النظام الذى استطاع فى وقت ما بناء نظام علمى وتكنولوجي متقدم فى مجال إثراء اليورانيوم.

لانتعرض هنا لديكتاتورية النظام فلم تكترث بها الولايات المتحدة أثناء تأييدها لهذا النظام وهذا هو هدف السياسة الأمريكية الحالية سياسة مجابهة الانتشار النووى، لقد انتهت مرحله معاهدة الانتشار النووى والتفتيش الذى تقوم به الوكالة، وتم التحول إلى استخدام العمل العسكرى فى تغيير النظم التى تسمح ببناء تكنولوجيا متقدمة قد تؤدى إلى قدرات تؤدى إلى التحول نحو بناء سلاح نووى. هذا ما حدث فى العراق ونلاحظ أنه بعد خمسة شهور من نهاية الحرب على العراق لا نجد آثرا لأسلحة الدمار الشامل ونجد أيضاً آن الحاكم الأمريكى للعراق قد أصدر قرارا فى أغسطس الماضى بحل منظمة الطاقة الذرية العراقية من أجل مزيد من التشتيت للكادر العلمى النووى العراقى الذي استطاع أن يصل إلى تكنولوجيا الاثراء وقد كان فى مرحلة أقل تقدما من إيران الآن.

مجابهة الانتشار النووى

إن المطلب الأمريكى الإسرائيلى والذى أصبح الأن مطلباً أوروبيا هو ايقاف إثراء اليورانيوك وهذا الموقف لا أساس له من قانون، فإن معاهدة منع الانتشار لا تمنع أى نشاط نووى سلمى، إنها تضعه تحت التفتيش. وإثراء اليورانيوم- ٢٣٥ لإنتاج وقود منخفض الإثراء يحتوى على ٣-٥٪ لورانيوم ٢٣٥ هو غرض سلمى بحت ولا يمكن استخدام هذه المادة لإنتاج السلاح كما سبق الاشارة. إن هذا الضغط الذى تشارك فيه الوكالة هى سابقة خطيرة وهى إذا ما تمت تعتبر نجاحا لسياسة





هل أصبحت المفاعلات النوويه التي تستخدم للأغراض السلمية ذريعة لشن العدوان وحرمان الدول من الاستفادة منها؟

مجابهة الانتشار النووى الأمريكى وتقنينا لهـا. فى وسط هذا كله تترك إسـرائيل النووية التى تملك حوالى ٣٠٠ رأس نووية دون أدنى كلمـة أولوم من جـانب القطب الأعظم فى العالم والدول الأوربية الكبرى وترك هذه التـرسـانة تشكل الخطر الرئيسى فى المنطقـة، وإذا تحـركت دول المنطقة لحماية نفسها بتكنولوجيا يجرى العـمل على تدمـيـرهـا. أو يجـرى نزع تكنولوجيـاتها مـهـمـا كـانت سلمـية أو خاضعة للإشراف الدولى.

لقـد أعلنت البـرازيل أخـيـراً أنهـا سـوف تعيـد تشـغـيل منشـآتهـا لاثراء اليورانيوم لاغراض سلمية.. ولم يحتج أحـد.. وقـد تحـذو الأرجنتين حـذو إسـرائيل.. فـهل سـيـتـدخل أحـد.. هذا بالإضـافة إلى أن هناك دولا مثل اليابان لديها عمليات إثراء واسعة النطاق.. فهل

تتوقف؟!.

وهناك أكثر من عشر دول لديها هذه التكنولوجيات فهل تتوقف؟ لالن تتوقف لانها ليست فى الشرق الأوسط.. ولا تشكل خطراً حتى ولو كان محتملاً على إسرائيل.

لقد تم التوصل إلى حل وسط أثناء زيارة وفد أوروبى رفيع المستوى إلى إيران، وهو إيقاف عملية إثراء اليورانيوم مؤقتا والإنضمام إلى البروتوكول الأضافى. وأعلن ذلك فى ٢١ أكتوبر الماضى

ولقد طالبنا بذلك فى مقالاتنا فى المصور (العدد ٤١١٧) ٥ سبتمبر ٢٠٠٣ طالبنا بأن تركز إيران على الانتهاء من بوشهر -١ وتشغيله وهذا يوثق علاقتها النووية بالأتحاد السوفيتى، ثم تبدأ بعد ذلك مرحلة استكمال دورة الوقود النووى بما فى ذلك إثراء اليورانيوم وعبرت عن هذا الرأى مع أحاديثى مع زملاء آبرياء وحينما شاركت فى مؤتمر موسكو لمنع الانتشار فى ١٩ سبتمبر تحدثت فى ذلك مع ممثل إيران فى هذا المؤتمر ورحب بالفكرة .. ووعد بطرحها حين عودته إلى إيران

★★★

هناك ترسانة من القرارات خاصة بانشاء منطقة خالية من السلاح النووى فى الشرق وكذلك أسلحة الدمار الشامل الأخرى والصواريخ.. أن العمل نحو تطبيقها هو الطريق إلى السلام والاستقرار والديموقراطية فى المنطقة.. ولكن استمرار تدمير الأنظمة وتدمير القدرات التكنولوجية.. قد ينجح إلى حين فى تأمين إسرائيل.. ولكنه إلى حين.

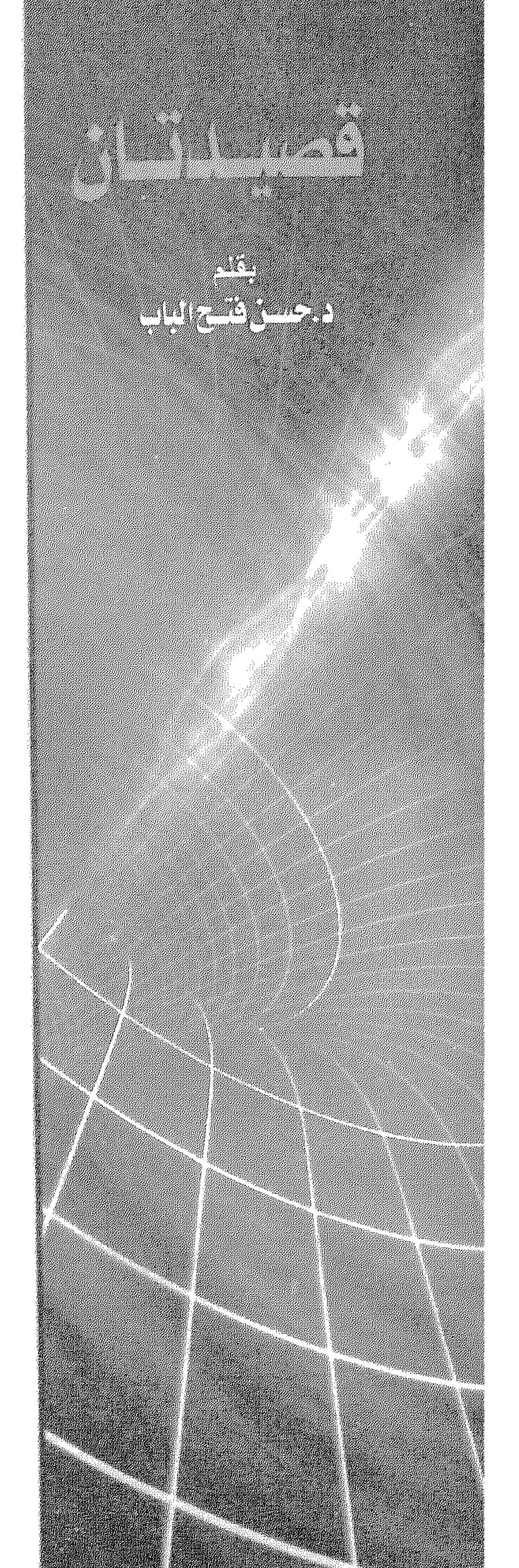
أن التعايش السلمى فى المنطقة وتنميتها اقتصاديا وديموقراطيا هو الطريق إلي المستقبل. العدل هو الطريق.. الأسلوب السلمى والعمل السلمى هو الطريق.

إن مزيداً من الأشلاء فى المنطقة مثل العراق لن يؤدى ألا إلى مزيد من الإرهاب..

★★★

وفى ضوء التطور العام الذى حدث فى أيران مؤخرا وهو مطالبة عدد من الدول الأوروبية إيران بتوقيع البروتوكول الإضافى الذى يسمح بحرية تفتيش واسعة آكثر من نظام الضمانات الحالى فأن هذه الدول مطالبة بآن تبدأ بالضغط على إسرائيل لتطبيق القرارات الدولية التى تطالب إسرائيل بالأنضمام إلى معاهدة منع الانتشار، وكذلك القرارات الخاصة بانشاء منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل - آهمها قرارات مؤتمر تمديد مراجعة معاهده منع الانتشار فى عام ١٩٩٥، وقرارات مؤتمر المراجعة فى عام ٢٠٠٠. ■





- ١ -

وقالت الصحراء

أسلمت جرحى للهجير
كى يندمل
وكان رطبا لايزال
فقالت الصحراء
لابد مما ليس منه بد
فلتمتثل لريحى الهوجاء
للبرق ... للرعود
ولتخفض الجبين
وفجأة رأيتنى
منحنيا على السراب
يضمنى جرحى
وصاعداً أعانق النسور
ومهجتى أشلاء

- ٢ -

أســـرار

تنسخنى ربات البحر
طيرا من أحجار
تمثالاً من صلصال
آنية من زهر.. جمر
وعمودا من ملح
بعض رماد
لكن الريح الشرقية
تنفخ فى قاع النار
فأعود إلى الشاطىء نسرا
يضرب بجناحين طليقين
أغلال الإعصار
ويرانى الكون غريقا
تنقذه ربات الحب
وتبادله الأسرار
(يوسف) يخرج من ظلمات الجب
وفؤادى تغمره الأنوار



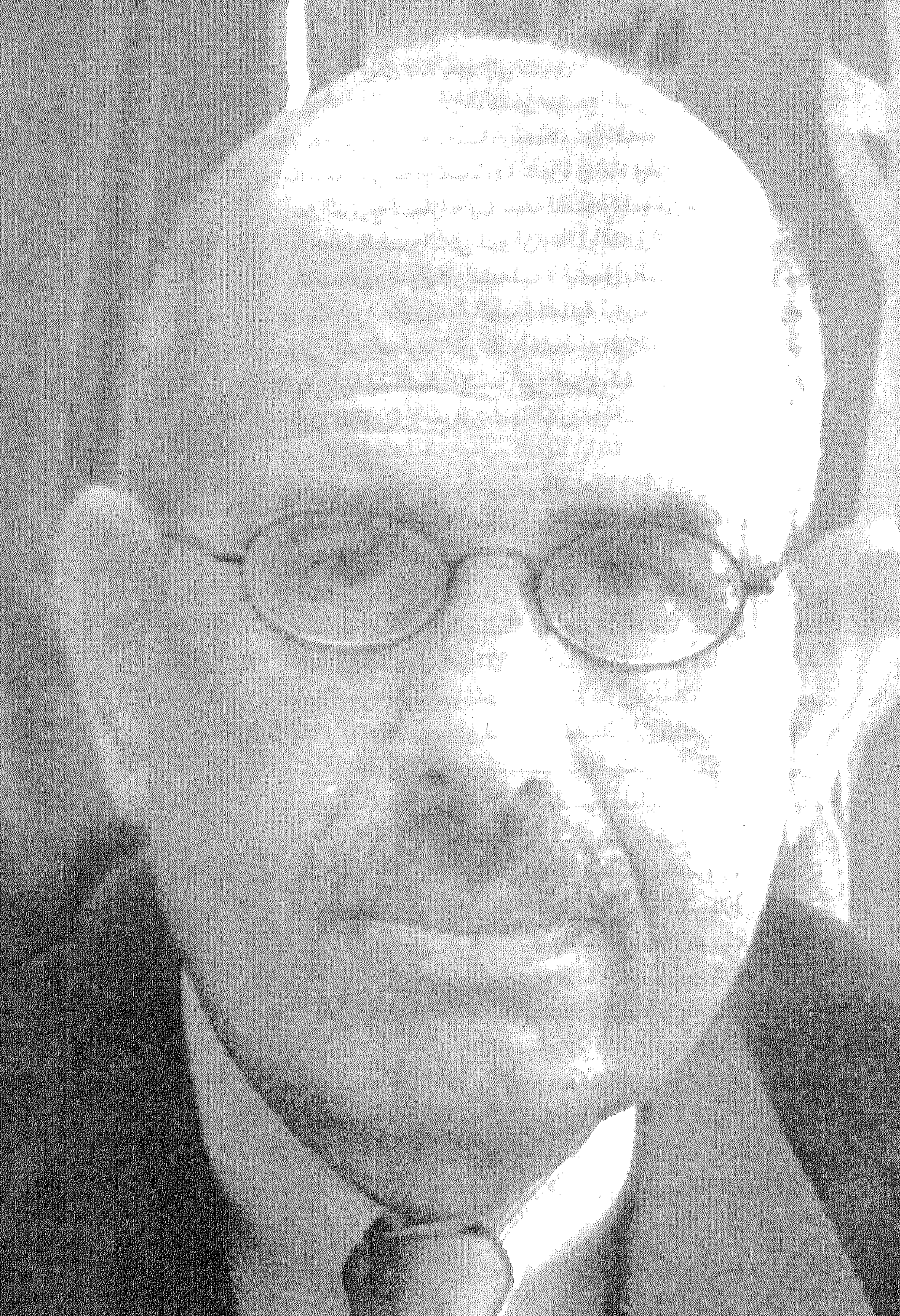
الدكتور محمد البرادعى

أهم منصب دولي بعد منصب الأمين العام

بقلم
شكرى فؤاد

نشرت الصحف المصرية فى يونيو ١٩٩٧ خبراً قصيراً عن انتخاب الدبلوماسى المصرى الدكتور محمد مصطفى البرادعى بالإجماع مديراً عاما للوكالة الدولية للطاقة الذرية فى فيينا اعتباراً من أول ديسمبر ١٩٩٧ ، خلفاً لمديرها السابق السويدى هانز بليكس الذى تم اختياره بعد تقاعده رئيسا لهيئة التفتيش والتحقق «انموفيك» من امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل.

ومع أن منصب مدير عام وكالة الطاقة الذرية يعد أهم منصب دولى يتولاه مصرى بعد منصب الأمين العام للأمم المتحدة الذى تولاه الدكتور بطرس غالى خلال الفترة من ١٩٩٢ إلى ١٩٩٧ ، فإن خبر إنتخاب الدكتور البرادعى لم يلق ما يستحقه من الاهتمام لدى الرأى العام وأجهزة الإعلام



ولعل هذا يعود إلى سببين:

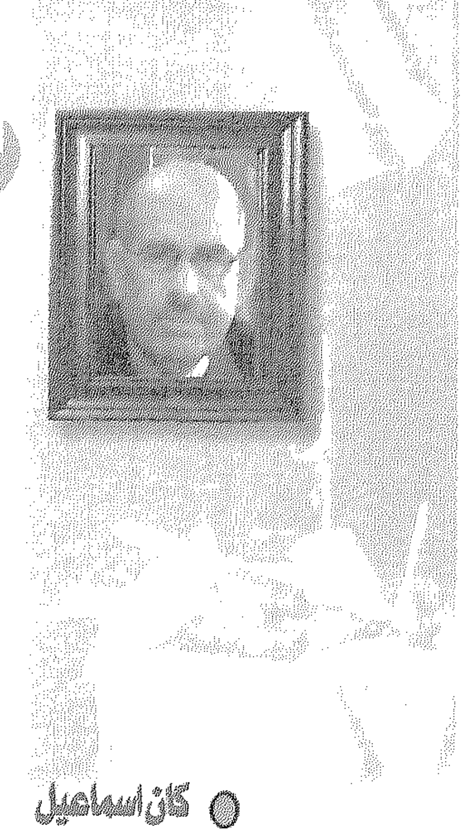
الأول هو أن الدكتور محمد البرادعى من أشد الناس زهداً فى الدعاية لنفسه، وأبعدهم عن اقامة شبكة من العلاقات العامة التى تتيح لصاحبها شهرة زائفة، وهو من أكثرهم عزوفا عن الترويج لانجازاته ولما حققه لنفسه ولبلده من مكانة عالمية.

أما السبب الثانى فهو ان وكالة الطاقة الذرية منظمة شديدة التخصص تبدو وكأن نشاطها لا يتصل بالحياة اليومية للشعوب والأفراد ، مثل منظمة الصحة العالمية أو منظمة الأغذية والزراعة، وفى ظنى أنه لولا الدور الذى قامت به الوكالة مؤخراً فى التفتيش على أسلحة الدمار الشامل فى العراق لبقى كثير من القراء، بل ومن المثقفين، لا يعرفون عنها أكثر من اسمها.

* * *

ولد محمد البرادعى فى القاهرة فى ١٧ من يونيو ١٩٤٢ وحصل على درجة الليسانس فى كلية الحقوق جامعة القاهرة عام ١٩٦٢ وسنه عندئذ عشرون عاما ونال درجة الماجستير من كلية الحقوق بجامعة نيويورك عام ١٩٧١ ثم درجة الدكتوراة فى القانون الدولى من الجامعة نفسها عام ١٩٧٤ مارس المحاماة بعد تخرجه حتى عام ١٩٦٤ عندما التحق بالسلك الدبلوماسى .. فعمل فى إدارة الهيئات الدولية ثم نقل إلى بعثتنا الدائمة لدى الأمم المتحدة فى نيويورك .. وعندما عاد إلى القاهرة عام ١٩٧٤، تم الحاقه بمكتب الوزير إسماعيل فهمى نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية فى ذلك الوقت ليصبح مساعداً خاصا له وبالرغم من أن درجته الوظيفية كانت سكرتيراً ثانياً ثم سكرتيراً أول فإنه كان من أبرز العاملين بالمكتب، والذين عاصروا هذه الفترة فى ديوان وزارة الخارجية بالقاهرة يعرفون كيف كان إسماعيل فهمي يعتمد عليه اعتماداً كاملاً ويوليه من ثقته الشيء الكثير.

وفى عام ١٩٧٨ نقل إلى بعثتنا الدائمة لدى المقر الأوربى للأمم المتحدة فى جنيف وبقى هناك حتى عام ١٩٨٠ عندما بدأ مسيرة جديدة فى المنظمات الدولية، معاراً من وزارة الخارجية، وهى مسيرة لازالت مستمرة حتى الآن بدأها كزميل ومدير لبرنامج القانون الدولى والمنظمات فى معهد الأمم المتحدة للتدريب والبحوث فى نيويورك، ثم ممثلاً لمدير عام الوكالة الدولية للطاقة الذرية لدى الأمم المتحدة فى نيويورك أيضا وفى عام ١٩٨٧



○ كان اسماعيل فهمي وزير الخارجية الاسبق يعتمد عليه ويوليه من ثقته الشيء الكثير

انتقل إلى المقر الرئيسى للوكالة في فيينا ليشغل منصب مدير الإدارة القانونية والمستشار القانونى ثم أصبح مديراً للعلاقات الخارجية بها وفي عام ١٩٩٣ عين مساعداً للمدير العام واستمر يشغل هذا المنصب حتى انتخب مديراً عاماً للوكالة عام ١٩٩٧ وأعيد انتخابه لفترة ثانية عام ٢٠٠١، وهو أول مواطن من دولة نامية يتولى هذا المنصب منذ إنشاء الوكالة وكان من أسباب انتخابه بالاجماع ، إلى جانب كفاءته وخبرته العريضة فى ميدان العلاقات الدولية سيما فى مجال السلم والأمن الدوليين ونزع السلاح، رغبة واضحة لدى أعضاء الوكالة فى أن يتولى إدارتها احد أبنائها المتمرسين بالعمل فيها ممن لهم دراية كاملة بأوجه نشاطها وبالقواعد التى تحكم فاعليتها بحيث يتمكن من تطوير آدائها وتدعيم قدراتها لتكون على مستوى ما يلقى عليها من مسئوليات خصوصا مع اتساع آفاق الاستخدامات السلمية للطاقة النووية وبعد ظهور جانب من القصور والثغرات فى تطبيق بعض أحكام اتفاقية منع انتشار الأسلحة النووية ، التى تتولى الوكالة مراقبة تنفيذها، مما سمح لبعض الدول الأعضاء فى الاتفاقية بأن تطور لنفسها سراً برامج للتسلح النووى الأمر الذى استدعى إلحاق بروتوكول اضافى بالاتفاقية يتيح للوكالة ولخبرائها حرية أكبر في إجراءات المراقبة والتفتيش وهو البروتوكول الذى تدعو الوكالة فى الوقت الحالى كلاً من إيران وكوريا الشمالية للانضمام إليه.

وإلى جانب عمله فى المنظمات الدولية كان للدكتور البرادعى نشاط أكاديمى خلال فترة وجوده في نيويورك حيث شغل منصب أستاذ مساعد للقانون الدولى فى جامعتها بين العامين ١٩٨١ و١٩٨٧ ولا يمكن الحديث عن محمد البرادعى دون أن نشير إلى قرينته وشريكة حياته السيدة عايدة الكاشف خريجة الجامعة الأمريكية بالقاهرة، المهتمة بالشأن العام المهمومة بقضايا وطنها، تقف إلى جانبه فى كل مراحل حياته المهنية يتشاور معها ويستمع إلى آرائها .

***

أما الوكالة الدولية للطاقة الذرية التى انشئ عام ١٩٥٧ فهى أهم محفل دولى للتعاون العلمى والتكنولوجى فى مجال الاستخدامات السلمية للطاقة الذرية وهى ليست إحدى الوكالات المتخصصة المنشقة عن الأمم المتحدة مثل منظمة الصحة العالمية وغيرها ولكنها منظمة مستقلة تعمل تحت رعاية الأمم المتحدة وبالتعاون معها.

وينص دستورها على أن هدفها هو السعى لزيادة وتدعيم إسهام الطاقة الذرية فى مجالات تعزيز السلام العالمى والصحة والرفاهية والتنمية البشرية فى جميع انحاء العالم والتأكد من أن ما تقدمه لتحقيق هذا الغرض من مساعدات مباشرة أو غير مباشرة لا تستخدم فى أية أغراض عسكرية ، وتوكل إليها بشكل خاص المهام الآتية.

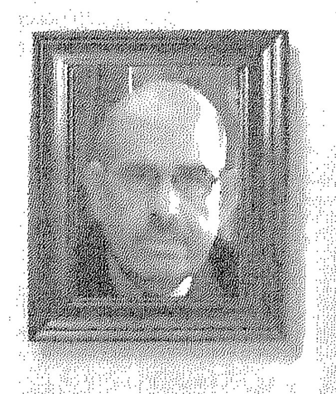
- تشجيع بحوث الاستخدامات السلمية للطاقة النووية وتقديم المعونة الفنية المطلوبة والعمل كوسيط لتزويد الدول بالمواد والأجهزة والخدمات اللازمة لهذا الغرض .

- رعاية برامج لتبادل المعلومات العلمية والتكنولوجية فى هذا المجال وتشجيع تبادل الخبرات والخبراء وإعداد برامج التدريب المناسبة.

- إرساء وإدارة القواعد التى تضمن عدم إساءة استخدام المعونة المقدمة من الوكالة أو من خلالها فى اغراض عسكرية.

- وضع معايير السلامة والأمان للمنشآت والمواد النووية وأساليب الوقاية من الاشعاعات الذرية.

ومع دخول الاستخدامات السلمية للطاقة النووية إلى آفاق جديدة كل يوم اتسع نطاق عمل الوكالة وأصبح عليها أن تقدم الدعم الفنى لدراسات الجدوى للمنشآت النووية، ومعايير السلامة لمحطات توليد الكهرباء باستخدام الطاقة النووية ، وكذلك تحسين الانتاج الزراعى ومكافحة الآفات واستخدام الذرة فى العلاج وفى إدارة موارد المياه عن طريق تحلية مياه البحر والكشف عن المياه الجوفية وغيرها من جوانب التنمية الشاملة التى تحتاج إليها الدول خصوصا النامية منها.



○ بعد التوصل الي اتفاقية منع الاسلحة النووية اصبحت الوكالة هي الجهة التي تتحقق من التزام الدول الموقعة عليها بالاستخدام السلمي للطاقة النووية

وبعد التوصل إلى اتفاقية منع انتشار الاسلحة النووية عام ١٩٦٨ اصبحت الوكالة هى الجهة التى تتولى التحقق من التزام الدول الموقعة عليها «بالاستخدام السلمى للطاقة النووية، كما ورد فى الاتفاقية وذلك من خلال ما يعرف بالضمانات التى تضعها الوكالة ومعلوم أن الدول الأعضاء فى الاتفاقية وعددها الآن أكثر من ١٨٠ دولة قد تعهدت بالالتزام بثلاثة أهداف رئيسية فى: منع انتشار الاسلحة النووية ومتابعة نزع السلاح النووى وتشجيع الاستخدامات السلمية للطاقة النووية ، وتلزم الاتفاقية اعضاءها من الدول بأن تضع كل المواد والمنشآت والأنشطة النووية فيها تحت رقابة الوكالة طبقاً لاتفاقيات ضمانات تعقدها الدول مع الوكالة، وهذا هو السند القانونى لقيام الوكالة بالتفتيش على المنشآت النووية فى العراق وإيران وكوريا الشمالية نظراً لأنها أعضاء فى اتفاقية منع الانتشار، بينما لا تخضع الهند وباكستان وإسرائيل لهذا التفتيش لأن هذه الدول الثلاث لم تنضم إلى الاتفاقية ! وتستثنى من الرقابة والتفتيش الدول الخمس النووية الكبرى التى كانت تمتلك فعلاً أسلحة نووية عند توقيع الاتفاقية وهى الصين وفرنسا وروسيا الاتحادية والمملكة المتحدة والولايات

المتحدة وذلك بالرغم من انضمامها للاتفاقية، وهو استثناء يظل دائما موضع انتقاد.

وأهم أجهزة الوكالة هو المؤتمر العام الذى يضم جميع الأعضاء فيها ويبلغ عددهم الآن مائة وثلاثين دولة ، ثم مجلس المحافظين ويضم ثلاثاً وأربعين دولة ينتخبهم المؤتمر العام.

ومصر عضو فى المؤتمر العام وفى مجلس المحافظين ، وقد بلغت ميزانية الوكالة ٢٣٠ مليون دولار عام ٢٠٠١.

***

واجه محمد البرادعى منذ تولى إدارة الوكالة اشكالية المواءمة بين واجباته والتزاماته تجاه المنظمة التى يعمل فيها كموظف دولى وبين ما يتوقعه منه كثير من مواطنيه داخل الوكالة وخارجها من خدمات ومجاملات باعتباره «مصرياً» مثلهم، وهى اشكالية ترجع إلى عدم فهمهم لوضع الموظف الدولى بشكل عام ، فالموظف الدولى عندما يعين فى منصب مهم يصبح واجبه الأول خدمة المنظمة التى يعمل بها وإداراتها بكفاءة وحزم وحياد دون تحيز لدولة دون أخرى ، لأنه جاء إلى منصبه بإرادة مجموع الدول الأعضاء فيها، وهو ليس ممثل دولته لدى المنظمة بل يمثل جميع أعضائها وعليه أن يراعى مبادىء العدالة والمساواة بين الجميع ليحقق لنفسه مصداقية فى إدارته وفيما يتخذه من قرارات. وقد سار البرادعى فى اتخاذ قراراته على الحد الفاصل بين صرامة العدالة والموضوعية وبين المجاملات العاطفية، ، ولكن فى مجتمع تسود فيه اعتبارات المحسوبية ومراعاة الخواطر وتبادل المنافع وتملق الرؤساء يصبح من الصعب تقبل هذا الموقف، فأخذ عليه البعض أنه «موظف دولى» أكثر من كونه «مصريا» وأنه فى تعامله مع المصريين العاملين بالوكالة أو الراغبين فى العمل بها كان كالقاضى الذى ظلم نفسه ليشتهر بالعدل، والواقع ان الخلاف بينه وبينهم هو حول مفهوم «المصرية» فهم يريدونه مصريا يفتح الأبواب أمامهم للترقية والتعيين حتى لو استدعى الأمر التغاضى عن قواعد سنها ، ونظام يطبقه ما مفهوم «المصرية» عند البرادعى فهو مساعدة مصر الدولة والشعب وتحقيق أكبر فائدة لبلده مما تقدمه الوكالة من خدمات وتسهيلات ، وخلال حوالى ربع قرن قضاه كموظف دولى لم تنقطع صلته بوطنه ولا علاقته بوزارة الخارجية يقدم المشورة الصادقة والتوجيه السليم والتحذير من المخاطر التى قد تلحق ببلده، وعندما حدث منذ سنوات تسرب لبعض المواد المشعة من أماكن العمل المرخص بها وتم تداولها فى بعض محافظات الوجة البحرى دون اتخاذ احتياطات الوقاية اللازمة مما تسبب فى زيادة مستوى النشاط الاشعاعى وتركيز المواد المشعة فى الهواء وأدى ذلك إلى أضرار صحية لحقت بالكثيرين، بادر فوراً بالاتصال بهيئة الطاقة الذرية فى مصر وغيرها من الجهات المعنية لإرسال فريق

من خبراء الأمن والسلامة لمواجهة الموقف ووضع قواعد أكثر صرامة للوقاية.

* * *

عندما اصبحت وكالة الطاقة الذرية مسئولة عن التفتيش على برنامج العراق للتسلح النووى والتحقق من عدم امتلاك العراق لأسلحة نووية واجه الدكتور البرادعي موقفا صعبا: كانت لديه مهمتان الأولى هى مسئوليته عن القيام بعملية تفتيش فاعلة طبقاً لقرار مجلس الأمن، والثانية هى تقديم تقرير دقيق إلى المجلس عما توصل إليه من نتائج.. وكان كل من الطرفين فى النزاع (العراق والولايات المتحدة) يرغب فى أن يحصل على إشارة أو تقرير يلائم أغراضه ولكن البرادعى رأى أنه لم يذهب إلى العراق ليؤيد طرفاً ضد الآخر بل لتقديم تقييم دقيق إلى المجلس، ولم ينل هذا الموقف رضاء الولايات المتحدة التى شنت بعد فترة حملة على لجنة المراقبة «إنموفيك».. ويقول هانزبليكس رئيس اللجنة عن هذه الحملة ودواعيها فى تصريح له تعرضت لاهانات على درجة كبيرة من الدناءة، كانت علاقاتى مع الأمريكيين جيدة عموما ولكن ما أن لاح احتمال الحرب فى الأفق حتى بدأت واشنطن ممارسة الضغوط على مفتشى «إنموفيك» لتكون مضامين تقاريرهم أكثر إدانة للعراق بهدف كسب مزيد من الاصوات في مجلس الامن ولم يرضخ البرادعى لهذه الضغوط وتعامل مع الموقف كمسئول أمام مجلس الأمن وليس أمام الولايات المتحدة فكان أول من أعلن ان اتهام العراق بشراء اليورانيوم من النيجر اتهام لا يقوم عليه دليل، وعندما إذاعت اجهزة الإعلام الغربية نبأ عثور المفتشين الدوليين على أنابيب من الألومنيوم يمكن أن تستخدم فى تخصيب اليورانيوم أكد أن هذه الأنابيب بحالتها التى فحصها بها المفتشون لا تصلح لاستخدامها فى أغراض نووية (إلا إذا تم تعديلها وتطويرها).. ومع ذلك كانت له بعض الملاحظات والتحفظات على موقف العراق، وعندما تعرض للانتقاد من الجانب العراقى ، وأيضا من الجانب الأمريكى ، اطمأن إلى أنه يسير على صراط مستقيم لا يحيد عن جادة الحق ارضاء لطرف من الطرفين، على أن أكثر هاجس شغله وأهم هدف عمل من أجله فى مهمته هذه كان تجنيب العراق والعالم ويلات الحرب لذلك اختتم

○ لم يرضخ البرادعي للضغوط السياسية وتعامل مع المواقف كمسئول امام مجلس الامن وليس امام الولايات المتحدة

تقريره إلى مجلس الأمن فى ٢٧ من يناير ٢٠٠٣ بقوله: «لم نجد حتى الآن دليلا على ان العراق أعاد إحياء برنامجه للتسلح النووى بعد القضاء عليه فى التسعينات ، وعلى كل حال فإن عملنا يتقدم بانتظام ويجب ان يسمح له بأن يسير فى مجراه الطبيعى.. وسيكون بالإمكان خلال الشهور القليلة القادمة تقديم تأكيدات لها مصداقيتها بأن العراق ليس لديه برنامج تسلح نووى وسيتم ذلك عن طريق نظام التحقق الذى أقمناه (فى العراق)، ان هذه الشهور القليلة هى استثمار ثمين من أجل السلام لأنها يمكن ان تساعد على تجنب الحرب، نحن نثق بأننا سنستمر فى تلقى الدعم منكم ونحن نبذل كل جهد للتحقق من نزع السلاح النووى فى العراق بالوسائل السلمية حتى نثبت أن عملية التفتيش تعمل بنجاح ويمكنها أن تستمر فى عملها كمعلم أو ملمح رئيسى فى نظام دولى لضبط التسلح النووى.

وبعد غزو العراق وعندما شملت عمليات السلب والنهب بعض المواقع النووية مما عرض حياة الآلاف للخطر طالب البرادعى بالسماح لخبراء الوكالة بالسفر إلى العراق لمواجهة هذه المخاطر فرفضت الولايات المتحدة طلبه مدعية بأن هذه هى مسئولية قوات الاحتلال ولكنه أصر على طلبه وأكد ان الوكالة هى الجهة الوحيدة المسئولة عن أمن وسلامة المنشآت والمواد النووية وحماية الأفراد من إشعاعاتها واستمر على إصراره والحاحه حتى رضخت الولايات المتحدة ووافق رامفسيلد وزير الدفاع فى ٢٠ من مايو ٢٠٠٣ على السماح للخبراء بالتوجه إلى العراق.

☆☆☆

وبالرغم من مشاغله الكثيرة وأسفاره العديدة فإنه يجد دائما الوقت الذى يتخفف فيه من قيود وظيفته ليلقى محاضرة أو يكتب مقالا يعبر فيها عن آرائه الشخصية فى النظام الدولى والأمن العالمى ولا يتسع المقام هنا لعرض أفكاره بالتفصيل ولكنه كداعية للسلام العالمى يرفض نظرية الاستخدام الوقائى للقوة كنموذج للتصدى لتهديدات اسلحة الدمار الشامل لأن الضربات الوقائية يمكن أن تؤدى إلى اخطار بالغة ويرى أن هناك بدائل أخرى تقوم على الاعتماد على نظام دولى جماعى للحفاظ على السلم والأمن الدوليين عن طريق تحديث نظام الأمن الجماعى الوارد فى ميثاق الأمم المتحدة وتطويره بإعادة تشكيل مجلس الأمن وايجاد آليات للتدخل المبكر لفض المنازعات ، واستحداث نظام للعقوبات يستهدف الحكومات والنظم وليس الشعوب واخيراً معالجة الفجوة المتسعة بين الاغنياء والفقراء فى العالم والتى تعتبر أحد جذور وأسباب عدم الاستقرار فى المجتمع الدولى.

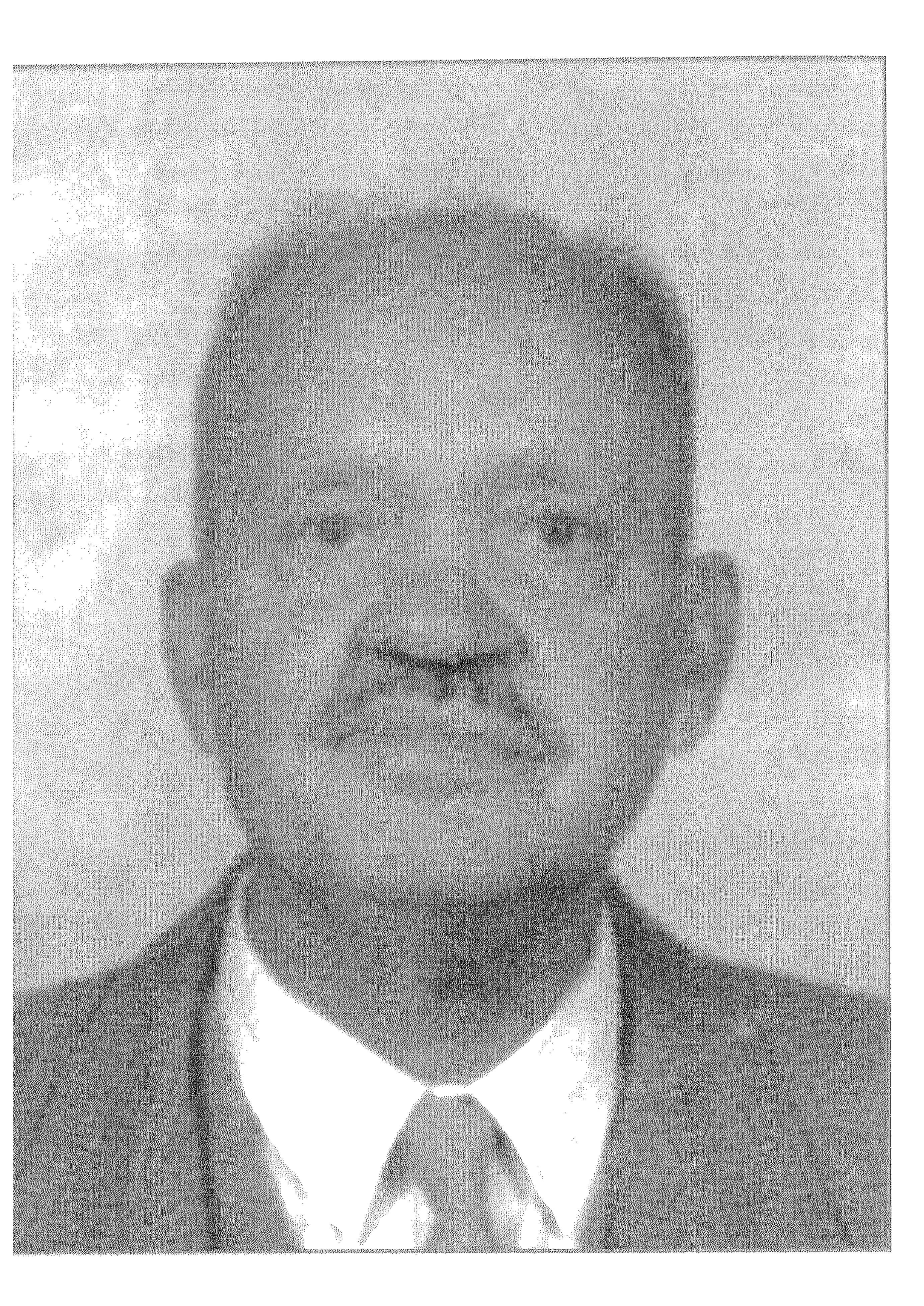
وأخيراً فإننى لا أشك فى ان الدكتور محمد البرادعى هذا المصرى الليبرالى فى تفكيره ، الإنسانى فى ممارسته وعلاقاته ينتظر اليوم الذى يتحرر فيه من أعباء وظيفته ويعود إلى مصر ليسهم فى بناء مجتمع أفضل يتطلع ويتمنى ان يتحقق فى حياته. ■

المثقف المصرى بامتياز

بقلم
د. جلال أمين

أعتبر نفسى سعيد الحظ لأنى عرفت الدكتور عبد العظيم أنيس عن قرب، كما أعتبر جيلى من المصريين جيلا سعيد الحظ لأنهم عرفوا الرجل أو قرأوا له واستمعوا إليه. ولهذا فعندما بلغ الرجل سن الثمانين (التى بلغها فى يوليو الماضى) فإنه يستحق منا الشكر على عطائه، وعلى استمرار هذا العطاء بنفس المستوى الذى عهدناه فيه، بل ونشكر أيضا بناته الثلاث الفضليات، وفاء ومنى وحنان، على رعايتهن الفائقة والمستمرة له.

من الأدلة على أن هذه التهنئة فى محلها، أننا إذا فتحنا جريدة أو مجلة فوجدنا فيها مقالا لعبد العظيم أنيس قلنا لأنفسنا: «ها هو ذا مقال



يستحق القراءة!» وإذا ذهبنا إلى ندوة أو مؤتمر وعرفنا أن عبد العظيم أنيس سيتكلم فيه قلنا: «إذن فهناك شيء يستحق الاستماع إليه!» وإذا صادفنا بيانا حول مشكلة سياسية أو ثقافية، وكان عبد العظيم أنيس أحد الموقعين عليه قلنا «فلنقرأ إذن البيان فالأرجح أنه سيبين لنا الموقف الصحيح من هذه المشكلة!».

ما تفسير هذا الموقف الذى نتخذه دائماً من كتابات عبد العظيم أنيس وأحاديثه ومواقفه؟

التفسير يتعلق بالأسلوب كما يتعلق بالمضمون.

أما عن الأسلوب فعبد العظيم أنيس إذا كتب أو تكلم، كتب وقال كلاما مفهوما ومنطقيا ومختصرا وخفيف الظل. فإذا أردت أن تعرف أهمية ذلك فلتتصفح أى صحيفة أو مجلة، أو فلتذهب إلى مؤتمر بعد آخر، لترى بنفسك كثرة ما يقال من كلام يستعصى على الفهم، أو لا يتسق آخره مع أوله، أو ثقيل الظل إلى درجة تبعث الملل فى النفوس، أو كلام ما كان يستحق أن يقال أصلاً.

ولكن الأهم من ذلك ما يتعلق بالمضمون. وأقصد بذلك أن عبد العظيم أنيس إذا كتب أو تكلم أو وقّع على بيان، لا يكذب عليك.

هل أريد أن أقول إن هذا أيضا شيء نادر، وأن من الصعب أن تجد بين الكتّاب أو المحاضرين أو بين من يدلون بأحاديث صحفية أو سياسية أو يوقعون على بيان للتأييد أو الرفض، من لا يكذب عليك؟

للأسف نعم. فما أكثر من يكتبون أو يتكلمون (ومنهم أصحاب عواميد أسبوعية أو يومية أو أحاديث أو برامج منتظمة فى التليفزيون أو الإذاعة) بغرض الكذب عليك، ويجدون فى كل أسبوع أو كل يوم طريقة جديدة للكذب والتمويه.

ذلك أن الكذب، بعكس ما قد نتصور، له أشكال وألوان. ومن ثم فليس من الصعب أن تعثر على وسيلة للكذب، وإنما الصعب هو أن تقول الحقيقة.

فالكذب ليس كما قد نظن هو فقط أن تقول عكس الحقيقة، كأن تقول مثلا إن الأسعار فى مصر الآن تميل إلى الانخفاض بدلا من الارتفاع، ولكن من قبيل الكذب أيضا أن تقول نصف الحقيقة أو ربعها فتخلق لدى القارئ انطباعا مخالفا للحقيقة. كأن تقول مثلا إن الحكومة قد اجتمعت لمناقشة وسائل تخفيف أعباء المعيشة على محدودى الدخل ووسائل تخفيض الأسعار، ولا تقول إن الاجتماع قد انتهى دون اتخاذ أى إجراء مُجدٍ وعملى لإحداث هذا التخفيض، وأنه لم يصل إلى توصيات

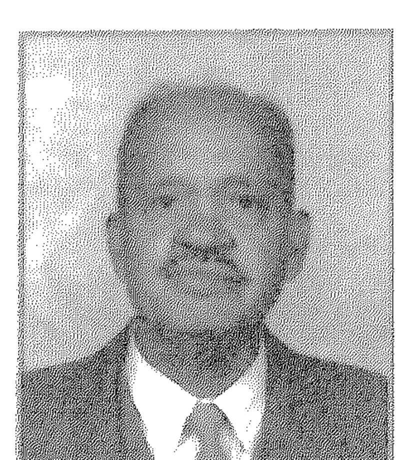
إلا من نوع «ضرورة زيادة الإنتاج ورفع الانتاجية!».

★★★

ومن صور الكذب أيضا ألا تذكر في تفسيرك لظاهرة ما إلا بعض الأسباب الثانوية دون أن تذكر السبب الرئيسي، إذا إن هذا من شأنه صرف الانتباه عن المذنب الحقيقي وتحويله في اتجاه آخر. وهناك أيضا الكذب بالكلام خارج الموضوع برمته، كأن يكون الناس يتكلمون عن ارتفاع الأسعار وتتكلم أنت عن مزايا عقد مؤتمر سنوي للحزب الوطني.. وهكذا.

عندما تكون هذه الأنواع من الكذب سائدة ومنتشرة، فلابد أن نعتبر أنفسنا سعداء الحظ بأن نجد بيننا رجلا مثل عبد العظيم أنيس، رجلا لا يقول عكس الحقيقة ولا نصفها أو ربعها، بل يقول، بقدر إمكانه الحقيقة كلها. ولا يعطي تفسيرات مصطنعة تركّز على أسباب تافهة وثانوية. بل يشير بإصبع الاتهام، بكل صراحة ووضوح إلى المذنب الحقيقي. وفي كل مناسبة يختار للكلام الموضوع الجدير بالكلام فيه.

لهذا السبب كنت دائما، ولا أزال، أعتبر عبد العظيم أنيس، واحدا من



القليلين في مصر (أو في أي مكان، إذا أردنا الحق) الذين يستحقون وصف «المثقف».

ذلك أني أعتقد أننا لا نستخدم وصف «المثقف» بالدقة الكافية. فكثيرا ما نستخدم هذه الكلمة بمعنى «المتعلم»، وكأن صاحب الدكتوراه مثلا، يستحق وصف المثقف لمجرد ارتفاع مستوى تعليمه. بل إننا نبدو أحيانا وكأننا نستخدم وصف المثقف بمعنى «المتكلم أو الكاتب» فكلما كان الشخص يتكلم أكثر أو يكتب أكثر نعتبره مثقفا أكبر!

المثقف في رأيي هو الشخص دائب البحث عن الحقيقة، ولا يقول إلا الحقيقة (كما يراها على الأقل)، كما أنه لا يقول الحقيقة منقوصة، أو على الأقل يحاول ألا يقولها منقوصة.

لهذا كنت دائماً أعتبر أن عبد العظيم أنيس هو المثقف المصري بامتياز. وهذا في رأيي أحد الأسباب التي نحمل له من أجلها كل هذا الاحترام والحب، ونعتبر أنفسنا سعداء الحظ لأننا عرفناه، ولأننا عشنا حتى نحتفل بعيد ميلاده الثمانين. فكل سنة وهو طيب.

■

نسيج الغربة فى حياة

إدوارد سعيد

بقلم

د. عزه مازن

فى نهاية شهر سبتمبر هذا العام ٢٠٠٣ بعيدا هناك خارج المكان فى مدينة نيويورك رحل الناقد والمفكر الأستاذ الدكتور إدوارد سعيد، ولكنه أبى الرحيل قبل أن يكتب سيرته ويجمع شذرات حكايته وخيوطها المتناثرة فى نسيج الغربة والمنفى منذ سنوات عمره الأولى.



ظل الوجود خارج المكان ومعنى المنفى تيمة أساسية فى مشروع آدوارد سعيد الفكرى والثقافى فى مقال له بعنوان Reflections on Exile أو تأملات فى المنفى (١) يقول.

يفرض علينا المنفى التفكير فيه، ولكنه شئ رهيب أن تعيشه إنه تلك الفجوة التى لا تلتئم بين المرء ومكانه الأصلى بين الذات وموطنها الحقيقى: حزنه متأصل لا يهزم يضم الأدب والتاريخ حلقات من البطولة والرومانسية والمجد بل والانتصار فى حياة الشخص المنفى، ولكن ما هى جميعا سوى محاولات جاهدة يتغلب بها من يحيا فى المنفى على أسى الاغتراب الزاحف على نفسه. ما يتحقق فى المنفى من نجاحات يقوضه على الدوام الشعور بفقد شئ تركه المرء وراءه بلا عودة.

بتلك الكلمات يلمح إدوارد سعيد إلى مشاعر النفى والاغتراب التى ظلت تتقاذف نفسه منذ طفولته الأولى وحتى أيامه الأخيرة رغم ما حققه من إنجازات آثرة فى مجال النقد والفكر والثقافة والدفاع عن القضية الفلسطينية فليس غريبا أن يركز سعيد فى دراساته الأدبية الأولى على المنفيين والمهاجرين من الأدباء والفلاسفة والمفكرين فيتناول فى أطروحته للدكتوراه بجامعة هارفارد الكاتب الإنجليزى البولندى الأصل جوزيف كونراد فى مقال لاحق له بعنوان Between Worlds أو بين عالمين كتبه عام ١٩٩٨ (٢)، يكشف فيه د. إدوارد سعيد عن العلاقة النفسية التى جمعته بكونراد فكلاهما رغم نجاحه وحياته فى بلد جديد تبقى الغربة رياح عاتية تهز روحه يقول سعيد

استعنت بكونراد كمثال لشخص حياته وأعماله نموذج لرحالة أصبح كاتبا متميزا فى لغة مكتسبة ولكنه أبدا لم يتخلص من إحساسه بالغربة عن وطنه الجديد المكتسب - وفى حالة كونراد الخاصة ذلك الوطن الذى يعجب به.

يوضح إدوارد سعيد ارتباطه النفسى بكونراد بأنه ظل على مدى سنوات يكتب ويقرأ عن ذلك الكاتب الذى اعترف بفقده الوطن واللغة فى محيط جديد ووصف ذلك الفقد واستحالة العودة حيث يؤكد أنه ظل يفعل نفس الشئ فى عمله على مدى سنوات من خلال كتابات لآخرين إلى أن علم بإصابته بالمرض الخطير فى خريف عام ١٩٩١ فشعر بقرب النهاية وبعد ذلك بشهور وجد نفسه يكتب خطابا طويلا لوالدته التى توفيت قبل ذلك بعامين يتحدث فيه عن حياته التى تركها مبعثرة بلا نظام. أدرك سعيد أنه رغم ما حققه من نجاحات وكتابات متعددة ونشاطه فى الدفاع عن القضية الفلسطينية وتبنيه القضايا المناهضة للإمبريالية إلا أنه لم يتوقف ليجمع شذرات حياته المبعثرة.

فى كتابه Out of Place: A Memoir أو خارج المكان: مذكرات ١٩٩٩ (٣) يتوقف إدوارد سعيد ليلملم قصاصات حياته فى الوطن العربى أمام

خلفية من أحداث تاريخية مهمة هزت أرجاء ذلك الوطن . في مقدمته للكتاب يكتب:

خارج المكان سجل لعالم مفقود أو ذهب طي النسيان منذ عدة سنوات تلقيت تقريرا طبيا خطيرا فلاح لي ضرورة أن أترك ورائي سردا ذاتيا عن الحياة التي عشتها في العالم العربي، حيث ولدت وقضيت سنوات التشكيل الأولى في حياتي، وفي الولايات المتحدة حيث التحقت بالمدرسة والكلية والجامعة. ما أتذكره هنا من أشخاص وأماكن ما يعد له وجود الآن، ومع ذلك يدهشني ما أحتفظ به منهم في داخلي وبتفاصيل مذهلة في دقتها ووضوحها.

يتخذ الكاتب في معنى الإحساس بالغربة أو (خارج المكان) تيمة أساسية ونغمة محورية تتردد تنويعاتها على مدى مراحل حياته التي عاشها بين القدس حيث ولد وبين القاهرة ولبنان وتلقى خلالها تعليما انجليزيا لأبناء النخبة الأثرياء في مدارس إنجليزية وأمريكية منذ طفولته الأولى بدأت مشاعر الغربة تنسج خيوطها حول الطفل إدوارد سعيد متمثلة في غرابة الاسم ذي النصف الانجليزي والنصف الآخر العربي، وكما يقول: كنت أشعر دائما أنني خارج المكان فقد استغرقني الأمر حوالي خمسين عاما كي أتعود على اسم إدوارد أو على نحو أدق، أن أصبح أقل ضيقا بـ إدوارد وهو اسم انجليزي بلا معنى أقحم على سعيد وهو اسم عائلة عربي محض. وتنسحب حيرته من الاسم الذي يشتت إحساسه بالهوية والانتماء إلى اللغة التي يتحدث بها، فأيهما لغته الأصلية: العربية أم الإنجليزية؟ لا يعرف بأيهما تحدث أولا أو أيهما لغته الأصلية، فقد تشابكت اللغتان في حياته على نحو يمكن معه أن تكون أيهما لغته الأصلية فكانت أمه تحدثه بلغة إنجليزية تتداخل معها كلمات عربية، وإلى حيرة الاسم واللغة تنضم حيرة الهوية ومعها يزداد الإحساس بالاغتراب فكان إدوارد سعيد الطفل دائم التساؤل: إلى أي بلد ينتمي؟ لقد ولد في القدس لأب من أصل فلسطيني، ولكنه يحمل الجنسية الأمريكية بعد عشرة أعوام قضاها هناك وجند خلالها في الحرب العالمية الأولى، وأم من أب فلسطيني وأم لبنانية تنتمي إلى أسرة أرستقراطية وتعلمت في مدارس أمريكية في بيروت قضى سعيد طفولته وصباه في القاهرة مع فترات يقضيها في الصيف بين القدس ولبنان. ابنا لرجل أعمال ثري يحمل الجنسية الأمريكية.

عاش سعيد في القاهرة حياة ارستقراطية مغلقة وتنقل في مدارس النخبة الإنجليزية والأمريكية، كما خضع لنظام صارم في التربية فرضه عليه الأب، فازدادت وطأة الغربة على نفسه، ومنذ سن التاسعة لم تسمح له الأنشطة المختلفة التي فرضت عليه بفراغ أو إحساس بالذات خارج قوانين الأب

وقوالبه الصارمة.

خارج الوطن

لم يمنحه الوجود داخل المدرسة سوى مزيدا من الإحساس بالغربة والوجود (خارج المكان) ففى مدرسة الجزيرة الإعدادية تلك المدرسة الإنجليزية التى لا يلتحق بها سوى أبناء الإنجليز العاملين فى مصر آنذاك، عرف سعيد مزيدا من مشاعر النفى خارج المكان، فاللغة الإنجليزية وحدها المشروعة حديثا وكتابة ، وتاريخ إنجلترا وحده محور درس التاريخ. فى تلك المدرسة لمس معنى الاستعمار وأحس مرارته فى نظام تعليمى استعمارى فكان احتكاكه الأول بالسلطة الاستعمارية. لم تكن له علاقة بزملائه من الطلبة الإنجليز خارج المدرسة وكأنهم يختفون بعيدا وراء سياج يحملهم إلى عالم آخر بعيد لا يسمح له بالدخول. ويروى سعيد إحساسه بمرارة الاستعمار بينما هو تلميذ فى تلك المدرسة إذ يعاقبه الناظر على مشاغباته فى الفصل بأن يضربه بالعصا، وكأن عدم انتمائه للنخبة الاستعمارية الحاكمة جعله هدفا سهلا للعقاب دون زملائه من أبناء الإنجليز، وبعد تلك الواقعة بفترة قصيرة تحدث له مواجهة ثانية مع الاستعمار الإنجليزى، إذ يطرده بيلى، أحد الإنجليز العاملين بنادى الجزيرة غير مصدق أنه هو وأسرته أعضاء فى النادى وينهره قائلا: غير مسموح للعرب بالوجود هنا، وأنت عربى! ويروى سعيد الواقعة لوالده ويدهشه غضبه الهادئ لتلك الإهانة فما كان من الأب إلا أن يقول: سأتحدث إلى بيلى فى الأمر . بعد مضى خمسين عاما لازال سعيد يحمل وخز تلك الواقعة ويرى الأمر وكأنه كان اتفاقا ضمنيا بينه وبين والده على ضرورة وجودهما فى مكانة أدنى من أولئك المستعمرين ولكن ما يشعره بالخزى حقا أنه لم يشعر كلاهما هو أو والده آنذاك أن الأمر يستحق صراعا من أى نوع.

الإحساس بالغربة

وفى عام ١٩٤٦ ينتقل سعيد إلى مدرسة القاهرة للأطفال الأمريكيين CSAC بوصفه ابنا لأحد رجال الأعمال الأمريكيين وإليها ينتقل معه الإحساس بالغربة وبأنه خارج المكان رغم جنسية والده الأمريكية شعر بأنه يحمل هوية مضطربة غير واضحة فهو يحمل الجنسية الأمريكية ولكن بداخله تتوارى أصول عربية، كان ينظر بحسد إلى زملائه ذوى الهويات الأخرى الواضحة، بوسعهم جميعا أن يكونوا أنفسهم فليس لديهم دور أمريكى يلعبونه وفى مدرسة فيكتوريا VC التى انتقل إليها عام ١٩٤٩ يلمس سعيد نموذجا مصغرا للاستعمار الإنجليزى، قوة استعمارية مجروحة تتربص إيقاع الأذى بكائنات تعتبرهم دونها منزلة حتى وإن كانوا مضطريين إلى دراسة لغتها وثقافتها بوصفها الثقافة السائدة فى مصر آنذاك. فرغم تعدد الجنسيات فى المدرسة إلا أن الإنجليزية كانت وحدها

اللغة المسموح التحدث بها . نما لديه شعور بمقاومة الاستعمار فكانت مشاغباته الصبيانية فى المدرسة أسلوبا اعتبره أحد أشكال مقاومة الاحتلال الإنجليزى فى مصر. ولا ينسى سعيد يوم طرده الناظر من المدرسة نتيجة لأحد هذه المشاغبات.

***

مع تعلمه الفرنسية ليجارى رفاقه من أبناء الطبقة الارستقراطية يشعر سعيد بوطأة الإحساس بالغربة يتجسد فى عامل اللغة ومن ثم تتحول اللغات الثلاثة إلى قضايا حساسة بالنسبة له فى سن الرابعة عشرة: فالعربية ممنوع التحدث بها، الفرنسية لغتهم وليست لغتى الإنجليزية مشروعه ولكن غير مقبولة لأنها لغة البريطانيين المكروهيين.

وكأن القدر يأبى إلا أن تترسخ جذور الاغتراب فى نفسه فى سنى عمره المبكرة، ففى عام ١٩٥١ وفى سن السادسة عشرة يرحل سعيد إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليلتحق بمدرسة مونت هيرمون الداخلية للبنين فكان لابد له من قضاء خمس سنوات فى الولايات المتحدة قبل بلوغه الحادية والعشرين شرطا للاحتفاظ بالجنسية الأمريكية التى ورثها عن والده ونزولا على رغبة الأب، الذى أراد لابنه جنسية وتعليما وحياة أمريكية، تبدأ مرحلة أخرى وتأخذ الغربة تغزل خيوطا جديدة فى حياة إدوارد سعيد. فمن مدرسة مونت هيرمون الداخلية إلى كلية برنستون إلى جامعة هارفارد ظلت مشاعر الغربة تثقل وطأتها على روحه. فتعلم أن يقلل من وقع الغربة على نفسه بانغماسه فى قراءات ودراسات ونشاطات تمتعه. وكانت خطاباته الأسبوعية إلى والدته التى أورثته حب الأدب والموسيقى عاملا مؤثرا فى تخفيف وطأة الغربة عليه.

داخل الوطن

فى القدس وحدها، حيث ولد وحيث كان يقضى أوقاتا فى الصيف، كان سعيد يتحرر من أغلال الغربة ففيها كان يشعر أنه داخل المكان.. داخل الوطن هناك كان يجتمع شمل العائلة ويتحدثون العربية، اللغة الأم، حتى لو كان الحديث عن أفلام أجنبية. تذكره القدس الغربية بملاعب الصبا ولم شمل العائلة تحمل إليه معنى الوطن ظل الإحساس بالانتماء والحرية المرتبط بالقدس يمنحه طاقات من الضوء تبدد وحشة الغربة فى نفسه، إلى أن كانت نكبة ١٩٤٨ وتفرق شمل العائلة وتشتت أفرادها فى البلاد فتعمق لديه الإحساس بالغربة المرتبط بفقد الوطن بلا عودة :

«عندما أسمع اليوم إشارات إلى القدس الغربية تثير كلها الأماكن العربية التى تحمل ذكريات طفولتى يصعب على أن أتقبل حقيقة أن نفس جوانب المدينة التى ولدت بها وعشت وشعرت أننى فى وطنى استولى عليها مهاجرون بولنديون وأمريكيون وألمان الذين غزوا المدينة وجعلوها رمزا لسيادتهم بلا مكان لحياة

الفلسطينيين التى اقتصرت على المدينة الشرقية التى أكاد لا أعرفها أصبحت القدس الغربية الآن يهودية بالكامل فقد طرد سكانها الأوائل بلا عودة منذ منتصف ١٩٤٨».

بعد نكبة ١٩٤٨ جاءت عمته نبيهة لتعيش فى القاهرة، وجعلت شغلها الشاغل الاهتمام باللاجئين وحل مشكلاتهم بفضل تلك العمة تعرف سعيد على فلسطين التاريخ والقضية واقترب من معاناة اللاجئين وآلامهم نقلت إليه العمة مدى الأسى فى أن يصبح المرء بلا بلد أو مكان يعود إليه، أن يصبح بلا حماية تسبغها عليه سلطة وطنية أو مؤسساتها.

جاءت حرب ١٩٦٧ بمزيد من مشاعر الفقد والاقتلاع والغربة: بدا أنها تجسد الاقتلاع الذى طوى تحته كل أنماط الفقد الأخرى أعادتنى صدمة تلك الحرب إلى حديث بدأ كل شئ إلى حيث بدأ الصراع من أجل فلسطين.

بينما كان يلملم سنوات عمره الأخيرة استعدادا للرحيل ظل إدوارد سعيد يشعر بوطأة فقد الوطن والوجود خارج المكان:

«حتى اليوم لازلت أشعر أننى بعيد عن الوطن.. ورغم أننى لم تكن لى أحلام بحياة أفضل كان يمكن أن أعيشها إذا بقيت فى العالم العربى أو إذا عشت ودرست فى أوروبا. إلا أننى لازلت أشعر ببعض الندم. وهذه المذكرات فى بعض جوانبها استعادة لتجربة الرحيل والانفصال بينما أشعر بوطأة الوقت يستحثنى ويؤذن بالرحيل». ■

الهوامش:

١ - نشرت هذه المقالة أولا فى دورية (Granata, 13 (Winter 1984 ثم أعيد نشرها فى Edward W. Said. Reflections on Exile and Other Literary and Cultural Essays. London: Granata Publication, 2000 (الاقتباس من ترجمة الكاتبة).

٢ - نشرت هذه المقالة أولا فى مجلة: London Review of Books, May, 7, 1998 ثم أعيد نشرها فى Edward W. Said. Reflections on Exile and Other Literary and Cultural Essays. London: Granata Publication, 2000 (الاقتباس من ترجمة الكاتبة).

٣ - Edward W. Said. Out of Place: A Memoir. New York: Alfred A. Knopf, 2000 (الاقتباسات من ترجمة الكاتبة)

فوضى التأليف وغياب النقد العلمى

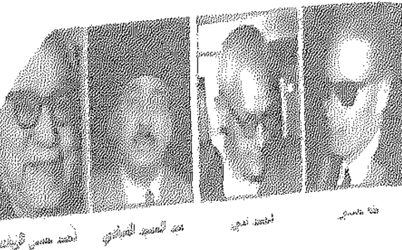
بقلم
د. محمد الدسوقى

كتب الدكتور محمد رجب البيومى فى عدد أغسطس الماضى من الهلال كلمة عن فوضى الواقع الثقافى ، وقصرها على التأليف ، وقد أشاد فى مستهلها بعصر كان المؤلف فيه لاينشر كتابا إلا إذا أجازه باحث ضليع ، وأحيانا مع هذه الإجازة يأبى أن ينشر ما خطه قلمه ، لأنه لايرقى إلى المستوى الجدير بالنشر فى نظره ، وهذا لون من صدق الكاتب مع نفسه ، وحرصه البالغ على أن يقدم للقراء الجديد المفيد .

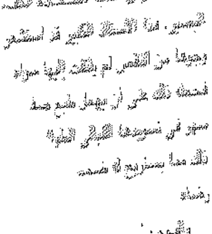
وما كان هذا السلوك العلمى فى المراجعة يأخذ به الناشئة من الكتاب ، وإنما كان يؤمن به الذين شهدت لهم قاعات الدرس فى الجامعة ، أو الذين صدرت لهم مؤلفات قيمة ، أو نشروا فى المجلات المتخصصة مقالات وبحوثا رصينة بأن لهم قدما راسخة فى الدراسة والبحث العلمى .

التأليف... إلى أين ؟!

بقلم
د. محمد رجب البيومى



ذكر الدكتور طه حسين فى مقدمة فجر الإسلام أنه اتفق مع الأستاذين أحمد أمين وعبدالحميد العبادى على أن يؤلفوا أجزاء تاريخية تدرس الناحية الأدبية والناحية السياسية والناحية العقلية لتصور الفكر الإسلامى فى وضعه المقارب، وقد بدأ ... أحمد أمين بإخراج «فجر الإسلام» سابقا صاحبيه، ... الدكتور طه حسين فى تقديم الكتاب !
... متضامنون فى هذا الكتاب على اختلاف ... تكفل أحمد أمين بدرس الحياة ... ناه كما أقره ، فنحن



فوضى الواقع الثقافى – د. رجب البيومى – أغسطس ٢٠٠٢

وخلص الدكتور البيومى من الإشادة بذلك العصر الذى نبغ فيه قادة الفكر فى القرن العشرين فى مصر إلى الحديث عن ظاهرة الوفرة فى الكم ، أو ظاهرة الفوضى فى الكتابة والتأليف ونعت هذه الظاهرة بأنها لا تعبر عن عمق فى البحث أو جدة فى الموضوع ، أو دقة فى التعبير ، وسلامة فى اللغة ، وإنما تعرف خطف الأفكار أو إعادة صياغة أفكار الآخرين فى عبارات جديدة ، كما تعرف ضحالة المضمون ، وركاكة الأسلوب وهشاشة الثقافة ، فضلا عن الأخطاء اللغوية والنحوية وكثرة الألفاظ العامية والدارجة .

وكنت أطمع من الدكتور الفاضل أن يعلل لهذه الظاهرة المؤسفة أو تلك التى نعتز بها ، ولكنه آثر أن يكشف عن أهم ملامح الظاهرتين ، ودعا فى ختام كلمته إلى وقف هذا النسل الفكرى على وجه يتيح للقارىء المتطلع أن ينقذ نفسه من غثاء متراكب يضر ولا ينفع .

وإذا كان المناخ العام للحياة الفكرية وبخاصة فى النصف الأول من القرن العشرين قد أتاح للكتاب والباحثين الأصالة والدقة فى التأليف فإن هناك ظاهرة علمية كان لها أثرها فى تنمية هذه الدقة وتلك الأصالة ، وهى ظاهرة النقد العلمى الذى لايحابى أو يجامل وإنما يعطى للعمل التأليفى ماله وما عليه فى موضوعية وأمانة علمية .

إن المجلات التى كانت تصدر فى مصر فى ذلك العهد الزاهر بالنشاط الثقافى سواء أكانت أسبوعية كالرسالة والثقافة أم شهرية كالأزهر ، والمسلمون التى كان يصدرها الأستاذ سعيد رمضان رحمه الله والكتاب التى كانت تصدر عن دار المعارف ورأس تحريرها الشاعر الأديب الأستاذ عادل الغضبان

- هذه المجلات وغيرها كان فى كل منها باب أو زاوية لنقد الكتب والتعريف بها ، وكان هذا يفتح مجالا للحوار بين المؤلف والناقد ، وهو حوار كان يحرر أصول النقد وضوابطه ، وأذكر مثالا على ذلك أن الدكتور أحمد الشرباصى كان قد سجل أحداث فترة اعتقاله بعد حل جماعة الإخوان المسلمين فى عهد النقراشى فى كتاب عنوانه «مذكرات واعظ أسير» ، وقد نقد الشيخ كامل شاهين هذا الكتاب فى الرسالة ، ورد الشيخ الشرباصى على نقد الشيخ شاهين ، وكتب هذا ردا على الرد ، بيد أن الأستاذ الزيات رحمه الله لم ينشر رد الشيخ شاهين وعلل لذلك فى كلمة موجزة بالبريد الأدبى بأن مانشر فيه الغناء حول هذا الكتاب .

فى كفة الميزان

أما مجلة الكتاب فقد كانت تخصص نحو ثلاثين صفحة فى كل عدد من أعدادها لنقد الكتب والتعريف بها والحوار بين النقاد والكتاب فى باب عنوانه «فى كفة الميزان» صدر بهذه العبارة : «ننشر فى هذا الباب نقد النقاد على علاته ، نزولا عند حرية الرأى تاركين لأقلام غيرهم من الكتاب مناقشة ماقد يدعو إلى المناقشة» .

ولم يكن الحوار بين المؤلف والناقد مقصورا عليهما ، وإنما كان يساهم فيه غيرهما من المهتمين بالفكر والثقافة ، ومن ذلك أن الدكتورة عائشة عبدالرحمن نشرت نقدا لكتاب «تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث» وهو من تأليف الدكتور محمد نجيب البهبيتى ، ورد الدكتور البهبيتى على نقد الدكتورة عائشة، وأخذ عليها أنها ليست مؤهلة لنقد كتاب فى الشعر العربى ، لأنها لاتعرف اللغات العبرية والفارسية والسريانية وآدابها وآثارها الفنية وما اتصل بدياناتها وشرائعها من كتب وأبحاث ، وهى لا تلم كذلك بما كتب بالحروف المسمارية من اللغات مثل السومرية والآشورية فضلا عن دراسة تاريخ الأمم القديمة التى عاشت بين النهرين ودراسة آدابها دراسة تعمق واستقصاء .. الخ .

ولما قرأ الدكتور محمد يوسف موسى (ت : ١٩٦٣) رد الدكتور البهبيتى وما اشتمل عليه من شروط ينبغى أن تتوافر فى الناقد كتب كلمة نشرها فى نفس المجلة التى نشرت النقد والرد عليه قال فيها : من واجب الناقد حقا أن يكون له اختصاص بالأثر العلمى أو الفنى الذى يتناوله بالنقد ، وعليه بعد هذا أن يقرأه قراءة استيعاب وتمحيص ، ثم يكون له بعد ذلك كله أن يحكم بما يرى ، فإن لم يكن منه كل ذلك كان مقصراً باعتباره ناقدا .

ثم يوجه الكلام إلى الدكتور البهبيتى قائلا : يا أخى الفاضل ، إننا جميعا نعرف أن الإلمام باللغات والآداب القديمة لابد منه لدراسة الأدب العربى دراسة مقارنة ، ولكن هذا شىء ، واشتراط كل ماتريد شىء آخر ، إن هذا معناه أننا نخدع أنفسنا منذ زمن طويل حين اعترفنا لكثير من رجالاتنا بالتفكير العلمى الصائب ، وبالقدرة على النقد للأدب العربى، ويكفى أن نذكر - من باب التمثيل لا الاستقصاء - هذه الأسماء الأعلام، طه حسين ، العقاد ، أحمد أمين ، الزيات ، أمين الخولى .. الخ .

إننا حين نشترط ما اشترط الدكتور البهبيتى لانكاد نجد واحدا نعده أهلا لتناول كتاب في الأدب العربى بالنقد ، وإلا كان آخذاً فيما ليس له بأهل، ولا بصر له به ، اللهم إلا أن يكون الأستاذ المؤلف وحده .

النقد فى كل المجلات

وظهرت فى ستينات القرن الماضى مجلة الكتاب العربى وكانت شهرية وتهتم بالدرجة الأولى بنقد الكتب والتعريف بها ، ولكنها بعد بضعة أعوام من صدورها توقفت لأسباب لا علم لى بها ..

إن النقد كان له وجود فى كل المجلات وحتى فى بعض الصحف اليومية ، وقام برسالته فى الحيلولة بين الدخلاء على التأليف وبين أن ينشروا مايشاءون ، لأنهم يدركون أن أقلام الكشف عن الغث والزيف والسطو مشرعة ، ولهذا لم يكن للسرقات الأدبية مثل مالها اليوم من ذيوع لا بين ناشئة المؤلفين والكتاب فحسب ، وإنما بين أساتذة الجامعات ونظرائهم من المؤلفين والباحثين كذلك .

وأما المجلات التى تصدر فى هذه الأيام - وما أكثرها وليست فى مجموعها ثقافية - فإنها تخلو من النقد بمفهومة الصحيح ، مما أغرى من يتطلعون إلى التأليف ، وهم لايتمتعون بزاد ثقافى عميق، وطاقة عقلية تفقه مناهج البحث وقواعد التأليف أن يسارعوا إلى النشر وهم فى مأمن من النقد لما ينشرونه ، ومن ثم كان هذا الطوفان الذى يخرج من المطابع كل يوم ، والذى يذكرنى بما كان من سياسة إصدار كتاب فى كل ست ساعات فى النصف الثانى من القرن الماضى ، وملئت المخازن بالكتب ، ولم تجد الهيئة المسئولة عن النشر وسيلة للتخلص من هذا الكم الهائل من المؤلفات التى كانت تحمل شعار اخترنا للطالب ، اخترنا للعامل .. الخ غير الدفع بها إلى مصانع الورق ، ونشرت الصحف فى حينها أن اللت يتحول إلى عجن ..

ولت الحاضر أكثر من لت الماضى وأدنى مستوى منه ، وله آثاره السلبية فى الحياة الثقافية والاقتصادية على السواء .

إن ظاهرة الوفرة فى التأليف فى العصر الحاضر وما يتبعها من هبوط المستوى الثقافى والعلمى وكثرة السرقات الأدبية مردها إلى غياب النقد ، وبيان الغث من السمين ، والحق من الباطل والنافع من الضار فيما يذاع وينشر ، وسيظل تيار هذه الظاهرة مندفعا بغثائه مالم تكن هناك سدود عالية تحسر مده ، وتوقف خطره ، والأمر فى حاجة إلى تضافر كل الجهات المسئولة عن النشر فى وضع الضوابط الصارمة لما يجوز نشره ، ولا يصح أن يكون التأليف كلأ مباحا لكل من يحمل قلما ويخط سطرا ، فالتأليف مسئولية وله مقاصد حددها علماء المناهج وهؤلاء الذين يؤلفون وينشرون وليست لديهم دراية بهذه المقاصد متطفلون ولا يضيفون جديدا ، ويفعلون مالايحتاج إليه وقد يدفعهم الجهل وقلة الحياء وموت الضمير إلى تشويه ماقام به سواهم مع نسبته إلى أنفسهم ، وهذا شأن أهل الجهل والقحة على حد قول ابن خلدون . ■

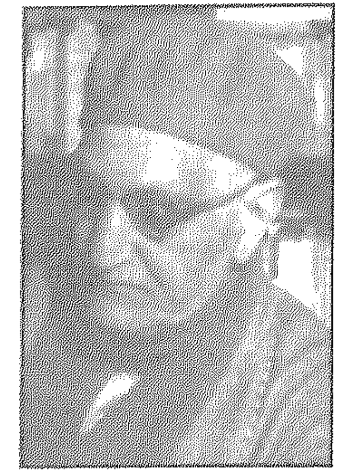
عقدة العقاد

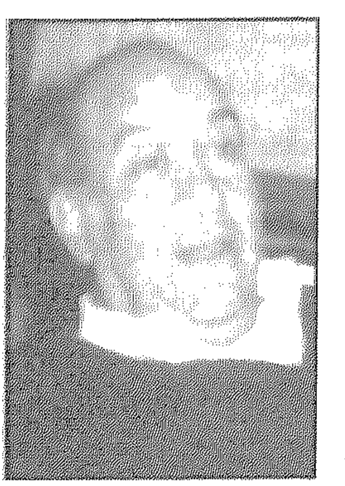
بقلم
د. عبد اللطيف عبد الحليم

لاتظلموا الموتى وإن طال المدى
إنى أخاف عليكم أن تلتقوا
المعرى

أخفق الأستاذ حسين أحمد أمين فى أن يكتب مقالا متسقا، متلاحم الجوانب، بل جاء كلامه مفتعلا، مفتقرا إلى الإحكام، وإلى اللمسة الشخصية المتفردة، وهذا نص كلامه فى آخر مقالة عن العقاد فى جريدة القاهرة ١٦ من سبتمبر ٢٠٠٣، منقولا عن جريدة الحياة، وجاءه الإخفاق - لا الفشل كما قال هو - من أن ملكة الكتابة حتى فى مجرد الثرثرة والذكريات تفتقر إلى نظر يرى الأسباب والعلل، ويحاول أن تسلمه باتساقها إلى النتائج المرجوة والمنطقية، كما أنه من الشائع المتواتر أن مهنة الكتابة لاتورث كالعقار ولو كان الوالد فى قامة أحمد أمين . وثمة أسماء باذخة فى تاريخ الفكر والإبداع كأنما حظيت بالغنم وحدها، فلم يرثها ذووها حتى إرث كلالة

لا نعتقد التطريب والقداسة فى شخص أحد ولا فكره، و«قابلية» الخطأ فى النحائز البشرية من الفطرة التى ذرأ الله الناس عليها، ولسنا جميعا مؤهلين إلا للنزوع للكمال لا بلوغه، ومن ثم عذاب الإنسان الواصب، وعزاؤه أيضا، والعقاد أحد أفراد الإنسان الذى عاش يحارب الحمأ المسنون، فى الخلَق الإنسانية، وأن يتطهر بهذا الشواظ الذى يحرق الحمأ، هكذا يكون الإنسان فى


عباس محمود العقاد


حسين أحمد أمين

معراجه، وتلك ضريبة ذلك المعراج.

أغلاط وخلط

حفل كلام الأستاذ حسين أحمد أمين بكثير من الأغلاط التى لانخالها من وادى سوء النية، ولا نريغ سوى الإشارة إلى بعضها، لقد خلط الأستاذ عملا صالحا وآخر سيئا، ظانا أن لقاءه بالعقاد، وصحبة أبيه له تخول له أن يحكم وأن يحسن التفسير، وأن يكتب فى أشياء لاتهم القارىء، وآية ذلك فيما نسوقه أولا من فكاهة أن العقاد لم يمتلك فى حياته سيارة ، ونبادله أفكوهة بنظيرتها قائلين: إن العقاد امتلك سيارة، واختلف مع سائقه فلم يغيره بسائق آخر، وإنما باع السيارة دون مثنوية، وكأنه يأبى أن يتحكم فيه أحد!!

حاول الاستاذ حسين أن يتشح بالموضوعية فأثنى على العقاد فى بعض المواطن، مفضلا شعره على جوانب نتاجه الآخر، ونحن نشاطره الرأى وأكثر منه حيث درسنا شعر العقاد، ونكاد نحفظه قبل التخصص فيه فى رسالة الدكتوراه بجامعة مدريد مقارنا بشاعر إسبانى آخر هو ميجيل دى أونامونو (ت١٩٣٦)، اللهم إلا إذا أراد الاستاذ الكاتب أن يشمل نثره بالحكم الجائر الذي نعت به كلام العقاد المفتعل المفتقر إلى الإحكام وإلى اللمسة الشخصية، وإن كنا نشك فى وجهة نظر الاستاذ حسين فى شعر العقاد حيث يحتاج هذا الشعر إلى قراءة خاصة، وإلى صبر على معالجته والتدسس إليه، وكلام مندور وصلاح عبدالصبور فى شعر العقاد معروف قبلهما، ولم يكن النظر المحايد رائدهما فى كلامهما، ولهذا تفصيل ليس هذا أوانه، وربما كان فى تلقيب الوزن والقافية «بالقيد» - وهما نظام وقاعدة وليسا قيدا - مايزجى بنا إلى الركون لدى المألوف، وإلى اطمئنان الاستسهال، وقد رضى الاستاذ حسين بالمألوف والمطمئن.

لماذا كان المديح؟

أما المديح يا أستاذ حسين فهو بابة رحبة فى تاريخ الشعر والفنون عامة، والمحك الذى لايخطىء هو الصدق شعورا،

والإجادة تعبيرا، وكان فن الرسم والنحت قائما فى أحضان الملوك والسادة ولا غضاضة فى كل هذا إلا الكذب، ومديح الأستاذ العقاد لفاروق كان فى سنة ١٩٣٨. يوم كان الملك محبوبا من الشعب المصرى قبل شيوع مبانله وكان العقاد وقتها نائبا عن الصحراء الغربية، ومن اللياقة أن يستقبل الملك كما يصنع الناس جميعا فى حفلات الاستقبال وجاءت القصيدة - وهى فى ديوان العقاد - نصائح فى ثوب المديح وهمس فاروق لبعض مجاوريه بهذه العبارة التى سمعناها من العقاد فى داره : «كان أولى بهذا والده» بضمير الغائب كما لقنها فاروق، فما كان من الشاعر إلا أن طوى القصيدة لم يكملها وحاول رجال القصر رأب الصدع فى اليوم التالى وهبت عاصفة ألغت الحفل الذي كان مقررا له أن يكون فى عرض البحر، وثمة قصيدة أخرى حين صحب العقاد الوفد الرسمى لزيارة الملك عبدالعزيز آل سعود، ومن اللياقة أيضا أن يقول الشاعر شيئا. فقال قصيدة جمع فيها بين الملكين فى قرن، وكان حظ الضيف منها أربى على حظ الداعى، ولذا لا تكون توبة العقاد من هجومه على فؤاد والتى ألصقها الأستاذ حسين لا محل لها إلا فى نظره هو، فلينفرد بهذا النظر وحسبه به لمسة شخصية متفردة!!

وإذا سقط مثل هذه الدعوى فيسقط معها أو قبلها مايترتب عليها من تأييد العقاد للثورة فى بداياتها، قبل أن تتول إلى حكم دكتاتورى شمولى على يد عبدالناصر، لا لأن العقاد لم يجد من فاروق إقبالا بل لأنه لم يربط قيمته مطلقا بزعيم، ولأنه يرى أنه لاأفضلية مع الاستبداد، وقد سمعنا رأي العقاد فيما بعد فى عبدالناصر، وهو رأى ليس للنشر، ونعتقد يقينا أن رأيه وصل إلى عبدالناصر، نظرا لوجود المندسين فى مجالس العقاد، ولم يكن ولاؤه إلا لقيمة الحرية التى مارسها عملا لا نظرا.

العقاد .. وهتلر!

أما أن الإنجليز أوحوا إلى العقاد بكتابه عن هتلر، فهو قول ظاهر البطلان، وخاصة من رجل عرف العقاد وطبيعته التى تتأبى على الإملاء، حتى فى أيام سعد باشا الذى فهم العقاد، وبادله العقاد فهما بفهم وتقديرا بتقدير، وقد أطلعنا أيام المرحوم عامر العقاد ابن أخى العقاد على طلب قصر الدوبارة أن يشترى نسخ الكتاب ويقوم بتوزيعها نظير مكافأة سخية فرفض العقاد، وقد سمعنا هذه الرواية من العقاد ذاته، ويؤازرها فهم دقيق لطبيعة الرجل الذى لم يبع قلمه فى سوق النخاسة - وهى رائجة - فى العصور الخابية، حين باع الناس كثيرا من ضمائرهم لثمن بخس، وأين كانت حماية المحتل للعقاد يوم ذهب إلى السودان، هذه أسئلة ينبغى أن تثار أمام الكاتب الذي يفزع للمرددات الشعبية، يرددها كما سمعها.

إن بعض الكاتبين - وليس منهم الأستاذ حسين - يكتبون مستلهمين الأحاسيس الضئيلة، لأن العظمة فى حاجة إلى من يطاولها ليفهمها متعاطفا معها، لاتحيزا، وإنما مبغاة للفقه

الحصيف، وكان العقاد بعظمته هدفا لمثل هذه الأقلام فى حياته، وبعد رحيله، لأنه يمثل نهضة هذه الأمة مع قليل من رفاق جيله، ومحاولة طمسه وتشويهه ليس مقصودا بها وحده، بل الأمة فى الصميم، ليطفو الزبد، أو إن شئت البجيف، وقد تنبأ العقاد بسقوط هتلر، وبسقوط الشيوعية وهما فى أوج ازدهارهما، وضرب موعدا للثانية بستين حولا، لم يمض كثير منها حتى سقطت فى عقر دارها، وسقط هتلر قبلها، وهو يدوخ الأمم، وكان نابليون قبلها - فى نظره - مهرجا بالنسبة إلى بعض العلماء مثل «باستور»، لأن عينه كانت موكلة بجوهر الإنسان قبل أى شىء آخر.

عقدة التعليم الجامعى

أما استعراض العضلات فى العلم، ومرجعه فى رأى الاستاذ حسين - لقصور تعليمه النظامى، فقد كان العقاد يشهد أنه أسى لفقد هذا النظام فى مستهل حياته، ثم صار فيما بعد يحمد الله عليه، ولو كان العقاد قد أكمل تعليمه النظامى، لصار مثل كثيرين من أساتذة الجامعات الذين يظلون حياتهم كلها تلاميذ، يقفون بالوصيد من بابة العلم والفكر، ولماذا ننكر على العقاد أن يستعرض عضلاته بالمعنى الحميد للكلمة إذا كان وراءها رصيد قوى، وهو مانراه فى كتابات العقاد، الذي كان يقرأ كل ما يمكنه فهمه، لا ليتخصص فيه، وإنما يراه ذريعة لفهم أعمق للحياة وللإنسان، وهكذا كان كلامه فى الفلك ومجادلته لأستاذ الفلك فى علوم القاهرة، وغلبته له بالمصادر الحديثة التى لم يطلع عليها الأستاذ، وكان صراعه مع الدكتور كامل حسين فى الفلسفة، وحديثه عن الغدد فى كلامه عن أبى نواس، ورجوعه إلى استاذ آرجنتينى فى الغدد، كان مثار عجب صديقنا المتخصص الدكتور تيمور خليفة التونسى وكيف وصل العقاد إلى هذا الكتاب وهو شديد التخصص فى مادته، إذا كان استعراض العضلات بهذه المثابة فأهلا به إلا إذا كانت العضلات من «شراميط» على حد قول العقاد، وقد وقف الدكتور أحمد على الجارم على كلام العقاد فى المسائل الطبية أثناء حديثه عن أبى نواس وابن الرومى، وارتأى رجاحة فكر العقاد وعمق إطلاعه وفهمه، هل كان الناس يا استاذ حسين قديما فى حاجة إلى الشهادات التى تطرح الآن فى الأسواق حتى بالتزوير - لأن بعض حامليها إذا لم يكونوا أهلا لها فهو نوع من التزوير أيضا -

أفكوهة: كنا نمتحن طلاب الليسانس شفويا فكان بعض الطلاب يقول: قال الدكتور المتنبى لأنه لايتصور أن يكون المتنبى عاريا عن هذا اللقب، وكاتب هذه السطور - بالمناسبة - لايقرن اسمه بهذا اللقب على الإطلاق حين يكتب لأنها أصبحت ألقاب مملكة فى غير موضعها، إلا من رحم ربك!!

هل يصبح فكر العقاد طى النسيان؟

إن الاجتراء على المستقبل عسير، حين يرى الاستاذ حسين مثلا أن أكثر كتب العقاد سيصير إلى طى النسيان، وهواجتراء ليس له ما يسوغه، إلا إذا أراد الاستاذ ذلك وما هو بيده، ولايحسن أن

يكون بيده، صحيح أن كل شيء إلى دثور وفناء، يستوى فى ذلك الكتب وغيرها، لكننا نرى أن الأمة تفزع إلى العقاد فى ساع قنوطها، وفى مناشطها على السواء، وليس لديه مايسنده من جاه لأسرته ولا لتلاميذه، بل يسير فكره وحده لأنه فكر العقاد وكفى، وقد قرأنا معظم مقالاته، فى السياسة - وهو أمر آنىّ مرتبط بالحادثة - وفكرنا مع عامر العقاد فى جمعها لولا أن المنون اختطفت عامرا وهو فى أوج نشاطه وفتائه، لأننا - بالفعل - رأينا فيها فكرا باقيا، تحذف المناسبة العارضة لترى الفكر الصحيح، والنظر غير المزغول، والحرص والغيرة على هذه الأمة وهو قوام كل فكر باق.

وكثير من الكاتبين يموت الكلام على شباة شفاههم وأقلامهم قبل أن يصل إلى القراء لأنه لا رصيد له، وتلك آفة المناسبة الموقوتة وكذب الفكر وارتكاسته.

عقيدة العقاد

والقضية الكبرى التى أجلناها عامدين إلى نهايةهذه الكلمة، وهى قضية عقيدة العقاد نحن - يا استاذ حسين - لا ننبش ضمائر الناس فللناس خالق يعلم السر وأخفى، وغريب أن تشيع قالة سوء عن إلحاد العقاد، وما يتبادر فى كلامه من بعض تهجم.

ونقول «دعوى على دعوى» إننا عاشرنا العقاد فى مجالسه أربع سنوات أو أشف قليلا ولم نسمع منه أدنى إشارة إلى مايشتم منه إلحاد أو قلة إيمان.

كتب البعض يقول طالما إنه كان يعقد ندوته أثناء صلاة الجمعة، وهذا غير صحيح على الإطلاق، إذا كانت تنتهى الندوة قبل الصلاة بوقت كاف وكان مسجد عثمان بن عفان قريبا من دارة العقاد ولانقول بذلك لنرى العقاد من «الدراويش أو من المجاذيب» بل نصف مانرى، وكان العقاد يكبر الإمام محمد عبده من المعاصرين، والشيخ محمود شلتوت، وانتقد مرة الإمام أحمد بن حنبل فى فتنة خلق القرآن، ورأى فيه ضيق حظيرة وما نظن أن نقده ابن حنبل يخرج به عن حظيرة الإيمان، وربما كان العقاد أقرب إلى فكر المعتزلة دون أن يقع فى حبائلهم جملة، لأنه يرى أن ماسماه «الوعى الكونى» هو الوسيلة العليا إلى الإيمان، وكان هجومه على الإخوان المسلمين من أنقى صفحات فكره المجدد دون أن يكون محسوبا على فئة غير فئة العقاد وأبى - اتساقا مع كرامة قلمه - أن يكتب مقدمة لكتاب يهاجم الإخوان بعد زوال شوكتهم، وإنه كالفارس لاينازل إلا فارسا شاكى السلاح، وكتب طه حسين مقدمة هذا الكتاب، دون أن نتهم طه حسين بشىء، وإنما لكل وجهة هو موليها، وكتابات العقاد الإسلامية - وقد عدد بعضها الأستاذ حسين - تَشهد بعمق إيمانه ونفوره من التعطيل والإلحاد فطرة موروثة، وفكرا مكسوبا.

شهوة هدم الرموز

إن هدم الرموز الكبرى فى الأمة إزاء قالات لاسند لها من فكر صحيح، هدم لهذه الأمة التى يتخطفها الناس من كل جانب، ولعل الجماعات الإسلامية تتخذ من مثل هذه الشائعات سندا لها

فى فهمها المريض والسقيم للإسلام، والعقاد وإخوان هذا الطراز فى مقدمة الصخور العظيمة التى تحول دون أفكار ذوى العاهات.

فماذا نكسب يا استاذ حسين حين نردد مثل هذه الشائعات، وحتى لو صحت وهو بعيد فإن الإنسان إنسان تعتوره لحظات الضعف والقنوط، فيضيق صدره، وتأخذ بأكظامه النوازل فيرتكب اللمم الذى لاتضيق عنه رحمة الله التى وسعت كل شيء، ولاتضيق عنه رحمة الإنسان على شحها ويبوستها.

أفكوهة أخرى: كان بعض أساتذتنا فى دار العلوم يضيقون ذرعا بالعقاد لأنه مذكور وهم فى غياهب النسيان - ويستحقونه - كانوا يذكرون لنا صراعهم مع العقاد بالأيدى، ذكر عبدالرحمن بدوى شيئا شبيها ورددنا عليه فى إبانه ويقصون طرفا مما شاهدوه من مجون العقاد ومرور النساء عرايا أمامه فى داره؟ وكان هذا الأستاذ - فيما زعم - يسكن فى مواجهته وهو قول باطل حيث لم يسكن هذا الرجل هنالك فيما تتبعناه، واعترف الرجل فى لحظة صدق بريئة أن سبب كلامه هو أنه يدرس منذ أربعين سنة وتخرج على يديه الألوف لايذكرون استاذيته فى حين يذكرون استاذية العقاد لهم، وما أمر نجية السودانية أم العقاد، وما إباحيته وانحلاله وتركه زوجة ترتع وتلعب خارج الدار ببعيد عن مثل هذه الشائعات.

إن النفس الإنسانية لاتحيا فى التطويب والقداسة ولانريد أن نضيفهما على العقاد الذى كان رجلا فى عقيدته دون أن يكون كالعوام ونذر نفسه وفكره للذود عن العقيدة الإسلامية كأبرز مدافع عن العربية والإسلام فى العصر الحديث بل ربما كان من أكابر رجال العقيدة فى كل العصور وإن الإنسان فى ضعفه البشرى هو الإنسان وكان العقاد إنسانا عاليا حتى فى أخطائه البشرية ولو كنا نصدق كل كلام يصدر عن رجل كالعقاد فى بعض اللحظات لخشينا أن نصدق مزاحه مع الاستاذ حسين ومع غيره، وكان الرجل عفا إلا حين يبين له طرف السلاح كما نعتته سارة.

لم يكن العقاد يا استاذ حسين «سوسة كتب» أو موسوعى الثقافة إن أردنا تهذيب العبارة ، لأن كفله من النظر ينسب إليه وحده ولم تكن ثقافته المتراحبة بمانعة له من النفحة الشخصية، لأن هضمه واستيعابه لما يقرأ يجعله فى عداد المفكرين القلائل الذين تبين ملامحهم حين تتيه الملامح والقسمات.

وشكرا للأستاذ حسين أحمد أمين أن أفسح لنا فى القول ولأبيه من قبله الذي تربينا على فكره منذ ميعة الصبا، وكنا نعرف كلامه حين قراءته ولو لم يكن ممهورا باسمه، ومانريد بهذا أن ندغدغ مشاعر الابن الكريم بحديث عن أبيه فإننا ورثناه معه، وما ذلك بقليل حين يتوارثه أبناء جيل بعد جيل. ■



قليني فهمي

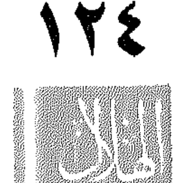
علي مبارك

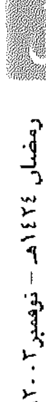


على لسان هؤلاء!

على مبارك - محمد عبده - أحمد أمين - محمد فرغلى

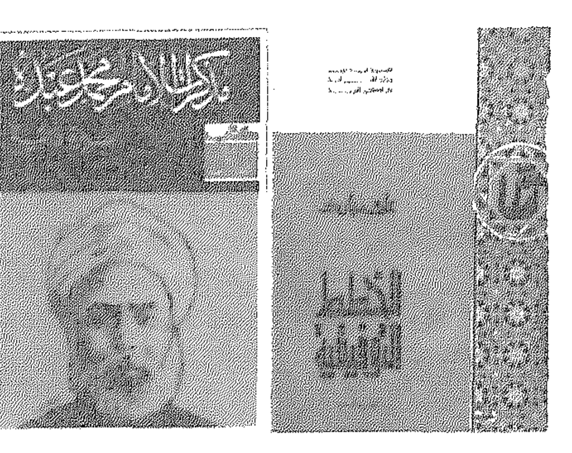
بقلم
مصطفى نبيل

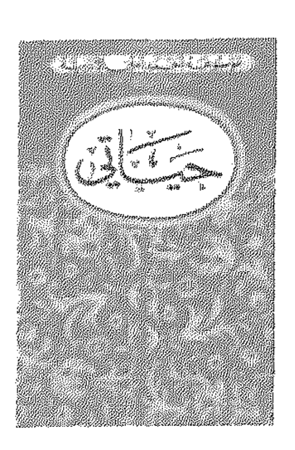


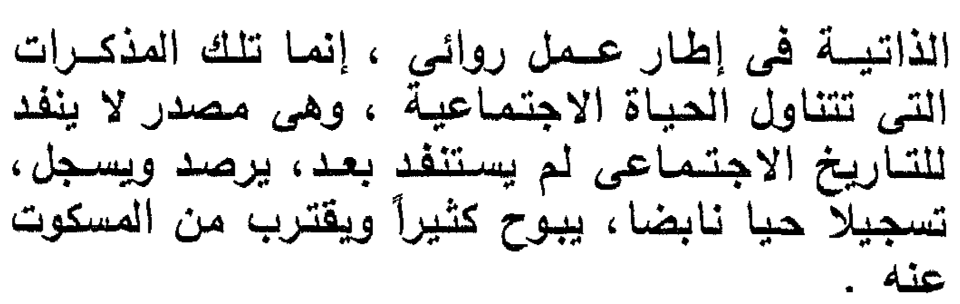


«السيرة الذاتية» نافذة على التطور الاجتماعى ، ومادة صادقة للتاريخ ، يستمد منها المؤرخون مادتهم ، خاصة بالنسبة للتطور السياسى فى مصر ، ويلقى التطور الاقتصادى اهتماما أقل ، أما التطور الاجتماعى فتدور حوله الأبحاث والدراسات .

وليس مجالنا هنا المذكرات السياسية ، ولا السير







الذاتيـة فى إطار عـمل روائى ، إنما تلك المذكـرات التى تتناول الحياة الاجتماعية ، وهى مصدر لا ينفد للتـاريخ الاجتمـاعى لم يستنفد بعد، يرصد ويسجل، تسجيلا حيا نابضا، يبوح كثيراً ويقترب من المسكوت عنه .

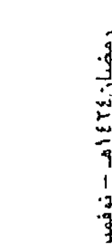
وهذه إطلالة على بعض هذه السير .

أتابع - عـادة - كـاتب السـيرة الذاتيــة ، وهو يؤكـد أنه يروى حكايتـه للتـاريخ ، حـتى تتـعظ منهـا الأجيال المقبلة ، ثم تلمح فى مكان قصى فى خلفية الصورة التى يقدمها ما يخفيه من أغـراض ، وعلى الأرجح الدفـاع عن كل ما قام به أو ما تحيز له ، وتبرير كل ما أقدم عليه ، مما يتيح فرصة دراسة ممتعة لكل شخصية داخل عالمها الخاص وفى علاقـتـهـا بالعصـر والمجـتمع الذى نشأت فيه .

ومنذ أن نقش الإنسـان اسمـه على الحـجـر ، وهو يتـوق إلى الخلود وقـهـر الزمن، ويسـعى إلى الأبدية ، ويعمل من أجل الإفلات من الفناء ، ويأتى تسجيل حكايتـه خطوة على هذا الدرب ، فعندما يكتب صاحب السيرة قصته ، فهو فى أعماقه يسعى إلى تخليدها .

لذا تجذبنى قراءة التراجم والسير ، وتستـهوينى متـابعة التجارب الإنسانية الحية ، كما يتصورها صاحبها ، أتتبعه وأرصد التفاعل بينه وبين عصره ، أراقبه وهـو يبـدو زاهدا رغم وقـوعـه فى النرجسـيـة وحب الذات ، وينجح فى التسلل إليك ثم اقتحام الصورة ، لكى يحتل فيـها مكاناً بارزا ، وفى قليل من الحالات يُبَرِّأ خلالها صاحب السيرة من رغبـة دفـينة فى لفت الأنظار ، وتوجيـه الاتهام للعصر والظروف والآخرين !

ورغم إدراكى أن السـيـر الذاتيـة لا يمكن أن تتطابق مع الحـقـيقة تمامـاً ، حتى لو كان أصحابها من الصادقين ،



لأنها استجابة لحاجة إنسانية مسيطرة ، إنهـا نبع من ذات الغـريزة التى تدفع الإنسـان إلى أعمـال وجدانية وعـاطفـية وليست عقلانية .

وتختلف السير الذاتية فى الشرق عنها فى الغرب ، وخاصة فى مدى البوح ، وذلك لاختلاف القيم والخلفية الثقافية بينهما ، ففى حين يرى البعض فى الغرب أن البوح نوع من التطهر والاعتراف وطلب الغفران ، يرى الشرق الذى تقوم قيمه على إنكار الذات وعدم التصريح بما اقترفه مستسلما لغرائزه ، مما يعتبر صورة من صور إشاعة الفاحشة . لذا يقل فى السير الذاتية العربية تناول العلاقة بين الرجل والمرأة ، وكثيراً ما يدفع الخجل كاتب السيرة إلى ستر عيوبه ، ومن العسير أن نجد فى الأدب العربى شبيها لاعترافات جان جاك روسو ، ونجد فى السيرة الذاتية العربية أحياناً ميلا إلى إعادة ترتيب الوقائع ، وإقامة معمار كامل من وحى الخيال ..

فالسيرة - كما هو معروف - مزج بين ما هو ذاتى ، وما هو عام ، ونقطة وسط بين الشخصى والموضوعى ، وهى فى النهاية تقدم صورة حية لأحداث وقعت وأفكار حدثت ، ولكل من يسجل تجربته بصدق مهما كانت مكانته أو منصبه ، بسيطاً أو مهماً ، فهو يقدم عملا فنيا ممزوجاً بشحنة من مشاعر وأحاسيس كاتبها ، وكثيراً ما تأتى عفو الخاطر ، من أعماق وجدانه وتراكم تجاربه ، وهذا وحده كفيل أن يجعلها شيقة وتصبح ضرباً من القص الجميل .

وتختلف السيرة الذاتية عن الرواية ، ذلك العمل الأدبى الذى يقوم على لمحات من السيرة الذاتية لصاحبها ، الذى يسمح له هذا القالب بالإضافة والحذف وإعمال الخيال .

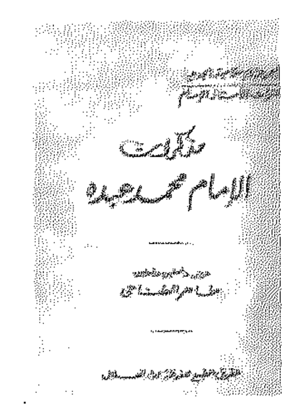
كما أن السيرة الذاتية تتسم بوحدة زمنية هى عمر صاحبها ، وتنقل الحيوات المختلفة لصاحبها بكل ما تحمله من نقص أو اكتمال ، وضعف وقوة ، ونتعرف من خلال ما خطته يداه على عالم صاحب السيرة ؛ قيمه وثقافته وأفكاره ومشاعره تجاه الناس والحياة والعصر .

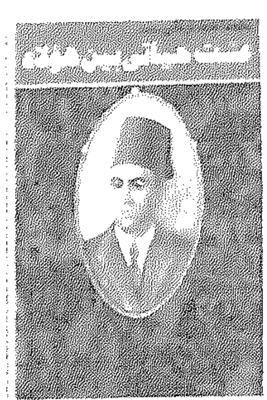
رغم أن هذه السيرة هى الجزء الظاهر من جبل الثلج المختفى تحت الماء ، ورغم ذلك فهى تفصح عن الكثير وخاصة التطور الاجتماعى خلال القرنين الماضيين ، وترصد المحاولات العديدة للنهضة ، وتسجل السراب والواقع .

ويستحيل أن نعرف بدقة وشمول تاريخ مصر الاجتماعى إلا بعد العودة وقراءة السير الذاتية التى كتبها كل من على باشا مبارك والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وبعدهما تتابعت السير ومازالت تتتابع .

ومثل «ليالى سطيح» للشاعر حافظ إبراهيم ، و«الأيام» لطه حسين و«حياتى» لأحمد أمين ، و«تربية سلامة موسى» ، و«أنا» لعباس العقاد ، و«معى» لشوقى ضيف ، و«حصاد السنين» لزكى نجيب محمود .

ولا يمكن الإلمام بالأبعاد الاجتماعية لثورة ١٩١٩ إذا لم نقرأ «الضاحك







الباكى» لفكرى أباظة، أو مذكرات محمد على علوبة، أو مذكرات عبد الرحمن الرافعى ، ومن حسن الحظ أن عدداً كبيراً من الأدباء سجلوا يومياتهم أو مذكراتهم ، مثل «مذكرات فى السياسة المصرية» لمحمد حسنين هيكل ، و«مذكراتى فى نصف قرن» لأحمد شفيق باشا، ومذكرات قلينى فهمى باشا ، و«ثلثا قرن من الزمان» لعبد الله عنان و«يوميات طالب بعثة» و«أوراق العمر» للويس عوض ، و«زهرة العمر» و«سجن العمر» و«يوميات نائب فى الأرياف» لتوفيق الحكيم ، و«خليها على الله» و«كناسة الدكان» ليحيى حقى ، و«عشت حياتى» لأحمد فرغلى باشا ، ومذكرات هدى شعراوى ومذكرات الهلباوى وغير ذلك الكثير ، والتى تقدم جميعها بانوراما للحياة الاجتماعية المصرية . وقد قامت مكتبة الأسرة بإعادة نشر الكثير من هذه المذكرات ، وقدمت بذلك عملاً جليلاً للمكتبة العربية ، وخاصة تلك التى نفدت طبعاتها .

والتراجم والسير الذاتية ، هى استمرار علم خاص فى التراث العربى هو علم الرجال ، ولا أعرف لماذا الرجال وحدهم ، هل لأنه لم يوجد فى التراث العربى نساء بارزات ترجم لهن أو كتبن سيرتهن الذاتية ؟!

وهذه بعض لمحات من تلك «السير الذاتية» لكل من على باشا مبارك ، والإمام الشيخ محمد عبده ، وأحمد أمين وقلينى فهمى ، وأحمد فرغلى .. تقدم جانبا من بانوراما الحياة الاجتماعية فى مصر .

المهندس

نستطيع القول بلا مجازفة إن أهم من ترجموا لأنفسهم فى العصر الحديث ، هو على باشا مبارك ، الذى خطها سنة ١٨٨٩م . أى قبل وفاته بأربع سنوات ، وهى سيرة كاملة تعبر عن جيل يعمل من أجل نهضة البلاد ، ونشرها ضمن كتابه «الخطط التوفيقية» عندما ترجم لكل أثر وحجر فى مصر ، ورصد التغير الاجتماعى فى عصره . ولم يقتصر اهتمامه على القاهرة وحدها ..

وتتبين من خلال سيرته خروجه من

أعماق الريف المصرى ، فى ظروف بالغة الصعوبة ، وخاض معركة باسلة من أجل شيوع المعرفة ، ورفض الواقع الذى كانت تعيشه بلاده ، وكان بحق مهندس مصر الأول ، وكان أيضا «أبو التعليم» المصرى الحديث .

وانتقل من شظف الحياة عند سفح الهرم الاجتماعى إلى قمة الهرم الاجتماعى ، وقدم لشعبه المعرفة والعمران، وكان له فضل إقامة دار الكتب المصرية ومدرسة دار العلوم ، ودعا إلى تعليم المرأة وخروجها إلى العمل قبل دعوة قاسم أمين وهدى شعراوى .

وسجل شوارع وجوامع ومدارس وحمامات وأسبلة القاهرة وغيرها من المدن المصرية .

خرج على مبارك من قلب أسرة فقيرة من أعماق الريف ، مسته الرغبة الكبيرة فى المعرفة ، فخاض صراعا طويلاً ومريراً من أجل أن يتعلم ، ويبين دوافعه فى سيرته الذاتية ، يقول «وددت أن أكون بحالة لا ذل فيها ولا تُخشى غوائلها .. فالحكام يؤخذون من المدارس..»

وهرب من أسرته ومن قريته ليلتحق بالمدرسة فى القاهرة ، التى وصلها ماشيا على قدميه ، وعمل والده كل ما كان يقدر عليه لمنعه من مغادرة القرية ، وعدم البقاء فى القاهرة ولكن دون جدوى ، والتحق بمدرسة الجهادية لتفوقه ، ومنها إلى مدرسة المهندسخانة ، ثم التحق ببعثة إلى فرنسا تسمى بعثة الأنجال لانضمام عدد من أنجال الخديو إليها .

وهى قصة استمد نجيب محفوظ من تفاصيلها فى رواية «أحاديث الصباح والمساء» شخصية الابن الذى خطف فى عصر محمد على لكى يتعلم ثم أرسل لتفوقه فى بعثة إلى فرنسا .

وارتبط الرجل برسالة ، سعى إلى تحقيقها بكل الوسائل ، وهى مقاومة الجهل وإعادة بناء المواطن ، وكثيرا ما استخدم لتحقيق ذلك السلطة المركزية ، ولعله من أوائل من تناولوا طبيعة الوادى ووجود سلطة مركزية طاغية تمسك بتوزيع المياه وتقسيم الأرزاق ، والسيطرة الكاملة على المواطنين. وكثيراً ما فقد منصبه الحكومى ، فعكف على تأليف الكتب ، استكمالاً لرسالته ، ولم يستنكف أن يؤلف الكتب لمدارس المبتديان – أى الابتدائية – فى الجبر والحساب .

وكان مبدؤه الطاعة لولى الأمر ، وكان هذا موقفه مع عباس الأول ومع سعيد وإسماعيل وتوفيق ، ومن موقعه ذاك نشر التعليم واقترب كل يوم من تحقيق مشروعه فى النهضة .

الأستاذ الإمام

نشرت مذكرات محمد عبده سنة ١٩٣١ ، بعد أن استكملها تلميذه السيد رشيد رضا ، وأهم ما تلحظه أن بروزه كان إيذانا بدخول قوى اجتماعية جديدة من أصول مصرية فلاحية إلى الحياة العامة كما كان على باشا مبارك من قبل .

رحلت أسرته هرباً من الظلم والاضطهاد من قرية «محلة نصر» بمحافظة الغربية ، ولاحقهم الوشاة

وقبض على والده الذى ظل فى السجن إلى آن توفى عباس الأول .

وتكاد تكون ظاهرة هرب الكثير من العائلات فى الريف من الاضطهاد ، أو فراراً من الضرائب الباهظة سمة عامة ، وهو نفسه الذى وقع لعائلة أحمد أمين والذى رواه فى مذكراته .

وحدد عبده رسالته فى أمرين ، الدعوة إلى تحرير الفكر من قيد التقليد، والتمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة .

تناول عقائد العامة ، التى رأى أنها ألفاظ لا تمت إلى الدين بسبب ، وهى عودة إلى العقائد الجبرية أى التى تتصور أنه لا حرية ولا اختيار للإنسان فيما يفعل ، وبالتالى تصبح دعوة للنكوص وسبباً للتخلف .

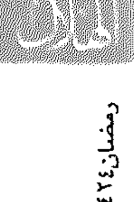
ويؤكد أن الأمة انحطت لأن الذين حافظوا على عناصر الإيمان الجوهرية قد أخذوا يفقدون روح التوازن ، ويتناسون الفرق بين ما هو جوهرى وما هو غير جوهرى ، وأخذوا ينظرون إلى تفاصيل المجتمع الإسلامى الأول كما لو كانت من قواعد الإيمان يجب طاعتها ، «فقد اشتبه على بعض الباحثين ما حدث فيه من الخرافات والبدع التى شوهت جماله، والسبب سقوط المسلمين فى الجهل بدينهم، وبعدهم عن التوحيد الخالص الذى هو أس النجاة ومدار حجة الأعمال ، وليس الأمر كما ظنوا .. كان الفقهاء ينكرون على المتصوفة معرفة أسرار الدين، ويرمونهم بالزيغ والإلحاد ، وكانت السلطة للفقهاء لحاجة الأمراء والسلاطين إليهم ، فاضطر الصوفية إلى إخفاء أمرهم، ووضع الرموز والاصطلاحات الخاصة بهم ، وأخذ الأمراء بقول الفقهاء فيهم. ولمس الأستاذ الإمام أهم الانتقادات التى توجه للطرق الصوفية وهى . العزلة عن حياة المجتمع ، وعدم المشاركة فى نهضته .

وبدأ الأستاذ الإمام حربا لا هوادة فيها على البدع والخرافات ، وقدم الكثير من الفتاوى لما ينكره الشرع من رعد الطبول والحضرات والدوسة .

ولم يكن غريبا أن أحد أهداف الشيخ إصلاح التعليم فى الأزهر ، وإدخال العلوم الحديثة إصلاحاً لحال المسلمين ، وهى ذات المعارك التى خاضها فيما بعد د. طه حسين كما سجلها فى «الأيام» وغيره من المصلحين

واهتم بالتعليم بعد أن أدرك أن المعركة تدور أولا فى العقول ، قبل أن تجرى على أرض الواقع، يحتاج التطور إلى فسحة زمنية ، تبث فيها العلوم ، وتهذب العقول .. حتى ينشأ فى البلاد ما يسمى بالرأى العمومى .. فمن يرد خير البلاد فلا يسعى إلا فى إتقان التربية وبعدها يأتى جميع ما يطلبه».

وأخذ الشيخ فى عمل دءوب يعلم الرجال ويقيم المؤسسات ، وينشىء الجمعيات ، واشترك فى تأسيس



الجمعية الخيرية المصرية . وتولى رئاستها عام ١٩٠٠ ، والتى قامت ببناء المدارس ونشر التعليم ، كما أسس جمعية «إحياء التراث العربى» التى حققت ونشرت العديد من المخطوطات الإسلامية.

وها هى حياة الشيخ كتاباً مفتوحاً تتمثل فى سيرته الذاتية ، يسعى إلى الارتقاء بأمته ، وكان الشيخ طوال حياته رائداً للفكر الحديث ، وساهم فى النهضة الفكرية ورفع شأن العقل ، وحارب الخرافة وما تؤدى إليه من تخلف .

أحمد أمين

يعرف الكثيرون «أيام» طه حسين ، رغم أن كتاب «حياتى » لأحمد أمين لا يقل غنى عنه ، وفيه من البوح أكثر ما فى «الأيام» . فهو ينقل صورة حية لعصر بأكمله بكل تفاصيله الصغيرة ، وهو مادة تاريخية لا تنضب لتاريخ مصر الاجتماعى، يقدم صور الحياة الاجتماعية منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين ، وهو حافل بالمقارنات الذكية والملاحظات الثاقبة .

«لعل حياتى تصور جانبا من جوانب جيلنا ، وتصف نمطاً من أنماط حياتنا ، ولعلها تفيد اليوم قارئا ، وتعين غداً مؤرخاً فقد عنيت أن أصف ما حولى مؤثراً فى نفسى ونفسى متأثرة بما حولى .. والعين لا ترى نفسها إلا بمرآة ، والشىء إذا زاد قربه صعبت رؤيته ، والنفس لا ترى شخصها إلا من قول عدو أو صديق » .

وسأختار من بين الصور الاجتماعية المتعددة التى قدمها ، الحياة فى الحارة المصرية فى نهاية القرن التاسع عشر ، وتحوله من ارتداء العمامة إلى الطربوش .

« .. لم تكن المدنية قد غزت البيوت وخاصة بيوت الطبقة الوسطى أمثالنا ، فلا ماء يجرى فى البيوت وإنما هو سقاء يحمل القربة على ظهره ويقذف ماءها فى زير البيت ، تملأ منه القلل وتغسل منه المواعين، وكلما فرغت قربة أحضر غيرها ، والسقاء دائم المناداة على الماء فى الحارة .. وطبيعى ألا يكون فى البيت كهرباء فكنا نستضىء بالمصابيح تضاء بالبترول .. وطعامنا يطهى على الخشب . ثم تقدمنا فطهينا على رجيع الفحم ، ثم تقدمنا أخيراً فطهينا على وابور بريمس .

ولم نكن نعرف جنيهات الورق ، وأذكر أن ظهرت عملة الورق فخافها الناس ولم يؤمنوا بها وتندرت الجرائد الهزلية عليها ، وكانت لا تقع فى يد الناس حتى يسرعوا إلى الصيارف فيغيروها ذهباً.

ويصف تطور الحارة المصرية بقوله .. «كانت حارتنا مثالاً للأسر فى القرون الوسطى قبل أن تغزوها المدنية بماديتها ومعانيها ، فقد ولدت عقب الاحتلال الانجليزى بنحو أربع سنوات ، وحارتنا ليس فيها من يتكلم كلمة أجنبية ، بل ليس فيها من يلبس البدلة والطربوش إلا قليلا .. كانت حارتنا تشمل نحو ثلاثين بيتا ، يغلق عليها فى الليل باب ضخم كبير فى وسطه باب صغير وراءه بواب ،

وهذا الباب بقية من الماضي، يحميها من اللصوص ومن ثورات الرعاع وهياج الجنود ، فإذا حدث شيء من ذلك أغلق الباب وحرسه البواب ، فلما استقر الأمن وسادت الطمأنينة استمر فتح الباب واستغنى عن البواب !

ويقوم على رأس كل مجموعة من الحارات سوق ، فيها كل ما تحتاجه البيوت ، وهي تمثل الوحدة الاقتصادية ، وبجانب السوق كل مرافق الحياة الاجتماعية ، مكتب لتعليم الأطفال ، ومسجد لصلاة أهل الحى ، وحمام للرجال أياما ، وللنساء أياماً ، ومقهى يقضون فيه أوقات فراغهم ، ويتناولون فيه كيوفهم ، من قهوة وشاى وتنباك ونحو ذلك ، وفى الحى مقاه متعددة ، منها ما يناسب الطبقة الدنيا ، ومنها ما يناسب الطبقة الوسطى .

أما أعجب الشخصيات فى الحارة «الشيخ أحمد الشاعر» ، يذهب إلى المقهى ويصعد فوق كرسى عال يجلس عليه ويتحلق حوله الناس ، ويخرج الكتاب ، وهو قصة عنترة أو الزير سالم أو الظاهر بيبرس ويقرأ فيه بصوت جهير».

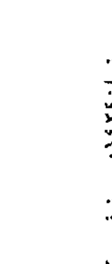
مقاومة الجديد

ويبدى دهشته من المقاومة العنيدة لكل جديد مفيد ، فأُخذ على الشيخ محمد عبده وعاب عليه أنه أبطل ميضأة الأزهر وأحل محلها الحنفيات ، وهكذا يألف الناس القديم الضار ويكرهون الجديد النافع ويدخلون فى الدين ما ليس من الدين .

ومن أطرف ما مر به هو وجيل من أقرانه ، الانتقال من ارتداء ملابس الشيخ إلى الملابس المدنية .. ويروى تجربته..

«قال صديقى يوماً : لماذا تصر على لبس العمامة ؟ والعمامة رمز رجل الدين، ولست رجل دين ، وإنما أنت تعلم اللغة العربية والأدب العربى فى كلية الآداب ، وهذه أمور مدنية لا دينية ، ثم إن لبسك العمامة فى وسط كله برانيط وطرابيش يجعلك غريبا فى بيئتك .

وتأملت الأمر طويلاً ، فهذا الذى قاله حق ، ولكنه ألف العمامة وإلف الناس لى معمما أخجلنى من التغيير ، فمازال يلح على ، ومازلت أطيل التفكير حتى ملت إلى رأيه ، وشجعنى ماكنت ألاقيه فى لبس العمامة من عناء ، فعامة الناس يجلون العمامة ظاهراً ولا يجلونها باطناً ، ويوقرون الطربوش غالبا ، ويستخفون بالعمامة غالباً .. وكم حدث لى من فصول كرهت من أجلها العمامة ، ذهبت إلى فندق مرة فقال لى صاحبه ليس عندى مكان خال ، وإذا بمطربش يأتى فيخلق له المكان .. ورجح عندى رأى صديقى فذهبت إلى الخياط وفصلت



بدلتين وشريت طربوشا .. وكنت أتعثر في مشيتي خجلا، ومنهم من يستحسن ومنهم من يستهجن !

وبعدها قامت معركة بين الطربوش والقبعة واختفى الطربوش والقبعة!»

الباشا

ومن المذكرات التي تلقي الضوء على بعض جوانب حياة مصر الاجتماعية مذكرات قليني فهمي باشا أحد أعيان الصعيد ، وأحد الشخصيات البارزة فيه ، فمثلا يصعب معرفة طبيعة العلاقة بين المسلمين والأقباط ، أو حجم الدور الذي يقوم به أغنياء ذلك الزمان إلا عند قراءة هذه المذكرات ، التي يستعرض خلالها الحوادث التي وقعت أيام الخديو إسماعيل والسلطان حسين كامل والملك فؤاد وحتى الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ .

فهو القبطي الذي أنشأ مسجداً وكنيسة متجاورين ، وأقام مستشفى في مغاغة ، وقدم قصره بحلوان الحمامات ليكون مستشفى ، وأقام مدارس مغاغة على مساحة ٣٠ ألف متر من أراضيه ، وبنيت خمس مدارس إبتدائية وثانوية ومدرسة للبنات وأخرى زراعية .

وما دونه لا يزيد على ما رآه بنفسه ، ويقدم اقتراحات تعكس هموم ذلك الزمان ، ويقترح أن يستغنى عن التدخين يوماً واحداً في الأسبوع ويخصص ما توفر للإنفاق على الدفاع الوطني . كما يقترح تخفيض راتب الوزراء إلى أربعين جنيها في الشهر ، وإلغاء مكافآت أعضاء البرلمان ، ومن أعماله التي يعتز بها إقناعه نوبار باشا رئيس الوزراء بإلغاء السخرة وعقوبة الكرباج !!

عشت حياتي

ومن السير الذاتية التي استقبلت استقبالا حافلا مذكرات باشا آخر هو محمد أحمد فرغلي باشا أحد رجال الأعمال البارزين الذي أطلق عليه «ملك القطن» ، والتي صدرت في مارس ١٩٨٤ ، وهو أول كتاب مذكرات يصدره رجل أعمال مصري .

وجاء في هذه المذكرات قوله .. «لقد وجدت من الصواب أن أظل بعيداً عن الانتماء إلى أي حزب سياسي ، محتفظا بعلاقة طيبة مع كل المسئولين ، كي أتمكن من تسيير الأمور في اتجاهها الصحيح. بعد أن وصلت رئاستي وعضويتي لمجالس إدارات الشركات والبنوك إلى ما يزيد على الثلاثين شركة وبنكا ، كما أنني كنت عضوا في مجلس الشيوخ في فترة من أحرج وأدق الفترات في حياة مصر والعالم خلال الحرب العالمية الثانية ، كما رأست اتحاد المصدرين لفترات متعددة» .

ويدعى أن حياة رجل الأعمال هي مزيج من حياة السياسي والضابط ونجم السينما ، وشبكة علاقات من الموظف البسيط حتى نجوم المجتمع . وبالمال ومع المال يجد رجل الأعمال نفسه وسط الأضواء . ويجب أن يكون رجل الأعمال،

مثل أجهزة الأرصاد الجوية، قادراً على التنبؤ بما يحدث في الغد من تقلبات ، وعليه أن يقيم شبكة شديدة الترابط من العلاقات ، خاصة مع أجهزة صنع القرار وأجهزة تشكيل الرأى العام ، حتى وإن اقتضى الأمر أن يشارك فى امتلاكها !

ويقول عن إسماعيل صدقى (السياسى البارز ورئيس الوزراء) «أنه من القلائل الذين يملكون عقلا منظما دقيقا ، وكفاءة إدارية نادرة ، وكان من الذكاء والطموح الذى أوصله لأكبر المناصب» .. وكان من المعجبين أشد الإعجاب بكفاءته . وقال له .. إنه إذا خير بين ناظر عزبة مشكوك فى ذمته لكنه كفؤ ، وآخر عديم الكفاءة وأمين لفضل الأول ، فالأول سوف يفيدنى بكفاءته ، ويسرقنى وحده ، أما الثانى فسوف أفيد من أمانته وحده ويسرقنى كل من حوله .

ويروى عن على ماهر أنه قال له .. إنه يفضل أن يكون أعضاء وزارته من محدودى الكفاءة لأن هذا ييسر له أمور الحكم ، وتسيير دفة السفينة . كما يحكى قصة إقصاء «طلعت حرب» عن إدارة بنك مصر ، وهو الذى أنشأ بنك مصر وأقام أول صناعة مصرية صميمة ، فقد عانى بنك مصر كما عانت غيره من المؤسسات أزمة مالية طاحنة فى الثلاثينيات ، ويكشف أسرار الإطاحة بطلعت حرب منشىء بنك مصر وشركاته ، فقد أطيح به لكى يحل محله حافظ عفيفى الذى يعتبره رئيس الوزراء منافسا له ، ووجد هذه هى الطريقة لإزاحته من طريقه ، ويروى أن البنك الأهلى ومحافظه الانجليزى عرض تقديم ثلاثة ملايين من الجنيهات إلى بنك مصر ، فكان يرى أن يتخطى بنك مصر أزمته حتى لا يؤدى فشله إلى كارثة محققة تعود بنتائجها على البنك الأهلى ، والغريب أن الأعضاء المصريين فى مجلس الإدارة عارضوا ذلك .

وعندما تولى على ماهر الوزارة ، استدعى حسين سرى وزير المالية طلعت حرب ، وطلب منه الاستقالة حتى تتدخل الحكومة وتحل الأزمة ، وإلا فستسحب الحكومة ودائعها من البنك .

* * *

هذه صفحات قليلة من هذه المذكرات ، والتى يوجد غيرها الكثير ، الذى يحـ ُج إلى مزيد من الصفحات لكى نقدم كنوزها . وعلى المهتمين بالتطور الاجتماعى أن يعيدوا قراءة هذه المذكرات ويتبينوا من خلالها جوانب القصور وعوامل القوة ، وطبيعة الشخصية المصرية ، وما تتعرض له من قهر ، وأيضا رصد تلك المحاولات العنيدة والشجاعة التى قام بها الكثيرون من أجل نهضة البلاد ورفاهية أهلها . ■

إبداعات الشباب

أماني عبد الحميد

لم تكن عملية نشر الكتاب الأول للمبدع الشاب بالمهمة السهلة . فأين هي دار النشر أو السلسلة الإبداعية التى تهتم بالتجارب الأولى . ومنذ وقت ليس ببعيد كان الوسط الثقافي والإبداعي يعانى من نقص شديد فى عدد تلك الاصدارات والتى لا تخرج عن نطاق هيئة الكتاب وبعض صفحات الإبداع فى المجلات أو الصحف ، أو أن الشاب يلجأ إلى النشر على نفقته الخاصة . وتلك كان يعتبرها البعض سبة فى تاريخه الإبداعى .

• هل نجحت في اكتشاف المواهب الجديدة في عالم الكتابة ؟

لكن منذ فترة الثمانينات انقلبت الآية بطريقة عكسية ، وتعددت الجهات التى تهتم بنشر تلك الإبداعات الشابة . وللأسف ثارت حولها تحفظات كثيرة جعلت البعض يتهمها بأنها السبب الرئيسى فى ظهور عدد من الكتاب الوهميين الذين تحولوا نتيجة النشر غير المدروس من عالم الهواية إلى عالم الاحتراف وهم بلا رصيد حقيقى أو كتابة ذات مستوى فنى تؤهلهم لدخول عالم الكتابة والكتاب !!

ويبدو أن الوسط الأدبى والثقافى تحول اليوم إلى متاهة كبيرة تزدحم داخلها أقلام الكتاب القادمين فى كل صوب . لدرجة أن الكثيرين رأوا أن حالة الانفتاح التى أصابت حركة النشر فى السلاسل الأدبية هى السبب الرئيسى فى ذلك . ففى الماضى كان الكاتب أو المبدع الشاب عندما تكتمل تجربته الأولى سواء فى القصة أو الرواية أو الشعر . يبدأ فى البحث عن ناقد تثق فيه جهات النشر المختلفة . ليعرض عليهُ عمله الأول . وبالتالى يحصل على التأييد المرجو أو حتى الاستحسان لكتابته . ثم ينتظر داخل قائمة طويلة من الكتاب أمثاله آملا فى أن يأتى يوم ويرى عمله النور ، ويتحول إلى إصداره مطبوعة . علاوة على مشكلات المركزية الشديدة التى كان يعيشها الوسط الثقافى . فالمشكلة تتضاعف أمام كتاب الأقاليم النازحين إلى العاصمة بحثاً عن فرصة نشر .

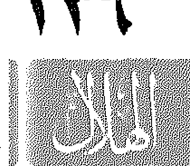
ونظراً لتلك الشروط القسرية . كانت الأعمال التى تلقى الاستحسان ويتم نشرها هى الأعمال ذات المستوى الإبداعى المرتفع والتى ترتقى إلى مستوى الاحتراف . أى أن الأديب أو الكاتب الجديد مطالبا بأن تكون تجربته مع الكتابة مكتملة العناصر عميقة التجريب ، وتقدم الجديد ، وذلك فى خلال لغة رفيعة المستوى . أى مطلوب منه أن يكون كاتباً كبيراً ذا ثقل ثقافى وأدبى وكأنه أحد كبار الكتاب المحترفين منذ سنوات عدة . كل ذلك منذ تجربته الأولى . وبالطبع تلك المركزية الشديدة والشروط القاسية دفعت بعض أولئك الكتاب والشباب إلى الشعور بالاحباط الشديد الذى دفع بعضهم إلى تفضيل الاعتزال وهجر الكتابة كلية والاكتفاء بالعيش وسط منظومة البشر العاديين .

غزارة غير منطقية

لكننا اليوم أصبحنا نعيش وسط أجواء ثقافية إبداعية تعانى من غزارة غير منطقية فى عدد جهات النشر والسلاسل التى تصدر عنها . نجح المجتمع فى التخلص نوعاً مامن مركزيته الشديدة واتسع نطاقه وأفقه ليشمل كتابات الشباب من كل صوب سواء فى الأقاليم أو فى القاهرة . بل تعددت

● تزايد أعدادها هل هو ظاهرة صحية .. أم يسمح بظهور أنصاف المبدعين؟!

الإصدارات التى ترفع شعار الاهتمام بكتابات وإبداعات الشباب وتؤكد دوماً على أنها سلاسل للكتابات الأولى ، أى أنها متاحة لكل شاب لم يسبق له النشر من قبل ، وذلك تشجيعا للشباب واكتشاف المواهب الكامنة داخلهم ، لكن للأسف تحولت المسألة من النقيض إلى النقيض أى من الشح الشديد فى نشر أعمال الشباب إلى الانفتاح غير المدروس. فتعددت الإصدارات داخل الإطار المؤسسى ، فنجد هيئة الكتاب وهيئة قصور الثقافة تتنافسان على حجم إصداراتها ، سواء الأسبوعية أو النصف شهرية أو الشهرية ، علاوة على اصدارات المجلس الأعلى للثقافة وسلسلة «كتاب أول» التى تقدم جميع الأعمال الإبداعية لمختلف اتجاهاتها من قصة قصيرة ورواية وشعر ونقد فنى أو حتى دراسات إجتماعية او متخصصة فى مختلف فروع الثقافة ، حتى أصبحنا نعيش وسط زخم من الاصدارات والإبداعات بعضها غير حقيقى ، اختلط فيه الغث بالسمين والجيد بالردىء ، وامتلأت الساحة بعدد كبير من مدعى الكتابة ، وأصبحنا نرى كتاباً ليسوا مبدعين ، لكنهم يملكون حقوق الكتاب والأدباء ، فمن ينشر له كتاب يتحول من مجرد شاب هاو إلى كاتب محترف له رصيد فى الاصدار (حتى ولو كان كتابا واحدا فقط) وعليه أن يتقدم ليحصل على عضوية اتحاد الكتاب أو نادى القصة ويصبح كاتبا معترفاً به وبالتالى يحصل على جميع الحقوق ، لتتفجر مشكلة ازدحام الساحة بأعداد من قليلى الموهبة وكأن لدينا سوقا ضخمة تعج بالكتاب والقصاصين والروائيين والشعراء وأغلبهم غير حقيقى



وهنا يظهر السؤال الأخطر .. كيف يمكن التعامل مع ابداعات الشباب خاصة تجاربهم الأولى ؟ هل الأمر يقتصر على عدد الاصدارات التى تهتم بنشر الكتابات الشابة الأولى أم أن المسألة أعمق من ذلك ولا تتعلق بالأرقام والاحصائيات فقط ؟

إحتكار جيلى والاستاذ الأدبى

كثير من الكتاب والمبدعين الشباب كانت لهم تحفظات كثيرة على السلاسل التى تصدرها وزارة الثقافة والتى تدعمها الدولة ، فنجد نبيل بهجت أحد الباحثين فى مجال المسرح يرى أن الاحتكار الجيلى لا يزال يسيطر على الحركة الإبداعية بأكملها ، بل إن الأمر يتعدى ذلك فتتحول معايير النشر لتتفق مع علاقات القائمين على تلك الإصدارات ، فضلا عن أن معظم هؤلاء العاملين فى السلاسل هم فى الأساس كتاب ومبدعون وبالتالى فإن أولويات النشر

تكون لأعمالهم أو لأعمال أصدقائهم أو حتى لأعمال أفراد جيلهم .

فى حين تطرح منال السيد القاصة قضية أخرى وهى تدنى مستوى تلك الاصدارات . وتحكى عن تجربتها الأولى وتقول إن الشاب فى مقتبل العمر يكون بلا تجربة حقيقية مع عالم النشر وبالتالى لا يعلم فى أى اتجاه يذهب . وبسبب زحام الاصدارات أصبح من الصعب التعرف على الجيد خاصة أن لجنة القراءة والاختيار لم يعد لديها الوقت الكافى للقراءة وتحديد من الأحق بالنشر .

فى حين تهاجم القاصة هناء عطية النشر الرسمى وتتهمه بالارتجالية فلا توجد أية معايير تحكمه . بل إن تلك المعايير يحددها مجموعة من الموظفين . وترى أنها لا تقوم على اساس الجودة والإبداع . وتدافع عن تجربتى محمد البساطى وإبراهيم أصلان داخل هيئة قصور الثقافة . على اعتبار أنها تجربة ناجحة لكنها انهزمت أمام معارك الموظفين وأفكارهم الجامدة . وعن تلك التجربة يدافع محمد ابراهيم طه الروائى الذى حصل على جائزة الدولة التشجيعية عن أول مجموعة قصصية له «توته مائلة على نهر» عام ٢٠٠٢ . فيرى أن سلسلة «أصوات أدبية» الصادرة عن هيئة قصور الثقافة برغم أنها نشرت مجموعته الأولى عندما كان يتولاها «البساطى» . إلا أنه يعتقد أن النشر الحكومى أو المؤسسى لا يزال قائما على العلاقات الشخصية خاصة أن النشر لا يتم إلا عن طريق توصية من ناقد أو كاتب كبير ، وهذا يفتح الباب أمام العلاقات الشخصية !

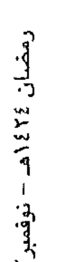
من المنطلق نفسه يوضح د . علاء الأسوانى أنه واجه في بداياته صراعاً ضارياً من أجل نشر مجموعته القصصية الأولى . وأنه طرق جميع الأبواب الخاصة بمسئولى النشر والمسئولين بالهيئات .وجهات النشر مروراً بالناشرين في القطاع الخاص . لذا فإنه يرى أن الوسط الثقافى والإبداعى لا يقدم أية مساعدة حقيقية للشباب . فعدم وجود الاستاذ الأدبى كما كان فى الماضى جعل الشاب تائها لا يجد أية رعاية حقيقية تعينه على تنمية مهاراته وابداعه . ففى الماضى كان الاستاذ من أمثال : طه حسين ود. محمد مندور أو حتى حسن فؤاد أو صلاح حافظ أو أحمد بهاء الدين ، وجميعهم أساتذة كانوا يحملون رسالة لرعاية المواهب وتوجيهها . فكانوا يعملون كالمؤسسة فى تقديم الأسماء الجديدة . ثم إرشادهم للقراءة «والكتابة» لكن للأسف انقطع دور الاستاذ الأدبى منذ فترة السبعينات مما أثر على الحركة الأدبية بشكل كبير . فقدنا خلالها مواهب كثيرة . خاصة مع عدم وجود الفرص العادلة للنشر فضلا عن تفاقم الظروف الاقتصادية الصعبة على المبدع

الشاب . فالأديب عليه البحث عن وظيفة يتكسب منها ليصرف على أدبه . وكلها مصاعب يرى «الاسوانى» أنها تعرقل مسيرة إبداعات الشباب خاصة فى ظل وجود سلاسل أدبية غير فعالة وذات مستوى متدنٍ . يرْجع السبب إلى تدنى المستوى الثقافى والإبداعى لدى القائمين على تلك السلاسل والاصدارات وبالتالى تأتى اختياراتهم على نصف مستواهم . مما يجعل الموهوبين يعزفون عن تقديم أعمالهم لها .

الكيف والكم

وعن سلاسل هيئة قصور الثقافة يرى الروائى ابراهيم عبد المجيد والذى عمل بها لمدة خمس سنوات كرئيس لتحرير سلسلة «كتابات جديدة» بهيئة الكتاب . أن الاعتراض الحقيقى على الكيف وليس الكم. ويوضح أن تلك السلاسل نشأت لاحتواء أزمة النشر التى كانت تواجه أدباء الأقاليم . لكى تحاصر المركزية الشديدة فى النشر . لكن المشكلة ظهرت بعد فترة حيث تضخم النشر الإقليمى ليضعف أمام أدباء القاهرة . وأصبحت عبارة عن سلسلة فى الإصدارات تنشر جميع الكتابات . وبالطبع تلك مسألة كبيرة جدا . لذا فهى تحتاج إلى أن تعود مرة أخرى إلى دورها الأساسى وهو اكتشاف المواهب وتشجيعها وتنمية مهارات أصحابها . بل يرى أن هذا الدور التشجيعى يجب ممارسته مع المواهب المتوسطة أيضا وليس بالضرورة مع النوابغ فقط .

أما منتصر القفاش وهو أديب شاب ويرأس تحرير سلسلة «كتاب أول» الصادرة عن المجلس الأعلى للثقافة له رؤية مختلفة عن فكرة الكتابة الأولى . فيرى أن الكتاب الأول لأى كاتب لا يعنى بالضرورة كتاباته الأولية فيوضح أن التجارب الأولية لأى كاتب لا يجب أن يتم نشرها . لأنها أعمال لا ترتقى إلى مستوى العمل الإبداعى المتكامل بشكله الاحترافي . وتلك مشكلة تواجه السلاسل التى تتبنى إبداعات الشباب لأن فرز الأعمال المقدمة يستغرق وقتا طويلا حتى نتمكن فى اختيار ما يصلح منها للنشر . لكن مع الوقت أصبحت الأعمال أكثر احترافاً . ويثير قضية بالغة الخطورة . وهى أن أعمال الشباب المقدمة فى الرواية لديها سمة رئيسية تهدد بالخطر وهى أنها أعمال ليست على المستوى الفنى الجيد ومتأثرة بشكل سلبى بالدراما التليفزيونية أو حتى بعض نوعيات الميلودراما . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مدى تأثير التليفزيون على المبدعين الجدد . مما جعل من الرواية التى يكتبها هؤلاء الشباب عبارة عن مسخ فنى لا يرتقى إلى مستوى القالب الروائى الحقيقى ولم يستطع أن يصل إلى دراما تليفزيونية . وللأسف الشديد فإن تلك الأعمال تتزايد



أعدادها يوماً بعد يوم .

وهي إشارة خطيرة إلى حجم التشويش التى يتعرض لها المبدعون الشباب لها والذى يؤثر على العملية الإبداعية ككل خلال الفترة القادمة .

ويرى «القفاش» أن المجتمع المصرى يعانى من تشويشات تعرقل مسيرة الأدب، مثال ذلك انتشار الوعى السلفى الذى ينصب أصحابه أنفسهم كحماة لسيف الأخلاق . ومن المحزن أن أصحاب هذا التيار أصبحوا منتشرين داخل مختلف مؤسسات الدولة ويقومون بدور الرقيب . وتصل أيديهم إلى مجال الثقافة والإبداع ، ويتدخلون أحياناً فى تحديد الصواب والخطأ ، وماذا يتم نشره أو حذفه . وبدأ ذلك يؤثر على المبدعين أنفسهم . وهنا يظهر دور نوادى الأدب التابعة لهيئة قصور الثقافة فى المحافظات . فى احتواء المواهب الجديدة وتقديم نشاط ثقافى حقيقى لها ومساعدتها على التشكيل قبل الانطلاق إلى عالم الإبداع الاحترافى .

أما فؤاد قنديل رئيس تحرير سلسلة «ابداعات» بهيئة قصور الثقافة ، فيشرح أن دور القائمين على السلاسل الأدبية التى تتعامل مع الشباب ينطلق من الحوار المتواصل مع الشباب من أجل توجيهه وتوضيح الطريق أمامه . ويرى أن فتح الباب على مصراعيه أمام النشر بأنواعه له سلبيات متعددة أهمها انقطاع الحوار البناء نظراً لكثرة الأعداد المقدمة . والالتزام بنشر الأعمال حتى ولو كانت متوسطة المستوى . ويضرب مثلاً بالنشر الإقليمى فى الهيئة حيث يلتزم باكتشاف خمسة أو ستة كتاب جدد كل عام عن كل إقليم . وبالتالى تأتى أعوام لا يجدون مواهب تستحق أن ينشر لها . لكنهم يضطرون إلى نشر الأعمال المقدمة إليهم ، فقط للالتزام بالأعداد المقرر إصدارها . رغم أن مستواها قد لا يصل إلى ٤٠٪ من الجودة .

ويشير قنديل إلى أن الشباب المبدع دائما ايقاعه سريع ويتعجل النشر . فهو يعتقد بالحرية المطلقة وليس الحرية المسئولة . لذا نجد أحيانا بعض الشباب الذى لم تتعد أعمارهم (١٨ سنة) ويريدون نشر أعمالهم رغم عدم امتلاكهم للتجربة أو للثقافة وبالتالى العمق فى التفكير . فإذا كان الشاب موهوبا بالفطرة فيجب رعايته وتنمية موهبته . حتى يتحول إلى موهوب بالثقافة أيضا . لكنه يرى أن السلاسل التى تصدر جميعها تحتاج إلى ترشيد وتطوير وحسم . فيرى أن غزارة الإصدار ظاهرة غير صحية تتسبب فى ظهور أنصاف كتاب على حساب الموهوبين . كما أن الحسم فى اتخاذ قرار النشر أو عدم النشر مطلوب حتى تتضح الرؤية أمام الشباب . ولمعرفة ماذا يجب أن يتم نشره . أو يستحق النشر بالفعل . ■

أول لوحة

جيـــل جديــد والثـــورة الثانيـــة للفـــن الحـــديث

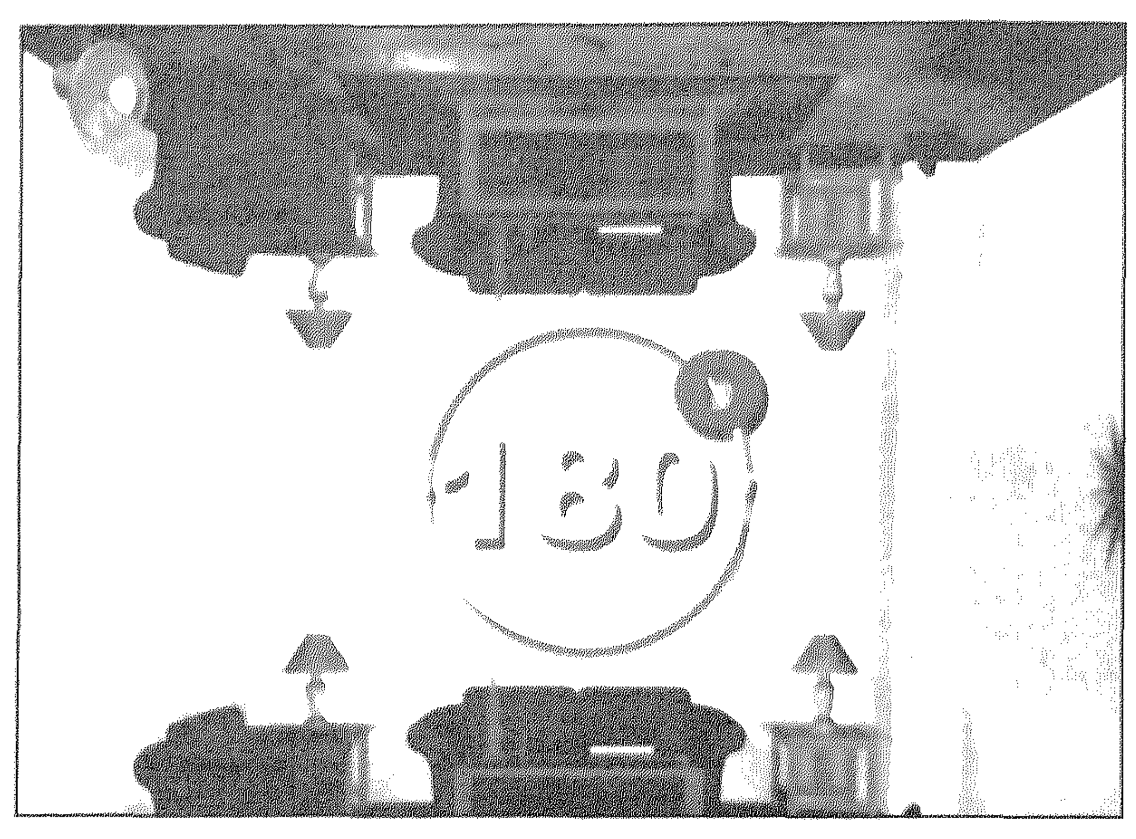
بقلم
صلاح بيصار

إذا كانت ثورة الفن الحديث قد بدأت مع نهاية الانطباعية وأسدل الستار علي آخر لوحة واقعية «حوارى البحر» لكلود مونيه .. فقد ارتاد الفن آفاقاً جديدة ارتبطت بتلك التحولات المهمة والتي تمت فى المجتمعات الإنسانية فى العالم مع بداية القرن العشرين من التقدم العلمى الذى توجه ظهور الأشعة السينية وأبحاث أعماق اللا شعور فى علم النفس وتقدم فن الضوء من التصوير الفوتوغرافى والسينما.

وربما يمثل بيكاسو رمزا لتلك الروح الوثابة .. روح الفن التى امتزجت بروح العصر الحديث بكل متغيراته.. بدءاً من «فتيات أفنيون» التى اكتشف بها الأسلوب التكعيبى إلى تركيب مقعد الدراجة ومقودها على هيئة ثور بقرنين .. إلى المجسمات والأعمال المركبة التى شكلها من تجميع الحديد الخردة والمواد المختلطة .. وحتى «الجورنيكا» التى توجته على عرش الفن الحديث.

ولكن مع الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الماضى .. بدأت ثورة جديدة فى الفن الحديث .. بدأت ثورة مابعد الحداثة .. جاءت مواكبة لما يشهده العالم فى مجال العلم .. ارتبطت بثورة الليزر والاليكترون وتنوع وسائل الاتصال والتى جعلت من العالم قرية صغيرة من خلال تلك السماوات المفتوحة حتى تحققت نظرة عميد النقاد ومؤرخى الفن فى أوربا هربرت ريد وكان واحداً من أبرز عقول الحداثة رغم ميوله القومية حين أشار فى بداية الستينيات من القرن الماضى بأن الوقت لم يحن بعد للتأريخ للفن الحديث لأنه لم يبلغ بعد مداه.!!

ولقد جاء صالون الشباب فى دورته



«١٨٠درجة» العمل الفائز بالجائزة الكبرى للفنانين أحمد عبد الكريم واسلام عبد الله

الخامسة عشر .. انعكاسا لتلك الثورة الثانية فى الفن الحديث .. وخروجا على الإطار التقليدى فى الإبداع .. هذا مع احترام النموذج المثالى القديم للعمل الفنى .. والذى واكب العصر ومستحدثاته .. وأكد أن اللوحة ذات البعدين والتى غنت للبشرية من آلاف السنين من الممكن بقوتها التعبيرية أن تختزل الزمن وتقتفى فراغ الأليكترون!!

الفكر والإبداع

بمشاركة ٢٦٨ فنانا افترشت قاعات قصر الفنون بأرض الأوبرا بأكثر من ٣٦٠ عملا فنيا تنوعت فى مجالات التصوير والرسم والحفر والنحت والخزف والتصوير الضوئى بالإضافة إلى الفنون التى تنتمى لما بعد الحداثة من «الميديا» و«التجهيز فى الفراغ» و«البيرفورمانس» أو فن الأداء.

كما خصصت قاعة لمشاركة ٣٣ فناناً من ١٠ دول عربية عرضوا ١ ٥ عملاً فنيا وقد جاءت «تيمة» الصالون فى دورته الحالية «الحضور الإنسانى» تأكيدا على القيم الإنسانية وعلاقتها بمعنى الفن.

وفى الحقيقة تعد هذه الدورة من أقوى دورات الصالون .. على المستوى التعبيرى مع تنوع وثراء الأداء فى مختلف أفرع الفن وليس أدل على ذلك من شهادة المثال الكبير آدم حنين .. فقد أوضح أن ما لفت انتباهه هو أن الشباب تناول موضوعات شديدة الواقعية ولكن من خلال تناول حديث يحمل مفاهيم

معاصرة .. ويرى أن نظرة الشباب تغيرت بالنسبة لمسابقة الصالون من الجنون إلى الفكر والإبداع الحقيقى الجميل.

- فى مجال التصوير تنوعت أعمال ٨٣ فنانا من الواقعية التعبيرية إلى الرمز ومن التشخيص إلى التلخيص الشديد الذى يصل إلى التجريد .. تأكد من خلالها حضور الإنسان المعاصر بكل نزواته ورغباته وأزماته وتطلعاته بالإضافة إلى تلك الآفاق الجديدة والتى تمثل إنعكاسا لثورة العلم وتحولات التكنولوچيا.

- فى لوحة صرحية ضخمة يجسد الفنان ياسر حسن نبايل ضراوة الحرب من خلال تلك التلال من طيات الملابس العسكرية المموهة بألوانها الداكنة مع مهمات الجنود والتى تمتد باتساع اللوحة .. وتقتحم المساحة فى الأرضية ساقا جندى بالحذاء الميرى ولا يخفى الرمز هنا من اختفاء الجسد المبتور مع قطع اللوحة والذى يشير إلى عمق وضراوة الغشم والجهالة للصراع البشرى المتمثل فى نزاعات الحروب.

- أما الفنان وليد قانوش فينقلنا فى إيقاع يجمع بين التوهج والانطفاء من خفوت الأزرق الهادى إلى تصاعد الأحمر النارى مع الأبيض المضىء إلى حالة من حالات الحركة والسكون .. أشبه بالقلب الذى يضخ الدم بين الضلوع .. حالة تختزل العناصر التشخيصية فى كثافة شديدة تتميز بدينامية الايقاع وقوة تعبيرية الألوان.

- ومن خلال ايقاع ساحر .. اقتنص الفنان كريم عبد المعطى لحظة زحام داخل إحدى المركبات تميزت بقوة تعبيرية الروح المصرية .. وقد جاء الإطار بهيئة شباك بضلفة زجاجية فتنوعت الملامس من قوة الضوء إلى خفوته الهامس خلف الزجاج الشفاف - ومن خلال توازن دقيق بين حركة الجسد ورشاقته وتوازن عناصر وتراكيب آلات التكنولوچيا الحديثة ينقلنا الفنان على حجازى إلى هذا التجاوب بين رهافة الروح والمادة.

- أما ثلاثية مجدى فرحات والتى تطل فى ثلاث لوحات فتمتد بمساحات تعبيرية بقوة الضوء الملون والذى ما إن يشتعل فى بؤرة حتى يهدأ فى أخرى فى عراك مع الظلام .. تذكرنا بثورة الليزر والاليكترون.

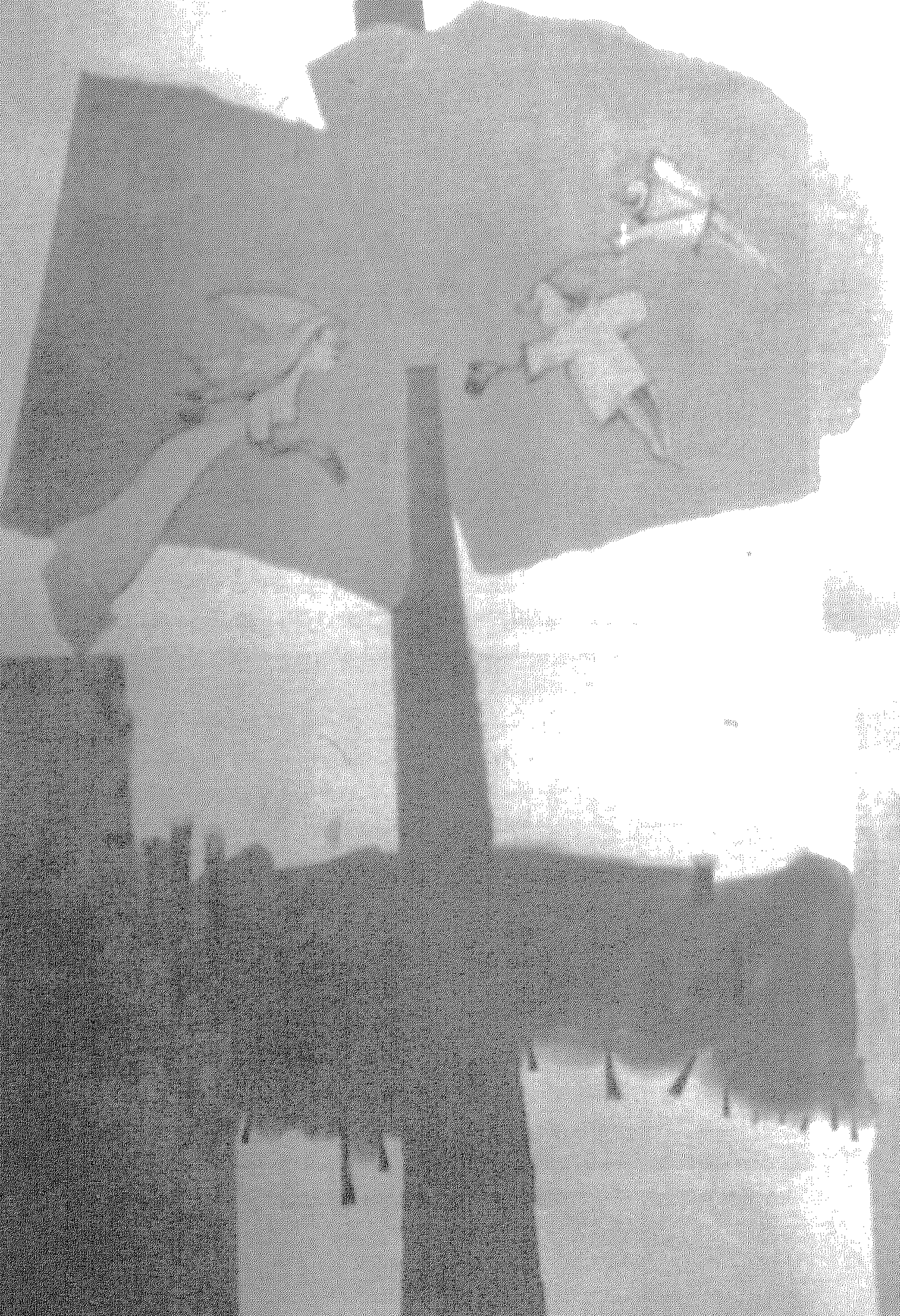
هذا بالإضافة إلى أعمال ريم السقا وكريم ندا.

الرسم والحفر

فى مجال الرسم احتشدت الأعمال بقوة التعبير .. جاءت موازية لفن التصوير من حيث القيمة وبلاغة التعبير.

- فى لوحة تجمع بين طزاجة الأداء وروح الإسكتش السريع تصور الفنانة أسماء النواوى ثنائية تجسد لصراع الأجيال من خلال فتاة وامرأة .. فتاة تمثل صورة للتمرد وامرأة تمثل صورة للحكمة والوقار وقد ساهم فى إبراز حيوية وحركة الخطوط وقوتها التعبيرية تلك البؤر الظلية التى تنبعث من أماكن عديدة.

- وفى موجات تهمس بالنور والظلام أشبه بالانغام تنقلنا سها حسن يوسف إلى عمق التواصل، الإنسانى من خلال مرجيحة تضم فتاتين .. كل فتاة مسكونة



بوهج التعبير الذى تؤكده شاعرية الضوء المتسلل بين حركات الأيدى ورشاقة الجسم الإنسانى.

- وتجمع أعمال طارق الشيخ بين التنوع والثراء بالكولاج والرسم ومزج السطوح بالأسلاك الرفيعة وهو ينقلنا إلى عالم ينتشلنا من الصراع الأرضى إلى فردوس سماوى. يتجاور فيه البشر بهيئة ملائكة مجنحة.

كل هذا مع بلاغة أعمال إيمان إبراهيم وسلوى حمدى .

- وفى مجال الحفر تنوعت وسائل التعبير وبالتبعية تنوع التكنيك مما جعل للأعمال قيمة تؤكد تمثل الشباب للعمليات الطباعية التى تواكب وترتاد افاقا جديدة ، من الحذف والاختزال وتعدد ملامس السطوح والثراء اللونى.

- وتتكاثف التناميات الخطية فى اتجاهات رأسية وافقية ودائرية بين التلقائية وبلاغة الأداء تشكل امرأة غارقة فى زمن لاينتهى بملامح طفولية محلقة بنظرة شاعرية فى عمل للفنان أحمد محيى حمزة وتنساب فى الخلفية كتابات تذكرنا بخربشات الإنسان البدائى مسكونة بوهج التاريخ وطلاسمه.

- أما محمد نبيل عبد السلام فيأخذنا إلى دنيا من التركيبات الهندسية التى تمتد فيها المسطحات تتنوع بالملامس والدرجات اللونية التى تبدو كالسلم الموسيقى من الأسود إلى الرماديات وذلك من خلال تشكيل من الحفر على الجلد.

- ولاشك أن التصوير الضوئى قد شهد فى هذه الدورة ارتفاعاً فى المستوى تجاوز الأعمال التى نشاهدها فى صالونات التصوير الضوئى للمحترفين .. بمشاركة ٤٥ فناناً تنوعت أعمالهم بين الرسم بالكاميرا من خلال ملاحم النور والظلام ... والتلخيص والاختزال فى عوالم من الرمزية والتعبيرية بالإضافة إلى اللقطات الطبيعية التى تميزت بالطرافة والشاعرية .. افتنصت سحر الحياة .. وقد برز فى هذا المجال أسماء كثيرة من بينها . عمر المعتز بالله ووئام أحمد عبد اللطيف وساره مصطفى كامل وايناس بدر الدين وهانى مصطفى كمال.

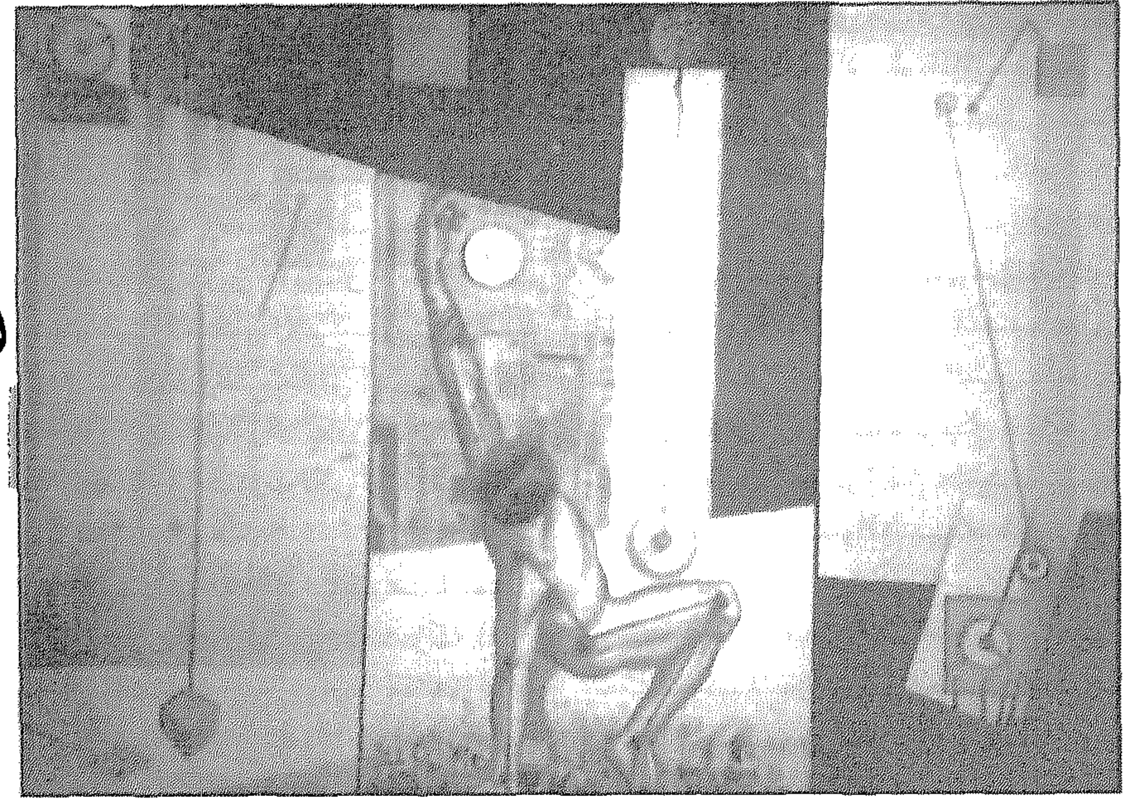
- وفى فن النحت خرجت الأعمال على الإطار التقليدى لهذا الفن وتنوعت طرق الأداء والعلاقات التشكيلية بخامات عديدة.

ولقد جاء التشكيل الذى قدمه الفنان شعبان محمد عباس مواكبا لحركة مابعد الحداثة من خلال توليف من الحبال والمعدن والحجر .. حيث قدم حوار من البدائى المتمثل فى الصخرة المشدودة على الأرض بالحبال وبين تكنولوچيا العصر المتمثلة فى التشكيل المعدنى للكرة التى تنساب فى مسطح ينحنى مسكونا بالطلال.

- وفى تشكيل ثنائى قدم الفنان إيهاب اللبان سطوحاً متنوعة تموج برهافة الكتلة التى ترق فى شريحة أشبه بالدرع لاتفرض سطوتها على الفراغ بل تتجاوب معه مسكونة بالأضواء التى تتلاشى مع الظلال.

وقد تألفت أعمال أخرى لشيماء سيد محمود وأسعد فرحات ومحمد عمر طوسون ومحمد أبو المجد ومحمد


ايقاع لونى للفنان وليد قانوش


توازن الجسد ورشاقته مع تراكيب وعناصر التكنولوجيا الحديثة للفنان علي حجازى

عكاشة.

- وعلى قلة الأعمال المشاركة فى فن الخزف «ستة فنانين» جاءت مرتفعة الأداء خرجت بهذا الفن من الملامس التقليدية إلى ملامس جديدة جعلت الطين يتنفس بتشكيلات ثرية تتوهج بالأكاسيد فى صور وأشكال تقترب من الخواص المعدنية كما فى أعمال حسن محمد رشاد والشرنوبى محمد وشيماء ممدوح هاشم.

فنون مابعد الحداثة

ولاشك أن الشباب هم الطاقة التى تمثل الحيوية والتوهج والحماس والاندفاع . ومن هنا تمثلت فى أعمالهم روح مابعد الحداثة التى تحدد الفن فى المستقبل .. وقد تألقت فى الصالون فنون الميديا والتجهيز فى الفراغ والبير فورماس أو فن الأداء.

- وفنون الميديا هى تلك الفنون التى تعتمد على الوسائط المتعددة من وسائل الإعلام الحديثة مثل الكمبيوتر والانترنت والفديو وأيضاً الصور والشرائح الفيلمية التى تبث عن طريق الاطباق «الدش» ومن خلال تلك الاشكال الاليكترونية يقوم الفنان بعمل توليف تشكيلى قد يكون لوحة أو صورة تشكيلية وقد يكون مادة فيلمية مصحوبة بالصوت لكن تعتمد على التشكيل.

فى صالون الشباب تنوعت أعمال شباب الفن من الصور المتحركة التى تتدفق بالتشكيل إلى اللوحات الثابتة ذات البعدين.

- ولقد جاء عمل الفنان معتز محمد عبد الله «تاثير» معتمدا على الصور التى تتدفق من شاشات عديدة بهدوء الألوان وحركة البشر والطبيعة وهو يمثل صورة بليغة لمعنى التشكيل بالصوت والصور التى تتابع بلا توقف.

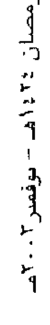
- وفى لوحة تستحضر كلاسيكية الأداء تذكرنا بروح عصر النهضة تقدم الفنانة نجلاء عبد الرحمن تشكيلا من الصور الفوتوغرافية فى عالم يموج بآفاق كونية من تلك الشجيرات التى تساقطت أوراقها تمتد فى تفريعات على جسد فتاة مستلقية متشابكة الأيدى تعلوها أخرى بملامح أشبه بوجوه الفيوم .. هنا نطل على عالم درامى يمتد فى الزمن برؤية معاصرة ووسائط جديدة.

وهناك أعمال كثيرة فى هذا الاتجاه مثل أعمال منتصر خليل وأحمد محمد محمود ومنى صلاح إبراهيم وهديل محمد عزيز ورفيق مراد فوزى وكلها تؤكد على مواكبة الشباب لما يحدث فى العالم فى مجالات الفنون .

- أما عن فن التجهيز فى الفراغ فهو عمل يحتشد بكل مقومات الفن .. قد يشتمل على التصوير من حيث الملامس المتنوعة والألوان وقد يحمل سمات النحت من حيث التجسيم والتشكيل وقد يحتشد بكل هذا فى تركيبات معاصرة من حيث دخول الخامات الحديثة والوسائط المتعددة .

وقد جاء عمل الفنانة مروة طلعت يمثل تشكيلا من سرير حديد مذهب وأسود ومفروش بغطاء من القماش رسمت على وجهه عريس وعروسة فى وضع معاكس للوضع الطبيعى وبينهما





باقة من الزهور .. هى ترتدى الفستان الأبيض اللامع أما هو فيرتدى الرداء الرسمى الداكن ومن خلال هذا التشكيل تشير الفنانة إلى حلم الشباب المجهض فى الزواج .. حيث يمثل السرير روح التراث ويرمز هذا الغطاء لحالة اجتماعية معاصرة .. العمل مسكون بالبوح والهمس والمشاعر غنى بالتشكيل من التقاطعات الرأسية والأفقية للسرير المعدنى مع هذا الغطاء الهامس بالفرح والشجن وملامس الحرير.

– وفى عمل يمثل تشكيلا حركيا يواكب ثورة الاليكترون يعتمد على الدوائر المعدنية والأطباق الفضائية جاء هذا التشكيل للفنانة أسماء رشاد محمد وهو يتحرك بالكهرباء فى حركة دائرية يلخص ببساطة مفهوم الثورة الثانية للفن الحديث.

– وجاء العمل الفائز بالجائزة الكبرى للصالون بعنوان «١٨٠ درجة» للفنانين أحمد عبد الكريم وإسلام عبد الله وهو من فن التجهيزات فى الفراغ.

العمل عبارة عن غرفة معيشة وضعت معكوسة معلقة بالسقف ومن خلال مرايا افترشت الأرض نطل على هذا الوضع فى شكله الطبيعى .. استخدم الفنانان صورا عديدة من الأثاث والديكور والاكسسوار تؤكد على فكرة انقلاب الأوضاع حيث نطل على عالم تجتاحه العولمة .. هنا سجادة شرقية وفوتيهات ومناضد مع علبة سجائر مستوردة وتليفون محمول كما يطل التليفزيون مقلوباً يبث الأنباء والدراما.

العجيب أن الفنانين تعمدا قلب صور الحياة داخل غرفة المعيشة باستثناء لوحة تشكيلية وكأنهما يشيران إلى الأمل فى الفن التشكيلى .. الأمل فى أن تكون الصورة هى نفسها الحقيقة.

– وقد جاء فن الأداء «البيرفورمانس» ليؤكد على عمق التشكيل مع التعبير وهو من أحدث فنون الإبداع حالياً .. حيث يقوم الفنان بالأداء التعبيرى الذى يعتمد على الطقوس والايماءات والحركات الايقاعية من خلال حلبة تحتشد بالعلاقات التشكيلية من المجسمات والرموز والعناصر.

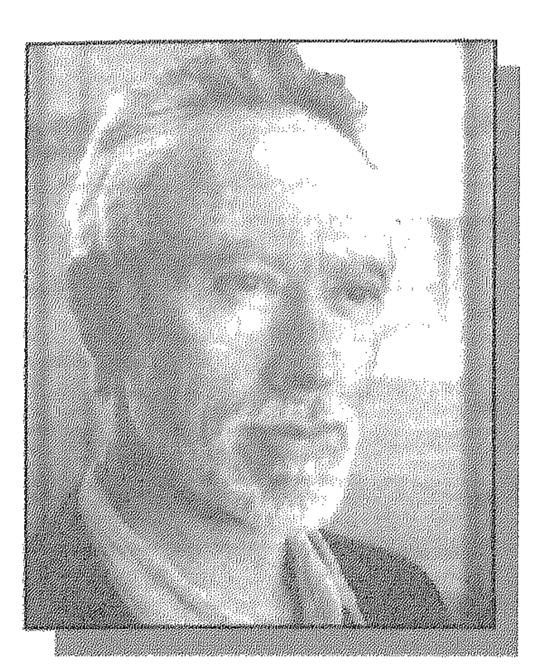
كما فى أعمال الفنانين محمد إبراهيم واسماء إبراهيم على وكمال ربيع راشد.

– وقد افترشت أعمال الفنانين العرب من الشباب إحدى قاعات قصر الفنون وأكدت فى تنوعها وثرائها على قيمة الإبداع العربى ومواكبته لاتجاهات الفن الحديث مثل أعمال محمد فاروق من الأردن ولطيفة جودت من لبنان وأحمد إسماعيل من فلسطين وجعفر مهدى وخالد محمد فرحات من البحرين.

وفى النهاية ومن خلال بانوراما الشباب المصرى والعربى فى الإبداع التشكيلى المعاصر للصالون الخامس عشر .. والذى رسم صورة لملامح الفن بكل اتجاهاته .. كل التحية للمركز القومى للفنون التشكيلية على هذا التنظيم الحضارى للصالون وكل التقدير لشباب الفن مستقبل الإبداع. ■

نوبل

قراءة في أعمال كوتزى الحاصل على جائزة نوبل



بقلم
ابراهيم فتحى

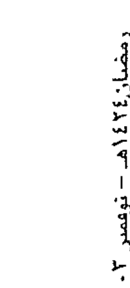
بعد أن حصل ج. م. كوتزى على جائزة نوبل للآداب لعام ٢٠٠٣ قيل إنه صوت أفريقيا. وقد وجه إليه الحزب الحاكم فى جنوب أفريقيا تحيته وتقديره لنيله تلك الجائزة بعد نادين جورديمر عام ١٩٩١ . وجاء فى الأنباء أن الرئيس مبيكى باسم الأمة وقارة أفريقيا يحيى آخر حاصل على الجائزة ويقول «إننا نستدفىء معه بالمجد المشع من تقديره . أما نادين جورديمر فتشاركه الغبطة بها، فهى شرف «لبلدنا» وتبرز التطور الكبير «لأديبنا» وخاصة فى الظروف الصعبة التى كنا نعيشها .

ولكن كوتزى لا يقيم فى بلده وقبل أيام من حصوله على الجائزة كانت كبرى الصحف الرسمية تفرد صفحة كاملة للهجوم عليه . وتتردد التكهنات حول إيثاره أن ينفى نفسه فى استراليا دون أن يفصح بأى شكوى. فالحزب الحاكم وبعض الوزراء صرحوا بأن روايته «الخزى» الحاصلة على جائزة بوكو عام ١٩٩٩ عنصرية، كما أن عملية سطو على بيته (يوجد نظيرها فى تلك الرواية) أزعجته جدا. وتزعم بعض الصحف البريطانية أنه كان مضطهدا من الحكومة، وتعيب على مثقفى بلده الخائفين أنهم لم يحتجوا على طريقة معاملته (التى لم يذكروا شيئا محددا عنها) من جانب الحكومة .

المأزق الخاص ل لقبيلة البيضاء

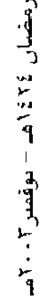
لقد ولد عام ١٩٤٠ ابنا لصاحب مزرعة أغنام صغيرة، أبيض من أصل هولندى، وقد عاصر نظام الفصل العنصرى ابتداء من ١٩٤٨ برعاية حزب المحافظين البريطانى لهذا النظام الذى استمر حتى هزيمته بالمقاومة المسلحة عام ١٩٩٢ ، وكان مثل البيض جميعا يتمتع بامتيازات (وإن كانت ضئيلة لأسرته الفقيرة) على حساب الاستغلال والقهر الوحشى للأغلبية السوداء والملونة العاملة المنتجة. ولكنه منذ مطلع الصبا كما يذكر فى مجلدى سيرته الذاتية «الصبا» و«الشباب» كان قد هيأ نفسه ليكون فنانا شاعرا كاتبا فوق المعارك السياسية راعيا «شعلة نور» يتوسمها فى نفسه. وقد لعب هذا الدور مع نفسه، ومايزال يواصل لعبه مع الآخرين . فهو يترك عون أهله وهو طالب فى العاصمة، ليثبت أن كل فرد جزيرة منعزلة وأنه لا يحتاج إلى أبوين. ويرى مظهره البعيد عن الجاذبية غريبا شاذا ولكن إيمانه بحب ومحبوب وقوى الحب يجعله ينتظر أن يجئ اليوم، يوم البزوغ إلى نور الفن . وإذا كان فى البداية مغمورا مثيرا للسخرية فهذا هو قدر الفنانين إلى أن تتجلى ذات يوم قدراته الحقيقية ويخرس الهازئين فى مواصلته مصارعة الكلمات والإيقاعات. وكان يود أن يعتقد فى بلد يعتبر معظم سكانه أن أى ملكية جريمة وأن أى شئ تمكن سرقته، أن هناك فى الجو بعض الإشفاق على السود وعلى مصيرهم . فهل كانت هناك رغبة للتعامل بأمانة معهم وتعويض قسوة القوانين ، ولكنه يوقن أن بين السود والبيض هوة عميقة، أعمق من أى حسن للنوايا ومن الإشفاق ، وأن الفنانين أمثاله يقفون على أرض مزعزعة أو وهمية.

وفى هذا الظل الذى يلقيه الرعب المراوغ فى محاكمة تستلهم كافكا تطرح مسألة الحقيقة . إن آثار التعذيب واضحة على المساجين البرابرة ولكن ما أفدح مسئولية المحقق ، كيف يعرف أن



أحدا قد قال الحقيقة التى يرتب عليها غارات وقتلى؟ ماذا إذا أرغم التعذيب السجين على قول الحق؟ ولكن المحققين كعادتهم الذين لم يبذلوا جهدا لمعرفة الأوضاع ويعتمدون على «الاعترافات» لا يصدقونه؟ . ومن وجهة نظر البطل المتعاطف مع السجين إنه شئ رهيب، أن يكون مهيئا للخضوع ثم يخضع مذعنا ولم يعد لديه ما يقدمه بعد ذلك ، بعد أن انكسر، ولكن المحققين يضغطون عليه ليقدم ماليس لديه. لماذا؟ رغبة الجهاز فى تضخيم الأخطار واختلافها لتعظيم نفوذه وموارده واخضاع السلطة العليا له؟ ويقول المحقق هناك نغمة معينة تطرأ على صوت المتهم الذى يقول الحقيقة، والتدريب والخبرة علماه وأمثاله التعرف على تلك النغمة، نغمة الحقيقة. وحينما يسأله البطل هل تستطيع أن تلتقط تلك النغمة فى الكلام اليومي، محاولا أن يعايش لحظة حميمة معه ينحيها المحقق بهزة من يده. وهو يؤكد أن عليه أن ينقب فى موقف محدد بالحفر عن الحقيقة، ولابد أن يمارس ضغطا للعثور عليها . فهو يحصل أولا على أكاذيب ، ثم يضغط فيحصل على مزيد من الأكاذيب، ثم يؤدى المزيد من الضغط إلى التحطم والانكسار وبعد مزيد آخر من الضغط تشرق الحقيقة!! الحقيقة التى يريدها ويضعها فى فم المتهم

فأثناء الاستجواب تبدو التناقضات فى الاعترافات وبمواجهته بها كما يدعى المحقق يغضب المتهم (المقيد المكسور خائر القوى) ويهاجم الضابط أو يسقط على الحائط أو ينتحر أو يموت وفاة طبيعية بانتهاء عمره . وهذا تفسير للعدد الكبير من الذين يموتون أثناء التحقيق ، الإصابات (مثل كسر الأسنان . والأطراف والقروح وتحول العين إلى حفرة دامعة أو الشلل) كلها أحدثها المتهمون بأنفسهم بشهادة الحراس والمساجين الآخرين . ويريد المحقق أن يقود حملة على البرابرة أعداء الامبراطورية وأن يتخذ من «اعترافات» غلام مبررا ، ويقول البطل ماذا إذا ضللت الطريق ياكولونيل؟ ستكون مهمتنا إعادتك إلى المدنية. وتبدو المفارقة فى استخدام كلمة «المدنية» صارخة، ويتساءل كيف شعر المحقق أول مرة وهو يلوى كماشة نزع الأظافر أو يستخدم الإحراق؟ هل يرتجف حينما يعرف أنه دخل فى الممنوع المحظور، كيف يتطهر؟ أيغسل يديه ليستطيع العيش مع نفسه والآخرين؟ ويمضى السرد ليضع هذا البطل مع فتاة من حطام التعذيب . عيناها كأنهما فى وجه قناع ذى عينى حشرة سوداء زجاجية لا تبادله النظر ، فعيناها هددتا بالاحراق واقتراب النار فتحجرت المقلتان ولا تريان إلا أشباحا . وقد أخذها لتعمل فى مسكنه، وكما لم يكن لديها ماتقوله للمحقق لم يكن لديها



مكان آخر تذهب إليه.

ويصف الراوى دبيب رغبته نحوها، رغبة معتمة غامضة متراقصة كلسان لهب، يده تمسدها وتتحسسها وتتكور مع نهدها . ماله وللمعذبين الذين ينتظرون كخنافس فى أقبية مظلمة. السرير ليس الا سريرا، والمرأة ليست إلا موقعا للذة ولا يجب المضى فى المعانى والأفكار، ونتركه وهو خادم الامبراطورية الذى يخدع نفسه أولا بتجاهل الحرب الدائرة، لينزلق مترنحا فى مساء متعرج نحو تعاطف مع الضحايا ونحو فعل عصيان كيخوتى يصارع طواحين الهواء، يؤدى به إلى السجن موسوما بأنه عدو الدولة . وقد قال جراهام جرين عن هذه الرواية، وهو من رواد الكتابة عن أفريقيا (قلب المسألة) إنها عمل مبتكر أصيل رائع.

حياة وأزمنة مايكل ك

ويواصل كوتزى فى هذه الرواية، التى نال عنها جائزة بوكر أول مرة عام ١٩٨٣، كتابة نثره الدقيق المشذب الذى كشط عن كلماته الهالات البلاغية ، وليصل إلى خفوت التصريح .

وقد قيل إن بطلها متشرد وساذج على حافة البلاهة كأنه استعير من صمويل بيكيت ثم تعثرت خطواته واقعا فى رواية لكافكا زاحفا على غير هدى عبر مشهد من مشاهد سفر الرؤيا ونهاية العالم .

ومن المعروف أن كوتزى كان يريد أن يكون شاعرا ، ولكن مفهومه للشعر يجعله يكره الاستعارات والكلمات الشعرية الطنانة المنفوخة بالهواء المخزون . إنه يرفض كما يقول فى سيرته الذاتية الشعر الذى يرتفع صاخبا فى نغمات حماسية انفعالية ويقنع بأن يتتبع الشعر انعطافات الصوت وتثنياته لدى المتكلم فى مجالات الحياة العادية، ولا يرى سببا لأن يختلف عن النثر . لذلك جاء إبداعه الشعرى متمثلا فى نثر رواياته . وقد أصبح تخصصه فى الرياضيات ولغويات الكومبيوتر فاتحا له أبواب مملكة الأشكال ، فيأتى إلى النثر بكل مهارات صائغ الجواهر الشعرية (كما يتمنى) .

وتبدأ الصفحة الأولى بمقطع شعرى «ركيك» الحب هى أب الجميع. وهى ملك متوج على الجميع، تظهر بعضهم كأنهم آلهة ، وآخرين كبشر، وتجعل بعضهم عبيدا، بعضا آخر أحرارا . والحكاية أولها القابلة تخرج البطل من بطن أمه الى العالم مشوها شفته مثل شفة أرنب، وفتحة أنفه منفرجة عريضة . عاجزا عن ممارسة وظائف تناول الطعام والكلام. أمه خادمة تلمع أرضية بيوت الآخرين ولم يستطع البدء فى التعلم المدرسى فالتحق بهيئة حكومية للأطفال المعاقين . يتعلمون فيها مبادئ القراءة والكتابة والقليل من الحساب والكنس والمسح وترتيب أغطيته السرير وغسل الأطباق وصنع السلال وبعض النجارة وعرق

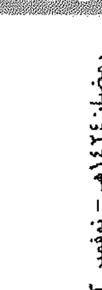
الأرض . عمل بستانيا فى كيب تاون وبعد فترة بطالة عمل منظفا ليليا فى المراحيض العمومية يعود متأخرا. وذات مرة هاجمه رجلان ضرباه وسلبا ساعته ونقوده وحذاءه وتركاه ممددا غائبا عن الوعى، بجروح نافذة فى ذراعه وإبهام مخلوع من مكانه وضلعين مكسورين. فترك العمل الليلى وعاد إلى الحدائق . وبعد أن كان بستانيا من الدرجة الثالثة ترقى إلى الدرجة الأولى، كان ممثلا للانسانية الافريقية المفروض عليها التشوه والانسحاق. ولكنه يجاهد ليجيد أعمالا وليبدع فيها. ورغم وحدته يتفرغ لأمه بعد إصابتها بالاستسقاء والأورام ويصف الراوى فى الجزء الأول بضمير الغائب هول المستشفى وأمه ملقاة فى ممر عاجزة عن المشى والتنفس بين عشرات من ضحايا الطعنات والضرب وجروح الطلقات النارية ووفيات الشباب تتوالى، وتتحامل العجوز الى الحمام فيوقفها مريض مسن فى بيجاما رمادية ويغازلها بألفاظ بذيئة ويعرى نفسه أمامها . وتبدأ رحلة طويلة فى منعرجات حظر التجول . لماذا جاء إلى العالم؟ ليعتنى بأمه. ولها حجرة تحت السلم بفضل كرم مخدوميها. ويريدان الذهاب إلى الريف وتتخيل أمه فى حنين أيام المزرعة والدفء والوفرة. أنهما يريدان الهرب من العنف غير المكترث والأوتوبيسات المكتظة وطوابير الخبز واللصوص والشحاذين وتريد الموت تحت سماوات زرقاء. وهذا الحنين إلى حياة بسيطة مع الأرض والجماعة سنجده أيضا فى رواية «الخزى» حيث يتجه الاستاذ الأكاديمى بعد تجريسه إلى القرية ومزرعة ابنته . ولم يستطع الابن الحصول على تصريح بالسفر بعد عشرات الاستمارات . وفى هذه الرواية أيضا حادثة عربة عسكرية صدمت شابا يعبر الطريق فاشتعل الغضب عند «البرابرة» وهجموا على الشقق وأحرقوها وكسروا كل مابها وكان رجل أبيض يطلق النار عليهم من مسدسه فجروه ورضربوه وسحلوه، ومزقوا ملابس امرأة وكوموا المقتنيات وأحرقوها . وهرب مخدومو الأم فاحتل الابن الشقة. وفى مجلة قديمة بها صور أطعمة شهية ونساء جميلات استرعته صور الطعام وتراها لأمه التى تقول إن الناس لا تأكل جيدا هذه الأيام ، ويرد عليها إن المواشى لا تعرف أن حربا مشتعلة، وتواصل النباتات النمو والإثمار. ويهجم على الشقة أربعة رجال يدفعونه جانبا ويخلصوها من محتوياتها ، ولكنه يعمل فى زقاق جانبى ليصنع عربة مما يلتقطه من أسلاك وعجلات وقضبان وحاول رجلان سلبها فيها جميعها منى هربا. وتسقط أمه محمومة فاقدة الوعى، حلقها جاف ولكن السعال مشبع بالمخاط. ويصف السرد بشاعة «العلاج» وتصوره . وتعاسة الابن وانتقاله بين المكاتب



والعنابر الغامضة ، وأمه فمها مرتخ متدل وعيناها مغمضتان ووجهها منضغط ممصوص وجلد متغضن يتغمض ، ويقابله رجل مكسور يكلمه بالتفصيل عن أهله وابنته ويعطيه نقودا لفطيرتين يأكلاهما معا . وسمع العصافير فى السماء وحاول تذكر متى عرف مثل هذه السعادة . ثم يسرق شاى وطعام أمه الغائبة والمرأة فى السرير المجاور. ماتت أمه بالليل وسئل عن أقارب آخرين ومكالمات فلم يفهم لماذا. أعطوه طعاما وأخذوا بياناتها وبياناته ولم يعرف إجابة ووقعها الموظف بنفسه بدلا منه. وأخذ رماد أمه بعد إحراقها وانضم الى الرجال والنساء لذين ينامون تحت الكبارى واراد أحدهم انتزاع الحقيبة التى تركتها لأمه فقاومه وقد شعر أنه لم يفتقدها الآن بأكثر مما ظل يفتقدها طيلة حياته. وواصل مشيه جائعا ورغم كل ذلك الضياع يمسك به جندى من رقبته فيركع ورأسه يلمس الأرض ويطالبه بأن يحكى قصته ويسحق رأسه فى التراب، قل لنا عن أصدقائك . وركله فى بطنه حتى أغمى عليه . يبحثون عن أسلحة ومخازن مخبأة، أصدقاؤك ؟ هجروك . قل لنا أين هم وسنجعلك تبدأ حياة جديدة .

وفى القسم الثانى يتغير الراوى العليم بكل شئ ليحل محله طبيب شفوق فى معسكر الاعتقال والتدريب وإعادة التأهيل، ويقول لقد التقطوا سجينا وحده فى وسط لا مكان فى هضاب كارو وهو يجرى فى موقع للعصابات ويبدو رغم سنواته الثلاثين شيخا مهدما. انهار أثناء إرغامه على القيام بالحركات الرياضية دون تنفس أو نبض . قالوا للطبيب إنهم يعطون السجناء شيئا يفعلونه للتسلية، يثبون جريا فى المكان . فسألهم ألم تروا أنه عاجز قالوا هو لم يشتك وقال لهم انه بصحة جيدة وكان دائما نحيفا ، سألهم الطبيب ألا تعرفون الفرق بين رجل نحيف وهيكل عظمى أين أمه؟ قال بأنها أصبحت سمادا وتجعل النبات ينمو، أحرقوها فاشتعل شعرها حول رأسها كهالة قديس ، كأنه يتحدث عن الطقس. هذا «الشئ» متهم بأنه يقود موقعا لتجميع القوات وإعدادها للقتال ولكن هذا الرجل لا يعرف حتى أن هناك حربا. وفى الأوراق أنه مشعل حرائق، ويدير حديقة مزدهرة فى مزرعة مهجورة فعلا قام المسكين بذلك، ويطعم العصابات المحلية ويسمونه مايكلز وليس مايكل لاصطناع هوية جديدة له .

ويقول الطبيب بعد وصف دقيق للمعسكر ونظامه انه حصاة، مثل أمثاله ، رقدت ساكنة منذ فجر الزمان ، التقطوه الآن وطوحوا به من يد إلى يد لا يكاد يعى ما حوله، رسم خلال أمعاء الحرب بين المؤسسات والمعسكرات والمستشفيات كحجر، لم يولد كإنسان ومثل أمه التى كدت طول حياتها ومسحت أرضيات الآخرين البيض



وطبخت طعامهم وغسلت أطباقهم وملابسهم القذرة وركعت على ركبيتها لتغسل مراحيضهم ، هناك الكثير من الأرضيات تنتظره لمسحها ومراحيض كثيرة لتنظيفها .

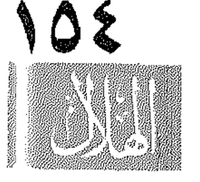
ويمر بتحقيق طويل .. هل دوره في الحرب أن يملأ شكائر الرمل ويحفر الخنادق حتى ينكسر ظهره ويخبزونه في الشمس طول النهار . ويأكل قشر البطاطس وقوالح الذرة فلا يستطيع مواصلة البقاء ويشطبون رقمه من القائمة ؟ لماذا لا يذعن لهم ويبدو كأنه نزيل من نزلاء «داخاو» المعسكر النازي الرهيب .

ومن وجهة نظر الطبيب الأبيض الذي يتساءل لماذا نخوض هذه الحرب فيرد عليه رئيسه من أجل أن يكون للأقليات كلمة في مصائرها. لذلك يدرك أنه يبدد حياته من يوم إلى يوم كأسير لهذه الحرب ، زمنها زمن انتظار . ويشير الى الممرضة التي يضاجعها ، فهي لا تعيش مثله معلقة على قيد الحياة دون حياة، على حين يتردد التاريخ متأرجحا حول أي مسار سيمضي التاريخ عندها أسئلة وأجوبة الكنيسة والمدرسة . متى اكتشفت جنوب أفريقيا؟ الاجابة عام ١٦٥٢ ، ماهي أكبر حفرة صنعها الانسان ؟ الاجابة كيمبرلي في وسط أفريقيا، مناجم الماس. والمفارقة أن هناك هضبة في شمال غربي استراليا بنفس الاسم . فسيذهب المؤلف في منفاه الذاتي إلى استراليا، وسينتهي القسم الثالث من الرواية بضمير الغائب متابعا هرب البطل من المعسكر إلى الشاطئ حيث يلتقي بحياة جمعية، وطعام واكتشاف للجنس ومتعة أن يتحسس بأصابعه اللحم الطرى (في كل كتابات كوتزي يكاد الجنس أن يكون مرادفا ليقظة الحيوية ويشغل مكانا مركزيا لدى الشخصيات حتى بالنسبة لمايكل ك الذي لم يعرفه طوال ثلاثين عاما، فحياته الجديدة تتفتح به . انه في الخاتمة يتفلسف بمفهومات أكبر كثيرا من جمجمته ولسانه ويعي وصفه الرمزي من خلال لغة المؤلف لا لغته هو، لقد وجد حقيقته ، أنه بستاني في البداية للمجلس المحلي ثم لنفسه ، يقضي وقته وأنفه في الأرض ، ولكنه أكبر من دودة الأرض التي هي أيضا بستاني بطريقها، أو من الخلد الذي يحفر في الظلام قصة الجحر لكافكا) ولكنهم يسجنون البسطاء قبل الآخرين . ويكتشف خطأه، في امتلاك كثير من البذور مختلفة الأنواع ليوزعها معا في قطعة أرض واحدة، لقد كان عليه أن يزرعها نوعا نوعا في قطع منتشرة متعددة ، وأن يرسم خريطة لديها. ويفكر في المزرعة وتطهير المضخة ليتدفق الماء لكي يعيش الانسان .

قصة «فو»

الكاتب دانيال فو ١٩٨٦

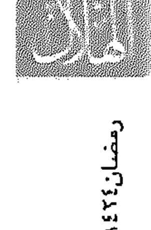
وهنا يعيد اختراع قصة روبنسون كروزو لافتا النظر إلى إغواء وتسلط



عملية الحكى نفسها فى مشهد أسطورى ولكنه نوعى محدد ماذا عن الفرد الانسانى الذى هو نقطة البدء فى بناء العالم الاجتماعى عند الوهم الليبرالى، والذى يكتشف بوعيه وتجربته الذاتية قوانين الوجود؟ اقتربت فى عام ١٧٢٠ من الأديب دانييل فو سوزان باستون التى طرحت بها الأقدار فى جزيرة صحراوية وطلبت منه أن يحكى قصتها وقصة الرجل الغامض الذى أنقذها ورافقها وتسيد عليها وكان أحيانا عاشقها المسمى روبنسون كروزو. وكان كروزو قد مات ، وكان خادمة فراى داى عاجزا عن الكلام وفى محاولتها سرد الحقيقة عنه ، اخترعته هى اختراعا ، فحكاها دانييل فو -كما حكاها كوتزى نفسه الأدب يعلق على الأدب . وفى رواية أستاذ بطرسبرج سنة ١٩٩٤ يوم متخيل فى حياة ديستويفسكى حيث يدخل حادثة سقوط ابنه (ابن كوتزى) البالغ من العمر ٢٣ سنة من شرفة منزلة العالية فى نسيج الرواية، كأنه شخصية من تأليف الكاتب الروسى فى «المسوسين» .

الخزى ١٩٩٩

أما روايته «الخزى» عن بلاده بعد انتهاء نظام الفصل العنصرى والتى سببت هجوما عليه فتبدأ بالاستاذ الأكاديمى، الذكر فى الثانية والخمسين ، مطلق حل مسألة الجنس حلا لا بأس به مواظب فى الثانية بعد الظهر يوم الخميس على الذهاب الحب شقق مبنى ضخم تدار للدعارة المحترمة. تنتظره «ثريا» خارجة من الحمام وتنزلق إلى جواره . تسأله هل شعرت بوحشة لى؟ نعم طول الوقت . جسمها متوهج باللون البنى للشهد . هى ملونة، يمكن أن يكون والدها من الناحية التكنيكية . يحجز عندها مقدما. فى صحراء الأسبوع يبدو الخميس واحة «ترف» وإبهاج لشهوانية الحواس مكتوبة بالفرنسية فالكلمة أبسط وأقصر من مقابلتها الانجليزية التى تضع صيغة الاسمية على الصفة، وثريا فى السرد ليست مسرفة فى التعبير عن العاطفة، مزاجها هادئ وسهل الانقياد وآراؤها العامة أخلاقية على نحو يثير الاستعذاب تتأذى من السائحات عاريات النهود على الشواطئ العامة، يكشفن عن «ضروع أبقار» كما تسميتها ، أما المتشردون فيجب أن يجمعوا من الشوارع كما تجمع الماشية لكى يعملوا فى كنس الشوارع . لم يسأل كيف توفق بين آرائها وخطى «عملها» . وقد نما داخله تعلق بها وظنه متبادلا . ليس ذلك حبا ولكنه ابن عمه . وتعلقه بها من نوع الافتتان بالزوجة أو الخنوع لها وهو يدفع لها فى «دورة افتقاد» من ٩٠ دقيقة ٤٠٠ راند ، نصفها يذهب إلى الشركة التى تستأجر الشابات للترفيه ، هى تمتلك ثريا أو ذلك الجزء منها الذى يؤدى الوظيفة .



وقد حاول أن يطيل علاقته بها فى وقتها الخاص فرفضت ، وتتبعها عن طريق مخبر خاص ورآها مع ولديها ، زوجة وأم محترمة تغطى نفقات احترامها بعمل بعض الوقت وعندما حاول الاتصال بها رفضته وابتعدت وفقد أثرها .

ويمضى فى نزوة قاتلة مع تلميذة له صرعته برفق يدعوها إلى شراب فى منزله مع طقوس المغازلة.. هى فى الكورس الذى يقدمه تحب الشاعر بليك ثم دور دزورث. الشعر اما يخاطبك من النظرة الأولى أو لا يخاطبك اطلاقا ، مثل البرق مثل الوقوع فى الحب. هل الشباب مايزالون يقعون فى الحب؟ أو أصبح هذا الميكانزم متقادما مثل قاطرة البخار . هى أحبت تونى موسيسون وبعد وجبة بسيطة وموسيقى لاحظت وجود كتب كثيرة للشاعر بايرون وسألته هل هو متزوج؟ . لم يعد ذلك بعد مرتين . وبعد شراب لمس خدها وسألها أن تقضى الليلة معه ، وسألته لماذا فأجاب لأن جمال المرأة لا يخصها وحدها . إنه جزء من السخاء التى تجلبه للعالم وعليها واجب اقتسامه . لم تنسحب من يده على خدها ولم تستسلم . وقالت وماذا إذا كنت اقتسمته من قبل؟ اذن وسعى الدائرة .

وقال شعرا من البحر الخماسى جعله يبدو مدرسا، رجل كتاب ، وغادرته اسمها ميلانى ، «الداكنة» اللعب بالألوان دعاها للغذاء وعاد بها إلى بيته ضاجعها على صوت المطر فوق النافذة كانت سلبية تماما مغمضة العينين ، فى الصباح كان سعيدا يقرأ أشعارا فى محاضرته ويشرح الشعر الرومانسى وأصبح للفتاة حضور فى حياته، وأنها تمثل أيضا فى مسرحية كوميدية عن جنوب افريقيا الجديدة. المنظر عند حلاق فى جوها نسبرج عملاق شاذ فى صخب يصفف شعر زبونين أسود وأبيض . ويتداول الثلاثة النكات والاهانات ويثرثرون بالتحيزات القديمة التى يكشفونها لنور النهار فيجرى غسلها فى عواصف الضحك وفى مجرتها يقبل قدميها ولم تقاوم ، وكل ما فعلته ان تركت نفسها وشفتيها وعينيها . وتركته يخلع ملابسها بل ساعدته رافعة ذراعيها ومؤخرتها ، لم يكن اغتصابا بل شيئا غير مرغوب فيه عندها ، كأنها تموت داخل نفسها طول المدة كأرنب أطبق فك الثعلب على رقبتها ، كل شئ يحدث لها كما لو كانت بعيدة من فضلك اذهب لتمضى كى تغتسل من المسألة كأنها سائرة فى نومها .

بعد ذلك تقوم القيامة. صديقها يحطم سيارته. أبوها يشكوه وتنعقد لجنة لمحاكمته ويعترف بأنه مخطئ ويرفض التوبة العلنية حتى وإن كانت ستحتفظ له بوظيفته .

وبعد الاذلال والتجريس يذهب إلى مزرعة ابنته . ولم تكن ابنته مثالا يحتذى كانت مع مجموعة من شباب الهيبى السكر والمخدرات والجنس ولما انفض

السامر عاشت مع صديقة فى علاقة سحاقية ثم هجرتها الصديقة . وتمضى القصة مع العامل الأسود لديها الذى يدبر هجوما على المزرعة من جانب أقارب له ، هجوما بشعا بالتخريب والاغتصاب وقتل الكلاب .. وتحمل الفتاة وتوافق على زواج مصلحة من العامل الزنجي للحفاظ على المزرعة وتربية طفلها الأسود .

أما هو فيجد بيته مسروقا ولكنه يعمل على كتابة أوبرا عن يابرون وعشيقته فى ايطاليا «تيريزا» مثل «ثريا» ، فوعود الإخلاص لا يمكن الوفاء بها .

وهناك مستوى علاقته بالكلاب فى عبادة لصديقين من البيض يضاجع الزوجة مضاجعة روتينية وبينما هى مع الكلب المشلول الذى يتمسح به ، ويقذف به بعد الحقنة المخدرة إلى النار .

انها رواية يستمد إلهامها من الصراع الاجتماعى والسياسى فى بلد يمضى متبعا منهج الليبرالية الجديدة حيث يتكدس الثراء فى جانب اقلية بيضاء وسوداء والفقر فى جانب الاغلبية التى أصبحت تؤمن أحيانا بانتزاع حقوقها كما فى الماضى بالعنف والجريمة ولكن الرواية مع ذلك تتجاوز زمانها ومكانها كما يقال ويؤكد النقد أنها لا تحمل مرآة لجنوب افريقيا (فلماذا كل الاستطرادات عن شعراء الرومانسية الانجليز وايطاليا؟) ، بل تطرح اسئلة مقلقة عن علاقات الأعراق المختلفة والأجيال والرجال والنساء، ومعنى الحياة والعقائد والقيم على نطاق العالم .

وفى روايته الأخيرة من أن انتقل إلى استراليا «اليزابيث كوستللو» يقول استرالى نافذ البصر بسخرية لاذعة للبطلة الرمزية: «إن الكتب التى تلقى تمجيدا منك بالجوائز لن يواصل أحد قراءتها وستنتهى بالنسيان » ولكن كتب كوتزى تستحق التذكر طويلا . ■

كلمات عاشت

● من هو الحكيم؟ الذى يتعلم من كل ما يصادفه ومن هو القوى؟ هو الذى يتحكم في عواطفه . ومن هو الغنى؟ هو الذى يقنع بما عنده ومن ذلك الإنسان: لا أحد

بنيامين فرانكلين

● أصبح مقاييس الحكم الصالح، كمية الأرز التى يتناولها عامة الشعب!

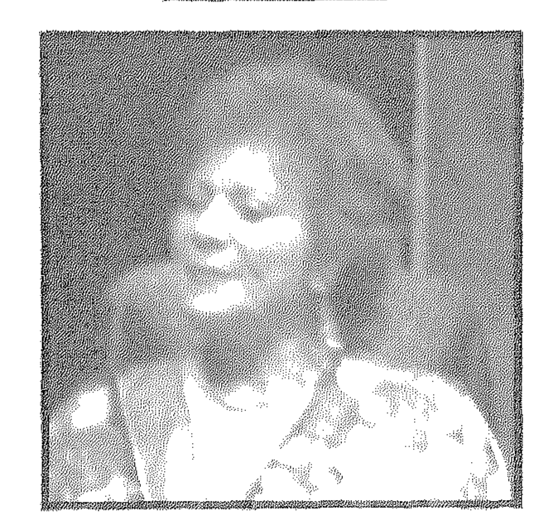
مثل صيني

● إذا غضبت المرأة، كسرت الجرة التى تحوى جميع أسرارها.

● بعض الناس كالسلم.. يصعد عليه الصاعدون وينزل النازلون، أما هم فلا يصعدون ولا ينزلون!

● رضيت من العيش بالكفاف.. فحسدني المتعلقون بالحطام!

ميخائيل نعيمة

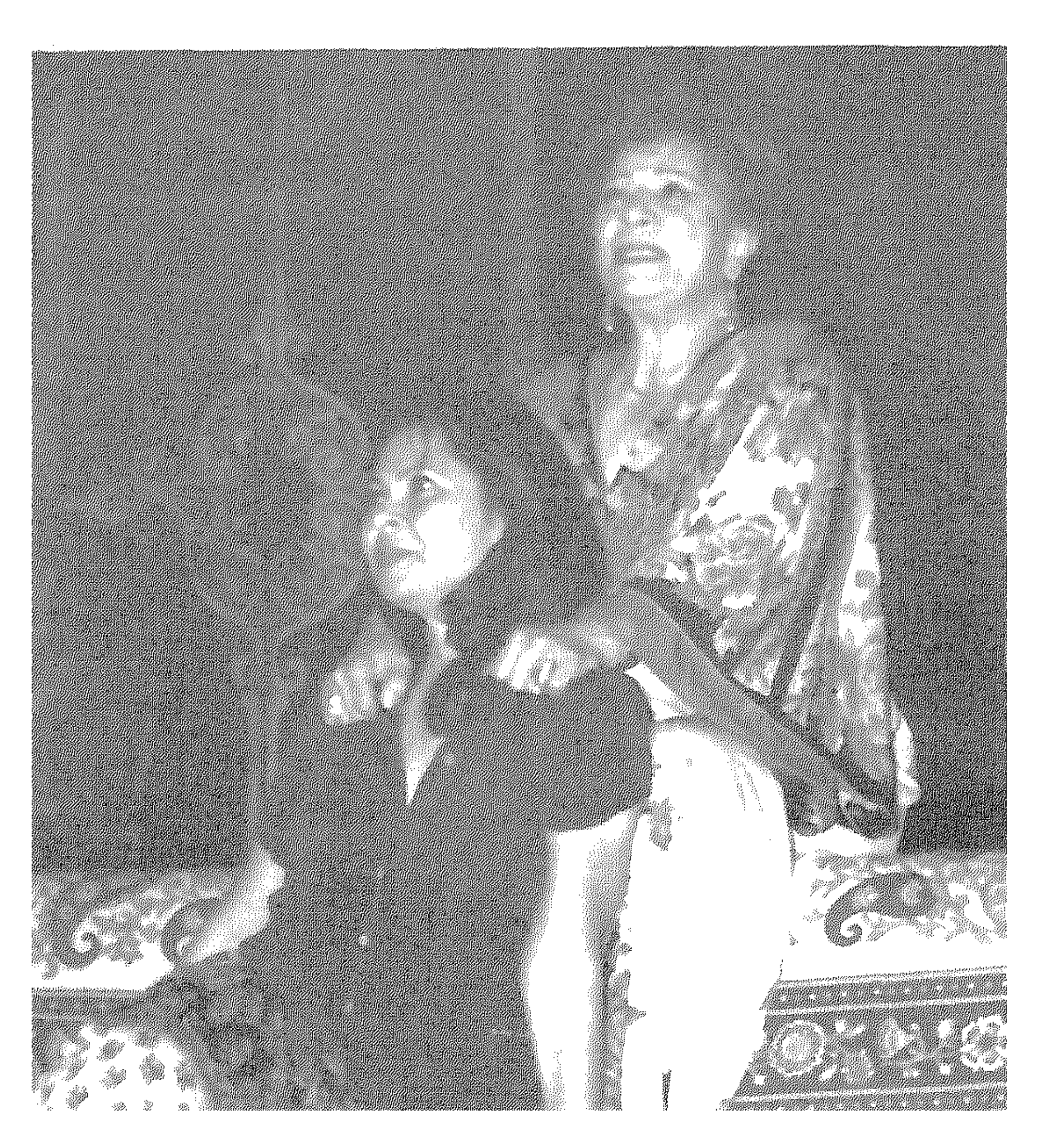


عايدة عبدالعزيز يهون من غلاظة سعد الله ونوس

بقلم
صافى ناز كاظم

لأجل خاطر الفنانة المغبونة عايدة عبدالعزيز، ألزمت نفسى بضرورة تحمل خوض شوارع القاهرة بسياراتها المتوحشة المتلاطمة فى مساء الخميس ٢/١٠/٢٠٠٣، لأصل مع صديقتي وداد مترى وسميحة الحسينى إلى مسرح الهناجر بأرض الأوبرا الجديدة، وذلك لأحضر افتتاح مسرحية «أحلام شقية» تأليف سعد الله ونوس وإخراج محمد أبوالسعود وبطولة عايدة عبدالعزيز، على حسنين، سلوى محمد على، ومحمد عبدالعظيم، وهانى المتناوى .

عايدة عبدالعزيز فنانة من جيل الستينات المسرحى، جاوزت بقامتها الفنية العالية قامة الفنانة الرائعة سناء جميل والفذة سهير البابلى، وظلت على تميزها عبر كل تلك السنوات، من الأمس حتى الآن، لم يتحشرج صوتها، ولم يتكلس وجهها على تعبير واحد تجمدت عليه فى الأفراح والأحزان. ظل وجهها بقدرته على تقديم أدق الاختلاجات، وصوتها بفصاحته وسلامته تطوعه كما تشاء وتوظفه لما تريد ولما هو مطلوب. متملكة ناصية الحضور المسرحى الوهاج، متملكة ناصية الحضور التليفزيونى المستقطب لعين المشاهد، متملكة ناصية الحضور الإذاعى بالصوت والنطق والأداء. وصفتها بـ«المغبونة» لأنها لم تأخذ حقها الكامل فى التقدير المهرجانى الاحتفالى الاعلامى، بينما سبقها فى ذلك من هن دونها بكل المعايير النقدية «الموضوعية».



عايدة عبد العزيز تتألق فى أحد مشاهد «أحلام شقية» ومعها سلوى محمد على

أقول شهادتى هذه عن عايدة عبدالعزيز، رغم معركة عاصفة شنتها على فى نهاية الستينات عند مدخل مسرح الحكيم، وصلت شدتها بأن تطاولت فيها علىّ باللسان والحذاء غضبا فيما ظنته مقالا لى بمجلة المصور، ولم يكن ممهوراً بالتوقيع، يتهمها هى، وزوجها المخرج أحمد عبدالحليم ومدير المسرح المخرج جلال الشرقاوى، بما لم يرضها. ولم أكن كاتبة الكلام، بل أكثر من ذلك، لم أكن على علم به محتوى ونشرا. ولحظة المعركة كنت مستاءة من رد فعلها الذى اعتبرته غير لائق بحركة مسرحية أنتمى إليها بالعلم والدراسة والاهتمام، وأذكر أننى زأرت على الملأ بمقولتى: « ما هذا؟ أهى عودة إلى مسرح العوالم والراقصات فى روض الفرج؟ انتهى عصر الناقد المأجور .. أنتم فى عصر صافى ناز كاظم!».

ومهما كان فى هذه الجملة من

ذاتية، فهى كانت تهدف إلى التأكيد على أن المسرح صار علما وله قواعده المحترمة . لكن هذه الجملة استفزت أحمد عباس صالح، وكان وقتها رئيس تحرير مجلة الكاتب، وحين قابلنى قال مستهزئا: «... بقى احنا فى عصر صافى ناز كاظم؟» قلت له: « إذا لم يعجبك فأنت فى عصر ضرب النقاد بالحذاء... إنما قصدت ما أرمز إليه من عصر الناقد الدارس لعلم المسرح..» ، فأكمل سخريته فى استهجان: «علم المسرح؟ علم الرّكة؟ بلا كلام فارغ!» لم أحب منه هذا الموقف ، الذى لم يهتز لواقعة محاولة ضرب ناقدة فى مسرح الدولة بالحذاء مع سبها بألفاظ خارجة، والذى هون فيه من شأن فن من الفنون «الراقية»، كان هو شخصيا يحاول الكتابة عنه، وكان كل ما استنفره غيرته من اعتدادى - فى موقف دفاعى - بقيمتى العلمية!

خاصمت عايدة عبدالعزيز وتجنبتها على طوال سنوات عديدة، لكننى لم أنكر لحظة قيمتها الفنية، وكان يصعب على رؤيتى لها «مغبونة»، مقهورة، يأخذ من هن دونها فرصا مسرحية كانت هى الأولى بها والأجدر . لكن الموهبة الأصيلة تفرض نفسها مهما كانت العوائق، فبرزت عايدة عبدالعزيز فى مسلسل محمد صبحى الجميل «رحلة المليون» فى دور زوجة الثرى جميل راتب، وبرزت فى بطولة مسرحية أحمد شوقى «الست هدى» التى قدمها المسرح القومى منذ سنوات قليلة باخراج سمير العصفورى، وعادت تفرض سطوتها الفنية والمسرحية الخلاقة بينما خفت تماما وهج زميلات مرحلتها بعد أن انسحبت من حولهن الدعائم والداعمين، فاتجهن يبحثن عن بقع إعلامية تعطيهن مساحة للكذب والخيال والاختلاق .

* * *

حين فاجأتنى عايدة عبدالعزيز بدعوتها لحضور حفل افتتاح مسرحية «أحلام شقية» ، قلت لها : سأحضر من أجل الاستمتاع بفنك فقط، فأنا لم أعد أطيق جلبة سعدالله ونوس وسفسطته .

«سعد الله ونوس» كان إنسانا مهذبا، دمثا، هادئا، ولكنه يكتب فنا فظا غليظا ثرثارا ثقيل الظل، ممتلئا بالحشو والزيادات والتكرار والاستطرادات واللت الممل والعجن الزفر. والحقيقة أننى كنت أول من قدمه فى الصحافة المصرية فى مجلة المصور عام ١٩٦٩ من خلال نص مسرحيته: «حفلة سمر من أجل ٥ حزيران»، وكنت قد قابلته فى مهرجان مسرحى بدمشق فى مطلع تلك السنة وأعطانى النص مكتوبا بخط يده، مكدسا ، مزدحما، مشوشا، زاعقا فأرجعت ذلك إلى داء المحاولات الأولى لشاب واعد قادم لتوه من دراسته المسرحية بفرنسا ولم يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره . وساعتها كنت - ومازلت - أومن بأن النص لابد أن يتناوله مخرج واع يعرف كيف يقصقص كل الشوائب والتالف - « الشغت» - ويستخلص اللحم المشفى للمدلول ويجسده بأقل كلمات ممكنة ، وقد فعلت ذلك فى مقال عرضى لنص «حفلة سمر من أجل ٥ حزيران» حين مددت قلمى إلى قلبها لاستخرجه وحدة فى البؤرة بعيدا عن هيشانها لأبرز مرارتها المكثفة التى تحتج على الضياع والتضييع لألم هزيمة ١٩٦٧ فى الجلبة الاعلامية .

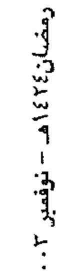
* * *

مرت السنوات وعلا نجم سعدالله ونوس بشكل مبالغ فيه ، يتجاوز لأسباب سياسية وعقائدية وأخوية ورفاقية الحكم الموضوعي الأمين ، وصار ، في ظن الكثيرين ، نداً لبريخت وبسكاتور وأحيانا - مع التواضع منهم - شكسبير وقد رشحه البعض لنيل جائزة نوبل - سيئة السمعة - استنادا لانجرافه الحاد في أعماله الأخيرة لتبني الدفاع عن قضايا الشذوذ الجنسي والعهر الاختياري ، الذي أسماه «الغواية» ، والتصوف الحلولي. إلا أن كل هذه الحلزونات الفكرية التي غطاها بدعوى : « رفض القهر، والكذب ، وأقنعة الزيف»، ظلت محتاجة في عروضها الناجحة إلى متكآت خارجية مساعدة تحذف مطولاته ، وتزين رتابته ، وتضيف لمسات من خفة الظل ، التي يفتقر إليها تماما ، حتى يمكن تمرير بؤرة عمله ، مثلما حدث في عرض المخرج مراد منير لمسرحية «الملك هو الملك» حيث قصَّ منها أمتارا طويلة وأوصل بها مقدمة شعرية كاريكاتيرية جاذبة كتبها الشاعر أحمد فؤاد نجم، وكذلك حين لعبت نضال الأشقر بكل فنيات المسرح الخلابة التي تجيدها لترويج مسرحيته «طقوس الإشارات والتحولات» ، التي أسميتها «لغو المسرح أو مسرح اللغو» في مقالي عنها بهلال يوليو ١٩٩٧ .

ولقد حاول المخرج «محمد أبوالسعود» أن يضيف إلى نص مسرحية «أحلام شقية» من دون أن يمارس - فيما يبدو - «إبداع» القص والحذف والاختصار من الـ «كدش» الونوسي ، فتراكم المكرر والمسهب والممل بل والمقزز من العبارات والألفاظ والتصورات ، ولولا أن بعض تلك التصريحات المثيرة للغثيان ، التي جاءت على لسان شخصية «ماري»، قد دارت بذكاء ، مع إيماءات الاستنكار ، هربت به عايدة عبالعزيز ، بفنها الاستثنائي ، ثقلها الغليظ «الفواح»، لما استطعنا أن نصمد من دون الاستجابة لرغبة التقيؤ! ولا أظن أن الأستاذ المخرج محمد أبوالسعود كان يحاول أن يطبق بعض فنيات «مسرح القسوة الذي دعا إليه أنتونين أرتود في مطلع القرن الماضي، بين عامي ١٩٢٥ و١٩٢٧ ، وحتى لو كان قد تعمد ذلك فلا أراه قد أصاب أي هدف يرجحه «الفن» .

* * *

لقد كانت بؤرة «أحلام شقية» هي الموازاة بين مرض «السيلان» - الذي ينشأ من الاختلاط والتردد على بيوت العهر ويورث العقم ويعد من الأمراض السرية التي تتفشى مع التكتم والإخفاء - ومرض «القهر» - الذي ينشأ من النظم الدكتاتورية التي يتفشى فيها التجسس على المواطنين وتورث العقم النفسي والروحي والفكري . وتمثل المرضين ، أو الحالتين ، أسرة « ماري/ فارس» و«غادة / كاظم» ، ويحوم حولهما «الحلم / الشاعر » ، الذي يكون بمثابة الابن المنشود المحقق للأمومة التي تتوق إليها السيدة ماري المصابة بالعقم بسبب الوباء الذي جلبه إليها زوجها ، ويكون «الإنطلاق الرومانسي نحو تحقيق الإرادة» الذي تتوق . إليه السيدة الشابة «غادة» زوجة ضابط



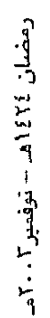
البوليس الفظ الفاسد المتغطرس «كاظم» ، والذى ينتهى بالاغتيال غدرا بليل !

هذه البؤرة نشدها بعد جهد جهيد من ركام الثرثرة - التى بدت كأن لانهاية لها - تسردها «مارى» و«تسردها» «غادة» فى مونولوجات خفف كثيرا من وقعها الممل أنها كانت محمولة على أكتاف فنانتين ، الأولى : «عايدة عبدالعزيز» بعراقتها وجدارتها المسرحية الفائقة ، والثانية: « سلوى محمد على» ، الشابة التى بلغت نضجا مفرحا ، لم أتنبأ لها به فى مطلعها المسرحى منذ سنوات حين قسوت عليها ورجوتها أن تبتعد عن سبيل المسرح ، لكن ها هى ، للمرة الثانية ، بعد نجاحها البالغ فى عرض أحمد عبدالحليم لمسرحية شكسبير «الملك لير» تكذب ظنونى وتؤكد أصالتها المسرحية برهافة وتواضع وهى تعبر عن قهر ومذلة «غادة» الأسيرة كالعصفور فى قبضة البطش «الزوجى/ البوليسى» . إن «سلوى محمد على» أعطتنى ومضات تشابه بينها وبين «سعاد حسنى» فى مرحلتها الفنية الناضجة ، مرحلة « الكرنك» و«شفيقة ومتولى» و«حب فى الزنزانة» . بل إننى أرشحها لتؤدى دور الأديبة «الآنسة مى» ، لو تحقق الأمل فى إخراج مسلسل أمين عن حياة الرائدة العظيمة وصعوبات حياتها.

أقدم لكم الشاعر

محمد أبوزيد

إلى الذين يتصورون أن الشعر قد انتهى، لأنه لم يعد كما يحبون، لأنه لا يعيد زمانهم، وصار يتكلم بلسان أحفادهم، أقدم ، بحماس فرح، هذا الشاعر الذى بلغ فى ٥/٤ الماضى الثالثة والعشرين وتخرج هذا العام فى كلية تجارة الأزهر، بعد أن عبر مشوار دراسته كله بين مدارس الأزهر فأتقن اللغة، وعبر مشوار يُتْم الوالدة منذ الفطام فأرهف الإحساس بالوجع، وجعه والآخرين. أقدم محمد أبوزيد «الطهطاوى»، الذى يجرب مع «القاهرة» محاولة الائتناس، التى تبدو للغريب ، مستحيلة. قرأت له ديوانه الأول «ثقب فى الهواء بطول قامتى» الذى يطارده فيه، رغم شبابه الغض، هاجس «الموت» وهو جاد فى مصاحبته ومرافقته ومطاعمته وارتشاف القهوة معه يسائله، فى قصيدة من قصائده، «هل فنجان يتيم من القهوة السادة يكفى لرتق كل الهموم؟». أدهشتنى، وأعجبتنى لغته عن «الموت»، التى تبدو أنها لغته الأم ومفردات حياته اليومية ، فهو يمضغ كلمة «الموت» بلذة من وجد فى ذلك حريته. إنه يتأفف لكنه لا يعير ملاحم الحقد على المتخمين بالثراء والدفء أى اهتمام، بل كأنه فخور لأنه غير متخم وغير متدثر، فهو زاهد فى الترف، ولا يكترث كثيرا بفروق الطبقات ، يحب أن يسير فى البرد بقميص خفيف على البدن، لعله درب نفسه على هذا الحب، وسعيد



لأنه حين آتى القاهرة سكن فى الغورية، فى مبنى كان يسكنه الشيخ خطاب السبكى، وصار مأوى للشباب المصرى المغترب فى القاهرة.

هذا الفتى الشاعر جعلنى ، وأنا أقرأه فى ديوانه لأول مرة أقول . ما أغرب الشعر الذى بإمكانه أن يصنع - حتى من «الموت» - جمالاً يغسل القلب بالعزاء !

بهاجس «الموت» ، سرى عنى وهو يقول . «دائما دائما، تسألنى إشارات المرور، وصحف المعارضة، وكلية التجارة. كيف حالك؟، أرد مينا : لم أمت بعد...»، وهو يقول : «أتحسس حافظة نقودى عند مرورى، أمام البنك المركزى، دائما دائما،... .... ،... ،... يااااااه ، كل هذا الملل؟» ، وهو يقول فى «حزن يلائم النعناع». «هل كان يجب أن أرحل، حتى أدمن الحبوب المنومة، والموت، وأم كلثوم المذابة فى الشاى، حتى أساوم الأرض عن جاذبيتها ، لأطير هكذا، بلا جناحين، فى الضباب الملائم لموته رومانسية...؟»، وهو يقول فى «نصف تاريخ أزرق» «نهاية أخرى غير هذه النهاية، أريد أن أبدأ بها قصيدتى ، لكنهم ذهبوا، كعادتهم فى الصباح، تركوا ملاءات السرير مبعثرة، فناجين القهوة نصف ممتلئة، البيض على النار قبل أن يسلق، الخبز دون أن يمس، نسوا مفتاح المنزل متعمدين، وقالوا إنهم عائدون، أنا - الأحمق - صدقتهم، فلم أعبىء الهواء بأطيافهم، لم أعلق أصواتهم على الجدار، لم أشد على أرواحهم بحرارة، وأبكى، فقط أهرول حتى الباب مندهشا، بجلباب أبيض فضفاض... أفلت من عيون أصدقائى لأكتب نصف قصيدة، وأظل هكذا إلى الأبد، بنصف يد، أختبىء من البيوت التى بلا سقف، والأزواج الغائبين، وعربات الإسعاف، وقصر بطول ثلاث محطات مترو، رحلوا فى الصباح، كان الموت يمر بكرش حكومى يترجرج أمامه كخضاضة، وعينين حمراوين ، عصا سحرية، خبط بها على الحناجر وصاح، جلا.. جلا، فطار قلبى، رحلوا فى صباحهم فى مسائى، لأنتظرهم - بعد انتهاء القصيدة - أمام روحى، بأردية خضراء زاهية».

ص.ك

قبور ملونة

شعـــر: محمد أبو زيد

(١)

أيتها المدينة الخائفة منى
أنا خائف منك
من عيونك التي بلا نوافذ
من عروق يدك
التى ترتجف حين تصافحنى
من أظفارك المطلية بدمى
لذا..
سوف أغزو الهواء
لكى أصل إلى عينيك وحيداً
وأنا أحسب المسافة

بين قامتى والشرفة

(٢)

الشمس
لماذا لم تعد تمشط للحجرة حزنها ؟
وآية الكرسى المعلقة على الحائط
لماذا لملمت ملابسها
ورحلت دون أن تخبرنى ؟
والأطياف التى امتلأت بالجماجم
لماذا تلهمنى بالجوع
بسقف يئن
بقبر يملك نافذة جميلة
وأشجاراً ملونة تبتسم دوماً

(٣)

وحيد أنا بما فيه الكفاية
كدودة قز فى فم ثعبان
أتذكر أحيانا
أننى يجب أن أنسى
وأن أصادق عيون المصابيح المفقودة
والجراد الذى يتجشأ الأرصفة
والشوارع التى تمط شفتيها
ثم تطلب كأساً
من الخمرة المعتقة

(٤)

أحياناً
أنفخ فى زجاج المترو
حتى يجىء البخار
فأكتب اسمى واسم قريتى
بحروف منمنمة صغيرة
ترتجف من الصقيع
أحياناً
أربت على أكتاف المراكب
التى تعبر النيل راحلة للجنوب
وأنا أغمس عينى
فى أكواب البكاء

(٥)

معذب أنا
تائه أنا

صعلوك بنفس القدر تقريباً
كغبار قديم
كعش بين كفى حريق طازج
أسير كنافذة مغلقة العيون
وأبكى كصباح فاجأه الرعد
وأرحل كقصيدة تافهة
كربيع لا يرتدى فساتينه الزاهية
تآمرت علىّ النجوم
والسيارات مسدلة الستائر
والبابيونات السوداء
ومصاعد البنايات العالية

(٦)

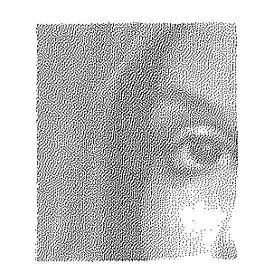
لم أعد أصادق مقاعد المقهى
المغلق
ولا كتبى ذابلة الخدين
ولا دبابيس شعر الفتاة
التى تجلس أمامى فى الحافلة
خاصمت جميع الأشجار محدبة الوجه
وعيون الشوارع المغرورقة
بالنسوة

(٧)

فقط
أريد أن أشترى
بعض الكذب لفمى
وبعض التثاؤب
كى أستطيع أن أرقد
على أرصفة
لا تشتهى العصافير

(٨)

فقط
أحلم بمن يخبرنى
عن المسافة بين الحزن وعينىّ
عن بكاء السحابات الجنوبية
عن أحلامى مجعدة البسمة
عن أبكم
أكثر حماقة منى
أكثر غربة منى



مهرجان محاصر بالرقابة وداء النسيان

سينما

بقلم
مصطفى درويش

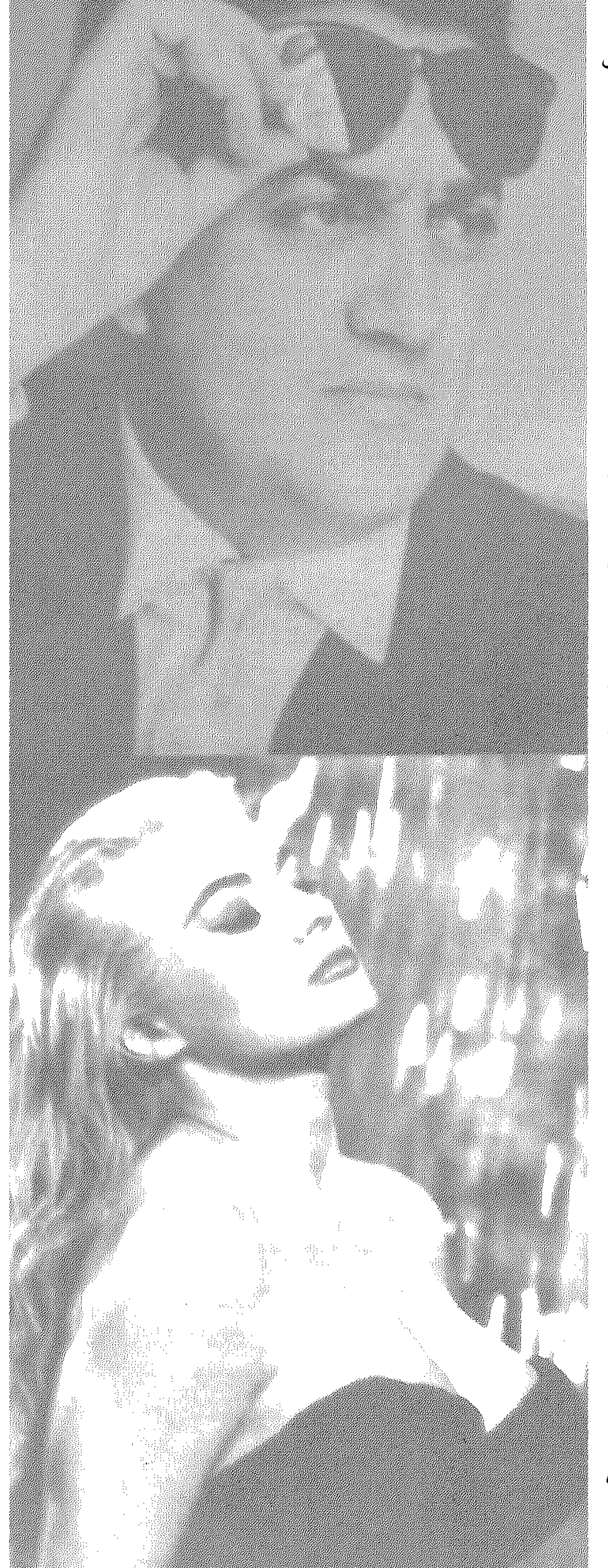
آفة مهرجانات السينما عندنا، هى الرقابة بسطوتها المتحكمة فى مصير عروض الأفلام.

وإلى عهد قريب كانت جميع المهرجانات تعانى من تلك الآفة التى ابتلى بها فن السينما، بعد مولده بقليل، وبالتحديد فى العام السابع من القرن العشرين.. وأين؟

فى نيويورك وشيكاغو، أكبر مدينتين وقتذاك فى العالم الجديد.

ولكن مع بزوغ فجر ثورتى المعلومات والاتصالات أخذت مهرجانات السينما فى مشارق الأرض ومغاربها تتحرر شيئا فشيئاً من سطوة الرقابة المعادية بحكم طبيعتها لحرية التعبير

ابطال فيلم "حب البنات"



بداية النهاية

وعندى أن بشائر التحرر بدأت مبكرة بعض الشىء ، مع اعتراض الرقابة فى فرنسا ، تحت تأثير الكنيسة الكاثوليكية، بنفوذها الواسع، على عرض فيلم «الراهبة» (١٩٦٦)، لصاحبه «جاك ريفيت» أحد رواد الموجة الجديدة الفرنسية، وهو فيلم مأخوذ عن قصة بنفس الأسم للأديب والفيلسوف الفرنسى «دنيس ديدرو» (١٧١٣ – ١٧٨٤)، ألفها قبل الثورة الفرنسية ، وإن كانت لم تنشر إلاَّ بعد نشوبها بسبعة أعوام.

ولقد أثار اعتراض الرقابة غضب نقاد السينما، ومعهم قطاع كبير من الرأى العام.

ولأنه كان غضبا منظما أحسن تنظيم ، فقد انتهى بالراهبة معروضا، كاملا، غير منقوص ، ضمن الأفلام المختارة لمهرجان «كان» هذا، ولم تمض سوى بضعة شهور على تحدى الرقابة على النحو سالف البيان، إلا وكانت جميع الأفلام الأخرى قد تحررت عروضها العامة من نير الرقباء.

وبفضل معركة الراهبة التى انتهت باندحار الرقابة لصالح تحرر فن السينما فى فرنسا، امتد مدّ التحرر من الأغلال إلى شواطىء الولايات المتحدة، وغيرها من الشطآن.

ربيع السينما

والآن ليس للرقابة الحق فى ان

لقطة من "الحياة اللذيذة" أحد افلام فيلليني

تتدخل بنعم أو لا فيما يجرى عرضه للكبار من الأفلام فى البلاد التى تحررت فنونها من النير الرقابى.

ومن باب أولى ، ليس لها هذا الحق فيما يجرى اختياره من أفلام للمهرجانات العريقة، مثل ڤينيسيا، كان ، لندن وبرلين

فالقول الفصل فى ذلك الاختيار أصبح مقصوراً على أعضاء اللجان المكلفة به ، من قبل رئاسة المهرجان.

ولا غرابة فى هذا ، ففن السينما ، وبعد فترة ظلامية طويلة، يعيش أزهى أيامه، فى ظلال ربيع حرية، الأمل كل الأمل ان يكون ربيعا دائما.

وعلى كل ، ففى رحاب ذلك الربيع، ولد مهرجان القاهرة السينمائى الدولى، قبل سبعة وعشرين عاماً.

ولم يكن مولده أمراً سهلاً، ولم تكن مسيرته بدون عثرات .

آمال محبطة

فكما هو معروف ، كان الهدف الظاهر من اقامته هو النهوض بالسينما المصرية، من خلال الدعاية لها، أثناء أيام المهرجان، واتاحة فرص اللقاءات والحوارات بين مبدعى الأفلام الأجنبية المعروضة وبين صانعى الأفلام عندنا.

فضلاً عن فتح النوافذ ، للإطلال منها على جميع تيارات السينما العالمية دون استثناء، وعلى نحو يتيح لعشاق السينما، ان ينهلوا من ينابيع الثقافة المرئية حتى الارتواء.

ولسوء الحظ لم يكتب لكلا الأمرين ان يتحقق حتى يوم الناس هذا.

فالسينما تعثرت خطاها، ولم تتقدم خطوة إلى الأمام، وإذا تقدمتها تراجعت خطوات.

والنوافذ لم تفتح إلا باستحياء، ولتغلق سريعا فى وجه المولعين بفن السينما.

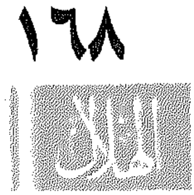
الهوى والغرض

ولعل خير مثل على تعثر الخطى، ما حدث فى مهرجانى السينما الأخيرين، بالاسكندرية وبالقاهرة، فالأول انتهت فعالياته دون عرض أى فيلم مصرى، داخل المسابقة وخارجها ، وهو أمر غير مسبوق فى تاريخه غير القصير.

والثانى كادت تنتهى فعالياته هو الآخر دون العثور على فيلم تشارك به السينما المصرية فى مسابقاته ، لولا ان جاءه الغيث قبل الافتتاح ببضع ساعات فى صورة فيلم تعرض لحملة وحشية، لم تكن تخطر ببال احد، من قبل نفر متشنج، دفعه الهوى الجامح إلى تنصيب نفسه وصيا علينا، ورقيبا يسلبنا الحق فى حرية التعبير، والاستمتاع بابداع صانعى الأطياف ذلك الفيلم هو «حب البنات» لصاحبه «خالد الحجر» والبنات اللائى تدور حولهن أحداث فيلمه وجودا وعدما أخوات من أب واحد، وأمهات ثلاث مختلفات ، أى غير شقيقات وهن حسب ترتيب ظهورهن على الشاشة «ندى» (ليلى علوى) «غادة» (حنان ترك) ورقية (هنا شيحا).

وصية ماكرة

ولم يجمعهن تحت سقف واحد سوى وصية أبيهن الواسع الثراء، التى جاءت



مـشــتـرطة علـيـهن، حـتى يحـصلن على نصيبهن فى الميراث، ان يعشن معا داخل شقة واحدة، مدة لا تقل عن عام.

فـإذا لم يتـوفـر هـذا الشـرط لأمر مـا، انفردت الاخت الكبرى بالحصـول على كل ما أودعه أبوها باسمها فى أحد المصارف ، وهو مبلغ طائل يعد بالملايين.

ونظراً إلى اخـتـلاف الطبـاع ، ونشـأة كل واحدة عن نشأة مختلفة عن الأخرى.

تعـرضت حـيـاتهن مـعـا فـى البـداية لأزمات وصراعات سرعان ما تغلبن عليها بفضل.

أولا: نصـائح جـار الأخت الكبـرى الجديد، طبيب الأمراض النفسية الدكتور «مـــــهــــيــب»، ويؤدى دوره (أشـــرف عـبـدالبـاقـى)، على نـحـو أظهـر تفـوقـاً وامتيـازاً، نادراً مـا توفرا لآدائه فى أفلام لمخرجين آخرين.

قوة الحب

ثانيا: حب ما كاد يبلغ قلوب الأخوات الثلاث، حتى استقر فيها، واستأثر بها، وملك عليها كل شىء.

وقصة هذا الحب، كيف بدأ وبفضل ما اثاره فى قلوبهن من عـــواطف وأهواء، تركت فيـها جذوة لا سبيل إلى اطفائها، كيف انتهى بهن، والسعادة ترفرف عليهن فى خـتـام راقص، إنما يذكرنا «بسـهـر الليالى» وخاتمته المشابهة إلى حد كبير.

ولا عجب ان يكون ثمة اوجه شبه بين «سهر الليالى» و«حب البنات».

فقصة وسيناريو وحوار كليهما بقلم المؤلف السينمائى «تامر حـبيب»، ذلك المبـدع الموهوب، الذى يعلق عليـه كل من يهـمـه أمـر السـينمـا المصـرية، آمـالاً عراضا.

فـخـيـوط السـيناريو رغم كـثـرة الشـخـوص، قد نسجتـها موهبة «تامر» باقتدار..

وإذا بحثنا فى السيناريو عن مواقف مفتـعلة ، ومتعـارضة مع المنطق أعيانا البحث.

وإذا واصلنا البحث عسانا نعثر على مصادفات لافتة للتخلص من مأزق فى معمار السيناريو، لم نعثر على شىء.

فسيناريو «حب البنات»، متماسك، يطرد مع أحداثه اطراداً منطقيا، سلسا، وتترابط وقائعه ترابطا محكما.

وليس فيه شخوص جرى اقحامها دون مـسـوغ فنى على الأحداث وصفوة ما يقـال عن «حب البنات» أنه فيلم يشد المشـاهد، ويستـهـويه، لقـدرة المخـرج، فضلا عن كاتب السيناريو على إضافة عنصر التشويق .

ولامـتـلاكـه، أى المخـرج أولا قـدرة التـحكم فى الايقـاع، يوظفـه فى خـدمة الحوار والسرد أجمل توظيف وابلغه دون أى ترهل وثانيـا قـدرة تحـريك الممثـلات والممـثلين على نـحـو أتاح لهم الارتفـاع بمسـتـوى أدائهم إلى اقـصـى مـا فى وسعهم دون افتعال.

ولعل خير دليل على امتلاكه ناصية التحريك هذه، تلك البراعة التى ادى بها جـمـيـع المـثـلات والممـثلين، كـبـيـرهـم وصغيرهم أدوارهم فى «حب البنات» .

وأخص بالذكـر «خـالد أبو النجـا و«أحـمـد عـز » فكلاهمـا لم تصـدر منه

ليلى علوى و أشرف عبد الباقي في لقطة من « حب البنات»

حركة أو نبرة فيها غلط أو نشاز وكلاهما ينتظره غد مغرد فى عالم صناعة الأطياف فيما لو قاوم اغراء الصعود السريع، وفيما لو أحسن الاختيار . وتجنب التكرار

هذا عن تعثر خطى السينما المصرية باختصار

النوافذ المغلقة

أما عن النوافذ التى كنا نأمل أن تفتح، حتى نطل منها على ابداعات السينما العالمية .

فالثابت أنها، على العكس من ذلك، تزداد انغلاقا على مر السنين.

واضرب مثلا على ذلك بنسيان ذكرى رحيل المخرج فيديريكو فيلليني» أحد أهم رموز السينما الايطالية والفائز باربع جوائز أوسكار، وهو رقم قياسي لم يفز به أى مخرج من غير ابناء العم سام.

فمن المعروف عن «فيلليني» أنه انسحب من الحياة، فى مثل هذه الأيام، وبالتحديد فى اليوم الأخير من أكتوبر ، وذلك قبل عشرة أعوام .

ضياع الفرص

وبمناسبة الذكرى العاشرة هذه، احتفل مهرجان «كان» الأخير بالمخرج الكبير، وذلك بعرض جميع أفلامه، بدءا من أضواء المتنوعات (١٩٥٠) ذلك الفيلم الذى شاركه فى أخراجه «البرتو لاتوادا».

وانتهاء «بصوت القمر» (١٩٧٠)، الذى قام باخراجه قبل أن يجيئه الموت بثلاثة أعوام، وادى الدور الرئيسى فيه الممثل الايطالى روبرتو بينيني، الفائز بأوسكار أفضل ممثل رئيسى عن ادائه فى « الحياة جميلة» (١٩٩٩) ولأن مهرجان القاهرة السينمائى كان قد حدد

... ومع أحمد عز فى لقطة اخري

لبدء فاعليات دورته الأخير أياما من أكتوبر، ذلك الشهر الذى انسحب فى آخر ايامه من الحياة، فقد توقعت أن يحذو المشرفون عليه حذو المشرفين على مهرجان «كان»، فيعملون جاهدين على أن تكون ذكرى مرور عشرة أعوام فرصة لعرض جميع افلامه، على امتداد اربعين عاما، أسوة بمهرجان «كان»، خاصة، إن اغلبهم كان، بحكم مركزه، ضيفا على المهرجان .

ولابد أنه سمع بالذكرى العاشرة، واحتفاء المهرجان بها، وأغلب الظن أنه قرأ خبر عرض فيلم تسجيلى أو أكثر عن المخرج الراحل، فضلا عن خبر عرض جميع أفلامه ليلا على شاشات كبيرة، جرى تشييدها، خصيصا لهذه المناسبة، فى بعض ميادين وشواطئ مدينة «كان» .

وعلاوة على ذلك ، فنفر منهم مشرف على لقاء الثقافات بين مصروايطاليا (٢٠٠٣-٢٠٠٤)

ومن أهداف هذا اللقاء، التعريف، ولا ريب، بالسينما الايطالية .

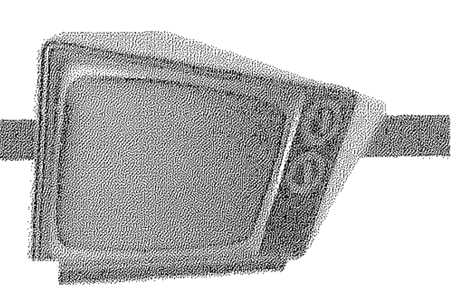
داء حارتنا

وبحكم اشراف هذا النفر الم يكن فى وسعه مطالبة الجانب الأيطالى بأفلام فيللينى بمناسبة الذكرى العاشرة لرحيله، لعرضها فى المهرجان ؟!

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث

وربما التفسير الوحيد، مع حسن الظن، لإضاعة هذه الفرصة النادرة، هو داء حارتنا، داء النسيان !! ■







بقلم : مرفت رجب

الصفعة

بدا المشهد أمام أعيننا حافلاً بالبهجة.. والست الأمريكية تميل على رجل الأعمال المصرى تكاد تدخل فى «عبه»، وبعينيها السوداوين الواسعتين تكاد تأكله، وهى تواصل رمى خصلات شعرها المنسدل إلى ماوراء كتفيها، وأما الرجل الأمريكى الجالس على يمينها، فرغم امتلائه، فلم يكن لحضوره أو لكلامه أى وزن.

كانت صالة الطعام فى أفخر فنادق القاهرة قد استعدت للمأدبة التى دعى إليها الصحفيون المشاركون فى الاجتماع، وهم الذين أخذوا أماكنهم حول الموائد المستديرة، واستغرقوا فى فحص الملفات الموزعة عليهم، ليتعرفوا على البرنامج التليفزيونى موضوع الاحتفال، والذى تفيد معلومات الملف أنه برنامج جديد تبدأه كبرى شبكات التليفزيون الأمريكية، برعاية وتمويل إحدى أكبر الشركات التى يرأسها رجل الأعمال، وهو ما يبرر جلوسه جوار الست المديرة الأمريكية.

وما إن بدأت الحلوة كلامها حتى تبين أنها، على عادة مثل هذه المناسبات، تكرر ما ورد بالملف، من أن البرنامج الجديد Inside The mid-

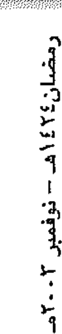
dle East من داخل الشـرق الأوسط، سـيكون شـيئاً مـختلفا، يعطى صـورة مـغايرة للصـورة التـقليدية المعروضـة فى الإعـلام الأمـريكى عن الشـرق الأوسط وأهلـه، وأتبـعت ذلك بتـقـديم مـقـدمى البرنامج ومراسليه العديدين فى المنطقة، ثم دعت الحاضرين لمشاهدة مقتطفات من أولى حلقات البرنامج..

وجـاء فى تلك الفـقـرات واحـدة من جـزيرة سـوقطره اليـمنيـة وسـحـرها الأخـاذ، وأخـرى عن المقـامـرة فى إسرائيل، والمشاكل التى تواجهها أندية القمار التي تعمل بدون رخصة، والجدل الذى يثـيـره وضـعـهـا، والميزات التى ستعود على كل من له صلة بالقمار فى إسرائيل، إن تم السمـاح بإعطاء رخص الممـارسـة للراغـبـين فى ذلك.. ومـا إن انتهى عرض الشريط حتى وجهت الحلوة دعوتهـا إلى الحاضـرين لطرح أسئلتهم وإذا بالصفعة تنزل زوووو.

صحفية مصرية نابهة

وليس شرطاً أن تكون الصفعة كفاً ينزل على وجه أو قفا، فقد استطاعت الصـحـفيـة المصرية «النابهة» «مـاجدة موريس» أن توجـه الصـفـعـة الواجـبـة، فنحن وإن لم نسـمـع أى «زوووو» إلا أننا رأينا أثر الصفعة امتقاعاً فى وجه الست الأمريكية، تلك التى انسحبت الدماء من وجـهـهـا، وتركت الصـفـار يزحف على راحته، أما هى فقد غادرتها الراحة مع أول كلمة نطقت بها ماجدة موريس، ولا أظنها عادت إليها من بعد.. واقع الأمر أن لحظة الصمت التى تلت الدعوة لطرح الأسـئلة، لم تكن أبدا تنبئ بما تلاها، وهو ما كان من صوت ماجدة موريس، وقد خـرج هادئاً، واضـحـا، قـاطع النبـر والمعنى بلا أى لبس. (حضت) مـاجـدة مـوريس دعـوى الست الأمـريكيـة بأنـهـا سـعـيدة بعـقـد المؤتمر الصـحـفـى فى القـاهرة، لينطلق البرنـامج الجـديد من القـاهرة، وذلك لأهمـيـة القـاهـرة، وناس القاهرة، وأهمية مصر طبعاً لاتخفى على أحـد.. كـان سـؤال مـاجـدة مـوريس بسيطا.. أين القاهرة فى البرنامج .. يا سـيـدتى لقـد أطلت الكلام عن أهمـيـة مـصـر، ولكننى أراها غـائبـة تمامـا عن البرنامج، ذلك الذى خلا من أى فقرة عن مـصـر.. أو حـتى من وجـود أى مـراسل لكم فى مصر.. كنا نتوقع منكم اهتماما – مـثـلا – بمؤتمر الحـزب الوطنى والتطورات السـيـاسـيـة فى مـصـر.. لكن شـيـئـاً من ذلك لم يحـدث، وفى المقـابل، تحدثونا عن القـمـار فى إسـرائيل، وهل القـمـار هو أهم مـا يحدث فى إسرائيل، غريب جداً أن تهتموا بالقمار وتغفلوا أى ذكـر للعنف الدمـوى فى الأراضى المحتلة..

وهكذا ضـبطت الصـحـفيـة المصـرية النابـهـة إيقـاع المؤتمر الصـحـفـى شكلاً وموضـوعـاً.. فـقـد توالت بعد ذلك أسئلة





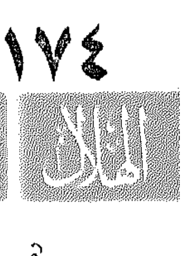
زملائها الصحفيين، وقد أخذوا منها الخيط، فمن سائلة عن الجمهور الذى سيوجه له البرنامج، وكيف لا يوجّه إلى جمهور الولايات المتحدة نفسه إن كانت النيّة حقاً هى تقديم صورة غير نمطية عن الشرق الأوسط - ومن رجاء بعدم عرض الشحاذين أو سيدات الصالونات، إلى رجاء آخر مشابه بتجنب كل ما هو نمطى فنحن شعوب لها حياة حافلة بأفكار وأنشطة لا تقتصر على المزارات السياحية، ومن سؤال عن كيفية طرح الأفكار الجديدة والزوايا المخالفة المزعوم تناولها فى البرنامج إن كانت العينة من النوع الذى عرضته الست المديرة الأمريكية إلى أن وصلنا إلى جوهرة التاج..

جوهرة التاج

والمفترض فى التيجان - أنها على مر العصور - حين توضع على الرأس تزينه، مرسلةً على وجه لابسها من ألوان كريم أحجارها ولآلئها، ظلالاً توحى بالأبهة والرفعة، لكن يبدو أن من التيجان المعاصرة ما يلعب أدواراً معاكسة.. فقد كانت جوهرة التاج فى ذلك المؤتمر الصحفى هى ذلك السؤال الذى طرحه من قام موجهاً كلامه لرجل الأعمال المصرى وهو الذى تتحمل كبرى شركاته أعباء «رعاية» البرنامج المحتفى به. فقد بدأ الشاب كلامه بالإشادة بالنجاح الذى يحققه رجل الأعمال، وبالسمعة الطيبة التى يتمتع بها كما تتمتع بها أنشطة أعماله، أما سؤال السائل فقد كان .. نحن مندهشون كيف تضحى بسمعتك الطيبة تلك وكيف معها تضحى بحب الناس لك وتقبل أن تنفق من مالك على نشاط أمريكى فى ظل تردى سمعة الأمريكان بعد مواقفهم وأفعالهم الشائنة فى منطقة الشرق الأوسط، وأترك لخيال القارئ العزيز رسم صورة الست الأمريكية.

وأرجو أن تتخيلوها بالألوان.. أما صاحبنا رجل الأعمال الجالس إلى جوارها، فقد هب فوراً للنجدة رغم ظلٍ من صفار بدأ يزحف على وجهه الوردى، وتحدث فى هدوء مدهش إذ قرر أن رعاية البرامج هى من الأنشطة التجارية البحتة، ولا دخل لها بالمحتوى، ومن شطارته أنه ضرب مثلا ببرنامج «رئيس تحرير» الذى كانت كبرى شركاته تتفضل برعايته، وأكد أنه لم يكن أبداً مسئولا ولا مشغولا بمضمون «رئيس التحرير»، ومن فرط الشطارة أنه أتبع ذلك بقوله: «أما بالنسبة لمسألة الخوف فأنا ماباخفش من حاجة أبداً.. حتى فى الأسرة، دايما يقولون أنت بتحط نفسك فى مشاكل.. وأنا ماباخفش».

هل ظن سيادته أننا سننبهر؟! إن كنت يافتانا الشجاع قد ظننت فينا ما ظننت فهل يمكن أن تتفضل علينا بإجابة



السؤال التالي، لماذا لا تتكرم إحدى شركاتكم الرابحة بالإعلان عن منتجاتها وأنشطتها في صحف المعارضة؟ أم أن المصريين الذى يكتبون ويقرأون صحف المعارضة مستبعدون من الاهتمامات التجارية لحضرتكم؟! لا أظن أن الدراسات المدققة فى تحليل سلوك مستهلكى التليفون المحمول أثبتت أن منتجى وقراء صحف المعارضة لا يتعاملون مع المحمول؟

أم أن سيادتك تفضل أن تنفق من أرباح المحمول التجارية التى تكسبها على البرامج التليفزيونية التى ينتجها أصدقاؤك الأمريكيون كما فعلت بتمويلك ورعايتك لبرنامجهم الجديد «من داخل الشرق الأوسط» والذى أتيت خصيصا لتحتفى بإطلاقه من القاهرة؟! وعلى كل حال فإن كانت مجموعة الصحفيين المصريين التى حضرت ذلك المؤتمر الصحفى قد التزمت بالأدب المهنى وكتمت غضبها منك أو فلنقل غلفته بالأسئلة التى قلبت بهجة زميلتك الأمريكية لدرجة أنها من فرط ربكتها اضطرت فى محاولة منها لتهدئة الجو أن تؤكد للحضور أنها ستأتى إلى القاهرة بعد ستة شهور لتقييم البرنامج مع الصحفيين المصريين، نقول ونؤكد لك إن لم تكن قد تأكدت بعد، أن هؤلاء الصحفيين المصريين - مع غيرهم من أبناء الوطن النابهين - غاضبون منك لأنك عن وعى أو دون وعى تنفق على الإعلام الأمريكى المشوه لصورتنا من أموالنا.. هكذا عيانا بيانا - وفى عز الظهر.

لسنا وحدنا

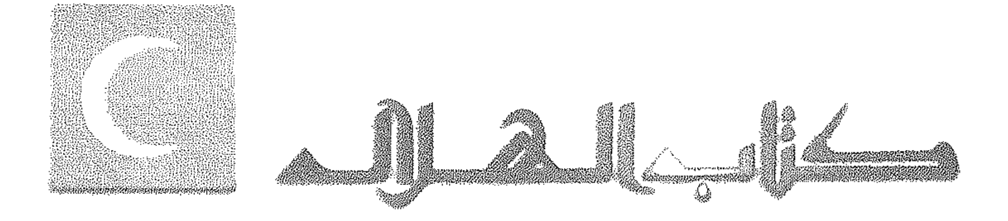
لسنا وحدنا الصارخين تحذيراً من مخاطر الإعلام الملوث على مصائر الناس أجمعين، فكبار الكتاب معنا يصرخون، تأتينا كتاباتهم من أنحاء الأرض ولعلى هنا أكتفى بواحد هو من ألمع المحللين السياسيين فى فرنسا . إنه كاتب المقال الإفتتاحى للصحيفة الفرنسية الشهرية لوموند الديبلوماسى Le Monde diplomatique ، إنه الكاتب «إجناسيو رامونيه» الذى صدر مقاله الافتتاحى فى عدد شهر أكتوبر من الصحيفة بعنوان «السلطة الخامسة» وفى مقاله يحلل مظاهر سقوط الصحافة المعاصرة - كسلطة رابعة - مهمتها فى الأساس أن تسعى وراء الحقائق تبسطها وتحللها تمكينا للقراء من قدرة أفضل على الاختيار والحكم على الأمور. وهو لا يقصر كلامه على الصحافة المكتوبة، وإنما الصحافة المذاعة بالصوت والصورة هى فى لب الاتهام، ذلك أن التطورات التقنية مكنت الشاشة من قدرة على استخدام كافة أشكال الإنتاج الثقافى من كلام مكتوب أو صور أو أفلام أو أو أو وهو نوع من الاستخدام مستمر فى الابتعاد عن الموضوعية بالدرجة التى صار معها المنتج الإعلامى منتجاً ملوثا وبالتالى أصبح ما ينطبق على الأطعمة المهندسة ينطبق على المنتج الإعلامى، وكما تتسمم البطون من تلك الأطعمة،

المتفرجة

تتسمم العقول والأرواح بفعل المنتج الإعلامي الملوث.. ويستشهد الكاتب الفرنسي بما أسماه بالحرب الإعلامية القذرة ضد الرئيس الفنزويلي هوجوشافيز ويرى أنها تماثل بالتمام تلك الحرب التى شنتها صحيفة إل ميركوريو El Mercurio فى شيلى بين عامى ١٩٧٠ و ١٩٧٣ موجهة حرابها السامة ضد الحكومة الديمقراطية للرئيس سالڤادور إليندى إلى أن دفعت العسكر للقيام بانقلابهم الذى أوصل قائدهم بينوشيه إلى سدة الحكم . وينبه الأستاذ «إجناسيو رامونيه» إلى أن مثل تلك الحملات الإعلامية الساعية لضرب الديمقراطية من الممكن أن تبدأ غدا فى البرازيل أو الأرچنتين أو فى أماكن أخرى حيث يكون هدف مثل ذلك الإعلام الملوث ضرب كل المحاولات الشرعية للإصلاح وتعديل التركيبة الاجتماعية وما يصاحب ذلك من جهد لإيجاد نوع من العدالة فى اقتسام الثروات. ويؤكد الكاتب الفرنسى أن الإعلام الجماهيرى - على هذا النحو - هو توأم العولمة. ولذلك فهو يدعو إلى تنظيف البيئة الإعلامية عن طريق تكوين سلطة خامسة تكون مهمتها مراقبة وتحليل وتقويم الممارسات الإعلامية الملوثة والتى أفرغت الإعلام المعاصر من أى محتوى يمت بصلة لما كان يفترض أن يكون سلطة رابعة.

وبناء على كل ما سبق يقترح الكاتب الفرنسى أن يقوم بالمهمة جهاز أو هيئة مدنية سلمية أسماها «المرقب الإعلامى الدولى» I'Observatoire international des Medias وبالإنجليزية Media Watch Global وبحيث يسخر نشاط هذا الجهاز فى خدمة المواطنين فى مواجهة سطوة وتلويث وسائل الإعلام الجماهيرية.

ومن الطريف أننى كنت قبل نحو خمس سنوات عرضت اقتراحا مماثلا على القمة العالمية للإعلام التى تعقد سنوياً فى نيويورك.. كتبت الاقتراح على ورقة أودعتها سكرتارية تلك القمة، فى محاولة من جانبى للإسهام بفكرة رأيت وقتها أنها ضرورية لكبح جماح التضليل والتنميط الذى تمارسه وسائل الإعلام بلا رابط.. وبالطبع فإننى لم أتلق أى استجابة لاقتراحى مما يجعلنى الآن أرى أن الأخطار المحدقة لا تحتمل انتظار تكوين مثل هذا الجهاز الدولى، وأننا جميعا - كدول وشعوب - مسئولون عن القيام بهذا الدور الذى يتجاوز كونه واجبا وطنيا إلى قيامه كواجب إنسانى بكل معنى الكلمة ولنأخذ العبرة من تحالف قوى الشر التى تأخذ من قوتنا ما يغذى صانعى البرامج المشوهة لثقافتنا وصورتنا فى وجدان الآخرين. □



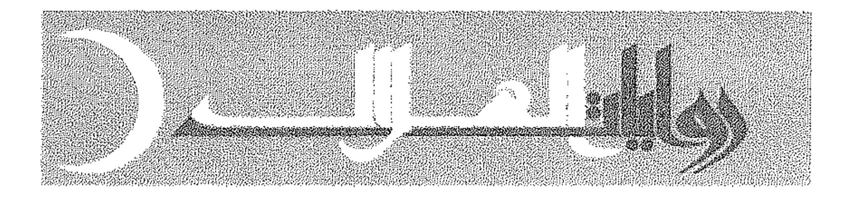
يوميات طبيب وهموم أستاذ جامعى

بقلم

د . نبيل لويس عطا الله

يصدر ٥ نوفمبر
سنة ٢٠٠٣

رئيس التحرير
مصطفى نبيل



قريباً فى روايات الهلال

المصرى

للكاتب المغربى
محمد أنقار

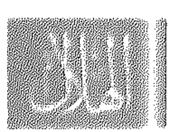
حياة وزمن مايكل ك

للفائز بجائزة نوبل
ج. م كوتسيا

تصدر ١٥ نوفمبر
سنة ٢٠٠٣

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

١٧٧



رمضان ١٤٢٤هـ - نوفمبر ٢٠٠٣م

الشاطىء

أو تذكرين ..؟

أو تذكرين الشاطىء الوردى.. والعشب الندى
وحديث وشوشة تروح على الرمال.. وتغتدى
لما تعاهدنا.. وقد نامت يداك على يدى
أقسمت لى.. والشمس تغفو فوق صدر المخمل
وتلملم الياقوت فى جيد المغيب الشارد
أقسمت لى.. إن الهوى سيدوم لى.. أقسمت لى
فضممت أسراب الأمانى كلها فى ساعدى
وسكرت فى هذا البريق الشاحب
ينساب فى صمت.. كهمس الراهب
أو تذكرين..؟

★★★

أسطورة الحب التى كانت ربيعا.. وجنى
لم يروها شوق عن الأحباب يوما.. قبلنا
لا.. لم تردد مثلها الأمواج.. حتى بعدنا
كانت غناء.. بين ألحان الطيور العائده
كانت نداء ترتوى منه القلوب الظاميه
أقسمت أن تحيا ضياء للأمانى الواعده
وحكاية.. يزهو المصيف إذا حكاها ثانيه
ورفعتنى ملكا على هام السما
ملكا يعابث فى يديه الأنجما
أو تذكرين ..؟

★★★

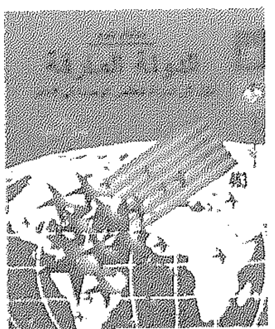
الظامئ

شعر
أحمد خميس

أقبلت فى ترف الجمال.. وفى تجنى سحره
وجمعت لى كرم الربيع.. وكنت أكرم زهره
وفرشت دربى بالعبير.. وكنت أشهى عطره
صور.. يهدهدها الخيال لترسم الحلم الجميل
حلما تباركه الدفوف.. وتجتلى فيه الشموع
حلم العروس تتيه فى وشى الصبايا.. أو تميل
فى كل ركن فتنة تختال.. أو عطر يضوع
وأنا وأنت.. فراشتان تعاهدا
تمضى بنا أقدارنا خلف المدى
أو تذكرين.. ؟

★★★

راحت ليالى الصيف يا حسناء.. وانفض السمر
ومواكب العشاق.. لا ترجو وداعا أو سفر
هذا عصى الدمع يخفيه.. وهذا ما صبر
والشاطىء المهجور.. تبكيه العيون الراحله
لتمد أذرعها سحابات الخريف الآتيه
وأنا .. وسهدى.. والليالى العاويات الذابله
لم يرتحل عنا الوفاء.. ولا البقايا الباقيه
لنظل نرعى ذكريات الموعد
فى ليلة.. نامت يداك على يدى
أو تذكرين ..؟!



الدولة المارقة.. دليل إلي الدولة العظمي الوحيدة في العالم
تأليف: ويليام بلوم
ترجمة: كمال السيد
الناشر: المشروع القومي للترجمة

برغم صدور الكتاب قبل وقوع أحداث ١١ سبتمبر إلا أنه كان بمثابة الاجابة عن السؤال الذى ظلت الولايات المتحدة وشعبها يطرحونه لماذا حدث ذلك؟

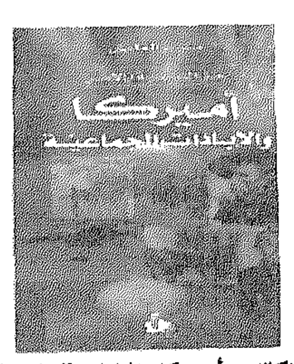
يحوى الجزء الأول على قائمة طويلة من الأعمال التى ارتكبتها الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط وأودت بحياة الكثيرين. ويذكر أن الولايات المتحدة أقنعت العالم بأن هناك مؤامرة دولية تتربص به. وجعلته يعتقد أنه يحتاج إليها بطريقة لإنقاذه من غياهب الظلمة الشيوعية. اعتمدت على خطاب أمريكى موجه للعالم فحواه «اشتروا أسلحتنا فحسب، اتركوا عسكريتنا ومسئولى شركاتنا يذرعون بلادكم طولاً وعرضاً بحرية، امنحونا حق الاعتراض على القادة الذين تختارونهم وفى المقابل سنقوم بحمايتكم».

يتحدث الكتاب عن السياسات الأمريكية التقليدية. التى تقوم فى البداية على القصف والتدمير والخراب ثم تنقلب إلى سياسات تطالب بالتعمير فيما بعد الحرب وبالطبع اليد التى دمرت هى اليد التى ستبنى كما حدث فى بقاع مختلفة مثل فيتنام / بنما/ العراق/ أفغانستان، وهاهى سياساتها تتكرر مرة أخرى فى أعقاب أحداث ١١ سبتمبر. لتواصل هيمنتها على أركان العالم المتبقية.

فى النصف الأول من الكتاب يقدم وثائق بالغة الخطورة عن الأساليب القذرة التى اتبعتها الولايات المتحدة متمثلة فى الإدارة الأمريكية أو البنتاجون أو المخابرات الأمريكية من أجل اكتساب أراض جديدة فى سبيل الهيمنة وبسط النفوذ على العالم أجمعه.

مثال ذلك تدريب وتجنيد عناصر الإرهاب فى بداياتها، استخدام وسيلة الاغتيالات السياسية فى مختلف الدول وذلك من خلال الاعتراف بذلك فى تقرير «دوليتل» حتى تحولها إلى ملاذ للإرهابيين فى البداية ويكشف عن الاستخدامات الأمريكية لأسلحة الدمار الشامل مثل القصف بالقنابل كما هو الحال فى الحرب الكورية والهجوم على لبنان وسوريا عامى ١٩٨٣-١٩٨٤، واستخدام اليورانيوم المستنفذ كما حدث فى حرب العراق والكويت عام ١٩٩١. والقنابل العنقودية والأسلحة الكيميائية والبيولوجية مثال ذلك خلال فترة الأربعينات والخمسينات بجزر البهاما وكندا والصين وكوريا وفيتنام وكوبا.

بل ويكشف عن قيامها بتشجيع بعض الدول على استخدام تلك الأسلحة كما حدث فى جنوب أفريقيا والتى شجعت نظام الفصل العنصرى على تنفيذ برنامج للأسلحة الكيماوية والبيولوجية لاستخدامها ضد المدنيين السود، كما شجعت العراق بتصديرها لبعض المواد التى تتسبب عادة فى الموت البطىء مصحوبا بعذاب شديد.



الكتاب: أمريكا والابادات الجماعية
المؤلف: منير العكش
الناشر: رياض الريس للكتب والنشر

طريق طويل ملىء بالدماء وجثث الضحايا.. قطعته الحضارة الأوربية خلال رحلتها المقدسة من

أجل انقاذ أرواح جنود العالم الجديد.. كان السبيل الأمثل لانقاذ أرواح من يرونهم متوحشين غير آدميين هو القتل، التمثيل بالجثث، وسرق مدنهم وبيوتهم، وإبادتهم وإبادة حضارتهم من على ظهر الأرض. حتى أنهم حولوا حدائقهم وأراضيهم الغنية الخصبة إلى خرائب مقيتة يعيش داخلها الموت. عن رحلة المستعمر الانجليزى لأمريكا ذلك العالم الجديد. وعن حقيقة المتوحش والعنيف وعن أهوال الإبادة الانسانية تلك الوسيلة التى أتقنها الأمريكيون طوال تاريخهم، يكشف لنا منير العكش بصراحة وجرأة متناهية فى كتابه الذى يدمى القلب لقراءته. يحكى «العكش» الناقد والباحث فى الانسانيات والمتخصص فى تاريخ وثقافة الهنود الحمر شهادة جمع تفاصيلها خلال فترة طويلة من الزمن ويحكى عن تفاصيل ما جرى للشعوب الأمريكية الأصلية وعن كيفية إبادة سكان قارة كاملة يزيد عددهم على ١١٢ مليون إنسان لم يبق منهم فى أوائل القرن العشرين سوى ربع مليون فقط.

ويعترف بفضل الولايات المتحدة فى اختراع ألطف نظام تطهير عرقى على وجه الأرض. ويخوض داخل الفكرة الرئيسية المنشئة لأمريكا وهى فكرة استبدال شعب بشعب وثقافة بثقافة.

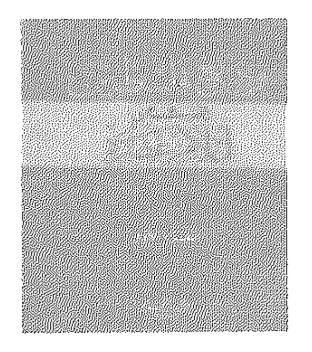
ويذكر أن الولايات المتحدة لم تعترف بعدد الهنود الذين أبيدوا فى الشمال الأمريكى منذ بداية الغزو الأبيض وذلك باكتشاف فلوريدا فى عام ١٥١٣.

والتاريخ الأمريكى يرى أن الهنود هم قلة حفروا قبورهم بأيديهم فى حروب متكافئة شرفية شفافة وهم مسئولين عن إضرام نارها وحصد أضرارها، بل ماتوا قضاء وقدراً بالأمراض التى حملها الأوربيون معهم دون قصد!

وينقل الكاتب عن هوارد سيمبسون قوله بأن المستعمرين الانجليز لم يجتاحوا أمريكا بفضل عبقريتهم العسكرية أو دوافعهم الدينية أو طموحاتهم أو وحشيتهم بل بسبب حربهم الجرثومية التى لم يعرف لها تاريخ الانسانية مثيلاً.

ويستعرض أساليب المستعمر الأبيض فى العمل بالسخرة والتجويع الإجبارى والترحيل الجماعى وتحطيم المعنويات وهو ما يعرف باسم الشتات الكبير والذى اقتلع عدداً كبيراً من الشعوب الهندية من أوطانها وساقها إلى الغرب أو إلى الشمال الكندى فراراً بحياتها وحياة أبنائها من الإبادة الشاملة. ويكشف أن ما يسمى بحروب الاستقلال ماهى إلا حملات إبادة للشعوب الهندية ويضرب مثالاً بأن المستعمرين كانوا يحرقون المدن والقرى الهندية بمن لم يستطع الفرار وكانوا يتلفون محاصيل الذرة. بل أن جورج واشنطن أصدر قرارا بتحويل مساكن هنود «الأوروكوا» إلى خراب .. وأنه لن يصغى لنداء السلام حتى تمحى قراهم ومدنهم وآثارهم من وجه الأرض.

وخلال الفصل السادس من الكتاب يبدأه «العكش» بقوله : «إن أمريكا ليست إلا الفهم الانجليزى التطبيقى لفكرة إسرائيل التاريخية.. أسموا أنفسهم الإسرائيليين وعبرانيين ويهوداً وأطلقوا على العالم الجديد اسم أرض كنعان وإسرائيل الجديدة واستعاروا كل المبررات الأخلاقية لابادة الهنود «الكنعانيين» واجتياح بلادهم فى مخيلات العبرانيين التاريخية».

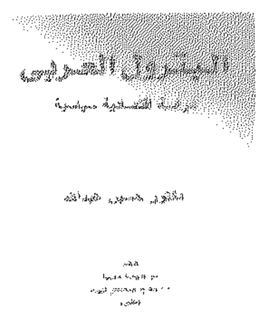


وديع فلسطين يتحدث عن أعلام عصره
المؤلف: وديع فلسطين
الناشر: دار القلم

من خلال مجموعة من المقالات قام بنشرها فى جريدة «الحياة» تحت عنوان «حديث مستطرد» يسرد وديع فلسطين ذكرياته عن أعلام عصره، فيسرد حواراته معهم ويكشف عن تواصله الشخصى واحتكاكه بهم. ليقدم للقارئ صورة ذاتية عن بعض أعلام الفكر والقلم فى مصر والوطن العربى.

يبدأ كتابه بإبراهيم عبدالقادر المازنى ويصفه بأنه قمة من القمم الشامخة فى الأدب العربى. وينتقل منه إلى شخصية ابراهيم المصرى والذى يرى أنه أحد «مظاليم الأدب» لأنه كان دوما منسيا فى مجتمعات الأدب خاصة أنه كان يميل إلى العزلة والابتعاد عن الأضواء. برغم أنه كان من ضمن من شاركوا فى اصدار وتحرير مجلة «الهلال» عقب وفاة صاحبها ومؤسسها جورجى زيدان وانشغال «أميل» أكبر أبنائه بتوسيع أنشطة دار الهلال. وتتوالى ذكريات فلسطين مع عدد من الشخصيات مثل الشاعر ابراهيم ناجى وأحمد حسن الزيات وأحمد زكى أبو شادى وإسماعيل مظهر وأكرم زعيتر وأمير بقطر وأمين نخله. وإن كان فى أندر ذكرياته تلك التى كشف عنها مع سيد قطب والذى كان وقتها الناقد الأدبى لمجلة «الرسالة»، فيحكى عن بعض آراء قطب فى كثير من كبار الكتاب والمفكرين والشعراء. فنجده يحكى عن موقف قطب من أشعار نزار قبانى والتى يراها بأنها نقلت الشعر إلى المخادع وهو الأمر الذى رفضه قطب ويحكى أيضا عن موقف قطب من كتابات الدكتور عبد الرحمن بدوى، فينتقد ديوانه الصادر بعنوان «مرآة نفسى» ويصفه بأنه «استهتار يتجاوز حدود الجرأة ولابد أن يوضع حد لهذه المساخر بأية طريقة» ويواصل سرد آراء قطب فى بعض الكتاب مثل نجيب محفوظ وعباس العقاد والذى كان منحازا إليه بشكل يفوق انحيازه إلى طه حسين و مصطفى صادق الرافعى.

ثم يوالى ذكرياته مع طه حسين وعادل الغضبان وعباس العقاد وعبد العزيز الرفاعى.



البترول العربى.. دراسة اقتصادية سياسية
تأليف: د. حسين عبدالله
الناشر: دار النهضة العربية

فى ظل الظروف الدولية المتأزمة ، والأوضاع المتردية داخل العراق.. صدرت دراسة اقتصادية ذات أهمية تكشف عدة نقاط بالغة الخطورة عن السوق

العالمية للبترول.. بداية من شرح جميع التغييرات الهيلكية التى طرآت على الانتاج العالمى للبترول خلال النصف الثانى من القرن العشرين، بما فى ذلك القواعد التى تتحكم فى عمليات التفاوض الخاصة بالاتفاقيات البترولية بين الشركات العالمية ودول منظمة «الأوبك» تتطرق الدراسة إلى قرارات تخفيض أسعار البترول التى تفرضها الشركات الغربية العالمية بغرض تلبية متطلبات إعادة بناء كل من أوروبا واليابان، والتى تزامنت مع زيادة الاهتمام بالبترول العربى والشرق أوسطى.

كما تتناول بالتفصيل العلاقة بين البترول - كمالة خاصة - واتفاقية منظمة التجارة العالمية «جات».. وتوضح أن الشركات الكبرى من الدول الصناعية الغربية رأوا أن من صالحهم عدم إثارة موضوع البترول فى إطار اتفاقية الجات منذ بداياتها عام ١٩٤٧ .. وذلك حتى يمكنهم الاحتفاظ بحرية شركاتهم وبالتالى السيطرة على البترول كمية وسعراً.

ويناقش الكتاب علاقة البيئة بالبترول .. وذلك فى ظل بروتوكول «كيوتو» .. حيث تزايد الاهتمام العالمى بالبيئة والتغير المناخى على وجه الخصوص . فيشرح الآثار المحتمل انعكاسها على دول «أوبك» نتيجة تنفيذ «بروتوكول كيوتو».. مع تقدير حجم الخسائر التى قد تلحق بدولها.. ويرخص الكتاب الدعاوى القائلة بآن ارتفاع أسعار البترول تسبب الكساد والتضخم.

ويوضح أن البرامج والأساليب التى استخدمتها الدول الصناعية الغربية مكنتها من السيطرة على السوق العالمية للبترول.. وذلك عن طريق تنفيذ برامج صارمة لترشيد الطاقة عموما والبترول خاصة .. مع الاحتفاظ بمخزون تجارى واستراتيجى كبير للمناورة به فى أوقات الشح البترولية.

وتتناول الدراسة نقطة حيوية وهى تطور صناعة تكرير البترول وحيث توضح أنه برغم آن الشرق الأوسط يعتبر من أهم مراكز التصدير إلا أن صادرات البترول تحولت إلى تجارة فى الزيت الخام فى حين توطنت المصافى التى تقوم بتكريره وتصنيعه فى الدول الصناعية المستوردة للبترول خاصة الولايات المتحدة وأوروبا الغربية واليابان.. آما الدول العربية المصدرة للبترول فظلت تطالب بنصيب من المصافى ليتناسب مع نصيبها كمنتج ومصدر للبترول الذى يبلغ ٤٥٪ من استهلاك العالم لكن الدول المستهلكة وشركاتها لم تستجب لمطالبها .

وهكذا ظلت الدول العربية محرومة من ثمار التصنيع - كما تؤكد الدراسة - حيث لا تتجاوز طاقة المصافى العربية ٨٪ من طاقة التكرير العالمية. رغم أن انتاجها بلغ فى عام ٢٠٠٠ نحو ٢٨٪ من الانتاج العالمى. وبلغت صادراتها نحو ٤٣٪ من صافى الواردات البترولية العالمية.

وظلت المنتجات البترولية المكررة داخل المنطقة العربية تستخدم لتلبية الاحتياجات المحلية ولا تزيد نسبة التصدير منها على نحو ٣٪ من طاقة التكرير العالمية.

وتكمن أهمية الدراسة فى كشف مدى أهمية اقتصاديات البترول وخاصة البترول الغربى وأثر ذلك على القرارات السياسية التى تتبناها الدول الغربية والولايات المتحدة الأمريكية.

قصة قصيرة

سكة اباظة

قصة
خليل الجيزاوى
بريشة
سميحة



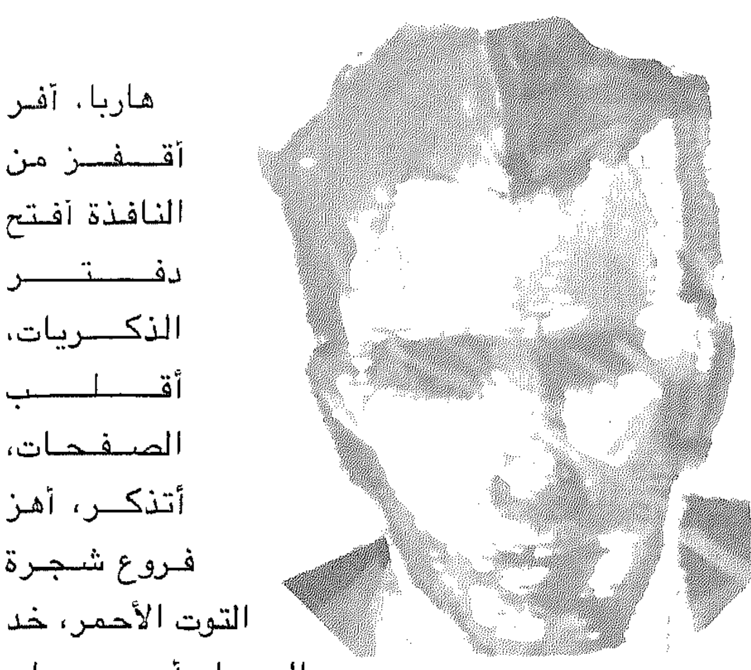
كان الطريق الزراعى مزدحماً، لكن سيارتى، لفيات ١٢٨، الحمراء، راحت تعرف طريقها جيدا، تعلمت، بتكرار هذه الزيارة الأسبوعية، فنون المحاورة والمناورة على طول الطريق الزراعى، تعرف تماماً متى تتخطى السيارة الأمامية، وأين يتخفى الرادار فتهدئ من سرعتها .

كانت، دائما تقرأ أفكارى، بل ترسم لى خريطة تفصيلية لسكة السفر، وكان الطريق الممتد على امتداد البصر،

تكسوه الخضرة على الجانبين، ورحت أرى الربيع وأيادية الخضراء التى تكسو الفروع العارية، وكانت أشجار التوت تراها حبلى بالبراعم الصغيرة ورائحة عطرة تهب من أزهار الحدائق المنتشرة على جانبى الطريق، كانت الشمس تميل ناحية الغروب، وصوت أم كلثوم يداعب شغاف القلب، الموسيقى تهدأ قليلاً، وأم كلثوم تنادى صادحة :

- يا فؤادى لا تسل أين الهوى .....؟

وهبت نسمة رقيقة، عبر نافذة السيارة راحت تداعب صوت أم كلثوم، ووجدتنى أقلب كتاب حياتى، أتصفح دفتر الذكريات تقفز الأيام الأولى، ومن نافذة السيارة، ووجدتنى أطير مثل عصفور صغير أتنقل بين الأشجار هارباً من



زحام القاهرة، وخنقة الروح وحبستها، كم كنت أحتاج هذه الزيارة الأسبوعية، كى أخلو بنفسى أتذكر عشرين عاماً فى القاهرة، مدرجات كلية الآداب، سفر ترحال غربة خدمة عسكرية، عمل بالتدريس، زحام، خنقة وحبسة الروح فى الغرف الباردة..

عشرون عاماً فى القاهرة، والشعيرات البيضاء راحت تغزو الرأس المثقلة بالتجارب والهزائم المتكررة، تلك التى خلفت وراءها قلباً وحيداً حزيناً، حين يغلق عليه الباب مساء

هاربا، أقفز أقفز من النافذة أفتح دفتر الذكريات، أقلب الصفحات، أتذكر، أهز فروع شجرة التوت الأحمر، خد الجميل، أجمع حبات التوت الحمراء من شواشى الفروع العالية فى ذيل جلبابى، وأجرى، أجرى بعزم الحيل على ترعة «أبو العزم» كى تأكل حبة القلب أنادى:

- ياسهيرا

وكانت الحقول البعيدة، تقترب تقترب أتذكر .. أسير فى عز القيالة على المصرف الصغير، أنظر يمينا ويساراً وقد توارت العيال بعد «فركش» من جمع دودة القطن الأولاد تجرى على المصرف الصغير، تنفلت ناحية البيوت الواطئة طلباً

للغداء،وسحب التراب تلحقهم دوائر دوائر ورحت أقفز بين مصاطب القطن، أجمع أصابع الخيار الصغيرة، حتى تمتلئ سيالتى وجيوبى، أعود للمصرف الصغير، والعيال توارت بعيدا بعيدا، أسير مع سهير منفردين على المصرف الح عليها وأصابع الخيار تخرج من سيالتى وأنا أهتف فرحاً:

- خدى ياسهير!

كانت السيارة الحمراء تتهادى على الطريق الزراعى، وهى تفتح ذراعيها تحتضن هواء نقيا تطرد بقايا ذرات هواء القاهرة المحبوس بين سياج الصدر أفتح خياشيمى، يمتلئ صدرى يتبرد قليلاً من وهج الذكريات، أتذكر، أتسلل بين عيدان الذرة، أسير منحنياً بين خطوط الذرة، حتى أتفادى أوراق الذرة الحادة كى لا تطرف عينى وتسيل دموعى وأعود خائباً دون البرتقال.

أقفز المصرف الصغير قفزة واحدة عالية، أجد نفسى بعدها وسط أشجار البرتقال، قفزة ثانية وأجدنى فى مواجهتها تماما، فقد علمنى التكرار الطريق إلى خط البرتقال «أبو صرة» أفرد حجرى، أنتقى الكبيرة والصفراء حتى يمتلئ ذيل جلبابى .

متسللاً أعود بين خطوط عيدان الذرة، أجدها تنتظرنى قلقة، أضع ما جمعته فى حجرها فتغضب منى وتزيح حبات البرتقال بعيداً، وكنت أخاف الفضيحة فأجرى وراء حبات البرتقال، أجمعها فى حجرى ثانياً، ثم أقعد منكسراً وباكياً، تقترب منى، تدفعنى فى كتفى باسمة :

- كنت خايفة عليك قوى، الغفير إيده طرشة..

ساعتها أنتشى، أقفز فى الهواء فرحاً، أمسكها بين يدىّ أحضنها، أقبلها على خدها الأيمن والأيسر، تدفعنى ضاحكة، وهى تتابع حبات البرتقال التى تجرى على الأرض، أقول بفرحة طاغية:

- ملعون أبو البرتقال والغفير كمان والناس كلها!

كانت الأشجار والبيوت والسيارات والناس تفر من نافذة السيارة مخلفة بعض الأسى وكثيراً من الهموم وأنا

أقلب دفتر الذكريات، أتذكر، بعد امتحان الثانوية العامة أقبل يد أمى، أسألها أن تفى بوعدها لى وخطبة سهير، أقول لها راجيا والدموع تكاد تطفر من عينى، الامتحانات انتهت، تنظر أمى ناحيتى، تفرد يديها، أرتمى فى حضنها، أقبل يديها، تقبل رأسى، تمسح ظهرى بيدها تلمس شعرى تفاصيل تضاريس وجهى، تلمس شاربى ضاحكة :

– ياه .. كبرت يامحمد وبقيت راجل !

بعد صلاة العشاء، أعرف طريقها مع خالى إلى بيت سهير، وكانت الإجابة تراها فى عينىّ أمى الدامعة حادة وبسكين باردة :

– لا ياشيخ محمد، هل ترضاها أنت، أجوز بنتى لتلميذ فى الثانوى، لا مؤاخذة أمه لسه بتصرف عليه !كانت السيارة لا تزال تتهادى على الطريق، والشمس توارت بعيداً، وكان لايزال صوت أم كلثوم ينادى :

– يافؤادى لاتسل ......؟

السيارة الحمراء تعرف طريق أباظة، طريق البلد وراحت عجلة القيادة تأخذ بيدى وتميل بها ناحية اليمين ناحية طريق البلد، وكان طريق البلد، سكة أباظة، طويلاً وبعيدا عن محطة القطار تلك التى يركب منها أهل قريتنا إلى طنطا أو الزقازيق، وكان المغرب يقف على أول الطريق، وراح يضرب خيمته الرمادية حولها، تقترب السيارة الحمراء من مزلقان السكة الحديدية، وكان المزلقان مغلقاً، وراح قطار طنطا الزقازيق يصفر صفارته الأخيرة، معلنا توسعة الطريق، وراحت السيارة تعبر المزلقان رويداً رويداً، وراحت عيناى تتسع، تتسع، فلقد كانت هى تقف وحيدة، على جانب الطريق، نعم هى فبرغم غبشة الليل إلا أن ملامحها المرسومة بعناية تبين لى جيداً، وكان شعرها الطويل يداعب نسمة الهواء، وعودها الملفوف يقف شامخاً فى بهاء أسطورى، فرحت أنادى عليها وضربات صدرى تعلو وتهبط والفرحة تقفز

من عيني:

- سهير .. سهير !

وبسرعة أنحنيت ناحية الباب المواجه لها قائلا:

- اتفضلى اركبى ياسهير !

كالنسمة الحانية فتحت باب السيارة الخلفى قائلة :

- مساء الخير ...!

- أنا سـ .....!

وكأن العقدة انحلت عن لساني، رحت أنظر إليها... من مرآة السيارة، أحدثها، أناجيها، أشكو إليها غربتى فى مصر المدينة والتى لا تحنو على الغريب ورحت أذكرها قائلا:

- ياه ... ياسهير ...!

وكانت سهير من الكرسى الخلفى تنظر ناحيتى بدهشة، نعم هذه الدهشة قرأتها فى عينيها، وفكرت فى نفسى أنها ربما قد نسيت ذكرياتى وعمرى كله معها، فرحت أحكى وأحكى كل التفاصيل الصغيرة، أذكرها :

- فاكرة ياسهير أيام الجميزة والساقية القديمة!

- أنا سـ ...!

- فاكرة ياسهير أيام شجرة التوت الأحمر، خد الجميل !

- أنا سـ ...!

- فاكرة ياسهير أيام القطن وصوابع الخيار !

- أنا سـ ...!

وعندما قرأت مساحة الدهشة تتسع رحت أقول مؤكدا :

- لا ياسهير أوعى بقى تكونى نسيتى أيام البرتقال، البرتقال أبو صرة ياسهير و ...و....

وكانت العينان الخضراوان تتسعان دهشة، والابتسامة الحلوة لاتفارق شفتيها وعند أول البلد سمعتها :

- لوسمحت أنزل هنا!

ووجدتنى أرد عليها باستغراب حقيقى !

- إيه ياسهير البيت لسه قدام شوية !

وجاء صوتها هذه المرة قوياً وحاداً وقاطعاً:

- شكراً ياعمو! ألف شكر! بيتنا هنا! وعلى فكرة أنا سعاد بنت سهير!

ورحت أحاول أن أفتح فمى بالكلام، أحاول أن أحرك لسانى، كى أقول لها :

- لا أنت سهير !

سهير التى تعرفنى وأعرفها جيداً! حتى قابلت ملامح وجهى فى مرآة السيارة والشعيرات البيضاء تغزو رأسى وشاهدت صفحات كثيرة تفر من دفتر الذكريات، ومساحات كبيرة من الفراغ والصمت تعيد رسم ملامحى، وفجأة انتفضت يدى فى خفقة مباغتة، فتهشمت مرآة السيارة .

ومن نافذة السيارة رحت أصرخ غاضباً ومتوسلاً:

- ياسهير .. ياســ..! ■

باريس التى لم يشاهدها رفاعة

فنون قاع المجتمع فى باريس

بقلم
د. محمد المهدى

جوار نبلاء البلاط

• المجتمع الباريسى كما صورته وثائق القرن الخامس عشر

تفصيل من لوحة « العميان » - بيتر بروغل ١٥٦٨







الغجر في الاسر . كانوا دائماً
جزءاً من حضيض المجتمع

من السهل فضح قاع المجتمع، ومن الصعب تصوير صراعاته الداخلية، ومن الصعب كشف أسبابها، ومن الشجاعة الإعلان عن هذه الأسباب.. العبيد فى الحضارات القديمة كونوا حضيض المجتمع. عند الرومان قامت ثورة «سبارتاكوس» وتم صلب العبيد أحياء على أعمدة امتدت من مدينة «كابو» حيث قامت ثورتهم، إلى مدينة «روما» حيث السادة. وحتى فى مجتمع الصحراء القاسى وجد العبيد عند العرب قبل الإسلام. كانوا يمثلون حضيض المجتمع. وعندما ذهب الأوربيون إلى أمريكا كونوا لمجتمعهم حضيضا من مجتمع عبيد أفريقيا. وحطم الإنجليز كل السفن، وانفردت سفنهم فقط بحمل العبيد.

أصبح فى الدول الأوروبية أيضا دول من الحضيض، ودول من السادة. والآن أصبح العالم الثالث يمثل المستوى الأدنى فى الكرة الأرضية بالنسبة إلى عالم الأناقة، والناطحات فى الشمال. وتسعى وتسعد الدول الكبيرة بصراع واقتتال حضيض الكرة الأرضية.. ومع ذلك يقول البروفيسور «كلاوس شواب» مؤسس منتدى ديفوس «نحن مع الحوار مع الآخرين»!

بلاط المعجزات

هناك كتاب عنوانه (بلاط المعجزات)



من أعضاء بلاط المعجزات

LA, COUR.DES, MIRA-CLES أو تاريخ التشرد. يصور مجتمع الحضيض وكيف تكون فى باريس قبل أن يجسمه (فيكتور هيجو) فى «البؤساء»، سأحاول أن استخلص من بعض سطوره ما تلمح منه وجه الشبه بين الحضيض فى زماننا وذاك الزمان. وبين مكاننا وذاك المكان.

الزمان القرن الخامس عشر الميلادى. والمكان باريس... ويقول شاهد عيان «يوجد هذا البلاط فى مكان متسع داخل زقاق كبير، نتن، غارق فى الطين والقاذورات. يقع فى حى بعيد عن المدينة بين أبنية. متهدمة للدخول إليه لابد من الانحدار وسط الجحور فى منطقة وعرة.. شاهدت هناك منزلا من الطين له شبه مدخل، المنزل متداع من القدم وكثرة العفن. ساحته لا تتعدى أربعة أمتار مربعة يعيش فيه ما لا يقل عن خمسين شخصا، بينهم مالا يحصى من الأطفال الشرعيين أو غير الشرعيين أو شبه الشرعيين».

لماذا سمى ببلاط المعجزات؟

السبب نفسى فيما يبدو. من يأوى إليه ويقبل من قبل جماعته من المتسولين، أو العجزة، أو اللصوص، أو النصابين أو المهرجين أو العاطلين أو العاهرات.. كان يشعر أنه اهتدى أخيرا إلى مملكته الطبيعية، أو عالمه الخاص الكل مفضوح فى ماضيه وحاضره وإظلام مستقبله إنه مكان الشفاء من احتقار المجتمع، أو التخلص من سخط الناس إنه بلاط المعجزات.

بلاط يشبه في تسمياته كنوع الغيظ أو الانتقام، بلاط الملوك والنبلاء. فيه الملك والأمراء والدوقات والمركيزات. كثرت فى باريس بلاطات المعجزات «ولكن كان أشهرها وأكبرها نفوذا بلاط نوف سان سوفير» NEUVE,ST - SAU-VEUR.

هاجمت الكنيسة المتشردين فحياتهم تمنع المتقين من ممارسة تقواهم! وطلب الملك إجراء تحقيق سريع لمحاصرة قطاع الطرق واللصوص والأفاقين. أما كبير تجار باريس وهو المضار الأول من نهب بضائعه فكان عمليا، قام بجمع المتشردين وسخرهم فى إقامة سور حول المدينة لحماية بضاعته من قطاع الطرق ومن يهرب يجلد بالسوط علنا.

ونتيجة لحرب المائة عام فى القرن الخامس عشر بين انجلترا وفرنسا، ارتفع أعداد المتشردين الذين يطاردهم الجوع. تكونت منهم مملكة متكاملة من سادة وأساتذة وتلاميذ وتحت التمرين..

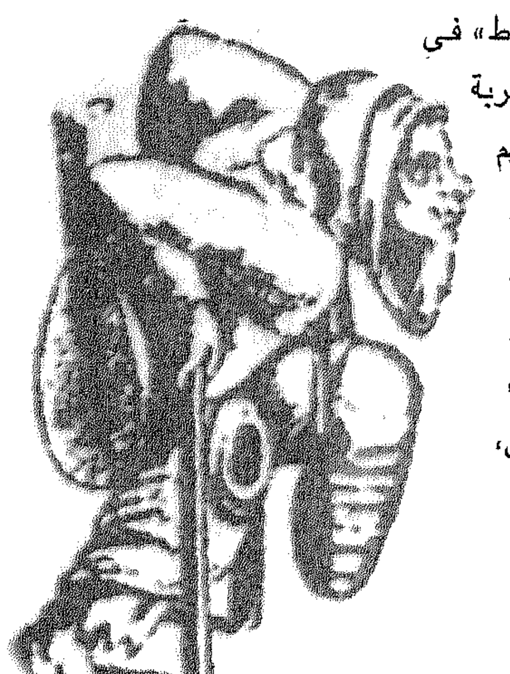
• فى البلاط رفاق السجن صاروا نبلاء والمتسولات صرن ماركيزات

Miroir de l'Histoire

منصة الشنق العام

وأيضا نقابة للدفاع عن الحقوق!!

المملكة كانت تحوى العديد من التخصصات من يدعى صلة بالقديسين تعطيه قدرة شفاء الأمراض. من يتظاهر بعاهات مرضية ويستعين بقطعة صابون فى فمه ليخرج الزبد من شدقيه. من يتعكز على عكازين أو عصى. من يدعى أن كلبا عضه، أو جزاما أصابه، أو حروقا التهمت جلده. نزع أحدهم ذراعى رجل مشنوق ووضعهما إلى جواره بينما ربط ذراعيه خلف ظهره بطريقة توحى بأنه مقطوع الذراعين وكان هناك آخر لف ذراعيه ورجليه بضمادات. مكوم على جسر ينقله إليه يوميا أحد زملائه ويعيده إلى «البلاط» فى المساء على عربة يد. وفى يوم أطلق لويس الرابع عشر جنوده لجمع الفقراء والشحاذين،





عاهات الشحاذين كما صورها بروغل ١٥٦٨

فسمع المسكين بالأمر فأطلق لساقيه العنان.

بعض المتسولات أطلقن على أنفسهم الماركيزات. تخصصن فى اصطناع الارتعاد من البرد والجوع. يستخدمن ملقاطا يقرصن به أنفسهن خفية فتبدو جلودهن مقشعرة. عالم التشرد كان يحوى أيضا الرهبان المارقين. تخصصوا فى النصب على الناس ببيع ما يدعون أنه من بقايا قش مهد السيد المسيح أحضروه من بيت لحم. أو ريشة من جناح القديس (ميشيل) أو شعرة من ذيل حصان القديس (جورج) وتخصص الجنود الفارون من الجيش فى لعب الثلاث ورقات لكن كان أقرب هؤلاء جميعا إلى قلب الملك والأمراء فى البلاط رفاق السلاح أى رفاق السجن. لا تفرض عليهم الإتاوات، ويمكن تمييزهم ببقايا القيود الحديدية فى أيديهم وأرجلهم.

لغة البلاط

بلاط المعجزات كانت له لغة خاصة. والأدق أن نقول له مصطلحات خاصة، ولهجات متعددة. قام أكاديمى متخصص فى علم الجريمة بتسجيل بعضها فى عصر النهضة الأوروبية. وهناك مؤلف نادر يعود لعام ١٥٩٦ يحمل عنوان «الحياة الخصبة للمتشردين والبوهيميين. طريقة معيشتهم، وحيلهم، ولغتهم الخاصة».

أثناء النهار كان «البلاط» يخلو من

نبـلائه. يوزعـون على أرجـاء المدينة يفضلون عـادة الأسـواق والطرقـات التجارية حيث يوجد عادة الزبون الغافل. فى القـرن ١٦ كـان الجـانب الأيمن من نهر «السين» مليئا بالعشش، وخرابات المتشردين، بينما كانت تقوم على الجانب الآخر الأبنية الفخمة الأنيقة. أراد الملك هنرى الثالث ربط قصر اللوفر الواقع لسوء حظه فى الجانب الأيمن بحى الارستقراطية فى الجانب الأيسر. أقام جسرا بين الضفتين ولكنه لم يكتمل إلا فى عـام ١٦٠٣ وعـرف بجسـر (نوف) Pont,Neuf زحف إلى الجسر نشاط التجـار. وزحف خلفه أعضـاء بلاط المعجزات صار أقرب سوق إلى مقرهم. تجد فى السوق الخضراوات والفاكهة والخبز والطيور... وخلع الأسنان، وبيع العقاقير، وحلق الشعر، دخله البهلوانات والسحرة والنصابون والراقصات... والعجزة والشحاذون بين هؤلاء ووسط الزحام كان الجائع يجد الفتات بين هؤلاء ووسط الزحام كان البرجوازى الباريسى يأتى للفرجة والتسلية بين هؤلاء ووسط الزحام كان النشال يجد زبونه.

فى المساء يعود أهل الحضيض إلى القـاع. يرفعـون عن كواهلهم أدوات الخداع وقبل التحلق للأكل والشرب يلقى كل واحد بالإتاوة داخل وعاء كبير أمام الزعيم. يتشاتمون يتعاركون ويبدأ الاحتفال الداعر، وعلى الضفة الأخرى من النهر كانت الارستقراطية تسمع وتتميز غيظا.

الارستقراطية نظمت أدوات التنظيف القانونى. هناك قضاة يقدم إليهم من يقبض عليه. الصامت أو الثرثاء يتلقى نفس القدر من التعذيب. ولكن ماذا تفعل أدوات التعذيب أمام قوم تبدأ حياتهم بممارسة التعذيب الذاتى بتشويه أنفسهم؟

وفى القرن التاسع الميلادى كتب أبى ... ان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ ١٥٠هـ - ٢٥٥هـ كتابه «البرصان، والعرجان، والعميان، والحولان» يقول فيه عن هذه الظاهرة» فأما الذى يجعل أولاد المكدين عميانا وعرجانا وعمشا، وحدبا فهو يسمى المشعب، فلا أدرى أيهم أعظم كفرا وأقسى قلبا الآباء أو الأمهات الذين يسلمون أولادهم إلى المشعب وهم أطفال حتى يعمى أبصارهم، ويعرج

أرجلهم، ويزمنهم، ويشوه بهم أو المشعب نفسه الذى ترك كل صناعة فى الأرض وتعلم هذه الصناعة فجعلها مكسبه الذى لا يفارقه. وأنا رأيت من هذه الصفة جماعة قد أزمنوا أولادهم وكتبت عنهم تصنيف المكدين» وأطلق كاتبنا الكبير نجيب محفوظ على صانع العاهات اسم «ظيطة» فهو يمارس عمله فى ضجة مصحوبة بالبلادة.

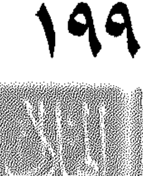
كثر عدد المحكوم عليهم بالإعدام فى بلاط المعجزات، استهلكت المشنقة كانت أداة الإعدام فى فرنسا قبل اختراع الطبيب جلوتين المقصلة فى أيام الثورة الفرنسية فأصدر الملك أوامره بإقامة نصب خاص متين يرتكز على ست عشرة دعامة من الحجارة على ارتفاع عشرة أمتار حتى يمكن رؤيته من بعيد وعلى سطح هذا النصب تقوم عدة أعمدة من الخشب مثبتة بسلاسل حديدية قوية يتم عليها شنق المحكوم عليهم جماعة، وفى وسط هذا المرتفع فتحة كبيرة يسقطون فيها الجثث.

فى هذه الساحة كان يسمح للكلاب والغربان بالتجمع لتحصيل نصيبها من الجثث، ومنع أقرباء المحكوم عليهم من الاقتراب لحمل الجثث ودفنها ولم يكن كل من يقترب من الجثث من الأقرباء. كان هناك أهل المهنة أنفسهم ممن تخصصوا فى بيع الجثث للتشريح، أو سحق عظامها لاستخراج ترياق الحب، أو الشباب، أو الحمل.

ويسجل التاريخ وبدقة فى يوم ٢٨ أغسطس عام ١٥٧٢، ولشهرة هذه الساحة فى أنحاء أوروبا جاءت «كاترين دى مديتش» مع ابنها وبلاطها فى سياحة خاصة لزيارة المكان، ورغم الإعداد المناسب لمكان الزوار، ورغم تعبيقه بكميات من العطر القوى، إلا أن أحد السادة اقترح على الملك ترك هذا المكان النتن فعلق الملك «هيا أيها السادة إن جثة العدو ليست دائما طيبة».

جماهير باريس كانت أيضا تتسلى بمشهد الإعدام، تتجمع للأكل والشرب، والثرثرة، والفرجة المجانية، ويندس بينهم زملاء المحكوم عليهم بالإعدام ففرصة الزحام وغفلة الناس شئ لا يعوض.

• جسر (نوف) كان يفصل بين نبلاء القصر ونبلاء الجمهور!



استعراض العاهات!

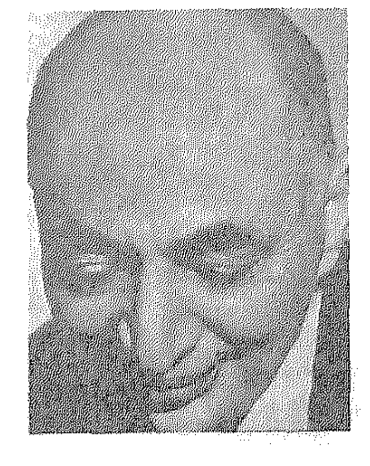
نهاية البلاط

دراما بلاط المعجزات انتهت لحين عام ١٦٦٦. أصدر الملك في هذا العام أوامره بإزالة ملاجئهم، خاصة تلك التي تجاور وتفسد حي «اللوفر» وبدلا من أن تجد لهم الدولة علاجا، حاصرت الشرطة المكان وأنذرتهم إما الخروج أو الإعدام. وتصور أهل باريس أنه تم تنظيف قاع المدينة. كان وهما فقد صعد الحضيض إلى السطح، وصرخ ملتاعا ومشاركا في ثورة فرنسا الكبرى عام ١٧٨٩.

تذكير بفضل الراحلين

إبراهيم ناجى
وأنور لوقا
ورابح لطفى جمعة

بقلم
وديع فلسطين



ابرهيم ناجي



أنور لوقا

زارنى من أيام شاب سعودى يعد رسالة جامعية عن الشاعر إبراهيم ناجى، وقال إن غايته الوحيدة من هذه الزيارة هى استكمال صورة الشاعر سواء من عارفيه أو من المراجع المنشورة عنه وهاله أن يكتشف أن هذا الشاعر الكبير غائب تماما عن الذاكرة الثقافية لمصر ربما مع استثناء أغنية الأطلال التى تشدو بها أم كلثوم حتى أن انقضاء خمسين عاما على وفاته فى ٢٤ مارس ١٩٥٣ لم تنبه الاحتفاليين والمتمهرجين إلى الاهتمام بهذا الشاعر الذى ليس من المغالاة وصفه بالموسوعى ففضلا عن شاعريته الخصبة فهو عالم فى الطب وكاتب قصة وخبير فى علم النفس ومحيط إحاطة واسعة بآداب الغرب وفلسفاتهم.

ولأن هذا الشاب تأخر عشرات من السنين فى المجئ إلى مصر فلم يصادف أحدا من عارفى ناجى وأصدقائه بعدما طوى الموت كل جيله، وضاعت روعة شعره فى خضم الخزعبلات الشعرية التى باتت صحفنا تهتم بها اليوم ولولا أن الشاعر حسن توفيق قام بعمل ضخم هو جمع الأعمال الشعرية والنثرية الكاملة لناجى لما وجد الباحثون عن دواوين الشاعر إلا كتيبا يضم مختارات من شعره جمعها الدكتور محمد عنانى.

وإذا كان مرور عشرين عاما على وفاة أمل دنقل قد استأثر باحتفالية على مدى ثلاثة أيام، أفلا تستحق ذكرى مرور نصف قرن على وفاة الشاعر إبراهيم ناجى - ودعنا من القيمة الأدبية لهذا الشاعر وذاك - ولو نصف أو ربع احتفالية من هذه الشاكلة؟

ويبدو أن الظلم البين يلاحق إبراهيم ناجى حيا وميتا فعند صدور ديوانه الأول وراء الغمام استقبله طه حسين والعقاد بحملة شرسة أعلن ناجى بعدها طلاق الشعر قائلا: وداعا أيها الشعر وداعا أيها الفن.. وداعا أيها الفكر وقرر الهجرة النهائية من مصر تمزقه حالة نفسية شديدة السوء وظلت هذه الحالة تلازمه حتى وهو فى منفاه المؤقت فى انجلترا فصدمته سيارة مسرعة كسرت ساقه، فاضطر إلى التفكير فى العودة إلى مصر ليدافع عن شاعريته بمزيد من روائعه وإذ كان على سطح السفينة وهى تقترب من ميناء بورسعيد صرخ قائلا:

هتفت وقد بدت مصر لعينى

رفاقى تلك مصر يا رفاقى

أتدفعنى وقد هاضت جناحى

وتجذبنى وقد شدت وثاقى

خرجت من الديار أجر همى

وعدت إلى الديار أجر ساقى

أما الظلم المبرح الذى تعرض له ناجى فهو إيراد اسمه فى قائمة التطهير الأولى التى أعلنتها الحركة المباركة كما كانت ثورة يوليو تسمى فى بدايتها وقد ضمت هذه القائمة المشئومة إبراهيم ناجى وصالح جودت ومحمد فتحى بك مدير الإذاعة وعلى خليل بك كبير المذيعين وغيرهم فإن قيل إن لصالح جودت شعرا تملق به الملك فاروق وأن فتحى بك وعلى خليل بك كانا بحكم إشرافهما على الإذاعة الرسمية للدولة يمجدان الملك فاروق فما ذنب إبراهيم ناجى الذى كان وقتها مديرا للإدارة الطبية بوزارة الأوقاف حتى يناله سيف التطهير بدعوى أنه غير منتج وكأنه صاحب مصنع لانتاج الطب قصر فيه ناجى تقصيرا معيبا مع أنه لم يرد أحدا من موظفى الوزارة طلب منه العلاج بل إنه كان حتى فى عيادته الخاصة فى شارع شبرا يعالج الفقراء مجانا ويسدد ناجى من جيبه قيمة الدواء الذى يصرف من صيدلية نقولا الحداد (مترجم نظرية النسبية لأينشتين) لهؤلاء الفقراء بناء على اتفاق بين ناجى والحداد، وهو ما علمته من الحداد نفسه.

هذه الفرية الظالمة أورثت ناجى هما مقيما - وكان هزيل الجسم هاجمه داء السل فى فترة من حياته فمات بعد أقل من عام وكأنه كان يقصد نفسه بقوله:

آيها الشاعر كم من زهرة

عوقبت لم تدر يوما ذنبها

بل لقد سخر من مسرحية الحياة كلها بهزلها ومآسيها فقال:

نزل الستار ففيم تنتظر

خلت الحياة وأقفر العمر

هو مسرح، وانفض ملعبه

لم يبق لا عين ولا أثر

ورواية رويت وموجزها

صحب مضوا وأحبة هجروا

عبروا بها صورا، فمذ عبروا

ضحك الزمان وقهقه القدر!

ثم إن مؤرخي ناجي ظلموه بما رووه عن غرامياته حتى أن صديقه صالح جودت أخذ يفصل قصائد ناجي على مقاس الممثلات الراقصات وكأنما كانت مصادر الإلهام عند ناجي هي هذه الممثلة أو تلك الراقصة من بطلات السينما والمسرح وظل هذا الاعتقاد يلاحق ناجي حتى بعد وفاته فعندما غنت أم كلثوم مقاطع من ملحمة الأطلال خرجت علينا جملة من الممثلات وكل منهن تزعم أنها وحدها بطلة الأطلال وإذا كانت هذه الملحمة قد انتهت بتدمير البطلة والبطل باعتراف الشاعر حيث قال في تقديمه لها إن القصة انتهت بأن صارت هي أطلال جسد وصار هو أطلال روح، فهل يشرف هؤلاء الفنانات أن يكن قد دمرن البطل ودمرن أنفسهن معه؟!

ولم يسلم ناجي من المظالم بعد وفاته فالديوان الذي أصدرته وزارة الثقافة والإرشاد القومي بتحقيق أحمد رامي وصالح جودت ومحمد ناجي شقيق ناجي وكان ضريرا وبدراسة للدكتور أحمد عبدالمقصود هيكل صدر معيبا من وجوه شتى فهو لم يضم كل شعر ناجي كما زعم صالح جودت في مقدمته كما أنه ضم ١٦ قصيدة للشاعر كمال نشأت وقصيدة للشاعر علي محمود طه تسللت إلى الديوان بزعم أنها من شعر ناجي فأثار صدور الديوان ضجة كبيرة وصلت إلى المحاكم التي قضت بمصادرة هذا الديوان المعيب.

وأفلح شطار لبنان في نشر المجموعة الكاملة لشعر ناجي فجاءت هذه الطبعة بدورها معيبة لما فيها من أخطاء الطباعة ولأن الناشرين حذفوا الهوامش التي تلقي ضوءا على موضوع كل قصيدة فأساءت الروح التجارية للشاعر وشعره.

وإذا كانت قصيدة الأطلال التي غنت أم كلثوم مقاطع منها قد طيرت شهرة ناجي فظن الناس أن هذه القصيدة هي وحدها التي تمثل شعر الشاعر في حين أن هناك قصيدة وطنية شديدة الجمال لناجي غنتها أم كلثوم دون أن تلقى شهرة شبيهة بشهرة الأطلال ومطلعها:

أجل، إن ذا يوم لمن يفتدي مصرا

فمصر هي المحراب والجنة الكبرى

وما دامت هذه السلسلة من المظالم تطارد ناجي حيا وميتا، فلتمض ذكرى مرور خمسين عاما على وفاته بلا حس أو خبر فلا صدر طابع بريد يخلد ذكراه ولا أقيم له

احتفال متواضع هنا أو هناك ولا ذكرته صحف تزعم أنها تعنى بأخبار الأدب والأدباء، ولا نصب له تمثال ولو فى حى شبرا حيث ولد فى ٣١ ديسمبر ١٨٩٨ وحيث مارس الطب فى عيادته. ولا عليك يا ناجى فقد عدد الشاعر أحمد زكى أبو شادى ذنوبك الكثار فى مرثيته حيث قال:

أترى كل ذنبـه أنه شـاعـر شـعـر
أنه نغم الأسى أنه طارد الضجـر
أنه شع أنسه فى مجالس السمـر
أنه أبدع المنى مثلما أبدع الصـور
أنه داعب الهوى والهوى كله خطر
أنه أنقذ الورى من شرور ومن شرر
أنه أسكر النهى وهو من همه سكر
أنه أنضر الربى حينما صوح الشجـر
أنه أنتج الجنى فى دنى النحل والبشر
أنه صاغ شعره من دموع ومن فكر
أنه رف مطربا ما تسامى وما نـدر
أنه كان طبه فوق طب ومختبـر
أنه عاش دائما ضاحكا يهزم الكدر
أنه كان شعلة من ذكاء، وكم بهر
لم تفته أصالة إن يكن فاته الوطر

الدكتور أنور لوقا

رحل فى شهر أغسطس الماضى الباحث الأكاديمى الأديب الدكتور أنور لوقا الذى اختار منذ أكثر من ثلاثين عاما أن يعيش فى جنيف بسويسرا وأن يعمل أستاذا للفكر العربى فى جامعاتها وفى الجامعات الفرنسية قائما بشخصه بدور السفير الأدبى بين الثقافتين العربية والافرنجية ولئن غادر مصر فى ظروف التضييق حتى على أساتذة الجامعات وكان وقتها يعمل أستاذا فى جامعتى القاهرة وعين شمس – فلا يسمح لهم بالسفر إلا بالورقة الصفراء ودون الحصول عليها أهوال – ولأنه كان مضطرا بحكم زواجه من سيدة سويسرية إلى السفر إلى بلادها فقد ارتأى الاستقرار فى سويسرا حتى لا يتعرض للمضايقات فى كل رحلة إلى مصر. وبمجرد انتهاء هذه الظروف كثرت زياراته إلى القاهرة للمشاركة فى المؤتمرات والأنشطة الفكرية وكانت رحلاته قبل ذلك تتجه إلى تونس وسورية وإسبانيا وتركيا وغيرها، حيث تلقى مشاركاته فى مؤتمراتها تقديرا يليق بعلمه وفضله.

ولد أنور لوقا فى ملوى بصعيد مصر فى عام ١٩٢٧ فلما وصل إلى المرحلة الجامعية قربه أستاذه طه حسين إليه وظل هو على وفائه الدائم لهذا الأستاذ الذى اعتبره أبا روحيا له وفى عام ١٩٥٠ سافر إلى باريس للالتحاق بجامعة السوربون ومنها نال درجة دكتوراه الدولة فى الأدب المقارن وكان موضوع رسالة الرحالة والكتاب المصريون فى فرنسا فى القرن التاسع عشر وأعد رسالة تكميلية عنوانها دراسة تأصيلية لنص الطهطاوى تخليص الإبريز فى تلخيص باريز.

كما التحق فى المعهد العملى للدراسات العليا فى العاصمة الفرنسية وبعودته إلى جنيف عمل أستاذا بمعهد الترجمة وبمعهد المكتبات وشغل منصب أستاذ اللغة العربية وآدابها فى جامعة بروفانس وجامعة ليون الثانية فى فرنسا.

وعند تقاعده أقامت جامعة ليون الثانية حفلا رسميا كبيرا لتكريمه وتوديعه تبارى الأساتذة فى التحدث عن مناقب أنور لوقا الأكاديمية والخلقية وإسهامه فى تعريف الطلاب بمفاخر الأدب العربى.

أما مؤلفاته سواء باللغة الفرنسية أو العربية فمنها كتاب «بلزاك حياته وأدبه» و«كتالوج المخطوطات العربية فى المكتبة العامة لجامعة جنيف» و«مراسلات جان تينيه المصرية ١٨٥٧ - ١٨٨٢» و«مصر فى القرن التاسع عشر من واقع مراسلات القنصلية البرتغالية» و«جوانب خفية من الثورة العرابية: سلطان أفندى» و«ربع قرن مع رفاعة الطهطاوى» و«إدريس أفندى فى مصر»، و«أبو حيان التوحيدى وشهرزاد» و«حوت لابروييير» و«قصص من الريف والمدينة»، لدوديه و«تقاليد الفروسية عند العرب» الذى ترجمه عن واصف بطرس غالى باشا، والترجمة الفرنسية لكتاب «الفتنة الكبرى» لطه حسين وكتاب «المعلم يعقوب» عدا عشرات من البحوث والدراسات باللغتين العربية والفرنسية من أبرزها دراسته المعنونة «ظلال على الأدب العربى فى العالم» التى قدمها إلى مؤتمر للمجلس الأعلى للثقافة في القاهرة وله فضلا عن ذلك كتاب «من بونابرت إلى طه حسين» ومساهمات فى «موسوعة تراث القبط» التى يجرى طبعها الآن فى القاهرة.

وكان أنور لوقا أخبرنى أنه عاكف على كتابة سيرته الذاتية وذكرياته عمن عرفهم وعمل معهم فى حياته ولكن المرض داهمه فحال دون إتمام هذا المشروع.

ومما يذكر أن معهد العالم العربى فى باريس أصدر عددا خاصا من نشرته «العالم العربى فى البحث العلمى» لأنور لوقا فيه سجل حافل بجلائل الأعمال الأكاديمية التى أنجزها هذا العالم الكبير فى أكثر من أربعين عاما من العمل الجاد فى الدراسات العلمية والتدريس الجامعى.

رابح لطفى جمعة

توفى فى الثامن والعشرين من أغسطس الماضى رجل القانون والأدب رابح لطفى جمعة عن عمر أربى على السبعين عاما ومع أنه من جيرانى، إلا أننى لم أعرفه إلا فى تونس عندما شاركنا فى مؤتمر أدبى وقلت له يومها إنك مقصر فى حق أبيك العلامة الكبير محمد لطفى جمعة فكيف لم تنشر سيرته أو تهتم بآثاره؟ فقال أما سيرته فقد نشرتها فى سلسلة الأعلام وسأوافيك بنسخة منها عند عودتى إلى القاهرة وهو وعد وفى به. أما آثاره المخطوطة فهى محفوظة عندى كلها وأنا حريص على إخراجها بعدما أفرغ من تنسيقها وإعدادها للنشر ولم يلبث أن أهدانى كتابه الأول من تراث أبيه بعنوان محمد لطفى جمعة وهؤلاء الأعلام وهو كتاب يكشف عن خفايا الحياة الأدبية من واقع مئات من الرسائل تبادلها لطفى جمعة مع كثيرين من أعلام عصره.

وتواصلت بعد ذلك مؤلفات لطفى جمعة منشورة بعناية ابنه رابح ومنها كتب فى التاريخ والدين والسير والأدب الروائى والمأثورات الشعبية ومترجمات وكذلك المذكرات الشخصية له فإن عرفنا أن رابح نشر كل هذا التراث على نفقته الخاصة وأنه لم يودع الدنيا إلا بعد إخراج كل آثار محمد لطفى جمعة، أكبرنا فى رابح هذا الوفاء العظيم لا



لأبيه فقط بل للفكر والثقافة عامة.

وكان آخر ما أخرجه رابح لطفي جمعة من مؤلفاته الشخصية ديوان لذكراك وهو صفحة من الوفاء العميق لزوجته التى رحلت فى العام الماضى وهو رحيل زلزل زوجها حسب تعبيره ولهذا أخذ يعلل نفسه بقرب اللقاء وألا تطول وحدته على الأرض حيث قال:

على أمل اللقاء أعيش عمرى

أعد له الدقائق والثوانى

هناك الشمل مؤتلف جميع

ننعم بالتلاقى والتدانى

فلا نخشى فراقا أو رحيلا

ولا نخشى فجاءات الزمان

إنه ديوان باك نظمه صاحبه بقلبه المفجوع دون أن ينهاه عن ذلك وقار الشخيوخة من ناحية وهيبة كرسى القضاء من ناحية فقد تدرج به هذا الكرسى فى سلك القضاء إلى أن أصبح نائبا لرئيس المحكمة الدستورية العليا بدرجة مستشار.

توفيت الزوجة فى يناير ٢٠٠٢ وبعد أقل من عامين لحق بها رابح، وكان يتعجل الرحيل حتى قبل هذه الفترة الزمنية القصيرة.

ولرابح لطفى جمعة ديوان آخر عنوانه «حطب الليل» أهداه إلى: «توأم نفسى وروحى إلى أخت عمرى، رفيقة رحلتى فى درب الحياة إلى زوجتى»، وهو ديوان يجمع بين الشعر الوطنى والشعر الوجدانى وشعر الطبيعة بشاعرية تتألق جمالا وروعة فاصغ إليه يقول فى تحية القاهرة فى عيدها الألفى:

قم ناج قاهرة المعز ونادها

واستلهم الأشعار من أمجادها

واقرأ على سمع الزمان كتابها

وانشر جمال طريفها وتليدها

وادخل إلى التاريخ فى محرابه

واسترجع الأيام من آبادها

وهى قصيدة تذكرنا بقول شوقى فى كشف قبر توت عنخ آمون:

أفضى إلى ختم الزمان ففضه

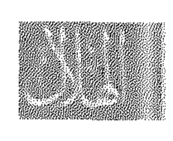
وحبا إلى التاريخ فى محرابه

وطوى القرون القهقرى حتى أتى

فرعون بين طعامه وشرابه

وليس على الشاعر من حرج إذا ما تأثر بشعر الأولين والآخرين فالمعانى الجميلة ترد على الخاطر بوعى من جانب الشاعر أو بغير وعى.

لقد مد الله فى عمر رابح حتى أنجز رسالته فى الحياة كما توخاها تماما فمات راضيا مرضيا. ■



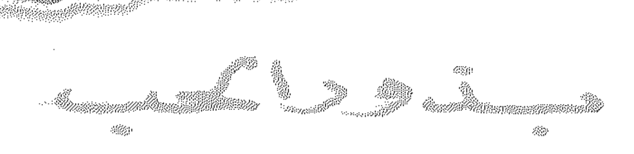
يوميات السجن

صنع الله ابراهيم

السجن هو جامعتى. ففيه عايشت القهر والموت، ورأيت بعض الوجوه النادرة للإنسان، وتعلمت الكثير عن عالمه الداخلى وحيواته المتنوعة، ومارست الاستبطان والتأمل، وقرأت فى مجالات متباينة. وفبه أيضاً قررت أن أكون كاتباً.

تعرضت لتقييد حريتى أول مرة عام ١٩٥٢ عندما كنت ما أزال فى الخامسة عشرة من عمرى. إذ قبض علىّ فى الاجتماع العام الأسبوعى للحزب الإشتراكى، بشارع ضريح سعد، قبل أسبوع من حريق القاهرة. وقضيت ليلة فى قسم شرطة السيدة زينب.

وتكرر القبض علىّ فى عام ٥٤، وأنا طالب فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة. واحتجزت مع صديقى مصطفى الحسينى ثلاث ليال فى مركز شرطة الدقى بسبب اشتراكنا فى المظاهرات التى كانت تندد بالحكم العسكرى وتطالب بالديموقراطية



صورة من أول مجموعة قصصية تم نشرها داخل السجن

ولعلى قررت فى هذه الأيام الثلاث أن انتقل من التظاهر إلى الفعل المنظم فالتحقت بعدها مباشرة بإحدى التنظيمات السرية ، وأهملت دراستى ، منكباً على النشاط السرى من اجتماعات وطباعة منشورات وتوزيعها. وبعد سنتين اشتركت فى مظاهرة نظمها أهالى المسجونين السياسيين أمام نقابة الصحفيين وقبض علىّ من جديد وفى هذه المرة ارتفعت مرتبتى فقضيت شهراً فى سجن القناطر الخيرية وخرجت إلى الشارع فى نفس اللحظة التى كان فيها جمال عبدالناصر يعلن تأميم قناة السويس.

قبض علىّ مرة أخرى بعد شهور قليلة عندما كنت أوزع منشورا يدعو إلى الوقوف صفا واحداً خلف جمال عبدالناصر فى مواجهة العدوان الثلاثى. وجرى إيداعى فى قسم شرطة الدقى مرة أخرى لكن لمدة ساعات إذ وصل على الفور حسن طلعت مدير المباحث الذى صار بعد عشر سنوات أميناً للاتحاد الاشتراكى فى القاهرة.

أخذنى حسن طلعت فى سيارته

وأجلسنى بجوار السائق وجلس ورائى ثم انهال على رأسى باللطمات وأنا عاجز عن تفاديها، وأرفقها بمجموعة طيبة من الشتائم والإهانات فضلاً عن اتهامى بالمسئولية الشخصية عن العدوان الثلاثى نفسه! وتواصل ضربى وتحطيم نظارتى فى بدروم الفيللا التى تضم مكتب مباحث الدقى وكانت فى الشارع الذى يوجد به منزل الكاتب الكبير «أحمد أمين». واستمر ذلك ثلاث ليال حتى أنقذنى الإنذار الروسى فاستدعانى إلى مكتبه واعتذر لى بأنه فقد أعصابه بسبب خوفه على الوطن(!) وأفرج عنى.

والمرة الأخيرة

ولم يمض عامان وأقل من ثلاثة أشهر حتى قبض علىّ مرة أخرى، مع مئات آخرين، فى فجر أول يوم من عام ١٩٥٩، دون أن يوجه اتهام محدد إلى أحدنا. وأخذونا إلى معتقل القلعة.

والقلعة كما هو معروف استهلها صلاح الدين قبل ثمانية قرون ونمت مبانيها وتوسعت على مدى الزمن. أضاف إليها محمد على المسجد الشهير ذا القبة ثم أنشأ بها الإنجليز سجنا حربياً ظل يستقبل الثوريين والسياسيين حتى بعد جلائهم عن مصر سنة ١٩٥٤. وكان آخر نزلاء هذا السجن الصغير مجموعة الأصوليين الإسلاميين الذين قتلوا أنور السادات فى عام ١٩٨١. إذ أغلق بعدها وجرى تحويله إلى متحف للشرطة.

سجين العصر الحديث

يتألف السجن، المتحف من عنبر طويل تعلوه سلسلة من الزنازين الصغيرة التى شيدت على جانبى ممرين مفتوحين. وفى أربعة من هذه الزنازين توجد الآن مانيكانات تمثل سجناء من عهود مختلفة، تميزها ملابسهم واللافتات المثبتة إلى جوار الأبواب، وتشير ثلاث من هذه اللافتات إلى عهود المماليك والعثمانيين ومحمد على ويظهر فيها السجناء فى الملابس التى تميز تلك العهود مقيدين بسلاسل حديدية إلى أوتاد، وتتغير الصورة فى الزنزانة الرابعة التى تعلن لافتتها عن «سجين من العصر الحديث» فنشاهد داخلها مانيكانا يرتدى الملابس العصرية (قميص وبنطلون) ويضع على عينيه نظارة طبية ويمسك كتاباً. وهى صورة تثير الاعجاب بالمصمم الذى أدرك الارتباط بين التمرد والوعى لكنها مع الأسف تفتقر إلى الدقة التاريخية، كما لمست بنفسى. ففى اليوم الأول من عام ٥٩ مررت مع عشرات المعتقلين من البوابة الخشبية واستقررت فى هذه الزنزانة ذاتها. وبقينا عدة شهور محرومين من الصحف والردايو والكتب والورق والقلم.

سجن مصر

خلال تلك الفترة كان عددنا قد تضاعف وضاقت بنا زنازين السجن الصغير فنقلنا إلى السجن المركزى القريب، الذى كان يعرف بسجن مصر. وفى هذا السجن المكدس أصلاً بنزلائه من

لجاءت الي احد الزملاء الناسخين المتخصصين في عملية النسخ فنسخ لي مخطوطة هي أول محاولة لي في الرواية

المجرمين العاديين كان من الصعب تطبيق اجراءات خاصة على مجموعة بعينها من النزلاء فالزحام يجعل الاحتكاك بالمسجونين الآخرين أمرا لا مفر منه وبالتالى يتيح فرصة الحصول على الصحف والكتب منهم. إذ كانت بالسجن مكتبة ضخمة تكونت أغلب محتوياتها على مدى عشرات السنين من مساهمات النزلاء أنفسهم الذين ضموا نسبة محترمة من المتعلمين والأجانب. وكان هؤلاء يجلبون مايشاءون من كتب بلغات مختلفة ويتركونها عند مغادرتهم للسجن. وعندما هددنا بالاضراب عن الطعام إذا لم يسمح لنا باستخدام المكتبة وافقت الإدارة على أن يذهب مندوب واحد عنا إليها ويقترض بضعة كتب توزع على الزنازين ويتم تبادلها بيننا ثم تستبدل بجموعة غيرها.

بالطبع لم يكن من الممكن التحكم فى اختيارات المندوب التى يحاول بها إرضاء الأذواق المختلفة. هكذا أتيحت لى الفرصة لأن أقرأ كتباً لم يكن من الممكن أن اختارها بنفسى. كنت فى الواحدة والعشرين من عمرى ومازلت مغرماً بروايات المغامرات (البوليسية والتاريخية) فضلاً عن الكتب السياسية التى كنت أقرأها بغير حماس. وصرت فجأة مرغماً على القراءة لكتاب لم أهتم بهم من قبل وفى موضوعات لم تخطر لى على بال. قرأت لطه حسين عن المتنبى وأبى العلاء المعرى وللمازنى. وللشاعر الانجليزى روبرت جريفز عن الامبراطور كلوديوس ومازلت أذكر غلاف هذا الكتاب الأصفر اللون البسيط التصميم والذى حمل علامة القطرس، شعار دار النشر الشهيرة فى الثلاثينيات. قرأت أيضاً كتاباً فريداً بالانجليزية لكاتب ذى اسم هولندى لا أذكره وموضوعه الجغرافيا التى عذبتنى فى المدرسة. وأمتعنى الكتاب بطلاوة

أسلوبه وخفة دمه وجعلني أدرك أن هناك دائماً مجالات مثيرة في كل علم وأن أكثر الموضوعات جفافاً وتعقيداً يمكن أن تتحول إلى قصة طريفة إذا كان الكاتب واسع الثقافة عاشقاً لموضوعه وحريصاً على توصيله للآخرين.

تعرفت أيضاً على عالم العمارة وإنجاز «فرانك لويد رايت» من خلال رواية «النافورة» للكاتبة الأمريكية المحافظة آنى راند، وعلى عالم الحيوان والعلاقة بينه وبين عالم الإنسان من كتاب جميل للكاتب السويدى أكسيل مونتيه نشره مشروع الألف كتاب العظيم. ولعل هذا الكتاب هو الذى وضع فى رأسى البذرة الأولى لسلسة الروايات التى كتبتها بعد عقدين من عالم الحيوان.

ولم نهنأ طويلا

خففت هذه الكتب من معاناتنا فقد كنا نقيم فى زنازين صغيرة تتسع كل واحدة لثلاثة أسرة حديدية تعلو بعضها البعض وكانت الحشرات تمنعنا من النوم فنقضى الليل فى القراءة وننام بالنهار عندما تهجع، لكننا لم نهنأ بهذا الوضع طويلاً فقد نقلنا خبراء الأمن إلى سجن القناطر الخيرية ووضعونا فى مكان منعزل وحرمونا من فرصة الاختلاط بالسجناء العاديين والحصول على الصحف كما منعونا من استخدام المكتبة ومن الاستماع إلى الراديو.

كانت هذه فترة قاسية حقاً. فالمكان شديد البرودة. وفراشنا مكون من برش من الليف وبطانية. وفرضوا علينا أن نضع هذا الفراش كل صباح خارج الزنازين التى تغلق علينا حتى المساء ونقضى اليوم كله ونحن نقفز كالقرود إلتماساً لبعض الدفء وخلال ذلك نتبادل الحكايات . هكذا بدأت أتذكر أحداث طفولتى التى انشغلت عنها بحاضرى، وعندما انتهت الحكايات واستنفذت انفتح المجال لأحلام اليقظة.

الكتب المقدسة

لجأنا مرة أخرى إلى سلاح التهديد بالاضراب عن الطعام لكن أحد لم يعبأ بنا فاضطررنا إلى تنفيذ تهديدنا . وتركت الإدارة المضربين حتى أشرفوا على الموت بعد أربعة وعشرين يوماً. فاضطررنا لإيقاف الإضراب. عندئذ لجأنا إلى حيلة أخرى لم نتورع فيها عن إستغلال الاحترام التقليدى للدين. فلم يكن بوسع مدير السجن أن يرفض مطالبتنا بالكتب المقدسة هكذا أتيح لى أن أقرأ القرآن والتوراة والانجيل من الغلاف إلى الغلاف وأظن أن هذه القراءة كانت من أهم العوامل فى تكوينى إذ أرتنى العلاقة القائمة بين الكتب الثلاثة والتجليات المختلفة للحلم الإنسانى بالعدل والمساواة. كما أن الحكايات التاريخية فى التوراة والقرآن روت عطشى إلى القصص. ونشط خيالى فى تطوير كثير منها.

فى مارس من العام التالى نقلنا إلى سجن الاسكندرية للمثول أمام محكمة

عسكرية بتهمة التآمر لقلب نظام الحكم. وبعد أسبوع تعرضنا لعلقة ساخنة توجت بسكب دلاء البول والبراز فوق أجسادنا العارية.

تراجيديا يونانية

استمرت المحاكمة ثلاثة شهور لم ينجح فيها الإدعاء فى تقديم دليل واحد يؤيد الإتهام الموجه إلينا. فقد كان موقفنا واضحاً من تأييد النظام الوطنى بدافع من عقيدتنا الفكرية . وبدأت أشعر أنى أتحرك فى تراجيديا من النوع اليونانى وخاصة عندما نقلنا إلى معتقل أبى زعبل الملحق بالليمان الشهير فى ضواحى القاهرة.

كانت قد تواترت إلى مسامعنا أنباء عما يجرى داخل هذا المعتقل الرهيب من تعذيب يومى لمئات من زملائنا. وتأكد ما سمعناه عندما وصلنا إلى باب المعتقل فى صباح الخامس عشر من يونيو ١٩٦١. فقد أعد لنا خبراء الأمن استقبالاً حافلا تمخض عن مصرع «شهدى عطية الشافعى» وهو يهتف باسم جمال عبدالناصر، وإصابة العشرات بجراح وكسور بالغة.

ولد «شهدى عطية الشافعى» سنة ١٩١٣ ودرس اللغة الانجليزية وآدابها فى بريطانيا وأسس دار «الأبحاث العلمية» بعد عودته فى نهاية الحرب العالمية الثانية ثم شارك فى قيادة «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال» سنة ١٩٤٦. وقبض عليه فى العام التالى وحكم عليه بالأشغال الشاقة لمدة سبع سنوات فصار أول سجين سياسى يدخل الليمان ويقيد بالسلاسل الحديدية. وفى أعقاب الثورة أفرج عنه بثلاثة أرباع المدة فساهم فى تأسيس جريدة «المساء» وتوحيد الحركة الشيوعية وظل خاضعاً لحكم المراقبة القضائية حتى اعتقاله مرة ثانية فى أول «يناير» ١٩٥٩.

عرفته أولاً من خلال كتابه الرائد عن تاريخ الحركة الوطنية المصرية الذى صدر سنة ١٩٥٧ ثم اقتربت منه وعملت معه فى دار صغيرة للنشر أسسها. تعلمت منه أخلاقيات العمل الجاد المنضبط والترجمة من الإنجليزية إلى العربية . وكنت أعتبره بمثابة والد أو أخ أكبر. وكان يتميز بقامة طويلة وعظام عريضة بينما كنت وما زلت نحيف البنية ضئيلها ولهذا السبب اختار أن نشترك سوياً فى القيد الحديدى لمعصمينا خلال الرحلة المشئومة من الاسكندرية إلى أبى زعبل. وربما كنت آخر من رآه قبل أن يبدأ التعذيب الذى انتهى بمصرعه بعد ساعات.

المحنة ما جرى لى بعد ذلك مثل أصعب محنة مررت بها فى حياتى. كانت زوجة «شهدى» قد اقتفت أثر رحلاتنا من الاسكندرية إلى أبى زعبل فى سيارتها وسمعت من الحراس بمصرع زوجها. وسرعان ما ذاع الخبر وظهر نعى الشهيد فى جريدة الأهرام، ألمح من خلال أبيات من الشعر المتنبى على ما أظن، إلى الظروف التى جرى فيها مصرعه وتناقلت وكالات الأنباء الخبر. وكان عبدالناصر وقتها فى بلجراد وتعرض لأسئلة صحفية

بشأنه فأمر بإجراء تحقيق فى الأمر.

وفى اليوم التالى استدعيت أنا وثلاثة من الزملاء إلى مكتب أحد ضباط المعتقل وبعد التأكد من طبيعة آثار التعذيب على ظهورنا صرف اثنين منا. ثم أبلغنى أنا وزميلى - وقد وقفنا أمامه فى انتباه وعيوننا إلى الأرض - بأننا سننتقل بعد قليل إلى المبنى الرئيسى لليمان حيث نمثل أمام النيابة كى ندلى بشهادتنا فى واقعة وفاة شهدى. وقال بلهجة ذات مغزى إن شهدى «توفى فى الطريق من الاسكندرية وقبل وصولنا إلى المعتقل».

لم ينتظر منا إجابة ولم يكن فى حاجة إلى ذلك إذ كنا مشلولين. ولم يلبث أن تركنا فجأة فى حراسة «صول» شرس، ووجهينا إلى الحائط همست لزميلى، المرحوم الصيدلى سعد الدين بهجت، متسائلاً. حنعمل إيه ياسعد؟ ورد علىّ قائلاً إنه سيبلغهم بأن شرفه العسكرى يمنعه من تنفيذ هذا الطلب. وكانت له سابق خدمة بالجيش.

وعقبت : طب وأنا أقول إيه؟

كان ذهنى عاجزاً عن التفكير وعن اتخاذ قرار ما فقد كنت مشلولا من الرعب. حولنى هول ماحدث إلى مايشبه الروبوت ولا أستبعد أنى كنت ساقوم بما طلب منى. ولحسن الحظ أن الموقف تغير تماماً بعد لحظات إذ اقتحمت النيابة مبنى المعتقل وتوقف التعذيب وأدلينا جميعاً بشهاداتنا عن حقيقة مصرع شهدى وما تعرضنا له من تعذيب.

أرتنى هذه التجربة بشاعة القهر وما يؤدى إليه من إهدار الكرامة الإنسانية. وعلمتنى النظر إلى الإنسان ككل متكامل مؤلف من نقاط قوة وضعف . وكانت المرحلة التالية فرصة لممارسة هذا الفهم وتدعيمه.

المختبر

فقد نقلنا إلى سجن المحاريق بالواحات الخارجة، على مبعدة حوالى ٤٠٠ كيلومتر من شاطىء النيل حيث سبقنا عدة مئات من المعتقلين - وقبلهم عدة مئات آخرين من السجناء السياسيين من الشيوعيين والإخوان المسلمين. وطبقت علينا جميعاً سياسة العزل التام التقليدى.

كان بيننا ممثلون لكل مناحى الحياة: صحفيون وكتاب ونقابيون وعمال وأساتذة جامعات وعلماء وفنانون ومزارعون وطلاب. وتجمعنا فى زنازين كبيرة لايقل عدد أفراد الواحدة منها عن أربعة عشرة نزيلا. وصارت الزنزانة مثل المختبر العلمى للسلوك البشرى ولقصص الحياة.

اعتمدنا لفترة طويلة فى تزجية الوقت على الألعاب الجماعية التى تتناول موضوعات ثقافية متنوعة وعلى ذكريات ونوادر الحكائين ثم ولد الكتاب المسموع. فقد كان البعض يتمتعون بذاكرة قوية لقراءاتهم ويجيدون سردها. وصاروا مثل النجوم تتنافس الزنازين على استقبالهم ويتم تهريبهم من زنزانة إلى أخرى لقضاء

أمسية يمارسون فيها موهبتهم.
وألفت أن أترك هذه الأحـــاديث والحكايات تحملني على أجنحتها ، فأتخيل نفسي في أماكن غريبة: على شواطىء البحر الأحمر أو في وحوش أو في صحراء لانهاية لها وصاعداً جبالاً من الثلج أو نائماً في خيمة على حافة بركان أو منفرجاً من أعلى ناطحة سحاب وكنت أصوغ لنفسي في كل ليلة حياة مختلفة : فلاح يجمع القطن أو بحار في مركب ينتقل بين الموانيء أو شيال في ميناء أو رحالة متسلق للجبال أو صياد يبدأ يومه بالليل أو عامل في عنبر من آلاف العمال والآلات التي تطن وتتوقف مرة واحدة أو عالم في معمل كبير مليء بالأنابيب والتحاليل والاكتشافات أو صحفي يلف العالم ويعيش بقلمه وأعصابه أخطر الأزمات والأحداث. حيوات متعددة مثيرة تستهويني كلها وأريد أن أعيشها جميعا.

رادار

أمثال هذه المنافي تخلق وضعاً لاتستطيع أي سلطة مقاومته . فالحراس من جنود وضباط هم أيضاً مسجونون بسبب المسافة التي تفصلهم عن العمران. ولا مفر من أن تنشأ بينهم وبين مسجونيهم مع الوقت علاقات انسانية . هكذا أمكن اقناع البعض بالقول وأغلب الأحيان بالمال لكي يجلبوا بعض الكتب عند عودتهم من العطلات ويدفنوها في رمال الصحراء . وفيما بعد يتم نقلها إلى داخل السجن لتستقر في مخابيء تحت


صورتي من البطاقة الشخصية بعد خروجي من السجن بشهرين سنة ١٩٦٤

الأرض.
وبالطبع لم يكن من الممكن التحكم في نوعية الكتب القادمة فأنت لاتستطيع أن تعطي حارساً شبه أمي قائمة بالكتب التي تريدها وإنما تعطيه عنوان أحد الأقارب ورسالة شفوية تطلب فيها أن يبعث بما يتوفر لديه من كتب. ومرة أخرى ألقيت نفسي أمام فيض من الكتب شديدة التنوع من مرجع أكاديمي سوفييتي عن الفسيولوچي إلى دراسة عن الأسس النفسية للإبداع الفني للعالم المصري مصطفى سويف وعرض مبسط لنظرية النسبية وبعض مجلدات من تاريخ الحضارة وقصة الفلسفة لول ديورانت. كان كل كتاب منها يثير فيّ مشاعر غريبة من التوتر والإثارة ويحرك شحنة في الوجدان. وصرت في تلك الفترة أشبه برادار يتحرك في كل الاتجاهات، يلتقط كل شيء، وتقوم المادة الملتقطة على الفور بشحن بطاريات الخيال.

ثلاثية نجيب محفوظ

ولازلت أذكر اليوم الذى وصلتنا فيه

ثلاثية نجيب محفوظ عقب نشرها مباشرة. وكان الزميل المسئول عن توزيع الكتب يحتفظ بقائمة طويلة للرغبات سجلها بعود محروق من الخشب على قاعدة صندوق سجائر وعندما هرعت لإضافة اسمى أمام الثلاثية وجدت أمامى طابورا طويلاً من الحاجزين. ولما كان المرضى يقدمون على غيرهم فى مختلف منافع الحياة المشتركة ، من طعام وخلافه، فقد تظاهرت بالمرض، لكنى اكتشفت أن أمامى عدداً كبيراً من المرضى الذين يحتاجون لتسلية لا تتوفر إلا فى ثلاثية محفوظ بالذات. وتفتق ذهنى عن حجة جديدة لتخطى زملائى فزعمت أنى مقبل على كتابة عدد من القصص الأدبية وفى حاجة شديدة أكثر من غيرى لقراءة الثلاثية لكى أتعلم منها. وفوجئت بأن عدداً لابأس به من الزملاء قرروا أيضاً ممارسة الكتابة الأدبية ويحتاجون جميعاً لشحذ إبداعهم بقراءة نفس الرواية . بل كان منهم كتاب حقيقيون بالفعل مثل فؤاد حداد، إبراهيم عبدالحليم، محمد خليل قاسم الذى كان يكتب رائعته الشمندورة إلى جانب مشاريع كتاب مثل عبدالحليم قاسم وكمال القلش وفؤاد حجازى وحسن عبد ربه ومتولى عبد اللطيف وغيرهم.

محاولة الكتابة

والواقع أنى لم أكتب عندما تذرعت بمشروعاتى الأدبية . فقد كنت أتحرق شوقاً لوصف مارأيت وسمعت وعرفت. وكتبت بالفعل عشرات القصص والروايات فى رأسى! ولم ألبث أن ضقت بهذا الشكل من الكتابة وأخذت اتطلع إلى استخدام الورقة والقلم.

وأظن أنى بدأت فى تلك الفترة أفكر فى الكتابة كمهنة. ففى سن الخامسة عشر فزت فى مسابقة للقصة نظمها «عزيز أرمانى» مؤلف القصة الشهيرة «خذنى بعارى». ثم كتبت بعض القصص على المنوال الواقعى الذى تجلى فى قصص عبدالرحمن الخميسى وعبد الرحمن الشرقاوى ويوسف إدريس. وبل وسعيت للتعرف إلى الأخير عندما أشرف على باب القصة فى روزاليوسف عام ١٩٥٤ وعرضت عليه إحدى قصصى التى أعجبته ووعدنى بنشرها. ولم يلبث أن أعتقل فلم يتحقق الوعد. ثم انهمكت بكل قواى فى النشاط السياسى واعتبرت محاولاتى الأدبية عبث مراهقين. وأعادتنى التطورات إلى البداية الأولى.

كنا قد حصلنا على مكسب اعتبرته الإدارة انتصاراً لها. فقد كانت خطة تحطيمنا تتضمن إرغامنا على العمل فى تكسير الأحجار. ولما كانت المنطقة تخلو من المرتفعات لم تجد إدارة السجن ماترغمنا على عمله. لكنا كنا نملك مفهوماً مختلفاً «العمل». ونجحنا فى إقناعهم بأن «يرغموننا» على إنشاء مزوعة تمد السجن بالخضراوات الضرورية . واحتاج الأمر إلى إعداد حوض كبير من المياه لشئون

الرى. وذات صباح أنزلت الناقلات كميات من الأسمنت فى أجولة من الورق السميك أمام موقع العمل. وفى المساء كانت هذه الأجولة الورقية قد تسربت إلى الزنازين وتم تمزيقها إلى شرائح جاهزة للكتابة. ولم يكن من الصعب الحصول على أجزاء صغيرة من أقلام الرصاص. وسرعان ما تمكنت من كتابة أول قصة باسم «الضربة»، بوحى من التأميمات الشهيرة. وعرضتها على أصدقائى فى مزيج من الزهو والخجل ثم تتابعت القصص.

الدرس الأول

لم أكن قادراً بعد على تمثيل تجاربى الشخصية فاعتمدت على تجارب الآخرين. كتبت قصة عن تجربة مر بها كمال القلش فى طفولته وعرض علىّ إبراهيم المناسترلى أن أكتب قصة فى حلقات مقابل ثلاث سجائر لكل حلقة. وبعد الحلقة الأولى أدركت أنى لن أتمكن من المواصلة رغم الاغراء المادى! لم تكن هناك لذة فى الكتابة لأنى كنت أتعامل مع تجارب لم أعشها. ووجدت هذه اللذة عندما أصيغ بعض القصص من أجواء طفولتى . هكذا تلقيت درسى الأول : ألا أكتب إلا عما أعرفه شخصياً جيداً..

القبض على

كانت الكتابة تتم فى المساء بعد إغلاق السجن وانصراف الحراس إلى ثكناتهم القريبة. عندئذ كانت تبدأ السهرة بإعداد طعام العشاء ثم تفتح المخابىء ليحصل كل واحد على أوراقه أو جواله وقلمه. وحوالى منتصف الليل يعود كل ذلك إلى مخبئه. وبالرغم من إدراك الجميع لأهمية الإبداع الأدبى فمن الطبيعى أن ينظر إلى ما أفعله على أنه أقل أهمية من الأوراق الحزبية والسياسية وكتب ماركس وانجلز ولينين وماوتسى تونج. وفى أحيان كثيرة كان المسئول عن المخبأ يتذرع بعدم وجود مكان لهذه الحفنة من الأوراق البنية اللون التى لاتحتوى على أكثر من مجرد قصة وبالتالى لابد من إعدامها. ولهذا سعيت لأن أصبح أنا نفسى مسئولاً عن المخبأ الموجود فى زنزانتى كى أضمن مكاناً لبنات أفكارى. لكنى لم أتمتع بهذه الميزة طويلاً. ففى أحد الأيام وبينما أنا استخرج الكتب والأوراق ذات الرائحة الرطبة من المخبأ قام الحراس بحملة تفتيش مفاجئة ولم أتمكن من التصرف بسرعة فوجدونى متلبسا بالجريمة الكبرى.

اقتادنى الحراس إلى مكتب المدير وفى أعقابى عدد من المسجونين من ذوى الشخصيات البارزة الذين يمثلوننا عادة عند التعامل مع الإدارة، مثل الدكتور شريف حتاتة وصلاح حافظ وأحمد الرفاعى. وهناك جرت مواجهة عكست ميزان القوى الجديد فى السجن . فقد دافع المندوبون عن حقنا فى حيازة الكتب وهدد أحدهم – فؤاد حبشى – بإعلان العصيان إذا مسنى أذى أو صودرت المضبوطات. وقرر المدير أن يتراجع فى

هدوء ويتغاضى عما حدث وعدت منتصراً بكتبي وأوراقي.

الكتاب الأول

كانت هذه المواجهة مؤشراً على التحسن الذي طرأ على وضعنا نتيجة انفراج الوضع السياسي بالبلاد. واتساع حركة الاحتجاج العالمية على سجننا. وانعكس ذلك على النشاط الثقافي. فقد سمح لنا باقامة مسرح روماني قدمنا عليه مسرحية عيلة الدوغرى لنعمان عاشور ومسرحية لصلاح حافظ وأخرى لالفريد فرج. وصارت الإدارة تغض الطرف عن وجود الصحف والكتب. وصار في وسعى أن ألجأ إلى المرحوم إبراهيم عامر ليترجم لي عن الفرنسية مقال عن جيمس جويس في «ماجازين ليتيرير» أو دراسة عن عبادة الفرد في مجلة «لابانسيه». وظهرت أنواع أفضل من الورق في صورة الكراريس المدرسية وتوفرت أقلام كاملة للكتاب الشبان من امثالي. كما أتيح لهم أن ينقلوا إبداعاتهم على ورق لف السجائر الرقيق بخط دقيق يسمح بتهريبها إلى الخارج. وبدأت أفكر في رواية طويلة كتبت منها عدة فصول. بل احتفظت بيوميات دونت فيها خواطرى ومشروعاتي القصصية وتعليقات على الكتب التي قرأتها وأسماء كتب أود قراءتها في المستقبل.

على أن أبرز أثر أحدثته في هذه القراءات هو رغبتي في أن أصبح لي أنا الآخر كتاب، كانت هناك الآن نشر واسعة تخضع لسياسة محددة، فالأولوية للكتب السياسية والنظرية ولمساهمات الشخصيات البارزة بين المسجونين أو من لهم تجربة في الكتابة. وفي هذه الحالة يتم تمويل عملية النشر من المال العام المشترك وتشمل هذه العملية ثمن الورق وأجر الخطاط الذي يدون النص بخط جميل ويتفنن في كتابة العناوين ويتقاضى أجره في صورة سجائر معدودة. ولو كان المؤلف محظوظاً حصل على رسوم بالحبر أو بالألوان المائية من أحد الفنانين وكان من بينهم المرحوم حسن فؤاد الذي لعب دوراً رائداً في تطوير أغلفة الكتب ورسومها قبل القبض عليه. وبعد ذلك تأتي مرحلة التجليد بواسطة الورق السميك الذي يتبقى من صناديق السجائر والطعام ويتم تثبيته بواسطة معجون من دقيق الخبز.

ومن الطبيعي أن هذه الخدمات لم تكن تتوفر لكل إنسان وخاصة إذا كان كاتباً ناشئاً صغير السن مثلي، ولم يكن أمامي سوى أن أعتمد على نفسي فضحيت بجزء من نصيبي اليومي في السجائر واشتريت الورق وخدمات التجليد وتخليت عن النسخ مستخدماً خطي مكتفياً بأن يكتب لي الخطاط العناوين بلون أحمر تم تصنيعه من دواء مطهر الجروح. وأصبح لي كتب صغيرة من نسخة واحدة يضم ثلاث قصص قصيرة ومقدمة رواية بعنوان

«خليل بيه»، لم أعطه عنوانا ولا وضعت اسمى عليه.

معرض وكتاب جديد

لكن اتساع حركة النشر واستمرار التحسن فى ظروف المعتقل أتاحا لى فرصة الارتقاء إلى مستوى أعلى. فقد قرر الزملاء إقامة معرض للكتب التى تم إصدارها داخل السجن. وتولى حسن فؤاد الاشراف على إصدار طبعة خاصة من هذه الكتب بأغلفة ملونة أنيقة رسم بنفسه بعضها.

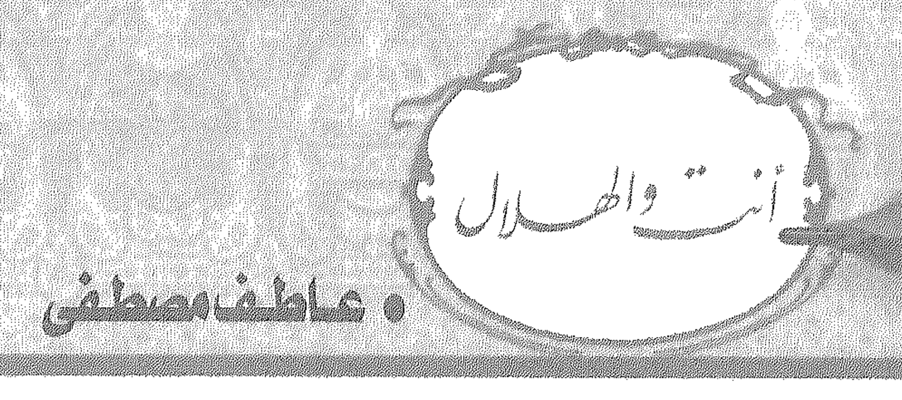
كنت قد ترجمت إلى اللغة العربية جانباً من مذكرات الشاعر السوفييتى الشهير يوفتوشنكو التى نشرتها جريدة الصنداى تايمز الانجليزية على ما أذكر. ورحب أستاذ الرياضيات عبد العظيم أنيس بأن اشترك معه بهذه الترجمة فى كراس نساهم بها فى المعرض ويضم ترجمة قام بها لدراسة سوفيتية قيمة عن هيمنجواى..

تحدد يوم المعرض فى أحد الأعياد التى تخف فيها القيود ويتغيب فيها عادة مدير السجن. وصفت الكتب فوق عدد من الصناديق المغطاة بالقماش وضعت فى الممر الفاصل بين الزنازين. كانت هناك روايتان لإبراهيم عبد الحليم ومسرحية لصلاح حافظ بمقدمة لحسن فؤاد وترجمة عربية لرواية من الخيال العلمى السوفيتى اسمها «اندروميدا» للمرحوم مجدى نصيف وترجمة أخرى لرواية «عريان بين الذئاب» التى قام بها فخرى لبيب ودراسة عن ثورة ١٩ للمرحوم فتحى خليل ومجموعات قصصية وشعرية بالاضافة إلى عدد من الترجمات السياسية والنظرية الجديدة. ووسط هذه المجموعة ذات الأغلفة الأنيقة استقر كتابى الثانى (أو الأول حسبما تكون وجهة النظر) وتحققت لى أخيراً فرصة النشر «المحترم».

حسين عبد ربه

استمرت حركة النشر فى إزدهار ثم توقفت عندما نقلنا إلى سجون أخرى تمهيداً للإفراج عنا بعفو عام. وجرى تهريب أغلب هذه الاصدارات ثم نشرت بعد ذلك بصورة «طبيعية» فى آلاف النسخ. وتمكنت أنا من تهريب كتابى الأول بينما ضاع الكتاب الثانى كما هربت بضع فصول من رواية باسم «الرجل والصبى والعنكبوت» لم يقدر لى أن أتمها. ولم أفكر أيضاً فى قصص الكتاب الأول. نشرت فقط بضع قصص قصيرة كنت أنوى استكمالها لتؤلف رواية من إحدى عشر قصة تجمع بينها الشخصيات، أعطيتها اسم «عن الأغانى والشكولاتة».

بدأت الافراجات بالمعتقلين ولم نكن نحن المسجونين على ثقة من أن الإفراج سيشملنا. وكنت قد احتفظت باليوميات حتى آخر لحظة متردداً فى تعريضها لمغامرة التهريب. وتطوع المرحوم حسين عبد ربه - الذى كان من المعتقلين - لأن يحملها عند الإفراج عنه. وعندما أفرج عنى أخيراً فى الأسبوع الثانى من مايو ١٩٦٤ وجدت أوراقى كلها لدى أختى، وبينها المفكرة الثمينة.



اتحاد الكتاب بين الممكن والمأمول

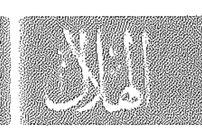
اتفق مع الكاتب محفوظ عبدالرحمن فيما ورد من ملاحظات جوهرية بمقاله المنشور بعدد أكتوبر ٢٠٠٣ بعنوان «اتحاد الكتاب.. برج الزمالك المائل» على دور اتحاد الكتاب والتى تمثلت أمامه بوضوح أكثر مع وجوده بمجلس إدارته الجديد، حيث يراهن عليه الكثير من المبدعين.

فإذا ما تحدثنا عن دور الاتحاد - اتحاد الكتاب - على اعتبار أنه هيئة ثقافية تمثل درجة ما من الأهمية والخصوصية ، فإن علينا أن ننظر لدوره هذا على أنه نقابة أو صيغة ثقافية رفيعة ومتميزة لتجمع النخبة المثقفة والمبدعة، والتى تمثل بوصلة التوجه العام للثقافة فى امتدادها المصرى والعربى، وعليه فإن النظر لدوره لا يجب أن يقتصر على انضمام المبدع لعضويته فقط، فالبعد المعنوى لهذه العضوية يعنى تدارك المبدع لمسئولياته تجاه نفسه ، وتجاه جموع المبدعين.

إن اشتراكات الأعضاء والتى لا تسعف ولا تغنى من جوع إذا تم سدادها بالكامل ، فما بالكم أن نصف الأعضاء أو أكثر لا يسددون هذه الاشتراكات ومنهم لعدة سنوات ، وذلك لا يفى بالوفاء للدور المطلوب تجاه الأعضاء.

ولا يمكن الفصل فى النظر لدور اتحاد الكتاب دون وجوده فى سياق عام، ما يتحقق فيه أقل بكثير من متوسط سقف الطموح ، وبالتالى مادام الاتحاد كهيئة موضوع بين شقى الرحى، فإنه بالتالى لابد أن يكون مرهونا بتوجه هذا السياق، وفى ظل هذا الوضع يبتعد عنه البعض، ويخرج من عباءته البعض، فيتكالب عليه الأدعياء الباحثين عن وجاهة لا يستحقونها ، وعن منافع تافهة وهم فى النهاية يعكسون المستوى الهزيل الذى يستثير حفيظة المبدعين، الذين يريدون لاتحاد كتاب مصر أن يكون على مستوى ثقافة مصر، وأن مصر هى الأقدر أن يكون اتحاد الكتاب العرب على أرضها كما كان. وإلا فإن العكس هو سيطرة احساس يتأكد مع مرور الوقت وضعف الأداء العام بأن مصر الثقافية تهمش بتخطيط محكم !

صبرى قنديل



تقدم..!!

وإني لأعلم أن القوافل تخطو
وليس لها من دليل
وأن الفوارس ضلت دروب الجياد
وأن السيوف تخاف الحروب
وأن المسير بأي اتجاه..
يواري الضياع
فما عدت أعرف درب الرجوع
لأنا نعيش بكهف الخنوع
فدعني وشأني
ومرّ الصراخ
فدعني لأن الجناة..
أضاعوا البلاد!!
فدعني
فجرح الفؤاد..
ينادي عليك
أجب ياسكاتى
فقم ..
من ضريح التواريخ القديمة
تقدم

تخلقٍ
دماءً جديدة
رماحا/
سيوفا/
خيولاً/
بلاداً عنيدة
وقم يا ضميري..
تقدم .. تقدم
وقاتل جيوش التتار اللعينة
وأسرج
جياد العروبة دوماً
إلي المشرقين..
فإن البلاد
أراها تضيعُ
وإني..
أري في المدي انكسار الرافدينْ

محمود أحمد المصلى
رئيس نادى الأدب بشربين

صقر آخر طار إلي السماء

أنعى إدوارد سعيد باستعارة التعبير العصرى المخصوص لإشهار «موت» الملوك الفراعنة ، والموت هو موت مجازى ليس إلا إيذانا بعودة من كان على صورة البشر إلى أصله الإلهى.

فهل كل موت محزن ؟

نعم ، دون شك، غير أن ثمة موتا محزنا مبهجا معاً ، لعله أمر شحيح للغاية مثلما كان في حالات الفراعنة العظام . مات الملك عاش الملك. لم تكن الفكرة آنذاك تحمل المعانى الانتهازية التى صارت لها فيما بعد، بل كانت تحمل معنى نفى الموت ذاته



وإخلاء الموت من الفناء .

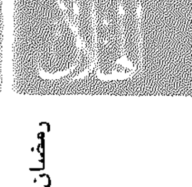
بحزن وابتهاج أقبل موت إداورد سعيد، وأحس بالرضا العميق و - بالأحرى - بالظفر لأنه وجد فى هذا العالم فى هذا الزمن ذلك الوجود المبدع الهائل المحب للإنسانية والذى لا يقدر أحد أن يخطئه أو يتجاهله حتي كارهوه وأعداؤه وشانقوه .

سوى إداورد نفسه ابنا عادلاً للعائلة الإنسانية قاطبة ، وسوّاها - أيضا ودون تنافر - وثيقة فلسطينية ساطعة وباقية وهذا هو فضله الخاص على فلسطين التى لحسنت طالعها ولحسن جدارتها ، نسلت فى زمن واحد أكثر من ابن موسوم بمواصفات الصقر المصرى العريق .

أو من - شخصياً - بأن من رابع المستحيلات إفناء أو محو أو تبديد فلسطين وشعب فلسطين حتى لو ضربت - انتقائياً - بكامل جعبة الأسلحة الأمريكية والصهيونية وحولت - معاذ الله - إلى حفرة رهيبة بحجم الخريطة تفيض بأشلاء ودماء الفلسطينيين فسيكون هذا ليس فقط واقعاً عارضاً وطارئاً بل وجزئياً أيضاً وبالأساس ، لأن فلسطين امتلكت وتمتلك ما لا يمكن تدميره كلياً ونهائيا ومن ضمن ذلك - فى هذا المقام - وجود ابن كإدوارد سعيد ماضياً وآتياً.

لا ريب أنه أثناء حياة إداورد كان لدى فريق الصهيونية والمارينز وحلفائهما الأمل بفرصة أن يخطىء أو يتدهور أو ينطفىء أو أن ينكفىء سموقه على أى نحو، كان رجاؤهم قائما ولكن بموته وهو فى عز بهائه واتساقه وشرفه الإنسانى والفكرى أصبح فرداً مكنوناً لا يطال ويستحق أن يحنقوا على موته كما حنقوا على حياته .

عاطف سليمان



ارحل أيها الغلاء

تولى بيتنا الهانى ... وتفريقا لإخواني!
وراح يسائل الجاني ... غلاء يرتجي نصرا
لماذا تبتغي قتلى؟ ... وإشعالا لأشجاني
لماذا تنهر العانى؟! ... وتهديداً لأحلامي
لقد نسي الهوي اسمي ... وترويعا لسكاني
مضي قدما لهجراني! ... * * *
رعيت الظلم في ولدي ... هنا تبكي صباباتي

ويعلو صوت آهاتي
فهذا البيت يصرعه
أنين الطفل في ذاتي
فلا أمل يداعبه
ليسعد عمره الآتي
ولا عمل سيحضنه
فيرفع صوته العاتي
سبيل العيش قد ضاقت
نراها في الخيالات
فهذا العمر يلقانا
بأحزان وأنات!!
* * *
حديقة بيتنا فيها
زهور في مآقيها
دموع فالهوي يذوي
وثوب الأرض يعصيها
فكم غني بألحان
وكم يمضي ليطربها
وثوب العيد غضبان
وظل الفقر يأتيها
فلا الأطفال في وله
ولا الأفراح نبقيها
غلاء العيش فلترحل
عن الدنيا ، نصافيها

زكريا عبدالمحسن
أسيوط

إعادة نشر التراث الثقافي

قراءاتى المستعادة لموضوعات مجلة «الكاتب المصرى» التى كانت تصدر منذ أكتوبر ١٩٤٥م وحتى نهاية مايو ١٩٤٨، جعلتنى أحس بحاجة الجيل المعاصر، ممن يتابعون الثقافة الأصيلة إلى التجوال المتأمل فى شتى الموضوعات (أدبية وعلمية ، مؤلفة ومترجمة) وهى تكشف عن نفس الجدية ، وأنا أستمتع بقراءة موضوعات الهلال

ما رأيكم فى نشر موضوع فى كل عدد من أعداد الهلال بعنوان «من ثقافة القرن الماضى، لكشف معالم الجدية فى هذه الثقافة ولافتقاد هذا العنصر فى حياتنا المعاصرة وقد دفعنى إلى استرجاع هذه الكتابات ما كتبتموه عن الحب وما كتبه الدكتور أحمد مستجير عن اللمسة

د. سامى منير عامر
جامعة الإسكندرية - كلية التربية

● الهلال : نشكر الدكتور سامى على ثقته الكبيرة فى الهلال، أما الاقتراح



الخاص بإعادة نشر نماذج مما نشر فى المجلات القديمة مثل «الكاتب المصرى الذى وافانا ببعض نماذج منه، فهناك بادرة طيبة تغنى عن ذلك بقيام هيئة الكتاب بإعادة إصدار المجلات الثقافية والأدبية المتميزة فى مجلدات وقد أصدرت حتى الآن أعدادا من مجلات «أبوللو - الزهور - الكاتب المصرى وهى فكرة جيدة تلبى حاجة الجيل الجديد من الأدباء للإطلاع على هذه المجلات الرائدة ، وتأتى متوافقة مع فكرتكم التى طرحتموها.

الشمس أحيانا تغيب

لأني أحبك .. أهجر دربك..
أمحو جميع ابتهالات شوقي
أعدو غريباً .. شريراً .. وحيداً
أفر بحبي بعيداً.. بعيداً
وأشتاق لقربك
لأني .. أحبك ...
بعت الأماني بسعر ذهيدٍ
وقطعت كل الشرايين فيّ
وجئت لقلبي .. بقلب جديد
فحيناً يصير إنكساراً عتيا
وحينا يصير انتصاراً شديد
فتملأ.. كل الليالي .. عليا
بحب وشوق .. وكأس.. وعيد
فنبنى أماني فوق الثريا
نحطم قيد الزمان العنيد
فأزهو .. برقك ..
لأني أحبك..
اتغفر لي كل هذا الهوي..
كل هذا الجنون
ويبقي غرامي في ذكرياتك

عطر .. وزهر.. وليل حنون
أري كل يوم كئوس المنايا ..
تجوب .. دياري..
وتهجرني الشمس دهراً طويلاً
فأصبح ليلاً بغير نهار
ويكوي فؤادي لهيب الظنون
لأني أحبك.. أهجر دربك دون اختياري
وأجرع وحدي كئوس انتحاري
لكي لا تقول بأني .. أخون..
وحيداً.. وحيداً .. أعود لبيتي،
أجرجر خلفي فتافيت صمتي،
تشاطرني الليل..،
حزني.. وموتي،
فما كنتُ أحيا بغير هواك ،
ودون هواك حياتي تهون.
لأني ... أحبك .

إيمان محمد العطفى
الشيخ شبل - المراغة
سوهاج

س: سينما
السينما المصرية

فى مهرجان القاهرة السينمائى الدولى، وقبله مهرجان الاسكندرية السينمائى الدولى، تعذر الحصول على فيلم مصرى واحد لعرضه سواء فى المهرجان الاول، او المهرجان الثانى.

وفى اخر لحظة ، وقبل بدء مهرجان القاهرة بساعات عثروا على فيلم «يتيم» واسمه «حب البنات» لعرضه ضمن افلام المسابقة، وهذا يدعو للعجب لان مصر كانت تشارك فى المهرجان احيانا باكثر من فيلم، ومن بين هذه المهرجانات مهرجان كان وبرلين وقبل خمسين عاما كان يوسف وهبى عضوا فى لجنة تحكيم مهرجان كان. وخلال سنوات الخمسينيات والستينات اشترك فى المسابقة الرسمية لمهرجان كان، أفلام لصلاح ابوسيف مثل «شباب امرأة» وهنرى بركات مثل «الحرام» وكمال الشيخ وفيلمه «الليلة الأخيرة».

وفى العقود الاخيرة ولاكثر من مرة اشتركت مصر فى هذه المهرجانات بافلام ليوسف شاهين وفى مهرجان «ايير» قريبا من كان للسينما الشابة فاز فيلم المومياء لشادى عبدالسلام بجائزة جورج سادول وفى مهرجان برلين قبل عشرين عاما. فاز فيلم ليوسف شاهين بجائزة خاصة.

كانت السينما المصرية لها حضور بأفلامها ونجومها فى مهرجانات اخرى كبرى مثل مهرجان موسكو وكارلوفيبارى ونيودلهى.

ومنذ بداية السينما المصرية الناطقة سنة ١٩٣٢ ، كانت من ناحية التصدير اكبر سلعة تصدرها مصر بعد القطن لكن الان لم نعد نجد فيلما يشارك فى مهرجان عالمى تقيمه مصر فى عاصمتها القاهرة.

السبب

أمارس الحب
مثلما أمارس كتابة الشعر
ولهذا السبب
ليس فى حياتى
اى رجل
###
لا أذهب الى لقاء عشق
الا مثلما أذهب
الى ورقة الكتابة
ولهذا السبب
ليس فى حياتى
أى رجل
###

لا أنظر الى الرجال
الا مثلما انظر الى القصائد
ولهذا السبب
ليس فى حياتى
اى رجل
###
لا اشتهى الذكور
الا مثلما اشتهى موسيقى الاشعار
ورائحة البخور
لهذا السبب
ليس فى حياتى
اى رجل
***

د. مني حلمي - القاهرة

قصة قصيرة بنت..

باستغراب سألها وهو يتطلع لساعة الحائط:

- أين البنت..؟!

غضت بصرها ثم غمضت بصوت خفيض:

- قالت إنها ذاهبة لصاحبتها فى الدقى.

هتف ساخرا:

- والله عال.. مرة الدقى ومرة جاردن سيتى ومرة الزمالك.. الساعة تقترب من منتصف الليل.. لبثت صامتة ، فراح يدور فى الحجرة زائغ النظرات، تحسس جيبه ، مضى خارجا:

- سأشترى سجائر من الميدان.

عند ناصية الدرب راح يتفرس المارة، شق طريقه صوب المقاعد الحجرية حول التمثال، ثبت نظراته نحو مدخل الدرب، وهو يشعل سيجارة. تبين امراة فى ثياب سوداء تجلس وحدها بالقرب منه تجاوزت الخمسين كما تفصح ملامح وجهها ، والساعة جاوزت الواحدة بعد



منتصف الليل، عول جلوسها لحرارة الجو، وربما سكنها القريب . اقبلت فجأة فتاة فى العشرين ، ترتدى جوبا قصيرا يكشف ما فوق ركبتها ، فشل فى معرفة لون شعرها. جلست بجانبها، راحتا تتحادثان بعض الوقت بصوت خافت، كان الغضب يبدو على وجه المرأة الكبيرة، امها ربما.

اتجهت نظراته الغضبة صوب مدخل الدرب.

البنت ناولت المرأة شيئا لم يتبينه، نظرت ساعتها فى توتر ظاهر ثم تطلعت الى الجانب الآخر من الميدان، تبع نظراتها . ظهرت فجأة سيارة مرسيدس فخمة. واطلت منها رأس شاب لاح فى منتصف العشرين، نهضت البنت فجأة شيعتها المرأة بنظرة حانقة حتى انسلت داخل المرسيدس ، مزق صفير عجلاتها صمت الليل.

عاد يرصد الدرب فى مزيج من القلق والغيظ.

هم باشعال سيجارة اخرى. فى اللحظة التى اقبل رجل فى مثل عمره، اشيب الشعر تشى ملامحه بشقاء السنين. اتجه فى خطوات متعجلة صوب المرأة.

– لم تجلسين هنا حتى هذا الوقت.؟

رمقته بنظرة ساخرة:

– أشم الهواء، ابنتك خرجت ومعها المفتاح!!

هتف بلهجة ثائرة

– ألم اقل لك ان حالها لن ينصلح الا بعلقة ساخنة؟

قالت بنفس اللهجة الساخرة:

– علقة ؟! كان زمان.. لقد انفلت عيارها.

نهضا وغادرا المكان فى صمت، وكان الرجل يمسح بكمه العرق المتصبب من جبينه.

تبعهما حتى غابا عن عينيه وتذكر فجأة فاتجهت نظراته الحانقة إلى مدخل الدرب.

خمن احتمال عودتها اثناء انشغاله بالمرأة والبنت والرجل الأشيب، نهض على الفور وابتلعته ظلمة الدرب، وعبارة المرأة الساخرة تلسع أذنيه «علقة.. كان زمان!» وهو يدلف الى البيت تناهت لسمعه دقات الثانية بعد منتصف الليل من المقهى الخال، سألها فى هدوء:

– ألم تعد البنت؟

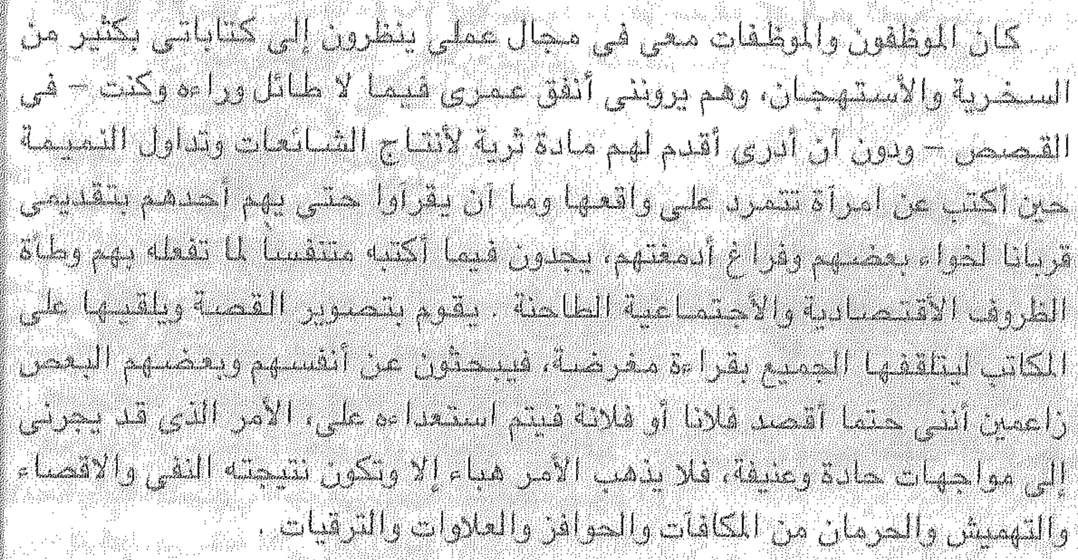
– لا..

استشعر حاجته الشديدة للتبول، وتناهى لاذنيه حوارها الهامس مع امها فى الصالة، قضى حاجته، اتجه الى المطبخ. عاد وغرس السكين فى صدرها، دوت صرخة الام الهلعة، مضى الى الحائط القريب . اشعل سيجارة وراح ينفث الدخان فى سماء الصالة فى هدوء تام!

محمد سليمان

تـورط جميـل

بقلم: نعمـات البحيـرى

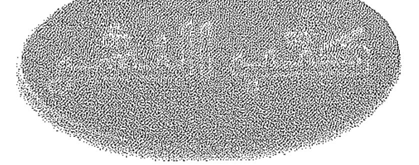


كان الموظفون والموظفات معى فى مجال عملى ينظرون إلى كتاباتى بكثير من السخرية والاستهجان، وهم يروننى أنفق عمرى فيما لا طائل وراءه وكنت - فى القصص - ودون أن أدرى أقدم لهم مادة ثرية لإنتاج الشائعات وتداول النميمة حين أكتب عن امرأة تتمرد على واقعها وما أن يقرأوا حتى يهم أحدهم بتقديمى قربانا لخواء بعضهم وفراغ أدمغتهم، يجدون فيما أكتبه متنفسا لما تفعله بهم وطأة الظروف الاقتصادية والاجتماعية الطاحنة . يقوم بتصوير القصة ويلقيها على المكاتب ليتلقفها الجميع بقراءة مغرضة، فيبحثون عن أنفسهم وبعضهم البعض زاعمين أننى حتما أقصد فلانا أو فلانة فيتم استعداءه على، الأمر الذى قد يجرنى إلى مواجهات حادة وعنيفة، فلا يذهب الأمر هباء إلا وتكون نتيجته النفى والاقصاء والتهميش والحرمان من المكافآت والحوافز والعلاوات والترقيات .

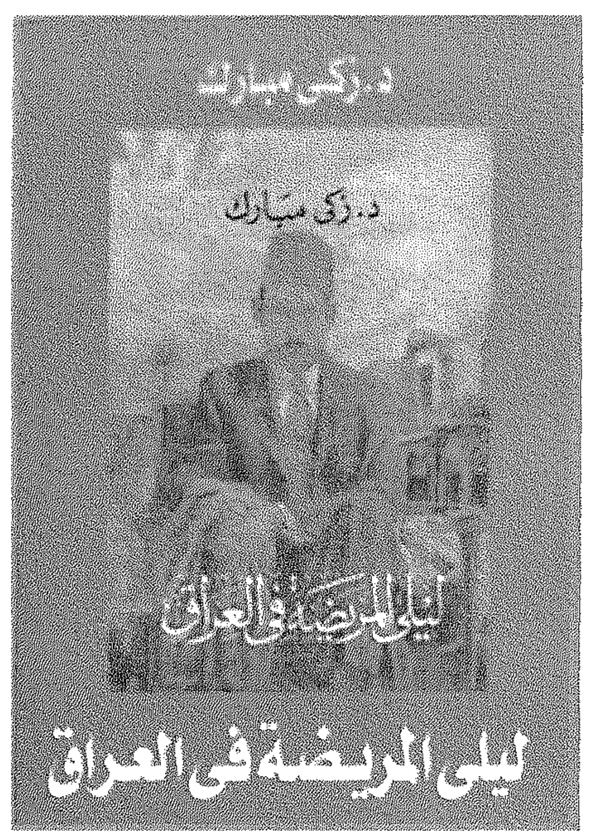
كنت أعى جيدا أن هذا أقل عقاب لامرأة تحمل أننى تميز، فلا يجب أن تسمع موسيقاها الخاصة ولا أن تعلق حتى لوحة على جدران العمل الصماء باستثناء لوحة ممنوع التدخين فى غرفة يدخن كل موظفيها بشراهة ظللت هكذا على مدار كل السنوات الكثيرة التى مرت، حصار ورقابة وتلصص على عالمى وأنا اواصل طريقى وطريقتى فى الحياة، وساروا هم فى طريقهم يقرأون ما أكتب ويصورونه ويلقونه على المكاتب ويتم إرساله إلى رئيس الشركة بغية الفضح والتشهير واستعداء القيادات الصارمة ضد الموظفة الكاتبة .

لكنهم ومع الوقت صاروا ودون وعى يدمنون فنا مغايرا للمسلسلات التليفزيونية، وحل الكلمات المتقاطعة، وبدت قصصى مثل رمال ناعمة تأخذهم فى طياتها. ومع الوقت أيضا هدأت شيئا فشيئا حدة المراقبة وخف الحصار، وكذلك حدة الشائعات التى يلقونها حولى، بل راحوا ينتظروننى على صفحات الجرائد والمجلات ذائعة الانتشار فقد ورطتهم فى معرفة فن جميل هو القصة القصيرة .

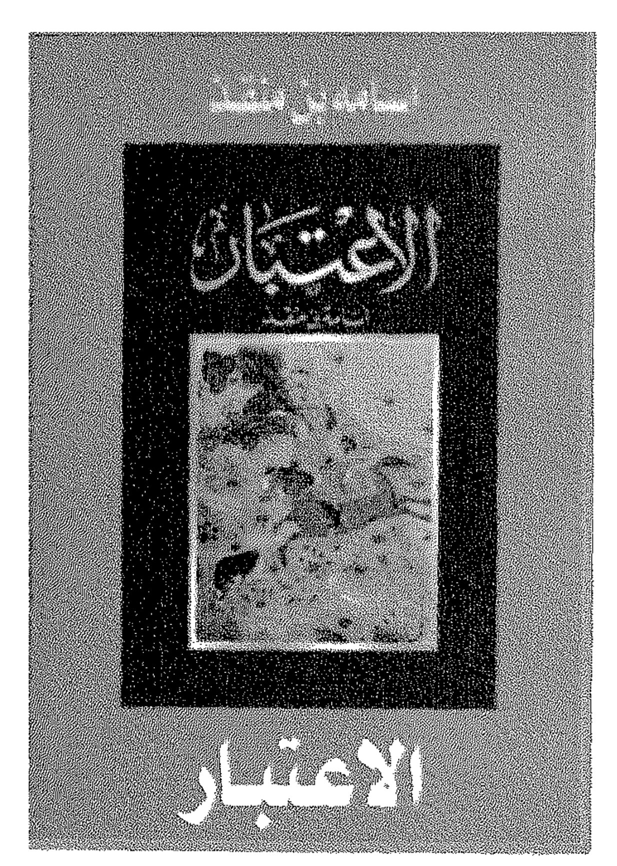
الآن وبعد عشرين عاما أدخل غرفتى لأجد زميل لى يحدثنى عن قصص يحى الطاهر عبد الله وموظفة تحدثنى عن سرعة الانتشار عبر الدراما التليفزيونية الآن أشعر بقدر من الفخر أننى لم أنكسر وأتوارى أمام حالتهم الأولى . ■

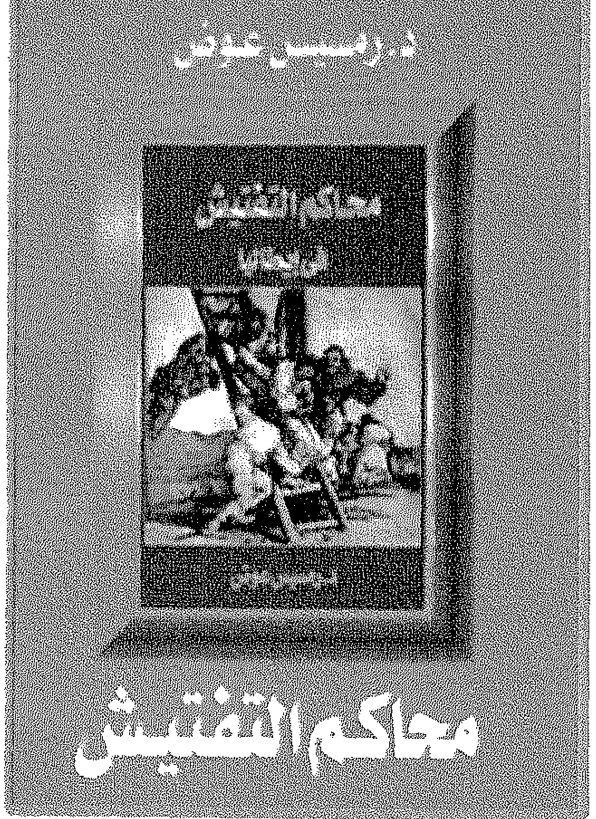


أحدث إصدارات دار الهلال



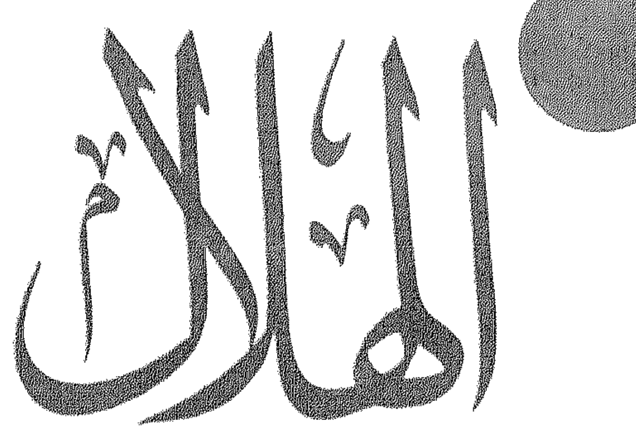






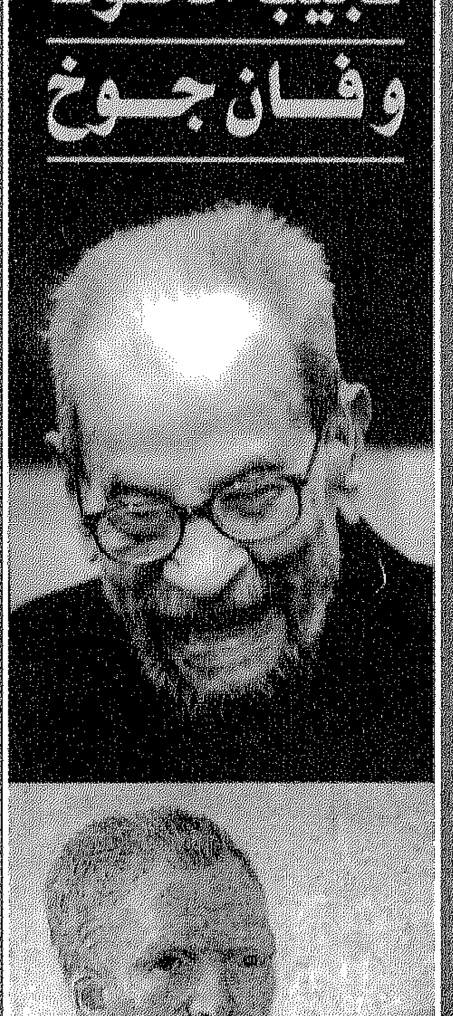



المعلم أون لاين
www.elmoalemonline.com
07771555
مجانًا
إلعب و تعلم على الإنترنت من خلال الرقم ٧٧٧١٥٥٥
للمذاكرة و المراجعة
للألعاب و الترفية
PUZZLE
للاستفسار و مراسلة المدرسين
بضمان
سلاح التلميذ
المعلم اون لاين — بوابتك الإلكترونية إلى المستقبل

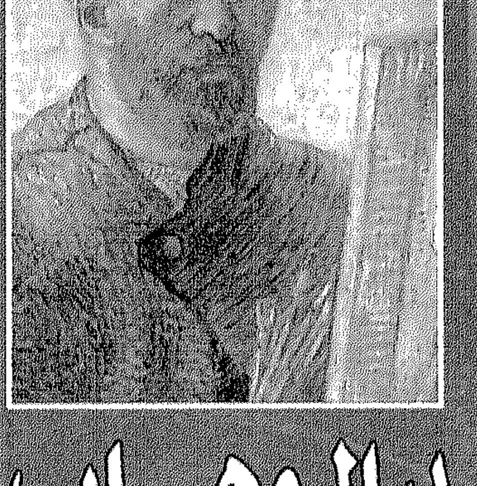


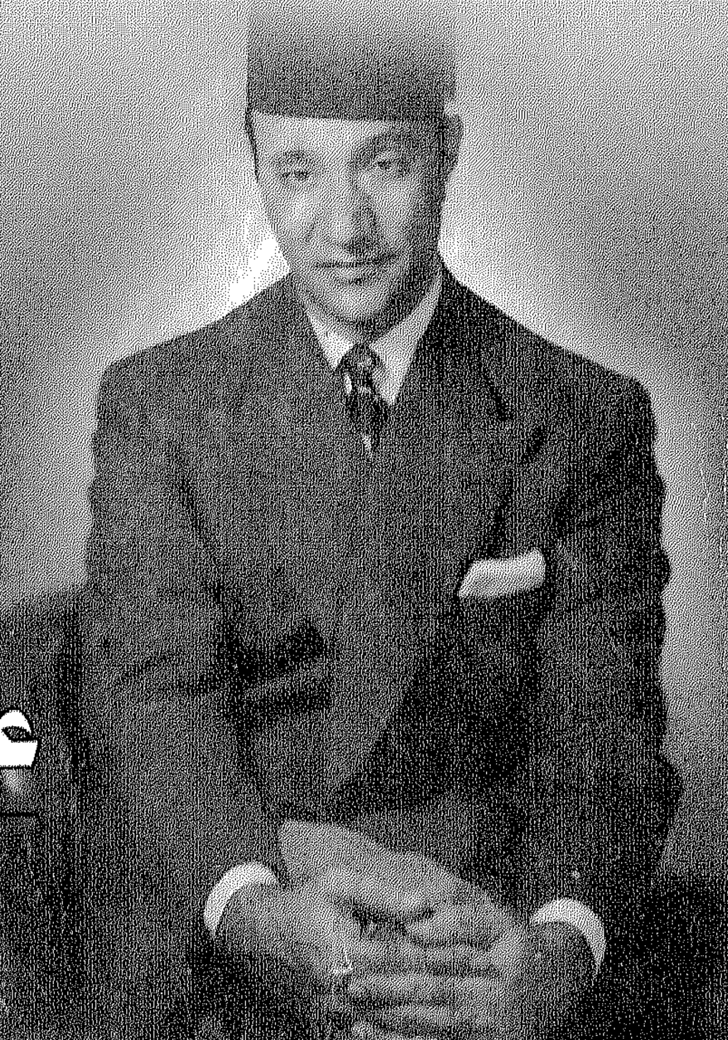
ديسمبر ٢٠٠٣ الثمن ٤ جنيهات

سر العلاقة بين نجيب محفوظ وفان جوخ



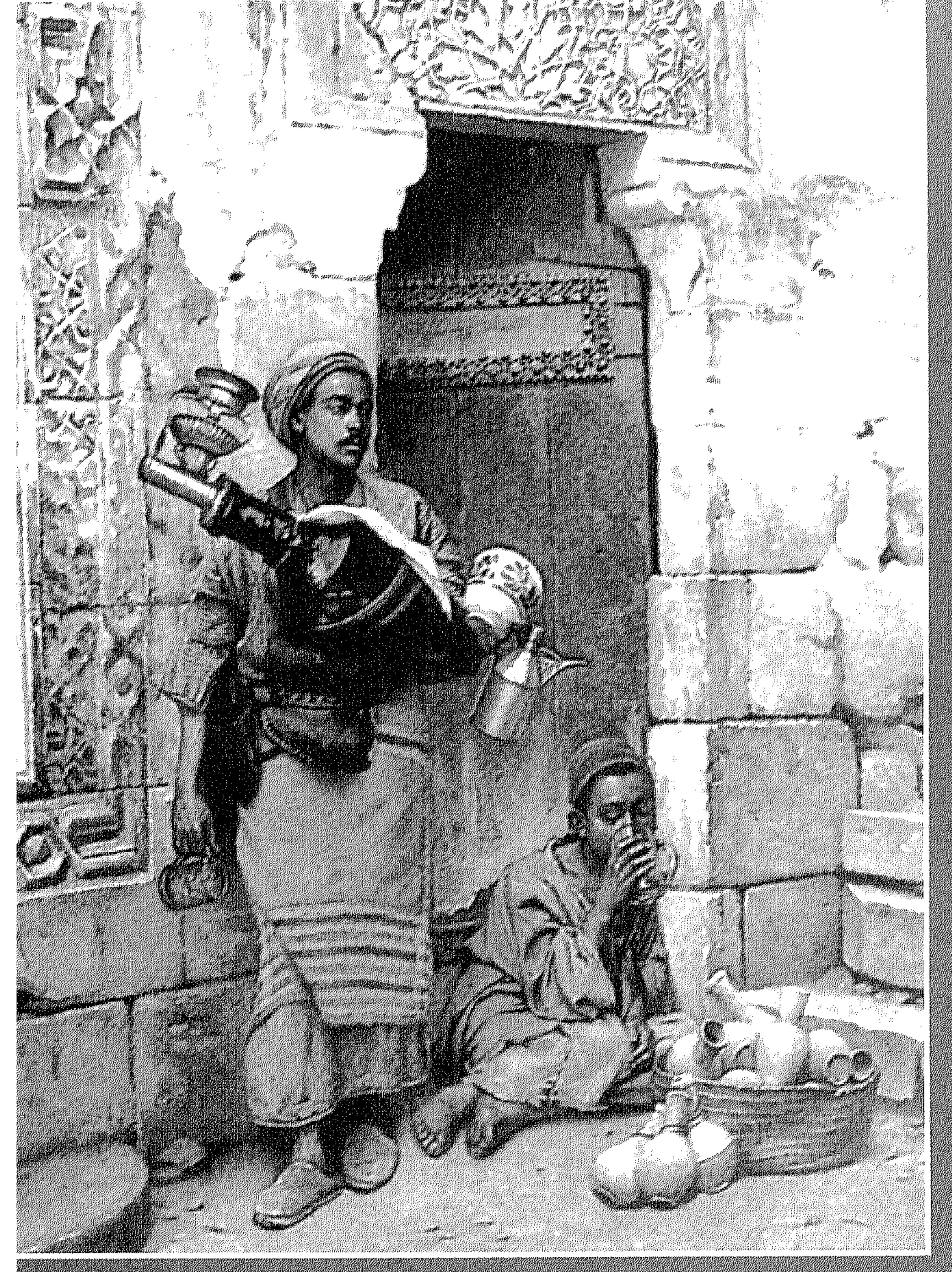
- الحشاشون .. ٣ روايات !
- متى تسمع اللون وترى الصوت ؟!





عبد الوهاب

إشراقة عصر مضى !



لوحة وفنان

بائع العرقسوس

للفنان: لودفيج دويتش

الهلال

مجلة ثقافية شهرية تصدرها دار الهلال

أسسها جرجي زيدان عام ١٨٩٢

العام الثاني عشر بعد المائة شوال١٤٢٤ هـ - ديسمبر٢٠٠٣م

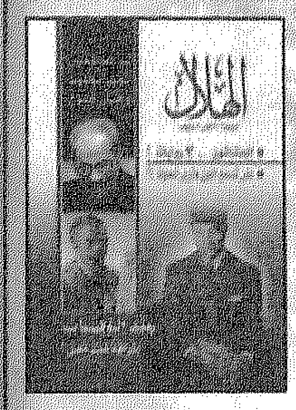
الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).

المكاتبات:ص.ب: ٦١- العتبة - الرقم البريدي: ١١٥١١ - تلغرافيا-المصور-القاهرة ج.م.ع.مجلة الهلال

ت ٣٦٢٥٤٨١ - فاكس: ٣٦٢٥٤٦٩ عنوان البريد الإلكتروني: **darhilal@idsc.gov.eg**

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٤٠٠٠ ليرة - الأردن ١,٥ دينار - الكويت ١ دينار - السعودية ١٠ ريالات العراق ٢٠٠٠ دينار- البحرين ١ دينار - قطر ١٠ ريالات - دبي/ أبوظبي ١٠ دراهم - سلطنة عمان ١ ريال- تونس ٣ دينارات - المغرب ٣٠ درهما - الجمهورية اليمنية ٣٠٠ ريال - غزة/ الضفة/ القدس ٢ دولار- إيطاليا٤ يورو - سويسرا ٥ فرنكات - المملكة المتحدة ٢,٥ جك - امريكا ٨ دولارات

الفهرس



تصميم الغلاف للفنان
محمد أبو طالب

نجيب محفوظ ٩٢ عاما (جزء خاص)

٩ – سر العلاقة بين نجيب محفوظ وفان جوخ.......... ماهر البطوطى

١٥– نجيب محفوظ فى مرايا النقد الغربى .... د. ماهر شفيق فريد

٢٢ – الكم والكيف فى حياتنا .... د. مصطفى سويف

٣٠ – أن تسمع اللون وترى الصوت .... د. أحمد مستجير

٤٢ – الموسيقار محمد عبدالوهاب بين سيد درويش وأحمد شوقى ...... د. عبدالمنعم الجميعى

٥٠ – ابن الفلاحين زهران سلامة .....عدلى رزق الله

٦٠ – أى ديمقراطية تريدها أمريكا؟ .... محمد يوسف عدس

٦٨ – ماذا تريد أمريكا من العرب؟ .... د. جلال أمين

٨٤ –من مآسى المجتمع : زوجات وأزواج .... د. محمد رجب البيومى

٩٢ – ثقافتنا هى المعرفة.. والثقافة شئ آخر! .... محمد جبريل

١٠٨ – الحشاشون.. وثلاث روايات .... مصطفى نبيل

الاشتراكات : قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٨ جنيها داخل ج.م.ع تسدد مقدما أو بحوالة بريدية غير حكومية– البلاد العربية ٢٥ دولارا. أمريكا وأوربا وافريقيا ٣٥ دولاراً. باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

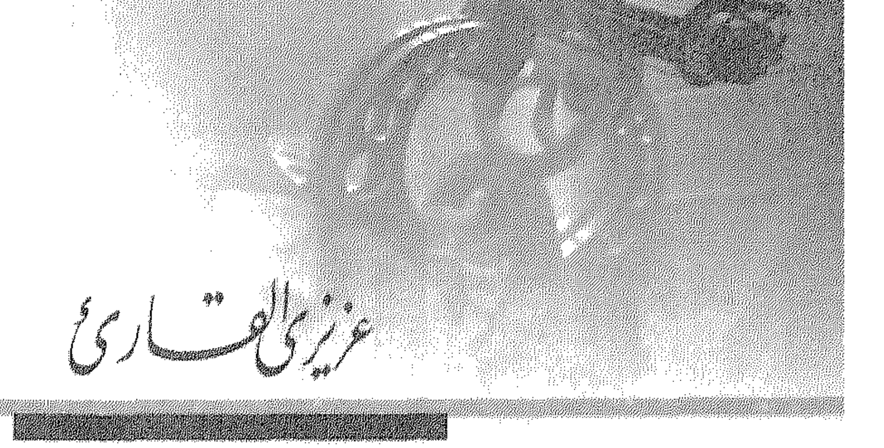
ع وكيل الإشتراكات بالكويت/ عبد العال بسيونى زغلول – ص.ب رقم ٢١٨٣٣ – الصفاة – الكويت ت/13079 ٤٧٤١١٦٤

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد.

١٢٠ - طريقة جديدة لكتابة التاريخ
.... د. قاسم عبده قاسم
١٢٦ - أساطير وحكايات أبواب القاهرة القديمة
.... أماني عبدالحميد
١٣٦ - هل تسقط الصين هيمنة القطب الواحد؟ ...
.... محمود أحمد
١٤٦ - صور من حياة صبري السوربوني ...
.... وديع فلسطين
١٥٢ - تحية إلى أصفهاني زمانه «قصيدة» ......
.... سليم الرافعي
١٥٤ - المعرض القومي للفنون التشكيلية ظاهرة ثقافية إيجابية .... د. صبري منصور
١٦٤ - المشاغب الفيلسوف الفنان عبدالسميع ...
.... د. عمرو عبدالسميع
١٧٦ - وصف رحلة لمشاهدة مسرح للفلاحين ..
.... صافي ناز كاظم
١٨٢ - شابلن.. وحنين إلى أفلام لها تاريخ ....
.... مصطفى درويش
١٩٠ - المتفرجة: الترياق من السم الهاري ....
.... مرفت رجب
١٩٦ - إبداعات يوميات روبرتس في مصر ...
.... عرفة عبده على

الأبواب الثابتة

عزيزي القارئ ٦
- أقوال معاصرة .. ٢٩
- من ذخائر الكتب العربية (الشكوى والعتاب) د. فيصل الحفيان ٧٤
- لغويات .. د. الطاهر أحمد مكي ٨٣
- شخصية العدد (محاضير محمد) بقلم: د. محمد السيد سليم ١٠٠
- التكوين (صنع الله إبراهيم) ٢٠٦
- أنت والهلال (عاطف مصطفى) ... ٢١٨
- الكلمة الأخيرة (زكي سالم)...... ٢٢٦



صورة العام:
الظلم يتواصل

لا نظن أنه كان من الممكن إلقاء نظرة عابرة على هذه الصورة التى تحتوى ثلاثة أطفال عراقيين متلفعين بدثار فى ليل برد الشتاء العراقى القارس، ينظرون فى استفهام لا يلقى جوابا منطقيا ، يعبرون بعد التناؤب إلى يقظة على التوحش ،

كان لابد أن تتسمر أعيننا علي اللقطة التى تلخص حاضرنا المأساوى فى نهاية عامنا الدامى ٢٠٠٣ الميلادى.

الصورة نموذج متكرر إلى حد الملل لممارسات قوات الاحتلال الأمريكية خلال حملات انقضاضها الفاجر على المساكن والبيوت والمنازل والأحواش والحدائق والبساتين والحرمات كافة لتفتيشها بحثا عن..؟

ويتوقف القلم، يا عزيزى القارىء، خجلا أو عجزا عن تسمية هذا الذى قد يكون هدفا يبرر كل هذه الجرائم الوقحة ضد الإنسان والإنسانية والحضارة والديمقراطية .. إلى آخر كلمات التشدق الأمريكى الكاذبة.

عن أى شىء يبحثون ؟

أسلحة ؟ خصوم ؟ أم عن «روح» مقاومة شعب مجروح خرج من حفرة طغيان ودكتاتورية وفساد ومقابر جماعية ليقع فى بئر إذلال وقهر محتل وهلع جماعى لا يعلم متى تسكن العواصف وتنطفىء الحرائق ؟

تفتيش ، تفتيش ، تفتيش من قبل ومن بعد ، والتوحش واحد، والغلظة متطابقة ، والقسوة الباردة تدير آلة القتل المعتاد من دون عقل، والتعب المتواصل يهطل علي رأس الأبرياء كما هو الذى كان على مر السنوات الطوال .

كان الدكتاتور يقتل وينتهك رافعاً راية : «القضاء على خصومى واجبى حتى الإفناء» ، وجاءت قوات الاحتلال ، تحت قناع سترة «الانقاذ» تقتل وتنتهك وتهين

الشيخ الوقور والمرأة المستورة والطفل الجائع رافعة الراية نفسها : «القضاء على خصومي واجبي حتى الإفناء» .

والنتيجة هي : أرض حضارة الرافدين بين كماشة الانذال تواصل مشوارها التاريخي في تلاطم أمواج الملاحم والفتن !

وتبقى هذه الصورة للأطفال المقرورين في ليل البرد والتفتيش تلخيص بليغ لحاضرنا المأساوي في نهاية عامنا الدامي ٢٠٠٣ الميلادي ، ولا نملك أن نتفاءل كثيرا باطلالة العام الجديد ٢٠٠٤ الميلادي الذي يدق أبوابنا تحت وطأة تحالف صهيوني أمريكي شرير ينهش لحمنا ويشرب دماءنا في فلسطين والعراق بترسانة لصوص ، لها قلوب اقسى من الحجارة ، تطلق المدافع ، والقنابل ، وتدك البيوت بالمروحيات والمجنزرات، وترغم الاعزاء على الانبطاح ارضا والأنف في التراب والرأس تحت الحذاء الثقيل لجندي أجنبي شاكي السلاح!

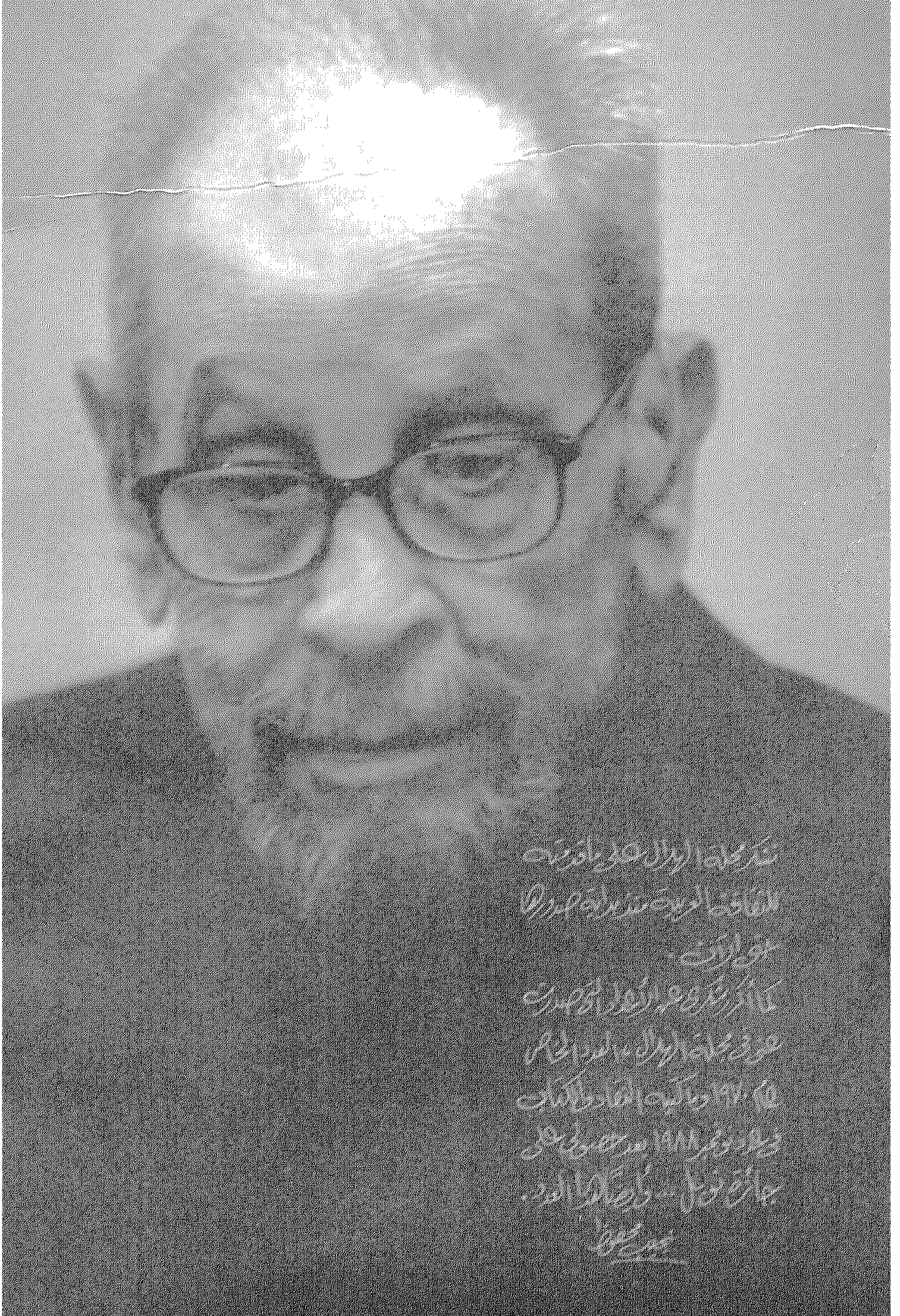


فهل أمام المظلوم أي سبيل آخر غير سبيل «فطرة المقاومة؟

لقد قال الله سبحانه وتعالى في سورة الحج هذه الآيات القاطعة : «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير. الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ». صدق الله العظيم .

إن الله «يدفع» المظلوم لمقاومة الظالمين ، من أجل صالح البشرية وحتى لا يعم الخراب ..

المحــــرر



سر العلاقة بين فان جوخ و نجيب محفوظ

بقلم
ماهر البطوطى

يستمد القارئ والناقد الكثير من المعلومات عن قراءات نجيب محفوظ المختلفة وما يحبه من أشكال الفن والموسيقى من العديد من الأحاديث واللقاءات الصحفية والأدبية التى أجراها معه الأساتذة رجاء النقاش ومحمد سلماوى وجمال الغيطانى وفؤاد دوارة وغيرهم .

وقد لفت نظرى حديث الأستاذ المتكرر عن كتاب مهم عكف على مطالعته فى فترة الصبا وأمده بمعلومات أساسية عن الآداب العالمية وهو كتاب موجز تاريخ الأدب تأليف جون درنكووتر وقد سعيت منذ فترة للبحث عن ذلك المرجع، وهو من ثلاثة أجزاء كبار، وحصلت على نسخة منه بصعوبة حيث أن تاريخ طبعه يرجع إلى العشرينيات من القرن الماضى . وقد أحسست بشغف بالغ لمطالعة الكتاب الذى طالعه أستاذنا فى فترة التكوين، والذى لاشك أنه قد ترك أثره الثقافى فيه، وأمده بإطار عام للأدب العالمى يختار منه بعد ذلك ما يثير اهتمامه لقراءته والتبحر فيه .

والكتاب مطبوع طباعة أنيقة، ويحتوى كل جزء منه على ما يقرب من الخمسمائة لوحة تتصل بموضوعات الكتاب، وصور توضيحية للموضوعات، على ورق مصقول يزيد من متعة القارئ، وقد أشار الأستاذ إلى تلك الصور واللوحات التى تركت فى نفسه انطباعا جميلا عن الكتاب .

أجمل كتاب

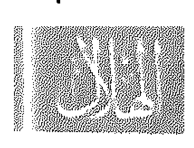
والجزء الأول من «موجز الأدب العالمى» يبدأ باستعراض أول كتابات وجدت فى التاريخ قبل ظهور أى نوع من المخطوطات أو المطبوعات بآلاف السنين واعتمد المؤلف على أحدث الاكتشافات الأثرية التى ظهرت حتى العصر الذى عاش فيه، فهو يحدثنا عن الألواح ذات الكتابة المسمارية التى تم العثور عليها فى «نينوى» القديمة والموجودة الآن فى المتحف البريطاني وترجع إلى عام ٤٠٠٠ ق . م ومن آرائه الجريئة الطليعية أن العبرانيين لابد وانهم قد استقوا قصة الطوفان من روايات الكلدانيين القدامى عنه ثم ينثنى المؤلف للحديث عن الحضارة المصرية القديمة، وكتاب الموتى، ويشير إلى أن كتاب «بتاح - حتب» يمكن أن يكون أقدم كتاب فى العالم، إذ أنه كتب قبل مولد النبى موسى بألفين من السنين، وقبل تجميع كتاب «الفيدا» الهندوسي المقدس بألفين من السنين كذلك ويقتبس المؤلف صفحة كاملة من هذا الكتاب الفرعونى، قبل أن ينثنى للحديث عن الديانات الآسيوية القديمة .

ويخصص الكتاب فصلا كبيرا لأول ملحمتين عرفهما العالم الغربى لليونانى هوميروس، الإلياذة والأوديسة ثم يعرض للكتاب المقدس وتاريخه وموضوعاته بتفصيل كبير، ويخصص فصلا تاليا للكتب المقدسة الأخرى، يبرز منها ما كتبه عن القرآن الكريم وهو فى عرضه للإسلام وكتابه المقدس القرآن الكريم موضوعى للغاية على وجه العموم، إذ لا نجد فيه أى تحامل أو مغالطات من التى دأب كثير من المستشرقين على الصاقها بالدين الحنيف، بل إن نظرته إلى الإسلام وكتابه المقدس ونبيه الكريم تفيض بالثناء والموضوعية ولكن تجدر الإشارة إلى ورود بعض الأخطاء فى ترجمة كلمات معينة من آيات القرآن .

ثم يتطرق الكتاب إلى الموضوعات المعهودة فى تاريخ الأدب، فيعرض للأدب اليونانى الذى يستفيض فى شرحه وإيراد أمثلة منه، عارضا للفلسفة اليونانية وأساطينها المشهورين، والمسرح اليونانى الكلاسيكى، والأساطير والشعر اليونانيين ويقوده الأدب اليونانى إلى الأدب اللاتينى الرومانى، فيستعرض المؤلف أشعار أوفيد وكاتولوس، وخطب شيشيرون، والحديث عن آلهة الرومان وأساطيرهم ويلاحظ القارئ تداخلا بين الأدبين اليونانى واللاتينى قد يكون قد تعمده المؤلف مبينا التأثر الشديد لأدب روما بأدب اليونان .

وينتقل المؤلف نقلة مفاجئة إلى العصور الوسطى، ويحدد بداياتها بسقوط روما على يد القوط الغربيين عام ٤١٠ ميلادية وتستمر حتى سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك عام ١٤٥٣ ويمهد للأدب فى تلك الفترة الطويلة بفذلكة تاريخية، يمر فيها سريعا على الحضارة الرفيعة التى أقامها العرب فى اسبانيا حينما كانت أوروبا غارقة فى عصورها المظلمة ليتحدث بعد ذلك عن أدباء تلك الفترة، كالقديس أغسطين صاحب الاعترافات المشهورة، وعن الملحمة الشعبية الألمانية نيبلونجن وأشعار التروبادور، ودانتى وكوميديته الإلهية، ثم تشوسر، أبو الشعر الإنجليزى كما يسميه .

ومن الملاحظ هنا أن المؤلف لا يشير من قريب أو بعيد إلى أثر الأدب العربى فى الأندلس وغيرها فى أشعار التروبادور وفى دانتى وتشوسر، حيث أن الحديث والبراهين عن الأثر العربى فى تلك الأعمال المبكرة لم يبدأ الا بعد ذلك فى دراسات الأدب المقارن التى





«الاستاذ» في ندوة الجمعة - أكتبر ٢٠٠٣

وضعتها باقة من المستشرقين الاسبان أمثال آسين بالاثيوس ومنندث بيدال .

ويقفز المؤلف مرة أخرى إلى عصر النهضة، ممهدا له بنبذة قصيرة عن أسباب الصحوة من عصور الظلام الغربية ويعرض الكتاب الأريوستو ومكيافللي ورابلية ومونتاني، ثم يفرد فصلا طويلا لسرفانتس وروايته «دون كيخوته»، وهو محق في هذا، إذ أصبح هذا الكتاب رائدا لفن الرواية، حتى أن النقاد العالميين أختاروه في العام الماضي كأفضل رواية عالمية على وجه الإطلاق ويدلف الكتاب إلى أوائل المؤلفات التنويريه التي تعتبر أساس الحركة الهيومانية في عصر النهضة وهي مؤلفات إرازموس وتوماس مور وبدايات كتب العصر الإليزابيثي في انجلترا .

ويبدأ المجلد الثاني من الكتاب - المرجع بأسطورة الأدب في كل زمان ومكان وليام شكسبير، وقد ركز في حديثه عنه على الأفكار والخطوط العامة وراء أعماله أكثر من تركيزه على مسرحيات معينة. ثم يفرد المؤلف جانبا كبيرا للأدب الإنجليزي من ملتون حتى شعراء القرن الثامن عشر، إلا أنه لا يسير حسب منهج معين حسب الموضوعات أو البلدان المختلفة بل يسير طبقا للمنهج الزمني للآداب العالمية، ففي وسط حديثه عن الأدب الإنجليزي، يعرج إلى الأدب الفرنسي ليغطي أدب وفكر عصر لويس الرابع عشر ويهمنا هنا الفصل الذي يعقده لنشأة الرواية على يد دانييل ديفو وصمويل ريتشاردسون وفيلدنج ويعود ثانية إلى فولتير وروسو ثم يعرض لشخوص الأدب الألماني ممثلا في جيته وشيللر ولسنج، قبل أن يستعرض بالتفصيل شعراء البحيرة الإنجليز ثم الشعراء الرومانسيين الأشهر: بايرون وشلي وكيتس ومن الأمور اللافتة في هذا المجلد حديث المؤلف عن الأثر الذي تركته «الف ليلة وليلة» في بعض الروائيين والشعراء، وكانت قد ظهرت لأول مرة بالفرنسية على يد «أنطوان جالان» عام ١٧٠٤ وتبعها على الفور العديد من الترجمات إلى اللغة الإنجليزية.

وفي المجلد الثالث والأخير ويستمر المؤلف في منهجه الزمني دون ارتباط بموضوعات معينة، فيبدأ بالرواية عند والترسكوت والكساندر ديماس وفكتور هوجو، وبعد ستين صفحة عن الشعراء الفيكتوريين في انجلترا ويعود إلى الرواية عند ثاكري وديكنز، ثم يغطي في سرعة أعلاما روائية مثل الأخوات برونتي وجورج إليوت ويعقد المؤلف فصلا طويلا عن أدباء أمريكا، إمرسون - هوثورن - إدجار الان بو - ثورو - والت ويتمان - مارك توين، وغيرهم ويعود إلى فرنسا في القرن التاسع عشر ليتحدث عن جورج صاند وبلزاك وفلوبير وزولا وموباسان وإرنست رينان وبودلير وفيرلين ويلاحظ هنا غياب الشاعر المتمرد أرثر رامبو عن الصورة، وربما لأنه لم يكن قد اندرج بعد في إطار الموروث الأدبي الفرنسي . كما يلاحظ أن هذه الباقة من الروائيين الفرنسيين هي ما يشير النقاد إلى تأثر نجيب محفوظ بكتاباتهم



الواقعية والنفسية.

الأعمال الخالدة

وفي الفصول الباقية من هذا المجلد يستعرض المؤلف المئات من الكتاب من كل الجنسيات، يهمنا منهم الروائي الفرنسي ما رسيل بروست وروايته الملحمية «البحث عن الزمن الضائع» التى قرأها الأستاذ بعد ذلك بالإنجليزية ويعرض الكتاب سريعا لأعلام الأدب الروسي، محتفيا بدستويفسكي وتولستوى اللذين نعرف انهما من الروائيين المحببين لأستاذنا، ويذكر المؤلف أن رواية الجريمة والعقاب لدستويفسكى هى أفضل رواية واقعية على الإطلاق ورغم إشارة درنكووتر إلى الشاعر والمسرحي الايرلندى ويليام بتلرييتس وفوزه بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٢٣، فإنه لا يكتب كلمة واحدة عن مواطنه الشهير جيمس جويس، ربما لأنه أيضا لم يكن قد استقرت مكانته فى الرواية الحديثة أيامها وربما تنيرنا العبارة التالية التى اختتم بها درنكووتر كتابه وتلقى الضوء على سبب إغفاله العديد من الأدباء الواعدين في عصره : «أما عن الكتاب الشبان الذين مازالت قدراتهم فى طور التكوين، فليس لهم مكان في هذا الموجز».

ويعجب القارئ من فعل الزمن فى التقييم الأدبى والنقدى لدرنكووتر، فهو يهتم بكثير من الأسماء التى لايكاد يكون لها ذكر الآن، بينما يغفل أسماء نفض عنها الزمن غباره وأصبحوا من نجوم الأدب العالمى وهو يهمل ذكر الكتاب الذين مازالوا فى طور التكوين، كجويس وهمنجواى وفيرجينيا وولف، الذين اصبحوا من عمد الرواية الحديثة، حيث تحتل رواية عوليس لجيمس جويس الصدارة فى الأعمال القصصية فى القرن العشرين وقد أصاب الزمن المؤلف درنكووتر أيضا بآثاره، فرغم أنه كان من مشاهير الشعراء في زمنه، لايكاد أحد يذكره الآن !!

أجمل لوحة

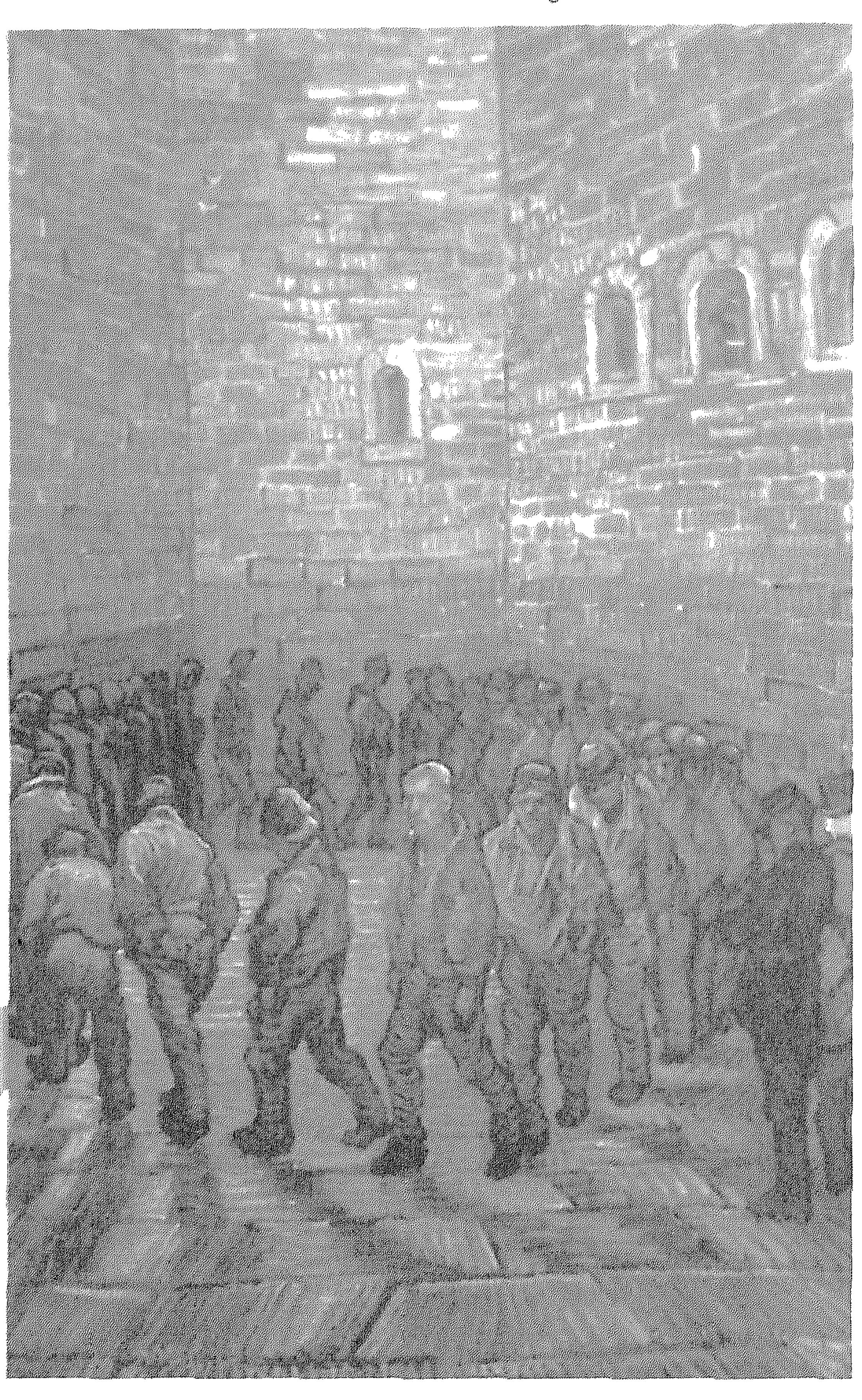
والآن، إلى اللوحة

فى حديث للأستاذ مع محمد سلماوى ردا عن سؤال عن الفنون التى أحبها قال الأستاذ أما من حيث الفن التشكيلى فأذكر لوحة معينة لفان جوخ أعتقد أن اسمها ساعة الراحة وكانت تمثل فناء سجن كبير والمسجونون يدورون فيه فى طابور وقت راحتهم وقد تأثرت بهذه اللوحة بشكل خاص »

واللوحة المشار إليها رسمها فان جوخ عام ١٨٩٠ وهو نزيل مصح عقلى فى مدينة «سان ريمى» بجنوب فرنسا، نقلا عن لوحة بالأبيض والأسود للرسام الفرنسى جوستاف دوريه كان ثيو قد أرسلها لأخيه وهو فى المصح وكان فان جوخ قد دخل المصح بإرادته بعد نوبة الهياج التى أصابته فى مدينة آرل وهو يقيم مع الرسام بول جوجان، والتى انتهت بحادثة قطع فان جوخ لأذنه.

ونظرة واحدة إلى اللوحة تنبئنا بالسبب الذى حببها للأستاذ نجيب محفوظ، إذا أنها تمثل الحالة الإنسانية أصدق تمثيل : الإنسان سجين، يدور فى حلقات مفرغة، يراقبه أناس بورجوازيون ميسورون يرتدون القبعات العالية ويبرز فى هذه اللوحة السجين الذى يتوسطها، والذى رأى فيه النقاد شخصية فان جوخ نفسه، وهو الوحيد الذى لا يرتدى قبعة السجن، ويتطلع أمامه إلى المجهول فى ترقب وقلق وحيرة والحق أنى ما تطلعت إلى وجه هذا السجين بعد أن قرأت ما كتبه الاستاذ عنها، غلا وتذكرت حيرة كمال عبد الجواد الوجودية، وصيحته المعبرة فى «قصر الشوق» أنا الحائر أبدا» وتستبين حيرة الوجود فى

« ساعة الراحة » - فان جوخ



كثير من أعمال الأستاذ وشخوصه، مثل بطل «الشحاذ الذى فشل فى التكيف مع أنماط عديده للحياة، وبطل «الطريق الذى يبحث» عن هويته الضائعة وقد كتب فان جوخ لأخيه ثيو بعد اتمام هذه اللوحة قائلاً: «إن كل ما يحيط بى ها هنا قد بدأ يثقل على لقد قضيت عاما بحاله فى المصح ولا أستطيع الاستمرار، فقد نفد صبرى يا أخى العزيز ولا استطيع أن اتحمل المزيد لابد من التغيير، حتى لو كان إلى الأسوأ وقد قضى فان جوخ على حياته بعد أشهر من رسمه لهذه اللوحة .

عشق الموسيقى

أما القطعة الموسيقية التى عشقها استاذنا نجيب محفوظ - بين الكثير من المقطوعات الأخرى عربية وأجنبية - فهى السيمفونية التاسعة لبيتهوفن كان لابد من وجود هذا العمل التفاؤلى كى يوازن الصورة المتشائمة التى تقدمها لوحة فان جوخ فهذه السيمفونية احتفاء بالحياة والحب الإنسانى والأخوة بين بنى البشر وهى تعتبر من أشهر السيمفونيات الكلاسيكية وأحبها إلى عشاق هذا النوع من الموسيقى إضافة إلى سيمفونيته الخامسة بالطبع .

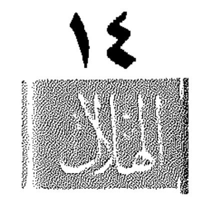
وقد وضع بيتهوفن سمفونيته التاسعة بعد فترة انقطاع طويل عن السيمفونيات بعد السيمفونية الثامنة، خاض خلالها فترة عصيبة من حياته وصلت إلى حد اتهام الناس له بالجنون ثم فاجأ الجميع بهذه السيمفونية التى يصفها معظم نقاد الموسيقى بأنها أعظم وأهم عمل مفرد فى تاريخ الموسيقى الأوروبية .

وقد قدم بيتهوفن فى هذه السيمفونية ملحمة رؤيوية، تصور فى قسمها الأول الصراع المعاصر بين شتى العوامل الإنسانية والتاريخية، ليخرج من هذا الصراع إلى مستقبل طوباوى يمكن فيه خلق مدينة فاضلة يعيش فيها الناس فى ود وإخاء .

وقد استخدم بيتهوفن فيها لأول مرة الكورال كيما ينشد جزءا من قصيدة للشاعر الألمانى شيللر، بعنوان «أنشودة إلى البهجة»، يقول فيها :

«أيتها البهجة»
أيتها النفحة الإلهية العذبة،
يا ابنة «الإليزيوم»
إننا ندلف إلى مقامك
ونحن ثملون من نيرانك
أيتها المخلوقة الفردوسية
وسحرك الخلاب
يجمع ما شطرته الأعراف .
سيصبح كل بنى البشر أخوة
حين يمسهم جناحك الرقيق ...
فلتعانقوا بعضكم البعض أيتها الملايين هذه القبلة للعالم أجمع».

وقد لاقت السيمفونية التاسعة احتفاء من كثير من الاتجاهات التى تناقض بعضها بعضا، وتبناها الكثير من الجماعات والبلدان والأحزاب، بيد أنها توجت نجاحها باختيار الاتحاد الأوروبى لحنها الأساسى كنشيد رسمى لأوروبا الموحدة .. ■



نجيب محفوظ

فى مرايا النقد الغربى

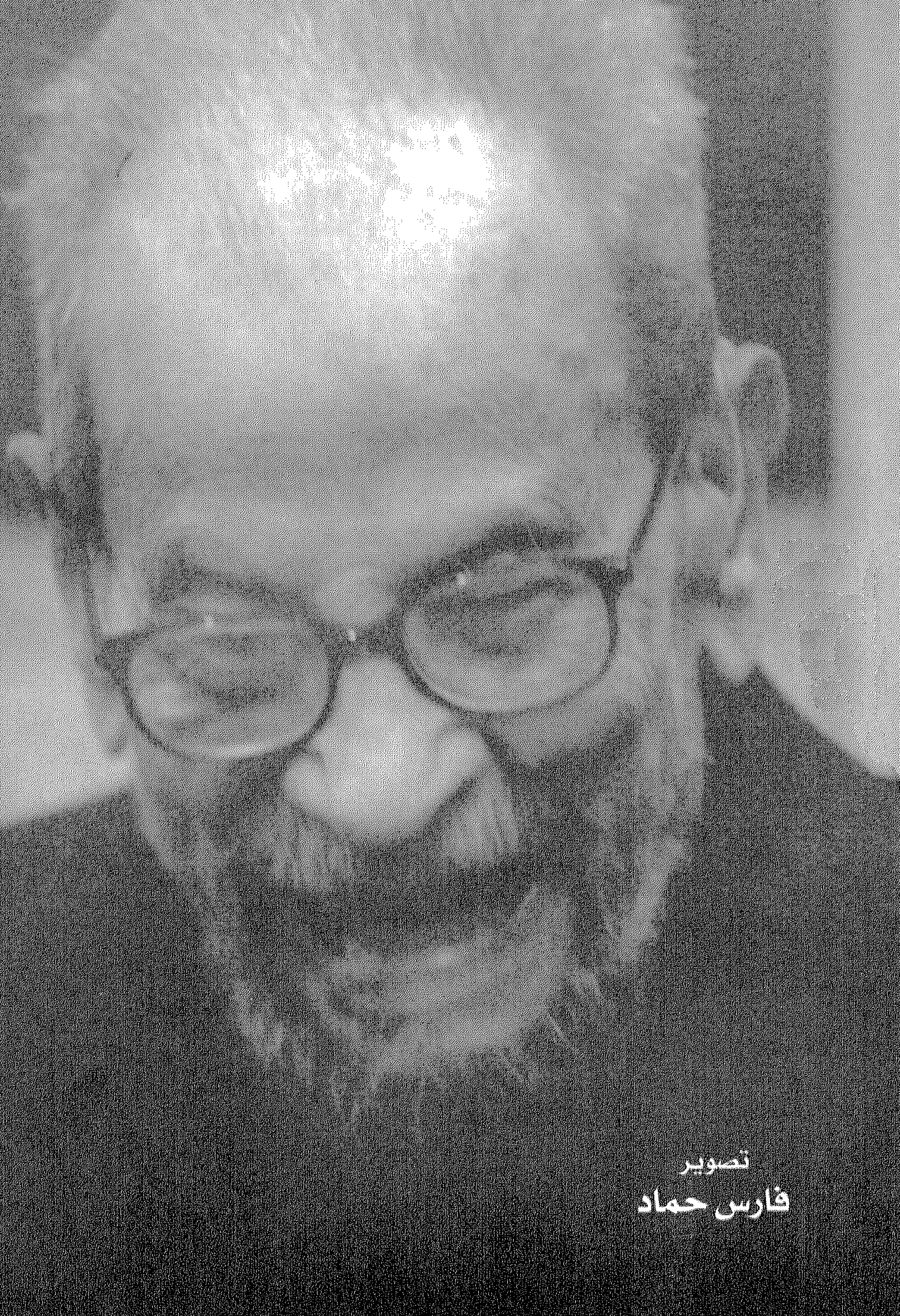
بقلم
د. ماهر شفيق فريد

كان حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل للادب عام ١٩٨٨ إيذانا بانبعاث موجة من الاهتمام بأدبه وبالأدب العربى الحديث بوجه عام، وذلك بعد أن كان الاهتمام به يكاد يكون مقصورا على دوائر المستشرقين أو المستعربين وباحثى أقسام دراسات الشرق الأوسط واللغة العربية وآدابها فى الجامعات والمراكز الأكاديمية، سأتحدث هنا عن الصورة التى ارتسمت لمحفوظ فى مرآة النقد الغربى - أو الأدق أن يقال : مراياه - وذلك من خلال : النقد الفرنسى، والنقد الألمانى، والنقد السوفييتى قبل أن يغير الاتحاد السوفييتى اسمه إلى روسيا، أو الأحرى يعود إلى اسمه القديم، من النقاد الغربيين الذين سأتعرض لهم هنا من كتب عن محفوظ قبل حصوله على الجائزة، ومنهم من كتب عقب حصوله عليها

من أولى الدراسات الفرنسية عن محفوظ مقالة المستشرق الأب جاك جومييه التى تحمل عنوان «حياة أسرة قاهرية فى ثلاثية نجيب محفوظ» وقد نشرت فى مجلة «ميديو» العدد الرابع ١٩٥٧ ونقلها إلى العربية استاذ الفلسفة والأديب المترجم الراحل الدكتور نظمي لوقا تحت عنوان «ثلاثية نجيب محفوظ» (مكتبة مصر ١٩٥٩).

يذكر جومييه أن الأسرة التى يروى محفوظ قصتها من تلك الأسر الإسلامية التى تنتمى إلى الطبقة البورجوازية الصغيرة وترتزق من التجارة، وتسكن الأحياء المتاخمة لمسجد الحسين، وتغطى الرواية الفترة من ١٩١٧ إلى ١٩٤٤ مرورا بثورة ١٩١٩ وما أعقبها ونشوب الحرب العالمية الثانية.

ويلخص جومييه حبكة كل جزء من أجزاء الثلاثية ثم يشرع فى تحليل أهم شخصياتها: السيد أحمد عبدالجواد، وزوجته أمينة، والابن الأكبر ياسين، والابنتان خديجة وعائشة، والابن الثانى فهمى، والابن الأصغر كمال (يعده جومييه بحق أهم شخصية وأبرزها فى الثلاثية بعد شخصية الأب)، والاحفاد


تصوير
فارس حماد

الثلاثة رضوان وعبدالمنعم وأحمد، ويورد جوميه قول محفوظ إن بطل «بين القصرين» هو الزمن معقبا أن الثلاثية تسيطر عليها كلها فكرة واحدة هى فكرة التطور التاريخى شبه الحتمى الذى يقتلع كثيرا من التقاليد والأعراف.

ومع إقرارنا لجوميه بفضل الريادة - بين المستشرقين الأجانب - فى دراسة محفوظ نرى لزاما علينا أن نختلف معه فى أمور، فهو يرى مثلا (ص ٩ من الترجمة العربية) أن أحمد عاكف، الأخ الأكبر فى رواية «خان الخليلى»، يحمل ملامح من مؤلفه: «هل نجيب محفوظ كان يفكر فى نفسه شخصيا وهو يرسم هذه الشخصية» وهذا رأى غريب لايورد صاحبه أى أسانيد تبرره من الرواية أو من حياة محفوظ وأعماله الأخرى.

وإذا كان بين شخصيات محفوظ من تدنو منه فهى، بطبيعة الحال، شخصية كمال عبدالجواد كما هو معروف.

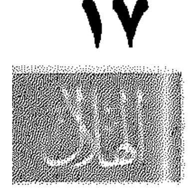
وجدير بالذكر أن غالى شكرى قد كتب عن كتاب جوميه هذا على صفحات مجلة «الآداب» البيروتية ثم أعاد نشر مقالته عنه فى كتابه «كلمات من الجزيرة المهجورة» (المكتبة العصرية، صيدا - بيروت ١٩٦٤) تحت عنوان «الثلاثية بين جوميه ونجيب محفوظ».

ويجىء بعد جوميه المستشرق أندريه ميكيل صاحب الدراسة المسماة «الفن الروائى عند نجيب محفوظ» وقد نشرت فى مجلة «آرابيكا» Arabica عام ١٩٦٢ ونقلها إلى العربية الدكتور أحمد درويش فى كتابيه «روية فرنسية للأدب العربى» (الهيئة العامة لقصور الثقافة ١٩٩٣) و«الاستشراق الفرنسى والأدب العربى (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧).

تتجاوز دراسة ميكيل دراسة جوميه إذ تنتقل من العرض والتلخيص إلى النقد والتحليل، وهى تغطى ثمانى روايات: خان الخليلى - زقاق المدق - بداية ونهاية - بين القصرين - قصر الشوق - السكرية - اللص والكلاب - السمان والخريف.

وتهتم الدراسة بإبراز ملامح الفضاء المكانى لروايات محفوظ إن القاهرة - هذه المدينة الكبيرة - تبدو - عند محفوظ - من نظرة طائر مقسمة إلى عدد من المناطق لكل منها طابعه المحلى الدقيق ومذاقه الخاص، فإلى جانب سيدنا الحسين توجد شبرا فى «بداية ونهاية» والدقى فى «السمان والخريف» وغير ذلك.

وشخوص محفوظ ليست تابعة لشخصية المؤلف، وهى تنأى عن أسلوب الترجمة الذاتية الذى نجده فى بعض أعمال توفيق الحكيم ويحيى حقى يقول ميكيل: «من المعلوم أن طوبوغرافية الثلاثية ومشاعر أبطالها الشبان تعكس ذكريات الطفولة والشباب عند نجيب محفوظ، لكن النظرة الفاحصة والقول المنصف يعيد إلى هؤلاء الأبطال البعد الحقيقى الشعبى والملحمى، لأن الشخصيات المركزية للثلاثية هى من بعض الزوايا شخصيات أبطال ملحمة «أكثر من كونها شخصيات أبطال رواية، فهناك الشعور القدرى بأنهم جسدوا



أمة، وتلك سمة شهيرة لأبطال الملحمة».

ومن الأنماط المترددة فى روايات محفوظ شخصية «التاجر» وأكثر منها ورودا شخصية «الموظف»، فشخصية «المومس»، وأخيرا شخصية «الطالب» التي تأتى فى قمة الشخصيات الرئيسية.

ويتوقف ميكيل عند معالجة محفوظ للبعد الزمنى فيسجل أن ألوان الزمن عنده شديدة التنوع والاختلاف بدءا من السيرة العائلية الكبيرة التى تمتد عشرات السنين حتى الرواية التى تكشف فى بضعة أيام وحتى فى بضع ساعات، وأقصى نقاط التطور الزمنى عنده، ممثلة فى معاناة البطل، هى فى معظم الحالات الموت المعنوى أو الجسدى حيث يموت الشخص أو تموت شخصيته.وفى هذا الصدد يذكر ميكيل - وأغلب القراء والنقاد إن لم يكونوا جميعا يوافقونه على هذه القراءة - أن حسنين انتحر فى نهاية «بداية ونهاية» بإلقاء نفسه فى النيل فى أعقاب أخته التى حملها على الانتحار (ص١٥٥) هل لى أن أكرر - وقد بح صوتى إذ أقول هذا وكتبت فيه أكثر من مرة دون جدوى - أنى سألت الأستاذ فى هذه النقطة منذ سنوات طويلة وأنا أحضر ندوته الأسبوعية التى كانت تقام ، صباح كل جمعة، فى كازينو صفية حلمى بميدان الأوبرا فكان جوابه: كلا ، لقد انتحر معنويا ولكن ليس جسديا. فهو أجبن من أن ينتحر بإرادته، ثم إنه ضابط يجيد السباحة ولو كان يريد الانتحار حقا لأطلق على نفسه رصاصة من مسدسه مثلا . وهذه النقطة - فى تصورى - مهمة لأن قراءتنا لعبارات حسنين الأخيرة فى الرواية - والصفحات الختامية التى تضمها من أقوى وأعظم ما كتب محفوظ - خليقة أن تغير من تفسيرنا للرواية بأكملها وتحدد موقفنا من شخصياتها .

وللدكتور أحمد درويش فى كتابه «تقنيات الفن القصصى عبر الراوى والحاكى» (الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان ١٩٩٨) فصل عن «نجيب محفوظ والاستشراق الفرنسى» ناقش فيه دراسة ميكيل هذه كما أشار إلى الترجمات الفرنسية لروايات «بين القصرين» و«قصر الشوق» و«زقاق المدق» و«اللص والكلاب» و«حكايات حارتنا»، وأورد رأى المستشرق شارل بيلا الذى يعتبر «زقاق المدق» من أجود أعمال محفوظ .

النقد الألماني

ومن النقد الفرنسى ننتقل إلى النقد الألمانى حيث نتوقف عند دراسة للأستاذ فرتس شتيبات عنوانها «الله والفتوات والعلم: عن أولاد حارتنا لنجيب محفوظ» ترجمها الدكتور عبدالغفار مكاوى على صفحات مجلة «الثقافة» (نوفمبر ١٩٧٩) بمبادرة شجاعة من رئيس تحريرها الدكتور عبدالعزيز الدسوقى، بعد أن اعتذر الدكتور سهيل إدريس عن نشرها فى مجلته «الآداب» . وقد أعاد مكاوى طبع المقالة فى كتابه المسمى «شعر وفكر» : دراسات فى الأدب والفلسفة» (الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥) .

يرى الباحث الألماني أن «أولاد حارتنا» : تتناول موضوعا جبارا ألا وهو تاريخ البشرية من حيث هو تاريخ البحث عن النجاة والخلاص ، بدءا بخلق العالم وطرد آدم وحواء من الجنة ، ومرورا بظهور الأنبياء ، وانتهاء إلى مشكلات العصر الحاضر» .

وشخصيات الرواية لاتجسد بالدرجة الأولى أناسا من لحم ودم ، وإنما تجسد أفكارا وآراء : وهنا يتذكر القارئ روايات فولتير الفلسفية والرمزية ، وكذلك رواية سويفت «رحلات جليفر» (قارن محفوظ يوما بين روايته وهذه الأخيرة، أو في الحقيقة ميز نفسه من سويفت : ففي رأيه أن سويفت قد نقد الواقع عن طريق الأسطورة، أما هو فقد نقد الأسطورة من خلال الواقع .

ويختم شتيبات دراسته بقوله: إن محفوظ «قدم عملا يستحق أن يضاف إلى الرصيد العقلي والروحي الذي تعتز به البشرية «متمنيا أن يترجم إلى اللغات الأوروبية وهو ما تحقق ، بدرجة لا بأس بها ، منذ ذلك الحين .

وتنم الدراسة على اطلاع محمود من جانب صاحبها على كتابات دارسين أجانب مثل جاك جوميه، وساسون سومينح ، فضلا عن نقاد مصريين وعرب مثل غالي شكري ، ومحمود أمين العالم ، وجورج طرابيشي ، وناجي نجيب ، ويوسف الشاروني ، وماهر البطوطي صاحب الدراسة الممتازة «أولاد حارتنا ومشكلة الشر» (مجلة الآداب - بيروت - يوليه - أغسطس ١٩٦٧) .

وآخر محطة نتوقف ، عندها هي النقد السوفييتي كما يتمثل في دراسة ، ماركسية المنظور ، عنوانها «نجيب محفوظ والواقع الاجتماعي في مصر المعاصرة » من قلم زا . ناميتوكوفا وترجمة رضوان ابراهيم (عن الروسية)

تنطلق الدراسة من كون محفوظ - في عرضه الموضوعي للواقع - يقدم «تحليلا عميقا للمشاكل الاجتماعية والاقتصادية ، ويصور الحياة المعاصرة في مصر تصويرا حيويا دقيقا»، وبعد إلمامة سريعة بحياة محفوظ وقراءاته في الأدبين الغربي والعربي على السواء نجد لمحة عن روايات «القاهرة الجديدة» (وهي في رأي كاتب هذه السطور من أجمل روايات محفوظ وأدلها على تطوره الفكري) و«خان الخليلي» و«بداية ونهاية» و«زقاق المدق» و«الثلاثية»، فضلا عن المجموعة القصصية «تحت المظلة» (١٩٦٩) التي كانت من ثمار كارثة ١٩٦٧ .

وثمة كتاب كامل للدكتور أحمد الخميسي عن «نجيب محفوظ في مرآة الاستشراق السوفييتي» (دار الثقافة الجديدة ١٩٨٩) يضم ما كتب عن محفوظ قبل فوزه بجائزة نوبل وبعده : «دراسات المستشرقين» وردود أفعال الصحافة وما اشتملت عليه الموسوعات الكبرى حول أديبنا، ومقدمات ما ترجم من رواياته ، ورسائل الدكتوراه التي

أعدها المستشرقون عن العالم الروائى لكاتبنا الكبير، وأغلب هذه الدراسات تتركز، كما هو متوقع فى الاتحاد السوفييتى قبل انهياره ، على أعمال محفوظ من زاوية أيديولوجية ، جنبا إلى جنب مع اهتمامها بأعمال أقران له يتضح فى أعمالهم البعد الاشتراكى: عبدالرحمن الشرقاوى، عبدالرحمن الخميسى، يوسف إدريس ، إلخ... فالخيوط التى تحظى بالقسم الأكبر من عناية هؤلاء النقاد السوفيت هى: الكفاح الوطنى ضد المستعمر الانجليزى ، والصراع الطبقى فى المدينة والقرية، وتوزيع الأرض على الفلاحين، وتأميم القطاع العام، وملكية الدولة لوسائل الانتاج ، والتحولات التقدمية فى عهد عبدالناصر، والحراك الاجتماعى، وصراع الأيديولوجيات الأصولية والليبرالية والرأسمالية والاشتراكية .

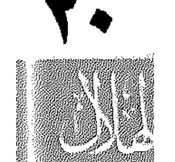
من الدراسات التى يقدمها كتاب أحمد الخميسى دراسة للوتس بوراجيفا عن «الروايات التاريخية فى أدب نجيب محفوظ» حيث نجد تلخيصا لحبكات الروايات الفرعونية الثلاث «عبث الأقدار» و«رادوبيس» و«كفاح طيبة» مع ربطها بالسياق الثقافى والابداعى العربى (فكر سلامة موسى، رومانثات جرجى زيدان ، إلخ...) .

ويكتب طاش محمد وفا أطروحة للدكتوراه عن «الروايات الاجتماعية الأولى لنجيب محفوظ» مسجلا أن هذه الروايات مشبعة بـ«تعاطف إنسانى عميق مع فئات المدن المطحونة» وهى تجعل من صاحبها «أستاذ الواقعية النقدية الذى لا يبارى فى الأدب العربى»

وفى رسالة أخرى للدكتوراه (موسكو ١٩٨٦) يدرس على زاده زاردوشت «تنامى النزعة المعادية للبرجوازية فى أدب نجيب محفوظ» ويسجل أحمد الخميسى اختلافه مع هذا الباحث فى كثير من أحكامه .

ولفالنتينا تشيرنوفسكايا فى كتابها «تكون وتشكل الإنتلجنسيا المصرية» (١٩٧٩) فصل عن رواية «المرايا» تلاحظ فيه أن «جميع أبطال» «المرايا» يعرفون بعضهم البعض، ويترددون على نفس المقاهى والصالونات، فيجتمعون مساء ليتحدثوا عن الجديد فى العلم والسياسة والأدب. وغالبية أولئك الأبطال من الموظفين العاملين فى الشركات الخاصة والحكومية ، فى الوزارات والدوائر ، فى هيئات تحرير المجلات والصحف ، فى الإذاعة والإعلام إلخ ...» .

وتحلل الدراسة شخصيات مختارة من الرواية مثل عباس فوزى، وعبدالرحمن شعبان، وعيد منصور ، وعشماوى جلال ، وإبراهيم عقل ، وماهر عبدالكريم ، وجاد أبو العلا ، وسالم جبر، ممن يمثلون اتجاهات فكرية متباينة تباين الأصولية الإسلامية، والليبرالية الغربية ، والفكر الشيوعى . وتربط الباحثة بين هذه الشخصيات وشخصيات من أعمال أخرى لمحفوظ: مثل عامر وجدى (ميرامار) وعيسى الدباغ «السمان والخريف» مما يكشف عن اتصال الخيوط بين أعمال محفوظ .



وثمـــة تناول لدور المرأة فى «المرايا» وتطورها الاجتماعى فى حقبة تاريخية تغطى ثلاثة أجيال .

أتوقف هنا مكتفيا بأن أذكر القارئ الكريم بأن ثمة دراسات كثيرة عن محفوظ وترجمات لأعماله فى لغات أخرى: الإسبانية ، الإيطالية، العبرية، إلخ.. فضلا عن النقد المكتوب عنه باللغة الإنجليزية وهو غزير الكم عالى الكيف (انظر كتاب «نجيب محفوظ فى عيون العالم» لمحمد عنانى وماهر شفيق فريد، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢، ومقالة «نجيب محفوظ فى مرآة النقد العربى المكتوب بالانجليزية » لماهر شفيق فريد فى مجلة «أدب ونقد» نوفمبر ٢٠٠١، ويتواصل هذا الاهتمام ، بل يتنامى عاما بعد عام . وآخر ما وقع لنا منه فصل لروائى جنوب افريقيا الحاصل على جائزة نوبل فى الأدب لهذا العام ، ج . كوتيزى فى كتابه المسمى «شطآن الغريب» (لندن ٢٠٠١) نقلته إلى العربية نائلة قلقيلى ونشر فى ملحق «النهار» الثقافى «بيروت» ثم أعادت نشره جريدة «أخبار الأدب» (١٩ أكتوبر ٢٠٠٣) تحت عنوان «حرافيش نجيب محفوظ» . ويذهب كوتيزى إلى أن «الحرافيش» «تتمحور حول حياة عدد من الرجال الأقوياء، يستسلم بعضهم إلى خطايا سرية أو إغراءات الترف، بينما يحتفظ آخرون برؤية عظيمة أمام أعينهم تبدو كمنارة . يرتفع قدر العشيرة والعامة ويهبط مع ارتفاع حظ زعمائهم وهبوطه ، وتسعى العشيرة إلى زعيم قوى، ويحتاج الناس إلى حام ورجل عادل» .

لقد تمكن نجيب محفوظ من أن يحتل مكاناً وإن وجب الإقرار بأنه مازال محدوداً على الساحة العالمية رغم اختلافات اللغة ، والموروث الثقافى ، والخلفية الحضارية . وعندى أن الصفات التى كفلت له هذه المكانة هى غنى النسيج الروائى وامتلائه بالدلالات والمعانى واشتماله على ثلاثة أبعاد لايخلو منها أدب عظيم .

فالبعد الأول هو البعد الاجتماعى باعتبار أن رواياته ترصد حركة المجتمع المصرى منذ مطلع القرن العشرين حتى الآن ، وتصور وقع الأحداث السياسية منذ ثورة ١٩١٩، والحرب العالمية الثانية ، وثورة يوليو ١٩٥٢ ، وحروب ١٩٥٦ و١٩٦٧ و١٩٧٣ على وجدان المواطن المصرى من جميع قطاعات المجتمع.

والبعد الثانى هو البعد النفسى : فهو يصور بدءا من مجموعة «همس الجنون» حتى «أحلام فترة النقاهة» التى تنشر له الآن أزمات الضمير والوجدان فى حياة أشخاصه من حيث صلتها بالإطار الاجتماعى الأعم » .

والبعد الثالث هو البعد الميتافيزيقى أو الفلسفى : فروايته فى نهاية المطاف، خاصة «أولاد حارتنا» و«الطريق» و«الشحاذ» ، دراسات فى قدر الإنسان، وعلاقته بالقوى الكونية، ومشكلات الصراع بين الخير والشر وبين الروح والجسد، وكلها قضايا من شأنها (إذا كان لى أن أستعير عبارة الدكتور صموئيل جونسون عن الشاعر الانجليزى توماس جراى) أن تجد «مرآة لها فى كل عقل ، وصدى لها فى كل صدر» . ■

الكم والكيف فى حياتنا

التليفزيون: مباراة الكرة تذاع على أربع قنوات فى وقت واحد ونمط واحد من الإخراج

بقلم
د. مصطفى سويف

هذا المقال أهديه إلى كل من يهمه أمر هذا البلد، مصر.

ذلك أن مشكلة الكم والكيف فى حياتنا الاجتماعية بلغت حدا من التفاقم لا يجوز السكوت عليه، سواء كان هذا السكوت عن غفلة أو إغفال.

فالأصل فى العلاقة بين الكم والكيف فى التخطيط للحياة الاجتماعية أن يكون الكم سبيلا إلى تحقيق كيف أفضل مما هو متحقق فى أى مجال من مجالات هذه الحياة، تزيد الدولة من معدلات الأجور لكى ترتفع القوة الشرائية للأفراد فينعموا بمزيد من طيبات الحياة، وتزيد الدولة من اتساع مظلة التأمينات لكى يزداد اتساع رقعة الطمأنينة المجتمعية على الحاضر والمستقبل، ... إلخ هذا هو الأصل فى علاقة الكم بالكيف فى هندسة الحياة الاجتماعية، وهو ما يضمن لها مزيدا من الارتقاء.

أما أن يصبح الكم وسيلة للإبهار، ومنه إلى التخفى للهروب من مواجهة مسئولية تحقيق الكيف الأفضل، ويتخلق من ذلك مناخ اجتماعى تتسابق فيه أعداد متزايدة من المسئولين كل فى موقعه نحو تطبيق هذه الصيغة، صيغة «الكم من أجل الإبهار»، فهذا مالا يجوز السكوت عليه ، لأنه ينطوى على مساوئ كثيرة، أبسطها وأوضحها للعيان الإهدار بأوسع معانى الكلمة، وأسوأها وأشدها مدعاة للمساءلة التدنى بالمجتمع بدلا من الارتقاء به. وفى هذا المقال أسوق بضعة أمثلة تشهد بمدى طغيان الكم، وانحسار حسابات الكيف فى حياتنا رغم تزايد الأخطار التى تضيق الخناق يوما بعد

يوم حول كل ما يمت بصلة إلى التخلف والمتخلفين.

الكم في جامعاتنا

لدينا الآن اثنتا عشرة جامعة (حكومية)، بينها خمس جامعات لها فروع متعددة، فإذا أحصينا الفروع كأنها جامعات (لأن معظمها متضخم بما فيه من أعداد من الطلاب) انتهينا إلى أن لدينا إحدى وعشرين جامعة. وقد بلغ مجموع الطلاب المنتظمين فى هذه الجامعات للعام ٢٠٠٢/٢٠٠٣ حوالى ٩٧٠,٠٠٠ تسعمائة وسبعين ألف طالب وطالبة، أى قرابة المليون. وكان عدد الطلاب فى سنة ١٩٨٩/١٩٩٠ حوالى ٥٠٠,٠٠٠ خمسمائة ألف طالب وطالبة. ومعنى ذلك أن عدد طلاب الجامعات (الحكومية) لدينا تضاعف تقريبا فى خلال الإثنى عشر عاما الماضية. جدير بالانتباه هنا أننى أقتصر على ذكر أعداد الطلاب المنتظمين فحسب، ولا أذكر شيئا عن أعداد الطلاب المنتسبين، أو الأعداد فيما يسمى بالانتساب الموجه

والسؤال المطروح هنا: ماذا عن مستوى التعليم فى هذه الجامعات؟ هل ارتفع مستوى التعليم فى الجامعات سنة ٢٠٠٢/٢٠٠٣ عما كان عليه فى سنة ١٩٨٩/١٩٩٠ بما يعادل الزيادة فى كم الطلاب؟ وإذا كان من الصعب تصور المقارنة الدقيقة بين حجم الزيادة الكمية ومدى ارتفاع المستوى فهل ارتفع هذا المستوى بأى صورة وبأى تقدير بغض النظر عن المقارنة؟

إجابتى عن هذين السؤالين بالنفى، لم يحدث ارتفاع فى مستوى تعلم الطلاب يكافئ الزيادة فى أعدادهم. بل ولم يحدث أى تحسن بأى قدر يستحق الذكر.

جدير بالملاحظة أن إجابتى هذه ليست رجما بالغيب، ولكنها إجابة تعتمد على ما يعرف فى ميدان العلوم الاجتماعية بالمنهج الأنثروبولوجى، حيث يعتمد الباحث فى تحصيل علمه بالمجتمع على ما يعرف بالنماذج الدالة.

وإلى القارئ بضعة أمثلة تدل على مستوى معرفة طلابنا بلغتهم العربية، جمعتها من كراسات الإجابة لمجموعة من طلبة الدراسات العليا (أى مابعد التخرج والحصول على شهادة الليسانس): يريد الطالب (أو الطالبة) أن يتكلم عن التحقق من صحة الفرض العلمى فيكتب عن «التحقوق» من الفرض العلمى. ويريد أن يقول «على حدة»، فيكتب «على حدى». ولا يعرف كيف يفرق فى كتابته بين التاء المفتوحة والتاء المربوطة، ويجهل التفرقة بين «اللذين» و«الذين» ، ويستخدم فى جمع غير العاقل صيغة جمع المذكر السالم. أما فيما يتعلق بمراعاة قواعد الإعراب فحدث ولا حرج. هذه عينة محدودة تشير إلى مستوى المعرفة باللغة العربية، ولكنها بالغة الدلالة، لكونها صادرة عن مجموعة من طلاب الدراسات العليا (فما بال القارئ بما يصدر عن طلاب سنوات الليسانس)، ولكونها تتعلق باللغة العربية (لا بأى لغة أجنبية)، ولو أننى تطرقت إلى مستوى إتقانهم اللغة الأجنبية لكان لى حديث آخر، ناهيك عن مستوى معرفتهم بالمعلومات المتعلقة بمضمون

المادة التي يدرسونها ، وناهيك عن حقيقة الضعف والهزال في معلوماتهم العامة، ثم ناهيك عن مستوى يقظتهم وجديتهم أثناء تلقيهم الدرس ..إلخ.

جدير بالذكر أنني أدلي بهذه الشهادة عن طلاب أعرفهم معرفة مباشرة من خلال خبرتي التدريسية. غير أني لا أقتصر بشهادتي على هؤلاء الطلاب، بل أمتد بمثلها إلى طلاب آخرين ملتحقين بأقسام غير القسم الذى أنتمي إليه، وفي كليات غير الكلية التي أنتمي إليها . وفي جامعة غير الجامعة التي أعمل بها، وأسمح لنفسي بهذا الامتداد بما يشبه شهادتي نتيجة لما أسمعه من الزملاء / الأصدقاء القائمين على التدريس في تلك الأقسام والكليات والجامعات من شكاوى مماثلة، لا فرق في ذلك بين كليات القمة وكليات السفح، ولا بين جامعات في القاهرة وجامعات في الأقاليم . وهناك بعد كل هذا وذاك قصص لا أول لها ولا آخر تتردد كل عام عن نتائج تصحيح أوراق الامتحانات تظل لفترة محل مجادلات بين عمداء الكليات وأساتذة الأقسام ، يرى العمداء بشأنها أن النتائج بالغة السوء فيراجعون الأساتذة في أمرها ، ويرى الأساتذة بشأنها أن السوء مصدره انخفاض مستوى تحصيل الطلاب فعلا ، ولكن لأمر ما (ولست أريد أن أخوض في هذا الأمر) يرى العمداء أن النتائج بصورتها هذه توقعهم في حرج شديد ، فيحاولون إقناع الأساتذة أو الضغط عليهم بكل ما يملكون من طرق الإقناع أو الضغط لرفع نسب النجاح ، وفي كثير من القصص التي سمعتها ينتهي الأمر برفع النسب دون أن يكون لذلك علاقة بجدارة التحصيل عند الطلاب . ثم قصص كثيرة من هذا القبيل، ولكن ما عرضته فيه الكفاية لكي أنقل للقارئ هذه الرسالة التي أريد أن تصل إليه ، وخلاصتها أن مشكلة تغليب الكم على الكيف في حياتنا بلغت حدا لا يجوز السكوت عليه . وقد اتخذت من موضوع الطلاب في جامعاتنا مثالا لشرح ما أعني برسالتي، فالاهتمام بالكم هو الأساس في التحاق الطلاب بالجامعة، وهو الأساس في النظر في امتحاناتهم عاما بعد عام حتى التخرج. ولا يزال المسئولون يباهون بزيادة عدد الطلاب الذين يتم إلحاقهم بالجامعات ، ولا يزال المسئولون الأدنى يباهون بارتفاع نسب النجاح . وبين المباهاة والإبهار يضيع الكيف وتضيع مصداقية التعليم الجامعي .

ومع ذلك فموضوع غلبة الكم على الكيف في تسيير أمور جامعاتنا أعرض وأعمق من أن يقتصر على مسألة تفاقم أعداد الطلاب، ولكن في القليل أحيانا ما يغني عن الكثير . ويحين الوقت الآن لإلقاء السؤال الآتي: ماذا عن الكيف ؟ ماذا عن مستوى الأداء الجامعي؟ تحدد المادة الأولى في قانون الجامعات جوهر الأداء الجامعي بأنه يتكون من شقين هما التعليم والبحث العلمي، ومن وحي هذا الإطار تتوالى عدة أسئلة: هل سمعنا عن أساليب للعناية بمكتبة الجامعة؟ أعني عن تزويدها المستمر بأحدث المراجع من كتب ودوريات في عشرات التخصصات التي تضمها الجامعة؟ هل سمعنا عن أساليب للعناية بمكتبات الكليات لتزويدها المستمر بالمراجع اللازمة لمجالات تخصصها؟ هل سمعنا عن أسلوب أو أساليب للعناية

بمكتبات الأقسام فى هذه الكليات..؟ لا شئ من هذا القبيل. ومع ذلك فهذه الكتب والدوريات هى أدواتنا لمتابعة الجديد فى علومنا حتى نستطيع أن نؤدى الشق الخاص بالبحث إضافة إلى ما هو خاص بالتعليم . ولنترك مسألة المكتبات والمراجع ، ولننتقل إلى بند آخر من بنود مستوى الأداء. هل سمعنا شيئا عن تمكين أعضاء هيئة التدريس ماديا وأدبيا من تلبية الدعوات لحضور المؤتمرات التى تتعلق بتخصصاتهم فى الخارج؟ وهل يمكن إحراز تقدم حقيقى فى البحث العلمى دون اتصال حى مكثف بين الداخل والخارج؟ ثم ماذا عن الأساتذة الزائرين؟ هل نستطيع أن ندعو الأساتذة المتميزين فى تخصصاتنا الدقيقة لزيارات قصيرة لأقسامنا نضمن لهم فيها رحلة وإقامة كريمتين لكى نتبادل معهم نحن وطلابنا الفكر والخبرة ؟ لا شئ من هذا القبيل، ومع ذلك فهذه الحقائق فى مجموعها هى بعض أدوات البحث العلمى الحقيقى (لا المظهرى) الذى يمكن لصاحبه أن يتقدم به للنشر فى دوريات التخصص فى الخارج ويضمن أن يؤثر عن طريقه فى الفكر العالمى حول التخصص، ويضمن كذلك أن يظل تدريسه للطلاب مواكبا لأحدث معالم التقدم فى مجال التخصص .

ثم ماذا عن سائر المجالات فى حياتنا الاجتماعية ؟

أينما وليت وجهى للنظر فى قضية الكم والكيف كما تنتظم فى حياتنا الاجتماعية وجدت الكم هو الحاكم الأعلى، ولما كان من غير المعقول أن أتحدث عما يجرى فى كل مجال بالقدر الذى تحدثت به عن شئون الجامعات فسوف أكتفى فى هذه الفقرة من المقال بذكر أمثلة محدودة الحجم لكنها كبيرة الدلالة .

خذ مثلا مجال البث الإذاعى التليفزيونى ، حتى وقت قريب كان عدد قنوات الإرسال محدودا ، وفجأة زاد هذا العدد فبلغ عشر قنوات ، تزيد أحيانا إلى اثنتى عشرة قناة. وأنا أتحدث هنا عن القنوات المصرية العادية ولا أشير إلى تلك التى تحتاج لتشغيلها إلى «الطبق الهوائى» أو إلى آليات فك الشفرة..إلخ. وحتى وقت قريب كانت ساعات الإرسال محدودة، ثم إذا بها تزداد حتى كادت تغطى الليل بطوله والنهار بطوله على كثير من هذه القنوات . وحتى وقت قريب كان عدد المسلسلات التليفزيونية (العربية والأجنبية) محدودا ثم زادت أضعافا مضاعفة. وهكذا يزداد العمل بقاعدة الكم فى هذه الجبهات الثلاث (عدد القنوات ، وساعات الإرسال، والمسلسلات) يوما بعد يوم . ومرة أخرى يثار السؤال : وماذا عن الكيف ؟

يكشف مستوى الأداء عن نفسه فى معظم الأحيان بصورة غاية فى البلاغة والفصاحة معا، أدير مفتاح التلفاز فأجد أحد ماتشات الكرة المصرية، فأنتقل إلى قناة ثانية فأجد نفس الماتش، فأنتقل إلى قناة ثالثة فيطالعنى نفس الماتش، وأنتقل... وأنتقل ويظل الماتش نفسه يطاردنى، يبلغ عدد القنوات التى تذيع الماتش الواحد فى وقت واحد معا أحيانا أربع قنوات ، وأحيانا ست قنوات،

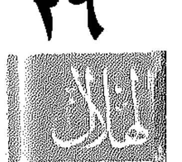


• إذا أصبح الكم وسيلة للإبهار ومنه إلى التخفي للهروب من مواجهة مسئولية تحقيق الكيف الأفضل فإن ذلك ينطوي على مساوئ كثيرة .

وأحيانا أكثر من ذلك! هل هذا هو مستوى الأداء الواجب؟ أو المقبول؟ أو المعقول؟ أم أن هذا المثال يعنى التخلى تماما عن مفهوم الكيف/ المستوى؟ فإذا تركنا المثال الخاص بماتشات الكرة (كرة القدم ، وكرة السلة، وكرة اليد، والكرة الخماسية... إلخ) فماذا عن برامج أخرى تملأ ساعات الإرسال؟ هل يعقل ألا يكون هناك سوى نمط واحد من الإخراج يشيع فيما لا يقل عن ٧٠٪ أو ٨٠٪ من البرامج؟ نمط قوامه مذيع ومذيعة ورنين التليفون ثم كلام صادر عن التليفون يمدح المذيع والمذيعة والبرنامج (فيما يشبه العودة إلى شخصية المطيباتى التى كنا نسمعها على الأسطوانات القديمة تمتدح صوت المغنى!) . وأنتقل من قناة إلى قناة ثانية فثالثة فرابعة... إلخ فأجد نمط الإخراج نفسه! هل يعقل هذا؟ وهل يتصور المخرج الأوحد (أو المخرجون التابعون) أن أحدا من ذوى الذكاء المتوسط من المواطنين يصدق ما يوحى به هذا الإخراج؟ علما بأن ذوى الذكاء المتوسط فى المجتمع تبلغ نسبتهم ٦٨٪ من أفراد هذا المجتمع. فإذا أضفنا إليهم ذوى الذكاء المرتفع بلغت نسبتهم ٨٤٪ . فإذا كانت هذه هى الحقائق عن توزيع الذكاء فى جمهور المواطنين فهل يقصد مصممو ومخرجو هذه البرامج إلى الاقتصار على مخاطبة الـ ١٦٪ الباقين الذين هم من ذوى الذكاء المنخفض؟ ومع ذلك فأنا لا أناقش هنا مضمون الموضوعات التى يطرقها هؤلاء المذيعون والمذيعات، لأن قصة المضمون قصة أخرى .

ثم نأتى إلى حديث المسلسلات ، الأجنبية منها والعربية، فأما الأجنبية فهى غالبا ما تتراوح بين العنف والجنس ، ومن ثم تتراوح آثارها فى نفوس المشاهدين بين تنمية العدوانية واختزال الدوافع والقيم الإنسانية فى الجذر الجنسي وحده! وأما المسلسلات العربية فهى غالبا غير مقنعة ومليئة بالحشو الذى لا علاقة له بمشروعية الضرورة الفنية ، ومن ثم فهى تهبط بذوق المشاهد وبقدراته الإدراكية والنقدية.

ولنترك مجال البث الإذاعى التليفزيونى، ونتجه إلى مجال آخر، مرفق التعليم العام . فحديث المسئولين عنه ينصرف عادة إلى ذكر عشرات الآلاف من المبانى المدرسية، ومنه إلى ذكر ملايين التلاميذ ، ومنه إلى النسب المرتفعة لدرجات النجاح فى الامتحانات العامة ، ومنه إلى ذكر آلاف الكمبيوترات ...إلخ. كلها أحاديث تدور حول محور واحد، هو الكم . أما الكيف فنصيبه الصمت! ماذا عن كفاءة المبانى ومدى استيفائها شروط البناء السليم (غير المغشوش)؟ وهو أضعف الإيمان . ثم ماذا عن مدى استجابتها لمقتضيات التحليل الموضوعى للنشاطات المدرسية المتنوعة؟ وماذا عن حقيقة المستوى العلمى للتلاميذ؟ ثم ماذا عن مستوى



كفاءة المدرسين فى أدائهم التعليمى؟ أم يصدق المسئولون ما توحى به الدرجات المرتفعة التى تحصل عليها نسب كبيرة من التلاميذ فى امتحان الثانوية العامة؟

وفي مجالات الحياة الاجتماعية غير الحكومية

جدير بالملاحظة فى سياقنا الراهن أن الإصابة بداء الكم على حساب الكيف لم تقتصر على المرافق التى تديرها الحكومة فقط، ولكنها تجاوزتها إلى مجالات أخرى فى حياتنا الاجتماعية، فنفذت إلى ما يمكن أن يسمى بمؤسسات المجتمع المدنى، بل ونفذت فى حياة كثير من الأفراد. ومن هنا كانت فاتحة الكلام فى هذا المقال بأنه مناشدة «أهديها إلى كل من يهمه أمر هذا البلد» (لا إلى رموز السلطة فحسب). فى هذا الموضع يكفينى أن أذكر وبإيجاز شديد مثالين أو ثلاثة. فقد بدأنا نسمع فى السنوات الأخيرة عن مؤتمرات فى مجالات العلم والخدمات وغيرهما من مناشط الحياة الاجتماعية. ومؤخرا أخذت هذه المؤتمرات تتوالى بتسارع لافت للنظر، ويلفت النظر أكثر من ذلك تزايد أعداد الأوراق التى تعرض فى هذه المؤتمرات واحدا تلو الآخر . وقد بدأنا نقرأ ونسمع أعدادا من قبيل المائتين والثلاثمائة ورقة ...إلخ. وهكذا اختلطت أمام الجميع معانى المؤتمرات والمهرجانات والكرنفالات، هذا مثال، والمثال الآخر ما تطالعنا به الصحف يوما بعد يوم عن سيل لا ينقطع من الندوات حول تعاطى المخدرات ، ويعلم الله كم فى المائة من حضرات المتحدثين المتحمسين فى هذه الندوات على علم صادق بأمور المخدرات! والمثال الثالث ما ابتلينا به فى عدد من اللجان العلمية الدائمة فى الجامعات من زملاء مرشحين للترقية يتقدم الواحد منهم بالعشرات من البحوث التى يفترض فيها أنها أنجزت فى خلال سنوات خمس انقضت منذ حصل على الترقية السابقة. وقصارى القول أن الأمثلة التى تشهد بتنامى هذا التيار الذى يغلب الكم على الكيف والذى تفشى فى معظم جنبات الحياة الاجتماعية لدينا لا تكاد تقع تحت حصر

المنشأ والمآل

معرفة الإنسان بمنشأ الداء تساعد على علاجه للبرء منه ، والمعرفة بالمآل تزيد من القدرة على تفعيل عوامل الحرص والحذر فى التدبير للمستقبل . منذ أكثر من أربع سنوات نشرت فى هذه المجلة الغراء «الهلال» مقالين ذكرت فيهما الركائز الأساسية للحياة الاجتماعية، وجذور الوهن كما تضرب فى تربة هذه الحياة. وجاء فى مقدمة عوامل الوهن الاجتماعى عامل «تغليب الكم على الكيف». ومما قلته فى هذا الصدد إن هذه الآفة تأتى مرتبطة مع آفات أخرى فى شكل حزمة يجمع بين مفرداتها قدر من الارتباط يفوق فى قوته قوة العلاقة بين أى مفردة وأى مفردة أخرى فى أية حزمة مغايرة ، وإن

«أينما وليت وجهي للنظر في قضية الكم والكيف كما تنتظم في حياتنا الاجتماعية وجدت الكم هو الحاكم الأعلى».

الحزمة التى نحن بصددها تجمع فيها آفة «الكم على حساب الكيف» مع ثلاث آفات أخرى، هى: تغليب «الشكل على المضمون» ، وتفضيل النشاط سريع العائد على النشاط ذى العائد البطئ أو البعيد ، والإقبال على العمل اللحظى أكثر من العمل الممتد. وقلت إن الجذر المشترك الذى يضم هذه الآفات الأربع معا هو «ذيوع التوجه الإعلامى» فى الحياة. هكذا تجد آفة «تغليب الكم على الكيف» طريقها إلى حيانا الاجتماعية، فهى تأتى متساندة (داخل حزمة واحدة) مع ثلاث آفات أخرى ، وتستمد الحزمة كلها طاقة الدفع والاستشراء من معين التوجه الإعلامى الطاغى، وهو التوجه الذى تعلو فيه قيم المظهرية عند المواطنين وتتوارى فيه قيم المصداقية . هذا هو طريق المنشأ .

ونتساءل الآن: ماالذى يترتب على الانتشار الوبائى لداء «الكم على حساب الكيف»؟ والإجابة المباشرة هى : سوء المآل. وقد يكون من المفيد فى هذا الصدد أن ننظر فى الكيفية التى يزحف بها سوء المآل على من كان هذا حالهم . يمكن للمشاهد المدقق أن يتبين فى تقدم هذا الزحف عدة مراحل: **أولاها** صرف أنظار المواطنين (بقليل من الحق وكثير من الباطل) عن مطلب مستوى كفاءة الخدمة، وإغراؤهم فى الوقت نفسه بأن يقبلوا عوضا عن ذلك حجما أكبر لهذه الخدمة. **وثانية هذه المراحل** إغراء المواطنين بضرورة التنازل عن بعض مكونات الكفاءة فى مقابل تعميم الخير من مجرد وفرة الكم . **وثالثة هذه المراحل** تأتى تلقائيا ، فمع مزيد من تفعيل صيغة غلبة الكم وألفة المواطنين بهذه الغلبة يزداد اغترابهم عن مضمون الكيف ومحكاته حتى يبلغ الأمر حدا من الضلال تتلاشى عنده من الواقع الخارجى كل مقومات الكيف كما يتلاشى فى النفوس ذكره . وهكذا يفيق المواطنون فى لحظة ما فيجدون أنفسهم وقد فقدوا معظم مكونات الخدمة التى كانوا (أو كان آباؤهم) يطلبونها أصلا . هذه هى خاتمة المطاف فى طريق تنامى الكم وتآكل الكيف . وفى هذه الخاتمة يتوحد الإهدار مع التخلف .

أرجو أن يحاول القارئ امتحان صدق هذه الصيغة التى أضعها أمامه فى هذه السطور القليلة، لكى يحدد بنفسه مدى انطباقها على جميع المجالات التى ذكرتها تباعا منذ بداية المقال : التعليم الجامعى ، والبث الإذاعى التليفزيونى ، والتعليم العام ، وشئون المؤتمرات ، والندوات ... إلى آخر ماتزدحم به ساحتنا . ■

أقــوال معاصرة

● «الإسـلام لا يمكن أن يعـادى الغرب، فقد بنيت حضـارته من علوم أبنائه».

الدكتور حمدى زقزوق - وزير الأوقاف

● «مشكلة العرب مع أمريكا إما مقاومتها بشكل عنيف يجلب لهم الويلات ويعطيـها ذريعة التدخل العسكرى، أو الاستسـلام بشكل مذل ومهين وكأنهم مندوب سام»

الشيخ د . جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين

● «الوقـاية خيـر من العـلاج حـقيـقـة ترتكب باسـمـهـا عـشـرات الأكاذيب والجرائم»

د. حامد عمار

● «لا يمـكننا أن نكون مناهضـــين للأمـريكيـين ولكن يمكننا أن نكون ضد بوش»

الشاعر محمود درويش

● «على كل من يعـمل من أجل حـقـوق الإنســان فى إيران أن يعيش فى الخوف من لحظة ميلاده وحتى وفاته لكننى تعلمت كيف أتغلب على الخوف»

المحامية الايرانية شيرين عبادى
الحاصلة على جائزة نوبل للسلام

● «قبل كل شئ لا تحـدوا عـلاقـاتكم بالناس الذين يتـفـقون مـعكم فقط»

ريتشارد برودهين
عميد جامعة ييل فى كلمته للطلبة المستجدين

● «كل إنسـان يولد يعتنق أفكارا محددة، ويعمل على تطوير هذه الأفكار»

الأديب الايطالى امبرتو أيكو

● «دور المثـقف أن يقف مـوقـفـا نـبـيـلا وشـريـفـا يشـيع الحـرج والاعتراض بل حتى الامتعاض إلى أن يحدث التغيير المنشود»

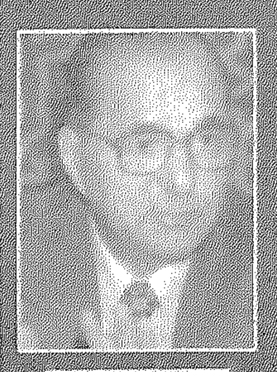
المفكر إدوارد سعيد

● «لم يوجـد فـى تاريخ العـالـم ذلك الشـخص الذى غـسل عـربة مستأجرة!!»

لورنس سامرز - عميد جامعة هارفارد

● «ذهب رعاة الغنم، وجاء رعاة البقر!»

داود الفرحان - صحفى عراقى


حمدى زقزوق

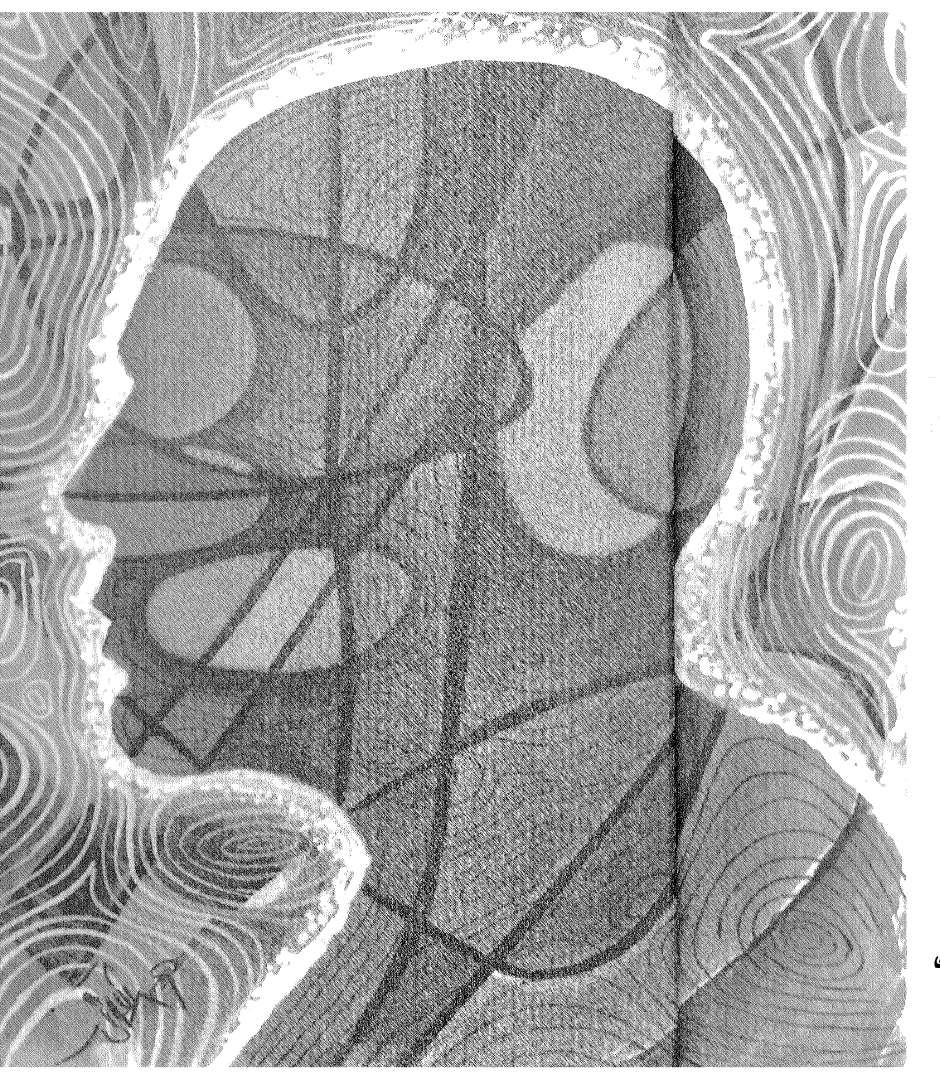

محمود درويش


إدوارد سعيد

أن تسمع اللـون وترى الصـوت

الحـواس الساحرة هـو أن تسمع الصوت وتلمس الطعم ويولد الإنسان وهو يحمل هذه الخصيصة

بقلم
د. إحمد مستجير



بعد أن وضع ريتشارد فاجنر أوبرا «تريستان وايزولده» ذهب إلى المسرح الذى جهز لعرضها، فوجد أن اللون الأزرق يغلب عليه، استشاط غضباً ومضى يحطم كل ما أمامه، ليصاب مهندس الديكور بالذعر، أكد فاجنر أنه إذا لم يغير هذا اللون إلى الأحمر الداكن، فلن يسمح بافتتاح الأوبرا، كان الفيزيائيون فى تلك الأيام قد أدركوا أن موجات الضوء تتوافق فى الشكل مع موجات الصوت، وكان المقام الموسيقى الذى كتبت به الأوبرا هو الذى يتوافق مع اللون الذى أصر عليه فاجنر، كان الموسيقى على حق، اللون الأزرق كان بالفعل هو اللون الخطأ.

بريشة الفنان: أحمد شوقى

في قصيدة «الزعفران الأرجواني» يقول الشاعر أليكي بارنستون «نغمات موسيقية عابرة لا تدرك، تسمعها العين».. ويكتب ك . بالمونت عن ناى «صوته أزرق فى لون الفجر»، وهناك من تأوه قائلاً «آه من رائحتها الزرقاء»، ويتحدث الشاعر أ. رينبو عن «سوناتا اللون» ، وكتبت أنا يوما عن صوتها الحزين الذى «يشبه الظل على الموج البطىء». نمزج الحواس عندما نكتب، ليجد القارىء شيئا جميلاً موحياً يتسرب إلى صميم كيانه، يعشق الكاتب أن يمد حاسة لتستوعب حاسة أخرى أو عاطفة، فيرى الصوت والموسيقى، ويشم الظلام، ويسمع اللون، ويحس الحزن «ضوءاً خافتا»، ويكتب عن «صوتها الذى كان يطير كالريح، ويبدو أسود مبتلا ليليا، يتألق كجوهرة»، و«يرى الكون فى حبة رمل، والجنة فى زهرة برية» .

إذا ما وصفت لك ورقة نبات فقلت إنها «خضراء سميكة، تشبه العين» فستصلك صورة لشكل الورقة، إما إذا قلت لك «إنها ورقة تلفها رائحة ضوء الشمس، ينبض فى عروقها دم التفاح ، تداعب أنفك بنكهة السرور والبهجة، تنفذ عينها إلى قلبك فتثير فيه الأمل، والحب والحق»، فلن تصلك صورة للورقة، وإنما ستبلغك عنها طاقة روحية، ستتحول من «علم النبات» إلى «عالم الشعر».

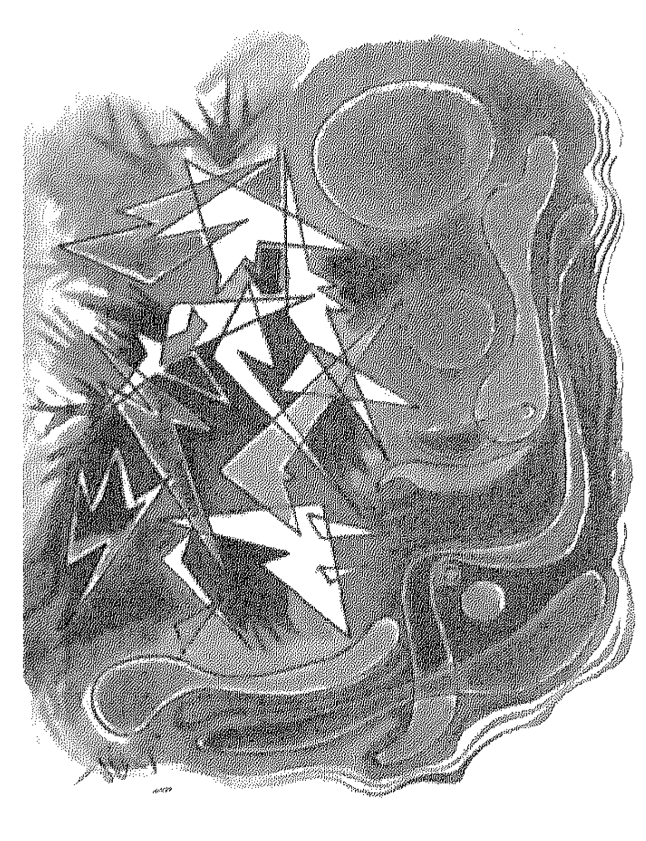
يعيش الفنان فى حواسه، عندما يبدع ، لا فى مخه، يناشد كاندينسكى المتلقى قائلاً: «اترك أذنيك للموسيقى، افتح عينك للوحة.. وتوقف عن التفكير! ثم اسأل نفسك: هل مكنك هذا العمل الفنى من أن تتجول فى عالم ما عرفته قبلا؟! إذا كانت إجابتك : نعم ، فبالله ماذا تطلب أكثر» ؟!.

عندما قرأت قصيدة الصمت القصيرة (جدا) للشاعر الأمريكى إ.إ كامينجز (أو الشاعر الرسام كما كان يحب أن يسمى) (١٨٩٤ - ١٩٦٢)، توقف عند مطلعها : «الصمت.. طائر... ينظر» هزتنى هذه الجملة القصيرة، زلزلتنى . حملتنى إلى عالم ما عرفته قبلا، نقلت إلى قلبى صورة هائلة تلف الوجود.. هويت عميقا فى رحم الصمت، لفتنى سحابة استغراق. توافدت إلى مخيلتى صور وخيالات ما أكثرها، من بينها صورة محمد حسنين هيكل «ينظر» .

طائر يجلس وحيدا على فرع شجرة ينظر. لا يغنى.. لايصدح . لا يقول شيئا، ينظر.. كيف لهذه الجملة القصيرة أن تفعل بى ما فعلت؟ بها شىء من سر الفنان، بها شىء من سر الوجود.

العاطفة لا يمكن أن توصف بأوصاف تخصها وحدها، كيف تصاغ شعرا؟ كيف ترسم لوحة؟ كيف تنساب موسيقى؟ كيف تتجسد تمثالا؟ نستعير لها صفات من حواس أخرى، من العالم الخارجى كما نخبره لكن احدا لن يستطيع أبدا أن يصل إلى ما كان فى جوف الفنان إذ يكتب قصيدته ، أو يرسم لوحته، أو يرسل ألحانه، أو ينحت تمثاله، سيظل هناك شىء لا يبين، يعجز المتلقى عن أن يبلغه ، فكل ما يستطيعه هو أن يحاول





الاقتراب من السر الأعظم في عمق الفنان، هو سر الوجود الذى لن يبلغه بشر، لا ولا حتى صاحب الإبداع نفسه.

أثمة من الصفات ما نجده فى كل فنان حق؟ نعم: القدرة على ربط مجالات متفرقة من الخبرة، مجالات تبدو لغير الفنان وكأن لا شىء يجمع بينها، الفنان يجاهد كى يتمكن من المجاز، من الاستعارة، من مزج الحقائق، لكن هناك من الناس الكثيرين ممن يشتركون معه فى هذه الخبرة وهم من يحملون صفة ترافق الحواس (وهذا اسم لظاهرة فريدة تمتزج فيها حواس الفرد مع بعضها بعضا). إثارة حاسة من الحواس الخمس، الشم مثلا، تتسبب تلقائيا وفوراً فى استثارة حاسة أخرى أو أكثر، كالسمع أو البصر، ليس من الغريب إذن أن نجد هذه الخصيصة منتشرة بين الفنانين بمختلف طوائفهم بنسبة تبلغ سبعة أضعاف النسبة فى العشيرة بل ان هناك من أكد أن الموهبة الشعرية الجوهرية هى ترافق الحواس، مترافقو الحواس يخبرون العالم بكثافة أكبر، ويرون عالما مختلفا، وان كان الكثيرون منهم لا يدركون أنهم يمتلكون هذه القدرة المتفردة، بل إن البعض منهم يعتقدون أن أحاسيسهم هى نفس أحاسيس الآخرين، ويشعرون أن ما بهم هو الطبيعى، فهذا واحد منهم يقول (ولم يكن يعرف أنه يمتلك هذه الخصيصة): «ألا يرى الناس جميعا الأرقام ملونة؟».

كتب السيكولوجى الروسى أ. ر. لوريا عن شخص عمره ٣٠ عاما له ذاكرة فوتوغرافية لا تمحى، وكانت حواسه مترافقة، وصف لوريا حالة الرجل لكنه لم يقدم تفسيراً لهذه الذاكرة الهائلة ولا لترافق حواسه. لم يكن هذا الرجل يدرك خطوطاً تفصل الرؤية عن السمع، أو السمع عن أية حاسة أخرى، إليك كيف وصف الرجل العالم الذى يعيش فيه:

«إننى أدرك الكلمة، ليس فقط بما تستحضره من صور، وإنما بمعقد كامل من مشاعر تثيرها الصور، يصعب على أن أعبر.. الأمر ليس أمر رؤية أو سمع، وإنما هو إحساس شامل يعترينى، العادة أن أخبر للكلمة طعما ووزنا.. ثم إننى لا أبذل مجهوداً

كي أتذكرها - الكلمة على ما يبدو تستدعي نفسها.

لكن يصعب على الوصف. إنني أحس بشيء يشبه الزيت ينزلق خلال يدي.. أو قد أحس بوخز خفيف في يدي اليسرى ينشأ عن عدد كبير من إبر دقيقة خفيفة.. وعندما يحدث هذا فإنني أتذكر، دون أن أقوم بالمحاولة».

تكاد تحس بأديب يكتب!

ترافق الحواس

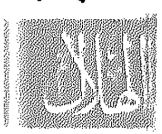
كنا في الستينات نقابل فتاة فقيرة عمياء، على كورنيش النيل في المنيل قرب كوبرى الجامعة، كانت تفعل شيئا عجبا، كانت تضع يدها على أية سيارة، فتعرف لونها دون خطأ! لم أكن أصدق، وكنت أقول إنها ليست عمياء كما تدعي، حتى قرأت عن ترافق الحواس، وعلمت أن الله قد وهب البعض منا قدرات حسية خارقة بالفعل.

تعلمنا أن حواسنا الخمس - السمع، البصر، الشم، الذوق، اللمس - منفصلة، متخصصة، ومستقلة بعضها عن بعض، وأن كلا منها يرتبط بعضو بذاته من أعضاء الجسم، فلا نحن نرى بآذاننا ولا نحن نسمع بأعيننا ، لكن العلم يتحدى الآن هذه الأفكار بأبحاثه في ظاهرة ترافق الحواس الساحرة هذه! والتي يخبر فيها الفرد تشوشا في حواسه، فيبدو الأمر كما لو كانت إحداها قد «اندمجت» في أخرى: حاسة تقدح زناد حاسة أخرى غيرها، فصوتي عند مثل هذا الشخص ليس مجرد شيء يسمعه وإنما أيضا شيئا يراه أو يشمه أو يلمسه - هو يستطيع أن يسمع اللون أو أن يرى الصوت أو أن يلمس الطعم ، طعم الكينين «كالخشب الناعم المصقول» ، السكر يجعل طعم الأشياء «أكثر استدارة»، أما الموالح فتعطى «طعما مدببا»، هي ظاهرة لا إرادية ولا يمكن للفرد أن يتحكم فيها، وتبقى معه طول العمر، وإن كانت تضعف بعض الشيء مع تقدم العمر.

والحق أنه كان من الصعب حتى وصف هذه الظاهرة ذاك أنه إذا حاول واحد من ذوى الحواس المترافقة وصف ما يعتريه، فمن الصعب علينا أن نتفهمه، إذ سيبدو كمثل من يريد وصف اللون لشخص ولد ضريراً . إليك ما قاله أحدهم: «إنها بالتأكيد ألوان، لكني لست متأكداً، من أن كلمة «رؤية» هي أدق الأوصاف ، الإحساس بالترافق مؤكدا ليس في عقلي، لكنه هناك بشكل ما الأمر يبدو كما لو كان ثمة غشاء نصف شفاف له عمق يمكنني أن أرى من خلاله، هو شيء كمثل جيشان حرارة، إنما دون التشويه، وهذا وصف لنغمة موسيقية على لسان شخص ترافقت لديه حواس كثيرة ولم يكن يستطيع إلا أن يترجم الأصوات إلى شكل وطعم وملمس ولون وحركة: «إنها تشبه شيئا كالألعاب النارية - يشوبها لون أحمر قرنفلي. أشعر بشريحة لون خشنة كريهة، لها طعم قبيح - طعم أشبه ما يكون بالمخلل المالح، إنها تجرح يدك إذا أنت لمستها».

نولد مترافقي الحواس

ثمة شواهد قوية تقول إننا نولد جميعا ونحن نحمل هذه الخصيصة : نولد وحواسنا



الخمس مبهمة ممتزجة معا، لتتمايز مع تقدم العمر وتصبح أكثر وأكثر تخصصا، لأعيننا سبل حسية من خلالها ترسل المعلومات إلى المخ، ومنه، تكون هذه السبل فى الطفولة غير ناضجة وترسل إشارات تختلف عما ترسله بعد البلوغ ، لا تنضج هذه المسالك إلا مع تمام نضج المخ.

تبين الأبحاث أن الوليد النائم يسمع فى نومه مثلما يسمع فى صحوه، أما الشخص البالغ فينخفض سمعه عندما ينام، وهناك من نتائج البحوث ما يقول إن المولود فى عمر ٣ - ٤ أسابيع يسوى بين الأضواء الساطعة والأصوات المرتفعة ، هذه تعنى تلك، وهذا مؤكد أمرلا يحدث مع الكبار.

تكون حواسنا عندما نولد مترافقة، ويحتفظ عدد قليل منا بهذا الترافق طيلة حياته، عدد تتراوح نسبته فى العشيرة ما بين واحد فى كل ٢٠,٠٠٠ فرد، وواحد فى كل ٢٠٠٠، وإن كان هناك الآن من قد رفع هذه النسبة إلى واحد فى كل مائتين، والواقع أن ليس ثمة تقدير مضبوط يمكن الاعتداد به، لأن معظم من يحمل هذه الخصيصة لا يفصح عنها خشية أن يتهموه بغرابة الأطوار أو بالجنون! فعندما تحدث، على الأثير، الدكتور ريتشارد إدموند سيتويك - الطبيب الذى أثار هذه الظاهرة مجدداً فى أوائل تسعينات القرن الماضى بكتابه الرجل الذى يتذوق الأشكال - وطمأن حامليها من المشاهدين بأنهم ليسوا مرضى، أن ما بهم ليس حالة مرضية بل إن البعض يعتبرها موهبة ، ويشعرون بأنها تثرى حياتهم وطلب منهم الاتصال به، انهال عليه سيل من المكالمات التليفونية والرسائل! والواقع أن هذه الظاهرة لم تخضع لبحوث جادة إلا مؤخرا، ولقد كانت تعزى بالفعل فى الأدبيات العلمية القديمة إلى جنون حامليها، أو إلى تعاطيهم عقاقير الهلوسة، لكن هذا لم يكن يفسر السبب فى أن معظم حامليها لا يتعاطون هذه العقاقير، كما كانت تفسر بأنها نتيجة للألعاب التى يدرب بها الأطفال على القراءة والكتابة، فإذا كان الرقم ٦ أحمر والرقم ٧ أزرق، ثبت هذا فى عقولهم، لكن لماذا إذن لا نكون جميعا هكذا؟ وكان هناك من فسرها بأنها مجرد صورة من صور المجاز، فإذا كانت النغمة حمراء فلأنها زاعقة مثل ... الفلفل الأحمر الحريف الزاعق!

الأمر الغريب أن نسبة من يتحلى بهذه الخصيصة من النساء تبلغ على الأقل ضعفين ونصف ضعف نسبة من يحملها من الرجال، بل أن هناك من رفع هذه النسبة إلى ستة أضعاف، كما أن نسبة اليسر (الذين يعملون باليد اليسرى) من أصحاب ترافق الحواس تزيد كثيراً عن نسبتهم فى العشيرة العريضة . ثم إن اكثر صور ترافق الحواس شيوعاً تكون بين حاستين اثنتين فقط، والترافق بين البصر والسمع هو الأكثر انتشاراً، وهو ما يسمى السمع الملون، وفيه يرى الشخص الصوت أو الموسيقى ألوانا، ومعظم من يتحلى بمثل هذا الترافق يقولون إنهم «يرون» هذه الأصوات داخليا، فى عين العقل، لكن قلة منهم يرونها خارج الجسم، على بعد ذراع وهناك بالطبع نسبة ضئيلة

تمزج بين أكثر من حاستين.

الصفة وراثية

يبدو أن هذه الصفة وراثية، تجرى فى العائلة كما يقولون ، كان الروائى الشاعر فلاديمير نابوكوف، مؤلف رواية «لوليتا»، يتصف بهذه الخصيصة ، وكذا كانت أمه وكان ابنه - ثلاثة أجيال متعاقبة فى العائلة حملت هذه الصفة، عندما اشتكى فلاديمير الطفل لأمه من أن ألوان المكعبات الخشبية التى تحمل حروف الهجاء كانت كلها خاطئة، فالحرف A على المكعبات ، مثلا ، لونه أحمر، فى حين أن المفروض أن يكون لونه أزرق، وقال لها كيف يمكن لأحد أن يكون فى مثل هذا الغباء فيرتكب خطأ كهذا؟ فهمته أمه على الفور وتعاطفت معه، فقد كانت مثله ممن يرون الحروف والأرقام - المطبوعة بالحبر الأسود - ملونة، هذا الترافق الذى يجرى على عائلة نابوكوف توافق مفاهيمى ، بين مفهوم ما وبين حاسة من الحواس الخمس.. فإذا كان الرقم ٧ مثلا يثير اللون الأصفر عند أحدهم ، فسيرى هذا اللون حتى دون أن يرى الرقم ٧ إذا ما سئل عن حاصل جمع ٤ + ٣.. وهناك أيضا التوافق بين اللون والوحدات الزمنية فيوم الأربعاء مثلا قد يكون أزرق وشهر أبريل أحمر.

كيف سيعرف الباحث ما إذا كان الشخص بالفعل من أصحاب الحواس المترافقة؟ إن أهم ما يميز هؤلاء هو ثبات الصفة، فإذا كان الشخص يرى الرقم ٢ مثلا أحمر اللون، فلابد أن يراه هكذا طول عمره، وليس من المهم أن يراه أمثاله الآخرون بنفس هذا اللون، فالصفة شخصية.

ثمة تجربة غاية فى الذكاء صممت للتأكد من وجود الترافق لدى الشخص بين الأرقام واللون، قل مثلا بين الرقم ٢ واللون الأحمر ، إذ تعرض عليه ورقة بها صفوف عديدة من الرقم ٥ يتناثر داخلها عدد محدود من الرقم ٢ - وكل الأرقام ٥ و ٢ مطبوعة باللون الأسود، يحتاج أى منا وقتاً كى يكتشف مواقع أرقام ٢ هذه المتناثرة داخل صفوف الرقم ٥، أما صاحب الترافق فسيمكنه على الفور بنظرة واحدة أن يقع على كل الأرقام ٢ ويعرف إن كانت تتخذ مثلا شكل مثلث، لأنه سيراها حمراء اللون بين أرقام ٥ التى يراها بلونها الأسود.. هذا اختبار تشخيصى وحساس جداً، ويبين أن أصحاب الترافق ليس بهم «مس من جنون»، وأن الصفة ليست صورة من صور المجاز، ولا هى تصاحبا فى الذاكرة إنها موهبة من الإحساس الثرى.

إذا نحن نظرنا إلى اللفيفة المغزلية بالفص الصدعى بالمخ، فسنلحظ أن منطقة اللون به تجاور مباشرة، بل وتكاد تلمس المنطقة المختصة بالرسوم البصرية والأعداد، الأمر الذى قاد الدكتور راماشاندران إلى الفرض بأن البعض منا يحملون جينا طافراً إذا عمل بالتحديد فى اللفيفة المغزلية هذه، وأوقف أو ثبط تشذيب الروابط بين وحدات المخ المجاورة، فستبقى الوصلات العصبية بين هذه المناطق، مما يسبب ترافق الأرقام والألوان، أما إذا عمل هذا الجين الطافر فى كل مكان بالمخ فسيتسبب فى روابط فائقة فى المخ بأكمله - وهذا هو السبب فى أن يكون ترافق الحواس فى الفنانين والشعراء



والروائيين أكثر شيوعا، هم كما ذكرنا يستخدمون المجاز والاستعارة، هم بارعون فى الوقوع على أفكار تبدو متباينة تماما، لتصبح على أيديهم وقد ارتبطت برباط وثيق! أمخاخهم تتخللها شبكة اتصال عصبى أكثر كثافة ، تسهل عليهم الربط بين مفاهيم ما أبعدها عن بعضها بعضا.

اقترح ان الجين الخاص بهذه الصفة سائد ويقع على كروموزوم الجنس X، لأن الأب حامل الصفة ينقلها إلى بناته جميعا، لكن نسبة من يحمل الصفة من الإناث كما ذكرنا يبلغ ٢,٥٠ - ٦ أضعاف نسبة حامليها من الرجال، والتحليل الوراثى الرياضى لصفة كهذه يقول إنه لا يمكن أن تصل النسبة فى الإناث إلى ضعف النسبة فى الرجال، فهذا التفسير بالتأكيد خاطىء، والأمر يحتاج إلى تفسير وراثى أخر.

كيف يعمل المخ ؟

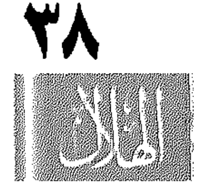
كيف يعمل المخ؟ لوجهة النظر التقليدية السائدة منذ نحو خمسين عاما، ثلاثة مفاهيم أساسية، أولها أن انسياب المعلومات خطى، وثانيها أنه من الممكن أن تحدد للوظائف الفيزيقية والعقلية مواقع معينة بقشرة المخ، وثالثها أن هناك هيراركية تجعل لقشرة المخ المحل الأسمى، فتسود كل ما تحتها، تسرى الدفقات العصبية، أى المعلومات، بشكل خطى، الواحدة وراء الأخرى حتى أن تصل كاملة إلى نهاية الخط. هكذا تمضى الانطباعات الحسية الوافدة إلى المخ، والأفعال الحركية الخارجة منه، فى الخطوة الأولى يقوم عضو الحس بتحويل الطاقة الكهرومغنطيسية (فى حاسة البصر) أو الطاقة الميكانيكية (فى حاستى السمع واللمس) أو الطاقة الكيماوية (فى حاستى الذوق والشم) إلى دفقات عصبية، لتتحرك هذه إلى محطات فى جذع المخ والمهاد (الثالامص) ومن هناك إلى محطات أكثر وأكثر تعقيداً بقشرة المخ، حيث تستخلص - متعاقبة - الأوجه المختلفة للمنبه الخارجى من تيار الدفقات العصبية. تجمع أخيراً هذه الأوجه بطريقة ما فى شكل خبرة مدركة فنفهم الشىء بالعالم الخارجى الذى قدح زناد أعضاء الحس.

لقشرة المخ، هذا السطح المجعد الذى يشكل أكبر أجزاء المخ، تركيب غاية فى التعقيد.. وهى أيضا أحدث الأجزاء من الناحية التطورية، وهى الأكثر تطوراً مقارنة

ببقية الحيوانات لهذا السبب اعتبرت هذه القشرة المنطقة الأساسية التى تميزنا عن غيرنا من الكائنات ، حتى ليؤكد عليها العلماء لحد استبعاد المنطقتين من المخ اللتين تقعان تحتها عند تمييزهم لنا نحن البشر، يقع تحت قشرة المخ مباشرة الجزء الحافى الذى «ورثناه عن الثدييات الشبيهة بالزواحف» وهو يختص بحفظ النوع (الجنس، التكاثر، السلوك الاجتماعى) ويمثل فى الإنسان المخ العاطفى، ثم يأتى جذع المخ والعقد العصبية الأساسية، أو «مخ الزواحف» الذى يختص بالحفاظ على الذات (التغذية والخوف والصراع) غير أن قشرة المخ كانت تعتبر المنفذ الرئيسي الذى يسيطر على الجزءين، ثم بزغ الأمل فى أوائل الخمسينات بالقرن الماضى فى أن نتمكن من ربط كل جزء من نسيج المخ بوظيفة محددة - فى اختزالية صريحة.

فى داخل النصف الحسى من المخ، خصصت مساحات حسية «أولية» للبصر والسمع واللمس - وظل تحديد منطقة لكل من التذوق والشم أمراً مستعصياً (رغم معرفة العلماء بأن لكل منهما منطقته بالقشرة التى ستكشف يوما ما).. هذه المساحات الحسية «الأولية» هى أولى المحطات بالقشرة، وتلفها يسبب العمى أو الصمم أو الأفازيا (تعذر الكلام)، ثم اكتشفت مناطق الارتباطات الثانوية لكل من هذه الحواس الثلاث، واعتبرت محطات على طول طريق الإحساس، وهى تستقبل المعلومات بعد أن تكون قد جهزت بشكل أفضل وتلف هذه المناطق الثانوية يسبب تشويها - لا فقدانا - لهذه الحاسة أو تلك مثل العمه (فى العمه البصرى يمكن للمصاب أن يصف الشئ لكنه لا يدرك كنهه ولا فيم يستخدم) وعند نهاية الخط بقشرة المخ توجد الارتباطات «الثالثة» فى الفص الجدارى هنا يتجمع البصر والسمع واللمس، وهنا يحدث الترابط بين هذه الحواس الثلاث صحيح أن لكل حاسة منطقتها الثانوية الخاصة، لكن هناك منطقة «ثالثة» واحدة، وبها - فيما كان يعتقد - تحدث أعلى مستويات التفكير تجريداً .

الشم والذوق لا ينتظمان داخل هذه الصورة، لأن موقعيهما فى قشرة المخ يبعدان عن منطقة الربط «الثالثة» أهملت إذن هاتان الحاستان «لأنهما أقل أهمية من البصر والسمع واللمس» ثمة وظيفة أخرى لم تلق إلا اهتماماً عابراً، هى العاطفة، وهذه خصيصة بشرية عرف أنها، معظمها، من اختصاص تراكيب توجد تحت قشرة المخ. فمن اهتم بالعاطفة من العلماء - وكانوا قلة - اعتبرها تفرعاً جانبياً يخرج من التيار الخطى للمعلومات. وحتى عندئذ كانت العواطف تعتبر ثانوية مقارنة بما يحدث فى القشرة ذاتها



سيتويك ونظرة جديدة

قادت هذه الآراء إلى مفهوم أهم وهو أن قشرة المخ هى موقع التفكير والعقل، هى التى تجعلنا بشراً. والواقع أن علم الأعصاب لم يكن يهتم، أثناء تطوره، بالعقل كان كبار علماء الأعصاب حتى عام ١٩٥٠ يعتقدون أن المخ لا علاقة له بالسلوك، ومن ثم كانوا يرفضون «ترافق الحواس» على أنه شئ ذاتي تماماً برز الاهتمام بهذا الترافق فيما بين عامى ١٨٦٠ و ١٩٢٠، ثم خبا، لأن أحداً لم يتمكن من العثور على تفسير

فيزيقى له. وكان هذا المفهوم مسيطراً على سيتويك عندما بدأ دراسته على ترافق الحواس كان عليه فى البداية أن يتأكد من أن هذه الظاهرة حقيقية، ليمضى بعد ذلك يبحث فى منطقة الربط الثالثة بالقشرة عن الآلية الفيزيقية .

ثم اكتشف أن هذا الخط من التفكير خاطئ : «النظرة المعيارية لتنظيم المخ خاطئة» – كما يقول، فهى تقول إن مخ الإنسان يعمل خطياً كماكينة، وتقول إن الإدراك والعقل والتفكير والحقيقة توجد جميعا فى قشرة المخ، وكل ما تحتها ثانوى بقيت هذه النظرة المعيارية سائدة بين الناس لأن أحداً لم ينقل إليهم المفاهيم المتغيرة لطريقة عمل المخ أو يعرض عليهم الصورة الكبيرة فى مجلة وبقيت الغابة مجهولة، الغابة التى فيها ينطمر ترافق الحواس .

العمل البيولوجى يتطلب طاقة. عضلاتك تستهلك طاقة وأنت تصعد السلم لأنها تقوم بعمل ميكانيكى هو رفع وزنك ضد الجاذبية. الكلية تقوم بعمل كيماوى يحتاج طاقة إذ تستخلص الفضلات من الدم. والمخ نهم فى استهلاك الطاقة المخ وحدة يستهلك ٢٥ ٪ من الطاقة التى يستخدمها جسم الإنسان (١٠ ٪ فى القرد و ٥ ٪ فى الكلب) فإذا أردنا أن نعرف مناطق المخ التى تشترك فى مهمة ذهنية معينة، فعلينا أن نبحث عن الأجزاء التى يزداد فيها الأيض عند القيام بهذه المهمة ثمة جهاز يمكنه أن يفحص كل مناطق قشرة المخ واحدة واحدة فى نفس الوقت إذا كنت تقرأ أو تتذكر أو تتفحص شكلاً أو تحسب أو تقوم بأى عمل ذهنى آخر، فسيزداد الأيض فى المناطق التى تشترك فى المهمة، مقارنة بتلك الخاملة التى لا تشارك فيها، ولأن الدم يحمل سكر الجلوكوز والأكسجين اللذين يوفران الطاقة للأيض، فإن قياس تدفق الدم إلى المناطق المختلفة لقشرة المخ يدلنا على المناطق النشطة وقد اتضح أن معدل زيادة الأيض فى مثل هذه المناطق النشطة لا يقل عن ١٠ ٪ وعادة ما يصل إلى ٢٠ – ٢٥ ٪ .

أجرى سيتويك التقدير على واحد من أصحاب ترافق الحواس، واتضح له بجلاء أن الأيض فى قشرة المخ لايزداد عندما يخبر الفرد هذه الظاهرة بل الحق أن العكس كان هو الصحيح – كان تدفق الدم فى النصف الأيسر من المخ يقل بنسبة ١٨ ٪ عما كان عليه قبل الترافق، الأمر الذى يؤكد أن ترافق الحواس لا يحدث فى قشرة المخ. فى نفس الوقت بينت القياسات الإشعاعية أن هناك زيادة عامة فى أيض المخ ككل، الأمر الذى يعنى أن ثمة عملاً أيضيا يجرى عندما يخبر الفرد ترافق حواسه فإذا كان الأيض الكلى للمخ يزداد وقت تغلق القشرة، فلابد أن الترافق يحدث فى المخ الحافى النسيج تحت القشرة ليس مجرد شئ وظيفته حمل القشرة، إنه يقوم بقدر هائل من العمل البيوكيماوى. الحكم الأخير ليس سوى الجهاز الحافى. المطمور عميقا فى الفص الصدغى من المخ – وهو عميق حتى ليصعب قياس تدفق الدم إليه، الجهاز الحافى، لاقشرة المخ، هو مركز ترافق الحواس .

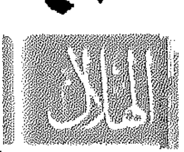
ثم مضى ليقدم أفكاراً جديدة تعارض النظرة التقليدية مستعينا بما ظهر عن العلم



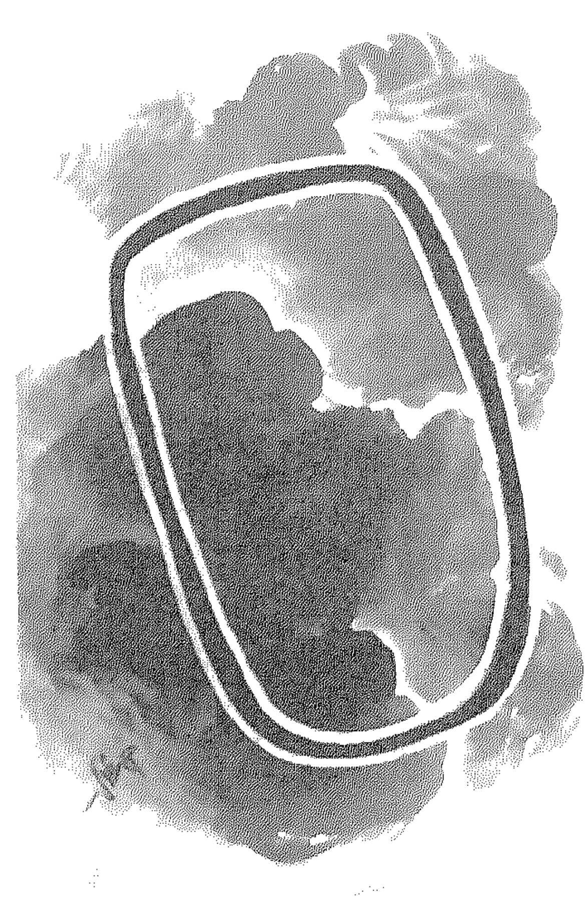
من نتائج رفض التدفق الخطى للمعلومات بعد أن اتضح أن هناك مجموعة عريضة من الجزئيات كالهرمونات والببتيدات - تعمل أيضا فى نقل المعلومات (ولقد اكتشف منها العشرات) ومعنى هذا أن المعلومات يمكن أن تنتقل من خلال الجسم كله، وليس فقط عن الطريق الخطى للنيورونات (الخلايا العصبية) هناك إذن طرق عديدة لنقل المعلومات يلزمها جهاز ينظمها - وكان هذا هو الجهاز الحافى بالمخ: الجهاز الحافى يشكل «اللب العاطفى» للجهاز العصبى البشرى .

كانت الكيانات الرئيسية لما نسميه الآن الجهاز الحافى مرتبطة سوياً فى «دارة» من خلالها يفصح عن العواطف، نعنى أن العاطفة ليست محددة فى مركز تحكم محدد، وإنما هى تنتشر عبر سبل، والسبل لابد أن تكون موجودة فى مكان ما، ومن ثم لابد أن تكون هناك مركزة، لكن المركزة هنا ستكون أكثر انتشاراً عما تقول به النظرة القديمة. وعلى السبعينات بالقرن الماضى كان هذا المدخل وقد غير جذريا الطريقة التى نتفهم بها تحرك المعلومات عبر المخ انتهت الفكرة الخطية لمحطات متتابعة على طول خط نقل، وحل محلها مفهوم عن مخ له قنوات اتصال متعددة يمكنه أن يعالج المعلومات فى مواقع عديدة فى ذات الوقت : ما أن تتشابك الدفقات العصبية الواردة من أعضاء الحس، فى مواقع الحس الأولية، حتى تنشعب متزامنة إلى مناطق اتصال عديدة بالقشرة حيث تخضع لمزيد من المعالجة تختص كل منطقة من مناطق الاتصال هذه بناحية من الخبرة مختلفة ففى حالة البصر مثلاً تختص إحداها بإدراك اللون، وأخرى بتحديد الشكل، وغيرها بتحديد المكان، وهكذا .

اعتبرت العاطفة «بدائية»، وظل العقل يمثل التطور الفائق : كذا يعنى الفرض الشائع القائل إن قشرة المخ المتطورة هى ما يجعلنا بشراً متفردين، هى التى تقوم بتحليل العالم الخارجى، وهى التى تحمل نموذجنا للواقع وهذا يعنى أيضاً أن المخ البشرى الحافى لايختلف عن مثيله فى غيرنا من الثدييات . العواطف البشرية «بدائية»، لكن الدراسات التشريحية توضح أن التطور لم يهمل الجهاز الحافى لقد تطور الجهاز الحافى فى مصاحبة القشرة، وأصبح الجهاز العاطفى البشرى أقوى من مثيله فى الثدييات تطور العقل والعاطفة مترادفين سوياً، والمادة العصبية بينهما مرتبطة ارتباطاً وثيقا، وإن كانت لكل مهمته المختلفة ثمة علاقة تبادلية بينهما، كل ينظم الآخر، وكلاهما فى نهاية المطاف يؤثر فى حياتنا العقلية لكن المدخلات التى تصل القشرة من الجهاز الحافى تفوق ما يصل إلى الجهاز الحافى (عيننا الداخلية) من القشرة - على عكس ما نتوقع . للجهاز الحافى المقام الأول. تمر المعلومات من الحواس الخمس جميعاً خلال العين الداخلية قبل أن تتجه إلى المخ الأعلى : تنقل الأعصاب من حواسنا المعلومات خلال العين الداخلية، حيث يمكن أن تدرج أو تهمل أو تلون قبل أن تعالجها القشرة ووعينا الأعلى الجهاز الحافى هى الذى يحدد هويتنا إن ما يميزنا هو قدرتنا المتطورة

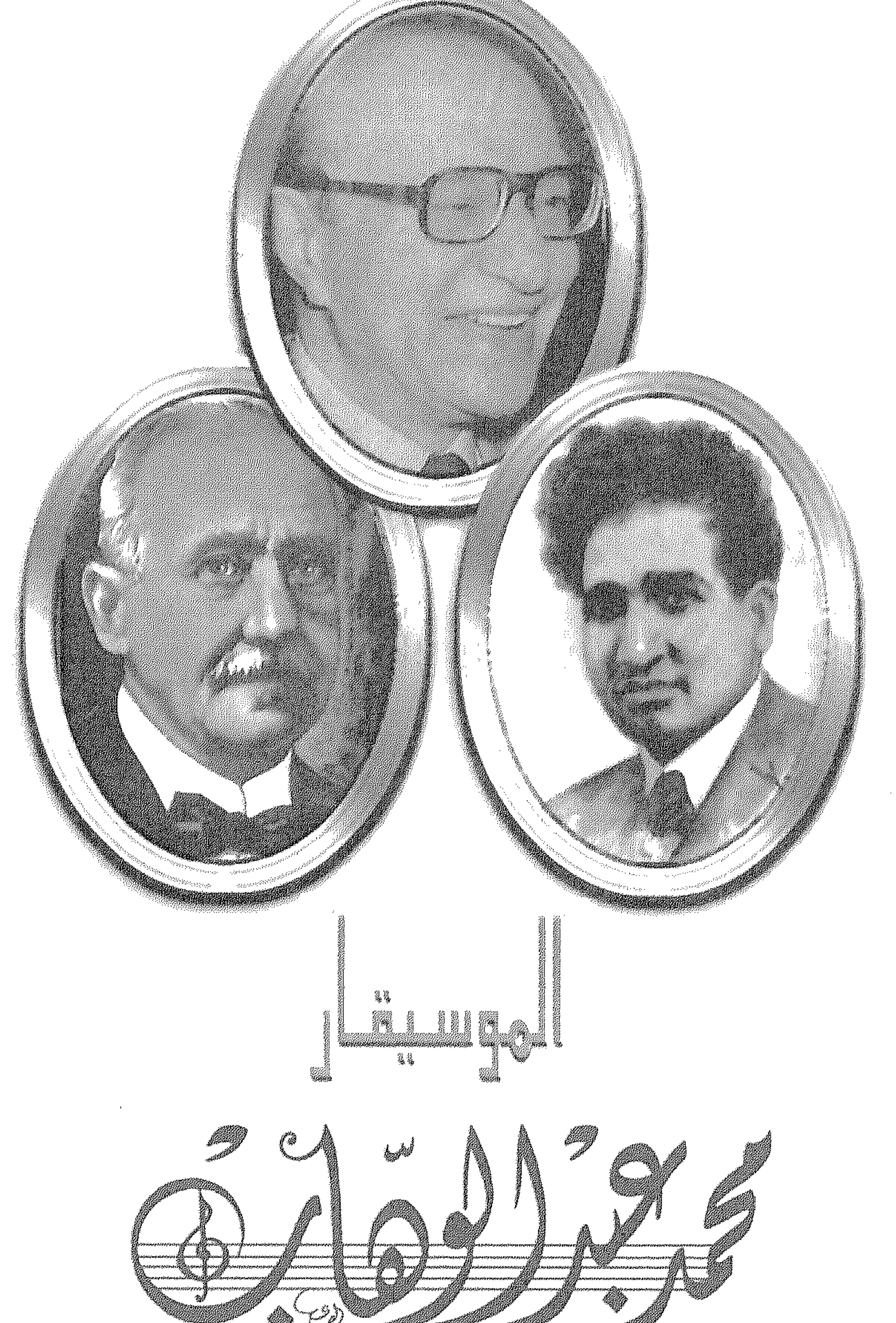


على التعبير عن العواطف، وليس قدرتنا المتطورة على التفكير! كذا يرى سيتويك



الفن ضرورة

قد تصبح للظاهرة الشاذة أهمية قصوى في العلم. إذا عرفت أية ظاهرة تنتقي للدراسة، فقد تتمكن من تغيير اتجاه بحوثك، وأن تخلق ثورة علمية يلزم أولاً أن تتأكد من أن الظاهرة حقيقية وأنها ليست زائفة، وأن تقترح آليات لتفسيرها، ثم أن تكون لها تضمينات عريضة. وظاهرة ترافق الحواس ظاهرة بالفعل شاذة، نعني أنها نادرة الحدوث، فهي لا تبين صراحة إلا في قلة .هي حقيقية، لاحظها حتى فرانسيس جالتون (صاحب اليوجينيا) منذ أكثر من قرن، غير أنها لم تجد، ولفترة طويلة، من يوليها الاهتمام وينتقيها للدراسة ويبحث عن آليات لتفسيرها. دار البحث عن أساسها المادي في المخ، فهي مدخل ممتاز للولوج إلى علم الأعصاب، وفسرت النتائج الكثير من ألغازه، وهي قد تقود إلى تبصرات عن تطور اللغة، وربما عن طريقة بزوغ الفكر التجريدي الذي يميزنا نحن البشر ثم اقترح - كما ذكرنا - وجود جين أو مجموعة من الجينات تؤثر فيها، فهذه الخصيصة تجري في العائلات فإذا كان ثمة جين من ورائه، وكان تكراره منخفضا كما تشير ندرة وجود حامليه (أعلى نسبة رصدت هي واحد في كل مائتين) فلماذا لم يعمل عليه الانتخاب الطبيعي ويجتثه إذا كان بلا قيمة أو كان ضاراً؟ لماذا بقي ؟ لابد أن لهذا الجين وظيفة ما مهمة في حياتنا. هذه الظاهرة تشيع أكثر ما تشيع بين الفنانين والشعراء والروائيين الذين تترافق في ابداعاتهم مفاهيم متباينة (كان منهم بودلير ورينبو وليست وريمسكي كورساكوف) . هل الفن ضرورة للبشر بحيث تحافظ الطبيعة على بقائه ؟ ماذا كان يفعل من رسموا أكثر من ١٥٠٠ لوحة رائعة للحيوانات على جدران كهف لاسكو منذ سبعة عشر ألف عام ؟ وجودنا يحتاج إلى الإنسان الفنان، مثلما يحتاج إلى الإنسان العالم. كلنا على أية حال يحمل بعضا مكنوناً من ترافق الحواس . وكلنا يمكن أن «يفهم» الفن - بدرجة أو بأخرى «الفن أكذوبة تكشف الحقيقة » كما يقول بيكاسو. والحقيقة هي «الإنسان». يتكشف «الإنسان» بأكذوبة اسمها الفن.سوى أنها أكذوبة لها أساسها الوراثي! ■



الموسيقار
محمد عبد الوهاب

بين سيد درويش وأمير الشعراء أحمد شوقي

بقلم
د. عبد المنعم ابراهيم الجميعي *

٤٢
الهلال
شوال ١٤٢٤هـ - ديسمبر ٢٠٠٣م

* استاذ التاريخ الحديث والمعاصر

عندما يكتب تاريخ الموسيقى العربية فى العصر الحديث سيقف الموسيقار محمد عبدالوهاب قمة شامخة تطل بألوان من الابداع، وتروى تاريخا لتطور الأغنية العربية مع موهبة فريدة قل ان يجود الزمان بمثلها فلا غرو انه البلبل الصداح الذى حرك إوتار القلوب بصوته العذب، والحانه البديعة، وانغامه الجميلة. فقد امتاز عبدالوهاب بخصوبة صوتية فى الأربعينات والخمسينات وخصوبة لحنية فى الستينات والسبعينات.

ولد عبد الوهاب حسب أرجح الأقوال فى ١٣ مارس ١٩١٠ بحارة الشعرانى (باب الشعرية) بالقاهرة مفطورا على حب الموسيقى. وقد لاقى فى سبيلها صعابا استطاع أن يتغلب عليها بثباته ومثابرته، وكان لحفظه القرآن الكريم وتجويده، وأدائه للمدائح النبوية أكبر الأثر فى تكوين صوته الموسيقى وتهيئته تهيئة صالحة للنمو والاستمرار، وصقل مخارج الحروف.

وقد بدأ عبدالوهاب حياته الفنية أيام الشيخ سلامة حجازى قبيل الحرب العالمية الأولى بتقديم فقرات طرب بين فصول المسرحيات مستغلا فى ذلك صوته العذب، كما تأثر بطريقة الشيخ سلامة حجازى فى الغناء وأدى قصائده وموشحاته وكان حلمه الذهبى أن تهتف الناس ذات يوم باسم الشيخ محمد عبدالوهاب، كما كانوا يهتفون باسم الشيخ سلامة حجازى ثم تحول هذا الحلم بعد ذلك الى الرغبة فى تتبع خطوات سيد درويش .

عبدالوهاب وسيد درويش

بعد وفاة الشيخ سلامة حجازى عمل عبدالوهاب منشدا فى فرقة الكورال التى كانت معروفة باسم فرقة على الكسار وعن طريق ذلك عرف كل أوبريتات سيد درويش وتأثر بطريقة تلحينه، وتجليات تعبيره كموسيقى يتردد اسمه فى الوسط الفنى خاصة بعد مزجه الموسيقى الشرقية بالغربية، وظل عبدالوهاب يتتبع خطوات سيد درويش ويلازمه كظله فى غدواته وسكناته وروحاته يسمع منه، ويردد ألحانه. وعندما يعود الى بيته المتواضع فى باب الشعرية مع الفجر ينقل النوتة لتلك الالحان على ضوء مصباح خافت.

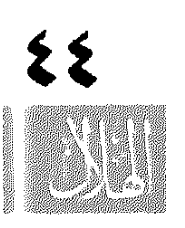
وبعد أن انشأ سيد درويش فرقته الغنائية الخاصة به انضم اليه محمد عبدالوهاب بعد أن التقى به لأول مرة فى سيرك بدمنهور ثم تقابلا بعد ذلك فى القاهرة. وعمل عبدالوهاب مطربا بفرقة سيد درويش لقاء مبلغ خمسة عشر جنيها شهريا، والتقط منه افكاره التى كانت تمثل نحو تطعيم الموسيقى العربية بالغربية والساعية الى التغيير والتطور واعطاء الكلام والحوار ما يوافق اللحن.

حوار بين عبد الوهاب والفرقة الموسيقية ، ويظهر في الصورة محمد القصبجى

• بماذا تنبأ سيد درويش للمطرب الناشئ «محمد عبد الوهاب»

وقد تنبأ سيد درويش لعبد الوهاب بمستقبل كبير فى دنيا الطرب بقوله «الولد ده هيشقلب الدنيا بحالها» وفعلا صدقت فراسته.. وكان عبدالوهاب يعرف قدر استاذه، ويقدر اعماله كل التقدير مؤكدا ان سيد درويش رفع لواء الموسيقى وارتقى بالمسرح الغنائى الذى كان يعانى سكرات الموت وقد بلغ انبهار عبدالوهاب بفن سيد درويش اثناء عمله معه انه عندما استمع منه الى نشيد «أنا المصرى كريم العنصرين» شعر برعشة شديدة هزت كيانه وانهمرت الدموع من عينيه واستمر فى البكاء من شدة تأثره بهذا اللحن.

وبعد رحيل فنان الشعب سيد درويش فى عام ١٩٢٣ دفع عبدالوهاب طموحه الى ان يحتل مكانة استاذه فطلب من المؤلف يوسف القاضى الذى كان يكتب لسيد درويش اغانيه ان يكتب له بعض الأغانى، كما قدم نفسه للمستمعين موضحا انه يستظل براية سيد درويش، واستمر على ذلك فترة ثم اختط لنفسه بعد ذلك وعلى نحو تدريجى

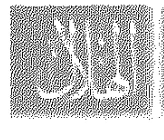


خطوط اسلوب غنائى جديد حتى تربع على عرش الغناء بعد ان اقتبس من الموسيقى الأوربية، واصغى جيدا الى الالحان العربية غناء وتجويدا. وبعد ان تعايشت الالحان المختلفة فى وجدانه استحدث عبدالوهاب اسلوبا متميزا فى التلحين، وطريقة متميزة فى الغناء وكان دائما يبحث عن الجديد الذى يدخله على الغناء العربى مما احدث تحولا فى الموسيقى العربية واستمتع الناس بأغنياته خاصة وانه كان مطربا جميل الصوت وملحنا متميزا وهبه الله أندى الحناجر، ووضع فى صوته ألين الأوتار، وخلق منها أرخم الاصوات.

هذا عن دور سيد درويش فى تكوين عبدالوهاب وبناء تطلعاته الموسيقية.

عبدالوهاب وامير الشعراء احمد شوقى

أما عن قصة تعرف احمد شوقى بعبدالوهاب فترجع الى الشيخ عبدالعزيز البشرى الذى لفت نظره الى جمال صوته خلال جلساتهما فى احد المقاهى الرابضة تحت سفح الهرم الاكبر بقوله له «أما ياباشا فيه جدع اسمه



• المصادر التى استقى منها عبد الوهاب موهبته الفنية: فن الموسيقار سيد درويش وثقافة أمير الشعراء أحمد شوقى

عبدالوهاب صوته زى الخص احب انك تسمعه» فقال شوقى هاته يوما الى البيت فجاء وحضر قليل من اصدقاء شوقى، وغنى عبدالوهاب ففتن به شوقى وحمله على ملازمته وازدادت علاقة عبدالوهاب بشوقى وثوقا وبدأ يتردد عليه ويشارك بفنه فى مناسباته العديد التى كان يقيمها فى منزله، وفى خلال حفل اقامه شوقى فى منزله بكرمة بن هانىء بمناسبة عيد شم النسيم غنى عبدالوهاب وبدأ يداعب عوده، فسرت الأنغام عذبه ثم انساب صوته يحكى عن العيون النائمة التى لم تعرف الشجن، والعيون اليقظى التى تشتهى النوم فى «الليل لما خلى» ثم انسجمت الموسيقى مع الصوت.

الفجر شأشا وفاض
على سواد الخميلة
لمح كلمح البياض
من العيول الكحيلة

واستخف الطرب بشوقى حتى ألقى طربوشة على ركبة بعد أن اسمعه عبدالوهاب هذا اللحن بتوزيع مختلف حرك به اوتار قلبه.

واندمج عبدالوهاب فى شعر شوقى وأخذ فى تلحين بعض قصائده، وربطت روح الود بينهما لدرجة ان شوقى كان يتدخل فى كل كبيرة وصغيرة فى حياة عبدالوهاب، كما ظل يساعده ويمده بأشعاره، وكان له فى حياته شأن كبير، فهو الذى طلب منه ان يخفف من مجهوده فى الغناء وهو صبى لضعف صحته، وهو الذى أخذ بيده، وفتح له مدرسة الحياة، وقدمه لنخبة العصر وللشخصيات العامة فى العديد من المحافل، فصحبه معه الى المنتديات الثقافية يجلس مستمعا وتلميذا يتعلم ما يجرى امامه فى هذه الأماكن ويشاهد كل شىء ، ويتعلم كل شىء ، خاصة وأنه كانت لدى عبدالوهاب القدرة على الالتقاط والتشبع والتعلم فتفتحت حواسه لأشياء كان لا يعرفها. وعن طريق شوقى تعرف عبدالوهاب على الشعراء والسياسيين، وتعرف على سعد زغلول، ومصطفى النحاس، ومكرم عبيد، واحمد ماهر، والنقراشى، وكان سعد زغلول يفضل ان يسمع من عبدالوهاب دائما اغنية «جددى يانفس حظك».

وعن طريق شوقى عرف عبدالوهاب العالم العربى وأوربا فسافر معه الى الشام والى باريس فى عام ١٩٢٧. وخلال ذلك أخذ عبدالوهاب من شوقى الإحساس بالكلمة الجميلة، والشعر الجميل، ورصانه الكلام كما تعلم منه ضرورة ان ينظر الى المستقبل ويعايش عصره فعلى الرغم من حب شوقى لعبده الحمولى ويوسف المنيلاوى وعبدالحى حلمى، فقد طلب عبدالوهاب معايشة عصره وألا يعبأ إلا بعصره وألا يقلد أحدا منهم. وخلال ذلك بدأت الدوائر الثقافية والصحفية تهتم بعبد الوهاب وتدعوه لإحياء لياليها فتذكر «فاطمة

اليوسف» فى مذكراتها انها اقامت حفلة ذات ليلة فى مقر جريدة روز اليوسف فى محاولة للتوفيق بين الشاعر احمد شوقى من جهة والعقاد والمازنى من جهة أخرى بعد ان تزعم الأخيران حملة شديدة على شوقى، ووضعا إنتاجه الفنى على مشرحة النقد العنيف، وتمت دعوة الموسيقار محمد عبدالوهاب وكان لايزال ناشئا فى محاولة منها لتلطيف الجو بغنائه، وغنى عبدالوهاب فى تلك الليلة الدور القديم «قده الياس زود وجدى» وفى جو السهرة الجميل وتحت تأثير انشاد عبدالوهاب الساحر تصافى الكبار وخرج العقاد وقد استبد به الطرب، لينشر فى جريدة البلاغ ابياتا من الشعر يحيى بها عبدالوهاب منها:

ايه عبدالوهاب انك شاد
يطرب السمع والحجا والفؤادا
قد سمعناك ليلة فعلمنا
كيف يهوى المعذبون السهادا.

وظل عبدالوهاب ملازما، ومشاركا فى احياء حفلاته ومصاحبا له فى روحاته وغدواته. وفى مناسبة عقد قران مؤنس نجل احمد شوقى شارك عبدالوهاب فى احياء حفل الزفاف وغنى قصيدة كان قد أعدها شوقى بهذه المناسبة وهى دار البشاير مجلسنا، وليل زفافك مؤنسنا، ان شاء الله تفرح ياعريسنا، وكانت هذه اول قصيدة يكتبها شوقى بالعامية وغنى عبدالوهاب، وأطرب الحاضرين، حتى بلغ من سعادة شوقى ان قال له «غرد ياعبدالوهاب، غرد ياكنارى النادى وامدح ياهزاز الوادى، وترنم ياشادى البوادى»، كما دعا له بطول العمر بقوله «أضاف الله اعمارنا الى عمره» وظل عبدالوهاب ملازما لأمير الشعراء حتى جاء يوم ١٤ اكتوبر ١٩٣٢ ذلك اليوم الحزين الذى لم تطرب فيه نفس، فقد أذنت شمس الغروب، ورحل شوقى رحلته الأبدية، وفقدت مصر أمير بيانها وشعرها.

وتقديرا لما اسداه لوطنه وأمته، وفى ذكرى الأربعين لوفاته رفعت الستار بمسرح الأزبكية عن جوقة كبيرة من الموسيقيين يتوسطهم الموسيقار محمد عبدالوهاب، واهتزت الأوتار جميعا بنغم شجى حزين، وتهدج صوت عبدالوهاب وهو يردد:

حطموا الاقداح
مثلما حطمت حزنا قدحى
ودعوا الافراح
طوى اليوم بساط الفرح
خلدوا ذكراه فى القلوب
خلدوها
مجدوا ذكراه شبانا وشب
مجدوها
عاش كالزهرة عطرا وندى
وكسا الفل جلالا خالدا
لن تردوا بعض ما اسداكم
ابدا مهما فعلتم ابدا.

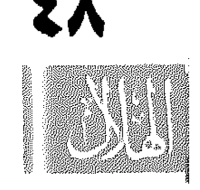
وهكذا كان اثر سيد درويش وأحمد شوقى واضحا فى تكوين عبدالوهاب الفنى والابداعى فقد أخذ عبدالوهاب عن سيد درويش اهمية جعل الموسيقى المصرية تتحرك وتخرج الى الحياة بعد ان كانت بلا معنى وورث عنه ريادة هذا

تكريم عبد الوهاب وأم كلثوم فى عيد العلم -١٩٦٥

• كان لتبنى أمير الشعراء شوقى لعبد الوهاب تأثير كبير فى صقل موهبته الفنية

الفن فأعطى للجماهير اغانى جديدة يرددها بشغف، واعطى للمسرح الغنائى ألحانا مختلفة الألوان وتعلم عبدالوهاب من شوقى أن يعطى للكلمة اللحن المناسب وان يعايش عصره.

ومع أن الفرق بين حياة عبدالوهاب وسيد درويش كان متقاربا، فإن البون كان شاسعا بينه وبين أمير الشعراء فعبدالوهاب وسيد درويش ينتميان الى بيئة شعبية خالصة بريئة من كل طلاء، وحالف الحظ كل منهما حتى وصلا الى ما تمنياه والفرق بينهما يكمن فى ان سيد درويش لم يعبر البحر الى اوربا، ولم تتح له الفرصة ان يدرس الموسيقى بالمستوى الذى استطاع به عبدالوهاب ان يدرسها، وان سيد درويش اهتم بالمسرحيات الغنائية اكثر من عبدالوهاب وان لم تتح له الفرصة ان يمثل فى السينما كما فعل عبدالوهاب حيث لم تكن السينما الناطقة قد بدأت فى عصره والى جانب ذلك كان سيد درويش مات صغيرا عن عمر لم يتجاوز الحادية والثلاثين «١٨٩٢ - ١٩٢٣» مما لم يتح له الزمن ما اتاحه لعبد الوهاب الذى



توفى بعد الثمانين من عمره.

اما شوقى فقد نشأ فى بيئة مختلفة عن بيئة عبدالوهاب، فقد ولد وفى فمة ملعقة من ذهب، فكانت جدته من وصائف الخديو اسماعيل ، فعاش معيشة القصور، وذهب فى بعثة دراسية الى باريس على نفقة الخديو توفيق، كما عمل فى المعية السنية وصار شاعر القصر، بينما نشأ عبدالوهاب فى حى باب الشعرية الشعبى وشب بسيطا يتلمس خطاه باحثا عن ما يشد ازره حتى وجد ضالته فى أحمد شوقى.

إضافة الى التراث الموسيقى

ومع اى حال فإن دور عبدالوهاب فى تكريس اشكال متطورة للأغنية المصرية، وعطاءه الخصب الفياض، والخروج بالموسيقى العربية الى اسماع البشر بعد تطويرها وانتظامها فى ركب الموسيقى العالمية، ولفت الانظار الى التراث الشرقى، وإدخاله اشكالا جديدة وآلات جديدة لم تكن مستخدمة فى الأغنية العربية من قبل كل ذلك يعد اضافة مهمة الى التراث الموسيقى الغنائى ومع ذلك فقد واجه عبدالوهاب فى حياته اتهامات بسرقة ألحان سيد درويش والسطو عليها، وكما قيل ان روائعة الموسيقية مقتبسة ومأخوذه من خارج الحدود لفنانين كبار من اوربا وغيرها. وكان رد عبدالوهاب على ذلك ان حياتنا العامة والخاصة قد تأثرت بأساليب العزف فملابسنا ونظمنا ومعظم تقاليدنا الآن. تسير على الاسلوب الغربى الذى يسيطر على حياتنا ومظاهر نشاطنا الاجتماعى والفنى، ولا ضرر من هذا. فالتأثر بالاتجاهات الاجنبية ومسايرة موكب النهضة العالمية شيء تحتمه سنة التطور.. واقتبسنا من الغرب لنطعم انتاجنا الموسيقى، ولكن ليس معنى هذا الاقتباس ان نحطم روحنا وجوهرنا ونتخلى عن طابعنا الشرقى.

ومعنى ذلك ان عبدالوهاب لم ينكر الاقتباس من الموسيقى الغربية ولم ينكر تأثره بها بل اعتبره ضرورة واجبة.

لقد اتهم البعض عبدالوهاب بتحطيم التراث ، ولكن الحقيقة انه اضاف لفن الطرب العربى ابداعات سايرت تجربة الغناء الحديث، وظل عبدالوهاب بفنه وعبقريته فى عقول وعشاق فنه على امتداد الوطن العربى، وذهبت الى طى النسيان كل الأقاويل حول اقتباساته من هنا او هناك، وصعد عبدالوهاب على السلم الموسيقى، واستطاع ان يشقلب الدنيا كما تنبأ له سيد درويش.

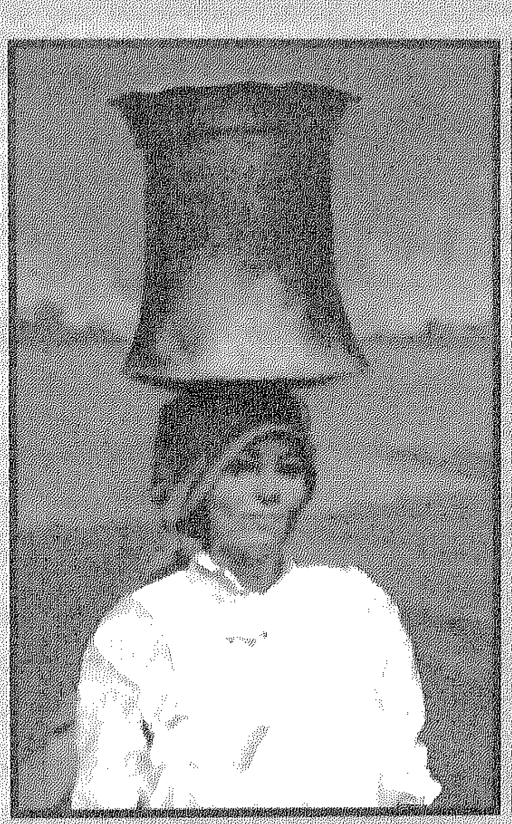
ونتيجة لجهود عبدالوهاب فى خدمة الموسيقى العربية، وتمكنه من الجمع بين حلاوة الصوت وحسن التطريب، واتقان الضرب بالعود والتلحين بنفسه قررت اكاديمية الفنون منحه الدكتوراه الفخرية.

وظل عبدالوهاب معطاء لفنه حتى رحل عن عالمنا فى الثالث من مايو ١٩٩١، وشيع جثمانه فى جنازة عسكرية مهيبة تقديرا لما قدمه للفن من جليل الخدمات. ■

فتاة من واحة الخـارجة



بورترية والد زهران سلامه



فلاحة تنقل الماء

ابن الفلاحين
زهران سلامة

عام ١٩٨٠ وفى معرضى الأول بأتيليه القاهرة يأتينى حاملا حقيبة سامسونايت فى يده وفى كامل زينته كرجل، مرتديا بذلة للافتتاح وكنت أرتدى بلوفر يدوى مهرولا فى أناقة نصف غربية كعادتى. يبادرنى الحديث بعد أن لف المعرض أكثر من دورة. مشروع ابتسامة على وجهه، ويقول : نريد أن نسمع منك ، وأردف أعرف أن هذه الليلة للناس والجمهور لكن لنا لقاء تستحقه تجربتك .

والتقينا بمرسمه وكان أيامها بوكالة الغورى. تصورت بأن لقاءنا سيكون عاديا، ولكن حدث وأن فوجئت بأنه يخرج مسجلا صوتيا وأشرطة، وبعد أن ضايفنى بالشاى الفلاحى وأنفاس الشيشة التى كنت أدمنها ذاك الوقت بدأ الأسئلة، وكان يفسح لى المجال حقا لكى أتحدث وأقول وأقول وأعترف ، وماذا يريد العائد مثلى من غربة العشر سنوات أكثر من ذلك؟

وبدأت الصداقة.. وكنت أحتاجها خاصة وأن بعض أصدقاء العمر الجميل كانوا قد انفضوا من حولى لارتكابى جريمة إقتراف الفن، واثباته بأنه من الممكن أن ننتج فنا ولا نستنيم إلى تبرير جريمة التوقف والخرس واللجوء إلى كسل مريح . كان زهران ينتج حينئذ لوحات تتعكز على الفن الفرعونى برمزية كنت لا أحبذ هذا الاتجاة وتحفظت رغم الصداقة الحميمة.

بدعوتي زهران إلى الباجور قرب مسقط رأسه . بيت بسيط خمسة من الأبناء أربعة أولاد وبنت واحدة يصطفيها زهران، فى الفجر أصحو لأجد زهران آخر ، غير زهران المدينة، ربع القامة، يرتدى سروالا أبيض إلى ما تحت الركبة بقليل ، ممسكا فى يده بسكين صغير يسمى «الخنصر» يسلخ به جلد ذكر الماعز بمهارة وحذق، ووقفت فاغرا فاهى من الدهشة فى البداية ، ثم مستسلما إلى معرفة هذا «الانسان» من جديد . كان زهران الذى أعرفه حتى هذا الوقت طالبا زاملنى أيام الكلية يجيد الرسم لكنه لا يحضر إلى الكلية كثيرا. ثم زهران الذى استمع إلىَّ جيدا وأول من حاول معرفة شئ عن رحلتى الفنية فى باريس . قبل صياح الديك كان زهران قد انتهى من إعداد لحوم الوليمة التى يريدها لعائلة صديقه وعائلته معا. بعد الافطار وشرب أنفاس الشيشة أخذ زهران ركنا قصيا ليعد أعواد البوص الجاف المنتقاة جيدا ، يشبك بها خيوط البلاستيك مع صنارات من المعدن المعقوف والمعوج . حين انتهى من هذا العمل الدوب فرك يديه ، وأول مرة أرى أيدى فلاح حقيقى ، ضخم اليدين، متورم الأصابع من كثرة الاستخدام الخشن والمجهد لهما، انتحى أيمن أصغر الأبناء، مع أكرم الذى يكبره قليلا، يحفران فى الأرض وفى الأركان الرطبة المبتلة بحثا عن ديدان صغيرة. فزعت تمر، وفزعت داليا خوفا، واستثارة ابتعدنا واقتربنا بمقدار، وبدأت ضجة الأبناء جميعا وتصبح الجماعة مثيرة للفرح والبهجة لدى هذا الولد زهران الوحيد لأبيه، وعرفت حينئذ أحد أسراره ورغبته الحارقة فى تكوين أسرة تكون له عزوة فى حياته . لن أنسى صرخة ابنتى الباريسية المولد «تمر» حين أخرجت أول سمكة لها بعد لأى وطول انتظار وخفت عليها أن ينفجر قلبها الصغير، واحتضنتها ، وأحسست برجفة قلب العصفور الصغير. وشكرت زهران ، وتمرغت تمر الباريسية فى طين ريف المنوفية، وسقطت الصغيرة داليا، وأخرجها أبناء زهران ، واحتفظوا بالسر الذى قالوه لنا أخيرا بعد أن كبروا وأصبحوا هم آباءا لأبناء .

من هو هذا الزهران سلامة!؟

كان معتمد إبراهيم حسن سلامة الذى يأتى لزيارة ابنه زهران سلامة رجلا خفيفا على الآخرين لا يريد أن يثقل على أحد. له حمار يلتصق به،



ويعامله بحنان وود ويبتسم حين أسأله عن هذه العلاقة، يقول : إنه يقصر المسافات بينى وبين من أحب، ويحنى رأســه فى خجل الفقراء حين لا يريدون لعواطفهم أن تفتضح ، وأعرف بأن قلبه ينظر إلى ولده الوحيد زهران . ثم يربت على رقبة حماره بود ويمتطيه ويرحل دون أن يثقل على أحد بحضوره الذى قد يزاحم أصدقاء ابنه الأفندية القاهريين . وأحب الرجل ويحكى لى زهران حكاية أبيه وفق إلحاحى عليه:

كان معتمد ابراهيم سلامة لا يملك من الدنيا إلا قوة بدنه وعزيمته صبر الفلاح المصرى الذى لا يملك أرضا ولكن يملك كرامة الرضا والاستغناء عما يملكه الآخرون . كان فى ذلك الوقت يعمل لدى زوج السيدة/ تفاحة عبدالله عبدالله. سيدة جميلة ذات حسن تليق بأحد أثرياء القوم. كان معتمد ابراهيم يعمل لديهم محبوبا لكرامته وعزة نفسه وأمانته . مات الزوج الثرى بعد أن أنجب منها الأخ غير الشقيق لزهران . طمع القوم فى زواج الأرملة الثرية .. وخافت تفاحة على نفسها طمع الطامعين إختار قلبها هذا البسيط الفقير غير الطامع معتمد العامل لديها ولدى زوجها، وكان شرطه الوحيد أن يكون «الرجل» . جردها هذا الفلاح المكار من كل سلطتها وقوتها، فأعطت ثروتها للابن وما تبقى للأخ الخال لزهران الطامع أبدا فى ريف مصر، وأصبحت ياولداه على السميع المجيد كما نقول . وخلصت له وعمل بكل جهده حتى يكفيها العوز. وأنجبت له زهران ، ثم فتحية وعاشا فى التبات والنبات فقراء لكن كرماء . بالاختيار وليس بغير ذلك .

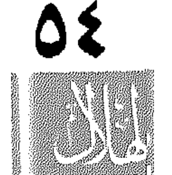
تركت للأب أن يدير كل حياتها ، بفقرها فترضى ، تعيش على الكفاف فلا تشكو. لكن ليتعلم زهران - وحاول الفلاح العنيد أن يثنيها ويجعلها ترضخ ولكن أبدا. حينئذ تنتصر «الأم» المصرية ويحنى الرجل رأسه وكان عليه أن يرضخ هذه المرة ، وكان .

معجزة التعليم

ككل أبناء مصر الفقراء، بل حتى أبناء الطبقة الوسطى ، كان التعليم هو كالماء والهواء من حق كل مصرى، وعلم الفلاحون أبناؤهم وكان من ضمن هؤلاء زهران بن معتمد ابراهيم القانع والراضى وتفاحة التى لم ترض عن التعليم بديلا لابنها .

كانت صعوبة تدبير مصاريف الدراسة تفوق طاقة البشر، لكن بالحلم والعزيمة استطاعت الأم باصرارها والأب برضوخه ، ويذكر لنا زهران الكثير، لكن سأختار منه حادثة مفرحة يوم حصل على جائزة ٥٠ جنيها من كمال الدين حسين لتفوقه فى الرسم أيام المدرسة الثانوية .

ويأتى الفلاح ابن الفلاح المرتبك إلى



حمـــام



القاهرة الفاطمية

القاهرة ، ويدخل كلية الفنون الجميلة بقدرته على الرسم التى كانت ملاذا له للتفوق إبان أيام دراسته، قاوم زهران سلامة ضغوط المجتمع الطبقى فى ريف مصر حيث للأغنياء ورجال الدين والشرطة سطوة على الجميع – قاوم بسلاح التفوق فى الرسم حيث زين المدارس، وحجرات الرسم ، وتبناه بعض رجال التعليم الذين كان لهم الفضل فى تبنى قدرات الفتى ويذكر منهم المهندس عبدالعظيم أبوالعطا وكذلك المهندس عبدالسلام سعود، وكذلك كمال الدين حسين الذى دفع له مصاريف كلية الفنون بعد أن طرد من الكلية لعدم السداد .

يقول زهران عن نفسه كانت أياما صعبة، لا أحضر الكلية إلا لماما، وباقى الأيام للبحث عن لقمة العيش مع استمراره فى الدراسة ارتباك ابن القرية أمام ملابس بنات المدينة الكاشفة مما لم يتعود عليه مرتبك وخائف وعدوانى لحماية ذاته. وستظل هذه الصفات ملازمة لفناننا فى الحركة التشكيلية . لا يعرفه إلا القلة القليلة ممن يقتربون منه إلى حد الصداقة حينئذ ينفتح قلب الفلاح البسيط الودود والمحب أيضا.

لم يستطع زهران سلامة أن يأخذ حظه كاملا فى الدراسة لاقتطاع جزء كبير من وقته للبحث خارج جدران الكلية عن قوت يومه ، لكن موهبته فى الرسم التى حمته أيام الدراسة الابتدائية والثانوية من غدر أبناء الطبقات القادرة، حمته أيضا أيام الكلية فلاذ بها ، لكنها لم تسعفه إلى تفوق مستحق نتيجة ضيق أفق نظامنا التعليمى الذى يشترط الحضور والانصراف !!

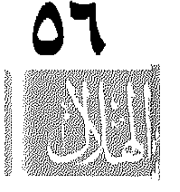
بداية الحياة العملية

حينها لا يجود الزمن الا بالقليل، ندخل إلى الحياة راضين ، متذمرين فى آن واحد. اصطفى قلبه الاسكندرية لكنه رضا بالعمل فى القاهرة مضطرا بعيشها كالغريب فى المدينة ومازال يعمل يتزوج، ينجب الأبناء ، واحدا تلو الآخر . يرحل للعمل فى بلد عربية ، ويعود. يبنى بيتا فى المنوفية مع حلم العودة إليها ، ولكن أين له ذلك وهناك المدينة ولها الحق ، يكدح زهران من أجل الأبناء ويسافر مرة أخرى فى رحلة أخيرة ويعود إلى القاهرة بعد أن أدى فرائض تربية الأبناء جميعا.

مجتمع الصحراء

حلم زهران بالصحراء كثيرا وتمنى أن يعيش بجبل أسيوط الغربى، ثم حلم بالحياة إلى جوار معبد ادفو، لكن الظروف رمته إلى «رأس سدر» حيث بنى أخيرا بيته أو مرسمه . وحدة كاملة مع لوحاته وألوانه، طيوره ونباتاته . يعشق الحمام ويعشقه الحمام. يزرع الأرض الصغيرة لكي يأكل من الأرض. فلاحا كان وفلاحا عاد . رحلة دمى فيها القلب والجسد . شيخا جاوز الستين ،

كنيسة في وادي النطرون





لكن القلب أخضر مازال ، والحب لم يرتو . عطش إلى التواصل وإذا أمسكنا بكلمات الحب والوجد والوصال لعرفنا أبواب تلقى أعمال زهران سلامة الفنية يرسم ما يحي من البشر والحيوانات والطيور والطبيعة. أضاحكه على رسوم الوجوه . فلاحين ، فقراء الحسين، بنات الريف ، أبوه ، أمه ، أخته . وأسأله أين ناعمات المدينة فيضحك قائلا أنهن لأستاذى بيكار. الحمار المرسوم هو حمار أبيه الذى يقرب البعيد ويجعل وصال الأحبة السهل صعبا. زهرة عباد الشمس ، طاغية الجمال والتى عشقها . حمامه المغناج ، وبطه المتهادى ، وماعزه الشقى الطيب ، مراكب الأحبة والعشاق وطبيعة الاسكندرية التى تمناها يوما .

احب ، فرسم وهذا يكفى

أعطى ظهره للمدارس الحديثة فهى ليست مبتغاه .

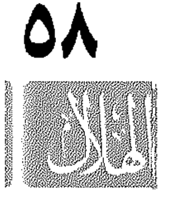
عاشق تكفيه نظرة حمار يتعاطف معه، أو انحناءة رجل أخنى عليه الدهر ، أو صخورا جلس عليها يتأمل تصاريف الدنيا .

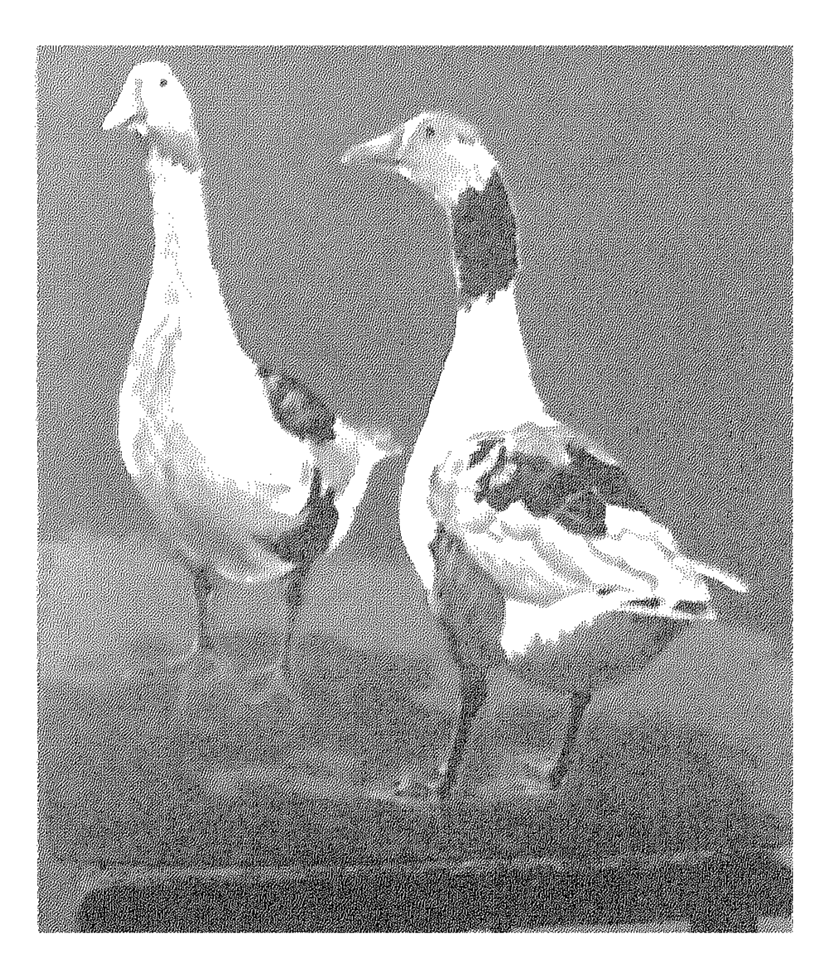
هذا هو عالم صديقى زهران سلامة، وبه إئتنس القلب .

المسافر خانة

للمكان فى قلب فن زهران سلامة، مكان فى الصدارة، وللتأكد من هذا يجب على أن أشهدكم على ما عرفته وعشته مع زهران سلامة أيام أن كنا نتجاور بمراسمنا فى المسافرخانة . كان زهران هو الوحيد الذى أخذ من المكان وأعطاه فى آن واحد. مجموعة من اللوحات يضن زهران ومازال يضن بعرضها مجتمعة ، وأنا أدعو حقا لاقتنائها متحفيا، لأنها تحمل إلى جوار قيمتها الفنية، شهادة حب للمكان ، لا أكاد أذكر مثيلا لها فى فننا المعاصر حتى لو تبجح البعض بزياراتهم للوحات مثلا. ومن الغريب أن اقتراب أعمال زهران من الواقع بشدة قد أفادنا فى تلك المجموعة فائدة مضافة تذكر له وأتمنى إقناعه بعرضها متجاورة قريبا .

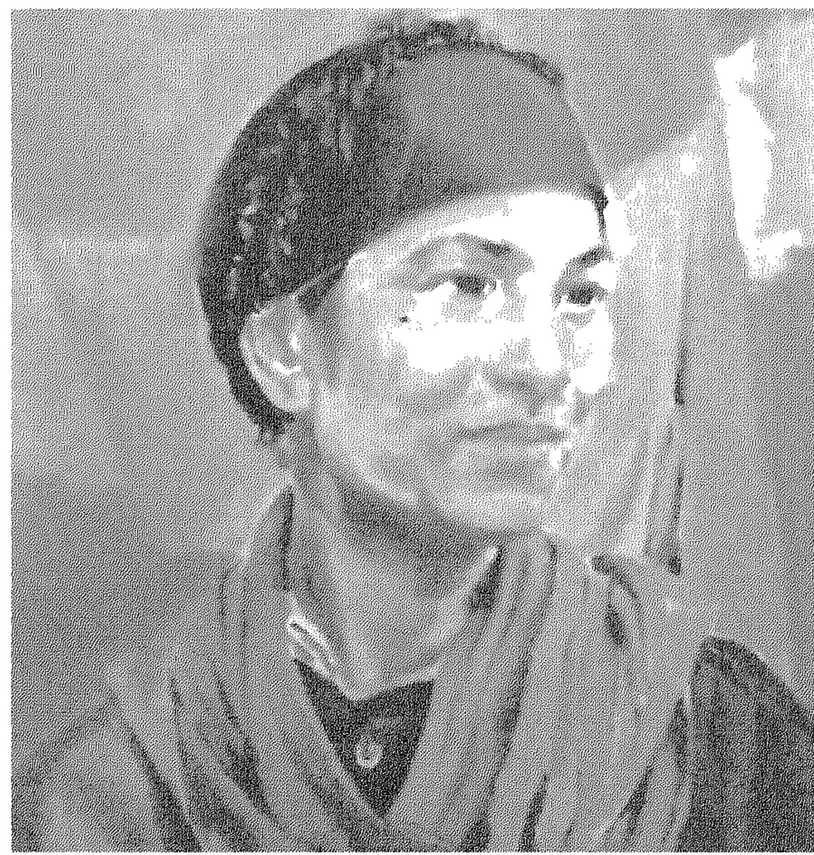
عشق الريف وحياة الفلاح ولم يستطع أن يعود خاصة بعد التغيير الكبير الذى يسود الدنيا الآن ووصل إلى مشارف ريف المنوفية بحثا عن عذرية وبراءة يطلبها قلب الفنان – فوهب نفسه ووهبنا لوحات الريف .. عشق الاسكندرية وبحرها فسجلها لنا لوحات . عشق ناس الجمالية والحسين البسطاء ، كما عشق حواريها وطرقاتها .، عاش زهران عشقه لوحات ، وأعطى ظهره للحداثة مقلدين وأصلاء . فهل خسر أم كسب الفن والفنان والانسان، والسؤال قائم؟. ■



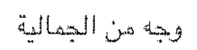




أوزتان







وجه من الجمالية

أى ديمقراطية تريدها أمريكا؟

بقلم
محمد يوسف عدس

هزمت الولايات المتحدة اليابان وألمانيا فى الحرب العالمية الثانية، وأعادت صياغة الدولتين على صورة النموذج الأمريكى: قوى رأسمالية ودستور رأسمالى وديمقراطية وصحافة حرة، وظلت أمريكا تتباهى بهذا الانجاز، باعتبارها مصدّرة للديمقراطية إلى العالم.. ولكن هذا الإنجاز لم يتكرر بعد ذلك فى أى دولة من دول العالم الثالث.. بل وقفت أمريكا دائما منحازة إلى الدكتاتوريات المستبدة ضد الشعوب، وساعدت على الإطاحة بكل النظم الديمقراطية التى برزت رغما عنها فى هذه الدول، أمثلة كثيرة على هذا تجدها فى أمريكا اللاتينية.

واليوم تزعم أمريكا أنها جاءت إلى أفغانستان وإلى العراق لا غازية ولا نهابة وإنما للقضاء على دكتاتورية شريرة لتحرير الشعبين ونشر الديمقراطية فى المنطقة كلها

سوف نفترض جدلا أن هذا الهدف المعلن هو حقًا ما تعنيه أمريكا وما تريد تنفيذه فى بلاد العرب والمسلمين.. ولكن أليس من حق أى باحث عن الحقيقة أن يسأل: أى ديمقراطية هذه التى تقصدها أمريكا؟ والإجابة – فى أغلب الظن – هى أن المقصود هو النموذج الأمريكى فى الديمقراطية، الذى تعرفه أمريكا من واقع التجربة والممارسة. ومن حسن الحظ أن الكتابات فى هذا المجال من الكثرة والإفاضة ما يجعلها بحاجة إلى ببليوجرافية حصرية.

أود أن أقرر بادئ ذى بدء أن كاتب هذا المقال ليس لديه ذرة من شك فى أن شعوب هذه المنطقة متعطشة فعلا للحرية





جورج بوش — آل جور

متلهفة على ديمقراطية حقيقية كارهة لتلك الأنظمة التى لا تعبر عن إرادة هذه الشعوب تعبيرا صحيحا.. ولكن لديه شك كبير أن يكون هذا هو الهدف الحقيقى لأمريكا فى المنطقة، ولديه شكوك أكبر فى النموذج الديمقراطى الذى تمارسه أمريكا.. وهذا المقال محاولة لعرض هذه الوجهة من النظر.

أقرب الأمثلة

انتخابات الرئاسة الأمريكية عادة ما تجتذب أنظار العالم بقوة ويتابعها الناس بانبهار وإجلال إلا أن انتخابات عام ٢٠٠٠م بين «ألجور» الديمقراطى وجورج دبليو بوش الجمهورى كانت حالة فريدة أذهلت العالم بقدر ما أضحكته عجباً وسخرية، حتى أن بعض الظرفاء اقترح إرسال مراقبين كوبيين إلى فلوريدا للإشراف على الانتخابات الأمريكية وإخراجها من المأزق الذى تورطت فيه .

كان الناس فى أنحاء العالم يتابعون نتائج الانتخابات لحظة بلحظة فلما علموا أن آلجور يتقدم على بوش بحوالى خمسمائة ألف صوت أيقنوا أن الفائز فى السباق هو ألجور، ولكنهم فوجئوا بإعلان فوز بوش وكان السبب فى هذه النتيجة غير المتوقعة هو ما أسفرت عنه عملية.. أو بالأحرى قضية إعادة فرز الأصوات باليد فى ولاية فلوريدا. وقد تساءل الناس باندهاش شديد وخاصة فى أوروبا: أى ديمقراطية هذه التى تتجاهل إرادة الأغلبية من الناخبين؟!، وعندما عرف الصحفيون خارج أمريكا أن ولاية فلوريدا هذه يحكمها أخ للمرشح بوش لم يلتزموا الصمت أو الحياء الذى التزمت به الصحافة الأمريكية.. بل صرحوا علانية بأن الأمر لا يخلو من تلاعب بالأصوات.. ثم تضاعفت شكوكهم عندما علموا أن المحكمة العليات التى يسيطر عليها قضاة جمهوريون قد أصدرت حكما بأغلبية صوت واحد (خمسة إلى أربعة) لإيقاف عملية إعادة فرز الأصوات فى فلوريدا بدون أى سند قانونى، ثم أعلنت بوش بالرئاسة فى ظروف إعلامية بالغة الشذوذ والغرابة.

كانت صدمة الناس فى العالم الخارجى عارمة.. ذلك لأن واشنطون دأبت على التفاخر بأنها تملك أعظم ديمقراطية فى العالم وأن نموذجها الديمقراطى هو النموذج الأمثل الذى يجب أن يحتذيه الآخرون.. ولكن مهزلة فلوريدا جعلت أمريكا تتضاءل كثيرا فى نظر العالم الخارجى، فقد أصبح الناس

يعرفون بوضوح أن الرجل الذى يجلس فى البيت الأبيض لم ينتخب لهذا المنصب انتخابا صحيحا وإنما تعيينه بقرار من المحكمة.. وغلبت على الكتابات الصحفية تساؤلات محيرة: هل كانت انتخابات عام ألفين نكتة أم كانت جريمة؟!

الإعلام الأمريكى وحده هو الذى انشغل وشغل الناس بمسائل فنية لا علاقة لها بصلب القضية حيث خاض كثيرا فى عيوب برامج فرز الأصوات التى استخدمتها آلات حاسبة قديمة تجاوزها الزمن، ووضع عليها أكبر اللوم، وتحدث بعضهم عن خطأ الإعلام الذى كان يتسابق فى إعلان نتائج لم يتم البث فيها بصفة نهائية.. ولكن الإعلام الأوربى ركز على الجوانب القانونية والأخلاقية للقضية واعتبرها الفشل الأكبر الذى تورطت فيه أمريكا .

فى ذلك الوقت لم يكن أحد يملك دليلا قاطعا، ولكن رصدت إشارات وملاحظات كثيرة على أن عملية التصويت فى فلوريدا شابتها كثير من الشبهات وأن إجراءات مريبة اتخذتها جهات رسمية لحرمان المواطنين السود فى الولايات من حقوقهم الانتخابية وتم منع كثير منهم بالقوة والحيلة من الوصول إلى صناديق الانتخابات، وكأن المشهد ليس فى أمريكا وإنما فى دولة متخلفة من دول العالم الثالث.

سرّ انحياز المحكمة العليا:

منذ أقل من أربعين سنة كان السود يُضربون فى الشوارع وهم يسيرون فى مظاهرات سلمية مطالبين بحقوقهم الانتخابية، فتكتيك الذراع القوية كان هو الوسيلة شائعة الاستخدام لقوات الأمن فى الجنوب الأمريكى طوال الفترة السابقة على صدور قانون الحقوق المدنية سنة ١٩٦٤م، واشتهر فى ذلك الوقت محامى أبيض بعنصريته وعدوانيته ضد السود، فلم تتح له وسيلة لمنع السود من التصويت فى الانتخابات إلا استغلها. وقد أدلى أحد شهود العيان بتفاصيل مثيرة فى هذه القضية نشرت مؤخرا فى مجلة «بيتسبورج بوست جازيت» فى ديسمبر سنة ٢٠٠٠م، اسم الشاهد هو «ليتوبينا» وكان موظفا يعمل فى محاكم ولاية «أريزونا» لمدة ثلاثين عاما.. ذكر أن المحامى الأبيض هذا كان يطالب بضرورة أن يمر المواطنون غير البيض باختبارات شخصية مختلفة، منها إجادة اللغة الإنجليزية، وذلك من خلال شرح أجزاء من الدستور الأمريكى قبل أن يسمح لهم بالتصويت، إسم هذا المحامى العنصرى الأبيض هو «وليام رينكويست».

المفاجأة هنا هى أن «وليام رينكوست هذا» هو نفسه رئيس المحكمة العليا للولايات المتحدة، وهو الذى حكم بعدم إعادة فرز الأصوات بولاية فلوريدا، وهو الذى أعلن فوز بوش. فى هذه المحكمة العليا يوجد قضاة آخرون يشاركونه فى ميوله العنصرية المتأصلة ولهم مصالح وأهواء مع الحزب الجمهورى، انكشف الغطاء حتى الآن عن اثنين منهم على الأقل. أحدهما هو القاضى «كلارينس توماس» والآخر هو القاضى «أنتونين سكاليا»، هذان القاضيان كانت لهما علاقة بأحد أطراف النزاع، والتقاليد القضائية كانت تستلزم تنحيهما عن النظر فى هذه القضية احتراما للحياد وحفاظا على

النزاهة. كانت زوجة القاضي الأول مستشارة بوش في حملته الانتخابية، وكان للقاضي الثاني «سكاليا» ولدان يعملان في مؤسسة قانونية هي التي مثلت المرشح بوش الإبن في قضية فلوريدا. فلا عجب أن ينحازا مع رئيس المحكمة لترجيح كفة بوش على الجور، ومن ثم اعتبر خبراء القانون هذا موقفا سياسيا وليس حكما قضائيا صحيحا.

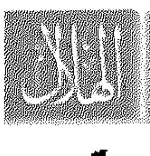
ويبدو هذا واضحا وفجًا في كلام للقاضي «سكاليا» أدلى به إجابة على سؤال صحفي: لماذا اعتبرت مسألة فرز الأصوات غير مقبولة؟ فكان رده عجباً.. حيث قال: «إن إعادة فرز الأصوات من شأنه أن يلقى بسحب قاتمة على (ما ادعاه بوش) من شرعية انتخابه رئيساً.. وكأن مجرد ادعاء بوش بأنه يستحق منصب الرئاسة كان كافيا في حد ذاته لتسوية النزاع وإنهاء القضية..!

فلماذا السود وماهى قيمة أصواتهم؟

«ألان جى ليتشمان» وهو أستاذ بجامعة واشنطن كلفته وكالة الحقوق المدنية بالولايات المتحدة بتحليل أصوات الناخبين في فلوريدا وتقديم تقرير عن ذلك.. قال: «إن أصوات الناخبين السود التى تم فرزها وبلغ عددها ستين ألف صوت قد أستبعدت كلها من العد بحسبانها أصواتا خاطئة.. ولأن ٩٣٪ منها كان مؤيدا لألجور فمعنى هذا أن هذا المرشح قد فقد بضربة واحدة ٥٤ ألف صوت زيادة عن بوش كان يمكن أن تمنحه الأغلبية اللازمة للفوز بالرئاسة.. (مقال ليتشمان منشور في ٥ مارس ٢٠٠٢م بصحيفة Baltimore Sun(بلتيمور صن).

لم يتوقف الاستبعاد العنصري في فلوريدا عند هذا الحد.. فقد كشف الصحفي الانجليزي «چورج . بالاست» الذى تابع عملية التصويت بمراكز الانتخابات في فلوريدا - عن تدابير سبقت عملية الانتخابات قام بها حاكم الولاية «چيب بوش» خلال عامي ١٩٩٩ و٢٠٠٠م، بدت المسألة في ظاهرها عملية قانونية تستهدف استبعاد أسماء الموتى والأسماء المتكررة في جداول الناخبين وكذلك استبعاد أسماء الذين صدرت ضدهم أحكام قضائية.. ولكن الحقيقة أن الذين حذفت أسماؤهم كانوا من السود الأبرياء الذين لم تصدر ضدهم أى أحكام تمنعهم من الإدلاء بأصواتهم.. تم نشر هذه الوقائع في صحيفة الأبزرفر البريطانية وفي التليفزيون البريطاني (BBC) أثناء عملية الانتخابات ولكن تجاهلتها الصحافة والإعلام الأمريكيين فلم تتحدث عنها الصحافة إلا بعد ثمانية أشهر ، فكأنه كان سكوتا مقصودا، ولو نشرت الوقائع في حينها بأمريكا لتغير الموقف تماما لصالح ألجور (أنظر أيضا كتاب لاست الذى نشرته بلوتو بريس سنة ٢٠٠٢م The Best Demac-racy Mony Con buy».

وفي كتاب آخر من تأليف «جون نيكولاس» بعنوان «Jews for Bu-chanan» ذكر أن كثيرا من السود أكدوا له أنهم عندما توجهوا إلى لجان



الانتخابات طردهم رجال الشرطة بدعوى أن أسماءهم غير مسجلة بجداول الانتخاب. أما الصحفي والمراسل الإذاعي «ستاشي بوارز» الذي قضى يوم الانتخابات متجولا بين اللجان المختلفة فقد قدر أن آلاف من السود قد حيل بينهم وبين الوصول إلى صناديق الانتخاب، وتؤيد ذلك تقارير أخرى تذهب إلى القول بأن الإكراه المادى قد استخدم على نطاق واسع وأن حواجز الشرطة التى أحاطت باللجان كانت ترهب السود حتى لايتوجهوا إلى صناديق الانتخاب.

● شركة فوكس تتلاعب بالأرقام:

يقول «مارك هرتسجارد» فى كتابه «ظل النسر ...» الذى نشرته بلومسبرى سنة ٢٠٠٣: «كان من الصعب على الأمركيين أن يفهموا ماذا حدث فى انتخابات عام ٢٠٠٠ لأن أجهزة الإعلام نفسها كانت جزءا من المشكلة .. وكانت أخطاؤها الفاحشة مثلا حيا للمنظمات التى تضع الربح المادى فوق كل الاعتبارات والقيم بما فى ذلك الإلتزام المهني والمسئولية الأخلاقية والوطنية .. ففى ليلة الانتخابات وبينما عملية فرز الأصوات لاتزال قائمة أعلنت أولا فوز ألجور .. ثم أعلنت التعادل بينه وبين خصمه ثم أعلنت فوز بوش. كان المصدر الأساسى لكل محطات التليفزيون هو شبكة فوكس للأخبار التى أعلنت نبأ فوز بوش الساعة الثانية وستة عشر دقيقة صباحا، ثم تبعتها كل الشبكات الأخرى. وشبكة فوكس هذه معروف أنها بوق الجناح اليمينى فى الحزب الجمهورى، وكان يرأس فريق المراسلين «جون إليس» أحد أقرباء بوش .. وقد أسست الشبكة حكمها على تحليلات رقمية ثبت فيما بعد عدم صحتها .. ولم تكن الشبكات الأخرى فى وضع يسمح لها بمراجعة هذه التحليلات لنقص فى عدد الخبراء عندها ولذلك لم يكن لها مراسلون فى فلوريدا .. وكان الاندفاع والتسابق فى نشر الأخبار الذى قادته بل هندسته شركة فوكس هو الذى أظهر بوش بمظهر الفائز وبدا ألجور على الطرف الآخر وكأنه يتمحك بإعادة فرز الأصوات ليدارى هزيمته أمام الجماهير .. وقد استغلت حملة بوش الانتخابية هذا الانطباع الزائف لتزعم أن إعادة فرز الأصوات هو نوع من الغش وأن عد الأصوات باليد سيؤدى إلى نتائج خاطئة .. وهكذا كان الاتجاه الإعلامى يضغط بثقله علي ألجور لكى يعلن تنحيه حتى لايدفع بالأمة إلى الإضطراب والبلبلة، والحقيقة أن ألجور كان هو ضحية الغش وليس هو صانعه.

● الجمهوقراطي .. مأساة سياسية:

عقد «مارك هيرتسجارد» فى كتابه المشار إليه «ظل النسر..» فصلا كاملا عن «مأساة الديمقراطية الأمريكية» كسف فيه عن جوانب كثيرة ومثيرة فى هده المأساة، فهو يرى مثلا أن الدرس الذى ضاع فى ضجيج عملية انتخابات الرئاسة فى فلوريدا هو أن أغلبية الأمريكيين لم يكونوا يريدون بوش ولا ألجور، ودليله على ذلك أن ٥١٪ فقط من مجموع الناخبين هم الذين اهتموا بالذهاب إلى صناديق الانتخاب ولما كان هناك تساو تقريبا فى عدد الأصوات التى حصل عليها كل من بوش وألجور فإن حصيلة كل منهما النهائية فى حقيقة الأمر لاتزيد عن ربع مجموع أصوات الناخبين، والمعنى الخفى هنا هو أن ثلاثة

أرباع الأمـــريكيين لايريدون بوش ولا الجور!.

يعرض هيرتسجارد لحقيقة أخرى وهى أن نسبة المهتمين بالانتخابات فى الولايات المتحدة هى أقل نسبة فى كل الديمقراطيات المعروفة فى العالم حيث تحتل أدنى درجات السلم.

وتفصيل ذلك أننا إذا أخذنا فى الاعتبار كل الانتخابات التى جرت منذ عام ١٩٤٥ إلى عام ١٥٩٨ لوجدنا أن متوسط الذين أدلوا بأصواتهم بالنسبة للمجموع العام للناخبين فى أمريكا هو ٤٨ر٣٪، وتحتل إيطاليا المركز رقم واحد بنسبة ٩٢ر٥٪ وتقع كل من بلجيكا وهولندا والسويد ونيوزيلنده وأستراليا وألمانيا فى إطار نسبة الثمانينات بالمائة، والنسبة فى أسبانيا ٧٧٪، وبريطانيا وجمهورية إيرلندية ٧٤ر٩٪، واليابان ٦٩٪ وفرنسا ٦٧٪ والهند ٦١٪، فأمريكا من هذه الناحية مكانها فى القاع لا فى القمة.

يقول هيرتسجارد: من السهل أن نقول إن كل مواطن لابد أن يذهب للإدلاء بصوته، ففى الديمقراطية يحمل كل شخص على عاتقه مسئوليات كما أن له حقوق .. ولكن عندما لايجد المواطن أمامه اختيارا حقيقيا بين المرشحين، ويرى أن العملية السياسية كلها لعبة حقيرة جديرة بالازدراء وأن عملية الانتخاب ليست أكثر من مشهد متكرر مملّ تسعى فيه النخبة السياسية بواشنطن لتحقيق مصالحها الأنانية، ويدرك أن الإعلاميين يقومون بدور مشبوه لا صدق فيه ولا أمانة، وأن الذى يمول هذا المشهد المسرحى كله هم أصحاب المصالح من الأغنياء ورجال الأعمال، عندما يجد الناخب نفسه أمام هذه الحقائق المنفرة ينأى بنفسه عن المشاركة فى الانتخابات ويعتزل العمل السياسى.

وكان من نتائج هذه السلبية الضاربة أن الأمريكيين بدءوا يهجرون الحزبين الكبيرين اللذين يحتكران السلطة بأعداد متزايدة، وشاعت على الألسنة أنه لايوجد فى الحقيقة سوى حزب واحد يمكن أن نسميه الحزب الجمهوقراطى .. فالحزبان لايختلفان إلا فى بعض القضايا الهامشية مثل حق النساء فى الإجهاض وحقوق الشواذ جنسيا وحمل السلاح .. الخ. ولكنهما لايختلفان فى القضايا الأساسية خصوصا الاقتصادية والسياسة الخارجية.

وقد أثبت المرشحان بوش وألجور ذلك بنفسيهما فى المناظرة الثانية بينهما فى انتخابات ٢٠٠٠م الذى أدار المناظرة هو الإعلامى «جيم ليرر».. متميز بهدوئه ورصانته .. فلما رأى التماثل واضحا فى إجابات المرشحين بدا عليه الاستياء فتساءل بشىء من الحدّة: ألا يوجد أى فرق بينكما!؟ فأجاب كل منهما: طبعا يوجد فرق .. ويعلق هيرتسجارد على ذلك بقوله: هذا الفرق المزعوم لم يتضح أبدا فى المناظرة من أولها إلى آخرها .. إنما الذى بدا واضحا جليا هو أن كلا من بوش وألجور يعتمد فى تمويل حملته الانتخابية على النخبة الثرية فى المجتمع .. حصل بوش على ١٩١ مليون دولار وهو أكبر مبلغ من المال استطاع مرشح

للرئاسة أن يجمعه فى كل تاريخ الانتخابات الأمريكية، وأما ألجور فقد حصل على ١٣٣ مليون دولار.

ثم يأتى بعد ذلك دور الإعلام ليكمل المسرحية الدرامية.

● سمات الدور الإعلامى :

من أبرز سمات هذا الدور أن الاهتمام الإعلامى يتمركز حول الجوانب السطحية فى شخصية المرشح مثل مظهره وأسلوبه وهواياته، ولايوفر أى معلومات ذات قيمة عن فكر المرشح وأهدافه وإنجازاته المتميزة فى المجتمع .. أما التليفزيونات المحلية فإنها لاتعنى بالحملات الانتخابية إلا على شكل إعلانات صغيرة مدتها ثلاثين ثانية تكون فى العادة هجاء شخصيا للمرشح المنافس.

وفي انتخابات عضوية الكونجرس يمكن أن تصل دخول شبكات التليفزيون الكبرى إلى مايربو على خمسمائة مليون دولار .. ولكى يجمع المرشحون هذا المبلغ الهائل من المال عليهم أن يقضوا معظم وقتهم فى جولات تسولية من الأغنياء وأصحاب المصالح الكبرى، ويلتقط هذه النقطة كاتب وصحفى آخر هو «جافين إيسلر» فى كتابه «الولايات المتحدة الغاضبة» الذي سبق أن عرضناه فى مقال بالهلال.

● ديمقراطية مريضة :

يقول «إيسلر» : النظام الديمقراطى فى أمريكا مختلف عنه فى بريطانيا فالنائب البرلمانى فى بريطانيا يقضى خمسة أعوام مستقرة ومنتجة فى وظيفته .. مدعما من قبل حزبه الذى يوفر له عادة تكاليف حملته الانتخابية أما أعضاء الكونجرس الأمريكى فإنهم يقضون حياتهم فى قلق دائم بسبب مشكلتين متداخلتين: الأولى هى إعادة الانتخاب كل سنتين والثانية هى اضطرارهم المستمر لاستجداء المال اللازم لحملاتهم الانتخابية، ولذلك يجدون أنفسهم أسرى للجهات التى تقوم بالتمويل، ولايستطيع العضو منهم إلا أن يكون تابعا لمصادر تمويله منحنيا أمام التيارات السياسية السائدة غير قادر على مساندة أى قضية قد يراها بضميره الشخصى قضية عادلة.. ولايستطيع أن يعترض على أى قرار ظالم.

والنتيجة النهائية أن نجد أكثر السياسيين الأمريكيين يلهثون خلف الرأى العام السائد ولا يحاولون تغييره فالقيادة السياسية الحقيقية فى أمريكا تكاد تكون شيئا منعدما .. فإذا عرفت أن الرأى العام ليس أكثر من صناعة تقوم بها وسائل الإعلام التى لاتتورع عن الكذب وتزييف الحقائق .. وإذا عرفت أن المسيطرين على هذا الإعلام والذين يضخون فيه المال والمعلومات معا هم قلة قليلة من الأغنياء لاتزيد عن ٤٪ من سكان الولايات المتحدة لهم مصالحهم الخاصة التى قد تتعارض مع مصلحة الأغلبية الساحقة - إذا عرفت هذا كله فلا تعجب بعد ذلك إذا قيل لك أن النظام السياسى الأمريكى نظام فاسد وأن الديمقراطية الأمريكية ديمقراطية فاسدة ومريضة.

يدعى الساسة أنهم إنما يستجيبون للرأى العام ولاحتياجات دوائرهم الانتخابية وهم فى الحقيقة مذعورون لايستجيبون إلا إلى نوعين من الناس: الذين يدعمونهم بالمال والذين يبتزونهم ويهددونهم بالكشف عن فضائحهم.

ويعبر رجل الشارع فى أمريكا عن ذلك بقوله : إننا نشم من هؤلاء السياسيين رائحة عفنة.

● مساندة الاستبداد لم تنقطع :

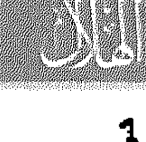
يلخص مارتن جروس رأيه فى ديمقراطية أمريكا فى كتاب له بعنوان: «The Political Racket» فيقول: النظام الانتخابى فى أمريكا هو أكثر الأنظمة تعقيدا ونفاقا فى التاريخ .. إنه نظام فاسد وعشوائى .. أكبر هموم المرشحين فيه هو تسويق أنفسهم بما ليس فيهم وتلويث سمعة منافسيهم .. نظام تتحول فيه الديمقراطية إلى لعبة مثيرة، باهظة التكاليف لفئة قليلة من السياسيين يجرون فى حلبة سباق لصالح فئة قليلة أخرى من الأغنياء أصحاب المصالح الكبرى وكل ما يفعله الإعلام أنه يتيح لبقية الناس الفرجة على هذا السباق .. وهكذا أصبحت العملية كلها تشويشا للجماهير وتبديدا للأموال وطمسا لمعالم الديمقراطية الحقيقية التى حلم بها «إبراهام لنكولن» فى يوم من الأيام.

فأى ديمقراطية هذه التى تزعم أمريكا أنها سوف تستزرعها فى بلاد العرب والمسلمين!؟ ليس عندى أدنى شك أنها غير جادة فيما تزعم .. فأمريكا لاتريد ديمقراطية لأحد، وإنما هى تسعى وراء مصالحها الأنانية، وقد يكون من مصلحتها استبدال نظام فاسد انتهى عمره الافتراضى بنظام جديد فاسد أيضا ولكن بمواصفات حديثة أكثر طواعية واستجابة لأوامرها وتوجيهاتها.

ولذلك أقول لبعض إخواننا المثقفين الذين يزعمون لنا أن أمريكا قد تغيرت بعد ٢٠٠١/٩/١١ وإنها جادة فى دعواها الديمقراطية والذين يروجون لمقولة «بيدى لابيد عمرو» - أقول لهم: إن يد عمرو هذه لاتمتد إلا للنهب والسطو على الثروات وإرهاب الشعوب .. وأن أمريكا لم تتغير - فميا يتعلق بالديمقراطية - كما يزعمون، بل يرى «مارك هيرتسجارد» أن أمريكا قد زادت سوءا بعد ٩/١١ المشهود، وأن إدارة بوش باسم حرب الإرهاب قد تمادت فى مساندتها للأنظمة الدكتاتورية سيئة السمعة، تزكيها وتثنى على أصحابها تحت شعار الواقعية «الجيوبولتيمية»، ومنها دول آسيا الوسطى: أوزبكستان وكازاخستان وطاجيكستان وتركمنستان وقرغيزيا.

وأبرز مثال على ذلك ما ذكره المراسل الصحفى «كريستيان كاريل» فى مقال له نشر فى ١١ إبريل ٢٠٠٢ «بنيورك ريفيو أن بوكس» حين كتب: «إن أمريكا تغدق الكثير على «إسلام كريموف» دكتاتور أوزبكستان من مال وثناء ضاربة عرض الحائط بالأدلة الدامغة على تردى الحريات فى بلاده إلى الحضيض، حيث تتهم جماعات حقوق الإنسان قوات أمنه بالقتل المنظم والخطف والسجن والتعذيب لمعارضيه السياسيين بل والمشتبه فى معارضتهم المستقبلية (ضربات استباقية!).

فإذا كانت أمريكا تريد أن يسود السلام والديمقراطية فى العالم حقا فلتكف هى فقط عن صنع الأنظمة الدكتاتورية ومساندتها، وسوف تستخلص الشعوب وحدها حريتها وتصنع ديمقراطيتها، فإذا لم تنهض لذلك فلتنتظر العدل والديمقراطية التى سيأتى المهدى المنتظر فى آخر الزمان، ولتهنأ أمريكا بديمقراطيتها العظيمة!. ■



ماذا تريد أمريكا من العرب؟

بقلم
د. جـــلال أميــن

لم يكن غريبا بالمرة، بل كان طبيعيا تماما، فى أعقاب سقوط الاتحاد السوفييتى والنظام الشيوعى فى مطلع التسعينات ، أن تشرع الولايات المتحدة، وقد أصبحت هى القوة الوحيدة القادرة على فرض إرادتها على العالم، فى تصور كيف يمكن، أو يجب أن يكون العالم الجديد، بما يتلاءم مع مصالحها، أو بالأحرى أن تضع هذا التصور موضع التنفيذ، إذ الأرجح أنها رسمت خطوط هذا التصور حتى من قبل سقوط النظام الشيوعى

مثل هذا يحدث دائما فى أعقاب الهزات العميقة التى تنتاب النظام الدولى بين الحين والآخر. إذ يعقب هذه الهزات اختفاء بعض الأطراف المهمة فى توازن القوى، أو انحسار نفوذها عن مناطق يتعين ملؤها بنفوذ قوى أخرى، أو تغيرات مهمة فى موازين القوة العسكرية والاقتصادية مما يخلق فرصا جديدة لكسب مواقع يبدو من الحماقة تضييعها أو يسيل لعاب قوى جديدة فى العالم تطمح إلى كسب مواقع على حساب القوى القديمة، مما يجعل من الواجب التصدى لها أو وضع خطة للتعامل معها.. إلخ.

حدث هذا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى (١٤ -١٩١٨) حيث كان يجب إعادة ترتيب العالم بما يتفق مع مصالح الدول المنتصرة فى تلك الحرب، وعلى الأخص بريطانيا وفرنسا. ثم حدث فى أعقاب الحرب العالمية الثانية (٣٩ - ١٩٤٥) حيث كان يجب إعادة ترتيب العالم بما يتفق مع مصالح الولايات

المتحدة والاتحاد السوفييتى ، ليس فقط على حساب الدول المنهزمة (ألمانيا وإيطاليا واليابان) ، ولكن أيضا على حساب بعض الدول المنتصرة ، كبريطانيا وفرنسا، التى خرجت من الحرب منهكة اقتصاديا، وكان لابد أن ترث منها الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفييتى جزءاً كبيراً من نفوذها الاقتصادى والسياسى.

نحن نعرف أن الولايات المتحدة شرعت فى وضع عناصر تصورها الجديد لعالم ما بعد الحرب العالمية الثانية من قبل أن تنتهى هذه الحرب، ونعرف أيضا كيف عملت طوال العقود التالية للحرب على وضع هذا التصور موضع التنفيذ، بدأ بفترة صداقة قصيرة مع الاتحاد السوفييتى أعقبتها فترة طويلة من الحرب الباردة، تخللتها فترة وفاق قصيرة فى نهاية الستينات وأوائل السبعينات ، ثم تلاها تصعيد شديد للانفاق على التسلح انتهى بسقوط الاتحاد السوفييتى والنظام الشيوعى، وخلو الساحة خلوا تاما من النفوذ السوفييتى، مما سمح بتحول العلاقة بين الولايات المتحدة وبين روسيا وبقية دول أوربا الشرقية إلى علاقة صداقة ووئام.

كان من بين عناصر التصور الأمريكى لعالم ما بعد الحرب العالمية الثانية إقامة حلف الأطلنطى وتدشين مشروع مارشال، فيما يتعلق بأوربا الغربية واليابان، وإحلال النفوذ السياسى والاقتصادى والعسكرى الأمريكى محل نفوذ بريطانيا وفرنسا، فيما يتعلق ببقية القارة الآسيوية وأفريقيا، واحتكار شبه كامل للنفوذ السياسى والاقتصادى فى أمريكا اللاتينية ، مع إقامة أو دعم نظم جديدة، عسكرية فى أغلب الأحوال ، فى كثير من بلاد العالم الثالث،فى القارات الثلاث الفقيرة، إما تدين بالولاء الكامل للولايات المتحدة، كمعظم دول أمريكا اللاتينية،.أو تلتزم على الأقل بعدم السماح للاتحاد السوفييتى بتوطيد نفوذه فيها، كما حدث فى دول كمصر والجزائر وإندونيسيا وغانا .. إلخ.

ولكن عناصر التصور الأمريكى لعالم ما بعد الحرب الثانية لم يقتصر على العلاقات السياسية والعسكرية والاقتصادية، بل كان من المحتم أن يشمل أيضا عناصر فكرية وإعلانية، تحددت ملامحها بطبيعة «العدو» المراد مواجهته وقهره، أو وضع حد لتوسعه.. كان الملائم لمواجهة العدو السوفييتى

والشيوعى أن ترفع شعارات الحرية، السياسية والاقتصادية ، والتغنى بمزايا العالم «الحر» فى السياسة والاقتصاد، والتأكيد على معاناة الخاضعين للنظام الشيوعى أو الاشتراكى والعبودية الفكرية والقهر السياسى والتخلف الاقتصادى، كما استخدمت منظمات الأمم المتحدة، وعلى الأخص مؤسسات التمويل الدولية للترويج لفلسفة فى التنمية تخدم مصالح الولايات المتحدة والنظام الرأسمالى بوجه عام، فأعطى التقدم الاجتماعى والإنسانى معنى يكاد يقتصر على المفهوم الاقتصادى، وأعطى التقدم الاقتصادى تفسيراً يكاد يقتصر على زيادة معدل نمو الناتج القومى ومتوسط الدخل ، وروجت نظريات للتنمية الاقتصادية تحكم بالفشل مسبقا على أى تنمية لا تقوم على مبادئ الحرية الاقتصادية بل تقوم على تدخل الدولة.

التصور الامريكى لعالم ما بعد الحرب

كانت هذه عناصر عامة فى التصور الأمريكى لعالم ما بعد الحرب الثانية بصرف النظر عن اختلاف المناطق والثقافات، ولكن كان لابد أن تكون هناك عناصر إضافية تختلف من منطقة وثقافة لأخرى.

كان يجب أن يراعى مثلا، فيما يتعلق بأوربا الغربية، قربها الشديد من الاتحاد السوفييتى وبقية الدول الشيوعية فى أوربا الشرقية، وكان يجب أن يراعى فيما يتعلق بأمريكا اللاتينية قربها الشديد من الولايات المتحدة ووشائجها الثقافية الوثيقة مع الحضارة الغربية؛ وأن يراعى فيما يتعلق بدول جنوب وجنوب شرقى آسيا قربها الشديد من الصين، وكثافتها السكانية العالية واختلاف ثقافاتها اختلافا شديداً عن الحضارة الغربية، وفيما يتعلق بأفريقيا، كان يجب أن يراعى عمق تخلفها الاقتصادى وانخفاض كثافتها السكانية، أما فيما يتعلق بالمنطقة العربية فكانت ثمة ثلاث سمات كان لابد أن تؤثر فى التصور الأمريكى لهذه المنطقة وفى طبيعة الخطاب الإعلامى الموجه لها هذه السمات الثلاث تتعلق بالنفط، وإسرائيل، والهوية العربية والإسلامية.

محاور علاقة الولايات المتحدة بالعرب

حكمت هذه السمات الثلاث علاقة الولايات المتحدة بالعرب طوال النصف الثانى من القرن العشرين، فقد تحدد مسار السياسة الأمريكية إزاء البلاد العربية بهذه الضوابط، ضمان تدفق الكميات اللازمة من النفط العربى إلى الولايات المتحدة وحلفائها بالأسعار الملائمة، والاعتراف بالدولة الإسرائيلية الجديدة ثم دعمها المستمر، اقتصاديا وسياسيا ، ولو فى مشروعاتها



التوسعية فى البلاد العربية، مع استخدام شعارات القومية والإسلام ، بقدر الإمكان، لخدمة المصالح الأمريكية، كما فى التخلص من النفوذ البريطانى أو الفرنسي تارة، أو فى صد التوسع السوفييتى تارة أخرى. وطوال هذه الفترة، استغلت أيضا شعارات التنمية الاقتصادية لتطبيق نمط من التنمية لا يتفق دائما مع مصالح الجماهير الغفيرة فى البلاد العربية ، ولكنه يحقق فى معظم الأحيان مصالح الولايات المتحدة فى توسيع الأسواق أمام منتجاتها، بما فى ذلك بيع الأسلحة، وأمام الاستثمارات الأجنبية الخاصة.

***

بعد انقضاء أكثر من نصف قرن على انتهاء الحرب العالمية الثانية كان على الولايات المتحدة أن تضع تصورها الجديد لإعادة ترتيب العالم بعد اختفاء الاتحاد السوفييتى وسقوط الشيوعية، وكذلك اختيار أفضل خطاب إعلامى يمكن أن يساعد فى الترويج لهذا الترتيب الجديد.

لم يعد العالم الآن مثلما كان فى ١٩٤٥. كانت هناك بالطبع بعض الأشياء الثابتة، ولكن كانت هناك أيضا أشياء جديدة هامة، كان من المطلوب ، كما كان مطلوبا دائما، فتح المزيد من الأسواق أمام السلع الأمريكية ورءوس الأموال الأمريكية الخاصة، ولكن أمريكا لم تعد صاحبة ذلك الاقتصاد المهيمن بالدرجة التى كان عليها فى منتصف القرن، صار لها الآن منافسون أقوى بكثير مما كان لها فى الماضى، فى أوربا الغربية واليابان، بل وأيضا فى شرقى آسيا، بل وأصبحت الصين، التى كانت فى منتصف القرن من أفقر بلاد العالم ومن أشدها تخلفا وبؤسا ، تمثل خطراً حقيقيا كمصدر منافس للسلع الأمريكية فى خارج الولايات المتحدة وداخلها. نعم، لايزال الحصول على النفط العربى بكميات وأسعار ملائمة هدفاً أساسيا كما كان فى منتصف القرن، ولكن مع تعدد مراكز النمو السريع فى العالم، وتضاعف الاحتياجات العالمية من الطاقة، أصبحت السيطرة على مصادر النفط الرخيص فى البلاد العربية وغيرها، هدفا أكثر أهمية منها فى أى وقت مضى، لضمان استمرار قدرة الاقتصاد الأمريكى على المنافسة، نعم، مازال التحالف الاستراتيجى مع إسرائيل مفيدا لأكثر من سبب، ليس فقط لضمان التأييد اليهودى للسياسة الأمريكية فى الداخل، ولكن ، وعلى الأخص، لتأديب وقمع

العرب كلما لزم الأمر، واستنفاد طاقاتهم وكبح جماح نهضتهم واستقلالهم، فضلا عن تبرير إنفاق المزيد والمزيد، من جانب الدول العربية على شراء الأسلحة الأمريكية.. ولكن إسرائيل لم تعد أيضا مثلما كانت فى منتصف القرن، بل تضاعفت قوتها العسكرية والاقتصادية والتكنولوجية، بما حصلت عليه من دعم الولايات المتحدة طوال نصف قرن، بينما انهكت قوى العرب، اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا، بسبب الضربات المتتالية التى وجهت لأى محاولة بدرت منهم لتحقيق نهضة فى أى مجال من هذه المجالات، وعلى الأخص الاعتداء الإسرائيلى فى ١٩٦٧، الذى حظى بالتأييد والدعم الكاملين من الولايات المتحدة.

كان لابد إذن أن تعمل إسرائيل على السير قدما فى تحقيق مشروعها للاستيلاء الكامل على أراضى الفلسطينيين، وطرد المزيد منهم إلى خارج بلادهم، وضم أراضى جديدة إلى ممتلكاتها أو مناطق نفوذها، ووضع يدها على مصادر جديدة للمياه والطاقة، وفتح أسواق جديدة أمام صادراتها واستثماراتها.

هذه التغيرات المهمة يمكن أن تلقى ضوءا كاشفا على الأحداث المدهشة التى تجرى فى المنطقة العربية منذ حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، بل وقد تلقى أيضا ضوءاً كاشفا على هذا الحادث نفسه.

فبعد الهجوم الأمريكى على أفغانستان واستقرار القوات الأمريكية فى مواقع جديدة فى وسط آسيا، حدث الهجوم العسكرى الأمريكى البريطانى على العراق.. فجأة أصبح الاحتلال العسكرى المباشر ضروريا بعد أن كنا نظن أن احتلال جيوش دولة لأراضى دولة أخرى مستقلة قد أصبح تاريخا قديما لا يمكن أن يتكرر ولا يقبله الضمير العالمى. هكذا احتلت العراق بين يوم وليلة، ثم أصبحنا كل يوم نسمع تهديدا جديداً من الولايات المتحدة أو إسرائيل بضرب سوريا أو تغيير النظام فى مصر أو السعودية. زادت أيضا درجة التوحش التى تعامل بها أسرائيل الفلسطينيين وزاد استهتارها بردود الفعل التى تثيرها أعمالها فى الرأى العام العالمى. كما زادت الصراحة التى تساند وتدعم بها الولايات المتحدة الأعمال الإسرائيلية وتعطل أى قرار أو عمل يدين هذه الأعمال أو يحاول إيقافها عند حد.

من الأشياء غير المألوفة أيضا، قيام سلطة الاحتلال فى العراق، بمجرد اتمام الاحتلال العسكرى، بل وفى بعض الأحيان حتى قبل اتمام هذا الاحتلال، بتوزيع عمليات «الإعمار» وإعادة بناء المرافق العامة التى دمرها الهجوم

العسكرى أو سوف يقوم بتدميرها ، على الشركات الأمريكية، ثم الإعلان، بعد انقضاء أشهر قليلة على الاحتلال، عن شروع سلطة الاحتلال فى بيع ممتلكات القطاع العام العراقى لمن يشترى من شركات دولية سيكون أغلبها بالطبع شركات أمريكية مع إفساح المجال دون شك، لفرص ممتازة لشركات إسرائيلية أو وثيقة الصلة بالمصالح الإسرائيلية.

إن ما طرأ من تغيرات على المركز النسبى، الاقتصادى والعسكرى للولايات المتحدة وإسرائيل ، خلال نصف القرن الماضى، وأشرت إليه باختصار فيما سبق، يتفق تماما مع ما جرى من أحداث فى المنطقة العربية خلال الأشهر القليلة الماضية.. ويمكن بهذا وذاك أن نكتشف بدرجة لا بأس بها من الوضوح الخطوط العريضة للتصور الأمريكى لهذه المنطقة.

صفقة شيطانية

دولة تحوز قوة عسكرية جبارة، لا تجد أمامها من ينافسها فى هذا المجال، ولكنها تواجه فى نفس الوقت تحديات اقتصادية خطيرة نتجت عن تدهور مركزها الاقتصادى النسبى بالمقارنة بكتل اقتصادية أخرى . وهناك تلك المنطقة العربية الغنية غنى لا مثيل له بمورد يحتاج إليه الجميع، هو النفط ، كما أن لدولة صديقة هى إسرائيل مطامع كبيرة للتوسع الاقتصادى والاقليمى. فكيف لا تعقد هذه الدولة الجبارة، مع صديقتها الصغيرة الطموح، صفقة شيطانية، يجرى بمقتضاها إحكام السيطرة على بلاد المنطقة بدرجة تفوق أى سيطرة سابقة، منعا لمشاركة أى كتلة اقتصادية أخرى، فى الحاضر أو المستقبل المنظور، فى الاستئثار بنصيب الأسد من موارد هذه المنطقة وأسواقها ومجالات الاستثمار فيها، وتحقيقا لأهداف الدولة الصغيرة فى التوسع والتقدم؟

فإذا تطلب إحكام هذه السيطرة احتلال دولة عربية مستقلة، احتلالا عسكريا سافراً، جرى احتلالها، وإذا تطلب تقسيمها قسمت، وإذا تطلب وضع اليد على نهر أو نهرين وضعت اليد عليهما، وإذا تطلب تغير نظام الحكم فى دولة عربية أو دولتين، أجرى هذا التغيير.. إلخ

ولكن لابد بالطبع من أن يصاحب بدء تنفيذ هذه الصفقة بدء الترويج بنشاط وهمة غير معهودين ، لخطاب إعلامى جديد يتناسب مع حجم هذه الصفقة وشيطانيتها.. وهو خطاب قد يصل إلى حد العمل على تغيير الهوية وتحويل اتجاه الولاء القومى بل والدينى أيضا، ولكن هذا يحتاج إلى مقال مستقل. ■



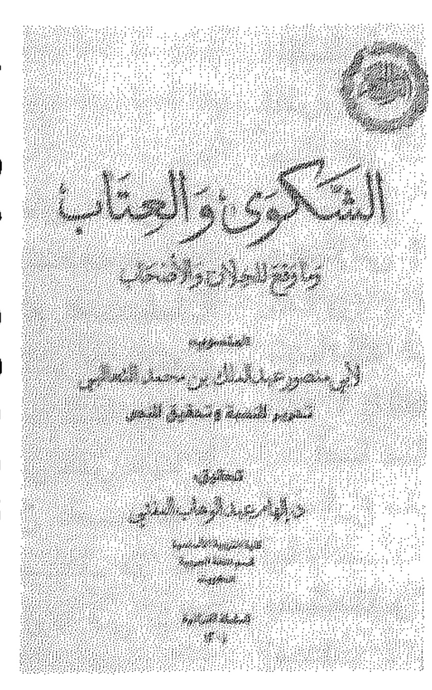
الشكوى والعتاب

وما وقع للخلان والأصحاب

بقلم
د. فيصل الحفيان

من منا لا يشكو، ومن منا لا يعتب؟!
العاشق يألم من الجوى والحبيب إذا ماهجر، والغريب يكتم أنفاسه النأي عن أهله وناسه، والفقير تطحنه الحاجة، وتدوسه الأيام والناس عنه غافلون، والمظلوم لا يجد سوى السماء يرفع عينيه إليها سائلا الإنصاف، والمريض يقض مضجعه ماهو فيه. وأكثر من ذلك أن العاشق قد يألم خوفا من هجر فى رحم الغيب، والمقيم قد يتحسب الغربة، والغنى قد يخشى الفقر، والظالم قد يقلق من انتقام من هو أظلم منه، والسليم قد يعيش هاجس المرض..

كل بنى آدم إذن مقيمون فى حال الشكوى، ساكنون فى حال العتب، لا يكادون يغادرون هاتين الحالتين، وأحوالا أخرى مشابهة: البث والاستعطاف والتثريب. وبعضهم فحسب هم القادرون على النفاذ إلى جوهر هذه الحالات الإنسانية، وتعريتها لأنفسهم وللآخرين.



هذا كتاب طريف في موضوعه، عميق في محتواه، وطرافته وعمقه يتآزران في وعي الإنسان بذاته، ومايدور في باطن نفسه، ومايمور داخلها من أسرار مركبة يحتاج استبطانها إلى مأثور نبي، وعقل حكيم، وإشراقة صوفي، وخيال شاعر .

أما الموضوع فظاهر، وستتضح أبعاده في كلامنا الآتي. وأما المحتوى فليس أكثر من نصوص جمعها المصنف، وألف بينها، ولم يتجاوز دوره هذا التصنيف والتأليف، لكن البراعة في هذا وذاك كانت كافية، فدلت على عقل الرجل، وقد قالوا قديما: «اختيار الرجل قطعة من عقله ».

نصوص الكتاب تقطف من كلام النبوة، ونتاج العقول الحكيمة، وتجليات المتصوفة، وخيالات الشعراء، وهي جميعا تتكاتف لتحكي حكاية النفس الأنسانية مع شقيقتها ، ومع ماحولها، ومع زمانها.

لقد أغفلنا ذكر المصنف في العنوان، ولم نصرح به في السطور الأولى قصدا، لأن به خلافا. صحيح أنه حسم، لكنا رأينا أن من الخير تأجيله إلى موضعه، وأكثر من ذلك تأجيل الكلام على الكتاب كله، لندخل إليه من مدخل أوسع، هو مدخل الموضوع، فلنبدأ مستعينين بالله .

- ١ -

في الموضوع :

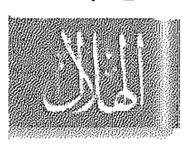
الحياة - كما نعلم جميعا - مذ خلقت كدر. وكدرها اليوم فاق كدر الأمس، وتجاوزه بسنين ضوئية. دعوا عنكم الهموم الضيقة، والمشكلات الخاصة، ولنذكر في هذاالسياق فقط الهم العام: هل يمكن أن ننسى، أو تفارقنا لحظة مسألة أو كارثة أن الوطن من المحيط إلى الخليج معروض في سوق النخاسة، وأن هذا الوطن قد هزل هزالا شديدا، حتى إنه ليذكرنا بقول الشاعر في تلك الشاة النحيلة التي لا يرغب فيها أحد، ويزهد فيها كل مشتر :

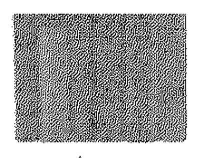
لقد هزلت حتى بدا من هزالها
كلاها وحتى سامها كل مفلس

نحن اليوم بهمومنا الخاصة، ويهمنا العام، نترحم على كدر الماضي الجميل، ونتمناه بدلا من (صفو الحال) الذي لا يطاق.

وعلى كل فإن الكدر قائم ما كانت هناك حياة. يصفو يوم لتتكدر أيام، وتبسم ساعة لتعبس ساعات . تلك هي طبيعة دنيانا التي لا تفارقها، ونحن لذلك عارفون، ولا نملك إلا أن نشكو ونعتب . نخرج بالشكوى الآه، ونتنفس بالعتب عن الوجع. وكما الكدر طبع الحياة فإن الشكوى طبع الإنسان، حتى إنه قياسا على قول المناطقة: «الإنسان حيوان ناطق» يمكن لنا أن نقول: الإنسان حيوان شكاء .

وشكوى الإنسان تنبع من أنه كائن





ضعيف { **وخلق الإنسان ضعيفا** } (النساء : ٢٨) . بل إن ضعفه مزروع فيه { **وعلم أن فيكم ضعفا** } (الأنفال : ٦٦) . وأكثر من النعت والدخول في النسيج أنه مخلوق من الضعف، فهو مادته التي خلق منها { **الله الذي خلقكم من ضعف** } (الروم : ٥٤). كأن الضعف هذا هو الطين أو الماء اللذان وردا في آيات أخرى!.

والضعيف خائف حياته بطولها وعرضها، خوفا يصل إلى حد الهلع والجزع { **إن الإنسان خلق هلوعا. إذا مسه الشر جزوعا** } (المعارج: ١٩، ٢٠) . وكلما ازداد التصاقا بالأرض، وأوغل في ماديته، وانصرف عن السماء، وابتعد عن خالقه، طارده الخوف، وتمكن منه الضعف، فطار قلبه، وطاش لبه، لأهون الأمور وأحقرها .

وأداة الشكوى، شكوى الإنسان هي اللسان . واللسان - كما نعلم - يرادف اللغة { **وهذا كتاب مصدق - القرآن - لسانا عربيا** } (الأحقاف : ١٢)، وهو كذلك عند المحدثين، فهم يسمون علوم اللغة: الألسنية، أو اللسانيات، فإذا ما كان صاحب اللسان، أو الشاكي أو العاتب مبينا أو حكيما أو أديبا، أمكنه أن يعبر عن شكاوى الكثيرين، وينطق بلسانهم، ويجدوا في مقالته صدى نفوسهم، وبوح خواطرهم .

ومن مادة الشكو (على القول بأن المصدر أصل المشتقات) وردت ألفاظ في القرآن الكريم في غير سورة من سوره . جاء على لسان نبي الله يعقوب عليه السلام : { **قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله** } (يوسف : ٨٦) ، كما ورد : { **قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله** } (المجادلة: ١) .

أما مادة العتب فقد ورد منها المضارع مقرونا بالسين واسم الفاعل في آية واحدة ، قال تعالى : { **وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين** } (فصلت: ٢٤)، كما ورد المضارع مقرونا بالسين في مواطن أخر: { **ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون** } (النحل : ٨٤)، { **فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون** } (الروم : ٥٧)، { **ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون** } (الجاثية : ٣٥) .

وفي السياق نفسه الجميع يعرف دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم وهو عائد من الطائف: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي ... إلخ» .

وجاء في التفاسير أن المقصود بالشكوى في الآيات التي وردت : إظهار البث ، والبث : التضرر والتوجع، وبالاستعتاب : العفو وطلب رفع العتاب. والطلب مستفاد من السين التي دخلت على المادة. فإذا كان الاستعتاب هو العفو وطلب رفع العتاب، والعتاب هو نقيض العفو والرضا . فإن معنى المادة هو ما يعبر عنه في اللغة بـ «المؤجدة» ، أي ما

يجده الإنسان في نفسه من ضغينة أو نحوها .

وثمة لطيفة لغوية في الشكوى قد لاتخطر على البال، فالمادة: «الشكو» مأخوذة من الشكوة، وهي سقاء صغير يجعل فيه الماء، كأن الشكوى أخذت من فتح الشكوة وإظهار ما فيها ، إذ الشاكي يفتح قلبه ، ويعلن عما أهمه وأغمه .

* * *

كان ما سبق مقدمة خاطفة، هدفت إلى وضع الكتاب في سياقه الموضوعي، ولم يكن مفر من تردد صدى الحاضر في ثنايا الكلام، كما لم يكن مفر من وضع مادة العنوان، عنوان الكتاب في إطار دلالتها اللغوية، وورود في النصوص، القرآن ، وما قيل في تفسيرها: ولعل ما قيل قد مهد جيدا للدخول إلى عالم الكتاب .

- ٢ -

في الكتاب

٢/١ - صدر الكتاب عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت ضمن سلسلته التراثية ، وشغل الرقم (٢٠)، وجاء عنوانه : «الشكوى والعتاب وما وقع للخلان والأصحاب، المنسوب لأبي منصور عبدالملك بن محمد الثعالبي: تحرير للنسبة وتحقيق للنص»، حققت الكتاب الدكتورة إلهام عبدالوهاب المفتي.

عرفت الكتاب من محققته التي تكرمت بإهدائه إلي في أثناء زيارة قامت بها إلى القاهرة. أما المحققة فقد عرفتها أو عرفتني عن طريق زوجها د . سعد عبدالعزيز مصلوح الباحث واللغوي البارز والمعروف، وبخاصة في ما يسمى بـ«الأسلوبية الإحصائية» ، وهو فرع من فروع علم اللغة الحديث . وتربطني به علاقة أخوة حديثة العمر نسبيا ، لكنها عميقة، تزيد كثيرا على عمرها الزمني، ولا تقاس به أبدا .

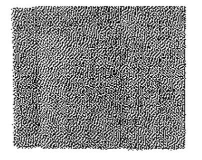
جاء الكتاب في ثمان وعشرين وثلاث مئة صفحة، شغلت الدراسة وصور النسخة الخطية والفهارس نحو ثمانين صفحة .

وليس للكتاب إلا نسخة خطية واحدة، هي تلك التي تحتفظ بها دار الكتب المصرية تحت رقم (١٦٧٣أدب)، وهي منسوخة عام ١٠٨٤هـ. ومنها مصورة في معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، التقطها قديما (عام ١٩٤٧) .

والنسخة تقع - كما ذكرت محققتها - في ثلاث وأربعين ورقة، مكتوبة بقلم فارسي واضح إلا في مواضع قليلة .

والكتاب خلو من مقدمة ، وكما ألمحت من قبل هو عبارة عن نصوص ألف بينها صاحبها، وجعلها تحت عناوين بلغت عدتها أحد عشر عنوانا أو بابا :

- في العتاب والشكوى والتثريب والبث والاستعطاف وما أشبه ذلك .
- في العبيد والإماء والخدم والأمر بالاستيصاء بالمماليك خيرا والنهي عن سوء الملكة ونحو ذلك .
- في العداوة والحسد والبغضاء والشماتة وذكر الأضغان والطوائل والوعيد والتهديد .
- في العدل والإنصاف واستعمال السوية في القسمة وغيرها ومن عدل وأوصى بالعدل .
- في العجز والتواني والكسل والبطء



والتردد في الأمر وما أشبه ذلك .

- في العفاف والورع والعصمة وذكر الحلال والحرام ومن تحرج وتنزه من الرجال والنساء .

- في التعجب وذكر العجائب والنوادر وما خرج من العادات .

- في العشق وذكر من بلى به ، وقال فيه الشعر، ومن مات منهم كمدا ومن رق لهم وترحم عليهم .

- في العقل والفطنة والشهامة والتدبير والرأى والتجارب والنظر فى العواقب .

- في العمل والكد والتعب والشغل والجد والعزم والنية والكفاية والكيس والعجلة والسرعة والعدو وحسن التأنى فى الأمور وانتهاز الفرص .

- في العز والشرف وعلو الخطر والتقدم والرياسة والجاه والهيبة والاحتشام والشهرة .

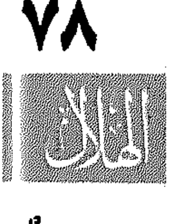
وواضح أن الكتاب مسمى بأحد أبوابه ، أولها ، (وإن لم يتطابقا) على طريقة الحماسات ، حماسة أبى تمام ، وحماسة البحترى، وغيرهما . وهو قريب منها ، لكنها شعر ، وهو خليط من المنظوم والمنثور . وتبدأ النصوص بالمأثورات الدينية: ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن بعض الأنبياء ، والصحابة ، أحيانا ، ثم تورد نصوص وحكايات وأشعار كيفما اتفق، لكنها جميعا تدور فى فلك العنوان .

إذن عنوان الكتاب هو أول أبوابه، وإذا أضفنا إلى ذلك أنه خلو المقدمة ، فإن التساؤل يصبح مشروعا: هل هو كتاب مستقل، أم هو جزء من كتاب؟ ثم عدت الأيام عليه ، فوقع في يد عنونته، وجعلت منه كتابا مستقلا .

وقد أجابت المحققة على السؤال فى دراستها الاستهلالية ، فجزمت بأنه ليس سوى أبواب مستقلة من كتاب « ربيع الأبرار ونصوص الأخبار» للزمخشرى (ت ٥٢١هـ) . لكن هذاالجزم لم يدفعها إلى أن تثبت النسبة الصحيحة على العنوان ، كأنه عز عليها أن تلغى التاريخ ، تاريخ النسبة إلى الثعالبى، على الرغم من الشك المبكر فيها ، ولم تشفع الحقيقة العلمية التى توصلت إليها ، فظل اسم الثعالبى على الغلاف ، وأطل اسم الزمخشرى على استحياء في ثنايا الدراسة ، مما يثير سؤالا مهما : من أولى بالإثبات على الغلاف : اسم ألحقه ناسخ أو مفهرس عمدا أو سهوا ، وليس للاسم نصيب فى المنسوب إليه ، أم اسم مؤلف يقطع البحث العلمى بأنه صاحب الكتاب؟ وهل نجمع إلى ظلم الزمن ونكرانه ، تجاهل العلم وتردده وحرصه على مسايرة المألوف؟.

٢/٢ - لا يمكن لنا بداهة أن نتوقف عند محتوى الكتاب كله فى هذه المقالة ، فلنكتف بما رسمنا من صورة عامة، ولنتلبث عندما اختير عنوانا له، فلفت انتباهنا ، وبدأنا كلامنا بما عددناه مدخلنا إليه، وهو الشكوى والعتاب وما وقع بين الخلان والأصحاب ، فقد رأينا فيه صدى الحاضر ، وإن اختلفت متعلقات الشكوى .

ولعل أول نقطة يجدر الوقوف عندها ، هى: هل هذا الموضوع ، موضوع الشكوى وجمع النصوص المتصلة به مما انفرد به



الزمخشرى؟ أم أنه قديم طرقه آخرون من قبل .

يظهر أن الكتب المصنفة فى «الشكوى» قليلة، وربما نادرة ، فلم نعرف كتابا سوى تلك المقامة التى أشارت إليها المحققة ، والمسماة « شكوى الدمع المراق من سهام قسى الفراق» لأحمد بن محمد بن الملا الحصكفى (ت ١٠٠٢هـ) . على أنه لا ينبغى أن يغيب عنا أن «الشكوى والعتاب ..» ليس كتابا مستقلا .

لنضيق إذن الدائرة، ونتساءل: هل فى تراثنا الأدبى نصوص جمعت فى موضوع الشكوى ، وليس مهما أن تكون كتبا مستقلة؟

لقد تتبعنا بعض (لا جميع) المظان ، فرأينا أن «الشكوى والعتاب وما يتصل بهما » كانت موضوعا استهوى القدماء من أصحاب الكتب الأدبية والحماسات الشعرية .

فالبحترى (ت ٢٨٤هـ) فى حماسته عقد بابين لما قيل فى عتاب الدهر على فجيعة الأهل والقرائب ، وفى لائمة المرء نفسه ومعاتبته إياها.

وأبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى (ت٤٣٦هـ) صاحب «كتاب المنتخل» عقد أيضا بابين من أبواب كتابه الخمسة عشر، أحدهما «فى الاستعطاف والمعاتبات والاعتذارات» ، والآخر « فى شكوى الزمان والحال وما يجرى مجراها وفى النكبة منها» .

والراغب الأصفهانى (ت ٥٠٢هـ) صاحب «مجمع البلاغة» تحدث فى الحد الثانى من حدود كتابه (الحد عنده يرادف «الباب») وهو حد النطق ومتعلقات الفصاحة ، تحدث عن اللوم والعتب، كما تحدث فى الحد الثالث - وهو فى الإباء والرفعة والضعة والأخلاق المحمودة والمذمومة ... إلخ - عن التوبة والعذر .

الفكرة إذن مسبوقة، وماقام به الزمخشرى ليس بدعا فى بابه، لكنه يستحق الوقوف عنده، وهذا ما ينقلنا إلى النقطة التالية، والمهمة، والتى تتصل بمدلولات النصوص التى سيقت تحت العتاب والشكوى والتثريب والبث والاستعطاف وما أشبه ذلك .

- ٣ -

فى دلالات النصوص

٣/١ - توقفت عند بعض النصوص الدينية التى أوردها الزمخشرى، فلاحظت أن منها حديثين للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، ونصا من الإنجيل، ومأثورين مما قاله عيسى عليه السلام، وموقفاً بين عثمان وعلى رضى الله عنهما، وأثرا للصحابى أبى الدرداء وقد بدا لى أن العتاب مرغوب عنه فى الإسلام، ربما لأن فى تركه تقديماً للنموذج السمح الذى لا يتوقف عند التقصير أو الخطأ، فعن أنس رضى الله عنه : «خدمت النبى ﷺ عشر سنين بالمدينة وأنا غلام ، ليس كل أمرى كما يشتهى صاحبى أن يكون عليه، فما قال لى أف فيها قط، وما قال لى : لم فعلت هذا وألا فعلت هذا» .

وربما لأن فيه عدم إيذاء، إذ العتاب نوع من اللوم للمعاتب وذكر لما قصر فيه أو أخطأ، وهذا ما يشير إليه الحديث الذى ساقه الزمخشرى: «إذا زنت خادمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يثرب »، وروى : «ولا يعيرها» . والتثريب والتعيير بمعنى واحد



هو اللوم .

هذا الزهد في العتاب والتثريب ونحوهما نجده أيضا في الحوار الذي دار بين الصحابيين الجليلين عثمان وعلي رضي الله عنهما : « عاتب عثمان عليا رضي الله عنهما وعلي مطرق، فقال : ما لك لا تقول ، فقال: إن قلت لم أقل إلا ما تكره، وليس لك عندي إلا ما تحب» .

وإذا كان الأمر في ما سبق على ما ذكرنا ، فإن أبا الدرداء رضي الله عنه ينظر إلى المعاتبة من وجهة أخرى، إذ بقاء الحفيظة في القلب وعدم البوح بها قد تفقدك أخاك، معاتبة الأخ أهون من فقده، ومن لك بأخيك كله، على أن قولته هذه توحي بأن في المعاتبة أيضا شيئا ، لكن هذا الشئ أهون من أن تفقد أخاك بهجره مثلا .

أما النصان اللذان أوردهما الزمخشري نقلا من الإنجيل، وعن عيسى عليه السلام، فإنهما يأمران بالمعاتبة، ولكن في خلوة، أو على انفراد ، فإن أبى المعاتب ، كان على المعاتب أن يسوق له رجلا أو أكثر ، فإن أبى فإن إثمه عظيم يصل إلى حد الكفر بالله !

ويوافق إياس بن معاوية (أحد قضاة العصر الأموي) ما جاء في النصوص الحديثية وكلام علي رضي الله عنه حيث يقول : «إن المعاتبة تبعث التجني ، والتجني يبعث المخاصمة ، والمخاصمة تبعث العداوة، ولا خير في شئ ثمرته العداوة» . وما قاله إياس ورد شعرا بلغة مكثفة:

فدع ذكر العتاب فرب شر
طويل هاج أوله العتاب

على النقيض من ذلك فإن ثمة بيتا من الشعر منسوبا إلى عثعث (جارية) يرى أن العتاب مؤشر حب بين المتعاتبين ، يقول البيت :

علامة ما بين المحبين في الهوى
عتابهما في كل حق وباطل

وأكثر من كون العتاب علامة على الحب، يرى شاعر آخر أن ترك العتاب عند الحاجة إليه يؤدي إلى الهجر :

ترك العتاب إذا استحق أخ
منك العتاب ذريعة الهجر

لكن كثرة العتاب - بلا شك - ليست صوابا ، ومن هنا جاء قولهم: « كثرة العتاب تنغل أديم الودة» . ويصب في المشكاة نفسها قول بشار بن برد :

إذا كنت في كل الأمور معاتبا
صديقك لن تلق الذي لاتعاتبه

وقول منصور النمري :

أقلل عتاب من استربت بأمره
لست تنال مودة بقتال

وكل ذلك حق ، فالإكثار من الشئ حتى لو كان حسنا غير مطلوب ، فكيف إذا كان لوما وشكوى وتأنيبا ، ولهذا فإن كثرة العتاب تعكس موجدة في القلب :

كل يوم قطيعة وعتاب
ينقضي دهرنا ونحن غضاب

والعتاب ألوان ، منه الشديد القاسي، ومنه الرهيف اللين، وليسا سواء . وفي تراثنا من اشتهر برهافة عتابه حتى ضرب به المثل، وذلك هو جحظة البرمكي، (ت٣٢٤هـ) ، فإذا ما أرادوا أن ينعتوا الرقيق اللطيف قالوا : عتاب جحظة، قال

بديع الزمان الهمذاني (صاحب المقامات): «بيننا عتاب لحظة كعتاب جحظة، واعتذارات بالغة كاعتذارات النابغة» . وقد نسب لجحظة هذا بيت قال فيه :

ورق الجو حتى قيل هذا

عتاب بين جحظة والزمان

كما أن العتاب نوعان : عتاب مشافهة، وعتاب مكاتبة، وأفضلهما الثاني، وقد أثبت الزمخشري نصا ، سبق له أن أورده في كتابه الآخر « نوابغ الكلم ، أو الكلم النوابغ» يقول فيه : « الكتاب الكتاب إذا أردت العتاب . إن العتاب مسافهة» إن كان مشافهة» و«مسافهة ، هذا التي جانس بينها القائل وبين «مشافهة» مأخوذة - كما هو ظاهر - من السفه . ولا شك أن في هذا الحكم شيئا أو أشياء من الصواب ، ففي العتاب وجها لوجه محاذير الانفعال والاستطراد والدخول في تفصيلات قد لا يكون من الحكمة الدخول فيها أو الاقتراب منها ، ذلك كله يمكن تجنبه إذا كان العتاب مكاتبة، فكأن العتاب بعيدا عن المواجهة هو عتاب مصفى موجه ، يمكنك أن تتحكم به ، فتقول ما تشاء ، وتسكت عما تشاء ، وتنتقي ما يخدم غرضك في إرضاء معاتبك والتقرب منه .

ولا يخفى أن العتاب حتى يؤتى أكله يحتاج إلى أن تختار له الوقت المناسب ، والمكان المناسب ، فلا نعاتب غضبان ، ولا مريضا ، ولا من هو تحت وطأة أزمة أو مشكلة . وفي هذا السياق يأتي هذان البيتان اللذان نسبا إلى عبد الله بن طاهر

خليلي لو كان الزمان مساعدي

وعاتبتماني لم يضق عنكما صدري

فأما إذا كان الزمان محاربي

فلا تجمعا أن تؤذياني مع الدهر

وقد يكون العتاب سفها إذا كان من تعاتبه غير قابل للاستجابة إليك «سأل سفيان بن الأبرد الكلبي هنداً بنت اسماء بن حارثة امرأة الحجاج أن تكلمه في شأنه فمطلته، فأرسل اليها يقول :

أعاتب هندا والسفاه عتابها

وماذا أرجي من معاتبتي هندا

أغيب فتنسى حاجتي وتصوغ لي

حديثاً إذا صاحبتها يقطر الشهدا

ويعض الناس يعتب بحق وبدون حق، مثل هؤلاء يدفعون من حولهم إلى حد أن يهجروهم، أو يحسبوهم أمواتا، وفي هذا يقول أبن أبي فنن (شاعر عباسي):

إذا كنت تغضب في غير ذنب

وتعتب من غير جرم عليا

طلبت رضاك فإن عزني

عددتك ميتا وإن كنت حيا

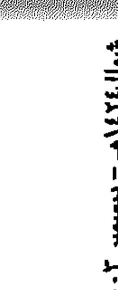
ويعض الناس يغلب الحب العتاب لديهم فيمحوه، هذا محمد بن أمية (ت١٩٢هـ) يقول :

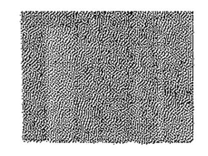
وأضمر في قلبي العتاب فإن بدا

وساعفني منه اللقاء نسيت

إذا كان الكلام في ما سبق على المعاتب فليس معنى ذلك أن ليس على المعاتب شئ هذا الأخير مطلوب منه أن لايستفز صاحبه حتى يدفعه إلى معاتبته، إذ إنه بذلك يسهم في الخطأ أو الخطيئة، من هنا جاء قول أحدهم « من أحوجك إلى العتب فقد وطن نفسه على الهجر ».

٣/٢ ذلك كله في العتاب، فماذا عن





الشكوى ؟

أورد الزمخشري عدة نصوص أحدها للفضيل بن عياض راداً على رجل شكا إلى آخر الفقر «يا هذا تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك» وثانيها شعر لأبي تمام :

شكوت وما الشكوى لمثلي عادة
ولكن تفيض النفس عند امتلائها

وثالثها شعر أيضا للمتنبي :

وليس تشكو إلى خلق فتشمته
شكوى الجريح إلى الغربان والرخم

ورابعها شعر للمؤمل بن أميل المحاربي :

شكوت ما بي إلى هند فما أكترثت
ياقلبها أحديد أنت أم حجر
ولاتحسبيني غنياً عن مودتكم
إني إليك وإن أيسرت مفتقر

٣ / ٣ - بعد هذا الأستعراض لبعض نصوص الشكوى والعتاب في العتاب، قد يكون من المفيد أن نذكر بأن عنوان الباب الذي وضعه الزمخشري هو : «في العتاب والشكوى والتثريب والبث والاستعطاف وما أشبه ذلك» مما يعني أن هذه المترادفات (مع بعض التجاوز) تشترك في مدلولاتها أو في أجزاء من هذه المدلولات وظلالها، ولذا نتوقف عندها قليلاً.

العتاب والتثريب فيهما اللوم، والشكوى فيها الألم، والبث فيه الهم، والاستعطاف فيه طلب الشفقة والرحمة ويجمع بينهما جميعاً أن ثمة شيئاً في الإنسان يدفعه إلى أن يعبر عنه ويعلنه، فاللوم على تقصير أو إيذاء أو نحوهما، والألم متنفسه في إظهاره، وكذا الهم وطلب الشفقة والرحمة يخفي وراءه ضرا أو مكروهاً . خيوط الدلالات متشابكة، ويصعب الفصل بينهما .

وعلى الرغم من ذلك فإن لكل لفظة خصوصيتها أو مساحتها الحرة التي لاتقاسمها إياها لفظة أخرى فالعتاب شكوى ولكن بين من تربطهما علاقة ما، قد تكون محبة أو ودا أو نحو ذلك والشكوى قد تكون بين المحبين، لكنها تتفلت من إسار هذا القيد، فقد يشكو الإنسان عدوه، وكأن بين الشكوى والعتاب عموماً وخصوصاً مقيداً، فكل عتاب شكوى، وليس كل شكوى عتاباً، ولهذا جاء في «المعجم الوسيط» «عتب عليه : لامه وخاطبه مخاطبة الإدلال طالبا حسن مراجعته مذكراً إياه بما كرهه منه» في حين أقتصر في تعريف الشكوى على أنها «التألم من مرض ونحوه ».

إن الدلالات اللغوية منطقة شائكة، ومن الصعب وضع حدود فاصلة بينها ، وليس المقام مقام الخوض فيها .

* * *

وبعد ، فإن الشكوى وما يتصل بها تظل قرين الانسان ، بوصفه مخلوقا ضعيفا محتاجا، لكن ما نرجوه من الله تعالى - وفي هذا عودة إلى ما بدأنا به - أن لا يكون ما نشكو منه بحجم ما نعانيه هذه الأيام ، لأنه فوق الطاقة ، وأكبر من الاحتمال ، ولن يفرجه إلا القدير سبحانه . ■

كل عام وأنتم بخير

بقلم
د. الطاهر أحمد مكى

لغويات

عبارة متداولة فى عصرنا، يقولها الناس فى الأعياد والمناسبات السعيدة التى تتكرر، دينية أم قومية أم اجتماعية، وقد توارثها العامة على هذا النحو، دون أن يقفوا عند تركيب الجملة لغويا.

أما أهل اللغة فحاولوا تحليل العبارة لغويا، واختلفوا فيما بينهم:

قال جماعة من المشتغلين باللغة العربية إن الواو فى هذه العبارة زائدة غير ذات موضع ودعوا إلى حذفها لتصبح الجملة: كل عام أنتم بخير فذلك أسلم وتكون كل إما مبتدأ مرفوعا خبره جملة أنتم بخير والعائد محذوف وإما ظرف زمان منصوبا متعلقا بما تعلق الخبر به، وهو بخير.

ورأى أستاذنا المرحوم على النجدى ناصف أن العبارة صحيحة مع بقاء الواو فيها، على أن يقدر فعل قبل كل لتصير العبارة بتقديره مثلا: يقبل كل عام وأنتم بخير وتكون كل فاعلا للفعل المحذوف أو يكون تقدير الفعل مسندا إلى المخاطبين لتصير العبارة تحيون كل عام وأنتم بخير فنعرب كل ظرف زمان متعلقا بالفعل المحذوف وجملة وأنتم بخير حالية على التقديرين وسوغ حذف الفعل هنا دلالة الحال عليه.

ورأى المرحوم شوقى أمين عضو المجمع أن تكون كل عام مبتدأ وأنتم معطوف عليها وبخير خبر.

ورجح الأستاذ على النجدى إعراب كل فاعلا على أن تكون مبتدأ، لأن الاستقراء يدل على أن الجملة الفعلية أساس التعبير، وهو ما انتهى إليه المرحوم على الجارم فى بحث له نشرته مجلة المجمع عن الجملة فى اللغة العربية وأرجع ذلك إلى أن حياة العرب كان يغلب عليها التوجس والمفاجأة فكانوا لذلك يندفعون إلى ذكر الحدث قبل من وقع منه الحدث.

انتهت لجنة الألفاظ والأساليب فى مجمع اللغة العربية إلى جواز تعبير كل عام وأنتم بخير من وجهين:

أ - أن تكون كل فاعلا حذف فعله لكثرة الاستعمال والتقدير حينئذ يقبل كل عام وأنتم بخير.

ب - أن تكون كل مبتدأ حذف خبره والتقدير حينئذ كل عام مقبل وأنتم بخير.

وفى كلتا الحالتين تكون الواو حالية والجملة بعدها حالا.

ووافق مجلس المجمع على قرار اللجنة ولكنه أوصى بالاقتصاد فى توجيه الإجازة على أن يكون كل عام مبتدأ حذف خبره. ■

من مآسي المجتمع

زوجـــات وأزواج

كهول يتزوجون صغيرات وسماسرة زواج للمصريات

بقلم
د. محمد رجب البيومي

أما الزوجات فمن الوجه البحرى، وأما الأزواج فمن الوجه القبلى، ولكل منهما ملهاة مضحكة فى ظاهرها، ومأساة دامية فى باطنها، فإذا أردت حديثهما فسيطول ويمتد ولكنى أوجزه فى هذه السطور، وأبدأ بمأساة الزوجات.

كنت أزور قرية ريفية صغيرة، لعيادة زميل مريض فشاهدت حركة غير عادية فى الدروب الضيقة، فالناس يروحون ويجيئون، والفتيات يقفن أمام الأبواب المتآكلة، وكأن أمرا هاما سيحدث، مع أن الدلائل الطبيعية لا توحى بشئ؛ فليس ما يدل على مأتم يرتفع حوله الصراخ، أو فرح ترن دونه الزغاريد، ثم رأيت زفة قادمة، يتصدرها سمسار مارد يفسح الطريق بعصا فى يده، وتتطلع نحوه العيون كأنه ثرى محسن جاء يوزع الصدقات، وملامحه لا توحى بخير يتاح، بل بشر ينتظر، ومن خلفه رجل تخطى الخمسين أو الستين يلبس ملابس أهل الخليج، جلباب أبيض حريرى يكاد من الرقة يطير من فوق جسمه، و(غدرة) تمتد من رأسه إلى رقبته، وما فوق صدره، وقد توجت بعقال أسود، وخاتم ذهبى فى إصبعه يتماوج ضوء الشمس فى مساحته، وقد جعل يزور المنازل الفقيرة بقيادة السمسار المارد، والأبواب تفتح لهما فى ترحيب بالغ، وكأنهما سحاب سيهمى فى أرض جدباء! ونظرات التوسل تحوطهما آملة راجية كنظرات المرضى إلى الأطباء! إن الكهل الزائر جاء إلى سوق الرقيق، ليختار من عشرات البائسات سلعة آدمية يشتريها بماله، ويعقد عليها زوجة. وهى فى اعتباره خادمة ستقوم فى بلده بخدمة زوجتين أو ثلاث لهن قبيلة من الأولاد والبنات، أما السمسار المارد، فهو صاحب المماكسة فى البيع والشراء، ولا يسمح لولى الأمر المسكين أن يخاطب السيد الزائر حين يقع الاختيار على إحداهن بعد فحص نقرأ مثله فى كتب التاريخ، حين كانت تأتى الجوارى



العجوز ترقص مع زوجها الشاب

العجوز والشاب

قصة حب مصرية - ألمانية

المسكينات من بلادهن النائية ليكن سلعة في أيدي النخاس ويقدم المشتري لينظر كل شئ يعف القلم عن ذكره! هكذا كان الأمر من قبل، وقرأت منه ما يحدث اليوم، والمأساة كل المأساة، تزداد بشاعة، حين يتفق السمسار مع والد الضحية على مبلغ ألف أو ألفين أو ثلاثة آلاف، ثم يبلغ الزائر أن المبلغ ضعف ما اتفق عليه، ويضع في جيبه النصف الآخر وأحيانا أكثر من النصف، وقد تضحك في استخفاف حين تسأله عما أخذ، ويقول عن الوالد المسكين «جربوع ابن كلب! لم يحمل ورقة بعشرة جنيهات في يده طول حياته! أعطيته ألفا! أخاف عليه أن يجن!! كان كفاية عليه مية!! لكن بنته حلوة»!

مصير الضحية

أما مصير الضحية بعد أن تركب الطائرة مذهولة تتلفت ذات اليمين وذات الشمال، فلا تجد مودعا واحدا يشيعها بنظراته لا لأنها في رعاية الزوج السعيد وهذا يكفي، بل لأن مشهد والدها في أسماله البالية مما يشوه مكانة الصهر العزيز، فكيف بمشهد الأم ذات الطرحة السوداء، والثوب المتآكل وشبشب زنوبة الذي لا يلبس إلا في أجمل المناسبات، أما مصير الضحية، فقد أغناني الله عن الحديث الحزين عن فجائعه الدامية، وأغنى القارئ عن أن يعتصر كبده ألما حين أسرد أنا ما أعلم، إذ نشرت جريدة الحوادث ما يغني عن قولي، ولم تكن الجريدة ذات خيال أدبي يدبج الفصول ويرسم الظلال والأضواء، ولكنها نقلت ما ذكرت عن محضر النيابة في كفر الشيخ، نقلا فوتوغرافيا خاليا من الأصباغ والأدهان، وهو بهيكله العظمي يغني عن كل تعليق!

جاء في جريدة «أخبار الحوادث» الصادرة في ٢٣ أبريل ١٩٩٢م ما مؤداه على لسان الضحية تحت عنوان (زوجي العجوز خطط ليسرق كليتي بعد تخديري في المستشفى).

جاء أبي ذات مساء إلى المنزل متهلل الوجه، وكان في قمة السعادة، وهو يخبر أمي بأن ثريا عربيا يرغب الزواج من فتاة مصرية، وقد رشح له أحد المعارف ابنتي، ولم تكن إجابة أمي غير زغرودة وأخذت تقول: جاءت فرصة العمر، سنخرج من الفقر، ودنا مني أبي، وقال لي: مستقبلنا جميعا في يدك فارتعدت فرائصي، وتذكرت أن أبي يعمل الليل والنهار وهو مريض من أجلنا، ولا يجد إلا ثمن الخبز فقط، فوافقت على الفور لإنقاذه، تناسيت أنه شيخ عجوز ولم أفكر إلا في سعادة أسرتي البائسة، ولكن جدت مشكلة فأنا لاأزال قاصرا ولم أبلغ السن القانونية، فتحير والدي، وأشار عليه أولاد الحلال بأن يستخرج بطاقة مزورة باسم أختي المتزوجة، وعليها صورتي، فوافق أبي سريعا كيلا تفوت الفرصة. ولم يخبرني بهذه الحيلة، ثم تم زواجي لرجل في عمر جدي،

وعرفت أننى أنتحر ببطء ولكن لأسعد أبى وأمى وإخوتى.

كانت صدمتى الأولى عندما علمت أنه متزوج، وله أولاد خمسة، فسكت، ثم فوجئت بأنه طرد الخادمة من المنزل وقال لى ستكونين أنت الخادمة للأم والأولاد، ولم أستطع أن أفعل شيئا، وأصبحت الخادمة.

مأساة

وبعد أسبوع قال لى إنه اعتاد الكشف الطبى على جميع أفراد الأسرة وهو إجراء صحى لدفع الخطر، وعلى أن أذهب معه إلى المستشفى لإجراء التحاليل الطبية، فأذعنت إذ لا أملك غير الإذعان، وفى المستشفى المعد لانتزاع الكلية، جاءت إلى طبيبة مصرية وقالت لى: أتدرين ماذا يراد بك؟ إنه اتفق على أن ينزع كليتك منك إذا ثبت أنها تصلح لابنته المريضة التى تحتم أن تزرع لها كلية! وأمكن النقل بعملية جراحية! وأشارت على الطبيبة باللجوء للسفارة المصرية فورا.

استقبلنى السفير المصرى بترحيب بالغ، واستضافنى بعد أن استمع إلى مأساتى، وجاء زوجى غاضبا ثائرا، يهدد بأنه سيسجن أهلى لأنهم زوروا الاسم فى البطاقة، وأنى سأسجن معهم، وهنا تدخل السفير بحزم وقال له: أنت الذى ستسجن لأنك مشترك فى التزوير وأن اسم زوجتك الرسمى «شادية» وهى سيدة تعيش فى مصر، أما هذه فلا علاقة لك بها إطلاقا وهذه المسكينة من الآن فى حماية السفارة المصرية، ولن يجرؤ أحد على أن يمسها بسوء، ثم اتصل السفير بمحافظة كفر الشيخ، فجاءت الأنباء سريعا إليه تصدق كل ما قيل عن مأساة التزوير فى الزواج! وقد أعادنى السفير إلى قريتى لأواجه مع أهلى بقضية التزوير ثم قالت الزوجة البائسة: ومهما سيكون الحكم فهو أرحم من معاشرة هذا المجرم العجوز»!

وأظن القارئ ليس فى حاجة إلى خطبة منبرية اكتبها تعليقا على هذا العتو الفاجر، فإن الجريمة ببشاعتها الفظيعة تغنى عن كل تعليق!

وحين تعددت هذه المآسى وضعت الدولة شروطا للزواج من الأجنبى، هى موافقة وزارة الداخلية فى بلد الزوج، مع شهادة من سفارة بلده تفيد الموافقة وإيداع مبلغ قدره خمسة وعشرون ألفا من الجنيهات باسم العروس فى أحد البنوك المصرية، إذا كان الزوج يكبر عروسه بخمس وعشرين سنة ولابد من شهادة ميلاد للزوجة مع بطاقتها الشخصية! وهذه الشروط معقولة تماما، ولكن المحامين وموظفى الشهر العقارى والسماسرة قد اتقنوا مهنة التزوير، وأحضروا الأختام الخاصة بالداخلية والسفارة والبنوك وجعلوا كل شئ يسير كما كان دون اعتراض ولست أتجنى على أحد ولكن ذلك ما أعلنته بالأسماء جريدة الجمهورية الصادرة فى

٢٠٠٣/٩/٤ بعد مقدمة قالت فيها تحت عنوان (تزوير فى أوراق رسمية ١٠٠٪).

سمسار قبيح الوجه

قالت الجريدة على لسان محررها «مشهد مثير لا أنساه! عشر فتيات فى عمر الزهور يقفن أمام أحد أثرياء العرب، وبجواره سمسار قبيح الوجه والملامح، متخصص فى تزويج المصريات من الخليجيين! والثرى يتقدم إلى البنات يشير لإحداهن أن تسدل شعرها، ويطلب من أخرى الدوران إلى الخلف، أو السير إلى الأمام ليختار أكثرهن فتنة وجمالا، والمشهد يتكرر يوميا فيعيدنا إلى زمن النخاسة والرقيق، فقد تحولت عملية التزويج إلى تجارة أداتها آباء بلا قلوب، وسماسرة فاجرون ومحامون مزورون يزيفون الأوراق والمستندات مقابل حفنة من الجنيهات» وأخذت الجريدة تعرض أهوالا مخزية يشترك فيها المحامون وموظفو الشهر العقارى والسماسرة، فى تزوير أوراق السفارات، وشهادات الميلاد، وتوقيع البنوك، وكل ذلك ممهور بأختام الدولة! والعجيب أن السمسار والمحامى يقبضان الثمن المبهر لينتهى كل شئ! دون أدنى مبالاة! وقد نشرت الجريدة صورا ضوئية لنماذج من هذه الاستمارات الموقع عليها بالموافقة والأختام قبل أن تملأ البيانات فكل مستحيل جائز جدا لدى هؤلاء!! والتزوير سهل ميسور!

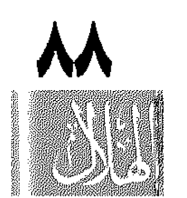
وأصارح قارئى العزيز أنى أنفعل كثيرا بما أكتب، وقد شعرت بمرارة فى حلقى توشك أن تصدنى عن كتابة القسم الثانى من المقال وهو زواج السائحات من الشباب المصرى، ولكنى عنونت المقال بما يوجب استيفاءه فلأمض فى طريقى مرددا قول عروة بن حزام.

وحملت زفرات الضحى فأطقتها
وما لى بزفرات العشى يدان

على أن مما يهون الأمر على أنى كتبت عن هذه الظاهرة منذ حين، وسأستعير هنا بعضا مما كتبت ولن تزول هذه المرارة من حلقى، وأنا أتحدث عن عجوز شمطاء تأتى سائحة رابحة، لتختار شابا فقيرا، بينها وبينه أربعون من السنوات، تصطفيه زوجا لها، وتجبره على أن يتعود ما اعتادت، فتراقصه فى بلاهة، كما تنطق هذه الصورة، وتجعله يسير كل يوم خلف دابتها حين تجول جولتها فى آثار الأقصر، وكأنه خادم ذليل، وتظل تستنزف دمه وصحته لا تبالى بغير شهواتها، وهو سكران ثمل بما يأخذ من دريهمات تساعده على الإنفاق إذ هو رب أسرة بائسة، وقد نزل عليه الغيث ليروى جديب حياته ولن يفكر فى غده القريب الذى يتهدد شبابه فيسوقه إلى شيخوخة عاجلة، وعندها تفر الشوهاء المتهالكة لتبحث عن صيد جديد!

فى قرية القرنة

نشرت مجلة التصوف الإسلامى (مايو سنة ٢٠٠١) استطلاعا شمل عدة



صفحات محلاة بالصور الناطقة، نقلت فيه عن مأذون قرية «القرنة» أن بها أكثر من نحو ٢٠٠ حالة زواج من السائحات، كما أن بقرية «البعيرات» المجاورة ٦٠٠ حالة! وأغلب هذه الزوجات بين شباب فى العشرين، ونسوة فوق الخمسين، ومن المألوف أن تزدحم الشوارع والحوارى بشباب يصحبون زوجات فى عمر أمهاتهم أو جداتهم وكلما مروا على رجال الشرطة أخرجوا ورقة الزواج عرفيا أو غير عرفى، ليؤكدوا أنهم متزوجون، فليست عليهم مسئولية قانونية وقد تشترط الزوجة الهلوك أن تمضى مع قرينها شهرين فقط هما شهرا الشتاء فى بيت من الطين، ثم ترحل إلى موطنها، لتعود فى العام القادم فتستأنف حياة العبث الخليع فى ستار من الزوجية الفاشلة، والزوج مغتبط برحيلها إذ يستطيع أن يتنفس الهواء النقى عدة أشهر، أما المصيبة الكبرى فهى فرحة زوجته المصرية بهذا الزواج، إذ تعده مصدر ثراء هبط على الأسرة من السماء، ويسعدها كل السعادة أن تقوم بخدمة ضرتها فتعد لها كل ما تطلبه من غسل وطبخ ونظافة مأوى مستجيبة إلى كل رغبة تصدر عنها، وكأنها تكليف شرعى لا محيد عنه، فالسائحة تتولى شئون الإنفاق وبسببها تذوق الأسرة اللحم والفاكهة والحلوى بعد أن كان العيش الشمسى عمود الغذاء مأدوما بالمش أو الفجل أو الكرات، وفى الزوجات المصريات الطيبات من تترجى زوجها ليصل إلى المطار فى الأقصر ويرجو من وسطاء السوء أن يساعدوه على نيل زوجة شمطاء يضمن بها باب الرخاء! فإذا رجع خائبا قرعته وعيرته، وضربت له المثل بشباب الجيران ممن أسعدهم الحظ! فكيف ماتت غريزة الغيرة فى نفس الزوجة، وهى غريزة قاهرة مستحكمة، فآثرت أن تكون لها ضرة أجنبية تصبح السيدة الآمرة، وتكون هى الخادمة المأمورة إنى لا أكاد أصدق هذا الواقع المرير على أن الأمر لم يقتصر على المسنات ممن بلغن سن اليأس من هؤلاء الأجنبيات، بل إن الشابات ذوات العشرين والثلاثين لهن النصيب الكبير من هذه العلاقات الرسمية الشوهاء، وقد جعلت أسأل نفسى: كيف ترضى هذه المتمتعة بالحسن الناضر والشباب الزاهر، أن تسكن مع شاب لا يعرف لغتها، ولا يرقى إلى مطامحها، وقد ألفت فى الغرب بيئة حضارية لا تجد فى قرى الصعيد غير ما هو على النقيض المتباعد عن زخارفها الآسرة، ولست بذلك أضائل من مكانة مصر الغالية بقراها ومدنها فى نفسى، ولكنى أصور واقعا ملموسا أحار فى تعليله وليس الصعيد وحده موطن الجدب والإملاق، فالبلاء مشترك بحمد الله الذى لا يحمد على

مكروه سواه، أجل، كنت أسائل نفسي هذه الأسئلة الحائرة، ثم فكرت في الإجابة التي تكون قريبة من الصواب، فاهتديت إلى أن هذه السائحة الشابة لم تخسر شيئا! لقد حسبت المسألة حسابا رقميا دقيقا، فهي إذا قضت شهرا أو شهرين في الفندق، فأقل أجر في اليوم الواحد مائة من الدولارات، غير نفقات الانتقال إلى أماكن الآثار، وربوع الشمس الوضيئة في ساحة الجبل، ومماكسة الأجر مع السائقين والعمال، والمتطفلين من باسطي الأكف لأي فتات يبذل! وكل ذلك لا داعي له تماما إذا رضيت بشاب مفتول الساعد، موفور النشاط يقضي رغبتها الجسمية الملحة، دون حرج، وما عليه غير أن يبني لها في أعلى الدار حجرة من اللبن، ويزودها بما تراه من وسائل الراحة الأولية، وكل ذلك لا يتكلف غير أجر يومين أو ثلاثة في الفندق، ووراء ذلك زوجة مسكينة تتسقط رغباتها فيما تريد من طعام وشراب ومأوى ولن تنفق هذه الضيفة الكريمة ذات السخاء الدافق غير أربعين جنيها مأكلا ومشربا ومظهرا ومتنزها في اليوم الواحد ووراءها زوجها الأمير، ومن خلفه أقرباؤه يتلمسون ما قد تجود به من قروش وعيونهم تتطلع إليها ككوكب متألق، ثم هي زوجة لها متعة العاشقة دون نكير، ودون ملاحقة ما من سؤال رجال الشرطة، أو الراصدين لحوادث العبث والاستهتار فإذا أقامت في الفندق فلن تجد لذة الأمر والنهي وعزة الشموخ والاستكبار على الضعفاء! ثم هي مهما بذلت وأعطت فلن تبلغ ببذلها معشار ما كان سيأخذه الفندق من نفقات! ألم أقل إنها حسبت المسألة ماديا رقميا وعاطفيا فرأت الراحة كل الراحة في هذا الزواج!

الزوجة السائحة

وناحية أخرى - تدعو إلى الأسف - فهذا الشاب الغر يتباهى بقوته، ولا يفكر في مستقبل صحته، إذ هناك من يتزوج اثنتين أو ثلاثا - هكذا جاء في الاستطلاع - وهو يعرف مواعيد حضورهن واحدة تلو الأخرى، فيقوم بتنسيق زمني يحظر اجتماعهن في زمن واحد، والزوجة السائحة تعرف ذلك، وتعلم أنها تترك المكان لزائرة قادمة، ولا تهتم أدنى اهتمام، لأن بيئتها الأوربية لا ترى داعيا إلى التدقيق في أمر لايهمها في شئ، مادامت تجد الراحة التامة عند حضورها، وإذا استمر الوضع على ذلك، فلن يسعد هذا الأبله بقوته غير سنوات معدودات لن تتجاوز العشر وهو انتحار بطئ بل انتحار سريع!

وبعد، فهل أنتقل من جدب الواقع إلى روضة الأدب، لأمتع القارئ بقصيدة ممتازة هي في رأيي من أحسن ما أبدعه الشاعر اللبناني الكبير بشارة الخوري حين نظم قصيدة عن مأساة، بطلتها غانية مثرية لا تشبع لها رغبة، فكانت تتصيد الشباب القوي العارم،

لتخايله ردحا من الزمن، باذلة له كل ما يريد من متع المأكل والملبس، حتى إذا أدى دوره، وبدت براثن المرض تأكل صدره، لفظته إلى غيره، إن القصيدة الرائعة تناهز ثمانين بيتا! وليس من المعقول أن أنقل هذه المعلقة، إلى صفحات الهلال، ومحاولة الاستشهاد بها تضائل من رونقها المتماسك المتشابك، ولكن الضرورة تحتم أن أجتزئ ببعض ما يدل على الطابع الشعرى الرائع المنسجم فى هذه القصيدة التى يقول فى مطلعها:

حسناء أى فتى رأت تصد
قتلى الهوى فيها بلا عدد
بصرت به رث الثياب بلا
مأوى بلا أهل بلا بلد
فتخيرته وكان شافعه
لطف الغزال وقوة الأسد

ومضى الشاعر يذكر فى إبداع ما تمتع به المسكين من مغريات ما كان يحلم بمعشارها، حتى دب الضعف فى جسمه، واعتاده الوهن المرتعش فقال مناجيا ربه:

رباه مذ يومين كنت فتى
لى قوتى وشبيبتى وغدى
واليوم أسرع للبلى وأنا
لم أبلغ العشرين أو أكد
سلماى إنك أنت قاتلتى
فجميل جسمك مدفنى الأبدى

وتمضى القصيدة فى وصف حزين لما يكابد من داء عضال، حين يصاب بالسل فيمج من فيه دما هو دوب كبده، ثم هى لا ترحمه مع ذلك فتكون النتيجة كما قال الشاعر:

مات الشقى بهاوقد سلمت
يا للقتيل مضى بلا قود
هذا قتيل هوى لبنت هوى
فإذا مررت بأختها فحد

ولنا أن نتساءل هل من حل؟ إن بعض الذين يحلو لهم تهوين الأمور يقولون إن المسألة مسألة بضع قريات ولا تعم جميع المحافظات مع أنها انتقلت إلى محافظة البحر الأحمر وقام السيد المحافظ بجهود مضنية مع المسئولين فى السياحة حين انتشرت بوادر الايدز والشذوذ الجنسى، والثابت المؤكد أن قرى شتى حول الأقصر قد انتقلت إليها العدوى، لوجود سماسرة من سائقى الحناطير، وملاحى المراكب الشراعية، وعمال الفنادق ما يكادون يحسون برغبة سائحة فى الاقتران العاجل، حتى يندفعوا إلى تحقيقها، ولديهم أسماء فريق من الشباب تقدموا إليهم آملين ففتحوا مكتبا للتنسيق، يوائم بين حالة السائحة ومن يختارون لها من الشباب وفق مواصفات يعرفها محترفو الصيد والابتزاز كما يعرفون طريق المأذون الذى يمنحهم الرشوة لكى يكون مكتبه وحده دائم الحظوة، فهل نترك المسألة هكذا دون حسم سريع! ونقول فى سذاجة إنها ظاهرة لم تعم جميع البلاد! إنى لا أملك غير القلم وقد كتبت!! ■

ثقافتنا

هى المعرفة
والثقافة شىء آخر!!

بقلم
محمد جبريل

الثقافة هى ما تبقى بعد أن ننسى كل شىء

الفيلسوف هيريو

كلمة «الثقافة» مشتقة من فعل «ثقف»، ومعناه ظرف. وصار حاذقا خفيفا. ومنه تثقيف الرمح، بمعنى تسويتها وإزالة عقدها حتى تصبح مستوية وخفيفة، فالرمح المثقف هو الرمح السوى الخالى من العقد. وكلمة «المثقف» لم تعرف إلا فى العقد الثالث من القرن العشرين، وكان التعبير المقابل هو «المتعلم». ولعل سلامة موسى هو أول من استخدم كلمة ثقافة، مرادفا، أو ترجمة لكلمة Cuture الإنجليزية. وهى كلمة تعنى الحضارة، فالثقافة - حسب التعبير الذى استخدمه سلامة موسى - تعنى الحضارة. والثقافة فى الفرنسية Cuture ومعناها الحرفى «الزرع»، فهى التعليم الذى يغرس المعرفة فى النفوس. أما الثقافة - بالمعنى الذى نستخدمه - فإن الكلمة المناسبة هى «المعرفة»، والمثقف بالتالى هو الذى يحيط بكل معارف عصره سواء تبحر فيها وتعمق أم توقف عند حد ما.



سلامة مـوسـى





ســـــارتر

الحضارة تراكمات معرفية . وهي – في تعريف جوردون تشايلد – ما يستخلصه الإنسان من غذائه ومجتمعه الإنسـاني ونواحي السلوك الإنسـاني المختلفة من لغة ودين وفلسفة وقانون وأخلاق ، فضلا عن أدوات الإنتاج التي يستخدمها . والحضارة – في تعريف آخر – «حصيلة من الذكريات ، تعبر عن نفسها في شكل نظم فكرية تكشف عن كنهها في كل مظاهر الحياة اليومية ، وفي حصيلة المعارف المتوارثة التي تحدد الممنوع والمرغوب فيه قولا وفعلا، وفي كل شكل من أشكال الإبداع التي تفهمها الجماعة، وتكتشف فيها أبعاد إدراكهم للمحدود في حياتهم، واللامحدود فيما وراء أفقهم المحسوس» (نبيلة إبراهيم : المقومات الجمالية للتعبير الشعبي – ٥٨) . ومقابل لذلك ، فإن مفهوم الثقافة – بمعناه الاجتماعي – والعلمي – يختلف كثيرا عن معناه العام ، فهو يعني التراث الاجتماعي لمجتمع ما، ويتضمن كل ما يمكن تعلمه بواسطة العلاقات الإنسانية المتداخلة ، كما يتضمن اللغة والعادات والتقاليد والنظم الاجتماعية وغيرها . وهو – في أحد التعريفات – كل ما يكون الإنسان . ولعلي أميل إلى قول ماركس – دون دعاوى أيديولوجية من جانبي! – إن الثقافة لا تنفصل عن الأوضاع التاريخية التي يبدع بها البشر حياتهم المادية . وأزيد أن تعريفنا للثقافة يجب أن يكون متعلقا بالكيف لا الكم . وكما يقول تايلور فإن الثقافة ، أو الحضارة بمعناها الإثنوجرافي الواسع ، هي ذلك الكل المركب الذي يشمل المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف ، وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في مجتمع . ومن هنا ، فإني أفضل تجاوز تقسيم الثقافة إلى عناصر مادية، وعناصر غير مادية ، وصولا إلى تحديد الثقافة بأنها مجموعة من الفلسفات والعلوم والمعتقدات والقوانين والأعراف والمثل والتقاليد والأخلاق التي تتسم بها الشعوب . وذلك كله يرتبط بالسلوك ، بأكثر من ارتباطه بمجرد

التحصيل ، بمجرد التعلم والمعرفة ..

* * *

لنفرق - بداية - بين المعرفة ، أو التعلم ، وبين الثقافة . ربما أذكر بعض المسميات أو المعاني التي ترفضها ثوابت المصطلحات ، لكنني أتحدث عن قناعاتي الشخصية ، عن الآراء التي تعبر عن محصلة تأملاتي ومناقشاتي - بيني وبين نفسي ، وبيني وبين ما أقرأه وأستمع إليه وأشاهده . المعرفة مصدر إلى الثقافة ، قد نلجأ إليها ، فنفيد منها ، ونصبح مثقفين . وقد نلجأ إليها فلا نفيد منها ، وتغيب في سلوكياتنا ، فيغيب مفهوم الثقافة بالتالي ..

الثقافة ليست مجرد المعرفة . ليست مجرد زيادة حصيلة المعرفة ، ولا مجرد إضافة أرفف جديدة من المعلومات في داخل الذهن الإنساني ، لكنها إسهامات متجددة ، ومطلوبة، في تحقيق التفاعل بين المرء والعالم الذي يحيا فيه ، وفي تعميق رؤيته الأكثر اتساعا للأفراد ، وللجماعة التي ينتسب إليها ، وللعالم. المعرفة لا قيمة لها ما لم يستتبعها محاولات لتطبيقها في الحياة اليومية ، في إحداث مراجعة للوعي والنظرة . وكما يقول ابن المقفع ، فإن صاحب العلم يلزمه القيام بالعمل لينتفع به ، وإن لم يستعمل ما يعلم لا يسمى عالما ، ولو أن رجلا كان عالما بطريق مخوف ثم سلكه على علم به ، يسمى جاهلا ..

القول بأن المرء حصيلة ثقافته يحتاج إلى مراجعة . الأدق أن المرء حصيلة معرفته ، وهي معرفة تشمل كل ما قرأه ، واستمع إليه ، وشاهده ، واختبره . لذلك فإن القول - مثلا - بأن ثقافتنا مصدرها الثقافة الغربية ، فالمثقف العربي إذن حصيلة غربية « أي أنه لا صلة لفكره في أعماقه بطبقته وأرضه» .. هذا القول يلغي المخزون المعرفي الذي يعد الموروث الشعبي حصيلته الأهم . إن كل ما حصله الإنسان العربي من معرفة مصدرها الكتب الغربية ، لا يلغي ما في داخله من موروث لا يقتصر على أعوام حياته وحدها، وإنما يمتد آلاف السنين ، هي عمر الموروث الذي تشكلت منه حضارة الشعب العربي ..

* * *

يحدد مالك بن نبي الثقافة بأنها «صلة ثلاثية متبادلة بين أسلوب الحياة في المجتمع ، وسلوك الأفراد فيه ، بحيث إذا اختل أحد الأطراف الثلاثة، يتدخل الطرفان الآخران للتعديل حتى لا يحدث نشوز في المجتمع . فالثقافة هي هذه الصلة الثلاثية المتبادلة بين أسلوب الحياة وسلوك الأفراد ..

وحسب اجتهادي الشخصي، فإن الثقافة بمعنى قراءة الكتاب، وسماع المقطوعة الموسيقية، ومشاهدة المسرحية أو الفيلم .. هذه الثقافة ليست سوى «معرفة» . يتعلم المرء جديدا يضيفه إلى مخزونه المعرفي . أما الثقافة - بالمعنى الذي أقدره - فإطارها السلوك ، الفعل ، التصرف . المثقف هو الانسان ذو المعرفة والموقف الحضاري في آن . لا قيمة لقراءة الكتب وسماع الإذاعات ومشاهدة المسرح والسينما والقنوات الفضائية، مالم يلتحم

بذلك كله سلوك يعنى بالتطبيق الإيجابى والفعال لكل ما حصله المرء من معرفة. إذا أفاد المرء من معرفته فى تصرف إيجابى ، فذلك تصرف مثقف، والثقافة صفة يصح أن نطلقها على صاحبه . ثمة متعلمون يحملون فى رءوسهم ما حفظوه، دون أن يشغلهم التطبيق، يفيدون من ذاكرتهم الحافظية أو الاستيعابية ، لكنهم لا يحاولون الإفادة مما أودعوه ذاكرتهم فى الإضافة والتطوير . وأستعير من أستاذنا زكى نجيب محمود قوله إن الثقافة هى الروح التى تسرى لتدفع ذلك البناء المعرفى ، المعلومات والعلوم، نحو غايات معينة ، يريد الانسان تحقيقها. الثقافة ليست محصولا من معارف ومعلومات فى حد ذاتها، بل هى الزهرة التى تنبتها تلك المعلومات والمعرفة ، وإن لم يعتبر الرجل من الثقافة المعلومات والخبرات المكتسبة من ممارسة الحياة العملية، أو العلوم التى تستخرج من تلك المعلومات والخبرات قوانينها .

الثقافة إذن ليست مجرد معلومات نظرية، لكنها حصيلة لجميع المعلومات التى يكتسبها المرء خلال حياته، واستخدامها بصورة مفيدة وإيجابية وفعالة. وبتعبير آخر، فإن الثقافة ليست فى الحصول على الشهادات الدراسية، وإنما فى خلق الوعى الكامل عند الحاصلين على تلك الشهادات فى تعدد مستوياتها، والمثقف ليس هو الذى يملك أكبر قدر من المعرفة، لكنه الذى يمتلك أكبر قدر من الوعى. لقد تحقق له الوعى بالمعرفة، وأفاد من هذا الوعى فى تقرير المناسب والأفضل والأجمل، التصرف فى ضوء سلوكيات تحاول الصواب ، وإذا كانت الثقافة تعنى الحضارة بالإنجليزية ، فإن الحضارة - كما تتحدث عنها دائرة المعارف البريطانية - هى «مجموعة نتائج العمل الإنسانى فى إطاره الاجتماعى على أرض محددة ، وعبر زمان معين ، أى مجموع أساليب المعيشة التى يستقاسمها أفراد جماعة من البشر من مبان وعلوم وفنون ومعتقدات وتقاليد إلخ» . وكما يقول ديهاميل ، فإن الحضارة إذا لم تكن فى قلب الإنسان ، فإنها لن تكون فى أى مكان. الثقافة لا توجد إلا بوجود المجتمع ، والمجتمع لا يقوم ويبقى إلا على الثقافة. إنها طريق متميز لحياة الجماعة، ونمو متكامل لحياة أفرادها، فهى إذن تعتمد على وجود المجتمع، وتمده بالأدوات اللازمة لاضطراد الحياة فيه، تستوى فى ذلك الطاقات البدائية والمعاصرة ثمة فارق بين المتعلم ، أى الذى حصل على المعرفة، وبين المثقف. العلم - على حد تعبير ابن المقفع - كالشجرة، والعمل به كالثمرة. وقد ضرب أندريه مالرو مثلا فى الفرق بين المتعلم والمثقف، بعالم الكيمياء الذى يحيا داخل معمله، ولا تثيره قضايا العالم الثالث. هذا هو المتعلم. أما المثقف، فإنه «ذلك الذى يمتد باهتماماته خارج دائرة الذات ، وتزداد ثقافته كلما اتسعت دائرة اهتماماته». وربما كان المثقف - كما أشرنا - غير متعلم ، والعكس - بالطبع - صحيح !

المعرفة بعد مهم فى الثقافة ، لكنها ليست كل الأبعاد . ثمة أبعاد أكثر أهمية تجاوز التلقى السلبى ، فتحيله فعلا إيجابيا لصالح الفرد والجماعة والبيئة.

الثقافة تالية للمعرفة. السلوك هو التطبيق لما نتعلمه، لما نحصل عليه من معرفة. بمعنى أن المعرفة هى النظرية ، أما الثقافة فهى التطبيق. وقد نتعلم النظرية، لكننا لا نحاول التطبيق ، والعكس - هنا - ليس صحيحا . ولعله يمكن القول إن المعرفة - أو التعليم - هى واسطة نقل الثقافة . أوافق على أن الثقافة «عناية بالذهن كى يعطى مردودا أفضل ، كما أن الزراعة هى عناية بالأرض كى تعطى مردودا أفضل» . وكما يقول إدوار هيريو، فإن الثقافة «هى ما يبقى عالقا بالأذهان عندما ننسى ما تعلمناه على مقاعد الدراسة»

* * *

لقد تعددت تعريفات الثقافة، فبلغت ما يزيد على مائة وستين تعريفا وفى أحد تعريفات الثقافة أنها علاقات معينة تؤلف بين الأفراد فى المجتمع، وتنظم وظائفهم الإنسانية التى تبنى على أساسها عقائدهم ومعايشاتهم الأسرية والسياسية والاقتصادية والسلوكية والترفيهية ..

وهذا التعريف - كما نرى - يرتبط - فى أغلبه - بالفعل ، وليس بمجرد التلقى. الثقافة هى الفعل الإيجابى ، لصالح الفرد والجماعة . أما الاكتفاء بالتلقى فيظل مجرد معرفة. وإذا كانت الثقافة ترادف الحضارة بالمعنى الأوروبى للكلمة، فإن الحضارة لها دلالاتها العميقة المتعددة، أما المعرفة فإنها تقتصر على مجرد التحصيل المعرفى دون أن ترافقه محاولة للتطبيق.

وكانت الثقافة عند اليونانيين القدماء، تدور بين الناس فى معاملاتهم اليومية، مثلها مثل اللغة، فلا تفرض نفسها عليهم بوجود مميز ..

المثقف - فى أحد التعريفات - هو من توجد لديه نظرة للحياة. والثقافة بمعنى أن نعرف ما كنا نجهله ، ونستمع إلى ما لم نستمع إليه من قبل، ونتعرف إلى أشياء جديدة فى حياتنا، ثم ينتهى الأمر ، إنما هو ترف لا تحتمله حياتنا الحالية بكل ما تعانيه من ضغوط اجتماعية واقتصادية وسياسية. الثقافة معرفة وتطبيق. أعرف الشئ، أتعلمه، فأحاول أن أفيد مما عرفته وتعلمته فى إضافة الجديد، المثمر والإيجابى، إلى حياتى، وحياة المجتمع الذى أنتمى إليه . ثقافتنا تبين عن نفسها فى كل تصرفاتنا: فى النوم والصحو والقراءة وتناول الطعام والتحدث والفسحة واللعب وإقامة الصداقات وتجميل البيت ، والعناية بالكتاب واختيار الأثاث إلخ.. وكما ترى مارى دوجلاس Mary Douglas فإن تطبيقات نظرية الثقافة لتفسير أمور مختلفة، تبدأ بأساليب حفظ الطعام . والدلالة واضحة فى قول ايليا اهرنبورج« أنا أكثر إيمانا بأهمية التقدم الثقافى للشعب، منى بتقدم الفن نفسه، لأن الجمهور الواعى الذى يفرض على الفنان السمو والارتفاع» (الطليعة - مارس ١٩٦٧) .

الإنسان المثقف لن يقبل بواقع متخلف . إنه - فى الأقل - سيعرف القيمة المادية للأشياء ويحضرنى ما قاله حكيم إفريقى: « إن الثقافة تستطيع أن تأخذ الإنسان

إلى تل أعلى مما يمكن أن نرى عند الأفق، ثم تجعله ينظر فيما وراءه». إنها - في تعبير آخر - هي التي تميز الجنس البشرى عن غيره من الأحاسيس ، فهي - الثقافة - تؤكد الصفة الإنسانية في الجنس البشرى .

الثقافة سلوك

وكما يرى روبرت بيرستيد R. Bi-erstedt فإن الثقافة هي «ذلك الكل المركب الذى يتألف من كل ما نفكر فيه، أو نقوم بعمله، أو نتملكه كأعضاء في المجتمع» ، لذلك فإن المتعلم - بدءا من الحاصل على أدنى الشهادات، إلى الحاصل على الشهادات العليا ، ليس مثقفا بالضرورة. إنه قد يكون حاصلا على الماجستير، أو الدكتوراه ، لكن سلوكه غير ثقافي، ويصعب تصنيفه كمثقف. وقد لاحظت أن صديقا لي، يعتبره الكثيرون من خاصة مثقفينا، كان يضع نفسه في مأزق عندما ينفعل بمناسبة وبلا مناسبة، وربما ضرب مكتبه يده، ووجه إلى محدثه - أيا كان سنه أو مكانته - عبارات يضطر إلى الرد عليها بعبارات مماثلة، أو أقسى منها. وأذكر أني قلت لصديقي. أنت تتصور أن الثقافة قراءة ومعرفة، وأنا أثق أن الثقافة سلوك. إن سلوكنا انعكاس لثقافتنا، ولا قيمة لمعرفة لا نترجمها لتصرفات!..

أذكر وصف سارتر للمثقف بأنه «رجل معرفة، إلا أنه رجل معرفة عملية، لأنه لا يوجد الآن فرق حقيقى بين المعرفة النظرية والمعرفة العملية. إنه العالم أو الطبيب أو التكنيكي أو القانونى أو الكاتب أو الفيلسوف أو الفنان ، الذى يعنى بتكوين نفسه في تناقض داخل المجتمع البرجوازى. ولكن ليس كل هؤلاء الناس يقومون بهذا التكوين لأنفسهم . فهناك علماء يعيشون في حالة من القلق، ويتعامون عن رؤية الأمور. وهناك من يريدون - بموافقة السلطات - إضفاء هذا التناقض على غيرهم، فهم الذين أطلق عليهم عبارة كلاب الحراسة . هؤلاء لا نسميهم مثقفين ، لأن ما من أحد يسميهم مثقفين» (الطليعة - مرجع سابق) .

خلاصة الأمر أن المثقف ليس هو الذى يعرف. فالثقافة - كم قلنا - غير المعرفة، أو هي غاية للمعرفة . وقد يحصل المرء على المعرفة، لكن سلوكياته تنأى به عن أن يكون مثقفا . إنه لا يسلك سلوك المثقفين . لا يسلك سلوكا متحضرا!

وإذا كان من تعريفات الثقافة أنها مجموع المعارف المكتسبة ، فإني أضيف إلى ذلك التعريف عبارة: وأسلوب الإفادة منها . وأرجو ألا أكون قد أسرفت في التوضيح - وربما التبسيط! - تعني - في بعد مهم - إفادة المواطن من كل التطورات العلمية والتقنية والاقتصادية والاجتماعية التى يشهدها عالمنا المعاصر

* * *

متى نصف الإنسان الذى لا يجيد القراءة والكتابة بأنه مثقف ؟

المثقف - في تقديرى - هو الذى يستمد ثقافته من الكتب والخبرات الشخصية وخبرات الآخرين والتأمل وطرح الأسئلة، بحيث تشكل لديه رؤية، يسهل تطبيقها . يقول الرجل في قصة نجيب محفوظ « حارة العشاق»: «الثقافة أن تعرف نفسك . أنت تعرف الناس . أن

تعرف الأشياء والعلاقات ، ونتيجة لذلك ستحسن التصرف فيما يلم بك من أطوار الحياة» ..

الثقافة ليست ترفا مقصودا لذاته . إنها - كما أشرنا - تتصل بالحضارة اتصالات وثيقا ، فهي مجموعة القيم والأنساق الفكرية والسلوكية التي تميز شعبا أو مجتمعا معينا ، وتعريف آخر بأنها أساليب التفكير ونوعية المعرفة والنظرة العامة إلى العالم التي تميز فردا أو جماعة معينة داخل المجتمع الواحد . وإذا كان للثقافة وجهها المادي المتمثل في الاقتصاد والعلم والتكنولوجيا ، فإن لها وجهها المعنوي المتمثل في الأخلاقيات والتقاليد والمعتقدات وأنماط السلوك والخبرات إلخ. إنها تلخيص للتراث الإنساني، واستشراف لمستقبل الإنسانية في الوقت نفسه . ولعله يمكن القول إنه توجد ثقافات بقدر ما توجد - أو كما توجد - جماعات بشرية . ثمة ثقافة سلبية تسيطر عليها الخرافة والتواكلية والأفكار القدرية والاستسلام للظروف القائمة وفقدان الطموح، وثمة ثقافة إيجابية تستهدف التطوير والإضافة واكتساب الجديد، والتعامل بلغة العصر. ويقول ديهاميل: «إن نظام الثقافة الذي يستحيل فيه التفكير والاختيار ، إنما هو في الحقيقة تقويض لما كان يسمى حتى اليوم ، ثقافة». إنها كالإيمان الذي لا يكفي أن نطلبه، لنناله. وكان مونتيني Montaine يفرق بين حشو الذهن بالمعلومات وبين تكوين العقلية السليمة . والمعنى - بالطبع - لا يخلو من دلالة..

الثقافة سلوك، أسلوب حياة، تأثر ومحاولة للتأثير. للتأثر والتأثير دورهما الذي يصعب إغفاله في تكوين الحس الثقافي، فقد يتعرف المواطن - على سبيل المثال - داخل حجرة الطبيب، أو الأخصائي الاجتماعي، إلى جماليات وسلوكيات يحاول تقليدها في بيته · لوحة معلقة على جدار، ستارة، سجادة.. قد نجد في ذلك فائدة لنا، وللآخرين ..

إن الثقافة وسيلة حياة، أسلوب حياة . ليس المثقف من يعرف أكثر . الثقافة - هنا - تتراجع، لتحل محلها المعرفة. تتقدم الثقافة إذا بدأنا في استخدام ما تعلمناه، ما نعرفه. وكانت الثقافة الحقيقية - في تقدير فلاسفة عصر النهضة - هي تلك التي لا تقتصر على شحن الذهن بالمعارف والمعلومات ، لكنها تستهدف تزويد المتلقي برجاحة الحكم. الإنسان المثقف لن يقبل بواقع متخلف، وإنما سيبذل كل جهده لتطوير ذلك الواقع. إنه - في الأقل - سيعرف القيمة المادية للأشياء.

الثقافة هي المفتاح السحري للإفادة من الماضي، والتعامل مع الحاضر، واستشراف المستقبل. إنها - في المجتمعات النامية بخاصة - تعني إفادة المواطن من كل التطورات العلمية والتقنية والاقتصادية التي يشهدها عالمنا المعاصر . فهو قد يفكر - ولعله يحاول بالفعل - أن يستخدم أساليب الزراعة الحديثة، بدلا من تلك التي يستخدمها منذ فجر حضارته ، ومن ثم يوفر كثيرا من الوقت والجهد، ويحقق إنتاجا أخصب وأوفر . وهو لن

يكرر مأساة طه حسين ، حين فقد نور عينيه بتأثير «الششم» الذى كانت تعالج به الأم رمدا أصابه. إن حاجتنا إلى الطعام ليست ثقافة. الثقافة فى عادات الطعام، فى اختيار أنواعه، وطريقة طهوه، ووسيلة تقديمه، وأدوات تناوله من ملاعق وشوك وسكاكين وأطباق وغيرها . وكما يقول الرئيس الفرنسى الراحل بومبيدو، فإن الثقافة «بحكم رسالتها وتفاعلها ، تحمل فى طياتها بذور التطور، بل وحتى القوة. فالتفكير معناه الحكم ، والثقافة إذ ترفض حتما قبول وضع سبق لها أن انبثقت منه، فإن غايتها الطبيعية هى إصدار حكم على ذلك الوضع ، وبالتالى تمهيد السبل أمام التغيير. إنها - فى أحد أبعادها - التعبير عن البيئة التى يصنعها الإنسان، عن كل ما يتوصل إليه فكره، وتصنعه يده .

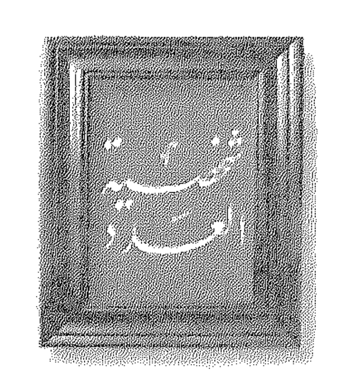
ومن الطبيعى أن ثقافة الفرد - هنا - ستكون هى المنطلق لتحقيق قيام الأسرة بدور « القناة الأساسية لنقل الثقافة» - على حد تعبير إليوت - «فلا إنسان ينجو تماما من نوع الثقافة التى اكتسبها من بيئته الأولى ، أو يتجاوز درجتها تماما» . بل إننا نوافق تماما على رأى إليوت بأن قناة الأسرة بالذات ، تظل أهم بكثير من سائر قنوات نقل الثقافة . وعندما تعجز قناة الأسرة عن القيام بدورها، يجب أن نتوقع انحسار ثقافتنا ، رغم اختلافنا الموضوعى مع غالبية الآراء التى يتناول بها إليوت قضايا الثقافة عموما ..

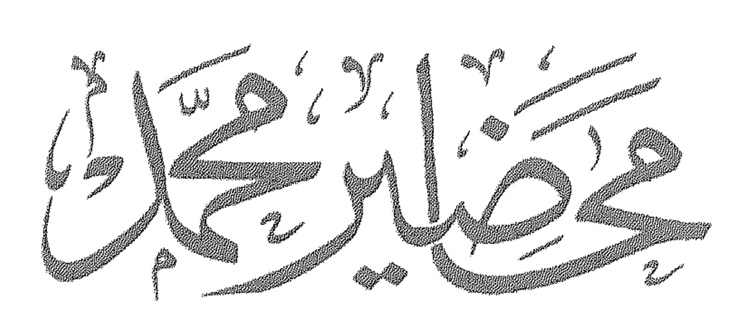
كلمة Culture الفرنسية مشتقة من كلمة Cultus اللاتينية، التى تعنى ثلاثة معان: زراعة، تربية، ثقافة، والارتباط بين هذه الكلمات الثلاث يوسع من معنى الثقافة ودلالاتها. فـ «المثقف» لن يقف بما تعلمه عند حد المعرفة، لكنه سيحاول تطبيق ما تعلمه لتطوير حياته . بل إنه من الطبيعى أن يحاول المثقف التأثير فى البيئة المحيطة به، يبدأ بالبيت، فيكون - بقدر ما تسمح موارده المالية - مكتبة صغيرة، يقبل المتعلمون من أفراد الأسرة على قراءتها . وقد يعنى بتعليق مناظر جميلة من مجلات ملونة يشغل بها مساحات الجدران الفارغة. وربما يمتد تأثيره إلى خارج البيت ، إلى القرية، فى مناقشاته الجادة والمثمرة، وفى إعارته كتبه إلى من ينشد القراءة من أبناء القرية ..

لقد تمنى الشاعر يوما ، بأن يتساوى القلم والمدفع، وأن يوضع القلم مع الحديد ضمن الصناعة الثقيلة. فالثقافة - بحق - هى الصناعة الثقيلة للمعرفة. الثقافة الحقة - على حد تعبير فؤاد زكريا - هى هذا الكل الذى يطوى تحته تفكير الإنسان وسلوكه ، نظره وعمله ، تأمله وإنتاجه ، علمه وحكمته . الثقافة ليست جهدا جزئيا يشمل جانبا واحدا من جوانب نشاط الإنسان ، بل هى حصيلة كلية تضم شتى جوانب النشاط البشرى فى إطار شامل موحد، بل إنه ليمكننى القول - ببساطة - أن الدولة المتقدمة ستظل حلما ورديا ، ما لم يصبح تحقيق الثقافة بعدا أساسيا فى حياتنا اليومية ..

لا معنى للثقافة دون ارتباط بالحياة . ■







محاضير محمد

آخر عظماء آسيا والمسلمين في القرن العشرين

بقلم
د. محمد السيد سليم *

محاضير محمد هو رئيس وزراء ماليزينا الرابع منذ الاستقلال، تولى نصبه سنة ١٩٨١ ، وتجددت ولايته عن انتخابات تنافسية ديمقراطية حتى اختار أن يغادر السلطة سنة ٢٠٠٣ ، وأن يسلمها لنائبه عبدالله بدوى مقدما بذلك نموذجا رفيعا لانتقال السلطة فى العالم الإسلامى ، يوضح أن الاسلام لا يتعارض مع الديمقراطية تناول محاضير محمد عن السلطة ، وهو يعلم أن أغلبية شعبه ستنتخبه خاصة الانتخابات البرلمانية التى تعقد فى العام القادم . ليس لأنه زعيم كاريزمى ، ولكن لأنه أسس النهضة التنموية الماليزية، ونقل ماليزيا من دولة زراعية متخلفة إلى دولة تصنف علي أنها من النمور الآسيوية.

* استاذ العلاقات الدولية - كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

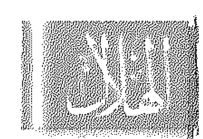




حينما تسلم محاضير محمد السلطة كان ترتيب ماليزيا فى مقياس التنمية البشرية سنة ١٩٨٠ رقم ٦٨ من ١١٧ دولة (أى رقم ٥٨ إذا كان عدد الدول ١٠٠)، وترك السلطة سنة ٢٠٠٣ وترتيب ماليزيا فى المقياس ذاته رقم ٥٨ من ١٧٥ دولة (أى رقم ٣٣ إذا كان عدد الدول ١٠٠) أى أن ماليزيا قفزت فى عهده وبالأرقام المقارنة - من الترتيب ٥٨ إلى الترتيب ٣٣ ، ويصفها تقرير التنمية البشرية على أنها فى مقدمة الدول متوسطة التنمية البشرية . وفى عهده ارتفع متوسط الدخل الفردي من ٤٣١ دولارا سنة ١٩٨٠ إلى ٨٧٥٠ دولارا سنة ٢٠٠٠، وارتفعت نسبة المتعلمين من إجمالى البالغين خمسة عشر عاما فأكثر من ٦٦٪ سنة ١٩٩٨ إلى ٨٨٪ سنة٢٠٠٠، وقد حدث ذلك كله فى اطار نظام سياسى احتفظ بالموروث الماليزى الملكى ، حيث السلطان رمز لوحدة الدولة، مع وجود نظام برلمانى يقوم على انتخابات ديمقراطية كل أربع سنوات ، واستطاع محاضير محمد أن يحقق التوليفة الصحيحة بين الصعود الاقتصادى من ناحية وترسيخ الديمقراطية من ناحية أخرى ، أى معضلة التوفيق بين الاصلاح الاقتصادى والاصلاح السياسى ، ومكنه النظام الديمقراطى من الحصول على شرعية قوية أكسبته ولاء مختلف الأعراق فى مجتمع متعدد بل ومتناقض الأعراق .

من الطب إلى السياسة

ولد محاضير محمد فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٢٠ فى مدينة آلون سيتار فى ولاية قدح فى شمالى ماليزيا، وهو أصغر أخوته التسع ، وتلقى تعليمه فى مدرسة السلطان عبدالحميد فى آلون سيتار ، ثم دخل كلية الملك ادوارد السابع الطبية فى سنغافورة (وكانت جزءا من اتحاد الملايا آنذاك) وذلك سنة ١٩٤٧ ، عاد محاضير محمد إلى ولاية قدح حيث بدأ فى ممارسة مهنة الطب اعتبارا من سنة ١٩٥٧ بعد أن تزوج سيتى حسمه، زميلته فى الدراسة ، وكانت عيادته أول عيادة طبية تفتتح فى آلون سيتار . فى الوقت ذاته انغمس محاضير محمد فى السياسة منذ سنوات دراسته الأولى . فدخل التنظيم الملاوى المتحد (آلامنو) سنة ١٩٤٦، أى قبل دخوله كلية الطب وشارك فى أنشطة الحزب فى ولاية قدح ، وفى سنة ١٩٦٤ انتخب عضوا فى البرلمان عن دائرة كوتا سيتار سيلاتان لمدة خمس سنوات . وفى البرلمان اشتهر محاضير محمد بالدفاع عن قضايا شعبه الملاى. ولكنه هزم فى انتخابات سنة ١٩٦٩ أمام مرشح «الحزب الاسلامى الماليزى» المعارض . وقد وجه اللوم إلى حكومة تنكو عبدالرحمن لفشلها فى دعمه فى



الانتخابات لأنه كان يتبنى فى البرلمان سياسات قومية تدافع عن الملايا وصمته بالتطرف . وقد تعلم محاضير من هذا الدرس الحذر والحساب السياسى، ولكنه دفع الثمن بطرده من حزب الآمنو، مما زاد من شعبيته ، واضطر الحزب إلى إعادة عضويته لاحقا .

وفى سنة ١٩٧٤ فاز محاضير محمد بعضوية البرلمان مرة أخرى وعين وزيرا للتعليم ، ومن موقعه الجديد طبق ما أسماه «السياسة التعليمية الجديدة»، ثم انتقل إلى وزارة الصناعة والتجارة، وأصبح نائبا لرئيس الوزراء «حسن تون»، وفى سنة ١٩٧٨ أعيد انتخابه في البرلمان ، وهزم مرشح الحزب الاسلامى الماليزى عن جدارة .

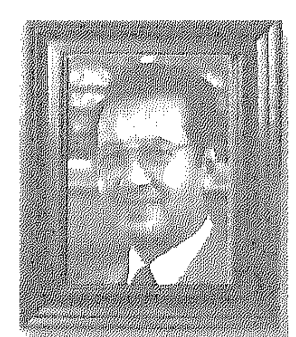
وفى ١٦ يوليو سنة ١٩٨١ أصبح محاضير محمد رابع رئيس وزراء لماليزيا بعد استقالة «حسن تون» والذى يعتبره محاضير بمثابة والده الروحى .

المفكر .. وقضايا نهضة ماليزيا

ومحاضير محمد لم يكن مجرد رئيس للوزراء ، ولكنه أحد كبار المفكرين السياسيين الآسيويين والمسلمين الذين استطاعوا أن يكونوا رؤية سياسية متكاملة كانت أحد عوامل نهضة ماليزيا. ألف محاضير محمد عدة كتب أهمها «معضلة الملايا » The Malay Dilemmg سنة ١٩٧٠، والذى شخص فيه مشكلة شعب الملاى وكيف يمكن حلها، و«التحدى» The Challenge الصادر سنة ١٩٧٦، الذى حدد فيه المعالم الأولى لاستراتيجية بناء ماليزيا، كذلك كتابه المشترك مع إيشيهارا، «صوت آسيا» The Voice of Asia الصادر سنة ١٩٩٥، والذى حدد فيه طبيعة النموذج الآسيوى التنموى كذلك يمكن الاشارة إلى كتابيه «تحديات الإضطراب» The Challenges of Turmoil الصادر سنة ١٩٩٨، و«نحو سياسة آسيوية جديدة » A New Deal for Asiaالصادر سنة ١٩٩٩، وحلل فيه أسباب الأزمة المالية الآسيوية وكيفية الخروج منها.

يعد أهم ما يلفت النظر فى فكر محاضير محمد هو أنه انطلق من قاعدة محلية قومية ، وهى تشخيص طبيعة المشكلة التى يواجهها شعب الملاى فى دولة متعددة الأعراق يشكل الملاى فيها ٥٣٪ من السكان ، والصينيون ٣٥٪ ، والهنود ٩٪ ويتمتع الملاى بالسلطة السياسية ، ولكن السلطة الاقتصادية تقع فى أيدى الصينيين ، وهو ما أدى إلى الاضطرابات العرقية الدموية سنة ١٩٦٩ والناشئة عن شعور الملاى بالغبن الاقتصادى . وانطلق محاضير محمد من إثارة السؤال: ماهو مصدر الخلل؟ ولم ينطلق محاضير إذن من قاعدة أيديولوجية حاول أن يفرضها على مجتمع الملاى، ولم يحاول أن يطوع مجتمعه لكى يحقق أهداف أيديولوجية معينة. ولكنه انطلق من منظور استقرائي لمجتمعه ، وقال محاضير أن الملاى ليسوا متخلفين بالطبيعة، ولكن لأن العوامل الجغرافية خلقت فيهم روح الاسترخاء . فالبيئة الجغرافية توفر انتاجا زراعيا وفيرا فى فترة قصيرة من السنة ومعدلات إنتاج عالية تكفى استهلاك السكان طوال العام ، مما أنتج صفة الاسترخاء باقى أيام السنة ، وصفة الاتكال على الجغرافيا. هذا بالاضافة إلى عدم قدرة الملاى على التعايش مع المهاجرين الصينيين أو الاستفادة منهم، ومن ثم خلص محاضير إلى أن تغيير نسق القيم لدى الملاى، وإيجاد صيغة للتعايش الإيجابى بين الأعراق الماليزية هو نقطة البدء لتحقيق نهضة بلاده، فدعا محاضير شعبه إلى تعلم أخلاقيات العمل المنضبط من الصينيين،





وسلوكيات التعايش معهم، وفرض نظاما حكوميا صارما يحقق ذلك، وفى الوقت ذاته سعى إلى تخفيف حدة شعور المالاى بالظلم الاقتصادى من خلال اتباع سياسة اقتصادية تشجعهم على الصعود الاقتصادى، واستطاع أن يقنع الصينيين أن هذه السياسة لاتميز ضدهم وإنما هى فى مصلحتهم حتى لاتتكرر أحداث ١٩٦٩، كذلك أكد محاضير محمد على مفهوم «القومية الماليزية» والذى يعنى عنده الوعى بالعيش المشترك فى إطار قومية واحدة ذات أعراق متعددة ونجح محاضير محمد فى القضاء على الحركات السوفيتية سواء كانت لدى المالاى (حركة المعونة)، أو الصينيين (سوموى).

محاضير ورؤية ٢٠٢٠

وفى فبراير سنة ١٩٩١ قدم محاضير محمد «رؤية ٢٠٢٠» وهى التى تضمنت أربع ركائز جوهرية للرؤية الفكرية لمحاضير محمد وهى «القومية الماليزية»، و«التطور الرأسمالى»، و«الدور التنموى للإسلام»، و«الدور القومى للدولة»، ويمكن القول أن رؤية ٢٠٢٠ تتكامل مع رؤيته للعلم والتكنولوجيا، والعولمة، وهو مايتطلب أن نشير فى عجالة لتلك العناصر:

> استطاع محاضير أن يؤسس النهضة التنموية الماليزية وجعل بلده من أقوى النمور الأسيوية خلال عقدين من الزمان.

١ - المفهوم الراسمالى للتنمية

يرى محاضير محمد أن التنمية تتحقق من خلال القيم الرأسمالية للعمل ودور المشروعات الخاصة سواء المحلية أو الأجنبية، فهو يدافع عن نموذج رأسمالي منفتح يتأسس على المشروع الرأسمالى، بيد أن المشروع الرأسمالى لايعنى إنسحاب الدولة من مجال صياغة السياسات العامة ووضع الأطر التوجيهية للنشاط الاقتصادى الخاص، ولكنه يعنى تحول دور الدولة لتكون الدولة المرشدة القادرة على التخطيط لضمان أن تشير المشروعات الرأسمالية فى إطار الأهداف القومية المخططة، وعليه فإن الدولة لاتضطلع بدور المالك لأدوات الانتاج، ولكن الموجه للمشروعات الرأسمالية، وقد عبر محاضير محمد عن ذلك كله فى إطار مصطلح «ماليزيا الشركة» Malaysia Jncorporated.

٢ - المفهوم الديمقراطى للتنمية

- الديمقراطية عند محاضير محمد يجب أن تكون ركنا جوهريا من أركان الدولة التنموية، فلايمكن تأجيل المشروع الديمقراطى تحت أى إدعاء، وقد حدد محاضير محمد أنه يقصد بذلك حق المواطنين فى إنتخاب حكومتهم بشكل حر ونزيه وأن يتولى السلطة الحزب أو الائتلاف الحاصل على الأغلبية بيد أن الديمقراطية يجب أن تؤدى إلى وتتلازم مع عملية تنموية جادة من خلال حكومة مستقرة قادرة على إتخاذ

القرارات . ومن ثم، فإن القيم الديمقراطية هي قيم مرتبطة بعملية التنمية، وينبغي ألا تسبق الهدف التنموى أو تعلوه ومن حق الدولة أن تتدخل لضمان الاستقرار السياسي، وضرب الحركات التى تعمل خارج الإطار الديمقراطي.

٣ - دور «القيم الآسيوية»

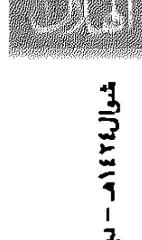
- طبقا لرؤية محاضير محمد الواردة فى «رؤية ٢٠٢٠» فإن القيم الآسيوية ينبغي أن تضطلع بدور محورى فى التنمية الماليزية وتوكد القيم الآسيوية على روح التضامن العائلي، والولاء للجماعة واحترام الأجيال، وأولوية الجماعة على الفرد، وهذه القيم هى قيم مشتركة بين شعوب شرقى أسيا، ولذلك فإن على ماليزيا أن «تنظر شرقا» نحو اليابان والصين للاستفادة من خبراتهما التنموية والتكنولوجية، ولهذا، عارض محاضير محمد الكتابات الغربية التى انتقدت القيم الاسوية، باعتبارها مصدر الأزمة المالية الأسيوية ١٩٩٧، ودعوة تلك الكتابات للأسيويين للتخلي عن تلك القيم، وهو الأمر الذى تمثل فى مقالة كتبها فوكوياما سنه ٢٠٠٠ تدعو صراحة إلى ذلك.

٤ - الإسلام والتنمية

- يمثل الإسلام ركنا جوهريا فى رؤية محاضير محمد، فالإسلام عنده هو أحد مكونات المجتمع الماليزى، ولكنه ليس العنصر الوحيد، لأن ماليزيا دولة متعددة الأعراق، والإسلام عند محاضير محمد ينبغي أن يكون أحد مكونات التنمية الماليزية، وفي تقديره، فإن الإسلام يقدم مجموعة من القيم الفكرية الدافعة نحو التنمية فالإسلام هو إطار مرجعي عام يجب تفسيره بشكل يحقق الصيغة الصحيحة للتعايش بين الإسلام والعلم الحديث، وقد هاجم محاضير العناصر التقليدية التى ترفض العلم الحديث باسم الإسلام، وشجع بناء مؤسسات إقتصادية وتعليمية إسلامية فى ماليزيا مثل البنوك الإسلامية، و«الجامعة الإسلامية الماليزية العالمية»، ولكنه رفض مفهوم «الدولة الإسلامية» وفى خلال السنوات العشر الأخيرة لحكمه زاد محاضير محمد من تركيزه على أهمية الإسلام، ونقل رؤيته إلى مستوى العالم الإسلامي، فنشط دور ماليزيا فى منظمة المؤتمر الإسلامي، ودخل مجموعة الدول الإسلامية الثمان التى كونها أربكان رئيس وزراء تركيا السابق ١٩٩٧.

٥ - العولمة

- قدم محاضير محمد رؤية تركيبية للعولمة تميل إلى انتقادها، ولكنها تستوعب منافعها فى الوقت ذاته، فهو يشير إلى أن الدول الرأسمالية تسعى من خلال العولمة إلى إنشاء نظام سياسي واقتصادى واحد مهما تكن النتائج، كما أنه فى ظل العولمة، فإن الحديث عن القرية العالمية والمعلوماتية وحرية التجارة لايجب أن يخفى أن الشركاء لن يكونوا متساويين، كما أن الحدود ستظل مغلقة أمام فقراء العالم الثالث، كما يستمر سباق التسلح والضغط على الدول الفقيرة لشراء الأسلحة لكى تعوض الدول المتقدمة ماتنفقه على البحث والتطوير العسكرى، ومن ناحية أخرى، فالعولمة يمكن أن تكون وسيلة لتحسين حياة الشعوب إذا اتبعت الدول النامية منهجا تدريجيا إنتقائيا فى التعامل معها، فالدول الصناعية استغرقت قرن من الزمان للوصول إلى مستوى التنمية الراهن وقبل أن تطرح مشروع العولمة، والدول النامية لايمكنها أن تندمج بشكل فورى مع العالمية، كما أنها يجب أن تكون إنتقائية فى



قبول «شروط تحرير التجارة»، فليس هناك حاجة لأن تسقط جميع الحدود أمام كل شيء، وكل الناس في وقت محدد».

وقد تجلت رؤية محاضير محمد في تعامله مع الأزمة المالية الآسيوية ١٩٩٧، والتي خسرت ماليزيا فيها ١٣٥ مليار دولار، فقد أشار إلى أن المضاربين الأجانب هم مصدر الأزمة، ورفض التوقيع على اتفاقية مع صندوق النقد الدولي، واتبع نهجا مستقلا نجح بموجبه في الخروج من الأزمة.

٦ - دور العلم والتكنولوجيا

- لعل من أهم إسهامات محاضير محمد هي تصوره لدور العلم والتكنولوجيا في التنمية، ولمحاضير محمد كتاب ضمن أعماله الكاملة عن هذا الموضوع، أشار فيه محاضير إلى عدة عناصر جوهرية هي:

١ - أن «التكنولوجيا هي مفتاح التنمية» فالتكنولوجيا ضرورية، ليس فقط لرفع المستوى الاقتصادي وإنما أيضا لإحداث التغيير الاجتماعي.

٢ - أن تحقيق التطور بالتكنولوجيا ينبغي أن يتم من خلال «المشاركة» بين الحكومة والقطاع الخاص، والحكومة تعد «أجندة» لتطوير التكنولوجيا وتوفر البنية التحتية والسياسية العامة التي يعمل القطاع الخاص في إطارها.

٣ - أن التكنولوجيا التي تهتم بها ماليزيا ينبغي أن تكون مرتبطة باحتياجات السوق Market driven، فالتكنولوجيا لايتم تدويرها لكي تحفظ في المعامل، وإنما لسد احتياجات السوق وهذا هو معنى «التكنولوجيا الملائمة «عنده»، إنها التكنولوجيا بالأساس التي يمكن تسويقها.

٤ - أن ماليزيا ينبغي أن تتجه شرقا للاستفادة من التكنولوجيا اليابانية، ولكن التكنولوجيا المنقولة يجب ألا تكون منتهية الصلاحية، وقادرة على المنافسة في السوق حتى لاتتحول ماليزيا إلى التبعية التكنولوجية.

٥ - أن تطوير التكنولوجيا يتطلب إعطاء الأولوية لسياسة «البحث والتطوير العلمي» وتوفير العمالة الماهرة، فبدون جودة التعليم يصبح الحديث عن العلم والتكنولوجيا أمرا غير ذي موضوع.

٦ - من المهم بمكان الإهتمام بالبعد الثقافي للعلم والتكنولوجيا، ويقصدون بذلك التأكيد على التكامل بين القيم الإسلامية وقيم التطور التكنولوجي.

٧ - أن سياسة العلم والتكنولوجيا في ماليزيا لا يمكن أن تتم في إطار محلي، وإنما ينبغي أن تتكامل مع دول جنوب شرقي آسيا لتحقيق التخصص وتوسيع السوق، وقد أنشأ

○ أهم ما يلفت النظر في فكره هو انطلاقه من قاعدة محلية قومية، كما يمثل الإسلام ركنا جوهريا في رؤيته لنهضة وطنه.



محاضير مؤسسات تكنولوجية كاملة أهمها «المجلس القومي للبحث العلمي، والتنمية»، و«الشركة الماليزية لتطوير التكنولوجيا»، و«برنامج التنمية التكنولوجية»، وصاغ «الأجندة القومية لتكنولوجيا المعلومات» وكان من أهم تطبيقاتها «الممر الأعظم للوسائط المتعددة».

وتعتبر المدينة التكنولوجية في بوتراجايا من أعظم انجازاته ولذلك، فأن مع مغادرة محاضير محمد للسلطة كانت الصادرات التكنولوجية المتقدمة Hi-Tech تشكل ٥٧٪ من إجمالي الصادرات الصناعية الماليزية، كما أنها تشكل ٨٠٪ من إجمالي الصادرات الماليزية، أي أن التكنولوجيا المتقدمة تشكل ٤٥ر٦٪ من إجمالي صادرات ماليزيا.

محاضير ضد الأمبريالية الأنجلو - أمريكية

ولعل أعظم ماختم - محاضير محمد حياته السياسية كرئيس للوزراء هو الحملة التي قادها لمعارضته المشروع الانجلو - أمريكي لغزو العراق، لقد اعتبر أن هذا الغزو بمثابة جزء من المشروع الغربي ضد المسلمين والإسلام وقاد حركة سياسية ضمن حركة عدم الانحياز ومنظمة المؤتمر الإسلامي، والأمم المتحدة لمنع الغزو وإدانته.

ومن ناحية أخرى، فإن محاضير محمد قد ترك لخلفه عبدالله بدوى أجندة واجبة التنفيذ، فرغم الدور الذى قام به لتحقيق التكافؤ الاجتماعى فى ماليزيا إلا أن توزيع الدخل القومي في ماليزيا مازال يتسم بعدم التكافؤ، وإن كان بشكل أكثر اعتدالا مما سبق، حيث أن أغنى ١٠٪ من الماليزيين يحصلون على ٣٨,٤٪ من هذا الدخل فى الوقت الذى يحصل فيه أفقر ١٠٪منهم على ٤,٤٪ من هذا الدخل، وهو مايعنى أهمية السعى لرفع مستوى المالاى أو «أبناء الأرض» Pumipurra كما يطلق عليهم فى ماليزيا، كذلك ترك محاضير لخليفته تركة التعامل مع الحزب (الإسلامى الماليزى الذى يحكم فى ولايتى ترينجانو، وكيلانتان، فرغم أن الحزب يعمل فى إطار اللعبة الديمقراطية، إلا أن محاضير لم يستطع أن يقنع قادته بإسلامية مشروعه ونعتقد أن عبدالله بدوى سيواجه مشكلة مع هذا الحزب فى الانتخابات القادمة.

مستقبل محاضير محمد

وفى تقديرى، فإن مغادرة محاضير محمد السلطة لن تعنى تخليه عن دوره السياسى، فهذا الدور سيصبح جزءا من الميراث السياسى الماليزى، فمن تقاليد القيم الاسيوية احترام دور الأب المؤسس، ولذلك سيظل محاضير محمد حاضرا فى الساحة الماليزية والأقليمية والإسلامية، وإذا كان لى أن أقدم اقتراحا، فهو أن تقوم منظمة المؤتمر الإسلامى باختيار هذا الرجل أمينا عاما لها، خاصة أن مدة الأمين العام الحالى تنتهى العام القادم ومن المقترض أن يكون الأمين العام القادم منتميا إلى المجموعة الأسيوية فى المنظمة طبقا لتقاليد التناوب فليس هناك من هو أفضل منه لتنشيط وتفعيل تلك المنظمة التى ران عليها السكون منذ انشائها رغم أهمية دورها، وآن لها أن تضم صفوفها وتؤكد حضورها الدولى وتقدم رؤية إسلامية عالمية معاصرة ومنفتحة على يد أمين عام يحمل خبرة محاضير محمد ورؤيته النافذة ومكانته الآسيوية والإسلامية والدولية. ■

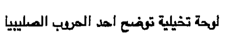
الحشاشون

.. وثلاث روايات!

بقلم
مصطفى نبيل

حكاية أول فرقة إرهابية فى التاريخ، التى ظهرت فى القرون الوسطى، ولعبت دورا مدمرا، تناولها عدد من الروائيين، أولهم جرجى زيدان فى روايته التاريخية «صلاح الدين ومكائد الحشاشين»، وبعده الروائى التشيكى فلاديمير بارتول فى روايته «ألموت Alamot»، وهو اسم القلعة التى أقامها حسن الصباح، وأخيرا تناول ذات الأحداث أمين المعلوف فى رواية «سمرقند»، وفى كتابه «الحروب الصليبية كما رآها العرب». والتى نقلها إلى لغة عربية رائعة الدكتور عفيف دمشقية.





لوحة تخيلية توضح احد الحروب الصليبيا

الحشاشون

وثلاث روايات

وجاء ظهور هذه الفرقة فى لحظة تاريخية فارقة، وفى أوج الهجوم الصليبى الذى قصد الشرق وبيت المقدس فى قلبه، ومع الانقسام الحاد فى عالم الإسلام، وشيوع ظاهرة العنف.

ومازالت تفاصيل هذه الصفحة من التاريخ يلفها الغموض، وتحمل الكثير من الأحاجى والأساطير، وأعطت هذه الفرقة للاغتيال اسمه الأجنبى.

ويبقى السؤال معلقا لم يجد إجابة كافية، هل كانت هذه الفرقة صنيعة الإفرنج، أم صنيعة الانقسام والاقتتال المذهبى والعرقى..؟!

ولا تكاد تمسك بخيوط علاقة الحشاشين بالصليبيين، فمرة يتحالفون معهم، ومرة يغتالون قادتهم، وسجل التاريخ حالتين على الأقل وقع فيهما اشتباك بين قوات الحشاشين والجيوش الصليبية وتمكن الحشاشون من اغتيال «كونراد» ملك بيت المقدس خلال زيارته مدينة صور بعد أن تنكر بعض رجالهم فى زى الرهبان.

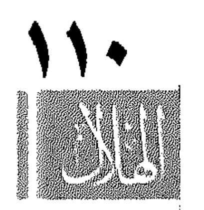
واعترف رهبان صور قاتلو «كونراد» عند استجوابهم أن ملك انجلترا «ريتشارد» هو الذى دبر العملية لكى يتخلص من المركيز.

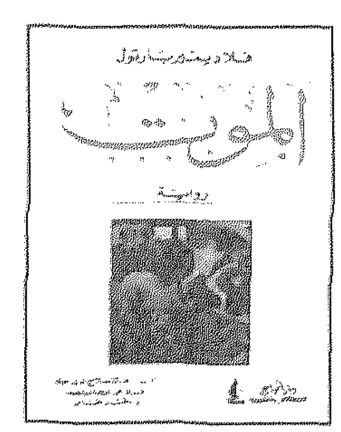
ونجد أيضا لاجئى الحشاشين فى حلب وبانياس يلجأون إلى الإفرنج، ويسجل التاريخ تسليم قلعة «بانياس» إليهم، كما يرصد وليم الصورى التقارب بين شيخ الجبل سنان - خليفة حسن الصباح - ومملكة بيت المقدس الصليبية.

وجاء فى تقرير أعده بروكاردوس للملك فيليب السادس ملك فرنسا يسرد فيه الأخطار التى ستتعرض لها الحملة الصليبية.. يقول .. «أذكر الحشاشين الذين ينبغى أن يتفاداهم المرء ، فهم يبيعون أنفسهم، ويتعطشون للدماء البشرية، ويغتالون مقابل أجر، ولا يقيمون اعتبارا للحياة، ويغيرون مظهرهم مثل الشياطين، التى تتحول إلى ملائكة، وهم يتقنون تقليد الأزياء واللغات والعادات لأقوام متعددة بدرجة لا يمكن أن يميزهم خلالها أحد..»

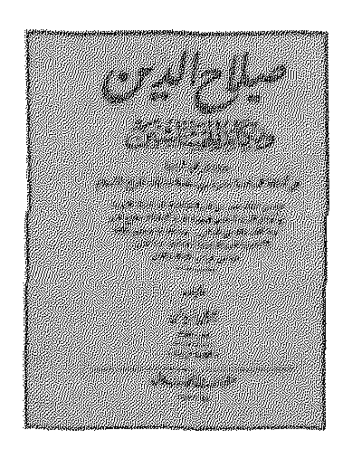
وأفرد لهم المستشرقون اهتماما خاصا ، وتناولهم «دانتى» فى النشيد التاسع عشر من الجحيم، عندما يذكر أولئك الحشاشين الذين يقتلون غيلة أو غدرا أية شخصية كبيرة، ودوافعهم التعصب والجشع.

وكتب وليم الصورى مؤرخ الفرنجة خلال الحملة الصليبية.. «يوجد فى إقليم صور أناس يملكون عشر قلاع قوية ، ومايتصل بها من مزارع وقرى وبشر، وعددهم حوالى ٦٠ ألفا أو يزيد، ولا









يوجد أى عمل شاق أو صعب إلا وأقدموا على أدائه عندما يأمرهم شيخهم».

وحتى بعد وفاة زعيمهم حسن الصباح فى قلعته فقد شهد نشاط الحشاشين نموا كبيرا، وسقط تحت ضرباتهم عدد من قادة مقاومة الصليبيين، مثل الرجل الذى قاد ونظم المقاومة للغزو الصليبى، وهو قاضى القضاة أبوسعد الهروى الذى كان أرفع المراجع الدينية فى عالم الإسلام، كما اغتالوا نظام الملك والأمير السلجوقى مودور فى دمشق وغيرهما. (الهلال يناير ٢٠٠٢).

شاهد عيان

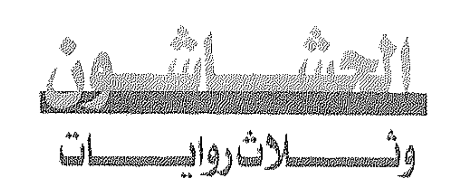
وألقى الرحالة بعض الضوء على هذه الفرقة.. وترك لنا الرحالة الإيطالى ماركو بولو وصف شاهد عيان لقلعة «ألموت» التى مر بها سنة ١٢٧٣ م خلال رحلته إلى الصين، وتقع اليوم فى إيران. يقول.. «قام شيخ الجبل بإغلاق واد بين جبلين وجعله حديقة فيحاء، أكبر وأجمل حديقة رأتها العين.. ويقوم على خدمة هذا الفردوس حوريات يعزفن بأنامل مدربة وتظهر الراقصات اللاتى يخلبن الألباب».

ولم يقل لنا كيف أتيح له زيارة القلعة التى لا يدخلها الغرباء!

مكائد الحشاشين

ونأتى إلى أول عمل درامى يتناول فرقة الحشاشين، والذى كتبه جرجى زيدان فى روايته التاريخية «صلاح الدين.. ومكائد الحشاشين»، والتى نشرها فى مجلة الهلال فى فبراير ١٩١٣.

وزيدان أحد رواد الرواية التاريخية، سار على خطى الروائى البريطانى سير وولتر سكوت «١٧٧١ - ١٨٢٣»، وقد تميز بالقدرة على بناء قصة محبوكة، تقوم خلفيتها على وقائع تاريخية، مدركا أن المستقبل يخرج من رحم الحاضر، ويدفع القارىء لاستكمال بعض الوقائع



التاريخية التى أشار إليها فى أعماله، ويتعامل مع تاريخ الإسلام باعتباره تاريخ العالم فى العصور الوسطى، ويدعو فى روايته للعروبة التى تضم كل الطوائف والأديان والأعراف، وتثير روايته اهتمام العرب بأمجادهم، وبيان عوامل ضعفهم وجوانب قصورهم.

ويحكى فى روايته «مكائد الحشاشين» قصة قيام أول تنظيم سرى حديدى، يستخدم العنف، وأداته الاغتيال السياسي. ويظهر كيف يمكن اختراق هذا النوع من التنظيم فى إحدى حلقاته وتوجيهه وجهة أخرى تخدم أهدافا خاصة.

ويروى بأسلوب سهل يقول،.. «لذلك أخذنا نهيىء أذهان القراء على اختلاف طبقاتهم وتفاوت معارفهم ومداركهم لمطالعة هذا التاريخ، لأن مطالعة التاريخ الصرف تثقل على القراء ، لذا جمعت أعماله بين التعليم والتشويق».

ونجده يتناول التاريخ الإسلامى فى رواياته منذ العصر الجاهلى وحتى العصر الحديث، ويحرص دون سواه من كتاب الرواية التاريخية على أن يورد فى هامش رواياته المصادر التى اعتمد عليها.

وتتناول رواية «زيدان» مرحلة لاحقة على مؤسس هذه الفرقة حسن الصباح، عندما تولى الزعامة ونصب شيخ الجبل راشد الدين سنان، ومع أفول العصر الفاطمى فى مصر فى أواخر القرن السادس الهجرى، خلال المعاناة المزدوجة من الانقسام الداخلى والهجوم الخارجي.

ويسجل إحدى محاولات اغتيال صلاح الدين فى القاهرة، عندما وصل الفدائيون إلى مخدعه، وعندها يصمم «عماد الدين» حارسه وأحد خلصائه على الثأر والانتقام من شيخ الجبل، ويقوم برحلة معاكسة عن طريق التسلل إلى هذه الفرقة والوصول إلى قلعة مصياف التى تحصن فيها هو ورجاله .

وتقول الوقائع التاريخية إنه رغم عمل صلاح الدين على حشد المسلمين فى مواجهة الغزو الصليبى جعل منه الحشاشون خصما لهم بعد اسقاطه الدولة الفاطمية، وتعددت محاولاتهم الفاشلة لاغتياله. وبينما كان يحاصر حلب ، تسلل رجال «سنان» فى أحد أيام الشتاء القارس إلى معسكره، وتم اكتشافهم . وقتل عدد كبير من الرجال لم يكن بينهم صلاح الدين.

وتكررت المحاولة فى العام التالى، عندما تخفى عدد من فدائيى الحشاشين فى زى رجال صلاح الدين وهاجموه بينما كان يحاصر إحدى القلاع الصليبية التى أقيمت على طول ساحل

البحر الأبيض، وأصيب صلاح الدين بجروح طفيفة.

قلعة مصياف

وفى العمل الروائى يقرر عماد الدين أن يصل إلى أوكارهم. وأن يتخلص من زعيمهم شيخ الجبل، وينجح فى التسلل إلى صفوفهم ويصل إلى القلعة الحصينة التى يقيم فيها سنان، بعد مغامرات شيقة، وتحفل الرواية بصنوف شتى من الدسائس والمغامرات ومؤامرات القصور، ويتابع القارىء قصة الحب الملتهبة بين «ست الملك» أخت الخليفة العاضد وبين عماد الدين صفى وحارس صلاح الدين.

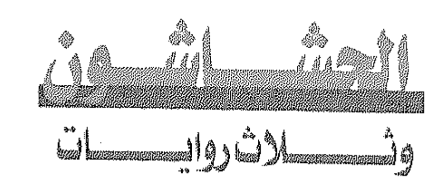
وتتجاوز رواية زيدان العداء الذى تشعر به إحدى نساء البيت الفاطمى المنهار، وترتبط بقصة حب مع أحد الرجال الذى قوض حكمهم، وقضى على الخلافة الفاطمية.

ويصف قلعة مصياف بأنها محاطة بسور سميك، وليس لها سوى باب واحد يقود إلى دهليز ، سقفه عقد متين، وعلى سور القلعة أبراج متلاصقة، تجذب إليها كل من اشتهر بالفتك وكل من يهون عليه قتل الأبرياء، وكل من يضيق به الرزق، وتحكم القلعة بنظام حديدى غريب لم ينسج أحد من قبل على منواله، والحراس عمالقة وكأنهم من الجان، ويختارون صما بكما. يسيطر عليهم شيخ الجبل وحده، ويعتمد سنان فى السيطرة على فرقته على القيام بالمعجزات عن طريق الخداع والسحر، واستخدام وسائل مجهولة عند أهل زمانه. ولا يدعى كما كان يدعى المؤسس أنه يملك مفاتيح الجنة. وإن كان يستخدم أيضا تجربة دخول فدائيين الجنة بعد أن تفقدهم الخمر وعيهم، فقد روى عماد الدين أنه غفى واستيقظ فوجد نفسه فى النعيم!

ويكشف عماد الدين خلال هذه التجربة أن سنان لا يمكن ان يغتال صلاح الدين، لأنه قرأ الطالع وتبين أنه سيلقى حتفه فى ذات السنة التى يموت فيها صلاح الدين، وتنتهى مهمة عماد الدين بكشف ألاعيب هذه الفرقة وأسرارها، ويعود سالما إلى قائده، ويبارك صلاح الدين اقترانه بست الملك، بعد أن نجح عماد فى التخلص من الرجل الذى نجح فى الوصول إلى مخدع قائده.

الموت

وهذه أحد الأعمال الأدبية الأخرى المميزة، والتى تعالج ذات الموضوع، والتى لم تعرف قيمتها عند إصدارها ، بل اكتشفت بعد فترة طويلة من وفاة كاتبها، فقد صدرت عام ١٩٣٨ ، وقرأت على نطاق واسع سنة ٢٠٠١ أى بعد أحداث ١١ سبتمبر فى نيويورك ، وبعد أن أعادت مؤخرا إحدى دور النشر الفرنسية إصدارها، ثم ترجمت إلى



العربية.

وكتبها فلاديمير بارتول «١٩٠٣ – ١٩٦٧) وهو روائى من سلوفينيا – فى الفترة التى تميزت بانتشار الحكومات الاستبدادية والمنظمات الإرهابية فى أوروبا، متخذا من تجربة حسن الصباح نموذجا صارخا على طريقة قيام النظم الاستبدادية والإرهابية. والآثار المدمرة للاستبداد والإرهاب حتى على الداعين إليه، وهى صيحة تنديد بعبادة الفرد.

والمدهش حقا أنها تقوم على دراسة عميقة للعصر الذى يتناوله، وعلى قيام فرقة الحشاشين.

فكم من الوقت استغرقه الكاتب فى الإحاطة بهذا العصر والإعداد لهذا العمل فى ثقافة بعيدة عن ثقافته؟!

وخاصة وهو يتناول جماعة يحفل تاريخها بالستر والكتمان والغموض. وتمكن من مزج الوقائع التاريخية بالخيال، وأقام معمارا روائيا مؤثرا ونابضا بالحياة.

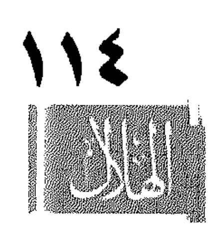
ومسرح الأحداث قلعة على قمة جبال دماوند شمال شرقى إيران، فى منطقة وعرة يصعب الوصول اليها.

ووصف الحياة فى قلعة «آلموت» بعيون حليمة الحورية العذراء، التى اشتراها شيخ الجبل لتحقيق نواياه، وحتى تكون إحدى فتيات الفردوس، ويستوحى وصفها بما جاء على لسان ماركو بولو، فتستطيع هذه القلعة مقاومة العالم، ويدخل جنته من يقع عليه الاختيار للقيام بعملية فدائية، فيتناول مخدرا يسلمه إلى النعاس، ويحملهم أتباعه إلى الجنات حيث يستمتعون بما فيها، فيصدقون أن رجل الجبل يملك مفاتيح الجنة ويشتاقون إلى العودة اليها.

وعندما ينوى حسن الصباح القضاء على أحد خصومه، يقول له . اذهب واقتل وسأدخلك الفردوس التى تشتاق إليها!!

ويصف فى روايته عالما سحريا تقيم فيه عذارى يتدربن على فنون الرقص والغناء وطقوس الجنس وأسراره، وينظمن الشعر ويتدربن على الموسيقى، فى منطقة معزولة عن العالم تتعلم حورياته الرقص والغناء والامتاع والمؤانسة، وتشرح المرأة التى تقدم خبرتها قائلة.. «اعلمن أن الرجل مثله مثل قيثارة مرهفة، وعلى المرأة أن تتقن العزف عليها بألف لحن، وهى قادرة بمهارتها أن تجعل القيثارة تشدو بأجمل الألحان».

ويحمى القلعة عدد من الخصيان . من الزنوج العمالقة الذين يرتدون سراويل قصيرة مخططة وطرابيش حمراء، سبق وأهداهم الخليفة الفاطمى



لحسن الصباح.

وقامت هذه الفرقة على استغلال المشاعر الدينية، وتقوم على فكرة دينية هى ضرورة وجود الإمام، كطاقة روحية محركة، ففى انتظار المهدى المنتظر تتم سيطرة المؤمنين على كامل أرض الإسلام و يزعم أنه فى الكتاب سياتى بعد الأنبياء الستة العظام، آدم، نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، محمد (عليهم السلام) رسول سابع هو الأعظم! المهدى وسيكون من سلالة إسماعيل، ومن أجله يقوم الجهاد! فهو الذى سيملأ الأرض عدلا، بعد أن امتلأت جورا!!

ووضع شيخ الجبل نظاما صارما لتحقيق أهدافه ومن أجل إعداد الفدائى المستعد للتضحية وارتياد الجنة الموعودة.

فالحركات السرية يقيمها عقل شيطانى، قادر على تسويق حيله، ويستغل الوجدان الدينى ومعارك العصر الذى يعيشه، وحتى إذا كان بلا ايمان فإنه يستغل المؤمنين. وهو بهذا يستغل الضعف الإنسانى من أجل تحقيق الغاية الشريرة التى يسعى إليها ، وكما يروى بارتول كان الدرس الأول الذى أشعل رغبة حسن الصباح فى إقامة التنظيم... «إن قصة على والمهدى ما هى إلا سراب نقصد به المؤمنين الذين يبجلون صهر النبى صلى الله عليه وسلم، ويناهضون الخليفة العباسى ، ولكننا نشرح للقادر على الفهم أن العقيدة ناقصة بالضرورة، وأن ليس بوسع أحد الوصول إلى الحقيقة، وبالتالى.. نحن لا نؤمن بشىء، ونفعل أى شىء!» و«لا شىء صحيح. وكل شىء مباح..»

وجاء على لسانه وهو قائد حركة دينية.. «من يرد أن يكون زعيما لحشود من الناس فعليه ان يتصرف تجاهها تصرف الابوين نحو أطفالهما، وعليه أن يقدم لها الأساطير، ولهذا تظل الحكمة دوما فى منأى عن العامة.. واستخدام الجهل البشرى إلى أبعد الحدود من أجل بلوغ أوج القوة، عندها يصبح المرء مستغنيا، وتتجسد الخرافة، وتتحول الأسطورة إلى حقيقة.. وها أنا جئت إلى «آلموت». ودبت الحياة فى الأسطورة ، وأقمت الجنة لأتباعى!!».

كما جاء أيضا على لسان المؤسس.. «إن قوة كل مؤسسة ترتكز أساسا على عمى أتباعها.. وكلما كان مستوى الوعى أقل كان الحماس أشد وأعنف».

وأحسن الكاتب رسم شخصية حسن الصباح، رمز الشخصية المتسلطة والذى يدعى.. «أن جنة كل إنسان ليست سوى سراب. وهى تمثل رغبة خاصة لديه، الخير يتساوى مع الشر.. فليست الأشياء وحدها هى التى تجعل الإنسان سعيدا أو تعيسا، إنما الفكرة التى نكونها عنها، وضروب اليقين الزائفة التى نعتقدها..» ويضيف.. «الوصول إلى



الحشاشون
وثلاث روايات

معرفة قطعية أمر مستحيل فحواسنا خادعة، ويتهم الناس من يصرح بذلك بالهرطقة» .

أليس ما ينطق به هو لسان كل مستبد غاشم؟!

وهاهي مجموعة صغيرة، تقوم على الاكاذيب والخرافات، تقيم نظاما حديديا، وتمكنت من خلاله، وعن طريق التآمر وعمليات العنف والاغتيال، من أن تؤثر على الأوضاع القائمة فى عالمها ، وأن تغير عروش، وتتلاعب بالوزراء والسلاطين.

وروع شيخ الجبل أو راسبوتين، الشرق والغرب بعمليات القتل المشهورة التى نفذها وبالأساطير التى حاكها حوله وحول فرقته.

وهذا كله إحدى نتائج فقدان الوعى وغياب الثقافة. وهى البيئة الصالحة لقيام مثل هذه الحركات.

سمرقند

«سمرقند» هى رمز اللقاء المحتوم بين الإنسان وقدره، هكذا يراها أمين المعلوف فى روايته، والتى كتبها قبل أحداث ١١ سبتمبر وبعد قيام الثورة فى إيران.

وأمين المعلوف هو شاعر الأمل، كاتب لبنانى رحل إلى باريس خلال الحرب الأهلية، يكتب بالفرنسية، وتترجم أعماله إلى العربية، وهو عربى يقف فى طليعة الروائيين العرب. له العديد من الأعمال المميزة منها ليون الأفريقى، وصخرة طانيوس، وحدائق النور، وبوابة المشرق، وهو فى كل هذه الأعمال يبشر بانتصار الإنسان ، وحياته بعيدا عن التعصب والقهر. يعيد بناء مشاهد التاريخ فى رواياته التى يستمد مادتها من التاريخ، ويرصد فى سمرقند ظهور أخطر فرق العنف، كاشفا ما تقود إليه من دمار. يدور عمله حول «مخطوط سمرقند» وعمر الخيام الشاعر الحالم والرياضى هو رمز الذوق والفن. والداعية إلى حرية الفكر ومناهضة العنف والتعصب.

وتدور أحداث الرواية بين مثلث الفيلسوف والحاكم والمتمرد، وهو المثلث الذى يتكون من عمر الخيام الذى رصد العالم، وحسن الصباح الذى أرهب العالم. والوزير نظام الحكم الذى حكمه. وكل منهم تعبير صادق عن الذات الفارسية.

ولعله فى روايته هذه يقف إلى جانب الإصلاحيين ضد المتشددين فى إيران ، وفى الوقت الذى يقف فيه عمر الخيام.. «محييا حرية الفكر المطلقة التى لا تكاد تعدلها حرية، والتى تفوق فى أعماله أشجع المفكرين المحدثين» يقف حسن الصباح كصاحب أول تجربة من نوعها

تتلاعب بالعقول تؤيد التعصب والعنف المسلح فى الشرق وربما فى العالم.

وتعيد الرواية إلى الذاكرة أمجاد حضارة فارس التى ألهبت خيال الشعراء والأدباء، والذى كانت قصائد الخيام صيحة ضد العنف «فما من حرب هى نزهة ، غير أن الأمم تنسى والبارود مسكر».

اجتمع الثلاثة نظام الملك والخيام والصباح، ثم تفرقت بهم الأيام، وخان نظام الملك العهد بعد أن نافسه الصباح فى بلاط السلطان السلجوقى ملكشاه مما أدى إلى اختفائه فحق عليه العقاب فدس عليه من يقتله.

وترك حسن الصباح سيرته.. «منذ طفولتى كنت أتوق لكى أكون من الفقهاء وذات يوم التقيت بالداعية عميرة الذى كان له أكبر الأثر على حياتى. وكانت له شخصية قوية وتمكن من إقناعى بما يدعو إليه. وأقسمت يمين الولاء للإمام الفاطمى، ورحلت إلى القاهرة حاجا إلى مقر الخلافة..»

وأودع السجن فى القاهرة ، وخرج منه إلى أصفهان، وأخذ يبحث عن قاعدة ومخبأ سرى ومعقل منيع وعثر على قلعة «آلموت». وهى تعنى باللهجة المحلية عش النسر، ومن سبتمبر ١٠٩٠ ، أصبحت وخلال مائة وستة وستين سنة مقرا لأخطر فرقة عرفها التاريخ.

ولم يغادر القلعة منذ دخوله وحتى وفاته بعد خمسة وثلاثين عاما، ويصف المؤرخ المعاصر له رشيد الدين عمليات هذه الفرقة.. «إن شيخ الجبل نصب الشباك والفخاخ من أجل صيد هدف كبير كنظام الملك»، وبهذا العمل ذاع صيته وعمت شهرته، وأرسى أسس الفدائية..».

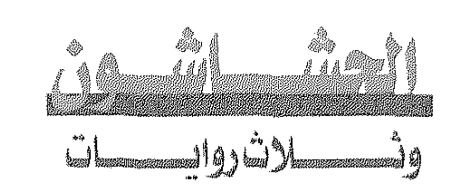
لقاء الخيام والصباح!

يلتقى عمر الخيام مع حسن الصباح مصادفة، فى إحدى غرف فندق فى قاشان، عندها أخذ عمر يتفرس فى هذا الرجل القصير الأسمر الهزيل والضامر.

ويسأله حسن.. كيف السبيل إلى إظهار الود لمن جاء يشاطرك حجرتك من غير أن يكلف نفسه عناء التعريف بشخصه؟! أتظن أنه ليس فى إمكان المرء معرفة الناس إلا بأسمائهم..؟ يمكن معرفتهم من نظراتهم ومن مشيتهم .. فمنذ دخلت عرفت أنك رجل علم متعود على التكريم. يقول عمر.. من أنت؟

قلك لك اسمى حسن الصباح، من «قم» ولست أدعى مجدا ولكن فى السابعة عشرة من عمرى اتممت قراءة جميع ما يتعلق بعلوم الدين والفلسفة والتاريخ والنجوم.

وأخذ عمر يطرح بعض الأسئلة - بدافع اللهو - عن أفلاطون وإقليدس وبرفوريوس وبطليموس. وعن طب دباسفوريدس وجالينوس والرازى وابن سينا، ثم عن التفسير والفقه.



ويأتى الجواب دقيقا محددا لا مؤاخذة عليه.

وسحر عمر، فلم يسبق له ان قابل أحدا يعرف كل هذا القدر من العلوم.

وبقدر الحديث عن علاقة عمر الخيام بحسن الصباح يتحفظ على علاقة حسن الصباح بالوزير نظام الملك يقول.. «تدور فى الكتب أسطورة تتحدث عن ثلاثة أصدقاء من الفرس. طبع كل منهم بطريقتين بدايات أعوامنا الألف: عمر الخيام الذى رصد العالم، ونظام الملك الذى حكمه وحسن الصباح الذى أرهبه.

ويقال إنهم طلبوا العلم معا فى نيسابور. وهذا ما لا يمكن ان يكون صحيحا، فنظام الملك أكبر من عمر بثلاثين عاما، وحسن درس فى الرى، وربما طلب بعض العلم أيضا فى «قم» مسقط رأسه.

وتقول مخطوطة سمرقند إن الثلاثة التقوا للمرة الأولى فى أصفهان فى ديوان الوزير بمبادرة من الخيام.

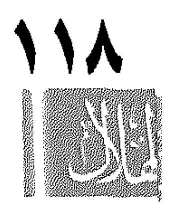
وعندما حاول حسن الصباح غلبة نظام الملك فى بلاط ملكشاه انتهت هذه المحاولة بالهزيمة واستخلص درسا بالغ القيمة، فبدلا من السعى إلى تغيير الأمراء . فإنه سوف يقيم آله حربية يحسب حسابها، آلة لا يشبهها فى شىء كل ما عرفته البشرية من آلات.

وحول أسطورة فردوس الصباح، تستشف من مخطوطة سمرقند.. كثيرا ما قيل إن رجال حسن كانوا يحذرون. ويقابلون الموت بابتسام، لقد أشاع ماركو بولو هذه الفكرة، وأطلق عليهم خصومهم «الحشاشين» للتقليل من اعتبارهم ، والحقيقة غير ذلك، فكان يحلو لحسن الصباح ان يطلق على مريديه «الأساسيين» أى المتمسكين بالأصول، وخيل للرحالة الأجانب أن لهذا اللفظ صلة بالحشيش.

أما مهمة تدريب الفدائى فهى مهمة دقيقة ينصرف إليها حسن بشغف ورهافة، فهناك تعليمه كيف يخفى خنجره. وكيف يستله بحركة خاطفة، وكيف يغرسه فى قلب ضحيته أو فى عنقه إذا كان يحمى صدره درع، وكيف يتقن الاندساس فى وسط معاد وغريب.

ويقول الخيام فى كتاب الحكمة.. «حينما يأتى زمن الانقلابات لا يستطيع أحد وقف مجراه، ولا يقدر أحد على الفرار منه، ويفلح بعضهم فى تسخيره ولقد عرف ابن الصباح، كما لم يعرف أحد سواه، كيف يروض ضراوة الدنيا، فقد زرع حواليه الخوف، ليوفر لنفسه فى ملاذه بالقلعة فضاء صغيرا من الدعة.

وأقام فى قلعة ولم يغادرها أبدا، ولم يخرج من صومعته سوى مرتين، وكانت



كلتاهما للوقوف على السطح.

وعند اقتراب نهايته، وعندما تتأمل العقل المتطرف، نرى أنه لا يعرف من الألوان سوى الأبيض والأسود، يحركه الغضب والإحباط، فهو يتعامل مع المجردات، ولا يتعامل مع الوقائع، يرفض العالم كما هو، ويرسم للعالم صورة غير واقعية رسمها في مخيلته ولا يرضى عنها بديلا. يفضل الموت على الحياة، وهو متشائم يبحث عن من يقوده، لذا يتبع قاعدة الولاء والطاعة، ولا يعرف قيمة الإنسان، لذا كثيرا ما ينقلب إلى الاتجاه المضاد.

ولم يعد هناك من يستطيع أن يتحدث إليه ويحاوره سوى الخيام، وعندما يطلب منه اللقاء، يرد الخيام ما الذى بينى وبين هذا الرجل من أمور مشتركة؟ أنا متعبد للحياة وهو عابد للموت، أنا أهتف قائلا: «إن كنت لا تعرف الحب فما يجديك شروق الشمس أو غروبها». وحسن يدعو الناس إلى تجاهل الحب والموسيقى والشعر والخمر والشمس والقمر، إنه يحتقر أجمل ما فى «الخليقة» ويجرؤ على التلفظ باسم «الخالق»، صدقنى اذا كانت قلعته هى باب الجنة فإنى استنكف دخولها. ولن أطأ أبدا غار النساك الزائفين ذاك.

ولم يكن غريبا إذن أن تنتصر رواية سمرقند لحكمة عمر الخيام على طيش حسن الصباح، ففى آخر حياة الصباح، اعتنق مبادىء وأفكار الخيام، واعتبر مخطوط سمرقند الذى انتزعه من مخبأه كتابا عظيما من كتب الحكمة ، وعهد إلى الفنانين بزخرفته، وطلب من أتباعه إسقاط التكاليف جميعا التى سبق أن فرضها عليهم!

ومخطوط «سمرقند» انتقل من يد إلى أخرى، وعندما دمرت القلعة حمل خازن الكتب هذا المخطوط وفر به إلى كرمان، وأخفاه حتى لا يعثر عليه أحد وصمت «المخطوط» من القرن الثامن الميلادى. وحتى تلقاه جمال الدين الأفغانى هدية فى القرن التاسع عشر وانتزع منه عندما داهمته الشرطة فى إيران وطرد خارجها، ويصل مخطوط سمرقند الى يد الأميرة شيرين التى تتزوج الراوى. ويسافران معا إلى الولايات المتحدة على الباخرة «تايتنك» التى غرقت فى ابريل عام ١٩١٢، ويقبع المخطوط فى أعماق المحيط.

وهى رواية تاريخية، نقلت بحق نبض الأحداث، بقلم غير منقطع الصلة بقلم كاتب «ألف ليلة وليلة» قام على حكم الخيام وأشعاره. ■



طريقة جديدة
وجميلة لكتابة التاريخ

قراءة فى رواية
جنفياف شوفيل

صلاح الدين بطل الإسلام

بقلم
د. قاسم عبده قاسم

توصف العلاقة بين الأدب والتاريخ عادة بأنها علاقة جدلية، إذ يؤثر كل منهما فى الآخر ويتأثر به. وربما يكون من الأصوب أن نصف هذه العلاقة بأنها علاقة تكاملية. فقد ظل التاريخ زمنا طويلا نوعا من أنواع الأدب من ناحية، كما أن الذين كتبوا التاريخ فى



الأزمنة القديمة والوسطى مزجوه بالشعر والنثر الأدبى وأجناس الأدب من ناحية أخرى.

وكانت القراءة الأولى لتاريخ البشر ممزوجة بالأساطير التى تتحدث عن الأصول وتحاول أن تحكى قصة البداية، كما أن الملاحم الكبرى لدى شعوب الأرض امتزجت بالتاريخ امتزاجا عضويا.

وفى التراث العربى القديم امتزج التاريخ بالشعر فى أيام العرب، كما امتزج بالحكاية والأسطورة فى الإنسان وفى قصص عرب اليمن وجنوب شبه الجزيرة، وعندما تطور الفكر التاريخى العربى بعد الإسلام ظل الأدب والتاريخ فى علاقتهما التكاملية التى تفصح عنها كتب المؤرخين العرب التى لا تخلو من النصوص الأدبية المبثوثة فى ثنايا الرواية التاريخية.. وقد ظل هذا التقليد ساريا حتى القرن الخامس عشر على الأقل.

أما التراث الأوروبى الذى يبدأ بكتابات هردوت، إمام الفكر التاريخى فى الثقافة الأوروبية عموما، فإن الأدب والتاريخ يتعانقان فيه بشكل واضح يتجلى فى «تواريخ» هردوت التسعة، وكتابات ثوكيد يدس. ثم فى التراث الرومانى فى كتابات شيشرون الذى اعتبر التاريخ بضاعة رائجة يحملها الخطيب المفوه الذى يجب أن يتسلح بالأمثلة التاريخية فى ساحات الخطابة.

وفى العصور الوسطى كان تأثير الأدب على التاريخ طاغيا إلى حد كبير، ولم يحدث سوى فى فترة متأخرة أن استقلت الدراسات التاريخية عن أقسام الأدب فى الجامعات الأوروبية.

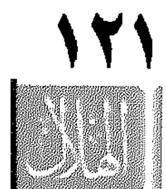
من ناحية أخرى، فإن الأدب، بأجناسه وأنواعه، مصدر هام من مصادر المؤرخ يستكمل به صورة الحدث الذى يسترده من ذمة الماضى. فإذا كانت المصادر التاريخية التقليدية تساعدنا على استعادة شكل الحدث من الماضى، فإن الأدب يساعدنا على بث الروح فى هذا الحدث المستعاد. وفى المقابل نجد أن التاريخ منبع الإلهام للكثير من الإبداعات الأدبية بكافة أجناسها، إذ يحدث كثيرا أن يكون حادث تاريخى ما، أو بطل تاريخى، مصدر إلهام لعمل أدبى أو فنى. وربما تكون الرواية التاريخية هى أكثر الأجناس الأدبية اعتمادا على التاريخ.

وهذا هو السبب فى اختيار رواية «صلاح الدين» - بطل الإسلام» لجنفياف شوفيل فى هذه الدراسة، وربما يكون مناسبا أن نذكر أنفسنا بأن الرواية التاريخية نمط من أنماط الرواية يتخذ التاريخ قاعدة له، وفيه يحاول المؤلف أن يمزج الواقع التاريخى بالخيال الفنى محاولا الحفاظ على التوازن بين «الصدق الفنى» و«الصدق التاريخى». فحدود الزمن التاريخى والأحداث التاريخية الرئيسية والأبطال التاريخيين - كلها أمور

الرواية كتبت فى الأصل بالفرنسية Saladin, rassembleur de i.Tslam - Genevieve Chauvel Editns pygma liqn, Paris 1991

الترجمة العربية

صلاح الدين بطل الإسلام ، ترجمة جورج أبى صالح . دار الأميرة، بيروت ١٩٩٢



يجب الحفاظ عليها ومراعاتها، ويبقى للمؤلف حق ابتكار الشخصيات والأحداث الفرعية التى تخدم هدفه الفنى وتكسبه مذاق الإبداع الذى يميز مؤلفا عن مؤلف آخر.

اعترافات صلاح الدين

رواية «صلاح الدين - بطل الإسلام» التى كتبتها جنفياف شوفيل عبارة عن سيرة ذاتية على لسان صلاح الدين الأيوبى نفسه. وربما يكون هذا هو الجانب الخيال الوحيد فى الرواية كلها، فقد تخيلت الكاتبة أن صلاح الدين الأيوبى يحكى قصة حياته منذ يوم ولادته. والأحوال التى مرت بها طفولته وصباه قبل أن يصل إلى سن الشباب ويجد نفسه فى خضم نظام التربية والتدريب الصارم الذى كان الأمراء من بنى أيوب، وغيرهم، يخضعون له قبل أن يتولى أى منهم مسئولية ما. وهنا نجد شيئا فريدا فى «الروايات التاريخية» يجعلنا نقرر أن ما كتبته جنفياف شوفيل نوع من «رواية التاريخ» أكثر منه «رواية تاريخية».

وتفصيل ذلك أن المؤلفة كشفت عن معرفة عميقة بأدق تفاصيل الأحداث السياسية والعسكرية التى جرت فى المنطقة العربية آنذاك من ناحية، كما كشفت عن قدرتها على كتابة التاريخ بهذا الشكل الروائى الفذ من ناحية أخرى. فقد حفلت الرواية بتفاصيل كثيرة وأسماء عديدة فى فترة التكوين التى مر بها صلاح الدين، وكشفت عن جوانب عاطفية ووجدانية فى شخصية هذا البطل المسلم فسرت الكثير من تصرفاته اللاحقة عندما صار هو قائد الجبهة العربية الإسلامية فى مواجهة الفرنج الصليبيين.

تتحدث الرواية عن ميول صلاح الدين الأدبية والفقهية، كما تتحدث عن نزعاته الصوفية، فضلا عن كراهيته للعنف والقوة الغاشمة التى ميزت تلك العصور التى امتزجت فيها الوحشية العسكرية بالتدين بسبب التعصب الذى زرعته الحروب الصليبية فى المنطقة. وتتحدث الرواية عن علاقته الجميلة بأمة، وعن حيرته فى التعرف على نفسه والبحث عن ذاته. وفى هذا كله نجد الخيال فى خدمة التاريخ. إذ إن المؤرخ العارف لا يستطيع أن يمسك بتلابيب الخيال منفردا جامحا، وإنما يجده دائما ممتزجا بالحقائق التاريخية بشكل بديع يبعث على الإعجاب والعجب. الإعجاب بقدرة المؤلفة المؤرخة على لم شتات هذه التفاصيل فى سياق روائى والعجب من تمكنها على توظيف الخيال لخدمة التاريخ وليس العكس كما يحدث فى الروايات التاريخية عادة.

بين جنفياف وزيدان

إن الفارق بين هذه الرواية وروايات جرجى زيدان، مثلا، أن جرجى زيدان كان يرى أن عامة القراء لا يقبلون على قراءة التاريخ إلا إذ كان فيه قدر كبير من الخيال، ومن ثم فإنه وظف التاريخ فى خدمة الفن الروائى، وعلى نهجه سار عدد كبير من الروائيين منهم محمد على باكثير، ومحمد فريد أبو حديد، والعريان... وغيرهم لكن الأمر مختلف فى هذه الرواية، فهى فى تقدير تاريخ خالص لم يلعب فيه الخيال غير دور التقديم والربط والحبكة الروائية. من ناحية أخرى، فإن الجغرافيا فى رواية «صلاح الدين - بطل الإسلام» جغرافيا حقيقية تجعلك تحس أن المؤلفة المؤرخة كتبت روايتها على خريطة المنطقة العربية.

وتبدو فصول الرواية بعناوينها المثيرة فى صورة الترتيب التصاعدى لأحداث الرواية بالشكل الذى يجمع بين حبكة العمل الفنى من ناحية، وحقائق السيرة التاريخية لبطل

الإسلام من ناحية أخرى. فالفصول الأولى، بطبيعة الحال، فصول تمهيدية تتحدث عن مولد صلاح الدين، ورحيل الأسرة تحت وطأة الظروف السياسية والعسكرية المعاكسة، ثم الاستقرار فى أعالى العراق وبداية التكوين والبيئة التى شهدت بداية تكوين البطل. مع قدرة فذة على تصوير الشخصيات التاريخية التى نعرفها من مصادرنا التاريخية بحيث تعايشنا ونعايشها. والفرق بين ما كتبته جنفياف شوفيل وما كتبه المؤرخون المعاصرون يشبه الفرق بين الفيلم السينمائى، أو الفيديو، والصورة الفوتوغرافية، كلاهما الشخص نفسه ولكن الفارق بين حيوية الفيلم وجماد الصورة واسع وكبير.

سيرة بطل

لكن الرواية تكتسب جمالا تاريخيا وفنيا عندما تبدأ فى تتبع صلاح الدين وهو فارس فى جيش عمه «أسد الدين شيركوه» الذى أرسله نور الدين محمود للتصدى لمحاولات الصليبيين الاستيلاء على مصر. كان نور الدين محمود قد خلف أباه عماد الدين زنكى فى زعامة الجبهة الشمالية على محور الموصل - حلب، وبعد أن نجح فى استرداد إمارة الرها سنة ١١٤٤ م أخذ يضغط بقوة على أعصاب الفرنج الصليبيين وممتلكاتهم فى شمال بلاد الشام. وكان طبيعيا أن تتجه أنظار هؤلاء إلى مصر التى كانت أشبه بالرجل المريض الراقد على ضفاف النيل. وقد أدى صراع الطمع فى السلطة بين شاور وضرغام إلى إتاحة الفرصة للتسابق بين نور الدين محمود وعمورى ملك الفرنج على الفوز بمصر، وفى خضم هذه الأحداث بزغ نجم صلاح الدين الأيوبى وبانت مواهبه.

وهنا كشفت المؤلفة المؤرخة مرة أخرى عن قدراتها الفذة، وعن حيادها العلمى. فقد أوضحت تماما أبعاد الصراع بين الفرنج الصليبيين والعرب المسلمين،وهو صراع بين مستوطن جاء من بلاد بعيدة وغريبة ليطرد شعبا من أرضه ليقيم مكانه. وكشفت جنفياف شوفيل عن حقائق وتفاصيل كثيرة فى هذا الصراع بشكل يشى بأنها قرأت العديد من المصادر التاريخية من الجانب العربى ومن الجانب اللاتينى على حد سواء. وفى هذه المرحلة ايضا كشفت الرواية عن جوانب هامة من شخصية صلاح الدين التى انضجتها التجارب والأخطار. كما رسمت باقتدار صور الزعماء والقادة من الجانبين.

المرحلة الأخيرة فى الكتاب تحتل الفصول التى تتحدث عن صلاح الدين وزيرا للخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بالقاهرة، وعودة مصر إلى المذهب السنى، ثم موت الخليفة والصعوبات التى واجهت صلاح الدين فى سبيل توطيد سلطانه بمصر، وما واجهه من مؤامرات عنيفة بين بقايا القوى السياسية الموالية للفاطميين. ولكن الرواية لم تغفل الحديث عن حياته الخاصة، وعلاقاته الأسرية، والجوانب الإنسانية الأخاذة فى شخصية البطل المسلم الذى تبدى المؤلفة المؤرخة إعجابا واضحا به . ثم تتحدث الرواية عن الوحشة بينه وبين نور الدين محمود بطريقة بسيطة وجميلة. وعندما يموت نور الدين



محمود نجد الرواية تدخل فى تفاصيل العلاقات الإنسانية والسياسية والأحداث العسكرية بشكل لا نجد له مثيلا حتى فى الدراسات التاريخية الحديثة التى اهتمت ببحث سيرة صلاح الدين الأيوبى.

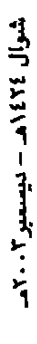
الأحداث الأخيرة تبرز فيا قامة صلاح الدين بطل الإسلام أعلى من كل معاصريه لاسيما بعد أن خلا المسرح من سيرة نور الدين محمود وعدوه عمورى الأول ملك بيت المقدس الصليبى. وكم كان جميلا أن نرى بطلنا يعيش التوتر والقلق والخوف، ثم لحظات الفرح والانتصار، ثم الترقب، والانتظار. فنحن أمام بطل تاريخى جردته المصادر التاريخية التقليدية من إنسانيته وصورته لنا من خلال الأحداث وحدها. ولكن هذه الرواية أعادته لنا إنسانا نعايشه فى قصره، ومع أبنائه وخواصه، ونجلس معه فى خيمته، ثم نصحبه على صهوات الخيول فى طرق السفر وفى ميادين القتال. يعرف الغضب، ويعتصم بالحلم، يعاقب فى عنف، ويعفو عن مقدرة، ولكنه يمضى فى طريق نحو هدف كرس حياته له هو الدفاع عن مقدسات الأمة التي التفت حوله وباركت خطاه.

شجاعة فارس

تتوالي الأحداث بكل تفاصيلها الصغيرة في صفحات رواية جنفياف شوفيل حتى نجد أنفسنا مع صلاح الدين الأيوبى وقواته نحاصر حصن الكرك، ثم تبهرنا شجاعته ونبله حينما يسمح لعروس من الفرنج وعريسها بالخروج من أحد ابراج الحصن لاتمام زفافهما على حين يدور القتال حول الأبراج الأخرى. وتعترينا الدهشة عندما يأمر البطل المسلم فرقة عسكرية من فرسانة بحراسة العروسين حتى يصلا إلى مكانهما.

وفى حطين سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م تتقطع أنفاسنا مع الاستعداد للقتال ونصلى مع الجنود المسلمين ونبتهل الى الله طلبا للنصر، ونتسلل مع جنود الاستطلاع الذين يضرمون النيران فى الاعشاب الجافة فوق قرون حطين لتزيد من سوء أوضاع القوات الصليبية ليلة المعركة ، ونهلل مكبرين طوال الليل لنبث الرعب فى أولئك الفرنج الملاعين الذين تركوا بلادهم البعيدة لكي يحتلوا بلادنا ويستوطنوها. وتدخل ذرات الغبار والدخان فى عيوننا وانوفنا ونحن نتابع أحداث المعركة التى انتهت بتحطيم زهرة الجيوش اللاتينية وأسر قادتها وعلى رأسهم ملك بيت المقدس جاى لوزرنيان المذعور. ولكننا نكتشف ان البطل المسلم ذا الخصال النبيلة يتحول إلى أسد هصور وهو يطيح بسيفه رأس أرناط «رينالد دى شايتون» أمير الكرك الصليبى الغادر المغرور. ثم يعود مرة أخرى بطلا يتخلق بأخلاق الشهامة العربية وهو يطمئن الملك الصليبى المذعور بأن «الملوك لا يقتلون الملوك».

أما مشهد تحرير القدس فإن الرواية تحتفى به احتفاء خاصا، وهى تجسد روايات المؤرخين، من العرب والفرنج، عن السلوك الإنسانى للمنتصرين. لم يذعنوا لرغبات الانتقام التى كانت تحرضهم على أخذ الثأر للمذبحة البشعة التى ارتكبها الصليبيون بحق سكان المدينة المقدسة قبل ثمانية وثمانين عاما عندما ذبحوا الأهالى المسالمين وتباهى مؤرخوهم بأن الخيول والمشاة كانوا يخوضون فى دماء الضحايا حتى أعقابهم، وعندما كانوا يجمعون الجثث أكواما ليحرقوها ثم يفتشون فى رمادها عن الذهب الذى توهموا أن سكان المدينة قد ابتلعوه حتى لا يأخذه الفرنج على العكس من ذلك كله، امر صلاح الدين جنوده بعدم المساس بالمدنيين الذين يلزمون منازلهم ، وسمح للبطريرك بأن



يحمل معه الذهب والاحجار الكريمة ونفائس الأشياء التى حملها فوق بغاله وخرج تحت سمع الجنود المسلمين وبصرهم.

الحملة الصليبية الثالثة

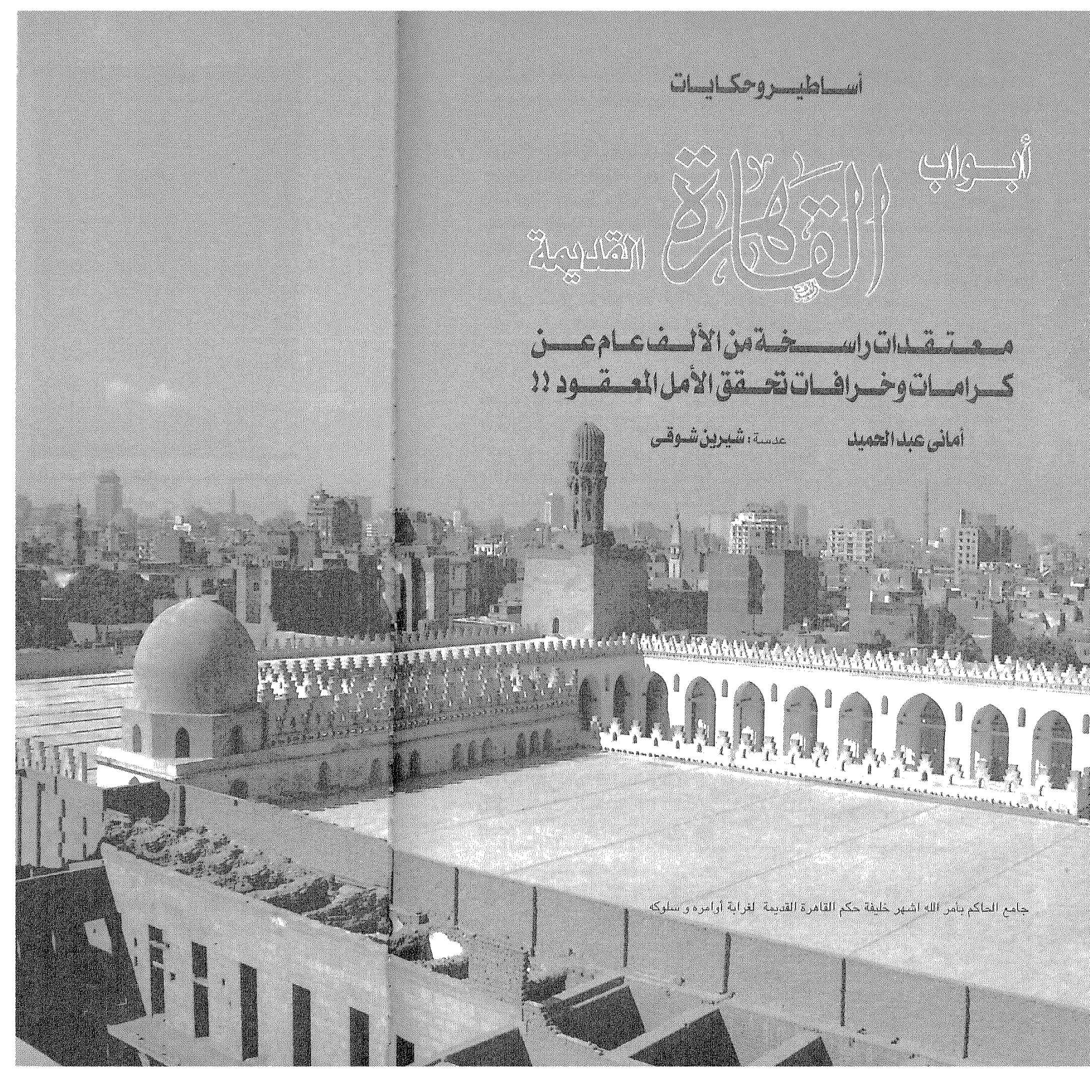
الفصول الأخيرة من رواية «صلاح الدين بطل الإسلام» تتحدث عن أحداث الحملة الصليبية الثالثة التى جردتها اوروبا الكاثوليكية ضد المنطقة العربية نتيجة لمعركة حطين وتحرير القدس، والتي جاء على رأسها ثلاثة من رؤوس أوروبا المتوجة: فردريك بربروسا «صاحب اللحية الحمراء» المسن امبراطور المانيا، وفيليب اغسطس ملك فرنسا القبيح المخادع، وريتشارد الاول «قلب الأسد» ملك انجلترا المشاغب. وقد انتهى الامبراطور الألمانى المسن غرقا فى احد انهار اسيا الصغرى وتشتت جيشه ولم تصل منه الى فلسطين سوى شراذم قليلة، أما الملك الفرنسى فقد مكث فترة بفلسطين يكيد لريتشارد . ثم عاد الى بلاده يواصل دسائسه ضد ملك الانجليز.

ونجحت الرواية نجاحا باهرا فى تصوير الصراع الإنسانى والعسكرى والسياسى ضد الملك الانجليزى ، بكل ما اشتهر به من تهور وخداع وعدم الوفاء بالعهد والسلطان المسلم بكل ما عرف عنه من شجاعة وكرم وأريحية وإنسانية. ومع الاحتفاظ بكل التفاصيل التاريخية الصغيرة، نجحت الرواية فى تصوير الجوانب البشرية فى هذا الصراع من خلال عروض الزواج والمصاهرة والمحادثات التى جرت لاقناع صلاح الدين بالموافقة على زواج أخيه الملك العادل من إحدى الأميرات الفرنجيات بسعاية ريتشارد. واستطاعت الكاتبة ان تغوص بنا فى أعماق النفس الإنسانية بخيالها الفنى الذى ساندته معلوماتها التاريخية الغزيرة.

انتهى الصراع بين صلاح الدين وريتشارد الأول بصلح الرملة الذى أبقى الحال على ما هو عليه. ورجع الملك الانجليزى الى بلاده عن طريق يبعده عن أعدائه الكثيرين فى أوروبا، ولكنه وقع فى الأسر، ولم يخرج من سجنه الا بعد دفع فدية ضخمة، وعلى شاطىء نورماندى الفرنسى لقى مصرعه بسهم أطلقه احد الجنود من قلعة كان يحاصرها . وانتهى الدور التاريخى لملك انجلترا المشاغب.

اما الناصر صلاح الدين الأيوبى فقد حكى لنا ما حدث فى أيامه الأخيرة بأسلوب جنفياف شوفيل المثير. وعندما توفى لم يجدوا فى خزانته من المال شيئا يذكر. بيد أنه ترك فى خزانة التاريخ كنزا رائعا يمكن لكل الاجيال من بعده ان تأخذ منه.

هذه الطريقة الجديدة، والجميلة، لكتابة التاريخ - او قراءته - هى التى ميزت هذه الرواية التاريخية البديعة. ولأنها طريقة جديدة وجميلة فإن نتيجتها مدهشة لاسيما وأنها التزمت بالحقائق التاريخية من ناحية، وبالموضوعية التى ينبغى ان يتميز بها البحث التاريخى من ناحية ثانية. ■



جامع الحاكم بأمر الله أشهر خليفة حكم القاهرة القديمة لغرابة أوامره وسلوكه

أساطير وحكايات تدور حولها ولا تقل خيالا عن الحياة داخلها. مرويات لا يزال الواقف على بابها يتلاسنها مع كل داخل وكل خارج. تحكى عن حكايات حاكم منصور وآخر معزول، وعن قائد جيوش وشجاعة مملوك. وعن آخر مهموم مأزوم وغيره يدعو الى رحمة الله الواسعة. كل ذلك عن الحياة داخل القاهرة القديمة التى عاشت حياة حافلة بالتاريخ والأحداث والأهوال، تماما كما قرأنا فى حكايات ألف ليلة وليلة. ورغم مرور السنين ورغم التغييرات التى طرأت على وجهها إلا أن حكاياتها هى نفس الحكايات التى تسرد تاريخ أقدار البشر الذين عاشوا بين ضلوعها وأسوارها وأبوابها .

منذ مئات السنين تراه يجلس على مقعده الخشبي أمام متجره يدخن النارجيلة، يقطع وقت فراغه بالتأمل أو التحاور مع أحد جيرانه. وتتخيل وأنت تراه في جلسته وهو متكئ الظهر على أحجار بوابة القاهرة القديمة أن الوقت لن ينقضي. وأن حياته يملؤها الضجر الذي يثير اليأس من التغيير . والمفارقة أن فكرة التغيير غير مطروحة على بال ذلك التاجر المتأمل. فهو كغيره من المصريين يكره التغيير وينظر إليه بتوجس. فالأمن في الثبات والرسوخ والقلق والخوف ينبع من قلب الأوضاع الموروثة. ورغم أن القاهرة القديمة أعيد بناؤها المرة بعد الأخرى. وفي كل مرة تفقد جزءا من بهائها. غير أن ما يتبقى فيها تلك الروح الكامنة داخل جسود سكانها، وحكاياتهم المروية التي تتوارثها جيلاً بعد جيل. وهي معتقدات راسخة لا تقبل التغيير تماما كحياتهم المستمرة داخلها منذ أمد بعيد .

وهذا ما يفسر ارتباط الكثير في الخرافات والحكايات التي تصل الى حد الأساطير بأبواب القاهرة القديمة منذ قيام القائد الفاطمي جوهر الصقلي ببناء قاهرته وإحاطتها بأبواب وأسوار ضخمة. والمرويات الخيالية يتناقلها الناس فيما بينهم عن تلك الأسوار. فنجد الكثيرين يقفون أمام البوابة القديمة يبحثون دائما عن أمل مفقود أو أمنية طال انتظار تحقيقها. بل حتى المارين من بين ضلفتيها الكبيرتين يتملكهم حنين غامض الى تلك الأماني. ويرددون دعواتهم في الخفاء داخل الصدور حبيسة . تلك حكايات إنسانية حميمة ارتبطت في أذهان الناس بأبواب القاهرة لتؤكد الخصوصية غير العادية التي تتمتع بها، والتي تدفع أحاسيس المؤمنين بها لتسير داخل متاهات من الأحلام وأحيانا الأوهام!

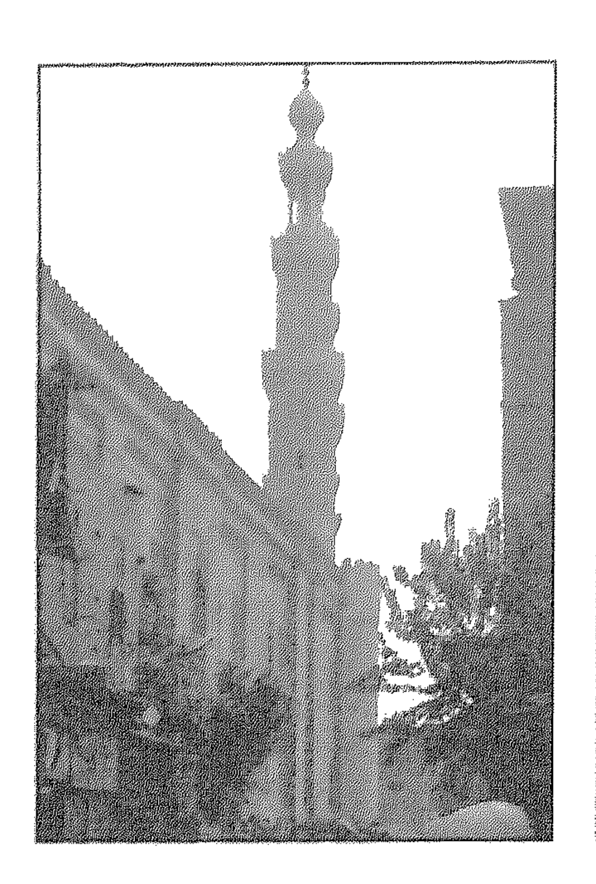
منذ بناء القاهرة وأبوابها الثمانية التي تتخلل جسد أسوارها الحصينة لم يكن الغرض من بناء تلك الأبواب والأسوار التي تدور حول المدينة أن يتم بناء داخلها عاصمة للقطر المصري. وإن كان الغرض أن تكون مقرا للخليفة ورجاله وعبيده وموظفيه (وصل عددهم الى ما يقرب من ٣٠ ألف من الحاشية). ولم يكن مسموحا لعامة أهل مصر الدخول اليها الا بعد الحصول على إذن . حتى أن سفراء الدول الأجنبية كان عليهم أن يترجلوا حينما يصلون أمام الأبواب. ثم يدخلون مقر الخليفة وسط حراسة الجند. لذا كانت القاهرة دوما مدينة ملكية وليست مدينة للعامة . لذا كانت مثارا لخيال عامة البشر نظرا لجدرانها الشاهقة ولأبوابها الحصينة التي سكنها الجنود المرابطون . فعاشت المدينة في عزلة وغموض تثير حولها الأساطير والحكايات. ويقول المقريزي إن أبواب القاهرة هي : باب النصر وباب الفتوح من الجهة الشمالية. باب القنطرة المؤدي الى جسر جوهر فوق الخليج. وباب الفرج أو باب الشعرية. وباب سعادة أو باب خوخة من الغرب. ثم باب زويلة من الجهة الجنوبية. وفي الشرق باب المحروق الذي أحرقه المماليك في القرن الثالث عشر والباب الجديد الذي بناه الحاكم بأمره. وباب البرقية الذي يعرف باسم باب الغريب.

زويلة والأمل المفقود

على البوابة الخشبية العتيقة، وعلى مساميرها المعدنية الصدئة ترى شعرات رأس معقودة ، وخيوط متهالكة مربوطة بل وبعض قصاصات الملابس المتهالكة (الأطر كما يطلقون عليها) يأتي بها كل ذي حاجة أو أمنية أو ضائقة. يربطها ويعقدها على



مركب سيدي المتولي رمز رحلته من وإلى مكه المكرمة



مئذنة جامع المؤيد شيخ التي تعلو برجي باب زويله

مسامير البوابة أملا في قدوم الفرج، وانقشاع الغمة، أو الضائقة أو تحقيق الأمل الذى كان صعب المنال. وفى الوقت نفسه تجد أهالى الحى كبار السن خاصة النساء الطاعنات يقومون بحل العقد وفك المربوط أملا من فى أن تنال كل نفس آمالها وتزول ضائقة أصحابها. هذا هو الحال كل يوم منذ ألف عام. وحتى يومنا هذا. عند بوابة زويلة أو كما يطلق عليها أهالى المكان بوابة «المتولي». لا يزال يعبرها المهموم والمأزوم وأهل الخير والمتبرع بفك العقود والدعوة الى رحمة الله ايمانا منهم ببركاتها وحكاياتها.

وبرغم أن الكثير من الخرافات والأساطير قد ارتبطت بصفة عامة بالأبواب القديمة الا أن باب زويلة كان له النصيب الأكبر من الخيال.لذا ظل على مدى تاريخه بقعة آهلة بالسكان. برغم ارتباطه بالموت الا انه ارتبط بالأمل أيضا.

فعلى بوابته كانت عمليات الإعدام تتم مثال ذلك عندما أصدر سليم الأول قرارا باعدام الأمير المملوكى «طومان باى» بعد هزيمة المماليك ودخول العثمانيين. وأمر بمكوث جثته معلقة على بوابة زويلة على مدى ثلاثة أيام. إلا أن كآبة الموت على البوابة لم يغير من العتقاد السائد بأن عقد الشعر أو الخيوط أو قطع القماش على مساميرهاالمعدنية من المؤكد أنها تحل مشكلة صاحبها أو تزيل غمته وهمه اذا ما قام أحد المارين بحل عقدتها وفك رابطها بالبوابة. ويذكر لنا المقريزى أن الباب الأصلى كان يوجد بجوار معبد «شم» ابن سيدنا نوح. وهو الباب الذى دخل منه المعز لدين الله حينما جاء الى القاهرة الجديدة فى زيارة رسمية. وحذا حذوه الناس جميعا. وكان جوهر الصقلى قائد جيوش الخلافة الفاطمية بعدما حدد مساحة القاهرة ومكانها. شيد حولها

سورا من الطوب اللبن. لكن «الصقلي» حرص على انشاء الأبواب بين برجين عملاقين. ثلثا كل برج مصمت بالطوب والثلث العلوى مفرغ.. ليحتوى على نوافذ يقف فيها الرماة بالسهام والنار والماء المغلى للدفاع عن المدينة. ويذكر لنا ستانلى لينبول فى كتابه سيرة القاهرة أن الوزير بدر الدين الجمالى وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمي عندما جاء حكمه سمعت القاهرة مرة أخرى صوت موالج البنائين. ذلك أن القاهرة كانت فى حاجة ملحة الى التحصين واصلاح ما سبق وأن أفسدته القوات المتمردة والحروب. فالسور القديم المصنوع من الآجر قد اختفى فى ثنايا المدينة التى استعت وأصبحت تصل الى خارج الأبواب الثلاثة التى بناها «جوهر» . لذا قام بهدمها وأعاد بنائها بالحجر فى عام (١١٨٧، ١١٩١). وبنى حائطا جديدا من الآجر حول المدينة والذى عمل صلاح الدين الأيوبى على توسيعه فيما بعد. ويوضح «لينبول» أن الأبواب الثلاثة الكبيرة (زويلة / النصر / الفتوح) لم يطرأ عليها تغيير كبير. الا أن أبراج باب زويلة قصرت لكى تستقبل مآذن جامع المؤيد فى القرن الخامس عشر . ويصفه «المقريزى» بقوله «أخبرنى من طاف البلاد ورأى مدن المشرق أنه لم يشاهد فى مدينة من المدائن عظمة باب زويلة، ولايرى مثل بدنيتيه اللتين عن جانبيه».

يامتولى ياقطب

وإن كانت نيرى هامبكيان أستاذة الترميم بمركز البحوث الأمريكية بمصر التابع للوكالة الأمريكية للتنمية الدولية وهى التى أشرفت على مشروع ترميم باب زويلة (١٩٩٨ - ٢٠٠٣) كانت لها آراء مثيرة حول حكايات وأساطير باب زويلة العظيم. فتقول عندما أتولى عملية مبنى أو مكان أو باب علىّ أولا معرفة حكاياته حتى تنفتح أمامى أسراره وبالتالى تتحول العلاقة بينى وبين المكان الى علاقة حب وطيدة» وهذا ماحدث لها عند البدء فى مشروع ترميم باب زويلة. حيث أكدت أنه بعد خلع ضلفتى الباب للبدء فى ترميمهما اكتشف فريق العمل أشياء لم تخطر على بال أحد منا .. مئات الأسنان البشرية، قصاقيص القماش المتهالكة، والخيوط.. والتى تناثرت بعد القيام بخلع المسامير المعدنية التى لا وظيفة لها سوى أنها مجرد حليات مضافة الى جسم الباب . لذا أقبل فريق العمل على القيام بحفائر خلف ضلفتى الباب فوجدنا مئات فى الأحجبة والأعمال السحرية القديمة وعدد كبير من العملات المعدنية على مر العصور.. وتضيف أن تلك الاكتشافات فسرت الكثير فى سلوكيات الناس الزائرين للباب فى يومنا هذا. فالأمر متوارث منذ زمن طويل. حيث كان أهالى القاهرة يعتقدون فى قدسية باب زويلة ويعتبرون الدعوة على بابه مستجابة باذن الله. ويبررون ذلك بأن حارس الباب أو الذى يتولى أمره هو «سيدى المتولى» وهو بالنسبة لأتباع المذهب الصوفى. أحد أقطاب العالم وبعض منهم يعتقد أنه القطب الأوحد. ويعتقدون أنه الشيخ المتولى أو كما ينادونه (يامتولى ياقطب) قادر على الاستشراف وعلاج الأمراض وتحقيق الدعاوى والأمانى. ويعتقدون أنه يسكن فوق سطح الكعبة المشرفة. وعند كل فجر يبدأ يومه بقوله «يارحمن يارحيم» وبعدها يتنقل بين أرجاء العالم كله. لكنه لا يستقر الا عند المكان الذى يرتاح له ويأنس له وهو بالطبع «باب زويلة» فهو مكانه المفضل. وتوضح «هامبكيان» أن المركب الخشبى الصغير المعلق فوق

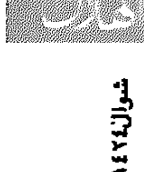
البوابة الشرقية هو رمز رحلة الذهاب والعودة الى مكة والحج اليها. وتذكر أن عددا كبيرا من أهالي المكان خاصة كبار السن منهم هلعوا عندما أنزلنا المركب لترميمه وكان القلق واضحا عليهم. كل منهم يأتي ليسأل عن مصير المركب الخشبى محذرين من عدم تسليمه إلى المتحف الاسلامى . واصرارهم على مكوثه فوق بوابة المتولي. حتى لا يفقدوا أملهم فى النجاة. وتصف لنا أن بوابة «المتولي» كانت دوما على مدى السنين مكان التقاء المصريين من كل صوب فى القرى والنجوع البعيدة. خاصة في الموالد والأعياد. يأتون محملين بأحجبتهم وأدعيتهم التى تحمل اسم المتولي. حتى أن الضريح الملاصق للبوابة والجامع المؤيد.. يمتلئ وقتها بالتماثيل غريبة الشكل. فهى هياكل طينية بلا أيدى أو أرجل أو رأس يضعونها داخل الضريح أملا فى تحقيق أمنية عزيزة مثل من لم يرزقه الله بالأطفال او بالولد او لم تتزوج أو لم تنجب وتؤكد انها قامت بجمع كل المتعلقات بتلك الحكايات الشعبية المروثة وقامت بعرضها داخل السبيل القريب من البوابة وهو سبيل نفيسا البيضا «وأطلقت عليه «روح المتولي» .

فى حين يؤكد الدكتور مختار الكسباني أستاذ الآثار الاسلامية وأحد أعضاء لجنة مشروع تطوير القاهرة التاريخية أنه لا يوجد باب من أبواب القاهرة القديمة إلا ونجد بجواره ضريحا لأحد الأولياء الصالحين. وكأنه رمز لرموز الشهادة والدفاع فى سبيل الله. بل وقد تكون تلك الأضرحة وهمية وليست أماكن دفن حقيقية. بل وقد تحمل مسميات مختلفة لكل الناس تتبارك بزيارتها. مثال ذلك «باب سعادة» بجواره ضريح أطلق عليه الناس «الست السعادة» رغم أن الباب يحمل اسم «سعادة بن حيان» قائد من قوات الجيش الفاطمى. لكن مع المصريين وحكاياتهم التى يتناقلونها تحول الى ضريح مبارك وأنه لسيدة وتحمل كرامات وبركات. وأصبح له مكان يزورنه بشكل مستمر يشعلون الشموع داخله.

لماذا هي فريدة؟

ومع تقادم الزمان نجد أن لكل قصة جديرة بأن نرويها. قصة انتصار أو انكسار او قصة زهد او ثراء وبهاء. فإذا اتجهت بنظرك لأعلى لتشاهد مآذن جامع المؤيد الشامختين فوق برجي بوابة زويلة من الممكن ان تسمع حكايات المؤيد شيخ الذى كان حبيس السجن الملاصق للبوابة. ولكنه أنذر وتعهد أنه اذا فك الله أسره وسجنه فإنه سيبنى مكان سجنه جامع كبير يرتاده الناس ليصلوا فيه ويتذكرون حكاية صاحبه وهذا ماحدث .

لذا نجد البرفيسيور اولج جرابار أستاذ العمارة التاريخية فى جامعة كامبردج يطرح تساؤلا «لماذا هى فريدة؟» فى دراسة له حول معنى التاريخ فى مدينة القاهرة . ويقول «قد لا يكون فى القاهرة مكان آخر أكثر روعة من باب زويلة حيث يدعم السور الفاطيمى الذى يرجع تاريخه الى ـام ١٠٩٢ حيث يدعم السور مدلاديه. ومسجد المؤيد الذى يرجع الى (١٤٠٥ ـو. ١٤٢٠) . وحيث يقع بالجوار جامع الصالح الطلائع المميز للغايات حيث تفتح الساحات في اتجاه كافة أجزاء المدنية القديمة. ورغم أن المكان يضم عدة طرز انشائية مختلفة ومبان ذات وظائف متكررة كلها تلاصق بعضها البعض. ورغم تفاوتها الا انها تمثل وحدة حياة المدينة . بأنشطتها غبر المحدودة. وأصبحت هذه المعالم ببساطة شريكة

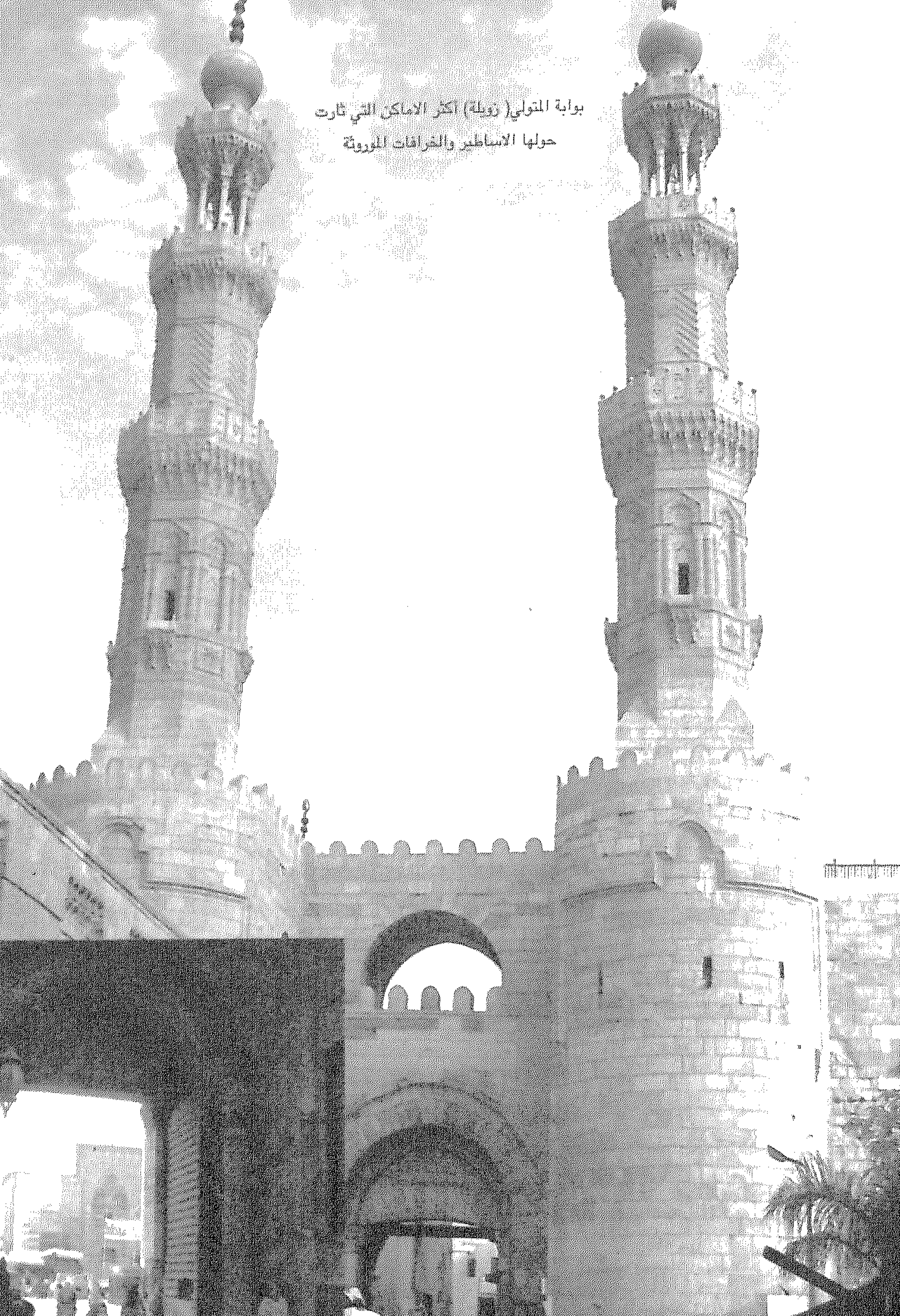


بالمصادفة للحياة المستمرة . وبالتالى فيمكن لمبنى برج حربى أن يصبح قاعدة لمئذنة أو مكان يستخدمه تاجر اليوم لتعليق بضائعه. حيث أنه موجود وينتمى إلى أى شخص يستفيد منه.. لذا فهى مكان فريد..».

امام بابى العز والاقبال

ورغم أن الحكايات والخرافات ارتبطت كثيرا بباب زويلة . غير ان باب النصر وباب الفتوح الحدود الشمالية للقاهرة الفاطمية كان لهما نصيب ايضا. فى خيالات الناس القريبة منها . فرغم أن البوابتين تحملان فى الأصل اسم «باب العز» و«باب الاقبال» كما يذكر الدكتور «الكسبانى» الا أنهما ارتبطا فى أذهان البشر باطلاق اسم باب النصر وباب الفتوح عليها ويقال ان باب النصر سمى كذلك لأنه كان مخصصا لاستقبال الجيوش الفاطمية العائدة من الحروب.. وذلك تفاؤلا بأن تعود منتصرة في حروبها. أما «باب الفتوح» فكان مخصصا لنفس تلك الجيوش ولكن لدى خروجها الى الحرب وذلك طلبا وأملا فى أن يفتح عليها الله وتنتصر. لذا كان الفاطميون يضعون أعلى كل بوابة عبارة استهلالية «بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لاشريك له ، محمد رسول الله وعلى ولى الله.. صلى الله عليهما وعلى الأئمة وذريتهما أجمعين» وذلك تيمنا وتباركا طبقا لمعتقداتهم الشيعية.. ويوضح لنا الأثرى صابر غازى مفتش آثار والمشرف على ترميم سور القاهرة الشمالى ان بوابة النصر تعتبر البوابة التجارية حيث يحيط بها سوق البصل والثوم. وهى سوق جملة يرتادها تجار الخضراوات لشراء البصل والثوم منذ سنوات طويلة . وبالقرب منها أيضا سوق النحاسين الشهير المخصص لصناعة النحاس ومنتجاته. لذا يوضح أن ذلك دفع الخليفة الى وضع لائحة بقيمة الضرائب المفروضة على كل السلع الداخلة الى القاهرة لكى يتم بيعها. وأمر بوضع تلك اللائحة الحجرية على أحد جوانب بوابة النصر حتى لا يختلط الأمر على (متولى الحسبة) الذى كان يجلس إلى جوار الباب نائبا عن المحتسب . ليتقاضى الضرائب من التجار الداخلين طبقا للائحة الحاكم. أما باب الفتوح لم يخل من وجود الضريح الصغير الملاصق لبوابته وتعلوه القبة الخضراء الصغيرة. ويحكى لنا «غازى» أن ذلك الضريح يحمل حكاية طريفة وهى أنه كان فى أحد العصور تاجر كبير يحمل اسم (حسن الذوق) قرر ترك البلاد بعدما فرض الخليفة ضرائب باهظة على البضائع الداخلة الى القاهرة . فقام «حسن» ببيع ممتلكاته تمهيدا لهجرته إلى الشام. لكنه مات قبل أن يخرج من باب الفتوح. لذا تناقل الناس حكاية حسن التاجر وتندروا بها بقولهم «الذوق لم يخرج من مصر».

ويذكر لنا أن هناك ممرات طويلة وسراديب تصل بين أبراج السور الشمالى التى يصل عددها الى ثمانية ابراج . وداخل كل برج عدد من الغرف التى تحتوى على «مزاغل» اى شبابيك صغيرة يحتمى داخلها الجنود يشاهدون من فى الخارج دون ان يراهم أحد. وذلك كوسيلة دفاعية . وداخل أحد تلك الأبراج قاعة أطلق عليها العامة اسم قاعة المحكمة» حيث كانت فى عصر من العصور مكانا لسجن المجرمين ويتوسطها بئر مياه كبير لإمداد الجنود بالمياه فى حالة الحصار. لذا نسج البسطاء حولها حكايات طويلة أهمها اعتقادهم أن البئر هو فى الاساس مكان شنق الخارجين على القانون أو الأعداء. وحتى اليوم . لا يزال يطلق أهل الحى على القاعة اسم «المحكمة» وعلى



بوابة المتولي(زويلة) أكثر الاماكن التي ثارت
حولها الاساطير والخرافات المروية

البئر اسم «المشنقة». وان كان من أغرب ما شاهدناه فوق ابراج السور الشمالى أسماء عدد من جنود الحملة الفرنسية على مصر. حيث قام كل منهم بتحديد غرفته وموقعه عن طريق حفر اسمه أعلى مدخله، ويطلق عليها على سبيل المثال (برج كوين) و(برج جوليان) الخ.

ومن هذا المنطلق قررت وزارة الثقافة اقامة متحف للأسلحة والذخيرة داخل ممرات ودهاليز وسراديب أبراج السور الشمالى خاصة الجزء الواصل بين باب النصر وباب الفتوح. بما فى ذلك قاعة «المحاكمة» ويذكر أيمن عبدالمنعم الأثرى المشرف على مشروع تطوير القاهرة التاريخية أن اقامة متحف للأسلحة القديمة التى ترجع الى العصور الاسلامية المختلفة (مملوكى/ عثمانى) يعتبر جزءا من خطة شاملة لتقسيم متحف الفن الاسلامى. حيث سيتم جلب كل فنون وأدوات القتال والحروب من بنادق وسيوف وخوذات ودروع وذخيرة لعرضها داخل المتحف المتخصص . نظرا لاعتبار أسوار القاهرة وأبوابها من أهم رموز العمارة الحربية الدفاعية فى العالم كله حيث تتكون من أسوار ضخمة يتخللها أبراج دفاعية يصعب اختراقها .

الحاكم حرذون

وان كان أهم ما ارتبط ببابى النصر والفتوح هو جامع الحاكم بمئذنتيه اللتان تشبهان المبخرة او الشمعدان المملوكى القديم. وضع اساسه «العزيز» ووزيره «ابن كلس» فى أواخر عام (٩٩٠) . واكتمل بناؤه فى عهد ابنه الحاكم بأمره الخليفة الاشهر فى التاريخ المصرى. نظرا لغرابة شخصيته وسلوكه. حيث وجد نفسه حاكما وهو لا يزال فى سن الحادية عشرة. وكان الشعب المصرى يخشاه نظرا لشذوذه وتناقضه.

وجهه الغريب وعيناه الزرقاوان المخيفتان كما أن صوته الأجش جعلهم يرتجفون منه. بل ان معلمه اطلق عليه اسم (حرذون) اى السحلية. وذلك لأنه كانت له طريقه زلقة خاصة فى التحرك بين رعاياه مثلما يفعل الحرذون تماما. ويذكر «لينبول» فى كتابه «سيرة القاهرة» انه كان شغوفا بالظلام يجمع مجلسه على الدوام ليلا. حتى أنه اصدر قرارا بأن يتم البيع والشراء بعد غروب الشمس. كما حرم على النساء مغادرة منازلهن وأصدر تعليمات لصانعى الأحذية بالتوقف عن صنع أحذية للنساء حتى لا يتمكن من مغادرة منازلهن. وغيرها من التعليمات العجيبة لتنظيم قواعد الطعام والشراب. وفى إحدى جولاته فوق حماره الرمادى على تلال المقطم عام (١٠٢١) خرج ولم يعد. عاد حماره وعليه ردائه فقط ولم يتم العثور على جثته. حتى أن الناس من شدة خوفها منه ظلت ردحا طويلا على اعتقاد انه عائد لا محالة. وحتى يومنا هذا تعتقد مجموعة من اتباع بعض المذاهب الشيعية المتطرفة أن الحاكم هو المهدى المنتظر الذى سيعود يوما ما ليخلصهم من الآلام وينصرهم. لذا يتوافدون كل عام فى مولده وخلال شهر رمضان. ليدعوه ان يفك كرب المهموم ويفرح قلب المأزوم ويشفى المريض ويرزق الفتيات بالعريس المنتظر. ويحل المشكلات ويفرج الأزمات. ويعود فى اليوم المأمول..!

ولا تزال القاهرة بأسوارها وأبوابها تحمل داخل طياتها المزيد من الحكايات والأساطير والمرويات التى يتناقلها أهلها أب عن جد.. معتقدين فيها اعتقاد راسخا غير قابل للنقاش او للشك برغم مرور ألف عام ومايزيد على وجودها إلا انها لا تنتهى. لكنها تتشابك لترسم امامنا فلسفة الحياة داخلها .

مازال الناس يمؤنون بكرمات ضريح الذوق الملاصق لبوابة الفتوح





جولة فى بلاد الصين

هل تسقط الصين

هيمنة القطب العالمى الأوحد؟

بقلم
محمود أحمد

فى لقاء مطول، بمقر وزارة الخارجية الصينية فى «بكين»، أعرب مساعد وزير الخارجية الصينى «شى قوه فانج» عن عدم ارتياح بلاده للواقع السائد فى عالم اليوم .. حيث تهيمن قوة وحيدة وقطب أوحد هو الولايات المتحدة الأمريكية.

ورغم أن عدم الارتياح الذى ألمح إليه المسئول الصينى البارز جاء بصورة ضمنية خلال حديثه والذى حرص خلاله على تجنب التعبيرات الحادة أو المباشرة، إلا أنه لم يدع مجالا للشك فى أن حكومة الصين تفضل قيام نظام عالمى يعتمد «ألية تشاور متعددة الجنسيات» حسب تعبيره حرفيا. ومع ذلك، فإنه استخدم تعبيرات صريحة وواضحة وهو يؤكد أن الصين - بحكم ثقافتها القائمة على مفهوم السلام - لاتسعى إلى مواجهة مع الولايات المتحدة، أو مع غيرها، مهما اشتدت حدة الصراع التجارى والتنافس الاقتصادى القائم حاليا، وحرص أيضا على أن يشير إلى أن بلاده لم تكن يوما مبادرة بالهجوم على أحد، ولم تكن ابدا قوة استعمارية على مدى تاريخها الطويل، ومن المؤكد أنها تسعى إلي ذلك مستقبلا، حتى إذا تحولت الى قوة عظمى!

فتيات من القومية « الإيجورية» فى الصين : التعددية من كصادر الثراء فى المجتمع



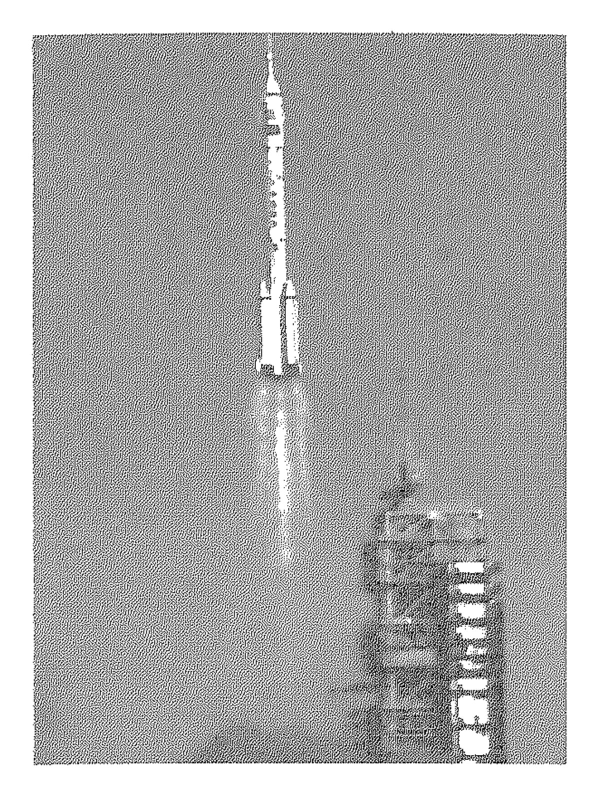
الصين التقليدية .. والعصرية الزاحفة ملء الأفق

الأكثر من ذلك، وبصورة أشد وضوحا، أعلن «شن قوه فانج» أن الصين لا ولن تسعى إلى الدخول فى أحلاف أو تحالفات إقليمية أو دولية فى سبيل مقاومة هيمنة القطب الواحد. ولكن ذلك لايعنى، حسب قوله، أن بلاده راضية عن الوضع الذى تمارس من خلاله هذه الهيمنة .. وإنما هى تدعو إلى إيجاد عالم متعدد الأقطاب، «إيمانا منها بأن سياسة القطب الواحد لاتفضى إلى حل أى مشاكل، بل ربما تكون سببا فى خلق هذه المشاكل وعلى نحو أكثر تعقيدا».

بعد أن طرح هذه النقاط، استخدم مساعد وزير الخارجية الصينى عبارات واضحة وهو يؤكد رفض بلاده لتقسيم الدول إلى دول شريرة وأخرى متعاونة .. وإنما التقسيم يجب أن يكون على أساس دول ملتزمة بالقانون الدولى وتلك المنتهكة له والتى يجب أن تتم محاسبتها فى إطار الأمم المتحدة، كما أعرب عن معارضة الصين الصريحة لقيام دولة واحدة بتسوية المشاكل أو القضايا أو النزاعات بالسبل العسكرية بعد «تنحية الأمم المتحدة».

قوة عظمى .. تتشكل

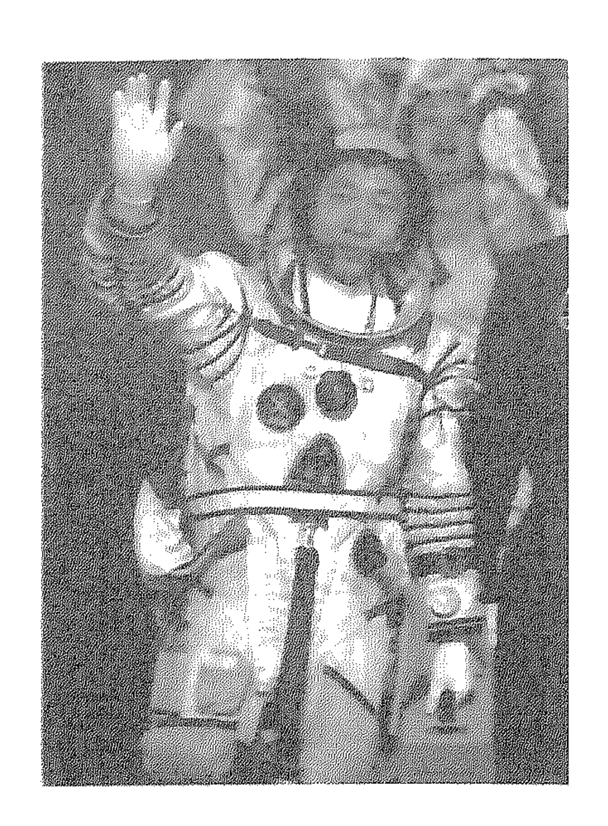
ولم يكن متوقعا - على أى حال - أن يلمح مساعد وزير الخارجية الصينى، خلال لقائه معنا، إلى أن بلاده تسعى إلى استكمال مقومات تحولها إلى قوة عظمى فى مستقبل غير بعيد .. هكذا فإن قصارى ما حاول تأكيده هو أن الصين عازمة على انتهاج سياسات سلمية .. حتى إذا هى تحولت يوما إلى



لحظة إطلاق سفينة الفضاء « شنتشو -٥ وعليها أول رائد فضاء صينى

قوة عظمى.

هذا باختصار، هو مضمون الرسالة التى تطرحها الصين اليوم. فالجهود كلها تتركز الآن على اجتياز الهوة التى لايزال يتعين على الصين اجتيازها لكى تلحق بركب الدول المتقدمة وتفتح الطريق بالفعل أمام إمكانية أن تتحول إلى «قوة عظمى»، وبالتالى تصبح قادرة على مطاولة - ولانقول مواجهة - القطب الواحد المهمين اليوم .. كما يتمنى الكثيرون وخاصة فى العالم الثالث، وربما يغذى هذه «التمنيات» أن الصين لاتفتأ تبشر بلا كلل، فى خطاب الرسمى، بنظام سياسى واقتصادى دولى جديد «عادل ومعقول»، وفى إطار هذا النظام الدولى، يجب أن تحترم جميع الدول بعضها بعضا وأن تتشاور



رائد الفضاء الصينى الأول .. اعتبره مواطنوه بطلا قوميا

مع بعضها سياسيا .. كما أنه لاينبغى فرض الإرادة الذاتية على الآخرين. يجب أيضا ، كما يؤكد المسئولون الصينيون، أن تحفز الدول بعضها بعضا اقتصاديا من أجل تحقيق التنمية المشتركة .. دون حدوث فجوة كبيرة بين الأغنياء والفقراء.

على أن الصين - الرسمية والشعبية على السواء - تدرك جيدا أنه لايزال أمامها مشوار طويل يتعين عليها أن تقطعه حتى تصل إلى مصاف الدول المتقدمة، وهى إذا قارنت نفسها مع الولايات المتحدة الأمريكية تحديدا، فإنها تعترف - كما قال لنا مساعد وزير الخارجية الصينى - بأن هناك هوة شاسعة لاتزال تفصل بين الصين والولايات المتحدة عسكريا واقتصاديا وتكنولوجيا، فالمسيرة التى بدأتها فى نهاية عقد السبعينات من القرن الماضى، على أيدى زعيمها الحكيم «دينج شياو بينج» لايزال أمامها الكثير لكى تنجزه، وفى تقدير بعض المسئولين الصينيين، فإنه لايزال أمام الصين ما بين عشرين إلى ثلاثين سنة .. قبل أن تخرج من «عنق الزجاجة» وتحقق أهدافها فى التنمية الداخلية، ومن ثم يتحدد - تلقائيا - دورها على الساحة الدولية.

ولم تكن المسيرة سهلة، رغم الإنجازات الباهرة التى تتجلى أمامنا اليوم والتى تمكنت الصين من تحقيقها - اعتمادا على التخطيط المتقن والعمل الدؤوب فى المقام الأول - خلال مايزيد قليلا على العشرين سنة، والواقع أن الأرقام تضع أمامنا صورة مدهشة لقدرة الإنسان الصينى على التخطيط وتحديد الأهداف الكبرى والعمل على تحقيقها بأكبر قدر من الدقة، وحتى لانغرق فى تفاصيل لاداعى لها. يكفى أن نشير إلى آخر الإحصائيات التى صدرت عن الدوائر الرسمية فى الحكومة عن الأشهر التسعة الأولى من العام الحالى ٢٠٠٣ (أى ثلاثة أرباع السنة) وهى تسجل مايلى:

- بلغ إجمالى الناتج المحلى الصينى خلال هذه الفترة - أى من أول يناير حتى نهاية سبتمبر - ٧,٩ تريليون يوان .. أى حوالى ٩٥٦ر٦ مليار دولار أمريكى، مسجلا بذلك معدل نمو يقدر بـ ٩,١ فى المائة قياسا على الفترة ذاتها من العام السابق (وقد عكست هذه الأرقام ارتياحا لدى المسئولين الصينيين نظرا لأنها أكدت تجاوز الاقتصاد

الصينى كل التداعيات التى نجمت عن محنة وباء «السارس» التى مرت بها البلاد فى النصف الأول من العام).

- بلغت قيمة الإنتاج الصناعى الصينى خلال فترة الأشهر التسعة ذاتها ٢٨٩٧,٥ مليار يوان .. أى نحو ٣٦٢,١ مليار دولار، بزيادة نسبتها ١٦,٥ فى المائة مقارنة مع الفترة نفسها من العام الماضى وتشير التقارير الرسمية أن الفضل فى هذه الزيادة الكبيرة فى الإنتاج الصناعى يعود إلى خمس قطاعات على وجه التحديد، وهى قطاعات الاتصالات والإلكترونيات، والتعدين والنقل والمواصلات، والكهرباء، والكيماويات.

- بلغ إجمالى قيمة الاستثمارات الأجنبية التى استخدمتها الصين.. خلال تلك الفترة أيضا، أربعين مليارا ومائتى مليون دولار أمريكى بزيادة ١٢ فى المائة مقارنة مع الفترة ذاتها من العام الماضى.

- بلغ معدل دخل المواطن الصينى فى المناطق الحضرية (المدن) خلال فترة الأشهر التسعة ذاتها ٧٦٧ دولارا بزيادة نسبتها ٩ فى المائة، والمعروف أن مستوى الدخل فى المناطق الريفية لايزال أقل بصورة ملحوظة عنه فى المدن، ومع ذلك تشير الأرقام إلى تحقق زيادة فى دخل المواطن الصينى فى الريف نسبتها ٣,٨ فى المائة فوصلت به إلى ٢١٨ دولارا.

- بلغ احتياطى الصين من النقد الأجنبى فى نهاية سبتمبر ٢٠٠٣، وفقا للأرقام الرسمية للبنك المركزى الصينى، ٣٨٣,٩ مليار دولار أمريكى، محققا بذلك زيادة «قياسية» وصلت نسبتها إلى ٤٨,٤ فى المائة مقارنة بالعام الماضى.

- تضاعفت إجمالى الودائع المالية للصينيين فى المصارف والبنوك مئات المرات خلال سنوات الانطلاقة الكبرى، وتشير الأرقام الرسمية إلى أن حجم الودائع، الذى كان يقدر بنحو ٢١ مليار يوان (أقل من ثلاثة مليارات دولار) فى عام ١٩٧٨، قد وصل العام الماضى ٢٠٠٢ إلى ٨٦٩١,١ مليار يوان (أى مايزيد قليلا على تريليون دولار بالأسعار الجارية).

التعامل مع عالم صعب!

على أن ذلك لايعنى أن الصين لاتواجه مصاعب عديدة يتوجب عليها أن تواجهها باستمرار ، فالأرقام الرسمية (وهى بالمناسبة تحظى بمصداقية عالية) تشير أيضا إلى أن الديون الخارجية للصين قد بلغت، خلال النصف الأول من العام الحالى ٢٠٠٣، نحو ١٨٢,٥٧ مليار دولار أمريكى (لاتدخل ضمنها ديون هونج كونج وماكاو اللتين التحقتا أخيرا بالوطن الأم)، ويقول المسئولون الصينيون أن هذه الأرقام توضح أن الدين الخارجى للصين قد أرتفع بنسبة ٨,٣٣ فى المائة عما كان عليه فى نهاية العام الماضى، وإن كانوا يؤكدون فى الوقت نفسه أن حجم الدين يظل دون مستوى الخطر خاصة مع توفر «القدرة المطلقة» على سداد قيمة خدمة الديون التى تقدر بنحو ٣٨ مليار دولار.

ويدرك الصينيون جيدا أن تحمل هذه الديون كان أمرا حتميا من أجل



تحقيق الأهداف الطموحة للتنمية، فقد كان عليهم استيراد الكثير من العالم الخارجى الذى حقق سبقا فى كافة المجالات ولاسيما فى مجال التكنولوجيا المتقدمة التى كانت الصين فى أمس الحاجة إليها.

ولكن ليست هذه هى المشكلة، وإنما المشكلة ربما تكمن فى أن الصين تعلمت، منذ بداية مسيرتها الحديثة، أن عليها أن تتعامل مع عالم صعب، ومع قوى تضمر رغبة فى «تحجيم» هذا العملاق المنطلق وتتوانى عن استخدام كل الوسائل الظاهرة والخفية لتحقيق ذلك، وفى مجال التصدير وحده، على سبيل المثال، واجهت الصين مقاومة عنيفة عبرت عن نفسها فى أكثر من ٥٠٠ قضية لمكافحة الإغراق رفعت ضد الصين من جانب بلدان عديدة، وكان ذلك هو مادفع الحكومة الصينية إلى بذل جهود كبيرة للانضمام إلى منظمة التجارة العالمية حتى يمكنها أن تحل هذا النوع من المشكلات فى إطارها وبالفعل، فإنه بعد نجاح الصين فى الانضمام إلى المنظمة أخيرا، انخفض عدد قضايا الإغراق المرفوعة ضدها إلى النصف:

وتواجه الصين حاليا ضغوطا شديدة من أجل تعويم عملتها (اليوان) التى تصر الولايات المتحدة على أن قيمتها الحقيقية هى أعلى مما تقدرها به حكومة الصين حاليا، ولايخفى أن رفع قيمة العملة سيؤدى بالضرورة إلى الحد من القدرة التنافسية للصادرات الصينية فى الأسواق العالمية، ويرد الصينيون على ذلك بأنهم لن يعيدوا تقييم عملتهم إلا فى الوقت الذى يرونه مناسبا (ربما بعد عامين أو أكثر قليلا)، وهم يحذرون فى هذا الصدد من ضرورة التصرف بحكمة لأن التسرع قد يتسبب فى خلق أزمة جديدة كتلك التى مرت بها آسيا فى نهايات القرن الماضى .. ويذكرون بأن الأزمة المالية التى اندلعت من آسيا فى عام ١٩٩٧ قد تركت آثارا سلبية عانى منها العالم كله وليس بلدان آسيا وحدها.

كذلك فإنه، من وقت لآخر تفاجأ الصين بإجراء مايتخذ ضدها مما لايمكن أن يفسر إلا بأنه جزء من «الضغوط» التى تمارس عليها. وأثناء وجودنا فى الصين، حملت الأنباء معلومات تقول أن الولايات المتحدة الأمريكية قررت توقيع عقوبات على شركة صينية تعمل فى مجال الصواريخ بسبب مخالفتها للقواعد الخاصة بمنع انتشار أسلحة الدمار الشامل. واحتجت الصين بشدة على توقيع هذه العقوبات، مؤكدة أنها التزمت دائما بسياسة منع انتشار أسلحة الدمار ووسائل استخدامها، وتعاونت فى هذا السبيل مع الدول الأخرى .. بما فى ذلك الولايات المتحدة نفسها.

غير أن الضغوط الأكثر خطورة، بالنسبة للصين، تتمثل فى القضايا ذات الحساسية التى تلوح الولايات المتحدة بتحريكها عند الضرورة .. وتأتى فى مقدمتها على الإطلاق قضية «تايوان»، فبعد أن نجحت الصين فى استعادة «هونج كونج» أولا ثم «ماكاو»، حتى ولو



كان ذلك قد تم بشروط لاترضى عنها تماما، فإن قضية تايوان تبقى هى الأكثر خطورة والأشد حساسية بالنسبة للصين، ولايفقد المسئولون الصينيون هدوءهم المشهور إلا عند التلويح من قوة خارجية - الولايات المتحدة تحديدا - بدعم مطالب «تايوان» بالاستقلال النهائى. بل إن المسئولين فى الصين لايتورعون عن التلميح إلى أن استخدام القوة العسكرية لن يكون أمرا مستبعدا إذا دفعت الأمور بهذا الاتجاه وتجاوزت الخطوط الحمراء! ولكن الوضع الراهن يبقى «تايوان» كما هى، دون الانضمام كدولة مستقلة إلى المجتمع الدولى، ويبقى على دعم الولايات المتحدة لها سياسيا وعسكريا، بينما يستمر قبول «الصين الأم» لهذا الوضع مع الاستمرار فى الحملة العالمية التى أطلقتها من أجل «إعادة توحيد الصين» وضم تايوان (وكان آخر نموذج لها ما جاء فى خطاب الرئيس الصينى «هو جينتاو» أمام البرلمان الاسترالى فى ٢٣ أكتوبر الماضى). ومع ذلك فإن القبول من جانب الصين بهذا الوضع يتسع إلى الحد الذى يجعل حجم الاستثمارات الواردة من «تايوان» فى مقدمة ما تستقبله الصين كل عام من العالم «الخارجى»!

الكوابح والضغوط

والسؤال المهم الآن هو : إلى أى حد يمكن لهذه الضغوط و«الكوابح» أن تحد من انطلاقة الصين أو تبطئ من اندفاعها؟ وهل تنجح الصين - رغم الحرص الرسمى على تفادى الخوض فى الموضوع - فى التغلب على هذه

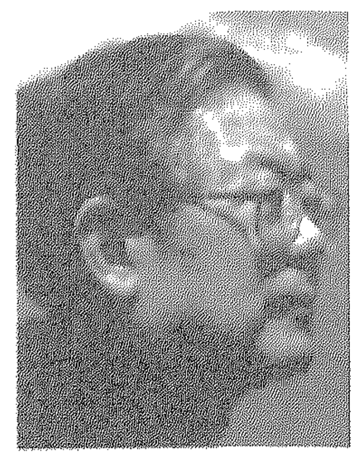


شن قوه فانج
مساعد وزير
الخارجية الصينى

الضغوط خلال عقدين أو ثلاثة، كما يتوقع البعض، بحيث تكتسب الأهلية الكافية لكى تساهم فى تشكيل النظام الدولى واعادة التوازن إليه بعد الخلل الذى اعتراه نتيجة السقوط فى بحر الهيمنة الأمريكية؟

الأمر المؤكد، أن هذه الأسئلة مطروحة الآن فى المحافل الدولية على كافة المستويات فى أروقة الأمم المتحدة، والمنظمات الإقليمية التى تضم الصين مع غيرها من دول آسيا والمحيط الهادى مثل «الآسيان» و«الآبيك»، وأيضا فى العواصم العالمية التى تتابع وتراقب من مواقع تتراوح بين الحذر.. والقلق.. والرجاء!

وربما صاحب هذه الأسئلة، تساؤلات أخرى تبدو معقولة تماما من قبيل. ولماذا إنطلاقة الصين وليس غيرها؟ ولماذا لا تكون اليابان - مثلا - وهى التى تمتلك القوة الاقتصادية الطاغية التى تفوق الصين بمراحل، كما أنها سبقتها بأشواط فى مجال التقدم التكنولوجى وخاصة الاستخدامات المتطورة منها؟ والحقيقة أن زيارة الصين مؤخرا، والتى أتاحت لنا



تشو قوانج تشاو
أبو القنبلة الذرية الصينية

الاقتراب من «روحها» واستشعار نبض الحياة وإيقاعها، ربما ساعدتنا على تأمل الصورة عن قرب لبلورة إجابات - تبدو معقولة أيضا - على هذه التساؤلات.

فالصين ، أولا ، تتمتع بثقل هائل توفره المساحة والكتلة السكانية الضخمة (١٣٠٠ مليون نسمة) والتعددية الفريدة (٥٨ قومية) فضلا عن التراث الحضارى والثقافى والتاريخى الثرى والعميق.

وهى، ثانيا، صاحبة دور ممتد على الساحة الدولية وليست عضوا جديدا أو قليل الشأن فى النظام العالمى.. بل إنها تحتل أحد المقاعد الخمسة دائمة العضوية فى مجلس الأمن. صحيح أنها تسير على نهج «متعقل» فى استخدام حقها كعضو دائم، ولا تندفع إلى استخدام حق النقض (الفيتو) مثلا، كما يفعل البعض بفظاظة تستفز المجتمع الدولى.. غير أنها تدرك أبعاد دورها وحدود ممارسته باستقلالية ملحوظة الأمر الذى يميزها بصورة حاسمة عن قوى ودول أخرى، كاليابان مثلا، لم تستطع أن تحقق ما أنجزته إلا بعد الالتحاق نهائيا بالدور الأمريكى والدوران فى فلكه.

ثم إنها، ثالثا، قوة نووية لا يستهان بها منذ أن دخلت نادى الدول النووية فى وقت مبكر نسبيا، فقد أنتجت أول قنبلة ذرية فى عام ١٩٦٤، وبعد ثلاث سنوات نجحت فى تجربة أول قنبلة هيدروجينية فى يونيو ١٩٦٧. وهى بذلك كانت القوة النووية الرابعة التى عرفها العالم بعد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وبريطانيا، ثم تبعها الباقون.

ورابعا، استطاعت الصين أن تقتحم أيضا ميدان الفضاء. وقد أقدمت على هذه المغامرة رغم تكلفتها العالية وقبل أن يتحقق لها الخروج من «عنق الزجاجة» الذى يشير إليه المسئولون الصينيون كثيرا وهم يتحدثون عن المسيرة الاقتصادية لبلادهم. ورغم أن برنامج الفضاء يعود حتى إلى ما قبل الانطلاقة الاقتصادية، حيث أطلقت الصين أول قمر صناعى لها (الشرق الأحمر -١) فى إبريل عام ١٩٧٠، ومضى العمل الدؤوب يحقق نجاحا تلو الآخر حتى بلغ عدد الأقمار الصناعية التى أطلقتها ٧٥ قمرا ثم تبعها إطلاق ٤ سفن فضاء، إلا أن إطلاق السفينة «سينشو -٥»، وإعادتها إلى الأرض بعد ٢١ ساعة، وهى تحمل رجل الفضاء الصينى «يانج لى دى» كان علامة فارقة فى برنامج الفضاء الذى خططته الصين ونفذته بنجاح. وقد فهم العالم كله مغزى هذا النجاح، وحتى الولايات المتحدة لم يكن فى وسعها إلا الإعراب عن التهنئة للصين على هذا الإنجاز. وجاءت التهنئة على لسان الرئيس الأمريكى جورج دبليو بوش نفسه الذى حرص على أن

يقول أيضا، بهذه المناسبة، أن برنامج الفضاء الصينى «سلمى ولاينطوى على تهديد».

وبالطبع ، فإن المغزى الأهم الكامن فى النجاح الذى تحقق بإطلاق رجل الفضاء الصينى - الذى اعتبره مواطنوه بطلا قوميا - يتمثل فى إظهار قدرة الصين على مواجهة تحديات المستقبل.

وربما يتصل بذلك - وهى نقطة خامسة فى هذا السرد - الإنجازات الصينية فى مجالات العلوم والتكنولوجيا فعلى الرغم من الهوة التى لاتزال تفصل الصين عن البلدان التى سبقتها فى مضمار التكنولوجيا المتطورة، إلا أن الصين استطاعت أن تقطع - فى نحو عشرين سنة فقط - شوطا كبيرا فى هذا الميدان بما ينطوى عليه ذلك من أهمية حاسمة فى المسيرة الصينية. وتشير الأرقام التى أتيحت لنا، فى هذا الصدد، إلى أن الصين قد أنجزت منذ عام ١٩٨١ وحتى اليوم إنشاء ٥٣ منطقة لتنمية التكنولوجيا العالية والجديدة. وخلال هذه الفترة، حققت الصين ٥٢٢ ألف إنجاز علمى وتكنولوجى مهم بلغ ٢٠ فى المائة منها المستوى المتقدم بالمقاييس العالمية.

يبقى، بعد ذلك كله، أن نسجل أن هذه الحقائق فى الصين اليوم لا تتحقق بعيدا عن الإنسان الصينى. فالواقع الذى يمكن للمرء أن يشاهده بعينيه فى مختلف أرجاء الصين يدل على أن هذا التحول الكبير يسانده بكل قوة مجتمع يتحرك بعزيمة صلبة نحو المستقبل وهو يدرك حجم التحديات من حوله. ومع ذلك، وهذا عنصر فاعل ومهم (ربما يستحق حديثا مستقلا)، فإن الفرد الصينى - والمجتمع الصينى ككل - ظل إلى الآن محتفظا بهويته ومتمسكا بثقافته وتراثه إلى حد كبير.

فهل ينجح هذا الإنسان الصينى، كما يتوقع كثيرون، فى أن يلعب الدور المنتظر ويحقق نجاحا على الساحة الدولية أيضا.. فيعيد التوازن إلى النظام الدولى، ويساهم فى أن يسترد العالم مقدراته من براثن هيمنة القطب الواحد ؟

أرقام .. لها دلالة

أكبر عشرة شركاء تجاريين للصين (خلال الفترة من يناير إلى يونيو ٢٠٠٣)

١ - اليابان : إجمالى حجم التبادل التجارى (٩٠٥ ٦٠ مليار دولار) بزيادة ٣٦.١ بالمائة .

- صادرت الصين ٢٧.١٠٣ مليار دولار - وارداتها ٣٣.٨٠٢ مليار دولار.

٢ - الولايات المتحدة. إجمالى حجم التبادل التجارى (٥٦.٤ مليار دولار) بزيادة ٣٤.٤ بالمائة.

- صادرات الصين ٩٢٧ ٣٩ مليار دولار - وارادتها ١٦.٤٣٧ مليار دولار.

٣ - الاتحاد الأوروبى. إجمالى حجم التبادل التجارى (٥٥.٥٠٧ مليار دولار) بزيادة ٤٤.٢ بالمائة.

- صادرات الصين ٣١.١٥٢ مليار دولار - وارداتها ٢٤.٣٥٥ مليار دولار.

٤ - هونج كونج : إجمال حجم التبادل التجارى (٣٨.٠٨٥ مليار دولار) بزيادة ٢٣.١ بالمائة.

- صادرات الصين ٣٢.٧٤١ مليار دولار - وارداتها ٥.٣٤٤ مليار دولار.

٥ – رابطة آسيان : إجمالى حجم التبادل التجارى (٢٣٦ . ٣٤ مليار دولار) بزيادة ٣ . ٤٥ بالمائة.

– صادرات الصين ١٣.٧٦٦ مليار دولار – وارداتها ٤٦٩ . ٢٠ مليار دولار.

٦ – كوريا الجنوبية : إجمالى حجم التبادل التجارى (٤٧ . ٢٧ مليار دولار) بزيادة ١ . ٤٤ بالمائة.

– صادرات الصين ٨.٦٨٣ مليار دولار – وارداتها ١٨.٧٨٦ مليار دولار.

٧ – مقاطعة تايوان : إجمال حجم التبادل التجارى (٦٤٩ . ٢٥ مليار دولار) بزيادة ٦ . ٣٠ بالمائة.

– صادرات الصين ٣.٩٩٠ مليار دولار – وارداتها ٢١.٦٥٩ مليار دولار.

٨ – روسيا : إجمالى حجم التبادل التجارى (٦.٨٠٦ مليار دولار) بزيادة ٢٤.٨ بالمائة.

– صادرات الصين ٢.١٠١ مليار دولار – وارداتها ٤.٧٠٥ مليار دولار.

٩ – إستراليا : إجمالى حجم التبادل التجارى (٦.٠٤٦ مليار دولار) بزيادة ٣١.٩ بالمائة.

– صادرات الصين ٢.٦٢٣ مليار دولار – وارداتها ٣.٤٢٣ مليار دولار.

١٠ – كندا : إجمالى حجم التبادل التجارى (٤.٥٦٧ مليار دولار) بزيادة ٢٧.١ بالمائة.

– صادرات الصين ٢.٥١٧ مليار دولار – وارداتها ٢.٠٥٠ مليار دولار.

شركاء الصين الرئيسيين في القارات الست

١ – قارة آسيا : حجم التبادل التجارى ٢١٨.٢٠٤ مليار دولار بزيادة ٣٧.٦٪ .

٢ – قارة أوروبا : حجم التبادل التجارى ٧٠.٠٥٨ مليار دولار ٢ . ٤٣٪.

٣ – أمريكا الشمالية : حجم التبادل التجارى ٦٠.٩٩ مليار دولار ٨ . ٣٣٪ .

٤ – أمريكا اللاتينية: حجم التبادل التجارى ١٨٨ ١١ مليار دولار ١ . ٦١٪

٥ – أفريقيا : حجم التبادل التجارى ٨.٥٩٥ مليار دولار ١ . ٦١٪ .

٦ – أوقيانوسيا (استراليا ونيوزيلندة): حجم التبادل التجارى ٧.١٠٤ مليار دولار بزيادة ٣٤٪ .

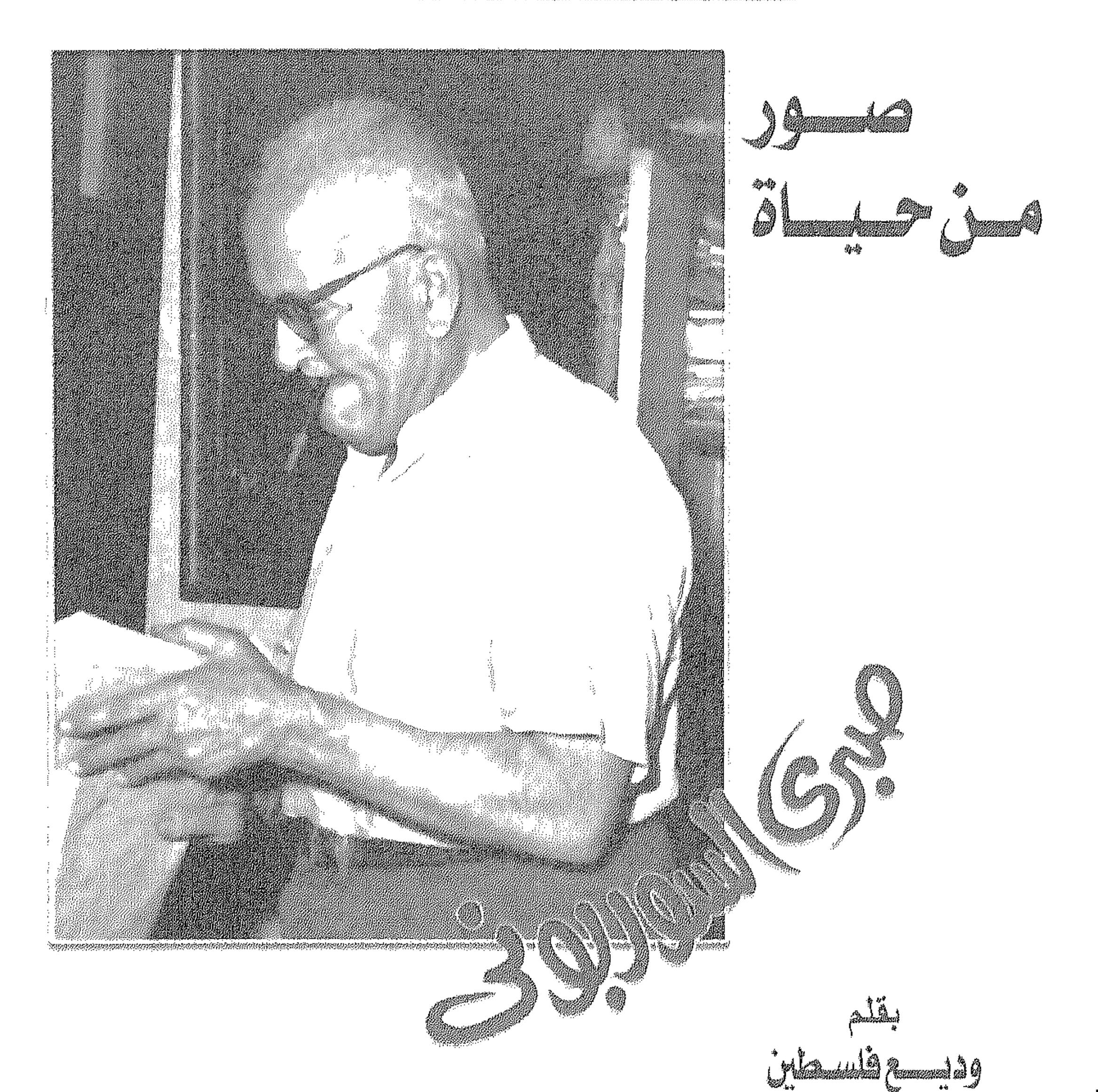
شركاء الصين الرئيسيين في قارة أفريقيا

١ – جنوب أفريقيا: حجم التبادل التجارى ١.٦٧٣ مليار دولار بزيادة ١ . ٤٧٪ صادرات الصين ٨٥١.٣٨٨ مليون دولار .

٢ – السودان : حجم التبادل التجارى ١٠١ . ٩٥٥ مليون دولار بزيادة ٨ . ٣٣٪ صادرات الصين ٢٥٦.٢٩٧ مليون دولار.

٣ – نيجيريا: حجم التبادل التجارى ٨٥٢.٧١١ مليون دولار بزيادة ٣ . ٥٦٪ صادرات الصين ٨٠٤.٧٧٩ مليون دولار.

٤ – مصر : حجم التبادل التجارى ٤٨٨.٧٥٠ مليون دولار بزيادة ٦ . ١٢٪ صادرات الصين ٤٢٥.٧٥٨ مليون دولار بزيادة ٧.٩ بالمائة، وارادت الصين ٦٢.٩٩٩٢ مليون دولار بزيادة ٦٠.٧ بالمائة ■



صور من حياة صبري السوربوني

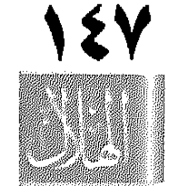
بقلم
وديع فلسطين

كنت في أثناء فترة الإزاحة من العمل الصحفي في مصر أمثل مجلة تصدر في قطر عربي ، وكنت بهذه الصفة أستكتب كبار الأدباء في مصر والبلدان العربية مقالات لهذه المجلة. فرجوت صديقي الدكتور محمد صبري السوربوني أن يخص المجلة بمقال عن أمنياته ، فاستجاب لرغبتي ووافاني بمقال تمنى فيه أن يعيش مليون سنة!! مليون سنة دون نقصان؟ كان من الممكن أن يتواضع قليلاً فيقول : ألف سنة أو حتى مائة سنة، ولكنه كان - كدأبه في كل عمره - شديد الطموح، تشرئب عنقه إلى ما هو أبعد من إمكانياته الإنسانية والمادية

، وتتطاول أمانيه حتى تجاوز المدى المعقول. ومن المفارقات التى تصدم المرء أن حياته الوظيفية تواضعت، وعاش نحو ٨٥ عاماً عيشة أقرب ماتكون إلى الحياة الشعبية ، فلا بيتاً يملكه ، ولا سيارة يقتنيها تعفيه من ركوب المواصلات العامة أو ترام «الوزير»، ولا جهاز تكييف يخفف من وطأة الطقس، ولا أناقة فى الملبس أو حفاوة بالمظاهر الخارجية.

ومن آيات طموحه أنه قرر وهو مازال فى ميعة الشباب أن يغزو أكبر قلعة ثقافية فى عصرها، وهى جامعة السوربون بتاريخها الذى يضاهى كل أمجاد الحضارة الفرنسية، وكانت وسائله إذ ذاك جد متواضعة، فلا هو يجيد اللغة الفرنسية، ولا عهد له بمعميات اللغة اللاتينية، وهما اللغتان الأساسيتان فى الدراسات الجامعية فى السوربون، لقد رغب - على حد تعبيره - فى أن يطوح بنفسه تطويحاً فى هذا الخضم العاتى واثقاً من أنه لن يغرق أو تخيب مساعيه، عاقداً العزم - وهو حديد - على أن يكون أول مصرى يحمل على رأسه قبعة الأستاذية الجامعية، ويتسربل بأرواب السوربون ، ويرفع بيمناه أطروحته العلمية ، وينال تقدير أساتذته ، سواء فى شهادته الجامعية أو فى مقدمات كتبه التى طبعها باللغة الفرنسية فى باريس . وهكذا استطاع هذا الشاب الخارج من مدينة المرج - ولعلها كانت قرية أو حياً من أحياء المديرية فى ذلك الوقت - أن يسمى نفسه محمد صبرى السوربونى - وليس المرجى نسبة إلى البلدة التى ولد فيها والتابعة اليوم لمحافظة الدقهلية ، ومع أن مصريين آخرين تخرجوا بعد ذلك من السوربون، فإذا قيل السوربونى لم ينصرف هذا الاسم الجليل إلا إلى الدكتور محمد صبرى وحده، فإليه تشير كل الأباهم.

فى فرنسا زامل محمد صبرى الدكتور طه حسين، فقد جمعت بينهما الغربة من ناحية والدراسة من ناحية أخرى ، وكان كلاهما يكافح كفاحاً عنيفاً فى سبيل تحصيل العلم وإثبات ذاته المصرية الصميمة فى هذا المجتمع الأجنبى . وعندما سجل طه حسين ذكريات هذه الفترة فى الجزء الثالث من «الأيام»، تحدث عن زميله محمد صبرى حديث ملازمة ومزاملة حيث قال: «إن السوربونى جد وكد، وتقدم للامتحان مرة ومرة، ولكن عقدة اللاتينية أدركته. فكان إذا أقبل على الامتحان وتلقى النص اللاتينى الذى يجب أن يترجم إلى الفرنسية، ألقى عليه نظرة سريعة ثم طواه وقدم إلى الممتحنين صفحة بيضاء لم يمسسها خطأ أو صواب، وانصرف ضاحكاً يتمثل ببيت لاتينى قديم يصور اليأس والقنوط، ولكنه لم يعرف يأساً ولا قنوطاً، ولم يذعن لعقد أو صعوبة، وإنما حاول وطاول وألح فى المحاولة والمطاولة حتى تقدم للامتحان ذات يوم، وتلقى النص اللاتينى، فلم ينظر فيه نظرة سريعة، وإنما أقبل عليه فترجمه وقدمه إلى الممتحنين صحفاً أتاحت له الفوز والنجح».



بهذا شهد طه حسين لزميله السوربونى، وهى شهادة تبرأ من كل مظنة.

ومن آيات طموح السوربونى بل تحديه أنه - وإن كان راغباً فى التخصص فى التاريخ لأنه هواه الأول، فقد قرر أن يتخصص كذلك فى دراسة الأدب حتى يكون صاحب صناعتين تضاف إليهما هواية الفن . وكأنما أراد السوربونى أن ينزح من فرنسا كل ماتفاخر به من مآثر العلوم والفنون، ولعله لو استطاع لنقل كل مظاهر الحضارة الباريسية ضمن أمتعته الشخصية وهو يغادر عاصمة النور. بل إن الحرب العالمية الأولى بكل ضراوتها لم تحل بين السوربونى وبين متابعته للدراسة الجامعية، وكأنه بالعلم وعشقه قد قهر الخوف من ويلات الحروب ودمارها.

عرفت الدكتور السوربونى معرفة مشافهة واتصال عام ١٩٤٨، وإن كنت بسبب هذا الاسم المدوى قد عرفت أخباره وآثاره مما كان يطالعنا به من مقالات في الصحف لها دائماً وقع القارعة. وكنت أحسب أن من شيمة الذين بلغوا شأناً رفيعاً فى حياتنا الفكرية أن يتشامخوا على من هم دونهم فى منازل الحياة، ناهيك عمن هم يتعثرون فى بداية الطريقه. ولكننى فوجئت ذات صباح عند توجهى إلى مكتبى في جريدة «المقطم» التي كنت أعمل فيها بكتاب ضخم ومعه أطلس كبير الحجم موضوعين عليه، واكتشفت من عبارة الإهداء الرقيقة أن هذا الشامخ الرفيع القدر الدكتور محمد صبرى السوربونى قد شرفني - على غير معرفة سابقة - بهذه الهدية التى ما كنت أحلم باقتنائها حتى شراء. فقلت لنفسى: ياالله، هل بلغ اسمى المتواضع مسامع الدكتور السوربونى فسعى إلى بنفسه وطرق باب الجريدة بعد الظهر أثناء غيابى وترك لى هذه الهدية الثمينة؟ كم أكبرت صنيعه ، وأيقنت أن من شيم العلماء والأصلاء أن يحدبوا على الناشئة وألا يستكبروا عليهم، وأن الحياة الثقافية تتسع لعتاة المخضرمين كما تتسع لمن هم فى أول الدرب، وكان عنوان كتاب السوربونى «الإمبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر» أما الأطلس الكبير فقد صنعه السوربونى بنفسه كمرشد عمل للوقائع التاريخية المسرودة فى الكتاب.

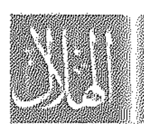
والمتأمل لعناوين الكتب التى أصدرها السوربونى باللغة العربية يلاحظ أنه - كمؤلف - لا يتصدى إلا للكبار الكبار من الموضوعات ، فهو يكتب عن «الشوامخ» وعن «أروع» ماكتب الشاعر خليل مطران وعن «المجهول» من شعر شوقى وعن «أسرار» تدويل قناة السويس وعن «الإمبراطورية المصرية» و«الإمبراطورية السودانية» وعن «الحضارة العربية فى أفريقيا»، وكلها عناوين تشى بالطموح الذى أشربت به نفس السوربونى فحدا به ذلك إلى التصدى دائماً لكل ما يتجافاه السطحيون من الباحثين.

وعندما تلقيت كتاب السوربونى هالنى أن أتبين أنه قد اعتمد على وثائق تاريخية أغلبها مجهول وأقلها معروف ، وأنه تناول موضوعه بأكبر قدر من الأمانة التاريخية، وبأسلوب ينم على نصاعة أدبية على الرغم من جفاف المادة التاريخية . فاحتفيت بهذا الكتاب ، وعرضته لقراء الجريدة مثنياً على الجهد العلمى العنيف الذى بذله



السوربونى فى جمع مادة الكتاب . وخرج المقال بغير توقيعى وفقاً للعرف الذى كان متبعاً فى صحافة ذلك العهد.

وفى اليوم التالى فوجئت بزائر غريب يقتحم على غرفتى فى الجريدة - ولم نكن وقتها نعرف مكاتب الأمن والاستعلامات والسكرتارية التى تصد الناس عن مقابلة حتى الصحفيين - وقبل أن انتبه إلى كنه الزائر ألفيته ينهال على عناقاً وتقبيلاً وهو يردد كلاماً كبيراً فى امتداحى .. فلما استوضحته عمن يكون قال : أنا السوربونى . ولم أكن حتى ذلك الوقت قد رأيت صورة له استعيدها لتحديد شخصيته، ولهذا رحت أتأمله بشحمه ولحمه بعدها كان الخيال قد ذهب إلى الاعتقاد بأنه لابد أن يكون شخصاً مهيباً فارع الطول عريض المنكبين شأن الشامخين من الأعلام كالعقاد والشاعر عبد الرحمن صدقى وعزيز أباظة باشا . ولكننى اكتشفت أنه كان أميل إلى القصر منه إلى الطول على شىء من البدانة، وقد اعتمر بيريه على رأسه، وتفلطت عويناته. أما الغليون فلا يفارق شفتيه. ومع أن هذا اللقاء كان الأول بيننا، فقد غلفه السوربونى بروحه المرحة وقلبه الودود وكلامه التلقائى الجميل، مع إطلاق ضحكات مجلجلة رفعت الكلفة بيننا فى وقت كنت فيه فى الخامسة والعشرين من عمرى، وكان هو فى الثامنة والخمسين من عمره أى بما يزيد على مثلى سنى، وبكل الود خاطبنى قائلاً : لك أن تعتبرنى صديقاً لك، فاقبل دعوتى لزيارتى فى بيتى لأعرفك بأسرتى الصغيرة. ولبيت دعوته، وكان يقيم وقتها فى دارة - ڤيلا - ملاصقة لقصر القبة الملكى تحيط بها حديقة يشرف بنفسه على تنسيقها وزراعتها بالخضر والفاكهة والزهور، وقدمنى إلى زوجته الأجنبية وإلى ابنيه وابنته الصغار، وطاف بى فى أرجاء المنزل ليرينى خزانة كتبه التى زحفت إلى كل ركن فى البيت حتى المطبخ، وجلست إليه وهو يحدثنى عن أعلام عصره الذين عرفهم عن قرب ، سواء من رجال السياسة كسعد زغلول باشا أو من رجال الأدب كالشاعر إسماعيل صبرى باشا والشاعر خليل مطران بك والأديب مصطفى لطفى المنفلوطى والشاعر أحمد شوقى والشاعر حافظ إبراهيم والشاعر العراقى جميل صدقى الزهاوى ومن إليهم . ثم أهدانى كتابه «الشوامخ» بأجزائه الأربعة التى تناول فيها الشعراء بدراسة أكاديمية لكى يؤكد لى أن الأدب والتاريخ يلتقيان فى حياته.



صلة لم تنقطع

وعلى مدى ثلاثين عاماً لم تنقطع صلتى بالسوربونى، ولا سيما عندما انتقل من بيته بجوار قصر القبة لهدمه وضم مساحته إلى القصر، إلى بيت فى حى مصر الجديدة قريب من بيتى، فكنا نتزاور ونتحدث فى أوضاعنا الثقافية وأحوالنا الاجتماعية ، وتتخلل أحاديثنا ذكريات السوربونى عن العصر الذى عاشه. ولكن حديثه لم يكن يخلو من مرارة يطردها بعبارات ساخرة. فقد كان - على منزلته العلمية الرفيعة - بعيداً عن حرم الجامعة، فشغل وظائف حكومية فى دار الكتب وفى معهد الوثائق والمكتبات وعمل قبل ذلك مدرساً بمدرسة المعلمين العليا ودار العلوم . حتى إذا جاءت ثورة ١٩٥٢ أطاحت بالسوربونى فى حملة أطلقوا عليها اسم

«التطهير» استناداً إلى وشايات لم يدر كنهها، ولعل جريمته الوحيدة هي أنه كان يحمل رتبة البكوية ممنوحة له من الملك .. فخرج السوربوني إلى الشارع، وتقرر له معاش هزيل تنوء به مطالب الأسرة. وعلى كثرة التشكيلات الثقافية التي أنشئت، لم يكن للسوربوني مكان فيها، ولا فاز بأي من جوائز الدولة التي ظفر بها من هم دونه علماً وفضلاً وعطاء.

على أن السوربوني انصرف إلى أعماله الأدبية والتاريخية غير ملتفت إلى أي تقدير يناله من أي جهة، وكان يقول أمامي : لا أريد وظائفهم أو جوائزهم، فحسبي أنني السوربوني. ومن الأعمال التي أصدرها في تلك الفترة كتابان عن قناة السويس، وكتاب جمع فيه فصولاً من الأدب والتاريخ والاجتماع . وطالع الناس بعد ذلك بكتابين مدويين هما «الشوقيات المجهولة» بجزئيه و«خليل مطران أروع ما كتب».

أما «الشوقيات المجهولة» فهي محاولة من السوربوني لاستكمال ديوان «الشوقيات» بأجزائه الأربعة – علماً بأن الشاعر لم ينشر في حياته إلا الجزء الأول من «الشوقيات»، أما الأجزاء الثلاثة فقد نشرت بعد وفاته بإشراف الأديبين محمود أبي الوفا ومحمد سعيد العريان وباجتهادهما. وكأنما أراد السوربوني أن يقول لجامعي شعر شوقي إنكما أهملتما قصائد كثيرة توزعت في الصحف سواء بالتوقيع الصريح لشوقي أو بتوقيع مستعار، وإن السوربوني بحكم معاصرته لشوقي وغشيانه مجالسه ومعرفته باهتماماته وبمعجمه الشعري قد استطاع أن يفرز عشرات من القصائد المبثوثة في الصحف وأن ينسبها إلى شوقي نسباً صحيحاً .

ومما يزيد من أهمية «الشوقيات المجهولة» أن السوربوني توسع في تسجيل الأجواء الأدبية التي كانت سائدة في ذلك الوقت وصور الأحداث الجارية خير تصوير، فأصبح الكتاب وثيقة تاريخية وأدبية للعصر الذي عاشه شوقي، وهو اجتهاد يرجح كفة السوربوني إزاء كفة النقاد الذين نعوا عليه أن ينسب إلى شوقي قصائد إما تبرأ منها وإما أهملها أو لعلها ترجيحات مشكوك فيها من السوربوني..

وأما كتاب «خليل مطران أروع ماكتب» فقد أراد السوربوني أن يثبت للقارىء أن شاعر الأقطار العربية – وقد عرفته ولازمته في أخريات عمره – قد كان بليغاً في النثر والشعر معاً. صحيح أن الفصول التي جمعها السوربوني في هذا الكتاب لاتمثل كل ما كتبه مطران نثراً – مع استبعاد مسرحياته المترجمة عن شكسبير وراسين طبعاً – ذلك أنني وقعت في تنبيشاتي على فصول غير قليلة لمطران لم تندرج في هذا الكتاب، ولكن ذلك لاينتقص من جهد المؤلف الذي حصر ما وسعه حصره من مصادره، وترك للراغبين في الاستدراك عليه أن يكملوا عمله.

أما المؤلفات التي أصدرها السوربوني باللغة الفرنسية وطبعها في باريس، فقد صارت مرجعاً موثقاً للباحثين الأجانب في تاريخ مصر منذ حملة نابليون وعصر محمد علي وعن تاريخ السودان وإفريقيا الشرقية ، والباحثون الأجانب يشيرون في مراجعهم إلى صبري السوربوني باسم M. SABRY .

أما العمل الذي كان السوربوني يعكف عليه ويتمنى إنجازه ودفعه إلى المطبعة



قبل وفاته ، فهو دراسة ضخمة باللغة الفرنسية عن الحضارة العربية فى قلب إفريقيا ، وهو كتاب خلف منه نحو ألف صفحة مخطوطة لا أدرى مصيرها اليوم. وعندما سألت السوربونى عن مشروعه لنشر هذه الدراسة فى حالة إتمامها قال إنه سيسافر إلى فرنسا ولو بالجنيهات الخمسة التى كانت الحكومة تسمح بها لكل مسافر، وإنه سيحمل معه لوحتين أو ثلاث لوحات من مقتنياته الأصلية لبيعها هناك والعيش بثمنها، وإنه بعدما هاجر ابناه إلى الخارج وتزوجت ابنته واستقلت بحياتها وبعدما كان قد انفصل عن زوجته الأجنبية لم يعد هناك مايربطه بمصر إلا معاش التقاعد وخزانة كتبه الخاصة ، ولكنه كان على استعداد للتضحية بهما فى سبيل إطلاع العالم الغربى على الحضارة العربية فى قلب القارة الافريقية ، وليس يهمه بعد ذلك أن يموت غريباً فى البلاد التى أحبها - أعنى فرنسا.

وكنت أشفق عليه من حديث الغربة بعدما نيف على الثمانين ، ولكننى كنت أراه عن كثب وقد أحكم أرتجة بيته خوفاً من مخاطر حقيقية أو وهمية، واقتنى كلباً لحراسته ، وبات لايرد على الهاتف معظم الأوقات ولا يفتح باب منزله إلا بعد مايستوثق من الطارق. أما شئوونه المنزلية فكان يتولاها بنفسه دون الاستعانة بخدم، وهى حياة تكاد تماثل حياة النساك الزاهدين. بل فكر فى بيع مكتبته التى كان شديد الاعتزاز بها وبما تضمه من مراجع نادرة فى التاريخ والأدب والفن، فطبع قائمة مفصلة بمحتوياتها باللغة الفرنسية وبعث بها إلى عدد من الهيئات العلمية فى الداخل والخارج عساها تهتم باقتنائها، ولكنه لم يوفق فى هذا المسعى. ورجانى أن أتحرى إمكانيات اقتناء المكتبة من جانب الجامعة الأمريكية بالقاهرة، فلما سألت الأمينة المسئولة أخبرتنى أن الجامعة كانت تتفاوض على شراء مكتبة المستشرق كريزويل الخاصة بالآثار الإسلامية، وأن ميزانية الاقتناء لن تتحمل شراء مكتبتين فى وقت واحد.

أما وقد تغالظت الظروف المحيطة بالسوربونى، من جحود بلغ ذروته فى مذبحة التطهير التى كان من ضحاياها، ومن استحالة تحقيق آخر أحلامه فى الهجرة إلى الخارج كى يتفرغ لعمل أكاديمى ضخم، وأما وقد قتلته الوحدة فى بيته مع الرعب من المطاردين الحقيقيين أو الوهمين، فقد آن له أن يودع الدنيا على أمل بأن تنصفه الأجيال الطالعة وتعرف حقيقة قدره ومقدار مابذل فى خدمة بلاده وأمته. وجاءت منيته فى الثامن عشر من يناير ١٩٧٨ - أى منذ ربع قرن - واكتملت آيات الجحود لأن نفراً قليلاً هو الذى سار فى جنازته . إنها نهاية حزينة عرفنا أمثالها فى حالات كثيرة لطائفة من رجال الفكر اختاروا الباقيات وعافوا زبد الحياة.

ولئن لم يترك السوربونى وصية، فإن وصيته المفترضة هى أن يعاد نشر كل تراثه لكى تبقى ذكراه حية بين الباحثين والعلماء فى كل جيل. ■



شعر

سليم الرافعي - لبنان

تحية إلى

أصفهاني زمانه

إلى الأديب وديع فلسطين ومجلة (الهلال) التى اذاعت كتاباته المدهشة عن خفايا - وخبايا - خلدها القلم والناشر



أخي .. ياوديع كفلت النهى أويت إلى الحب فيما آشتهى

من (النيل) تنهل مستبحراً ومن هرم ترتقى للسهى

وتذكر للشرق أمجاده إذا الشوق مد ياسه ملها

وما حفظ الود غير الألى قرائحهم أخلصت صقلها

أولئك من مصر أطيافهم كأهرامهم خلدت ظلها

ومن وضع (النيل) فى جرعة سقى للعروبة بيض المهى

هو الشعر صحراؤه تلتظى فهل من (وديع) يرجى لها ؟

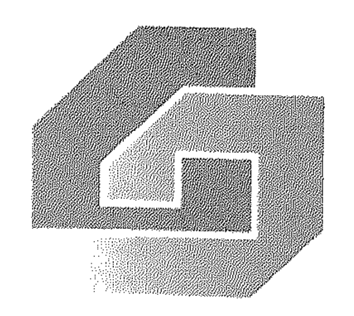
ليذكر ماغاب من نجمها وترعى مروءته ليلها

صدى النهر فى قلم فاتح ممالك بالأدب أحتلها

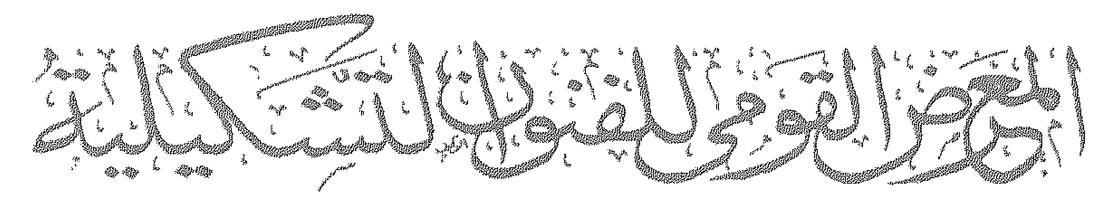
أصاخت شعوب إلى صوته فأيقظها الصوت أو هزها

وكان (الهلال) نديم الهوى يصون كئوس الهوى كلها

ومن (آسيا) بعد (أفريقيا) إلى (أمريكا) بلا منتهى



28

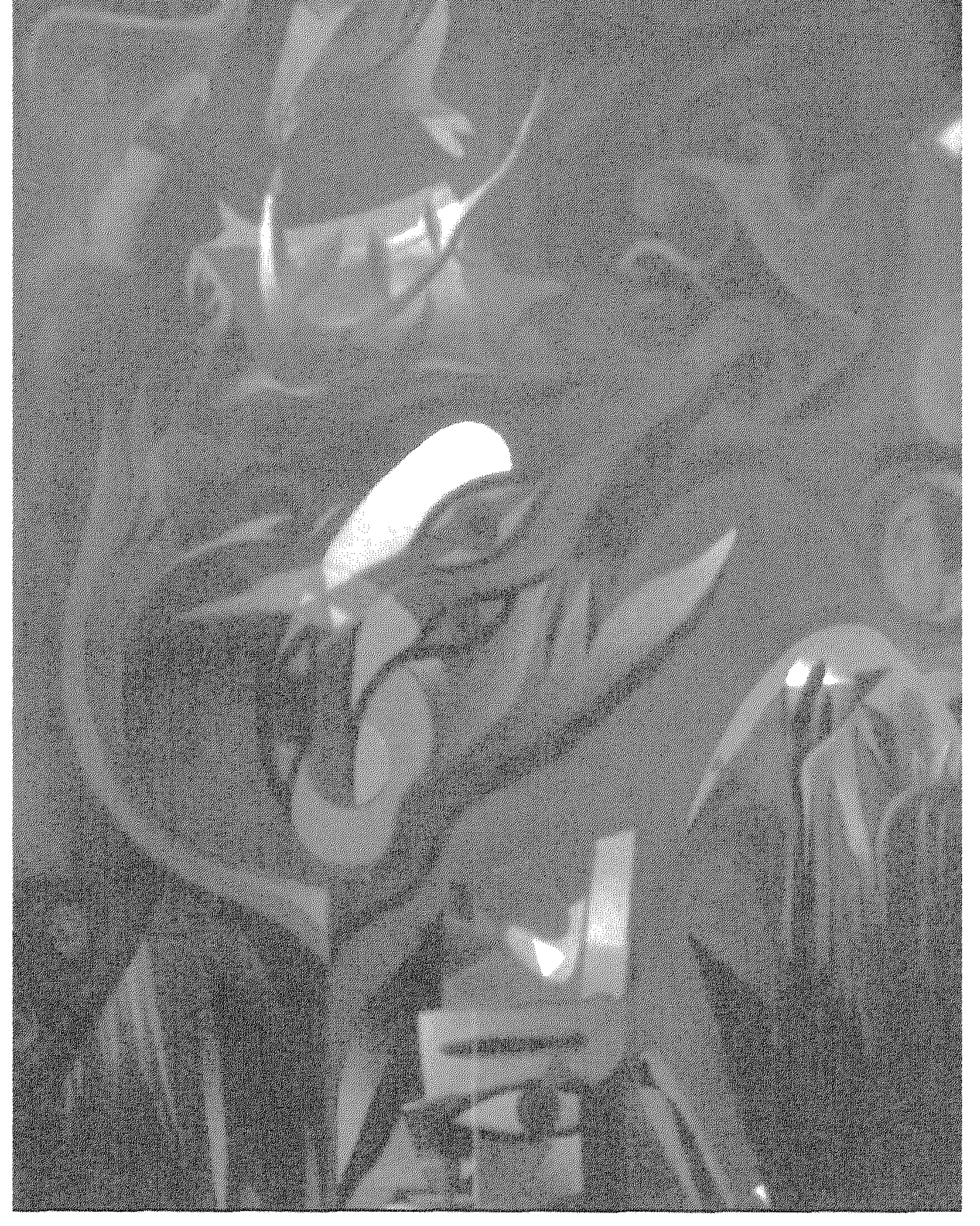


الثامن والعشرون

ظاهرة ثقافية ايجابية

بقلم
د. صبري منصور

يظّل المعرض القومى للفنون التشكيلية الذى يقام كل عامين ، ويدعى للمشاركة فيه الفنانون المصريون على اختلاف مجالات إبداعهم ، وتنوع اتجاهاتهم الفنية ، ظاهرة ثقافية إيجابية يجب الحفاظ عليها مهما كانت هناك من ملاحظات سلبية تنتقص من قيمة المعرض وتؤثر فى جدواه الثقافية المأمولة ، وتقلل من إمكانياته فى دفع الفن المصرى نحو التألق والإزدهار . فهذا هو المعرض الفنى الوحيد الذى يمنح الفرصة لمتابعة مسار الإبداع التشكيلى فى مصر وتوجهاته الجديدة ، كما يسمح للفنانين أنفسهم بفرصة الإحتكاك الفنى - حتى لو كان صامتا - بما يمكن أن يخلقه ذلك الاحتكاك من إعمال الفكر فى قضايا فنية وأبداعية التى تهم أصحاب المهنة الواحدة .

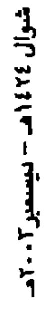


تصوير -إبراهيم العطار

وتعكس أعمال العرض الذى أقيم بقصر الفنون خلال الفترة من أواخر أكتوبر حتى منتصف نوفمبر الماضى - ومن خلال أعمال حوالى أربعمائة فنان عرض لهم حوالى خمسمائة عمل فنى فى مجالات تعددت ما بين التصوير والنحت والجرافيك والخزف والرسم والتجهيز فى الفراغ وفن الڤيديو والبيرفورمانس - تطلعات الفنانين المصريين المعاصرين نحو تحقيق القيمة الفنية الرفيعة ، كما تكشف هذه الأعمال فى معظمها عن قدرات فنية تنوعت واختلفت وفقا لمدى نضج الفنان وثقافته وقوة موهبته ، والمعرض فى مجموعه كنتاج ثقافى ينأى عن السوقية والابتذال ، ويقدم نموذجا جديرا بالاحترام والتقدير لمجال فنى مصرى ، فلقد ساهمت طبيعة الفن التشكيلى نفسه كفن يعتمد على مبدعه منفردا فى المحافظة على القيمة الفنية العالية وعدم التدهور مثل فنون أخرى أصابها النكوص ووصل بها الحال إلى السطحية مثل السينما والمسرح والموسيقى .

وإذا نحينًا جانبا أعمال الفنانين المعروفين الذين قدموا فى المعرض القومى تنويعات متميزة على أساليبهم الفنية الذين مارسوها لفترة زمنية طويلة فاكتسبت استقرارا ورسوخا ، فإن من الظواهر الملحوظة فى معرض هذه الدورة تزايد أعداد الفنانين من جيل الشباب ، الذين تقدموا بابداعهم الفنى الجديد ، ومن بينهم من تعرض أعماله لأول مرة ، بل ومن بينهم أيضا بعض الدارسين بكليات الفنون وتعكس أعمالهم موهبة فنية واعدة ، كما أن هناك عددا من الوجوه الجديدة يلفت الانتباه لرهافة حسه الفنى وتمكنه من أدواته الفنية ، وابتعاده عن ادعاء الحداثة عن طريق تقليد النماذج الحديثة فى الابداع الفنى العالمى فهو يبحث عن ملامحه الذاتية المميزة ، مما ينبئ عن شخصية تملك احترام الذات وصدق التجربة .

وعلى الرغم من أن معرض «صالون الشباب» الذى كان مقاما فى نفس المكان قبل المعرض القومى مباشرة ، والذى يقتصر قبول العرض فيه على شباب الفنانين حتى سن الخامسة والثلاثين ، وتخصص له جوائز عديدة فى



تكوين - عادل ثروت

جميع المجالات الفنية، إلا أن للمعرض القومى جاذبية خاصة بالنسبة للأجيال الشابة التى ترغب فى العرض إلى جانب الكبار ، وضمن واجهة الفن المصرى التى تشمل الجميع ، وإذا لاحظنا أن عددا لا بأس به من الفنانين ذوى التاريخ الفنى المعروف والتجربة الفنية الناضجة قد أحجموا عن عرض أعمالهم لسبب أو لآخر ، فإننا نرى أن المعرض القومى يتحول فى النهاية إلى صالون الشباب.

ولقد بدا الأمر للبعض كما لو أن الأمر فيه مزاحمة من جانب الشباب ، كما بدا للبعض الآخر أن جيل الشباب يستأثر باهتمام أكبر حين يقام له معرض خاص به ، فى نفس الوقت الذى يسمح له فيه بالتقدم مع الفئات العمرية الأخرى للمعرض القومى ، مما يدعو إلى النظر فى إلغاء صالون الشباب طالما أنه لا يمكن قصر المشاركة فى المعرض القومى على فئة عمرية محددة ، فالإبداع الفنى لا يرتبط بعمر معين ، وتلك قضية تحتاج إلى حل يسمح بوجود توازن مقبول من الجميع ، فلا تشعر فئة ما بأنها مهضومة الحق إلى جانب فئة أخرى ، وربما كان الحل - من وجهة نظرنا - إيجاد معرض واحد لجميع الفئات للفن المصرى المعاصر ، وهو حل عادل وسليم ليظل المعرض القومى للفنون التشكيلية هو الواجهة الوحيدة لعرض الإبداع الفنى المصرى سواء كان لكبار الفنانين أو لشبابهم ، ويمكن أن يخصص فى هذا المعرض الجوائز المقررة للشباب لمن هم دون الخامسة والثلاثين فقط تشجيعا لهم وحفزا على المواصلة والاستمرار ، كما يمكن أن تمتد هذه الجوائز أيضا للكبار ، وكان المعرض القومى خلال دورتين فى الثمانينات يقدم جوائز ثم ألغيت فى دوراته اللاحقة . ولا شك أن الجوائز تمثل حافزا من أجل مزيد من الجدية والالتزام ، لأن ذلك شئ طبيعى عند البشر لا نستطيع أن نغفل أهميته وأثره فى التشجيع والتقدير ، كما أن وزارة الثقافة تنفذه بكرم كبير فى قطاعات فنية أخرى ربما كانت أقل حاجة من الفنون التشكيلية للتشجيع مثل السينما والمسرح فى مهرجاناتها التى تقام سنويا .

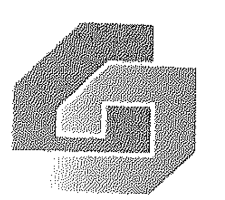
الفهم الخاطئ للحداثة والتحديث

ويثير المعرض عددا من القضايا





تكوين - محسن عبد الفتاح



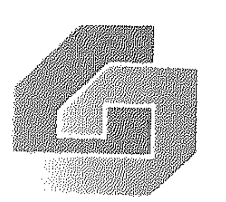
الفنية تتصل بإشكاليات الإبداع الفنى المصرى ، ومن أهم تلك القضايا التى تخطر على ذهن الراصد لمسار فنوننا قضية الرغبة فى التحديث ومسايرة أساليب التعبير الفنى السائدة فى الغرب بوصفه أكثر مناطق العالم تمدنا وتحضرا ، وكذلك لسبقه فى ريادة عالم الفنون منذ عصر النهضة وحتى اليوم ، وذلك فضلا عن المد الإعلامى الساحق، وانتشار وسائل التوصيل الفائقة السرعة للمعلومات والأفكار والاتجاهات ، كما أن النتاج الفنى الغربى - فى جميع المجالات - قد بلغ بالفعل ذرى عالية من الاتقان والإبهار والقدرة على الابتكار والتجديد وارتياد آفاق جديدة ، فلقد أتاحت الحياة الرغدة والكريمة التى تحياها المجتمعات الغربية المناخ الملائم لازدهار الفنون وتألق المبدعين الذين توليهم هذه المجتمعات قدرا كبيرا من الاحترام والتقدير ، وتسبغ على إنتاجهم الفني من صفات التوقير ما يضعه فى مصاف الأنشطة الإنسانية الأخرى إن لم يفقها تقديرا ، وكل ذلك أدى إلى إثراء عالم الفنون ، ودفعها إلى التغير المستمر نحو أشكال فنية جديدة أكثر تعقيدا ، ولاشك أن تلك الأشكال قد أصبحت نموذجا يحتذى ، وأضحت مغرية للمبتدئين وعدم الراغبين فى البحث والتنقيب والتجريب ولكل من يحاول أن يأتى إبداعه الفنى مواكبا أو مشابها لما يراه سائدا وتم الاعتراف به وبقيمته الفنية الرفيعة فى المحافل الدولية ، وذلك ما نعتقد أنه فهم خاطئ حين نتناول قضية تحديث الفن المصرى، فعملية التحدث عن طريق المسايرة هو تقليد لا تحديث ، وهو تشويه لاتجاهات وأساليب نزعت من سياقها الثقافى والفنى ، كما أنه نوع من الاستسهال والركون إلى جهد الآخرين، وهذا ما نلاحظه واضحا فى عدد لا بأس به من الأعمال الفنية فى المعرض القومى التى حين تقف أمامها تشعر بأنك قد سبق وأن رأيتها فى كتاب ما أو دورية فنية أو ما شابه من وسائل النشر ، فهى منقطعة الجذور بما كان وما هو كائن . ولا يصلك منها أية أحاسيس أو معان ، وإنما هى مجرد تنويعات محورة لأشكال وعناصر سبق معرفتها وتجريبها حتى أصبحت تقليدا ثابتا لا تخطئ العين إدراكه . ومما يؤسف له أن هناك من



عمل للفنانة مي كمال رفقي

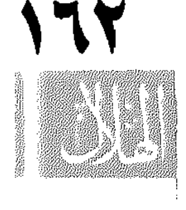


عمل للفنان عبد الصبور شاهين



بين أصحاب هذه الأعمال فنانين من الأجيال الشابة التى ندعوها أن تسعى بكل جديد وعمق إلى استكمال مسيرة الفن المصرى الحديث ليس عن طريق اتباع النماذج الغربية الجاهزة ، وإنما بالبحث عن سمات خاصة بفنهم المصرى ، وأن يمتدوا بتجارب سابقة فى هذا الطريق . ومن الصدف الموحية أن يحتفل المعرض القومى هذا العام بنماذج من إبداع الفنان الراحل حامد ندا كضيف شرف لهذه الدورة ، فى الوقت الذى يشارك فيه الفنان عادل السيوى بلوحته الثنائية عن لوحة الفنان عبدالهادى الجزار الشهيرة «المجنون الأخضر» ، فالفنانان الراحلان كانا مشغولان بهم إبداع فنى مصرى قلبا وقالبا ، وجاءت صياغاتهما التشكيلية فريدة متميزة ودليلا على قدرة الفنان المصرى على تقديم إبداع مستقل المعالم واضح السمات .

إن الأصل فى الإبداع الفنى هو الاختلاف والتميز ، وذلك ما يمنحه القيمة الحقيقية كابداع فنى مبتكر يقدم رؤية غير مكررة وليس لها من شبيه أو نظير ، وليس مهمة الفن المصرى تحديث الفن الأوربى ، وانما يجب أن ينصب جهده على تحديث الفن المصرى ذاته وتحديد ملامحه ، والتأكيد على مظاهر اختلافه . وعلامات تميزه عن طريق الامتداد بحلقاته البعيدة والقريبة، ولا يجب أن ينظر إلى معالم الحداثة الغربية كسبيل وحيد من أجل التحديث، والقول بذلك فيه انتقاص من قدرة الفنان المصرى على الاضافة وخلق لغته الفنية الخاصة ، إن كل ما يحتاجه المبدع المصرى هو الإيمان بنفسه وقدراته الذاتية ، وبأن لديه شيئا خاصا يمكن أن يدلى به ، وأن يتجه إلى ذلك الكنز التاريخى عبر آلاف السنين وحتى اليوم يمتد بخيوط منه لينسج إبداعه ويحدث أسلوبه . ومهما كانت التجربة الفنية - فى بداياتها - بسيطة ومتواضعة وبعيدة عن مشابهة النماذج الغربية المألوفة والتى استقرت قيمتها الفنية ، إلا أن الإصرار على استكمال التجربة وانضمامها سوف يثمر فى النهاية صياغات تشكيلية جد مختلفة تكون مصدر زهو وفخر للفن المصرى المعاصر ، وإضافة حقيقية لرصيد الابداع الفنى العالمى ■



١٦٣

شوال ١٤٢٤هـ – ديسمبر ٢٠٠٣م

عائلات ثقافية

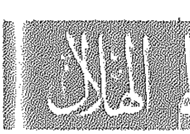
عبد السميع

المشاغب الفيلسوف

بقلم

د. عمرو عبد السميع

أنت مش كنت عايز تشوف الحرية .. أهيه يا سيدى قدامك - أزمة الديمقراطية (١٩٥٤)



" لقد كان سعيداً بالثورة .. ولكنه استطاع أن يكون ناقداً لها.. واعتز بحرية رأيه فى كل المناسبات والعصور "

أحمد بهاء الدين

■ لا أجد فى الكتابة ، عن رسام الكاريكاتير العملاق، عبدالسميع (١٩١٦ - ١٩٨٦) ، صعوبة الخجل التقليدية، التى تعترى ذوى الصلة الشخصية، عندما يطرحون آراءهم شفاهة أو كتابة ، فيمن ينتسبون إليهم ، بعلاقة قربى، أو صداقة ، وربما - مجرد - معرفة .

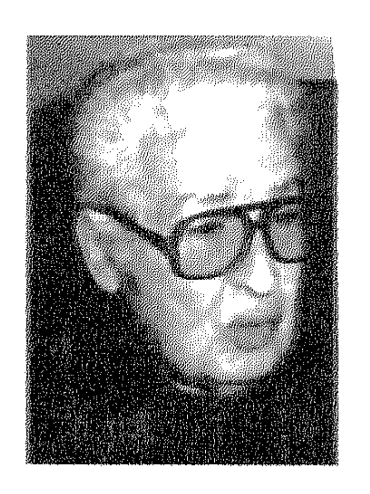
فعبد السميع ، بالنسبة لى - إذا أذنتم فى هذا المدخل الشخصى - كان رمزاً يتجاوز - بكثير - تأثير شلال أبوته الدافق، وكان معنى يعبر - باستمرار - أسوار رعايته الغامرة، التى أمعنت - ربما بتفصيل مدهش - بناء ، وهندسة ، تكوينى العقلى، والإبداعى .

فلقد كان الرجل - دائماً - مساحة مشتركة بينى، وبين الناس، ليس - فقط - لأنه اختصنى، منذ نعومة أظفارى، بتحميل جهازى النفسى ، والشعورى ، بترسانة آرائه ، فى شئون البلد، ورؤاه فى هموم الشعب ، وليس - فقط - لأننى وجدت نفسى - بتأثير تلك الحمولة - أخوض غمار مسار علمى، ومهنى، جعلنى جزءاً من الساحة الصحفية ، المشدودة إلى الناس، بعلاقة ، تبادلية، يومية ، نشطة ، ربما كان الكاريكاتير أهم عناصرها.

عبد السميع عبد الله



صاروخان



إحسان عبد القدوس

وإنما لأن ذلك الارتباط بين عبدالسميع والناس، لم يك علاقة من طرف واحد، كتلك التى تربط الكثير من رموز، ونجوم النخب السياسية، والفنية، بهم.

بل كان ارتباطاً من طرفين، يتجاوب فيه الناس ، مع ذلك الحضور الطاغي، لروح التحريض الباسلة ، التى حفلت بها رسوم عبدالسميع - فى مناسبات وطنية مفصلية - وكأنهم أعطوها ثقتهم المطلقة ، فأصبحت تحمل خاتم الاعتراف العام، بأنها معبرة عن رأى الشعب، وأن الريشة المقاتلة، التى رسمت خطوطها كانت: «من صميم الشعب».. (ذلك الوصف الذى لم يجد إحسان عبدالقدوس، بديلاً له ، حين خط مقالاً شهيراً عن عبدالسميع).

... ...

بهذا المعنى يختلط الخاص بالعام، والشخصى بالوطنى ، عندما أكتب عن عبدالسميع . فأشعر ، وكأن يداً ، قد نزعت عنى، حجب الخجل الناجم عن علاقتى الشخصية به، ودفعتنى نحو محاولة تخطى الصعوبة الحقيقية، فى الكتابة عنه، ألا وهى شمولية ، وتعقيد الظاهرة السياسية/ الفنية التى يمثلها.

فنحن - قولاً واحداً - أمام رسام أسس لسابقتين فى تاريخ الكاريكاتير المصرى، هما :

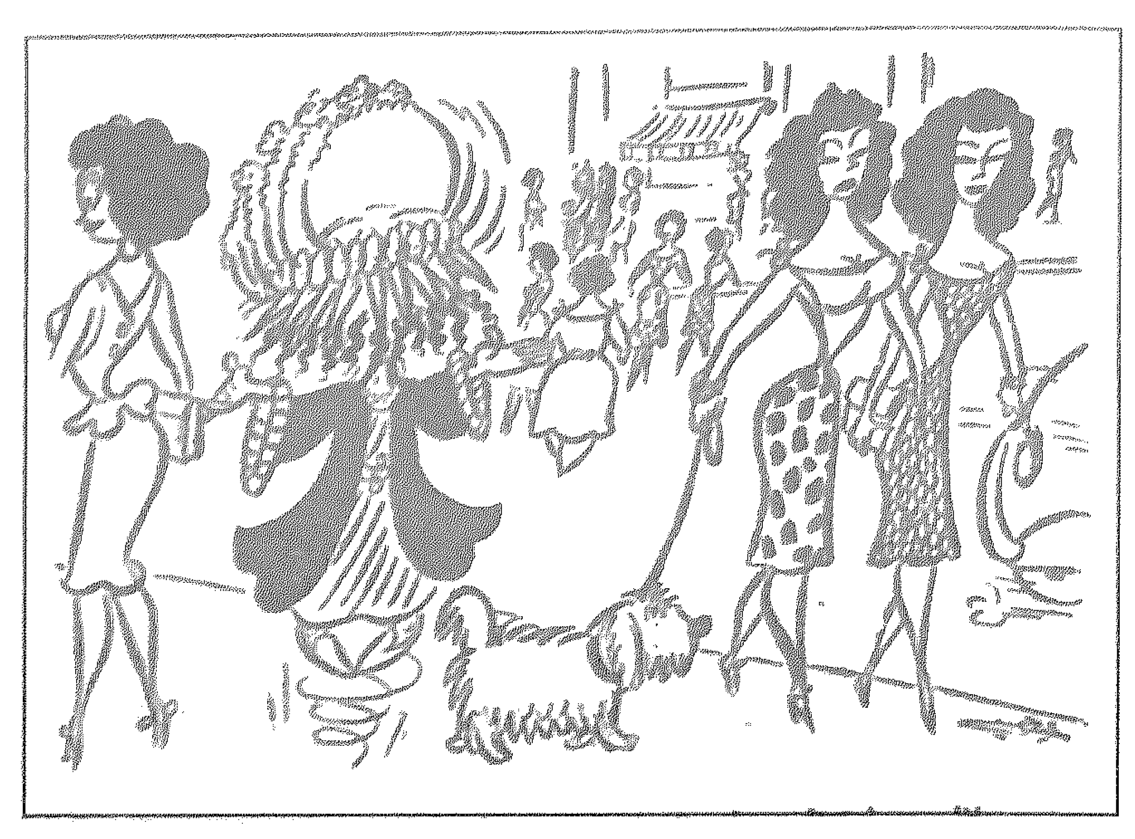
- الالتزام السياسى للرسام.
- التوحد بين الرسام والفكرة.

فقبل عبدالسميع ، كان بعض الرسامين، يرسم فى عشر صحف ، ومجلات ، متناقضة الاتجاهات ، متقاطعة السياسات ، ويتبنى فى رسومه إلى كل منهم ، ما يتوافق مع رغبات المطبوع، بما اختزل دور الرسام - واقعياً - فى وظيفة (المؤدى)!

ولكن الفلاح، المعتز بريفيته، وقف يحاج إحسان عبدالقدوس، حين طلبه للعمل فى روزاليوسف ١٩٤٦، بعدما شاهد رسومه، في جريدة «السوادى».. واشترط - وهو الرسام المغمور الذى يمارس الرسم كهواية إلى جوار عمله فى مصلحة المساحة - ألا يهاجم الوفد، لمجرد كون هذا الهجوم من سياسة روز اليوسف وقتها، بل ولم يعمد إلى الانتقاص من الوفد - أبداً - إلا بعدما تغيرت قناعاته ذاتياً، وأصبحت منظومة الأحزاب التقليدية كلها، هدفاً متكرراً لهجمات ريشته، ولأفكاره الضاحكة الصاخبة، وصار مصطفى باشا النحاس، وفؤاد باشا سراج الدين ، يظهران فى رسومه، فى هيئة نجمى الفكاهة العالميين لوريل وهاردى!

إلى ذلك فان الاشتراك الفعال لذلك الرسام ، فى الحملات السياسية الكبرى لروز اليوسف، قبيل ثورة يوليو، ضد الفساد، والأسلحة الفاسدة، وأركان مثلث الحكم (الإنجليزى - السراى - الأحزاب التقليدية القديمة) ، جعل من رسومه كتيبة مدفعية متقدمة، تمهد





لازم يعملوا المرور فى الشارع ده .. فى اتجاه واحد !! .. الشيخ متلوف (١٩٥٣)

الرأى العام ، لحدث الثورة.

ولكن استقلالية التوجه السياسى لعبدالسميع ، لم تجعله - أبداً - أحد قارعى الطبول للنظام الجديد، بمبرر، أو من دون سبب.

وإنما اخترع الصيغة التى تمكنه من انتقاد نظام الثورة، فى إطار من الارتباط بها، وهو ما أوجزه الأستاذ أحمد بهاء الدين، فى أحد أعمدته الصحفية، بقوله: «كان عبدالسميع سعيداً بالثورة، لكنه استطاع أن يكون ناقداً لها.. واعتز بحرية رأيه فى كل المناسبات والعصور»

ومن هنا كانت أزمة مارس ١٩٥٤ مثلاً، ساحة مواجهة انتقادية بين ريشة عبدالسميع، والنظام الجديد، عبر سلاسل رسوم ذاع ، وشاع صيتها، عن «النفاق فى حديقة الحيوان»، والتى تحركت ريشته - فيها - ببراعة ، مستخدمة وسائط إقناع متنوعة، عمدت إلى اختراق سقوف الرقابة السياسية الضاغطة، ومنها الاسقاط ، والرمز، والتشخيص، والاستدعاءات من حكايا «دبشليم الملك وبيدبا الفيلسوف».

وربما تحرك الفنان فى هذا السياق بوعى مؤداه، أن الكاريكاتير لا ينبغى، ولا يمكن أن يتحول إلى بوق تعبوى، وأنه إذا فقد خاصية القدرة، على التحريض، والاستقلالية، التى تمكنه، من مناوشة، ووخز، من يريد، عندما يريد، فإنه سيصبح أداة تغييب، تغرق الناس فى بحور من الضحك، أو تسحبهم من بؤرة

أى أزمة، إلى حوافها، وتخوفها، مهمشة دورهم، ومختزلة إياه، فى الضحك المجرد، غير القابل ، أن يتحول إلى طاقة للتغيير، أو أساس لبناء موقف.

ولم يك إرساء مفهوم الالتزام السياسى عند عبدالسميع، لينفصل - البتة - عن موضوع توحد الرسام مع الفكرة، فقبل عبدالسميع - كذلك - كان السائد فى تعامل أى مطبوع مع الرسام، هو أن يقوم رئيس التحرير، أو بعض محررى المطبوع، بإمداده بالأفكار ليرسمها، وقد أسس الأستاذ محمد التابعى لمدرسة فى الكاريكاتير، يعد هذا الأسلوب خاصيتها المميزة، سواء فى روزاليوسف (عندما أسسها مع السيدة فاطمة اليوسف والأستاذ محمد على حماد)، أو فى آخر ساعة، وأخبار اليوم (حين أسس الأولى عام ١٩٤٤)، فقد كان الرسامان ، الأرمنى أليكس صاروخان، أو المصرى محمد عبدالمنعم رخا، ينفذان أفكاره، لسنوات طويلة، أو كان رخا (منفرداً) ينفذ أفكار الأستاذ مصطفى أمين، ثم الأستاذ محمد عفيفى، والأستاذ مأمون الشناوى من مجلة (الاثنين وصولاً إلى أخبار اليوم).

مدرسة أخبار اليوم

بعبارة أخرى أصبح ذلك الأسلوب علامة على فهم أخبار اليوم للكاريكاتير الذى تواصل، حتى تلك الصيغة التى جمعت الأستاذ أحمد رجب، مع مصطفى حسين.

وقد عبر رخا عن ذلك فى مقال منشور بمجلة الاثنين فى ٢٣ أكتوبر ١٩٤٤، بعنوان : «كيف يفهمون الكاريكاتير» فقال: «إن مصطفى أمين هو فابريقة أفكار رسوم كاريكاتيرية، نلتقى فيظل يتمشى فى حجرته واضعاً أصبعيه فى صديريته، ثم يملى علىَّ ، وقد يعطينى فى خمس دقائق أفكاراً لخمس صور، ولا أدرى كيف عثر عليها».

أما صاروخان فيؤكد ارتباط رسومه الكامل بمحمد التابعى، حتى فى طريقة دراسته لملامح بعض الشخصيات، توطئة للتعبير عنها بالبورتريه الكاريكاتيرى.

(حوار لأليكس صاروخان مع محمد أحمد عيسى فى جريدة الجمهورية بعنوان كلام بالكاريكاتير فى ٣٠ سبتمبر ١٩٧١).

مدرسة روز اليوسف

أما المدرسة الثانية الكبرى فى تيار الكاريكاتير المصرى، فكانت مدرسة الأستاذ إحسان عبدالقدوس، فى روز اليوسف، والتى بدأها معه عبدالسميع، حين أصر - الأخير - على أن ينتج أفكاره بنفسه ثم يترجمها خطوطاً ومساحات على الورق.

إذ كان اعتزاز الفلاح العمدة ، برأيه ، لا يتجزأ، لا ينفصل عن فكره، ولا ينبغى ، أن يُسلم دماغه ، إلى آخر، أياً كان هذا الآخر، فقد كان اقراره بمبدأ



الحذاء الملكى والنحاس باشا (١٩٥١)

الالتـزام السـيـاسى للرسـام يعنى - ضمنيـاً - أن يقبل، أو يرفض، وفـقـاً لسـيـاسـة تحـريره، أو لسـقـوف حـرية التـعبـير السـائدة، فى فـترة بعينهـا، أو للمزاج الثقافى والاجتماعى السائد عند الناس.

بل لقـد كـان يرى أن قـبـول الرسـام لإمــلاء الفكرة عليــه، يحــدث - على المستوى الفنى - فصلاً سقيماً ومقيتاً، بين مـضـمـون الرسـم، وأسلوب التـعـبـيـر المسـتخدم فيه، ويقترب به من الصيغة، التى بلورت نفسـهـا، فى أكثـر أشكالهـا وضـوحـاً، عند الأسـتـاذ أحـمـد رجب، ومــصـطفى حـــسين، ألا وهى المقـــال الفكاهى، القصير، الذى يصاحبه رسم، والتى يحـاول مصطفى حسين - الآن - التملص منهـا، لخلافه مع أحـمـد رجب، ليعود إلى صيغة الكاريكاتير الحقيقية، التى يوظف فيها قدراته الفنية الضخمة، توظيفا صحيحاً، غير أنه يواجه تعثراً، وصعوبة كبيرة، بعد أن تعود الجمهور على الشكل الذى كـان يُقدم له بوصـفـه (الكاريكاتير)، كمـا تعـود على صـيـغـة أخـبــار اليــوم المهنيـة، بوصــفــهــا (الصحافة)، فيما لم يك ما يقدمه أحمد رجب ومـصطفى حـسين هو الكاريكاتير بالضـبط، كمـا لم تك أخـبـار اليـوم، هى الصحافة وحدها!!

كوميديا الموقف

كانت رسوم عبدالسميع، فى مدرسة إحسـان عبدالقدوس، مفعمـة بالحرارة التـعبيرية، التى يولدها ذلك التـوحد بين

الفكرة والرسم واستطاعت ان تخترع كودا للتفاهم مع الجمهور، بحيث أصبح هذا الجمهور، قادراً على التقاط الرموز. والمعانى، حتى لو اضطر الرسام، إلى تمويهها، وإخفائها ، تحت ضغط تراجيديا الحواجز السياسية والاجتماعية، متنوعة الدرجة والمستوى.

ثم أن التوحد بين الفكرة والرسم ، منح الكاريكاتير، فرصة مهمة، لأن يلتصق بمفهوم كوميديا الموقف بأكثر مما يرتبط بكوميديا اللفظ ، إذ أن توهج التعبير ، الناجم عن وحدة المنبع للفكرة والرسم، أديا - تلقائيا إلى اختصار التعبير بالكلم، ومن ثم الاقتراب شيئاً ، فشيئاً من الرسوم بدون تعليق ، التى تشارف معانى العالمية، والكونية، من دون صعوبات كبيرة، أو الرسوم ذات التعليقات القصيرة، التى يمكن ترجمتها، أو استنباط معانيها، بيسر، لا ينزع عن الكاريكاتير ، واحدة من أهم صفاته ، وخصائصه، ألا وهى «إنسانيته» التى تعبر الحدود، والمسافات، وتتخطى الحواجز الثقافية، واللغوية.

على أية حال، فإن نجوم الكاريكاتير الزاهرة، التى رصعت الحياة الصحفية ، والسياسية فى مصر، بعد عبدالسميع، وخرجت من عباءة صيغة (الرسام/ المفكر)، كانت أكبر دليل، على صحة ذلك الاختيار: (صلاح جاهين - أحمد حجازى - جورج - بهجت عثمان - محيى الدين اللباد - ماهر داود - رجائى ونيس - إيهاب شاكر - نبيل السلمى - صلاح الليثى).

وقد ملأت هذه الكوكبة المجيدة ، صفحات كل المطبوعات المصرية (جرائد ومجلات) برسوم ، كانت تعبيراً مباشراً، عن رأى ، وفكر ، كل من هؤلاً المشاغبين الفلاسفة، والتى أصبحت - فى ذاتها - وثائق للتأريخ السياسى ، والاجتماعى، لمصر، وعلامات طريقه، تحدد - بدقة - موقع ارتباط (الرسام/ المفكر)، وانحيازاته السياسية ، والاجتماعية.

استقلاليته والتزامه

إلى ذلك فإن تمسك عبدالسميع باستقلاليته - مرة ثانية وثالثة - بعد قيام الثورة ، واحتفاظه لنفسه ، بالقدرة على نقدها، لم يُزل - أبداً - ارتباطه بالطروح الوطنية ، السياسية والاجتماعية، للنظام الجديد، فإذا كانت رسوم عبدالسميع - فى أبسط أوصافها - قبل الثورة هى رسوم (تحريضية)، فإن رسومه بعدها - وفى أبسط أوصافها كذلك، هى رسوم (إصلاحية). وحين كان يشعر فى المرحلة الثانية من مراحل النظام الجديد (عصر السادات) أن قدرته على التعبير، أصبحت محدودة ، كان يرتحل برسومه، من مطبوع إلى مطبوع (قومى أو حزبى ليس يهم، مجلة أو جريدة ليس يهم) بحثاً عن الحرية، والرسم فى الهواء الطلق، وملاغاة الناس، وإيقاظهم، واستنقاذهم ، من خدر النوم تحت الظلال الوارفة، لأشجار



الحملة ضد النحاس (١٩٥٠)

: العادى - والممكن - والواقعى !

وربما كانت أفضل فترات عمل هذا الرسام والعمدة، هى التى أبدع فيها، مع رؤساء تحرير يرتبطون بروزاليوسف، ففى فترة رئاسة الأستاذ أحمد بهاء الدين للمصور، احتل الكاريكاتير مكانة متميزة، حتى أنه ظهر على غلاف المجلة لأول مرة منذ نشأتها، أو مع الأستاذ صلاح حافظ فى روز اليوسف، وكانت أكثر الفترات التى تعرضت فيها رسوم عبدالسميع للمنع والتقييد هى فترة رئاسة تحرير الأستاذ يوسف السباعى، وفترتى تعامل الأستاذين مرسى الشافعى ، وصبرى أبوالمجد مع الكاريكاتير، فتوقف عبدالسميع فى المصور عن تقديم الكاريكاتير المتعلق بالسياسة الخارجية، واكتفى بصفحة ملونة ، بعنوان (بالألوان) تعرض فيها لقضايا محلية، كما توقف عبدالسميع عند بلوغه السن القانونية، عن العمل مع صبرى أبو المجد، ولكنه عاد إلى المصور مع تولى الأستاذ مكرم محمد أحمد لرئاسة تحريره عام ١٩٨١.

الفنان صاحب موقف

كان يربط إسهامه الصحفى الفنى، بمدى اقتناعه بالعمل مع رئيس تحرير معين، ويتوقف إذا شعر أن تعامله مع رئيس تحرير - بالذات - سوف يفقد رسومه بعضاً من خصائصها السياسية.

وربما كان فى ذلك تفسير كاف لترحال عبدالسميع واسع النطاق بين المطبوعات المصرية فى العهد الثانى لنظام ثورة يوليو.

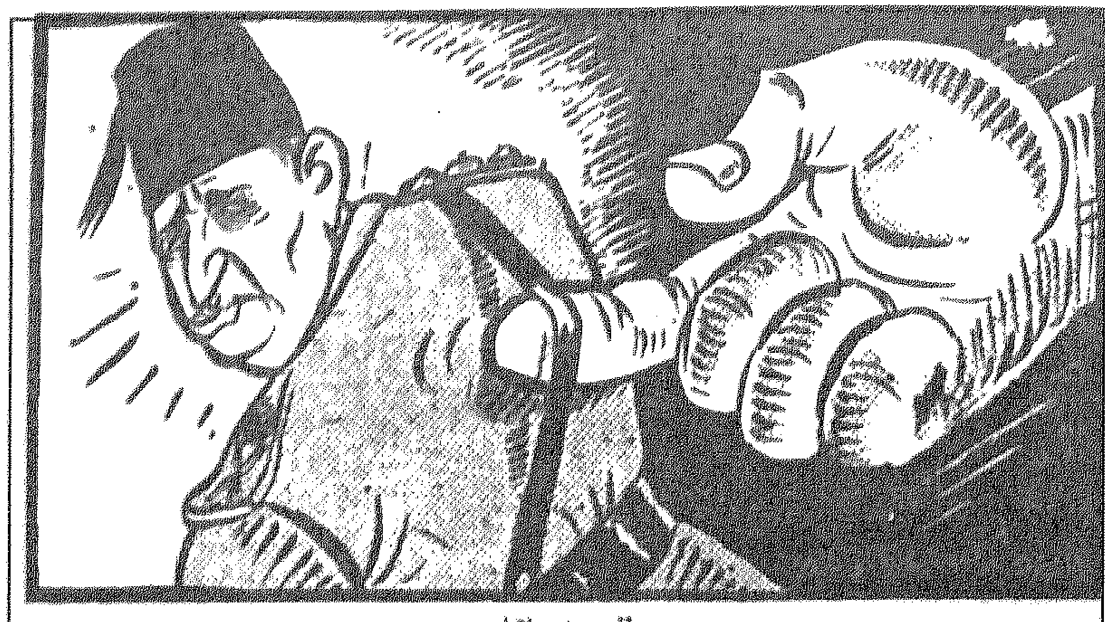
فقد استقر - أولاً - فى روزاليوسف من ١٩٤٦ إلى ١٩٥٥ ، ثم انتقل إلى أخبار اليوم عام ١٩٥٥ - ١٩٥٦ ، ولم يتواءم مع طبيعة الصحيفة أو مزاجها السياسى، على الرغم من أنها أفردت له ملحقاً ملوناً من صفحات أربع (أخبار الكاريكاتير) وامتلأت القاهرة عند انتقاله إليها، بأفيشات فى الشوارع (عبدالسميع يرسم فى أخبار اليوم)، ومن أجل هذا قبل فوراً دعوة المرحوم صلاح سالم للرسم فى صحيفة الشعب، ومنها إلى الجمهورية جريدة الشعب حتى عام ١٩٦٤، حين خرج ضمن الذين خرجوا فى مذبحة الصحفيين الأشهر إلى مؤسسة تعمير الصحارى، ورفض استلام عمله فيها، حتى طلب منه الأستاذ أحمد بهاء الدين أن يرسم فى المصور ، ومجلات دار الهلال، وروزاليوسف (وقت إشراف الأستاذ بهاء المزدوج على الدارين)، ثم رسم فى العدد الأسبوعى للجمهورية، مطلع السبعينيات ، وقت رئاسة الأستاذ ممدوح رضا للتحرير، وكذلك فى جريدة السياسى، ورسم - كذلك - لفترات متفرقة ، فى صحيفة الأهالى عندما أصدرها حزب التجمع التقدمى، وصحيفة الشعب لحزب العمل الاشتراكى.

الجانب الفنى

هذا عن الجانب السياسى فى مسيرة الفنان / العمدة، أما عن الجانب الفنى فقد استخدم أكبر عدد من الشخصيات ، والرموز الثابتة لرسام مصرى ، واشتمل رصيده على :

الحذاء الملكى الذى يرمز للملك فاروق- لوريل وهاردى «النحاس وسراج الدين» - غول الفساد - الشيخ متلوف - النفاق فى حديقة الحيوان - البوليس النسائى - عنتر وهابيل ومكار وأبو الأفكار «شخصيات ثابتة لرسوم الأطفال - رجل الشارع - أبو جهل - الأستاذ حركات - الأستاذ بيروقراط - رجل الشارع العربى - الأستاذ مخلص - السلطان كحيان - المعلم ألبنده - الأستاذ مهروش).

وكان بعض هذه الشخصيات يرمز لظواهر مجتمعية ، أو لشرائح اجتماعية ، والبعض الآخر ينسحب على شخصيات بعينها ، مثل الحذاء الملكى الذى يشير إلى الملك فاروق (حين ظهرت صورة فوتوغرافية فى مجلة المصور يبدو فيها الملك فاروق يرتدى حذاء مفكوك الرباط، فالتقط عبدالسميع هذه الصورة، وحولها إلى رمز كاريكاتيرى ثابت للملك، وخلق ذلك الكود بينه وبين الجمهور حول الرمز، بحيث أصبح الحذاء يعنى عند القراء - مباشرة - حضرة صاحب الجلالة فاروق الأول، كما كانت شخصية أبو جهل تنسحب على الأديب الأستاذ إبراهيم الوردانى (الذى كان قد كتب فى الجمهورية مقالاً قال فيه: «إن الأدب اليونانى أدب عفاريت»، فرد عليه د. طه حسين، وكان رئيساً للتحرير قائلاً: «هذا



حملة الاسلحة الفاسدة (١٩٥٠)

الإنسان رضى عن جهله، ورضى عنه جهله» وهنا فكر عبدالسميع فى إبتكار شخصية (أبى جهل).

كما كانت شخصية الشيخ متلوف تشير إلى أحد رجال الدين المشهورين، واسمه على وزن متلوف ، ومارس عبدالسميع - عبرها، انتقاداً واسع النطاق للمؤسسة الدينية ، ودخولها الزائد، فى كل مفردات الحياة الاجتماعية والثقافية للناس، كما هاجم المنحرفين من رجال الدين، مزدوجى المواقف والهوية.

وقد يلزم أن نضع هامشاً - هنا - يشير إلى مستوى التسامح السائد فى مصر ، فى الخمسينات ، والذى كان يسمح بمثل هذا الوخز الانتقادى، من دون حساسيات، أو قرع طبول الحرب، أو استصدار صكوك النفى، أو العزل، أو التكفير ، وبما وسع المجال - تلقائياً - أمام التفكير المنطلق ، ومساحات الرماية الحرة بالسخرية والضحك.

أما شخصية الأستاذ مخلص ، فكانت ترمز إلى الرئيس أنور السادات نفسه، حين رأى الرسام أن حديث «الوفاء» عند الرئيس، لا يرقى إلى مرتبة الحقيقة، وأن نظرته إلى سلفه الرئيس عبدالناصر، كانت مشوبة بالكثير من التعقيدات ، والتشابكات، التى تبتعد - كثيراً عن مفهوم الوفاء.

محطات فنية

وعلى الجانب الفنى - كذلك - عمل عبدالسميع على امتداد مسيرته

الصحفية ، والفنية (أربعون عاما) إلى تغيير أسلوبه ، خمس مرات متتالية، كالآتي :

● المرحلة الأولى: (روز اليوسف - أخبار اليوم - الشعب) واستمرت حتى ١٩٥٩، وفيها استقرت شخصية الرسام بالرسم بخطوط عريضة بالفرشاة، أعطت رسومه إحساساً بالكتلة ، وسخونة ، وطبيعية فى الحركة.

● المرحلة الثانية : (الجمهورية) واستمرت حتى ١٩٦٤، وفيها تأثر عبدالسميع باتجاهه إلى التصوير الزيتى (أقام ثلاثة معارض كبرى أعوام ١٩٦٣ - ١٩٦٦ - ١٩٨٢) وعبر فيها الرسام عن الكتلة بخطوط رفيعة ، مع عناية مقصودة ، وعمد إلى بعض التشويه المتناغم مع رؤاه فى التجريد والتكعيب ، التى برزت فى رسومه التشكيلية.

● المرحلة الثالثة : (المصور) حتى عام ١٩٧١ ، وفيها مال عبدالسميع إلى زيادة التفاصيل، والعناية بتأثير الظلال - مرة أخرى - مع «التهشير» بسن الريشة.

● المرحلة الرابعة : (المصور والجمهورية) حتى ١٩٧٨، وهى المرحلة التى أبرز فيها وحشية ملامح شخوصه الكاريكاتورية واستخدم الخط المفرد، من دون ظلال، أو تهشير.

● المرحلة الخامسة : (السياسى والمصور) حتى ١٩٨٤، وفيها اتجه إلى التلخيص الكامل، والتعبيرية بأقل الخطوط سمكاً، وأكثرها بساطة.

... ...

والواقع أن أسلوب عبدالسميع الفنى لم يك يتطور على هذا النحو، تلبية لاحتياج داخلى ينزع إلى التغيير فحسب ، ولكن هذا التغيير كان يأتى تجاوباً مع عناصر ثلاثة :

أولاً : التغيير فى نوع الطباعة السائد، فاستغلال امكانات الطباعة بالروتوغرافور ، أو بالأوفست ، يختلف عن طبع الجرائد البارز ، ومن ثم يعطى الفنان فرصة ، لاستطعام الطعوم، وتجريب التجارب، والخوض فى لجة مغامرات فنية ، لا يمكن الإحاطة بحدودها.

ثانياً : كان عبدالسميع واحداً من أكثر فنانى الكاريكاتير فى مصر، تجاوباً مع التغييرات التى تطرأ - عالمياً - على شكل الكاريكاتير من «كامينجز» إلى «دافيدلو» ، ومن «جيرالد سكارف» إلى «رالف ستيدمان»، ومن «شافال» إلى «تيم» ، ومن «وليام ستيج» إلى «رونالد سيرل».. وقد أسفر حواره الدائم والدؤوب مع تلك التغييرات ، عن بناء رؤية جديدة فى عقله الإبداعى ، تعمد إلى جعل وثائقه المرسومة - باستمرار - صورة عصرية ، لا تحوى أشكالاً، قد لا تشبه الزمن الجديد، وربما أكمل هذا - من جانب آخر - نزوعه الأدبى المهم (أربع مجموعات قصصية ومسرحيتان) والذى أصبح عاملاً مضافاً، يعطى لغته

المستخدمة في الكاريكاتير ، تلك المسحة ، التي تشبه عصرها، بما جعل تجاوب الناس معه، أكثر سرعة ، وتلقائية.

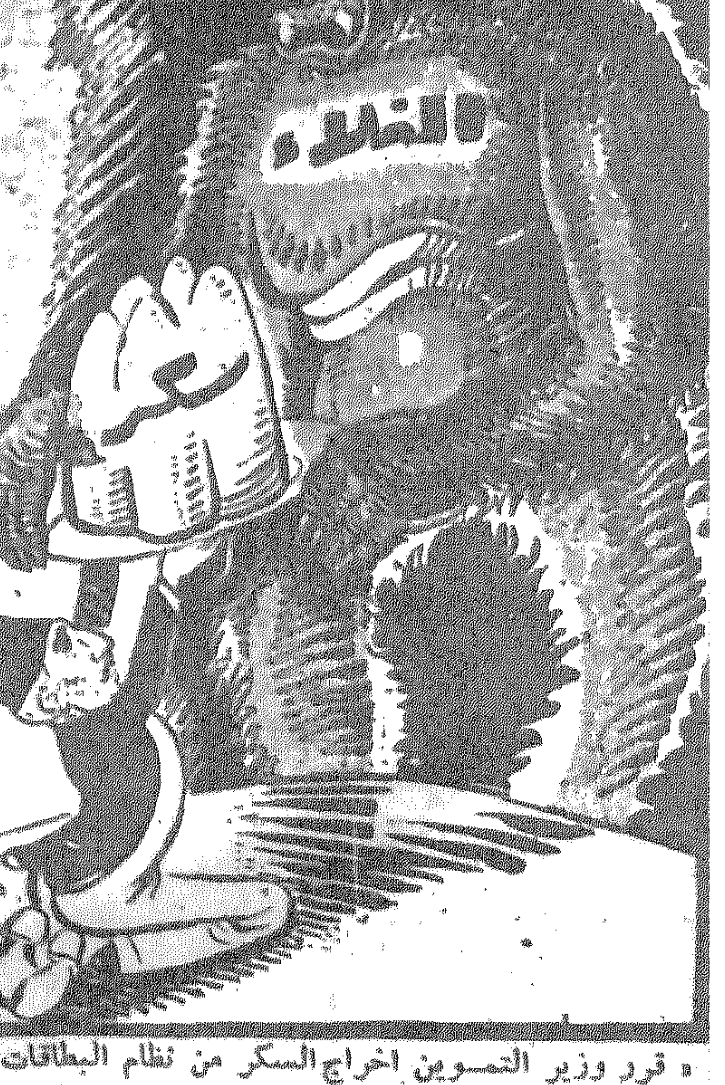
ثالثاً : لما كانت رسوم الكاريكاتير هي وثائق لوصف العصر، فقد كان عبدالسميع يضفي على أسلوبه - أحيانا - ما يحمل رأيه في ذلك العصر، وليس غريباً - إذن - أن يتنوع أسلوبه، في السبعينات، ما بين (الوحشية) و(القتامة).

... ...

لقد أسهمت عوامل ضغط مروعة ، في إزاحة ريشة عبدالسميع المقاتلة ، عن مجالها الطبيعي الحر، في التعبير، والوخز، وإثارة عواصف الضحك والسخرية ، ولدى ما يحملني على الاعتقاد، أن تلك العوامل، قد أنهت - بطريق غير مباشر - حياة الرجل ذاتها، وبخاصة إذا أدرك أحدنا ، حجم ذلك الارتباط العضوي ، بين حياة عبدالسميع، ورأيه.

ولقد أسهمت ذات العوامل - بدرجات متفاوتة - في حصار ريشات مجيدة كثيرة ، حتى ليخال المرء، أن الكاريكاتير قد حُددت إقامته ، وراء أسوار ، وقضبان التسلط، والغلاظة ، وعدم التسامح ، وتفكيك الخواص الطبيعية للبلد، وللشعب ومناخ السوداوية ، والعدوانية، والادعاء ، الذي ظلل الجميع.

وليس غريباً - إذن - أن تتساقط



• قرر وزير التموين إخراج السكر من نظام البطاقات
وزير التموين - الظن بعدكم مالكش عندي حاجة !!

أوراق الشجرة السامية، للمشاغبين الفلاسفة ، احتجاجاً، أو اكتئاباً، أو اعتدالاً، أو رحيلاً، فيما تفسح الساحات ، لصيغ بديلة تعتمد (التنفيس) لرسوم (التحريض) في حديثها إلى الناس، أو تنزع إلى (التنظير) لرسوم الكاريكاتير في الندوات والتليفزيون، فيما هي غير ذات علاقة بالانتماء، أو الانتساب ، سوى إلى تلك الرغبة المستعرة في إعادة كتابة تاريخ أكبر الفنون شعبية وديموقراطية، علها تفتعل لنفسها مكاناً لا تستحقه ■

وصف رحلة لمشاهدة مسرح للفلاحين؟

بقلم
صافى ناز كاظم

من ميدان الأوبرا فى الساعة الثالثة بعد الظهر فى يوم من أيام نوفمبر ١٩٦٩ تعبأنا فى واحد من الأتوبيسات: صحفيين ونقادا وكتابا وما إلى ذلك. عدد غفير من الأفندية، وبعضنا من السيدات والآنسات. وصلنا استراحة كفر الشيخ عبر طريق يزينه، فى مرحلته الأخيرة، الغروب، وتناولنا الشطائر وعصير الجوافة، وبعضنا الشاى. ثم ما لبث أن نادى مناد لكى نهرع إلى الأتوبيسات مرة أخرى لنتحرك فى السادسة والنصف إلى قرية أريمون، حيث يقام مسرح للفلاحين تعرض عليه مسرحية الهلافيت للأستاذ محمود دياب، وإخراج الأستاذ أحمد عبد الهادى ..

لم يكن لدى شخصيا تصور عن كيفية شكل هذا المسرح أو كيفية موقعنا ونحن نرقب تجربة تفاعل جمهور الفلاحين مع ذلك المقدم إليهم لكى يدشن بصفته «مسرحا للفلاحين» .الحقيقة أن الأمر كله بدا لي غامضا، فأنا لم أفهم كيف سيمكننا رصد هذا الأمر بشكله العادى رغم أننى قرأت بالتدقيق كلمة المخرج التى وزعت علينا فى أثناء رحلة الأتوبيس، وأنقلها هنا بالحرف الواحد لما تحتويه من نقاط مثيرة للتساؤل أو الدهشة، وربما للأقاويل :

«أثناء تدريسى بالمعهد العالى للفنون المسرحية، كان هناك سؤال يراودنى دائماً: هل هناك شكل خاص بالمسرح المصرى؟ ما هو هذا الشكل؟ المسرح الموجود حاليا عندنا هو خليط من المسرح الإيطالى والفرنسى والإنجليزى، وليس خلقا كاملا سليما أصيلا للمسرح المصرى .

إن التيارات المسرحية التى هبت علينا من الغرب التى استنبتناها فى التربة المصرية لم تكن ثمارا مصرية صحيحة، ولكن بين صفحات الكتب والمسرحيات المصرية والتاريخ (!؟) وبمساعدة الصديق الزميل فوزى فهمى، استطعنا العثور على كلمة (عنخ)، وتعنى فى اللغة الهيروغلوفية القديمة: مفتاح الحياة، والمسرح فى رأيى هو مفتاح الحياة، ومن خلاله نستطيع أن نلقى نظرات كثيرة على حياتنا. إذن ما المانع أن يكون شكل المسرح المصرى هو مفتاح الحياة عند قدماء المصريين ؟ ولم أجد مانعا (!؟)

وأنا هنا لا أدعى أن هذا هو الشكل النهائى للمسرح المصرى، بل هو بداية، فهل هناك من يريد أن يمد يده إلينا محاولا معنا العثور على شكل للمسرح المصرى؟ هل هناك من يريد أن يضع لبنة فى هذا الشكل لنصل معا إلى الشكل النهائى للمسرح المصرى؟

حينما توجهت إلى كفر الشيخ مخرجا عن الثقافة الجماهيرية، سعدت كثيرا بعثورى على التربة الصالحة لأستنبت المسرح المصرى، وبمساعدة الأستاذ إبراهيم بغدادى محافظ كفر الشيخ والزملاء أعضاء فرقة كفر الشيخ المسرحية، استطعنا أن نصل معا إلى العرض الذى ستشاهدونه. وكان ميلاد هذه التجربة على أرض أريمون: القرية البسيطة فى محافظة كفر الشيخ، وهو ليس بعرض بقدر ما هو تجربة. هذه التجربة التى آمنا بها كلنا ونطرحها الآن أمامكم للمناقشة. ونحن على استعداد لتقبل كل نقد فى صالح البحث عن شكل

المسرح المصرى (؟!) والمسرح فى رأيى يبدأ هنا من القرى والنجوع فبنزولنا إلى الفلاحين فى أرضهم لخدمة الثقافة، نكون قد أوصلنا الثقافة لمن يستحقونها، وبالتالى سيبحثون هم عنا عند نزولهم إلى المدن. بهذا نكون قد عملنا على توسيع رقعة الثقافة وتوصيلها إلى القرى والنجوع، وبهذا نكون قد عملنا على نشر الثقافة الجماهيرية وأخيرا هذا هو مفهومي الشخصى عن الثقافة الجماهيرية، والشكل المسرحى هنا ينبع أساسا من القرية نفسها، وأعنى أنه بأكوام السباخ والطين الموجود على الأرض يشكل المسرح من التربة وإليها

إنى أترك لكم الحكم على هذه التجربة التى أرجو أن أواصلها إلى النهاية وفى طريقنا جميعا لإيجاد شكل المسرح المصرى.

وفقنا الله وإياكم إلى ما فيه خير المسرح والثقافة والوطن » .

أنتهت كلمة المخرج أحمد عبد الهادى.

ترجلنا . وكانت هناك كلوبات لتضئ لخطواتنا الطريق على الأرض البضة بمنحرف قصير التقت أعيننا بمكان المسرح، ابراج الحمام وشجرة أو اثنتين وبيوت : إطار طبيعى من القرية حدد فى قلبه الشكل المألوف والشائع لمسرح حرف (التى) Tفى مواجهتة رصت مجموعة من المراتب على مسافة ثلاثة أو أربعة صفوف أمامية فى أماكن الجمهور، وبعد «المراتب جلس جمع من أهل القرية على الأرض وبعضهم ظل واقفا .

من الوهلة الأولى أدركت أن المراتب للأفندية ولحضراتنا من السيدات والآنسات، فداهمنى الخجل ورغبة أن تشق الأرض وتبتلعنا جميعا أنا والأفندية، وأدركت مدى الموقف المحرج الذى سأضطر إلى أن أخوضه .الموقف مع ذلك لم يكن جديدا، فنحن بالفعل دائما نجلس على مراتب، وهم بالفعل دائما جالسون على الأرض، وبعضهم يظل واقفا. هذا إذن ياسيدتى يا جالسة المرتبة هو مجرد التجسيد المسرحى لواقعنا غير المشرف، هذا هو التبسيط بالغ الحدة لشكل ثقلنا المرهق فوق أكتاف هؤلاء الناس، وشكل زيفنا وفراغ كلمتنا. بنصف رأس أردت أن أختلس نظرة إلى أصحاب البلد وأنا جالسة بأضعف الإيمان فى الصف الأخير من المراتب – أنا على الحدود بين المراتب والأرض – لأتحسس عيونهم: هل يلفظنى وأنا أدور فيها ؟ هل توهمت أنهم لايعبئون بى ؟ ليست هناك نظرة تلق أو لفظ، هناك نظرة تفرج ساخرة. لو تلونت

السخرية قليلا بظل من التمرد لشعرت بالاطمئنان. الوجوه معظمها شاحبة مائلة للبياض، والعيون بدت لى مذهلة الجمال: واسعة بنية ذات أهداب طويلة، الجلابية دقيقة مثل ورقة السيجارة، وتلفيعة على الرأس أو طاقية صغيرة. ابتسمت تجاههم فى استخزاء بغية تعارف واعتذار، لم يكن هناك شئ بالذات أريد أن أعتذر عنه، كان مجمل كل الأشياء تقريبا. لم تستطع ابتسامتى أن تفتح حوارا. ظلوا يتطلعون إلى مجموعتنا بشكل استكشافى زامم الشفة : لعبة الفرجة تبدأ من حدود المراتب .

أطفئت بعض أنوار الكشافات العالية وبدأت المسرحية. مغن على ربابة يحرك شفتيه إزاء تسجيل عال لموال: مقدمة تمهيدية للمسرحية. الصبى الذى خلفى لاحظ أن الرجل لا يغنى حقيقة، واحتسبها قفشة لكذبة أولى وانشغل فى توزيع أكتشافة .

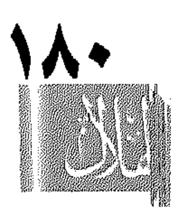
أفندى من منظمى العملية تعبت ساقاه من جلسة المراتب، تحرك فى ثقة بخفة وجلس مربعا ذراعيه على كرسى مواز للمسرح. استنكار فورى هب داخلى، لكن عيون أصحاب البلد لم تجد فارقا كبيرا بين أن يجلس على المرتبة أو أن يجلس على الكرسى طالما أنه هو على أية حال لا يزال جالسا على الأرض فى مؤخرة الحفلة التى أقيمت باسمه ومن أجله .هدأ استنكارى فورا. صحيح.. ما الفرق؟ إن جلستنا على الأرض لاتعدو سوى ديكور مكمل لهذه المسرحية التى نلعبها جميعا أنا والأفندية. إنها مشكلتى أنا جالسة المرتبة مع جالس الكرسى. ياالله، هل يدور هذا الحوار داخلى فقط؟ لابد أنه يدور ولو بشكل آخر داخل واحد آخر على الأقل، لكن ما بالنا لا نفعل شيئا؟ ننسحب؟ طظ. نطالب بإيقاف العرض حتى يعاد إخراج لقاء أهل البلد بحضرات الضيوف وحضرة جناب المسرح «عنخ»؟ ماذا لو كان المسرح فى المنتصف ونحن جميعا من حوله دائرة؟ أو حدوة حصان (ألا يوجد لحدوة الحصان اسم فى اللغة المصرية القديمة؟) ونجلس جميعا على القش، أو جميعا على الحصير، أو جميعا على المراتب، أو جميعا على الكراسى، وجازى الله المقدرة خيرا ونأتى نحن الأفندية – إذا شيئا أن نرصد لقاء جمهور أهل البلد بالهيصة– ونجلس بين الناس كيفما اتفق – كما يحدث فى المهرجانات أو فى السوق أو فى المولد – نجلس ببساطة وتلقائية، ربما يمكن عندها لهذه العيون البنية مذهلة الجمال

أن تصدق أننا حقا نريد خلق حوار معها نتعلم منه جميعا كيف نكون أهل بلد واحد، أى شكلاً يطرح قيمة من القيم التى نتشدق بها، شكلا يطرح تغيرا لواقع كئيب: ما هى الثقافة التى نريدها جماهيرية؟ هل هى شئ آخر غير الثورة وغير التغيير؟ فلا أقل إذن من سلوك طامح لتحقيق ذلك .

لو أن المخرج الشاب أحب نفسه أكثر، لعرف أن أى اكتشاف للمسرح أو فى المسرح لايمكن أن يكون بين صفحتى كتاب، ولو أنه ترفق بنفسة أكثر وبعينيه الباحثة الغضة، لعرف ألا يسعى للمساعدة عند الصديق الزميل أو عند السيد المحافظ والزملاء، بل لترك نفسه يخجل بحرية- والخجل عاطفة ثورية أيها الشاب - وحتما لأوصله خجله إلى طريق يزرعه بين أصحاب البلد، ولكان بوسعه عندها أن يخبرنا بأسلوب أقل طنطنة وأكثر صدقا، ويخبر تلاميذه أثناء تدريسه بالمعهد العالى للفنون المسرحية: كيف ساعدته تلك العيون البنية مذهلة الجمال لكى يصل ليس إلى شكل للمسرح المصرى - ليست هذه قضية - ولكن إلى مسرح يشعر بجدواه إنساننا الحقيقى، يشعر فيه وبه أنه «أهل البلد»، ويطرح من خلاله حلمه الكبير أن يكون هو القيمة العليا «فعلا» لا تشخيصا .

بينما كان يدور داخلى هذا الحوار وينبض قلبى لذلك بعنف، تبين لى أننى لا أفعل شيئا سوى أن أضيع أجزاء كبيرة لا أتابعها من المسرحية، ولا أفتأ أغير من وضع جلستى استخزيت لا أملك سوى أن أسعد بكل شوشرة، وصخب الزحام الذى يأتينا من مؤخرة الحفل. بعض الواقفين يضغطون على البعض الآخر ويتشاجرون، شجارهم أزعج الجالسين على المراتب، أو هكذا خيل إلى واحد من المنظمين، فإذا به يقف ويواجههم فى زجر. تهيأت لكى أنبش عنقه ثم استدركت. إننى لست أفضل منه، إنه فقط صورتى المبالغ فى عدم حيائها لكن لابد أن أريح توترى الذى ضاعفه هذا الغبى، فاندفعت أصيح فيه : «معاهم حق .. يعملوا إيه يعنى؟!» استخزيت أكثر أهذا. كل ما أحسن الله به على ؟

أضيئت الكشافات فى استراحة. ليموناتة آتية توزع على الأفندية فقط. إلى أى شئ ينتمى إحساسى هذا بالفضيحة : إلى الطفولة اليسارية أم إلى الرومانتيكية الثورية؟ أمسكت كوبى لأجرب أن أهديه للصبى الذى خلفى لا يمكن. رفضنى. وكذلك الطفل الذى يجاوره، وكاد يزجرنى الفتى الذى خلفه، ويبدو أن وجهى عكس حالة إجهاش



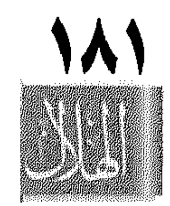
بالبكاء أثارت عطف هذا الذى وصلنى صوته من بينهم «إوعى منك له آخذها أنى ما يجراش حاجة» هذا الكرم رغم كل شئ، هل هو نقطة ضعفهم؟.

المؤلف قال لى : إن الهلفوت فى هذه المسرحية هو التجسيد لفرفور يوسف إدريس المجرد. إنه الإنسان المسحوق الذى أفقده مجتمعه كرامته الإنسانية. نقطة الخلاف بين المؤلف والمخرج أن المؤلف أشار فى نصه إلى أن الهلافيت فى القرية ثلاثة أو أربعة، ولكن المخرج جعلهم جماعة تبدو كأنها القرية كلها، المخرج معذور لأن كل ما يهمه هو : «شكل المسرح المصرى»، أما المضامين فكلها ثانوية، فليس علينا أن نزج «بعنخ» فى «مزالق» سياسية أو اجتماعية أو كما قيل..

والمؤلف حين يتصاعد بالهلفوت شحاتة، الذى أريد له أن يلعب دور العمدة لكى يسرى عن أفندية القرية، حين يتصاعد به، وهو يستكشف ويتكشف إنسانيته من خلال وعيه بآلام وآلام أهل القرية، نجده يضيف إلى الهلفوت القوة والرهافة معا. فالقوة إذا كانت منبعثة من الإدراك الحاد للمظالم، لابد أن تصاحبها الرهافة ككشاف لصيق - كما كانت الغلاظة والركاكة لصيقة بالاستسلام للامتهان- فالهلفوت فى قوته حين يبكى تنحدر رغما عنه دمعة يخفيها، لولا أن يكتشفها صديقه، وهى دمعة المشفق الذى انبعث فيه التصميم ألا يمتهن أبدا بعد الصحوة. لكن المخرج الذى أتعب نفسه لكى يعثر على كلمة «عنخ» لم يشأ أن يتعب نفسه ليعرف الفرق بين البكاء الرخيص والبكاء الغالى، ولم يشأ أن يعرف معنى صحوة الهلفوت وكيف يمكنها أن تتراسل مع أهل القرية- فى النص أو فى الحقيقة - لإخراج كل الرفض المكتوم .

عندما أضيئت كشافات النهاية، قال لى المؤلف الأستاذ محمود دياب:«ما رأيك» قلت له «رأيى لا يهم اسأل أهل البلد». وكانوا حولنا وقد تحولت السخرية من نظرة خفية فى العين إلى ضحكات، وخبط فتى زميله على صدره «عجبتك الحفلة يا واد؟»، فأزاحه الآخر وهو ينظر إلينا كأنه يريد أن يقول «ياما جاب الغراب لأمه» لكنه قال بأسلوب أكثر مباشرة «حفلة إيه بلا خ ...».

ثم ركبنا الأتوبيسات فى طريق العودة، وكنت لا أزال غارقة لأذنى فى شعور طافح بالخجل ! ■



شابلن

وحنين إلى أفلام لها تاريخ

بقلم
مصطفى درويش

كان عاما فارقا، في شهره الأول أتت النيران علي قاهرة الخديوي إسماعيل، فلم تبق منها سوي اشباح مبان، اشبه بالأطلال.

وفي شهره السابع غادر فاروق أرض المحروسة إلي منفاه الذهبي في إيطاليا. حيث عاش الحياة اللذيذة بين علب الليل في روما وكابري، إلي أن جاءه الموت مبكرا فعاد بجثمانه إلي حيث كان له ملك عريض، لم يستطع أن يدافع عنه كالرجال
هذا في عالمنا
القديم.





أما فى العالم الجديد، فالعام كان حافلا بأحداث شائقة رائقة حينا، وقاتمة بغيضة حينا أخر.

عالم مجنون .. مجنون

ففيه فاز، لاول واخر مرة فى القرن العشرين، جنرال برئاسة أغنى وأقوى دولة فى عالمنا المريض وفيه اجرى العالم الأمريكى المنحدر من أصل مجرى أدوارد تيللر والملقب بأبى القنبلة الهيدروجينية تجربته الناجحة على تلك القنبلة فكان ذلك إيذانا بوضع كرتنا الأرضية على شفا هاوية الفناء .

والدنيا هكذا على كف عفريت، اذا بأول عدد من مجلة ذات طابع كاريكاتورى، ساخر بكل شىء، يصدر تحت عنوان ماد.أى مجنون.

شابلن فى « الطفل»

واذا بها تبقى منتعشة، واسعة الانتشار حتى يومنا هذا.

وفى نفس العام، وبالتحديد يوم السابع عشر من شهره التاسع غادر شارلى شابلن نيويورك عاصمة المال والأعمال. مستصحبا أسرته، على ظهر السفينة كوين اليزابيث.

وما أن أبحرت به السفينة ، وغابت نيويورك بناطحاتها فى الأفق البعيد، حتى انتهز الغلاة فى الدوائر الحاكمة الأمريكية الفرصة، فاعلنوا بلسان النائب العام (المقابل لوزير العدل عندنا) أنه شخص غير مرغوب فيه ، وإن عاد الى الولايات المتحدة، فسيجرى التحقيق معه فيما كان يمارسه من نشاط هدام.

وبعد ستة أيام وصل شابلن الى لندن، حيث ولد قبل ثلاثة وستين عاما، لحضور حفل العرض الأول لفيلمه «أضواء المسرح» (٢٣ أكتوبر).

سر المقت الشديد

وهنا أقف قليلا عند تصرف غلاة الدوائر الحاكمة الأمريكية على هذا النحو غير المألوف مع نجم لعب دورا كبيرا فى الصعود بهوليوود ، حتى أصبحت عاصمة السينما وكعبتها . يحج اليها النجوم من كل مكان.

لأقول انهم ما تصرفوا معه على هذا النحو المجوج إلا أنهم كانوا يمقتونه هو وأفلامه الساخرة من طريقة حياتهم مقتا شديدا.

فما أكثر ما تردد اسمه فى المعارك الحامية الوطيس التى شنها أنصار الديمقراطية والسلام ضد الهجمة المكارثية الضارية المعادية لحرية التعبير، حتى صار علما على التيار المناهض للحروب، والداعى الى حظر استعمال أسلحة الدمار الشامل، لاسيما ما كان منها متصلا بالقنبلتين الذرية والهيدروجينية.

القاتل والجنرال

وليس أدل على خطورة شابلن كداعية للحرية والسلام فى ذلك الزمن الموغل فى القدم من «مسيو فيردو» «١٩٤٧»

وموضوعه يدور وجودا وعدما حول رجل اضطره مجتمع قاس، لا يرحم، الى ايقاع نساء مسنات ثريات فى حبه ثم قتلهن كى يعيش هو وصغيره، وزوجته العليلة ، القعيدة، من مال القتيلات.

وعنه قال شابلن فى بعض أحاديثه الصحفية، انه فيلم يتمحور حول فكرة رئيسية، جوهرها أن الحرب والجريمة، ليس بينهما فرق كبير.

فكما ان الحرب، عند الجنرال الالمانى الأشهر فون كلاو زفيتز، استمرارا للدبلوماسية ، ولكن بطرق أخرى.

فالجريمة هى الأخرى . عند مسيو فيردو. استمرارا لما يرتكب فى دنيا المال والأعمال ، ولكن بوسائل أخرى

ولا يفوتنى هنا. أن اذكر أنه كان



على رأس قائمة الاتهامات الموجهة الى شابلن المقولة الشهيرة التى جاءت على لسان «مسيو فيردو» والفيلم يقترب من الختام، وليس بينه وبين الموت، بالجيلوتين تنفيذا لحكم الإعدام، سوى بضع ثوان.

«جريمة قتل واحدة، تجعل فاعلها شريرا أما اذا كان القتلى بالملايين فقاتلهم يجعلون منه بطلا».

وأعود الى انذار النائب العام ، لأقول أن شابلن كان قد بيت النية، حتى قبل مغادرة هوليوود الى نيويورك، فلندن، على عدم العودة الى الولايات المتحدة.

وفعلا استقر مع أسرته فى ربوع سويسرا ، حيث عاش حياة هادئة ، لا تعكر صفوها مطاردات المباحث الاتحادية الامريكية، ولا حملات الصحافة الصفراء.

ثم مرت الأيام أعواما بعد اعوام. أخرج أثناءها «ملك فى نيويورك» «١٩٥٧» ، ذلك الفيلم بين جميع اعمالة


الدكتاتور العظيم

السينمائية الذى لم تتح له فرصة أى عرض فى مصر، ربما مراعاة لشعور غلاة الدوائر الحاكمة الأمريكية الواقفين لعرض هذا الفيلم بالمرصاد.

وبعد ذلك بعشرة أعوام أخرج «الكونتيسة من هونج كونج» بطولة مارلون براندو وصوفيا لورين.

وهو آخر فيلم يشارك فيه بالتمثيل، وإن كان الدور الذى أداه صغيرا، لا تتجاوز مدة ظهوره فيه، بضع ثوان.

التكريمات الأخيرة

هذا، وقبل انسحابه من الحياة، ليلة عيد ميلاد حزين «١٩٧٧» بخمسة أعوام كرمه مهرجان فينيسيا السينمائى، بمنحه جائزته الكبرى، الاسد الذهبى، ويعرض جميع أفلامه التى شارك فيها بالتمثيل، ولو بدور صغير، على امتداد ثلاثة وخمسين عاما.

ولأمر ما، وجدتنى ، ولدهشتى، مدعوا الى هذا المهرجان، حيث شاهدت جميع أفلامه التى مثل فيها، بدءا من فيلمه الاول «أكل العيش» «١٩١٤».

وبطبيعة الحال، كان من بين ما شاهدته «الدكتاتور العظيم «١٩٤٠» ومسيو فيردو و«أضواء المسرح» و«ملك فى نيويورك»

وتوقعت ان يمزقنى الشوق الى مشاهدة الدكتاتور العظيم وأضواء المسرح مرة ثالثة، زمنا طويلا.

ولكن غاب عنى اختلاف المكان والزمان

ففى مدريد شاهدت أثناء العام الذى مات فيه الجنرال «فرانكو» الدكتاتور العظيم.

اختفاء السينما

وفى القاهرة قبل أيام، وأثناء شهر رمضان، حيث أغلق اصحاب دور السينما ابوابها بالضبة والمفتاح، بحجة واهية هى ادخال تحسينات عليها.

فى حين أن السبب الحقيقى لهذه المحنة هو غزو الشاشة الصغيرة بمسلسلات معظمها ردىء، طابعه أما الهزل والتهريج ، أو الفجيعة والصراخ والعويل.

جاءنى ، هدية من السماء، صندوق عجائب، به أربعة أفلام لشابلن مسجلة على اسطوانات مدمجة.

وقد خفف مجيئه من أثر صدمة اغلاق دور السينما طوال الشهر الكريم، خاصة أن الافلام الاربعة، كان من بينها الدكتاتور العظيم واضواء المسرح ، ذلك الفيلم الذى أخرجه شابلن فى الولايات المتحدة ، وشبح المكارثية يعيث فى الارض فسادا، مهددا الحريات.

وبه ختم حياته السينمائية فى هوليوود. التى استمرت زهاء ثمانية وثلاثين عاما، وهى، لا ريب مدة طويلة فى عمر الإنسان.

خير ختام

والحق، أن أضواء المسرح ، بنبل وصدق موضوعه، وروعة موسيقاه كان خير ختام لحياة شابلن فى بلاد العم



شارلى ويستركيتون فى أضواء المسرح

سام.

وقد شاهدته عام عرضه الاول فى مصر «١٩٥٢» ، ولم اشاهده مرة اخرى إلا بعد ذلك بعشرين عاما.

هذا عن أخر فيلم أخرجه شابلن فى هوليوود.

أما الدكتاتور العظيم فله معى أكثر من قصة، بدءا من أول مشاهدة فى دار سينما متروبول «١٩٤٠» التى أتى عليها حريق القاهرة، بعد ذلك بأثنى عشر عاما.

ففى تلك المشاهدة الأولى ، وصلت متأخرا ، بعد بدء عرض الفيلم ببضع ثوان.

ولم استطع مشاهدة ما فاتنى من



لقطات أخرى جرى عرضها. أثناء تلك الثواني، الا بعد اثنين وثلاثين عاما بالتمام!!

غير إنه فيما بين المشاهدة الثانية، وكانت فى فينسيا والمشاهدة الثالثة له فى مدريد، لم تمر سوى ثلاثة أعوام.

أفضال الدكتاتور

والى الدكتاتور العظيم يرجع الفضل فى الصلة بينى وبين شابلن بوصفه مخرجا قديرا.

فبدءا من مشاهدته ، ظللت ابحث عن أفلامه الاخرى بأمل مشاهدة ما استطيع مشاهدته منها.

ولم يكن الأمر سهلا.

ففى أيامنا كان المكان الوحيد المخصص لعرض الأفلام هو دار السينما.

وليس أدل على صعوبة مشاهدة افلام شابلن ، انني وحتى يوم شغلت منصب مدير الرقابة على المصنفات الفنية إبان عقد الستينيات ، لم أكن قد شاهدت من أفلامه الطويلة، وهى عشرة سوى خمسة أفلام، ليس من بينها ملك فى نيويورك بطبيعة الحال.

يبقى لى أن أقول أن أفلام شابلن الطويلة المسجلة حديثا. على اسطوانات مدمجة عددها عشرة تبدأ بالصبى «١٩٢١» وتنتهى بملك فى نيويورك.

ومن بينها فيلمه «امراة من باريس» «١٩٢٣» الذى لم يعرض حتى فى مهرجان ڤينسيا.

ثورة المعلومات

مع الاسطوانة المسجل عليها الفيلم، توجد اسطوانة أخرى مسجلا عليها معلومات كثيرة عنه، من بينها فيلم تسجيلى عنه، يتحدث فيه أحد المخرجين الكبار والفيلم التسجيلى عن «أضواء المسرح» صاحبه المخرج ادجاردو كوزارينسكي.

أما المتحدث عن الفيلم فهو برناردو برتولتشى المخرج الايطالى الشهير، الفائز فيلمه الامبراطور الأخير بتسع جوائز أوسكار.

وعلاوة على ما تقدم فثمة مقدمة لأضواء المسرح بصوت وصورة دافيد روبنسون مؤلف كتاب شابلن حياته وفنه.

وفى هذه المقدمة جاء على لسانه أن شارلى جاءته بعد مغادرة الولايات المتحدة بعشرين عاما، دعوة من





ملك في نيويورك

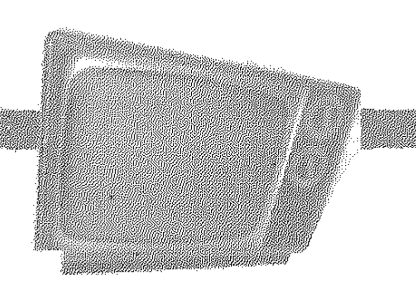
أكاديمية علوم وفن السينما الامريكية لحضور حفل اوسكار السنوى بهوليوود، حيث سيجرى تكريمه بجائزة أوسكار خاصة عرفانا لعطائه السينمائى.

نبل القبول

ونصحه البعض برفض الدعوة صيانة لكرامته، مع الاحتجاج على السياسة الامريكية ببيان دامغ.

ولكن شابلن لم يأخذ بالنصيحة، وسافر الى هوليوود ، وله من العمر ثلاثة وثمانون عاما، حيث تسلم تمثال أوسكار.

وفى وصف تصرفه على هذا النحو قالت «كلير بلوم» نجمة «أضواء المسرح» انه تصرف يتسم بالنبل والأناقة والجلال. ■





الترياق من السم الهارى

بقلم
مرفت رجب

«أكثر مسلسل أعجبنى هو أبيض فى أبيض».. قالت أخرى.. ليس عندى وقت لأمطار مسلسلات رمضان، لكن لأنى أحب يحيى الفخرانى، أتابع «الليل وآخره» قال ثالث: أظننا لا نختلف على جرأة مسلسل «مسألة مبدأ» قالت رابعة ولا أظننا نختلف على السم الهارى!!
وهنا صدرت عن الجمع صيحة.. أعوذ بالله.



ويبدو أن اسم الكاتب الراحل أسامة غازى سيظل محفورا فى ذاكرتنا عنوانا على اجتماع الموهبة والإتقان بعد أن جاء ما كتبه فى حلقات مسلسل أبيض فى أبيض مؤكدا ما سبق واكتشفناه فى أول ما أذيع له من أعمال درامية «أوبرا عايدة» ففى الحالتين يتأكد ما للمؤلف من رؤى فى الحياة يعرف كيف يصوغها إبداعا دراميا محكما ممتعا، والدهشة تصاحب الإعجاب من أول لقطة فى المسلسل إلى آخره، ولاشك أن كتابته فيها من الجرأة ما يتجاوز المألوف إلى ما يسمى بالفانتازيا، لكنها جرأة مختلفة تماما عن جرأة مسلسل «مسألة مبدأ»، فهى عند أسامة غازى - رحمة الله عليه - جرأة فى بناء الشخصيات ووضعها فى مواقف يتصاعد تعقيدها ليتصاعد معها نمو الشخصيات وتطورها إمعانا فى اكتشاف منابع القوة والضعف فيها، ومع تعقد الصراع يضع يده على عوامل الجمال والقبح فيها وفينا وفى المجتمع



ممدوح عبد العليم وصفية العمري في (ابيض×ابيض)

والإنسانية جمعاء.. وهو من خلال بطله «منذر» ينقلنا من البراءة إلى الشعور بالمسئولية ولقد نجح فى تصوير التحول الذى نضج إليه «منذر» ليصبح المكافح المصر على تخليصنا من الضعف والقبح والاستسلام فى آن معا، وبنفس القدر نجح فى بناء كل شخصيات المسلسل، فصدقناها وصدقناه ، كما صدقنا جرأته على كل المستويات.. خاصة وأنها جرأة صادقة عكس تلك الجرأة الكاذبة التى وصف بها مسلسل «مسألة مبدأ» فلقد تجرأ المسلسل وتناول موضوعا كان تناوله ينحصر فى دوائر الإشاعات فلما انتقل الأمر من دوائرها إلى شاشة التليفزيون ورأى الناس بعيونهم مسلسلا يحكى عن عضو فى مجلس الشعب يستميت فى المحافظة على مقعده فى المجلس ضمانا للحصانة التى تمكنه من الاستمرار فى المتاجرة فى السلاح، وصف البعض هذا النوع من التناول الدرامى بالجرأة، فالكل يعلم بارتباط الأمر بمشاكل جرائم الثأر وزاد من حجة أصحاب الرأى ما ورد على لسان تاجر السلاح عضو مجلس الشعب «جميل راتب» فى المسلسل، من استحالة التفكير فى وقف هذا النشاط لأن زعماء شبكة تجارة السلاح فى الخارج لا يرحمون. فهذا طريق الرائح فيه لايعود.. والله شكرا للأستاذ جميل راتب أنه عرفنا بأدائه المعبر ما أفهمنا بأن هناك «فى الخارج» من له مصلحة فى استمرار جرائم الثأر عندنا!! لكن المهم ما العمل؟! هل سنكتفى بالكلام عن هذه المشكلة الخطيرة ومعالجتها فى مسلسل درامى؟! وماذا عن الواقع، من يتولى أمره ؟؟ إننى من أجل ملابسات هذا



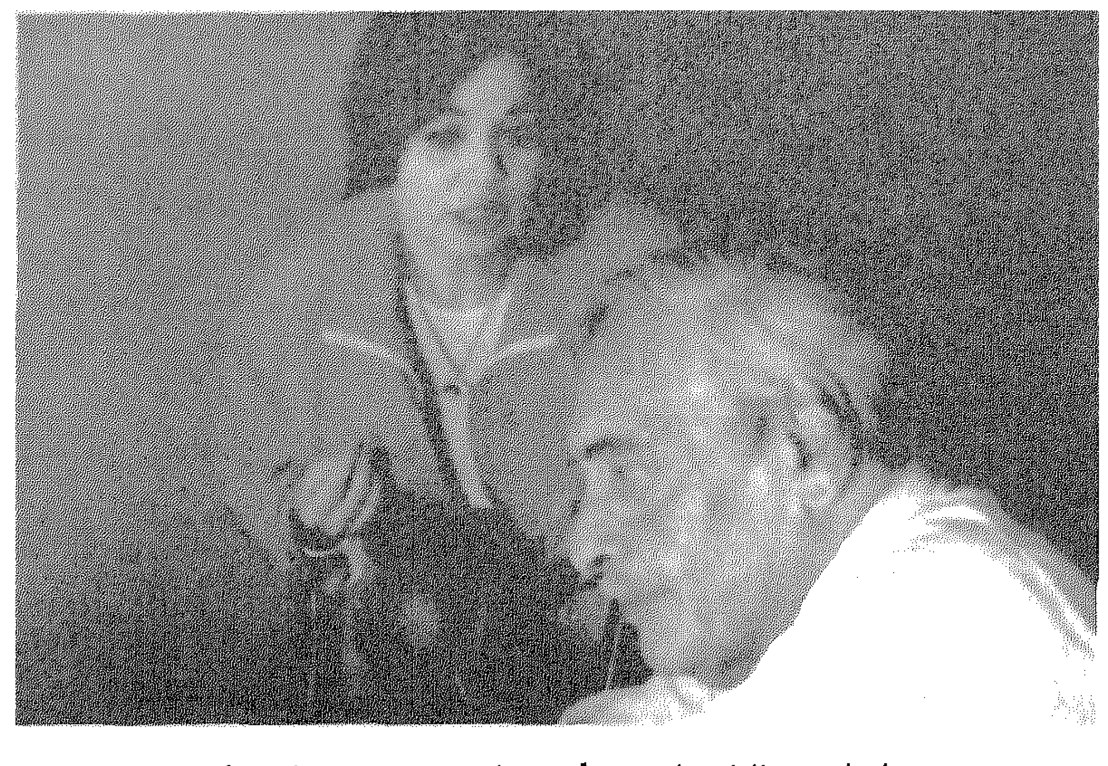
السؤال أميل إلى اعتبار هذا النوع من الجرأة جرأة كاذبة، ذلك لأنني أعتبر الكلام في هذه القضية المتشابكة الخطيرة نوعا من الكلام المندرج تحت عنوان «حرية التعبير» على الطريقة الأمريكية، تلك الحرية التي تقتصر على كونها حرية فضفضة، حرية في الكلام في الأمور يراد منها كف التفكير. ومن ثم كف الحركة الي الفعل.. يعني ببساطة أن يحل الكلام محل الفعل، ويبقى الحال على ما هو عليه، والرأى عندى أن هذا أخطر بكثير من عدم الكلام.. ففي حالة عدم الكلام في العلن عن أمر بهذه الخطورة.. يبقى الأمل في استمرار التفكير وإعمال التدبير من جانب الشعب ومجلس الشعب. والحكومة حتى يمكن إيجاد صيغة للتعاون المسئول بيننا جميعا للقضاء على مشاكل المتاجرة في السلاح بما في ذلك إدارة التعامل مع شبكات التهريب الدولية فالمسألة لا يمكن أن تحل من خلال حملة إعلامية يكون مثل هذا المسلسل جزءا منها.. وحتى لو فكرنا في صيغة الحملة الإعلامية الملائمة لتوعية الناس بآثام استمرار «الأخذ بالثأر» فهل كان لابد أن تقود هذه الحملة واحدة حصلت على الدكتوراه في القانون من فرنسا؟! ياسلام !! وماذا لو كانت حصلت على الدكتوراه في القانون من مصر؟ أم أن زمار الحي لا يطرب.. لا أتصور أنني محتاجة للتذكير بأن مصر هي بلد المحامية الفذة الراحلة الأستاذة مفيدة عبدالرحمن ، كما أنها بلد أستاذة القانون عضو مجلس الشعب والوزيرة السابقة الأستاذة عائشة راتب التي أتوقع أنها فزعت ، كما فزعنا جميعا من اللهجة المتبجحة التي كانت تتحدث بها ابنة تاجر السلاح «جمل راتب» في مسلسل مسألة مبدأ.. فالاصل في الأمور في بلدنا العزيز أن الأب أب، ويلزم قدر من الأدب والتوقير في التحدث إليه حتى ولو كان... وحتى لو كانت حضرتها حاصلة على الدكتوراه في القانون من فرنسا .

رد الاعتبار

ولقد جاء في الرد على صاحبتنا التي اكتفت من مسلسلات رمضان هذا العام بمسلسل «الليل وآخره» حبا في «يحيى الفخراني» ما قاله أحد الحاضرين من أنه يظن أن هذا المسلسل كتب خصيصا ليرد الاعتبار لتجار «المانيفاتورة» بعد الغضب الذي علا صوته أيام إذاعة المسلسل الذي أظهر أحد تجار الأقمشة يجمع زوجاته الأربعة في بيت واحد وتاجر الأقمشة في الليل وآخره «يحيى الفخراني» ملزم بزوجة واحدة ولما لاقى هذا الرأي استحسانا جاء التعليق بأن من حق كل أستاذة للقانون في مصر أن تطلب رد اعتبار، بعد الصوة الشائهة التي ظهرت بها شخصية أستاذة القانون في المسلسل إياه.. وهنا صاحت المشتكية من السم الهاري - المشار إليه في مقدمة المقال - متسائلة .. لا .. الأول نرد الاعتبار لبنات وسيدات السيدة زينب!!

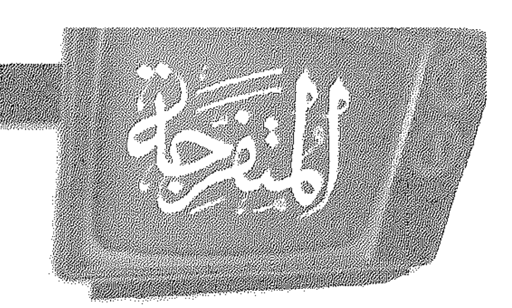
من بيع المياه في حارة السقايين

وعلى عكس الحال في اختيار اسم البطل في أبيض في أبيض حيث جاء اسم «منذر» إسما على مسمى، نجد اسم البطلة في مسلسل العمة نور إسما على



جميل راتب مع الهام شاهين فى أحد مشاهد مسلسل « مسألة مبدأ»

غير مسمى، ولما جاء اسمها بالكامل فى المسلسل «نور شمس الأصيل» فقد فتح بابا للإشاعات يصعب إغلاقه.. فنظرا لأن الكاتب اختار أن يجعلها قادمة من أمريكا بعد إقامة ربع قرن هناك فقد راجت فى البلاد صيغ مختلفة لإشاعات تدور حول أن المسلسل نوع من محاولة تحسين صورة أمريكا فى البلاد بعد أن فقدت مصداقيتها بسبب أكاذيب وتهورات الإدارة الأمريكية الحالية، وذلك إضافة لإشاعة أخرى تؤكد أن السبب فى السم الهارى هو الرغبة فى تقليد نموذج مسلسل «أمرأة من زمن الحب» الذى قامت ببطولته الفنانة سميرة أحمد.. ويقول مؤيدو هذه الإشاعة إن الدور كان ملائما للبطلة شكلا وموضوعا كما يرون ان اختيار المؤلف أن يجعلها تنتقل من المنيا فى صعيد مصر لتحيا مع أولاد أخيها فى القاهرة يعتبر ظرفا مقنعا، فمن الطبيعى أن يكون المصريون القادمون من صعيد البلاد أكثر حرصا على التمسك بموروث التقاليد من أقاربهم سكان القاهرة أما أن تأتى واحدة من أمريكا لتعلم أهلها فى مصر الأدب فحالها لا يتجاوز حال بائعى المياه فى حارة السقايين، لكن ربما نلتمس لها العذر إذ لا نتوقع ان تكون قد قرأت كتاب عالم المصريات «الأمريكى» بريستد «فجر الضمير» لأن هذا العالم اورد فى كتابه ما أثبت به أن المصريين القدماء هم أول من أدركوا وجود الضمير ، وبالتالى فهم أول من عرف الأخلاق ومنهم تعلمت الدنيا.. والإشارة هنا الى الترجمة العربية للكتاب . فليس من المعقول ان أدعوهم إلى قراءة الأصل بلغته بعد صدمتنا فى مستوى اللغة الانجليزية الذى جرى على لسان تلك البطلة، فقد كان يحتاج إلى إعادة نظر من كل من

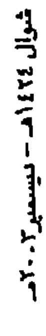


القادمات من أمريكا، لانه لو كان فعل لكتب لنا شيئا مختلفا يعينه على إنجاز أغراض إذاعة هذا المسلسل

الترياق

السيد المؤلف والسيد المخرج فلقد قوضا دعائم مصداقية بطلتهم إذ جعلوها تنطق بلغة لا تمت بصلة لا للغة الإنجليزية ولا للهجة الأمريكية فى نطقها، ودعنا من القول بأن هذا مستوى نطق من عاشت بين الأمريكيين لربع قرن ، فإذا أضفنا إلى ذلك بقية سمات الشخصية فى الشكل والمضمون لفهمنا لماذا آلت إلي ما آلت إليه على ألسنة الناس والمصيبة ان الافتقاد الى الصدق الفنى لا ينحصر على حال البطلة وحدها، وإنما يتجاوزها ليشمل معظم شخصيات المسلسل، والأظهر فى هذا الشأن بينهم، شخصية زوجة اخى العمة.. فهى من أهل حى السيدة زينب، كما أنها موظفة.. فى الدرجة الأولى.. واذا كان الأمر كذلك . فلماذا يأتى كلامها بهذا المستوى من الاسفاف، ولماذا تأتى حركاتها فى الكلام والمشى مطابقة لدور آخر قامت به نفس الممثلة حتى أن البعض قال إنها خلطت بين الشخصيتين وان كان هذا الظن صحيحا فاين المخرج؟ والأفضل عندى فى هذه الحال أن نسأل المؤلف لماذا اختار ان تأتى بطلته من أمريكا؟ لماذا لم يجعلها تأتى مثلا من استراليا او من اليابان أو من أى بلد أوروبى أو إفريقى. هل لأنه لا يعرف عن مصريين يعيشون فى تلك البلدان لسنوات طويلة. أم لانه يريد أن يربط صفات معينة بالبطلة لأنها قادمة من أمريكا؟ لو كانت تلك رغبة فياليته حاول الالتقاء بعدد من المصريات

ولا أظننى آتية بأى جديد إن اعدت التأكيد على أن لكل مهنة أو فن من الأصول والقواعد ما يضمن سلامة وتميز إنتاجه.. لكن ما عرض على شاشاتنا فى رمضان شابه الكثير من «اللكلكة» و«الكروتة» ولولا أن الله سلم فجاءنا الاخوة السوريون. بما ينقذ ماء وجه الدراما العربية، ولنا أن نعتز ونفخر بـ «الحلاج» و«ربيع قرطبة» كما فخرنا بـ «المتنبى» فى رمضان الماضى، لكن الموجع فى الأمر أن تلك الأعمال المتميزة لا تعرض على القنوات الأرضية، ولكم تمنيت أن تتاح لعموم مشاهدى مصر لعلها تشفيهم من سموم المعروض فى مسلسلات هذا العام وهو ما يضيق المجال عن حصره وتحليله ولكننى لا أفوت هذه الفرصة دون أن أدعو من بدا أنهم نسوا رصيد الإنتاج الدرامى فى الاذاعة والتليفزيون، أدعوهم مشددة على ضرورة الاستماع للحلقات الأولى من ألف ليلة وليلة والتى تم إنتاجها منذ ما يقرب أويزيد على نصف قرن من الزمان وإن كانت عندهم الشجاعة فليقارنوا بينها وبين ما إذاعته الإذاعة من سخافات هابطة تحمل اسم الدراما عنوة وتنافسها مسلسلات التليفزيون فى العجز على الارتفاع الى مستوى أقدم مسلسلات الإذاعة والتليفزيون.. واظن ان الامانة تقتضى ان نواجه انفسنا بالصراحة والموضوعية الضرورية الآن لإنقاذ الدراما المصرية من انظمة الانتاج التى اثبتت تميزا واحدا وحيدا.. ألا وهو المغالاة



الجنونية فى تكلفة الإنتاج مع الهبوط المشين فى مستواه!

وإذا كان هذا يصدق على الانتاج الدرامى ، فهو يصدق بالمثل على الإنتاج البرامجى ولكننى هنا لا أود الحديث عن السموم فقد تجرعنا منها ما يكفى وزيادة

لكن لطف ربكم الكريم أهدانا نهرا. من الترياق رقراقا وأودع اسرار ذلك النهر الترياق كما ملك مفاتيحه لعمار الشريعى.. ياسلام.. يا سلام عليك ياعمار ياسلام على حضورك النورانى وياسلام على قدرتك على أن تنافس نفسك وتتركنا حائرين ، لمن نتحيز أكثر هل لعمار الشريعى عازف الموسيقى ومؤلف ألحانها أم لعمار الشريعى المضيف، صاحب الحضور المهيب الناعم الآسر.. والكل يعرف مواهب عمار الشريعى فى التحليل والتقييم الموسيقى، فليس لأحد أن ينسى برنامجه الإذاعى الذى نسيته الإذاعة «غواص فى بحر النغم» لكن يؤسفنى أننى أتحدث عن برنامج لم يتح إلا لمشاهدى الفضائيات غير الحكومية وهو برنامج سهرة شريعى فى رمضان.. حقيقة الأمر ان البرنامج بدأ قبل رمضان ببضعة أسابيع وما أن بدأ رمضان حتى منّ الله علينا بتقديم عمار الشريعى للسهرة يوميا.. نعم سهرة ساعة كل ليلة من ليالى رمضان ولم يكن السحر الشخصى لعمار الشريعى ولا أدبه الجم وحسن إصغائه للضيوف، ولا وإضافاته الثاقبة ولا تحليلاته العلمية البسيطة لما كان يختار من أغان ولا ترحيبه الصادق بكل ضيوفه من منشدين ومداحين وقارئين للقرآن الكريم، لم يكن كل ذلك فقط هو ما جعلنى أجد فى هذا البرنامج ترياقا يشفينى من أدران ما يذاع قبله وربما بعده من برامج ومسلسلات.. إنما الأهم يا أعزائى أن عمار الشريعى كفنان مصرى معاصر أصيل يدرك ببصيرته أهمية المحافظة على ما هو بلدى وأصيل فى فنوننا، يدرك أهمية وجود فنانين أصلاء من المداحين والمنشدين ومغنى المواويل وقارئى القرآن الكريم، يدرك الصلة بين كل ذلك وبين الحفاظ على ذاكرة الناس وسلامة وجدانهم الذى هو حجر الزاوية فى الثقة بالنفس والاعتزاز بها وبالأوطان، ولذلك فهو لم يكتف بأن عرفنا وطمأننا على أن الحاضر بخير، وإنما كان حريصا أن يطمئننا على المستقبل ومن هنا كان سؤاله الملح دوما عن الشباب فوجودهم وارتباطهم بفنوننا الأصيلة بقواعدها وموروثاتنا هو السبيل الوحيد الذى يحفظ لنا نهر الترياق الذى يتربع على ضفته عمار الشريعى. مهيمنا على دفة الوعى فيه باقتدار ليرد الاعتبار لفنوننا التى سحلت على الشاشات بفعل هيمنة مؤسسات الإعلان التى تواصل مهمتها فى التدمير المنتظم لكل ما هو راق رفيع فى فنينا سواء بموجات جراد الفيديو كليب أو بتغليب العبط والسفه على برامج المنوعات أو بتقويض صروح الدراما المتميزة. وهكذا ينضم عمار الشريعى لقائمة البنائين العظماء فى مصر، وهم الذين يكافحون لتعمير ما تخربه مؤسسات الإعلان وهى المتحالفة مع مؤسسات الأعمال فيما يمتار الناس.. من يتقى شر من؟؟!! ومن يملك مفاتيح السم الهارى!!.. ■

إبداعات

يوميات ديفيد روبرتس فى مصر

بقلم
عرفة عبده على


دايفيد روبرتس
الزى الشرقى

«حقاً إن الشرق يبدأ من القاهرة» هذه الكلمة الشهيرة التى قالها الأديب الرحالة الفرنسى «جوستاف فلوبير Fleubert» يوم كان للشرق غموض السحر الذى أجتذب الرحالة والأدباء والفنانين الأوروبيين فى رحيلهم اليومى المغامر، فحركت فى نفوسهم الحنين المضطرم إلى عبق الصحارى وصخب الزحام ودفء الحياة وواجهات الحوانيت وروائح التوابل والثياب المزركشة وآثار الماضى العريق وأساطير ألف ليلة وليلة، ليرسموا لنا مشاهد تنبض بالحياة، متباينة الألوان والظلال ثبتت لحظات زمنية من تاريخ الشرق وتراثه أسواق وشوارع وبيوت ومقاهى وحريم، وقباب ومآذن وأسبلة تشهد بروعة فنون العمارة الإسلامية، ومشاهد من الحياة اليومية أذهلت هؤلاء الفنانين بتنوع وثراء موضوعاتها ..!

معبد كلابشة بالنوبة - ١٨٣٨

وخلال القرن التاسع عشر، أصبح الشرق أعظم ملهم للفنانين الأوروبيين، بما يعرضه من موضوعات جذابة وتفسير خاص لظاهرة الضوء لذلك كان «تيوفيل جوتييه يحث الفنانين على الرحيل إلى الشرق» لمشاهدة الشمس والحياة الفطرية والألوان الحية والمفارقات المدهشة !!

والفنان «دافيد روبرتس – D.Roberts هو أشهر وأعظم الفنانين المستشرقين فقد فاق الجميع عبقرية وأسلوبا وإنتاجا ولوحاته التى ضمنها كتابه الضخم «الأراضى المقدسة ومصر والنوبة – The Holy LaNd Egypt and Nubia 2 Vols», «London 1848 - 48» حققت له شهرة واسعة جعلت منه ألمع الفنانين الأوروبيين الذين زاروا الشرق، وقد برع روبرتس فى استخدام الضوء والظل – استخداماً دراميا – فى تصوير أطلال مصر الفرعونية، إبداع انطوى على لمحات شجية خوفاً على اندثار أعظم ما خلفته العبقرية الإنسانية ..

وقد سرد روبرتس انطباعاته ونشاطه الفنى فى يوميات رحلته فى مصر، وتزيا بالزى الشرقى، فالفنانون الإنجليز لم يستطيعوا مقاومة إغراء العودة إلى الحياة الفطرية فهجروا الأناقة من أجل العمامة !.. وأقاموا فى الأحياء الشعبية، وأقتنوا الجوارى والعبيد ودخنوا الحشيش !.. فقد ضاقوا ذرعاً من تزمت العهد الفيكتورى!

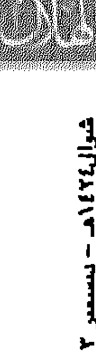
البداية والتكوين

من أول وهلة، نلحظ أن بدايات روبرتس وتكوينه وحياته لم تكن عادية فهو ينتمى إلى عائلة فقيرة جداً ، استقرت فى «ستوك بريدج» بمدينة ويست كيرك بايرلندا حيث ولد عام ١٧٩٦ (توفى فى لندن عام ١٨٦٤) كان والده إسكافيا، لم يهتم بتعليم ابنه، لكنه أكتشف فيه ميوله إلى الرسم الذى لا يتناسب مع صبى فى مثل بيئته ..!

بمجرد أن تعلم دافيد الصغير القراءة، كان يلتهم الكتب التهاماً وحبه للمعرفة جارفاً الحقة والده بمدرسة داخلية، غير أن القسوة التى كان يعامل بها، تركت فى حياته أثراً مريراً «وكالصبية الآخرين، كنت أعامل بوحشية، حتى أن جلد يداى وقدماى كان مشققاً بصفة دائمة من أثر الضرب بالعصا»!

طلب دافيد أن يترك المدرسة ويلتحق بعمل ما، وأبدى رغبته فى أن يصبح رساما أو يمتهن أعمال الدهان، واقترح أحد أصدقاء الأسرة، أنه يستطيع أن يمارس الرسم، إذا ما تعلم مهنة تتيح له أن يكسب عيشه، ويتكفل بنفقاته كفنان، حينئذ كان فى العاشرة من عمره .

قبل اختراع الدهان بالزيت، كان دهان المبانى بمواد بسيطة، والواجهات



تتطلب مـهـارة ودقـة فى زخـارفـهـا واستطاع روبرتس أن يتعلم الكثير خلال تلك الفترة وأصبح الفتى المدلل لصاحب فريق العمل - جافان بيجو - وبمرور الزمن، بدأ روبرتس يبدى قلقاً وشعوراً بعدم الاستقرار، وبالرغم مما عاناه من قسوة ومرارة فى تلك المرحلة، إلا إنه أكتسب من بين فريق العمل هذا، صديق عمره دافيد هاى الذى تخصص فى أعمال الزخرفة الداخلية، والذى أصبح فيما بعد، فناناً شهيراً وكاتباً فى الفن والجمال بعض زملائهما كانت لهم أيضاً طموحات فاقاموا لأنفسهم مرسما فى قبو بمحل إقامتهم .. فى سن السابعة عشرة، عمل روبرتس نقاشا فى «بيرث» واحتفظ بهذا العمل لمدة سنتين ..

بعد ذلك، عمل رويرتس لعدة سنوات فى أعمال الزخرفة والديكور بأحد المسارح، وشارك فى إنتاج بانوراما تجارية شعبية، وقد أكسبته هذه الممارسات، مهارة وخبرة وسرعة عجيبة، فى تغطية مساحات كبيرة من قماش الرسم فى يسر وسهولة، والأعمال المسرحية المؤثرة، أكسبته دراية بالفنون المرئية، وأصقلت أسلوبه ورؤيته كفنان متمين، وأعدته للقيام برحلته الشهيرة إلى مصر والأراضى المقدسة ١٨٣٨ - ١٨٣٩م.

ومما لاشك فيه، أن المعرض الذى ضم نتاج هذه الرحلة، كان فاتحة لموجة من الفنانين المستشرقين ورحيلهم إلى الشرق، خلال العشر سنوات التالية، وعلى رأسهم دافيد ويلكي وريتشارد داد .. وقد وضع روبرتس الفنان الرحالة، منهاجاً جديداً يعتمد البلاد الإسلامية المعاصرة، من زاوية الفن القديم «متاحف أثرية» تقدم على الطبيعة : تقاليد وعادات وأزياء متوارثة من الأزمنة القديمة، وكان فى ترحاله يهتم كثيراً بتفاصيل الحياة اليومية للشرق، كما لاحظ عدم اتصاله بالمواطنين إلا فى حالات الضرورة القصوى، وقد يكون ذلك عرفاً سائداً، باعتبار أن الدليل الذى يقود القافلة أو المترجم الرسمى التابع للبلاط العثمانى هو بمثابة «حاجب بين المؤمنين الحقيقيين وهؤلاء الكفار الذين يزورون هذه المناطق !!

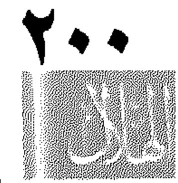
رحلته إلى مصر

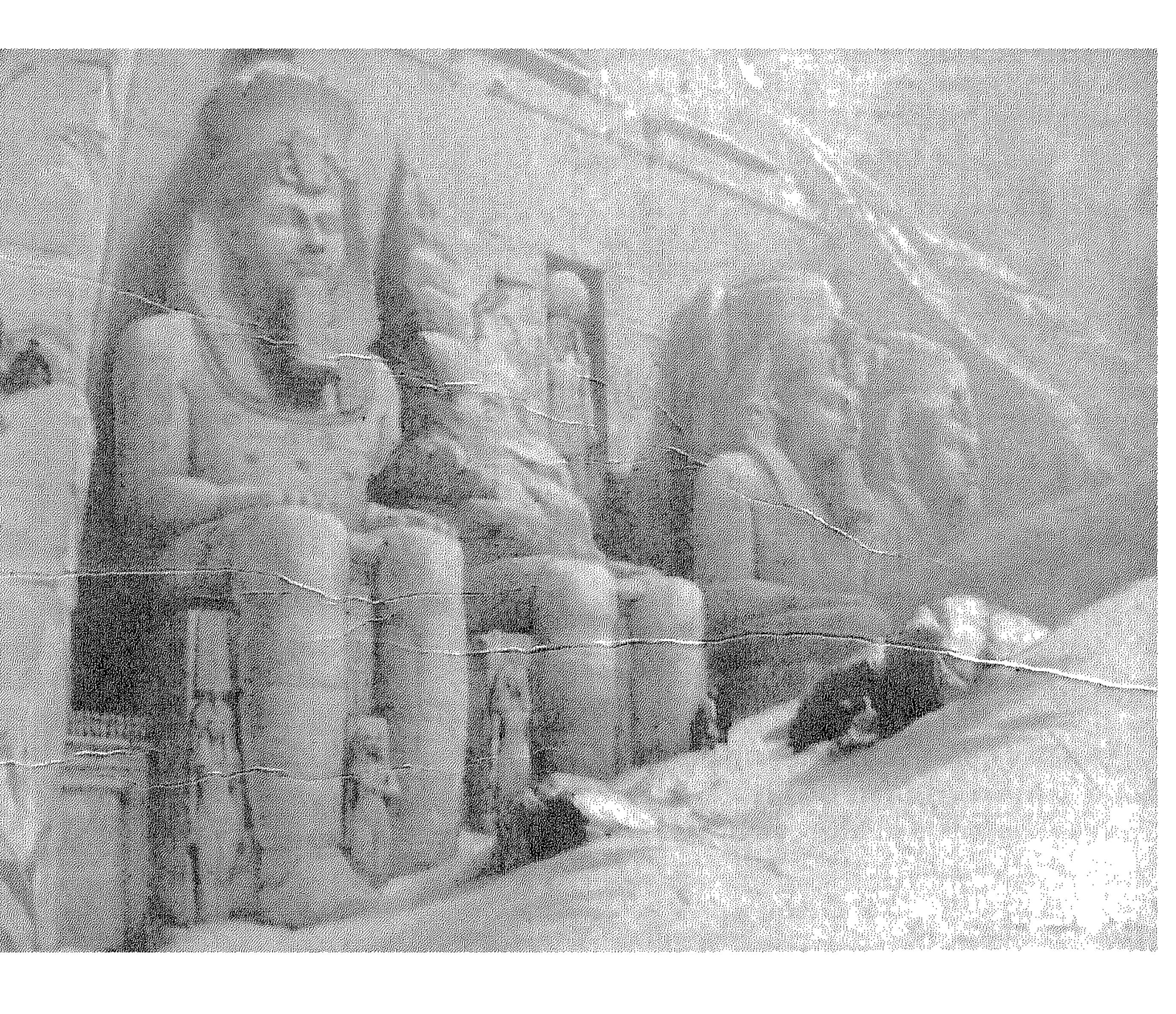
فى الرابع والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٣٨، وصل روبرتس إلى الإسكندرية، بعد أن توقف بجزيرة كريت، وقد أبحر منها بعض الحجاج المسلمين فى طريقهم إلى مكة ...

« ومن المسلم به، أننى ومفكرتى الخاصة بالإسكتشات السريعة، كنا فى شغل عما حولنا » كتب ذلك وهو يصف هؤلاء الحجاج فى خطاب إلى ابنته «ويؤدون خمس صلوات فى اليوم، ومشهدهم ساجدين من أكثر المشاهد تأثيراً» وأشار إلى تميز المسلمين بالتقوى والورع دون تعقيد !

وفى الإسكندرية، أمد الكولونيل «باتريك كيمبل» القنصل العام البريطانى، الفنان روبرتس بخطابات توصية إلى محمد على باشا نائب السلطان العثمانى وحاكم مصر، وبعد عدة أيام قضاها بالإسكندرية، بدأ رحلته إلى القاهرة، بصحبة مجموعة من السائحين الإنجليز الأثرياء وخادم يدعى «إسماعيل» من الإسكندرية..

وفى رسالة إلى ابنته كتب «قمنا بزيارة سوق الرقيق المثير للنفور، الفتيات يمثلن الغالبية العظمى من الرقيق .. البعض منهن شركسيات، والبعض الآخر زنجيات، الشركسيات يرتدين ملابس قيمة، أما الزنجيات فكن





واجهة المعبد الكبير بأبى سمبل

يجلسن القرفصاء تغطى أجسادهن ثياب رثة ممزقة، تحت شمس محرقة يمكنها أن تقتل أى أوروبى، لقد كان مشهداً مثيراً للملل والاشمئزاز، وغادرته وأنا فخور بانتمائى إلى أمة قد لفظت تجارة الرقيق»..!

حساسية روبرتس أثارها هذا الموضوع اللا إنسانى، فى نفس الوقت، تزايدت حملات أنصار إلغاء الاسترقاق، وطالبوا بفرض قوانين ضد الرق، من ناحية أخرى كانت الطرق التى يسلكها تجار العبيد، هى ذاتها التى يسلكها الرحالة والزوار الأوروبيين، فكانوا كثيراً ما يلتقون بقوافل الرقيق !

وفى القاهرة، تفاوض لاستئجار دهبية، هو وثمانية من رفاقه، ليركبوا النيل حتى الشلال الثانى، وكان الاتفاق محدداً بثلاثة شهور، وبواقع خمسة عشر

جنيها إسترلينيا لكل شهر !

بين شواهد مجد الفراعنة

وبينما كان روبرتس فخوراً بأنه أول فنان بريطانى يصعد فى النيل حتى لحق به الفنان «وليام جيمس مولر» بعد أربعة أسابيع تقريباً..

وقد بدا من خلال إبداعات روبرتس ويومياته، اهتمامه البالغ بآثار مصر القديمة وقد تأثر بما شاهده من قوافل حزينة للرقيق المهرب، ومن أعمال السخرة والخدمة العسكرية الإجبارية وأثار استياءه أن دهبيتهم التقت المركب الفاخرة للباشا، ولكن لم توجه لهم الدعوة ..!

أطلال الفراعنة التى شاهدها روبرتس، تختلف تماماً عما يشاهده السائحون اليوم، فقد كانت فى أمس الحاجة إلى عمليات ترميم هائلة، والمعابد العظيمة - حينئذ - كانت مدفونة فى الرمال حتى منتصفها، وامتدت إليها بيوت المواطنين وتداخلت معها !

كتب روبرتس فى الأقصر «سرت هذا الصباح، على أحجار وأطلال هذا المعبد الهائل، المندثر بين منازل مشيدة بالطوب اللبن .. تسلقت مدخل المعبد، حيث أمكننى رؤية بقايا هذا المعبد وأعمدته، المتداخلة مع المبانى الحديثة»..

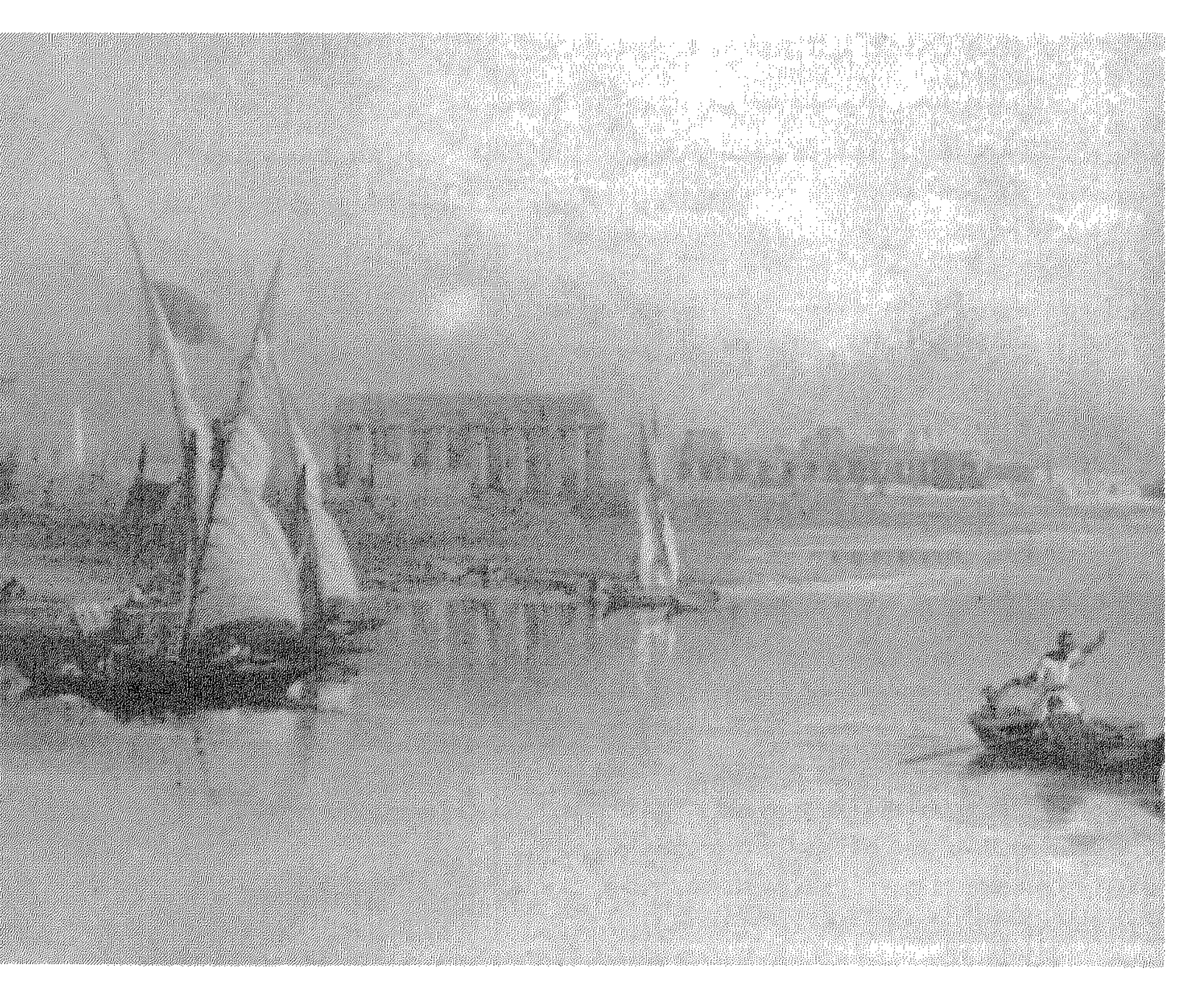
وشد ما آلمه أن يعيش المصريون حياة بدائية، بائسة .. وفى ادفو، أرهقه التفكير فى هذا الأمر :«هل من الممكن - ذات يوم - أن تعود هذه الصحراء لتصبح خلية للنشاط الإنسانى كما كانت ؟» وربما كان ذلك محتملاً - من وجهة نظره - طالما «أن مصر هى محور ارتكاز علاقة بريطانيا بالهند »!

وبينما كان روبرتس يفكر فى هذا التساؤل، كان «توماس واجورن» أحد كبار ضباط البحرية البريطانية فى الهند، يجرى مفاوضات مكثفة مع «محمد على باشا» للموافقة على مد خط سكة حديدية بين القاهرة والسويس ..

وفى أبى سمبل، أطلق روبرتس لمشاعره العنان، مأخوذاً بسحر وجاذبية المعبدين المنحوتين فى الصخور، فمكث هنالك بضعة أيام، بينما واصل رفاقه رحلتهم، فأنجز كثيراً من الاسكتشات السريعة للأطلال الرائعة التى تراكمت عليها الرمال .. وتلك كانت أقصى نقطة وصل اليها بوادى النيل .وكانت كوم امبو إحدى المدن التى أعجب بها ورسم معبدها الشهير .

عندما توقف فى أسيوط، واكتشف أنه نسى كراسة الاسكتشات النوبية، على مسافة ١٣٠ك / م فى المقبرة المنحوتة فى صخور جرجا .. وأصبح روبرتس فى مأزق، كاد أن يتحول إلى كارثة، لأن حصيلة العمل فى نصف الرحلة مهدد بالفقدان، ولحسن حظه، كانت هناك مركب علق وشك الإبحار جنوبا فاتفق مع أثنين من ركابها أن





منظر عام لأطلال الأقصر من النيل

يأتيا إليه بهذه الكراسة الثمينة، واضطر روبرتس إلى التوقف عن عمل أى شئ، ويكاد القلق يمزقه، حتى عادت إليه ضالته المنشودة !

العودة إلى القاهرة

عقب عودته إلى القاهرة، كتب إلى ابنته «.. وخلال رحلتى هذه، مررت ببقايا آثار عظيمة، وأماكن كانت مأهولة قديماً، عاشت فيها أسرات عريقة ثم طواها النسيان والزمان.. بعض بيوت قبطية مهجورة على وشك أن تتقوض .. وأطلال تدل على مدن عظيمة، كانت تزدحم بشعوب دأبها العمل والإبداع، وتزدان بأضخم وأروع المعابد، ومبان فخمة عجيبة اليوم تغير كل هذا، أصبحت مهجورة، قاحلة، معزولة، تتولاها حكومات حمقاء، وسكانها اليوم يجوسون خلال تلك الأطلال كأنهم

حيوانات بدائية أتأملها وقلبى مفعم بالألم !..»

«حـــصلت على ملف هائل من الإسكتشات لمعابد وآثار الفراعنة، ذات الأهمية الكبرى وأتمنى أن أحقق ملفاً آخر عن جوامع القاهرة التى لانظير لها فى العالم.. والعقبة الوحيدة التى قد تعترضى هى ضرورة الاستسلام للمعتقدات الإسلامية، التى لا تسمح - للكافرين - بأن يطأوا ويتوغلوا داخل مساجدهم »!

ولكن بفضل علاقاته، لم تعترضه أى مشكلة، فحصل على فرمان من عباس باشا، ابن محمد على برسم الجوامع، ومن الداخل أيضاً بصحبة بعض الجنود إذا كانت هناك ضرورة، وكان محمد على باشا حريصاً على وجود علاقات جيدة مع الإنجليز، وكما كانت فرماناته تتمتع بسلطة قوية فى مصر، كانت لها أيضاً فى بلاد الشام، قوة وسرعة النفاذ

وفى رسالة كتبها روبرتس إلى شقيقته : «شكرا لله، بفضل محمد على أصبح السفر إلى سوريا اليوم آمناً .. كأننى فى انجلترا ..»!

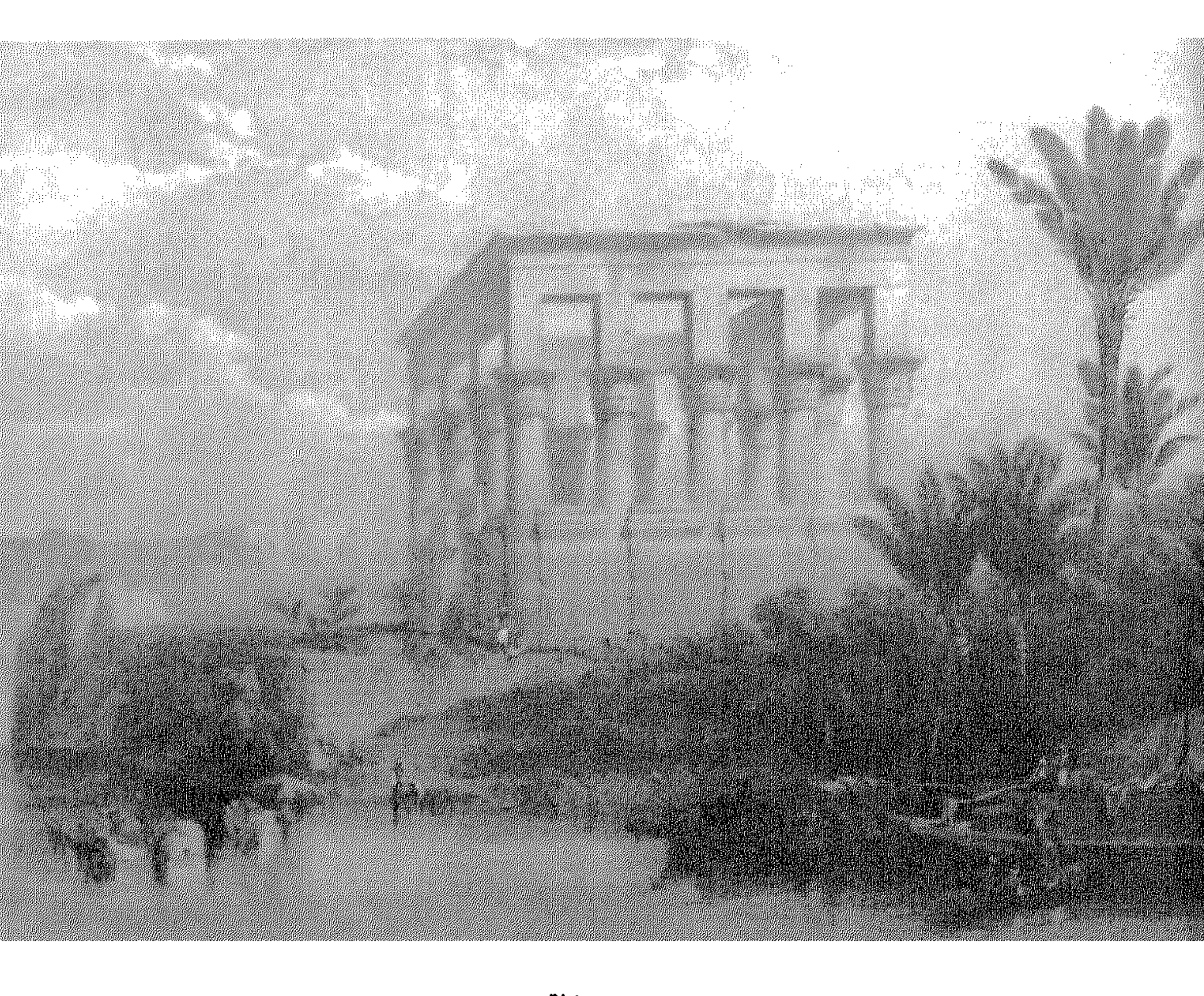
وبالفعل لم يكن روبرتس فى حاجة إلى حماية الشرطة فى القاهرة، وظل يرسم بين الناس، حتى إذا امتد به الوقت، غير أن بعض المسلمين المتشددين الذين يحرمون رسم الصور عبروا عن استيائهم بأسلوب لايخلو من جهل وطرافة فأحيانا يجد حجراً أو برتقالة تتخذ طريقها إلى اللوحة التى يرسمها ..!

كتب روبرتس فى ٢٩ ديسمبر من يومياته: «رسمت لوحتين كبيرتين إحداهما لشارع يؤدى إلى المارستان، والأخرى لنفس الشارع ولكن من زاوية مختلفة، يغلب على مشاعر الناس المودة، وفى بعض الأحيان أجد صعوبة فى الرسم فى شوارع مكتظة بالعابرين، لكن بصفة عامة، كل شئ يسير بطريقة مرضية».

كانت سعادة روبرتس تفوق كل وصف، عندما يرى نوعيات مختلفة من الناس « .. جميع شعوب الشرق تختلط ببعضها »..

وذات يوم، وهو يرتدى زيه الشرقى بصحبة حارس نوبى، دخل جامع السلطان الغورى، حتى توسط صحن الجامع، وفيه تحلق بعض الرجال المنهمكين فى تطريز قطعة كبيرة من القماش الفاخر، واقترب روبرتس أكثر، ورأى البعض يجثون ويقبلونها، فجثا على ركبتيه وتناول طرفاً منها ليتفحصها، فانتزعها حارسه من يده فى الحال ودفعه إلى الطريق .. لقد أراد روبرتس أن يلمس «الكسوة المقدسة» المخصصة للمشهد النبوى بالمدينة !

ووصف روبرتس القاهرة فى يومياته



جزيرة فيلة

بأنها «مدينة لاتماثلها مدينة آخرى» ! .. بالرغم من بعض المعوقات التى أشار إليها مثل ضيق الشوارع واكتظاظ الأسواق وفضول الناس .. وقال «أسواق القاهرة تختلط فيها شعوب الشرق جميعاً، أتراك ويونان فى أزياء غريبة وأخلاط من البدو المسلحين وصعاليك مشردين ونساء محجبات يمتطين الحمير أو البغال يحرسهن عبيد أشداء، وسقاءون بقربهم الجلدية المميزة، وأصحاب الحوانيت فى وقارهم لاينزعون مباسم الشبك من أفواههم، وبعض النساء المصريات يدخن فى بيوتهن ويستخدمن نرجيلات فخمة ثمينة .. كل ذلك يشكل أمامى لوحات ما كنت أحلم بها .. والحقيقة أننى كنت مذهولاً من كل ما هو مدهش وجديد أمامى !.. واقتنعت تماماً بأننى وجدت نفسى على أرض بكر، وبأن هؤلاء الناس لم يسبق أن رسمهم أحد»!

نشرت قصة «الثعبان» من وحى يوميات السجن (٢)

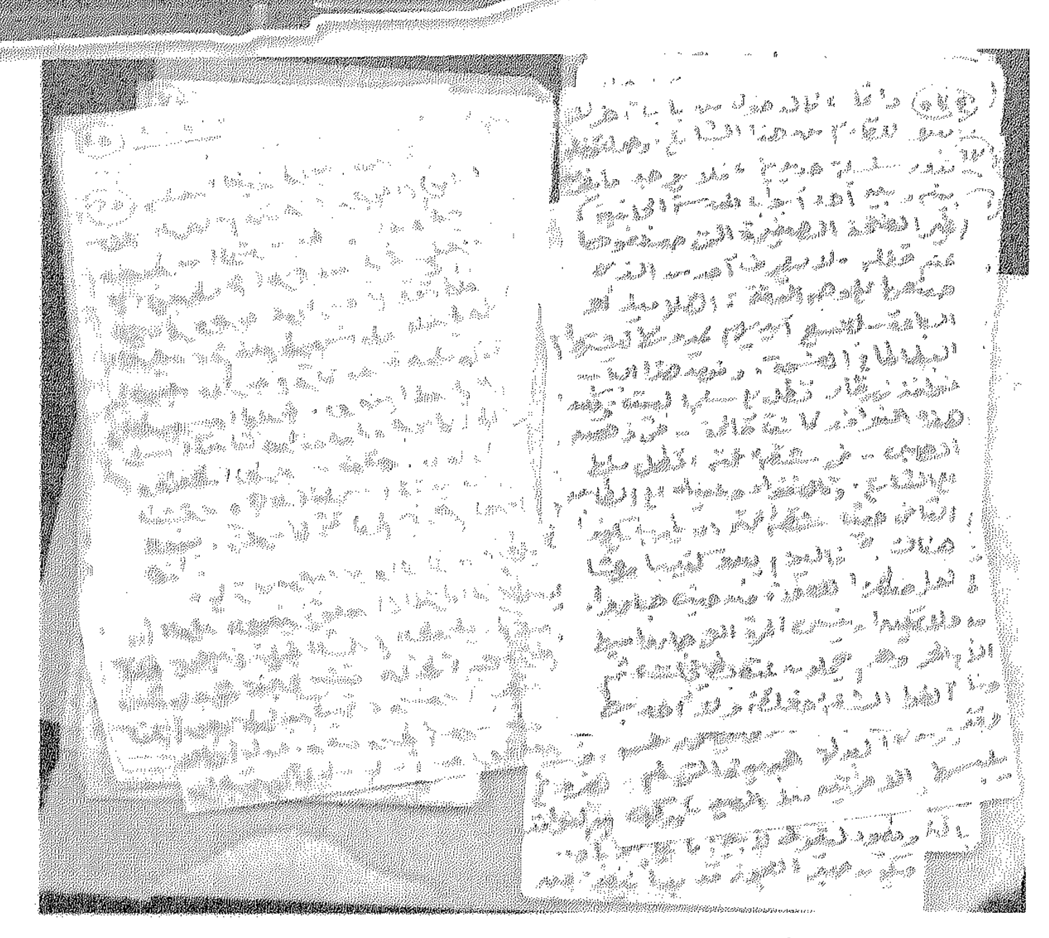
صنع الله إبراهيم

كتبت الحلقة السابقة قبل واقعة جائزة وزارة الثقافة، وذكرتني هذه الواقعة بجائزة أخرى حصلت عليها فى سجن الواحات لها قصة جديرة بأن تروى.

ففى بداية ١٩٦٣ نجحت محاولاتى لمغادرة السجن بعض الوقت، متذرعا بحاجتي إلى جراحة في الأنف. ونقلت تحت حراسة مشددة إلى مستشفى أسيوط، ومازلت أذكر ضابط الحراسة الذى جلس بجوارى وشاركنى القيد الحديدى، كان صعيديا ضخم الجثة. وكان يتطلع إليّ بين الفينة والأخرى غير مصدق ويهز رأسه متعجبا، وأدركت أنه يحمل تعليمات صارمة تحذره من أنى سجين شديد الخطر لكن منظرى وحجمى الضئيل لم يتفق مع الصورة التى نقلت إليه.

أودعنى الضابط مستشفى أسيوط العام حيث وضعت فى غرفة خاصة مسورة وجدت بها عبدالحكيم قاسم، ولم تكن بيننا علاقة ما كما أنه كان ينتمي إلى تيار تنظيمى مختلف، وقضينا الوقت شبه متخاصمين ولم تنشأ علاقة بيننا إلا بعد ذلك بشهور طويلة.

ومن وحى رحلة الذهاب والعودة كتبت قصة قصيرة باسم «الثعبان» نشرت بعد خروجى فى جريدة الجمهورية ثم فى المجموعة الصادرة عام ١٩٨٦ بعنوان «تلك الرائحة وقصص أخرى» وترجمت إلى عدة لغات وأعتقد أنى عندما كتبتها كنت متأثرا بشكل ما برواية كامى «الطاعون»



كتبت بعضاً من يومياتي فى السجن على ورق « البفرة »، الذى تلف به السجائر

وكانت كتابة القصة قد انتشرت بين المعتقلين والمسجونين، وكان هناك تشجيع لها من قبل القيادات الحزبية على أساس أنها تندرج فى إطار المجهودات الرامية للمحافظة على المعنويات والاستفادة من العزلة الإجبارية واستغلال الطاقات الزائدة، فتعددت أوجه النشاط الثقافى والاجتماعى من مباريات لكرة القدم ومزرعة خضراوات إلى الندوات والجامعة المفتوحة ومعارض الكتب والمحاضرات، والمسابقات الأدبية. وكان أن نظمت مسابقة للقصة القصيرة تألفت لجنة تحكيمها من أستاذ الرياضيات عبدالعظيم أنيس والأستاذ محمود أمين العالم وزميل ثالث هو على ما أظن الكاتب المعروف محمد صدقى الذى اشتهر باسم جوركى مصر بسبب نشأته العمالية. وأعطتنى اللجنة الدرجة الثانية بينما ذهبت الأولى إلى زميل آخر يدعى قدرى شعراوى.

كان قدرى شعراوى فى الأصل عامل نجارة وتردد عدة مرات على المعتقلات والسجون وكان شخصا نبيلا طيب القلب، ولابد أنه كان يحمل فى أعماقه أشواقا عديدة ترجمها بكتابة قصصة أسماها «القط مشمش» وكان يحفظ القصة عن ظهر قلب وفى كل مرة يعتقل فيها

يسعى للحصول على الورق والقلم ثم يدون القصة ذاتها ليقرأها الآخرون.

ومن الطبيعي أن يتم اختياره للجائزة الأولى، من باب تشجيع وابراز مواهب أبناء الطبقة المهضومة التي يؤمن المحكمون بدورها الطليعي. كما أن قصته بدت أقرب إلى النموذج التقليدي من قصتي. على العموم أوضحت لي هذه التجربة أن الجوائز ليست تقويما خالصا يستند إلى معيار ثابت وإنما يخضع لعديد من العوامل الإنسانية الطبيعية.

اليوميات

تتألف الأوراق التي استطعت تهريبها بواسطة المرحوم حسين عبد ربه من عدة أجزاء: جزء على صفحات مقتطعة من كراس تضم بضع مصطلحات انجليزية من كتاب الفسيولوجي السوفييتي وترجمتها إلى العربية، وكنت قد قررت دراسته. جزء آخر على الورق المعروف بورق الأرز جاء من علبة حلوى أو ماشابه، وجزء ثالث على ورق «البفرة» الذى يستخدم في لف السجائر وأخيرا كراسة صغيرة في حجم علبة الكبريت صنعتها من أوراق كراس مدرسي وثبتها بخيط في المنتصف وتضمنت هذه الأوراق يوميات وملاحظات ومشروعات كتابة ومقتطفات من قراءات مختلفة.

الرقيب الأبدي

لم تكن كتابة يوميات حقيقية بالأمر السهل، فهناك دائما الخوف من أن تقع في أيدي إدارة السجن والمباحث، وكان هناك أيضا نفس الخوف من أن تقع في يد زملائي ولهذا كان على أن أتجنب بعض الموضوعات وخاصة ما يتعلق بمشاعري الجنسية أو تساؤلاتي أو ملاحظاتي على الأشخاص والأحداث اليومية داخل السجن، وفي أحيان ألجأ إلى رموز لا أتذكر الآن مدلولاتها، ويتضح هذا الخوف من فقرتين بيوميات شهر أبريل ١٩٦٢.

الأولى تتعلق بالخطابات العائلية التي كانت تهرب سرا بسبب القيود المفروضة على رسائلنا العادية التي تمر عبر جهات عديدة من مأمور السجن الذى يتسلى بقراءتها إلى المباحث التي تقرأها بعناية، ومن الطبيعي أن الرسائل المهربة كانت تقرأ بعناية أيضا من جانب الزملاء المسئولين عن عملية التهريب خوفا من أن تتضمن شيئا ضارا إذ أن احتمال وقوعها في يد المباحث كان واردا.

كتبت في اليوميات : أفكر دائما في أن أكتب لأختي عن مشاعري ... وأصف لها أشياء كثيرة، ولكن خطاباتي لها تمر بأكثر من جهة قبل أن تصل إليها وإحساسي بأن هناك من سيقرأها ويبتسم لسذاجة المشاعر الواردة بها كانت تشل يدي وأيضا فكرة أني قد ألتقي بواحد قرأ هذه الخطابات وسخر مني بينه وبين نفسه ولا أعرفه وينظر إلى ساخرا دون أن أعرف .. هذا الوضع يمكن أن يكون شأن حياتي كلها، وهو من ناحية أخرى يمثل دور الدولة بالنسبة لحياة الفرد، و«دور الآخرين».

الفقرة الثانية عبارة عن نص تخييلي



• كيف تم تهريب يوميات السجن رغم القيود والسدود؟

من واقع هذا الموضوع هو كما يلي:

«انحنيت برأسي إلى أسفل ومددت يدي إلى فتحة بنطلوني وفككت الزرارين الأخيرين.

كنت أرتجف من السعادة واللهفة، فقد حانت الفرصة أخيرا.

وتسللت بأصابعي داخل الفتحة أبحث عن جسمي الصغير. فجأة أحسست بشيء يدفعني ويضغط بشدة على كتفي، وعندما رفعت رأسي إلى أعلى، اصطدمت برأس غريبة لرجل لا أعرفه تنحني فوق كتفي، وكان الرجل ينظر إلى حيث تسللت أصابعي.

شعرت بدمي ينشف . أخرجت أصابعي بسرعة وكانت ترتجف. وحاولت أن أغلق فتحة بنطلوني ولكني لم أستطع فاكتفيت بأن وضعت يدي على الفتحة.

ونظرت إلى الرجل الغريب، لم تلتق عيناي بعينيه فقد كان لايزال ينظر إلى أسفل باهتمام، إلى حيث تجمدت أصابعي. وخيل إلى أني رأيته يبتسم.

لم أعرف ماذا أفعل. وكنت أحاول أن أفكر. ولكن رأسي كانت مشوشة، وكان هناك السرير العريض في أقصى الغرفة، وكان سطحه الأبيض المسترخي يدعوني إليه. كامرأة تنتظرني مفتوحة الذراعين.

أحسست بكتفي يؤلمني. كانت ذقن الرجل كقطعة حجر وكانت تضغط بشدة على كتفي وفكرت أن أتكلم مع الرجل ولكني لم استطع ولم يكن يبدو عليه أنه يفكر في الانصراف، وعدت أنظر إلى السرير في يأس. لولا هذا الرجل لكنت الآن فوق هذه الملاءة البيضاء النظيفة، لولاه لكنت خلعت ملابسي من زمن، واحتفظت بالأجزاء الداخلية بعض الوقت. ثم ارتميت على المرتبة الناعمة المتموجة أتمرغ فوقها ثم أتخلص من الأجزاء الداخلية. وأتمدد أخيرا عاريا تماما.

ولم يعد سطح السرير الممتد أمامي مستويا كما كان من قبل . فقد أصبحت أرى فوقه علامات كالكدمات . وهبطت الوسادة قليلا في منتصفها وانبعج طرفاها ، وابتسمت. ها هو جسمي يرسم آثاره على السرير عندما أنام على وجهي وأدفن أنفي ورأسي في المخدة الناعمة وأتشمم رائحتها النظيفة وأبسط ذراعاي حولي في أنحاء السرير . فلا تطولان آخره ولا تصطدمان بأي شيء وأتنهد في راحة . وأشعر بجسمي كله مصطدما بالأغطية وأشعر بأثره وأعتدل على ظهري . وأثني ذراعي . وألقي به على وجهي وأتحسس بشفتي جلده الناعم . وأتشمم عرق إبطي الذي أحبه . وأداعب بيدي شعره الذي سعدت به عندما ظهر لأول مرة منذ سنوات بعيدة .. وأبسط ذراعي أخيرا حولي وأسترخي في رضا وأروح أتحسس صدري بأصابعي ويملؤني الزهو . أشعر أن جسدي قوي مليء بالعضلات وألتمس في فخر شعر صدري القليل وهو شعور يختفي على الفور لو وقفت أمام المرآة ورأيت قامتي النحيلة وجسدي الضئيل . لكن هذا لن يحدث وأنا فوق السرير .

فعندما أستدير علي جانبي الأيسر واضعا ذراعي اليمنى تحت رأسي دافنا اليسرى بين ساقي ، سأشعر أني جميل ولطيف وقوى . وسأسبح في نشوة الحرارة التى تحصل عليها يدى اليسرى من جسمي . الحرارة والنعومة . ما ألطف جسمي الصغير هذا . لو أستطيع أن أقبله حاولت مرة أن أنثني لأقبله ففشلت .

وأغمضت عيني . ها هو حلمي القديم لن يتحقق . فما أسوأ حظي . وأوشكت أن أبكي . لماذا يأتي هذا الرجل في اللحظة التى أتخلص فيها من الآخرين الذين لم يتركوني بمفردى أبدا . أعددت كل شيء في رأسي . أعددته جيدا . كي لا تفشل هذه الساعات الرائعة . كانت هناك عدة خيوط لأختار بينها . ولأنتقل من واحد إلى آخر لو لم يعجبني ولو تغيرت حالتى النفسية .

كانت هناك البحيرة واسعة عميقة لاتبدو نهايتها . وتحف بها غابات من الأشجار العالية الكثيفة وعلى صخرة بارزة فوق البحيرة أجلس أنا . أتطلع إلى المياه أبحث فيها عما أريد . عندما تكون ثائرة مضطربة يقلبها الهواء ويعصف بها أرى فيها صدرى المضطرب الثائر . وعندما تكون جامدة ساكنة كالزجاج أرى فيها روحي الملولة وضجرى . وعندما تكون هادئة وادعة تتحرك في رقة وخفة بفعل النسيم أرى فيها نشوتي وأحلامي وسعادتي . والمياه الآن تضطرب في خفة والرياح باردة قليلا . وبين الأشجار.

تضمنت يوميات تلك الفترة أيضا بعض التأملات التى قد يبدو بعضها الآن ساذجا بينما يمثل البعض الآخر محصلة تفكير عميق :

من أنا . كيف يكتشف المرء نفسه من خلال التوقف لحظة والتأمل (أثر السجن) ما معنى الحياة . التأمل الداخلي والتركيز عالم ينبض بالأضواء والمشاهد والألوان والأصوات والحركة ورؤية الجمال في كل شيء (حفلات الشاى اليابانية : يجتمع فريق من الأصدقاء ليقنعوا بالجلوس معا وتأمل الجمال المحيط بهم في هدوء في صورة طبيعة أو طائر محلق أو تغيير الضوء مع مرور الزمن) ... الاقتراب من مستودعات النشاط والإدراك المختزنة . يعقبة هبوط أو انتعاش .

– مرحلتان في التطور ٥٢ – ٥٨ ، ٥٩ – ٦٢ الأولى مثالية . وتغيرت في الثانية .... أولا القادة . ثانيا الإنسان الواقعي . ثالثا مطالب النفس الضرورية نتيجة غريزة المحافظة على النفس . رابعا كل ما كان خارجنا مع الاستعمار وفى أحسن الأحوال وطني قليلا . أما الآن فيمكن أن يكون ضدنا ويقتلنا ولكنه في مصاف الشيوعي .

– لو أن موت أى إنسان يعيش في الذاكرة إلى الأبد . لو أن الحزن يدوم ولا يضيع في زحمة الدنيا والأحداث وتعقبه الأفراح . ما كانت هناك لذة للحياة .

– كل التوتر والضيق والبحث عن



صداقات عميقة . الرغبة في الفناء في شخص آخر لحظات الكآبة . فقد الرغبة في كل شيء . الاختناق .

– التعذيب : ومنذ ذلك الحين وهو يشعر عندما يكون سائرا أو داخلا أو خارجا.. أن شيئا ما سيلطمه أو يرتطم به. واذا اقترب منه احد فجأة توترت عضلاته وتوقع صفعة أو ركلة.

– الوحش الذى ينطلق من عقاله بالليل ويزحف فوق عنبر به ٣٠٠ رجل.

– البطل والجماهير.. بليخانوف – عبادة الفرد.

– حادث سويلم الصابون والسجائر ثم حادث القصير. كيف نأتى إلى الشخص من الناحية الطيبة. وكيف يمكن بكلمة او اثنتين ومجهود بسيط تخفيف احزان الناس. كل انسان مهما كان معقدا وسيئا له جانبه الطيب. جوركى: «الناس طيبون اذا اعتبرتهم كذلك» وسيئون ايضا اذا اعتبرتهم كذلك. سأحاول تجربة ذلك مع ف.

واحتلت الكتابة ومشاكلها ودور الكاتب وتكوينه جانبا مهما من هذه الخواطر.

– تكوين الكاتب ليس بالمسألة السهلة. انها نضال طويل وشاق وقاس وصارم إنه يتطلب ارادة كالحديد. يتطلب تدريب هذه الارادة وتكوينها على مر الايام. العمل اليدوى ومسئوليته – والمسئولية أمام الآخرين – قد لعب دائما دورا مهما فى تكوين الارادة والشخصية وصلبها . ان طريق الكاتب ملىء بالتضحيات. كل شىء يجب ان يخضع لفنه. لقد خسر بوشكين خمس سنوات من حياته فى الجرى وراء حبيبته ولعبت به. لا يجب للكاتب ان يسمح بما يعوق عمله وفنه انه قديس وشهيد.

– حياة توفيق الحكيم وتكوينه درس رائع. ان سنوات طويلة يجب ان تنفق فى الدراسة والتحصيل والتجربة يجب ان تستمر الى الابد:

١ – لابد من دراسة التراث الاسلامى والعربى واليونانى والاوروبى والمعاصر. روح مصر المتمثلة فى تاريخها وحاضرها وأساطيرها يجب ان تبرز فى العمل الفنى الحديث. عالمية الكاتب تأتى من تفوقه فى التعبير عن قوميته . «أضفت الى هذه العبارة فى نوفمبر ٦٣: وفى التعبير عن نفسه».

٢ – دراسة علمية للأسس الاقتصادية والفلسفية. صقل وتعميق النظرة العلمية للإنسان والمجتمع ودراسة الفنون الأخرى.

٣ – العمل الشاق المستمر بلا توقف فى الكتابة.

٤ – التجربة الذاتية مهمة. الفنان لا يغلق طريق أى تجربة امامه. لكن فى الإطار العام لخطته. ان التجربة الفردية الذاتية انسانية وضرورية ولكنها محدودة. لابد وأن يتسع الفنان للتجربة العامة لمجتمعه وشعبه. لا يمكن تصور مصر تبنى وتشقى بالعمل والحياة والحركة والمشاكل ثم تقرأ قصة الضياع التى نشرتها «الجمهورية». ان فكرة الضياع والعدم بشكل عام لا تتفق والصورة العامة لبلادنا اليوم. لن تكون هذه الفكرة هنا الا تعبيرا عن موقف فردى معين. عن تجربة مؤقتة عن احساس مؤقت يجب ان يذوب





فى الموجة العارمة التى تكتسح البلاد.

(١) الفن الذى سيعيش اليوم فى مصر هو فن تسجيل حركة المجتمع الواقعية وروح الشعب.

(٢) ليس التسجيل فقط ولكن المساهمة أيضا فى استكشاف الطريق فى تعبئة المجتمع فى اتجاه تقدمه نحو مشاكله والقاء الضوء عليها.

(٣) والانسان الفرد ايضا وحدة هذا المجتمع. يصوره الفن من الداخل. ويفك مجاهله وعقده لا للاستعراض وانما ليساعده على ان يسيطر على نفسه فى حدود الامكان ليساعده على أن ينضم الى المجموع فى نشاطه.

وهذا هو دور الفنان فى مصر اليوم. لا ان يكتب اى شىء يحلو له لقيمة جمالية بحتة. لا ان يتوه فى بحث مشاكل فكرية وفلسفية فقط، لا ان يعيش اسير تجربته الفردية التى قد تسلمه للانعزال والاحساس بالضياع والعدم. لا ان يكتفى بتسجيل ما يحدث فى المجتمع تسجيلا انطباعيا حياديا سطحيا. ان فنان مصر اليوم يجب ان يعمل بنشاط وتفاعل ويغوص فى اعماق الفرد. يكشف ويغير الطريق ويوجه، يقود ويلعب دورا فى الحركة اليومية. مسلحا بالتكنيك والتجربة الذاتية والوعى والمثابرة والتضحية.

- الكاتب مسئول عن كل كلمة يكتبها.

- مئات المواضيع والأفكار. مشاكل حيوية. لابد من تحديد موقف كل لحظة وكل دقيقة. لابد من لعب دور والتعبير. عندما تنشغل فى رواية طول العام كيف يمكن مواجهة هذه الأشياء العابرة هل هى سطحية وستموت ؟ خذ مثلا اللحظة التى كان العالم فيها على حافة الحرب بسبب كوبا، ثم انقذ السلام. هل يمكن التعبير بمثل ما عبر بيكاسو عن الحرب بالقط الاسود المشوه؟ كى نتجنب التعبير السطحى الساذج.

مشاريع قصص

- تبدأ اليوميات المسجلة بشهر ابريل ١٩٦٢، وتتضمن افكار قصص ومشاريع كتابة يرجع بعضها الى فترة سجن القناطر فى سنة ١٩٦١ «أى الى فترة الكتابة فى الرأس!» ويبدو أنى كنت مفتونا بالعناوين . فتحت عنوان «الضفيرة السوداء» اشارة الى قصة عن فتاة حضرت المحاكمة العسكرية التى جرت لنا فى الاسكندرية سنة ١٩٦٠ وكتبت امامها : استخدام عبدالحليم عبدالله العنوان بعد ذلك.

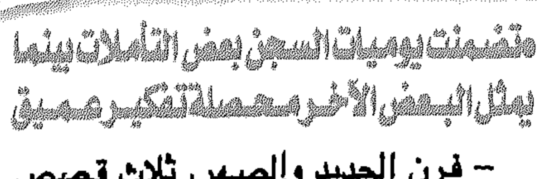
اشارة اخرى بعنوان يوم رمادى عن قصة سمعتها من زميل هو حسين غنيم المحامى ودون تفاصيل كتبت : لا لأنها تشبه تورجنيف أى انى لن اكتبها لانها تصب فى عالم تورجنيف الرومانسى.

- الحصوة «القناطر ٦١» الأشياء الصغيرة حصوة فى الكلى.

- الرصاصة الثانية، قصة مخابرات.

- ثقب الى قلب الأرض. جيولوجيا ، وتحقيق نفسى. فكرة اللاشعور بعد ذلك.

- الجفاف : الأغنية كمياه تتسلل الى الطين. الواحات ٦٢.



– فرن الحديد والصهر. ثلاث قصص : اليد على الحبل «السيرك» ، الرصاصة الثانية. مشروع الكهرباء فى الفيوم ، «القاع».

– سواق نص الليل القناطر ٦١ «خمس حمولات» اثارتها حكايات زميل سائق عمل على سيارات النقل الضخمة.

– القاهرة ٦٢ البرج، العمارة ، تخطيط المدن : تأثير روايتى النافورة والأوهام الضائعة.

– الثأر.

– روميو وجولييت فى القفص . أزمة اليهودى المصرى اسكندرية ٦٠ وكنت قد قضيت عدة شهور فى زنزانة واحدة مع زميل اسكندرانى يدين باليهودية هو روبير جاك جرانسبان.

– دمامل المدينة. الصرياتية الحياة تحت الأرض بالمقارنة بفوق الأرض. الجانب الخفى السلبى السيء فى الانسان بالمقارنة بالسطح النظيف البراق الايجابى . الدمامل عيون البكابورت ويمكن تناول دورة السباخ.

– الحدافة او الرهاية وصف الآلة التى تعمل بسرعة رهيبة تصل الى هدفها فى النهاية وفى اثناء ذلك تقذف بعيدا باجسام غريبة او فضلات او شظايا . اثناء حركة الالة القبض على سائق عربة السفير. عملية القبض عليه كصورة الالة: الحياة تجرى الناس تتجمع بسرعة. ماذا حدث . يقبض عليه ثم يتفرق الناس.

– وابور الساعة اتناشر.


الأديب صنع الله ابراهيم

– ١٥ شخصا يسمعون اغنية حب . الحب فى حياة كل منهم.

– حب بلا سدود . مصير الحب فى المستقبل وحلم الانسان الحالى.

– أقدام على السلم . الاقدام الكاذبة «الأميبا».

– موظف يعثر على سحارة مليئة بروايات الجيب. يغلق الباب عليه ويفتح السحارة «مجدى ن» ويتوه فى عالم آخر. منظر الشاويش الذى يهرب من العالم الكئيب الى رواية يطالعها فى شغف ويبحث عن الاخرى والفترات بين كل رواية والثانية مملة كئيبة.

– ثلاث قصص من شارع مسعود. (هو شارع فى الدقى جاور شارع السبكى الذى كنت اسكن به الرباط هو الجنس والبحث عن الحب. المجنون والخطاب والفتاة. العراقى والمومس ولطفى. شلة الطلبة والمكرونة كبد وكلاوى.

– ثلاثة احلام يقظة.

– المرتد : أربعة ايام من حياته.



– المنهارون المعترف (تبرير وشفقة).
– المحكمة علقة اسكندرية : الـ ٤٨ شهدى.
– الارهاب، الرعب، السجن، اذلال ادمية الانسان التعذيب، الحرية.
– صباح الخير يارب (نايلون – قمر ونجمتين – القناطر ٦١).
– اربعة ابعاد من الموت (لومومبا) القسم الاول اربعة ابعاد الاول من الصاج والثانى من الخشب.

تحقيق داخل شخص فى داخل المصوراتى عشت تلك التجربة نور وظلام حقيقة وكذب، هكذا تتكون الصور، وهكذا ايضا تتكون الحياة . توازن مستمر بين الحقيقة والكذب، بين النور والظلام.. ابواب خلف بعضها تفتح وادخل منها الى داخل هذا الشخص، مغامرات عقلة الصباع؟

– الانسان ليس حرا تماما. فرصته فى الاختيار امامه تتسع مع التقدم وسيطرة الانسان على قوانين الطبيعة. الاله المعبود الباطن المسيطر على الظروف القاهرة التى تتراجع امام تقدم الانسان الذى يسيطر تدريجيا على الطبيعة.

مقتطفات من قراءات او تعليقات عليها

– ان ينام الانسان بجواره اخر ليالى طويلة. ان يتوقعا معا الخطر ويعيشا معالحظات الرعب والفزع. ان يشعر الانسان بانه انتزع من حياته وانها اصبحت ذكريات. وان يجد بجواره انسانا اخر يفتح له قلبه ويفتح له اذنيه. ان تخلو حياة الانسان من البيوت والمقاهى والشوارع وأماكن العمل واللهو والاطفال والحدائق والناس وهم يمشون وهم يضحكون ومن جمال وجه المرأة وان يشعر بان عليه ان يخلق لنفسه من

واقعه الذى يخلو من كل هذه الأشياء حياة جديدة تعتمد على ذكرياته وعلى الصور التى اختزنها للأشياء التى رآها والتى عاشها فى أيامه الماضية". (من رواية «رسالة العام الجديد» التى كتبها إبراهيم عبدالحليم عشية عام ١٩٦٢ فى الزنزانة التى أقمت بها) .

– لا يوجد ذكر لمصدر هذه العبارة : «إننا لم نعرف بعضنا بعد . فنحن لم نجسر بعد على الجلوس معا فى صمت» .

– – الرواية التاريخية . ملك اليهود I, Colodious and I, the god- Albatros استر ومذبحة اليهود .

– جسر على نهر درينة : قطاع زمنى ٥٠٠ سنة به عدة أجيال . يبدو الانسان على حقيقته بتاريخ وأساطير وفلسفة. النهر هو الموضوع الرئيسى. ربط فى قصصه التاريخية الأخرى بين فهمه العلمى الحديث والحدث التاريخى نفسه. موضوعه الرئيسى هو الطغيان .

– القوقعة . حالة طفل أمضى فى الرحم ١٥ شهر ونصفا وفى جهاز الحضانة الاصطناعى ثلاثة أشهر ونصف Harper Magazinedigest . F.1961

مكونت لدي داخل السجن عدد من أفكار القصص ومشاريع الكتابة

- الحصوة . الكلى صحة اليوم - «المختار» - ٦١ - ١٢ الأشياء الصغيرة التى تنزل .

- صيام المخ وموت القلب . ايقاف القلب أحد الاحتياجات التي تتخذ أثناء جراحته. توقف القلب يعنى حرمان خلايا المخ من الدم وهو يندفع إليها بفعل القلب وحرمان هذه الخلايا كل هذه المدة معناه أنها بدأت تتحلل. فخلايا المخ هى التى تقبض فعلا على سر الحياة. أما القلب فليس أكثر من مضخة تدفع الغذاء إلى هذه الخلايا لتحتفظ بحياتها .

- كتاب عالم الانسان البدائى بول رايدان .

- الطاقة الكامنة فى مياه النيل موجودة منذ آلاف السنين ومع ذلك كانت تضيع فى البحر . ولم يبدأ تحويل هذه الطاقة إلى شئ مفيد إلا باقامة السدود والعيون والخزانات وتركيب التوربينات التى تحول الماء الهادر المضيع إلى كهرباء إلى عجلات تدور وإلى انتاج .

- المعبود الأسمر (الأسمى؟) - اكتشاف الآلة - رحلة استكشاف المنابع - الحائط العظيم .

- النوبة والسد ليزل جرينر - النيل فى الأدب المصرى نعمات أحمد فؤاد - مقال محمد عودة : الرجل الذى تكلم عنه كوزمين (عامل اشترك فى كل السدود) . كتاب كوزمين عن طريق السعادة . اميل لودفيج . النيل الأزرق والنيل الأبيض لآلان مورهيد .

قراءات يونيو ١٩٦٢

- هكسلى فى Barren Leaves :

مس ثريبلو تشعر بالحزن وفى نفس الوقت تفكركم هى حساسة لأنها تحزن هكذا. أنا حزينة فعلا ولكنى أمثل - استدعت الدموع فى وقت محدد لأجاب شفقة الحبيبة . أشعر أنى شخص ذو أخلاق وقيم عندما أتحدث عن الخلق . وفى نفس اللحظة أشعر أنى مجدود لأنى أبدو هكذا . عندما أبالغ فى الثورة على شئ سئ رغم أنى فعلا ضده واستنكره لأؤكد موقفى ضده .

ويقول أحد أبطال هذه الرواية عن الحب: «اما أنك تحب المرأة أو لا - إما أنك واقع تحت تأثير خيالك الملتهب (لأن الشخص الذى تحبه حقيقة بعنف هو دائما اختراعك وأكثر خيالاتك جموحا) أو تحت تأثير غرائزك وفضولك الذهنى . فإذا كنت لا تحب فالأمر لا يعدو تجربة فى الفسيولوجى مع بعض أبحاث سيكلوجية مقحمة على الموضوع لتجعله مثيرا بعض الشئ . ولكنك إذا كنت تحب فمعناه أنك تصبح مستعبدا مشغولا ، تابعا لشخص آخر بشكل غير لطيف .

* الألوان ومعناها : الأحمر الحب . الأصفر الغيرة . الأزرق الحزن. الأخضر الوفاء . الأبيض الصفاء . البنفسجى الحنان.

- Heart of the Matter, Graham Greene يقول المهرب

السورى لمفتش البوليس وهو يحاول إغواءه: «سوف أعنى بك» ، ويرد المفتش : «كيف يمكنك أن تفعل هذا؟» وفكر بدهشة: «لم أشعر باستياء . هناك من سيعنى بى» ، واستولى عليه نوع من ال nursering peace . اللحظة التى يطحن فيها الانسان فى أزمة، لو هناك من بيده حل معجزة للمشكلة ؟

* من «تربية سلامة موسى» : ميلاد كل منا هو مغامرة مع القدر . نخرج إلى العالم بكفاءات وراثية لا تتغير من أبوين لم نخترهما . ونعيش فى وسط تتكون فيه نفوسنا وتملي علينا فيه العقائد وطرز السلوك قبل أن نستطيع أن نغيره . ثم تتوالى علينا الحوادث التى تقرر اتجاهاتنا فى الحياة، وتقع بنا الكوارث التى تتكيف بها وننزل على مقتضياتها . وعلى الرغم من أننا جميعا نصاغ فى قالب البشرية فإن كل منا فذ فى هذه الدنيا قد كتبت حظوظه وأكثرها قبل أن يولد، إن خيرا أو شرا، ولذلك فإن قصة كل منا هى قصة فذة مفردة تستحق أن تروى وأن تقرأ .

– هيمنجواى: «عندما يتكلم الناس ، أصغ كلية . معظم الناس لا ينصتون» ، من خطاب نصيحة لأحد الكتاب الشبان .

– كان الواحد من أبناء الطبقة الوسطى الذى قد لا يوجد فيها ، يكتب ويفكر وهمه وأمله فى الحياة أن يعيش فى المدينة وأن يصل إلى مكان فيها فإذا ما صار فى المدينة تقطعت صلته بالريف ونسى معرفته به وتطلع من جديد إلى أوروبا التى كانت بمثابة تطلع طبقى يؤكد مكاسبهم الفردية ويهب لهم قدرا معقولا من الراحة ومن القدرة على التشبث بالحدود الضيقة للاستقلال والحرية والتمتع بما فى آفاق الفردية ومراقبة الذات من متع جزئية خاصة – بدر الديب فى «أخبار اليوم» .

– مقتطفات من مداخلات المؤتمر الثانى والعشرين للحزب الشيوعى السوفييتى. مقتطفات من كلمة الكسندر تفاردوفسكى: أن بطل قصتى الذى أحبه بكل خلجة من روحى والذى حاولت أن أصوره فى كل جماله والذى كان ومازال وسيظل أبدا رائعا هو الحقيقة . توالستوى

.. والأمر يختلف عندما يلحظ الكاتب فى الحياة شيئا جديدا ومهما وإن لم يرد له ذكر فى وثائق الحزب وافتتاحيات البرافدا فيدافع بجرأة وإخلاص معتمدا على مواقف الحزب وتقديراته بل واستنتاجاته بهذا يقدم للحزب معاونة حقيقية .

.. الحزب مثله مثل مجتمعنا بأسره لا يقتصر على ما ينتظره من الأدب على الشهادات التطبيقية المباشرة للحياة الاقتصادية والعمل فى بلادنا . ان ما ينتظره ويتطلبه أوسع بكثير ويتعلق بحياة الشعب الثقافية بالمباهج والآلام والهموم والرغبات التى لاتختص بالعمل فحسب ولكن تفيض أيضا بالحياة الجارية وفى العلاقات العائلية والحب . وبالاختصار فى

كل التعقيد الذى تتصف به الحياة كما هى

.. من الممكن أن يعيش المرء فى القرية ولكن يحيا حياة مكتبية (بضعة أشهر من كل عام فى مكان محدد عدة سنوات والاختلاط بأهله يكفى) .

.. ان كل شئ يتوقف على حب الصنعة والتعلق بالموضوع الذى يصبح بشكل ما قضية حياة أو موت للمؤلف .

.... هذه هى النظرة التى يرى بها بعضهم موضوعات الواقع الراهن فتؤدى بهم مطاردة التاريخ إلى إضعاف ما يتطلبه التأمل الفكرى والفنى ومستوى الأعمال . وتظهر فى سوق الكتب أعمال اصطنعت على عجل لا تهز فينا شعرة .. إن الكتاب الذين يسرعون إلى الاستجابة لمتطلبات اليوم ويطلعون علينا بمواضيع عن الواقع الراهن يستحقون لقب «القشاطين»... لا تنال منهم شق قناة الفولجا مثلا الا دراستين أو ثلاث فى الوقت المناسب وهى دراسات سطحية مكتوبة على عجل . لقد عكس الأحداث وكفى . ولكن هذا الموضوع قد كلف فلاديمير فومنكو عشر سنوات من العمل الدائب .. ولا أستطيع أن أكتم مخاوفى كلما رأيت الكتاب المتعجلين يبذرون الأحداث والوقائع دون أن تنضج فى قلوبهم ودون أن يستشعروا الحاجة إلى أن يمسوا قلب القراء ..

... كلما كان الفنان موهوبا وجادا قلت ثقته بنفسه ويتغلب على تردده الأليم وشكوكه فيتوجه إلى القارئ لأنه يشعر بضرورة فى داخله تدعوه للتعبير لأنه لا يستطيع أن يكتم ما بنفسه ... عندئذ يظهر الكتاب الذى يهزنى أنا القارئ فى صميم قلبى . كتاب ينفذ إلى أعماقى الروحية . كتاب لا يبرح أن يصبح جزءا من نفسى ويجعلنى أكثر ادراكا وخيرا وأقوى وأسعد مما كنت .... إذا لم ينفعل الفنان هو نفسه ولم تتملكه الأفكار وصور الحياة التى يملأ بها عمله فلا معجزة هناك يمكن وقوعها .

– افسحوا المكان للضحك .

– مقتطفات من كلمة شولوخوف : « ليس هناك من روابط أقدس من تلك التى توجد بين رفاق ورفاق . الأب يحب ابنه والأم تحب ابنها والولد يحب والديه . ولكن ما لنا ولهذا يا اخوتى . ان البهيمة أيضا تحب صغيرها . ولكن الانسان هو وحده القادر على أن يتقارب بالروح لا بالدم » . جوجول على لسان «تاراس بوابا» .

... يجب ألا تقل معلومات الكاتب الذى يتكلم عن المزرعة الجماعية معلومات المهندس الزراعى المحلى (عارض تفاردوفسكى هذا القول بأن الفنان يقدم شيئا آخر؟؟؟؟) .

... من الصعب أن يقدم مالا يعرف الحياة النصيحة لغيره .

... تنسب لتشيكوف هذه الكلمات حول فن الكتابة: « عندما تجلس للكتابة كن باردا كالثلج» لا .. لا .. أريد أن يغلى دم الكاتب عندما يكتب ويمتقع وجهه من الحقد ويضحك ويبكى .

... أنا شيوعى أولا ثم كاتب بعد ذلك . ■



خصخصة التعليم.. كيف؟!

حال انتهائي من قراءة مقال «التاريخ الاجتماعى على لسان هؤلاء» وجدت ارتباطا وثيقا بينه وبين مقال نشر فى هلال العدد المئوى سبتمبر ١٩٩٢ للدكتور سعيد اسماعيل على بعنوان: « مستقبل التعليم المصرى» .

وذلك حين تحدث عن عرقلة ما سبق أن قرره على مبارك (كما أشرتم) ومن بعده طه حسين، بالنسبة إلي أن مجانية التعليم المقررة بدستور مصر بعد سنة ١٩٥٢، هذه المجانية قد التف حولها المتوارون المبررون للخصخصة حين يقول : «ولأننا لا نملك شجاعة المواجهة، تبرز تفسيرات لكلمة «المجانية» على أنها متعلقة بعملية (التعليم) ومن ثم فيمكن تحصيل مصروفات الكتب، ونتساءل: من يضحك على من؟ وهل يكون تعليم بلا كتب؟

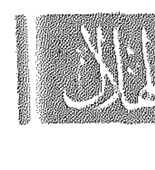
هكذا يتصل الحاضر بالماضى فى موضوعات الهلال، مع اعتبار وحدة الموضوع ، واتساع الرؤية التى تكشف لنا أنه حتى الكتب المدرسية تدخل فى نطاق المجانية .

ومهما حاول المتخصصون فى تبرير الخصخصة الوقوف فى وجه ما أرساه على مبارك ومن جار بعده .

ألا حيا الله هؤلاء الرواد.. وجهادكم فى الهلال حين تعملون على تبصيرنا بفضل ماضينا على حاضرنا، وبذلك تتحقق مقولة أمين الخولى : «أول التجديد قتل القديم بحثا» .

د . سامى منير
كلية التربية - جامعة الاسكندرية

وتعقيبا على نفس المقال كتب عمرو عبدالمنعم حمودة بأن المقال المنشور فى العدد الماضى يفتح الباب لدراسة تاريخ القرية المصرية فى تطورها الاجتماعى ، وضرورة أن يحظى باهتمام المؤرخين وأساتذة الجامعات والباحثين ، مشيرا إلى أن وزارة التنمية المحلية قد تبنت منذ أكثر من عام هذا المشروع ، مشروعا قوميا تتضافر فيه جهود الجامعات والمؤسسات ذات الصلة لإخراجه وإبرازه فى صورة موسوعية متكاملة عن مصر المعاصرة.



ما تبقى من دمع الفرات!!

بغداد .. يابغداد .. يابغداد — قد غرك الأتباع والأجناد
من ذا سيدفع عنك سيلا للردى — واليوم تنعى حالنا الأكباد؟!
سيف (الرشيد) مؤرق فى غمده — والعير كيف أخافها الجلاد
ختل النفير أسى البلاد.. مجددا — ما من مجيب خافه الأوغاد
فى حلق (دجلة) صرخة لا تنتهى — من كل رمس جاءها الأجداد
يارب إنى قد شكوت إليك رقى — فى كل سوق باعنا القواد
دمع (الفرات) .. دموعنا ونحيبنا — فالدمع كيف .. ترده الحساد
(بغداد) ظل لواؤها متراميا — تشتاقه الأبناء والأحفاد
ظن التتار بأن كل الجبن .. عشش — فى الضلوع وخاننا الميعاد
إن ذات يوم جاء غاز كى يلوك — إباءنا تغتاله الأعياد
فغدا سيرجع للمدائن .. شامخا — العتق والتحرير والإنشاد
سنموت فى عرض الشوارع.. حالمين بغداد .. — بعودة قد لفها الميلاد
يابغداد .. يامشكاتنا — تبقين أنت .. ويرحل الأوغاد

عبدالناصر أحمد الجوهرى
دكرنس - دقهلية

سلبيات تحتاج إلى مراجعة!

رسالة وصلتنا تتناول ثلاثة مشاهد حول بعض السلبيات يطرحها الأوربيون متسائلين .

المشهد الأول : ضرورة أن تكون هناك قناة فضائية مصرية تستطيع منافسة القنوات الفضائية العربية تتناول مجالات من بينها الأخبار المفصلة والدينية أو حتى الترفيهية.. أيضا لماذا لم تتطور تجربة المنابر الحزبية، ولماذا ساءت نوعية الهواء والماء ولماذا يزداد المعدمون فقرا وعددا فيما تواصل الثروات تكدسها لدى قلة، ولماذا اغترب المصريون عن هويتهم .

المشهد الثانى : محاضرة ألقيتها منذ عدة أشهر فى إحدى العواصم الأوروبية وكان موضوعها «بنية الاستثمار فى مصر» عندما انتهيت باغتتنى طالبة جامعية – بالقول : إن اثنين بالمائة من المصريين يستأثرون بما يقارب نصف الدخل القومى، فيما



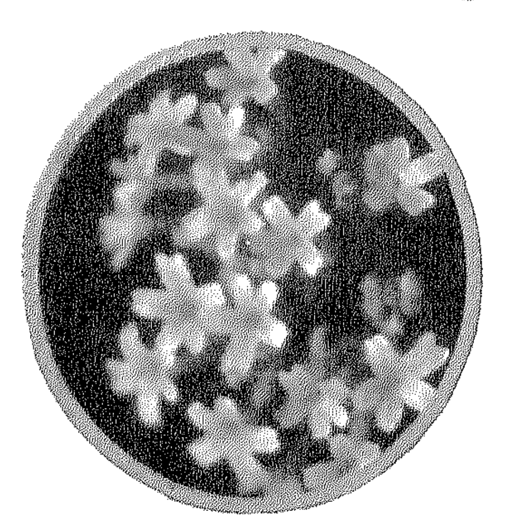
يتصارع ستة وثمانون بالمائة من السكان على ستة وعشرين فقط من هذا الدخل .. وكررت الطالبة ببطء طوارئ وفساد وفقر ثم رسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة وتساءلت أى استثمار تبغونه ؟!

المشهد الثالث : لرائعة جمال الغيطانى «الزينى بركات» تأمل كيف كان الأديب رائعا وموجعا.. موصفا ومستشرفا .. دقيقا ورقيقا عندما رسم لوحة مصر التى نعيشها بقوله : أرى القاهرة الآن رجلا معصوب العينين ، مطروحا فوق ظهره ، ينتظر قدرا خفيا، أشعر بأنفاس الرجال داخل البيوت ، يتهامسون بما سمعوه من أخبار ، النداءات مجهولة، الوقت يمضى ولا يمضى ، لا يمكننى الطلوع إلى الطابق الأعلى لأرقب مواضع النجوم ، ربما يقترب الفجر، غير أننى حتى الآن لم أسمع ديكا واحدا يصيح .

علاء عبدالعزيز

أنشودة

من للدروب
ياوردة حمراء
حملت عطرها الريح
واغتسلت بالمطر
فانكفأت فى ضوء القمر
مرة خجلا
ومرة بكاء
ياوردة كالقمر
تسبح
على صفحة من دم
المطره لا يثره الأنين
هل سمعت أنشودة
كالقدر !!



د . توفيق الدالاتى – سوريا – دمشق

قصص قصيرة جدا

* دب طنينها كثيرا فى جميع أنحاء الغرفة تقترب منه بمهارة ثم تصب كل غضبها عليه وتلسعه من أذنه فيثور غضبه مع صرخات الآه المتعددة .. يجمع كل قواه ويأتى بحذاء عتيق ويتجه صوب نحلة حيرت أمره وأذاقته الويل ثم يهجم عليها فيقع صريعا لصرخة أوجاع كثيرة فمع انبطاحه على الأرض لامست أذنه أرضية الغرفة لتكتب قصة ألمه مع النحلة!.

* يبكى كثيرا جدا .. لا يعرف لماذا تنزل الدموع بغزارة وصوت الطفل يتغير من آن لآخر وتقوى صرخاته تقترب من أمه وتحاول أن تفهم سبب بكائه وتستخدم كل الطرق لتبوء محاولاتها بالفشل فقد كان طفلها يصرخ لأنه اشتاق للصراخ بعد نوبات الضحك الكثيرة التى أتحفه بها أخوته!

* يمد يده كى تقف النقود فوقها لكن إلى الآن لم تسقط أى ورقة نقدية فى راحة يده ولأنه ضرير تحسس المكان كثيرا إلى أن اهتدى إحساسه إلى ركن معين ثم جلس القرفصاء بعدما بان جزء كبير من جسده .. اقتربت منه سيارة بسرعة كبيرة ومع انحرافها نقلته إلى المكان المريح له!.

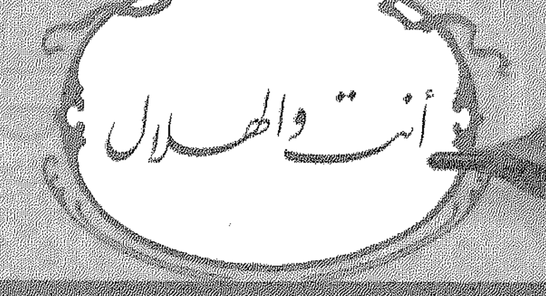
* يقذف بالكرة بقوة ثم تخرق شباك الملعب وتظل تطير إلى أن تهبط فى طبق كبير مملوء بالطعام الشهى لأحد الجوعى فنفتته ويسيل الطعام ليرسم خريطة داخل أرجاء الغرفة ولكن نفسه التى اشتهت الطعام أبت إلا أن تأكل ولكنه ابتلع قطعة زجاج لتقطع استمتاعه بهذا الطعام!.

* جندى يداه ترتعشان ولا تستطيع الرصاصة أن تخرج من البندقية يحاول كثيرا ولكن الفشل التام يستقبله ، وينظر للشمس التى أغرقته عرقا ويقول : ليتنى أصل للشمس ومع كثرة الحركة تسقط صورة انثى معظم أجزائها .. تمزقت .. يجمع شتات الصورة التى كانت لابنته الصغيرة فاصطدمت البراءة ببشاعة الحرب ..

صلاح جميل سعد - غزة - الزيتون

هجرة !

كانت تطل ، وللغروب بعينها وتر الندى
يسرى يثير هوى القلوب إلى معانقة الصدى
فالصبح آت، والغناء يهب من شرفاته
يدعو القلوب إلى البقاء على العطاء لذاته



ولها البراح يسوق زرقته: محيطا هائما
تطفو الحقول على يديه، تخاف، تحضنها السما
وهنا بقريتى المريضة راح يحتضر النغم
فبمن تلوذ، بمن تلوذ؟ وراح يعصرها الألم
كانت تطل على الحقول، على النسيم ، على السنا
والآن حاصرها الدخان ، فلا هناك ولا هنا
فالقرية/ الأم / الحنان/ النبع خاطر واختفى
صرعته أوتاد الصخور على مسامير الجفا
والأفق ضاق، ففرت الأحلام خوفا من غد
يأتى، فتنطبق السماء على التراب المجهد

شعر : عبدالرحيم الماسخ - سوهاج - المراغة - نجع المراغة

متى تستكمل مذكرات سعد زغلول؟!

من خلال مجلتكم العريقة نتساءل: أين بقية مذكرات «سعد زغلول» وهل توقف النشر بسبب ضعف بصر الدكتور عبدالعظيم رمضان ، أم أن المذكرات قد انتهت .





يوسف عبدالله مصطفى- المنصورة

* الهلال : هذا المشروع موجود ، ويرجح أن عدم مواصلة نشر باقى المذكرات هو مرض الدكتور عبدالعظيم رمضان ، ولأن هذا المشروع صادر عن مؤسسة مهمة فى الدولة هى دار الكتب، فيتعين اسناد المشروع إلى أستاذ آخر متخصص يواصل نشر المذكرات لأهميتها بالنسبة لدراسة فترة من أهم فترات تاريخ مصر .

متى ينتهي تراجع المسرح!



في عام ١٨٧٠ أقام الفنان والمثقف المصرى يعقوب صنوع أول مسرح في الهواء الطلق بحديقة الأزبكية بالقاهرة، في نفس المكان الذى يقوم فيه المسرح القومى اليوم ، فقدم كوميديات اجتماعية شعبية، أفاد فيها من أعمال الكوميديا لعدد من المشاهير من أمثال موليير وشريدان، وأيضا من تقاليد الفرجة عند المصريين، وبعد عامين أغلق هذا المسرح لأنه تعرض لقضايا الفقراء والعادات والتقاليد التى تتعارض مع كرامة الإنسان .

وفي غضون الحرب العالمية الأولى تبلور اتجاه وطنى شعبى في فنون العرض، رغم هيمنة المستوطنين وجنود الاحتلال الانجليزى على حياة المصريين وبرز جورج أبيض ومحمد تيمور وعزيز عيد والريحانى وفرح انطون وروزاليوسف وفاطمة رشدى وأمين صدقى وبيرم التونسى وبديع خيرى وسيد درويش، وعندما هبت ثورة ١٩١٩ لعب هؤلاء دورا كبيرا في إذكاء الروح الوطنية، وفي التعبير عن هموم المصريين وأمانيهم ، وفي تكريس ملامح القومية المصرية ، وشخصيتها العريقة ، ولعلنا نشهد هذا في أوبريتات سيد درويش ،

وفي العشرينيات واصل الريحانى والكسار وعزيز عيد وفاطمة رشدى كفاحهم من أجل مسرح مصرى في ظروف في غاية الصعوبة .

وأما يوسف وهبى العائد من ايطاليا ، فقد أنشأ فرقة رمسيس ، فرسخ المزيد من تقاليد الانتاج والمشاهدة المسرحية، واندفع مع رفيقة كفاحه مسرحيا أمينة رزق في تقديم أعمال مسرحية مثيرة، تنتمى للميلودراما .

ظل هؤلاء جميعا فيما تبقى من سنوات العشرينيات ، وطوال الثلاثينيات ، وحتى مطالع الأربعينيات يحملون راية الفن المسرحى، حتى هبت رياح حرب ١٩٤٨ ، ثم أحداث ٢٦ يناير ١٩٥٢، لذا كان على المسرح أن يغير فنونه وأساليبه .

ثم شهدت الخمسينيات والستينيات نهضة مسرحية لمع فيها عدد من الكتاب منهم توفيق الحكيم ونعمان عاشور والفريد فرج ويوسف إدريس وصلاح عبدالصبور وعبدالرحمن الشرقاوى ونجيب سرور ككتاب مسرح متمكنين لهم نظرة نقدية ومهارات فنية في التناول لا حدود لها وقد واكبهم نقاد كبار مثل د . محمد مندور وعلى الراعى وعبدالقادر القط

وظل توفيق الحكيم المفكر والمبدع خيطا ذهبيا لا ينقطع منذ بزوغه كاتبا لفرقة أولاد عكاشة وحتى رحيله .

بدأنا نشهد تراجعا للمسرح بعد النهضة الهائلة في الستينيات ، وأضر المسرح التجارى كثيرا بهذه النهضة وبدأنا نشهد اليوم اتجاها عبثيا ، حيث غابت عن عروض المسرح وروح المصريين وحياتهم .. ولم يعد أحد يفكر في المستقبل .. وأطفئت كثير من أضواء المسرح !

ألف صباح للحرية

يا حلما قد داعب أعيننا الوردية
يانهرا .. بعثرنى
فوق الأمواج اللجية
ياطيرا .. يصدح فى ..
يردد أجمل أغنية
يادفئا يطوى :
أحزانى اليومية
هذى ألوانك
كل الأطفال سترسم ألف صباح للحرية
مازلت تجوبين مواسمنا
فلماذا قامات الأوطان ..
نراها محنية !!

محمود أحمد المصلى
شربين - دقهلية

الدكتور محمد البرادعي

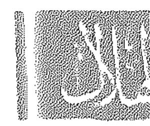
نشرتم فى العدد الماضى «شخصية العدد» وتناولتم فيها الدكتور محمد البرادعى، فهل معنى هذا أنكم توافقون على تصريحاته الخاصة بالسلاح النووى فى اسرائيل!

إبراهيم مجاهد
الزيتون - القاهرة

* ليس لنا علاقة بهذا الذى تشير إليه، ولكننا من خلال هذا الباب شخصية العدد نقدم بعض الشخصيات التى لها مكانة فى المجتمع الدولى .

استدراك

فى مقال الدكتور محمد رجب البيومى المنشور فى عدد نوفمبر ٢٠٠٣ بعنوان «حلقات الذكر فى شهر رمضان» وقع خطأ مطبعى ، حيث كتبت مولاتى عدة مرات ، وهى مولاى، فكسرت الأبيات . لذا لزم التنويه .





العقل أعلى قوي النفس

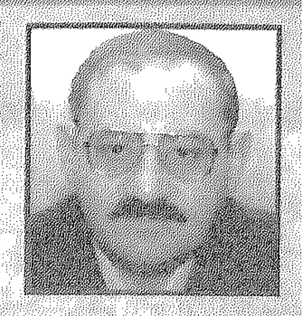
كان الحكماء والفلاسفة المسلمين عباقرة بكل المقاييس فقد حللوا النفس البشرية تحليلا مؤداه أن القيادة يجب أن تكون للعقل من أجل هداية البشر وفى إطار من تعاليم الدين طاعة لله ولرسوله الأعظم وأن صورة الانسان لا تكتمل بحكمة العقل فقط بل وبالعلم أيضا والعلم لا يكون علما إلا إذا أعقبه العمل وخير الانسان هو من عمل بما علم وهو ما يميز انسانا عن آخر يقول الشاعر :

ولم أر أمثال الرجال تفاوتا

إلى المجد حتي عد ألف بواحد

يقول حكماء العرب : إن أساس الحكم الانساني بالكمال مرهون بجوهره وجوهر الانسان هو العقل وأفضلهم هو أقدرهم على التزام أحكام العقل .. ذكر ابن مسكاويه فى كتابه تهذيب الاخلاق أن العقل هو أعلى قوى النفس الانسانية فهو الذى يتحكم فى رغبات النفس عند الدرجة التي ترضاها الحكمة .

محمد أمين عيسوى - الاسماعيلية



الأستاذ والتمثال

بقلم: زكي سالم

هذا عام التمثال ! فقد استغرق الأمر اثنين وتسعين عاما لإقامة هذا التمثال ! ولم يكن الاستاذ نجيب متحمسا لفكرة إقامة التمثال : لدرجة أنه عندما سأله الأستاذ محمد سلماوى (كا ذكر بمقال جميل بالأهرام) : عما يحب أن يكتب على قاعدة التمثال؟ أجاب : أكتب عليه أى شىء، حتى لو كتبت عليه اسمك! ثم لم يتسع صدر البعض لبضع كلمات من إبداع قلمه !

وبعد بضعة أيام من إزاحة الستار عن التمثال ، عرضت على الأستاذ ان نذهب لرؤية التمثال ، وقلت له : إن الناس كلها رأت التمثال ، ولا يصح أن سيادتك لا تراه ، فوافق .

وعندما نزل معى من السيارة ، برفقة الصديق حافظ عزيز، وقف أمام التمثال ، وأنا أخبره بتفاصيل المكان، وملامح التمثال ، فبدأت السيارات فى التوقف لرؤية مشهد الأستاذ أمام تمثاله . وبدأ الميدان في الازدحام، والناس يعبرون عن فرحتهم برؤيته ، ويلقون عليه تحياتهم ، ودعواتهم له بالصحة وطول العمر . كم تمنيت ان يصور هذا المشهد الجميل، لنحفظ للاجيال القادمة مشهد مظاهرة حقيقية للحب النبيل .

ثم عدنا الى جوار النيل، فسألته عن شعوره ، فأجاب ، الآن ، لا يصح شىء، سوى أن أسعد بالتمثال ! وكأن ثمة التزاما أخلاقيا بأن يسعد ، طالما هناك من فكر ، وحضر وعمل ثم أقام له هذا التمثال !

وقرأنا عليه المقالات التى تتهكم على تمثاله ، وأنه وهو يتعكز على عصاه ينقصه فى اليد الأخرى فتاة صغيرة ! ضحك الأستاذ، وقال: يبدو أن هذا التمثال مستوحى من رواية الشحاذ !

يا أستاذنا الحبيب كل عام وأنت طيب ، وكل عام ونورك يملأ حياتنا كلها . ■


المعلم أون لاين
www.elmoalemonline.com
07771555
مجاناً
إلعب و تعلم على الإنترنت من خلال الرقم ٠٧٧٧١٥٥٥
للمذاكرة و المراجعة
للألعاب و الترفية
PUZZLE
للاستفسار و مراسلة المدرسين
بضمان
سلاح التلميذ
المعلم اون لاين — بوابتك الإلكترونية إلى المستقبل